سورة يونس

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ [يونس: ٢].

[٥١٥م] أخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس قال: لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر ذلك منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً، فأنزل الله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾(١) الآية. وأنزل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾(٢) الآية. فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا: وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة. ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٣) يقولون: أشرف من محمد، يعنون الوليد بن المغيرة من مكة، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف، فأنزل الله رداً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾(٤) الآية.

* * *

[٥١٥م](١) سورة يونس: الآية (٢).
(٢) سورة يوسف: الآية (١٠٩)، سورة النحل: الآية (٤٣).
(٣) سورة الزخرف: الآية (٣١).
(٤) سورة الزخرف: الآية (٣٢).

(١٠) سُورَةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ وآياتها تسع ومائة

سورة يونس من السور المكية التي تُعْنى بأصولِ العقيدة الإسلامية ، وتتناول جانب التربية الروحية من الإيمان بالله ، واليومِ الآخر ، والكتبِ المنزّلة ، والرسل الذين بعثهم الله تعالى لهداية الإنسانية إلى آخر ما هنالك من أصول الإيمان ، فهي كسائر السور المكية تتميّز بطابعٍ خاص هو « العقيدة » في مفهومها الواسع ، وتتناول الجوانب الأخرى من إثبات الوحي ، والنبوة ، وإثبات البعث والجزاء ، كما أن السور المدنية تتميز بطابع التشريع والتوجيه العام إلى مكام الأخلاق .

نزلت هذه السورة الكريمة بعد سورة الإسراء ، وقد تحدثت في البدء عن حقيقة الألوهية والعبودية ، وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق ، وعرّفت الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه ، ويتّبعوا أمره وشرعه ، ويُسلموا وجوههم إليه ، وأن يرجعوا بفطرتهم إلى الله ، فهو وحدَه الخالقُ الرازق ، المحيي المميت ، المدبّر الحكيم ، الفعال لما يريد ، وكل ما سوى الله فإنما هو باطلٌ وهباءٌ تذروه الرياح ﴿ إنَّ ربكم الله الذي خلق السمواتِ والأرضَ في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبّر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبـدوه أفلا تذكّرون ؟﴾ وتناولت السورة موقف المشركين من حقيقة الرسالة والوحي ، ومن القرآنِ نفسهِ حيث شكّوا فيه ، وطلبوا من الرسول خارقة مادية غير القرآن ﴿ وإذا تُتْلى عليهم آياتُنا بيناتٍ قال

الذين لا يرجون لقاءنا إئتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدّلْهُ قل ما يكونُ لي أن أبدِّلَه من تلقاءِ نفسي إنْ أتّبعُ إلا ما يُوحَى إليَّ إني أخافُ إن عصيتُ ربي عذابَ يوم ٍ عظيم﴾ ثم تناولت القرآن الكريم وبيّنت أنه ما كان ليُفترى من دونَ الله ، وأنه آية هذا الدين ، والمعجزة الخالدة للنبي الأمي ، وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز ، حيث تحداهم به ولم يستطيعوا أن يقفوا أمام هذا التحدي مع أنهم أساطينُ الفصاحة ، وأمراءُ البيان ﴿ وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ، ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فائتوا بسورةٍ مثلِهِ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ ثم انتقلت الآيات إلى تعريف الناس بربهم الحق ، وتعريفِهم حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وقرّرت لهم صفات الإله الحق بذكر آثار قدرته الدالةِ على التدبير الحكيم ، ولفتت الأنظار إلى تعاقب الليل والنهار ، وما في هذا الكون البديع من آثار القدرة الباهرة ، التي هي أوضح برهان على عظمة الله وسلطانه وجلاله ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أمْ منْ يملكُ السمعَ والأبصار ؟ ومن يُخرج الحيَّ من الميّت ويُخرج الميِّتَ من الحي ؟ ومن يدبّرُ الأمر ؟ فسيقولون اللهُ ، فقل أفلا تتقون ؟ فذلكمُ اللهُ ربُّكم الحقُّ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال فأنَّى تُصرفون﴾ ؟ وهذه هي القضية الأساسية الكبرى في السور المكيّة ، حيث يدور المحور فيها على موضوع « قضية الربوبية » والإيمان بالوحدانية التي عرضت السورة الكريمة لها بشتى الأدلة العقلية والسمعية ، واستغرق الحديث عنها الجانب الأكبر من هذه السورة . استمع إلى قوله تعالى﴿ إنَّ في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآياتٍ لقوم يتقون﴾ وإلى قوله تعالى ﴿ قل هل من شركائكم من يبدءُ الخلقَ ثم يعيده ؟ قل الله يبدءُ الخلقَ ثم يعيده فأنّي تؤفكون ؟﴾

وإلى قوله ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهارَ مبصراً إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يسمعون﴾.

وقد تحدثت السورة بعد ذلك عن قَصَص بعضِ الأنبياء، فتناولت رسالة نوح، ورسالةَ موسى وهارون عليهما السلام، وموقفَ فرعون الطاغية منهما، وما كان من بغيه وعدوانه على بني إسرائيل حتى أهلكه وجنَده بالغرق في البحر ونجّى المؤمنين ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحرَ فأتبعَهُم فرعون وجنودُه بغياً وعَدْواً..﴾ وذكرت الآياتُ أن فرعون آمنَ حيث لا ينفعُ الإيمان، وتاب وأناب إلى الله حيث لا ينفع الندم والتوبة، وأنَّ الله تعالى نجّى بدنَه بعد الغرق ليكون عبرةً للمعتبرين ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ وقد جاءه الجواب المفحمُ الزاجر ﴿آلآنَ وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين. فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلْفَك آية، وإنَّ كثيراً من الناس عن آياتنا الغافلون﴾.

وتناولت السورة كذلك قصة نبي الله يونس عليه السلام – الذي سميت السورةُ باسمه – توضيحاً لسنة الله الكونية في إهلاكِ الظالمين، وأن العذاب إذا نزل لا يرفع، وأنه لا ينفع حينئذٍ توبةٌ ولا إيمان إلا ما خصَّ الله به قوم يونس ﴿فلولا كانت قريةٌ آمنتْ فنفعها إيمانُها إلا قوم يونس لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ ثم ختمت السورة الكريمة بأمر الرسول الأعظم ﷺ بالاستمساك بشريعة الله، وإعلانِ دعوة التوحيد، والصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي الفرج ﴿واتَّبعْ ما يُوحى إليك واصبرْ حتى يحكم اللهُ وهو خيرُ الحاكمين﴾.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[١]

وقوله عز وجل: **الر تلك آيات الكتاب الحكيم**، قد ذكرنا الوجه في الحروف المقطّعات في صدر الكتاب.[1] وقوله:[2] **تلك آيات الكتاب الحكيم**، قال بعضهم: **الحكيم**، هو الله. كأنه قال: ذلك[3] الكتاب آيات الله. وقال بعضهم: **الحكيم**، هو صفة القرآن والكتاب. ثم يحتمل[4] وجهين. / يحتمل أنه سماه حكيما، فعيلا بمعنى إنه مُحكَم، وجائز تسمية[5] المفعول [٣٢٣ظ] باسم الفعيل، نحو قتيل بمعنى مقتول،[6] وجريح بمعنى مجروح، ونحو ذلك.[7] فيه الحلال والحرام والأمر والنهي. أو مُحكَم مُتقَن مُبرَم من الباطل والكذب والاختلاف. وهو ما وصفه تعالى: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ،[8] الآية. والثاني سماه[9] حكيما لِما أنّ من[10] تأمّل فيه ونظر وفهم ما أُودِع فيه وأُدرِج صار حكيما. وهو ما وصفه وسمّاه مجيدا،[11] أي من تأمّله ونظر فيه صار مجيدا شريفا. والحكيم هو المصيب في الحقيقة إن كان صفة القرآن أو صفة الله.

---

[1] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/١.

[2] ك ن: قوله.

[3] ع م – ذلك.

[4] م: والكتاب يحتمل.

[5] م: تسميته.

[6] ك: المقتول.

[7] ك + ونحو ذلك.

[8] ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ (سورة فصلت، ٤٢/٤١).

[9] م – سماه.

[10] ع: أن أن.

[11] يشير إلى قوله تعالى: ﴿ق والقرآن المجيد﴾ (سورة ق، ١/٥٠)؛ وقوله تعالى:﴿بل هو قرآن مجيد﴾ (سورة البروج، ٢١/٨٥).

فإن كان صفة الله[1] فهو حكيم[2] واضع كل شيء موضعه. فإن كان صفة[3] للقرآن فهو كذلك أيضا واضع كل شيء موضعه.

وقوله: **آيات**، يحتمل آيات الكتاب المعروف. ويحتمل الحجج والبراهين، أي حجج الكتاب وبراهينه[4] أو أعلامه. وقد تقدم ذكر الآيات في غير موضع. ***والله أعلم.***

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾[٢]

وقوله عز وجل: **أكان للناس عَجَبا**، يحتمل وجهين. يحتمل أي قد[5] عجبوا، **أن أوحينا إلى رجل منهم**. ويحتمل أيعجبون، **أن أوحينا إلى رجل منهم**، على الاستنكار.[6] كانوا يعجبون من ثلاث: من إنزال[7] القرآن على رجل منهم يَعجز الخلائق عن إتيان مثله. و[كانوا] يعجبون من الوحي إلى رجل منهم وإرساله رسولا مِن بين الكل أو من البشر، كقوله:[8] أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا،[9] وكقوله:[10] أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا.[11] وكانوا يعجبون من البعث، كقوله:[12] أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا،[13] الآية. ثم يحتمل قوله: **إلى رجل منهم**، أي من البشر، أي لا يعجبوا[14] **أن أوحينا إلى رجل**، من البشر. فإن الإيحاء[15] إلى من هو من البشر أبلغ في الحجاج

---

[1] م – فإن كان صفة الله.
[2] ع: حكم.
[3] ع – فإن كان صفة.
[4] ك: والبراهين.
[5] ك: أن قد.
[6] جميع النسخ: على الاستئناف. وعبارة السمرقندي هكذا: «وقوله تعالى: ﴿أكان للناس عَجَبا﴾، حرف الاستفهام متى كان من الله يحتمل وجهين. أحدهما حقيقة الإخبار، أي قد عجبوا أن أوحينا إلى رجل منهم. والثاني يحتمل على الاستنكار، أيعجبون أن أوحينا إلى رجل منهم، أي لا تعجبوا أن أوحينا إلى رجل من البشر» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٦٤ظ).
[7] ع م: من أنزل.
[8] ك ن: كقولهم.
[9] ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا﴾ (سورة الإسراء، ٩٤/١٧).
[10] ك ن ع: أو كقوله.
[11] سورة ص، ٨/٣٨.
[12] ك ن م: كقولهم.
[13] ﴿قالوا أإذا مِتنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون﴾ (سورة المؤمنون، ٨٢/٢٣).
[14] ك: لا تعجبوا؛ ع م: لا يعجبون.
[15] ع: الإيجاء.

وأقطع للعذر وأقرب إلى الرأفة والرحمة؛ لأن البشر يعرفون خروج ما هو خارج عن طَوْق البشر ووُسعهم،[١] ولا يعرفون ذلك من غير جوهرهم وغير جنسهم، ويألف كل جنس بجنسه وكل جوهر بجوهره، ولا يألف غيرَ جوهره ولا غيرَ جنسه. فإذا كان ما وصفنا كان بعث الرسل[٢] من جنس المبعوث إليهم[٣] وجوهرهم أبلغ في الحجاج وأقطع للعذر وأقرب إلى الرأفة والرحمة.

ويحتمل قوله: **أن أوحينا إلى رجل منهم**، أي من الأُمّيين، أي لا يعجبوا[٤] **أن أوحينا إلى رجل منهم**، أي أُمّي، فإن ذلك أبلغ في التعريف والحجاج؛ لأنه بعث أُمّيًا لم يَعرفوه بدراسته الكتب المتقدمة أو تلاوة شيء منها، ولا عرفوه اختلف إلى أحد منهم في تعلّم[٥] كتبهم، ولا عُرِف[٦] أنه كتب شيئا أو خطّ[٧] خطًا قط، ثم أخبر عما في كتبهم[٨] على موافقة ما فيها، وكانت كتبهم بغير لسانه. دل أنه إنما عرف ذلك بالله تعالى. فذلك أبلغ في إثبات الرسالة والحجاج. ***والله أعلم.***

وقوله عز وجل: **أنْ أَنذِر الناس**، قال بعضهم: الإنذار يكون في كل مكروه مرهوب، والبِشارة في كل محبوب مرغوب. وقال بعضهم: **أنْ أَنذِر الناس**، يعني الكفار بالنار.

وبشِّر الذين آمنوا أنّ لهم قَدَمَ صِدْقٍ عند ربهم. ثم[٩] اختلفوا في قوله: **قَدَمَ صِدْقٍ عند ربهم**، قال بعضهم: **أن لهم**، الجنة، **عند ربهم**. وقيل: **أن لهم**، الأعمال الصالحة يَقْدَمون عليها. وقيل: **قَدَمَ صِدْقٍ**: محمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم، **عند ربهم**.[١٠] وقيل: **أن لهم**، ثواب[١١] أعمالهم[١٢] الصالحة التي[١٣] قدّموها بين أيديهم **قَدَمَ صِدْقٍ**، أي سَلَفَ خيرٍ أو سَلَفَ وعدٍ وُعِد لهم بذلك.

---

[١] ع: وسعهم.
[٢] م: الرسول.
[٣] ع م – إليهم.
[٤] ك: لا تعجبوا.
[٥] م: في تعليم.
[٦] ن: ولا أنه عرف.
[٧] ك: ولا خط.
[٨] ع م: عما كتبهم.
[٩] م – ثم.
[١٠] ك ع م + وقيل ان لهم الجنة عند ربهم.
[١١] ع م – ثواب.
[١٢] ع م: الأعمال.
[١٣] م – التي.

وكأن أصله من القَدَم. قال أبو عَوْسَجَة: يقال في الكلام: لفلان عندي قَدَمُ صِدق ويَدُ صِدق، أي نعمةٌ قد أسلفها إليّ. وقال القُتَبي: **قَدَمَ صِدْقٍ**، يعني عملا صالحا قدّموه.[1] وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: سبق لهم السعادة في الذكر الأول.[2] مَن قال: **قدم صدق**، هو الشفاعة، فالقَدَم كناية عن الشفاعة، والصِدق أي واقعة.[3] ومَن قال: وَعْد ثواب[4] أعمالهم، أي تُقدَّم لهم وَعْدَ حقٍ وصدقٍ. ويحتمل **قَدَمَ صِدْقٍ**، أي ثبتت[5] قدمهم لا تزلّ،[6] على ما وصف مِن ثبوت قدم المؤمنين والقرار فيه،[7] وتزلّ قدم الكافرين كقوله: فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا.[8]

وقوله عز وجل: **قال الكافرون إن هذا لَساحر مبين**، ومَن قرأ: لَسِحْر، عنى [بـ]"هذا" القرآن. ومَن قرأ: **لَساحر**، بالألف، عنى به النبي.[9] ثم السحر هو الذي يتراءى في الظاهر أنه حق وهو في الحقيقة باطل لا شيء. ثم هو يأخذ الأبصار ويأخذ العقول. فأما الذي يأخذ الأبصار هو[10] ما يتراءى الشيء على غير ما هو في الحقيقة، والذي يأخذ العقول هو أن يَذهب بعقله فيصير مجنونا. وقال فرعون لموسى:[11] إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا،[12] أي مجنونًا. لكن هؤلاء لم يريدوا بقوله: **لساحر مبين**، السحر الذي يأخذ العقول، ولكن أرادوا السحر الذي يأخذ الأبصار. يقولون:[13] إنه وإن كان أخذ الأبصار في الظاهر فهو لا شيء في الحقيقة. ولكن في قولهم: **إن هذا لساحر مبين**، دليل أنهم عجزوا عن رده وعرفوا[14] أنه حق.

---

[1] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٩٤.

[2] *تفسير الطبري*، ٨٢/١١؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٣٤١/٤.

[3] ن: والصدق واقعة.

[4] ك: وثواب.

[5] ن: أي تثبت؛ ع: أي ثبت.

[6] ن: لا نزل.

[7] ع م – فيه.

[8] ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دَخَلا بينكم فتزلَّ قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم﴾ (سورة النحل، ٩٤/١٦).

[9] قراءتان متواترتان. قرأ من الأئمة العشرة نافع وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب: لسحر؛ وقرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخَلَف: لساحر. انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢٥٦/٢.

[10] ك: وهو.

[11] ك: موسى.

[12] سورة الإسراء، ١٠١/١٧.

[13] ن ع م: يقول.

[14] م: وعرفوه.

لكنهم[١] أرادوا التمويه على الناس كقول فرعون لسحرته حيث آمنوا برب موسى: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ،[٢] أراد أن يموّه على الناس. *والله أعلم.*

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[٣]

وقوله عز وجل: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أنّ القوم[٣] كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ويتخذون الأحبار والرهبان أربابا من دون الله، يقول: **إن ربكم**، الذي / يستحق العبادة والألوهية هو الذي خلقكم و **خلق السماوات والأرض**، لا الذي تعبدونه. [٣٢٤و]
وقوله عز وجل: **في ستة أيام ثم استوى**، قد تقدّم ذكره في صدر الكتاب.[٤]

وقوله عز وجل: **يدبر الأمر**، هو[٥] أيضًا على الأول، أن الذي يستحق صرف العبادة إليه وتوجيه[٦] الشكر إليه هو الذي **يدبر الأمر**، في مصالح الخلق في جرّ المنافع إليهم ودفع المضارّ عنهم، لا الذين لا يملكون جرّ[٧] المنافع إلى أنفسهم أو دفع المضارّ عنهم[٨] فضلا أن يملكوا جرّها[٩] إلى من يعبدهم أو دفع المضارّ[١٠] عنهم. وقال[١١] بعض أهل التأويل: **يدبر الأمر**، أي يقضيه.[١٢] والتدبير والقضاء واحد. وقال بعضهم: **يدبر**، يقدّر، وهو ما ذكرنا؛ التدبير والتقدير سواء.

وقوله عز وجل: **ما من شفيع إلا من بعد إذنه**، الشفيع هو[١٣] ذو المنزلة والقدْر عند الذي يشفع إليه. لا أحدَ[١٤] في الشاهد يشفع لآخر إلى آخر إلا بعد أن يكون الشفيع عند الذي يشفع إليه ذا منزلة وقدْر.

---

[١] م: ولكن هم.
[٢] سورة طه، ٧١/٢٠؛ وسورة الشعراء، ٤٩/٢٦.
[٣] أي لأن القوم...
[٤] انظر تفسير الآية من سورة الأعراف، ٥٤/٧.
[٥] م: وهو.
[٦] م: توجيه.
[٧] م – جر.
[٨] ن – عنهم.
[٩] م: أجرها.
[١٠] ع: مضار.
[١١] ع م: قال.
[١٢] ع: أي يقبضه.
[١٣] ك – هو.
[١٤] ع: لأحد.

فإذا كان كذلك فمع ذلك أيضا لا يشفع إلا مِن بعد ما أُذِن له بالشفاعة لمن جاء بالتوحيد.

وقوله: **ذلكم الله ربكم فاعبدوه**، يقول: **ذلكم**، الذي يستحق العبادة هو **ربكم**، الذي خلقكم وخلق السماوات والأرض ودبّر أموركم، **فاعبدوه**،[1] ولا تعبدوا الذي لا يملك شيئا من ذلك.

أفلا تذكَّرون، أنه هو المستحق للعبادة وهو المستوجب للشكر، لا الذين تعبدون أنتم. أو أن يقول: **أفلا تذكَّرون**، أن الذي خلقكم وخلق السماوات والأرض هو ربكم، وهو يدبّر أمور الخلائق في مصالحهم: ما يرجع إلى مصالحهم في دنياهم ودينهم،[2] لا الذي يعبدون.[3] *والله أعلم*.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[٤]

وقوله عز وجل: **إليه مرجعكم جميعا**، إليه مرجع الخلائق كلهم في جميع الأوقات، لكنه خصّ ذلك اليوم بالمرجع إليه لِما أن الخلائق كلهم يعلمون يومئذ أنهم راجعون إليه. وكذلك قوله: وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا،[4] هم بارزون له في الدنيا والآخرة، لكنهم يومئذ[5] يَعرفون ويُقِرّون بالبروز له. وكذلك قوله:[6] اَلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ،[7] الملك لله في الدنيا والآخرة وفي الأوقات جميعا، لكنه خصّ ذلك اليوم لِما لا يُنازَع في الملك في ذلك اليوم، ويُقِرّون بالملك له في ذلك اليوم،[8] وفي الدنيا مَن قد نازع في ملكه. هذا –والله أعلم– وجه التخصيص لذلك اليوم بالملك وإن كان الملك له[9] في الدارين جميعا، فعلى ذلك المرجع. أو سَمّى البعث رجوعا إليه لِما [أن] المقصود من إنشائه الرجوع،[10]

[1] م – فاعبدوه.
[2] م – لا الذين تعبدون أنتم أو أن يقول أفلا تذكرون أن الذي خلقكم وخلق السماوات والأرض هو ربكم وهو يدبر أمور الخلائق في مصالحهم ما يرجع إلى مصالحهم في دنياهم ودينهم.
[3] ع + الله؛ م + من دون الله.
[4] سورة إبراهيم، ٢١/١٤.
[5] ن + بارزون.
[6] ك ع م – قوله.
[7] سورة الحج، ٥٦/٢٢.
[8] ع م – ويقرون بالملك له في ذلك اليوم.
[9] ك – له.
[10] جميع النسخ: البعث.

فسماه بذلك لما ذكرنا؛[1] لأنه لو لم يكن المقصود من إنشائه[2] إياهم سوى الإنشاء والإفناء كان خلقه إياهم[3] عبثا باطلا،[4] كقوله: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ.[5]

وقوله عز وجل: **وَعْدَ الله حقا**، يحتمل **وَعْدَ الله حقا**، البعث الذي ذكر: **إنه يبدأ الخلق ثم يعيده**. ويحتمل **وَعْدَ الله حقا**، من الثواب والعقاب في الآخرة، الثواب للمحسن منهم والعقاب للمسيء.

وقوله: **إنه يبدأ الخلق ثم يعيده**، أي عرفتم أنه هو الذي بدأكم والخلق جميعا، فكذلك[6] هو يعيدكم بعد إفنائكم؛ إذ بَدْء الشيء على غير مثال أشدّ عندكم[7] من إعادته على مثال، كقوله: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ،[8] أي إعادة الشيء أهون عندكم من بدئه.

وقوله عز وجل: **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط**، قيل: بالعدل. لكن ما يجزيهم إنما يجزيهم إفضالا وإحسانا لا استيجابا[9] واستحقاقا. ثم يحتمل قوله: **بالقسط**، وجوها. أحدها أنه يجزي المحسن[10] جزاء الإحسان والمسيء جزاء الإساءة، ويفصل بين الولي والعدو[11] في الآخرة في الجزاء، ويجعل[12] للولي علامة وأثرا يُعرَف بها من العدو؛ إذ لم يفصل في الدنيا بين الأولياء والأعداء في الرزق وما يُساق إليهم من النعيم، ولا يجعل علامة يُعرَف بها الولي من العدو. وجعل في الآخرة ذلك حتى يُعرَف هذا من هذا. فهذا العدل الذي ذكرنا يشبه أن يكون هو ذلك. ويحتمل القسط الوزن، أي يجزيهم بالوزن على تعديل النوع بالنوع، لا على القَدْر، أي [لا] يجزي بالحسنة قَدْرا لا يزيد على ذلك، ولكن يجزي للخير خيرا وللحسنة حسنة وللسيئة سيئة. ويحتمل قوله: **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات** بالعدل،

---

[1] ع: لما ذكرها.
[2] ن + إنشائه.
[3] ع م – إياهم.
[4] ك: وباطلًا.
[5] سورة المؤمنون، ١١٥/٢٣.
[6] ك: فلذلك؛ م: وكذلك.
[7] ع: عنكم.
[8] سورة الروم، ٢٧/٣٠.
[9] ع: لا استحانا.
[10] ك: المحسنين.
[11] ك: بين العدو والولي.
[12] م: وتجعل.

أي يجزي[1] الذين عملوا بالعدل، لم يجوروا[2] فيه ولا جاوزوا الحدّ الذي حدّ لهم، ولكن عملوا بالعدل فيه. ويشبه أن يكون على تقديم العدل: **ليجزي الذين آمنوا**، بالعدل، أي لا يعذبهم في النار إذ [هم قد] آمنوا.[3] ثم الذين عملوا الصالحات يوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله.[4] والله أعلم بالصواب من ذلك.

وقوله عز وجل: **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط**، أي يجزيهم في الآخرة بما أقسطوا في الدنيا وعدلوا. فيكون[5] القسط على هذا التأويل نعتا لهم. وإن كان ما ذكر من القسط راجعا إلى الله ووصفا له فهو يخرج على وجوه. أحدها يجزي فريقا من المؤمنين بالعدل. يجزي لإحسانهم جزاء[6] الإحسان ولإساءتهم جزاء الإساءة، فيكون جزاء بالعدل. ويجزي فريقا آخر منهم بالفضل والإحسان. يجزي لحسناتهم جزاء الحسنة،[7] ويكفّر[8] عن سيئاتهم. وهو كقوله: أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا،[9] الآية، وقوله: إِنَّ اللّٰهَ لَا يَغْفِرُ،[10] الآية. والثاني يجزيهم بالفضل؛ إذ العدل هو وضع الشيء موضعه. أي يضع الفضل في أهله، لا يضعه في غير أهله. ووضع الفضل في أهل الإيمان عدل؛ إذ هم أهل له. *والله أعلم*. [٣٢٤ظ] / وهو كقوله:[11] وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ.[12] والثالث العدل الذي هو مقابل الإحسان، وهو الفضل، لا العدل الذي هو ضد الجور. كقوله: وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ،[13] الآية.

---

[1] ن: أي ليجزي.
[2] ع: لم يجوزوا.
[3] جميع النسخ: إذا آمنوا.
[4] لعله يشير إلى قوله تعالى: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ (سورة النساء ١٧٣/٤).
[5] م: ويكون.
[6] ع م: جزاءهم.
[7] ع م – ولإساءتهم جزاء الإساءة فيكون جزاء بالعدل ويجزي فريقا آخر منهم بالفضل والإحسان يجزي لحسناتهم جزاء الحسنة.
[8] ن ع: ونكفر.
[9] ﴿أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة﴾ (سورة الأحقاف، ١٦/٤٦).
[10] ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (سورة النساء، ٤٨/٤، ١١٦).
[11] م: كقولهم.
[12] ﴿وأنِ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمَتِّعْكم متاعا حسنا إلى أجل مسمًّى ويُؤْتِ كلَّ ذي فضلٍ فضلَه﴾ (سورة هود، ٣/١١).
[13] ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلّقة﴾ (سورة النساء، ١٢٩/٤).

لا يحتمل أن يقول: لن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء، في العدل الذي هو ضد الجور. [فإنهم] في مثل هذا يستطيعون أن يعدلوا بينهم. فعلى ذلك قوله: **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات،** بالعدل الذي هو مقابل الإحسان، وهو[١] الفضل؛ إذ للفضل درجات. وأصله أن جزاء الآخرة كلَّه إفضال وإحسان وإنعام لا استحقاق واستيجاب.[٢]

وقوله عز وجل: **والذين كفروا لهم شراب من حميم،** قيل: الحميم هو الشراب الذي انتهى[٣] حرّه [إلى] غايته.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٥]

وقوله عز وجل: **هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا،** ذكر في الشمس الضياء وفي القمر النور. فهو -والله أعلم- لأن الليل مُظلِم، يَظهر نور القمر فيه ويَغلب على ظُلمة الليل ويَقهرها؛ وأما النهار فهو مُبصِر على ما ذكره[٤] عز وجل: وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا،[٥] جعل فيه النور. فلو جعل في الشمس النور خاصة لكان لا يَظهر نور الشمس ولا غلب نورها على نور النهار، فكانت تذهب المنافع التي جعل فيها للخلق. فجعل[٦] عز وجل بلطفه فيها ضياء ليَظهر نورُها على نور النهار[٧] ويغلبه ويقهره، ليُظهِر المنافع التي جعل فيها. ولو كان نورا مثله لم يَظهر نورُ هذا مِن هذا، و لم يُوصَل إلى المنافع التي جُعلت فيها[٨] للخلق. وهو ما ذكر أنه مد الظل وأخبر أنه لو شاء لجعله ساكنا. ولو كان ساكنا ممتدا على ما جعل، بقوله: أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ،[٩] لكان لا يُعرَف الظل. ثم أخبر أنه جعل الشمس دليلا عليه ليُعرَف بها الظل، فنسخ الشمسَ ذلك الظلَّ الممدود شيئا[١٠] بعد شيء،

---

[١] ع م: هو.
[٢] جميع النسخ: لا استحقاقا وإيجابا.
[٣] ع: النهي.
[٤] ك: ما ذكر.
[٥] ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا﴾ (سورة يونس، ١٠/٦٧).
[٦] م: وجعل.
[٧] ك - فكانت تذهب المنافع التي جعل فيها للخلق فجعل عز وجل بلطفه فيها ضياء ليظهر نورها على نور النهار.
[٨] ع م - ولو كان نورا مثله لم يظهر نور هذا من هذا و لم يوصل إلى المنافع التي جعلت فيها.
[٩] ﴿ألم تر إلى ربك كيف مدَّ الظِّلَّ ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا. ثم قَبَضْناه إلينا قَبْضا يسيرا﴾ (سورة الفرقان، ٢٥/٤٥).
[١٠] م: وشيئا.

فصارت الشمس بها يُعرَف[1] الظل وبها يظهر. فعلى[2] ذلك [كان] الضياء الذي في الشمس.[3] به يُعرَف نورُها مِن نور النهار، وبه يُوصَل إلى منافع الشمس. ولو كان نورا لكان[4] لا يُعرَف ولا يَظهر؛ إذ لا[5] يَغلب أحدهما صاحبه -والله أعلم- ولا يُعرَف آية الشمس من آية النهار. ثم جعل آية الشمس غالبة على جميع الآيات حتى[6] لا يُبصَر النجومُ بالنهار أصلا. والقمرُ وإن كان يُبصَر ويُرَى بحالٍ فإن نور الشمس قد يغلبه ويقهره حتى لا يظهر أبدًا.

وقوله عز وجل: **وقدّره مَنازلَ لتعلموا عدد السنين والحساب**، يشبه أن يكون التقدير الذي ذكر لهما جميعا، ويُعرَف الحساب وعدد السنين بهما جميعا. وكذلك ذكر في حرف حفصة: وقدّرهما منازل. وجائز أن يكون جعل الشمس بالذي يُعرَف بها أوقاتُ الصلوات والأزمنةُ من الشتاء والصيف، لا يُعرَف ذلك بالقمر. وجعل في القمر معرفة الشهور والسنين، وفي الشمس معرفة أوقات الصلوات[7] والأزمنة، لا يُعرَف بها[8] الشهور والسِنُون إلا بعد جهد، وبالقمر لا يُعرَف أوقات الصلوات والأزمنة. جعل الله في الشمس منفعتين: منفعة التقلُّب ومعرفة الأزمنة، ومنفعة[9] نضج الأشياء ويَنْعها؛[10] وفي القمر منفعتين أيضا: أحدهما معرفة حساب الأيام والشهور والسنين، ومنفعة[11] نضج الأَنْزال[12] والأشياء.

وقوله عز وجل: **لتعلموا عدد السنين والحساب**، ليس أنْ يُعرَفُ هذا بهما ولا يُعرَف غيره، بل يُعرَف ما ذُكر وأشياءُ[13] كثيرة.

وقوله: **ما خلق الله ذلك إلا بالحق**، قال أبو بكر الأصم الكيساني:[14] **ما خلق الله ذلك إلا بالحق**، أي ما خلق الله ذلك إلا وقد جعل فيه دلالة معرفته. وقال قائلون: **ما خلق الله ذلك إلا بالحق**،

---

[1] م: يعرف بها.
[2] ك: فعل.
[3] جميع النسخ + كان.
[4] ن - لكان.
[5] ع: إذا لا.
[6] ع م - حتى.
[7] ع: الصلواة.
[8] ع م - بها.
[9] ك: ومعرفة.
[10] ع: وبيعها.
[11] ك: ومعرفة.
[12] الأنزال جمع النُزُل، وهي الأرزاق. وأصل النُزُل ما يَنزل الضيف عليه ويُهَيّأ له (*لسان العرب* لابن منظور، «نزل»).
[13] ع م: ما ذكروا شيئا.
[14] م: الكسائي.

أي ما خلق الله ذلك إلا وقد جعل فيه[١] الشهادة له على الخلق، وهي شهادة الوحدانية والألوهية. وقال بعضهم: **ما خلق الله ذلك** إلا بالأمر الكائن لا محالة، وهو البعث. ويحتمل قوله: **ما خلق الله ذلك إلا بالحق**، أي بالحكمة لم يخلق ذلك عبثا باطلا، وهو كقوله: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا،[٢] ولكن بحكمة.

وقوله عز وجل: **يفصل الآيات لقوم يعلمون**، قيل: يبين أو يصرفها[٣] لقوم ينتفعون بعلمهم. إنما ذكر الآيات فيما ذكر لقوم يعقلون، ولقوم يتفكرون، ولقوم يفقهون الآيات التي ينتفعون بها ويعقلون الشيء. إنما[٤] يكون[٥] الشيء[٦] للذي[٧] يَنتفع به لا للذي لا يَنتفع به.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾[٦]

وقوله عز وجل: **إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون**، إن في اختلاف الليل والنهار آية[٨] البعث ودلالةَ تدبير صانعهما. أما دلالة البعث أنّ كل واحد منهما إذا جاء ذهب الآخر وفني حتى لا يبقى له الأثر، ثم يتجددان ويحدثان. على ذلك أمرهما. ويُتلِف كل واحد منهما صاحبه حتى لا يبقى له الأثر. فمن قَدَر على ما ذكرنا قَدَر على بعثهم وإنشائهم بعد الموت بعد ما صاروا ترابا. وأما دلالة التدبير هو جريانهما وسيرهما على سَنن واحد وتقدير واحد من غير تغيير يقع فيهما أو تفاوت أو نقصان يقع فيهما أو زيادة وإن كان أحدهما يدخل في الآخر. دل ما ذكرنا -أنهما إنما[٩] يجريان ويختلفان[١٠] على سَنن واحد وجريان واحد- أن فيهما تدبيرا[١١] غير ذاتي وعِلما أزليّا،[١٢] وأنه واحد.

---

[١] ك + معرفة.
[٢] سورة ص، ٣٨/٢٧.
[٣] جميع النسخ: نبين أو نصرفها.
[٤] ع م + يعقلون.
[٥] م: بكون.
[٦] ك: للشيء؛ ن ع م - للشيء.
[٧] ك: الذي.
[٨] جميع النسخ + آية.
[٩] م - إنما.
[١٠] م: وتختلفان.
[١١] جميع النسخ: تدبير.
[١٢] جميع النسخ: وعلم أزلي.

[٣٢٥و] إذ لو كان التدبير فيهما لِعَدَد[١] لكانا يختلفان[٢] ولا يجريان على قدر واحد / من غير تفاوت فيهما[٣] أو نقصان أو زيادة. دل أنه واحد. *وبالله التوفيق*.

وفي ذلك[٤] دلالة وحدانية منشئهما وخالقهما؛ لأنه أنشأهما وبينهما مِن البُعد ما بينهما،[٥] وجعل منافع أحدهما متصلة بمنافع الآخر على بُعد ما بينهما. دل أن منشئهما واحد؛ إذ لو كان فِعل عددٍ منع كلُّ فِعله عن الوصول[٦] إلى الآخر[٧] على ما هو فعل ملوك الأرض.

وقوله: **لقوم يتقون**، مخالفة الله، ويتقون جميع الشرور والمساوئ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾[٧] ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٨]

وقوله عز وجل: **إن الذين لا يرجون لقاءنا**، قال قائلون: **لا يرجون لقاءنا**، من الرَّجاء. أي لا يرجون ما وعد للخلق من الثواب ولا يرغبون فيما يُرجَى ويُطمَع من الرغائب. وقال بعضهم: **لا يرجون لقاءنا**، أي لا يخافون لقاءنا. وما مِن خوف إلا وفيه رجاء، وما مِن رجاء إلا وفيه خوف؛ لأن الخوف الذي لا رجاء فيه هو إياس، والرجاء الذي لا خوف فيه أَمْن.[٨] لكن الغالب في الحسنات والخيرات الرجاء، وفيه خوف، والغالب في السيئات والشرور الخوف، وفيه أدنى الرجاء. وهو ما ذكرنا في الشكر والصبر أنهما واحد؛[٩] لأن الصبر هو كفّ النفس عن الشهوات واللّذّات،[١٠] والشكر هو استعمالها في الخيرات. فإذا كفّها عن الشهوات استعملها في الخيرات. لذلك قلنا: إنهما في الحقيقة[١١] واحد. ولأن[١٢] الشكر هو القبول،

---

[١] ع: العدد؛ م: فيها العدد.
[٢] ك: مختلفين.
[٣] ع م: أن فيهما، + تدبير.
[٤] ك – ذلك.
[٥] ك + من البعد؛ ع – من البعد ما بينهما.
[٦] ع: عن الأصول.
[٧] جميع النسخ: بالآخر.
[٨] أي أَمْن مِن مكر الله.
[٩] انظر تفسير الآية من سورة الأنفال، ٨/٦٦.
[١٠] ع م: واللهوات.
[١١] ن: في الخيرات.
[١٢] ع م: لأن.

وكذلك الصبر أيضا، غير أن الشكر في قبول النعم، والصبر في قبول البلايا والمصائب. ***والله أعلم***. يصير كأنه قال: إن الذين لا يؤمنون بالآخرة.

وقوله عز وجل: **ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها**، أي اختاروا المُقام فيما عملوا له[١] كأنهم[٢] مقيمون فيها أبدا. **والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون**، من ردهم الآيات وكفرهم بها.[٣] وقوله:[٤] **ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها**، يحتمل وجهين. أحدهما سُرُّوا بها وآثَرُوا[٥] ثواب محاسن الدنيا على ثواب الآخرة. والثاني رضاهم بالدنيا والطمأنينة فيها مَنَعهم عن التفكر والنظر في أمر الآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٩]

وقوله عز وجل: **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم**، يحتمل[٦] وجوها. يحتمل **يهديهم ربهم بإيمانهم**، في الدنيا طريق الجنة في الآخرة. وهو معنى ما ذكر في القصة: إن المؤمن إذا خرج[٧] من القبر يُصوَّر له عمله في صورة حسنة.[٨] والثاني **يهديهم ربهم بإيمانهم**،[٩] فيصيرون مهتدين[١٠] بهدايته إياهم. ويشبه **يهديهم ربهم بإيمانهم**، أي يدعوهم[١١] إلى الخيرات في الدنيا بإيمانهم. ***والله أعلم***. فهذا على المعتزلة؛ لأنهم يمتنعون عن تسمية[١٢] صاحب الكبيرة مؤمنا ومعه إيمان،

---

[١] ك ن: لها؛ ع م: بها.
[٢] ع: كانوا.
[٣] ع م – بها.
[٤] ن – وقوله.
[٥] ن: وأشروا.
[٦] ن: يحتمله.
[٧] ك ن ع: إذا اخرج.
[٨] روي عن قتادة في قوله: ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾، قال: بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن إذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ صِدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة. وأما الكافر فإذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك امرأ سوء، فيقول: أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار» (*تفسير الطبري*، ١١/٨٨؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٣٤٤). وهو مرسل، فقتادة من التابعين.
[٩] ك ن + أي يهديهم ربهم بإيمانهم.
[١٠] م: مهتدون.
[١١] ع م: أو يدعوهم.
[١٢] م: عن تسميته.

فيلزمهم أن يمتنعوا عما وعد له وإن كان معه إيمان. فإذ ذكر له الوعد مع هذا لزمهم أن يسموه مؤمنا لما معه من الإيمان.[1]

وقوله عز وجل: **تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم**، يقول أهل التأويل: من تحت أهل[2] الجنة. وقد ذكرنا هذا.[3]

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٠]

وقوله عز وجل: **دعواهم فيها سبحانك اللهم**، قال قائلون: قوله: **دعواهم**، دعوى الإيمان. أي يدّعون[4] في الآخرة من الإيمان والتوحيد لله والتنزيه[5] له كما ادّعوا في الدنيا وحدانية الله ونزّهوه. وقوله: **سبحانك اللهم**، هو حرف تنزيه وتبرئة[6] الرب عن الأشباه[7] وجميع الآفات التي وصفته المشبهة الملحدة.[8] فهذا يدل أن ما خرج مخرج الدعوى فإنه لا يختلف باختلاف الدُّور.[9] وقال عامة أهل التأويل: هو من الدعاء لا من الدعوى. يقولون: إنهم إذا اشتهوا طعاما أو شرابا أو تمنوا[10] شيئًا فيَدْعون بقوله:[11] **سبحانك اللهم**، فيُؤتَوْن ما تمنّوا واشتهوا. لكن ذُكر أنْ لا تنقطع[12] اللّذّات في الجنة. ولو كان ما يقولون لكان فيه انقطاع اللّذّات والشهوات. إلا أن يقال: إنهم[13] يُلهَمون شهوات وأماني،[14] فيشتهون. وقال الله عز وجل: وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ،[15]

---

[1] ن – الإيمان.
[2] م + أهل.
[3] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/٢٥؛ ومن سورة الأعراف، ٤٣/٧.
[4] ع: أن يدعون.
[5] ع: والتنزية.
[6] ن: وتنزيه.
[7] ع: عن الأشياء.
[8] ع: المتحدة.
[9] والدور: جمع الدار. أي لا يختلف بأن تكون الدار دار دنيا أو الدار الآخرة.
[10] ع م: وتمنوا.
[11] ع م: بقول.
[12] ن ع م: لا ينقطع.
[13] ن + طمعوا.
[14] ع: وأما في.
[15] سورة فصلت، ٣١/٤١.

وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ.[١] ولا نعلم ما أراد به.[٢] وقوله:[٣] **سبحانك اللهم**، يخرج على وجوه. أحدها يخبر أنه ليس على أهل الجنة من العبادات شيء سوى التوحيد، وهو كلمة التوحيد. والثاني يقولون ذلك لعظيم[٤] ما رأوا من النعيم وعجيب ما عاينوا. والثالث شكرا لما أعطاهم من ألوان النعيم والأطعمة.[٥]

وقوله عز وجل: **وتحيتهم فيها سلام**، قال أهل التأويل: إن الملائكة يأتون من ألوان النعيم[٦] بما اشتهوا، ويسلمون عليهم ويردون السلام على الملائكة، فذلك قوله: **وتحيتهم فيها سلام**. فإذا طَعِموا وفرغوا قالوا عند ذلك: **الحمد لله رب العالمين**. وهو قول ابن عباس وغيره من أهل التأويل.[٧] ويشبه أن يكون قوله: **وتحيتهم فيها سلام**، الكلام[٨] الذي لا عيب فيه ولا مطعن.[٩] أي كلام بعضهم لبعض كلام[١٠] منزه منفي عن جميع العيوب والمطاعن، كقوله: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا،[١١] الآية، وقوله: إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا،[١٢] ونحوه.

وقوله: **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين**، قال أهل التأويل: يقولون على إثر فراغهم من الطعام والشراب ذلك. / وقال الحسن: إن الله رضي من عباده[١٣] بالشكر [٣٢٥ظ] لما أنعم عليهم في الدنيا والآخرة بالحمد لله رب العالمين. ويشبه أن يكون قوله: **وآخر دعواهم**، أي دعواهم[١٤] في الآخرة **الحمد لله رب العالمين**، كما كان دعواهم في الدنيا الحمد لله رب العالمين.

---

[١] سورة الواقعة، ٥٦/٢٠-٢١.
[٢] أي لا نعلم ذلك على سبيل القطع.
[٣] ن: قوله.
[٤] ن: لعظم.
[٥] ع: ولا طعمة.
[٦] ك ن - من ألوان النعيم.
[٧] ع: من أهل القلم وبل. روي عن ابن جريج؛ انظر: *تفسير الطبري*، ١١/٨٩؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ٤/٣٤٦.
[٨] ع م: والكلام.
[٩] ع: أو لا مطعن.
[١٠] ك م - كلام.
[١١] سورة مريم، ١٩/٦٢؛ وسورة الواقعة، ٥٦/٢٥؛ وسورة النبأ، ٧٨/٣٥.
[١٢] سورة الواقعة، ٥٦/٢٦.
[١٣] ك: عن عباده؛ ع: من عبادة.
[١٤] م - أي دعواهم.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[١١]

وقوله عز وجل: **ولو يُعجِّل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لَقُضِي إليهم أجلهم**، كأن الآية على الإضمار. كأنه قال: **ولو يُعَجِّل الله للناس الشر** إذا استعجلوه كما يُعَجِّل لهم الخير إذا استعجلوه[١] **لَقُضِي إليهم أجلهم**؛ لأنه ليس يذكر في ظاهر الآية استعجالهم الشر، إنما يذكر تعجيله. ولكن فيه ما ذكرنا[٢] من الإضمار إضمارِ الاستعجال.[٣] وهو ما ذكر في غير آيٍ من القرآن استعجالهم العذاب، كقوله: أَتَى أَمْرُ اللهِ،[٤] الآية، وقوله:[٥] فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً،[٦] الآية، ونحو ذلك. كانوا يستعجلون العذاب استعجال تضرع. فيقول: لو عجّل لهم العذاب إذا استعجلوه كما يعجّل لهم الخير إذا استعجلوه[٧] لقضي أجلهم. يقول: لهلكوا وفَنُوا.[٨] هذا التأويل في أهل الكفر خاصة عند استعجالهم العذاب استعجال تضرع وسؤال. ويشبه أن يكون هذا في جملة الخلق على غير تصريح سؤال، ولكن عند ارتكابهم الشر. يقول: **ولو يعجّل الله للناس الشر**، باكتسابهم الشر وبارتكابهم إياه وقت اكتسابهم كما يعجّل لهم الخير وقت اكتسابهم الخير **لقضي إليهم أجلهم**، أي لو عجّل[٩] لهم جزاء شرهم وقت اكتسابهم الشر كما يعجّل لهم جزاء خيرهم لكان[١٠] ما يستوجبون بارتكابهم الشر وقتَ فعلِهم إياه [و]لقضي إليهم أجلهم، لكنه لم يجعل لهم[١١] ذلك، وأخره إلى المدة التي جعل لآجالهم. ويمكن وجه آخر، وهو ما يدعو[١٢] بعضهم على بعض باللعن والخزي.

---

[١] ع – كما يعجل لهم الخير إذا استعجلوه.

[٢] ك: ما ذكر.

[٣] ن + لقضي إليهم أجلهم لأنه ليس يذكر في ظاهر الآية استعجالهم الشر إنما يذكر تعجيله ولكن فيه ما ذكرنا من الإضمار إضمار الاستعجال.

[٤] ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ (سورة النحل، ١٦/١).

[٥] ك ن: وقولهم.

[٦] ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ (سورة الأنفال، ٣٢/٨).

[٧] م + كما يعجل لهم الخير إذا استعجلوه.

[٨] ك: أو فنوا.

[٩] ع م – أي لو عجل.

[١٠] ك ن + ما ذكر.

[١١] جميع النسخ: له.

[١٢] ع: ما يدعوا.

يقول الرجل عند شدة الغضب: اللهم العن فلانا، اللهم أَخْزِه، ونحو ذلك من الدعوات. يقول: لو عجّل لهم هذا كما يعجّل لهم عند دعاء بعضهم لبعض بالرحمة والسعة **لقضي إليهم أجلهم**، لهلكوا وفَنُوا، ويكون ذلك انقضاء أجلهم.[1] يكون هذا على وجوه ثلاثة. أحدها استعجال سؤال وتضرع [على] الذي ذكرنا. والثاني[2] بأفعالهم وارتكابهم الشر وقت ارتكابهم. والثالث في الأسباب التي بها يرتكبون ويفعلون.

وقوله: **لَقُضِي إليهم أجلهم**، يحتمل لقضي أجلهم قبل المدة التي جُعل لهم. والثاني لقضي أجلهم، أي يُجعل أجلهم ذلك. ففيه دلالة أنْ لا يهلك أحد قبل أجله،[3] لا يقدّم ولا يؤخّر. وهو ما ذكر: لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ.[4]

وقوله عز وجل: **فَنَذَرُ الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون**، هو ما ذكرنا أنّ مِن حكمه[5] أن لا يعاقب أحدا من الكفرة في الدنيا[6] بصنعه[7] الذي صنع. وقد يعجّل لهم جزاء خيراتهم في الدنيا لما ساق إليهم من أنواع النعم. ولكن مِن حكمه[8] أن يؤخر عقوبتهم إلى يوم القيامة. فذلك تأويله. *والله أعلم*. **فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون**، أي نتركهم يتردّدون في عماهم[9] وحيرتهم إلى الوقت الذي وعد لهم العذاب. ***والله أعلم***.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١٢]

وقوله عز وجل: **وإذا مسّ الإنسان ضُرّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما**، قال بعض أهل التأويل: إن[10] جميع ما ذكر في القرآن [من] "الإنسان" فالمراد منه الكافر. مِن ذلك قوله:

---

[1] ك: آجالهم.
[2] ع: والدي.
[3] ع م – أجلهم قبل المدة التي جعل لهم والثاني لقضي أجلهم أي يجعل أجلهم ذلك ففيه دلالة أن لا يهلك أحد قبل أجله.
[4] ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (سورة الأعراف، ٣٤/٧؛ وسورة النحل، ٦١/١٦).
[5] ع: من حكمة؛ م: من حكمته.
[6] ع: في الكفرة؛ م: في الكفر.
[7] م: بصنيعه.
[8] ع: من حكمة.
[9] ع: في عملهم؛ م: في أعمالهم.
[10] ع م – إن.

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ،[1] وقوله: يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ،[2] وقوله: وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ،[3] ونحوه. لكن هذا لا نعلم أنه أراد به الكافر. فَلَئِنْ كان ما ذكروا فإن أهل الإيمان يدخلون في هذا[4] الخطاب إذا كان منهم ما يكون من الكفرة؛ لأن من أهل الإيمان من يُقبِل على الدعاء والتضرّع إلى الله عند مَسّ[5] الحاجة والشدة، فإذا انجلى ذلك وانكشف عنه ترك ذلك الدعاء الذي كان دعا وذلك التضرّع الذي كان يتضرّع إليه، فدخل في ذلك.

ثم قوله:[6] **دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما**، ليس على إرادة حقيقة الجنب والقعود والقيام، ولكن على الدعاء[7] في كل حال، أي يدعوه في كل حال.[8] لمّا عرفوا أن الذين[9] كانوا يعبدون من دون[10] الله لا يملكون دفع ما حلّ بهم من الشدائد والمضارّ أقبلوا على الله بالتضرّع والدعاء إليه في كشف ذلك عنهم.

ثم أخبر عن سفههم وشدة تعنّتهم وعودهم إلى الحال[11] التي كانوا من قبل، فقال: **فلما كشفنا عنه ضُرّه مَرّ كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه**، يقول -والله أعلم- **مَرّ كأنْ لم يَدْعُنا**، قد نَسِيَنَا في الرخاء كأنْ لم يعرفنا واستمرّ على ترك الدعاء في الرخاء.

وقوله:[12] **كذلك زُيّن للمسرفين ما كانوا يعملون**، الإسراف هو العدوان[13] والتعدي[14] عن الحد الذي جُعِل له. وهو وضع الأموال والأنفس في الموضع الذي لا ينتفعون بها، في عبادة الأصنام وغيرها. ***والله أعلم***.

---

[1] ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كَدْحا فمُلاقيه﴾ (سورة الانشقاق، ٨٤/٦).

[2] سورة الانفطار، ٨٢/٦.

[3] سورة العصر، ١٠٣/١-٢.

[4] ك ن: ذلك.

[5] ك ن ع: عند مسه.

[6] ن: وقوله؛ ع: ثم وقوله.

[7] ن: مع الدعاء.

[8] ع م – في كل حال.

[9] ع م: أن الذي.

[10] ك ن: يعبدون دون.

[11] ع: إلى الحلال.

[12] ن – وقوله.

[13] ع م – واستمر على ترك الدعاء في الرخاء وقوله كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون الإسراف هو العدوان.

[14] ع م: وإن التعدي.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾[١٣]

وقوله عز وجل: **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لمّا ظلموا.**

فإن قيل: قد أهلك من قد ظلم ومن لم يظلم، فما يُعلَم[١] أنّ مَن[٢] أهلك[٣] من الظلمة أنه إنما أهلكهم لظلمهم أو أهلك لصلاح من لم يظلم؟

قيل: إنه[٤] أهلك الظلمة إهلاك استئصال وعقوبة،[٥] وأهلك من لم يظلم لا إهلاك عقوبة واستئصال، إنما هو إهلاك بآجالهم التي جعل لهم.[٦] ويحتمل قوله: **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات،** [أنه] إنما أهلك أولئك لسؤالهم الذي سألوا -سؤالَ تعنُّتٍ رسلِهم- الآيات، فإذا جاءوا بتلك الآيات كذّبوها، فأُهلِكوا عند ذلك. فأنتم يا أهل مكة إذا سألتم رسولكم[٧] الآية ثم كذّبتموها يعذّبكم[٨] كما عذّب أولئك؛ إذ مِن حُكمه[٩] الإهلاك على إثر السؤال. كأنه ينهى أهل مكة عن سؤال الآيات، / فإن على إثره [٣٢٦و] الإهلاك إذا لم يقبلوها.

وقوله عز وجل: **وجاءتهم رسلهم بالبينات،** يحتمل[١٠] البينات التي تبين ما يؤتَى وما يُتَّقَى.[١١] وقد ذكرناها في غير موضع.[١٢] **وما كانوا ليؤمنوا،** يخبر رسوله أنهم وإن سألوك الآيات فإذا جئت[١٣] بها فإنهم لا يؤمنون، يعني أهل مكة. **كذلك نجزي القوم المجرمين،** كل مجرم.

---

[١] ك: نعلم.
[٢] م: يعلم من.
[٣] ع - من قد ظلم ومن لم يظلم فما يعلم أن من أهلك.
[٤] م: له.
[٥] ن: أو عقوبة.
[٦] ن - لهم.
[٧] ن + الآيات فإذا جاءوا بتلك الآيات كذبوها فأهلكوا عند ذلك فأنتم يا أهل مكة إذا سألتم رسولكم.
[٨] ن ع ن: لعذبكم.
[٩] ع: من حكمة.
[١٠] ك: تحتمل.
[١١] م: نبقى.
[١٢] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/٨٧، ٩٩.
[١٣] ع: وجبت.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[١٤]

وقوله عز وجل: **ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم**، يحتمل قوله: **خلائف**، أي جعل أنفسكم خَلَفَ أنفس أولئك الذين لم يهلكهم. يخرج هذا مخرج تذكير[١] النعمة والامتنان والرحمة. يذكّرهم أنه لو شاء أهلك الكل، فلا يكون هؤلاء خَلَفَ أولئك، ولكن بفضله ورحمته أبقاكم. ويحتمل قوله: **جعلناكم خلائف** أولئك في المحنة[٢] والعبادة. أي جعل عليكم من المحنة والعبادة كما كان على آبائكم من المحنة والعبادة. ويشبه أن يكون قوله: **جعلناكم خلائف** الذين لم يظلموا، فكيف لا تتبعونهم؛ لأن الذين ظلموا قد أهلكهم فأنتم خلائف أولئك الذين لم يظلموا ولم يكذّبوا[٣] الرسل، فكيف لا تتبعونهم؟ كأنهم ادّعوا أن آباءهم كانوا على ما هم عليه وأنهم على مذاهب آبائهم. يقول: **جعلناكم خلائف** الذين لم يظلموا، إذ الذين ظلموا قد أُهلِكوا، فقد تركتم مذهب آبائكم. وجائز أن يكون قوله: **جعلناكم خلائف**[٤] **في الأرض من بعدهم**، أي لست أنا بأول رسول أُرسِلت إليكم، بل لم يَزَل الله يرسل[٥] رسلاً[٦] في الأمم، فكان فيهم[٧] لهم أتباع يتبعون رسلهم إلى ما يدعونهم إليه ويجيبونهم، فاتبعوني[٨] أنتم يا أهل مكة فيما دُعِيتم إليه.

وقوله عز وجل: **لننظر كيف تعملون**، لم يَزَل الله تعالى عالما بما كان ويكون منهم من المعصية والطاعة، ولكن ليَعلمهم عُصاةً ومطيعين؛ لأن المعصية إنما تكون[٩] بعد ما يكون النهي، والطاعة إنما تكون بالأمر. فيبتليكم فيعلمكم عصاة كما علم أنه يكون منكم[١٠] معصية، ويعلمكم مطيعين كما علم أنه يكون منكم الطاعة. وقد ذكرنا أمثال هذا فيما تقدم.[١١]
والله أعلم.

---

[١] م: تذكر.
[٢] م: في محنة.
[٣] م: ويكذبوا.
[٤] ع م – الذين لم يظلموا إذ الذين ظلموا قد أهلكوا فقد تركتم مذهب آبائكم وجائز أن يكون قوله جعلناكم خلائف.
[٥] ع م: يزل.
[٦] م: رسولا.
[٧] م: فيه.
[٨] ك: فاتبعون؛ ن: فا فاتبعوني.
[٩] ن: يكون.
[١٠] ع: منهم.
[١١] انظر مثلا تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/١٤٣.

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١٥]

وقوله عز وجل: **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات**، البينات قد ذكرنا في غير موضع.[١] والبينات هي التي تبين أنها آيات نزلت من عند الله لم يخترعها أحد من الخلق. وقد ذكرنا قوله أيضا: **قال الذين لا يرجون لقاءنا**.[٢]

وقوله عز وجل: **ائت بقرآن غير هذا أو بَدِّلْه**، يشبه أن يكون قولهم: **ائت بقرآن غير هذا أو بدله** [متوجها إلى التبديل]، [لأن إتيان غير هذا القرآن وتبديله واحد، فيكون "أو" بمعنى الواو، كأنهم قالوا: ائت بقرآن غير هذا وبَدِّلْه].[٣] ألا ترى أنه قال: **قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي**، إنما أجابهم في التبديل؛ دل أن السؤال كان سؤال تبديل، ولكن كانوا يسألون سؤال استهزاء وتكذيب. ثم اختلف أهل التأويل في التبديل الذي سألوا. قال بعضهم: سألوا أن يبدّل ويجعل مكان آية العذاب آية الرحمة، أو يبدّل[٤] أحكامه. ويحتمل قوله: **ائت بقرآن غير هذا**، أي بدّل أحكامه واترك[٥] رسمه. ويحتمل ما ذكرنا أنهم سألوا أن يتلو[٦] مكان آية العذاب آية الرحمة ومكان ما فيه سب آلهتهم مدحها[٧] ونحو ذلك. ***والله أعلم***. ونحن لا نعلم ما أراد بالتبديل تبديل الأحكام أو تبديل[٨] الرسم والنظم. إنما نعلم ذلك بالسماع. ثم أخبر أنه لا يقول ولا يتبع[٩] إلا ما يوحَى إليه[١٠] ويؤمَر به بقوله: **قل ما يكون لي أن أبدّله من تلقاء نفسي إن أتّبع إلا ما يوحَى إليّ**.

وقوله عز وجل: **إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم**، إن تركت تبليغ[١١] ما أُمِرت بالتبليغ إليكم.

---

[١] انظر تفسير الآية من سورة البقرة، ٢/٨٧، ٩٩.
[٢] انظر تفسير الآية من سورة يونس، ١٠/٧.
[٣] سقط ما بين المعقوفتين الأخيرتين من جميع النسخ؛ فأكملناه من *الشرح*، ورقة ٣٦٦ظ.
[٤] ك ن ع: أو بدل؛ م: لو بدل.
[٥] ع م: وانزل. واترك رسمه: أي أبق نظمه ولا تبدله.
[٦] ع م: أن يتلوا.
[٧] ع: مدحا.
[٨] ع م: وتبديل.
[٩] ن: ولا تبع.
[١٠] م: الله.
[١١] ن: بتبليغ.

وهكذا[1] كل مَن عرف ربه خافه إن عصاه وخالف[2] أمره ونهيه، ومن لم يعرف ربه لم يخفه إن عصاه وخالف.

وقوله: **ائت بقرآن غير هذا أو بَدِّله**، سؤالهم سؤال تعنّت واستهزاء؛ لأنه لا منفعة[3] لهم لو أتى بغيره وبدّله سوى ما في هذا. ولو جاز لهم هذا السؤال جاز ذلك في كل ما أتى به[4] واحدا بعد واحد.[5] فذلك مما لا ينقطع أبدا ولا غاية ولا نهاية [له]. فهو سؤال[6] تعنّت واستهزاء.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١٦]

وقوله عز وجل: **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به**، هو صلة ما تقدم من قوله حيث قالوا: اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ.[7] قد ذكرنا أن هذا يحتمل وجهين. يحتمل أنهم سألوه أن يبدّل أحكامه على ترك رسمه ونظمه. ويحتمل قوله: اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ، أي ارفع[8] رسمه ونظمه وأحكامه، كأنهم ادّعوا على رسول الله اختراع هذا القرآن من نفسه واختلاقَه من عنده. فقال: **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم**، تأويله -والله أعلم- لو شاء الله أن لا يُظهِرَ دينَه فيكم ولا يُلزِمَكم[9] حجته[10] ولا يبعثني[11] إليكم رسولا **ما تلوته عليكم**[12] **ولا أدراكم به**، أي ولا أعلمكم به. ويحتمل قوله: **ولا أدراكم به**، ولا أعلمكم ما فيه من الأحكام. أو يقول: لو شاء الله لم يوحِ إليّ ولا أمرني بتبليغ[13] ما أوحي إليّ إليكم ولا بالدعاء إلى ما أمرني أن أدعوكم إليه.

---

[1] م: وهذا.

[2] م: حالف.

[3] ع م: لأنه منفعة.

[4] ع م – به.

[5] م – بعد واحد.

[6] ع م: فسؤال.

[7] الآية السابقة.

[8] ع: أي رفع.

[9] ك ن: ولا ألزمكم؛ ع م: ولا ألزمه.

[10] م: حجة.

[11] جميع النسخ: ولا بعثني.

[12] ع م + تأويله والله أعلم لو شاء الله.

[13] ك: بالتبليغ.

وفي قوله: **لو شاء الله ما تلوته عليكم**، دلالة أن الله إذا شاء شيئا كان وما لم يشأ لم يكن؛ لأنه أخبر أنه لو شاء ما تلوته عليكم،[١] فلو لم يشأ أن يتلوه ما تلاه.[٢] دل أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وذلك يرد على المعتزلة قولهم: شاء الله أن يؤمن الخلائق كلهم، لكنهم[٣] لم يؤمنوا. ***والله أعلم.***

وقوله عز وجل: **فقد لبثتُ فيكم عُمُرا من قبله أفلا تعقلون**، أي **فقد لبثت فيكم عمرا من قبله**، فلم أَدَّعِ ما أدّعي[٤] للحال ولا تلوت ما أتلو.[٥] **أفلا تعقلون**، أي لم أخترع هذا من نفسي، ولكنه[٦] وحي أوحي إليّ؛ إذ لو كان اختراعا مني لكان ذلك مني فيما مضى من الوقت وكنت لابثا[٧] فيكم. فإذ[٨] لم يكن مني ذلك **أفلا تعقلون**، أي لم أخترع [ذلك] من نفسي. يحتمل هذا الكلام وجوها. أحدها / أنهم لما ادّعوا عليه الاختراع من عنده قال: إني قد لبثت فيكم[٩] من قبله، [٣٢٦ظ]
أي قبل أن يوحَى[١٠] هذا إليّ، فلم تروني خطَطْت بيميني ولا اختلفت[١١] إلى أحد في التعلّم والدراسة، فكيف أخترع [هذا] من عندي؟ إذ التأليف[١٢] لا يلتئم[١٣] ولا يتم إلا بأسباب تتقدم.[١٤]

والثاني فقد لبثت عمرا سِنين لم تعرفوني ولا رأيتموني كذبت قط. فكيف أفتري على الله وأخترع القرآن من عند نفسي؟ ألا ترى أنه قال على إثر[١٥] هذه:[١٦] فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا،[١٧] أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبا.

---

[١] ع م – دلالة أن الله إذا شاء شيئا كان وما لم يشأ لم يكن لأنه أخبر أنه لو شاء ما تلوته عليكم.
[٢] ع: من تلاه.
[٣] ع م – لكنهم.
[٤] م – ما أدعي.
[٥] م: ما أتلوا.
[٦] جميع النسخ: ولكن.
[٧] ع م: لابسا.
[٨] م: فإذا.
[٩] ن – فيكم.
[١٠] ن: أن حى.
[١١] ن: ولا اختلف.
[١٢] ع م: أو التأليف.
[١٣] التأم أي اتفق واجتمع (*لسان العرب* لابن منظور، «لأم»).
[١٤] ع م: متقدم.
[١٥] ع م: على إثره.
[١٦] ع م – هذه.
[١٧] الآية التالية.

والثالث يحتمل قوله: **فقد لبثت فيكم عمرا من قبله،** فلم أسمع أحدا ادّعى البعث ولا أقام حجة عليه. وأنا قد ادّعيت البعث وأقمت على ذلك حجة. **أفلا تعقلون،**[1] أني لم أخترع [هذا] من عند نفسي.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾[١٧]

وقوله: **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته،** يشبه أن [يكون] هذا صلة قوله: اِئْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ،[2] أي كيف تطلبون مني[3] إتيان غيره وتبديل أحكامه وقد تعرفون[4] قبح الكذب وفحشه. فكيف تسألونني الافتراء على الله وتكذيب آياته؟ ويحتمل أن يكون صلة ما ادّعوا عليه[5] أنه افتراه من عند نفسه.[6] يقول: إنكم لم تأخذوني[7] بكذب قط وقد[8] لبثت فيكم عمرا، فكيف تنسبونني[9] إلى الكذب على الله وقد عرفتم قبح الكذب على الله وفحشه؟ ويحتمل على الابتداء. ثم قد ذكرنا أن قوله: **فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا،** استفهام. فجوابه ما قاله أهل التأويل: لا أحد أبين ظلما ولا أفحش[10] ممن افترى على الله كذبا، لا أنّ تفسيره[11] ما قالوه.[12] وقد ذكرنا هذا في غير موضع.[13]

أو كذب بآياته؛ الافتراء على الله تكذيب بآياته، وتكذيب آياته افتراء على الله.

---

[1] جميع النسخ + هذا.

[2] سورة يونس، ١٠/١٥.

[3] ع: حتى.

[4] ع: تعرفوني.

[5] م: إليه.

[6] ك: من نفسه.

[7] ع: لم تأخذوني.

[8] م: فقد.

[9] جميع النسخ: تنسبوني.

[10] ع م: ظلما وأفحش.

[11] ع م: لأن تفسيره.

[12] وعبارة الشارح هكذا: «ويحتمل على الابتداء. وقد ذكرناه في غير موضع أن قوله: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا﴾، هو استفهام يقتضي الجواب. وجوابه ما قال أهل التأويل: لا أحد أبين ظلما ولا أفحش ممن افترى على الله كذبا، فيكون ما قاله أهل التأويل جواب الاستفهام الذي أضمر في الكلام، لا أنه تفسير الآية وتأويلها» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٦٧و؛ ونسخة المدينة، ورقة ٤٠٩ظ).

[13] انظر تفسير الآية من سورة الأنعام، ٦/٩٣.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[١٨]

وقوله عز وجل: **ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم**،[١] يحتمل وجهين. **ما لا يضرهم**،[٢] لو تركوا عبادته، **ولا ينفعهم**، إن عبدوه. والثاني **ما لا يضرهم**، أي ما لا يملكون الضرر بهم، **ولا ينفعهم**، لو تركوا عبادته.[٣] أي ولا يملكون جر[٤] النفع إليهم. يسفّههم[٥] في عبادتهم من لا يملك بهم دفع الضر[٦] ولا يملك جر النفع، وتركِهم عبادة من به يكون جميع منافعهم وغذائهم ومنه يكون كل خوف وضر. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**، يحتمل هذا القول منهم تقليدا لآبائهم، كقولهم: وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللهُ أَمَرَنَا بِهَا.[٧] ظنوا أن آباءهم لمّا تُركوا وما هم عليه [و] لم يعذّبوا أنهم على الحق وأن الله قد رضي بذلك. أو قالوا ذلك لِما لم يروا[٨] أنفسهم أهلا لعبادة الله والقيام بخدمته. وقد يكون مثل هذا في ملوك الأرض أن كل أحد[٩] لا يرى نفسه يصلح لخدمة الملك، فيخدم من دونه المتصلين به رجاء أن يكون مَن خَدَمَه[١٠] شفيعا له عند الملك. فعلى ذلك هؤلاء طمعوا أن عبادتهم هؤلاء تقرّبهم إلى الله زُلْفَى[١١] ويكونون لهم شُفَعاء عند الله. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض**، يقول **أتنبئون الله**، أتخبرون الله،[١٢] **بما لا يعلم**، أي تَعلمون[١٣] أنه عالم. أي أ تُعلِّمون[١٤]

---

[١] ن + أي ولا يملكون جزاء النفع.
[٢] م + ولا ينفعهم يحتمل وجهين ما لا يضرهم.
[٣] ن ع م – لو تركوا عبادته.
[٤] ن: جزاء.
[٥] ع م: ~~يسفههم~~.
[٦] ك: الضرر.
[٧] يقول الله تعالى: ﴿وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون﴾ (سورة الأعراف، ٧/٢٨).
[٨] ع: لما يروا.
[٩] ع: أحدا.
[١٠] ع م: من خدمة.
[١١] يشير إلى قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليُقرّبونا إلى الله زُلْفَى﴾ (سورة الزمر، ٣٩/٣).
[١٢] ع م – أتخبرون الله.
[١٣] ك: أي أتعلمون.
[١٤] ن: أي تعلمون.

من تَعلمون[1] أنه يَعلم ما ذُكر وأنتم لا تَعلمون ذلك، وقد تعلمون أنه لو كان كذلك لكان هو أعلم به منكم. والثاني أي أتقولون[2] ما لا يعلم، أي يعلم[3] أنه ليس كما تقولون. كقول الناس:[4] ما شاء الله كان وما لا يشاء[5] لا يكون، أي ما شاء[6] أن لا يكون لا يكون.[7]

وقوله: [**سبحانه وتعالى عما يشركون**]؛ **سبحانه**، كلمة جُعِلت لإجلال الله عما يحتمله غيره[8] من الأشكال والأضداد ومن العيوب والآفات. وهو في هذا الموضع يتوجه إلى وجهين. إذ كانوا[9] يعبدون ما ذكر ويقولون هم شفعاؤنا عند الله. فيقول: **سبحانه**، أن يجعل لأمثال[10] أولئك شفاعة عنده؛ إذ الشفيع إنما[11] يكون من له منزلة وقدر عند من يشفع له. والمنزلة تكون للعبيد[12] بما يتعبّدهم[13] فيقومون بتوفير ما يحتمل وُسعهم من العبادة. فأما من لا يحتمل التعبّد فهو بعيد عما ذكر. يعني[14] **سبحانه** أن يجعل[15] الشفاعة لمن ذُكر دون[16] الأنبياء والرسل وهم قد أخبروا أنها لا تملك ضررا ولا نفعا، وفي الشفاعة ذلك. والثاني أن يكون عما أشركوا في العبادة. فسبحانه عن أن يكون معه معبودٌ أو يأذنَ لأحد بعبادة غيره. ***والله أعلم***.

---

[1] م: من يعلمون.
[2] جميع النسخ: والثاني أن تقولوا.
[3] أي على إسقاط "لا".
[4] ك: للناس.
[5] ن ع م: لم يشأ.
[6] ع: ما يشاء؛ م: وما يشاء.
[7] وعبارة الشارح هكذا: «وقوله تعالى: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾، يحتمل وجهين. أحدهما أن هذا وإن كان نفي العلم عن نفسه فيما ادّعوا من كون الأصنام شفعاء عند الله بقوله: ﴿بما لا يعلم﴾، لكن في الحقيقة نفي ما ادّعوا. يقول أتخبرون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض. أي تَعلمون أنه عالم بما في السماوات وما في الأرض، ولو كان ما تدّعون من كون الأصنام شفعاء عند الله لكان هو أعلم به منكم. فيكون نفيا لما ادّعوا. والثاني قريب من هذا. يقول: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم﴾، أي تُعلِّمون من يَعلم أنه ليس كما تدّعون. وهو كقول الناس: ما شاء الله كان وما لا يشاء لا يكون، أي ما شاء الله كان وما شاء أن لا يكون لا يكون» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٦٧و-ظ).
[8] ع م: غير.
[9] م: إذا كانوا.
[10] م: الأمثال.
[11] جميع النسخ: انه؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣٦٧ظ.
[12] م: للعبد.
[13] ع م: يتبعه هم.
[14] ن ع: بمعنى؛ م - بمعنى.
[15] جميع النسخ: أي يجعل.
[16] ع: دونه.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[١٩]

وقوله عز وجل: **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا**، اختلف[١] فيه. قال بعضهم: قوله: **وما كان الناس إلا أمة واحدة**، أي أهل مكة كانوا كلهم أهلَ شرك، عُبَّادَ الأصنام والأوثان،[٢] لم يكن فيهم اليهودية ولا النصرانية ولا شيء من اختلاف المذاهب. فلما بُعِث محمد[٣] صلى الله عليه وسلم اختلفوا. فمنهم من آمن به وصدّقه وأخلص دينه لله. ومنهم من[٤] عاند وكابر في تكذيبه بعد أن عرف أنه رسول الله.[٥] ومنهم من شكّ فيه.[٦] ومنهم من لم ينظر في أمره قط ولا تفكّر فيه. فصاروا أربع فرق. وقال[٧] بعضهم: قوله:[٨] **وما كان الناس إلا أمة واحدة**، بالفطرة. أي كانوا جميعا على الفطرة.[٩] وفي فطرة كل أحد[١٠] الشهادة على وحدانية الله تعالى وألوهيته، كقوله: وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا،[١١] وقوله: فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا.[١٢] في[١٣] خلقة[١٤] كل أحد الشهادة لله بالوحدانية له والألوهية. **فاختلفوا**، فمنهم[١٥] من كان على تلك الفطرة، ومنهم من كذّب واختار الكفر. وهو ما روي: «كل مولود يولد على الفطرة إلا أنّ أبَوَيه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرانه».[١٦] أخبر أنهم على الفطرة لو تُرِكوا على ذلك، لكن أبَوَيه يمنعانه عن الكون[١٧] عليها.

---

[١] ع م − اختلف.
[٢] ن ع: الأوثان والأصنام.
[٣] م: محمدا.
[٤] م + كان.
[٥] ك ن − الله.
[٦] ع − فيه.
[٧] ع: قال.
[٨] ن ع م − قوله.
[٩] ع − أي كانوا جميعًا على الفطرة.
[١٠] ع م − أحد.
[١١] سورة آل عمران، ٨٣/٢.
[١٢] ﴿فأَقِم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٠).
[١٣] م − في.
[١٤] ن: في خلقته.
[١٥] ك: منهم.
[١٦] «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه...» *صحيح البخاري*، الجنائز ٩٢؛ وصحيح *مسلم*، القدر ٢٢.
[١٧] ن: على الكون.

[٣٢٧و] وقيل: / **وما كان الناس إلا أمة واحدة**، أي كان الخلائق جملةَ أُمَمٍ. كقوله: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ.[١] كأنه يعاتب هذه الأمة. يقول: إن الأمم مع اختلاف جواهرها وأجناسها كانوا خاضعين لله مخلصين له. فأنتم أيها الناس أمة من تلك الأمم. فكيف اختلفتم[٢] وأشركتم غيره في ألوهيته وربوبيته مع ما ركّب فيكم من العقول[٣] والتمييز بين ما هو حكمة وما[٤] هو سَفَه؟ وقد فضّلكم على غيرها من الأمم في خلق[٥] ما خلق في السماوات وما في الأرض لكم، وسخّر لكم ذلك كله،[٦] ما لم يفعل ذلك بغيرها من الأمم. ومنهم من قال من أهل التأويل في قوله: **وما كان الناس إلا أمة واحدة**، زمن نوح[٧] ومن دخل معه في السفينة. كانوا على دين واحد. فاختلفوا بعد ما خرجوا. ومنهم من قال: آدم، فاختلف أولاده. ومنهم من قال: زمن[٨] إبراهيم. لٰكِنّا لا تشهد[٩] كيف كان الأمر. فلا نعلم إلا بخبر[١٠] عن الله تعالى.

وقوله عز وجل: **ولولا كلمة سبقت من ربك لَقُضِي بينهم فيما فيه يختلفون**، قيل: لولا أنّ مِن حُكمه[١١] أن لا يعذّب هذه الأمة عند تكذيبهم الآيات إذا سألوها وإلّا لأهلكها[١٢] كما أهلك الأمم الخالية بتكذيبهم الآيات عند السؤال. ولكن أخّر تعذيب هذه الأمة إلى يوم القيامة. والثاني **سبقت من ربك**، أن لا يستأصل هذه الأمة عند تكذيبهم[١٣] الرسل والعناد لهم. أحد التأويلين في ترك استئصالهم. والآخر في تأخير العذاب عنهم[١٤] إلى وقت. وقوله: **لَقُضِي بينهم**، ببيان يضطرّهم إلى القبول.

---

[١] سورة الأنعام، ٣٨/٦.
[٢] ع: إذا اختلفتم.
[٣] ع م: من القول.
[٤] ك: وبين ما.
[٥] ك: في ظن.
[٦] يشير إلى مثل قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا﴾ (سورة البقرة، ٢٩/٢)؛ وقوله: ﴿ألم تَرَوْا أن الله سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأَسْبَغَ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنةً﴾ (سورة لقمان، ٢٠/٣١)؛ وقوله: ﴿وسخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه﴾ (سورة الجاثية، ١٣/٤٥).
[٧] ك ع + نوح.
[٨] ع م – زمن.
[٩] ع م: لكنا نشهد.
[١٠] ع: إلا بخير.
[١١] ع: من حكمة.
[١٢] ك ن ع: وإلا لأهلك؛ م – وإلا لأهلك.
[١٣] م: تكذيب.
[١٤] م – عنهم.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[٢٠]

وقوله: **ويقولون لولا أُنزِل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله**، جوابه -والله أعلم- ما ذكر: وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ،[١] أن لا يعذّب هذه الأمة بتكذيبهم[٢] الآيات عند سؤالها وإلّا لَعُذِّبتم أنتم كما عُذِّبت الأمم الخالية بتكذيبهم الآيات عند السؤال.

وقوله عز وجل: **فقل إنما الغيب لله**، أي إنكم تعلمون أن علم الغيب لله. وقد أنزل من الآيات ما يبيّن ويدل على رسالتي.

وقوله: **فانتظروا إني معكم من المنتظرين**، قيل:[٣] انتظروا هلاكي، إني منتظر[٤] هلاككم. لأنهم كانوا يُوعِدونه الهلاك. وقيل: انتظروا مواعيد الشيطان، إني منتظر[٥] مواعيد الله. وهو حرف وعيد. *والله أعلم.*

﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[٢١]

وقوله: **وإذا أذقنا الناس رحمة مِن بَعد ضرّاء مسّتهم إذا لهم مكر في آياتنا**، قال أهل التأويل: **أذقنا الناس**، يعني أهل مكة. إذا أصابهم سَعة وفرح ونجاة مما يخافون عادوا إلى ما كانوا من التكذيب وعبادة الأصنام. ولكن [يشمل] أهل مكة وغيرهم. إنهم إذا أَيِسوا[٦] عما يعبدون من الأصنام[٧] والأوثان فَزِعوا إلى الله ويخلصون له الدين؛ كقوله: فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ،[٨] الآية، وقوله: وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا،[٩] الآية،[١٠]

---

[١] الآية السابقة.

[٢] م: بتكذيب.

[٣] م: وقيل.

[٤] ع: منتظرين.

[٥] م + في.

[٦] ك: إذ أيسوا.

[٧] م: يعبدون الأصنام.

[٨] ﴿فإذا ركبوا في الفُلْك دَعَوُا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٦٥).

[٩] ﴿وإذا مسّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لِجَنْبِه أو قاعدا أو قائما فلمّا كشفنا عنه ضُرَّه مر كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسَّه كذلك زُيِّنَ للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ (سورة يونس، ١٠/١٢).

[١٠] م - الآية.

وقوله: وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ،[1] الآية، وغير ذلك من الآيات مما يكثر عددها. كانت عادتهم الفزع إلى الله عند إصابتهم الشدائد والبلايا لِعلمهم أن الأصنام التي كانوا يعبدونها لا يدفعون عنهم ذلك.

وقوله عز وجل: **إذا لهم مكرٌ في آياتنا،** المكر في الآيات تكذيبها وردّها. فيشبه أن يكون الآية هاهنا محمدا. كان هو[2] من أول أمره[3] إلى آخره آية. فمكروا به لما همّوا بقتله غير مرة، كقوله: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا،[4] الآية. ويحتمل سائر الآيات والحجج. مكروا فيها، أي كذّبوها وردّوها.

قل الله أسرع مكرا، المكر الأخذ مِن غير أن يعلم هو به. يقول: **الله أسرع** أخذا. يأخذكم وأنتم لا تعلمون به. ولا تَقدِرون أن تأخذوا رسول الله وتمكروا[5] به إلا وهو يعلم بذلك. فهو[6] أسرع أخذا منكم.

إن رسلنا يكتبون ما تمكرون، فهم الحَفَظة. ويحتمل قوله: **قل الله أسرع مكرا،** أي أسرع لجزاء المكر منكم. أو أسرع أخذا[7] من حيث لا تعلمون أنتم. وقال بعض أهل اللغة: المكر بالآيات هو الردّ والجحود لها، وقال بعضهم: استهزاء بها، فهو واحد. ***والله أعلم.***

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[٢٢]

وقوله عز وجل: **هو الذي يُسَيِّركم في البر والبحر،** اختلف فيه. قال بعضهم: قوله: **هو الذي يُسَيِّركم،** أي هو الذي سخّر لكم ما به تَسِيرون[8] في البر والبحر. وهو الدوابّ والسُّفُن التي يُقطَع بها البراري والبحار. وهو كقوله: لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ.[9]

---

[1] ﴿وإذا مسّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون﴾ (سورة الروم، ٣٠/٣٣).

[2] م – هو.

[3] ك: الأمر.

[4] ﴿وإذ يَمْكُرُ بك الذين كفروا لِيُثْبِتُوك أو يَقتلوك أو يُخرجوك ويَمْكُرُون ويَمْكُر الله والله خير الماكرين﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٠).

[5] م: ويمكروا.

[6] م: وهو.

[7] ع: أخذ.

[8] ع: يسرون.

[9] ﴿وجَعَل لكم من الفُلْكِ والأنعام ما تركبون. لِتَسْتَوُوا على ظهوره ثم تَذْكُروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مُقْرِنِين﴾ (سورة الزخرف، ٤٣/١٢-١٣).

وقيل: قوله:[١] **هو الذي يُسَيِّركم في البر والبحر**، أي سخر لكم البر والبحر[٢] وهما[٣] مكانا[٤] الخوف والهلاك. أي حَفِظكم فيهما[٥] حتى قضيتم فيهما حوائجكم. وليس في وُسع الخلق حفظ البراري والبحار عما فيهما من الأهوال. فتولّى الله بفضله حفظ السائرين فيهما حتى قَضَوا فيهما حوائجهم. وهو كقوله: وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا،[٦] إلى آخر ما ذكر من أنواع[٧] المنافع. فلو لا أنّ الله سخر لهم ذلك وحَفِظهم فيه وإلّا لم يكن في وُسعهم[٨] القيام بذلك وحِفظُ أنفسهم فيه من الأهوال التي فيه. يُذَكِّرهم نعمه ومِنَنَه التي أنعمها عليهم[٩] لِيُوجِّهوا شكر نعمه إليه.

ثم قوله:[١٠] **يُسَيِّركم في البر والبحر**، يحتمل يخلق وينشئ سَيْرَكم في البر والبحر. وهو كقوله: وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ،[١١] الآية. والتقدير هو التخليق.[١٢] والمقدَّر المخلوق. ففيه دلالة خلق أفعال الخلق؛ لأن السير هو فعل / الخلق، أضافه إلى نفسه. دلّ أنه منشئ فعلِهم. ***والله أعلم***. [٣٢٧ظ]

ويشبه أن يكون قوله: **هو الذي يُسَيِّركم في البر والبحر**، لم يرد به[١٣] البر والبحر نفسه. ولكنه أراد تذكير نعمه عليهم في كل حال وكل وقت ليشكروا له في كل حال. وهو كقوله: ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ،[١٤] لم يُرِد به البر والبحر أنفسهما،[١٥] ولكن أراد المكان الذي فيه المياه والمكان الذي لا مياه فيه. أي ظهر الفساد في الأماكن كلها. فعلى ذلك الأول، يُذَكِّرهم نعمه التي أنعمها عليهم في الأماكن كلها والأحوال جميعا. ***والله أعلم***.

---

[١] م – قوله.
[٢] ن – أي سخر لكم البر والبحر.
[٣] م: وهو.
[٤] ن: مكان.
[٥] م: فيها.
[٦] ﴿وترى الفلك مَوَاخِرَ فيه ولِتَبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ (سورة النحل، ١٦/١٤).
[٧] م: ذكر أنواع.
[٨] م: في وسعه.
[٩] ع م – عليهم.
[١٠] ع: وقوله.
[١١] ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرىً ظاهرةً وقدّرنا فيها السَّيْر سِيرُوا فيها لياليَ وأياما آمنين﴾ (سورة سبأ، ٣٤/١٨).
[١٢] ع: التخلق.
[١٣] ك: لم به.
[١٤] سورة الروم، ٣٠/٤١.
[١٥] ع: أنفسه ما.

وقوله عز وجل: **حتى إذا كنتم في الفُلْك**، أي ركبتم الفُلْك. **وجَرَيْن بهم بريح طيبة**، أي تجري[١] بهم السفن بريح طيبة. يخبر أن السفن ليست تجري في البحار بجريان الماء، لأن ماءها راكد[٢] في الظاهر، ولكن[٣] الريح هي التي[٤] تُجرِيها وتُسَيِّرها. وكذلك الأمواج التي تكون فيها ليست لشدة جريان الماء، ولكن[٥] الريح هي التي تُهيج الأمواج وتُزعجها لا نفس[٦] الماء. **وفرحوا بها**، قيل: **فرحوا بها**: سُرُّوا بها. ويحتمل **فرحوا بها**، أي بَطِروا بها وأَشِروا.

وقوله عز وجل: **جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان**، أخبر أنّ مِن الريح[٧] ما هي[٨] طيبة[٩] تجري بها السفن، ومنها ما هي عاصفة قاصفة تكسر وتفرّق السفن، وتُهلك أهلها، لِيُعلَم أن الأشياء تُصلِح مرة[١٠] وتُفسِد تارة لا لأنفسها ولكن لحفظ الحدود فيها. وكذلك النار تُحرق مرة[١١] وتُفسد، ومرةً تُصلح. وذلك لحفظ الحدود[١٢] فيها. وكذلك الماء مرة يُصلح ومرة يُفسد. وذلك إذا حُفظ فيه[١٣] الحدُّ أَصلح[١٤] وإن لم يُحفَظ أفسد.[١٥] وإلّا لا[١٦] يحتمل الشيء الواحد لنفسه يُصلح مرة ويُفسد تارة، ولكن لحفظ الحدود فيه.[١٧] *والله أعلم*.

---

[١] ك: أي يجري.
[٢] ك - راكد.
[٣] م: لكن.
[٤] ع - هي التي.
[٥] ك: لكن.
[٦] ك ن: لا بنفس؛ ع: إلا نفس.
[٧] ن ع م: أن الريح.
[٨] ع م: اما هي.
[٩] ع م + هي.
[١٠] ك: تارة.
[١١] م: تارة.
[١٢] م - الحدود.
[١٣] ن: فيها؛ م: في.
[١٤] ع: وأصلح.
[١٥] جميع النسخ: أفسده.
[١٦] ن: وإلا لا لا.
[١٧] قال الشارح: «...فيدل أنّ غيرًا يحفظ الحدّ فيها على ما يرى من المصلحة والحكمة، فيدل على إثبات صانع حكيم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٦٨و).

وقوله عز وجل: **وظنّوا أنهم أُحيط بهم**، قيل: أيقنوا أنهم مُهلَكون. ولكن الإيقان بالشيء الذي يصيب[١] في حادث الأوقات إنما يكون بالخبر [الصادق].[٢] لأنه لا يُدرَى[٣] لعل الله[٤] يصرف ذلك عنهم، فلا يقع به الإيقان. ولكن جُعِل غالبُ الظن[٥] في كثير من الأشياء كالإيقان به. ألا ترى أن الله أباح الميتة في حال الضرورة لغالب[٦] الظن. إذ قد يجوز أن لا يَهلك بذلك. وكذلك[٧] ما أُبيح للمكرَه بالقتل أن[٨] يُجري كلمةَ الكفر على لسانه لغالب الظن. وإلا ليس يَعلم بالإحاطة أنه يَقتله لا محالة. لكن جُعل لغالب الظن في بعض المواضع حُكمُ اليقين والإحاطة. فعلى ذلك قولهم: أيقنوا أنهم أحيط بهم، لغالب الظن به.[٩]

وقوله[١٠] عز وجل: **دَعَوا الله مخلصين له الدين**. إنهم لمّا أَيِسوا عن الأصنام التي عبدوها في دفع ما حلّ بهم عنهم فَزِعوا إلى الله وأخلصوا الدعاء له وقالوا: **لئن أنجيتنا من هذه لنكوننّ من الشاكرين**.

﴿فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢٣]

ثم أخبر عن سفههم[١١] بعودهم إلى ما كانوا من قبل: **فلما أنجاهم إذا هم يَبْغُون في الأرض بغير الحق**. وهكذا كانت عادتهم. كانوا يفزعون إلى الله عند[١٢] خوف الهلاك والإياس[١٣] عن آلهتهم التي عبدوها ويخلصون الدعاء له،[١٤] فإذا كشف ذلك الكرب عنهم ودفع عادوا إلى ما كانوا عليه[١٥] من قبل. والبغي في الأرض هو الفساد فيها.

---

[١] جميع النسخ + به.
[٢] من *الشرح* ورقة ٣٦٨و.
[٣] م: لا ندري.
[٤] ك – الله.
[٥] جميع النسخ + فيه.
[٦] ن: للغالب.
[٧] ع م: وكذا.
[٨] ك: أني.
[٩] ك – به.
[١٠] ن: قوله.
[١١] م: عن بسفههم.
[١٢] ك: إلى عند.
[١٣] م: والايس.
[١٤] م – له.
[١٥] ك ع م – عليه.

وقوله[1] عز وجل: **يا أيها الناس إنما بَغْيُكم على أنفسكم متاعَ الحياة الدنيا**، يحتمل قوله: **على أنفسكم**، أي بعضكم على بعض. ويحتمل **على أنفسكم**، أي حاصل بَغيِكم يرجع على أنفسكم. والبغي هو الظلم. فإن كان التأويل من قوله: **إنما بَغْيُكم على أنفسكم**، أي حاصل بَغيِكم يرجع على أنفسكم[2] في العاقبة، فيكون الوعيد لهم في ذلك بعينه. وإن كان التأويل: مِن أنفسكم[3] بعضكم على بعض، فيكون الوعيد في قوله: **ثم إلينا مرجعكم**.

وقوله عز وجل: **ثم إلينا مرجعكم فننبّئكم بما كنتم تعملون**، هذا قد ذكرنا.[4] وهو حرف وعيد. *والله أعلم*.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٤]

وقوله عز وجل: **إنما مَثَل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض**، الآية، قيل[5] في ضَرْب مَثَل الحياة الدنيا[6] بالزرع الذي ذكر بوجوه. قال بعضهم: قوله: **إنما مَثَل الحياة الدنيا**، في سرعة فنائها وانقطاعها ووَحْيَة[7] زوالها مثل ذلك الزرع الذي ذكر في سرعة هلاكه وانقطاعه وزواله عن صاحبه. أو أنْ يُقال: **إنما مَثَل الحياة الدنيا**، فيما يُسَرّ [بها] ويُبتهَج[8] مَثَلُ صاحب الزرع الذي ذكر[9] فيما سرّ به[10] وابتهج ثم كان ما ذكر **كأنْ لم تَغْنَ بالأمس**. وقال بعضهم: **إنما مَثَل الحياة الدنيا**، فيما ينفقون فيها للحياة الدنيا[11]

---

[1] ن: قوله.

[2] ن + والبغي هو الظلم فإن كان التأويل من قوله إنما بغيكم على أنفسكم أي حاصل بغيكم يرجع على أنفسكم؛ م: إلى أنفسكم.

[3] م: التأويل أنفسكم.

[4] انظر تفسير الآية من سورة المائدة، ٥/١٠٥؛ وسورة التوبة، ٩/١٠٥.

[5] م – قيل.

[6] ن ع – الدنيا.

[7] الوَحَى: العجلة والإسراع. ووَحَى وتَوَحَّى: أسرع. وشيء وَحِي: عَجِل مُسرِع. ووَحَّاه تَوْحِيَة: عَجَّله (*لسان العرب* لابن منظور، «وحى»).

[8] ع م: ويتهيج.

[9] ع – ذكر.

[10] ع: شربه.

[11] جميع النسخ: للحياة الدنيا فيما ينفقون فيها.

مَثَلُ صاحب الزرع الذي ذكر ينفق عليه لِما يَأْمُل من المنافع ويطمع منه ثم كان ما ذكر.[١] ولو عَلم في الابتداء أنّ أَمْرَ زرعِه يئول ويصير إلى ما صار لكان لا ينفق. فعلى ذلك صاحب الحياة الدنيا لو علم أن عاقبة أمر نفقته تصير حسرة عليه وندامة ما أنفق. كما أن صاحب الزرع الذي ذكر وبَلّغ المَبْلَغ الذي ذكر[٢] لو عَلم أن عاقبته كما كان ما أنفق عليه. أو لو علم[٣] أنه لا ينتفع به ما أنفق تلك النفقة، أي لو[٤] علم أن سروره وابتهاجه به[٥] لا يبقى ولا يدوم إلى آخره ما تكلّف ذلك. أو لو علم أنها تزول عنه وتنقطع عن تلك السرعة ما أنفق ذلك وما تكلّف الذي تكلّف.[٦] ويحتمل ضَرْب مَثَل الحياة الدنيا بما ذكر من النبات وجهين. أحدهما يخبر عن سرعة زوالها وانقطاعها كالنبات الذي ذكر أنه يتسارع إلى الزوال والانقطاع لما يصيبه من الآفة، فعلى ذلك الدنيا. والثاني يخبر عن تغيّرها[٧] وانقلاب أمرها[٨] كالنبات الذي يتغيّر في أدنى مدة ووقت.

وقوله عز وجل: **حتى إذا أخذت الأرض زُخْرُفَها**، قيل: حُسْنَها، **وازَّيَّنت**،[٩] وحَسُنَت، فأنبتت من ألوان النبات. وقال أبو عَوْسَجَة: **زخرفها**: زينتها من النَّبْت. و **حَصِيدًا**، / أي محصودا كما [٣٢٨و]
يُحصَد الحَصَاد. والحصاد:[١٠] الزرع. **كأنْ لم تَغْنَ**، أي لم تَعِش. والمَغَاني هي[١١] المواضع التي يَعيش فيها[١٢] الناس. قال: وواحد المَغَانِي مَغْنَىً. وقال القُتَبي: وأصل الزُّخرُف الذهب. يقال للنَّقْش والزَهْر[١٣] وكل شيء زُيِّن [به]: زُخْرُف.[١٤] وقال: **كأنْ لم تَغْنَ بالأمس**، والمَغَاني المنازل، واحدها مَغْنَىً.

---

[١] ع م – ما ذكر.
[٢] ع م – وبلغ المبلغ الذي ذكر.
[٣] ع: لم علم.
[٤] ن: التي لو.
[٥] ن – به.
[٦] ع م – الذي تكلف.
[٧] ن: عن تغييرها.
[٨] ع م – كالنبات الذي ذكر أنه يتسارع إلى الزوال والانقطاع لما يصيبه من الآفة فعلى ذلك الدنيا والثاني يخبر عن تغيرها وانقلاب أمرها.
[٩] ع م – قيل حسنها وازينت.
[١٠] ع م – والحصاد.
[١١] م: هو.
[١٢] ن ع م: منها.
[١٣] جميع النسخ: والذهبة. والتصحيح من *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٩٥.
[١٤] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٩٥.

وقال بعضهم: **كأنْ لم تَغْنَ بالأمس**، أي لم تَنْعَم. وقيل: لم تُعمَر.[1] وقال بعضهم: هو من الغِنَى، أي كأن لم تكن غنيًا بالأمس. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وظنّ أهلُها أنهم قادرون عليها**، أي ظنّ أهلُ الدنيا فيما ينفقون أنهم قادرون على تلك النفقة كما ظنّ[2] صاحب الزرع أنه قادر على ذلك الزرع.

وقوله: **أتاها أمرُنا**، قيل: عذابنا. سُمّي أمرا لأنه بأمره أتاه. وفيه أنه لم يأته عن غفلة وسهو ولكن عن علمٍ وأمرٍ عِظَةً لهم وتنبيها. ألا ترى أنه قال: **كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون**، كأن الآيات في هذا الموضع المواعظ. أي فيما[3] ذكر مِن ضَرْب مَثَل الحياة الدنيا[4] بالنبات والزرع الذي ذكر عِظَةً وتنبيهً لمن تفكّر فيه. *والله أعلم*.

﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[٢٥]

وقوله عز وجل: **والله يدعو إلى دار السلام**، اختلف فيه. قيل:[5] الجنة. والسلام: الله، أضافها إلى نفسه، كقوله: وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ،[6] فأضاف الجنة إلى السلام. إن كان **دار السلام** هي الجنة فهو -والله أعلم- لأن المساجد هي أمكنة يقام فيها القُرَب، والجنة هي مكان اللذة وقضاء الشهوة. فأضافها إلى السلام لِما يَسلَم أهلُها عن جميع الآفات. والمساجد خُصَّت بالإضافة إلى الله لأنها أمكنة يقام فيها القُرَب. وقال بعضهم: **دار السلام**: الإسلام. ثم يحتمل كل واحد من التأويلين وجهين بما سمى الإسلام دار السلام والجنة كذلك. سمى الإسلام **دار السلام** لأنه يَأمَن[7] ويَسلَم كل من دخل فيه عن جميع الأهوال والآفات التي تكون. والثاني سمى الإسلام دار **السلام**.[8] أضاف إلى نفسه، كقوله: أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ،[9] الآية.[10] أخبر أنه على نور من ربه. فعلى ذلك إضافة الإسلام إليه. ومن قال: **دار السلام**: الجنة،

---

[1] ن ع: لو تعمر.
[2] ع م – ظن.
[3] ك ن: أن فيما.
[4] ن – الدنيا.
[5] ن: قال. أي قيل: دار السلام هي الجنة.
[6] سورة الجن، ١٨/٧٢.
[7] ن: لأنه لا يأمن.
[8] ك ن ع: سمي السلام الدار الإسلام.
[9] ﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾ (سورة الزمر، ٢٢/٣٩).
[10] ن – الآية.

سمى دار السلام لأن كل من دخل الجنة سَلِم وأَمِن عن الأهوال كلها والآفات جميعا. والثاني الدار:[١] الجنة، والسلام: الله. أضاف[ها] إليه[٢] لأنها دار أوليائه. وقد يضاف[٣] [الشيء] إلى الله على إرادة أوليائه. **والله أعلم**. وروي في بعض الأخبار عن أبي قِلَابَة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قيل لي: لِتَنَمْ عينُك[٤] وليَعقِلْ قلبُك ولتسمعْ[٥] أذنُك. فنامت عيني وعقل قلبي وسمعت أذني. ثم قيل لي:[٦] سيدٌ بَنَى دارا[٧] وجعل مَأْدُبَة[٨] وأرسل داعيا. فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المَأْدُبَة[٩] ورضي[١٠] عنه السيد. ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار و لم يأكل من المَأْدُبَة[١١] و لم يرض عنه السيد. فالله[١٢] السيد، والدار الإسلام، والمَأْدُبَة[١٣] الجنة، والداعي محمد صلى الله عليه وسلم».[١٤] إن ثبت هذا الخبر ففيه أن الدار الإسلام على ما قاله بعض أهل التأويل. وفي خبر[١٥] آخر عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فقال: «رأيت في المنام كأن[١٦] جبريل عند رأسي وميكائيل[١٧] عند رجلي. قال أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا. قال: اسْمَعْ سَمِعَتْ أذنُك، واعْقِلْ عَقَلَ قلبُك. إنما مَثَلك ومَثَل أمتك كمَثَل مَلِك اتخذ دارا. ثم بنى فيها بنيانا فأتمّ. ثم جعل فيها مائدة.[١٨] ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه. فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه. فالله المَلِك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول.

---

[١] جميع النسخ: دار.
[٢] ع: إليها.
[٣] ك: تضاف.
[٤] م: أنتم عبيد.
[٥] جميع النسخ: وليسمع.
[٦] ن – لي.
[٧] ن ع: دار.
[٨] ن ع م: مائدة.
[٩] ن ع م: من المائدة.
[١٠] ن: رضي.
[١١] ن ع م: من المائدة.
[١٢] ن: والله.
[١٣] ن ع م: والمائدة.
[١٤] *سنن الدارمي*، المقدمة ٤؛ و*تفسير الطبري*، ١١/١٠٣-١٠٤.
[١٥] ع م: في خبر.
[١٦] ك + عند؛ م: وكان.
[١٧] ن: وميكائل.
[١٨] ك: مادبه؛ ن: مائدة.

من أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها».[1] هذا[2] يدل أيضا –إن ثبت– أن الدار التي ذكر في الآية هو الإسلام. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **والله يدعو إلى دار السلام**، الآية، ذكر الاستثناء في الهداية،[3] و لم يذكر في الدعاء لِيُعلَم أن لا[4] كل من يدعو[5] إلى دار السلام يهديه. وإنما يهدي[6] من يعلم منه أنه يختار الهُدَى. وذلك على القَدَرِيّة. ثم الهُدَى على وجوه ثلاثة. أحدها الدعاء، كقوله: وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ.[7] والثاني هو البيان، كقوله: هُدًى وَرَحْمَةً[8] يعني القرآن. والثالث التوفيق والعصمة. إذا وُفّق اهتدى. والهُدَى هاهنا هو[9] التوفيق.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢٦]

وقوله عز وجل: **للذين أحسنوا الحُسْنَى وزيادة**، اختلف فيه. قال بعضهم: **للذين أحسنوا**، في الدنيا لهم **الحسنى**، في الآخرة جزاءَ ذلك الإحسان. وهي الجنة. سمى الجنة الحسنى لأنها جزاء الإحسان،

---

[1] *سنن الترمذي*، الأدب ٧٦. وقال الترمذي عقب رواية الحديث: «وقد رُوي هذا الحديث من غير وجه عن النبي صلى الله عليه وسلم بإسناد أصحّ من هذا... هذا حديث مرسل. سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله. وفي الباب عن ابن مسعود». وقد رواه البخاري بلفظ آخر: «جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: إن لصاحبكم هذا مَثَلا، فاضربوا له مَثَلا. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: مَثَله كمَثَل رجل بنى دارا وجعل فيها مَأْدُبَة وبعث داعيا. فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المَأْدُبَة. ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المَأْدُبَة. فقالوا: أَوِّلُوها له يَفقهها. فقال بعضهم: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. فقالوا: فالدار الجنة، والداعي محمد صلى الله عليه وسلم. فمن أطاع محمدا صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله. ومن عصى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله. ومحمد صلى الله عليه وسلم فَرْقٌ بين الناس» (*صحيح البخاري*، الاعتصام ٢).

[2] ع م – هذا.

[3] والاستثناء هو قوله: ﴿من يشاء﴾ في الآية.

[4] ك: ليعلم لا؛ ن ع: ليعلم الا.

[5] ع م: من يدعوا.

[6] جميع النسخ: يهديه.

[7] سورة الرعد، ٧/١٣.

[8] ورد ذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ولقد جئناهم بكتابٍ فصّلناه على علمٍ هدى ورحمةً لقوم يؤمنون﴾ (سورة الأعراف، ٥٢/٧). وانظر: سورة الأنعام، ١٥٧/٦؛ وسورة الأعراف، ٢٠٣/٧؛ وسورة يونس، ٥٧/١٠ وغير ذلك.

[9] ك م – هو.

كما سمى النار السُّوءَى، [كقوله: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ،][1] [و] كقوله: أَسَاءُوا السُّوءَى؛[2] لأنها[3] جزاء[4] السوء. **وزيادة،** قيل: محبة[5] في قلوب العباد، يحبه كل محسن، وهيبةٌ له في قلوب الناس، يهابه كل أحد على غير سلطانٍ له ولا يَد.[6] وقال قائلون: قوله: **للذين أحسنوا الحُسْنَىٰ وزيادة،** أي مِثْلُ تلك الحسنة وزيادة التضعيف حتى تكون عشرا أو سبعمائة[7] وما شاء الله. يدل على ذلك قوله: وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا.[8] وقال قائلون:[9] الزيادة: الرؤيةُ، رؤيةُ[10] الرب والنظر [إليه]، كقوله تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ.[11] وقال قائلون: الزيادة هو[12] قبول حسناته مع ما فيها من الخلط بالسيئات، / يَقبل حسناته بفضله وإن كانت [٣٢٨ظ] تشوبها السيئات، ورِضاه منه. وذلك طريقة الفضل والإحسان؛ إذ قد سبق من الله تعالى إليه[13] من النعم ما لا يقدر القيامَ على وفاءِ نعمةٍ منها طولَ عمره. وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة، لها أربعة أبواب.[14] فلا ندري ما الزيادة التي ذكرها عز وجل في الآية إلا بالخبر عن الله. وقال قائلون: الحُسْنَىٰ ما تقدّرها[15] العقول وتدركها وتصوّرها الأوهام، وأما الزيادة فهي التي لا تقدّرها[16] العقول ولا تدركها ولا تصوّرها الأوهام،

[1] سورة الرحمن، ٥٥/٦٠. وقد وقع ما بين المعقوفتين في جميع النسخ بعد قول المؤلف: السوء، في آخر الجملة.
[2] ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوءَى أنْ كَذَّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ (سورة الروم، ٣٠/١٠).
[3] ن – ذلك الإحسان وهي الجنة سمي الجنة الحسنى لأنها جزاء الإحسان كما سمي النار السوءى كقوله أساءوا السوءى لأنها، صح هـ.
[4] ن – جزاء.
[5] جميع النسخ: المحبة.
[6] ع م: ولابد.
[7] ك ن ع: وسبعمائة.
[8] الآية التالية.
[9] ع م + قوله.
[10] ن: رؤيته.
[11] سورة القيامة، ٧٥/٢٢-٢٣. روي عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى منادٍ: إن لكم عند الله موعدا. قالوا: ألم يُبيِّض وجوهَنا ويُنجِنا من النار ويُدخلنا الجنة؟ قالوا: بلى. -قال- فينكشف الحجاب -قال- فوالله ما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه» (*صحيح مسلم*، الإيمان ٢٩٧؛ وسنن *ابن ماجة* المقدمة ١٣؛ وسنن *الترمذي*، التفسير ١٠).
[12] م – هو.
[13] ع م – من الله تعالى إليه.
[14] *تفسير الطبري*، ١١/١٠٧؛ *والدر المنثور* للسيوطي، ٤/٣٥٨.
[15] جميع النسخ: ما يقدره.
[16] ن: لا تدركها.

كقوله صلى الله عليه وسلم: «ما لا[1] عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر».[2]

وقوله عز وجل: **ولا يَرْهَق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلة**، قيل: لا يَغشى وجوههم الغبار[3] والرَّهَج على ما وصف وجوه أهل النار، وهو قوله: وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ،[4] ولكن على ما وصف وجوه أهل الجنة بقوله: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ.[5] وذلك -والله أعلم- آثار إحسانهم الذي[6] أحسنوا في الدنيا ولِما لم يروا النعم التي كانت لهم مِن سواه ولم يصرفوا شكرها إلى غيره. والغَبَرَة والقَتَرَة التي ذكر لأهل النار هي آثار السيئات التي عملوها في الدنيا من عبادتهم دون الله وصَرْفِهم شكر النعم إلى غيره ونحو[7] ذلك من صنيعهم الذي صنعوا في الدنيا. *والله أعلم*. **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.**

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢٧]

وقوله: **والذين كسبوا السيئات جزاءُ سيئةٍ بمثلها، جزاءُ سيئةٍ** مما يوجبه الحكمة أن يُجزَى بمثلها. وأما جزاء الإحسان والخير طريق وجوبه الإفضال والإحسان، ليس طريق وجوبه الحكمة؛ إذ سبق[8] من الله إلى كل أحد من النعم ما ليس في وسعه القيامُ بمكافأة واحدة منها عمرَه[9] وإن طال واجتهد كل جهده فَضْلاً أن يستوجب قِبَلَه جزاءَ ما كان منه من الخيرات.

وقوله: **وتَرْهَقهم ذلة**، هو ما ذكرنا من آثار السيئات التي عملوها في الدنيا ذُلًّا وهَوَانا لهم. **ما لهم من الله من عاصم**، وذلك أنهم -والله أعلم- كانوا يعبدون الأصنام رجاءَ أن يكونوا شفعاءَ لهم[10] عند الله،

---

[1] ك: ما الا.

[2] «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (صحيح *البخاري*، التفسير ٣٢/١؛ وصحيح *مسلم*، الجنة ٢).

[3] م: النار. الرَّهْج والرَّهَج: الغبار (*لسان العرب* لابن منظور، «رهج»).

[4] سورة عبس، ٨٠/٤٠-٤١.

[5] سورة عبس، ٨٠/٣٨-٣٩.

[6] جميع النسخ: التي.

[7] ع م: نحو.

[8] م: إذا سبق.

[9] ع: عمرة.

[10] ن ع م: لهم شفعاء.

فأخبر أنْ ليس لهم من عذاب الله[1] مانع يمنع ذلك[2] عنهم، كقولهم: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّٰهِ.[3]

وقوله عز وجل: **كأنما أُغْشِيَتْ وجوهُهم**، قيل: أُلبِست وأُغطِيت، **قِطَعًا**: مُثقّلا، ومخفّفا: قِطْعا.[4] قيل: القِطَع بالتثقيل هو جمع القِطْعة. والقِطْع بالتخفيف جزء من الليل. يقال: سِرْنا بقِطْع من الليل، أي بجزء من الليل. وقوله: فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ،[5] أي بجزء منه. *والله أعلم*. ثم شبه وجوههم بظلمة الليل و لم يشبّه بسواد الوجوه على ما يكون من سواد الوجوه[6] في الدنيا. فذلك -والله أعلم- أن سواد الوجوه على ما يكون في الدنيا لا يبلغ من القبح غايتَه؛ إذ قد يَرغَب مَن كان جنسه ونوعه في ذلك، ويَحسُن ذلك عنده. فإذا كانت الرغبة قد تقع[7] لبعضهم في بعض لم يبلغ في القبح نهايته.[8] وأما ظلمة الليل فإن الطباع تنفر عنها ولا تقع الرغبة فيها بحال. لذلك شبه وجوه أهل النار بها. *والله أعلم*.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾[٢٨]

ويوم نحشرهم جميعا، قال أهل التأويل: يعني العابد والمعبود الذي[9] عبدوا[10] دونه. ولكن [معناه عندنا] نحشر الخلائق جميعا. **ثم نقول للذين أشركوا مَكانَكم أنتم وشركاؤكم**. وقوله عز وجل: **مَكانَكم أنتم وشركاؤكم**، هذا الحرف هو حرف وعيد. يقال: مَكانَكَ أنت كذا. وإن[11] كان هذا الحرف يجوز أن يُستعمل في الكرامات وبِرّ[12] بعضهم[13] بعضا

---

[1] ن: من الله.

[2] م - ذلك.

[3] سورة يونس، ١٨/١٠.

[4] قرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب بإسكان الطاء، وقرأ الباقون بفتحها. انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

[5] ن - وقوله فأسر بأهلك بقطع من الليل. وانظر: سورة هود، ٨١/١١؛ وسورة الحجر، ٦٥/١٥.

[6] ع - على ما يكون من سواد الوجوه.

[7] ن: قد تنعع.

[8] م: غايته.

[9] ن ع م: الذين.

[10] ع - عبدوا.

[11] م: أو إن.

[12] م: دبر.

[13] ع: وبعضهم.

ولكن إنما يُعرَف ذا مِن ذا بالمقدِمات. فما تقدّم هاهنا يدل أنه لم يرد به الكرامة، ولكن أراد به الوعيد. **والله أعلم**.

وقوله عز وجل: **فزَيَّلْنا بينهم**، قيل: فرّقنا بينهم وميّزنا[1] بينهم،[2] أي بين العابد والمعبود. ثم يحتمل التفريق بينهم وجوها. أحدها فرّقنا بينهم في الحساب مما عَمل ومما صَحِب.[3] والثاني يحتمل فرّقنا بينهم لِما طمعوا بعبادتهم إياها الشفاعة،[4] أن يكونوا لهم شفعاء عند الله. ففرّق بينهم في الشفاعة. ويحتمل فرّقنا بينهم فيما ضلّ عنهم ما كانوا يَفْتَرُون.[5] فصار ما عبدوا ترابا، وهم في النار.

وقوله عز وجل: **وقال شركاؤهم**، يحتمل قوله: **شركاؤهم**،[6] سماهم[7] شركاء وإن لم يكونوا شركاء في الحقيقة[8] لِما عندهم[9] أنهم شركاء. كما سمى الأصنام آلهة لِما عندهم أنها[10] آلهة. والثاني **شركاؤهم**، لِما أشركوها في العبادة فهم شركاؤهم. **والله أعلم**.

وقوله: **وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون**، يُنطِق الله عز وجل هذه الأصنام يوم القيامة وإن لم يكن في خِلقَتها النطق في الدنيا. كقوله: يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا،[11] وقوله: يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ،[12] الآية. أنطقهم ليشهدوا عليهم. وقوله:[13] **ما كنتم إيانا تعبدون**، يحتمل الملائكة أن يكونوا هم[14] الذين أنكروا؛ لأن منهم من يعبد[15] الملائكة.

---

[1] ع: وميزانا.

[2] م – وميزنا بينهم.

[3] قال الشارح السمرقندي: «يحتمل فرّقنا بينهم في وقت الحساب مع الكفرة [عندما يُسألون] ماذا عملتم، ولمن عملتم، ومن صحبتم في الدنيا؟ وهم صحبوا الأصنام وما عبدوهم، وقد عملوا لهم. فيفرّق بينهم وبين معبوديهم الذين عبدوهم في الدنيا في هذا الوقت» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٦٩و).

[4] ك: والشفاعة.

[5] يشير إلى قوله تعالى: ﴿هنالك تَبْلُو كل نفس ما أَسْلَفَتْ ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق وضَلّ عنهم ما كانوا يَفترون﴾ (سورة يونس، ٣٠/١٠).

[6] م – يحتمل قوله شركاؤهم.

[7] ع – سماهم.

[8] ك ن: في الحقيقة شركاء.

[9] ع: لما عندنا.

[10] م – أنها.

[11] سورة الزلزلة، ٤/٩٩.

[12] سورة النور، ٢٤/٢٤.

[13] ن ع م – وقوله.

[14] ع م: عليهم.

[15] ع: من يعبدوا.

أنكروا أن يكونوا عبدوهم،[١] لأن العبادة لآخر إنما تكون عبادة إذا كان من المعبود أمرٌ بها. وكانت عبادتهم الأصنام عبادةً للشيطان لأنه هو الآمر لهم بالعبادة للأصنام. كقوله: يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ.[٢] ولا أحد يقصد قَصْدَ عبادة الشيطان. لكنه لمّا كان الآمر لهم / بالعبادة [٣٢٩و]
للأصنام[٣] صار كأنهم عبدوه وإن لم يقصدوه بها. ويحتمل ما ذكر من الإنكار من الأصنام.

﴿فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾[٢٩]

وقوله عز وجل: **فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم**، أي كفى الله[٤] القاضي والحاكم بيننا وبينكم أنّا لم نأمركم[٥] بعبادتنا، وهو العالم بأنّا كنا عن عبادتكم[٦] إيّانا غافلين.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[٣٠]

وقوله عز وجل: **هنالك تَبْلُو كل نفس**، قيل: عند ذلك. وقيل: يومئذ، أي يوم القيامة. وقوله: **تبلو** وتتلو، بالباء والتاء.[٧] قيل:[٨] [تتلو، أي] تَقْرأ في الصحف ما كُتِب مِن أعمالهم. و **تبلو**، بالباء، من الابتلاء. يقال: بَلَوْتُه وابتليته واحد. وخَبَرْته واختبرته أيضا. وقيل: **تبلو**، تجد وتعلم كل نفس ما قدّمت من الأعمال. وقيل: تُجزَى كل نفس بما عملت. وقيل: تتلو،[٩] بالتاء أيضا: تتبع كل نفس ما قدّمت من الأعمال.[١٠] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق**، قيل: مَلِكِهم الحق. لأن غيره من الآلهة التي عبدوها قد يطل عنهم وضلّ في الآخرة. ويحتمل **ورُدُّوا إلى الله مولاهم الحق**، أي حقٌّ ما تجد كل نفس ما قدّمت من أعمالها. أو حقٌّ أن تَقرأ كل نفس ما عملت. **وضلّ عنهم ما كانوا يفترون**،

[١] م: يعبدونهم.
[٢] سورة مريم، ١٩/٤٤.
[٣] م: بالأصنام.
[٤] ك - الله.
[٥] ع: لم تأمركم.
[٦] جميع النسخ: بعبادتكم.
[٧] قرأ حمزة والكسائي وخلف بتاءين من التلاوة. وقرأ الباقون بالتاء والباء من البلوى. انظر: *النشر في القراءات العشر* لابن الجزري، ٢/٢٨٣.
[٨] ع م: وقيل.
[٩] ن: تبلوا.
[١٠] ع م - وقيل تجزى كل نفس بما عملت وقيل تتلو بالتاء أيضا تتبع كل نفس ما قدمت من الأعمال.

من العبادة للأصنام وقول الكفر. وقوله:[1] **وردُّوا إلى الله مولاهم الحق**، يحتمل وجهين.[2] أي رُدُّوا إلى ما[3] أَعَدّ لهم **مولاهم الحق**. والثاني أي رُدُّوا[4] إلى أمر **مولاهم الحق**، لا إلى أمر الأصنام التي كانوا يعبدونها.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[٣١]

وقوله عز وجل: **قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار**، الآية، يُحاجُهم -يعني أهل مكة- في التوحيد والربوبية. وكأن هذه السورة نزلت في محاجة أهل مكة في التوحيد،[5] لأنها مكية. وقوله عز وجل: **قل من يرزقكم من السماء والأرض**، أي من يدبر الرزق في السماء، ومن يدبّر في الأرض.[6] يحتمل وجهين. أي من ينزل[7] لكم الرزق من السماء، ومن يستخرج لكم الرزق من الأرض.[8] والثاني **من يرزقكم من السماء والأرض**، أي من يدبّر الرزق في السماء، ومن يدبر الرزق في الأرض. ولا أحد[9] يملك استنزال الرزق من السماء واستخراج الرزق من الأرض. وكذلك لا أحد يملك تدبيره في السماء والأرض سواه. ولا أحد[10] يملك إنشاء السمع والبصر. ولا أحد[11] أيضا يملك إخراج الحي من الميت ولا إخراج[12] الميت من الحي ولا تدبير الأمر. لا يعرفون[13] حقيقة ماهية[14] السمع والبصر ولا[15] كيفيتهما،[16]

[1] م - وقوله.
[2] م: الوجهين.
[3] ع م: ردوا ما.
[4] ن ع م: والثاني ردوا.
[5] ع م - والربوبية وكأن هذه السورة نزلت في محاجة أهل مكة في التوحيد.
[6] ك ن - أي من يدبر الرزق في السماء ومن يدبر في الأرض.
[7] م: من نزل.
[8] ع م - من الأرض.
[9] ك ن: لا أحد.
[10] ن: أحدا.
[11] ن: أحدا؛ م: لا أحد.
[12] ع م - الحي من الميت ولا إخراج.
[13] م: الأمر يعرفون.
[14] ك: مايية؛ ن: مائية؛ ع: مائيته.
[15] ن + ولا.
[16] م: يكتفيهما.

فكيف يملكون إنشاء السمع والبصر ونَصْبَهما. ولا يملك[١] أحد سواه إصلاح ما ذكر إذا فسد ذلك. فأقرّوا أنه لا يملك أحد[٢] سوى الله ذلك. وهو قولهم: **فسيقولون الله فقل أفلا تتقون**. يقول -والله أعلم- إذا عرفتم وأقررتم أنه لا يملك ما ذكر سواه وعرفتم أن له السلطان والقدرة على ذلك **أ فلا تتقون**[٣] بوائقه ونقمته. أو يقول: **أ فلا تتقون** عبادة غيره دونه وإشراكَ غيره في ألوهيته وربوبيته.[٤] أو يقول:[٥] **أ فلا تتقون**، صرف شكره إلى غيره وقد أقررتم أنه هو المنعم عليكم هذه النعم[٦] لا من تعبدون[٧] دونه. أو يقول -والله أعلم- إذا عرفتم ما ذكر[٨] **أ فلا تتقون** مخالفته وعصيانه. فإذا أقرّوا أن الذي[٩] يملك تدبير ما بين السماء والأرض هو[١٠] الذي له[١١] السماوات والأرض عرفوا الذي يستحق العبادة والقيام بشكره. فإذا ضيّعوا ذلك جمعهم عليه اسم الضلال. فذلك قوله: فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ.[١٢]

﴿فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[٣٢]

وقوله: **فذلكم الله ربكم الحق**، أي ذلكم الذي ذُكِر ربُّكم بالحجج والبراهين. **فماذا بعد الحق**، الذي هو حق بالحجج والبراهين، **إلا الضلال**؛ لأن ما لا حُجة[١٣] له ولا برهان فهو ضلال.[١٤] وقوله عز وجل: **فأنّى تُصرَفون**، عن عبادته إلى عبادة غيره. أو **فأنّى تُصرَفون**، عن شكر المنعم إلى شكر غير[١٥] المنعم.[١٦] أو يقول: فأنّى تَعدِلون من لا يملك ما ذكر بمن يملك. ***والله أعلم***.

[١] م: يملكون.
[٢] ع: إحدى.
[٣] ع م - يقول والله أعلم إذا عرفتم وأقررتم أنه لا يملك ما ذكر سواه وعرفتم أن له السلطان والقدرة على ذلك أفلا تتقون.
[٤] ك - أو يقول أفلا تتقون عبادة غيره دونه وإشراك غيره في ألوهيته وربوبيته.
[٥] م: أو يقولون.
[٦] ع م - النعم.
[٧] ع: من لا تعبدون.
[٨] ك: ذلك.
[٩] ن - أن الذي.
[١٠] ع م: وهو.
[١١] ع م + ملك.
[١٢] الآية التالية.
[١٣] جميع النسخ: لا حجج.
[١٤] م: الضلال.
[١٥] ن ع: إلى غير شكر؛ م: أي غير شكر.
[١٦] ن + إلى غير شكر المنعم.

﴿كَذٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٣٣]

وقوله: **كذلك حَقّت كلمة ربك**، حَقّت: وجبت. وقيل: **كذلك حَقّت كلمة ربك**،[١] على الذين خُتموا بالفسق، **أنهم**[٢] **لا يؤمنون**، أي لا ينتفعون بإيمانهم بعد ذلك.

وقوله: **كلمة ربك**، يحتمل[٣] وجهين. يحتمل[٤] **كلمة ربك**، مواعيد ربك، **على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون**؛ فإن كان على هذا فهو في قومٍ عَلِم الله أنهم لا يؤمنون. ويحتمل[٥] **كلمة ربك**، حجج ربك وبراهينه، **على الذين فسقوا**.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[٣٤]

وقوله: **قل هل من شركائكم من يَبدأ الخلق ثم يعيده**، قال عامة أهل التأويل: **ثم يعيده**، البعث بعد الموت. أي لا أحد من شركائكم الذين تعبدون يملك بَدْءَ الخلق ولا بعثه. وقال[٦] بعضهم: قوله: **ثم يعيده**، لا يحتمل البعث؛ لأنهم كانوا لا يُقِرّون[٧] بالبعث، فلا يحتمل الاحتجاج عليهم بذلك. ولكن[٨] قوله: **ثم يعيده**،[٩] ما سوى البشر؛ لأنهم إنما ينكرون[١٠] إعادة البشر، فأما إعادة غيره من الأشياء لا ينكرونه نحو إعادة الليل والنهار وإعادة الأَنْزال والنبات[١١] ونحو الأشياء التي يشاهدونها. أي ثم يعيد[١٢] مِثْلَه، الليلَ ليلا مثله، والنهارَ[١٣] نهارا مثله. وكذلك الخلائق تَفنَى ثم يعيد[١٤] مِثلَه. فإذا ثبت في غير البشر ثبت في البشر.

---

[١] ع – حقت وجبت وقيل كذلك حقت كلمة ربك.
[٢] ن: لأنهم.
[٣] ك: تحتمل.
[٤] ك: تحتمل.
[٥] ن ع م – كلمة ربك مواعيد ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون فإن كان على هذا فهو في قوم علم الله أنهم لا يؤمنون ويحتمل.
[٦] ع: قال.
[٧] ع: لا يقرؤن.
[٨] ع + ولكن.
[٩] ن + قال عامة أهل التأويل ثم يعيده البعث بعد الموت أي لا أحد من شركائكم الذين تعبدون يملك بدء الخلق ولا بعثه وقال بعضهم قوله ثم يعيده لا يحتمل.
[١٠] ن – ما سوى البشر لأنهم إنما ينكرون.
[١١] ع: والنباة.
[١٢] ع م: ثم يعيده.
[١٣] ع: والنها.
[١٤] ع: ثم يعيده.

ويحتمل الأمرين جميعا عندنا، البعثَ وأشياءَ مثله؛ لأنه تعليم منه لهم. ألا ترى أنه قال: **قل الله يَبدأ الخلق ثم يعيده فأنّى تُؤفكون**، قيل: تكذّبون بتوحيد الله وقد عرفتم أنه هو[1] بدأ الخلق ثم هو[2] يعيده، لا أحد يملك ذلك. ألا ترى أنه احتج[3] عليهم بما يلزمهم[4] ذلك بقوله: كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ،[5] الآية.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٣٥]

وقوله عز وجل: **قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق**، يحتمل قوله: **يهدي إلى الحق**، يدعو[6] إلى الحق. فإذا كان هؤلاء الأصنام التي تعبدونها[7] لا يملكون الدعاء إلى شيء فلا يملكون الضر والنفع. ومن الخلائق من لا يملك النفع والضر[8] ويملك الدعاء إلى خير أو إلى[9] نفع.[10] فهؤلاء دون الخلائق جميعا إذ لا يملكون الدعاء؛ فكيف يملكون النفع والضر؟[11] يبيّن / عز وجل [٣٢٩ظ] سَفَهَهم بعبادتهم هؤلاء الأصنام لعلمهم أنهم لا يملكون نفعا ولا ضرا. ويحتمل قوله: **من يهدي إلى الحق**، أي يبيّن ويقيم الدلائل والبراهين على استحقاق العبادة لهم. فإذا[12] لم يملكوا الدعاء إلى العبادة لهم فكيف يملكون نصب الدلائل والحجج على استحقاق العبادة؟

قل الله يهدي للحق، أخبر أن الله هو الذي يهدي للحق. ثم يحتمل الوجهين اللذين ذكرنا: هو يملك الدعاء إلى الحق ويقيم[13] الدلائل والحجج على ما دعا[14] إليه. وهو يستحق العبادة له والربوبية.

---

[1] ع – هو.
[2] م – هو.
[3] ك + به.
[4] جميع النسخ: ما يلزمهم.
[5] ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٨).
[6] ع: يدعوا.
[7] م + كيف.
[8] ع – ومن الخلائق من لا يملك النفع والضر.
[9] م: وإلى.
[10] ك: أو نفع.
[11] م: الضر والنفع.
[12] ع: وإذا.
[13] م: ويقيموا.
[14] ن ع م: ما دعاه.

أفمن يهدي إلى الحق، الذي يبيّن البراهين والحجج، **أَحَقُّ أن يُتَّبَعَ أم مَن لا يَهِدِّي**، أي لا يبيّن ولا يدعو، **إلا أن يُهْدَى**. فإن قيل: ما معنى[1] الاستثناء والصنم[2] وإن هُدِي لا يهتدي؟ قيل: يشبه أن يكون هذا صلة ما تقدم من قوله: مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ.[3] يُنْطِقهم الله عز وجل يوم القيامة، فيشهدون عليهم أنهم لم يأمروهم بالعبادة لهم ولا دَعَوْهم[4] لإشراكهم في العبادة. فيكون قوله: **إلا أن يُهْدَى**، لِما أنْ يجعلُهم الله بحيث يهتدون إذا هُدُوا، ويجيبون إذا دُعُوا. **فما لكم كيف تحكمون**، بالجور[5] وصرف العبادة والشكر إلى من لا يملك ما ذكر.[6]

وقوله عز وجل: **أم من لا يَهِدِّي إلا أن يُهْدَى**، قال بعضهم: **إلا أن يُهْدَى**، لا يحتمل الصنم والوثن الاهتداء وإن[7] هُدِي، ولكن المراد منه الإنسان. وقال بعضهم: **إلا أن يُهْدَى**، إلا أن يُحمَل الصنم ويُوضَع. فأمّا أن يهتدي هو بنفسه فلا. لكن يحتمل ما ذكرنا أنه[8] إذا صيّره بحيث يتكلم ومن جنس ما ينطق وأذن له في النطق احتمل الإجابة والاهتداء. ***والله أعلم***.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[٣٦]

وقوله عز وجل: **وما يتّبع أكثرهم إلا ظنا**، قال بعضهم: هذا في الأئمة والرؤساء منهم حيث عبدوا الأصنام والأوثان وقالوا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى.[9] وقالوا: هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ،[10] ونحو ذلك من القول. يقول: ما يتبع[11] أكثرهم في عبادتهم الأصنام[12] بأنهم يكونون لهم شفعاء[13] عند الله إلا ظنّا ظنّوه. وقال بعضهم: هذا في الأتباع والعوام ليس في الأئمة.

---

[1] ع: ما معنا.
[2] جميع النسخ: وهي؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣٧٠و.
[3] ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مَكَانَكُم أنتم وشركاؤكم فزَيَّلْنَا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيّانا تعبدون﴾ (سورة يونس، ٢٨/١٠).
[4] م: ادعوهم.
[5] ع: بالجوز.
[6] ك: ذلك.
[7] ن: أو إن.
[8] ع م – أنه.
[9] سورة الزمر، ٣/٣٩.
[10] سورة يونس، ١٨/١٠.
[11] ن: ما يقع.
[12] ن ع م – الأصنام.
[13] ع: شفعائنا.

وذلك أن الأئمة قد عرفوا البراهين والحجج التي قامت عليهم والآيات التي جاء بها رسول الله. لكن ما قالوا: إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ،[١] و مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى،[٢] و إِنْ هٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ،[٣] ونحو ذلك من الكلام أرادوا أن يُلَبِّسوا على العوام ويُشَبِّهوا عليهم، فاتبع العوام الأئمة[٤] فيما قالوا: إنه كذا[٥] وإنه كذا، وصدّقوهم. يقول: **وما يتبع أكثرهم**، الأئمة في ذلك، **إلا ظنا**، ظنوا. ويشبه أن يكون قوله: **وما يتبع أكثرهم**، يعني أهل مكة. أي ما يتبع أكثر أهل[٦] مكة[٧] الأوائل والأسلاف في عبادة الأصنام والأوثان، **إلا ظنا**؛ لأنهم عبدوا الأصنام ويقولون: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ،[٨] الآية، و [وَجَدْنَا] آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ.[٩]

ثم أخبر: **إن الظن لا يغني من الحق شيئا**، أي الظن لا يدرَك به الحق. إنما يدرَك الحق[١٠] باليقين. **إن الله عليم بما يفعلون**، وهو حرف وعيد، ليكونوا[١١] أبدا على حَذَر.

﴿وَمَا كَانَ هٰذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣٧]

وقوله عز وجل: **وما كان هذا القرآن أن يُفْتَرَى من دون الله**، قال بعضهم: هو صلة قوله: قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ.[١٢] فيقول: **وما كان هذا القرآن أن يُفْتَرَى من دون الله**، كقوله: قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ -أي ما أتبع-[١٣] إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ.[١٤] وقال بعضهم: إن كفار قريش قالوا: إن محمدا افترى هذا القرآن من عند نفسه وتقوّله[١٥] من نفسه، فقال: **وما كان هذا القرآن أن يُفْتَرَى من دون الله**، أن يُضاف إلى غيره أو يُختلَق.

---

[١] انظر مثلا: سورة الأنعام، ٦/٧.
[٢] سورة سبأ، ٣٤/٤٣.
[٣] سورة ص، ٣٨/٧.
[٤] ع م: العوام إلى الأئمة.
[٥] م - إنه كذا.
[٦] ع - ما يتبع أكثر أهل؛ م - مكة أي ما يتبع أكثر أهل.
[٧] ع م + أهل.
[٨] سورة الزخرف، ٤٣/٢٢.
[٩] سورة الشعراء، ٢٦/٧٤. والآية وإن كانت في قوم إبراهيم عليه السلام فإن شأن المشركين واحد في كل زمان.
[١٠] ع م - إنما يدرك الحق.
[١١] ك: لتكونوا.
[١٢] سورة يونس، ١٠/١٥.
[١٣] ن ع - أي ما أتبع.
[١٤] سورة يونس، ١٠/١٥.
[١٥] م: وتقول.

[٣٢٩ظ س ٣١ *وقوله عز وجل: **وما كان هذا القرآن أن يُفتَرَى من دون الله**، يخرج على وجهين. أحدهما ما كان هذا القرآن بالذي يحتمل الافتراء من دون الله لخروجه عن طَوْق[1] البشر ووُسعهم، فذلك[2] بالذي يُحِيله كونَه مفترى بجوهره. والثاني لِما أودع فيه من الحكمة[3] والصدق [الذي] يدل على كونه من عند الله. إذ كلام غيره يحتمل السفه والكذب
٣٢٩ظ س ٣٤] ويحتمل الاختلاف.*

ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه، أي يصدّق هذا القرآن الكتب التي كانت من قبل. ولو كان محمد هو الذي افتراه واختلقه[4] من عند نفسه لكان خرج هو وسائر الكتب المتقدمة[5] مختلفا.[6] إذ لم[7] يعرف محمد سائر الكتب المتقدمة؛ إذ كانت بغير لسانه. ولم يكن له اختلاف إلى من يعرفها ليتعلم. ثم خرج هو أعني القرآن مصدِّقا وموافقا لتلك[8] الكتب.[9] دل أنه من عند الله جاء. كقوله: وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ،[10] الآية.*

وتفصيلَ الكتاب لا ريب فيه، قيل: فيه بيان الكتب التي نزلت قبله. وتمامه[11] أن هذا وإن كان في اللفظ مختلفا فهو في الحكمة والصدق مبيّن موافق للأول. وقيل: **وتفصيل الكتاب**، أي تفصيل[12] ما كتب لهم وما عليهم. أو أن يُقال: إلى الله[13] تفصيل الكتب ليس إلى غيره،[14] **لا ريب فيه**، أنه، **من**، عند، **رب العالمين**. أو يقول: مُفَصَّل من اللوح المحفوظ.

---

[1] ع: عن طول.
[2] ك + فذلك.
[3] م: فيه الحكمة.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٢٩ظ/سطر ٣١-٣٤.
[4] م: واختلفه.
[5] م: المقدمة.
[6] ك ن: مختلقا.
[7] م: إذا لم.
[8] م – لتلك.
[9] م: للكتب.
[10] ﴿وما كنتَ تَتلُو مِن قَبلِه من كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذًا لَارتاب المُبْطِلون﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٨).
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فنقلناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٢٩ظ/سطر ٣١-٣٤.
[11] أي وتمام هذا الكلام. انظر: شرح *التأويلات*، ٣٧٠ظ.
[12] ك – أي تفصيل.
[13] ن – إلى الله.
[14] ك: إلى الله.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٣٨]

وقوله عز وجل: **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله**، يقول: إن كان محمد[١] افتراه من عند نفسه، **فأتوا**، أنتم، **بسورة مثله**؛ إذ لسانه ولسانكم واحد. فأنتم قد عُرِفتم بالفِرْيَة والكذب، ومحمد لم يُعرَف به قط، ولا أُخِذ عليه بكذب قط.[٢] فأنتم أولى أن تأتوا **بسورة مثله**.

[٣٣٠و] **وادعوا / من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين**، اختلف فيه. قال بعضهم: ادعوا بآلهتكم التي تعبدونها ليعينوكم على إتيان مثله. وقال بعضهم: **ادعوا من استطعتم**، أي بمن لسانه مثل لسانكم ليعينوكم على ذلك. أو يقول: استعينوا بدراسة[٣] الكتب لتقدروا[٤] على مثله، **إن كنتم صادقين**، أن محمدا افتراه من نفسه. فدل ترك اشتغالهم بذلك على أنهم قد عرفوا أنه ليس بمفترى[٥] وأنه سماوي.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[٣٩]

وقوله عز وجل: **بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه**، قال بعضهم: ما لم يحفظوا نظمه ولا لفظه ولا نظروا فيه ولا تدبّروا ليعلموا معناه، بل كذّبوه[٦] بالبديهة. والشيء إنما يُعرَف كذبه وصدقه بالنظر فيه والتفكّر والتدبّر لا بالبديهة. فذلك -والله أعلم- تأويل قوله: **بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه**. والثاني **بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه**،[٧] أي كذّبوا[٨] على علمٍ منهم أنهم كَذَبَة فيما يقولون ويتقوّلون[٩] أنه مُفْتَرَى[١٠] ليس بمُنْزَل.

ولمّا يأتهم تأويله، أي ولمّا يأتهم العلم بتأويله، أي بتأويل القرآن. ومعناه -والله أعلم- أنهم كذّبوه من غير أن حفظوا نظمه ووَعَوْا لفظه ولا أتاهم العلم بعاقبته وآخره. وقيل:[١١]

---

[١] ع م: محمدا.
[٢] ع - ولا أخذ عليه بكذب قط.
[٣] ع م: بدراسته.
[٤] جميع النسخ: ليعينوكم؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٢٧٠ظ.
[٥] ع م: بمفتر.
[٦] ن: بل كذبوا.
[٧] ك - والثاني بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه.
[٨] م: بعلمه كذبوا.
[٩] م: وينقلون.
[١٠] م: مفتر.
[١١] م: قيل.

التأويل هو رد كل شيء إلى أوّليّة الأمر. وقالت الحكماء: التأويل آخِرُ كل فعلٍ هو قُصِدَ في أوّله، وقَصْدُ كل شيء في أوّله[1] هو آخِر في فعله، أو نحوه.[2] وقال بعضهم: **ولمّا يأتهم تأويله،** قال: ما وعد الله أن يكون قبل أن يكون. وقال ابن عباس رضي الله عنه: تأويل القرآن بما يكون منه في الدنيا[3] وبما يكون منه يوم القيامة؛ وهو العذاب الذي وعد.[4] وقال بعضهم: **تأويله:** ثوابه؛ وقيل: عاقبته. وقال الواقدي:[5] أي لم[6] يأتهم عاقبةُ بيانِ ما وعد الله في القرآن في الآخرة من الوعيد. وأصل التأويل[7] هو النظر إلى ما يَئُول [إليه] عاقبةُ الأمر.

وقوله عز وجل: **كذلك كذّب الذين من قبلهم،** أي كذلك كذّب[8] الأمم السالفة رسلهم كما كذّب كفار مكة رسولهم. أي لست أنت بأوّل مُكذَّب، بل كُذِّب من كان قبلك من إخوانك. ليكون له التسلّي عما هو فيه من تكذيبهم إياه وردّهم عليه[9] أنه ينزل بهم ما نزل بأولئك إن هم أقاموا على ما هم عليه. والثاني أن يكون الخطاب وإن[10] كان خارجا لرسول الله فهو راجع إلى قومه، يأمرهم بالنظر فيما نزل بالأمم السالفة وأن يتأمّلوا أحوالهم، ليكون ذلك سببا لزجرهم عما هم فيه.

وقوله عز وجل: **فانظر كيف كان عاقبة الظالمين،** بالتكذيب. أي كيف [كانوا] يعاقَبون ويعذَّبون. ***والله أعلم.***

---

[1] ع + في أوله.

[2] لعل المقصود أن التأويل هو الغاية والنتيجة التي يريدها الإنسان ويتوقع حصولها من الفعل قبل أن يفعل ذلك الفعل.

[3] ع + وبما يكون منه في الدنيا.

[4] روي مختصرا. انظر: *تفسير الطبري*، ١٨١/٣؛ و*الدر المنثور* للسيوطي، ١٤٧/٢.

[5] هو محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني. نَزِيل بغداد. صاحب التصانيف. وهو رأس في علم المغازي والسير. كان من أوعية العلم، لكنه لا يتقن الحديث. وكان يروى عن كل ضَرْب، فلذلك ضعفه المحدثون. ولي قضاء بغداد. وكانت له رئاسة وجلالة. ت. ٢٠٧هـ/٨٢٢م. انظر: *تذكرة الحفاظ* للذهبي، ٣٤٨/١؛ و*سير أعلام النبلاء* للذهبي، ٤٥٤/٩-٤٦٩؛ و*تقريب التهذيب* لابن حجر، ٤٩٨.

[6] ك: إن لم؛ م: الواقدي لم.

[7] ن: لتأويل.

[8] ن: أي كذب.

[9] ن – عليه.

[10] ع: فإن.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾[٤٠]

وقوله عز وجل: **ومنهم من يؤمن به**، قيل: من أهل مكة،[١] **ومنهم من لا يؤمن به**، يحتمل بالرسول،[٢] ويحتمل بالقرآن.[٣] ثم يحتمل قوله: **من يؤمن به**، أي من قد آمن به،[٤] **ومنهم من لا يؤمن به**،[٥] أي من لم يؤمن به. ويحتمل على الوعيد[٦] فيما يستقبل، أي **منهم**: مِن أهل مكة، **من يؤمن** بهذا القرآن، **ومنهم من لا يؤمن به**. وهم كذلك كانوا، منهم من قد آمن به، ومنهم من لم يؤمن به. وقال بعضهم: هي[٧] في اليهود، ليست في أهل[٨] مكة. وظاهره أن يكون[٩] في كفار[١٠] مكة. وعلى ذلك قول عامة أهل التأويل. كأن[١١] هذا[١٢] يخرج على البِشارة أنّ منهم من يؤمن به، لئلا يقطع[١٣] ويمنع دعاءهم. وأخبر أن منهم من لا يؤمن به، يُؤيِسُه[١٤] حتى لا يشتد حزنه على كفرهم. وجائز أن يكون هذا: أي منهم من قد يولَد من بعد ويؤمن،[١٥] ومنهم من يولد فلا يؤمن.

وقوله عز وجل: **وربك أعلم بالمفسدين**، يشبه[١٦] أن يكون معناه أي على علمٍ بما يكون منهم من الفساد. خَلَقَهم وأنشأهم وليس عن غفلة وجهل بالفساد ولكن عن علمٍ بذلك. لِما لا يضره فسادُ مُفسِد ولا ينفعه صلاحُ مُصلِح. إنما عليهم ضرر فسادهم ولهم منفعة صلاحهم. ويحتمل أن يكون على الوعيد. أي عالمٌ بفسادهم، فيجزيهم جزاء فسادهم.[١٧] *والله أعلم*.

---

[١] م + من يؤمن بهذا القرآن ومنهم من لا يؤمن به وهم كذلك كانوا منهم من قد آمن به.
[٢] جميع النسخ: الرسول.
[٣] جميع النسخ: القرآن.
[٤] م – ومنهم من لا يؤمن به يحتمل الرسول ويحتمل القرآن ثم يحتمل قوله من يؤمن به أي من قد آمن به.
[٥] ك – يحتمل الرسول ويحتمل القرآن ثم يحتمل قوله من يؤمن به أي من قد آمن به ومنهم من لا يؤمن به.
[٦] ك: على الوعد.
[٧] م: وهي.
[٨] م: من أهل.
[٩] ك: أنه يكون.
[١٠] ع: في كفارة.
[١١] ك: كأنه.
[١٢] ع: ذلك.
[١٣] ع: لا تقطع.
[١٤] ن: يوئسه.
[١٥] ع م: ومن يؤمن.
[١٦] م: ويشبه.
[١٧] م: الفساد.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٤١]

وقوله: **وإن كذّبوك فقل لي عملي ولكم عملكم**، تأويله -والله أعلم- أي إن[١] كَذّبتُ فيما أخبرتكم أنه جاء من عند الله فلي عملي،[٢] أي فعليّ عملي فيما أبلغكم. أي فعليّ وزر عملي. **ولكم عملكم**، أي فعليكم جرم ما رددتم عليّ فيما بلّغتكم عن الله. وهو كقوله: أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ،[٣] أي عليّ جرم ما افتريت إن افتريت، وعليكم جرم ما رددتم عليّ فيما بلّغتكم عن الله.[٤] ويحتمل ما قاله[٥] أهل التأويل: **لي عملي**، أي لي ديني، **ولكم عملكم**، أي لكم دينكم.

أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون، تأويله -والله أعلم- أي أنا لا أؤاخذ بما دِنتُم أنتم ولا أنتم تؤاخذون[٦] بما دِنْتُ أنا وعملت.[٧] وهو كقوله: مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ،[٨] الآية، وكقوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ -الآية- وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ،[٩] الآية، وكقوله: لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا،[١٠] الآية.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾[٤٢]
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾[٤٣]

وقوله عز وجل: **ومنهم من يستمعون إليك**، أخبر أن منهم من يستمع إليه، يعني إلى رسول الله وإلى ما يتلو من القرآن، لكنه لا يؤمن.[١١] يخبر[١٢] أنه لا كل مستمع إلى شيء ينتفع بما يستمع أو يعقل ما يستمع ويفهم. إنما ينتفع بالاستماع ويعقل على قَدْر[١٣] المقصود والحاجة إليه.

---

[١] ن: أعلم إن.
[٢] ع: فعلي عمل.
[٣] سورة هود، ٣٥/١١.
[٤] ك ن - علي فيما بلغتكم عن الله.
[٥] ن: ما قال.
[٦] ن ع م: مؤاخذون.
[٧] م: عملت.
[٨] ﴿ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربهم بالغَداة والعَشِيّ يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردَهم فتكونَ من الظالمين﴾ (سورة الأنعام، ٥٢/٦).
[٩] ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولّوا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (سورة النور، ٥٤/٢٤).
[١٠] ﴿قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نُسأل عما تعملون﴾ (سورة سبأ، ٢٥/٣٤).
[١١] م - لا يؤمن.
[١٢] ك: أخبر؛ ع: يخير.
[١٣] م: ويعقل قدر.

فهم[١] كانوا يستمعون لمَعانٍ: مرةً يستمعون لقبول[٢] القول منهم والمنزلة. ومنهم من كان يستمع إليه ليُسمِع غيرَه، كقوله: سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ.[٣] ومنهم من كان يستمع[٤] ويطيعه في ذلك، / فإذا خرج[٥] من عنده غيّره وبدّله، كقوله: وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا [٣٣٠ظ] مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ.[٦] ومنهم من كان[٧] يستمع إليه استهزاءً منه وطلبَ الطعن فيه والعيب. كانوا مختلفين في الاستماع.

ثم نفى عنهم السمع والعقل والبصر لوجهين. أحدهما ما ذكرنا أنهم لمّا لم ينتفعوا بأسماعهم وعقولهم وأبصارهم وبهذه الحواس انتفاعَ من ليست له هذه الحواس نفى عنهم ذلك؛ إذ هذه الحواس[٨] إنما جعلت لينتفع بها لا لتُترَك سُدًى[٩] لا يُنتفع بها. والثاني كأن العقل والسمع والبصر وهذه منها ما يكون[١٠] مكتسبا بالاكتساب، ومنها ما يكون غريزة. فهم تركوا اكتساب الفعل الذي جعل مكتسبا، فنفى عنهم لما تركوا اكتساب ذلك. يحتمل نَفْي هذه الحواس لهذين الوجهين اللذين ذكرتهما. *والله أعلم*.[١١]

ثم نفى عمن لا يستمع العقل، حيث قال: **لا يعقلون**، ونفى عنهم الاهتداء والإبصار بترك النظر، فقال:[١٢] **أفأنت تهدي العُمْيَ ولو كانوا لا يبصرون**، لأن[١٣] بالبصر يُوصَل إلى اهتداء الطرق والسلوك فيها. ألا ترى أن البهائم قد تبصر الطرق وتسلك فيها[١٤] وتتقي بها المهالك، ولا تعقل لما ليس[١٥] لها سمع العقل. فلا تعقل لِما يَسمع القلبُ بعقلٍ، وبظاهر البصر تُبصِر الأشياء.[١٦]

---

[١] جميع النسخ: ومنهم؛ والتصحيح من *الشرح*، ورقة ٣٧٠ظ.
[٢] م: بقبول.
[٣] ﴿ومن الذين هادوا سمّاعون للكذب سمّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوك﴾ (سورة المائدة، ٥/٤١).
[٤] ك ن: يسمع؛ م: يسمعه.
[٥] ع: فأخرج.
[٦] سورة المائدة، ٥/٨١.
[٧] ن: من قال.
[٨] ع م - نفى عنهم ذلك إذ هذه الحواس.
[٩] م: هدى.
[١٠] جميع النسخ: وهذه يكون منها.
[١١] ن - والله أعلم.
[١٢] ن ع م: وقال.
[١٣] ك: كان.
[١٤] جميع النسخ: بها.
[١٥] م: ما ليس.
[١٦] وعبارة الشارح هكذا: «فلا تعقل لِما يَسمع القلبُ بالعقل ويبصر به. وبظاهر البصر تُبصِر الأشياء، وبظاهر السمع تسمع الألفاظ» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٧١و).

﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا وَلٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٤٤]

وقوله عز وجل: **إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون**، يخبر أن ما حلّ بأولئك من عذاب استئصال وعقوبة إنما حلّ[١] بظلمهم لا بظلم[٢] من الله تعالى.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[٤٥]

وقوله عز وجل: **ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار**، قال: في قبورهم. **يتعارفون بينهم**، إذا خرجوا من قبورهم. وقال بعض أهل[٣] التأويل: **كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار**، في الدنيا. وأصله: كأنهم استقلّوا طول مقامهم في الدنيا وما أُنعِموا فيها لما عاينوا من أهوال ذلك اليوم وشدائده. أو استقلّوا لُبْثَهم في الدنيا[٤] ومُقامهم لطول مقامهم[٥] في الآخرة في العذاب.[٦] وفيه وجه ثان؛ وهو أنه يَذكر من شدة سَفَهِهم وغاية جهلهم أن [استقلّوا][٧] ما يَعِدُهم من الحشر والعذاب الأبد كأنهم لا يلبثون[٨] فيها إلا ساعة من النهار، حتى لا يُبالون ما يلحقهم من ذلك وما يستوجبون عليه من العذاب باكتسابهم تلك الأسباب.

وقوله عز وجل: **يتعارفون بينهم**، أي يعرف بعضهم بعضا على قدر ما يلعن بعضهم بعضا،[٩] كقوله: وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا،[١٠] وعلى قدر ما يتبرّأ بعضهم من بعض.[١١] ثم يفرق بينهم، كقوله: فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ،[١٢] أي فرّقنا بينهم.

---

[١] ع – حل.
[٢] م – لا بظلم.
[٣] جميع النسخ: بعضهم من أهل.
[٤] ك – في الدنيا.
[٥] ع – لطول مقامهم.
[٦] جميع النسخ + واستقلوا.
[٧] من *الشرح*، ورقة ٣٧١و.
[٨] ع: لا يلبثوا؛ م: لا يلبسون.
[٩] م: بعضهم على بعض.
[١٠] ﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مَوَدَّةَ بينِكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٢٥).
[١١] ن – على قدر ما يلعن بعضهم بعضا كقوله ويلعن بعضكم بعضا وعلى قدر ما يتبرأ بعضهم من بعض.
[١٢] ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مَكانَكم أنتم وشركاؤكم فزَيَّلْنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون﴾ (سورة يونس، ١٠/٢٨).

وقوله عز وجل: **قد خسر الذين كذّبوا بلقاء الله**، أي خسروا ما وُعِدوا[١] في الآخرة من النعم الدائمة بترك اكتسابهم إياها؛ إذ قد[٢] أُعطوا ما يكتسبون به نعم الآخرة، فاكتسبوا ما به خسروا ذلك. فهو كقوله: فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ،[٣] أي ما أصبرهم على اكتساب ما به يستوجبون النار.[٤]

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾[٤٦]

وقوله عز وجل: **وإمّا نُرِيَنّك بعض الذي نَعِدُهم أو نتوفّينّك**، حرف[٥] "إمّا" حرف شك، وكذلك حرف "أو". لكن يكون تأويله -والله أعلم- على حذف "إمّا" وإضمار حرف "إن"، كأنه[٦] يقول: إن أريناك إنما نُرِيَنّك بعض ما نَعِدُهم لا كل ما نَعِدُهم أو نتوفّينك ولا نُرِيَنّك شيئا. أو أن يكون قوله [بمعنى]: إنْ نُرِيَنّك بعض ما نَعِدُهم، أي لقد نُريك بعض ما نَعِدُهم. وهو كقوله: إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً.[٧] فعلى هذا التأويل يُرِيه بعض ما يَعِدهم[٨] ولا يُريهم كل ما وعدهم.[٩] وعلى التأويل الأول إن أراه إنما يُرِيه بعض ذلك أو لا[١٠] يُرِيه شيئا.

فإن قيل: حرف "إمّا" حرف شك، وكذلك حرف "أو". كيف يستقيم[١١] إضافته[١٢] إلى الله وهو عالم بما كان ويكون، وإنما يستقيم إضافته إلى من يجهل العواقب؟

قيل: جميع حروف الشك الذي أضيف إلى الله هو على اليقين والوجوب، نحو حرف[١٣] "عسى" و"لعل"، ونحو ذلك. فعلى ذلك[١٤] حرف "إما" و"أو". وهو لم يزل عالما بما كان ويكون في أوقاته.

---

[١] جميع النسخ: بما وعدوا.
[٢] م: إذا قد.
[٣] ﴿أولئك الذين اشتَرَوُا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصْبَرَهم على النار﴾ (سورة البقرة، ١٧٥/٢).
[٤] ك ع + والثاني خسروا؛ ن م + والثاني قد خسروا. ويوجد بعده في نسخة ك و ن بياض بمقدار عدة كلمات. لكن لا يوجد في الشرح إلا الوجه الأول، ولا توجد إشارة إلى وجه آخر. انظر: شرح *التأويلات*، ورقة ٣٧١و.
[٥] ك - حرف.
[٦] ع م: كان.
[٧] ﴿ويقولون سبحان ربنا إنْ كان وعدُ ربنا لمَفعولا﴾ (سورة الإسراء، ١٠٨/١٧).
[٨] م: ما نعدهم.
[٩] ع: وعد لهم.
[١٠] ك م: ولا.
[١١] ك: يستقتم.
[١٢] أي إضافة الشك.
[١٣] م: حروف.
[١٤] ع - فعلى ذلك.

وأما حرف[1] الاستفهام والشك يخرج على مخرج الإيجاب[2] والإلزام على ما ذكرنا في حرف التشبيه.[3] أو أن يكون رسول الله وعد لهم أن يُرِيَهم شيئا، فقال عند ذلك [فيما معناه]: إمّا نُرِيَنَّك بعض ما نَعِدُهم أو نتوفّينك فلا نُرِيَنَّك شيئا، كأنه[4] يقول: ليس إليك ما وعدتهم، إنما ذلك إلينا، كقوله: لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ.[5]

وقوله عز وجل: **فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون**، هذا يحتمل **ثم الله شهيد**، لك يوم القيامة على ما فعلوا من التكذيب بالآيات وردها. وهو كقوله: قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ،[6] الآية. ويحتمل أنه عالم بما يفعلون[7] لا يغيب عنه شيء. وهو وعيد، كقوله تعالى: وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ،[8] وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ،[9] ونحوه. ***والله أعلم.***

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[٤٧]

وقوله[10] عز وجل: **ولكل أمة رسول**، أي لكل أمة فيما خلا رسولٌ[11] بُعِث إليهم، لست أنا أول رسول بُعِثت[12] إليكم، كقوله تعالى: قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ.[13]

---

[1] ك: حرم.
[2] ك: على الإيجاب.
[3] انظر مثلا تفسير الآية من سورة البقرة، ٢١٠/٢. ويقول السمرقندي رحمه الله شارحا: «وهذا لأن الألفاظ [و]إن كانت موضوعة لغة لذلك لكنها تستعمل عند أرباب اللسان أيضا للوقوع والإيجاب دون الشك أيضا. فإذا أضيفت إلى الله يجب حملها على ما يليق به. وهو كما ذكرنا في نسبة ألفاظٍ الى الله توجب التشبيه من حيث الظاهر من العين واليد والإتيان والمجيء ونحو ذلك. [فهذه الألفاظ] وإن كانت في وضع اللغة لمعان لا تجوز على الله تعالى ولكنها لما استعملت لمعان على المجاز تجوز إضافتها إليه وتليق بصفاته صُرفت إلى ما يُحمَل [عليها]. فهاهنا كذلك. والله أعلم. (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٧١و).
[4] ع م – كأنه.
[5] ﴿ليس لك من الأمر شيءٌ أو يتوبَ عليهم أو يعذبَهم فإنهم ظالمون﴾ (سورة آل عمران، ١٢٨/٣).
[6] ﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾ (سورة الأنعام، ١٩/٦).
[7] ع م: يفعل.
[8] سورة البقرة، ٩٦/٢؛ وسورة آل عمران، ١٦٣/٣؛ وسورة المائدة، ٧١/٥.
[9] سورة البقرة، ٢٩/٢؛ وسورة الأنعام، ١٠١/٦؛ وسورة الحديد، ٣/٥٧.
[10] ع: قوله.
[11] م + الله.
[12] ع م: بعث.
[13] سورة الأحقاف، ٩/٤٦.

فإذا جاء رسولهم قُضِيَ بينهم بالقسط، يحتمل هذا وجهين. يحتمل **فإذا جاء رسولهم قُضِيَ بينهم بالقسط**، أي يُقضَى[١] بين الرسل[٢] وبين الأمم بالعدل بما كان من الرسل من تبليغ الرسالة إليهم والدعاء إلى دين الله، ومن الأمم من التكذيب للرسل والرد للآيات. **قُضِيَ بينهم**، بالعدل، **وهم لا يظلمون**، لا يُزاد على ما كان ولا يُنقَص. ويحتمل قوله: **قُضِيَ بينهم**، أي يُهلَك المكذّبون منهم ويُنجى[٣] الرسل[٤] ومن صدّقهم،[٥] كقوله تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا،[٦] الآية. ويجوز أن يُقضَى / بين المعرضين وبين المجيبين والمطيعين يوم القيامة. [٢٣١ر]

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤٨]

وقوله عز وجل: **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**، وذلك أنه لمّا أوعدهم العذاب حين[٧] قال: وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ،[٨] من العذاب، فقالوا: **متى هذا**، العذاب[٩] الذي تُوعِدنا[١٠] يا محمد إن كنت صادقا بأن العذاب نازل بنا في الدنيا. وهو على التأويل الثاني الذي ذكرنا: لقد نُرِيَنَّك بعض ما وعدناهم.[١١]

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[٤٩]

فقال: **قل لا أملك لنفسي ضَرّا**، أي دفعه[١٢] عنها،[١٣] **ولا نفعا**، ولا أملك أيضا جرّ منفعة إليها. يقول: لا أقدر على أن أدفع عن نفسي سوء[١٤] حين ينزل بي، ولا أملك

---

[١] ع: أي قضي.
[٢] ك: بين المرسل.
[٣] ع: ينجى.
[٤] ع م – الرسل.
[٥] ك ن: صدق منهم.
[٦] سورة يونس، ١٠/١٠٣.
[٧] ع م – حين.
[٨] سورة يونس، ١٠/٤٦.
[٩] م: الوعد.
[١٠] ك + هذا.
[١١] م: ما وعدتهم.
[١٢] ن: أو دفعه.
[١٣] ك ع م – أي دفعه عنها.
[١٤] ن ع: سواء.

على أن أسوق إليها خيراً[1] البتّة. فإذا لم أملك هذا كيف أملك إنزال العذاب عليكم؟[2] إنما ذلك إلى الله، هو المالك عليه والقادر على ذلك، لا يملك[3] أحد ذلك سواه. وهو[4] كقوله: قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ.[5]

[٣٣١و س١٦] *ويذكر[6] عجزه في إنزال[7] العذاب عليهم في قوله: **قل لا أملك لنفسي ضَرّا ولا نفعا**.*

وقوله عز وجل: **لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**، أي إذا جاء أجلهم لا يقدرون على تأخيره، **ولا يستقدمون**، أي لا يقدرون[8] على تقديمه. ليس على أنهم لا يطلبون[9] تأخيره ولا تقديمه فيسألون ذلك. ولكن لا يؤخَّر إذا جاء ولا يقدَّم قبل أجله. وفيه دلالة أنْ لا يَهلِك أحد قبل انقضاء أجله. وهو[10] رد على المعتزلة، حيث قالوا: مَن قَتَل آخر فإنما قتله قبل أجله. والله يقول: **فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**، وهم يقولون: يستقدمون. *والله الموفق*.

[٣٣١و س١٤ *ويخبر في قوله: **فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون**، أن عذاب الله إذا نزل[11] وجاء وقته لا يملك أحد[12] تقديمه ولا تأخيره، ولا يحتمل[13] استقدامه ولا استئخاره[14] بالقدر[15] والمنزلة

٣٣١و س١٦] كما يحتمل[16] ذلك في الدنيا، [أي] التقديم والتأخير بالشفاعة والفداء.*

---

[1] ع: خير.
[2] ك: عليهم.
[3] ك: لا يقدر.
[4] ك: وذلك.
[5] سورة الكهف، ١٨/١١٠؛ وسورة فصلت، ٤١/٦.
[6] ع: وبذكره.
[7] ع: في انزل.
* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٣١و/سطر ١٦-١٧.
[8] ع م: لا يقدرونه.
[9] م: لا يبطلون.
[10] ك: فهو.
[11] ع م: إذا ترك.
[12] ع: أحدا.
[13] ك: ولا يملك أحد.
[14] م: ولا استيئاخاره.
[15] ع: بالقدرة.
[16] ع م: كما لا يحتمل.
* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية التالية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٣١و/سطر ١٤-١٦.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾[٥٠]

وقوله عز وجل: **قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون،** يقول -والله أعلم- أيّ منفعة لكم إن أتاكم عذابه؟ لا منفعة لكم في ذلك، بل فيه ضرر لكم. فاستعجال ما لا منفعة فيه سَفَه وجهل. يُسفِّههم[١] في سؤالهم العذاب.*

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾[٥١]

وقوله عز وجل: **أَثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به آلآن،** قيل: أي العذاب إذا نزل[٢] بكم، **آمنتم به آلآن؟** يخبر عنهم أنهم إذا نزل بهم العذاب يؤمنون به.[٣] ثم يحتمل قوله: **آمنتم به،** أي بالله وبرسوله، كقوله: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ.[٤] ثم أخبر أن إيمانهم لا ينفعهم عند معاينتهم العذاب، وهو كقوله: فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا،[٥] وقوله: لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ.[٦] ويحتمل قوله: **آمنتم به،** أي بالعذاب،[٧] لأنهم يكذّبون رسول[٨] الله فيما يُوعِدهم[٩] العذاب، وهم يستعجلون به استهزاءً وتكذيبا، فإذا نزل[١٠] بهم آمنوا، أي صدقوا بذلك العذاب. يقول:[١١] **آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون،** استهزاءً وتكذيبًا أنه غير نازل بكم ذلك.[١٢] *والله أعلم.*

---

[١] ع: بسفههم.

* وقع هنا مقطعان من تفسير الآية السابقة، فقدمنا هما إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٣١و/سطر ١٤-١٦، وسطر ١٦-١٧.

[٢] ع: إذا أنزل.

[٣] ع م - به.

[٤] سورة المؤمن، ٨٤/٤٠.

[٥] سورة المؤمن، ٨٥/٤٠.

[٦] ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا﴾ (سورة الأنعام، ١٥٨/٦).

[٧] ك: أي العذاب.

[٨] ن: برسول.

[٩] ع م: يدعوهم.

[١٠] ع: فإذا أنزل.

[١١] ع: بقول.

[١٢] ك: ذلك بكم.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾[٥٢]

وقوله عز وجل: **ثم قيل للذين ظلموا**، قيل: أشركوا في ألوهيته وربوبيته وعبادته غيره. **ذوقوا عذاب الخلد**، لأنهم يخلَّدون فيه. يقال ذلك بعد ما أُدخِلوا النار. **هل تُجْزَوْن إلا بما كنتم تكسبون**، أي لا تُجْزَوْن إلا بما[١] كسبتم في الدنيا.

﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾[٥٣]

وقوله عز وجل: **ويستنبِئُونك**، أي يستخبرونك، **أَحَقٌّ هو**. يحتمل هذا وجوها. يحتمل قوله: **أَحَقٌّ هو**، العذاب الذي كان يُوعِدهم أنه ينزل[٢] بهم على ما قاله[٣] عامة أهل التأويل. ثم قال: **قل إي وربي إنه لحق**، أي **قل**، نعم، **وربي إنه لحق**،[٤] أنه نازل بكم. **وما أنتم بمعجزين**، أي بفائتين عنه ولا سابقين له. ويحتمل قوله: **أَحَقٌّ هو**، ما يدعوهم إليه من التوحيد، كقولهم لإبراهيم: أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ،[٥] الآية. فعلى ذلك قولهم: **أَحَقٌّ هو**. ثم أخبر أنه لحق بقوله: **قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين**، غائبين فائتين عنه. ويحتمل الآيات أو محمدا أو القرآن.

أحق هو قل إي وربي، قل[٦] نعم، **إنه لحق**، كقوله: [وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ] إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ،[٧] أخبر أن ما يأمرهم به ويدعوهم إليه ليس هو هزوا[٨] ولا لعبا، ولكنه[٩] حقٌّ أمرٌ من الله تعالى. فعلى ذلك قوله: **أَحَقٌّ هو**.

وقوله عز وجل: **ويستنبِئُونك أَحَقٌّ هو**، هذا الحرف يحتمل أن يكون من الشاكّين منهم[١٠] في ذلك طلبوا منه أنه حقٌّ ذلك أو لا، ومِن المعاندين استعجال العذاب

[١] ك + كنتم.
[٢] ع: نزل.
[٣] ع: ما قوله.
[٤] م – أي قل نعم وربي إنه لحق.
[٥] سورة الأنبياء، ٢١/٥٥-٥٦.
[٦] ن – قل.
[٧] سورة البقرة، ٢/٦٧.
[٨] ك: هزأ.
[٩] ن ع م: لعب ولكن.
[١٠] ك – منهم.

الذي كان يُوعِدهم رسول الله استهزاءً به وتكذيبًا له، ومِن المتبعين له والمطيعين التصديق[١] له[٢] والإيمان به، كقوله: يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا.[٣] كانوا فرقا ثلاثا:[٤] فرقة قد آمنوا[٥] به، وفرقة قد شكّوا فيه، وفرقة قد كذّبوه.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[٥٤]

وقوله عز وجل: **ولو أنّ لكل نفسٍ ظَلَمت ما في الأرض لافْتَدَت به**، يخبر عنهم أنهم يَفْدُون[٦] ويَبذُلون جميع ما في الأرض لو قدروا عليه عند نزول العذاب بهم لشدة العذاب وإن كان الذي منعهم عن الإيمان هو حبهم الدنيا وبخلهم عليها وما فيها بقوله: وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا.[٧]

وقوله عز وجل: **وأَسَرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب**، / **الندامة** لا تكون إلا سرا[٨] بالقلب؛ [٣٣١ظ] فكأنه قال: حقّقوا الندامة في قلوبهم على ما كان منهم من التكذيب بالآيات والعناد في ردها. وقال بعضهم: **وأَسَرّوا الندامة**، أي أظهروا الندامة،[٩] وهو مما يستعمل في الإظهار والإخفاء، كقولك:[١٠] شَعَب: جَمَع، وشَعَب: فَرَّق، ونحوه.[١١] وبَعدُ، فإنه إذا أسرّ في نفسه لا بدّ من أن يضع ذلك في آخر ويخبره[١٢] بذلك، فذلك منه إظهار.

وقوله عز وجل: **وقُضِيَ بينهم بالقسط**، يحتمل قوله: **وقُضِيَ بينهم بالقسط**، ما يوجبه الحكمة؛ لأن الحكمة توجب تعذيب[١٣] كلِّ كافرِ نعمةٍ وكلِّ قائل في الله ما لا يليق به.

---

[١] ع: الصديق.
[٢] ن – له.
[٣] ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مُشفِقون منها ويعلمون أنها الحق ألَا إنّ الذين يُمَارُون في الساعة لَفِي ضلال بعيد﴾ (سورة الشورى، ١٨/٤٢).
[٤] جميع النسخ: ثلاثة.
[٥] م: فرقة آمنوا.
[٦] ع: يعذبون.
[٧] ﴿إن الذين لا يَرجُون لقاءنا ورَضُوا بالحياة الدنيا واطْمَأنّوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾ (سورة يونس، ١٠/٧-٨).
[٨] ع م: الإسرار.
[٩] ع + أي أظهروا الندامة.
[١٠] ع م: كقوله.
[١١] أي قد يأتي اللفظ الواحد لمعنيين متضادين مثل شَعَب. وانظر: *لسان العرب* لابن منظور، «شعب».
[١٢] ع: ويخبر.
[١٣] ك – تعذيب.

أو أن يكون تفسير قوله: **بالقسط**، ما ذكر: **وهم لا يُظلَمون**. ويحتمل قوله: **بالقسط**، ما ذكر: اِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ،[1] الآية. والقِسْط هو العدل. وهم يومئذ عرفوا أنه كان يقضي بالعدل في الدنيا والآخرة. ***والله أعلم***.

﴿أَلَا إِنَّ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٥٥]

وقوله عز وجل: **أَلَا إنّ لله ما في السماوات والأرض**، أي إن ما في السماوات والأرض كلهم عبيده وإماؤه ومِلْكُه،[2] لا لمن تعبدون[3] دونه[4] من الأصنام والأوثان. فمِن عند من يملك[5] الدنيا والآخرة اطلبوا ذلك،[6] لا مِن[7] عند من لا يملك. يُبيّن سَفَهَهم في طلبهم الدنيا مِن عند من يعلمون[8] أنه لا يملك ذلك. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **أَلَا إنّ وعد الله حق**، في كل وعد ووعيد أنه كائن لا محالة عذابا أو رحمة. **ولكن أكثرهم لا يعلمون**، أي لا ينتفعون بعلمهم. فنفى عنهم العلم وإن عَلِموا لما لم ينتفعوا به. ويحتمل قوله: **لا يعلمون**، أي لم يكتسبوا سبب العلم، وهو التأمّل[9] والنظر في آياته وحججه. ويحتمل نفي العلم عنهم لِما [لم] يُعطَوْا أسباب العلم،[10] فلم يعلموا. فإن كان على هذا فيكونون معذورين. وإن كان على الوجهين الأولين فلا عذر لهم في ذلك.

وفي قوله: **أَلَا إنّ لله ما في السماوات والأرض**، دلالة إثبات البعث من وجهين. أحدهما فيما يَذكر[11] مِن قدرته مِن خَلْقِ السماوات والأرض وما بينهما بغِلَظِها[12] وكثافتها[13] وشدتها وعظم خلقها[14]

[1] ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/١٤).
[2] ك: وملكه وإماؤه.
[3] ك: تعبدونه.
[4] ك - دونه.
[5] ن - من يملك.
[6] جميع النسخ + منه.
[7] ن ع م: لأن من.
[8] ن ع م: من تعلمون.
[9] ع م: التأويل.
[10] ك - وهو التأمل والنظر في آياته وحججه ويحتمل نفي العلم عنهم لما يعطوا أسباب العلم.
[11] ع: تذكر.
[12] ن ع م: بغلظهما.
[13] ع م: وكثافتهما.
[14] ع م: خلقتهما.

وأن تلك القدرة خارجة عن وُسع[1] البشر وتوهمهم.[2] فمَن قدر على ذلك فهو قادر على إحياء الخلق بعد فنائهم. والثاني يخبر عن حكمته من تعليق منافع الأرض بالسماء على بُعد ما بينهما، والإفضال على الخلق بأنواع النعم التي تَكْثُر[3] الإحصاءَ، وأنّ كل شيء منها قد وضع مواضعها. فلا يحتمل مَن هذا وصفُه في الحكمة يخلق شيئا[4] عبثا باطلا. ولو كانوا[5] للفناء لا حياة بعده كان يكون خارجا عن الحكمة. فظهر أنه خلقهم لأمرٍ أراد بهم. *والله أعلم*.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٥٦]

وقوله عز وجل: **هو يحيي ويميت وإليه تُرجَعون**، أي تعلمون أنه هو أحيا الأحياء وهو يميت[6] الأموات أيضا. وهو كقوله:[7] فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ.[8] فإذا عرفتم أنه هو يحيي[9] الأحياء وهو يميت[10] الأموات لا غير فاعلموا أنه هو يبعثكم **وإليه تُرجَعون**. ألزمهم الحجة أوّلا[11] بالكائن، ثم أخبر[12] عما يكون[13] بالحجة التي ذكر.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥٧]

وقوله عز وجل: **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم**، وهو هذا القرآن. قال بعضهم: الموعظة النهي، كقوله: يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا،[14] قيل: نهاكم أن تعودوا لمثله.[15]

---

[1] ع: في وسع.

[2] م: وتوهم.

[3] كَثَرَ الشيءَ وكَثَّره بمعنى غلبه في الكثرة (*لسان العرب* لابن منظور، «كثر»).

[4] ن ع م: بخلق الشيء.

[5] م: ولو كان.

[6] م: ويميت.

[7] ع م – وهو كقوله.

[8] ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون﴾ (سورة البقرة، ٢٨/٢).

[9] ك ن م: محيي.

[10] ك ن: مميت.

[11] ع: ولا؛ م: دلالة.

[12] ك: ثم أخبرهم.

[13] ن + عما يكون.

[14] سورة النور، ١٧/٢٤.

[15] ك + أبدًا؛ ع – قيل نهاكم أن تعودوا لمثله.

وقال آخرون: الموعظة هي التي تدعو إلى كل مرغوب وتزجر عن كل مرهوب. وقال بعضهم: العظة[1] هي التي[2] تُلين كل قلبٍ قاسٍ وتُجلي كل قلبٍ[3] مُظلِم. وفي القرآن جميع ما ذكرنا.[4] فيه النهي، وفيه الدعاء إلى كل مرغوب والزجر عن كل مرهوب، وهو يُلين القلوب القاسية ويُجلي القلوب المُظلِمة إذا تأمّلوا فيه ونظروا وتفكّروا[5] تفكُّر[6] المسترشد وطالب الحق. وقيل: الموعظة[7] هي التي تُلين القلوب القاسية وتُدمع العيون اليابسة وتُجلي الصدور المُظلِمة.

وقوله عز وجل: **وشفاءٌ لما في الصدور**، إن للدين[8] آفات وأَدْوَاء[9] تضرّ به وتُتلفه كما لهذه الأبدان آفات وأمراض تعمل في إتلافها وإهلاكها. ثم جُعلت لآفات[10] الأبدان وأمراضها أدوية يُشفَى بها الأبدان المَئُوفَة[11] المريضة. فعلى ذلك جُعل هذا القرآن شفاء[12] لهذا الدين ودواء[13] يداوَى به،[14] فيذهب بآفات الدين وأمراضه، كما تعمل[15] الأدوية في دفع آفات الأبدان وأمراضها. لذلك سمّاه موعظة وشفاء لما في الصدور.[16] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **وهدى ورحمة**، قيل: **هدى** من الضلالة **ورحمة** من عذابه. أو يقول: **وهدى ورحمة**، **هدى** أي يدعو[17] إلى كل خير ويهديه إليه،[18] **ورحمة** لمن اتبعه.[19]

---

[1] ك – العظة.
[2] ك – التي.
[3] ع م: قاس.
[4] ع م: ما ذكر.
[5] ع – وتفكروا.
[6] م – تفكر.
[7] ع م + التي.
[8] ن: في الدين.
[9] ك ن م: وداء؛ ع: دواء.
[10] ع: لافاب.
[11] المَئُوف أي الذي أصابته الآفة (*لسان العرب* لابن منظور، «أوف»).
[12] م – شفاء.
[13] م: دواء.
[14] م – به.
[15] ن ع م: يعمل.
[16] ن ع: وشفاء للصدور.
[17] م: أي يدعوا.
[18] ك – إليه.
[19] م: تبعه.

هو هدى[١] ورحمة لمن اتبعه وتمسك به، وعَمًى وضلال لمن خالفه وترك اتباعه. وهو ما ذكر: وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى،[٢] وقال: فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا،[٣] أي زاد للمؤمنين إيمانا إلى إيمانهم، و فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا،[٤] أي زاد للكافرين رجسا[٥] إلى رجسهم، ونحوه.[٦] *والله أعلم*.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٥٨]

وقوله عز وجل: **قل بفضل الله وبرحمته**، قال[٧] بعضهم: فضل الله ورحمته القرآن. وقال قائلون:[٨] فضل الله القرآن، ورحمته الإيمان. وفيه أنه[٩] بإنزال القرآن مُفْضِل؛ إذ له أن لا يُنزِل. وفيه أن أهل الفترة يؤاخذون في حال فترتهم.[١٠] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **فبذلك / فليفرحوا هو خير مما يجمعون**، أي فرحكم[١١] بما ذكر[١٢] خير[١٣] مما [٣٣٢و] تجمعون[١٤] من الدنيا. وقال بعضهم: قوله: **قل بفضل الله وبرحمته**، إنما خاطب[١٥] المؤمنين، يقول: **قل**، للمؤمنين، **بفضل الله**، الإسلام، **وبرحمته**، يعني القرآن، **فبذلك**، يعني فبهذا[١٦] الفضل والرحمة، **فليفرحوا**، يعني المؤمنين، **هو خير مما يجمعون**، يعني مما يجمع الكفار من الأموال من الذهب والفضة[١٧] وغيره.

---

[١] م – هدى.

[٢] ﴿ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فُصِّلَتْ آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عَمًى﴾ (سورة فصلت، ٤١/٤٤).

[٣] ﴿وإذا ما أُنزِلَتْ سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأمّا الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٤).

[٤] ﴿وأمّا الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ (سورة التوبة، ٩/١٢٥).

[٥] ع – أي زاد للكافرين رجسا.

[٦] م – ونحوه.

[٧] ع: وقال.

[٨] ك – قائلون، صح هـ.

[٩] ع: آية.

[١٠] زاد الشارح رحمه الله: «...لأنه لمّا كان مُفضِلا في إنزال القرآن دل أنه قد أقام حُججا عقلية قبْله يتوجه التكليف بها. وإلا فيكون إنزال القرآن أمرًا حَتمًا لا يؤاخذون بدونه. والله أعلم» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٧٢و).

[١١] م: أي في حكم.

[١٢] ع م + هو.

[١٣] ن: هو.

[١٤] ن ع: يجمعون.

[١٥] ن + إنما خاطب.

[١٦] ع م: فبذلك.

[١٧] ن – والفضة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ﴾[٥٩]

وقوله عز وجل: **قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق**، يحتمل **ما أنزل الله لكم من رزق**،[١] أضاف إنزاله إلى السماء وإن كانت الأرزاق إنما تخرج من الأرض لما كانت أسبابها متعلقة بالسماء، [بها] يكون نضج الأنزال ويَنْع الأعناب[٢] وإصلاح الأشياء كلها. أعني أسباب الأرزاق مِن نحو المطر[٣] الذي به تُنبِت الأرض النبات، وبه تُخرِج جميع أنواع الخارج مما يكون فيه غذاء البشر والدواب، ومِن نحو الشمس الذي بها تَنضُج[٤] الأَنْزال وبها تَيْنَع[٥] الأعناب وجميع الفواكه ونحوه. أضاف[٦] ذلك إلى السماء لما ذكرنا. وكذلك قوله: وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ،[٧] أي أسباب ذلك في السماء، لا أن عين ذلك في السماء. ويحتمل قوله: **ما أنزل الله لكم من رزق**، أي ما خلق الله لكم.[٨] وكذلك جميع ما يُضاف إلى الله إنما يُضاف إليه[٩] بحق الخلق. أي خَلَقَه مُنْزِلا، كقوله: وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ،[١٠] ونحو ذلك، أي خلق لكم من الأنعام[١١] ما ذكر.[١٢] ***والله أعلم.***

وقوله عز وجل: **فجعلتم منه حراما وحلالا**، قال[١٣] بعضهم: ما حرموا من البَحِيرة والسائبة والوَصِيلة وما ذكر في سورة الأنعام والمائدة.[١٤] وقال بعضهم: ما حرموا للآلهة[١٥] التي كانوا عبدوها،

---

[١] ك – يحتمل ما أنزل الله لكم من رزق.
[٢] ع م: الأعشاب.
[٣] م: مطر.
[٤] جميع النسخ: ينضج.
[٥] ع م: ينبع.
[٦] ن + أضاف.
[٧] سورة الذاريات، ٢٢/٥١.
[٨] م – لكم.
[٩] م: إلى الله.
[١٠] سورة الزمر، ٦/٣٩.
[١١] ك – من الأنعام.
[١٢] ع: ما ذكروا.
[١٣] ع م: وقال.
[١٤] يقول الله تعالى: ﴿ما جعل الله من بَحِيرة ولا سائبة ولا وَصِيلة ولا حَامٍ ولكنّ الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون﴾ (سورة المائدة، ١٠٣/٥). ويقول تعالى: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرثٌ حِجْرٌ لا يَطعمها إلا من نشاء بِزَعْمهم وأنعام حُرِّمَت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراءً عليه سيَجزيهم بما كانوا يفترون. وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا وإن يكن ميتةً فهم فيه شركاء سيَجزيهم وَصْفَهم إنه حكيم عليم﴾ (سورة الأنعام، ١٣٨/٦–١٣٩).
[١٥] م: الآلهة.

أي جعلوها[١] للأصنام؛ وهو ما ذكر في الأنعام،[٢] وهو قوله: وَجَعَلُوا لِلّٰهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا،[٣] الآية، نحو[٤] ما ذكرنا في الآية. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **قل آلله أَذِنَ لكم أم على الله تفترون**، أي أالله[٥] أذِن لكم في تحريم ما حرّمتم[٦] وتحليل ما أحللتم، **أم على الله تفترون**، بل[٧] على الله تفترون.[٨] وذلك أن هذه السورة[٩] نزلت في محاجّة أهل مكة. وهم لم يكونوا مؤمنين بالرسل والكتب. وإنما يُوصَل إلى معرفة المحرَّم والمحلَّل[١٠] بالرسل والكتب والخبر عن الله. وهم[١١] لم يكونوا مؤمنين بواحد مما ذكرنا. فكيف جعلتم منه حراما وحلالا وأنتم لا تؤمنون ما به يُعرَف الحلال من الحرام؟[١٢] فكيف حرّمتم ما أحلّ لكم أو أحللتم ما حرّم عليكم؟ يخبر عن سفههم وعنادهم وافترائهم على الله. فإذا اجترءوا أن يفتروا على الله [فهم] على غيره[١٣] أجرأ.[١٤] *والله أعلم*.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾[٦٠]

وقوله عز وجل: **وما ظنُّ الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة**. فإن قيل: كيف أُوعِدوا بيوم القيامة وهم كانوا لا يؤمنون بالبعث؟ قيل: قد ألزمهم الحجة بكون البعث بما أظهر من كذبهم[١٥] وافترائهم على الله في التحريم والتحليل. فكذلك[١٦] يظهر كذبهم بتكذيبهم البعث.

---

[١] م: أي بعلوها.
[٢] ن: في سورة الأنعام والمائدة.
[٣] ﴿وجعلوا لله مما ذَرَأ مِن الحَرْث والأنعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يَصِل إلى الله وما كان لله فهو يَصِل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ (سورة الأنعام، ١٣٦/٦).
[٤] ع: ونحو.
[٥] م: أي الله.
[٦] ن + وتحليل ما حرمتم.
[٧] ن: بلى.
[٨] ع م – بل على الله تفترون.
[٩] ن – السورة.
[١٠] ك: المحلل والمحرم.
[١١] ع: وهي.
[١٢] ن ع م: والحرام.
[١٣] جميع النسخ: فعلى غيره.
[١٤] ن ع: أجره.
[١٥] ع: ما كذبهم.
[١٦] ن ع م: فذلك.

وبَعدُ، فإنه قد يُوعَد المرء بما لا يتيقّن به[1] ويُخَوّف[2] عليه ويُحَذَّر وإن لم يُحِط علمه به، فكذلك هذا. وبَعدُ، فإنه قد جعل في عقولهم ما يُلزِمهم الإيمانَ بالبعث والجزاء للأعمال؛ إذ ليس من الحكمة خلق الخلق للفناء خاصة. ويحتمل وجها آخر؛ وهو أن يقول: **وما ظنُّ الذين يفترون على الله الكذب**، لو خرج الأمر حقا وكان صدقا على ما أخبر رسول الله وقاله[3] من البعث والجزاء لما اكتسبوا.

وقوله عز وجل: **إن الله لَذُو فضل على الناس**، هو ذو فضل على جميع الناس من جهة[4] ما ساق إلى الكل من الرزق -كافرِهم ومؤمنِهم- وأنواعِ النعم وما أخّر عنهم العذاب إلى وقت. أو لِما بعث إليهم الرسل والكتب مِن غير أنْ كان منهم إلى الله سابقةُ صُنْعٍ يستوجبون به ذلك. ومنه[5] خُصوصُ فضلٍ على المؤمنين، ليس ذلك على الكافرين. **ولكن أكثرهم لا يشكرون**، لفضله وما أنعم عليهم.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٦١]

وقوله عز وجل: **وما تكون في شأن**، قال بعض أهل[6] التأويل: **في شأن**، من أمرك[7] وحالاتك، **وما تتلو منه من قرآن**، تبلّغهم به[8] الرسالة. وقال بعضهم: قوله: **وما تكون في شأن**، أي في عبادة، **وما تتلو منه من قرآن**، تبلّغهم به الرسالة، **ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا**، يخاطب[9] تنبيه تنبيها منه وإيقاظا،[10] والمراد منه هو وغيره. ألا ترى أنه قال: **ولا تعملون من عمل**، عَمَّهم[11] جميعا في ذلك،

---

[1] ك: ويتخوف.
[2] ك: ويتخوف.
[3] م: وقال.
[4] ك ن ع + وهو.
[5] م + ذلك.
[6] جميع النسخ: بعضهم من أهل.
[7] ك ع: في أمرك؛ م: شأن أمرك.
[8] م - به.
[9] ع - يخاطب.
[10] ع: وإيقاضا.
[11] ك ع م: عملهم.

يخبر أنكم في كل أمر يكون بينكم وبين ربكم وفي كل أمر بينكم وبين الناس فالله لكم وعليكم شاهد.[١] وكل عمل تعملون لكم وعليكم **إلا كنا عليكم شهودا**، ينبّههم[٢] ويوقظهم ليكونوا على حذرٍ أبدا منتبهين متيقظين. **إذ تُفِيضون فيه**، قال بعضهم: **تُفِيضون فيه**، تأخذون فيه، وقيل: تخوضون فيه، وقيل: تقولون فيه،[٣] وقيل: تُكثِرون[٤] فيه. وكله واحد. ثم يحتمل قوله: **فيه**، في الحق،[٥] ويحتمل في الدين، ويحتمل في القرآن، ويحتمل في رسول الله. يقول: أنا شاهد فيما تخوضون وفيما تقولون في رسول الله أو في دينه أو فيما يتلو[٦] عليكم.

[٣٣٢ظ س٥ *وقال أبو بكر الأصم في قوله: **إذ تُفِيضون**[٧] **فيه**، أي تنتشرون فيه. وتأويله: **ولا تعملون من عمل**، تنتشرون فيه، **إلا كنا عليكم شهودا**.* *٣٣٢ظ س٦]

وما يَعْزُب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء؛ لا يَعْزُب،[٨] أي لا يغيب عنه[٩] ما في الأرض[١٠] ولا في السماء فيما لا أمر فيه ولا[١١] / نهي ولا كُلْفَة، فالذي فيه [٣٣٢ظ] السؤال والأمر والنهي والكُلْفَة أحرى وأولى أن لا يغيب عنه شيء. وقوله عز وجل: **وما يَعْزُب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض**، هو تحذير وتخويف بتمثيل لا وعيد بتقرير وتصريح؛ لأن الوعيد على وجهين. أحدهما على التمثيل،[١٢] والآخر على التقرير في عينه والتصريح.[١٣] وقوله عز وجل: **إلا في كتاب مبين**، قيل: ما قلّ[١٤] وما كَثُر **إلا في كتاب**،

---

[١] جميع النسخ: شهودا.
[٢] ن: ينبهم؛ ع م: بينهم.
[٣] ع م – متيقظين إذ تفيضون فيه قال بعضهم تفيضون فيه تأخذون فيه وقيل تخوضون فيه وقيل تقولون فيه.
[٤] ن ع م: يكثرون.
[٥] ع:فيه الحق.
[٦] م: يتلوا.
[٧] ن – وقال أبو بكر الأصم في قوله إذ تفيضون.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٣٢ظ/سطر ٥-٦.
[٨] م + عن ربك من مثقال ذرة.
[٩] ن + بيان.
[١٠] م – أي لا يغيب عنه ما في الأرض.
[١١] م + ولا.
[١٢] ن ع م: على التمثال.
[١٣] جميع النسخ: وتصريح.
[١٤] م: ما قال.

أي إلا في اللوح المحفوظ.[١] ويحتمل **إلا في كتاب مبين**، في[٢] الكتب المنزلة من السماء. *والله أعلم*.[٣]*

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦٢] **﴿اَلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾**[٦٣]

وقوله[٤] عز وجل: **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون [الذين آمنوا وكانوا يتقون]**، قالت المعتزلة: دلت الآية على أن أصحاب الكبائر ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم لو كانوا[٥] مؤمنين لكانوا أولياء الله، وإذا كانوا أولياء الله لكان لا خوف عليهم ولا حزن.[٦] فإذا كان لا شك أن على أصحاب الكبائر خوفا وحزنا[٧] دل أنهم ليسوا بمؤمنين، ولا لهم ولاية الإيمان. لكن التأويل عندنا –والله أعلم– **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون**،[٨] في وقت دون وقت.[٩] ويجوز أن يكون[١٠] لأصحاب الكبائر لا خوف عليهم ولا حزن في وقت. وليس في الآية أنْ ليس على أولياء الله خوف ولا حزن من أول الأمر إلى آخره. ويحتمل قوله:[١١] **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون**، على ما يكون لأهل الدنيا في الدنيا من الخوف والحزن، إنما خوفهم وحزنهم لعاقبتهم.[١٢] ويشبه أنْ **لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**، في الجنة. وهكذا يكون إذا دخلوا الجنة، يَأْمَنون عن جميع ما يُنَغِّصهم.[١٣]

---

[١] ع م + مبين.
[٢] م: مبين أي في.
[٣] ن – في اللوح المحفوظ ويحتمل إلا في كتاب مبين في الكتب المنزلة من السماء والله أعلم.
* وقعت هنا قطعة من تفسير الآية ما بين النجمتين متأخرة عن موضعها، فقدمناها إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٣٢ظ/سطر ٥-٦.
[٤] ن: قوله.
[٥] ع: لأنهم كانوا.
[٦] ك: ولا هم يحزنون.
[٧] جميع النسخ: خوف وحزن.
[٨] ك – ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون؛ ع م – دل أنهم ليسوا بمؤمنين ولا لهم ولاية الإيمان لكن التأويل عندنا والله أعلم ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون.
[٩] ع – دون وقت.
[١٠] م – أن يكون.
[١١] ك ن – في وقت دون وقت ويجوز أن يكون لأصحاب الكبائر لا خوف عليهم ولا حزن في وقت وليس في الآية أن ليس على أولياء الله خوف ولا حزن من أول الأمر إلى آخره ويحتمل قوله.
[١٢] ع: لغافيتهم.
[١٣] ع م: ما ينفعهم.

وقال بعضهم: **أولياء الله**، هم أهل التوحيد. لكن تلك البشارة وذلك الوعد لأهل[١] التوحيد في الاعتقاد والوفاء جميعا، لا لأهل الاعتقاد خاصة.[٢]

*وقال بعض أهل[٣] التأويل: **لا خوف عليهم**، من النار، **ولا هم يحزنون**، أن يخرجوا [٣٣٢ظ س٢٩
من الجنة أبدا. والوجه[٤] فيه ما ذكرنا. **والله أعلم**.* ٢٣٢ظ س٣٠]

﴿هُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٦٤]

وقوله عز وجل: **لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة**، قال[٥] بعضهم: **لهم البشرى في الحياة الدنيا**، الرؤيا الصالحة. وعلى ذلك رويت[٦] الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن هذه الآية، ففسّر بالرؤيا الصالحة.[٧] فإن ثبت فهو[٨] الحق. وقال[٩] بعضهم:

---

[١] ع م: كأهل.

[٢] قال الشارح رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿أَلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾، قالت المعتزلة: دلت الآية على أن أصحاب الكبائر ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم لو كانوا مؤمنين لكانوا أولياء الله، وإذا كانوا أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وإذا كان لا شك أن على أصحاب الكبائر خوفا وحزنا دل أنهم ليسوا بمؤمنين ولا لهم ولاية الإيمان. لكن التأويل عندنا –والله أعلم– ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾، أي في وقت دون وقت. وليس في الآية أنْ ليس على أولياء الله خوف ولا حزن من أول الأمر إلى آخره أو في الأحوال كلها. ويجوز أن يكون لأصحاب الكبائر لا خوف عليهم ولا حزن في وقت، وهو وقت التوبة أو حال ما يعفو الله تعالى عنهم أو في الجنة إذا ختموا على الإيمان وعُذِّبوا بالنار على قدر ذنوبهم. والمطلق يجوز تقييده بالدليل. ويحتمل قوله: ﴿أَلا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون﴾، ليس لأولياء الله على ما يكون لأهل الدنيا من الخوف والحزن بسبب الأموال والأولاد، إنما خوفهم وحزنهم لعاقبتهم. والمراد من الأولياء هاهنا هو الخواصّ من المؤمنين على ما يستعمل هذا الاسم فيهم بحكم العرف وإن كان كل مؤمن وليا ولاية الإيمان. والعام يجوز تخصيصه بالعرف واستعمال أهل اللسان. وقال بعضهم: إن أولياء الله اسم لأهل التوحيد جملة. لكن البشارة والوعد لأهل التوحيد في الاعتقاد والوفاء جميعا، لا لأهل الاعتقاد خاصة. عرفنا ذلك بدلائل. فكان المراد من هذا العام هو الخاص. والله أعلم. ويشبه أنْ ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، في الجنة، لقوله: ﴿الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ وهكذا يكون إذا دخلوا الجنة، يأمنون عن جميع ما يُنَغِّصهم ويحزنهم. والله أعلم» (*شرح التأويلات*، ورقة ٣٧٢ظ، ونسخة المدينة، ورقة ٤١٥ظ-٤١٦و).

[٣] جميع النسخ: بعضهم من أهل.

[٤] م: الوجه.

[*] وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية الآتية برقم ٦٤، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٣٢ظ/سطر ٢٩-٣٠.

[٥] ن ع م: وقال.

[٦] ع: رؤيت.

[٧] «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرَى له» (*سنن ابن ماجة*، تعبير الرؤيا ١؛ و*سنن الترمذي*، الرؤيا ٣). وحسّنه الترمذي. وانظر لتفصيل طرق الحديث ورواياته: *الدر المنثور* للسيوطي، ٣٧٤/٤.

[٨] ع: هو.

[٩] م: قال.

لا تحتمل الرؤيا الصالحة، لأنه نَسَق البشرى في الآخرة على البشرى في الحياة الدنيا، ولا شك أنه لا يكون في الآخرة الرؤيا الصالحة.[1] ولكن إن ثبت ما ذكرنا من الخبر[2] فهو ذلك. ويشبه أن يكون البشارة التي ذكر هاهنا نحو قوله: فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ،[3] الآية، وقوله: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ،[4] وقوله: ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ،[5] وأمثال ذلك. وقال بعض أهل التأويل: **لهم البشرى في الحياة الدنيا**، يبشرهم الملائكة عند الموت، **وفي الآخرة**، الجنة. *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **لا تبديل لكلمات الله**، يحتمل **لا تبديل لكلمات الله**، من وعده ووعيده، وذلك مما لا تبديل له ولا تحويل. ويحتمل **لا تبديل لكلمات الله**، القرآن، لا تبديل لما فيه من الوعد والوعيد وغيره. ويحتمل لا تبديل لما مضى من سننه في الأولين والآخرين من الهلاك والاستئصال بتكذيبهم الرسل والآيات،[6] كقوله: فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا و تَحْوِيلًا،[7] وقوله: فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ.[8] ويحتمل قوله: **لا تبديل لكلمات الله**، أي لا تبديل[9] للبشرى التي[10] ذكر هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم. ويحتمل لا تبديل لحجج الله وبراهينه. أو لا تبديل لوعد الله ووعيده،[11] ونحوه.[12] *والله أعلم*.

وقوله عز وجل: **ذلك هو الفوز العظيم**، أي **ذلك**، البشرى، **هو الفوز العظيم**. أو **ذلك**، الذين لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ،[13] **هو الفوز العظيم**؛ إذ لا خوف بعده.*

---

[1] ك - لأنه نسق البشرى في الآخرة على البشرى في الحياة الدنيا ولا شك أنه لا يكون في الآخرة الرؤيا الصالحة.

[2] ن ع م: في الخبر.

[3] ﴿فبشر عبادِ. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب﴾ (سورة الزمر، ٣٩/١٧-١٨).

[4] سورة يونس، ١٠/٢.

[5] سورة الشورى، ٤٢/٢٣.

[6] ن: الآيات والرسل.

[7] ﴿استكبارًا في الأرض ومَكْرَ السَّيِّئ ولا يَحِيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٤٣).

[8] ﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يُغفَرْ لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مَضَتْ سنة الأولين﴾ (سورة الأنفال، ٨/٣٨).

[9] ك: لا لا تبديل.

[10] ك: لبشرى الذي؛ ن ع م: لبشرى الذين.

[11] ك: لوعيد الله ووعده.

[12] م: وفوه.

[13] سورة يونس، ١٠/٦٢.

* وقعت هنا قطعة من تفسير الآية السابقة برقم ٦٢، فقدمناها إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٣٢ظ/سطر ٢٩-٣٠.

﴿وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٦٥]

وقوله عز وجل: **ولا يحزنك قولهم**، يحتمل **قولهم**،[1] ما قالوا في الله بما لا يليق به من الولد والشريك. يقول: لا يحزنك ذلك، فإن العزة لله جميعا. ويحتمل قوله: **ولا يحزنك قولهم**، الذي قالوا في القرآن: إنه سحر[2] وإنه مفترى، أو قالوا في رسول الله: إنه ساحر وإنه يفتري على الله كذبا. ويشبه أن يكون قوله: **ولا يحزنك قولهم**، مكرهم الذي مكروا به وكيدُهم الذي كادوه. ويؤيد[3] ذلك[4] قوله: **إن العزة لله جميعا**، أي **إن العزة**، في المكر والكيد، **لله**. وهو كقوله: وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا،[5] أي مكره ينقض مكرهم ويمنعه، وكيده يفسخ كيدهم.[6] فعلى ذلك قوله: **إن العزة لله جميعا**، أي ينقض جميع ما يمكرون بك ويكيدونك. والعزة: القوة. يقول: إن القوة لله ينصرك على أعدائك ويدفع عنك كيدهم ومكرهم الذي هموا بك. **وهو السميع**، لقولهم[7] الذي قالوا،[8] **العليم**، بمصالحهم. أو **السميع**: المجيب للدعاء، **العليم**، بما يكون منهم.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾[٦٦]

وقوله عز وجل: **ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض**، أي تعلمون أن **من في السماوات ومن في الأرض** كلهم عبيده وإماؤه، فكيف قلتم: إن فلانا ولده وإن له شريكا، ولا أحد منكم يتخذ من / عبيده وإمائه ولدا ولا شريكا، كقوله: ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ،[9] الآية. فعلى ذلك [٢٣٣و]
هذا. أو كيف يحتمل أن يتخذ ولدا وله ملك ما في السماوات والأرض. وإنما يُتَّخذ في الشاهد الولد لإحدى خصال ثلاث: إمّا للاستنصار على غيره، وإمّا لحاجة[10] تمسه، وإمّا لوحشة[11] أصابته.

---

[1] ن – يحتمل قولهم.
[2] ع: إن سحروا.
[3] ك ن ع: يؤيد.
[4] ع: بذلك.
[5] سورة الرعد، ٤٢/١٣.
[6] م – كيدهم.
[7] ك – لقولهم.
[8] ك: قالوه.
[9] ﴿ضَرَبَ لكم مَثَلاً مِن أنفسكم هل لكم مِن ما ملكت أيمانكم مِن شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواءٌ تخافونهم كخيفتِكم أنفسَكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ (سورة الروم، ٢٨/٣٠).
[10] ع: الحاجة.
[11] ع: الوحشة.

فهو غني له ملك السماوات والأرض، لا حاجة تمسّه. فكيف نسبتم الولد إليه والشريك وما قلتم[١] فيه مما لا يليق به. وقد ذكرنا هذا فيما تقدم. أو يخبر[٢] عن غناه[٣] عما يأمرهم وينهاهم ويتعبّدهم. أي ليس يأمر وينهى ويتعبّد بأنواع العبادات ويمتحنهم بأنواع المحن لحاجة له أو لمنفعة له في ذلك، ولكن لمنفعة لهم في ذلك.

وقوله عز وجل: **وما يتّبع الذين يدعون من دون الله شركاء [إن يتبعون إلا الظن]**، أي ما يتّبعون فيما يدعون من دون الله من الشركاء الحجج[٤] والبراهين أو اليقين بكتاب[٥] أو رسول، إنما[٦] يتّبعون بالظن والحذر. **وإن هم إلا يَخْرُصون**، أي ما هم إلا يَكْذِبون[٧] فيما يتّبعون بدعائهم دون الله؛ لأنهم كانوا أهل شرك، لم يكونوا أهل كتاب ولا آمنوا برسول. فهم[٨] قد عرفوا أنهم مفترون كاذبون في اتّباعهم دون الله؛ إذ سبيل معرفة ذلك الكتاب أو الرسول، و لم يكن لهم واحد من ذلك. ***والله أعلم***.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[٦٧]

وقوله عز وجل: **هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مُبصِرا**،[٩] يُبصَر فيه. وقال في آية أخرى: وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ -يعني في الليل- وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ،[١٠] يعني في[١١] النهار. فهو في موضع الامتنان وتذكير[١٢] النعم، يَستأدي بذلك شكر ما أنعم عليهم.[١٣] وفيه أن الليل والنهار يجريان على التدبير والتقدير؛ لأنهما لو كانا يجريان على غير تدبير ولا تقدير لكانا لا يجريان على تقدير واحد ولا سَنَن واحد،[١٤]

---

١ جميع النسخ: قالوا.
٢ م: أو يخبره.
٣ ن: عن غنائه.
٤ جميع النسخ: بالحجج.
٥ م: أو الكتاب بيقين.
٦ ع + إنما.
٧ ع: لا يكذبون.
٨ ن – فهم.
٩ ن ع + مبصرا.
١٠ سورة القصص، ٢٨/٧٣.
١١ ع م – الليل ولتبتغوا من فضله يعني في.
١٢ ع: ويذكر.
١٣ جميع النسخ: عليه.
١٤ ع – ولا سنن واحد.

ولكان[١] يدخل فيهما الزيادة والنقصان ولا يجريان على تقدير واحد. ولكان[٢] يدخل بعضه في بعض. فدلّ جريانهما على تقدير واحد أنهما يجريان على تدبيرِ آخَر فيهما؛ إذ لو كان على غير تدبير [لكانا] يجريان على الجُزاف:[٣] على الزيادة والنقصان[٤] وعلى القلة[٥] والكثرة. وفيه أيضا أن مدبرهما واحد؛ لأنه لو كان مدبرهما عددا لكان إذا غلب أحدهما الآخر[٦] دام غلبته،[٧] ولا يصير الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا. فإذا صار ذلك ما ذكرنا دل أن مدبرها واحد لا عدد.

وفيه دلالة البعث بعد الموت؛ لأن كل واحد منهما إذا جاء أتلف صاحبه تلفا حتى لا يبقى له أثر ولا شيء منه، ثم يكون مثله حتى لا يختلف[٨] الذاهب من الحادث ولا الأول[٩] من الثاني. فدل أن الذي قَدَرَ على إنشاء ليل قد ذهب أثره وأصله لَقادرٌ[١٠] على البعث، ومن قدر على إحداث نهار وقد فني وهلك لقادر على إحداث ما ذكرنا من [الحياة بعد][١١] الموت.

وفيه أن الشيء إذا كان وجوبه لشيئين لم يجب إذا عُدِم أحدهما؛ لأنه قال: **والنهار مُبصِرا**، وإنما يُبصَر بنور البصر ونور النهار جميعا. لأنه إذا فات أحد النورين لم يُبصِر [الإنسان] شيئا من النور، نور البصر أو نور النهار. دل أن الحكم إذا وجب بشرطين لا يُوجَب إلا باجتماعهما جميعا. والليل يستر وجوه الأشياء، لا أنه لا يُرَى[١٢] نفسه، والنهار يكشف وجوه الأشياء. وفي الليل فيما[١٣] يستر وجوه الأشياء دلالة أنّ الحكم إذا كان وجوبه بشرطين يجوز منعه[١٤] بعلة واحدة؛ لأنه يستر نور النهار ونور البصر جميعا.

---

[١] جميع النسخ: ولكن.
[٢] جميع النسخ: وان كان.
[٣] ع: على الخراف. وعلى الجُزاف أي بدون حساب ولا تقدير دقيق.
[٤] م – ولا يجريان على تقدير واحد ولكان يدخل بعضه في بعض فدل جريانهما على تقدير واحد أنهما يجريان على تدبير آخر فيهما إذ لو كان على غير تدبير يجريان على الجزاف على الزيادة والنقصان.
[٥] ع م: على القلة.
[٦] ن: أحدهما على الآخر.
[٧] ع: غلبة.
[٨] م: حتى يختلف.
[٩] م: لا الأول.
[١٠] م: قادر.
[١١] مستفاد من *الشرح*، ورقة ٣٧٣و.
[١٢] ع: ألا يرى.
[١٣] م – فيما.
[١٤] ع م: صنعه.

وفي قوله: **جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مُبصِرا**، وجوه من الدلالة. أحدها ما ذكرنا من تذكير النعم، يدعوهم به إلى الشكران[1] وينهاهم عن الكفران. وفيه تذكير القدرة له حيث أنشأ هذا وأحدثه وأتلف الآخر؛ فمن قدر على هذا لا يعجزه شيء. وفيه دليل السلطان حيث يأخذهم الليل[2] ويستر عليهم الأشياء شاءوا أو أَبَوْا. وكذلك النهار يأتيهم[3] حتى يكشف وجوه الأشياء ويُجلي شاءوا أو أَبَوْا. وفيه دليل التدبير والعلم لما ذكرنا من اتّساق جريانهما على سنن واحد ومجرى واحد. وفيه دلالة وحدانية منشئهما.[4]

بيّن هاهنا فيما جعل الليل حيث قال: **لتسكنوا فيه**، أخبر أنه جعل الليل للسكون والراحة. فدل ذكر السكون في الليل على أنه جعل النهار[5] للسعي وطلب العيش. ألا ترى أنه قال في النهار: **مُبصِرا**، أي يُبصِرون فيه ما يتعيّشون[6] [به]. وهو ما ذكر في آية أخرى: وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ [وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ]،[7] الآية.

وقوله عز وجل: **إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون**، ولم يقل: يبصرون. فظاهرُ ما سبق من الذكر يجب أن يقال: لقوم يبصرون؛ لأنه قال: **والنهار مُبصِرا**. لكن يحتمل قوله: **يسمعون**، أي يعقلون، كقوله: وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ.[8] ويحتمل[9] قوله: **يسمعون**، ما ذكر من الآيات من أول السورة إلى هذا الموضع، **لآيات لقوم يسمعون**، ينتفعون بسماعهم. أو **يسمعون**،[10] أي يجيبون،[11] كقوله [عليه الصلاة والسلام]: «سمع الله لمن حمده»،[12] أي أجاب الله.

---

[1] ن ع: إلى الشكر؛ م: إلى شكره.
[2] م - الليل.
[3] ع م: تأتيهم.
[4] ع: منشئيهما.
[5] ن + مبصرا.
[6] ك ع م: ما يعيشون.
[7] سورة القصص، ٢٨/٧٣.
[8] سورة يونس، ١٠/٤٢.
[9] ع: يحتمل.
[10] ع م - ما ذكر من الآيات من أول السورة إلى هذا الموضع لآيات لقوم يسمعون ينتفعون بسماعهم أو يسمعون.
[11] ع: أي مجيبون.
[12] *صحيح البخاري*، الأذان ١٢٤؛ و*صحيح مسلم*، الصلاة ٧١.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٦٨]

وقوله عز وجل: **قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني**، قال بعضهم: أرادوا بقولهم: **اتخذ الله ولدا**، حقيقة الولد، كقوله: وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ،[١] وقوله: وَقَالَتِ الْيَهُودُ -كذا- وَقَالَتِ النَّصَارَى،[٢] كذا. فنزّه عز وجل نفسه عما قالوا بقوله: **سبحانه هو الغني**، إنه لم يَلد أحدا ولا وُلِد هو مِن أحد. ولهذا قال: لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ؛[٣] إذ في الشاهد لا يخلو[٤] إمّا أن يكون وُلِد مِن آخر أو [يكون] والدا.[٥] والخَلق كله لا يخلو[٦] من هذا. فأخبر أنه لم يَلد هو أحدا[٧] ولا وُلِد مِن أحد.

وقوله: **سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما / في الأرض**، تأويله -والله أعلم- [٢٣٣ظ] أن في الشاهد من اتخذ ولدا إنما يتخذ لأحد وجوه ثلاثة: إمّا لحاجةٍ تمسّه أو لشهوةٍ تَغلبه أو لما يَستنصر به على آخر ممن يخافه. فإذا كان له ملك السماوات والأرض وملك ما فيهما، كلهم عبيده[٨] وإماؤه، فلا حاجة تقع له إلى الولد؛ إذ هو الغني، وله ملك ما في السماوات والأرض. ومَن هذا وَصْفُه فلا يحتاج إلى الولد. ولأنه لا أحد[٩] في الشاهد يحتمل طبعه اتخاذ الولد من عبيده وإمائه. فإذا كان الله[١٠] سبحانه الخلائقُ كلهم عبيده وإماؤه كيف احتمل اتخاذ[١١] الولد منهم لو جاز؟ وقد بيّنا إحالة[١٢] ذلك وفساده. ولأن الولد يكون من شكل الوالد ومن جنسه، كالشريك يكون من شكل الشريك ومن جنسه، فكان في نفي الشريك نفي الولد؛ لأن معناهما واحد. وكل ذي شكل له ضد، ومن له ضد[١٣] أو شكل فإنه لا ربوبية له ولا ألوهية.

---

[١] في نسخة ك و ن بياض بمقدار عدة كلمات. يقول الله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون﴾ (سورة النحل، ٥٧/١٦).
[٢] ﴿وقالت اليهود عُزَيْر ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ (سورة التوبة، ٣٠/٩).
[٣] سورة الإخلاص، ٣/١١٢.
[٤] ك: لا يخ؛ ع م: لا يخلوا.
[٥] ن: ووالدا؛ ع م: أو والد.
[٦] ك: لا يخ؛ ع: لا يخلوا.
[٧] ع م: أحد.
[٨] م: عبده.
[٩] ع: ولا أنه لأحد.
[١٠] ن م: لله.
[١١] ن: اتخذ.
[١٢] م: إحالته.
[١٣] ع م - ومن له ضد.

وقال بعضهم: قولهم: **اتخذ الله ولدا**، لم يريدوا حقيقة الولد، ولكن أرادوا منزلة الولد وكرامته. فهو أيضا منفي عنه؛ لأن مَن لا يحتمل الحقيقة أعني حقيقة الولد امتنع عن منزلته وكرامته. لأن الحقيقة انتفت لعيب يدخل فيه، فإذا ثبت له منزلة تلك الحقيقة والكرامة دخل[1] فيه عيب[2] الحقيقة.[3]

وقوله عز وجل: **إنْ عندكم مِن سلطان بهذا**، قيل: ما عندكم مِن حجة على ما تقولون [من] أن له ولدا.[4] لأنهم كانوا أهل تقليد لآبائهم وأسلافهم، وكانوا لا يؤمنون بالرسل والكتب والحجج. وإنما يستفاد ذلك من جهة الرسالة والكتب. وهم كانوا ينكرون ذلك.

وقوله عز وجل: **أتقولون على الله ما لا تعلمون**، أي تقولون على الله: إنه[5] اتخذ الولد،[6] ما تعلمون[7] أنه لم يتخذ.[8]

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[٦٩]

قل إن الذين يفترون على الله الكذب، هو ما ذكرنا أنهم علموا أنه لم يتخذ ولدا،[9] لكن قالوا[10] ذلك افتراء[11] على الله، **لا يفلحون**، في الآخرة لِما طمعوا في الدنيا بعبادتهم دون الله الأصنام بقولهم: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى،[12] وقولهم:[13] هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ.[14] **لا يفلحون**، أي لا يظفرون بما طمعوا في الآخرة.

---

[1] ن: ودخل.

[2] ن ع م: عبيد.

[3] ك - وقال بعضهم قولهم اتخذ الله ولدا لم يريدوا حقيقة الولد ولكن أرادوا منزلة الولد وكرامته فهو أيضا منفي عنه لأن من لا يحتمل الحقيقة أعني حقيقة الولد امتنع عن منزلته وكرامته لأن الحقيقة انتفت لعيب يدخل فيه فإذا ثبت له منزلة تلك الحقيقة والكرامة دخل فيه عيب الحقيقة.

[4] م: ولد.

[5] ع - إنه.

[6] ك - الولد.

[7] ع: ما لا تعلمون.

[8] أي أتقولون على الله ما تعلمون أنه ليس كذلك.

[9] انظر تفسير الآية السابقة.

[10] م: لكن من قالوا.

[11] ع: افترى.

[12] سورة الزمر، ٣٩/٣.

[13] ك ع: وقوله؛ م - وقولهم.

[14] سورة يونس، ١٠/١٨.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[٧٠]

متاع في الدنيا، أي ذلك لهم **متاع في الدنيا**، ليس لهم متاع في الآخرة، **ثم إلينا مرجعهم**، يخاطب رسوله بذلك، لم يخاطبهم[١] [قائلا:] إلينا مرجعكم. فهو -والله[٢] أعلم- لِما اشتد على رسول الله ما افترَوْا به على الله. يقول:[٣] **إلينا مرجعهم**، فنجزيهم جزاء فِرْيَتِهم.[٤] والثاني يقول: **إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد**، لا ما طمعوا من الشفاعة عندنا والزُّلْفَى. ***والله أعلم***.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾[٧١]

وقوله عز وجل: **واتل عليهم نبأ نوح**، أي خبره وحديثه.

[٣٣٣ظ س٢٣] *وفي قوله:[٥] **واتل عليهم نبأ نوح**،[٦] وجوه. أحدها اتل مُنابذةَ نوحٍ قومَه وما أرادوا به من الكيد والمكر به. والثاني اذكر عواقب قوم نوح وما حلّ بهم من سوء معاملتهم رسولهم.
[٣٣٣ظ س٢٥] والثالث اذكر لهؤلاء[٧] عواقب متّبعي قومه ومخالِفيه.[٨]*

إذ قال لقومه يا قوم إن كان كَبُرَ عليكم مَقامي وتذكيري بآيات الله، قال بعضهم: **إن كان كَبُرَ عليكم**، طول، **مَقامي**، ومُكثي فيكم ودعائي[٩] إياكم إلى عبادة الله والطاعة له، **وتذكيري**، إياكم[١٠] بآياته. قال بعضهم: **وتذكيري**، بعذابه بتَرْكِكم إجابتي ودعائي. ويحتمل قوله: **إن كان كَبُرَ عليكم مَقامي**، بما أدّعي من الرسالة، **وتذكيري بآيات الله**، أي بحجج[١١] الله على ما ادّعيت من الرسالة.*

---

[١] ع: لم يخاطب.
[٢] م: الله.
[٣] ع: يقولون.
[٤] ع: قرينهم.
[٥] ع م: في قوله.
[٦] ن ع م + فيه.
[٧] ع م: لهم لا.
[٨] جميع النسخ: ومخالفه.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٣٣ظ/سطر ٢٣-٢٥.
[٩] م: دعائي.
[١٠] م - إياكم.
[١١] ع م: أي لحجج.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٣٣ظ/سطر ٢٣-٢٥.

وقوله عز وجل: **فأَجْمِعوا أمرَكم وشركاءَكم**، قال بعضهم: أي اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ثم كِيدونِ، **ثم لا يكن أمرُكم عليكم غُمَّةً**، أي اجعلوا ما تسرّون[1] من الكيد والمكر بي ظاهرا غير ملتبس ولا مشتبه.[2] وقال بعضهم: قوله:[3] **فأَجْمِعوا أمرَكم**، أي أَعِدُّوا أمرَكم وادعوا شركاءكم. وكذلك روي في حرف أُبيّ: فأجمعوا أمركم وادعوا[4] شركاءكم. **ثم اقْضُوا إليَّ ولا تُنظِرونِ**، أي اقْضُوا ما أنتم قاضون. وقال بعضهم: قوله: **ثم لا يكن أمرُكم عليكم غُمَّةً**، أي لا يَكبُرْ عليكم أمرُكم. وقال الكسائي:[5] هو من التغطية واللَّبْس، أي لا تغطّوه ولا تَلْبِسوه،[6] اجعلوا كلمتكم ظاهرة واحدة. وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: لا يكن أمركم اغتماما عليكم، أي فرّجوا عن أنفسكم، كقوله: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللّٰهُ،[7] الآية.

وقوله عز وجل: **ثم اقْضُوا إليَّ ولا تُنظِرونِ**، أي اعملوا بي ما تريدون **ولا تُنظِرونِ**. وهو كقوله: فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ.[8] وقال الكسائي:[9] هو من الإنهاء[10] والإبلاغ. وهو كقوله: وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ،[11] الآية، وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذٰلِكَ الْأَمْرَ،[12] أي أَنْهَيْنا إليه وأَبلغنا إليه. وقال أبو عَوْسَجَة: إن شئت جعلتها ظُلْمَةً فلا يبصرون أمرَهم، يعني **غُمَّةً**، وإن شئت[13] جعلتها شكّا. واشتقاق الغُمَّة من غَمّ يَغُمّ غمّا، أي غطّى يغطّي. تقول: غَمَمْت رأسه، أي غطّيته. **ثم اقْضُوا إليَّ**، أي افعلوا بي ما أردتم.

---

[1] ع م: ما تريدون.
[2] ك: ولا مشبه.
[3] ع م – قوله.
[4] م – وادعوا.
[5] ع: الكيساني.
[6] ن: تلبسوا.
[7] ﴿من كان يَظنّ أنْ لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فلْيَمْدُدْ بسببٍ إلى السماء ثم لْيَقطَعْ فلْيَنظُرْ هل يُذْهِبَنَّ كيدُه ما يَغِيظ﴾ (سورة الحج، ١٥/٢٢).
[8] ﴿قالوا لن نُؤْثِرَك على ما جاءنا من البينات والذي فَطَرَنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾ (سورة طه، ٧٢/٢٠). القائلون لهذا الكلام هم سحرة فرعون بعدما آمنوا وهددهم فرعون بالقتل.
[9] ن ع: الكيساني.
[10] ع: من الانهار.
[11] ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لَتُفْسِدُنَّ في الأرض مرّتين ولَتَعْلُنَّ عُلُوّا كبيرا﴾ (سورة الإسراء، ٤/١٧).
[12] ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أنّ دابرَ هؤلاء مَقطوعٌ مُصبِحين﴾ (سورة الحجر، ٦٦/١٥).
[13] م: إن شئت.

[٣٣٣ظ س ٣٩] *وقال بعضهم في قوله: **ثم اقْضُوا إليَّ**، أي[1] فافرُغوا إليَّ. يقال:[2] قضى[3] [أي] فَرَغ.
[٣٣٤و] وهو قول أبي بكر[4] الأصم. / وقال بعضهم:[5] **ثم اقْضُوا إليَّ**، أي امْضُوا إليَّ،[6] كقوله: فَرَاغَ
[٣٣٤و س ١] إِلَى أَهْلِهِ،[7] و فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ،[8] ونحوه.*

وفي قول نوح لقومه: **فأَجْمِعوا أمرَكم وشركاءَكم** -إلى قوله- **ولا تُنظِرونِ**، وقول هود: فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ،[9] وقول رسول الله: قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ،[10] دلالة إثبات رسالتهم؛ لأنهم قالوا ذلك لقومهم وهم بين أظهرهم و لم يكن معهم أنصار ولا أعوان. دلّ أنهم[11] إنما[12] قالوا ذلك اعتمادا على الله واتّكالا على معونته[13] ونصره إياهم.*

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٧٢]

وقوله عز وجل: **فإن تولَّيتم فما سألتكم من أجر**، التولي اسم لأمرين. اسم للإعراض والإدبار، كقوله: وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ.[14] واسم للإقبال والقبول أيضا، كقوله: وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا،[15] الآية، ونحوه. فهاهنا يحتمل الأمرين[16] جميعا.

---

[1] ن – أي.
[2] م: إلى أن يقال.
[3] ك ن – قضى.
[4] ن – أبي بكر.
[5] م: وبعضهم.
[6] ع م – أي امضوا إلي.
[7] ﴿فراغَ إلى أهله فجاء بعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (سورة الذاريات، ٥١/٢٦).
[8] ﴿فراغَ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون﴾ (سورة الصافات، ٣٧/٩١).
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٣٩ظ/سطر ٣٩- ورقة ٣٣٤و/سطر ١.
[9] سورة هود، ١١/٥٥.
[10] سورة الأعراف، ٧/١٩٥.
[11] ن – أنهم.
[12] م – إنما.
[13] جميع النسخ: بمعونته.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٣٩ظ/سطر ٣٩- ورقة ٣٣٤و/سطر ١.
[14] ﴿وإذا تولى سَعَى في الأرض ليفسد فيها ويُهلِكَ الحَرْثَ والنسل والله لا يحب الفساد﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٠٥).
[15] ﴿ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ (سورة المائدة، ٥/٥٦).
[16] م: أمرين.

أي **فإن تولّيتم**، أي أقبلتم وقبلتم ما أَعرِضه عليكم وأدعوكم إليه، **فما سألتكم من أجر**، أي ما أجري إلا على الله. وإن كان في الإعراض فكأنه يقول: كيف أعرضتم عن قبوله ولم أسألكم على ذلك أجرا فيكون لكم عذر في الإعراض والرد؟ كقوله: أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا،[1] الآية،[2] أي لم أسألكم على ما أَعرِضه عليكم وأدعوكم إليه غُرْما حتى يَثقُل عليكم ذلك الغُرْم فيمنعكم ثِقَل الغُرْم عن الإجابة.

ففي هذه الآية وغيرها دلالة منع أخذ الأجر على تعليم[3] القرآن والعلم؛ لأنه لو جاز أخذ الأجر على ذلك لكان لهم عذر أن لا يبذلوا ذلك ولا يتعلموا شيئا من ذلك. وفي ذلك هدم شرائع الله وإسقاطها. ***والله أعلم***.

وقوله عز وجل: **وأمرت أن أكون من المسلمين**، أي مسلما نفسي إلى الله، أي سالما[4] لا أجعل لأحد سواه فيها حقا ولا حظا. أو أمرت[5] أن أكون من المخلصين لله[6] والخاضعين له. هو[7] يحتمل ذلك كله.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾[٧٣]

وقوله عز وجل: **فكذّبوه**، يعني نوحا، كذّبه قومه فيما ادّعى من الرسالة أو ما أتاهم[8] من الآيات أو ما أوعدهم[9] من العذاب بتكذيبهم إياه. **فنجيناه**، يعني نوحا، **ومن معه في الفلك**، أي من ركب معه الفلك[10] من المؤمنين. **وجعلناهم خلائف**، يحتمل **خلائف**،[11] خلفاء في الأرض وسكّانا يَخلُف بعضهم بعضا. ويحتمل **جعلناهم خلائف**، أي خَلَف قومٍ أُهلِكوا واستُؤصِلوا[12] بالتكذيب.

---

[1] ﴿أم تسألهم أجرا فهم من مَغرَمٍ مُثقَلون﴾ (سورة الطور، ٥٢/٤٠؛ وسورة القلم، ٦٨/٤٦).
[2] ك + أي لم أسألكم على ذلك أجرا فيكون لكم عذر في الإعراض والرد كقوله أم تسألهم أجرا الآية.
[3] ن: على تعلم.
[4] م: إلى الله سالما؛ ن + لما.
[5] ع: ولا خطاء وأمرت؛ م: وأمرت.
[6] ك – لله.
[7] ع م – هو.
[8] م: ما أتاكم.
[9] م: ما أودهم.
[10] ع: الملك.
[11] ن – يحتمل خلائف.
[12] ع: أو استوصلوا.

وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، يحتمل الآيات الحجج[١] والبراهين التي أقامها على ما ادّعى من الرسالة. ويحتمل قوله: **كذبوا بآياتنا**، العذاب الذي أوعدهم بتكذيبهم إياه فيما وعد.

وقوله عز وجل: **فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين**، كان أنذر[٢] الفريقين جميعا، المؤمن والكافر جميعا، كقوله: إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ.[٣] فإذا[٤] كان ما ذكرنا فيكون تأويله: **فانظر كيف كان عاقبة** من أجاب ومن لم يجب. عاقبة من أجاب الثواب، وعاقبة من لم يجب العذاب. ويحتمل **المنذَرين**، الذين لم يقبلوا الإنذار و لم يجيبوا، أي انظر كيف كان عاقبتهم بالهلاك والاستئصال. ويكون تأويل قوله: إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ، أي إنما يقبل الإنذار من اتّبع الذكر، أو إنما[٥] ينتفع بالإنذار من اتّبع الذكر، وأمّا من لم يتّبع الذكر لم ينتفع. ***والله أعلم.***

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾[٧٤]

وقوله عز وجل: **ثم بعثنا من بعده رسلا**، أي من بعد نوح رسلا، **إلى قومهم**، أي بعثنا إلى كل قوم رسولا، لا أنه[٦] بعث الرسل جملة[٧] إلى قومهم، ولكن واحدا على إثر واحد. **فجاءوهم بالبينات**، يحتمل البينات الحجج والبراهين التي أقاموها على ما ادّعوا من الرسالة والنبوة. ويحتمل البينات بيان ما عليهم أن يأتوا ويتّقوا. ويحتمل البينات ما أخبروهم[٨] وأنبئوا قومهم بالعذاب أنه نازل بهم في الدنيا.

وقوله عز وجل: **فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل**، قال[٩] بعضهم: ما كان كفار مكة ليؤمنوا وليصدّقوا[١٠] بالبينات[١١] كما لم يصدّق به أوائلهم. وقال بعضهم: قوله: **بما كذّبوا به من قبل**،

[١] ك: والحجج.
[٢] م: إنذار.
[٣] ﴿إنما تُنذِر مَن اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبَشِّره بمغفرة وأجر كريم﴾ (سورة يس، ٣٦/١١).
[٤] ع: فإن.
[٥] م: وإنما.
[٦] م: ألا أنه.
[٧] ع م – جملة.
[٨] جميع النسخ: بما أخبروهم.
[٩] م: وقال.
[١٠] ن ع + بالآيات.
[١١] ن ع: والبينات.

أي قبل بعث الرسل. ففيه دلالة أن أهل الفترة يؤاخذون بالتكذيب في حال الفترة. ويحتمل قوله: **بما كذّبوا به من قبل**، أي من قبل[1] إتيان البينات، أي ما كانوا ليؤمنوا[2] بعد ما جاءوا بالبينات بما كذّبوا به من قبل مجيء البينات.

كذلك نطبع على قلوب المعتدين، أي هكذا نطبع على قلوب أهل مكة كما طبعنا على قلوب أوائلهم؛ إذ عَلم أنهم لا يقبلون الآيات ولا يؤمنون بها. والاعتداء هو الظلم مع العناد والمجاوزة عن الحد الذي جعل.

وقوله عز وجل: **فما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا به من قبل**، هو يخرج على وجهين. أحدهما ما كانوا ليؤمنوا بالبينات إذا جاءتهم البينات على السؤال. وهكذا عادتهم أنهم لا يؤمنون بالآيات إذا أتاهم على السؤال. والثاني ما كانوا ليؤمنوا بما كذّبوا على علم منهم أنها آيات وأنه رسول. ***والله أعلم***.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾[٧٥]

وقوله: **ثم بعثنا من بعدهم**، أي من بعد من ذكرنا من الرسل، **موسى وهارون إلى فرعون ومَلَئِه**، بعثهما إلى الملأ وغير الملأ، **بآياتنا**، يحتمل الوجوه التي ذكرنا. **فاستكبروا**، هذا يدل أنهم قد عرفوا أن ما جاءهم الرسل[3] من الآيات أنها آيات، لكنهم عاندوا وكابروا و لم يخضعوا في قبولها، **وكانوا قوما مجرمين**.[4]

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾[٧٦]

وقوله عز وجل: **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين**، قال بعضهم: قوله: **فلما جاءهم الحق من عندنا**، أي الحجج والآيات من عندنا، **قالوا إن هذا**، يعنون الحجج والبراهين التي جاءهم[5] بها[6] موسى، **لسحر مبين**، يسمّون الحجج والبراهين سحرا لِما أن السحر عندهم باطل.

---

[1] ع م – أي من قبل.
[2] ع م: يؤمنوا.
[3] م: الرسول.
[4] ع – وقوله ثم بعثنا من بعدهم أي من بعد من ذكرنا من الرسل موسى وهارون إلى فرعون وملئه بعثهما إلى الملأ وغير الملأ بآياتنا يحتمل الوجوه التي ذكرنا فاستكبروا هذا يدل أنهم قد عرفوا أن ما جاءهم الرسل من الآيات أنها آيات لكنهم عاندوا وكابروا و لم يخضعوا في قبولها وكانوا قوما مجرمين.
[5] ك ن: جاء.
[6] ن: بهم؛ ع م – بها.

لذلك قالوا / للحجج: إنها سحر. وذلك تمويه منهم، يُمَوِّهون على الناس لئلا يظهر الحق [٣٣٤ظ]
عندهم فيتّبعوه.[١] وقال بعضهم: **الحق**، هو الإسلام والدين، كقوله: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ.[٢] **قالوا إن هذا لسحر مبين**، يعنون الحجج والآيات التي جاءهم بها للدين؛ لأنه جاءهم[٣] بالدين، وجاءهم أيضا بحجج الدين وآياته. قالوا لحجج[٤] الدين والإسلام: سِحْر.[٥] ففي التأويلين جميعا سَمَّوْا الحجج سحرا. وقوله: **جاءهم الحق من عندنا**، أي بأمرنا. وكذلك قوله: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ، أي الإسلام هو الدين[٦] الذي أمر الله به. لا أنه يُفهَم للعِنْد مكان، [وأن الله] ينتقل من مكان إلى مكان، ولكن معنى العِنْد معنى الأمر. وعلى هذا يخرج قوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ -يعني الملائكة- لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ،[٧] أي إن الذين[٨] بأمر[٩] ربك يعبدونه ولا يستكبرون[١٠] عن عبادته. لِما أنه لم يُفهَم مِن مجيء الحق من عنده مكان فعلى ذلك لا يجوز أن يُفهَم مِن قوله: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ، المكان أو قُرب[١١] المكان منه. ولكن التأويل ما ذكرنا أن المفهوم مِن عِنْد الله أمرُه. ***والله أعلم***.

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾[٧٧]

وقوله عز وجل: **قال موسى أتقولون للحق لمّا جاءكم أسحر هذا**، والحق ما ذكرنا.[١٢] **ولا يفلح الساحرون**، الإفلاح هو الظفر بالحاجة. يقول: **ولا يفلح الساحرون**، أي لا يظفر[١٣] الساحر[١٤] بالحاجة ولا يَغلب؛ لأن السحر باطل، ولا يغلب الباطل الحق،[١٥] بل الحق هو الغالب،

---

[١] جميع النسخ: فيتبعونه.
[٢] سورة آل عمران، ١٩/٣.
[٣] م: جاء.
[٤] ن: الحجج.
[٥] جميع النسخ: سحرا.
[٦] ك – الدين.
[٧] سورة الأعراف، ٢٠٦/٧.
[٨] ك: أي الذين.
[٩] ع: يأمر.
[١٠] ك ن ع: لا يستكبرون.
[١١] ع م: أقرب.
[١٢] انظر تفسير الآية السابقة.
[١٣] م: لا يظفرون.
[١٤] م – الساحر.
[١٥] ع م – الحق.

والسحر هو المغلوب، على ما غَلب[1] الحق الذي جاء به موسى السحر الذي جاء [به] سَحَرة فرعون. أو يقول: **ولا يفلح الساحرون**، في الآخرة بسحرهم في الدنيا. ويحتمل قوله: **ولا يفلح الساحرون**، بسحرهم في حال سحرهم، كقوله: لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ،[2] و لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ،[3] أي لا يفلحون بظلمهم في حال ظلمهم. وأمّا إذا تركوا الظلم فقد أفلحوا. فعلى ذلك السَحَرة إذا تركوا السحر فقد أفلحوا. *والله أعلم*.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[٧٨]

وقوله عز وجل: **قالوا أجئتنا لِتَلْفِتَنا**، قيل: لتَصرِفنا وتَصُدّنا. قال القُتَبي: لَفَتَ فلانا عن كذا إذا صرفته، والالتفات منه، وهو الانصراف.[4] وقال أبو عَوْسَجَة: **لِتَلْفِتَنا**، أي تردّنا وتصرفنا[5] على ما ذكر القُتَبي. قال: يُقال: لَفَتَه يَلْفِته لَفْتا.

وقوله عز وجل: **عما وجدنا عليه آباءنا**، من عبادة الأصنام والأوثان. ويحتمل **عما وجدنا عليه آباءنا**، من عبادة فرعون والطاعة له.

وتكونَ لكما الكبرياء في الأرض، قال عامة[6] أهل التأويل: **الكبرياء**: المُلْك[7] والسلطان والشرف. أي الملك الذي كان لفرعون والسلطان يكون لكما باتباع الناس لكما، لأن كل متبوع مطاع معظَّم مشرَّف. ويحتمل قوله:[8] **وتكون لكما الكبرياء في الأرض**، أي الألوهية التي كان[9] يدّعي فرعون لنفسه [تكون] لكما؛ لأن عندهم أن كل من أُطِيع[10] واتُّبِع فقد عُبِد ونُصِب إلها.

وما نحن لكما بمؤمنين، أي بمصدّقين[11] فيما تدعوننا إليه أو ما تدّعون من الرسالة.

---

[1] ع: ما أغلب.
[2] سورة الأنعام، ٢١/٦، ١٣٥؛ وسورة يوسف، ٢٣/١٢؛ وسورة القصص، ٣٧/٢٨.
[3] سورة المؤمنون، ١١٧/٢٣؛ وسورة القصص، ٨٢/٢٨.
[4] تفسير غريب *القرآن* لابن قتيبة، ١٩٨.
[5] ن – وتصدنا قال القتبي لفت فلانا عن كذا إذا صرفته والالتفات منه وهو الانصراف وقال أبو عوسجة لتلفتنا أي تردنا وتصرفنا.
[6] ع م – عامة.
[7] ك ن ع: والملك.
[8] ك ن – قوله.
[9] م: كانت.
[10] ع: من أطيع.
[11] ن: أي مصدقين.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾[٧٩]

وقوله عز وجل: **وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم**، هذا من فرعون ينقض ما ادّعى من الألوهية حيث أظهر الحاجة إلى غيره، ولا يجوز أن يكون المحتاج إلها.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾[٨٠] ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٨١]

وقوله عز وجل: **فلمّا جاء السحرة قال لهم موسى أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُون فلمّا أَلْقَوْا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيُبْطِلُه**، أي سيُبْطِل عَمَل السحر الذي قصدوا به. أي يجعله[١] مغلوبا، كقوله: وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ،[٢] أي لا يَغلب الساحرون[٣] ولا يَظفرون بالحاجة.

إن الله لا يصلح عمل المفسدين، أي لا يُصلِح ما أفسدوا من أعمالهم فيجعلهم صالحين. وقوله: **إن الله لا يصلح عمل المفسدين**، هو ما ذكرنا، أي لا يجعلهم بأعمالهم الفاسدة صالحين. أو لا يجعل أعمالهم الفاسدة صالحة. وقال بعضهم: **لا يُصلِح**، أي لا يرضى بعمل المفسدين.

﴿وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[٨٢]

وقوله عز وجل: **ويُحِقّ الله الحق بكلماته ولو كَرِه المجرمون**، ذكر أن يُحِقّ الحق، والحق حق وإن لم يُحِقّ الحق. وكذلك ذكر[٤] في الباطل: وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ،[٥] والباطل[٦] باطل وإن لم يُبطِل. ولكن يحتمل قوله: لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ، أي ليجعل الحق في الابتداء حقا فيصير حقا،[٧] ويجعل الباطل في الابتداء[٨] باطلا فيكون باطلا. أي[٩] بإبطاله الباطل يكون باطلا، وبتحقيقه الحق يكون حقا. وهو ما يقال:[١٠] هَداه فاهتدى، وأَضلّه فضلّ. أي بهدايته اهتدى وبإضلاله ضلّ. فعلى ذلك بإبطاله الباطل بَطَل، وبتحقيقه[١١] الحقّ حَقّ. *والله أعلم*.

---

[١] م: أي يجعلوه.
[٢] سورة يونس، ٧٧/١٠.
[٣] ع: الساحر.
[٤] ع م: وذكر كذلك.
[٥] ﴿لِيُحِقّ الحق ويُبطِلَ الباطل ولو كَرِه المجرمون﴾ (سورة الأنفال، ٨/٨).
[٦] ن – والباطل.
[٧] م – فيصير حقا.
[٨] ع – حقا فيصير حقا ويجعل الباطل في الابتداء.
[٩] م – أي.
[١٠] م: وهو يقال.
[١١] ك: وتحقيقه.

وقوله: **بكلماته**، يحتمل وجوها. يحتمل **ويُحِقّ الله الحق بكلماته**، أي برسله؛ إذ بالرسل يظهر الحق، وبهم يظهر بطلان الباطل. وهم حجج الله في الأرض، وبالحجج يظهر الحق، وكذلك الباطل. ويحتمل ما ذكر أهل التأويل: **بكلماته**، آياته التي أنزل عليه. بها ظهر حقيقة ما أتى به موسى، وبها ظهر بطلان ما أتى به السَّحَرة من السحر. ويحتمل كلماته[1] ما وَعد موسى قومَه من العذاب وما[2] وَعد من الظفر بأعدائهم والنصر عليهم وغير ذلك [و]ما وَعد[3] من النعمة لهم، كقوله:[4] اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّٰهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.[5]

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[٨٣]

وقوله عز وجل: **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه**، يحتمل قوله: **من قومه**، من قوم موسى. لِما قيل: إن موسى كان من أولاد إسرائيل، فهم من ذريته من هذا الوجه. يقال: أهل بيت فلان، وإن لم يكن[6] البيت له. ويحتمل قوله:[7] **إلا ذرية من قومه**،[8] من قوم فرعون، فهو نسب إليه لما ذكرنا. وقال أهل التأويل: أراد بالذرية القليل منهم، أي ما آمن منهم إلا القليل.[9] ولكن لا ندري ذلك.

وقوله: **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون ومَلَئِهم**، يحتمل:[10] ما آمن مَن آمن مِن قومه إلا **على خوف من فرعون ومَلَئِهم**، أي آمنوا وإن خافوا من فرعون ومَلَئِهم.[11] ويحتمل: ما ترك مِن قومه الإيمان بموسى مَن ترك إلا على / خوف من فرعون، [٣٣٥و]

---

[1] ع م – أي برسله إذ بالرسل يظهر الحق وبهم يظهر بطلان الباطل وهم حجج الله في الأرض وبالحجج يظهر الحق وكذلك الباطل ويحتمل ما ذكر أهل التأويل بكلماته آياته التي أنزل عليه بها ظهر حقيقة ما أتى به موسى وبها ظهر بطلان ما أتى به السحرة من السحر ويحتمل كلماته.

[2] جميع النسخ: التي.

[3] ع م – من الظفر بأعدائهم والنصر عليهم وغير ذلك ما وعد.

[4] ع – كقوله.

[5] ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين﴾ (سورة المائدة، ٥/٢٠).

[6] م: وإن لم تكن.

[7] ك ن – قوله.

[8] م – من قومه.

[9] م: إلا قليل.

[10] ع م + قوله.

[11] ك: وملائه.

أن يَفْتِنَهم،[١] أي يقتلهم ويعذبهم. ففيه دلالة أن الخوف لا يُعذَر المرء [به] في ترك الإيمان حقيقة، وإن كان يُعذَر [به] في ترك إظهاره؛ لأن الإيمان هو التصديق، والتصديق[٢] يكون بالقلب. ولا أحد من الخلائق يطّلع على ذلك. لذلك لم يُعذَر في ترك إتيانه؛ لأنه يقدر على إسراره. ألا ترى إلى قوله: وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ.[٣] كان مؤمنا فيما بينه وبين[٤] ربه[٥] وإن لم يُظهِر [ذلك].

وقوله عز وجل: **وإن فرعون لَعالٍ في الأرض**، وهو ما قال عز وجل: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ،[٦] أي قهر وغلب على أهل الأرض، **وإنه لمن المسرفين**.

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾[٨٤]

وقوله[٧] عز وجل: **وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**، فيه دلالة أن الإيمان والإسلام واحد في الحقيقة؛ لأنه بدأ بالإيمان بقوله: **إن كنتم آمنتم بالله**، وختم بالإسلام بقوله: **إن كنتم مسلمين**. دل أنهما واحد. [الإيمان] هو اعتقادُ تركِ تضييعِ كلِّ حق. والإسلام اعتقادُ تسليمِ[٨] كلِّ حق وتركِ تضييعه. ***والله أعلم***. والإسلام[٩] هو جَعْل كلّيّة الأشياء لله سالمة. والإيمان هو التصديق بكلّيّة الأشياء فيما فيها من الشهادة لله بالربوبية له والألوهية.

وقوله: **فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين**؛ يحتمل هذا وجهين. يحتمل أن يكون قال ذلك لما خافوا مواعيد فرعون وعقوباته، كقوله للسحرة لما آمنوا: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ،[١٠] الآية، فقال عند ذلك: **فعليه توكلوا**، في دفع ذلك عنكم.[١١]

---

[١] ن: أن يفتلهم.
[٢] ع – والتصديق؛ م: لأن التصديق.
[٣] سورة المؤمن، ٤٠/٢٨.
[٤] م – وبين.
[٥] م: وربه.
[٦] سورة القصص، ٢٨/٤.
[٧] ن: قوله.
[٨] م – تسليم.
[٩] ع – والإسلام.
[١٠] سورة الأعراف، ٧/١٢٤؛ وسورة الشعراء، ٢٦/٤٩.
[١١] ن: عنهم؛ م – عنكم.

﴿فَقَالُوا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٨٥]

فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين. وقوله:[١] **لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين**، يحتمل ما قاله: عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ،[٢] ما قيل:[٣] أي يقتلهم ويعذبهم. *والله أعلم*. هذا يخرج على وجهين. أحدهما أي لا تجعل لهم علينا الظفر والنصر، فيظنوا[٤] أنهم على هدى وعلى حق[٥] ونحن على ضلال وباطل. والثاني لا تجعلنا تحت أيدي الظَّلَمَة[٦] فيعذّبونا،[٧] فيكون ذلك فتنة لنا ومحنة، على ما فعل فرعون بالسحرة لما آمنوا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[٨٦]

وقوله عز وجل: **ونَجِّنا برحمتك من القوم الكافرين**، فيه أن قوله:[٨] الظَّالِمِينَ،[٩] و **الكافرين**، واحد. *والله أعلم*.[١٠]

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٨٧]

وقوله عز وجل: **وأوحينا إلى موسى وأخيه أنْ تَبَوَّآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة**، الآية، يحتمل[١١] وجهين.[١٢] يحتمل[١٣] قوله: **أنْ تَبَوَّآ لقومكما**، أي اتَّخِذا لقومكما مساجد[١٤] يصلّون فيها، **واجعلوا بيوتكم**، أي اجعلوا في بيوتكم التي اتخذتم مساجد،[١٥] **قبلةً**.

---

[١] ن ع م: قوله.
[٢] سورة يونس، ٨٣/١٠.
[٣] ع: ما قبل.
[٤] جميع النسخ: فيظنون.
[٥] م: خوف.
[٦] م + الظلمة.
[٧] م: فيعذبون.
[٨] م: فيه قوله.
[٩] الآية السابقة.
[١٠] ن - والله أعلم.
[١١] ن م: تحتمل.
[١٢] م + أحدهما.
[١٣] ن: تحتمل.
[١٤] ن ع: مساجدا.
[١٥] ن ع: مساجدا؛ م: المساجد.

أنْ تَبَوَّآ لقومكما بمصر بيوتا، الأمر باتخاذ المساجد. ويكون في قوله: **واجعلوا بيوتكم قبلةً**، الأمر باتخاذ القبلة في المساجد التي أمر ببنائها.[١] والثاني قوله: **أن تَبَوَّآ لقومكما بمصر بيوتا**، أي اتخذا[٢] لقومكما بمصر مساجد،[٣] على ما ذكرنا.

*وقال أبو عَوْسَجَة: قوله: **أنْ تَبَوَّآ لقومكما**، تَهَيَّآ،[٤] مِن التَّهْيِئَة، / أي هَيِّآ لهم موضعا، [٣٣٥و س٣٩
كقوله: وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ،[٥] أي هيأنا لهم مُهَيَّأَ صِدْق.* ٣٣٥ظ س١]

وقوله عز وجل: **واجعلوا بيوتكم قبلةً**، أي اجعلوا في بيوتكم التي بنيتم لأنفسكم قبلة تتوجّهون إليها. ويكون فيه دلالة أنّ نَصْب الجماعة واتخاذ المساجد والقبلة مُتوارَثة مَسنُونة،[٦] ليست ببديعة لنا وفي شريعتنا خاصّة. ويؤيد ما ذكرنا أن فيه الأمر باتخاذ المساجد. وقوله: **وأقيموا الصلاة**، دل الأمر بإقامة الصلاة على أن الأمر بتَبْوِئَة[٧] البيوت أمرٌ باتخاذ المساجد واتخاذ القبلة. فإن قيل: هذا في الظاهر أمرٌ باتخاذ المساجد،[٨] والآية التي ذكر فيها اتخاذ المساجد تخرج مخرج الإباحة لنا، وهو قوله: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّٰهُ أَنْ تُرْفَعَ.[٩] هو في الظاهر إباحة.[١٠] قيل: هو أمرٌ في الحقيقة وإن كان في الظاهر إباحة. ألا ترى أنه قال: وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا، الآية. ولا شك أنّ ذِكر اسمه والتسبيح له أمرٌ فيه.[١١] دل أنه ما ذكرنا. *والله أعلم*.

---

[١] ع: بنبائها.
[٢] ع م: أي اتخذ.
[٣] ك ن ع: مساجدا.
[٤] ك: تهيبا.
[٥] سورة يونس، ٩٣/١٠.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٣٥و/سطر ٣٩- ورقة ٣٣٥ظ/سطر ١.
[٦] ع م - مسنونة.
[٧] م: بتوية.
[٨] ع م - واتخاذ القبلة فإن قيل هذا في الظاهر أمر باتخاذ المساجد.
[٩] ﴿في بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرفَع ويُذكَر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغُدُوّ والآصال. رجالٌ لا تُلْهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلّب فيه القلوب والأبصار﴾ (سورة النور، ٣٦/٢٤-٣٧).
[١٠] في نسخة ك بياض بمقدار عدة كلمات، وفي هامشها: كذا في الأصل بياض.
[١١] يقول الشارح رحمه الله تعالى: «فإن قيل: هذا في الظاهر أمرٌ باتخاذ المساجد، وفي الآية التي ذكر فيها اتخاذ المساجد، وهي قوله: ﴿في بيوتٍ أذِنَ الله أنْ تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمه﴾، دلالة الإباحة، حيث قال: ﴿أَذِنَ الله﴾. قيل: معناه: في بيوتٍ أَمَرَ الله أنْ تُرفَع ويُذكَر فيها اسمه. ألا ترى أنه قال: ﴿ويُذكَرَ فيها اسمه يُسبّحُ له فيها بالغُدُوّ والآصال﴾. ولا شكّ أنّ ذِكر اسمه والتسبيح له فيها والصلاة مأمور به على الوجوب، فكذلك المعطوف عليه» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٧٥و).

وأما أهل التأويل فإنهم قالوا: إنهم كانوا يخافون فرعون وملأه، فأُمِروا أن يجعلوا في بيوتهم مساجدَ[١] مُستقبِلةً[٢] الكعبة، يصلّون فيها سرّا خوفا من فرعون. هذا يحتمل إذا كان[٣] قبل هلاك فرعون وقبل أن يستولوا على مصر. وإذا كان بعد هلاكه وبعد ما استولَوْا وملكوا على مصر وأهله فالأمر فيه -ما ذكرنا- أمرٌ باتخاذ المساجد ونَصْبِ الجماعات فيه وإقامةِ الصلاة فيها. وقال بعض أهل[٤] التأويل: وَجِّهوا بيوتكم ومساجدكم نحو القبلة. لكن هذا بعيد؛ لأنه لا يكون بيتا إلا ويكون جهة من جهاته إلى القبلة، فلا معنى له. والوجه فيه ما ذكرنا. ويحتمل الأمر بتَبْوِئَة[٥] البيوت لقومهما بمصر وجَعْلِ البيوت قبلةً وجهين. أحدهما الأمر بالانفصال من فرعون وقومه حتى إذا أرادوا الخروج من عندهم قَدَروا على ذلك ولا يكون المرور عليهم. وكأن ذلك الانفصال إنما كان من جهة القبلة. والثاني ما ذكرنا:[٦] أرادوا أن يعتزلوهم حتى[٧] يتهيأ لهم الصلاة فيها، وكان لا يتهيأ[٨] لهم[٩] في بيوت فرعون.

وقوله عز وجل: **وبشّر المؤمنين**، يحتمل البِشارة في الآخرة بالجنة وأنواع النعم.[١٠] ويحتمل أن يبشّرهم بالمُلْك في الدنيا والظفر على فرعون وأنواع النعم بعد ما أصابوا الشدائد من فرعون، كقوله: اُذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ.[١١] *

---

[١] ن ع م: مساجدا.
[٢] ن: مستقبل.
[٣] م: إذ كان.
[٤] جميع النسخ: بعضهم من أهل.
[٥] م: بتوبة.
[٦] ع م: ما ذكر.
[٧] ن – حتى.
[٨] ك: لا يتهنا.
[٩] ع – الصلاة فيها وكان لا يتهيأ لهم.
[١٠] ك: النعيم.
[١١] ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين﴾ (سورة المائدة، ٥/٢٠).
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فنقلناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٣٥و/سطر ٣٩- ورقة ٣٣٥ظ/سطر ١.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[٨٨]

وقوله عز وجل: **وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة**، يحتمل قوله: **زينة**،[١] مِن أنواع ما آتاهم من الأنزال والنبات، كقوله: حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ،[٢] ونحوه. ويحتمل الزينة الزينة[٣] التي كانوا يتزينون بها من المَرْكَب[٤] والمَلْبَس وما يتحلَّون بها من أنواع الحُلِيّ. **وأموالا**، كثيرة سِوى ذلك.

وقوله عز وجل: **ربَّنا لِيُضِلُّوا عن سبيلك**؛[٥] قالت المعتزلة: تأويل قوله: **ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربَّنا لِيُضِلُّوا عن سبيلك**، أي آتاهم لئلا يُضلوا الناس عن سبيله، ولكن أضلّوهم عن سبيله.[٦] وقالوا: هذا كما يقال: لم أُوتِك[٧] كذا لِتفعل كذا ولكن فعلتَ، ونحوه من الكلام. ولكن عندنا هو ما ذكر: آتاهم[٨] الأموال وما ذكر لِيُضلوا عن سبيله؛ لأنه إذا عَلم[٩] منهم[١٠] أنهم يُضلون الناس عن سبيله آتاهم[١١] ما آتاهم لِيُضلوا. وهو كما ذكرنا في قوله: إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا،[١٢] وقوله: نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ،[١٣] الآية، وأمثاله. فكذا هذا.[١٤] *والله أعلم*.

---

[١] ن – يحتمل قوله زينة.
[٢] سورة يونس، ٢٤/١٠.
[٣] ن ع م – الزينة.
[٤] ن ع م: من المراكب.
[٥] ن + الآية.
[٦] م – عن سبيله.
[٧] ك: لم أتل؛ ن ع: لم أتك؛ م: لم تك؛ ع م + هذا.
[٨] م: ما ذكرناهم.
[٩] ن ع: إذ علم.
[١٠] م – منهم.
[١١] م – آتاهم.
[١٢] ﴿ولا يحسَبنّ الذين كفروا أنما نُمْلِي لهم خير لأنفسهم إنما نُمْلِي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مُهين﴾ (سورة آل عمران، ١٧٨/٣).
[١٣] ﴿أ يحسَبون أنما نُمِدُّهم به مِن مالٍ وبَنِين. نُسارِع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ (سورة المؤمنون، ٥٥/٢٣-٥٦).
[١٤] ع م – هذا.

[٣٣٥ظ س١٨ * [ربنا اطْمِس على أموالهم]، والطَّمْس قال أبو عَوْسَجة: هو الذهاب بها، أي اذْهَبْ بها. وقال[١] القُتَبي: قوله: **ربنا اطْمِس**، أي أَهْلِكْها. وهو من قولك: طَمَس الطريقُ، إذا عَفَا ودَرَس.[٢] وقال غيره: الطَّمْس، هو المَسْخ، كقوله:[٣] فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ،[٤] أي مسخناهم. وقال بعضهم:
٣٣٥ظ س٢٠] الطَّمْس[٥] هو التغيير عن جوهرها.*

وقوله عز وجل: **ربنا اطْمِس على أموالهم واشْدُدْ على قلوبهم**؛ يحتمل هذا وجهين. يحتمل أي **اطْمِس على أموالهم**، واجعل في قلوبهم قساوةً وغِلظةً تُنَفِر الأَتْباع ومن يُقلِّدهم[٦] عن اتباعهم وتقليدهم، فيكون ذلك أَهْوَن علينا في استنقاذ الأَتْباع منهم[٧] وأَدْعَى لهم إلى الإيمان، أعني الأَتْباع ومن يُقلِّدهم،[٨] ويكون ذلك سببا لإبعادهم عن اتّباعهم وتقليدهم إياهم.[٩] هذا وجه. والثاني قوله: **ربنا اطْمِسْ على أموالهم واشْدُدْ على قلوبهم**، أي اجعل ذلك آيةً تَضطرهم إلى الإيمان؛ فإنهم لم يؤمنوا بالآيات التي أرسلتَها عليهم من الطوفان والجراد وما ذكر من البلايا.[١٠] فيكون قوله: **فلا يؤمنوا حتى يَرَوُا العذاب الأليم**، هذا مِن طَمْس الأموال وقساوة القلوب وشدّتها. *والله أعلم*.

وقال[١١] بعض أهل التأويل: **واشْدُدْ على قلوبهم**، واطْبَعْها، **فلا يؤمنوا حتى يَرَوُا العذاب الأليم**، وهو الغرق، فعند ذلك يؤمنون. وأما[١٢] بهذه الآيات فلا. هذا[١٣] يحتمل إذا كان الله عز وجل

---

[١] م: قال.
[٢] *تفسير غريب القرآن* لابن قتيبة، ١٩٨.
[٣] ع م: وكقوله.
[٤] ﴿ولقد رَاوَدُوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونُذُرِ﴾ (سورة القمر، ٣٧/٥٤). والآية في قوم لوط عليه السلام.
[٥] م: اطمس.
* وقع ما بين النجمتين متأخرا عن موضعه في تفسير الآية، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٣٥ظ/سطر ١٨-٢٠.
[٦] م: يقلد.
[٧] م – منهم.
[٨] ع م: من يقلدهم.
[٩] م: آباءهم.
[١٠] يشير إلى قوله تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم آياتٍ مُفَصّلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ (سورة الأعراف، ١٣٣/٧).
[١١] ع م: قال.
[١٢] م: أما.
[١٣] م – هذا.

أخبر موسى أنهم لا يؤمنون فيَسَع[١] له هذا الدعاء. وأما قَبْل[٢] أن يخبره بذلك فلا يَسَع له أن يدعو بهذا وهو إنما أرسله إليهم[٣] ليدعوهم إلى الإيمان.*

دعا[٤] موسى بهذا الدعاء عليهم[٥] لما[٦] أيس من إيمانهم، وهو كقول نوح: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ،[٧] الآية، عند الإياس منهم. فعلى ذلك موسى. *والله أعلم*.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٨٩]

وقوله عز وجل: **قال قد أُجيبت دعوتكما**، قال بعضهم: إن موسى كان يدعو وهارون يؤمِّن على دعائه، فقال الله[٨] عز وجل: **قد أُجيبت دعوتكما**، سمى كليهما دعاء. ولهذا[٩] قال محمد بن الحسن رحمه الله في بعض كتبه: إن الإمام يدعو[١٠] في القنوت[١١] في الوتر، والقوم يؤمِّنون.[١٢]

وقوله عز وجل: **فاستقيما**، على الرسالة وما أمرتكما به،[١٣] **ولا تتبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون**، وهو كقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ،[١٤] وكقوله: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ،[١٥] ونحوه، وإن كان العلم محيطا أن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يتبعون سبيل أولئك، ولا يتبعون أهواءهم لِما عصمهم عز وجل. ولكن ذكر هذا -والله أعلم- لِيُعلَم أن العصمة لا تُزيل النهي والأمر، بل تزيد حَظْرا ونهيا. *والله أعلم*.

---

[١] ع: فيسع.
[٢] ع م: وأما ما قبل.
[٣] م: عليهم.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية متأخرا عن موضعه، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٣٣٥ظ/سطر ١٨-٢٠.
[٤] ن: ودعا.
[٥] ك ن ع: بالامر؛ م: بالأمراء.
[٦] م - لما.
[٧] سورة نوح، ٧١/٢٦-٢٧.
[٨] ك - الله.
[٩] ع: لهذا.
[١٠] ع: يدعوا.
[١١] م: في القوت.
[١٢] انظر للتفصيل: *بدائع الصنائع* للكاساني، ١/١٧٤.
[١٣] ك: أمر بكتابه.
[١٤] ﴿ثم جعلناك على شريعة مِن الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ (سورة الجاثية، ٤٥/١٨).
[١٥] سورة المائدة، ٥/٤٨، ٤٩؛ وسورة الشورى، ٤٢/١٥.

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٩٠]

وقوله عز وجل: **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأَتْبعهم فرعونُ وجنوده**، هذا ظاهر. وفي قوله: **وجاوزنا ببني إسرائيل البحر**، دلالةُ خلقِ أفعال العباد؛ لأنه أضاف إلى نفسه أنه[١] جاوز بهم، وبنو[٢] إسرائيل هم الذين تجاوزوا. دل[٣] ذلك أنه خالق فعلهم.

وأما قوله: **حتى إذا أدركه الغرق**، أي حتى إذا غرق؛ لأنه ذُكر في بعض القصة أنّ فرعون لمّا انتهى إلى[٤] ساحل البحر فرأى البحر مُنفرِجا طُرُقًا[٥] فقال: إنما انفرج البحر لي، فلما دخل غرق. فعند ذلك **قال** غريقا: **آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتْ به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين**. ثم إيمانه لم يُقبَل في ذلك الوقت لوجهين. أحدهما لِما يحتمل أن يكون إيمانه عند رؤية البأس وخوف الهلاك. فهو إيمان دفع البأس لا إيمان حقيقة. وهو على ما أخبر عن إيمان الكفرة في الآخرة لمّا عاينوا العذاب كقوله:[٦] رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ،[٧] وكقوله تعالى: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ،[٨] وكقولهم:[٩] نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ،[١٠] وأمثاله، وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ؛[١١] فما عاينوا هم[١٢] من العذاب أكبر وأشد مما عاين فرعون. ثم أخبر أنهم لو رُدُّوا لعادوا[١٣] إلى ما كانوا يعملون، لكنهم قالوا ذلك قول دفع. فعلى ذلك إيمانُ فرعون إيمانُ دفعِ البأس عن نفسه لا إيمانُ حقيقةٍ واختيار.

---

[١] ع م – أنه.
[٢] ك ع: وبنوا.
[٣] ع: اول.
[٤] م – انتهى إلى.
[٥] م – طرقا.
[٦] جميع النسخ: كقولهم.
[٧] يقول الله تعالى: ﴿وأَنذِرِ الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أَخِّرنا إلى أجل قريب نُجِبْ دعوتك ونتّبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ (سورة إبراهيم، ١٤/٤٤).
[٨] ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعونِ. لعلّي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ (سورة المؤمنون، ٢٣/٩٩-١٠٠).
[٩] جميع النسخ: كقولهم.
[١٠] يقول الله تعالى: ﴿وهم يَصطرِخون فيها ربنا أَخرِجنا نعملْ صالحا غيرَ الذي كنا نعمل أو لم نُعَمِّرْكم ما يَتذكَّر فيه مَن تَذكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ (سورة فاطر، ٣٥/٣٧).
[١١] ﴿ولو ترى إذ وُقِفُوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نُكذِّبَ بآيات ربنا ونكونَ من المؤمنين. بل بَدا لهم ما كانوا يُخفون مِن قبل ولو رُدُّوا لَعادوا لِما نُهُوا عنه وإنهم لكاذبون﴾ (سورة الأنعام، ٦/٢٧-٢٨).
[١٢] ن م: فما عاينوهم.
[١٣] ع م + لما نهوا.

والثاني أن الإيمان والإسلام هو تسليم النفس إلى الله؛ فإذا آمن في وقتٍ خرجت نفسه من يده لم يصر مسلما نفسَه إلى الله، إذ نفسه / ليست في يده. ولذلك لم يُقبَل الإيمان في ذلك الوقتِ وقتِ [٣٣٦و] الإشراف على الهلاك. ويحتمل وجها آخر؛ وهو أن الإيمان بالله إنما[١] يكون بالاستدلال بالشاهد على الغائب. ولا يمكن الاستدلال بالشاهد[٢] على الغائب[٣] في ذلك الوقت؛ إذ لا يكون ذلك إلا بالنظر والتفكر، وفي ذلك الوقت لا يمكن النظر والتفكر.[٤] لذلك لم يكن إيمان حقيقة. ***والله أعلم***.

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٩١] ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[٩٢]

وقوله:[٥] **فاليوم ننجّيك ببدنك**، قيل فيه[٦] بوجوه. قيل:[٧] قوله: **ننجّيك**، من النَّجْوَة، أي نُلقِيك على النَّجْوة، وهو مكان الارتفاع والإشراف، ليراه كل أحد أنه هلك [و]ليظهر لهم أنه لم يكن إلها على ما ادّعى.[٨] وأما سائر أبدان قومه لم تُلْقَ على النَّجْوة، ولكن بقيت في البحر. والثاني قيل: **ننجّيك**، أي نخرجك من البحر ولا نتركك فيه، **لتكون لمن خلفك آية**. والثالث **ننجّيك ببدنك**، ولا نُتبِع بدنك روحك؛ لأنه ذُكر في القصة أنهم لمّا غَرِقوا هَوَوْا[٩] غَرْقَى[١٠] إلى النار، كقوله: مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا.[١١] أخبر أنه لم يَهْوِ جسدُه بروحه إلى النار، ولكن أخرج بدنه[١٢] [من البحر][١٣] وهَوَتْ روحُه إلى النار مع سائر قومه -والله أعلم-[١٤] ليُرَى جسدُه ويَظهر كذبُه ولا يَشتبه أمره عليهم.

---

[١] ك + هو.
[٢] ع - بالشاهد.
[٣] م - ولا يمكن الاستدلال بالشاهد على الغائب.
[٤] ع - وفي ذلك الوقت لا يمكن النظر والتفكر.
[٥] ك ع م: وأما قوله.
[٦] م - فيه.
[٧] ع م - قيل.
[٨] ك + لعنه الله.
[٩] ن ع م: هو.
[١٠] ك: هم واغرق؛ ن م: هووا غرق؛ ع: هو واغرق.
[١١] سورة نوح، ٢٥/٧١.
[١٢] ع م: بدونه.
[١٣] من *الشرح*، ورقة ٣٧٥ظ.
[١٤] ن - أعلم، صح هـ.

وقوله عز وجل: **لتكون لمن خلفك** آية، يحتمل وجهين. يحتمل ليكون هلاكك آية. فلا يدّعي أحد الربوبية والألوهية مثل ما ادّعى هو. أو يقول: **لتكون لمن خلفك آية**، أي مَن شاهدك كذلك غريقا مُلقًّى كان آية له.

وقوله عز وجل: **وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون**، قال بعض أهل التأويل: يعني أهل مكة **عن آياتنا لغافلون**، عن هلاك فرعون وقومه لما قالوا: مَا هٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى،[١] و مَا هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ.[٢] يقول: هم غافلون عما[٣] أصاب أولئك؛ إذ مثل هذا لا يُفترَى، أعني هذه[٤] القِصص.[٥] ويحتمل **وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون**، أي [إن] كثيرا منهم كانوا غافلين عما أصابهم. والغفلة تكون[٦] على وجهين. أحدهما غفلة إعراض وعناد بعد العلم به[٧] ومعرفة أن ذلك حق. والثاني يَغفل بترك النظر والتفكر. فكلا الوجهين مذموم.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٩٣]

وقوله عز وجل: **ولقد بَوَّأْنا بني إسرائيل مُبَوَّأَ صِدْقٍ**، قال عامة أهل التأويل: **بَوَّأْنا**، أنزلنا، **بني إسرائيل**، منزل، **صِدق**. وقال بعضهم: **بَوَّأْنا**، هيّأنا[٨] لبني إسرائيل **مُبَوَّأَ صِدْقٍ**، **مُهَيَّأَ صِدق**، حَسَنًا. كقوله: وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ،[٩] الآية، أي تهيّئ[١٠] للمؤمنين. وقال بعضهم: قوله:[١١] **بَوَّأْنا بني إسرائيل مُبَوَّأَ صِدْقٍ**، أي مكّنّاهم تمكين صِدق.

---

[١] يقول الله تعالى: ﴿وإذا تُتلَى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾ (سورة سبأ، ٣٤/٤٣).

[٢] في نسخة ك بياض بمقدار عدة كلمات. يقول الله تعالى: ﴿فلمّا جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مُفترًى وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ (سورة القصص، ٢٨/٣٦).

[٣] ن – فرعون وقومه لما قالوا ما هذا إلا إفك مفترى وما هذا إلا سحر يقول هم غافلون عما.

[٤] م: هذا.

[٥] ن + عن هلاك فرعون وقومه لما قالوا ما هذا إلا إفك مفترى وما هذا إلا سحر يقول هم غافلون عما أصاب أولئك إذ مثل هذا لا يفترى أعني هذه القصص.

[٦] ك ن: يكون.

[٧] ن ع م – به.

[٨] ك: بيانا.

[٩] ﴿وإذ غَدوتَ مِن أهلك تُبَوّئُ المؤمنين مَقاعدَ للقتال والله سميع عليم﴾ (سورة آل عمران، ٣/١٢١).

[١٠] م: أي تهئ.

[١١] ع م + من أهلك تبوئ المؤمنين الآية أي تهيئ للمؤمنين وقال بعضهم قوله.

وهو كقوله: وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ،[١] الآية. يحتمل ما ذكر من التَّبْوِئَة[٢] التمكين[٣] الذي ذكر في هذه الآية. وقوله: **مُبَوَّأَ صِدْقٍ**، قال[٤] بعضهم: منزل **صِدق**، أي كريم.[٥] وقيل:[٦] منزل صِدق، أي حَسَن. ويحتمل وجهين آخرين. أحدهما أنه وعد لهم أن يمكّن لهم في الأرض، فأنجز ذلك الوعد، فهو **مُبَوَّأ صِدْق**، أي تمكين صِدق، حيث أنجز ذلك الوعد وصَدَق الوعد [على] ما ذكر: وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ،[٧] الآية. والثاني **مُبَوَّأ صِدْق**، أي مُبَوَّأ أهل صِدق؛ لأن الشام كان لم يَزَلْ منزل أهل صِدق. وعلى هذا يخرج قوله: رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ،[٨] الآية، أي أخرجني مخرج أهل صِدق وأدخلني مدخل أهل صِدق. *والله أعلم*.

وقوله: **ورزقناهم من الطيبات**، قال أهل التأويل: يعني المَنّ والسَّلْوَى. ولكن الطيبات هي التي[٩] طابت بها[١٠] الأنفس مما حلّ بالشرع، مما لا تَبِعَة على أربابها مما لم يُعْصَ فيها.

وقوله: **فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم**، أي **فما اختلفوا**، في الدين، **إلا من بعد ما جاءهم العلم**، أنه حق. وقيل: **فما اختلفوا**، في محمد في أنه رسول الله، **إلا من بعد ما جاءهم العلم**، أنه رسول الله. وقيل: **فما اختلفوا**، في القرآن والآيات التي أنزلها على رسوله، **إلا من بعد ما جاءهم العلم**،[١١] أنه مُنزَل من عند الله. ويحتمل قوله: **فما اختلفوا**، في موسى أنه رسول الله، **إلا من بعد ما جاءهم العلم**، أنه رسول الله.

---

[١] ﴿ونُمَكِّنَ لهم في الأرض ونُرِيَ فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون﴾ (سورة القصص، ٢٨/٥-٦)
[٢] ن: من التوبة.
[٣] م: التمكن.
[٤] م: وقال.
[٥] جميع النسخ: كريمة.
[٦] جميع النسخ: وقال.
[٧] ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعَفون مَشارق الأرض ومَغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يَعرِشون﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٣٧).
[٨] ﴿وقل رب أدخلني مُدْخَلَ صِدقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدقٍ واجعل لي مِن لَدُنْكَ سلطانا نَصيرا﴾ (سورة الإسراء، ١٧/٨٠).
[٩] ن - التي.
[١٠] ن: به.
[١١] ك - أنه رسول الله وقيل فما اختلفوا في القرآن والآيات التي أنزلها على رسوله إلا من بعد ما جاءهم العلم.

وقوله عز وجل: **إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**، الآية ظاهرة من الوجوه التي ذكرنا.[1] وقوله: **إن ربك يقضي بينهم**، يحتمل وجهين. أحدهما الجزاء والثواب. والثاني في تبيين[2] المُحِق من المُبْطِل.[3]

﴿فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[٩٤]

وقوله عز وجل: **فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب**، اختلف فيه. قال بعضهم: الخطاب به لرسول[4] الله، والمراد منه غيره. وقال بعضهم: المخاطَب[5] به والمراد [به] جميعا غيره. وقال بعضهم:[6] المخاطَب[7] به والمراد به[8] رسول الله. [أي] ما كنت في شك مما أخبرتهم وأنبأتهم.[9] فمَن قال: الخطاب لرسول الله والمراد به غيره، فهو[10] ما ظهر في الناس أنهم يخاطبون من هو أعظم منزلةً عندهم وقَدْرًا ويريدون[11] به غيره.[12] وإلّا لا يحتمل أن يكون رسول الله يشك فيما أنزل إليه قط أو يرتاب. كقوله: إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا،[13] الآية، ومعلومٌ أنه في وقتِ ما خاطب به لم يكن أبواه أحياء. دل أنه أراد به غيره، فعلى ذلك الأول. ومَن قال: المخاطَب[14] والمراد به مَن حَضَر[15] رسول الله.

---

[1] ع م: ذكر.
[2] ك ن: في تبين.
[3] ع م: والمبطل.
[4] ك: رسول.
[5] ك: الخطاب.
[6] ن ع م – الخطاب به لرسول الله والمراد منه غيره وقال بعضهم المخاطب به والمراد جميعا غيره وقال بعضهم.
[7] جميع النسخ: الخطاب.
[8] ن – والمراد به، صح هـ.
[9] أي على نفي الشك. وهو قول أبي بكر الأصم كما سيأتي قريبا.
[10] جميع النسخ: وهو.
[11] ن: أيريدون.
[12] ع – به غيره.
[13] ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين إحسانا إمّا يَبْلُغَنّ عندك الكِبَرَ أحدُهما أو كِلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تَنهرهما وقل لهما قولا كريما﴾ (سورة الإسراء، ٢٣/١٧).
[14] جميع النسخ: الخطاب.
[15] ك: من حض.

يقول: إن الوفود[١] من الكفرة كانوا يَقْدَمُون[٢] [على] رسول الله فيسألونه شيئا،[٣] فيخاطب / الذي[٤] يَقْدَم[٥] [منهم]. وقد كان[٦] يحضره الوُحْدَان[٧] والجماعة. يقول: **فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب**. وقوله: **أنزلنا إليك**، على هذا التأويل هو مُنزل إليه؛ إذ كل مُنَزَّل على رسول الله مُنَزَّل[٨] عليه وإليه وإلى كل أحد. كقوله:[٩] اِتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ،[١٠] أمرهم[١١] باتباع ما أنزل إليهم. دل أن كل مُنَزَّل على رسول الله مُنَزَّل[١٢] عليهم. ومَن قال: الخطاب لرسول الله[١٣] والمراد به غيره لِما لا يحتمل أن يكون رسول الله يشك في شيء مما أنزل إليه. ولكنه يريد به التقرير عنده لقول الكفار: إن الذي[١٤] يُلقِي على محمد شيطان، فيريد به التقرير عنده. أو يخاطب به كل شاك، كقوله: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ،[١٥] هو يخاطب إنسانا واحدا، ولكن المراد به كل إنسان مغرور وكل كافر. وذلك جائز -وفي القرآن[١٦] كثير- أنْ يخاطب به كُلًّا في نفسه. ومَن قال: خاطب به رسوله وأراده[١٧] أيضا فهو[١٨] كان[١٩] في الابتداء على غير يقين أنه يوحي إليه أو لا، [٣٣٦ظ]

---

[١] ع: إن الوقود.
[٢] جميع النسخ: يتقدمون.
[٣] ك + فشيء؛ ن ع + فشيئا.
[٤] م: الذين.
[٥] جميع النسخ: يتقدم.
[٦] م: وكان.
[٧] ع: الواحدان؛ م: الوفد. والوُحْدَان جمع الواحد (*لسان العرب* لابن منظور، «وحد»).
[٨] م - منزل.
[٩] ع م: لقوله.
[١٠] سورة الأعراف، ٣/٧.
[١١] م: أمر.
[١٢] ن - عليه وإليه وإلى كل أحد كقوله اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم أمرهم باتباع ما أنزل إليهم دل أن كل منزل على رسول الله منزل؛ م: نزل.
[١٣] ك ن ع - لرسول الله.
[١٤] ع م: الكفار الذي.
[١٥] سورة الانفطار، ٦/٨٢.
[١٦] ع م: في القرآن.
[١٧] جميع النسخ: وأراد هو.
[١٨] جميع النسخ: وهو.
[١٩] ع: ما كان.

كقوله: وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ،[1] وقوله: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ.[2] فقال: **فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب**، ليخبروك أنه نزل إليك. وقال أبو بكر الأصم: تأويله: ما كنت في **شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب**،[3] الأنباء التي أخبرتهم وأنبأتهم وادّعيت أنها أُوحِيَتْ إليك ليخبروك على ما أخبرتهم.[4]

وقوله: **فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك**، قال بعضهم: **فاسأل الذين يقرءون الكتاب**، يعني مَن آمن منهم. وقال بعضهم: سل أهل الكتاب منهم يخبرونك؛ لأنه مكتوب عندهم، كقوله: يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ،[5] الآية.

وقوله عز وجل: **لقد جاءك الحق من ربك**، قيل: **الحق**، القرآن[6] جاء من ربك.[7] وقيل: جاء البيان أنه مِن عند الله. وقوله: **فلا تكوننّ من المُمْتَرين**، الشاكّين.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٩٥]

ولا تكوننّ من الذين كذّبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين، هو ما ذكرنا أنه يريد بالخطاب غيره. وإلّا لا يحتمل أن يكون رسول الله يكون من الشاكّين[8] أو يكون من الذين يكذّبون[9] بآيات الله أو يكون من الخاسرين.

---

[1] ﴿وما كنتَ تتلو مِن قَبله مِن كتاب ولا تَخُطُّه بيمينك إذًا لَارْتاب المُبْطِلُون﴾ (سورة العنكبوت، ٢٩/٤٨).

[2] ﴿وكذلك أوحينا إليك روحا مِن أمرِنا ما كنتَ تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٥٢).

[3] ك ع م – ليخبروك أنه نزل إليك وقال أبو بكر الأصم تأويله ما كنت في شك مما أنزلنا إليك فسأل الذين يقرءون الكتاب.

[4] قال الشارح رحمه الله تعالى: «وقال أبو بكر الأصم: تأويله: ما كنت في شك مما أنزلنا إليك، لكن فاسأل الذين يقرءون الكتاب، الأنباء التي أخبرتهم وأنبأتهم وادّعيت أنها أُوحِيَتْ إليك وكذّبوك في ذلك، ليخبروك على ما أخبرتهم، ليزيدك تقريرا وطمأنينة وتثبيتا. والزيادة في التثبيت ليس مما يدل على الشك والوهن في العلم، كقوله في حق إبراهيم: ﴿أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي﴾ (سورة البقرة، ٢/٢٦٠)، وكقوله لموسى وهارون: ﴿ولا تتبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون﴾ (سورة الأعراف، ٧/٨٩)، وقال لنوح: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (سورة هود، ١١/٤٦). فعلى ذلك هذا. والله أعلم» (شرح *التأويلات*، ورقة ٣٧٦و).

[5] ﴿الذين يتّبعون الرسول النبي الأُمّي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويُحِلّ لهم الطيبات ويُحَرِّم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصْرَهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعَزَّرُوه ونصروه واتبعوا النور الذي أُنْزِل معه أولئك هم المفلحون﴾ (سورة الأعراف، ٧/١٥٧).

[6] ن: القرآن ان.

[7] ك: جاء ربك.

[8] ع: من الشاكرين.

[9] ك: كذبوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٩٦]

وقوله عز وجل: **إن الذين حَقَّتْ عليهم كلمة ربك لا يؤمنون**، قوله: **حَقَّتْ عليهم كلمة ربك**، هو قوله عز وجل: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.[1] هذا يكون في الخَتْم، مَن يُختم به يعني بالكفر فقد حَقَّتْ [عليه] كلمة ربك:[2] لأملأنّ جهنم. أو **حَقَّتْ عليهم كلمة ربك**، ما ذكر في آية أخرى: أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ،[3] الآية. أو **كلمة ربك**، ما ذكر: وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ.[4] وقوله: **حَقَّتْ عليهم كلمة ربك**، أي عِلمُ ربك بأحوالهم. أي مَن كان في علمه[5] أنه لا يؤمن فلا يؤمن[6] وقت اختياره الكفر، كقوله: مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ،[7] أي من يضلل الله فلا هادي له وقت اختياره[8] الكفر. وكذلك قوله: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ،[9] وقت اختيارهم[10] الظلم، ونحو ذلك. فالتأويل الأول يرجع إلى الختم به، والثاني[11] إلى وقتٍ. [أي] مَن ثبت[12] عليه علم ربه أنه لا يؤمن إلى وقتٍ فإنه[13] لا يؤمن[14] إلى ذلك[15] الوقت.

---

[1] سورة هود، ١١٩/١١؛ وسورة السجدة، ١٣/٣٢.

[2] ن – هو قوله عز وجل لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين هذا يكون في الختم من يختم به يعني بالكفر فقد حقت كلمة ربك.

[3] ﴿فمن أظلم ممّن افترى على الله كَذِبا أو كَذّب بآياته أولئك يَنالُهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يَتوفّوْنهم قالوا أين ما كنتم تَدعون من دون الله قالوا ضَلّوا عنا وشَهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾ (سورة الأعراف، ٣٧/٧).

[4] ﴿ولو أننا نَزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيءٍ قُبُلاً ما كانوا لِيؤمنوا إلّا أن يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون﴾ (سورة الأنعام، ١١١/٧).

[5] م: كان علمه.

[6] م – فلا يؤمن.

[7] سورة الأعراف، ١٨٦/٧.

[8] ع: احتباره.

[9] سورة البقرة، ٢٥٨/٢؛ وسورة آل عمران، ٨٦/٣؛ وسورة التوبة، ١٩/٩، ١٠٩؛ وسورة الصف، ٧/٦١؛ وسورة الجمعة، ٥/٦٢.

[10] ن ع م: اختياره.

[11] ع: والثالث.

[12] م: من يثبت.

[13] ك ن ع: انه.

[14] م – إلى وقت انه لا يؤمن.

[15] جميع النسخ: في ذلك.

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[٩٧]

وقوله عز وجل: **ولو جاءتهم كل آية حتى يَرَوُا العذاب الأليم**، قيل: في الآخرة،[١] [فيؤمنون] إيمانَ دفعِ العذاب. ويحتمل في الدنيا. وقد ذكرنا هذا.[٢]

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[٩٨]

وقوله عز وجل: **فلولا كانت قريةٌ آمنت فنَفَعَها إيمانها إلا قوم يونس لمَا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي**، الآية، أي لم تكن القرى آمنت عند معاينة البأس إيمانا[٣] نَفَعَها إلا إيمانَ قوم يونس، فإنهم آمنوا إيمانَ حقيقة، وعَلِم الله صدقهم من إيمانهم، فنفعهم إيمانهم. هذا يخرج على وجوه. أحدها إن سائر القرى كان إيمانها عند إقبال العذاب إليهم ووقوعه[٤] عليهم، فلم ينفعهم إيمانهم[٥] **إلا قومَ يونس**، فإن إيمانهم إنما كان لتخويف العذاب، فنفعهم.[٦]

والثاني يحتمل أن يكون قوم يونس[٧] كان نزول العذاب بهم على التخيير والتمكين، إن قبلوا الإيمان وآمنوا دفع العذاب عنهم، وإن لم يقبلوا نزل[٨] بهم.

والثالث كان إيمان سائر القرى بعد ما عاينوا مقامهم في النار، فآمنوا، فيكون إيمانهم إيمان اضطرار. وقوم يونس آمنوا قبل أن يعاينوا[٩] ذلك.

ويشبه أن يكون قوله: **فلولا كانت قريةٌ آمنت**، بعد وقوع العذاب والبأس، **فنَفَعَها إيمانها إلا قوم يونس**، فإنهم آمنوا إذ عاينوا[١٠] العذاب قبل أن يقع بهم. وإيمان فرعون وقومه إنما كان بعد ما غرقوا وبعد ما خرجت أنفسهم من أيديهم، فلم يُقبَل. وإيمان قوم يونس كان قبل أن يقع العذاب بهم وأنفسهم في أيديهم بَعدُ، فقُبِل. وهو ما ذكر عز وجل:

---

[١] جميع النسخ: في الدنيا.
[٢] ن – هذا. وانظر تفسير الآية من سورة يونس، ٩٠/١٠.
[٣] ن ع م: إيمانها.
[٤] ع م: وقوعه.
[٥] ك ن – إيمانهم.
[٦] م: فينفعهم.
[٧] ك – فإن إيمانهم إنما كان لتخويف العذاب فنفعهم والثاني يحتمل أن يكون قوم يونس.
[٨] ع: وإن يقبلوا أنزل؛ م: أنزل.
[٩] ن + قبل.
[١٠] جميع النسخ: إذا عاينوا.

وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ،[١] الآية، آمنوا عندما[٢] عاينوا قبل أن يقع بهم. وسائر الأمم الخالية كان منهم الإيمان بعد وقوع العذاب بهم من نحو عاد وثمود وأمثالهم.[٣] وأصله ما ذكرنا آنفا.

[٣٣٧و س٢٨ *وقال بعضهم في قوله: **فلو لا كانت قريةٌ آمنت فنفَعَها إيمانها**، أي لم تكن[٤] **قريةٌ آمنت فنفَعَها إيمانها**، عند نزول العذاب، **إلا قومَ يونس**. وقال بعضهم: فهلّا كانت آمنت إذا رأت بأسنا فكانت مثل قوم يونس. فإنهم آمنوا حين رأوا[٥] العذاب. وأصله ما ذكرنا[٦] أنه لا يحتمل أن يكون الله تعالى يَعلم مِن خلقه اختيار عداوته والخلاف له [ثم] يشاء لهم[٧] الولاية، لأنه يخرج ذلك[٨] مخرج العجز. لأن في الشاهد [أن] مَن اختار[٩] عداوة أحد والآخر[١٠] يختار ولايته[١١] أنه إنما يختار [ذلك] لِضَعفه وعجزٍ[١٢] فيه.[١٣] *والله أعلم*.* ٣٣٧و س٣٣]

وقوله عز وجل: **لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا**؛ قوله: **كشفنا عنهم**، الوعد بحلول العذاب بهم. و **عذاب الخزي** هو العذاب الفاضح، وإلّا[١٤] الخزي هو العذاب.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[٩٩]

وقوله[١٥] عز وجل: **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا**.

---

[١] ﴿وإذ نَتَقْنَا الجبل فوقهم كأنه ظُلَّةٌ وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون﴾ (سورة الأعراف، ١٧١/٧).

[٢] ك: بعدما.

[٣] جميع النسخ: وأمثاله.

[٤] ن: لم يكن.

[٥] ن ع م: يروا.

[٦] انظر تفسير الآية من سورة يونس، ١٠٠/١٠.

[٧] ن: يشابهم؛ ع م: يسألهم.

[٨] ن – ذلك.

[٩] م: من اختيار.

[١٠] جميع النسخ: فالآخر.

[١١] ع م + إنه إنما يختار ولايته.

[١٢] ع: وعجزه؛ م: ولعجزه.

[١٣] م – فيه.

* وقع ما بين النجمتين في تفسير الآية الآتية برقم ١٠٠، فقدمناه إلى هنا؛ انظر: ورقة ٣٣٧و/سطر ٢٨-٣٣.

[١٤] ع: ولا.

[١٥] ن: قوله.

قالت المعتزلة: قوله: **ولو شاء ربك لآمن من في الأرض،**[1] مشيئة القهر والقسر. لو شاء لأجبرهم[2] وقهرهم جميعا فيؤمنوا. وإلّا فقد شاء أن يؤمنوا مشيئة الاختيار، لكنهم لم يؤمنوا. [٣٣٧و] / واستدلوا على ذلك بقوله: **أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.**

فيقال لهم: إن مشيئة الاختيار هي الظاهرة عندكم، ومشيئة الجبر والقهر غايته. فإذا وُجد منه مشيئة الاختيار فلم يؤمنوا و لم تَنْفُذْ[3] مشيئته فيهم كيف يُصَدَّق هو في الإخبار عن المشيئة التي هي غايته أنها لو كانت لآمنوا. هذا فاسد على قولهم. وبَعدُ، فإن المشيئة لو كانت مشيئة القهر لكانوا مؤمنين بتلك المشيئة. وهي خِلْقَة؛[4] لأن كل كافر مؤمن[5] بخلقته؛ لأن خلقة كل أحد تشهد على وحدانية الله. فإذا كانوا[6] مؤمنين بالخلقة ثم[7] ذَكَر أنه لو شاء لآمنوا دل أنه لم يرد به مشيئة القهر، ولكنه أراد مشيئة الاختيار. وتأويله عندنا هو أنّ عند الله تعالى لُطْفا[8] لو أعطاهم كلهم لآمنوا جميعا. لكنه إذ عَلِم أنهم لا يؤمنون لم يعطهم، وهو التوفيق والعصمة. لكنه إذ عَلِم منهم أنهم لا يؤمنون[9] شاء أن لا يؤمنوا. ثم لا يحتمل أن يتحقق الإيمان بالجبر والقهر؛ لأنه عمل القلب، والجبر[10] والإكراه مما[11] لا يعمل على القلب. فهو وإن تكلم بكلام الإيمان فلا يكون مؤمنا حتى يؤمن بالقلب. فيكون التأويل على قولهم: **ولو شاء ربك** فلا يؤمنوا. فهذا[12] متناقض[13] فاسد. وبَعدُ، فإن الإيمان لا يكون في حال الإكراه والإجبار؛[14] لأن الإكراه يُزِيل الفعل عن المكرَه كأنْ لا فعل له في الحكم.

وقوله: **أفأنت تُكرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين.**

---

[1] ن – جميعا قالت المعتزلة قوله ولو شاء ربك لآمن من في الأرض، صح هـ.
[2] ن: لأجبروهم.
[3] ن ع: ينفذ.
[4] م: حلقه.
[5] ك: ومؤمن.
[6] ع: كان.
[7] م + إنه.
[8] جميع النسخ: لطف.
[9] ن + لكنه إذ علم أنهم لا يؤمنون لم يعطهم وهو التوفيق والعصمة لكنه إذ علم منهم أنهم لا يؤمنون.
[10] ع – لأنه عمل القلب والجبر.
[11] م – مما.
[12] ع – فهذا.
[13] ن: تناقض.
[14] ع: والإخبار.

فإن قيل: أليس قال الله[1] عز وجل: تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ،[2] أي[3] حتى يسلموا.[4] وذلك إكراه.[5] وقال رسول الله[6] صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله».[7] فذلك إكراه. فكيف يُجمَع بين الآيتين؟[8]

قيل: لوجهين. أحدهما ما ذُكِر أن هذه السورة مكية. وقوله: تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ، مدنية. فيحتمل قوله: **أ فأنت تُكرِه الناس حتى يكونوا مؤمنين،** أي لا تُكرِههم. ثم أمر بالمدينة بالقتال[9] والحرب والإكراه عليه.

والثاني يجوز أن يُجمَع بين الآيتين. وهو أن يكون قوله: تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ، أي تقاتلونهم حتى يقولوا قول إسلام ويتكلموا بكلام الإيمان. دليله[10] ما روي: «حتى يقولوا: لا إله إلا الله». والقول[11] بلا إله[12] إلا الله على غير حقيقة ذلك في القلب ليس بإيمان. وفي هذه الآية: **حتى يكونوا مؤمنين.** وبالإكراه لا يكونون[13] مؤمنين حقيقة، لأنه عمل القلب، والإكراه مما لا يعمل عليه. ***والله أعلم.***

وتأويل[14] قوله: **أفأنت تُكرِه الناس،** أي لا تملك أن تُكرِههم. وكان رسول الله لشدة حرصه ورغبته في إيمانهم كاد أن يُكرِههم على الإيمان إشفاقا عليهم، كقوله: لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ لَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.[15]

---

[1] ك – الله.
[2] ﴿قل للمُخلَّفِين من الأعراب ستُدْعَوْن إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون﴾ (سورة الفتح، ١٦/٤٨).
[3] م – أي.
[4] جميع النسخ: حتى يسلمون.
[5] ن + فكيف.
[6] ك – رسول الله.
[7] *صحيح البخاري*، استتابة المرتدين ٣؛ و*صحيح مسلم*، الإيمان ٣٢.
[8] ن ع م: آيتين.
[9] ك: بالقتال بالمدينة.
[10] ك: حتى.
[11] م + بقول.
[12] م: لا إله.
[13] ك: لا يكونوا.
[14] ع م: وتأويله.
[15] سورة الشعراء، ٣/٢٦.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾[١٠٠]

وقوله عز وجل: **وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن الله**، قيل: بمشيئة الله، وقيل: بعلم الله، وقيل: بأمر الله وبإرادته. وهو ما ذكرنا: لا تؤمن نفس إلا بمشيئة الله وإرادته في ذلك. ولا يحتمل قوله: **إلا بإذن الله**، سوى المشيئة والإرادة؛ لأنه كم من مأمور بالإيمان لم يؤمن، فلم يحتمل الأمر. ولا يحتمل الإباحة، لأنه[١] لا يباح ترك الإيمان في حال. وأصله ما ذكرنا أنه[٢] لا يحتمل أن يكون الله[٣] عز وجل يعلم مِن خَلْقِه اختيارَ[٤] عداوته والخلاف له [ثم] يشاء لهم[٥] الولاية؛ لأنه[٦] يخرج ذلك مخرج العجز. لأن في الشاهد [أن] مَن اختار عداوة أحد والآخر[٧] يختار ولايته أنه إنما يختار [ذلك] لِضَعفه وعجزٍ[٨] فيه.

وقوله عز وجل: **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون**، قيل: الإثم **على الذين لا يعقلون**.[٩] وقيل: **ويجعل**، العذاب، **على الذين لا يعقلون**، أي لا يستعملون عقولهم حتى يعقلوا.[١٠] أو على الذين لا ينتفعون بعقولهم.*

وقوله عز وجل: **وما كان لنفسٍ أن تؤمن إلا بإذن الله**، قيل: **وما كان لنفسٍ**، في علم الله أنها لا تؤمن فتؤمن، أي لا تؤمن نفس في علم الله[١١] أنها لا تؤمن، إنما يؤمن مَن في[١٢] علم الله أنه يؤمن. وأمّا مَن في علم الله أنه لا يؤمن فلا يؤمن. وقيل: **وما كان لنفس**،[١٣] أي لا تؤمن[١٤] نفس إلا بمشيئة الله، أي إذا آمنت إنما تؤمن بمشيئة الله، ما يفعل إنما يفعل بمشيئة الله،

---

[١] ع م – لأنه.
[٢] ع م: لأنه.
[٣] م – الله.
[٤] ع م: اختياره.
[٥] ن: يشايهم؛ م: شيئا لهم.
[٦] ع م – لأنه.
[٧] جميع النسخ: فالآخر.
[٨] ع: وعجزه.
[٩] ع – قيل الإثم على الذين لا يعقلون.
[١٠] ع م: حتى يعقلون.
* وقع هنا مقطع من تفسير الآية السابقة برقم ٩٨، فقدمناه إلى هنالك؛ انظر: ورقة ٢٣٧و/سطر ٢٨-٣٣.
[١١] ع – الله.
[١٢] ن ع م: يؤمن في.
[١٣] ن + ألا تؤمن نفس.
[١٤] ن ع: ألا تؤمن.

كقوله: وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ.[1] وقال بعضهم: قوله:[2] **إلا بإذن الله**، أي بأمر[3] الله. فمعناه إذا آمنت إنما تؤمن بأمره، لا تؤمن[4] بغير أمره.[5] فالأول أقرب. ***والله أعلم***.

وقوله: **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون**، أي يجعل جزاء الرجس، أي جزاء الكفر، **على الذين لا يعقلون**، أي الذين لا ينتفعون بعقولهم. ***والله أعلم***.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١٠١]

وقوله عز وجل: **قل انظروا ماذا في السماوات والأرض**، تأويله -والله أعلم- أي انظروا إلى آثار نعمه وإحسانه التي في السماوات والأرض / لكي تشكروه. أو يقول:[6] انظروا إلى آثار[7] ربوبيته وألوهيته [٢٣٧ظ] في السماوات والأرض فتوحّدوه وتؤمنوا به. أو يقول: انظروا إلى آثار سلطانه وقدرته فتخافوا نقمته وعقابه. أو انظروا إلى أجناس الخلق واتّساقه على تقدير واحد ليدلكم على وحدانيته ونحو ذلك. ليس[8] شيء في السماوات والأرض يقع عليه البصر إلا وفيه دلالة الربوبية حتى طرفة العين ولحظةَ البصر.

وقوله عز وجل: **وما تغني الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون**، يحتمل وجوها. يحتمل **وما تغني الآيات والنذر عن قومٍ**، هِمّتهم المكابرة والمعاندة. إنما تغني الآيات مَن هِمّته القبول والانقياد، وأمّا مَن هِمّته[9] المكابرة والعناد فلا تغني. وهو كقوله: وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى،[10] الآية. ويحتمل **وما تغني الآيات والنُّذُر**، في الآخرة، **عن قوم لا يؤمنون**، في الدنيا. إنما تنفع وتغني لقوم يؤمنون، فأمّا[11] من لا يؤمن فلا تغني. والثالث **وما تغني الآيات والنُّذُر**...[12] ثم النُّذُر يحتمل الرسل. ويحتمل المواعيد[13] التي أُوعِدوا والأحوال التي تغيرت على أوائلهم. ***والله أعلم***.

---

[1] سورة الإنسان، ٣٠/٧٦؛ وسورة التكوير، ٢٩/٨١.
[2] ك ن - قوله.
[3] ن: أي إلا بأمر.
[4] ن: ولا تؤمن.
[5] ك: بأمر غيره.
[6] م: تشكروه يقول.
[7] م - آثار.
[8] م - ليس.
[9] م: من همة.
[10] ﴿ولو أنّنا نزّلنا إليهم الملائكة وكلّمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قُبُلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكنّ أكثرهم يجهلون﴾ (سورة الأنعام، ١١١/٦).
[11] ع م: وأما.
[12] كذا في جميع النسخ.
[13] ع م: الوعيد.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾[١٠٢]

وقوله عز وجل: **فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خَلَوْا من قبلهم**، أي **فهل ينتظرون**، بي يوما من الهلاك، **إلا مثل أيام الذين خَلَوْا من قبلهم**، أي إلا مثل ما انتظر[١] الذين خلوا من قبلهم[٢] برسلهم من الهلاك. فهو يخرج على التوبيخ لانتظارهم هلاكَ الرسل وذهابَ أمرِهم. ويحتمل وجها آخر: **فهل ينتظرون**، مِن نزول العذاب بهم إلا مثل ما انتظر أولئك من نزول العذاب بهم، إلى هذا يذهب بعض أهل التأويل. ويحتمل قوله: **فهل ينتظرون**، مِن تأخيرهم الإيمان إلى وقت نزول العذاب بهم إلا مثل ما أَخّر أولئك الذين خَلَوْا من قبلهم الإيمانَ إلى وقت نزول العذاب بهم.[٣] فهذا يخرج على الإياس من إيمانهم. أي لا يؤمنون إلى ذلك الوقت الذي لا ينفعهم إيمانهم. والوجه الأول على التوبيخ والتعيير.

وقوله: **قل فانتظروا**، بي ذلك، **إني معكم من المنتظرين**، ذلك.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٠٣]

وقوله عز وجل: **ثم ننجّي رسلنا والذين آمنوا**؛ قوله: **ننجّي**، أي أنجينا الرسل، **والذين آمنوا**؛ لأنه لم يكن بعده رسول. وتأويله -والله أعلم- أنه وَعَده أن ينجي الرسل والذين آمنوا. **كذلك حقا علينا**، أن نُنجز ما وَعَدْنا أن ننجي[٤] الرسل والذين آمنوا. ***والله أعلم***.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١٠٤]

وقوله عز وجل: **قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني**؛ قوله: **إن كنتم في شك من ديني**، الذي أدين به، أو **إن كنتم في شك من ديني**، الذي أدعوكم إليه، **فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله**. إذا شككتم[٥] في ديني الذي أدعوكم إليه[٦] كنتم شاكّين في دينكم الذي[٧] أنتم عليه.

---

[١] ع م: ما انظروا.
[٢] ن - أي فهل ينتظرون بي يوما من الهلاك إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم أي إلا مثل ما انتظر الذين خلوا من قبلهم.
[٣] ع م - إلا مثل ما أخر أولئك الذين خلوا من قبلهم الإيمان إلى وقت نزول العذاب بهم.
[٤] ن: أن ينجي.
[٥] ك: إذاذا شككتم؛ ع: إذاذا شكلتم.
[٦] ن + فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله.
[٧] ن - دينكم الذي، صح هـ.

فتركتم ديني الذي أنا عليه بالشك، ثم تدعونني إلى دينكم[١] الذي أنتم عليه بالشك. يذكر سَفَهَهم بتركهم إجابته[٢] بالشك ودعائهم إياه بالشك إلى دينهم؛ لأن الشك[٣] يوجب الوقف في الأشياء ولا يوجب الدعاء إليه. إنما يوجب الدعاء إليه[٤] بطلان غيره لا الشك. هذا -والله أعلم- محتمل. وهو يخرج على وجهين أيضا.[٥] أحدهما على الإضمار، والآخر على المنابذة. والإضمار ما ذكرنا: **إن كنتم في شك من ديني**، الذي أدين[٦] به وأدعوكم إليه فأنا لا أشك فيه، هذا وجه الإضمار. ووجه المنابذة يقول: **إن كنتم في شك**، مما أعبد وأدين به فلا تعبدون ذلك ولا تدينون[٧] به[٨] فأنا لا أعبد ما تعبدون ولا أدين ما تَدينون به.[٩] وهو كقوله: لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ.[١٠]

وقوله عز وجل: **ولكن أعبد الله الذي يتوفّاكم**، والتوفي هو النهاية والغاية في الإضرار. وما تعبدون من الأصنام دونه لا يملكون[١١] توفِّيَكم[١٢] ولا الإضرار بكم[١٣] إن لم تعبدوها. يذكر سَفَهَهم ويُلزِمهم الحجة أن الذي يتوفّاهم هو المستحق للعبادة لا الأصنام[١٤] التي تعبدونها.

وقوله عز وجل: **وأُمرت أن أكون من المؤمنين**، يشبه أن يكون قوله: **من المؤمنين**، من المرسلين، كقوله:[١٥] وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ،[١٦] وقال: إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ.[١٧]

---

[١] م – الذي أنا عليه بالشك ثم تدعونني إلى دينكم.
[٢] ك: إجابتهم.
[٣] ع م – إلى دينهم لأن الشك.
[٤] ن – إليه؛ ع م – إنما يوجب الدعاء إليه.
[٥] م – أيضا.
[٦] ن: أودين.
[٧] ع م: يدينون.
[٨] ن – به.
[٩] م – به.
[١٠] سورة الكافرون، ٦/١٠٩.
[١١] ك + العبادة.
[١٢] ع م – توفيكم.
[١٣] ع م: لكم.
[١٤] ع: ولا الأصنام.
[١٥] ن – كقوله.
[١٦] سورة الصافات، ١٧١/٣٧.
[١٧] سورة الصافات، ٨١/٣٧، ١١١، ١٣٢. وقد وردت هذه الآيات في نوح وإبراهيم وإلياس عليهم السلام.

فعلى ذلك هذا. ويحتمل[1] الإيمان نفسه على ما نهي أن يكون من المشركين أو الشاكّين. فعلى ذلك أُمر أن يكون من المؤمنين المخلصين له المسلمين أنفسهم. *والله أعلم*.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١٠٥]

وقوله عز وجل: **وأنْ أَقِمْ وجهك للدين حنيفا**، أي أُمرت أن أقيم نفسي لله خالصة سالمةً لا أُشرك فيها غيره ولا أجعل لسواه فيها نصيبا. أو أن يقول: إني أُمرت أن أقيم نفسي[2] على ما عليها شهادةُ خِلقتِها،[3] إذ خِلقةُ كل نفس تَشهد على وحدانية الله وألوهيته.[4] أو يقول: **أقم وجهك**، وَجْهَ أمرِك لِما تدين به وتقيم عليه. **ولا تكوننّ من المشركين**، هذا ما ذكرنا.[5] *والله أعلم*.

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١٠٦]

وقوله عز وجل: **ولا تَدْعُ مِن دون الله ما لا ينفعك**، إن أطعته وأجبته، **ولا يضرك**، إن تركت إجابته وطاعته. وقوله: **ولا تَدْعُ مِن دون الله**،[6] يحتمل لا تعبد مِن دون الله ما لا يملك جَرَّ المنفعة. ويحتمل الدعاء نفسه، أي لا تُسَمِّ مَن دون الله إلها.

وقوله عز وجل: **فإن فعلتَ فإنك إذًا من الظالمين**، ذكر هاهنا[7] الظلم إن فعل ما ذكر، والمراد منه الشرك. وذكر في قصة آدم وحواء: وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ،[8] وقد قَرِبَاها و لم يكونا[9] مشركين، إنما كانا عُصَاةً، لِيُعلَم أنْ ليس في الموافقة في الأسماء موافقةٌ في الحقائق والمعاني. إنما تكون[10] الموافقة في الحقائق في موافقة الأسباب. لذلك كان ما ذكر.[11] *والله أعلم*.

---

[1] ن: يحتمل.
[2] ن + لله خالصة.
[3] ع م: خلقها.
[4] ع: وألوهية.
[5] انظر تفسير الآيتين من سورة يونس، ١٠/٩٤-٩٥.
[6] ن – إن أطعته وأجبته ولا يضرك إن تركت إجابته وطاعته وقوله ولا تدع من دون الله.
[7] ك: هاهنا ذكر.
[8] سورة البقرة، ٢/٣٥؛ وسورة الأعراف، ٧/١٩.
[9] ع: يكونوا.
[10] ن ع م: يكون.
[11] ع م: ما ذكروا.

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[١٠٧]

وقوله عز وجل: **وإن يَمْسَسْك الله بضُرٍّ فلا كاشف له إلا هو**، فيه نهي الرجاء والطمع / إلى مَن دونه، إذ أخبر[١] أنه لا يوجد ذلك من عند غيره.[٢] [٢٣٨و]

وقوله عز وجل: **وإن يُرِدْك بخير فلا رادَّ لفضله**، أخبر أنه إن أراد[٣] خيرا وفضلا[٤] فلا رادّ لذلك الفضل والخير. والإيمان من أعظم الخيرات وأفضلها، فإذا أراده[٥] لإنسانٍ[٦] كان، ولا يملك[٧] أحد دفع ما أراد ولا ردّه. دل أنه إذا أراد الإيمان لأحد كان مؤمنا. فهو ينقض على المعتزلة حيث قالوا: إنه أراد الإيمان للخلق كلهم، لكنهم لم يؤمنوا، إذ أخبر أنه إذا أراد[٨] به خيرا فلا رادّ لذلك[٩] الفضل.[١٠] وهم يقولون: بل يملك العبد ردّ ما أراد له[١١] ودفعه. *وبالله العصمة.*

وفيه أنْ ليس على الله فِعل،[١٢] أعني فِعل الخير؛[١٣] لأنه سماه فضلا. والفضل هو فعل ما ليس عليه. وهو المفهوم في الناس أنّ ما عليهم من الفعل لا يسمون فضلا. إنما يسمون الفضل ما ليس عليه. *والله أعلم.*[١٤]

وقوله عز وجل: **يصيب به من يشاء من عباده**، يصيب[١٥] به من يشاء من الفضل والخير أو من الشر. وفيه دلالة تخصيص بعض على بعض حيث قال: **يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**، لا يَعْجَل بالعقوبة.

---

[١] ع: وإذا أخبر.
[٢] ن: غير.
[٣] ع: إذا أراد.
[٤] م: فضلا.
[٥] ع م: أراد.
[٦] ن ع م: الإنسان.
[٧] م: لا يملك.
[٨] م: أنه أراد.
[٩] ع م – لذلك.
[١٠] ع م: لفضله.
[١١] ن – له.
[١٢] م + هذا.
[١٣] ع: الخيرات.
[١٤] ن – والله اعلم.
[١٥] ع: ويصيب.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾[١٠٨]

وقوله عز وجل: **قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم**، قيل: **الحق**، محمد صلى الله عليه وسلم. وقيل: **الحق**، القرآن الذي أنزل عليه. وأمكن أن يكون **الحق** هو الدين الذي كان[١] يدعوهم[٢] رسول الله إليه؛ لأنه قال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي.[٣] فيشبه أن يكون **الحق** هو الدين الذي[٤] شكوا فيه. أي **قد جاءكم**، ما يُزيل عنكم ذلك الشك إن لم تُكابِروا لِما أقام عليهم الحجج والبراهين. ويحتمل **الحق**، محمدا صلى الله عليه وسلم على ما ذكره[٥] بعض أهل التأويل. وكان[٦] رسول الله من أول[٧] نشوئه إلى آخره آية.[٨] ويحتمل **الحق**، القرآن[٩] على ما ذكره بعضهم. وهو ما ذكر: لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ.[١٠] سماه بأسماء مختلفة. سماه حقا وسماه نورا وشفاء ورحمة وهدى ونحوه. وفيه كل ما ذكر لمن تأمّله[١١] وتفكّر فيه وتمسّك به.

وقوله عز وجل: **فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها**، أي من اهتدى فإنما منفعة اهتدائه له في الدنيا والآخرة، ومن ضل فإنما يرجع ضرر ضلالته إليه وخيانته عليه. أي ما يأمر[١٢] وينهى ليس يأمر وينهى لمنفعة تحصل له أو لحاجة نفسه، إنما يأمر وينهى لمنفعة للخلق ولحاجتهم.

وقوله عز وجل: **وما أنا عليكم بوكيل**، أي بمسلَّط. قال بعض أهل التأويل: هو منسوخ، نسخته آية القتال. لكنه لا يحتمل؛ لأنه[١٣] وإن كان مأمورا بالقتال فهو ليس بوكيل ولا مسلَّط على حفظ أعمالهم،

[١] م: كانوا.
[٢] ع: يدعو لهم.
[٣] سورة يونس، ١٠/١٠٤.
[٤] ع م - الذي.
[٥] م: ما ذكر.
[٦] ع م: كان.
[٧] جميع النسخ: في أول.
[٨] م - آية.
[٩] ع م - القرآن.
[١٠] سورة فصلت، ٤١/٤٢.
[١١] جميع النسخ: من تأمله.
[١٢] ن ع: ما يؤمر.
[١٣] م - لأنه.

إنما عليه التبليغ، كقوله: إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ،[١] وكقوله: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ،[٢] وكقوله: مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ،[٣] الآية.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[١٠٩]

وقوله عز وجل: **واتبع ما يوحَى إليك**، يحتمل القرآن وغيره من الوحي.[٤]

وقوله عز وجل: **واصبر حتى يحكم الله**، أي اصبر على[٥] أذاهم، لأنهم كانوا يؤذونه ويقولون فيه بما لا يليق به. يقول: اصبر على أذاهم ولا تعجل عليهم[٦] بالعقوبة **حتى يحكم الله**، عليهم بالعقوبة[٧] وقت عقوبته، **وهو خير الحاكمين**. أو اصبر[٨] على تكذيبهم إياك **حتى يحكم الله**، بينك وبين مكذِّبيك، **وهو خير الحاكمين**. أو اصبر[٩] على تبليغ الرسالة والقيام لِما أُمرتَ به.[١٠] *والله الموفق*.[١١]

---

[١] ﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إنْ عليك إلّا البلاغ﴾ (سورة الشورى، ٤٢/٤٨).

[٢] ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولَّوْا فإنما عليه ما حُمِّل وعليكم ما حُمِّلتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (سورة النور، ٢٤/٥٤).

[٣] ﴿ولا تَطردِ الذين يَدْعُون ربهم بالغَدَاة والعَشِيِّ يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردَهم فتكونَ من الظالمين﴾ (سورة الأنعام، ٦/٥٢).

[٤] جميع النسخ + غير القرآن.

[٥] م: اصبر حتى على.

[٦] ك – عليهم.

[٧] ع – حتى يحكم الله عليهم بالعقوبة.

[٨] ع م: واصبر.

[٩] م: واصبر.

[١٠] م – به.

[١١] ك: أعلم.

سورة يونس

مكية إلا الآيات: ٤٠ و٩٤ و٩٥ و٩٦ فمدنية وآياتها: ١٠٩ نزلت بعد الإسراء

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هذه السورة مكية إلا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فإنها مدنية نزلت في اليهود.

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن كثير وعاصم ﴿الٓر﴾ بفتح الراء على التفخيم، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويحيى عن أبي بكر: بكسر الراء على الإمالة. وروي عن نافع وابن عامر وحماد عن عاصم، بين الفتح والكسر، واعلم أن كلها لغات صحيحة. قال الواحدي: الأصل ترك الإمالة في هذه الكلمات نحو ما ولا، لأن ألفاتها ليست منقلبة عن الياء، وأما من أمال فلأن هذه الألفاظ أسماء للحروف المخصوصة، فقصد بذكر الإمالة التنبيه على أنها أسماء لا حروف.

المسألة الثانية: اتفقوا- على أن قوله ﴿الٓر﴾ وحده ليس آية، واتفقوا على أن قوله ﴿طه﴾ [طه: ١] وحده آية. والفرق أن قوله: (الر) لا يشاكل مقاطع الآي التي بعده بخلاف قوله: ﴿طه﴾ فإنه يشاكل مقاطع الآي التي بعده.

المسألة الثالثة: الكلام المستقصى في تفسير هذا النوع من الكلمات قد تقدم في أول سورة البقرة إلا أنا نذكر ههنا أيضًا بعض ما قيل. قال ابن عباس ﴿الٓر﴾ معناه أنا الله أرى. وقيل: أنا الرب لا رب غيري. وقيل: ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾ [السجدة: ١] و﴿نٓ﴾ [القلم: ١] اسم الرحمن.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾

فيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿تِلْكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى ما في هذه السورة من الآيات، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن، وأيضًا فالكتاب الحكيم يحتمل أن يكون المراد منه هو القرآن، ويحتمل أن يكون المراد منه غير القرآن، وهو الكتاب المخزون المكنون عند الله تعالى الذي منه نسخ كل كتاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨] وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١, ٢٢] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] وقال: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وإذا عرفت ما ذكرنا من الاحتمالات تحصل ههنا حينئذ وجوه أربعة من الاحتمالات:

الاحتمال الأول: أن يقال: المراد من لفظة ﴿تِلْكَ﴾ الإشارة إلى الآيات الموجودة في هذه السورة، فكان التقدير تلك الآيات هي آيات الكتاب الحكيم الذي هو القرآن، وذلك لأنه تعالى وعد رسوله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليه كتابًا لا يمحوه الماء، ولا يغيره كرور الدهر، فالتقدير أن تلك الآيات الحاصلة في سورة ﴿الٓر﴾ هي آيات ذلك الكتاب المحكم الذي لا يمحوه الماء.

الاحتمال الثاني: أن يقال: المراد أن تلك الآيات الموجودة في هذه السورة هي آيات الكتاب المخزون المكنون عند الله.

واعلم أن على هذين القولين تكون الإشارة بقولنا: ﴿تِلْكَ﴾ إلى آيات هذه السورة وفيه إشكال، وهو أن ﴿تِلْكَ﴾ يشار بها إلى الغائب، وآيات هذه السورة حاضرة، فكيف يحسن أن يشار إليه بلفظ ﴿تِلْكَ﴾ .

واعلم أن هذا السؤال قد سبق مع جوابه في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢].

الاحتمال الثالث والرابع: أن يقال: لفظ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن، والمراد بها: هي آيات القرآن الحكيم، والمراد أنها هي آيات ذلك الكتاب المكنون المخزون عند الله تعالى، وفي الآية قولان آخران: **أحدهما:** أن يكون المراد من ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ التوراة والإنجيل، والتقدير: أن الآيات المذكورة في هذه السورة هي الآيات المذكورة في التوراة والإنجيل، والمعنى: أن القصص المذكورة في هذه السورة موافقة للقصص المذكورة في التوراة والإنجيل، مع أن محمدًا عليه الصلاة والسلام ما كان عالمًا بالتوراة والإنجيل، فحصول هذه الموافقة لا يمكن إلا إذا خص الله تعالى محمدًا بإنزال الوحي عليه. **والثاني:** وهو قول أبي مسلم: أن قوله: ﴿الٓر﴾ إشارة إلى حروف التهجي، فقوله: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني هذه الحروف هي الأشياء التي جعلت علامات وآيات لهذا الكتاب الذي به وقع التحدي. فلولا امتياز هذا الكتاب عن كلام الناس بالوصف المعجز، وإلا لكان اختصاصه بهذا النظم، دون سائر الناس القادرين على التلفظ بهذه الحروف محالاً.

المسألة الثانية: في وصف الكتاب بكونه حكيمًا وجوه: **الأول:** أن الحكيم هو ذو الحكمة بمعنى اشتمال الكتاب على الحكمة. **الثاني:** أن يكون المراد وصف الكلام بصفة من تكلم به. قال الأعشى:

وَغَـرِيبَـةٌ تَـأْتِـي الـمُـلُـوكَ حَـكِـيـمَـةٌ   قَدْ قُلْتُهَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالَهَا[1]

(١) البيت للأعشى وقد تقدمت ترجمته وفي الشطر الثاني من البيت قال:
قد قلتها ليقال من ذا قالها

الثالث: قال الأكثرون ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ بمعنى الحاكم، فعيل بمعنى فاعل دليله قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٣] فالقرآن كالحاكم في الاعتقادات لتميز حقها عن باطلها، وفي الأفعال لتميز صوابها عن خطئها، وكالحاكم على أن محمدًا صادق في دعوى النبوة، لأن المعجزة الكبرى لرسولنا عليه الصلاة والسلام، ليست إلا القرآن، الرابع: أن ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ بمعنى المحكم. والإحكام معناه المنع من الفساد، فيكون المراد منه أنه لا يمحوه الماء، ولا تحرقه النار، ولا تغيره الدهور. أو المراد منه براءته عن الكذب والتناقض. الخامس: قال الحسن: وصف الكتاب بالحكيم، لأنه تعالى حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه، فعلى هذا ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ يكون معناه المحكوم فيه. السادس: أن ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ في أصل اللغة: عبارة عن الذي يفعل الحكمة والصواب، فكان وصف القرآن به مجازًا، ووجه المجاز هو أنه يدل على الحكمة والصواب، فمن حيث إنه يدل على هذه المعاني صار كأنه هو الحكيم في نفسه.

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن كفار قريش تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدًا بالرسالة والوحي، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك التعجب. أما بيان كون الكفار تعجبوا من هذا التخصيص فمن وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٥، ٦] وإذ بلغوا في الجهالة إلى أن تعجبوا من كون الإله تعالى واحدًا، لم يبعد أيضًا أن يتعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدًا بالوحي والرسالة! والثاني: أن أهل مكة كانوا يقولون: إن الله تعالى ما وجد رسولاً إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب! والثالث: أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وبالجملة فهذا التعجب يحتمل وجهين: أحدهما: أن يتعجبوا من أن يجعل الله بشرًا رسولاً، كما حكى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] والثاني: أن لا يتعجبوا من ذلك بل يتعجبوا من تخصيص محمد عليه الصلاة والسلام بالوحي والنبوة مع كونه فقيرًا يتيمًا، فهذا بيان أن الكفار تعجبوا من ذلك. وأما بيان أن الله تعالى أنكر عليهم هذا التعجب فهو قوله في هذه الآية: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ فإن قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ لفظه لفظ الاستفهام،

ومعناه الإنكار لأن يكون ذلك عجبًا. وإنما وجب إنكار هذا التعجب لوجوه:

الأول: أنه تعالى مَالكُ الخلق ومَلِكٌ لهم والمالك والملك هو الذي له الأمر والنهي والإذن والمنع. ولا بد من إيصال تلك التكاليف إلى أولئك المكلفين بواسطة بعض العباد. وإذا كان الأمر كذلك كان إرسال الرسول أمرًا غير ممتنع، بل كان مجوزًا في العقول.

الثاني: أنه تعالى خلق الخلق للاشتغال بالعبودية كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢] وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] ثم إنه تعالى أكمل عقولهم ومكنهم من الخير والشر، ثم علم تعالى أن عباده لا يشتغلون بما كلفوا به، إلا إذا أرسل إليهم رسولاً ومنبهًا. فعند هذا يجب وجوب الفضل والكرم والرحمة أن يرسل إليهم ذلك الرسول، وإذا كان ذلك واجبًا فكيف يتعجب منه.

الثالث: أن إرسال الرسل أمر ما أخلى الله تعالى شيئًا من أزمنة وجود المكلفين منه، كما قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩] فكيف يتعجب منه مع أنه قد سبقه النظير، ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] وسائر قصص الأنبياء عليهم السلام.

الرابع: أنه تعالى إنما أرسل إليهم رجلاً عرفوا نسبه وعرفوا كونه أمينًا بعيدًا عن أنواع التهم والأكاذيب ملازمًا للصدق والعفاف. ثم إنه كان أميًا لم يخالط أهل الأديان، وما قرأ كتابًا أصلاً ألبتة، ثم إنه مع ذلك يتلو عليهم أقاصيصهم ويخبرهم عن وقائعهم، وذلك يدل على كونه صادقًا مصدقًا من عند الله، ويزيل التعجب، وهو من قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] الخامس: أن مثل هذا التعجب كان موجودًا عند بعثة كل رسول، كما في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣] إلى قوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣] السادس: أن هذا التعجب إما أن يكون من إرسال الله تعالى رسولاً من البشر، أو سلَّموا أنه لا تعجب في ذلك، وإنما تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدًا عليه الصلاة والسلام بالوحي والرسالة.

أما الأول: فبعيد لأن العقل شاهد بأن مع حصول التكليف لا بد من منبه ورسول يعرفهم تمام ما يحتاجون إليه في أديانهم كالعبادات وغيرها.

وإذا ثبت هذا فنقول: الأولى أن يبعث إليهم من كان من جنسهم ليكون سكونهم إليه أكمل والفهم به أقوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩] وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

وأما الثاني: فبعيد لأن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان موصوفًا بصفات الخير والتقوى

والأمانة، وما كانوا يعيبونه إلا بكونه يتيمًا فقيرًا، وهذا في غاية البعد، لأنه تعالى غني عن العالمين فلا ينبغي أن يكون الفقر سببًا لنقصان الحال عنده، ولا أن يكون الغنى سببًا لكمال الحال عنده. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ [سبأ: ٣٧] فثبت أن تعجب الكفار من تخصيص الله تعالى محمدًا بالوحي والرسالة كلام فاسد.

المسألة الثانية: الهمزة في قوله: ﴿أَكَانَ﴾ لإنكار التعجب ولأجل التعجيب من هذا التعجب و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ اسم كان و﴿عَجَبًا﴾ خبره، وقرأ ابن عباس (عَجَبٌ) فجعله اسمًا وهو نكرة و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ خبره وهو معرفة كقوله: يكون مزاجها عسل وماء. والأجود أن تكون (كان) تامة، وأن أوحينا، بدلاً من عجب.

المسألة الثالثة: أنه تعالى قال: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ ولم يقل أكان عند الناس عجبًا، والفرق أن قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ معناه أنهم جعلوه لأنفسهم أعجوبة يتعجبون منها ونصبوه وعينوه لتوجيه الطيرة والاستهزاء والتعجب إليه! وليس في قوله: (أكان عند الناس عجبًا) هذا المعنى.

المسألة الرابعة: (أن) مع الفعل في قولنا: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ في تقدير المصدر وهو اسم كان، وخبره هو قوله: ﴿عَجَبًا﴾ وإنما تقدم الخبر على المبتدأ ههنا لأنهم يقدمون الأهم، والمقصود بالإنكار في هذه الآية إنما هو تعجبهم، وأما (أن) في قوله: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ فمفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة، وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشأن قولنا أنذر الناس.

المسألة الخامسة: أنه تعالى لما بين أنه أوحى إلى رسوله، بيَّن بعده تفصيل ما أوحى إليه وهو الإنذار والتبشير. أما الإنذار فللكفار والفساق ليرتدعوا بسبب ذلك الإنذار عن فعل ما لا ينبغي، وأما التبشير فلأهل الطاعة لتقوى رغبتهم فيها. وإنما قدم الإنذار على التبشير لأن التخلية مقدمة على التحلية، وإزالة ما لا ينبغي مقدم في الرتبة على فعل ما ينبغي.

المسألة السادسة: قوله: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ فيه أقوال لأهل اللغة وأقوال للمفسرين. أما أقوال أهل اللغة فقد نقل الواحدي في (البسيط) منها وجوهًا: قال الليث وأبو الهيثم: القدم السابقة، والمعنى: أنهم قد سبق لهم عند الله خير. قال ذو الرمة:

وَأَنْتَ امْرُؤٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ ذُؤَابَةٍ ... لَهُمْ قَدَمٌ مَعْرُوفَةٌ وَمَفَاخِرُ[1]

وقال أحمد بن يحيى: القدم: كل ما قدمت من خير، وقال ابن الأنباري: القدم كناية عن العمل الذي يتقدم فيه، ولا يقع فيه تأخير ولا إبطاء.

واعلم أن السبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني، أن السعي والسبق لا يحصل إلا

(١) تقدمت ترجمة ذو الرمة.

بالقدم، فسمى المسبب باسم السبب، كما سميت النعمة يدًا، لأنها تعطى باليد.

فإن قيل: فما الفائدة في إضافة القدم إلى الصدق في قوله سبحانه: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ .

قلنا: الفائدة التنبيه على زيادة الفضل وأنه من السوابق العظيمة، وقال بعضهم: المراد مقام صدق. وأما المفسرون فلهم أقوال فبعضهم حمل ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ على الأعمال الصالحة؛ وبعضهم حمله على الثواب، ومنهم من حمله على شفاعة محمد عليه الصلاة والسلام، واختار ابن الأنباري هذا الثاني وأنشد:

صَلِّ لِذِي الْعَرْشِ واتخذ قدمًا ينجيك يَوْمَ الْعِثَارِ وَالزَّلَلِ

المسألة السابعة: أن الكافرين لما جاءهم رسول منهم فأنذرهم وبشرهم وأتاهم من عند الله تعالى بما هو اللائق بحكمته وفضله قالوا متعجبين ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إن هذا الذي يدعي أنه رسول هو ساحر. والابتداء بقوله: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ على تقدير فلما أنذرهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين، قال القفال: وإضمار هذا، غير قليل في القرآن.

المسألة الثامنة: قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾ والمراد منه محمد ﷺ، والباقون (لسحر) والمراد به القرآن.

واعلم أن وصف الكفار القرآن بكونه سحرًا يدل على عظم محل القرآن عندهم، وكونه معجزًا. وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة، فاحتاجوا إلى هذا الكلام.

واعلم أن إقدامهم على وصف القرآن بكونه سحرًا، يحتمل أن يكونوا ذكروه في معرض الذم، ويحتمل أنهم ذكروه في معرض المدح، فلهذا السبب اختلف المفسرون فيه. فقال بعضهم: أرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر، ولكنه باطل في الحقيقة، ولا حاصل له، وقال آخرون: أرادوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله، جار مجرى السحر.

واعلم أن هذا الكلام لما كان في غاية الفساد لم يذكر جوابه، وإنما قلنا إنه في غاية الفساد، لأنه ﷺ كان منهم، ونشأ بينهم وما غاب عنهم، وما خالط أحدًا سواهم، وما كانت مكة بلدة العلماء والأذكياء، حتى يقال: إنه تعلم السحر أو تعلم العلوم الكثيرة منهم فقدر على الإتيان بمثل هذا القرآن. وإذا كان الأمر كذلك، كان حمل القرآن على السحر كلامًا في غاية الفساد، فلهذا السبب ترك جوابه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار أنهم تعجبوا من الوحي والبعثة والرسالة، ثم إنه تعالى أزال ذلك التعجب بأنه لا يبعد ألبتة في أن يبعث خالق الخلق إليهم رسولاً يبشرهم على الأعمال

الصالحة بالثواب، وعلى الأعمال الباطلة الفاسدة بالعقاب، كان هذا الجواب إنما يتم ويكمل بإثبات أمرين:

أحدهما: إثبات أن لهذا العالم إلهًا قاهرًا قادرًا نافذ الحكم بالأمر والنهي والتكليف.

والثاني: إثبات الحشر والنشر والبعث والقيامة، حتى يحصل الثواب والعقاب اللذان أخبر الأنبياء عن حصولهما، فلا جرم أنه سبحانه ذكر في هذا الموضع ما يدل على تحقيق هذين المطلوبين.

أما الأول: وهو إثبات الإلهية، فبقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

وأما الثاني: وهو إثبات المعاد والحشر والنشر. فبقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [يونس: ٤] فثبت أن هذا الترتيب في غاية الحسن، ونهاية الكمال.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في هذا الكتاب، وفي الكتب العقلية أن الدليل الدال على وجود الصانع تعالى، إما الإمكان وإما الحدوث وكلاهما إما في الذوات وإما في الصفات، فيكون مجموع الطرق الدالة على وجود الصانع أربعة: وهي إمكان الذوات، وإمكان الصفات، وحدوث الذوات، وحدوث الصفات. وهذه الأربعة معتبرة تارة في العالم العلوي وهو عالم السموات والكواكب، وتارة في العالم السفلي، والأغلب من الدلائل المذكورة في الكتب الإلهية التمسك بإمكان الصفات وحدوثها تارة في أحوال العالم العلوي، وتارة في أحوال العالم السفلي، والمذكور في هذا الموضع هو التمسك بإمكان الأجرام العلوية في مقاديرها وصفاتها، وتقريره من وجوه: الأول: أن أجرام الأفلاك لا شك أنها مركبة من الأجزاء التي لا تتجزى، ومتى كان الأمر كذلك كانت لا محالة محتاجة إلى الخالق والمقدر.

أما بيان المقام الأول: فهو أن أجرام الأفلاك لا شك أنها قابلة للقسمة الوهمية، وقد دللنا في الكتب العقلية على أن كل ما كان قابلاً للقسمة الوهمية، فإنه يكون مركبًا من الأجزاء والأبعاض. ودللنا على أن الذي تقوله الفلاسفة من أن الجسم قابل للقسمة ولكنه يكون في نفسه شيئًا واحدًا كلام فاسد باطل. فثبت بما ذكرنا أن أجرام الأفلاك مركبة من الأجزاء التي لا تتجزى، وإذا ثبت هذا وجب افتقارها إلى خالق ومقدر، وذلك لأنها لما تركبت فقد وقع بعض تلك الأجزاء في داخل ذلك الجرم، وبعضها حصلت على سطحها، وتلك الأجزاء متساوية في الطبع والماهية والحقيقة، والفلاسفة أقروا لنا بصحة هذه المقدمة حيث قالوا إنها بسائط، ويمتنع كونها مركبة من أجزاء مختلفة الطبائع.

وإذا ثبت هذا فنقول: حصول بعضها في الداخل، وحصول بعضها في الخارج، أمر ممكن الحصول جائز الثبوت، يجوز أن ينقلب الظاهر باطنًا، والباطن ظاهرًا. وإذا كان الأمر كذلك وجب افتقار هذه الأجزاء حال تركيبها إلى مدبر وقاهر، يخصص بعضها بالداخل وبعضها

بالخارج فدل هذا على أن الأفلاك مفتقرة في تركيبها وأشكالها وصفاتها إلى مدبر قدير عليم حكيم.

الوجه الثاني: في الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الإله القادر أن نقول: حركات هذه الأفلاك لها بداية، ومتى كان الأمر كذلك افتقرت هذه الأفلاك في حركاتها إلى محرك ومدبر قاهر.

أما المقام الأول: فالدليل على صحته أن الحركة عبارة عن التغير من حال إلى حال، وهذه الماهية تقتضي المسبوقية بالحالة المنتقل عنها، والأزل ينافي المسبوقية بالغير، فكان الجمع بين الحركة وبين الأزل محالاً، فثبت أن لحركات الأفلاك أولاً، وإذا ثبت هذا وجب أن يقال: هذه الأجرام الفلكية كانت معدومة في الأزل وإن كانت موجودة، لكنها كانت واقفة وساكنة. وما كانت متحركة، وعلى التقديرين: فلحركاتها أول وبداية.

وأما المقام الثاني: وهو أنه لما كان الأمر كذلك وجب افتقارها إلى مدبر قاهر، فالدليل عليه أن ابتداء هذه الأجرام بالحركة ذلك الوقت المعين دون ما قبله ودون ما بعده، لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص، وترجيح مرجح. وذلك المرجح يمتنع أن يكون موجبًا بالذات، وإلا لحصلت تلك الحركة قبل ذلك الوقت لأجل أن موجب تلك الحركة كان حاصلاً قبل ذلك الوقت، ولما بطل هذا، ثبت أن ذلك المرجح قادر مختار وهو المطلوب.

الوجه الثالث: في الاستدلال بصفات الأفلاك على وجود الإله المختار، وهو أن أجزاء الفلك حاصلة فيه لا في الفلك الآخر، وأجزاء الفلك الآخر حاصلة فيه لا في الفلك الأول. فاختصاص كل واحد منها بتلك الأجزاء أمر ممكن، ولا بد له من مرجح، ويعود التقرير الأول فيه. فهذا تقرير هذا الدليل الذي ذكره الله تعالى في هذه الآية.

وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: أن كلمة (الذى) كلمة وضعت للإشارة إلى شيء مفرد عند محاولة تعريفه بقضية معلومة، كما إذا قيل لك من زيد؟ فتقول: الذي أبوه منطلق، فهذا التعريف إنما يحسن لو كان كون أبيه منطلقًا، أمرًا معلومًا عند السامع، فهنا لما قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ فهذا إنما يحسن لو كان كونه سبحانه وتعالى خالقًا للسموات والأرض في ستة أيام، أمرًا معلومًا عند السامع، والعرب ما كانوا عالمين بذلك، فكيف يحسن هذا التعريف؟

وجوابه أن يقال: هذا الكلام مشهور عند اليهود والنصارى، لأنه مذكور في أول ما يزعمون أنه هو التوراة. ولما كان ذلك مشهورًا عندهم والعرب كانوا يخالطونهم، فالظاهر أنهم أيضًا سمعوه منهم، فلهذا السبب حسن هذا التعريف.

السؤال الثاني: ما الفائدة في بيان الأيام التي خلقها الله فيها؟

والجواب: أنه تعالى قادر على خلق جميع العالم في أقل من لمح البصر. والدليل عليه أن

العالم مركب من الأجزاء التي لا تتجزى، والجزء الذي لا يتجزى لا يمكن إيجاده إلا دفعة، لأنا لو فرضنا أن إيجاده إنما يحصل في زمان، فذلك الزمان منقسم لا محالة من آنات متعاقبة، فهل حصل شيء من ذلك الإيجاد في الآن الأول أو لم يحصل، فإن لم يحصل منه شيء في الآن الأول فهو خارج عن مدة الإيجاد، وإن حصل في ذلك الآن إيجاد شيء وحصل في الآن الثاني إيجاد شيء آخر، فهما إن كانا جزأين من ذلك الجزء الذي لا يتجزى، فحينئذ يكون الجزء الذي لا يتجزى متجزئًا. وهو محال. وإن كان شيئًا آخر، فحينئذ يكون إيجاد الجزء الذي لا يتجزى لا يمكن إلا في آن واحد دفعة واحدة، وكذا القول في إيجاد جميع الأجزاء. فثبت أنه تعالى قادر على إيجاد جميع العالم دفعة واحدة، ولا شك أيضًا أنه تعالى قادر على إيجاده وتكوينه على التدريج.

وإذا ثبت هذا فنقول ههنا مذهبان: الأول: قول أصحابنا: وهو أنه يحسن منه كُلّ ما أراد، ولا يعلل شيء من أفعاله بشيء من الحكمة والمصالح، وعلى هذا القول يسقط قول من يقول: لم خلق العالم في ستة أيام وما خلقه في لحظة واحدة؟ لأنا نقول كل شيء صنعه ولا علة لصنعه فلا يعلل شيء من أحكامه ولا شيء من أفعاله بعلة، فسقط هذا السؤال. الثاني: قول المعتزلة وهو أنهم يقولون يجب أن تكون أفعاله تعالى مشتملة على المصلحة والحكمة. فعند هذا قال القاضي: لا يبعد أن يكون خلق الله تعالى السموات والأرض في هذه المدة المخصوصة، أدخل في الاعتبار في حق بعض المكلفين. ثم قال القاضي:

فإن قيل: فمن المعتبر وما وجه الاعتبار؟ ثم أجاب وقال: أما المعتبر فهو أنه لا بد من مكلف أو غير مكلف من الحيوان خلقه الله تعالى قبل خلقه للسموات والأرضين، أو معهما، وإلا لكان خلقهما عبثًا. فإن قيل: فهلا جاز أن يخلقهما لأجل حيوان يخلقه من بعد؟!

قلنا: إنه تعالى لا يخاف الفوت، فلا يجوز أن يقدم خلق ما لا ينتفع به أحد، لأجل حيوان سيحدث بعد ذلك، وإنما يصح منا ذلك في مقدمات الأمور لأنا نخشى الفوت، ونخاف العجز والقصور. قال: وإذا ثبت هذا فقد صح ما روي في الخبر أن خلق الملائكة كان سابقًا على خلق السموات والأرض.

فإن قيل: أولئك الملائكة لا بد لهم من مكان، فقبل خلق السموات والأرض لا مكان، فكيف يمكن وجودهم بلا مكان؟

قلنا: الذي يقدر على تسكين العرش والسموات والأرض في أمكنتها كيف يعجز عن تسكين أولئك الملائكة في أحيازها بقدرته وحكمته؟ وأما وجه الاعتبار في ذلك فهو أنه لما حصل هناك معتبر، لم يمتنع أن يكون اعتباره بما يشاهده حالاً بعد حال أقوى. والدليل عليه: أن ما يحدث على هذا الوجه، فإنه يدل على أنه صادر من فاعل حكيم. وأما المخلوق دفعة واحدة فإنه لا يدل على ذلك.

والسؤال الثالث: فهل هذه الأيام كأيام الدنيا أو كما روي عن ابن عباس أنه قال: إِنَّهَا سِتَّةُ أَيَّامٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا أَلْفُ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ؟ (١)

والجواب: قال القاضي: الظاهر في ذلك أنه تعريف لعباده مدة خلقه لهما، ولا يجوز أن يكون ذلك تعريفًا، إلا والمدة هذه الأيام المعلومة.

ولقائل أن يقول: لما وقع التعريف بالأيام المذكورة في التوراة والإنجيل، وكان المذكور هناك أيام الآخرة لا أيام الدنيا، لم يكن ذلك قادحًا في صحة التعريف.

السؤال الرابع: هذه الأيام إنما تتقدر بحسب طلوع الشمس وغروبها، وهذا المعنى مفقود قبل خلقها، فكيف يعقل هذا التعريف؟

والجواب: التعريف يحصل بما أنه لو وقع حدوث السموات والأرض في مدة، لو حصل هناك أفلاك دائرة وشمس وقمر، لكانت تلك المدة مساوية لستة أيام.

ولقائل أن يقول: فهذا يقتضي حصول مدة قبل خلق العالم، يحصل فيها حدوث العالم، وذلك يوجب قدم المدة.

وجوابه: أن تلك المدة غير موجودة بل هي مفروضة موهومة، والدليل عليه أن تلك المدة المعينة حادثة، وحدوثها لا يحتاج إلى مدة أخرى، وإلا لزم إثبات أزمنة لا نهاية لها وذلك محال، فكل ما يقولون في حدوث المدة فنحن نقوله في حدوث العالم.

السؤال الخامس: أن اليوم قد يراد به اليوم مع ليلته، وقد يراد به النهار وحده. فالمراد بهذه الآية أيهما.

والجواب: الغالب في اللغة أنه يراد باليوم. اليوم بليلته.

المسألة الثانية: أما قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾

ففيه مباحث:

الأول: أن هذا يوهم كونه تعالى مستقرًا على العرش والكلام المستقصى فيه مذكور في أول سورة طه، ولكنا نكتفي ههنا بعبارة وجيزة. فنقول: هذه الآية لا يمكن حملها على ظاهرها، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن الاستواء على العرش معناه كونه معتمدًا عليه مستقرًا عليه، بحيث لولا العرش لسقط ونزل، كما أنا إذا قلنا إن فلانًا مستو على سريره. فإنه يفهم منه هذا المعنى. إلا أن إثبات هذا المعنى يقتضي كونه محتاجًا إلى العرش، وإنه لولا العرش لسقط ونزل، وذلك محال، لأن المسلمين أطبقوا على أن الله تعالى هو الممسك للعرش والحافظ له، ولا يقول أحد إن العرش

(١) **إسناده ضعيف:** الطبرى في (تفسيره) (٢/ ٢٧٨) حديث رقم/ ١٤١١، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (١/ ٢١٠) حديث رقم/ ٨١٢، والضياء في (الأحاديث المختارة) (٤/ ٢١٣) حديث رقم/ ٣٨٠، جميعًا من طريق محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير عن عكرمة عن ابن عباس. . . به. وفي إسناده محمد بن أبي محمد. قال الحافظ: مجهول.

هو الممسك لله تعالى والحافظ له .

والثاني: أن قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يدل على أنه قبل ذلك ما كان مستويًا عليه ، وذلك يدل على أنه تعالى يتغير من حال إلى حال ، وكل من كان متغيرًا كان محدثًا ، وذلك بالاتفاق باطل .

الثالث: أنه لما حدث الاستواء في هذا الوقت ، فهذا يقتضي أنه تعالى كان قبل هذا الوقت مضطربًا متحركًا ، وكل ذلك من صفات المحدثات .

الرابع: أن ظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما استوى على العرش بعد أن خلق السموات والأرض ؛ لأن كلمة (ثُمَّ) تقتضي التراخي وذلك يدل على أنه تعالى كان قبل خلق العرش غنيًّا عن العرش ، فإذا خلق العرش امتنع أن تنقلب حقيقته وذاته من الاستغناء إلى الحاجة . فوجب أن يبقى بعد خلق العرش غنيًّا عن العرش ، ومن كان كذلك امتنع أن يكون مستقرًّا على العرش . فثبت بهذه الوجوه أن هذه الآية لا يمكن حملها على ظاهرها بالاتفاق ، وإذا كان كذلك امتنع الاستدلال بها في إثبات المكان والجهة لله تعالى .

المسألة الثالثة : اتفق المسلمون على أن فوق السموات جسمًا عظيمًا هو العرش .

إذا ثبت هذا فنقول: العرش المذكور في هذه الآية هل المراد منه ذلك العرش أو غيره؟ فيه قولان :

القول الأول : وهو الذي اختاره أبو مسلم الأصفهاني ، أنه ليس المراد منه ذلك ، بل المراد من قوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنه لما خلق السموات والأرض سطحها ورفع سمكها ، فإن كل بناء يسمى عرشًا ، وبانيه يسمى عارشًا ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [النحل: ٦٨] أي يبنون ، وقال في صفة القرية ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الحج: ٤٥] والمراد أن تلك القرية خلت منهم مع سلامة بنائها وقيام سقوفها ، وقال : ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] أي بناؤه ، وإنما ذكر الله تعالى ذلك لأنه أعجب في القدرة ، فالباني يبني البناء متباعدًا عن الماء على الأرض الصلبة لئلا ينهدم ، والله تعالى بنى السموات والأرض على الماء ليعرف العقلاء قدرته وكمال جلالته ، والاستواء على العرش هو الاستعلاء عليه بالقهر ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٢-١٣] قال أبو مسلم : فثبت أن اللفظ يحتمل هذا الذي ذكرناه . فنقول : وجب حمل اللفظ عليه ، ولا يجوز حمله على العرش الذي في السماء ، والدليل عليه هو أن الاستدلال على وجود الصانع تعالى ، يجب أن يحصل بشيء معلوم مشاهد ، والعرش الذي في السماء ليس كذلك ، وأما أجرام السموات والأرضين فهي مشاهدة محسوسة ، فكان الاستدلال بأحوالها على وجود الصانع الحكيم جائزًا صوابًا حسنًا . ثم قال : ومما يؤكد ذلك أن قوله تعالى : ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إشارة إلى تخليق ذواتها ، وقوله : ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ يكون إشارة إلى تسطيحها وتشكيلها بالأشكال الموافقة لمصالحها ، وعلى هذا الوجه تصير هذه الآية

موافقة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨] فذكر أولاً أنه بناها، ثم ذكر ثانيًا أنه رفع سمكها فسواها. وكذلك ههنا. ذكر بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أنه خلق ذواتها ثم ذكر بقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنه قصد إلى تعريشها وتسطيحها وتشكيلها بالأشكال الموافقة لها.

والقول الثاني: وهو القول المشهور لجمهور المفسرين: أن المراد من العرش المذكور في هذه الآية: الجسم العظيم الذي في السماء، وهؤلاء قالوا إن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ لا يمكن أن يكون معناه أنه تعالى خلق العرش بعد خلق السموات والأرضين بدليل أنه تعالى قال في آية أخرى ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] وذلك يدل على أن تكوين العرش سابق على تخليق السموات والأرضين. بل يجب تفسير هذه الآية بوجوه أخر. وهو أن يكون المراد: ثم يدبر الأمر وهو مستو على العرش.

والقول الثالث: أن المراد من العرش الملك، يقال: فلان ولي عرشه أي ملكه فقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ المراد أنه تعالى لما خلق السموات والأرض واستدارت الأفلاك والكواكب، وجعل بسبب دورانها الفصول الأربعة والأحوال المختلفة من المعادن والنبات والحيوانات، ففي هذا الوقت قد حصل وجود هذه المخلوقات والكائنات. والحاصل أن العرش عبارة عن الملك، وملك الله تعالى عبارة عن وجود مخلوقاته، ووجود مخلوقاته إنما حصل بعد تخليق السموات والأرض، لا جرم صح إدخال حرف (ثم) الذي يفيد التراخي على الاستواء على العرش، والله أعلم بمراده.

المسألة الرابعة: أما قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ معناه أنه يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعله المصيب في أفعاله، الناظر في أدبار الأمور وعواقبها، كي لا يدخل في الوجود ما لا ينبغي. والمراد من (الأمر) الشأن يعني يدبر أحوال الخلق وأحوال ملكوت السموات والأرض.

فإن قيل: ما موقع هذه الجملة؟

قلنا: قد دل بكونه خالقًا للسموات والأرض في ستة أيام وبكونه مستويًا على العرش، على نهاية العظمة وغاية الجلالة. ثم أتبعها بهذه الجملة ليدل على أنه لا يحدث في العالم العلوي ولا في العالم السفلي أمر من الأمور ولا حادث من الحوادث، إلا بتقديره وتدبيره وقضائه وحكمه، فيصير ذلك دليلاً على نهاية القدرة والحكمة والعلم والإحاطة والتدبير، وأنه سبحانه مبدع جميع الممكنات، وإليه تنتهي الحاجات.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾.

ففيه قولان:

القول الأول: وهو المشهور أن المراد منه أن تدبيره للأشياء وصنعه لها، لا يكون بشفاعة شفيع وتدبير مدبر. ولا يستجرئ أحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه، لأنه تعالى أعلم

بموضع الحكمة والصواب، فلا يجوز لهم أن يسألوه ما لا يعلمون أنه صواب وصلاح.

فإن قيل: كيف يليق ذكر الشفيع بصفة مبدئية الخلق، وإنما يليق ذكره بأحوال القيامة؟

والجواب من وجوه:

الوجه الأول: ما ذكره الزجاج: وهو أن الكفار الذين كانوا مخاطبين بهذه الآية كانوا يقولون: إن الأصنام شفعاؤنا عند الله، فالمراد منه الرد عليهم في هذا القول وهو كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨].

والوجه الثاني: وهو يمكن أن يقال إنه تعالى لما بيّن كونه إلهًا للعالم مستقلاً بالتصرف فيه من غير شريك ولا منازع، بيّن أمر المبدأ بقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ وبيّن حال المعاد بقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾.

والوجه الثالث: يمكن أيضًا أن يقال: إنه تعالى وضع تدبير الأمور في أول خلق العالم على أحسن الوجوه وأقربها من رعاية المصالح، مع أنه ما كان هناك شفيع يشفع في طلب تحصيل المصالح، فدل هذا على أن إله العالم ناظر لعباده محسن إليهم مريد للخير والرأفة بهم، ولا حاجة في كونه سبحانه كذلك إلى حضور شفيع يشفع فيه.

والقول الثاني: في تفسير هذا الشفيع ما ذكره أبو مسلم الأصفهاني، فقال: الشفيع ههنا هو الثاني، وهو مأخوذ من الشفع الذي يخالف الوتر، كما يقال الزوج والفرد، فمعنى الآية خلق السموات والأرض وحده ولا حي معه ولا شريك يعينه، ثم خلق الملائكة والجن والبشر، وهو المراد من قوله: ﴿إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ أي لم يحدث أحد ولم يدخل في الوجود، إلا من بعد أن قال له: كن، حتى كان وحصل. واعلم أنه تعالى لما بيّن هذه الدلائل وشرح هذه الأحوال، ختمها بعد ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ مبينًا بذلك أن العبادة لا تصلح إلا له، ومنبهًا على أنه سبحانه هو المستحق لجميع العبادات لأجل أنه هو المنعم بجميع النعم التي ذكرها ووصفها. ثم قال بعده: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ دالاً بذلك على وجوب التفكر في تلك الدلائل القاهرة الباهرة، وذلك يدل على أن التفكر في مخلوقات الله تعالى والاستدلال بها على جلالته وعزته وعظمته، أعلى المراتب وأكمل الدرجات.

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما ذكر الدلائل الدالة على إثبات المبدأ، أردفه بما يدل على صحة القول بالمعاد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في بيان أن إنكار الحشر والنشر ليس من العلوم البديهية، ويدل عليه وجوه: الأول: أن العقلاء اختلفوا في وقوعه وعدم وقوعه. وقال بإمكانه عالم من الناس، وهم جمهور أرباب الملل والأديان. وما كان معلوم الامتناع بالبديهة امتنع وقوع الاختلاف فيه. الثاني: أنا إذا رجعنا إلى عقولنا السليمة، وعرضنا عليها أن الواحد ضعف الاثنين، وعرضنا عليها أيضًا هذه القضية، لم نجد هذه القضية في قوة الامتناع مثل القضية الأولى. الثالث: أنا إما أن نقول بثبوت النفس الناطقة أو لا نقول به. فإن قلنا به فقد زال الإشكال بالكلية، فإنه كما لا يمتنع تعلق هذه النفس بالبدن في المرة الأولى، لم يمتنع تعلقها بالبدن مرة أخرى. وإن أنكرنا القول بالنفس فالاحتمال أيضًا قائم، لأنه لا يبعد أن يقال إنه سبحانه يركب تلك الأجزاء المفرقة تركيبًا ثانيًا، ويخلق الإنسان الأول مرة أخرى. والرابع: أنه سبحانه ذكر أمثلة كثيرة دالة على إمكان الحشر والنشر ونحن نجمعها ههنا.

فالمثال الأول: أنا نرى الأرض خاشعة وقت الخريف، ونرى اليبس مستوليًا عليها بسبب شدة الحر في الصيف. ثم إنه تعالى ينزل المطر عليها وقت الشتاء والربيع، فتصير بعد ذلك متحلية بالأزهار العجيبة والأنوار الغريبة كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩] وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الحج: ٦] وثالثها: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١] والمراد كونه منبهًا على أمر المعاد. ورابعها: قوله: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢١ - ٢٤] وقال عليه السلام: «**إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّبِيعَ فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ النُّشُورِ**» ولم تحصل المشابهة بين الربيع وبين النشور إلا من الوجه الذي ذكرناه.

المثال الثاني: ما يجده كل واحد منا من نفسه من الزيادة والنمو بسبب السمن، ومن النقصان والذبول بسبب الهزال، ثم إنه قد يعود إلى حالته الأولى بالسمن.

وإذا ثبت هذا فنقول: ما جاز تكوُّنُ بعضه لم يمتنع أيضًا تكوُّنُ كله، ولما ثبت ذلك ظهر أن الإعادة غير ممتنعة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] يعني أنه سبحانه لما كان قادرًا على إنشاء ذواتكم أولاً ثم على إنشاء أجزائكم حال حياتكم ثانيًا شيئًا فشيئًا من غير أن تكونوا عالمين بوقت حدوثه وبوقت نقصانه. فوجب القطع أيضًا بأنه لا يمتنع عليه سبحانه إعادتكم بعد البلى في القبور لحشر يوم القيامة.

المثال الثالث: أنه تعالى لما كان قادرًا على أن يخلقنا ابتداء من غير مثال سبق، فلأن يكون قادرًا

على إيجادنا مرة أخرى مع سبق الإيجاد الأول كان أولى، وهذا الكلام قرره تعالى في آيات كثيرة، منها في هذه الآية وهو قوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وثانيها: قوله تعالى في سورة يس: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] ورابعها: قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥] وخامسها: قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦، ٣٧] إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٤٠] وسادسها: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [الحج: ٦، ٧] فاستشهد تعالى في هذه الآية على صحة الحشر بأمور: الأول: أنه استدل بالخلق الأول على إمكان الخلق الثاني وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥] كأنه تعالى يقول: لما حصل الخلق الأول بانتقال هذه الأجسام من أحوال إلى أحوال أخرى فلم لا يجوز أن يحصل الخلق الثاني بعد تغيرات كثيرة، واختلافات متعاقبة؟ والثاني: أنه تعالى شبهها بإحياء الأرض الميتة. والثالث: أنه تعالى هو الحق وإنما يكون كذلك لو كان كامل القدرة تام العلم والحكمة. فهذه هي الوجوه المستنبطة من هذه الآية على إمكان صحة الحشر والنشر.

والآية السابعة: في هذا الباب قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١].

المثال الرابع: أنه تعالى لما قدر على تخليق ما هو أعظم من أبدان الناس فكيف يقال: إنه لا يقدر على إعادتها؟ فإن من كان الفعل الأصعب عليه سهلاً، فلأن يكون الفعل السهل الحقير عليه سهلاً كان أولى وهذا المعنى مذكور في آيات كثيرة: منها قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ﴾ [يس: ٨١] وثانيها: قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٣] وثالثها: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

المثال الخامس: الاستدلال بحصول اليقظة بعد النوم على جواز الحشر والنشر، فإن النوم أخو الموت، واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] ثم ذكر عقيبه أمر الموت والبعث، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] وقال في آية أخرى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢] والمراد منه الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر.

المثال السادس: أن الإحياء بعد الموت لا يستنكر إلا من حيث إنه يحصل الضد بعد حصول الضد، إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى، لأنه لما جاز حصول الموت عقيب الحياة، فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت؟ فإن حكم الضدين واحد. قال تعالى مقررًا لهذا المعنى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾[الواقعة: ٦٠] وأيضًا نجد النار مع حرها ويبسها تتولد من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[يس: ٨٠] فكذا ههنا، فهذا جملة الكلام في بيان أن القول بالمعاد، وحصول الحشر والنشر غير مستبعد في العقول.

المسألة الثانية: في إقامة الدلالة على أن المعاد حق واجب.

اعلم أن الأمة فريقان منهم من يقول: يجب عقلاً أن يكون إله العالم رحيمًا عادلاً منزهًا عن الإيلام والإضرار، إلا لمنافع أجل وأعظم منها، ومنهم من ينكر هذه القاعدة ويقول: لا يجب على الله تعالى شيء أصلاً، بل يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. أما الفريق الأول: فقد احتجوا على وجود المعاد من وجوه.

الحجة الأولى: أنه تعالى خلق الخلق وأعطاهم عقولاً بها يميزون بين الحسن والقبيح، وأعطاهم قدرًا بها يقدرون على الخير والشر. وإذا ثبت هذا فمن الواجب في حكمة الله تعالى وعدله أن يمنع الخلق عن شتم الله وذكره بالسوء، وأن يمنعهم عن الجهل والكذب وإيذاء أنبيائه وأوليائه، والصالحين من خلقه. ومن الواجب في حكمته أن يرغبهم في الطاعات والخيرات والحسنات، فإنه لو لم يمنع عن تلك القبائح، ولم يرغب في هذه الخيرات، قدح ذلك في كونه محسنًا عادلاً ناظرًا لعباده. ومن المعلوم أن الترغيب في الطاعات لا يمكن إلا بربط الثواب بفعلها، والزجر عن القبائح لا يمكن إلا بربط العقاب بفعلها، وذلك الثواب المرغب فيه، والعقاب المهدد به غير حاصل في دار الدنيا. فلا بد من دار أخرى يحصل فيها هذا الثواب، وهذا العقاب، وهو المطلوب، وإلا لزم كونه كاذبًا، وأنه باطل. وهذا هو المراد من الآية التي نحن فيها وهي قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ .

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إنه يكفي في الترغيب في فعل الخيرات، وفي الردع عن المنكرات ما أودع الله في العقول من تحسين الخيرات وتقبيح المنكرات ولا حاجة مع ذلك إلى الوعد والوعيد؟ سلمنا أنه لا بد من الوعد والوعيد، فلم لا يجوز أن يقال: الغرض منه مجرد الترغيب والترهيب ليحصل به نظام العالم كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦] فإما أن يفعل تعالى ذلك فما الدليل عليه؟ قوله لو لم يفعل ما أخبر عنه من الوعد والوعيد لصار كلامه كذبًا فنقول: ألستم تخصصون أكثر عمومات القرآن لقيام الدلالة على وجوب ذلك التخصيص فإن كان هذا كذبًا وجب فيما تحكمون به من تلك التخصيصات أن يكون كذبًا؟ سلمنا أنه لا بد وأن يفعل الله تعالى ذلك لكن لم لا يجوز أن يقال: إن ذلك الثواب

والعقاب عبارة عما يصل إلى الإنسان من أنواع الراحات واللذات ومن أنواع الآلام والأسقام، وأقسام الهموم والغموم؟

والجواب عن السؤال الأول: أن العقل وإن كان يدعوه إلى فعل الخير وترك الشر إلا أن الهوى والنفس يدعوانه إلى الانهماك في الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية، وإذا حصل هذا التعارض فلا بد من مرجح قوي ومعاضد كامل، وما ذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد والثواب والعقاب على الفعل والترك.

والجواب عن السؤال الثاني: أنه إذا جوز الإنسان حصول الكذب على الله تعالى فحينئذ لا يحصل من الوعد رغبة، ولا من الوعيد رهبة، لأن السامع يُجَوِّز كونه كذبًا.

والجواب عن السؤال الثالث: أن العبد ما دامت حياته في الدنيا فهو كالأجير المشتغل بالعمل. والأجير حال اشتغاله بالعمل لا يجوز دفع الأجرة بكمالها إليه، لأنه إذا أخذها فإنه لا يجتهد في العمل. وأما إذا كان محل أخذ الأجرة هو الدار الآخرة كان الاجتهاد في العمل أشد وأكمل، وأيضًا نرى في هذه الدنيا أن أزهد الناس وأعلمهم مبتلى بأنواع الغموم والهموم والأحزان، وأجهلهم وأفسقهم في اللذات والمسرات، فعلمنا أن دار الجزاء يمتنع أن تكون هذه الدار فلا بد من دار أخرى، ومن حياة أخرى، ليحصل فيها الجزاء.

الحجة الثانية: أن صريح العقل يوجب في حكمة الحكيم أن يفرق بين المحسن وبين المسيء، وأن لا يجعل من كفر به، أو جحده بمنزلة من أطاعه، ولما وجب إظهار هذه التفرقة فحصول هذه التفرقة إما أن يكون في دار الدنيا، أو في دار الآخرة، والأول باطل. لأنا نرى الكفار والفساق في الدنيا في أعظم الراحات، ونرى العلماء والزهاد بالضد منه، ولهذا المعنى قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ [الزخرف: ٣٣] فثبت أنه لا بد بعد هذه الدار من دار أخرى، وهو المراد من الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [يونس: ٤] وهو المراد أيضًا بقوله تعالى في سورة طه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥] وبقوله تعالى في سورة ص: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

فإن قيل: أما أنكرتم أن يقال: إنه تعالى لا يفصل بين المحسن وبين المسيء في الثواب والعقاب كما لم يفصل بينهما في حسن الصورة وفي كثرة المال؟

والجواب: أن هذا الذي ذكرته مما يقوي دليلنا، فإنه ثبت في صريح العقل وجوب التفرقة، ودل الحس على أنه لم تحصل هذه التفرقة في الدنيا، بل كان الأمر على الضد منه، فإنا نرى العالم والزاهد في أشد البلاء، ونرى الكافر والفاسق في أعظم النعم. فعلمنا أنه لا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا التفاوت، وأيضًا لا يبعد أن يقال: إنه تعالى علم أن هذا الزاهد العابد لو

أعطاه ما دفع إلى الكافر الفاسق لطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا، وأن ذلك الكافر الفاسق لو زاد عليه في التضييق لزاد في الشر، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧].

الحجة الثالثة: أنه تعالى كلف عبيده بالعبودية فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والحكيم إذا أمر عبده بشيء، فلا بد وأن يجعله فارغ الباب منتظم الأحوال حتى يمكنه الاشتغال بأداء تلك التكاليف، والناس جبلوا على طلب اللذات وتحصيل الراحات لأنفسهم، فلو لم يكن لهم زاجر من خوف المعاد لكثر الهرج والمرج ولعظمت الفتن، وحينئذ لا يتفرغ المكلف للاشتغال بأداء العبادات. فوجب القطع بحصول دار الثواب والعقاب لتنتظم أحوال العالم حتى يقدر المكلف على الاشتغال بأداء العبودية.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال إنه يكفي في بقاء نظام العالم مهابة الملوك وسياساتهم؟ وأيضًا فالأوباش يعلمون أنهم لو حكموا بِحُسْن الهرج والمرج. لانقلب الأمر عليهم ولقدر غيرهم على قتلهم، وأخذ أموالهم، فلهذا المعنى يحترزون عن إثارة الفتن.

والجواب: أن مجرد مهابة السلاطين لا تكفي في ذلك، وذلك لأن السلطان إما أن يكون قد بلغ في القدرة والقوة إلى حيث لا يخاف من الرعية، وإما أن يكون خائفًا منهم، فإن كان لا يخاف الرعية مع أنه لا خوف له من المعاد، فحينئذ يقدم على الظلم والإيذاء على أقبح الوجوه، لأن الداعية النفسانية قائمة، ولا رادع له في الدنيا ولا في الآخرة، وأما إن كان يخاف الرعية فحينئذ الرعية لا يخافون منه خوفًا شديدًا، فلا يصير ذلك رادعًا لهم عن القبائح والظلم. فثبت أن نظام العالم لا يتم ولا يكمل إلا بالرغبة في المعاد والرهبة عنه.

الحجة الرابعة: أن السلطان القاهر إذا كان له جمع من العبيد، وكان بعضهم أقوياء وبعضهم ضعفاء، وجب على ذلك السلطان إن كان رحيمًا ناظرًا مشفقًا عليهم أن ينتصف للمظلوم الضعيف من الظالم القادر القوي، فإن لم يفعل ذلك كان راضيًا بذلك الظلم، والرضا بالظلم لا يليق بالرحيم الناظر المحسن.

إذا ثبت هذا فنقول: إنه سبحانه سلطان قاهر قادر حكيم منزه عن الظلم والعبث. فوجب أن ينتصف لعبيده المظلومين من عبيده الظالمين، وهذا الانتصاف لم يحصل في هذه الدار، لأن المظلوم قد يبقى في غاية الذلة والمهانة، والظالم يبقى في غاية العزة والقدرة، فلا بد من دار أخرى يظهر فيها هذا العدل وهذا الإنصاف، وهذه الحجة يصلح جعلها تفسيرًا لهذه الآية التي نحن في تفسيرها.

فإن قالوا: إنه تعالى لما أقدر الظالم على الظلم في هذه الدار، وما أعجزه عنه، دل على كونه راضيًا بذلك الظلم.

قلنا: الإقدار على الظلم عين الإقدار على العدل والطاعة، فلو لم يقدره تعالى على الظلم

لكان قد أعجزه عن فعل الخيرات والطاعات، وذلك لا يليق بالحكيم، فوجب في العقل إقداره على الظلم والعدل، ثم إنه تعالى ينتقم للمظلوم من الظالم.

الحجة الخامسة: أنه تعالى خلق هذا العالم وخلق كل من فيه من الناس فإما أن يقال: إنه تعالى خلقهم لا لمنفعة ولا لمصلحة، أو يقال: إنه تعالى خلقهم لمصلحة ومنفعة. والأول لا يليق بالرحيم الكريم. والثاني: وهو أن يقال: إنه خلقهم لمقصود ومصلحة وخير، فذلك الخير والمصلحة إما أن يحصل في هذه الدنيا أو في دار أخرى، والأول باطل من وجهين:

الأول: أن لذات هذا العالم جسمانية، واللذات الجسمانية لا حقيقية لها إلا إزالة الألم، وإزالة الألم أمر عدمي، وهذا العدم كان حاصلاً حال كون كل واحد من الخلائق معدومًا، وحينئذ لا يبقى للتخليق فائدة.

والثاني: أن لذات هذا العالم ممزوجة بالآلام والمحن، بل الدنيا طافحة بالشرور والآفات والمحن والبليات، واللذة فيها كالقطرة في البحر. فعلمنا أن الدار التي يصل فيها الخلق إلى تلك الراحات المقصودة دار أخرى سوى دار الدنيا.

فإن قالوا: أليس أنه تعالى يؤلم أهل النار بأشد العذاب لا لأجل مصلحة وحكمة؟ فلم لا يجوز أن يقال: إنه تعالى يخلق الخلق في هذا العالم لا لمصلحة ولا لحكمة.

قلنا: الفرق أن ذلك الضرر ضرر مستحق على أعمالهم الخبيثة. وأما الضرر الحاصل في الدنيا فغير مستحق، فوجب أن يعقبه خيرات عظيمة ومنافع جابرة لتلك المضار السالفة، وإلا لزم أن يكون الفاعل شريرًا مؤذيًا، وذلك ينافي كونه أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

الحجة السادسة: لو لم يحصل للإنسان معاد لكان الإنسان أخس من جميع الحيوانات في المنزلة والشرف. واللازم باطل، فالملزوم مثله. بيان الملازمة أن مضار الإنسان في الدنيا أكثر من مضار جميع الحيوانات، فإن سائر الحيوانات قبل وقوعها في الآلام والأسقام تكون فارغة البال طيبة النفس، لأنه ليس لها فكر وتأمل. أما الإنسان فإنه بسبب ما يحصل له من العقل يتفكر أبدًا في الأحوال الماضية والأحوال المستقبلة، فيحصل له بسبب أكثر الأحوال الماضية أنواع من الحزن والأسف، ويحصل له بسبب أكثر الأحوال الآتية أنواع من الخوف، لأنه لا يدري أنه كيف تحدث الأحوال. فثبت أن حصول العقل للإنسان سبب لحصول المضار العظيمة في الدنيا والآلام النفسانية الشديدة القوية. وأما اللذات الجسمانية فهي مشتركة بين الناس وبين سائر الحيوانات، لأن السرقين في مذاق الجُعْل طيب، كما أن اللوزينج في مذاق الإنسان طيب.

إذا ثبت هذا فنقول: لو لم يحصل للإنسان معاد به تكمل حالته وتظهر سعادته، لوجب أن يكون كمال العقل، سببًا لمزيد الهموم والغموم والأحزان من غير جابر يجبر، ومعلوم أن كل ما كان كذلك فإنه يكون سببًا لمزيد الخسة والدناءة والشقاء والتعب الخالية عن المنفعة. فثبت أنه لولا حصول السعادة الأخروية لكان الإنسان أخس الحيوانات حتى الخنافس والديدان، ولما كان

ذلك باطلاً قطعًا، علمنا أنه لا بد من الدار الآخرة، وأن الإنسان خلق للآخرة لا للدنيا، وأنه بعقله يكتسب موجبات السعادات الأخروية. فلهذا السبب كان العقل شريفًا.

الحجة السابعة: أنه تعالى قادر على إيصال النعم إلى عبيده على وجهين:

أحدهما: أن تكون النعم مشوبة بالآفات والأحزان.

والثاني: أن تكون خالصة عنها، فلما أنعم الله تعالى في الدنيا بالمرتبة الأولى وجب أن ينعم علينا بالمرتبة الثانية في دار أخرى، إظهارًا لكمال القدرة والرحمة والحكمة، فهناك ينعم على المطيعين ويعفو عن المذنبين، ويزيل الغموم والهموم والشهوات والشبهات. والذي يقوي ذلك، ويقرر هذا الكلام أن الإنسان حين كان جنينًا في بطن أمه، كان في أضيق المواضع وأشدها عفونة وفسادًا، ثم إذا خرج من بطن أمه كانت الحالة الثانية أطيب وأشرف من الحالة الأولى، ثم إنه عند ذلك يوضع في المهد ويشد شدًّا وثيقًا، ثم بعد حين يخرج من المهد ويعدو يمينًا وشمالاً، وينتقل من تناول اللبن إلى تناول الأطعمة الطيبة، وهذه الحالة الثالثة لا شك أنها أطيب من الحالة الثانية، ثم إنه بعد حين يصير أميرًا نافذ الحكم على الخلق، أو عالمًا مشرفًا على حقائق الأشياء، ولا شك أن هذه الحالة الرابعة أطيب وأشرف من الحالة الثالثة. وإذا ثبت هذا وجب بحكم هذا الاستقراء أن يقال: الحالة الحاصلة بعد الموت تكون أشرف وأعلى وأبهج من اللذات الجسدانية والخيرات الجسمانية.

الحجة الثامنة: طريقة الاحتياط، فإنا إذا آمنا بالمعاد وتأهبنا له، فإن كان هذا المذهب حقًّا، فقد نجونا وهلك المنكر، وإن كان باطلاً، لم يضرنا هذا الاعتقاد. غاية ما في الباب أن يقال إنه تفوتنا هذه اللذات الجسمانية إلا أنا نقول يجب على العاقل أن لا يبالي بفوتها لأمرين: أحدهما: أنها في غاية الخساسة لأنها مشترك فيها بين الخنافس والديدان والكلاب. والثاني: أنها منقطعة سريعة الزوال. فثبت أن الاحتياط ليس إلا في الإيمان بالمعاد، ولهذا قال الشاعر(١):

قَالَ الْمُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُحْشَرُ الأَمْوَاتُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا
إِنْ صح قولكما فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ ... أَوْ صَحَّ قَوْلِي فَالْخَسَارُ عَلَيْكُمَا

الحجة التاسعة: اعلم أن الحيوان ما دام يكون حيوانًا، فإنه إن قطع منه شيء مثل ظفر أو ظلف أو شعر، فإنه يعود ذلك الشيء، وإن جرح اندمل، ويكون الدم جاريًا في عروقه وأعضائه جريان الماء في عروق الشجر وأغصانه، ثم إذا مات انقلبت هذه الأحوال، فإن قطع منه شيء من شعره أو ظفره لم ينبت، وإن جرح لم يندمل ولم يلتحم، ورأيت الدم يتجمد في عروقه، ثم بالآخرة يؤول حاله إلى الفساد والانحلال. ثم إنا لما نظرنا إلى الأرض وجدناها شبيهة بهذه الصفة، فإنا نراها في زمان الربيع تفور عيونها وتربو تلالها وينجذب الماء إلى أغصان الأشجار وعروقها، والماء في الأرض بمنزلة الدم الجاري في بدن الحيوان، ثم تخرج أزهارها وأنوارها وثمارها كما

---

(١) البيت لأبي العلاء المعري ضمن قصيدة من البحر الكامل وقد تقدمت ترجمته.

قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥] وإن جذ من نباتها شيء أخلف ونبت مكانه آخر مثله، وإن قطع غصن من أغصان الأشجار أخلف، وإن جرح التأم، وهذه الأحوال شبيهة بالأحوال التي ذكرناها للحيوان. ثم إذا جاء الشتاء واشتد البرد غارت عيونها وجفت رطوبتها وفسدت بقولها، ولو قطعنا غصنًا من شجرة ما أخلف، فكانت هذه الأحوال شبيهة بالموت بعد الحياة. ثم إنا نرى الأرض في الربيع الثاني تعود إلى تلك الحياة، فإذا عقلنا هذه المعاني في إحدى الصورتين، فلم لا نعقل مثله في الصورة الثانية، بل نقول: لا شك أن الإنسان أشرف من سائر الحيوانات، والحيوان أشرف من النبات، وهو أشرف من الجمادات. فإذا حصلت هذه الأحوال في الأرض، فلم لا يجوز حصولها في الإنسان؟

فإن قالوا: إن أجساد الحيوان تتفرق وتتمزق بالموت، وأما الأرض فليست كذلك.

فالجواب: أن الإنسان عبارة عن النفس الناطقة، وهو جوهر باق، أو إن لم نقل بهذا المذهب فهو عبارة عن أجزاء أصلية باقية من أول وقت تَكَوُّن الجنين إلى آخر العمر، وهي جارية في البدن، وتلك الأجزاء باقية، فزال هذا السؤال.

الحجة العاشرة: لا شك أن بدن الحيوان إنما تولد من النطفة، وهذه النطفة إنما اجتمعت من جميع البدن، بدليل أن عند انفصال النطفة يحصل الضعف والفتور في جميع البدن، ثم إن مادة تلك النطفة إنما تولدت من الأغذية المأكولة، وتلك الأغذية إنما تولدت من الأجزاء العنصرية وتلك الأجزاء كانت متفرقة في مشارق الأرض ومغاربها، واتفق لها أن اجتمعت، فتولد منها حيوان أو نبات فأكله إنسان، فتولد منه دم فتوزع ذلك الدم على أعضائه، فتولد منها أجزاء لطيفة. ثم عند استيلاء الشهوة سال من تلك الرطوبات مقدار معين، وهو النطفة، فانصب إلى فم الرحم، فتولد منه هذا الإنسان، فثبت أن الأجزاء التي منها تولد بدن الإنسان كانت متفرقة في البحار والجبال وأوج الهواء، ثم إنها اجتمعت بالطريق المذكور، فتولد منها هذا البدن، فإذا مات تفرقت تلك الأجزاء على مثال التفرق الأول. وإذا ثبت هذا فنقول وجب القطع أيضًا بأنه لا يمتنع أن يجتمع مرة أخرى على مثال الاجتماع الأول، وأيضًا، فذلك المني لما وقع في رحم الأم، فقد كان قطرة صغيرة ثم تولد منه بدن الإنسان وتعلقت الروح به حال ما كان ذلك البدن في غاية الصغر، ثم إن ذلك البدن لا شك أنه في غاية الرطوبة، ولا شك أنه يتحلل منه أجزاء كثيرة بسبب عمل الحرارة الغريزية فيها، وأيضًا فتلك الأجزاء البدنية الباقية أبدًا في طول العمر تكون في التحلل، ولولا ذلك لما حصل الجوع، ولما حصلت الحاجة إلى الغذاء، مع أنا نقطع بأن هذا الإنسان الشيخ، هو عين ذلك الإنسان الذي كان في بطن أمه. ثم انفصل، وكان طفلاً ثم شابًا، فثبت أن الأجزاء البدنية دائمة التحلل، وأن الإنسان هو هو بعينه. فوجب القطع بأن الإنسان، إما أن يكون جوهرًا مفارقًا مجردًا، وإما أن يكون جسمًا نورانيًا لطيفًا باقيًا مع تحلل هذا البدن، فإذا كان الأمر كذلك فعلى التقديرين لا يمتنع عوده إلى الجثة مرة أخرى، ويكون

هذا الإنسان العائد عين الإنسان الأول، فثبت أن القول بالمعاد صدق.

الحجة الحادية عشر: ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧] واعلم أن قوله سبحانه: ﴿خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] إشارة إلى ما ذكرناه في الحجة العاشرة من أن تلك الأجزاء كانت متفرقة في مشارق الأرض ومغاربها، فجمعها الله تعالى وخلق من تركيبها هذا الحيوان، والذي يقويه قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] فإن تفسيره هذه الآية إنما يصح بالوجه الذي ذكرناه، وهو أن السلالة من الطين يتكون منها نبات، ثم إن ذلك النبات يأكله الإنسان فيتولد منه الدم، ثم الدم ينقلب نطفة، فبهذا الطريق ينتظم ظاهر هذه الآية. ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر هذا المعنى حكى كلام المنكر، وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] ثم إنه تعالى بين إمكان هذا المذهب.

واعلم أن إثبات إمكان الشيء لا يعقل إلا بطريقين: أحدهما: أن يقال: إن مثله ممكن، فوجب أن يكون هذا أيضًا ممكنًا. والثاني: أن يقال: إن ما هو أعظم منه وأعلى حالاً منه، فهو أيضًا ممكن. ثم إنه تعالى ذكر الطريق الأول أولاً فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩] ثم فيه دقيقة وهي أن قوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا﴾ إشارة إلى كمال القدرة، وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة إلى كمال العلم. ومنكرو الحشر والنشر لا ينكرونه إلا لجهلهم بهذين الأصلين، لأنهم تارة يقولون: إنه تعالى موجب بالذات، والموجب بالذات لا يصح منه القصد إلى التكوين، وتارة يقولون إنه يمتنع كونه عالمًا بالجزئيات، فيمتنع منه تمييز أجزاء بدن زيد عن أجزاء بدن عمرو، ولما كانت شبه الفلاسفة مستخرجة من هذين الأصلين، لا جرم كلما ذكر الله تعالى مسألة المعاد أردفه بتقرير هذين الأصلين ثم إنه تعالى ذكر بعده الطريق الثاني، وهو الاستدلال بالأعلى على الأدنى، وتقريره من وجهين: الأول: أن الحياة لا تحصل إلا بالحرارة والرطوبة، والتراب بارد يابس، فحصلت المضادة بينهما. إلا أنا نقول: الحرارة النارية أقوى في صفة الحرارة من الحرارة الغريزية، فلما لم يمتنع تولد الحرارة النارية عن الشجر الأخضر مع كمال ما بينهما من المضادة، فكيف يمتنع حدوث الحرارة الغريزية في جرم التراب؟ الثاني: قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] بمعنى أنه لما سلمتم أنه تعالى هو الخالق لأجرام الأفلاك والكواكب، فكيف يمكنكم الامتناع عن كونه قادرًا على الحشر والنشر؟ ثم إنه تعالى حسم مادة الشبهات بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] والمراد أن تخليقه وتكوينه لا يتوقف على حصول الآلات والأدوات ونطفة الأب ورحم الأم، والدليل عليه أنه خلق الأب الأول، لا عن أب سابق عليه، فدل ذلك على كونه سبحانه غنيًا في الخلق والإيجاد والتكوين عن الوسائط والآلات. ثم قال سبحانه:

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] أي سبحانه من أن لا يعيدهم ويهمل أمر المظلومين، ولا ينتصف للعاجزين من الظالمين، وهو المعنى المذكور في هذه الآية التي نحن في تفسيرها، وهي قوله سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾.

الحجة الثانية عشر: دلت الدلائل على أن العالم محدث ولا بد له من محدث قادر، ويجب أن يكون عالمًا، لأن الفعل المحكم المتقن لا يصدر إلا من العالم، ويجب أن يكون غنيًّا عنها وإلا لكان قد خلقها في الأزل وهو محال، فثبت أن لهذا العالم إلهًا قادرًا عالمًا غنيًّا، ثم لما تأملنا فقلنا: هل يجوز في حق هذا الحكيم الغني عن الكل أن يهمل عبيده ويتركهم سدى، ويجوز لهم أن يكذبوا عليه ويبيح لهم أن يشتموه ويجحدوا ربوبيته، ويأكلوا نعمته، ويعبدوا الجبت والطاغوت، ويجعلوا له أندادًا وينكروا أمره ونهيه ووعده ووعيده؟ فههنا حكمت بديهة العقل بأن هذه المعاني لا تليق إلا بالسفيه الجاهل البعيد من الحكمة. القريب من العبث، فحكمنا لأجل هذه المقدمة أن له أمرًا ونهيًا، ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له أمر ونهي مع أنه لا يكون له وعد ووعيد؟ فحكم صريح العقل بأن ذلك غير جائز لأنه إن لم يقرن الأمر بالوعد بالثواب، ولم يقرن النهي بالوعيد بالعقاب لم يتأكد الأمر والنهي، ولم يحصل المقصود. فثبت أنه لا بد من وعد ووعيد، ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد ثم إنه لا يفي بوعده لأهل الثواب، ولا بوعيده لأهل العقاب: فقلنا: إن ذلك لا يجوز، لأنه لو جاز ذلك لما حصل الوثوق بوعده ولا بوعيده، وهذا يوجب أن لا يبقى فائدة في الوعد والوعيد، فعلمنا أنه لا بد من تحقيق الثواب والعقاب، ومعلوم أن ذلك لا يتم إلا بالحشر والبعث، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فهذه مقدمات يتعلق بعضها ببعض كالسلسلة متى صح بعضها صح كلها، ومتى فسد بعضها فسد كلها، فدل مشاهدة أبصارنا لهذه التغيرات على حدوث العالم، ودل حدوث العالم على وجود الصانع الحكيم الغني، ودل ذلك على وجود الأمر والنهي، ودل ذلك على وجود الثواب والعقاب، ودل ذلك على وجوب الحشر. فإن لم يثبت الحشر أدى ذلك إلى بطلان جميع المقدمات المذكورة ولزم إنكار العلوم البديهية وإنكار العلوم النظرية القطعية. فثبت أنه لا بد لهذه الأجساد البالية والعظام النخرة والأجزاء المتفرقة المتمزقة من البعث بعد الموت، ليصل المحسن إلى ثوابه والمسيء إلى عقابه، فإن لم تحصل هذه الحالة لم يحصل الوعد والوعيد، وإن لم يحصلا لم يحصل الأمر والنهي، وإن لم يحصلا لم تحصل الإلهية، وإن لم تحصل الإلهية لم تحصل هذه التغيرات في العالم. وهذه الحجة هي المراد من الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ هذا كله تقرير إثبات المعاد بناء على أن لهذا العالم إلهًا رحيمًا ناظرًا محسنًا إلى العباد.

أما الفريق الثاني: وهم الذين لا يعللون أفعال الله تعالى برعاية المصالح، فطريقهم إلى إثبات المعاد أن قالوا: المعاد أمر جائز الوجود، والأنبياء عليهم السلام أخبروا عنه، فوجب القطع

بصحته، أما إثبات الإمكان فهو مبني على مقدمات ثلاثة:

المقدمة الأولى: البحث عن حال القابل فنقول: الإنسان إما أن يكون عبارة عن النفس أو عن البدن، فإن كان عبارة عن النفس وهو القول الحق، فنقول: لما كان تعلق النفس بالبدن في المرة الأولى جائزًا كان تعلقها بالبدن في المرة الثانية يجب أن يكون جائزًا. وهذا الكلام لا يختلف، سواء قلنا النفس عبارة عن جوهر مجرد، أو قلنا: إنه جسم لطيف مشاكل لهذا البدن باق في جميع أحوال البدن مصون عن التحلل والتبدل، وأما إن كان الإنسان عبارة عن البدن، وهذا القول أبعد الأقاويل فنقول: إن تألف تلك الأجزاء على الوجه المخصوص في المرة الأولى كان ممكنًا، فوجب أيضًا أن يكون في المرة الثانية ممكنًا، فثبت أن عود الحياة إلى هذا البدن مرة أخرى أمرٌ ممكن في نفسه.

وأما المقدمة الثانية: فهي في بيان أن إله العالم قادر مختار. لا علة موجبة، وأن هذا القادر قادر على كل الممكنات.

وأما المقدمة الثالثة: فهي في بيان أن إله العالم عالم بجميع الجزئيات، فلا جرم أجزاء بدن زيد وإن اختلطت بأجزاء التراب، والبحار إلا أنه تعالى لما كان عالمًا بالجزئيات أمكنه تمييز بعضها عن بعض. ومتى ثبتت هذه المقدمات الثلاثة، لزم القطع بأن الحشر والنشر أمر ممكن في نفسه.

وإذا ثبت هذا الإمكان فنقول: دل الدليل على صدق الأنبياء وهم قطعوا بوقوع هذا الممكن، فوجب القطع بوقوعه، وإلا لزمنا تكذيبهم، وذلك باطل بالدلائل الدالة على صدقهم، فهذا خلاصة ما وصل إليه عقلنا في تقرير أمر المعاد.

المسألة الثالثة: في الجواب عن شبهات المنكرين للحشر والنشر.

الشبهة الأولى: قالوا: لو بدلت هذه الدار بدار أخرى لكانت تلك الدار إما أن تكون مثل هذه الدار أو شرًّا منها أو خيرًا منها، فإن كان الأول كان التبديل عبثًا، وإن كان شرًّا منها كان هذا التبديل سفهًا، وإن كان خيرًا منها ففي أول الأمر هل كان قادرًا على خلق ذلك الأجود أو ما كان قادرًا عليه؟ فإن قدر عليه ثم تركه وفعل الأردأ كان ذلك سفهًا، وإن قلنا: إنه ما كان قادرًا ثم صار قادرًا عليه فقد انتقل من العجز إلى القدرة، أو من الجهل إلى الحكمة، وأن ذلك على خالق العالم محال.

والجواب: لم لا يجوز أن يقال: تقديم هذه الدار على تلك الدار هو المصلحة، لأن الكمالات النفسانية الموجبة للسعادة الأخروية لا يمكن تحصيلها إلا في هذه الدار، ثم عند حصول هذه الكمالات كان البقاء في هذه الدار سببًا للفساد والحرمان عن الخيرات.

الشبهة الثانية: قالوا: حركات الأفلاك مستديرة، والمستدير لا ضد له، وما لا ضد له لا يقبل الفساد.

والجواب: أنا أبطلنا هذه الشبهة في الكتب الفلسفية، فلا حاجة إلى الإعادة. والأصل في إبطال أمثال هذه الشبهات أن نقيم الدليل على أن أجرام الأفلاك مخلوقة، ومتى ثبت ذلك ثبت كونها قابلة للعدم والتفرق والتمزق. ولهذا السر فإنه تعالى في هذه السورة بدأ بالدلائل الدالة على حدوث الأفلاك، ثم أردفها بما يدل على صحة القول بالمعاد.

الشبهة الثالثة: الإنسان عبارة عن هذا البدن، وهو ليس عبارة عن هذه الأجزاء كيف كانت، لأن هذه الأجزاء كانت موجودة قبل حدوث هذا الإنسان، مع أنا نعلم بالضرورة أن هذا الإنسان ما كان موجودًا، وأيضًا أنه إذا أحرق هذا الجسد، فإنه تبقى تلك الأجزاء البسيطة، ومعلوم أن مجموع تلك الأجزاء البسيطة من الأرض والماء والهواء والنار، ما كان عبارة عن هذا الإنسان العاقل الناطق، فثبت أن تلك الأجزاء إنما تكون هذا الإنسان بشرط وقوعها على تأليف مخصوص، ومزاج مخصوص، وصورة مخصوصة، فإذا مات الإنسان وتفرقت أجزاؤه فقد عدمت تلك الصور والأعراض، وعود المعدوم محال. وعلى هذا التقدير فإنه يمتنع عود بعض الأجزاء المعتبرة في حصول هذا الإنسان فوجب أن يمتنع عوده بعينه مرة أخرى.

والجواب: لا نسلم أن هذا الإنسان المعين عبارة عن هذا الجسد المشاهد، بل هو عبارة عن النفس. سواء فسرنا النفس بأنه جوهر مفارق مجرد، أو قلنا: إنه جسم لطيف مخصوص مشاكل لهذا الجسد مصون عن التغير، والله أعلم به.

الشبهة الرابعة: إذا قتل إنسان واغتذى به إنسان آخر. فيلزم أن يقال تلك الأجزاء في بدن كل واحد من الشخصين وذلك محال.

والجواب: هذه الشبهة أيضًا مبنية على أن الإنسان المعين عبارة عن مجموع هذا البدن، وقد بينا أنه باطل. بل الحق أنه عبارة عن النفس سواء.

قلنا: النفس جوهر مجرد وأجسام لطيفة باقية مشاكلة للجسد، وهي التي سمتها المتكلمون بالأجزاء الأصلية. وهذا آخر البحث العقلي عن مسألة المعاد.

المسألة الرابعة: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

فيه أبحاث:

البحث الأول: أن كلمة (إلى) لانتهاء الغاية، وظاهره يقتضي أن يكون الله سبحانه مختصًا بحيز وجهة، حتى يصح أن يقال: إليه مرجع الخلق.

والجواب عنه من وجوه: الأول: أنا إذا قلنا: النفس جوهر مجرد، فالسؤال زائل. الثاني: أن يكون المراد منه: أن مرجعهم إلى حيث لا حاكم سواه. الثالث: أن يكون المراد: أن مرجعهم إلى حيث حصل الوعد فيه بالمجازاة.

البحث الثاني: ظاهر الآيات الكثيرة يدل على أن الإنسان عبارة عن النفس، لا عن البدن، ويدل أيضًا على أن النفس كانت موجودة قبل البدن. أما أن الإنسان شيء غير هذا البدن فلقوله

تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فالعلم الضروري حاصل بأن بدن المقتول ميت، والنص دال على أنه حي، فوجب أن تكون حقيقته شيئًا مغايرًا لهذا البدن الميت، وأيضًا قال الله تعالى في صفة نزع روح الكفار ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وأما أن النفس كانت موجودة قبل البدن، فلأن قوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يدل على ما قلنا، لأن الرجوع إلى الموضع إنما يحصل لو كان ذلك الشيء قد كان هناك قبل ذلك، ونظيره قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] وقوله: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

البحث الثالث: المرجع بمعنى الرجوع و﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال أي ذلك الرجوع يحصل حال الاجتماع، وهذا يدل على أنه ليس المراد من هذا المرجع الموت، وإنما المراد منه القيامة.

البحث الرابع: قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يفيد الحصر، وأنه لا رجوع إلا إلى الله تعالى، ولا حكم إلا حكمه ولا نافذ إلا أمره، وأما قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ منصوب على معنى: وعدكم الله وعدًا، لأن قوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ معناه: الوعد بالرجوع، فعلى هذا التقدير يكون قوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرًا مؤكدًا لقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وقوله: ﴿حَقًّا﴾ مصدرًا مؤكدًا لقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ فهذه التأكيدات قد اجتمعت في هذا الحكم.

المسألة الثانية: قرئ (وَعَدَ الله) على لفظ الفعل. واعلم أنه تعالى لما أخبر عن وقوع الحشر والنشر، ذكر بعده ما يدل على كونه في نفسه ممكن الوجود. ثم ذكر بعده ما يدل على وقوعه. أما ما يدل على إمكانه في نفسه فهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تقرير هذا الدليل أنه تعالى بيّن بالدليل كونه خالقًا للأفلاك والأرضين، ويدخل فيه أيضًا كونه خالقًا لكل ما في هذا العالم من الجمادات والمعادن والنبات والحيوان والإنسان، وقد ثبت في العقل أن كل من كان قادرًا على شيء، وكانت قدرته باقية ممتنعة الزوال، وكان عالمًا بجميع المعلومات فإنه يمكنه إعادته بعينه، فدل هذا الدليل على أنه تعالى قادر على إعادة الإنسان بعد موته.

المسألة الثانية: اتفق المسلمون على أنه تعالى قادر على إعدام أجسام العالم، واختلفوا في أنه تعالى هل يعدمها أم لا؟ فقال قوم إنه تعالى يعدمها، واحتجوا بهذه الآية وذلك لأنه تعالى حكم على جميع المخلوقات بأنه يعيدها، فوجب أن يعيد الأجسام أيضًا، وإعادتها لا تمكن إلا بعد إعدامها، وإلا لزم إيجاد الموجود وهو محال. ونظيره قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فحكم بأن الإعادة تكون مثل الابتداء،

ثم ثبت بالدليل أنه تعالى إنما يخلقها في الابتداء من العدم، فوجب أن يقال: إنه تعالى يعيدها أيضًا من العدم.

المسألة الثالثة: في هذه الآية إضمار، كأنه قيل: إنه يبدأ الخلق ليأمرهم بالعبادة، ثم يميتهم ثم يعيدهم، كما قال في سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] إلا أنه تعالى حذف ذكر الأمر بالعبادة ههنا، لأجل أنه تعالى قال قبل هذه الآية: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [يونس: ٣] وحذف ذكر الإماتة لأن ذكر الإعادة يدل عليها.

المسألة الرابعة: قرأ بعضهم ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بالكسر وبعضهم بالفتح. قال الزجاج: من كسر الهمزة من (أن) فعلى الاستئناف، وفي الفتح وجهان: الأول: أن يكون التقدير: إليه مرجعكم جميعًا لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده. والثاني: أن يكون التقدير: وعد الله وعدًا بدأ الخلق ثم إعادته، وقرئ (يُبْدِئُ) من أبدأ، وقرئ (حق إنه يبدأ الخلق) كقولك: حق إن زيدًا منطلق.

أما قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ فاعلم أن المقصود منه إقامة الدلالة على أنه لا بد من حصول الحشر والنشر، حتى يحصل الفرق بين المحسن والمسيء، وحتى يصل الثواب إلى المطيع والعقاب إلى العاصي، وقد سبق الاستقصاء في تقرير هذا الدليل.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الكعبي: اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يدل على أنه تعالى خلق العباد للثواب والرحمة. وأيضًا فإنه أدخل لام التعليل على الثواب. وأما العقاب فما أدخل فيه لام التعليل، بل قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وذلك يدل على أنه خلق الخلق للرحمة لا للعذاب، وذلك يدل على أنه ما أراد منهم الكفر، وما خلق فيهم الكفر ألبتة.

والجواب: أن لام التعليل في أفعال الله تعالى محال، لأنه تعالى لو فعل فعلاً لعلة لكانت تلك العلة، إن كانت قديمة لزم قدم الفعل، وإن كانت حادثة لزم التسلسل وهو محال.

المسألة الثانية: قال الكعبي أيضًا: هذه الآية تدل على أنه لا يجوز من الله تعالى أن يبدأ خلقهم في الجنة، لأنه لو حسن إيصال تلك النعم إليهم من غير واسطة خلقهم في هذا العالم ومن غير واسطة تكليفهم، لما كان خلقهم وتكليفهم معللاً بإيصال تلك النعم إليهم، وظاهر الآية يدل على ذلك. والجواب: هذا بناء على صحة تعليل أحكام الله تعالى وهو باطل، سلمنا صحته. إلا أن كلامه إنما يصح لو عللنا بدء الخلق وإعادته بهذا المعنى وذلك ممنوع. فلم لا يجوز أن يقال: إنه يبدأ الخلق لمحض التفضل، ثم إنه تعالى يعيدهم لغرض إيصال نعم الجنة إليهم؟ وعلى هذا التقدير: سقط كلامه.

أما قوله تعالى: ﴿بِالْقِسْطِ﴾. **ففيه وجهان:**

الوجه الأول: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وهو يتعلق بقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ والمعنى: ليجزيهم بقسطه،

وفيه سؤالان.

السؤال الأول: أن القسط إذا كان مفسرًا بالعدل، فالعدل هو الذي يكون لا زائدًا ولا ناقصًا، وذلك يقتضي أنه تعالى لا يزيدهم على ما يستحقونه بأعمالهم، ولا يعطيهم شيئًا على سبيل التفضل ابتداء. والجواب: عندنا أن الثواب أيضًا محض التفضل. وأيضًا فبتقدير أن يساعد على حصول الاستحقاق، إلا أن لفظ (القسط) يدل على توفية الأجر، فأما المنع من الزيادة فلفظ (القسط) لا يدل عليه.

السؤال الثاني: لم خص المؤمنين بالقسط مع أنه تعالى يجازي الكافرين أيضًا بالقسط؟ والجواب: أن تخصيص المؤمنين بذلك يدل على مزيد العناية في حقهم، وعلى كونهم مخصوصين بمزيد هذا الاحتياط.

الوجه الثاني: في تفسير الآية أن يكون المعنى: ليجزي الذين آمنوا بقسطهم، وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا أنفسهم حيث آمنوا وعملوا الصالحات، لأن الشرك ظلم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والعصاة أيضًا قد ظلموا أنفسهم. قال الله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢] وهذا الوجه أقوى، لأنه في مقابلة قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الواحدي: الحميم: الذي سخن بالنار حتى انتهى حره. يقال: حممت الماء أي سخنته، فهو حميم. ومنه الحمام.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه لا واسطة بين أن يكون المكلف مؤمنًا وبين أن يكون كافرًا، لأنه تعالى اقتصر في هذه الآية على ذكر هذين القسمين.

وأجاب القاضي عنه: بأن ذكر هذين القسمين لا يدل على نفي القسم الثالث. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥] ولم يدل ذلك على نفي القسم الرابع، بل نقول: إن في مثل ذلك ربما يذكر المقصود أو الأكثر، ويترك ذكر ما عداه، إذا كان قد بيِّن في موضع آخر. وقد بيَّن الله تعالى القسم الثالث في سائر الآيات.

والجواب أن نقول: إنما يترك القسم الثالث الذي يجري مجرى النادر، ومعلوم أن الفساق أكثر من أهل الطاعات، وكيف يجوز ترك ذكرهم في هذا الباب؟ وأما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥] فإنما ترك ذكر القسم الرابع والخامس، لأن أقسام ذوات الأرجل كثيرة. فكان ذكرها بأسرها يوجب الإطناب بخلاف هذه المسألة. فإنه ليس ههنا إلا القسم الثالث، وهو الفاسق الذي يزعم الخصم أنه لا مؤمن ولا كافر. فظهر الفرق.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل الدالة على الإلهية، ثم فرع عليها صحة القول بالحشر والنشر، عاد مرة أخرى إلى ذكر الدلائل الدالة على الإلهية.

واعلم أن الدلائل المتقدمة في إثبات التوحيد والإلهية هي التمسك بخلق السموات والأرض، وهذا النوع إشارة إلى التمسك بأحوال الشمس والقمر، وهذا النوع الأخير إشارة إلى ما يؤكد الدليل الدال على صحة الحشر والنشر، وذلك لأنه تعالى أثبت القول بصحة الحشر والنشر، بناء على أنه لا بد من إيصال الثواب إلى أهل الطاعة، وإيصال العقاب إلى أهل الكفر، وأنه يجب في الحكمة تمييز المحسن عن المسيء، ثم إنه تعالى ذكر في هذه الآية أنه جعل الشمس ضياء والقمر نورًا وقدره منازل ليتوصل المكلف بذلك إلى معرفة السنين والحساب، فيمكنه ترتيب مهمات معاشه من الزراعة والحراثة، وإعداد مهمات الشتاء والصيف، فكأنه تعالى يقول: تمييز المحسن عن المسيء والمطيع عن العاصي، أوجب في الحكمة من تعليم أحوال السنين والشهور. فلما اقتضت الحكمة والرحمة خلق الشمس والقمر لهذا المهم الذي لا نفع له إلا في الدنيا. فبأن تقتضي الحكمة والرحمة تمييز المحسن عن المسيء بعد الموت، مع أنه يقتضي النفع الأبدي والسعادة السرمدية، كان ذلك أولى. فلما كان الاستدلال بأحوال الشمس والقمر من الوجه المذكور في هذه الآية مما يدل على التوحيد من وجه، وعلى صحة القول بالمعاد من الوجه الذي ذكرناه، لا جرم ذكر الله هذا الدليل بعد ذكر الدليل على صحة المعاد.

المسألة الثانية: الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدر هو أن يقال: الأجسام في ذواتها متماثلة، وفي ماهياتها متساوية، ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل الحكيم المختار، أما بيان أن الأجسام متماثلة في ذواتها وماهياتها، فالدليل عليه أن الأجسام لا شك أنها متساوية في الحجمية والتحيز والجرمية، فلو خالف بعضها بعضًا لكانت تلك المخالفة في أمر وراء الحجمية والجرمية ضرورة أن ما به المخالفة غير ما به المشاركة، وإذا كان كذلك فنقول: إن ما به حصلت المخالفة من الأجسام إما أن يكون صفة لها أو موصوفًا بها أو لا صفة لها ولا موصوفًا بها والكل باطل.

أما القسم الأول: فلأن ما به حصلت المخالفة لو كانت صفات قائمة بتلك الذوات، فتكون الذوات في أنفسها، مع قطع النظر عن تلك الصفات، متساوية في تمام الماهية، وإذا كان الأمر كذلك، فكل ما يصح على جسم، وجب أن يصح على كل جسم، وذلك هو المطلوب.

وأما القسم الثاني: وهو أن يقال: إن الذي به خالف بعض الأجسام بعضًا، أمور موصوفة بالجسمية والتحيز والمقدار. فنقول: هذا أيضًا باطل. لأن ذلك الموصوف، إما أن يكون حجمًا ومتحيزًا أو لا يكون، والأول باطل، وإلا لزم افتقاره إلى محل آخر، ويستمر ذلك إلى غير النهاية. وأيضًا فعلى هذا التقدير يكون المحل مثلاً للحال، ولم يكن كون أحدهما محلاً والآخر حالاً، أولى من العكس، فيلزم كون كل واحد منهما محلاً للآخر وحالاً فيه، وذلك محال، وأما إن كان ذلك المحل غير متحيز، وله حجم. فنقول: مثل هذا الشيء لا يكون له اختصاص بحيز ولا تعلق بجهة والجسم مختص بالحيز، وحاصل في الجهة، والشيء الذي يكون واجب الحصول في الحيز والجهة، يمتنع أن يكون حالاً في الشيء الذي يمتنع حصوله في الحيز والجهة.

وأما القسم الثالث: وهو أن يقال: ما به خالف جسم جسمًا، لا حال في الجسم ولا محل له، فهذا أيضًا باطل، لأن على هذا التقدير يكون ذلك الشيء شيئًا مباينًا عن الجسم لا تعلق له به، فحينئذ تكون ذوات الأجسام من حيث ذواتها متساوية في تمام الماهية، وذلك هو المطلوب، فثبت أن الأجسام بأسرها متساوية في تمام الماهية.

وإذا ثبت هذا فنقول: الأشياء المتساوية في تمام الماهية تكون متساوية في جميع لوازم الماهية، فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على الباقي، فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر، وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر أيضًا، وبالعكس. وإذا كان كذلك، وجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر، واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص وإيجاد موجد. وتقدير مقدر وذلك هو المطلوب، فثبت أن اختصاص الشمس بذلك الضوء بجعل جاعل، وأن اختصاص القمر بذلك النوع من النور بجعل جاعل، فثبت بالدليل القاطع صحة قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ وهو المطلوب.

المسألة الثالثة: قال أبو علي الفارسي: الضياء لا يخلو من أحد أمرين إما أن يكون جمع ضوء كسوط وسياط وحوض وحياض، أو مصدر ضاء يضوء ضياء كقولك: قام قيامًا، وصام صيامًا، وعلى أي الوجهين حملته، فالمضاف محذوف، والمعنى جعل الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور، ويجوز أن يكون من غير ذلك لأنه لما عظم الضوء والنور فيهما جعلا نفس الضياء والنور كما يقال للرجل الكريم: إنه كرم وجود.

المسألة الرابعة: قال الواحدي: روي عن ابن كثير من طريق قنبل (ضئاء) بهمزتين وأكثر

الناس على تغليطه فيه، لأن ياء ضياء منقلبة من واو مثل ياء قيام وصيام، فلا وجه للهمزة فيها. ثم قال: وعلى البعد يجوز أن يقال: قدم اللام التي هي الهمزة إلى موضع العين، وأخر العين التي هي واو إلى موضع اللام، فلما وقعت طرفًا بعد ألف زائدة انقلبت همزة، كما انقلبت في سقاء وبابه. والله أعلم.

المسألة الخامسة: اعلم أن النور كيفية قابلة للأشد والأضعف، فإن نور الصباح أضعف من النور الحاصل في أول النهار قبل طلوع الشمس، وهو أضعف من النور الحاصل في أفنية الجدران عند طلوع الشمس، وهو أضعف من النور الساطع من الشمس على الجدران، وهو أضعف من الضوء القائم بجرم الشمس، فكمال هذه الكيفية المسماة بالضوء على ما يحس به في جرم الشمس، وهو في الإمكان وجود مرتبة في الضوء أقوى من الكيفية القائمة بالشمس، فهو من مواقف العقول. واختلف الناس في أن الشعاع الفائض من الشمس هل هو جسم أو عرض؟ والحق أنه عرض، وهو كيفية مخصوصة، وإذا ثبت أنه عرض فهل حدوثه في هذا العالم بتأثير قرص الشمس أو لأجل أن الله تعالى أجرى عادته بخلق هذه الكيفية في الأجرام المقابلة لقرص الشمس على سبيل العادة، فهي مباحث عميقة، وإنما يليق الاستقصاء فيها بعلوم المعقولات.

وإذا عرفت هذا فنقول: النور اسم لأصل هذه الكيفية، وأما الضوء، فهو اسم لهذه الكيفية إذا كانت كاملة تامة قوية، والدليل عليه أنه تعالى سمى الكيفية القائمة بالشمس (ضياء) والكيفية القائمة بالقمر (نورًا) ولا شك أن الكيفية القائمة بالشمس أقوى وأكمل من الكيفية القائمة بالقمر، وقال في موضع آخر: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] وقال في آية أخرى: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] وفي آية أخرى ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

المسألة السادسة: قوله: ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ نظيره قوله تعالى في سورة يس: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون المعنى وقدر مسيره منازل. والثاني: أن يكون المعنى وقدره ذا منازل.

المسألة السابعة: الضمير في قوله: ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ فيه وجهان: الأول: أنه لهما، وإنما وحد الضمير للإيجاز، وإلا فهو في معنى التثنية اكتفاء بالمعلوم، لأن عدد السنين والحساب إنما يعرف بسير الشمس والقمر، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] والثاني: أن يكون هذا الضمير راجعًا إلى القمر وحده، لأن بسير القمر تعرف الشهور، وذلك لأن الشهور المعتبرة في الشريعة مبنية على رؤية الأهلة، والسنة المعتبرة في الشريعة هي السنة القمرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٦]

المسألة الثامنة: اعلم أن انتفاع الخلق بضوء الشمس وبنور القمر عظيم، فالشمس سلطان النهار والقمر سلطان الليل. وبحركة الشمس تنفصل السنة إلى الفصول الأربعة، وبالفصول

الأربعة تنتظم مصالح هذا العالم. وبحركة القمر تحصل الشهور، وباختلاف حاله في زيادة الضوء ونقصانه تختلف أحوال رطوبات هذا العالم. وبسبب الحركة اليومية يحصل النهار والليل، فالنهار يكون زمانًا للتكسب والطلب، والليل يكون زمانًا للراحة، وقد استقصينا في منافع الشمس والقمر في تفسير الآيات اللائقة بها فيما سلف، وكل ذلك يدل على كثرة رحمة الله على الخلق وعظم عنايته بهم، فإنا قد دللنا على أن الأجسام متساوية. ومتى كان كذلك كان اختصاص كل جسم بشكله المعين ووضعه المعين، وحيزه المعين، وصفته المعينة، ليس إلا بتدبير مدبر حكيم رحيم قادر قاهر. وذلك يدل على أن جميع المنافع الحاصلة في هذا العالم بسبب حركات الأفلاك ومسير الشمس والقمر والكواكب ما حصل إلا بتدبير المدبر المقدر الرحيم الحكيم سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. ثم إنه تعالى لما قرر هذه الدلائل ختمها بقوله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ ومعناه أنه تعالى خلقه على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة، ونظيره قوله تعالى في آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١]وقال في سورة آخرى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ [ص: ٢٧].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي: هذه الآية تدل على بطلان الجبر، لأنه تعالى لو كان مريدًا لكل ظلم، وخالقًا لكل قبيح، ومريدًا لإضلال من ضل، لما صح أن يصف نفسه بأنه ما خلق ذلك إلا بالحق.

المسألة الثانية: قال حكماء الإسلام: هذا يدل على أنه سبحانه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة، باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلي. إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا العالم، لكان خلقها عبثًا وباطلاً وغير مفيد، وهذه النصوص تنافي ذلك، والله أعلم.

ثم بين تعالى أنه يفصل الآيات، ومعنى التفصيل هو ذكر هذه الدلائل الباهرة، واحدًا عقيب الآخر، فصلاً فصلاً مع الشرع والبيان. وفي قوله: (نفصل) قراءتان: قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم (يفصل) بالياء، وقرأ الباقون بالنون.

ثم قال: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾.

وفيه قولان:

الأول: أن المراد منه العقل الذي يعم الكل.

والثاني: أن المراد منه من تفكر وعلم فوائد مخلوقاته وآثار إحسانه، وحجة القول: الأول: عموم اللفظ، وحجة القول. الثاني: أنه لا يمتنع أن يخص الله سبحانه وتعالى العلماء بهذا

الذكر، لأنهم هم الذين انتفعوا بهذه الدلائل، فجاء كما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥] مع أنه عليه السلام كان منذرًا للكل.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى استدل على التوحيد والإلهيات أولاً: بتخليق السموات والأرض، وثانيًا: بأحوال الشمس والقمر، **وثالثًا:** في هذه الآية بالمنافع الحاصلة من اختلاف الليل والنهار، وقد تقدم تفسيره في سورة البقرة في تفسير قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] ورابعًا: بكل ما خلق الله في السموات والأرض، وهي أقسام الحوادث الحادثة في هذا العالم، وهي محصورة في أربعة أقسام: **أحدها:** الأحوال الحادثة في العناصر الأربعة، ويدخل فيها أحوال الرعد والبرق والسحاب والأمطار والثلوج. ويدخل فيها أيضًا أحوال البحار، وأحوال المد والجزر، وأحوال الصواعق والزلازل والخسف. **وثانيها:** أحوال المعادن وهي عجيبة كثيرة. **وثالثها:** اختلاف أحوال النبات. **ورابعها:** اختلاف أحوال الحيوانات، وجملة هذه الأقسام الأربعة داخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ والاستقصاء في شرح هذه الأحوال مما لا يمكن في ألف مجلد، بل كل ما ذكره العقلاء في أحوال أقسام هذا العالم فهو جزء مختصر من هذا الباب. ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الدلائل قال: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ فخصها بالمتقين، لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى التدبر والنظر. قال القفال: من تدبر في هذه الأحوال علم أن الدنيا مخلوقة لشقاء الناس فيها، وأن خالقها وخالقهم ما أهملهم، بل جعلها لهم دار عمل. وإذا كان كذلك فلا بد من أمر ونهي، ثم من ثواب وعقاب، ليتميز المحسن عن المسيء، فهذه الأحوال في الحقيقة دالة على صحة القول بإثبات المبدأ وإثبات المعاد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلائل القاهرة على صحة القول بإثبات الإله الرحيم الحكيم، وعلى صحة القول بالمعاد والحشر والنشر، شرع بعده في شرح أحوال من يكفر بها، وفي شرح أحوال من يؤمن بها. فأما شرح أحوال الكافرين فهو المذكور في هذه الآية.

واعلم أنه تعالى وصفهم بصفات أربعة:

الصفة الأولى: قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير هذا الرجاء قولان:

القول الأول: وهو قول ابن عباس ومقاتل والكلبي: معناه: لا يخافون البعث، والمعنى: أنهم لا يخافون ذلك لأنهم لا يؤمنون بها. والدليل على تفسير الرجاء ههنا بالخوف قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]وقوله: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]وتفسير الرجاء بالخوف جائز كما قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]قال الهذلي (١):

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسْعَهَا

والقول الثاني: تفسير الرجاء بالطمع، فقوله: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يطمعون في ثوابنا، فيكون هذا الرجاء هو الذي ضده اليأس، كما قال: ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ ٱلْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ [الممتحنة: ١٣].

واعلم أن حمل الرجاء على الخوف بعيد، لأن تفسير الضد بالضد غير جائز، ولا مانع ههنا من حمل الرجاء على ظاهره ألبتة، والدليل عليه أن لقاء الله إما أن يكون المراد منه تجلي جلال الله تعالى للعبد وإشراق نور كبريائه في روحه، وإما أن يكون المراد منه الوصول إلى ثواب الله تعالى وإلى رحمته. فإن كان الأول فهو أعظم الدرجات وأشرف السعادات وأكمل الخيرات، فالعاقل كيف لا يرجوه، وكيف لا يتمناه؟ وإن كان الثاني فكذلك، لأن كل أحد يرجو من الله تعالى أن يوصله إلى ثوابه ومقامات رحمته، وإذا كان كذلك فكل من آمن بالله فهو يرجو ثوابه، وكل من لم يؤمن بالله ولا بالمعاد فقد أبطل على نفسه هذا الرجاء، فلا جرم حسن جعل عدم هذا الرّجاء كناية عن عدم الإيمان بالله واليوم الآخر.

المسألة الثانية: اللقاء هو الوصول إلى الشيء، وهذا في حق الله تعالى محال، لكونه منزهًا عن الحد والنهاية، فوجب أن يجعل مجازًا عن الرؤية، وهذا مجاز ظاهر. فإنه يقال: لقيت فلانًا إذا رأيته، وحمله على لقاء ثواب الله يقتضي زيادة في الإضمار وهو خلاف الدليل.

واعلم أنه ثبت بالدلائل اليقينية أن سعادة النفس بعد الموت في أن تتجلى فيها معرفة الله تعالى ويكمل إشراقها ويقوى لمعانها، وذلك هو الرؤية، وهي من أعظم السعادات. فمن كان غافلًا عن طلبها معرضًا عنها مكتفيًا بعد الموت بوجدان اللذات الحسية من الأكل والشرب والوقاع كان من الضالين.

الصفة الثانية: من صفات هؤلاء الكفار قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

واعلم أن الصفة الأولى إشارة إلى خلو قلبه عن طلب اللذات الروحانية، وفراغه عن طلب السعادات الحاصلة بالمعارف الربانية، وأما هذه الصفة الثانية فهي إشارة إلى استغراقه في طلب اللذات الجسمانية واكتفائه بها، واستغراقه في طلبها.

---

(١)هذا صدر بيت من قصيدة من البحر الطويل للشاعر أبي ذؤيب الهذلي وهو هكذا.

إذا لَسَعَتْهُ الدَبرُ لَم يَرجُ لَسعَها وَخالَفَها في بَيتِ نوبٍ عَواسِلِ

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: صفة السعداء أن يحصل لهم عند ذكر الله نوع من الوجل والخوف كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥] ثم إذا قويت هذه الحالة حصلت الطمأنينة في ذكر الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] وصفة الأشقياء أن تحصل لهم الطمأنينة في حب الدنيا، وفي الاشتغال بطلب لذاتها كما قال في هذه الآية: ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾ فحقيقة الطمأنينة أن يزول عن قلوبهم الوجل، فإذا سمعوا الإنذار والتخويف لم توجل قلوبهم وصارت كالميتة عند ذكر الله تعالى.

المسألة الثانية: مقتضى اللغة أن يقال: واطمأنوا إليها، إلا أن حروف الجر يحسن إقامة بعضها مقام البعض، فلهذا السبب قال: ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا﴾.

والصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ والمراد أنهم صاروا في الإعراض عن طلب لقاء الله تعالى. بمنزلة الغافل عن الشيء الذي لا يخطر بباله طول عمره ذكر ذلك الشيء، وبالجملة فهذه الصفات الأربعة دالة على شدة بعده عن طلب الاستسعاد بالسعادات الأخروية الروحانية، وعلى شدة استغراقه في طلب هذه الخيرات الجسمانية والسعادات الدنيوية.

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بهذه الصفات الأربعة قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: النيران على أقسام: النار التي هي جسم محسوس مضيء محرق، صاعدًا بالطبع، والإقرار به واجب، لأجل أنه ثبت بالدلائل المذكورة أن الإقرار بالجنة والنار حق.

القسم الثاني: النار الروحانية العقلية، وتقريره أن من أحب شيئًا حبًّا شديدًا ثم ضاع عنه ذلك الشيء بحيث لا يمكنه الوصول إليه، فإنه يحترق قلبه وباطنه، وكل عاقل يقول: إن فلانًا محترق القلب محترق الباطن بسبب فراق ذلك المحبوب. وألم هذه النار أقوى بكثير من ألم النار المحسوسة.

إذا عرفت هذا فنقول: إن الأرواح التي كانت مستغرقة في حب الجسمانيات وكانت غافلة عن حب عالم الروحانيات، فإذا مات ذلك الإنسان وقعت الفرقة بين ذلك الروح وبين معشوقاته ومحبوباته، وهي أحوال هذا العالم، وليس له معرفة بذلك العالم ولا إلف مع أهل ذلك العالم، فيكون مثاله مثال من أُخرِج من مجالسة معشوقه وألقي في بئر ظلمانية لا إلف له بها، ولا معرفة له بأحوالها، فهذا الإنسان يكون في غاية الوحشة، وتألم الروح فكذا هنا، أما لو كان نفورًا عن هذه الجسمانيات عارفًا بمقابحها ومعايبها وكان شديد الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى، عظيم

الحب لله، كان مثاله مثال من كان محبوسًا في سجن مظلم عفن مملوء من الحشرات المؤذية والآفات المهلكة، ثم اتفق أن فتح باب السجن وأخرج منه وأحضر في مجلس السلطان الأعظم مع الأحباب والأصدقاء، كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩] فهذا هو الإشارة إلى تعريف النار الروحانية والجنة الروحانية.

المسألة الثانية: الباء في قوله: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مشعر بأن الأعمال السابقة هي المؤثرة في حصول هذا العذاب، ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠]

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال المنكرين والجاحدين في الآية المتقدمة، ذكر في هذه الآية أحوال المؤمنين المحقين، واعلم أنه تعالى ذكر صفاتهم أولاً، ثم ذكر مالهم من الأحوال السنية والدرجات الرفيعة ثانيًا، أما أحوالهم وصفاتهم فهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وفي تفسيره وجوه:

الوجه الأول: أن النفس الإنسانية لها قوتان:

القوة النظرية: وكمالها في معرفة الأشياء، ورئيس المعارف وسلطانها معرفة الله.

والقوة العملية: وكمالها في فعل الخيرات والطاعات، ورئيس الأعمال الصالحة وسلطانها خدمة الله. فقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إشارة إلى كمال القوة النظرية بمعرفة الله تعالى وقوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إشارة إلى كمال القوة العملية بخدمة الله تعالى، ولما كانت القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف والرتبة، لا جرم وجب تقديمها في الذكر.

الوجه الثاني: في تفسير هذه الآية، قال القفال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي صدقوا بقلوبهم، ثم حققوا التصديق بالعمل الصالح الذي جاءت به الأنبياء والكتب من عند الله تعالى.

الوجه الثالث: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي شغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي شغلوا جوارحهم بالخدمة، فعينهم مشغولة بالاعتبار كما قال: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وأذنهم مشغولة بسماع كلام الله تعالى كما قال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣] ولسانهم مشغول بذكر الله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٤١] وجوارحهم مشغولة بنور طاعة الله كما قال: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: ٢٥].

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالإيمان والأعمال الصالحة ذكر بعد ذلك درجات كراماتهم ومراتب سعاداتهم وهي أربعة.

المرتبة الأولى: قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ وجوه: الأول: أنه تعالى يهديهم إلى الجنة ثوابًا لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة، والذي يدل على صحة هذا التأويل وجوه:

أحدها: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

وثانيها: ما روي أنه عليه السلام قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صُوِّرَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ حَسَنَةٍ فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ فَيَكُونُ لَهُ نُورًا وَقَائِدًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَالْكَافِرُ إِذَا خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ صُوِّرَ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةٍ سَيِّئَةٍ فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا عَمَلُكَ فَيَنْطَلِقُ بِهِ حَتَّى يُدْخِلَهُ النَّارَ».

وثالثها: قال مجاهد: المؤمنون يكون لهم نور يمشي بهم إلى الجنة.

ورابعها: وهو الوجه العقلي أن الإيمان عبارة عن نور اتصل به من عالم القدس، وذلك النور كالخيط المتصل بين قلب المؤمن وبين ذلك العالم المقدس، فإن حصل هذا الخط النوراني قدر العبد على أن يقتدي بذلك النور ويرجع إلى عالم القدس، فأما إذا لم يوجد هذا الحبل النوراني تاه في ظلمات عالم الضلالات نعوذ بالله منه.

والتأويل الثاني: قال ابن الأنباري: إن إيمانهم يهديهم إلى خصائص في المعرفة ومزايا في الألفاظ ولوامع من النور تستنير بها قلوبهم، وتزول بواسطتها الشكوك والشبهات عنهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧] وهذه الزوائد والفوائد والمزايا يجوز حصولها في الدنيا قبل الموت، ويجوز حصولها في الآخرة بعد الموت، قال القفال: وإذا حملنا الآية على هذا الوجه. كان المعنى يهديهم ربهم بإيمانهم وتجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم، إلا أنه حذف الواو وجعل قوله: ﴿تَجْرِى﴾ خبرًا مستأنفًا منقطعًا عما قبله.

والتأويل الثالث: أن الكلام في تفسير هذه الآية يجب أن يكون مسبوقًا بمقدمات.

المقدمة الأولى: أن العلم نور والجهل ظلمة. وصريح العقل يشهد بأن الأمر كذلك، ومما يقرره أنك إذا ألقيت مسألة جليلة شريفة على شخصين، فاتفق أن فهمها أحدهما وما فهمها الآخر، فإنك ترى وجه الفاهم متهللاً مشرقًا مضيئًا، ووجه من لم يفهم عبوسًا مظلمًا منقبضًا، ولهذا السبب جرت عادة القرآن بالتعبير عن العلم والإيمان بالنور، وعن الجهل والكفر بالظلمات.

والمقدمة الثانية: أن الروح كاللوح، والعلوم والمعارف كالنقوش المنقوشة في ذلك اللوح. ثم ههنا دقيقة، وهي أن اللوح الجسماني إذا رسمت فيه نقوش جسمانية فحصول بعض النقوش في ذلك اللوح مانع من حصول سائر النقوش فيه، فأما لوح الروح فخاصيته على الضد من ذلك،

فإن الروح إذا كانت خالية عن نقوش المعارف والعلوم فإنه يصعب عليها تحصيل المعارف والعلوم، فإذا احتال وحَصَّل شيئًا منها، كان حصول ما حصل منها معينًا له على سهولة تحصيل الباقي، وكلما كان الحاصل أكثر كان تحصيل البقية أسهل، فالنقوش الجسمانية يكون بعضها مانعًا من حصول الباقي، والنقوش الروحانية يكون بعضها معينًا على حصول البقية، وذلك يدل على أن أحوال العالم الروحاني بالضد من أحوال العالم الجسماني.

المقدمة الثالثة: أن الأعمال الصالحة عبارة عن الأعمال التي تحمل النفس على ترك الدنيا وطلب الآخرة، والأعمال المذمومة ما تكون بالضد من ذلك.

إذا عرفت هذه المقدمات فنقول: الإنسان إذا آمن بالله فقد أشرق روحه بنور هذه المعرفة، ثم إذا واظب على الأعمال الصالحة حصلت له ملكة مستقرة في التوجه إلى الآخرة وفي الإعراض عن الدنيا، وكلما كانت هذه الأحوال أكمل كان استعداد النفس لتحصيل سائر المعارف أشد، وكلما كان الاستعداد أقوى وأكمل. كانت معارج المعارف أكثر وإشراقها ولمعانها أقوى، ولما كان لا نهاية لمراتب المعارف والأنوار العقلية، لا جرم لا نهاية لمراتب هذه الهداية المشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ المراد منه أنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين والأنهار تجري من بين أيديهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] وهي ما كانت قاعدة عليها، ولكن المعنى بين يديك، وكذا قوله: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١] المعنى بين يدي فكذا ههنا.

المسألة الثالثة: الإيمان هو المعرفة والهداية المترتبة عليها أيضًا من جنس المعارف، ثم إنه تعالى لم يقل يهديهم ربهم إيمانهم. بل قال: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ وذلك يدل على أن العلم بالمقدمتين لا يوجب العلم بالنتيجة، بل العلم بالمقدمتين سبب لحصول الاستعداد التام لقبول النفس للنتيجة. ثم إذا حصل هذا الاستعداد، كان التكوين من الحق سبحانه وتعالى، وهذا معنى قول الحكماء أن الفياض المطلق والجواد الحق، ليس إلا الله سبحانه وتعالى.

المرتبة الثانية: من مراتب سعاداتهم ودرجات كمالاتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ وجوه:

الأول: أن الدعوى ههنا بمعنى الدعاء، يقال: دعا يدعو دعاء ودعوى، كما يقال: شكى يشكو شكاية وشكوى. قال بعض المفسرين: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي دعاؤهم. وقال تعالى في أهل الجنة: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس: ٥٧] وقال في آية أخرى ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥] ومما يقوى أن المراد من الدعوى ههنا الدعاء. هو أنهم قالوا: اللهم. وهذا نداء لله

سبحانه وتعالى، ومعنى قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ إنا نسبحك، كقول القانت في دعاء القنوت: «اللَّهُمَّ إِيَّاكَ نَعْبُدُ».

الثاني: أن يراد بالدعاء العبادة، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[مريم: ٤٨] أي وما تعبدون. فيكون معنى الآية أنه لا عبادة لأهل الجنة إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه، ويكون اشتغالهم بذلك الذكر لا على سبيل التكليف، بل على سبيل الابتهاج بذكر الله تعالى.

الثالث: قال بعضهم: لا يبعد أن يكون المراد من الدعوى نفس الدعوى التي تكون للخصم على الخصم. والمعنى: أن أهل الجنة يدعون في الدنيا وفي الآخرة تنزيه الله تعالى عن كل المعايب والإقرار له بالإلهية. قال القفال: أصل ذلك أيضًا من الدعاء، لأن الخصم يدعو خصمه إلى من يحكم بينهما.

الرابع: قال مسلم: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي قولهم وإقرارهم ونداؤهم، وذلك هو قولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

الخامس: قال القاضي: المراد من قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي طريقتهم في تمجيد الله تعالى وتقديسه وشأنهم وسنتهم. والدليل على أن المراد ذلك أن قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ ليس بدعاء ولا بدعوى، إلا أن المدعي للشيء يكون مواظبًا على ذكره، لا جرم جعل لفظ الدعوى كناية عن تلك المواظبة والملازمة. فأهل الجنة لما كانوا مواظبين على هذا الذكر، لا جرم أطلق لفظ الدعوى عليها.

السادس: قال القفال: قيل في قوله: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾[يس: ٥٧] أي ما يتمنونه، والعرب تقول: ادع ما شئت علي، أي تمن. وقال ابن جريج: أخبرت أن قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ هو أنه إذا مر بهم طير يشتهونه قالوا ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فيأتيهم الملك بذلك المشتهى، فقد خرج تأويل الآية من هذا الوجه، على أنهم إذا اشتهوا الشيء قالوا: سبحانك اللهم، فكان المراد من دعواهم ما حصل في قلوبهم من التمني، وفي هذا التفسير وجه آخر هو أفضل وأشرف مما تقدم، وهو أن يكون المعنى أن تمنيهم في الجنة أن يسبحوا الله تعالى، أي تمنيهم لما يتمنونه، ليس إلا في تسبيح الله تعالى وتقديسه وتنزيهه. السابع: قال القفال أيضًا: ويحتمل أن يكون المعنى في الدعوى ما كانوا يتداعونه في الدنيا في أوقات حروبهم ممن يسكنون إليه ويستنصرونه، كقولهم: يا آل فلان، فأخبر الله تعالى أن أنسهم في الجنة بذكرهم الله تعالى، وسكونهم بتحميدهم الله. ولذتهم بتمجيدهم الله تعالى.

المسألة الثانية: أن قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾.

فيه وجهان:

الوجه الأول: قول من يقول: إن أهل الجنة جعلوا هذا الذكر علامة على طلب المشتهيات قال ابن جريج: إذا مر بهم طيرًا اشتهوه؛ قالوا ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فيؤتون به، فإذا نالوا منه شهوتهم

قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال الكلبي: قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ علم بين أهل الجنة والخدام، فإذا سمعوا ذلك من قولهم أتوهم بما يشتهون. واعلم أن هذا القول عندي ضعيف جدًّا، وبيانه من وجوه: أحدها: أن حاصل هذا الكلام يرجع إلى أن أهل الجنة جعلوا هذا الذكر العالي المقدس علامة على طلب المأكول والمشروب والمنكوح، وهذا في غاية الخساسة. وثانيها: أنه تعالى قال في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] فإذا اشتهوا أكل ذلك الطير، فلا حاجة بهم إلى الطلب، وإذا لم يكن بهم حاجة إلى الطلب، فقد سقط هذا الكلام. وثالثها: أن هذا يقتضي صرف الكلام عن ظاهره الشريف العالي إلى محمل خسيس لا إشعار للفظ به، وهذا باطل.

الوجه الثاني: في تأويل هذه الآية أن نقول: المراد اشتغال أهل الجنة بتقديس الله سبحانه وتمجيده والثناء عليه، لأجل أن سعادتهم في هذا الذكر وابتهاجهم به وسرورهم به، وكمال حالهم لا يحصل إلا منه، وهذا القول هو الصحيح الذي لا محيد عنه. ثم على هذا التقدير ففي الآية وجوه: أحدها: قال القاضي: إنه تعالى وعد المتقين بالثواب العظيم، كما ذكر في أول هذه السورة من قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٤] فإذا دخل أهل الجنة الجنة، ووجدوا تلك النعم العظيمة، عرفوا أن الله تعالى كان صادقًا في وعده إياهم بتلك النعم، فعند هذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي نسبحك عن الخلف في الوعد والكذب في القول. وثانيها: أن نقول: غاية سعادة السعداء، ونهاية درجات الأنبياء والأولياء استسعادهم بمراتب معارف الجلال. واعلم أن معرفة ذات الله تعالى والاطلاع على كنه حقيقته مما لا سبيل للخلق إليه، بل الغاية القصوى معرفة صفاته السلبية أو صفاته الإضافية. أما الصفات السلبية فهي المسماة بصفات الجلال، وأما الصفات الإضافية فهي المسماة بصفات الإكرام، فلذلك كان كمال الذكر العالي مقصورًا عليها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] وكان ﷺ يقول: «**ألظوا بيا ذا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام**»(١) ولما كانت السلوب متقدمة بالرتبة على الإضافات، لا جرم كان ذكر الجلال متقدمًا على ذكر الإكرام في اللفظ. وإذا ثبت أن غاية سعادة السعداء ليس إلا في هذين المقامين، لا جرم ذكر الله سبحانه وتعالى كونهم مواظبين على هذا الذكر العالي المقدس، ولما كان لا نهاية لمعارج جلال الله ولا غاية لمدارج إلهيته وإكرامه وإحسانه، فكذلك لا نهاية لدرجات ترقي الأرواح المقدسة في هذه المقامات العلية

(١) صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٥٤٠) حديث (رقم/ ٣٥٢٥). من طريق المؤمل عن حماد بن سلمة عن حميد عن أنس... به. وقال: هذا حديث غريب وليس بمحفوظ وإنما يروى هذا عن حماد بن سلمة عن حميد عن الحسن عن النبي ﷺ وهذا أصح ومؤمل غلط فيه فقال عن حماد عن حميد عن أنس ولا يتابع فيه. وأبو يعلى في (مسنده) (٦/ ٤٤٥) حديث رقم/ ٣٨٣٣ . من طريق مؤمل بن إسماعيل عن حماد... به. وأخرجه أحمد في (مسنده) (٤/ ١٧٧)، والحاكم في (المستدرك) (١/ ٦٧٦) حديث رقم/ ١٨٣٦، والنسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٤٧٩) حديث رقم/ ١١٥٦٣، جميعًا من طريق عبد الله بن المبارك أخبرني يحيى بن حسان يحدث عن ربيعة بن عامر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول... الحديث. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

الإلهية. وثالثها: أن الملائكة المقربين كانوا قبل تخليق آدم عليه السلام مشتغلين بهذا الذكر، ألا ترى أنهم قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[البقرة: ٣٠] فالحق سبحانه ألهم السعداء من أولاد آدم، حتى أتوا بهذا التسبيح والتحميد، ليدل ذلك على أن الذي أتى به الملائكة المقربون قبل خلق العالم من الذكر العالي، فهو بعينه أتى به السعداء من أولاد آدم عليه السلام، بعد انقراض العالم، ولما كان هذا الذكر مشتملاً على هذا الشرف العالي، لا جرم جاءت الرواية بقراءته في أول الصلاة، فإن المصلي إذا كبر قال: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ تَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلاَ إِلَهَ غَيْرُكَ»(١).

المرتبة الثالثة: من مراتب سعادات أهل الجنة قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ قال المفسرون: تحية بعضهم لبعض تكون بالسلام، وتحية الملائكة لهم بالسلام، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾[الرعد: ٢٣-٢٤] وتحية الله تعالى لهم أيضًا بالسلام كما قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨] قال الواحدي: وعلى هذا التقدير يكون هذا من إضافة المصدر إلى المفعول، وعندي فيه وجه آخر: وهو أن مواظبتهم على ذكر هذه الكلمة، مشعرة بأنهم كانوا في الدنيا في منزل الآفات وفي معرض المخافات، فإذا أخرجوا من الدنيا ووصلوا إلى كرامة الله تعالى، فقد صاروا سالمين من الآفات، آمنين من المخافات والنقصانات. وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم يذكرون هذا المعنى في قوله: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[فاطر: ٣٤، ٣٥].

المرتبة الرابعة: من مراتب سعاداتهم قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قد ذكرنا أن جماعة من المفسرين حملوا هذه الكلمات العالية المقدسة على أحوال أهل الجنة بسبب الأكل والشرب. فقالوا: إن أهل الجنة إذا اشتهوا شيئًا قالوا:

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الصلاة) باب (من رأى الاستفتاح بسبحانك اللهم وبحمدك)، (١/ ٢٠٤) حديث رقم/ ٧٧٥. من طريق زيد بن حباب... به. والترمذي في كتاب (الصلاة) باب (ما يقول عند افتتاح الصلاة)، (٢/ ٩) حديث رقم/ ٢٤٢. وقال أبو عيسى: حديث أبي سعيد أشهر حديث في هذا الباب. من طريق محمد بن موسي البصري... به. والنسائي في كتاب (الافتتاح) باب (نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة وبين القراءة)، (١/ ٦٠٠) حديث رقم/ ٨٩٩، أخبرنا عبيد الله بن فضالة بن إبراهيم قال أنبأنا عبد الرزاق... به. وابن ماجه في كتاب (إقامة الصلاة) باب (افتتاح الصلاة)، (١/ ٢٦٤) حديث رقم/ ٨٠٤، من طريق زيد بن حباب... به، وأحمد في(مسنده) (٣/ ٥٠)، من طريق محمد بن الحسن بن أنس.... به. وكذلك في (٣/ ٦٩) من طريق حسن ابن الربيع.... به. والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (ما يقال بعد افتتاح الصلاة)، (١/ ٣١٠) حديث رقم/ ١٢٣٩، من طريق زكريا بن عدي.... به. جميعهم (عبد الرزاق، زيد بن حباب، محمد بن موسى، محمد بن الحسن، حسن بن الربيع، زكريا بن عدي) عن جعفر بن سليمان.... به.

سبحانك اللهم وبحمدك، وإذا أكلوا وفرغوا قالوا: الحمد لله رب العالمين، وهذا القائل ما ترقى نظره في دنياه وأخراه عن المأكول والمشروب، وحقيق لمثل هذا الإنسان أن يعد في زمرة البهائم. وأما المحقون المحققون، فقد تركوا ذلك، ولهم فيه أقوال. روى الحسن البصري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُلْهَمُونَ الْحَمْدَ وَالتَّسْبِيحَ كَمَا تُلْهَمُونَ أنفاسكم»(١) وقال الزجاج: أعلم الله تعالى أن أهل الجنة يفتتحون بتعظيم الله تعالى وتنزيهه. ويختتمون بشكره والثناء عليه، وأقول: عندي في هذا الباب وجوه أخر: فأحدها: أن أهل الجنة لما استسعدوا بذكر سبحانك اللهم وبحمدك، وعاينوا ما هم فيه من السلامة عن الآفات والمخافات، علموا أن كل هذه الأحوال السنية والمقامات القدسية، إنما تيسرت بإحسان الحق سبحانه وإفضاله وإنعامه، فلا جرم اشتغلوا بالحمد والثناء. فقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وإنما وقع الختم على هذا الكلام لأن اشتغالهم بتسبيح الله تعالى وتمجيده من أعظم نعم الله تعالى عليهم. والاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة، فلهذا السبب وقع الختم على هذه الكلمة، وثانيها: أن لكل إنسان بحسب قوته معراجًا، فتارة ينزل عن ذلك المعراج، وتارة يصعد إليه. ومعراج العارفين الصادقين، معرفة الله تعالى وتسبيح الله وتحميد الله، فإذا قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ فهم في عين المعراج، وإذا نزلوا منه إلى عالم المخلوقات. كان الحاصل عند ذلك النزول إفاضة الخير على جميع المحتاجين وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ ثم إنه مرة أخرى يصعد إلى معراجه، وعند الصعود يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهذه الكلمات العالية إشارة إلى اختلاف أحوال العبد بسبب النزول والعروج. وثالثها: أن نقول: إن قولنا الله اسم لذات الحق سبحانه، فتارة ينظر العبد إلى صفات الجلال، وهي المشار إليها بقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ ثم يحاول الترقي منها إلى حضرة جلال الذات، ترقيًا يليق بالطاقة البشرية، وهي المشار إليها بقوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ فإذا عرج عن ذلك المكان. واخترق في أوائل تلك الأنوار رجع إلى عالم الإكرام، وهو المشار إليه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهذه كلمات خطرت بالبال ودارت في الخيال، فإن حقت فالتوفيق من الله تعالى، وإن لم يكن كذلك فالتكلان على رحمة الله تعالى.

المسألة الثانية: قال الواحدي: (أن) في قوله: ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هي المخففة من الشديدة، فلذلك لم تعمل لخروجها بالتخفيف عن شبه الفعل كقوله:

أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَحْفَى وَيَنْتَعِلُ

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الجنة) باب (صفة الجنة وأهلها) (٤/ ٢٠/ ٢١٨١)، من طريق ابن جريج... به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٣٤٩) حديث رقم/ ١٤٧٥٠، من طريق ابن لهيعة... به، والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (في أهل الجنة ونعيمها)، (٢/ ٢٢٣) حديث رقم/ ٢٨٢٧، من طريق ابن جريج... به. جميعًا عن أبي الزبير... به.

على معنى أنه هالك. وقال صاحب (النظم) ﴿أَنَّ﴾ ههنا زائدة، والتقدير: وآخر دعواهم الحمد لله رب العالمين، وهذا القول ليس بشيء، وقرأ بعضهم (أَنَّ الحَمْدَ) لله بالتشديد، ونصب الحمد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن الذي يغلب على ظني أن ابتداء هذه السورة في ذكر شبهات المنكرين للنبوة مع الجواب عنها.

فالشبهة الأولى: أن القوم تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمدًا عليه السلام بالنبوة فأزال الله تعالى ذلك التعجب بقوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: ٢] ثم ذكر دلائل التوحيد ودلائل صحة المعاد، وحاصل الجواب أنه يقول: إني ما جئتكم إلا بالتوحيد والإقرار بالمعاد، وقد دللت على صحتها، فلم يبق للتعجب من نبوتي معنى.

والشبهة الثانية: للقوم أنهم كانوا أبدًا يقولون: اللهم إن كان ما يقول محمد حقًا في ادعاء الرسالة فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة بما ذكره في هذه الآية. فهذا هو الكلام في كيفية النظم. ومن الناس من ذكر فيه وجوهًا أخرى: فالأول: قال القاضي: لما بين تعالى فيما تقدم الوعد والوعيد أتبعه بما دل على أن من حقهما أن يتأخرا عن هذه الحياة الدنيوية لأن حصولهما في الدنيا كالمانع من بقاء التكليف. والثاني: ما ذكره القفال: وهو أنه تعالى لما وصف الكفار بأنهم لا يرجون لقاء الله ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وكانوا عن آيات الله غافلين؛ بين أن من غفلتهم أن الرسول متى أنذرهم استعجلوا العذاب جهلاً منهم وسفهًا.

المسألة الثانية: أنه تعالى أخبر في آيات كثيرة أن هؤلاء المشركين متى خوفوا بنزول العذاب في الدنيا استعجلوا ذلك العذاب كما قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١] الآية. ثم إنهم لما توعدوا بعذاب الآخرة في هذه الآية وهو قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨] استعجلوا ذلك العذاب، وقالوا: متى يحصل ذلك كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ﴾ [الشورى: ١٨] وقال في هذه السورة بعد هذه الآية: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] إلى قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١] وقال في سورة الرعد: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ﴾ [الرعد: ٦] فبيَّن تعالى أنهم لا مصلحة لهم في تعجيل إيصال الشر إليهم، لأنه تعالى لو أوصل ذلك العقاب إليهم

لماتوا وهلكوا، لأن تركيبهم في الدنيا لا يحتمل ذلك ولا صلاح في إماتتهم، فربما آمنوا بعد ذلك، وربما خرج من صلبهم من كان مؤمنًا، وذلك يقتضي أن لا يعاجلهم بإيصال ذلك الشر.

المسألة الثالثة: في لفظ الآية إشكال، وهو أن يقال: كيف قابل التعجل بالاستعجال، وكان الواجب أن يقابل التعجيل بالتعجيل، والاستعجال بالاستعجال.

والجواب عنه من وجوه: الأول: قال صاحب (الكشاف): أصل هذا الكلام، ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير إلا أنه وضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارًا بسرعة إجابته وإسعافه بطلبهم، حتى كأن استعجالهم بالخير تعجيل لهم. الثاني: قال بعضهم حقيقة قولك: عجلت فلانًا طلبت عجلته، وكذلك عجلت الأمر إذا أتيت به عاجلاً، كأنك طلبت فيه العجلة والاستعجال أشهر وأظهر في هذا المعنى، وعلى هذا الوجه يصير معنى الآية لو أراد الله عجلة الشر للناس كما أرادوا عجلة الخير لهم لقضى إليهم أجلهم، قال صاحب هذا الوجه، وعلى هذا التقدير: فلا حاجة إلى العدول عن ظاهر الآية. الثالث: أن كل من عجل شيئًا فقد طلب تعجيله، وإذا كان كذلك، فكل من كان معجلاً كان مستعجلاً، فيصير التقدير، ولو استعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير إلا أنه تعالى وصف نفسه بتكوين العجلة ووصفهم بطلبها، لأن اللائق به تعالى هو التكوين واللائق بهم هو الطلب.

المسألة الرابعة: أنه تعالى سمى العذاب شرًا في هذه الآية، لأنه أذى في حق المعاقب ومكروه عنده كما أنه سماه سيئة في قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦] وفي قوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

المسألة الخامسة: قرأ ابن عامر (لَقَضَى) بفتح اللام والقاف (أَجَلَهُم) بالنصب، يعني لقضى الله، وينصره قراءة عبدالله (لَقَضَينَا إِليهِم أَجَلَهَم) وقرأ الباقون بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء ﴿أَجَلُهُمْ﴾ بالرفع على ما لم يسم فاعله.

المسألة السادسة: المراد من استعجال هؤلاء المشركين الخير هو أنهم كانوا عند نزول الشدائد يدعون الله تعالى بكشفها، وقد حكى الله تعالى عنهم ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَٰنَ الضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: ١٢]

المسألة السابعة: لسائل أن يسأل فيقول: كيف اتصل قوله: ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بما قبله وما معناه؟

وجوابه أن قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ متضمن معنى نفي التعجيل، كأنه قيل: ولا يعجل لهم الشر، ولا يقضي إليهم أجلهم فيذرهم في طغيانهم أي فيمهلهم مع طغيانهم إلزامًا للحجة.

المسألة الثامنة: قال أصحابنا: إنه تعالى لما حكم عليهم بالطغيان والعمه امتنع أن لا يكونوا كذلك. وإلا لزم أن ينقلب خبر الله الصدق كذبًا وعلمه جهلاً وحكمه باطلاً، وكل ذلك محال، ثم إنه مع هذا كلفهم وذلك يكون جاريًا مجرى التكليف بالجمع بين الضدين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجهان:

الأول: أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أنه لو أنزل العذاب على العبد في الدنيا لهلك ولقضى عليه، فبين في هذه الآية ما يدل على غاية ضعفه ونهاية عجزه، ليكون ذلك مؤكدًا لما ذكره من أنه لو أنزل عليه العذاب لمات.

الثاني: أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستعجلون في نزول العذاب، ثم بين في هذه الآية أنهم كاذبون في ذلك الطلب والاستعجال، لأنه لو نزل بالإنسان أدنى شيء يكرهه ويؤذيه، فإنه يتضرع إلى الله تعالى في إزالته عنه وفي دفعه عنه وذلك يدل على أنه ليس صادقًا في هذا الطلب.

المسألة الثانية: المقصود من هذه الآية، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعًا أو قائمًا أو قاعدًا مجتهدًا في ذلك الدعاء طالبًا من الله تعالى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة والمنحة، فإذا كشف تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، وذلك يدل على ضعف طبيعة الإنسان وشدة استيلاء الغفلة والشهوة عليه، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيهًا على أن هذه الطريقة مذمومة، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابرًا عند نزول البلاء شاكرًا عند الفوز بالنعماء، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية. حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحنة، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ عِنْدَ الْكَرْبِ وَالشَّدَائِدِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ عِنْدَ الرَّخَاءِ»(١).

واعلم أن المؤمن إذا ابتلي ببلية ومحنة، وجب عليه رعاية أمور:

فأولها: أن يكون راضيًا بقضاء الله تعالى غير معترض بالقلب واللسان عليه. وإنما وجب عليه

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٤٦٢) حديث رقم/ ٣٣٨٢، وقال أبو عيسى: هذا حديث غريب. وأبو يعلى في (مسنده) (١١/ ٢٨٣) حديث رقم/ ٦٣٩٦، كلاهما من طريق سعيد بن عطية الليثي عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة.... به. ورواه أبو يعلى في (مسنده) (١١/ ٢٨٤) حديث رقم/ ٦٣٩٧، من طريق أبي بشر يعني جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة.... به.

ذلك لأنه تعالى مالك على الإطلاق وملك بالاستحقاق. فله أن يفعل في مِلْكه ومُلْكه ما شاء كما يشاء، ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق وهو منزه عن فعل الباطل والعبث، فكل ما فعله فهو حكمة وصواب، وإذا كان كذلك فحينئذ يعلم أنه تعالى إن أبقى عليه تلك المحنة فهو عدل، وإن أزالها عنه فهو فضل، وحينئذ يجب عليه الصبر والسكوت وترك القلق والاضطراب.

وثانيها: أنه في ذلك الوقت إن اشتغل بذكر الله تعالى والثناء عليه بدلاً عن الدعاء كان أفضل، لقوله عليه السلام حكاية عن رب العزة «**مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ**»(١) ولأن الاشتغال بالذكر اشتغال بالحق، والاشتغال بالدعاء اشتغال بطلب حظ

---

(١) **ضعيف**: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (٢/ ٣٢٥) حديث رقم/ ١٤٥٤، من طريق الحسين بن داود بن معاذ البلخي حدثنا الفضيل بن عياض حدثنا منصور عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود... به. والبيهقي في (شعب الإيمان) (١/ ٤١٣) حديث رقم/ ٥٧٣، من طريق أبي سفيان الحميري حدثنا الضحاك بن حمرة عن يزيد بن خمير عن جابر... به. وأيضًا في (٣/ ٤٦٦) حديث رقم/ ٤٠٨٠، من طريق عثمان بن زفر أخبرنا صفوان بن أبي الصهباء عن بكير بن عتيق عن سالم بن عبد الله عن أبيه عن عمر... به.

وأخرجه البخاري في (خلق أفعال العباد) (١/ ١٠٩). من طريق سفيان بن أبي الصهباء عن بكير بن عتيق عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده... به. وأورده السيوطي في (اللآلي المصنوعة) (١/ ٢٨٨) وقال: قال ابن حبان: موضوع تفرد به صفوان لا يحتج به (قلت) قال الحافظ ابن حجر في أماليه هذا حديث حسن أخرجه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد عن أبي نعيم ضرار ابن صرد عن صفوان به وأخرجه ابن شاهين في الترغيب من رواية يحيى الحماني عن صفوان وأورده ابن الجوزي في الموضوعات فلم يصب واستند إلى ذكر ابن حبان لصفوان في الضعفاء ولم يستمر ابن حبان على ذلك بل ذكر صفوان في كتاب الثقات وذكره البخاري في التاريخ ولم يحك فيه جرحًا وذكره ابن شاهين في الترغيب عن الثقات وكذا ابن خلفون وقال: أرجو أن يكون صدوقًا وابن معين وثقه في رواية أبي سعيد بن الأعرابي عن عباس الدوري عنه وشيخه ثقة وله شاهد من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه الترمذي وحسنه ومن حديث جابر أخرجه البيهقي في الشعب انتهى وله شاهد آخر من حديث حذيفة قال أبو نعيم في الحلية حدثنا إبراهيم بن محمد بن حمزة حدثنا محمد بن مروان بن عبد الله حدثنا أبو مسلم عبد الرحمن بن واقد حدثنا سفيان بن عيينة عن منصور عن ربعي عن حذيفة قال: قال رسول الله: «قال الله تعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته قبل أن يسألني». قال أبو نعيم غريب تفرد به أبو مسلم عن ابن عيينة.

وقال ابن الأنباري في كتاب الوقف والابتداء حدثنا بشر بن موسى حدثنا حسين بن عبد الأول حدثنا محمد بن الحسن بن أبي يزيد التمداني الكوفي حدثنا عمرو بن قيس الملائي عن عطية عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله يقول الله تعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسألتي أعطيته أفضل وثواب الشاكرين وقال عبد الرزاق في المصنف عن الثوري عن منصوب عن مالك بن الحويرث قال: يقول الله عز وجل: (إذا أشغل العبد ثناؤه علي عن مسألته إياي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين).

وقال ابن أبي شيبة في (المصنف) حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مالك بن الحويرث بمثله وقال ابن أبي الدنيا حدثنا خلف بن هشام حدثنا أبو الأحوص عن منصور عن مالك بن الحرث قال يقول الله تعالى: (من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) وقال ابن أبي شيبة بن نمير عن موسى بن مسلم عن عمرو بن مرة رفعه قال من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين يعني الرب.

وقال الخطابي حدثني محمد بن المظفر حدثنا أحمد بن صالح الكيلاني حدثنا الحسن بن الحسين المروزي قال سألت سفيان بن عيينة عن حديث أفضل الدعاء الحمد لله فقلت له هذا ثناء وليس بدعاء فقال أما بلغك حديث منصور عن=

النفس، ولا شك أن الأول أفضل، ثم إن اشتغل بالدعاء وجب أن يشترط فيه أن يكون إزالته صلاحًا في الدين، وبالجملة فإنه يجب أن يكون الدين راجحًا عنده على الدنيا.

وثالثها: أنه سبحانه إذا أزال عنه تلك البلية فإنه يجب عليه أن يبالغ في الشكر وأن لا يخلو عن ذلك الشكر في السراء والضراء، وأحوال الشدة والرخاء، فهذا هو الطريق الصحيح عند نزول البلاء. وههنا مقام آخر أعلى وأفضل مما ذكرناه، وهو أن أهل التحقيق قالوا: إن من كان في وقت وجدان النعمة مشغولاً بالنعمة لا بالمنعم كان عند البلية مشغولاً بالبلاء لا بالمبلي، ومثل هذا الشخص يكون أبدًا في البلاء، أما في وقت البلاء فلا شك أنه يكون في البلاء، وأما في وقت حصول النعماء فإن خوفه من زوالها يكون أشد أنواع البلاء، فإن النعمة كلما كانت أكمل وألذ وأقوى وأفضل، كان خوف زوالها أشد إيذاء وأقوى إيحاشًا، فثبت أن من كان مشغولاً بالنعمة كان أبدًا في لجة البلية. أما من كان في وقت النعمة مشغولاً بالمنعم، لزم أن يكون في وقت البلاء مشغولاً بالمبلي. وإذا كان المنعم والمبلي واحدًا، كان نظره أبدًا على مطلوب واحد، وكان مطلوبه منزهًا عن التغير مقدسًا عن التبدل ومن كان كذلك كان في وقت البلاء وفي وقت النعماء، غَرِقًا في بحر السعادات، واصلاً إلى أقصى الكمالات، وهذا النوع من البيان بحر لا ساحل له، ومن أراد أن يصل إليه فليكن من الواصلين إلى العين دون السامعين للأثر.

المسألة الثالثة: اختلفوا في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ فقال بعضهم: إنه الكافر، ومنهم من بالغ وقال: كل موضع في القرآن ورد فيه ذكر الإنسان، فالمراد هو الكافر، وهذا باطل، لأن قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٦، ٧] لا شبهة في أن المؤمن داخل فيه، وكذلك قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الدهر: ١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] فالذي قالوه بعيد، بل الحق أن نقول: اللفظ المفرد المحلى بالألف واللام حكمه أنه إذا حصل هناك معهود سابق انصرف إليه، وإن لم يحصل هناك معهود سابق وجب حمله على الاستغراق صونًا له عن الإجمال والتعطيل. ولفظ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ههنا لائق بالكافر، لأن العمل المذكور لا يليق بالمسلم ألبتة.

=مالك بن الحويرث يقول الله تعالى: (إذا شغل العبد ثناؤه علي عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين).

ومما يدل علي شهرة الحديث ما أخرجه ابن عساكر في تاريخه عن سفيان بن عيينة أنه قال يا أصحاب الحديث بما تشبهون حديث النبي: (ما شغل عبدي ذكري عن مسألتي إلا أعطيته أفضل ما أعطي السائلين) فقالوا له: نقول ما يرحمك الله قال يقول الشاعر:

وفتى خلا من ماله ... ومن المروءة غير خال
أعطاك قبل سؤاله ... وكفاك مكروه السؤال

وضعفه الألباني في الضعيفة (٤٩٨٩).

المسألة الرابعة: في قوله: ﴿دَعَانَا لِجَنْبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وجهان:

الوجه الأول: أن المراد منه ذكر أحوال الدعاء فقوله: ﴿لِجَنْبِهِۦٓ﴾ في موضع الحال بدليل عطف الحالين عليه، والتقدير: دعانا مضطجعًا أو قاعدًا أو قائمًا.

فإن قالوا: فما فائدة ذكر هذه الأحوال؟

قلنا: معناه: إن المضرور لا يزال داعيًا لا يفتر عن الدعاء إلى أن يزول عنه الضر، سواء كان مضطجعًا أو قاعدًا أو قائمًا.

والوجه الثاني: أن تكون هذه الأحوال الثلاثة تعديدًا لأحوال الضر، والتقدير: وإذا مس الإنسان الضر لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا دعانا وهو قول الزجاج. والأول: أصح، لأن ذكر الدعاء أقرب إلى هذه الأحوال من ذكر الضر، ولأن القول بأن هذه الأحوال أحوال للدعاء يقتضي مبالغة الإنسان في الدعاء، ثم إذا ترك الدعاء بالكلية وأعرض عنه كان ذلك أعجب.

المسألة الخامسة: في قوله: ﴿مَرَّ﴾ وجوه:

الأول: المراد منه أنه مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ونسي حال الجهد.

الثاني: مر عن موقف الابتهال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به.

المسألة السادسة: قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ تقديره: كأنه لم يدعنا، ثم أسقط الضمير عنه على سبيل التخفيف ونظيره قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ [يونس: ٤٥] قال الحسن: نسي ما دعا الله فيه، وما صنع الله به في إزالة ذلك البلاء عنه:

المسألة السابعة: قال صاحب (النظم): قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ (إذا) موضوعة للمستقبل.

ثم قال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا﴾ وهذا للماضي، فهذا النظم يدل على أن معنى الآية أنه هكذا كان فيما مضى وهكذا يكون في المستقبل. فدل ما في الآية من الفعل المستقبل على ما فيه من المعنى المستقبل، وما فيه من الفعل الماضي على ما فيه من المعنى الماضي، وأقول البرهان العقلي مساعد على هذا المعنى وذلك لأن الإنسان جبل على الضعف والعجز وقلة الصبر، وجبل أيضًا على الغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو، فإذا نزل به البلاء حمله ضعفه وعجزه على كثرة الدعاء والتضرع، وإظهار الخضوع والانقياد، وإذا زال البلاء ووقع في الراحة استولى عليه النسيان فنسي إحسان الله تعالى إليه، ووقع في البغي والطغيان والجحود والكفران. فهذه الأحوال من نتائج طبيعته ولوازم خلقته، وبالجملة فهؤلاء المساكين معذورون ولا عذر لهم.

المسألة الثامنة: في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أبحاث:

البحث الأول: أن هذا المزين هو الله تعالى أو النفس أو الشيطان، فرع على مسألة الجبر والقدر وهو معلوم.

البحث الثاني: في بيان السبب الذي لأجله سمى الله سبحانه الكافر مسرفًا. وفيه وجوه:

الوجه الأول: قال أبو بكر الأصم: الكافر مسرف في نفسه وفي ماله ومضيع لهما، أما في

النفس فلأنه جعلها عبدًا للوثن، وأما في المال فلأنهم كانوا يضيعون أموالهم في البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

الوجه الثاني: قال القاضي: إن من كانت عادته أن يكون عند نزول البلاء كثير التضرع والدعاء، وعند زوال البلاء ونزول الآلاء معرضًا عن ذكر الله متغافلاً عنه غير مشتغل بشكره، كان مسرفًا في أمر دينه متجاوزًا للحد في الغفلة عنه، ولا شبهة في أن المرء كما يكون مسرفًا في الإنفاق فكذلك يكون مسرفًا فيما يتركه من واجب أو يقدم عليه من قبيح، إذا تجاوز الحد فيه.

الوجه الثالث: وهو الذي خطر بالبال في هذا الوقت، أن المسرف هو الذي ينفق المال الكثير لأجل الغرض الخسيس، ومعلوم أن لذات الدنيا وطيباتها خسيسة جدًّا في مقابلة سعادات الدار الآخرة. والله تعالى أعطاه الحواس والعقل والفهم والقدرة لاكتساب تلك السعادات العظيمة، فمن بذل هذه الآلات الشريفة لأجل أن يفوز بهذه السعادات الجسمانية الخسيسة، كان قد أنفق أشياء عظيمة كثيرة، لأجل أن يفوز بأشياء حقيرة خسيسة، فوجب أن يكون من المسرفين.

البحث الثالث: الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه. والمعنى: كما زين لهذا الكافر هذا العمل القبيح المنكر زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر ومتابعة الشهوات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في بيان كيفية النظم. اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم كانوا يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] ثم إنه أجاب عنه بأن ذكر أنه لا صلاح في إجابة دعائهم، ثم بين أنهم كاذبون في هذا الطلب لأنه لو نزلت بهم آفة أخذوا في التضرع إلى الله تعالى في إزالتها والكشف لها، بين في هذه الآية ما يجري مجرى التهديد، وهو أنه تعالى قد ينزل بهم عذاب الاستئصال ولا يزيله عنهم، والغرض منه أن يكون ذلك رادعًا لهم عن قولهم: إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، لأنهم متى سمعوا أن الله تعالى قد يجيب دعاءهم وينزل عليهم عذاب الاستئصال، ثم سمعوا من اليهود والنصارى أن ذلك قد وقع مرارًا كثيرة. صار ذلك رادعًا لهم وزاجرًا عن ذكر ذلك الكلام، فهذا وجه حسن مقبول في كيفية النظم.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف) ﴿لَمَّا﴾ ظرف لأهلكنا، والواو في قوله: ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾

للحال، أي ظلموا بالتكذيب. وقد جاءتهم رسلهم بالدلائل والشواهد على صدقهم وهي المعجزات، وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ يجوز أن يكون عطفًا على ظلموا، وأن يكون اعتراضًا، واللام لتأكيد النفي، وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على الكفر وهذا يدل على أنه تعالى إنما أهلكهم لأجل تكذيبهم الرسل، فكذلك يجزى كل مجرم، وهو وعيد لأهل مكة على تكذيبهم رسول الله، وقرئ (تَجْزِي) بالياء وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَكُمْ خَلَٓئِفَ﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد عليه الصلاة والسلام، أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناهم، لننظر كيف تعملون، خيرًا أو شرًا، فنعاملكم على حسب عملكم. بقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: كيف جاز النظر إلى الله تعالى وفيه معنى المقابلة؟

والجواب: أنه استعير لفظ النظر للعلم الحقيقي الذي لا يتطرق الشك إليه، وشبه هذا العلم بنظر الناظر وعيان المعاين.

السؤال الثاني: قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَكُمْ خَلَٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ مشعر بأن الله تعالى ما كان عالمًا بأحوالهم قبل وجودهم.

والجواب: المراد منه أنه تعالى يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم، ليجازيهم بحسبه كقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] وقد مر نظائر هذا. وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»(١) وقال قتادة: صدق الله ربنا ما جعلنا خلفاء إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروا الله من أعمالكم خيرًا، بالليل والنهار.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: موضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب بقوله: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لأنها حرف، استفهام، والاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، ولو قلت: لننظر خيرًا تعملون أم شرًا، كان العالم في خير وشر تعملون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا الكلام هو النوع الثالث من شبهاتهم وكلماتهم التي ذكروها في الطعن في نبوة النبي ﷺ، حكاها الله تعالى في كتابه وأجاب عنها.

واعلم أن من وقف على هذا الترتيب الذي نذكره، علم أن القرآن مرتب على أحسن الوجوه.

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٨/ ٨٩/ ٧١٢٤). وأحمد في (مسنده) (١٧/ ٢٦٠) حديث رقم/ ١١١٦٩، كلاهما من طريق أبي نضرة عن أبي سعيد... به.

المسألة الثانية: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن خمسة من الكفار كانوا يستهزئون بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالقرآن. الوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة، فَقَتَلَ اللَّهُ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ بِطَرِيقٍ آخَرَ[1]، كما قال: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥] فذكر الله تعالى أنهم كلما تلي عليهم آيات: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ .

وفيه بحثان:

البحث الأول: أن وصفهم بأنهم لا يرجون لقاء الله أريد به كونهم مكذبين بالحشر والنشر، منكرين للبعث والقيامة، ثم في تقرير حسن هذه الاستعارة وجوه:

الأول: قال الأصم: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي لا يرجون في لقائنا خيرًا على طاعة، فهم من السيئات أبعد أن يخافوها.

الثاني: قال القاضي: الرجاء لا يستعمل إلا في المنافع، لكنه قد يدل على المضار من بعض الوجوه، لأن من لا يرجو لقاء ما وعد ربه من الثواب، وهو القصد بالتكليف، لا يخاف أيضًا ما يوعده به من العقاب، فصار ذلك كناية عن جحدهم للبعث والنشور.

واعلم أن كلام القاضي قريب من كلام الأصم، إلا أن البيان التام أن يقال: كل من كان مؤمنًا بالبعث والنشور فإنه لا بد وأن يكون راجيًا ثواب الله وخائفًا من عقابه، وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم، فلزم من نفي الرجاء نفي الإيمان بالبعث. فهذا هو الوجه في حسن هذه الاستعارة.

البحث الثاني: أنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أحد أمرين على البدل:

فالأول: أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن.

والثاني: أن يبدل هذا القرآن وفيه إشكال، لأنه إذا بدل هذا القرآن بغيره، فقد أتى بقرآن غير هذا القرآن، وإذا كان كذلك كان كل واحد منهما شيئًا واحدًا. وأيضًا مما يدل على أن كل واحد منهما هو عين الآخر أنه عليه الصلاة والسلام اقتصر في الجواب على نفي أحدهما، وهو قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ وإذا ثبت أن كل واحد من هذين الأمرين هو نفس الآخر، كان إلقاء اللفظ على الترديد والتخيير فيه باطلاً.

والجواب: أن أحد الأمرين غير الآخر، فالإتيان بكتاب آخر، لا على ترتيب هذا القرآن ولا

---

(١) أخرجه البيهقي في (سننه الكبرى) (٩/ ٨) حديث رقم/ ١٧٥٠٩، من طريق أحمد بن يوسف السلمي حدثنا عمر بن عبد الله بن رزين حدثنا سفيان عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس... به. والطبراني في (الأوسط) (٥/ ١٧٣) حديث رقم/ ٤٩٨٦، من طريق عبد الحكيم النيسابوري قال حدثنا مبشر بن عبد الله عن سفيان بن حسين عن جعفر بن إياس... به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٧/ ١٣٣) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه محمد بن عبد الحكيم النيسابوري ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات.

على نظمه، يكون إتيانًا بقرآن آخر، وأما إذا أتى بهذا القرآن إلا أنه وضع مكان ذم بعض الأشياء مدحها، ومكان آية رحمة آية عذاب، كان هذا تبديلاً، أو نقول: الإتيان بقرآن غير هذا هو أن يأتيهم بكتاب آخر سوى هذا الكتاب. مع كون هذا الكتاب باقيًا بحاله، والتبديل هو أن يغير هذا الكتاب. وأما قوله: إنه اكتفى في الجواب على نفي أحد القسمين.

قلنا: الجواب المذكور عن أحد القسمين هو عين الجواب عن القسم الثاني. وإذا كان كذلك وقع الاكتفاء بذكر أحدهما عن ذكر الثاني. وإنما قلنا: الجواب عن أحد القسمين عين الجواب عن الثاني لوجهين:

الأول: أنه عليه الصلاة والسلام لما بيَّن أنه لا يجوز أن يبدله من تلقاء نفسه، لأنه وارد من الله تعالى ولا يقدر على مثله، كما لا يقدر سائر العرب على مثله، فكان ذلك متقررًا في نفوسهم بسبب ما تقدم من تحديه لهم بمثل هذا القرآن، فقد دلهم بذلك على أنه لا يتمكن من قرآن غير هذا.

والثاني: أن التبديل أقرب إلى الإمكان من المجيء بقرآن غير هذا القرآن، فجوابه عن الأسهل يكون جوابًا عن الأصعب، ومن الناس من قال: لا فرق بين الإتيان بقرآن غير هذا القرآن وبين تبديل هذا القرآن، وجعل قوله: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ﴾ جوابًا عن الأمرين، إلا أنه ضعيف على ما بيناه.

المسألة الثالثة: اعلم أن إقدام الكفار على هذا الالتماس يحتمل وجهين:

أحدهما: أنهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية والاستهزاء، مثل أن يقولوا: إنك لو جئتنا بقرآن آخر غير هذا القرآن أو بدلته لآمنا بك، وغرضهم من هذا الكلام السخرية والتطير.

والثاني: أن يكونوا قالوه على سبيل الجد، وذلك أيضًا يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكونوا قالوا ذلك على سبيل التجربة والامتحان، حتى إنه إن فعل ذلك، علموا أنه كان كذابًا في قوله: إن هذا القرآن نزل عليه من عند الله.

وثانيها: أن يكون المقصود من هذا الالتماس أن هذا القرآن مشتمل على ذم آلهتهم والطعن في طرائقهم، وهم كانوا يتأذون منها، فالتمسوا كتابًا آخر ليس فيه ذلك.

وثالثها: أن بتقدير أن يكونوا قد جوزوا كون هذا القرآن من عند الله، التمسوا منه أن يلتمس من الله نسخ هذا القرآن وتبديله بقرآن آخر. وهذا الوجه أبعد الوجوه.

واعلم أن القوم لما ذكروا ذلك أمره الله تعالى أن يقول: إن هذا التبديل غير جائز مني ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ ثم بين تعالى أنه بمنزلة غيره في أنه متوعد بالعذاب العظيم إن عصى. ويتفرع على هذه الآية فروع:

الفرع الأول: أن قوله: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾ معناه: لا أتبع إلا ما يوحى إلي، فهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام ما حكم إلا بالوحي، وهذا يدل على أنه لم يحكم قط بالاجتهاد.

الفرع الثاني: تمسك نفاة القياس بهذه الآية فقالوا: دل هذا النص على أنه عليه الصلاة والسلام ما حكم إلا بالنص. فوجب أن يجب على جميع الأمة أن لا يحكموا إلا بمقتضى النص لقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. **الفرع الثالث**: نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن ذلك منسوخ بقوله: ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وهذا بعيد لأن النسخ إنما يدخل في الأحكام والتعبدات لا في ترتيب العقاب على المعصية.

الفرع الرابع: قالت المعتزلة: إن قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ مشروط بما يكون واقعًا بلا توبة ولا طاعة أعظم منها، ونحن نقول فيه تخصيص ثالث. وهو أن لا يعفو عنه ابتداء، لأن عندنا يجوز من الله تعالى أن يعفو عن أصحاب الكبائر.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٦﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنا بينا فيما سلف، أن القوم إنما التمسوا منه ذلك الالتماس، لأجل أنهم اتهموه بأنه هو الذي يأتي بهذا الكتاب من عند نفسه، على سبيل الاختلاق والافتعال، لا على سبيل كونه وحيًا من عند الله. فلهذا المعنى احتج النبي عليه الصلاة والسلام على فساد هذا الوهم بما ذكره الله تعالى في هذه الآية. وتقريره أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله ﷺ من أول عمره إلى ذلك الوقت، وكانوا عالمين بأحواله وأنه ما طالع كتابًا ولا تلمذ لأستاذ ولا تعلم من أحد، ثم بعد انقراض أربعين سنة على هذا الوجه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على نفائس علم الأصول، ودقائق علم الأحكام، ولطائف علم الأخلاق، وأسرار قصص الأولين. وعجز عن معارضته العلماء والفصحاء والبلغاء، وكل من له عقل سليم فإنه يعرف أن مثل هذا لا يحصل إلا بالوحي والإلهام من الله تعالى، فقوله: ﴿لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ حكم منه عليه الصلاة والسلام بأن هذا القرآن وحي من عند الله تعالى، لا من اختلاقي ولا من افتعالي. وقوله: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾ إشارة إلى الدليل الذي قررناه، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ يعني أن مثل هذا الكتاب العظيم إذا جاء على يد من لم يتعلم ولم يتلمذ ولم يطالع كتابًا ولم يمارس مجادلة، يعلم بالضرورة أنه لا يكون إلا على سبيل الوحي والتنزيل. وإنكار العلوم الضرورية يقدح في صحة العقل. فلهذا السبب قال: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ هو من الدراية بمعنى العلم. قال سيبويه: يقال دريته ودريت به، والأكثر هو الاستعمال بالباء. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ﴾ ولو كان على اللغة الأخرى لقال ولا أدراكموه.

إذا عرفت هذا فنقول: معنى ﴿وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي ولا أعلمكم الله به ولا أخبركم به. قال صاحب (الكشاف): قرأ الحسن (ولا أَدْرَأُكم به) على لغة من يقول أعطأته وأرضأته في معنى أعطيته وأرضيته ويعضده قراءة ابن عباس (ولا أنذرتكم به) ورواه الفراء (ولا أَدْرَأُكم به) به بالهمز، والوجه فيه أن يكون من أدرأته إذا دفعته، وأدرأته إذا جعلته داريًا، والمعنى: ولا أجعلكم بتلاوته خصماء تدرؤنني بالجدال وتكذبونني، وعن ابن كثير (وَلَأَدْرأكُم) بلام الابتداء لإثبات الإدراء.

وأما قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ فالقراءة المشهورة بضم الميم، وقرئ (عُمْرًا) بسكون الميم.

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٧﴾

واعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها ظاهر، وذلك لأنهم التمسوا منه قرآنًا يذكره من عند نفسه، ونسبوه إلى أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عند نفسه، ثم إنه أقام البرهان القاهر الظاهر على أن ذلك باطل، وأن هذا القرآن ليس إلا بوحي الله تعالى وتنزيله، فعند هذا قال: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والمراد أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله، لما كان في الدنيا أحد أظلم على نفسه مني، حيث افتريته على الله، ولما أقمت الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك، بل هو بوحي من الله تعالى وجب أن يقال: إنه ليس في الدنيا أحد أجهل ولا أظلم على نفسه منكم، لأنه لما ظهر بالبرهان المذكور كونه من عند الله، فإذا أنكرتموه كنتم قد كذبتم بآيات الله. فوجب أن تكونوا أظلم الناس. والحاصل أن قوله: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ المقصود منه نفي الكذب عن نفسه وقوله: ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ المقصود منه إلحاق الوعيد الشديد بهم حيث أنكروا دلائل الله، وكذبوا بآيات الله تعالى.

وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ فهو تأكيد لما سبق من هذين الكلامين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨﴾

اعلم أنا ذكرنا أن القوم إنما التمسوا من الرسول ﷺ قرآنًا غير هذا القرآن أو تبديل هذا القرآن لأن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي جعلوها آلهة لأنفسهم، فلهذا السبب ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما يدل على قبح عبادة الأصنام، ليبين أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن.

واعلم أنه تعالى حكى عنهم أمرين: أحدهما: أنهم كانوا يعبدون الأصنام. والثاني: أنهم كانوا يقولون: ﴿هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾. أما الأول فقد نبه الله تعالى على فساده بقوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وتقريره من وجوه:

الأول: قال الزجاج: لا يضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه.

الثاني: أن المعبود لا بد وأن يكون أكمل قدرة من العابد، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ألبتة، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد، وإذا كان العابد أكمل حالاً من المعبود كانت العبادة باطلة.

الثالث: أن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الإنعام، وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد، فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى، وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه.

وأما النوع الثاني: ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية، وهو قولهم: ﴿هَٰؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فاعلم أن من الناس من قال إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى. فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى. ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله؟ وذكروا فيه أقوالاً كثيرة: **فأحدها:** أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل أقليم من أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، فعينوا لذلك الروح صنمًا معينًا واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم، ومقصودهم عبادة ذلك الروح، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبدًا للإله الأعظم ومشتغلاً بعبوديته. **وثانيها:** أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصنامًا معينة واشتغلوا بعبادتها، ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب. **وثالثها:** أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات. **ورابعها:** أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله. **وخامسها:** أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم، وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر، وعلى صورة الملائكة صورًا أخرى. **وسادسها:** لعل القوم حلولية، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة.

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذي ذكره الله تعالى وهو قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وتقريره ما ذكرناه من الوجوه الثلاثة.

قولــه تــعــالــى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

اعلم أن المفسرين قرروا وجهًا واحدًا، وهو أن المراد من نفي علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه في نفسه، وبيان أنه لا وجود له ألبتة، وذلك لأنه لو كان موجودًا لكان معلومًا لله تعالى، وحيث لم يكن معلومًا لله تعالى وجب أن لا يكون موجودًا، ومثل هذا الكلام مشهور في العرف، فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء عن نفسه يقول: ما علم الله هذا مني، ومقصوده أنه ما حصل ذلك قط، وقرئ (أَتُنْبِئُونَ) بالتخفيف أما قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فالمقصود تنزيه الله تعالى نفسه عن ذلك الشرك، قرأ حمزة والكسائي (تشركون) بالتاء، ومثله في أول النحل في موضعين، وفي الروم كلها بالتاء على الخطاب، قال صاحب (الكشاف) (ما) موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم، قال الواحدي: من قرأ بالتاء فلقوله: ﴿أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ﴾ ومن قرأ بالياء فكأنه قيل للنبي ﷺ: قل أنت ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجوز أن يكون الله سبحانه هو الذي نزه نفسه عما قالوه فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما أقام الدلالة القاهرة على فساد القول بعبادة الأصنام، بين السبب في كيفية حدوث هذا المذهب الفاسد، والمقالة الباطلة، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ واعلم أن ظاهر قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لا يدل على أنهم أمة واحدة فيماذا؟

وفيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنهم كانوا جميعًا على الدين الحق، وهو دين الإسلام، واحتجوا عليه بأمور: الأول: أن المقصود من هذه الآيات بيان كون الكفر باطلاً، وتزييف طريق عبادة الأصنام، وتقرير أن الإسلام هو الدين الفاضل، فوجب أن يكون المراد من قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ هو أنهم كانوا أمة واحدة، إما في الإسلام وإما في الكفر، ولا يجوز أن يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر. فبقي أنهم كانوا أمة واحدة في الإسلام، إنما قلنا إنه لا يجوز أن يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر لوجوه:

لأول: قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: ٤١]وشهيد الله لا بد وأن يكون مؤمنًا عدلاً. فثبت أنه ما خلت أمة من الأمم إلا وفيهم مؤمن.

الثاني: أن الأحاديث وردت بأن الأرض لا تخلو عمن يعبد الله تعالى، وعن أقوام بهم يمطر أهل الأرض وبهم يرزقون.

الثالث: أنه لما كانت الحكمة الأصلية في الخلق هو العبودية، فيبعد خلو أهل الأرض بالكلية عن هذا المقصود. روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّ اللَّه تَعَالَى نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقِيَّةً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» (١) وهذا يدل على قوم تمسكوا بالإيمان قبل مجيء الرسول عليه الصلاة والسلام، فكيف يقال إنهم كانوا أمة واحدة في الكفر؟ وإذا ثبت أن الناس كانوا أمة واحدة إما في الكفر وإما في الإيمان، وأنهم ما كانوا أمة واحدة في الكفر، ثبت أنهم كانوا أمة واحدة في الإيمان، ثم اختلف القائلون بهذا القول أنهم متى كانوا كذلك؟ فقال ابن عباس ومجاهد كانوا على دين الإسلام في عهد آدم وفي عهد ولده، واختلفوا عند قتل أحد ابنيه الابن الثاني، وقال قوم: إنهم بقوا على دين الإسلام إلى زمن نوح، وكانوا عشرة قرون. ثم اختلفوا على عهد نوح. فبعث الله تعالى إليهم نوحًا. وقال آخرون: كانوا على دين الإسلام في زمن نوح بعد الغرق، إلى أن ظهر الكفر فيهم. وقال آخرون: كانوا على دين الإسلام من عهد إبراهيم عليه السلام إلى أن غيره عمرو بن لحي، وهذا القائل قال: المراد من الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ العرب خاصة.

إذا عرفت تفصيل هذا القول فنقول: إنه تعالى لما بين فيما قبل فساد القول بعبادة الأصنام بالدليل الذي قررناه، بيَّن في هذه الآية أن هذا المذهب ليس مذهبًا للعرب من أول الأمر، بل كانوا على دين الإسلام، ونفي عبادة الأصنام. ثم حذف هذا المذهب الفاسد فيهم، والغرض منه أن العرب إذا علموا أن هذا المذهب ما كان أصليًّا فيهم، وأنه إنما حدث بعد أن لم يكن، لم يتعصبوا لنصرته، ولم يتأذوا من تزييف هذا المذهب، ولم تنفر طباعهم من إبطاله. ومما يقوي هذا القول وجهان: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ثم بالغ في إبطاله بالدليل. ثم قال عقيبه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فلو كان المراد منه بيان أن هذا الكفر كان حاصلاً فيهم من الزمان

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٩٧/ ٢٨٦٥)، من طريق معاذ بن هشام حدثني أبي عن قتادة عن مطرف بن عبد الله بن الشخير عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال... فذكره.
وأحمد في (مسنده) (٤/ ٢٦٦) قال روح ثنا عوف عن حكيم الأثرم عن الحسن قال حدثني مطرف بن عبد الله حدثني عياض بن حمار المجاشعي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبة خطبها قال... فذكر الحديث.
وحدثنا عفان ثنا همام ثنا قتادة ثنا العلاء بن زياد العدوى حدثني يزيد أخو مطرف قال وحدثني عقبة كل هؤلاء يقول حدثني مطرف أن عياض بن حمار حدثه أنه سمع النبي ﷺ يقول في خطبته: «ثم إن الله عز وجل أمرني أن أعلمكم ما جهلتم» فذكر الحديث. وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٤٢٢) حديث رقم/ ٦٥٣، من طريق حفص بن عمر الحوضي قال حدثنا همام بن يحيى... به. والطبراني في (الكبير) (١٧/ ٣٦٠) حديث رقم/ ٩٩٢، من طريق حفص بن عمر حدثنا همام عن قتادة... به. والبزار في (مسنده) (٨/ ٤١٩) حديث رقم/ ٣٤٩١، من طريق عمرو بن عاصم قال: نا همام عن قتادة قال حدثني أربعة عن مطرف بن عبد الله منهم يزيد بن عبد الله والعلاء بن زياد ورجلان نسيهما همام عن عياض بن حمار رضي الله عنه أنه سمع رسول الله يخطب يقول في خطبته... فذكره.

القديم، لم يصح جعل هذا الكلام دليلاً على إبطال تلك المقالة. أما لو حملناه على أن الناس في أول الأمر كانوا مسلمين، وهذا الكفر إنما حدث فيهم من زمان، أمكن التوسل به إلى تزييف اعتقاد الكفار في هذه المقالة، وفي تقبيح صورتها عندهم، فوجب حمل اللفظ عليه تحصيلاً لهذا الغرض. الثاني: أنه تعالى قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ولا شك أن هذا وعيد، وصرف هذا الوعيد إلى أقرب الأشياء المذكورة أولى، والأقرب هو ذكر الاختلاف، فوجب صرف هذا الوعيد إلى هذا الاختلاف، لا إلى ما سبق من كون الناس أمة واحدة، وإذا كان كذلك، وجب أن يقال: كانوا أمة واحدة في الإسلام لا في الكفر، لأنهم لو كانوا أمة واحدة في الكفر لكان اختلافهم بسبب الإيمان، ولا يجوز أن يكون الاختلاف الحاصل بسبب الإيمان سببًا لحصول الوعيد. أما لو كانوا أمة واحدة في الإيمان لكان اختلافهم بسبب الكفر، وحينئذ يصح جعل ذلك الاختلاف سببًا للوعيد.

القول الثاني: قول من يقول المراد كانوا أمة واحدة في الكفر، وهذا القول منقول عن طائفة من المفسرين قالوا: وعلى هذا التقدير ففائدة هذا الكلام في هذا المقام هي أنه تعالى بين للرسول عليه الصلاة والسلام، أنه لا تطمع في أن يصير كل من تدعوه إلى الدين مجيبًا لك، قابلاً لدينك. فإن الناس كلهم كانوا على الكفر، وإنما حدث الإسلام في بعضهم بعد ذلك، فكيف تطمع في اتفاق الكل على الإيمان؟

القول الثالث: قول من يقول: المراد أنهم كانوا أمة واحدة في أنهم خلقوا على فطرة الإسلام، ثم اختلفوا في الأديان. وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**»[(1)] ومنهم من يقول المراد كانوا أمة واحدة في الشرائع العقلية، وحاصلها يرجع إلى أمرين: التعظيم لأمر الله تعالى والشفقة على خلق الله. وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] واعلم أن هذه المسألة قد استقصينا فيها في سورة البقرة، فلنكتف بهذا القدر ههنا.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فاعلم أنه ليس في الآية ما يدل على أن تلك الكلمة ما هي؟ وذكروا فيه وجوهًا: الأول: أن يقال لولا أنه تعالى أخبر بأنه يبقى التكليف على عباده، وإن كانوا به كافرين، لقضى بينهم بتعجيل الحساب والعقاب لكفرهم، لكن لما كان ذلك سببًا لزوال التكليف، ويوجب الإلجاء، وكان إبقاء

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (الجنائز) باب (ما قيل في أولاد المشركين). (٣/ ٢٩٠) حديث رقم/ ١٣٨٥، من طريق أبي سلمة... به. ومسلم في كتاب (القدر) باب (معنى كل مولود يولد على الفطرة) (٤/ ٢٠٤٧) حديث رقم/ ٢٣، من طريق أبي صالح... به. كلاهما (أبو سلمة، وأبو صالح) عن أبي هريرة... به.

التكليف أصوب وأصلح، لا جرم أنه تعالى أخر هذا العقاب إلى الآخرة. ثم قال هذا القائل، وفي ذلك تصبير للمؤمنين على احتمال المكاره من قبل الكافرين والظالمين. الثاني: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في أنه لا يعاجل العصاة بالعقوبة إنعامًا عليهم، لقضى بينهم في اختلافهم، بما يمتاز المحق من المبطل والمصيب من المخطئ، الثالث: أن تلك الكلمة هي قوله: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي» فلما كانت رحمته غالبة اقتضت تلك الرحمة الغالبة إسبال الستر على الجاهل الضال وإمهاله إلى وقت الوجدان.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

اعلم أن هذا الكلام هو النوع الرابع من شبهات القوم في إنكارهم نبوته، وذلك أنهم قالوا: إن القرآن الذي جئتنا به كتاب مشتمل على أنواع من الكلمات، والكتاب لا يكون معجزًا، ألا ترى أن كتاب موسى وعيسى ما كان معجزة لهما، بل كان لهما أنواع من المعجزات دلت على نبوتهما سوى الكتاب. وأيضًا فقد كان فيهم من يدعي إمكان المعارضة، كما أخبر الله تعالى أنهم قالوا: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] وإذا كان الأمر كذلك لا جرم طلبوا منه شيئًا آخر سوى القرآن، ليكون معجزة له، فحكى الله تعالى عنهم ذلك بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فأمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يقول عند هذا السؤال ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾.

واعلم أن الوجه في تقرير هذا الجواب أن يقال: أقام الدلالة القاهرة على أن ظهور القرآن عليه معجزة قاهرة ظاهرة. لأنه عليه الصلاة والسلام بيّن أنه نشأ فيما بينهم وتربى عندهم، وهم علموا أنه لم يطالع كتابًا، ولم يتلمذ لأستاذ. بل كان مدة أربعين سنة معهم ومخالطًا لهم، وما كان مشتغلاً بالفكر والتعلم قط، ثم إنه دفعة واحدة ظهر هذا القرآن العظيم عليه، وظهور مثل هذا الكتاب الشريف العالي، على مثل ذلك الإنسان الذي لم يتفق له شيء من أسباب التعلم، لا يكون إلا بالوحي. فهذا برهان قاهر على أن القرآن معجز قاهر ظاهر، وإذا ثبت هذا كان طلب آية أخرى سوى القرآن من الاقتراحات التي لا حاجة إليها في إثبات نبوته عليه الصلاة والسلام، وتقرير رسالته، ومثل هذا يكون مفوضًا إلى مشيئة الله تعالى، فإن شاء أظهرها، وإن شاء لم يظهرها، فكان ذلك من باب الغيب، فوجب على كل أحد أن ينتظر أنه هل يفعله الله أم لا؟ ولكن سواء فعل أو لم يفعل، فقد ثبتت النبوة، وظهر صدقه في ادعاء الرسالة، ولا يختلف هذا المقصود بحصول تلك الزيادة وبعدمها، فظهر أن هذا الوجه جواب ظاهر في تقرير هذا المطلوب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن القوم لما طلبوا من رسول الله ﷺ آية أخرى سوى القرآن، وأجاب الجواب الذي قررناه وهو قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: ٢٠] ذكر جوابًا آخر وهو المذكور في هذه الآية.

وتقريره من وجهين:

الوجه الأول: أنه تعالى بيَّن في هذه الآية أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد وعدم الإنصاف، وإذا كانوا كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوه من إنزال معجزات أخرى، فإنهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم وجهلهم، فنفتقر ههنا إلى بيان أمرين: إلى بيان أن عادة هؤلاء الأقوام المكر واللجاج والعناد، ثم إلى بيان أنه متى كان الأمر كذلك لم يكن في إظهار سائر المعجزات فائدة.

أما المقام الأول: فتقريره أنه روي أن الله تعالى سلط القحط على أهل مكة سبع سنين ثم رحمهم، وأنزل الأمطار النافعة على أراضيهم، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأصنام وإلى الأنواء، وعلى التقديرين فهو مقابلة للنعمة بالكفران. فقوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ المراد منه تلك الأمطار النافعة. وقوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ المراد منه ذلك القحط الشديد. وقوله: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ المراد منه إضافتهم تلك المنافع الجليلة إلى الأنواء والكواكب أو إلى الأصنام.

واعلم أنه تعالى ذكر هذا المعنى بعينه فيما تقدم من هذه السورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] إلا أنه تعالى زاد في هذه الآية التي نحن في تفسيرها دقيقة أخرى ما ذكرها في تلك الآية، وتلك الدقيقة هي أنهم يمكرون عند وجدان الرحمة، ويطلبون الغوائل، وفي الآية المتقدمة ما كانت هذه الدقيقة مذكورة، فثبت بما ذكرنا أن عادة هؤلاء الأقوام اللجاج والعناد والمكر وطلب الغوائل.

وأما المقام الثاني: وهو بيان أنه متى كان الأمر كذلك فلا فائدة في إظهار سائر الآيات، لأنه تعالى لو أظهر لهم جميع ما طلبوه من المعجزات الظاهرة فإنهم لا يقبلونها، لأنه ليس غرضهم من هذه الاقتراحات التشدد في طلب الدين، وإنما غرضهم الدفع والمنع والمبالغة في صون مناصبهم الدنيوية، والامتناع من المتابعة للغير، والدليل عليه أنه تعالى لما شدد الأمر عليهم

وسلط البلاء عليهم، ثم أزاله عنهم وأبدل تلك البليات بالخيرات، فهم مع ذلك استمروا على التكذيب والجحود، فدل ذلك على أنه تعالى لو أنزل عليهم الآيات التي طلبوها لم يلتفتوا إليها، فظهر بما ذكرنا أن هذا الكلام جواب قاطع عن السؤال المتقدم.

الوجه الثاني: في تقرير هذا الجواب: أن أهل مكة قد حصل لهم أسباب الرفاهية وطيب العيش، ومن كان كذلك تمرد وتكبر كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧] وقرر تعالى هذا المعنى بالمثال المذكور، فإقدامهم على طلب الآيات الزائدة والاقتراحات الفاسدة، إنما كان لأجل ما هم فيه من النعم الكثيرة والخيرات المتوالية، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ كالتنبيه على أنه تعالى يزيل عنهم تلك النعم، ويجعلهم منقادين للرسول مطيعين له، تاركين لهذه الاعتراضات الفاسدة، والله أعلم.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ كلام ورد على سبيل المبالغة، والمراد منه إيصال الرحمة إليهم.

واعلم أن رحمة الله تعالى لا تذاق بالفم، وإنما تذاق بالعقل، وذلك يدل على أن القول بوجود السعادات الروحانية حق.

المسألة الثالثة: قال الزجاج (إِذَا) في قوله: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ للشرط و (إِذَا) في قوله ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ جواب الشرط وهو كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦] والمعنى: إذا أذقنا الناس رحمة مكروا وإن تصبهم سيئة قنطوا. واعلم أن (إِذَا) في قوله: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ تفيد المفاجأة، معناه أنهم في الحال أقدموا على المكر وسارعوا إليه.

المسألة الرابعة: سمي تكذيبهم بآيات الله مكرًا، لأن المكر عبارة عن صرف الشيء عن وجهه الظاهر بطريق الحيلة، وهؤلاء يحتالون لدفع آيات الله بكل ما يقدرون عليه من إلقاء شبهة أو تخليط في مناظرة أو غير ذلك من الأمور الفاسدة. قال مقاتل: المراد من هذا المكر هو أن هؤلاء لا يقولون هذا رزق الله، بل يقولون سقينا بنوء كذا.

أما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ فالمعنى أن هؤلاء الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر، فالله سبحانه وتعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك، وهو من وجهين: الأول: ما أعد لهم يوم القيامة من العذاب الشديد، وفي الدنيا من الفضيحة والخزي والنكال. والثاني: أن رسل الله يكتبون مكرهم ويحفظونه، وتعرض عليهم ما في بواطنهم الخبيثة يوم القيامة، ويكون ذلك سببًا للفضيحة التامة والخزي والنكال نعوذ بالله تعالى منه.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ [يونس: ٢١] كان هذا الكلام كلامًا كليًّا لا ينكشف معناه تمام الانكشاف. إلا بذكر مثال كامل، فذكر الله تعالى لنقل الإنسان من الضر الشديد إلى الرحمة مثالاً، ولمكر الإنسان مثالاً، حتى تكون هذه الآية كالمفسرة للآية التي قبلها، وذلك لأن المعنى الكلي لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثال جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي.

واعلم أن الإنسان إذا ركب السفينة ووجد الريح الطيبة الموافقة للمقصود، حصل له الفرح التام والمسرة القوية، ثم قد تظهر علامات الهلاك دفعة واحدة. فأولها: أن تجيئهم الرياح العاصفة الشديدة. وثانيها: أن تأتيهم الأمواج العظيمة من كل جانب. وثالثها: أن يغلب على ظنونهم أن الهلاك واقع، وأن النجاة ليست متوقعة، ولا شك أن الانتقال من تلك الأحوال الطيبة الموافقة إلى هذه الأحوال القاهرة الشديدة يوجب الخوف العظيم، والرعب الشديد، وأيضًا مشاهدة هذه الأحوال والأهوال في البحر مختصة بإيجاب مزيد الرعب، والخوف ثم إن الإنسان في هذه الحالة لا يطمع إلا في فضل الله ورحمته، ويصير منقطع الطمع عن جميع الخلق، ويصير بقلبه وروحه وجميع أجزائه متضرعًا إلى الله تعالى، ثم إذا نجاه الله تعالى من هذه البلية العظيمة، ونقله من هذه المضرة القوية إلى الخلاص والنجاة، ففي الحال ينسى تلك النعمة ويرجع إلى ما ألفه واعتاده من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة، فظهر أنه لا يمكن تقرير ذلك المعنى الكلي المذكور في الآية المتقدمة بمثال أحسن وأكمل من المثال المذكور في هذه الآية.

المسألة الثانية: يحكى أن واحدًا قال لجعفر الصادق: اذكر لي دليلاً على إثبات الصانع فقال: أخبرني عن حرفتك: فقال: أنا رجل أتجر في البحر، فقال: صف لي كيفية حالك. فقال: ركبت البحر فانكسرت السفينة وبقيت على لوح واحد من ألواحها، وجاءت الرياح العاصفة، فقال جعفر: هل وجدت في قلبك تضرعًا ودعاء. فقال نعم. فقال جعفر: فإلهك هو الذي تضرعت إليه في ذلك الوقت.

المسألة الثالثة: قرأ ابن عامر (ينشركم) من النشر الذي هو خلاف الطي كأنه أخذه من قوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ١٠] والباقون قرءوا ﴿يُسَيِّرُكُمۡ﴾ من التسيير.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد يجب أن يكون خلقًا لله تعالى.

قالوا: دلت هذه الآية على أن سير العباد من الله تعالى، ودل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١١] على أن سيرهم منهم، وهذا يدل على أن سيرهم منهم ومن الله، فيكون كسبيًا لهم وخلقًا لله ونظيره.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾[الأنفال: ٥] وقال في آية أخرى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[التوبة: ٤٠] وقال في آية أخرى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾[التوبة: ٨٢] ثم قال في آية أخرى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾[النجم: ٤٣] وقال في آية أخرى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾[الأنفال: ٧] قال الجبائي: أما كونه تعالى مُسيِّرًا لهم في البحر على الحقيقة فالأمر كذلك. وأما سيرهم في البر فإنما أضيف إلى الله تعالى على التوسع. فما كان منه طاعة فبأمره وتسهيله، وما كان منه معصية فلأنه تعالى هو الذي أقدره عليه. وزاد القاضي فيه يجوز أن يضاف ذلك إليه تعالى من حيث إنه تعالى سخر لهم المركب في البر، وسخر لهم الأرض التي يتصرفون عليها بإمساكه لها، لأنه تعالى لو لم يفعل ذلك لتعذر عليهم السير. وقال القفال: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي هو الله الهادي لكم إلى السير في البر والبحر طلبًا للمعاش لكم، وهو المسير لكم، لأجل أنه هيأ لكم أسباب ذلك السير. هذا جملة ما قيل في الجواب عنه. ونحن نقول: لا شك أن المسير في البحر هو الله تعالى، لأن الله تعالى هو المحدث لتلك الحركات في أجزاء السفينة، ولا شك أن إضافة الفعل إلى الفاعل هو الحقيقة. فنقول: وجب أيضًا أن يكون مسيرًا لهم في البر بهذا التفسير، إذ لو كان مسيِّرًا لهم في البر بمعنى إعطاء الآلات والأدوات لكان مجازًا بهذا الوجه، فيلزم كون اللفظ الواحد حقيقة ومجازًا دفعة واحدة، وذلك باطل.

واعلم أن مذهب الجبائي أنه لا امتناع في كون اللفظ حقيقة ومجازًا بالنسبة إلى المعنى الواحد. وأما أبو هاشم فإنه يقول: إن ذلك ممتنع، إلا أنه يقول: لا يبعد أن يقال إنه تعالى تكلم به مرتين.

واعلم أن قول الجبائي: قد أبطلناه في أصول الفقه، وقول أبي هاشم أنه تعالى تكلم به مرتين أيضًا بعيد. لأن هذا قول لم يقل به أحد من الأمة ممن كانوا قبله، فكان هذا على خلاف الإجماع فيكون باطلاً.

واعلم أنه بقي في هذه الآية سؤالات:

السؤال الأول: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر، مع أن الكون في الفلك متقدم لا محالة على التسيير في البحر؟

والجواب: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير، بل تقدير الكلام كأنه قيل هو الذي يسيركم حتى إذا وقع في جملة تلك التسييرات الحصول في الفلك كان كذا وكذا.

السؤال الثاني: ما جواب (إذا) في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ﴾ .

الجواب: هو أن جوابها هو قوله: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ثم قال صاحب (الكشاف):

وأما قوله: ﴿دَعَوُا ٱللَّهَ﴾ فهو بدل من ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك. وقال بعض الأفاضل لو حمل قوله: ﴿دَعَوُا ٱللَّهَ﴾ على الاستئناف كان أوضح، كأنه لما قيل: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ قال قائل: فما صنعوا؟ فقيل: ﴿دَعَوُا ٱللَّهَ﴾.

السؤال الثالث: ما الفائدة في صرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة؟ **الجواب فيه وجوه**: الأول: قال صاحب (الكشاف): المقصود هو المبالغة كأنه تعالى يذكر حالهم لغيرهم لتعجيبهم منها، ويستدعى منهم مزيد الإنكار والتقبيح. الثاني: قال أبو علي الجبائي: إن مخاطبته تعالى لعباده، هي على لسان الرسول عليه الصلاة والسلام، فهي بمنزلة الخبر عن الغائب. وكل من أقام الغائب مقام المخاطب، حسن منه أن يرده مرة أخرى إلى الغائب. الثالث: وهو الذي خطر بالبال في الحال، أن الانتقال في الكلام من لفظ الغيبة إلى لفظ الحضور فإنه يدل على مزيد التقرب والإكرام. وأما ضده وهو الانتقال من لفظ الحضور إلى لفظ الغيبة، يدل على المقت والتبعيد.

أما الأول: فكما في سورة الفاتحة، فإن قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣] كله مقام الغيبة، ثم انتقل منها إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وهذا يدل على أن العبد كأنه انتقل من مقام الغيبة إلى مقام الحضور، وهو يوجب علو الدرجة، وكمال القرب من خدمة رب العالمين. **وأما الثاني:** فكما في هذه الآية، لأن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ خطاب الحضور، وقوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ مقام الغيبة، فههنا انتقل من مقام الحضور إلى مقام الغيبة، وذلك يدل على المقت والتبعيد والطرد، وهو اللائق بحال هؤلاء، لأن من كان صفته أنه يقابل إحسان الله تعالى إليه بالكفران، كان اللائق به ما ذكرناه.

السؤال الرابع: كم القيود المعتبرة في الشرط والقيود المعتبرة في الجزاء؟

الجواب: أما القيود المعتبرة في الشرط فثلاثة: أولها: الكون في الفلك، وثانيها: جَرْيُ الفلك بالريح الطيبة، وثالثها: فرحهم بها. وأما القيود المعتبرة في الجزاء فثلاثة أيضًا: أولها: قوله: ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾.

وفيه سؤالان:

السؤال الأول: الضمير في قوله: ﴿جَآءَتۡهَا﴾ عائد إلى الفلك وهو ضمير الواحد، والضمير في قوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ عائد إلى الفلك وهو ضمير الجمع، فما السبب فيه؟

الجواب عنه من وجهين:

الأول: أنا لا نسلم أن الضمير في قوله: ﴿جَآءَتۡهَا﴾ عائد إلى الفلك، بل نقول إنه عائد إلى الريح الطيبة المذكورة في قوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾.

الثاني: لو سلمنا ما ذكرتم إلا أن لفظ ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ يصلح للواحد والجمع، فحسن الضميران.

السؤال الثاني: ما العاطف. الجواب: قال الفراء والزجاج: يقال: ريح عاصف وعاصفة،

وقد عَصَفَتْ عُصُوفًا وأَعْصَفت، فهي مِعْصَف ومِعْصَفة. قال الفراء: والألف لغة بني أسد، ومعنى عصفت الريح اشتدت، وأصل العصف السرعة، يقال: ناقة عاصف وعصوف سريعة، وإنما قيل ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ لأنه يراد ذات عصوف كما قيل: لابِنٌ وتَامِرٌ أو لأجل أن لفظ الريح مذكر.

أما القيد الثاني: فهو قوله: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ والموج: ما ارتفع من الماء فوق البحر.

أما القيد الثالث: فهو قوله: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ والمراد أنهم ظنوا القرب من الهلاك، وأصله أن العدو إذا أحاط بقوم أو بلد، فقد دنوا من الهلاك.

السؤال الخامس: ما المراد من الإخلاص في قوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

والجواب: قال ابن عباس: يريد تركوا الشرك، ولم يشركوا به من آلهتهم شيئًا، وأقروا لله بالربوبية والوحدانية. قال الحسن: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ الإخلاص الإيمان، لكن لأجل العلم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله تعالى، فيكون جاريًا مجرى الإيمان الاضطراري. وقال ابن زيد: هؤلاء المشركون يدعون مع الله ما يدعون، فإذا جاء الضر والبلاء لم يدعوا إلا الله. وعن أبي عبيدة أن المراد من ذلك الدعاء قولهم: أهيا شراهيا تفسيره: يا حي يا قيوم.

السؤال السادس: ما الشيء المشار إليه بقوله ﴿هَٰذِهِۦ﴾ في قوله: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾؟

والجواب: المراد لئن أنجيتنا من هذه الريح العاصفة، وقيل المراد لئن أنجيتنا من هذه الأمواج أو من هذه الشدائد، وهذه الألفاظ وإن لم يسبق ذكرها، إلا أنه سبق ذكر ما يدل عليها.

السؤال السابع: هل يحتاج في هذه الآية إلى إضمار؟

الجواب: نعم، والتقدير: دعوا الله مخلصين له الدين مريدين أن يقولوا: لئن أنجيتنا، ويمكن أن يقال: لا حاجة إلا الإضمار، لأن قوله: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ يصير مفسرًا بقوله: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ فهم في الحقيقة ما قالوا إلا هذا القول.

واعلم أنه تعالى لما حكى عنهم هذا التضرع الكامل بيَّن أنهم بعد الخلاص من تلك البلية والمحنة أقدموا في الحال على البغي في الأرض بغير الحق. قال ابن عباس: يريد به الفساد والتكذيب والجراءة على الله تعالى، ومعنى البغي قصد الاستعلاء بالظلم. قال الزجاج: البغي: الترقي في الفساد، قال الأصمعي: يقال: بغى الجرح يبغي بغيًا إذا ترقى إلى الفساد، وبغت المرأة: إذا فجرت، قال الواحدي: أصل هذا اللفظ من الطلب.

فإن قيل: فما معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ والبغي لا يكون بحق؟

قلنا: البغي قد يكون بالحق، وهو استيلاء المسلمين عل أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم، كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة(١). ثم إنه تعالى بيَّن أن هذا

---

(١) هذا إشارة إلى الحديث الذي رواه الشيخان من رواية ابن عمر رضي الله عنهما متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (المغازي) باب (حديث بني النضير) (٧/ ٣٨٣) حديث رقم/ ٤٣٠١، ومسلم في كتاب (الجهاد) باب (جواز قطع أشجار الكفار) (٣/ ٢٩/ ١٣٦٥). كلاهما من طريق الليث عن نافع عن ابن عمر... به.

البغي أمر باطل يجب على العاقل أن يحترز منه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الأكثرون (مَتَاعُ) برفع العين، وقرأ حفص عن عاصم ﴿مَّتَاعَ﴾ بنصب العين، أما الرفع ففيه وجهان: الأول: أن يكون قوله: ﴿بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾ مبتدأ، وقوله: (مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) خبرًا. والمراد من قوله: ﴿بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم﴾ بغي بعضكم على بعض كما في قوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[البقرة: ٥٤] ومعنى الكلام أن بغي بعضكم عن بعض منفعة الحياة الدنيا ولا بقاء لها. والثاني: أن قوله ﴿بَغْيُكُمْ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿عَلَى أَنفُسِكُم﴾ خبره، وقوله: (مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) خبر مبتدأ محذوف، والتقدير: هو متاع الحياة الدنيا. وأما القراءة بالنصب فوجهها أن نقول: إن قوله: ﴿بَغْيُكُمْ﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿عَلَى أَنفُسِكُم﴾ خبره، وقوله: ﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ في موضع المصدر المؤكد، والتقدير: تتمتعون متاع الحياة الدنيا.

المسألة الثانية: البغي من منكرات المعاصي. قال عليه الصلاة والسلام: «**أَسْرَعُ الْخَيْرِ ثَوَابًا صِلَةُ الرَّحِمِ، وَأَعْجَلُ الشَّرِّ عِقَابًا الْبَغْيُ وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ**»(١) وروى «**ثِنْتَانِ يُعَجِّلُهُمَا اللَّه فِي الدُّنْيَا الْبَغْيُ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ**»(٢) وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَانْدَكَّ الْبَاغِي(٣). وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه:

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إِنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ ... فَارْبَعْ فَخَيْرُ فِعَالِ الْمَرْءِ أَعْدَلُهُ
فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ ... لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

---

(١) أخرجه الخطيب في (تاريخ بغداد) (٥/ ١٨٣). ورواه الجصاص في (أحكام القرآن) (٢/ ٣٣٦). كلاهما من طريق أبي حنيفة قال حدثني ناصح عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلمة عن أبي هريرة. . . . به. وأخرجه وكيع في (الزهد) (١/ ٤٦١) حديث رقم/ ٣٩٩، وابن الشجري في (الأمالي الشجرية) (١/ ٣٥٣). والبيهقي في (سننه الكبري) (١٠/ ٣٦) حديث رقم/ ١٩٦٥٧، وهناد في (الزهد) (٢/ ٤٩٤) حديث رقم/ ١٠١٨، جميعا من طريق سفيان عن برد عن مكحول قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم. . . به. وأورده الهيثمي في (المجمع) (٤/ ٣٢٢) وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو الدهماء الأصعب وثقه النفيلي وضعفه ابن حبان. . . به.

(٢) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢٠٧) حديث رقم/ ٥٩١، من طريق بكار بن عبد العزيز عن أبيه عن جده. . . به. وإسناده صحيح. وأبو نعيم في (أخبار أصفهان) (٦/ ٤٤٣) حديث رقم/ ٤٠٤٢٦، من طريق محمد بن عبد العزيز الراسبي حدثنا سعد مولي أبي بكرة حدثنا عبيد الله بن أبي بكرة عن أبيه. . . به. والخطيب في (موضح أوهام الجمع والتفريق) (١/ ٤١). من طريق سعد عن عبيد الله بن أبي بكرة. . . به. والبخاري في (التاريخ الكبير) (١/ ١٩٦) حديث رقم/ ٤٩٤، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٣٨/ ١٣١). كلاهما من طريق محمد سمع سعدًا عن عبيد الله بن أبي بكرة عن أبي بكرة. . . به.

(٣) **صحيح موقوف:** أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (١/ ٢٠٦) حديث رقم/ ٥٨٨، من طريق أبي يحيى قال سمعت مجاهدا عن ابن عباس. . . به. وابن أبي الدنيا في (البغي) (١/ ١٤/ ٧). من طريق الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس. . . به.

وعن محمد بن كعب القرظي: ثلاث من كن فيه كن عليه، البغي والنكث والمكر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾.

المسألة الثالثة: حاصل الكلام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي لا يتهيأ لكم بغي بعضكم على بعض إلا أيامًا قليلة، وهي مدة حياتكم مع قصرها وسرعة انقضائها ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي ما وعدنا من المجازاة على أعمالكم ﴿مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا، والإنباء هو الإخبار، وهو في هذا الموضع وعيد بالعذاب كقول الرجل لغيره سأخبرك بما فعلت.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٣] أتبعه بهذا المثل العجيب الذي ضربه لمن يبغي في الأرض ويغتر بالدنيا، ويشتد تمسكه بها، ويقوى إعراضه عن أمر الآخرة والتأهب لها، فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهذا الكلام يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المعنى فاختلط به نبات الأرض بسبب هذا الماء النازل من السماء، وذلك لأنه إذا نزل المطر ينبت بسببه أنواع كثيرة من النبات، وتكون تلك الأنواع مختلطة، وهذا فيما لم يكن نابتًا قبل نزول المطر.

والثاني: أن يكون المراد منه الذي نبت، ولكنه لم يترعرع، ولم يهتز. وإنما هو في أول بروزه من الأرض ومبدأ حدوثه، فإذا نزل المطر عليه، واختلط بذلك المطر، أي اتصل كل واحد منهما بالآخر اهتز ذلك النبات وربا وحسن، وكمل واكتسى كمال الرونق والزينة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ وذلك لأن التزخرف عبارة عن كمال حسن الشيء. فجعلت الأرض آخذة زخرفها على التشبيه بالعروس إذا لبست الثياب الفاخرة من كل لون، وتزينت بجميع الألوان الممكنة في الزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض، ولا شك أنه متى صار البستان على هذا الوجه، وبهذه الصفة، فإنه يفرح به المالك ويعظم رجاؤه في الانتفاع به، ويصير قلبه مستغرقًا فيه، ثم إنه تعالى يرسل على هذا البستان العجيب آفة عظيمة دفعة واحدة في ليل أو نهار من برد، أو ريح أو سيل، فصارت تلك الأشجار والزروع باطلة

هالكة كأنها ما حصلت ألبتة. فلا شك أنه تعظم حسرة مالك ذلك البستان ويشتد حزنه، فكذلك من وضع قلبه على لذات الدنيا وطيباتها، فإذا فاتته تلك الأشياء يعظم حزنه وتلهفه عليها.

واعلم أن تشبيه الحياة الدنيا بهذا النبات يحتمل وجوهًا لخصها القاضي رحمه الله تعالى.

الوجه الأول: أن عاقبة هذه الحياة الدنيا التي ينفقها المرء في باب الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه، لأن الغالب أن المتمسك بالدنيا إذا وضع عليها قلبه وعظمت رغبته فيها يأتيه الموت. وهو معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] خاسرون الدنيا، وقد أنفقوا أعمارهم فيها، وخاسرون من الآخرة، مع أنهم متوجهون إليها.

والوجه الثاني: في التشبيه أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبة تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد.

والوجه الثالث: أن يكون وجه التشبيه مثل قوله سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فلما صار سعي هذا الزراع باطلًا بسبب حدوث الأسباب المهلكة، فكذلك سعي المغتر بالدنيا.

والوجه الرابع: أن مالك ذلك البستان لما عمره بإتعاب النفس وكد الروح، وعلق قلبه على الانتفاع به، فإذا حدث ذلك السبب المهلك، وصار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سببًا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل، وهو ما يحصل له في قلبه من الحسرات. فكذلك حال من وضع قلبه على الدنيا وأتعب نفسه في تحصيلها، فإذا مات وفاته كل ما نال، صار العناء الذي تحمله في تحصيل أسباب الدنيا، سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

والوجه الخامس: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد، وذلك لأنا نرى الزرع الذي قد انتهى إلى الغاية القصوى في التربية، قد بلغ الغاية في الزينة والحسن. ثم يعرض للأرض المتزينة به آفة، فيزول ذلك الحسن بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى. فذكر هذا المثال ليدل على أن من قدر على ذلك، كان قادرًا على إعادة الإحياء في الآخرة ليجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

المسألة الثانية: المثل: قول يشبه به حال الثاني بالأول، ويجوز أن يكون المراد من المثل الصفة. والتقدير: إنما صفة الحياة الدنيا. وأما قوله: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ فقال الزجاج: يعني تزينت فأدغمت التاء في الزاي وسكنت الزاي فاجتلب لها ألف الوصل، وهذا مثل ما ذكرنا في قوله: ﴿فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ﴾ [البقرة: ٧٢] ﴿ٱدَّارَكُواْ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وأما قوله: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أن أهل تلك الأرض قادرون على حصادها وتحصيل ثمراتها. والتحقيق أن الضمير وإن كان في الظاهر عائدًا إلى الأرض، إلا أنه عائد إلى النبات الموجود في الأرض. وأما قوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ فقال

ابن عباس رضي الله عنهما: يريد عذابنا. والتحقيق أن المعنى أتاها أمرنا بهلاكها. وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ قال ابن عباس: لا شيء فيها، وقال الضحاك: يعني المحصود. وعلى هذا، المراد بالحصيد الأرض التي حصد نبتها، ويجوز أن يكون المراد بالحصيد النبات، قال أبو عبيدة: الحصيد المستأصل، وقال غيره: الحصيد المقطوع والمقلوع. وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ قال الليث: يقال للشيء إذا فنى: كأن لم يغن بالأمس. أي كأن لم يكن من قولهم غني القوم في دارهم، إذا أقاموا بها، وعلى هذا الوجه يكون هذا صفة للنبات. وقال الزجاج: معناه: كأن لم تعمر بالأمس، وعلى هذا الوجه فالمراد هو الأرض، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي نذكر واحدة منها بعد الأخرى، على الترتيب. ليكون تواليها وكثرتها سببًا لقوة اليقين، وموجبًا لزوال الشك والشبهة.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

المسألة الأولى: في كيفية النظم. اعلم أنه تعالى لما نفر الغافلين عن الميل إلى الدنيا بالمثل السابق، رغبهم في الآخرة بهذه الآية. ووجه الترغيب في الآخرة ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ شِبْهُ سَيِّدٍ بَنَى دَارًا وَوَضَعَ مَائِدَةً وأرسل داعيا، فمن أجاب الداعي داخل الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَائِدَةِ وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّدُ وَمَنْ لَمْ يُجِبْ لَمْ يَدْخُلْ وَلَمْ يَأْكُلْ وَلَمْ يَرْضَ عَنْهُ السَّيِّدُ فاللَّه السَّيِّدُ، وَالدَّارُ دَارُ الْإِسْلَامِ، وَالْمَائِدَةُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِي مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ»(١) وعن النبي ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشمس إلا وبجنبيها مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ بِحَيْثُ يَسْمَعُ كُلُّ الْخَلَائِقِ إِلاَّ الثَّقَلَيْنِ أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ واللَّه يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ»(٢).

المسألة الثانية: لا شبهة أن المراد من دار السلام الجنة، إلا أنهم اختلفوا في السبب الذي لأجله حصل هذا الاسم على وجوه:

الأول: أن السلام هو الله تعالى، والجنة داره. ويجب علينا ههنا بيان فائدة تسمية الله تعالى بالسلام، وفيه وجوه:

أحدها: أنه لما كان واجب الوجود لذاته فقد سلم من الفناء والتغير، وسلم من احتياجه في ذاته وصفاته إلى الافتقار إلى الغير، وهذه الصفة ليست إلا له سبحانه كما قال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨] وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري في كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة) باب (الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم) (٦/ ٢٦٥٥) حديث رقم/ ٦٨٥٢، من طريق سعيد بن ميناء حدثنا أو سمعت جابر بن عبد الله... به.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ١٩٧) حديث رقم/ ٢٤٠٦٤، وابن حبان في (صحيحه) (٢/ ٤٦٢) حديث رقم/ ٩٧٩، والبيهقي في (شعب الإيمان) (٢/ ٢٣٣) حديث رقم/ ٣٤١٢، والطبري في (تفسيره) (١٥/ ٦٠) حديث رقم/ ١٧٦٠٨، وابن أبي حاتم في (تفسيره) (٨/ ٢٢) حديث رقم/ ١١١٦٠، جميعًا من طريق قتادة قال حدثني خليد العصري عن أبي الدرداء... به.

وثانيها: أنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى أن الخلق سلموا من ظلمه، قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[فصلت: ٤٦] ولأن كل ما سواه فهو مُلْكه ومِلْكه، وتصرف الفاعل في ملك نفسه لا يكون ظلمًا. ولأن الظلم إنما يصدر إما عن العاجز أو الجاهل أو المحتاج، ولما كان الكل محالاً على الله تعالى، كان الظلم محالاً في حقه.

وثالثها: قال المبرد: إنه تعالى يوصف بالسلام بمعنى أنه ذو السلام، أي الذي لا يقدر على السلام إلا هو، والسلام عبارة عن تخليص العاجزين عن المكاره والآفات. فالحق تعالى هو الساتر لعيوب المعيوبين، وهو المجيب لدعوة المضطرين، وهو المنتصف للمظلومين من الظالمين. قال المبرد: وعلى هذا التقدير: السَّلَام مصدر سَلِمَ.

القول الثاني: السلام جمع سلامة، ومعنى دار السلام: الدار التي من دخلها سلم من الآفات. فالسلام ههنا بمعنى السلامة، كالرضاع بمعنى الرضاعة. فإن الإنسان هناك سلم من كل الآفات، كالموت والمرض والألم والمصائب ونزعات الشيطان والكفر والبدعة والكد والتعب.

والقول الثالث: أنه سميت الجنة بدار السلام لأنه تعالى يسلم على أهلها قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٨] والملائكة يسلمون عليهم أيضًا، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[الرعد: ٢٣، ٢٤] وهم أيضًا يحيي بعضهم بعضًا بالسلام قال تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[يونس: ١٠] وأيضًا فسلامهم يصل إلى السعداء من أهل الدنيا، قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[الواقعة: ٩٠، ٩١].

المسألة الثالثة: اعلم أن كمال وجود الله تعالى وكمال قدرته وكمال رحمته بعباده معلوم، فدعوته عبيده إلى دار السلام، تدل على أن دار السلام قد حصل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، لأن العظيم إذا استعظم شيئًا ورغب فيه وبالغ في ذلك الترغيب، دل ذلك على كمال حال ذلك الشيء، لا سيما وقد ملأ الله هذا الكتاب المقدس من وصف الجنة مثل قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٩] ونحن نذكر ههنا كلامًا كليًّا في تقرير هذا المطلوب، فنقول: الإنسان إنما يسعى في يومه لغده. ولكل إنسان غدان، غد في الدنيا وغد في الآخرة. فنقول: غد الآخرة خير من غد الدنيا من وجوه أربعة:

أولها: أن الإنسان قد لا يدرك غد الدنيا وبالضرورة يدرك غد الآخرة.

وثانيها: أن بتقدير أن يدرك غد الدنيا فلعله لا يمكنه أن ينتفع بما جمعه، إما لأنه يضيع منه ذلك المال أو لأنه يحصل في بدنه مرض يمنعه من الانتفاع به. أما غد الآخرة فكلما اكتسبه الإنسان لأجل هذا اليوم، فإنه لا بد وأن ينتفع به.

وثالثها: أن بتقدير أن يجد غد الدنيا ويقدر على أن ينتفع بماله، إلا أن تلك المنافع مخلوطة بالمضار والمتاعب، لأن سعادات الدنيا غير خالصة عن الآفات، بل هي ممزوجة بالبليات، والاستقراء يدل عليه. ولذلك قال عليه السلام: «مَنْ طَلَبَ مَا لَمْ يُخْلَقْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ وَلَمْ يُرْزَقْ»

فقيل يا رسول الله وما هو؟ قال: «سرور يوم بتمامه» وأما منافع عز الآخرة فهي خالصة عن الغموم والهموم والأحزان سالمة عن كل المنفرات.

ورابعها: أن بتقدير أن يصل الإنسان إلى عز الدنيا وينتفع بسببه، وكان ذلك الانتفاع خاليًا عن خلط الآفات، إلا أنه لا بد وأن يكون منقطعًا. ومنافع الآخرة دائمة مبرأة عن الانقطاع، فثبت أن سعادات الدنيا مشوبة بهذه العيوب الأربعة، وأن سعادات الآخرة سالمة عنها. فلهذا السبب كانت الجنة دار السلام.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر والإيمان بقضاء الله تعالى قالوا: إنه تعالى بين في هذه الآية أنه دعا جميع الخلق إلى دار السلام، ثم بيَّن أنه ما هدى إلا بعضهم فهذه الهداية الخاصة يجب أن تكون مغايرة لتلك الدعوة العامة، ولا شك أيضًا أن الإقدار والتمكين وإرسال الرسل وإنزال الكتب أمور عامة، فوجب أن تكون هذه الهداية الخاصة مغايرة لكل هذه الأشياء، وما ذاك إلا ما ذكرناه من أنه تعالى خصه بالعلم والمعرفة دون غيره. واعلم أن هذه الآية مشكلة على المعتزلة وما قدروا على إيراد الأسئلة الكثيرة، وحاصل ما ذكره القاضي في وجهين:

الأول: أن يكون المراد ويهدي الله من يشاء إلى إجابة تلك الدعوة، بمعنى أن من أجاب الدعاء وأطاع واتقى فإن الله يهديه إليها.

والثاني: أن المراد من هذه الآية الألطاف. وأجاب أصحابنا عن هذين الوجهين بحرف واحد، وهو أن عندهم أنه يجب على الله فعل هذه الهداية، وما كان واجبًا لا يكون معلقًا بالمشيئة، وهذا معلق بالمشيئة، فامتنع حمله على ما ذكروه.

قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما دعا عباده إلى دار السلام، ذكر السعادات التي تحصل لهم فيها فقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ فيحتاج إلى تفسير هذه الألفاظ الثلاثة.

أما اللفظ الأول: وهو قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ فقال ابن عباس: معناه: للذين ذكروا كلمة: لا إله إلا الله. وقال الأصم: معناه: للذين أحسنوا في كل ما تعبدوا به، ومعناه: أنهم أتوا بالمأمور به كما ينبغي، واجتنبوا المنهيات من الوجه الذي صارت منهيًّا عنها.

والقول الثاني: أقرب إلى الصواب لأن الدرجات العالية لا تحصل إلا لأهل الطاعات.

وأما اللفظ الثاني: وهو ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ فقال ابن الأنباري: الحسنى في اللغة تأنيث الأحسن، والعرب توقع هذه اللفظة على الحالة المحبوبة والخصلة المرغوب فيها، ولذلك لم تؤكد، ولم تنعت بشيء، وقال صاحب (الكشاف): المراد: المثوبة الحسنى. ونظير هذه الآية قوله: ﴿هَلْ

جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]

وأما اللفظ الثالث: وهو الزيادة. فنقول: هذه الكلمة مبهمة، ولأجل هذا اختلف الناس في تفسيرها، وحاصل كلامهم يرجع إلى قولين:

القول الأول: أن المراد منها رؤية الله سبحانه وتعالى. قالوا: والدليل عليه النقل والعقل.

أما النقل: فالحديث الصحيح الوارد فيه، وهو أن الحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما العقل: فهو أن الحسنى لفظة مفردة دخل عليها حرف التعريف، فانصرف إلى المعهود السابق، وهو دار السلام. والمعروف من المسلمين والمتقرر بين أهل الإسلام من هذه اللفظة هو الجنة، وما فيها من المنافع والتعظيم. وإذا ثبت هذا وجب أن يكون المراد من الزيادة أمرًا مغايرًا لكل ما في الجنة من المنافع والتعظيم، وإلا لزم التكرار. وكل من قال بذلك قال: إنما هي رؤية الله تعالى. فدل ذلك على أن المراد من هذه الزيادة: الرؤية. ومما يؤكد هذا وجهان: الأول: أنه تعالى قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] فأثبت لأهل الجنة أمرين: أحدهما: نضرة الوجوه، والثاني: النظر إلى الله تعالى، وآيات القرآن يفسر بعضها بعضًا فوجب حمل الحسنى ههنا على نضرة الوجوه، وحمل الزيادة على رؤية الله تعالى. الثاني: أنه تعالى قال لرسوله ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] أثبت له النعيم، ورؤية الملك الكبير، فوجب ههنا حمل الحسنى والزيادة على هذين الأمرين.

القول الثاني: أنه لا يجوز حمل هذه الزيادة على الرؤية. قالت المعتزلة: ويدل على ذلك وجوه:

الأول: أن الدلائل العقلية دلت على أن رؤية الله تعالى ممتنعة.

والثاني: أن الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه، ورؤية الله تعالى ليست من جنس نعيم الجنة.

الثالث: أن الخبر الذي تمسكتم به في هذا الباب هو ما روي أن الزيادة، هي النظر إلى وجه الله تعالى، وهذا الخبر يوجب التشبيه، لأن النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جهة المرئي. وذلك يقتضي كون المرئي في الجهة، لأن الوجه اسم للعضو المخصوص، وذلك أيضًا يوجب التشبيه. فثبت أن هذا اللفظ لا يمكن حمله على الرؤية، فوجب حمله على شيء آخر، وعند هذا قال الجبائي: الحسنى: عبارة عن الثواب المستحق، والزيادة هي ما يزيده الله تعالى على هذا الثواب من التفضل. قال: والذي يدل على صحته، القرآن وأقوال المفسرين.

أما القرآن: فقوله تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [فاطر: ٣٠].

وأما أقوال المفسرين: فنقل عن علي رضي الله عنه أنه قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة.

وعن ابن عباس: أن الحسنى هي الحسنة، والزيادة عشر أمثالها وعن الحسن: عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وعن مجاهد: الزيادة مغفرة الله ورضوانه. وعن يزيد بن سمرة: الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطركم. فلا يريدون شيئًا إلا أمطرتهم. أجاب أصحابنا عن هذه الوجوه فقالوا: أما قولكم: إن الدلائل العقلية دلت على امتناع رؤية الله تعالى فهذا ممنوع، لأنا بينا في كتب الأصول أن تلك الدلائل في غاية الضعف ونهاية السخافة، وإذا لم يوجد في العقل ما يمنع من رؤية الله تعالى وجاءت الأخبار الصحيحة بإثبات الرؤية، وجب إجراؤها على ظواهرها. أما قوله الزيادة يجب أن تكون من جنس المزيد عليه. فنقول: المزيد عليه، إذا كان مقدرًا بمقدار معين، وجب أن تكون الزيادة عليه مخالفة له.

مثال الأول: قول الرجل لغيره: أعطيتك عشرة أمداد من الحنطة وزيادة، فههنا يجب أن تكون تلك الزيادة من الحنطة.

ومثال الثاني: قوله: أعطيتك الحنطة وزيادة، فههنا يجب أن تكون تلك الزيادة غير الحنطة، والمذكور في هذه الآية لفظ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنة، وهي مطلقة غير مقدرة بقدر معين، فوجب أن تكون تلك الزيادة عليها شيئًا مغايرًا لكل ما في الجنة. وأما قوله: الخبر المذكور في هذا الباب، اشتمل على لفظ النظر، وعلى إثبات الوجه لله تعالى، وكلاهما يوجبان التشبيه. فنقول: هذا الخبر أفاد إثبات الرؤية، وأفاد إثبات الجسمية. ثم قام الدليل على أنه ليس بجسم، ولم يقم الدليل على امتناع رؤيته، فوجب ترك العمل بما قام الدليل على فساده فقط، وأيضًا فقد بينا أن لفظ هذه الآية يدل على أن الزيادة هي الرؤية من غير حاجة تنافي تقرير ذلك الخبر، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما شرح ما يحصل لأهل الجنة من السعادات، شرح بعد ذلك الآفات التي صانهم الله بفضله عنها، فقال: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ والمعنى: لا يغشاها قتر، وهي غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا أثر هوان ولا كسوف.

فالصفة الأولى: هي قوله تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠-٤١].

والصفة الثانية: هي قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٢، ٣] والغرض من نفي هاتين الصفتين، نفي أسباب الخوف والحزن والذل عنهم، ليعلم أن نعيمهم الذي ذكره الله تعالى خالص غير مشوب بالمكروهات، وأنه لا يجوز عليهم ما إذا حصل غَيَّر صفحة الوجه، ويزيل ما فيها من النضارة والطلاقة، ثم بين أنهم خالدون في الجنة لا يخافون الانقطاع.

واعلم أن علماء الأصول قالوا: الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم، فقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] يدل على غاية التعظيم. وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ يدل على حصول المنفعة وقوله: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ يدل على كونها خالصة وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إشارة إلى كونها دائمة آمنة من الانقطاع، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه كما شرح حال المسلمين في الآية المتقدمة، شرح حال من أقدم على السيئات في هذه الآية، وذكر تعالى من أحوالهم أمورًا أربعة أولها: قوله: ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ والمقصود من هذا القيد التنبيه على الفرق بين الحسنات وبين السيئات، لأنه تعالى ذكر في أعمال البر أنه يوصل إلى المشتغلين بها الثواب مع الزيادة وأما في عمل السيئات، فإنه تعالى ذكر أنه لا يجازي إلا بالمثل، والفرق هو أن الزيادة على الثواب تكون تفضلاً وذلك حسن، ويكون فيه تأكيد للترغيب في الطاعة، وأما الزيادة على قدر الاستحقاق في عمل السيئات، فهو ظلم، ولو فعله لبطل الوعد والوعيد والترهيب والتحذير، لأن الثقة بذلك إنما تحصل إذا ثبتت حكمته، ولو فعل الظلم لبطلت حكمته. تعالى الله عن ذلك، هكذا قرره القاضي تفريعًا على مذهبه. وثانيها: قوله: ﴿ وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ وذلك كناية عن الهوان والتحقير، واعلم أن الكمال محبوب لذاته، والنقصان مكروه لذاته، فالإنسان الناقص إذا مات بقيت روحه ناقصة خالية عن الكمالات، فيكون شعوره بكونه ناقصًا، سببًا لحصول الذلة والمهانة والخزي والنكال. وثالثها: قوله: ﴿ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ واعلم أنه لا عاصم من الله لا في الدنيا ولا في الآخرة، فإن قضاءه محيط بجميع الكائنات، وقدره نافذ في كل المحدثات إلا أن الغالب على الطباع العاصية، أنهم في الحياة العاجلة مشتغلون بأعمالهم ومراداتهم. أما بعد الموت فكل أحد يقر بأنه ليس له من الله من عاصم. ورابعها: قوله: ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ والمراد من هذا الكلام إثبات ما نفاه عن السعداء حيث قال: ﴿ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

واعلم أن حكماء الإسلام قالوا: المراد من هذا السواد المذكور ههنا سواد الجهل وظلمة الضلالة، فإن العلم طبعه طبع النور، والجهل طبعه طبع الظلمة، فقوله: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩] المراد منه نور العلم، وروحه وبشره وبشارته، وقوله: ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ [عبس: ٤٠، ٤١] المراد منه ظلمة الجهل وكدورة الضلالة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ ﴾.

فيه وجهان:

أحدهما: أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ [يونس: ٢٦] كأنه قيل: للذين أحسنوا

الحسنى وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها.

والثاني: أن يكون التقدير: وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها. على معنى أن جزاءهم أن يجازي سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزاد عليها، وهذا يدل على أن حكم الله في حق المحسنين ليس إلا بالفضل، وفي حق المسيئين ليس إلا بالعدل.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: المراد بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفار، واحتجوا عليه بأن سواد الوجه من علامات الكفر، بدليل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾[آل عمران: ١٠٦] وكذلك قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٠ - ٤٢] ولأنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾[يونس: ٢٨] والضمير في قوله: (هُمْ) عائد إلى هؤلاء، ثم إنه تعالى وصفهم بالشرك، وذلك يدل على أن هؤلاء هم الكفار، ولأن العلم نور وسلطان العلوم والمعارف هو معرفة الله تعالى، فكل قلب حصل فيه معرفة الله تعالى لم يحصل فيه الظلمة أصلاً، وكان الشبلي رحمة الله تعالى عليه يتمثل بهذا ويقول:

كُلُّ بَيْتٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ ... غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَى السُّرُجِ[1]
وَجْهُكَ الْمَأْمُولُ حُجَّتُنَا ... يَوْمَ يَأْتِي النَّاسُ بِالْحُجَجِ

وقال القاضي: إن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ عام يتناول الكافر والفاسق. إلا أنا نقول: الصيغة وإن كانت عامة إلا أن الدلائل التي ذكرناها تخصصه:

المسألة الرابعة: قال الفراء: في قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ وجهان: الأول: أن يكون التقدير: فلهم جزاء السيئة بمثلها، كما قال: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾[البقرة: ١٩٦] أي فعليه. والثاني: أن يعلق الجزاء بالباء في قوله: ﴿بِمِثْلِهَا﴾ قال ابن الأنباري: وعلى هذا التقدير الثاني فلا بد من عائد الموصول. والتقدير: فجزاء سيئة منهم بمثلها.

أما قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ فهو معطوف على يجازي، لأن قوله: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ تقديره: يجازي سيئة بمثلها، وقرئ (ويَرْهَقُهُم ذِلَّةٌ) بالياء.

أما قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿أُغْشِيَتْ﴾ أي ألبست ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ قرأ ابن كثير والكسائي (قِطْعًا)

(١) أبو بكر الشبلي وهو دلف بن جحدر الشبلي. ٢٤٧ - ٣٣٤هـ/ ٨٦١-٩٤٦ م. ناسك، كان في مبدأ أمره واليًا في دنباوند (من نواحي رستاق الري)، وولي الحجابة للموفق العباسي؛ وكان أبوه حاجب الحجاب ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح. له شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة، أصله من خراسان، ونسبته إلى قرية (شبلة) من قرى ما وراء النهر، مولده بسر من رأى، ووفاته ببغداد، اشتهر بكنيته، واختلف في اسمه ونسبه، فقيل (دلف بن جعفر) وقيل (جحدر بن دلف) و(دلف بن جعترة) و(دلف ابن جعونة) (وجعفر بن يونس).

بسكون الطاء، وقرأ الباقون بفتح الطاء، والقِطْع بسكون الطاء: القطِعة. وهي البعض، ومنه قوله تعالى ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١] أي قطعة. وأما قِطَع بفتح الطاء، فهو جمع قطعة، ومعنى الآية: وصف وجوههم بالسواد، حتى كأنها ألبست سوادًا من الليل، كقوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] وكقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وكقوله: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] وتلك العلامة هي سواد الوجه وزرقة العين.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مُظْلِمًا﴾ قال الفراء والزجاج: هو نعت لقوله: ﴿قِطَعًا﴾ وقال أبو علي الفارسي: ويجوز أن يجعل حالاً كأنه قيل: أغشيت وجوههم قطعًا من الليل في حال ظلمته.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا نوع آخر من شرح فضائح أولئك الكفار، فالضمير في قوله ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ عائد إلى المذكور السابق، وذلك هو قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [يونس: ٢٧] فلما وصف الله هؤلاء الذين يحشرهم بالشرك والكفر، دل على أن المراد من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [يونس: ٢٧] الكفار، وحاصل الكلام: أنه تعالى يحشر العابد والمعبود، ثم إن المعبود يتبرأ من العابد، ويتبين له أنه ما فعل ذلك بعلمه وإرادته، والمقصود منه أن القوم كانوا يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فبين الله تعالى أنهم لا يشفعون لهؤلاء الكفار، بل يتبرءون منهم، وذلك يدل على نهاية الخزي والنكال في حق هؤلاء الكفار، ونظيره آيات منها قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦] ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

واعلم أن هذا الكلام يشير على سبيل الرمز إلى دقيقة عقلية، وهي أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته، والممكن لذاته محتاج بحسب ماهيته، والشيء الواحد يمتنع أن يكون قابلاً وفاعلاً معًا، فما سوى الواحد الأحد الحق لا تأثير له في الإيجاد والتكوين، فالممكن المحدث لا يليق به أن يكون معبودًا لغيره، بل المعبود الحق ليس إلا الموجد الحق، وذلك ليس إلا الموجود الحق الذي هو واجب الوجود لذاته، فبراءة المعبود من العابدين، يحتمل أن يكون المراد منه ما ذكرناه. والله أعلم بمراده.

المسألة الثانية: (الحشر) الجمع من كل جانب إلى موقف واحد و ﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال أي نحشر الكل حال اجتماعهم. و ﴿مَكَانَكُمْ﴾ منصوب بإضمار الزموا. والتقدير: الزموا مكانكم و ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطف عليه. واعلم أن قوله: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ كلمة مختصة بالتهديد والوعيد والمراد أنه تعالى يقول للعابدين والمعبودين مكانكم أي الزموا مكانكم حتى تسألوا، ونظيره قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ۝٢٣ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٤].

أما قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾

ففيه بحثان:

البحث الأول: أن هذه الكلمة جاءت على لفظ المضي بعد قوله: ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ وهو منتظر، والسبب فيه أن الذي حكم الله فيه بأنه سيكون، صار كالكائن الراهن الآن، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤].

البحث الثاني: (زيلنا) فَرَّقنا وميزنا. قال الفراء: قوله: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ ليس من أزلت، إنما هو من زلّت إذا فرقت. تقول العرب: زلت الضأن من المعز فلم تزل. أي ميزتها فلم تتميز، ثم قال الواحدي: فالزيل والتزييل والمزايلة: التمييز والتفريق. قال الواحدي: وقرئ (فزايلنا بينهم) وهو مثل ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ وحكى الواحدي عن ابن قتيبة أنه قال في هذه الآية: هو من زال يزول وأزلته أنا، ثم حكى عن الأزهري أنه قال: هذا غلط، لأنه لم يميز بين زال يزول، وبين زال يزيل، وبينهما بون بعيد، والقول ما قاله الفراء، ثم قال المفسرون: ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ أي فرقنا بين المشركين وبين شركائهم من الآلهة والأصنام، وانقطع ما كان بينهم من التواصل في الدنيا.

وأما قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾

ففيه مباحث:

البحث الأول: إنما أضاف الشركاء إليهم لوجوه:

الأول: أنهم جعلوا نصيبًا من أموالهم لتلك الأصنام، فصيروها شركاء لأنفسهم في تلك الأموال، فلهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾.

الثاني: أنه يكفي في الإضافة أدنى تعلق، فلما كان الكفار هم الذين أثبتوا هذه الشركة، لا جرم حسنت إضافة الشركاء إليهم.

الثالث: أنه تعالى لما خاطب العابدين والمعبودين بقوله: ﴿مَكَانَكُمْ﴾ صاروا شركاء في هذا الخطاب.

البحث الثاني: اختلفوا في المراد بهؤلاء الشركاء. فقال بعضهم: هم الملائكة، واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]، ومنهم من

قال: بل هي الأصنام، والدليل عليه: أن هذا الخطاب مشتمل على التهديد والوعيد، وذلك لا يليق بالملائكة المقربين، ثم اختلفوا في أن هذه الأصنام كيف ذكرت هذا الكلام. فقال بعضهم: إن الله تعالى يخلق فيها الحياة والعقل والنطق فيها، فلا جرم قدرت على ذكر هذا الكلام. وقال آخرون: إنه تعالى يخلق فيها الكلام من غير أن يخلق فيها الحياة حتى يسمع منها ذلك الكلام، وهو ضعيف، لأن ظاهر قوله: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ يقتضي أن يكون فاعل ذلك القول هم الشركاء.

فإن قيل: إذا أحياهم الله تعالى فهل يبقيهم أو يفنيهم؟

قلنا: الكل محتمل ولا اعتراض على الله في شيء من أفعاله، وأحوال القيامة غير معلومة، إلا القليل الذي أخبر الله تعالى عنه في القرآن.

والقول الثالث: إن المراد بهؤلاء الشركاء، كل من عبد من دون الله تعالى، من صنم وشمس وقمر وإنسي وجني وملك.

البحث الثالث: هذا الخطاب لا شك أنه تهديد في حق العابدين، فهل يكون تهديدًا في حق المعبودين؟ أما المعتزلة: فإنهم قطعوا بأن ذلك لا يجوز. قالوا: لأنه لا ذنب للمعبود، ومن لا ذنب له، فإنه يقبح من الله تعالى أن يوجه التخويف والتهديد والوعيد إليه. وأما أصحابنا، فإنهم قالوا: إنه تعالى لا يسئل عما يفعل.

البحث الرابع: أن الشركاء قالوا: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ وهم كانوا قد عبدوهم، فكان هذا كذبًا، وقد ذكرنا في سورة الأنعام اختلاف الناس في أن أهل القيامة هل يكذبون أم لا، وقد تقدمت هذه المسألة على الاستقصاء، والذي نذكره ههنا، أن منهم من قال: إن المراد من قولهم ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ هو أنكم ما عبدتمونا بأمرنا وإرادتنا؟ قالوا: والدليل على أن المراد ما ذكرناه وجهان: الأول: أنهم استشهدوا بالله في ذلك حيث قالوا: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ والثاني: أنهم قالوا: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ فأثبتوا لهم عبادة، إلا أنهم زعموا أنهم كانوا غافلين عن تلك العبادة، وقد صدقوا في ذلك، لأن من أعظم أسباب الغفلة كونها جمادات لا حس لها بشيء ولا شعور ألبتة. ومن الناس من أجرى الآية على ظاهرها. وقالوا: إن الشركاء أخبروا أن الكفار ما عبدوها، ثم ذكروا فيه وجوهًا:

الأول: أن ذلك الموقف موقف الدهشة والحيرة، فذلك الكذب يكون جاريًا مجرى كذب الصبيان، ومجرى كذب المجانين والمدهوشين. **والثاني:** أنهم ما أقاموا لأعمال الكفار وزنًا وجعلوها لبطلانها كالعدم، ولهذا المعنى قالوا: إنهم ما عبدونا. **والثالث:** أنهم تخيلوا في الأصنام التي عبدوها صفات كثيرة، فهم في الحقيقة إنما عبدوا ذوات موصوفة بتلك الصفات، ولما كانت ذواتها خالية عن تلك الصفات، فهم ما عبدوها وإنما عبدوا أمورًا تخيلوها ولا وجود لها في الأعيان، وتلك الصفات التي تخيلوها في أصنامهم أنها تضر وتنفع وتشفع عند الله بغير إذنه.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

واعلم أن هذه الآية كالتتمة لما قبلها. وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ معناه: في ذلك المقام وفي ذلك الموقف أو يكون المراد في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان.

وفي قوله: (تبلوا) مباحث:

البحث الأول: قرأ حمزة والكسائي (تتلوا) بتاءين، وقرأ عاصم (نَبْلُو كُلَّ نَفْسٍ) بالنون ونصب كل، والباقون (تبلوا) بالتاء والباء. أما قراءة حمزة والكسائي فلها وجهان: الأول: أن يكون معنى قوله: (تتلوا) أي تتبع ما أسلفت، لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة وإلى طريق النار. الثاني: أن يكون المعنى: أن كل نفس تقرأ ما في صحيفتها من خير أو شر ومنه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال: ﴿فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ [الإسراء: ٧١] وأما قراءة عاصم فمعناها: أن الله تعالى يقول في ذلك الوقت نختبر كل نفس بسبب اختبار ما أسلفت من العمل، والمعنى: أنا نعرف حالها بمعرفة حال عملها، إن كان حسنًا فهي سعيدة، وإن كان قبيحًا فهي شقية، والمعنى نفعل بها فعل المختبر، كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وأما القراءة المشهورة فمعناها: أن كل نفس نختبر أعمالها في ذلك الوقت.

البحث الثاني: الابتلاء عبارة عن الاختبار قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨] ويقال: البلاء ثم الابتلاء أي الاختبار ينبغي أن يكون قبل الابتلاء.

ولقائل أن يقول: إن في ذلك الوقت تنكشف نتائج الأعمال وتظهر آثار الأفعال، فكيف يجوز تسمية حدوث العلم بالابتلاء؟

وجوابه: أن الابتلاء سبب لحدوث العلم، وإطلاق اسم السبب على المسبب مجاز مشهور.

وأما قوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ فاعلم أن الرد عبارة عن صرف الشيء إلى الموضع الذي جاء منه، وههنا فيه احتمالات: الأول: أن يكون المراد من قوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي ردوا إلى حيث لا حكم إلا لله على ما تقدم من نظائره. والثاني: أن يكون المراد ﴿وَرُدُّوا﴾ إلى ما يظهر لهم من الله من ثواب وعقاب، منبهًا بذلك على أن حكم الله بالثواب والعقاب لا يتغير. الثالث: أن يكون المراد من قوله: ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي جعلوا ملجئين إلى الإقرار بإلهيته، بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غير الله تعالى، ولذلك قال: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أعني أعرضوا عن المولى الباطل ورجعوا إلى المولى الحق.

وأما قوله: ﴿مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ فقد مر تفسيره في سورة الأنعام.

وأما قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فالمراد أنهم كانوا يدعون فيما يعبدونه أنهم شفعاء، وأن عبادتهم مقربة إلى الله تعالى، فنبه تعالى على أن ذلك يزول في الآخرة، ويعلمون أن ذلك باطل وافتراء واختلاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن فضائح عبدة الأوثان أتبعها بذكر الدلائل الدالة على فساد هذا المذهب.

فالحجة الأولى: ما ذكره في هذه الآية وهو أحوال الرزق وأحوال الحواس وأحوال الموت والحياة. أما الرزق فإنه إنما يحصل من السماء والأرض، أما من السماء فبنزول الأمطار الموافقة وأما من الأرض، فلأن الغذاء إما أن يكون نباتًا أو حيوانًا، أما النبات فلا ينبت إلا من الأرض وأما الحيوان فهو محتاج أيضًا إلى الغذاء. ولا يمكن أن يكون غذاء كل حيوان حيوانًا آخر وإلا لزم الذهاب إلى ما لا نهاية له وذلك محال، فثبت أن أغذية الحيوانات يجب انتهاؤها إلى النبات وثبت أن تولد النبات من الأرض، فلزم القطع بأن الأرزاق لا تحصل إلا من السماء والأرض، ومعلوم أن مدبر السموات والأرضين ليس إلا الله سبحانه وتعالى، فثبت أن الرزق ليس إلا من الله تعالى، وأما أحوال الحواس فكذلك، لأن أشرفها السمع والبصر، وكان علي رضي الله عنه يقول: سبحان من بصر بشحم، وأسمع بعظم، وأنطق بلحم، وأما أحوال الموت والحياة فهو قوله: ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ وفيه وجهان: الأول: أنه يخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي يخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر. والثاني: أن المراد منه أنه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والأكثرون على القول الأول، وهو إلى الحقيقة أقرب، ثم إنه تعالى لما ذكر هذا التفصيل ذكر بعده كلامًا كليًا، وهو قوله: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وذلك لأن أقسام تدبير الله تعالى في العالم العلوي وفي العالم السفلي وفي عالمي الأرواح والأجساد أمور لا نهاية لها، وذكر كلها كالمتعذر، فلما ذكر بعض تلك التفاصيل لا جرم عقبها بالكلام الكلي ليدل على الباقي ثم بيَّن تعالى أن الرسول عليه السلام إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال فسيقولون: إنه الله سبحانه وتعالى، وهذا يدل على أن المخاطبين بهذا الكلام كانوا يعرفون الله ويقرون به، وهم الذين قالوا في عبادتهم للأصنام: إنها تقربنا إلى الله زلفى وإنهم شفعاؤنا عند الله وكانوا يعلمون أن

هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر، فعند ذلك قال لرسوله عليه السلام: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ يعني أفلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله في المعبودية، مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وإحسانه، واعترافكم بأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر ألبتة.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ﴾ ومعناه أن من هذه قدرته ورحمته هو ﴿رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته ثباتًا لا ريب فيه، وإذا ثبت أن هذا هو الحق، وجب أن يكون ما سواه ضلالاً، لأن النقيضين يمتنع أن يكونا حقين وأن يكونا باطلين، فإذا كان أحدهما حقًا وجب أن يكون ما سواه باطلاً.

ثم قال: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ والمعنى أنكم لما عرفتم هذا الأمر الواضح الظاهر ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ وكيف تستجيزون العدول عن هذا الحق الظاهر، واعلم أن الجبائي قد استدل بهذه الآية وقال: هذا يدل على بطلان قول المجبرة أنه تعالى يصرف الكفار عن الإيمان، لأنه لو كان كذلك لما جاز أن يقول: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ كما لا يقول: إذا أعمى بصر أحدهم إني عميت، واعلم أن الجواب عنه سيأتي عن قريب.

أما قوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن الكفر بقضاء الله تعالى وإرادته، وتقريره أنه تعالى أخبر عنهم خبرًا جزمًا قطعًا أنهم لا يؤمنون، فلو آمنوا لكان إما أن يبقى ذلك الخبر صدقًا أو لا يبقى، والأول باطل، لأن الخبر بأنه لا يؤمن يمتنع أن يبقى صدقًا حال ما يوجد الإيمان منه، والثاني أيضًا باطل، لأن انقلاب خبر الله تعالى كذبًا محال فثبت أن صدور الإيمان منهم محال. والمحال لا يكون مرادًا، فثبت أنه تعالى ما أراد الإيمان من هذا الكافر وأنه أراد الكفر منه، ثم نقول: إن كان قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يدل على صحة مذهب القدرية، فهذه الآية الموضوعة بجنبه تدل على فساده، وقد كان من الواجب على الجبائي مع قوة خاطره حين استدل بتلك الآية على صحة قوله أن يذكر هذه الحجة ويجيب عنها حتى يحصل مقصوده.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر (كَلِمَاتُ رَبِّكَ) على الجمع وبعده (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ ربك) [يونس: ٩٦] وفي حم المؤمن (وكَذَٰلِكَ حَقتْ كَلِماتُ) [غافر: ٦] كله بالألف على الجمع والباقون ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ في جميع ذلك على لفظ الوحدان.

المسألة الثالثة: الكاف في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه، وفيه قولان: الأول: أنه كما ثبت وحق أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، كذلك حقت كلمة ربك بأنهم لا يؤمنون. الثاني: كما حق صدور العصيان منهم، كذلك حقت كلمة العذاب عليهم.

المسألة الرابعة: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من (كلمت) أي حق عليهم انتفاء الإيمان.

المسألة الخامسة: المراد من كلمة الله إما إخباره عن ذلك وخبره صدق لا يقبل التغير والزوال، أو علمه بذلك، وعلمه لا يقبل التغير والجهل. وقال بعض المحققين: علم الله تعلق بأنه لا يؤمن وخبره تعالى تعلق بأنه لا يؤمن، وقدرته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه، بل بخلق الكفر فيه وإرادته لم تتعلق بخلق الإيمان فيه، بل بخلق الكفر فيه، وأثبت ذلك في اللوح المحفوظ، وأشهد عليه ملائكته، وأنزله على أنبيائه وأشهدهم عليه، فلو حصل الإيمان لبطلت هذه الأشياء، فينقلب علمه جهلاً، وخبره الصدق كذبًا، وقدرته عجزًا، وإرادته كرهًا، وإشهاده باطلاً، وإخبار الملائكة والأنبياء كذبًا، وكل ذلك محال.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

اعلم أن هذا هو الحجة الثانية، وتقريرها ما شرح الله تعالى في سائر الآيات من كيفية ابتداء تخليق الإنسان من النطفة والعلقة والمضغة وكيفية إعادته، ومن كيفية ابتداء تخليق السموات والأرض، فلما فصل هذه المقامات، لا جرم اكتفى تعالى بذكرها ههنا على سبيل الإجمال، وههنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الفائدة في ذكر هذه الحجة على سبيل السؤال والاستفهام.

والجواب: أن الكلام إذا كان ظاهرًا جليًا ثم ذكر على سبيل الاستفهام وتفويض الجواب إلى المسؤول، كان ذلك أبلغ وأوقع في القلب.

السؤال الثاني: القوم كانوا منكرين الإعادة والحشر والنشر فكيف احتج عليهم بذلك؟

والجواب: أنه تعالى قدم في هذه السورة ذكر ما يدل عليه، وهو وجوب التمييز بين المحسن وبين المسيء وهذه الدلالة ظاهرة قوية لا يتمكن العاقل من دفعها، فلأجل كمال قوتها وظهورها تمسك به سواء ساعد الخصم عليه أو لم يساعد.

السؤال الثالث: لم أمر رسوله بأن يعترف بذلك، والإلزام إنما يحصل لو اعترف الخصم به؟

والجواب: أن الدليل لما كان ظاهرًا جليًا، فإذا أورد على الخصم في معرض الاستفهام، ثم إنه بنفسه يقول الأمر كذلك، كان هذا تنبيهًا على أن هذا الكلام بلغ في الوضوح إلى حيث لا حاجة فيه إلى إقرار الخصم به، وأنه سواء أقر أو أنكر، فالأمر متقرر ظاهر.

أما قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فالمراد التعجب منهم في الذهاب عن هذا الأمر الواضح الذي دعاهم الهوى والتقليد أو الشبهة الضعيفة إلى مخالفته، لأن الإخبار عن كون الأوثان آلهة كذب وإفك، والاشتغال بعبادتها- مع أنها لا تستحق هذه العبادة- يشبه الإفك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن هذا هو الحجة الثالثة، واعلم أن الاستدلال على وجود الصانع بالخلق أولاً، ثم بالهداية ثانيًا، عادة مطردة في القرآن، فحكى تعالى عن الخليل عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٧٨] وعن موسى عليه السلام أنه ذكر ذلك فقال: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[طه: ٥٠] وأمر محمدًا ﷺ فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[الأعلى: ١ - ٣] وهو في الحقيقة دليل شريف، لأن الإنسان له جسد وله روح، فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فههنا أيضًا لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى، وهو قوله: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[النمل: ٦٤] أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية.

واعلم أن المقصود من خلق الجسد حصول الهداية للروح، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[النحل: ٧٨] وهذا كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد، وإنما أعطى الحواس لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم، وأيضًا فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم أو لمس شيء من الكيفيات الملموسة، أما الأحوال الروحانية والمعارف الإلهية، فإنها كمالات باقية أبد الآباد مصونة عن الكون والفساد، فعلمنا أن الخلق تبع للهداية، والمقصود الأشرف الأعلى- حصول الهداية.

إذا ثبت هذا فنقول: العقول مضطربة والحق صعب، والأفكار مختلطة، ولم يسلم من الغلط إلا الأقلون، فوجب أن الهداية وإدراك الحق لا يكون إلا بإعانة الله سبحانه وتعالى وهدايته وإرشاده، ولصعوبة هذا الأمر قال الكليم عليه السلام بعد استماع الكلام القديم ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾[طه: ٢٥] وكل الخلق يطلبون الهداية ويحترزون عن الضلالة، مع أن الأكثرين وقعوا في الضلالة، وكل ذلك يدل على أن حصول الهداية والعلم والمعرفة ليس إلا من الله تعالى.

إذا عرفت هذا فنقول: الهداية إما أن تكون عبارة عن الدعوة إلى الحق، وإما أن تكون عبارة عن تحصيل تلك المعرفة وعلى التقديرين فقد دللنا على أنها أشرف المراتب البشرية وأعلى السعادات الحقيقية، ودللنا على أنها ليست إلا من الله تعالى. وأما الأصنام فإنها جمادات لا

تأثير لها في الدعوة إلى الحق ولا في الإرشاد إلى الصدق، فثبت أنه تعالى هو الموصل إلى جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، والمرشد إلى كل الكمالات في النفس والجسد، وأن الأصنام لا تأثير لها في شيء من ذلك، وإذا كان كذلك كان الاشتغال بعبادتها جهلاً محضًا وسفهًا صرفًا، فهذا حاصل الكلام في هذا الاستدلال.

المسألة الثانية: قال الزجاج: يقال: هديت إلى الحق، وهديت للحق بمعنى واحد، والله تعالى ذكر هاتين اللغتين في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾

ست قراءات:

الأول: قرأ ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع (يَهَدِّي) بفتح الياء والهاء وتشديد الدال، وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم، لأن أصله يهتدي أدغمت التاء في الدال ونقلت فتحة التاء المدغمة إلى الهاء.

الثانية: قرأ نافع ساكنة الهاء مشددة الدال أدغمت التاء في الدال وتركت الهاء على حالها، فجمع في قراءته بين ساكنين كما جمعوا في (يَخْصِّمُون)[يس: ٤٩] قال علي بن عيسى: وهو غلط على نافع.

الثالثة: قرأ أبو عمرو بالإشارة إلى فتحة الهاء من غير إشباع فهو بين الفتح والجزم مختلسة على أصل مذهبه اختيارًا للتخفيف، وذكر علي بن عيسى أنه الصحيح من قراءة نافع.

الرابعة: قرأ عاصم بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال فرارًا من التقاء الساكنين، والجزم يحرك بالكسر.

الخامسة: قرأ حماد ويحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء أتبع الكسرة للكسرة. وقيل: هو لغة من قرأ (نستعين ونعبد).

السادسة: قرأ حمزة والكسائي (يَهْدِي) ساكنة الهاء وبتخفيف الدال على معنى يهتدي، والعرب تقول: يهدي، بمعنى يهتدي يقال: هديته فهدى أي اهتدى.

المسألة الرابعة: في لفظ الآية إشكال، وهو أن المراد من الشركاء في هذه الآية الأصنام وأنها جمادات لا تقبل الهداية، فقوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ لا يليق بها.

والجواب من وجوه: الأول: لا يبعد أن يكون المراد من قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ هو الأصنام. والمراد من قوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ رؤساء الكفر والضلالة والدعاة إليها. والدليل عليه قوله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] إلى قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] والمراد أن الله سبحانه وتعالى هدى الخلق إلى الدين الحق بواسطة ما أظهر من الدلائل العقلية والنقلية. وأما هؤلاء الدعاة والرؤساء فإنهم لا يقدرون على أن يهدوا غيرهم إلا إذا هداهم الله تعالى،

فكان التمسك بدين الله تعالى أولى من قبول قول هؤلاء الجهال.

الوجه الثاني: في الجواب أن يقال: إن القوم لما اتخذوها آلهة، لا جرم عبر عنها كما يعبر عمن يعلم ويعقل، ألا ترى أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] مع أنها جمادات وقال: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] فأجرى اللفظ على الأوثان على حسب ما يجري على من يعقل ويعلم فكذا ههنا وصفهم الله تعالى بصفة من يعقل، وإن لم يكن الأمر كذلك، الثالث: أنا نحمل ذلك على التقدير، يعني أنها لو كانت بحيث يمكنها أن تهدي، فإنها لا تهدي غيرها إلا بعد أن يهديها غيرها، وإذا حملنا الكلام على هذا التقدير فقد زال السؤال. الرابع: أن البنية عندنا ليست شرطًا لصحة الحياة والعقل، فتلك الأصنام حال كونها خشبًا وحجرًا قابلة للحياة والعقل، وعلى هذا التقدير فيصح من الله تعالى أن يجعلها حية عاقلة ثم إنها تشتغل بهداية الغير. الخامس: أن الهدى عبارة عن النقل والحركة يقال: هديت المرأة إلى زوجها هدى، إذا نقلت إليه، والهدي: ما يهدى إلى الحرم من النعم، وسميت الهدية هدية لانتقالها من رجل إلى غيره، وجاء فلان يهادى بين اثنين إذا كان يمشي بينهما معتمدًا عليهما من ضعفه وتمايله.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يحتمل أن يكون معناه أنه لا ينتقل إلى مكان إلا إذا نقل إليه، وعلى هذا التقدير فالمراد الإشارة إلى كون هذه الأصنام جمادات خالية عن الحياة والقدرة. واعلم أنه تعالى لما قرر على الكفار هذه الحجة الظاهرة قال: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يعجب من مذهبهم الفاسد ومقالتهم الباطلة أربابُ العقول.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾.

وفيه وجهان:

الأول: وما يتبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى إلا ظنًا، لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم، بل سمعوه من أسلافهم.

الثاني: وما يتبع أكثرهم في قولهم: الأصنام آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والقول الأول أقوى، لأنا في القول الثاني نحتاج إلى أن نفسر الأكثر بالكل.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: تمسك نفاة القياس بهذه الآية، فقالوا: العمل بالقياس عمل بالظن، فوجب أن لا يجوز، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

أجاب مثبتو القياس، فقالوا: الدليل الذي دل على وجوب العمل بالقياس دليل قاطع، فكان وجوب العمل بالقياس معلومًا، فلم يكن العمل بالقياس مظنونًا بل كان معلومًا.

أجاب المستدل عن هذا السؤال، فقال: لو كان الحكم المستفاد من القياس يعلم كونه حكمًا لله تعالى لكان ترك العمل به كفرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] ولما لم يكن كذلك، بطل العمل به وقد يعدون عن هذه الحجة بأنهم قالوا: الحكم المستفاد من القياس إما أن يعلم كونه حكمًا لله تعالى أو يظن أو لا يعلم ولا يظن والأول باطل وإلا لكان من لم يحكم به كافرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وبالاتفاق ليس كذلك. والثاني: باطل، لأن العمل بالظن لا يجوز لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ والثالث: باطل، لأنه إذا لم يكن ذلك الحكم معلومًا ولا مظنونًا، كان مجرد التشهي، فكان باطلاً لقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ [مريم: ٥٩].

وأجاب مثبتو القياس: بأن حاصل هذا الدليل يرجع إلى التمسك بالعمومات، والتمسك بالعمومات لا يفيد إلا الظن. فلما كانت هذه العمومات دالة على المنع من التمسك بالظن، لزم كونها دالة على المنع من التمسك بها، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان متروكًا.

المسألة الثانية: دلت هذه الآية على أن كل من كان ظانًّا في مسائل الأصول، وما كان قاطعًا، فإنه لا يكون مؤمنًا.

فإن قيل: فقول أهل السنة أنا مؤمن إن شاء الله يمنع من القطع فوجب أن يلزمهم الكفر.

قلنا: هذا ضعيف من وجوه: الأول: مذهب الشافعي رحمه الله: أن الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل، والشك حاصل في أن هذه الأعمال هل هي موافقة لأمر الله تعالى؟ والشك في أحد أجزاء الماهية لا يوجب الشك في تمام الماهية. الثاني: أن الغرض من قوله: إن شاء الله بقاء الإيمان عند الخاتمة. الثالث: الغرض منه هضم النفس وكسرها، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنا حين شرعنا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [يونس: ٢٠] ذكرنا أن القوم إنما ذكروا ذلك لاعتقادهم أن القرآن ليس بمعجز، وأن

محمدًا إنما يأتي به من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق، ثم إنه تعالى ذكر الجوابات الكثيرة عن هذا الكلام، وامتدت تلك البيانات على الترتيب الذي شرحناه وفصلناه إلى هذا الموضع، ثم إنه تعالى بين في هذا المقام أن إتيان محمد عليه السلام بهذا القرآن ليس على سبيل الافتراء على الله تعالى، ولكنه وحي نازل عليه من عند الله، ثم إنه تعالى احتج على صحة هذا الكلام بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ وذلك يدل على أنه معجز نازل عليه من عند الله تعالى، وأنه مبرأ عن الافتراء والافتعال فهذا هو الترتيب الصحيح في نظم هذه الآيات.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ﴾.

فيه وجهان:

الأول: أن قوله: ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ في تقدير المصدر، والمعنى: وما كان هذا القرآن افتراء من دون الله، كما تقول: ما كان هذا الكلام إلا كذبًا.

والثاني: أن يقال إن كلمة ﴿أَنْ﴾ جاءت ههنا بمعنى اللام، والتقدير: ما كان هذا القرآن ليفترى من دون الله، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] أي لم يكن ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك، فكذلك ما ينبغي لهذا القرآن أن يفترى، أي ليس وصفه وصف شيء يمكن أن يفترى به على الله، لأن المفترى هو الذي يأتي به البشر، والقرآن معجز لا يقدر عليه البشر، والافتراء: افتعال من فريت الأديم إذا قدرته للقطع، ثم استعمل في الكذب كما استعمل قولهم: اختلق فلان هذا الحديث في الكذب، فصار حاصل هذا الكلام أن هذا القرآن لا يقدر عليه أحد إلا الله عز وجل، ثم إنه تعالى احتج على هذه الدعوى بأمور:

الحجة الأولى: قوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وتقرير هذه الحجة من وجوه: أحدها: أن محمدًا عليه السلام كان رجلاً أميًّا ما سافر إلى بلدة لأجل التعلم، وما كانت مكة بلدة العلماء، وما كان فيها شيء من كتب العلم، ثم إنه عليه السلام أتى بهذا القرآن، فكان هذا القرآن مشتملاً على أقاصيص الأولين، والقوم كانوا في غاية العداوة له، فلو لم تكن هذه الأقاصيص موافقة لما في التوراة والإنجيل لقدحوا فيه ولبالغوا في الطعن فيه، ولقالوا له: إنك جئت بهذه الأقاصيص لا كما ينبغي، فلما لم يقل أحد ذلك مع شدة حرصهم على الطعن فيه، وعلى تقبيح صورته، علمنا أنه أتى بتلك الأقاصيص مطابقة لما في التوراة والإنجيل، مع أنه ما طالعهما ولا تلمذ لأحد فيهما، وذلك يدل على أنه عليه السلام إنما أخبر عن هذه الأشياء بوحي من قبل الله تعالى.

الحجة الثانية: أن كتب الله المنزلة دلت على مقدم محمد عليه السلام، على ما استقصينا في تقريره في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] وإذا كان الأمر كذلك كان مجيء محمد عليه السلام تصديقًا لما في تلك الكتب، من البشارة بمجيئه ﷺ، فكان هذا عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

الحجة الثالثة: أنه عليه السلام أخبر في القرآن عن الغيوب الكثيرة في المستقبل، ووقعت مطابقة لذلك الخبر، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] الآية، وكقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] وكقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥] وذلك يدل على أن الإخبار عن هذه الغيوب المستقبلة، إنما حصل بالوحي من الله تعالى، فكان ذلك عبارة عن تصديق الذي بين يديه، فالوجهان الأولان: إخبار عن الغيوب الماضية، والوجه الثالث: إخبار عن الغيوب المستقبلة، ومجموعها عبارة عن تصديق الذي بين يديه.

النوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١١١].

واعلم أن الناس اختلفوا في أن القرآن معجز من أي الوجوه؟ فقال بعضهم: إنه معجز لاشتماله على الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلة، وهذا هو المراد من قوله: ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ومنهم من قال: إنه معجز لاشتماله على العلوم الكثيرة، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يوسف: ١١١] وتحقيق الكلام في هذا الباب أن العلوم إما أن تكون دينية أو ليست دينية، ولا شك أن القسم الأول أرفع حالاً وأعظم شأنًا وأكمل درجة من القسم الثاني. وأما العلوم الدينية، فإما أن تكون علم العقائد والأديان، وإما أن تكون علم الأعمال. أما علم العقائد والأديان فهو عبارة عن معرفة الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. أما معرفة الله تعالى، فهي عبارة عن معرفة ذاته ومعرفة صفات جلاله، ومعرفة صفات إكرامه، ومعرفة أفعاله، ومعرفة أحكامه، ومعرفة أسمائه والقرآن مشتمل على دلائل هذه المسائل وتفاريعها وتفاصيلها على وجه لا يساويه شيء من الكتب، بل لا يقرب منه شيء من المصنفات. وأما علم الأعمال فهو إما أن يكون عبارة عن علم التكاليف المتعلقة بالظواهر وهو علم الفقه. ومعلوم أن جميع الفقهاء إنما استنبطوا مباحثهم من القرآن، وإما أن يكون علمًا بتصفية الباطن أو رياضة القلوب. وقد حصل في القرآن من مباحث هذا العلم ما لا يكاد يوجد في غيره، كقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] فثبت أن القرآن مشتمل على تفاصيل جميع العلوم الشريفة، عَقْلِيِّها ونَقْلِيِّها، اشتمالاً يمتنع حصوله في سائر الكتب فكان ذلك معجزًا، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

أما قوله: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فتقريره: أن الكتاب الطويل المشتمل على هذه العلوم الكثيرة لا بد وأن يشتمل على نوع من أنواع التناقض، وحيث خلي هذا الكتاب عنه، علمنا أنه من عند الله وبوحيه وتنزيله، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

واعلم أنه تعالى لما ذكر في أول هذه الآية أن هذا القرآن لا يليق بحاله وصفته أن يكون كلامًا مفترى على الله تعالى، وأقام عليه هذين النوعين من الدلائل المذكورة، عاد مرة أخرى بلفظ الاستفهام على سبيل الإنكار، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ ثم إنه تعالى ذكر حجة أخرى على إبطال هذا القول، فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه الحجة بالغنا في تقريرها في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وههنا سؤالات:

السؤال الأول: لم قال في سورة البقرة: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وقال ههنا: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾.

والجواب: أن محمدًا عليه السلام كان رجلاً أميًا، لم يتتلمذ لأحد ولم يطالع كتابًا فقال في سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] يعني فليأت إنسان يساوي محمدًا عليه السلام في عدم التتلمذ وعدم مطالعة الكتب وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة، وحيث ظهر العجز ظهر المعجز. فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد عليه السلام في عدم التتلمذ والتعلم معجز، ثم إنه تعالى بين في هذه السورة أن تلك السورة في نفسها معجزة، فإن الخلق وإن تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكروا، فإنه لا يمكنهم الإتيان بمعارضة سورة واحدة من هذه السور، فلا جرم قال تعالى في هذه الآية: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ ولا شك أن هذا ترتيب عجيب في باب التحدي وإظهار المعجز.

السؤال الثاني: قوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ هل يتناول جميع السور الصغار والكبار، أو يختص بالسور الكبار.

الجواب: هذه الآية في سورة يونس وهي مكية، فالمراد مثل هذه السورة، لأنها أقرب ما يمكن أن يشار إليه.

السؤال الثالث: أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية على أن القرآن مخلوق، قالوا: إنه عليه السلام تحدى العرب بالقرآن، والمراد من التحدي: أنه طلب منهم الإتيان بمثله، فإذا عجزوا عنه ظهر كونه حجة من عند الله على صدقه، وهذا إنما يمكن لو كان الإتيان بمثله صحيح الوجود في الجملة ولو كان قديمًا لكان الإتيان بمثل القديم محالاً في نفس الأمر، فوجب أن لا يصح التحدي. والجواب: أن القرآن اسم يقال بالاشتراك على الصفة القديمة القائمة بذات الله تعالى، وعلى هذه الحروف والأصوات، ولا نزاع في أن الكلمات المركبة من هذه الحروف والأصوات محدثة مخلوقة، والتحدي إنما وقع بها لا بالصفة القديمة.

أما قوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فالمراد منه: تعليم أنه كيف يمكن

الإتيان بهذه المعارضة لو كانوا قادرين عليها، وتقريره أن الجماعة إذا تعاونت وتعاضدت صارت تلك العقول الكثيرة كالعقل الواحد، فإذا توجهوا نحو شيء واحد، قدر مجموعهم على ما يعجز كل واحد منهم، فكأنه تعالى يقول: هب أن عقل الواحد والاثنين منكم لا يفي باستخراج معارضة القرآن فاجتمعوا وليعن بعضكم بعضًا في هذه المعارضة، فإذا عرفتم عجزكم حالة الاجتماع وحالة الانفراد عن هذه المعارضة، فحينئذ يظهر أن تعذر هذه المعارضة إنما كان لأن قدرة البشر غير وافية بها، فحينئذ يظهر أن ذلك فعل الله لا فعل البشر.

واعلم أنه قد ظهر بهذا الذي قررناه أن مراتب تحدي رسول الله ﷺ بالقرآن ستة: فأولها: أنه تحداهم بكل القرآن كما قال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] وثانيها: أنه عليه السلام تحداهم بعشر سور قال تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣] وثالثها: أنه تحداهم بسورة واحدة كما قال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] ورابعها: أنه تحداهم بحديث مثله فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] وخامسها: أن في تلك المراتب الأربعة، كان يطلب منهم أن يأتي بالمعارضة رجل يساوي رسول الله ﷺ في عدم التتلمذ والتعلم، ثم في سورة يونس طلب منهم معارضة سورة واحدة من أي إنسان سواء تعلم العلوم أو لم يتعلمها. وسادسها: أن في المراتب المتقدمة تحدى كل واحد من الخلق، وفي هذه المرتبة تحدى جميعهم، وجوز أن يستعين البعض بالبعض في الإتيان بهذه المعارضة، كما قال: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وههنا آخر المراتب، فهذا مجموع الدلائل التي ذكرها الله تعالى في إثبات أن القرآن معجز، ثم إنه تعالى ذكر السبب الذي لأجله كذبوا القرآن فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ واعلم أن هذا الكلام يحتمل وجوهًا:

الوجه الأول: أنهم كلما سمعوا شيئًا من القصص قالوا: ليس في هذا الكتاب إلا أساطير الأولين ولم يعرفوا أن المقصود منها ليس هو نفس الحكاية بل أمور أخرى مغايرة لها: فأولها: بيان قدرة الله تعالى على التصرف في هذا العالم، ونقل أهله من العز إلى الذل ومن الذل إلى العز وذلك يدل على قدرة كاملة. وثانيها: أنها تدل على العبرة من حيث إن الإنسان يعرف بها أن الدنيا لا تبقى، فنهاية كل متحرك سكون، وغاية كل متكون أن لا يكون، فيرفع قلبه عن حب الدنيا وتقوى رغبته في طلب الآخرة، كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١] وثالثها: أنه ﷺ لما ذكر قصص الأولين من غير تحريف ولا تغيير مع أنه لم يتعلم ولم يتلمذ، دل ذلك على أنه بوحي من الله تعالى، كما قال في سورة الشعراء بعد أن ذكر القصص ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤]

والوجه الثاني: أنهم كلما سمعوا حروف التهجي في أوائل السور ولم يفهموا منها شيئًا ساء

ظنهم بالقرآن. وقد أجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧].

والوجه الثالث: أنهم رأوا أن القرآن يظهر شيئًا فشيئًا، فصار ذلك سببًا للطعن الرديء فقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢] وقد شرحنا هذا الجواب في سورة الفرقان.

والوجه الرابع: أن القرآن مملوء من إثبات الحشر والنشر، والقوم كانوا قد ألفوا المحسوسات فاستبعدوا حصول الحياة بعد الموت، ولم يتقرر ذلك في قلوبهم، فظنوا أن محمدًا عليه السلام إنما يذكر ذلك على سبيل الكذب، والله تعالى بيَّن صحة القول بالمعاد بالدلائل القاهرة الكثيرة.

الوجه الخامس: أن القرآن مملوء من الأمر بالصلاة والزكاة وسائر العبادات، والقوم كانوا يقولون: إله العالمين غني عنا وعن طاعتنا، وإنه تعالى أجل من أن يأمر بشيء لا فائدة فيه، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] وبقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧] وبالجملة فشبهات الكفار كثيرة، فهم لما رأوا القرآن مشتملاً على أمور ما عرفوا حقيقتها ولم يطلعوا على وجه الحكمة فيها لا جرم كذبوا بالقرآن، والحاصل أن القوم ما كانوا يعرفون أسرار الإلهيات، وكانوا يجرون الأمور على الأحوال المألوفة في عالم المحسوسات وما كانوا يطلبون حكمها ولا وجوه تأويلاتها، فلا جرم وقعوا في التكذيب والجهل، فقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ إشارة إلى عدم علمهم بهذه الأشياء، وقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ إشارة إلى عدم جدهم واجتهادهم في طلب تلك الأسرار.

ثم قال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمراد أنهم طلبوا الدنيا وتركوا الآخرة، فلما ماتوا فاتتهم الدنيا والآخرة فبقوا في الخسار العظيم، ومن الناس من قال المراد منه عذاب الاستئصال وهو الذي نزل بالأمم الذين كذبوا الرسل من ضروب العذاب في الدنيا، قال أهل التحقيق قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع في الكفر والبدعة، لأن ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة، فإذا لم يعرف الإنسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق، أما إذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل فيصير ذلك نورًا على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وكان

المراد منه تسليط العذاب عليهم في الدنيا، أتبعه بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ منبهًا على أن الصلاح عنده تعالى كان في هذه الطائفة التبقية دون الاستئصال، من حيث كان المعلوم أن منهم من يؤمن به، والأقرب أن يكون الضمير في قوله: ﴿بِهِۦ﴾ راجعًا إلى القرآن، لأنه هو المذكور من قبل، ثم يعلم أنه متى حصل الإيمان بالقرآن، فقد حصل معه الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام أيضًا. واختلفوا في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ لأن كلمة يؤمن فعل مستقبل وهو يصلح للحال والاستقبال، فمنهم من حمله على الحال، وقال: المراد أن منهم من يؤمن بالقرآن باطنًا، لكنه يتعمد الجحد وإظهار التكذيب، ومنهم من باطنه كظاهره في التكذيب، ويدخل فيه أصحاب الشبهات، وأصحاب التقليد، ومنهم من قال: المراد هو المستقبل، يعني أن منهم من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الفكر ويبدله بالإيمان ومنهم من يصر ويستمر على الكفر.

ثم قال: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي هو العالم بأحوالهم في أنه هل يبقى مصرًا على الكفر أو يرجع عنه.

ثم قال: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ قيل فقل: لي عملي الطاعة والإيمان، ولكم عملكم الشرك، وقيل: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم.

ثم قال: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ قيل معنى الآية الزجر والردع، وقيل بل معناه استمالة قلوبهم. قال مقاتل والكلبي: هذه الآية منسوخة بآية السيف وهذا بعيد، لأن شرط الناسخ أن يكون رافعًا لحكم المنسوخ، ومدلول هذه الآية اختصاص كل واحد بأفعاله وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب، وذلك لا يقتضي حرمة القتال، فآية القتال ما رفعت شيئًا من مدلولات هذه الآية فكان القول بالنسخ باطلاً.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى في الآية الأولى، قسم الكفار إلى قسمين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به، وفي هذه الآية قَسَّم من لا يؤمن به قسمين: منهم من يكون في غاية البغض له والعداوة له ونهاية النفرة عن قبول دينه، ومنهم من لا يكون كذلك، فوصف القسم الأول في هذه الآية فقال: ومنهم من يستمع كلامك مع أنه يكون كالأصم من حيث إنه لا ينتفع ألبتة بذلك الكلام، فإن الإنسان إذا قوي بغضه لإنسان آخر، وعظمت نفرته عنه، صارت نفسه

متوجهة إلى طلب مقابح كلامه معرضة عن جميع جهات محاسن كلامه، فالصمم في الأذن، معنى ينافي حصول إدراك الصوت فكذلك حصول هذا البغض الشديد كالمنافي للوقوف على محاسن ذلك الكلام والعمى في العين معنى ينافي حصول إدراك الصورة، فكذلك البغض ينافي وقوف الإنسان على محاسن من يعاديه والوقوف على ما آتاه الله تعالى من الفضائل، فبيَّن تعالى أن في أولئك الكفار من بلغت حالته في البغض والعداوة إلى هذا الحد، ثم كما أنه لا يمكن جعل الأصم سميعًا ولا جعل الأعمى بصيرًا، فكذلك لا يمكن جعل العدو البالغ في العداوة إلى هذا الحد صديقًا تابعًا للرسول ﷺ والمقصود من هذا الكلام تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام بأن هذه الطائفة، قد بلغوا في مرض العقل إلى حيث لا يقبلون العلاج، والطبيب إذا رأى مريضًا لا يقبل العلاج أعرض عنه، ولم يستوحش من عدم قبوله للعلاج، فكذلك وجب عليك أن لا تستوحش من حال هؤلاء الكفار.

المسألة الثانية: احتج ابن قتيبة بهذه الآية، على أن السمع أفضل من البصر فقال: إن الله تعالى قرن بذهاب السمع ذهاب العقل، ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر. وزيف ابن الأنباري هذا الدليل فقال: إن الذي نفاه الله مع السمع بمنزلة الذي نفاه الله مع البصر لأنه تعالى أراد إبصار القلوب، ولم يرد إبصار العيون والذي يبصره القلب هو الذي يعقله. واحتج ابن قتيبة على هذا المطلوب بحجة أخرى من القرآن، فقال: كلما ذكر الله السمع والبصر، فإنه في الأغلب يقدم السمع على البصر، وذلك يدل على أن السمع أفضل من البصر ومن الناس من ذكر في هذا الباب دلائل أخرى: فأحدها: أن العمى قد وقع في حق الأنبياء عليهم السلام أما الصمم فغير جائز عليهم لأنه يخل بأداء الرسالة، من حيث إنه إذا لم يسمع كلام السائلين تعذر عليه الجواب فيعجز عن تبليغ شرائع الله تعالى.

الحجة الثانية: أن القوة السامعة تدرك المسموع من جميع الجوانب، والقوة الباصرة لا تدرك المرئي إلا من جهة واحدة وهي المقابل.

الحجة الثالثة: أن الإنسان إنما يستفيد العلم بالتعلم من الأستاذ، وذلك لا يمكن إلا بقوة السمع، فاستكمال النفس بالكمالات العلمية لا يحصل إلا بقوة السمع، ولا يتوقف على قوة البصر، فكان السمع أفضل من البصر.

الحجة الرابعة: أنه تعالى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] والمراد من القلب ههنا العقل، فجعل السمع قرينًا للعقل ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فجعلوا السمع سببًا للخلاص من عذاب السعير.

الحجة الخامسة: أن المعنى الذي يمتاز به الإنسان من سائر الحيوانات هو النطق والكلام وإنما

ينتفع بذلك القوة السامعة، فمتعلق السمع النطق الذي به حصل شرف الإنسان، ومتعلق البصر إدراك الألوان والأشكال، وذلك أمر مشترك فيه بين الناس وبين سائر الحيوانات، فوجب أن يكون السمع أفضل من البصر.

الحجة السادسة: أن الأنبياء عليهم السلام يراهم الناس ويسمعون كلامهم، فنبوتهم ما حصلت بسبب ما معهم من الصفات المرئية، وإنما حصلت بسبب ما معهم من الأصوات المسموعة وهو الكلام وتبليغ الشرائع وبيان الأحكام، فوجب أن يكون المسموع أفضل من المرئي، فلزم أن يكون السمع أفضل من البصر، فهذا جملة ما تمسك به القائلون بأن السمع أفضل من البصر، ومن الناس من قال: البصر أفضل من السمع، ويدل عليه وجوه:

الحجة الأولى: أنهم قالوا في المثل المشهور ليس وراء العيان بيان، وذلك يدل على أن أكمل وجوه الإدراكات هو الإبصار.

الحجة الثانية: أن آلة القوة الباصرة هو النور وآلة القوة السامعة هي الهواء والنور أشرف من الهواء فالقوة الباصرة أشرف من القوة السامعة.

الحجة الثالثة: أن عجائب حكمة الله تعالى في تخليق العين التي هي محل الإبصار أكثر من عجائب خلقته في الأذن التي هي محل السماع، فإنه تعالى جعل تمام روح واحد من الأرواح السبعة الدماغية من العصب آلة للإبصار، وركب العين من سبع طبقات وثلاث رطوبات وخلق لتحريكات العين عضلات كثيرة على صور مختلفة، والأذن ليس كذلك وكثرة العناية في تخليق الشيء تدل على كونه أفضل من غيره.

الحجة الرابعة: أن البصر يرى ماحصل فوق سبع سموات والسمع لا يدرك ما بعد منه على فرسخ، فكان البصر أقوى وأفضل، وبهذا البيان يدفع قولهم: إن السمع يدرك من كل الجوانب والبصر لا يدرك إلا من الجانب الواحد.

الحجة الخامسة: أن كثيرًا من الأنبياء سمع كلام الله في الدنيا، واختلفوا في أنه هل رآه أحد في الدنيا أم لا؟ وأيضًا فإن موسى عليه السلام سمع كلامه من غير سبق سؤال والتماس ولما سأل الرؤية قال: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣] وذلك يدل على أن حال الرؤية أعلى من حال السماع.

الحجة السادسة: قال ابن الأنباري: كيف يكون السمع أفضل من البصر، وبالبصر يحصل جمال الوجه، وبذهابه عيبه، وذهاب السمع لا يورث الإنسان عيبًا، العرب تسمي العينين الكريمتين ولا تصف السمع بمثل هذا؟ ومنه الحديث يقول الله تعالى: «**مَنْ أَذْهَبْتُ كَرِيمَتَهُ فَصَبَرَ وَاحْتَسَبَ لَمْ أَرْضَ لَهُ ثَوَابًا دُونَ الْجَنَّةِ**». **المسألة الثالثة:** احتج أصحابنا بهذه الآية، على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، قالوا: الآية دالة على أن قلوب أولئك الكفار بالنسبة إلى الإيمان كالأصم بالنسبة إلى استماع الكلام، وكالأعمى بالنسبة إلى إبصار الأشياء، وكما أن هذا ممتنع فكذلك ما نحن فيه. قالوا: والذي يقوي ذلك أن حصول العداوة القوية الشديدة، وكذلك

حصول المحبة الشديدة في القلب ليس باختيار الإنسان، لأن عند حصول هذه العداوة الشديدة يجد وجدانًا ضروريًا أن القلب يصير كالأصم والأعمى في استماع كلام العدو وفي مطالعة أفعاله الحسنة، وإذا كان الأمر كذلك فقد حصل المطلوب، وأيضًا لما حكم الله تعالى عليها حكمًا جازمًا بعدم الإيمان، فحينئذ يلزم من حصول الإيمان انقلاب علمه جهلاً وخبره الصدق كذبًا وذلك محال. وأما المعتزلة: فقد احتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وجه الاستدلال به، أنه يدل على أنه تعالى ما ألجأ أحدًا إلى هذه القبائح والمنكرات، ولكنهم باختيار أنفسهم يُقْدِمون عليها ويباشرونها.

أجاب الواحدي عنه فقال: إنه تعالى إنما نفى الظلم عن نفسه، لأنه يتصرف في ملك نفسه، ومن كان كذلك لم يكن ظالمًا، وإنما قال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصف هؤلاء الكفار بقلة الإصغاء وترك التدبر أتبعه بالوعيد فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حفص عن عاصم ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء والباقون بالنون.

المسألة الثانية: قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في موضع الحال، أي مشابهين من لم يلبث إلا ساعة من النهار. وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ يجوز أن يكون متعلقًا بيوم نحشرهم، ويجوز أن يكون حالاً بعد حال.

المسألة الثالثة: ﴿كَأَن﴾ هذه هي المخففة من الثقيلة. التقدير: كأنهم لم يلبثوا، فخففت كقوله: وكأن قد.

المسألة الرابعة: قيل: كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار وقيل في قبورهم، والقرآن وارد بهذين الوجهين قال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[المؤمنون: ١١٢-١١٣] قال القاضي: والوجه الأول أولى لوجهين:

أحدهما: أن حال المؤمنين كحال الكافرين في أنهم لا يعرفون مقدار لبثهم بعد الموت إلى وقت الحشر، فيجب أن يحمل ذلك على أمر يختص بالكفار، وهو أنهم لما لم ينتفعوا بعمرهم استقلوه، والمؤمن لما انتفع بعمره فإنه لا يستقله.

الثاني: أنه قال: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ لأن التعارف إنما يضاف إلى حال الحياة لا إلى حال الممات.

المسألة الخامسة: ذكروا في سبب هذا الاستقلال وجوهًا:

الأول: قال أبو مسلم: لما ضيعوا أعمارهم في طلب الدنيا والحرص على لذاتها لم ينتفعوا بعمرهم ألبتة، فكان وجود ذلك العمر كالعدم، فلهذا السبب استقلوه، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦].

الثاني: قال الأصم: قل ذلك عندهم لما شاهدوا من أهوال الآخرة، والإنسان إذا عظم خوفه نسي الأمور الظاهرة.

الثالث: أنه قل عندهم مقامهم في الدنيا في جنب مقامهم في الآخرة وفي العذاب المؤبد.

الرابع: أنه قل عندهم مقامهم في الدنيا لطول وقوفهم في الحشر.

الخامس: المراد أنهم عند خروجهم من القبور يتعارفون كما كانوا يتعارفون في الدنيا، وكأنهم لم يتعارفوا بسبب الموت إلا مدة قليلة لا تؤثر في ذلك التعارف. وأقول: تحقيق الكلام في هذا الباب، أن عذاب الكافر مضرة خالصة دائمة مقرونة بالإهانة والإذلال، والإحساس بالمضرة أقوى من الإحساس باللذة بدليل أن أقوى اللذات هي لذات الوقاع، والشعور بأم القولنج وغيره والعياذ بالله تعالى أقوى من الشعور بلذة الوقاع. وأيضًا لذات الدنيا مع خساستها ما كانت خالصة، بل كانت مخلوطة بالهمومات الكثيرة، وكانت تلك اللذات مغلوبة بالمؤلمات والآفات، وأيضًا إن لذات الدنيا ما حَصّلَتْ إلا بعضَ أوقاتِ الحياة الدنيوية، وآلام الآخرة أبدية سرمدية لا تنقطع ألبتة ونسبة عمر جميع الدنيا إلى الآخرة الأبدية أقل من الجزء الذي لا يتجزأ بالنسبة إلى ألف ألف عالم مثل العالم الموجود.

إذا عرفت هذا فنقول: أنه متى قوبلت الخيرات الحاصلة بسبب الحياة العاجلة بالآفات الحاصلة للكافر وجدت أقل من اللذة بالنسبة إلى جميع العالم فقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ إشارة إلى ما ذكرناه من قلتها وحقارتها في جنب ما حصل من العذاب الشديد.

أما قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾

ففيه وجوه:

الأول: يعرف بعضهم بعضًا كما كانوا يعرفون في الدنيا.

الثاني: يعرف بعضهم بعضًا بما كانوا عليه من الخطأ والكفر، ثم تنقطع المعرفة إذا عاينوا العذاب وتبرأ بعضهم من بعض.

فإن قيل: كيف توافق هذه الآية قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] والجواب عنه من وجهين:

الوجه الأول: أن المراد من هذه الآية أنهم يتعارفون بينهم يوبخ بعضهم بعضًا، فيقول: كل

فريق للآخر: أنت أضللتني يوم كذا وزينت لي الفعل الفلاني من القبائح، فهذا تعارف تقبيح وتعنيف وتباعد وتقاطع لا تعارف عطف وشفقة. وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] فالمراد سؤال الرحمة والعطف.

والوجه الثاني: في الجواب حمل هاتين الآيتين على حالتين، وهو أنهم يتعارفون إذا بعثوا ثم تنقطع المعرفة فلذلك لا يسأل حميم حميمًا.

أما قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

ففيه وجهان:

الأول: أن يكون التقدير: ويوم يحشرهم حال كونهم متعارفين، وحال كونهم قائلين ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾.

الثاني: أن يكون ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟﴾ كلام الله، فيكون هذا شهادة من الله عليهم بالخسران، والمعنى: أن من باع آخرته بالدنيا فقد خسر، لأنه أعطى الكثير الشريف الباقي وأخذ القليل الخسيس الفاني.

وأما قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ فالمراد أنهم ما اهتدوا إلى رعاية مصالح هذه التجارة، وذلك لأنهم اغتروا بالظاهر وغفلوا عن الحقيقة، فصاروا كمن رأى زجاجة حسنة فظنها جوهرة شريفة فاشتراها بكل ما ملكه، فإذا عرضها على الناقدين خاب سعيه وفات أمله ووقع في حرقة الروع وعذاب القلب. وأما قوله: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فاعلم أن قوله ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وجواب ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف، والتقدير: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نرينك ذلك الموعد فإنك ستراه في الآخرة.

واعلم أن هذا يدل على أنه تعالى يُري رسوله أنواعًا من ذل الكافرين وخزيهم في الدنيا، وسيزيد عليه بعد وفاته، ولا شك أنه حصل الكثير منه في زمان حياة رسول الله ﷺ، وحصل الكثير أيضًا بعد وفاته، والذي سيحصل يوم القيامة أكثر، وهو تنبيه على أن عاقبة المحقين محمودة وعاقبة المذنبين مذمومة.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٤٧﴾

اعلم أنه تعالى لما بيَّن حال محمد ﷺ مع قومه، بين أن حال كل الأنبياء مع أقوامهم كذلك.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: هذه الآية تدل على أن كل جماعة ممن تقدم قد بعث الله إليهم رسولاً والله تعالى ما أهمل أمة من الأمم قط، ويتأكد هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

فإن قيل: كيف يصح هذا مع ما يعلمه من أحوال الفترة ومع قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦].

قلنا: الدليل الذي ذكرناه لا يوجب أن يكون الرسول حاضرًا مع القوم، لأن تقدم الرسول لا يمنع من كونه رسولاً إليهم، كما لا يمنع تقدم رسولنا من كونه مبعوثًا إلينا إلى آخر الأبد. وتحمل الفترة على ضعف دعوة الأنبياء ووقوع موجبات التخليط فيها.

المسألة الثانية: في الكلام إضمار، والتقدير: فإذا جاء رسولهم وبلّغ فكذبه قوم وصدقه آخرون قضى بينهم أي حكم وفصل.

المسألة الثالثة: المراد من الآية أحد أمرين: إما بيان أن الرسول إذا بعث إلى كل أمة فإنه بالتبليغ وإقامة الحجة يزيح كل علة فلا يبقى لهم عذر في مخالفته أو تكذيبه، فيدل ذلك على أن ما يجري عليهم من العذاب في الآخرة يكون عدلاً ولا يكون ظلمًا، لأنهم من قبل أنفسهم وقعوا في ذلك العقاب، أو يكون المراد أن القوم إذا اجتمعوا في الآخرة جمع الله بينهم وبين رسولهم في وقت المحاسبة، وبأن الفصل بين المطيع والعاصي ليشهد عليهم بما شاهد منهم، وليقع منهم الاعتراف بأنه بلّغ رسالات ربه فيكون ذلك من جملة ما يؤكد الله به الزجر في الدنيا كالمساءلة، وإنطاق الجوارح، والشهادة عليهم بأعمالهم والموازين وغيرها، وتمام التقرير على هذا الوجه الثاني أنه تعالى ذكر في الآية الأولى أن الله شهيد عليهم، فكأنه تعالى يقول: أنا شهيد عليهم وعلى أعمالهم يوم القيامة، ومع ذلك فإني أحضر في موقف القيامة مع كل قوم رسولهم، حتى يشهد عليهم بتلك الأعمال. والمراد منه المبالغة في إظهار العدل.

واعلم أن دليل القول الأول هو قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤] ودليل القول الثاني قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فالتكرير لأجل التأكيد والمبالغة في نفي الظلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

اعلم أن هذه الشبهة الخامسة من شبهات منكري النبوة فإنه عليه السلام كلما هددهم بنزول العذاب ومر زمان ولم يظهر ذلك العذاب، قالوا متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، واحتجوا بعدم ظهوره على القدح في نبوته عليه السلام.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ كالدليل على أن المراد مما تقدم من قوله: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾[يونس: ٤٧] القضاء بذلك في الدنيا، لأنه لا يجوز أن يقولوا متى هذا الوعد عند حضورهم في الدار الآخرة، لأن الحال في الآخرة حال يقين ومعرفة لحصول كل وعد ووعيد والأظهر أنهم إنما قالوا ذلك على وجه التكذيب للرسول عليه السلام فيما أخبرهم من نزول العذاب للأعداء والنصرة للأولياء أو على وجه الاستبعاد لكونه محقًّا في ذلك الإخبار، ويدل هذا القول على أن كل أمة قالت لرسولها مثل ذلك القول بدليل قوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وذلك لفظ جمع وهو موافق لقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾[يونس: ٤٧] ثم إنه تعالى أمره بأن يجيب عن هذه الشبهة بجواب يحسم المادة وهو قوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ والمراد أن إنزال العذاب على الأعداء وإظهار النصرة للأولياء لا يقدر عليه أحد إلا الله سبحانه، وأنه تعالى ما عين لذلك الوعد والوعيد وقتًا معينًا حتى يقال: لما لم يحصل ذلك الموعود في ذلك الوقت، دل على حصول الخلف فكان تعيين الوقت مفوضًا إلى الله سبحانه، إما بحسب مشيئته وإلهيته عند من لا يعلل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح، وإما بحسب المصلحة المقدرة عند من يعلل أفعاله وأحكامه برعاية المصالح، ثم إذا حضر الوقت الذي وقته الله تعالى لحدوث ذلك الحادث فإنه لا بد وأن يحدث فيه، ويمتنع عليه التقدم والتأخر.

المسألة الثانية: المعتزلة احتجوا بقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فقالوا: هذا الاستثناء يدل على أن العبد لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا إلا الطاعة والمعصية، فهذا الاستثناء يدل على كون العبد مستقلًّا بهما.

والجواب: قال أصحابنا: هذا الاستثناء منقطع، والتقدير: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن.

المسألة الثالثة: قرأ ابن سيرين (فإذا جاء أجلهم)

المسألة الرابعة: قوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يدل على أن أحدًا لا يموت إلا بانقضاء أجله، وكذلك المقتول لا يقتل إلا على هذا الوجه، وهذه مسألة طويلة وقد ذكرناها في هذا الكتاب في مواضع كثيرة.

المسألة الخامسة: أنه تعالى قال ههنا: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فقوله: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ شرط وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ جزاء والفاء حرف الجزاء، فوجب إدخاله على الجزاء كما في هذه الآية، وهذه الآية تدل على أن الجزاء يحصل مع حصول الشرط لا متأخرًا عنه وأن حرف الفاء لا يدل على التراخي وإنما يدل على كونه جزاء.

إذا ثبت هذا فنقول: إذا قال الرجل لامرأة أجنبية إن نكحتك فأنت طالق قال الشافعي رضي الله عنه: لا يصح هذا التعليق، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: يصح، والدليل على أنه لا يصح أن هذه الآية دلت على أن الجزاء إنما يحصل حال حصول الشرط، فلو صح هذا التعليق لوجب أن

يحصل الطلاق مقارنًا للنكاح، لما ثبت أن الجزاء يجب حصوله مع حصول الشرط، وذلك يوجب الجمع بين الضدين، ولما كان هذا اللازم باطلاً وجب أن لا يصح هذا التعليق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن قولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[يونس: ٤٨].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: حاصل الجواب أن يقال لأولئك الكفار الذين يطلبون نزول العذاب بتقدير أن يحصل هذا المطلوب وينزل هذا العذاب ما الفائدة لكم فيه؟ فإن قلتم نؤمن عنده، فذلك باطل، لأن الإيمان في ذلك الوقت إيمان حاصل في وقت الإلجاء والقسر، وذلك لا يفيد نفعًا ألبتة، فثبت أن هذا الذي تطلبونه لو حصل لم يحصل منه إلا العذاب في الدنيا، ثم يحصل عقيبه يوم القيامة عذاب آخر أشد منه، وهو أنه يقال للذين ظلموا: ذوقوا عذاب الخلد، ثم يقرن بذلك العذاب كلام يدل على الإهانة والتحقير وهو أنه تعالى يقول: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ فحاصل هذا الجواب: أن هذا الذي تطلبونه هو محض الضرر العاري عن جهات النفع والعاقل لا يفعل ذلك.

المسألة الثانية: قوله: ﴿بَيَٰتًا﴾ أي ليلاً يقال: بت ليلتي أفعل كذا، والسبب فيه أن الإنسان في الليل يكون ظاهرًا في البيت، فجعل هذا اللفظ كناية عن الليل والبيات مصدر مثل التبييت كالوداع والسراح، ويقال في النهار ظللت أفعل كذا، لأن الإنسان في النهار يكون ظاهرًا في الظل. وانتصب ﴿بَيَٰتًا﴾ على الظرف أي وقت بيات وكلمة ﴿مَّاذَآ﴾ فيها وجهان: أحدهما: أن يكون ماذا اسمًا واحدًا ويكون منصوب المحل كما لو قال ماذا أراد الله، ويجوز أن يكون (ذا) بمعنى الذي، فيكون ﴿مَّاذَآ﴾ كلمتين، ومحل ﴿مَا﴾ الرفع على الابتداء، وخبره (ذا) وهو بمعنى الذي، فيكون معناه ما الذي يستعجل منه المجرمون ومعناه، أي شيء الذي يستعجل من العذاب المجرمون.

واعلم أن قوله: ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ شرط.

وجوابه: قوله ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وهو كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني، يعني: إن حصل هذا المطلوب، فأي مقصود تستعجلونه منه.

وأما قوله: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ فاعلم أن دخول حرف الاستفهام على (ثم) كدخوله على الواو والفاء في قوله: ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾[الأعراف: ٩٨] ﴿أَفَأَمِنَ﴾[الأعراف: ٩٧] وهو يفيد التقريع

والتوبيخ، ثم أخبر تعالى أن ذلك الإيمان غير واقع لهم بل يعيرون ويوبخون، يقال: آلآن تؤمنون وترجون الانتفاع بالإيمان مع أنكم كنتم قبل ذلك به تستعجلون على سبيل السخرية والاستهزاء، وقرئ (آلان) بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ فهو عطف عى الفعل المضمر قبل ﴿آلْآنَ﴾ والتقدير: قيل: آلان وقد كنتم به تستعجلون، ثم قيل للذين ظلموا: ذوقوا عذاب الخلد.

وأما قوله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

ففيه ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: أنه تعالى أينما ذكر العقاب والعذاب ذكر هذه العلة كأن سائلاً يسأل ويقول: يا رب العزة أنت الغني عن الكل فكيف يليق برحمتك هذا التشديد والوعيد، فهو تعالى يقول: **«أَنَا مَا عَامَلْتُهُ بِهَذِهِ الْمُعَامَلَةِ ابْتِدَاءً بَلْ هَذَا وَصَلَ إِلَيْهِ جَزَاءً عَلَى عَمَلِهِ الْبَاطِلِ»** وذلك يدل على أن جانب الرحمة راجح غالب، وجانب العذاب مرجوح مغلوب.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أن الجزاء يوجب العمل، أما عند الفلاسفة فهو أثر العمل، لأن العمل الصالح يوجب تنوير القلب، وإشراقه إيجاب العلة معلولها، وأما عند المعتزلة فلأن العمل الصالح يوجب استحقاق الثواب على الله تعالى، وأما عند أهل السنة، فلأن ذلك الجزاء واجب بحكم الوعد المحض.

المسألة الثالثة: الآية تدل على كون العبد مكتسبًا خلافًا للجبرية، وعندنا أن كونه مكتسبًا معناه أن مجموع القدرة مع الداعية الخالصة يوجب الفعل والمسألة طويلة معروفة بدلائلها.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

اعلم أنه سبحانه أخبر عن الكفار بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

وأجاب عنه بما تقدم فحكى عنهم أنهم رجعوا إلى الرسول مرة أخرى في عين هذه الواقعة وسألوه عن ذلك السؤال مرة أخرى وقالوا: أحق هو واعلم أن هذا السؤال جهل محض من وجوه: أولها: أنه قد تقدم هذا السؤال مع الجواب فلا يكون في الإعادة فائدة. وثانيها: أنه تقدم ذكر الدلالة العقلية على كون محمد رسولاً من عند الله، وهو بيان كون القرآن معجزًا، وإذا صحت نبوته لزم القطع بصحة كل ما يخبر عن وقوعه، فهذه المعاني توجب الإعراض عنهم، وترك الالتفات إلى سؤالهم، واختلفوا في الضمير في قوله: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ قيل: أحق ما جئتنا به من القرآن والنبوة والشرائع. وقيل: ما تعدنا من البعث والقيامة. وقيل: ما تعدنا من نزول

العذاب علينا في الدنيا .

ثم إنه تعالى أمره أن يجيبهم بقوله : ﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ .

والفائدة فيه أمور:

أحدها: أن يستميلهم ويتكلم معهم بالكلام المعتاد ومن الظاهر أن من أخبر عن شيء ، وأكده بالقسم فقد أخرجه عن الهزل وأدخله في باب الجد .

وثانيها: أن الناس طبقات فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي ، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي ، بل ينتفع بالأشياء الإقناعية ، نحو القسم فإن الأعرابي الذي جاء الرسول عليه السلام ، وسأل عن نبوته ورسالته اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم ، فكذا ههنا .

ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ ولا بد فيه من تقدير محذوف ، فيكون المراد وما أنتم بمعجزين لمن وعدكم بالعذاب أن ينزله عليكم والغرض منه التنبيه على أن أحدًا لا يجوز أن يمانع ربه ويدافعه عما أراد وقضى ، ثم إنه تعالى بيَّن أن هذا الجنس من الكلمات ، إنما يجوز عليهم ما داموا في الدنيا فأما إذا حضروا محفل القيامة وعاينوا قهر الله تعالى ، وآثار عظمته تركوا ذلك واشتغلوا بأشياء أخرى ، ثم إنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء : أولها : قوله : ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ إلا أن ذلك متعذر لأنه في محفل القيامة لا يملك شيئًا كما قال تعالى : ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] وبتقدير : أن يملك خزائن الأرض لا ينفعه الفداء لقوله تعالى : ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨] وقال في صفة هذا اليوم ﴿لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وثانيها : قوله : ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ .

واعلم أن قوله: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ جاء على لفظ الماضي ، والقيامة من الأمور المستقبلة إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع ، جعل الله مستقبلها كالماضي ، واعلم أن الإسرار هو الإخفاء والإظهار وهو من الأضداد ، أما ورود هذه اللفظة بمعنى الإخفاء فظاهر وأما ورودها بمعنى الإظهار فهو من قولهم سر الشيء وأسره إذا أظهره .

إذا عرفت هذا فنقول: من الناس من قال : المراد منه إخفاء تلك الندامة ، والسبب في هذا الإخفاء وجوه : الأول : أنهم لما رأوا العذاب الشديد صاروا مبهوتين متحيرين ، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخًا سوى إسرار الندم كالحال فيمن يذهب به ليصلب فإنه يبقى مبهوتًا متحيرًا لا ينطق بكلمة . الثاني : أنهم أسروا الندامة من سفلتهم وأتباعهم حياء منهم وخوفًا من توبيخهم .

فإن قيل: إن مهابة ذلك الموقف تمنع الإنسان عن هذا التدبير فكيف قدموا عليه .

قلنا: إن هذا الكتمان إنما يحصل قبل الاحتراق بالنار ، فإذا احترقوا تركوا هذا الإخفاء وأظهروه بدليل قوله تعالى : ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦] الثالث : أنهم أسروا تلك الندامة لأنهم أخلصوا لله في تلك الندامة ، ومن أخلص في الدعاء أسره ، وفيه تهكم بهم

وبإخلاصهم يعني أنهم لما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته ولم ينفعهم، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به في دار الدنيا وقت التكليف، وأما من فسر الإسرار بالإظهار فقوله: ظاهر لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة، وفي القيامة بطل هذا الغرض فوجب الإظهار. وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فقيل: بين المؤمنين والكافرين، وقيل: بين الرؤساء والأتباع، وقيل: بين الكفار بإنزال العقوبة عليهم.

واعلم أن الكفار وإن اشتركوا في العذاب فإنه لا بد وأن يقضي الله تعالى بينهم لأنه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضًا في الدنيا وخانه، فيكون في ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم، وتثقيل لعذاب الباقين، لأن العدل يقتضي أن ينتصف للمظلومين من الظالمين، ولا سبيل إليه إلا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

اعلم أن من الناس من قال: إن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى قال قبل هذه الآية ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ﴾ [يونس: ٥٤] فلا جرم قال في هذه الآية ليس للظالم شيء يفتدى به، فإن كل الأشياء مُلْك الله تعالى وملكه، واعلم أن هذا التوجيه حسن، أما الأحسن أن يقال: إنا قد ذكرنا أن الناس على طبقات، فمنهم من يكون انتفاعه بالإقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات، أما المحققون فإنهم لا يلتفتون إلى الإقناعيات، وإنما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة، فلما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا ﴿أَحَقٌّ هُوَ ۖ﴾ ؟ أمر الرسول عليه السلام بأن يقول: ﴿إِي وَرَبِّيٓ﴾ [يونس: ٥٣] وهذا جار مجرى الإقناعيات، فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع على صحته وتقريره أن القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم وأن كل ما سواه فهو مُلْكه ومِلْكه، فعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية، لأنه تعالى قد استقصى في تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة، وهو قوله: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥] فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها، وذكر أن كل ما في العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو مُلْكه ومِلْكه، ومتى كان الأمر كذلك، كان قادرًا على كل الممكنات، عالمًا بكل المعلومات غنيًا عن جميع الحاجات، منزهًا عن النقائص والآفات، فهو تعالى لكونه قادرًا على جميع الممكنات يكون قادرًا على إنزال العذاب على الأعداء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرًا على إيصال الرحمة إلى الأولياء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرًا على تأييد رسوله عليه السلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة ويكون قادرًا على إعلاء شأن

رسوله وإظهار دينه وتقوية شرعه، ولما كان قادرًا على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب ولما كان منزهًا عن النقائص والآفات، كان منزهًا عن الخلف والكذب وكل ما وعد به فلا بد وأن يقع، هذا إذا قلنا: إنه تعالى لا يراعي مصالح العباد، أما إذا قلنا: إنه تعالى يراعيها فنقول: الكذب إنما يصدر عن العاقل، إما للعجز أو للجهل أو للحاجة، ولما كان الحق سبحانه منزهًا عن الكل كان الكذب عليه محالاً، فلما أخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار، وبحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه، فثبت بهذا البيان أن قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مقدمة توجب الجزم بصحة قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ ثم قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ والمراد أنهم غافلون عن هذه الدلائل، مغرورون بظواهر الأمور، فلا جرم بقوا محرومين عن هذه المعارف، ثم إنه أكد هذه الدلائل فقال: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ والمراد أنه لما قدر على الإحياء في المرة الأولى فإذا أماته وجب أن يبقى قادرًا على إحيائه في المرة الثانية، فظهر بما ذكرنا أنه تعالى أمر رسوله بأن يقول: ﴿إِي وَرَبِّيٓ﴾ [يونس: ٥٣] ثم إنه تعالى أتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة.

واعلم أن في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ دقيقة أخرى وهي كلمة ﴿أَلَآ﴾ وذلك لأن هذه الكلمة إنما تذكر عند تنبيه الغافلين وإيقاظ النائمين وأهل هذا العالم مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة فيقولون: البستان للأمير والدار للوزير والغلام لزيد والجارية لعمرو فيضيفون كل شيء إلى مالك آخر والخلق لكونهم مستغرقين في نوم الجهل ورقدة الغفلة يظنون صحة تلك الإضافات فالحق نادى هؤلاء النائمين الغافلين بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ وذلك لأنه لما ثبت بالعقل أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن لذاته، وثبت أن الممكن مستند إلى الواجب لذاته إما ابتداء أو بواسطة، فثبت أن ما سواه مِلْكه ومُلْكه، وإذا كان كذلك، فليس لغيره في الحقيقة ملك، فلما كان أكثر الخلق غافلين عن معرفة هذا المعنى غير عالمين به، لا جرم أمر الله رسوله عليه الصلاة والسلام أن يذكر هذا النداء، لعل واحدًا منهم يستيقظ من نوم الجهالة ورقدة الضلالة.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الطريق إلى إثبات نبوة الأنبياء عليهم السلام أمران: الأول: أن نقول: إن هذا الشخص قد ادعى النبوة وظهرت المعجزة على يده وكل من كان كذلك، فهو

رسول من عند الله حقًّا وصدقًا، وهذا الطريق مما قد ذكره الله تعالى في هذه السورة وقرره على أحسن الوجوه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٧، ٣٨] وقد ذكرنا في تفسير هذه الآية ما يقوي الدين ويورث اليقين ويزيل الشكوك والشبهات ويبطل الجهالات والضلالات.

وأما الطريق الثاني فهو أن نعلم بعقولنا أن الاعتقاد الحق والعمل الصالح ما هو؟ فكل من جاء ودعا الخلق إليهم وحملهم عليه وكانت لنفسه قوة قوية في نقل الناس من الكفر إلى الإيمان، ومن الاعتقاد الباطل إلى الاعتقاد الحق، ومن الأعمال الداعية إلى الدنيا إلى الأعمال الداعية إلى الآخرة فهو النبي الحق الصادق المصدق، وتقريره: أن نفوس الخلق قد استولى عليها أنواع النقص والجهل وحب الدنيا، ونحن نعلم بعقولنا أن سعادة الإنسان لا تحصل إلا بالاعتقاد الحق والعمل الصالح، وحاصله يرجع إلى حرف واحد وهو أن كل ما قوّى نفرتك عن الدنيا ورغبتك في الآخرة فهو العمل الصالح وكل ما كان بالضد من ذلك فهو العمل الباطل والمعصية، وإذا كان الأمر كذلك كانوا محتاجين إلى إنسان كامل، قوي النفس، مشرق الروح، علوي الطبيعة، ويكون بحيث يقوى على نقل هؤلاء الناقصين من مقام النقصان إلى مقام الكمال، وذلك هو النبي. فالحاصل أن الناس أقسام ثلاثة: الناقصون والكاملون الذين لا يقدرون على تكميل الناقصين، والقسم الثالث هو الكامل الذي يقدر على تكميل الناقصين، فالقسم الأول هو عامة الخلق، والقسم الثاني هم الأولياء، والقسم الثالث هم الأنبياء، ولما كانت القدرة على نقل الناقصين من درجة النقصان إلى درجة الكمال مراتبها مختلفة ودرجاتها متفاوتة، لا جرم كانت درجات الأنبياء في قوة النبوة مختلفة. ولهذا السر: قال النبي ﷺ: «**عُلَمَاءُ أُمَّتِي كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ**»(١).

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إنه تعالى لما بيَّن صحة نبوة محمد ﷺ بطريق المعجزة، ففي هذه الآية بيَّن صحة نبوته بالطريق الثاني، وهذا الطريق طريق كاشف عن حقيقة النبوة معرف لماهيتها، فالاستدلال بالمعجز هو الذي يسميه المنطقيون برهان الإن، وهذا الطريق هو الطريق

---

(١) أورده القاري في (المطبوع) (١/ ١٢٣) حديث رقم/ ١٩٦، وقال: لا أصل له، كما قال الدميري والزركشي والعسقلاني. وأورده أيضًا العجلوني في (كشف الخفا) (٢/ ٨٣) حديث رقم/ ١٧٤٤، وقال: قال السيوطي في الدرر: لا أصل له، وقال في المقاصد شيخنا يعني ابن حجر لا أصل له وقبله الدميري والزركشي وزاد بعضهم ولا يعرف في كتاب معتبر وقد مضى في أكرموا حملة القرآن كاد حملة القرآن أن يكونوا أنبياء إلا أنهم لا يوحى إليهم ولأبي نعيم بسند ضعيف عن ابن عباس رفعه أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد انتهى وأنكره أيضا الشيخ إبراهيم الناجي وألف في ذلك جزءا وقال النجم وممن نقله جازما بأنه حديث تزوجها الفخر الرازي وموفق الدين بن قدامة والإسنوي والبارزي واليافعي وأشار إلى التفتازاني وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلي والسيوطي في الخصائص وله شواهد ذكرتها في حسن التنبيه لما ورد في التشبيه انتهى وقد يؤيده أنه الواقع أ. هـ بتمامه.

الذي يسمونه برهان اللم، وهو أشرف وأعلى وأكمل وأفضل.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى وصف القرآن في هذه الآية بصفات أربعة: أولها: كونه موعظة من عند الله. وثانيها: كونه شفاء لما في الصدور. وثالثها: كونه هدى. ورابعها: كونه رحمة للمؤمنين. ولا بد لكل واحد من هذه الصفات من فائدة مخصوصة فنقول: إن الأرواح لما تعلقت بالأجساد كان ذلك التعلق بسبب عشق طبيعي وجب للروح على الجسد، ثم إن جوهر الروح التذ بمشتهيات هذا العالم الجسداني وطيباته بواسطة الحواس الخمس وتمرن على ذلك وألف هذه الطريقة واعتادها. ومن المعلوم أن نور العقل إنما يحصل في آخر الدرجة، حيث قويت العلائق الحسية والحوادث الجسدانية، فصار ذلك الاستغراق سببًا لحصول العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة في جوهر الروح، وهذه الأحوال تجري مجرى الأمراض الشديدة لجوهر الروح، فلا بد لها من طبيب حاذق، فإن من وقع في المرض الشديد، فإن لم يتفق له طبيب حاذق يعالجه بالعلاجات الصائبة مات لا محالة، وإن اتفق أن صادفه مثل هذا الطبيب، وكان هذا البدن قابلاً للعلاجات الصائبة فربما حصلت الصحة وزال السقم.

إذا عرفت هذا فنقول: إن محمدًا ﷺ كان كالطبيب الحاذق، وهذا القرآن عبارة عن مجموع أدويته التي بتركيبها تعالج القلوب المريضة. ثم إن الطبيب إذا وصل إلى المريض فله معه مراتب أربعة:

المرتبة الأولى: أن ينهاه عن تناول ما لا ينبغي ويأمره بالاحتراز عن تلك الأشياء التي بسببها وقع في ذلك المرض، وهذا هو الموعظة فإنه لا معنى للوعظ إلا الزجر عن كل ما يبعد عن رضوان الله تعالى، والمنع عن كل ما يشغل القلب بغير الله.

المرتبة الثانية: الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض، فكذلك الأنبياء عليهم السلام إذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل ما لا ينبغي فحينئذ يأمرونهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة في إزالة الأخلاق الذميمة وتحصيل الأخلاق الحميدة، وأوائلها ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ﴾ [النحل: ٩٠] وذلك لأنا ذكرنا أن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة جارية مجرى الأمراض، فإذا زالت فقد حصل الشفاء للقلب وصار جوهر الروح مطهرًا عن جميع النقوش المانعة عن مطالعة عالم الملكوت.

والمرتبة الثالثة: حصول الهدى، وهذه المرتبة لا يمكن حصولها إلا بعد المرتبة الثانية، لأن جوهر الروح الناطقة قابل للجلايا القدسية والأضواء الإلهية وفيض الرحمة عام غير منقطع على ما قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلاَ فَتَعَرَّضُوا لَهَا» وأيضًا فالمنع إنما يكون إما للعجز أو للجهل أو للبخل، والكل في حق الحق ممتنع، فالمنع في حقه ممتنع، فعلى هذا عدم حصول هذه الأضواء الروحانية، إنما كان لأجل أن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة

طبعها طبع الظلمة، وعند قيام الظلمة يمتنع حصول النور، فإذا زالت تلك الأحوال، فقد زال العائق فلا بد وأن يقع ضوء عالم القدس في جوهر النفس القدسية، ولا معنى لذلك الضوء إلا الهدى، فعند هذه الحالة تصير هذه النفس بحيث قد انطبع فيها نقش الملكوت وتجلى لها قدس اللاهوت، وأول هذه المرتبة هو قوله: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨] وأوسطها قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] وآخرها قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] ومجموعها قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.[هود: ١٢٣] وسيجيء تفسير هذه الآيات في مواضعها بإذن الله تعالى، وهذه المرتبة هي المراد بقوله سبحانه ﴿وَهُدًى﴾ .

وأما المرتبة الرابعة: فهي أن تصير النفس البالغة إلى هذه الدرجات الروحانية والمعارج الربانية بحيث تفيض أنوارها على أرواح الناقصين فيض النور من جوهر الشمس على أجرام هذا العالم، وذلك هو المراد بقوله ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإنما خص المؤمنين بهذا المعنى، لأن أرواح المعاندين لا تستضيء بأنوار أرواح الأنبياء عليهم السلام، لأن الجسم القابل للنور عن قرص الشمس هو الذي يكون وجهه مقابلاً لوجه الشمس، فإن لم تحصل هذه المقابلة لم يقع ضوء الشمس عليه، فكذلك كل روح لما لم تتوجه إلى خدمة أرواح الأنبياء المطهرين، لم تنتفع بأنوارهم، ولم يصل إليها آثار تلك الأرواح المطهرة المقدسة، وكما أن الأجسام التي لا تكون مقابلة لقرص الشمس مختلفة الدرجات والمراتب في البعد عن هذه المقابلة ولا تزال تتزايد درجات هذا البعد حتى ينتهي ذلك الجسم إلى غاية بعده عن مقابلة قرص الشمس، فلا جرم يبقى خالص الظلمة، فكذلك تتفاوت مراتب النفوس في قبول هذه الأنوار عن أرواح الأنبياء ولا تزال تتزايد حتى تنتهي إلى النفس التي كملت ظلمتها، وعظمت شقاوتها وانتهت في العقائد الفاسدة، والأخلاق الذميمة إلى أقصى الغايات، وأبعد النهايات، فالحاصل أن الموعظة إشارة إلى تطهير ظواهر الخلق عما لا ينبغي وهو الشريعة، والشفاء إشارة إلى تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة وهو الطريقة، والهدى وهو إشارة إلى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة، والرحمة وهي إشارة إلى كونها بالغة في الكمال والإشراق إلى حيث تصير مكملة للناقصين وهي النبوة، فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الألفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره ولا تقديم ما تأخر ذكره، ولما نبَّه الله تعالى في هذه الآية على هذه الأسرار العالية الإلهية قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ والمقصود منه الإشارة إلى ما قرره حكماء الإسلام من أن السعادات الروحانية أفضل من السعادات الجسمانية وقد سبق في مواضع كثيرة من هذا الكتاب المبالغة في تقرير هذا المعنى فلا فائدة في الإعادة، انتهى.

المسألة الثانية: قوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ وتقديره: بفضل الله وبرحمته

فليفرحوا، ثم يقول مرة أخرى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ والتكرير للتأكيد. وأيضًا قوله: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يفيد الحصر، يعني يجب أن لا يفرح الإنسان إلا بذلك. واعلم أن هذا الكلام يدل على أمرين: أحدهما: أنه يجب أن لا يفرح الإنسان بشيء من الأحوال الجسمانية، ويدل عليه وجوه: **الأول:** أن جماعة من المحققين قالوا: لا معنى لهذه اللذات الجسمانية إلا دفع الآلام، والمعنى العدمي لا يستحق أن يفرح به. **والثاني:** أن بتقدير أن تكون هذه اللذات صفات ثبوتية، لكنها معنوية من وجوه: **الأول:** أن التضرر بآلامها أقوى من الانتفاع بلذاتها ألا ترى أن أقوى اللذات الجسمانية لذة الوقاع، ولا شك أن الالتذاذ بها أقل مرتبة من الاستضرار بألم القولنج وسائر الآلام القوية. **والثاني:** أن مداخل اللذات الجسمانية قليلة، فإنه لا سبيل إلى تحصيل اللذات الجسمانية إلا بهذين الطريقين أعني لذة البطن والفرج. وأما الآلام: فإن كل جزء من أجزاء بدن الإنسان معه نوع آخر من الآلام، ولكل نوع منها خاصية ليست للنوع الآخر.

والثالث: أن اللذات الجسمانية لا تكون خالصة ألبتة بل تكون ممزوجة بأنواع من المكاره، فلو لم يحصل في لذة الأكل والوقاع إلا إتعاب النفس في مقدماتها وفي لواحقها لكفى. **الرابع:** أن اللذات الجسمانية لا تكون باقية، فكلما كان الالتذاذ بها أكثر كانت الحسرات الحاصلة من خوف فواتها أكثر وأشد، ولذلك قال المعري:

إِنَّ حُزْنًا فِي سَاعَةِ الموت أضعاف ... سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ (١)

فمن المعلوم أن الفرح الحاصل عند حدوث الولد لا يعادل الحزن الحاصل عند موته.

الخامس: أن اللذات الجسمانية حال حصولها تكون ممتنعة البقاء، لأن لذة الأكل لا تبقى بحالها، بل كلما زال ألم الجوع زال الالتذاذ بالأكل ولا يمكن استبقاء تلك اللذة. السادس: أن اللذات الجسمانية التذاذ بأشياء خسيسة، فإنها التذاذ بكيفيات حاصلة في أجسام رخوة سريعة الفساد مستعدة للتغير، فأما اللذات الروحانية فإنها بالضد في جميع هذه الجهات، فثبت أن الفرح باللذات الجسمانية فرح باطل، وأما الفرح الكامل فهو الفرح بالروحانيات والجواهر المقدسة وعالم الجلال ونور الكبرياء.

والبحث الثاني: من مباحث هذه الآية: أنه إذا حصلت اللذات الروحانية فإنه يجب على العاقل أن لا يفرح بها من حيث هي هي، بل يجب أن يفرح بها من حيث إنها من الله تعالى وبفضل الله وبرحمته، فلهذا السبب قال الصديقون: من فرح بنعمة الله من حيث إنها تلك النعمة فهو مشرك، أما من فرح بنعمة الله من حيث إنها من الله كان فرحه بالله، وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة فقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ يعني فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي هي، بل من حيث إنها بفضل الله وبرحمة الله، فهذه أسرار عالية اشتملت عليها

---

(١) أبو العلاء المعري تقدمت ترجمته.

هذه الألفاظ التي ظهرت من عالم الوحي والتنزيل، هذا ما تلخص عندنا في هذا الباب، أما المفسرون فقالوا: فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن. وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله.

المسألة الرابعة: قرئ (فَلْتَفْرَحُوا) بالتاء، قال الفراء: وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ بالتاء وقال: معناه فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار، قال: وقريب من هذه القراءة قراءة أبي: (فَبِذَلِكَ فَافْرَحُوا) والأصل في الأمر للمخاطب والغائب اللام نحو لتقم يا زيد وليقم زيد، وذلك لأن حكم الأمر في الصورتين واحد، إلا أن العرب حذفوا اللام من فعل المأمور المخاطب لكثرة استعماله، وحذفوا التاء أيضًا وأدخلوا ألف الوصل نحو اضرب واقتل ليقع الابتداء به وكان الكسائي يعيب قولهم ﴿ فَلْيَفْرَحُوا﴾ لأنه وجده قليلاً فجعله عيبًا إلا أن ذلك هو الأصل، وروي عن النبي ﷺ أنه قال في بعض المشاهد: «لِتَأْخُذُوا مَصَافَّكُمْ» [١] يريد به خذوا، هذا كله كلام الفراء. وقرئ (تجمعون) بالتاء، ووجهه أنه تعالى عنى المخاطبين والغائبين إلا أنه غلب المخاطب على الغائب كما يغلب التذكير على التأنيث، فكأنه أراد المؤمنين هكذا قاله أهل اللغة وفيه دقيقة عقلية وهو أن الإنسان حصل فيه معنى يدعوه إلى خدمة الله تعالى وإلى الاتصال بعالم الغيب ومعارج الروحانيات، وفيه معنى آخر يدعوه إلى عالم الحس والجسم واللذات الجسدانية، وما دام الروح متعلقًا بهذا الجسد، فإنه لا ينفك عن حب الجسد، وعن طلب اللذات الجسمانية، فكأنه تعالى خاطب الصديقين العارفين، وقال: حصلت الخصومة بين الحوادث العقلية الإلهية وبين النوازع النفسانية الجسدانية، والترجيح لجانب العقل لأنه يدعو إلى فضل الله ورحمته والنفس تدعو إلى جمع الدنيا وشهواتها وفضل الله ورحمته خير لكم مما تجمعون من الدنيا لأن الآخرة خير وأبقى، وما كان كذلك فهو أولى بالطلب والتحصيل.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠ ﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن الناس ذكروا في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوهًا، ولا أستحسن واحدًا منها. والذي يخطر بالبال والعلم عند الله تعالى وجهان: الأول: أن المقصود من هذا

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٣٦٨) حديث رقم/ ٣٢٣٥، وأحمد في (مسنده) (٥/ ٢٤٣) حديث رقم/ ٢٢١٦٣، كلاهما من طريق مالك بن يخامر عن معاذ بن جبل... بُه.

الكلام ذكر طريق ثالث في إثبات النبوة . وتقريره أنه عليه الصلاة والسلام قال للقوم : إِنَّكُمْ تَحْكُمُونَ بِحِلِّ بَعْضِ الْأَشْيَاءِ وَحُرْمَةِ بَعْضِهَا ، فَهَذَا الْحُكْمُ تَقُولُونَهُ عَلَى سَبِيلِ الافْتِرَاءِ عَلَى اللَّه تَعَالَى ، أَوْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ حُكْمُ حَكَمَ اللَّه بِهِ والأول طريق باطل بالاتفاق ، فلم يبق إلا الثاني ، ثم من المعلوم أنه تعالى ما خاطبكم به من غير واسطة ، ولما بطل هذا ثبت أن هذه الأحكام إنما وصلت إليكم بقول رسول أرسله الله إليكم ونبي بعثه الله إليكم ، وحاصل الكلام أن حكمهم بحل بعض الأشياء وحرمة بعضها مع اشتراك الكل في الصفات المحسوسة والمنافع المحسوسة ، يدل على اعترافكم بصحة النبوة والرسالة وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف يمكنكم أن تبالغوا هذه المبالغات العظيمة في إنكار النبوة والرسالة وحمل الآية على هذا الوجه الذي ذكرته طريق حسن معقول .

الطريق الثاني: في حسن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر الدلائل الكثيرة على صحة نبوة نفسه وبيَّن فساد سؤالاتهم وشبهاتهم في إنكارها ، أتبع ذلك ببيان فساد طريقتهم في شرائعهم وأحكامهم وبيَّن أن التمييز بين هذه الأشياء بالحل والحرمة ، مع أنه لم يشهد بذلك لا عقل ولا نقل طريق باطل ومنهج فاسد ، والمقصود إبطال مذاهب القوم في أديانهم وفي أحكامهم ، وأنهم ليسوا على شيء في باب من الأبواب .

المسألة الثانية : المراد بالشيء الذي جعلوه حرامًا ما ذكروه من تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وأيضًا قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨] إلى قوله : ﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] وأيضًا قوله تعالى : ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣] والدليل عليه أن قوله : ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا﴾ إشارة إلى أمر تقدم منهم ، ولم يحك الله تعالى عنهم إلا هذا ، فوجب توجه هذا الكلام إليه ، ثم لما حكى تعالى عنهم ذلك قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وهذه القسمة صحيحة ، لأن هذه الأحكام إما أن تكون من الله تعالى أو لم تكن من الله فإن كانت من الله تعالى ، فهو المراد بقوله : ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ وإن كانت ليست من الله . فهو المراد بقوله : ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ .

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ وهذا وإن كان في صورة الاستعلام فالمراد منه تعظيم وعيد من يفتري على الله . وقرأ عيسى بن عمر : (وَمَا ظَنَّ) على لفظ الفعل ومعناه أي ظن ظنوه يوم القيامة وجيء به على لفظ الماضي لما ذكرنا أن أحوال القيامة وإن كانت آتية إلا أنها لما كانت واجبة الوقوع في الحكمة ولا جرم عبر الله عنها بصيغة الماضي .

ثم قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي بإعطاء العقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلا يستعملون العقل في التأمل في دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله ولا ينتفعون باستماع كتب الله .

المسألة الثالثة: (ما) في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ **فيها وجهان**:

أحدهما: بمعنى: (الذي) فينتصب برأيتم، والآخر أن يكون بمعنى أي في الاستفهام، فينتصب بأنزل وهو قول الزجاج، ومعنى أنزل ههنا خلق وأنشأ كقوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] وجاز أن يعبر عن الخلق بالإنزال، لأن كل ما في الأرض من رزق فما أنزل من السماء من ضرع وزرع وغيرهما، فلما كان إيجاده بالإنزال سمي إنزالاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه لما أطال الكلام في أمر الرسول بإيراد الدلائل على فساد مذاهب الكفار، وفي أمره بإيراد الجواب عن شبهاتهم، وفي أمره بتحمل أذاهم، وبالرفق معهم ذكر هذا الكلام ليحصل به تمام السلوة والسرور للمطيعين، وتمام الخوف والفزع للمذنبين، وهو كونه سبحانه عالمًا بعمل كل واحد، وبما في قلبه من الدواعي والصوارف، فإن الإنسان ربما أظهر من نفسه نسكًا وطاعة وزهدًا وتقوى، ويكون باطنه مملوأ من الخبث وربما كان بالعكس من ذلك فإذا كان الحق سبحانه عالمًا بما في البواطن كان ذلك من أعظم أنواع السرور للمطيعين ومن أعظم أنواع التهديد للمذنبين.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى خصص الرسول في أول هذه الآية بالخطاب في أمرين، ثم أتبع ذلك بتعميم الخطاب مع كل المكلفين في شيء واحد، أما الأمران المخصوصان بالرسول عليه الصلاة والسلام. فالأول: منهما قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ واعلم أن (ما) ههنا جحد والشأن: الخطب والجمع الشئون، تقول العرب: ما شأن فلان أي ما حاله، قال الأخفش: وتقول ما شأنت شأنه أي ما عملت عمله، وفيه وجهان: قال ابن عباس: وما تكون يا محمد في شأن يريد من أعمال البر، وقال الحسن: في شأن من شأن الدنيا وحوائجك فيها. والثاني: منهما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ واختلفوا في أن الضمير في قوله: ﴿مِنْهُ﴾ إلى ماذا يعود؟ وذكروا فيه ثلاثة أوجه: **الأول**: أنه راجع إلى الشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ، بل هو معظم شأنه، وعلى هذا التقدير، فكان هذا داخلاً تحت قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ إلا أنه خصه بالذكر تنبيهًا على علو مرتبته، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وكما في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأحزاب: ٧] **والثاني**: أن هذا الضمير عائد إلى القرآن، والتقدير: وما تتلو من القرآن

من قرآن، وذلك لأنه كما أن القرآن اسم للمجموع، فكذلك هو اسم لكل جزء من أجزاء القرآن والإضمار قبل الذكر، يدل على التعظيم. **الثالث:** أن يكون التقدير: وما تتلو من قرآن من الله أي نازل من عند الله. وأقول: قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ أمران مخصوصان بالرسول ﷺ.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فهذا خطاب مع النبي ومع جميع الأمة. والسبب في أن خص الرسول بالخطاب أولاً، ثم عمم الخطاب مع الكل، هو أن قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ وإن كان بحسب الظاهر خطابًا مختصًا بالرسول، إلا أن الأمة داخلون فيه ومرادون منه، لأنه من المعلوم أنه إذا خوطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] ثم إنه تعالى بعد أن خص الرسول بذينك الخطابين عمم الكل بالخطاب الثالث فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فدل ذلك على كونهم داخلين في الخطابين الأولين.

ثم قال تعالى: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ وذلك لأن الله تعالى شاهد على كل شيء، وعالم بكل شيء، أما على أصول أهل السنة والجماعة، فالأمر فيه ظاهر، لأنه لا محدث ولا خالق ولا موجد إلا الله تعالى. فكل ما يدخل في الوجود من أفعال العباد وأعمالهم الظاهرة والباطنة، فكلها حصلت بإيجاد الله تعالى وإحداثه. والموجد للشيء لا بد وأن يكون عالمًا به، فوجب كونه تعالى عالمًا بكل المعلومات، وأما على أصول المعتزلة، فقد قالوا: إنه تعالى حي وكل من كان حيًا، فإنه يصح أن يعلم كل واحد من المعلومات، والموجب لتلك العالمية، هو ذاته سبحانه. فنسبة ذاته إلى اقتضاء حصول العالمية ببعض المعلومات كنسبة ذاته إلى اقتضاء حصول العالمية بسائر المعلومات، فلما اقتضت ذاته حصول العالمية ببعض المعلومات وجب أن تقتضي حصول العالمية بجميع المعلومات فثبت كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات.

أما قوله تعالى: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ فاعلم أن الإفاضة ههنا الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه وهو الانبساط في العمل، يقال: أفاض القوم في الحديث إذا اندفعوا فيه، وقد أفاضوا من عرفة إذا دفعوا منه بكثرتهم، فتفرقوا.

فإن قيل: (إذ) ههنا بمعنى حين، فيصير تقدير الكلام إلا كنا عليكم شهودًا حين تفيضون فيه، وشهادة الله تعالى عبارة عن علمه، فيلزم منه أن يقال: إنه تعالى ما علم الأشياء إلا عند وجودها وذلك باطل.

قلنا: هذا السؤال بناء على أن شهادة الله تعالى عبارة عن علمه، وهذا ممنوع، فإن الشهادة لا تكون إلا عند وجود المشهود عليه، وأما العلم، فلا يمتنع تقدمه على الشيء، والدليل عليه أن الرسول عليه السلام، لو أخبرنا عن زيد أنه يأكل غدًا كنا من قبل حصول تلك الحالة عالمين بها ولا نوصف بكوننا شاهدين لها. واعلم أن حاصل هذه الكلمات أنه لا يخرج عن علم الله

شيء، ثم إنه تعالى أكد هذا الكلام زيادة تأكيد، فقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ .

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أصل العزوب من البعد. يقال: كلأ عازب إذا كان بعيد المطلب، وعزب الرجل بإبله إذا أرسلها إلى موضع بعيد من المنزل، والرجل سمي عَزَبًا لبعده عن الأهل، وعزب الشيءُ عن علمي إذا بَعُدَ.

المسألة الثانية: قرأ الكسائي (وما يَعْزِبُ) بكسر الزاي، والباقون بالضم، وفيه لغتان: عَزَبَ يَعْزِبُ، وَعَزَبَ يَعْزُبُ.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي وزن ذرة، ومثقال الشيء: ما يساويه في الثقل، والمعنى: ما يساوي ذرة، والذَّر صغار النمل واحدها ذرة، وهي تكون خفيفة الوزن جدًا، وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فالمعنى ظاهر.

فإن قيل: لم قدم الله ذكر الأرض ههنا على ذكر السماء مع أنه تعالى قال في سورة سبأ: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

قلنا: حق السماء أن تقدم على الأرض إلا أنه تعالى لما ذكر في هذه الآية شهادته على أحوال أهل الأرض وأعمالهم، ثم وصل بذلك قوله ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾، ناسب أن تقدم الأرض على السماء في هذا الموضع.

ثم قال: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ وفيه قراءتان قرأ حمزة (ولا أَصْغرُ) (ولا أَكْبَرُ) بالرفع فيهما، والباقون بالنصب.

واعلم أن قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ تقديره وما يعزب عن ربك مثقال ذرة فلفظ ﴿مِّثْقَالِ﴾ عند دخول كلمة ﴿مِن﴾ عليه مجرور بحسب الظاهر، ولكنه مرفوع في المعنى، فالمعطوف عليه إن عطف على الظاهر كان مجرورًا إلا أن لفظ أصغر وأكبر غير منصرف، فكان مفتوحًا وإن عطف على المحل، وجب كونه مرفوعًا، ونظيره قوله: ما أتاني من أحد عاقِلٍ وعَاقِلٌ، وكذا قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩] وغَيرِهِ، قال الشاعر:

فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلاَ الْحَدِيدَا(١)

هذا ما ذكره النحويون، قال صاحب (الكشاف): لو صح هذا العطف لصار تقدير هذه الآية وما يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء إلا في كتاب: وحينئذ يلزم أن يكون الشيء الذي في الكتاب خارجًا عن علم الله تعالى وأنه باطل.

---

(١) هذا هو عجز البيت ضمن قصيدة لابن الزبير الأسدي وقد تقدمت ترجمته، وأما البيت فهو هكذا:

مُعاوِيَ أنَّنا بَشَرٌ فأَسجِح ... فَلَسنا بالجِبالِ وَلا الحَديدا

وأجاب بعض المحققين عنه بوجهين:

الوجه الأول: أنا بينا أن العزوب عبارة عن مطلق البعد.

وإذا ثبت هذا فنقول: الأشياء المخلوقة على قسمين: قسم أوجده الله تعالى ابتداء من غير واسطة كالملائكة والسموات والأرض، وقسم آخر أوجده الله بواسطة القسم الأول، مثل: الحوادث الحادثة في عالم الكون والفساد، ولا شك أن هذا القسم الثاني قد يتباعد في سلسلة العِلِّية والمعلولية عن مرتبة وجود واجب الوجود فقوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي لا يبعد عن مرتبة وجوده مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتاب مبين، وهو كتاب كتبه الله تعالى وأثبت صور تلك المعلومات فيه، ومتى كان الأمر كذلك فقد كان عالمًا بها محيطًا بأحوالها، والغرض منه الرد على من يقول: إنه تعالى غير عالم بالجزئيات، وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩].

والوجه الثاني: في الجواب أن نجعل كلمة ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ استثناء منقطعًا لكن بمعنى هو في كتاب مبين، وذكر أبو علي الجرجاني صاحب (النظم) عنه جوابًا آخر فقال: قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ ههنا تم الكلام وانقطع ثم وقع الابتداء بكلام آخر، وهو قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي وهو أيضًا في كتاب مبين. قال: والعرب تضع (إلا) موضع (واو النسق) كثيرًا على معنى الابتداء، كقوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ۝ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠-١١] يعني: ومن ظلم. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة: ١٥٠] يعني والذين ظلموا، وهذا الوجه في غاية التعسف.

وأجاب صاحب (الكشاف): بوجه رابع فقال: الإشكال إنما جاء إذا عطفنا قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ على قوله: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إما بحسب الظاهر أو بحسب المحل، لكنا لا نقول ذلك، بل نقول: الوجه في القراءة بالنصب في قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ الحمل على نفي الجنس، وفي القراءة بالرفع الحمل على الابتداء، وخبره قوله: ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا الوجه اختيار الزجاج.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٦٤﴾

اعلم أنا بينا أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ﴾ [يونس: ٦١] مما يقوي قلوب المطيعين، ومما يكسر قلوب الفاسقين فأتبعه الله تعالى بشرح أحوال المخلصين الصادقين الصديقين وهو المذكور في هذه الآية. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنا نحتاج في تفسير هذه الآية إلى أن نبين أن الولي من هو؟ ثم نبين تفسير نفي الخوف والحزن عنه. فنقول: أما أن الوحي من هو؟ فيدل عليه القرآن والخبر والأثر والمعقول. أما القرآن، فهو قوله في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ فقوله: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ إشارة إلى كمال حال القوة النظرية وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ إشارة إلى كمال حال القوة العملية. وفيه قيام آخر، وهو أن يحمل الإيمان على مجموع الاعتقاد والعمل، ثم نصف الولي بأنه كان متقيًا في الكل. أما التقوى في موقف العلم فلأن جلال الله أعلى من أن يحيط به عقل البشر، فالصِّدِّيق إذا وصف الله سبحانه بصفة من صفات الجلال، فهو يقدس الله عن أن يكون كماله وجلاله مقتصرًا على ذلك المقدار الذي عرفه ووصفه به، وإذا عبد الله تعالى فهو يقدس الله تعالى عن أن تكون الخدمة اللائقة بكبريائه متقدرة بذلك المقدار فثبت أنه أبدًا يكون في مقام الخوف والتقوى. وأما الأخبار فكثيرة روى عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**هُمْ قَوْمٌ تَحَابُوا فِي اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بينهم ولا أموال يتعاطونها، فو اللَّه إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ**»(١) ثم قرأ هذه الآية، وعن النبي ﷺ أنه قال: «**هُمُ الَّذِينَ يُذْكَرُ اللَّه تَعَالَى بِرُؤْيَتِهِمْ**»(٢) قال أهل التحقيق: السبب فيه أن مشاهدتهم تذكر أمر الآخرة لما يشاهد فيهم من آيات الخشوع والخضوع، ولما ذكر الله تعالى سبحانه في قوله: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] وأما الأثر، فقال أبو بكر الأصم: أولياء الله هم الذين تولى الله تعالى هدايتهم بالبرهان وتولوا القيام بحق عبودية الله تعالى والدعوة إليه، وأما المعقول فنقول: ظهر في علم الاشتقاق أن تركيب الواو واللام والياء يدل على معنى القرب، فولي كل شيء هو الذي يكون قريبًا منه، والقرب من الله تعالى بالمكان والجهة محال، فالقرب منه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقًا في نور معرفة الله تعالى سبحانه، فإن رأى دلائل قدرة الله، وإن سمع سمع آيات الله وإن نطق نطق بالثناء على الله، وإن تحرك تحرك في خدمة الله، وإن اجتهد اجتهد في طاعة الله، فهنالك يكون في غاية القرب من الله، فهذا الشخص يكون وليًا لله تعالى، وإذا كان كذلك كان الله تعالى وليًا له أيضًا كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ويجب أن يكون الأمر كذلك، لأن القرب لا يحصل إلا من الجانبين. وقال المتكلمون: ولي الله من يكون آتيًا بالاعتقاد الصحيح المبني على الدليل ويكون آتيًا بالأعمال الصالحة على وفق ما وردت به

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (البيوع) باب (في الرهن) (٣/ ١٥٢٧) حديث رقم/ ٣٥٢٧، وأورده التبريزي في (المشكاة) (٣/ ١٣٩٦) والمنذري في (الترغيب) (٤/ ٢١).

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) (١٢/ ١٣) حديث رقم/ ١٢٣٢٥، والنحاس في (معاني القرآن) (٣/ ٣٠٢) حديث رقم/ ٥٩، وأبو نعيم في (أخبار أصفهان) (٣/ ٣١٦) حديث رقم/ ٨٤٠، والضياء في (الأحاديث المختارة) (٤/ ١١٥) حديث رقم/ ١٠٤، جميعًا من طريق يحيى بن يمان عن أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . . . به. وفي إسناده يحيى بن يمان، قال الحافظ: صدوق عابد يخطئ كثيرًا وقد تغير.

الشريعة، فهذا كلام مختصر في تفسير الولي.

وأما قوله تعالى في صفتهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

ففيه بحثان:

البحث الأول: أن الخوف إنما يكون في المستقبل بمعنى أنه يخاف حدوث شيء في المستقبل من المخوف، والحزن إنما يكون على الماضي إما لأجل أنه كان قد حصل في الماضي ما كرهه أو لأنه فات شيء أحبه.

البحث الثاني: قال بعض المحققين: إن نفي الحزن والخوف إما أن يحصل للأولياء حال كونهم في الدنيا أو حال انتقالهم إلى الآخرة والأول باطل لوجوه: أحدها: أن هذا لا يحصل في دار الدنيا لأنها دار خوف وحزن والمؤمن خصوصًا لا يخلو من ذلك على ما قاله الرسول عليه الصلاة والسلام: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ» (١) وعلى ما قال: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ» (٢) وثانيها: أن المؤمن، وإن صفا عيشه في الدنيا، فإنه لا يخلو من هَمٍّ بأمر الآخرة شديد، وحزن على ما يفوته من القيام بطاعة الله تعالى، وإذا بطل هذا القسم وجب حمل قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على أمر الآخرة، فهذا كلام محقق، وقال بعض العارفين: إن الولاية عبارة عن القرب، فوليُّ الله تعالى هو الذي يكون في غاية القرب من الله تعالى، وهذا التقرير قد فسرناه باستغراقه في معرفة الله تعالى بحيث لا يخطر بباله في تلك اللحظة شيء مما سوى الله، ففي هذه الساعة تحصل الولاية التامة، ومتى كانت هذه الحالة حاصلة فإن صاحبها لا يخاف شيئًا، ولا يحزن بسبب شيء، وكيف يعقل ذلك والخوف من الشيء والحزن على الشيء لا يحصل إلا بعد الشعور به، والمستغرق في نور جلال الله غافل عن كل ما سوى الله تعالى، فيمتنع أن يكون له خوف أو حزن؟ وهذه درجة عالية، ومن لم يذقها لم يعرفها، ثم إن صاحب هذه الحالة قد تزول عنه الحالة، وحينئذ يحصل له الخوف والحزن والرجاء والرغبة والرهبة بسبب الأحوال الجسمانية، كما يحصل لغيره، وسمعت أن إبراهيم الخواص كان بالبادية ومعه واحد يصحبه، فاتفق في بعض الليالي ظهور حالة قوية وكشف تام له، فجلس في موضعه وجاءت السباع ووقفوا بالقرب منه، والمريد تسلق على رأس

---

(١) صحيح: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٤/ ٢٢٧٢/ ٢٩٥٦)، والترمذي في (سننه) (٤/ ٥٦٢) حديث رقم/ ٢٣٢٤، وابن ماجه في (سننه) (٢/ ١٣٧٨) حديث رقم/ ٤١١٣، وأحمد في (مسنده) (٢/ ٣٢٣) حديث رقم/ ٨٢٧٢، جميعا من طريق العلاء عن أبيه عن أبي هريرة... به.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الجنة) باب (في فاتحته) (٤/ ١/ ٢١٧٤). من طريق عبد الله بن سلمة... به. والترمذي في كتاب (صفة الجنة) باب (حفت الجنة بالمكاره) (٤/ ٥٩٨) حديث رقم/ ٢٥٥٩، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح من طريق عمرو بن عاصم... به. وأحمد في (مسنده) (٣/ ١٥٣/ ٢٥٤/ ٢٨٤). والدارمي في كتاب (الرقاق) باب (حفت الجنة بالمكاره) (٢/ ٢٢٨) حديث رقم/ ٢٨٤٣. جميعًا عن حماد بن سلمة... به.

شجرة خوفًا منها والشيخ ما كان فازعًا من تلك السباع، فلما أصبح وزالت تلك الحالة ففي الليلة الثانية وقعت بعوضة على يده فأظهر الجزع من تلك البعوضة، فقال المريد: كيف تليق هذه الحالة بما قبلها؟ فقال الشيخ: إنا إنما تحملنا البارحة ما تحملناه بسبب قوة الوارد الغيبي، فلما غاب ذلك الوارد فأنا أضعف خلق الله تعالى.

المسألة الثانية: قال أكثر المحققين: إن أهل الثواب لا يحصل لهم خوف في محفل القيامة واحتجوا على صحة قولهم بقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[الأنبياء: ١٠٣] وأيضًا فالقيامة دار الجزاء فلا يليق به إيصال الخوف ومنهم من قال: بل يحصل فيه أنواع من الخوف، وذكروا فيه أخبارًا تدل عليه إلا أن ظاهر القرآن أولى من خبر الواحد.

وأما قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ ففيه ثلاثة أوجه: الأول: النصب بكونه صفة للأولياء. والثاني: النصب على المدح. والثالث: الرفع على الابتداء وخبره: لهم البشرى.

وأما قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ ففيه أقوال: الأول: المراد منه الرؤيا الصالحة، عن النبي ﷺ أنه قال: «**الْبُشْرَى هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ**»(١) وعنه عليه الصلاة والسلام: «**ذَهَبَتِ النُّبُوَّةُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ**» وعنه عليه الصلاة والسلام: «**الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّه، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيطَانِ، فَإِذَا حَلمَ أَحَدُكُمْ حُلْمًا يَخَافُهُ فَلْيَتَعَوَّذْ مِنْهُ وَلْيَبْصُقْ عَنْ شِمَالِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ**»(٢) وعنه ﷺ: «**الرُّؤْيَا الصالحة جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ**»(٣)

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في كتاب (الصلاة) باب (النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود) (١/ ٢٠٧/ ٣٤٨) من طريق ابن عيينة... به. وأبو داود في كتاب (الصلاة) باب (الدعاء في الركوع والسجود) (١/ ٢٣١) حديث رقم/ ٨٧٦، والنسائي في كتاب (التطبيق) باب (تعظيم الرب في الركوع) (٢/ ٥٣٤) حديث رقم/ ١٠٤٤، وابن ماجه في كتاب (تعبير الرؤيا) باب (الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له) (٣/ ١٢٨٣) حديث رقم/ ٣٨٩٩، من طريق سفيان... به. وأحمد في (مسنده) (١/ ٢١٩) حديث رقم/ ١٩٠٠، من طريق سفيان... به. والدارمي في كتاب (الصلاة) باب (النهي عن القراءة في الركوع والسجود) (١/ ٣١٨/ ٣١٩) حديث رقم/ ١٣٢٥، من طريق ابن عيينة... به. والحميدي في (مسنده) (١) حديث رقم/ ٤٨٩، من طريق سفيان... به. وابن خزيمة في (صحيحه) (١) حديث رقم/ ٥٤٨/ ٥٩٩/ ٦٧٤، من طريق سفيان وإسماعيل بن جعفر... به. كلاهما (سفيان، إسماعيل بن جعفر) قالا: حدثنا سليمان بن سحيم... به.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق) باب (صفة أبواب الجنة) (٦/ ٣٩٠) حديث رقم/ ٣٢٩٢، من طريق الأوزاعي... به. والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (٥٠٧) حديث رقم/ ٨٩٦، من طريق الأوزاعي... به. وكذلك في (٥٠٧) حديث رقم/ ٨٩٨، من طريق أبي عمرو... به. وأحمد في (مسنده) (٥/ ٣٠٠) من طريق الأوزاعي... به. والدارمي في كتاب (الرؤيا) باب (فيمن يرى رؤيا يكرهه) (١/ ٦٠٤) حديث رقم/ ٢١٤١، من طريق الأوزاعي.... به. جميعًا عن يحيى بن أبي كثير.... به.

(٣) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (الرؤيا الصالحة جزء من تسع وتسعون جزء من النبوة) (١٢/ ٣٨٩) حديث رقم/ ٦٩٨٧، من طريق شعبة... به. ومسلم في كتاب (الرؤية)، باب (الرؤية الصالحة) (٤/ ٧/ ١٧٧٤) من طريق شعبة... به. جميعا من طريق شعبة... به.

وعن ابن مسعود: الرؤيا ثلاثة: الهم يهم به الرجل من النهار فيراه في الليل، وحضور الشيطان، والرؤيا التي هي الرؤيا الصادقة. وعن إبراهيم: الرؤيا ثلاثة: فالمبشرة من الله جزء من سبعين جزءًا من النبوة والشيء يهم به أحدكم بالنهار فلعله يراه بالليل والتخويف من الشيطان، فإذا رأى أحدكم ما يحزنه فليقل: أعوذ بما عاذت به ملائكة الله من شر رؤياي التي رأيتها أن تضرني في دنياي أو في آخرتي.

واعلم أنا إذا حملنا قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ على الرؤيا الصادقة فظاهر هذا النص يقتضي أن لا تحصل هذه الحالة إلا لهم والعقل أيضًا يدل عليه، وذلك لأن ولي الله هو الذي يكون مستغرق القلب والروح بذكر الله، ومن كان كذلك فهو عند النوم لا يبقى في روحه إلا معرفة الله، ومن المعلوم أن معرفة الله ونور جلال الله لا يفيده إلا الحق والصدق، وأما من يكون متوزع الفكر على أحوال هذا العالم الكدر المظلم، فإنه إذا نام يبقى كذلك، فلا جرم لا اعتماد على رؤياه، فلهذا السبب قال: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ على سبيل الحصر والتخصيص.

القول الثاني: في تفسير البشرى: أنها عبارة عن محبة الناس له وعن ذكرهم إياه بالثناء الحسن عن أبي ذر: قال؟ قلت: يا رسول الله إن الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس. فقال: «تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ».

واعلم أن المباحث العقلية تقوي هذا المعنى، وذلك أن الكمال محبوب لذاته لا لغيره، وكل من اتصف بصفة من صفات الكمال، صار محبوبًا لكل أحد، ولا كمال للعبد أعلى وأشرف من كونه مستغرق القلب بمعرفة الله، مستغرق اللسان بذكر الله، مستغرق الجوارح والأعضاء بعبودية الله، فإذا ظهر عليه أمر من هذا الباب، صارت الألسنة جارية بمدحه، والقلوب مجبولة على حبه، وكلما كانت هذه الصفات الشريفة أكثر، كانت هذه المحبة أقوى، وأيضًا فنور معرفة الله مخدوم بالذات، ففي أي قلب حضر صار ذلك الإنسان مخدومًا بالطبع ألا ترى أن البهائم والسباع قد تكون أقوى من الإنسان، ثم إنها إذا شاهدت الإنسان هابته وفرت منه وما ذاك إلا لمهابة النفس الناطقة.

والقول الثالث: في تفسير البشرى أنها عبارة عن حصول البشرى لهم عند الموت قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] وأما البشرى في الآخرة فسلام الملائكة عليهم كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤] وسلام الله عليهم كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] ويندرج في هذا الباب ما ذكره الله في هذا الكتاب الكريم من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يلقون فيها من الأحوال السارة فكل ذلك من المبشرات.

والقول الرابع: أن ذلك عبارة عما بشر الله عباده المتقين في كتابه وعلى ألسنة أنبيائه من جنته وكريم ثوابه. ودليله قوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١].

واعلم أن لفظ البشارة مشتق من خبر سار يظهر أثره في بشرة الوجه، فكل ما كان كذلك دخل في هذه الآية، ومجموع الأمور المذكورة مشتركة في هذه الصفة، فيكون الكل داخلاً فيه فكل ما يتعلق من هذه الوجوه بالدنيا فهو داخل تحت قوله: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وكل ما يتعلق بالآخرة فهو داخل تحت قوله: ﴿وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ ثم إنه تعالى لما ذكر صفة أولياء الله وشرح أحوالهم قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والمراد أنه لا خلف فيها، والكلمة والقول سواء. ونظيره قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾[ق: ٢٩] وهذا أحد ما يقوي أن المراد بالبشرى وعد الله بالثواب والكرامة لمن أطاعه بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾[التوبة: ٢١] ثم بين تعالى أن: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[الإنسان: ٢٠] ثم قال القاضي: قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يدل على أنها قابلة للتبديل، وكل ما قبل العدم امتنع أن يكون قديمًا. ونظير هذا الاستدلال بحصول النسخ على أن حكم الله تعالى لا يكون قديمًا وقد سبق الكلام على أمثال هذه الوجوه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أن القوم لما أوردوا أنواع الشبهات التي حكاها الله تعالى عنهم فيما تقدم من هذه السورة وأجاب الله عنها بالأجوبة التي فسرناها وقررناها، عدلوا إلى طريق آخر، وهو أنهم هددوه وخوفوه وزعموا أنهم أصحاب التبع والمال، فنسعى في قهرك وفي إبطال أمرك، والله سبحانه أجاب عن هذا الطريق بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾. واعلم أن الإنسان إنما يحزن من وعيد الغير وتهديده ومكره وكيده، لو جوز كونه مؤثرًا في حاله، فإذا علم من جهة علّام الغيوب أن ذلك لا يؤثر، خرج من أن يكون سببًا لحزنه. ثم إنه تعالى كما أزال عن الرسول حزن الآخرة بسبب قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[يونس: ٦٢] فكذلك أزال حزن الدنيا بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فإذا كان الله تعالى هو الذي أرسله إلى الخلق وهو الذي أمره بدعوتهم إلى هذا الدين كان لا محالة ناصرًا له ومعينًا، ولما ثبت أن العزة والقهر والغلبة ليست إلا له، فقد حصل الأمن وزال الخوف.

فإن قيل: فكيف آمنه من ذلك ولم يزل خائفًا حتى احتاج إلى الهجرة والهرب، ثم من بعد ذلك يخاف حالاً بعد حال؟

قلنا: إن الله تعالى وعده الظفر والنصرة مطلقًا والوقت ما كان معينًا، فهو في كل وقت كان يخاف من أن لا يكون هذا الوقت المعين ذلك الوقت، فحينئذ يحصل الانكسار والانهزام في هذا الوقت.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ .

ففيه أبحاث:

البحث الأول: قال القاضي: إن العزة بالألف المكسورة وفي فتحها فساد يقارب الكفر؛ لأنه يؤدي إلى أن القوم كانوا يقولون: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ وأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يحزنه ذلك. أما إذا كسرت الألف كان ذلك استئنافًا، وهذا يدل على فضيلة علم الإعراب. قال صاحب (الكشاف): وقرأ أبو حيوة (أَنَّ العِزَّةَ) بالفتح على حذف لام العلة يعني: لأن العزة، على صريح التعليل.

البحث الثاني: فائدة ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ في هذا المقام أمور:

الأول: المراد منه أن جميع العزة والقدرة هي لله تعالى يعطي ما يشاء لعباده، والغرض منه أنه لا يعطي الكفار قدرة عليه، بل يعطيه القدرة عليهم حتى يكون هو بذلك أعز منهم، فآمنه الله تعالى بهذا القول من إضرار الكفار به بالقتل والإيذاء، ومثله قوله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١].

الثاني: قال الأصم: المراد أن المشركين يتعززون بكثرة خدمهم وأموالهم ويخوفونك بها وتلك الأشياء كلها لله تعالى فهو القادر على أن يسلب منهم كل تلك الأشياء وأن ينصرك وينقل أموالهم وديارهم إليك.

فإن قيل: قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ كالمضادة لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

قلنا: لا مضادة، لأن عزة الرسول والمؤمنين كلها بالله فهي لله.

اما قوله: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي يسمع ما يقولون ويعلم ما يعزمون عليه وهو يكافئهم بذلك.

وأما قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ .

ففيه وجهان:

الأول: أنه تعالى ذكر في الآيات المتقدمة ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٥] وهذا يدل على أن كل ما لا يعقل فهو ملك لله تعالى وملك له، وأما ههنا فكلمة (من) مختصة بمن يعقل، فتدل على أن كل العقلاء داخلون تحت ملك الله وملكه فيكون مجموع الآيتين دالاً على أن الكل مُلْكه ومِلْكه. والثاني: أن المراد ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ العقلاء المميزون وهم الملائكة والثقلان. وإنما خصهم بالذكر ليدل على أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكه فالجمادات أولى بهذه العبودية فيكون ذلك قدحًا في جعل الأصنام شركاء لله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وفي كلمة (ما) قولان:

الأول: أنه نفي وجحد، والمعنى أنهم ما اتبعوا شريك الله تعالى إنما اتبعوا شيئًا ظنوه شريكًا لله تعالى. ومثاله أن أحدنا لو ظن أن زيدًا في الدار وما كان فيها، فخاطب إنسانًا في الدار ظنه زيدًا، فإنه لا يقال: إنه خاطب زيدًا بل يقال: خاطب من ظنه زيدًا.

الثاني: أن (ما) استفهام، كأنه قيل: أي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء، والمقصود تقبيح فعلهم يعني أنهم ليسوا على شيء.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ والمعنى أنهم إنما اتبعوا ظنونهم الباطلة وأوهامهم الفاسدة، ثم بين أن هذا الظن لا حكم له ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وذكرنا معنى الخرص في سورة الأنعام عند قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر قوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ﴾ [يونس: ٦٥] احتج عليه بهذه الآية، والمعنى أنه تعالى جعل الليل ليزول التعب والكلال بالسكون فيه، وجعل النهار مبصرًا أي مضيئًا لتهتدوا به في حوائجكم بالإبصار، والمبصر الذي يبصر، والنهار يبصر فيه، وإنما جعله مبصرًا على طريق نقل الاسم من السبب إلى المسبب.

فإن قيل: إن قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ يدل على أنه تعالى ما خلقه إلا لهذا الوجه، وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يدل على أنه تعالى أراد بتخليق الليل والنهار أنواعًا كثيرة من الدلائل.

قلنا: إن قوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا۟﴾ لا يدل على أنه لا حكمة فيه إلا ذلك، بل ذلك يقتضي حصول تلك الحكمة.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ فالمراد يتدبرون ما يسمعون ويعتبرون به.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من الأباطيل التي حكاها الله تعالى عن الكفار وهي قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ﴾ ويحتمل أن يكون المراد حكاية قول من يقول: الملائكة بنات الله، ويحتمل أن يكون المراد قول من يقول: الأوثان أولاد الله، ويحتمل أن يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك ثم إنه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾.

واعلم أن كونه تعالى غنيًّا مالكًا لكل ما في السموات والأرض يدل على أنه يستحيل أن يكون له ولد، وبيان ذلك من وجوه:

الأول: أنه سبحانه غني مطلقًا على ما في هذه الآية، والعقل أيضًا يدل عليه، لأنه لو كان محتاجًا لافتقر إلى صانع آخر، وهو محال وكل من كان غنيًّا فإنه لا بد أن يكون فردًا منزهًا عن الأجزاء والأبعاض، وكل من كان كذلك امتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه، والولد عبارة عن أن ينفصل جزء من أجزاء الإنسان، ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله، وإذا كان هذا محالاً ثبت أن كونه تعالى غنيًّا يمنع ثبوت الولد له.

الحجة الثانية: أنه تعالى غني وكل من كان غنيًّا كان قديمًا أزليًّا باقيًا سرمديًّا، وكل من كان كذلك، امتنع عليه الانقراض والانقضاء، والولد إنما يحصل للشيء الذي ينقضي، وينقرض، فيكون ولده قائمًا مقامه، فثبت أن كونه تعالى غنيًّا، يدل على أنه يمتنع أن يكون له ولد.

الحجة الثالثة: أنه تعالى غني وكل من كان غنيًّا فإنه يمتنع أن يكون موصوفًا بالشهوة واللذة وإذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد.

الحجة الرابعة: أنه تعالى غني، وكل من كان غنيًا امتنع أن يكون له ولد، لأن اتخاذ الولد إنما يكون في حق من يكون محتاجًا حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة، فمن كان غنيًّا مطلقًا امتنع عليه اتخاذ الولد.

الحجة الخامسة: ولد الحيوان إنما يكون ولدًا له بشرطين: إذا كان مساويًا له في الطبيعة والحقيقة، ويكون ابتداء وجوده وتكونه منه، وهذا في حق الله تعالى محال، لأنه تعالى غني مطلقًا، وكل من كان غنيًّا مطلقًا كان واجب الوجود لذاته، فلو كان لواجب الوجود ولد، لكان ولده مساويًا له. فيلزم أن يكون ولد واجب الوجود أيضًا واجب الوجود، لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره، وإذا لم يكن متولدًا من غيره لم يكن ولدًا، فثبت أن كونه تعالى غنيًّا من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا ولد له، وهذه الثلاثة مع الثلاثة الأول في غاية القوة.

الحجة السادسة: أنه تعالى غني، وكل من كان غنيًّا امتنع أن يكون له أب وأم، وكل من تقدس عن الوالدين وجب أن يكون مقدسًا عن الأولاد.

فإن قيل: يشكل هذا بالوالد الأول؟

قلنا: الوالد الأول لا يمتنع كونه ولدًا لغيره، لأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الوالد الأول من أبوين يقدمانه، أما الحق سبحانه فإنه يمتنع افتقاره إلى الأبوين، وإلا لما كان غنيًّا مطلقًا.

الحجة السابعة: إنه تعالى غني مطلقًا، وكل من كان غنيًّا مطلقًا امتنع أن يفتقر في إحداث الأشياء إلى غيره.

إذا ثبت هذا فنقول: هذا الولد، إما أن يكون قديمًا أو حادثًا، فإن كان قديمًا فهو واجب الوجود

لذاته، إذ لو كان ممكن الوجود لافتقر إلى المؤثر، وافتقار القديم إلى المؤثر يقتضي إيجاد الموجود وهو محال، وإذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولدًا لغيره، بل كان موجودًا مستقلاً بنفسه، وأما إن كان هذا الولد حادثًا والحق سبحانه غني مطلقًا فكان قادرًا على إحداثه ابتداء من غير تشريك شيء آخر، فكان هذا عبدًا مطلقًا، ولم يكن ولدًا، فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله: ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ الدالة على أنه يمتنع أن يكون له ولد.

أما قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فاعلم أنه نظير قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] وحاصله يرجع إلى أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن، وكل ممكن محتاج، وكل محتاج محدث، فكل ما سوى الواحد الأحد الحق محدث، والله تعالى محدثه وخالقه وموجده وذلك يدل على فساد القول بإثبات الصاحبة والولد، ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا إليه، عطف عليهم بالإنكار والتوبيخ فقال: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ منبهًا بهذا على أنه لا حجة عندهم في ذلك ألبتة. ثم بالغ في ذلك الإنكار فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقد ذكرنا أن هذه الآية يحتج بها في إبطال التقليد في أصول الديانات ونفاة القياس، وأخبار الآحاد قد يحتجون بها في إبطال هذين الأصلين وقد سبق الكلام فيه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن بالدليل القاهر أن إثبات الولد لله تعالى قول باطل ثم بيّن أنه ليس لهذا القائل دليل على صحة قوله، فقد ظهر أن ذلك المذهب افتراء على الله ونسبه لما لا يليق به إليه، فبيّن أن من هذا حاله فإنه لا يفلح ألبتة ألا ترى أنه تعالى قال في أول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] وقال في آخر هذه السورة: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

واعلم أن قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ يدخل فيه هذه الصورة ولكنه لا يختص بهذه الصورة بل كل من قال في ذات الله تعالى وفي صفاته قولاً بغير علم وبغير حجة بينة كان داخلاً في هذا الوعيد، ومعنى قوله: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ قد ذكرناه في أول سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وبالجملة فالفلاح عبارة عن الوصول إلى المقصود والمطلوب، فمعنى أنه لا يفلح هو أنه لا ينجح في سعيه ولا يفوز بمطلوبه بل خاب وخسر، ومن الناس من إذا فاز بشيء من المطالب العاجلة والمقاصد الخسيسة، ظن أنه قد فاز بالمقصد الأقصى، والله سبحانه أزال هذا الخيال بأن قال: إن ذلك المقصود الخسيس متاع قليل في الدنيا، ثم لا بد من الموت، وعند الموت لا بد من الرجوع إلى الله وعند هذا الرجوع لا بد من

أن يذيقه العذاب الشديد بسبب ذلك الكفر المتقدم، وهذا كلام في غاية الانتظام ونهاية الحسن والجزالة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

اعلم أنه سبحانه لما بالغ في تقرير الدلائل والبينات، وفي الجواب عن الشبه والسؤالات، شرع بعد ذلك في بيان قصص الأنبياء عليهم السلام لوجوه:

أحدها: أن الكلام إذا أطال في تقرير نوع من أنواع العلوم، فربما حصل نوع من أنواع الملالة فإذا انتقل الإنسان من ذلك الفن من العلم إلى فن آخر، انشرح صدره وطاب قلبه ووجد في نفسه رغبة جديدة وقوة حادثة وميلاً قويًا.

وثانيها: ليكون للرسول عليه الصلاة والسلام ولأصحابه أسوة بمن سلف من الأنبياء، فإن الرسول إذا سمع أن معاملة هؤلاء الكفار مع كل الرسل ما كانت إلا على هذا الوجه خف ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمَّت خفت.

وثالثها: أن الكفار إذا سمعوا هذه القصص، وعلموا أن الجهال، وإن بالغوا في إيذاء الأنبياء المتقدمين إلا أن الله تعالى أعانهم بالآخرة ونصرهم وأيدهم وقهر أعداءهم، كان سماع هؤلاء الكفار لأمثال هذه القصص سببًا لانكسار قلوبهم، ووقوع الخوف والوجل في صدورهم، وحينئذ يقللون من أنواع الإيذاء والسفاهة.

ورابعها: أنا قد دللنا على أن محمدًا عليه الصلاة والسلام لما لم يتعلم علمًا، ولم يطالع كتابًا ثم ذكر هذه الأقاصيص من غير تفاوت، ومن غير زيادة ومن غير نقصان، دل ذلك على أنه ﷺ إنما عرفها بالوحي والتنزيل.

واعلم أنه تعالى ذكر في هذه السورة من قصص الأنبياء عليهم السلام ثلاثة:

فالقصة الأولى: قصة نوح عليه السلام، وهي المذكورة في هذه الآية.

وفيها وجهان من الفائدة:

الأول: أن قوم نوح عليه السلام لما أصروا على الكفر والجحد عجل الله هلاكهم بالغرق فذكر الله تعالى قصتهم لتصير تلك القصة عبرة لهؤلاء الكفار، وداعية إلى مفارقة الجحد بالتوحيد والنبوة.

والثاني: أن كفار مكة كانوا يستعجلون العذاب الذي يذكره الرسول عليه السلام لهم وكانوا

يقولون له: كذبت، فإنه ما جاءنا هذا العذاب، فالله تعالى ذكر لهم قصة نوح عليه السلام لأنه عليه السلام كان يخوفهم بهذا العذاب وكانوا يكذبونه فيه، ثم بالآخرة وقع كما أخبر فكذا ههنا.

المسألة الثانية: أن نوحًا عليه السلام قال لقومه: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ وهذا جملة من الشرط والجزاء، أما الشرط فهو مركب من قيدين:

القيد الأول: قوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ قال الواحدي في (البسيط): يقال كَبِرَ يَكْبَرُ كِبَرًا في السن، وكَبُر الأمر والشيء إذا عظم يَكْبُرُ كِبَرًا وكُبَّارة. قال ابن عباس: ثقل عليكم وشق عليكم وعظم أمره عندكم والمَقام بفتح الميم مصدر كالإقامة. يقال: أقام بين أظهرهم مقامًا وإقامة، والمُقام بضم الميم الموضع الذي يقام فيه، وأراد بالمُقام ههنا مكثه ولبثه فيهم وبالجملة فقوله: ﴿كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ جار مجرى قولهم: فلان ثقيل الظل.

واعلم أن سبب هذا الثقل أمران: أحدهما: أنه عليه السلام مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا. والثاني: أن أولئك الكفار كانوا قد ألفوا تلك المذاهب الفاسدة والطرائق الباطلة والغالب أن من ألف طريقة في الدين فإنه يثقل عليه أن يدعى إلى خلافها، ويذكر له ركاكتها، فإن اقترن بذلك طول مدة الدعاء كان أثقل وأشد كراهية، فإن اقترن به إيراد الدلائل القاهرة على فساد ذلك المذهب كانت النفرة أشد فهذا هو السبب في حصول ذلك الثقل.

والقيد الثاني: هو قوله: ﴿وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾.

واعلم أن الطباع المشغوفة بالدنيا الحريصة على طلب اللذات العاجلة تكون شديدة النفرة عن الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والمنكرات، قوية الكراهة لسماع ذكر الموت وتقبيح صورة الدنيا ومن كان كذلك فإنه يستثقل الإنسان الذي يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر وفي الآية وجه آخر وهو أن يكون قوله: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ معناه أنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم ظاهرًا وكلامهم مسموعًا، كما يحكى عن عيسى عليه السلام أنه كان يعظ الحواريين قائمًا وهم قعود.

واعلم أن هذا هو الشرط المذكور في هذه الآية، أما الجزاء:

ففيه قولان:

القول الأول: أن الجزاء هو قوله: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ يعني أن شدة بغضكم لي تحملكم على الإقدام على إيذائي وأنا لا أقابل ذلك الشر إلا بالتوكل على الله.

واعلم أنه عليه السلام كان أبدًا متوكلاً على الله تعالى، وهذا اللفظ يوهم أنه توكل على الله في هذه الساعة، لكن المعنى أنه إنما توكل على الله في دفع هذا الشر في هذه الساعة.

والقول الثاني: وهو قول الأكثرين إن جواب الشرط هو قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ كلام اعترض به بين الشرط وجوابه كما تقول في الكلام إن كنت

أنكرت علي شيئًا فالله حسبي فاعمل ما تريد، واعلم أن جواب هذا الشرط مشتمل على قيود خمسة على الترتيب:

القيد الأول: قوله: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: قال الفراء: الإجماع: الإعداد والعزيمة على الأمر، وأنشد:

يَا لَيتَ شِعْرِي وَالْمُنَى لاَ يَنْفَعُ هَلْ أَغْدُوَنْ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعُ (١)

فإذا أردت جمع التفرق قلت: جمعتُ القوم فهم مجموعون، وقال أبو الهيثم: أجمع أمره، أي جعله جميعًا بعد ما كان متفرقًا، قال: وتفرقه، أي جعل يتدبره فيقول: مرة أفعل كذا ومرة أفعل كذا فلما عزم على أمر واحد فقد جمعه، أي جعله جميعًا، فهذا هو الأصل في الإجماع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ﴾[يوسف: ١٠٢] ثم صار بمعنى العزم حتى وصل بـ(على) فقيل: أجمعت على الأمر، أي عزمت عليه، والأصل أجمعت الأمر.

البحث الثاني: روى الأصمعي عن نافع (فَاجْمَعُوا أَمْرَكُم) بوصل الألف من الجمع وفيه وجهان: الأول: قال أبو علي الفارسي: فاجمعوا ذوي الأمر منكم فحذف المضاف، وجرى على المضاف إليه ما كان يجري على المضاف لو ثبت. الثاني: قال ابن الأنباري: المراد من الأمر ههنا وجوه كيدهم ومكرهم، فالتقدير: ولا تدعوا من أمركم شيئًا إلا أحضرتموه.

والقيد الثاني: قوله: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾.

وفيه أبحاث:

البحث الأول: الواو ههنا بمعنى مع، والمعنى: فأجمعوا أمركم مع شركائكم، ونظيره قولهم لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها، ولو خليت نفسك والأسد لأكلك.

البحث الثاني: يحتمل أن يكون المراد من الشركاء: الأوثان التي سموها بالآلهة، ويحتمل أن يكون المراد منها من كان على مثل قولهم ودينهم، فإن كان المراد هو الأول فإنما حث الكفار على الاستعانة بالأوثان بناء على مذهبهم من أنها تضر وتنفع، وإن كان المراد هو الثاني فوجه الاستعانة بها ظاهر.

البحث الثالث: قرأ الحسن وجماعة من القراء (وشُرَكَاؤُهم) بالرفع عطفًا على الضمير المرفوع، والتقدير: فأجمعوا أنتم وشركاؤكم. قال الواحدي: وجاز ذلك من غير تأكيد الضمير كقوله: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[البقرة: ٣٥] لأن قوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾ فصل بين الضمير وبين المنسوق، فكان كالعوض من التوكيد وكان الفراء يستقبح هذه القراءة، لأنها توجب أن يكتب وشركاؤكم بالواو، وهذا الحرف غير موجود في المصاحف.

---

(١) هذا البيت لذي الرمة وقد تقدمت ترجمته.

القيد الثالث: قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ قال أبو الهيثم: أي مبهمًا من قولهم غم علينا الهلال فهو مغموم: إذا التبس قال طرفة:

لَعَمْرِيَ مَا أَمْرِي عَلَيَّ بِغُمَّةٍ ... نَهَارِي وَلاَ لَيْلِي عَلَيَّ بِسَرْمَدِ[1]

وقال الليث: إنه لفي غمة من أمره إذا لم يهتد له. قال الزجاج: أي ليكن أمركم ظاهرًا منكشفًا.

القيد الرابع: قوله: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾.

وفيه بحثان:

البحث الأول: قال ابن الأنباري: معناه ثم امضوا إلي بمكروهكم وما توعدونني به، تقول العرب: قضى فلان، يريدون مات ومضى، وقال بعضهم: قضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه وبه يسمى القاضي، لأنه إذا حكم فقد فرغ فقوله: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي افرغوا من أمركم وامضوا ما في أنفسكم واقطعوا ما بيني وبينكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾[الإسراء: ٤] أي أعلمناهم إعلامًا قاطعًا، قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾[الحجر: ٦٦] قال القفال رحمه الله تعالى: ومجاز دخول كلمة (إلى) في هذا الموضع من قولهم برئت إليك وخرجت إليك من العهد، وفيه معنى الإخبار فكأنه تعالى قال: ثم اقضوا ما يستقر رأيكم عليه محكمًا مفروغًا منه.

البحث الثاني: قرئ (ثُمَّ أَفْضُوا إِلَيَّ) بالفاء بمعنى ثم انتهوا إِلَيَّ بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى الفضاء، أي أصحروا به إلي وأبرزوه إلي.

القيد الخامس: قوله: ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ معناه لا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه فهذا هو تفسير هذه الألفاظ، وقد نظم القاضي هذا الكلام على أحسن الوجوه فقال إنه عليه السلام قال: «**فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ فَعَلَى اللَّه تَوَكَّلْتُ فَإِنِّي وَاثِقٌ بِوَعْدِ اللَّه جَازِمٌ بِأَنَّهُ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ وَلاَ تَظُنُّوا أَنَّ تَهْدِيدَكُمْ إِيَّايَ بِالْقَتْلِ وَالْإِيذَاءِ يَمْنَعُنِي مِنَ الدُّعَاءِ إِلَى اللَّه تَعَالَى**» ثم إنه عليه السلام أورد ما يدل على صحة دعوته فقال: «**فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ**» فكأنه يقول لهم أجمعوا كل ما تقدرون عليه من الأسباب التي توجب حصول مطلوبكم ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرهم أن يضموا إلى أنفسهم شركاءهم الذين كانوا يزعمون أن حالهم يقوى بمكانتهم وبالتقرب إليهم، ثم لم يقتصر على هذين بل ضم إليهما ثالثًا وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ وأراد أن يبلغوا فيه كل غاية في المكاشفة والمجاهرة، ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضم إليها: رابعًا فقال: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ والمراد أن وجهوا كل تلك الشرور إلي، ثم ضم إلى ذلك خامسًا. وهو قوله: ﴿وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ أي عجلوا ذلك بأشد ما تقدرون عليه من غير إنظار فهذا آخر هذا الكلام ومعلوم أن مثل هذا الكلام يدل على أنه عليه السلام كان قد بلغ الغاية في التوكل على الله تعالى وأنه كان قاطعًا بأن كيدهم لا يصل إليه ومكرهم لا ينفذ فيه.

(١) تقدمت ترجمة طرفة.

وأما قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فقال المفسرون: هذا إشارة إلى أنه ما أخذ منهم مالاً على دعوتهم إلى دين الله تعالى ومتى كان الإنسان فارغًا من الطمع كان قوله أقوى تأثيرًا في القلب. وعندي فيه وجه آخر وهو أن يقال: إنه عليه السلام بيَّن أنه لا يخاف منهم بوجه من الوجوه، وذلك لأن الخوف إنما يحصل بأحد شيئين إما بإيصال الشر أو بقطع المنافع، فبيَّن فيما تقدم أنه لا يخاف شرهم وبيَّن بهذه الآية أنه لا يخاف منهم بسبب أن يقطعوا عنه خيرًا، لأنه ما أخذ منهم شيئًا فكان يخاف أن يقطعوا منه خيرًا.

ثم قال: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وفيه قولان:

الأول: أنكم سواء قبلتم دين الإسلام أو لم تقبلوا، فأنا مأمور بأن أكون على دين الإسلام.

والثاني: أني مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إلي لأجل هذه الدعوة. وهذا الوجه أليق بهذا الموضع، لأنه لما قال: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ بيَّن لهم أنه مأمور بالاستسلام لكل ما يصل إليه في هذا الباب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى الكلمات التي جرت بين نوح وبين أولئك الكفار، ذكر ما إليه رجعت عاقبة تلك الواقعة، أما في حق نوح وأصحابه فأمران: أحدهما: أنه تعالى نجاهم من الكفار. الثاني: أنه جعلهم خلائف بمعنى أنهم يخلفون من هلك بالغرق، وأما في حق الكفار فهو أنه تعالى أغرقهم وأهلكهم. وهذه القصة إذا سمعها من صدق الرسول ومن كذب به كانت زجرًا للمكلفين من حيث يخافون أن ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح، وتكون داعية للمؤمنين على الثبات على الإيمان، ليصلوا إلى مثل ما وصل إليه قوم نوح، وهذه الطريقة في الترغيب والتحذير إذا جرت على سبيل الحكاية عمن تقدم كانت أبلغ من الوعيد المبتدأ، وعلى هذا الوجه ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء عليهم السلام.

وأما تفاصيل هذه القصة فهي مذكورة في سائر السور.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

اعلم أن المراد: ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً ولم يسمهم، وكان منهم هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين بالبينات، وهي المعجزات القاهرة، فأخبر تعالى عنهم أنهم جروا على منهاج قوم نوح في التكذيب، ولم يزجرهم ما بلغهم من إهلاك الله تعالى

المكذبين من قوم نوح عن ذلك، فلهذا قال: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ وليس المراد عين ما كذبوا به، لأن ذلك لم يحصل في زمانه بل المراد بمثل ما كذبوا به من البينات، لأن البينات الظاهرة على الأنبياء عليهم السلام أجمع كأنها واحدة.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ واحتج أصحابنا على أن الله تعالى قد يمنع المكلف عن الإيمان بهذه الآية وتقريره ظاهر. قال القاضي: الطبع غير مانع من الإيمان بدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] ولو كان هذا الطبع مانعًا لما صح هذا الاستثناء. والجواب: أن الكلام في هذه المسألة قد سبق على الاستقصاء في تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] فلا فائدة في الإعادة.

القصة الثانية: قصة موسى عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

اعلم أن هذا الكلام غني عن التفسير وفيه سؤال واحد، وهو أن القوم لما قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فكيف حكى موسى عليه السلام أنهم قالوا: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ على سبيل الاستفهام؟ وجوابه: أن موسى عليه السلام ما حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ بل قال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ ما تقولون، ثم حذف عنه مفعول ﴿أَتَقُولُونَ﴾ لدلالة الحال عليه، ثم قال مرة أخرى ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ وهذا استفهام على سبيل الإنكار، ثم احتج على أنه ليس بسحر، وهو قوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ يعني أن حاصل صنعهم تخييل وتمويه ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ وأما قلب العصا حيّة وفلق البحر، فمعلوم بالضرورة أنه ليس من باب التخييل والتمويه؛ فثبت أنه ليس بسحر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى حكى عن فرعون وقومه أنهم لم يقبلوا دعوة موسى عليه

السلام، وعللوا عدم القبول بأمرين: الأول: قوله: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ قال الواحدي: اللفت في أصل اللغة: الصرف عن أمر، وأصله اللَّيّ يقال: لفت عنقه إذا لواها، ومن هذا يقال: التفت إليه، أي أمال وجهه إليه. قال الأزهري: لفت الشيء وفتله إذا لواه، وهذا من المقلوب.

واعلم أن حاصل هذا الكلام أنهم قالوا: لا نترك الدين الذي نحن عليه، لأنا وجدنا آباءنا عليه، فقد تمسكوا بالتقليد ودفعوا الحجة الظاهرة بمجرد الإصرار.

والسبب الثاني: في عدم القبول قوله: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: المعنى ويكون لكما الملك والعز في أرض مصر، والخطاب لموسى وهارون. قال الزجاج: سمى الملك كبرياء، لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا، وأيضًا فالنبي إذا اعترف القوم بصدقه صارت مقاليد أمر أمته إليه، فصار أكبر القوم.

واعلم أن السبب الأول: إشارة إلى التمسك بالتقليد، والسبب الثاني: إشارة إلى الحرص على طلب الدنيا، والجد في بقاء الرياسة، ولما ذكر القوم هذين السببين صرحوا بالحكم وقالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

واعلم أن القوم لما ذكروا هذه المعاني حاولوا بعد ذلك، وأرادوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بأنواع من السحر، ليظهروا عند الناس أن ما أتى به موسى من باب السحر، فجمع فرعون السحرة وأحضرهم، فـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾.

فإن قيل: كيف أمرهم بالكفر والسحر والأمر بالكفر كفر؟

قلنا: إنه عليه السلام أمرهم بإلقاء الحبال والعصي، ليظهر للخلق أن ما أتوا به عمل فاسد وسعي باطل، لا على طريق أنه عليه السلام أمرهم بالسحر، فلما ألقوا حبالهم وعصيهم قال لهم موسى: ما جئتم به هو السحر الباطل، والغرض منه أن القوم قالوا لموسى: إن ما جئت به سحر، فذكر موسى عليه السلام أن ما ذكرتموه باطل، بل الحق أن الذي جئتم به هو السحر والتمويه الذي يظهر بطلانه، ثم أخبرهم بأن الله تعالى يحق الحق ويبطل الباطل، وقد أخبر الله تعالى في سائر السور أنه كيف أبطل ذلك السحر، وذلك بسبب أن ذلك الثعبان قد تلقف كل تلك الحبال والعصي.

المسألة الثانية: قوله: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ ما ههنا موصولة بمعنى الذي وهي مرتفعة بالابتداء، وخبرها السحر، قال الفراء: وإنما قال: ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بالألف واللام، لأنه جواب كلام سبق ألا ترى أنهم قالوا: لما جاءهم موسى هذا سحر، فقال لهم موسى: بل ما جئتم به السحر، فوجب دخول الألف واللام، لأن النكرة إذا عادت عادت معرفة، يقول الرجل لغيره: لقيت رجلًا فيقول له: من الرجل فيعيده بالألف واللام، ولو قال له من رجل لم يقع في فهمه أنه سأله عن الرجل الذي ذكره له. وقرأ أبو عمرو: ﴿ءَآلسِّحْرُ﴾ بالاستفهام، وعلى هذه القراءة ما

استفهامية مرتفع بالابتداء، وجئتم به في موضع الخبر كأنه قيل: أي شيء جئتم به. ثم قال على وجه التوبيخ والتقريع: (آلسحر) كقوله تعالى:

﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾[المائدة: ١١٦] والسحر بدل من المبتدأ، ولزم أن يلحقه الاستفهام ليساوي المبدل منه في أنه استفهام، كما تقول: كم مالك أعشرون أم ثلاثون؟ فجعلت أعشرون بدلاً من كم، ولا يلزم أن يضمر للسحر خبر، لأنك إذا أبدلته من المبتدأ صار في موضعه وصار ما كان خبرًا عن المبدل منه خبرًا عنه.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي سيهلكه ويظهر فضيحة صاحبه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يقويه ولا يكمله.

ثم قال: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ومعنى إحقاق الحق إظهارُه وتقويتُه. وقوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي بوعده موسى. وقيل بما سبق من قضائه وقدره، وفي كلمات الله أبحاث غامضة عميقة عالية، وقد ذكرناها في بعض مواضع من هذا الكتاب.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

واعلم أنه تعالى بيَّن فيما تقدم ما كان من موسى عليه السلام من المعجزات العظيمة وما ظهر من تلقف العصا لكل ما أحضروه من آلات السحر، ثم إنه تعالى بيَّن أنهم مع مشاهدة المعجزات العظيمة ما آمن به منهم إلا ذرية من قومه، وإنما ذكر تعالى ذلك تسلية لمحمدﷺ، لأنه كان يغتم بسبب إعراض القوم عنه واستمرارهم على الكفر، فبيَّن أن له في هذا الباب بسائر الأنبياء أسوة، لأن الذي ظهر من موسى عليه السلام كان في الإعجاز في مرأى العين أعظم، ومع ذلك فما آمن به منهم إلا ذرية. واختلفوا في المراد بالذرية على وجوه:

الأول: أن الذرية ههنا معناها تقليل العدد. قال ابن عباس: لفظ الذرية يعبر به عن القوم على وجه التحقير والتصغير، ولا سبيل إلى حمله على التقدير على وجه الإهانة في هذا الموضع فوجب حمله على التصغير بمعنى قلة العدد.

الثاني: قال بعضهم: المراد أولاد من دعاهم، لأن الآباء استمروا على الكفر، إما لأن قلوب الأولاد ألين أو دواعيهم على الثبات على الكفر أخف.

الثالث: أن الذرية قوم كان آباؤهم من قوم فرعون وأمهاتهم من بني إسرائيل.

الرابع: الذرية من آل فرعون آسية امرأة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وماشطتها. وأما الضمير في قوله: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ فقد اختلفوا أن المراد من قوم موسى أو من قوم فرعون، لأن ذكرهما جميعًا قد تقدم والأظهر أنه عائد إلى موسى، لأنه أقرب المذكورين ولأنه نقل أن الذين آمنوا به كانوا من بني إسرائيل.

أما قوله: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ .

ففيه أبحاث:

البحث الأول: أن أولئك الذين آمنوا بموسى كانوا خائفين من فرعون جدًّا، لأنه كان شديد البطش وكان قد أظهر العداوة مع موسى، فإذا علم ميل القوم إلى موسى كان يبالغ في إيذائهم، فلهذا السبب كانوا خائفين منه.

البحث الثاني: إنما قال: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ مع أن فرعون واحد لوجوه: الأول: أنه قد يعبر عن الواحد بلفظ الجمع، والمراد التعظيم قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] الثاني: أن المراد بفرعون آل فرعون. الثالث: أن هذا من باب حذف المضاف كأنه أريد بفرعون آل فرعون.

ثم قال: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي يصرفهم عن دينهم بتسليط أنواع البلاء عليهم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لغالب فيها قاهر ﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ قيل: المراد أنه كثير القتل كثير التعذيب لمن يخالفه في أمر من الأمور، والغرض منه بيان السبب في كون أولئك المؤمنين خائفين، وقيل: إنما كان مسرفًا لأنه كان من أخس العبيد فادعى الإلهية.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: أن قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ جزاء معلق على شرطين: أحدهما متقدم والآخر متأخر، والفقهاء قالوا: المتأخر يجب أن يكون متقدمًا والمتقدم يجب أن يكون متأخرًا ومثاله أن يقول الرجل لامرأته: إن دخلت الدار فأنت طالق إن كلمت زيدًا وإنما كان الأمر كذلك، لأن مجموع قوله: إن دخلت الدار فأنت طالق، صار مشروطًا بقوله: إن كلمت زيدًا، والمشروط متأخر عن الشرط، وذلك يقتضي أن يكون المتأخر في اللفظ متقدمًا في المعنى، وأن يكون المتقدم في اللفظ متأخرًا في المعنى، والتقدير: كأنه يقول لامرأته حال ما كلمت زيدًا: إن دخلت الدار فأنت طالق، فلو حصل هذا التعليق قبل إن كلمت زيدًا لم يقع الطلاق.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطًا لأن يصيروا مخاطبين بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل، والأمر كذلك، لأن

الإسلام عبارة عن الاستسلام، وهو إشارة إلى الانقياد للتكاليف الصادرة عن الله تعالى وإظهار الخضوع وترك التمرد، وأما الإيمان فهو عبارة عن صيرورة القلب عارفًا بأن واجب الوجود لذاته واحد وأن ما سواه محدث مخلوق تحت تدبيره وقهره وتصرفه، وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى الله تعالى ويحصل في القلب نور التوكل على الله فهذه الآية من لطائف الأسرار، والتوكل على الله عبارة عن تفويض الأمور بالكلية إلى الله تعالى والاعتماد في كل الأحوال على الله تعالى.

واعلم أن من توكل على الله في كل المهمات كفاه الله تعالى كل الملمات لقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

المسألة الثانية: أن هذا الذي أمر موسى قومه به وهو التوكل على الله هو الذي حكاه الله تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١] وعند هذا يظهر التفاوت بين الدرجتين لأن نوحًا عليه السلام وصف نفسه بالتوكل على الله تعالى، وموسى عليه السلام أمر قومه بذلك فكان نوح عليه السلام تامًّا، وكان موسى عليه السلام فوق التمام.

المسألة الثالثة: إنما قال: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ ولم يقل توكلوا عليه، لأن الأول يفيد الحصر كأنه عليه السلام أمرهم بالتوكل عليه ونهاهم عن التوكل على الغير، والأمر كذلك، لأنه لما ثبت أن كل ما سواه فهو مُلْكُه ومِلْكُه وتحت تصرفه وتسخيره وتحت حكمه وتدبيره، امتنع في العقل أن يتوكل الإنسان على غيره، فلهذا السبب جاءت هذه الكلمة بهذه العبارة، ثم بيَّن تعالى أن موسى عليه السلام لما أمرهم بذلك قبلوا قوله: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي توكلنا عليه، ولا نلتفت إلى أحد سواه، ثم لما فعلوا ذلك اشتغلوا بالدعاء، فطلبوا من الله تعالى شيئين: أحدهما: أن قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وفيه وجوه:

الأول: أن المراد لا تفتن بنا فرعون وقومه؛ لأنك لو سلطتهم علينا لوقع في قلوبهم أنا لو كنا على الحق لما سلطتهم علينا، فيصير ذلك شبهة قوية في إصرارهم على الكفر فيصير تسليطهم علينا فتنة لهم.

الثاني: أنك لو سلطتهم علينا لاستوجبوا العقاب الشديد في الآخرة وذلك يكون فتنة لهم.

الثالث: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي موضع فتنة لهم، أي موضع عذاب لهم.

الرابع: أن يكون المراد من الفتنة: المفتون، لأن إطلاق لفظ المصدر على المفعول جائز، كالخلق بمعنى المخلوق، والتكوين بمعنى المكون، والمعنى: لا تجعلنا مفتونين، أي لا تمكنهم من أن يحملونا بالظلم والقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذي قبلناه، وهذا التأويل متأكد بما ذكره الله تعالى قبل هذه الآية وهو قوله: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣] وأما المطلوب الثاني في هذا الدعاء فهو قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم، وذلك لأنا إن حملنا قولهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ على أنهم إن سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في أن هذا الدين باطل فتضرعوا إلى الله تعالى في أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لأنفسهم، وذلك يدل على أن عنايتهم بمصالح دين أعدائهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم وإن حملناه على أَنْ لا يُمَكِّنَ الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضًا دليلاً على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة.

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

اعلم أنه لما شرح خوف المؤمنين من الكافرين وما ظهر منهم من التوكل على الله تعالى أتبعه بأن أَمَرَ موسى وهارون باتخاذ المساجد والإقبال على الصلوات، يقال: تبوأ المكان، أي اتخذه مُبَوَّأً كقوله: توطنه إذا اتخذه موطنًا، والمعنى: اجعلا بمصر بيوتًا لقومكما ومرجعًا ترجعون إليه للعبادة والصلاة.

ثم قال: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ .

وفيه أبحاث:

البحث الأول: من الناس من قال: المراد من البيوت المساجد كما في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦] ومنهم من قال: المراد مطلق البيوت، أما الأولون فقد فسروا القبلة بالجانب الذي يستقبل في الصلاة، ثم قالوا: والمراد من قوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعلوا بيوتكم مساجد تستقبلونها لأجل الصلاة، وقال الفراء: واجعلوا بيوتكم قبلة، أي إلى القبلة، وقال ابن الأنباري: واجعلوا بيوتكم قبلة أي قبلاً يعني مساجد فأطلق لفظ الوحدان، والمراد الجمع، واختلفوا في أن هذه القبلة أين كانت؟ فظاهر أن لفظ القرآن لا يدل على تعيينه، إلا أنه نقل عن ابن عباس أنه قال: كانت الكعبة قبلة موسى عليه السلام. وكان الحسن يقول: الكعبة قبلة كل الأنبياء، وإنما وقع العدول عنها بأمر الله تعالى في أيام الرسول عليه السلام بعد الهجرة. وقال آخرون: كانت تلك القبلة جهة بيت المقدس. وأما القائلون بأن المراد من لفظ البيوت المذكورة في هذه الآية مطلق البيت، فهؤلاء لهم في تفسير قوله: ﴿قِبْلَةً﴾ وجهان:

الأول: المراد بجعل تلك البيوت قبلة أي متقابلة، والمقصود منه حصول الجمعية واعتضاد البعض بالبعض.

وقال آخرون: المراد: واجعلوا دوركم قبلة، أي صلوا في بيوتكم.

البحث الثاني: أنه تعالى خص موسى وهارون في أول هذه الآية بالخطاب فقال: ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ ثم عمم هذا الخطاب فقال: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ والسبب فيه أنه تعالى أمر موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بيوتًا للعبادة، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم جاء الخطاب بعد ذلك عامًا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، لأن ذلك واجب على الكل، ثم خص موسى عليه السلام في آخر الكلام بالخطاب فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك لأن الغرض الأصلي من جميع العبادات حصول هذه البشارة، فخص الله تعالى موسى بها، ليدل بذلك على أن الأصل في الرسالة هو موسى عليه السلام وأن هارون تبع له.

البحث الثالث: ذكر المفسرون في كيفية هذه الواقعة وجوهًا ثلاثة:

الأول: أن موسى عليه السلام ومن معه كانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم خفية من الكفرة، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على هذه الحالة في أول الإسلام في مكة.

الثاني: قيل: إنه تعالى لما أرسل موسى إليهم أمر فرعون بتخريب مساجد بني إسرائيل ومنعهم من الصلاة، فأمرهم الله تعالى أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفًا من فرعون.

الثالث: أنه تعالى لما أرسل موسى إليهم وأظهر فرعون تلك العداوة الشديدة أمر الله تعالى موسى وهارون وقومهما باتخاذ المساجد على رغم الأعداء وتكفل تعالى أنه يصونهم عن شر الأعداء.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

اعلم أن موسى لما بالغ في إظهار المعجزات الظاهرة القاهرة ورأى القوم مصرين على الجحود والعناد والإنكار، أخذ يدعو عليهم، ومن حق من يدعو على الغير أن يذكر أولاً سبب إقدامه على تلك الجرائم، وكان جرمهم هو أنهم لأجل حبهم الدنيا تركوا الدين، فلهذا السبب قال موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ والزينة: عبارة عن الصحة، والجمال، واللباس، والدواب، وأثاث البيت، والمال، وما يزيد على هذه الأشياء من الصامت والناطق.

ثم قال: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وعاصم ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء، وقرأ الباقون بفتح الياء.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بهذه الآية على أنه تعالى يضل الناس ويريد إضلالهم وتقريره من وجهين:

الأول: أن اللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ لام التعليل، والمعنى: أن موسى قال يا رب العزة إنك أعطيتهم هذه الزينة والأموال لأجل أن يضلوا، فدل هذا على أنه تعالى قد يريد إضلال المكلفين.

الثاني: أنه قال: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فقال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وذلك أيضًا يدل على المقصود. قال القاضي: لا يجوز أن يكون المراد من هذه الآية ما ذكرتم، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه ثبت أنه تعالى منزه عن فعل القبيح وإرادة الكفر قبيحة. **والثاني**: أنه لو أراد ذلك لكان الكفار مطيعين لله تعالى بسبب كفرهم، لأنه لا معنى للطاعة إلا الإتيان بما يوافق الإرادة ولو كانوا كذلك لما استحقوا الدعاء عليهم بطمس الأموال وشد القلوب. **والثالث**: أنا لو جوزنا أن يريد إضلال العباد، لجوزنا أن يبعث الأنبياء عليهم السلام للدعاء إلى الضلال، ولجاز أن يقوي الكذابين الضالين المضلين بإظهار المعجزات عليهم، وفيه هدم الدين وإبطال الثقة بالقرآن. **والرابع**: أنه لا يجوز أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] وأن يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] ثم إنه تعالى أراد الضلالة منهم وأعطاهم النعم لكي يضلوا، لأن ذلك كالمناقضة، فلا بد من حمل أحدهما على موافقة الآخر. **الخامس**: أنه لا يجوز أن يقال: إن موسى عليه السلام دعا ربه بأن يطمس على أموالهم لأجل أن لا يؤمنوا مع تشدده في إرادة الإيمان.

واعلم أنا بالغنا في تكثير هذه الوجوه في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

وإذا ثبت هذا فنقول: وجب تأويل هذه الكلمة، وذلك من وجوه: الأول: أن اللام في قوله ﴿لِيُضِلُّوا﴾ لام العاقبة كقوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] ولما كانت عاقبة قوم فرعون هو الضلال، وقد أعلمه الله تعالى، لا جرم عبر عن هذا المعنى بهذا اللفظ.

الثاني: أن قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ أي لئلا يضلوا عن سبيلك، فحذف لا لدلالة المعقول عليه كقوله: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء: ١٧٦] والمراد أن لا تضلوا، وكقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ١٧٢] والمراد لئلا تقولوا، ومثل هذا الحذف كثير في الكلام. الثالث: أن يكون موسى عليه السلام ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالإنكار، والتقدير: كأنك آتيتهم ذلك الغرض فإنهم لا ينفقون هذه الأموال إلا فيه وكأنه قال: آتيتهم زينة وأموالاً لأجل أن يضلوا عن سبيل الله ثم حذف حرف الاستفهام كما في قول الشاعر:

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامِ من الرباب خيالا[1]

أراد أكذبتك فكذا ههنا. الرابع: قال بعضهم: هذه اللام لام الدعاء وهي لام مكسورة تجزم المستقبل ويفتتح بها الكلام، فيقال: ليغفر الله للمؤمنين وليعذب الله الكافرين، والمعنى ربنا ابتلهم بالضلال عن سبيلك. الخامس: أن هذه اللام لام التعليل لكن بحسب ظاهر الأمر لا في نفس الحقيقة وتقريره أنه تعالى لما أعطاهم هذه الأموال وصارت تلك الأموال سببًا لمزيد البغي والكفر، أشبهت هذه الحالة حالة من أعطى المال لأجل الإضلال فورد هذا الكلام بلفظ التعليل لأجل هذا المعنى. السادس: بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦] في أول سورة البقرة أن الضلال قد جاء في القرآن بمعنى الهلاك يقال: ضَلَّ الماءُ في اللبن أي هلك فيه.

إذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ معناه: ليهلكوا ويموتوا، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٥٥] فهذا جملة ما قيل في هذا الباب.

واعلم أنا قد أجبنا عن هذه الوجوه مرارًا كثيرة في هذا الكتاب، ولا بأس بأن نعيد بعضها في هذا المقام فنقول: الذي يدل على أن حصول الإضلال من الله تعالى وجوه: الأول: أن العبد لا يقصد إلا حصول الهداية، فلما لم تحصل الهداية بل حصل الضلال الذي لا يريده، علمنا أن حصوله ليس من العبد بل من الله تعالى.

فإن قالوا: إنه ظن بهذا الضلال أنه هدى؟ فلا جرم قد أوقعه وأدخله في الوجود فنقول: فعلى هذا يكون إقدامه على تحصيل هذا الجهل بسبب الجهل السابق، فلو كان حصول ذلك الجهل السابق بسبب جهل آخر لزم التسلسل وهو محال، فثبت أن هذه الجهالات والضلالات لا بد من انتهائها إلى جهل أول وضلال أول، وذلك لا يمكن أن يكون بإحداث العبد وتكوينه لأنه كرهه وإنما أراد ضده، فوجب أن يكون من الله تعالى. الثاني: أنه تعالى لما خلق الخلق بحيث يحبون المال والجاه حبًا شديدًا لا يمكنه إزالة هذا الحب عن نفسه ألبتة، وكان حصول هذا الحب يوجب الإعراض عمن يستخدمه ويوجب التكبر عليه وترك الالتفات إلى قوله وذلك يوجب الكفر، فهذه الأشياء بعضها يتأدى إلى البعض تأديًا على سبيل اللزوم وجب أن يكون فاعل هذا الكفر هو الذي خلق الإنسان مجبولاً على حب المال والجاه. الثالث: وهو الحجة الكبرى أن القدرة بالنسبة إلى الضدين على السوية، فلا يترجح أحد الطرفين على الثاني إلا لمرجح، وذلك المرجح ليس من العبد وإلا لعاد الكلام فيه، فلا بد وأن يكون من الله تعالى،

---

(١) البيت ضمن قصيدة من البحر الكامل للشاعر الأخطَل وهو: غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو، أبو مالك، من بني تغلب ١٩- ١٩٠ هـ/ ٦٤٠-٧٠٨ م.

شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. اشتهر في عهد بني أمية بالشام، وأكثر من مدح ملوكهم. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير والفرزدق والأخطل.

وإذا كان كذلك كانت الهداية والإضلال من الله تعالى. الرابع: أنه تعالى أعطى فرعون وقومه زينة وأموالاً وقوى حب ذلك المال والجاه في قلوبهم. وأودع في طباعهم نفرة شديدة عن خدمة موسى عليه السلام والانقياد له، لا سيما وكان فرعون كالمنعم في حقه والمربي له والنفرة عن خدمة من هذا شأنه راسخة في القلوب، وكل ذلك يوجب إعراضهم عن قبول دعوة موسى عليه السلام وإصرارهم على إنكار صدقه، فثبت بالدليل العقلي أن إعطاء الله تعالى فرعون وقومه زينة الدنيا وأموال الدنيا لا بد وأن يكون موجبًا لضلالهم فثبت أن ما أشعر به ظاهر اللفظ فقد ثبت صحته بالعقل الصريح فكيف يمكن ترك ظاهر اللفظ في مثل هذا المقام وكيف يحسن حمل الكلام على الوجوه المتكلفة الضعيفة جدًّا.

إذا عرفت هذا فنقول: أما الوجه الأول: وهو حمل اللام على لام العاقبة فضعيف، لأن موسى عليه السلام ما كان عالمًا بالعواقب.

فإن قالوا: إن الله تعالى أخبره بذلك؟

قلنا: فلما أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون كان صدور الإيمان منهم محالاً، لأن ذلك يستلزم انقلاب خبر الله كذبًا وهو محال، والمفضي إلى المحال محال.

وأما الوجه الثاني: وهو قولهم يحمل قوله ﴿لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ على أن المراد لئلا يضلوا عن سبيلك فنقول: إن هذا التأويل ذكره أبو علي الجبائي في تفسيره. وأقول: إنه لما شرع في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] ثم نقل عن بعض أصحابنا أنه قرأ (فمن نفسك) على سبيل الاستفهام بمعنى الإنكار، ثم إنه استبعد هذه القراءة وقال إنها تقتضي تحريف القرآن وتغييره وتفتح باب تأويلات الباطنية وبالغ في إنكار تلك القراءة وهذا الوجه الذي ذكره ههنا شر من ذلك، لأنه قلب النفي إثباتًا والإثبات نفيًا وتجويزه يفتح باب أن لا يبقى الاعتماد على القرآن لا في نفيه ولا في إثباته وحينئذ يبطل القرآن بالكلية هذا بعينه هو الجواب عن قوله المراد منه الاستفهام بمعنى الإنكار، فإن تجويزه يوجب تجويز مثله في سائر المواطن، فلعله تعالى إنما قال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] على سبيل الإنكار والتعجب وأما بقية الجوابات فلا يخفى ضعفها.

ثم إنه تعالى حكى عن موسى عليه السلام أنه قال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ وذكرنا معنى الطمس عند قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النساء: ٤٧] والطمس: هو المسخ. قال ابن عباس رضي الله عنهما: بلغنا أن الدراهم والدنانير، صارت حجارة منقوشة كهيئتها صحاحًا وأنصافًا وأثلاثًا، وجعل سكرهم حجارة.

ثم قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان. قال الواحدي: وهذا دليل على أن الله تعالى يفعل ذلك بمن يشاء، ولولا ذلك لما حسن من موسى عليه السلام هذا السؤال.

ثم قال: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وفيه وجهان:

أحدهما: أنه يجوز أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ والتقدير: ربنا ليضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، وقوله: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ يكون اعتراضًا.

والثاني: يجوز أن يكون جوابًا لقوله: ﴿وَٱشْدُدْ﴾ والتقدير: اطبع على قلوبهم وقسها حتى لا يؤمنوا، فإنها تستحق ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وفيه وجهان: الأول: قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن موسى كان يدعو وهارون كان يُؤَمِّن، فلذلك قال: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ وذلك لأن من يقول عند دعاء الداعي: آمين فهو أيضًا داع، لأن قوله: آمين تأويله استجب فهو سائل كما أن الداعي سائل أيضًا. الثاني: لا يبعد أن يكون كل واحد منهما، ذكر هذا الدعاء غاية ما في الباب أن يقال: إنه تعالى حكى هذا الدعاء عن موسى بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا﴾ إلا أن هذا لا ينافي أن يكون هارون قد ذكر ذلك الدعاء أيضًا.

وأما قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ يعني فاستقيما على الدعوة والرسالة، والزيادة في إلزام الحجة فقد لبث نوح في قومه ألف سنة إلا قليلاً فلا تستعجلا، قال ابن جُرَيْج: إن فرعون لبث بعد هذا الدعاء أربعين سنة.

وأما قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ففيه بحثان:

البحث الأول: المعنى: لا تتبعان سبيل الجاهلين الذين يظنون أنه متى كان الدعاء مجابًا كان المقصود حاصلاً في الحال، فربما أجاب الله تعالى دعاء إنسان في مطلوبه، إلا أنه إنما يوصله إليه في وقته المقدر، والاستعجال لا يصدر إلا من الجهال، وهذا كما قال لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦].

واعلم أن هذا النهي لا يدل على أن ذلك قد صدر من موسى عليه السلام كما أن قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] لا يدل على صدور الشرك منه.

البحث الثاني: قال الزجاج: قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ موضعه جزم، والتقدير: ولا تتبعا، إلا أن النون الشديدة دخلت على النهي مؤكدة وكسرت لسكونها، وسكون النون التي قبلها فاختير لها الكسرة، لأنها بعد الألف تشبه نون التثنية، وقرأ ابن عامر (وَلاَ تَتْبِعَانِ) بتخفيف النون.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ

نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

اعلم أن تفسير اللفظ في قوله: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] مذكور في سورة الأعراف، والمعنى: أنه تعالى لما أجاب دعاءهما أمر بني إسرائيل بالخروج من مصر في الوقت المعلوم ويسر لهم أسبابه، وفرعون كان غافلاً عن ذلك، فلما سمع أنهم خرجوا وعزموا على مفارقة مملكته خرج على عقبهم وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ أي لحقهم يقال: أتبعه حتى لحقه، وقوله: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ البغي: طلب الاستعلاء بغير حق، والعدو: الظلم، روي أن موسى عليه السلام لما خرج مع قومه وصلوا إلى طرف البحر وقرب فرعون مع عسكره منهم، فوقعوا في خوف شديد، لأنهم صاروا بين بحر مغرق وجند مهلك، فأنعم الله عليهم بأن أظهر لهم طريقًا في البحر على ما ذكر الله تعالى هذه القصة بتمامها في سائر السور، ثم إن موسى عليه السلام مع أصحابه دخلوا وخرجوا وأبقى الله تعالى ذلك الطريق يبسًا، ليطمع فرعون وجَنوده في التمكن من العبور، فلما دخل مع جمعه أغرقه الله تعالى بأن أوصل أجزاء الماء ببعضها وأزال الفلق، فهو معنى قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ وبيَّن ما كان في قلوبهم من البغي وهو محبة الإفراط في قتلهم وظلمهم، والعدو وهوتجاوز الحد، ثم ذكر تعالى أنه لما أدركه الغرق أظهر كلمة الإخلاص ظنًّا منه أنه ينجيه من تلك الآفة.

وههنا سؤالان:

السؤال الأول: أن الإنسان إذا وقع في الغرق لا يمكنه أن يتلفظ بهذا اللفظ فكيف حكى الله تعالى عنه أنه ذكر ذلك؟

والجواب: من وجهين:

الأول: أن مذهبنا أن الكلام الحقيقي هو كلام النفس لا كلام اللسان، فهو إنما ذكر هذا الكلام بالنفس، لا بكلام اللسان، ويمكن أن يستدل بهذه الآية على إثبات كلام النفس لأنه تعالى حكى عنه أنه قال هذا الكلام، وثبت بالدليل أنه ما قاله باللسان، فوجب الاعتراف بثبوت كلام غير كلام اللسان وهو المطلوب.

الثاني: أن يكون المراد من الغرق مقدماته.

السؤال الثاني: أنه آمن ثلاث مرات أولها قوله: ﴿ءَامَنتُ﴾ وثانيها قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وثالثها قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فما السبب في عدم القبول والله تعالى متعال عن أن يلحقه غيظ وحقد حتى يقال: إنه لأجل ذلك الحقد لم يقبل منه هذا الإقرار؟

والجواب: العلماء ذكروا فيه وجوهًا:

الوجه الأول: أنه إنما آمن عند نزول العذاب، والإيمان في هذا الوقت غير مقبول، لأن عند نزول العذاب يصير الحال وقت الإلجاء، وفي هذا الحال لا تكون التوبة مقبولة، ولهذا السبب قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥].

الوجه الثاني: هو أنه إنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة والمحنة الناجزة، فما كان مقصوده من هذه الكلمة الإقرار بوحدانية الله تعالى، والاعتراف بعزة الربوبية وذلة العبودية، وعلى هذا التقدير فما كان ذكر هذه الكلمة مقرونًا بالإخلاص، فلهذا السبب ما كان مقبولاً.

الوجه الثالث: هو أن ذلك الإقرار كان مبنيًّا على محض التقليد، ألا ترى أنه قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكأنه اعترف بأنه لا يعرف الله، إلا أنه سمع من بني إسرائيل أن للعالم إلهًا، فهو أقر بذلك الإله الذي سمع من بني إسرائيل أنهم أقروا بوجوده، فكان هذا محض التقليد، فلهذا السبب لم تصر الكلمة مقبولة منه، ومزيد التحقيق فيه أن فرعون على ما بيناه في سورة طه كان من الدهرية، وكان من المنكرين لوجود الصانع تعالى، ومثل هذا الاعتقاد الفاحش لا تزول ظلمته، إلا بنور الحجج القطعية، والدلائل اليقينية، وأما بالتقليد المحض فهو لا يفيد، لأنه يكون ضمًّا لظلمة التقليد إلى ظلمة الجهل السابق.

الوجه الرابع: رأيت في بعض الكتب أن بعض أقوام من بني إسرائيل لما جاوزوا البحر اشتغلوا بعبادة العجل، فلما قال فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ انصرف ذلك إلى العجل الذي آمنوا بعبادته في ذلك الوقت، فكانت هذه الكلمة في حقه سببًا لزيادة الكفر.

الوجه الخامس: أن اليهود كانت قلوبهم مائلة إلى التشبيه والتجسيم ولهذا السبب اشتغلوا بعبادة العجل لظنهم أنه تعالى حل في جسد ذلك العجل ونزل فيه، فلما كان الأمر كذلك وقال فرعون ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فكأنه آمن بالإله الموصوف بالجسمية والحلول والنزول، وكل من اعتقد ذلك كان كافرًا فلهذا السبب ما صح إيمان فرعون.

الوجه السادس: لعل الإيمان إنما كان يتم بالإقرار بوحدانية الله تعالى، والإقرار بنبوة موسى عليه السلام. فههنا لما أقر فرعون بالوحدانية ولم يقر بالنبوة لا جرم لم يصح إيمانه. ونظيره أن الواحد من الكفار لو قال ألف مرة أشهد أن لا إله إلا الله فإنه لا يصح إيمانه إلا إذا قال معه وأشهد أن محمدًا رسول الله، فكذا ههنا.

الوجه السابع: روى صاحب (الكشاف) أن جبريل عليه السلام أتى فرعون بفتيا فيها: ما قول الأمير في عبد نشأ في مال مولاه ونعمته، فكفر نعمته وجحد حقه، وادعى السيادة دونه، فكتب فرعون فيها يقول: أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر بنعمته أن يغرق في البحر، ثم إن فرعون لما غرق رفع جبريل عليه السلام فتياه إليه.

أما قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ .

ففيه سؤالات:

السؤال الأول: من القائل له ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ .

الجواب: الأخبار دالة على أن قائل هذا القول هو جبريل، وإنما ذكر قوله: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في مقابلة قوله: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ومن الناس من قال: إن قائل هذا القول هو الله تعالى، لأنه ذكر بعده ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ وهذا الكلام ليس إلا كلام الله تعالى.

السؤال الثاني: ظاهر اللفظ يدل على أنه إنما لم تقبل توبته للمعصية المتقدمة والفساد السابق، وصحة هذا التعليل لا تمنع من قبول التوبة.

والجواب: مذهب أصحابنا أن قبول التوبة غير واجب عقلاً، وأحد دلائلهم على صحة ذلك هذه الآية. وأيضًا فالتعليل ما وقع بمجرد المعصية السابقة، بل بتلك المعصية مع كونه من المفسدين.

السؤال الثالث: هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضبًا عليه.

والجواب: الأقرب أنه لا يصح، لأن في تلك الحالة إما أن يقال: التكليف كان ثابتًا أو ما كان ثابتًا، فإن كان ثابتًا لم يجز على جبريل عليه السلام أن يمنعه من التوبة، بل يجب عليه أن يعينه على التوبة وعلى كل طاعة، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] وأيضًا فلو منعه بما ذكروه لكانت التوبة ممكنة، لأن الأخرس قد يتوب بأن يندم بقلبه ويعزم على ترك معاودة القبيح، وحينئذ لا يبقى لما فعله جبريل عليه السلام فائدة، وأيضًا لو منعه من التوبة لكان قد رضي ببقائه على الكفر، والرضا بالكفر كفر، وأيضًا فكيف يليق بالله تعالى أن يقول لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤] ثم يأمر جبريل عليه السلام بأن يمنعه من الإيمان، ولو قيل: إن جبريل عليه السلام إنما فعل ذلك من عند نفسه لا بأمر الله تعالى، فهذا يبطله قول جبريل ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] وقوله تعالى في صفتهم: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧] وأما إن قيل: إن التكليف كان زائلاً عن فرعون في ذلك الوقت، فحينئذ لا يبقى لهذا الفعل الذي نسب جبريل إليه فائدة أصلاً.

ثم قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ وفيه وجوه: الأول: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي نلقيك بنجوة من الأرض وهي المكان المرتفع. الثاني: نخرجك من البحر ونخلصك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، ولكن بعد أن تغرق. وقوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في موضع الحال، أي في الحال التي أنت فيه حينئذ لا روح فيك. الثالث: أن هذا وعد له بالنجاة على سبيل التهكم، كما في قوله:

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] كأنه قيل له: ننجيك لكن هذه النجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك، ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال: نعتقك ولكن بعد الموت، ونخلصك من السجن ولكن بعد أن تموت. الرابع: قرأ بعضهم (نُنَحِّيكَ) بالحاء المهملة، أي نلقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب من جوانب البحر. قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور.

وأما قوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ ففيه وجوه: الأول: ما ذكرنا أنه في موضع الحال، أي في الحال التي كنت بدنًا محضًا من غير روح. الثاني: المراد ننجيك ببدنك كاملاً سويًا لم تتغير. الثالث: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي نخرجك من البحر عريانًا من غير لباس. الرابع: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي بدرعك، قال الليث: البدن هو الدرع الذي يكون قصير الكمين، فقوله: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي بدرعك، وهذا منقول عن ابن عباس قال: كان عليه درع من ذهب يعرف بها، فأخرجه الله من الماء مع ذلك الدرع ليعرف. أقول: إن صح هذا فقد كان ذلك معجزة لموسى عليه السلام.

وأما قوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ ففيه وجوه: الأول: أن قومًا ممن اعتقدوا فيه الإلهية لما لم يشاهدوا غرقه كذبوا بذلك وزعموا أن مثله لا يموت، فأظهر الله تعالى أمره بأن أخرجه من الماء بصورته حتى شاهدوه وزالت الشبهة عن قلوبهم. وقيل: كان مطرحه على ممر بني إسرائيل. الثاني: لا يبعد أنه تعالى أراد أن يشاهده الخلق على ذلك الذل والمهانة بعد ما سمعوا منه قوله ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ليكون ذلك زجرًا للخلق عن مثل طريقته، ويعرفوا أنه كان بالأمس في نهاية الجلالة والعظمة ثم آل أمره إلى ما يرون. الثالث: قرأ بعضهم (لِمَنْ خَلَقَكَ) بالقاف أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته. الرابع: أنه تعالى لما أغرقه مع جميع قومه ثم إنه تعالى ما أخرج أحدًا منهم من قعر البحر، بل خصه بالإخراج كان تخصيصه بهذه الحالة العجيبة دالاً على كمال قدرة الله تعالى وعلى صدق موسى عليه السلام في دعوى النبوة.

وأما قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ فالأظهر أنه تعالى لما ذكر قصة موسى وفرعون وذكر حال عاقبة فرعون وختم ذلك بهذا الكلام، وخاطب به محمدًا عليه الصلاة والسلام فيكون ذلك زاجرًا لأمته عن الإعراض عن الدلائل، وباعثًا لهم على التأمل فيها والاعتبار بها، فإن المقصود من ذكر هذه القصص حصول الاعتبار، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى الْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ فَمَا اخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر ما وقع عليه الختم في واقعة فرعون وجنوده، ذكر أيضًا في هذه الآية ما وقع عليه الختم في أمر بني إسرائيل.

وههنا بحثان:

البحث الأول: أن قوله: ﴿بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: أسكناهم مكان صدق أي مكانًا محمودًا، وقوله: ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ فيه وجهان: الأول: يجوز أن يكون مبوأ صدق مصدرًا، أي بوأناهم تبوأ صدق. الثاني: أن يكون المعنى منزلاً صالحًا مرضيًا، وإنما وصف المبوأ بكونه صدقًا، لأن عادة العرب أنها إذا مدحت شيئًا أضافته إلى الصدق تقول: رجل صدق، وقدم صدق. قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] والسبب فيه أن ذلك الشيء إذا كان كاملاً في وقته صالحًا للغرض المطلوب منه، فكل ما يظن فيه من الخير، فإنه لا بد وأن يصدق ذلك الظن.

البحث الثاني: اختلفوا في أن المراد ببني إسرائيل في هذه الآية أهم اليهود الذين كانوا في زمن موسى عليه السلام أم الذين كانوا في زمن محمد عليه السلام.

أما القول الأول: فقد قال به قوم ودليلهم أنه تعالى لما ذكر هذه الآية عقيب قصة موسى عليه السلام كان حمل هذه الآية على أحوالهم أولى، وعلى هذا التقدير: كان المراد بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ الشام ومصر، وتلك البلاد فإنها بلاد كثيرة الخصب. قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] والمراد من قوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ تلك المنافع، وأيضًا المراد منها أنه تعالى أورث بني إسرائيل جميع ما كان تحت أيدي قوم فرعون من الناطق والصامت والحرث والنسل، كما قال: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ والمراد أن قوم موسى عليه السلام بقوا على ملة واحدة ومقالة واحدة من غير اختلاف حتى قرأوا التوراة، فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم. ثم بيَّن تعالى أن هذا النوع من الاختلاف لا بد وأن يبقى في دار الدنيا، وأنه تعالى يقضي بينهم يوم القيامة.

وأما القول الثاني: وهو أن المراد ببني إسرائيل في هذه الآية اليهود الذين كانوا في زمان محمد عليه الصلاة والسلام فهذا قال به قوم عظيم من المفسرين. قال ابن عباس: وهم قريظة والنضير وبنو قينقاع أنزلناهم منزل صدق ما بين المدينة والشام ورزقناهم من الطيبات، والمراد ما في تلك البلاد من الرطب والتمر التي ليس مثلها طيبًا في البلاد، ثم إنهم بقوا على دينهم، ولم يظهر فيهم الاختلاف حتى جاءهم العلم، والمراد من العلم القرآن النازل على محمد عليه الصلاة والسلام، وإنما سماه علمًا، لأنه سبب العلم وتسمية السبب باسم المسبب مجاز مشهور. وفي كون القرآن سببًا لحدوث الاختلاف وجهان:

الأول: أن اليهود كانوا يخبرون بمبعث محمد عليه الصلاة والسلام ويفتخرون به على سائر الناس، فلما بعثه الله تعالى كذبوه حسدًا وبغيًا وإيثارًا لبقاء الرياسة وآمن به طائفة منهم، فبهذا

الطريق صار نزول القرآن سببًا لحدوث الاختلاف فيهم .

الثاني: أن يقال : إن هذه الطائفة من بني إسرائيل كانوا قبل نزول القرآن كفارًا محضًا بالكلية وبقوا على هذه الحالة حتى جاءهم العلم ، فعند ذلك اختلفوا فآمن قوم وبقي أقوام آخرون على كفرهم .

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فالمراد منه أن هذا النوع من الاختلاف لا حيلة في إزالته في دار الدنيا ، وأنه تعالى في الآخرة يقضي بينهم ، فيتميز المحق من المبطل والصديق من الزنديق .

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر من قبل اختلافهم عندما جاءهم العلم أورد على رسول الله ﷺ في هذه الآية ما يقوي قلبه في صحة القرآن والنبوة ، فقال تعالى : ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ .

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى : قال الواحدي : الشك في وضع اللغة : ضم بعض الشيء إلى بعض ، يقال : شك الجواهر في العقد إذا ضم بعضها إلى بعض . ويقال : شككت الصيد إذا رميته فضممت يده أو رجله إلى رجله والشكائك من الهوادج : ما شك بعضها ببعض ، والشكاك : البيوت المصطفة والشكائك : الأدعياء ، لأنهم يشكون أنفسهم إلى قوم ليسوا منهم ، أي يضمون ، وشك الرجل في السلاح ، إذا دخل فيه وضمه إلى نفسه وألزمه إياها ، فإذا قالوا : شك فلان في الأمور أرادوا أنه وقف نفسه بين شيئين ، فيجوز هذا ، ويجوز هذا فهو يضم إلى ما يتوهمه شيئًا آخر خلافه .

المسألة الثانية : اختلف المفسرون : في أن المخاطب بهذا الخطاب من هو؟ فقيل : النبي عليه الصلاة والسلام . وقيل : غيره ، أما من قال بالأول فاختلفوا على وجوه .

الوجه الأول : أن الخطاب مع النبي عليه الصلاة والسلام في الظاهر ، والمراد غيره كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١] وكقوله : ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وكقوله : ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] ومن الأمثلة المشهورة : إياك أعني واسمعي يا جارة .

والذي يدل على صحة ما ذكرناه وجوه : الأول : قوله تعالى في آخر السورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن

كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ [يونس: ١٠٤] فبيَّن أن المذكور في أول الآية على سبيل الرمز، هم المذكورون في هذه الآية على سبيل التصريح. الثاني: أن الرسول لو كان شاكًا في نبوة نفسه لكان شك غيره في نبوته أولى، وهذا يوجب سقوط الشريعة بالكلية. والثالث: أن بتقدير أن يكون شاكًا في نبوة نفسه، فكيف يزول ذلك الشك بإخبار أهل الكتاب عن نبوته مع أنهم في الأكثر كفار، وإن حصل فيهم من كان مؤمنًا إلا أن قوله ليس بحجة لا سيما وقد تقرر أن ما في أيديهم من التوراة والإنجيل، فالكل مصحف محرف، فثبت أن الحق هو أن الخطاب، وإن كان في الظاهر مع الرسول ﷺ إلا أن المراد هو الأمة، ومثل هذا معتاد، فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير، وكان تحت راية ذلك الأمير جمع، فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر مخصوص، فإنه لا يوجه خطابه عليهم، بل يوجه ذلك الخطاب على ذلك الأمير الذي جعله أميرًا عليهم، ليكون ذلك أقوى تأثيرًا في قلوبهم.

الوجه الثاني: أنه تعالى علم أن الرسول لم يشك في ذلك، إلا أن المقصود أنه متى سمع هذا الكلام، فإنه يصرح ويقول: «**يَا رَبِّ لاَ أَشُكُّ وَلاَ أَطْلُبُ الْحُجَّةَ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ الْكِتَابِ بَلْ يَكْفِينِي مَا أَنْزَلْتَهُ عَلَيَّ مِنَ الدَّلاَئِلِ الظَّاهِرَةِ**» ونظيره قوله تعالى للملائكة: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠] والمقصود أن يصرحوا بالجواب الحق ويقولوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١] وكما قال لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] والمقصود منه أن يصرح عيسى عليه السلام بالبراءة عن ذلك، فكذا ههنا.

الوجه الثالث: هو أن محمدًا عليه الصلاة والسلام كان من البشر، وكان حصول الخواطر المشوشة والأفكار المضطربة في قلبه من الجائزات، وتلك الخواطر لا تندفع إلا بإيراد الدلائل وتقرير البينات، فهو تعالى أنزل هذا النوع من التقريرات حتى أن بسببها تزول عن خاطره تلك الوساوس، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] وأقول تمام التقرير في هذا الباب أن قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ فافعل كذا وكذا قضية شرطية والقضية الشرطية لا إشعار فيها ألبتة بأن الشرط وقع أو لم يقع. ولا بأن الجزاء وقع أو لم يقع، بل ليس فيها إلا بيان أن ماهية ذلك الشرط مستلزمة لماهية ذلك الجزاء فقط، والدليل عليه أنك إذا قلت إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين، فهو كلام حق، لأن معناه أن كون الخمسة زوجًا يستلزم كونها منقسمة بمتساويين، ثم لا يدل هذا الكلام على أن الخمسة زوج ولا على أنها منقسمة بمتساويين فكذا ههنا هذه الآية، تدل على أنه لو حصل هذا الشك لكان الواجب فيه هو فعل كذا وكذا، فأما أن هذا الشك وقع أو لم يقع، فليس في الآية دلالة عليه، والفائدة في إنزال هذه الآية على الرسول أن تكثير الدلائل وتقويتها مما يزيد في قوة اليقين وطمأنينة النفس وسكون الصدر، ولهذا السبب أكثر الله في كتابه من تقرير دلائل التوحيد والنبوة.

والوجه الرابع: في تقرير هذا المعنى أن تقول: المقصود من ذكر هذا الكلام استمالة قلوب الكفار وتقريبهم من قبول الإيمان، وذلك لأنهم طالبوه مرة بعد أخرى، بما يدل على صحة نبوته وكأنهم استحيوا من تلك المعاودات والمطالبات، وذلك الاستحياء صار مانعًا لهم عن قبول الإيمان فقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ من نبوتك فتمسك بالدلائل القلائل، يعني أولى الناس بأن لا يشك في نبوته هو نفسه، ثم مع هذا إن طلب هو من نفسه دليلاً على نبوة نفسه بعد ما سبق من الدلائل الباهرة والبينات القاهرة فإنه ليس فيه عيب ولا يحصل بسببه نقصان، فإذا لم يستقبح منه ذلك في حق نفسه فلأن لا يستقبح من غيره طلب الدلائل كان أولى، فثبت أن المقصود بهذا الكلام استمالة القوم وإزالة الحياء عنهم في تكثير المناظرات.

الوجه الخامس: أن يكون التقدير أنك لست شاكًا ألبتة ولو كنت شاكًا لكان لك طرق كثيرة في إزالة ذلك الشك كقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]والمعنى أنه لو فرض ذلك الممتنع واقعًا، لزم منه المحال الفلاني فكذا ههنا. ولو فرضنا وقوع هذا الشك فارجع إلى التوراة والإنجيل لتعرف بهما أن هذا الشك زائل وهذه الشبهة باطلة.

الوجه السادس: قال الزجاج: إن الله خاطب الرسول في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ وهو شامل للخلق وهو كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]قال: وهذا أحسن الأقاويل، قال القاضي: هذا بعيد؛ لأنه متى كان الرسول داخلاً تحت هذا الخطاب فقد عاد السؤال، سواء أريد معه غيره أو لم يرد، وإن جاز أن يراد هو مع غيره، فما الذي يمنع أن يراد بانفراده كما يقتضيه الظاهر، ثم قال: ومثل هذا التأويل يدل على قلة التحصيل.

الوجه السابع: هو أن لفظ (إن) في قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ للنفي أي ما كنت في شك قبل يعني لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك لكن لتزداد يقينًا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى يقينًا.

وأما الوجه الثاني: وهو أن يقال هذا الخطاب ليس مع الرسول فتقريره أن الناس في زمانه كانوا فرقًا ثلاثة، المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون في أمره الشاكون فيه، فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته، وإنما وحد الله تعالى ذلك وهو يريد الجمع، كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦]وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ [الزمر: ٤٩]ولم يرد في جميع هذه الآيات إنسانًا بعينه، بل المراد هو الجماعة فكذا ههنا، ولما ذكر الله تعالى لهم ما يزيل ذلك الشك عنهم حذرهم من أن يلحقوا بالقسم الثاني وهم المكذبون فقال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ .

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن المسئول منه في قوله: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من

هم؟ فقال المحققون: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبدالله بن سلام، وعبدالله بن صوريا، وتميم الداري، وكعب الأحبار لأنهم هم الذين يوثق بخبرهم، ومنهم من قال: الكل سواء كانوا من المسلمين أو من الكفار، لأنهم إذا بلغوا عدد التواتر ثم قرأوا آية من التوراة والإنجيل، وتلك الآية دالة على البشارة بمقدم محمد ﷺ فقد حصل الغرض.

فإن قيل: إذا كان مذهبكم أن هذه الكتب قد دخلها التحريف والتغيير، فكيف يمكن التعويل عليها.

قلنا: إنهم إنما حرفوها بسبب إخفاء الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام فإن بقيت فيها آيات دالة على نبوته كان ذلك من أقوى الدلائل على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام، لأنها لما بقيت مع توفر دواعيهم على إزالتها دل ذلك على أنها كانت في غاية الظهور، وأما أن المقصود من ذلك السؤال معرفة أي الأشياء، ففيه قولان: الأول: أنه القرآن ومعرفة نبوة الرسول ﷺ. والثاني: أنه رجع ذلك إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣] والأول أولى، لأنه هو الأهم والحاجة إلى معرفته أتم. واعلم أنه تعالى لما بين هذا الطريق قال بعده: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك، وانتفاء التكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون ذلك على طريق التهييج وإظهار التشدد ولذلك قال عليه الصلاة والسلام عند نزوله «**لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق**»

ثم قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾.

واعلم أن فرق المكلفين ثلاثة: إما أن يكون من المصدقين بالرسول، أو من المتوقفين في صدقه، أو من المكذبين، ولا شك أن أمر المتوقف أسهل من أمر المكذب، لا جرم قد ذكر المتوقف بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ ثم أتبعه بذكر المكذب، وبيّن أنه من الخاسرين، ثم إنه تعالى لما فصل هذا التفصيل، بيّن أن له عبادًا قضى عليهم بالشقاء فلا يتغيرون، وعبادًا قضى لهم بالكرامة فلا يتغيرون، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر: (كلمات) على الجمع، وقرأ الباقون: (كلمة) على لفظ الواحد، وأقول إنها كلمات بحسب الكثرة النوعية أو الصنفية، وكلمة واحدة بحسب الواحدة الجنسية.

المسألة الثانية: المراد من هذه الكلمة حكم الله بذلك وإخباره عنه، وخلقه في العبد مجموع القدرة والداعية، الذي هو موجب لحصول ذلك الأثر، أما الحكم والإخبار والعلم فظاهر، وأما مجموع القدرة والداعي فظاهر أيضًا، لأن القدرة لما كانت صالحة للطرفين لم يترجح أحد الجانبين على الآخر إلا لمرجح، وذلك المرجح من الله تعالى قطعًا للتسلسل، وعند حصول

هذا المجموع يجب الفعل، وقد احتج أصحابنا بهذه الآية على صحة قولهم في إثبات القضاء اللازم والقدر الواجب وهو حق وصدق ولا محيص عنه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ والمراد أنهم لا يؤمنون ألبتة، ولو جاءتهم الدلائل التي لا حد لها ولا حصر، وذلك لأن الدليل لا يهدي إلا بإعانة الله تعالى فإذا لم تحصل تلك الإعانة ضاعت تلك الدلائل.

القصة الثالثة

من القصص المذكورة في هذه السورة، قصة يونس عليه السلام

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

اعلم أنه تعالى لما بيّن من قبل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧] أتبعه بهذه الآية، لأنها دالة على أن قوم يونس آمنوا بعد كفرهم وانتفعوا بذلك الإيمان، وذلك يدل على أن الكفار فريقان: منهم من حكم عليه بخاتمة الكفر، ومنهم من حكم عليه بخاتمة الإيمان وكل ما قضى الله به فهو واقع.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: في كلمة ﴿فَلَوْلَا﴾

في هذه الآية طريقان:

الطريق الأول: أن معناه النفي، روى الواحدي في (البسيط) قال: قال أبو مالك: صاحب ابن عباس: كل ما في كتاب الله تعالى من ذكر لولا، فمعناه هلا، إلا حرفين: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ معناه فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها، وكذلك ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [هود: ١١٦] معناه: فما كان من القرون، فعلى هذا تقدير الآية، فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس. وانتصب قوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ على أنه استثناء منقطع عن الأول، لأن أول الكلام جرى على القرية، وإن كان المراد أهلها ووقع استثناء القول من القرية، فكان كقوله: «**وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أحد . . . ألا أواري**». وقرئ أيضًا بالرفع على البدل.

الطريق الثاني: أن (لولا) معناه هلا، والمعنى هلا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها تابت عن الكفر وأخلصت في الإيمان قبل معاينة العذاب إلا قوم يونس. وظاهر اللفظ يقتضي استثناء قوم يونس من القرى، إلا أن المعنى استثناء قوم يونس من أهل القرى، وهو استثناء منقطع بمعنى ولكن قوم يونس لما آمنوا فعلنا بهم كذا وكذا.

المسألة الثانية: روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضبًا، فلما فقدوه خافوا نزول العقاب، فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة، وكان يونس قال لهم: إن أجلكم أربعون ليلة. فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر في السماء غيم أسود شديد السواد، فظهر منه دخان شديد وهبط ذلك الدخان حتى وقع في المدينة وسَوَّد سطوحهم فخرجوا إلى الصحراء، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها فحن بعضها إلى بعض فعلت الأصوات، وكثرت التضرعات وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود بلغ من توبتهم أن يردوا المظالم حتى إن الرجل كان يقلع الحجر بعد أن وضع عليه بناء أساسه فيرده إلى مالكه، وقيل خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا يا حي حين لا حي. ويا حي يا محيي الموتى ويا حي لا إله إلا أنت، فقالوا فكشف الله العذاب عنهم، وعن الفضل بن عباس أنهم قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم منها وأجل افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

المسألة الثالثة: إن قال قائل: إنه تعالى حكى عن فرعون أنه تاب في آخر الأمر ولم يَقْبَل توبته وحكى عن قوم يونس أنهم تابوا وقَبِلَ توبتهم فما الفرق؟

والجواب: أن فرعون إنما تاب بعد أن شاهد العذاب، وأما قوم يونس فإنهم تابوا قبل ذلك فإنهم لما ظهرت لهم أمارات دلت على قرب العذاب تابوا قبل أن شاهدوا فظهر الفرق.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

اعلم أن هذه السورة من أولها إلى هذا الموضع في بيان حكاية شبهات الكفار في إنكار النبوة مع الجواب عنها، وكانت إحدى شبهاتهم أن النبي ﷺ كان يهددهم بنزول العذاب مع الكافرين، ويَعِدُ أتباعه أن الله ينصرهم ويعلي شأنهم ويقوي جانبهم، ثم إن الكفار ما رأوا ذلك فجعلوا ذلك شبهة في الطعن في نبوته، وكانوا يبالغون في استعجال ذلك العذاب على سبيل السخرية، ثم إن الله سبحانه وتعالى بيَّن أن تأخير الموعود به لا يقدح في صحة الوعد، ثم ضرب لهذا أمثلة وهي واقعة نوح وواقعة موسى عليهما السلام مع فرعون وامتدت هذه البيانات إلى هذه المقامات، ثم في هذه الآية بيَّن أن جد الرسول في دخولهم في الإيمان لا ينفع ومبالغته في تقرير الدلائل، وفي الجواب عن الشبهات لا تفيد، لأن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته وإرشاده وهدايته، فإذا لم يحصل هذا المعنى لم يحصل الإيمان.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا على صحة قولهم بأن جميع الكائنات بمشيئة الله تعالى، فقالوا كلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ يقتضي أنه ما حصلت تلك المشيئة وما حصل إيمان أهل الأرض بالكلية فدل هذا على أنه تعالى ما أراد إيمان الكل، أجاب الجبائي والقاضي وغيرهما بأن المراد مشيئة الإلجاء، أي لو شاء الله أن يلجئهم إلى الإيمان لقدر عليه ولصح ذلك منه، ولكنه ما فعل ذلك، لأن الإيمان الصادر من العبد على سبيل الإلجاء لا ينفعه ولا يفيده فائدة، ثم قال الجبائي: ومعنى إلجاء الله تعالى إياهم إلى ذلك، أن يعرفهم اضطرارًا أنهم لو حاولوا تركه، حال الله بينهم وبين ذلك وعند هذا لا بد وأن يفعلوا ما ألجئوا إليه كما أن من علم منا أنه إن حاول قتل ملك فإنه يمنعه منه قهرًا لم يكن تركه لذلك الفعل سببًا لاستحقاق المدح والثواب فكذا ههنا.

واعلم أن هذا الكلام ضعيف وبيانه من وجوه:

الأول: أن الكافر كان قادرًا على الكفر فهل كان قادرًا على الإيمان، أو ما كان قادرًا عليه؟ فإن قدر على الكفر ولم يقدر على الإيمان فحينئذ تكون القدرة على الكفر مستلزمة للكفر، فإذا كان خالق تلك القدرة هو الله تعالى لزم أن يقال: إنه تعالى خلق فيه قدرة مستلزمة للكفر فوجب أن يقال: إنه أراد منه الكفر، وأما إن كانت القدرة صالحة للضدين كما هو مذهب القوم، فرجحان أحد الطرفين على الآخر إن لم يتوقف على المرجح فقد حصل الرجحان لا لمرجح وهذا باطل، وإن توقف على مرجح فذلك المرجح إما أن يكون من العبد أو من الله، فإن كان من العبد عاد التقسيم فيه ولزم التسلسل وهو محال، وإن كان من الله تعالى فحينئذ يكون مجموع تلك القدرة مع تلك الداعية موجبًا لذلك الكفر، فإذا كان خالق القدرة والداعية هو الله تعالى فحينئذ عاد الإلزام.

الثاني: أن قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ لا يجوز حمله على مشيئة الإلجاء، لأن النبي ﷺ ما كان يطلب أن يحصل لهم إيمان لا يفيدهم في الآخرة، فبيَّن تعالى أنه لا قدرة للرسول على تحصيل هذا الإيمان، ثم قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ فوجب أن يكون المراد من الإيمان المذكور في هذه الآية هو هذا الإيمان النافع حتى يكون الكلام منتظمًا، فأما حمل اللفظ على مشيئة القهر والإلجاء فإنه لا يليق بهذا الموضع. **الثالث**: المراد بهذا الإلجاء، إما أن يكون هو أن يظهر له آيات هائلة يعظم خوفه عند رؤيتها، ثم يأتي بالإيمان عندها. وإما أن يكون المراد خلق الإيمان فيهم. والأول باطل، لأنه تعالى بيَّن فيما قبل هذه الآية أن إنزال هذه الآيات لا يفيد وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧] وقال أيضًا: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[الأنعام: ١١١] وإن كان المراد هو الثاني لم يكن هذا الإلجاء إلى الإيمان، بل كان ذلك عبارة عن خلق الإيمان فيهم، ثم يقال: لكنه ما خلق

الإيمان فيهم، فدل على أنه ما أراد حصول الإيمان لهم وهذا عين مذهبنا.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ والمعنى أنه لا قدرة لك على التصرف في أحد، والمقصود منه بيان أن القدرة القاهرة والمشيئة النافذة ليست إلا للحق سبحانه وتعالى.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا على صحة قولهم أنه لا حكم للأشياء قبل ورود الشرع بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قالوا وجه الاستدلال به أن الإذن عبارة عن الإطلاق في الفعل ورفع الحرج وصريح هذه الآية يدل على أنه قبل حصول هذا المعنى ليس له أن يُقْدِمَ على هذا الإيمان، ثم قالوا: والذي يدل عليه من جهة العقل وجوه: **الأول**: أن معرفة الله تعالى والاشتغال بشكره والثناء عليه لا يدل العقل على حصول نفع فيه، فوجب أن لا يجب ذلك بحسب العقل، بيان الأول أن ذلك النفع إما أن يكون عائدًا إلى المشكور أو إلى الشاكر، والأول باطل لأن في الشاهد المشكور ينتفع بالشكر فيسره الشكر ويسوءه الكفران، فلا جرم كان الشكر حسنًا والكفران قبيحًا، أما الله سبحانه فإنه لا يسره الشكر ولا يسوءه الكفران، فلا ينتفع بهذا الشكر أصلاً. والثاني: أيضًا باطل لأن الشاكر يتعب في الحال بذلك الشكر ويبذل الخدمة مع أن المشكور لا ينتفع به ألبتة ولا يمكن أن يقال: إن ذلك الشكر علة الثواب، لأن الاستحقاق على الله تعالى محال، فإن الاستحقاق على الغير إنما يعقل إذا كان ذلك الغير بحيث لو لم يعط لأوجب امتناعه من إعطاء ذلك الحق حصول نقصان في حقه، ولما كان الحق سبحانه منزهًا عن النقصان والزيادة لم يعقل ذلك في حقه، فثبت أن الاشتغال بالإيمان وبالشكر، لا يفيد نفعًا بحسب العقل المحض وما كان كذلك امتنع أن يكون العقل موجبًا له، فثبت بهذا البرهان القاطع صحة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ قال القاضي: المراد أن الإيمان لا يصدر عنه إلا بعلم الله أو بتكليفه أو بإقداره عليه.

وجوابنا: أن حمل الإذن على ما ذكرتم ترك للظاهر وذلك لا يجوز، لا سيما وقد بينا أن الدليل القاطع العقلي يقوي قولنا.

المسألة الثالثة: قرأ أبو بكر عن عاصم (ونجعل) بالنون، وقرأ الباقون بالياء كناية عن اسم الله تعالى.

المسألة الرابعة: احتج أصحابنا على صحة قولهم بأن خالق الكفر والإيمان هو الله تعالى بقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وتقريره أن الرجس قد يراد به العمل القبيح قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] والمراد من الرجس ههنا العمل القبيح، سواء كان كفرًا أو معصية، وبالتطهير نقل العبد من رجس الكفر والمعصية إلى طهارة الإيمان والطاعة، فلما ذكر الله تعالى فيما قبل هذه الآية أن الإيمان لا يحصل إلا بمشيئة الله تعالى وتخليقه، ذكر بعده أن الرجس لا يحصل إلا بتخليقه

وتكوينه. والرجس الذي يقابل الإيمان ليس إلا الكفر، فثبت دلالة هذه الآية على أن الكفر والإيمان من الله تعالى.

أجاب أبو علي الفارسي النحوي عنه فقال: الرجس، يحتمل وجهين آخرين: أحدهما: أن يكون المراد منه العذاب، فقوله: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي يلحق العذاب بهم كما قال: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الفتح: ٦] والثاني: أنه تعالى يحكم عليهم بأنهم رجس كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨] والمعنى أن الطهارة الثابتة للمسلمين لم تحصل لهم.

والجواب: أنا قد بينا بالدليل العقلي أن الجهل لا يمكن أن يكون فعلاً للعبد؛ لأنه لا يريده ولا يقصد إلى تكوينه، وإنما يريد ضده، وإنما قصد إلى تحصيل ضده، فلو كان به لما حصل إلا ما قصده وأوردنا السؤالات على هذه الحجة وأجبنا عنها فيما سلف من هذا الكتاب. وأما حمل الرجس على العذاب، فهو باطل، لأن الرجس عبارة عن الفاسد المستقذر المستكره، فحمل هذا اللفظ على جهلهم وكفرهم أولى من حمله على عذاب الله مع كونه حقًّا صدقًا صوابًا، وأما حمل لفظ الرجس على حكم الله برجاستهم، فهو في غاية البعد، لأن حكم الله تعالى بذلك صفته، فكيف يجوز أن يقال: إن صفة الله رجس، فثبت أن الحجة التي ذكرناها ظاهرة.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ بكسر اللام لالتقاء الساكنين والأصل فيه الكسر، والباقون بضمها نقلوا حركة الهمزة إلى اللام.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآيات السالفة أن الإيمان لا يحصل إلا بتخليق الله تعالى ومشيئته، أمر بالنظر والاستدلال في الدلائل حتى لا يتوهم أن الحق هو الجبر المحض. فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

واعلم أن هذا يدل على مطلوبين:

الأول: أنه لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالتدبر في الدلائل كما قال عليه الصلاة والسلام: «تَفكَّروا فِي الْخَلْقِ وَلاَ تَتَفكَّروا في الخالق».

والثاني: وهو أن الدلائل إما أن تكون من عالم السموات أو من عالم الأرض، أما الدلائل السماوية، فهي حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب، وما يختص به كل واحد منها من المنافع والفوائد، وأما الدلائل الأرضية، فهي النظر في أحوال العناصر العلوية، وفي أحوال المعادن وأحوال النبات وأحوال الإنسان خاصة، ثم ينقسم كل

واحد من هذه الأجناس إلى أنواع لا نهاية لها. ولو أن الإنسان أخذ يتفكر في كيفية حكمة الله سبحانه في تخليق جناح بعوضة لانقطع عقله قبل أن يصل إلى أقل مرتبة من مراتب تلك الحكم والفوائد. ولا شك أن الله سبحانه أكثر من ذكر هذه الدلائل في القرآن المجيد، فلهذا السبب ذكر قوله: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ ولم يذكر التفصيل، فكأنه تعالى نبه على القاعدة الكلية، حتى إن العاقل يتنبه لأقسامها وحينئذ يشرع في تفصيل حكمة كل واحد منها بقدر القوة العقلية والبشرية، ثم إنه تعالى لما أمر بهذا التفكر والتأمل بيَّن بعد ذلك أن هذا التفكو والتدبر في هذه الآيات لا ينفع في حق من حكم الله تعالى عليه في الأزل بالشقاء والضلال، فقال: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال النحويون: (ما) في هذا الموضع تحتمل وجهين:

الأول: أن تكون نفيًا بمعنى أن هذه الآيات والنذر لا تفيد الفائدة في حق من حكم الله عليه بأنه لا يؤمن، كقولك: ما يغني عنك المال إذا لم تنفق.

والثاني: أن تكون استفهامًا كقولك: أي شيء يغني عنهم، وهو استفهام بمعنى الإنكار.

المسألة الثانية: الآيات هي الدلائل، والنذر الرسل المنذرون أو الإنذارات.

المسألة الثالثة: قرئ (وَمَا يُغْنِي) بالياء من تحت.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

واعلم أن المعنى هل ينتظرون إلا أيامًا مثل أيام الأمم الماضية، والمراد أن الأنبياء المتقدمين عليهم السلام كانوا يتوعدون كفار زمانهم بمجيء أيام مشتملة على أنواع العذاب، وهم كانوا يكذبون بها ويستعجلونها على سبيل السخرية، وكذلك الكفار الذين كانوا في زمان الرسول عليه الصلاة والسلام هكذا كانوا يفعلون. ثم إنه تعالى أمره بأن يقول لهم: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ ثم إنه تعالى قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ الكسائي في رواية نصير (نُنْجِي) خفيفة، وقرأ الباقون: مشددة وهما لغتان وكذلك في قوله: ﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

المسألة الثانية: (ثم) حرف عطف، وتقدير الكلام كانت عادتنا فيما مضى أن نهلكهم سريعًا ثم ننجي رسلنا.

المسألة الثالثة: لما أمر الرسول في الآية الأولى أن يوافق الكفار في انتظار العذاب ذكر التفصيل فقال: العذاب لا ينزل إلا على الكفار وأما الرسول وأتباعه فهم أهل النجاة.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): أي مثل ذلك الإنجاء ننصر المؤمنين ونهلك المشركين وحقًّا علينا اعتراض، يعني حق ذلك علينا حقًّا.

المسألة الثانية: قال القاضي قوله: ﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ المراد به الوجوب، لأن تخليص الرسول والمؤمنين من العذاب إلى الثواب واجب ولولاه لما حسن من الله تعالى أن يلزمهم الأفعال الشاقة وإذا ثبت وجوبه لهذا السبب جرى مجرى قضاء الدين للسبب المتقدم.

والجواب: أنا نقول: إنه حق بسبب الوعد والحكم، ولا نقول: إنه حق بسبب الاستحقاق، لما ثبت أن العبد لا يستحق على خالقه شيئًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل على أقصى الغايات وأبلغ النهايات، أمر رسوله بإظهار دينه وبإظهار المباينة عن المشركين، لكي تزول الشكوك والشبهات في أمره وتخرج عبادة الله من طريقة السر إلى الإظهار فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن هؤلاء الكفار ما كانوا يعرفون دين رسول الله ﷺ، وفي الخبر إنهم كانوا يقولون فيه قد صبأ وهو صابئ فأمر الله تعالى أن يبين لهم أنه على دين إبراهيم حنيفًا مسلمًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[النحل: ١٢٠] ولقوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾[الأنعام: ٧٩] ولقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾[الكافرون: ٢] والمعنى: أنكم إن كنتم لا تعرفون ديني فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل ثم ذكر فيه أمورًا.

فالقيد الأول: قوله: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وإنما وجب تقديم هذا النفي لما ذكرنا أن إزالة النقوش الفاسدة عن اللوح لا بد وأن تكون مقدمة على إثبات النقوش الصحيحة في ذلك اللوح، وإنما وجب هذا النفي لأن العبادة غاية التعظيم وهي لا تليق إلا بمن حصلت له غاية الجلال والإكرام، وأما الأوثان فإنها أحجار والإنسان أشرف حالاً منها، وكيف يليق بالأشرف أن يشتغل بعبادة الأخس.

القيد الثاني: قوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ والمقصود أنه لما بين أنه يجب ترك عبادة غير الله، بيَّن أنه يجب الاشتغال بعبادة الله.

فإن قيل: ما الحكمة في ذكر المعبود الحق في هذا المقام بهذه الصفة وهي قوله: ﴿ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾.

قلنا: فيه وجوه الأول: يحتمل أن يكون المراد أني أعبد الله الذي خلقكم أولاً ثم يتوفاكم ثانيًا ثم يعيدكم ثالثًا، وهذه المراتب الثلاثة قد قررناها في القرآن مرارًا وأطوارًا فههنا اكتفى بذكر التوفي منها لكونه منبهًا على البواقي. الثاني: أن الموت أشد الأشياء مهابة، فخص هذا الوصف بالذكر في هذا المقام، ليكون أقوى في الزجر والردع. الثالث: أنهم لما استعجلوا نزول العذاب قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [يونس: ١٠٢، ١٠٣] فهذه الآية تدل على أنه تعالى يهلك أولئك الكفار ويبقي المؤمنين ويقوي دولتهم، فلما كان قريب العهد بذكر هذا الكلام لا جرم قال ههنا: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ وهو إشارة إلى ما قرره وبيَّنه في تلك الآية كأنه يقول: أعبد ذلك الذي وعدني بإهلاكهم وبإبقائي.

والقيد الثالث: من الأمور المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ واعلم أنه لما ذكر العبادة وهي من جنس أعمال الجوارح انتقل منها إلى الإيمان والمعرفة، وهذا يدل على أنه ما لم يصر الظاهر مزينًا بالأعمال الصالحة، فإنه لا يحصل في القلب نور الإيمان والمعرفة.

والقيد الرابع: قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو في قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ حرف عطف وفي المعطوف عليه وجهان: الأول: أن قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ﴾ قائم مقام قوله: وقيل لي: كن من المؤمنين ثم عطف عليه ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ الثاني: أن قوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ قائم مقام قوله: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ بإقامة الوجه، فصار التقدير وأمرت بأن أكون من المؤمنين وبإقامة الوجه للدين حنيفًا.

المسألة الثانية: إقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين، لأن من يريد أن ينظر إلى شيء نظرًا بالاستقصاء، فإنه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير، لأنه لو صرفه عنه، ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة، وإذا بطلت تلك المقابلة، فقد اختل الإبصار، فلهذا السبب حسن جعل إقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين، وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً إليه ميلاً كليًا معرضًا عما سواه إعراضًا كليًا، وحاصل هذا الكلام هو الإخلاص التام، وترك الالتفات إلى غيره، فقوله أولاً: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارة إلى تحصيل أصل الإيمان، وقوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ إشارة إلى الاستغراق في نور الإيمان والإعراض بالكلية عما سواه.

والقيد الخامس: قوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

واعلم أنه لا يمكن أن يكون هذا نهيًا عن عبادة الأوثان، لأن ذلك صار مذكورًا بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فوجب حمل هذا الكلام على فائدة زائدة وهو أن من عرف مولاه، فلو التفت بعد ذلك إلى غيره كان ذلك شركًا، وهذا هو الذي تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفي.

والقيد السادس: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ والممكن لذاته معدوم بالنظر إلى ذاته وموجود بإيجاد الحق، وإذا كان كذلك فما سوى الحق فلا وجود له إلا إيجاد الحق، وعلى هذا التقدير فلا نافع إلا الحق ولا ضار إلا الحق، فكل شيء هالك إلا وجهه وإذا كان كذلك، فلا حكم إلا لله ولا رجوع في الدارين إلا إلى الله.

ثم قال في آخر الآية: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني لو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فأنت من الظالمين، لأن الظلم عبارة عن وضع الشيء في غير موضعه، فإذا كان ما سوى الحق معزولاً عن التصرف، كانت إضافة التصرف إلى ما سوى الحق وضعًا للشيء في غير موضعه فيكون ظلمًا.

فإن قيل: فطلب الشبع من الأكل والري من الشرب هل يقدح في ذلك الإخلاص؟

قلنا: لا، لأن وجود الخبز وصفاته كلها بإيجاد الله وتكوينه، وطلب الانتفاع بشيء خلقه الله للانتفاع به لا يكون منافيًا للرجوع بالكلية إلى الله، إلا أن شرط هذا الإخلاص أن لا يقع بصر عقله على شيء من هذه الموجودات إلا ويشاهد بعين عقله أنها معدومة بذواتها وموجودة بإيجاد الحق وهالكة بأنفسها وباقية بإبقاء الحق، فحينئذ يرى ما سوى الحق عدمًا محضًا بحسب أنفسها ويرى نور وجوده وفيض إحسانه عاليًا على الكل.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه سبحانه وتعالى قرر في آخر هذه السورة أن جميع الممكنات مستندة إليه وجميع الكائنات محتاجة إليه، والعقول والهة فيه، والرحمة والجود والوجود فائض منه.

واعلم أن الشيء إما أن يكون ضارًا وإما أن يكون نافعًا، وإما أن يكون لا ضارًا ولا نافعًا، وهذان القسمان مشتركان في اسم الخير، ولما كان الضر أمرًا وجوديًا لا جرم قال فيه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ ولما كان الخير قد يكون وجوديًا وقد يكون عدميًا، لا جرم لم يذكر لفظ الإمساس فيه بل قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ والآية دالة على أن الضر والخير واقعان بقدرة الله تعالى وبقضائه فيدخل فيه الكفر والإيمان والطاعة والعصيان والسرور والآفات والخيرات

والآلام واللذات والراحات والجراحات، فبيَّن سبحانه وتعالى أنه إن قضى لأحد شرًا فلا كاشف له إلا هو، وإن قضى لأحد خيرًا فلا راد لفضله ألبتة ثم في الآية دقيقة أخرى، وهي أنه تعالى رجح جانب الخير على جانب الشر من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه تعالى لما ذكر إمساس الضر بيَّن أنه لا كاشف له إلا هو، وذلك يدل على أنه تعالى يزيل المضار، لأن الاستثناء من النفي إثبات، ولما ذكر الخير لم يقل بأنه يدفعه بل قال: إنه لا راد لفضله، وذلك يدل على أن الخير مطلوب بالذات، وأن الشر مطلوب بالعَرَض كما قال النبي ﷺ رواية عن رب العزة أنه قال: «سَبَقَتْ رَحْمَتِي غَضَبِي»(١).

الثاني: أنه تعالى قال في صفة الخير: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ وذلك يدل على أن جانب الخير والرحمة أقوى وأغلب.

والثالث: أنه قال: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهذا أيضًا يدل على قوة جانب الرحمة وحاصل الكلام في هذه الآية أنه سبحانه وتعالى بيَّن أنه منفرد بالخلق والإيجاد والتكوين والإبداع، وأنه لا موجد سواه ولا معبود إلا إياه، ثم نبه على أن الخير مراد بالذات، والشر مراد بالعَرَض وتحت هذا الباب أسرار عميقة، فهذا ما نقوله في هذه الآية.

المسألة الثانية: قال المفسرون: إنه تعالى لما بيَّن في الآية الأولى في صفة الأصنام أنها لا تضر ولا تنفع، بيَّن في هذه الآية أنها لا تقدر أيضًا على دفع الضرر الواصل من الغير، وعلى الخير الواصل من الغير. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ يعني بمرض وفقر فلا دافع له إلا هو.

وأما قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ فقال الواحدي: هو من المقلوب معناه: وإن يرد بك الخير ولكنه لما تعلق كل واحد منهما بالآخر جاز إبدال كل واحد منهما بالآخر، وأقول التقديم في اللفظ يدل على زيادة العناية فقوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ يدل على أن المقصود هو الإنسان وسائر الخيرات مخلوقة لأجله، فهذه الدقيقة لا تستفاد إلا من هذا التركيب.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

واعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل المذكورة في التوحيد والنبوة والمعاد وزين آخر هذه السورة بهذه البيانات الدالة على كونه تعالى مستبدًا بالخلق والإبداع والتكوين والاختراع، ختمها بهذه الخاتمة الشريفة العالية، وفي تفسيرها وجهان: الأول: أنه من حكم له في الأزل بالاهتداء،

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في (صحيحه) (٦/ ٢٧٤٥) حديث رقم/ ٧١١٤، من طريق قتادة عن أبي رافع عن أبي هريرة... به. ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٠٨/ ٢٧٥١) من طريق الأعرج عن أبي هريرة... به. كلاهما (أبو رافع، والأعرج) عن أبي هريرة... به.

فسيقع له ذلك، ومن حكم له بالضلال فكذلك ولا حيلة في دفعه. الثاني: وهو الكلام اللائق بالمعتزلة، قال القاضي: إنه تعالى بيَّن أنه أكمل الشريعة وأزاح العلة وقطع المعذرة ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ فلا يجب عليَّ من السعي في إيصالكم إلى الثواب العظيم، وفي تخليصكم من العذاب الأليم أزيد مما فعلت. قال ابن عباس: هذه الآية منسوخة بآية القتال.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

ثم إنه تعالى ختم هذه الخاتمة بخاتمة أخرى لطيفة فقال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾.

والمعنى: أنه تعالى أمره باتباع الوحي والتنزيل، فإن وصل إليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه وهو خير الحاكمين. وأنشد بعضهم في الصبر شعرًا فقال:

سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْجِزَ الصَّبْرُ عَنْ صَبْرِي ... وَأَصْبِرُ حَتَّى يحكم اللَّه في أمري
سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَّنِي ... صَبَرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمَرَّ مِنَ الصَّبْرِ

تم تفسير هذه السورة، والله أعلم بمراده بأسرار كتابه بعون الله وحسن توفيقه. يقول جامع هذا الكتاب: ختمت تفسير هذه السورة يوم السبت من شهر الله الأصم رجب سنة إحدى وستمائة وكنت ضيق الصدر كثير الحزن بسبب وفاة الولد الصالح محمد أفاض الله على روحه وجسده أنواء المغفرة والرحمة، وأنا ألتمس من كل من يقرأ هذا الكتاب وينتفع به من المسلمين أن يخص ذلك المسكين بالدعاء والرحمة والغفران والحمدلله رب العالمين، وصلاته على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة يونس عليه السلام

سورة يونسَ عليه السلام مكيةٌ في قول الحسن وعكرمةَ وعطاءٍ وجابر. وقال ابن عباس: إلَّا ثلاثَ آياتٍ من قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤] إلى آخِرِهن(١).

وقال مقاتل: إلَّا آيتين، وهي قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة. وقال الكلبيُّ: مكيةٌ إلَّا قولَه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ [يونس: ٤٠] نزلت بالمدينة في اليهود. وقالت فرقة: نزل من أوَّلها نحوٌ من أربعين آيةً بمكةَ وباقيها بالمدينة(٢).

قوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

قوله تعالى: ﴿الٓر﴾ قال النحاس(٣): قرئ على أحمد بن شعيب بن علي(٤)، عن الحسين بن حُريث(٥) قال: أخبرنا علي بن الحسين، عن أبيه، عن يزيد، أنَّ عكرمة حدَّثه عن ابن عباس: الر، وحم، ونون؛ حروف الرحمن مفرَّقة، فحدَّثتُ به الأعمشَ

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٢٠.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٢.

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٣.

(٤) في النسخ: قرئ على أبي جعفر أحمد بن شعيب.. والمثبت من إعراب القرآن، وهو الصواب، وأحمد بن شعيب هو النسائي، وهو شيخ النحاس، وأبو جعفر كنية النحاس.

(٥) في النسخ وإعراب القرآن: بن الحسين بن حريث، والصواب ما أثبتناه، والحسين بن حريث يروي عنه الجماعة سوى ابن ماجه. تهذيب الكمال ٦/ ٣٦٠.

فقال: عندك أشباهُ هذا ولا تُخبرني به[١]؟.

وعن ابن عباس أيضاً قال: معنى «الر»: أنا الله أرى[٢]. قال النحاس[٣]: ورأيت أبا إسحاق[٤] يميل إلى هذا القول؛ لأنَّ سيبويه قد حكى مثلَه عن العرب وأنشد:

بالخير خيراتٍ وإن شَرًّا فَا ولا أريد الشرَّ إلا أنْ تَا[٥]

وقال الحسن وعكرمة: «الر» قَسَم. وقال سعيدٌ عن قتادة: «الر» اسم السورة، قال: وكذلك كلُّ هجاءٍ في القرآن. وقال مجاهد: هي فواتح السُّوَر. وقال محمد بن يزيد: هي تنبيهٌ، وكذا حروفُ التَّهَجِّي[٦].

وقُرِئ: «الر» من غير إمالة. وقُرِئ بالإمالة[٧]؛ لئلَّا تُشبه «ما» و«لا» من الحروف.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ابتداء وخبر؛ أي: تلك التي جرى ذكرها آياتُ الكتاب الحكيم[٨].

قال مجاهد وقتادة: أراد التوراةَ والإنجيل والكتبَ المتقدِّمة[٩]؛ فإنَّ «تلك» إشارة إلى غائبٍ مؤنَّث.

---

(١) وأخرجه الطبري ١٢/ ١٠٣ - ١٠٤، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢١ (١٠١٨٦) من طريق علي بن الحسين ابن واقد بالإسناد المذكور. وليس عند الطبري: فحدثت به الأعمش... وعلي بن الحسين بن واقد، صدوق يهم. كما ذكر الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ١٠٣، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢١ (١٠١٨٤).

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٣.

(٤) هو الزّجاج، وكلامه في معاني القرآن ١/ ٦٢.

(٥) الكتاب ٣/ ٣٢١، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٦٣، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٣، وسلف ١/ ٢٤٠، والمعنى كما ذكر سيبويه: يريد إن شرًّا فشر، ولا أريد الشر إلا أن تشاء.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٣.

(٧) قرأ ابن كثير وقالون وحفص «الر» بالفتح، وورش بين اللفظين، والباقون بالإمالة. التيسير ص١٢٠، وينظر السبعة ص٣٢٢.

(٨) إعراب القرآن ٢/ ٢٤٤.

(٩) أخرج قولهما الطبري ١٢/ ١٠٥.

وقيل: «تلك» بمعنى هذه؛ أي: هذه آيات الكتاب الحكيم[١]. ومنه قول الأعشى:

تلك خَيْلي منه وتلك رِكابي هُنَّ صُفْرٌ أولادُها كالزَّبيبِ

أي: هذه خيلي[٢].

والمراد القرآن، وهو أولى بالصواب؛ لأنه لم يَجْرِ للكتب المتقدِّمة ذكر[٣]، ولأن «الحكيم» من نعت القرآن، دليلُه قوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١] وقد تقدَّم هذا المعنى في أوّل سورة البقرة[٤].

والحكيم: المُحْكَم بالحلال والحرام والحدود والأحكام[٥]. قاله أبو عبيدة وغيره.

وقيل: الحكيم بمعنى الحاكم، أي: إنه حاكمٌ بالحلال والحرام، وحاكمٌ بين الناس بالحقّ، فَعِيلٌ بمعنى فاعل، دليلُه قوله: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقيل: الحكيم بمعنى المحكوم فيه، أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر، وبالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه، فهو فعيل بمعنى المفعول. قاله الحسن وغيره[٦].

وقال مقاتل: الحكيم بمعنى المُحْكَم من الباطل؛ لا كذبَ فيه ولا اختلاف[٧]،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٤ .

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٢٠ ، وسلف البيت ٢/ ١٨٥ .

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ١٠٥ - ١٠٦ .

(٤) ١/ ٢٤٢ - ٢٤٤ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٢ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٨٧ .

فعيل بمعنى مُفْعَل، كقول الأعشى يذكر قصيدته التي قالها:

وغريبةٍ تأتي الملوكَ حكيمةٍ قد قلتُها ليُقالَ مَن ذا قالها[١]

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهامٌ معناه التقرير والتوبيخ[٢]. و«عَجَباً» خبرُ كان، واسمُها: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ وهو في موضع رفع؛ أي: أكان[٣] إيحاؤنا عجباً للناس.

وفي قراءة عبد الله: «عجبٌ» على أنه اسم كان. والخبر: «أَنْ أَوْحَيْنَا»[٤]. ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ وقُرئ: «رَجْل» بإسكان الجيم[٥].

وسبب النزول فيما رُويَ عن ابن عباس: أنَّ الكفارَ قالوا لمَّا بُعث محمد: إنَّ الله أعظمُ من أن يكون رسولُه بشراً. وقالوا: ما وَجَد الله مَن يرسله إلَّا يتيمَ أبي طالب! فنزلت: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ يعني أهلَ مكة ﴿عَجَبًا﴾[٦]. وقيل: إنما تعجَّبوا من ذكر البعث.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ في موضع نصبٍ بإسقاط الخافض؛ أي: بأن أنذر الناس، وكذا: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ﴾[٧]. وقد تقدَّم معنى النِّذارة والبِشَارة وغيرِ ذلك

---

(١) ديوان الأعشى الكبير ص٧٧ .

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٣٨ .

(٣) في النسخ: كان، وينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٣٩ ، والدر المصون ٦/ ١٤٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٤ ، وذكر القراءة عن عبد الله أيضاً ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٠٢-١٠٣ .

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣ ، ونسبها أبو حيان في البحر ٥/ ١٢٢ لرؤبة، ورَجُل، بضم الجيم وسكونها. القاموس (رجل).

(٦) ذكره دون نسبة الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٥ ، وأخرجه عن ابن عباس دون قوله: ما وجد الله من يرسله إلا يتيم أبي طالب: الطبريُّ ١٢/ ١٠٧ ، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٢ (١٠١٩٣).

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٤ .

من ألفاظ الآية(١).

واختلف في معنى: «قَدَمَ صِدْقٍ»؛ فقال ابن عباس: «قَدَمَ صِدْقٍ»: منزلَ صدقٍ، دليلُه قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠](٢). وعنه أيضاً: أجراً حسناً بما قدَّموا من أعمالهم. وعنه أيضاً: «قَدَمَ صِدْقٍ»: سَبْقَ السعادة في الذِّكر الأول(٣). وقاله مجاهد. الزجَّاج: درجة عالية(٤). قال ذو الرُّمة:

لكم قَدَمٌ لا يُنْكِرِ الناسُ أنَّها ... مع الحَسَبِ العالي طَمَّتْ على البحر(٥)

قتادة: سَلَفَ صدقٍ. الربيع: ثواب صدقٍ(٦). عطاء: مقام صدقٍ(٧). يَمَان: إيمان صدقٍ. وقيل: دعوة الملائكة. وقيل: وَلَدٌ صالح قدَّموه.

الماورديّ(٨): أن يُوافق صِدْقَ الطاعة صِدْقُ الجزاء.

وقال الحسن وقتادة أيضاً: هو محمدٌ ﷺ؛ فإنه شفيعٌ مُطَاعٌ يتقدَّمهم(٩)، كما قال: «أنا فَرَطُكم على الحوض»(١٠). وقد سُئل ﷺ فقال: «هي شفاعتي توسَّلون(١١) بي إلى ربكم».

---

(١) ١/ ٢٨١ و ٣٥٨.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٧٦، وأخرجه بمعناه أحمد (١٩٤٨)، والترمذي (٣١٣٩). قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) أخرج هذا القول والذي قبله عن ابن عباس الطبري ١٢/ ١٠٨ - ١١٠. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣ القول الأخير بلفظ: هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٦ بلفظ: المنزلة الرفيعة.

(٥) ديوان ذي الرمة ٢/ ٩٧٢ برواية: العادي، بدل: العالي، والفخر، بدل: البحر، وقال الأصمعي شارح الديوان: قدم: أي سابقة تقدمت. وطمَّت: عَلَت.

(٦) أخرج قولي قتادة والربيع الطبري ١٢/ ١٠٩ و ١١١.

(٧) ذكره البغوي ٢/ ٣٤٣.

(٨) في النكت والعيون ٢/ ٤٢٢.

(٩) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ١٧٦ عن الحسن أو قتادة، وكذلك أخرجه الطبري ١٢/ ١١٠، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٤ (١٠٢٠٤) عن الحسن من غير شك.

(١٠) سلف ٥/ ٢٥٧.

(١١) في (ظ): توسلوا، ولم نقف على هذا الخبر.

وقال الترمذيُّ الحكيم: قَدَمه ﷺ في المقام المحمود.

وعن الحسن أيضاً: مُصيبتهم في النبيِّ ﷺ[١].

وقال عبد العزيز بن يحيى: «قَدَمَ صِدْقٍ» قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقال مقاتل: أعمالاً قدَّموها. واختاره الطبريّ[٢]؛ قال الوضَّاح[٣]:

صَلِّ لذي العرش واتَّخِذْ قَدَماً ... تُنْجيكَ يومَ العِثارِ والزَّلَلِ

وقيل: هو تقديمُ الله هذه الأمةَ في الحشر من القبر وفي إدخال الجنة، كما قال: «نحن الآخِرون السابقون يومَ القيامة، المقضيُّ لهم قبل الخلائق»[٤].

وحقيقتُه: أنَّه كنايةٌ عن السعي في العمل الصالح، فكنَى عنه بالقَدَم كما يُكنَى عن الإنعام باليد، وعن الثناء باللسان؛ وأنشد حسان:

لنا القَدمُ العليا إليكَ وخَلْفُنا ... لأوَّلنا في طاعة الله تابعُ

يريد: السابقة بإخلاص الطاعة[٥]، والله أعلم.

وقال أبو عبيدة والكسائي: كلُّ سابقٍ من خيرٍ أو شرٍّ فهو عند العرب قَدَم؛ يقال: لفلان قَدَمٌ في الإسلام، وله عندي قَدَمُ صدقٍ وقَدَمُ شرٍّ وقَدَمُ خير. وهو مُؤنَّث وقد يُذكَّر، يقال: قَدَمٌ حَسَنٌ وقدمٌ صالحةٌ[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٣ (١٠٢٠١).

(٢) في تفسيره ١٢/ ١١١، وقول مقاتل ذكره أبو الليث ٢/ ٨٧، وقد سلف مثله عن ابن عباس قريباً.

(٣) هو وضاح اليمن، والبيت في ديوانه ص٧١.

(٤) قطعة من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، أخرجه مسلم (٨٥٦). ولفظة: «نحن الآخِرُون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضيّ لهم قبل الخلائق». وأخرجه أيضاً أحمد (٧٣١٠)، والبخاري (٨٩٦) عن أبي هريرة دون قوله: «المقضي لهم قبل الخلائق».

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٢٢، وسلف البيت ٧/ ٣١١.

(٦) ذكره عن أبي عبيدة البغوي ٢/ ٣٤٣، وينظر مجاز القرآن ١/ ٢٧٣.

وقال ابن الأعرابي: القَدمُ التقدُّم في الشرف(١). قال العَجَّاج:

زلَّ بنو العوَّامِ عن آلِ الحَكَمْ وتركوا المُلْكَ لمُلْكٍ ذي قَدَمْ(٢)

وفي الصِّحاح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لي خمسةُ أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفرَ، وأنا الحاشِرُ الذي يُحشَر الناسُ على قدمي، وأنا العاقب»(٣) يريد آخِرَ الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ ابنُ مُحَيْصِن وابن كثير والكوفيون؛ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُ وخلفٌ والأعمشُ: «لَسَاحِرٌ» نعتاً لرسول الله ﷺ. وقرأ الباقون: «لَسِحْرٌ»(٤) نعتاً للقرآن، وقد تقدَّم معنى السحرِ في «البقرة»(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم في «الأعراف»(٦).

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ قال مجاهد: يقضيه ويقدِّره وحْدَه(٧). ابن عباس: لا يَشْرَكُه في

---

(١) ذكر الأزهري في تهذيب اللغة ٩/ ٤٦ قول ابن الأعرابي بلفظ: القَدْم: الشرف القديم، على مثال فَعْل.

(٢) ديوان العجاج ص١٤٩ برواية: وشنئوا، بدل: وتركوا. قال الأصمعي شارح الديوان: أبغضوا ذلك فسلموه إليهم.

(٣) صحيح البخاري (٤٨٩٦)، وصحيح مسلم (٢٣٥٤)، وهو عند أحمد (١٦٧٣٤) وهو من حديث جبير ابن مطعم ﷺ. قوله: على قدمي، قيل: على سابقتي، وقيل: على سُنَّتي، وقيل: بعدي، أي: يتبعوني إلى يوم القيامة. المفهم ٦/ ١٤٦ .

(٤) السبعة ص٣٢٢ ، والتيسير ص١٢٠ ، وقراءة ابن محيصن والأعمش في المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣ .

(٥) ٢/ ٢٧٢ وما بعدها.

(٦) ٩/ ٢٣٧ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٤ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ١١٤ - ١١٥ .

تدبيرِ خَلْقِه أحد[١]. وقيل: يَبعث بالأمر. وقيل: ينزل به[٢]. وقيل: يأمر به ويُمضيه[٣]، والمعنى متقارب، فجبريلُ للوحي، وميكائيلُ للقَطْرِ، وإسرافيلُ للصُّورِ، وعزرائيلُ للقبضِ. وحقيقتُه: تنزيلُ الأمور في مَرَاتبها على أحكام عَوَاقِبها، واشتقاقُه من الدُّبر[٤]. والأمر: اسمٌ لجنس الأمور.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ في موضع رفعٍ، والمعنى: ما شفيعٌ ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ وقد تقدَّم في «البقرة» معنى الشفاعة[٥]. فلا يَشْفعُ أحدٌ نبيٌ ولا غيرُه إلَّا بإذنه سبحانه، وهذا ردٌّ على الكفار في قولهم فيما عبدوه من دون الله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨]، فأعلمهم الله أنَّ أحداً لا يشفع لأحدٍ إلَّا بإذنه، فكيف بشفاعة أصنامٍ لا تعقل؟!

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أي: ذلكم الذي فَعَل هذه الأشياء، من خلق السماوات والأرض، هو ربُّكم لا ربَّ لكم غيره. ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ أي: وحِّدوه وأَخْلِصوا له العبادة. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: بمخلوقاته[٦] فتستدلُّوا بها عليه.

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ رفعٌ بالابتداء. ﴿جَمِيعٗا﴾ نصبٌ على الحال.

---

(١) لم نقف عليه وهو بمعنى ما قبله.

(٢) في (ظ): وقيل ينزل الأمر أي ينزل به.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٢ .

(٤) ينظر معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٢٤ . قال ابن فارس: والتدبير: أن يدبِّر الإنسان أمره، وذلك أنه ينظر إلى ما تصير عاقبتُه وآخِره، وهو دُبُره.

(٥) ٤/ ٢٧١ وما بعدها.

(٦) في (م): أي أنها مخلوقاته.

ومعنى الرجوعِ إلى الله: الرجوعُ إلى جزائه. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ مصدران؛ أي: وَعَد الله ذلك وعداً وحقَّقه «حقًّا» صدقاً لا خُلْفَ فيه. وقرأ إبراهيم بن أبي عَبْلَة: «وَعْدَ الله حَقٌّ» على الاستئناف[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي: من التراب ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إليه. مجاهد: يُنْشِئُه ثم يُميته ثم يُحييه للبعث[٢]؛ أو ينشئه من الماء ثم يُعيده من حال إلى حال.

وقرأ يزيد بن القَعْقَاع: «أَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْق»[٣] تكون «أنَّ» في موضع نصب؛ أي: وَعَدَكم أنه يبدأ الخلق. ويجوز أن يكون التقدير: لأنَّه يبدأ الخلق، كما يقال: لَبَّيْكَ أنَّ الحمد والنعمة لك. والكسرُ أَجْوَد. وأجاز الفرّاء[٤] أن تكون «أنَّ» في موضع رفعٍ فتكون اسماً. قال أحمد بن يحيى: يكون التقدير: حقًّا إبداؤه الخلق.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماءٌ حارٌّ قد انتهى حرُّه[٥]، والحمِيمةُ مثله. يقال: حَمَمْتُ الماءَ أحُمُّه فهو حميم، أي: محموم؛ فَعيل بمعنى مفعول. وكلُّ مُسَخَّن عند العرب فهو حميم[٦].

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ أي: موجِع يَخْلُص وجعُه إلى قلوبهم. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٥ ، والبحر ٥/ ١٢٤ . قال ابن عطية: وقرأ ابن أبي عبلة: «حقٌّ» فهو ابتداء، وخبره: «أنه» على القراءة بفتح همزة «أنه» على ما يأتي. وقال أبو حيان: وكونُ «حقٌّ» خبر مبتدأ، و«أنه» هو المبتدأ هو الوجه في الإعراب. وقال مكي في مشكل إعراب القرآن: ١/ ٣٣٩ : وأجاز الفراء [معاني القرآن له ١/ ٤٥٧] رفع «وعد» و«حق» على الابتداء، وهو حسن، ولم يقرأ بها أحد.

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٢٩١ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ١١٦ ووقع في تفسير مجاهد: يخلقه، بدل: ينشئه، وفي تفسير الطبري بدلاً منها: يحييه.

(٣) وهي من العشرة. ويزيد: هو أبو جعفر، وينظر النشر ٢/ ٢٨٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٤ ، والكلام منه.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٥٧ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٤ .

(٥) ينظر تفسير الطبري ٢١/ ٥٨ .

(٦) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ١١٨ ، والصحاح (حمم).

أي: بكفرهم، وكان معظمُ قريش يعترفون بأنَّ الله خالِقُهم[(١)]؛ فاحتجَّ عليهم بهذا فقال: مَن قَدَر على الابتداء، قَدَر على الإعادة بعد الإفناء أو بعد تفريق الأجزاء.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ مفعولان، أي: مُضيئةً، ولم يؤنَّث لأنه مصدر، أو ذاتَ ضياء. ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ عطف، أي: منيراً، أو ذا نور، فالضياءُ ما يضيءُ الأشياء، والنورُ ما يَبِينُ فيَخْفَى؛ لأنه من النار من أصل واحد. والضياءُ جمع ضَوْء، كالسِّياط والحِياض؛ جمع سَوْط وحَوض[(٢)].

وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير: «ضِئَآءً» بهمز الياء[(٣)]، ولا وجهَ له؛ لأنَّ ياءَه كانت واواً مفتوحةً وهي عين الفعل، أصلُها: ضِواء، فقلبت وجُعلت ياءً؛ كما جعلت في الصيام والقيام[(٤)].

قال المهدويُّ: ومَن قرأ: «ضِئَآءً» بالهمز، فهو مقلوب، قدِّمت الهمزةُ التي بعد الألف فصارت قبل الألف، فصار: ضِئاياً، ثم قُلبت الياءُ همزةً لوقوعها بعد ألفٍ زائدة. وكذلك إنْ قدَّرت أنَّ الياء حين تأخَّرت رجعت إلى الواو التي انقلبت عنها، فإنها تُقلب همزةً أيضاً، فوزنه فِلَاع، مقلوب من فعال[(٥)].

ويقال: إنَّ الشمس والقمر تضيء وجوهُهما لأهل السماوات السبع، وظهورُهما لأهل الأرضين السبع[(٦)].

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير عند الآية (٦١) من سورة العنكبوت، وقال ابن كثير: كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.

(٢) الحجة للفارسي ٤/ ٢٥٨، وقال: أو يكون مصدرَ: ضاء يضوء ضياء، كقولك: عاذ عياذاً، وقام قياماً.

(٣) السبعة ص٣٢٣، والتيسير ص١٢٠.

(٤) تفسير الرازي ١٧/ ٣٥.

(٥) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥١٢ - ٥١٣.

(٦) أخرج نحوه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣١٩، والطبري ٢٣/ ٣٠٠.

قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ أي: ذا منازل، أو: قدَّر له منازل. ثم قيل: المعنى: وقدَّرهما، فوحَّد إيجازاً واختصاراً، كما قال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١]. وكما قال:

نحن بما عندنا وأنتَ بما عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ[١]

وقيل: إنَّ الإخبار عن القمر وحده؛ إذ به تُحصى الشهور التي عليها العملُ في المعاملات ونحوِها، كما تقدَّم في «البقرة»[٢]. وفي سورة يس: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] أي: على عدد الشهر، وهي ثمانيةٌ وعشرون منزلاً. ويومان للنُّقْصان والمَحاق[٣]، وهناك يأتي بيانه.

قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي: عددَ السنين وحسابَ الشهور[٤] قال ابن عباس: لو جعل شمسين، شمساً بالنهار وشمساً بالليل ليس فيهما ظلمةٌ ولا ليل، لم يُعلم عددُ السنين وحسابُ الشهور[٥]. وواحدُ «السِّنين»: سَنة. ومِن العرب مَن يقول: سنوات في الجمع. ومنهم مَن يقول: سَنَهات. والتصغير سُنَيَّة وسُنَيْهة[٦].

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: ما أراد الله عزَّ وجلَّ بخَلْق ذلك إلا الحكمةَ والصواب[٧]، وإظهاراً لصنعته وحكمته، ودلالةً على قدرته وعلمه، ولتُجزى كلُّ نفس بما كسبت، فهذا هو الحقّ.

---

(١) ص١٨٨ من هذا الجزء.

(٢) ٣/ ٢٢٨ وما بعدها. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٥ .

(٣) المحاق وتثلث الميم: آخر الشهر. أو: ثلاث ليال من آخره، أو أن يستسرَّ القمر، فلا يُرى غُدوةً ولا عشيةً، سمِّي لأنه طلع مع الشمس فمحقته. القاموس (محق).

(٤) قوله: أي عدد السنين وحساب الشهور، من (ظ).

(٥) لم نقف عليه.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٥ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٦ .

قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تفصيلُ الآيات: تبيينُها ليُستدلَّ بها على قدرته تعالى؛ لاختصاص الليل بظلامه والنهار بضيائه، من غير استحقاقٍ لهما ولا إيجابٍ؛ فيكون هذا لهم دليلاً على أنَّ ذلك بإرادةِ مُريد.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص ويعقوب: «يُفَصِّل» بالياء[1]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ لقوله مِن قبله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وبعده ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فيكون مُتْبَعاً له. وقرأ ابن السَّمَيْفع: «تُفصَّل»؛ بضمِّ التاء وفتح الصاد على الفعل المجهول، و«الآياتُ» رفعاً[2]. الباقون: «نفصِّل»[3] بالنون على التعظيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

تقدَّم في «البقرة»[4] وغيرِها معناه، والحمد لله. وقد قيل: إنَّ سبب نزولها أنَّ أهلَ مكة سألوا آية، فردَّهم إلى تأمُّل مصنوعاته والنظرِ فيها. قاله ابن عباس[5].

﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: الشرك، فأمَّا مَن أشْرَكَ ولم يستدلَّ، فليست الآيةُ له آية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ «يرجون»: يخافون، ومنه قول الشاعر:

إذا لسعتْه النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها … وخالَفَها في بَيْت نُوبٍ عَواسلُ[6]

---

(١) السبعة ص٣٢٣، والتيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢.

(٢) هي قراءة شاذة ولم نقف عليها.

(٣) السبعة ص٣٢٣، والتيسير ص١٢١.

(٤) ٢/ ٤٩٠ وما بعدها.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٨ (١٠٢٣٠).

(٦) البيت لأبي ذؤيب الهُذَلي، ووقع في (خ): عوامل، بدل: عواسل، وهي رواية له كما سلف ٣/ ٤٣٣.

وقيل: يرجون: يطعمون، ومنه قول الآخر:

أيرجو بنو مروانَ سَمْعي وطاعتي وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا[(١)]

فالرجاء يكون بمعنى الخوف والطمع، أي: لا يخافون عقاباً ولا يرجون ثواباً. وجعل لقاء العذاب والثوابِ لقاءً لله تفخيماً لهما.

وقيل: يجري اللقاء على ظاهره، وهو الرؤية، أي: لا يطمعون في رؤيتنا.

وقال بعض العلماء: لا يقع الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجَحْد، كقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣]. وقال بعضهم: بل يقع بمعناه في كلِّ موضعٍ دلَّ عليه المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ أي: رَضُوا بها عوضاً من الآخرة فعملوا لها. ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ أي: فرحوا بها وسكنوا إليها، وأصل اطمأنَّ: طَأْمَن طُمأنينة، تقدَّمت ميمه، وزيدت نونٌ وألفُ وصل[(٢)]. ذكره الغَزْنوِيّ[(٣)].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: عن أدلَّتنا ﴿غَٰفِلُونَ﴾: لا يَعتَبِرون ولا يتفكَّرون. ﴿أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: مثواهم ومُقامهم. ﴿النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من الكفر والتكذيب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: صدَّقوا. ﴿وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يَزيدُهم هدايةً، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧].

وقيل: يَهْديهم ربُّهم بإيمانِهم إلى مكان تجري من تحتهم الأنهار. وقال أبو رَوْق:

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٢٣ ، والبيت لسوّار بن المُضرِّب، كما في الخزانة ٣/ ١٧٦ (دار صادر).

(٢) اللسان (طمن).

(٣) هو محمد بن يزيد بن طيفور، وقد سلفت ترجمته. وينظر اللسان (طمن).

يهديهم ربُّهم بإيمانهم إلى الجنة. وقال عطية: «يَهْدِيهِمْ»: يُثيبهم ويَجزيهم.

وقال مجاهد: يَهْديهم ربُّهم بالنور على الصراط إلى الجنة؛ يجعلُ لهم نوراً يمشون به[١]. ويُروى عن النبيِّ ﷺ ما يقوّي هذا أنه قال: «يتلقَّى المؤمنَ عملُه في أحسن صورة، فيؤنسُه ويهديه، ويتلقَّى الكافرَ عملُه في أقبح صورة، فيوحِشُه ويُضِلُّه». هذا معنى الحديث[٢].

وقال ابن جُريج: يجعل عملهم هادياً لهم[٣]. الحسن: «يهديهم»: يرحمهم[٤].

قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قيل: في الكلام واوٌ محذوفة؛ أي: وتجري من تحتهم[٥]، أي: من تحت بساتينهم. وقيل: من تحت أسِرَّتهم؛ وهذا أحسنُ في النزهة والفرجة.

قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ دعواهم، أي: دعاؤهم، والدعوى مصدرُ دعا يدعو، كالشكوى مصدرُ شكا يشكو[٦]، أي: دعاؤهم في الجنة أن يقولوا: سبحانك اللهم.

وقيل: إذا أرادوا أن يَسألوا شيئاً؛ أخرجوا السؤالَ بلفظِ التسبيح، ويختمون بالحمد[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٥. وهو في تفسير مجاهد ١/ ٢٩٢ مختصر بلفظ: يكون لهم إيمانهم نوراً يمشون به. وكذا أخرجه الطبري ١٢/ ١٢٤، وذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٢٧٩.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٧٩، والحديث أخرجه الطبري ١٢/ ١٢٣ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً. وينظر مسند أحمد (١٨٥٣٤).

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٣، وأخرجه الطبري مطولاً ١٢/ ١٢٤.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ٨٩.

(٥) ينظر البحر ٥/ ١٢٧.

(٦) الكتاب ٤/ ٤٠ - ٤١، وينظر اللسان (دعا).

(٧) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٣٩ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: نداؤهم الخدمَ ليأتوهم بما شاؤوا ثم سبَّحوا[١].

وقيل: إنَّ الدعاءَ هنا بمعنى التمنِّي؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١] أي: ما تَتمنَّوْن. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: تحيَّة الله لهم، أو تحيَّة المَلَك، أو تحيَّة بعضِهم لبعض: سلام[٢]. وقد مضى في «النساء» معنى التحيةِ مستوفًى[٣]. والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **فيه أربع مسائل:**

الأولى: قيل: إنَّ أهل الجنة إذا مرَّ بهم الطيرُ واشتهَوْه قالوا: سبحانك اللهم، فيأتيهم الملك بما اشتَهوا، فإذا أكلوا حمدوا الله، فسؤالُهم بلفظِ التسبيح، والختمُ بلفظ الحمد[٤].

ولم يحكِ أبو عبيد إلا تخفيفَ «أنْ» ورفعَ ما بعدها، قال: وإنما نراهم اختاروا هذا، وفرَّقوا بينها وبين قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ﴾ و﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٧و٩] لأنهم أرادوا الحكاية حين يقال: الحمد لله.

قال النحاس[٥]: مذهبُ الخليل وسيبويه[٦] أنَّ «أنْ» هذه مخفَّفةٌ من الثقيلة، والمعنى: أنه الحمد لله. قال محمد بن يزيد: ويجوز «أنِ الحمدَ لله» يُعْمِلها خفيفةً عَمَلَها ثقيلةً، والرفعُ أَقْيَسُ.

قال النحاس: وحكى أبو حاتم أنَّ بلال بن أبي بردة قرأ: «وآخِرُ دَعْواهُم أنَّ الحمدَ لله رب العالمين».

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٨٩، وتفسير البغوي ٢/ ٣٤٥.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٣٩.

(٣) ٦/ ٤٨٧ وما بعدها.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ١٢٦ عن ابن جريج.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٦، وما قبله منه.

(٦) في الكتاب ٣/ ١٦٣.

قلت: وهي قراءةُ ابن مُحَيْصن(١). حكاها الغَزْنَويُّ؛ لأنه يحكى عنه.

الثانية: التسبيحُ والحَمْدُ والتهليلُ قد يُسمَّى دعاءً؛ روى مسلم والبخارِيُّ عن ابن عباس: أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا اللهُ العظيم الحلِيم، لا إله إلا اللهُ ربُّ العرش العظيم، لا إله إلا الله ربُّ السماوات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم»(٢).

قال الطبريّ(٣): كان السَّلَفُ يدعون بهذا الدعاء، ويسمُّونه دعاءَ الكرب. وقال ابن عيينة؛ وقد سئل عن هذا فقال: أمَا علمتَ أنَّ الله تعالى يقول: «إذا شَغل عبدي ثناؤه عن مسألتي، أعطيته أفضلَ ما أُعطي السائلين»(٤). والذي يقطع النزاع، وأنَّ هذا يسمَّى دعاءً وإن لم يكن فيه من معنى الدعاء شيءٌ، وإنما هو تعظيمٌ لله تعالى وثناءٌ عليه، ما رواه النَّسائي عن سعد بن أبي وَقَّاص قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوةُ ذي النُّون إذ دعا بها في بطن الحوت: لا إله إلا أنتَ سبحانك إنِّي كنتُ من الظالمين؛ فإنَّه لن يدعُوَ بها مسلم في شيء إلا استُجيب له»(٥).

الثالثة: من السُّنَّة لمن بدأ بالأكل أن يُسَمِّيَ اللهَ عند أكله وشربه، ويحمَدَه عند فَراغه؛ اقتداءً بأهل الجنة، وفي «صحيح» مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ ليرضى عن العبد أن يأكلَ الأكلةَ فيحمَده عليها، أو يشربَ

(١) ذكرها عن بلال وابن محيصن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٥٦ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٠٨ . وبلال بن أبي بردة هو ابن أبي موسى الأشعري، كان أمير البصرة وقاضيها، توفي سنة نيف وعشرين ومئة. التهذيب ١/ ٢٥٢ - ٢٥٣ .

(٢) صحيح البخاري (٦٣٤٥)، وصحيح مسلم (٢٧٣٠)، وهو عند أحمد (٢٠١٢).

(٣) قوله في المفهم ٧/ ٥٦ .

(٤) المفهم ٧/ ٥٦ ، وأخرجه عن سفيان ابنُ عبد البر في التمهيد ١/ ٤٤ ، وذكر أن سفيان رواه عن منصور (وهو ابن المعتمر) عن مالك بن الحارث، وكذا أخرجه ابن المبارك في الزهد (٩٢٩). وسلف بنحوه مرفوعاً ١/ ٩ و ٢٠٩ من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٥) سنن النسائي الكبرى (١٠٤١٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤٦٢) مطولاً، والترمذي (٣٥٠٥).

الشَّربةَ فيحمده عليها»[١].

الرابعة: يُستحبُّ للداعي أن يقولَ في آخر دعائه كما قال أهل الجنة: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وحَسُن أن يقرأ آخر «الصافات»، فإنها جمعت تنزيهَ البارئ تعالى عما نُسب إليه[٢]، والتَّسليمَ على المرسلين، والخَتْمَ بالحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ قيل: معناه: ولو عجَّل الله للناس العقوبةَ كما يَستعجلون الثوابَ والخير لماتوا؛ لأنهم خُلقوا في الدنيا خَلْقاً ضعيفاً، وليس هم كذا يومَ القيامة؛ لأنهم يومَ القيامة يُخلقون للبقاء[٣].

وقيل: المعنى: لو فعل الله مع الناس في إجابته إلى المكروه مثلَ ما يريدون فعلَه معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم[٤]، وهو معنى: ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾.

وقيل: إنه خاصٌّ بالكافر؛ أي: ولو يعجِّل الله للكافر العذابَ على كفره كما عجَّل له خيرَ الدنيا من المال والولد، لعجَّل له قضاءَ أَجَله ليتعجَّلَ عذابَ الآخرة؛ قاله ابن إسحاق[٥].

مقاتل: هو قولُ النَّضر بنِ الحارث: اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندك فأَمطِر

(١) صحيح مسلم (٢٧٣٤)، وهو عند أحمد (١١٩٧٣)، وسلف الكلام عن الابتداء بالتسمية ٧/ ٣١٤.

(٢) في (ظ): عما نسبه إليه الملحدون.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٠٨ عن مجاهد. وسيأتي كلام مجاهد بتمامه.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٢٥.

علينا حجارةً من السماء، فلو عجَّل لهم هذا لهلكوا[١].

وقال مجاهد: نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضِب: اللهمَّ أَهْلِكْه، اللهم لا تبارك له فيه والْعَنْه، أو نحو هذا، فلو استُجيب ذلك منه كما يستجاب الخيرُ، لقُضي إليهم أجلُهم[٢]. فالآية نزلت ذامَّةً لخُلُقٍ ذميمٍ هو في بعض الناس، يدعون في الخير فيريدون تعجيلَ الإجابة، ثم يَحْمِلُهم أحياناً سوءُ الخُلق على الدعاء في الشر؛ فلو عُجِّل لهم لَهلَكوا[٣].

الثانية: واختُلف في إجابة هذا الدعاء؛ فروي عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إني سألت اللهَ عزَّ وجلَّ ألَّا يستجيبَ دعاءَ حبيبٍ على حبيبه»[٤]. وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: قرأت في بعض الكتب أنَّ الله تعالى يقول للملائكة الموكَّلين بالعبد: لا تكتبوا على عبدي في حالِ ضَجَرِه شيئاً[٥]. لطفاً من الله تعالى عليه.

قال بعضهم: وقد يُستجاب ذلك الدعاء؛ واحتجَّ بحديث جابر الذي رواه مسلم في صحيحه آخِرَ الكتاب، قال جابر: سرنا مع رسول الله ﷺ في غزوة بَطْنِ بُواطٍ وهو يطلب المَجْديَّ بن عمرو الجُهَنيّ، وكان الناضحُ يَعْتَقِبُه منَّا الخمسةُ والستةُ والسبعة، فدارت عُقبةُ رجلٍ من الأنصار على ناضحٍ له، فأناخه فركبه، ثم بعثه فتلدَّن عليه بعضَ التلدُّن، فقال له: شَأْ، لعنك الله! فقال رسول الله ﷺ: «مَن هذا اللاعِنُ بعيرَه؟» قال: أنا يا رسول الله؛ قال: انزِلْ عنه فلا تصحبنا بملعونٍ. لا تدْعُوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقُوا من الله ساعةً يُسأل

---

(١) زاد المسير ٤/ ١١، وتفسير أبي الليث ٢/ ٩٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ١٣٠ - ١٣١، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٢ (١٠٢٥٤)، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٢٩٢.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٩.

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه ٢/ ٢٠٢ - ٢٠٣، وابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٥٤ - ٣٥٥ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

(٥) لم نقف عليه عن شهر بن حوشب، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٨٤) عن الأحنف بن قيس قال: يوحي الله تعالى إلى الحافظَيْنِ اللَّذَيْن مع ابن آدم: لا تكتبا على عبدي في ضجره شيئاً.

فيها عطاءٌ فيستجيبَ لكم»[١].

في غير كتاب مسلم أنَّ النبيَّ ﷺ كان في سفر، فلعن رجلٌ ناقته، فقال: «أين الذي لعن ناقته؟» فقال الرجل: أنا هذا يا رسول الله؛ فقال: «أخِّرها عنك فقد أُجِبتَ فيها». ذكره الحُليميُّ في «منهاج الدين»[٢].

«شأ» يروى بالسين والشين، وهو زجرٌ للبعير بمعنى: سِرْ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾ قال العلماء: التعجيل من الله، والاستعجال من العبد.

وقال أبو عليّ[٣]: هما من الله، وفي الكلام حذف، أي: ولو يعجِّل الله للناس الشرَّ تعجيلاً مثلَ استعجالهم بالخير. ثم حَذَف تعجيلاً وأقام صفتَه مقامه، ثم حذف صفتَه وأقام المضافَ إليه مقامه. هذا مذهبُ الخليل وسيبويه.

وعلى قول الأخفش والفرَّاءِ: كاستعجالهم، ثم حذف الكاف ونصب. قال الفراء[٤]: كما تقول: ضربتُ زيداً ضَرْبَكَ، أي: كَضَرْبِك.

وقرأ ابن عامر: ﴿لَقَضَى إليهم أَجَلَهم﴾[٥]. وهي قراءةٌ حسنة؛ لأنه متَّصِلٌ بقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: لا يعجِّل لهم الشرَّ، فربما يتوب منهم تائبٌ، أو يخرج من أصلابهم مؤمن. ﴿فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يتحيَّرون. والطغيان: العلوُّ والارتفاع، وقد تقدَّم في «البقرة»[٦].

---

(١) صحيح مسلم (٣٠٠٩). قوله: بطن بُواط: هو جبل من جبال جهينة، والناضح: جمل السقي، ويعتقبه: أي: يتدارك ركوبه، وتلدن عليه بعض التلدن: أي: تلكأ ولم ينبعث، إكمال المعلم ٨/ ٥٦٤-٥٦٥ .

(٢) المنهاج في شعب الإيمان ٢/ ٤٣٥ ، وأخرجه أحمد (٩٥٢٢) والنسائي (٨٧٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في الحجة ٤/ ٢٥٤ .

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٥٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٧ . وما قبله منه.

(٥) السبعة ص٣٢٣ - ٣٢٤ ، والتيسير ص١٢١ .

(٦) ١/ ٣١٧ .

وقد قيل: إنَّ المراد بهذه الآية أهلُ مكة، وإنها نزلت حين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ [الأنفال: ٣٢] الآية، على ما تقدَّم(١) والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ قيل: المرادُ بالإنسان هنا الكافرُ - قيل: هو أبو حذيفةَ بنُ المغيرة المشرك(٢) - تُصيبه البأساءُ والشِّدَّة والجهد.

﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ أي: على جنبه مضطجعاً ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وإنما أراد جميعَ حالاته؛ لأنَّ الإنسان لا يَعْدُو إحدى هذه الحالاتِ الثلاث(٣).

قال بعضهم: إنما بدأ بالمضطجع لأنه بالضُّرِّ أشدُّ في غالب الأمر، فهو يدعو أكثر، واجتهادُه أشدُّ، ثم القاعدُ، ثم القائم. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾ أي: استمرَّ على كفره ولم يشكر ولم يتَّعظ.

قلت: وهذه صفة كثيرٍ من المخلِّطين الموحِّدين؛ إذا أصابته العافيةُ مرَّ على ما كان عليه من المعاصي؛ فالآية تعمُّ الكافرَ وغيرَه.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ قال الأخفش: هي «كأنَّ»(٤) الثقيلةُ خُفِّفت، والمعنى: كأنه، وأنشد:

وَيْ كأنْ مَن يكن له نَشَبٌ يُحْـ ـبَبْ ومَن يَفْتَقِرْ يَعِشْ عيشَ ضُرِّ(٥)

---

(١) ٩/ ٤٩٦.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٢ عن ابن عباس ومقاتل، وذكر أن اسم أبي حذيفة هو هاشم بن المغيرة بن عبد الله المخزومي.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٦.

(٤) في النسخ الخطية وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٧ (والكلام منه): أن، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٦٥.

(٥) قائله زيد بن عمرو بن نفيل، وهو في الكتاب ٢/ ١٥٥، والخزانة ٦/ ٤٠٤.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ﴾ أي: كما زُيِّن لهذا الدعاءُ عند البلاء والإعراضُ عند الرَّخاء ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للمشركين أعمالُهم من الكفر والمعاصي[١]. وهذا التزيين يجوز أن يكونَ من الله، ويجوز أن يكون من الشيطان، وإضلالُه: دعاؤه إلى الكفر[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ۙ﴾ يعني الأممَ الماضية من قَبْلِ أهلِ مكةَ أهلكناهم. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟ۙ﴾ أي: كفروا وأشركوا. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحات، والبراهينِ النَّيِّرات. ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ۚ﴾ أي: أهلكناهم لِعلمنا أنهم لا يؤمنون. يخوِّف كفارَ مكةَ عذابَ الأمم الماضية، أي: نحن قادرون على إهلاك هؤلاء بتكذيبهم محمداً ﷺ، ولكنْ نُمهِلُهم لعلمنا بأنَّ فيهم مَن يؤمن، أو يخرجُ مِن أصلابهم مَن يؤمن. وهذه الآية تردُّ على أهل الضلال القائلين بخَلْقِ الهُدَى والإيمان.

وقيل: معنى: «مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا» أي: جازاهم على كفرهم بأنْ طَبَع على قلوبهم، ويدلُّ على هذا أنه قال: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ مفعولان. والخلائفُ جمع خليفة، وقد تقدَّم آخِرَ «الأنعام»[٣]. أي: جعلناكم سكَّاناً في الأرض. ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد القرون المُهْلَكة.

---

(١) زاد المسير ٤/ ١٣ .

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٠٩ . وقال ابن عطية: ولفظة التزيين قد جاءت في القرآن بهذين المعنيين؛ من فِعْل الله تعالى، ومرة من فعل الشياطين.

(٣) ٩/ ١٤٧ .

﴿لِنَنظُرَ﴾ نصب بلام كي، وقد تقدَّم نظائرُه وأمثاله[١]؛ أي: ليقعَ منكم ما تستحقُّون به الثوابَ والعقاب، ولم يزل يعلمه غيباً.

وقيل: يعاملكم معاملةَ المختبِرِ إظهاراً للعدل.

وقيل: النظر راجعٌ إلى الرسل؛ أي: لينظر رسلُنا وأولياؤنا كيف أعمالُكم. و«كيف» نصبٌ بقوله: تعملون؛ لأن الاستفهام له صدرُ الكلام، فلا يعمل فيه ما قبله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ «تتلى»: تُقرأ، و﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ نصب على الحال؛ أي: واضحات لا لَبْسَ فيها ولا إشكال. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني: لا يخافون يوم البعث والحساب، ولا يرجون الثواب. قال قتادة: يعني مشركي أهلِ مكة[٢]. ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ والفرقُ بين تبديله والإتيانِ بغيره: أنَّ تبديلَه لا يجوز أن يكون معه، والإتيانُ بغيره قد يجوز أن يكون معه.

وفي قولهم ذلك ثلاثةُ أوجُه:

أحدها: أنهم سألوه أن يحوِّل الوعدَ وعيداً والوعيدَ وعداً، والحلالَ حراماً والحرامَ حلالاً. قاله ابن جرير الطبري.

الثاني: سألوه أن يُسقِطَ ما في القرآن من عَيْبِ آلهتهم وتَسْفيهِ أحلامِهم؛ قاله ابن عيسى.

الثالث: أنهم سألوه إسقاطَ ما فيه من ذِكْر البعث والنشور. قاله الزجَّاج[٣].

---

(١) ٢/ ٤٣٨.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ١٣٨، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٤ (١٠٢٦٩).

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧، وكلام الطبري في تفسيره ١٢/ ١٣٦، وكلام الزجاج في معانيه ٣/ ١١.

الثانية: قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي: قل يا محمد: ما كان لي. ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ ومن عندي، كما ليس لي أن ألقاه بالردِّ والتكذيب. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: لا أتّبع إلا ما أتلوه عليكم من وَعْدٍ ووعيد، وتحريمٍ وتحليل، وأمرٍ ونهي[١].

وقد يَستدلُّ بهذا مَن يمنع نسخَ الكتاب بالسنَّة؛ لأنه تعالى قال: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ وهذا فيه بُعد؛ فإنَّ الآية وردت في طلب المشركين مِثْلَ القرآن نَظْماً، ولم يكن الرسولُ ﷺ قادراً على ذلك، ولم يسألوه تبديلَ الحُكم دون اللفظ؛ ولأنَّ الذي يقوله الرسولُ ﷺ إذا كان وحياً لم يكن من تِلْقاء نفسه، بل كان من عند الله تعالى[٢].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ أي: إنْ خالفتُ في تبديله وتغييره، أو في ترك العمل به. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يعني يومَ القيامة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: لو شاء الله ما أرسلني إليكم فتلوتُ عليكم القرآن، ولا أَعْلَمَكم اللهُ ولا أخبركم به؛ يقال: دَرَيْتُ الشيءَ وأدراني اللهُ به، ودَرَيتُه ودريتُ به. وفي الدِّراية معنى الخَتْل؛ ومنه: داريت[٣] الرجل، أي: ختلته، ولهذا لا يُطلَق الداري في حقِّ الله تعالى، وأيضاً عُدم فيه التوقيف[٤].

وقرأ ابن كثير: ﴿ولأدراكم به﴾ بغير ألفٍ بين اللام والهمزة[٥]؛ والمعنى: لو

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٢٧ .

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٣/ ٢٢٣ .

(٣) في (م) دريت، وكلاهما صحيح. ينظر اللسان (دري).

(٤) ينظر الحجة للفارسي ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ ، ومفردات الراغب ص٣١٢ - ٣١٣ .

(٥) التيسير ص١٢١ .

شاء الله لَأَعْلَمكم به من غير أن أتلوَه عليكم، فهي لامُ التأكيد دخلت على ألف أفعل[١].

وقرأ ابن عباس والحسن: «ولا أدرأتُكم به» بتحويل الياءِ ألفاً[٢]، على لغة بني عقيل؛ قال الشاعر:

لَعَمْرُكَ ما أخشى التَّصَعْلُكَ ما بقَى   على الأرض قَيْسيٌّ يسوق الأباعرا[٣]

وقال آخر:

ألا آذنتْ أهلَ اليمامةِ طيِّئٌ   بحربٍ كناصاة الأغرِّ المشهَّرِ[٤]

قال أبو حاتم: سمعت الأصمعيَّ يقول: سألت أبا عمرو بنَ العلاء: هل لقراءة الحسن: «ولا أدرأتُكم به» وجه؟ فقال: لا. وقال أبو عبيد: لا وجهَ لقراءة الحسن: «ولا أدرأتكم به» إلَّا [على] الغلط. قال النحاس[٥]: معنى قولِ أبي عبيد إن شاء الله[٦]: على الغلط: أنه يقال: دريتُ، أي: علمت، وأدْريتُ غيري، ويقال: درأت، أي: دفعت، فيقع الغلطُ بين دريت [وأدْرَيْتُ] ودرأت. قال أبو حاتم: يريد الحسن فيما أحسِب: «ولا أدريتُكم به» فأبدل من الياء ألفاً على لغة بني الحارث بنِ كعب، يُبْدِلون من الياء ألفاً إذا انفتح ما قبلها؛ مثل: ﴿إنَّ هذان لساحران﴾[٧] [طه: ٦٣].

قال المهدويُّ: ومَن قرأ: «أدرأتُكم» فوجهُه أنَّ أصل الهمزة ياءٌ، فأصلُه:

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥١٤ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٠ .

(٢) القراءات الشاذة ص٥٦ ، والمحتسب ١/ ٣٠٩ عن الحسن، وذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١١٠ عن ابن عباس والحسن وابن سيرين وأبي رجاء.

(٣) قائله زيد الخيل الطائي، وهو في ديوانه ص٦٢ ، وسلف ٤/ ٤١٣ .

(٤) قائله حريث بن عنَّاب الطائي، وهو في النوادر لأبي زيد ص١٢٤ ، والمعاني الكبير لابن قتيبة ٢/ ١٠٤٨ وفيه: الحصان، بدل: الأغر. وموضع الشاهد فيه قوله: كناصاة، أي: كناصية.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٨ - ٢٤٩ ، وما قبله وما بين حاصرتين منه.

(٦) في (د) و(ز) و(م): معنى قول أبي عبيد لا وجه إن شاء الله، والمثبت من (خ) و(ظ) وهو الموافق لما في إعراب القرآن.

(٧) وهي قراءة نافع وحمزة والكسائي وابن عامر وعاصم في رواية شعبة السبعة ص٤١٩ ، والتيسير ص١٥٠ .

أدْرَيتكم، فقُلبت الياء ألفاً وإن كانت ساكنة؛ كما قال: يابَس في يَيْبَس[(١)]، وطايئ في طيِّئ، ثم قلبت الألفُ همزةً على لغة مَن قال في العالم: العَألَم، وفي الخاتم: الخأتم.

قال النحاس[(٢)]: وهذا غلطٌ، والروايةُ عن الحسن: «ولا أدرأتكم» بالهمز، وأبو حاتم وغيرُه تكلَّم أنه بغير همز، ويجوز أن يكون من: درأت، أي: دفعت؛ أي: ولا أمرتكم أن تدفعوا فتتركوا الكفرَ بالقرآن.

قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا﴾ ظرف، أي: مقداراً من الزمان وهو أربعون سنة. ﴿مِّن قَبۡلِهِۦٓ﴾ أي: من قبل القرآن، تعرفونني بالصِّدق والأمانة، لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتُكم بالمعجزات. ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أنَّ هذا لا يكون إلَّا مِن عند الله لا مِن قِبَلي[(٣)].

وقيل: معنى «لَبِثْت فِيكُمْ عُمُراً» أي: لبثت فيكم مدَّةَ شبابي لم أعصِ الله، أفتُريدون منِّي الآنَ وقد بلغتُ أربعين سنةً أن أخالفَ أمرَ الله، وأغيِّرَ ما ينزلُه عَلَيّ؟!

قال قتادة: لبث فيهم أربعين سنة، وأقام سنتين يرى رؤيا الأنبياء، وتُوفِّي ﷺ وهو ابن اثنتين وستِّينَ سنة[(٤)].

---

(١) في (م): يايس في ييس، ولم تجود في النسخ الخطية، والمثبت من المحتسب ١/ ٣٠٩، والكلام فيه بنحوه.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٩.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٩.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٥ (١٠٢٧٥). وقد وردت أقوال في عمره ﷺ عند وفاته، أصحها أنه كان ابن ثلاث وستين سنة. وهو المروي عن أنس ﷺ فيما أخرجه مسلم (٢٣٤٨). وعن ابن عباس رضي الله عنهما فيما أخرجه أحمد (٢١١٠)، والبخاري (٣٩٠٢)، ومسلم (٢٣٥١). وعن عائشة رضي الله عنها فيما أخرجه أحمد (٢٤٦١٨)، والبخاري (٣٥٣٦)، ومسلم (٢٣٤٩). وعن معاوية ﷺ فيما أخرجه أحمد (١٦٨٧٣) ومسلم (٢٣٥٢).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾

هذا استفهامٌ بمعنى الجَحْد؛ أي: لا أحدَ أظلمُ ممن افترى على الله الكذبَ، وبدَّل كلامه، وأضاف شيئاً إليه مما لم ينزله. وكذلك لا أحدَ أظلمُ منكم إذا أنكرتم القرآنَ وافتريتم على الله الكذبَ، وقلتم: ليس هذا كلامَه. وهذا مما أُمِر به الرسولُ ﷺ أن يقولَ لهم. وقيل: هو من قول الله ابتداءً. وقيل: المُفْتَري: المشركُ، والمكذِّبُ بالآيات: أهلُ الكتاب. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ يريد الأصنام. ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهذه غايةُ الجَهالةِ منهم، حيث ينتظرون الشفاعةَ في المآل ممن لا يوجد منه نفعٌ ولا ضرٌّ في الحال!.

وقيل: «شُفَعَاؤُنَا» أي: تشفع لنا عند الله في إصلاح معائشنا في الدنيا.

﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قراءة العامة: ﴿تنبِّئون﴾ بالتشديد. وقرأ أبو السَّمَّال العَدَوِيُّ: «أتنْبِئون الله» مخفَّفاً[1]، من: أنبأ يُنبِئ. وقراءة العامة من: نبَّأ ينبِّئ تَنْبِئة؛ وهما بمعنًى واحد، جَمعهما قولُه تعالى: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]. أي: أتخبِرون اللهَ أنَّ له شريكاً في ملكه، أو شفيعاً بغير إذنه، والله لا يعلم لنفسه شريكاً في السماوات ولا في الأرض؛ لأنه لا شريكَ له؛ فلذلك لا يعلمه. نظيرُه: قوله: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ٣٣].

---

(١) هي في القراءات الشاذة ص٥٦، والكشاف ٢/ ٢٣٠، وتفسير الرازي ١٧/ ٦٠، والبحر ٥/ ١٣٤ دون نسبة.

ثم نزَّه نفسه وقدَّسها عن الشِّرك فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: هو أعظمُ من أن يكونَ له شريك.

وقيل: المعنى أي: أتعبدون[1] ما لا يشفع ولا ينصر[2] ولا يميِّز، وتقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فتكذبون؛ وهل يتهيَّأُ لكم أن تنبِّئوه بما لا يعلم، سبحانه وتعالى عما يشركون!.

وقرأ حمزة والكِسائي: ﴿تشركون﴾ بالتاء، وهو اختيار أبي عبيد. الباقون بالياء[3].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

تقدَّم في «البقرة»[4] معناه فلا معنى للإعادة. وقال الزجَّاج[5]: هم العربُ كانوا على الشِّرك. وقيل: كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة، فاختلفوا عند البلوغ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إشارةٌ إلى القضاء والقدر، أي: لولا ما سبق في حُكمه أنه لا يَقضَيَ بينهم فيما اختلفوا فيه بالثواب والعقاب دون القيامة، لَقضَى بينهم في الدنيا، فأدخل المؤمنين الجنةَ بأعمالهم، والكافرين النارَ بكفرهم، ولكنَّه سبق من الله الأجلُ مع علمه بصنيعهم؛ فجعل موعدَهم القيامة؛ قاله الحسن[6].

---

(١) في (خ) و(ز) و(ظ): تعبدون، وفي (م): يعبدون، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٨٣ ، والكلام منه.

(٢) في (ظ) و(م): ما لا يسمع ولا يبصر، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس.

(٣) السبعة ص٣٢٤ ، والتيسير ص١٢١ .

(٤) ٣/ ٤٠٤ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٢ .

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٨ .

وقال أبو رَوْق: «لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ»: لَأقام عليهم الساعة. وقيل: لَفرغ من هلاكهم.

وقال الكلبي: «الكلمة» أنَّ الله أخَّر هذه الأمةَ، فلا يُهلكهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة، فلولا هذا التأخيرُ لَقُضي بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة[١].

والآية تسليةٌ للنبيِّ ﷺ في تأخير العذاب عمَّن كَفَر به. وقيل: الكلمة السابقة أنه لا يأخذ أحداً إلا بحجَّة، وهو إرسالُ الرسل، كما قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وقيل: الكلمة قولُه: «سبقت رحمتي غضبي»[٢] ولولا ذلك لَمَا أخَّر العصاةَ إلى التوبة.

وقرأ عيسى: «لَقَضى» بالفتح[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

يريد أهل مكة، أي: هلَّا أُنزل عليه آية، أي: معجزةٌ غيرُ هذه المعجزة، فيَجْعَلَ لنا الجبالَ ذهباً، ويكون له بيتٌ من زُخْرف، ويُحيي لنا مَن مات من آبائنا. وقال الضحَّاك: عصاً كعصا موسى.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: قل يا محمد: إنَّ نزول الآية غيبٌ. ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أي: تربَّصوا. ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لنزولها. وقيل: انتظروا قضاءَ الله بيننا بإظهار المُحِقِّ على المبطِل[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

يريد كفَّارَ مكة. ﴿رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ قيل: رخاء بعد شدَّة، وخِصبٌ بعد

---

(١) المصدر السابق.

(٢) هو في الصحيحين، وسلف ١/ ٢٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١١، وهي قراءة شاذة.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٨.

جَذْب. ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ أي: استهزاءٌ وتكذيب. وجوابُ قوله: «وَإِذَا أَذَقْنَا»: «إِذَا لَهُمْ»؛ على قول الخليلِ وسيبويه. ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ﴾ ابتداءٌ وخبر ﴿مَكْرًا﴾ على البيان[1]، أي: أعجلُ عقوبةً على جزاء مكرهم، أي: إنَّ ما يأتيهم من العذاب أسرعُ في إهلاكهم مما أتوه من المكر. ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ يعني بالرسل: الحفظةَ.

وقراءة العامة: ﴿تَمْكُرُونَ﴾ بالتاء خطاباً. وقرأ يعقوب في رواية رُوَيْس وأبو عمرٍو في رواية هارون العَتَكي: «يمكرون» بالياء[2]؛ لقوله: «إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا».

قيل: قال أبو سفيان: قُحِطنا بدعائك، فإن سَقَيتنا صدَّقناك؛ فسُقُوا باستسقائه ﷺ، فلم يؤمنوا، فهذا مَكْرُهم[3].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ أي: يحملكم في البرِّ على الدوابّ، وفي البحر على الفُلْك. وقال الكلبيُّ: يحفظكم في السير. والآية تتضمَّن تعديدَ النِّعَم فيما هي الحالُ بسبيله من ركوب الناس الدوابَّ والبحر. وقد مضى الكلامُ في ركوب البحر في «البقرة»[4].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله، والصحيح أن الذي روى هذه القراءة عن يعقوب هو روح. ينظر النشر ٢/٢٨٢ ، وزاد المسير ٤/١٨ . وقراءة أبي عمرو المتواترة عنه كقراءة الجماعة.

(٣) النكت والعيون ٢/٤٣٠ ، والخبر بنحوه قطعة من حديث ابن مسعود ﷺ عند البخاري (١٠٢٠)، ومسلم (٢٧٩٨).

(٤) ٢/٤٩٥ - ٤٩٦ .

و﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ قراءة العامة. ابنُ عامر: «يَنْشُركم» بالنون والشين[١]، أي: يبثُّكم ويفرِّقكم. والفُلْك يقع على الواحد والجمع، ويذكَّر ويؤنَّث[٢]. وقد تقدَّم القول فيه[٣].

وقوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾ خروجٌ من الخطاب إلى الغَيبة، وهو في القرآن وأشعارِ العرب كثيرٌ؛ قال النابغة:

يـا دار مـيَّـةَ بـالـعَـلْـيـاء فـالـسَّـنـدِ أقْـوَت وطـال عـلـيـهـا سـالـفُ الأمَـدِ[٤]

قال ابن الأنباري: وجائزٌ في اللغة أن يرجعَ من خطاب الغَيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب؛ قال الله تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] فأبدَل الكافَ من الهاء.

قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ تقدَّم الكلام فيها في «البقرة»[٥].

﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ الضميرُ في «جاءتها» للسفينة. وقيل: للريح الطيبة[٦]. والعاصفُ: الشديدة؛ يقال: عَصَفَت الريحُ وأَعْصَفتْ، فهي عاصفٌ ومُعْصِفٌ ومُعْصِفة، أي: شديدة[٧]، قال الشاعر:

حـتـى إذا أَعْـصَـفَـتْ ريـحٌ مُـزَعْـزِعـةٌ فـيـهـا قِـطـارٌ ورعـدٌ صـوتُـه زَجِـلُ[٨]

---

(١) السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٠.

(٣) ٢/ ٤٩٤.

(٤) ديوان النابغة الذبياني ص٣٠، والخزانة ١١/ ٣٢، العلياء: كلُّ مكان مشرِف، والسَّنَد: ما قابلك من الجبل وعلا عن السفح، وأَقْوَتْ: خلت من السكان وأقفرت. الخزانة.

(٥) ٢/ ٥٠١ - ٥٠٢.

(٦) ذكر القولين الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٦٠، والنحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٠.

(٧) زاد المسير ٤/ ١٩، وتفسير الرازي ١٧/ ٧٠.

(٨) ذكره الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٦٠، والطبري في تفسيره ١٢/ ١٤٦ ونسباه لبعض بني دُبَيْر. والقِطار: جمع قَطْرٍ، وهو المطر. والزَّجِل من الغيث: الذي لرعده صوت. معجم متن اللغة (قطر) و(زجل).

وقال: «عاصف» بالتذكير؛ لأنَّ لفظ الريح مذكَّر، وهي القاصِفُ أيضاً. والطيِّبة غيرُ عاصِفٍ ولا بطيئة.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ والموجُ: ما ارتفع من الماء ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ أي: أيقنوا ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أحاط بهم البلاء؛ يقال لمن وقع في بلِيَّة: قد أُحيط به، كأنَّ البلاء قد أحاط به، وأصل هذا أنَّ العدوَّ إذا أحاط بموضع فقد هلك أهلُه.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: دعَوه وحدَه وتركوا ما كانوا يعبدون. وفي هذا دليلٌ على أنَّ الخلق جُبِلوا على الرجوع إلى الله في الشدائد، وأنَّ المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً؛ لانقطاع الأسباب ورجوعِه إلى الواحد ربِّ الأرباب؛ على ما يأتي بيانه في «النمل» إن شاء الله تعالى[١].

وقال بعض المفسِّرين: إنهم قالوا في دعائهم: أهيا شراهيا؛ أي: يا حيُّ يا قيوم[٢]. وهي لغة العجم.

مسألة: هذه الآية تدلُّ على ركوب البحر مطلقاً، ومن السُّنة حديثُ أبي هريرة، وفيه: إنا نركب البحرَ ونحمل معنا القليلَ من الماء... الحديث. وحديث أنس في قصة أمِّ حرام يدلُّ على جواز ركوبه في الغَزْوِ، وقد مضى هذا المعنى في «البقرة» مستوفًى[٣] والحمد لله. وقد تقدَّم في آخر «الأعراف» حكمُ راكبِ البحر في حال ارتجاجه وغَلَيانه؛ هل حكمه حكمُ الصحيح، أو المريضِ المحجورِ عليه؟ فتأمَّله هناك[٤].

قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: من هذه الشدائدِ والأهوال. وقال

---

(١) عند تفسير الآية (٦٢) منها.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٢٩٣ ، والطبري ١٢/ ١٤٧ ، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٩ (١٠٢٩٨) عن أبي عبيدة، وهو ابن عبد الله بن مسعود ﷺ. وذكره الرازي ١٧/ ٧٠ .

(٣) ٢/ ٤٩٥ - ٤٩٦ ، ومضى فيه حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما.

(٤) ٩/ ٤١٤ .

الكلبيُّ: من هذه الريح. ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ﴾ أي: من العاملين بطاعتك على نعمة الخلاص. ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ أي: خلَّصهم وأنقذهم. ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يعملون في الأرض بالفساد وبالمعاصي. والبغي: الفساد والشرك؛ مِن بَغَى الجرحُ: إذا فسد؛ وأصله الطلب، أي: يطلبون الاستعلاءَ بالفساد. «بِغَيْرِ الحَقِّ» أي: بالتكذيب. ومنه بَغَت المرأةُ: طَلَبَتْ غيرَ زوجِها[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: وَبالُهُ عائدٌ عليكم؛ وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ فقال: ﴿مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: هو متاعُ الحياةِ الدنيا؛ ولا بقاءَ له.

قال النحاس[2]: «بَغْيُكُمْ» رفع بالابتداء، وخبره: «مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». و«على أنفسِكم» مفعولُ معنى فعلِ البَغْي[3]. ويجوز أن يكون خبرُه: «عَلَى أَنْفُسِكُمْ»، وتُضمِر مبتدأً، أي: ذلك متاعُ الحياة الدنيا، أو: هو متاع الحياة والدنيا؛ وبين المعنيين حرفٌ[4] لطيف؛ إذا رفعتَ متاعاً على أنه خبرُ «بغيكم»؛ فالمعنى: إنما بغيُ بعضِكم على بعض، مثل: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١] وكذا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وإذا كان الخبر: «عَلَى أنفُسِكُم»، فالمعنى: إنما فسادُكم راجعٌ عليكم؛ مثل: ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

ورُوي عن سفيان بنِ عُيينة أنه قال: أراد أنَّ البغي متاعُ الحياة الدنيا، أي: عقوبتُه تُعجَّل لصاحبه في الدنيا؛ كما يقال: البَغْيُ مَصْرَعةٌ[5].

وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿مَتَٰعَ﴾ بالنصب على أنه مصدر، أي: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا[6]، أو بنزع الخافض، أي: لمتاعِ، أو مصدر بمعنى المفعول على

---

(١) ينظر مفردات الراغب ص١٣٦ - ١٣٧.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٠.

(٣) قوله: «وعلى أنفسكم» مفعول معنى فعل البغي، ليس في إعراب القرآن.

(٤) في إعراب القرآن: فرق.

(٥) ذكره عن سفيان بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١١٣، وفيه: البغي يصرعُ أهله.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٠، وهي قراءة حفص أيضاً وذكر القراءة أيضاً عن ابن أبي إسحاق الطبري ١٢/ ١٤٩، وأبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٧٠٥. وينظر السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١.

الحال، أي: متمتِّعين، أو هو نصبٌ على الظرف، أي: في متاع الحياة الدنيا، ومتعلَّق الظرفِ والجارِّ والحالِ معنى الفعلِ في البغي. و«عَلَى أَنْفُسِكُمْ» مفعولُ ذلك المعنى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ معنى الآيةِ التشبيهُ والتمثيلُ، أي: صفةُ الحياة الدنيا في فَنائِها وزوالها وقِلَّة خطرِها والمَلاذِ بها كماء[1]، أي: مثلُ ماء، فالكافُ في موضعِ رَفْع. وسيأتي لهذا التشبيه مزيدُ بيانٍ في «الكهف» إن شاء الله تعالى[2]. «أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ» نَعْتٌ لـ «ماء»[3].

﴿فَٱخْتَلَطَ﴾ رُوي عن نافع أنَّه وقفَ على «فاختلط» أي: فاختلطَ الماءُ بالأرض، ثم ابتدأ: «به نَبَات الأرضِ»[4] أي: بالماءِ نباتُ الأرض، فأخرجَت ألواناً مِن النبات، فـ «نباتُ» على هذا ابتداءٌ، وعلى مذهبِ مَن لم يقفْ على «فَاخْتَلَطَ» مرفوعٌ بـ «اختلط»، أي: اختلطَ النباتُ بالمطر، أي: شربَ منه، فتندَّى وحَسُنَ واخضرَّ. والاختلاطُ: تداخلُ الشيء بعضِه في بعض[5].

(١) الكلام بنحوه في مجمع البيان ١١/ ٣٥ .

(٢) عند تفسير الآية (٤٥) منها.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١ .

(٤) ذكره أبو عمرو الداني في المكتفى ص٣٠٦ دون نسبة، وردَّه، ونسبه الأشموني في منار الهدى ص١٢٩ ليعقوب الأزرق. قال أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ١٤٣ : الوقف على قوله: «فاختلط» لا يجوز، وخاصة في القرآن؛ لأنه تفكيكٌ للكلام المُتَّصل الصحيحِ المعنى الفصيحِ اللَّفظ، وذهابٌ إلى اللُّغز والتعقيد والمعنى الضعيف.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤ .

قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ مِن الحبوبِ والثمارِ والبُقول. ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ مِن الكلأ والتِّبنِ والشَّعير[١]. ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أي: حُسنَها وزينتَها. والزُّخرفُ: كمالُ حُسنِ الشيء، ومنه قيل للذهب: زُخرفٌ[٢].

﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أي: بالحُبوب والثمارِ والأزهار، والأصلُ: تزيَّنت؛ أُدغمت التاء في الزاي وجِيء بألفِ الوَصل؛ لأنَّ الحرفَ المُدْغَمَ مقامُ حرفَين، الأوَّلُ منهما ساكنٌ[٣]، والساكنُ لا يُمكن الابتداءُ به.

وقرأ ابنُ مسعود وأبيّ بن كعب: «وتزيَّنت» على الأصل[٤]. وقرأ الحسنُ والأعرجُ وأبو العالية: «وأزْيَنَت»[٥] أي: أتَتْ بالزِّينةِ عليها، أي: الغَلَّة والزَّرع، وجاء بالفعلِ على أصلِه، ولو أعلَّه لقال: وأزَانَت. وقال عوف بن أبي جَميلة الأعرابي[٦]: قرأ أشياخُنا: «وازيانَّت» وزنُه: اسوادَّت. وفي رواية المُقدَّمي[٧]: «وازَّاينتْ»، والأصلُ فيه: تزاينت، وزنه: تفاعلت[٨]، ثم أُدغم[٩]. وقرأ الشعبيّ وقتادة: «وأزْيَنَت» مثل: أفعلت[١٠]. وقرأ أبو عثمان النَّهديّ: «وازينت» مثل: افعلت[١١]، وعنه أيضاً: «وازيانَّتْ» مثل: افعالَّتْ، وروي عنه: «ازيأنَّتْ» بالهمزة،

---

(١) تفسير أبي الليث ٢/ ٩٤ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٨٧ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١ .

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤ .

(٥) القراءات الشاذة ص٥٦ ، والمحتسب ١/ ٣١١ .

(٦) أبو سهل البصري، الحافظ، لم يكن أعرابياً، بل شُهِرَ به. توفي سنة(١٤٦هـ).السير ٦/ ٣٨٣ .

(٧) لعلَّه محمد بن أبي بكر بن علي بن عطاء بن مقدَّم الثقفي مولاهم، البصري، حدَّث عنه البخاري ومسلم في كتابيهما. توفي سنة (٢٣٤هـ). السير ١٠/ ٦٦٠ .

(٨) في النسخ غير (ظ): تقاعست، وفي (ظ): تفاعيت، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١ ، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١١٤ .

(١٠) سلف هذه القراءة قريباً.

(١١) لم تتجه لنا هذه القراءة، ولم نقف عليها.

ثلاثُ قراءات[١].

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ أي: أيقنَ[٢]. ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على حصادِها والانتفاعِ بها، أخبرَ عن الأرضِ والمَعنيُّ النبات؛ إذْ كان مفهوماً، وهو منها. وقيل: ردَّ إلى الغَلَّة، وقيل: إلى الزِّينة[٣]. ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابُنا، أو أمرُنا بهلاكِها[٤]. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفان. ﴿فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا﴾ مفعولان[٥]، أي: محصودةً مقطوعةً لا شيءَ فيها. وقال: «حَصيداً» ولم يُؤنِّثْ؛ لأنَّه فعيلٌ بمعنى مفعول[٦]. قال أبو عُبيد[٧]: الحصيدُ المُستأصَل.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: كأنْ[٨] لم تكن عامرةً، مِن غَنِيَ: إذا أقامَ فيهِ وعَمَرَه. والمَغَاني في اللُّغة: المنازلُ التي يَعْمُرُها الناس[٩]. وقال قتادة: كأنْ لم تَنْعَم[١٠]. قال لَبِيد:

وغَنِيتُ سَبْتاً قبلَ مَجْرَى داحسٍ لو كان للنَّفسِ اللَّجُوجِ خُلودُ[١١]

وقراءةُ العامَّة: «تَغْنَ» بالتاءِ لتأنيثِ الأرض. وقرأ قتادة: «يَغْنَ» بالياء[١٢]، يذهبُ

---

(١) ينظر القراءات الشاذة ص٥٦، والمحتسب ١/ ٣١١، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٤، والدر المصون ٦/ ١٧٨ - ١٧٩.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢١.

(٣) زاد المسير ٤/ ٢١، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٠.

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٣.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤.

(٧) في تفسير أبي الليث ٢/ ٩٤، وتفسير الرازي ١٧/ ٧٤: أبو عبيدة، وهو في مجاز القرآن له ١/ ٢٧٧.

(٨) قوله: كأن، من (ظ).

(٩) غريب القرآن لابن قتيبة ص١٩٥، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٨٨.

(١٠) أخرجه الطبري ١٢/ ١٥٢.

(١١) سلف ٩/ ٢٨٧. وقوله: سبتاً، أي: دهراً، ويقال: إن السبت ثمانون سنة. داحس: اسم فرس. اللَّجوج: العاصية.

(١٢) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١١٥، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٣٣، ونسبها للحسن.

به إلى الزُّخرف، يعني: فكما يَهْلِكُ هذا الزرعُ هكذا كذلك الدنيا. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: نُبيِّنُها. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آياتِ الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لمَّا ذكرَ وصفَ هذه الدار، وهي دارُ الدنيا؛ وصفَ الآخرةَ فقال: إنَّ اللهَ لا يدعوكُم إلى جمعِ الدنيا، بل يدعوكُم إلى الطاعةِ لتصيروا إلى دارِ السلام، أي: إلى الجنَّة. قال قتادة والحسن: السَّلامُ هو الله، ودارُه الجنَّة[(١)]. وسُمِّيَت الجَنَّةُ دارَ السَّلام؛ لأنَّ مَن دخلَها سَلِمَ مِن الآفات[(٢)]. ومِن أسمائِه سبحانه «السَّلام»، وقد بيَّنَّاه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى»[(٣)]. ويأتي في سورةِ الحشر إن شاء الله[(٤)]. وقيل: المعنى: واللهُ يدعو إلى دارِ السَّلامةِ. والسَّلامُ والسَّلامةُ بمعنًى؛ كالرَّضاعِ والرَّضاعة، قاله الزجاج[(٥)]، قال الشاعر:

تُحَيِّي بالسَّلامةِ أمُّ بكرٍ ... وهل لكِ بعد قومِكِ من سلامِ[(٦)]

وقيل: أرادَ: واللهُ يدعو إلى دارِ التحيَّة؛ لأنَّ أهلَها يَنالون مِن اللهِ التحيَّةَ والسَّلام، وكذلك مِن الملائكة[(٧)]. قال الحسن: إنَّ السَّلامَ لا ينقطعُ عن أهلِ الجنَّة، وهو تحيَّتُهم، كما قال: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾[(٨)] [يونس: ١٠]. وقال يحيى بن معاذ: يا

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ١٥٤ عن قتادة.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٠.

(٣) ص٢١٧.

(٤) في تفسير الآية (٢٣) منها.

(٥) لم نقف عليه في معاني القرآن له، وأورده أبو القاسم الزجاجي في اشتقاق أسماء الله الحسنى ص٢١٥-٢١٦ مع البيت الآتي.

(٦) قائله شداد بن الأسود الليثي يرثي قتلى بدر كما في السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٩.

(٧) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٧/ ٧٥.

(٨) لم نقف عليه.

ابنَ آدم، دعاكَ اللهُ إلى دارِ السَّلام، فانظرْ مِن أين تُجيبُه، فإنْ أجبتَه مِن دنياك دخلتَها، وإنْ أجبتَه مِن قبرِك مُنِعتَها[١]. وقال ابن عباس: الجِنان سبعٌ: دارُ الجلال، ودارُ السَّلام، وجنَّةُ عَدْن، وجنَّةُ المأوى، وجنَّةُ الخلد، وجنَّةُ الفردوس، وجنَّةُ النعيم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ عمَّ بالدعوة إظهاراً لحجَّته، وخصَّ بالهدايةِ استغناءً عن خَلْقه[٣]. والصراطُ المستقيم، قيل: كتابُ الله، رواه عليّ بن أبي طالب ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «الصراطُ المستقيمُ كتابُ الله تعالى»[٤]. وقيل: الإسلامُ، رواه النوّاس بن سمعان عن رسول الله ﷺ[٥]. وقيل: الحقُّ، قاله قتادة ومجاهد[٦]. وقيل: رسولُ الله ﷺ وصاحباه مِن بعده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما[٧].

وروى جابرُ بن عبد الله قال: خرج رسولُ الله ﷺ يوماً فقال: «رأيتُ في المنام كأنَّ جبريلَ عند رأسي، وميكائيلَ عند رجليَّ، فقال أحدُهما لصاحبه: اِضرِبْ له مَثَلاً، فقال[٨]: اِسمعْ سَمِعَتْ أُذناك، واعْقِلْ عَقَلَ قلبُك، إنَّما مَثَلُك ومثَلُ أُمَّتك كمثل مَلِكٍ اتَّخذَ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعلَ فيها مَأْدُبَةً، ثم بعثَ رسولاً يدعو الناسَ إلى طعامه، فمنهم مَن أجاب الرسولَ، ومنهم مَن تركَه، فاللهُ المَلِكُ، والدارُ

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١٠/ ٦٠ ، ويحيى بن معاذ: هو أبو زكريا الرازي، الواعظ، توفي سنة (٢٥٨هـ). المنتظم لابن الجوزي ١٢/ ١٤٨ .

(٢) لم نقف عليه.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٠ .

(٤) هو قطعة من حديث طويل ضعيف، سلف ١/ ١٠ .

(٥) أخرجه أحمد (١٧٦٣٤).

(٦) أخرجه الطبري ١٠/ ٩٤ عن مجاهد.

(٧) أخرجه الطبري ١/ ١٧٥ عن أبي العالية والحسن، والكلام في النكت والعيون ٢/ ٤٣١ - ٤٣٢ .

(٨) بعدها في (خ) و(م): له.

الإسلامُ، والبيتُ الجنَّةُ، وأنتَ يا محمد الرسولُ، فمن أجابَك دخلَ في الإسلام، ومَن دخلَ في الإسلام دخلَ الجنَّة، ومَن دخلَ الجنَّة أكلَ ما فيها» ثم تلا؛ يعني رسول الله ﷺ: «وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» ثم تلا قتادة ومجاهد: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾[1].

وهذه الآيةُ بيِّنةُ الحُجَّة في الردِّ على القدرية؛ لأنَّهم قالوا: هدَى اللهُ الخَلْقَ كلَّهم إلى صراطٍ مستقيم، والله قال: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ فردُّوا على اللهِ نصوصَ القرآن.

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ رُوي مِن حديث أنس قال: سُئل رسولُ الله ﷺ عن قوله تعالى: «وَزِيَادَةٌ» قال: «للذين أحسنُوا العملَ في الدنيا الحُسنى، وهي الجنَّةُ، والزيادةُ النَّظرُ إلى وجهِ الله الكريم»[2]، وهو قولُ أبي بكر الصديق، وعليّ بن أبي طالب ـ في رواية ـ وحذيفة، وعُبادة بن الصامت، وكعب بن عُجْرة، وأبي موسى، وصُهيب، وابن عباس ـ في رواية ـ وهو قولُ جماعة مِن التابعين[3]، وهو الصَّحيحُ في الباب.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٣٢ دون قوله: ثم تلا ـ يعني ـ رسول الله ﷺ: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذا القول لم يرد في (خ) و(ز) و(ظ). وحديث جابر أخرجه الترمذي (٢٨٦٠) بهذا اللفظ إلى قوله: «ومن دخل الجنة أكل ما فيها». من طريق سعيد بن أبي هلال أن جابر بن عبد الله... فذكره، ثم قال الترمذي: هذا حديث مرسل، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله. وأخرجه بنحوه البخاري (٧٢٨١) من طريق آخر عن جابر ﷺ. وقوله: مأدبة، أي: وليمة. فتح الباري ١٣/ ٢٥٥ .

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٧٣ ، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧٧٩) وفي إسناده سَلْم بن سالم البلخي ونوح بن أبي مريم، فأما سَلْم فضعَّفه ابن معين والنسائي، وقال أحمد: ليس بذاك. ميزان الاعتدال ٢/ ١٨٥ . وأما نوح، فقال الحافظ ابن حجر في التقريب ص٤٩٨ : كذَّبوه في الحديث، وقال ابن المبارك: كان يضع.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ١٥٦ - ١٦١ . والدر المنثور ٣/ ٣٠٦ .

وروى مسلم في «صحيحه» عن صُهيب عن النبيِّ ﷺ قال: « إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، قال اللهُ تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أَزِيدُكُم؟ فيقولونَ: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا؟ ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ وتُنجِّنا مِن النَّارِ؟ قال: فيكشِفُ الحجابَ، فما أُعطُوا شيئاً أحبَّ إليهم مِن النَّظرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ »، وفي روايةٍ ثم تلا: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1].

وخرَّجه النسائي[2] أيضاً عن صُهيب قال: قيل لرسول الله ﷺ: هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، نادى مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ، إنَّ لكم موعداً عند اللهِ يُريدُ أنْ يُنْجِزَكُموه، قالوا: ألم يُبيِّضْ وُجوهَنا، ويُثَقِّلْ مَوازينَنا، ويُجِرْنا مِن النَّار؟ قال: فيكشِفُ الحجابَ فينظرُونَ إليه، فواللهِ، ما أعطاهُمُ اللهُ شيئاً أحبَّ إليهم مِن النَّظرِ، ولا أقرَّ لأعيُنِهم».

وخرَّجه ابنُ المبارك في رقائقه[3] عن أبي موسى الأشعري موقوفاً. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[4]، وذكرنا هناك معنى كشفِ الحجاب؛ والحمد لله.

وخرَّجَ الترمذي الحكيم أبو عبد الله رحمه الله: حدَّثنا علي بن حُجر، حدَّثنا الوليد ابن مسلم، عن زُهير، عن أبي العالية، عن أُبيِّ بن كعب قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عن الزيادَتين في كتاب الله، في قوله ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «النَّظرُ إلى وجهِ الرحمن». وعن قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧] قال: «عشرون ألفاً»[5].

---

(١) صحيح مسلم (١٨١): (٢٩٧) و(٢٩٨)، وهو في مسند أحمد (١٨٩٣٥) و(١٨٩٣٦).

(٢) في السنن الكبرى (١١١٧٠)، وهو في مسند أحمد (١٨٩٤١).

(٣) في (م): دقائقه. والأثر في الزهد والرقائق (٤١٩) (من زيادات نعيم بن حمّاد).

(٤) ص٤٩٤ .

(٥) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول. وأخرج القسم الأول منه الطبري ١٢/ ١٦٢ من طريق عمرو بن أبي سلمة، عن زهير بن محمد، عمن سمع أبا العالية، قال: حدثنا أبيّ بن كعب.. وذكره. وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٧٨٠) من طريق الوليد بن مسلم عن زهير قال: حدثني من سمع أبا العالية يحدث عن أبي بن كعب.. وذكره. وأخرج القسم الثاني منه الطبري ١٩/ ٦٣٧ بإسناد القسم الأول له، والترمذي (٣٢٢٩) بإسناد الحكيم الترمذي غير أن فيه: عن زهير عن رجل عن أبي العالية. قال الترمذي: هذا حديث غريب.

وقد قيل: إنَّ الزيادةَ أنْ تُضاعَفَ الحسنةُ عشرَ حسناتٍ إلى أكثرَ مِن ذلك، رُوي عن ابن عباس(١). ورُوي عن عليّ بن أبي طالب ﷺ: الزيادةُ، غرفةٌ مِن لؤلؤةٍ واحدة لها أربعةُ أبواب(٢). وقال مجاهد: الحسنى: حسنةٌ مثلُ حسنة، والزيادةُ: مغفرةٌ مِن الله ورضوان(٣). وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الحسنى: الجنَّة، والزيادةُ: ما أعطاهُم الله في الدنيا مِن فَضْلِه، لا يُحاسبُهم به يومَ القيامة(٤). وقال عبد الرحمن بن سابط: الحسنى: البُشرى، والزيادة: النظرُ إلى وجهِ الله الكريم، قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٥) [القيامة: ٢٢-٢٣].

وقال يزيد بن شجرة(٦): الزيادةُ أنْ تمرَّ السحابةُ بأهلِ الجنَّة، فتُمطرهم مِن كلِّ النوادر التي لم يَروها، وتقول: يا أهلَ الجنَّة، ما تُريدون أنْ أُمطِرَكم؟ فلا يُريدون شيئاً إلَّا أَمطرَتهم إيَّاه.

وقيل: الزيادةُ أنَّه ما يمرُّ عليهم مقدارُ يومٍ مِن أيَّام الدنيا إلَّا حتى يُطيفَ بمنزلِ أحدهم سبعون ألفَ مَلَك، مع كلِّ ملكٍ هدايا مِن عند الله ليست مع صاحبِه، ما رَأوا مثلَ تلك الهدايا قَطّ، فسبحانَ الواسعِ العليم، الغنيّ الحميد، العليّ الكبير، العزيز القدير، البرّ الرّحيم، المدبِّر الحكيم، اللَّطيف الكريم، الذي لا تتناهى مقدوراتُه. وقيل: «أَحْسَنُوا» أي: معاملةَ النَّاس، و«الحُسنَى»: شفاعتُهم، والزيادةُ: إذنُ الله تعالى فيها وقبولُه(٧).

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٣ .

(٢) في النسخ: أربعة آلاف باب. والمثبت من المصادر. والأثر أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٢ ، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٤٥(١٠٣٤٢).

(٣) تفسير مجاهد ١/ ٢٩٣ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ١٦٤ .

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٤ .

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٢ دون ذكر الآية. وفيه: الحسنى: النضرة.

(٦) أبو شجرة الرَّهاوي (نسبة إلى الرَّها بطن من مَذْحِج)، الشامي، يقال: له صحبة، كان أمير الجيش في غزو الروم. توفي سنة (٥٨هـ). السير ٩/ ١٠٦ . وقوله هذا أورده الرازي في تفسيره ١٧/ ٧٨ ، ووقع فيه: يزيد بن سمرة، وهذا أيضاً رَهاويّ، مَذْحِجيّ، شامي زاهد. السير ٩/ ١٠٦ .

(٧) لم نقف على هذين القولين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ﴾ قيل: معناه: يَلحق، ومنه قيل: غلامٌ مُراهقٌ إذا لَحِقَ بالرِّجال، وقيل: يعلو[١]، وقيل: يَغْشَى، والمعنى متقارب. ﴿قَتَرٌ﴾: غبار[٢]. ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: مَذَلَّة، كما يَلحق أهلَ النَّار، أي: لا يَلحقُهم غبارٌ في محشرِهم إلى الله، ولا تغشاهُم ذِلَّة. وأنشدَ أبو عُبيدة للفرزدق:

مُـتَـوَّجٌ بـرِداء الـمُـلـكِ يـتـبـعُـه مَوْجٌ تَرى فوقَه الرَّاياتِ والقَتَرا[٣]

وقرأ الحسن: «قَتْرٌ» بإسكان التاء، والقَتَر والقَتْر[٤] والقَتَرة بمعنًى واحد قاله النحاس[٥]. وواحدُ القَتَر قَتَرة، ومنه قولُه تعالى: «تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ»[٦] [عبس: ٤١] أي: تعلُوها غَبَرة. وقيل: قَتَرٌ: كآبةٌ وكسوف. ابن عباس: القَتَر سوادُ الوجوه[٧]. ابن بحر: دخانُ النَّار، ومنه قُتار القِدْر[٨].

وقال ابن أبي ليلى: هو بعدَ نظرِهم إلى ربِّهم عزَّ وجلَّ[٩].

قلتُ: هذا فيه نظرٌ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣] وقال في غير آية: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ الآية [فصلت: ٣٠]. وهذا عامٌّ، فلا يتغيَّر ـ بفضلِ الله في موطنٍ مِن المواطنِ، لا قبلَ النَّظرِ

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٣٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٥ .

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٧٧ ، والبيت في ديوان الفرزدق ص٢٣٤ ، وفيه: مُعْتَصِبٌ، بدل: متوَّج.

(٤) في (م): والقترة.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥١ . وقراءة الحسن في القراءات الشاذة ص٥٧ .

(٦) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٧٧ .

(٧) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٦ .

(٨) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٣٣ .

(٩) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٦ .

ولا بعدَه ـ وجهُ المُحسن بسوادٍ[(١)] مِن كآبةٍ ولا حزنٍ، ولا يعلُوه شيءٌ مِن دخانِ جهنَّم ولا غيره، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: عملُوا المعاصي، وقيل: الشِّرك. ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ «جزاءُ»: مرفوعٌ بالابتداء، وخبرُه: «بمثلِها»، قال ابن كيسان: الباءُ زائدةٌ، والمعنى: جزاءُ سيئةٍ مثلُها. وقيل: الباءُ مع ما بعدها الخبرُ، وهي متعلِّقةٌ بمحذوفٍ قامَت مَقامَه، والمعنى: جزاءُ سيئةٍ كائنٌ بمثلِها، كقولك: إنَّما أنا بك، أي: إنَّما أنا كائنٌ بك. ويجوزُ أنْ تتعلَّق بـ «جزاء»، التقدير: جزاءُ سيئةٍ بمثلِها كائنٌ، فحذفَ خبرَ المبتدأ[(٢)]. ويجوزُ أنْ يكونَ «جَزَاءُ» مرفوعاً على تقديرِ: فلهمْ جزاءُ سيئة؛ فيكونُ مثلَ قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، أي: فعليه عدَّةٌ، وشبهه[(٣)]، والباءُ على هذا التقدير تتعلَّقُ بمحذوف، كأنَّه قال: لهم جزاءُ سيئةٍ ثابتٌ بمثلها، أو تكونُ مؤكِّدةً أو زائدةً.

ومعنى هذه المِثْلِيَّة أنَّ ذلك الجزاءَ مما يُعَدُّ مُماثلاً لذنوبِهم، أي: هم غيرُ مظلُومين، وفعلُ الربِّ ـ جلَّت قدرتُه وتعالى شأنُه ـ غيرُ مُعلَّل بعلَّة. ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: يغشاهُم هوانٌ وخِزْي. ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن عذابِ الله. ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: مانعٍ يمنعُهم منه. ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ﴾ أي: أُلبست[(٤)]. ﴿وُجُوهُهُمْ قِطَعًا﴾ جمعُ قِطْعة، وعلى هذا يكون ﴿مُظْلِمًا﴾ حال من «اللَّيْلِ» أي: أُغشيت وجوهُهم قِطَعاً مِن الليل في حالِ ظلمته.

---

(١) في (ظ): وجه المحسن أبيض يتلألأ ليس به سواد.

(٢) ينظر مجمع البيان للطبرسي ١١/ ٣٧، وإملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٢٢٧.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٦١.

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٥.

وقرأ الكسائي وابن كثير: «قِطْعاً» بإسكان الطاء، فـ «مُظْلِماً» على هذا نعتٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ حالاً مِن الليل[١]. والقِطْعُ: اسم ما قطع فَسَقط. وقال ابن السِّكِّيت: القِطْع: طائفةٌ مِن الليل[٢]، وسيأتي في «هود» إن شاء الله تعالى[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي: نجمعُهم، والحشرُ: الجمع. ﴿جَمِيعًا﴾ حال[٤]. ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: اتَّخذوا مع الله شريكاً. ﴿مَكَانَكُمْ﴾ أي: اِلزَموا واثبُتوا مكانَكم، وقِفوا مواضعَكم. ﴿أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ وهذا وعيدٌ. ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرَّقنا وقطَّعنا ما كان بينهم مِن التَّواصُل في الدنيا[٥]، يقال: زَيَّلْتُه فتزيَّلَ، أي: فرَّقته فتفرَّق، وهو فعَّلْتُ؛ لأنَّك تقول في مصدره: تزييلاً، ولو كان فَيْعَلْتُ لقلت: زَيَّلَةً. والمُزايلةُ: المفارقة، يقال: زَايَلَه مُزايَلَةً[٦] وزِيالاً: إذا فارقَه. والتَّزايُلُ: التَّبايُن.

قال الفراء[٧]: وقرأ بعضُهم: «فَزايَلْنا بينهم»، يقال: لا أُزايل فلاناً، أي: لا أُفارِقُه، فإن قلتَ: لا أُزاوِلُه؛ فهو بمعنًى آخر، معناه: لا أُخاتِلُه[٨].

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ عنى بالشركاء: الملائكة. وقيل: الشياطين، وقيل: الأصنام، فيُنطِقُها الله تعالى، فتكون بينهم هذه المُحاورة. وذلك أنَّهم ادَّعَوْا على الشياطين الذين أطاعوهم والأصنام التي عبدوها أنَّهم أمرُوهم بعبادتهم، ويقولون: ما عَبَدْناكم

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢ . وينظر السبعة ص٣٢٥ ، والتيسير ص١٢١ .

(٢) تهذيب اللغة ١/ ١٨٧ .

(٣) في تفسير الآية (٨١).

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦ .

(٥) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/ ٣٥٢ .

(٦) في النسخ: زايله الله مزايلةً، والمثبت من الصحاح (زيل) والكلام منه.

(٧) في معاني القرآن ١/ ٤٦٢ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٢ ، وما بعده منه.

(٨) التخاتل: التخادع. الصحاح (ختل).

حتى أمرتمونا. قال مجاهد: يُنطِق الله الأوثانَ فتقول: ما كنا نشعرُ بأنكم إيَّانا تعبدون، وما أَمَرْناكم بعبادتنا[1]. وإنْ حُمل الشركاءُ على الشياطين؛ فالمعنى أنَّهم يقولون ذلك دَهَشاً، أو يقولونَه كذباً؛ احتيالاً[2] للخلاص، وقد يجري مثلُ هذا غداً، وإنْ صارت المعارفُ ضروريَّة.

قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ «شَهِيداً» مفعولٌ[3]، أي: كفى اللهُ شهيداً، أو تمييزٌ، أي: أكْتَفِ به شهيداً بيننا وبينكم إنْ كنا أَمَرْناكُم بهذا أو رَضِيناهُ منكم. ﴿إِن كُنَّا﴾ أي: ما كنا ﴿عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾: إلَّا غافلين، لا نسمعُ ولا نُبصِرُ ولا نَعقِلُ؛ لأنَّا كنَّا جماداً لا رُوحَ فينا[4].

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ في موضعِ نصبٍ على الظرف. ﴿تَبْلُوا۟﴾ أي: في ذلك الوقت[5]. «تبلُو»، أي: تذوقُ. وقال الكلبيّ: تعلم. مجاهد: تُختبر[6]. ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ أي: جزاءَ ما عَمِلَت وقدَّمَت. وقيل: تُسلم، أي: تُسلم ما عليها مِن الحقوقِ إلى أربابِها بغيرِ اختيارها[7].

---

(١) مجمع البيان للطبرسي ١١/ ٤٢ . وتفسير أبي الليث ٢/ ٩٧ . وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ١٧١ .

(٢) في (م): أو يقولون كذباً واحتيالاً.

(٣) لم نقف على هذا الوجه، والذي في المصادر أن «شهيداً» فيها وجهان: الأول: تمييز، والثاني: حال. ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣٤٤ ، والدر المصون ٣/ ٥٨٧ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٢ ، وزاد المسير ٤/ ٢٧ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢ .

(٦) تفسير مجاهد ١/ ٢٩٤ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ١٧٣ ، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٥٢ .

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٣٤ .

وقرأ حمزة والكسائيّ: «تتلو»[١] أي: تقرأ كلُّ نفسٍ كتابَها الذي كُتب عليها. وقيل: «تتلو»: تتبعُ، أي: تتبعُ كلُّ نفسٍ ما قدَّمت في الدنيا، قاله السُّدِّي. ومنه قولُ الشاعر:

إنَّ المُريبَ يتبعُ المُرِيبَا كما رأيتُ الذِّيبَ يتلُو الذِّيبا[٢]

قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ [مولى] بالخفضِ على البدلِ، أو الصِّفة[٣]. ويجوزُ نصبُ الحقِّ مِن ثلاثِ جهات، يكونُ التقديرُ: ورُدُّوا حقًّا، ثم جِيءَ بالألف واللام. ويجوزُ أنْ يكونَ التقدير: مولاهُم حقًّا، لا ما يعبدون مِن دونه. والوجهُ الثالث: أنْ يكونَ مدحاً، أي: أعني الحقَّ. ويجوزُ أنْ يُرفع «الحقّ» ويكونَ المعنى: مولاهُم الحقُّ ـ على الابتداءِ والخبرِ والقطعِ مما قبل ـ لا ما يُشركون مِن دونه[٤]. ووصفَ نفسَه سبحانه بالحقّ؛ لأنَّ الحقَّ منه، كما وصفَ نفسَه بالعَدل؛ لأنَّ العَدلَ منه[٥]، أي: كلُّ عَدلٍ وحقٍّ فمن قِبَلِه، وقال ابن عباس: «مولاهم بالحَقّ»، أي: الذي يُجازِيهم بالحقّ[٦].

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ أي: بطلَ، ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ في موضعِ رفع[٧]، وهو بمعنى المصدر، أي: افتراؤهم.

فإن قيل: كيف قال: «ورُدُّوا إلى الله مولاهُم الحقِّ» وقد أخبرَ بأنَّ الكافرين لا مولَى لهم؟ قيل: ليس بمولاهُمْ في النُّصرةِ والمعونة، وهو مولى لهم في الرِّزقِ وإدرارِ النِّعم[٨].

---

(١) السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١.
(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٣٤.
(٣) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٤٤. وما بين حاصرتين منه.
(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢، دون قوله: على الابتداء والخبر والقطع مما قبل.
(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٣٤.
(٦) ذكر معناه الواحدي في الوجيز (بهامش مراح لبيد) ١/ ٣٦٧.
(٧) في (د) و(ز) و(م): «يفترون» في موضع رفع، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣، والكلام منه.
(٨) النكت والعيون ٢/ ٤٣٤.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

المُراد بمسَاق هذا الكلام الردُّ على المشركين، وتقريرُ الحُجَّة عليهم، فمن اعترفَ منهم فالحُجَّة ظاهرةٌ عليهم، ومَن لم يعترفْ فيقرَّرُ عليه أنَّ هذه السماواتِ والأرضَ لابدَّ لهما مِن خالق، ولا يتمارَى في هذا عاقل. وهذا قريبٌ مِن مرتبة الضرورة.

﴿مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: بالمطر. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: بالنبات. ﴿أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي: مَن جعلَها وخلقَها[1] لكم. ﴿وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ أي: النباتَ مِن الأرض، والإنسانَ مِن النُّطفة، والسُّنبُلَةَ مِن الحبَّة، والطيرَ مِن البيضة، والمؤمنَ مِن الكافر[2]. ﴿وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يُقدِّره ويَقضيه ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ الخالقَ هو الله، أو فسيقولون: هو الله إنْ فكَّروا وأنصفُوا فَقُلْ لهم يا محمد: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي: أفلا تخافُون عقابَه ونِقْمتَه في الدنيا والآخرة[3].

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: «فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحقُّ» أي: هذا الذي يفعلُ هذه الأشياءَ هو ربُّكم الحقّ، لا ما أشركتُم معه[4]. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ﴾ «ذا»: صلة، أي: ما بعدَ

---

(١) في (د) و(م): جعلهما وخلقهما. وينظر الوجيز للواحدي ١/ ٣٦٧ .

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٦ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٢ .

(٤) المصدر السابق.

عبادةِ الإله الحقّ إذا تركتَ عبادتَه إلّا الضلال[١].

وقال بعضُ المتقدّمين: ظاهرُ هذه الآية يدلُّ على أنَّ ما بعدَ الله هو الضلال؛ لأنَّ أوّلَها ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ وآخرَها ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ فهذا في الإيمانِ والكفرِ، ليس في الأعمال. وقال بعضُهم: إنَّ الكفرَ تغطيةُ الحقّ، وكلُّ ما كان غيرَ الحقّ جرى هذا المَجرى، فالحرامُ ضلالٌ، والمباحُ هُدًى، فإنَّ اللهَ هو المُبيحُ والمُحرِّمُ[٢].

والصَّحيحُ الأوّلُ؛ لأنَّ قبلُ: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم قال: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ أي: هذا الذي رزقَكم، وهذا كلُّه فِعلُه هو. «ربُّكُمُ الحقُّ» أي: الذي تَحِقُّ له الألوهيَّة، ويستوجبُ العبادة، وإذا كان ذلك فتشريكُ غيره ضلالٌ وغيرُ حقّ[٣].

الثانية: قال علماؤنا: حكمَتْ هذه الآيةُ بأنَّه ليس بين الحقّ والباطل منزلةٌ ثالثةٌ في هذه المسألة التي هي توحيدُ الله تعالى، وكذلك هو الأمرُ في نظائرها، وهي مسائلُ الأصول التي الحقّ فيها في طرفٍ واحد؛ لأنَّ الكلامَ فيها إنَّما هو في تقريرِ[٤] وجود ذاتٍ كيف هي، وذلك بخلاف مسائلِ الفروع التي قال الله تعالى فيها: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقوله عليه الصلاة والسَّلام: «الحلالُ بيِّنٌ، والحرامُ بيِّنٌ، وبينهما أمورٌ مُتشابهاتٌ»[٥]. والكلامُ في الفروع إنَّما هو في أحكامٍ طارئةٍ على وجودِ ذاتٍ متقرِّرةٍ لا يُختلَفُ فيها، وإنَّما يُختلف في الأحكام المتعلِّقة بها.

---

(١) الوجيز للواحدي ١/ ٣٦٨.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٠ - ١٠٤١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٨.

(٤) في (خ) و(ز) و(م): تعديد، وفي (د) و(ظ): تقدير، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ١١٨، والكلام منه إلى نهاية المسألة.

(٥) هو في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير، وسلف ٢/ ٢٩٥.

الثالثة: ثبتَ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة في جَوْف الليل قال: «اللهمَّ لك الحمدُ» الحديثَ. وفيه: «أنتَ الحقُّ، ووَعْدُك الحقُّ، وقولُك الحقُّ، ولقاؤُك الحقُّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حقٌّ، والسَّاعةُ حقٌّ، والنبيُّونَ حقٌّ، ومحمدٌ حقٌّ»(١) الحديثَ. فقولُه: «أنتَ الحقُّ» أي: الواجبُ الوجود، وأصلُه مِن حَقَّ الشيءُ، أي: ثبتَ ووجب، وهذا الوصفُ لله تعالى بالحقيقة [والخصوصية، لا ينبغي لغيره]، إذ وجودُه لنفسه، لم يَسبقه عَدَمٌ، ولا يلحقه عدمٌ، وما عداه مما يُقال عليه هذا الاسمُ مسبوقٌ بِعَدَم، ويجوزُ عليه لَحاقُ العَدَمِ، ووجودُه مِن مُوجِده لا مِن نفسه. وباعتبار هذا المعنى كان أصدقُ كلمة قالها الشاعر كلمةَ لبيد:

ألا كـلُّ شـيءٍ مـا خـلا الـلـه بـاطِـلُ

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٢) [القصص: ٨٨].

الرابعة: مقابلةُ الحقّ بالضلال عُرف لغةً وشرعاً، كما في هذه الآية. وكذلك أيضاً مقابلةُ الحقّ بالباطل عُرف لغةً وشرعاً، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢].

والضلالُ: حقيقته الذهابُ عن الحقّ، أُخِذ مِن ضلال الطريق، وهو العُدول عن سَمْته. قال ابن عرفة: الضلالةُ عند العرب: سلوكُ غيرِ سبيل القَصْد، يقال: ضلَّ عن الطريق، وأضلَّ الشيءَ: إذا أضاعَه. وخُصَّ في الشرع بالعبارة في العدول(٣) عن السَّداد(٤) في الاعتقاد دون الأعمال. ومِن غريب أمره أنه يُعبَّر به عن عَدَم

(١) لم نقف عليه من حديث عائشة رضي الله عنها، وأخرجه أحمد (٣٣٦٨)، والبخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) المفهم ٢/ ٣٩٨، وما بين حاصرتين منه، وبيت لبيد سلف ٢/ ٢١ .

(٣) الكلام في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٣٩ (دون قول ابن عرفة)، وفيه: عن العدول.

(٤) في (خ) و(د) و(ز): السواء، وفي (ظ): السر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

المعرفة[١] بالحقّ[٢] إذا قابله غَفْلة، ولم يقترن بعدمه جَهْل أو شكٌّ، وعليه حملَ العلماءُ قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، أي: غافلاً، في أحد التأويلات، يُحقِّقُه قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

الخامسة: روى عبدُ الله بن عبد الحكم وأشهبُ[٣] عن مالك في قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ قال: اللَّعِبُ بالشِّطْرنج والنَّرْد مِن الضلال. وروى يونس عن ابن وهب [عن مالك] أنَّه سُئل عن الرجل يلعبُ في بيته مع امرأتِه بأربعَ عشرةَ[٤]، فقال مالك: ما يُعجبني، وليس مِن شأن المؤمنين، يقول الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[٥]. وروى يونس عن أشهب قال: سُئل - يعني مالكاً - عن اللَّعب بالشِّطرنج فقال: لا خيرَ فيه، وليس بشيء، وهو مِن الباطل، واللَّعبُ كلُّه مِن الباطل، وإنَّه ينبغي لذي العقل أنْ تنهاه اللِّحيةُ والشيبُ عن الباطل[٦].

وقال الزهري لما سُئل عن الشِّطرنج: هي مِن الباطل، ولا أحبُّها[٧].

السادسة: اختلفَ العلماءُ في جوازِ اللَّعب بالشِّطرنج وغيرِه إذا لم يكنْ على وجه القِمار، فتحصيلُ مذهبِ مالك وجمهورِ الفقهاء في الشِّطرنج أنَّ مَن لم يُقامِرْ بها، ولعبَ مع أهله في بيتِه مُسْتتِراً به؛ مرَّةً في الشهرِ أو العام، لا يُطَّلعُ عليه ولا يُعلم به؛

(١) في النسخ الخطية: يعبر به عن العدم عن المعرفة، والمثبت من (م) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٢) في النسخ الخطية: بالحق سبحانه، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٣) في أحكام القرآن لابن العربي: عن أشهب.

(٤) هي قطعة خشب يُحفر فيها ثمان وعشرون حفرة، أربع عشرة من جانب وأربع عشرة من الجانب الآخر، ويجعل فيها حصى صغار يُلعب بها. وتسمى أيضاً المنقلة. الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ٢/ ١٩١.

(٥) بعدها في (ظ): واللهو المفرط بدعة وضلال.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٠، وما بين حاصرتين منه.

(٧) ذكره ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ١٧٩، والحَليمي في المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٩٢.

أنَّه معفوٌّ عنه[١] غيرُ محرَّم عليه ولا مكروهٌ له، وأنَّه إنْ تَخلَّع به، واشتَهر[٢] فيه، سقطَتْ مُروءتُه وعدالتُه، ورُدَّتْ شهادتُه[٣]. وأمَّا الشافعيّ فلا تسقطُ في مذهبِ أصحابه شهادةُ اللَّاعب بالنَّرد والشِّطرنج، إذا كان عَدْلاً في جميعِ أحواله[٤]، ولم يظهرْ منه سَفَهٌ ولا رِيبةٌ ولا كبيرةٌ إلَّا أنْ يلعبَ به قماراً، فإنْ لَعِبَ به قماراً، وكان بذلك معروفاً سقطَتْ عدالتُه وسفَّه نفسَه لأكلِه المالَ بالباطل. وقال أبو حنيفة: يُكره اللَّعبُ بالشِّطرنج والنَّرد والأربعةَ عشرَ وكلِّ اللهو؛ فإنْ لم تَظهرْ مِن اللَّاعب بها كبيرةٌ وكانت محاسنُه أكثرَ مِن مساويه قُبِلَت شهادتُه عندهم.

قال ابن العربي[٥]: قالت الشافعية: إنَّ الشِّطرنج يُخالف النَّرد؛ لأنَّ فيه إكدادَ الفهمِ، واستعمالَ القريحة. والنَّردُ قِمارُ غَرَرٍ، لا يعلم ما يَخرجُ له فيه، كالاستقسامِ بالأزلام.

السابعة: قال علماؤنا: النَّردُ: قطعٌ ملونة[٦] مِن خشبِ البقس[٧] ومِن عظم الفيل، وكذا هو الشِّطرنج؛ إذ هو أخوه غُذِّي بِلِبانه. والنَّرد هو الذي يُعرف بالطبل[٨]، ويُعرف بالكِعاب، ويُعرف في الجاهلية أيضاً بالأرن، ويُعرف أيضاً بالنَّرْدَشِير. وفي

---

(١) بعدها زيادة في (ظ): موافق لقول الإمام الأعظم أبي حنيفة، سُئل عن الشطرنج وغيره من أنواع اللعب، أجاب بقوله: كل لهو مكروه، والمكروه عنده ما كان إلى الحرام أقرب، وقال: لا أحبها، ولولا أعلم أن نهي للعامة (كذا) لا يُؤثر لنهيتهم عن كل ما يحدث الغفلة؛ لأن كل ما ألهى الإنسان غفلة، والغفلة مكروهة، وأجمع الجمهور أيضاً إذا كان يؤدي الصلوات في أوقاتها، ولا يلهو به عن العبادات ولم يقامر. اهـ. وهذه المسألة من التمهيد ١٣/ ١٧٩ - ١٨٠ و ١٨٣، وليس فيه هذه الزيادة.

(٢) في التمهيد: استهتر. وقوله: تخلَّع، جاء في اللسان (خلع): تخلَّع في الشراب: انهمك فيه ولازمه ليلاً ونهاراً.

(٣) بعدها في (ظ): أيضاً عندهما، أي: عند أبي حنيفة ومالك.

(٤) في النسخ: أصحابه، والمثبت من التمهيد، وينظر إكمال المعلم ٧/ ٢٠٢.

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤١.

(٦) في النسخ: مملوءة، والمثبت من التمهيد ١٣/ ١٧٥، والاستذكار ٢٧/ ١٢٩، والكلام منهما.

(٧) البَقْس: شجر كالآس ورقاً وحبًّا. القاموس (بقس).

(٨) في (م): بالباطل.

«صحيح مسلم»[١]: عن سليمان بن بُريدة، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن لَعِبَ بالنَّرْدَشِير؛ فكأنَّما غَمَسَ يدَه في لحم خنزيرٍ ودَمِه».

قال علماؤنا: ومعنى هذا، أي: هو كمن غمسَ يدَه في لحم الخنزير يُهيِّئه[٢] لأن يأكلَه، وهذا الفعلُ في الخنزير حرامٌ لا يجوز، يُبيِّنه قولُه ﷺ: «مَن لَعِبَ بالنَّردِ فقد عصى اللهَ ورسولَه»، رواه مالك وغيرُه مِن حديث أبي موسى الأشعري[٣]، وهو حديثٌ صحيح، وهو يُحرِّم اللَّعبَ بالنَّرد جُملةً واحدةً، وكذلك الشِّطرنج، لم يَستثنِ وقتاً مِن وقت، ولا حالاً مِن حال، وأخبرَ أنَّ فاعلَ ذلك عاصٍ لله ورسوله، إلَّا أنَّه يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ باللَّعب بالنَّرد المَنهيّ عنه أنْ يكونَ على وجهِ القمار؛ لما رُوي مِن إجازة اللَّعب بالشِّطرنج عن التابعين على غيرِ قِمار. وحَمْلُ ذلك على العموم قماراً وغيرَ قمارٍ أَوْلى وأحوطُ إن شاء الله[٤].

قال أبو عبد الله الحَلِيميّ في «كتاب منهاج الدين»[٥]: ومما جاء في الشِّطرنج حديثٌ يُروى فيه كما يُروى في النَّرد أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن لعبَ بالشِّطرنج فقد عصى اللهَ ورسولَه»[٦].

وعن عليّ ﷺ أنَّه مَرَّ على مجالسَ من بني تميم[٧] وهم يلعبون بالشِّطرنج، فوقفَ عليهم فقال: أمَا واللهِ، لغير هذا خُلقتُم، أمَا والله، لولا أنْ تكونَ سُنَّةً[٨] لضربتُ به وجوهَكم.

---

(١) الحديث (٢٢٦٠)، وهو في مسند أحمد (٢٢٩٧٩).

(٢) في (ظ): في لحم الخنزير ودمه يمسّه..

(٣) الموطأ ٢/ ٩٥٨ . وأخرجه أحمد (١٩٥٥١).

(٤) التمهيد ١٣/ ١٧٥ و ١٨١ . دون قوله: وكذلك الشطرنج.

(٥) المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٩٢ .

(٦) أورده ابن عبد البر في التمهيد ١٣/ ١٧٣ وقال: رُوي حديث منكر عن مالك عن نافع عن ابن عمر.. فذكره، وقال: وهذا إسناد عن مالك مظلم، وهو حديث موضوع باطل.

(٧) في (م): مرَّ على مجلس من مجالس بني تميم.

(٨) في المنهاج في شعب الإيمان: سُبَّة.

وعنه ﷺ أنَّه مَرَّ بقوم يلعبون بالشِّطرنج، فقال: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] لأنْ يَمَسَّ أحدُكم جمراً حتى يَطْفَأ خيرٌ مِن أنْ يَمسَّها.

وسُئل ابن عمر عن الشِّطرنج فقال: هي شَرٌّ مِن النَّرد. وقال أبو موسى الأشعري: لا يلعبُ بالشِّطرنج إلَّا خاطئٌ. وسُئل أبو جعفر عن الشِّطرنج فقال: دَعونا مِن هذه المجوسيَّة[١]. وفي حديثٍ طويلٍ عن النبيِّ ﷺ: «وأنَّ مَن لعبَ بالنَّرد والشِّطرنج والجوز والكِعاب مَقَتَه الله، ومَن جلسَ إلى مَن يلعبُ بالنَّرد والشِّطرنج[٢] لينظرَ إليهم مُحِيَتْ عنه حسناتُه كلُّها، وصار ممن مَقَتَه الله»[٣].

وهذه الآثارُ كلُّها تدلُّ على تحريمِ اللَّعب بها بلا قمارٍ، والله أعلم. وقد ذكرنا في «المائدة»[٤] بيانَ تحريمها، وأنَّها كالخمر في التحريم لاقترانِها به، والله أعلم.

قال ابن العربيّ في «قَبَسه»[٥]: وقد جوَّزَه الشافعيّ، وانتهى حالُ بعضهم إلى أنْ يقول: هو مندوبٌ إليه[٦]، حتى اتَّخذوه في المدرسة، فإذا أعيا الطالبُ مِن القراءة لَعِبَ به في المسجد، وأسندوا إلى قومٍ مِن الصحابة والتابعين أنَّهم لَعِبوا بها! وما كان ذلك قطّ، وتالله، ما مسَّتْها يَدُ تقيٍّ. ويقولون: إنَّها تَشْحَذُ الذِّهن، والعِيان يُكذِّبهم، ما تبحَّرَ فيها قطُّ رجلٌ له ذِهن[٧]. سمعتُ الإمام أبا الفضل عطاء المَقْدسي[٨] يقول بالمسجد الأقصى في المناظرة: إنَّها تُعلِّم الحرب. فقال له الطُّرْطُوشيُّ: بل تُفسد

---

(١) أخرج هذه الآثار البيهقي في السنن الكبرى ١٠/ ٢١٢ .

(٢) بعدها في (ظ): وغيره من الملاهي.

(٣) لم نقف عليه عند غير الحليمي في المنهاج ٣/ ٩٢ - ٩٣ وعنه نقله المصنف.

(٤) ٨/ ١٦٤ - ١٦٥ .

(٥) ٣/ ١١٤٠ .

(٦) في (ظ): هو مباح، ومنهم من قال مندوب إليه.

(٧) في (ظ): إنه يقوي الذهن ويزيد في العقل، والعيان يكذبهم، شاهد عليهم: لم أر قط رجل يلعبها له ذهن.

(٨) لم نقف له على ترجمة سوى ما قاله ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ٨٣٨ : شيخنا عطاء المقدسي شيخ الفقهاء والصوفية ببيت المقدس.

تدبيرَ الحرب؛ لأنَّ الحربَ المقصودُ منها المَلِكُ واغتيالُه، وفي الشِّطرنج تقول: شاهْ إيَّاه، المَلِك نَحِّه عن طريقي، فاستضحَكَ الحاضرين. وتارةً شدَّدَ فيها مالك وحرَّمها وقال فيها: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾. وتارةً استهانَ بالقليل منها والأهون(١)، والقولُ الأوَّلُ أصحُّ، والله أعلم.

فإن قال قائل: رُوي عن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّه سُئل عن الشِّطرنج فقال: وما الشِّطرنجُ؟ فقيل له: إنَّ امرأةً كان لها ابنٌ ـ وكان مَلِكاً ـ فأُصيبَ في حربٍ دون أصحابه، فقالت: كيف يكون هذا؟ أَرُونيه عِياناً، فعُمل لها الشِّطرنج، فلما رَأَتْه تسلَّتْ بذلك. ووصفوا الشِّطرنج لعمر ﷺ فقال: لا بأسَ بما كان مِن آلةِ الحرب(٢).

قيل له: هذا لا حُجَّةَ فيه؛ لأنَّه لم يقل: لا بأسَ بالشِّطرنج، وإنَّما قال: لا بأسَ بما كان مِن آلةِ الحرب. وإنَّما قال هذا؛ لأنَّه شُبِّه عليه أنَّ اللعبَ بالشِّطرنج مما يُستعان به على معرفةِ أسبابِ الحرب، فلما قيل له ذلك، ولم يُحطْ به علمُه قال: لا بأسَ بما كان مِن آلة الحرب، [أي:] إنْ كان كما تقولون فلا بأسَ به، وكذلك مَن رُوي عنه من الصحابة أنَّه لم يَنْهَ عنه، فإنَّ ذلك محمولٌ منه على أنَّه ظنَّ أنَّ ذلك ليس يُتَلهَّى به، وإنَّما يُراد به النسبُ(٣) إلى علم القتال(٤) والمضاربة(٥) فيه، أو على أنَّ الخبرَ المُسنَد لم يَبلغْهم. قال الحَلِيمي(٦): وإذا صحَّ الخبرُ فلا حُجَّة لأحدٍ معه، وإنَّما الحُجَّة فيه على الكافَّة.

---

(١) في القبس: ولا هون.

(٢) بعدها في (ظ): إن كان ذلك كما يقولون. وأورد هذين الأثرين الحَليمي في المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٩٤ ، والكلام منه إلى آخر المسألة، وما بين سيرد حاصرتين منه.

(٣) في (خ): التشبيه، وفي (ز) و(ظ) و(م): التسبب، والمثبت من (د) وهو الموافق للمنهاج.

(٤) عبارة (ظ): ..أنه ظن أنه ليس يبتلى كثير من الشيوخ الجهال الذين لا يقدرون على الغزو والجهاد، وإنما يراد الشاب الذي يتعلم أو علم الجهاد والقتال..

(٥) في المنهاج في شعب الإيمان: والمهارة.

(٦) في المنهاج في شعب الإيمان ٣/ ٩٥ .

الثامنة: ذكر ابن وهب بإسناده أنَّ عبد الله بن عمر مَرَّ بغلمان يلعبون بالكُجَّة ـ وهي حفرٌ فيها حصًى يلعبون بها ـ قال: فسدَّها ابن عمر ونَهاهُم عنها[١]. وذكر الهرويُّ في باب الكاف مع الجيم في حديث ابن عباس: في كلِّ شيء قِمارٌ حتى في لعب الصِّبيان بالكُجَّة، قال ابن الأعرابي: هو أن يأخذَ الصبيُّ خِرقةً فيدوِّرَها كأنَّها كرةٌ، ثم يتقامرون بها. وكَجَّ: إذا لعِبَ بالكُجَّة[٢].

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف تَصرفون عقولَكم إلى عبادة ما لا يَرزقُ ولا يُحيي ولا يُميت[٣]؟!

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: حكمُه وقضاؤه وعلمُه السابق. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي: خرجوا عن الطاعة وكفروا وكذَّبوا. ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يُصدِّقون. وفي هذا أوْفَى دليل على القَدَريَّة[٤].

وقرأ نافع وابن عامر هنا، وفي آخرها: «كذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ»، وفي سورة غافر[٥] بالجمع في الثلاثة، الباقون بالإفراد[٦].

و«أنَّ» في موضعِ نصبٍ، أي: بأنَّهم أو لأنَّهم. قال الزجاج[٧]: ويجوزُ أنْ تكونَ

---

(١) التمهيد ١٣/ ١٧٧ .

(٢) تهذيب اللغة ٩/ ٤٢٣ . وقول ابن عباس رضي الله عنهما ذكره أيضاً ابن الجوزي في غريب الحديث ٢/ ٢٨١ . وجاء بعد ذلك في (ظ) ما نصُّه: والذي أراه من هذا اللهو واللعب المفرط إذا أجمعوا عليه العامة (كذا) ولم ينهوا بعضهم بعضاً قتّر عليهم في المعايش، وجلب إليهم الأمور المزعجة، والمراد به ولي الولد الذي يلهو، لابد وأن يحل بهم المقت.

(٣) الوسيط ٢/ ٥٤٧ .

(٤) تفسير الرازي ١٧/ ٨٧ - ٨٨ .

(٥) الآية (٦) منها، والآية الأخرى في هذه السورة هي الآية (٩٦).

(٦) السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ .

(٧) في معاني القرآن له ٣/ ١٨ .

في موضع رفعٍ على البدل مِن «كلمات». قال الفراء[١]: يجوزُ: «إنَّهم» بالكسرِ على الاستئناف[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي: آلهتِكم ومعبوداتِكم. ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد ذلك على جهةِ التوبيخِ والتقرير، فإنْ أجابوك وإلَّا فـ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وليس غيرُه يفعلُ ذلك. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف تنقلِبون وتنصرِفون عن الحقِّ إلى الباطل؟!

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يُقال: هداه للطريق، وإلى الطريق؛ بمعنىً واحد، وقد تقدَّم[٣]. أي: هل مِن شركائِكم مَن يُرشِد إلى دين الإسلام؟ فإذا قالوا: لا، ولابدَّ منه فـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾، ثم قل لهم موبِّخاً ومقرِّراً: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ﴾ أي: يُرشد. ﴿إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يريدُ الأصنامَ التي لا تهدي أحداً، ولا تمشي إلَّا أنْ تُحمل، ولا تنتقلُ عن مكانها إلَّا أنْ تُنقل[٤]. قال الشاعر:

للفتى عقلٌ يعيشُ به حيثُ تَهدِي ساقَه قَدَمُهْ[٥]

وقيل: المرادُ الرؤساءُ والمُضلّون الذين لا يُرشدون أنفسَهم إلى هُدًى إلَّا أنْ

---

(١) معاني القرآن له ١/ ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٣، وعنه نقل المصنف قولي الزجاج والفراء.

(٣) ١/ ٢٤٧.

(٤) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٣.

(٥) قائله طرفة بن العبد، وهو في ديوانه ص٨٦.

يُرْشَدوا[١].

وفي «يَهِدِّي» قراءاتٌ ستٌّ:

الأولى: قرأ أهلُ المدينة إلَّا ورشاً «يَهْدِّي» بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال[٢]، فجمعوا في قراءتهم بين ساكنين كما فعلوا في قوله: «لَا تَعْدُّوا» [النساء: ١٥٤]، وفي قوله: «يَخْصِّمُونَ» [يس: ٤٩]. قال النحاس[٣]: والجمعُ بين الساكنين لا يقدِرُ أحدٌ أنْ يَنطِقَ به. قال محمد بن يزيد: لابدَّ لمن رامَ مثل هذا أنْ يُحرِّكَ حركةً خفيفةً إلى الكسر، وسيبويه يُسمِّي هذا اختلاسَ الحركة.

الثانية: قرأ أبو عمرو وقالون في روايةٍ بين الفتح والإسكان، على مذهبِه في الإخفاءِ والاختلاس[٤].

الثالثة: قرأ ابنُ عامر، وابن كثير، وورش، وابن مُحَيْصن: «يَهَدِّي» بفتح الياء والهاء وتشديد الدال[٥]. قال النحاس[٦]: هذه القراءةُ بيِّنةٌ في العربية، والأصلُ فيها يَهتدي، أُدغِمت التاء في الدال، وقُلبت حركتُها على الهاء.

الرابعة: قرأ حفصٌ ويعقوبُ والأعمش عن أبي بكر مثل قراءة ابن كَثير، إلا أنهم كسروا الهاء[٧]، قالوا: لأن الجزم إذا اضْطُرَّ إلى حركته حُرِّكَ إلى الكسر. قال أبو حاتم: هي لغة سُفْلَى مضر[٨].

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ٩١ .

(٢) قرأ بها نافع في رواية قالون، وأبو جعفر. السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ ، والنشر ٢/ ٢٨٣-٢٨٤ .

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤ .

(٤) السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ .

(٥) السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ . وابن محيصن ليس من العشرة.

(٦) إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤ .

(٧) السبعة ص٣٢٦ ، والتيسير ص١٢٢ ، والنشر ٢/ ٢٨٣ ، ورواية الأعمش عن أبي بكر ليست المشهورة عنه، وستأتي المشهورة عنه بعده.

(٨) ذكره أبو حيان في البحر ٥/ ١٥٦ .

الخامسة: قرأ أبو بكر عن عاصم: «يِهِدِّي» بكسرِ الياء والهاء، وتشديد الدال[١]، كلُّ ذلك لإتباعِ الكسرِ الكسرَ كما تقدَّم في البقرة في «يَخْطَفُ» [الآية: ٢٠]. وقيل: هي لغةُ مَن قرأ: «نِسْتَعِينُ» [الفاتحة: ٥] و«لَنْ تِمَسَّنَا النَّارُ»[٢] ونحوه. وسيبويه لا يُجيز «يِهِدِّي»، ويُجيز «تِهِدِّي»، ، و«نِهِدِّي»، و«إِهِدِّي»، قال: لأنَّ الكسرةَ في الياء تثقُل[٣].

السادسة: قرأ حمزة والكسائي وخلف ويحيى بن وَثَّاب والأعمش: «يَهْدِي»، بفتحِ الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال[٤]، مِن: هَدَى يَهْدِي. قال النحاس: وهذه القراءةُ لها وجهان في العربيةِ وإنْ كانت بعيدةً، وأحد الوجهين: أنَّ الكسائيّ والفراء قالا: «يَهْدي» بمعنى يَهْتدي. قال أبو العباس: لا يُعرف هذا، ولكنَّ التقديرَ: أمَّن لا يَهدي غيرَه. تمَّ الكلامُ، ثم قال: «إلَّا أنْ يُهْدَى» استثناءٌ ليس مِن الأوَّل[٥]، أي: لكنَّه يحتاجُ أنْ يُهدى، فهو استثناءٌ منقطعٌ، كما تقول: فلانٌ لا يُسمِعُ غيرَه إلَّا أنْ يُسمَع، أي: لكنَّه يَحتاجُ أنْ يُسْمَع. وقال أبو إسحاق[٦]: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ كلامٌ تامٌّ، والمعنى: فأيُّ شيء لكم في عبادةِ الأوثان؟!

---

(١) السبعة ص٣٢٦، والتيسير ص١٢٢.

(٢) لم نقف على من ذكر هذه القراءة، وهي لغة من يكسر أوائل الأفعال المضارعة إذا كان الفعل من بنات الياء والواو التي الياء والواو فيهن لام أو عين، والمضاعف، ويشترط لذلك ألا يكون حرف المضارعة ياءً - كما سيذكر المصنف بعده - وألا يكون ثاني الفعل مفتوحاً نحو: ضَرَبَ. وهذه لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز. الكتاب ٤/ ١١٠.

(٣) ينظر التعليق السابق. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٤. قال السمين الحلبي في الدر المصون ٦/ ١٩٩: وهذا فيه غضٌّ من قراءة أبي بكر، ولكنه قد تواتر قراءةً، فهو مقبول.

(٤) السبعة ص٣٢٦، والتيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣، وقراءة يحيى والأعمش ذكرها النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤. والكلام منه.

(٥) في النسخ: استأنف من الأول، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس.

(٦) يعني الزجاج، وقوله في معاني القرآن له ٣/ ٢٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤.

ثم قيل لهم: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: لأنفسِكم، وتقضون بهذا الباطلِ الصُّراح، تعبدون آلهةً لا تُغني عن أنفسِها شيئاً إلَّا أنْ يُفعل بها، والله يفعلُ ما يشاءُ، فتتركون عبادتَه، فموضعُ «كيف» نصبٌ بـ «تحكمون».

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ يريدُ الرؤساءَ منهم[١]، أي: ما يتَّبعون إلَّا حَدْساً وتَخْريصاً في أنَّها آلهةٌ، وأنَّها تشفعُ، ولا حُجَّة معهم. وأمَّا أتباعُهم فيتبعونَهم تقليداً. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي: مِن عذابِ الله، فالحقُّ: هو الله. وقيل: «الحقُّ» هنا: اليقين، أي: ليس الظنُّ كاليقين[٢]. وفي هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّه لا يُكْتَفَى بالظنِّ في العقائد. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن الكُفر والتكذيب، خرجَتْ مَخرجَ التهديد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ «أنْ» مع «يُفترى» مصدرٌ، والمعنى: وما كان هذا القرآنُ افتراءً، كما تقول: فلانٌ يُحب أنْ يركبَ، أي: يُحب الركوبَ، قاله الكسائيّ[٣]. وقال الفراء[٤]: المعنى: وما ينبغي لهذا القرآنِ أنْ يُفترى، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢]. وقيل: «أنْ» بمعنى اللام، تقديرُه: وما كان هذا القرآنُ

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٣٥.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٧.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٦٤.

لِيُفترى[١]. وقيل: بمعنى: لا، أي: لا يُفترى[٢]. وقيل: المعنى: ما كان يتهيَّأ لأحدٍ أنْ يأتيَ بمثلِ هذا القرآن مِن عند غيرِ الله، ثم يَنسُبَه إلى الله تعالى لإعجازِه؛ لرصفِه[٣] ومعانيه وتأليفه.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قال الكسائيّ والفراءُ[٤] ومحمد بن سعدان[٥]: التقديرُ: ولكنْ كان تصديقَ، ويجوزُ عندهم الرَّفع بمعنى: ولكنْ هو تصديقُ. ﴿ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مِن التوراة والإنجيل وغيرِهما مِن الكُتب، فإنَّها قد بشَّرَت به، فجاء مصدِّقاً لها في تلك البِشارة[٦]، وفي الدعاء إلى التَّوحيدِ، والإيمانِ بالقيامة. وقيل: المعنى: ولكنْ تصديقَ النبيِّ الذي بين يدي القرآن، وهو محمدٌ ﷺ؛ لأنَّهم شاهدوه قبل أن يسمعوا منه القرآن[٧].

﴿وَتَفْصِيلَ﴾ بالنصبِ والرَّفع على الوجهَين المذكورَين في تصديق[٨]. والتفصيلُ: التبيين، أي: يُبيِّنُ ما في كتُب الله المتقدِّمة. والكتاب اسم الجنس. وقيل: أراد بتفصيل الكتاب: ما بُيِّن في القرآنِ مِن الأحكام[٩]. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ الهاءُ عائدةٌ للقرآن، أي: لا شكَّ فيه، أي: في نزولهِ مِن قِبَلِ الله تعالى.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٤.

(٢) لم نقف على هذا القول.

(٣) في النسخ: لوصفه، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥، والكلام منه.

(٤) في معاني القرآن ١/ ٤٦٥، ونقله المصنف عنه مع ما بعده من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥.

(٥) أبو جعفر الضرير، الكوفي، النحوي، صنَّف في العربية والقراءات. توفي (٢٣١هـ). طبقات القرّاء ٢/ ١٤٣.

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٤، وتفسير الرازي ١٧/ ٩٥.

(٧) زاد المسير ٤/ ٣٢.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥.

(٩) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٤.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ «أم» ها هنا في مَوضعِ ألفِ الاستفهام؛ لأنَّها اتَّصلَت بما قبلها. وقيل: هي أم المنقطعةُ التي تُقدَّر بمعنى بل والهمزة[(١)]، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [السجدة: ١-٢-٣] أي: بل أيقولون افتراه. وقال أبو عُبيدة[(٢)]: أَمْ بمعنى الواو، مجازُه: ويقولون افتراه. وقيل: الميمُ صِلةٌ، والتقدير: أيقولون افتراه[(٣)]، أي: اختلقَ محمدٌ القرآنَ مِن قِبَلِ نفسه، فهو استفهامٌ معناه: التقريع.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ ومعنى الكلامِ الاحتجاجُ، فإنَّ الآيةَ الأُولى دلَّت على كون القرآن مِن عند الله؛ لأنَّه مصدِّقُ الذي بين يدَيه مِن الكُتب، ومُوافقٌ لها مِن غير أنْ يتعلَّمَ[(٤)] محمدٌ عليه الصلاة والسَّلام عن أحد. وهذه الآيةُ إلزامٌ بأنْ يأتوا بسورة مثله إنْ كان مفترًى. وقد مضى القولُ في إعجاز القرآن، وأنَّه مُعجِزٌ في مقدِّمة الكتاب[(٥)]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: كذَّبوا بالقرآنِ وهم جاهلون بمعانِيه وتفسيرِه، وعليهم أنْ يَعلموا ذلك بالسؤال. فهذا يدلُّ على أنَّه يجبُ أنْ يُنظرَ

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٠ .

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٢٧٨ .

(٣) ذكره السمين في الدر المصون ٦/ ٢٠٤ ، وقال: وهذا قول ساقط، إذ زيادة الميم قليلة جداً لاسيما هنا.

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ): يتكلم.

(٥) ١/ ١١٢ .

في التَّأويل[١].

وقوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي: ولم يأتِهم حقيقةُ عاقبة التكذيب مِن نزولِ العذاب بهم. أو كذَّبوا بما في القرآن مِن ذكرِ البعث والجنَّة والنَّار، ولمَّا يأتِهم تأويلُه، أي: حقيقةُ ما وُعِدوا في الكتاب[٢]، قاله الضحاك. وقيل للحسين بن الفضل: هل تجدُ في القرآن: مَن جهِل شيئاً عاداه؟ قال: نعم، في موضِعين: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾، وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[٣] [الأحقاف: ١١].

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يريدُ الأُمَمَ الخالية، أي: كذا كانت سبيلُهم. والكافُ في موضعِ نصب[٤]. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: أخذُهم بالهلاكِ والعذاب.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ قيل: المرادُ أهلُ مكة[٥]، أي: ومنهم مَن يؤمنُ به في المستقبل وإنْ طال تكذيبُه؛ لعلمِ الله[٦] تعالى السابقِ فيهم أنَّهم مِن أهل[٧] السعادة. و«مَنْ» رفعٌ بالابتداء، والخبرُ في المجرور. وكذا ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ والمعنى: ومنهم مَن يُصِرُّ على كُفرِه حتى يموت[٨]، كأبي طالب، وأبي

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥، ومعاني القرآن له ٣/ ٢٩٤ - ٢٩٥.

(٢) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٨.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣٣.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥.

(٥) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٨.

(٦) في (د) و(م): لعلمه.

(٧) لفظ: أهل، ليس في (م).

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥.

لهب، ونحوهما. وقيل: المرادُ أهلُ الكتاب. وقيل: هو عامٌّ في جميعِ الكفار، وهو الصحيح. وقيل: إنَّ الضميرَ في «به» يرجعُ إلى محمد ﷺ[١]؛ فأعلمَ اللهُ سبحانه أنَّه إنَّما أخَّرَ العقوبةَ؛ لأنَّ منهم مَن سيؤمِنُ. ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: مَن يُصِرُّ على كفرِه[٢]، وهذا تهديدٌ لهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي﴾ رفعٌ بالابتداء، والمعنى: لي ثوابُ عملي في التبليغِ والإنذارِ والطاعة لله تعالى. ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: جزاؤه مِن الشِّرك. ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مثلُه[٣]، أي: لا يُؤاخَذُ أحدٌ بذنب الآخر. وهذه الآيةُ منسوخةٌ بآية السيفِ في قول مجاهد، والكلبي، ومقاتل، وابن زيد[٤].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ۝٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ يُريد بظواهِرهم[٥]، وقلوبُهم لا تَعِي شيئاً مما يقولُه مِن الحقّ، ويتلوه مِن القرآن؛ ولهذا قال: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا تُسمع، فظاهرُه الاستفهامُ، ومعناه النَّفي[٦]، وجعلَهم كالصُّمّ

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥ - ٢٥٦.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٦.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ١٨٥ عن ابن زيد، وذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٤٨، والرازي في تفسيره ١٧/ ١٠٠ عن مقاتل والكلبي. قال الرازي: وهذا بعيدٌ؛ لأن شرط الناسخ أن يكون رافعاً لحكم المنسوخ، ومدلولُ هذه الآية اختصاصُ كل واحد بأفعاله، وبثمرات أفعاله من الثواب والعقاب، وذلك لا يقتضي حُرمةَ القتال، فآيةُ القتال ما رفعت شيئاً من مدلولات هذه الآية، فكان القول بالنسخ باطلاً.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٢.

(٦) النكت والعيون ٢/ ٤٣٦.

للخَتْم على قلوبِهم والطَّبْع عليها، أي: لا تقدرُ على هداية مَن أصمَّه الله عن سماعِ الهُدى. وكذا المعنى في: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أخبرَ تعالى أنَّ أحداً لا يُؤمِن[1] إلَّا بتوفيقه وهدايتِه[2]. وهذا وما كان مثله يردُّ على القدريَّة قولَهم، كما تقدَّم في غير موضع.

وقال: «يستمعون» على معنى «مَن»، و«ينظرُ» على اللَّفظ[3]. والمرادُ: تسليةُ النبيِّ ﷺ، أي: كما لا تقدرُ أنْ تُسمِعَ مَن سُلِبَ السَّمعَ، ولا تقدرُ أنْ تخلُقَ للأعمى بصراً يهتدي به، فكذلك لا تقدرُ أنْ تُوفِّقَ هؤلاء للإيمان، وقد حكمَ الله عليهم ألَّا يُؤمنوا[4].

ومعنى: «يَنْظُرُ إِلَيْكَ» أي: يُديم النظرَ إليك، كما قال: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾[5] [الأحزاب: ١٩]. قيل: إنَّها نزلَتْ في المُستهزئين[6]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

لمَّا ذكرَ أهلَ الشَّقاء ذكرَ أنَّه لم يَظلمْهم، وأنَّ تقديرَ الشَّقاء عليهم وسَلْبَ سمعِ القلب وبصرِه ليس ظُلماً منه؛ لأنَّه تصرّف في ملكه بما شاء، وهو في جميعِ أفعالِه عادلٌ[7]. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالكفرِ والمعصيةِ ومخالفةِ أمرِ خالقِهم.

وقرأ حمزةُ والكسائي: «ولكنِ» مخفَّفاً، «النَّاسُ» رفعاً[8]. قال النحاس[9]: زعمَ

---

(١) في (خ) و (ز) و (ظ): لن يؤمن.
(٢) تفسير الطبري ١٢/١٨٦ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/٢٥٦ ، والمحرر الوجيز ٣/١٢٢ .
(٤) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٢/٣٥٥ .
(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/٢٩٦ .
(٦) الوسيط للواحدي ٢/٥٤٨ . ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.
(٧) الوسيط ٢/٥٤٩ ، وتفسير البغوي ٢/٣٥٥ .
(٨) السبعة ص١٦٧ ، والتيسير ص١٢٢ .
(٩) في إعراب القرآن ٢/٢٥٦ .

جماعةٌ مِن النَّحويين ـ منهم الفرّاء(١) ـ أنَّ العربَ إذا قالت: «ولكن» بالواو آثرَتْ التَّشديد، وإذا حذفوا الواوَ آثروا(٢) التَّخفيفَ، واعتلَّ في ذلك فقال: لأنَّها إذا كانت بغير واوٍ أشبهَتْ «بل» فخفَّفوها، ليكونَ ما بعدها كما بعد «بل»، وإذا جاؤوا بالواو خالفَتْ «بل» فشدَّدوها، ونصبوا بها؛ لأنَّها «إنَّ» زِيدَتْ عليها لامٌ وكافٌ، وصُيِّرَتْ حرفاً واحداً، وأنشد:

ولـكـنَّـنـي مِـن حُـبِّـهـا لَـعَـمـيـدُ(٣)

فجاء باللام لأنَّها «إنَّ»(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ بمعنى كأنَّهم، فخفِّفَت، أي: كأنَّهم لم يَلبثوا في قبورهم. ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: قدرَ ساعة، يعني أنَّهم استقصروا طولَ مُقامهم في القبور لِهَولِ ما يَرون مِن البعث، دليلُه قولُهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٣]. وقيل: إنَّما قَصُرتْ مدَّةُ لُبْثهم في الدنيا مِن هَوْلِ ما استقبلوا، لا مدَّةُ

---

(١) في معاني القرآن له ١/ ٤٦٥ .

(٢) في (م): آثرت.

(٣) في معاني القرآن للفراء وإعراب القرآن للنحاس: لكميدُ. والعميد: الذي هدَّه العشق، والكميد: وصفٌ من الكمد، وهو الحزن. خزانة الأدب ١٠/ ٣٦٣ - ٣٦٤ . وهذا البيت لا يُعرف له قائل، ولا تتمة، ولا نظير، فيما قاله ابن هشام في المغني ص٣٨٥ ونحوه قال أبو البركات الأنباري في الإنصاف ١/ ٢١٤ ولكن ابن عقيل ذكر له صدراً في شرحه على الألفية ١/ ٣٦٣ وهو: يلومونني في حُبِّ ليلى عواذلي. والله أعلم.

(٤) ذكر البغدادي في خزانة الأدب ١٠/ ٣٦١ وغيره أن الكوفيين استدلوا بهذا الشعر على جواز دخول اللام في خبر «لكنّ»، ومنعه البصريون، وأجابوا عن هذا بأنه إما شاذٌ وإما أن أصله: لكنْ إنَّني، ومثلُه لابن هشام في المغني [ص٣٨٥].

كونهم في القبر[١]. ابن عباس: رأوا أنَّ طُولَ أعمارِهم في مقابلة الخلودِ كساعة[٢].

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ في موضعِ نصبٍ على الحالِ مِن الهاء والميم في «يحشرُهم»[٣]. ويجوزُ أنْ يكونَ منقطعاً، فكأنَّه قال: فهم يتعارفون[٤].

قال الكلبيّ: يعرِفُ بعضُهم بعضاً كمعرفتِهم في الدنيا إذا خرجوا مِن قبورهم[٥]. وهذا التَّعارفُ تعارفُ توبيخٍ وافتضاح، يقول بعضُهم لبعض: أنت أضْلَلْتَني، وأغويتَني، وحملتَني على الكُفر، وليس تعارفَ شفقةٍ ورأفةٍ وعَطْف. ثم تنقطعُ المعرفةُ إذا عاينوا أهوالَ يوم القيامة كما قال: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾[٦] [المعارج: ١٠].

وقيل: يبقى تعارفُ التوبيخ، وهو الصحيحُ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ إلى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [سبأ: ٣١-٣٣] وقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨] الآية، وقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧] الآية. فأمَّا قوله: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ [المؤمنون: ١٠١] فمعناه: لا يسألُه سؤالَ رحمةٍ وشفقة، والله أعلم.

وقيل: القيامةُ مَواطن. وقيل: معنى «يتعارفون»: يتساءلون، أي: يتساءلون كم لبثتُم، كما قال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[٧] [الطور: ٢٥]، وهذا حسنٌ. وقال الضحَّاك: ذلك تعارفُ تعاطفِ المؤمنين، والكافرون لا تعاطُفَ عليهم، كما قال:

---

(١) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٩، وتفسير الرازي ١٧/ ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) ذكره بنحوه الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٤٩، والبغوي في تفسيره ٢/ ٣٥٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٦.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٣.

(٤) البيان لأبي البركات ابن الأنباري ١/ ٤١٤.

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٠، والنكت والعيون ٢/ ٤٣٧.

(٦) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ١٧/ ١٠٥.

(٧) مجمع البيان للطبرسي ١١/ ٥٦.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ﴾[١]، والأوَّلُ أظهرُ، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي: بالعَرضِ على الله. ثم قيل: يجوزُ أنْ يكونَ هذا إخباراً مِن الله عزَّ وجلَّ بعد أنْ دلَّ على البعثِ والنشور[٢]، أي: خسروا ثوابَ الجنَّة[٣]. وقيل: خَسِروا في حالِ لقاء الله؛ لأنَّ الخُسران إنَّما هو في تلك الحالة، وهي الحالة[٤] التي لا يُرجى فيها إقالةٌ، ولا تنفعُ توبةٌ.

قال النحاس[٥]: ويجوزُ أن يكونَ المعنى: يتعارَفون بينهم يقولون هذا. ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ يُريد في علم الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ۝٤٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ شرطٌ[٦]. ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ أي: مِن إظهارِ دينِك في حياتِك. وقال المفسرون: كان البعضُ الذي وعدَهم قتْلَ مَن قُتل، وأَسْرَ مَن أسر ببدر[٧]. ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ عطفٌ على «نُرِيَنَّكَ» أي: أو نَتوفَّينَّك قبلَ ذلك. ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ جوابُ «إمّا»[٨].

والمقصودُ: إنْ لم ننتقِمْ منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً[٩]. ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ أي:

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٢/ ١٠٠ بنحوه.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧ .

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٩ .

(٤) قوله: وهي الحالة، ليس في (د) و(م).

(٥) إعراب القرآن ٢/ ٢٥٧ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٤٩ .

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧ .

(٩) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٣ .

شاهدٌ لا يحتاجُ إلى شاهد. ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن محاربتِك وتكذيبِك[١]. ولو قيل: «ثَمَّ اللهُ شَهِيدٌ» بمعنى هناك، جاز[٢].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

---

(١) الوسيط ٢/٥٤٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/٢٥٧، ونسب هذا القول للفراء، وهو في معاني القرآن له ١/٤٦٦، وقرأ بها ابن أبي عبلة كما في الكشاف للزمخشري ٢/٢٣٩، وهي قراءة شاذة.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ يكون المعنى: ولكلِّ أُمَّة رسولٌ شاهدٌ عليهم، فإذا جاء رسولُهم يومَ القيامة قُضيَ بينهم، مثل: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾(١) [النساء: ٤١]. وقال ابن عباس: تُنكر الكفَّارُ غداً مجيءَ الرُّسُل إليهم، فيُؤتَى بالرَّسول فيقول: قد أبلغتُكُم(٢) الرِّسالة، فحينئذ يُقضَى عليهم بالعذاب، دليلُه قولُه: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويجوز أنْ يكونَ المعنى: أنَّهم لا يُعذَّبون في الدنيا حتى يُرسَلَ إليهم، فمن آمَنَ فازَ ونجا، ومَن لم يؤمن هلكَ وعُذِّب، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٣) [الإسراء: ١٥]. والقِسْطُ: العدل. «وهم لا يُظلَمونَ» أي: لا يُعذَّبون بغيرِ ذنبٍ، ولا يُؤاخذون بغيرِ حُجَّة(٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يُريد كفارَ مكةَ؛ لفرطِ إنكارِهم، واستعجالِهم العذاب، أي: متى العقابُ، أو متى القيامةُ التي يَعِدُنا محمد. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ أمَّةٍ كذَّبت رسولَها(٥).

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧.

(٢) في (ز) و(ظ) و(ف): أبلغتهم.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٦.

(٥) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٧.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ لمَّا استعجلوا النَّبيَّ ﷺ بالعذاب قال الله له: قُلْ لهم يا محمد: لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعاً، أي: ليس ذلك لي ولا لغيري. ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنْ أَمْلِكَه وأَقدِرَ عليه، فكيف أَقدِرُ أنْ أملكَ ما استعجلتم؟! فلا تستعجلوا[١]. ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: لهلاكهم وعذابهم وقتٌ معلوم في عِلْمه سبحانه. ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: وقتُ انقضاء أَجَلهم. ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يُمكنُهم أن يستأخروا ساعةً باقين في الدنيا، ولا يتقدَّمون فيؤخّرون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا﴾ ظرفان، وهو جوابٌ لقولهم: «متى هذا الوعدُ»، وتسفيهٌ لآرائهم في استعجالهم العذاب، أي: إنْ أتاكم العذابُ؛ فما نَفْعُكم فيه؟ ولا ينفعكم الإيمانُ حينئذ. ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ استفهامٌ معناه التهويل والتعظيم، أي: ما أعظمَ ما يستعجلون به، كما يقال لمن يطلبُ أمراً يَستوخِمُ عاقبتَه: ماذا تجني على نفسك[٢]؟ والضمير في «منه» قيل: يعود على العذاب، وقيل: يعود على الله سبحانه وتعالى.

قال النحاس[٣]: إنْ جعلتَ الهاء في «منه» تعود على العذاب؛ كان لك في «ماذا» تقديران: أحدُهما: أن يكون «ما» في موضع رَفْع بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو خبر «ما»، والعائد محذوف. والتقدير الآخر: أن يكون «ماذا» اسماً واحداً في موضع

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/١٠١.

(٢) الكلام بنحوه في الوسيط ٢/ ٥٥٠.

(٣) في إعراب القرآن ٢/٢٥٧ - ٢٥٨.

رَفْع بالابتداء، والخبر في الجملة؛ قاله الزجاج[١]. وإن جعلتَ الهاء في «منه» تعود على اسم الله تعالى جعلتَ «ما»، و«ذا» شيئاً واحداً، وكانت[٢] في موضع نصب بـ «يستعجل»؛ والمعنى: أيَّ شيء يستعجل[٣] المجرمون من الله عزَّ وجلَّ.

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ﴾ في الكلام حذفٌ، والتقدير: أتأمنون أن ينزِلَ بكم العذابُ، ثم يقال لكم إذا حلَّ: الآن آمنتُم به[٤]؟ قيل: هو مِن قول الملائكة استهزاءً بهم. وقيل: هو مِن قول الله تعالى.

ودخلت ألفُ الاستفهام على «ثم»، والمعنى: التقرير والتوبيخ، وليدلَّ على أن معنى الجُملة الثانية بعد الأُولى.

وقيل: إنَّ «ثم» هاهنا بمعنى: «ثَمّ» بفتح الثاء، فتكون ظرفاً، والمعنى: أهنالك، وهو مذهب الطبري[٥]، وحينئذٍ لا يكون فيه معنى الاستفهام.

و«الآن» قيل: أصلُه [: آنَ] فعل مبنيٌّ مثل: حان، والألفُ واللام لِتحويله إلى الاسم. الخليل: بُنِيَتْ[٦] لالتقاء الساكنين، والألفُ واللّام للعهد والإشارة إلى الوقت، وهو حَدُّ الزّمانين[٧]. ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ﴾ أي: بالعذاب ﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٢٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس.

(٢) في إعراب القرآن للنحاس: وإن جعلت الهاء في «منه» تعود على اسم الله جلَّ وعزَّ، وجعلت «ماذا» شيئاً واحداً، كانت. . . .

(٣) بعدها في النسخ: منه، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس، ومعاني الزجاج.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨ .

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ١٩٠ - ١٩١ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٢٤ : وما ادَّعاه الطبري غير معروف.

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨ ، والكلام فيه بنحوه، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٧) يعني حدّ الزمان الماضي من آخره وحدّ الزمان المستقبل من أوله. تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص٣٩٨ .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: تقول لهم خزنةُ جهنم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: الذي لا ينقطع. ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: جزاء كُفركم[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي: يستخبرونك يا محمد عن كون العذاب وقيامِ الساعة: ﴿أَحَقٌّ﴾ ابتداء. ﴿هُوَ﴾ [فاعل] سدَّ مَسَدَّ الخبر، وهذا قولُ سيبويه. ويجوز أن يكون «هو» مبتدأ، و«أحقٌّ» خبره[(٢)].

﴿قُلْ إِي﴾ «إي» كلمةُ تحقيقٍ وإيجابٍ وتأكيد بمعنى: نعم. ﴿وَرَبِّي﴾ قَسَمٌ. ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ جوابُه، أي: كائن لا شكَّ فيه. ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فائتين عن عذابه ومُجازاته[(٣)].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أي: أشركتْ وكفرتْ. ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مِلكاً. ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: من عذاب الله، يعني: ولا يُقبل منها[(٤)]، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١]. وقد تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ﴾ أي: أَخْفَوْها، يعني رؤساءهم، أي: أَخْفَوْا

---

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١٠١.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨، وما بين حاصرتين منه.

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٧.

(٤) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٢.

ندامتَهم عن أتباعهم .﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ﴾ وهذا قبل الإحراق بالنار، فإذا وقعوا في النار ألْهَتْهم النارُ عن التصنُّع، بدليل قولهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا [المؤمنون:١٠٦]. فبيَّن أنهم لا يَكْتُمون ما بهم. وقيل: «أسَرُّوا»: أظهروا، والكلمة من الأضداد، ويدلُّ عليه أنَّ الآخرةَ ليست دارَ تَجلُّد وتَصبُّر[١]. وقيل: وجدوا أَلَمَ الحسرة في قلوبهم؛ لأن الندامةَ لا يُمكن إظهارُها. قال كُثَيِّر:

فأسررتُ الندامةَ يومَ نادى بردِّ جِمال غاضرةَ المُنادي[٢]

وذكر المبرّد فيه وجهاً ثالثاً[٣]: أنه بَدَتْ بالندامة أسِرَّةُ وجوههم، وهي تكاسيرُ الجبهة، واحدها سِرَار. والنَّدامة: الحسرةُ لوقوع شيء أو فَوْت شيء، وأصلُها اللُّزوم، ومنه: النديم لأنه يُلازم المجالس. وفلان نادمٌ سادمٌ. والسَّدَم: اللَّهَج بالشيء. ونَدِم وتندّم[٤] بالشيء، أي: اهتمّ به. قال الجوهري[٥]: السَّدَم ـ بالتحريك ـ الندم والحزن؛ وقد سَدِم بالكسر، أي: اهتمَّ وحَزِن، ورجل نادمٌ سادمٌ، وندمانُ سَدْمانُ، وقيل: هو إتباع. وما له همٌّ ولا سَدَم إلا ذلك. وقيل: النَّدم مقلوبُ الدَّمْن[٦]، والدّمْن: اللُّزوم، ومنه فلان مُدْمن الخمر. والدِّمْن: ما اجتمع في الدار وتلبَّد من الأبوال والأبعار، سُمِّيَ به لِلُزومه. والدِّمْنة: الحقد الملازم للصدر، والجمع دِمَن. وقد دَمِنَتْ قلوبُهم؛ بالكسر، يقال: دَمِنْتُ على فلان، أي: ضَغِنتُ.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أي: بين الرؤساء والسُّفَّل؛ بالعدل[٧]. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٢/٣٥٧، وتفسير الرازي ١٧/١١١ - ١١٢.

(٢) ديوان كُثَيِّر عزَّة ص١٣٧، وقوله: غاضرة: اسم امرأة.

(٣) نقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٢/٤٣٨.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): سدم.

(٥) في الصحاح (سدم) و(ندم) و(دمن).

(٦) في الصحاح (ندم): المنادمة مقلوبة من المدامنة.

(٧) تفسير أبي الليث ٢/١٠٢.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾

«أَلَا» كلمةُ تنبيهٍ للسامع، تُزاد في أوّل الكلام، أي: انتبهوا لِما أقولُ لكم: ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: له مُلْكُ السَّماواتِ والأرض، فلا مانعَ يمنعُه مِن إنفاذِ ما وعده[1]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾

بيِّنُ المعنى، وقد تقدَّم[2].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يعني: قريشاً. ﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ أي: وعظٌ. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: القرآنَ، فيه مواعظُ وحِكَم[3]. ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: مِن الشكِّ والنفاقِ والخلافِ والشِّقاق. ﴿وَهُدًى﴾ أي: رَشَدٌ لمن اتَّبعه. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ أي: نعمةٌ. ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ خصَّهم؛ لأنَّهم المنتفِعون بالإيمان، والكلُّ صفاتُ القرآن، والعطفُ لتأكيدِ المدح. قال الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمام ... ولَيثِ الكَتِيبةِ في المُزْدَحَمْ[4]

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ قال أبو سعيد الخُدريّ وابن عباس رضي الله عنهما: فضلُ الله القرآن، ورحمتُه الإسلام. وعنهما أيضاً: فضلُ الله القرآن،

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٩.

(٢) ١/ ٣٧٣ وما بعدها.

(٣) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٠.

(٤) سلف ٢/ ٨٥، وقوله: القرم: السيد.

ورحمتُه أنْ جعلَكم مِن أهله. وعن الحسن والضحَّاك ومجاهد وقتادة: فضلُ الله الإيمان، ورحمتُه القرآن، على العكس مِن القَولِ الأوَّل[١]. وقيل غيرُ هذا.

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ إشارةٌ إلى الفضلِ والرحمة. والعربُ تأتي «بذلك» لِلواحدِ والاثنين والجميع. ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قرأ: «فبذلك فَلْتَفْرَحُوا» بالتاء، وهي قراءةُ يزيد بن القَعْقاع[٢] ويعقوب[٣] وغيرهما، وفي الحديث: «لِتَأخذوا مصافَّكُم»[٤].

والفرحُ لذَّةٌ في القلب بإدراك المَحبُوب. وقد ذُمَّ الفرحُ في مواضع، كقوله: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]، ولكنَّه مطلقٌ. فإذا قُيِّد الفرحُ لم يكن ذمًّا؛ لقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، وهاهنا قال تبارك وتعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ أي: بالقرآن والإسلام فليفرحوا، فقيَّد[٥].

قال هارون: وفي حرف أُبَيّ: «فبِذلِك فافرحوا»[٦]. قال النحاس[٧]: سبيلُ الأمر أنْ يكونَ باللام؛ ليكونَ معه حرفٌ جازم كما أنَّ مع النَّهي حرفاً؛ إلَّا أنَّهم يحذِفون مِن الأمر للمخاطَب استغناءً بمخاطبته، وربما جاؤوا به على الأصل، منه: «فبذلك فَلْتفرحوا».

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ١٩٥ - ١٩٧ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٣٩ ، وزاد المسير ٤/ ٤٠ - ٤١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٩ ، والقراءات الشاذة ص٥٧ . وقراءة يزيد بن القعقاع (وهو أبو جعفر) المشهورة عنه: «فليفرحوا» بالياء، و«تجمعون» بالتاء، وهي قراءة ابن عامر، كما سيرد.

(٣) في رواية رُويس عنه . النشر ٢/ ٢٨٥ .

(٤) أورده بهذا اللفظ الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٠ في سياق كلامه على قراءة أُبيّ الآتي ذكرها. وهو قطعة من حديث معاذ بن جبل ﷺ عند أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥) لكن بلفظ: «على مَصافِّكم كما أنتم»، وحينئذ فلا شاهد فيه.

(٥) الحجة لأبي علي الفارسي ٤/ ٢٨٣ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٦ .

(٦) المحتسب ١/ ٣١٣ . وهارون: هو ابن موسى بن شريك التغلبي، الأخفش، أبو عبد الله، الإمام الكبير، مقرئ دمشق، له تصانيف في القراءات والعربية. توفي سنة (٢٩٢هـ). السير ١٣/ ٥٦٦ .

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٩ ، وما قبله منه.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يعني: في الدنيا. وقراءةُ العامّة بالياء في الفعلَين، ورُوِيَ عن ابن عامر أنَّه قرأ: «فَلْيَفرحوا» بالياء، «تجمعون» بالتاء[١]، خطاباً للكافرين. ورُوِيَ عن الحسن أنَّه قرأ بالتاء في الأوَّل، و«يجمعون» بالياء على العكس[٢]. وروى أبان عن أنس، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مَن هداه اللهُ للإسلام، وعلَّمه القرآنَ، ثم شكا الفاقةَ، كتبَ اللهُ الفقرَ بين عَيْنيه إلى يوم يَلقاه. ثم تلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾»[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يُخاطب كفَّارَ مكة[٤]. ﴿مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ «ما» في موضعِ نصبٍ بـ«أرأيتم»، وقال الزجَّاج[٥]: في موضعِ نصبٍ بـ«أنزل». «وَأَنْزَلَ» بمعنى: خلقَ، كما قال: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ [الزمر: ٦]. ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. فيجوزُ أنْ يُعبّر عن الخَلْق بالإنزال؛ لأنَّ الذي في الأرض مِن الرزقِ إنَّما هو بما يَنزلُ مِن السماء مِن المطر[٦].

---

(١) السبعة ص٣٢٧ – ٣٢٨، والتيسير ص١٢٢.

(٢) ينظر المحتسب ١/ ٣١٣.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٣٩. وأخرجه أبو القاسم بن بشران في أماليه كما في الدر المنثور ٣/ ٣٠٩. وأبان: هو ابن أبي عيّاش فيروز، أبو إسماعيل البصري. قال أحمد ويحيى بن معين: متروك. ميزان الاعتدال ١/ ١٠.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٨.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٢٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٩.

(٦) تفسير الرازي ١٧/ ١٢٠.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ قال مجاهد: هو ما حكموا به مِن تحريم البَحِيرة والسَّائبة والوصِيلة والحام[١]. وقال الضحَّاك: هو قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:١٣٦].

﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ أي: في التَّحليلِ والتَّحريم. ﴿أَمْ عَلَى اللَّهِ﴾ «أم» بمعنى: بل. ﴿تَفْتَرُونَ﴾ هو قولُهم: إنَّ اللهَ أمرَنا بها[٢].

الثانية: استدلَّ بهذه الآية مَن نفَى القياس، وهذا بعيد؛ فإنَّ القياسَ دليلُ اللهِ تعالى، فيكونُ التَّحليلُ والتحريمُ مِن الله تعالى عند وجودِ دلالةٍ نصَبها الله تعالى على الحُكم، فإنْ خالفَ في كونِ القياس دليلاً لله تعالى فهو خروجٌ عن هذا الغرضِ ورجوعٌ إلى غيره[٣].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ «يوم» منصوبٌ على الظرف، أو بالظنّ، نحو ما ظنُّك زيداً[٤]، والمعنى: أيحسبون أنَّ اللهَ لا يُؤاخذهم به[٥]. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: في التأخيرِ والإمهال. وقيل: أرادَ أهلَ مكةَ حين جعلَهم في حَرَمٍ آمن. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني الكفارَ. ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على نعمِه، ولا في تأخيرِ العذابِ عنهم. وقيل: «لا يشكرون»: لا يُوحِّدون[٦].

---

(١) سلف شرحها ٨/ ٢٣٧ .

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٨ ، وأخرج قولي مجاهد والضحاك الطبريُّ ١٢/ ٢٠٢ - ٢٠٣ .

(٣) أحكام القرآن للكيا الهراسي ٣/ ٢٢٣ ، وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٦٣ .

(٤) ينظر الكشاف ٢/ ٢٤٢ .

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٨ .

(٦) ينظر الوسيط للواحدي ١/ ٣٧١ ، والوجيز له (بهامش مراح لبيد) ١/ ٣٧١ .

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ «ما» للجحد، أي: لست في شأن، يعني: من عبادةٍ أو غيرها إلا والرَّبُّ مُطّلعٌ عليك. والشأن: الخَطْب والأمر، وجمعه شؤون. قال الأخفش: تقول العرب: ما شأنْتُ شَأْنه، أي: ما عملتُ عَمَلَه[1].

﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ قال الفرّاء والزجّاج: الهاء في «منه» تعود على الشأن، أي: تُحدِث شأناً فَيُتلى من أجله القرآن؛ فيعلم كيف حُكمه، أو ينزل فيه قرآنٌ فَيُتلى[2]. وقال الطبري[3]: «منه» أي: من كتاب الله تعالى مِن قُرآنٍ؛ أعاد تفخيماً، كقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٤]. ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ يُخاطب النبيَّ ﷺ والأُمَّة. وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ خِطابٌ له، والمراد هو وأُمَّته، وقد يُخاطَب الرسول والمُراد هو وأتباعُه[4]. وقيل: المُراد كفارُ قريش. ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: نَعْلَمُهُ[5]، ونظيرُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تأخذون فيه[6]، والهاء عائدةٌ على العمل[7]، يقال: أفاضَ فلانٌ في الحديث والعمل: إذا اندفع فيه. قال الراعي:

فأَفَضْنَ بعدَ كُظُومِهِنَّ بجِرَّةٍ ... مِن ذي الأباطح إذْ رَعَيْنَ حَقِيلا[8]

---

(١) ذكره الرازي في تفسيره ١٧/ ١٢١ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٩ ، وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٦ .

(٣) في تفسيره ١٢/ ٢٠٤ . وينظر الكشاف ٢/ ٢٤٢ .

(٤) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٢ .

(٥) في (ز) و(ظ): بعلمه.

(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٩٧.

(٧) تفسير البغوي ٢/ ٣٥٩ .

(٨) ديوان الراعي ص٢٢٤ ، وسلف ٥/ ٣١٨ ، فينظر شرح غريبه ثمَّة، وينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٧٨ .

ابنُ عباس: «تُفِيضُونَ فِيهِ»: تفعلونه[١]. الأخفش: تتكلَّمون. ابن زيد: تخوضون. ابن كَيسان: تنشُرون القول. وقال الضحاك: الهاء عائدةٌ على القرآن، المعنى: إذ تُشيعون في القرآن الكذب[٢].

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ قال ابن عباس: يغيب[٣]. وقال أبو رَوق: يَبعُدُ. وقال ابن كَيسان: يذهب.

وقرأ الكسائيّ: «يعزِب» بكسر الزاي حيث وقع؛ وضمَّ الباقون[٤]، وهما لغتان فصيحتان، نحو يَعْرِش ويَعْرُش[٥]. ﴿مِن مِّثْقَالِ﴾ «من» صلة؛ أي: وما يَعزُب عن ربِّك مِثقال ﴿ذَرَّةٍ﴾، أي: وزن ذرَّة، أي: نُمَيْلة حمراء صغيرة، وقد تقدَّم في «النساء»[٦]. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ عطف على لفظ «مِثقال»، وإنْ شئتَ على «ذرَّة». وقرأ يعقوبُ وحمزةُ بِرفع الراء فيهما[٧] عطفاً على موضع «مِثقال»؛ لأن «من» زائدة للتأكيد. وقال الزجَّاج: ويجوزُ الرفع على الابتداء[٨]. وخبره: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[٩] يعني: اللوح المحفوظ مع علم الله تعالى به.

قال الجُرْجاني: «إلا» بمعنى واو النَّسق، أي: وهو في كتاب مُبين، كقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠-١١] أي: ومن ظلم. وقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] أي: والذين ظلموا

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٥.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٨.

(٤) السبعة ص٣٢٨، والتيسير ص١٢٢ - ١٢٣.

(٥) الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٥٢٠.

(٦) ٦/ ٣٢١ - ٣٢٢. وينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٢٥٢، وتفسير البغوي ٢/ ٣٥٩.

(٧) السبعة ص٣٢٨، والتيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٥.

(٨) ينظر معاني القرآن له ٣/ ٢٦.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٠.

منهم[١]. فـ «إلا» بمعنى واو النسق. وأضمر «هو» بعده، كقوله: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة:٥٨] أي: هي حِطَّة، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ﴾ [النساء:١٧١] أي: هم ثلاثة. ونظيرُ ما نحن فيه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩] أي: وهو في كتاب مُبين.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي: في الآخرة. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ لفقد الدنيا. وقيل: لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، أي: مَن تولَّاه الله تعالى وتولَّى حِفْظَه وحِياطتَه ورَضِيَ عنه فلا يخاف يومَ القيامة ولا يحزن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ أي: عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ إلى قوله ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾[٢] [الأنبياء:١٠١-١٠٣].

وروى سعيد بنُ جُبير أن رسول الله ﷺ سُئل: مَن أولياء الله؟ فقال: «الذين يُذكَر اللهُ برؤيتهم»[٣].

وقال عمر بن الخطاب في هذه الآية: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ مِن عبادِ الله عباداً ما هُم بأنبياءَ ولا شهداءَ؛ تَغبِطُهم الأنبياءُ والشهداءُ يومَ القيامة لِمَكانهم من الله تعالى». قيل: يا رسولَ الله، خبِّرنا مَن هُم، وما أعمالُهم، فلعلّنا نحبُّهم؟. قال: «هم قومٌ تحابّوا في الله على غيرِ أرحامٍ بينهم ولا أموالٍ يتعاطَون بها، فواللهِ إنَّ وجوهَهم لَنورٌ، وإنهم على منابرَ من نورٍ، لا يخافون إذا خافَ الناسُ، ولا يحزَنون إذا حَزِن الناسُ» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٤].

---

(١) قال الرازي في تفسيره ١/ ١٢٤ : هذا الوجه في غاية التعسُّف، وقال أبو حيان في البحر ٥/ ١٧٥ : وهذا قول ضعيف، ولم يثبت من لسان العرب وضع «إلا» موضع الواو.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٠ .

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٠٩ ، وهو مرسل. وأخرجه النسائي في الكبرى (١١١٧١)، والطبراني في الكبير (١٢٣٢٥)، والبزار (٣٦٢٦) (زوائد) عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً.

(٤) أخرجه أبو داود (٣٥٢٧)، والطبري ١٢/ ٢١١ - ٢١٢ ، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٧٢)، والطبري ١٢/ ٢١١ ، وصححه ابن حبان (٥٧٣).

وقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: أولياءُ اللهِ قومٌ صُفْرُ الوجوه من السَّهر، عُمْشُ العيون من العِبَر، خُمْصُ البطون من الجوع، يُبْسُ الشِّفاه من الذَّوِيّ[1].

وقيل: «لا خَوْفٌ عليهم» في ذُرِّيَّتهم؛ لأنَّ الله يتولَّاهم. «ولا هم يَحزنُونَ» على دنياهم؛ لتعويضِ الله إيَّاهم في أُولاهم وأُخراهم؛ لأنه وَليُّهم ومولاهم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

هذه صفةُ أولياء الله تعالى، فيكون: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع نَصْبٍ على البدل من اسم «إنّ» وهو «أولياء». وإنْ شئتَ على أعني. وقيل: هو ابتداءٌ، وخبره: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[2]، فيكون مقطوعاً مما قبلَه. أي: يتَّقون الشِّرك والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ عن أبي الدّرداء قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ عنها فقال: «ما سألني أحدٌ عنها غيرُك منذ أُنزِلتْ، هي الرؤيا الصالحة يَراها المسلمُ أو تُرَى له». خرَّجه الترمذي في «جامعه»[3]. وقال الزُّهريّ وعطاء وقتادة: هي البِشارة التي تُبشِّر بها الملائكةُ المؤمنَ في الدنيا عند الموت[4].

وعن محمد بن كعب القُرَظيّ قال: إذا استنقعتْ نفسُ العبدِ المؤمن[5]، جاءه

---

(١) نسبه العجلوني في كشف الخفاء ١/ ٥٨ للثعلبي، وهو ضعيف. قوله: الذويّ، أي: الذُّبول.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٠ .

(٣) الحديث (٣١٠٦)، وهو في مسند أحمد (٢٧٥٢٠) مختصر، وفي الباب عن عبد الله بن عمرو وعبادة ابن الصامت ﷺ عند أحمد (٧٠٤٤) و(٢٢٦٨٨).

(٤) أخرج قول الزُّهري وقتادة الطبري ١٢/ ٢٢٤ ، وذكره البغوي في تفسيره ٢/ ٣٦٠ عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أي: إذا اجتمعت فيه تريد الخروج، كما يستنقع الماء في قراره. وأراد بالنفس الروح. النهاية (نقع).

مَلك الموت فقال: السلامُ عليكَ يا وليَّ الله، اللهُ يُقرئك السلام. ثم نزع بهذه الآية: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢] ذكره ابن المبارك[١].

وقال قتادة والضحَّاك: هي أن يعلمَ أين هو من قبلِ أن يموتَ[٢]. وقال الحسن: هي ما يُبَشِّرهم اللهُ تعالى في كتابه من جنَّته وكريمِ ثوابه؛ لقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]، وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. ولهذا قال: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا خُلف لمواعيده، وذلك لأنَّ مواعيدَه بكلماته.

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قيل: بالجنة إذا خرجوا مِن قبورهم. وقيل: إذا خرجتِ الروحُ بُشِّرتْ برِضوان الله[٣].

وذكر أبو إسحاق الثعلبي: سمعتُ أبا بكر محمدَ بن عبد الله الجَوْزَقيّ[٤] يقول: رأيتُ أبا عبد الله الحافظ في المنام راكباً بِرْذَوْناً عليه طَيْلسان وعِمامة، فسلَّمتُ عليه وقلت له: أهلاً بك، إنا لا نزالُ نذكُرك ونذكُر محاسِنَك، فقال: ونحن لا نزال نذكرك ونذكر محاسنك؛ قال الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ الثناء الحسن، وأشار بيده.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا خُلف لوعده. وقيل: لا تبديلَ لأخباره، أي: لا يَنْسَخُها بشيء، ولا تكون إلا كما قال. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ما يصيرُ إليه أولياؤه فهو الفوزُ العظيم.

---

(١) في الزهد (٤٤٢).

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٤١، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٢٥ عن الضحاك.

(٣) ينظر الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٣ - ٥٥٤، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٠، وفيهما قول الحسن السالف.

(٤) الخراساني، الحافظ، المجوّد، له كتاب الصحيح المخرَّج على كتاب مسلم، والمتَّفق الكبير، يكون في ثلاث مئة جزء. توفي سنة (٣٨٨هـ). وجَوْزَق من قرى نيسابور. السير ١٦/ ٤٩٣.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تمَّ الكلام، أي: لا يَحزنْك افتراؤهم وتكذيبهم لك، ثم ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾ أي: القوّة الكاملة، والغلبة الشاملة، والقدرة التامَّة لله وحدَه؛ فهو ناصرُك ومُعينك ومانِعُك.

﴿جَمِيعًا﴾ نَصْبٌ على الحال[1]، ولا يُعارض هذا قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، فإنَّ كلَّ عزَّة بالله فهي كلُّها لله، قال الله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠].

﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ السميعُ لأقوالهم وأصواتهم، العليم بأعمالهم وأفعالهم وجميع حركاتهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يحكم فيهم بما يُريد، ويفعل فيهم ما يشاء، سبحانه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ «ما» للنفي، أي: لا يتَّبعون شركاءَ على الحقيقة، بل يَظنُّون أنها تشفع أو تنفع. وقيل: «ما» استفهام، أي: أيَّ شيء يتَّبع الذين يدعون من دون الله شركاءَ؟! تقبيحاً لفعلهم[2]، ثم أجاب فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَحدِسُون ويكذبون، وقد تقدَّم[3].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦١ .

(٢) ينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٦١ ، وتفسير الرازي ١٧/ ١٣١ .

(٣) ٩/ ٧ . وينظر زاد المسير ٤/ ٤٦ .

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ بيَّن أنَّ الواجب عبادةُ من يَقدِر على خَلْق الليل والنهار؛ لا عبادةُ من لا يقدرُ على شيء. «لِتَسْكُنُوا فيه» أي: مع أزواجكم وأولادكم ليزولَ التَّعبُ والكَلالُ بكم. والسكون: الهدوء عن الاضطراب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي: مُضيئاً لِتَهتدوا به في حوائجكم. والمُبصِر: الذي يُبصر، والنهار يُبْصر فيه. وقال: «مُبْصِراً»؛ تجوُّزاً وتوسعاً على عادة العرب في قولهم: ليلٌ قائم ونهارٌ صائم. وقال جرير:

لقد لُمْتِنا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ... ونمتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائم[1]

وقال قُطْرُب: يقال: أظلمَ الليلُ، أي: صار ذا ظُلمة، وأضاء النهار وأبصرَ، أي: صار ذا ضياء وبَصَر[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ﴾ أي: علامات ودَلالات. ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: سماعَ اعتبار.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني: الكفار. وقد تقدَّم[3]. ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ﴾ نَزَّه نفسَه عن الصاحبةِ والأولاد، وعن الشُّركاء والأنداد. ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثم أخبر بغناهُ المُطْلَق، وأنَّ له ما في السماواتِ والأرضِ مُلْكاً وخَلْقاً وعبداً، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٩٩٣ ، وينظر زاد المسير ٤/ ٤٦ .

(٢) ذكره أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ١٧٧ .

(٣) ٢/ ٣٣٣ .

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَآ﴾ أي: ما عندكم من حُجَّة بهذا. ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مِن إثباتِ الولد له، والولدُ يَقتضي المُجانسة والمُشابهة، والله تعالى لا يُجانس شيئاً ولا يُشابِهُ شيئاً[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يَختلقون. ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا يفوزون ولا يأمنون، وتمَّ الكلام. ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ذلك متاعٌ، أو هو متاعٌ في الدنيا، قاله الكسائي[2]. وقال الأخفش: لهم متاعٌ في الدنيا[3]. قال أبو إسحاق[4]: ويجوز النصبُ في غير القرآن على معنى: يتمتَّعون متاعاً. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: رُجوعهم. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ أي: الغليظ. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أمَرَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أن يذكِّرَهم أقاصيصَ المتقدِّمين، ويُخوِّفَهم العذابَ الأليم على كُفرهم. وحُذفت الواو من «ٱتْلُ»؛ لأنه أمرٌ، أي: اقرأ عليهم خبرَ نوح. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ «إذ» في موضع نصب[5].

---

(١) في (ز) و(ظ) و(ف): ولا يشبهه شيء.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦١.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٣١، ولم ينسبه لأحد.

(٤) هو الزجَّاج، وكلامه في معاني القرآن له ٣/ ٢٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦١.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦١.

﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ أي: عَظُم وثقُل عليكم. ﴿مَّقَامِي﴾ المَقام؛ بفتح الميم: الموضع الذي يقوم فيه. والمُقام ـ بالضم ـ: الإقامة. ولم يُقرأ به فيما عَلِمتُ[(١)]، أي: إنْ طال عليكم لُبْثي فيكم. ﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ إيَّاكم، وتخويفي لكم. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وعَزَمْتُم على قَتْلي وطَرْدي. ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: اعتمدتُ. وهذا هو جوابُ الشرط، ولم يزل عليه الصلاة والسلام متوكِّلاً على الله في كل حال، ولكن بيَّن أنه متوكِّل في هذا على الخصوص؛ ليعرفَ قومُه أنَّ الله يَكفيه أمرَهم، أي: إنْ لم تنصروني فإني أتوكَّل على مَن يَنْصُرني[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ قراءة العامَّة[(٣)]: «فَأَجْمِعُوا» بقطع الألف، «شُرَكاءكم» بالنصب. وقرأ عاصمٌ الجَحْدريُّ: «فاجْمَعُوا» بوصل الألف وفتح الميم؛ مِن جَمع يجْمَع، «شركاءَكم» بالنصب. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ويعقوب: «فأَجمِعوا» بقطع الألف «شركاؤكم» بالرفع[(٤)].

فأمَّا القراءة الأولى، مِن: أجمع على الشيء: إذا عزم عليه. وقال الفرَّاء: أجمع الشيءَ: أعدَّه[(٥)]. وقال المُؤرِّج: أجمعتُ الأمرَ، أَفْصحُ مِن: أجمعتُ عليه. وأنشد:

يا ليتَ شعري والمُنَى لا تنفعُ ... هل أَغْدُوَنْ يوماً وأمري مُجْمَعُ[(٦)]

قال النحاس[(٧)]: وفي نصب الشُّركاء على هذه القراءة ثلاثةُ أوجه: قال الكسائي

(١) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٣١ . وفي الصحاح (قوم): وقد يكون كل واحد منهما (المَقام والمُقام) بمعنى الإقامة، ويكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته مِن: قام يقوم، فمفتوح، وإن جعلته من: أقام يُقيم، فمضموم.

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٧/ ١٣٦ - ١٣٧ .

(٣) في (ز) و(ظ) و(ف): الأئمة.

(٤) يعقوب من العشرة. وينظر النشر ٢/ ٢٨٦ ، والقراءات الشاذة ص٥٧ ، والمحتسب ١/ ٣١٤ .

(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦١-٢٦٢ . وما قبله منه.

(٦) زاد المسير ٤/ ٤٧ - ٤٨ . والبيت في معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٣ ، ونوادر أبي زيد ص١٣٣ ، وإصلاح المنطق ص٢٩٣ دون نسبة.

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ .

والفراء[١]: هو بمعنى: وادعوا شُركاءَكم لِنُصرتكم. وهو منصوبٌ عندهما على إضمار هذا الفعل. وقال محمد بن يزيد: هو معطوفٌ على المعنى، كما قال:

يا ليت زوجَكِ في الوَغَى   متقلِّداً سَيفاً ورُمحاً[٢]

والرُّمح لا يُتقلَّد، إلا أنه محمولٌ كالسيف.

وقال أبو إسحاق الزجاج[٣]: المعنى: مع شُركائكم على تناصركم؛ كما يقال: التقى الماءُ والخشبةَ.

والقراءة الثانية من الجمع، اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٠]. قال أبو معاذ[٤]: ويجوز أن يكون جَمَعَ وأجْمع بمعنًى واحد[٥]، «وشُركاءكم» على هذه القراءة عطف على «أمْرَكم»، أو على معنى: فاجمعوا أمرَكم واجمعوا شركاءَكم، وإن شئت بمعنى: مع. قال أبو جعفر النحاس[٦]: وسمعت أبا إسحاق يُجيز: قام زيد وعمراً.

والقراءة الثالثة: على أنْ يَعطِفَ الشُّرَكاء على المُضمر المرفوع في «أجمعوا»، وحَسُن ذلك؛ لأنَّ الكلامَ قد طال. قال النحاس[٧] وغيره: وهذه القراءة تبعدُ؛ لأنه لو كان مرفوعاً لوجب أن تُكتب بالواو، ولم يُرَ في المصاحف واو في قوله: «وشُركاءكم»، وأيضاً فإنَّ شركاءهم الأصنام، والأصنامُ لا تصنع شيئاً، ولا فعل لها حتى تُجْمِع.

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٧٣ .

(٢) قائله عبد الله بن الزبعرى، وهو في ديوانه ص٣٢ ، وفيه: قد غدا، بدل: في الوغى. وسلف البيت ١/ ٢٩١ . وينظر الكامل لمحمد بن يزيد المبرد ١/ ٤٣٢ و ٢/ ٨٣٦ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٢٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ .

(٤) لعله أبو معاذ النحوي المروزي المقرئ اللغوي، له كتاب في القراءات. إنباه الرواة ٤/ ١٧٩ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٦ دون نسبة.

(٦) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ ، وما قبله فيه بنحوه، وأبو إسحاق الآتي ذكره هو الزجَّاج.

(٧) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ .

قال المهدويُّ: ويجوز أنْ يرتفعَ الشُّركاءُ بالابتداء، والخبرُ محذوف، أي: وشركاؤكم لِيُجمعوا أمرَهم[١]، ونُسب ذلك إلى الشُّركاء ـ وهي لا تسمعُ ولا تُبصر ولا تُميِّز ـ على جهةِ التوبيخ لمن عَبَدَها.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ اسم «يكن» وخبرها. وغُمَّةٌ وغَمٌّ سواء، ومعناه التغطية، مِن قولهم: غُمَّ الهلال: إذا استتر، أي: لِيكن أمرُكم ظاهراً مُنكشِفاً تتمكَّنون فيه مما شئتم[٢]؛ لا كمن يَخفَى أمرُه فلا يقدِر على ما يُريد. قال طَرَفَة:

لعمرك ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ ... نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ[٣]

الزجَّاج: ﴿غُمَّةً﴾: ذا غَمٍّ، والغَمُّ والغُمَّة، كالكَرْب والكُرْبة. وقيل: إن الغُمَّة ضِيق الأمر الذي يُوجب الغمّ[٤]، فلا يتبيَّن صاحبه لأمره مَصْدراً لينفرجَ عنه ما يغمُّه. وفي «الصحاح»: والغُمَّة: الكُرْبة. قال العجَّاج:

بل لو شَهِدتَ الناسَ إذ تُكُمُّوا ... بغُمَّة لو لم تُفَرَّج غُمُّوا[٥]

يقال: أمْرٌ غُمَّة، أي: مُبْهَم مُلتبِس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾. قال أبو عُبيدة[٦]: مجازُها ظُلمة وضِيق. والغُمَّة أيضاً: قَعْر النِّحْي وغيره[٧]. قال

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٢ دون نسبة.

(٢) ينظر معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٦ . وتهذيب اللغة ١٦/ ١١٥ .

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص٤٠ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٤٣ .

(٥) ديوان العجاج ص٣٧٤ ، وقوله: تُكُمُّوا، أي: أغميَ عليهم، وغُطُّوا. القاموس المحيط (كمم). والرجز أورده المصنف كما في الصحاح (غمم)، والذي في الديوان:

بل لو شهدت الناسَ إذ تُكُمُّوا ... بِقَدَرٍ حُمَّ لهم وحُمُّوا
وغُمَّةٍ لو لم تُفرَّج غُمُّوا ... إذ زعمت ربيعة القِشْعَمُ

(٦) في مجاز القرآن ١/ ٢٧٩ .

(٧) الصحاح (غمم)، والنِّحي: الزِّقُّ، أو ما كان للسَّمن خاصة. القاموس المحيط (نحي).

غيره: وأصلُ هذا كلِّه مشتقٌّ من الغَمامة[(١)].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ألف «اِقضُوا» ألفُ وصل، مِن: قضى يَقضي. قال الأخفش والكسائي: هو مثل: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر:٦٦] أي: أنهيناه إليه، وأبلغناه إيَّاه. ورُوي عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ قال: اِمضُوا إليَّ ولا تؤخِّرون[(٢)]. قال النحاس[(٣)]: هذا قولٌ صحيح في اللغة، ومنه: قَضَى الميتُ، أي: مضى. وأعلمهم بهذا أنهم لا يَصِلون إليه، وهذا من دلائل النبوّات.

وحكى الفرَّاء عن بعض القُرَّاء: «ثم أَفضوا إليَّ»؛ بالفاء وقَطْع الألف[(٤)]، أي: توجَّهوا، يقال: أفضت الخلافة إلى فلان، وأفضى إليَّ الوجع.

وهذا إخبارٌ من الله تعالى عن نبيِّه نوح عليه السلام أنه كان بنصرِ الله واثقاً، ومِن كيدهم غيرَ خائف، علماً منه بأنهم وآلهتَهم لا ينفعون ولا يضرُّون[(٥)]. وهو تعزيةٌ لنبيِّه ﷺ وتقويةٌ لقلبه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أي: فإنْ أعرضتُم عما جِئتكم به؛ فليس ذلك لأني سألتُكم أجراً فيثقُلَ عليكم مكافأتي[(٦)]. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ في

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٩٧٠ (١٠٤٨٧).

(٣) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ ، وما قبله منه.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٤ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٢ ، ونسب هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٧ وابن جني في المحتسب ١/ ٣١٥ إلى السَّري ابن يَنْعُم.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٢ .

(٦) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٣ ، والنكت والعيون ٢/ ٤٤٣ .

تبليغ رسالته .﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الموحِّدين لله تعالى.

فَتَح أهلُ المدينة وأبو عمرو وابن عامر وحفص ياءَ «أجريَ» حيث وقع، وأسكن الباقون[١].

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يعني نوحاً .﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي: من المؤمنين .﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفينة، وسيأتي ذكرها[٢] .﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي: سكانَ الأرض وخَلَفاً ممن غَرِق[٣] .﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يعني آخر أمرِ الذين أنذرهم الرُّسلُ فلم يؤمنوا[٤].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشُعيب وغيرهم[٥] .﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمُعجزات. ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ التقدير: بما كذَّب به قومُ نوح مِن قَبْل[٦]. وقيل: «بِمَا كَذَّبُوا به مِنْ قَبْلُ» أي: مِن يوم[٧] الذَّرّ، فإنه كان فيهم من كذَّب بقلبه، وإنْ قال الجميع: بلى.

---

(١) التيسير ص٦٥ - ٦٦ ، والنشر ٢/ ١٦٧ - ١٦٨ .

(٢) في تفسير الآية (٣٨) من سورة هود.

(٣) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٤٣ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٢ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٦ ، والوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٥ .

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٣ .

(٧) في (ف) و(م): من قبل يوم.

قال النحاس[١]: ومِن أحسن ما قيل في هذا: إنه لِقومٍ بأعيانهم، مثل: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ أي: نَختِم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المُجاوزين الحدَّ في الكُفر والتكذيب، فلا يؤمنوا. وهذا يردُّ على القَدَريَّة قولَهم كما تقدَّم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعدِ الرُّسل والأُمَم. ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يريد الآيات التسع، وقد تقدَّم ذكرها[٢]. ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: عن الحق. ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ يريد فرعونَ وقومَه. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ حملوا المعجزاتِ على السحر. قال لهم موسى: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ قيل: في الكلام حذفٌ، المعنى: أتقولون للحقّ: هذا سحرٌ؟ ف «أتقولون» إنكارٌ، وقولُهم محذوف، أي: هذا سحرٌ، ثم استأنف إنكاراً آخر مِن قِبَله فقال: أسحر هذا؟! فحذف قولهم الأوّل اكتفاء بالثاني من قوله[٣] مُنكِراً على فرعونَ وملئِه.

وقال الأخفش[٤]: هو مِن قولهم، ودخلت الألف حكايةً لقولهم؛ لأنهم قالوا:

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٣.

(٢) ٢/ ٢٥٤، ٩/ ٣٠٩.

(٣) في (د) و(م): من قولهم. والكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٢/ ٢٣٨ - ٢٣٩، وتفسير الرازي ١٧/ ١٤١.

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٢، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٣.

أسحرٌ هذا. فقيل لهم: أتقولون للحقّ لما جاءكم: أسحرٌ هذا[١] . ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ﴾ أي: لا يُفلح مَن أتى به.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتصرفنا وتَلْوِيَنا، يقال: لَفَتَه يَلفِتُه لَفْتاً: إذا لواه وصَرَفه[٢]. قال الشاعر:

تَـلـفَّـتُّ نـحـوَ الـحـيِّ حتـى رأيـتُـنـي وَجِعْتُ من الإصغاء لِيتاً وأخدعَا[٣]

ومن هذا: التفتَ، إنما هو عدلَ عن الجهة التي بين يديه[٤] . ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ يريد من عبادة الأصنام .﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: العظمةُ والمُلْك والسلطان .﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُريد أرضَ مصر[٥] . ويقال للمُلْك: الكِبرياء، لأنه أعظمُ ما يُطلَب في الدنيا[٦] .﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقرأ ابن مسعود والحسن وغيرُهما : «ويكون» بالياء[٧] ؛ لأنه تأنيثٌ غيرُ حقيقي، وقد فُصِلَ بينهما. وحكى سيبويه: حضر القاضيَ اليومَ امرأتان[٨] .

---

(١) وقع في النسخ بعدها عبارة: وروي عن الحسن. وهو وهم من المصنف رحمه الله، لأن هذه العبارة قد ذكرها النحاس (والكلام منه) من أجل قراءة الحسن: «ويكون لكما الكبرياء» بالياء، وستأتي في الآية التالية.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٥ .

(٣) قائله الصمة بن عبد الله القشيري، وهو في ديوانه ص٩٤ ، وفيه: وجدتُني، بدل: رأيتُني. وقوله: الإصغاء: أي: الإمالة. واللِّيت: صفحة العُنق. القاموس المحيط (ليت). والأخدع: عِرْق في جانب العُنق. اللسان (خدع).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٧ .

(٥) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٧ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٣ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣٠٨ .

(٧) القراءات الشاذة ص٥٧-٥٨ .

(٨) الكتاب ٢/ ٣٨ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٣ ، وما قبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

إنما قاله لَمَّا رأى العصا واليدَ البيضاء، واعتقدَ أنهما سحرٌ. وقرأ حمزة والكسائيُّ وابن وَثَّاب والأعمش: «سَحَّار»[(١)]. وقد تقدَّم في «الأعراف» القولُ فيهما[(٢)].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

أي: اطرحوا على الأرض ما معكم من حِبالكم وعِصِيِّكم. وقد تقدَّم في «الأعراف» القولُ في هذا مستوفًى[(٣)].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ تكون «ما» في موضع رفع بالابتداء، والخبر «جئتم به»، والتقدير: أيُّ شيء جِئْتُمْ به؟ على التوبيخ والتصغير[(٤)] لِمَا جاؤوا به من السحر.

وقراءةُ أبي عمرو: «آلسِّحْرُ» على الاستفهام على إضمار مبتدأ، والتقدير: أهو السحر؟ ويجوز أن يكون مبتدأ، والخبرُ محذوف، التقدير: آلسحرُ جئتم به[(٥)]. ولا تكون «ما» على قراءة مَن استفهم بمعنى الذي، إذ لا خبرَ لها[(٦)].

---

(١) قراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٢٨٩، والتيسير ص١١٢، وقراءة ابن وثَّاب في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٥، ولم نقف على من نسبها للأعمش.

(٢) ٩/ ٢٩٣ وما بعدها.

(٣) ٩/ ٢٩٦ وما بعدها.

(٤) في (ز) و (ظ) و (ف) وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٣ (والكلام منه): والتقصير. والمثبت من (د) و (م).

(٥) ذكر مكيّ في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥١ الوجه الأول، وذكر العكبري في الإملاء ٣/ ٢٤٥ الوجهين، وقدَّر الثاني بلفظ: السحر هو؟ قال السمين في الدر المصون ٦/ ٢٤٩: وفيهما بُعدٌ.

(٦) هذا قول مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥١، قال السمين الحلبي في الدر المصون ٦/ ٢٥٠: ليس كما ذكر، بل خبرها الجملة المقدَّر أحد جُزأيها.

وقرأ الباقون: «السِّحْرُ» على الخبر[١]، ودليلُ هذه القراءة قراءةُ ابن مسعود: «مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ». وقراءةُ أُبيٍّ: «ما أَتيتُم به سحرٌ»؛ فـ«ما» بمعنى الذي، و«جئتم به» الصلة، وموضعُ «ما» رفع بالابتداء، والسحر خبر الابتداء. ولا تكون «ما» إذا جعلتها بمعنى الذي نصباً؛ لأن الصلة لا تعمل في الموصول[٢].

وأجاز الفرَّاء[٣] نَصْبَ «السحر» بـ«جِئْتُم»، وتكون «ما» للشرط، و«جئتم» في موضع جزم بـ«ما»، والفاء محذوفة؛ التقدير: فإن الله سيُبْطلُه.

ويجوز أن يُنصب «السحر» على المصدر، أي: ما جئتُم به سحراً، ثم دخلت الألف واللام زائدتين، فلا يحتاجُ على هذا التقدير إلى حذفِ الفاء. واختار هذا القول النحاس[٤]، وقال: حذفُ الفاء في المُجازاة لا يُجيزه كثيرٌ من النَّحْويين إلا في ضرورة الشعر، كما قال:

مَن يفعلِ الحسناتِ اللهُ يشكرها[٥]

بل ربَّما قال بعضُهم: إنه لا يجوز البتَّة. وسمعت عليَّ بنَ سليمان يقول: حدثني محمد بن يزيد قال: حدثني المازنيُّ قال: سمعتُ الأصمعيَّ يقول: غيَّر النَّحْويون هذا البيت، وإنما الرواية:

مَن يفعلِ الخيرَ فالرحمنُ يشكره[٦]

وسمعتُ عليَّ بنَ سليمان يقول: حذفُ الفاء في المجازاة جائز. قال: والدليل

---

(١) السبعة ص٣٢٨، والتيسير ص١٢٣.

(٢) ينظر مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٥، وقراءة ابن مسعود ﷺ في القراءات الشاذة ص٥٨.

(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٤.

(٤) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٤.

(٥) صدر بيت، اختلف في قائله، وعجزُه: والشرُّ بالشرِّ عند الله مِثْلان، وسلف ٣/ ٩٢.

(٦) خزانة الأدب ٢/ ٣٦٥.

علـى ذلـك ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]. ﴿وما أصابكم من مصيبة بما كسبت أيديكم﴾ قراءتان مشهورتان معروفتان(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ يعني السحر. قال ابن عباس: مَن أخذ مضجعه من الليل، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾لم يَضُرَّه كيدُ ساحر، ولا تُكتب على مسحور إلَّا دَفَع اللهُ عنه السِّحر(٢).

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ۝٨٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: يُبيِّنُه ويوضِّحُه. ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بكلامه وحُجَجه وبَراهينه(٣). وقيل: بعِدَاته بالنصر. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ من آل فرعون.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ الهاء عائدة على موسى. قال مجاهد: أي: لم يُؤمن منهم أحدٌ، وإنما آمنَ أولادُ مَن أُرسل موسى إليهم مِن بني إسرائيل، لِطُول الزمان هَلَك الآباءُ وبَقي الأبناءُ فآمنوا، وهذا اختيارُ الطبري(٤).

والذُّرِّيَّة: أعقابُ الإنسان، وقد تكْثُر. وقيل: أراد بالذُّرِّيَّة مؤمني بني إسرائيل(٥). قال ابن عباس: كانوا ستَّ مئة ألف، وذلك أنَّ يعقوبَ عليه السلام دخل مصر في اثنين وسبعين إنساناً، فتوالدوا بمصرَ حتى بلغوا ستَّ مئة ألف(٦). وقال ابن عباس

---

(١) القراءة الأولى قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي، والقراءة الثانية قرأ بها نافع وابن عامر. السبعة ص٥٨١، والتيسير ص١٩٥. والكلام من إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥.

(٢) لم نقف عليه. وأخرج ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٩٧٤ نحوَه من قول ليث بن أبي سليم.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٤) في تفسيره ١٢/ ٢٤٧، وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٢٩٥.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤.

(٦) تفسير أبي الليث ٢/ ١٠٧. وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٠١ من قول الربيع بن أنس.

أيضاً: «مِن قَوْمه» يعني: من قوم فرعون، منهم مؤمنُ آل فرعون، وخازنُ فرعون، وامرأتُه، وماشِطةُ ابنته، وامرأةُ خازنه[١].

وقيل: هم أقوامٌ آباؤهم من القِبْط، وأمهاتُهم من بني إسرائيلَ، فسُمُّوا ذُرِّيَّةً كما يُسمَّى أولاد الفُرس الذين توالدوا باليمن وبلادِ العرب الأبناء؛ لأن أُمَّهاتِهم من غير جنس آبائهم؛ قاله الفراء[٢]. وعلى هذا فالكناية[٣] في «قَوْمِهِ» ترجع إلى موسى للقَرابة من جِهة الأُمَّهات، وإلى فرعونَ إذ[٤] كانوا من القِبْط.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ لأنه كان مُسلَّطاً عليهم عاتياً. ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ ولم يقل: ومَلَئه. وعنه ستةُ أجوبة: أحدُها: أنَّ فرعونَ لمَّا كان جبَّاراً أخبر عنه بفعل الجميع. الثاني: أن فرعون لمَّا ذُكِر عُلِم أنَّ معه غيرَه، فعاد الضميرُ عليه وعليهم، وهذا أحدُ قَوْلي الفرّاء[٥]. الثالث: أنْ تكونَ الجماعةُ سُمِّيت بفرعون مثل ثمود. الرابع: أن يكون التقدير: على خوف مِن آل فرعون، فيكون من باب حذف المضاف مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وهو القولُ الثاني للفرَّاء[٦]. وهذا الجوابُ على مذهب سيبويه والخليل خطأ، لا يجوز عندهما: قامتْ هند، وأنت تريد غلامها. الخامس: مذهب الأخفشِ سعيدٍ[٧] أن يكون الضميرُ يعود على الذُّرِّيَّة، أي: ملأ الذرِّية، وهو اختيارُ الطبري[٨]. السادس: أن يكون الضميرُ يعود على «قومه». قال النحاس[٩]: وهذا الجوابُ كأنه أبلغُها.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٤٦ دون ذكر ماشطة ابنة فرعون.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٤٧٦، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤.

(٣) في (ظ): فالهاء.

(٤) في (د) و (ز) و (م): إذا، والمثبت من (ظ).

(٥) في معاني القرآن ١/ ٤٧٦، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥، وما قبله منه.

(٦) في معاني القرآن ١/ ٤٧٧، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٧) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٣، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥.

(٨) في تفسيره ١٢/ ٢٤٩.

(٩) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٥، وما قبله منه.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ وحّد «يَفْتِنَهُمْ» على الإخبار عن فرعون[١] ، أي: يَصْرِفَهم عن دينهم بالعُقوبات، وهو في موضع خفض على أنه بدلُ اشتمال. ويجوز أن يكون في موضع نصب بـ «خَوْفٍ». ولم ينصرفْ فرعونُ؛ لأنه اسمٌ أعجميٌّ، وهو معرفة[٢] .

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: عاتٍ مُتكبِّرٌ.

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المُجاوزين الحدَّ في الكفر؛ لأنه كان عبداً، فادَّعى الرُّبوبية[٣] .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم﴾ أي: صدَّقتم ﴿بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ أي: اعتمدوا .﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ كَرَّر الشرط تأكيداً، وبيَّن أنَّ كمالَ الإيمان بتفويض الأمر إلى الله .﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: أسلمنا أمورَنا إليه، ورَضِينا بقضائه وقَدَره، وانتهينا إلى أمره[٤] .

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تنصرْهم علينا فيكونَ ذلك فتنةً لنا عن الدين، أو لا تمتحنَّا[٥] بأن تعذِّبنا على أيديهم. وقال مجاهد: المعنى: لا تُهلِكْنا بأيدي أعدائنا، ولا تعذِّبنا بعذاب مِن عندك فيقولَ أعداؤنا: لو كانوا على حقٍّ لم نُسَلَّط عليهم، فَيُفتنوا[٦]. وقال أبو مِجْلَز وأبو الضُّحى: يعني: لا تُظهرهم علينا، فيرَوا أنهم خيرٌ منَّا، فيزدادوا طُغياناً[٧].

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٢٥٠ ، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٤ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٥ .

(٣) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦ .

(٥) في (ظ): ولا تمتحنا .

(٦) في (ز) و (ظ) : فيفتتنوا.

(٧) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٢/ ٢٥١ - ٢٥٢ . وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٢٩٥ .

قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أي: خلِّصنا ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: من فرعونَ وقومه؛ لأنهم كانوا يأخذونهم بالأعمال الشاقَّة.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ **فيه خمسُ مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ أي: اتَّخذا. ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ يقال: بوَّأت زيداً مكاناً، وبوَّأت لزيد مكاناً. والمبوَّأ: المَنْزِل الملزوم، ومنه: بوَّأه اللهُ مَنْزِلاً، أي: ألزمه إياه وأسكنه، ومنه الحديث: «مَن كَذَبَ عليَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من النار»[١] قال الراجز:

نحن بنو عدنانَ ليس شكُّ … تبوَّأ المجدُ بنا والملكُ[٢]

ومصر في هذه الآية هي الإسكندرية؛ في قول مجاهد[٣]. وقال الضحاك: إنه البلد المسمَّى مصر[٤]، ومصرُ ما بين البحر إلى أُسْوان، والإسكندريةُ من أرض مصر[٥].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال أكثر المفسرين: كان بنو إسرائيل لا يصلُّون إلا في مساجدهم وكنائِسهم، وكانت ظاهرةً، فلمَّا أُرسل موسى أَمر فرعونُ بمساجد بني إسرائيل فخرِّبت كلُّها، ومُنعوا من الصلاة، فأوحى اللهُ إلى موسى وهارون أن اتخِذا وتخيَّرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر، أي: مساجد، ولم يُرِد

(١) سلف ١/ ٥٧.

(٢) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٤٦.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٥٩.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٤٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٨.

المنازلَ المسكونة. هذا قول إبراهيم وابنِ زيد والرَّبيع وأبي مالك وابن عباس وغيرهم[(١)].

وروي عن ابن عباس وسعيد بن جُبَير أنَّ المعنى: واجعلوا بيوتكم يقابُل بعضُها بعضاً[(٢)].

والقولُ الأولُ أصحّ أي: اجعلوا مساجدكم إلى القِبلة، قيل[(٣)]: بيت المَقْدِس، وهي قبلةُ اليهود إلى اليوم؛ قاله ابن بحر[(٤)]. وقيل: الكعبة. عن ابن عباس[(٥)] قال: وكانت الكعبة قِبلةَ موسى ومَن معه.

وهذا يدلُّ على أنَّ القبلة في الصلاة كانت شرعاً لموسى عليه السلام، ولم تَخْلُ الصلاةُ عن شرطِ الطهارة، وستر العورة، واستقبال القبلة؛ فإنَّ ذلك أبلغُ في التكليف وأَوْقَرُ للعبادة[(٦)].

وقيل: المراد صلُّوا في بيوتكم سرًّا لتأمنوا، وذلك حين أخافهم فرعونُ، فأمِروا بالصبر واتخاذِ المساجد في البيوت، والإقدام على الصلاة، والدعاءِ إلى أنْ ينجِز اللهُ وعدَه، وهو المراد بقوله: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [الأعراف:١٢٨] الآية. وكان من دينهم أنَّهم لا يصلُّون إلا في البِيَع والكنائس ما داموا على أمنٍ، فإذا خافوا فقد أُذن لهم أن يصلُّوا في بيوتهم. قال ابن العربيّ: والأوَّلُ أَظْهَرُ القولين؛ لأنَّ الثانيَ دعوى[(٧)].

---

(١) أخرج قولهم الطبري ١٢/ ٢٥٥ - ٢٥٧ ، وينظر تفسير البغوي ٢/ ٣٦٥ .

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٠ عن سعيد بن جبير، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٧ (١٠٥٣٢) من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس.

(٣) في (ظ): قبل.

(٤) ذكره عن ابن بحر بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٤٧ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٣ دون نسبة.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٦) في النسخ: وأوفر للعبادة، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٤٣ ، والكلام منه.

(٧) أحكام القرآن ٣/ ١٠٤٣ ، ويعني بالأول: بيت المقدس، فقد ذكره ابن العربي قبل هذا القول.

قلت: قوله: دعوى، صحيح؛ فإن في الصحيح قولَه عليه الصلاة والسلام: «جُعلت لي الأرضُ مسجداً وطَهوراً»[١]. وهذا ممَّا خُصَّ به دون الأنبياء، فنحن بحمدِ اللهِ نصلِّي في المساجد والبيوت، وحيث أدركتنا الصلاة، إلا أنَّ النافلة في المنازل أفضلُ منها في المساجد، حتى الركوعَ قبل الجمعة وبعدها، وقبل الصَّلَوات المفروضات وبعدها؛ إذ النوافلُ يحصل فيها الرياء، والفرائض لا يحصل فيها ذلك، وكلما خلَص العمل من الرياء كان أَوْزَنَ وأَزْلَفَ عند الله سبحانه وتعالى.

روى مسلم[٢] عن عبد الله بن شقيق قال: سألتُ عائشةَ عن صلاة رسول اللهِ ﷺ، عن تطوُّعه؛ قالت: كان يصلِّي في بيتي قبل الظهر أربعاً، ثم يخرج فيصلِّي بالناس، ثم يدخل فيصلِّي ركعتين، وكان يُصلِّي بالناس المغرِبَ، ثم يدخل فيصلي ركعتين، ثم يصلي بالناس العشاء، ويدخل بيتي فيصلِّي ركعتين...» الحديث.

وعن ابن عمر قال: صلَّيت مع النبيِّ ﷺ قبل الظهر سجدتين، وبعدها سجدتين، وبعد المغرب سجدتين [وبعد العشاء سجدتين، وبعد الجمعة سجدتين]. فأمَّا المغربُ والعشاء والجمعة فصلَّيت مع النبيِّ ﷺ في بيته[٣].

وروى أبو داود عن كعب بن عُجْرة: أنَّ النبيَّ ﷺ أتى مسجدَ بني [عبد] الأشهل فصلَّى فيه المغرب، فلمَّا قَضَوْا صلاتَهم؛ رآهم يسبِّحون بعدها، فقال: «هذه صلاةُ البيوت»[٤].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٤٢٦٣)، والبخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر ﷺ، وسلف ٢٨٣/٢.

(٢) في صحيحه (٧٣٠)، وهو عند أحمد (٢٤٠١٩).

(٣) صحيح مسلم (٧٢٩)، وهو عند البخاري (١١٧٢) وما سلف بين حاصرتين منهما، وأخرجه بنحوه أحمد (٤٥٠٦).

(٤) سنن أبي داود (١٣٠٠)، وأخرجه أيضاً الترمذي (٦٠٤)، والنسائي في المجتبى ١٩٨/٣، وما بين حاصرتين من المصادر. وأخرج نحوه أحمد (٢٣٦٢٤) من حديث محمود بن لبيد ﷺ قوله: يسبِّحون بعدها، أي: يصلون النافلة بعد المغرب.

الثالثة: واختلف العلماء من هذا الباب في قيام رمضان، هل إيقاعُه في البيت أفضلُ، أو في المسجد؟ فذهب مالك إلى أنه في البيت أفضلُ لمن قَوِيَ عليه، وبه قال أبو يوسفَ وبعضُ أصحاب الشافعي. وذهب ابن عبد الحكم وأحمد وبعضُ أصحاب الشافعيِّ إلى أنَّ حضورها في الجماعة أفضل. وقال الليث: لو قام الناسُ في بيوتهم ولم يقم أحدٌ في المسجد لَانْبَغَى[1] أن يخرجوا إليه.

والحجة لمالك ـ ومَن قال بقوله ـ قولُه ﷺ في حديث زيد بن ثابت: «فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإنَّ خيرَ صلاة المرء في بيته إلا المكتوبةَ» خرجه البخاريُّ[2].

احتجَّ المخالفُ بأنَّ النبيَّ ﷺ قد صلَّاها في الجماعة في المسجد، ثم أخبر بالمانع الذي منعه من[3] الدوام على ذلك، وهو خشية أنْ تُفرض عليهم، فلذلك قال لهم: «فعليكم بالصلاة في بيوتكم». ثم إن الصحابة كانوا يصلونها في المسجد أوزَاعاً متفرقين، إلى أن جمعَهم عمر على قارئ واحدٍ، فاستقرَّ الأمرُ على ذلك وثبت سُنَّةً.

الرابعة: وإذا تنزَّلْنا على أنه كان أُبيح لهم أن يصلُّوا في بيوتهم إذا خافوا على أنفسهم، فيُستدلُّ به على أن المعذور بالخوف وغيره يجوز له ترك الجماعة والجمعة.

والعذرُ الذي يبيح له ذلك كالمرض الحابس، أو خوف زيادته، أو خوفَ جورِ السلطان في مالٍ أو بدنٍ دون القضاءِ عليه بحق. والمطرُ الوابِلُ مع الوَحْلِ عذرٌ إن لم ينقطع، ومَن له وليٌّ حميم قد حضرته الوفاةُ ولم يكن عنده من يمرِّضه، وقد فعل ذلك ابن عمر[4].

---

(١) وقع في النسخ والمفهم ٢/ ٣٨٨ (والكلام منه): لا ينبغي، والمثبت من إكمال المعلم ٣/ ١١٢ ، وهو الصواب. وذكر قول الليث أيضاً الجصاص في مختصر اختلاف العلماء ١/ ٣١٣ ، وابن عبد البر في التمهيد ٨/ ١١٧ ولفظه عندهما: لو أنَّ الناس في رمضان قاموا لأنفسهم ولأهليهم كلِّهم حتى يُترك المسجد لا يقوم فيه أحد، لكان ينبغي أن يخرجوا من بيوتهم إلى المسجد حتى يقوموا فيه...

(٢) في صحيحه (٦١١٣) مطولاً، وسلف ٤/ ٣٥٩ .

(٣) في النسخ: منع منه بدل: منعه منه، والمثبت من المفهم.

(٤) الكافي لابن عبد البر ١/ ٢٥٢ وقد ذكر هذا الكلام في التخلف عن صلاة الجمعة، وينظر المفهم ٢/ ٣٣٩ . وخبر ابن عمر أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ١٥٣ وفيه أن ابناً لسعيد بن زيد بن نفيل كان بأرض له بالعقيق على رأس أميال من المدينة، فأتى ابن عمر غداة يوم الجمعة فذكر له شكواه، فانطلق إليه وترك الجمعة.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: الخطاب لمحمدٍ ﷺ. وقيل: لموسى عليه السلام، وهو أظهَرُ، أي: بشِّرْ بني إسرائيل بأن الله سيُظهرهم على عدوِّهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ «آتَيْتَ» أي: أعطيت. ﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مال الدنيا، وكان لهم من فُسطاط مِصر إلى أرض الحبشة جبالٌ فيها معادن الذهب والفضة والزَّبَرْجَد والزُّمرُّد والياقوت[١].

قوله تعالى: ﴿ربَّنا لِيَضلُّوا عن سبيلكَ﴾ اختلف في هذه اللام، وأصحُّ ما قيل فيها ـ وهو قول الخليل وسيبويه ـ أنها لامُ العاقبة والصَّيرورة[٢]، وفي الخبر: «إنَّ لِلهِ تعالى مَلَكاً ينادي كلَّ يومٍ: لِدُوا للموت، وابنوا للخراب»[٣]. أي: لمَّا كان عاقبةُ أمرهم إلى الضلال صار كأنه أعطاهم ليَضِلُّوا.

وقيل: هي لامُ كي، أي: أعطيتَهم لكي يَضِلُّوا ويَبْطَروا ويتكبَّروا[٤].

وقيل: هي لامُ أَجْل[٥]، أي: أعطيتَهم لأجْل إعراضِهم عنك؛ فلم يخافوا أن

---

(١) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٥٥٧ ، والزمخشري ٢/ ٢٤٩ - ٢٥٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦ .

(٣) قطعة من حديث أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥١٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣٠) عن أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أبو يعلى (٦٨٥)، والبيهقي في الشعب (١٠٧٣١) من حديث الزبير ﷺ. قال ملا علي القاري في الأسرار المرفوعة ص٢٧٦ : قال الإمام أحمد: هو مما يدور في الأسواق، ولا أصل له. وينظر كشف الخفاء ٢/ ١٨٣ - ١٨٤ .

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٢ ، وهذا قول الفراء في معاني القرآن له ١/ ٤٧٧ وقال البغوي ٢/ ٣٦٥ : هي كقوله: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن:١٦-١٧].

(٥) زاد المسير ٤/ ٥٦ .

تُعرض عنهم.

وزعم قوم أن المعنى: أعطيتَهم ذلك لئلَّا يَضِلُّوا، فحذفت لا كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦] والمعنى: لأن لا تضلوا. قال النحاس[١]: ظاهِرُ هذا الجوابِ حسنٌ، إلا أنَّ العرب لا تَحذف «لا» إلا مع أنْ؛ فموَّه صاحبُ هذا الجوابِ بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَن تَضِلُّواْ﴾.

وقيل: اللام للدعاء، أي: ابتَلِهم بالضلال عن سبيلك؛ لأنَّ بعده: ﴿ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ﴾[٢].

وقيل: الفعل معنى المصدر، أي: إضلالهم، كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ [التوبة: ٩٥][٣].

وقرأ الكوفيون: ﴿لِيُضِلُّواْ﴾ بضم الياء من الإِضلال، وفتَحَها الباقون[٤].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: عاقِبْهم على كفرهم بإهلاك أموالهم. قال الزجاج[٥]: طَمْسُ الشيء إذهابه عن صورته.

قال ابن عباس ومحمدُ بن كعب: صارت أموالُهم ودراهِمُهم حجارةً منقوشة كهيئتها صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً[٦]، ولم يبق لهم معدنٌ إلا طَمَس اللهُ عليه، فلم ينتفع به أحدٌ بعدُ.

---

(١) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٦، وما قبله منه.

(٢) زاد المسير ٤/ ٥٦، ومجمع البيان ١١/ ٨٧، وقال الطبرسي: المعنى: ابتلهم بالبقاء على ما هم عليه من الضلال. وينظر الكشاف ٢/ ٢٥٠.

(٣) أي: لإعراضكم عنهم، وهم لم يحلفوا لكي تُعرضوا. ويكون المعنى على هذا القول: آتيتهم ما آتيتهم لضلالهم. وهذا قول أبي العباس أحمد بن يحيى كما في اللسان (لوم). وذكره الطبري ١٢/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٤) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف بضم الياء، والباقون بفتحها. السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٠٦، والنشر ٢/ ٢٦٢.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٣١.

(٦) ذكره البغوي ٢/ ٣٦٦ عن ابن عباس وحده، وذكر عن محمد بن كعب قولاً آخر، وسيأتي.

وقال قتادة: بلغَنا أنَّ أموالهم وزروعَهم صارت حجارة[١].

وقال مجاهد وعطية: أهْلِكْها حتى لا تُرَى؛ يقال: عين مطموسة، وطَمس الموضع: إذا عفا ودرَس[٢].

وقال ابن زيد: صارت دنانيرهم ودراهِمُهم وفُرُشُهم وكلُّ شيء لهم حجارةً[٣].

محمد بن كعب: وكان الرجل منهم يكون مع أهله في فراشه وقد صارا حجرين[٤]؛ قال: وسألني عمر بن عبد العزيز فذكرتُ ذلك له، فدعا بخريطةٍ أصيبت بمصر، فأخرج منها الفواكه والدراهمَ والدنانير وإنها لحجارة[٥].

وقال السُّدِّيُّ: وكانت إحدى الآياتِ التسع[٦].

﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ قال ابن عباس: أي: امنعهم الإيمانَ[٧]. وقيل: قَسِّها واطْبَعْ عليها حتى لا تنشرح للإيمان؛ والمعنى واحد[٨].

﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ قيل: هو عطفٌ على قوله: «لِيَضِلُّوا» أي: آتيتهم النعم لِيَضِلُّوا ولا يؤمنوا؛ قاله الزجَّاج والمبرد[٩]. وعلى هذا لا يكون فيه من معنى الدعاء شيء. وقولُه: «رَبَّنا اطْمسْ» «وَاشْدُدْ» كلامٌ معتَرِض.

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٥ .

(٢) زاد المسير ٤/ ٥٧ ، وينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٩٨ . وخبر مجاهد في تفسيره ١/ ٢٩٧ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٦ .

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٦ .

(٤) قال الآلوسي في روح المعاني ١١/ ١٧٣ : هذا مما لا يكاد يصح أصلاً وليس في الآية ما يشير إليه بوجه. وعندي أن أخبار تغيير أموالهم إلى الحجارة لا تخلو عن وهن، فلا يعوّل عليها.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٦ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩ (١٠٥٤٣). والخريطة: وعاء من أدم وغيره. معجم متن اللغة (خرط).

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٦ .

(٧) الوسيط للواحدي ٢/ ٥٥٧ .

(٨) ينظر الوسيط ٢/ ٥٥٧ ، وأخرج الطبري ١٢/ ٢٦٧ ، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩ (١٠٥٤٦) عن ابن عباس قال: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ يعني: واطبع على قلوبهم.

(٩) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١ وقد نقله الزجاج عن المبرد.

وقال الفراء والكسائي وأبو عبيدة: هو دعاء، فهو في موضع جزم عندهم؛ أي: اللهم فلا يؤمنوا، أي: فلا آمنوا[١]. ومنه قول الأعشى:

فلا يَنْبَسِطْ من بين عينَيْكَ ما انزوَى ... ولا تَلْقَني إلَّا وأنفُك راغِمُ

أي: لا انبسط[٢]. ومَن قال: «لِيَضِلُّوا» دعاء - أي: ابتلهم بالضلال - قال: عُطف عليه «فلا يُؤْمِنُوا».

وقيل: هو في موضع نصبٍ لأنه جواب الأمر، أي: واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا. وهذا قول الأخفش والفراء أيضاً، وأنشد الفراء:

يا ناقُ سيري عَنَقاً فسيحا ... إلى سليمانَ فنَسْتَريحا[٣]

فعلى هذا حذفت النون لأنه منصوب.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ قال ابن عباس: هو الغرق[٤].

وقد استَشْكَل بعضُ الناس هذه الآيةَ فقال: كيف دعا عليهم، وحُكْمُ الرسل استدعاءُ إيمانِ قومهم؟

فالجواب: أنه لا يجوز أن يدعوَ نبيٌّ على قومه إلا بإذنٍ من الله، وإعلامٍ أنه ليس فيهم مَن يؤمن، ولا يخرج من أصلابهم مَن يؤمن، دليلُه: قولُه لنوح عليه السلام: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، وعند ذلك قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. والله أعلم.

---

(١) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٩، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨١، وزاد المسير ٤/ ٥٧، وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٧، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٨١.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٩، وزاد المسير ٤/ ٥٧، والبيت في ديوان الأعشى ص١٢٩، وسلف ٨/ ١٢٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٧ - ٤٧٨، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٦، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٥٣. والرجز لأبي النجم العجلي، وهو في ديوانه ص٨٢، والكتاب ٣/ ٣٥. والعَنَق: ضَرْبٌ من السير. والفسيح: الواسع المكين، وأراد: سليمان بن عبد الملك، والشاهد فيه نصب ما بعد الفاء على جواب الأمر. تحصيل عين الذهب ص٣٩٤.

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٧.

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قال أبو العالية: دعا موسى وأمَّن هارون؛ فسمي هارون ـ وقد أمَّن على الدعاء ـ داعياً. والتأمين على الدعاء أن يقول: آمين، فقولك: آمين؛ دعاء، أي: يا رب استجب لي[(١)].

وقيل: دعا هارون مع موسى أيضاً[(٢)].

وقال أهل المعاني: ربما خاطبت العربُ الواحدَ بخطاب الاثنين[(٣)]؛ قال الشاعر:

فقلتُ لصاحبي لا تُعْجِلانا بنَزْعِ أصوله فاجتزَّ شِيحا[(٤)]

وهذا على أنَّ آمين ليس بدعاء، وأنَّ هارون لم يَدْعُ.

قال النحاس[(٥)]: سمعت عليَّ بن سليمان يقول: الدليل على أنَّ الدعاء لهما قولُ موسى عليه السلام: «ربَّنا»، ولم يقل: ربّ.

وقرأ عليٌّ والسُّلَميُّ: «دعواتُكما» بالجمع[(٦)]. وقرأ ابن السَّمَيفَع: «أجبتُ دعوتَكما»[(٧)] خبراً عن اللهِ تعالى، ونصب «دعوة» بعده.

---

(١) النكت والعيون ٢/٤٤٨، وأخرج قول أبي العالية الطبري ١٢/ ٢٧١ - ٢٧٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١.

(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٢٧١، والصحاح (جزز).

(٤) نسبه الجوهري في الصحاح (جزز) ليزيد بن الطَّثرية، ونُسب لمُفَرِّس بن رِبْعيٍّ الأسدي كما في شرح شواهد الشافية ٤/ ٤٨١، واللسان (جزز). وذكر دون نسبة في تأويل مشكل القرآن ص٢٢٤، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٧١. ووقع في المصادر عدا تفسير الطبري: لا تَحْبِسانا، بدل: لا تُعجلانا. وذكر صاحب اللسان روايةً أخرى وهي: لا تَحْبِسَنَّا. وقال في شرح البيت: يقول: لا تَحبِسْنا عن شَيِّ اللحم بنزع أصول الشجر، بل خذ ما تيسَّر من قضبانه وعيدانه. اهـ والشِّيح: نبت معروف. القاموس (شيح).

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٧.

(٦) القراءات الشاذة ص٥٨، والمحتسب ١/ ٣١٦.

(٧) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ١٨٧.

وتقدَّم القول في «آمين» في آخِر الفاتحة[1] مستوفًى. وهو مما خُصَّ به نبيُّنا محمدٌ ﷺ وهارونُ وموسى عليهما السلام؛ روى أنس بن مالك قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله قد أَعْطى أمَّتي ثلاثاً لم تُعْطَ أحداً قبلَهم: السلامُ، وهي تحيةُ أهل الجنة، وصفوفُ الملائكة، وآمين، إلا ما كان من موسى وهارون» ذكره الترمذيُّ الحكيمُ في «نوادر الأصول»، وقد تقدَّم في الفاتحة[2].

قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ قال الفرَّاء[3] وغيره: أمْرٌ بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه؛ من دعاء فرعون وقومِه إلى الإيمان؛ إلى أن يأتيَهما تأويلُ الإجابة.

قال محمد بن عليٍّ وابنُ جريج: مَكَثَ فرعون وقومُه بعد هذه الإجابة أربعين سنةً ثم أُهلكوا[4].

وقيل: «استقيما» أي: على الدعاء، والاستقامةُ في الدعاء تركُ الاستعجال في حصول المقصود، ولا يَسقط الاستعجالُ من القلب إلا باستِقامة السكينةِ فيه، ولا تكون تلك السكينةُ إلا بالرضا الحسنِ لجميع ما يبدو من الغيب[5].

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ بتشديد النون في موضعِ جزمٍ على النهي، والنونُ للتوكيد وحُركت لالتقاء الساكنَيْن، واختير لها الكسرُ لأنها أَشْبَهتْ نونَ الاثنين[6].

وقرأ ابن ذَكْوَان بتخفيف النون على النفي[7]. وقيل: هو حالٌ من «استقيما»،

---

(١) ١/ ١٩٥ .

(٢) ١/ ٢٠١ وذكرنا ثمة أن في إسناده زربي بن عبد الله الأزدي، وهو منكر الحديث. وهو في نوادر الأصول ص١٨٥ .

(٣) في معاني القرآن ١/ ٤٧٨ .

(٤) أخرجه عن ابن جريج الطبري ١٢/ ٢٧٣ ، وعن محمد بن علي أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٠ (١٠٥٥٢).

(٥) لطائف الإشارات للقشيري ٢/ ١١٣ ، وفيه: بوِجْدان السكينة، بدل: باستقامة السكينة.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٧ ، وبنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣١ .

(٧) السبعة ص٣٢٩ ، والتيسير ص١٢٣ ورواية ابن ذكوان عن ابن عامر الشامي. وقال مكي في الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٢ : فيكون لفظه لفظ الخبر، ومعناه النهي.

أي: استقيما غيرَ متَّبِعَين[1].

والمعنى: لا تسلكا طريقَ مَن لا يَعلم حقيقةَ وَعْدي ووَعِيدي.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ تقدَّم القولُ فيه في «البقرة» في قوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾[2] [الآية: ٥٠]. وقرأ الحسن: «وجوَّزنا»[3]، وهما لغتان. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ يقال: تَبع وأَتبع؛ بمعنًى واحد: إذا لَحِقَه وأدركه. واتَّبع؛ بالتشديد: إذا سار خلفه[4].

وقال الأصمعي: يقال: أَتبعه؛ بقطع الألف: إذا لَحِقَه وأدركه، واتَّبعه؛ بوصل الألف: إذا اتَّبع أثره، أدركه أو لم يُدْركه. وكذلك قال أبو زيد.

وقرأ قتادة: «فاتَّبعهم» بوصل الألف[5].

وقيل: «اتَّبعه» ـ بوصل الألف ـ في الأمر: اقتدى به. وأتبعه ـ بقطع الألف ـ خيراً أو شرًّا؛ هذا قول أبي عمرو. وقد قيل: هما بمعنًى واحد[6].

فخرج موسى ببني إسرائيل وهم ستُّ مئة ألف وعشرون ألفاً، وتَبِعه فرعون مُصْبِحاً في ألفي ألف وستِّ مئة ألف. وقد تقدَّم[7].

---

(١) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٥٢٢ .

(٢) ٢/ ٨٩ وما بعدها.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٨ .

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٦ .

(٥) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٠ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٨ للحسن.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣١٣ .

(٧) ٢/ ٩٢ ، وذكر المصنف رحمه الله ثمة أن عدَّة قوم فرعون ألف ألف ومئتا ألف.

﴿بَغْيًا﴾ نصب على الحال. ﴿وَعَدْوًا﴾ معطوف عليه؛ أي: في حال بَغْيٍ واعتداء وظلم، يقال: عَدَا يَعدو عَدْواً، مثلُ: غَزَا يَغزو غَزْواً. وقرأ الحسن: «وعُدُوًّا» بضم العين والدال وتشديد الواو[١]، مثلُ: علا يعلو عُلُوًّا. وقال المفسرون: «بغياً» طلباً للاستعلاء بغير حق في القول، «وعَدْواً» في الفعل[٢]، فهما نصبٌ على المفعول له.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ أي: ناله ووَصَله. ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ أي: صدَّقت. ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي: بأنه[٣]، فلمَّا حُذِف الخافض، تعدَّى الفعلُ فنصَب. وقُرِئ بالكسر[٤]، أي: صِرتُ مؤمناً، ثم استأنف. وزعم أبو حاتم أن القول محذوفٌ[٥]، أي: آمنت فقلت: إنه، والإيمان لا ينفع حينئذ، والتوبة مقبولة قبل رؤية البأس، وأمَّا بعدها وبعد المخالطة، فلا تُقبل، حَسَبَ ما تقدَّم في «النساء» بيانُه[٦].

ويقال: إن فرعون هاب دخول البحر، وكان على حصان أدهمَ، ولم يكن في خيل فرعونَ فرسٌ أنثى، فجاء جبريلُ على فرس وَدِيق ـ أي: شَهِيٌّ ـ في صورة هامان وقال له: تقدَّم، ثم خاض البحر، فتبعها حصان فرعون، وميكائيلُ يسوقهم لا يشُذُّ منهم أحد، فلما صار آخِرهم في البحر وهَمَّ أوّلهم أن يخرج، انطبق عليهم البحر، وألجم فرعونَ الغرقُ، فقال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل؛ فدَسَّ جبريل في فمه حال البحر[٧].

وروى الترمذي عن ابن عباس أن النبيَّ ﷺ قال: «لمَّا أغرق الله فرعون، قال: آمنْتُ أنه لا إله إلا الذي آمَنَتْ به بنو إسرائيل، قال جبريل: يا محمد، فلو رأيتَني وأنا

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٨.
(٢) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٠، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٦.
(٣) بعدها في (د) و(م): لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل.
(٤) قرأ بها من السبعة حمزة والكسائي. السبعة ص٣٣٠، والتيسير ص١٢٣.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٧.
(٦) ٦/ ١٥٢ - ١٥٤.
(٧) أخرجه الطبري ١/ ٦٥٥ - ٦٦٠ بنحوه عن عبد الله بن شداد بن الهاد وابن عباس ﭬ، والحال: الطين الأسود.

آخذ مِن حال البحر فأدسُّه في فيه مَخافةَ أن تُدرِكَه الرحمة». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن[١]. حالُ البحر: الطِّين الأسود الذي يكون في أرضه؛ قاله أهل اللغة[٢].

وعن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ أنه ذكر: «أن جبريل جعل يدُسُّ في في فرعونَ الطِّينَ خشيةَ أن يقول: لا إله إلا الله، فيرحمه الله، أو خشية أن يرحَمه». قال: هذا حديث حسن غريب صحيح[٣].

وقال عَون بن عبد الله: بلغني أن جبريل قال للنبيِّ ﷺ: ما وَلَدُ إبليسَ أبغَضَ إليَّ من فرعون، وإنه لمَّا أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ﴾ الآية، فخشِيت أن يقولها فيُرحم، فأخذت تُربة ـ أو طِينة ـ فحشوتُها في فيه. وقيل: إنما فَعَل هذا به عقوبةً له على عظيم ما كان يأتي[٤].

وقال كعبُ الأحبار: أمسك الله نِيل مصرَ عن الجَرْي في زمانه، فقالت له القِبْط: إن كنت ربَّنا، فأجْرِ لنا الماء؛ فركب وأمر بجنوده قائداً قائداً، وجعلوا يقفون على درجاتهم، وقعد[٥] حيث لا يرونه، ونزل عن دابته، وليس ثياباً له أخرى، وسجد، وتضرَّع لله تعالى، فأجرى الله له الماء، فأتاه جبريل وهو وحده في هيئة مُسْتَفْتٍ وقال: ما يقول: الأمير في رجل له عبد، قد نشأ في نعمته لا سندَ[٦] له غيرُه،

---

(١) سنن الترمذي (٣١٠٧)، وهو عند أحمد (٢٨٢٠). وفيه: علي بن زيد بن جُدعان، وهو ضعيف، ويوسف بن مهران، وهو لين الحديث، لم يرو عنه إلا ابن جُدعان. تقريب التهذيب ص٣٤٠ و ٥٤١.

(٢) ينظر تهذيب اللغة ٥/ ٢٤٥، والصحاح (حول).

(٣) سنن الترمذي (٣١٠٨)، وهو عند أحمد (٢١٤٤)، والنسائي في تفسيره (٢٥٨) والحاكم ٢/ ٣٤٠، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس، ووافقه الذهبي في التلخيص. وأخرج الموقوف أحمد (٢١٤٤)، والنسائي في التفسير (٢٥٨) قال الرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٦ : هل يصح أن جبريل عليه السلام أخذ يملأ فمه من الطين لئلا يتوب غضباً عليه، الجواب: الأقرب أنه لا يصح. اهـ وانظر تتمة كلامه، وينظر كلام الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص٨٥.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٣١٤.

(٥) في (م): وقفز.

(٦) في (ز) و(ف): لا سيد.

فكفر نِعَمَه، وجَحَدَ حقَّه، وادَّعى السيادةَ دونه؛ فكتب فرعون: يقول أبو العباس الوليدُ بنُ مصعب بنِ الريَّان: جزاؤه أن يُغَرَّق في البحر، فأخذه جبريل ومرَّ، فلمَّا أدركه الغرق، ناوله جبريل عليه السلام خطَّه[1]. وقد مضى هذا في «البقرة» عن عبد الله بن عمرو بن العاص وابنِ عباس مُسنَداً؛ وكان هذا في يوم عاشوراء على ما تقدَّم بيانُه في «البقرة» أيضاً، فلا معنى للإعادة[2].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من الموحِّدين المستسلمين بالانقياد والطاعة.

قوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

قيل: هو من قول الله تعالى. وقيل: هو من قول جبريل[3]. وقيل: ميكائيل، صلوات الله عليهما، أو غيرِهما من الملائكة[4] صلوات الله عليهم. وقيل: هو من قول فرعونَ في نفسه، ولم يكن ثَمَّ قولٌ باللسان بل وقع ذلك في قلبه، فقال في نفسه ما قال، حيث لم تنفعه الندامة؛ ونظيره: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، أثنى عليهم الربُّ بما في ضميرهم، لا أنهم قالوا ذلك بلفظهم، والكلام الحقيقيُّ كلامُ القلب.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي: نُلْقيك على نَجْوة من الأرض[5]. وذلك أن بني إسرائيل لم يصدِّقوا أن فرعون غَرِق، وقالوا: هو أعظم شأناً مِن ذلك،

---

(١) الخبر من الإسرائيليات، وأورد هذه القصة الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٥١ مختصرة، ولم ينسبها.

(٢) ٢/ ٩٣ - ٩٤ ، وقد تقدم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما فقط، ولم نقف على حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ١٥٦ .

(٤) بعدها في (ف) و(م): له.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ .

فألقاه الله على نَجْوة من الأرض، أي: مكانٍ مرتفِع من الأرض[١] حتى شاهدوه. قال أوس بنُ حَجَر يصف مطراً:

فـمَـنْ بِـعَـقْـوَتـه كـمـن بِـنَـجْـوَتـه والْمُسْتَكِنُّ كمنْ يَمْشي بِقِرْواحِ[٢]

وقرأ اليزيديُّ وابن السَّمَيْفَع: «نُنَحِّيك» بالحاء؛ من التنحية[٣]، وحكاها علقمة عن ابن مسعود، أي: تكون على ناحية من البحر[٤]. قال ابن جُريج: فرُميَ به على ساحل البحر حتى رآه بنو إسرائيل، وكان قصيراً أحمرَ كأنه ثور[٥].

وحكى علقمة عن عبد الله أنه قرأ: «بندائك» من النداء[٦]. قال أبو بكر الأنباري: وليس بمخالِف لهجاء مصحفنا، إذ سبيلُه أن يكتب بياء وكاف بعد الدال؛ لأن الألف تسقط من ندائك في ترتيب خط المصحف كما سقط من «الظلمات» و«السماوات»، فإذا وقع بها الحذف؛ استوى هجاء بدنك وندائك، على أنَّ هذه القراءة مرغوبٌ عنها لشذوذها وخلافها ما عليه عامَّةُ المسلمين، والقراءة سُنّة يأخذها آخِرٌ عن أوَّل، وفي معناها نقصٌ عن تأويل قراءتنا، إذ ليس فيها للدِّرع ذِكرٌ، الذي تتابعت الآثار بأن بني إسرائيلَ اختلفوا في غَرَق فرعون، وسألوا الله تعالى أن يُريَهم إياه غريقاً، فألقاه[٧] على نَجوة من الأرض ببدنه، وهو درعُه التي كان[٨] يلبَسها في الحروب. قال ابن عباس ومحمد بنُ كعبٍ القُرَظي: وكانت درعه من لؤلؤ منظوم.

---

(١) في (د) و(ز) و(ف) وم): البحر، والمثبت من (ظ). وينظر تفسير الطبري ١٢/ ٢٨١ - ٢٨٢ .

(٢) سلف ٧/ ١٢٤ ، وجاء الشطر الأول: فمن بنجوته كمن بعقوته. وقوله: بعقوته، أي: الساحة وما حول الدار والمحلة. وقِرْواح: البارز الذي ليس يستره من السماء شيء.

(٣) المحتسب ١/ ٣١٦ .

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ . وينظر القراءات الشاذة ص٥٨ .

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٦) القراءات الشاذة ص٥٨ ، والبحر المحيط ٥/ ١٨٩ .

(٧) في (د) و(ز) و(ف) و(م): فألقوه، والمثبت من (ظ).

(٨) لفظة: كان، ليست في (د) و(ز) و(م).

وقيل: مِن الذهب وكان يُعرف بها[١]. وقيل: من حديد؛ قاله أبو صخر[٢]. والبَدَن: الدِّرع القصيرة. وأنشد أبو عبيدة للأعشى:

وبيضاءَ كالنِّهْيِ مَوْضُونةً لها قَوْنَسٌ فوق جَيْبِ البَدَنْ[٣]

وأنشد أيضاً لعمرو بن معد يكرب:

ومضى نساؤهمُ بكل مُفاضةٍ جَدْلَاءَ سابغةٍ وبالأبدانِ[٤]

وقال كعب بن مالك:

ترى الأبدان فيها مسبغاتٍ على الأبطال واليَلَب الحصِينا[٥]

أراد بالأبدان الدُّروع، واليَلَب: الدُّروع اليمانية، كانت تُتَّخذ من الجلود؛ يُخرز بعضها إلى بعض، وهو اسم جنس، الواحد: يَلَبة. قال عمرو بن كُلثوم:

علينا البَيضُ واليَلَبُ اليماني وأسيافٌ يُقَمن ويَنْحَنِينا[٦]

وقيل: «ببدنك»: بجسد لا روح فيه؛ قاله مجاهد[٧].

قال الأخفش[٨]: وأمَّا قولُ مَن قال: بدرعك، فليس بشيء. قال أبو بكر: لأنهم

---

(١) أورد هذا القول الرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٧ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ ، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٤ (١٠٥٧١) وأبو صخر: هو حميد بن زياد ابن أبي المُخَارق الخرَّاط، مدني، سكن مصر، قال الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق يهم، مات سنة (١٨٩هـ).

(٣) ديوان الأعشى الكبير ص٧٥ ، والنِّهْي: الغدير، أو شبهه. والموضونة: الدِّرع المنسوجة حلقتين حلقتين، أو بالجواهر. والقونس: أعلى بيضة الحديد. القاموس المحيط (نهى) و(وضن) و(قنس).

(٤) ديوان عمرو بن معد يكرب ص١٧٣ . وقوله: مفاضة: المفاضة من الدروع: الواسعة. وجدلاء: الجدلاء من الدروع: المحكمة.

(٥) ديوان كعب ص٢١٧ ، ونسبه ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٥٤ لضرار بن الخطاب بن مرداس.

(٦) معلقة عمرو بن كلثوم ص١٠٢ . قال شارحها ابن كيسان: البيض: بيض الحديد.

(٧) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩ ، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٨١ .

(٨) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٤ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٨ .

لمَّا ضَرَعوا إلى الله يسألونه مشاهدة فرعونَ غريقاً، أبرزه لهم، فرأوا جسداً لا روح فيه، فلمَّا رأته بنو إسرائيل قالوا: نعم يا موسى، هذا فرعون وقد غرِق، فخرج الشكُّ من قلوبهم، وابتلع البحر فرعونَ كما كان[١].

فعلى هذا ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ احتمل معنيين: أحدهما: نُلْقيك على نَجْوة من الأرض.

والثاني: نُظْهر جسدك الذي لا روح فيه.

والقراءة الشاذة «بندائك» يرجع معناها إلى معنى قراءة الجماعة، لأن النداء يُفسَّر تفسيرين:

أحدهما: نُلْقيك بصياحك بكلمة التوبة، وقولِك ـ بعد أن أُغلق بابُها ومضى وقتُ قبولها ـ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على موضع رفيع.

والآخَر: فاليوم نعزلك عن غامض البحر بندائك لمَّا قلت: أنا ربكم الأعلى، فكانت تَنْجيتُه بالبدن معاقبةً من ربِّ العالمين له على ما فرَّط من كُفره الذي منه نداؤه بالذي[٢] افترى فيه وبهت، وادَّعى القدرة والأمر الذي يَعلم أنه كاذب فيه، وعاجزٌ عنه، وغير مستحِق له.

قال أبو بكر الأنباري: فقراءتنا تتضمن ما في القراءة الشاذة من المعاني وتزيد عليها.

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لبني إسرائيلَ، ولمن بقيَ من قوم فرعون ممن لم يُدْركه الغرق، ولم ينته إليه هذا الخبر. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ أي: معرِضون عن تأمُّل آياتنا والتفكُّر فيها.

وقُرِئ: «لمن خَلَفك» ـ بفتح اللام ـ؛ أي: لمن بقيَ بعدك يخلفُك في أرضك.

---

(١) ينظر ياقوتة الصراط لمحمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب ص٢٥٨ .

(٢) في (م): الذي.

وقرأ عليُّ بن أبي طالب: «لمن خلقَك» بالقاف، أي: تكون آية لخالقك[١].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: مَنزِلَ صدقٍ محمودٍ مختار، يعني مصر. وقيل: الأُرْدُنّ وفِلسطين. وقال الضحَّاك: هي مصر والشام[٢]. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من الثمار وغيرها. وقال ابن عباس: يعني: قُريظةَ والنَّضير وأهلَ عصر النبيِّ ﷺ من بني إسرائيل[٣]، فإنهم كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ وينتظرون خروجه، ثم لمَّا خرج حسدوه؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ أي: في أمر محمد ﷺ. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: القرآنُ ومحمد ﷺ[٤]. والعلم بمعنى المعلوم؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه؛ قاله ابن جريرٍ الطبري[٥]. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يحكم بينهم ويفصِل. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبيِّ ﷺ والمراد غيرُه[٦]، أي: لستَ في شكٍّ ولكنَّ غيرَك شكَّ. قال أبو عمر محمد بنُ عبد الواحد الزاهد[٧]:

(١) ذكر هاتين القراءتين أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ١٨٩ بلا نسبة.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٧، وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٢/ ٢٨٤.

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٥٩، والرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٩.

(٤) زاد المسير ٤/ ٦٣.

(٥) في تفسيره ١٢/ ٢٨٤ - ٢٨٥.

(٦) الوسيط ٢/ ٥٥٩، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦٨.

(٧) في ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن ص٢٥٨ - ٢٥٩.

سمعت الإمامين ثعلباً والمبرّد يقولان: معنى ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ﴾ أي: قل: يا محمدُ للكافر: فإن كنت في شكٍّ مما أنزلنا إليك[١]. ﴿فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي: يا عابدَ الوثن، إن كنت في شك من القرآن، فاسأل مَن أسلم من اليهود، يعني: عبدَ الله بن سَلَام وأمثالَه؛ لأن عبدة الأوثان كانوا يُقِرُّون لليهود أنهم أعلم منهم مِن أجل أنهم أصحاب كتاب، فدعاهم الرسول ﷺ إلى أن يسألوا مَن يُقِرُّون بأنهم أعلم منهم: هل يبعث الله برسول مِن بعد موسى؟.

وقال القُتَبي: هذا خطاب لمن كان لا يقطع بتكذيب محمد ولا بتصديقه ﷺ، بل كان في شك[٢].

وقيل: المراد بالخطاب النبيُّ ﷺ لا غيرُه، والمعنى: لو كنت ممن[٣] يَلْحقك الشكُّ فيما أخبرناك به، فسألت أهل الكتاب، لأزالوا عنك الشك[٤].

وقيل: الشكُّ ضِيق الصدر، أي: إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر، واسأل الذين يقرؤون الكتاب مِن قبلك يخبروك صَبْرَ الأنبياءِ مِن قبلك على أذى قومهم، وكيف عاقبةُ أمرهم.

والشك في اللغة، أصله: الضِّيق؛ يقال: شكَّ الثوبَ، أي: ضَمَّه بخِلال[٥] حتى يصير كالوعاء. وكذلك السُّفرة تُمدُّ[٦] علائقها حتى تنقبض، فالشك يقبض الصدر ويضمُّه[٧] حتى يضيق.

وقال الحسين بن الفضل: الفاء مع حروف الشرط لا توجب الفعل ولا تُثْبِته، والدليل

---

(١) قوله: مما أنزلنا إليك، من (م).
(٢) ينظر تأويل مشكل القرآن له ص٥٨ و ٢٠٩ .
(٣) لفظة: ممن، ليست في (م).
(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٥٠ .
(٥) الخلال: العود الذي يُتخلَّل به ، وما يُخلُّ به الثوب أيضاً. الصحاح (خلل).
(٦) كذا في النسخ الخطية، والظاهر أنها: تُشك.
(٧) في (ز) و(ظ): ويغمه.

عليه ما رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لمَّا نزلت هذه الآية: «والله لا أشك [ولا أسأل][(١)]».

ثم استأنف الكلام فقال ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكِّين المرتابين. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ والخطاب في هاتين الآيتين للنبيِّ ﷺ والمراد غيره[(٢)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تقدَّم القولُ فيه في هذه السورة[(٣)]. قال قتادة: أي: الذين حقَّ عليهم غضبُ اللهِ وسخطُه بمعصيتهم لا يؤمنون[(٤)]. ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ أنَّث «كلًّا» على المعنى، أي: ولو جاءتهم الآياتُ[(٥)]. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فحينئذٍ يؤمنون ولا ينفعهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ قال الأخفش والكسائي: أي: فهلّا. وفي مصحف أبيٍّ وابن مسعود: «فهلا»، وأصلُ «لولا» في الكلام التحضيضُ، أو الدلالة على منع أمرٍ لوجود غيره.

ومفهومٌ من معنى الآية نفيُ إيمانِ أهل القُرى، ثم استثنى قومَ يونس، فهو بحسب اللفظ استثناءٌ منقطع، وهو بحسب المعنى متصل؛ لأن تقديرَه: ما آمن أهلُ قرية إلا

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٩٨ ، والطبري ١٢/ ٢٨٨ عن قتادة، وهو مرسل وما بين حاصرتين منهما.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٨.

(٣) ١٠/ ٤٩٨ .

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٠ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٨ .

قوم يونس. والنصبُ في «قوم» هو الوجه، وكذلك أدخله سيبويه في: باب ما لا يكون إلّا منصوباً[١].

قال النحاس[٢]: «إلا قومَ يونس» نصب؛ لأنه استثناءٌ ليس من الأوّل، أي: لكنَّ قومَ يونس؛ هذا قول الكسائي والأخفش والفرّاء[٣]. ويجوز: «إلا قومُ يونس» بالرفع، ومن أحسنِ ما قيل في الرفع ما قاله أبو إسحاق الزجاج[٤] قال: يكون المعنى: غيرُ قومِ يونس، فلما جاء بـ «إلا»؛ أعرب الاسم الذي بعدها بإعراب «غير» كما قال:

وكلُّ أخٍ مُفارِقُه أخوه لَعَمْرُ أبِيك إلا الفَرْقَدانِ[٥]

ورُوي في قصة قومِ يونس عن جماعة من المفسرين: أنَّ قوم يونس كانوا بِنِيْنَوى من أرض المَوْصل، وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل اللهُ إليهم يونسَ عليه السلام يدعُوهم إلى الإسلام وتَرْكِ ما هم عليه فأبَوْا، فقيل: إنه أقام يدعوهم تسعَ سنين، فيئس من إيمانهم؛ فقيل له: أخبرهم أنَّ العذابَ مُصبِّحهم إلى ثلاثٍ ففعل، وقالوا: هو رَجلٌ لا يكذب، فارقُبوه، فإنْ أقام معكم وبين أظهرِكم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم فهو نزولُ العذاب لا شك، فلما كان الليلُ تزوَّد يونس وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا اللهَ، ولَبِسوا المُسوحَ، وفرَّقوا بين الأُمَّهات والأولاد من الناس والبهائم، وردُّوا المظالمَ في تلك الحالة[٦].

وقال ابن مسعود: وكان الرجلُ يأتي الحجرَ قد وُضِع عليه أساسُ بُنيانه، فيقتلعه

---

(١) الكتاب ٢/ ٣٢٥، وعنوان الباب فيه: هذا باب ما لا يكون إلا على معنى ولكنَّ. اهـ. وهذا الكلام وما قبله من المحرر الوجيز ٣/ ١٤٣ - ١٤٤.

(٢) في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٨.

(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٩.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ٣٥، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٦٩، وجواز الرفع المذكور يعني في اللغة، لا في القراءة.

(٥) نسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٣٤، والمبرد في الكامل ٣/ ١٤٤٤ لعمرو بن معدي كرب، ونسبه الآمدي في المؤتلف والمختلف ص١١٦ لحضرميّ بن عامر. وينظر الخزانة ٣/ ٤٢١ و ٤٢٦.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٣ عن قتادة بنحوه، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤، وزاد المسير ٤/ ٦٥.

فيردُّه[(١)]، والعذابُ منهم فيما رُوي عن ابن عباس على ثُلثي ميل. ورُوي على مِيل[(٢)]. وعن ابن عباس أنهم غَشِيَتْهم ظُلَّةٌ وفيها حُمرة، فلم تزلْ تدنو حتى وجدوا حرَّها بين أكتافهم[(٣)]. وقال ابن جُبير: غَشِيَهم العذابُ كما يُغشي الثوب القبر، فلما صحَّت توبتُهم رفعَ اللهُ عنهم العذاب[(٤)].

وقال الطبريُّ[(٥)]: خُصَّ قومُ يونس من بين سائر الأُمَم بأن تِيْبَ عليهم بعد معاينة العذاب. وذكر ذلك عن جماعة من المفسرين.

وقال الزجاج[(٦)]: إنهم لم يَقَع بهم العذاب، وإنما رأَوا العلامةَ التي تدلُّ على العذاب، ولو رأَوا عينَ العذاب لَمَا نفعهم الإيمانُ.

قلت: قولُ الزجاج حَسَنٌ، فإنَّ المعاينةَ التي لا تنفع التوبةُ معها هي التلبُّس بالعذاب كقصة فرعون، ولهذا جاء بقصة قوم يونس على أثر قصةِ فرعون؛ لأنه آمَنَ حين رأى العذابَ فلم ينفعه ذلك، وقومُ يونس تابوا قبل ذلك[(٧)]. ويَعْضُد هذا قولُه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ يقبل توبةَ العبدِ ما لم يُغرغِرْ»[(٨)]. والغرغرةُ: الحَشْرَجَة، وذلك هو حالُ التلبُّس بالموت، وأما قبلَ ذلك فلا. واللهُ أعلم.

وقد رُويَ معنى ما قلناه عن ابن مسعود، وأنَّ يونسَ لمَّا وَعدهم العذابَ إلى ثلاثة أيام خرجَ عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا وفرَّقوا بين الأُمَّهات والأولاد[(٩)].

---

(١) عرائس المجالس ص٤١٢ .

(٢) عرائس المجالس ص٤١١ ، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٤ ، وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٤ .

(٣) ذكره بنحوه ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٦٥ .

(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٥ ، وهو في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤ .

(٥) في تفسيره ١٢/ ٢٩١ ، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤ .

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٣٤ .

(٧) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤ .

(٨) سلف ٥/ ١٩٧ .

(٩) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٦ ، وسلف نحوه قريباً.

وهذا يدلُّ على أن توبتهم قبل رؤية علامة العذاب. وسيأتي مسنداً مبيَّناً في سورة الصافات إن شاء اللهُ تعالى[١]. ويكون معنى ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ﴾ أي: العذابَ الذي وعدَهم به يونس أنه ينزل بهم، لا أنَّهم رأوه عِياناً ولا مُخايلةً، وعلى هذا لا إشكالَ ولا تعارضَ ولا خُصوصَ، واللهُ أعلم.

وبالجملة؛ فكان أهل نِيْنَوى في سابق العلم من السُّعداء.

ورُويَ عن عليٍّ ﷺ أنه قال: إنَّ الحَذَرَ لا يردُّ القَدَرَ، وإنَّ الدعاء لَيردُّ القدرَ. وذلك أن اللهَ تعالى يقول: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. قال عليٌّ ﷺ: وذلك يومَ عاشوراء[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: إلى أجلهم، قاله السُّدِّيُّ وقيل: إلى أن يَصيروا إلى الجنة أو إلى النار، قاله ابن عباس[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: لاضطرَّهم إليه. «كلُّهم» تأكيد لـ «من». «جميعاً» عند سيبويه نصب على الحال[٤]. وقال الأخفش[٥]: جاء بقوله: «جميعاً» بعد «كل» تأكيداً، كقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [النحل: ٥١].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عباس: كان النبيُّ ﷺ

---

(١) في تفسير الآيات ١٣٩ - ١٤٨.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٥٢، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٦/ ١٩٨٧ و ١٩٨٨، وأخرج القسم الأول منه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٢١٢).

(٣) أخرجهما ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٩ - ١٩٩٠.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٩.

(٥) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٤.

حريصاً على إيمان جميع الناس، فأخبره اللهُ تعالى أنه لا يُؤمن إلا من سبقتْ له السعادةُ في الذِّكر الأوّل، ولا يَضلُّ إلا من سبقتْ له الشَّقاوة في الذِّكر الأوّل[١]. وقيل: المراد بالناس هنا أبو طالب، وهو عن ابن عباس أيضاً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ «ما» نفي، أي: ما ينبغي أن تؤمنَ نفسٌ إلا بقضائه وقَدَره ومشيئته وإرادته[٣]. ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ وقرأ الحسن وأبو بكر والمُفضَّل: «ونَجعلُ» بالنون على التعظيم[٤].

والرِّجس: العذاب، بضم الراء وكسرها، لغتان[٥]. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أمْرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ونَهْيَه[٦].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ أمرٌ للكفار بالاعتبار والنظرِ في المصنوعات الدّالة على الصانع والقادر على الكمال[٧]. وقد تقدَّم القول في هذا

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٩٨ ، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٣٩)، من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال الحافظ ابن حجر في التقريب: علي بن أبي طلحة أرسل عن ابن عباس ولم يَرَهُ.

(٢) ذكره أبو الليث ٢/ ١١٢ دون نسبة.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٢ .

(٤) قراءة أبي بكر ـ يعني عن عاصم ـ من السبعة، ولم نقف على من نسبها للحسن أو المفضّل. وينظر السبعة ص٣٣٠ ، والتيسير ص١٢٣ .

(٥) في معاجم اللغة: الرِّجس، بكسر الراء فقط. والرّجز، بكسر الراء وضمِّها. والرجس والرجز معناهما واحد. ينظر اللسان (رجس) و(رجز).

(٦) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٠ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥ .

المعنى في غير موضع مستوفًى[١]. ﴿وَمَا تُغْنِي﴾ «ما» نفي، أي: ولن تغني. وقيل: استفهامية، التقدير: أيُّ شيء تُغني؟[٢] ﴿ٱلْأَيَٰتُ﴾ أي: الدَّلالات. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ أي: الرُّسل، جمعُ نذير، وهو الرسول. ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: عمَّن سبق له في علم الله أنه لا يُؤمن[٣].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الأيامُ هنا بمعنى الوقائع، يقال: فلان عالمٌ بأيام العرب، أي: بوقائعهم. قال قتادة: يعني وقائع اللهِ في قوم نوحٍ وعاد وثمود وغيرِهم. والعربُ تُسمِّي العذابَ أياماً والنِّعم أياماً، كقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]. وكلُّ ما مضى لك من خيرٍ أو شرٍّ فهو أيام[٤]. ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أي: تربَّصوا. وهذا تهديدٌ ووعيد. ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: المُتربِّصين لموعد ربي.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: من سُنَّتنا إذا أنزلنا بقوم عذاباً أخرجنا من بينهم الرُّسلَ والمؤمنين، و«ثُمَّ» معناه: ثم اعلموا أنَّا نُنجي رُسلَنا[٥]. ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أي: واجباً علينا؛ لأنه أخبر، ولا خُلف في خبره. وقرأ يعقوب: «ثم نُنْجي» مُخفَّفاً[٦]. وقرأ الكسائيُّ وحفص ويعقوب: «نُنْجي المؤمنين»

(١) ينظر ٩/ ٣٩٩.

(٢) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥، والكشاف ٢/ ٢٥٥.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٣.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٧١، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٢/ ٣٠٢.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٢ - ٣٠٣.

(٦) النشر ٢/ ٢٨٧.

مُخففاً، وشدَّد الباقون[١]، وهما لغتان فصيحتان: أنجى يُنْجِي إنجاء، ونَجَّى يُنَجِّي تَنْجيةً، بمعنًى واحد[٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يريد كُفَّارَ مكة. ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي: في رَيب من دين الإسلام الذي أدعوكم إليه. ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأوثان التي لا تَعقِل. ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي: يُميتكم ويَقبض أرواحكم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: المُصدِّقين بآيات ربِّهم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ﴾ «أنْ» عطفٌ على «أنْ أكونَ»[٤] أي: قيل لي: كن من المؤمنين، وأَقِمْ وجهَك. قال ابن عباس: عَمَلك[٥]، وقيل: نَفْسَك، أي: استقم بإقبالك على ما أُمِرتَ به من الدِّين. ﴿حَنِيفًا﴾ أي: قَويماً به مائلاً عن كل دِين[٦]. قال حمزةُ بن عبد المطلب ﷺ:

حَمِدتُ اللهَ حين هَدَى فؤادي ... من الإشراك للدِّين الحَنيفِ[٧]

---

(١) السبعة ص٣٣٠، والتيسير ص١٢٣، وقراءة يعقوب ـ من العشرة ـ في النشر ٢/ ٢٨٧.

(٢) ينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٥٢٣، وتفسير البغوي ٢/ ٣٧١.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٣ - ٣٠٤.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٤.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٧١.

(٦) ينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٤٦.

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٥٣.

وقد مضى في «الأنعام» اشتقاقُه[١]، والحمدُ لله.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: وقيل لي: لا تُشرك، والخِطاب له، والمرادُ غيره، وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ أي: لا تعبد. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إنْ عَبدْتَه. ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إنْ عَصَيْتَه. ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي: عبدتَ غيرَ الله. ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: الواضعين العبادةَ في غيرِ موضعها[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: يُصِبْكَ به ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾ أي: لا دافعَ ﴿لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي: يُصِبْكَ برخَاءٍ ونعمة ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بكل ما أراد من الخير والشرِّ. ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده وخَطَاياهم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بأوليائه في الآخرة[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: القرآنُ. وقيل: الرسولُ ﷺ. ﴿مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: صدَّق محمداً وآمنَ بما جاء به[٤]. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: لخلاص نفسه. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أي: تَرَكَ الرَّسولَ والقرآن، واتَّبع الأصنامَ والأوثان[٥]. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: وبالُ ذلك على نفسه. ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾

---

(١) سلف اشتقاق «حنيفاً» في سورة البقرة ٢/ ٤١٤ - ٤١٥، أما في «الأنعام» ٨/ ٤٤٢ فذكر المصنف رحمه الله معناه فقط.

(٢) تفسير البغوي ٢/ ٣٧١.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٥.

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٢/ ١١٤.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٣٠٦.

أي: بحفيظٍ أَحفظُ أعمالَكم؛ إنَّما أنا رسولٌ. قال ابن عباس: نسختها آيةُ السيف[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ قيل: نُسِخَ بآية القتال[٢]. وقيل: ليس منسوخاً[٣]، ومعناه: اِصْبِر على الطاعة وعن المعصية.

وقال ابن عباس: لمَّا نزلتْ؛ جمعَ النبيُّ ﷺ الأنصارَ، ولم يجمعْ معهم غيرَهم فقال: «إنَّكم ستجدون بعدي أَثَرَةً، فاصْبِروا حتى تَلْقَوني على الحوض». وعن أنس بمثل ذلك، ثم قال أنس: فلم يَصْبِروا[٤].

فأمرهم بالصبر كما أمره اللهُ تعالى. وفي ذلك يقول عبدُ الرحمن بن حسان[٥]:

ألا أبلِغْ معاويةَ بن حربٍ ... أميرَ المؤمنين نَثَا كلامي

بأنَّا صابرون ومُنظِروكم ... إلى يومِ التغابن والخِصامِ[٦]

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ابتداءٌ وخبر، لأنه عزَّ وجلَّ لا يحكم إلا بالحقِّ[٧].

تمت سورة يونس، والحمد لله وحده.

---

(١) تفسير البغوي ٢/ ٣٧٢، وزاد المسير ٤/ ٧١.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٧١، وقال: إنما نسخ منها الصبر عليهم.

(٣) ينظر زاد المسير ٤/ ٧١.

(٤) لم نقف عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرج حديث أنس ـ دون ذكر أنه ﷺ جمعهم لما نزلت الآية ـ أحمد (١٢٦٩٦)، والبخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩) وهو في قصة إعطاء النبي ﷺ رجالاً من قريش من أموال هوازن. وفي الباب عن عبد الله بن زيد ﷺ عند أحمد (١٦٤٧٠)، والبخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١).

(٥) ابن ثابت الأنصاري، المدني، الشاعر ابن الشاعر، وأمه سيرين خالة إبراهيم ابن النبي ﷺ، قيل: وُلد في حياة النبي ﷺ. توفي سنة (١٠٤هـ). السير ٥/ ٦٤.

(٦) الاستيعاب ١٠/ ١٤٧، وذكر ابن عبد البر قصة في هذين البيتين. وقوله: نثا: جاء في القاموس (نثو): نثا الحديث: حدّث به وأشاعه، والنثا: ما أخبرت به عن الرجل من حَسَن أو سيِّئ.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٧٠.

سورة يونس

مكيَّةٌ(1)، وهي مئةٌ وتِسعُ آياتٍ(2)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الٓر﴾ فخَّمَها ابنُ كَثيرٍ ونافِعٌ [برواية قالون] وحَفْصٌ، [وقرأ ورشٌ بين اللفظينِ(3)]، وأمالَها الباقونَ إجراءً لألفِ الرَّاءِ مُجرَى المُنقلبَةِ مِن اليَاءِ(4).

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ إشارةٌ إلى ما تَضمَّنته السُّورةُ أو القُرآنُ من الآيِ،

---

(١) وقد وقع فيها اختلاف كثير فصله ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٣١٤)، فقال:
روى عطيّة وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنها مكيّة، وبه قال الحسن وعكرمة.
وفي رواية عن ابن عباس: فيها ثلاث آيات من المدنيّ، أوّلها قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ إلى رأس ثلاث آيات، وبه قال قتادة. وروى أبو صالح عن ابن عباس أن فيها من المدني قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الآية.
وقال مقاتل: هي مكيّة غير آيتين، قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ والتي تليها.
وقال بعضهم: هي مكيّة إلّا آيتين، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ والتي تليها.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٦٣)، وفيه: «وهي مئة وعشر آيات في الشّامي وتسع في عدد الباقين، اختلافها ثلاث آيات...».

(٣) ما بين معقوفين زيادة من نسخة الطبلاوي، وقوله: «وقرأ رش بين اللفظين»؛ أي: وقرأ ورش ألِفَ (را) بين بين؛ أي: بين لفظ الألف وبين لفظ الياء بحيث لا يتلفظ بالألف من مخرجها بتمامها ولا الياء بتمامها، بل يتلفظ بين الألف والياء متساوي الطرفين. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٣٨٠).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

والمرادُ مِن الكتابِ أحدُهُما، ووَصفَهُ بالحكيمِ لاشتمالِهِ على الحِكَمِ، أو لأنَّهُ كلامٌ حَكيمٌ، أو مُحْكَمٌ آياتُه لم يُنْسَخْ شيءٌ مِنْهَا.

(٢) ـ ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ استفهامُ إنكارٍ للتَّعجُّبِ، و﴿عَجَبًا﴾ خبرُ ﴿كانَ﴾، واسمُه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾، وقُرِئَ بالرَّفعِ[١] على أنَّ الأمرَ بالعَكسِ[٢]، أو على أنَّ ﴿كانَ﴾ تامَّةٌ و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ بدلٌ مِن ﴿عَجَبًا﴾، واللَّامُ للدَّلالَةِ على أنَّهُم جعلوهُ أعجوبَةً لهم[٣] فيوجهونَ[٤] نحوَهُ إنكارَهُم واستهزاءَهُم.

﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾: مِن أفناءِ رجالِهِم[٥] دونَ عظيمٍ مِن عُظمائِهِم.

قيلَ: كانُوا يَقولونَ: العجبُ أنَّ اللهَ لم يجِد رسولًا يرسلُه إلى النَّاسِ إلَّا يتيمَ

---

(١) نسبت لابن مسعود. انظر: «الكشاف» (٤/ ٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٢)، و«البحر» (١٢/ ١٠).

(٢) قوله: «على أن الأمر بالعكس»؛ أي: أن يكون (عجبٌ) اسم كان وهو نكرةٌ، و﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ خبرًا، وهو معرفةٌ. وهو عكس المعروف في كلام العرب، فالأصل الإخبارُ عنِ المعرفةِ بالنَّكِرَةِ. وفي جوازه عكسه مقالٌ. ولعلَّ المصنِّفَ اختار كونه جائزًا مطلقًا أو في باب النواسخ مطلقًا أو إذا كانت مدخولة للنفي أو ما في حكمه كالاستفهام الإنكاري. انظر: «حاشية الخفاجي»، «حاشية القونوي» (٩/ ٣٨٢).

(٣) قوله: «واللام للدلالة...» إلى آخره أشارة إلى أن لام ﴿لِلنَّاسِ﴾ ليست متعلقة بـ﴿عَجَبًا﴾ على طريق المفعولية كما في قولهم: عجبت لزيدٍ من كذا، بل على طريق البيان بمعنى أن هذا التعجب لهم كما في قوله: (هيت لك) بمعنى: هذا الخطاب لك. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٤٧)، «حاشية التفتازاني» (٢٧٣/ أ).

(٤) في نسخة التفتازاني: «أعجوبة فوجهوا». وفي نسخة الخيالي: «أعجوبة لهم يوجهون».

(٥) قولُهُ: (إلى أَفناءِ رجالِهِم) هذهِ العبارَةُ وإنِ استُعملَتْ في خمولِ النسبِ فليسَ بمُرادٍ؛ لأنَّ نسبَهُ فيهِم وشرفَهُ نارٌ على علمٍ، بل المُرادُ أنَّهُ ممَّن لم يشتهرْ بالجاهِ والمالِ الَّذينَ اعتقدوا أنَّهُ سببُ العزِّ والإجلالِ لجهلِهِم وجاهليَّتِهِم. انظر: «حاشية الخفاجي».

أبي طالبٍ[1]. وهو مِن فَرطِ حَماقَتِهِم وقُصورِ نَظَرِهِم على الأُمورِ العاجِلَةِ، وجهلِهِم بحَقيقَةِ الوَحيِ والنُّبوَّةِ.

هذا وأنه عليه السَّلامُ لم يَكُن يَقصُرُ عَن عُظَمَائِهِم فيما يَعتبِرونه[2] إلَّا في المالِ، وخِفَّةُ الحالِ أعوَنُ شيءٍ في هذا البابِ، ولذلك كانَ أكثرُ الأنبياءِ قبلَه كذلك.

وقيلَ: تعجَّبُوا مِن أنَّه بعثَ بشرًا رسولًا كما سبقَ ذكرُه في سورةِ الأنعامِ.

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ ﴿أَنْ﴾ هي المفسِّرةُ[3]، أو المخفَّفَةُ مِن الثَّقيلَةِ فتكونُ في مَوضعِ مفعولِ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ عمَّمَ الإنذارَ إذ قلَّما مِن أَحَدٍ ليس فيه ما يَنبَغِي أن ينذرَ منه، وخصَّصَ البِشارةَ[4] إذ ليسَ للكُفَّارِ ما يَصِحُّ أن يبشَّرُوا به.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾: بأنَّ لَهُم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سابقةً ومنزلةً رفيعةً، سُمِّيَت قدمًا لأنَّ السَّبقَ بها؛ كمَا سُمِّيَت النِّعمَةُ يَدًا لأنَّها تُعطَى باليدِ، وإضافتُها إلى الصِّدقِ لتَحقُّقِهَا والتَّنبيهِ على أنَّهُم إنَّما يَنالونَها بصدقِ القولِ والنيَّةِ.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا﴾ يعنونَ الكِتابَ وما جاءَ بِهِ الرَّسولُ.

﴿لسِحْرٌ مُبين﴾ وقرأَ ابنُ كَثيرٍ والكوفيُّونَ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾[5] علـى أنَّ الإشارةَ إلى

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٥).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «فيما يعتبر».

(٣) قولُهُ: (أنْ هيَ المُفسِّرَةُ)؛ أي: لمفعولِ الإيحاءِ المُقدَّرِ، وشرطُها موجودٌ؛ وهوَ أن يتقدَّمَ عليها ما فيهِ معنى القولِ دونَ حروفِهِ كالإيحاءِ نحوُ: كتبتُ إليهِ أنْ قمْ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) قولـه: «عمـم الإنـذار»؛ أي: فـي النـاس حيث لـم يخصصهم بشـيء، «وخصـص البشـارة»؛ أي: بالمؤمنيـن. انظـر: «حاشـية الأنصـاري» (٣/ ١٤٧).

(٥) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٢)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

الرَّسولِ، وفيه اعترافٌ بأنَّهُم صادَفُوا مِن الرَّسولِ أُمورًا خارِقَةً للعَادَةِ مُعجِزَةً إيَّاهُم عَن المُعارضَةِ.

وقُرِئَ: «ما هذا إلَّا سِحرٌ مُبين»(١).

(٣) ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الَّتي هي أصولُ المُمكِنَاتِ ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: يُقدِّرُ أمرَ الكائناتِ على ما اقتضَتْهُ حِكمَتُه وسبقَتْ به كَلِمَتُه، ويُهيِّئُ بتَحريكِهِ أسبابَها وينزلُها مِنهُ.

والتَّدبيرُ: النَّظرُ في أدبارِ الأُمورِ لتَجِيءَ مَحمودَةَ العاقِبَةَ.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ تقريرٌ لعَظَمتِهِ وعزِّ جلالِه، وردٌّ على مَن زعمَ أن آلهتَهُم تَشفَعُ لهم عندَ اللهِ، وفيه إثباتُ الشَّفاعَةِ لِمَن أذِنَ له.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الموصوفُ بتلكَ الصِّفاتِ المُقتَضِيَةِ للأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ ﴿رَبُّكُمْ﴾ لا غير، إذ لا يُشارِكُه أحدٌ في شيءٍ مِن ذلك ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾: وحِّدُوهُ بالعبادةِ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: تتفكَّرُونَ أدنى تَفكُّرٍ فينبِّهَكُم على أنَّه المُستَحِقُّ للرُّبوبيَّةِ والعبادَةِ لا ما تعبدونَه.

(٤) ـ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالمَوتِ أو النُّشورِ لا إلى غيرِه فاستعدُّوا لِلقائِه.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مُؤكِّدٌ لنَفسِهِ لأنَّ قولَه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ وعدٌ مِن اللهِ.

﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ آخَرُ مُؤكِّدٌ لغيرِهِ وهو ما دلَّ عليهِ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾.

﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعدَ بدئِه وإهلاكِه ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ أي: بعدلِه، أو: بعَدالَتِهم وقيامِهم على العَدلِ في أمورِهم، أو: بإيمانِهم لأنَّه

---

(١) نسبت لأبيٍّ رضي الله عنه. انظر: «الكشاف» (٤/ ١٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٣)، و«البحر» (١٢/ ١٤).

العَدلُ القَويمُ كما أنَّ الشركَ ظُلمٌ عَظيمٌ، وهو الأوجَهُ لِمُقابلةِ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ فإنَّ معناه: ليَجزيَ الَّذينَ كفَرُوا بشرابٍ مِن حَميمٍ وعذابٍ أليمٍ بسببِ كُفرِهم، لكنَّه غَيَّرَ النَّظمَ للمُبالغَةِ في استحقاقِهم للعِقابِ، والتَّنبيهِ على أنَّ المقصودَ بالذَّاتِ مِن الإبداءِ والإعادةِ هو الإثابةُ، والعِقابُ واقعٌ بالعَرَضِ، وأنَّه تعالى يتولَّى إثابةَ المُؤمنينَ بما يليقُ بلُطفِهِ وكَرمِهِ ولذلك لم يعيِّنْهُ، وأمَّا عقابُ الكفرةِ فكأنَّه داءٌ ساقَه إليهم سوءُ اعتقادِهم وسوءُ أفعالِهم.

والآيةُ كالتَّعليلِ لقولِه: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا﴾ فإنَّه لَمَّا كانَ المقصودُ مِن الإبداءِ والإعادةِ مجازاةَ اللهِ المكلَّفينَ على أعمالِهم كانَ مرجعُ الجَميعِ إليه لا محالةَ.

ويؤيِّدُه قراءةُ مَن قرأَ: ﴿أَنَّه يَبۡدَأُ﴾ بالفتحِ[1]؛ أي: لأنَّه، ويجوزُ أَنْ يكونَ مَنصوبًا أو مَرفوعًا بما نَصبَ ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ أو بما نصبَ ﴿حَقًّا﴾.

(٥) - ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾؛ أي: ذاتَ ضياءٍ، وهو مصدرٌ كقِيامٍ، أو جمعُ ضَوءٍ كسِيَاطٍ وسَوْطٍ، والياءُ فيه مُنقَلِبَةٌ عَن الواوِ.

وعن ابنِ كَثيرٍ: ﴿ضِئاء﴾ بهمزتينِ في كلِّ القُرآنِ على القلبِ بتَقديمِ اللَّامِ على العينِ[2].

﴿وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾؛ أي: ذا نُورٍ، أو سُمِّيَ[3] نُورًا للمُبالغَةِ، وهو أَعَمُّ مِن الضَّوءِ كما عرفتَ[4].

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٢).

(٢) هي رواية قنبل عن ابن كثير، انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢٠).

قوله: «بتقدم اللام»: هي الهمزة «على العين»: وهي الواو، ثم قلبت الواو همزةً لتطرُّفِها بعد ألفٍ زائدةٍ ككساء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٠).

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «وسُمِّي نورًا»، وأشار إلى الفرق الخفاجي في «حاشيته» ورجَّح المثبت.

(٤) قوله: «وهو أعم من الضوء كما عرفت»؛ أي: في سورة البقرة عند قوله: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ من أنَّ =

وقيلَ: ما بالذاتِ ضَوءٌ وما بالعَرَضِ نورٌ، وقد نبَّهَ سُبحانَه بذلك على أنَّه خلقَ الشَّمسَ نَيِّرَةً في ذاتها والقمرَ نَيِّرًا بعَرَضٍ مقابلةِ الشَّمسِ والاكتسابِ[1] منها.

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ الضَّميرُ لكُلِّ واحدٍ؛ أي: قَدَّرَ مَسيرَ كلِّ واحدٍ مِنهُمَا منازلَ، أو قدَّرَه ذا مَنازِلَ، أو للقَمرِ[2]، وتخصيصُهُ بالذِّكرِ لسرعَةِ سيرِهِ، ومُعاينَةِ منازلِه، وإناطةِ أحكامِ الشَّرعِ به، ولذلك[3] علَّلَه بقولِه: ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾: وحسابَ الأوقاتِ من الأشهُرِ والأيامِ في مُعاملاتِكُم وتَصرُّفاتِكُم.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾: إلَّا مُلْتَبِسًا بالحقِّ، مُراعِيًا فيه مُقتضَى الحِكمَةِ البالغةِ.

﴿نُفصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يعلَمُونَ﴾ فإنَّهُم المُنتفِعونَ بالتَّأمُّلِ فيها.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ والبَصريَّانِ وحَفصٌ: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياءِ[4].

= الضياءَ أقوى من النور ولذا ينسب الضياء إلى الشمس والنور إلى القمر. انظر: (١/ ١٠٢) من هذا الكتاب، و«حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٠).

(١) في نسخة الطبلاوي: «والاكتساء».

(٢) قولـه: «أو للقمـر»؛ عطفٌ على «لـكل واحـدٍ» أي: أو الضمير للقمـر. انظر: «حاشـية الأنصاري» (٣/ ١٥٠)، «حاشـية القونوي» (٩/ ٣٩٥).

(٣) وقولُهُ: (ولذلكَ... إلخ)؛ أي: ولإناطة أحكام الشرع به كما هو الظاهر من سوق كلامه، أو لأجل أنه تعالى قدر مسير كل واحد منهما منازل، والحاصل أن ذلك إشارة إلى تقدير المسير؛ فإن معرفة عدد السنين وحساب الأوقات ليست مختصة بسير القمر كما عرفت غايته أن أكثر أحكام الشرع منوط بسيره، ولا يقتضي ذلك التخصيص. ويؤيده تفسير المصنف لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٣٩٦).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢١)، و«النشر» (٢/ ٢٨٢).

(٦) ـ ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ مِن أنواعِ الكائنَاتِ ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ على وُجودِ الصَّانعِ ووحدَتِهِ وكمالِ عِلْمِه وقُدرَتِه ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ العواقِبَ فإنَّه يحمِلُهُم على التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ.

(٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: لا يَتوقَّعُونَهُ؛ لإنكارِهِم البَعْثَ وذُهولِهِم بالمَحسوساتِ عمَّا وَراءَها.

﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مِن الآخرةِ لغَفلَتِهِم عَنْهَا ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾: وسَكَنُوا إليها مُقْصِرِينَ[1] هِمَمَهُم على لذائذِها وزَخارِفِها، أو سَكَنُوا فيها سكونَ مَن لا يُزعَجُ عنها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾: لا يَتفكَّرونَ فيها لانهمَاكِهِم فيما يضادُّها، والعَطفُ إما لتَغايُرِ الوَصفَيْنِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الوَعيدَ على الجمعِ بينَ الذُّهولِ عَن الآياتِ رأسًا، والانهماكِ في الشَّهواتِ بحيثُ لا تخطرُ الآخرَةُ ببالِهِم أصلًا.

وإمَّا لِتَغايُرِ الفَريقَيْنِ، والمرادُ بالأَوَّلِينَ مَن أنكَرَ البَعْثَ ولم يرَ إلَّا الحياةَ الدُّنْيَا، وبالآخِرينَ مَن ألهاهُ حبُّ العَاجِلِ عَن التَّأمُّلِ في الآجلِ والإعدادِ له.

(٨) ـ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾: بما واظَبُوا عليه وتمرَّنُوا به مِن المَعاصِي.

(٩) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾: بسببِ إيمانِهِم إلى سُلوكِ سَبيلٍ يؤدِّي إلى الجنَّةِ.

---

(١) «مُقْصِرِينَ» بضمِّ الميم وسكون القاف؛ من أقصَرَ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥١). وقال الخفاجي: كانَ حقُّهُ أن يقولَ قاصرينَ؛ لأنَّ أقصرَ معناهُ كفَّ معَ القدرَةِ لا بمعنى الاقتصارِ الَّذي عناهُ. انظر: «حاشية الخفاجي».

أو: لإدراكِ الحقائقِ[1]؛ كمَا قالَ عليه السَّلامُ: «مَن عَمِلَ بما عَلِمَ وَرَّثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعلَم»[2].

أو لِمَا يُريدُونَه في الجَنَّةِ[3]، ومَفهُومُ التَّرتيبِ[4] وإنْ دلَّ على أنَّ سببَ الهِدايَةِ هو الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالح، لكنْ دلَّ مَنطوقُ قَولِه: ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ على استقلالِ الإيمانِ بالسَّببيَّةِ، وأن العملَ الصالحَ كالتَّتمَّةِ والرَّديفِ له.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ استئنافٌ، أو خَبَرٌ ثانٍ، أو حالٌ مِن الضَّميرِ المَنصوبِ على المعنى الأخيرِ، وقولُه: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبرٌ، أو حالٌ آخرُ مِنهُ أو مِن ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، أو متعلِّقٌ بـ﴿تَجْرِى﴾ أو «يهدِي».

(١٠) ـ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: دعاؤُهم فيها: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾: اللهمَّ إنَّا نُسبِّحُكَ تَسبيحًا.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ ما يُحَيِّي به بعضُهُم بَعضًا، أو تحيةُ الملائِكَةِ إيَّاهُم ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾: وآخرُ دُعائِهِم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ أي: أن يقولُوا ذلك.

---

(١) قوله: «أو لإدراك الحقائق»؛ اللام فيه وفيما بعده بمعنى (إلى)؛ معطوفٌ على «إلى سلوك سبيل». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥١).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وقال: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل.

(٣) «أو لما يريدونه» عطفٌ على «لإدراك الحقائق». انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٠٠).

(٤) قوله: «ومفهوم الترتيب»؛ أي: ترتيب الهداية على الإيمان والعمل الصالح. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٢).

ولعلَّ المعنى: أنَّهم إذا دَخَلُوا الجنَّةَ وعايَنُوا عظمَةَ اللهِ وكِبرياءَهُ مَجَّدُوه ونَعتُوهُ بنعوتِ الجَلالِ، ثمَّ حيَّاهُم الملائِكَةُ بالسَّلامَةِ عَن الآفاتِ والفوزِ بأَصنافِ الكراماتِ، أو اللهُ تعالى، فحَمِدُوهُ وأَثْنَوا عليه بصِفَاتِ الإكرامِ.

و«أنْ» هي المُخففَةُ من الثَّقيلَةِ، وقد قُرِئَ بها وبنصبِ «الحمدَ»[(١)].

(١١) ـ ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾: ولو يسرِّعُهُ إليهم ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ وُضعَ موضِعَ: «تَعجيلَه لهم بالخيرِ»؛ إشعارًا بسرعَةِ إجابَتِه لَهُم في الخيرِ حتَّى كأنَّ استِعجالَهُم به تَعجيلٌ لَهُم، أو بأنَّ المرادَ[(٢)]: شرٌّ استَعجَلُوه؛ كقولِهِم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وتقديرُ الكَلامِ: ولو يعجِّلُ اللهُ للنَّاسِ الشرَّ تَعجيلَهُ للخيرِ حين استعجَلُوهُ استِعجالًا كاستِعجالِهِم بالخَيرِ، فحُذِفَ منه ما حُذِفَ لدَلالَةِ البَاقي عليه.

﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: لأُمِيتُوا وأُهلِكُوا.

وقرأ ابنُ عامرٍ ويعقوبُ: ﴿لقضى﴾ على البناءِ للفاعلِ[(٣)]، وهو اللهُ تَعالى. وقُرِئَ: «لقضَيْنَا»[(٤)].

---

(١) أي: (أنَّ الحمدَ لله) بالتشديد ونصبِ (الحمد). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن بلال بن أبي بردة الأشعري وابن محيصن، وزاد ابن جني في «المحتسب» (١/ ٣٠٨) نسبتها ليعقوب.

(٢) قوله: «أو بأن المراد» عطفٌ على «بسرعة إجابته لهم». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٢).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٤) أي: (لقضَيْنا إليهم أجلَهم)، نسبت لابن مسعود رضي الله عنه. انظر: «الكشاف» (٤/ ٢٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٠٨)، و«البحر» (١٢/ ٢٩). ووقع في مطبوع «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١): (لقفينا) ولعله تحريف.

﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ عطفٌ على فعلٍ محذوفٍ دلَّت عليهِ الشَّرطيَّةُ[١]؛ كأنَّه قيلَ: ولكِن لا نُعجِّلُ ولا نَقضِي فنَذَرُهُم إمهالًا لهم واستِدْراجًا.

(١٢) - ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ لإزالَتِه مُخلِصًا فيه.

﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾: مُلقِيًا لجنبِه؛ أي: مُضطَجِعًا ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ وفائدَةُ التَّرديدِ: تعميمُ الدُّعاءِ لجَميعِ الأحوالِ أو لأصنافِ المضارِّ.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ﴾: مَضى على طَريقَتِه واستمرَّ على كُفرِه، أو: مرَّ عَن موقفِ الدُّعاءِ لا يرجعُ إليه.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾: كأنَّه لم يدعُنا، فخُفِّفَ وحُذفَ ضميرُ الشَّأنِ كما قال[٢]:

وَنَحْـرٍ مُشْـرِقِ اللَّـون ... كَـأَنْ ثَـدْيَاهُ حُقَّـانِ

﴿إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾: إلى كشفِ ضرٍّ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التَّزيينِ ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مِن الانهماكِ في الشَّهواتِ والإعراضِ عَن العباداتِ.

---

(١) قوله: «عطف على محذوف دلت عليه الشرطية»؛ يريد أنه لا يصح العطف على شرط (لو) ولا على جوابها؛ لانتفائها، لأن (لو) يجعل المثبت منفيًّا، وهذا مقصودٌ إثباته، ولو عطف عليه لكان منفيًّا أيضًا، وهو خلاف المقصود، وفي هذا المقام وجوهٌ لكن ما اختاره المصنِّف هو المعول عليه. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٠٧).

(٢) لا يعرف قائله، وهو في «كتاب سيبويه» (١/ ٢٨١)، و«معاني القرآن» للأخفش (١/ ٣٧٠)، و«الصحاح» (مادة: أنن)، و«أمالي ابن الشجري» (١/ ٢٣٧)، برواية:

ووجـه مشـرق النحـر

وله روايات أخرى أوردها البغداديُّ في «خزانة الأدب» (١٠/ ٣٩٨)، والشاهد فيه بطلان عمل (كأن) إذا خففت.

(١٣) ـ ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ يـا أهـلَ مـكّـةَ ﴿لَمَّا ظَلَمُوا ﴾: حين ظَلَمُوا بالتَّكذيبِ واستعمالِ القُوَى والجوارحِ لا على ما يَنبَغِي.

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾: بالحُجَجِ الدَّالَّةِ عـلى صِدْقِهِم، وهو حالٌ مِن الواوِ بإضمارِ «قد» أو عطفٌ على ﴿ظَلَمُوا ﴾.

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾: وما استقامَ لَهُم أن يُؤمِنُوا؛ لفسادِ استِعدادِهِم، وخذلانِ اللهِ لهم، وعلمِهِ بأنَّهُم يموتونَ على كفرِهِم، واللَّامُ لتأكيدِ النَّفيِ.

﴿كَذَٰلِكَ ﴾ مثـلَ ذلـك الجـزاءِ، وهـو إهلاكُهُـم بسـببِ تكذيبِهِـم للرُّسُـلِ وإصرارِهِـم عليـه بحيـثُ تحقَّـقَ أنَّه لا فائـدةَ فـي إمهالِهِـم ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: نَجـزِي كلَّ مُجـرمٍ، أو: نجزيكُم، فوضـعَ المُظهَرَ مَوضِعَ الضَّميـرِ للدلالةِ على كمالِ جرمِهِـم وأنَّهـم أعـلامٌ فيه.

(١٤) ـ ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾: استَخْلَفناكُم فيـهـا بعدَ القُرونِ الَّتي أهلَكْنَاها استخلافَ مَن يَخْتَبِرُ.

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ أَتعملونَ خَيْرًا أو شَرًّا فنعامِلَكُم على مُقتَضَى أَعمالِكُم، و﴿كَيْفَ﴾ معمولُ ﴿تَعْمَلُونَ ﴾[1]؛ فإنَّ مَعنى الاستفهامِ يحجبُ أن يعملَ فيه ما قبلَهُ، وفائدَتُه: الدَّلالَةُ على أنَّ المعتبرَ في الجزاءِ جهاتُ الأفعالِ وكيفيَّاتُها لا هيَ مِن حيثُ ذاتُها، ولذلك يَحسُنُ الفعلُ تارةً ويقبُحُ أُخرى.

(١) قوله: «و﴿كَيْفَ﴾ معمول ﴿تَعْمَلُونَ ﴾»؛ أي: لا معمول (ننظر)؛ لأن لـ﴿كَيْفَ﴾ صدر الكلام، فلا يتقدمه عامله، وظاهر كلامه ان ﴿كَيْفَ﴾ مفعول ﴿تَعْمَلُونَ ﴾ كما يفصح عنه قوله: «أتعملون خيرًا أم شرًّا»، وجمهور النحاة على أنه حال من ضمير ﴿تَعْمَلُونَ ﴾، و(ننظر) بمعنى (نعلم)؛ أي: لنعلم جوابَ ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٥٤).

(١٥) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ يعني: المشركينَ: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾: بكتابٍ آخرَ نقرؤُهُ ليسَ فيه ما نَستبعِدُه مِن البَعثِ والثَّوابِ والعِقابِ بعدَ الموتِ، أو ما نكرهُهُ مِن معايبِ آلِهَتِنا.

﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأنْ تجعلَ مكانَ الآيةِ المُشتَمِلَةِ على ذلك آيةً أُخرَى، ولعلَّهُم سَأَلُوا ذلك كي يُسعِفَهُم إليه فيُلْزِموه.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ﴾: ما يصحُّ لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ﴾: مِن قِبَلِ نَفْسِي، وهو مصدَرٌ استُعمِلَ ظرفًا، وإنَّما اكتُفِيَ بالجوابِ عن التَّبديلِ لاستلزامِ امتناعِهِ امتناعَ الإتيانِ بقرآنٍ آخرَ[١].

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ تعليلٌ لـ﴿مَا يَكُونُ﴾، فإنَّ المتَّبعَ لغيرِهِ في أمرٍ لم يَستَبِدَّ بالتَّصرُّفِ فيه بوجهٍ، وجوابٌ للنَّقضِ بنَسْخِ بعضِ الآياتِ ببعضٍ[٢]، وردٌّ لِمَا عَرَّضُوا له بهذا السُّؤالِ مِن أنَّ القُرآنَ كلامُهُ واختِراعُهُ، ولذلك قيَّدَ التَّبديلَ في الجوابِ وسَمَّاهُ عِصيانًا فقالَ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾؛ أي: بالتَّبديلِ ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وفيه إيماءٌ بأنَّهُم استَوْجَبُوا العذابَ بهذا الاقتراحِ.

(١٦) ـ ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ غيرَ ذلك ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾: ولا أعلَمَكُم بهِ على لِساني.

وعن ابنِ كَثيرٍ: ﴿ولأَدْرَاكُم﴾ بلامِ التَّأكيدِ[٣]؛ أي: لَوْ شاءَ اللهُ ما تَلَوْتُه عليكم

---

(١) في نسخة الطبلاوي: «بقرآن غير هذا».

(٢) قوله: «وجوابٌ للنَّقضِ بنسخِ بعضِ الآياتِ ببعضٍ» أي: جواب لنقض الكفرة بنسخ بعض الآيات ببعض بأن قالوا: كيف تدعي أنك لا تقدر على التبديل من تلقاء نفسك وقد وقع التبديل منك بالنسخ لبعض الآيات؟ فقولك منقوض بهذا. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤١٣ ـ ٤١٤).

(٣) هي قراءة قنبل ورواية أبي ربيعة ـ وهو محمد بن إسحاق بن وهب الربعي المكي أنبل أصحاب =

ولأعلمَكُم به على لسانِ غَيرِي، والمعنى: أنَّه الحَقُّ الَّذي لا محيصَ عنه لو لم أُرسَلْ به لأُرسِلَ به غيري.

وقُرِئَ: «ولا أَدْرَأكُم»، «ولا أَدْرَأْتُكُم» بالهمزِ فيهما[١] على لغَةِ مَن يقلِبُ الألِفَ المُبدلَةَ مِن الياءِ همزةً، أو على أنَّه مِن الدَّرْءِ بمَعْنَى الدَّفعِ؛ أي: ولا جعَلْتُكُم بتِلاوَتِه خُصَماءَ تَدْرَؤونَنِي بالجِدالِ، والمعنى: أنَّ الأمرَ بمَشيئَةِ اللهِ لا بمَشيئَتِي حتَّى أجعلَهُ على نحوِ ما تَشتَهونَهُ، ثمَّ قرَّرَ ذلكَ بقولِه:

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾: مقدارَ أربعينَ سَنَةً ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾: من قبلِ القُرآنِ لا أتلوهُ ولا أعلمُهُ، فإنَّه إشارةٌ إلى أنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ خارِقٌ للعَادةِ، فإنَّ مَن عاشَ بينَ أَظهُرِهِم أربعينَ سنَةً لم يُمَارِس فيهَا عِلْمًا ولم يُشاهِدْ عالِمًا، ولم يُنشِئْ قَرِيضًا ولا خطبَةً، ثمَّ قرأَ عليهِمْ كِتابًا بذَّتْ[٢] فَصاحَتُهُ فصاحَةَ كلِّ مِنْطِيقٍ، وعَلَا كلَّ مَنثورٍ ومَنظومٍ، واحتوَى على قواعدِ عِلْمَي الأُصولِ والفُروعِ، وأعرَبَ عَن أقاصيصِ الأوَّلينَ وأحاديثِ الآخِرينَ على ما هيَ عليه= عُلِمَ أنَّه مُعلَّمٌ[٣] بهِ مِن اللهِ.

= البزي في وقته ـ عن البزي عن ابن كثير، انظر: «التيسير» (ص: ١٢١)، و«معرفة القراء الكبار» للذهبي (١/ ٤٥٤).

(١) الأولى ذكرها العكبري في «إملاء ما من به الرحمن» (ص: ٦٦٩)، والثانية نسبت لابن عباس وابن سيرين والحسن وغيرهم. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٥٩)، و«تفسير الطبري» (١٢/ ١٣٨ ـ ١٣٩)، و«إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ١٤٣)، و«الهداية» لمكي بن أبي طالب (٥/ ٣٢٣٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١)، و«المحتسب» (١/ ٣٠٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١١٠)، و«الكشاف» (٤/ ٢٤)، و«البحر» (١٢/ ٣٨).

(٢) «بذَّت»؛ بذال معجمة مشددة، أي: غلبت. والقريض: الشِّعرُ. والمِنطيق؛ بالكسر: البليغ.

(٣) قوله: «عُلِمَ» خبرٌ لإنَّ في قوله: «فإن من عاش»، انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤١٨)، وقوله: «معلم به»؛ من التعليم أو الإعلام. انظر: «حاشية الخفاجي».

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾؛ أي: أفلا تَستعمِلُونَ عُقولَكُم بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ فيه لتعلَمُوا أنَّه ليسَ إلَّا مِن اللهِ.

(١٧) ـ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ تفادٍ ممَّا أَضافُوه إليه كنايةً، أو تَظليمٌ للمُشركينَ بافترائِهم على اللهِ في قولِهم: إنَّه لذُو شريكٍ وذُو ولدٍ.

﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ فكفرَ بها ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾.

(١٨) ـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ لأنَّه جمادٌ لا يقدرُ على نفعٍ ولا ضرٍّ، والمعبودُ يَنبَغِي أن يكونَ مُثيبًا ومُعاقبًا حتَّى تعودَ عِبادَتُه بجلبِ نَفعٍ أو دفعِ ضرٍّ.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الأوثانُ ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾: تشفَعُ لَنا فيما يُهِمُّنا مِن أُمورِ الدُّنيَا، أو في الآخرةِ إن يَكُن بعثٌ، وكأنَّهُم كانُوا شاكِّينَ فيه، وهذا من فرطِ جَهالتِهم حيثُ تركوا عبادةَ المُوجِدِ الضارِّ النَّافعِ إلى عبادةِ ما يُعلَمُ قطعًا أنَّه لا يَضرُّ ولا يَنفعُ على توهُّمِ أنَّه ربَّما يشفَعُ لهم عندَهُ.

﴿قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾: أتخبِّرونَه ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ﴾ وهو أنَّ له شَريكًا، وفيه تقريعٌ وتهكُّمٌ بهم؛ أو: هؤلاءِ شُفعاؤنا عندَهُ[1]، وما لا يعلَمُه العالِمُ بجميعِ المعلوماتِ لا يكونُ له تَحقُّقٌ ما.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حالٌ مِن العائدِ المحذوفِ[2] مؤكِّدةٌ للنَّفي مُنبِّهةٌ

---

(١) قوله: «أو هؤلاء شفعاؤنا عنده» بدل من قوله: «إن له شريكًا». وعبارة «الكشاف» (٤/ ٢٦): أتخبرونه بكونهم شفعاءَ عنده. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٢١).

(٢) قوله: «حال من العائد المحذوف»: هو مفعولُ ﴿يَعۡلَمُ﴾؛ أي: بما لا يعلمُه. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٢٢).

على أنَّ ما يعبدونَ من دونِ اللهِ إمَّا سَماويٌّ وإمَّا أَرضيٌّ، ولا شيءَ مِن الموجوداتِ فيهِمَا إلَّا وهو حادثٌ مَقهورٌ مثلُهُم لا يليقُ أن يُشرَكَ به.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكِهِم، أو عَن الشُّركاءِ الَّذينَ يُشرِكُونَهُم به.

(١٩) ـ ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مَوجودينَ على الفطرةِ، أو مُتفقينَ على الحقِّ، وذلك في عهدِ آدمَ عليه السَّلامُ إلى أن قتلَ قابيلُ هابيلَ، أو بعدَ الطُّوفانَ، أو على الضَّلالِ[1] في فترةٍ مِن الرُّسُلِ.

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ باتباعِ الهَوى والأباطيلِ، أو ببعثةِ الرُّسُلِ[2]، فتبعَتهُم طائفةٌ وأصرَّت أخرى.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخيرِ الحكمِ بينَهُم أو العذابِ الفاصلِ بينَهُم إلى يومِ القيامةِ فإنَّه يومُ الفَصْلِ والجزاءِ ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجِلًا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاكِ المبطلِ وإبقاءِ المحقِّ.

(٢٠) ـ ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ أي: مِن الآياتِ الَّتي اقترَحُوها.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ هو المُختصُّ بعلمِهِ فلعلَّهُ يعلَمُ في إنزالِ الآياتِ المُقترحَةِ مِن مَفاسدَ تَصْرِفُ عَنْ إنزالِها.

﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ لنزولِ ما اقترَحْتُموهُ ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لِمَا يفعَلُ اللهُ بِكُم بجُحُودِكُم ما نزلَ عليه[3] من الآياتِ العِظَامِ واقتراحِكُم غيرَه.

---

(١) قوله: «أو على الضلال» معطوفٌ على «الحق». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قولُهُ: «باتِّباعِ الهوى والأباطيلِ... إلخ» ناظرٌ إلى كونِ الاتِّفاقِ في الحقِّ. وقولُهُ: «أو ببعثَةِ الرُّسلِ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ» ناظرٌ إلى كونِهِ في الضَّلالِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) في نسخة الطبلاوي: «ما نزلَ عليَّ».

(٢١) ـ ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾: صِحَّةً وسَعَةً ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ كقَحطٍ ومَرضٍ ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ بالطَّعنِ فيها والاحتيالِ في دَفعِها.

قيلَ: قُحِطَ أهلُ مكَّةَ سبعَ سنينَ حتَّى كادُوا يَهْلِكون، ثمَّ رَحِمَهُم اللهُ بالحَيا[1] فطَفِقُوا يقدَحُونَ في آياتِ اللهِ ويَكيدونَ رسولَهُ[2].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ مِنكُم، قد دبَّرَ عِقابَكُم قبلَ أَنْ تُدبِّرُوا كيدَكُم، وإنَّما دلَّ على سُرعَتِهِم المفضَّلِ عليها كلمةُ المُفاجأةِ الواقعَةُ جوابًا لـ«إذا» الشَّرطيَّةِ.

والمكرُ: إخفاءُ الكَيدِ، وهوَ مِن اللهِ إمَّا الاستدراجُ أو الجزاءُ على المكرِ.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ تحقيقٌ للانتقامِ، وتَنبيهٌ على أنَّ ما دبَّرُوا في إخفائِهِ لم يخفَ على الحفظَةِ فضلًا أَنْ يَخْفَى على اللهِ.

وعَن يَعقوب: ﴿يمكرون﴾ بالياءِ[3]؛ ليُوافِقَ ما قبلَه.

(٢٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾: يحمِلُكُم على السَّيرِ ويُمكِّنُكُم منه، وقرأَ ابن عامرٍ: ﴿يَنْشُرُكُمْ﴾ بالنون والشين[4] من النَّشْرِ.

﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: في السُّفنِ ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم﴾: بمَنْ فيهَا؛ عَدَلَ عن الخطابِ إلى الغَيْبَةِ للمُبالغَةِ؛ كأنَّه تذكِرَةٌ لغَيرِهم ليتعجَّبَ من حالَهُم ويُنكِرَ عليهِم.

---

(١) الحَيَا؛ بالقصر والمدِّ: المطر، والمراد به: الخصب. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) روى نحوه البخاري (٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٨)، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٢).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾: ليِّنَـةِ الهُبـوبِ ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾: بتلـكِ الرِّيـحِ ﴿جَآءَتۡهَا﴾ جـوابُ ﴿إِذَا﴾، والضَّميـرُ للفلـكِ أو الرِّيـحِ الطَّيِّبَةِ بمَعنـى: تَلَقَّتْهـا ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾: ذاتُ عَصـفٍ شَـديدَةُ الهُبوبِ.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ يمكِنُ مجيءُ الموجُ مِنْه.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾: أُهْلِكُوا وسُدَّت عليهِم مَسالِكُ الخَلاصِ كمَنْ أحاطَ بهِ العَدُوُّ.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِن غيرِ إشراكٍ؛ لتراجُعِ الفطرةِ[1] وزَوالِ المُعارِضِ مِن شدَّةِ الخوفِ، وهو بدلٌ مِن «ظنُّوا» بدلَ اشتمالٍ لأنَّ دعاءَهُم مِن لَوازِمِ ظنِّهِم.

﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ عَلـى إرادةِ القـولِ، أو مفعـولُ ﴿دَعَوُاْ﴾ لأنَّه مِن جملةِ القَولِ.

(٢٣) ـ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ إجـابـةً لدُعـائِهِم ﴿إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: فاجؤوا الفسادَ فيها وسارَعُوا إلى ما كانُوا عليه ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾: مُبطِلِينَ فيه، وهو احترازٌ عن تَخريبِ المُسلمينَ ديارَ الكَفَرةِ وإحراقِ زُروعِهِم وقلعِ أَشجارِهِم فإنَّها إفسادٌ بحقٍّ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ فإنَّ وَبالَهُ عليكُم، أو أنَّه على أمثالِكُم وأبناءِ جنسِكُم.

﴿مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مَنفعَةُ الحياةِ الدُّنيا لا تَبْقَى ويَبْقَى عقابُها، ورَفعُه على أنَّه خبرُ ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾ و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ صلتُه، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ تقديرُه: ذلك متاعُ الحياةِ الدُّنيا و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبرُ ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾.

---

(١) أي: لرجوعهم إلى الفطرة. انظر: «حاشية الخفاجي».

ونَصَبَهُ حفصٌ (١) على أنَّه مَصدرٌ مؤكِّدٌ؛ أي: تتمتَّعونَ متاعَ الحياةِ الدُّنيا، أو مَفعولُ البَغيِ لأنَّه بمَعنَى الطلبِ، فيكونُ الجارُّ مِن صِلَتِه والخبرُ محذوفًا، تقديرُهُ: بَغْيُكُم متاعَ الحَياةِ الدُّنيا مَحذورٌ أو ضلالٌ، أو مَفعولُ فعلٍ دلَّ عليه البَغيُ و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبرُ ﴿بَغْيُكُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ في القيامَةِ ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاءِ عليهِ.

(٢٤) ـ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: حالُها العَجيبَةُ في سرعةِ تَقضِّيها وذهابِ نَعيمِهَا بعدَ إقبالِها واغترارِ النَّاسِ بها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾: فاشتبَكَ بسببِهِ حتَّى خالطَ بعضُهُ بَعْضًا ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾: مِن الزُّروعِ والبُقولِ والحَشيشِ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾: حُسْنَها وبهجتَها ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾: وتَزيَّنَتْ بأصنافِ النَّباتِ وأشكالِها وألوانِها المُختلِفَةِ كعَروسٍ أَخذَتْ مِن ألوانِ الثِّيابِ والزِّينِ فتزيَّنَتْ بها.

و﴿ٱزَّيَّنَتْ﴾ أصلُهُ: تزيَّنَت، فأُدغِمَ، وقَدْ قُرِئَ على الأصلِ (٢).

و: «أَزْيَنَتْ» على أَفْعَلَتْ (٣) مِن غيرِ إعلالٍ كـ: أَغْيَلَتْ (٤)، والمعنى: صارَتْ ذاتَ زينةٍ.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

(٢) نسبت لابن مسعود وأبي بن كعب، وزيد بن علي والأعمش. انظر: «الكشاف» (٤/ ٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١١٤)، و«البحر» (١٢/ ٦٠).

(٣) نسبت لمالك بن دينار الأعرج ونصر بن عاصم وأبي العالية والحسن بخلاف وقتادة وأبي رجاء بخلاف والشعبي وعيسى الثقفي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١)، و«المحتسب» (٢/ ٣١١)، و«الكامل» للهُذَلي (ص: ٣٨٧).

(٤) أي: سقت ولدها الغيل، وهو اللبن ترضعه ولدها وهي حامل. انظر: «القاموس» (مادة: غيل).

و: «ازْيَانَّتْ» كـ: ابْيَاضَّتْ[١].

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾: مُتمكِّنونَ مِن حَصدِها ورفعِ غلَّتِها.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾: ضَرَبَ زَرْعَها ما يجتاحُه ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا﴾: فجعلنا زرعَهَا، ﴿حَصِيدًا﴾: شبيهًا بما حُصدَ مِن أصلِه ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾: كأن لم يَغْنَ زرعُها؛ أي: لم يَلْبَثْ[٢]، والمضافُ مَحذوفٌ في المَوضِعَينِ للمُبالغَةِ[٣].

وقُرِئَ بالياءِ على الأصلِ[٤].

﴿بِٱلْأَمْسِ﴾: فيما قُبيلَه[٥]، وهو مثلٌ في الوَقتِ القَريبِ، والمُمثَّلُ به مَضمونُ الحِكايَةِ وهو زوالُ خضرةِ النَّباتِ فجأةً وذهابُه حطامًا بعدما كانَ غضًّا، والتفَّ وزيَّنَ الأرضَ حتَّى طمعَ فيه أهلُهُ، وظَنُّوا أنَّه قد سلمَ مِن الجوائحِ، لا الماءُ[٦] وإنْ وَلِيَه حَرفُ التَّشبيهِ لأنَّه مِن التَّشبيهِ المُركَّبِ[٧].

---

(١) نسبت لأبي عثمان النَّهْدي، وعوف بن أبي جميلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١)، و«المحتسب» (١/ ٣١١ـ ٣١٢)، «المحرر الوجيز» (٣/ ١١٤).

(٢) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «ينبت»، والمثبت من نسخة التفتازاني؛ وقد أشار إلى النسختين الخفاجي في «الحاشية» والقونوي في «الحاشية» (٩/ ٤٣٤). ورجَّحا المثبتَ.

(٣) قوله: «والمضاف»؛ أي: وهو الزرعُ «محذوف في الموضعين»؛ أي: في ﴿فَجَعَلْنَـٰهَا﴾، وفي ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦١).

(٤) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١١٥)، و«البحر» (١٢/ ٦٢). وقوله: «على الأصل»؛ أي: بإرجاع الضمير مذكرًا إلى الزرع المضاف المحذوف، فحينئذ تفوت المبالغة المذكورة، ولذا رجح المصنف القراءة بالتاء. انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٤٣٥).

(٥) قوله: «فيما قبيله»؛ أي: قُبَيلَ أمرِنا، لا: قُبَيلَ الأمسِ، على ما يوهمُه كلامُه، كأنه قيل: كأنْ لم تغنَ آنفًا. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦١).

(٦) قوله: «لا الماءُ» عطف على «مضمونُ الحكاية». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦١).

(٧) قوله: «وإن وليه»؛ أي: الماءَ «حرف التشبيه»؛ أي: في قوله ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ﴾ «فإنه»؛ أي: التشبيهَ =

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّهُم المنتفِعونَ بهِ.

(٢٥) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾: دارِ السَّلامةِ مِن التَّقضِّي[1] والآفَةِ، أو: دارِ اللهِ، وتَخصيصُ هذا الاسمِ أيضًا للتَّنبيهِ على ذلك، أو: دارٍ يسلِّمُ اللهُ والمَلائكَةُ فيها على مَن يدخلُهَا، والمرادُ: الجنَّةُ ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ بالتَّوفيقِ ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو طريقُهَا، وذلك: الإسلامُ والتَّدرُّعُ بلباسِ التَّقوَى.

وفي تَعميمِ الدَّعوَةِ وتخصيصِ الهِدايَةِ بالمَشيئَةِ دليلٌ على أنَّ الأمرَ غيرُ الإرادةِ، وأنَّ المصرَّ على الضَّلالِ لم يُرِدِ اللهُ رُشدَهُ.

(٢٦) ـ ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: المثوبةُ الحُسْنَى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: وما يزيدُ على المثوبةِ تَفضُّلًا؛ كقولِه: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨].

وقيلَ: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مثلُ حسناتِهم والزِّيادةُ عَشرُ أَمثالِها إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ أو أكثَرَ.

وقيلَ: الزِّيادَةُ: مغفرةٌ مِن اللهِ ورضوانٌ.

وقيلَ: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الجنَّةُ، والزِّيادَةُ: اللقاءُ[2].

= المذكورَ «من التشبيه المركب» حيثُ شبَّهَ حالَ الدُّنيا في سرعة تقضِّيها وانقراضِ نعيمِها بعدَ الإقبالِ بحالِ نباتِ الأرضِ في جفافِه وذهابِه حُطامًا بعدما التفَّ وتكاثفَ وزيَّنَ الأرضَ بخُضرتِه واختلاطِه بالماء. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦١).

(١) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «النقص». وقوله: «مِنَ التَّقضِّي»؛ أي: الانقضاءِ والزَّوالِ لخلودِهم فيها. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) قال السيوطي: ما أنصفَ المُصنِّفُ حيثُ جعلَ هذا القولَ آخرَ الأقوالِ وأَضْعفَها، ورجَّحَ عليهِ غيرَهُ، وهو الثَّابتُ عَن رسولِ اللهِ ﷺ نصًّا في تفسيرِ هذه الآيةِ، فيما أخرجَهُ مُسلمٌ في «صحيحه»، عن أصحابِه أبي بكرٍ الصِّديقِ وحذيفةَ وأبي مُوسى وعبادةَ بنِ الصَّامتِ وغيرِهم، والأحاديثُ والآثارُ بهذا التَّفسيرِ كثيرَةٌ أورَدْتُها في «تَفسيري المأثورِ» [«الدر المنثور» (٤/ ٣٥٦ ـ ٣٥٩)]. ولعلَّ =

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾: لا يَغشاهَا ﴿قَتَرٌ﴾: غُبْـرةٌ فيهـا سَـوادٌ ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾: هَوانٌ، والمعنـى: لا يرهقُهُـم ما يَرْهَـقُ أهـلَ النَّـارِ، أو: لا يَرهَقُهُم ما يوجبُ ذلـك مِن حزنٍ وسُـوءِ حالٍ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: دائمونَ لا زوالَ فيهَا ولا انقراضَ لنَعيمِهَا، بخلافِ الدُّنيا وزَخارِفِهَا.

(٢٧) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ عَطفٌ على قولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ على مَذهَبِ مَن يُجوِّزُ: «في الدَّارِ زَيدٌ والحجرةِ عمرٌو»[1].

أو «الذينَ» مُبتدأٌ والخبرُ: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ﴾ على تَقديرِ: وجزاءُ الَّذينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جزاءُ سَيِّئَةٍ بمثلِها؛ أي: أَنْ تُجازَى سيئةٌ بسَيِّئَةٍ مِثلِها لا يزادُ عليها، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الزِّيادةَ هي الفضلُ أو التَّضعيفُ[2].

= المُصنِّفَ سَها عندَ كتابةِ هذا المَوضعِ، ومَشى عليه قَوْلُ الزَّمخشريِّ [«الكشاف» (٤/ ٣٨)]: «وزعمَت المُشبِّهَةُ والمُتحيِّزَةُ أنَّ الزِّيادةَ النَّظرُ إلى وجهِ اللهِ، وجاؤوا بحديثٍ مَرقوعٍ». وذكر أصحاب الحواشي نحو ذلك في اعتراضهم على المصنِّفِ.

ولفظ الحديث الذي رواه مسلم (١٨١) عن صهيب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»، وفي رواية: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾.

(١) يعني: الَّذينَ معطوفٌ على الَّذينَ المجرورِ الَّذي هوَ معَ جارِّهِ خبرٌ، (وجزاءُ سيئَةٍ) معطوفٌ على الحُسنى الَّذي هوَ مبتدأٌ، وفيها مسألة العطف على معمولي عاملين. وفي جوازه خلافٌ وتفصيلٌ في كتب النحو. انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٦٠٤ ـ ٦٠٦)، و«حاشية الخفاجي».

(٢) قولُهُ: (وفيهِ تنبيهٌ على أنَّ الزِّيادَةَ هيَ الفضلُ أوِ التَّضعيفُ) تبعَ فيهِ الزَّمخشريَّ، وهو مُخالفٌ للمأثورِ في تفسيرِها، والمُرادُ بالفضلِ أن يفضلَ على العملِ، ويزيدَ عليهِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

أو: ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾ أو ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ؛ فـ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ﴾ مُبتدأٌ خبرُه مَحذوفٌ؛ أي: فجزاءُ سَيِّئَةٍ بمثلِها واقعٌ، أو: ﴿بِمِثۡلِهَا﴾ على زيادةِ الباءِ، أو تقديرِ: مُقدَّرٍ بمثلِها.

﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ وقُرِئَ بالياءِ[١].

﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾: ما مِن أحدٍ يعصمُهم من سَخَطِ الله، أو: من جهةِ اللهِ، أو: من عندِه؛ كما يكونُ للمؤمنينَ.

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ لفَرطِ سَوادِهَا وظُلمَتِها، و﴿مُظۡلِمًا﴾ حالٌ من ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ والعامِلُ فيه: ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾ لأنَّه العامِلُ في ﴿قِطَعٗا﴾ وهو مَوصوفٌ بالجارِّ والمَجرورِ، والعامِلُ في الموصوفِ عامِلٌ في الصِّفَةِ، أو: مَعنى الفعلِ في ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾[٢].

وقرأ ابنُ كَثيرٍ والكِسائيُّ ويَعقوبُ: ﴿قِطْعا﴾ بالسُّكونِ[٣]، فعلى هذا يَصِحُّ أَنْ يكونَ ﴿مُظۡلِمًا﴾ صفةً لَهُ أو حَالًا منه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ممَّا يَحتجُّ به الوعيديَّةُ[٤]، والجوابُ: أنَّ الآيةَ في الكُفَّارِ؛ لاشتِمالِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ على الشِّركِ والكُفرِ، ولأنَّ ﴿الذينَ أحسَنُوا﴾ يَتناوَلُ أَصحابَ الكَبيرةِ مِن أهلِ القِبلَةِ فلا يَتناوَلُهم قَسيمُهُ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن بعضهم.

(٢) قولـه: «أو معنى الفعل من الليل»؛ عطفٌ على ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾؛ يعني متعلقه المقدَّر. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١)، و«النشر» (٢/ ٢٨٣).

(٤) الوَعيديَّة: القائلون بوجوب إثابة الطائع وتعذيب العاصي. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٦٤).

(٢٨) ـ ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ يعني: الفَريقينِ جميعًا ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ﴾ الزَمُوا مَكانَكُم حتَّى تَنظُرُوا ما يُفعَلُ بكُمْ.

﴿أَنتُمْ﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ المُنتقِلِ إليه مِن عامِلِه ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ عليهِ، وقُرِئَ بالنَّصبِ على المفعولِ معه(١).

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾: ففرَّقْنا بينَهُم وقطَّعْنا الوُصَلَ(٢) الَّتي كانَتْ بينَهُم.

﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ مجازٌ عَن براءةِ ما عَبَدُوهُ مِن عِبادَتِهِم، وأنَّهُم إنَّما عَبدُوا في الحقيقةِ أهواءَهُم ـ لأنَّها الآمِرَةُ بالإشراكِ ـ لا ما أشرَكُوا به.

وقيلَ: يُنطِقُ اللهُ الأصنامَ فتُشافِهُهم بذلك مَكانَ الشَّفاعَةِ الَّتي توقَّعُوا(٣) مِنْها.

وقيلَ: المرادُ بالشُّركاءِ: الملائِكَةُ والمَسيحُ، وقيلَ: الشَّياطينُ.

(٢٩) ـ ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنَّه العَالِمُ بكُنْهِ الحالِ.

﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ ﴿إِن﴾ هي المُخفَّفَةُ مِن الثَّقيلَةِ، واللَّامُ هيَ الفارِقَةُ.

(٣٠) ـ ﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المَقامِ ﴿تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾: تختبرُ ما قدَّمَتْ مِن عملٍ فتعاينُ نفعَه وضرَّه.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿تَتْلُو﴾ مِن التِّلاوَةِ(٤)؛ أي: تَقرأُ ذكرَ ما قدَّمَتْ، أو من التُّلوِّ؛ أي: تَتبعُ عملَها فيقودُها إلى الجنَّةِ أو إلى النَّارِ.

---

(١) أي: (وشركاءكم)، انظر: «الكامل» للهُذلي (ص: ٥٦٩)، و«الكشاف» (٤/ ٤٢)، و«البحر» (١١/ ٨٠).

(٢) في نسخة التفتازاني: «الوصلة». والوُصَلُ جمعُ الوُصلةِ.

(٣) في نسخة الطبلاوي والخيالي: «يتوقعون».

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٥)، و«التيسير» (ص: ١٢١).

وقُرِئَ: «نَبْلُو» بالنُّونِ ونصبِ «كلَّ» وإبدالِ «ما» منه[١]، والمعنى: نَختَبِرُها؛ أي: نفعَلُ بها فعلَ المختبِرِ لحالِها المتعرِّفِ لسَعادَتِها وشَقاوَتِها بتعرُّفِ ما أسلَفَتْ مِن أعمالِهَا، ويجوزُ أَنْ يُرادَ بهِ: نُصِيبُ بالبلاءِ ـ أي: بالعذاب ـ كلَّ نَفسٍ عاصِيَةٍ بسببِ ما أسلفَتْ مِن الشرِّ، فتكونُ «ما» مَنصوبَةً بنزعِ الخافضِ.

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: إلى جزائِهِ إيَّاهُم بما أسلَفُوا.

﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾: ربِّهِم ومُتولِّي أَمْرِهِم على الحَقيقَةِ، لا ما اتَّخذوهُ مَولًى.

وقُرِئَ: «الحقَّ» بالنَّصبِ[٢] على المدحِ أو المصدرِ المُؤكِّدِ[٣].

﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾: وضاعَ عَنْهُم ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ مِن أنَّ آلِهَتَهُم تشفَعُ لَهُم، أو: ما كانُوا يدَّعُونَ أنَّها آلهةٌ.

(٣١) ـ ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: مِنهُمَا جميعًا، فإنَّ الأَرزاقَ تحصُلُ بأَسبابٍ سَماوِيَّةٍ وموادَّ أَرضيَّةٍ، أو مِن كُلِّ واحدٍ مِنْهُما توسعةً عليكُمْ.

وقيلَ: ﴿مِّنَ﴾ لبيانِ ﴿مَن﴾ على حذفِ المضافِ؛ أي: مِن أهلِ السَّماءِ والأَرضِ.

﴿أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾: أَمَّنْ يَستطيعُ خلقَهُما وتَسوِيَتَهُما، أو: مَن يحفَظُهُما مِن الآفاتِ مَع كثرَتِها وسُرعَةِ انفعالِهِما مِن أَدْنَى شَيءٍ.

---

(١) نسبت لعاصم في رواية عنه. انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٣)، و«البحر» (١١/ ٨٣). وهي خلاف المشهور عن عاصم. وجاء في «الكامل» للهذلي (ص: ٥٦٧): (نتلوا) بالنون والتاء: أبو حاتمٍ عن هارون عن عاصِم (كُلَّ) نصب. وقوله: «وإبدال» معطوفٌ على (نصب) لا على المقروء. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) انظر: «الكامل» للهذلي (ص: ٥٦٧) عن الحسن، و«الكشاف» (٤/ ٤٤) دون نسبة.

(٣) قوله: «على المدح» كقولك: (الحمدُ لله أهلَ الحمد)، «أو المصدر المؤكد»؛ أي: تأكيد قوله: ﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كقولك: (هذا عبد الله الحقَّ لا الباطلَ). انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٤).

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾: ومَن يُحيي ويُميتُ، أو: مَن يُنشِئُ الحيوانَ مِن النُّطفةِ والنُّطفةَ مِنه.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: ومَن يَلِي تَدبيرَ أَمرِ العالمِ وهوَ تَعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ.

﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ إذ لا يقدرونَ على المكابرةِ والعِنادِ في ذلك لفَرْطِ وُضوحِه.

﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أنفسَكُم عقابَهُ بإشراكِكُم إيَّاهُ ما لا يُشاركُه في شَيءٍ مِن ذلك.

(٣٢) ـ ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ أي: المُتولِّي لهذه الأُمورِ المُستحقُّ للعبادةِ هو ربُّكُم الثَّابتُ رُبوبيَّتُهُ؛ لأنَّه الَّذي أنشأَكُم وأحياكُمْ ورَزَقَكُم ودبَّرَ أُمورَكُم.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ استفهامُ إنكارٍ؛ أي: ليسَ بعدَ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ، فمَنْ تَخطَّى الحَقَّ الَّذي هو عبادةُ اللهِ وقعَ في الضَّلالِ.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عَن الحقِّ إلى الضَّلالِ؟

(٣٣) ـ ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾؛ أي: كمَا حَقَّت الرُّبُوبِيَّةُ للهِ، أو أنَّ الحقَّ بعدَهُ الضَّلالُ، أو أنَّهُم مَصروفونَ عَن الحقِّ= حقَّتْ كَلِمَةُ اللهِ وحكمُهُ ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾: تمرَّدُوا في كُفرِهِم، وخرجوا عن حدِّ الاستصلاحِ ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدلٌ مِن الكَلِمَةِ، أو تَعليلٌ لحقيَّتِها، والمرادُ بها: العِدَةُ بالعَذابِ.

(٣٤) ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ جَعَلَ الإعادةَ كالإبداءِ في الإلزامِ بها لظُهورِ بُرهانِها، وإن لَمْ يُساعِدُوا عَلَيْهَا، ولذلك أُمرَ الرَّسولُ عليه السَّلامُ بأَنْ ينوبَ عَنهُم في الجوابِ فقالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ لأنَّ لَجاجَهُم لا يَدعُهُم أن يَعترِفُوا بها.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾: تُصرَفونَ عَن قصدِ السَّبيلِ.

(٣٥) ـ ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ بنصبِ الحججِ وإرسالِ الرُّسلِ والتَّوفيقِ للنَّظرِ والتَّدبُّرِ، و«هَدَى» كما يُعدَّى بـ«إلى» لتَضمُّنِه مَعنى الانتهاءِ، يُعدَّى باللَّامِ للدلالَةِ على أنَّ المُنتَهَى غايَةُ الهدايةِ، وأنَّها لم تتوجَّه نحوَهُ على سبيلِ الاتِّفاقِ[1]، ولذلك عُدِّيَ بها ما أسندَهُ إلى اللهِ.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ أَم الَّذي لا يَهتَدي إلَّا أن يُهْدَى، مِن قولِهم: «هُدِيَ بنفسِه»: إذا اهتَدَى، أو: لا يَهدِي غيرَهُ إلَّا أَنْ يَهْدِيَهُ اللهُ، وهذا حالُ أشرافِ شُركائِهم كالمَلائِكَةِ والمسيحِ وعُزَيْرٍ.

وقرأَ ابنُ كَثيرٍ وورشٌ عَن نافِعٍ وابنُ عامرٍ ﴿يَهَدِّي﴾ بفتحِ الهاءِ وتَشديدِ الدَّالِ، ويَعقوبُ وحَفصٌ بالكَسرِ والتَّشديدِ، والأصلُ: يَهْتَدِي، فأُدغِمَ وفُتِحَت الهاءُ بحركَةِ التَّاءِ، أو كُسِرَت لالتقاءِ السَّاكِنَينِ.

وروى أبو بكرٍ: ﴿يِهِدِّي﴾ بإتباعِ الياءِ الهاءَ.

وقرأَ أبو عمرٍو بالإدغامِ المُجرَّدِ ولم يبالِ بالتقاءِ السَّاكِنَينِ لأنَّ المُدغَمَ في حُكمِ المُتحرِّكِ، وعن نافعٍ بروايةِ قالون مِثلُه[2].

---

(١) قوله: «وأنَّها لم تتوجَّه نحوَهُ على سبيلِ الاتِّفاقِ» الضمير في: «وأنها» للهداية، وفي: «نحوه» للمنتهى، والمعنى: أن الهداية لم تتوجه نحو المنتهى من غير قصدٍ وإرادة، بل تتوجه نحوه على سبيل القصد والإرادة. انظر: «حاشية الخفاجي»، وحاشيتي ابن التمجيد والقونوي (٩/ ٤٥٧).

(٢) وملخص ما ورد فيها من قراءات: ابن كثير وابن عامر وورش وأبو عمرو في أحد الوجهين: بفتح الياء والهاء وتشديد الدال، وأبو جعفر بخلاف عن ابن جماز وقالونُ في أحد وجهيه كذلك مع إسكان الهاء، وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال، ويعقوب وحفص بفتح الياء وكسر الهاء، وأبو بكر كذلك مع كسر الياء، وقرأ أبو عمرو وقالون وابن جماز في وجههم الثاني باختلاس الفتحة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٣).

وقُرِئَ: «إلا أَنْ يُهَدَّى»[1] على المُبالغَةِ.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما يَقتَضِي صريحُ العَقلِ بُطلانَه.

(٣٦) ـ ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ فيما يَعتَقِدُونَ ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ مُستَنِدًا إلى خيالاتٍ فارِغَةٍ وأَقيسَةٍ فاسِدَةٍ؛ كقياسِ الغائبِ على الشَّاهدِ والخالقِ على المخلوقِ بأَدْنى مُشاركَةٍ مَوهومَةٍ.

والمرادُ بالأكثرِ: الجَميعُ، أو مَن يَنتَمِي مِنْهُم إلى تَمييزٍ ونَظَرٍ ولا يرضَى بالتَّقليدِ الصِّرْفِ.

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ﴾: مِن العلمِ والاعتقادِ الحقِّ ﴿شَيْئًا﴾ مِن الإغناءِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مَفعولًا به و﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ حالًا مِنْهُ.

وفيه دليلٌ على أنَّ تحصيلَ العلمِ في الأصولِ واجبٌ والاكتفاءَ بالتَّقليدِ والظنِّ غيرُ جائزٍ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وَعيدٌ على اتِّباعِهِم الظَّنَّ وإعراضِهِم عَن البُرهانِ.

(٣٧) ـ ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾: افتراءً مِن الخَلقِ ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقٌ لِمَا تَقدَّمَه مِن الكتبِ الإلهيَّةِ المشهودِ على صِدْقِها ولا يكونُ كذبًا، كيفَ وهوَ لكونِهِ مُعجِزًا دونَها عيارٌ عليهَا شاهِدٌ على صِحَّتِها، ونصبُهُ بأنَّه خَبرٌ لـ«كان» مقدَّرًا، أو عِلَّةٌ لفعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه: ولكن أنزلَهُ اللهُ تصديقَ الذي.

وقُرِئَ بالرَّفعِ[2] على تَقديرِ: ولكنْ هوَ تَصديقُ.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن أبي الحارث الذماري.

(٢) أي: (ولكن تصديقُ الذي بين يديه وتفصيلُ)، نسبت لعيسى بنِ عمرَ والزَّعْفراني وابن أبي عبلة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«الكامل» للهُذَلي (ص: ٥٦٨).

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: وتفصيلَ ما حقَّقَ وأثبتَ مِن العقائد والشَّرائعِ.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: مُنتفِيًا عنه الرَّيبُ، وهو خبرٌ ثالثٌ داخلٌ في حكمِ الاستدراكِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالًا مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ فإنَّه مَفعولٌ في المعنى، وأَنْ يكونَ استِئنافًا.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبرٌ آخرُ تقديرُهُ: كائنًا مِن ربِّ العالمينَ، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿تَصْدِيقَ﴾ أو ﴿تفصيل﴾ و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراضٌ، أو بالفعلِ المعلَّلِ بهما[1]، ويجوزُ أَنْ يكونَ حالًا مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ أو الضَّميرِ في ﴿فِيهِ﴾.

ومساقُ الآيةِ بعدَ المنعِ عَن اتِّباعِ الظنِّ لبَيانِ ما يجبُ اتِّباعُهُ والبرهانِ عليه.

(٣٨) - ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾: بل أيقولون: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ محمَّدٌ، ومعنى الهمزةِ فيه للإنكارِ.

﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ في البلاغَةِ وحُسنِ النَّظمِ وقوَّةِ المَعنى على وَجهِ الافتراءِ؛ فإنَّكُم مِثلي في العَربيَّةِ والفَصاحَةِ وأشدُّ تمرُّنًا في النَّظمِ والعِبارَةِ.

﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ ومع ذلك فاستَعينُوا بمَنْ أَمْكَنَكُم أَنْ تَستَعِينُوا به ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: سِوَى اللهِ تَعالى فإنَّه وحدَهُ قادِرٌ على ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّه اختلَقَهُ.

(٣٩) - ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾: بل سَارعُوا إلى التَّكذيبِ ﴿بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾: بالقُرآنِ أوَّلَ ما سَمِعوه قبلَ أن يتدبَّرُوا آياتِه ويُحيطُوا بالعلمِ بشَأنِه، أو: بما جهلوهُ ولم يُحيطُوا به علمًا مِن ذكرِ البَعثِ والجَزاءِ وسائرِ ما يُخالِفُ دينَهُم.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾: ولم يَقِفُوا بعدُ على تأويلِه ولم تَبْلُغ أذهانُهُم مَعانِيَه، أو: لَمْ يَأتِهِم بعدُ تَأويلُ ما فيه مِن الإخبارِ بالغُيوبِ حتَّى يَتبيَّنَ لهم أنَّه صِدقٌ أَمْ كَذِبٌ.

---

(١) قوله: «أو بالفعل»؛ أي: أو متعلق بالفعل «المعلل بهما»؛ أي: وهو أنزله. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٠).

والمعنى: أنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ من جهَةِ اللَّفظِ والمعنى، ثمَّ إنَّهُم فاجؤوا تكذيبَهُ قَبْلَ أَنْ يَتدبَّرُوا نظمَهُ ويَتفحَّصُوا مَعناه.

ومَعنى التَّوقُّعِ في «لمَّا»: أنَّه قَدْ ظهرَ لَهُم بالآخرةِ إعجازُهُ لَمَّا[1] كرَّرَ عليهِم التَّحدِّيَ فرازُوا[2] قُواهُم في مُعارضَتِه فتضاءَلَت دونَها، أو لَمَّا شاهَدُوا وقوعَ ما أخبرَ به طبقًا لإخبارِهِ مرارًا فلَمْ يُقلِعُوا عَنِ التَّكذيبِ تَمرُّدًا وعِنادًا.

﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنبياءَهُم ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيهِ وَعيدٌ لَهُم بمثلِ ما عُوقِبَ بهِ مَن قَبلَهُم.

(٤٠) ـ ﴿وَمِنْهُم﴾: ومِن المُكذِّبينَ ﴿مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾: مَن يُصدِّقُ بهِ في نَفسِهِ ويَعلَمُ أنَّه حَقٌّ ولكن يعانِدُ، أو: مَن سيُؤمِنُ به ويَتوبُ عَن كُفرِهِ.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ في نفسِهِ لفَرطِ غَباوَتِه وقِلَّةِ تَدبُّرِهِ، أو فيما يُستقبلُ بل يموتُ على الكُفرِ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: بالمُعانِدينَ أو بالمُصرِّينَ.

(٤١) ـ ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾: وإنْ أصرُّوا على تكذيبِكَ بعدَ إلزامِ الحُجَّةِ ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾: فتبرَّأْ مِنْهُم فقد أَعْذَرْتَ، والمعنى: لي جَزاءُ عَمَلِي ولَكُم جَزاءُ عَمَلِكُم حَقًّا كانَ أو باطِلًا.

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾: لا تُؤاخَذُونَ بعملي ولا أُؤاخَذُ بعَمَلِكُم، ولِمَا فيهِ مِن إيهامِ الإعراضِ عنهم وتخليَةِ سَبيلِهِم قيلَ: إنَّه مَنسوخٌ بآيةِ السَّيفِ.

---

(١) «لما»، بكسر اللامِ التعليلية، أو بفتحها بمعنى (حين)، وكذلك في «لما شاهدوا». انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة الطبلاوي: «فزادوا»؛ تحريف. ومعنى «رازوا»: جرَّبوا وامتحنوا.

(٤٢) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأتَ القُرآنَ وعَلَّمْتَ الشَّرائِعَ، ولكِنْ لا يقبلونَ كالأصمِّ الَّذي لا يَسمَعُ أَصْلًا.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾: تقدِرُ على إسماعِهِم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾: ولو انضمَّ إلى صَمَمِهِم عدمُ تعقُّلِهِم، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ حَقيقَةَ استماعِ الكَلامِ فَهْمُ المَعنى المقصودِ منه، ولذلكَ لا تُوصَفُ به البهائمُ، وهو لا يَتأتَّى إلَّا باستعمالِ العَقلِ السَّليمِ في تَدبُّرِه، وعُقولُهُم لَمَّا كانَتْ مَؤُوفةً[1] بمُعارضَةِ الوهمِ ومُشايعَةِ الإلفِ والتَّقليدِ تعذَّرَ إفهامُهُم الحِكَمَ والمعانيَ الدَّقيقَةَ فلم يَنتفِعُوا بسردِ الألفاظِ عليهم غيرَ ما ينتفِعُ به البَهائِمُ من كلامِ النَّاعقِ.

(٤٣) ـ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويُعايِنُونَ دلائلَ نُبوَّتِكَ ولكن لا يُصدِّقُونَ.

﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾: تقدِرُ على هدايتِهِم ﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾: وإن انضمَّ إلى عدمِ البَصرِ عدمُ البَصيرَةِ، فإنَّ المَقصودَ مِن الإبصارِ هو الاعتبارُ والاستبصارُ، والعمدةُ في ذلك البَصيرَةُ، ولذلك يَحْدِسُ الأعمى المُستبصِرُ ويتفطَّنُ ما لا يُدرِكُه البَصيرُ الأحمَقُ.

والآيةُ كالتَّعليلِ للأمرِ بالتَّبرِّي والإعراضِ عَنْهُم.

(٤٤) ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ بسلبِ حواسِّهِم وعُقولِهِم ﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بإفسادِهَا وتَفويتِ مَنافِعِها عليها، وفيه دليلٌ على أنَّ للعبدِ كَسْبًا، وأنَّه ليسَ مَسلوبَ الاختيارِ بالكُلِّيَّةِ كما زعمَت المُجْبِرَةُ.

ويجوز أن يكونَ وعيدًا لهم بمَعنى: أنَّ ما يحيقُ بهم يومَ القيامةِ مِن العذابِ عَدلٌ مِن اللهِ لا يَظلِمُهُم به ولكنَّهُم ظَلَمُوا أنفُسَهُم باقترافِ أسبابِه.

---

(١) قوله: «مؤوفة»؛ أي: مشوبة بالآفات. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧١).

(٤٥) ـ ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: يَستقصِرونَ مدَّةَ لبثِهم في الدُّنيا أو القبورِ لهولِ ما يرونَ، والجملَةُ التَّشبيهيَّةُ في موضِعِ الحالِ؛ أي: يحشُرُهُم مُشبَّهينَ بمَن لَمْ يَلبَثْ إلَّا ساعةً، أو صفةٌ لـ«يومَ» والعائدُ مَحذوفٌ تقديرُهُ: كأَنْ لَمْ يَلبَثُوا قبلَه، أو لِمَصدَرٍ مَحذوفٍ؛ أي: حشرًا كأَنْ لم يلبثُوا قبلَهُ.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرفُ بَعضُهُم بَعضًا كأنَّهُم لم يَتعارَفُوا إلَّا قَليلًا، وهذا أوَّلَ ما نُشِرُوا ثمَّ ينقطِعُ التَّعارُفُ لشِدَّةِ الأمرِ عَلَيهِم، وهو حالٌ أُخرى مُقدَّرَةٌ، أو بيانٌ لقولِه: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾، أو مُتعلِّقُ الظَّرفِ والتَّقدير: يتعارفونَ يومَ يَحشُرُهُم.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ للشَّهادةِ على خُسرانِهِم والتَّعجُّبِ مِنه، ويجوزُ أن يكونَ حالًا مِن الضَّميرِ في ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ على إرادةِ القَولِ.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ لطرقِ استعمالِ ما مُنِحُوا مِن المَعَاونِ في تَحصيلِ المعارفِ، فاستكسبُوا بها جهالاتٍ أدَّتْ بهم إلى الرَّدَى والعَذابِ الدَّائمِ.

(٤٦) ـ ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾: نُبصِّرَنَّكَ ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ مِن العَذابِ في حَياتِكَ كما أَراه يومَ بَدرٍ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ أن نُريَكَ ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ فنُريكَهُ في الآخرةِ، وهو جوابُ ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ وجوابُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ مَحذوفٌ مثلَ: فذاكَ.

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مُجازٍ عليه، ذَكَرَ الشَّهادةَ وأرادَ نَتيجتَها ومُقتضاهَا، ولذلك رتَّبَها على الرُّجوعِ بـ﴿ثُمَّ﴾، أو: مؤدٍّ شهادتَهُ على أفعالِهِم يومَ القِيامَةِ.

(٤٧) ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأُمَمِ الماضيَةِ ﴿رَّسُولٌ﴾ يُبعَثُ إليهِم ليَدعُوَهُم إلى الحقِّ ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبيِّناتِ فكَذَّبُوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾: بينَ الرَّسولِ ومُكذِّبيهِ ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: بالعدلِ، فأُنْجِيَ الرَّسولُ وأُهلِكَ المكذِّبونَ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقيلَ: مَعناه: لكلِّ أمَّةٍ يومَ القِيامَةِ رسولٌ تُنسبُ إليه، فإذا جاءَ رَسولُهُم الموقفَ

لِيَشهدَ عليهم بالكفرِ والإيمانِ قُضِيَ بينَهُم بإنجاءِ المُؤمِنِينَ وعِقابِ الكافِرِينَ[١]؛ كقولِه: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ [الزمر: ٦٩].

(٤٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استِبعادًا له واستِهزاءً به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ خطابٌ مِنْهُم للنَّبيِّ والمُؤمنينَ.

(٤٩) ـ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ فكيفَ أَملِكُ لَكُم فأَستعجلَ في جَلبِ العَذابِ إِلَيْكُم ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أَنْ أَملِكَهُ؟ أو: و[٢]لكنْ ما شاءَ اللهُ مِن ذلك كائنٌ.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ مضروبٌ لهلاكِهم ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾: لا يَتأخَّرُونَ ولا يَتقدَّمونَ، فلا تستعجِلُوا فسَيَحِينُ[٣] وَقتُكُم ويُنجزُ وعدُكُم.

(٥٠) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الَّذي تَستعجِلُونَ به ﴿بَيَٰتًا﴾: وقتَ بياتٍ واشتغالٍ بالنَّومِ ﴿أَوْ نَهَارًا﴾: حينَ كُنتُم مُشتغلينَ بطلبِ مَعاشِكُم.

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أيَّ شيءٍ من العَذابِ يَستعجِلُونَهُ وكلُّهُ مَكروهٌ لا يلائِمُ الاستعجالَ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ لأَنَّه بمعنى: أَخبروني.

و﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وُضعَ مَوضِعَ الضَّميرِ للدلالةِ على أَنَّهُم لجُرمِهِم يَنبغِي أن يَفزعُوا مِن مَجيءِ الوعيدِ[٤] لا أن يَستعجلوهُ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ وهو: يندَمُوا على الاستعجالِ، أو: يعرفُوا خَطَأَهُ.

---

(١) في نسخة الخيالي: «المؤمن وعقاب الكافر».

(٢) «الواو» زيادة من نسخة الخيالي.

(٣) في نسخة الطبلاوي: «فسيجيء»، وقد أشار الخفاجي إلى النسختين، قال: وهما بمعنىً. وقوله: «ويُنجز وعدكم» بالبناء للمجهول. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٤) في نسخة الخيالي: «العذاب» وفي الهامش كالمثبت نسخة.

ويجوزُ أَنْ يكونَ الجَوابُ ﴿مَّاذَا﴾ كقولِكَ: إن أتيتُكَ ماذا تُعطِيني؟ وتَكونُ الجُملَةُ مُتعلِّقَةً بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، أو قولَه(١):

(٥١) ـ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ بمَعنى: إن أتاكُم عذابُهُ آمَنْتُم به بعدَ وُقوعِهِ حينَ لا يَنفعُكُم الإيمانُ؟ و﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ﴾ اعتراضٌ، ودخولُ حَرفِ الاستفهامِ على «ثُمَّ» لإنكارِ التَّأخيرِ.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ على إرادةِ القَولِ؛ أي: قيلَ لَهُم إذا آمَنُوا بعدَ وُقوعِ العَذابِ: آلآن آمَنْتُم به.

وعَن نافعٍ: ﴿آلَان﴾ بحذفِ الهَمزةِ وإلقاءِ حَركتِها على اللَّامِ(٢).

﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ تكذيبًا واستهزاءً.

(٥٢) ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ عطفٌ على «قيلَ» المُقدَّر: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المُؤلمَ على الدَّوامِ ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ مِن الكُفرِ والمَعاصِي.

(٥٣) ـ ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾: ويَستخبِرُونَكَ ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾: أحقٌّ ما تقولُ مِن الوَعدِ وادِّعاءِ النُّبُوَّةِ؟ تقولُه بجدٍّ أَمْ باطلٍ تهزلُ به؟ قاله حُيَيُّ بن أخطبَ لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ(٣).

والأظهَرُ أَنَّ الاستفهامَ فيه على أصلِه؛ لقولِه: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾.

---

(١) قوله: «أو قوله»؛ بالنصب عطفٌ على ﴿مَّاذَا﴾ بعد قوله: «ويجوز أن يكون الجواب». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٤)، ووقع في نسخة التفتازاني: «أو بقوله»، وهو خطأ. والمصنِّفُ تبعَ في هذا الزَّمخشريَّ في «الكشاف» (٤/ ٥٦)، ورُدَّ بأنه في غايَةِ البعدِ؛ لأنَّ ثمَّ حرفُ عطفٍ لم يسمعْ تصديرُ الجوابِ بهِ، والجُملَةُ المصدَّرَةُ بالاستفهامِ لا تقعُ جوابًا بدونِ الفاءِ. انظر: «البحر المحيط» (١٢/ ١١٣ ـ ١١٤)، و«حاشية الخفاجي».

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٢).

(٣) انظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ١٢٠) عن قتادة ومقاتل.

وقيلَ: إنَّهُ للإنكارِ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: «آلحقُّ هو»(١) فإنَّه فيه تَعريضٌ بأنَّه باطِلٌ.

و﴿أَحَقٌّ﴾ مُبتدأٌ والضَّميرُ مُرتفِعٌ بِهِ سادٌّ مَسَدَّ الخبرَ، أو خبرٌ مُقدَّمٌ، والجملةُ في موقعِ النَّصبِ بـ﴿يَسْتَنبِئُونَكَ﴾.

﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾: إنَّ العذابَ لكائنٌ، أو: ما أدَّعيهِ لثابتٌ.

وقيلَ: كِلَا الضَّميرينِ للقُرآنِ، و﴿إِى﴾ بمَعنى: نعم، وهو مِن لَوازمِ القَسَمِ ولذلك يُوصَلُ بواوِه في التَّصديقِ فيقال: إي واللهِ، ولا يقالُ «إي» وحدَه.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾: فائتينَ العَذابَ.

(٥٤) - ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشِّركِ أو التَّعدِّي على الغيرِ ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن خَزائِنِها وأموالِها ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾: لجَعَلَتْهُ فِديَةً لها مِن العَذابِ، مِن قَولِهِم: افتَداهُ، بمَعنى: فَدَاهُ.

﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لأنَّهُم بُهِتُوا بما عايَنُوا ممَّا لم يَحْتَسِبُوه مِن فَظاعَةِ الأَمرِ وهَوْلِه فلَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَنْطِقُوا.

وقيلَ: «أَسَرُّوا النَّدامةَ»: أخلَصُوهَا؛ لأنَّ إخفاءَهَا إخلاصُها، أو لأنَّه يُقالُ: «سِرُّ الشَّيءِ» لخالصتِه، مِن حيثُ إنَّها تَخفَى ويُضَنُّ بها.

وقيلَ: أظهَرُوهَا، مِن قولهم: أسَرَّ الشَّيءَ وأَشَرَّهُ: إذا أظهَرَهُ.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ليسَ تكريرًا؛ لأنَّ الأوَّلَ قَضاءٌ بينَ الأَنبِيَاءِ ومُكذِّبِيهِم، والثَّاني مجازاةُ المُشركينَ على الشركِ أو الحكومةُ بين الظَّالِمينَ والمَظلومينَ، والضَّميرُ(٢) إنَّما يَتناوَلُهُم لدَلالةِ الظُّلمِ عَلَيهِم.

---

(١) انظر: «المحتسب» (١/ ٣١٢)، و«الكشاف» (٤/ ٥٧)، عن الأعمش.

(٢) قوله: «والضمير»؛ أي: في ﴿بَيْنَهُم﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٥).

(٥٥) ـ ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تقريرٌ لقُدرَتِهِ تَعالى عـلـى الإثابَةِ والعِقابِ.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: ما وعدَهُ مِن الثَّوابِ والعِقابِ كائنٌ لا خُلْفَ فيه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنَّهُم لا يعلمونَ ـ لقُصورِ عَقلِهِم ـ إلَّا ظاهِرًا مِن الحَياةِ الدُّنيَا.

(٥٦) ـ ﴿هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدُّنيَا، فهُوَ يقدرُ عليهِمَا في العُقبى؛ لأنَّ القادِرَ لذَاتِه لا تزولُ قُدرَتُهُ، والمادَّةُ القابِلَةُ بالذَّاتِ للحَياةِ والموتِ قابلَةٌ لهمَا أَبَدًا.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالموتِ أو النُّشورِ(١).

(٥٧) ـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: قَدْ جاءَكُم كِتابٌ جامِعٌ للحِكمَةِ العَمَليَّةِ الكاشِفَةِ عَن مَحاسنِ الأَعمالِ ومَقابِحِها المُرغِّبَةِ في المَحاسنِ والزَّاجرَةِ عَن المَقابحِ، والحكمةِ النَّظَريَّةِ التي هي شِفاءٌ لِمَا في الصُّدورِ مِـن الشُّكوكِ وسُوءِ الاعتقادِ، وهُدًى إلى الحقِّ واليَقينِ ورَحمةٌ للمُؤمنينَ، حيثُ أُنزلَت عَلَيهِم فنجَوا بها مِن ظُلماتِ الضَّلالِ إلى نورِ الإيمانِ، وتَبدَّلَت مَقاعِدُهُم مِن طَبقاتِ النِّيرانِ بمَصاعِدَ مِن دَرجاتِ الجنانِ، والتَّنكيرُ فيها للتَّعظيمِ.

(٥٨) ـ ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ بإنزالِ القُرآنِ، والباءُ مُتعلِّقَةٌ بفعلٍ يُفسِّرُهُ قولُه: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾؛ فإنَّ اسمَ الإشارَةِ بمنزِلَةِ الضَّميرِ، تَقديرُهُ: بفَضلِ اللهِ وبرَحمَتِهِ فليَعْتَنُوا ـ أو فليَفْرَحُوا ـ فبذلك فليفرحوا، وفائدةُ ذلك التَّكريرِ: التَّأكيدُ والبَيانُ بعدَ الإجمالِ، وإيجابُ اختِصاصِ الفَضلِ والرَّحمَةِ بالفَرَحِ.

---

(١) في نسخة الخيالي والطبلاوي: «والنشور».

أو بفعلٍ دَلَّ عليه ﴿قَدْ جَآءَتْكُم﴾، و«ذلك» إشارةٌ إلى مَصدَرِه؛ أي: فبمَجِيئِها فليَفْرَحُوا.

والفاءُ[1] بمَعنى الشَّرطِ؛ كأنَّه قيلَ: إنْ فَرِحُوا بشَيءٍ فبهِمَا ليَفْرَحُوا، أو للرَّبطِ بما قَبْلَها والدَّلالةِ عَلى أنَّ مَجيءَ الكِتابِ الجامعِ بينَ هذه الصِّفاتِ مُوجِبٌ للفَرحِ، وتَكريرُها للتَّأكيدِ؛ كقولِه[2]:

وإذا هَلَكْـتُ فعنـدَ ذلـك فاجزَعِـي

وعَـن يعقـوبَ: ﴿فَلْتَفْرَحُـوا﴾ بالتَّاءِ على الأصـلِ المرفـوضِ[3]، ....

---

(١) في نسخة التفتازاني: «والفاء الأولى». وقد أشار إلى النسختين الخفاجيُّ في «حاشيته»، وكأنه رجح المثبت؛ لأنه يحتمل الفاء الأولى أو الثانية، وتكون الأخرى زائدة، وكلا القولين فيه وجه. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) عجزُ بيتٍ للنمرِ بن تولب في «ديوانه» (ص: ٨٤)، و«الكتاب» لسيبويه (١/ ١٣٤)، و«المقتضب» للمبرد (٢/ ٧٦)، و«خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٣١٤). وصدرُه:

لا تجزَعي إن مُنفِسًا أهلكتُهُ ....

والمَعنى: لا تجزَعِي على ما أتلَفْتُه من المالِ؛ فإني أُحصِّلُ لك أمثالَه، ولكن اجزعي إذا هَلكتُ فإنَّك لا تَجدينَ مِن يخلفُ عليك مثلي، وكان النَّمِرُ قد نزلَ به في الجاهليَّةِ أخوانِ فعقرَ لهما أربعَ قلائِصَ فلامَتْه على ذلك. انظر: «تلخيص الشواهد» لابن هشام (ص: ٥٠٠).

(٣) هي رواية رويس عن يعقوب. انظر: «حجة القراءات» لابن زنجلة (ص: ٣٣٣)، و«النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٨٥). وذكرها الطبري في «تفسيره» (١٢/ ١٩٨) عن الحسن. وعزاها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، وابن جني في «المحتسب» (١/ ٣١٣) للنبي ﷺ، وزاد ابن جني: عثمان بن عفان وأُبي بن كعب رضي الله عنهما، والحسن وأبي رجاء ومحمد بن سيرين والأعرج، وأبي جعفر بخلاف، والسلمي وقتادة والجحدري وهلال بن يَسَاف، والأعمش بخلاف، وعباس بن الفضل وعمرو بن فائد. وانظر التعليق الآتي.

وقوله: «على الأصل المرفوض»؛ أي: قرئت على أصلها المتروك، وهو أمر المخاطب لا الغائب، =

وقـد رُوِيَ مَرفوعًـا(١) ويُؤَيِّـدُه أنَّه قُـرِئَ: «فافْرَحُوا»(٢).

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِـن حُطـامِ الدُّنيـا، فإنَّها إلى الـزَّوالِ، و﴿هُوَ﴾ ضميرُ «ذلك».

وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿تَجْمَعونَ﴾(٣) على مَعنى: فبذلك فليَفْرَحِ المُؤمِنُونَ فهوَ خَيرٌ ممَّا تَجمَعُونَ أيُّها المُخاطَبونَ.

= وذلك أن أصل الأمر أن يكون بحرف اللام مع المضارع، لكن لما كثر أمر المخاطب حذفوا اللام مع حرف المضارعة الذي هو التاء، وبقي ما بعده ساكنًا، فاحتيج إلى همزة الوصل ليقع الابتداء بها، فإذا أتي بأمر المخاطب فقد استعمل الأصل المتروك فيه. انظر: «المحتسب» (ص: ١/ ٣١٣)، و«حاشية الخفاجي».

(١) روي ذلك عن أبي بن كعب رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا، والصواب الوقف، فقد رواه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٦٢ ـ تفسير) عن أُبيِّ بنِ كعبٍ قال: قال لي رسولُ اللهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أنْ أَقرأَ عليكَ القرآنَ»، قال: قُلْتُ: سَمَّاني لك ربِّي؟ قال: «نَعَمْ»، فتَلَا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ قال: بكتاب اللهِ وبالإسلامِ خَيرٌ مما يجمعون.
والصواب أن المرفوع من هذا الحديث ينتهي عند قوله: «نعم»، ويشهد لذلك أن الحديث رواه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩)، عن أنس رضي الله عنه، وينتهي عند قوله: «نعم».
أما الآية فقد جاء في كثير من الروايات أن الذي قرأها هو أبي رضي الله عنه، وأنه قرأ فيها: ﴿فَلْيَفْرَحُواْ﴾ بالتاء، انظر: «مصنف ابن ابي شيبة ـ تحقيق محمد عوامة» (٣٠٩٣٧)، و«مسند أحمد» (٢١٢٣٧)، و«خلق أفعال العباد» للبخاري (٥٣٤)، و«سنن أبي داود» (٣٩٧٩)، و«شرح معاني الآثار» (٥٥٨٧).

(٢) نسبت لأُبيِّ بنِ كعب رضي الله عنه. انظر: «المحتسب» (١/ ٣١٣)، و«الكشاف» (٤/ ٦١)، وزاد العُكبَريُّ في «إعراب القراءات الشواذ» (١/ ٦٤٨) نسبتها لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٧)، و«التيسير» (ص: ١٢٢).

(٥٩) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ جعلَ الرِّزْقَ مُنْزَلًا لأنَّه مُقدَّرٌ في السَّماءِ محصَّلٌ بأسبابٍ مِنْهَا، و﴿مَّآ﴾ في مَوضعِ النَّصبِ بـ﴿أَنزَلَ﴾، أو بـ﴿أَرَءَيْتُم﴾ فإنَّه بمَعنى: أَخبِرُونِي.

و﴿لَكُم﴾ دلَّ على أنَّ المُرادَ مِنه ما حَلَّ، ولذلك وبَّخَ على التَّبعيضِ فقالَ: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ مثلَ: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩].

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في التَّحريمِ والتَّحليلِ فتقولونَ ذلك بحُكْمِه.

﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ في نِسبَةِ ذلك إليهِ، ويَجوزُ أَنْ تكونَ المُنفصلَةُ مُتَّصِلَةً بـ﴿أَرَءَيْتُم﴾ و﴿قُلْ﴾ مُكَرَّرٌ للتَّأكيدِ.

وأن(١) يكونَ الاستفهامُ(٢) للإنكارِ، و﴿أَمْ﴾ مُنقطعَةً، ومَعنى الهمزةِ فيها تقريرٌ لافترائِهم على اللهِ.

(٦٠) ـ ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: أيُّ شيءٍ ظَنُّهُم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أيحسبونَ أن لا يُجازَوْا عليه؟ وهو مَنصوبٌ بالظنِّ، ويدلُّ عليه أنَّه قُرِئَ بلفظِ الماضي(٣) لأنَّه كائنٌ، وفي إبهامِ الوعيدِ تَهديدٌ عَظيمٌ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيثُ أنعمَ عليهم بالعَقلِ وهَداهُم بإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتبِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعمَةَ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «ويجوز أن».

(٢) أي في: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٩).

(٣) أي: (وما ظَنَّ) نسبت لعيسى بن عمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٣).

(٦١) ـ ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾: ولا تكونُ في أمرٍ، وأصلُهُ الهمزُ مِن شَأَنْتُ شَأْنَهُ: إذا قَصَدْتَ قَصْدَه، والضَّميرُ في ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ له؛ لأنَّ تِلاوةَ القُرآنِ مُعظَمُ شأنِ الرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ، أو لأن القِراءَةَ تكونُ لشَأنٍ، فيكونُ التَّقدير: مِن أَجلِهِ، ومَفعولُ ﴿تَتْلُواْ﴾[1]: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ على أنَّ ﴿مِن﴾ تبعيضيَّةٌ، أو مَزيدَةٌ لتأكيدِ النَّفيِ.

أو للقُرآنِ[2] وإضمارُهُ قبلَ الذِّكرِ ثمَّ بَيانُهُ تَفخيمٌ لَهُ، أو للهِ.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ تعميمٌ للخِطابِ بعدَ تَخصيصه بمَن هو رَأسُهم[3]، ولذلكَ ذُكِرَ حيثُ خَصَّ ما فيه فخامَةٌ، وذكرَ حيثُ عَمَّ ما يتناوَلُ الجَليلَ والحَقيرَ.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾: رُقباءَ مُطَّلِعينَ عليه ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: تَخوضونَ فيه وتَنْدَفِعونَ.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾: ولا يَبْعُدُ عَنه ولا يَغيبُ عَن علمِه.

وقرأَ الكِسائيُّ بكسرِ الزَّايِ هنا وفي (سبأ)[4].

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: مُوازِنِ نملةٍ صَغيرةٍ أو هَباءٍ ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: في الوجودِ والإمكانِ؛ فإنَّ العامَّةَ لا تعرفُ مُمكِنًا غيرَهُما ليسَ فيهِما ولا مُتَعلِّقًا بهما، وتَقديمُ الأرضِ لأنَّ الكَلامَ في حالِ أَهلِهَا، والمقصودُ منه: البُرهانُ على إحاطةِ علمِهِ بها.

---

(١) قوله: «ومفعول ﴿تَتْلُواْ﴾؛ أي: على الوجهين». انظر: «حاشية القونوي» (٩/ ٥٠٧).

(٢) قوله: «أو للقرآن» عطف على «له»؛ يعني: أن ضميرَ ﴿مِنْهُ﴾ للشأن، أو للقرآن. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٧٩).

(٣) قوله: «بعد تخصيصه بمن هو رأسهم»؛ أي: وهو النبي ﷺ في قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ﴾. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٨٠).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ كلامٌ برأسِهِ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَهُ، و«لا» نافِيَةٌ و﴿أَصۡغَرَ﴾ اسمُها و﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ خبرُها.

وقرأ حمزَةُ ويَعقوبُ بالرَّفعِ[1] على الابتداءِ والخبرِ، ومَن عطفَ على لفظِ ﴿مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ وجعلَ الفتحَ بدلَ الكسرِ لامتناعِ الصَّرفِ، أو على محلِّهِ معَ الجارِّ، جعلَ الاستثناءَ مُنقطِعًا.

والمرادُ بالكتابِ: اللوحُ المَحفوظِ.

(٦٢) ـ ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: الَّذين يَتولَّوْنَهُ بالطَّاعَةِ ويَتولَّاهُم بالكَرامَةِ ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ مِن لُحوقِ مَكروهٍ ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بفَواتِ مَأمولٍ. والآيَةُ كمُجْمَلٍ فسَّرَه قولُه:

(٦٣) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾. وقيلَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ بيانٌ لتَولِّيهم لهُ.

(٦٤) ـ ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ وهو ما بَشَّرَ به المتَّقينَ في كتابِهِ وعلى لسانِ نَبيِّهِ، وما يُريهِم مِن الرُّؤيَا الصَّالِحَةِ، وما يَسنحُ لهم من المكاشَفاتِ، وبُشرى المَلائكَةِ عندَ النَّزعِ ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بتَلَقِّي المَلائكةِ إيَّاهُم مُسلِّمينَ مُبشِّرينَ بالفَوزِ والكَرامَةِ. بيانٌ لتولِّيهِ لهم.

ومحلُّ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ النَّصبُ أو الرَّفعُ على المدحِ، أو على وَصفِ الأَوۡلِيَاءِ، أو على الابتداءِ وخبره: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾.

﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا تَغييرَ لأقوالِهِ ولا إخلافَ لِمَواعيدِه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كونِهم مُبشَّرينَ في الدَّارينِ ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ هذه

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٣)، و«النشر» (٢/ ٢٨٥).

الجملَةُ والتي قبلَهَا اعتراضٌ لتحقيقِ المبشَّرِ به وتعظيمِ شَأنِه، وليسَ مِن شرطِهِ أن يقَعَ بعدَهُ كلامٌ يتَّصِلُ بما قبلَهُ.

(٦٥) ـ ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾: إشراكُهُم وتَكذيبُهُم وتَهديدُهُم.

وقرأَ نافِعٌ: ﴿يُحزِنْكَ﴾ مِن أحزَنَهُ[1]، وكِلاهُمَا بمَعنًى.

﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئنافٌ بمَعنى التَّعليلِ، ويدلُّ عليه القِراءَةُ بالفَتحِ[2]؛ كأنَّه قيلَ: لا تحزَنْ بقولِهِم ولا تُبالِ بهم؛ لأنَّ الغلبَةَ للهِ جَمِيعًا لا يملِكُ غيرُهُ شيئًا مِنْها، فهوَ يقهَرُهُم ويَنصرُكَ عليهِم.

﴿هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالِهِم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بعزماتِهِم فيُكافِئُهُم علَيْها.

(٦٦) ـ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ مِن المَلائِكَةِ والثَّقَلينِ، وإذا كانَ هؤلاءِ الَّذينَ هُم أشرَفُ المُمكِنَاتِ عَبِيدًا لا يصلحُ أحدٌ مِنْهُم للرُّبوبيَّةِ فمَا لا يَعقلُ مِنْها أحَقُّ أن لا يكونَ له نِدًّا أو شريكًا، فهو كالدَّليلِ على قولِه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾؛ أي: شُركاءَ على الحقيقَةِ وإن كانُوا يُسَمُّونَها شركاءَ.

ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾ ومفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾؛ أي: ما يتَّبعونَ يقينًا وإنَّما يتبعونَ ظنَّهُم أنَّها شُركاءُ.

ويجوزُ أَنْ تكونَ «ما» استفهاميَّةً مَنصوبةً بـ﴿يَتَّبِعُ﴾، أو موصولةً مَعطوفةً على ﴿مَن﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢١٩)، و«التيسير» (ص: ٩١).

(٢) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٨).

وقُرِئَ: «تدعون» بالتَّاءِ[(١)]، والمعنى: وأيَّ شيءٍ يتبعُ الَّذينَ تدعونَهُم شركاءَ مِن الملائكةِ والنَّبيِّين؟ أي: أنَّهُم لا يتَّبعونَ إلَّا اللهَ ولا يعبدونَ غيرَهُ فما لَكُم لا تتَّبعونَهُم فيه؟ كقولِه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ [الإسراء: ٥٧] فيكونُ إلزامًا بعدَ بُرهانٍ، وما بعدَهُ مصروفٌ عَن خِطابِهِم لبيانِ سَندِهِم ومنشأ رَأيِهِم.

﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾: يكذبونَ فيما يَنسبونَ إلى اللهِ، أو يَحْزِرونَ ويقدِّرونَ أنَّها شُركاءُ تَقديرًا باطِلًا.

(٦٧) ـ ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا ﴾ تنبيهٌ على كمالِ قُدرَتِه وعَظيمِ نِعمَتِه المتوحِّدِ هو بهمَا؛ ليدلَّهم على تفرُّدِه باستحقاقِ العِبادَةِ.

وإنَّما قال: ﴿مُبۡصِرًا﴾ ولم يقل: لتُبصِرُوا فيه، تفرقَةً بين الظَّرفِ المجرَّدِ والظَّرفِ الَّذي هو سببٌ[(٢)].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ سماعَ تدبُّرٍ واعتبارٍ.

(٦٨) ـ ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾؛ أي: تَبنَّاه ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهٌ له عن التَّبنِّي فإنَّه لا يَصِحُّ إلَّا ممَّنْ يُتصوَّرُ له الولدُ، وتعجيبٌ[(٣)] مِن كلمتِهم الحمقاءِ.

﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عِلَّةٌ لتَنزُّهِه، فإنَّ اتِّخاذَ الولدِ سببٌ عَن الحاجةِ.

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تقريرٌ لغِناهُ.

---

(١) نسبت لعلي رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«الكشاف» (٤/ ٦٩).

(٢) قوله: «تفرقة بين الظرف المجرد»؛ أي: عن التسبُّبِ، وهو النهارُ «والظرف الذي هو سبب» وهو الليلُ؛ لأنَّه سببٌ للسُّكون. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٨٣).

(٣) في نسخة الطبلاوي ونسخة الخيالي: «وتعجب». وقد أشار إلى النسختين الخفاجي والقونوي، ورجَّحَ القونويُّ المثبتَ. انظر: «حاشية الخفاجي»، و«حاشية القونوي» (٩/ ٥٢٢).

﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ﴾ نفيٌ لِمُعارضٍ ما أقامَهُ مِن البرهانِ؛ مُبالغةً في تَجهيلِهِم وتحقيقًا لبُطلانِ قولِهِم، و﴿بِهَٰذَآ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿سُلْطَٰنٍ﴾ أو نعتٌ له، أو بـ﴿عندكُم﴾ كأنَّه قيلَ: إنْ عِندَكُم في هذا سلطانٌ.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخٌ وتَقريعٌ على اختِلافِهِم وجهلهم، وفيهِ دَليلٌ على أنَّ كلَّ قولٍ لا دليلَ عليهِ فهو جهالةٌ، وأنَّ العَقائدَ لا بدَّ لها مِن قاطعٍ، وأنَّ التَّقليدَ فيها غيرُ سائغٍ.

(٦٩) ـ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ باتِّخاذِ الولدِ وإضافةِ الشَّريكِ إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾: لا يَنْجُونَ مِن النَّارِ ولا يفوزونَ بالجنَّةِ.

(٧٠) ـ ﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ أي: افتراؤُهُم متاعٌ في الدُّنيا يُقيمونَ بهِ رئاسَتَهُم في الكفرِ، أو: حياتُهُم ـ أو: تقلُّبُهُم ـ متاعٌ، أو مبتدأٌ خبرُهُ مَحذوفٌ؛ أي: لهم تمتُّعٌ في الدُّنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ بالموتِ فيلقونَ الشَّقاءَ المؤبَّدَ ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾: بسببِ كُفرِهِم.

(٧١) ـ ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾: خبرَهُ مع قومه ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم﴾: عَظُمَ عليكُم وشقَّ ﴿مَّقَامِى﴾: نَفْسِي؛ كقولِكَ: فعلتُ كذا لِمَكانِ فلانٍ، أو: كوني وإقامَتِي بينكُم مدَّةً مَديدةً، أو: قيامِي على الدَّعوَةِ.

﴿وَتَذْكِيرِى﴾ إيَّاكُم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾: وَثِقْتُ به ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾: فاعزِمُوا عليه ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾؛ أي: مع شُركائِكُم، ويؤيِّدُه القراءَةُ بالرَّفعِ[1] عطفًا على الضَّميرِ المتَّصِلِ، وجازَ مِن غيرِ أَنْ يُؤكَّدَ؛ للفصلِ.

---

(١) وهي قراءة يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٥).

وقيلَ: إنَّه مَعطوفٌ على ﴿أَمْرَكُمْ﴾ بحذفِ المُضافِ؛ أي: وأمرَ شُركائِكُم.

وقيلَ: إنَّه مَنصوبٌ بفعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُهُ: «وادعُوا شُركاءَكُم»، وقَد قُرِئَ به[1].

وعن نافعٍ: ﴿فَاجمَعُوا﴾ مِن الجمعِ[2]، والمعنى: أمرُهُم بالعزمِ، أو الاجتماعِ على قَصدِه والسَّعي في إهلاكِه على أيِّ وَجهٍ يُمكِنُهُم؛ ثقةً باللهِ وقلةَ مُبالاةٍ بِهِم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ في قَصدِي ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾: مَستورًا واجعَلُوه ظاهِرًا مكشوفًا، مِن غَمَّه: إذا سترَهُ، أو: ثمَّ لا يَكُن حالُكُم عليكُم غمًّا إذا أهلَكْتُمُوني وتخلَّصْتُم مِن ثقلِ مَقامِي وتَذكيرِي.

﴿ثُمَّ اقْضُوٓا﴾: أدُّوا ﴿إِلَيَّ﴾ ذلك الأمرَ الَّذي تُريدونَ بي.

وقُرِئَ: «ثمَّ أَفْضُوا إليَّ» بالفاءِ[3]؛ أي: انتَهُوا إليَّ بشرِّكُم، أو: ابرُزُوا إليَّ، مِن أَفْضَى: إذا خرجَ إلى الفَضاءِ.

﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾: ولا تُمهِلُونِي.

(٧٢) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾: أعرَضْتُم عن تَذكيرِي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ يوجبُ تَولِّيكُم لثقلِهِ عليكُم واتِّهامِكُم إيَّايَ لأجلِهِ، أو: يفوتُنِي لتَولِّيكُم.

﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾: ما ثَوابي عَلى الدَّعوةِ والتَّذكيرِ ﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ لا تَعلُّقَ لـه بِكُم،

---

(١) أي: (فأَجمِعوا أمركم وادْعُوا شركاءكم)، نسبت لأبيٍّ وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: «معاني القرآن» للفراء (١/ ٤٧٣)، و«تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (ص: ١٣٥)، و«القطع والائتناف» للنحاس (ص: ٣٠٧)، و«الكشاف» (٤/ ٧٣)، وذكرها ابن جني في «المحتسب» (١/ ٣١٤) بلفظ: (وادْعُوا شُركاءَكم ثم اجمَعوا أَمْرَكم).

(٢) انظر: «النشر» (٢/ ٢٨٥) من رواية رويس عن يعقوب. والمشهور عن نافع: ﴿فَأَجْمِعُوٓا﴾ كالجمهور.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢)، و«المحتسب» (١/ ٣١٥)، عن السري بن ينعم.

يُثيبُني بهِ آمَنْتُم أو تَوَلَّيْتُم ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المُنْقادِينَ لِحُكمِهِ لا أخالِفُ أمرَهُ ولا أرجو غيرَهُ.

(٧٣) ـ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصرُّوا على تكذيبِهِ بعدَما ألزَمَهُم الحجَّةَ وبيَّنَ أنَّ تولِّيهم ليسَ إلَّا لِعنادِهِم وتَمرُّدِهِم، لا جَرَمَ حقَّتْ عليهِم كلمةُ العَذابِ.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ من الغرقِ ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ وكانُوا ثمانين ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ مِن الهالكينَ به ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بالطُّوفانِ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تعظيمٌ لِمَا جَرَى عليهِم، وتحذيرٌ لِمَن كذَّبَ الرَّسولَ عليه السَّلامُ، وتسليةٌ له.

(٧٤) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾: أَرْسَلْنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: مِن بعدِ نُوحٍ ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كلَّ رَسولٍ إلى قومِهِ ﴿فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ الواضحَةِ المبيِّنَةِ لدَعْواهُم.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾: فما استقامَ لَهُم أنْ يُؤمِنُوا لشدَّةِ شَكِيمَتِهِم في الكُفرِ وخذلانِ اللهِ إيَّاهُم ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: بسببِ تَعوُّدِهِم تكذيبَ الحقِّ وتمرُّنِهِم عليهِ قبلَ بعثِهِ الرُّسُلَ.

﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ بخذلانِهِم لانهِمَاكِهِم في الضَّلالِ واتِّباعِ المألوفِ، وفي أمثالِ ذلك دليلٌ على أنَّ الأفعالَ واقعةٌ بقدرةِ اللهِ وكسبِ العَبدِ وقد مرَّ تحقيقُ ذلك.

(٧٥) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ مِن بعدِ هؤلاءِ الرُّسُلِ ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: بالآياتِ التِّسعِ[1] ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن اتِّباعِهِما[2] ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ معتادينَ الإجرامَ[3] فلذلك تَهاوَنُوا برِسالةِ رَبِّهِم فاجترَؤُوا على رَدِّهَا.

---

(١) هيَ العصا واليدُ البيضاءُ والطُّوفانُ والجرادُ والقمَّلُ والضَّفادعُ والدَّمُ والطمسُ وفلقُ البحرِ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «اتباعها».

(٣) قوله: «الإجرام»؛ بفتح الهمزة وكسرها، على الجمع والإفراد؛ أي: الذنوب العظيمة أو فعل الذنب =

(٧٦) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ وعَرَفوهُ بتَظاهُرِ المُعجِزاتِ القاهِرَةِ المزيحةِ للشكِّ ﴿قَالُوٓاْ﴾ مِن فرطِ تَمرُّدِهِم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ أنَّه سِحرٌ، أو فائِقٌ في فنِّهِ واضِحٌ فيما بينَ إخوانِه.

(٧٧) ـ ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾: إنَّه لسِحرٌ، فحُذفَ المَحكيُّ المقولُ[1] لدلالةِ ما قبلَه عليه، ولا يَجوزُ أن يكونَ: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ لأنَّهم بَتُّوا القولَ، بل هو استئنافٌ بإنكارِ ما قالوهُ، اللهمَّ إلَّا أنْ يكونَ الاستفهامُ فيه للتَّقريرِ والمحكيُّ مَفهومُ قولِهم.

ويجوزُ أَنْ يكونَ مَعنى ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾: أَتعيبونَهُ، مِن قولِهِم: «فلانٌ يخافُ القالَةَ» كقولِه: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠] فيَستغني عَن المفعولِ.

﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ مِن تمامِ كلامِ مُوسَى عليهِ السَّلام للدَّلالةِ على أنَّه ليسَ بسحرٍ، فإنَّهُ لو كانَ سِحْرًا لاضمحلَّ ولم يُبطِلْ سحرَ السَّحَرَةِ، ولأنَّ العالِمَ بأنَّه لا يفلِحُ السَّاحرُ لا يَسحَرُ.

أو مِن تمامِ قَولِهِم إنْ جُعلَ ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ محكيًا؛ كأنَّهم قالُوا: أجِئْتَنا بالسِّحرِ تطلبُ به الفلاحَ ولا يفلحُ السَّاحِرونَ.

(٧٨) ـ ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾: لتَصرِفَنا، واللَّفْتُ والفَتْلُ أخوانِ ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ مِن عبادَةِ الأَصنامِ ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: المُلْكُ فيها، سُمِّيَ بها لاتِّصافِ الملوكِ بالكِبْرِ، أو: التكبُّرُ على النَّاسِ باستِتْباعِهِم.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾: بمُصدِّقينَ فيما جِئتُمَا به.

= العظيم. انظر: «حاشية الخفاجي».

(١) في نسخة التفتازاني: «محكي القول».

(٧٩) ـ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ وقرأ حمزةُ والكِسائيُّ: ﴿بكُلِّ سَحَّارٍ﴾[1].

﴿عَلِيمٍ﴾: حاذِقٍ فيه.

(٨٠ ـ ٨١) ـ ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾؛ أي: الَّذي جِئتُم بهِ هو السِّحرُ لا ما سَمَّاهُ فِرعونُ وقومُه سِحْرًا.

وقرأ أبو عَمرٍو: ﴿آلسِّحْرُ﴾[2] على أنَّ ﴿مَآ﴾ استفهاميَّةٌ مرفوعةٌ بالابتداءِ، و﴿جِئْتُم بِهِ﴾ خبرُها، و﴿آلسِّحْرُ﴾ بَدلٌ مِنه، أو خبرُ مُبتدأ محذوفٍ تَقديرُهُ: أهوَ السِّحرُ، أو مبتدأٌ خبرُه مَحذوفٌ؛ أي: آلسِّحرُ هُوَ؟

ويجوزُ أَنْ ينتصبَ ﴿مَآ﴾ بفعلٍ يُفسِّرُه ما بعدَهُ تقديرُه: أيَّ شيءٍ أَتَيتُم[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾: سيمحَقُه، أو: سيُظهرُ بُطلانَه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لا يُثبِّتُهُ ولا يُقوِّيهِ. وفيه دليلٌ على أنَّ السِّحرَ إفسادٌ وتَمويهٌ لا حقيقةَ له.

(٨٢) ـ ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾: ويُثبِّتُه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾: بأوامرِهِ وقَضاياه، وقُرِئَ: «بكَلِمَتِه»[4] ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

(٨٣) ـ ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ في مبدأِ أمرِهِ ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: إلَّا أولادٌ مِن أولادِ قومِهِ بَنِي إسرائيلَ، دَعاهُم فلَمْ يُجيبوهُ خَوْفًا مِن فِرعَوْنَ إلَّا طائفةً مِن شُبَّانِهِم.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٢٨٩)، و«التيسير» (ص: ١١٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٨)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

(٣) قوله: «ويجوز أن ينتصب ﴿مَآ﴾...»؛ أي: ويجوز أن تكون ﴿مَآ﴾ استفهامية منصوبة المحل بفعل مقدَّرٍ بعدها ـ لأن لها صدر الكلام ـ ويكون ﴿جِئْتُم بِهِ﴾ مفسِّرًا لذلك الفعل المقدر، وتكون المسألة من باب الاشتغال، والتقدير: أي شيء أتيتم جئتم به. انظر: «حاشية شيخ زاده» (٤/ ٥٩٧).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢) عن بعضهم.

وقيلَ: الضَّميرُ لِفرعَوْنَ، والذُّرِّيَّةُ طائفَةٌ مِن شُبَّانِهم آمَنُوا بِهِ، أو مُؤمِنُ آلِ فِرعَوْنَ وامرأَتُهُ آسيَةُ وخازِنُهُ وزَوْجَتُهُ وماشِطَتُهُ.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾؛ أي: مع خَوْفٍ مِنْهُم، والضَّميرُ لـ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وجمعُهُ على ما هو المعتادُ في ضَميرِ العُظَماءِ، أو على أنَّ المُرادَ بـ﴿فِرْعَوْنَ﴾: آلُهُ؛ كمَا يُقالُ: رَبيعَةُ ومُضَرُ، أو للذُّرِّيَّةِ، أو للقَوْمِ.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: أَنْ يُعَذِّبَهُم فِرْعَوْنُ، وهو بَدَلٌ مِنْهُ أو مَفعولُ ﴿خَوْفٍ﴾، وإفرادُهُ بالضَّميرِ للدَّلالَةِ على أنَّ الخوفَ مِن الملأِ كانَ بسببِهِ.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: لغالِبٌ فيها ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكِبْرِ والعُتُوِّ حتَّى ادَّعَى الرُّبُوبيَّةَ واسترَقَّ أسباطَ الأنبياءِ.

(٨٤) ـ ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لَمَّا رَأَى تَخوُّفَ المُؤمنينَ به: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ وثِقُوا به واعتمَدُوا عليهِ ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾: مُستَسْلِمينَ لقَضاءِ اللهِ مُخلِصِينَ لهُ، وليسَ هذا مِن تَعليقِ الحُكمِ بشَرْطَيْنِ، فإنَّ المعلَّقَ بالإيمانِ وجوبُ التَّوكُّلِ فإنَّه المُقتضي لهُ، والمَشروطَ بالإسلامِ حصولُه فإنَّهُ لا يُوجَدُ مع التَّخليطِ، ونَظيرُهُ: «إن دعاكَ زيدٌ فأجِبْهُ إنْ قَدَرْتَ».

(٨٥) ـ ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنَّهم كانُوا مُؤمنينَ مُخلصينَ ولذلك أُجيبَتْ دَعْوَتُهُم.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾: موضِعَ فِتنَةٍ ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ أي: لا تُسَلِّطْهُم علينا فيَفْتِنُونَنا.

(٨٦) ـ ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مِن كيدِهِم وشُؤمِ مُشاهدَتِهم.

وفي تَقديمِ التَّوكُّلِ عَلى الدُّعاءِ تَنبيهٌ على أنَّ الدَّاعِيَ يَنبَغِي أَنْ يَتوكَّلَ أولًا لتُجابَ دَعْوَتُه.

(٨٧) ـ ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا ﴾؛ أي: اتَّخذا مَباءَةً[1] ﴿ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ تَسكنونَ فيها، أو ترجِعونَ إليها للعِبادَةِ.

﴿وَٱجْعَلُوا۟﴾ أنتُما وقومُكُما ﴿بُيُوتَكُمْ﴾: تلك البيوتَ ﴿قِبْلَةً﴾: مُصلًّى، وقيلَ: مَساجِدَ مُتوجِّهَةً نحوَ القِبلَةِ، يَعني: الكعبةَ، وكانَ مُوسى يُصلِّي إلَيْها ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها؛ أُمِرُوا بذلك أوَّلَ أَمْرِهِم لئلَّا يظهرَ عليهِم الكفَرَةُ فيُؤْذُوهُم ويَفتِنُوهُم عن دينِهُم.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنُّصرَةِ في الدُّنْيَا والجَنَّةِ في العُقْبَى.

وإنَّما ثَنَّى الضَّميرَ أَوَّلًا لأنَّ التَّبوُّءَ للقَومِ واتِّخاذَ المَعابد ممَّا يَتعاطاه رُؤوسُ القَوْمِ بتَشاوُرٍ، ثمَّ جَمَعَ لأنَّ جعلَ البُيوتِ مَساجِدَ والصَّلاةَ ممَّا يَنْبَغي أَنْ يفعلَهُ كلُّ أحدٍ، ثمَّ وحَّدَ لأنَّ البشارةَ في الأصلِ وَظيفَةُ صاحبِ الشَّريعَةِ.

(٨٨) ـ ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾: ما يتزيَّنُ بهِ مِن اللباسِ والمراكبِ ونحوهما ﴿وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: وأنواعًا مِن المالِ.

﴿ربَّنا لِيَضِلُّوا عن سَبيلِكَ﴾[2] دعاءٌ عليهِم بلَفظِ الأمرِ بما عَلِمَ مِن مُمارَسَةِ أَحوالِهِم أنَّه لا يَكونُ غيرُهُ، كقولِكَ: «لعنَ اللهُ إبليسَ».

وقيلَ: اللَّامُ للعاقِبَةِ، وهي مُتعلِّقَةٌ بـ﴿ءَاتَيْتَ﴾.

ويَحتمِلُ أَنْ تكونَ للعلَّةِ؛ لأنَّ إيتاءَ النِّعمِ على الكُفرِ استِدراجٌ وتَثبيتٌ

---

(١) قوله: «اتخذوا مباءة»؛ أي: منزلاً. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ١٨٩).

(٢) قراءة: ﴿لِيَضِلُّوا﴾ بفتح الياء من الثلاثي هي قراءة ابن عامر وابن كثير وأبي عمرو ونافع، والظاهر أن ما سيأتي من التفسير عليها، وقرأ باقي السبعة: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء من الرباعي. انظر: «السبعة» (ص: ٢٦٧)، و«التيسير» (ص: ١٠٦).

على الضَّلالِ، ولأنَّهم لَمَّا جَعَلوها سبَبًا في الضَّلالِ فكأنَّهم أُوتوهَا ليَضِلُّوا، فيكونُ ﴿رَبَّنَا﴾ تكريرًا للأوَّلِ تأكيدًا وتنبيهًا على أنَّ المَقصودَ عَرْضُ ضَلالِهِم وكُفْرانِهِم تَقدِمَةً لقولِه:

﴿رَبَّنَا اَطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾: أَهْلِكْهَا، والطَّمْسُ: المَحْقُ[1]، وقُرِئَ: «اطمُسْ» بالضَّمِّ[2].

﴿وَاَشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾؛ أي: وأَقْسِها واطبَعْ عليها حتَّى لا تَنْشَرِحَ للإيمان.

﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ جوابٌ للدُّعاءِ، أو دُعاءٌ بلفظِ النَّهيِ، أو عَطفٌ على ﴿لِيَضِلُّوا﴾ وما بينَهُما دعاءٌ مُعترِضٌ.

(٨٩) ـ ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ يَعني: مُوسَى وهارون؛ لأنَّه[3] كانَ يُؤَمِّنُ.

﴿فَاسۡتَقِيمَا﴾: فاثْبُتَا على ما أنتُمَا عليه مِن الدَّعوَةِ وإلزامِ الحُجَّةِ، ولا تستعجِلَا فإنَّ ما طَلَبْتُمَا كائِنٌ ولكنْ في وقتِه، رُوِيَ أنَّه مكَثَ فيهِمْ بعدَ الدُّعاءِ أربعينَ سَنَةً.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾: طريقَ الجَهَلَةِ في الاستعجالِ، أو عدمِ الوثوقِ والاطمِئنانِ بوعدِ اللهِ.

وعن ابنِ عامرٍ: ﴿ولا تَتَّبعانِ﴾ بالنُّونِ الخَفيفَةِ وكسرِهَا لالتقاءِ السَّاكنينِ، «ولا تَتْبعانِّ» مِن «تبعَ»، «ولا تَتْبَعَانِ» أيضًا[4].

---

(١) في نسخة الخيالي: «المحو»، والمحقُ هو المحوُ هنا، وأشار إلى النسختين الخفاجيُّ في «حاشيته».

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٢ ـ ٦٣) عن عمر بن علي بن الحسن والشعبي.

(٣) في هامش نسخة الخيالي: «أي لأن هارون».

(٤) ذكر عن ابن عامر ثلاث قراءات:

تشديد التاء مع تخفيف النون وهي رواية ابن ذكوان عنه في المشهور. انظر: «السبعة» (ص: ٣٢٩)، و«التيسير» (ص: ١٢٣)، و«النشر» (٢/ ٢٨٦). ولا خلاف في تشديد التَّاء في المشهور. =

(٩٠) ـ ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾؛ أي: جَوَّزْنَاهُم فـي البَحرِ حتَّى بَلَغُوا الشطَّ حافِظِينَ لَهُم. وقُرِئَ: «وَجَوَّزْنَا»[1] وهو مِن (فَعَّلَ) المُرَادِفِ لـ(فاعَلَ)؛ كضَعَّفَ وضَاعَفَ.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾: فأدرَكَهُم، يُقالُ: تَبِعْتُه حتَّى أَتْبَعْتُه[2].

﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾: باغِينَ وعادِينَ، أو: للبَغْيِ والعَدْوِ. وقُرِئَ: «وعُدُوًّا»[3].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾: لَحِقَه ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾؛ أي: بأَنَّهُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿إِنَّهُ﴾ بالكسرِ[4] على إِضمَارِ القَوْلِ، أو الاستئنافِ بدلًا وتَفْسِيرًا لـ﴿ءَامَنتُ﴾.

فنكبَ عَنِ الإيمانِ أوانَ القَبُولِ وبالغَ فيه حينَ لا يُقبَلُ.

= وتخفيف التاء مع تشديد النون، وهي روايةٌ عن ابن ذكوان كما في «السبعة» و«النشر»، وجاء في «البدور الزاهرة» (ص: ١٥٠): ولكن هذا الوجه قال فيه الداني: إنه غلط ممن رواه عن ابن ذكوان، فلا يقرأ به.

وتخفيفهما، هي رواية الأخفش الدمشقي (وهو هارون بن موسى أبو عبد الله التغلبي، وكان ثقة معمرًا، وتوفي سنة: ٢٩٢) عن أصحابه عن ابن عامر. انظر: «الحجة» للفارسي (٤/ ٢٩٣)، و«النشر» (٢/ ٢٨٧).

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات»: (ص: ٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٨٥)، عن الحسن.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «تبِعْتُهُ وأتبَعْتُه»، وأشار إلى النسختين الأنصاري في «حاشيته» (٣/ ١٩٢)، ومعنى: (تبعته حتى أتبعته): مشيتُ مِن بعدِهِ حتَّى لحقتُهُ؛ أي: وصلتُ لهُ. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات): (ص: ٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٨٦)، عن الحسن. وزاد ابن خالويه نسبتها لأبي رجاء وعكرمة وقتادة.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

(٩١) ـ ﴿ ءَآلْـَٔنَ ﴾: أتؤمِنُ الآنَ وقَدْ أَيِسْتَ مِن نَفْسِكَ ولـم يَبْقَ لكَ اختيَارٌ ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾: قبلَ ذلك مُدَّةَ عُمرِكَ ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾: الضَّالِّينَ المُضِلِّينَ عَنِ الإيمانِ.

(٩٢) ـ ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾: نبعدُكَ ممَّا وقعَ فيه قومُكَ مِن قَعْرِ البحرِ ونجعلُكَ طافِيًا، أو نُلقيكَ على نجوةٍ[١] مِن الأرضِ ليراكَ بَنُو إسرائيلَ.

وقرأَ يعقوبُ: ﴿نُنْجِيكَ﴾ مِنْ أَنْجَى[٢].

وقُرِئَ: «نُنَحِّيكَ» بالحاءِ[٣]؛ أي: نُلقيكَ بناحيةِ السَّاحلِ.

﴿بِبَدَنِكَ ﴾ في مَوضعِ الحالِ؛ أي: ببدنِكَ عاريًا عَنِ الرُّوحِ، أو: كامِلًا سويًّا، أو: عريانًا مِن غيرِ لباسٍ، أو: بدرعِكَ، وكانَتْ له درعٌ مِن الذهبِ يعرفُ بها.

وقُرِئَ: «بأبدانِكَ»[٤]؛ أي: بأجزاءِ البَدنِ كلِّها؛ كقَولِهِم: هوى بأجرامِهِ، أو: بدُروعِكَ؛ كأنَّه كانَ مُظاهِرًا بينَها[٥].

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾: لِمَن وراءَكَ علامةً، وهم بنو إسرائيلَ إذ كانَ في نُفوسِهِم مِن عَظَمتِهِ ما خيِّلَ إليهم أنَّه لا يهلكُ، حتَّى كذَّبُوا موسَى عليهِ السَّلامُ حينَ أخبرَهُم بغرقِهِ، إلى أنْ عايَنُوه مطَّرَحًا[٦] على ممرِّهِم مِن السَّاحلِ.

---

(١) النَّجْوةُ: المكان المرتفع.

(٢) التخفيف قراءة يعقوب، وقرأ باقي العشرة بالتشديد. انظر: «النشر» (٢/ ٢٥٩).

(٣) انظر: «المحتسب» (١/ ٣١٦)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٣)، عن أبيٍّ وابن السميفع وغيرهما. وذكرها ابن الجزري في «النشر» (١/ ١٦) عن ابن السميفع وأبي السمال مثالًا على ما نقله غير الثقة مما غالب إسناده ضعيف.

(٤) انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٦٩)، و«الكشاف» (٤/ ٨٩)، عن أبي حنيفة.

(٥) قوله: «مظاهرًا بينها»؛ أي: لبس بعضها فوق بعض، ظاهر بين ثوبين؛ أي: طارَقَ بينهما وطابَقَ.

(٦) في نسخة الخيالي: «مطروحاً». وفي نسخة الطبلاوي: «منطرحًا».

أو: لِمَن يأتي بعدكَ مِن القُرونِ إذا سَمِعُوا مآلَ أمرِكَ ممَّنْ شاهدَكَ عبرةً ونكالًا عَن الطُّغيانِ، أو حُجَّةً[1] تدلُّهُم على أنَّ الإنسانَ على ما كانَ عليهِ مِن عظمِ الشَّأنِ وكبرياءِ الملكِ مملوكٌ مَقهورٌ بعيدٌ عَن مَظانِّ الرُّبوبيَّةِ.

وقُرِئَ: «لِمَنْ خلَقَكَ»[2]؛ أي: لِخَالِقِكَ آيةً كسائرِ الآياتِ؛ فإنَّ إفرادَهُ إيَّاكَ بالإلقاءِ إلى السَّاحلِ دليلٌ على أنَّه تعمُّدٌ منه لكَشفِ تَزويرِكَ وإماطَةِ الشُّبهَةِ في أَمرِكَ، وذلك دليلٌ على كمالِ قُدرَتِه وعِلْمِهِ وإرادَتِه، وهذا الوَجْهُ أيضًا مُحتَمَلٌ على المشهورِ.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ لا يَتفكَّرُونَ فيها ولا يعتبرونَ بهَا.

(٩٣) ـ ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا﴾: أَنْزَلْنا ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: مَنزِلًا صالِحًا مَرْضِيًّا وهو الشَّامُ ومِصْرُ ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: مِن اللذائذِ.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: فمَا اختلَفُوا في أمرِ دينِهِم إلَّا مِن بعدِ ما قَرَؤُوا التَّوراةَ وعلِموا أحكامَها، أو: في أمرِ مُحمَّدٍ ﷺ إلَّا مِن بعدِ ما علمُوا صِدقَهُ بنُعوتِهِ ونِظامِ مُعجِزاتِه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيَميزُ المحقَّ مِن المبطِلِ بالإنجاءِ والإهلاكِ.

(٩٤) ـ ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِن القصصِ على سَبيلِ الفَرْضِ والتَّقديرِ ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنَّهُ مُحقَّقٌ عندَهُم ثابتٌ في كتبِهِم على نحوِ ما ألقَيْنَا إليكَ، والمرادُ: تَحقيقُ ذلك، والاستشهادُ بما في الكُتُبِ المتقدِّمَةِ،

---

(١) قوله: «أو حجة» عطف على «عبرة».

(٢) نسبت لعلي رضي الله عنه في «تفسير الثعلبي» (١٤/ ٢٨٣)، ونسبها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٣٤٩) لابن السميفع وأبي المتوكل وأبي الجوزاء.

وأنَّ القُرآنَ مُصدِّقٌ لِمَا فيها، أو وصفُ أهلِ الكتابِ بالرُّسوخِ في العلمِ بصحَّةِ ما أُنزلَ إليه، أو تهييجُ الرَّسولِ وزيادةُ تثبيتِهِ، لا إمكانُ وُقوعِ الشَّكِّ له، ولذلك قالَ عليهِ السَّلامُ: «لا أشكُّ ولا أسألُ»(١).

وقيلَ: الخطابُ للنَّبيِّ والمرادُ به أمَّتُهُ، أو لكلِّ مَن يسمَعُ؛ أي: إن كنتَ أيُّها السَّامِعُ في شَكٍّ ممَّا أَنْزَلْنا على لسانِ نَبيِّنَا إليك، وفيه تنبيهٌ على أنَّ مَن خالجَتْهُ شُبهَةٌ في الدِّينِ ينبغي أن يسارِعَ إلى حلِّهَا بالرُّجوعِ إلى أهلِ العِلْمِ.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ واضحًا أنَّه لا مدخلَ للمِرْيَةِ فيه بالآياتِ القاطعةِ.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بالتَّزَلْزُلِ عمَّا أنتَ عليه مِن الحزمِ واليقينِ.

(٩٥) - ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ أيضًا مِن بابِ التَّهييجِ والتَّثبيتِ وقطعِ الأطماعِ عنه كقَوْلِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

(٩٦) - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ ثبتَتْ عليهِم ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بأنَّهُم يَموتونَ على الكُفرِ أو يُخلَّدونَ(٢) في العذابِ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إذ لا يكذبُ كلامُه ولا يَنتَقِضُ قَضاؤُه.

(٩٧) - ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ فإنَّ السَّببَ الأَصليَّ لإيمانِهم - وهو تعلُّقُ إرادَةِ اللهِ تَعالى بهِ - مَفقودٌ ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وحينئذٍ لا يَنفَعُهُم كمَا لا يَنفَعُ فِرعَوْنَ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٧٩)، وفي «مصنفه» (١٠٢١١)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٨٨) عن قتادة مرسلاً. وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٤٠): مُعضَل.

(٢) في نسخة الطبلاوي: «ويخلدون».

(٩٨) ـ ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾: فهـلَّا كانَـتْ قريـةٌ مِن القُرَى الَّتـي أهلَكْنَاها آمنَـتْ قبـلَ مُعاينَةِ العَذابِ ولـم تُؤخر إليها كمـا أَخَّرَ فِرعـون ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأَنْ يقبلَهُ اللهُ مِنْهَا ويكشـفَ العـذابَ عَنْها.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ لكنَّ قومَ يُونُس ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ أَوَّلَ ما رَأَوْا أمارَةَ العذابِ ولم يُؤخِّرُوهُ إلى حُلولِه ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

ويجـوزُ أَنْ تكـونَ الجُملَـةُ في مَعنـى النَّفيِ لتَضمُّـنِ حرفِ التَّحضيـضِ مَعناه، فيكـونُ الاسـتثناءُ مُتَّصِـلًا لأنَّ المُـرادَ مِـن القُـرَى أهاليهَـا؛ كأَنَّه قـالَ: ما آمَـنَ أهلُ قريَـةٍ مِـن القُـرَى العاصِيَـةِ فنَفَعَهُم إيمانُهُـم إلَّا قومَ يُونُـسَ، ويؤيِّدُهُ قـراءَةُ الرَّفعِ في «قومُ»[1] علـى البَدَلِ.

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى آجالِهم.

رُوِيَ أنَّ يُونُسَ عليهِ السَّلامُ بُعثَ إلى نِينوَى مِن المَوْصِلِ فكذَّبوهُ وأصَرُّوا عليهِ، فوعدَهُم بالعذابِ إلى ثلاثٍ، وقيلَ: إلى أربعينَ، فلمَّا دَنَا الموعدُ غامَت السَّماءُ غيمًا أسوَدَ ذا دُخانٍ شَديدٍ فهبطَ حتَّى غشيَ مَدينَتَهُم، فهابُوا فطَلَبُوا يونُسَ فلَمْ يَجِدُوهُ، فأيقَنُوا صِدقَهُ، فلبسُوا المُسُوحَ[2] وبَرَزُوا إلى الصَّعيدِ بأنفُسِهم ونِسائِهم وصِبْيَانِهم ودَوَابِّهِم، وفرَّقُوا بينَ كلِّ والدَةٍ وولدِها، فحنَّ بعضُهَا إلى بَعْضٍ وعَلَت الأَصواتُ والعَجيجُ، وأَخْلَصُوا التَّوبَةَ وأظهَرُوا الإيمانَ وتَضَرَّعُوا إلى اللهِ، فرَحِمَهُم وكشَفَ عَنْهُم، وكانَ يومَ عاشوراءَ يومَ الجُمعةِ[3].

---

(١) رويت عن الجَرْمي والكسائي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦٣)، و«الكشاف» (٤/ ٩٤).

(٢) المُسُوح؛ جمعُ مِسْح، وهو اللباس؛ أي: لبسوا الألبسة الخلقة تذلُّلاً. انظر: «حاشية الخفاجي».

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ٢٩٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ١٥١)، عن وهب، وروى الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٢٩٥) نحوه عن سعيد بن جبير.

(٩٩) ـ ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيثُ لا يَشذُّ منهُم أحدٌ.

﴿جَمِيعًا﴾: مُجتمعينَ على الإيمانِ لا يَختَلِفُونَ فيه، وهو دليلٌ على القَدَرِيَّةِ في أنَّه تَعالى لَمْ يَشأْ إيمانَهُم أَجمَعِينَ، فإنَّ مَن شاءَ إيمانَهُ يؤمِنُ لا مَحالةَ، والتَّقييدُ بمَشيئَةِ الإلجاءِ خلافُ الظَّاهرِ.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ بما لَمْ يَشَأِ اللهُ مِنْهُم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ وترتيبُ الإكراهِ على المَشيئَةِ بالفَاءِ، وإيلاؤُهَا حرفُ الاستِفهامِ للإنكارِ، وتَقديمُ الضَّميرِ على الفعلِ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ خِلافَ المَشيئةِ مُستَحيلٌ فلَا يُمكِنُ تحصيلُهُ بالإكراهِ عليه فضلًا عن الحثِّ والتَّحريضِ عليه؛ إذ رُوِيَ أنَّه كانَ حَرِيصًا على إيمانِ قومِه شديدَ الاهتِمامِ به فنزلَتْ، فلذلك قرَّره بقولِه:

(١٠٠) ـ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ﴾ باللهِ ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: إلَّا بإرادَتِه وألطافِهِ وتَوفيقِهِ، فلا تُجْهِدْ نفسَكَ في هُداهَا فإنَّه إلى اللهِ.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾: العذابَ، أو الخذلانَ فإنَّه سببُهُ. وقُرِئَ بالزَّايِ[1].

وقرأَ أبو بكرٍ: ﴿ونَجْعَل﴾ بالنونِ[2].

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: لا يَستعمِلُونَ عُقولَهُم بالنَّظرِ في الحججِ والآياتِ، أو: لا يعقلونَ دلائلَهُ وأحكامَهُ لِمَا عَلى قُلوبِهِم مِن الطَّبعِ، ويؤيِّدُ الأوَّلَ قولُه:

(١٠١) ـ ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾؛ أي: تَفكَّرُوا ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن عَجائبِ صُنعِهِ ليدلَّكُم على وحدَتِه وكمالِ قُدرَتِهِ، و﴿مَاذَا﴾ إنْ جُعِلَت استفهاميَّةً عَلَّقَتْ ﴿ٱنظُرُوا۟﴾ عَن العَملِ.

---

(١) نسبت للأعمش، انظر: «تفسير الثعلبي» (١٤/ ٢٩٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٤٥)، و«البحر المحيط» (١٢/ ١٨٢).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ في علمِ اللهِ وحُكمِهِ، و«ما» نافيةٌ، أو استفهاميَّةٌ في مَوضعِ النَّصبِ.

(١٠٢) ـ ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾: مثلَ وَقائِعِهم ونزولِ بأسِ اللهِ بِهم إذْ لا يَستَحِقُّونَ غيرَه، مِن قولِهم: «أيامُ العَرَبِ» لوَقَائِعِها.

﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك، أو: فانتَظِرُوا هَلاكِي إنِّي مَعَكُم مِن المُنتَظِرينَ هلاكَكُم.

(١٠٣) ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطفٌ عـلـى مَحذوفٍ دلَّ عليهِ: ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ كأنَّه قيلَ: نُهلكُ الأُممَ ثمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا ومَن آمنَ بهم، على حكايةِ الحالِ الماضيةِ.

﴿كذلكَ حقًّا علينا نُنَجِّ المؤمنين﴾ كذلكَ الإنجاءِ ـ أو: إنجاءً كذلك ـ نُنجِّي مُحمَّدًا وصَحبَهُ حينَ نهلكُ المُشركينَ، و﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ اعتراضٌ، ونصبُه بفعلِهِ المقدَّرِ، وقيلَ: بدلٌ مِن ﴿كَذَٰلِكَ﴾.

وقرأَ حفصٌ والكسائيُّ: ﴿نُنجِ المُؤمنين﴾ مخفَّفًا[1].

(١٠٤) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خـطـاب لأهـلِ مكَّـةَ: ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ وصـحَّتِه ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ فهذا خُلاصَةُ ديني اعتقادًا وعَمَلًا، فاعرِضُوهَا على العقلِ الصِّرْفِ، وانظُرُوا فيهَا بعَيْنِ الإنصافِ؛ لتَعْلَمُوا صِحَّتَها وهو أنِّي لا أَعبدُ ما تَخلقُونَهُ وتَعْبدُونَهُ ولكِنْ أَعْبُدُ خالِقَكُم الَّذي يوجِدُكُم ويَتوفَّاكُم، وإنَّما خصَّ التَّوَفِّيَ بالذِّكرِ للتَّهديدِ.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بمـا دلَّ عليـهِ العقـلُ ونطَـقَ بـهِ الوَحـيُ، وحَذْفُ

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٣٠)، و«التيسير» (ص: ١٢٣).

الجارُّ مِن ﴿أَنْ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ مِنَ المُطَّردِ مَع «أنْ» و«أنَّ» وأن يكونَ مِن غيرِه، كقولِه(١):

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ

(١٠٥) ـ ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾ عطفٌ على ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ غيرَ أنَّ صِلَةَ «أنْ» محكيَّةٌ بصِيغَةِ الأمرِ، ولا فرقَ بينَهُمَا في الغَرَضِ لأنَّ المقصود وَصْلُها بمَا يتضمَّنَ مَعنى المَصدرِ لتَدُلَّ معَهُ عليهِ، وصِيَغُ الأفعالِ كلُّهَا كذلك سواءٌ الخبرُ مِنْهَا والطَّلَبُ، والمَعنى: وأُمِرْتُ بالاستقامَةِ في الدِّينِ والاستِدادِ فيه بأداءِ الفرائضِ والانتِهاءِ عَن القَبائحِ، أو: في الصَّلاةِ باستِقبالِ القِبْلَةِ.

﴿حَنِيفًا﴾ حالٌ مِن الدِّينِ أو الوجهِ ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

(١٠٦) ـ ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ بنَفسِهِ إنْ دعوتَه أو خذلْتَه.

﴿فَإِن فَعَلْتَ ﴾: فإنْ دَعَوْتَه ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جزاءٌ للشَّرطِ وجَوابٌ لسُؤالٍ مُقدَّرٍ عَن تَبعَةِ الدُّعاءِ.

(١٠٧) ـ ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾: وإنْ يُصِبْكَ به ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ ﴾ يرفعُه ﴿إِلَّا هُوَ ﴾: إلَّا اللهُ.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ ﴾: فلا دافعَ ﴿لِفَضْلِهِۦ ﴾ الَّذي أرادَكَ بـه، ولعلَّهَ ذكرَ

---

(١) صدر بيت ورد في «الكتاب» (١/ ٣٧)، و«خزانة الأدب» (١/ ٣٣١)، وغيرها، واختلف في نسبته، قال البغدادي: نسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة. وعجزه:

فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نَشَبِ

وقد تقدم عند تفسير الآية (٦٨) من سورة البقرة.

الإرادةَ معَ الخَيرِ والمسَّ معَ الضُّرِّ ـ مع تَلازُمِ الأمرينِ ـ للتَّنبيهِ على أنَّ الخيرَ مُرادٌ بالذَّاتِ وأنَّ الضُّرَّ إنَّما مَسَّهُم لا بالقصدِ الأوَّلِ.

ووضعُ الفَضلِ مَوضِعَ الضَّميرِ للدَّلالَةِ على أنَّه مُتفَضِّلٌ بما يُريدُ بِهِمْ مِن الخَيرِ لا استحقاقَ لهم عليه، ولم يَستَثْنِ لأنَّ مُرادَ اللهِ لا يُمكِنُ رَدُّه.

﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾: بالخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فتعرَّضُوا لرَحْمَتِه بالطَّاعَةِ ولا تيأَسُوا مِن غُفْرانِه بالمَعصِيَةِ.

(١٠٨) ـ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: رسولُهُ والقُرآنُ، ولَمْ يبقَ لَكُمْ عُذرٌ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمانِ والمُتابعَةِ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ لأنَّ نفعَهُ لها.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكُفْرِ بِهِما ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأنَّ وبالَ الضَّلالِ علَيْهَا.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾: بحفيظٍ مَوكولٍ إليَّ أمرُكُم وإنَّما أنَا بَشيرٌ ونَذيرٌ.

(١٠٩) ـ ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ بالامتثالِ والتَّبليغِ ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على دَعْوَتِهم وتحمُّلِ أَذِيَّتِهِم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالنُّصْرَةِ أو بالأمرِ بالقِتالِ.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يُمكِنُ الخَطَأُ في حكمِه؛ لاطِّلاعِهِ على السَّرائرِ اطِّلَاعَهُ على الظَّواهِرِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سُورَةَ يُونُسَ أُعطِي مِن الأجرِ عشرَ حَسَناتٍ بعَدَدِ مَن صدَّقَ بيُونُسَ وكذَّبَ به، وبعَددِ مَن غرِقَ مع فِرعونَ»(١).

***

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٤/ ١٥٦)، والواحدي في «التفسير الوسيط» (٢/ ٥٣٧)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال: هذا حديث فضائل السور مصنوع بلا شك. وقد تقدم الكلام عليه، وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

سورة يونس (١)

عليه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٤ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦ ﴾ .

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ هذه السورة مكّية إلا ثلاث آيات فإنها نزلت بالمدينة وهي ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ ۝٩٤ ﴾ [يونس] إلى آخرهنّ قاله ابن عباس. وسبب نزولها أن أهل مكة قالوا: لم يجد الله رسولاً إلاّ يتيم أبي طالب

---

(١) مكّية وهي مئة وتسع آيات.

فنزلت[١]. ومناسبتها [٢٥٩/ب] لما قبلها أنه تعالى لمّا أنزل ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة] وذكر تكذيب المنافقين، ثم قال ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة] وهو محمد ﷺ، أتبع ذلك بذكر الكتاب الذي أُنزل والنبي الذي أُرسل، وأن ديدن الضّالين واحدٌ، منافقيهم ومشركيهم في التكذيب بالكتب الإلهية وبمن جاء بها، ولِمَا جاء بها. ولمّا كان ذكر القرآن مقدّماً على ذكر الرّسول في آخر السورة، جاء في أول هذه السورة كذلك، فتقدم ذكر الكتاب على ذكر الرسول. والظاهر أن «تلك» باقية على موضوعها من استعمالها لبُعد المشار إليه. وقال مجاهد وقتادة: وأشار «بتلك» إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل والزّبور، فتكون الآيات: القصص التي وصفت في تلك الكتب. وقال الزّجاج: إشارة إلى آيات القرآن التي جرى ذكرها.

والهمزة في «أكان» للاستفهام على سبيل الإنكار لوقوع العجب من الإيحاء إلى بشر منهم بالإنذار والتبشير، أي: لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة؛ أوحى إلى رسلهم الكتب بالتبشير والإنذار على أيدي من اصطفاه منهم. واسم «كان»: «أن أوحينا» و«عجبا» الخبر. و«للناس» قيل: هو في موضع الحال من «عجباً» لأنه لو تأخر لكان صفة، فلما تقدّم كان حالاً. وقيل: يتعلق بقوله «عجباً» وليس مصدراً بل هو بمعنى معجب، والمصدر إذا كان بمعنى المفعول جاز تقديم معموله عليه كاسم المفعول. وقيل: هو تبيين أي: أعني للناس. وقيل: يتعلق بـ«كان» وإن كانت ناقصة، وهذا لا يتمّ إلا إذا قُدّرت دالّةً على الحدث؛ فإنها إن تمحّضت للدلالة على الزّمان لم يصحّ تعلّقٌ بها. وقرأ عبد الله: عجب،

(١) انظر أسباب النزول ص١٧٩.

فقيل: «عجب» اسم كان، و«أن أوحينا» هو الخبر، فيكون نظير قوله[١]:

[كـأنّ سبيئـة مـن بيـت رأسٍ] يكـون مـزاجَهـا عسـلٌ ومـاءُ

وهذا محمول على الشذوذ، وهذا تخريج الزمخشري[٢] وابن عطية. وقيل: «كان» تامّة، و«عجب» فاعل بها، والمعنى: أحدث للناس عجب لأن أوحينا، وهذا التوجيه حسن. و«أنْ أنذر» «أنْ» تفسيرية أو مصدرية مخفّفة من الثقيلة وأصله: أنّه أنذر الناس، على معنى أن الشأن قولنا: أنذر الناس قالهما الزمخشري[٣]. ويجوز أن تكون «أنْ» المصدرية الثنائية[٤] الوضع لا المخفّفة من الثقيلة، لأنها تُوصَل بالماضي والمضارع والأمر، فوُصلت هنا بالأمر، وينسبك منها معه مصدر تقديره: بإنذار الناس. وهذا الوجه أولى من التفسيرية لأن الكوفيين لا يثبتون «لأنْ» أن تكون تفسيرية، ومن المصدرية المخفّفة من الثقيلة لتقدير[٥] حذف اسمها وإضمار خبرها وهو القول، فيجتمع فيها حذف الاسم والخبر، ولأن التأصيل خير من دعوى الحذف بالتخفيف «قدم صدق» قال ابن عباس وغيره: هي الأعمال الصالحة من العبادات. «عند ربهم» سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة. ولما كان السّعي والسّبق بالقدم سُمّيت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً، كما سمّيت النعمة يداً لأنها تُعطَى باليد.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارة إلى الإيحاء بالإنذار والتبشير.

---

(١) البيت لحسّان في ديوانه ص٥٩. وهو من الوافر

(٢) انظر الكشاف ٢: ٢٢٤.

(٣) الكشاف ٢: ٢٢٤.

(٤) ق: الشائبة.

(٥) ق: التقدير.

﴿لَسَٰحِرٌ[1] مُّبِينٌ﴾ لَشيء يُعلَّل به وهو[2] شيء لا حقيقة له كما قال[3]:

[أرانا مُـوضِعيـن لأمـر غيـبٍ] ونُسحـر بـالطعـام وبـالشـراب

[من الوافر]

أي: نُعلَّل بهما.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ تقدم تفسير مثل هذه الجملة في سورة الأعراف[4] ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الآية، أي: المتصف بالإيجاد والتدبير والكبرياء، وهو ربكم الناظر في مصالحكم فهو المستحق للعبادة، إذ لا يصلح للعبادة إلا هو تعالى، فلا تشركوا به بعض خلقه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ حضٌّ على التدبّر والتفكّر في الدلائل الدالّة على ربوبيته وإمحاض العبادة له تعالى.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ الآية، ذكر ما يقتضي التذكر وهو كون مرجع الجميع [٢٦٠/أ] إليه، وأكّد هذا الإخبار بأنه وعد الله الذي لا شكّ في صدقه. ثم استأنف الإخبار وفيه معنى التعليل[5] بابتداء الخلق وإعادته وأنّ مقتضى الحكمة بذلك هو جزاء المكلّفين على أعمالهم. وانتصب «وعد الله حقاً» على أنهما مصدران مؤكّدان لمضمون الجملة، والتقدير: وَعَد اللهُ وَعْداً،

---

(١) ق: بسحر. وأخذ المصنّف بقراءة الجمهور ونافع: لَسِحْرٌ، بدون ألف إشارة إلى الوحي. وقراءة الكوفيين وابن كثير: لساحر، بالألف إشارة إلى الرسول ﷺ. انظر التيسير ص١٢٠، والبحر ٥: ١٢٣.

(٢) ق: وهي.

(٣) البيت لامرىء القيس في ديوانه ص٩٧.

(٤) انظر شرح الآية ٥٤ من الأعراف.

(٥) ق: التعليق.

فلمّا حذف الناصب أضاف المصدر إلى الفاعل، وذلك كقوله تعالى ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة]. والتقدير في «حقّاً»: حَقَّ ذلك حقًّا. وقيل: انتصب «حقًّا» بوَعْد على تقدير: في، أي: وَعْد الله في حقّ. وقال علي بن سليمان: التقدير: وقت حقّ، وأنشد(١): [من الطويل]

أحقًّا عباد الله أن لست خارجاً ولا والجاً إلاّ عليّ رقيب

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ الآية، لمّا ذكر تعالى الدلائل على ربوبيّته من إيجاد هذا العالم العلوي والسفلي، ذكر ما أودع في العالم العلوي من هذين الجوهرين النيّرَيْن المشرقَيْن، فجعل الشمس ضياءً: أي ذات ضياء أو مضيئة أو نفس الضياء مبالغة. و«جعل» يُحتمل أن تكون بمعنى صيّر فيكون «ضياءً» مفعولاً ثانياً، ويُحتمل أن تكون بمعنى خلق فتكون حالاً.

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذا نور أو منوّراً أو نفس النور مبالغة، إذ هما مصدران. ولمّا كانت الشمس أعظم جِرماً خُصَّت بالضياء لأنه هو الذي له سطوع ولمعان، وهو أعظم من النور. والظاهر عَوْد الضمير على القمر أي: مسيره منازل، أو قدّره ذا منازل. وعاد الضمير عليه وحده لأنه هو المراعى في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب. والمنازل هي البروج، وكانت العرب تنسب إليها الأنواء وهي ثمانية وعشرون منزلة: الشرطين والبطين والثّريا والدّبران والهقعة والهنعة والذراع والنثرة والطرف والجبهة والزبرة والصرفة والعَوّاء والسّماك والغفر والزّبانان والإكليل والقلب والشّولة والنعائم والبلدة وسعد الذّابح وسعد بلع وسعد السّعود وسعد الأخبية والفرع المقدم والفرع المؤخر والرشاء وهو الحوت. واللام متعلّقة بقوله «وقدره منازل».

(١) البيت لابن الدمينة في ديوانه ص١٠٣. وروايته: لست صادراً ولا وارداً.

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية، اختلافهما: تعاقبهما وكون أحدهما يخلف الآخر.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الأجرام النّيرة التي فيها، والملائكة المقيمين بها وغير ذلك مما يعلمه. «والأرض» من الجوامد والمعادن والنبات والحيوان. وخصّ المتّقين لأنهم الذين يخافون العواقب فيحملهم الخوف على تدبّرهم ونظرهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية، الظاهر أن الرجاء هو التأميل والطمع، أي: لا يؤملون رجاء ثوابنا وعقابنا، أو معنى لا يخافون.

والظاهر أن قوله ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ﴾ هو قِسْم من الكفار غير القسم الأول وذلك لتكرير الموصول فيدلّ على المغايرة، ويكون معطوفاً على اسم «إنّ»، ويكون «أولئك» إشارة إلى صنفي الكفار: ذي الدنيا المتوسّع فيها الناظر في الآيات فلم يؤثر عنده [رجاء] لقاء الله بل رضي بالحياة الدنيا لتكذيبه بالبعث والجزاء، والعادم التوسّع[1] الغافل عن آيات الله الدالّة على الهداية. ويحتمل أن يكون من عطف الصفات فيكون «والذين هم عن آياتنا غافلون» [هم الذين] لا يرجون لقاء الله.

---

(١) ق: المتوسّع.

والظاهر أنّ ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ عطف على الصلة، ويحتمل أن تكون واو الحال أي: وقد اطمأنّوا بها. والآيات: قيل آيات القرآن أو العلامات الدالّة على الوحدانية والقدرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية، أي: يزيدهم في هداهم بسبب إيمانهم السابق ويثيبهم، أو يهديهم إلى طريق الجنة بسبب [٢٦٠/ب] إيمانهم السابق. والظاهر أن يكون «تجري» مستأنفاً، فيكون قد أخبر عنهم بخبرين عظيمين: أحدهما هداية الله تعالى لهم وذلك في الدنيا والآخرة، وبجريان الأنهار وذلك في الآخرة. كما تضمّنت الآية في الكفّار شيئين: أحدهما اتّصافهم بانتفاء رجاء لقاء الله وما عطف عليه، والثاني مقرّهم ومأواهم. فصار تقسيماً للفريقين في المعنى.

لمّا هداهم ونعّمهم بالجنة نزّهوا الله تعالى وقدّسوه بقولهم ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾. و«اللهم» تقدم الكلام عليه[1].

﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ﴾ أي: تحيّة بعضهم لبعض، أو تحيّة الملائكة لهم كما قال ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد]. و«أنْ» هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن لازم الحذف، والجملة بعدها[2] خبر أنّ. [و«أنْ»] وصلتها خبر قوله «وآخر دعواهم». وزعم صاحب النظم أنّ «أنْ» هنا زائدة، و«الحمد لله» خبر «وآخر دعواهم» وهو مخالف لنصّ النحويين.

﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ

---

(١) انظر تفسير الآية ٢٦ من آل عمران.

(٢) ق: بعد.

ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ﴾ الآية، قال مجاهد: نزلت في دعاء الرجل على نفسه وماله أو ولده ونحو هذا، فأخبر تعالى أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابته إلى الخير لأهلكهم. وانتصب «استعجالهم» على أنه مصدر تشبيهي تقديره: استعجالاً مثل استعجالهم. وقال الزمخشري[1]: أصله: ولو يعجّل الله للناس [الشّر] تعجيله لهم الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطَلِبَتهم، كأنّ استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم.انتهى. مدلول عجّل غير مدلول استعجل، لأن عجّل تدلّ على الوقوع واستعجل تدلّ على طلب التعجيل، وذلك واقع من الله تعالى وهذا مضاف إليهم، فلا يكون التقدير على ما قاله الزمخشري. فيحتمل وجهين: أن يكون التقدير: تعجيلاً مثل استعجالهم بالخير، فشبّه التعجيل بالاستعجال لأن طلبتهم للخير ووقوع تعجيله مقدّم عندهم على كل شيء. والثاني: أن يكون ثَمّ محذوف يدلّ عليه المصدر تقديره: ولو يعجّل الله للنّاس الشّر إذا استعجلوا به استعجالهم بالخير، لأنهم كانوا يستعجلون بالشّر ووقوعه على سبيل التّهكم كما كانوا يستعجلون بالخير. وقرىء: لقُضي، مبنيًّا للمفعول، أجلُهم: بالرفع. ولقَضَى، مبنيًّا للفاعل، وفيه ضمير يعود على الله تعالى، وأجلَهم: نصب على المفعول. والفاء في «فنذر»

(١) الكشاف ٢: ٢٢٧.

جواب ما أخبر به عنهم على طريق الاستئناف تقديره: فنحن نذر، قاله الحوفي. وقال أبو البقاء[(١)]: «فنذر» معطوف على فعل محذوف تقديره: ولكن نمهلهم[(٢)] فنذر.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لمّا استدعوا حلول الشّر بهم وأنه تعالى لا يفعل ذلك بطلبهم بل يترك من لا يرجو لقاءه يعمّه في طغيانه، بيّن شدة افتقار الناس إليه واضطرارهم إلى استمطار إحسانه مسيئهم ومحسنهم. والظاهر أنه لا يراد بالإنسان هنا شخص معيّن وأنه لا يراد به الكفار، بل المراد الإنسان من حيث هو سواء أكان كافراً أم عاصياً بغير الكفر.

و﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ حال أي: مضطجعاً، ولذلك عُطف عليه الحالان، وذو الحال الضمير في «دعانا»، والعامل فيه «دعانا» أي: دعانا ملتبساً بأحد هذه الأحوال. واحتملت هذه الأحوال الثلاثة أنْ تكون لشخص واحد واحتملت أن تكون لأشخاص، إذ الإنسان جنس. والمعنى أن الذي أصابه الضرّ لا يزال داعياً ملتجئاً راغباً إلى الله تعالى في جميع حالاته كلها، وابتدأ بالحالة الشاقّة وهي اضطجاعه وعجزه عن النهوض وهي أعظم في الدّعاء وآكد، ثم بما يليها وهي حالة القعود وهي حالة العجز عن القيام، ثم [بما] يليها وهي حالة القيام وهي حالة العجز عن المشي فتراه يضطرب[(٣)] ولا ينهض للمشي كحالة الشيخ الهرم. [٢٦١/أ] والجملة من قوله «كأن لم يدعنا إلى ضر مسه» في موضع الحال أي: إلى كشف ضرّ مسّه. والكاف من «كذلك»

---

(١) الإملاء ٢: ٢٥.

(٢) ق: نهملهم.

(٣) ق: يضرب.

في موضع نصب أي: مثل ذلك. والإشارة [«بذلك»] إلى تزيين[١] الإعراض عن الابتهال إلى الله تعالى عند كشف الضّر وعدم شكره وذكره على ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ الآية، هذا إخبار لمعاصري رسول الله ﷺ وخطاب لهم بإهلاك من سلف قبلهم من الأمم بسبب ظلمهم وهو الكفر، على سبيل الرّدع لهم والتذكير بحال من سبق من الكفار والوعيد لهم وضرب الأمثال، فكما فعل بهؤلاء يفعل بكم. ولفظة ﴿لَمَّا﴾ مشعرة بالعلّية، وهي حرف تعليق في الماضي.

و﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾ ظاهره أنه معطوف على «ظلموا» أي: لمّا حصل هذان الأمران: مجيء الرّسل بالبيّنات وظُلْمهم أُهلكوا. والظاهر أن الضمير في قوله «وما كانوا[٢]» عائد على «القرون» وأنه معطوف على قوله «ظلموا». والكاف في «كذلك» في موضع نصب أي: مثلَ ذلك الجزاء - وهو الإهلاك - نجزي القوم المجرمين. فهذا وعيد شديد لمن أجرم يدخل فيه أهل مكة وغيرهم.

والخطاب في ﴿جَعَلْنَٰكُمْ﴾ لمن بُعث إليهم رسول الله ﷺ. والمعنى: استخلفناكم في الأرض بعد القرون المُهْلَكَة لننظر أتعملون خيراً أم شرًّا فنعاملكم على حسب عملكم. [ومعنى] «لننظر» ليتبيّن في الوجود ما[٣] علمناه أزلاً، فالنظر مجاز عن هذا.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ

(١) ق: تبيين.

(٢) ق: كان.

(٣) ق: وما.

بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا
مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا
تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا﴾ الآية، قال ابن عباس وابن الكلبي: [نزلت] في المستهزئين بالقرآن من أهل مكة، قالوا: يا محمد ائت بقرآن غير هذا فيه ما نسألك. والتبديل يكون في الذات بأن تُجعل ذات بدل ذات أخرى، ويكون في الصّفة. والتبديل هنا هو في الصفة وهو أن يُزال بعض نظمه بأن يجعل مكان آية العذاب آية الرحمة. ولمّا كان الإتيان بقرآن غير هذا غير مقدور للإنسان لم يُحتج إلى نفيه، ونُفي ما هو مقدور للإنسان وإن [كان] مستحيلاً ذلك في حقّه صلى الله عليه وسلم فقيل له «قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي».

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ﴾ الآية، هذه مبالغة في التبرئة مما طلبوا منه، أي: أن تلاوته عليهم هذا القرآن إنما هو بمشيئة الله تعالى وإحداثِه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أمّي لم يتعلّم ولم يسمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره ولا نشأ في بلدة فيها علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً يبهر كلام كلّ فصيح ويعلو كل منثور ومنظوم، مشحوناً بعلوم من الأصول والفروع وأخبار ما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله تعالى، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطّلعون على أحواله ولا يخفى عليكم شيء من أسراره ولا سمعتم منه حرفاً من ذلك ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وألصقهم به. ومفعول «شاء» محذوف أي: قل لو شاء الله

أن لا أتلوه. وجاء جواب «لو» على الفصيح من عدم إتيان اللام لكونه منفيًا بما. ويقال: دريت به وأدريت زيداً به، والمعنى: ولا أَعلمكم به على لساني. ونبّه على أن ذلك وحي من الله بإقامته فيهم عمراً وهو أربعون سنة من قبل ظهور القرآن على لساني يافعاً وكهلاً، لم تجرّبوني في كذب ولا تعاطيت شيئاً من هذا ولا عانيت اشتغالاً، فكيف أُتهم باختلاقه؟. والظاهر عود الضمير في «من قبله» على القرآن.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تقدم تفسير مثل هذا الكلام(١).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الضمير في «ويعبدون» عائد على كفار قريش الذين تقدمت محاوراتهم. [٢٦١/ب].

و﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ هو الأصنام جماد لا تقدر على نفع ولا ضرّ. قيل: إن عبدوها لم تنفعهم وإن تركوها لم تضرّهم، ومن حقّ المعبود أن يكون مثيباً على الطّاعة معاقباً على المعصية. وكان أهل الطائف يعبدون

---

(١) انظر تفسر الآية ٢١ من الأنعام.

اللّات وأهل مكة يعبدون العُزّى ومناة وأسافاً ونائلة وهبل.

وفي قوله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دلالة على أنهم يعبدون الأصنام ولا يعبدون الله. قال ابن عباس: يعنون في الآخرة، أي: النفع والضّر.

و﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ استفهام على سبيل التّهكم بما ادّعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلامٌ بأن الذي أَنبؤوا به باطل غير منطوٍ تحت الصحّة، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلّق به علمه.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لمّا ذكر تعالى الدّلالة على فساد عبادة الأصنام، ذكر الحامل على ذلك وهو الاختلاف الحادث بين الناس. والظاهر عموم «الناس» ويُتصوّر في آدم وبنيه إلى أن وقع الاختلاف بعد قتل أحد ابنيه الآخر. «أمّة واحدة» تقدم الكلام عليها في البقرة[1]. والكلمة هنا هو القضاء والتقدير لبني آدم بالآجال الموّقتة.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ﴾ الآية، هذا من اقتراحهم. وكانوا لا يعتدّون بما أنزل من الآيات العظام المتكاثرة التي لم يُنزّل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، دقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، فكأنه لم ينزّل عليه شيء قطّ حتى قالوا: لولا أُنزل عليه آية من ربه واحدة، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التّمرد وانهماكهم في الغيّ به.

﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحدٍ به. يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيّب لا

(١) انظر تفسير الآية ٢١٣ من البقرة.

يعلمه إلاّ هو.

﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول ما اقترحتموه.

﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجحدكم الآيات.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ﴾ الآية، سبب نزولها[١] أنه لمّا دعا على أهل مكة رسول الله ﷺ بالجدب، قحطوا سبع سنين، فأتاه أبو سفيان فقال: ٱدْعُ لنا بالخصب فإن أخصبنا صدّقناك. فسأل الله تعالى لهم فَسُقُوا ولم يؤمنوا. والرحمة هنا الغيث بعد القحط والأمن بعد الخوف والصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر وما أشبه.

ومعنى ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ خالطتهم. وفي هذه الجملة دليل على سرعة تقلّب ابن آدم من حالة الخير إلى حالة الشّر وذلك بلفظ «أذقنا» كأنه قيل: أول ذوقه الرحمة قبل أن يداوم استطعامها[٢] مكر، وبلفظ «مِن» المشعرة بابتداء الغاية أي: ينشىء[٣] المكر إثر كشف الضرّ لا يمهل ذلك، وبلفظ «إذا» الفجائية الواقعة جواباً «لإذا» الشرطية أي: في وقت إذاقة الرحمة فاجؤوا[٤] بالمكر. ولمّا كانت هذه الجملة كما قلنا تتضمن سرعة المكر منهم قيل: «قل الله أسرع مكرا» [فجاءت] أفعل التفضيل. ومعنى وصف المكر بالأسرعية أنه تعالى قبل أن تدبّروا مكائدكم قضى بعقابكم وهو مُوقعه بكم واستدرجكم بإمهاله.

---

(١) انظر القرطبي ٨: ٣٢٤.

(٢) ق: استعظامها.

(٣) ق: ينسى.

(٤) ق: فأبوا.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر أن الناس إذا أصابهم الضّر لجؤوا إلى الله تعالى، فإذا أذاقهم الرحمة عادوا إلى عادتهم من إهمال جانب الله تعالى والمكر في آياته، وكان المذكور في الآيتين أمراً كليًا - أوضح ذلك الأمر الكلّي بمثال جليّ كاشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلّي، ينقطع فيه رجاء الإنسان عن كلّ متعلّق به إلا الله تعالى، فيخلص له الدّعاء وحده في كشف هذه النازلة التي لا يكشفها إلا هو تعالى. وقرىء: [٢٦٢/أ] ينشركم، من النشر والبثّ. ويسيّركم، من التسيير.

﴿ وَجَرَيْنَ ﴾ النون عائدة على الفلك ويراد به الجمع إذ الفلك يكون مفرداً كقوله ﴿ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [الشعراء] ويكون جمعاً كهذا، ولهذا عاد الضمير عليه جمعاً، والباء في «بهم» للتعدية، وفي «بريح»[1] للسّبب. وفي قوله «بهم» التفات إذ هو خروج من خطاب في قوله «كنتم» إلى غيبة في قوله «بهم» «وفرحوا» وما بعد ذلك من ضمير الغيبة.

قال الزمخشري[2]: فائدة الالتفات في قوله تعالى «حتى إذا كنتم في

(١) ق: وفي بهم.
(٢) الكشاف ٢: ٢٣١.

الفلك وجرين بهم» المبالغة، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجّبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح.انتهى.

والذي يظهر - والله أعلم - أن حكمة الالتفات هنا هي أنّ قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ خطاب فيه امتنان وإظهار نعمه للمخاطَبين، والمسيَّرون في البرّ والبحر مؤمنون وكفار والخطاب شامل، فَحَسُن خطابهم بذلك ليستديم الصالح [على] الشكر، ولعلّ الطالح[1] يتذكر هذه النعمة فيرجع، فلما ذكرت حالة آل الأمر في آخرها إلى [أنّ] المتلبّس بها هو باغٍ في الأرض بغير الحق، عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكون المؤمنون يخاطَبون بصدور مثل هذه الحالة التي آخرها البغي.

وقوله: «جاءتها» جواب «إذا». و«عاصف» صفة لـ«ريح» على معنى النّسب أي: ذات عصف، إذ لو كانت جارية على الفعل لكانت بالتّاء كقوله تعالى ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء]. والمعنى: من كل مكان من أمكنة الموج. والظنّ هنا على بابه الأصلي من ترجيح أحد الجائزَيْن.

ومعنى ﴿أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: للهلاك كما[2] يحيط العدو بمن يريد إهلاكه، وهي كناية عن استيلاء أسباب الهلاك.

﴿دَعَوُا ٱللَّهَ﴾ جواب لسؤال مقدّر كأنه قيل: فما كان حالهم في تلك الشدة؟ قيل: دعوا الله.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ اللام موطّئة لقسم محذوف في موضع الحال تقديره: مُقْسِمين.

---

(١) ق: الصالح.

(٢) ق: كمن.

﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: من هذه الشّدة.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ﴾ الآية، وجواب «لمّا» «إذا» الفجائية وما بعدها. [ومجيء «إذا» وما بعدها] جواباً لها دليل على أنها حرف يترتّب ما بعدها من الجواب على ما قبلها من الفعل الذي بعد «لمّا»، وأنها تفيد الترتيب والتعليق في الماضي، وأنها كما قال سيبويه [حرف] ومذهب غيره أنها ظرف، وقد أوضحنا ذلك فيما كتبناه في علم النحو. والجواب بإذا الفجائية دليل على أنّه لم يتأخر بغيهم عن إنجائهم، بل بنفس ما وقع الإنجاء وقع البغي. قال ابن عباس: «يبغون» بالدعاء إلى عبادة غير الله تعالى والعمل بالمعاصي والفساد. والخطاب بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ قال الجمهور: لأهل مكة. والذي يظهر أنه خطاب لأولئك الذين أنجاهم الله وبغَوا، ويحتمل كما قالوا العموم فيندرج أولئك فيهم. وهذا ذمّ للبغي في أوجز لفظ.

ومعنى ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وبال البغي [عليكم] ولا يجني ثمرته إلا أنتم. وقرىء: متاعَ، بالنصب على الظرف أي: وقت متاع الحياة الدنيا. وقرىء: متاعُ، بالرفع على أنه [خبر] مبتدأ محذوف تقديره: هو متاع. وأجاز النحّاس وتبعه الزمخشري[1] أن يكون «على أنفسكم» متعلقاً[2] بقوله «بغيكم» كما تعلّق في قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۝٧٦﴾ [القصص] ويكون الخبر «متاع» إذا رفعته.

ومعنى ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: على أمثالكم والذين جنسكم جنسهم، يعني: بغى بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا

(١) الكشاف ٢: ٢٣٢.

(٢) ق: متعلق.

يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لمّا قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ﴿٢٣﴾﴾ [يونس] ضرب مثلاً عجيباً غريباً للحياة الدنيا بذكر من سعى فيها على سرعة زوالها وانقضائها، وأنها بحال ما تعزّ وتسرّ، تضمحلّ[(١)] ويؤول أمرها إلى الفناء. والمَثَل هنا يحتمل أن يراد به الصفة وأن يراد به القول السائر المشبّه به حال الثاني بالأول.

و﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إمّا أن يراد به [٢٦٢/ب] السّحاب، وإما أن يراد: من جهة السماء. والظاهر أن النبات اختلط بالماء، ومعنى الاختلاط تشبّثه به وتلقّيه إياه وقبوله له لأنه يجري له مجرى الغذاء، فتكون الباء للمصاحبة، وكل مختلطين يصحّ في كلٍّ منهما أن يقال: اختلط بصاحبه. ولمّا كان النبات ينقسم إلى مأكول وغيره بيّن أنّ المراد أحد القسمين «بمِن» فقال: «مما يأكل الناس» كالحبوب والثمار والبقول، «والأنعام» كالحشيش وسائر ما يُرعى. و«مما يأكل» حال من النبات والعامل فيه محذوف تقديره: كائناً ممّا يأكل. و«ما» موصولة صلته «يأكل» والضمير محذوف تقديره: يأكله الناس. و«حتى» غاية فيحتاج أن يكون الفعل الذي قبلها متطاولاً حتى تصحّ الغاية، فإمّا أن يُقدّر قبلها محذوف[(٢)] أي: فما زال ينمو حتى إذا، أو يُتجوّز في «فاختلط» ويكون معناه: فدام اختلاط النبات بالماء حتى إذا.

---

(١) ق: وتضمحلّ.

(٢) ق: تقدّر قبلها محذوفاً.

وقوله ﴿أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ جملة بديعة اللفظ جعلت الأرض آخذة زخرفها متزيّنة، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة في كل لون فاكتست وتزيّنت بأنواع الحليّ، فاستعير الأخذ وهو التناول باليد لاشتمال نبات الأرض على بهجة ونضارة وألوان مختلفة، واستعير لتلك[1] البهجة والنضارة والألوان المختلفة لفظ الزخرف وهو الذهب لما كان من الأشياء المبهجة المنظر السّارة للنفوس. [و«ازّينت»] أي: بنباتها وما أودع فيها من الحبوب والثمار والأزهار.

﴿أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على التمكّن من تحصيلها ومنفعتها ورفع غلّتها، وذلك لحسن نموّها وسلامتها من العاهات. والضمير في «أهلها» عائد على الأرض، وهو على حذف مضاف أي: على [ما] أودعها من الغلاّت وما ينتفع به. وجواب «إذا» قوله «أتاها أمرنا» كالرّيح والصّر والسموم وغير ذلك من الآفات كالفأر والجراد. وقيل: «أتاها أمرنا» بإهلاكها. وأبهم في قوله «ليلاً أو نهاراً» وقد علم تعالى متى يأتيها أمره، أو[2] تكون «أو» للتنويع لأن بعض الأرض يأتيها أمره ليلاً وبعضها نهاراً ولا يخرج كائن عن وقوعه. والحصيد: فعيل بمعنى مفعول أي: المحصود. وعبّر «بحصيد» عن التالف استعارةً؛ جعل ما هلك من الزرع بالآفة قبل أوانه حصيداً لعلاقة ما بينهما من الطّرح على الأرض.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ مبالغة في التلف والهلاك حتى كأنها لم توجد قبلُ ولم تقم بالأرض للحبّة [بهجة] خضرة نضرة تسرّ أهلها.

(١) ق: لذلك.

(٢) ق: إذ.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي: مثل هذا التفصيل الذي فصّلناه في الماضي نفصّل في المستقبل.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ لمّا ذكر الحياة الدنيا وما تؤول إليه من الفناء والاضمحلال وما تضمّنته من الآفات والعاهات، ذكر تعالى أنّه داعٍ إلى دار السلام والصحّة والأمن وهي الجنة، وأهلها سالمون من كل مكروه. ولمّا كان الدعاء [عامًّا] لم يتقيّد بالمشيئة، ولما كانت الهداية خاصة تقيّدت بالمشيئة فقال «ويهدي من يشاء» أي: من يشاء هدايته.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [أي: أحسنوا] في كلّ ما تعبّدوا به، أي: [أتوا] بالمأمور كما ينبغي واجتنبوا المنهيّ عنه. و«الحسنى» هي الجنّة[1]. و«زيادة» هي النظر إلى الله تعالى في الجنة، ولا يلحقها خزي والخزي يتغير به الوجه ويسودّ، فكنى بالوجه عن الجملة لكونه أشرفها ولظهور أثر السرور والحزن فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الآية، «والذين» مبتدأ. و«جزاء» مبتدأ ثانٍ وخبره

(١) ق: الحسنة.

«بمثلها» فقيل: الباء زائدة والضمير العائد على المبتدأ محذوف تقديره: جزاء سيئة منهم بمثلها. وقيل: خبر «والذين» قوله: «ما لهم من الله من عاصم» والجملتان قبله اعتراض بين المبتدأ وخبره.

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ[٢٦٣/أ] وُجُوهُهُمۡ﴾ هذه مبالغة في سواد الوجوه، وقد جاء مصرَّحاً به في قوله ﴿وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران] و«أغشيت» كُسيت، ومنه الغشاء. وكون وجوههم مسودّة هو حقيقة لا مجاز فتكون ألوانهم مسودّة. وقرىء: قطْعاً، بسكون الطاء و«مظلماً» صفة له. وقرىء بفتح الطاء فيكون «مظلماً» حالاً[١] من «الليل». وقال الزمخشري[٢]: فإن قلت: إذا جعلت «مظلماً» حالاً من «الليل» فما العامل فيه؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون «أغشيت» من [قِبَل] أن «من الليل» صفة لقوله «قطعاً»، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة. وإما أن يكون معنى الفعل في «من الليل» انتهى.

أما الوجه الاول فهو بعيد لأن الأصل أن يكون العامل في الحال هو العامل في ذي الحال، والعامل في «الليل» هو: مستقرّ، الواصل إليه «بمن»، و«أغشيت» عامل في قوله «قطعاً» الموصوف بقوله «من الليل» فاختلفا. فلذلك كان الوجه الأخير أولى أي: قطعاً مستقرّة أو كائنة من الليل في حال إظلامه. قال ابن عطية: وإذا كان نعتاً - يعني «مظلماً» - «لقطعاً»[٣]، فكان حقّه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيء بعد هذا وتقدير الجملة: قطعاً استقرّ من الليل مظلماً، على نحو قوله ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ

(١) ق: حال.

(٢) الكشاف ٢: ٢٣٤.

(٣) ق: يعني مظلماً نعتاً لقطع.

أَنزَلْنَهُ مُبَارَكٌ ﴿٩٢﴾[1] [الأنعام] انتهى. لا يتعيّن تقدير العامل في المجرور بالفعل فيكون جملة، بل الظاهر أن يُقدّر باسم الفاعل[2] فيكون من قبيل الوصف بالمفرد والتقدير: قطعاً كائناً من الليل مظلماً.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، الضمير في «نحشرهم» عائد على من تقدّم من الفريقين. وانتصب «ويوم» على فعل محذوف أي: ذَكِّرهْم أو خَوِّفْهم ونحوه. و«جميعا» حال. والشركاء هم من عُبد من دون الله تعالى كائناً من كان. و«مكانكم» عدّه النحويون من أسماء الأفعال وقُدّر بِاُثْبُتوا كما قال الشاعر[3]:

وقولي كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدي أو تستريحي

أي: اثبتي، ولكونها بمعنى اثبتي جزم «تحمدي». وتحملت ضميراً فأكد وعطف عليه في قوله «أنتم وشركاؤكم». وقال الزمخشري[4]: و«أنتم» أكّد به الضمير في «مكانكم» لسدّه[5] مسدّ قوله: الزموا و«شركاؤكم»[6] عطف عليه انتهى. يعني عطفاً على الضمير المستكن وتقديره: الزموا، وأن «مكانكم» قام مقامه فتحمّل الضمير الذي في «الزموا». ليس بجيد، إذ لو كان كذلك لكان «مكانكم» الذي هو اسم فعل يتعدى كما يتعدى: الزموا. ألا ترى اسم الفعل إذا كان الفعل لازماً كان اسم الفعل لازماً، وإذا كان متعدّياً كان متعدّياً، مثال ذلك: عليك زيداً. لمّا ناب مناب: الْزَم، تعدّى، وإليك: لمّا

(١) ق: مبارك أنزلناه.

(٢) ق: الفعل.

(٣) البيت لعمرو بن الإطنابة، وهو في الخصائص ٣: ٣٥. وهو من الوافر

(٤) الكشاف ٢: ٢٣٥.

(٥) ق: لسدّ.

(٦) ق: شركاؤكم.

ناب مناب: تَـنَحَّ[١]، ولكون: مكانك لا يتعدّى، قدّره النحويون: اثبتوا، واثبتوا لا يتعدى. قال ابن عطية: «أنتم» رفع بالابتداء، والخبر: مخزيّون أو مهانون ونحوه، فيكون «مكانكم» قد تمّ ثمّ أخبر أنهم كذا. وهذا ضعيف لفكّ الكلام الظاهرِ اتّصالُ بعض أجزائه ببعض، ولتقدير إضمار لا ضرورة تدعو إليه، ولقوله «فزيلنا بينهم» إذ يدلّ على أنهم ثبتوا هم وشركاؤهم في مكان واحد حتى وقع التزييل [بينهم] وهو التفريق، ولقراءة من قرأ: أنتم وشركاءَكم، بالنصب على أنه مفعول معه والعامل فيه اسم الفعل. ولو كان «أنتم» مبتدأ وقد حذف خبره لما جاز أن يأتي بعده مفعول معه، تقول: كل رجل وضيعتُه، بالرفع ولا يجوز فيه النصب. قال ابن عطية: ويجوز أن يكون «أنتم» تأكيداً للضمير الذي في الفعل المقدّر الذي هو: قفوا أو نحوه. هذا ليس بجيّد إذ لو كان تأكيداً لذلك الضمير المتصل بالفعل لجاز تقديمه على الظرف إذ الظرف لم يتحمّل ضميراً على هذا القول فيلزم تأخيره عنه وهو غير جائز، لا تقول: أنت مكانك [٢٦٣/ب] ولا يُحفظ من كلامهم. والأصحّ أنه لا يجوز حذف المؤكد في التأكيد المعنوي، فكذلك [هذا لأن التأكيد] ينافي الحذف، وليس من كلامهم: أنت زيداً، لمن رأيته قد شهر سيفاً وأنت تريد: اضرب [أنت] زيداً، إنما كلام العرب: زيداً، تريد: اضرب زيداً[٢].

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ يقال: زِلْتُ الشيء عن مكانه أزيله، فعين الكلمة ياء. وزعم ابن قتيبة وتبعه أبو البقاء[٣] أن قوله «زيّلنا» من مادة زال يزول، فتكون

---

(١) ق: تنحّى.

(٢) ق: زيد.

(٣) انظر الإملاء ٢: ٢٨.

عين الكلمة واواً. و«زيّلنا» وزنه عندهما: فيعل، اجتمعت ياء وواو وسُبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً[١] وأُدغمت الياء في الياء. والصحيح أنه من ذوات الياء وأن وزنه فَعَّل، ولذلك قالوا في مصدره: تزييلاً على وزن [تفعيل]، وقالوا في الاشتقاق منه: زايلنا بالياء. ونَفْي الشركاء عبادة المشركين هو ردّ لقولهم: إياكم كنا نعبد. و«إيّانا» مفعول «بتعبدون»، وحَسُن تقديمه كون «تعبدون» فصلاً.

ولمّا تنازعوا استشهد الشركاء بالله تعالى، وانتصب «شهيداً» على التمييز لقبوله صحة مِن. و«إنْ» هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين إنْ النافية وبين إنْ التي للإثبات، وتقدم الكلام على مثل ذلك في ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة].

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾. «هنالك» ظرف مكان أي: في ذلك الموقف والمقام المقتضي للحيرة والدّهش. «تبلو» أي: تختبر ما أسلفت من العمل فتعرف كيف هو أقبيح[٢] أم حسن، أنافع أم ضارّ، مقبول أو مردود. وقرىء: تبلو. وقرىء: تتلو.

﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى جزائه.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أي: ذهب وبطل ما كانوا يفترونه من الكذب.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا

(١) ق: الياء واواً.

(٢) ق: قبيح.

تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾
كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ
هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن
يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا
إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ الآية، لمّا بيّن فضائح عبدة الأوثان أتبعها بذكر الدلائل على فساد مذهبهم بما يوبّخهم ويحجّهم بما لا يمكن إلا الاعتراف به من حال رزقهم وحواسهم وإظهار القدرة الباهرة في الموت والحياة. فبدأ بما فيه [قوام] حياتهم وهو الرزق الذي لا بدّ منه، فمن السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات. «فمِن» لابتداء الغاية، هُيّء الرزق بالعالم العلوي والعالم السفلي معاً لم يقتصر على جهة واحدة توسعةً منه وإحساناً، ثم ذكر ملكه لهاتين الحاسّتين الشريفتين: السمع(١) الذي هو سبب مدارك الأشياء، والبصر الذي يُري ملكوت السماوات والأرض. ومعنى ملكهما أنه متصرف فيهما بما يشاء تعالى من إبقاء وحفظ وذهاب.

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ تقدم تفسيره(٢).

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ شامل لما تقدّم من الأشياء الأربعة المذكورة ولغيرها. والأمور التي يدبّرها تعالى لا نهاية لها. فلذلك جاء بالأمر الكلّي بعد تفصيل بعض الأمور. واعترافهم بأن الرازق والمالك والمخرج والمدبّر هو الله تعالى

---

(١) ق: السمع والبصر.

(٢) انظر تفسير الآية ٢٧ من آل عمران.

أمرٌ لا يمكنهم إنكاره ولا المباهتة فيه.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى من اختصّ بهذه الأوصاف السابقة.

و﴿فَمَاذَا﴾ استفهام معناه النفي ولذلك دخلت «إلاّ» وصحبه التقرير والتوبيخ كأنه قيل: ما بعد الحقّ إلا الضلال. و«ماذا» مبتدأ، ركّبت ذا مع ما فصار مجموعهما استفهاماً كأنه قيل: أي شيء، والخبر «بعد الحق».

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف يقع صرفكم بعد وضوح الحق وقيام حججه عن عبادة من يستحق العبادة، وكيف تشركون [معه غيره] وهو لا يشاركه في شيء من تلك الأوصاف؟.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ﴾ الكاف للتشبيه في موضع نصب، والإشارة «بذلك» إلى المصدر المفهوم من «تُصرفون» [أي]: مثل صرفهم عن الحق بعد الإقرار به في قوله «فسيقولون الله» حقّ العذاب عليهم أي: جازاهم مثل أفعالهم.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ الآية، لمّا استفهم عن أشياء من صفات الله واعترفوا بها ثم أنكر عليهم صرفهم عن الحق وعبادة الله [٢٦٤/أ] تعالى، استفهم عن شيء هو سبب العبادة وهو إبداء الخلق وهم يسلّمون ذلك [لقوله] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ (٢٥)﴾ [لقمان]، ثم إعادة الخلق وهم منكرون ذلك، لكنه عطف على ما يسلّمونه ليُعلم أنهما سواء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى، وأن ذلك لوضوحه وقيام برهانه قُرن بما يسلّمونه إذ لا يدفعه إلا مكابر، إذ هو من الواضحات التي لا يختلف في إمكانها العقلاء وجاء الشرع بوجوبه فوجب اعتقاده. ولمّا كانوا لمكابرتهم لا يقروّن بذلك أمر تعالى نبيّه أن يجيب فقال «قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده» وأبرز الجواب في جملة مبتدأة مصرّح بجزئها، فعاد الخبر فيها مطابقاً لخبر

اسم الاستفهام، وذلك تأكيد وتَثبّت. ولمّا كان الاستفهام قبل هذا لا مندوحة لهم عن الاعتراف به، جاءت الجملة محذوفاً منها أحد جزأيها في قوله «فسيقولون الله» [يونس: ٣١] ولم يحتج إلى التأكيد بتصريح جزأيها.

ومعنى ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ تُصرفون وتقلبون عن اتباع الحق.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ الآية، لمّا بيّن تعالى عجز أصنامهم عن الإبداء[١] والإعادة اللذين هما من أقوى أسباب القدرة وأعظم دلائل الألوهية، بيّن عجزهم عن هذا النوع من صفاتِ الإله وهو الهداية إلى الحق وإلى منهاج الصواب. وقد أعقب الخلق بالهداية في القرآن في مواضع، فقال تعالى حكاية عن الكليم ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه] فاستدل بالخلق والهداية على وجود الصانع، وهما حالان للجسد والروح. وقرىء: لا يهدي، مخففاً مضارع هدى. ويَهَدّي، بفتح الهاء وتشديد الدال وأصله يهتدي، نقلت حركة التاء إلى الهاء وأدغمت التاء في الدال. وقرىء: يَهِدّي، بكسر الهاء وتشديد الدّال. وقرىء بكسر الياء إتباعاً لحركة الهاء وتشديد دال[٢] يهدي.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ استفهام معناه التعجب والإنكار أي: أيّ شيء لكم في اتخاذ هؤلاء الشركاء إذ كانوا عاجزين عن هداية أنفسهم فكيف يمكن أن يهدوا غيرهم.

﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استفهام آخر، أي: كيف تحكمون بالباطل وتجعلون لله أنداداً وشركاء؟. وهاتان جملتان أنكر في الأولى وتعجّب من اتّباعهم من لا

(١) ق: الابتداء.

(٢) ق: الذال.

يهدي ولا يهتدي، وأنكر في الثانية[1] حكمهم بالباطل وتسوية الأصنام بربّ العالمين.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ الظاهر أن «أكثرهم» على بابه، لأن منهم من تبصّر في الأصنام فرفضها كما قال[2]: وهو من الطويل

أربٌّ يبـــول الثعلبـــان بـــرأســـه لقد هان من بالت عليه الثعالب

والمعنى: ما يتبع أكثرهم في اعتقادهم في الله تعالى وفي صفاته إلاّ ظنًّا ليسوا متبصّرين ولا مستندين إلى برهان، إنما ذلك شيء تلقّفوه من آبائهم. والظّن في معرفة الله تعالى لا يغني من الحق شيئاً أي: من إدراك الحق ومعرفته على ما هو عليه لأنه تجويز لا قطع.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

(١) ق: الثاني.

(٢) البيت في اللسان «ثعلب» وفي الاقتضاب ٣: ٨٦، ونُسب فيهما لغير واحد.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ الآية، لما تقدّم قولهم ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴿١٥﴾﴾ [يونس] وكان من قولهم أنه افتراه قال تعالى «وما كان هذا القرآن أن يفترى» أي: ما صحّ ولا استقام أن يكون هذا القرآن المعجز مفترى. والإشارة «بهذا» فيها تفخيم المشار إليه وتعظيمه وكونه جامعاً للأوصاف التي يستحيل لوجودها فيه أن يكون مفترى. والظاهر أنّ «أن يفترى» هو خبر «كان» أي: افتراء أي: ذا افتراء أو مفترى. ووقعت «ولكن» هنا أحسن موقع إذ كانت بينْ نقيضين وهما الكذب والتصديق المتضمّن الصدق. و«الذي بين يديه» الكتب الإلهية المتقدمة. وانتصب «تصديق» على أنه خبر كان مضمرة وهو على حذف مضاف [٢٦٤/ب] أي: ذا تصديق.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: «أم» منقطعة تتقدر ببل والهمزة تقديره: بل أيقولون افتراه، والاستفهام على سبيل الإنكار. وتقدم الكلام على نظير هذه الآية في البقرة[1].

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ أي: بل كذّبوا بهذا القرآن العظيم المنبىء بالغيوب الذي لم تتقدّم لهم به معرفة ولا أحاطوا بمعرفة غيوبه.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ﴾: «كيف» في موضع نصب خبر لكان. و«انظر» معلّقة. والجملة الاستفهامية مع ما بعدها في موضع نصب. قال ابن عطية: ولكيف تصرّفات تحلّ محل المصدر الذي هو كيفيّة، ويحتمل هذا الموضع أن يكون منها، ومن تصرّفاتها قولهم: كن كيف شئت انتهى. ليس «كيف» تحل محلّ المصدر، ولا لفظ كيفية هو مصدر، إنما ذلك نسبة إلى كيف. وقوله: ويحتمل أن يكون هذا الموضع منها ومن تصرّفاتها قولهم: كن كيف

(١) انظر تفسير الآية ٢٣ من البقرة.

شئت - لا يحتمل أن يكون منها لأنه لم يثبت لها هذا المعنى الذي ذكر من كون «كيف» بمعنى كيفية وادعاء مصدر كيفية. وأما: كن كيف شئت، فكيف ليست بمعنى كيفية وإنما هي شرطية، وهو المعنى الثاني الذي لها وجوابها محذوف، التقدير: كيف شئت فكن، كما تقول: قم متى شئت. فمتى: اسم شرط ظرف لا يعمل فيه قم، والجواب محذوف تقديره: متى شئت فقم[1].

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الآية، الظاهر أنه إخبار بأنّ من كفار قريش من سيؤمن به وهو من سبقت له السعادة. ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ فيوافي على الكفر.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ الآية، أي: وإن تمادوا على تكذيبك فتبرَّأْ منهم، قد أعذَرْتَ وبلَّغْتَ كقوله ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ ﴿٢١٦﴾﴾ [الشعراء].

ومعنى ﴿لِّي عَمَلِي﴾ أي: لي جزاء عملي[2] ولكم جزاء عملكم. ومعنى «عملي» أي الصالح المشتمل على الإيمان والطاعة.

﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ المشتمل على الشرك والعصيان. والظاهر أنها آية منابذة لهم وموادعة وفي ضمنها الوعيد.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ الآية، قال ابن عباس: نزلت الآيتان في النّضر بن الحارث وغيره من المستهزئين. وهذه الآية فيها تقسيم من لا يؤمن من الكفار إلى قسمين، بعد تقسيم المكذبين إلى من يؤمن[3] ومن لا يؤمن. والضمير في «يستمعون» عائد على «مَن» والعود على المعنى دون العود على

---

(١) ق: وقم.
(٢) ق: أي سأجزي عملي.
(٣) ق: لا يؤمن.

اللفظ في الكثرة، وهو كقوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنبياء]. والمعنى: من يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلّمت الشرائع. ثم نفى جدوى ذلك الاستماع بقوله «أفأنت تسمع الصم» أي: هم وإن استمعوا إليك صُمٌّ عن إدراك ما تلقيه إليهم ليس لهم وعي ولا قبول ولا سيّما قد انضاف إلى الصّمم انتفاء العقل. فَحَرٍ[1] بمن عدم السمع والعقل ألاّ يكون له إدراك لشيء البتّة، بخلاف أن لو كان الأصمّ عاقلاً فإنه بعقله يهتدي إلى أشياء. وأعاد في قوله: «ومنهم من ينظر إليك» الضمير مفرداً مذكراً على لفظ «مَن» وهو الأكثر في لسان العرب. قال ابن عطية: جاء «ينظر» على لفظ «مَن»، وإذا جاء الفعل على لفظها فجائز أن يُعطف عليه آخر على المعنى. وإذا جاء أولاً على معناها فلا يجوز أن يعطف بآخر على اللفظ، لأن الكلام يلبس حينئذ انتهى.

ليس كما قال بل يجوز أن يراعى المعنى أولاً فيعيد الضمير على حساب ما يريد من المعنى من تأنيث وتثنية وجمع، ثم يراعى اللفظ فيعيد الضمير مفرداً مذكراً، وفي ذلك تفصيل ذكر في علم النحو. والمعنى أنهم عُمْي فلا تقدر على هدايتهم، لأن السبب الذي يُهتدى به إلى رؤية الدلائل قد فقدوه. هذا وهم مع فقد البصر قد فقدوا البصيرة؛ إذ من كان أعمى فإنه يهديه نور بصيرته إلى أشياء بالحدس، [٢٦٥/أ] وهذا قد جمع بين فقدان البصر والبصيرة. وهذه مبالغة عظيمة في عدم قبول ما يُلقى إلى هؤلاء؛ إذ جمعوا بين الصمم وانتفاء العقل، وبين العمى وفقد البصيرة.

وفي قوله: ﴿أَفَأَنتَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ وألاّ يكترث بعدم قبولهم، فإن الهداية إنما هي لله تعالى. ولمّا ذكر تعالى هؤلاء الأشقياء ذكر تعالى أنه لا

---

(١) حَرٍ وحريّ بمعنى.

يظلمهم شيئاً؛ إذ قد أزاح عللهم ببعثة رسول الله ﷺ وتحذيرهم من عقابه، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالتكذيب والكفر. واحتمل هذا النفي للظلم أن يكون في الدنيا أي: لا يظلمهم شيئاً من مصالحهم، واحتمل أن يكون في الآخرة [وأنّ] ما يلحقهم من العقاب هو عدل منه، لأنهم هم الذين تسببّوا فيه باكتساب ذنوبهم كما قدّر تعالى عليهم ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ جملة تشبيهية في موضع نصب من الضمير المنصوب في «نحشرهم» التقدير: مشبَّهين بمن لم يلبث إلا ساعة.

و﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ حال ثانية، ويجوز أن يكون استئناف إخبار. وأجاز ابن عطية في «كأن لم يلبثوا» أن يكون صفة لمصدر محذوف تقديره: حشراً كأن لم يلبثوا، وأن تكون الجملة المشبّهة في موضع صفة لقوله «يوم» انتهى. أما قوله إنه نعت لمصدر محذوف فيحتاج إلى رابط فقدّره: كأن لم يلبثوا قبله، ومثل هذا الرابط لا يجوز حذفه. وأما قوله إن الجملة في موضع الصفة «ليوم يحشرهم[1]» فلا يجوز، لأن الجملة التشبيهية هي نكرة و«يوم يحشرهم» معرفة؛ إذ التقدير: ويوم حَشْرهم، ولا توصف المعرفة بالنكرة.

---

(١) ق: نحشرهم.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ أخبر عنهم بخبرين: أحدهما خسرانهم معلّلاً بالتكذيب بلقاء الله تعالى، والثاني إخباره تعالى بانتفاء هدايتهم.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ الآية، إمّا هي «إنْ» الشرطية زيد[١] عليها «ما». قال ابن عطية: ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة، ولو كانت «إنْ» وحدها لم يَجُزْ انتهى. يعني أنّ دخول النون[٢] للتأكيد إنما يكون مع زيادة «ما» بعد «إنْ». وهذا الذي ذكره مخالف لظاهر كلام سيبويه؛ فأجاز سيبويه أن[٣] تقول: إنْ تقومنّ أقم، بغير زيادة «ما» بعد «إن». ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى أي: إن أريناك عقوبتهم أو لم نُرِكَها فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب. قال الزمخشري[٤]: «فإلينا مرجعهم» جواب «أو نتوفيّنك». [وجواب «نريّنك» محذوف كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم فذاك أو نتوفّينك] قبل أن نُرِيَكَهُ فنحن نريكه[٥] في الآخرة انتهى. جعل الزمخشري الكلام شرطين لهما جوابان، ولا حاجة إلى تقدير جواب محذوف؛ لأن قوله «فإلينا مرجعهم» صالح أن يكون جواباً للشرط والمعطوف عليه. وأيضاً فقول الزمخشري: فذاك هو اسم مفرد لا ينعقد منه جواب شرط، فكان ينبغي أن يأتي بجملة يتضح بها جواب الشرط؛ إذ لا يُفهم من قوله: فذاك، الخبر الذي حُذف المتحصّل به فائدة الإسناد. «ثم» مع ذلك الله شهيد من أول تكليفهم على جميع أعمالهم. «فَثُمّ» هنا لترتيب

(١) ق: يريد.

(٢) ق: دخول إن.

(٣) ق: له أن.

(٤) الكشاف ٢: ٢٣٩.

(٥) ق: نريك.

الإخبار لا لترتيب القصص في أنفسها.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ الآية، لمّا بيّن حال الرسول ﷺ في قومه، بيّن حال الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم تسليةً له صلى الله عليه وسلم وتطميناً لقلبه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ﴾ الآية، الضمير في «ويقولون» عائد على مشركي قريش ومَن تابعهم من منكري الحشر، استعجلوا بما وُعدوا به من العذاب على سبيل الاستبعاد أو على سبيل الاستخفاف، ولذلك قالوا: إن كنتم صادقين فيما وعدتم به فلا يقع منه شيء.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي﴾ الآية، لمّا التمسوا تعجيل العذاب أو تعجيل الساعة، أمره أن يقول لهم: ليس ذلك إليّ بل إلى الله تعالى. وإذا كنت لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرًّا [٢٦٥/ب] فكيف أملكه لغيري وكيف أطّلع على ما لم يُطْلعني عليه الله تعالى.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ انفرد تعالى بعلمه، وتقدم الكلام على «لكلّ أمة أجل» في الأعراف[١].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا

(١) انظر شرح الآية ٣٤ من الأعراف.

﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ[1] إِنۡ أَتَىٰكُمۡ﴾ الآية، تقدم الكلام عليها في الأنعام[2]. وقرّرنا هناك أن العرب تُضمّن «أرأيت» معنى «أخبرني» وأنها تتعدّى إذ ذاك إلى مفعولين، وأن المفعول الثاني أكثر ما يكون جملة استفهام ينعقد منها مع ما قبلها مبتدأ وخبر، تقول العرب: أرأيت زيداً ما صنع؟ المعنى: أخبرني عن زيد ما صنع، وقبل دخول «أرأيت» كان الكلام: زيد ما صنع؟. وإذا تقرّر هذا «فأرأيتم» هنا المفعول الأول لها محذوف، والمسألة من باب الإعمال: تنازع «أرأيت» و«إن أتاكم» على قوله «عذابه» فأعمل الثاني إذ هو المختار على مذهب البصريين وهو الذي ورد به السماع أكثر من إعمال الأول، فلما أعمل الثاني حذف من الأول، ولم يضمر، لأن إضماره مختصّ بالشعر أو قليل في الكلام على اختلاف النحويين في ذلك. والمعنى: قل لهم يا محمد أخبروني عن عذاب الله إن أتاكم أي شيء تستعجلون منه؟ فليس شيء من العذاب يستعجله عاقل؛ إذ العذاب كله مرّ المذاق موجب لنفار الطبع منه. فتكون جملة الاستفهام جاءت على سبيل التلطّف بهم والتنبيه لهم أن العذاب لا ينبغي أن يُستعجل. ويجوز أن تكون الجملة جاءت على سبيل التعجب والتهويل للعذاب أي: أيّ شيء شديد تستعجلون منه، أي: ما أشدّ وأهول ما تستعجلون من العذاب. وتقدّم الكلام في قوله «بياتاً» في الأعراف[3] مدلولاً وإعراباً، وانتصابه وما بعده على الظرف.

---

(١) ق: أرأيتكم.

(٢) ق: الأعراف. وانظر تفسير الآية ٤٠ من الأنعام.

(٣) انظر شرح الآية ٤ من الأعراف.

والمعنى: إن أتاكم عذابه وأنتم ساهون غافلون إمّا بنوم وإمّا باشتغال بالمعاش والكسب. وهو نظير قوله ﴿بَغْتَةً ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام] لأن العذاب إذا فاجأ من غير شعور به كان أشدّ وأصعب، بخلاف أن يكون قد استُعدّ له وهيّىء لحلوله. ويجوز في «ماذا» أن يكون «ما» مبتدأ و«ذا» خبره وهو بمعنى الذي، و«يستعجل» صفته، وحُذف الضمير العائد على الموصول التقدير: أيّ شيء الذي يستعجله من العذاب المجرمون؟. [ويجوز في «ماذا» أن يكون كله مفعولاً كأنه قيل: أي شيء يستعجله من العذاب المجرمون؟].

قال الزمخشري[1]: فإن قلت: بِمَ يتعلّق الاستفهام وأين جواب الشرط؟ قلت: تعلّق «بأرأيتم» لأن المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون. وجواب الشرط محذوف وهو: يندموا على الاستعجال ويعرفوا الخطأ فيه انتهى.

وما قدّره الزمخشري غير سائغ، لأنه لا يُقدّر الجواب إلا ممّا تَقَدَّمه لفظاً أو تقديراً، تقول: أنت ظالم إن فعلت. فالتقدير: إن فعلت فأنت[2] ظالم. وكذلك ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة] التقدير: إن شاء الله نَهْتَدِ. فالذي يُسوّغ أن يُقدّر: إن أتاكم عذابه فأخبروني ماذا يستعجل. قال الزمخشري[3]: ويجوز أن يكون «ماذا يستعجل» جواباً للشرط كقولك: إن أتيتك ماذا[4] تطعمني؟، ثم تتعلّق الجملة «بأرأيتم» وأن يكون «أثمّ إذا ما

(١) الكشاف ٢: ٢٤٠.

(٢) ق: فأن.

(٣) الكشاف ٢: ٢٤٠.

(٤) ق: ما.

وقع آمنتم به» جواب الشرط، و«ماذا يستعجل منه المجرمون» اعتراضاً. والمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان انتهى.

أمّا تجويزه أن يكون «ماذا» جواباً للشرط فلا يصحّ؛ لأن جواب الشرط إذا كان استفهاماً فلا بد فيه من الفاء، تقول: إن زارنا فلان فأيّ رجل هو؟ وإن زارنا فلان فأي يدٍ له بذلك؟. ولا يجوز حذفها إلا إن كان في ضرورة، والمثال الذي ذكره وهو: إن أتيتك ماذا تطعمني هو من تمثيله لا من كلام العرب. وأما قوله: تتعلق الجملة «بأرأيتم»؛ إن عنى بالجملة «ماذا يستعجل» فلا يصحّ ذلك لأنه قد جعلها جواباً للشرط. وإن عنى بالجملة جملة الشرط [٢٦٦/أ] فقد فسّر هو «أرأيتم» بمعنى أخبرني. وأمّا تجويزه «أثـمّ إذا ما وقع آمنتم به» جواب الشرط و«ماذا يستعجل منه المجرمون» اعتراضاً، فلا يصحّ أيضاً لِمَا ذكرناه من أن جملة الاستفهام لا تقع جواباً للشرط إلا ومعها فاء الجواب. وأيضاً «فثُمّ» هنا وهي حرف عطف تعطف الجملة التي بعدها على ما قبلها فالجملة الاستفهامية معطوفة، [وإذا كانت معطوفة] لم يصحّ أن تقع جواب شرط. وأيضاً «فأرأيتم» بمعنى أخبرني يحتاج إلى مفعول ولا تقع جملة الشرط موقعه. والظاهر عود الضمير في «منه» على العذاب، وبه يحصل الربط بجملة الاستفهام بمفعول «أرأيتم» المحذوف الذي هو مبتدأ في الأصل، وقيل: يعود على الله تعالى. و«المجرمون» هم المخاطبون في قوله «أرأيتم إن أتاكم». ونبّه على الوصف الموجب لترك الاستعجال وهو الإجرام، لأنّ من حقّ المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ويهلك فزعاً من مجيئه، وإن أبطأ فكيف يستعجله؟. و«ثم» حرف عطف، وتقدّمت همزة الاستفهام عليها كما تقدّمت على الواو والفاء في ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴿١٠٩﴾﴾ [يوسف] وفي ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴿٩﴾﴾ [الروم] وتقدم الكلام على

ذلك[١]. قال الطبري في قوله «أثُمّ» بضمّ الثاء، إنّ معناه: أهنالك. قال[٢]: وليست ثمّ هذه التي تأتي بمعنى العطف انتهى. وما قاله الطبري من أنّ ثُمّ ليست للعطف دعوى!. وأما قوله إن المعنى: أهنالك، فالذي ينبغي أن يكون ذلك تفسير معنى، لا أنّ ثُمّ المضمومة الثّاء معناها معنى هنالك. وفاعل «وقع» ضمير يعود على العذاب. وقرىء: آلآن، على الاستفهام بالمدّ. وقرىء بهمزة الاستفهام بغير مدّ، وهو على إضمار القول أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: ألآن آمنتم به؟. فالناصب لقوله «الآن» هو آمنتم وهو محذوف. «وقد كنتم» جملة حالية لأن استعجالهم بالعذاب تكذيب لوقوعه.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ الآية، أي: يقول [لهم] خَزَنَة جهنم هذا الكلام. والظّلم ظلم الكفر. «ثم قيل» هذا من عطف الجمل وهو استئناف إخبار عمّا يقال لهم يوم القيامة.

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ ﴾ أي: يستخبرونك. وأصلها أن تتعدّى إلى واحد بنفسها وإلى الآخر بحرف الجر، تقول: استنبأت زيداً عن عمرو، أي: طلبت منه أن يخبرني عن عمرو. فاستفعل هنا للطلب، والمفعول الأول كاف الخطاب، والمفعول الثاني الجملة من قوله «أحق هو» على سبيل التعليق. و«حَقٌّ» يجوز أن يكون خبراً مقدماً و«هو» مبتدأ، ويجوز أن يكون مبتدأ و«هو» الخبر. قال ابن عطية: وقيل: هي بمعنى يستعلمونك. قال: فهي على هذا تحتاج إلى مفاعيل ثلاثة: أحدها الكاف والابتداء والخبر سَدًّا مسدّ المفعولين. انتهى. ليس كما ذكر لأن استعلم لا يُحفظ كونُها متعدّية إلى

(١) انظر تفسير الآية ١٨٤ من الأعراف.

(٢) جامع البيان ١١: ٨٥.

مفاعيل ثلاثة، لا يُحفظ: استعلمت زيداً عَمْراً قائماً. فتكون جملة الاستفهام سدّت مسدّ المفعولين، ولا يلزم من كونها بمعنى يستعلمونك أن تتعدى إلى ثلاثة، لأنّ استعلم لا يتعدّى إلى ثلاثة كما ذكرنا. والضمير في «هو» عائد على العذاب.

﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ أمر تعالى نبيّه أن يقول لهم مجيباً «إي وربّي». و«إي» هي من حروف الجواب بمعنى نعم، ولا تستعمل إلا مع القسم. وجواب القسم «إنه لحق»، قال الزمخشري[1]: وسمعتهم يقولون في التصديق [أيو] ويصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده. انتهى. لا حجّة فيما سمعه الزمخشري من ذلك لعدم الحجّة في سماعه لفساد كلام العرب إذ ذاك وقبله بأزمان كثيرة. «بمعجزين» أي: فائتين.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ الآية، ذكر بعض أحوال الظالمين في الآخرة. و«ظلمت» صفة لـ«نفس». والظلم هنا الشرك والكفر. وافتدى يأتي مطاوعاً لفدى فلا يتعدّى، تقول: فديته [٢٦٦/ب] فافتدى، وبمعنى فدى فيتعدى، وهنا يحتمل الوجهين.

و﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما كان لها في الدنيا من الخزائن والأموال والمنافع.

و﴿وَأَسَرُّواْ﴾ من الأضداد ويأتي بمعنى أظهروا أو بمعنى أخفوا.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ الآية، قيل: تعلّق هذه الآية بما قبلها من جهة أنه فرض أن النفس الظالمة لو كان لها ما في الأرض لافتدت به، وهي لا شيء لها البتّة

(١) الكشاف ٢: ٢٤١.

لأن جميع الأشياء إنما هي بأسرها ملك لله تعالى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم ﴾ الآية، الخطاب بـ«يا أيها الناس» عام. ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر الأدلّة على الإلهية والوحدانية والقدرة، ذكر الدلائل الدّالة على صحة النبوّة والطريق المؤدي إليها وهو القرآن. والمتّصف بهذه الأوصاف الشريفة هو القرآن.

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ ﴾ فَضل الله: الإسلام، والرحمة: القرآن، قاله ابن عباس وقيل غير ذلك. والظاهر أن قوله «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا» جملتان، وحذف ما تتعلّق به الباء والتقدير: [قل بفضل الله وبرحمته] ليفرحوا، ثم عُطفت الجملة الثانية على الأولى على سبيل التوكيد.

قال الزمخشري[(١)]: والتكرير للتأكيد [والتقرير] وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحُذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه. والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا لشيء

(١) الكشاف ٢: ٢٤١.

فلْيخصّوهما بالفرح، فإنه لا مفروح به أحقّ منهما. ويجوز أن يراد: بفضل الله وبرحمته فَلْيعتنوا فبذلك فليفرحوا. [ويجوز أن يراد: قد جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك - أي: فبمجيئهما - فليفرحوا] انتهى.

أما إضمار: فليعتنوا فلا دليل عليه. وأما تعليقه بقوله: قد جاءتكم، فينبغي أن يقدّر ذلك محذوفاً بعد: قل، ولا يكون متعلقاً بـ«جاءتكم» الأولى للفصل بينهما بقل.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه لمّا ذكر تعالى ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ [يونس][1] وكان المراد بذلك كتاب الله المشتمل على التحليل والتحريم - بيّن فساد شرائعهم وأحكامهم من الحلال والحرام من غير مستند في ذلك إلى الوحي. و«أرأيتم» هنا بمعنى أخبروني. وتقدّم[2] أنها تتعدى لمفعولين: فالأول هنا «ما» من قوله «ما أنزل» وهي موصولة وصلتها «أنزل»، والضمير محذوف تقديره: أنزله. و«من رزق» تبيين لما انبهم من لفظ «ما»، و«فجعلتم» معطوف على «أنزل». والمفعول الثاني محذوف تقديره: آلله أذن لكم [وهي جملة استفهام دلّ على حذفها قوله بعد أمر الله تعالى له بـ«قل»: «آلله أذن لكم»]. و«أم» الظاهر أنها متصلة.

والمعنى: أخبروني آلله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذبون على الله تعالى في نسبة ذلك إليه؟ فنبّه بتوقيفهم على أحد القسمين وهم لا يمكنهم ادّعاء إذن الله في ذلك فثبت افتراؤهم.

---

(١) وفي ق: قل يا أيها الناس.

(٢) انظر شرح الآية ٥٠ من هذه السورة.

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ ﴾ الآية، «ما» استفهامية مبتدأة خبرها «ظَنُّ» والمعنى: أيُّ شيءٍ ظَنُّ المفترين يوم القيامة؟.

أبهم الأمر على سبيل التهديد والإبعاد، يوم يكون الجزاء بالإحسان والإساءة.

و«يوم» منصوب بـ«ظَنُّ». ومفعول الظّن قيل: تقديره: ما ظنُّهم أن الله تعالى فاعل بهم أينجيهم أم يعذّبهم.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾ الآية، مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لمّا ذكر جملة من أحوال الكفار ومذاهبهم والرّد عليهم ومحاولة الرسول لهم، ذكر فضله تعالى على الناس وأن أكثرهم لا يشكره على فضله، وذكر اطّلاعه تعالى على أحوالهم وحال الرسول معهم في مجاهدته لهم وتلاوة القرآن عليهم، وأنه تعالى عالم بجميع أعمالهم. واستطرد من ذلك إلى ذكر أولياء الله ليُظهر التفاوت بين الفريقين: فريق الشيطان وفريق الرّحمن.

والخطاب في قوله «وما تكون في شأن وما تتلو» للرسول ﷺ، وهو عام لجميع شؤونه عليه السلام. [٢٦٧/أ] «وما تتلو منه» مندرج تحت عموم «شأن» واندرج من حيث المعنى في الخطاب كلّ ذي شأن. و«ما» في الجملتين نافية، والضمير في «منه» عائد على «شأن»، و«من قرآن» تفسير للضمير، وخُصّ من العموم لأن القرآن هو أعظم شؤونه صلى الله عليه وسلم.

والخطاب في قوله «ولا تعملون» عامّ، وكذا «إلا كنّا عليكم شهوداً». وولي «إلاّ» هنا الفعل غير مصحوب بـ«قد»، لأنه قد تقدّم «إلاّ» فعل. والجملة بعد «إلا» حال. و«شهوداً» رقباء نحصي عليكم. و«إذ» معمولة

لقوله «شهوداً».

ولمّا كانت الأفعال السابقة المراد بها الحال[١] الدائمة وتنسحب على الأفعال الماضية، كان الظرف ماضياً وكان المعنى: وما كنت في شأن وما تلوت من قرآن وما عملتم من عمل إلا كنّا عليكم شهوداً إذ أفضتم فيه؛ و«إذ» تخلّص المضارع لمعنى الماضي.

ثم واجهه تعالى بالخطاب وحده في قوله «وما يعزب عن ربك» تشريفاً له عليه السلام وتعظيماً. ولمّا ذكر شهادته تعالى على أعمال الخلق ناسب تقديم «الأرض» التي هي محل المخاطبين على «السماء» بخلاف ما في سورة سبأ[٢]، وإن كان الأكثر تقديمها على الأرض. وقرىء: يعزِب، بكسر الزّاي وكذا في سبأ.

والمثقال اسم لا صفة ومعناه هنا وزن ذرّة، والذّر صغار النّمل. ولمّا كانت الذّرة أصغر الحيوان المتناسل المشهور النوع عندنا، جعلها الله مَثَلاً لأقلّ الأشياء وأحقرها، إذ هي أحقر ما نشاهد، ثم قال «ولا أصغر من ذلك» أي: من مثقال ذرة.

ولما ذكر تعالى أنه لا يعزب عن علمه أدق الأشياء التي نشاهدها، ناسب تقديم «ولا أصغر من ذلك» ثم أتى بقوله «ولا أكبر» على سبيل إحاطة علمه بجميع الأشياء.

ومعلومٌ أنّ من علم أدقّ الأشياء وأحقرها وأخفاها كان علمه متعلّقاً بأكبر الأشياء وأظهرها. وقرىء: ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ، بفتح الراء فيهما،

---

(١) الحال: تذكر وتؤنّث، انظر مختصر المذكر والمؤنث ص٥٤.

(٢) وهو قوله تعالى ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴿٣﴾﴾ [سبأ].

ووُجِّه[١] على أنه معطوف على «ذرّة» أو على «مثقال» على اللفظ. وقرىء برفع الراء فيهما، ووُجّه على أنه عطف على موضع «مثقال» لأنّ «مِن» زائدة، فهو مرفوع بـ«يعزب».

وقال الزمخشري[٢] تابعاً لاختيار الزّجاج: والوجه النصب على نفي الجنس. والرفع على الابتداء ليكون كلاماً مبتدأ. وفي العطف على محلّ «مثقال ذرّة» أو لفظه فتحاً[٣] في موضع الجر إشكال؛ لأن قوله: لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب، مشكل انتهى.

وإنما أشكل عنده لأن التقدير يصير: إلا في كتاب فيعزب، وهذا كلام لا يصحّ. وخرّجه أبو البقاء[٤] على أنه استثناء منقطع تقديره: لكن هو في كتاب مبين، ويزول بهذا التقدير الإشكال.

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ
لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ
وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ
وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ
مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ

---

(١) ق: ووجهه.

(٢) الكشاف ٢: ٢٤٣.

(٣) ق: ومحا.

(٤) انظر إملاء ٢: ٣٠.

سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الآية، «أولياء الله» هم الذين يتولّونه بالطّاعة ويتولاّهم بالكرامة. وعن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ سئل عن أولياء الله فقال «هم الذين يُذكّرون الله برؤيتهم»(١) يعني السمت والهيئة. وهذه الآية يدلّ ظاهرها على أنّ من آمن واتّقى فهو داخل في أولياء [الله]، هذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولاء دائماً.

وإنما نبّهنا هذا التنبيه حذراً من مذهب الصوفية وبعض الملحدين في الوليّ. وبشراهم في الحياة الدنيا: تظاهرت الروايات عن رسول الله ﷺ أنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له، وبشراهم في الآخرة تلقّي الملائكة إياهم مسلّمين مبشّرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحف بأيمانهم وما يقرؤون [منها] وغير ذلك من البشارات.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تغيير لأقواله ولا خلف في مواعيده(٢) كقوله تعالى ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ ﴿٢٩﴾﴾ [ق].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ إما أن يكون [٢٦٧/ب] «قولهم» أريد به بعض أفراده وهو التكذيب والتهديد وما يتشاورون به في أمر رسول الله ﷺ، فيكون من إطلاق العامّ وإرادة الخاص، وإمّا أن يكون ممّا حذفت منه الصّفة

(١) لم أجده، وروى ابن كثير ٣: ٥١٢ نحواً منه عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٢) ق: مواعده.

المخصّصة أي: قولهم الدّال على تكذيبك ومعاندتك[١].

ثم استأنف بقوله ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: لا عزّة لهم ولا منعة فهم لا يقدرون لك على شيء ولا يؤذونك، إنّ الغلبة والقهر لله تعالى وهو القادر على الانتقام منهم فلا يُعازّه شيء ولا يغالبه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المناسبة ظاهرة في هذه الآية: لمّا ذكر أنّ العزّة له تعالى، وهي القهر والغلبة، ذكر ما يناسب القهر وهو كون المخلوقات له تعالى.

و«مَن» الأصل فيها أن تكون للعقلاء، وهنا هي شاملة لهم ولغيرهم على حكم التغليب، وحيث جيء «بما كان تغليبا» للكثرة إذ أكثر المخلوقات لا تعقل.

والظاهر أنّ «ما» نافية و«شركاء» مفعول «يتّبع»، ومفعول «يدعون» محذوف لفهم المعنى تقديره: آلهةً أو شركاء. أي: أن الذين جعلوهم آلهة وأشركوهم مع الله في الربوبيّة ليسوا شركاء حقيقة؛ إذ الشركة في الإلهيّه مستحيلة، وإن كانوا قد أطلقوا عليهم اسم الشركاء. وجوّزوا أن تكون «ما» استفهامية في موضع نصب بـ«يتّبع» و«شركاء» منصوب بـ«يدعون»[٢]، أي: وأيّ شيء يتّبع، على تحقير المتَّبَع كأنه قيل: من يدعو شريكاً لله تعالى لا يتّبع شيئاً.

ومعنى «يخرصون» أي: يحزرون.

---

(١) ق: ومعاندك.

(٢) ق: بتدعون.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ ﴾ هذا تنبيه منه تعالى على عظم قدرته وشمول نعمته لعباده، فهو المستحقّ بأن يُفرد بالعبادة.

«لتسكنوا فيه» أي: ممّا تقاسون من الحركة والتردّد في طلب المعاش وغيره بالنهار. وأضاف الإبصار إلى النهار مجازاً لأن الإبصار يقع فيه كما قال[1]: [من الطويل]

[لقد لُمْتِنا يا أمّ غيلان في السُّرى] ونمتِ وما ليلُ المَطِيّ بنائمِ

أي: يبصرون فيه مطالب معايشهم.

قال قطرب: يقال: أظلم الليل: صار ذا ظلمة، وأضاء النهار وأبصر: أي: صار ذا ضياء وبصر انتهى.

وذكر علّة خلق الليل وهي «لتسكنوا فيه» وحَذَفها من النهار، وذكر وصف النهار، وحذفه من الليل، وكلّ من المحذوف يدلّ على مقابله، والتقدير: جعل الليل مظلماً لتسكنوا فيه، والنهار مبصراً لتتحركوا فيه في مكاسبكم وما تحتاجون إليه بالحركة.

ومعنى «يسمعون»[2] سماع معتبر.

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ ﴾ الآية، الضمير في «قالوا» عائد على مَن نَسب إلى الله الولد ممّن قال: الملائكة بنات الله وغير ذلك.

و«سبحانه» تنزيهه عن اتّخاذ الولد وتعجّب ممّن يقول ذلك.

---

(١) البيت لجرير في ديوانه ٢ : ٩٩٣.

(٢) ق: تسمعون.

«هو الغني» علّة لنفي الولد، لأنّ اتخاذ الولد إنما يكون للحاجة إليه، والله تعالى غير محتاج إلى شيء، فهو غني عن اتخاذ الولد. و«إن» نافية. والسلطان: الحجة أي: ما عندكم من حجّة بهذا القول.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ الآية، لمّا ذكر الدلائل على وحدانيّته وذكر [ما جرى] بين الرسول وبين الكفار، ذكر قصصاً من قصص الأنبياء وما جرى لهم مع قومهم من الخلاف، وذلك تسلية لرسول الله ﷺ وليتأسّى بمن قبله من الأنبياء. والضمير في «عليهم» عائد على أهل مكة الذين تقدّم ذكرهم.

و«كَبُر» معناه عُظُم. «مقامي» أي: طول مقامي [فيكم، أو قيامي] للوعظ.

قال ابن عطية: ولم يُقرأ هنا بضم الميم.انتهى.

ليس كما قال، بل قرأ «مُقامي» بضم الميم أبو مجلز وأبو رجاء وأبو الجوزاء. والمُقام: الإقامة بالمكان، والمَقام: مكان القيام. وجواب الشرط «فعلى الله توكّلت» فلا أبالي منكم.

وقرىء: فأجمعوا، مِن: أجمع الرجل الشيء: عزم عليه ونواه، قال

[٢٦٨/أ] الشاعر[١]: [من الخفيف]

أجمعوا[٢] أمرهم بليلٍ فلمّا أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

وقرىء: فأجمعوا، أمرٌ من جَمَع.

و«شركاءَكم» معطوف على «أمركم» وهو على حذف مضاف تقديره: وأمر شركائكم.

ومعنى «اقضوا إليّ» أنفذوا قضاءكم نحوي. ومفعول «اقضوا» محذوف أي: اقضوا إليّ ذلك الأمر وأَمْضُوا ما في أنفسكم واقطعوا ما بيني وبينكم.

«ولا تُنظرون» أي: لا تؤخّروني، والنَّظِرة: التأخير.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ الآية، أي: فإن دام تولّيكم عمّا جئت به إليكم من توحيد الله ورفض آلهتكم، فلست أبالي بكم إذاً[٣] ما دعوتكم إليه وذكّرتكم به ووعظتكم لم أسألكم عليه أجراً إنما يثيبني الله عليه.

«فكذّبوه» أي: فتمّوا على تكذيبه وذلك عند مشارفة الهلاك بالطوفان.

و«في الفلك» متعلّق بالاستقرار الذي تعلّق به «معه» أو بـ«نجّيناه».

«وجعلناهم» [جمع] ضمير المفعول على معنى «مَن».

---

(١) البيت للحارث بن حلزة من معلّقته، وهو في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص٤٥٢.

(٢) ق: جمعوا.

(٣) ق: إذا.

و«خلائف» يخلفون الغارقين المُهلَكين.

ثم أمر بالنّظر إلى عاقبة المنذَرين بالعذاب وإلى ما صار إليه حالهم. وفي هذا الإخبار توعّد للكفّار بمحمد ﷺ وضَرْبُ مثالٍ لهم في أنهم بحال هؤلاء من التكذيب فستكون حالهم كحالهم في التعذيب.

﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا﴾ الآية، أي: من بعد نوح رسلاً.

«إلى قومهم» يعني هوداً وصالحاً ولوطاً وإبراهيم وشعيباً.

والبيّنات: المعجزات والبراهين الواضحة المُثبتة لما جاؤوا به.

وجاء النفي مصحوباً بلام الجحود ليدلّ على أن أيمانهم في حيّز الاستحالة والامتناع.

قال ابن عطية: ويحتمل اللفظ عندي معنى آخر وهو أن تكون «ما» مصدرية، والمعنى: فكذّبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل، أي: من قبل سببه ومن جرّائه[١]. ويؤيد هذا التأويل [قوله] «كذلك نطبع» انتهى.

الظاهر أنّ «ما» موصولة ولذلك عاد الضمير عليها في قوله «بما كذّبوا به» ولو كانت مصدريّة بقي الضمير غير عائد على مذكور، فيحتاج أن يتكلف ما يعود عليه الضمير. والضمير في «كذّبوا» عائد على ما عاد عليه ضمير «كانوا» وهم قوم الرسل. والمعنى أنهم كانوا قبل بعثة الرّسل أهل جاهلية وتكذيب للحقّ فتساوت حالاتهم قبل البعثه وبعدها كأنْ لم يُبعث إليهم أحد. و«من قبل» متعلق «بكذّبوا» أي: من قبل بعثة الرسل.

(١) ق: جزاه.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا
مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ
لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾
فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ
ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ
وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ
تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾
وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾ الآية، لا يُخَصّ قوله «وملئه» بالأشراف بل هي عامة لقوم فرعون شريفهم ومشروفهم.

«فاستكبروا» تعاظموا عن قبولها. والحق: هو العصا واليد.

﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ ﴾ استفهام إنكار، ومعمول القول محذوف تقديره: هذا سحر. ثم أنكر عليهم أيضاً باستفهام ثانٍ وهو قوله «أسحرٌ هذا» أي: أسحرٌ هذا الذي جئت به من معجز العصا واليد. ثم أخبر عليه السلام بقوله ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾.

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا ﴾ الآية، «أجئتنا» خطاب لموسى عليه السلام وحده، لأنه هو الذي ظهرت على يديه المعجزات وهي العصا واليد.

«لتلفتنا» لتصرفنا وتلوينا. «عما وجدنا عليه آباءنا» من عبادة غير الله

واتخاذ آلهة دونه. و«الكبرياء» مصدر.

ولما ادّعوا أن ما جاء به موسى عليه السلام هو سحر، أخذوا في معارضته بأنواع من السّحر ليظهروا[١] لسائر الناس أنّ ما جاء به موسى عليه السلام هو من باب السحر.

والمخاطب بقوله «أئتوني» خَدَمة فرعون [٢٦٨/ب] والمتصرّفون[٢] بين يديه. وقرىء: بكل سحّار، على المبالغة. وقرىء: بكل ساحر، على الإفراد.

وفي قوله «أَلْقُوا ما أنتم ملقون» استطالة عليهم وعدم مبالاة بهم. وفي إبهام «ما أنتم ملقون» تخسيس[٣] وتقليل وإعلام أنه لا شيء يلتفت إليه.

وقرىء: السحر، بغير أداة استفهام، «فما» مبتدأة موصولة بمعنى الذي، وصلتها «جئتم به»، وخبر المبتدأ «السّحر».

وقرىء: آلسحر، بالاستفهام، «فما» استفهامية مبتدأة تقديره: أي شيء، و«جئتم به» الخبر، و«آلسحر» بدل من «ما». ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ويكون استفهاماً ثانياً تقديره: أهو السّحر؟.

قال ابن عطية: والتعريف هنا في «السحر» أرتب لأنه قد تقدّم منكّراً في قوله ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يونس] فجاء هنا بلام العهد، كما يقال أول[٤]

---

(١) ق: ليظهر.

(٢) ق: والمتصرّفين.

(٣) ق: تجنيس.

(٤) ق: إنّ أول.

الرسالة: سلام عليك، وفي آخرها: والسلام عليك انتهى.

أخذ هذا من[١] الفرّاء، قال الفرّاء[٢]: وإنما قال «السحر» بالألف واللام لأن النكرة إذا أعيدت أعيدت بالألف واللام. ولو قال له: من رجل، لم يقع[٣] له في فهمه أنه يسأله عن الرجل الذي ذكره له.انتهى.

وما ذكراه هنا في «السحر» ليس هو مِن باب تقدّم النكرة ثم أخبر عنها بعد ذلك؛ لأنّ شرط هذا أن يكون المعرَّف بالألف واللام هو النكرة المتقدم ولا يكون غيره كما قال تعالى ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴿١٦﴾﴾ [المزمل]، وتقول: زارني رجل فأكرمت الرجل. ولمّا كان إياه جاز أن تأتي بالضمير بدله فتقول: فأكرمته. والسحر هنا ليس هو السحر الذي في قولهم «إنّ هذا لسحر» أي: إنّ الذي أخبر ذا عنه بأنه سحر هو ما ظهر على يدي موسى من معجزة العصا، والسحر الذي في قول موسى عليه السلام إنما هو سحرهم الذي جاؤوا به، فقد اختلف المدلولان إذ قالوا هم عن معجزة موسى، وقال موسى عما جاؤوا به، ولذلك لا يجوز أن يؤتى هنا بالضمير بدل السحر، فيكون عائداً على قولهم «السحر».

و«سيبطله» يمحقه بحيث يذهب ويظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ الآية، الظاهر في الفاء من حيث إن مدلولها التعقيب،

---

(١) ق: أخذ من هذا.

(٢) انظر معاني القرآن ١: ٤٧٥، وليست هذه عبارته فيه.

(٣) ق: يقل.

أنّ هذا الإيمان الصادر من الذّرية لم يتأخّر عن قصة الإلقاء.

والظاهر أن الضمير في «قومه» عائد على موسى، وأنه لا يعود على فرعون؛ لأن موسى عليه السلام هو المحدَّث عنه في هذه الآية، وهو أقرب مذكور، ولأنه لو كان عائداً على فرعون، لم يظهر لفظ «فرعون» وكان التركيب: على خوف منه ومن مَلَئِهم أن يفتنهم. وهذا الإيمان من الذّرية كان أول مبعثه إذ قد آمن به بنو[1] إسرائيل قومه كلّهم: كان أوّلاً دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابَتْه طائفة من أبنائهم مع الخوف من فرعون.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ الآية، الظاهر أنهم سألوا الله أن لا يُفتنوا عن دينهم، وأن يخلصوا من الكفار، فقدّموا ما كان عندهم أهمّ وهو سلامة دينهم لهم، وأخّروا سلامة أنفسهم، إذ الاهتمام بمصالح [الدّين] آكد من الاهتمام بمصالح الأبدان.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ
قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ
فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ
عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ
أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾
۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ

(١) ق: من بني. وانظر في هذا جامع البيان ١١: ١٠٣ وما بعدها.

بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ .

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ الآية، «أنْ» يجوز أن تكون تفسيرية بمعنى أي، وأن تكون مصدرية.

و«تبوّآ» فعل أمر أي: اتّخذا[1] مباءة، وهو المكان الذي يرجع الإنسان إليه.

والظاهر اتخاذ البيوت بمصر وهي مصر المعروفة، ومصر من البحر إلى أسوان، والإسكندرية من أرض مصر.

﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: قِبَل القبلة، ثم سيق الخطاب عامًّا لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها، ثم خصّ موسى عليه السلام بالتبشير الذي هو الغرض تعظيماً له وللمبشَّر به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ﴾ الآية، الزّينة عبارة [٢٦٩/أ] عمّا يُتزيّن به ويُتحسّن من الملبوس والمركوب والأثاث[2]. والمال ما يزيد على ذلك من الصامت والناطق. وفي تكرير «ربّنا» توكيد للدّعاء والاستغاثة. واللام في «ليضلّوا» الظاهر أنها لام كي على معنى: آتيتهم ما آتيتهم على سبيل الاستدراج فكان الإيتاء لكي يُضلّوا. ويُحتمل أن تكون لام الصيرورة والعاقبة كقوله تعالى ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿٨﴾﴾ [القصص] وكما قال

---

(١) ق: اتخذ.

(٢) ق: والإناث؟.

الشاعر[1]: [من البسيط]

وللمنايا تُربّي كلُّ مرضعةٍ وللخراب يُجِدُّ الناسُ عمرانا

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ الآية، قال ابن عباس: صارت دراهمهم حجارة منقوشة صحاحاً وأثلاثاً وأنصافاً، ولم يبق لهم معدن إلاّ طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد بعدُ.

﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ قال ابن عباس: اطبع عليها وامنعها من الإيمان.

﴿فَلَا يُؤْمِنُوا۟﴾ مجزوم[2] على أنه جواب «اشدد»، والأمر وجوابه ينعقد منهما شرط وجزاء وتقدير ذلك هنا: إن تشدد لا يؤمنوا.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ الآية، قال محمد بن كعب: كان موسى عليه السلام يدعو وهارون عليه السلام يؤمّن، فنُسبت الدعوة إليهما، ويمكن أن يكونا دَعَوَا معاً، ثم أُمرا بالاستقامة، والمعنى الديمومة عليها وعلى ما أُمرتما من الدعوة إلى الله وإلزام حجّة الله.

و«الذين لا يعلمون» فرعون وقومه، قاله ابن عباس.

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ تقدّم الكلام في الباء من [قوله] «ببني[3] إسرائيل» وكم كان الذين جاوزوا مع موسى عليه السلام في الأعراف[4]. ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ﴾ الآية، وإتباع فرعون هو بمجاوزة البحر. روي أن فرعون

---

(١) البيت في زاد المسير ٤: ٥٦ غير منسوب.

(٢) ق: منصوب. وإذا كان منصوباً فهو معطوف على ليضلوا.

(٣) ق: من بني.

(٤) انظر شرح الآية ١٣٨ من الأعراف.

لما انتهى إلى البحر، فوجده قد انفرق ومضى فيه بنو إسرائيل، قال لقومه: إنما انفرق بأمري. وكان فرعون على فرس ذكر، فبعث الله إليه جبريل على فرس أنثى ودَنَوَا، فدخل بها البحر ولج فرس فرعون وراءه وجنّب الجيوش خلفه، فلما رأى أن الانفراق قد ثبت واستمرّ له وبعث الله ميكائيل يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر فانطبق عليهم، ولمّا لحقه من الدهش ما لحقه، كرّر المعنى بثلاث عبارات: إما على سبيل التّلعثم؛ إذ ذاك مقام تحار فيه القلوب، أو حرصاً على القبول، ولم يقبل الله تعالى منه، إذ فاته وقت القبول وهو حالة الاختيار وبقاء التكليف. والتوبة بعد المعاينة لا تنفع؛ ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ فَلَمْ [يَكُ] يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المؤمن]. وتقدّم الخلاف في قراءة: «آلان» في قوله «آلان وقد كنتم به تستعجلون» في هذه السورة[1]، والمعنى: أتؤمن الآن الساعة في حال الاضطرار حين أدركك[2] الغرق وأيستَ من نفسك؟ قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق.

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ الآية، أي: نلقيك بنجوةٍ من الأرض وهي المكان المرتفع. و«ببدنك» بدرعك، وكان من لؤلؤ منظوم لا مثال له، قاله[3] ابن عباس. والبدن: بدن الإنسان، والبدن: الدرع القصيرة، قال الشاعر[4]:

[من الوافر]

(١) انظر شرح الآية ٥١.

(٢) ق: أدرك.

(٣) ق: قال.

(٤) البيت في شرح القصائد السبع ص٤١٤ غير منسوب، وهو في القرطبي ٨: ٣٨٠ منسوب إلى كعب بن مالك.

تــرى الأبــدان فيهــا مُسْبَغَــاتٍ   على الأبطـال واليَلَـبَ[١] الحصينا

يعني الدروع. وقيل: نلقيك ببدنك عرياناً ليس عليك ثياب ولا سلاح، وذلك أبلغ في [٢٦٩/ب] إهانته.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ[٢] إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ الآية، الظاهر أن بني إسرائيل هم الذين كانوا آمنوا بموسى عليه السلام، ونَجَوْا من الغرق وسياق الآيات يشهد لهم.

وانتصب «مبوّأ صدق» على أنه مفعول ثانٍ «لبوّأنا» كقوله تعالى ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا ۝٥٨﴾ [العنكبوت] أو على المصدر.

ومعنى «صدق» أي: فضل وكرامة. ولمّا ذكر أنه بوّأهم مبوّأ صدق ذكر امتنانه عليهم بما رزقهم من الطيبات، وهي المآكل المستلذّات أو الحلال.

«فما اختلفوا» أي: كانوا على ملّة واحدة وطريقة مع موسى عليه السلام في أول حاله.

«حتى جاءهم العلم» أي: علم التوراة فاختلفوا. وهذا ذمٌّ لهم أي: أن سبب الاتفاق هو العلم فصار عندهم سبب الاختلاف فتشعّبوا شعباً بعدما قرؤوا التوراة.

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٩٤ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٥ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ

(١) ق: والثلب.
(٢) ق: لبني.

ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا
عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى
ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ
ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم
مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ
وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا
كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ
فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ الآية، الظاهر أنّ «إنْ» شرطيّة تقتضي تعليق شيء على شيء، ولا تستلزم تحتّم وقوعه ولا إمكانه بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً كقوله تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف] ويستحيل أن يكون له ولد، فكذلك هذا يستحيل أن يكون عليه السلام في شك، وهذه الآية من ذلك.

وقيل: «إن» نافية. وقيل: الخطاب لغير رسول الله ﷺ. وقيل: معنى «في

شكّ» في ضيق ولا يُراد به حقيقة الشّك وهو تساوي الجائزَيْن. وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا أشكّ ولا أسأل بل أشهد أنه الحق»[١].

«فتكون» منصوب بإضمار أنْ بعد الفاء وهو جواب النّهي قبله.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ذكر[٢] عباداً قضى عليهم بالشقاوة فلا تتغير. والكلمة التي حقّت عليهم هي اللعنة والغضب.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ هو في الوقت الذي لا ينفعهم فيه إيمانهم.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ الآية، «لولا» هنا هي التحضيضيّة التي صَحِبها التوبيخ. وكثيراً ما جاءت في القرآن للتحضيض فهي بمعنى هلاّ. والتحضيض أن يريد الإنسان فعل الشيء الذي يحضّ عليه. وإذا كانت للتوبيخ فلا يريد[٣] المتكلّم الحضّ على ذلك الشيء. وهنا وبّخهم على ترك الإيمان النافع، والمعنى: فهلاّ آمن أهل قرية وهم على مهل لم يلتبس العذاب بهم، فيكون الإيمان نافعاً لهم في هذه الحالة.

و«إلاّ قوم يونس» استثناء منقطع، إذ لم يندرج قوم يونس في قوله «قرية». وإلى الانقطاع فيه ذهب سيبويه والكسائي والفرّاء والأخفش. وقيل: هو استثناء متّصل لأن التّحضيض إنما يكون على شيء لم يقع فتضمّن معنى النفي، وصار المعنى: لم تكن قرية - يعني أهلها - آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس، وهم أهل نينوى من بلاد الموصل كانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله إليهم يونس عليه السلام، فأقاموا على تكذيبه سبع سنين، وتوعّدهم

(١) رواه سعيد عن قتادة، انظر تفسير الطبري ١١ : ١١٦.

(٢) ق: لما ذكر.

(٣) ق: يرد.

العذاب بعد ثلاثة أيام وقيل بعد أربعين يوماً.

«إلى حين» أي: إلى وقت انقضاء آجالهم.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية، قيل: أُنزلت في أبي طالب لأن رسول الله ﷺ أسف لموته على ملّة عبد المطّلب، وكان حريصاً على إيمانه، وكان أحرص الناس على هداية من في الأرض.

﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ تقديم الاسم في الاستفهام على الفعل، يدلّ على إمكان حصول الفعل، لكن من غير الاسم، فللّه أن يُكره الناس على الإيمان لو شاء، وليس ذلك لغيره.

وقرىء: ونجعل، بنون المتكلم، ويجعل، بياء الغيبة.

[٢٧٠/أ] ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إذ السبيل إلى معرفته تعالى هو بالتفكر في مصنوعاته: ففي[١] العالم العلوي في حركات الأفلاك ومقاديرها وأوضاعها، والكواكب وما يختصّ بذلك من المنافع والفوائد. وفي العالم السفليّ في أحوال العناصر والمعادن والنبات والحيوان وخصوصاً حال الإنسان. وكثيراً ما ذكر الله في كتابه الحضّ على التفكر في مخلوقاته تعالى، وقال «ماذا في السماوات والأرض» تنبيهاً على القاعدة الكليّة، والعاقل يتنبّه لتفاصيلها وأقسامها. ثمّ لمّا أمر تعالى بالنّظر أخبر أنه من لا يؤمن، لا تغنيه الآيات.

و«النّذر» جمع نذير؛ إما مصدر فمعناه: والإنذارات، وإما بمعنى منذر فمعناه: المنذرون والرّسل.

---

(١) ق: وفي.

و«ما»[١] الظاهر أنها للنفي، ويجوز أن تكون استفهاماً أي: وأيّ شيء تغني الآيات وهي الدلائل؟ وهو استفهام على جهة التقرير.

قال ابن عطية: ويحتمل أن تكون «ما» في قوله «وما تغني» مفعولة لقوله «انظروا» معطوفة على قوله «ماذا» أي: تأمّلوا قَدْر غَناء الآيات والنذر عن الكفّار إذا قبلوا ذلك كفعل قوم يونس، فإنه يرفع العذاب في الدنيا والآخرة، وينجي من المهلكات. فالآية على هذا تحريض على الإيمان، وتجوُّز اللفظ على هذا التأويل إنما هو في قوله «لا يؤمنون» انتهى.

هذا احتمال فيه ضعف. وفي قوله: مفعولة معطوفة على قوله «ماذا» [تجوّز] - يعني[٢] أن الجملة الاستفهامية التي هي «ماذا في السماوات والأرض» في موضع المفعول - لأنّ «ماذا» وحده منصوب بـ«انظروا» فتكون «ماذا» موصولة و«انظروا» بصرية لما تقدّم. وفي الآية توبيخ لحاضري رسول الله ﷺ من المشركين.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ لما تقدّم قوله «فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم» وكان ذلك مشعراً بما حلّ بالأمم الماضية المكذّبة ومصرّحاً بهلاكهم في غير ما آية - أخبر تعالى عن حكاية حالهم الماضية فقال «ثم ننجّي رسلنا». والمعنى أن الذين خلوا، أهلكناهم لمّا كذّبوا الرّسل، ثم نجّينا الرّسل والمؤمنين. والظاهر أن «كذلك» في موضع نصب تقديره: مثلَ ذلك الإنجاء الذي نجّينا الرسل ومؤمنيهم ننجي من آمن بك يا محمد، ويكون

---

(١) ق: وأما.

(٢) ق: تغني.

«حقًّا» على تقدير: حقّ ذلك حقًّا[١].

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الآيات خطاب لأهل مكّة، يقول: إن كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبيّنه لكم. فبدأ أولاً بالانتفاء من عبادة ما يعبدون من الأصنام تسفيهاً لآرائهم، وأثبت ثانياً مَن الذي يعبده وهو «الله الذي يتوفّاكم». وفي ذكر هذا الوصف الوسط الدّال على التَّوفي دلالة على البدء وهو الخلق، وعلى الإعادة، فكأنه أشار إلى أنه يعبد الله الذي خلقكم ويتوفّاكم ويعيدكم. وكثيراً ما صرّح بهذه الأطوار الثلاثة وكان التصريح بهذا الوصف لما فيه من التذكير بالموت وإرهاب النفوس به وصيرورتهم إلى الله تعالى بعده، فهو الجدير بأن يُخاف ويُتّقى ويُعبد لا الحجارة التي يعبدونها. «وأُمرت أن أكون من المؤمنين» لمّا ذكر أنه يعبد الله وكانت العبادة أغلب ما عليها عمل الجوارح، أخبر بأنه أُمر بأن يكون من المصدّقين بالله الموحّدين له المُفْرِديه بالعبادة، فانتقل من عمل الجوارح إلى نور المعرفة وطابق الباطن الظاهر.

﴿وَأَنْ أَقِمْ﴾ يحتمل أن تكون معمولة لقوله «وأُمرت» مراعى فيها المعنى، لأن معنى قوله «أن أكون»: كن من المؤمنين، فتكون [٢٧٠/ ب] «أن» مصدرية صلتها الأمر. والوجه هنا المنحى والمقصد، أي: استقم للدين ولا تَحِدْ عنه. و«حنيفاً» حال من الضمير في «أقم» أو من المفعول.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ كنّى بالفعل عن الدّعاء مجازاً أي: فإن دعوت ما لا ينفعك ولا يضرّك. وجواب الشرط «فإنك» وخبرها. وتوسّطت «إذاً» بين اسم إنّ والخبر، ورُتْبَتها بعد الخبر، لكن روعي في ذلك الفاصلة.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية، أتى في الضّر بلفظ المسّ، وفي الخير بلفظ

---

(١) وننجي: مضارع أنجى، وخطّ المصحف بغير ياء.

الإرادة. وطابق بين الضّر والخير مطابقة معنوية لا لفظية؛ لأن مقابل الضرّ النفع، ومقابل الخير الشّر، فجاءت لفظة[1] الضّر ألطف وأخصّ من لفظة الشّر، وجاءت لفظة الخير أتمّ من لفظة النفع. ولفظة المسّ أوجز من لفظة الإرادة وأنصّ على الإصابة وأنسب لقوله «فلا كاشف له إلاّ هو». ولفظة الإرادة أدلّ على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره وأنسب للفظ الخير. وإن المسّ والإرادة معناهما الإصابة. وجاء جواب «وإن يمسسك» بنفي عام وإيجاب، وجاء جواب «وإن يُرِدْك» بنفي عامّ لأنّ ما أراده لا يردّه رادّ لا هو صلى الله عليه وسلم ولا غيره.

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ الآية، «الحق» القرآن والرسول ودين[2] الإسلام. والمعنى: فإنما ثواب هدايته حاصل له، ووبال ضلاله عليه. والهداية والضلال واقعان بإرادة الله تعالى. وروي أنه لما نزلت «واصبر» جمع صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال «إنكم ستجدون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني»[3].

---

(١) ق: لفظ.

(٢) ق: دين.

(٣) أخرجه البخاري ٦: ٢٥٨٩ من حديث أسيد بن حضير.

سورة يونس

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ
أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ
ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ
﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ
مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا
وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى
مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ
دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم
بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا
مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ
يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن

قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ
(١٣) ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ
لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ
يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ (١٧) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ
وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ
سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا
كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ
عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (٢٠) وَإِذَآ
أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا
يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم
بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ
بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ
إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ
وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ
بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)﴾.

المفردات القَدَم؛ قال الليث وأبو الهيثم: القدم: السَّابقة، قال ذو الرُّمَّة:

وأنت امرؤٌ من أهلِ بيتِ ذُؤابةٍ لهم قَدَمٌ معروفةٌ ومَفاخِرُ(١)

---

(١) تهذيب اللغة ٩/ ٤٥، وتفسير الرازي ١٧/ ٧، وينظر العين ٥/ ١٢٢، والبيت في ديوان ذي الرمة ٢/ ١٠٤٤. قال الشارح: قوله: بيت ذؤابة، يقول: من أهل بيت فرعٍ، يقول: ليس بذَنَبٍ هو رأس، وقوله: لهم قدم، أي: سابقة أمر تقدَّموا فيه.

وقال أبو عبيدة والكسائي: كلُّ سابقٍ في خيرٍ أو شرٍّ فهو قَدَمٌ[(١)].

وقال الأخفش: سابقة إخلاصٍ[(٢)]، كما في قول حسَّان:

لنا القدمُ العُليا إليك وخَلْفُنا لأوّلنا في طاعة الله تابعُ[(٣)]

وقال أحمد بن يحيى: كلُّ ما قدَّمْتَ من خيرٍ[(٤)].

وقال ابنُ الأنباريِّ: العمل الذي يُتقدَّم فيه ولا يقعُ فيه تأخيرٌ ولا إبطاء[(٥)].

المُرور: مجاوزةُ الشيءِ والعبورُ عليه، تقول: مررتُ بزيدٍ، أي: جاوَزْته، والمِرَّةُ: القوَّة، ومنه: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٦] ومِرَرُ الحبل: قُوَاه، ومنه: «لا تَحِلُّ الصدقةُ لغنيٍّ ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيٍّ»[(٦)].

العاصف: الشديدة؛ يقال: عَصَفت الريحُ، قال الشاعر:

حتى إذا عصفتْ ريحٌ مزَعْزِعةٌ فيها قِطَارٌ ورعدٌ صوتُه زَجِلُ[(٧)]

وأَعْصَفَت الريحُ، قال الشاعر:

وَلِهَتْ عليه كلُّ مُعْصِفةٍ هوجاءُ ليس لِلُبِّها زَبْرُ[(٨)]

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٧١، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٥٠، وينظر مجاز القرآن ١/ ٢٧٣.

(٢) في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٦٤: القدم هاهنا: التقديم، كما تقول: هؤلاء أهل القدم في الإسلام، أي: الذين قدَّموا خيراً فكان لهم فيه تقديم.

(٣) ديوان حسان ص٣١٠.

(٤) تهذيب اللغة ٩/ ٤٦، وتفسير الرازي ١٧/ ٧.

(٥) تفسير الرازي ١٧/ ٧.

(٦) أخرجه أحمد (٦٥٣٠)، وأبو داود (١٦٣٤)، والترمذي (٦٥٢) ـ وحسنه ـ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٧) عزاه الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٦٠، والطبري ١٢/ ١٤٦ لبعض بني دُبَيْر. قوله: قطار، هو جمع قَطْرٍ، وهو المطر، والزَّجِلُ من الغيث: الذي لرعده صوت. معجم متن اللغة (قطر) و(زجل).

(٨) البيت لابن أحمر كما في الكتاب ٢/ ١١١، وأساس البلاغة واللسان والتاج (زبر). قوله: ولهت عليه، يعني أن الرياح حنَّت وصوَّتت في هبوبها على هذا الموضع كما تحن الناقة التي فقدت ولدها. والهوجاء: الشديدة الهبوب، واللب: العقل، وزَبْره: إحكامه، يريد أنها =

وقال أبو تمام:

إنَّ الرياحَ إذا ما أَعْصَفَتْ قَصَفَتْ عَيْدانَ نجدٍ ولا يَعْبأْنَ بالرَّتَمِ[١]

الموج: ما ارتفع من الماء عند هُبوب الهواء، سمِّي موجًا لاضطرابه.

* * *

التفسير ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ②﴾ هذه السورةُ مكيةٌ إلا ثلاثَ آياتٍ فإنها نزلت بالمدينة، وهي: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ إلى آخرهن؛ قاله ابن عباس[٢].

وقال الكلبي: إلَّا قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ فإنها نزلت في اليهود بالمدينة.

وقال قوم: نزل من أوَّلها نحوٌ من أربعين آيةً بمكة، ونزل باقيها بالمدينة[٣].

وقال الحسن وعطاءٌ وجابر: هي مكية[٤].

وسببُ نزولها أنَّ أهلَ مكةَ قالوا: لم يجد الله رسولًا إلا يتيمَ أبي طالب؟! فنزلت[٥].

وقال ابنُ جُرَيْجٍ: عَجِبَتْ قريشٌ أنْ بُعِثَ رجلٌ منهم فنزلت[٦].

وقيل: لما حدَّثهم عن البعث والمَعَادِ والنُّشور تعجَّبوا.

= لا عقل لها، وهذا على طريق المَثَل. أورده سيبويه شاهداً على جعل «هوجاء» نعتاً لـ«كل». شرح أبيات سيبويه لأبي محمد السيرافي ٢/ ٢٢-٢٣.

(١) ديوان أبي تمام ٣/ ٢٨٠. العيدان: جمع عيدانة، وهي النخلة الطويلة، والرتَم: ضرب من الشجر. قاله التبريزي شارح الديوان.

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٢٠، وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٤٧٠ عن ابن عباس أنها مكية، ولم يستثن.

(٣) ذكره مع قول الكلبيِّ ابنُ عطية في المحرر ٣/ ١٠٢.

(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٢٠.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٥، وللنحاس ٣/ ٢٧٦، والكشاف ٢/ ٢٢٤.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ١٠٧.

ومناسَبتُها لـمَا قبلها أنه تعالى لـمَّا أنزل: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ [التوبة: ١٢٤ و١٢٧] وذَكَر تكذيبَ المنافقين، ثم قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] وهو محمدٌ ﷺ، أتبع ذلك بذكر الكتابِ الذي أُنزل والنبيِّ الذي أُرسل، وأنَّ ديدن الضالِّين واحدٌ ـ منافقيهم ومشركيهم ـ في التكذيب بالكتب الإلهية وبمن جاء بها، ولـمَّا كان ذكرُ القرآن مقدَّمًا على ذكر الرسول في آخر السورة جاء في أول هذه السورة كذلك، فتقدَّم ذكرُ الكتاب على ذكر الرسول.

وتقدَّم ما قاله المفسرون في أوائل هذه السورِ المفتتَحَةِ بحروف المعجم، وذكروا هنا أقوالًا عن المفسرين منها: أنا الله أرى، ومنها: أنا الله الرحمن، ومنها: أنه يتركَّبُ منها ومن «حم» ومن «نون»: الرحمن، فـ«الرا» بعضُ حروف «الرحمن» مفرَّقةً[(١)]، ومنها: أنا الربُّ، وغير ذلك[(٢)].

والظاهرُ أن «تلك» باقيةٌ على موضوعها من استعمالها لِبُعْدِ المشار إليه.

فقال مجاهد وقتادةُ: أشار بـ«تلك» إلى الكتب المتقدِّمة من التوراة والإنجيل والزبور[(٣)]. فتكون الآيات: القصص التي وُصفت في تلك الكتب.

وقال الزجَّاج: إشارة إلى آيات القرآن التي جرى ذكرُها[(٤)].

وقيل: إشارة إلى الكتاب المُحْكَم الذي هو مخزونٌ مكتوبٌ عند الله، ومنه نُسخ كلُّ كتابٍ، كما قال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزخرف: ٤].

وقيل: إشارة إلى «الر» وأخواتِها من حروف المعجم، أي: تلك الحروفُ المفتتحُ بها السُّوَرُ وإنْ قَرُبَتْ ألفاظُها فمعانيها بعيدةُ المنال، وهي آياتُ الكتاب، فإنَّ الكتابَ بها يُتْلى وألفاظُه إليها ترجعُ؛ ذكره ابن الأنباري[(٥)].

---

(١) وهذه الثلاثة مروية عن ابن عباس ﷺ كما في زاد المسير ٤/٤، وأخرج عنه الأول والأخير الطبري ١٢/١٠٣-١٠٤.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/٢٦٩، وفيه: أنا الربُّ لا ربَّ غيري.

(٣) أخرجه عنهما بنحوه الطبري ١٢/١٠٥.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/٥، وزاد المسير ٤/٤.

(٥) كما في زاد المسير ٤/٤.

وقيل: استعمل «تلك» بمعنى هذه، والمشارُ إليه حاضرٌ قريبٌ؛ قاله ابن عباس واختاره أبو عبيدة[١]؛ فقيل: آيات القرآن. وقيل: آياتُ السور التي تقدَّم ذكرها في قوله: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ﴾ وقيل: المشارُ إليه هو «الر» فإنها كنوزُ القرآن، وبها العلومُ التي استأثَرَ الله بها[٢]. وقيل: إشارةٌ إلى ما تضمَّنَتْه السورةُ من الآيات.

و«الكتاب»: السورة، و«الحكيم»: الحاكم، أو: ذو الحِكْمة لاشتماله عليها وتعلُّقِه بها، أو: المُحْكَم، أو: المحكومُ به، أو: المُحْكِم، أقوالٌ.

والهمزة في «أكان» للاستفهام على سبيل الإنكار؛ لوقوع العَجَب من الإيحاء إلى بشرٍ منهم بالإنذار والتبشير، أي: لا عجب في ذلك فهي عادةُ الله في الأمم السالفة؛ أوْحَى إلى رسلهم الكتبَ بالتبشير والإنذارِ على أيدي مَن اصْطَفاه منهم، واسم «كان»: «أن أوحينا»، و«عجبًا» الخبر.

و«للناس» قيل: هو في موضع الحال من «عجبًا» لأنه لو تأخَّر لكان صفةً، فلما تقدَّم كان حالًا.

وقيل: يتعلَّق بقوله: «عجبًا»، وليس مصدرًا بل هو بمعنى مُعْجِب، والمصدرُ إذا كان بمعنى المفعول جاز تقدُّم معموله عليه كاسم المفعول.

وقيل: هو تبيينٌ، أي: أعني للناس.

وقيل: يتعلَّق بـ«كان» وإن كانت ناقصةً، وهذا لا يتمُّ إلا إذا قدِّرت دالَّةً على الحدث؛ فإنها إنْ تمحَّضت للدلالة على الزمان لم يصحَّ تعلُّقٌ بها.

وقرأ عبد الله: «عَجَبٌ»[٣]، فقيل: «عجبٌ» اسم «كان» و«أنْ أوحينا» هو الخبر، فيكون نظيرَ:

يكونُ مِزاجَها عسلٌ وماءُ[٤]

(١) المصدر السابق، وكلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٧٢.
(٢) في (ح): وبها العلم الذي استأثر الله به.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٢٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٢.
(٤) وصدره: كأن سبيئةً من بيت رأسٍ، والبيت لحسان، وهو في ديوانه ص٥٩، والكتاب =

وهذا محمولٌ على الشذوذ، وهذا تخريجُ الزمخشري وابن عطية[١].

وقيل: «كان» تامة و«عَجَبٌ» فاعلٌ بها، والمعنى: أَحَدَثَ للناس عَجَبٌ لأنْ أوحينا، وهذا التوجيهُ حسنٌ.

ومعنى «للناس عجبًا» أنهم جعلوه لهم أعجوبةً يتعجَّبون منها، ونصبوه عَلَمًا لهم يوجِّهون نحوَه استهزاءَهم وإنكارَهم.

وقرأ رؤبة: «إلى رَجْلٍ» بسكون الجيم[٢]، وهي لغةٌ تميميةٌ يسكِّنون فَعُلًا نحو: سَبْع وعَضْد، في: سَبُعٍ وعَضُدٍ.

ولمَّا كان الإنذارُ عامًّا كان متعلَّقُه وهو «الناس» عامًّا، والبشارةُ خاصةٌ فكان متعلَّقها خاصًّا، وهو «الذين آمنوا».

و«أنْ أَنْذِرْ»، «أنْ» تفسيريةٌ، أو مصدريةٌ مخفَّفةٌ من الثقيلة، وأصلُه: أنه أنذر الناسَ، على معنى: أن الشأنَ قولُنا: أنذر الناس، قالهما الزمخشري[٣].

ويجوزُ أن تكون «أنْ» المصدريةَ الثنائيةَ الوضع لا المخفَّفةَ من الثقيلة؛ لأنها تُوْصَلُ بالماضي والمضارع والأمر، فوُصلت هنا بالأمر، ويَنْسَبِكُ منها معه مصدرٌ تقديره: بإنذار الناس، وهذا الوجهُ أَوْلَى من التفسيرية؛ لأنَّ الكوفيين لا يثبتون لـ«أنْ» أن تكون تفسيريةً، ومِن المصدرية المخفَّفة من الثقيلة؛ لتقديرِ حذفِ اسمها وإضمار خبرها وهو القول، فيجتمع فيها حذفُ الاسم والخبر، ولأنَّ التأصيل خيرٌ من دعوى الحذف بالتخفيف[٤].

= ١/ ٤٩. السبيئة: الخمر. وبيت رأس؛ قال الأعلم في شرح شواهد الكتاب ص٧٨: اسم موضع بعينه، وقيل: رأسٌ هو رئيس الخمارين، ويقال: هو اسم خمارٍ معروف.

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٣، لكن ابن عطية أشار إلى شذوذه، واستجاد الزمخشري غيره، وهو أن تكون «كان» تامةً، و«أن أوحينا» بدلاً من «عجبٌ»، وهو قريب مما سيذكره المصنف، وتنظر مناقشة ذلك في روح المعاني ١١/ ١١.

(٢) ذكرها ابن عطية في المحرر ٣/ ١٠٣ دون نسبة.

(٣) في الكشاف ٢/ ٢٢٤. وقال السمين في الدر ٦/ ١٤٥ عن الوجه الثاني: وفيه نظر من حيث إن أخبار هذه الأحرف لا تكون جملة طلبية. . . ، وينظر تتمة كلامه ثمة.

(٤) في (يه): والتخفيف، وغير واضحة في (ز١).

«وبشِّر الذين آمنوا أنَّ لهم»، أي: بأنَّ لهم، وحُذفت الباء.

و«قدم صدق»؛ قال ابنُ عباس ومجاهدٌ والضحاك والربيع بن أنس وابن زيد: هي الأعمالُ الصالحة من العبادات.

وقال الحسن وقتادة: هي شفاعةُ محمدٍ ﷺ.

وقال زيد بن أسلم وغيره: هي المصيبةُ بمحمدٍ ﷺ [في موته].

وقال ابن عباس وغيره: هي السعادةُ السابقةُ لهم في اللوح المحفوظ[١].

وقال مقاتل: سابقة خيرٍ عند الله قدَّموها[٢]. وإلى هذا المعنى أشار وضَّاحُ اليمن في قوله:

مـا لـكَ وضَّـاحُ دائـمَ الـغَـزَلِ   ألـسـتَ تـخـشـى تَـقَـارُبَ الأَجَـلِ
صـلِّ لـذي الـعـرش واتَّـخِـذْ قَـدَمًـا   يُـنـجـيـك يـومَ الـعِـثَـارِ والـزَّلَـلِ[٣]

وقال قتادة أيضاً: سلفَ صِدْقٍ. وقال عطاء: مقامَ صدقٍ. وقال يَمَانٌ: إيمانَ صِدْقٍ. وقال الحسن أيضاً: ولد صالح قدَّموه. وقيل: تقديم الله في البعث لهذه الأمة وفي إدخالهم الجنة، كما قال: «نحن الآخِرون السابقون يوم القيامة»[٤].

وقيل: تقدُّم شرفٍ، ومنه قولُ العجَّاج:

ذلَّ بـنـو الـعـوَّام مـن آل الـحَـكَـمْ   وتـركـوا الـمُـلْـكَ لـمَـلْـكٍ ذي قَـدَمْ[٥]

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٠٨-١١٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٣، وعنه نقل المصنف هذه الأقوال، وما بين معكوفتين منه.

(٢) ذكره بنحوه أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/ ٨٧، والقرطبي ١٠/ ٤٥٠، وهو قريب من القول الأول.

(٣) ديوان وضاح اليمن ص٧١، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٥٠.

(٤) ينظر تفسير الثعلبي ٣/ ٢٧٠-٢٧١، وزاد المسير ٤/ ٥، وتفسير القرطبي ١٠/٤٤٩-٤٥٠، والحديث أخرجه البخاري (٨٩٦)، ومسلم (٨٥٥) عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٧١، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٥١، والبيت في ديوان العجاج ص١٤٩، وعندهم جميعاً: زل بنو...، ورواية الديوان: وشننوا الملك...، أي: أبغضوا ذلك فسلَّموه إليهم. قاله الأصمعي شارح الديوان.

وقال الزجَّاج: درجة عالية. وعنه: منزلة رفيعة[١]، ومنه قولُ ذي الرُّمَّة:

لكم قَدَمٌ لا ينكرُ الناسُ أنها مع الحَسَبِ العاديِّ طمَّتْ على البحرِ[٢]

وقال الزمخشري: «قدمَ صدقٍ عند ربِّهم»: سابقةً وفضلًا ومنزلةً رفيعةً، ولمَّا كان السعيُ والسبقُ بالقدم سُمِّيت المَسْعاةُ الجميلةُ والسابقةُ قدمًا، كما سُمِّيت النعمةُ يدًا لأنها تعطَى باليد، وباعًا لأنَّ صاحبها يَبُوعُ بها، فقيل: لفلانٍ قدمٌ في الخير، وإضافتُه إلى «صدق» دلالةٌ على زيادة فضلٍ، وأنه من السَّوابق العظيمة[٣].

وقال ابن عطية: والصدقُ في هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجلُ صدقٍ[٤].

وعن الأوزاعي: «قِدَم» بكسر القاف تسميةً بالمصدر[٥].

«قال الكافرون» ذهب الطبري إلى أنَّ في الكلام حذفًا يدلُّ الظاهرُ عليه، تقديره: فلمَّا أَنْذَرَ وبشَّر قال الكافرون كذا وكذا[٦].

قال ابن عطية: «قال الكافرون» يحتملُ أن يكون تفسيرًا لقوله: أكان للناس وَحْيُنا إلى بشرٍ عجبًا قال الكافرون عنه كذا وكذا[٧].

وقرأ الجمهور والعَرَبيَّان ونافعٌ: «لسِحْرٌ» إشارةً إلى الوحي، وباقي السبعة وابنُ مسعود وأبو رزينٍ ومسروقٌ وابنُ جبير ومجاهدٌ وابنُ وثَّاب وطلحةُ والأعمش وابنُ

---

(١) الأول في تفسير القرطبي ١٠/ ٤٤٩، والثاني في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٦، ومعناهما واحد.

(٢) ديوان ذي الرمة ٢/ ٩٧٢، وتفسير الطبري ١٢/ ١١٢، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٣، ورواية الديوان: طمت على الفخر، وطمَّت: علت. قاله الأصمعي شارح الديوان.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٢٤.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣.

(٥) لم أقف عليه.

(٦) تفسير الطبري ١٢/ ١١٣.

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣.

مُحَيْصنٍ وابنُ كثيرٍ وعيسى بنُ عمر بخلافٍ عنهما: «لساحر» إشارةً إلى الرسول ﷺ[١].

وفي مصحف أبيٍّ: «ما هذا إلا سحر»[٢]، وقرأ الأعمشُ أيضًا: «ما هذا إلّا ساحر»[٣].

قال ابن عطية: وقولُهم في الإنذار والبشارة: سحر، إنما هو بسببِ أنه فرَّقَ كلمتهم، وحال بين القريب وقريبِه، فأشْبَهَ ذلك ما يفعلُه الساحر، وظنُّوه من ذلك الباب[٤].

وقال الزمخشري: وهذا دليلُ عجزِهم واعترافِهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرًا[٥].

ولمَّا كان قولُهم فيما لا يمكِنُ أن يكونَ سحرًا ظاهرَ الفساد لم يَحْتَجْ قولُهم إلى جوابٍ؛ لأنهم يعلمون نشأته معهم بمكةَ وخلطتهم له وما كانت بَلَد[٦] علم، ثم ما أتى به من الوحي المتضمِّن ما لم يتضمَّنْه كتابٌ إلهيٌّ: من قصص الأوَّلين، والإخبارِ بالغُيوب، والاشتمالِ على مصالح الدنيا والآخرة، مع الفصاحة والبراعة التي أعجزتهم، إلى غير ذلك من المعاني التي تضمَّنها، يقضي بفسادِ مقالتهم.

وقولُهم ذلك هو دَيْدنُ الكَفَرة مع أنبيائهم إذا أتوهم بالمعجزات، كما قال فرعون وقومُه في موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩، والشعراء: ٣٤]، «قالوا ساحران تظاهَرَا» [القصص: ٤٨] وقومُ عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠] ودعوى السحرِ إنما هي على سبيل العناد والجَحْد.

---

(١) ينظر السبعة ص٣٢٢، والتيسير ص١٢٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٣. والعربيان هما: أبو عمرو وابن عامر.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣، والكشاف ٢/ ٢٢٥.
(٣) لم أقف عليه.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٣، وفيه: فظنُّوه، بالفاء.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٢٤-٢٢٥.
(٦) تحرفت في (د١) والمطبوع إلى: قلة.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ تقدَّم تفسيرُ مِثْلِ هذه الجملةِ في سورة الأعراف[١]، وجاءتا عقب ذكر القرآن والتنبيهِ على المَعَاد، ففي «الأعراف»: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ [الآية: ٥٢] وقوله: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾ [الآية: ٥٣] وهنا: «تلك آياتُ الكتاب»، وذِكْرُ الإنذارِ والتبشير، وثمرتُهما لا تظهرُ إلا في المعاد.

ومناسبةُ هذه لِمَا قبلها: أنَّ مَن كان قادرًا على إيجاد هذا الخَلْقِ العُلْويِّ والسُّفْلِيِّ العظيمين وهو ربُّكم الناظرُ في مصالحكم، فلا يُتَعَجَّب أن يَبْعَثَ إلى خَلْقه مَن يحذِّر مِن مخالَفته ويبشِّرُ على طاعته؛ إذ ليس خَلْقُهم عَبَثًا بل على ما اقْتَضَتْه حكمتُه وسَبَقَتْ به إرادتُه؛ إذ القادرُ على العظيم قادرٌ على ما دونه بطريقِ الأَوْلَى.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ قال مجاهد: أي: يَقْضيه وحده[٢]. والتدبيرُ: تنزيلُ الأمور في مراتبها، والنظرُ في أدبارها وعواقبها، و«الأمر» أمرُ[٣] الخلقِ كلِّه عُلْويِّه وسُفْلِيِّه.

وقيل: يبعث بالأمر ملائكتَه؛ فجبريلُ للوحي، وميكائيلُ للقَطْر، وعزرائيلُ للقَبْض، وإسرافيلُ للصُّوْر.

وهذه الجملةُ بيانٌ لعظيم شأنه وملكِه، لمَّا ذكر الإيجادَ ذكر ما يكون فيه من الأمور، وأنه المنفردُ به إيجادًا وتدبيرًا لا يَشْرَكُه أحدٌ في ذلك، وأنه لا يَجْتَرِئُ أحدٌ على الشفاعة عنده إلَّا بإذنه؛ إذ هو تعالى أَعلمُ بموضع الحكمة والصواب، وفي هذه[٤] دليلٌ على عظم عزَّته وكبريائه كما قال ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ الآية [النبأ: ٣٨].

ولمَّا كان الخطابُ عامًّا، وكان الكفارُ يقولون عن أصنامهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ردَّ ذلك تعالى عليهم، وناسَبَ ذكرُ الشفاعة التي تكونُ في القيامة بعد ذكر المبدأ ليجمع بين الطرفين: الابتداء والانتهاء.

---

(١) الآية: (٥٤).

(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ١١٤.

(٣) في (يه): أي أمر، وكلمة «أمر» وقع بدلاً منها في المطبوع: قيل.

(٤) في (يه): هذا.

وقال أبو مسلم الأصْبَهانيُّ: الشفيعُ هنا من الشَّفْع الذي يخالف الوِتْر، فمعنى الآية أنه أَوْجَدَ العالَمَ وحده لا شريكَ يُعِينُه، ولم يَحْدُثْ شيءٌ في الوجود إلَّا من بعد أن قال له: كن[١].

وقال أبو البقاء: «يدبِّر الأمر» يجوزُ أن يكون مستأنفًا، وخبرًا ثانيًا، وحالًا[٢].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: المتَّصِفُ بالإيجاد والتدبير والكبرياء هو ربُّكم الناظرُ في مصالحكم، فهو المستحِقُّ للعبادة، إذ لا يَصْلُحُ لأنْ يُعبَدَ إلَّا هو تعالى، فلا تُشْرِكوا به بعضَ خَلْقِه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ حضٌّ على التذكُّرِ والتفكُّرِ في الدلائل الدالَّةِ على ربوبيته وإمحاضِ[٣] العبادةِ له.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ ذَكَر ما يقتضي التذكُّرَ، وهو كونُ مَرْجِع الجميع إليه، وأكَّد هذا الإخبارَ بأنه وَعْدُ الله الذي لا شكَّ في صِدْقِه، ثم استأنَفَ الإخبار وفيه معنى التعليلِ[٤] بابتداء الخَلْقِ وإعادته، وأنَّ مُقْتَضَى الحكمة بذلك هو جزاءُ المكلَّفين على أعمالهم.

وانتصب «وَعْدَ الله» و«حقًّا» على أنهما مصدران مؤكِّدان لمضمون الجملة، والتقدير: وَعَدَ اللهُ وَعْدًا، فلمَّا حَذف الناصبَ أضاف المصدر إلى الفاعل، وذلك كقوله: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] و﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٨٨] والتقدير في «حقًّا»: حَقَّ ذلك حَقًّا.

وقيل: انْتَصَبَ «حقًّا» بـ«وَعْدَ» على تقديرِ «في»، أي: وَعْدَ الله في حقٍّ، وقال عليّ بن سليمان: التقدير: وقتَ حقٍّ، وأنشد:

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ١٥.
(٢) الإملاء ٢/ ٢٤.
(٣) في (يه): وإخلاص.
(٤) أي أن قوله: «إنه يبدأ الخلق ثم يعيده» استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه. ينظر الكشاف ٢/ ٢٢٥، والكلام فيه بنحوه أوضح مما هنا.

أحقًّا عبادَ الله أنْ لستُ خارجًا ولا والجًا إلَّا عليَّ رقيبُ[١]

وقرأ عبد الله وأبو جعفر والأعمشُ وسهل بن شعيب: «أنه يبدأ» بفتح الهمزة[٢]، قال الزمخشري: هو منصوبٌ بالفعل، أي: وَعَدَ اللهُ تعالى [وعدًا] بدءَ الخلق ثم إعادتَه، والمعنى: إعادةَ الخَلْقِ بعد بَدْئه، [قُرئ]: «وَعَدَ الله» على لفظ الفعل، ويجوزُ أن يكون مرفوعًا بما نَصَبَ «حقًّا»، أي: حَقَّ حقًّا بَدْءُ الخَلْقِ، كقوله:

أَحَقًّا عبادَ الله أنْ لستَ جائيًا ولا ذاهبًا إلَّا عليَّ رقيبُ[٣]

انتهى.

وقال ابنُ عطية: وموضعُها النصبُ على تقدير: أَحُقُّ أنه، وقال الفرَّاء: موضعُها رفعٌ على تقدير: يَحِقُّ أنه[٤].

قال ابنُ عطية: ويجوزُ عندي أن يكون «أنه» بدلًا من قول: «وَعْدَ الله»، قال أبو الفتح[٥]: إن شئتَ قدَّرت: لأنه يبدأ، أي: فَمَن في قُدْرَته هذا فهو غنيٌّ عن إخلاف الوعد، وإن شئتَ قدَّرت: وَعَدَ اللهُ [وعدًا][٦] حقًّا أنه يبدأ، ولا يَعْمَلُ فيه

(١) البيت لابن الدمينة، كما في ديوانه (صنعة ثعلب) ص١٠٣، والحماسة (بشرح المرزوقي) ٣/ ١٣٦٤، وأمالي الزجاجي ص١٥٥، وأمالي القالي ١/ ٢٠٣، ورواية الديوان: ... أن لست صادرًا ولا واردًا، ومثله في الحماسة وأمالي القالي بتقديم وتأخير، أي: واردًا ولا صادرًا. وعزاه صاحب الأغاني ٢٢/ ٧٨ لمالك بن الصمصامة الجعدي، وصحح ذلك البكري في سمط اللآلي ١/ ٤٨٥، وقال صاحب الأغاني ٢٢/ ٧٦: ومن الناس مَن يرويه لابن الدمينة ويُدْخِله في قصيدته التي على هذه القافية والرَّوي. وعلي بن سليمان هو الأخفش الصغير، ولم أقف على قوله، ولم يتبين لي محل الشاهد في البيت على هذا القول، وسيرد لاحقاً شاهداً على أمر آخر.

(٢) المحتسب ١/ ٣٠٧، وقراءة أبي جعفر من العشرة، وهي في النشر ٢/ ٢٨٢.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٢٥، وما سلف بين حاصرتين منه، وقد سلف البيت قريباً باختلاف يسير في الرواية.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٤، وقول الفراء بنحوه في معاني القرآن ١/ ٤٥٧.

(٥) في المحتسب ١/ ٣٠٧، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ١٠٤.

(٦) ما بين حاصرتين من المحتسب، وليس في المحرر.

المصدر الذي هو «وَعْدَ الله»؛ لأنه قد وُصف [فأَذِنَ][١] ذلك بتمامه وقطع عمله. وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ: «حقٌّ» بالرفع، فهو ابتداءٌ، وخبرُه «أنه»[٢]. انتهى.

وكونُ «حقٌّ» خبرَ مبتدأ و«أنه» هو المبتدأ هو الوجهُ في الإعراب، كما تقول: صحيحٌ أنك تخرج؛ لأن «أنَّ» مَعْرِفةٌ[٣]، والذي تقدَّمها في نحو هذا المثال نكرةٌ.

والظاهرُ أن بَدْءَ الخلق هو النشأةُ الأولى، وإعادتَه هو البعثُ من القبور.

و«ليجزي» متعلِّقٌ بـ«يُعيدُه»، أي: ليقع الجزاءُ على الأعمال.

وقيل: البدءُ من التراب، ثم يعيدُه إلى التراب، ثم يُعيده إلى البعث.

وقيل: البدءُ نشأتُه من الماء، ثم يعيدُه من حالٍ إلى حالٍ.

وقيل: يَبْدَؤُه من العَدَم، ثم يُعيدُه إليه، ثم يُوجِدُه.

وقيل: يبدؤه في زمرةِ الأشقياء ثم يعيدُه عند الموت إلى زمرة الأولياء، وبعكس ذلك.

وقرأ طلحة: «يُبْدِئُ» مِن أَبْدأ رُباعيًّا[٤]، وبَدَأَ وأَبْدَأَ بمعنًى.

و«بالقسط» معناه: بالعدل، وهو متعلقٌ بقوله: «ليجزي»، أي: ليُثيبَ المؤمنين بالعدل والإنصاف في جزائهم، فيُوْصِلَ كلًّا إلى جزائه وثوابِه على حَسَبِ تفاضُلهم في الأعمال، فيُنْصِفَ بينهم ويَعْدِلَ؛ إذ ليسوا كلُّهم متساوين في مقادير الثواب، وعلى هذا يكون «بالقسط» منه تعالى؛ قال الزمخشري: أو: بقِسْطهم بما[٥] أقسطوا وَعَدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا الصالحات؛ لأن الشرك ظلمٌ، قال الله

---

(١) ما بين حاصرتين من المحرر (على تحريف فيه)، وهو بنحوه في المحتسب.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٧، وذكر القراءة دون نسبة الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٢٥.
(٣) في المطبوع: لأن اسم أن معرفة، والمثبت من النسخ الخطية وكذلك هي في نسخ الدر المصون وهو ينقل عن أبي حيان، والمقصود بقوله: «أنَّ» هو المصدر المنسبك منها مع ما بعدها، وقد استُدْرِكت كلمة «اسم» في مطبوع الدر المصون ٦/ ١٤٩ من مطبوع البحر، فلتصحح.
(٤) القراءات الشاذة ص٥٦، والمحرر ٣/ ١٠٥.
(٥) في الكشاف ٢/ ٢٢٥: وبما.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] والعصاةُ ظُلَّامٌ لأنفسهم، وهذا أوجهُ لمقابَلة قوله: «بما كانوا يكفرون». انتهى، فجعل القسط من فِعْلِ الذين آمنوا، وهو على طريقة الاعتزال.

والظاهرُ أن «والذين كفروا» مبتدأ، ويحتمل أن يكون معطوفًا على قوله: «الذين آمنوا» فيكون الجزاءُ بالعدل قد شمل الفريقين.

ولمَّا كان الحديث مع الكفار ومفتتح السورة معهم، ذَكَر شيئًا من أنواع عذابهم فقال: «لهم شرابٌ من حميمٍ وعذابٌ أليمٌ بما كانوا يكفرون»، وتقدَّم شرحُ هذا في سورة الأنعام(١).

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ لمَّا ذكر تعالى الدلائلَ على ربوبيته من إيجاد هذا العالَم العلويِّ والسفليِّ، ذَكَر ما أَوْدَعَ في العالَم العلويِّ من هذين الجوهرين النيِّرَيْنِ المشرِقَيْنِ، فـ«جعل الشمسَ ضياءً»، أي: ذاتَ ضياءٍ، أو: مضيئةً، أو: نفسَ الضياء مبالغةً، و«جَعَل» يحتملُ أن تكون بمعنى «صيَّر» فيكون «ضياءً» مفعولًا ثانيًا، ويحتمل أن تكون بمعنى «خَلَقَ» فيكون حالًا، «والقمر نورًا»، أي: ذا نورٍ، أو: منوِّرًا، أو: نفسَ النور مبالغةً، إذ هما مصدران.

وقيل: يجوزُ أن يكون «ضياءً» جمعَ ضوءٍ كحوضٍ وحِيَاضٍ. وهذا فيه بعدٌ.

ولمَّا كانت الشمسُ أعظمَ جِرْمًا خُصَّت بالضياء؛ لأنه هو الذي له سطوعٌ ولمعانٌ، وهو أعظمُ من النور، قال أرباب علم الهيئة: الشمسُ قَدْر الأرض مئةً وأربعًا وستِّين مرةً، والقمرُ ليس كذلك، فخُصَّ الأعظم بالأعظم. وقد تقدم الفرق بين الضياء والنور في قوله: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

وقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: ٣٥] يقتضي أنْ يكون النورُ أعظمَ وأبلغَ في الشروق، وإلَّا فلمَ عَدَلَ إلى الأقلِّ الذي هو النور؛ فقال ابنُ عطية: لفظةُ النور أحكمُ وأبلغُ، وذلك أنه شبَّه هُدَاه ولطفَه الذي نَصَبَه لقومٍ يهتدون وآخَرين

(١) الآية (٧٠) منها.

يضلُّون معه بالنور الذي هو أبدًا موجودٌ في الليل وأثناءَ الظلام، ولو شبَّهه بالضياء لوَجَبَ أن لا يضلَّ أحدٌ؛ إذ كان الهدى يكونُ كالشمس التي لا تَبْقَى معها ظلمةٌ، فمعنى الآيةِ أنه تعالى جَعَل هُدَاه في الكفر كالنور في الظلام، فيهتدي قومٌ ويَضِلُّ قومٌ آخَرون، ولو جَعَله كالضياء لوَجَبَ أن لا يَضِلَّ أحدٌ، وبقي الضياءُ على هذا أبلغَ في الشروق كما اقتضت هذه الآية[1].

وقرأ قُنْبُلٌ: «ضِئاءً» هنا وفي «الأنبياء» و«القصص» بهمزةٍ قبل الألف بَدَلَ الياء[2]، ووُجِّهت على أنه من المقلوب؛ جُعِلَتْ لامُه عينًا فكانت همزةً، وتطرَّفت الواوُ التي كانت عينًا بعد ألفٍ زائدةٍ فانقلبت همزةً.

وضعِّف ذلك بأنَّ القياسَ الفِرارُ من اجتماع همزتين إلى تخفيف إحداهما، فكيف يُتخيَّلُ إلى تقديمٍ وتأخيرٍ يؤدِّي إلى اجتماعهما ولم يكونا في الأصل.

والظاهرُ عودُ الضمير على القمر، أي: [قدَّر][3] مسيرَه منازِلَ، أو: قدَّره ذا منازِلَ، أو: قدَّر له منازلَ، فحَذَفَ وأَوْصَلَ الفعلَ، فانتصبَ بحسَب هذه التقاديرِ على الظرف أو الحال أو المفعول، كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩].

وعاد الضميرُ عليه وحده لأنه هو المُراعَى في معرفة عدد السنينَ والحسابِ عند العرب، وقال ابن عطية: ويحتملُ أنْ يريدَهما معًا بحسب أنهما مُصَرَّفان في معرفة عدد السنينَ والحسابِ، لكنه اجتُزِئَ بذكر أحدهما، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وكما قال الشاعر:

رَمَاني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي بريئًا ومن أَجْلِ الطَّوِيِّ رماني[4]

والمنازلُ هي البروجُ، وكانت العربُ تنسبُ إليها الأنواءَ، وهي ثمانيةٌ وعشرون منزلةً: الشَّرَطانِ، والبُطَيْن، والثُّريَّا، والدَّبَران، والهَقْعَة، والهَنْعة، والذِّراع،

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٥.
(٢) السبعة ص٣٢٣، والتيسير ص١٢٠-١٢١.
(٣) من الكشاف ٢/ ٢٢٥.
(٤) المحرر الوجيز ٢/ ١٠٥، والبيت لابن أحمر كما في الكتاب ١/ ٧٥، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

والنَّثْرة، والطَّرْف، والجَبْهة، والزُّبْرة، والصَّرْفة، والعوَّاء، والسِّماك، والغَفْر، والزُّبَانَيان، والإكليل، والقَلْب، والشَّوْلة، والنَّعائم، والبَلْدَة، وسَعْدُ الذَّابِحُ، وسَعْدُ بُلَعَ، وسَعْدُ السُّعود، وسَعْدُ الأَخْبِية، والفَرْغ المُقَدَّم، والفرغُ المؤخَّر، والرِّشاء وهو الحوت[١].

واللام متعلِّقةٌ بقوله: «وقدَّره منازل» قال الأَصْمَعي: سُئل أبو عمرٍو عن الحساب أَفَبِنَصْبِه أم بجَرِّه[٢]؟ فقال: ومَن يدري ما عددُ الحساب؟ انتهى.

يريد أنَّ الجرَّ إنما يكون مُقْتَضيًا أنَّ الحساب يكونُ يُعْلَم عددُه، والحسابُ لا يمكن أن يُعْلَم[٣] منتهى عددِه.

و«الحساب»: حسابُ الأوقات من الأشهر والأيام والليالي ممَّا يُنتفعُ به في المعاش والإجارات، وغيرِ ذلك ممَّا يُضْطَرُّ فيه إلى معرفة التواريخ.

وقيل: اكتفى بذكر عدد السنين عن عدد الشهور، وكَنَى بالحساب عن المعاملات.

والإشارة بـ«ذلك» إلى مخلوقِهِ، و«ذلك» يُشارُ بها إلى الواحد، وقد يشارُ بها إلى الجمع.

ومعنى «بالحق»: مُلْتَبِسًا بالحقِّ الذي هو الحكمةُ البالغةُ، ولم يَخْلُقه عَبَثًا، كما جاء: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ [آل عمران: ١٩١] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ﴾ [ص: ٢٧] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

وقال ابنُ جرير: «الحق» هنا هو اللهُ تعالى، والمعنى: ما خلق الله ذلك إلا بالله وحده لا شريكَ معه[٤]. انتهى، وما قاله تركيبٌ قلقٌ؛ إذ يصيرُ: ما ضرب زيدٌ عمرًا إلا بزيدٍ.

---

(١) تنظر معاني هذه المنازل في الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/١٧٦-١٨٦، والعمدة لابن رشيق ٢/٢٥٣-٢٥٧، والقاموس كلٌّ في بابه.
(٢) في (ح): أفتنصبه أم تجره، ووقع في (د١) والمطبوع: أو، بدل: أم.
(٣) في (ز١): نعلم.
(٤) تفسير الطبري ١٢/١١٩ بنحوه.

وقيل: الباء بمعنى اللام، أي: للحق، وهو إظهارُ صَنْعتِه وبيانُ قدرتِه، ودلالةً على وحدانيته.

وقرأ ابن مصرِّفٍ: «والحَسَاب» بفتح الحاء، ورواه أبو توبةَ عن العرب[١].

وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وحفصٌ: «يُفصِّل» بالياء جَرْيًا على لفظة الله، وباقي السبعة بالنون على سبيل الالتفات والإخبار بنون العظمة[٢].

وخُصَّ من يعلم بتفصيل الآيات لهم لأنهم الذين ينتفعون بتفصيل الآيات، ويتدبَّرون بها في الاستدلال والنظر الصحيح، و«الآيات»: العلاماتُ الدالَّة، أو: آياتُ القرآن.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ الاختلافُ: تعاقُبُ الليل والنهار، وكونُ أحدِهما يَخْلُفُ الآخَر، «وما خَلَق الله في السماوات» من الأجرام النيِّرة التي فيها، والملائكةِ المقيمين بها، وغيرِ ذلك ممَّا يعلمُه الله تعالى، «والأرض» من الجوامد والمعادن والنبات والحيوان، وخَصَّ المتقين لأنهم الذين يخافون العواقبَ، فيحملُهم الخوفُ على تدبُّرِهم ونظرهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ الظاهرُ أنَّ الرجاء هو التأميلُ والطمع، أي: لا يؤمِّلون لقاءَ ثوابنا وعقابِنا. وقيل: معناه: لا يخافون. قال ابن زيد: وهذه الآيةُ في الكفار[٣]. والمعنى: إنَّ المكذِّبَ بالبعث ليس يرجو رحمةً في الآخرة، ولا يُحْسِنُ ظنًّا بأنه يَلْقَى اللهَ.

وفي الكلام محذوفٌ، أي: ورَضُوا بالحياة الدنيا من الآخرة، كقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] والمعنى: إنَّ منتهَى غَرَضهم

(١) القراءات الشاذة ص٥٦. وأبو توبة هو ميمون بن حفص النحوي الكوفي، ويقال له أيضاً: أبو حفص، راوٍ معروف من أئمة العربية، روى القراءة عن الكسائي عرضاً. غاية النهاية ٢/ ٣٢٥.

(٢) السبعة ص٣٢٣، والتيسير ص١٢١.

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ١٢٢-١٢٣.

وقُصارى آمالهم إنَّما هو مقصورٌ على ما يَصِلون إليه في الدنيا «واطمأنُّوا بها»، أي: سكنوا إليها، وقَنعوا بها، ورفضوا ما سواها.

والظاهرُ أن قوله: «والذين هم» هو[1] قسمٌ من الكفار غيرُ القسم الأول، وذلك لتكرير الموصول فيدلُّ على المغايرة، ويكون معطوفًا على اسم «إنَّ»، ويكون «أولئك» إشارةً إلى صنفي الكفار: ذي الدنيا المتوسِّعِ فيها الناظرِ في الآيات فلم تؤثِّر عنده رجاءَ لقاء الله بل رضي بالحياة الدنيا لتكذيبه بالبعث والجزاء، والعادمِ التوسُّع الغافلِ عن آيات الله الدالَّةِ على الهداية.

ويحتمل أن يكون من عطف الصفات، فيكون «الذين هم عن آياتنا غافلون» هم الذين لا يرجون لقاء الله.

والظاهِرُ أن «واطمأنُّوا بها» عطفٌ على الصلة، ويحتمل أن تكون واوَ الحال، أي: وقد اطمأنُّوا بها.

والآيات؛ قيل: آيات القرآن.

وقيل: العلاماتُ الدالَّةُ على الوحدانية والقدرة.

وقال ابن زيد: ما أنزلناه من حلالٍ وحرامٍ وفرضٍ من حدودٍ وشرائع أحكامٍ.

و«بما كانوا يكسبون» إشعارٌ بأنَّ الأعمال السابقةَ يكون عنها العذابُ، وفي ذلك ردٌّ على الجبرية، ونصٌّ على تعلُّق العقاب بالكسب، ومجيئُه بالمضارع دليلٌ على أنهم لم يزالوا مستمرِّين على ذلك ماضيَ زمانهم ومستقبلَه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ أي: يزيدُ في هداهم بسبب إيمانهم السابقِ وتَثْبِيتِهم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ﴾ [التوبة: ١٢٤] أو يهديهم إلى طريق الجنة بنور إيمانهم، كما قال: ﴿يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ [الحديد: ١٢].

---

(١) في (يه): هم.

قال مجاهد: يكونُ لهم إيمانهم نورًا يمشون به(١). وفي الحديث: إذا قام من قبره تَمثَّل له رجلٌ جميلُ الوجه طيبُ الرائحة، فيقول: مَن أنت؟ فيقول: أنا عملُكَ الصالحُ، فيقودُه إلى الجنة، وبعكس هذا في الكافر(٢).

وقال ابن الأنباري(٣): إيمانُهم يهديهم إلى خصائص المعرفة ومزايا في الألطاف تُسَرُّ بها قلوبُهُم(٤)، وتزولُ بها الشكوكُ والشبهاتُ عنهم، كقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:١٧] وهذه الزوائدُ والفوائدُ يجوز حصولُها في الدنيا قبل الموت، ويجوز حصولُها بعد الموت.

قال القفَّال: وإذا حَمَلْنا الآيةَ على هذا كان المعنى: يهديهم ربُّهم بإيمانهم وتجري من تحتهم الأنهارُ، إلا أنه حَذَفَ الواو(٥).

وقيل: معناه: يُقَدِّمهم إلى الثواب، من قول العرب: القدمُ تَهْدي الساق(٦).

وقال الحسن: يرحمُهم(٧).

وقال الكلبي: يدعوهم(٨).

والظاهرُ أنْ يكون «تجري» مستأنفًا، فيكون قد أخبر عنهم بخبرين عظيمين؛ أحدهما: هدايةُ الله لهم، وذلك في الدنيا، والآخَر: بجريان الأنهار، وذلك في الآخرة. كما تضمَّنت الآيةُ في الكفَّار شيئين: أحدهما: اتِّصافُهم بانتفاءِ رجاءِ

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/ ١٢٤.

(٢) أخرجه بنحوه الطبري ١٢/ ١٢٤ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلاً، وينظر حديث البراء بن عازب رضي الله عنه عند أحمد (١٨٥٣٤).

(٣) كما في تفسير الرازي ١٧/ ٤٢.

(٤) في تفسير الرازي: . . . ومزايا في الألفاظ ولوامع من النور تستنير بها قلوبهم. . .

(٥) المصدر السابق، وفيه: إلا أنه حذف الواو وجعل قوله: «تجري» خبراً مستأنفاً منقطعاً عما قبله.

(٦) من ذلك قول طرفة كما في ديوانه ص٨٦:

للفتى عقل يعيش به ... حيث تهدي ساقَهُ قَدَمُه

(٧) تفسير أبي الليث ٢/ ٨٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٤٥٨.

(٨) تفسير أبي الليث ٢/ ٨٩.

لقاءِ الله وما عُطِف عليه، والثاني: مقرُّهم ومأواهم وذلك النار. فصار تقسيمًا للفريقين في المعنى، وتقدَّم قولُ القفَّال أن يكون «تجري» معطوفًا حُذف منه الحرفُ. وأن يكون حالًا[1].

ومعنى «من تحتهم»، أي: من تحت منازلهم.

وقيل: من بين أيديهم، وليس التحتَ الذي هو بالمسافة، بل يكون إلى ناحيةٍ من الإنسان، ومنه: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] وقال: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ [الزخرف: ٥١].

قال الزمخشريُّ: فإن قلتَ: دلَّت هذه الآية على أنَّ الإيمان الذي يستحِقُّ به العبدُ الهدايةَ والتوفيقَ والنورَ يومَ القيامة هو الإيمانُ المقيَّدُ، وهو الإيمان المقرونُ بالعمل الصالح، والإيمانُ الذي لم يَقترِنْ بالعمل الصالح فصاحِبُه لا توفيقَ له ولا نور.

قلت: الأمر كذلك، ألا ترى كيف أَوْقَعَ الصِّلةَ مجموعًا فيها بين الإيمان والعملِ، كأنه قال: إنَّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قال: «بإيمانهم»، أي: بإيمانهم المضمومِ إليه هذا العملُ الصالح وهو بيِّنٌ واضح لا شبهة فيه[2]. انتهى، وهو على طريقة الاعتزال.

وجوَّزوا «في جنات النعيم» أن يتعلَّق بـ«تجري»، وأن يكون حالاً من «الأنهار»، وأن يكون خبرًا بعد خبرٍ.

ومعنى «دعواهم»: دعاؤهم ونداؤهم؛ لأنَّ «اللهم» نداءُ الله، والمعنى: اللهمَّ إنَّا نُسَبِّحك، كقول القانت في دعاء القنوت: «اللهم إياك نعبد، ولك نصلِّي ونسجد»[3].

وقيل: عبادتُهم، كقوله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٤٨]

---

(١) قوله: وأن يكون حالاً، معطوف على قوله: أن يكون «تجري» مستأنفاً.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٦، وفيه: . . . أي بإيمانهم هذا المضموم إليه العمل الصالح. . .

(٣) قطعة من حديث مرسل أخرجه أبو داود في المراسيل (٨٩)، وروي عن عمر وعلي وأبيّ ﷺ. ينظر مصنف عبد الرزاق ٣/ ١١٠-١١٤.

ولا تكليف في الجنة، فيكونُ ذلك على سبيل الابتهاج والالتذاذ، وأطلق عليه العبادة مَجازًا.

وقال أبو مسلم: فِعْلُهم وإقرارُهم.

وقال القاضي: طريقُهم في تقديس الله وتحميده[١].

و«تحيتُهم»، أي: ما يُحيِّي به بعضُهم بعضًا، فيكون مصدرًا مضافًا للمجموع لا على سبيل العمل، بل يكون كقوله: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٨].

وقيل: يكون مضافًا إلى المفعولِ، والفاعلُ اللهُ تعالى أو الملائكةُ، أي: تحيةُ الله إياهم، أو تحيةُ الملائكة إياهم.

«وآخِرُ دعواهم»، أي: خاتمةُ دعائهم وذكرِهم، قال الزجَّاج: أعلمَ تعالى أنهم يَبتدئون بتنزيهه وتعظيمه ويختمون بشكره والثناءِ عليه[٢].

وقال ابن كيسان: يفتتحون بالتوحيد ويختمون بالتحميد[٣].

وعن الحسن البصري يعزوه إلى الرسول ﷺ: أنَّ أهل الجنة يُلْهَمون التحميدَ والتسبيح[٤].

و«أنْ» المخفَّفةُ من الثقيلة، واسمُها ضميرُ الشأن لازمُ الحذف، والجملةُ بعدها خبر «أنْ»، و«أنْ» وصِلَتُها خبر قوله: «وآخِرُ».

وقرأ عكرمةُ ومجاهدٌ وقتادةُ وابنُ يَعْمَرَ وبلالُ بنُ أبي بُرْدَةَ وأبو مِجْلَزٍ وأبو حَيْوَةَ وابنُ مُحَيْصِنٍ ويعقوبُ: «أنَّ» الحمد بالتشديد ونصب «الحمد»[٥]. قال ابن جني: ودلَّت على أنَّ قراءة الجمهور بالتخفيف ورفعِ «الحمد» هي على أنَّ «أنْ» هي المخفَّفةُ، كقول الأعشى:

---

(١) ذكر هذه الأقوال الرازي في تفسيره ١٧/ ٤٣-٤٤، والقاضي هو عبد الجبار المعتزلي.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٨، وزاد المسير ٤/ ١١، وليس في المعاني قوله: ويختمون...

(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٧٤، وزاد المسير ٤/ ١١، وتحرفت فيه كلمة «بالتحميد» إلى: بالتوحيد.

(٤) تفسير ابن أبي زمنين ٢/ ٢٤٦، وتفسير الثعلبي ٣/ ٥٧٤، وينظر حديث جابر عند مسلم (٢٨٣٥).

(٥) القراءات الشاذة ص٥٦، والمحتسب ١/ ٣٠٨، والمحرر الوجيز ٢/ ١٠٨، وزاد المسير ٤/ ١١.

في فتيةٍ كسيوفِ الهند قد عَلِموا أنْ هالكٌ كلُّ مَن يَحْفَى ويَنْتَعِلُ

يريد: أنه هالكٌ[١].

وإذا خُفِّفَتْ لم تعمل في غير ضميرِ أمرٍ محذوفٍ، وأجاز المبرِّد إعمالَها كحالها مشدَّدةً[٢].

وزعم صاحبُ «النظم»[٣] أنَّ «أنْ» هنا زائدةٌ، و«الحمدُ لله» خبرُ «وآخِرُ دعواهم»، وهو مخالفٌ لنصِّ سيبويه[٤] والنحويين، وليس هذا من محالٍّ زيادتها.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝١١﴾ قال مجاهدٌ: نزلت في دعاء الرجلِ على نفسه وماله أو ولده ونحوِ هذا، فأخبر تعالى أنه[٥] لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثلَ ما يريدون فِعْلَه معهم[٦] في إجابته إلى الخير لأهلكهم. ثم حذف بعد ذلك من القول جملةً يتضمَّنُها الظاهرُ تقديرُها: فلا يَفعل ذلك، ولكنْ نَذَرُ الذين لا يرجون، فاقْتَضَبَ القولَ ووصل إلى هذا المعنى بقوله: «فنذر الذين لا يرجون» فتأمَّلْ هذا التقديرَ تجدْه صحيحًا؛ قاله ابن عطية[٧].

وقيل: نزلت في قولهم: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٧] وما جرى مجراه[٨].

---

(١) المحتسب ١/٣٠٨، والمحرر الوجيز ٣/١٠٨، وبيت الأعشى في ديوانه ص١٠٩، والكتاب ٢/١٣٧، و٣/٧٤ و١٦٤، والمقتضب ٣/٩، والأصول في النحو ١/٢٣٩، والإنصاف ١/١٩٩، والخزانة ٨/ ٣٩٠، وعجزه في الديوان: أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيلُ. وزعم بعضهم أن رواية النحويين له مصنوعة، وأنهم غيَّروه ليقع الاسم بعد «أنْ» المخففة مرفوعًا، وينظر بحث ذلك في الخزانة ٨/٣٩١.

(٢) المقتضب ٢/ ٣٦١.

(٣) نظم القرآن لأبي علي الحسن بن يحيى بن نصر الجُرْجاني الجَمَاجمي، والكلام من تفسير الرازي ١٧/ ٤٧.

(٤) في الكتاب ٣/ ٦٣.

(٥) كلمة: أنه، من النهر على هامش مطبوع البحر ٥/ ١٢٨، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٨، والكلام منه.

(٦) في النسخ الخطية: منهم، والمثبت من النهر والمحرر.

(٧) في المحرر ٣/ ١٠٨، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ١٣٠-١٣١.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٨.

وقال الزمخشري: والمرادُ أهلُ مكة وقولُهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [الأنفال: ٣٢] يعني: ولو عجَّلنا لهم الشرَّ الذي دَعَوْا به كما نعجِّلُ لهم الخيرَ لأُميتوا وأُهلكوا.

قال: فإن قلتَ: كيف اتَّصل به: «فنَذَرُ الذين لا يرجون لقاءَنا»، وما معناه؟

قلت: قولُه: «ولو يُعجِّلُ الله» متضمِّنٌ معنَى نَفْي التعجيل، كأنه قال: ولا نُعجِّلُ لهم الشرَّ ولا نَقْضي إليهم أجلَهم، فنذرُهم في طغيانهم، أي: فنُمْهِلُهم ونُفيض عليهم النعمةَ مع طغيانهم إلزامًا للحجة عليهم[١].

ومناسَبةُ هذه الآيةِ لمَا قبلها: أنه تعالى لمَّا ذكر عَجَبَ الناس من إيحاء الله إلى رجلٍ منهم، وكان فيما[٢] أَوْحَى إليه الإنذارُ والتبشيرُ، وكانوا يستهزئون بذلك ولا يعتقدون حلولَ ما أُنذروه بهم فقالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ وقال إخبارًا عنهم: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧] وقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٠] ثم استطرد من ذلك إلى وحدانيته تعالى وذكر إيجاده العالَمَ، ثم إلى تقسيم الناس إلى مؤمنٍ وكافرٍ وذكر منازل الفريقين، ثم رجع إلى أنَّ ذلك المنذَرَ به الذي طلبوا وقوعَه عَجَلًا لو وقع لهلكوا، فلم يكن في إهلاكهم رجاءُ إيمانٍ بعضهم، وإخراجُ مؤمنٍ من صُلْبهم، بل اقتضت حكمتُه أن لا يُعَجِّلَ لهم ما طلبوه لمَا ترتَّب على ذلك.

وانتصب «استعجالَهم» على أنه مصدرٌ مشبَّهٌ به، فقال الزمخشري: أصلُه: ولو يعجِّلُ الله للناس الشرَّ تعجيلَه لهم الخيرَ، فوضع استعجالَهم له[٣] بالخير موضع تعجيله لهم الخيرَ إشعارًا بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم كأنَّ استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم.

وقال الحَوْفيُّ وابنُ عطية: التقدير: مِثْلَ استعجالهم[٤]، وكذا قدَّره أبو البقاء[٥].

---

(١) الكشاف ٢/٢٢٧.

(٢) في (ز١): مما.

(٣) في (أ): استعجالهم لهم، وفي (د١) و(ز١) و(يه): استعجاله لهم، والمثبت من (ح) و(ع)، وهو الموافق لما في الكشاف، لكن ليس في مطبوعه كلمة: له.

(٤) المحرر الوجيز ٢/١٠٨.

(٥) الإملاء ٢/٢٥.

ومدلولُ «عجَّل» غيرُ مدلول «استَعْجَلَ»؛ لأن «عجَّل» يدلُّ على الوقوع «واسْتَعْجَلَ» يدل على طلب التعجيل، وذاك واقِعٌ من الله وهذا مضافٌ إليهم، فلا يكون التقدير على ما قاله الزمخشري، فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون التقدير: تعجيلًا مثلَ استعجالهم بالخير، فشبَّه التعجيلَ بالاستعجال لأن طَلَبَهم للخير ووقوعَ تعجيله مقدَّمٌ عندهم على كل شيء.

والثاني: أن يكونَ ثَمَّ محذوفٌ يدل عليه المصدرُ، تقديره: ولو يعجِّلُ الله للناس الشرَّ إذا استعجلوا به استعجالَهم بالخير؛ لأنهم كانوا يستعجلون بالشرِّ ووقوعِه على سبيل التهكُّم كما كانوا يستعجلون بالخير.

وقرأ ابن عامر: «لقَضَى» مبنيًّا للفاعل «أجَلَهم» بالنصب[١]، والأعمش: «لقَضَيْنا»[٢]، وباقي السبعة مبنيًّا للمفعول «وأجلُهم» بالرفع، و«قُضيَ» أكملُ.

والفاء في «فنَذَرُ» جوابُ ما أخبر به عنهم على طريق الاستئناف، تقديره: فنحن نذر؛ قاله الحَوْفيُّ.

وقال أبو البقاء: «فنذر» معطوفٌ على فعلٍ محذوف تقديره: ولكن نُمْهِلُهم فنذرُ.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ ومناسَبةُ هذه الآية لِمَا قبلها: أنه لمَّا استَدْعَوْا حلولَ الشرِّ بهم، وأنه تعالى لا يفعلُ ذلك بطلبهم، بل يترك مَن لا يرجو لقاءَه يَعْمَهُ في طغيانه، بَيَّنَ شدة افتقارِ الناس إليه واضطرارهم إلى استمطارِ إحسانه مسيئهم ومحسنهم، وأنَّ مَن لا يرجو لقاءَه مضطرٌّ إليه حالةَ مسِّ الضرِّ له فكلٌّ يلجأُ إليه حينئذٍ ويُفْرِدُه بأنه القادرُ على كشف الضرِّ.

والظاهرُ أنه لا يُراد بالإنسان هنا شخصٌ معيَّنٌ، كما قيل: إنه أبو حذيفة هاشم بن المغيرة بن عبد الله المخزومي؛ قاله ابنُ عباس ومقاتلٌ[٣].

---

(١) السبعة ص٣٢٣، والتيسير ص١٢١.

(٢) المحرر الوجيز ٣/١٠٨؛ ووقع في مطبوع القراءات الشاذة ص٥٦ عن الأعمش وابن محيصن: «لقفّينا» ولعله تحريف.

(٣) زاد المسير ٤/١٢.

وقيل: عتبة بن ربيعة. وقيل: الوليد بن المغيرة.

وقيل: هما؛ قاله عطاء[١].

وقيل: النَّضْر بنُ الحارث.

وأنَّه لا يراد به الكافرُ[٢]، بل المرادُ الإنسانُ من حيث هو، سواءٌ كان كافرًا، أم عاصيًا بغير الكفر.

واحْتَملَت هذه الأحوالُ الثلاثةُ أن تكون لشخصٍ واحدٍ، واحتملت أن تكون لأشخاصٍ إذ الإنسانُ جنسٌ، والمعنى: إنَّ الذي أصابه الضرُّ لا يزال داعيًا ملتجئًا راغبًا إلى الله في جميع حالاته كلِّها.

وابتدأ بالحالة الشاقَّة وهي اضطجاعُه وعجزُه عن النهوض وهي أعظم في الدعاء وآكَدُ، ثم بما يليها وهي حالةُ القعود، وهي حالةُ العجز عن القيام، ثم بما يليها وهي حالةُ القيام، وهي حالةُ العجز عن المشي، فتراه يضطربُ ولا ينهض للمشي كحالة الشيخ الهِم[٣].

و«لجنبه» حالٌ، أي: مضطجعًا، ولذلك عُطِفَ عليه الحالان، واللامُ على بابها عند البصريين، والتقدير: مَلْقِيًّا لجنبه، لا بمعنى «على»، خلافًا لزاعمه. وذو الحال الضميرُ في «دعانا»، والعاملُ فيه «دعانا» أي: دعانا مُلْتَبِسًا بأحد هذه الأحوال.

وقال ابن عطية: ويجوزُ أن يكون حالًا من «الإنسان» والعاملُ فيه «مسَّ»، ويجوز أن يكون حالًا من الفاعل في «دعانا» والعاملُ فيه «دعا»، وهما مَعْنيان مُتَباينان، و«الضُّر» لفظٌ عام لجميع الأمراض والرَّزايا في النفس والمال والأحِبَّة، هذا قولُ اللغويين، وقيل: هو مختصٌّ برزايا البدن: الهزالِ والمرض[٤]. انتهى.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) عطف على قوله: أنه لا يُراد بالإنسان.....
(٣) في النسخ عدا (ز١): الهرم، والمثبت من (ز١)، وكلاهما بمعنى.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٩.

والقولُ الأولُ قولُ الزجّاج[١].

وضعّف أبو البقاء أن يكون «لجنبه» فما بعده أحوالًا من «الإنسان» والعاملُ فيها «مسَّ»، قال: لأمرين:

أحدهما: أن الحال على هذا واقعةٌ بعد جواب «إذا»، وليس بالوجه.

والثاني: أن المعنى كثرةُ دعائه في كلِّ أحواله، لا على الضرِّ يصيبه في كلِّ أحواله، وعليه آياتٌ كثيرةٌ في القرآن[٢]. انتهى.

وهذا الثاني يلزمُ فيه مَن مَسَّه الضرُّ في هذه الأحوال دعاؤه في هذه الأحوال؛ لأنه جوابُ ما ذُكرت فيه هذه الأحوالُ، فالقيدُ في حيِّز الشرط قيدٌ في الجواب، كما تقول: إذا جاءنا زيدٌ فقيرًا أحسنَّا إليه، فالمعنى: أحسنَّا إليه في حال فقره، فالقيدُ في الشرط قيدٌ في الجزاء.

ومعنى كَشْفِ الضرِّ: رفعُه وإزالتُه، كأنه كان غطاءً على الإنسان ساترًا له.

وقال صاحب «النظم»: «وإذا مسَّ الإنسان» وَضْعُه[٣] للمستقبل و«فلمَّا كشفنا» للماضي، فهذا النظمُ يدلُّ على أن معنى الآية أنه هكذا كان فيما مضى وهكذا يكون في المستقبل، فدل ما في الآية من الفعل المستقبَل على ما فيه من المعنى المستقبَل، وما فيه من الفعل الماضي على ما فيه من المعنى الماضي. انتهى.

والمرورُ هنا مجازٌ عن المُضيِّ على طريقته الأُولى من غير ذِكْرٍ لمَا كان عليه من البلاء والضرِّ، وقال مقاتل: أَعْرَضَ عن الدعاء[٤].

وقيل: مرَّ عن موقف الابتهال والتضرُّع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به. وهذا قريبٌ من القول الذي قبله.

---

(١) أجاز في معانيه ٣/ ٩ القولين، أعني أن يكون العامل في «لجنبه» هو «دعانا»، وأن يكون العامل «مَسَّ».

(٢) الإملاء ٢/ ٢٥.

(٣) تحرفت في (د١) والمطبوع إلى: وصفه، وجاء في تفسير الرازي ١٧/ ٥٢ (والكلام منه): موضوعة.

(٤) زاد المسير ٤/ ١٢.

والجملة من قوله: «كأنْ لم يَدْعُنا إلى ضرٍّ مسَّه» في موضع الحال، أي: إلى كَشْفِ ضرٍّ مسَّه.

قال ابن عطية: وقوله: «مرَّ» يقتضي أنَّ نزولها في الكفار، ثم هي بعدُ تتناولُ كلَّ مَن دخل تحت معناها من كافرٍ وعاصٍ، فمعنى الآية: مرَّ في إشراكه بالله وقلَّةِ توكُّله عليه[(١)]. انتهى.

والكافُ من «كذلك» في موضع نصبٍ، أي: مِثْلَ ذلك، و«ذلك» إشارةٌ إلى تزيين الإعراض عن الابتهال إلى الله تعالى عند كشف الضرِّ، وعدمِ شكرِه وذِكْرِه على ذلك. و«زُيِّن» مبنيٌّ للمفعول، فاحتمل أن يكون الفاعلُ اللهَ تعالى: إمَّا على سبيل خَلْقِ ذلك واختراعه في قلوبهم كما يقول أهل السنَّة، وإمَّا بتَخْلِيته وخذلانه كما تقول المعتزلة. أو الشيطانَ بوسوسته ومُخادَعَتِه، قيل: أو النفسَ.

وفُسِّرَ المُسْرِفون بالكافرين، والكافرُ مُسْرِفٌ لتضييعه السعادةَ الأبدية بالشهوة الخسيسة المُنْقَضِيةِ، كما يضيِّعُ المُنْفِقُ مالَه متجاوزًا فيه الحدَّ.

«ما كانوا يعملون» من الإعراض عن جناب الله ومن اتِّباع الشهوات.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ هذا إخبارٌ لمعاصري الرسولِ ﷺ وخطابٌ لهم بإهلاكِ مَن سَلَفَ قبلَهم من الأمم[(٢)] بسبب ظلمهم ـ وهو الكفرُ ـ على سبيل الرَّدْع لهم، والتذكيرِ بحالِ مَن سبق من الكفار، والوعيدِ لهم، وضربِ الأمثال، فكما فُعِلَ بهؤلاء يُفْعَلُ بكم، ولفظةُ «لمَّا» مُشْعِرةٌ بالعلِّية، وهي حرفُ تعليقٍ في الماضي، ومَن ذهب إلى أنها ظرفٌ معمولٌ لـ«أهلكنا» كالزمخشريِّ[(٣)] مُتَّبِعًا لغيره فإنما تدلُّ إذ ذاك على وقوع الفعل في حين الظلم، فلا يكونُ لها إشعارٌ إذ ذاك بالعلِّية، لو قلتَ: جئتُ حين قام زيدٌ، لم يكن مجيئُك متسبِّبًا عن قيام زيد، وأنت ترى حيثما جاءت «لمَّا» كان

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٩.
(٢) في (يه): من سلف من قبلهم من الأمم الماضية.
(٣) في الكشاف ٢/ ٢٢٨.

جوابُها أو ما قام مقامَه متسبِّبًا عمَّا بعدها، فدلَّ ذلك على صحة مذهب سيبويه من أنها حرفُ وجوبٍ لوجوبٍ[١].

«وجاءتهم» ظاهرُه أنه معطوفٌ على «ظلموا»، أي: لمَّا حصل هذان الأمران: مجيءُ الرسل بالبينات وظلمُهم، أُهلكوا.

وقال الزمخشري: والواو في «وجاءتهم» للحال، أي: ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلُهم بالحجج والشواهِدِ على صدقهم وهي المعجزات[٢]. انتهى.

وقال مقاتل: «البيناتُ» مخوِّفات العذاب.

والظاهر أن الضمير في قوله: «وما كانوا» عائدٌ على «القرون»، وأنه معطوفٌ على قوله: «ظلموا»، وجوَّز الزمخشريُّ أن يكون اعتراضًا لا معطوفًا، قال: واللامُ لتأكيد النفي بمعنى: وما كانوا يؤمنون حقًّا، تأكيدًا لنفي إيمانهم، وأنَّ الله تعالى قد علم أنهم مُصِرُّون على كفرهم، وأن الإيمان مستبعَدٌ منهم، والمعنى: إنَّ السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسلَ، وعلم الله تعالى أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن أُلزِموا الحجة ببعثة الرسل[٣]. انتهى.

وقال مقاتل: الضمير في قوله: «وما كانوا ليؤمنوا» عائدٌ على أهل مكة[٤]. فعلى قوله يكون التفاتًا لأنه خرج من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة، ويكون متَّسقًا مع قوله: «وإذا تتلى عليهم».

والكاف في «كذلك» في موضع نصبٍ، أي: مثْلَ ذلك الجزاءِ وهو الإهلاكُ نجزي القومَ المجرمين، فهذا وعيدٌ شديدٌ لمن أجرم يدخل فيه أهلُ مكة وغيرُهم. وقرأت فرقة: «يجزي» بالياء[٥]، أي: يجزي الله، وهو التفاتٌ.

---

(١) الكتاب ٤/ ٢٣٤، وينظر ما سلف عند شرح مفردات قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ [البقرة: ١٧].
(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) زاد المسير ٤/ ١٣.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١١٠.

والخطاب في «جعلناكم» لمن بُعِثَ إليهم رسولُ الله ﷺ، وقيل: خطابٌ لمشركي مكة، والمعنى: استخلفناكم في الأرض بعد القرون المهلَكة لننظر أتعملون خيرًا أم شرًّا، فنعاملَكم على حَسَب عملِكم.

ومعنى «لننظر»: ليتبيَّن(١) في الوجود ما عَلِمْناه أولًا(٢)، فالنظرُ مجازٌ عن هذا.

قال الزمخشريُّ: فإنْ قلتَ: كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة؟ قلت: هو مستعارٌ للعلم المحقَّق الذي هو علمٌ بالشيء موجودًا، شُبِّه بنظر الناظر وعِيَانِ المعايِنِ في تَحقُّقِه(٣). انتهى، وفيه دسيسةُ الاعتزال، وأنه يلزمُ من النظر المقابَلةُ، وفيه إنكارُ وَصْفِه تعالى بالبصير وردُّه إلى معنى العلم.

وقيل: لننظر هو على حذف مضافٍ، أي: لينظر رسلُنا وأولياؤنا، وأُسْنِدَ النظرُ إلى الله مجازًا وهو لغيره.

وقرأ يحيى بنُ الحارث الذِّمَاريُّ: «لنَظُّر» بنون واحدة وتشديد الظاء، وقال: هكذا رأيتُه في مصحف عثمان بن عفان ﷺ(٤)، ويعني أنه رآها بنونٍ واحدةٍ؛ لأن النَّقْطَ والشَّكْلَ بالحركات والتشديدات إنما حدث بعد عثمان؛ ولا يدلُّ كَتْبُه بنونٍ واحدةٍ على حذف النون من اللفظ، ولا على إدغامها في الظاء؛ لأن إدغام النون في الظاء لا يجوز، ومسوِّغُ حذفها أنه لا أثر لها في الأنف، فينبغي أن تُحْمَلَ قراءةُ يحيى على أنه بالَغَ في إخفاء الغُنَّة فتَوَهَّم السامعُ أنه إدغامٌ فنَسَبَ ذلك إليه.

و«كيف» معمولةٌ لـ«تعملون»، والجملةُ في موضع نصبٍ لـ«ننظر» لأنها معلّقةٌ، وجاز التعليقُ في «نظر» وإن لم يكن من أفعال القلوب لأنها وصلة إلى فعل القلب الذي هو العلم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ قال ابن عباس والكلبي: نزلت في

(١) في (به) والمحرر ٣/ ١١٠ (والكلام منه): لنبين.
(٢) في المحرر: أزلًا.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٢٨.
(٤) المحتسب ١/ ٣٠٩، والمحرر ٣/ ١١٠.

المستهزئين بالقرآن من أهل مكة، قالوا: يا محمد، ائت بقرآنٍ غير هذا فيه ما نسألك. وقال مجاهد وقتادةُ: نزلت في جماعةٍ من مشركي مكة[١].

وقال مقاتل: في خمسة نفرٍ: عبد الله بن [أبي] أمية المخزومي، والوليد بن المغيرة، ومكرز بن حفص، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيس العامري، والعاص بن وائل[٢].

وقيل: الخمسةُ: الوليدُ، والعاصي، والأسودُ بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن حنظلة. ورُوي هذا عن ابن عباس[٣].

قال الزمخشريُّ: غاظهم ما في القرآن من ذمِّ عبادة الأوثان والوعيدِ للمشركين، فقالوا: ائتِ بقرآنٍ آخَرَ ليس فيه ما يَغيظُنا من ذلك نتَّبعك[٤].

وقال ابن عطية[٥]: نزلت في قريش؛ لأنَّ بعض كفارِ قريش قال هذه المقالة على معنى: ساهِلْنا يا محمد، واجْعَلْ هذا الكلامَ الذي من قِبَلِكَ هو باختيارنا[٦]، وأَحِلَّ ما حرَّمْتَه وحَرِّمْ ما أَحْلَلْتَه ليكون أمرُنا حينئذٍ واحدًا وكلمتُنا متَّصلةً. انتهى.

ونبَّه تعالى على الوصف الحامل لهم على هذه المقالة، وهو كونُهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء على ما اقترفوه، والمعنى: وإذا تُسْرَدُ عليهم آياتُ القرآن واضحاتٍ نيِّراتٍ لا لَبْسَ فيها قالوا كيت وكيت، وأُضيفت الآيات إليه تعالى لأنها كلامُه جلَّ وعزَّ.

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٧٦، وأسباب النزول للواحدي ص٢٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٤٧، وزاد المسير ٤/ ١٤.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٧٦، وأسباب النزول للواحدي ص٢٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٤٧، وجاء الاسم الأخير عندهم: العاص بن عامر، وزاد في مطبوع الثعلبي: بن هاشم، والبغوي: بن هشام. وما بين حاصرتين من أسباب النزول، والإصابة ٦/ ١١.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ٥٥.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٢٨.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ١١٠.

(٦) في (يه): يكون باختيارنا، وجاء في المحرر: على اختيارنا، بدل: هو باختيارنا.

والتبديلُ يكونُ في الذات ـ بأن يُجْعَلَ بدلَ ذاتٍ ذاتٌ أخرى ـ ويكونُ في الصفة، والتبديلُ هنا هو في الصفة، وهو أنْ يُزال بعضُ نَظْمه بأنْ يُجعل مكانَ آيةِ العذاب آيةُ الرحمة، ولا يراد بالتبديل هنا أنْ يكون في الذات؛ لأنه يَلْزمُ جَعْلُ الشيء المقتضي للتغاير هو الشيءَ بعينه؛ لأنَّ التبديل في الذات هو الإتيانُ بقرآنٍ غيرِ هذا[١]، ولمَّا كان الإتْيانُ بقرآنٍ غيرِ هذا غيرَ مقدورٍ للإنسان لم يَحْتَجْ إلى نفيه، ونَفَى ما هو مقدورٌ للإنسان وإن كان مستحيلًا ذلك في حقِّه ﷺ، فقيل له: «قل ما يكونُ لي أنْ أبدِّلَه من تلقاء نفسي» وانتفاءُ الكون هنا هو كقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠] أي: يستحيل ذلك.

ويحتملُ أن يكون التبديلُ في الذات على أن يُلْحَظَ في قوله: «ائت بقرآن غير هذا» بقاءُ هذا القرآن ويؤتى بقرآنٍ غيرِه، فيكون «أو بدِّلْه» بمعنى: أَزِلْه بالكلِّية وائت ببدله، فيكون المطلوبُ أحدَ أمرين: إمَّا إزالته بالكلية وهو التبديلُ في الذات، أو الإتيان بغيره مع بقائه فيحصل التغايُرُ بين المطلوبين.

و«تلقاء» مصدرٌ كالتِّبْيان، ولم يَجِئْ مصدرٌ على تِفْعال غيرُهما ويستعمل ظرفًا للمقابلة، تقول: زيد تلقاءك، وقُرِئَ بفتح التاء[٢]، وهو قياسُ المصادر التي للمبالغة كالتَّطْواف والتَّجْوال والتَّرْداد.

والمعنى: من قِبَل نفسي «إن أتَّبع» فيما آمُرُكم به وما أنهاكم عنه من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ ولا تبديلٍ إلا ما يَجِيئُني خبرُه من السماء.

واستُدل بقوله: «إن أتَّبعُ إلَّا ما يُوْحَى إليَّ» على نفي الحكم بالاجتهاد، وعلى نفي القياس.

وإنما قالوا: «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّلْه» لأنهم كانوا لا يعترفون بأن القرآن مُعْجِزٌ، وإن كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١] وقولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨] ولا يمكن أن يريدوا: «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله» من جهة الوحي؛ لقوله: «إني أخاف».

---

(١) يعني أنه إذا بدَّل هذا القرآن بغيره فقد أتى بقرآن غيرِ هذا القرآن، وإذا كان كذلك كان كلُّ واحد منهما شيئاً واحداً. تفسير الرازي ١٧/ ٥٥، والكلام فيه بنحوه بتفصيل.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٩.

قال الزمخشري: فإنْ قلتَ: فما كان غرضُهم ـ وهم أدْهَى الناسِ وأنكرُهم ـ في هذا الاقتراح؟ قلت: المكرُ والكيدُ: أمَّا اقتراحُ إبدالِ قرآنٍ بقرآنٍ ففيه: إنه من عندك وإنك لقادرٌ على مثله فأَبْدِلْ مكانه آخَرَ، وأمَّا اقتراحُ التبديل والتغيير فللطَّمَع ولاختيار الحال، وأنه إنْ وُجِدَ منه تبديلٌ فإمَّا أن يُهْلِكه الله فينجوا منه، أو لا يهلكه فيَسْخَروا منه ويجعلوا التبديلَ حجةً عليه وتصحيحًا لافترائه على الله تعالى[١]. انتهى.

و«إنْ عصيتُ» بالتبديل من تلقاء نفسي، وبعدم اتِّباعِ الوحي، وتركي العملَ به، وهو شرطٌ جوابُه محذوفٌ دلَّ عليه ما قبله.

واليومُ العظيم هو يومُ القيامة، ووُصِفَ بالعظم لطوله، أو لكثرة شدائده، أو للمجموع.

وانْظُرْ إلى حُسْنِ هذا الجواب؛ لمَّا كان أحدُ المطلوبَيْنِ التبديلَ بدأ به في الجواب، ثم أَتْبَعَ بأمرٍ عامٍّ يشملُ انتفاءَ التبديل وغيرِه، ثم أتى بالسبب الحامِلِ على ذلك وهو الخوفُ، وعلَّقه بمطلق العصيان فبأدنى عصيانٍ تَرَتَّبَ الخوف.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ هذه مبالَغةٌ في التَّبْرِئة ممَّا طلبوا منه، أي: إنَّ تلاوته عليهم هذا القرآن إنما هو بمشيئة الله تعالى وإحداثه أمرًا عجيبًا خارجًا عن العادات، وهو أن يَخْرجَ رجلٌ أميٌّ لم يتعلَّم ولم يستمع ولم يشاهد العلماءَ ساعةً من عمره، ولا نشأ في بلدةٍ فيها علماءُ، فيقرأ عليكم كتابًا فصيحًا يبهرُ[٢] كلامَ كلِّ فصيحٍ، ويعلو على كلِّ منثورٍ ومنظوم، مشحونًا بعلوم من علوم الأصول والفروع، وأخبارِ ما كان وما يكون، ناطقًا بالغيوب التي لا يَعْلَمُها إلا اللهُ تعالى، وقد بلغ بين ظَهْرانَيْكم أربعين سنةً تطَّلعون على أحواله ولا يَخْفَى عليكم شيءٌ من أسراره، وما سمعتُم منه حرفًا من ذلك، ولا عرَّفه به أحدٌ من أقرب الناس إليه وألْصَقِهم به.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في (ح): يسمو. والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٢٢٩، والكلام منه.

ومفعولُ «شاء» محذوفٌ، أي: قُلْ لو شاء الله أنْ لا أتلوَه، وجاء جوابُ «لو» على الفصيح من عدم إتيان اللام لكونه منفيًّا بـ«ما».

ويقال: دَرَيْتُ به وأَدْرَيْتُ زيدًا به، والمعنى: ولا أَعْلَمَكم به على لساني، وقرأ قنبل والبَزِّي من طريق النقَّاش عن أبي ربيعةَ عنه: «ولأدراكم» بلامٍ دخلت على فعلٍ مُثْبَتٍ معطوفٍ على مَنْفيٍّ[١]، والمعنى: ولأَعْلَمَكم به من غير طَريقي وعلى لسان غيري ولكنه يَمنُّ على مَن يشاء من عباده فخصَّني بهذه الكرامة ورآني لها أهلًا دون الناس.

وقراءة الجمهور: «ولا أدراكم به» فـ«لا» مؤكِّدةٌ وموضِّحةٌ أنَّ الفعلَ منفيٌّ لكونه معطوفًا على مَنْفيٍّ، وليست «لا» هي التي نُفي الفعلُ بها؛ لأنه لا يصحُّ نفيُ الفعل بـ«لا» إذا وقع جوابًا، والمعطوفُ على الجواب جوابٌ، وأنت لا تقول: لو كان كذا لا كان كذا، إنما تقولُ[٢]: ما كان كذا.

وقرأ ابنُ عباس وابنُ سِيرينَ والحسنُ وأبو رجاءٍ: «ولا أَدْرَأْتُكم به» بهمزةٍ ساكنةٍ[٣]، وخرِّجت هذه القراءةُ على وجهين:

أحدهما: أنَّ الأصل: «أَدْرَيْتُكم» بالياء، فقلبها همزةً على لغةِ مَن قال: لَبَّأْتُ بالحج، ورَثَأْتُ زوجي بأبياتٍ، يريد: لَبَّيْتُ ورَثَيْتُ، وجاز هذا البدلُ لأنَّ الألف والهمزةَ من وادٍ واحدٍ، ولذلك إذا حرِّكت الألفُ انْقَلَبَتْ همزةً، كما قالوا في العالم: العَأْلَم، وفي المشتاق: المُشْتَئِق[٤].

(١) التيسير ص١٢١، وأبو ربيعة هو محمد بن إسحاق بن وهب الربعي المكي، وهو أنبل أصحاب البزي في وقته، توفي سنة (٢٩٤هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٤٥٤.
(٢) في (أ) و(د١) و(ز١) و(ع): يكون..
(٣) القراءات الشاذة ص٥٦، والمحتسب ١/ ٣٠٩، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٠، والكشاف ٢/ ٢٢٩.
(٤) قول المصنف: إذا حركت الألف انقلبت همزة، لا ينطبق على المثال الأول، وهو قوله: العألم، حيث إن الهمزة فيه ساكنة، وقد قال السمين في الدر ١/ ٧٥: والظاهر أنها لغة مطردة، فإنهم قالوا في قراءة ابن ذكوان: «مِنسَأْته»: إن أصلها ألف فقلبت همزة ساكنة. اهـ. وينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]، وقد أورد المصنف ثمة قول العجاج:

وخِنْدِفٌ هامةُ هذا العَأْلَمِ

=

والوجه الثاني: أنَّ الهمزة أصلٌ، وهو من الدَّرْء، وهو الدفعُ، يقال: دَرَأْتُه، إذا دَفَعْتَه، كما قال: ﴿وَيَدْرَؤُا عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ [النور: ٨] وأَدْرَأْتُه: جعلتُه دارئاً، والمعنى: ولاجَعَلْتُكم بتلاوته خُصَماء تَدْرؤونني بالجدال وتكذِّبونني.

وزعم أبو الفتح أنَّما هي: «أدْرَيْتُكم» فقُلبت الياء ألفًا لانفتاح ما قبلها، وهي لغةٌ لعُقَيلٍ حكاها قُطْربٌ، يقولون في أعطيتُك: أعطاتك[(١)].

وقال أبو حاتم: قلب الحسنُ الياء ألفًا كما في لغة بني الحارث بن كعب: السلامُ عَلَاكَ، قيل: ثم هَمَزَ على لغةِ مَن قال في العالم: العَأْلم[(٢)].

وقرأ شهر بن حَوْشَبٍ والأعمش: «ولا أنذرتكم به» بالنون والذال من الإنذار[(٣)]، وكذا في حرف ابن مسعود[(٤)].

ونبَّه على أنَّ ذلك وحيٌ من الله تعالى بإقامته فيهم عُمرًا وهو أربعون سنةً، من قبل ظهور القرآن على لساني يافعًا وكهلًا، لم تجرِّبوني في كذبٍ، ولا تعاطَيْتُ شيئًا من هذا، ولا عانَيْتُ اشتغالًا، فكيف أُتَّهمُ باختلاقه، أفلا تعقلون أنَّ مَن

= أما «مشتاق» فهو كما قال ابن جني في سر صناعة الإعراب ١/ ٩١: مفتعِلٌ (يعني اسم فاعل) من الشوق، وأصله «مشتوِق»، ثم قلبت الواو ألفاً لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها، فلما احتاج إلى حركة الألف حركها بمثل الكسرة التي كانت في الواو التي هي أصل الألف. اهـ. وكان قد أنشد قبل هذا الكلام قول الراجز:

يا دار ميٍّ بدكاديك البُرَق   صبراً فقد هيَّجْتِ شوق المشتئقْ

قال: القول فيه عندي أنه اضطر إلى حركة الألف التي قبل القاف من «المشتاق» لأنها تقابل لام «مستفعلِن»، فلما حركها انقلبت همزة. وينظر شرح الرضي على شافية ابن الحاجب ٣/ ٢٠٥ و٤/ ١٧٥. وكلام المصنف في هذا الوجه والذي بعده قد قاله الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٢٩، لكن دون ذكر الأمثلة.

(١) المحتسب ١/ ٣٠٩-٣١٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٠.

(٢) ينظر الكلام بتفصيل أكثر في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٤٨-٢٤٩، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٦٨-٤٦٩.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٦، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٠، كلاهما عن ابن عباس وشهر بن حوشب.

(٤) لم أقف عليها عن ابن مسعود ﷺ.

كان بهذه الطريقة من مكثه الأزمانَ الطويلةَ من غير تعلُّم ولا تلمذ[١] ولا مطالعةِ كتابٍ ولا مراسِ جدالٍ ثم أَتى بما ليس يمكنُ أنْ يأتيَ به أحدٌ لا يكون إلا محقًّا فيما أتى به مبلِّغًا عن ربِّه ما أَوْحَى إليه وما اختصَّه به، كما جاء في حديث هرقل: هل جرَّبتُم عليه كذبًا؟ قال: لا، فقال: لم يَكُنْ ليَدَعَ الكذبَ على الخَلْقِ ويَكْذِبَ على الله[٢].

وأدغم ثاءَ «لبثت» أبو عمرٍو وأظهرها باقي السبعة[٣].

وقرأ الأعمش: «عُمْرًا» بإسكان الميم[٤].

والظاهرُ عَوْدُ الضمير في «من قبله» على القرآن، وأجاز الكرمانيُّ أن يعود على التلاوة، وعلى النزول، وعلى الوقت، يعني وقت نزوله.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ تقدَّم تفسيرُ مِثْلِ هذا الكلام، ومساقُه هنا باعتبارين:

أحدهما: أنه لمَّا قالوا: «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّله» كان في ضِمْنه أنهم ينسبونه إلى أنه ليس من عند الله وإنما هو اختلاقٌ، فبُوْلِغَ في ظلم مَن افترى على الله كذبًا، كما قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقد قام الدليلُ القاطعُ على أنَّ هذا القرآنَ هو من عند الله، وقد كذَّبتُم بآياته، فلا أحدَ أظلمُ منكم.

والاعتبارُ الثاني: أنَّ ذلك توطئةٌ لمَا يأتي بعده من عبادة الأوثان، أي: لا أحدَ أظلمُ منكم في افترائكم على الله أنَّ له شريكًا وأنَّ له ولدًا، وفيما نسبتُم إليه من التحليل والتحريم.

---

(١) كذا في النسخ، ولعلها: تتلمذ.

(٢) قطعة من خبر طويل أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث أبي سفيان.

(٣) والذي في السبعة ص١٨٨، والتيسير ص٤٤ نقل الإدغام إضافة إلى أبي عمرو عن ابن عامر وحمزة والكسائي، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١١٠-١١١.

(٤) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٢٩ دون نسبة.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ الضميرُ في «ويعبدون» عائدٌ على كفار قريش[1] الذين تقدَّمت مُحاوَرَتُهم، و«ما لا يضرُّهم ولا ينفعُهم» هو الأصنامُ؛ جمادٌ لا تقدر على نفعٍ ولا ضرٍّ، قيل: إنْ عبدوها لم تنفعهم وإن تركوا[2] عبادتها لم تَضُرُّهم، ومِن حقِّ المعبود أن يكون مُثيبًا على الطاعة معاقبًا على المعصية.

وكان أهلُ الطائف يعبدون اللاتَ، وأهلُ مكة العُزَّى ومناةَ وإسافًا ونائلةَ وهُبَل.

والإخبارُ بهذا عن الكفار هو على سبيل التجهيلِ والتحقيرِ لهم ولمعبوداتهم، والتنبيهِ على أنهم عبدوا مَن لا يستحقُّ العبادةَ، وفي قوله: «من دون الله» دلالةٌ على أنهم كانوا يعبدون الأصنام ولا يعبدون الله.

قال ابن عباس: يعنون في الآخرة[3].

وقال النضر بن الحارث: إذا كان يومُ القيامة شفعتْ فيَّ اللاتُ والعزَّى[4].

وقال الحسن: شفعاؤنا في إصلاح معايشنا في الدنيا؛ لأنهم لا يُقِرُّون بالبعث[5].

و«أتنبؤن» استفهامٌ على سبيل التهكُّم بما ادَّعَوْه من المُحال الذي هو شفاعةُ الأصنام، وإعلامٌ بأنَّ الذي أَنْبَؤوا به باطلٌ غيرُ منطوٍ تحت الصحة، فكأنهم يُخْبِرونه بشيءٍ لا يتعلَّقُ به عِلْمُه.

و«ما» موصولةٌ بمعنى الذي.

قال الزمخشري: بكونهم شُفعاءَ عنده، وهو إنباءٌ بما ليس بمعلومٍ لله تعالى، وإذا لم يكن معلومًا له وهو العالِمُ بالذات المحيطُ بجميع المعلومات لم يكن شيئًا؛

(١) في (يه): على كفار مكة من قريش.
(٢) في (يه): إن يعبدوها... وإن يتركوا.
(٣) زاد المسير ٤/١٦.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/١٩٣٦ عن عكرمة.
(٥) زاد المسير ٤/١٦.

لأنَّ الشيء ما يُعْلَمَ ويُخبر عنه، فكان خبرًا ليس له مُخْبِرٌ عنه[١]. انتهى، فتكون «ما» واقعةً على الشفاعة، والفاعلُ بـ«يعلم» هو الله، والمفعولُ الضميرُ المحذوفُ العائدُ على «ما».

وقولُه «في السماوات ولا في الأرض» تأكيدٌ لنفيه؛ لأن ما لم يوجد فيهما فهو مُنْتَفٍ معدومٌ، قاله الزمخشري[٢].

وفي «التحرير»: «أَتُنبِّؤون» معناه التهكُّم والتقريعُ والتوبيخُ والإنكارُ، والمعنى على هذا: أَتُخبرون الله بما يعلمُ خلافَه في السماوات والأرض، فإنَّ صفات الذات لا يجري فيها النفيُ.

وقيل: أتُخْبِرون الله بما لا يَعْلَمُه موجودًا في السماوات والأرض فكيف يصحُّ وجودُ ما لا يعلمُه الله، وهو كما يقال للرجل: قد قلتَ كذا، فيقول: ما عَلِمَ الله هذا مني، أي: ما كان هذا قطُّ؛ إذ لو كان لعَلِمَه الله. انتهى.

والذي يظهرُ أنَّ «ما» موصولٌ يراد به الأصنامُ لا الشفاعةُ التي ادَّعَوْها، والفاعلُ بـ«يَعْلَم» ضميرٌ يعودُ على «ما» لا على الله، وذلك على حذف مضافٍ، والمعنى: قل أتُعْلِمون الله بشفاعة الأصنام التي انْتَفَى علمُها في السماوات والأرض، أي: ليست متَّصفةً بعلمِ البتَّةَ، فيكون ذلك ردًّا عليهم في دعواهم أنها تَشْفَعُ عند الله؛ لأنَّ مَن كان منتفيًا عنه العلمُ فكيف يَشْفَعُ، وهو لا يعلمُ مَن يَشْفَعُ فيه، ولا ما يَشْفَعُ فيه، ولا مَن يَشْفَعُ عنده؟ كما ردَّ عليهم في العبادة بقوله: «ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم» فانتفاءُ الضرِّ والنفع قادحٌ في العبادة، وانتفاءُ العلم قادحٌ في الشفاعة، فتَبْطُلُ العبادةُ ودَعْوَى الشفاعةِ، ويكونُ قوله: «في السماوات والأرض» على هذا تنبيهًا على مَحَالِّ المعبودات المدَّعى شفاعتُهم؛ إذ من المعبودات السماوية الكواكبُ كالشمس والشِّعرى.

وقرئ: «أتُنبِئون» بالتخفيف من أنبَأَ[٣].

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٠.

(٢) المصدر السابق.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٦ عن بعضهم، وعزاها القرطبي ١٠/ ٤٧٠ لأبي السَّمَّال.

ولمَّا ذكر تعالى عبادتَهم ما لا يضرُّ ولا ينفع، وكان ذلك إشراكًا، استأنف تنزيهًا بقوله: «سبحانه وتعالى»، و«ما» يحتمل أن تكون بمعنى الذي ومصدريةً، أي: شركائهم الذين يشركونهم به، أو: عن إشراكهم.

وقرأ العربيان والحرميَّان وعاصمٌ: «يشركون» بالياء على الغيبة هنا وفي حرفي «النحل» وحرفٍ في «الروم»[1]، وذكر أبو حاتم أنه قرأها كذلك الحسنُ والأعرجُ وابنُ القعقاع وشيبةُ وحُميدٌ وطلحةُ والأعمش[2]. وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وابنُ عامرٍ في «النمل» فقط بالتاء على الخطاب، وعاصمٌ وأبو عمرو بالياء على الغيبة، وقرأ حمزة والكسائيُّ الخمسةَ بالتاء على الخطاب[3].

وأتى بالمضارع ولم يأتِ: عمَّا أشركوا، للدلالة على استمرار حالهم كما جاء «ويعبدون»، وأنهم على الشِّرك في المستقبل كما كانوا عليه في الماضي.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ لـمَّا ذكر تعالى الدلالةَ على فساد عبادة الأصنام ذكر الحاملَ على ذلك، وهو الاختلافُ الحادثُ بين الناس.

والظاهرُ عمومُ «الناس»، ويُتصوَّر في آدم وبَنيه إلى أن وقع الاختلافُ بعد قتل أحدِ ابنَيْه الآخَرَ، وقاله أبيُّ بنُ كعب[4].

وقال الضحاك: المراد أصحابُ سفينة نوح، اتفقوا على الحنيفية ودينِ الإسلام[5].

---

(١) السبعة ص٣٢٤، والتيسير ص١٢١، وحرفي النحل هما في الآية (١) و(٣)، وحرف الروم في الآية (٤٠).

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١١١.

(٣) السبعة ص٢٣٤، والتيسير ص١٢١ و١٦٨.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٧ مختصراً بلفظ: اختلفوا من بعد آدم. وأخرجه الطبري ١٢/ ١٤٣، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٧ عن مجاهد بلفظ: «وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا» حين قتل أحد ابني آدم أخاه.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٢٨ مختصراً.

وعن ابن عباس: مَن كان من ولد آدم إلى زمان إبراهيم[١]. ورُدَّ بأنه عُبد في زمان نوحٍ عليه السلام الأصنامُ كوَدٍّ وسُواعٍ.

وحكى ابن القشيري أنَّ «الناس» قومُ إبراهيم إلى أن غيَّر الدِّين عمرو بن لُحَيٍّ[٢].

وقال ابن زيد: هم الذين أُخذ عليهم الميثاقُ يومَ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لم يكونوا أمةً واحدةً غير ذلك اليوم[٣].

وقال الأصم: هم الأطفال المولودون؛ كانوا على الفطرة فاختلفوا بعد البلوغ.

وأبْعدَ مَن ذهب إلى أنَّ المراد بـ«الناس» هنا آدمُ وحده، وهو مرويٌّ عن مجاهدٍ والسُّدي[٤]، وعبَّر عنه بالأمة لأنه جامعٌ لأنواع الخير.

وهذه الأقوالُ هي على أن المراد بـ«أمة واحدة»: في الإسلام والإيمان.

وقيل: في الشرك، وأريدَ قومُ إبراهيم؛ كانوا مجتمعين على الكفر، فآمَنَ بعضُهم واستمرَّ بعضُهم على الكفر[٥]. أو: مَن كان قبل البعث من العرب وأهلِ الكتاب، كانوا على الكفر والتبديل والتحريف حتى بُعث رسول الله ﷺ، فآمَنَ بعضهم. أو: العرب خاصة. أقوالٌ ثالثُها للزجَّاج[٦].

والظاهرُ أنَّ المراد بقوله: «أمة واحدة»: في الإسلام؛ لأنَّ هذا الكلامَ جاء عَقِيبَ إبطال عبادة الأصنام، فلا يناسبُ أن يُقوَّى عُبَّادُ الأصنام بأنَّ[٧] الناس كانوا على ملَّة الكفر، إنما المناسبُ أن يقال: إنهم كانوا على الإسلام حتى تحصُلَ النفرةُ من اتِّباع غيرِ ما كان الناسُ عليه.

---

(١) لم أقف عليه.
(٢) ذكره الثعلبي ٣/ ٢٧٨ عن عطاء، والواحدي ٢/ ٥٤٢ عن ابن عباس في رواية عطاء.
(٣) ينظر تفسير الطبري ١٨/ ٤٩٣.
(٤) النكت والعيون ٢/ ٤٢٨.
(٥) ذكره الواحدي في الوسيط ٢/ ٥٤٢ عن ابن عباس من رواية الكلبي، وذكره شيخه الثعلبي في تفسيره ٣/ ٢٧٨ عن الكلبي قوله.
(٦) في معاني القرآن ٣/ ١٢.
(٧) في (أ) و(ح) و(د١) و(ع): فإن، والمثبت من (ز١) و(يه)، وهو الصواب.

وأيضًا فقولُه: «ولولا كلمةٌ» هو وعيدٌ، فصَرْفُه إلى أقرب مذكورٍ وهو الاختلافُ هو الوجهُ، والاختلافُ بسبب الكفر هو المقتضي للوعيد، لا الاختلافُ الذي هو بسبب الإيمان؛ إذ لا يَصْلُحُ أن يكون سببًا للوعيد.

وقد تقدَّم الكلامُ على نحو هذا في «البقرة» في قوله: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة الآية: ٢١٣] ولكن أَعَدْنا الكلامَ فيه لبُعْده.

والكلمةُ هنا هو القضاءُ، والتقدير: لبني آدم بالآجال المؤقَّتة، قال ابن عطية: ويحتملُ أن يريد الكلمة في أمر القيامة، وأنَّ العقاب والثواب إنما يكون حينئذٍ[١].

وقال الزمخشري[٢]: هو تأخيرُ الحُكْم بينهم إلى يوم القيامة، «القُضِيَ بينهم» عاجلًا فيما اختلفوا فيه وتمييز[٣] المُحِقِّ من المُبْطِل، وسَبَقت كلمةُ الله بالتأخير لحكمةٍ أوجبت أن تكون هذه الدارُ دارَ تكليفٍ وتلك دارَ ثوابٍ وعقابٍ.

وقال الكلبي: الكلمةُ أنَّ الله أَخَّر هذه الأمة فلا يُهْلِكُهم بالعذاب في الدنيا إلى يوم القيامة، فلولا هذا التأخيرُ لقُضي بينهم بنزول العذاب أو بإقامة الساعة[٤].

وقيل: الكلمةُ السابقة أنْ لا يأخذَ أحدًا إلَّا بحُجَّة، وهو إرسالُ الرسل.

وقيل: الكلمةُ قولُه: «سبقَتْ رحمتي غضبي»[٥]، ولولا ذلك ما أَخَّر العصاةَ إلى التوبة.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ هذا من اقتراحهم، قال الزمخشريُّ: وكانوا لا يعتدُّون بما أُنزل عليه من الآيات العِظَام المتكاثِرة التي لم ينزل على أحدٍ من الأنبياء مثلُها، وكفى بالقرآن وحده آيةً باقيةً على وجه الدهر، بديعةً غريبةً في الآيات، دقيقة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١١.

(٢) في الكشاف ٢/ ٢٣٠.

(٣) كذا في النسخ، والذي في الكشاف: ولمُيِّزَ، وهو الأنسب للسياق.

(٤) تفسير البغوي ٢/ ٣٤٨، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٧٢.

(٥) هو في الصحيحين، وسلف تخريجه عند تفسير قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

المسلك من بين المعجزات. وجعلوا نزولها كَلَا نزولٍ فكأنه لم ينزل عليه آيةٌ قطُّ، حتى قالوا: لولا أُنزل عليه آيةٌ واحدةٌ من ربِّه، وذلك لفَرْطِ عنادهم وتماديهم في التمرُّد، وانْهِماكِهم في الغيِّ، «فقل إنما الغيبُ لله» أي: هو المختصُّ بعلم الغيب المستأثِرُ به، لا عِلْمَ لي ولا لأحدٍ به، يعني أن الصارف عن إنزال الآيات المقترَحَة أمرٌ مغيَّبٌ لا يَعْلَمُه إلَّا هو سبحانه، «فانتظروا» نزولَ ما اقترَحْتُموه، «إنِّي معكم من المنتظرين» بما يفعل الله تعالى بكم لعنادكم وجُحودِكُم الآيات[١].

وقال ابن عطية[٢]: «آيةٌ من ربِّه»: آيةٌ تضطرُّ الناسَ إلى الإيمان، وهذا النوعُ من الآيات لم يأتِ بها نبيٌّ قط، ولا من[٣] المعجزات اضطرارية، وإنما هي معرضةٌ للنظر[٤] ليَهْتَديَ قومٌ ويَضِلَّ آخَرون، «فقل إنما الغيب لله» إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، لا يطَّلع على غيبه في ذلك أحدٌ، وقوله: «فانتظروا» وعيدٌ، وقد صدَّقه الله تعالى بنصرته محمدًا ﷺ.

وقيل: الآيةُ التي اقترحوا أن تَنْزلَ ما تضمَّنه قولُه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا﴾ الآية [الإسراء: ٩٠].

وقيل: موسى وعيسى، كالعصا واليد البيضاء وإحياء الموتى، طلبوا ذلك على سبيل التعنُّت.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ لمَّا ذكر تعالى قولَه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ الآية [يونس: ١٥]، ثم ذكر قوله: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ وذلك على سبيل التعنُّت، أخبر أنَّ هؤلاء إنما يَصيرون لهذه المقالات عندما يكونون في رخاءٍ من العيش وخلوِّ بالٍ، وأنَّ إحسان الله تعالى قابَلوه بما لا يجوز من ابتغاء المكر لآياته، وكان خليقًا بهم أن يكونوا أوَّلَ مَن

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٠-٢٣١، وقوله: وجحودكم، من (يه)، وهو الموافق لما في الكشاف، وجاء في باقي النسخ: وجحدكم.
(٢) في المحرر ٣/ ١١١-١١٢.
(٣) في المحرر: ولا هي، وكلاهما بمعنى.
(٤) في النسخ: النظر، والمثبت من المحرر.

صدَّق بآياته، وإعراضُهم عن الآيات نظيرُ قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

وسببُ نزولها أنه لمَّا دعا على أهل مكة الرسول ﷺ بالجدب قُحِطوا سبعَ سنين، فأتاه أبو سفيان فقال: ادعُ لنا بالخِصْب فإنْ أَخْصَبْنا صدَّقْنا، فسأل الله لهم فسُقوا ولم يؤمنوا[١].

وهذه وإن كانت في الكفار، فهي تتناولُ مِن العاصين مَن لا يؤدِّي شكرَ الله عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثيرٌ؛ تجدُ الإنسان يَعْقِدُ عند مسِّ الضرِّ التوبةَ والتنصُّلَ من سائر المعاصي، فإذا زال عنه رجع إلى أقبح عاداته.

والرحمةُ هنا: الغيثُ بعد القَحْطِ، والأمْنُ بعد الخوف، والصحةُ بعد المرض، والغنى بعد الفقر، وما أشبه ذلك. ومعنى «مستهم»: خالطَتْهم حتى أحسُّوا بسوء أثرها فيهم.

ومعنى «مكرٌ في آياتنا»: التكذيبُ بالقرآن والشكُّ فيه، قاله جماعةٌ.

وقال مجاهدٌ ومقاتلٌ: الاستهزاءُ والتكذيبُ.

وقال أبو عبيدة: الردُّ والجحود.

وحكى الماوردي: النفاق؛ لأنه إظهارُ الإيمان وإبطانُ الكفر[٢]. وهو شبيهٌ بما قال الزمخشريُّ أنَّ المكر أَخْفَى الكيد[٣].

وقال ابن عطية: والمكرُ: الاستهزاءُ والطعنُ عليها من الكفار، واطِّراحُ الشكر والخوفِ من العصاة[٤]. انتهى.

---

(١) النكت والعيون ٢/ ٤٣٠، وزاد المسير ٤/ ١٧، وأصله في البخاري (١٠٢٠)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود ﵁ دون ذكر هذه الآية.
(٢) ذكر هذه الأقوال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ١٨، وقول مجاهد أخرجه الطبري ١٢/ ١٤٥، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٧٦، وقول الماوردي في النكت والعيون ٢/ ٤٣٠.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٣١، ولفظه: والمكر إخفاء الكيد وطيه.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١١٢.

والإذاقةُ والمسُّ هنا مَجازان، وفي هذه الجملة دليلٌ على سرعة تقلُّبِ ابنِ آدم من حالة الخير إلى حالة الشر، وذلك بلفظِ «أذقنا»، كأنه قيل: أوَّلَ ذَوْقِه الرحمةَ قبل أن يُداوِمَ استطعامَها مَكَرَ، وبلفظِ «مِن» المُشْعِرةِ بابتداء الغاية، أي: يُنشئُ المكر إثْرَ كَشْفِ الضَّرَّاء لا يُمْهِلُ ذلك، وبلفظ «إذا» الفجائيةِ الواقعةِ جوابًا لـ«إذا» الشرطية، أي: في وقتِ إذاقةِ الرحمةِ فاجَؤوا بالمكر.

ولمَّا كانت هذه الجملةُ كما قلنا تتضمَّنُ سرعةَ المكر منهم قيل: «قل اللهُ أسرعُ مكرًا» فجاءت أفعل التفضيل، ومعنى وَصْفِ المكرِ بالأَسْرَعية: إنه تعالى قبل أن تُدَبِّروا مكائدَكم قضى بعقابكم، وهو مُوْقِعُه بكم واستَدْرَجَكم بإمهاله.

قال ابن عطية: «أَسْرَعُ» مِن سَرُعَ، ولا يكون من أَسْرَعَ يُسْرِعُ؛ حكى ذلك أبو علي، ولو كان من أَسْرَعَ لكان شاذًّا[(١)]، وقد قال رسول الله ﷺ في نار جهنم: «لهي أسود من القار»[(٢)]، وما حُفِظَ من النبيِّ ﷺ فليس بشاذٍّ. انتهى.

وقيل: «أسرع» هنا ليست للتفضيل، وهذا ليس بشيءٍ إذ السياقُ يردُّه، وفي بناء «أفعل» التفضيل وفِعْلَي التعجب[(٣)] من أَفْعَلَ ثلاثةُ مذاهبَ: المنعُ مطلَقًا، وما ورد من ذلك فهو شاذٌّ، والجوازُ مطلقًا، والتفصيلُ بين أن تكون الهمزةُ فيه للنقل فيُمنع، أو لغير النقل فيجوزُ، نحو: أَشْكَلَ الأمرُ، وأظلم الليلُ، وتقريرُ الصحيح من ذلك هو في علم النحو.

وأمَّا تنظيرُ «أسود من القار» بـ«أسرع» ففاسدٌ؛ لأنَّ «أسود» ليس فعلُه على وزن أَفْعَلَ وإنما هو على وزن فَعِلَ، نحو: سَوِدَ فهو أسودُ، ولم يمتنع التعجُّبُ ولا بناءُ «أفعل» التفضيل عند البصريين من نحو سَوِدَ وحَمِرَ وأَدِمَ إلَّا لكونه لونًا، وقد أجاز ذلك بعضُ الكوفيين في الألوان مطلقًا، وبعضُهم في السَّواد والبياض فقط.

---

(١) إلى هنا كلام أبي علي وما بعده هو من كلام ابن عطية متعقِّبًا. ينظر المسائل العَضُديات ص١٦٢-١٦٣، والمحرر ٣/ ١١٢.

(٢) قطعة من حديث أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٤ عن أبي هريرة ﷺ موقوفاً، وقال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٣٩٠: ومعناه مرفوع لأنه لا يدرك بالرأي، ولا يكون إلا توقيفاً.

(٣) وقعت العبارة في (د١) و(ز١) و(يه) كما يلي: وقيل «أسرع» هنا ليست للتفضيل، وحكاية ذلك عن أبي علي هو مذهب، وفي بناء التعجب وأفعل التفضيل. . .، وسقط قوله: وحكاية ذلك. . .، إلى هنا من (أ) و(ع)، والمثبت من (ح) والدر المصون ٦/ ١٦٧.

والرسلُ هنا: الحفظةُ بلا خلافٍ، والمعنى: إنَّ ما تظنُّونه خافيًا مَطْويًّا عن الله لا يَخْفَى عليه، وهو منتقمٌ منكم.

وقرأ الحسن وابنُ أبي إسحاق وأبو عمرٍو: «رُسْلَنا» بالتخفيف. وقرأ الحسن وقتادةُ ومجاهدٌ والأعرج ورُويت عن نافع: «يمكرون» على الغيبة جَرْيًا على ما سبق. وقرأ أبو رجاءٍ وشيبةُ وأبو جعفر وابنُ أبي إسحاق وعيسى وطلحةُ والأعمشُ والجَحْدَريُّ وأيوب بنُ المتوكِّل وابنُ مُحَيْصِنٍ وشبلٌ وأهلُ مكة والسبعةُ بالتاء على الخطاب[1]؛ مبالغةً لهم في الإعلام بحالِ مَكْرِهم، والتفاتًا لقوله: «قل الله»، أي: قل لهم، فناسَبَ الخطاب، وفي قوله: «إنَّ رسلنا» التفاتٌ أيضًا إذ لم يأتِ: «إنَّ رسلَه».

وقال أيوب بن المتوكل: في مصحف أُبيٍّ: «يا أيها الناسُ إنَّ الله أسرعُ مكرًا وإنَّ رسله لديكم يكتبون ما تمكرون»[2]، وينبغي أن يُحمل هذا على التفسير لأنه مخالفٌ لمَا أجمع عليه المسلمون من سواد المصحف، والمحفوظُ عن أبيٍّ القراءةُ والإقراءُ بسواد المصحف.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ مناسَبةُ هذه الآية لِمَا قبلها أنه لمَّا ذكر تعالى أنَّ الناس إذا أصابهم الضرُّ لجؤوا إلى الله تعالى، فإذا أذاقهم الرحمةَ عادوا إلى عادتهم من إهمالِ جانبِ الله والمكرِ في آياته، وكان قبل ذلك قد ذكر نحوًا من هذا في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية [يونس: ١٢] وكان المذكورُ في الآيتين أمرًا كلِّيًا = أوضح تعالى ذلك الأمرَ الكُلِّيَّ بمثالٍ جليٍّ كاشفٍ عن حقيقة ذلك المعنى الكُلِّيِّ، ينقطع فيه رجاءُ الإنسان عن كلِّ متعلَّقٍ به إلا الله تعالى، فيُخْلِصُ له الدعاءَ وحده في كشف هذه النازلة التي لا يكشفُها

(١) تنظر هذه القراءات في المحرر الوجيز٣/ ١١٢، وعنه نقل المصنف، ووقع في مطبوعه سقط لبعض الكلام. وقراءة الحسن وقتادة ومجاهد ذكرها أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٦. والمشهور عن نافع: «تمكرون» بالتاء.

(٢) المصدر السابق.

إلَّا هو تعالى، ويتبيَّنُ[١] بُطلان عبادته ما لا يضرُّ ولا ينفعُ، ودعواه أنه شفيعُه عند الله، ثم بعد كشف هذه النازلةِ عاد إلى عادته مِن بَغْيه في الأرض، فإنجاؤه تعالى إياهم هو مثالٌ مِن إذاقةِ[٢] الرحمة، وما كانوا فيه قبلُ من إشرافهم على الهلاك هو مثالٌ من الضرِّ الذي مسَّهم.

وقرأ زيد بن ثابت والحسنُ وأبو العالية وزيد بن عليٍّ وأبو جعفر وعبد الله بن جُبير وأبو عبد الرحمن وشيبةُ وابنُ عامرٍ: «يَنْشُركم»[٣] من النَّشر والبث.

وقرأ الحسن أيضًا: «يُنْشِركم» من الإنشار وهو الإحياء، وهي قراءةُ عبد الله[٤].

وقرأ بعض الشاميين: «ينشِّركم» بالتشديد للتكثير من النشر الذي هو مطاوِعُهُ الانتشار.

وقرأ باقي السبعةِ والجمهورُ: «يسيِّركم» من التسيير، قال أبو علي: هو تضعيفُ مبالغةٍ لا تضعيفُ تعديةٍ، لأن العرب تقول: سِرْتُ الرجلَ وسَيَّرْتُهُ، ومنه قولُ الهُذَليِّ:

فلا تَجْزَعَنْ من سنَّةٍ أنت سِرْتَها فأوَّلُ راضٍ سنَّةً مَن يَسِيرُهَا[٥]

قال ابن عطية: وعلى هذا البيتِ اعتراضٌ حتى لا يكون شاهدًا في هذا، وهو أن يكون الضميرُ كالظرف، كما تقول: سِرْتُ الطريقَ[٦]. انتهى.

وما ذكره أبو عليٍّ لا يتعيَّنُ، بل الظاهرُ أن التضعيف فيه للتعدية؛ لأنَّ سار الرجلُ لازمًا أكثرُ من: سِرْتُ الرجلَ متعديًا، فجَعْلُه ناشئًا عن الأكثر أحسنُ من جَعْلِه ناشئًا عن الأقلِّ.

---

(١) في (أ) و(ز١) و(ع): وتبيين، وفي (يه): ويبين.
(٢) في (ح): مثالُ مَن أذاقهُ.
(٣) السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١ عن ابن عامر، والنشر ٢/ ٢٨٢ عن أبي جعفر، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ١١٣.
(٤) المحرر ٣/ ١١٣، وهي عن الحسن في القراءات الشاذة ص٥٦.
(٥) الحجة للفارسي ٤/ ٢٦٥ بنحوه، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٢، والكلام منه، وليس في الحجة قوله: وهو تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية. والبيت لأبي ذؤيب، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٧ برواية: وأول راضي سنَّةٍ...
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ١١٢.

وأمَّا جَعْلُ ابنِ عطية الضميرَ كالظرف ـ قال: كما تقول: سرتُ الطريقَ ـ فهذا لا يجوزُ عند الجمهور؛ لأن «الطريق» عندهم ظرفٌ مختصٌّ كالدار والمسجد، فلا يصلُ إليه الفعلُ ـ غيرَ «دَخَلْتُ» عند سيبويه[1]، وانطلقتُ وذهبتُ عند الفرَّاء[2] ـ إلا بوساطةِ «في»، إلا في ضرورةٍ، وإذا كان كذلك فضميرُه أَحْرَى أنْ لا يتعدَّى إليه الفعل، وإذا كان ضميرُ الظرف الذي يصلُ إليه الفعلُ بنفسه يصلُ إليه بوساطة «في» إلا إن اتُّسِعَ فيه فلَأَنْ يكونَ الضميرُ الذي يصلُ الفعلُ إلى ظاهره بـ«في» أَوْلَى أن يصل إليه الفعلُ بوساطة «في»، وزعم ابن الطَّراوة أنَّ «الطريق» ظرفٌ غير مختصٍّ، فيصل إليه الفعلُ بغير وساطة «في»، وهو زَعْمٌ مردودٌ في النحو.

ومعنى «يسيركم»: يجعلُكم تسيرون، والسيرُ معروفٌ، وفي قوله: «والبحر»، دلالةٌ على جواز ركوب البحر، ولمَّا كان الخوفُ في البحر أغلبَ على الإنسان منه في البرِّ وقع المثالُ به لذلك المعنى الكُلِّيِّ به، من التجاءِ العبدِ لربِّه تعالى حالةَ الشدة، والإهمال لجانبه حالةَ الرخاء.

قال الزمخشري: فإن قلت: كيف جُعِلَ الكونُ في الفلك غايةً للتسيير في البحر، والتسييرُ في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟

قلت: لم يُجْعَلِ الكونُ في الفلك غايةً للتسيير، ولكنْ مضمونُ الجملة الشرطية الواقعة بعد «حتى» بما في حيِّزها، كأنه قال: يسيِّركم حتى إذا وقعت هذه الحادثةُ، فكان كيت وكيت: من مجيء الريح العاصف، وتراكُمِ الأمواج، والظنِّ للهلاك، والدعاء للإنجاء[3]. انتهى، وهو حسن.

وقرأ أبو الدرداء وأم الدرداء: «في الفُلْكيِّ» بزيادة ياء النَّسَب[4]، وخرِّج ذلك على زيادتها كما زادوها في الصفة في نحو: أحمريّ ودَوَّاريّ[5]،

(١) ينظر الكتاب ١/ ٣٥ و١٥٩ و١٦٣ و٤١٤.
(٢) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٤٣.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٣١.
(٤) المحتسب ١/ ٣١٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٣.
(٥) يقال في دَور الدهر بالإنسان: دوَّار ودوَّاري، ومنه قول العجاج:

أطرباً وأنت قِنَّسري والدهر بالإنسان دوَّاري

=

وفي العَلَم كقول الصَّلَتان:

أنــا الـصَّـلَـتـانـيُّ الـذي قـد عَـلِـمْـتُـمُ[١]

أو على إرادة النَّسَب مرادًا به اللجُّ، كأنه قيل: في اللُّجِّ الفُلْكيِّ وهو الماءُ الغَمْرُ الذي لا تجري الفلكُ إلا فيه.

والضميرُ في «وجرين» عائدٌ على «الفلك» على معنى الجمع؛ إذ «الفلكُ» كما تقدَّم في سورة البقرة يكون مفردًا وجمعًا، والضميرُ في «بهم» عائدٌ على الكائنينَ في الفلك، وهو التفاتٌ إذ هو خروج من خطابٍ إلى غيبةٍ.

وفائدةُ صَرْفِ الكلام من الخطاب إلى الغيبة؛ قال الزمخشري: المبالغةُ، كأنه يذكر لغيرهم حالَهم ليُعَجِّبهم منها ويستدعي منهم الإنكارَ والتقبيح[٢]. انتهى.

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أنَّ حكمة الالتفات هنا هي أنَّ قوله: «هو الذي يسيِّركم في البرِّ والبحر» خطابٌ فيه امتنانٌ وإظهارُ نعمةٍ للمخاطَبين، والمسيَّرون في البرِّ والبحر مؤمنون وكفارٌ، والخطابُ شاملٌ فحَسُنَ خطابُهم بذلك ليستديم الصالحُ الشكرَ، ولعل الطالح يتذكَّرُ هذه النعمة فيرجع، فلمَّا ذُكرت حالةٌ آلَ الأمرُ في آخِرِها إلى أنَّ المُلْتَبِس بها هو باغٍ في الأرض بغير الحقِّ، عدل عن الخطاب إلى الغيبة حتى لا يكونَ المؤمنون يخاطَبون بصدور مثلِ هذه الحالة التي آخِرُها البغيُ.

وقال ابن عطية: «بهم» خروجٌ من الحضور إلى الغيبة، وحَسُنَ ذلك لأنَّ قوله: «كنتم في الفلك» هو بالمعنى المعقول: حتى إذا حَصَل بعضُكُم في السفن[٣].

= والقِنَّسْري: الكبير المُسِنّ، ودوّاري: دائر، يقول: إن الدهر يتصرف بالإنسان ويدور به، فكيف تطرب وأنت كبير، يوبِّخه بذلك. ينظر ديوان العجاج ص٢٩٣، والمحتسب ١/ ٣١٠، والخصائص ٣/ ١٠٤.

(١) وعجزه: متى ما يُحكِّم فهو بالحق صادحُ. أمالي القالي ٢/ ١٤١، والمحتسب ١/ ٣١١، والخزانة ٢/ ١٧٦، والصلتان اسمه: قُثم بن خَبِيَّة، أحد بني محارب بن عمرو بن وديعة، قال الآمدي: شاعر مشهور خبيث. الخزانة ٢/ ١٨١.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٣١.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٣.

انتهى، فكأنه قدَّر مفردًا غائبًا فعاد[١] الضميرُ عليه، فيَصِيرُ كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ﴾ [النور: ٤٠] أي: أو كَذِي ظلماتٍ، فعاد الضميرُ غائبًا على اسمٍ غائبٍ، فلا يكون ذلك من باب الالتفات.

والباء في «بهم» و«بريحٍ» قال العُكْبُري: تتعلق الباءان بـ«جَرَين»[٢]. انتهى.

والذي يظهرُ أن الباء في «بهم» متعلِّقةٌ بـ«جَرَيْنَ» تَعلُّقها بالمفعول، نحو: مررتُ بزيدٍ، وأنَّ الباء في «بريح» يجوز أن تكون للسبب، فاختلف المدلولُ في الباءين فجاز أن يتعلَّقا بفعلٍ واحدٍ، ويجوز أن تكون الباء للحال، أي: وجَرَيْنَ بهم ملتبِسةً بريحٍ طيِّبة، فتتعلَّقُ بمحذوفٍ، كما تقول: جاء زيدٌ بثيابه، أي: مُلْتَبِسًا بها.

و«فرحوا بها» يحتملُ أن يكون معطوفًا على قوله: «وجَرَيْنَ بهم»، ويحتملُ أن يكون حالًا، أي: وقد فرحوا بها، كما احتمل قوله: «وجرين» أن يكون معطوفًا على «كنتم»، وأن يكون حالًا.

والظاهرُ أن قوله: «جاءتها ريحٌ عاصفٌ» هو جوابُ «إذا».

والظاهرُ عودُ الضمير في «جاءتها» على «الفُلْك»، لأنه هو المحدَّثُ عنه في قوله: «وجَرَيْن بهم»، وقاله مقاتلٌ.

وجوَّزوا أن يعود على الريح الطيبة؛ وقاله الفرَّاء[٣]، وبدأ به الزمخشري[٤].

ومعنى طِيْبِ الريحِ: ليْنُ هبوبِها وكونُها موافِقةً.

وقرأ ابن أبي عبلة: «جاءتهم»[٥].

ومعنى «من كلِّ مكان»: من أمكنةِ الموج، والظنُّ هنا على بابه الأصلي من ترجيح أحد الجائزَيْنِ، وقيل: معناها التيقُّنُ، ومعنى «أُحيطَ بهم»، أي: للهلاك كما يحيطُ العدوُّ بمن يريد إهلاكَه، وهي كنايةٌ عن استيلاءِ أسبابِ الهلاك.

---

(١) في (د١): يعاد.
(٢) لم أقف عليه في الإملاء.
(٣) جوَّزه الفراء وبدأ بالذي قبله. معاني القرآن للفراء ١/ ٤٦٠.
(٤) في الكشاف ٢/ ٢٣١.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١١٣.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «حِيْطَ بهم» ثلاثيًا.

والجملةُ من قوله: «دعوا الله» قال أبو البقاء: هي جوابُ ما اشْتَمَلَ عليه المعنى من معنى الشرط، تقديره: لمَّا ظنُّوا أنهم أُحيطَ بهم دعوا الله[١]. انتهى. وهو كلامٌ لا يتحصَّلُ منه شيء.

وقال الطبري: جوابُ «حتى إذا كنتم في الفلك»: «جاءتها ريح عاصفٌ»، وجواب قوله: «وظنُّوا أنهم أُحيط بهم»: «دعوا الله»[٢]. انتهى، وهو مخالفٌ للظاهر، لأن قوله: «وظنُّوا» ظاهرُه العطفُ على جواب «إذا»، لا أنه معطوفٌ على «كنتم»، لكنه محتملٌ، كما تقول: إذا زارك فلانٌ فأكْرِمْه، وجاءك خالدٌ فأَحْسِنْ إليه، وكأنَّ أداة الشرط مذكورةٌ.

وقال الزمخشري: هي بدلٌ من «ظنوا» لأنَّ دعاءهم من لوازِم ظنِّهم الهلاكَ، فهو ملتبسٌ به[٣]. انتهى.

وكان أستاذُنا أبو جعفر بن الزبير يخرِّجُ هذه الآيةَ على غيرِ ما ذكروا، ويقول: هو جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: فما كان حالُهم إذ ذاك؟ فقيل: «دعوا الله مخلصين له الدين». انتهى.

ومعنى الإخلاص: إفرادُه بالدعاء من غير إشراكِ أصنامٍ ولا غيرِها؛ قال معناه ابنُ عباس وابنُ زيد.

وقال الحسن: مخلصين لا إخلاصَ إيمانٍ، لكن لأَجْلِ العلم بأنه لا يُنجيهم من ذلك إلَّا الله، فيكون ذلك جاريًا مجرى الإيمان الاضطراري[٤]. انتهى.

والاعترافُ بالله مركوزٌ في طبائع العالَم، وهم مجبولون على أنه هو المتصرِّفُ في الأشياء، ولذلك إذا حَقَّتِ الحقائقُ رجعوا كلُّهم إليه مؤمنهم وكافرهم.

«لئن أنجيتنا» ثَمَّ قسمٌ محذوفٌ، وذلك القسمُ وما بعده محكيٌّ بقولٍ، أي:

---

(١) لم أقف عليه في الإملاء.
(٢) تفسير الطبري ١٢/١٤٨.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٣١.
(٤) ذكر هذه الأقوال الرازي في تفسيره ١٧/ ٧٠.

قائلين، أو أُجْرِيَ «دَعَوا» مجرى: قالوا؛ لأنه نوعٌ من القول.

والإشارةُ بـ«هذه» إلى الشدائد التي هم فيها، وقال الكلبي: إلى الريح العاصف[١].

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ قال ابن عباس: يبغون بالدعاء إلى عبادة غيرِ الله والعملِ بالمعاصي والفساد[٢].

قال الزمخشري: فإن قلتَ: ما معنى قوله: «بغير الحقِّ» والبغيُ لا يكون بحقٍّ؟ قلت: بلى، وهو استيلاءُ المسلمين على أرض الكفرة، وهدمُ دُوْرِهم، وإحراقُ زروعهم، وقطعُ أشجارهم، كما فعل رسول الله ﷺ ببني قُريظة[٣]. انتهى.

وكان قد شرح قولَه: «يبغون» بأنهم يُفسدون ويَعيثون مُتراقين في ذلك مُمْعِنِينَ فيه، من بَغَى الجرح: إذا ترامَى للفساد[٤]. انتهى.

قال الزجَّاج: البغي: الترقِّي في الفساد، وقال الأصمعي: بغى الجرح: إذا ترقى إلى الفساد، وبغت المرأة: فَجَرَت[٥]. انتهى.

ولا يصح أن يقال في المسلمين: إنهم باغون على الكفرة، إلا إنْ ذُكر أنَّ أصل البغي هو الطلبُ مطلقًا، ولا يتضمَّنُ الفسادَ، فحينئذٍ ينقسمُ إلى: طلبٍ بحقٍّ، وطلبٍ بغيرِ حقٍّ.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٤٧٥-٤٧٦.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٠.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٣٢.

(٤) المصدر السابق.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤، وتفسير الرازي ١٧/ ٧١، وعنه نقل المصنف، ولفظ الزجاج: البغي: الترامي في الفساد، قال الأصمعي: يقال: بغى الجرح: إذا ترامى...، وكذا في المصادر عن الأصمعي، ينظر غريب الحديث للحربي ٢/ ٦٠٦، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٨٦، وتهذيب اللغة ٨/ ٢١١، وزاد المسير ٤/ ٢٠، وفيها جميعاً: ترامى، ولعلها قريبة في المعنى من: ترقًّى.

ولمَّا حَمَلَ ابنُ عطيةَ البغيَ هنا على الفساد قال: أكَّد ذلك بقوله: «بغير الحق»[١].

وجواب «لمَّا» إذا الفجائيةُ وما بعدها، ومجيء «إذا» وما بعدها جوابًا لها دليلٌ على أنها حرفٌ يترتَّبُ ما بعدها من الجواب على ما قبله من الفعل الذي بعد «لما»، وأنها تُفيدُ الترتُّب والتعليق في المضيِّ، وأنها كما قال سيبويه ـ حرفٌ، ومذهبُ غيره أنها ظرفٌ[٢]، وقد أوضحنا ذلك فيما كتبناه في علم النحو[٣].

والجوابُ بـ«إذا» الفجائيةِ دليلٌ على أنه لم يتأخَّر بَغْيُهم عن إنجائهم، بل بنفسِ ما وقع الإنجاءُ وقع البغيُ.

والخطاب بـ«يا أيها الناس»؛ قال الجمهور: لأهل مكة. والذي يظهر أنه خطابٌ لأولئك الذين أنجاهم الله وبَغَوا، ويَحْتَمِلُ ـ كما قالوا ـ العمومَ، فيندرجُ أولئك فيهم.

وهذا ذمٌّ للبغي في أوجز لفظٍ، ومعنى «على أنفسكم»: وبالُ البغي عليكم ولا يجني ثمرتَه إلا أنتم، فقوله: «على أنفسكم» خبرٌ للمبتدأ الذي هو «بغيُكم»، فيتعلَّقُ بمحذوفٍ، وعلى هذا التوجيهِ انتصب «متاعَ» في قراءةِ زيد بن عليٍّ وحفصٍ وابن أبي إسحاق وهارون عن ابن كثير[٤] على أنه مصدرٌ في موضع الحال، أي: متمتِّعين، أو باقيًا على المصدرية، أي: تتمتَّعون به متاعَ، أو نصبًا على الظرف نحو: مَقْدَمَ الحاجِّ، أي: وقتَ متاعِ الحياة الدنيا، وكلُّ هذه التوجيهات منقولةٌ، والعاملُ في «متاعَ» إذا كان حالًا أو ظرفًا ما تعلَّق به خبرُ «بغيُكم»، أي: كائنٌ على أنفسكم، ولا ينتصبان بـ«بغيُكم» لأنه مصدرٌ قد فُصِلَ بينه وبين معموله بالخبر، وهو غيرُ جائزٍ.

وارتفع «متاعُ» في قراءة الجمهور على أنه خبرُ مبتدأ محذوفٍ.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٣.
(٢) ينظر ما سلف في هذه السورة عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾، وممن قال بظرفيتها ابن السراج في الأصول في النحو ٢/ ١٥٧ و٣/ ١٧٩، والفارسي في كتاب الشعر ١/ ٧٠ و٨٩.
(٣) ينظر الارتشاف ٤/ ١٨٩٦-١٨٩٧.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١١٣، وقراءة حفص في السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١.

وأجاز النحاسُ وتبعه الزمخشريُّ أن يكون «على أنفسكم» متعلِّقًا بقوله: «بغيُكم» كما تعلَّق في قوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] ويكون الخبر «متاع» إذا رفعتَه، ومعنى «على أنفسكم»: على أمثالِكم والذين جنسُكم جنسُهم، يعني: بغيُ بعضِكم على بعضٍ منفعةُ الحياة الدنيا[1].

وقرأ ابنُ أبي إسحاق أيضًا: «متاعًا الحياةَ الدنيا» بنصب «متاع» وتنوينِه ونصبِ «الحياة»[2].

وقال سفيان بن عيينة في هذه الجملة: تعجَّلُ لكم عقوبتُه في الحياة الدنيا[3].

وقرأت فرقةٌ: «فينبِّئكم» بالياء على الغائب، والمراد الله تعالى[4].

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ مناسَبةُ هذه الآيةِ لمَا قبلها: أنه تعالى لمَّا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ضرب مثلًا عجيبًا غريبًا للحياة الدنيا يذكِّر مَن يبغي فيها على سرعة زوالها وانقضائها، وأنها بحالِ ما تَغُرُّ[5] وتَسُرُّ تضمحِلُّ ويؤُول أمرُها إلى الفناء.

قال الزمخشري: هذا من التشبيه المركَّب، شُبهتْ حالُ الدنيا في سرعة تقضِّيها وانقراضِ نعيمها بعد الإقبال بحالِ نباتِ الأرض في جفافه وذهابِه حطامًا بعدما التفَّ وتكاثَفَ وزَيَّنَ الأرضَ بخضرته ورفيفه[6]. انتهى.

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٢، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٠، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٧٦. والمقصود من قوله: منفعة الحياة الدنيا، أنها لا تبقى ويبقى عقابها، وهو تفسير للمراد من «متاع الحياة الدنيا» فإن المتاع يطلق على ما لا بقاء له. ينظر حاشية الشهاب على البيضاوي ٥/ ١٩.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١١٣.
(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٨٦، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤.
(٥) في (به) والمطبوع: تعز.
(٦) الكشاف ٢/ ٢٣٣.

و«إنما» هنا ليست للحصر لا وضعًا ولا استعمالًا؛ لأنه تعالى ضرب للحياة الدنيا أمثالًا غيرَ هذا، والمثلُ هنا يحتمل أن يراد به الصفة، وأن يراد به القولُ السائرُ المشبَّهُ به حالُ الثاني بالأول، والظاهرُ تشبيهُ صفة الحياة الدنيا بماءٍ فيما يكون به ويترتَّب عليه من الانتفاع ثم الانقطاع.

وقيل: شُبِّهت الحياةُ الدنيا بالنبات على تلك الأوصاف، فيكون التقدير: كنباتِ ماءٍ، فحُذف المضاف.

وقيل: شُبهت الحياةُ بحياةٍ مقدَّرةٍ على هذه الأوصاف، فيكونُ التقدير: كحياةِ قومٍ بماءٍ أنزلناه من السماء. قيل: ويقوِّي هذا قولُه: «وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها».

و«[من][1] السماء» إمَّا أن يراد: من السحاب، وإمَّا أن يراد: من جهة السماء.

والظاهرُ أن النبات اختلط بالماء، ومعنى الاختلاطِ: تَشَبُّثُه به وتَلَقُّفُه إياه وقبولُه له؛ لأنه يجري له مجرى الغذاء، فتكونُ الباءُ للمُصاحبة، وكلُّ مختلطَيْنِ يصحُّ في كلٍّ منهما أن يقال: اختَلَطَ بصاحبه، فلذلك فسَّره بعضُهم بقوله: خالَطه الماءُ وداخَلَه فغذَّى كلَّ جزءٍ منه.

وقال الكرماني: فاختَلَطَ به اختلاطَ مجاوَرةٍ؛ لأنَّ الاختلاط تَدَاخُلُ الأشياءِ بعضِها في بعضٍ. انتهى.

ولا يَمتنِعُ اختلاطُ النبات بالماء على سبيل التداخُل، فلا تقولُ: إنه اختلاطُ مجاوَرةٍ.

وقيل: اختلط: اختَلَفَ وتَنوَّع بالماء. وينبو لفظُ «اختلط» عن هذا التفسير.

وقيل: معنى «اختلط»: تَرَكَّبَ.

وقيل: امتدَّ وطال.

وقال الزمخشري: فاشْتَبَكَ بسببه حتى خالَطَ بعضُه بعضًا[2].

---

(١) ما بين حاصرتين من النهر على هامش مطبوع البحر ٥/ ١٤٠.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٣٣.

وقال ابن عطية: وصلت فرقةٌ النباتَ بقوله: «فاختلط»، أي: اختلط النباتُ بعضُه ببعضٍ بسبب الماء[١]. انتهى.

وعلى هذه الأقوالِ الباءُ في «به»[٢] للسببية.

وأَبْعَدَ مَنْ ذهب إلى أنَّ الفاعل في قوله: «فاختلط» هو ضميرٌ يعود على الماء، أي: فاختلط الماءُ بالأرض، ويقفُ هذا الذاهبُ على قوله: «فاختلط»، ويستأنفُ به «نباتُ الأرض» على الابتداء والخبر المقدَّم؛ قال ابن عطية: يحتمل على هذا أن يعود الضميرُ في «به» على الماء، وعلى الاختلاط الذي تضمَّنه الفعلُ[٣]. انتهى.

والوقفُ على قوله: «فاختلط» لا يجوزُ، وخاصةً في القرآن؛ لأنه تفكيكٌ للكلام المتصل الصحيح المعنى الفصيحِ اللفظ، وذهابٌ إلى اللُّغزِ والتعقيدِ والمعنى الضعيفِ، ألا ترى أنه لو صرَّح بإظهار الاسم الذي الضميرُ في «به» كنايةٌ عنه، فقيل: بالاختلاط نباتُ الأرض، أو: بالماء نباتُ الأرض، لم يَكَدْ ينعقدُ كلامًا من مبتدأ وخبرٍ؛ لضعف هذا الإسناد وقُرْبِه من عدم الإفادة، ولولا أنَّ ابنَ عطية ذكره وخرَّجه على ما ذكرناه عنه لم نذكره في كتابنا.

ولمَّا كان النباتُ ينقسم إلى مأكولٍ وغيرِه، بيَّن أن المراد أحدُ القسمين بـ«مِن»، فقال: «ممَّا يأكل الناسُ» كالحبوب والثمار والبقول «والأنعامُ» كالحشيش وسائرِ ما يُرْعَى.

قال الحوفي: «من» متعلِّقة بـ«اختلط». وقال أبو البقاء: «ممَّا يأكل» حالٌ من النبات[٤]. فاقْتَضَى قولُ أبي البقاء أن يكون العاملُ في الحال محذوفًا؛ لأنَّ المجرور والظرفَ إذا وقَعَا حالين كان العاملُ محذوفًا، وقولُ أبي البقاء هو الظاهرُ، وتقديره: كائنًا ممَّا يأكلُ.

و«حتى» غايةٌ، فيحتاج أن يكون الفعلُ الذي قبلها متطاوِلًا حتى تصحَّ الغايةُ،

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤.
(٢) في النسخ: بماء، وهو سبق قلم من المصنف رحمه الله، وينظر الدر المصون ٦/ ١٧٧.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤.
(٤) الإملاء ٢/ ٢٧.

فإمَّا أن يقدَّر قبلها محذوفٌ، أي: فما زال ينمو حتى إذا، أو يُتجوَّزَ في «فاختلط»، ويكون معناه: فدام اختلاطُ النباتِ بالماء حتى إذا.

وقولُه: «أخذت الأرضُ زُخرُفَها وازَّيَّنتْ» جملةٌ بديعةُ اللفظ، جُعلت الأرضُ آخِذةً زُخرُفَها متزيِّنةً، وذلك على جهة التمثيل بالعروس إذا أخذت الثيابَ الفاخرة من كلِّ لونٍ فاكتست وتزيَّنَتْ بأنواع الحليِّ، فاستُعير الأخذُ ـ وهو التناوُلُ باليد ـ لاشتمال نبات الأرض على بهجةٍ ونضارةٍ وألوانٍ مختلفةٍ، واستُعير لتلك البهجةِ والنضارةِ والألوانِ المختلفة لفظةُ الزُّخرف، وهو الذهبُ، لمَّا كان من الأشياء البَهِجةِ المنظر السارَّةِ للنفوس.

«وازَّيَّنت»، أي: بنباتها وما أُودع فيه من الحبوب والثمار والأزهار، ويَحْتَمِلُ أن يكون قولُه: «وازَّينت» تأكيدًا لقوله: «أخذت الأرضُ زخرفها»، ويحتمل[١] أن لا يكون تأكيدًا؛ إذ قد يكونُ أخذُ الزخرف لا لقصدِ التزيين، فقيل: «وازَّينتْ» ليفيد أنها قصدت التزيين. ونسبةُ الأخذِ إلى الأرض والتزيين من بديع الاستعارة.

وقرأ الجمهور: «وازَّيَّنتْ»، وأصلُه: وتزيَّنَتْ، فأُدغمت التاءُ في الزاي، فاجْتُلبت همزةُ الوصل لضرورةِ تسكين الزاي عند الإدغام.

وقرأ أبيٌّ وعبد الله وزيد بن علي والأعمشُ: «وتَزَيَّنتْ» على وزن تَفَعَّلَتْ[٢].

وقرأ سعد بن أبي وقاص وأبو عبد الرحمن وابنُ يعمر والحسنُ والشعبي وأبو العالية وقتادةُ ونصر بنُ عاصمٍ وابنُ هُرْمُزٍ وعيسى الثَّقَفي: «وأَزْيَنَتْ» على وزن أَفْعَلَتْ[٣]، كـ: أَحْصَدَ الزرعُ، أي: حضرت زينتُها وحانت، وصحت الياءُ فيه على جهة النُّدور، كـ: أَغْيَلت المرأةُ[٤]، والقياسُ: وأَزَانَتْ، كقولك: وأَبانَتْ.

(١) في النسخ عدا (يه): واحتمل، والمثبت من (يه).
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤، ولم يذكر زيد بن علي.
(٣) ينظر القراءات الشاذة ص٥٦، والمحتسب ١/ ٣١١، والمحرر ٣/ ١١٤، وزاد المسير ٤/ ٢١، وليس في هذه المصادر ذكر ابن هرمز.
(٤) أي: سقت ولدها الغَيل، وهو اللبن تُرضعه ولدها وهي حامل. القاموس (غيل).

وقرأ أبو عثمان النهديُّ بهمزةٍ مفتوحةٍ بوزن: افْعَأَلَّتْ، قاله عنه صاحبُ «اللوامح»[١]، قال: كأنه كانت في الوزن بوزن: احْمارَّتْ، لكنهم كرهوا الجمعَ بين ساكنَيْن فحُرِّكت الألف فانقلبت همزةً مفتوحةً[٢]، ونَسب ابنُ عطيةَ هذه القراءةَ لفرقةٍ، فقال: وقرأت فرقةٌ: «وازْيَأَنَّتْ»، وهي لغةٌ، منها قولُ الشاعر:

إذا ما الهَوَادي بالعَبِيطِ احمأرَّتِ[٣]

وقرأ أشياخُ عوف بن أبي جميلةَ: «وازْيَانَّتْ» بنونٍ مشدَّدةٍ وألفٍ ساكنةٍ قبلها[٤]، قال ابن عطية: وهي قراءةُ أبي عثمان النهديِّ[٥].

وقرأت فرقة: «وازَّايَنَتْ»[٦]، والأصل: وتَزَايَنَتْ فأدغم.

والظنُّ هنا على بابه من ترجيح أحد الجائزَيْن، وقيل: بمعنى: أيْقَنوا، وليس بسديدٍ.

ومعنى القدرةِ عليها: التمكُّنُ من تحصيلها ومنفعَتِها ورفعِ غلَّتها، وذلك لحُسْن نموِّها وسلامتِها من العاهات. والضميرُ في «أهلها» عائدٌ على «الأرض»، وهو على حذف مضافٍ، أي: أهلُ نباتها، وقيل: الضمير عائد على الغَلَّة. وقيل: على الزينة. وهو ضعيفٌ.

وجواب «إذا» قولُه: «أتاها أمرُنا» كالريح والصرِّ والسَّموم، وغيرِ ذلك من الآفات كالفأر والجراد، وقيل: أتاها أمرُنا بإهلاكها.

---

(١) وقاله عنه أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٦، وابن جني في المحتسب ١/ ٣١١.
(٢) هذا التأويل عند ابن جني في المحتسب ١/ ٣١٢.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤، وهذا عجز بيت ذكره ابن جني في المحتسب ١/ ٤٧، والخصائص ٣/ ١٢٦، وعزاه لكثير، وفيهما: إذا ما العوالي...، قلت: ما ورد في ديوان كثير هو من قصيدة في مدح عبد العزيز بن مروان:

وأنت ابنَ ليلى خيرُ قومك مشهدًا إذا ما احمارَّتْ بالعَبيط العوامِلُ

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٤. وعوف بن أبي جميلة هو أبو سهل البصري الحافظ، روى عن أبي العالية وابن سيرين وغيرهما، توفي سنة (١٤٦هـ). السير ٦/ ٣٨٣.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١، والمحرر ٣/ ١١٤.

وأبهم في قوله: «ليلًا أو نهارًا» وقد عَلِمَ تعالى متى يأتيها أمرُه، أو تكونُ «أو» للتنويع؛ لأنَّ بعض الأرض يأتيها أمرُه تعالى ليلًا وبعضَها نهارًا، ولا يخرجُ كائنٌ عن وقوعه فيهما.

والحصيد: فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، أي: المحصود، ولم يؤنَّث كما لم تؤنَّث: امرأةٌ جَرِيحٌ، وقال أبو عبيدة: الحصيد المستأصَل(١). انتهى.

وعبَّر بـ«حصيد» عن التالف استعارةً، جَعَلَ ما هلك من الزرع بالآفة قبلَ أوانه حصيدًا؛ لعلاقةِ مَا بينهما من الطرح على الأرض.

وقيل: يجوز أن تكون تشبيهًا بغير الأداة، والتقدير: فجعلناها كالحصيد.

وقوله: «كأنْ لم تَغْنَ بالأمس» مبالغةٌ في التلف والهلاك، حتى كأنها لم توجد قبلُ، ولم تَقُمْ بالأرض بَهجَةً خَضِرةً نَضِرةً تَسُرُّ أهلها.

وقرأ الحسن وقتادة: «كأنْ لم يَغْنَ» بالياء على التذكير(٢)؛ فقيل: عائدٌ على المضاف المحذوفِ الذي هو الزرعُ، حُذِفَ وقامت هاء التأنيث مقامه في قوله: «عليها» وفي قوله: «أتاها... فجعلناها». وقيل: عائدٌ على الزُّخرف. والأَوْلَى عَوْدُه على الحصيد، أي: كأن لم يَغْنَ الحصيدُ.

وكان مروان بن الحكم يقرأ على المنبر: «كأنْ لم تتغنَّ» بتاءين مثل تتفعَّل(٣)، وقال الأعشى:

طويلُ الثَّوَاءِ طويلُ التغنِّي(٤)

وهو من غَنِيَ بكذا: أقام به.

قال الزمخشريُّ: «والأمس» مَثَلٌ في الوقت [القريب] كأنه قيل: كأنْ لم تَغْنَ آنفًا(٥). انتهى.

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٢٧٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٣٣، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٥، وينظر القراءات الشاذة ص٥٦.

(٣) المحتسب ١/ ٣١٢، والمحرر ٣/ ١١٥، والكشاف ٢/ ٢٣٣.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٣، وهو في ديوان الأعشى ص٧٥ برواية:

وكنت امرأً زمنًا بالعراق ... عفيف المناخ طويل التَّغَنّ

(٥) الكشاف ٢/ ٢٣٣، وما بين حاصرتين منه.

وليس الأمسُ عبارةً عن مطلق الوقت، ولا هو مرادفٌ لقوله: آنفًا؛ لأنَّ آنفًا معناه: الساعة، والمعنى: كأنْ لم يكن لها وجودٌ فيما مضى من الزمان، ولو أنَّ قائلًا قال في غير القرآن: كأنْ لم يكن لها وجودٌ الساعةَ، لم يَصِحَّ هذا المعنى؛ لأنه لا وجودَ لها الساعةَ فكيف تُشبَّه وهي لا وجود لها حقيقةً بما لا وجود لها حقيقة، إنما يشبَّه ما انتفَى وجودُه الآن بما قدِّر انتفاءُ وجودِه في الزمان الماضي لسرعة انتقاله من حالةِ الوجود إلى حالة العدم، فكأنَّ حالةَ الوجود ما سَبَقَتْ له.

وفي مصحف أبيٍّ: «كأنْ لم تَغْنَ بالأمس وما كنَّا لنُهلكها إلَّا بذنوب أهلها كذلك نفصِّلُ الآيات» رواها عنه ابن عباس، وقيل: في مصحفه: «وما كان الله ليُهلكها إلَّا بذنوب أهلها»[1].

وفي «التحرير»: وكان أبو سلمة بن عبد الرحمن يقرأ في قراءة أبيٍّ: «كأنْ لم تَغْنَ بالأمس وما أهلكناها إلَّا بذنوب أهلها» ولا يَحْسُنُ أن يقرأ أحدٌ بهذه القراءةِ لأنها مخالِفةٌ لخطِّ المصحف الذي أجمع عليه الصحابةُ والتابعون. انتهى.

«كذلك نفصِّل الآيات لقوم يتفكَّرون» أي: مِثْلَ هذا التفصيلِ الذي فصَّلناه في الماضي نفصِّل في المستقبل، وقرأ أبو الدرداء: «لقوم يتذكَّرون» بالذال بدل الفاء[2].

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ لـمَّـا ذكـر مَـثَـلَ الحياة الدنيا، وما تَؤُولُ إليه من الفناء والاضمحلال، وما تضمنته من الآفات والعاهات، ذكر تعالى أنه داعٍ إلى دار السلامة والصحة والأمن، وهي الجنةُ، إذ أهلُها سالمون من كلِّ مكروهٍ، ويجوز أن يكون تعالى أضافها إلى اسمه الشريف على سبيل التعظيم لها والتشريفِ، كما قيل: بيت الله، ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] ويجوز أن تكون مضافةً إلى السلامة بمعنى التسليم؛ لفشوِّ ذلك بينهم، ولتسليم الملائكة عليهم، كما قال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوٗا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٥ ٢٦].

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٥.
(٢) المصدر السابق.

قال الحسن: إنَّ السلام لا ينقطعُ عن أهل الجنة وهو تحيتُهم، كما قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣][١].

وقد وردت في دعوةِ اللهِ عبادَه أحاديثُ[٢]، وقال قتادة: ذُكر لنا أنَّ في التوراة مكتوبًا: يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشرّ انْتهِ[٣].

ولمَّا كان الدعاء عامًّا لم يتقيَّدْ بالمشيئة، ولمَّا كانت الهدايةُ خاصةً تقيَّدتْ بالمشيئة فقال: «ويهدي مَن يشاء».

وقال الزمخشري: «ويهدي» يوفِّقُ «مَن يشاء» وهم الذين عَلم أنَّ اللُّطف يُجْدي عليهم؛ لأنَّ مشيئته تابعةٌ لحكمته[٤].

❊ ❊ ❊

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا
كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾
هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ
﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ
وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ
ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ
فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٨١، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٨٠.
(٢) ينظر حديث جابر بن عبد الله ﷺ في صحيح البخاري (٧٢٨١)، وتفسير الطبري ١٢/ ١٥٥، وحديث أبي الدرداء ﷺ عند أحمد (٢١٧٢١)، وابن حبان (٣٣٢٩)، والطبري ١٢/ ١٥٥.
(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ١٥٤.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٢٣.

يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا
يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَـٰذَا
ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن
رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ
بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ
أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ
بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا
يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ
قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ
أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى
ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ
﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾
هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى
ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا
يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ
أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟
مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن
رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ

مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ
لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ
ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن
سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ
لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا
كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

المفردات

رَهِقَه: غَشِيَه، وقيل: لَحِقَه، ومنه: ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٣] ورجلٌ مُرَهَّقٌ: يغشاه الأضياف. وقال الأزهري: الرَّهَقُ اسمٌ من الإرهاق، وهو أن يَحْمِلَ الإنسانُ على نفسه ما لا يُطيقُ(١)، يقال: أرهَقْتُه أن يصلِّي: إذا أعجلْتَه عن الصلاة(٢).

وقيل: أصل الرَّهَق: المُقارَبةُ، يقال: غلامٌ مُراهِقٌ، أي: قارَبَ الحُلم، وفي الحديث: «اِرْهَقوا القِبْلة»(٣)، أي: ادْنُوا منها، ويقال: رَهِقَتِ الكلابُ الصيدَ: إذا لَحِقَتْه. وأرهَقْنا الصلاة: أخَّرناها حتى تدنوَ من الأخرى.

القَتَر والقَتَرةُ: الغبارُ الذي معه سوادٌ، وقال ابن عرفة: الغبارُ، وقال الفرزدق:

---

(١) تهذيب اللغة ٥/٣٩٩، ولفظه: ... أن يُحمَل عليه ما لا يطيقه.

(٢) اللسان (رهق)، وفيه: ... أعجلْتَه الصلاةَ، وفيه أيضاً: أرهقني القوم أن أصلي، أي: أعجلوني. فزيادة كلمة «عن» عند المصنف فيها نظر.

(٣) أخرجه أبو يعلى (٤٣٨٧)، والعقيلي في الضعفاء ٤/١٩٦ من حديث عائشة ﵂، وفي إسناده مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير، قال عنه الحافظ في التقريب: لين الحديث. وروى العقيلي عن أحمد قال: أراه ضعيف الحديث، وعن يحيى: مدني ليس بشيء. ثم قال العقيلي: لا يُعرف إلا به، وقد روي بغير هذا الإسناد اللفظ في معناه من طريق أصلح من هذا، رواه سهل بن أبي حَثْمةَ أن النبي ﷺ قال: «مَن صلى إلى سترة فليَدْنُ منها» وهذا ثابت. اهـ. قلت: أخرجه أحمد (١٦٠٩٠)، وأبو داود (٦٩٥)، والنسائي ٢/٦٢.

مـتـوَّجٌ بـرداء الـمُـلْـكِ يـتـبـعُـه موجٌ تَرَى فوقَه الراياتِ والقَتَرا[(١)]

أي: غبار العسكر.

وقال ابن بحر: أصل القَتَر: دخانُ النار، ومنه: قُتَار القِدْر[(٢)]. انتهى.

ويقال: القَتْر بسكون التاء.

الشأن: الأمر، وجمعه: شُؤون، وأصلُه الهمزُ بمعنى القَصْدِ من شَأَنْتُ شَأْنَه: إذا قَصَدْتَ قَصْدَه.

عَزَبَ يَعْزِبُ ويَعْزُبُ بكسرِ الزاي وضمِّها: غاب حتى خَفيَ، ومنه: الروضُ العازب، وقال أبو تمام:

وقَـلْـقَـلَ نـأيٌ مـن خـراسـانَ جَـأْشَـهـا فقلتُ اطمئنِّي أَنْضَرُ الروضِ عازِبُهْ[(٣)]

وقيل للغائب عن أهل: عازِبٌ، حتى قالوه لمن لا زوجة له.

* * *

التفسير ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ «أَحْسَنوا» قال ابن عباس: ذكروا كلمة «لا إله إلَّا الله»[(٤)].

وقال الأَصَمُّ: أَحْسَنوا في كلِّ ما تعبَّدوا به، أي: أَتَوا بالمأمور به كما ينبغي، واجتنبوا المنهيَّ[(٥)].

وقيل: أحسنوا معاملةَ الناس.

ورَوَى أنس عن رسول الله ﷺ: «أَحْسنوا العملَ في الدنيا»[(٦)].

(١) ديوان الفرزدق ١/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ١٢/ ١٦٥، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٦، والصحاح واللسان (قتر). ورواية الديوان: مُعْتَصب برداء...
(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٣٣، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٨٥، وعنه نقل المصنف.
(٣) ديوان أبي تمام ١/ ٢٢٠. العازب: البعيد، والمعنى: أحزنها بُعدي، فقلت: اسكُني فإن الروض أنضرُه ما بَعُد. قاله شارح الديوان.
(٤) تفسير الرازي ١٧/ ٧٧، وأخرجه الطبري ١٢/ ١٦٤ بلفظ: شهدوا أنْ لا إله إلا الله.
(٥) تفسير الرازي ١٧/ ٧٧.
(٦) أخرجه ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٧٣، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٧٧٩)،=

وفي الصحيح: ما الإحسان؟ قال: «أنْ تعبدَ الله كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك»[(١)].

وعن عيسى عليه السلام: ليس الإحسانُ أن تُحْسِنَ إلى مَن أَحْسَن إليك؛ ذلك مكافأةٌ، ولكنَّ الإحسانَ أنْ تُحْسِنَ إلى مَن أساء إليك[(٢)].

و«الحسنى» قال الأكثرون: هي الجنة. ورُوي ذلك عن الرسول ﷺ، ولو صحَّ وَجَبَ المصيرُ إليه[(٣)].

وقال الطبري: «الحسنى» عامٌّ في كلِّ حَسَنٍ، فهو يعمُّ جميعَ ما قيل، وَوَعَد الله في جميعها بالزيادة، ويؤيِّد ذلك أيضًا قوله: «أولئك أصحاب الجنة» ولو كان معنى الحسنى الجنة لكان في القول تكرير في المعنى[(٤)].

وقال عبد الرحمن بن سابط: هي النضرة[(٥)].

وقال ابن زيد: الجزاء في الآخرة[(٦)].

= والذهبي في السير ٢٢/ ١١٣ من طريق سلم بن سالم البلخي، عن نوح بن أبي مريم، عن ثابت، عن أنس به. قال الذهبي: نوح تالف وسَلْم ضعَّفوه.

(١) قطعة من حديث جبريل الطويل، أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٤٧/ ٤٣٦ عن الشعبي يرويه عن عيسى عليه السلام.

(٣) رويت في ذلك أحاديث كلُّها ضعيفة، ينظر حديث أبي موسى الأشعري وأبي بن كعب رضي الله عنهما في تفسير الطبري ١٢/ ١٥٨ و١٦٢، وشرح أصول الاعتقاد (٧٨٠) و(٨٨٢). وورد ذلك أيضاً في حديث أنس رضي الله عنه، وقد سلف تخريجه والكلام عليه قبل تعليقين، وإسناده ضعيف جدًّا كما ذكرنا.

(٤) نقله المصنف عن الطبري بواسطة ابن عطية في المحرر ٣/ ١١٦، ولم أقف عليه في تفسير الطبري، بل ظاهر كلامه يخالفه، حيث قال ١٢/ ١٦٤: وأَوْلَى الأقوالِ في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تبارك وتعالى وعد المحسنين من عباده على إحسانهم الحُسنى؛ أن يجزيهم على طاعتهم إياه الجنة... إلخ.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦١-١٦٢، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٤٥. وهو في زاد المسير ٤/ ٢٤، ووقع في مطبوعه: النصرة.

(٦) زاد المسير ٤/ ٢٤، وأخرج الطبري ١٢/ ١٦٤ عنه قول: «الحسنى»: الجنة...

وقيل: الأمنية. ذكره ابن الأنباري[١].

وقال الزمخشري[٢]: المثوبةُ الحُسْنَى، «وزيادة»: وما يزيد على المثوبة وهو التفضُّل، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣] وعن عليٍّ: الزيادةُ غرفةٌ من لؤلؤة واحدة[٣]. وعن ابن عباس: «الحسنى»: الحسنةُ، والزيادة عشرةُ أمثالها[٤]. وعن الحسن: عشرة أمثالها إلى سبع مئة[٥]. وعن مجاهد: الزيادة: مغفرة من الله ورضوان[٦]. وعن يزيد[٧] بن شجرة: الزيادة: أن تمرَّ السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أُمْطِرَكم؟ فلا يريدون شيئًا إلا أمطرتهم. وزعمت المشبِّهةُ والمُجْبِرةُ أنَّ الزيادة: النظرُ إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديثٍ موضوع[٨]: «إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ نُودوا: يا أهل الجنة، فيَكْشِفون الحجابَ فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله تعالى شيئًا هو أحب إليهم منه». انتهى.

أمَّا تفسيرُه أولًا ونَقْلُه عمَّن ذَكَر تفسير الزيادة فهو نصُّ الجبائي ونَقْلُه[٩].

وأمَّا قولُه: وجاءت بحديثٍ موضوع، فليس بموضوعٍ، بل خرَّجه مسلم في

---

(١) زاد المسير ٤/ ٢٤.

(٢) في الكشاف ٢/ ٢٣٣.

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١٠٥٨ ـ تفسير)، والطبري ١٢/ ١٦٢، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٤٥ من طريق الحكم بن عتيبة عن علي ﷺ، وإسناده ضعيف للانقطاع بين الحكم بن عتيبة وعلي ﷺ. وقال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٢٤: لا يصح.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٢/ ١٦٣، وإسناده مسلسل بالضعفاء.

(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٣.

(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ١٦٣-١٦٤.

(٧) في النسخ: زياد، وهو خطأ. ويزيد بن شجرة هو أبو شجرة الرَّهاوي (نسبة إلى رها بطن من مذحج) الشامي، يقال: له صحبة، وكان أمير الجيش في غزو الروم، توفي سنة (٥٨هـ). السير ٩/ ١٠٦. وقوله ذكره بالإضافة إلى الكشاف الثعلبي ٣/ ٢٨٣، والقرطبي ١٠/ ٤٨٤.

(٨) كذا في النسخ، والذي في مطبوع الكشاف: مرفوع، وكلاهما تصحيف، والصواب: مرقوع بالقاف، كما قيَّدها الشهاب في حاشيته على البيضاوي ٥/ ٢٢، والآلوسي ١١/ ١٠٣.

(٩) تفسير الرازي ١٧/ ٧٨.

«صحيحه» عن صهيبٍ، والنسائيُّ عنه، عن الرسول ﷺ[١]. وخرَّجه ابن المبارك في «رقائقه» موقوفًا على أبي موسى[٢].

وقال بأنَّ الزيادة هي النظرُ إلى الله تعالى أبو بكر الصدِّيق، وعلي بن أبي طالب في روايةٍ، وحذيفةُ، وعبادةُ بن الصامت، وكعب بن عُجْرةَ، وأبو موسى، وصهيب، وابنُ عباس في روايةٍ، وهو قولُ جماعةٍ من التابعين[٣].

ومسألةُ الرؤية يُبْحَثُ فيها في أصول الدين.

قال مجاهد: أراد: ولا يلحقُها خزيٌ، والخزيُ يتغيَّر به الوجهُ ويسودُّ. قال ابن عباس: والذلةُ: الكآبة. وقال غيره: الهوان. وقيل: الخيبةُ[٤].

نفَى عن المحسنين ما أثبت للكفار من قوله: «وتَرْهقُهم ذلَّة»، وقوله: ﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠-٤١] وكَنَى بالوجه عن الجملة لكونه أشرفَها، ولظهورِ أثر السرور والحزن فيه.

وقرأ الحسن وأبو رجاء وعيسى بن عمر والأعمش: «قَتْر» بسكون التاء[٥]، وهي لغةٌ كالقَدَر والقَدْر.

وجُعلوا أصحاب الجنة لتصرُّفهم فيها كما يتصرَّف المُلَّاك على حسب اختيارهم.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٧﴾ لـمَّـا ذكـر ما أَعَدَّ للَّذين أحسنوا، وحالَهم يوم القيامة، ومآلَهم إلى الجنة، ذَكَر ما أعدَّ

---

(١) صحيح مسلم (١٨١): (٢٩٧) (٢٩٨)، وسنن النسائي الكبرى (١١١٧٠).

(٢) الزهد والرقائق لابن المبارك (٤١٩ ـ زيادات نعيم بن حماد). وكلمة رقائقه، تحرفت في (د١) والمطبوع إلى: دقائقه.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ١٥٦-١٦١، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٤٥، وشرح أصول الاعتقاد ٣/ ٥٠٤-٥١٣، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٨٢، وعنه نقل المصنف.

(٤) ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٣٣، وزاد المسير ٤/ ٢٥، والثالث عزاه ابن الجوزي لأبي سليمان الدمشقي.

(٥) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٦ وعنه نقل المصنف.

لأضدادهم وحالَهم ومآلَهم، وجاءت صلةُ المؤمنين «أَحْسَنوا» وصلةُ الكافرين «كسبوا السيئات» تنبيهًا على أنَّ المؤمن لمَّا خُلِقَ على الفطرة واصَلَها بالإحسان، وعلى أنَّ الكافر لمَّا خُلِقَ على الفطرة انتقل عنها وكَسَبَ السيئات، فجعلَ ذلك مُحْسِنًا وهذا كاسِبًا للسيئات ليدلَّ على أنَّ المؤمن سلك ما ينبغي وهذا سلك ما لا ينبغي.

والظاهرُ أنَّ «والذين» مبتدأٌ، وجوَّزوا في الخبر وجوهًا:

أحدها: أنه الجملةُ التي بعده، وهي «جزاءُ سيئةٍ بِمِثْلِها»، و«جزاء» مبتدأٌ؛ فقيل: خبره مثبَتٌ وهو «بمثلها»، واختلفوا في الباء؛ فقيل: زائدة، قاله ابن كيسان[1]، أي: جزاءُ سيئة مثلُها، كما قال: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠] كما زيدت في الخبر في قوله:

فـمَـنْـعُـكَـهـا بـشـيءٍ يُـسْـتَـطـاعُ[2]

أي: شيءٌ يستطاع.

وقيل: ليست بزائدةٍ، والتقدير: مقدَّرٌ بمثلها، أو مستقرٌّ بمثلها.

وقيل: محذوف؛ فقدَّره الحَوْفي: لهم جزاءُ سيئة، قال: ودلَّ على تقدير «لهم» قولُه: «للذين أحسنوا الحسنى» حتى تُشاكِلَ هذه بهذه. وقدَّره أبو البقاء: جزاءُ سيئةٍ بمثلها واقعٌ[3]. والباءُ في قولَيْهما متعلِّقةٌ بقوله: «جزاء».

---

(١) كما في تفسير القرطبي ١٠/٤٨٦، وقاله أيضاً أبو الحسن الأخفش في معاني القرآن ٢/٥٦٧، وأجازه أبو البقاء في الإملاء ٢/٢٧، ونقله عن الأخفش ابن جني في سر صناعة الإعراب ١/١٣٨ وأنه استدل عليه بقوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ ثم قال: وهذا مذهب حسن واستدلال صحيح. اهـ. ومع ذلك فقد ذكر ابن هشام في المغني ص٥١٢ عن هذا القول بعد نقله عن الأخفش وابن كيسان أنه مردود عند الجمهور.

(٢) البيت لعُبيدة بن ربيعة بن قُحفان من بني عمرو بن تميم كما في كتاب الخيل لابن الأعرابي ص٤٨، والخزانة ٥/٢٩٧-٣٠١، وعزاه أبو تمام في الحماسة (بشرح المرزوقي) ١/٢٠٩ لرجل من بني تميم، وكان قد طلب منه ملك من ملوك الفرس فرساً له يقال له: سَكابِ، فمنعه إياها وقال أبياتاً منها هذا البيت، وصدره: فلا تطمع أبَيْتَ اللعن فيها، وجاء في المصادر: ومَنْعُكها بالواو. ورواية الحماسة والخيل: بوجه، بدل: بشيء.

(٣) الإملاء ٢/٢٧.

والعائدُ من هذه الجملة الواقعة خبرًا عن «الذين» محذوفٌ تقديره: جزاءُ سيئةٍ منهم، كما حُذف في قولهم: السَّمْنُ مَنَوانِ[١] بدرهمٍ، أي: مَنَوان منه بدرهم، وعلى تقدير الحوفي: لهم جزاء، يكون الرابط: لهم.

الثاني: أن الخبر قولُه: «ما لهم من الله من عاصمٍ»، ويكون قد فَصَلَ بين المبتدأ والخبر بجملتين على سبيل الاعتراض، ولا يَجوزُ ذلك عند أبي عليٍّ الفارسيِّ، والصحيحُ جوازُه[٢].

الثالث: أن يكون الخبر «كأنما أُغشيت وجوهُهم قطعًا من الليلِ مظلمًا».

الرابع: أن يكون الخبر «أولئك» وما بعده. فيكون في هذا القول فُصِلَ بين المبتدأ والخبر بأربع جملٍ معترضةٍ، وفي القول الثالث بثلاثِ جملٍ، والصحيح منعُ الاعتراض بثلاثِ الجمل وبأربع الجمل.

وأجاز ابنُ عطية أن يكون «الذين» في موضع جرٍّ عطفًا على قوله: «للذين أحسنوا»، ويكون «جزاءُ» مبتدأً خبرُه قوله: «والذين» على إسقاط حرفِ الجر، أي: ولِلَّذين كسبوا السيئات جزاءُ سيئةٍ بمثلها[٣]، فيتعادلُ التقسيم، كما تقول: في الدار زيدٌ والقصرِ عمرٌو، أي: وفي القصر عمرو، وهذا التركيبُ مسموعٌ من لسان العرب، فخرَّجه الأخفشُ على أنه من العطف على عاملين[٤]، وخرَّجه الجمهورُ على أنه ممَّا حُذف منه حرفُ الجر، وجرُّه بذلك الحرفِ المحذوفِ لا بالعطف على المجرور، وهي مسألةُ خلافٍ وتفصيلٍ يُتكلَّم فيها[٥] في علم النحو.

والظاهرُ أن «السيئات» هنا هي سيئاتُ الكفر، ويدلُّ عليه ذِكْرُ أوصافهم بعدُ.

وقيل: «السيئات»: المعاصي، فيندرجُ فيها الكفرُ وغيرُه، ولهذا قال ابنُ عطية:

---

(١) مثنَّى «مَنَا»، وهو الكيل، أو الميزان الذي يوزن به. اللسان (منا).
(٢) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩].
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٦.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٤.
(٥) في (ح): عليها.

وتعمُّ «السيئات» هاهنا الكفرَ والمعاصيَ، فمِثْلُ سيئةِ الكفر التخليدُ في النار، ومِثْلُ سيِّئةِ المعاصي مصروفٌ إلى مشيئة الله تعالى[(١)].

ومعنى «بِمثْلِها»، أي: لا يُزاد عليها، قال الزمخشري: وفي هذا دليلٌ على أنَّ المراد بالزيادة الفضلُ؛ لأنه دلَّ بترك الزيادة على السيِّئة على عَدْلِه، ودلَّ بإثبات الزيادة على المثوبة على فَضْلِه[(٢)]. انتهى.

وقيل: معنى «بمثلها»، أي: بما يليقُ بها من العقوبات، فالعقوباتُ تترتَّب على قَدْرِ السيئات، ولهذا كانت جهنمُ دركاتٍ، وكان المنافقون في الدَّرْكِ الأسفل لقُبْحِ معصيتهم.

وقُرئ: «يرهقهم» بالياء[(٣)]؛ لأنَّ تأنيث الذِّلَّةِ مَجازٌ.

وفي وصف المؤمنين[(٤)] نفيُ القَتَر والذِّلةِ عن وجوههم، وهنا غَشِيَتْهم الذلَّة، وبُولغ فيما يقابِلُ القَتَر، فقيل: «كأنَّما أُغْشِيَتْ وجوهُهم قِطَعًا من اللَّيلِ مُظْلِمًا» وهذه مبالَغةٌ في سواد الوجوه، وقد جاء مصرَّحًا في قوله: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

«من الله» أي: من سَخَطه وعذابه، أو: من جهته تعالى ومِن عندِه مَن يَعْصِمُهم كما يكون للمؤمنين، و«أُغشيت»: كُسِيَتْ، ومنه: الغشاءُ.

وكونُ وجوهِهم مُسْوَدَّةً هو حقيقةٌ لا مجازٌ، فتكونُ ألوانُهم مسودَّةً.

قال أبو عبد الله الرازي[(٥)]: واعْلَم أنَّ حكماء الإسلام قالوا: المرادُ من هذا السَّواد ههنا سوادُ الجهل وظلمةُ الضلال؛ فإنَّ الجهل طَبْعُه[(٦)] طبعُ الظُّلمة، فقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩] المراد منه نورُ العلم ورَوْحُه

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٦.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٣٤.
(٣) القراءات الشاذة ص٥٧.
(٤) في المطبوع: المنافقين، وهو تحريف شنيع.
(٥) في تفسيره ١٧/ ٨٠.
(٦) في تفسير الرازي: فإن العلم طبعه طبع النور والجهل طبعه...

وبِشْرُه وبِشارتُه ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠-٤١] المرادُ منه ظلمةُ الجهل وكُدورةُ الضلالة. انتهى.

وكثيرًا ما ينقلُ هذا الرجلُ عن حكماء الإسلام في التفسير، وينقلُ كلامَهم تارةً منسوبًا إليهم وتارةً مستبِدًّا به، ويعني بحكماء الإسلام الفلاسفةُ الذين خُلقوا في مدَّة[1] الملَّة الإسلامية، وهم أحقُّ بأنْ يسمَّوا سُفَهاءَ جُهَلاءَ من أن يسمَّوا حكماءَ، إذ هم أعداءُ الأنبياء عليهم السلام، والمحرِّفون للشريعة الإسلامية، وهم أضرُّ على المسلمين من اليهود والنصارى.

ورُوِيَ أنَّ رسول الله ﷺ رأى مع عمر بن الخطاب ﷺ ورقةً من التوراة فقال: «ما هذا؟» فقال: ورقةٌ من التوراة. فقال: «أَمُتَهوِّكون يا ابنَ الخطاب؟ والله لقد جئتُكم بها بيضاءَ نقيةً، لو كان أخي موسى حيًّا لَمَا وَسِعَه إلا اتِّباعي»[2].

وإذا كان أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب ﷺ نُهِيَ عن قراءة التوراة مع كونها كتابًا إلهيًّا، فلأَنْ يُنْهَى عن قراءةِ كلامِ الفلاسفة أحقُّ، وقد غلب في هذا الزمانِ وقَبْلَه بقليلِ الاشتغالُ بجهالاتِ الفلاسفة على أكثر الناس، ويسمُّونها: الحكمةَ، ويَسْتَجْهِلون مَن عَرِيَ عنها، ويعتقدون أنهم الكَمَلةُ من الناس، ويَعْكُفون على دراستها، ولا تكادُ تَلْقَى أحدًا منهم يحفظُ قرآنًا ولا حديثًا عن رسول الله ﷺ، ولقد غَضَضْتُ مرَّةً من ابنِ سينا[3] ونَسَبْتُه للجهل، فقال لي بعضُهم وأَظْهَرَ التعجُّبَ من كون أحدٍ يَغُضُّ من ابن سينا: كيف يكونُ أعلمَ الناس بالله يُنْسَبُ للجهل؟! ولمَّا ظهر من قاضي الجماعة أبي الوليد محمد بن أبي القاسم أحمد بن أبي الوليد ابن رشد[4] الاعتناءُ بمقالات الفلاسفة والتعظيمُ لهم أغْرَى به علماءُ الإسلام بالأندلس

(١) في (ح) و(يه): هذه.
(٢) أخرجه بنحوه أحمد (١٥١٥٦) من حديث جابر ﷺ، وإسناده ضعيف كما ذكر محققو المسند، وينظر الكلام عليه ثمة. والكلام من قوله: ورُوِي... إلى هنا من (يه)، وليس في باقي النسخ.
(٣) هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا البلخي ثم البخاري صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق، له كتاب: الشفاء، وغيره، وأشياء لا تُحتمل، وقد كفَّره الغزالي في كتاب «المنقذ من الضلال»، توفي سنة (٤٢٨هـ). السير ١٧/ ٥٣١.
(٤) وجده أبو الوليد هو شيخ المالكية في زمانه، وقد ولد قبل وفاة جده بشهر، وله: بداية =

المنصورَ منصورَ الموحِّدينَ يعقوبَ بنَ يوسفَ بنِ عبد المؤمِنِ بن عليٍّ ملك المغرب والأندلس، حتى أَوْقَعَ به ما هو مشهورٌ مِن ضَرْبِه ولَعْنِه وإهانتِه وإهانةِ جماعةٍ منهم على رؤوس الأشهاد، وكان ممَّا خُوطِبَ به المنصورُ في حقِّهم قولُ بعض العلماء الشعراء:

خَليفتَنا جزاك الله خيراً ... عن الإسلام والسعيِ الكريمِ
فَحَقَّ جهادِه جاهدتَ فيه ... إلى أنْ فُزْتَ بالفتح[١] العظيمِ
وصيَّرْتَ الأنامَ بحُسْنِ هَدْيٍ ... على نهج الصراط المستقيمِ
فجاهِدْ في أناسٍ قد أضَلُّوا ... طريقَ الشرع بالعلم القديمِ
وحَرِّقْ كُتْبَهم شرقًا وغربًا ... ففيها كامنًا شرُّ العلومِ
يَدِبُّ إلى العقائد مِن أذاها ... سُمومٌ والعقائدُ كالجسومِ
وفي أمثالِها إذ لا دواءٌ ... يكونُ السيفُ ترياقَ السُّمومِ

وقال[٢]:

يا وَحْشةَ الإسلام مِن فِرْقةٍ ... شاغِلةٍ أنفُسَها بالسَّفَهْ
قد نَبَذَتْ دِينَ الهُدَى خَلْفَها ... وادَّعَتِ الحكمةَ والفلسفَهْ

وقال:

قد ظهرتْ في عصرنا فرقةٌ ... ظهورُها شؤمٌ على العصرِ
لا تقتدي في الدِّين إلَّا بما ... سَنَّ ابنُ سينا أو أبو نصرِ[٣]

ولمَّا حَلَلْتُ بديار مصر ورأيتُ كثيرًا من أهلها يشتغلون بجهالات الفلاسفة

= المجتهد في الفقه، والكليات في الطب، ومختصر المستصفى في الأصول، وغيرها كثير في الفلسفة والحكمة، توفي سنة (٥٩٥هـ). السير ٢١/٣٠٧.

(١) في (يه): بالفضل.

(٢) هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسي الأديب، وهو أيضاً قائل البيتين اللذين بعدهما. نفح الطيب ٢/ ٣٨١-٣٨٥.

(٣) هو الفارابي محمد بن محمد بن طَرْخان التركي، له تصانيف مشهورة من ابتغى الهدى منها ضل وحار، ومنها تخرج ابن سينا، توفي بدمشق سنة (٣٣٩هـ). السير ١٥/ ٤١٦.

ظاهرًا من غيرِ أن يُنْكِرَ ذلك أحدٌ تعجَّبْتُ من ذلك؛ إذ كنَّا نشأنا في جزيرة الأندلس على التبرُّؤ من ذلك والإنكارِ له، وأنه إذا بيع كتابٌ في المنطق إنما يباعُ خُفْيَةً، وأنه لا يتجاسَرُ أن يُنْطَقَ بلفظ المنطِق، إنَّما يسمُّونه: المَفْعِل، حتى إنَّ صاحبنا وزيرَ الملك ابنِ الأحمر، أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الحكيم(١)، كتب إلينا كتابًا من الأندلس يسألني أن أشتري له أو أستنسخَ كتابًا لبعض شيوخنا في المنطق، فلم يتجاسر أن ينطق بالمنطق وهو وزيرٌ، فسمَّاه في كتابه لي بالمَفْعِل.

ولمَّا أُلبست وجوهُهم السوادَ قال: «كأنَّما أُغْشِيتْ وجوهُهم»، ولمَّا كانت ظُلْمةُ الليل نهايةً في السواد شبَّه سوادُ وجوههم بقطعٍ من الليل حالَ اشتداد ظُلمته.

وقرأ ابنُ كثير والكسائي: «قِطْعًا» بسكون الطاء(٢)، وهو مفردٌ اسمٌ للشيء المقطوع، وقال الأخفش في قوله: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]: بسوادٍ من الليل(٣). وأهلُ اللغة يقولون: القِطْعُ ظُلْمةُ آخِرِ الليل. وقال بعضهم: طائفةٌ من الليل.

وعلى هذه القراءةِ يكونُ قولُه: «مظلمًا» صفةً لقوله: «قِطْعًا»، كما جاء ذلك في قراءة أبيٍّ: «كأنما يَغْشَى وجوهَهم قِطْعٌ من الليل مظلمٌ»(٤). وقرأ ابنُ أبي عَبْلَةَ كذلك إلا أنه فَتَح الطاء(٥).

وقيل: قِطَعٌ جمعُ قطعة، نحو: سِدْر وسِدْرة، فيجوزُ إذ ذاك أن يوصف بالمذكَّر نحو: ﴿نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠] وبالمؤنَّث نحو: ﴿نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧] ويجوزُ على هذا أن يكون «مظلمًا» حالًا من «الليل»، كما أَعْرَبوه في قراءة باقي السبعة: «كأنما أُغشيت وجوهُهم قِطَعًا» بتحريك الطاء بالفتح «من الليل مظلمًا» بالنصب.

(١) أبو عبد الله اللخمي، الإشبيلي الأصل، جُمعت له الوزارة والكتابة ولقب: ذا الوزارتين، وكان بارعًا في الآداب، ومن أعلم الناس بنقد الشعر، توفي سنة (٧٠٨هـ). الدرر الكامنة ٥/ ٢٤٤.

(٢) السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١.

(٣) ذكره القرطبي ١١/ ١٨٣ بلفظ: بعد جنح من الليل.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٧، وتفسير الطبري ١٢/ ١٦٩، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٦.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١١٦.

قال الزمخشري: فإنْ قلتَ: إذا جعلتَ «مظلمًا» حالًا من «الليل» فما العاملُ فيه؟

قلت: لا يخلو: إما أن يكون «أُغشيت»، مِن قِبَلِ أنَّ «من الليل» صفةٌ لقوله: «قِطعًا»، فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وإمَّا أن يكونَ معنى الفعلِ في «من الليل»[1]. انتهى.

أمَّا الوجهُ الأوّلُ فهو بعيدٌ؛ لأنَّ الأصل أن يكون العاملُ في الحال هو العاملُ في ذي الحال، والعاملُ في «الليل» هو «مستقرّ» الواصلُ إليه بـ«من»، و«أُغشيت» عاملٌ في قوله: «قطعًا» الموصوفِ بقوله: «من الليل»، فاختلفا، فلذلك كان الوجهُ الأخير[2] أَوْلَى، أي: قِطَعًا مستقرةً من الليل ـ أو: كائنةً من الليل ـ في حالِ إظلامه.

وقيل: «مظلمًا» حالٌ من قوله: «قِطَعًا» أو صفةٌ، وذُكِّر في هذين التوجيهين لأن «قِطَعًا» في معنى: كثير، فلُوحِظَ فيه الإفرادُ والتذكيرُ.

وجوَّزوا أيضًا في قراءة مَن سكَّن الطاءَ أن يكون «مظلمًا» حالًا من قِطْعٍ، وحالًا من الضمير في «من».

قال ابن عطية[3]: فإذا كان نعتًا ـ يعني «مظلمًا» نعتًا لقِطْعٍ ـ فكان حقُّه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يَجيءُ بعد هذا[4]، وتقدير الجملة: قِطْعًا استقرَّ من الليل مظلمًا، على نحو قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢] انتهى، ولا يتعيَّنُ تقدير العامل في المجرور بالفعل فيكونَ جملةً، بل الظاهرُ أن يقدَّرَ باسم الفاعل، فيكون من قَبيل الوصف بالمفرد والتقدير: قِطْعًا كائنًا من الليل مظلمًا.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ الضميرُ في «نحشرهم» عائدٌ على مَن تقدَّم ذِكْرُهم

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٤-٢٣٥.
(٢) في (ح): الآخر.
(٣) في المحرر ٣/ ١١٦.
(٤) كذا في النسخ، وفي مطبوع المحرر: بعدها.

من الذين أحسنوا والذين كسبوا السيئات، وقرأ الحسنُ وشيبةُ والقرَّاء السبعةُ: «نحشرهم» بالنون، وقرأت فرقةٌ بالياء(١).

وقيل: يعودُ الضمير على «الذين كسبوا السيئات» ومنهم عابدُ غيرِ الله ومَن لا يعبد شيئًا.

وانتصبَ «يومَ» على فعلٍ محذوفٍ، أي: ذكِّرهم، أو خوِّفهم، ونحوه، و«جميعًا» حالٌ. والشركاء: الشياطين، أو الملائكة، أو الأصنام، أو مَن عُبِدَ من دون الله كائنًا مَن كان. أربعةُ أقوالٍ، ومَن قال: الأصنام، قال: يُنْفَخُ فيها الروحُ فيُنْطِقُها الله بذلك مكانَ الشفاعة التي علَّقوا بها أطماعهم.

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنَّ الكفار إذا رأوا العذابَ وتقطَّعت بهم الأسباب قيل لهم: اتَّبعوا ما كنتم تعبدون، [فيقولون: كنَّا نعبد هؤلاء، فتقول الأصنام: والله ما كنا نسمع ولا نعقل و﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾]، فيقولون: والله لإياكم كنَّا نعبد، فتقول الآلهة: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا﴾ الآية(٢).

قال ابن عطية: فظاهرُ هذه الآيةِ أنَّ محاورتَهم إنما هي مع الأصنام دون الملائكةِ وعيسى بنِ مريم، بدليل القول لهم: «مكانَكُم أنتم وشركاؤكم»، ودون فرعون ومَن عُبِدَ من الجنِّ بدليل قولهم: «إنْ كنَّا عن عبادتكم لغافلين»، وهؤلاء لم يَغْفُلوا قطُّ عن عبادةِ مَن عَبَدَهم(٣).

و«مكانكم» عدَّه النحويون في أسماء الأفعال، وقدِّر بـ: اثبتوا، كما قال:

وقَوْلي كلما جَشَأَتْ وجاشَتْ ... مكانَكِ تُحْمَدي أو تستريحي(٤)

أي: اثْبُتي، ولكونها بمعنى «اثبتي» جَزَم «تُحْمَدي».

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٦-١١٧.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١١٧، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه بنحوه الطبري ١٢/ ١٧١، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٤٨ عن مجاهد قوله.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٧.

(٤) البيت لعمرو بن الإطنابة كما في الكامل للمبرد ٣/ ١٤٣٤، وسلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وتحمَّلت ضميرًا فأُكِّد وعُطِفَ عليه في قوله: «أنتم وشركاؤكم»، والحركةُ الَتي في «مكانك» و«دونك» أهي حركةُ إعرابٍ أو حركةُ بناءٍ، تَنْبني على الخلاف الذي بين النحويين في أسماء الأفعال: ألَها موضعٌ من الإعراب أو لا؟ فمن قال: هي في موضع نصبٍ، جَعَل الحركةَ إعرابًا، ومَن قال: لا موضعَ لها من الإعراب، جَعَلَها حركةَ بناءٍ، وعلى الأول عوَّلَ الزمخشري فقال: «مكانكم»: الْزَموا مكانَكم لا تبرحوا حتى تَنْظُروا ما يُفعل بكم[1].

واختلفوا في «أنتم»، فالظاهرُ ما ذكرناه من أنه تأكيدٌ للضمير المستكنِّ في «مكانكم»، و«شركاؤكم» عطفٌ على ذلك الضمير المستكنِّ، وهو قولُ الزمخشري؛ قال: «وأنتم» أكِّد به الضميرُ في «مكانكم» لسدِّه مَسَدَّ قوله: الْزَموا، و«شركاؤكم» عطفٌ عليه[2]. انتهى.

يعني عطفًا على الضمير المستكنِّ وتقديرُه: الْزَموا، وأنَّ «مكانكم» قام مقامه فيَحْمِلُ الضميرَ الذي في «الزموا»، ليس بجيدٍ؛ إذ لو كان كذلك لكان «مكانك» الذي هو اسمُ فعلٍ يتعدَّى كما يتعدَّى «الزموا»، ألا ترى أنَّ اسم الفعل: إذا كان الفعلُ لازمًا كان اسمُ الفعل لازمًا، وإذا كان متعدِّيًا كان متعدِّيًا، مثال ذلك: عليك زيدًا، لمَّا ناب مَنابَ «الْزَمْ» تَعدَّى، و«إليك» لمَّا نابَ مَنابَ «تنحَّ» لم يتعدَّ، ولكون «مكانك» لا يتعدَّى قدَّره النحويون بـ«اثْبُتْ»[3]، و«اثْبُتْ» لا يتعدَّى.

قال الحَوْفي: «مكانكم» نصبٌ بإضمارِ فعلٍ، أي: الْزَمُوا مكانكم، أو: اثْبُتُوا. وقال أبو البقاء: «مكانكم» ظرفٌ مبنيٌّ لوقوعه موقعَ الأمر، أي: الْزَموا[4]. انتهى.

وقد بينَّا أنَّ تقدير «الزموا» ليس بجيدٍ؛ إذ لم تقل العرب: مكانك زيدًا، فتعدِّيه كما تعدِّي «الْزَمْ».

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) (يه): باثبت.

(٤) الإملاء ٢/ ٢٨. وعلى ما نقله المصنف عن الحوفي يكون الزمخشري قد سُبق في تقدير: الزموا، كما قال السمين في الدر ٦/ ١٨٩، وقال: والعذر لمن فسَّره بذلك أنه قصد تفسير المعنى.

وقال ابن عطية: «أنتم» رفعٌ بالابتداء، والخبرُ: مَخْزِيُّون، أو: مُهانون ونحوُه[١]. انتهى.

فيكون «مكانكم» قد تمَّ، ثم أخبر أنهم كذا، وهذا ضعيفٌ؛ لفكِّ الكلام الظاهرِ اتصالُ بعضِ أجزائه ببعضٍ، ولتقديرِ إضمارٍ لا ضرورةَ تدعو إليه، ولقوله: «فزَيَّلْنا بينهم» إذ يدلُّ على أنهم ثَبَتوا هم وشركاؤهم في مكانٍ واحدٍ حتى وقع التزييلُ بينهم، وهو التفريقُ، ولقراءةِ مَن قرأ: «أنتم وشركاءَكم» بالنصب على أنه مفعولٌ معه[٢]، والعاملُ فيه اسمُ الفعل، ولو كان «أنتم» مبتدأً وقد حُذِفَ خبرُه لَمَا جاز أن يأتي بعده مفعولٌ معه، تقول: كلُّ رجلٍ وضَيْعتُه، بالرفع[٣]، ولا يجوزُ فيه النصبُ.

وقال ابنُ عطية أيضًا: ويجوزُ أن يكون «أنتم» تأكيدًا للضمير الذي في الفعل المقدَّر الذي هو: قفوا، أو نحوه[٤]. انتهى.

وهذا ليس بجيد؛ إذ لو كان تأكيدًا لذلك الضميرِ المتَّصلِ بالفعل لجاز تقديمُه على الظرف؛ إذ الظرفُ لم يتحمَّل ضميرًا على هذا القولِ فيلزمَ تأخيرُه عنه[٥]، وهو غيرُ جائزٍ، لا تقول: أنت مكانك، ولا يحفظ من كلامهم، والأصحُّ أنه لا يجوزُ حذفُ المؤكَّد في التأكيد المعنويِّ، فكذلك هذا؛ لأنَّ التأكيد يُنافي الحذفَ، وليس من كلامهم: أنت زيدًا، لمن رأيتَه قد شَهَرَ سيفًا وأنت تريدُ: اضرِبْ أنت زيدًا، إنما كلامُ العرب: زيدًا، تريد: اضرِبْ زيدًا.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٧، وجاء في مطبوعه: موبخون، بدل: مخزيون.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٣٥.

(٣) لأنه معطوف على «كل»، والخبر محذوف تقديره: مقترنان، وقيل: هذا كلام تام لا يحتاج إلى خبر؛ لأن المعنى: كل رجل مع ضيعته. شرح الألفية لابن عقيل ١/ ٢٥٣.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١١٧، وينظر التعليق الذي بعده.

(٥) في كلام المصنف رحمه الله نظر، فإن ابن عطية كان قد قال قبلُ ما نصُّه: و«مكانكم» في هذا الموضع من أسماء الأفعال إذ معناه: قفوا واسكنوا. اهـ. فلم يقدِّر الفعل الذي هو «قفوا» قبل الظرف الذي هو «مكانكم»، بل جعل «مكانكم» معناه: قفوا، وعلى هذا يكون ما قاله ابن عطية مطابقًا لما اختاره المصنف في بداية كلامه على «أنتم»، حيث قدَّر «مكانكم» بـ: اثبتوا، وجعل «أنتم» توكيدًا للضمير المستكنِّ في «مكانكم» لأنه مقدر بـ: اثبتوا. وقد تعقب السمين في الدر ٦/ ١٩١ كلام المصنف بنحو ما ذكرته، وينظر كلامه ثمة.

يقال: زِلْتُ الشيءَ عن مكانه أَزِيلُه، قال الفرَّاء: تقول العرب: زِلْتُ الضأنَ من المَعْزِ فلم تَزِلْ[١].

وقال الواحدي: التزييلُ والتزيُّلُ[٢] والمُزايَلةُ: التميزُ والتفريق. انتهى.

وزيَّل مضاعَفٌ للتكثير، وهو لمفارقة الجثث[٣] من ذوات الياء، بخلافِ زال يَزُولُ، فمادَّتُهما مختلفةٌ، وزعم ابنُ قتيبةَ أنَّ «زيَّلنا» من مادة زال يزول[٤]، وتبعه أبو البقاء؛ وقال أبو البقاء: «فزيَّلنا» عينُ الكلمة واوٌ؛ لأنه من زال يزول، وإنما قُلبت ياءً لأنَّ وزن الكلمة: فَيْعَلَ، أي: زَيْوَلْنا، مثل: بَيْطَرَ وبَيْقَرَ، فلما اجتمعت الواوُ والياء على الشرط المعروف قُلبت ياءً[٥]. انتهى.

وليس بجيدٍ؛ لأنَّ «فعَّل» أكثر من «فَيْعَلَ»، ولأنَّ مصدره: تَزْيِيل، ولو كان «فَيْعَلَ» لكان مصدره: فَيْعَلةً، فكان يكونُ: زَيَّلَةً، كـ: بَيْطرة؛ لأن «فَيْعَلَ» ملحقٌ بـ«فَعْلَلَ»، ولقولهم في قريبٍ من معناه: زايَلَ، ولم يقولوا: زاوَلَ بمعنى: فارَقَ، إنما قالوه بمعنى: حاوَلَ وخالط.

وشُرح «فزيَّلنا» بـ: فرَّقنا بينهم وقطَّعنا أقرانَهم والوُصَلَ التي كانت بينهم في الدنيا، أو: فباعَدْنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف وبين شركائهم، كقوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾[٦] [غافر: ٧٣-٧٤].

وقرأت فرقة: «فزايَلْنا»، حكاه الفرَّاء[٧]؛ قال الزمخشريُّ: كقولك: صاعَرَ خدَّه

---

(١) أي: ميَّزتها فلم تتميَّز. تفسير الرازي ١٧/ ٨٣، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٤٦٢.

(٢) كذا في النسخ، وجاء في تفسير الرازي ١٧/ ٨٣ (والكلام منه) بدل «التزيُّل»: الزِّيل، وهو المراد هنا والله أعلم.

(٣) تحرفت في (د١) والمطبوع إلى: الحبث، وفي (يه) إلى: الجنب.

(٤) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص١٩٦، وتفسير الرازي ١٧/ ٨٣.

(٥) الإملاء ٢/ ٢٨.

(٦) في النسخ: أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون قالوا ضلوا عنا، وليس في المصحف آية بهذا اللفظ، والمثبت موافق لما في الكشاف ٢/ ٢٣٥، والكلام منه.

(٧) في معاني القرآن ١/ ٤٦٢.

وصغَّر، و: كالَمْتُه وكلَّمته[١]. انتهى، يعني أنَّ فاعَلَ بمعنى فَعَّلَ، وزايَلَ في لسان العرب بمعنى فارَقَ؛ قال:

وقال العذارى إنما أنت عمُّنا وكان الشبابُ كالخليط تُزَايِلُهْ[٢]

وقال آخر:

لَعَمْري لموتٌ لا عقوبةَ بعده لِذِي البثِّ أَشْفَى من هوًى لا يُزَايِلُهْ[٣]

والظاهرُ أنَّ التزييلَ أو المُزايلةَ هو بمفارقة الأجسام وتباعُدِها.

وقيل: فرَّقنا بينهم في الحجَّة والمذهب؛ قاله ابن عطية[٤].

و«فزيَّلنا» و«قال» هنا ماضيان لفظًا، والمعنى: فنزيِّلُ بينهم ويقول؛ لأنهما معطوفان على مستقبلٍ.

ونفيُ الشركاء عبادةَ المشركين هو ردٌّ لقولهم: لإياكم كنَّا نعبد[٥]، والمعنى: إنكم كنتم تعبدون مَن أمَرَكم أنْ تتَّخذوا لله تعالى أندادًا فأطعْتُموهم، ولمَّا تنازعوا اسْتَشْهدَ الشركاءُ بالله تعالى.

وانتصب «شهيدًا»؛ قيل: على الحال، والأصحُّ على التمييز لقبوله «مِن»، وتقدَّم الكلام في «كفى» وفي الباء[٦]. و«إنْ» هي المخفَّفةُ من الثقيلة، وعند الفراء: هي النافية واللامُ بمعنى «إلا»، وقد تقدَّم الكلام في ذلك[٧].

واكتفاؤهم بشهادة الله هو على انتفاء أنهم عَبَدوهم، ثم استأنفوا جملةً خبريةً أنهم كانوا غافلين عن عبادتهم، أي: لا شعور لنا بذلك، وهذا يرجِّح أنَّ الشركاء

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٥.
(٢) البيت لزهير، وهو في ديوانه ص١٢٥. الخليط: الصاحب، قاله شارح الديوان.
(٣) البيت لطرفة، وهو في ديوانه ص٧٨.
(٤) في المحرر ٣/١١٧.
(٥) وردت ضمن الخبر الذي سلف في بداية تفسير الآية.
(٦) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦].
(٧) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقوله تعالى ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

هي الأصنامُ كما قال ابن عطية[١]؛ لأنه لو كان الشركاء ممن يَعْقِلُ من إنسيٍّ أو جنيٍّ أو مَلَكٍ لكان له شعورٌ بعبادتهم، ولا شيءَ أعظمُ سببًا للغفلة من الجمادية، إذ لا تحسُّ ولا تشعر بشيء البتة.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ «هنالك» ظرفُ مكانٍ، أي: في ذلك الموقفِ والمقامِ المقتضي للحيرة والدَّهَش، وقيل: هو إشارةٌ إلى الوقت استُعير ظرفُ المكان للزمان، أي: في ذلك الوقت.

وقرأ الأَخَوان وزيد بن علي: «تتلو» بتاءين[٢]، أي: تَتْبَعُ وتطلبُ ما أسلفَتْ من أعمالها؛ قاله السدِّي، ومنه قولُ الشاعر:

إنَّ المُريبَ يَتْبَعُ المُرِيبَا ... كما رأيتُ الذِّيبَ يتلو الذِّيبا[٣]

ويصح[٤] أن يكون من التلاوة وهي القراءة، أي: تقرأُ كُتُبَها التي تُدْفَعُ إليها.

وقرأ باقي السبعة: «تبلو» بالتاء والباء، أي: تختبر ما أسلفت من العمل، فتعرفُ كيف هو أقبيحٌ أم حسن، أنافعٌ أم ضارٌّ، أمقبولٌ أم مردود؟ كما يتعرَّفُ الرجل الشيءَ باختياره.

وروي عن عاصم «نبلوا» بنونٍ وباءٍ، أي: نختبر، و«كلَّ نفسٍ» بالنصب[٥]، و«ما أسلفت» بدلٌ من «كلَّ نفس»، أو منصوبٌ على إسقاط الخافض، أي: بما أسلفت، أو يكون «نبلوا» من البلاء وهو العذاب، أي: نصيبُ كلَّ نفسٍ عاصيةٍ بالبلاء بسببِ ما أسلفت من العمل السَّيِّئ.

وعن الحسن «تبلوا»: تتسلَّم[٦]. وعن الكلبي: تَعْلَم. وقيل: تَذُوق[٧].

---

(١) في المحرر ٣/ ١١٧، وسلفت الإشارة لذلك في بداية تفسير الآية.
(٢) السبعة ص٣٢٥، والتيسير ص١٢١ عن الأخوين، وهما حمزة والكسائي.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٣٤، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٨٩.
(٤) في المطبوع: قيل ويصح، والمثبت من النسخ الخطية.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٣٥.
(٦) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٤٩ بلفظ: تسلم.
(٧) ذكره القولين القرطبي ١٠/ ٤٨٨.

وقرأ يحيى بن وثاب: «ورِدُّوا» بكسر الراء[1]، لمَّا سكِّن للإدغام نَقَلَ حركة الدال إلى حركة الراء بعد حَذْفِ حركتها.

ومعنى «إلى الله»: إلى عقابه. وقيل: إلى موضع جزائه.

«مولاهم الحقِّ» لا ما زعموهُ من أصنامهم؛ إذ هو المتولِّي حسابَهم، فهو مولاهم في المُلك والإحاطة لا في النصر والرحمة.

وقرئ: «الحقَّ» بالنصب على المدح، نحو: الحمدُ لله أهلَ الحمد، وقال الزمخشري: كقولك: هذا عبدُ الله الحقَّ لا الباطلَ، على تأكيد قوله: «ردُّوا إلى الله»[2]. انتهى.

وقال أبو عبد الله الرازي: «ورُدُّوا إلى الله»: جُعِلوا مُلْجَئين إلى الإقرار بالإلهية بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غيرَ الله، ولذلك قال: «مولاهم الحق»[3].

«وضلَّ عنهم» أي: بطل وذهب ما كانوا يفترونه من الكذب، أو من دعواهم أنَّ أصنامهم شركاءُ الله شافعون لهم عنده.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ لمَّا بيَّنَ فضائح عَبَدةِ الأوثان أتْبَعَها بذِكْرِ الدلائلِ على فسادِ مذهبهم بما يوبِّخُهم ويَحُجُّهم بما لا يمكنُ إلَّا الاعترافُ به من حالِ رزقهم وحواسِّهم وإظهار القدرة الباهرة في الموت والحياة فبدأ بما فيه قوامُ حياتهم، وهو الرزقُ الذي لا بدَّ منه، فمن السماء بالمطر ومن الأرض بالنبات، فـ«مِن» لابتداء الغاية، هُيِّئَ[4] الرزقُ بالعالَم العُلويِّ والعالَمِ السفليِّ معًا، لم يقتصر على جهةٍ واحدةٍ تعالى توسعةً منه وإحسانًا، ومَن

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٧.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٣٥، ويتلخَّص من هذا الكلام وجهان في نصب «الحق»، الأول: أنه منصوب على المدح، والمراد به الله تعالى، وهو من أسمائه تعالى. والثاني: على المصدر المؤكَّد، والمراد به ما يقابل الباطل. ينظر روح المعاني ١١/ ١١٨.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ٨٥..

(٤) في (أ) و(ح) و(د١) و(ع): وهيئ.

ذهب إلى أنَّ التقدير: من أهل السماء والأرض، فتكونُ «من» للتبعيض أو للبيان، ثم ذَكَر ملكَه لهاتين الحاسَّتين الشريفتين: السمعِ الذي هو سببُ مدارِكِ الأشياء، والبصرِ الذي يَرَى ملكوتَ السماوات والأرضِ، ومعنى مُلْكِهما أنه متصرِّفٌ فيهما بما يشاء تعالى مِن إبقاءٍ وحفظٍ وإذهابٍ.

وقال الزمخشري: «مَن يملك السَّمع والأبصار»: مَن يستطيعُ خَلْقَهما وتَسْوِيَتَهما على الحدِّ الذي سُوِّيَا عليه من الفطرة العجيبة، أو: مَن يحميهما ويَعْصِمُهما من الآفات مع كثرتها في المُدَدِ الطِّوال ـ وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيءٍ ـ بكلاءته وحفظه[1]. انتهى.

ولا يَظْهَرُ هذان الوجهان اللَّذان ذَكَرهما من لفظ «أمَّن يملكُ السمعَ والأبصار».

وعن عليٍّ كرم الله وجهه: سبحان مَن بَصَّرَ بشَحْمٍ، وأَسْمَعَ بعظمٍ، وأَنْطَقَ بلحمٍ[2].

و«أم» هنا تقتضي تقديرَ «بل» دون همزةِ الاستفهام، كقوله تعالى: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٨٤] فلا تتقدَّر بـ«بل» والهمزةِ؛ لأنها دخلت على اسم الاستفهام، وليس إضرابَ إبطالٍ بل هو لانتقالٍ من شيءٍ إلى شيءٍ ونبَّهَ تعالى بالسَّمْع والبصر على الحواسِّ لأنهما أشرفُها.

ولمَّا ذَكَر تعالى سببَ إدامةِ الحياة وسببَ انتفاعِ الحيِّ بالحواسِّ ذَكَر إنشاءَه تعالى واختراعَه للحيِّ من الميت والميتِ من الحيِّ، وذلك من باهِرِ قدرته، وهو إخراجُ الضِّدِّ[3] من ضِدِّه، وتقدَّم تفسيرُ ذلك.

و«مَن يُدبِّر الأمرَ» شاملٌ لمَا تقدَّم من الأشياء الأربعة المذكورة ولغيرها، والأمورُ التي يدبِّرُها تعالى لا نهايةَ لها، فلذلك جاء بالأمر الكلِّيِّ بعد تفصيلِ بعض الأمور واعترافِهم بأنَّ الرازقَ والمالكَ والمُخْرِجَ والمدبِّر هو الله، أي: لا يمكنهم إنكارُه ولا المُباهَتَةُ فيه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٦.
(٢) تفسير الرازي ١٧/ ٨٦.
(٣) في (ز١): للضد.

ومعنى «أفلا تتَّقون»: أفلا تخافون عقوبةَ الله في افترائكم وجَعْلِكم الأصنامَ آلهةً، وقيل: أفلا تتَّعِظُون فتنتهون عمَّا حذَّرَتْ عنه تلك الموعظة.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ «فذلكم» إشارةٌ إلى مَن اخْتَصَّ بالأوصاف السابقة، «الحقُّ»: الثابتُ الربوبية المستَوْجِبةِ للعبادة واعتقادِ اختصاصِه بالألوهية، لا أصنامكم المربوبة الباطلة و«ماذا» استفهامٌ معناه النفيُ، ولذلك دخلت «إلا» وصَحِبَه التقريرُ والتوبيخُ، كأنه قيل: ما بعد الحق إلَّا الضلال، فالحقُّ والضلالُ لا واسطةَ بينهما؛ إذ هما نقيضان، فمن يُخْطِئُ الحقَّ وقع في الضلال.

و«ماذا» مبتدأٌ؛ تَرَكَّبَتْ «ذا» مع «ما» فصار مجموعُهما استفهامًا، كأنه قيل: أيُّ شيءٍ، والخبرُ «بعد الحق»، ويجوز أن تكونَ «ذا» موصولةً وتكون خبرَ «ما»، كأنه قيل: ما الذي بعد الحق، و«بعد» صلةٌ لـ«ذا».

ولمَّا ذكر تعالى تلك الصفاتِ، وأشار إلى أنَّ المتَصِفَ بها هو اللهُ، وأنه مالِكُهم، وأنه هو الحقُّ، ثم وبَّخهم على اتِّباع الضلال بعد وضوح الحقِّ، قال تعالى: «فأنَّى تُصرفون»، أي: كيف يقع صَرْفُكم بعد وضوحِ الحقِّ وقيامِ حججه عن عبادةِ مَن يستحقُّ العبادةَ، وكيف تُشركون معه غيرَه وهو لا يشارِكُه في شيءٍ من تلك الأوصافِ.

واستنباطُ كونِ الشِّطرنج ضلالًا من قوله: «فماذا بعد الحقِّ إلَّا الضلال» لا يكادُ يَظْهَر[١]؛ لأنَّ الآية إنما مساقُها في الكفر والإيمان، وعبادةِ الأصنام وعبادةِ الله، وليس مساقُها في الأمور الفروعية[٢] التي تختلفُ فيها الشرائعُ، وتختلف فيها أقوالُ علماء ملَّتنا.

---

(١) يشير إلى ما روي عن مالك أنه سئل عن الشطرنج فقال للسائل: أمِن الحقِّ هو؟ قال: لا، قال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾. ينظر الموطأ ٢/٩٥٨، وتفسير القرطبي ١٠/٤٩٦-٤٩٧، وتهذيب الكمال ٢١/٥٩، وسير أعلام النبلاء ٨/١٥٨.

(٢) تحرفت في المطبوع إلى: الفرعية.

وقد تعلَّق الجبَّائي بهذه الآيةِ في الردِّ على المُجْبِرة إذ يقولون: إنه تعالى يَصْرِفُ الكفار عن الإيمان، قال: لو كان كذلك ما قال: «أنى تُصْرَفون»، كما لو أعْمى بصر أحدهم لا يقول: أنَّى عَمِيْتَ[١].

«كذلك حقَّت كلمةُ ربِّك على الذين فسقوا، أنهم لا يؤمنون» الكافُ للتشبيه في موضع نصبٍ، والإشارةُ بـ«ذلك» قيل: إلى المصدر المفهوم من «تُصرفون» [أي:][٢] مِثْلَ صَرْفِهم عن الحقِّ بعد الإقرارِ به في قوله: «فسيقولون الله» حقَّ العذابُ عليهم، أي: جازاهم مِثْلَ أفعالهم.

وقيل: إشارةٌ إلى «الحق»؛ قال الزمخشري: «كذلك» مِثْلَ ذلك الحقِّ «حقَّتْ كلمةُ ربِّك» أي: كما حقَّ وثَبَتَ أنَّ الحقَّ بَعْدَه[٣] الضلال، أو كما حقَّ أنهم مصروفون عن الحق، فكذلك حقَّت كلمةُ ربِّك.

وقال ابن عطية: «كذلك»، أي: كما كانت صفاتُ اللهِ كما وُصِفَ، وعبادتُه واجبةً كما تَقَرَّرَ[٤]، وانصرافُ هؤلاء كما قدِّر عليهم واكتسبوا، كذلك حقَّت.

ومعنى «فَسَقوا»: تمرَّدوا في كفرهم وخرجوا إلى الحدِّ الأقصى فيه.

«وأنهم لا يؤمنون» بدلٌ من «كلمة ربِّك» أي: حقَّ عليهم انتفاءُ الإيمان.

ويجوزُ أن يراد بالكلمة عِدَةُ العذاب، ويكون «أنهم لا يؤمنون» تعليلًا، أي: لأنهم لا يؤمنون، ويوضِّحُ هذا الوجهَ قراءةُ ابنِ أبي عبلة «إنَّهم لا يؤمنون» بالكسر[٥]، وهذا إخبارٌ منه تعالى أنَّ في الكفار مَن خَتَمَ الله بكُفْرِه وقَضَى بتخليده.

وقرأ أبو جعفر وشيبةُ والصاحبان «كلمات» على الجمع هنا وفي آخر السورة، وقرأ باقي السبعة على الإفراد[٦].

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ٨٧.
(٢) ما بين حاصرتين من النهر على هامش مطبوع البحر ٥/ ١٥٤.
(٣) في النسخ: بعد، وهو خطأ، والمثبت من الكشاف ٢/ ٢٣٦.
(٤) في (ح): قرر.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١١٨.
(٦) ينظر السبعة ص٣٢٦، والتيسير ص١٢٢، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٨، والنشر ٢/ ٢٦٢، والصاحبان هما نافع وابن عامر.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ لمَّا اسْتَفْهَمَهم عن أشياءَ من صفات الله تعالى واعترفوا بها، ثم أنْكَر عليهم صَرْفَهم عن الحقِّ وعبادةِ الله، اسْتَفْهَمَ عن شيءٍ هو سببُ العبادة، وهو إبداءُ الخلق، وهم يسلِّمون ذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] ثم إعادةُ الخلْقِ وهم منكرون ذلك، لكنه عَطَفَه على ما يسلِّمونه ليُعْلَم أنهما سواءٌ بالنسبة إلى قدرة الله، وأنَّ ذلك لوضوحه وقيامِ بُرهانه قُرِنَ بما يسلِّمونه؛ إذ لا يدفعُه إلَّا مُكابِرٌ؛ إذ هو من الواضحات التي لا يختلف في إمكانها العقلاء، وجاء الشرعُ بوجوبه فوَجَبَ اعتقادُه.

ولمَّا كانوا لمُكابَرَتهم لا يقرُّون بذلك أَمَر تعالى نبيَّه ﷺ أن يُجيب فقال: «قل اللهُ يَبْدأُ الخلق ثم يُعيده»، وأبْرزَ الجوابُ في جملةٍ مبتدَأةٍ مصرَّحٍ بجزأَيْها مُعادٍ[1] الخبرُ فيها مطابقًا لخبرِ اسمِ الاستفهام، وذلك تأكيدٌ وتثبيتٌ، ولمَّا كان الاستفهامُ قبلَ هذا لا مندوحةَ لهم عن الاعتراف به جاءت الجملة محذوفًا منها أحدُ جُزأَيها في قوله: «فسيقولون الله» ولم يُحْتَجْ إلى التأكيد بتصريح جزأيها[2].

ومعنى «تؤفكون»: تُصْرَفون وتُقْلَبون عن اتِّباع الحق.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ لـمَّا بيَّن تعالى عجزَ أصنامهم عن الإبداء والإعادة اللَّذَيْنِ هما من أقوى أسبابِ القدرة وأعظمِ دلائلِ الألوهية، بيَّن عجزهم عن هذا النوعِ من صفات الإله، وهو الهدايةُ إلى الحقِّ وإلى مناهج الصواب، وقد أعقب الخَلْقَ بالهداية في القرآن في مواضع؛ قال تعالى حكايةً عن الكليم: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠] وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣] فاستدلَّ بالخلق والهداية على وجود الصانع، وهما حالان للجسد والروح، ولمَّا كانت العقولُ يَلْحَقُها الاضطرابُ والغلطُ بيَّن تعالى أنه لا يهديها إلا هو، بخلافِ أصنامهم ومعبوداتهم

(١) في (د١): بخبرها معاد، وفي المطبوع: بخبرها فعاد.

(٢) في (د١) والمطبوع: خبرها.

فإنه ما كان منها لا روحَ فيه جمادٌ لا تأثيرَ له، وما فيه روحٌ فليس قادرًا على الهداية، بل الله تعالى هو الذي يهديه.

و«هَدَى» تتعدَّى بنفسها[1] إلى اثنين، وإلى الثاني بـ«إلى» وباللام، و«يهدي إلى الحقِّ» حُذِفَ مفعولُه الأول، ولا يصحُّ أن يكون لازمًا بمعنى «يهتدي»؛ لأنَّ مُقابِلَه إنما هو متعدٍّ، وهو قولُه: «قل الله يهدي للحق» أي: يهدي مَن يشاء للحقِّ.

وقد أنكر المبرِّدُ ما قاله الكسائيُّ والفرَّاءُ[2] وتبعهما الزمخشريُّ[3] من أن يكون «هَدَى» بمعنى «اهْتَدَى»، وقال: لا يُعْرَفُ[4] هذا.

و«أحقُّ» ليست أفعلَ تفضيلٍ، بل المعنى: حقيقٌ بأنْ يُتَّبَعَ، ولمَّا كانوا معتقدينَ أنَّ شركاءهم تهدي إلى الحق، ولا يسلِّمون حَصْرَ الهداية لله تعالى، أمر نبيَّه ﷺ أن يبادِرَ بالجواب، فقال: «قل الله يهدي للحق» ثم عادَلَ في السؤال بالهمزة «وأم» بين مَن هو حقيقٌ بالاتِّباع ومَن هو غيرُ حقيقٍ، وجاء على الأفصح الأكثرِ من فَصْلِ «أم» ممَّا عُطِفتْ عليه بالخبر، كقوله: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥] بخلاف قوله: ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩] وسيأتي القولُ في ترجيح الوصل هنا في موضعه إن شاء الله تعالى.

وقرأ أهلُ المدينة إلَّا ورشًا: «أمَّنْ لا يَهْدِّي» بفتح الياء وسكون الهاء وتشديد الدال، فجمعوا بين ساكنَيْنِ[5]، قال النحاس: لا يقدرُ أحدٌ أن يَنْطِقَ به، وقال المبرِّد: مَن رام هذا لا بدَّ أن يحرِّك حركةً خفيفةً، وسيبويه يسمِّي هذا اختلاسَ الحركة[6].

---

(١) في (يه): يتعدى بنفسه.
(٢) في معاني القرآن ٢/ ٩٩، ونقل قوله وقول الكسائيِّ والمبردِ النحاسُ في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤، والقرطبي ١٠/ ٥٠١.
(٣) في الكشاف ٢/ ٢٣٦.
(٤) في (د١) و(يه) والمطبوع: نعرف.
(٥) قرأ بها نافع في رواية قالون، وأبو جعفر. السبعة ص٣٢٦، والتيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣-٢٨٤. ورواها شجاع عن أبي عمرو كما في جامع البيان للداني ٢/ ١٩٣.
(٦) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٤، وتفسير القرطبي ١٠/ ٥٠٠.

وقرأ أبو عمرو وقالون في روايةٍ كذلك إلا أنه اخْتَلَسَ الحركة.

وقرأ ابنُ عامرٍ وابنُ كثيرٍ ووَرْشٌ وابنُ مُحَيْصِنٍ كذلك إلَّا أنهم فتحوا الهاء، وأصله: يَهْتَدي، نُقِلت[1] حركةُ التاءِ إلى الهاء وأُدغمت التاءُ في الدال.

وقرأ حفصٌ، ويعقوبُ، والأعشى[2] عن أبي بكر كذلك إلَّا أنهم كسروا الهاء، لمَّا اضْطُرَّ إلى الحركة حرَّك بالكسر؛ قال أبو حاتم: هي لغةُ سُفْلَى مُضَرَ.

وقرأ أبو بكر في رواية يحيى بن آدم كذلك إلَّا أنه كسر الياء، ونُقل عن سيبويه[3] أنه لا يُجيز «يِهِدِّي»، ويُجيزُ «تِهِدِّي» و«نِهِدِّي» و«إِهِدِّي»، قال: لأن الكسرة في الياء تَثْقُلُ.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ويحيى بنُ وثَّابٍ والأعمشُ: «يَهْدِي» مضارع هَدَى[4].

قال الزمخشري: هذه الهدايةُ أحقُّ بالاتِّباع أم الذي لا يهدي، أي: لا يَهْتَدي بنفسه أو لا يَهْدي غيرَه إلا أنْ يَهْدِيَه الله، وقيل: معناه: أمَّن لا يهتدي من الأوثان إلى مكانٍ فينتقل إليه «إلَّا أن يُهْدَى» إلَّا أن يُنْقَلَ، أو: لا يهتدي ولا يصحُّ منه الاهتداءُ إلا بنقلة[5] الله تعالى من حاله إلى أن يجعله حيوانًا مكلَّفًا فيهديه. انتهى.

وتقدَّم إنكارُ المبرِّدِ ما قاله الكسائيُّ والفرَّاء وتبعهما الزمخشريُّ من أنَّ «هَدَى» بمعنى اهْتَدَى.

وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ[6]: وَصَفَ الأصنام بأنها لا تهتدي إلَّا أنْ تُهْدَى،

---

(١) في (د١) والمطبوع: فقلب.

(٢) في النسخ عدا (ز١): والأعمش، وكذا وقع في تفسير القرطبي ١٠/ ٥٠٠ (والكلام منه)، والمثبت من (ز١)، وهو الصواب، ينظر جامع البيان للداني ٢/ ١٩٤.

(٣) الكتاب ٤/ ١١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة القرطبي ١٠/ ٥٠٠.

(٤) تنظر هذه القراءات في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٣-٢٥٤، والسبعة ص٢٩٦، والتيسير ص١٢٢، وجامع البيان ٢/ ١٩٣-١٩٥، وتفسير القرطبي ١٠/ ٥٠٠-٥٠١، والنشر ٢/ ٢٨٣-٢٨٤، وجميعها من المتواتر.

(٥) في الكشاف ٢/ ٢٣٧: إلا أن ينقله.

(٦) في الحجة ٤/ ٢٧٥، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن عطية في المحرر ٣/ ١١٩.

ونحن نجدُها لا تهتدي وإن هُدِيَتْ، فوَجْهُ ذلك أنه عامَلَ في العبارة عنها معامَلَتهم في وصفها بأوصافِ مَن يَعْقِلُ، وذلك مَجازٌ وموجودٌ في كثيرٍ من القرآن.

وقال ابن عطية: والذي أقولُ: إنَّ قراءة حمزةَ والكسائيِّ تحتملُ أن يكون المعنى: أمَّن لا يَهْدي أحدًا إلا أن يُهْدَى ذلك الأحدُ بهدايةٍ من عند الله، وأمَّا على غيرها من القراءات التي مقتضاها: أمَّن لا يهتدي إلا أن يُهْدَى، فيَتَّجِهُ المعنى على ما تقدَّم لأبي عليٍّ الفارسي، وفيه تجوُّزٌ كثيرٌ، ويحتمل أن يكون ما ذَكَر اللهُ من تسبيح الجمادات هو اهتداؤها[1].

وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: «أمَّن لا يَهْدِي»، أي: لا يَهْدي غيرَه، ثم قال: «إلا أن يُهْدَى» استثناءٌ منقطع، أي: لكنه يحتاجُ إلى أنْ يُهْدَى، كما تقول: فلان لا يُسمِعُ غيرَه إلا أنْ يُسْمَعَ، أي: لكنه يحتاجُ إلى أن يُسْمَعَ[2].

وقيل: «أمَّن لا يَهْدي» في الرؤساءِ المُضِلِّين. انتهى، ويكونُ استثناءً متصلًا؛ لأنه إذ ذاك يكون فيهم قابليةُ الهداية بخلاف الأصنام.

«فما لكم» استفهامٌ معناه التَّعجيبُ والإنكار، أي: أيُّ شيءٍ لكم في اتِّخاذ هؤلاء الشركاء، إذا كانوا عاجزين عن هداية أنفسهم فكيف يمكنُ أن يَهْدُوا غيرَهم، «كيف تحكمون» استفهامٌ آخَرُ، أي: كيف تحكمون بالباطل وتجعلون لله أندادًا وشركاءَ، وهاتان جملتان أنكر في الأولى وتعجَّبَ من اتِّباعهم مَن لا يهدي ولا يهتدي، وأنكر في الثانية حُكْمَهم بالباطل وتسويةَ الأصنام بربِّ العالمين.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

الظاهرُ أن «أكثرهم» على بابه لأنَّ منهم مَن تبصَّر في الأصنام ورفضها، كما قال:

أربٌّ يبولُ الثُّعْلُبانُ برأسه ... لقد هان مَن بالَتْ عليه الثعالبُ[3]

---

(١) المحرر ٣/ ١١٩.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٤، وتفسير القرطبي ١٠/ ٥٠١.

(٣) البيت لراشد بن عبد ربه السلمي ﷺ، كما في طبقات ابن سعد ١/ ٢٦٦، وعزاه الزمخشري في المستقصى ١/ ١٣٦ لأبي ذر ﷺ، وقال البكري في فصل المقال ص١٨٤: قيل: إن هذا البيت لعباس بن مرداس السلمي، وهو دون نسبة في كتاب الحيوان للجاحظ ٦/ ٣٠٤، وكتاب الأمثال لأبي عبيد ص١٢٢، وأدب الكاتب ص١٠٣، والزاهر لابن

وقيل: المراد بـ«أكثرهم»: جميعُهم.

والمعنى: ما يتَّبع أكثرُهم في اعتقادهم في الله وفي صفاته إلا ظنًّا، ليسوا متبصِّرين ولا مستندِينَ إلى برهانٍ، إنما ذلك شيء تلقَّفوه من آبائهم، والظنُّ في معرفة الله لا يُغْني من الحقِّ شيئًا، أي: من إدراك الحقِّ ومعرفتِه على ما هو عليه لأنه تجويزٌ لا قطعٌ.

وقيل: وما يتبع أكثرُهم في جَعْلِهم الأصنامَ آلهةً واعتقادِهم أنها تشفعُ عند الله وتقرِّب إليه.

وقرأ عبد الله: «تفعلون» بالتاء على الخطاب التفاتًا[1].

والجملةُ تضمَّنت التهديدَ والوعيدَ على اتِّباع الظنِّ وتقليدِ الآباء، وقيل: نزلت في رؤساء اليهودِ وقريشٍ.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ لمَّا تقدَّمَ قولُهم: «ائتِ بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدِّلْه» وكان من قولهم أنه افتراه، قال تعالى: «وما كان هذا القرآنُ أن يُفْتَرى»، أي: ما صحَّ ولا استقام أن يكون هذا القرآنُ المُعْجِزُ مفترًى، والإشارة بـ«هذا» فيها تفخيمُ المشارِ إليه وتعظيمُه، وكونُه جامعًا للأوصاف التي يستحيلُ لوجودِها فيه أنْ يكون مفترًى.

والظاهرُ أنَّ «أنْ يُفْتَرى» هو خبر «كان»، أي: افتراءً، أي: ذا افتراءٍ، أو مُفْتَرًى، وزَعَم بعضُ النحويين أنَّ «أنْ» هذه هي المُضْمَرةُ بعد لام الجحود في قولك: ما كان زيدٌ لِيَفْعَلَ، وأنه لمَّا حُذِفت اللامُ أُظهرت «أنْ»، وأنَّ اللام و«أنْ» يتعاقبان، فحيث جيء باللام لم تأت بـ«أنْ» بل تقدِّرُها، وحيث حُذفت اللامُ ظهرت «أنْ».

= الأنباري ٢/ ٣٦٨. والثُّعلبان بضم الثاء ذكر الثعالب، وصوَّب صاحب القاموس أنه بفتح الثاء مثنًّى، واستدل على ذلك بقصة رويت في سبب إنشاد هذا البيت، وبحث في ذلك صاحب التاج، وذكر الخلاف في المسألة، ثم قال: وبه تَعلم أن قول المصنف (يعني صاحب القاموس): الصواب، غير صواب.

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١١٩.

والصحيحُ أنهما لا يتعاقبان، وأنه لا يجوزُ حذفُ اللام وإظهارُ «أنْ»، إذ لم يَقُمْ دليلٌ على ذلك.

وعلى زَعْم هذا الزاعِمِ لا يكون «أنْ يُفْتَرى» خبرًا لـ«كان»، بل الخبرُ محذوفٌ و«أنْ يُفْتَرَى» معمولٌ لذلك الخبرِ بعد إسقاط اللام.

ووقعت «لكنْ» هنا أحسنَ موقعٍ؛ إذ كانت بين نقيضين وهما: الكذبُ، والتصديقُ المتضمِّن الصِّدْقَ.

و«الذي بين يديه»: الكتبُ الإلهية المتقدِّمة؛ قاله ابنُ عباس[(١)]، كما جاء: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١].

وعن الزَّجَّاج: «الذي بين يديه» أشراطُ الساعة[(٢)]. ولا يقومُ البرهانُ على قريشٍ إلَّا بتصديق القرآن ما في التوراة والإنجيل مع أنَّ الآتيَ به يَقْطَعون أنه لم يُطالِعْ تلك الكتبَ ولا غيرَها، ولا هي في بلده ولا قومه، لا بتصديقِ الأشراط؛ لأنهم لم يشاهدوا شيئًا منها.

و«تفصيل الكتاب»: تبيينُ ما فُرِضَ وكُتب فيه من الأحكام والشرائع، وقرأ الجمهور «تصديقَ» و«تفصيلَ» بالنصب، فخرَّجه الكسائيُّ والفرَّاء ومحمد بن سعدان[(٣)] والزجَّاج[(٤)] على أنه خبر «كان» مضمرة، أي: ولكن كان تصديقَ، أي: مصدِّقًا ومفصِّلًا.

وقيل: انتصب مفعولًا من أَجْلِه والعاملُ محذوفٌ، والتقدير: ولكنْ أُنزل للتصديق.

وقيل: انتصب على المصدر، والعاملُ فيه فعلٌ محذوف.

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٢.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٠، ولفظه: البعث والنشور. وينظر المحرر الوجيز ٣/ ١٢٠.

(٣) كما في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٥، وتفسير القرطبي ١٠/ ٥٠٣، وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٦٥. ومحمد بن سعدان هو أبو جعفر الكوفي الضرير النحوي، صنف في العربية والقراءات، توفي سنة (٢٣١هـ). غاية النهاية ٢/ ١٤٣.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٠.

وقرأ عيسى بن عمر: «تصديقُ» و«تفصيلُ» بالرفع وفي «يوسف»[١]، خبر مبتدأ محذوفٍ، أي: ولكن هو تصديقُ، كما قال الشاعر:

ولستُ الشاعرَ السَّفْسافَ فيهم ... ولكنْ مِدْرَهُ الحربِ العَوَانِ[٢]

أي: ولكنْ أنا. وزعم الفرَّاء ومَن تابَعَه أنَّ العرب إذا قالت: ولكن، بالواوِ آثَرتْ تشديدَ النون، وإذا لم تكن الواوُ آثرت التخفيفَ[٣]. وقد جاء في السبعة مع الواو التشديدُ والتخفيفُ[٤].

و«لا ريبَ فيه» داخلٌ في حيِّز الاستدراك، كأنه قيل: ولكن تصديقًا وتفصيلًا منتفِيًا عنه الريبُ كائنًا من ربِّ العالمين، قال الزمخشري[٥]: ويجوزُ أن يراد: ولكن كان تصديقًا من ربِّ العالمين وتفصيلًا منه في ذلك، فيكون «من ربِّ العالمين»[٦] متعلِّقًا بـ«تصديق وتفصيل»، ويكون «لا ريب فيه» اعتراضًا، كما تقول: زيدٌ لا شكَّ فيه كريمٌ. انتهى.

فقوله: فيكون «من ربِّ العالمين» متعلِّقًا بـ«تصديق وتفصيل»، إنما يعني من جهة المعنى، وأمَّا من جهة الإعراب فلا يكون إلَّا متعلِّقًا بأحدهما، ويكونُ من باب الإعمال.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٧. وآية «يوسف» المذكورة هي الأخيرة منها.

(٢) البيت لهدبة بن خشرم كما في الحماسة (بشرح المرزوقي) ١/ ٤٧٢، والتبريزي ٢/ ١٢، والرواية فيهما: ولست بشاعر السفساف...، والسفساف: ما لا خير فيه من الأقوال والأفعال، والمدره: المقدم عند القتال. والعوان من الحرب: التي قوتل فيها مرة بعد أخرى. قاله المرزوقي.

(٣) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٦٥.

(٤) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢] ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ﴾ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] قرأ فيها جميعاً ابن عامر وحمزة والكسائي بتخفيف النون والباقون بالتشديد، وكذلك قرأ حمزة والكسائي كما سيأتي في هذه السورة «وَلَٰكِنِ النَّاسَ» [الآية: ٤٤] بتخفيف النون.

(٥) في الكشاف ٢/ ٢١٧، وما قبله منه.

(٦) من قوله: ويجوز أن يراد، إلى هنا ساقط من مطبوع الكشاف. وينظر الدر المصون ٦/ ٢٠٣.

وانتفاءُ الريب عنه على ما بُيّن في «البقرة» في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة الآية: ٢] وجُمع بينه وبين قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ لمَّا نفى تعالى أن يكون القرآن مفترًى بل جاء مصدِّقًا لِمَا بين يديه من الكتب وبيانًا لمَا فيها، ذكر أعظمَ دليلٍ على أنه من عند الله، وهو الإعجاز الذي اشتمل عليه، فأَبْطَلَ بذلك دعواهم افتراءه، وتقدَّم الكلامُ على ذلك مُشْبَعًا في «البقرة» في قوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ﴾ الآية.

و«أم» متضمِّنةٌ معنى «بل» والهمزةِ على مذهب سيبويه[1]، أي: بل أيقولون اخْتَلَقه، والهمزةُ تقريرٌ لالتزام[2] الحجةِ عليهم أو إنكارٌ لقولهم واستبعادٌ.

وقال فرقة: «أم» هذه بمنزلةِ همزةِ الاستفهام.

وقال أبو عبيدة: «أم» بمعنى الواوِ، ومجازُه: ويقولون افتراه[3].

وقيل: الميم صلةٌ، والتقدير: أيقولون[4].

وقيل: «أم» هي المعادِلةُ للهمزة، وحُذفت الجملةُ قبلها، والتقدير: أَيُقرُّون به أم يقولون افتراه.

وجعل الزمخشري قبل «فأتوا» جملةَ شرطٍ محذوفةً، فقال: «قل» إنْ كان الأمرُ كما تزعمون «فأتوا» أنتم على وجه الافتراء «بسورةٍ مِثلِه»، فأنتم مِثْلُه في العربية والفصاحة والأَلْمعية فأتوا بسورة مِثْلِه شبيهةٍ به في البلاغة وحُسْنِ النظم[5]. انتهى.

والضميرُ في «مِثْلِه» عائدٌ على القرآن، أي: بسورةٍ مُماثِلةٍ للقرآن، وتقدَّم الكلامُ

---

(١) ينظر الكتاب ٣/ ١٨٩-١٩٠.

(٢) في (يه): لإلزامهم. وجاء في الكشاف ٢/ ٢٣٧ (والكلام منه): لإلزام، وهو الأنسب بالسياق.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٢٧٨.

(٤) قال السمين في الدر ٦/ ٢٠٤: وهذا قول ساقط؛ إذ زيادة الميم قليلة جدًّا، لا سيما هنا.

(٥) الكشاف ٢/ ٢٣٧.

لنا فيما وقع به الإعجاز[١]. وقرأ عمرو بنُ فائدٍ: «بسورةِ مِثْلِه» على الإضافة[٢]، أي: بسورةِ كتابٍ أو كلامٍ مِثْلِه، أي: مِثْلِ القرآن، وقال صاحب «اللَّوامح»: هذا ممَّا حُذِفَ الموصوفُ منه وأُقيمت الصفةُ مقامه، أي: بسورةِ بشرٍ مِثْلِه. فالهاءُ في ذلك راجعةٌ إلى النبيِّ ﷺ وفي العامَّة إلى القرآن.

«وادعوا مَن استطعتُم» أنْ تَدْعُوْه مِن خَلْقِ الله إلى الاستعانة على الإتيان بِمثْله «من دون الله»، أي: مِن غيرِ الله؛ لأنه لا يَقْدِرُ على أنْ يأتيَ بمِثْلِه أحدٌ إلَّا اللهُ، فلا تستعينوه وحده واستعينوا بكلِّ مَن دونه إنْ كنتم صادقين في أنه افتراه.

وقد تمسَّك المعتزلةُ بهذه الآيةِ على خَلْقِ القرآن؛ قالوا: لأنه تحدَّى به وطلب الإتيان بمثله وعجزوا، ولا يمكن هذا إلا إذا كان الإتيانُ بمثله صحيحُ الوجود في الجملة، ولو كان قديمًا لكان الإتيانُ بِمثْلِ القديم مُحالًا في نفس الأمر، فوجب أن لا يصحَّ التحدِّي به[٣].

وقال أبو عبد الله الرازي[٤]: مراتبُ التحدي بالقرآن ستٌّ:

تحدٍّ بكلِّ القرآن في: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ﴾الآية [الإسراء: ٨٨].

وتحدٍّ بعشر سورٍ[٥].

وتحدٍّ بسورةٍ واحدةٍ[٦].

وتحدٍّ بحديثٍ مِثْلِه في قوله: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤].

وفي هذه الأربعِ طُلِبَ أن يعارِضَ رجلٌ يساوي الرسولَ في عدم التتلمُذِ والتعليم.

(١) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [يونس: ١٦].
(٢) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحتسب ١/ ٣١٣.
(٣) تفسير الرازي ١٧/ ٩٦، وينظر صواب الرازي على هذه الشبهة ثمة.
(٤) في تفسير ١٧/ ٩٧.
(٥) الآية (١٣) من سورة هود، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾.
(٦) الآية (٢٣) من سورة البقرة، وهو قوله تعالى: ﴿فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وينظر التعليق الذي بعده.

وتحدٍّ طُلِبَ منهم معارضةُ سورةٍ واحدةٍ من أي إنسانٍ كان، تعلَّم العلومَ أو لم يتعلَّمْها[1]. وفي هذه المراتبِ الخمس تحدِّي كلٍّ واحدٍ من الخَلْقِ.

وتحدٍّ طُلب من المجموع واستعانةِ بعض ببعضٍ[2]. انتهى ملخَّصًا.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ قال الزمخشري[3]: «بل كذبوا»: بل سارَعوا إلى التكذيب بالقرآن وفاجَؤوه بِبَدِيهِ[4] السماع قبل أن يفهموه ويعلموا كُنْهَ أَمْرِه، وقبل أن يتدبَّروه ويفقهوا تأويلَه ومعانيَه، وذلك لفَرْطِ نُفورهم عمَّا يخالف دينهم، وشِرادهم عن مُفارَقةِ دينِ آبائهم.

وقال ابنُ عطية: هذا اللفظُ يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يريد بـ«ما» الوعيدَ الذي توعَّدهم اللهُ على الكفر، و«تأويلُه» على هذا يريد به: ما يَؤُول إليه أمرُه، كما هو في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣] والآيةُ محملُها على هذا التأويلِ يتضمَّن وعيدًا.

والمعنى الثاني: أنه أراد: بل كذَّبوا بهذا القرآنِ العظيم المُنْبِئ بالغيوب، الذي

(١) وهو المذكور في هذه السورة كما قال الرازي، وهو قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾وكان الرازي رحمه الله قد ذكر قبلُ الفرق بين آية البقرة وآية يونس، وأن المعنى في آية البقرة: فليأت إنسان يساوي محمداً ﷺ في عدم التتلمذ وعدم الاشتغال بالعلوم بسورة تساوي هذه السورة، فهذا لا يدل على أن السورة في نفسها معجزة، ولكنه يدل على أن ظهور مثل هذه السورة من إنسان مثل محمد ﷺ في عدم التتلمذ والتعلُّم معجز، ثم إنه تعالى بيَّن في يونس أن تلك السورة في نفسها معجز، فإن الخلق وإن تلمذوا وتعلموا وطالعوا وتفكَّروا فإنه لا يمكنهم الإتيانُ بمعارضةِ سورةٍ واحدة من هذه السور.

(٢) أي: تحدَّى جميعَهم، وجوَّز استعانة بعضهم ببعضٍ في الإتيان بهذه المعارَضة، حيث قال: ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. تفسير الرازي ١٧/ ٩٧.

(٣) في الكشاف ٢/ ٢٣٨.

(٤) في المطبوع ومطبوع الكشاف: وفاجؤوه في بهجة السماع، والمثبت من النسخ الخطية، والمعنى على كليهما: بل. سارعوا إلى التكذيب بالقرآن أول ما سمعوه. ينظر تفسير البيضاوي (على هامش حاشية الشهاب) ٥/ ٣٠. وفي الأساس (بده): بَدَهني بكذا: بدأني به.

لم يتقدَّم لهم به معرفةٌ، ولا أحاطوا بمعرفة غيوبه وحُسْنِ نَظْمِه، ولا جاءهم تفسيرُ ذلك وبيانُه[١].

وقال أبو عبد الله الرازي[٢]: يحتمل وجوهًا:

الأول: كلما سمعوا شيئًا من القصص قالوا: أساطير الأولين، ولم يعرفوا أنَّ المقصود منها ليس نفسَ الحكاية، بل قدرته تعالى على التصرُّف في هذا العالم ونَقْلِه أهلَه من عزٍّ إلى ذلٍّ ومِن ذلٍّ إلى عزٍّ، وبفناء الدنيا فيُعْتَبَرُ بذلك[٣]، وأنَّ ذلك القصصَ بوحيٍ من الله، إذ أَعْلَمَ بذلك على لسان رسول الله ﷺ من غيرِ تحريفٍ مع كونه لم يتعلَّم ولم يتتلمذ.

الثاني: كلما سمعوا حروفَ التهجِّي[٤] ولم يفهموا منها شيئًا ساء ظنُّهم، وقد أجاب الله بقوله: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾[٥] الآية [آل عمران: ٧].

الثالث: ظهورُ القرآن شيئًا فشيئًا، فساء ظنُّهم وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] وقد أجاب تعالى[٦]، وشُرِح في مكانه.

الرابع: القرآنُ مملوءٌ من ذكر[٧] الحشر، وكانوا أَلِفوا المحسوسات فاستَبْعَدُوا حصول الحياة بعد الموت، فبيَّنَ الله صحةَ المَعَاد بالدلائل الكثيرة.

الخامس: أنه مملوءٌ من الأمر بالعبادات، وكانوا يقولون: إلهُ العالَم غنيٌّ عن

---

(١) في المحرر الوجيز ٣/ ١٢١.
(٢) في تفسيره ١٧/ ٩٧-٩٨.
(٣) قوله: وبفناء الدنيا. . .، كلام بولغ في اختصاره من كلام الرازي فأدى إلى غموض معناه، إذ معنى ما قاله: أن القصص تدل على العبرة من حيث إن الإنسان يعرف بها أن الدنيا فانية، فيرتفع من قلبه حبها وتقوى رغبته في طلب الآخرة، كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].
(٤) يعني في أوائل السور، كما ذكر الرازي.
(٥) في (ح): ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ وهي الآية (٩٧) من سورة آل عمران، وفي باقي النسخ والمطبوع: منه آيات بينات، وليست من القرآن، والمثبت من تفسير الرازي.
(٦) بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]، كما ذكر الرازي.
(٧) كلمة: ذكر، من (ح)، وفي تفسير الرازي: إثبات.

طاعتنا، وهو أجلُّ أنْ يأمرنا بما لا فائدةَ له فيه، وأجاب تعالى بقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ﴾ الآية [الإسراء: ٧].

وبالجملة فشُبَهُ الكفار كثيرةٌ فلمَّا رأوا القرآنَ مشتملًا على أمورٍ ما عرفوا حقيقتها، ولا اطَّلعوا على وجه الحكمة فيها، كذَّبوا بالقرآن، فقولُه: «بما لم يحيطوا بعِلْمِه» إشارةٌ إلى عدم علمهم بهذه الأشياء، وقولُه: «ولمَّا يأتهم تأويلُه» إشارةٌ إلى عدم جدِّهم[1] واجتهادهم في طلب أسرارِ ما تَضمَّنه القرآنُ. انتهى ملخَّصًا.

وقال الزمخشري: فإنْ قلتَ: ما معنى التوقُّعِ في قوله تعالى: «ولمَّا يأتهم تأويلُه»؟ قلت: معناه أنهم كذَّبوا به على البديهة قبل التدبُّر ومعرفةِ التأويل تقليدًا للآباء، وكذَّبوه بعد التدبُّر تمرُّدًا وعنادًا، فذمَّهم بالتسرُّع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقُّع ليُؤْذِنَ أنهم علموا بعد علوِّ شأنه وإعجازِه لمَّا كرَّر عليهم التحدِّي ورازوا قواهم[2] في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مِثْلِه، فكذَّبوا به بغيًا وحسدًا[3]. انتهى، ويحتاجُ كلامُه هذا إلى نظرٍ.

وقال أيضًا: ويجوزُ أن يكون معنى «ولمَّا يأتهم تأويلُه»: ولم يأتهم بعدُ تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب ـ أي: عاقبته ـ حتى يتبيَّن لهم أكذِبٌ هو أم صِدْقٌ؟ يعني أنه كتابٌ مُعْجِزٌ من جهتين: من جهة إعجازِ نَظْمِه، ومن جهةِ ما فيه من الإخبار بالغيوب، فتَسَرَّعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نَظْمِه وبلوغِه حدَّ الإعجاز، وقبل أن يَخْبَروا إخبارَه بالمغيَّبات وصِدْقَه وكَذِبَه[4]. انتهى.

وبقيت جملةُ الإحاطة بـ«لم» وجملةُ إتيان التأويل بـ«لمَّا»، ويُحتاج في ذلك إلى فرقٍ[5].

---

(١) في النسخ عدا (ح): جهدهم، والمثبت من (ح)، وهو الموافق لما في تفسير الرازي.
(٢) أي: جرَّبوها وقدَّروها. أساس البلاغة (روز).
(٣) الكشاف ٢/ ٢٣٨.
(٤) المصدر السابق.
(٥) بعدها في المطبوع: دقيق، وليس في النسخ. وجاء في هامش (ح) بخط الناسخ ما نصه: الفرق أن «لم» للنفي المطلق على الصحيح، و«لمَّا» لنفي الفعل المتصل بزمن الحال، فالمعنى: أن عدم التأويل متصل بزمن الإخبار، وهذا من الواضحات.

والكافُ في موضع نصبٍ، أي: مِثْلَ ذلك التكذيبِ كذَّبَ الذين من قبلهم، يعني قبلَ النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبُّرها، من غيرِ إنصافٍ من أنفسهم ولكن قلَّدوا الآباءَ وعاندوا.

قال ابن عطية: قال الزجَّاج: «كيف» في موضع نصبٍ على خبرِ «كان»، ولا يجوزُ أن يعمل فيه «انظر»؛ لأنَّ ما قبل الاستفهام لا يعملُ فيه. هذا قانونُ النحويين؛ لأنهم عاملوا «كيف» في كلِّ مكانٍ معاملَةَ الاستفهام المَحْضِ في قولك: كيف زيدٌ؟ ولـ«كيف» تصرُّفاتٌ غيرُ هذا: تَحُلُّ محلَّ المصدر الذي هو «كيفية» وتَخلعُ معنى الاستفهام، ويحتمل هذا الموضعُ أن يكون منها، ومن تصرُّفاتها قولُهم: كنْ كيف شئتَ، وانظر قولَ البخاريِّ: كيف كان بدءُ الوحي، فإنه لم يستفهم[1]. انتهى.

وقولُ الزجَّاج: لا يجوزُ أن يعمل فيه «انظر»، وتعليلُه: يريد: لا يجوزُ أن يعمل فيه «انظر» لفظًا، لكنَّ الجملة في موضع نصبٍ لـ«انْظُرْ»[2] لأنَّ «انظر» معلَّقةٌ، وهي مِن نَظَرِ القلب.

وقولُ ابنِ عطية: هذا قانونُ النحويين. إلى آخِرِ تعليله، ليس كما ذَكَر بل لـ«كيف» معنيان:

أحدهما: الاستفهامُ المحضُ، وهو سؤالٌ عن الهيئة، إلَّا أنْ يُعلَّقَ عنها العاملُ فمعناها معنى الأسماءِ التي يُسْتَفْهَمُ بها إذا علِّق عنها العاملُ.

والثاني: الشرط؛ كقولِ العرب: كيف تكونُ أكونُ.

وقوله: ولـ«كيف» تصرُّفاتٌ... إلى آخِره، ليس «كيف» تحلُّ محلَّ المصدر، ولا لفظُ «كيفية» هو مصدرٌ، إنما ذلك نسبة إلى «كيف».

وقوله: ويحتمل أن يكون هذا الموضعُ منها، ومن تصرُّفاتها قولُهم: كن كيف شئت. لا يحتملُ أن يكونَ منها؛ لأنه لم يثبت لها المعنى الذي ذَكَر مِن كون «كيف» بمعنى «كيفية»، وادعاءِ مصدرِ كيفية، وأمَّا: كُنْ كيف شئت، فـ«كيف» ليست

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٢١. وكلام الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢١. وقول البخاري هو في أول صحيحه قبل الحديث رقم (١).

(٢) قوله: لا نظر، ليس في (ح).

بمعنى «كيفية»، وإنما هي شَرْطيةٌ، وهو المعنى الثاني الذي لها، وجوابُها محذوفٌ، التقدير: كيف شئتَ فكن، كما تقول: قم متى شئتَ، فـ«متى» اسمُ شرطٍ ظرفٌ لا يَعْمَلُ فيه «قم»، والجوابُ محذوفٌ تقديره: متى شئتَ فقُمْ، وحُذِفَ الجوابُ لدلالة ما قبله عليه، كقولهم: اضربْ زيدًا إن أساء إليك، التقدير: إنْ أساءَ إليك فاضْرِبْه، وحُذف «فاضربه» لدلالة «اضرب» المتقدِّم عليه.

وأمَّا قولُ البخاري: كيف كان بدءُ الوحي، فهو استفهامٌ محضٌ إمَّا على سبيل الحكاية، كأنَّ سائلًا[1] سأله فقال: كيف كان بدءُ الوحي؟ وإمَّا أن يكون من قوله هو، كأنه سأل نفسه: كيف كان بدءُ الوحي[2]؟ فأجاب بالحديث الذي فيه كيفيةُ ذلك.

و«الظالمين» الظاهرُ أنه أُريدَ به الذين مِن قَبْلِهم، ويحتملُ أن يرادَ به مَن عاد عليه ضميرُ «بل كذَّبوا».

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾ الظاهرُ أنه إخبارٌ بأنَّ مِن كفارِ قريشٍ مَن سيؤمنُ به، وهو مَن سَبَقَتْ له السعادةُ، ومنهم مَن لا يؤمنُ به فيوافي على الكفر.

وقيل: هو تقسيمٌ في الكفار الباقين على كفرهم، فمنهم مَن يؤمنُ به باطنًا ويعلم أنه حقٌّ ولكنه كذَّب عنادًا، ومنهم مَن لا يؤمنُ به لا باطنًا ولا ظاهرًا؛ إما لسرعة تكذيبه وكونِه لم يتدبَّرْه، وإمَّا لكونه نَظَرَ فيه فعارَضَتْه الشبهاتُ وليس عنده من الفهم ما يدفعُها. وفيه تفريقُ كلمة الكفَّار، وأنهم ليسوا مستوين في اعتقاداتهم، بل هم مُضْطَرِبون وإن شملهم اسم[3] التكذيب والكفر.

وقيل: الضميرُ في «ومنهم» عائدٌ على أهل الكتاب. والظاهرُ عَوْدُه على مَن عاد عليه ضميرُ «أم يقولون».

وتعلُّقُ العلم بالمفسدين وحدهم تهديدٌ عظيمٌ لهم.

---

(١) في النسخ عدا (يه): قائلاً، والمثبت من (يه)، وهو الموافق لما في الدر المصون ٦/٢٠٧ نقلاً عن البحر.

(٢) من قوله: وإما أن يكون، إلى هنا ساقط من (د١) والمطبوع.

(٣) قوله: اسم، من (ز١).

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ أي: وإن تمادَوْا على تكذيبك فتبرَّأْ منهم قد[١] أعْذَرْتَ وبلَّغْتَ، كقوله: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، ومعنى «لي عملي»، أي: جزاءُ عملي ولكم جزاءُ عَمَلِكم، ومعنى «عملي»، أي: الصالح المشتمِلُ على الإيمان والطاعة، «ولكم عملكم» المشتملُ على الشرك والعصيان.

والظاهرُ أنها آيةُ منابَذةٍ لهم وموادَعةٍ، وضِمْنُها الوعيدُ كقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ السورة.

وقيل: المقصودُ بذلك استمالتُهم وتأليفُ قلوبهم.

وقال قوم منهم ابنُ زيد: هي منسوخةٌ بالقتال لأنها مكيةٌ[٢]. وهو قولُ مجاهدٍ والكلبيِّ ومقاتلٍ[٣].

وقال المحقِّقون[٤]: ليست بمنسوخةٍ، ومدلولُها اختصاصُ كلٍّ واحدٍ بأفعالِه وثمراتِها من الثواب والعقاب، ولم تَرْفَع آيةُ السيف شيئًا من هذا.

وبدأ في المأمورِ بقوله: «لي عملي» لأنه آكَدُ في الانتفاء منهم، وفي البراءة بقوله: «أنتم بريئون ممَّا أعملُ» لأنَّ هذه الجملةَ جاءت كالتوكيد والتتميم لمَا قبلها، فناسَبَ أن تليَ قولَه: «ولكم عملُكم»، ولمراعاةِ الفواصل إذ لو تقدَّم ذكرُ براءَته كما تقدَّم ذكر «لي عملي» لم تقع الجملةُ فاصلةً، إذ كان يكون التركيبُ: وأنتم بريئون مما أعمل.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ قال ابن عباس: نزلت الآيتان في النَّضْر بنِ الحارث وغيرِه من المستهزئين.

---

(١) في (يه): فقد.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٢، وأخرجه بنحوه الطبري ١٢/ ١٨٥.

(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ٥٠٦، وذكره عن مقاتل والكلبي أيضاً الثعلبي ٣/ ٢٨٦، والواحدي ٢/ ٥٤٨، والرازي ١٧/ ١٠٠.

(٤) هو قول الرازي في تفسيره ١٧/ ١٠٠.

وقال ابنُ الأنباريِّ: في قوم من اليهود[١]. انتهى.

وهذه الآيةُ فيها تقسيمُ مَن لا يُؤمنُ من الكفار إلى هذين القسمين بعد تقسيم المكذِّبين إلى مَن يؤمنُ ومَن لا يؤمنُ.

والضميرُ في «يستمعون» عائدٌ على معنى «مَن»، والعَوْدُ على المعنى دون العَوْدِ على اللَّفظ في الكثرة، وهو كقوله: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٢] والمعنى: مَن يستمعون إليك إذا قرأتَ القرآنَ وعلَّمتَ الشرائعَ، ثم نَفَى جَدْوَى ذلك الاستماعِ بقوله: «أفأنت تُسمع الصمَّ»، أي: هم وإن استَمعوا إليك صمٌّ عن إدراك ما تُلْقيه إليهم ليس لهم وعيٌ ولا قبولٌ، ولا سيما قد انضاف إلى الصَّمَم انتفاءُ العقلِ، فَحَرٍ بمن عَدِمَ السمعَ والعقلَ أن لا يكون له إدراكٌ لشيءٍ البتةَ، بخلافِ أنْ لو كان الأصمُّ عاقلًا فإنه بعقله يهتدي إلى أشياءَ.

وأعاد في قوله: «ومنهم مَن ينظرُ إليك» الضميرَ مفردًا مذكَّرًا على لفظِ «مَن»، وهو الأكثرُ في لسان العرب، والمعنى: إنهم عُمْيٌ فلا تقدِرُ على هدايتهم؛ لأنَّ السبب الذي يُهْتَدَى به إلى رؤية الدلائل قد فَقَدوه، هذا وَهُمْ مع فَقْدِ البصرِ قد فقدوا البصيرةَ؛ إذ مَن كان أعمى فإنَّه يَهْدِيه نورُ بصيرته إلى أشياءَ بالحَدْسِ، وهذا قد جمع بين فِقْدان البصر والبصيرة، وهذه مبالغةٌ عظيمةٌ في انتفاء قبولِ ما يُلْقَى إلى هؤلاء؛ إذ جمعوا بين الصَّمم وانتفاءِ العقل وبين العمى وفَقْدِ البصيرة.

وفي قوله: «أفأنت» «أفأنت» تسليةٌ للرسول ﷺ، وأنْ لا يكترثَ بعدم قبولهم فإنَّ[٢] الهدايةَ إنما هي لله.

قال ابن عطية: جاء «ينظر» على لفظِ «مَن»، وإذا جاء الفعلُ على لفظها فجائزٌ أن يُعْطَفَ عليه آخَرُ على المعنى، وإذا جاء أولًا على معناها فلا يجوزُ أن يُعطف بآخَرَ على اللفظ؛ لأنَّ الكلام يُلْبِس حينئذ[٣]. انتهى.

---

(١) ذكر القولين ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٤ وقال: القولان مرويان عن ابن عباس.
(٢) في (ز١): وأن.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٢.

وليس كما قال، بل يجوزُ أن تُراعيَ المعنى أولًا فتعيدَ الضميرَ على حَسَبِ ما تريد من المعنى من تأنيثٍ وتثنيةٍ وجمعٍ، ثم تراعيَ اللفظَ فتعيدَ الضميرَ مفردًا مذكَّرًا، وفي ذلك تفصيلٌ ذُكر في علم النحو.

والمقصودُ من الآيتين إعلامُه عليه السلام بأنَّ هؤلاء الكفارَ قد انتهوا في النُّفرة والعداوة والبغضِ الشديد في رتبةِ مَن لا ينفعُ فيه علاجٌ البتةَ؛ لأنَّ مَن كان أصمَّ أحمقَ وأعمى فاقدَ البصيرة لا يمكنُ ذلك أن يقف على محاسن الكلامِ وما انْطَوَى عليه من الإعجاز، ولا يمكن هذا أن يرى ما أَجْرَى اللهُ على يَدَيْ رسوله من الخوارق، فقد أُيِسَ من هداية هؤلاء، وقال الشاعر:

وإذا خَفِيْتُ على الغبيِّ فعاذرٌ   أنْ لا تراني مُقْلةٌ عمياءُ[1]

ولمَّا ذَكَر تعالى هؤلاء الأشقياءَ ذَكَر تعالى أنه لا يظلمُهم شيئًا؛ إذ قد أزاح عِلَلَهم ببعثة الرسل وتحذيرِهم من عقابه، ولكن هم ظالمو أنفُسِهم بالكفر والتكذيب. واحْتَملَ هذا النفيُ للظلم أن يكون في الدنيا، أي: لا يظلمُهم شيئًا من مصالحهم، واحْتَملَ أن يكون في الآخرة، وأنَّ ما يَلحقُهم من العقاب هو عدلٌ منه لأنهم هم الذين تسبَّبوا فيه باكتسابِ ذنوبهم كما قدَّر تعالى عليهم ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وتقدَّمَ خلافُ القرَّاء في «ولكن الناس» من تشديدِ النون ونَصْبِ «الناس»، وتخفيفِها والرَّفعِ[2].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ قرأ الأعمش وحفصٌ: «يحشرهم» بالياء[3] راجعًا الضميرُ غائبًا عائدًا على «الله»، إذ تقدَّم «إنَّ الله لا يظلمُ الناسَ شيئًا».

---

(١) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ١/ ١٤٤.

(٢) قرأ بتخفيف النون والرفع حمزة والكسائي، كما في السبعة ص١٦٨، والتيسير ص١٢٢، وينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وينظر كذلك ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من هذه السورة.

(٣) السبعة ص٣٢٧، والتيسير ص١٠٧ عن حفص، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٣ عن الأعمش.

ولمَّا ذَكَر أولئك الأشقياءَ أَتْبَعَه بالوعيد وَوَصْفِ حالِهم يومَ القيامة، والمعنى: كائنٌ لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور، يعني تقليلَ[1] لبثهم، وذلك لهول ما يُعاينون من شدائد القيامة، أو لطول يوم القيامة ووقوفِهم للحساب.

قال ابن عباس: رأوا أنَّ طول أعمارِهم في مقابَلَةِ الخلود كساعةٍ[2].

قال ابنُ عطية[3]: «ويومَ» ظرفٌ، ونَصْبُه يصحُّ بفعلٍ مضمَرٍ تقديرُه: واذْكُرْ، ويصحُّ أنْ يَنْتَصِبَ بالفعل الذي يتضمَّنُه قولُه: «كأن لم يلبثوا إلَّا ساعةً من النهار»، ويصحُّ نصبُه بـ«يتعارفون»، والكافُ من قوله: «كأنْ» يصحُّ أن تكون في موضع الصفة لليوم، ويصحُّ أن تكون في موضع نعتٍ للمصدر، كأنه قال: ويومَ نحشرهم حشرًا كأنْ لم يلبثوا، ويصحُّ أن يكون قولُه: «كأن لم يلبثوا» في موضع الحال من الضمير في «نحشرهم». انتهى.

أمَّا قوله: ويصحُّ أن ينتصب بالفعل الذي يتضمَّنه «كأنْ لم يلبثوا»، فإنه كلامٌ مُجْمَلٌ؛ لم يبيِّن الفعلَ الذي يتضمَّنه «كأن لم يلبثوا»، ولعله أراد ما قاله الحَوْفيُّ من أنَّ الكاف في موضع نصبٍ بما تضمَّنت من معنى الكلام وهو السرعة، انتهى، فيكونُ التقدير: ويوم نحشرهم يُسْرِعون كأنْ لم يلبثوا[4].

وأمَّا قوله: والكافُ من قوله: «كأنْ» يصحُّ أن تكونَ في موضع الصفة لليوم، فلا يصحُّ؛ لأنَّ «يوم نحشرهم» معرفةٌ، والجملُ نكراتٌ، ولا تُنْعَتُ المعرفةُ بالنكرة، لا يقال: إنَّ الجمل التي[5] يضاف إليها أسماءُ الزمان نكرةٌ على الإطلاق. لأنها إنْ كانت في التقدير تنحلُّ إلى معرفةٍ فإنَّ ما أضيف إليها يتعرَّفُ، وإنْ كانت تنحلُّ إلى نكرةٍ كان ما أُضيف إليها نكرةً، تقول: مررتُ في يومِ قَدِمَ زيدٌ الماضي، فتصفُ «يوم» بالمعرفة، و: جئتُ ليلةَ قَدِمَ زيدٌ المباركةَ علينا.

(١) في (د١) والمطبوع: فقليل.
(٢) تفسير القرطبي ١٠/٥٠٩.
(٣) في المحرر الوجيز ٢/١٢٢-١٢٣.
(٤) فيكون «يسرعون» حالًا من مفعول «يحشرهم»، ويكون «كأن لم يلبثوا» حالًا من فاعل «يسرعون». قاله السمين في الدر ٦/ ٢١٠.
(٥) في النسخ عدا (يه): الذي، والمثبت من (يه)، وهو الموافق لما في الدر المصون ٦/٢٠٨ نقلاً عن البحر.

وأيضًا فـ«كأنْ لم يلبثوا» لا يمكنُ أن يكون صفةً لليوم من جهة المعنى؛ لأنَّ ذلكِ من وَصْفِ المحشورين لا مِن وَصْفِ يومِ حشرهم، وقد تكلَّف بعضُهم[1] تقديرَ محذوفٍ يربطُ، فقدَّره: كأنْ لم يلبثوا قبلَه، فحذف «قبله»، أي: قبل اليوم، وحَذْفُ مِثْلِ هذا الرابطِ لا يجوز.

فالظاهرُ أنها جملةٌ حاليةٌ من مفعول «نَحْشُرهم» كما قاله ابنُ عطية آخِرًا، وكذا أعربه الزمخشريُّ وأبو البقاء[2]؛ قال الزمخشري[3]: فإن قلت: «كأنْ لم يلبثوا» و«يتعارفون» كيف موقعُهما؟ قلت: أمَّا الأولى فحالٌ منهم[4]، أي ونحشرُهم مشبَّهين بمن لم يَلْبَثْ إلَّا ساعةً، وأمَّا الثانيةُ فإما أنَّ تتعلَّقَ بالظرف ـ يعني فتكون حالًا ـ وإمَّا أن تكون مُبَيِّنةً لقوله: «كأنْ لم يلبثوا إلَّا ساعةً» لأنَّ التعارُفَ لا يبقى مع طول العهد وينقلبُ تناكُرًا. انتهى.

وقال الحوفي: «يتعارفون» فعلٌ مستقبَلٌ في موضع الحال من الضمير في «يلبثوا»، وهو العاملُ، كأنه قال: متعارِفينَ، المعنى: اجتمعوا متعارِفينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ حالًا من الهاء والميم في «نحشرهم»، وهو العاملُ. انتهى.

وأمَّا قولُ ابنِ عطيةَ: ويصحُّ أن يكون في موضع نعتٍ للمصدر، كأنه قال: ويوم نحشرُهم حشرًا كأنْ لم يلبثوا. فقد حكاه أبو البقاء فقال: وقيل: هو نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: حشرًا كأنْ لم يلبثوا قبله[5]. انتهى، وقد ذكرنا أنَّ حذف مِثْلِ هذا الرابطِ لا يجوزُ.

وجوَّزوا في «يتعارفون» أن يكون حالًا، على ما تقدَّم ذكرُه من الخلاف في ذي

---

(١) هو مكي بن أبي طالب في مشكل إعراب القرآن ١/٣٤٧، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١١/٥٥ عن أبي علي، ولعله الفارسي، ونقله أبو البقاء في الإملاء ٢/٢٩ دون تسمية القائل.

(٢) في الإملاء ٢/٢٩. وسيرد لاحقاً كلام الزمخشري.

(٣) في الكشاف ٢/٢٣٩.

(٤) في مطبوع الكشاف: من هم، والمعنى واحد، أي: هي حال من مفعول «يحشرهم».

(٥) الإملاء ٢/٢٩. وقاله مكي في المشكل ١/٣٤٧، ولعله هو الذي حكى عنه أبو البقاء. وهذا القول والتقدير ذكره أيضاً الطبرسي في مجمع البيان ١١/٥٥ عن أبي علي، ولعله الفارسي.

الحال، والعاملِ فيها، وأن يكون جملةً مستأنفةً؛ أخبر تعالى أنه يقع التعارُفُ بينهم.

وقال الكلبي: يعرفُ بعضُهم بعضًا كمعرفتهم في الدنيا، إذا خرجوا من قبورهم، وهو تعارفُ توبيخٍ وافتضاحٍ، يقول بعضهم لبعض: أنت أَضْلَلْتني وأَغْوَيْتني، وليس تعارفَ شفقةٍ وعطفٍ، ثم تنقطعُ المعرفة إذا عاينوا أهوالَ القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠][١].

وقيل: يُعرِّفُ بعضُهم بعضًا ما كانوا عليه من الخطأ والكفر[٢].

وقال الضحاك: تعارُفُ تعاطفِ المؤمنين، والكافرون لا أنسابَ بينهم[٣].

وقيل: القيامةُ مواطنُ، ففي مواطنَ يتعارفون، وفي مواطنَ لا يتعارفون.

والظاهرُ أنَّ قوله: «قد خسر الذين» إلى آخره، جملةٌ مستأنفةٌ؛ أخبر تعالى بخسران المكذِّبين بلقائه، قال الزمخشري: هو استئنافٌ فيه معنى التعجُّبِ، كأنه قيل: ما أَخْسَرَهم.

وقال أيضًا وابتدأ به: «قد خسر» على إرادةِ القول، أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك[٤].

قال ابن عطية: وقيل: إنه إخبارُ المحشورين على جهة التوبيخ لأنفسهم[٥]. انتهى.

وهذا يَحْتمِلُ أن يكون كقول الزمخشري: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، وأن يكون كقولِ غيرِه: نحشرهم قائلين: قد خسر، فاحتمل هذا المقدَّرُ أن يكون معمولًا لـ«يتعارفون» وأن يكون معمولًا لـ«يحشرهم».

ونبَّه على العلَّة المُوْجِبَةِ للخسران، وهو التكذيبُ بلقاء الله.

---

(١) تفسير القرطبي ١٠/٥٠٩.

(٢) وعلى هذا يكون «يتعارفون» محمولًا على التعريف كما ذكر الآلوسي في روح المعاني ١١/١٥٩، ثم تعقبه بقوله: وفيه ما فيه.

(٣) تفسير القرطبي ١٠/٥٠٩، وذكره بنحوه أبو الليث السمرقندي في تفسيره ٢/١٠٠.

(٤) القولان في الكشاف ٢/٢٣٩.

(٥) المحرر الوجيز ٣/١٢٣.

«وما كانوا مهتدين» الظاهرُ أنه معطوفٌ على قوله: «قد خَسِرَ»، فيكون من كلام المحشورين إذا قلنا: إنَّ قوله: «قد خسر» من كلامهم أخبروا عن أنفسهم بخسرانهم في الآخرة، وبانتفاءِ هدايتهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون[١] معطوفًا على صلة «الذين»، أي: كذَّبوا بلقاء الله وانتفت هدايتُهم في الدنيا، وتكون الجملةُ كالتوكيد لجملة الصلة؛ لأنَّ مَن كذَّب بلقاء الله هو غيرُ مُهْتَدٍ.

وقيل: «وما كانوا مهتدين» إلى غايةِ مصالحِ التجارة[٢].

وقيل: للإيمان.

وقيل: في علم الله، بل هم ممن خَتَم ضلالَهم وقَضَى به.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

«إمَّا» هي «إنْ» الشرطية زِيْدَ عليها «ما»، قال ابنُ عطيةَ: ولأَجْلِها جاز دخولُ النون الثقيلة، ولو كانت «إنْ» وحدها لم يَجُزْ[٣]. انتهى.

يعني أنَّ دخول النون للتأكيد إنما يكون مع زيادة «ما» بعد «إنْ»، وهذا الذي ذكره مخالفٌ لظاهر كلام سيبويه؛ قال ابن خروف: أجاز سيبويه الإتيانَ بـ«ما» وأنْ لا يُؤْتَى بها، والإتيانَ بالنون مع «ما» وأن لا يؤتَى بها[٤].

والإراءةُ هنا بَصَريةٌ، ولذلك تعدَّى الفعلُ إلى اثنين، والكافُ خطابٌ للرسول ﷺ، و«بعض الذي نَعِدُهم» يعني: من العذاب في الدنيا، وقد أَراه اللهُ تعالى أنواعًا من عذاب الكفار في الدنيا قتلًا وأسرًا ونهبًا للأموال وسبيًا للذراري،

---

(١) وقع في المطبوع: ويحتمل أن تكون، بدل: وتكون، وهو خطأ.

(٢) ذكره بنحوه الرازي في تفسيره ١٧/ ١٠٥، وجاء قبله كلام يوضحه، حيث قال الرازي: والمعنى (يعني في قوله تعالى: «قد خسر...»): أن من باع آخرته بالدنيا فقد خسر؛ لأنه أعطى الكثير الشريف الباقي، وأخذ القليل الخسيس الفاني. ثم قال: وأما قوله: «وما كانوا مهتدين» فالمراد أنهم ما اهتدوا إلى رعاية مصالح هذه التجارة. اهـ. وكلمة «رعاية» هي الأنسب بالسياق هنا.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٣.

(٤) الكتاب ٤/ ٥١٥، وقد سلف الكلام على هذه المسألة عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨].

وضربَ جزيةٍ، وتشتيتَ شملٍ بالجلاء إلى غير بلادهم، وما يَحْصُلُ لهم في الآخرة أعظمُ لأنه العذابُ الدائمُ الذي لا ينقطعُ.

والظاهرُ أنَّ جواب الشرط هو قوله: «فإلينا مَرْجِعُهم» وكذا قاله الحَوْفي وابنُ عطية[١].

قال ابن عطية: ومعنى هذه الآيةِ: الوعيدُ بالرجوع إلى الله تبارك وتعالى، أي: إنْ أريناكَ عقوبتَهم أو لم نُرِكَها فهم على كلِّ حالٍ راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب، ثم مع ذلك اللهُ شهيدٌ من أول تكليفهم على جميع أعمالهم، فـ«ثم» هاهنا لترتيب الإخبار لا لترتيب القصص في أنفُسها[٢].

وقال الزمخشري: «فإلينا مَرْجِعُهم» جوابُ «نتوفَّينَّك»، وجوابُ «نُرِينَّك» محذوفٌ، كأنه قيل: وإما نرينَّك بعضَ الذي نَعِدُهم في الدنيا فذاك، أو نَتَوفَّيَنَّك قبل أن نُرِيَكَهُ فنحن نُرِيكَ في الآخرة[٣]. انتهى.

فجعل الزمخشريُّ الكلامَ شرطين لهما جوابان، ولا حاجةَ إلى تقديرِ جوابٍ محذوفٍ؛ لأنَّ قوله: «فإلينا مرجعُهم» صالحٌ أن يكون جوابًا للشرط والمعطوفِ عليه.

وأيضًا فقولُ الزمخشري: فذاك، هو اسمٌ مفردٌ لا ينعقدُ منه جوابُ شرطٍ، فكان ينبغي أن يأتي بجملةٍ يتضح منها جوابُ الشرط؛ إذ لا يُفْهَمُ من قوله: فذاك، الجزءُ الذي حُذِفَ، المتحصِّلُ به فائدةُ الإسناد[٤].

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «ثَمَّ اللهُ» بفتح الثاء، أي: هنالك[٥].

---

(١) في المحرر ٣/ ١١٧.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٣٩، وفيه: . . . فنحن نريكه في الآخرة.
(٤) قال السمين في الدر ٧/ ٢١٢ متعقبًا: قد تقرَّر أن اسم الإشارة قد يشار به إلى شيئين فأكثر وهو بلفظ الإفراد، فكأن «ذاك» واقع موقع الجملة الواقعة جوابًا، ويجوز أن يكون قد حذف الخبر لدلالة المعنى عليه؛ إذ التقدير: فذاك المراد أو المتمنَّى، أو نحوه. وقوله (أي: المصنف): إذ لا يفهم الجزء الذي حُذف. . . إلى آخره، ممنوعٌ، بل هو مفهوم كما رأيت، وهو شيء يتبادر إلى الذهن.
(٥) الكشاف ٢/ ٢٣٩.

ومعنى شهادةِ الله على ما يفعلون: مقتضاها ونتيجتُها وهو العقابُ، كأنه قال: ثم الله مُعاقِبُهم، وإلَّا فهو تعالى شهيدٌ على أفعالهم في الدنيا والآخرة.

ويجوزُ أن يكون المعنى: أنه تعالى مؤدٍّ شهادتَه على أفعالهم يومَ القيامة حين يُنْطِقُ[1] جلودَهم وألسنتهم وأيديَهم وأرجلَهم شاهدةً عليهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ لمَّا بيَّن حالَ الرسول ﷺ في قومه بيَّن حالَ الأنبياء عليهم السلامُ مع أقوامهم تسليةً له وتطمينًا لقلبه، ودلَّت الآيةُ على أنه تعالى ما أَهْملَ أمَّةً بل بعث إليها رسولًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] وقولُه: «فإذا جاء رسولُهم» إمَّا أن يكون إخبارًا عن حالةٍ ماضيةٍ، فيكون ذلك في الدنيا ويكون المعنى أنه بعث إلى كلِّ أمةٍ رسولًا يدعوهم إلى دين الله وينبِّهُهُم على توحيده، فلمَّا جاءهم بالبينات كذَّبوه، فـ«قضي بينهم»، أي: بين الرسول وأمته، فأُنْجِيَ الرسولُ وعذِّب المكذِّبون.

وإمَّا أن يكون عن حالةٍ مستقبَلةٍ، أي: فإذا جاء رسولُهم يوم القيامة للشهادة عليهم قُضي بينهم، أي: بين الأمة بالعدل فصار قومٌ إلى الجنة وقومٌ إلى النار، فهذا هو القضاءُ بينهم؛ قاله مجاهدٌ وغيرُه[2]، ويكون كقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ [الزمر: ٦٩].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ الضميرُ في «ويقولون» عائدٌ على مشركي قريشٍ ومَن تابَعَهم من منكري الحشر؛ اسْتَعْجَلوا بما وُعِدوا به من العذاب على سبيل الاستبعاد أو على سبيل الاستخفاف، ولذلك قالوا: «إن كنتم صادقين» أي: لستُم صادقين فيما وَعَدْتُم به، فلا يقع شيءٌ منه، وقولُهم هذا يشهدُ للقول الأول في الآية قبلها، وأنها حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، وأنَّ معنى ذلك: فإذا جاءهم الرسولُ وكذَّبوه قُضي بينهم في الدنيا، وأنَّ كلَّ رسولٍ وَعَدَ أمَّتَه بالعذاب في الدنيا إنْ هي كذَّبَتْ.

---

(١) في النسخ: حتى تنطق، والمثبت من الكشاف ٢/ ٢٣٩، والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٣، وأخرجه الطبري ١٢/ ١٨٩ مختصراً بلفظ: «فإذا جاء رسولهم» قال: يوم القيامة.

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ لمَّا الْتَمسوا تعجيلَ العذاب أو تعجيلَ الساعة أَمَرَه عليه السلامُ أنْ يقولَ لهم: ليس ذلك إليَّ بل ذلك إلى الله تعالى، وإذا كنتُ لا أملكُ لنفسي نفعًا ولا ضرًّا فكيف أملكُه لغيري، أو كيف أَطَّلعُ على ما لم يُطْلِعْني عليه الله، ولكنْ لكلِّ أمةٍ أجَلٌ انفرد بعلمه تعالى.

وتقدَّم الكلام على نظيرِ قوله: «لكلِّ أمةٍ أجلٌ» إلى آخر الآية في «الأعراف»(١).

وقرأ ابنُ سيرين: «آجالُهم» على الجمع(٢).

و«إلّا ما شاء الله» ظاهرُه أنه استثناءٌ متصلٌ أي: إلا ما شاء الله أنْ أَمْلِكَه وأقدرَ عليه.

وقال الزمخشريُّ(٣) هو استثناءٌ منقطعٌ، أي: ولكنْ ما شاء الله من ذلك كائنٌ، فكيف أملكُ لكم الضررَ وجَلْبَ العذاب ولكلِّ أمَّةٍ أجلٌ، أي: إنَّ عذابكم له أجلٌ مضروبٌ عند الله.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ تقدَّم الكلام في «أرأيتم» في سورة الأنعام(٤)، وقرَّرنا هناك أنَّ العرب تضمِّن «أرأيتَ» معنى: أَخْبِرْني، وأنها تتعدَّى إذ ذاك إلى مفعولين، وأنَّ المفعول الثانيَ أكثرُ ما يكون جملةَ استفهامٍ ينعقدُ منها مع ما قبلها مبتدأٌ وخبر، كقول العرب: أرأيتَ زيدًا ما صَنَع؟ المعنى: أخبرني عن زيدٍ ما صنع؟ وقبل دخول «أرأيت» كان الكلامُ: زيدٌ ما صَنَع؟ وإذا تَقرَّرَ هذا فـ«أرأيتُم» هنا المفعولُ الأولُ لها محذوفٌ، والمسألةُ من باب الإعمال؛ تنازَعَ «أرأيتَ» و«إنْ أتاكم» على قوله: «عذابه» فأُعْمِلَ الثاني إذ هو المختارُ على مذهب البَصْريين، وهو

---

(١) الآية: (٣٤) منها.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٤، والكشاف ٢/ ٢٤٠.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٤٠.

(٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٤٠].

الذي ورد به السماعُ أكثرَ من إعمال الأول، فلمَّا أُعمل الثاني حُذف من الأول، ولم يُضْمَرْ لأنَّ إضمارَه مختصٌّ بالشعر أو قليلٌ في الكلام، على اختلافِ النحويين في ذلك[١]، والمعنى: قل لهم يا محمدُ: أخبِروني عن عذاب الله إنْ أتاكم أيَّ شيءٍ تستعجلون منه، وليس شيءٌ من العذاب يستعجلُه عاقلٌ؛ إذ العذابُ كلُّه مرُّ المذاق موجبٌ لنِفَار الطَّبْع منه، فتكونُ جملةُ الاستفهام جاءت على سبيل التلطُّفِ بهم والتنبيهِ لهم أنَّ العذاب لا ينبغي أن يُستعجَلَ.

ويجوزُ أن تكون الجملةُ جاءت على سبيل التعجُّب والتهويلِ للعذاب، أي: أيَّ شيءٍ شديد تَسْتَعْجِلون منه، أي: ما أشدَّ وأهولَ ما تستعجلون من العذاب.

وقال الحَوْفي: الرؤيةُ من رؤية[٢] القلب التي بمعنى العلم؛ لأنها داخلةٌ على الجملة من الاستفهام ومعناها التقريرُ، وجوابُ الشرط محذوفٌ، وتقدير الكلام: أرأيتُم ما يَسْتَعْجِلُ من العذاب المجرمون إن أتاكم عذابُه. انتهى.

فظاهِرُ كلام الحَوْفيِّ أنَّ «أرأيتُم» باقيةٌ على موضوعها الأول لم تُضَمَّنْ معنى: أخبروني، وأنها بمعنى: أَعَلِمْتُم، وأنَّ جملةَ الاستفهام سدَّتْ مسدَّ المفعولين، وأنه استفهامٌ معناه التقريرُ، ولم يبيِّن الحوفيُّ ما تقديرُ جوابِ الشرط المحذوفِ.

وقال الزمخشري: فإن قلتَ: بِمَ يتعلَّقُ الاستفهام، وأين جوابُ الشرط؟ قلت: تعلَّق بـ«أرأيتم» لأن المعنى: أخبروني ماذا يستعجلُ منه المجرمون، وجوابُ الشرط محذوفٌ وهو: تَنْدَموا على الاستعجال أو تَعْرِفوا الخطأَ فيه[٣]. انتهى.

وما قدَّره الزمخشريُّ غيرُ سائغٍ؛ لأنه لا يقدَّرُ الجوابُ إلَّا ممَّا تقدَّمه لفظًا أو تقديرًا، تقول: أنت ظالمٌ إنْ فعلتَ، فالتقدير: إنْ فعلتَ فأنت ظالمٌ، وكذلك:

---

(١) وتفصيل المسألة: أنه إذا أُعمل الثاني وكان الأولُ طالبَ منصوبٍ ـ كما هنا ـ أو مجرور، فيُضْمَر في الأول ويحذف، نحو: ضربْتُ وضَرَبَني زيدٌ، ومررتُ ومرَّ بي زيدٌ، هذا مذهب الأكثرين، ومن النحويين مَن يُضمر فيقول: ضربتُه وضَرَبَني زيدٌ، و: مرزتُ به ومرَّ بي زيدٌ، وأكثر النحويين لا يجيزونه؛ لاشتماله على تقدير ضمير هو فضلةٌ على مفسِّرٍ متأخِّرٍ لفظاً ورتبةً. ينظر شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ١١١، والارتشاف ٤/ ٢١٤٢، والدر المصون ٦/ ٢١٤.

(٢) في (يه): المراد رؤية.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٤٠.

﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] التقدير: إنْ شاء الله نهتدِ، فالذي يَسُوغُ أنْ يقدَّر: إنْ أتاكم عذابُه فأخبروني ماذا يستعجِلُ.

وقال الزمخشري: ويجوزُ أن يكون «ماذا يستعجلُ منه المجرمون» جوابًا للشرط كقولك: إنْ أتيتُكَ ماذا تُطْعِمُني؟ ثم تتعلَّق الجملة بـ«أرأيتم»، وأن يكون «أثمَّ إذا ما وقع آمنتم به» جوابَ الشرط، و«ماذا يستعجل منه المجرمون»[١]. اعتراضًا، والمعنى: إن أتاكم عذابُه آمَنْتُم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان[٢]. انتهى.

أمَّا تجويزُه أن يكون «ماذا» جوابًا للشرط فلا يصحُّ؛ لأنَّ جواب الشرط إذا كان استفهامًا فلا بدَّ فيه من الفاء، تقول: إن زارنا فلانٌ فأيُّ رجلٍ هو، وإن زارنا فلانٌ فأيُّ يدٍ له بذلك، ولا يجوزُ حَذْفُها إلَّا إن كان في ضرورةٍ، والمثالُ الذي ذكره - وهو: إنْ أتيتُك ماذا تُطعمني؟ - هو من تمثيله لا من كلام العرب.

وأمَّا قولُه: ثم تتعلَّقُ الجملة بـ«أرأيتم»، إنْ عَنَى بالجملة «ماذا يستعجل» فلا يصحُّ ذلك لأنه قد جعلها جوابًا للشرط، وإنْ عَنَى بالجملة جملةَ الشرط فقد فسَّر هو «أرأيتم» بمعنى: أخبرني، و«أخبرني» تطلبُ متعلَّقا مفعولًا، ولا تقعُ جملةُ الشرط موقعَ مفعولِ «أخبرني».

وأمَّا تجويزُه أن يكون «أثم إذا ما وقع آمنتُم به» جوابَ الشرط و«ماذا يستعجل منه المجرمون» اعتراضًا فلا يصح أيضًا؛ لمَا ذكرناه من أنَّ جملة الاستفهام لا تقعُ جوابًا للشرط إلَّا ومعها فاءُ الجواب.

وأيضًا فـ«ثم» هنا وهي حرفُ عطفٍ تعطفُ الجملةَ التي بعدها على ما قبلها، فالجملةُ الاستفهاميةُ معطوفةٌ، وإذا كانت معطوفةً لم يصحَّ أن تقع جوابَ شرط.

وأيضاً فـ«أرأيتُم» بمعنى: أخبرني تحتاجُ إلى مفعولٍ، ولا تقعُ جملةُ الشرط موقعَه.

وتقدَّم الكلامُ في قوله: «بياتًا» في «الأعراف»[٣] مدلولًا وإعرابًا، والمعنى: إن

---

(١) من قوله: جواباً للشرط كقولك، إلى هنا ساقط من (د١) والمطبوع.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٤٠.
(٣) عند تفسير الآية (٤) منها.

أتاكم عذابُه وأنتم ساهون غافلون إمَّا بنوم وإمَّا باشتغالٍ بالمعاش والكسب، وهو نظيرُ قوله: «بغتةً»؛ لأنَّ العذاب إذا فاجأ من غيرِ شعورٍ به كان أشدَّ وأصعبَ، بخلافِ أنْ يكون قد استُعِدَّ له وتُهُيِّئَ لحلوله، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧] ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨].

ويجوز في «ماذا» أن يكون «ما» مبتدأً و«ذا» خبرَه وهو بمعنى الذي، و«يستعجل» صلته، وحُذِفَ الضميرُ العائدُ على الموصول، التقدير: أيُّ شيءٍ الذي يستعجلُه من العذاب المجرمون، ويجوزُ في «ماذا» أن يكون كلُّه مفعولًا، كأنه قيل: أيَّ شيءٍ يستعجلُ[1] من العذاب المجرمون.

وقد جوَّز بعضُهم أن يكون «ماذا» كلُّه مبتدأً، وخبره الجملة بعده، وضعَّفه أبو عليٍّ[2] لخلوِّ الجملة من ضميرٍ يعودُ على المبتدأ.

والظاهرُ عَوْدُ الضمير في «منه» على العذاب، وبه يَحْصُلُ الربطُ لجملة الاستفهام بمفعولِ «أرأيتم» المحذوفِ الذي هو مبتدأٌ في الأصل. وقيل: يعود على الله تعالى. و«المجرمون» هم المخاطَبون في قوله: «أرأيتم إن أتاكم»، ونبَّه على الوصف الموجِبِ لترك الاستعجال وهو الإجرامُ؛ لأنَّ مِن حقِّ المجرم أن يخاف التعذيبَ على إجرامه، ويَهْلِكَ فزعًا من مجيئه وإن أبطأ، فكيف يستعجلُه.

و«ثم» حرفُ عطفٍ، وتقدَّمت همزةُ الاستفهام عليها كما تقدَّمت على الواو والفاء في ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [يوسف: ١٠٩، الحج: ٤٦، غافر: ٨٢، محمد: ١٠] وفي ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ﴾ [الروم: ٩، فاطر: ٤٤، غافر: ٢١] وتقدَّم الكلام على ذلك، وخلافُ الزمخشري للجماعة في دعواه أنَّ بَيْنَ الهمزةِ وحرفِ العطفِ جملةً محذوفةً عُطفت عليها الجملةُ التي بعد حرف العطف[3].

---

(١) في النسخ: يستعجله، والمثبت هو الصواب؛ لأن المفعول مذكور وهو: أيَّ شيءٍ. وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٤، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٨، وتفسير القرطبي ١١/ ٦-٧.

(٢) كما في المحرر الوجيز ٣/ ١٢٤.

(٣) ينظر ما سلف عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤]، وقوله: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ﴾ [البقرة: ١٠٠]، وقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣]، وغيرها.

وقال الطبري في قوله: «أثم» بضم الثاء: إنَّ معناه: أهنالك، قال: وليست «ثم» هذه التي تأتي بمعنى العطف[(١)]. انتهى.

وما قاله الطبريُّ من أنَّ «ثم» هنا ليست للعطف دعوى، وأمَّا قوله: إن المعنى: أهنالك. فالذي ينبغي أن يكون ذلك تفسيرَ معنى لا أنَّ «ثم» المضمومةَ الثاءِ معناها معنى هنالك.

وقرأ طلحة بن مصرِّف: «أثَمَّ» بفتح الثاء[(٢)]، وهذا يناسبُه تفسيرُ الطبري: أهنالك.

وقرأ الجمهور: «آلآن» على الاستفهام بالمدِّ، وكذا: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ [يونس: ٩١]، وقرأ طلحةُ والأعرجُ بهمزة الاستفهام بغير مدٍّ[(٣)].

وهو على إضمار القول، أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتُم به، فالناصبُ لقوله: «آلآن» هو «آمنتُم به» وهو محذوفٌ.

قيل: تقول لهم ذلك الملائكةُ. وقيل: الله. والاستفهامُ على طريق التوبيخ.

وفي كتاب «اللوامح»: عيسى البصرةِ وطلحة: «آمنتُم به الآن» بوصل الهمزةِ من غير استفهام، بل على الخبر، فيكونُ نصبُه على الظرف من «آمنتم به» المذكورِ، وأمَّا في العامَّة فنَصْبُه بفعلٍ مضمَرٍ يدلُّ عليه «آمنتم به» المذكورُ؛ لأنَّ الاستفهامَ قد أَخَذَ صَدْرَ الكلام فيَمْنَعُ ما قبله أن يَعْمَلَ فيما بعده. انتهى.

«وقد كنتم» جملةٌ حالية، قال الزمخشري: «وقد كنتُم به تستعجلون» يعني: تكذِّبون؛ لأن استعجالكم كان على جهة التكذيب والإنكار[(٤)].

وقال ابنُ عطية: تستعجلون مكذِّبينَ به[(٥)].

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ١٩١، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٤١، وفيه: لأن استعجالهم كان. . .، وهو الأنسب بالسياق.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٤.

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: تقول لهم خَزَنةُ جهنم هذا الكلامَ، والظلمُ ظلمُ الكفر لا ظلمُ المعصية؛ لأنَّ مَن دخل النار من عصاة المؤمنين لا يَخْلُد فيها، و«ثم قيل» عطفٌ على المضمَر قبل «آلآن»[١]، ومَن قرأ بوصل ألف «الآن» فهو استئنافُ إخبارٍ عمَّا يقال لهم يومَ القيامة. و«هل تجزون» توبيخٌ لهم وتوضيح أنَّ الجزاءَ هو على كسب العبد.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: يستخبرونك، و«أحَقٌّ هو» الضميرُ عائدٌ على العذاب. وقيل: على الشرع والقرآن. وقيل: على الوعيد. وقيل: على أمر الساعة.

والجملةُ في موضع نصبٍ، فقال الزمخشري: فيقولون: «أحقٌّ هو»[٢] فجعل «يستنبئونك» تتعدَّى إلى واحد.

وقال ابن عطية: معناه: يستخبرونك، وهي على هذا تتعدَّى إلى مفعولين: أحدُهما الكافُ، والآخَرُ في الابتداء والخبر[٣]. فعلى ما قال يكون «يستنبئونك» معلَّقةً.

وأصلُ «استنبأ» أنْ يتعدَّى إلى مفعولين أحدُهما بـ«عن»، تقولُ: استنبأتُ زيدًا عن عمرٍو[٤]، أي: طَلَبْتُ منه أنْ يُنْبِئَني عن عمرٍو، والظاهرُ أنها معلَّقةٌ عن المفعول الثاني.

قال ابن عطية: وقيل: هي بمعنى: يَسْتَعْلِمونك، قال: فهي على هذا تحتاجُ إلى مفعولَيْنَ ثلاثةٍ:

---

(١) يعني على ذلك الفعل المقدَّر الناصب لـ«آلآن».
(٢) الكشاف ٢/ ٢٤١، وفيه: «ويستنبئونك»: ويستخبرونك فيقولون...
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٥، وقد جعل الزمخشري أيضاً الفعل بمعنى يستخبرونك كما ذكرت في التعليق السابق، ولكنه مع ذلك جعله متعدياً لواحد، وينظر التعليل في التعليق التالي.
(٤) ولعل هذا هو الذي منع الزمخشريَّ من جعل جملة «أحقٌّ هو» في محل المفعول الثاني لـ«يستنبئونك»، وذلك لأنه لا يصح دخول «عن» عليها، هذا من ناحية اللفظ، وكذلك من ناحية المعنى، فإن الاستفهام لا يُسْأل عنه، وإنما يسأل عن جوابه. فلذلك جعل الجملة في محل نصب مفعول القول المقدر. ينظر روح المعاني ١١/ ١٧٤-١٧٥.

أحدُها الكاف، والابتداءُ والخبرُ سدَّ مسدَّ المفعولين[١]. انتهى.

وليس كما ذكر؛ لأنَّ استَعْلَم لا يُحْفَظُ كونُها متعدِّيةً إلى مفاعيلَ ثلاثةٍ، لا يُحفظ: استَعْلَمْتُ زيدًا عمرًا قائمًا، فتكونَ جملةُ الاستفهام سدَّتْ مسدَّ المفعولين، ولا يلزمُ من كونها بمعنى «يستعلمونك» أن تتعدَّى إلى ثلاثةٍ؛ لأنَّ «استعلم» لا يتعدَّى إلى ثلاثةٍ كما ذكرنا.

وارتفع «هو» على أنه مبتدأٌ و«حقٌّ» خبرُه، وأجاز الحَوْفيُّ وأبو البقاء[٢] أن يكون «حقٌّ» مبتدأً، و«هو» فاعلٌ به سدَّ مسدَّ الخبر، و«حقٌّ» ليس اسمَ فاعلٍ ولا مفعولٍ، وإنما هو مصدرٌ في الأصل، ولا يَبْعُدُ أن يَرْفَعَ لأنه بمعنى: ثابت.

وهذا الاستفهامُ منهم على جهةِ الاستهزاء والإنكار.

وقرأ الأعمش: «آلحقُّ»[٣]، قال الزمخشري[٤]: وهو أَدْخَلُ في الاستهزاء؛ لتضمُّنه معنى التعريضِ بأنه باطلٌ، وذلك أنَّ اللامَ للجنس، فكأنه قيل: أهو الحقُّ لا الباطل، أو: أهو الذي سمَّيْتُموه الحقَّ. انتهى.

وأمَر تعالى نبيَّه أن يقول مجيبًا لهم: «قل إي وربِّي»، أي: نعم وربِّي، و«إي» تُستعمل في القَسَم خاصةً كما تُستعمل «هل» بمعنى «قد» فيه خاصةً، قال معناه الزمخشري، قال: وسمعتُهم يقولون في التصديق: إِيْوَ، فيَصِلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده[٥]. انتهى.

ولا حجَّةَ فيما سمعه الزمخشريُّ من ذلك؛ لعدم الحجِّية في كلامه، لفسادِ كلام العرب إذ ذاك وقبلَه بأزمانٍ كثيرةٍ.

وقال ابن عطية: هي لفظةٌ تتقدَّمُ القَسَمَ، وهي بمعنى: نعم، ويجيءُ بعدها حرفُ القسم وقد لا يجيء، تقول: أي وربِّي، إي ربِّي[٦]. انتهى.

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٥.
(٢) ليس في الإملاء.
(٣) المحتسب ١/ ٣١٢، والكشاف ٢/ ٢٤١، والمحرر ٣/ ١٢٥.
(٤) في الكشاف ٢/ ٢٤١.
(٥) المصدر السابق.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٥.

وقد كان يُكْتَفَى في الجواب بقوله: «إي وربِّي» إلَّا أنه أكَّد بإظهارِ الجملة التي كانت تُضْمَرُ بعد قوله: «إي وربِّي» مَسُوقةً مؤكَّدة بـ«إنَّ» واللام، مبالَغةً في التوكيد في الجواب.

ولمَّا تضمَّن قولُهم: «أحقٌّ هو» السؤالَ عن العذاب، وكان سؤالًا عن العذاب اللَّاحِقِ بهم لا عن مطلق عذابٍ يقع بمن يقع، قيل: «وما أنتم بمعجزين»، أي: فائتينَ العذابَ المسؤولَ عنه، بل هو لاحقٌ بكم.

واحْتَمَلَتْ هذه الجملةُ أن تكونَ داخلةً في جواب القَسَم، فتكون معطوفةً على الجواب قبلها، واحتمل أن تكون إخبارًا معطوفًا على الجملة المَقُولة لا على جواب القسم.

و«أَعْجَزَ» الهمزةُ فيه للتعدية، كما قال: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: ١٢] لكنه كَثُر فيه حذفُ المفعول حتى قالت العرب: أَعْجَزَ فلانٌ، إذا ذهب في الأرض فلم يُقْدَرْ عليه.

وقال الزجَّاج: أي: ما أنتم ممن يُعْجِزُ مَن يعذِّبُكم[1].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ ولـمَّا ذكَر العذابَ وأقسم على حقِّيَّته وأنهم لا يُفْلِتون منه، ذكر بعضَ أحوالِ الظالمين في الآخرة. و«ظَلَمَتْ» صفةٌ لـ«نفس»، والظلمُ هنا: الشركُ والكفرُ. و«افْتَدَى» يأتي مُطاوِعًا لـ«فدى» فلا يتعدَّى؛ تقول: فَدَيْتُه فافْتَدَى، وبمعنى «فَدَى» فيتعدَّى، وهنا يَحتمِلُ الوجهين.

و«ما في الأرض» أي: ما كان لها في الدنيا من الخزائن والأموال والمنافع.

و«أَسَرُّوا» من الأضداد؛ تأتي بمعنى: أَظْهَرَ؛ قال الفرزدق:

ولـمَّا رأى الحجَّاجَ جرَّدَ سيفَه أسرَّ الحَرُوريُّ الذي كان أَضْمَرا[2]

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٥، ولفظه: لستم ممن يُعجز أن يُجازى على كفره.

(٢) في النسخ: أظهرا، والمثبت من المصادر. ينظر العين ٧/ ١٨٧، والأضداد للأصمعي ص٢١، ولأبي حاتم السجستاني ص١١٤، ولابن السكيت ص١٧٦ (وثلاثتها مطبوعة في كتاب واحد)، ولابن الأنباري ص٤٦، وتفسير الطبري ١٦/ ٤٠، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٥، =

وقال آخر:

فـأَسْـرَرْتُ الـنـدامـةَ يـومَ نـادى   بـردِّ جِـمـالِ غـاضِـرةَ الـمُـنـادي(١)

وتأتي بمعنى أَخْفَى، وهو المشهورُ فيها كقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧] ويَحتمِلُ هنا الوجهين:

أمَّا الإظهار فلأنه ليس بيوم تصبُّرٍ ولا تجلُّدٍ، ولا يَقْدِرُ فيه الكافرُ على كتمان ما ناله، ولأنَّ حالةَ رؤية العذاب يتحسَّر الإنسان على اقترافه ما أَوْجَبَه، ويُظْهِرُ الندامةَ على ما فاته من الفوز ومن الخلاص من العذاب، وقد قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

وأمَّا إخفاءُ الندامةِ فقيل: أَخْفَى رؤساؤهم الندامةَ من سَفِلَتهم حياءً منهم وخوفًا من توبيخهم.

وهذا فيه بُعْدٌ؛ لأنَّ مَن عايَنَ العذابَ هو مشغولٌ بما يقاسيه منه فكيف له فِكْرٌ في الحياء أو التوبيخ الواردِ من السَّفِلة.

وأيضًا «وأسرُّوا» عائدٌ على «كلِّ نفسٍ ظلمتْ» على المعنى، وهو عامٌّ في الرؤساء والسَّفِلة.

وقيل: إخفاءُ الندامة هو من كونهم بُهتوا لرؤيتهم ما لم يَحْسِبوه ولا خَطَر ببالهم، ومعايَنَتِهم ما أَوْهَى قُواهم، فلم يُطيقوا عند ذلك بكاءً ولا صُراخًا ولا ما يفعلُه الجازعُ، سوى إسرارِ الندم والحسرة في القلوب، كما يَعْرِضُ لمن يُقَدَّمُ للصَّلْب؛ لا يكاد يَنْبِسُ بكلمةٍ ويبقى مبهوتًا جامدًا.

= وزاد المسير ٤/ ٣٩. قال الأزهري: قال شمر: لم أجد هذا البيت للفرزدق، وما قال غير أبي عبيدة في قوله: «وأسروا الندامة» أي: أظهروها، ولم أسمع ذلك لغيره. اهـ. وقال أبو حاتم: ولا أثق بقوله (يعني أبا عبيدة) في هذا والله أعلم، ولا أثق أيضاً بقول الفرزدق في القرآن، ولا أدري لعله قال: الذي كان أظهرا، أي: كتم ما كان عليه، والفرزدق كثير التخليط في شعره، وليس في قول نظيريه جريرٍ والأخطل شيء من ذلك، فلا أثق به في القرآن.

(١) البيت لكثيِّر عزة، وهو في ديوانه ص١٣٧، وتفسير القرطبي ١١/ ٩.

وأمَّا مَن قال: إنَّ معنى قوله: «وأسرُّوا الندامة»: أَخْلَصوا لِله في تلك الندامةِ، أو بدت بالندامة أسرَّةُ وجوههم، أي: تكاسيرُ جباههم، ففيه بُعْدٌ عن سياق الآية.

والظاهرُ أنَّ قوله: «وقُضي بينهم بالقسط» جملةُ إخبارٍ مستأنَفةٌ وليست معطوفةً على ما في حيِّز «لمَّا» وأنَّ الضمير في «بينهم» عائدٌ على «كلّ نفسٍ ظلمتْ»، وقال الزمخشريُّ: بين الظالمين والمظلومين، دلَّ على ذلك ذِكْرُ الظلم[1]. انتهى.

وقيل: يعود على المؤمن والكافر.

وقيل: على الرؤساء والأتباع.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ قيل: تعلُّقُ هذه الآيةِ بما قبلها من جهةِ أنه فَرَضَ أنَّ النفس الظالمةَ لو كان لها ما في الأرض لافتدت به، وهي لا شيءَ لها البتةَ؛ لأن جميع الأشياء إنما هي بأسرها مِلكٌ لِله تعالى، وهو المتصرِّفُ فيها؛ إذ له المِلْكُ والمُلْكُ.

ويَظْهَرُ أنَّ مناسَبَتَها لِمَا قبلها أنه لمَّا سألوا عمَّا وُعِدوا به من العذاب: «أحقٌّ هو»؟ وأُجيبوا بأنه حقٌّ لا محالةَ، وكان ذلك جوابًا كافيًا لمن وفَّقه الله تعالى للإيمان، كما كان جوابًا للأعرابيِّ حين سأل الرسول ﷺ: آلله أرسلك؟ قولُه عليه السلام له: «اللهم نعم»[2]، فقنع منه بإخباره ﷺ إذ عَلِمَ أنه لا يقول إلَّا الحقَّ والصدق، كما قال هِرَقْلُ: لم يَكُنْ لِيَدَع الكذبَ [على الناس] ويَكْذِبَ على الله[3]. انْتَقَلَ من هذا الجوابِ إلى ذِكْرِ البرهان القاطِعِ على صِحَّته وتقريره بأنَّ القولَ بالنبوَّة والمَعَاد يتفرَّعان على إثبات الإله القادِرِ الحكيم، وأنَّ ما سواه فهو مِلْكُه ومُلْكُه، فعبّر عن هذا بهذه الآية، وكان قد اسْتَقْصَى الدلائلَ على ذلك في هذه السورة في قوله: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الآية [الآية: ٦] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤١.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣)، ومسلم (١٢) من حديث أنس ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس ﷺ، وما بين حاصرتين منهما، وسلف عند تفسير الآية (١٦) من هذه السورة.

ضِيَآءً﴾ [الآية: ٥] فاكْتَفَى هنا عن ذِكْرِها، وإذا كان جميع ما في العالَم مِلْكُه ومُلْكُه كان قادرًا على كلِّ المُمْكِنات، عالِمًا بكلِّ المعلومات، غنيًّا عن جميع الحاجات، منزَّهاً عن النقائص والآفات.

وبكونه قادرًا على الممكنات كان قادرًا على إنزال العذاب على الكفار في الدنيا والآخرة، وقادرًا على تأييد رسوله بالدلائل، وإعلاءِ دينه، فبَطَلَ الاستهزاءُ والتعجيزُ.

وبتنزيهه عن النقائص كان منزَّهًا عن الخُلْفِ والكذب، فثبت أنَّ قوله: «ألَا إنَّ لِلّه ما في السماوات والأرض» مقدِّمةٌ توجِبُ الجَزْمَ بصحة قوله: «ألا إنَّ وَعْدَ الله حق»، و«ألا» كلمةُ تنبيهٍ دخلت على الجملتين تنبيهًا للغافل؛ إذ كانوا مشغولينَ بالنظر إلى الأسباب الظاهرة من نِسْبَةِ أشياءَ إلى أنها مملوكةٌ لمن جُعِلَ له بعضُ تصرُّفٍ فيها واستخلافٍ، ولذلك قال تعالى: «ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون» يعني لغفلتهم عن هذه الدلائلِ، ثم أَتْبَعَ ذلك بذكر قدرته على الإحياء والإماتة فيجب أن يكون قادرًا على إحيائه مرَّةً ثانيةً، ولذلك قال: «وإليه تُرجعون» فترونَ ما وَعَدَ به.

وقرأ الحسن بخلافٍ عنه وعيسى بن عمر: «يرجعون» بالياء على الغيبة(١)، وقرأ الجمهور بالتاء على الخطاب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ قيل: نزلت في قريشٍ الذين سألوا الرسولَ ﷺ: «أحقٌّ هو»، فـ«الناسُ» هنا هم كفارُ قريش(٢).

وقال ابن عطية: هو خطابٌ لجميع العالَم(٣).

ومناسَبةُ هذه الآيةِ لِمَا قبلها أنه تعالى لمَّا ذكر الأدلة على الأُلوهية والوحدانية والقدرةِ ذَكَر الدلائلَ الدَّالَّةَ على صحة النبوَّة، والطريقَ المؤدِّيَ إليها وهو القرآن، والمتصفُ بهذه الأوصافِ الشريفة هو القرآن.

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٥، وهي في القراءات الشاذة ص٥٧ عن الحسن وقتادة.
(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٦.

قال الزمخشري: أي: قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائدِ من موعظةٍ وتنبيهٍ على التوحيد، هو شفاءٌ، أي: دواءٌ لمَا في صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاءٌ إلى الحقِّ، ورحمةٌ لمن آمَنَ به منكم[١]. انتهى.

و«مِن ربِّكم» يحتملُ أن يتعلَّق بـ«جاءتكم» فـ«مِن» لابتداء الغاية، ويحتملُ أن يكون في موضع الصفة، أي: من مواعِظِ ربكم، فيتعلَّقُ بمحذوفٍ فـ«مِن» للتبعيض.

وفي قوله: «مِن ربِّكم» تنبيهٌ على أنه من عند الله ليس من عند أحد، قال ابن عطية: وجَعَلَه موعظةً بحسب الناس أجمعَ، وجَعَلَه هدًى ورحمةً بحسب المؤمنين، وهذا تقسيمٌ صحيحُ المعنى إذا تُؤُمِّلَ بانَ وجهُه[٢]. انتهى.

وذَكَرَ أبو عبد الله الرازي هنا كلامًا كثيرًا ممزوجًا بما يسمُّونه حكمةً، نعلمُ قطعًا أنَّ العرب لا تفهمُ ذلك الذي قرَّره من ألفاظ القرآن، وطوَّل في ذلك، وضرب أمثلةً حسِّيةً يُوَقِّفُ عليها من تفسيره، ثم قال آخِرَ كلامه: فالحاصلُ أنَّ الموعظةَ إشارةٌ إلى تطهير ظواهِرِ الخَلْقِ عمَّا لا ينبغي وهو الشريعةُ، والشفاءَ إشارةٌ إلى تطهير الأرواح عن العقائد الفاسدة والأخلاقِ الذميمة وهو الطريقةُ، والهُدَى إشارةٌ إلى ظهور نور الحق في قلوب الصِّدِّيقين وهو الحقيقةُ، والرحمةَ إشارةٌ إلى كونها بالغةً في الكمال والإشراق إلى حيث تصيرُ تكمِّلُ الناقصين وهي النبوَّة، فهذه درجاتٌ عقليةٌ ومراتبُ برهانيةٌ مدلولٌ عليها بهذه الألفاظ القرآنية لا يمكنُ تأخيرُ ما تقدَّم ذِكْرُه ولا تقديمُ ما تأخَّر ذِكْرُه[٣].

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ قال الزمخشريُّ: عن أبيِّ بنِ كعبٍ أنَّ رسول الله ﷺ قرأ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ فقال: «بكتاب الله والإسلام»، وقيل: فَضْلُه الإسلامُ، ورحمتُه ما وَعَدَ عليه[٤]. انتهى، ولو صحَّ هذا الحديثُ لم يمكن خلافُه[٥].

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤١.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٦، وقوله: تؤمِّل، تحرف في (د١) والمطبوع إلى: تؤول.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ١١٧.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٤٢، وما بين حاصرتين منه، والحديث أخرجه سعيد بن منصور في سننه (١٠٦٢ ـ تفسير)، وينظر التعليق الذي بعده.

(٥) ولم يصح ذلك مرفوعًا، وإن كان قد صح موقوفًا على ابن عباس كما سيرد في آخر هذا

قال ابنُ عباسٍ والحسنُ وقتادةُ وهلال بن يِسافٍ: فضلُ الله: الإسلامُ، ورحمتُه: القرآن. وقال الضحَّاكُ وزيد بن أسلم عكسَ هذا. وقال أبو سعيد الخدريُّ: الفضلُ: القرآن، والرحمة: أنْ جَعَلهم من أهله[1].

وقال ابن عباس فيما روى الضحَّاكُ عنه: الفضل: العلم، والرحمةُ: محمدٌ ﷺ.

وقال ابن عمر: الفضلُ: الإسلام، والرحمة: تزيينُه في القلوب.

وقال مجاهد: الفضلُ والرحمة: القرآن. واختاره الزجَّاج.

وقال خالد بن معدان: الفضل: القرآن، والرحمةُ: السنَّة[2]. وعنه أيضًا: أنَّ الفضل: الإسلام، والرحمة: الستر[3].

= التعليق، فقد أخرجه سعيد بن منصور (١٠٦٢ - تفسير) من حديث أبيٍّ ﷺ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أُمِرْت أن أقرأ عليك القرآن» قال: قلت: سمَّاني لك ربي؟ قال: «نعم»، فتلا: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلتفرحوا هو خيرٌ مما يجمعون»، قال: بكتاب الله وبالإسلام خير مما يجمعون. هذا نص الحديث عند سعيد بن منصور، والصحيح أن المرفوع منه ينتهي عند قول النبي ﷺ: «نعم»، فأما الآية فقد جاء في رواياتٍ أخرى كثيرة التصريح بأن الذي قرأها هو أبيٌّ ﷺ وأنه قرأ فيها «فلتفرحوا» بالتاء. ينظر مصنف ابن أبي شيبة (٣٠٩٣٧)، ومسند أحمد (٢١١٣٧)، وخلق أفعال العباد للبخاري (٥٣٤)، وسنن أبي داود (٣٩٧٩) وشرح معاني الآثار (٥٥٨٧).

ويؤيد ذلك أيضاً أن الحديث أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩) عن أنس بن مالك قال: قال النبي ﷺ لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾» قال: وسمَّاني؟ قال: «نعم»، فبكى.

وأما قوله: بكتاب الله وبالإسلام. . .، فقد أخرجه سعيد بن منصور (١٠٦٣ - تفسير) بإسناد صحيح عن ابن عباس ﷺ قوله، وذلك بإثر الحديث المذكور.

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٢/ ١٩٤-١٩٨، وقول أبي سعيد أخرجه أيضاً سعيد بن منصور (١٠٦٤ ـ تفسير)، ورَوَى عن ابن عباس أيضاً مثل قول الضحاك وزيد بن أسلم كما ذكرت في التعليق السابق.

(٢) ذكر هذه الأقوال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٤٠-٤١. وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٢٥.

(٣) ذكره البغوي ٢/ ٣٥٨، وفيه: السنن، فلعله تصحف على المصنف إلى: الستر، فقد أورده الثعلبي في تفسيره ٣/ ٢٨٨، فجاء فيه: السنة.

وقال عمرو بن عثمان[1]: فضلُ الله: كَشْفُ الغطاء، ورحمتُه الرُّؤية واللقاء.

وقال الحسين بن الفضل: الفضل: الإيمان، والرحمة: الجنة.

وقيل: الفضل: التوفيق، والرحمة: العصمة.

وقيل: الفضل: نعمُه الظاهرةُ، والرحمةُ: نعمُه الباطنةُ.

وقال الصادق: الفضلُ: المغفرةُ، والرحمة: التوفيق.

وقال ذو النون: الفضل: الجِنان، ورحمتُه: النجاة من النيران[2].

وهذه تخصيصات تحتاج إلى دلائل، وينبغي أن يُعْتَقَدَ أنها تمثيلاتٌ؛ لا أنَّ الفضل والرحمة أُريدَ بهما تعيينُ ما ذُكر وحَصْرُهما فيه.

وقال ابن عطية[3]: وإنما الذي يقتضيه اللفظُ ويلزمُ منه أنَّ الفضل هو هدايةُ الله إلى دينه والتوفيقُ إلى اتِّباع الشرع، والرحمةَ هي عَفْوُه وسُكْنَى جَنَّتِه التي جعلها جزاءً على اتِّباع الإسلام والإيمان[4]، ومعنى الآية: قل يا محمدُ لجميع الناس: بفضل الله وبرحمته فَلْيَقَعِ الفرحُ منكم لا بأمور الدنيا وما يُجْمَعُ من حُطامها، فالمؤمنون يقال لهم: فليفرحوا، وهم مُلْتَبِسون بعلَّة الفرح وسببِه، ومخلصون[5] لفضل الله منتظرون لرحمته، والكافرون يقال لهم: بفضل الله ورحمته فليفرحوا، على معنى: أنْ لو اتَّفق لكم أو لو سُعِدْتُم بالهداية إلى تحصيل ذلك. انتهى.

والظاهرُ أن قوله: «قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا» جملتان، وحُذِفَ ما تتعلَّق به الباءُ، والتقدير: قل بفضل الله وبرحمته لِيَفْرَحوا، ثم عُطِفَتِ الجملةُ

---

(١) لعله أبو عبد الله المكي الزاهد شيخ الصوفية، توفي سنة (٢٩٧هـ) وقيل غير ذلك. ينظر حلية الأولياء ١٠/ ٢٩١، وطبقات المحدثين بأصبهان ٣/ ٤٥٧، وتاريخ الإسلام ٢٢/ ٢١٦. ووقع اسمه في تفسير الثعلبي ٣/ ٢٨٩ (وقد ذكر هذا القول عنه): عمر بن عثمان الصدفي، ولم أقف عليه.

(٢) ذكر هذه الأقوال عدا قول الصادق الثعلبي في تفسيره ٣/ ٢٨٨-٢٨٩.

(٣) في المحرر ٣/ ١٢٦.

(٤) في مطبوع المحرر: على التشرع بالإسلام والإيمان به.

(٥) في مطبوع المحرر: ومحصِّلون.

الثانيةُ على الأولى على سبيل التوكيد؛ قال الزمخشريُّ: والتكريرُ للتقريرِ والتأكيدِ وإيجابِ اختصاصِ الفضلِ والرحمةِ بالفرحِ دون ما عَدَاهما من فوائد الدنيا، فحُذِفَ أحدُ الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاءُ داخلةٌ لمعنى الشرط، كأنه قيل: إنْ فرحوا بشيءٍ فلْيَخصُّوهما بالفرح فإنه لا مَفْروحَ به أحقُّ منهما، ويجوزُ أن يراد: بفضل الله وبرحمته فليَعْتَنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوزُ أن يراد: قد جاءتكم موعظةٌ بفضل الله وبرحمته فبذلك ـ أي: فبمجيئها ـ فليَفْرحوا[1]. انتهى.

أمَّا إضمارُ: فليعتنوا، فلا دليلَ عليه، وأمَّا تعليقُه بقوله: «قد جاءتكم» فينبغي أن يقدَّر ذلك محذوفًا بعد «قل»، ولا يكونُ متعلِّقًا بـ«جاءتكم» الأولى للفصل بينهما بـ«قل».

وقال الحَوْفي: الباءُ متعلِّقةٌ بما دلَّ على[2] المعنى، أي: قد جاءتكم الموعظةُ بفضل الله.

وقيل: الفاءُ الأولى زائدةٌ، ويكون «بذلك» بدلًا ممَّا قبله، وأُشير به إلى الاثنين: الفضل والرحمة.

وقيل: كُرِّرت الفاءُ الثانيةُ للتوكيد. فعلى هذا لا تكونُ الأولى زائدةً، ويكونُ أصلُ التركيب: فبذلك لِيَفْرحوا، وفي القولِ قبلَه يكونُ أصل التركيب: بذلك فليفرحوا.

ولا تَنَافيَ بين الأمر بالفرح هنا وبين النهي عنه في قوله: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦] لاختلاف المتعلَّق، فالمأمورُ به هنا: الفرحُ بفضل الله وبرحمته، والمنهيُّ هنا: الفرحُ بجمع الأموال لرئاسة الدنيا وإرادةِ العلوِّ بها[3] والفسادِ والأَشَرِ، ولذلك جاء بعده ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [القصص: ٧٧]، وقبله: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٢، ووقع في النسخ: فبمجيئهما، والمثبت من الكشاف.
(٢) كذا في النسخ، والذي في الدر المصون ٦/ ٢٤ نقلاً عن الحوفي: عليه، وهو الأنسب بالسياق.
(٣) في (يه): فيها.

عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦]، وقولُه: ﴿لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠] جاء ذلك على سبيل الذمِّ لفَرَحِه بإذاقةِ النَّعْماءِ بعد الضرَّاء، وبأسِهِ وكُفْرانِه للنعماء إذا نزعت منه، وهذه صفةٌ مذمومةٌ وليس ذلك من أفعال الآخرة.

وقولُ مَن قال: إنه إذا أُطْلِقَ الفرحُ كان مذمومًا، وإذا قُيِّد لم يكن مذمومًا، كما قال: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠] = ليس بمطَّرِدٍ، إذ جاء مقيَّدًا في الذمِّ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] وإنما يُمدحُ الفرحُ ويُذمُّ بحَسَبِ متعلَّقه، فإذا كان بنَيْلِ ثوابِ الآخرة وأعمالِ البِرِّ كان محمودًا، وإذا كان بنيلِ لذَّاتِ الدنيا وحُطامها كان مذمومًا.

وقرأ عثمان بن عفَّان وأُبيٌّ وأنسٌ والحسنُ وأبو رجاءٍ وابنُ هُرْمُز وابنُ سِيرينَ وأبو جعفر المدني والسُّلميُّ وقتادةُ والجحدريُّ وهلال بن يِساف والأعمش وعمرو بن فائد والعباسُ بنُ الفضل الأنصاريُّ: «فلْتَفْرحوا» بالتاء على الخطاب[(١)]، ورُويت عن النبيِّ ﷺ[(٢)]؛ قاله صاحب «اللوامح»، وقال: وقد جاء عن يعقوبَ كذلك[(٣)]. انتهى.

وقال ابنُ عطيةَ: وقرأ أبيٌّ، وابنُ القَعْقَاع، وابنُ عامرٍ، والحسن على ما زعم هارون، ورُويت عن النبيِّ ﷺ: «فلتفرحوا» و«تجمعون» بالتاء فيهما على المخاطبة، وهي قراءةُ جماعةٍ من السَّلَفِ كثيرةٍ، وعن أكثرهم خلافٌ[(٤)]. انتهى.

والجمهورُ بالياء على أمرِ الغائب، وما نقله ابنُ عطية أنَّ ابنَ عامرٍ قرأ: «فلتفرحوا» بالتاء ليس هو المشهورَ عنه، إنما قراءتُه في مشهور السبعة بالياء أمرًا للغائب، لكنه قرأ «تجمعون» بالتاء على الخطاب وباقي السبعة بالياء[(٥)] وفي

---

(١) المحتسب ١/ ٣١٣، وهي خلاف المشهور عن أبي جعفر، لكنها مروية في العشرة عن يعقوب كما سيرد.
(٢) سلف الكلام عليه قريبًا، وأن الصحيح أنها عن أبيّ ﷺ، وإن كان لها حكم المرفوع.
(٣) هي رواية رويس عنه. النشر ٢/ ٢٨٥.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٦. وابن القعقاع هو يزيد أبو جعفر أحد القراء العشرة، وهارون هو ابن موسى، أبو عبد الله الأعور العتكي.
(٥) السبعة ص٣٢٧-٣٢٨، والتيسير ص١٢٢.

مصحف أبيٍّ: «فبذلك فافْرَحوا»[(١)]، وهذه هي اللغةُ الكثيرةُ الشهيرةُ في أمر المخاطَب، وأمَّا «فلتفرحوا» بالتاء[(٢)] فهي لغةٌ قليلةٌ، وفي الحديث: «لتأخُذُوا مَصَافَّكم»[(٣)].

وقرأ أبو التَّيَّاح والحسن: «فلِيَفْرحوا» بكسر اللام[(٤)].

ويدلُّ على أنَّ «ذلك» أُشيرَ به إلى واحدٍ عَوْدُ الضميرِ عليه موحَّدًا في قوله: «هو خيرٌ ممَّا يجمعون»، فالذي ينبغي أنَّ قوله تعالى: «بفضل الله وبرحمته» على أنهما شيءٌ واحدٌ عُبِّر عنه باسْمَيْنِ على سبيل التأكيد، ولذلك أُشيرَ إليه بـ«ذلك» وعاد الضميرُ عليه مفردًا.

وقوله: «ممَّا يجمعون» يعني: من حطام الدنيا ومتاعِها.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ مناسَبةُ هذه الآيةِ لمَا قبلها هي أنه لمَّا ذكر تعالى: «قل يا أيها الناسُ قد جاءتكم موعظة»، وكان المرادُ بذلك كتابَ الله المشتمِلَ على التحليل والتحريم، بيَّن فسادَ شرائعهم وأحكامِهم من الحلال والحرام من غير مستنَدٍ في ذلك إلى وحي.

و«أرأيتم» هنا بمعنى: أخبِروني، وجوَّزوا في «ما أَنْزَلَ» أن تكون «ما» موصولةً مفعولًا أولَ لـ«أرأيتم» والعائدُ عليها محذوفٌ، والمفعولُ الثاني قولُه: «آلله أذن لكم» والعائدُ على المبتدأ من الخبر محذوفٌ تقديره: آللهُ أذِنَ لكم فيه، وكرِّر «قل» قبل

---

(١) المحتسب ١/ ٣١٣.

(٢) في المطبوع: فليفرحوا بالياء، وهو خطأ. ينظر الحجة للفارسي ٤/ ٢٨٢، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٦.

(٣) أورده بهذا اللفظ الفرَّاء في معاني القرآن ١/ ٤٧٠، والثعلبي في التفسير ٣/ ٢٨٩، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٤٢ (وتحرفت فيه «مصافكم» إلى: مضاجعكم)، والقرطبي ١١/ ١١. وهو قطعة من حديث معاذ ﷺ عند أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥) لكن بلفظ: «على مصافكم كما أنتم» فلا شاهد فيه، ويغني عنه حديث جابر ﷺ عند مسلم (١٢٩٧)، ولفظه: «لتأخذوا عني مناسككم...».

(٤) القراءات الشاذة ص٥٧ عن الحسن وابن أبي إسحاق.

الخبر على سبيل التوكيد. وأن تكون «ما» استفهاميةً منصوبةً بـ«أنزل»؛ قاله الحوفيُّ والزمخشري[١].

وقيل: «ما» استفهاميةٌ مبتدَأة، والضميرُ من الخبر محذوفٌ تقديره: آلله أذِنَ لكم فيه أو به، وهذا ضعيفٌ؛ لحذف هذا العائد.

وجَعْلُ «ما» موصولةً هو الوجهُ؛ لأنَّ فيه إبقاءَ «أرأيت» على بابها من كونها تتعدَّى إلى الأول فتؤثِّرُ فيه، بخلافِ جَعْلها استفهاميةً فإنَّ «أرأيت» إذ ذاك تكون معلَّقةً، وتكونُ «ما» قد سدَّت مسدَّ المفعولين.

والظاهِرُ أنَّ «أم» متصلةٌ، والمعنى: أخبروني آلله أذِنَ لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تَكْذِبون على الله في نسبة ذلك إليه، فنبَّه بتوقيفهم على أحد القسمين، وهم لا يمكنُهم ادِّعاءُ إذْنِ الله في ذلك، فثَبَتَ افتراؤهم.

وقال الزمخشري: ويجوزُ أن تكونَ الهمزةُ للإنكار و«أم» منقطعةً بمعنى: بل أتفترون على الله، تقريرًا للافتراء[٢]. انتهى.

و«أَنْزَلَ» هنا قيل: معناه: خَلَقَ، كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥]، ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

وقيل: «أَنْزَلَ» على بابها، وهو على حذف مضافٍ، أي: من سبب رزق وهو المطر.

وقال ابن عطية: «أَنْزَل» لفظةٌ فيها تجوُّزٌ، وإنزالُ الرزق إمَّا أن يكون في ضمن إنزال المطر بالمآل، أو نزول الأمر به الذي هو ظهورُ الأثر في المخلوق منه المخترع[٣].

والمجعولُ حرامًا وحلالًا؛ قال مجاهد: هو ما حكموا به من تحريم البَحِيرة والسائبةِ والوصيلةِ والحام. وقال الضَّحَّاك: هو إشارةٌ إلى قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦][٤].

(١) في الكشاف ٢/ ٢٤٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٧.
(٤) أخرجهما الطبري ١٢/ ٢٠٢ و٢٠٣.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾ «ما» استفهاميةٌ مبتدأةٌ خبرها «ظنُّ»، والمعنى: أيُّ شيءٍ ظنُّ المفترينَ يومَ القيامة، أَبْهَمَ الأمرَ على سبيل التهديد والإيعاد، يومَ يكونُ الجزاءُ بالإحسان والإساءة، و«يومَ» منصوبٌ بـ«ظنُّ» ومعمولُ الظنِّ قيل: تقديره: ما ظنُّهم أنَّ الله فاعلٌ بهم أَيُنْجيهم أم يعذِّبُهم.

وقرأ عيسى بن عُمر: «وما ظنَّ» جَعَلَه فعلًا ماضيًا[1]، أي: أيُّ ظنٍّ ظنَّ الذين يفترون، فـ«ما» في موضع نصبٍ على المصدر، و«ما» الاستفهاميةُ قد تنوبُ عن المصدر، تقول: ما تَضْرِبُ زيدًا؟ تريد: أيَّ ضَرْبٍ تضربُ زيدًا. وقال الشاعر:

ماذا يَغِيرُ ابْنَتَيْ رِبْعٍ عَوِيلُهما لا تَرْقُدان ولا بُؤسَى لمن رَقَدَا[2]

وجيءَ بلفظ «ظنَّ» ماضيًا لأنه كائنٌ لا محالةَ فكأنْ قد كان، والأَوْلَى أن يكون «ظنَّ» في معنى: يظنُّ؛ لكونه عاملًا في «يوم القيامة»، وهو ظرفٌ مستقبَلٌ.

وفضلُه تعالى على الناس حيث أَنْعَمَ عليهم ورَحِمَهم، فأَرْسَلَ إليهم الرسلَ وفصَّل لهم الحلالَ والحرامَ، وأكثرُهم لا يشكر هذه النعمة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦١﴾ مناسَبةُ هذه الآيةِ لمَا قبلها: أنه تعالى لمَّا ذَكَر جملةً من أحوال الكفار ومذاهبهم والردِّ عليهم ومحاورةِ الرسول ﷺ لهم، وذكر فَضْلَه تعالى على الناس وأنَّ أكثرهم لا يشكرُه على فضله، ذكر تعالى اطِّلاعَه على أحوالهم وحالِ الرسول معهم في مجاهَدَته لهم وتلاوةِ القرآن عليهم، وأنه تعالى عالمٌ بجميع أعمالهم، واستَطْردَ من ذلك إلى ذكر أولياء الله تعالى ليَظْهَرَ التفاوتُ بين الفريقين: فريقِ الشيطان وفريقِ الرحمن.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والكشاف ٢/ ٢٤٢.

(٢) البيت لعبد مناف بن رِبْع الجُرَبي من شعراء هذيل في الجاهلية، وهو في ديوان الهذليين ٢/ ٣٨، وسلف عند تفسير الآية (١٠٩) من سورة المائدة.

والخطابُ في قوله تعالى: «وما تكونُ في شأنٍ وما تتلو» للرسول ﷺ، وهو عامٌّ لجميع شؤونه عليه السلام، و«ما تتلو» مندرجٌ تحت عموم «شأنٍ»، وانْدَرَجَ من حيث المعنى في الخطاب كلُّ ذي شأنٍ، و«ما» في الجملتين نافيةٌ، والضميرُ في «منه» عائدٌ على «شأنٍ»، و«من قرآنٍ» تفسيرٌ للضمير، وخُصَّ من العموم لأنَّ القرآن هو أعظمُ شؤونه عليه السلام.

وقيل: يعود على التنزيل، وفسِّر بالقرآن لأنَّ كلَّ جزءٍ منه قرآنٌ، وأُضمر قبل الذِّكر على سبيل التفخيم له.

وقيل: يعود على الله تعالى، أي: وما تتلو من عند الله من قرآن.

والخطابُ في قوله: «ولا تعملون» عامٌّ، وكذا «إلَّا كنَّا عليكم شهودًا»، ووَليَ «إلَّا» هنا الفعلُ غيرَ مصحوبٍ بـ«قد» لأنه قد تقدَّم «إلَّا» فعلٌ، والجملةُ بعد «إلَّا» حالٌ، و«شهودًا»: رُقَباء نُحصي عليكم، «وإذ» معمولةٌ لقوله: «شهودًا»، ولمَّا كانت الأفعالُ السابقةُ المرادُ بها الحالةُ الدائمةُ وتنسحبُ على الأفعال الماضية، كان الظرفُ ماضيًا، وكان المعنى: وما كنتَ في شأنٍ وما تَلَوْتَ من قرآنٍ ولا عملتُم من عملٍ إلَّا كنَّا عليكم شهودًا إذ أفضتُم فيه، و«إذ» تخلِّصُ المضارعَ لمعنى الماضي.

ولمَّا كان قولُه: «إلَّا كنا عليكم شهودًا» فيه تحذيرٌ وتنبيهٌ عُدِلَ عن خطابه ﷺ إلى خطاب أمَّتِه بقوله: «ولا تعملون من عملٍ» وإنْ كان الله شهيدًا على أعمال الخلق كلِّهم.

و«تُفيضون»: تخوضون، أو تَنْشُرون، أو تدفعون، أو تَنْهَضون، أو تأخذون، أو تنقلون، أو تتكلَّمون، أو تَسعَوْن، أقوالٌ متقارِبةٌ.

ثم واجَهَه تعالى بالخطاب وحده في قوله: «وما يَعْزُبُ عن ربِّك» تشريفًا له وتعظيمًا.

ولمَّا ذكر شهادتَه تعالى على أعمال الخلق ناسَبَ تقديمُ الأرض التي هي محلُّ المخاطَبين على السماء، بخلافِ ما في سورة سبأ[1]، وإن كان الأكثرُ تقديمَها على الأرض.

---

(١) الآية (٣) منها.

وقرأ ابن وثّاب والأعمشُ وابنُ مصرِّفٍ والكسائيُّ «يَعْزِب» بكسر الزاي، وكذا في «سبأ»[1].

والمثقالُ اسمٌ لا صفةٌ، ومعناه هنا: وزنُ ذرةٍ، والذَّرُّ: صغارُ النمل، ولمَّا كانت الذرةُ أصغرَ الحيوان المتناسِلِ المشهورِ النوعِ عندنا جَعَلها الله مثالًا لأقلِّ الأشياء وأحقرِها؛ إذ هي أحقرُ ما نشاهِدُ، ثم قال: «ولا أصغرَ من ذلك»، أي: من مثقالِ ذرَّةٍ، ولمَّا ذَكَر تعالى أنه لا يَغيبُ عن عِلْمِه أدقُّ الأشياء التي نشاهِدُها ناسَبَ تقديمُ «ولا أصغَرَ من ذلك»، ثم أتى بقوله: «ولا أكْبَرَ» على سبيل إحاطة علمه بجميع الأشياء، ومعلومٌ أنَّ مَن عَلِمَ أدقَّ الأشياء وأخفاها كان عِلْمُه متعلِّقًا بأكبر الأشياء وأظهرِها.

وقرأ الجمهور: «ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ» بفتح الراء فيهما، ووجِّه على أنه عطفٌ على «ذرة»، أو على «مثقال» على اللفظ، وقرأ حمزةُ وحده برفع الراء فيهما[2]، ووجِّه على أنه عطفٌ على موضع «مثقال»؛ لأنَّ «مِن» زائدةٌ فهو مرفوعٌ بـ«يَعْزُب»، هكذا وجَّهه الحَوْفيُّ وابنُ عطيةَ وأبو البقاء[3].

وقال الزمخشري[4] تابعًا لاختيار الزجَّاج: والوجهُ النصبُ على نفي الجنس، والرفعُ على الابتداء يكون كلامًا مبتدأ[5]، وفي العطف على محلِّ «مثقال ذرةٍ»، أو لَفْظِه فتحًا في موضع الجرِّ، إشكالٌ؛ لأنَّ قولك: لا يَعزُبُ عنه شيءٌ إلا في كتابٍ، مُشْكِلٌ. انتهى.

---

(١) السبعة ص٣٢٨، والتيسير ص١٢٢ عن الكسائي.

(٢) المصدران السابقان.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٨، والإملاء ٢/ ٣٠.

(٤) في الكشاف ٢/ ٢٤٣.

(٥) كذا في النسخ، والذي في الكشاف: والرفع على الابتداء ليكون كلامًا برأسه، وهو الأنسب للسياق. وهذا الوجه قد ذكره الزجاج مجيزًا له بعد أن ابتدأ بوجه العطف على لفظ «مثقال» في قراءة النصب، وعلى محله في قراءة الرفع، ولم يذكر اختيارًا في ذلك. ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦، وحجة القراءات لابن زنجلة ص٣٣٤، وزاد المسير ٤/ ٤٣، وتفسير القرطبي ١١/ ١٥. ووقع في مطبوع معاني القرآن سقط ظاهر يستدرك مما ذكر من المصادر.

وإنما أَشْكَلَ عنده لأن التقدير يصير: إلا في كتابٍ فَيَعْزُبُ، وهذا كلامٌ لا يصحُّ، وخرَّجه أبو البقاء على أنه استثناءٌ منقطعٌ، تقديره: لكنْ هو في كتاب مُبين[١]، ويزولُ بهذا التقديرِ الإشكالُ.

وقال أبو عبد الله الرازي[٢]: أجاب بعضُ المحقِّقين من وجهين:

أحدهما: أنَّ الاستثناء منقطعٌ.

والآخر: أنَّ العزوبَ عبارةٌ عن مُطْلَق البُعْد، والمخلوقاتُ قِسْمٌ أَوْجَدَه الله ابتداءً من غير واسطةٍ كالملائكة والسماوات والأرض، وقسمٌ أوجده بواسطةِ القسم الأول مثل الحوادث الحادثة في عالَم الكون والفساد[٣]، وهذا قد يتباعَدُ في سلسلة العلِّية والمعلوليَّة[٤] عن مرتبة وجود واجبِ الوجود، فالمعنى: لا يَبْعُدُ عن مرتبة وجوده مثقالُ ذرةٍ في الأرض ولا في السماء إلا وهو في كتابٍ مبينٍ كَتَبَه الله وأثبت صورَ تلك المعلومات فيه[٥]. انتهى، وفيه بعضُ تلخيصٍ.

وقال الجُرجاني صاحبُ «النظم»[٦]: «إلَّا» بمعنى الواو، أي: وهو في كتابٍ مبينٍ[٧]، والعربُ تضع «إلَّا» موضع واو النسق، كقوله: «إلَّا من ظلم» [النمل: ١١] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]. انتهى وهذا قولٌ ضعيفٌ؛ لم يَثْبُتْ من لسان العرب وضعُ «إلَّا» موضعَ الواو، وتقدَّم الكلامُ على قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ وسيأتي على قوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) الإملاء ٢/ ٣٠.

(٢) في تفسيره ١٧/ ١٢٤.

(٣) الكون: الخروج من العدم إلى الوجود، والفساد عكسه. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي ٤/ ١٥٤.

(٤) في النسخ والمطبوع: والمملوكية، والمثبت من تفسير الرازي، ومثله في حاشية الشهاب على البيضاوي ٥/ ٤٤، وروح المعاني ١١/ ١٩٧، نقلاً عن الرازي.

(٥) في النسخ: فيها، والمثبت من المصادر السابقة. وقال الشهاب: وهذا وجهٌ دقيق إلا أنه أشبه بتدقيقات الحكماء؛ لبُعْده عن أسلوب العربية.

(٦) هو أبو علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني الجماجمي، وكلامه في تفسير الرازي ١٧/ ١٢٤، وتفسير القرطبي ١١/ ١٥.

(٧) أي: أن الكلام قد تم وانقطع عند قوله: «ولا أكبر» ثم وقع الابتداء بكلام آخر، وهو قوله: «إلا في كتاب مبين»، أي: وهو أيضاً في كتاب مبين. تفسير الرازي ١٧/ ١٢٤.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ «أولياء الله»: هم الذين يتولَّونه بالطاعة ويتولَّاهم بالكرامة، وقد فسَّر ذلك في قوله: «الذين آمنوا وكانوا يتقون»[١].

وعن سعيد بن جبير: أنَّ رسول الله ﷺ سُئل عن «أولياء الله» فقال: «هم الذين يذكِّرون الله برؤيتهم»[٢] يعني السَّمْتَ والهيئةَ.

وعن ابن عباس: الإخباتُ والسكينة[٣].

وقيل: هم المتحابُّون في الله.

قال ابن عطية: وهذه الآيةُ يعطي ظاهرُها أنَّ مَن آمَنَ واتَّقَى فهو داخلٌ في أولياء الله، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعةُ في الوليِّ، وإنما نبَّهنا هذا التنبيهَ حَذَرًا من مذهب الصوفية وبعضِ الملحِدِينَ في الوليّ[٤]. انتهى.

وإنما قال: حَذَرًا من مذهب الصوفية، لأنَّ بعضهم نُقِلَ عنه أنَّ الوليَّ أفضلُ من النبيِّ، وهذا لا يكادُ يَخْطُر في قلب مسلمٍ، ولابْنِ العربي الطائي كلامٌ في الوليِّ[٥] وفي غيره نعوذُ بالله منه.

وعن عمر بن الخطاب ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من عباد الله عبادًا

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٣.
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٥٤٧٧)، والطبري ١٢/ ٢٠٩ بلفظ: «الذين يُذكر الله لرؤيتهم» وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٢١٧)، والطبري ١٢/ ٢١٠ بلفظ: «الذين إذا رُؤوا ذكر الله». وروي مرفوعًا باللفظين من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ، أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٧١)، والبزار (٣٦٢٦ ـ كشف)، والطبري ١٢/ ٢٠٩، والطبراني في الكبير (١٢٣٢٥)، وابن صاعد في زياداته على الزهد لابن المبارك (٢١٨)، وإسناد المرسل أصح، لكن هذا الوصف لأولياء الله ثابت بأحاديث أخرى. ينظر مسند أحمد (١٧٩٩٨)، ومجمع الزوائد ٨/ ٩٣ و١٠/ ٧٨.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٤٣.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٨.
(٥) كقوله في لطائف الأسرار ص٤٩:

سماءُ النبوة في برزخٍ دُوَيْنَ الوليّ وفوق الرسول

ما هم بأنبياءَ ولا شهداءَ يَغْبطُهم الأنبياءُ والشهداء بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله، ومَن هم؟ قال: «قومٌ تحابُّوا بروح الله على غيرِ أرحامٍ ولا أموالٍ يتعاطَوْنها، فوالله إنَّ وجوههم لنورٌ، وإنَّهم لعَلَى منابرَ من نورٍ، لا يخافون إذا خاف الناسُ، ولا يحزنون إذا حَزِنَ الناس» ثم قرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ الآية[١].

وتقدَّم تفسير «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[٢].

و«الذين» يحتمل أن يكون منصوبًا على الصفة؛ قاله الزمخشريُّ[٣]، أو على البدل؛ قاله ابنُ عطية[٤]، أو بإضمارِ: أمدحُ. ومرفوعًا على إضمار: هم، أو على الابتداء، والخبرُ: «لهم البشرى»، وأجاز الكوفيون رفعَه على موضع «أولياء» نعتًا أو بدلًا، وأُجيزَ فيه الجرُّ بدلًا من ضمير «عليهم».

وفي قوله: «وكانوا يتقون» إشعارٌ بمصاحَبَتهم للتقوى مدةَ حياتهم، فحالُهم في المستقبل كحالهم في الماضي.

وبُشراهم في الحياة الدنيا تظاهَرَتِ الرواياتُ عن رسول الله ﷺ أنها الرؤيا الصالحةُ يراها المؤمنُ أو تُرَى له، فسَّرها بذلك وقد سُئل[٥]. وعنه ﷺ في «صحيح» مسلم: «لم يَبْقَ من المبشِّرات إلَّا الرؤيا الصالحة»[٦].

وقال قتادة والضحاك: هي ما يُبَشَّرُ به المؤمنُ عند موته وهو حيٌّ عند المعايَنَة[٧].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٢٧)، والطبري ١٢/ ٢١١-٢١٢، وفي الباب عن أبي هريرة ﷺ، أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٧٢)، والطبري ١٢/ ٢١١، وصححه ابن حبان (٥٧٣).
(٢) عند تفسير الآية (٣٨) من سورة البقرة.
(٣) في الكشاف ٢/ ٢٤٣.
(٤) في المحرر ٣/ ١٢٨.
(٥) أخرجه أحمد (٢٢٦٨٧)، والدارمي (٢١٣٦)، والترمذي (٢٢٧٥)، وابن ماجه (٣٨٩٨) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وأخرجه الترمذي (٣١٠٦) من حديث أبي الدرداء ﷺ.
(٦) صحيح مسلم (٤٧٩)، من حديث ابن عباس ﷺ، ولفظه: «إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة...»، ونحوه في البخاري (٦٩٩٠) من حديث أبي هريرة.
(٧) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٩، وأخرجه عنهما بنحوه الطبري ١٢/ ٢٢٤-٢٢٥.

وقيل: هي محبةُ الناسِ له والذِّكْرُ الحَسَن.

وسُئل رسولُ الله ﷺ عن الرجل يعملُ العملَ لله ويُحبُّه الناسُ، فقال: «تلك عاجِلُ بُشْرَى المؤمن»[١].

وعن عطاءٍ: «لهم البشرى» عند الموت تأتيهم الملائكةُ بالرحمة، قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الآية [فصلت: ٣٠][٢].

قال ابن عطية: ويصحُّ أن تكون بشرى الدنيا في القرآن من الآيات المبشِّرات، ويقوِّي ذلك قولُه في هذه الآية: «لا تبديل لكلمات الله»، وإن كان ذلك كلُّه يعارِضُه قولُ النبيِّ ﷺ: «هي الرؤيا»، إلَّا إنْ قلنا: إنَّ النبيَّ ﷺ أعطى مثالًا من البشرى، وهي تعمُّ جميع البشر[٣].

وبُشْراهم في الآخرة تلقِّي الملائكةِ إياهم مُسلِّمين مبشِّرين بالفوز والكرامة، وما يَرَوْنَ من بياض وجوههم، وإعطاء الصحف بأيمانهم، وما يقرؤون منها، وغيرُ ذلك من البشارات «لا تبديلَ لكلمات الله»، أي: لا تغيير لأقواله، ولا خُلْفَ في مواعيده، كقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٩][٤].

والظاهرُ أنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى التبشير، و«البشرى» في معناه. قال الزمخشري: «وذلك» إشارةٌ إلى كونهم مبشَّرين في الدارين[٥].

وقال ابن عطية: إشارةٌ إلى النعيم الذي به وقعت البشرى[٦].

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ إمَّا أن يكونَ «قولُهم» أُرِيدَ به بعضُ أفراده، وهو التكذيبُ والتهديدُ وما يتشاوَرون به في أمر

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٣، وأخرجه مسلم (٢٦٤٢)، وابن ماجه (٤٢٢٥) واللفظ له، ولفظ مسلم: . . . يعمل العمل من الخير ويحمد الناس عليه. . .

(٢) الكشاف ٢/ ٢٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٩.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٤٣.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٩.

الرسول ﷺ، فيكون من إطلاق العامِّ وأُريدَ به الخاصُّ، وإمَّا أن يكون ممَّا حُذفت منه الصفةُ المخصِّصة، أي: قولُهم الدالُّ على تكذيبك ومُعانَدَتك، ثم استأنف بقوله: «إنَّ العزَّة لله جميعًا»، أي: لا عزَّةَ لهم ولا منعةَ، فهم لا يقدرون لك على شيءٍ ولا يُؤذونك، إنَّ الغلبة والقَهْرَ لله، وهو القادرُ على الانتقام منهم، فلا يعازُّه شيءٌ ولا يغالبُه، وكأنَّ قائلًا قال: لِمَ لا يَحْزُنه قولُهم وهو ممَّا يُحْزِنُ؟ فقيل: إنَّ العزَّةَ لله جميعًا ليس لهم منها شيءٌ.

وقرأ أبو حَيْوةَ: «أنَّ العزَّةَ» بفتح الهمزة[1]، وليس معمولًا لـ«قولهم»؛ لأنَّ ذلك لا يُحْزِنُ الرسولَ ﷺ؛ إذ هو قولٌ حقٌّ، وخُرِّجت هذه القراءةُ على التعليل، أي: لا يَقَعْ منك حُزْنٌ لمَا يقولون؛ لأَجْلِ أنَّ العزة لله جميعًا.

ووجِّهت أيضًا على أنْ يكونَ «أنَّ العزة» بدلٌ من «قولهم»، ولا يظهرُ هذا التوجيهُ، قال الزمخشري: ومَن جَعَله بدلًا من «قولهم» ثم أنكره فالمنكَرُ هو تخريجُه لا ما أنكره من القراءة[2].

وقال القاضي: فَتْحُها شاذٌّ يقارِبُ الكفر، وإذا كُسِرَتْ كان استئنافًا، وهذا يدلُّ على فضيلة علم الإعراب[3].

وقال ابنُ قُتيبةَ: لا يجوزُ فتح «إنَّ» في هذا الموضع، وهو كفرٌ وغلوٌّ[4] وإنما قال القاضي وابنُ قُتيبةَ ذلك بناءً منهما على أنَّ «أنَّ» معمولةٌ لـ«قولهم»[5]، وقد

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والكشاف ٢/ ٢٤٤.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٤٤.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ١٣٠، وفيه: فتحها فساد. . .، والقاضي هو عبد الجبار المعتزلي.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٩، وقول ابن قتيبة فيهما ينتهي عند كلمة: كفر، ثم تعقبه ابن عطية بقوله: وقوله: هو كفر، غلوٌّ.

(٥) كذا قال المصنف رحمه الله، وفي هذا الكلام نظر، فأيُّ فرق على هذا بين القراءتين؟ بل إنكار قراءة الكسر عليه أولى من إنكار قراءة الفتح؛ لأن الأصل لتكون «إنَّ» معمولة للقول هو كسر الهمزة وليس فتحها، فإذا كان لا يُتوهم كون «إنَّ» معمولة لـ«قولهم» على قراءة الكسر، فكيف يُتوهم مع الفتح، فالأولى من هذا القولُ بأن المنِكر إنما حَمَل القراءة بالفتح على البدل من «قولهم»، كما ذكر الزمخشري ونقله عنه المصنف، وعزاه الآلوسي في روح المعاني ١١/ ٢١٤ لابن قتيبة ثم قال: ثم أنكر (يعني ابن قتيبة) القراءةَ لذلك؛ لأنه يؤدي إلى أن يقال: فلا يحزنك أن العزة لله جميعاً. وينظر الدر المصون ٦/ ٢٣٤.

ذكرنا توجيهَ ذلك على التعليل، وهو توجيهٌ صحيحٌ.

«هو السميعُ» لمَا يقولون «العليم» بما[1] يدبِّرون.

وفي هذه الآية: تأمينٌ للرسول ﷺ من إضرار الكفار، وأنَّ الله تعالى يُدِيلُه عليهم وينصرُه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١].

وقال الأصم: كانوا يتعزَّزون بكثرة خَدَمهم وأموالهم، فأَخبر أنه قادرٌ على أن يَسْلبَ منهم تلكَ[2] الأشياء، وأن ينصرَك وينقلَ إليك أموالَهم وديارَهم. انتهى.

ولا تضادَّ بين قوله: «إنَّ العزَّة لله جميعاً» وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] لأنَّ عزَّتهم إنما هي بالله، فهي كلُّها لِله.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ المناسبةُ ظاهرةٌ في هذه الآية، لمَّا ذَكَر أنَّ العزَّة له تعالى وهي القهرُ والغلبةُ، ذكر ما يناسِبُ القهرَ، وهو كونُ المخلوقات ملكًا له تعالى، و«مَن» الأصلُ فيها أن تكون للعقلاء، وهنا هي شاملةٌ لهم ولغيرهم على حكم التغليب، وحيث جيء بـ«ما» كان تغليبًا للكثرة؛ إذ أكثرُ المخلوقات لا تعقل.

وقال الزمخشري: يعني العقلاءَ المميِّزين وهم الملائكةُ والثَّقَلان، وإنما خصَّهم ليُؤْذِنَ أنَّ هؤلاء إذا كانوا له في ملكه فهم عبيدٌ كلُّهم، وهو سبحانه وتعالى ربُّهم، ولا يصلُحُ أحدٌ منهم للربوبية، ولا أن يكون شريكًا له فيها، فما دونهم ممَّا لا يعقلُ أحقُّ أنْ لا يكون ندًّا وشريكًا، وليَدُلَّ على أنَّ مَن اتَّخذ غيرَه ربًّا مِن مَلَكٍ أو إنسيٍّ فضلًا عن صنمٍ أو غيرِ ذلك، فهو مُبْطِلٌ تابعٌ لمَا أدَّى إليه التقليدُ وتركُ النظر[3].

والظاهرُ أن «ما» نافيةٌ، و«شركاء» مفعولُ «يتَّبع»، ومفعولُ «يَدْعون» محذوفٌ

(١) في النسخ عدا (يه): لما، والمثبت من (يه).
(٢) في النسخ عدا (يه): ملك، والمثبت من (يه)، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ١٧/ ١٣٠، والكلام منه، وجاء فيه: كل تلك.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٤٤.

لفهم المعنى، تقديره: آلهةً أو شركاء، أي: إنَّ الذين جعلوهم آلهةً وأشركوهم مع الله في الربوبية ليسوا شركاءَ حقيقةً إذ الشركةُ في الألوهية مستحيلةٌ وإنْ كانوا قد أطلقوا عليهم اسمَ الشركاء.

وجوَّزوا أن تكون «ما» استفهاميةً في موضع نصبٍ بـ«يتَّبع» و«شركاء» منصوبٌ بـ«يَدْعون» أي: وأيَّ شيءٍ يتَّبعُ على تحقير المتَّبَع، كأنه قيل: مَن يدعو شريكًا لله لا يتَّبع شيئًا.

وأجاز الزمخشريُّ أن تكون «ما» موصولةً عطفًا على «مَن»، والعائدُ محذوفٌ، أي: والذي يتَّبعه الذين يدعون من دون الله شركاء، أي: وله شركاؤهم[(١)].

وأجاز غيرُه أن تكون «ما» موصولةً في موضع رفعٍ على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ تقديره: والذي يتَّبعه المشركون باطلٌ.

وقرأ السُّلَمي: «تَدْعون» بالتاء على الخطاب؛ قال ابنُ عطيةَ: وهي قراءةٌ غيرُ متَّجهةٍ[(٢)].

وقال الزمخشري: وقرأ علي بن أبي طالب ﷺ: «تدعون»: بالتاء، ووَجْهُه أن يُحْمَلَ «وما يتَّبع» على الاستفهام، أي: وأيَّ شيءٍ يتبعُ الذين تدعونهم شركاءَ من الملائكة والنبيين، يعني: إنهم يتَّبعون الله تعالى ويُطيعونه فما لكم لا تفعلون مِثْلَ فِعْلِهم، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧][(٣)]. انتهى.

«وإنْ» نافية، أي: ما يتَّبعون إلَّا ظنَّهم أنهم شركاءُ، و«يَخْرُصون»: يُقدِّرون، ومَن قرأ «تدعون» بالتاء كان قولُه: «إنْ يتبعون» التفاتًا إذ هو خروجٌ من خطابٍ إلى غيبة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ هذا تنبيهٌ منه تعالى على عظيم قدرته وشمولِ نعمته لعباده، فهو

---

(١) المصدر السابق.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٠.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٤٤، وذكر القراءة عن علي أيضاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٥٧.

المستحِقُّ لأَنْ يُفْرَدَ بالعبادة، «لتسكنوا فيه» أي: ممَّا تُقاسُون من الحركة والتردُّدِ في طلب المعاش وغيرِه بالنهار، وأضاف الإبصار إلى النهار مجازًا؛ لأن الإبصارَ يَقعُ فيه كما قال:

ونِمتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائمِ[(١)]

أي: يُبْصِرون فيه مطالبَ معايشهم.

وقال قُطْرُب: يقال: أظلم الليلُ: صار ذا ظلمةٍ، وأضاء النهارُ وأبصر، أي: صار ذا ضياءٍ وبصرٍ[(٢)]. انتهى.

وذكر علَّة خلقِ الليل وهي قوله: «لتسكنوا فيه» وحذفها من النهار، وذكر وصف النهار وحَذَفه من الليل، وكلٌّ من المحذوف يدلُّ على مُقابِلِه، والتقدير: جعل الليل مظلمًا لتسكنوا فيه والنهارَ مبصرًا لتتحرَّكوا فيه في مكاسبكم وما تحتاجون إليه بالحركة[(٣)]. ومعنى «تسمعون» سماعَ معتبِرٍ.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ الضميرُ في «قالوا» عائدٌ على مَن نَسَبَ إلى الله الولدَ ممن قال: الملائكةُ بناتُ الله، أو: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠] أو: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، و«سبحانه» تنزيهٌ من اتِّخاذ الولد، وتعجُّبٌ ممن يقول ذلك، «هو الغني» علةٌ لنفي الولد؛ لأنَّ اتِّخاذ الولد إنما يكونُ للحاجة

---

(١) وصدره: لقد لُمْتِنا يا أمَّ غيلان في السُّرَى، والبيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩٩٣، والكتاب ١/ ١٦٠، والخزانة ١/ ٤٦٥، وفيه: أراد: وما ليلُ أصحاب المطي وأراد بهم مَن يركب ويسافر، فلا ينبغي أن ينام من أول الليل إلى آخره. و«أم غيلان» قيل: هي بنته.

(٢) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٩٢، وتفسير البغوي ٢/ ٣٦١، وتفسير القرطبي ١١/ ٢٠، والكلام منه.

(٣) وهذا ما يسمى في البديع بصنعة الاحتباك، وهو من ألطف الأنواع وأبدعها، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول، ومن لطيفه قوله تعالى: ﴿فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣] أي: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت. ينظر الإتقان ٢/ ٨٣١، وروح المعاني ١١/ ٢١٨.

إليه، واللهُ تعالى غيرُ محتاجٍ إلى شيءٍ، فالولدُ منتفٍ عنه، وكلُّ ما في السماوات والأرض ملكُه، فهو غنيٌّ عن اتِّخاذ الولد. و«إنْ» نافية، والسلطان: الحجة، أي: ما عندكم من حجةٍ بهذا القول.

قال الحَوْفيُّ: و«بهذا» متعلِّقٌ بمعنى الاستقرار. يعني: الذي تَعَلَّقَ به الظرفُ.

وتبعه الزمخشريُّ فقال: الباءُ حقُّها أن تتعلَّق بقوله: «إنْ عندكم» على أن يُجعل القولُ مكانًا للسلطان، كقولك: ما عندكم بأرضكم نَوْرٌ، كأنه قيل: إنْ عندكم فيما تقولون سلطانٌ[١].

وقال أبو البقاء: و«بهذا» متعلِّقٌ بـ«سلطان» أو نعتٌ له[٢].

و«أتقولون» استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ لمن اتَّبع ما لا يَعْلَم، ويُحْتَجُّ بذلك في إبطال التقليد في أصول الدين، واسْتَدلَّ بها نُفاةُ القياس وأخبارِ الآحاد[٣].

ولمَّا نَفَى البرهانَ عنهم جعلهم غيرَ عالِمينَ، فدلَّ على أنَّ كلَّ قولٍ لا برهان عليه لقائله فذلك جهلٌ وليس بعلمٍ، و«الذين يفترون على الله الكذب» عامٌّ يشتملُ مَن نَسَبَ إلى الله الولدَ ومَن قال في الله وفي صفاته قولًا بغير علمٍ، وهو داخلٌ في الوعيد بانتفاء الإفلاح.

ولمَّا نفى عنهم الفلاحَ، وكان لهم حظٌّ من إفلاحهم في الدنيا لحظوظٍ[٤] فيها من مالٍ وجاهٍ وغيرِ ذلك، قيل: «متاعٌ قليلٌ»، جوابٌ على تقديرِ سؤالٍ، كأنَّ قائلًا قال: كيف لا يفلحون وهم في الدنيا مفلحون بأنواع ممَّا يتلذَّذون به؟ فقيل: ذلك متاعٌ في الدنيا، أو لهم متاعٌ في الدنيا زائلٌ لا بقاءَ له ثم يَلْقَوْن الشقاءَ المؤبَّدَ في الآخرة.

❁ ❁ ❁

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٥، وجاء في مطبوعه: موز، بدل: نور.
(٢) الإملاء ٢/ ٣١.
(٣) ولا دليل فيها على ذلك كما ذكر الآلوسي في روح المعاني ١١/ ٢٢٠، قال: ولا تصلح متمسَّكًا لنفي القياسِ والعملِ بخبر الآحاد؛ لأن ذلك في الفروع وهي مخصوصة بالأصول.
(٤) في (ز١): بحظوظ.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا
تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ
ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثۡنَا
مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمۡۖ
أَسِحۡرٌ هَٰذَا وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا
ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا
جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ
ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ
كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيهِمۡ أَن
يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم
بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا
لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ
رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدۡ
أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ
إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ
وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ
ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا
ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ
فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ

ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ
ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ
ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ
مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ
أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ
أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن
دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ
ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا
كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ
ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

المفردات لَفَتَ عُنُقَه: لَوَاها وصَرَفها. وقال الأزهري: لَفَتَ الشيءَ وفَتَلَه: لواه، وهذا من المقلوب(١). انتهى. ومطاوع لفت: التفت، وقيل: انْفَتَلَ.

* * *

التفسير ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ لمَّا ذَكَر تعالى الدلائلَ على وحدانيته، وذَكَرَ ما جرى بين الرسول وبين الكفار، ذَكَر قصصًا من قصص الأنبياء وما جَرَى لهم مع قومهم من الخلاف، وذلك تسليةٌ للرسول ﷺ، وليتأسَّى بمَن قَبْلَه من الأنبياء فيَخِفَّ عليه ما يَلْقَى منهم

(١) تفسير الرازي ١٧/ ١٤٢، والعبارة في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٨٩: لَفَتَ فلاناً عن رأيه وفَتَلَه: إذا صرفه ولواه. اهـ.

من التكذيب وقلَّةِ الاتِّباع، وليَعْلَمَ المتلوُّ عليهم هذا القصصُ عاقبةَ مَن كذَّب الأنبياءَ وما مَنَحَ اللهُ نبيَّه من العلم بهذا القصصِ، وهو لم يُطالِعْ كتابًا ولا صَحِبَ عالِماً، وأنها طِبْقُ ما أخبر به، فدلَّ ذلك على أنَّ الله أوحاه إليه وأعْلَمه به، وأنه نبيٌّ لا شك فيه، والضميرُ في «عليهم» عائدٌ على أهلِ مكةَ الذين تقدَّم ذِكْرُهم.

و«كَبُرَ» معناه: عَظُمَ، «مقامي» أي: طولُ مَقامي فيكم، أو: قيامي للوعظ، كما يُحكى عن عيسى عليه السلامُ أنه كان يَعِظُ الحواريِّين قائماً ليَرَوْه وهم قعودٌ، وكقيام الخطيب ليسمع الناسُ وليَرَوْه. أو نَسَبَ ذلك إلى مقامه والمراد نفسَه، كما تقول: فعلتُ كذا لمكانِ فلانٍ، و: فلانٌ ثقيلُ الظلِّ[1]، تريد: لأجْلِ فلانٍ، و: فلانٌ ثقيلٌ.

قال ابنُ عطية: ولم يُقرأ هنا بضم الميم[2]. انتهى.

وليس كما ذَكَر، بل قرأ «مُقامي» بضم الميم أبو مِجْلَزٍ وأبو رجاءٍ وأبو الجَوْزاءِ[3]. والمُقامُ: الإقامة بالمكان، والمَقامُ: مكانُ القيام.

والتذكيرُ: وَعْظُه إياهم وزَجْرُهم عن المعاصي.

وجوابُ الشرط محذوفٌ تقديره: فافعلوا ما شئتم. وقيل: الجوابُ: «فعلى الله توكلتُ» و«فأَجْمِعوا» معطوفٌ على الجواب، وهو لا يَظْهَرُ؛ لأنه متوكِّلٌ على الله دائمًا.

وقال الأكثرون: الجواب: «فأَجْمِعوا» و«فعلى الله توكلتُ» جملةُ اعتراضٍ بين الشرط وجزائه، كقوله:

إمَّا تَرَيْني قد نَحَلْتُ ومَن يَكُنْ ... غَرَضًا لأطراف الأسِنَّة يَنْحَلِ
فلَرُبَّ أَبْلَجَ مِثْلِ بَعْلِكِ بادنٍ ... ضخمٍ على ظهر الجواد مُهَبَّلِ[4]

---

(١) ذكر هذه الوجوه الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٤٥.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٣١.
(٣) زاد المسير ٤/ ٤٧.
(٤) البيتان لعنترة، وهما في ديوانه ص٦٠. وقوله: بعلك، تحرف في (د١) والمطبوع إلى: ثقلك. والمهبَّل: اللَّحيم المورَّم الوجه، ووقع في مطبوع الديوان: مهيَّل. وشرحه المحقق بأنه الثقيل أو الملول.

وقرأ الجمهور: «فأَجْمِعوا» من أَجْمَعَ الرجلُ الشيءَ: عَزَمَ عليه ونَوَاه، قال الشاعر:

أَجْمَعوا أمرَهم بليلٍ فلمَّا ... أصبحوا أصبحتْ لهم ضوضاءُ[١]

وقال آخر:

يا ليت شِعْري والمُنَى لا تَنْفَعُ ... هل أَغْدُوَنْ يومًا وأمري مُجْمَعُ[٢]

وقال أبو فَيْدٍ السَّدُوسيُّ[٣]: أَجْمَعْتُ الأمرَ، أفصحُ من: أجمعتُ عليه.

وقال أبو الهيثم[٤]: أَجْمَعَ أَمْرَه: جَعَلَه مجموعًا بعد ما كان متفرِّقًا، قال: وتَفْرِقَتُه أنه يقول مرةً: أفعلُ كذا، ومرةً: أفعلُ كذا، فإذا عزم على أمرٍ واحدٍ فقد جَمَعَه[٥]، أي: جَعَلَه جميعًا. فهذا هو الأصلُ في الإجماع، ثم صار بمعنى العزمِ حتى وُصِلَ بـ«على»، فقيل: أجمعتُ على الأمرِ، أي: عزمتُ عليه، والأصل: أجمعتُ الأمرَ[٦]. انتهى.

وعلى هذه القراءةِ يكون «وشركاءَكم» عطفًا على «أمرَكم» على حذفِ مضافٍ، أي: وأمرَ شركائكم، أو على «أمرَكم» من غيرِ مراعاةِ محذوفٍ؛ لأنه يقال أيضًا: أجمعتُ شركائي، أو منصوبًا بإضمار فِعْلٍ، أي: وادعوا شركاءَكم، وذلك بناءً على أنه لا يقال: أجمعتُ شركائي - يعني في الأكثر - فيكونُ نظيرَ قوله:

عَلَفْتُها تبنًا وماءً باردًا ... حتى شَتَتْ همَّالةً عيناها[٧]

---

(١) البيت من معلقة الحارث بن حلزة، وهو في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٦٢، ولابن الأنباري ص٤٥٢، وللتبريزي ص٢٩٨، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣١، والإملاء ٢/ ٣١.

(٢) الرجز في معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٣، ونوادر أبي زيد ص١٣٣، وإصلاح المنطق ص٢٩٣، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٣١، وتفسير الثعلبي ٣/ ٢٩٤، وزاد المسير ٤/ ٤٨. وقوله: أغدون، تحرف في (د١) والمطبوع إلى: أعذرت.

(٣) هو مؤرج بن عمرو، وكلامه في تفسير الثعلبي ٣/ ٢٩٤، وزاد المسير ٤/ ٤٧.

(٤) كما في تهذيب اللغة ١/ ٣٩٧، وتفسير الرازي ١٧/ ١٣٧، وعنه نقل المصنف.

(٥) العبارة في تهذيب اللغة: فلما عزم على أمر محكم أجمعه.

(٦) من قوله: فهذا هو الأصل. . .، لم يرد في تهذيب اللغة، ولعله من كلام الرازي.

(٧) سلف عنه تفسير قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، ووقع في النسخ هنا: فعلفتها، والمثبت من المصادر.

في أحد المذهبين، أي: وسقيتُها ماءً باردًا[١]، وكذا هي في مصحف أبيٍّ: «وادْعُوا شركاءَكم»[٢].

وقال أبو عليٍّ: وقد يُنْصَبُ الشركاءُ بواوِ «مع»، كما قالوا: جاء البردُ والطيالسةَ[٣]. ولم يذكر الزمخشريُّ في نصب «وشركاءَكم» غيرَ قولِ أبي عليٍّ أنه منصوبٌ بواوِ «مع»[٤]. وينبغي أن يكون هذا التخريجُ على أنه مفعولٌ معه من الفاعل، وهو الضمير في «فأجْمِعوا»، لا من المفعول الذي هو «أَمْرَكم»، وذلك على أَشْهَرِ الاستعمالين؛ لأنه يقال: أَجْمَعَ الشركاءُ، ولا يقال: جَمَعَ الشركاءُ أمرَهم، إلَّا قليلًا، ولا: أجمعتُ الشركاءَ، إلَّا قليلًا. وفي اشتراط صحة جواز العطف فيما يكون مفعولًا معه خلافٌ، فإذا جعلناه من الفاعل كان أَوْلَى[٥].

وقرأ الزهريُّ والأعمش والجَحْدَريُّ وأبو رجاءٍ والأعرجُ، والأصمعيُّ عن نافع، ويعقوبُ بخلافٍ عنه: «فاجْمَعوا» بوصل الألف وفتحِ الميم مِن جَمَع[٦]، و«شركاءَكم» عطفٌ على «أمرَكم» لأنه يقال: جمعتُ شركائي، أو على أنه مفعولٌ

---

(١) والمذهب الثاني: أن يُضمَّن «علفتُها» معنًى يتسلط على المتعاطفَيْنِ، نحو: أَنَلْتُها وأعطيتها. ينظر الارتشاف ٣/١٤٨٩-١٤٩٢، ومغني اللبيب ص٨٢٨.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٤٥، وهي في المحتسب ١/ ٣١٤ بلفظ: «وادعوا شركاءكم ثم أجمعوا أمركم».

(٣) أي: مع الطيالسة، والمعنى: أن البرد سبب لاستعمال الطيالسة، والطيالسة: جمع الطيلسان، وهو ضرب من الأكسية. ينظر الكتاب ١/ ٢٩٨، وجمع الهوامع ٢/ ٢٣٨، والتاج (طلس)، وكلام أبي علي الفارسي في الحجة ٤/ ٢٨٩.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٤٥.

(٥) يعني أنه إذا جعلناه مفعولاً معه من الفاعل كان جائزاً بلا خلافٍ، وذلك لأن من النحويين مَن اشترط في صحة نصب المفعول معه أن يصلح عطفُه على ما قَبْله، فإن لم يصلح عطفُه لم يصحَّ نصبُه مفعولاً معه، فلو جعلناه هنا من المفعول لم يجز على المشهور، إذ لا يصلح عطفُه على ما قبله، إذ لا يقال: أجمعت شركائي، بل: جمعتُ، وكذا لا يقال: جَمَعَ الشركاءُ أمرهم، بل: أَجْمَعَ. ينظر الدر المصون ٦/ ٢٤٢.

(٦) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحتسب ١/ ٣١٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣١، وهي روايةُ رويس عن يعقوب كما في النشر ٢/ ٢٨٥، وخلافُ المشهور عن نافع.

معه، أو على حذفِ مضافٍ، أي: ذوي الأمرِ منكم، فجرى على المضاف إليه ما جرى على المضاف لو ثبت؛ قاله أبو عليٍّ[١].

وفي كتاب «اللوامح»: أَجْمَعْتُ الأمرَ، أي: جَعَلْتُه جميعًا، وجمعتُ الأموالَ جَمْعًا، فكان الإجماعُ في الأحداث والجمعُ في الأعيان، وقد يُستعمل كلٌّ واحدٍ مكانَ الآخَرِ، وفي التنزيل: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [طه: ٦٠]. انتهى.

وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن وابنُ أبي إسحاق وعيسى بن عمر وسلام ويعقوب فيما رُوي عنه: «وشركاؤكم» بالرفع[٢]، ووُجِّه بأنه عطفٌ على الضمير في «فأَجْمِعوا»، وقد وقع الفصلُ بالمفعول فحَسُنَ، وعلى أنه مبتدأٌ محذوفُ الخبر لدلالة ما قبله عليه، أي: وشركاؤكم فليُجْمِعوا أمرَهم.

وقرأت فرقةٌ: «وشركائكم» بالخفض عطفًا على الضمير في «أمركم»، أي: وأمرَ شركائِكم، فحذف، كقول الآخر:

أكلَّ امرئٍ تحسبين امْرَأً ... ونارٍ توقَّدُ بالليل نارا[٣]

أي: وكلَّ نارٍ، فحُذِفَ «كلّ» لدلالة ما قبله عليه.

والمرادُ بالشركاء: الأندادُ من دون الله، أضافهم إليه إذ هم يجعلونهم شركاءَ بزعمهم، وأَسْندَ الإجماع إلى الشركاء على وجه التهكُّم، كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥] أو يراد بالشركاء مَن كان على دينهم وطريقتهم.

قال ابنُ الأنباريِّ: المرادُ من الأمر هنا وجودُ كيدهم ومكرِهم؛ فالتقدير: لا تتركوا من أمركم شيئًا إلَّا أحضرتُموه[٤]. انتهى.

---

(١) في الحجة ٤/ ٢٨٧-٢٨٨.

(٢) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحتسب ١/ ٣١٤. وهي قراءة أبي جعفر من العشرة كما في النشر ٢/ ٢٨٦.

(٣) البيت لأبي دؤاد الإيادي كما في الكتاب ١/ ٦٦، والأصمعيات ص١٩١، ونسبه المبرد في الكامل ١/ ٣٧٦ و٢/ ١٠٠٢ لعدي بن زيد، وهو دون نسبة في الأصول في النحو ٢/ ٧٠، والإنصاف ٢/ ٤٧٣، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٢.

(٤) تفسير الرازي ١٧/ ١٣٧.

وأَمْرُه إياهم بإجماعِ أمرِهم دليلٌ على عدم مبالاته بهم ثقةً بما وَعَدَه ربُّه من كلاءَته وعصمته.

«ثم لا يَكُنْ أمرُكم عليكم غُمَّةً»، أي: حالُكم معي وصحبتُكم لي غمًّا وهمًّا، أي: ثم أهلكوني لئلَّا يكونَ عيشُكم بسببي غصةً، وحالُكم عليكم غمةً. والغَمُّ والغُمَّةُ كالكَرْب والكُرْبة، قال أبو الهيثم: هو من قولهم: غُمَّ علينا الهلالُ فهو مغمومٌ: إذا الْتُمِسَ فلم يُرَ، وقال طَرَفة:

لَعَمْرُكَ ما أمري عليَّ بغُمَّةٍ نهاري ولا ليلي عليَّ بسَرْمَدِ[١]

وقال الليث: يقال: إنه لفي غمةٍ من أمره: إذا لم يتبيَّنْ له[٢].

وقال الزجَّاج: [أي: ليكن] أمْرُكم ظاهرًا مكشوفًا[٣]. وحسَّنه الزمخشريُّ فقال ـ وقد ذَكَر القولَ الأولَ الذي يُراد بالأمر فقال ـ: والثاني: أنْ يُرادَ به ما أُريدَ بالأمر الأول، والغُمَّة: السُّتْرة، مِن غَمَّه: إذا سَتَره، ومنه قولُه ﷺ: «ولا غُمَّةَ في فرائض الله تعالى»، أي: لا تُسْتَر، ولكنْ يُجاهَرُ بها، يعني: ولا يكن قَصْدُكم إلى إهلاكي مستورًا عليكم بل مكشوفًا مشهورًا تُجاهِرون به[٤]. انتهى.

ومعنى «اقضوا إلي»: أنْفِذوا قضاءَكم نحوي، ومفعولُ «اقضوا» محذوفٌ، أي: اقْضوا إليَّ ذلك الأمرَ، وأَمْضوا ما في أنفسكم، واقْطَعوا ما بيني وبينكم.

وقرأ السَّرِيُّ بنُ يَنْعُمَ[٥]: «ثم أَفْضوا» بالفاء وقَطْعِ الألف، أي: انتهوا إليَّ

(١) تهذيب اللغة ١٦/ ١١٥، وتفسير الرازي ١٧/ ١٣٨، وفيهما: إذا الْتَبَس، مكان: إذا التُمِسَ فلم يُرَ. والبيت في ديوان طرفة ص٤٠.
(٢) المصدران السابقان، وفيهما: يهتد، مكان: يتبين.
(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٨، وتفسير الرازي ١٧/ ١٣٨، وما بين حاصرتين منهما.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٤٥، والحديث المذكور هو طرف من كتاب النبي ﷺ لوائل بن حجر، أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٢٨٠-٢٨١، وذكره القاضي عياض كما في شرح الشفا للشهاب الخفاجي ١/ ٤٠٤، وقال: وروي: «ولا عَمَهَ» أي: لا حيرة ولا تردُّدَ فيها، وروي: «لا غِمْد» ومعناها: لا ستر ولا خفاء، ك: تغمَّدنا الله برحمته، أي: سَتَرنا بها.
(٥) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحتسب ١/ ٣١٥. والسري بن يَنْعُم الجُبْلاني من رجال التهذيب، قال عنه الحافظ: شامي صدوق عابد.

بشرِّكم، من أفضَى إلى كذا: انتهى إليه، وقيل: معناه: أسرِعوا. وقيل: مِن أَفْضَى: إذا خرج إلى الفضاء، أي: فأصْحِروا به إليَّ وأبْرِزوه، ومنه قولُ الشاعر:

أَبَى الضيمَ والنعمانُ يُحْرِقُ نابَه عليه فأفضى والسيوفُ معاقِلُه[1]

«ولا تُنْظِرون» أي: لا تؤخِّرون، والنَّظِرةُ: التأخير.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: فإنْ دامَ تولِّيكم عمَّا جئتُ به إليكم من توحيد الله ورفضِ آلهتكم فلستُ أبالي بكم لأنَّ توليكم لا يَضُرُّني في خاصَّتي، ولا قَطَعَ عنِّي صِلَةً منكم؛ إذ ما دعَوْتُكم إليه وذكَّرتُكم به ووعظتُكم لم أسألكم عليه أجرًا، إنَّما يُثِيبُني عليه الله تعالى، أي: ما نصحتُكم إلَّا لوجه الله تعالى لا لغرضٍ من أغراض الدنيا.

ثم أَخْبَر أنه أُمِرَ أن يكون «من المسلمين» من المنقادِينَ لأمر الله الطائعين له، «فكذَّبوه» فتمُّوا على تكذيبه، وذلك عند مُشارَفةِ الهلاك بالطُّوفان. و«في الفلك» متعلِّقٌ بالاستقرار الذي تعلَّق به «معه»، أو بـ: فنجيَّناه، و«جعلناهم» جُمِعَ ضميرُ المفعول على معنى «مَن»، و«خلائف»: يَخْلُفون الغارقين المُهْلَكين.

ثم أُمِرَ بالنظر في عاقبة المنذَرين بالعذاب وإلى ما صار إليه حالُهم، وفي هذا الإخبار توعُّدٌ للكفار بمحمدٍ ﷺ، وضربُ مثالٍ لهم في أنهم بحالِ هؤلاء من التكذيب، فسيكون حالُهم كحالهم في التعذيب، والخطاب في «فانظر» للسامع لهذه القصة، وفي ذلك تعظيمٌ لمَا جرى عليهم وتحذيرٌ لمن أنذرهم الرسولُ، وتسليةٌ له صلى الله عليه وسلم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ «من بعده»، أي: من بعد نوح، «رسلًا إلى قومهم» يعني هودًا وصالحًا ولوطًا وإبراهيم وشعيبًا، و«البينات»: المعجزاتُ والبراهينُ الواضحةُ المُثْبِتةُ لمَا جاؤوا به، وجاء النفيُ مصحوبًا بلام الجحود ليَدُلَّ

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص١٤٣.

على أنَّ إيمانهم في حيِّز الاستحالة والامتناعِ، والضميرُ في «كذَّبوا» عائدٌ على مَن عاد عليه ضميرُ «كانوا» وهم قومُ الرسل، والمعنى: إنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهلَ جاهليةٍ وتكذيبٍ للحقِّ، فتساوَتْ حالتُهم قبل البعثة وبعدها كأنْ لم يُبْعَثْ إليهم أحدٌ، و«من قبلُ» متعلِّق بـ«كذَّبوا» أي: من قبلِ بعثةِ الرسل.

وقيل: المعنى: إنهم بادَروا رسلَهم بالتكذيب كلَّما جاء رسولٌ، ثم لجُّوا في الكفر وتمادَوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبُهم من قبل لَجِّهم في الكفر وتماديهم.

وقال يحيى بنُ سَلَام: «من قبلُ» معناه: من قبل العذاب[1]. وهذا القولُ فيه بُعْدٌ.

وقيل: الضميرُ في «كذبوا» عائدٌ على قوم نوح، أي: فما كان قومُ الرسل ليؤمنوا بما كذَّب به قومُ نوحٍ، يعني: إنَّ شِنْشِنَتَهم[2] واحدةٌ في التكذيب.

قال ابن عطية: ويحتمِلُ اللفظُ عندي معنًى آخَرَ، وهو أنْ تكون «ما» مصدريةً، والمعنى: فكذَّبوا رسلَهم فكان عقابُهم من الله أنْ لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبلُ، أي: من سببه ومن جرَّائه، ويؤيِّدُ هذا التأويلَ «كذلك نطبع»[3]. انتهى.

والظاهرُ أنَّ «ما» موصولةٌ، ولذلك عاد الضميرُ عليها في قوله: «بما كذَّبوا به»، ولو كانت مصدريةً بقي الضميرُ غيرَ عائدٍ على مذكورٍ، فتحتاجُ أن يُتَكلَّف ما يعودُ عليه الضمير.

وقرأ الجمهور: «نطبَعُ» بالنون، والعباس بنُ الفضل بالياء[4].

والكافُ للتشبيه، أي: مِثْلَ ذلك الطَّبْع المُحْكَم الذي يمتنعُ زوالُه نطبعُ على قلوب المعتدين المجاوِزينَ طورَهم والمبالِغينَ في الكفر.

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٣.
(٢) أي: عادتهم وطبيعتهم. ينظر القاموس (شنن).
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٣.
(٤) القراءات الشاذة ص٥٧.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي: مِن بعدِ أولئك الرسل، «بآياتنا» وهي المعجزاتُ التي ظهرت على يديه، ولا يُخَصُّ قولُه: «ومَلَئه» بالأشراف، بل هي عامَّةٌ لقوم فرعون شريفِهم ومشروفِهم، «فاستكبروا» تعاظَموا عن قبولها، وأعظمُ الكِبْرِ أن يَتعاظَمَ العبيدُ عن قبول رسالةِ ربِّهم بعد تبيُّنها واستيضاحها، وباجترامهم الآثامَ العظيمةَ استكبروا واجترؤوا على ردِّها، و«الحق» هو العصا واليد، قالوا لحبهم الشهوات: «إنَّ هذا لسحرٌ مُبين»، وهم يعلمون أنَّ الحقَّ أبعدُ شيءٍ من السحر الذي ليس إلَّا تمويهًا وباطلًا، ولم يقولوا: «إنَّ هذا لسحرٌ مبينٌ» إلَّا عند مُعايَنةِ العصا وانقلابِها، واليدِ وخروجِها بيضاءَ، ولم يتعاطَوا إلَّا مقاومةَ العصا، وهي معجزةُ موسى التي وقع فيها عجزُ المُعارِض.

وقرأ مجاهد وابنُ جُبَيرٍ والأعمشُ: «لساحِرٌ مُبين»(١) جُعِل خبر «إنَّ» اسمَ فاعلٍ لا مصدرًا كقراءة الجماعة.

ولمَّا كابَروا موسى فيما جاء به من الحقِّ أَخبروا على جهة الجزم بأنَّ ما جاء به سحرٌ مبين، فقال لهم موسى: «أتقولون» مستفهِمًا على جهةِ الإنكارِ والتوبيخ حيث جَعَلوا الحقَّ سحرًا، «أسحرٌ هذا» أي: مِثْلُ هذا الحقِّ لا يُدَّعى أنه سحرٌ، وأَخبر أنه لا يُفْلِحُ مَن كان ساحرًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩]، والظاهرُ أنَّ معمول «أتقولون» محذوفٌ، تقديره ما تقدَّم ذكرُه وهو «إن هذا لسحرٌ»، ويجوز أن يُحذف معمولُ القول للدلالة عليه، نحو قول الشاعر:

لنحن الأُلَى قُلْتُم فأنَّى مُلِئْتُمُ ... برؤيتنا قبلَ اهتمامٍ بكم رعبًا(٢)

ومسألة الكتاب: متى رأيتَ أو قلتَ زيدًا منطلقًا(٣). وقيل: معمول «أتقولون» هو «أسحر هذا» إلى آخره، كأنهم قالوا: أَجِئتُما بالسحر تطلبان به الفلاحَ ولا يُفلحُ الساحرون، كما قال موسى للسحرة: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ [يونس: ٨١].

---

(١) المحتسب ١/ ٣١٦، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٤.
(٢) شرح التسهيل لابن مالك ٢/ ٣٢.
(٣) الكتاب ١/ ٧٩.

والذين قالوا بأنَّ الجملةَ ذاتَ الاستفهام هي محكيَّةٌ بالقول اختلفوا، فقال بعضهم: قالوا ذلك على سبيل التعظيم للسحر الذي رأوه بزَعْمِهم، كما تقول لفرسٍ تراه يُجيد الجَرْيَ: أفرسٌ هذا؟ على سبيل التعجيب والاستغراب، وأنت قد علمتَ أنه فرسٌ، فهو استفهامٌ معناه التعجيبُ والتعظيم.

وقال بعضهم: قال ذلك منهم كلُّ جاهلٍ بالأمر، فهو يَسألُ: أهو سحرٌ؟ لقول بعضهم: «إنَّ هذا لسحر».

وأجاز الزمخشريُّ أن يكون معنى قوله: «أتقولون للحق»: أتَعِيبُونه وتَطْعنون فيه وكان عليكم أن تُذْعِنوا له وتعظِّموه، قال: من قولهم: فلانٌ يخاف القالةَ، و: بين الناس تقاوُلٌ، إذا قال بعضُهم لبعضٍ ما يَسُوءُ، ونحوُ القولِ الذِّكْرُ في قوله: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٠] ثم قال: «أسحرٌ هذا» فأنكر ما قالوه في عيبه والطعنِ عليه[١].

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ و«الكبرياء» مصدرٌ، قال ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ والضحاك وأكثرُ المتأوِّلين: المرادُ به هنا المُلْكُ[٢]؛ إذ الملوكُ موصوفون بالكِبْر، ولذلك قيل للملك: الجبَّار، ووُصِفَ بالصَّيَد والشَّوَس[٣]، وقال ابنُ الرُّقَيات في مصعب بن الزبير:

مُلْكُه مُلْكُ رأفةٍ ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياءُ[٤]

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٧.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٥، وزاد المسير ٤/ ٥٠، وأخرجه عن مجاهد الطبري ١٢/ ٢٤٠.

(٣) الصَّيَد مصدر الأصْيَد، وهو الملك لا يلتفت من زَهْوه يمينًا ولا شمالًا، والأصيد أيضًا رافع رأسه كِبْرًا، وإنما قيل للملك: أصيد؛ لكونه يرفع رأسه كبرًا. والشَّوس: النظر بمؤخر العين تكبُّرًا. وجاء في الكشاف ٢/ ٢٤٧ (والكلام منه): والشوص، وهما بمعنى: ينظر القاموس (شوس) و(شوص) والتاج (صيد).

(٤) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ص٩١، والكشاف ٢/ ٢٤٧، وعجزه في الديوان: جبروت ولا به كبرياء، وفيه: قوة، بدل: رأفه.

يعني ما عليه الملوكُ من ذلك، وقال ابن الرِّقاع:

سؤدَدٌ غيرَ فاحشٍ لا يُدانيـ ـهِ تِجبَّارةٌ ولا كبرياءُ[١]

وقال الأعمش: «الكبرياء»: العَظَمة. وقال ابن زيد: العلوُّ. وقال الضحَّاك أيضًا: الطاعةُ[٢].

و«الأرض» هنا: أرضُ مصر.

وقرأ ابنُ مسعود، وإسماعيلُ، والحسنُ فيما زعم خارجةُ، وأبو عمرٍو وعاصمٌ بخلافٍ عنهما: «ويكونَ» بالياء[٣] لمجازِ تأنيثِ الكبرياء، والجمهورُ بالتاء لمراعاة اللفظ.

والمعنى أنهم قالوا: مقصودُك في مجيئك إلينا بما جئتَ هو أن ننتقلَ مِن دِينِ آبائنا إلى ما تأمُرُ به ونطيعُك، ويكونَ لكما العلوُّ والملكُ علينا بطاعتنا لك، فنصيرَ أتباعًا لك تاركينَ دينَ آبائنا، وهذا مقصودٌ لا نراه، فلا نصدِّقُك فيما جئتَ به إذ غرضُك إنما هو مُوافَقتُك على ما أنت عليه، واستعلاؤكَ علينا، فالسببُ الأولُ هو التقليدُ، والثاني الجِدُّ في الرئاسة حتى لا يكونوا تَبَعًا، واقتضى هذان السَّببان اللَّذانِ تَوَهَّموهما مقصودًا التصريحَ بانتفاء الإيمان الذي هو سببٌ لحصول السببين.

ويجوز أن يقصدوا الذمَّ بأنهما إنْ مَلَكَا أرضَ مصر تكبُّرا وتجبُّرا، كما قال القِبْطيُّ: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ١٩].

ولمَّا ادَّعَوْا أنَّ ما جاء به موسى هو سحرٌ أخذوا في معارضته بأنواعٍ من السحر ليَظْهَرَ لسائر الناس أنَّ ما أَتَى به موسى من باب السحر، والمخاطَبُ بقوله: «ائتوني» خَدَمَةُ فرعونَ والمتصرِّفون بين يديه.

---

(١) ديوان عدي بن الرقاع ص١٥٨، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٤٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٥، والبيت في مدح الوليد بن عبد الملك، وجاء عند الطبري وابن عطية: سؤدداً، والرفع أولى لأن قبله:

سيدٌ إليه المغيث إذا ما قيل يوم الفخار أين الغناء

(٢) النكت والعيون ٢/ ٤٤٥، وقول الضحاك أخرجه الطبري ١٢/ ٢٤٠.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٧-٥٨، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٥.

وقرأ ابن مصرِّفٍ وابنُ وثَّابٍ وعيسى وحمزةُ والكسائي: «بكلِّ سحَّارٍ» على المبالغة[١].

وفي قوله: «أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُون» استطالةٌ عليهم، وعَدَمُ مبالاةٍ بهم، وفي إبهام «ما أنتم مُلْقُون» تخسيسٌ له وتقليلٌ، وإعْلامٌ أنه لا شيءَ يُلتفتُ إليه.

قال أبو عبد الله الرازي: كيف أَمَرَهم بالكفر والسحر والأمرُ بالكفرِ كفرٌ؟ قلنا: إنه عليه الصلاةُ والسلامُ أمرهم بإلقاءِ الحبال والعصيِّ لِيَظْهَرَ للخَلْقِ أنَّ ما أَلْقَوا عملٌ فاسدٌ وسعيٌ باطلٌ، لا على طريقِ أنه عليه السلام أمرهم بالسحر[٢]. انتهى.

وقرأ أبو عمرو، ومجاهدٌ وأصحابُه، وابنُ القَعْقاع بهمزة الاستفهام في قوله: «آلسِّحْرُ» ممدودةً[٣]، وباقي السبعةِ والجمهورُ بهمزة الوصل فعلى الاستفهام قالوا: يجوز أن تكون «ما» استفهاميةً مبتدأةً و«السحر» بدلٌ منها، وأنْ تكونَ منصوبةً بمضمرٍ يفسِّره «جئتم به»، و«السحر» خبرُ مبتدأ محذوفٍ. ويجوزُ عندي في هذا الوجهِ أن تكون «ما» موصولةً مبتدأةً وجملةُ الاستفهام خبرٌ، إذ التقدير: أهو السحرُ، أو: آلسِّحرُ هو، فـ«هو» الرابطُ، كما تقول: الذي جاءك أزيدٌ هو.

وعلى همزة الوصل جاز أن تكون «ما» موصولةً مبتدأةً والخبرُ «السحر»، ويدلُّ عليه قراءةُ عبد الله والأعمش: «سحر»، وقراءةُ أبيٍّ: «ما أَتَيْتُم به سحرٌ»[٤]. ويجوزُ عندي أن تكونَ في هذا الوجهِ استفهاميةً في موضع رفعٍ بالابتداء، أو في موضع نصبٍ على الاشتغال، وهو استفهامٌ على سبيل التحقير والتقليل لمَا جاؤوا به، و«السحر» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو السحرُ.

قال ابنُ عطية: والتعريفُ هنا في «السحر» أرتَبُ؛ لأنه قد تقدَّم منكَّرًا في قوله:

---

(١) السبعة ص٢٨٩، والتيسير ص١١٢ عن حمزة والكسائي، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٥ عن طلحة بن مصرف ويحيى بن وثاب.

(٢) تفسير الرازي ١٧/ ١٤٣.

(٣) السبعة ص٣٢٨، والتيسير ص١٢٣ عن أبي عمرو، وابن القعقاع وهو أبو جعفر البصري من القراء العشرة، وقراءته في النشر ١/ ٣٧٨، والكلام من المحرر ٣/ ١٣٥.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٥، والقراءة الأولى في القراءات الشاذة ص٥٨ عن ابن مسعود.

«إنَّ هذا لسحرٌ» فجاء هنا بلام العهد كما يقال أولَ الرسالة: سلامٌ عليك، وفي آخرها: والسلامُ عليك[1]. انتهى.

وهذا أَخَذَه من الفرَّاء؛ قال الفرَّاء: وإنما قال: «السحر» بالألف واللام لأنَّ النكرة إذا أعيدت أُعيدت [معرفةً، يقول الرجلُ لغيره: لقيتُ رجلًا، فيقول له: مَن الرجل؟ فيعيده] بالألف واللام، ولو قال له: مَن رجلٌ؟ لم يقع في وهمه أنه يسأله عن الرجل الذي ذَكَره له[2]. انتهى.

وما ذَكَرَاه هنا في «السحر» ليس هو من بابِ تقدُّمِ النكرة ثم أُخبر عنها بعد ذلك، لأنَّ شرطَ هذا أن يكونَ المعرَّفُ بالألف واللام هو النكرةَ المتقدِّمَ ولا يكونَ غيرَه، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ... فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦] وتقول: زارني رجلٌ فأكرمْتُ الرجلَ؛ ولمَّا كان إياه جاز أن تأتيَ بالضمير بَدَله، فتقول: فأكرمتُه. و«السحر» هنا ليس هو السحرَ الذي هو في قولهم: «إنَّ هذا لسحر»؛ لأنَّ الذي أخبروا عنه بأنه سحرٌ هو ما ظَهَرَ على يَدَيْ موسى عليه السلام من معجزةِ العصا، والسحرُ الذي في قول موسى إنَّما هو سحرُهم الذي جاؤوا به، فقد اختلف المدلولان؛ إذ قالوا هم عن معجزة موسى، وقال موسى عمَّا جاؤوا به، ولذلك لا يَجوزُ أن يُؤتَى هنا بالضمير بَدَلَ «السحر» فيكونَ عائدًا على قولهم «لسِحْرٌ».

والظاهرُ أنَّ الجُملَ بعده من كلام موسى عليه السلام، و«سيُبْطِلُه»: يَمْحَقُه بحيث يذهبُ، أو يظهرُ بطلانُه بإظهار المعجزة على الشَّعْوَذة.

وقيل: هذه الجملُ من كلام الله تعالى.

ومعنى «بكلماته»: بقضاياه السابقةِ في وعده.

وقال ابن سلام: «بكلماته»: بقوله: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [طه: ٦٨][3].

وقيل: «بكلماته»: بحُجَجِه وبراهينه.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٥.

(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٥ بنحوه، وتفسير الرازي ٧/ ١٤٣، والكلام وما بين حاصرتين منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٦.

وقُرئ: «بكلمته» على التوحيد[١]، أي: بأمره ومشيئته.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ وهذا الإيمانُ من الذرِّية كان أولَ مَبْعَثِه؛ إذ قد آمَنَ به بنو إسرائيل قومُه كلُّهم، كان أولًا دعا الآباءَ فلم يُجيبوه خوفًا من فرعون وأجابته طائفةٌ من أبنائهم مع الخوف.

وقال مجاهدٌ والأعمشُ: معنى الآية أنَّ قومًا أدركهم موسى ولم يؤمنوا، وإنما آمَنَ ذَرَارِيهم بعد هلاكهم لطول الزمن[٢].

قال ابنُ عطية[٣]: وهذا قولٌ غيرُ صحيح[٤]؛ إذ آمَنَ قومٌ بعد موتِ آبائهم فلا معنى لتخصيصهم باسم الذرية، وأيضًا فما رُوي من أخبارِ بني إسرائيل لا يُعْطي هذا، ويَنْفيه قولُه: «فما آمَنَ» لأنه يعطي[٥] تقليلَ المؤمنين به؛ لأنه نَفَى الإيمانَ ثم أَوْجَبَه لبعضهم، ولو كان الأكثرُ مؤمنًا لأوجب الإيمانَ أولًا ثم نفاه عن الأقلِّ، وعلى هذا الوجهِ يتخرَّجُ قولُ ابن عباس في الذرية أنه القليلُ[٦]، لا أنه أراد أنَّ لفظ الذرية بمعنى القليل كما ظنَّ مكيٌّ وغيرُه، وقالت فرقةٌ: إنما سمَّاهم ذريةً لأنَّ أمهاتهم كانت من بني إسرائيل وآباؤهم من القِبْط ـ رواه عكرمةُ عن ابن عباس[٧] ـ فكان يقال لهم: الذرية، كما قيل لفرس اليمن: الأبناء، وهم الفرسُ المنتقلون مع وَهْرَز بسعاية سيف بن ذي يَزَن.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٨.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٦، وأخرجه عنهما بنحوه الطبري ١٢/ ٢٤٥-٢٤٦.
(٣) في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٦.
(٤) في المحرر: غير واضح.
(٥) قوله: وينفيه...، جاء بدلًا منه في المحرر: وهيئة قوله:... «فما آمن» يعطي، والمعنى واحد.
(٦) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٤٥.
(٧) قوله: رواه عكرمة عن ابن عباس، لم يرد في مطبوع المحرر، وذكره عن ابن عباس الثعلبي ٣/ ٢٩٦.

وممن ذهب إلى أنَّ الضمير في «قومه» يعود على موسى ابنُ عباس[١]، قال: وكانوا ستَّ مئة ألفٍ، وذلك أنَّ يعقوب عليه السلام دخل مصر في اثنين وسبعين نفسًا، فتوالدوا بمصر حتى صاروا ستَّ مئة ألف[٢].

وقيل: الضمير في «قومه» يعود على فرعون، رُوي أنه آمنت زوجةُ فرعون وخازِنُه وامرأةُ خازِنِه وشبابٌ من قومه؛ قاله ابنُ عباس أيضًا[٣]، والسَّحَرةُ أيضًا فإنهم معدودون في قوم فرعون.

وقال السدِّيُّ: كانوا سبعين أهلَ بيتٍ من قوم فرعون[٤].

قال ابن عطية: وممَّا يُضعف عَوْدَ الضمير على موسى عليه السلام أنَّ المعروفَ من أخبار بني إسرائيلَ أنهم كانوا قومًا قد فَشَتْ فيهم السوءات[٥]، وكانوا في مدَّة فرعون قد نالهم ذلٌّ مُفْرِطٌ، وقد رَجَوْا كَشْفَه على يد مولودٍ يخرجُ فيهم يكونُ نبيًّا، فلمَّا جاءهم موسى عليه السلام أصْفَقوا عليه وبايَعوه[٦]، ولم يُحفظ قطُّ أنَّ طائفةً من بني إسرائيل كفرت به، فكيف تُعطي هذه الآيةُ أنَّ الأقلَّ منهم كان الذي آمَنَ، فالذي يترجَّح بحسب هذا أنَّ الضمير عائدٌ على فرعون، ويؤيِّد ذلك أيضًا ما تقدَّم من محاورة موسى وردِّه عليهم وتوبيخِهم على قولهم: هذا سحر، فذَكَر الله ذلك عنهم ثم قال: فما آمَنَ لموسى إلَّا ذريةٌ من قوم فرعونَ الذين هذه أقوالُهم، وتكونُ القصةُ على هذا التأويلِ بعد ظهور الآية والتعجيزِ بالعصا، وتكونُ الفاءُ مُرتِّبةً للمعاني التي عُطفت. انتهى.

ويمكنُ أن يكونَ معنى «فما آمَن»، أي: ما أَظْهَر إيمانَه وأَعْلَنَ به إلا ذرِّيةٌ من قوم موسى، فلا يدلُّ ذلك على أنَّ طائفةً من بني إسرائيل كفرت به.

---

(١) أخرجه الطبري ١٢/٢٤٧.
(٢) تفسير أبي الليث ٢/١٠٧، وتفسير الثعلبي ٣/٢٩٦.
(٣) أخرجه الطبري ١٢/٢٤٦ بإسناد ضعيف جدًا.
(٤) المحرر الوجيز ٣/١٣٧.
(٥) في المحرر: قد تقدمت فيهم النبوات، وهو الصواب المناسب لسياق الكلام.
(٦) في المحرر: واتبعوه.

والظاهرُ عودُ الضمير في قوله: «وملئهم» على الذرية، وقاله الأخفش[١]، واختاره الطبريُّ[٢]، أي: وخوفٍ من ملأ الذرية، وهم أشرافُ بني إسرائيل إن كان الضميرُ في «قومه» عائدًا على موسى؛ لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: «أنْ يفتنهم»، أي: يعذِّبهم، وقال ابن عباس: أنْ يقتُلَهم[٣].

وقيل: يعودُ على «قومه»، أي: وملأ قوم موسى أو قومِ فرعون.

وقيل: يعود على المضاف المحذوف، تقديره: على خوفٍ من آل فرعون؛ قاله الفرَّاء كما حُذف في ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢][٤].

ورُدَّ عليه[٥] بأنَّ الخوف يُمْكِنُ من فرعون، ولا يُمكِنُ سؤالُ القرية، فلا يُحذف إلَّا ما دلَّ عليه الدليلُ[٦]، وقد يقال: ويدلُّ على هذا المحذوفِ جمعُ الضمير في «وملئهم».

وقيل: ثَمَّ معطوفٌ محذوفٌ يدلُّ عليه كونُ المَلِكِ لا يكون وحده، بل له حاشيةٌ وأجنادٌ، وكأنه قيل: على خوفٍ من فرعون وقومه وملئهم، أي: ملأ فرعون وقومه، وقاله الفرَّاء أيضًا[٧].

وقيل: لمَّا كان ملكًا جبارًا أخبر عنه بفعلِ الجميع.

وقيل: سُمِّيت الجماعة بفرعون مثل هود.

(١) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٣.
(٢) في التفسير ١٢/ ٢٤٩.
(٣) لم أقف عليه عن ابن عباس، وقاله مقاتل بن سليمان في تفسيره ٢/ ١٠١، والحربي في غريب الحديث ٣/ ٩٤٠.
(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٧.
(٥) رد عليه ابن عطية في المحرر ٣/ ١٣٧، وأبو البقاء في الإملاء ٢/ ٣٢، وما سيذكره المصنف هو ردُّ ابن عطية.
(٦) يعني أنه رُدَّ على الفراء بالفرق بين «واسأل القرية» وبين هذه الآية بأن سؤال القرية غير ممكن فاضطررنا إلى تقدير المضاف، بخلاف الآية فإن الخوف تمكن من فرعون، فلا اضطرار بنا يدلنا على مضاف محذوف.
(٧) بنحوه في معاني القرآن ١/ ٤٧٦.

و«أن يفتنهم» بدلٌ من «فرعون» بدلَ اشتمالٍ، أي: فتنتِه، فيكونُ في موضع جرٍّ، ويجوزُ أن يكون في موضع نصبٍ بـ«خوف»: إمَّا على التعليل، وإمَّا على أنه في موضع المفعول به، أي: على خوفٍ لأجْلِ فتنته، أو على خوفٍ فتنتَه.

وقرأ الحسن والجرَّاحُ ونُبيح: «يُفْتِنَهم» بضم الياء من أَفْتَنَ[١].

و«لَعَالٍ»: متجبِّرٌ، أو: باغٍ ظالمٌ، أو: متعالٍ، أو: قاهرٌ، كما قال:

فاعْمِدْ لمَا تعلو فمالكَ بالذي لا تستطيعُ من الأمور يَدَانِ[٢]

أي: لمَا تَقْهَرُ. أقوالٌ متقارِبةٌ.

وإسرافُه: كونُه كثيرَ القتل والتعذيب.

وقيل: كونُه من أخسِّ العبيد، فادَّعى الإلهية.

وهذا الإخبارُ مُبيِّنٌ سببَ خوفِ أولئك المؤمنين منه.

وفي الآية مَسْلاةٌ للرسول ﷺ بقلَّةِ مَن آمَنَ لموسى ومَن استجاب له مع ظهور ذلك المُعْجِزِ الباهِرِ، ولم يُؤْمِنْ له إلَّا ذريةٌ من قومه.

وخطابُ موسى عليه السلام لمن آمَنَ بقوله: «يا قوم» دليلٌ على أنَّ المؤمنين الذرِّيةَ كانوا من قومه، وخاطبهم بذلك حين اشتدَّ خوفُهم ممَّا توعَّدهم به فرعونُ من قَتْلِ الآباء وذَبْحِ الذُّرِّية.

وقيل: قال لهم ذلك حين قالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١].

وقيل: حين قالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٧، والجراح هو ابن عبد الله، أبو عقبة الحَكَمي. ونُبيح هو ابن عبد الله العنزي، أبو عمرو الكوفي.

(٢) البيت لعلي بن الغدير الغنوي كما في الأضداد للأصمعي ص٧، وغريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٢١٣، والأضداد لأبي حاتم السجستاني ص١٠٨، ولابن الأنباري ص٥٣. وعزاه أبو علي القالي في الأمالي ٢/ ٣١٢ لكعب بن سعد الغنوي. وعزاه الزمخشري في الأساس (علو) لسويد بن الصامت، وفي المستقصى ٢/ ٣٣٣ للغدير الغنوي!

قيل: والأولُ هو الصوابُ؛ لأنَّ جوابَ كلٍّ من القولين مذكورٌ بعده، وهو: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] وقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ الآية [الأعراف: ١٢٩].

وعلَّق توكُّلَهم على شرطين: متقدِّمٍ ومتأخِّرٍ، ومتى كان الشرطان لا يترتَّبان في الوجود فالشرطُ الثاني شرطٌ في الأول، فمِن حيث هو شرطٌ فيه يجب أن يكون متقدِّمًا عليه، فالإسلامُ: هو الانقيادُ للتكاليف الصادرةِ من الله وإظهارُ الخضوع وتركُ التمرُّد، والإيمانُ: عرفانُ القلب بالله تعالى ووحدانيتِه وسائرِ صفاته، وأنَّ ما سواه مُحْدَثٌ تحت قهره وتدبيره، وإذا حصل هذان الشرطان فوَّض العبدُ جميعَ أمورِه إلى الله تعالى، واعْتَمَدَ عليه في كلِّ الأحوال.

وأدخل «إنْ» على فِعْلَي الشرط ـ وإن كانت في الأغلب إنما تدخلُ على غيرِ المحقَّق ـ مع عِلْمِه بإيمانهم، على وجهِ إقامة الحجة وتنبيهِ الأنفُسِ وإثارةِ الأَنَفةِ، كما تقول: إن كنتَ رجلًا فقاتِلْ، تخاطِبُ بذلك رجلًا تريدُ إقامةَ البيِّنة.

وطوَّل ابنُ عطيةَ هنا في مسألة التوكُّل بما يُوْقَفُ عليه في كتابه[(١)].

وأجابوا موسى عليه السلام بما أمرهم به من التوكُّل على الله؛ لأنهم كانوا مُخْلِصين في إيمانهم وإسلامهم، ثم سألوا اللهَ تعالى شيئين:

أحدهما: أنْ لا يَجْعلَهم فتنةً للقوم الظالمين؛ قال الزمخشري: أي: موضعَ فتنةٍ لهم، أي: عذابٍ يُعذِّبوننا ويَفْتِنونَنا عن ديننا، أو: فتنةً لهم يُفْتَنون بها، ويقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أُصيبوا[(٢)].

وقال مجاهدٌ وأبو مِجْلَزٍ وأبو الضُّحَى وغيرُهم معنى القولِ الأخير، قال: المعنى: لا تُنْزِلْ بنا بلاءً[(٣)] بأيديهم أو بغير ذلك مدَّةَ محارَبَتِنا لهم، فيُفْتَنون ويعتقدون أنَّ هلاكنا إنَّما هو بقَصْدٍ منك لسوءِ ديننا وصلاحِ دينهم، وأنَّهم أهلُ الحق[(٤)].

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٧.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٤٩.
(٣) في النسخ: بلاءنا، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ١٣٨، والكلام منه.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٨ عن مجاهد، واللفظ منقول منه، وأخرجه عنهم بنحوه الطبري ١٢/ ٢٥١-٢٥٢.

وقالت فرقةٌ: المعنى: لا تَفْتِنهم وتبتليهم بقتلنا وإذايتنا فتعذِّبَهم على ذلك في الآخرة.

قال ابنُ عطية[١]: وفي هذا التأويل قَلَقٌ.

وقال الكلبي: لا تَجْعَلْنا فتنةً بتقتير الرزق علينا وبَسْطِه لهم[٢].

والآخَر: تنجيتَهم من الكافرين، أي: من تسخيرهم واستعبادهم.

والذي يظهر أنهم سألوا الله تعالى أنْ لا يُفتنوا عن دينهم، وأن يَخلُصوا من الكفار، فقدَّموا ما كان عندهم أهمَّ وهو سلامةُ دينهم لهم، وأخَّروا سلامة أنفسهم، إذ الاهتمامُ بمصالح الدِّين آكَدُ من الاهتمام بمصالح الأبدان.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ لم يصرِّح باسم أخيه لأنه قد تقدَّم أولًا في قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الآية: ٧٥] و«تبوَّأا»: اتَّخِذا مَباءةً، أي: مرجعًا للعبادة والصلاة، كما تقول: توطَّن: اتَّخذ موطِنًا.

والظاهرُ اتِّخاذُ البيوت بمصر، قال الضحاك: وهي مصرُ المعروفة[٣]. ومصرُ من البحر إلى أسوان، والإسكندريةُ من أرض مصر[٤].

وقال مجاهد: هي الإسكندرية[٥].

وكان فرعونُ قد استولى على بني إسرائيلَ؛ خرَّب مساجدهم ومواضعَ عبادتهم، ومنعهم من الصلوات، وكلَّفهم الأعمالَ الشاقَّة، وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلُّوا في بيوتهم في خُفْيةٍ من الكَفَرة لئلا يَظْهَروا عليهم فيُرْدوهم ويَفْتِنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام.

---

(١) في المحرر ٣/ ١٣٨٩، وما قبله منه.
(٢) لم أقف عليه.
(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٤٦، وزاد المسير ٤/ ٥٤، وتفسير القرطبي ١١/ ٣٤. ووقع في (أ) و(ح) و(د١) و(ع): المحروسة، مكان: المعروفة.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٨.
(٥) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٥٩.

وقرأ حفصٌ في رواية هُبيرة: «تبويا» بالياء، وهذا تسهيلٌ غيرُ قياسيٍّ، ولو جرى على القياس لكان بين الهمزةِ والألفِ[(١)].

والظاهرُ أنَّ المأمورَ بأنْ يُجعلَ قِبلةً هي المأمورُ بتبوُّئها، ومعنى «قبلة»: مساجدَ، أُمروا بأنْ يتَّخذوا بيوتَهم مساجدَ؛ قاله النخعيُّ وابنُ زيد، ورُوي عن ابن عباس[(٢)].

وعن ابن عباس أيضًا: واجعلوا بيوتَكم قِبَلَ القبلة[(٣)].

وعنه أيضًا: قِبَلَ مكةَ[(٤)].

وقال مجاهدٌ وقتادةُ ومقاتلٌ والفرَّاء: أُمروا بأنْ يجعلوها مستقبلةً الكعبةَ[(٥)].

وعن ابن عباس أيضًا وابنِ جُبير: «قبلةً»: يقابِلُ بعضُها بعضًا[(٦)].

«وأقيموا الصلاة» وهذا قبل نزول التوراة؛ لأنها لم تَنْزِل إلَّا بعد إجازة البحر، «وبشِّر المؤمنين» يعني بالنصر في الدنيا، وبالجنة في الآخرة، وهو أمرٌ لموسى عليه السلام ـ وقيل: لمحمد ﷺ[(٧)] ـ خوطب موسى وهارونُ أن يتبَّوأا لقومهما بيوتًا، ويختاراها للعبادة، وذلك مما يفوَّضُ إلى الأنبياء، ثم نَسَقَ[(٨)] الخطابَ عامًّا

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٨، وهي رواية ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٣٢٩، والداني في التيسير ص١٢٣ عن حفص في الوقف، وروى الداني عن الأشناني أنه أنكر ذلك وقال: الوقف مثل الوصل، قال الداني: وبذلك قرأت، وبه آخذ.

(٢) أخرجه عنهم الطبري ١٢/ ٢٥٥-٢٥٧، وعن إبراهيم النخعي أخرجه أيضاً سعيد بن منصور في سننه (١٠٧٣ ـ تفسير).

(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٥٧.

(٤) زاد المسير ٤/ ٥٤.

(٥) زاد المسير ٤/ ٥٤، وأخرجه عن مجاهدٍ الطبريُّ ١٢/ ٢٥٨، وأخرجه أيضاً عن ابن عباس ١٢/ ٢٥٧. وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٧، وأخرج قول قتادة عبد الرزاق ١/ ٢٩٧، والطبري ١٢/ ٢٥٩ بلفظ: نحو القبلة، والمعنى واحد، وكذا القولان الأخيران لابن عباس.

(٦) زاد المسير ٤/ ٥٤، وأخرجه عن سعيد بن جبير الطبري ١٢/ ٢٦٠، وعن ابن عباس من طريق ابن جبير أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٧.

(٧) قاله الطبري في التفسير ١٢/ ٢٦٠، ومكي بن أبي طالب كما في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٩، وقال ابن عطية: وهذا غير متمكن.

(٨) في الكشاف ٢/ ٢٤٩ (والكلام منه): ثم سيق، والمعنى واحد.

لهما ولقومهما باتِّخاذ المساجد والصلاةِ فيها؛ لأن ذلك واجبٌ على الجمهور، ثم خصَّ موسى عليه السلام بالتبشير الذي هو الغرضُ تعظيمًا له وللمبشِّر به.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ لمَّا بالغ موسى عليه السلام في إظهار المعجزات وهم مصرُّون على العناد، واشتدَّ أذاهم عليه وعلى مَن آمَنَ معه، وهم لا يزيدون على عَرْضِ الآيات إلَّا كفرًا، وعلى الإنذار إلَّا استكبارًا، وعَلِمَ بالتجربة وطولِ الصُّحبة أنَّهم لا يَجيءُ منهم إلَّا الغيُّ والضلال، أو عَلِمَ ذلك بوحيٍ من الله تعالى، دعا اللهَ تعالى عليهم بما عَلِمَ أنه لا يكونُ غيرُه، كما تقول: لعنَ الله إبليسَ وأَخزَى الكفرة، كما دعا نوح على قومه حين أُوحي إليه أنه لن يؤمنَ من قومك إلَّا مَن قد آمَنَ، وقدَّم بين يدي الدعاءِ ما آتاهم الله من النعمة في الدنيا، وكان ذلك سببًا للإيمان به ولشكر نعمه، فجعلوا ذلك سببًا لجحوده ولكفر نعمه.

والزينةُ عبارةٌ عمَّا يُتَزَيَّنُ به ويُتَحسَّنُ من الملبوس والمركوب والأثاث، والمالُ ما يزيدُ على ذلك من الصامت والناطق[١].

قال المؤرِّخون والمفسِّرون: كان لهم من فسطاطِ مصر إلى أرض الحبشة جبالٌ فيها معادنُ الذهب والفضة والزَّبَرْجَد والياقوت[٢].

وفي تكرار «ربَّنا» توكيدٌ للدعاء والاستغاثة، واللامُ في «ليضلُّوا» الظاهرُ أنها لامُ «كي» على معنى: آتيتَهم ما آتيتَهم على سبيل الاستدراج فكان الإتيانُ لكي يَضِلُّوا، ويحتمل أن تكونَ لامَ الصيرورة والعاقبة، كقوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨] وكما قال الشاعر:

وللمنايا تربِّي كلُّ مُرْضعةٍ ... وللخَرابِ يُجِدُّ الناسُ عُمرانا[٣]

(١) الصامت: الذهب والفضة والجوهر، والناطق: البعير والبقرة والشاة. ينظر اللسان (صمت)، وفتح الباري ٧/ ٤٨٩.

(٢) الوسيط للواحدي ٣/ ٥٥٧، والكشاف ٢/ ٢٤٩-٢٥٠، وزاد المسير ٤/ ٥٥ عن ابن عباس.

(٣) بهجة المجالس لابن عبد البر ٣/ ٣٣٣، وزاد المسير ٤/ ٥٦.

وقال الحسن: هو دعاءٌ عليهم[١]. وبهذا بدأ الزمخشريُّ، قال: كأنه قال: ليَثْبُتوا على ما هم عليه من الضلال، ولْيكونوا ضلَّالًا، ولْيَطْبَعِ الله على قلوبهم فلا يؤمنوا[٢]. ويُبْعِدُ أن يكونَ دعاءً قراءةُ مَن قرأ: «لِيُضِلُّوا» بضمِّ الياء؛ إذ يَبْعُدُ أن يَدْعوَ بأنْ يكونوا مضلِّين غيرَهم، وهي قراءةُ الكوفيِّين وقتادةَ والأعمش وعيسى، والحسن والأعرج بخلافٍ عنهما، وقرأ الحرميان والعربيان ومجاهدٌ وأبو رجاءٍ والأعرج وشيبةُ وأبو جعفر وأهلُ مكة بفتحها، وقرأ الشعبي بكسرها[٣]، والَى بين الكسرات الثلاث.

وقيل: «لا» محذوفة، التقدير: لئلَّا يَضِلُّوا عن سبيلك، قاله أبو عليٍّ الجُبَّائيُّ[٤].

وقرأ الفضلُ الرقاشي: «أئنك آتيتَ» على الاستفهام[٥].

ولمَّا تقدَّم ذكرُ الأموال وهي أعزُّ ما ادُّخِر، دعا بالطُّموس عليها وهي التَّعْفِيةُ والتغيير، أو الإهلاك.

قال ابن عباس ومحمد بن كعب: صارت دراهمهم حجارةً منقوشةً صِحاحًا وأثلاثًا وأنصافًا، ولم يبق لهم معدنٌ إلا طَمَسَ الله عليه فلم يَنتفِعْ بِها أحدٌ بعدُ.

وقال قتادة: بَلَغنا أنَّ أموالهم وزُروعَهم صارت حجارةً.

وقال مجاهدٌ وعطيةُ: أَهْلِكْها حتى لا تُرى.

وقال ابن زيد: صارت دنانيرُهم ودراهمُهم وفُرُشُهم وكلُّ شيءٍ لهم حجارةً.

قال محمد بن كعب: سألني عمر بن عبد العزيز فذكرتُ ذلك له، فدعا بخريطةٍ أُصيبت بمصر فأخرج منها الفواكهَ والدراهمَ والدنانيرَ وإنها لحجارةٌ.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٩.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٥٠.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٩، وقراءة الفتح والضم في السبعة ص٢٦٧، والتيسير ص١٠٦، والنشر ٢/ ٢٦٢، والكوفيون هم عاصم وحمزة والكسائي وخلف، والحرميان: نافع وابن كثير، والعربيان: أبو عمرو وابن عامر.
(٤) تفسير الرازي ١٧/ ١٥٠-١٥١.
(٥) القراءات الشاذة ص٥٨.

وقال قتادةُ والضحَّاك وأبو صالح والقُرَظيُّ: جُعل سُكَّرُهم حجارةً.

وقال السُّدي: مَسَخَ الله الثمارَ والنخلَ والأطعمة حجارةً[١].

وقال شيخنا أبو عبد الله محمد بن سليمان المقدسيُّ، عُرف بابن النقيب، وهو جامع كتاب «التحرير والتحبير» في هذا الكتاب: أخبرني جماعةٌ من الصالحين كان شغلُهم السياحةَ أنهم عايَنوا بجبالِ مصر وبراريها حجارةً على هيئة الدنانير والدراهم، وفيها آثارُ النقش، وعلى هيئة الفلوس، وعلى هيئة البِّطيخ العبدلاويِّ، وعلى هيئةِ البِّطيخ الأخضر، وعلى هيئة الخِيار، وعلى هيئة القثَّاء، وحجارةً مطوَّلةً رقيقةً معوجَّةً على هيئة النقوش، وربما رأوا على صورة الشجر.

«واشدد على قلوبهم» قال ابن عباس ومقاتل والفرَّاء والزجَّاج: اطْبَعْ عليها وامنعها من الإيمان.

وقال ابن عباس أيضًا والضحاك: أَهْلِكْهم كفارًا.

وقال مجاهد: اشدُد عليها بالضلالة.

وقال ابن قتيبة: قَسِّ قلوبهم[٢].

وقال ابن بحر: اشدُد عليها بالموت[٣].

وقال الكرماني: أي: لا يجدوا سُلُوًّا عن أموالهم، ولا صبرًا على ذهابها.

وقرأ الشعبيُّ وفرقةٌ: «اطمُس» بضمِّ الميم[٤]، وهي لغةٌ مشهورةٌ.

«فلا يؤمنوا» مجزومٌ على أنه دعاءٌ عند الكسائيِّ والفرَّاء، كما قال الأعشى:

---

(١) تنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ٢٦٤-٢٦٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩، وتفسير الثعلبي ٣/ ٢٩٨، وزاد المسير ٤/ ٥٦.

(٢) زاد المسير ٤/ ٥٧، وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٧، وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣١، وقول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن ص١٩٨. وأخرج أقوال ابن عباس والضحاك ومجاهد الطبريُّ ١٢/ ٢٦٧-٢٦٨.

(٣) النكت والعيون ٢/ ٤٤٨.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٨.

فلا يَنْبَسِطْ من بين عينيك ما انْزَوَى ولا تَلْقَني إلَّا وأنفُك راغِمُ[١]

ومنصوبٌ على أنه جوابُ «اشْدُدْ» بدأ به الزمخشريُّ[٢].

ومعطوفٌ على «لِيُضِلُّوا» على أنه منصوبٌ؛ قاله الأخفشُ وغيرُه[٣]، وما بينهما اعتراضٌ، أو على أنه مجزومٌ على قولِ مَن قال: إنَّ لامَ «لِيُضِلوا» لامُ الدعاء.

وكان رؤيةُ العذاب غايةً ونهايةً لأنَّ الإيمان إذ ذاك لا ينفعُ، ولا يُخْرج من الكفر.

وكان «العذاب الأليم» غرقَهم؛ قاله ابن عباس[٤].

قال محمد بنُ كعبٍ: كان موسى يدعو وهارونُ يؤمِّنُ، فنُسبت الدعوةُ إليهما[٥]. ويمكنُ أن يكونا دَعَوَا.

ويَبْعُدُ قولُ مَن قال: كَنَى عن الواحد بلفظ التثنية. لأنَّ الآية تضمَّنت بعدُ مخاطبتَهما في غيرِ شيءٍ.

ورُوي عن ابن جُريجٍ ومحمد بنِ عليٍّ والضحاكِ أنَّ الدعوة لم تظهر إجابتُها إلَّا بعد أربعين سنةً[٦]. وأُعْلِما أنَّ دعاءهما صادفَ مقدورًا، وهذا معنى إجابةِ الدعاء، وقيل لهما: «لا تتبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون»، أي: في أنْ تستعجِلَا قضائي، فإنَّ وعدي لا خُلْفَ له.

وقرأ السُّلميُّ والضحاك: «دَعَواتُكما» على الجمع[٧]، وقرأ ابن السَّمَيْفَع: «قد

(١) ديوان الأعشى ص١٢٩، والكلام من المحرر الوجيز ٣/ ١٣٩، وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٧.
(٢) في الكشاف ٢/ ٢٥٠.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٩ وقول الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٥٧٣.
(٤) أخرجه الطبري ١٢/ ٢٦٧ و٢٧٠.
(٥) أخرجه عنه وعن جمع منهم ابن عباس الطبريُّ ١٢/ ٢٧٠-٢٧٢.
(٦) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٩، وأخرجه عن ابن جريج الطبريُّ ١٢/ ٢٧٣.
(٧) القراءات الشاذة ص٥٨، والمحتسب ١/ ٣١٦.

أَجَبْتُ دعوتَكما» خبرًا عن الله تعالى ونَصب «دعوة»[١]، والربيع: «دَعْوَتَيْكما»، وهذا يؤكِّدُ قولَ مَن قال: إنَّ هارون دعا مع موسى، وقراءةُ «دعوتيكما» تدلُّ على أنه قرأ: «قد أجبتُ» على أنه فعلٌ وفاعِلٌ.

ثم أُمِرا بالاستقامة، والمعنى: الديمومةُ عليها وعلى ما أُمِرْتُما به من الدعوة إلى الله تعالى وإلزامِ حُجةِ الله.

وقرأ الجمهور: «تتَّبعانِّ» بتشديد التاء والنون، وابنُ عباس وابنُ ذكوان بتخفيف التاء وشدِّ النون، وابنُ ذكوان أيضًا بتشديد التاء وتخفيفِ النون[٢]، وفرقةٌ بتخفيفِ التاء وسكونِ النون، ورَوَى ذلك الأخفشُ الدمشقيُّ[٣] عن أصحابه عن ابن عامر[٤].

فأمَّا شدُّ النون فعلى أنها نونُ التوكيد الشديدة لَحِقتْ فعلَ النهي المتّصلِ به ضميرُ الاثنين، وأمَّا تخفيفُها مكسورةً؛ فقيل: هي نونُ التوكيد الخفيفةِ وكُسِرت كما كُسرت الشديدةُ، وقد حَكَى النحويون كَسْرَ النون الخفيفة في مثل هذا عن العرب، ومذهبُ سيبويه والكسائيِّ أنه لا تدخلُ هنا الخفيفةُ[٥]، ويونسُ والفرَّاءُ يَرَيان ذلك.

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/ ٢٩٨.

(٢) ذكرهما عن ابن ذكوان ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٤٠، وذكر الثانية عنه ـ أعني تشديد التاء وتخفيف النون ـ الداني في التيسير ص١٢٣، والأولى ذكرها ابن مجاهد في السبعة ص٣٢٩، ورواها سلامة بن هارون عن الأخفش عن ابن ذكوان، وغلَّطهما الداني في جامع البيان ٢/ ١٩٨، ، قال: لأن جميع الشاميين رووا ذلك عن ابن ذكوان وعن الأخفش سماعًا وأداءً بتشديد التاء وتخفيف النون، وكذلك نص عليه الأخفش في كتابه. اهـ. وتعقبه صاحب النشر ٢/ ٢٨٧، بقوله: قد صحت عندنا هذه القراءة، أعني تخفيف التاء مع تشديد النون، من غير طريق ابن مجاهد وسلامة.

(٣) هو هارون بن موسى، أبو عبد الله التغلبي، مقرئٌ نحوي، أخذ القراءة عرضًا وسماعًا عن ابن ذكوان، وكان ثقة معمَّراً، توفي سنة (٢٩٢هـ). غاية النهاية ٢/ ٣٤٧.

(٤) كذا ذكر ابن عطية، وما أوردناه قريبًا من كلام الداني عن رواية الأخفش يخالفه، وكذا ما قاله الفارسي في الحجة ٤/ ٢٩٣ من أن رواية الأخفش الدمشقي عن أصحابه عن ابن عامر: «تَتْبعانِ» خفيفة التاء والنون. وينظر النشر ٢/ ٢٨٧.

(٥) الكتاب ٣/ ١٥٩، وفيه: ولم تكن الخفيفة هاهنا (يعني مع ألف الاثنين) لأنها ساكنةٌ ليست مدغمةً فلا تثبت مع الألف، ولا يجوز حذف الألف فيلتبسَ بالواحد.

وقيل: النون المكسورةُ الخفيفةُ هي علامةُ الرفع، والفعلُ منفيٌّ والمرادُ منه النهيُ، أو هو خبرٌ في موضع الحال، أي: غيرَ متبعَيْنِ؛ قاله الفارسي[(١)].

و«الذين لا يعلمون» فرعونُ وقومُه؛ قاله ابن عباس، أو الذين يستعجلون القضاء قبل مجيئه؛ ذكره أبو سليمان[(٢)].

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ قرأ الحسن: «وجوَّزنا» بتشديد الواو[(٣)]، وتقدَّم الكلامُ في الباء في «ببني إسرائيل» وكم كان الذين جازُوا مع موسى عليه السلام في سورة الأعراف[(٤)].

وقرأ الحسنُ وقتادةُ: «فاتَّبعهم» بتشديد التاء[(٥)].

وقرأ الجمهور: «وجاوزنا»، «فأتْبَعَهم» رباعيًّا.

قال الزمخشريُّ[(٦)]: وليس مِن «جوَّز» الذي في بيت الأعشى:

وإذا تُجوِّزُها حِبالُ قبيلةٍ[(٧)]

لأنه لو كان منه لكان حقُّه أنْ يقال: وجوَّزْنا بني إسرائيلَ في البحر، كما قال:

---

(١) في الحجة ٤/ ٢٩٤.
(٢) ذكر القولين ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٥٩.
(٣) القراءات الشاذة ص٥٨، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٠، والكشاف ٢/ ٢٥١.
(٤) عند تفسير الآية (١٣٨) منها.
(٥) القراءات الشاذة ص٥٨، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٠.
(٦) في الكشاف ٢/ ٢٥١، وكلامه على قراءة الحسن: «وجوَّزنا».
(٧) وعجزه: أخَذَتْ من الأخرى إليك حبالَها، وهو في ديوان الأعشى ص٧٩، والكلام عن ناقته، والمعنى كما قال شارح الديوان: كلما جوَّزتها عهود قبيلة أخذت من الأخرى عهودها إلى الممدوح، وهو قيس بن معد يكرب.

كمـا جـوَّز الـسَّـكِّـيَّ فـي الـبـاب فَـيْـتَـقُ[١]

انتهى.

وقال الحَوْفي: تَبِعَ وأَتْبَعَ بمعنًى واحدٍ.

وقال الزمخشري: «فأتبَعهم»: لحقهم، يقال: تَبِعَه حتى أَتْبَعَه[٢].

وفي «اللوامح»: تَبعَه: إذا مشى خلفه، واتَّبعَه كذلك، إلا أنه حاذاه في المشي، وأَتْبعه لَحِقَه، ومنه العامةُ. يعني: ومنه قراءةُ العامة: «فأتبعهم».

وجنودُ فرعونَ قيل: ألفُ ألفٍ وستُّ مئة ألفٍ. وقيل غيرُ ذلك.

وقرأ الحسن: «وعدوًّا» على وزن عُلُوٍّ[٣]، وتقدَّمت في «الأنعام»، و«عَدْوًا» و«عُدُوًّا» من العُدوان.

وإتْباعُ فرعون هو في مجاوَزَةِ البحر، روي أن فرعون لمَّا انتهى إلى البحر فوجده قد انْفَرقَ ومضى فيه بنو إسرائيل، قال لقومه: إنما انْفَلَق بأمري. وكان على فرسٍ ذَكَرٍ، فبعث الله إليه جبريلَ عليه السلام على فرسٍ أنثى ودَنَوَا[٤] فدَخَلَ بها البحرَ، ولجَّ فرسُ فرعون وراءه وجَنَب الجيوشَ خلفه، فلمَّا رأى أنَّ الانفراق ثبت

(١) وصدره: ولا بد من جارٍ يجيز سبيلها، والبيت للأعشى أيضاً، وهو في ديوانه ص٢٧٣.
السكي: المسمار، والفيتق: النجار. والمعنى كما قال الشارح: لا بد لسالك هذه الصحراء أن يتودَّد إلى الذين يمر بهم من القبائل، وينال جوارهم ليُجيزوه ويُنفِذوه، كما يُنفذ النجارُ المسمارَ في الباب. اهـ.
ومعنى كلام الزمخشري أن «جوَّز» على قراءة الحسن هو بمعنى «جاوَزَ» الذي في قراءة الجمهور، وهو من جاوَزَ المكان: إذا قطعه وتخطاه، وهو متعدٍّ إلى المفعول الأول الذي كان فاعلاً في الأصل بالباء، وإلى الثاني بنفسه، وليس من «جوَّز» بمعنى: أَنفَذَ وأَدْخَلَ؛ لأنه لا يتعدى بالباء إلى المفعول الأول، بل بـ«في» إلى المفعول الثاني، فتقول: جوَّزته فيه. ينظر حاشية الشهاب على البيضاوي ٥/ ٥٧، وروح المعاني ١١/ ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٥١.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٨، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٠.

(٤) كذا في النسخ، والذي في المصادر: وديق. ينظر تفسير الطبري ١/ ٦٥٧، وتفسير الثعلبي ٣/ ٢٩٩، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤١، وتفسير البغوي ١/ ٧١، والنهاية (ودق)، وفيه: وديق: هي التي تشتهي الفحل.

له استمرَّ، وبعث الله ميكائيل عليه السلام يسوقُ الناسَ حتى حصل جميعُهم في البحر، فانْطَبَقَ عليهم.

وقرأ الجمهور: «أنه» بفتح الهمزة على حذف الباء. وقرأ الكسائيُّ وحمزةُ بكسرها[١] على الاستئناف ابتداءَ كلامٍ، أو بدلًا من «آمنتُ»، أو على إضمارِ القول، أي: قائلًا: إنه.

ولـمَّا لَحِقَه من الدَّهَش ما لَحِقَه كرَّر المعنى بثلاثِ عباراتٍ: إمَّا على سبيل التلعثُم إذ ذلك مقامٌ تَحارُ فيه القلوب، أو حرصًا على القبول ولم يَقبل الله منه إذ فاته وقتُ القبول وهو حالة الاختيارِ وبقاءِ التكليف، والتوبةُ بعد المعاينة لا تنفعُ، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [غافر ٨٥] وتقدم الخلاف في قراءة: «آلآن» في قوله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم﴾ [يونس: ٥١] والمعنى: أتُؤْمِنُ الساعةَ في حالِ الاضطرارِ حين أدركك الغرقُ وأيِسْتَ من نَفْسِك.

قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق.

وقيل: بعد أن غرق في نفسه.

قال الزمخشريُّ: والذي يُحْكى أنه حين قال: «آمنتُ» أخذ جبريلُ من حال البحر[٢] فدسَّه في فيه؛ فللغضب لله تعالى على حال الكافر في وقتٍ قد عَلِمَ أنَّ إيمانه لا ينفعُه، وأمَّا ما يُضمُّ إليه من قولهم: خشيتُ أن تدركَه رحمةُ الله تعالى، فمِن زيادات الباهتين لله تعالى وملائكته، وفيه جَهالتان: إحداهما: أنَّ الإيمان يصحُّ بالقلب كإيمان الأخرس، فحالُ البحر لا يمنعه.

والآخر: أن مَن كره إيمانَ الكافر وأحبَّ بقاءه على الكفر فهو كافرٌ؛ لأنَّ الرضا بالكفر كفرٌ[٣].

---

(١) السبعة ص٣٣٠، والتيسير ص١٢٣.
(٢) حال البحر: هو الطين الأسود الذي يكون في أرضه. تهذيب اللغة ٥/ ٢٤٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٥١، وخبر جبريل عليه السلام أخرجه مرفوعاً وموقوفاً أحمد (٢١٤٤)، والترمذي (٣١٠٨)، وابن حبان (٦٢١٥) من حديث ابن عباس ﷺ. قال الترمذي: حديث =

والظاهر أنَّ قوله: «آلآن» إلى آخره من كلام الله له على لسان مَلَكٍ، فقيل: هو جبريل. وقيل: ميكائيل.

وقيل: غيرُهما. لخطابه: «فاليومَ نُنجِّيك»[١].

وقيل: من قولِ فرعون في نفسِه.

وإفسادُه: إضلالُه الناسَ ودَعْواه الربوبيةَ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

«فاليوم ننجِّيك» الظاهرُ أنه خبرٌ، وقيل: هو استفهامٌ فيه تهديدٌ، أي: أفاليومَ ننجِّيك، فهلَّا كان الإيمانُ قبل الإشراف على الهلاك. وهذا بعيدٌ؛ لحذف همزةِ الاستفهام، ولقوله: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾؛ لأنَّ التعليل لا يناسبُ هنا الاستفهام.

قال ابن عباس: «ننجِّيك» نُلقِيكَ بنَجْوةٍ من الأرض. وهي المكانُ المرتفع[٢].

و«ببدنك»: بدرعك، وكان من لؤلؤٍ منظومٍ لا مِثَالَ له[٣].

= حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وقال محققو المسند: صحيح موقوفًا على ابن عباس. اهـ. وأخرجه مرفوعاً الطيالسي (٢٦١٨)، والحاكم ٢/ ٣٤٠، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس. وأما ما نسبه الزمخشري للباهتين لله وملائكته فهو قطعة من الخبر في بعضِ الروايات، وقد تُعقب الزمخشري في كلامه، وتأوَّلوا خبر ابن عباس، وينظر بحث ذلك في روح المعاني ١١/ ٢٧٨. إلا أن ابن المنير ارتضى كلامه، فقال في الانتصاف على هامش الكشاف: ولقد أنكر منكراً، وغضب لله وملائكته كما يجب لهم. اهـ. وردَّ القصة أيضاً الرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٦، وينظر كلامه ثمة.

(١) قوله: لخطابه. . .، ظاهر أنه لا ارتباط له في المعنى بما قبله، ولعل في الكلام سقطاً، التقدير: وقيل: إن قائل هذا هو الله تعالى؛ لخطابه. . .، نقله الرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٦، وقال: لأن هذا الكلام ـ يعني قوله: «فاليوم ننجيك» إلى قوله: «وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون». ليس إلا من كلام الله تعالى.

(٢) هذا الكلام لفظه للطبري في تفسيره ١٢/ ٢٧٩، ثم أخرج عن ابن عباس وغيره ما يوافقه، لكن بألفاظ أُخر.

(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٤٨ عن ابن عباس ومحمد بن كعب.

وقيل: من ذهبٍ[١].

وقيل: من حديدٍ وفيها سلاسلُ من ذهبٍ.

والبدن: بدنُ الإنسان، والبدنُ: الدرع القصيرةُ، قال:

ترى الأبدانَ فيها مُسْبَغاتٍ على الأبطال واليَلَبَ الحصينا[٢]

يعني: الدروع، وقال عمرو بن معدي كرب:

أعاذِلُ شِكَّتي بَدَني وسيفي وكلُّ مقلِّصٍ سَلِسِ القِيَادِ[٣]

وكانت له دروعٌ من ذهبٍ يُعرف بها.

وقيل: نُلقيك ببدنك عريانًا ليس عليك ثيابٌ ولا سلاحٌ، وذلك أبلغُ في إهانته.

وقيل: نُخْرِجُك صحيحًا لم يأكلك[٤] شيء من الدواب.

وقيل: بدنًا بلا روحٍ؛ قاله مجاهدٌ[٥].

وقيل: نخرجُك من ملكك وحيدًا فريدًا.

وقيل: نلقيك في البحر. من النَّجا: وهو ما سلَخْتَه عن الشاة، أو ألقيتَه عن نفسك من ثيابٍ أو سلاحٍ[٦].

وقيل: نتركك حتى تغرق، والنجاء: الترك.

وقيل: نجعلُك علامةً والنجاء: العَلَامة.

وقيل: نُغرقك. من قولهم: نجَّى البحرُ أقوامًا: إذا أغرقهم.

---

(١) عزاه الرازي في تفسيره ١٧/ ١٥٧ لابن عباس أيضاً.

(٢) عزاه ابن هشام في السيرة ٢/ ٢٥٤ لضرار بن الخطاب، والقرطبي في تفسيره ١١/ ٤٩ لكعب بن مالك. قال القرطبي اليَلَب الدروع اليمانية، وكانت تتخذ من الجلود.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٢، والأغاني ١٥/ ٢٢٦. المقلِّص: الفرس الطويل القوائم المنضم البطن. اللسان (قلص).

(٤) في (ح) و(ز١) و(يه): يأكله.

(٥) النكت والعيون ٢/ ٤٤٩، وأخرجه الطبري ١٢/ ٢٨١ بلفظ: بجسدك.

(٦) العين ٦/ ١٨٧، واللسان (نجا).

وقال الكرماني: يحتمل أن يكون من النجاء، وهو الإسراعُ، أي: نُسْرِعُ بهلاكك.

وقيل: معنى «ببدنك»: بصورتك التي تُعرف بها، وكان قصيرًا أشقر أزرقَ قريبَ اللحية من القامة، ولم يكن في بني إسرائيل شبيهٌ له فعرفوه بصورته.

و«ببدنك» إذا عُني به الجثةُ تأكيدٌ، كما تقول: قال فلانٌ بلسانه، وجاء بنَفْسه.

وقرأ يعقوب: «نُنْجِيك» مخفَّفًا مضارع أَنْجى[١]. وقرأ أبيٌّ وابنُ السَّمَيْفَع ويزيدُ البربريُّ: «ننحِّيك» بالحاء المهملة من التنحية[٢]، ورُوِيت عن ابن مسعود[٣]، أي: نُلقيك بناحيةٍ ممَّا يلي البحر، قال كعبٌ: رماه البحر إلى الساحل كأنه ثورٌ[٤]. وقرأ أبو حنيفة: «بأبدانك»[٥]، أي: بدُروعك، أو جُعِلَ كلُّ جزءٍ من البدن بدنًا، كقولهم: شابَتْ مفارِقُه.

وقرأ ابن مسعود وابنُ السَّمَيْفَع: «بندِائك[٦]» مكان «ببدنك»، أي: بدُعائك، أي: بقولك: «آمنت» إلى آخره؛ لنجعلك آيةً مع ندائك الذي لا ينفعُ، أو بما ناديتَ به في قومك، ونادى فرعون في قومه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤] و: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

ولمَّا كذَّبت بنو إسرائيل بغرقِ فرعونَ رَمَى به البحرُ على ساحله حتى رأوه قصيرًا أحمرَ كأنه ثورٌ[٧]، «لمن خلفك آيةً»: لمن وراءك علامةً، وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أنَّ فرعون أعظمُ شأنًا من أن يغرق، وكان مَطْرحُه على ممرِّ بني إسرائيل حتى قيل: «لمن خَلْفَك».

---

(١) النشر ٢/ ٢٥٩.
(٢) المحتسب ١/ ٣١٦.
(٣) القراءات الشاذة ص٥٨، والنكت والعيون ٢/ ٤٤٩.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٥٢.
(٥) المصدر السابق.
(٦) أخرجها عن ابن مسعود ابن الأنباري كما في تفسير القرطبي ٤٨، والدر المنثور ٧/ ٧٠٢، وينظر القراءات الشاذة ص٥٨.
(٧) روي في هذا أخبار عن قيس بن عُباد وابن عباس وقتادة وغيرهم، أخرجها الطبري ١٢/ ٢٨٠-٢٨٣.

وقيل: لمن يأتي بعدك من القرون.

وقيل: لمن بقي من قِبْطِ مصر وغيرِهم.

وقرئ: «لمن خَلَفَك» بفتح اللام[١]، أي: من الجبابرة والفراعنة؛ ليتَّعِظوا بذلك، ويَحْذَروا أن يُصيبهم ما أصابك إذا فعلوا فِعْلَكَ. ومعنى كونِه آيةً: أن يَظْهَرَ للناس عبوديتُه ومهانتُه، أو ليكون عبرةً يَعتبرُ بها الأمم.

وقرأت فرقة: «لمن خَلَقَكَ»، من الخَلْق، وهو اللهُ تعالى، أي: ليجعلك اللهُ آيةً له في عباده[٢]. وقيل: المعنى: ليكون طرحُك على الساحل وحدَك، وتمييزُك من بين المُغْرَقين؛ لئلَّا يَشْتَبِهَ على الناسِ أمرُك، ولئلا يقولوا لادِّعائك العظمة: إنَّ مِثْلَه لا يغرقُ ولا يموت، آيةً من آيات الله التي لا يقدرُ عليها غيرُه[٣].

«وإن كثيرًا من الناس» ظاهرُه الناسُ كافةً؛ قاله الحسن، وقال مقاتل: من أهل مكة[٤]. «عن آياتنا»، أي: العلامات الدالَّة على الوحدانية وغيرِها من صفاته العُلَى، «لغافلون» لا يتدبَّرون، وهذا خبرٌ في ضمنه توعُّدٌ.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ لمَّا ذكر تعالى ما جَرى لفرعون وأتباعِه من الهلاك، ذَكر ما أَحْسَنَ به لبني إسرائيلَ وما امتنَّ به عليهم، إذ كان بنو إسرائيلَ قد أُخرجوا من مساكنهم خائفين من فرعون، فذكر تعالى أنه اختارَ لهم من الأماكن أحسنَها.

والظاهرُ أن «بني إسرائيل» هم الذين كانوا آمَنوا بموسى ونجوا من الغرق، وسياقُ الآيات يشهدُ لهم.

وقيل: هم الذين كانوا بحضرة النبيِّ ﷺ من بني إسرائيل: قُريظة والنضير وبني قينقاع.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٨.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٢، والكشاف ٢/ ٢٥٢. والقراءة عزاها الثعلبي في التفسير ٣/ ٣٠١ لعلي ﷺ وابنُ الجوزي في زاد المسير ٤/ ٦٢ لابن السميفع وأبي المتوكل وأبي الجوزاء.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٢.

(٤) ذكرهما الثعلبي ٣/ ٣٠١.

وانتصب «مبوَّأَ صِدْقٍ» على أنه مفعولٌ ثانٍ لـ«بوَّأنا»، كقوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقيل: يجوز أن يكون مصدرًا، ومعنى «صِدْقٍ»، أي: فضلٍ وكرامةٍ، ومنه: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ [القمر: ٥٥].

وقيل: مكانَ صدقِ الوعد، وكان وَعَدَهم فصَدَقَهم وَعْدَه.

وقيل: صِدْق تصدَّق به عليهم؛ لأن الصدقة والبِرَّ من الصدق.

وقيل: صَدَقَ فيه ظنُّ قاصِدِه وساكنه.

وقيل: منزلًا صالحًا مَرْضيًا.

وعن ابن عباس: هو الأردنُّ وفلسطين. وقال الضحاك وابن زيد وقتادة: الشام وبيتُ المقدس. وقال مقاتل: بيت المقدس. وعن الضحاك أيضًا: مصر. وعنه أيضًا: مصر والشام[١].

قال ابن عطية: والأصحُّ أنه الشامُ وبيتُ المقدس بحسب ما حُفظ من أنهم لم يعودوا إلى مصر، على أنه في القرآن: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] يعني: ما ترك القِبْطُ من جناتٍ وعيونٍ وغيرِ ذلك، وقد يحتمل أن يكون ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا﴾ معناها: الحالةَ من النعمة وإن لم تكن في قُطْرٍ واحد[٢]. انتهى.

وقيل: ما بين المدينة والشام من أرض يثربَ. ذكره عليُّ بنُ أحمد النيسابوريُّ[٣]. وهذا على قولِ مَن قال: إنَّ بني إسرائيل هم الذين بحضرة النبيِّ ﷺ.

ولمَّا ذكر أنه بوَّأهم مبوَّأ صدقٍ ذكر امتنانَه عليهم بما رزقهم من الطيبات، وهي المآكلُ المستلَذَّاتُ، أو الحلالُ، «فما اختلفوا»، أي: كانوا على ملَّةٍ واحدةٍ وطريقةٍ واحدةٍ مع موسى عليه السلام في أولِ حاله، «حتى جاءهم العلم»، أي: عِلْم التوراة فاختلفوا، وهذا ذمٌّ لهم، أي: إنَّ سبب الاتِّفاق هو العلمُ، فصار عندهم سببَ الاختلاف، فتشعَّبوا شعبًا بعد ما قرؤوا التوراة.

(١) ينظر تفسير الطبري ١٢/ ٢٨٤، وزاد المسير ٤/ ٦٢.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٢.
(٣) هو الواحدي، والكلام في تفسيره الوسيط ٢/ ٥٥٩، ونقله المصنف عن زاد المسير ٤/ ٦٢.

وقيل: «العلم» بمعنى المعلوم، وهو محمدٌ ﷺ؛ لأنَّ رسالته كانت معلومةً عندهم مكتوبةً في التوراة، وكانوا يستفتحون به، أي: يستَنْصِرون، وكانوا قبل مجيئه إلى المدينة مُجْمِعينَ على نبوَّته يَسْتنصِرون به في الحروب، يقولون: اللهمَّ بحُرمة النبيِّ المبعوثِ في آخر الزمان انْصُرْنا، فيُنْصَرون، فلمَّا جاء قالوا: النبيُّ الموعودُ به من ولد يعقوب وهذا من ولدِ إسماعيل، فليس هو ذاك، فآمَنَ به بعضُهم كعبد الله بن سلام وأصحابِه.

وقيل: «العلم»: القرآن، واختلافُهم فيه قولُ بعضِهم: هو من كلام محمدٍ، وقولُ بعضهم: من كلام الله، وليس لنا إنما هو للعرب، وصدَّق به قومٌ فآمنوا، وهذا الاختلافُ لا يمكنُ زوالُه في الدنيا، وأنه تعالى يقضي فيه في الآخرة فيميِّز المُحِقَّ من المُبْطِل.

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الظاهرُ أنَّ «إنْ» شرطيةٌ، ورُوي عن الحسن والحسين بن الفضل أنَّ «إنْ» نافية[1]؛ قال الزمخشريُّ: أي فما كنتَ في شكٍّ فاسأل، يعني: لا نأمرُك بالسؤال لأنك شاكٌّ، ولكنْ لتزداد يقينًا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى[2]. انتهى.

وإذا كانت «إنْ» شرطيةً فذكروا أنها تدخلُ على الممكن وجودُه، أو المحقَّقِ وجودُه المنبهِم زمانُ وقوعه، كقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

والذي أقولُه: إنَّ «إنْ» الشرطيةَ تقتضي تعليقَ شيءٍ على شيءٍ ولا تستلزمُ تحتُّمَ وقوعه ولا إمكانَه، بل قد يكون ذلك في المستحيلِ عقلًا كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] ومستحيلٌ أن يكون له ولدٌ، فكذلك هذا مستحيلٌ أن يكون في شكٍّ، وفي المستحيل عادةً كقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن

(١) أخرجه عن الحسن الطبري ١٣/ ٧٢٥-٧٢٦. ولم أقف عليه عن الحسين بن الفضل، وقاله أيضاً الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٣.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٥٣.

تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الأنعام: ٣٥] أي: فافعل، لكنَّ وقوع «إنْ» للتعليق على المستحيلِ قليلٌ، وهذه الآيةُ من ذلك.

ولمَّا خَفِيَ هذا الوجهُ على أكثر الناس اختلفوا في تخريج هذه الآية.

فقال ابن عطية: الصوابُ أنها مخاطبةٌ للنبيِّ ﷺ والمرادُ بها سواه مِن كلِّ مَن يمكنُ أن يشكَّ أو يعارِضَ[1]. انتهى، ولذلك جاء: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ [يونس: ١٠٤].

وقال قوم: الكلامُ بمنزلة قولك: إن كنتَ ابني فَبِرَّني، وليس هذا المثالُ بجيدٍ، وإنما مثالُ هذه قوله تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦][2]. انتهى، وهذا القولُ مرويٌّ عن الفرَّاء[3]؛ قال الكرماني: واختاره جماعةٌ، وضعِّف بأنه يصير تقدير الآية: أأنت في شكٍّ؛ إذ ليس في الآية ما يدلُّ على نفي الشك.

وقيل: كُنِيَ هنا بالشك عن الضِّيق، أي: فإنْ كنتَ في ضيقٍ من اختلافهم فيما أُنزل إليك وتعنُّتهم عليك.

وقيل: كُنِيَ بالشك عن العَجَب، أي: فإن كنتَ في تعجُّبٍ من عناد فرعون، ومناسبةُ المَجاز أنَّ التعجُّبَ فيه تردُّدٌ كما أنَّ الشك تردُّدٌ بين أمرين.

وقال الكسائي: معناه: إنْ كنتَ في شكٍّ أنَّ هذا عادتُهم مع الأنبياء فسَلْهم: كيف كان صبرُ موسى عليه السلام حين اختلفوا عليه؟

وقال الزمخشري: «فإن كنتَ في شك» بمعنى الفَرْض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شكٌّ مثلًا، وخَيَّل لك الشيطان خيالًا منه تقديرًا، فاسأل الذين يقرؤن الكتاب، والمعنى: إنَّ الله تعالى قدَّم ذكر بني إسرائيل وهم قرأةُ الكتاب، ووَصَفهم بأنَّ العلم قد جاءهم؛ لأنَّ أمر رسول الله ﷺ مكتوبٌ عندهم في التوراة والإنجيل، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكِّد عليهم بصحة القرآن وصحة نبوَّة

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في معاني القرآن له ١/ ٤٧٩، وتفسير الثعلبي ٣/ ٣٠٢.

محمدٍ ﷺ، ويبالغَ في ذلك، فقال تعالى: فإن وقع لك شكٌّ فَرْضًا وتقديرًا، وسبيلُ مَن خالجتْه شبهةٌ في الدِّين أن يسارع إلى حلِّها وإماطتها: إمَّا بالرجوع إلى قوانين الدِّين وأدلَّتِه، وإمَّا بمقادَحة[1] العلماء المنبِّهين على الحق. انتهى.

وقيل أقوالٌ غيرُ هذه.

وقرأ يحيى وإبراهيم: «يقرؤون الكُتب» على الجمع[2].

و«الحقُّ» هنا: الإسلام، أو القرآن، أو النبوَّة، أو الآياتُ والبراهينُ القاطعةُ. أقوالٌ. [«فلا تكوننَّ من الممترين، ولا تكوننَّ من الذين كذبوا بآيات الله»، أي:][3] فاثبُتْ ودُمْ على ما أنت فيه من انتفاء المِرْية والتكذيب، والخطابُ للسامع غيرِ الرسول، وكثيراً ما يأتي الخطابُ في ظاهره لشخصٍ والمرادُ غيرُه.

وروي أنه عليه السلام قال: «لا أشكُّ ولا أسأل، بل أشهدُ أنه الحقُّ»[4].

وعن ابن عباس: واللهِ ما شكَّ طرفةَ عينٍ ولا سأل أحدًا منهم[5].

والامتراءُ: التوقُّفُ في الشيءِ والشكُّ فيه، وأمرُه أسهلُ من أمر المكذِّب[6]، فبُدِئَ به أولًا فنُهي عنه وأُتْبِعَ بذكر المكذِّب ونُهي أن يكون منهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ ذَكَر تعالى عبادًا قضى عليهم بالشقاوة فلا تتغير، والكلمةُ التي حقَّت عليهم قال قتادة: هي اللَّعنةُ والغضب[7].

---

(١) في النسخ الخطية: بمقارنته، والمثبت من المطبوع، وهو الموافق لما في الكشاف ٢/ ٢٥٣، وشرح الزمخشري المقادحة في الأساس في مجاز باب (قدح) بأنها المناظرة.

(٢) القراءات الشاذة ص٥٨.

(٣) ما بين حاصرتين من الكشاف ٢/ ٢٥٣، والكلام منه.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٥٣، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٩٨، والطبري ١٢/ ٢٨٨ من طريق قتادة عن النبي ﷺ مرسلًا دون قوله: بل أشهد أنه الحق.

(٥) الكشاف ٢/ ٢٥٣، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١٠٧٦ و١٠٧٧ ـ تفسير) والطبري ١٢/ ٢٨٨-٢٨٩ عن الحسن وسعيد بن جبير، ولفظه: ما شك ولا سأل.

(٦) في (يه): الكذب.

(٧) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٢٩٨، والطبري ١٢/ ٢٩٠ بلفظ: حقَّ عليهم سخط الله بما عصوه.

وقيل: وعيدُه أنهم يَصيرون إلى العذاب.

وقال الزمخشري: [ثبت عليهم] قولُ الله تعالى الذي كُتب في اللوح وأُخبر به الملائكة أنهم يموتون كفارًا، فلا يكونُ غيرَه، وتلك كتابةُ معلوم لا كتابةُ مقدَّرٍ ومرادٍ لله، تعالى الله عن ذلك[١]. انتهى، وكلامُه أخيرًا على طريقة الاعتزال.

وقال أبو عبد الله الرازي: المراد من هذه الكلمة حُكْمُ الله بذلك وإخبارُه عنه، وخَلْقُه في العبد مجموعَ القدرة والداعية، وهو مُوْجِبٌ لحصول ذلك الأثر[٢].

وقال ابن عطية: المعنى: أنَّ الله أَوْجَبَ لهم سَخَطَه من الأَزَل، وخَلَقَهم لعذابه، فلا يؤمنون ولو جاءهم كلُّ بيانٍ وكلُّ وضوحٍ إلا في الوقت الذي لا ينفعُهم فيه الإيمانُ، كما صَنَعَ فرعونُ وأشباهُه، وذلك وقتُ المعاينة، وفي ضِمْنِ الألفاظ التحذيرُ من هذه الحالِ، وبعثُ كلٍّ على المبادرة إلى الإيمان والفِرارِ من سَخَط الله[٣].

ويجوز أن يكون العذابُ الأليمُ عند تقطُّع أسبابِهم يومَ القيامة، وتقدَّم الخلافُ في قراءة «كلمة» بالإفراد وبالجمع[٤].

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ «لولا» هنا هي التحضيضيةُ التي صَحِبَها التوبيخُ، وكثيرًا ما جاءت في القرآن للتحضيض، فهي بمعنى (هلَّا)، وقرأ أُبيٌّ وعبدُ الله: «فهلا»، وكذا هو في مصحفيهما[٥].

والتحضيضُ: أنْ يريدَ الإنسانُ فعلَ الشيء الذي يَحُضُّ عليه، وإذا كانت للتوبيخ فلا يريد المتكلِّمُ الحضَّ على ذلك الشيء، كقول الشاعر:

تَعُدُّون عقرَ النِّيبِ أفضلَ مَجْدِكم ... بني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المُقنَّعا[٦]

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٣، وما بين حاصرتين منه.
(٢) تفسير الرازي ١٧/ ١٦٣.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٣.
(٤) عند تفسير الآية (٣٣) من هذه السورة.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٣، وذكرها عن أبيٍّ أيضاً الطبري ١٢/ ٢٩١.
(٦) البيت لجرير، وهو في ديوانه ٢/ ٩٠٧، والنقائض ٢/ ٨٣٣، ونسب للأشهب بن رميلة في

لم يَقْصِدْ حضَّهم على عَقْرِ الكَمِيِّ المقنَّع. وهنا وبَّخهم على ترك الإيمان النافع، والمعنى: فهلَّا آمَنَ أهلُ قرية وهم على مَهَلٍ لم يَلْتَبِسِ العذابُ بهم فيكونَ الإيمانُ نافعًا لهم في هذه الحال.

و«قوم» منصوبٌ على الاستثناء المنقطع، وهو قولُ سيبويه والكسائيِّ والفرَّاء والأخفش[1]، إذ ليسوا مندرِجينَ تحت لفظ «قرية».

وقال الزمخشري: ويجوزُ أن يكون متَّصلًا والجملةُ في معنى النفي، كأنه قيل: ما آمَنَتْ قريةٌ من القرى الهالكةِ إلا قومَ يونس[2].

وقال ابن عطيةَ: هو بحَسَبِ اللَّفظ استثناءٌ منقطِعٌ، وكذلك رَسَمَه النَّحويون، وهو بحسب المعنى متَّصلٌ؛ لأن تقديره: ما آمَنَ أهلُ قرية إلا قوم يونس، والنصبُ هو الوجهُ، ولذلك أدخله سيبويه في: باب ما لا يكون فيه إلَّا النصب[3]، وذلك مع انقطاع الاستثناء، وقالت فرقة: يجوزُ فيه الرفعُ، وهذا مع اتِّصال الاستثناء، وقال المَهْدَويُّ: والرفعُ على البدل من «قرية»[4].

وقال الزمخشري: وقُرئ بالرفع على البدل عن الجَرْميِّ والكسائي[5].

وتقدَّم الخلافُ في قراءة «يونس» بضم النون وكسرِها، وذُكر جواز فتحها[6].

= مجاز القرآن ١/ ٥٢، وتفسير الطبري ٢/ ٤٧٦، والنكت والعيون ١/ ١٨٠، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٤٦ و٢/ ٨٤. قال البغدادي: الصحيح أنه من قصيدة لجرير، لا خلاف بين الرواة أنها له. اهـ. ورواية الديوان والنقائض: هلا. قوله: النيب، جمع ناب: وهي الناقة المُسِنَّة. وضوطرى: الرجل الضخم الذي لا غَناء عنده. والكمي: الشجاع المتكمي في سلاحه. والمعنى: تجعلون عقر الإبل المسنة التي لا ينتفع بها أفضل مجدكم، هلا تعدُّون قتل الشجعان الكماة أفضل مجدكم.

(١) الكتاب ٢/ ٣٢٥، ومعاني القرآن للفراء ٢/ ٣٠، وللأخفش ١/ ٢٩٤-٢٩٥، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٦٨ عن الكسائي.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٥٤.

(٣) لفظه في الكتاب ٢/ ٣٢٥: باب ما لا يكون إلا على معنى «ولكن».

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٤.

(٥) الكشاف ٢/ ٢٥٤، وهي في القراءات الشاذة ص٥٨.

(٦) عند تفسير الآية (١٦٣) من سورة النساء، والآية (٨٦) من سورة الأنعام.

و«قوم يونس» هم أهل نِيْنَوَى من بلاد الموصل، كانوا يعبدون الأصنامَ فبعث الله إليهم يونس، فأقاموا على تكذيبه سبعَ سنين، وتوعَّدهم العذابَ بعد ثلاثة أيام، وقيل: بعد أربعين يومًا.

وذكر المفسرون قصةَ قوم يونسَ وتفاصيلَ فيها وفي كيفية عذابهم الله أعلم بصحة ذلك، ويُوْقَفُ على ذلك في كتبهم.

وقال الطبريُّ وذَكَره عن جماعةٍ: إنَّ قومَ يونس خُصُّوا من بين الأمم بأنْ تِيْبَ عليهم بعد معاينة العذاب[١].

وقال الزجَّاج: هؤلاء دنا منهم العذابُ ولم يباشرهم كما باشَرَ فرعونَ، فكانوا كالمريض الذي يَخافُ الموتَ ويرجوا العافيةَ، فأمَّا الذي يباشره العذاب فلا توبةَ له.

وقال ابن الأنباري: عَلِم منهم صدقَ النيَّات بخلافِ مَن تقدَّمهم من الهالكين[٢].

قال السُّدِّي: «إلى حين»: إلى وقتِ انقضاء آجالهم[٣].

وقيل: إلى يوم القيامة. وروي عن ابن عباس[٤]، ولعله لا يصحُّ، فعلى هذا يكونون باقين أحياءً وسَترهم الله عن الناس[٥].

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ قيل: نزلت في أبي طالب؛ لأنه ﷺ أَسِفَ لِمَوته على ملَّة عبد المطلب، وكان حريصًا على إيمانه، ولمَّا كان أحرصَ الناس على هدايتهم وأَسْعَى في وصول الخير إليهم والفوزِ بالإيمان منهم، وأكثرَ اجتهادًا في نجاة

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٢٩١، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٤، والكلام منه.
(٢) القولان في زاد المسير ٤/ ٦٧، وعنه نقل المصنف، وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٤.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٠.
(٤) لم أقف عليه، وينظر تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٩، وتفسير القرطبي ١١/ ٥٦.
(٥) في (ح) و(يه): عن أعين الناس.

العالَمين من العذاب، أَخبره تعالى أنه خَلَقَ أهلًا للسعادة وأهلًا للشقاوة، وأنه لو أراد إيمانهم كلِّهم لفعل، وأنه لا قُدرةَ لأحدٍ على التصرُّف في أحدٍ، والمقصودُ بيانُ أنَّ القدرة القاهرةَ والمشيئةَ النافذةَ ليست إلَّا له تعالى.

وتقديمُ الاسم في الاستفهام على الفعل يدلُّ على إمكان حصولِ الفعلِ، لكنْ من غير ذلك الاسم، فلِلّهِ تعالى أن يُكْرِهَ الناس على الإيمان لو شاء، وليس ذلك لغيره.

وقال الزمخشريُّ: «ولو شاء ربُّك» مشيئةَ القَسْر والإلجاء، «لآمَنَ مَن في الأرض كلُّهم» على وجه الإحاطة والشُّمول، «جميعًا» مجتمِعِينَ على الإيمان، مُطْبِقين عليه، لا يختلفون فيه، ألا ترى إلى قوله تعالى: «أفأنت تُكْرِهُ الناسَ» يعني إنَّما يقدرُ على إكراههم واضطرارِهم على الإيمان هو لا أنت، وإيلاءُ الاسم حرفَ الاستفهام للإعلام بأنَّ الإكراه ممكنٌ مقدورٌ عليه، وإنَّما الشأنُ في المُكْرِه مَن هو؟ وما هو إلا هو وحدَه لا يشارَك فيه؛ لأنه تعالى هو القادرُ على أن يفعل في قلوبهم ما يُضْطَرُّون عنده إلى الإيمان، وذلك غيرُ مستطاعٍ للبشر(١). انتهى.

وقوله: مشيئة القسر والإلجاء، هو مذهبُ المعتزلة.

وقال ابن عطية: المعنى: إنَّ هذا الذي تقدَّم ذكرُه إنما كان جميعُه بقضاء الله عليهم ومشيئتِه فيهم، ولو شاء الله لكان الجميعُ مؤمنًا، فلا تتأسَّفْ أنت يا محمدُ على كفرِ مَن لم يؤمن بك، وادْعُ ولا عليك فالأمرُ محتومٌ، أتريد أنت أن تُكْرِهَ الناس بإدخال الإيمان في قلوبهم وتَضْطَرَّهم إلى ذلك والله عز وجل قد شاء غيرَه، فهذا التأويلُ الآيةُ عليه مُحْكَمةٌ، أي: ادعُ وقاتِلْ مَن خالَفَك، وإيمانُ مَن آمَنَ مصروفٌ إلى المشيئة، وقالت فرقة: المعنى: أفأنت تُكْرِهُ الناسَ بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان، وزعمتْ أن هذه الآيةَ في صدر الإسلام، وأنها منسوخةٌ بآية السيف. والآيةُ على كِلَا التأويلين رادَّةٌ على المعتزلة(٢). انتهى.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٤.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥.

ولذلك ذهب الزمخشريُّ إلى تفسير المشيئة بمشيئة القَسْرِ والإلجاء، وهو تفسيرُ الجبَّائي والقاضي[١].

ومعنى «إلا بإذْنِ الله»، أي: بإرادته وتقديرِه لذلك والتمكين منه، وقال الزمخشري: بتسهيله، وهو منحُ الألطاف، «ويَجْعلُ الرِّجْسَ» وهو الخذلانُ، «على الذين لا يعقلون» وهم المُصِرُّون على الكفر، وسمِّي الخذلان رجسًا وهو العذابُ لأنه سَبَبُه[٢]. انتهى، وهو على طريق الاعتزال.

وقال ابن عباس: «الرجس»: السَّخَط[٣]. وعنه: الإثم والعدوان.

وقال مجاهد: ما لا خير فيه.

وقال الحسن وأبو عبيدة والزجَّاج: العذاب.

وقال الفرَّاء: العذاب والغضب[٤]. وقال الحسن أيضًا: الكفر.

وقال قتادة: الشيطان[٥].

وقد تقدَّم تفسيرُه، ولكنْ نقلنا ما قاله العلماءُ هنا.

وقرأ أبو بكر وزيد بن علي: «ونجعل» بالنون[٦]. وقرأ الأعمش: «ويجعل الله الرجز» بالزاي[٧].

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

---

(١) كما في تفسير الرازي ١٧/ ١٦٦، والقاضي هو عبد الجبار بن أحمد المعتزلي.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٥٥.
(٣) أخرجه الطبري ١٢/ ٣٠٠.
(٤) ذكر هذه الأقوال ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٦٨، وعنه نقل المصنف. وقول الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٨٠، وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٦، وقول مجاهد أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٠.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٩٠.
(٦) السبعة ص٣٣٠، والتيسير ص١٢٣.
(٧) تفسير الثعلبي ٣/ ٣٠٦، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٥، ووقع في مطبوعه: الرجس، بدل: الرجز.

أمر تعالى بالفكرِ فيما أَوْدَعَه تعالى في السماوات والأرض؛ إذ السبيلُ إلى معرفته تعالى هو بالتفكُّر في مصنوعاته، ففي العالَم العلويِّ: في حركات الأفلاك ومقاديرِها وأوضاعِها والكواكبِ وما يختصُّ بذلك من المنافع والفوائد، وفي العالم السفليِّ: في أحوال العناصر والمعادن والنباتِ والحيوان وخصوصًا حال الإنسان، وكثيرًا ما ذكر اللهُ تعالى في كتابه الحضَّ على الفكر في مخلوقاته تعالى. وقال: «ماذا في السماوات والأرض»، تنبيهًا على القاعدة الكليِّة، والعاقلُ يتنبَّهُ لتفاصيلها وأقسامِها.

ثم لمَّا أمر بالنظر أَخبر أنه مَن لا يُؤمِنُ لا تُغنيه الآياتُ والنذُر، [والنذر][1] جمعُ نذيرٍ: إمَّا مصدرٌ فمعناه: الإنذارات، وإما بمعنى منذرٍ فمعناه: المنذرون والرسل.

و«ما» الظاهرُ أنها للنفي، ويجوز أن تكون استفهامًا، أي: وأيُّ شيءٍ تُغني الآياتُ؟ وهي الدلائلُ، وهو استفهامٌ على جهة التقرير، وفي الآية توبيخٌ لحاضري رسولِ الله ﷺ من المشركين.

وقرأ الحرميَّان والعربيَّان والكسائي: «قلُ انظروا» بضم اللام[2]، وقُرئ: «وما تُغني» بالتاء، وهي قراءةُ الجمهور، وبالياء[3].

و«ماذا» يحتمل أن يكون استفهامًا في موضع رفعٍ بالابتداء، والخبرُ: «في السماوات»، ويحتمل أن يكون الخبرُ «ذا» بمعنى الذي، وصلتُه «في السماوات». و«انظروا» معلَّقةٌ، فالجملةُ الابتدائيةُ في موضع نصبٍ، ويَبْعُدُ أن يكونَ «ماذا» كلُّه موصولًا بمعنى الذي، ويكون مفعولًا لقوله: «انظروا»؛ لأنه إن كانت بصريةً تعدَّت بـ«إلى»، وإن كانت قلبيةً تعدَّتْ بـ«في».

وقال ابن عطية: ويحتمل أن تكون «ما» في قوله: «وما تغني» مفعولةً لقوله: «انظروا»، معطوفةً على قوله: «ماذا»، أي: تأمَّلوا قَدْرَ غَناء الآياتِ والنذرِ عن

(١) زيادة يقتضيها السياق.
(٢) التيسير ص٧٨.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٥.

الكفار إذا قبلوا ذلك كفِعْلِ قوم يونسَ، فإنه يرفعُ العذابَ في الدنيا والآخرة، ويُنْجي من الهَلَكات، والآيةُ على هذا تحريضٌ على الإيمان، وتَجوُّزُ اللفظ على هذا التأويل إنما هو في قوله: «لا يؤمنون»[١]. انتهى، وهذا احتمالٌ فيه ضعفٌ.

وفي قوله: مفعولةٌ معطوفةٌ على قوله: «ماذا»، تجوُّزٌ، يعني أنَّ الجملة الاستفهامية التي هي «ماذا في السماوات والأرض» في موضع المفعول، لا أنَّ «ماذا» منصوبٌ وحده بـ«انظروا»، فتكونَ «ماذا» موصولةً و«انظروا» بَصَريةً؛ لَمَا تقدَّم[٢].

والأيام هنا: وقائعُ الله فيهم، كما يقال: أيام العرب، لوقائعها. وفي الاستفهام تقريرٌ وتوعُّدٌ، وحضٌّ على الإيمان، والمعنى: إذا لجُّوا في الكفر حلَّ بهم العذابُ، وإذا آمنوا نَجَوا، هذه سنَّةُ الله في الأمم الخالية.

«قل فانتظروا» أمرُ تهديدٍ، أي: انتظروا ما يَحِلُّ بكم كما حلَّ بمن قبلكم من مكذِّبي الرسل.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ لمَّا تقدَّم قولُه: «فهل ينتظرون إلا مثلَ أيام الذين خلوا من قبلهم»، وكان ذلك مُشْعِرًا بما حلَّ بالأمم الماضية المكذِّبةِ، ومصرِّحًا بهلاكهم في غيرِ ما آيةٍ، أخبر تعالى عن حكاية حالهم الماضيةِ فقال: «ثم ننجِّي رسلنا»، والمعنى: إن الذين خَلَوا أهلكناهم لمَّا كذَّبوا الرسل ثم نجَّينا الرسلَ والمؤمنين، ولذلك قال الزمخشري: «ثم ننجِّي» معطوفٌ على كلامٍ محذوفٍ يدلُّ عليه: «إلَّا مِثْلَ أيامِ الَّذين خَلَوْا مِن قَبْلِهم»، كأنه قيل: نُهلك الأمم ثم نُنجِّي رسلَنا على مِثْلِ الحكاياتِ الماضية[٣].

والظاهرُ أن «كذلك» في موضع نصبٍ تقديرُه: مثلَ ذلك الإنجاء الذي نجَّينا الرسلَ ومؤمنيهم نُنْجي مَن آمَنَ بك يا محمدُ، ويكون «حقًّا» على تقديرِ: حقَّ ذلك حقًّا.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥.

(٢) يعني: لما تقدم من أنها لو كانت بصرية لتعدَّت بـ«إلى».

(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٥، والعبارة الأخيرة فيه بلفظ: ثم ننجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية.

وقال أبو البقاء: يجوزُ أن يكون «حقًّا» بدلًا من المحذوفِ النائبِ عنه الكافُ، تقديره: إنجاءً مِثْلَ ذلك حقًّا، وأجاز أن يكون «كذلك» و«حقًّا» منصوبين بـ«نُنْجي» التي بعدهما، وأن يكون «كذلك» منصوبًا بـ«نُنَجِّي» الأولى، و«حقًّا» بـ«نُنْجي» الثانية، وأجاز هو تابعًا لابن عطية أن تكون الكافُ في موضع رفعٍ، وقدَّره: الأمرُ كذلك، و«حقًّا» منصوبٌ بما بعدها[1].

وقال الزمخشري: مثلَ ذلك الإنجاء نُنْجي المؤمنين منكم ونُهلك المشركين، و«حقًّا علينا» اعتراضٌ، يعني: حقَّ ذلك علينا حقًّا[2].

قال القاضي[3]: «حقًّا علينا» المرادُ به الوجوبُ؛ لأنَّ تخليصَ الرسولِ ﷺ والمؤمنين من العذاب إلى الثواب واجبٌ، ولولاه ما حَسُنَ من الله أن يُلْزِمَهم الأفعالَ الشاقَّةَ، وإذا ثَبَتَ [وجوبُه] لهذا السبب جرى مجرى قضاءِ الدَّين للسَّبب المتقدِّم.

وأجيب بأنه حقّ بحسب الوعد والحُكْم لا بحسب[4] الاستحقاق، لمَا ثبت أنَّ العبد لا يستحقُّ على خالقِه شيئًا.

وقرأ الكسائيُّ وحفصٌ: «نُنْجي المؤمنين» بالتخفيف مضارع أَنْجَى[5]، وخطُّ المصحف: «ننج» بغير ياء.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ خطابٌ لأهل مكةَ، يقول: إنْ كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبيِّنُه لكم، فبدأ أولًا بالانتفاء من عبادة

(١) الإملاء ٢/ ٣٣-٣٤.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٥٥.
(٣) هو عبد الجبار المعتزلي، وكلامه في تفسير الرازي ١٧/ ١٧١، وما سيرد بين حاصرتين منه.
(٤) في تفسير الرازي: بسبب، في الموضعين.
(٥) السبعة ص٣٣٠، والتيسير ص١٢٣.

ما يعبدون من الأصنام تسفيهًا لآرائهم، وأثْبتَ ثانيًا مَن الذي يعبدُه وهو: «الله الذي يتوفَّاكم»، وفي ذِكْرِ هذا الوصفِ الوسَطِ الدالِّ على التوفِّي دلالةٌ على البدء ـ وهو الخَلْقُ ـ وعلى الإعادة، فكأنه أشار إلى أنه يعبُدُ الله الذي خَلَقَكم ويتوفَّاكم ويُعيدكم، وكثيرًا ما صرِّح في القرآن بهذه الأطوارِ الثلاثة، وكان التصريحُ بهذا الوصفِ لمَا فيه من التذكير بالموت وإرهابِ النفوس به، وصيرورتِهم إلى الله بعده، فهو الجديرُ بأنْ يُخافَ ويُتَّقى ويُعبَدَ، لا الحجارةُ التي تعبدونها.

«وأُمِرْتُ أن أكون من المؤمنين» لمَّا ذكر أنه يَعبُدُ اللهَ، وكانت العبادةُ أغلبُ ما عليها عملُ الجوارح، أخبر أنه أُمر بأنْ يكونَ من المصدِّقين بالله الموحِّدين له المُفْرِديهِ بالعبادة، وانتقل من عمل الجوارح إلى نورِ المعرفة، وطابَقَ الباطنُ الظاهرَ.

قال الزمخشريُّ: يعني: إنَّ الله تعالى أمرني [بذلك] بما ركَّب فيَّ من العقل، وبما أَوْحَى إليَّ في كتابه.

وقيل: معناه: إنْ كنتم في شكٍّ من دِيني وممَّا أنا عليه: أَأَثْبُتُ، أم أتركُه وأوافقُكم؟ فلا تحدِّثوا أنفسَكم بالمُحَال، ولا تَشُكُّوا في أمري، واقْطَعوا عنِّي أطماعَكم، واعْلَموا أنِّي لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولا أختارُ الضلالةَ على الهدى، كقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾.

«وأُمِرْتُ أنْ أكونَ» أصلُه: بأنْ أكونَ، فحذف الجارُّ، وهذا الحذفُ يحتمل أن يكون من الحذف المطَّرد الذي هو حذفُ الحروف الجارَّةِ مع «أنَّ» و«أنْ»، وأن يكون من الحذف غيرِ المطَّرد، وهو قولُه: أَمَرْتُكَ الخيرَ فاصْدَعْ بما تُؤمر[1]. انتهى.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٥، وما سلف بين حاصرتين منه. وقوله: أمرتك الخير، يشير به إلى قول الشاعر:

أمرتك الخير فافعل ما أُمِرْتَ به ... فقد تركتك ذا مالٍ وذا نَشَبِ

وهو في الكتاب ١/ ٣٧، والخزانة ١/ ٣٣٩، واختلف في نسبته، قال البغدادي: نسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة، وسلف عند تفسير الآية (٦٧) من سورة البقرة.

يعني بالحذف غيرِ المطرد ـ وهو قوله: أمرتُك الخير ـ أنه لا يُحذف حرفُ الجرِّ من المفعول الثاني إلا في أفعالٍ محصورةٍ سماعًا لا قياسًا، وهي: اختار، واستَغْفَر، وأمر، وسمَّى، وكَنَى، ودعا بمعنى: سمَّى، وزوَّجَ وصَدَقَ، خلافًا لمن قاس الحذفَ بحرف الجر من المفعول الثاني حيث تَعَيَّنَ الحرفُ وموضعُ الحذف، نحو: بريتُ القلم بالسكِّين، فيجيز: السكِّينَ بالنصب[١].

وجوابُ «إنْ كنتُم في شك» قولُه: «فلا أعبد»، والتقدير: فأنا لا أعبد؛ لأنَّ الفعلَ المنفيَّ بـ«لا» إذا وقع جوابًا انجزم، فإذا دخلت عليه الفاءُ عُلم أنه على إضمارِ المبتدأ، وكذلك لو ارتفع دون «لا»، كقوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ﴾ [المائدة: ٩٥] أي: فهو ينتقم الله منه.

وتضمَّنَ قولُه: «فلا أعبد» معنى: فأنا مُخالِفُكم.

و«أنْ أقِمْ» يحتملُ أن تكون معمولةً لقوله: «وأُمرتُ» مراعًى فيها المعنى؛ لأن معنى قوله: «أنْ أكون»: كُنْ من المؤمنين، فتكون «أنْ» مصدريةً صلتُها الأمر، وقد أجاز ذلك النحويون، فلم يلتزموا في صلتها ما التُزم في صلات الأسماء الموصولة من كونها لا تكونُ إلا خبريةً بشروطها المذكورة في النحو، ويحتمل أن تكون على إضمارِ فعلٍ، أي: وأُوْحِيَ إليَّ أنْ أَقِمْ، فاحتمل أن تكون مصدريةً، واحتمل أن تكون حرفَ تفسيرٍ؛ لأنَّ الجملة المقدَّرة فيها معنى القول. وإضمارُ الفعل أولى ليزول قلقُ العطف لوجود الكاف؛ إذ لو كان «وأن أقم» عطفًا على «أن أكون» لكان التركيبُ: وجهي، بياء المتكلِّم، ومراعاةُ المعنى فيه ضعفٌ، وإضمارُ الفعل أكثرُ من مراعاة العطف على المعنى.

والوَجْهُ هنا: المَنْحَى والمَقْصِدُ، أي: استَقِمْ للدِّين ولا تَحِدْ عنه، وكُني بذلك عن صرف العقل بالكلِّية إلى طلب الدِّين، و«حنيفًا» حالٌ من الضمير في «أقم»، أو من المفعول، وأجاز الزمخشري أن تكون حالًا من «الدِّين»[٢].

---

(١) وهو قول الأخفش الصغير علي بن سليمان وبعض النحويين، أجازوا حذف حرف الجر بالشرطين المذكورين، وهما: تعيُّنُ الحرف، وتعيُّن مكانه، فإن فُقد الشرطان أو أحدهما لم يجز.

(٢) الكشاف ٢/٢٥٦.

«ولا تَدْعُ» يحتملُ أن يكون استئنافَ نهيٍ، ويحتملُ أن يكون معطوفًا على «أَقِمْ» فيكون في حيِّز «أنْ» على قِسْمَيْها من كونها مصدريةً وكونها حرفَ تفسيرٍ.

وإذا كان دعاءُ الأصنام منهيًّا عنه فأحرى أن يُنهى عن عبادتها، «فإنْ فعلتَ» كُني بالفعل عن الدعاء إيجازًا، أي: فإنْ دَعَوْتَ ما لا ينفعُك ولا يضرُّك، وجوابُ الشرط: «فإنك» وخبرُها، وتوسَّطت «إذًا» بين اسم «إنَّ» والخبر ورتبتُها بعد الخبر، لكنْ رُوعي في ذلك الفاصلةُ.

قال الحوفي: الفاءُ جوابُ الشرط، و«إذًا» متوسِّطةٌ لا عملَ لها، يرادُ بها في هذا: إذا كان ذلك، هذا تفسيرُ المعنى، لا تجيءُ على معنى الجواب. انتهى.

وقال الزمخشري: «إذًا» جوابُ الشرط، وجوابٌ لسؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّ سائلًا سأل عن تَبِعَةِ عبادة الأوثان، وجُعل من الظالمين لأنه لا ظلمَ أعظمُ من الشرك: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣][١]. انتهى.

وكلامه في «إذًا» يحتاج إلى تأمُّلٍ[٢]، وقد تقدَّم لنا الكلامُ فيها مُشْبَعًا في سورة البقرة[٣].

ولـمَّا وقع النهيُ عن دعاء الأصنام وهي لا تضرُّ ولا تنفع، ذَكَر أنَّ الحَوْلَ والقوَّةَ والنفعَ والضرَّ ليس ذلك إلا لله، وأنه تعالى هو المنفردُ بذلك، وأَتَى في «الضرّ» بلفظ المسِّ وفي الخير بلفظ الإرادة، وطابَقَ[٤] بين الضرِّ والخير مطابقةً معنويةً لا لفظيةً؛ لأنَّ مقابِلَ الضرِّ النفعُ، ومقابلَ الخير الشرُّ، فجاءت لفظةُ الضرِّ ألطفَ وأخصَّ من لفظة الشر، وجاءت لفظةُ الخير أتمَّ من لفظة النفع، ولفظةُ المسِّ أوجزُ من لفظ الإرادة وأنصُّ على الإصابة وأنسبُ لقوله: «فلا كاشفَ له إلا هو»، ولفظُ الإرادة أدلُّ على الحصول في وقت الخطاب وفي غيره، وأنسبُ للَفْظِ الخير، وإن كان المسُّ والإرادةُ معناهما الإصابة.

---

(١) المصدر السابق.
(٢) قال السمين في الدر ٦/ ٢٧٥: وفي جعله «إذاً» جواباً للشرط نظر، إذ جواب الشرط محصور في أشياء ليس هذا منها.
(٣) عند تفسير الآية (١٤٥) منها.
(٤) في (يه): فطابق.

وجاء جوابُ «وإنْ يمسسك» بنفي عامٍّ وإيجابٍ، وجاء جوابُ «وإنْ يُرِدْك» بنفي عامٍّ؛ لأنَّ ما أراده لا يردُّه رادٌّ لا هو ولا غيره؛ لأنَّ إرادته قديمةٌ لا تتغير، فلذلك لم يَجئ التركيبُ: فلا رادَّ له إلا هو، والمسُّ من حيث هو فعلٌ هو صفةُ فعلٍ يُوقعه ويرفعه، بخلافِ الإرادة فإنها صفةُ ذاتٍ.

وجاء «فلا رادَّ لفضله» سمَّى الخير فضلًا إشعارًا بأنَّ الخُيُورَ من الله تعالى هي صادرةٌ على سبيل الفضل والإحسان والتفضُّل، ثم اتَّسع في الإخبار عن الفضل والخير فقال: «يصيبُ به مَن يشاء من عباده»، ثم أخبر بالصفتين الدالَّتين على عدم المؤاخذة، وهما: الغفورُ الذي يَستُرُ ويَصْفَحُ عن الذنوب، والرحيمُ الذي رحمتُه سَبَقَتْ غضبَه.

ولمَّا تقدَّم قولُه: «ولا تَدْعُ من دون الله ما لا ينفعُك ولا يضرُّك» فأخَّر الضرَّ، ناسَبَ أن تكون البَداءةُ بجملة الشرط المتعلِّقةِ بالضرِّ، وأيضًا فإنه لمَّا كان الكفارُ يُتوقَّعُ منهم الضرُّ للمؤمنين، والنفعُ لا يُرجى منهم، كان تقديمُ جملة الضرِّ آكَدَ في الإخبار فبُدئ بها.

وقال الزمخشري[1]: فإنْ قلت: لمَ ذكر المسَّ في أحدهما والإرادةَ في الثاني؟ قلتُ: كأنه أراد أنْ يذكُر الأمرين جميعاً ـ الإرادةَ والإصابةَ ـ في كلٍّ واحدٍ من الضرِّ والخير، وأنه لا رادَّ لمَا يريده منهما، ولا مُزيلَ لمَا يُصيبُ به منهما، فأَوْجَز الكلامَ بأنْ ذَكَر المسَّ وهو الإصابةُ في أحدهما، والإرادةَ في الآخرَ[2] ليَدلَّ بما ذكر على ما ترك، على أنه قد كرَّر الإصابة في الخير في قوله: «يصيب به مَن يشاء من عباده» والمرادُ بالمشيئة مشيئة[3] المصلحة.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ «الحق»: القرآنُ، أو الرسولُ، أو دينُ الإسلام. ثلاثةُ أقوالٍ.

(١) في الكشاف ٢/٢٥٦.
(٢) في النسخ عدا (ح): الإيجاز، والمثبت من (ح)، وهو الموافق لما في الكشاف.
(٣) قوله: مشيئة، من (ح) والكشاف، وسقطت من باقي النسخ.

والمعنى: فإنما ثوابُ هدايته حاصلٌ له، ووبالُ ضلاله عليه. والهدايةُ والضلالُ واقعان بإرادة الله تعالى من العبد، هذا مذهبُ أهل السُّنة، وأنَّ مَن حُكِم له في الأزل بالاهتداء فسيقعُ ذلك، وأنَّ مَن حُكم له بالضلال فكذلك، ولا حيلةَ في ذلك.

وقال القاضي: إنه تعالى بيَّن أنه أكْملَ الشريعةَ، وأزاحَ العلَّة، وقطع المَعْذِرة، «فمَن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومَن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها وما أنا عليكم بوكيل» فلا يجبُ عليَّ من السعي في إيصالكم إلى الثواب العظيم وفي تخليصكم من العذاب الأليم أزْيَدَ مما فعلتُ[١].

وقال الزمخشري: لم يبق لكم عذرٌ ولا على الله تعالى حجةٌ، فمن اختار الهدى واتِّباعَ الحقِّ فما نَفَعَ باختياره إلَّا نفسَه، ومَن آثَرَ الضلالَ فما ضَرَّ إلَّا نفسَه، واللام و«على» دلَّا على معنى النفعِ والضرِّ، وَكَلَ إليهم الأمرَ بعد إزاحة العللِ وإبانةِ الحقِّ، وفيه حثٌّ على إتيان الهدى واطِّراح الضلال مع ذلك، «وما أنا عليكم بوكيلٍ» بحفيظٍ موكولٍ إليَّ أمرُكم وحملُكم على ما أريد، إنما أنا بشيرٌ ونذير[٢]. انتهى.

وكلامُه تذييلُ كلام القاضي، وهو جارٍ على مذهب المعتزلة.

وأَمْرُه تعالى نبيَّه باتِّباع ما يُوْحَى إليه أمرٌ بالديمومة وبالصبر على ما يناله في الله من أذى الكفارِ وإعراضِهم، وغيَّا الأمرَ بالصبر بقوله: «حتى يحكُم الله» وهو وعدٌ منه تعالى بإعلاء كلمته ونَصْرِه على أعدائه كما وقع.

وذهب ابنُ عباسٍ وجماعةٌ إلى أنَّ قوله: «وما أنا عليكم بوكيلٍ» «واصبر» منسوخٌ بآية السيف[٣]، وذهب جماعةٌ إلى أنه مُحْكَمٌ، وحملوا «وما أنا عليكم بوكيل» على أنه ليس بحفيظٍ على أعمالهم ليجازيَهم عليها، بل ذلك لِلّه، وقولَه: «واصْبِر» على الصبر على طاعة الله وحَمْلِ أثقال النبوة وأداءِ الرسالة، وعلى هذا لا تعارُضَ بين هاتين الآيتين وبين آية السيف، وإلى هذا مال المحقِّقون.

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ١٧٥-١٧٦، والقاضي هو عبد الجبار بن أحمد المعتزلي.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٥٦، وما بين حاصرتين منه.
(٣) تفسير الثعلبي ٣/ ٣٠٧، وزاد المسير ٤/ ٧١، وتفسير الرازي ١٧/ ١٧٦.

ورُوي أنه لمَّا نزلت «واصْبِرْ» جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: «إنكم ستجدون بعدي أثرةً فاصْبروا حتى تَلْقَوْني»(١).

قال الزمخشريُّ: يعني إنِّي أُمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامني الكفرةُ فصَبَرْتُ، فاصْبِروا أنتم على ما يَسُومُكم الأمراءُ الجَوَرة، قال أنس: فلم نصبر، ثم ذكر حكايةً جرت بين أبي قتادة ومعاوية ﷺ يوقَفُ عليها من كتابه(٢).

---

(١) تفسير الثعلبي ٣/٣٠٨، والكشاف ٢/٢٥٦، وتفسير القرطبي ١١/٦١. وعزاه الثعلبي لأنس ﷺ، والقرطبي لابن عباس وأنس. وقال الحافظ في تخريج أحاديث الكشاف ص٨٦: ذكره الثعلبي عن أنس بغير سند، والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد الله بن زيد في أثناء حديث، ومن حديث أسيد بن حضير، ليس فيه كون الآية سبب ذلك. اهـ. قلت: حديث عبد الله بن زيد عند البخاري (٤٣٣٠)، ومسلم (١٠٦١)، وحديث أسيد بن حضير أخرجه عن طريق أنس عنه البخاري (٣٧٩٢)، ومسلم (١٨٤٥). وأخرجه من حديث أنس البخاري (٣١٤٧)، ومسلم (١٠٥٩).

(٢) الكشاف ٢/٢٥٦-٢٥٧. وقول أنس: فلم نصبر، هو قطعة من حديثه في الصحيحين الذي سلف تخريجه في التعليق السابق. وقصة أبي قتادة ومعاوية أخرجها عبد الرزاق (١٩٩٠٩)، وأحمد (٢٢٥٩١)، وإسنادها ضعيف كما ذكر محققو المسند.

(١٠) سورة يونس مكية
وآياتها تسع ومائة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة .

وقال ابن عباس ﴿ الر ﴾ أي أنا الله أرى، وكذلك قال الضحاك وغيره، ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين، وقال الحسن: التوراة والزبور، وقال قتادة: ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال: الكتب التي كانت قبل القرآن، وهذا القول لا أعرف وجهه ومعناه، وقوله: ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار، ومن إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضين من قولهم: ﴿ أبشرٌ يهدوننا ﴾ ؟ وقال هود وصالح لقومهما: ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ ؟ وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش: ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ ؟ ! وقال ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد، قال: فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ الآية، وقوله: ﴿ ان لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ اختلفوا فيه؛ فقال ابن عباس: سبقت لهم السعادة في الذكر، وقال العوفي عنه: ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ يقول: أجراً حسناً بما قدموا[1]، وقال مجاهد: الأعمال الصالحة، صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم، قال: ومحمد ﷺ يشفع لهم؛ وقال قتادة: سلف صدق عند ربهم؛ واختار ابن جرير قول مجاهد: انها الأعمال الصالحة التي قدموها، كما يقال: له قدم في الإسلام، كقول حسان :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا ... لأولنا في طاعة الله تابع

وقول ذي الرمة: لكم قدم لا ينكر الناس أنها ... مع الحسب العاديِّ طَمَّتْ على البحر

(١) وهو قول الضحاك والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقوله تعالى: ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً، ﴿قال الكافرون إن هذا لساحر مبين﴾ أي ظاهر، وهم الكاذبون في ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون، كما سيأتي بيانه، ثم استوى على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها، وهو ياقوتة حمراء، وقوله: ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لا يعزُب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ ولا يشغله شأن عن شأن، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ الآية، ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾. وقوله: ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾، كقوله تعالى: ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾، وكقوله تعالى: ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾، وقوله: ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾، وقوله: ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿أفلا تذكرون﴾ أيها المشركون في أمركم تعبدون مع الله إلهاً غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله﴾.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾، أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم وظل من يحموم، ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل شعاع القمر نوراً، هذا فن وهذا فن آخر؛ ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدّر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾. وقوله تعالى: ﴿والشمس والقمر حسباناً﴾، ﴿وقدّره﴾ أي القمر، ﴿منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾ فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام، ﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ أي لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلاً﴾، وقال تعالى: ﴿أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾، وقوله: ﴿نفصل الآيات﴾ أي نبين الحجج والأدلة، ﴿لقوم يعلمون﴾، وقوله: ﴿إن في اختلاف الليل والنهار﴾ أي تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئاً كقوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾، وقال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾ الآية، وقوله: ﴿وما خلق الله في السموات والأرض﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿وكأين من آية في السموات والأرض﴾ الآية، وقوله: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾، وقال: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾ أي العقول، وقال ههنا ﴿لآيات لقوم يتقون﴾، أي عقاب الله وسخطه وعذابه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقائه شيئاً، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها﴾ الآية، قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها، وهم غافلون عن آيات الله الكونية، فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين وامتثلوا ما أمروا به، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم، أي بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم الله يوم القيامة على الصراط المستقيم حتى يجوزوه ويخلصوا إلى الجنة، ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد في قوله: ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ قال: يكون لهم نوراً يمشون به، وقال ابن جريج: في الآية يمثل له عمله في صورة حسنة إذا قام من قبره يبشره بكل خير، فيقول

له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيلزم صاحبه حتى يقذفه في النار.

وقوله تعالى: ﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ أي هذا حال أهل الجنة، قال ابن جريج: أخبرت أنه إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وتحيتهم فيها سلام﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾، وقال مقاتل: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سبحانك اللهم﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن، وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام﴾، وقوله: ﴿إلا قيلا سلاماً سلاماً﴾، وقوله: ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾، وقوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم﴾ الآية، وقوله: ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً، المعبود على طول المدى، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه، وفي ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾، ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض﴾ إلى غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها، وأنه المحمود في الأولى والآخرة في جميع الأحوال، ولهذا جاء في الحديث: «إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»، وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من ترايد نعم الله عليهم، فتكرر وتعاد وتزداد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

* وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده، أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أولادهم بالشر، في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفاً ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأولادهم بالخير والبركة، ولهذا قال: ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾ الآية: أي لو استجاب لهم كل ما دعوه به في ذلك لأهلكهم، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك، كما جاء في الحديث الذي رواه جابر قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»(١)، وهذا كقوله تعالى: ﴿ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير﴾ الآية، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: هو قول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه: اللهم لا تبارك فيه والعنه، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم.

(١) أخرجه البزار وأبو داود عن جابر بن عبدالله.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ أي كثير، وهما في معنى واحد، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله في كشفها ورفعها عنه، في حال اضطجاعه وقعوده وقيامه وفي جميع أحواله، فإذا فرّج الله شدته وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه وذهب، كأنه ما كان بـه من ذلك شيء، ﴿مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال: ﴿كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسداد، والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك، وفي الحديث: «عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية، في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم بـه من البينات، استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم، وأرسل إليهم رسولاً لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفي صحيح مسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت من النساء».

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحججه الواضحة قالوا له: ائت بقرآن غير هذا، أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر أو بدله إلى وضع آخر، قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ أي ليس هذا إليّ إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلّغ عن الله، ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾؛ ثم قال محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به: ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أني لست أتقوله من عندي، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عزّ وجلّ، لا تنتقدون عليَّ شيئاً تغمصوني به، ولهذا قال:

﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم (أبا سفيان) قال له: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا ، وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف بالحق (والفضل ما شهدت به الأعداء) فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ليكذب على الله . وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة .

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجراماً ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾، وتقوّل على الله، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظلماً من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء ؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بدّ أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين الضحى وبين حندس الظلماء، قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس(١) فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، قال: فكان أول ما سمعته يقول: « يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام »، ولما وفد (ضمام بن ثعلبة) على رسول الله ﷺ في قومه بني سعد بن بكر قال لرسول الله ﷺ فيما قاله: من رفع هذه السماء ؟ قال: « الله »، قال: ومن نصب هذه الجبال ؟ قال: « الله »، قال: ومن سطح هذه الأرض ؟ قال: « الله »، قال: فبالذي رفع هذه السماء ونصب هذه الجبال وسطح هذه الأرض آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ قال: « اللهم نعم »، ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين، ويحلف له رسول الله ﷺ ، فقال له: صدقت، والذي بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص، فقد أيقن بصدقه صلوات الله وسلامه عليه بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، قال حسان بن ثابت :

لو لم تكن فيه آيات مبينـــة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وذكروا أن (عمرو بن العاص ﴾ وفد على مسيلمة، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعد، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو ، ماذا أنزل على صاحبكم، يعني رسول الله ﷺ ، في هذه المدة ؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرأون سورة عظيمة قصيرة ، فقال ؟ وما هي ؟ فقال: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر﴾ إلى آخر السورة، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وأنا قد أنزل عليَّ مثله، فقال : وما هو ؟ فقال: (يا وبر ، يا وبر ، إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حفر نقر)، كيف ترى يا عمرو ، فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب . فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة لعنه

(١) يعني قومه اليهود. وأما العرب وهم الأنصار فكانوا في أشد الغبطة والسرور .

الله وكذبه، فكيف بأولي البصائر والنهى ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون﴾، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما في الحديث: «أعتى الناس على الله رجل قتل نبياً أو قتله نبي» .

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً، ولهذا قال تعالى: ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ﴾قال ابن جرير: معناه أتخبرون الله بما لا يكون في السماوات ولا في الأرض؟ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال: ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، ثم أخبر تعالى ان هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد وهو الإسلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيّناته وحججه البالغة وبراهينه الدامغة: ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة﴾، وقوله: ﴿ ولو لا كلمة سبقت من ربك﴾ الآية، أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه أجّل الخلق إلى أجل معدود، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، فأسعد المؤمنين وأعنت الكافرين .

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: لولا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون: كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً، أو نحو ذلك، مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله، ، كما قال تعالى: ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾، وكقوله: ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون﴾ الآية، يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة، ولهذا لما خير رسول الله ﷺ بين إعطائهم ما سألوا فإن آمنوا وإلا عذبوا، وبين إنظارهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله ﷺ، ولهذا قال تعالى إرشاداً لنبيّه ﷺ إلى الجواب عما سألوا: ﴿ فقل إنما الغيب لله﴾ أي الأمر كله لله وهو يعلم العواقب في الأمور، ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيَّ وفيكم، ولو علم منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً وتثبتاً لأجابهم، ولكن علم

أنهم إنما يسألون عناداً وتعنتاً فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن منهم أحد لما فيهم من المكابرة كقوله تعالى: ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾ فمثل هؤلاء لا فائدة من جوابهم لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم، ولهذا قال: ﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾.

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة، والخصب بعد الجدب، والمطر بعد القحط، ونحو ذلك ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾، قال مجاهد استهزاء وتكذيب، ﴿قل الله أسرع مكراً﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجازيه على النقير والقطمير، ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هو الذي يسيّركم في البر والبحر﴾ أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته، ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها﴾ أي بسرعة سيرهم رافلين، فبينما هم كذلك إذ ﴿جاءتها﴾ أي تلك السفن ﴿ريح عاصف﴾ أي شديدة، ﴿وجاءهم الموج من كل مكان﴾ أي اغتلم البحر عليهم، ﴿وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي هلكوا، ﴿دعوا الله مخلصين له الدين﴾ أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً يفردونه بالدعاء والابتهال، كقوله تعالى: ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾، ﴿لئن أنجيتنا من هذه﴾ أي هذه الحال ﴿لنكونن من الشاكرين﴾ أي لا نشرك بك أحداً ولنفردنك بالعبادة كما أفردناك بالدعاء ههنا، قال الله تعالى: ﴿فلما أنجاهم﴾ أي من تلك الورطة، ﴿إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق﴾ أي كأن لم يكن من ذلك شيء، ﴿كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾، ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحداً غيركم، كما جاء في الحديث: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»، وقوله: ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة، ﴿ثم إلينا مرجعكم﴾ أي مصيركم ومآلكم، ﴿فننبئكم﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها، وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض، مما يأكل الناس من زروع وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل الأنعام، ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها﴾ أي زينتها الفانية، ﴿وازينت﴾ أي حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿وظنّ أهلها﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿أنهم قادرون عليها﴾ أي على جذاذها وحصادها، فبينا هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة، فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها، ولهذا قال تعالى: ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً﴾ أي يابساً بعد الخضرة والنضارة، ﴿كأن لم تغن بالأمس﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك، وقال قتادة: ﴿كأن لم تغن﴾ كأن لم تنعم، وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن، قال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها﴾، ثم قال تعالى: ﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿لقوم يتفكرون﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً، مع اغترارهم بها وتفلتها عنهم، وقد ضرب الله تعالى مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز فقال: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾، وكذا في سورة (الزمر) و (الحديد) يضرب الله بذلك مثل الحياة الدنيا، وقوله: ﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها، رغّب في الجنة ودعا إليها وسمّاها دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنكبات فقال: ﴿والله يدعو إلى دار السلام، ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال: «إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه؛ فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول؛ فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها»(١)

﴿* لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح، ﴿الحسنى﴾ في الدار الآخرة ﴿هل جزاء

---

(١) أخرجه ابن جرير عن جابر بن عبد الله.

الإحسان إلا الإحسان﴾؟ وقوله: ﴿وزيادة﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال ويشمل ما يعطيهم الله في الجنة من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه، النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهور من السلف والخلف، روى الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: وما هو ألم يثقل موازيننا؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار؟ - قال: فيشكف لهم الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم»[١] . وعن أبي موسى الأشعري، عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادي: يا أهل الجنة - بصوت يسمع أولهم وآخرهم - إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عزّ وجلّ»[٢] وسئل رسول الله ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله عزّ وجلّ»[٣]، وقوله تعالى: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر﴾ أي قتام وسواد في عرصات المحشر، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة، ﴿ولا ذلة﴾ أي هوان وصغار، بل هم كما قال تعالى في حقهم: ﴿فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً﴾ أي نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر تعالى عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك، ﴿وترهقهم﴾ أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال: ﴿وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم﴾ الآية، وقوله: ﴿ما لهم من الله من عاصم﴾ أي مانع ولا واق يقيهم العذاب، كقوله تعالى: ﴿يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر﴾، وقوله: ﴿كأنما أغشيت وجوههم﴾ الآية إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة، كقوله تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾، وقوله تعالى: ﴿وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة﴾ الآية.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ

(١) أخرجه أحمد ورواه مسلم وجماعة من الأئمة.

(٢) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم.

(٣) أخرجه ابن جرير عن أبي بن كعب.

إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى: ﴿ويوم نحشرهم﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس وبر وفاجر، كقوله: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾، ﴿ثم نقول للذين أشركوا﴾ الآية، أي الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كقوله تعالى: ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾، وقوله: ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿يومئذٍ يصَّدعون﴾ أي يصيرون صدعين؛ وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء، ﴿مكانكم أنتم وشركاؤكم، فزيلنا بينهم﴾ أي أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم، كقوله: ﴿كلا سيكفرون بعبادتهم﴾ الآية، وقوله: ﴿إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا﴾، وقوله: ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء﴾ الآية، ﴿فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم﴾ الآية، أي ما كنا نشعر بها ولا نعلم بها، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ولا أمرناكم بها ولا رضينا منكم بذلك، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره وقد تركوا عبادة الحي القيوم القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله آمراً بعبادته وحده لا شريك له ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقال: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون؟﴾، وقوله تعالى: ﴿هنالك تبلى كل نفس ما أسلفت﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر، كقوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾، وقال تعالى: ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾، وقال تعالى: ﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ۝ اقرأ كتابك﴾، وقوله: ﴿وردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي ورجعت الأمور كلها الى الله الحكم العدل، ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ﴿وضل عنهم﴾ أي ذهب عن المشركين، ﴿ما كانوا يفترون﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية إلاهيته، فقال تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً﴾ أإله مع الله؟ فسيقولون: الله ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾؟ وقوله: ﴿أمن يملك السمع والأبصار﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كقوله تعالى: ﴿قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار﴾

الآية . وقال: ﴿قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وابصاركم﴾ الآية، وقوله: ﴿ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي﴾ أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة، وقوله: ﴿ومن يدبر الأمر﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فالملك كله العلوي والسفلي فقيرون إليه خاضعون لديه، ﴿فسيقولون الله﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون بـه، ﴿فقل أفلا تتقون﴾ ؟ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معــه غيره بآرائكم وجهلكم ؟ وقوله: ﴿فذلكم الله ربكم الحق﴾ الآية، أي فهذا الذي اعترفتم بأنـه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾ ؟ أي فكل معبود سواه باطل لا إله إلا هو واحد، لا شريك له، ﴿فأنى تصرفون﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه ؟ وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء والمتصرف في كل شيء، وقوله: ﴿كذلك حقت كلمـة ربك على الذين فسقوا﴾ أي كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده، الذي بعث رسله بتوحيده، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار، كقوله: ﴿قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ أي من بدأ خلق هذه السماوات والأرض، ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق، ويفرّق أجرام السماوات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما ثم يعيد الخلق خلقـاً جديداً ﴿قل الله﴾ هو الذي يفعل هـذا ويستقل بـه وحده لا شريك له، ﴿فأنى تؤفكون﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل، ﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ؟ قل الله يهدي للحق﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنمـا يهدي الحيارى والضُّلال، ويقلّب القلوب من الغيّ إلى الرشد الله رب العـالمين، ﴿أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يَهِدِّي إلا أن يُهْدى﴾ أي أفيتبع العبد الذي يهدى إلى الحق ويبصر بعد العمى، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه، كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾

وقوله تعالى: ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي فما بالكم يذهب بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خلقـه، وعدلتم هذا بهذا وعبدتم هذا وهذا ؟ وهلا أفردتم الرب جلّ جلاله بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة ؟ ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هـذا دليلاً ولا برهاناً، وإنمـا هو ظنٌّ منهم أي توهم وتخيل، وذلك لا يغني

عنهم شيئاً، ﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ تهديد لهم ووعيد شديد لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته و بلاغته ووجازته وحلاوته، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله، الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين، ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ولا يشبه هذا كلام البشر، ﴿ولكن تصديق الذي بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة ومهيمناً عليه، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل، وقوله: ﴿وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي وبيان الأحكام بياناً شافياً كافياً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم في الحديث «فيه خبر ما قبلكم ونبأ ما بعدكم وفصل ما بينكم» أي خبر عما سلف وعما سيأتي، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه. وقوله: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أي إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً إن هذا من عند محمد، فمحمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم بسورة مثله، أي من جنس هذا القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان، وهذا هو المقام الثالث في التحدي، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد، فليعارضوه بنظير ما جاء، وليستعينوا بمن شاءوا، وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال في أول سورة هود: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾، ثم تنازل إلى سورة، فقال في هذه السورة: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾، وكذا في سورة البقرة، وهي مدنية تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً فقال: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار﴾ الآية. هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب، ولكن، جاءهم من الله ما لا قبل

لأحد به؛ ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام، وحلاوته وجزالته وطلاوته وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به وأفهمهم له وأشدهم له انقياداً.

ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً». وقوله: ﴿بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ولما يأتهم تأويله﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم بـه جهلاً وسفهاً، ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة، ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم، وقوله: ﴿ومنهم من يؤمن به﴾ الآية، أي ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه؟ ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذي لا يجور، بل يعطي كلا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى لنبيّه محمد ﷺ: وإن كذبك هؤلا المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿فقل لي عملي ولكم عملكم﴾، كقوله تعالى عن إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله﴾، وقوله: ﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ أي يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم النافع في القلوب والأبدان، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك كما لا تقدر على إسماع الأصم، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله، ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ أي ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من الخلق العظيم، والدلالة الظاهرة على نبوتك، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً﴾ الآية، ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان قـد هدى به من هدى وبصر به من العمى، وفتح به أعيناً عمياء وآذاناً صماء، وقلوباً غلفاً، وأضل بـه عن الإيمان آخرين؛ فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة: ﴿ويوم يحشرهم﴾ الآية. كقوله: ﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار﴾، وكقوله: ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾، وقال تعالى: ﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾، وقال تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾، وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة كقوله: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين﴾، وقوله: ﴿يتعارفون بينهم﴾ أي يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض، كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه، ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾، وقوله: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ: ﴿وإما نرينك بعض الذين نعدهم﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم، ﴿أو نتوفينك فإلينا مرجعهم﴾، أي مصيرهم ومنقلبهم، والله يشهد على أفعالهم بعدك، وقوله: ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم﴾ قال مجاهد: يعني يوم القيامة ﴿قضي بينهم بالقسط﴾ الآية، كقوله تعالى: ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ الآية، فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها، وكتاب أعمالها من خير وشر شاهد عليها وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة، يفصل بينهم ويقضى لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق»، فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة لهم فيه، كقوله: ﴿يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق﴾ أي كائنة

لا محالة وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عيناً، ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً﴾ الآية، أي لا أقول إلا ما علمني، ولا أقدر على شيء مما استأثر به، إلا أن يطلعني الله عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعني على وقتها، ولكن ﴿ لكل أمة أجل﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة فإذا انقضى أجلهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾، كقوله: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ الآية، ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً﴾ ؟ أي ليلاً أو نهاراً، ﴿ماذا يستعجل منه المجرمون ۝ أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ الآية، ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾، وقوله: ﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد﴾ أي يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً كقوله: ﴿ اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ .

* وَيَسْتَنبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿ أحق هو﴾ أي المعاد بعد صيرورة الأجسام تراباً ﴿ قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿ فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾، وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ، ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم﴾، وفي التغابن: ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾، ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً، ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط﴾ أي بالحق ﴿ وهم لا يظلمون﴾ .

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأن وعده حق كائن لا محالة، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة

من ربكم﴾ أي زاجر عن الفواحش، ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ أي من الشبه والشكوك وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس، ﴿وهدى ورحمة﴾ أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى: ﴿وننزل من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾. وقوله: ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هو خير مما يجمعون﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة.

* قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قال ابن عباس ومجاهد: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل، كقوله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ الآيات، وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة﴾ أي ما ظنهم أن يصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة؟ وقوله: ﴿إن الله لذو فضل على الناس﴾ قال ابن جرير: في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد﴿لذو فضل على الناس﴾ فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم، ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم، ويضيقون على أنفسهم فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى نبيّه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين، كقوله: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة، ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها﴾ الآية،

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟ كما قال تعالى: ﴿الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾

يخبر تعالى أن أولياءه ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ كما فسرهم بهم، فكل من كان تقياً، كان الله ولياً فـ ﴿لا خوف عليهم﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال الآخرة، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما وراءهم في الدنيا. وقال عبد الله ابن مسعود: أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله[1]، وقال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء»، قيل: من هم يا رسول الله لعلنا نحبهم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» ثم قرأ: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2]، وقال الإمام أحمد، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له». وقال الإمام أحمد، عن عبادة ابن الصامت، أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت قول الله تعالى: ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فقال: «لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمتي - أو قال أحد قبلك - تلك الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له»؛ وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله: الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه بـه، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»[3] وعن عبد الله بن عمرو عن رسول الله ﷺ أنه قال: «﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا﴾ الرؤيا الصالحة يبشرها المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[4] وقال ابن جرير، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ - قال - في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له وهي في الآخرة الجنة»[5]، وقال ابن جرير، عن أم كريز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات»؛ وقيل: المراد بذلك بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة، كقوله تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾، وفي حديث البراء رضي الله عنه: (ان المؤمن

(١) ورد هذا القول في حديث مرفوع رواه البزار عن ابن عباس قال، قال رجل: يا رسول الله من أولياء الله؟ فذكره.

(٢) أخرجه ابن جرير عن أبي هريرة ورواه أبو داود في سننه.

(٣) رواه مسلم وأخرجه أحمد عن أبي ذر.

(٤) أخرجه ابن جرير، وقد روي عن جمع من الصحابة والتابعين تفسير (البشرى) بالرؤيا الصالحة.

(٥) وروي موقوفاً عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: الرؤيا الحسنة بشرى من الله وهي من المبشرات.

إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه بيض الثياب، فقالوا: اخرجي أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء). وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالى: ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾، وقال تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾، وقوله: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾.

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ولا يحزنك﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن بالله عليهم وتوكل عليه فإن ﴿العزة لله جميعاً﴾ أي جميعاً له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هو السميع العليم﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم؛ ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض وأن المشركين يعبدون الأصنام وهي لا تملك شيئاً، لا ضراً ولا نفعاً ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم، ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم، ﴿والنهار مبصراً﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ويستدلون على عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها.

قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ﴿ولداً سبحانه هو الغني﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾، أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أتقولون على الله ما تعلمون﴾؟ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد، كقوله تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً﴾، ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين ممن زعم أن له ولداً، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة،

فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ﴿ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ﴾، كما قال تعالى ههنا: ﴿متاع في الدنيا﴾ أي يوم القيامة، ﴿ثم نذيقهم العذاب الشديد﴾ أي الموجع المؤلم ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الإفك والزور.

* ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

يقول تعالى لنبيّه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿واتل عليهم﴾ أي أخبرهم واقصص عليهم، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك، ﴿نبأ نوح﴾ أي خبره مع قومه الذين كذبوه كيف أهلكهم الله ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك، ﴿إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم﴾ أي عظم عليكم ﴿مقامي﴾ أي فيكم بين أظهركم، ﴿وتذكيري﴾ إياكم ﴿بآيات الله﴾ أي بحججه وبراهينه، ﴿فعلى الله توكلت﴾ أي فإني لا أبالي ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا، ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن، ﴿ثم لا يكن أمركم عليكم غمة﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم متلبساً، بل افصلوا حالكم معي، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ولا تنظرون، أي ولا تؤخروني ساعة واحدة، أي مهما قدرتم فافعلوا، فإني لا أباليكم ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء، كما قال هود لقومه: ﴿فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم﴾ الآية. وقوله: ﴿فإن توليتم﴾ أي كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿فما سألتكم من أجر﴾ أي لم أطلب منكم على نصيحتي إياكم شيئاً، ﴿إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي وأنا ممتثل ما أمرت بـه من الإسلام لله عز وجلّ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهلهم، وقوله تعالى ﴿فكذبوه فنجيناه ومن معه﴾ أي على دينه ﴿في الفلك﴾ وهي السفينة، ﴿وجعلناهم خلائف﴾ أي في الأرض، ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ أي فانظر يا محمد كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به، ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾، أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كقوله تعالى: ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾ الآية، وقوله: ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة وأنجى من آمن بهم وذلك من بعد نوح عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام، قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، وقال الله تعالى: ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ الآية، وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيّد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى: ﴿ ثم بعثنا ﴾ من بعد تلك الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه ﴾ أي قومه، ﴿ بآياتنا ﴾ أي حججنا وبراهيننا، ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له وكانوا قوماً مجرمين، ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾، كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا ﴾ الآية، ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ﴾ منكراً عليهم ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ أي تثنينا ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي الدين الذي كانوا عليه، ﴿ وتكون لكما ﴾ أي لك ولهارون ﴿ الكبرياء ﴾ أي العظمة والرياسة ﴿ في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾. وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون في كتابه العزيز، لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حذر من موسى كل الحذر، فسخره القدر: أن رُبّي على فراشه بمنزلة الولد ثم ترعرع وعقد الله له سبباً أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، ولم تزل الآيات تقوم على يدي موسى شيئاً بعد شيء، ومرة بعد مرة، مما يبهر العقول، ويدهش الألباب، ﴿ وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ وصمم فرعون وملأه قبحهم الله على التكذيب بذلك كله والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين، ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾.

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾
فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ
ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

ذكر تعالى قصة السحرة مع موسى عليه السلام، وما أراده فرعون من معارضة الحق المبين، ﴿وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾، وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من القى﴾، فأراد موسى أن تكون البداءة منهم ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ باطلهم، ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم، ﴿فأوجس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى﴾، فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿ما جئتم به السحر إن الله سيبطله أن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون﴾.

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات، والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية، وهم الشباب على وجل وخوف منه ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر، لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو، وكانت له سطوة ومهابة يخاف رعيته منه خوفاً شديداً. قال ابن عباس: الذرية التي آمنت لموسى من غير بني إسرائيل من قوم فرعون يسير «منهم امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه»، وعنه: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه﴾ يقول: من بني إسرائيل، وقال مجاهد في قوله: ﴿إلا ذرية من قومه﴾ هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى من طول الزمان ومات آباؤهم، واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية أنها من بني إسرائيل، لا من قوم فرعون لعود الضمير على أقرب المذكورين، وفي هذا نظر، لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب، وأنهم من بني إسرائيل، والمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسى عليه السلام وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبه المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه، ولما جاء موسى آذاهم فرعون أشد الأذى، ﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾، وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى وهم بنو إسرائيل ﴿على خوف من فرعون وملئهم﴾ أي وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان، ومما يدل على أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا

لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾، ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل، كقوله تعالى: ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا: ﴿ على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أي لا تظفرهم وتسلطهم علينا فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك، هكذا روي عن أبي الضحى، وقال مجاهد: لا تعذبنا بأيدي آل فرعون ولا بعذاب من عندك فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا بنا. وعن مجاهد: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، وقوله: ﴿ ونجنا برحمتك ﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ من القوم الكافرين ﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

يذكر تعالى سبب انجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه وكيفية خلاصهم منهم، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوآ، أي يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً، واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾، فقال ابن عباس: امروا أن يتخذوها مساجد، وقال الثوري، عن إبراهيم: كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا بكثرة الصلاة كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾، وفي الحديث: (كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى)[1] ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾، أي بالثواب والنصر القريب، وقال العوفي عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال، قالت بنو إسرائيل عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا في بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة.

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلماً وعلوا وتكبراً وعتواً، قال موسى: ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة ﴾

(١) أخرجه أبو داود.

أي من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿وأموالاً﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿في﴾ هذه ﴿الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، وليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم واعتنائك بهم ﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾، قال ابن عباس: أي أهلكها، وقال الضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت، وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة، وقوله: ﴿واشدد على قلوبهم﴾ قال ابن عباس: أي اطبع عليها ﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾، ولهذا استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمَّن عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾، قال أبو العالية وعكرمة: دعا موسى وأمن هارون، أي قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون، ﴿فاستقيما﴾ أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري، قال ابن عباس: فاستقيما: فامضيا لأمري وهي الاستقامة، قال ابن جريج: يقولون إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة، وقيل: أربعين يوماً.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر وهم فيما قيل ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، اشتد حنق فرعون عليهم، فأرسل في المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم، فلحقوهم وقت شروق الشمس، ﴿فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون﴾، أي كيف المخلص مما نحن فيه؟ فقال: ﴿كلا إن معي ربي سيهدين﴾، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم، وجاوزت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه، انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو في مائة ألف، فلما رأى ذلك هاله، وأحجم وهاب وهمَّ بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، فاقتحموا كلهم عن آخرهم، وميكائيل في ساقتهم، لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهمَّ أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾، فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾، ولهذا قال الله تعالى في جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿آلآن وقد عصيت قبل﴾ أي أهذا الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وكنت من المفسدين﴾ أي في الأرض، ﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون﴾، وهذا الذي حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله، ذلك من أسرار الغيب التي أعلم

الله بهـا رسوله ﷺ، ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « لما قال فرعون آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت بـه بنو إسرائيل - قال، قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال[١] البحر فدسسته في فيه مخافة أن تناله الرحمة »[٢]

وقوله تعالى: ﴿فاليوم ننجيك ببـدنك لتكون لمن خلفك آية﴾، قال ابن عباس وغيره من السلف: إنَّ بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فاليوم ننجيك﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿ ببدنك﴾، قال مجاهد: بجسدك، وقال الحسن: بجسم لا روح فيه، وقوله: ﴿ لتكون لمن خلفك آية﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك، وأن الله هو القـادر الذي ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شيء، ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾ أي لا يتعظون بها ولا يعتبرون بها، وقـد كان إهلاكهم يوم عاشوراء كما قال ابن عباس: قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: « ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ » فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ لأصحابه: « وأنتم أحق بموسى منهم فصوموه »[٣].

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٖ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

يخبر تعالى عما أنعم بـه على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية، وقوله: ﴿ مبوأ صدق﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لمـا أهلك فرعون وجنوده، استقرت يـد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال تعالى: ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾، وقال: ﴿ كم تركوا من جنـات وعيون﴾ الآيات، ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس، وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معـه طالبـاً بيت المقدس، وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم، فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع (يوشع بن نون) ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذهـا منهم بختنصر حيناً من الدهر، ثم انتزعهـا الصحابة رضي الله عنهم من يـد النصارى، وكان فتح بيت المقدس على يـد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقوله: ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النـافع المستطاب طبعـاً وشرعـاً، وقوله: ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقـد ورد في الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على

(١) حال البحر: طينه الأسود.

(٢) ورواه الترمذي وابن أبي حاتم وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) رواه البخاري عن ابن عباس.

اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هـذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار. قيل من هم يا رسول الله؟ قال: « ما أنا عليه وأصحابي »[1]، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قال قتادة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: « لا أشك ولا أسأل »، وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ الآية، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى على فرعون وملئه قال: ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم، كقوله تعالى: ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾، وقوله: ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ﴾. وفي الحديث الصحيح: « عرض عليَّ الأنبياء فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس، والنبي يمر معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي ليس معه أحد » ثم ذكر كثرة أتباع موسى عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته صلوات الله وسلامه عليه كثرةً سدَّت الخافقين، **والغرض** أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس، وهم (أهل نينوى) وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرعوا له، واستكانوا، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم؛ فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخروا: كما قال تعالى: ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾. وقال قتادة في تفسير

(١) رواه الحاكم بهذا اللفظ وهو في السنن والمسانيد.

هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم، وظنوا أن العذاب قد دنا منهم قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، ثم عجوا إلى الله أربعين ليلة، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف عنهم العذاب.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿ولو شاء ربك﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى، كقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾، وقال تعالى: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿أفأنت تكره الناس﴾ أي تلزمهم وتلجئهم، ﴿حتى يكونوا مؤمنين﴾ أي ليس ذلك عليك ولا إليك ﴿ليس عليك هداهم ولكنَّ الله يهدي من يشاء﴾، ﴿إنك لا تهدي من أحببت﴾، ﴿فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾، ﴿لست عليهم بمصيطر﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادي من يشاء المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس﴾ وهو الخبال والضلال ﴿على الذين لا يعقلون﴾ أي حجج الله وأدلته، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل.

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه، وما خلق الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب، وما في البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا مسخَّر مذلل للسالكين، بتسخير القدير لا إله إلا هو رب العالمين، وقوله: ﴿وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾ أي: وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لا يؤمنون، كقوله: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ الآية، وقوله: ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم﴾، أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم، ﴿قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين * ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾، أي ونهلك المكذبين بالرسل، ﴿كذلك حقاً علينا ننجي المؤمنين﴾ حقاً أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة، كقوله: ﴿كتب ربكم على نفسه

الرحمة﴾، وكما جاء في الصحيحين: «إن الله كتب كتاباً فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي سبقت غضبي».

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿قل يا أيها الناس إن كنتم في شك﴾ من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليَّ، فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً فأنا لا أعبدها، فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين، وقوله: ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفاً﴾، أي أخلص العبادة لله وحده حنيفاً أي منحرفاً عن الشرك، ولهذا قال: ﴿ولا تكونن من المشركين﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾، وقوله: ﴿وإن يمسسك الله بضر﴾ الآية، فيه بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده، روى الحافظ بن عساكر، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات ربكم، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده، واسألوه أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم» وقوله: ﴿وهو الغفور الرحيم﴾ أي لمن تاب إليه ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك به فإنه يتوب عليه.

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس، أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفعه على نفسه، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه، ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾، أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى، وقوله: ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه إليك، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿حتى يحكم الله﴾ أي يفتح بينك وبينهم، ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته.

* * *

تفسير سورة يونس

[وهى مكية][(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ (٢) ﴾.

أما الحروف المقطعة فى أوائل السور، فقد تقدم الكلام عليها [مستوفى][(٢)] فى أوائل[(٣)] سورة البقرة.

وقال أبو الضحى، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿ الر﴾، أى: أنا الله أرى. وكذا قال الضحاك وغيره.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ أى: هذه آيات القرآن المحكم المبين وقال مجاهد: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [قال: التوراة والإنجيل][(٤)].

[وقال الحسن: التوراة والزبور][(٥)].

وقال قتادة: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ قال: الكتب التى كانت قبل القرآن.

وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه.

وقوله: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، يقول تعالى منكرا على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر، كما أخبر تعالى عن القرون الماضية من[(٦)] قولهم: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ﴾ [التغابن: ٦]، وقال هود وصالح لقومهما: ﴿ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣، ٦٩] وقال تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: لما بعث الله تعالى محمداً ﷺ رسولا، أنكرت العرب ذلك، أو من أنكر منهم، فقالوا: الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد. قال: فأنزل الله عز

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «أول».
(٤) زيادة من تفسير الطبرى (١٥/ ١١) مستفاد من ط. الشعب.
(٥) زيادة من ت، أ. (٦) فى ت، أ: «فى».

وجل: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: اختلفوا فيه، فقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ [عِندَ رَبِّهِمْ](١)﴾ يقول: سبقت لهم السعادة فى الذكر الأول.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يقول: أجرا حسنا، بما قدموا. وكذا قال الضحاك، والربيع بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا . مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢، ٣].

وقال مجاهد: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال: الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم.

[وقال عمرو بن الحارث عن قتادة أو الحسن ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾](٢)، قال: محمد ﷺ شفيع لهم. وكذا قال زيد بن أسلم، ومقاتل بن حيان.

وقال قتادة: سَلَفُ صدق عند ربهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد ـ أنها الأعمال الصالحة التى قدموها ـ قال: كما يقال: «له قدم فى الإسلام»، ومنه قول [حسان](٣) رضى الله عنه:

لنا القَدَمُ(٤) العُليا إليك وخَلْفُنا ... لأوَّلنا فى طاعة الله تابعُ

وقول ذى الرُّمة:

لكُم قَدَمٌ لا يُنْكِرُ الناسُ أنها ... مَعَ الحسَبِ العَادِىّ طَمَّت على البَحْرِ(٥)

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ(٦) مُّبِينٌ﴾ أى: مع أنا بعثنا إليهم رسولا منهم، رجلا من جنسهم، بشيراً ونذيراً، ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ(٧) مُّبِينٌ﴾ أى: ظاهر، وهم الكاذبون فى ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)﴾.

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه، وأنه خَلَق السموات والأرض فى ستة أيام ـ قيل: كهذه الأيام، وقيل: كل يوم كألف سنة مما تعدون. كما سيأتى بيانه [إن شاء الله تعالى](٨)، ثم استوى

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) زيادة من ت.
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «قدم».
(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ١٦).
(٦، ٧) فى ت: «لسحر».
(٨) زيادة من أ.

على العرش، والعرش أعظم المخلوقات وسقفها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا أبو أسامة، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد قال: سمعت سعد[١] الطائى يقول: العرش ياقوتة حمراء.

وقال وهب بن منبه: خلقه الله من نوره.

وهذا غريب.

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ أى: يدبر أمر الخلائق، ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلا فِى الأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلّطه[٢] المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين[٣]، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، فى الجبال والبحار والعمران والقفار، ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]. ﴿ وَمَا تَسْقُطُ[٤] مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الدراوردى، عن سعد بن إسحاق بن كعب [بن عجرة][٥] أنه قال حين نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ لقيهم ركب عظيم[٦] [لا يرون إلا أنهم][٧] من العرب، فقالوا لهم: من أنتم؟ قالوا. من الجن، خرجنا من المدينة، أخرجتنا هذه الآية. رواه ابن أبى حاتم.

[وقوله][٨]: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾، كقوله تعالى: ﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وكقوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّمَوَاتِ لا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقوله: ﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ[٩]﴾ أى: أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ﴿أَفَلا تَذَكَّرُونَ[١٠]﴾ أى: أيها المشركون فى أمركم، تعبدون مع الله غيره، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ[١١] قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وكذا الآية التى قبلها والتى بعدها.

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) فى ت: «سعداً».
(٢) فى ت، أ: «ولا يغلطه».
(٣) فى ت: «بالأ لجاج الملجين».
(٤) فى ت: «يسقط».
(٥) زيادة من ت، أ.
(٦) فى ت: «لقى ـ ثم بياض ـ ركباً عظيما».
(٧) زيادة من ت.
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩، ١٠) فى ت: «يتذكرون».
(١١) فى ت: «الله».

الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٤)﴾.

أخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة، لا يترك منهم أحدا حتى يعيده كما بدأه. ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والجزاء الأوفى، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب، من ﴿سَمُومٍ وَحَمِيمٍ. وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ [الواقعة ٤٢، ٤٣]. ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ. وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨]، ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ. يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾.

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء وشعاع القمر نورا، هذا فن وهذا فن آخر، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدر القمر منازل، فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع فى النقص حتى يرجع إلى حاله الأول فى تمام شهر، كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٩، ٤٠]، وقال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ أى: القمر ﴿وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾، فبالشمس تعرف الأيام، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أى: لم يخلقه عبثا بل له حكمة عظيمة فى ذلك، وحجة بالغة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقوله: ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أى: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا، وإذا ذهب هذا جاء هذا، لا يتأخر عنه شيئا، كما قال تعالى: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ [يس: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، كما قال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ [يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ](١)﴾ [يوسف: ١٠٥]، [وقال](٢): ﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ](٣) وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا(٤) إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [سبأ: ٩]، وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: العقول، وقال ها هنا: ﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: عقاب الله، وسَخَطه، وعذابه.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون فى لقاء الله شيئا، ورضوا بهذه الحياة الدنيا(٥) واطمأنت إليها أنفسهم.

قال الحسن: والله ما زينوها ولا رفعوها، حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها، والشرعية فلا يأتمرون بها، بأن مأواهم يوم معادهم النار، جزاء على ما كانوا يكسبون فى دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾.

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين، وامتثلوا ما أمروا، فعملوا الصالحات، بأنه سيهديهم بإيمانهم.

يحتمل أن تكون «الباء» هاهنا سببية، فتقديره: بسبب إيمانهم فى الدنيا يهديهم الله يوم القيامة

---

(١) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية». (٢) فى أ: «وقوله». (٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت: «ينظروا». (٥) فى أ: «الدنية».

على الصراط، حتى يجوزوه ويخلصُوا إلى الجنة. ويحتمل أن تكون للاستعانة، كما قال مجاهد فى قوله: ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾، قال: [يكون لهم نورا يمشون به][١].

وقال ابن جُرَيْج فى [قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال][٢]: يمثُل له عمله فى صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك. فيجعل[٣] له نورا. من بين يديه حتى يدخله[٤] الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾. والكافر يَمْثُلُ له عمله فى صورة سيئة وريح منتنة فيلازم صاحبه ويلازُّه[٥] حتى يقذفه فى النار.

وروى نحوه عن قتادة مرسلا، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: هذا حال أهل الجنة.

قال ابن جريج: أخبرتُ أن قوله: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾، [قال: إذا مر بهم الطير يشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم][٦]، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه، فيسلم عليهم، فيردون عليه، فذلك قوله: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾، قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فلذلك قوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال مقاتل بن حيان: إذا أراد أهل الجنة أن يدعوا بالطعام قال أحدهم: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ قال: فيقوم على أحدهم عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحفة من ذهب، فيها طعام ليس فى الأخرى، قال: فيأكل منهن كلهن.

وقال سفيان الثورى: إذا أراد أحدهم أن يدعو بشىء قال: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾.

وهذه الآية فيها شبه من قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا. إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا ﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، وقوله: ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقوله: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: هذا فيه دلالة على أن الله تعالى هو المحمود أبدا، المعبود على طول المدى؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره، وفى ابتداء كتابه، وعند ابتداء تنزيله، حيث يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ [الكهف: ١]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] إلى غير ذلك من الأحوال التى يطول بسطها، وأنه

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) زيادة من ت، أ، وفى هـ: «الآية». (٣) فى ت: «فنجعل».
(٤) فى ت: « يدخل». (٥) فى ت: «ويلاده». (٦) زيادة من ت، أ.

المحمود فى الأول، و[فى][1] الآخر، فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، فى جميع الأحوال؛ ولهذا جاء فى الحديث: «إن أهل الجنة يُلْهَمُون التسبيح والتحميد كما يُلْهَمُون النَّفَس»[2]. وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون من تضاعف نعم الله عليهم، فتكرّر[3] وتعاد وتزاد، فليس لها انقضاء ولا أمد، فلا إله إلا هو ولا رب سواه.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)﴾.

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم[4] إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم[5]، فى حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم عَدَم القصد إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب[6] لهم ـ والحالة هذه ـ لطفا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم وأولادهم بالخير والبركة والنماء؛ ولهذا قال: **﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ[7] اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾** أى: لو استجاب لهم كلّما دعوه به فى ذلك، لأهلكهم، ولكن لا ينبغى الإكثار من ذلك، كما جاء فى الحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده:

حدثنا محمد بن مَعْمَر، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حَزْرَة عن عبادة بن الوليد، حدثنا جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم، لا تدعوا على أولادكم، لا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب[8] لكم».

ورواه أبو داود، من حديث حاتم بن إسماعيل، به[9].

وقال البزار: [و][10] تفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصارى، لم يشاركه أحد فيه، وهذا كقوله تعالى: **﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾** [الإسراء: ١١]

وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية: **﴿وَلَوْ[11] يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ﴾**: وهو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليه: «اللهم لا تبارك فيه والعنه». فلو يعجل لهم الاستجابة فى

---

(١) زيادة من ت.

(٢) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٣٥) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٣) فى ت، أ: «فيكرر».

(٤) فى ت: «لا يستحب منهم»، وفى أ: «لا يستجيب منهم».

(٥) فى ت، أ: «وأموالهم وأولادهم». (٦) فى ت: «لا يستحب». (٧) فى ت: «تعجل».

(٨) فى ت: «فيستحب».

(٩) سنن أبى داود برقم (١٥٣٢) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٣٠٠٩) بأطول منه من طريق حاتم بن إسماعيل.

(١٠) زيادة من ت. (١١) فى ت: «ولولا».

ذلك، كما يستجاب لهم فى الخير لأهلكهم.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾.

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر، كقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أى: كثير، وهما فى معنى واحد؛ وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها، وأكثر الدعاء عند ذلك، فدعا الله فى كشفها وزوالها عنه فى حال اضطجاعه وقعوده وقيامه، وفى جميع أحواله، فإذا فرّج الله شدته وكشف كربته، أعرض ونأى بجانبه، وذهب كأنه ما كان به من ذاك شىء، ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾.

ثم ذم تعالى مَنْ هذه صفته وطريقته[٢] فقال: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]، وكقول[٣] رسول الله ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن[٤]، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له: إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له»، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن[٥].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤) ﴾.

أخبر تعالى عما أحلّ بالقرون الماضية، فى تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم به من البينات والحجج الواضحات، ثم استخلف الله هؤلاء القومَ من بعدهم، وأرسل إليهم رسولا لينظر طاعتهم له، واتباعهم رسوله، وفى صحيح مسلم من حديث أبى نَضْرة، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدنيا حلوة خَضِرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»[٦].

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا زيد بن عوف أبو ربيعة فهد[٧]، حدثنا حماد، عن ثابت

---

(١) فى ت: «ولولا».

(٢) فى أ: «وطريقه».

(٣) فى ت، أ: «وكما قال».

(٤) فى ت، أ: «عجباً للمؤمن».

(٥) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب الرومى رضى الله عنه.

(٦) صحيح مسلم برقم (٢٧٤٢).

(٧) فى هـ، ت: «مهد»، وفى أ: «شهد» والتصويب من الطبرى.

البُنانى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى؛ أن عوف بن مالك قال لأبى بكر: رأيت فيما يرى النائم كأن سَبَباً دُلّى من السماء، فانتُشط رسولُ الله ﷺ، ثم أعيد، فانتُشط أبو بكر، ثم ذُرِعَ[١] الناس حول المنبر، ففضل عمر بثلاث أذرع إلى المنبر. فقال عمر: دعنا من رؤياك، لا أرَبَ لنا فيها! فلما استخلف عمر قال: يا عوف، رؤياك! فقال: وهل لك فى رؤياى من حاجة؟ أو لم تنتهرنى[٢]؟ فقال: ويحك! إنى : كرهت أن تنعَى لخليفة رسول الله ﷺ نفسه! فقصّ عليه الرؤيا، حتى إذا بلغ: «ذُرع[٣] الناس إلى المنبر بهذه الثلاث الأذرع»، قال: أما إحداهن فإنه كائن خليفة. وأما الثانية فإنه لا يخاف فى الله لومة لائم. وأما الثالثة فإنه شهيد. قال: فقال: يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فقد استُخلفت[٤] يا ابن أم عمر، فانظر كيف تعمل؟ وأما قوله: «فإنى لا أخاف فى الله لومة لائم»، فما شاء الله! وأما قوله: [إنى][٥] شهيد فأنّى لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون به[٦].

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾.

يخبر تعالى عن تعنّت الكفار من مشركى قريش الجاحدين الحقّ المعرضين عنه، أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله وحُجَجه الواضحة قالوا له: ﴿ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾ أى: رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر، أو بَدّله إلى وضع آخر، قال الله لنبيه، صلوات الله عليه وسلامه عليه، ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾ أى: ليس هذا إلىّ، إنما أنا عبد مأمور، ورسول مبلغ عن الله، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

ثم قال محتجا عليهم فى صحة ما جاءهم به: ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ﴾ أى: هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لى فى ذلك ومشيئته وإرادته، والدليل على أنى لست أتقوله من عندى ولا افتريته[٧] أنكم عاجزون عن معارضته، وأنكم تعلمون صدقى وأمانتى منذ نشأت بينكم إلى حين بعثنى الله عز وجل، لا تنتقدون على شيئا تَغمصونى به؛ ولهذا قال: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل؛ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم

---

(١) فى ت: «درع».
(٢) فى ت: «تنتهزنى».
(٣) فى ت، أ: «درع».
(٤) فى ت، أ: «استخلف».
(٥) زيادة من ت.
(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ٣٩).
(٧) فى ت: «أفتريه»، وفى أ: «أقربه».

أبا[١] سفيان ومن معه، فيما سأله من صفة النبى ﷺ، قال: هل[٢] كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا ـ وقد كان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة وزعيم المشركين، ومع هذا اعترف[٣] بالحق:

وَالفَضْلُ ما شَهِدَتْ به الأعداءُ

فقال له هرقل: فقد أعرف[٤] أنه لم يكن ليدَعَ الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله[٥]!

وقال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وقد كانت مدة مقامه، عليه السلام، بين أظهرنا[٦] قبل النبوة أربعين سنة. وعن سعيد بن المسيب: ثلاثا وأربعين سنة. والصحيح المشهور الأول.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (١٧)﴾.

يقول تعالى: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشد إجرامًا ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وتَقَوّل[٧] على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، فليس أحد أكبر جرماً ولا أعظم ظُلما من هذا، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأغبياء، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء! فإن مَّن قال هذه المقالة صادقا أو كاذبا، فلابد أن الله يَنصب عليه من الأدلة على برِّه أو فُجُوره ما[٨]و أظهر من الشمس، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب [لعنه الله][٩] لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى ووقت نصف الليل فى حنْدس الظلماء، فَمِنْ سيما كل منهما وكلامه وفعاله يَستدلّ من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب، وسَجَاح، والأسود العَنْسى[١٠].

قال عبد الله بن سلام: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انْجَفَل الناسَ، فكنت فيمن انجفل، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، [وصلوا الأرحام][١١]، وصلّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[١٢].

ولما قَدم ضمام بن ثعلبة على رسول الله ﷺ فى[١٣] قومه بنى سعد بن بكر قال لرسول الله فيما قال له[١٤]: من رفع هذه السماء؟ قال: «الله». قال: ومن نصب هذه الجبال؟ قال: «الله». قال: ومن

---

(١) فى ت: «لأبى». (٢) فى ت: «فهل». (٣) فى ت: «أعرف».
(٤) فى ت: «أعترف». (٥) فى ت، أ: «ربه». (٦) فى ت، أ: «أضهرهم».
(٧) فى ت: «ويقول» (٨) فى ت: «وما». (٩) زيادة من أ.
(١٠) فى أ: «العبسى». (١١) زيادة من ت، أ، والمسند.
(١٢) رواه أحمد فى المسند (٥/٤٥١) والترمذى فى السنن برقم (٢٤٨٥) وقال الترمذى: «حديث صحيح».
(١٣) فى أ: «من». (١٤) فى ت: «فيما قاله».

سطح هذه الأرض؟ قال: «الله». قال: فبالذى رفع هذه السماء، ونصب هذه الجبال، وسَطَح هذه الأرض: الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ قال: «اللهم نعم» ثم[١] سأله عن الصلاة، والزكاة، والحج، والصيام، ويحلف عند كل واحدة[٢] هذه اليمين، ويحلف رسول الله ﷺ، فقال له: صدقت، والذى بعثك بالحق لا أزيد على ذلك ولا أنقص[٣].

فاكتفى هذا الرجل بمجرد هذا، وقد أيقن بصدقه، صلوات الله وسلامه عليه، بما رأى وشاهد من الدلائل الدالة عليه، كما قال حسان بن ثابت:

لَو لم تكُن[٤] فيه آياتٌ مُبَيِّنة كانت بَديهتُه[٥] تأتيكَ بالخَبَرِ

وأما مسيلمة فمن شاهده من ذَوى البصائر، علم أمره لا محالة، بأقواله الركيكة التى ليست بفصيحة، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة، وقرآنه الذى يخلد به فى النار يوم الحسرة[٦] والفضيحة، وكم من فرق بين قوله تعالى: **﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾** [البقرة: ٢٥٥]. وبين عُلَاكَ[٧] مسيلمة قبحه الله ولعنه: «يا ضفدع بنت[٨] الضفدعين، نقى كما تنقين لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين». وقوله ـ قُبّح ولعن ـ: «لقد أنعم الله على الحبلى، إذ أخرج منها نَسَمة تسعى، من بين صِفَاق وحَشَى». وقوله ـ خَدّره[٩] الله فى نار جهنم، وقد فعل ـ: «الفيل وما أدراك ما الفيل؟ له زُلْقُومٌ[١٠] طويل» وقوله ـ أبعده الله من رحمته: «والعاجنات عجنا، والخابزات خبزا، واللاقمات[١١] لقما، إهالة وسمنا، إن قريشا قوم يعتدون» إلى غير ذلك من الهذيانات والخرافات التى يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السخرية والاستهزاء؛ ولهذا أرغم الله أنفه، وشرب يوم «حديقة الموت» حتفه. ومَزّق[١٢] شمله. ولعنه صحبُه وأهله. وقدموا على الصديق تائبين، وجاؤوا فى دين الله راغبين، فسألهم الصديق خليفة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى [الله][١٣] عنه ـ أن يقرؤوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة لعنه الله، فسألوه أن يعفيهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أن يقرؤوا شيئا منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس، فيعرفوا فضل ما هم عليه[١٤] من الهدى والعلم. فقرؤوا عليه من هذا الذى ذكرناه وأشباهه، فلما فرغوا قال لهم الصديق، رضى الله عنه: ويحكم! أين كان يُذهبَ بعقولكم؟ والله إن هذا لم يخرج من إلٍّ.

---

(١) فى أ: «قال: ثم» (٢) فى ت: « واحد».

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه بنحو هذا السياق.

(٤) فى ت: «يكن». (٥) فى أ: «بدايته». (٦) فى ت، أ: «الحشر».

(٧) فى ت: «علال». (٨) فى ت: «بين». (٩) فى ت، أ: «خلده».

(١٠) فى ت، أ: «زلوم». (١١) فى ت، أ: «فاللاقمات». (١٢) فى ت، أ: «وتمزق».

(١٣) زيادة من ت. (١٤) فى ت، أ: «فيه».

وذكروا أن وفد عمرو بن العاص على مسيلمة، وكان صديقا له فى الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ، فقال له مسيلمة: ويحك يا عمرو، ماذا أنزل على صاحبكم ـ يعنى: رسول الله ﷺ ـ فى هذه المدة؟ فقال: لقد سمعت أصحابه يقرؤون سورة عظيمة قصيرة فقال: وما هى؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر]، ففكر مسيلمة ساعة، ثم قال: وقد أنزل علىّ مثله. فقال: وما هو؟ فقال: «يا وَبْرُ[1]، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حَقْرٌ نَقْر، كيف ترى يا عمرو؟» فقال له عمرو:[2] «والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك لتكذب»، فإذا كان هذا من مشرك فى حال شركه، لم يشتبه عليه حال محمد ﷺ وصدقه، وحال مسيلمة ـ لعنه الله ـ وكذبه، فكيف بأولى[3] البصائر والنهى، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجى! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ[4] أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وكذلك من كذّب بالحق الذى جاءت به الرسل، وقامت عليه الحجج، لا أحد أظلم منه كما جاء فى الحديث: «أعتى الناس على الله رجلٌ قتل نبيا، أو قتله نبى»[5].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)﴾.

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتُها عند الله، فأخبر تعالى أنها لا تنفع ولا تضر ولا تملك شيئا، ولا يقع شىء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ﴾.

وقال ابن جرير: معناه: أتخبرون[6] الله بما لا يكون فى السموات ولا فى الأرض؟ ثم نزه نفسه عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «يا وبر وبر».   (٢) فى ت: «عمر».

(٣) فى ت: «بأول».   (٤) فى ت: «فمن».

(٥) رواه الإمام أحمد فى المسند (١/٤٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود ولفظه: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتله نبى أو قتل نبياً». وروى البخارى فى صحيحه برقم (٤٠٧٣) من حديث أبى هريرة: «أشد غضب الله على من يقتله رسول الله فى سبيل الله».

(٦) فى ت: «تخبرون».

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث فى الناس، كائن بعد أن لم يكن، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد، وهو الإسلام؛ قال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، ثم وقع الاختلاف بين الناس، وعُبدت الأصنام والأنداد والأوثان، فبعث الله الرسل بآياته وبيناته وحُجَجه البالغة وبراهينه الدامغة، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾أى: لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما فيه اختلفوا، فأسعد المؤمنين، وأعنَتَ الكافرين.

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٢٠) ﴾.

أى: ويقول هؤلاء الكفرة [الملحدون] (١) المكذبون المعاندون: «لولا أنزل على محمد آية من ربه»، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن (٢) يحول لهم الصفا ذهبا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر(٣)، ولكنه حكيم فى أفعاله وأقواله، كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا. بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١٠، ١١] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩]، يقول تعالى: إن سنتى فى خلقى أنى إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خيَّر رسول الله، عليه الصلاة والسلام، بين أن يُعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عُوجلوا، وبين أن يتركهم ويُنْظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه؛ ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه إلى الجواب عما سألوا: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أى: الأمر كله لله، وهو يعلم العواقب فى الأمور، ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أى: إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فىّ وفيكم. هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته، عليه السلام(٤)، أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره، فانشق باثنتين(٥): فرقة من وراء الجبل، وفرقة من دونه. وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومالم يسألوا، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادا وتثبّتا لأجابهم، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادا وتعنتا، فتركهم فيما رابهم، وعلم أنهم لا يؤمن (٦) منهم أحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «وأن».
(٣) فى ت: «مما الله قادر عليه». (٤) فى أ: «ﷺ». (٥) فى ت، أ: «باثنين».
(٦) فى ت، أ: «ولكن ممن لم يؤمن».

إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ولما فيهم من المكابرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ [الطور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧] فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلى ما سألوا؛ لأنه لا فائدة فى جواب هؤلاء؛ لأنه دائر على تعنتهم وعنادهم، لكثرة فجورهم وفسادهم؛ ولهذا قال: ﴿فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾.

﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣) ﴾.

يخبر [(١)] تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم، كالرخاء بعد الشدة، والخصب[(٢)] بعد الجدب، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾.

قال مجاهد: استهزاء وتكذيب. كما قال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على[(٣)] أثر سماء ـ مطر [(٤)] ـ أصابهم [(٥)] من الليل ثم قال: «هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قالوا[(٦)]: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بى مؤمن بالكوكب»[(٧)].

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أى: أشد استدراجا وإمهالا، حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو فى مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله،

---

(١) فى ت: «فخبر». (٢) فى ت: «والخصيب». (٣) فى ت، أ: «فى».
(٤) فى ت، أ: «أى مطر». (٥) فى ت: «أصابتهم». (٦) فى ت: «قلنا».
(٧) صحيح البخارى برقم (٨٤٦) وصحيح مسلم برقم (٧١).

ويحصونه عليه، ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة، فيجازيه على الحقير والجليل[١]، والنقير والقطمير.

ثم أخبر تعالى أنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: يحفظكم [٢] ويكلؤكم بحراسته ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾ أي: بسرعة سيرهم رافقين، فبينما [٣] هم كذلك إذ ﴿جَاءَتْهَا﴾ أي: تلك السفن ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: شديدة ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: اغتلم البحر عليهم﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: هلكوا ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي: لايدعون معه صنما ولا وثنا، بل يُفردونه بالدعاء والابتهال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال هاهنا: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ﴾ أي: هذه الحال﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: لانشرك بك أحداً، ولنفردنَّك [٤] بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء هاهنا، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ﴾ أي: من تلك الورطة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: كأن لم يكن من ذاك شيء[٥]، ﴿كأن لم يدعنا إلى ضر مسه﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون [٦] به أحدا غيركم، كما جاء في الحديث: «مامن ذنب أجدر[٧] أن يعجّل الله عقوبته فى الدنيا، مع ما يَدخر [٨] الله لصاحبه فى الآخرة، من البغى وقطيعة الرحم»[٩].

وقوله: ﴿مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إنما لكم متاع فى الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: مصيركم ومآلكم [١٠]﴿ فَنُنَبِّئُكُم﴾ أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم [١١] إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)﴾.

---

(١) فى ت: «القليل والحقير». (٢) فى ت، أ: «يحيطكم». (٣) فى ت: «فبينا».
(٤) فى أ: «ولنفردك». (٥) فى ت، أ: «كأن لم يكن شيء من ذاك». (٦) فى ت: «يضرون».
(٧) فى ت: «أحذر». (٨) فى ت: «يؤخر».
(٩) رواه أبو داود فى السنن برقم (٤٩٠٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٥١١) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٢١١) من حديث أبى بكرة رضى الله عنه، وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح».
(١٠) فى ت: «ومآبكم». (١١) فى ت: «ونوفكم».

ضرب [تبارك و][1] تعالى مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بما أنزل [2] من السماء من الماء، مما يأكل الناس من زرع [3] وثمار، على اختلاف أنواعها وأصنافها، وما تأكل [4] الأنعام من أب وقَضْب وغير ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ أى: زينتها الفانية، ﴿وَازَّيَّنَتْ﴾ أى: حَسُنت بما خرج من [5] رُباها من زهور نَضِرة مختلفة الأشكال والألوان، ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا﴾، الذين زرعوها وغرسوها[6]، ﴿أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أى: على جَذاذها وحصادها فبيناهم [7] كذلك إذ جاءتها صاعقة، أو ريح باردة، فأيبست أوراقها، وأتلفت ثمارها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَاهَا[8] أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا﴾ أى: يَبَساً بعد [تلك] [9] الخضرة والنضارة، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ﴾ أى: كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك.

وقال قتادة: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾: كأن لم تنعم.

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء فى الحديث[10]: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا، فيُغْمَس فى النار غَمْسَة ثم يقال له: هل رأيت خيراً قط؟[هل مر بك نعيم قط؟] [11] فيقول: لا. ويؤتى بأشد الناس عذاباً فى الدنيا[12]، فيغمس فى النعيم غمسة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا»[13].

وقال تعالى إخباراً عن المهلكين: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

ثم قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أى: نبين الحُجج والأدلة، ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، فيعتبرون بهذا المثل فى زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها، وتمكنهم [14] بمواعيدها وتَفَلّتها [15] منهم، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الأرض، فى غير ما آية من كتابه العزيز، فقال فى سورة الكهف: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]، وكذا فى سورة الزمر[16]، والحديد [17] يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابن جرير: حدثنى الحارث[18]، حدثنا عبد العزيز، حدثنا ابن عُيَيْنَة، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال: سمعت مروان ـ يعنى: ابن

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت، أ: «أنزل الله».
(٣) فى ت: «زروع».
(٤) فى ت: «يأكل».
(٥) فى ت: «فى».
(٦) فى ت: «وعرشوها».
(٧) فى ت، أ: «فبيناها».
(٨) فى ت، أ: «جاءها» وهو خطأ.
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى ت، أ: «الصحيح».
(١١) زيادة من ت، أ، وابن ماجه.
(١٢) فى ت، أ: «ويؤتى بأبأس أهل الدنيا».
(١٣) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٢١).
(١٤) فى ت، أ: «وتمسكهم».
(١٥) فى ت: «وتفلها».
(١٦) الآية: ٢١.
(١٧) الآية: ٢٠.
(١٨) فى ت: «الحرب».

الحكم ـ يقرأ على المنبر: «وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكها [١] إلا بذنوب أهلها»، قال: قد قرأتها وليست فى المصحف فقال عباس بن عبد الله بن عباس: هكذا يقرؤها ابن عباس. فأرسلوا إلى ابن عباس فقال: هكذا أقرأنى أبىّ بن كعب[٢].

وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادة للتفسير.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ الآية: لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة [عطبها و] [٣] زوالها، رغَّب فى الجنة ودعا إليها، وسماها دار السلام أى: من الآفات، والنقائص والنكبات، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

قال أيوب عن أبى قِلاَبة عن النبى ﷺ قال: «قيل لى: لتنَمْ عينُك، وليعقلْ قلبك، ولتسمع [٤] أذنك فنامت عينى، وعقل قلبى، وسمعت أذنى. ثم قيل: سيّدٌ بَنَى داراً، ثم صنع مأدبة، وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعى دخل الدار، وأكل من المأدبة، ورضى عنه السيد، ومن لم يجب الداعى لم يدخل الدار، ولم يأكل من المأدبة، ولم يرض عنه السيّد فالله السيد، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة، والداعى محمد ﷺ»[٥].

وهذا حديث مرسل، وقد جاء متصلا من حديث الليث، عن خالد بن يزيد[٦]، عن سعيد بن أبي هلال، عن جابر [٧] بن عبد الله، رضى الله عنه، قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ يوماً فقال: «إنى رأيت فى المنام كأن جبريل عند رأسى، وميكائيل عند رجلى، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلا. فقال: اسمع سَمعت أذنك، واعقل عَقَل قلبك، إنما مَثَلُك ومثل أمَّتك كمثل ملك اتخذ دارا، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مأدبة، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يامحمد الرسُول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل منها» رواه ابن جرير[٨].

وقال قتادة: حدثنى خُلَيد العَصَرى، عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن يوم طلعت فيه شمسه إلا وبجنَبَتَيْها ملكان يناديان يسمعهما [٩] خلق الله كلهم إلا الثقلين: يأيها الناس،

---

(١) فى ت: «ليهلكهم».

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٧) وانظر تعليق الأستاذ محمود شاكر فى الحاشية، فقد ذكر أن هذا الإسناد هالك.

(٣) زيادة من ت، أ. (٤) فى ت: «وليسمع»

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٦٠).

(٦) فى ت، أ: «سويد». (٧) فى ت: «جبار».

(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٦١) وعلقه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٨١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٦٠) من طريق قتيبة عن الليث به، وقال الترمذى: «هذا حديث مرسل، سعيد بن أبى هلال لم يدرك جابر بن عبد الله» قال: «وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن النبى ﷺ بإسناد أصح من هذا» قلت: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٢٨١) من طريق يزيد عن سليم بن حيان، عن سعيد بن أبى ميناء، عن جابر بن عبد الله بنحوه.

(٩) فى ت، أ: «يسمعه».

هلموا إلى ربكم، إن ما قَلَّ وكفَى، خير مما كثر وألهى». قال: وأنزل ذلك فى [١] القرآن، فى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير [٢].

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦)﴾.

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل فى الدنيا بالإيمان والعمل الصالح أبدله [٣] الحسنى فى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[الرحمن: ٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هى [٤] تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك [أيضا] [٥]، ويشمل ما يعطيهم الله فى الجنان من القُصُور والحُور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظرُ إلى وجهه [٦] الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضله وبرحمته [٧] وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله [٨] الكريم، عن أبى بكر الصديق، وحذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عباس [قال البغوى وأبو موسى وعبادة بن الصامت] [٩]، وسعيد بن المسيب، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، وعبد الرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وعامر بن سعد، وعطاء، والضحاك، والحسن، وقتادة، والسدى، ومحمد بن إسحاق، وغيرهم من السلف والخلف.

وقد وردت فى ذلك أحاديثُ كثيرة، عن رسول الله ﷺ، فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد:

حدثنا عفان، أخبرنا حماد بن سلمة، عن ثابت البُنانى، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى، عن صهيب؛ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، وقال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزَكُمُوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يُثقِّل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا من النار؟». قال: «فيكشف [١٠] لهم الحجاب، فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه، ولا أقر لأعينهم».

وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة، من حديث حماد بن سلمة. به [١١].

---

(١) فى ت، أ: «فى ذلك».

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٠) ورواه أحمد فى مسنده (٥/١٩٧) من طريق همام عن قتادة بنحوه.

(٣) فى ت، أ: «أن لهم». (٤) فى ت، أ: «تشمل هى». (٥) زيادة من ت، أ.

(٦) فى ت: «وجه». (٧) فى ت: «ورحمته». (٨) فى ت: «وجهه».

(٩) زيادة من ت، أ. (١٠) فى ت: «فكشف»

(١١) صحيح مسلم برقم (١٨١) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٢٥٥٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٣٤) وابن ماجه فى السنن برقم (١٨٧).

وقال ابن جرير: أخبرنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا شبيب، عن أبان[١]، عن أبى تَميمة الهُجَيْمى؛ أنه سمع أبا موسى الأشعرى يحدث عن رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة مناديا ينادى: يا أهل الجنة ـ بصَوْت يُسْمعُ أولَّهم وآخرهم ـ: إن الله وعدكم الحسنى وزيادة، الحسنى: الجنة. وزيادة: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل»[٢].

ورواه أيضاً ابنُ أبى حاتم، من حديث أبى بكر الهُذلى[٣]، عن أبى تميمة الهجيمى، به.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا ابن حميد، حدثنا إبراهيم بن المختار[٤]، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن كعب بن عُجْرَة، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: النظر إلى وجه الرحمن عز وجل[٥].

وقال أيضاً: حدثنا ابن عبد الرحيم[٦]، حدثنا عمرو بن أبى سلمة، سمعت زهيراً عمن سَمع أبا العالية، حدثنا أبىّ بن كعب: أنه سأل رسولَ الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «الحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل»[٧].

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً من حديث زهير، به.

وقوله تعالى: ﴿وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ أى: قتام وسواد فى عَرَصات المحشر، كما يعترى وجوه الكفرة الفجرة من القَتْرة والغُبْرة، ﴿ وَلا ذِلَّةٌ﴾ أى: هوان وصغار، أى: لا يحصل لهم إهانة فى الباطن، ولا فى الظاهر، بل هم كما قال تعالى فى حقهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أى: نضرة فى وجوههم، وسروراً فى قلوبهم، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته، آمين.

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) ﴾.

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يُضاعف لهم الحسنات، ويزدادون[٨] على ذلك، عطف بذكر حال الأشقياء، فذكر عدله تعالى فيهم، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها، لا يزيدهم على ذلك،

---

(١) فى ت، أ: «وأبان»

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٥) وابن وهب روى عن شبيب مناكير وأبان بن أبى عياش ضعيف.

(٣) فى ت: «الهذل». (٤) فى ت: «المختار به».

(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٨) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٥/ ٢٠٤) من طريق محمد بن حميد به، وقال: «غريب من حديث عطاء وابن جريج تفرد به إبراهيم بن المختار». وإبراهيم بن المختار ضعيف.

(٦) فى أ: «عبد الرحمن».

(٧) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٩) ورواه اللالكائى فى السنة برقم (٧٨٠) من طريق الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد عمن سمع أبى العالية يحدث عن أُبىّ بن كعب فذكره مرفوعاً.

(٨) فى ت: «ويزادون».

﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أى: تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ. وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٤]، وقوله: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أى: من مانع ولا واق يقيهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ. كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ ـ ١٢].

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾: إخبار عن سواد وجوههم فى الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]، وكما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ الآية [عبس: ٣٨ ـ ٤٢].

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أى: أهل الأرض كلهم، من إنس وجن[1]، وبر وفاجر، كما قال: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أى: الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وفى الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣] أى: يصيرون صدعين، وهذا يكون إذا جاء الرب تعالى لفصل القضاء؛ ولهذا قيل: ذلك[2] يستشفع المؤمنون إلى الله تعالى أن يأتى لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا، وفى الحديث الآخر: «نحن يوم القيامة على كَوْم فوق الناس[3]»[4].

---

(١) فى ت: «من جن وإنس».

(٢) وقع هنا بياض فى هـ، ووصل فى ت، أ.

وحديث الاستشفاع رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٤٧٦) من حديث أنس رضى الله عنه.

(٣) فى أ: «النار».

(٤) رواه أحمد فى المسند (٣/ ٣٤٥) من حديث جابر رضى الله عنه. والكوم: الموضع المشرف العال.

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة إخباراً عما يأمر به المشركين[١] وأوثانهم يوم القيامة: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾، أنكروا عبادتهم، وتبرؤوا منهم، كما قال تعالى: ﴿[كَلاَّ][٢] سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ الآية [مريم: ٢]. وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة: ١٦٦]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقال فى هذه الآية إخباراً عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم: ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أى: ما كنا نشعر بها ولا نعلم، وإنما أنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندرى بكم، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا، ولا أمرناكم بها، ولا رضينا منكم بذلك.

وفى هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنهم شيئاً، ولم يأمرهم بذلك ولا رضى به ولا أراده، بل تبرأ منهم فى وقت أحوج ما يكونون إليه، وقد تركوا[٣] عبادة الحى القيوم، السميع البصير، القادر على كل شىء، العليم بكل شىء وقد أرسل رسله وأنزل كتبه، آمرا بعبادته وحده لا شريك له، ناهياً عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحِي[٤] إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون، قد ذكرهم الله فى كتابه، وبيّن أحوالهم وأقوالهم، وردّ عليهم فيما هم فيه أتم رد.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أى: فى موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس وتعلم ما أسلفت من [عملها من][٥] خير وشر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقد قرأ بعضهم: ﴿هُنَالِكَ تَتْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾، وفسَّرها بعضهم بالقراءة، وفسّرها بعضهم بمعنى تتبع ما قدمته من خير وشر، وفسّرها بعضهم بحديث: «تتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيتبع من

---

(١) فى ت، أ: «المشركون». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «يكون إليه وقد ترك».
(٤) فى أ: «نوحى». (٥) زيادة من أ.

كان يعبد الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت» الحديث[1].

وقوله: ﴿ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ ﴾ أى: ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل، ففصلها، وأدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ أى: ذهب عن المشركين ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ أى: ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾.

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله[2]، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أى: من ذا الذى ينزل من السماء ماء المطر، فيشق[3] الأرض شقاً بقدرته ومشيئته، فيخرج منها ﴿حَبًّا . وَعِنَبًا وَقَضْبًا . وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْبًا . وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٧ ـ ٣١]، أإله مع الله؟ فسيقولون: الله، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١]؟، وكذلك قوله: ﴿أَمَّن[4] يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾ [يونس: ٣١]؟ أى: الذى وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها وسلبكم إياها، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣]، وقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [الأنعام: ٤٦].

وقوله: ﴿ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أى: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة، وقد تقدم ذكر الخلاف فى ذلك، وأن الآية عامة فى ذلك كله.

وقوله: ﴿ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أى: من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذى لا معقب لحكمه، ولا يُسْأل عما يفعل وهم يُسْألون، ﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فالملك كله العُلْوى والسفلى، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه، ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ أى: هم يعلمون ذلك

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) فى ت، أ: «وحدانيته الإلهية». (٣) فى ت، أ: «ويشق». (٤) فى أ: «قل من» وهو خطأ.

ويعترفون به، ﴿ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أى: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

وقوله: ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ أى: فهذا الذى اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق الذى يستحق أن يفرد بالعبادة، ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ أى: فكل معبود سواه باطل، لا إله إلا هو، واحد[1] لا شريك له.

﴿ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾[2] أى: فكيف تصرفون[3] عن عبادته إلى عبادة ما سواه، وأنتم تعلمون أنه الرب الذى خلق كل شىء، والمتصرف فى كل شىء؟

وقوله: ﴿ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى: كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف فى الملك وحده، الذى بعث رسله بتوحيده؛ فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكنى النار، كقوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾.

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره، وعبدوا من الأصنام والأنداد، ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أى: من بدأ خلق هذه السموات والأرض ثم ينشئ[4] ما فيهما من الخلائق، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما بفناء ما فيهما، ثم يعيد الخلق[5] خلقاً جديداً؟ ﴿ قُلِ اللَّهُ ﴾، هو الذى يفعل هذا ويستقل به، وحده لا شريك له، ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أى: فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل؟!

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ أى: أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال، وإنما يهدى الحيارى والضلال، ويقلب القلوب من الغى إلى الرشد الله، الذى لا إله إلا هو.

﴿ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ﴾ أى: أَفَيُتَّبَع [العبد الذى يهدى إلى

---

(١) فى ت، أ: «لا إله إلا هو لأن الإله واحد». (٢، ٣) فى ت: «يصرفون».
(٤) فى ت، أ: «يفنى». (٥) فى ت: «الخلائق».

الحق ويُبَصِّر بعد العمى، أم الذى لا يهدى إلى شىء إلا[(١)] أن يهدى، لعماه وبكمه؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]، وقال لقومه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ . وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أى: فما بالكم[(٢)] يُذهَبُ بعقولكم، كيف سويتم بين الله وبين خلقه، وعدلتم هذا بهذا، وعبدتم هذا وهذا؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادى من الضلالة بالعبادة وحده، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة.

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون فى دينهم هذا دليلا ولا برهاناً، وإنما هو ظن منهم، أى: توهم وتخيل، وذلك لا يغنى عنهم شيئا، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾: تهديد لهم، ووعيد شديد؛ لأنه تعالى أخبر[(٣)] أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء.

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩) وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠)﴾.

هذا بيان لإعجاز القرآن، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله، ولا بعشر سور، ولا بسورة من مثله، لأنه بفصاحته وبلاغته ووَجازته وحَلاوته، واشتماله على المعانى العزيزة[(٤)] [للعزيزة][(٥)]، النافعة فى الدنيا والآخرة، لا يكون إلا من عند الله الذى لا يشبهه شىء فى ذاته ولا صفاته، ولا فى أفعاله وأقواله، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا[(٦)] الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أى: مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله، ولا يشبه هذا كلام[(٧)] البشر، ﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى: من الكتب المتقدمة، ومهيمناً عليها، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أى: وبيان الأحكام والحلال والحرام، بياناً

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى ت: «لكم».
(٣) فى ت، أ: «يخبر».
(٤) فى ت، أ: «الغزيرة».
(٥) زيادة من ت.
(٦) فى ت: «لهذا».
(٧) فى ت، أ: «بكلام».

شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين، كما تقدم فى حديث الحارث الأعور، عن على ابن أبى طالب: «فيه خَبَرُ ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم»، أى: خَبَر عما سلف وعما سيأتى، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذى يحبه الله ويرضاه.

وقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أى: إن ادعيتم وافتريتم وشككتم فى أن هذا من عند الله، وقلتم كذباً ومَيْنا: «إن هذا من عند محمد»، فمحمد بشر مثلكم، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن، فأتوا أنتم بسورة[1] مثله، أى: من جنس القرآن، واستعينوا على ذلك بكل من قَدرتم عليه من إنس وجان.

وهذا هو المقام الثالث فى التحدى، فإنه تعالى تحداهم ودعاهم، إن كانوا صادقين فى دعواهم، أنه من عند محمد، فلتعارضوه[2] بنظير ما جاء به وحده واستعينوا بمن شئتم[3]. وأخبر أنهم لا يقدرون على ذلك، ولا سبيل لهم إليه، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه، فقال فى أول سورة هود: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ[4] اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تنازل إلى سورة، فقال فى هذه السورة: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن[5] دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وكذا فى سورة البقرة ـ وهى مدنية ـ تحداهم بسورة منه، وأخبر أنهم لا يستطيعون ذلك أبداً، فقال: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ الآية: [البقرة: ٢٤].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى فى هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قِبَلَ لأحد به، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام وحلاوته، وجزالته وطلاوته، وإفادته وبراعته، فكانوا أعلم الناس به، وأفهمهم له، وأتبعهم له وأشدهم[6] له انقياداً، كما عرف السحرة، لعلمهم[7] بفنون السحر، أن هذا الذى فعله موسى، عليه السلام، لا يصدر إلا عن مُؤيَّد مُسَدد مرسل من الله، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله. وكذلك عيسى، عليه السلام، بُعث فى زمان علماء الطب ومعالجة المرضى، فكان يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيى الموتى بإذن الله، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله[8] ورسوله؛ ولهذا جاء فى الصحيح، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً»[9].

(١) فى ت، أ: «من مثله». (٢) فى ت، أ: «فليعارضوه». (٣) فى ت، أ: «وليستعينوا بمن شاؤوا».
(٤، ٥) فى ت: «ما» وهو خطأ. (٦) فى ت، أ: «وأشهرهم».
(٧) فى ت، أ: «بعلمهم». (٨) فى ت: «من عبد الله»، وفى أ: «من عند الله».
(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩٨١) ومسلم فى صحيحه برقم (١٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ يقول: بل كذب هؤلاء بالقرآن، ولم يفهموه ولا عرفوه، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أى: ولم يُحصِّلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلا وسفهاً ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أى: من الأمم السالفة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلوا، وكفرا وعناداً وجهلا، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم.

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: ومن هؤلاء الذين بُعثت[1] إليهم يا محمد من يؤمن[2] بهذا القرآن، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به، ﴿وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ﴾، بل يموت على ذلك ويبعث عليه، ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أى: وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ومن يستحق الضلالة فيضله، وهو العادل الذى لا يجور، بل يعطى كلا ما يستحقه، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه، لا إله إلا هو.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٤)﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: وإن كذبك[3] هؤلاء المشركون، فتبرأ منهم ومن عَمَلهم، ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]. وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ أى: يسمعون[4] كلامك الحسن، والقرآن العظيم، والأحاديث الصحيحة الفصيحة[5] النافعة فى القلوب والأبدان والأديان، وفى هذا كفاية عظيمة، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم ـ وهو الأطرش ـ فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء، إلا أن يشاء الله.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ أى: ينظرون إليك وإلى ما أعطاك الله من التؤدة، والسمت الحسن، والخلق العظيم، والدلالة الظاهرة، على نبوتك لأولى البصائر[6] والنهى، وهؤلاء ينظرون كما ينظر

(١) ت فى ت: «الذين من بعثت». (٢) فى ت، أ: «سيؤمن». (٣) فى أ: «وإن كذبوك».
(٤) فى ت: «يستمعون». (٥) فى ت: «الفصيحة الصحيحة». (٦) فى ت: «الابصار».

غيرهم، ولا يحصل لهم من الهداية شيء مما [١] يحصل لغيرهم، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً. إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحد شيئاً، وإن كان قد هدى به من هدى [من الغى] [٢] وبصر به من العمى، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوباً غلفا، وأضل به عن الإيمان [٣] آخرين، فهو الحاكم المتصرف فى ملكه بما يشاء، الذى لا يُسْأل عما يفعل وهم يسألون، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. وفى الحديث عن أبى ذر [٤]، عن النبى [٥] ﷺ، فيما يرويه عنه ربه عز وجل: «يا عبادى، إنى حرّمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ـ إلى أن قال فى آخره: يا عبادى، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه». رواه مسلم بطوله [٦].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (٤٥)﴾.

يقول تعالى مُذكِّراً للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عَرَصَات القيامة: كأنهم [٧] يوم يوافونها لم يلبثوا فى الدنيا ﴿إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النازعات: ٤٦]،وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا. يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا فى الدار الآخرة كما قال: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ. قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: يعرف الأبناء الآباء [٨]، والقرابات بعضهم بعضا، كما كانوا فى

---

(١) فى ت: «ما». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت: «وأضل عن الإيمان به».
(٤) فى ت، أ: «حديث أبى ذر». (٥) فى ت، أ: «رسول الله».
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).
(٧) فى ت، أ: «وكأنهم». (٨) فى ت، أ: «الآباء الأبناء».

الدنيا، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا . يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ . وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ .وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ . كَلاَّ﴾ [المعارج: ١٠ ـ ١٥].

وقوله: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥]، لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين. فهذه هى الخسارة العظيمة، ولا خسارة أعظم من خَسارة من فُرِّق بينه وبين أحبته[١]، يوم الحسرة والندامة.

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطبا لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: ننتقم[٢] منهم فى حياتك لتقرّ عينُك منهم، ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أى: مصيرهم ومتقلَبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك.

وقد قال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا أبو بكر الحنفى، حدثنا داود بن الجارود، عن أبى الطفيل[٣]، عن حذيفة بن أسيد، عن النبى ﷺ قال: «عُرِضت علىّ أمتى البارحة لدى هذه الحجرة، أولها وآخرها. فقال رجل: يا رسول الله، عرض عليك من خُلِق، فكيف من لم يخلق؟ فقال: «صُوِّروا لى فى الطين، حتى إنى لأعْرَفُ بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه»[٤].

ورواه عن محمد بن عثمان بن أبى شيبة، عن عقبة بن مكرم، عن يونس بن بُكَير، عن زياد بن المنذر، عن أبى الطفيل، عن حذيفة بن أسيد، به نحوه[٥].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ﴾: قال مجاهد: يعنى يوم القيامة.

﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ[٦] وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩]، فكل أمة تُعرَضُ على الله بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها من خير وشر موضوعٌ شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهودٌ أيضا أمة بعد أمة. وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم فى الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم، ويقضى لهم، كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نحن

(١) فى ت، أ: «أخيه». (٢) فى ت: «ينتقم».
(٣) فى جميع النسخ: «أبى السليل» والتصويب من المعجم الكبير للطبرانى.
(٤) المعجم الكبير (٣/ ١٨١).
(٥) المعجم الكبير (٣/ ١٨١) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٦٩): «وفيه زياد بن المنذر وهو كذاب».
(٦) فى ت، أ: «بالقسط» وهو خطأ.

الآخرون السابقون يوم القيامة، المقضى لهم قبل الخلائق»[١]، فأمته إنما حازت قَصَب السبق لشرف رسولها، صلوات الله وسلامه عليه [دائماً][٢] إلى يوم الدين.

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥٠) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥١) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (٥٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كُفر هؤلاء المشركين فى استعجالهم العذَاب وسؤالهم عن وقته قبل التعيين، مما لا فائدة فيه لهم[٣]، كما قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨] أى: كائنة لا محالة وواقعة، وإن لم يعلموا وقتها عينا، ولهذا أرشَدَ رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أى: لا أقول إلا ما علَّمنى، ولا أقدر على شىء مما استأثر به إلا أن يُطلعنى عليه، فأنا عبده ورسوله إليكم، وقد أخبرتكم بمجىء الساعة وأنها كائنة، ولم يطلعنى على وقتها، [ولكن][٤] ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾، أى: لكل قرن مدَّة من العمر مقدَّره[٥]، فإذا انقضى أجلهم ﴿ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ [المنافقون: ١١]، ثم أخبرهم أن عذاب الله سيأتيهم بغتة، فقال: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا ﴾ أى: ليلا أو نهارا، ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ. أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ ﴾ يعنى: أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿ ثُمَّ قِيلَ[٦] لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ ﴾ أى: يوم القيامة يقال لهم هذا، تبكيتا وتقريعاً، كقوله: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا. هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ. أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ. اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣ ـ ١٦].

---

(١) هذا اللفظ فى صحيح مسلم برقم (٨٥٦) من حديث حذيفة رضى الله عنه، وروى البخارى أوله برقم (٨٧٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «لهم فيه».

(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «تقدر».

(٦) فى ت: «قل».

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٥٤) ﴾.

يقول تعالى: ويستخبرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي: المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابا. ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: ليس صيرورتكم ترابا بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ[1] إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وهذه الآية ليس لها نظير فى القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد فى سورة سبأ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وفى التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

ثم أخبر تعالى أنه إذا قامت القيامة يودّ الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهبا، ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالحق، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٥٦) ﴾.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض، وأنّ وعده حقّ كائن لا محالة، وأنه يحيى ويميت وإليه مرجعهم، وأنه القادر على ذلك، العليم بما تفرّق من الأجسام وتمزّق فى سائر أقطار الأرض والبحار والقفار [سبحانه وتعالى تقدست أسماؤه وجل ثناؤه][2].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على خلقه بما أنزل إليهم من القرآن العظيم على رسوله الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: زاجر عن الفواحش، ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ أى: من الشّبه والشكوك، وهو إزالة ما فيها من رجس ودَنَس، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أى: محصلٌ لها الهداية والرحمة من الله تعالى. وإنما ذلك للمؤمنين به والمصدقين الموقنين بما فيه، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ

---

(١) فى ت: «إنما قوله» والصواب ما أثبتناه.

(٢) زيادة من أ.

آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ [١] فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: بهذا الذى جاءهم من الله من الهدى ودين الحق[٢]، فليفرحوا، فإنه أولى ما يفرحون به، ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة، كما قال ابن أبى حاتم، فى تفسير هذه الآية: «وذُكِر عن بَقِيَّة[٣] ـ يعنى ابن الوليد ـ عن صفوان بن عمرو، سمعت أيفع بن عبد الكلاعى يقول: لما قُدم خراجُ العراق إلى عمر، رضى الله عنه، خرج عُمَرُ ومولى له فجعل عمر يعد الإبل، فإذا هى[٤] أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: الحمد لله تعالى، ويقول مولاه: هذا والله من فضل الله ورحمته. فقال عمر: كذبت. ليس هذا، هو الذى يقول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾، وهذا مما يجمعون.

وقد[٥] أسنده[٦] الحافظ أبو القاسم الطبرانى، فرواه عن أبى زُرْعَة الدمشقى، عن حيوَة بن شُرَيح، عن بقية، فذكره[٧].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٥٩) وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (٦٠)﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحرمون ويحلون من البحائر والسوائب والوصائل، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦] الآيات.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق، سمعت أبا الأحوص ـ وهو عوف بن [مالك بن][٨] نضلة ـ يحدث عن أبيه قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا قَشْف الهيئة، فقال: «هل لك مال؟» قال: قلت: نعم. قال: «من أى المال؟» قال: قلت: من كل المال، من الإبل والرقيق والخيل والغنم. فقال[٩]: «إذا أتاك مالا فَلْيُرَ عليك». وقال: «هل تنتج إبل قومك صحاحا آذانُها، فتعمَد إلى موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذه بحر وتشقها، أو تشق جلودها

---

(١) فى ت: «وبرحمة».
(٢) فى أ: «الله».
(٣) فى ت: «ذكر عن نفسه».
(٤) فى أ: «هو».
(٥) فى ت: «وهذا».
(٦) فى أ: «أسند».
(٧) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٣٦٨) وعزاه لابن أبى حاتم والطبرانى.
(٨) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٩) فى ت، أ: «والنعم قال».

وتقول: هذه صُرُم، وتحرمها[1] عليك وعلى أهلك؟» قال: نعم. قال: «فإن ما آتاك الله لك حل، وساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك» وذكر تمام الحديث[2].

ثم رواه عن سفيان بن عيينة، عن أبى الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبى الأحوص[3]: وعن بَهْز بن أسد، عن حماد بن سلمة، عن عبد الملك بن عمير، عن أبى الأحوص، به[4]. وهذا حديث جيد قوى الإسناد.

وقد أنكر [الله][5] تعالى على من حَرّم ما أحل الله، أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء، التى[6] لا مستند لها ولا دليل عليها. ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة، فقال: ﴿**وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ أى: ما ظنهم أن يُصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة.

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**﴾: قال ابن جرير: فى تركه معاجلتهم[7] بالعقوبة فى الدنيا.

قلت: ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع فى الدنيا، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم فى دنياهم أو دينهم.

﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ**﴾، بل يحرمون ما أنعم الله [به][8]عليهم، ويضيقون على أنفسهم، فيجعلون بعضا حلالا وبعضا حراما. وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه فى دينهم.

وقال ابن أبى حاتم فى تفسير هذه الآية: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى الحوارى، حدثنا رباح، حدثنا عبد الله بن سليمان، حدثنا موسى بن الصباح فى قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ**﴾ قال: إذا كان يوم القيامة، يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل، فيقومون بين يدى الله عز وجل ثلاثة أصناف قال: فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدى، لماذا عملت؟ فيقول: يارب: خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها، وحورها ونعيمها، وما أعددت لأهل طاعتك فيها، فأسهرتُ ليلى وأظمأتُ نهارى شوقا إليها. قال: فيقول الله تعالى: عبدى، إنما عملت للجنة، هذه الجنة فادخلها، ومن فضلى عليك أن أعتقك من النار، [ومن فضلى عليك أن أدخلك جنتى][9]، قال: فيدخل هو ومن معه الجنة.

قال: ثم يؤتى برجل من الصنف الثانى، قال: فيقول: عبدى، لماذا[10] عملت؟ فيقول: يا رب، خلقت نارا وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومُها، وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها

---

(١) فى ت: «حرام ويحرمها».

(٢) المسند (٣/ ٤٧٣).

(٣) المسند (٤/ ١٣٧).

(٤) المسند (٣/ ٤٧٣).

(٥) زيادة من ت، أ.

(٦) فى أ: «الذى».

(٧) فى ت: «معالجتهم».

(٨، ٩) زيادة من ت، أ.

فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى خوفا منها. فيقول: عبدى، إنما عملت ذلك خوفا من نارى،[١] فإنى قد أعتقتك من النار، ومن فضلى غليك أن أدخلك جنتى. فيدخل هو ومن معه الجنة.

ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث، فيقول: عبدى، لماذا عملت؟ فيقول: رب[٢]، حباً لك، وشوقا إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلى وأظمأت نهارى شوقا إليك وحبا لك، فيقول تبارك وتعالى: عبدى، إنما عملت حبا لى وشوقا إلى، فينجلى له الرب جل جلاله، ويقول: ها أنا ذا، انظر إلى. ثم يقول: من فضلى عليك أن أعتقك من النار، وأبيحك جنتى، وأزيرك ملائكتى، وأسلم عليك بنفسى. فيدخل هو ومن معه الجنة.

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾.

يخبر تعالى نبيه، صلوات الله عليه وسلامه[٣]، أنه[٤] يعلم جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق فى كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة فى حقارتها وصغرها فى السموات ولا فى الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا فى كتاب مبين، كقوله: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ[٥] الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾** [الأنعام: ٥٩]، فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات وكذلك الدواب السارحة فى قوله: **﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾** [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: **﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾** [هود: ٦].

وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء، فكيف بعلمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة، كما قال تعالى: **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ. الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ. وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾** [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢١٩]؛ ولهذا قال تعالى: **﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾** أى: إذ تأخذون فى ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، ولهذا قال، عليه السلام[٦]، لما سأله جبريل عن الإحسان [قال][٧]: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٨].

---

(١) فى ت، أ: «النار». (٢) فى أ: «ربى». (٣) فى ت: «صلوات الله وسلامه عليه».

(٤) فى ت: «بأنه». (٥) فى ت: «مفاتح». (٦) فى أ: «ﷺ».

(٧) زيادة من ت، أ.

(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٨) من حديث عمر بن الخطاب الطويل.

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٤)﴾.

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون، كما فسرهم[١] ربهم، فكل من كان تقيا كان لله وليا: أنه ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [أى][٢]: فيما يستقبلون من أهوال القيامة، ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما وراءهم فى الدنيا.

وقال عبد الله بن مسعود، وابن عباس، وغير واحد من السلف: أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكِرَ الله.

وقد ورد هذا فى حديث مرفوع كما قال البزار:

حدثنا على بن حَرْب الرازى، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعرى ـ وهو القمى ـ عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله، مَنْ أولياء الله؟ قال: «الذين إذا رؤُوا ذُكر الله». ثم قال البزار: وقد روى عن سعيد مرسلا[٣].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو هشام الرِّفاعى، حدثنا ابن فضيل[٤]، حدثنا أبى، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعَة بن عمرو بن جرير البَجَلى، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله عبادا يغبطهم[٥] الأنبياء والشهداء». قيل: من هم يا رسول الله؟ لعلنا نحبهم. قال: «هم قوم تحابوا[٦] فى الله من غير أموال ولا أنساب، وجوههم نور على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس». ثم قرأ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٧].

ثم رواه وأيضا أبو داود، من حديث جرير، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، بمثله[٨].

وهذا أيضا إسناد جيد، إلا أنه منقطع بين أبى زرعة وعمر بن الخطاب، والله أعلم.

---

(١) فى ت، أ: «فسر بهم». (٢) زيادة من ت.

(٣) مسند البزار برقم (٣٦٢٦) «كشف الأستار». والمرسل رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١١٩) من طريق أشعث بن إسحاق، عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير مرسلاً.

(٤) فى جميع النسخ «أبو فضيل»، وكذا وقع فى مخطوطة الطبرى وصوبه المعلق.

(٥) فى ت: «يعطيهم». (٦) فى أ: «تحابون».

(٧) تفسير الطبرى (١٥/ ٢٠) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٣٦) عن واصل بن عبد الأعلى عن محمد بن فضيل عن أبيه وعمارة بن القعقاع ـ هكذا مقروناً ـ كلاهما عن أبى زرعة عن أبى هريرة به نحوه، ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٥٠٨) من طريق عبد الرحمن بن صالح عن ابن فضيل عن عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة به.

(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢١) وسنن أبى داود برقم (٣٥٢٧).

وفى حديث الإمام أحمد، عن أبى النضر، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم، عن أبى مالك الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتى من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل[1] بينهم أرحام متقاربة، تحابوا فى الله، وتصافوا فى الله، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور، فيجلسهم عليها، يفزع الناس ولا يفزعون، وهم أولياء الله، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون». والحديث متطول[2] [3].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن الأعمش، عن ذَكْوَان أبى صالح، عن رجل، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾، قال: «الرؤيا الصالحة يراها المسلم، أو تُرى له»[4].

وقال ابن جرير: حدثنى أبو السائب، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن عطاء بن يسار، عن رجل من أهل مصر، عن أبى الدرداء فى قوله: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾، قال: سأل رجل أبا الدرداء[5] عن هذه الآية، فقال: لقد سألت عن شيء ما سمعتُ [أحداً][6] سأل عنه بعد رجل سأل عنه رسولَ الله، فقال: «هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم، أو تُرَى له، بشراه فى الحياة الدنيا، وبشراه فى الآخرة [الجنة][7].

ثم رواه ابن جرير من حديث سفيان، عن ابن المنْكَدر، عن عَطَاء بن يَسَار، عن رجل من أهل مصر، أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية، فذكر نحو ما تقدم[8].

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى: حدثنا الحجاج بن مِنْهَال، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن أبى صالح قال: سمعت أبا الدرداء، وسئل عن: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ . لَهُمُ الْبُشْرَىٰ**﴾، فذكر نحوه سواء[9].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى، عن أبى سلمة، عن عبادة بن الصامت؛ أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله تعالى: ﴿**لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾؟ فقال: «لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد من أمتى ـ أو: أحد قبلك» قال: «تلك الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح أو تُرَى له».

وكذا رواه أبو داود الطيالسى، عن عمران القَطَّان، عن يحيى بن أبى كثير، به[10]. ورواه

---

(١) فى ت: «يتصل».
(٢) فى ت، أ: «يطول».
(٣) المسند (٥/ ٣٤٣).
(٤) المسند (٦/ ٤٤٥).
(٥) فى أ: «سأل رجل من أهل مصر أبا الدرداء».
(٦، ٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢٨) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٠٦) من طريق سفيان عن محمد بن المنكدر به نحوه.
(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٦) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٠٦) من طريق أحمد بن عبدة عن حماد بن زيد به.
(١٠) مسند الإمام أحمد (٥/ ٣١٥) وهو فى مسند الطيالسى برقم (٥٨٣) عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة قال: نبئت أن عبادة بن الصامت فذكره، وهو منقطع قال ابن حجر: «رجاله ثقات إلا أنه معلول، فإن أبا سلمة لم يسمع من عبادة».

الأوزاعى، عن يحيى بن أبى كثير، فذكره. ورواه على بن المبارك، عن يحيى، عن أبى سلمة قال: نُبِّئنا عن عبادة بن الصامت، سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية، فذكره.

وقال ابن جرير: حدثنى أبو حميد الحِمْصِىّ، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عمر بن عمرو بن عبد الأحمُوسى، عن حميد بن عبد الله المزنى قال: أتى رجل عبادة بن الصامت فقال: آية فى كتاب الله أسألك عنها، قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾؟ فقال عبادة: ما سألنى عنها أحد قبلك، سألت عنها نبى الله فقال مثل ذلك: «ما سألنى عنها أحد قبلك، الرؤيا الصالحة، يراها العبد المؤمن فى المنام أو تُرَى له»(١).

ثم رواه من حديث موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد بن صَفْوان، عن عبادة بن الصامت؛ أنه قال لرسول الله ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، فقد عرفنا بشرى الآخرة الجنة، فما بشرى الدنيا؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو تُرَى له، وهى جزء من أربعة وأربعين جزءا أو سبعين جزءا من النبوة»(٢).

وقال [الإمام](٣) أحمد أيضا: حدثنا بَهْز، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران، عن عبد الله بن الصامت، عن أبى ذر؛ أنه قال: يا رسول الله، الرجل يعمل العمل فيحمده(٤) الناس عليه، ويثنون عليه به، فقال رسول الله ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن». رواه مسلم(٥).

وقال أحمد أيضا: حدثنا حسن ـ يعنى الأشيب ـ حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَرَّاج، عن عبدالرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «الرويا الصالحة يبشرها المؤمن، هى جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة، فمن رأى [ذلك](٦) فليخبر بها، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليَحْزُنَه، فلينفث(٧) عن يساره ثلاثا، وليكبر(٨)، ولا يخبر بها أحدا»(٩) لم يخرجوه.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وَهْب، حدثنى عمرو بن الحارث، أن دَرَّاجا أبا السمح حدثه عن عبد الرحمن بن جُبَيْر، عن عبد الله بن عمرو، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: «الرؤيا الصالحة يبشَّرها المؤمن، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»(١٠).

وقال أيضا ابن جرير: حدثنى محمد بن حاتم المؤدِّب، حدثنا عمار بن محمد، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ قال: «هى

---

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢٩).
(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٢).
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، أ: «ويحمده».
(٥) المسند (٥/ ١٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٢).
(٦) زيادة من أ، والمسند، وفى ت: «تلك».
(٧) فى ت: «فليتفت».
(٨) فى ت، أ: «وليسكت».
(٩) المسند (٢/ ٢١٩) وابن لهيعة ودراج ضعيفان.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٩).

فى الدنيا الرؤيا الصالحة، يراها العبد أو تُرَى له، وهى فى الآخرة الجنة»[١].

ثم رواه عن أبى كُرَيْب، عن أبى بكر بن عيَّاش، عن أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة أنه قال: الرؤيا الحسنة بشرى من الله، وهى من المبشّرات[٢].

هكذا رواه من هذه الطريق موقوفا.

وقال أيضا: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا أبو بكر، حدثنا هشام، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الحسنة هى البشرى، يراها المسلم أو تُرَى له»[٣].

وقال ابن جرير: حدثنى أحمد بن حماد الدُّولابى، حدثنا سفيان، عن عبيد الله بن أبى يزيد، عن أبيه، عن سبَاع بن ثابت، عن أم كُرْز الكعبية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ذهبت النبوة، وبقيت المبشرات»[٤].

وهكذا روى عن ابن مسعود، وأبى هريرة، وابن عباس، ومجاهد، وعُرْوَة بن الزبير، ويحيى بن أبى كثير، وإبراهيم النَّخَعى، وعطاء بن أبى رباح: أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة.

وقيل: المراد بذلك[٥] بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة كما فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ**﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وفى حديث البراء: «أن المؤمن إذا حضره الموت، جاءه ملائكة بيض الوجوه، بيض الثياب، فقالوا: اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان، ورب غير غضبان. فتخرج من فمه، كما تسيل القطرة من فم السقاء».

وأما بشراهم فى الآخرة، فكما قال تعالى: ﴿**لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[٦] [الحديد: ١٢].

وقوله: ﴿**لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**﴾ أى: هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة: ﴿ **ذَلِكَ**[٧] **هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

---

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣١).

(٢، ٣) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٠).

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٣) ورواه ابن ماجه فى السنن برقم (٣٨٩٦) من طريق هارون الحمال عن سفيان به. وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢١٢): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات» وأبو زيد لم يوثقه سوى ابن حبان، ولم يرو عنه سوى ابنه.

(٥) فى ت، أ: «المراد من ذلك». (٦) فى ت: «وذلك الفوز العظيم». (٧) فى ت: «وذلك» وهو خطأ.

﴿ وَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧) ﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَلا يَحْزُنكَ ﴾ قولُ هؤلاء المشركين، واستعن بالله عليهم، وتوكل عليه؛ فإن العزة لله جميعا، أى: جميعها له ولرسوله وللمؤمنين، ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى: السميع لأقوال عباده العليم بأحوالهم[1].

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض، وأن المشركين يعبدون الأصنام، وهى لا تملك شيئا، لا[2] ضراً ولا نفعا، ولا دليل لهم على عبادتها، بل إنما يتبعون فى ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم.

ثم أخبر أنه الذى جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه، أى: يستريحون فيه من نَصَبهم وكلالهم وحركاتهم، ﴿ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ أى: مضيئاً لمعاشهم وسعيهم، وأسفارهم ومصالحهم، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أى: يسمعون هذه الحجج والأدلة، فيعتبرون[3] بها، ويستدلون على عظمة خالقها، ومقدرها ومسيرها.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ(٧٠) ﴾.

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ولداً: ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أى: تقدس عن ذلك، هو الغنى عن كل ما سواه، وكل شىء فقير إليه، ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أى: فكيف يكون له ولد مما خلق، وكل شىء مملوك له، عبد له؟! ﴿ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أى: ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان! ﴿ أَتَقُولُونَ[4] عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾: إنكار ووعيد أكيد، وتهديد شديد، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي

---

(١) فى ت، أ: «عليم بهم». (٢) فى ت، أ: «ولا».
(٣) فى ت: «ويعتبرون». (٤) فى ت: «أيقولون».

السَّموَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ـ ٩٥].

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه المفترين، ممن زعم أنه له ولدا، بأنهم لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة، فأما فى الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلا، ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ، كما قال هاهنا: ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى: مدة قريبة، ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ﴾ أى: الموجع المؤلم ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ أى: بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله، فيما ادعوه من الإفك والزور.

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ (٧١) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أى: أخبرهم واقصص عليهم، أى: على كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ أى: خبَره مع قومه الذين كذبوه، كيف أهلكهم الله ودمّرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك. ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم ﴾ أى: عَظُم عليكم، ﴿ مَّقَامِي﴾ أى: فيكم بين أظهركم، ﴿وَتَذْكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أى: بحججه وبراهينه، ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أى: فإنى لا أبالى ولا أكف عنكم[(١)]، سواء عظم عليكم أو لا! ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ أى: فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله، من صنَم ووثن، ﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أى: ولا تجعلو أمركم عليكم ملتبسا، بل افصلوا حالكم معى، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون، فاقضوا إلى ولا تنظرون، أى: ولا تؤخرونى ساعة واحدة، أى: مهما قدرتم فافعلوا، فإنى لا أباليكم[(٢)] ولا أخاف منكم، لأنكم لستم على شىء، كما قال هود لقومه: ﴿ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ. مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُم﴾ أى: كذبتم وأدبرتم عن الطاعة، ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أى: لم أطلب منكم على نصحى إياكم شيئا، ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أى: وأنا ممتثل ما أمرت به

---

(١) فى ت، أ: «ولا أفكر عنكم».

(٢) فى ت، أ: «أبالكم».

من الإسلام لله عز وجل؛ والإسلام هو دين [جميع][(١)] الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]. قال ابن عباس: سبيلا وسنة. فهذا نوح يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]، وقال تعالى عن إبراهيم الخليل: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]، وقالت[(٢)] السحرة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال [الله][(٣)] تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١] وقال خاتم الرسل وسيد البشر: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣] أى: من هذه الأمة؛ ولهذا قال فى الحديث الثابت عنه: «نحن معاشر الأنبياء أولاد عَلَّات، ديننا واحد»[(٤)]. أى: وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن تنوعت شرائعنا، وذلك معنى قوله: «أولاد عَلَّات»، وهم: الإخوة من أمهات شتى والأب واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن[(٥)] مَّعَهُ﴾ أى: على دينه ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهى: السفينة، ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ أى: فى الأرض، ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أى: يا محمد كيف أنجينا المؤمنين، وأهلكنا المكذبين.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (٧٤)﴾.

يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلا إلى قومهم، فجاؤوهم بالبينات، أى: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به، ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ أى: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أى: كما طبع الله على قلوب هؤلاء، فما آمنوا

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت، أ: «وقال». (٣) زيادة من ت، أ.

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٤٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) فى ت، أ: «والذين».

بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

والمراد: أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل، وأنجى[1] من آمن بهم، وذلك من بعد نوح، عليه السلام، فإن الناس كانوا من قبله من[2] زمان آدم عليه السلام على الإسلام، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام، فبعث الله إليهم نوحا، عليه السلام؛ ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة: أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض.

وقال ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

وقال الله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧]، وفى هذا إنذار عظيم لمشركى العرب الذين كذبوا بسيد الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنَّكَال، فماذا[3] ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك؟

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (٧٧) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد تلك الرسل ﴿مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أى: قومه[4]. ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أى: حجَجنا وبراهيننا، ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أى: استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له، ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ كأنهم ـ قبَّحهم الله ـ أقسموا على ذلك، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان، كما قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿ قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ منكرا عليهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ. قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أى: تثنينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى: الدّين الذى كانوا عليه، ﴿ وَتَكُونَ لَكُمَا﴾ أى: لك ولهارون ﴿ الْكِبْرِيَاءُ﴾ أى: العظمة والرياسة ﴿فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وكثيراً ما يذكر الله تعالى قصة موسى، عليه السلام، مع فرعون فى كتابه العزيز؛ لأنها من أعجب القصص، فإن فرعون حَذر من موسى كل[5] الحذر، فسخره القدر أن ربَّى هذا الذى يُحذِّر

---

(١) فى ت، أ: «ونجى». (٢) فى ت، أ: «إلى». (٣) فى ت، أ: «فما».
(٤) فى ت، أ: «أى إلى قومه». (٥) فى أ: «من».

منه على فراشه ومائدته بمنزلة الولد، ثم ترعرع وعقد الله له سببا أخرجه من بين أظهرهم، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم، وبعثه إليه ليدعوه إلى الله تعالى ليعبده[1] ويرجع إليه، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان، فجاءه برسالة الله، وليس له وزير سوى أخيه هارون عليه[2] السلام، فتمرد فرعون واستكبر وأخذته الحمية، والنفس الخبيثة الأبية، وقوى رأسه وتولّى بركنه، وادعى ما ليس له، وتجهرم على الله، وعتا وبغى وأهان حزب الإيمان من بنى إسرائيل، والله تعالى يحفظ رسوله موسى وأخاه هارون، ويحوطهما، بعنايته، ويحرسهما بعينه التى لا تنام، ولم تزل[3] المحاجة والمجادلة والآيات تقوم على يدى موسى شيئا[4] بعد شىء، ومرة[5] بعد مرة، مما يبهر العقول ويدهش الألباب، مما لا يقوم له شىء، ولا يأتى به إلا من هو مؤيد من الله، وما تأتيهم من آية إلا هى أكبر من أختها، وصمم فرعون ومَلَؤه ـ قبحهم الله ـ على التكذيب بذلك كله، والجحد والعناد والمكابرة، حتى أحل الله بهم بأسه الذى لا يُرَد، وأغرقهم فى صبيحة[6] واحدة أجمعين، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢) ﴾.

ذكر تعالى[7] قصة السحرة مع موسى، عليه السلام، فى سورة الأعراف، وقد تقدم الكلام عليها هناك. وفى هذه السورة، وفى سورة طه، وفى الشعراء؛ وذلك أن فرعون ـ لعنه الله ـ أراد أن يَتَهَرَّج على الناس، ويعارض ما جاء به موسى، عليه السلام، من الحق المبين، بزخارف[8] السحرة والمشعبذين، فانعكس عليه النظام، ولم يحصل له ذلك المرام، وظهرت[9] البراهين الإلهية فى ذلك المحفل العام، و﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ ـ ٤٨] فظن فرعون أن[10] يستنصر بالسُّحار، على رسول عالم الأسرار، فخاب وخسر الجنة، واستوجب النار.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ[11] عَلِيمٍ . فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾؛ وإنما قال لهم ذلك لأنهم اصطفوا ـ وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ـ ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٥، ٦٦]، فأراد موسى أن تكون البَدَاءةُ منهم، ليرى الناس ما صنعوا، ثم يأتى بالحق بعده فيدمغ باطلهم؛ ولهذا لما ﴿ أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ

---

(١) فى ت، أ: «فيعبده».
(٢) فى ت، أ: «عليهما».
(٣) فى ت: «ولم يزل».
(٤) فى ت: «شىء».
(٥) فى ت: «وكره».
(٦) فى ت: «صيحة».
(٧) فى ت: «ذكر الله سبحانه».
(٨) فى أ: «من خوارق».
(٩) فى ت: «واظهرت».
(١٠) فى ت: «أنه».
(١١) فى ت: «سحار».

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٦]، ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ . قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ . وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٩]. فعند ذلك قال موسى لما ألقوا: ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عمار بن الحارث، حدثنا عبد الرحمن ـ يعنى الدَّشْتَكِىّ ـ أخبرنا أبو جعفر الرازى، عن لَيْث ـ وهو ابن أبى سليم ـ قال: بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى، تقرأ فى إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التى من سورة يونس: ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ . وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾، والآية الأخرى: ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١١٨ ـ ١٢٢]، وقوله: ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾[طه: ٦٩].

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٣) ﴾ .

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى، عليه السلام، مع ما جاء به من الآيات[١] البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات، إلا قليل من قوم فرعون، من الذرية ـ وهم الشباب[٢] ـ على وجل وخوف منه ومن مَلَئه، أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر؛ لأن فرعون كان جبارا عنيدا مسرفا فى التمرد والعتوّ، وكانت[٣] له سَطْوة ومَهابة، تخاف رعيته منه خوفا شديدا.

قال العوفى: عن ابن عباس: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ قال: فإن الذرية التى آمنت لموسى، من أناس غير بنى إسرائيل، من قوم فرعون يسير، منهم: امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، وخازن فرعون، وامرأة خازنه.

وروى على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بنى إسرائيل.

وعن ابن عباس، والضحاك، وقتادة (الذرية): القليل.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ يقول: بنى إسرائيل. قال: هم أولاد الذين أرسل إليهم موسى، من طول الزمان، ومات آباؤهم.

واختار ابن جرير قول مجاهد فى الذرية: أنها من بنى إسرائيل لا من قوم فرعون، لعود الضمير على أقرب المذكورين.

---

(١) فى ت: «الإيمان». (٢) فى ت: «الشاب». (٣) فى ت: «فكانت».

وفى هذا نظر؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب[١]، وأنهم من بنى إسرائيل، فالمعروف أن بنى إسرائيل كلهم آمنوا بموسى، عليه السلام، واستبشروا به، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة، وأن الله تعالى سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه؛ ولهذا لما بلغ هذا فرعون حَذَر كل الحذر فلم يُجْد عنه شيئا. ولما جاء موسى آذاهم فرعون[٢] أشد الأذى، و﴿ **قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد إلا ذرية من قوم موسى، وهم بنو إسرائيل؟.

﴿ **عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ** ﴾ أى: وأشراف قومهم أن يفتنهم، ولم يكن فى بنى إسرائيل من يخاف منه أن يَفتِنَ عن الإيمان سوى قارون، فإنه كان من قوم موسى، فبغى عليهم؛ لكنه كان طاويا[٣] إلى فرعون، متصلا به، متعلقا بحباله[٤]. ومن قال: إن الضمير فى قوله: ﴿ **وَمَلَئِهِمْ** ﴾، عائد إلى فرعون، وعظم الملك[٥] من أجل اتباعه أو بحذف «آل» فرعون، وإقامة المضاف إليه مقامه ـ فقد أبعد، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة. ومما يدل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى:

﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)** ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن موسى أنه قال لبنى إسرائيل: ﴿ **يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ** ﴾ أى: فإن الله كاف من توكل عليه، ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ** ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿ **وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطلاق: ٣].

وكثيرا ما يقرن الله بين العبادة والتوكل، كما فى قوله تعالى: ﴿ **فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ** ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿ **قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا** ﴾ [الملك: ٢٩]، ﴿ **رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا** ﴾ [المزمل: ٩]، وأمر الله تعالى المؤمنين أن يقولوا فى كل صلواتهم[٦] مرات متعددة: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك، فقالوا: ﴿ **عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ أى: لا تظفرهم بنا، وتسلطهم[٧] علينا، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ونحن على الباطل،

---

(١) فى ت: «والشاب».
(٢) فى ت: «لفرعون».
(٣) فى ت: «طارياً».
(٤) فى ت: «بحاله».
(٥) فى ت: «للملك».
(٦) فى ت: «صلاتهم».
(٧) فى ت: «أى يظفركم ويسلطهم».

فيفتنوا[١] بذلك. هكذا روى عن أبى مِجْلَز، وأبى الضُّحى.

وقال ابن أبى نَجيح وغير واحد، عن مجاهد: لا تعذبنا بأيدى قوم فرعون، ولا بعذاب من عندك، فيقول قوم فرعون: لو كانوا على حق ما عذبوا، ولا سُلِّطنا عليهم، فيفتنوا[٢] بنا.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا ابن عُيَيْنَةَ، عن ابن نَجيح، عن مجاهد: ﴿ رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [أى][٣]: لا تسلطهم علينا، فيفتنونا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ أى: خلصنا برحمة منك وإحسان، ﴿ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى: الذين كفروا الحق وستروه، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك.

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٨٧) ﴾.

يذكر تعالى سبب إنجائه بنى إسرائيل من فرعون وقومه، وكيفية خلاصهم منهم[٤]، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون، عليهما السلام ﴿ أَن تَبَوَّءَا ﴾ أى: يتخذا لقومهما بمصر بيوتا.

واختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿ وَاجْعَلُوا [٥]بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، فقال الثورى وغيره، عن خُصَيْف، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: أمرُوا أن يتخذوها مساجد.

وقال الثورى أيضا، عن ابن منصور، عن إبراهيم: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قال: كانوا خائفين، فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم.

وكذا قال مجاهد، وأبو مالك، والربيع بن أنس، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبوه زيد بن أسلم: وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتد بهم البلاء من قِبَل فرعون وقومه، وضيقوا عليهم، أمروا بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]. وفى الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبه أمر صلى. أخرجه أبو داود[٦]. ولهذا[٧] قال تعالى فى هذه الآية: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بالثواب والنصر القريب.

وقال العوفى، عن ابن عباس، فى تفسير هذه الآية قال: قالت بنو إسرائيل لموسى، عليه السلام: لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة، فأذن الله تعالى لهم أن يصلوا فى بيوتهم، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبل القبلة. وقال مجاهد: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ ، قال: لما خاف بنو إسرائيل من

(١، ٢) فى ت، أ: «فيفتتنوا».
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى أ: «منه».
(٥) فى ت: «وجعلوا».
(٦) سنن أبى داود برقم (١٣١٩) من حديث حذيفة، رضى الله عنه.
(٧) فى ت، أ: «وكذا».

فرعون أن يقتلوا[١] فى الكنائس الجامعة، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة، يصلون فيها سراً. وكذا قال قتادة، والضحاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أى: يقابل بعضها بعضا.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾.

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى، عليه السلام، على فرعون ومَلَئه، لما أبوا قبول الحق واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين، ظلما وعلوا وتكبراً وعتوا، قال: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً﴾ أى: من أثاث الدنيا ومتاعها، ﴿ وَأَمْوَالاً﴾ أى: جزيلة كثيرة، ﴿ فِي﴾ هذه ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيَضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ ـ بفتح الياء ـ أى: أعطيتهم ذلك وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتنى به إليهم استدراجا منك لهم، كما قال تعالى: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

وقرأ آخرون: ﴿ لِيُضِلُّوا﴾ بضم الياء، أى: ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيت هؤلاء هذا لحبك إياهم[٢]، واعتنائك بهم.

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد: أى: أهلكها. وقال الضحاك، وأبوالعالية، والربيع بن أنس: جعلها الله حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقال قتادة: بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة.

وقال محمد بن كعب القُرَظى: اجعل[٣] سُكَّرهم حجارة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا إسماعيل بن أبى الحارث، حدثنا يحيى بن أبى بُكَيْر، عن أبى مَعْشَر، حدثنى محمد بن قيس: أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس على عمر بن عبد العزيز: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ﴾ إلى قوله: ﴿ اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ إلى آخرها [فقال له: عمر يا أبا حمزة[٤]، أى شىء الطمس؟ قال: عادت أموالهم كلها حجارة][٥]. فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: ائتنى بكيس. [فجاءه بكيس][٦]، فإذا فيه حمص وبيض، قد قطع حول حجارة.

وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾: قال ابن عباس: أى اطبع عليها، ﴿ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾.

وهذه الدعوة كانت من موسى، عليه السلام، غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه، الذين تبين له

(١) فى ت: «أن يصلوا». (٢) فى ت، أ: «لهم». (٣) فى ت: «جعل».
(٤) فى ت: «يا أبا جمرة». (٥، ٦) زيادة من ت، أ.

أنه لا خير فيهم، ولا يجىء منهم شىء كما دعا نوح، عليه السلام، فقال: ﴿ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]؛ ولهذا استجاب الله تعالى لموسى، عليه السلام، فيهم[١] هذه الدعوة، التى أمَّنَ عليها أخوه هارون، فقال تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

قال أبو العالية، وأبو صالح، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظى، والربيع بن أنس: دعا موسى وأمَّنَ هارون، أى: قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير آل فرعون.

وقد يحتج بهذه الآية من يقول: «إن تأمين المأموم على قراءة الفاتحة يُنزَّل منزلة[٢] قراءتها؛ لأن موسى دعا وهارون أمن».

وقال تعالى: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا [وَلا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ][٣]﴾ أى: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمرى.

قال ابن جُرَيْج، عن ابن عباس: ﴿ فَاسْتَقِيمَا﴾: فامضيا لأمرى، وهى الاستقامة. قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة.

وقال محمد بن على بن الحسين: أربعين يوما.

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢) ﴾.

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده؛ فإن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى، عليه السلام، وهم ـ فيما قيل ـ ستمائة ألف مقاتل سوى الذرية، وقد كانوا استعاروا من القبط حُلِيًا كثيرا، فخرجوا به معهم، فاشتد حَنَق فرعون عليهم، فأرسل فى المدائن حاشرين يجمعون له جنوده من أقاليمه، فركب وراءهم فى أبهة عظيمة، وجيوش هائلة لما يريده الله تعالى بهم، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان فى سائر مملكته، فلحقوهم وقت شروق الشمس، ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر، وأدركهم فرعون، ولم يبق إلا أن يتقاتل[٤] الجمعان، وألح أصحاب موسى، عليه السلام، عليه فى السؤال كيف المخلص مما نحن فيه؟ فيقول: إنى أمرت أن أسلك هاهنا، ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

---

(١) فى ت: «فيما».
(٢) فى ت: «يتنزل منزلة»
(٣) زيادة من أ، وفى هـ: «الآية».
(٤) فى أ: «أن يتقابل».

[الشعراء: ٦٢]، فعندما ضاق الأمر اتسع، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق البحر، ﴿ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] أى: كالجبل العظيم، وصار اثنى عشر طريقاً، لكل سبط واحد. وأمر الله الريح فنشفّت أرضه، ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]، وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك، ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا. وجازت بنو إسرائيل البحر، فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى، وهو فى مائة ألف أدهم سوى بقية الألوان، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب وهم بالرجوع، وهيهات ولات حين مناص، نفذ القدر، واستجيبت الدعوة. وجاء جبريل، عليه السلام، على فرس ـ ودَيق حائل، فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم إليها وتقدم جبريل فاقتحم البحر ودخله، فاقْتحم الحصان وراءه، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئا، فتجلد لأمرائه، وقال لهم: ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا، فاقتحموا كلهم عن آخرهم وميكائيل فى ساقتهم، لا يترك أحدا منهم، إلا ألحقه بهم. فلما استوسقوا فيه وتكاملوا، وهم أولهم بالخروج منه، أمر اللهُ القدير البحرَ أن يرتطم عليهم، فارتطم عليهم، فلم ينج منهم أحد، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم، وتراكمت الأمواج فوق فرعون، وغشيته سكرات الموت، فقال وهو كذلك: ﴿ آمنت أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾. فآمن حيث لا ينفعه الإيمان، ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ . فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وهكذا[١] قال الله تعالى فى جواب فرعون حين قال ما قال: ﴿ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أى: أهذا[٢] الوقت تقول، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه؟ ﴿وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى: فى الأرض الذين أضلوا الناس، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

وهذا الذى حكى الله تعالى عن فرعون من قوله هذا فى حاله[٣] ذاك من أسرار الغيب التى[٤] أعلم الله بها رسوله؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله:

حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن يوسف بن مهْران، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قال فرعون: ﴿ آمنت أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قال: قال لى جبريل: [يا محمد][٥] لو رأيتنى وقد أخذت [حالا][٦] من حال البحر، فدسسته فى فيه مخافة أن تناله الرحمة».

---

(١) فى ت: «ولهذا».
(٢) فى ت: «هذا».
(٣) فى ت: «حالة».
(٤) فى ت، أ: «الذى».
(٥، ٦) زيادة من ت، أ، والمسند.

ورواه الترمذى، وابن جرير، وابن أبى حاتم فى تفاسيرهم، من حديث حماد بن سلمة، به[١].
وقال الترمذى: حديث حسن.

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة، عن عدى بن ثابت وعطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر، فأدسه فى فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة». وقد رواه أبو عيسى الترمذى أيضا، وابن جرير أيضا، من غير وجه، عن شعبة، به[٢]. وقال الترمذى: حسن غريب صحيح.

ووقع فى رواية عند ابن جرير، عن محمد بن المثنى، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن عَطاء وعَدِىّ، عن سعيد، عن ابن عباس، رفعه أحدهما ـ وكأن[٣] الآخر لم يرفعه، فالله[٤] أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشَجّ، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد الله بن يَعْلَى الثقفى، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: لما أغرق[٥] الله فرعون، أشار بأصبعه ورفع صوته: ﴿آمنت أَنَّهُ لا إِلَهَ[٦] إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، قال: فخاف جبريل أن تسبق رحمة الله فيه غضبه، فجعل يأخذ الحال بجناحه فيضرب به وجهه فيرمسه.

وكذا رواه ابن جرير، عن سفيان بن وَكيع، عن أبى خالد، به موقوفا[٧].

وقد روى من حديث أبى هريرة أيضا، فقال ابن جرير:

حدثنا ابن حميد، حدثنا حكّام، عن عَنْبَسَة ـ هو ابن[٨] سعيد ـ عن كثير بن زاذان، عن أبى حازم، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال لى جبريل: يا محمد، لو رأيتنى وأنا أغطّه وأدس من الحال[٩] فى فيه، مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له» يعنى: فرعون[١٠].

كثير بن زاذان هذا قال ابن مَعِين: لا أعرفه، وقال أبو زُرْعَة وأبو حاتم: مجهول، وباقى رجاله ثقات.

---

(١) المسند (١/ ٣٠٩) وسنن الترمذى برقم (٣١٠٧).

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٠٨) وتفسير الطبرى (١٥/ ١٩٠ ـ ١٩٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٤٠) من طريق النضر بن شميل عن شعبة به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه؛ لأن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس» ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٣٩٢) فذكرت روايات الرفع والوقف.

(٣) فى ت، أ: «فكأن».

(٤) فى ت، أ: «والله».

(٥) فى ت، أ: «لما غرق».

(٦) فى ت: «أن لا إله».

(٧) تفسير الطبرى (١٥/ ١٩٣) ورواه السرقسطى فى غريب الحديث، كما فى تخريج الكشاف (٢/ ١٣٨) عن موسى بن هارون، عن يحيى الحمانى عن أبى خالد الأحمر به نحوه.

(٨) فى ت، أ: «أبو».

(٩) فى ت: «الجبال».

(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٩١) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٩٣٩٠) من طريق حكام الرازى به.

وقد أرسل هذا الحديث جماعة من السلف: قتادة، وإبراهيم التيمى، وميمون بن مِهْران. ونقل عن الضحاك بن قيس: أنه خطب بهذا للناس، فالله أعلم.

وقوله: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾: قال ابن عباس وغيره من السلف: إن بعض بنى إسرائيل شكّوا فى موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده[1] بلا روح، وعليه درعه المعروفة [به][2]، على نجوة[3] من الأرض وهو المكان المرتفع، ليتحققوا موته وهلاكه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ﴾ أى: نرفعك على نَشز[4] من الأرض، ﴿ بِبَدَنِكَ﴾. قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا، أى: لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك[5].

وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدم، والله أعلم.

وقوله: ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ أى: لتكون لبنى إسرائيل دليلا على موتك وهلاكك، وأن الله[6] هو القادر الذى ناصية كل دابة بيده، وأنه لا يقوم لغضبه شىء؛ ولهذا قرأ بعض السلف: «لتكون لمن خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ [7]»، أى: لا يتعظون[8] بها، ولا يعتبرون. وقد كان [إهلاك فرعون وملئه][9] يوم عاشوراء، كما قال البخارى:

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبى ﷺ المدينة، واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. فقال النبى ﷺ لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم، فصوموه»[10].

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٩٣) ﴾.

يخبر تعالى عما أنعم به على بنى إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فـ﴿ مُبَوَّأَ[11] صِدْقٍ﴾، قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلى بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف: ١٣٧]، وقال فى الآية الأخرى: ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ[12] . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ ـ ٥٩]، ولكن

(١) فى ت، أ: «بجسده سويا».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت: «نحوه».
(٤) فى ت: «يرفعك على بشر».
(٥) فى ت: «تذرعك».
(٦) فى ت: «وأنه تعالى».
(٧) فى ت: «الغافلون».
(٨) فى ت: «يتعضون».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٠).
(١١) فى ت: «فالمبوأ».
(١٢) فى ت، أ: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع».

استمروا مع موسى، عليه السلام، طالبين إلى بلاد بيت المقدس [وهى بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالبا بيت المقدس][١]، وكان فيه قوم من العمالقة، [فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة][٢]، فشردهم الله تعالى فى التيه أربعين سنة، ومات فيه[٣] هارون، ثم، موسى، عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حينا من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم[٤] مدة طويلة، وبعث الله عيسى ابن مريم، عليه السلام، فى تلك المدة، فاستعانت اليهود ـ قبحهم[٥] الله ـ على معاداة عيسى، عليه السلام، بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا[٦] من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشُبِّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدَرِه[٧]، فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] ثم بعد المسيح، عليه السلام بنحو [من][٨] ثلاثمائة سنة، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان ـ فى دين النصرانية، وكان فيلسوفا قبل ذلك. فدخل فى دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعاً أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيَع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل، والمعابد، والقلايات. وانتشر دين النصرانية[٩] فى ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف، ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح. ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع فى البرارى والمهامة والقفار، واستحوذت يدُ النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور مدينة قسطنطينية، والقُمَامة، وبيت لحم، وكنائس [بلاد][١٠] بيت المقدس، ومدن حَوْران كبُصرى وغيرها من البلدان بنايات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من[١١] الفروع فى دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة، التى يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين، وبسط هذا يطول.

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها[١٢] منهم الصحابة، رضى الله عنهم، وكان فتح بيت المقدس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿ **وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ** ﴾ أى: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعا وشرعا.

وقوله: ﴿ **فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ** ﴾ أى: ما اختلفوا فى شىء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أى: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس. وقد ورد فى

(١، ٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «فى أثنائها».
(٤) فى أ: «حكامهم».
(٥) فى أ: «لعنهم».
(٦) فى ت: «فعثوا».
(٧) فى أ: «وقدرته».
(٨) زيادة من ت، أ.
(٩) فى أ: «النصارى».
(١٠) زيادة من ت، أ.
(١١) فى أ: «فى».
(١٢) فى ت: «انتزعتها».

الحديث: أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة فى الجنة، وثنتان وسبعون فى النار. قيل: من هم[١] يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى».

رواه الحاكم فى مستدركه بهذا اللفظ، وهو فى السنن والمسانيد[٢]. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ أى: يفصل بينهم ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٤) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٥) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٩٧) ﴾.

قال قتادة بن دِعَامة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»[٣].

وكذا قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن البصرى، وهذا فيه تثبيت[٤] للأمة، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة[٥] فى الكتب المتقدمة التى بأيدى أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾ الآية [الأعراف: ١٥٧]. ثم مع هذا العلم يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ أى: لا يؤمنون إيمانا ينفعهم، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها؛ ولهذا لما دعا موسى، عليه السلام، على فرعون وملئه قال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]، ثم قال تعالى:

﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٨) ﴾.

---

(١) فى ت: «من هو».

(٢) المستدرك (١/١٢٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وجاء من حديث معاوية وأنس وعوف بن مالك قال العراقى: «أسانيدها جياد».

(٣) رواه عبد الرزاق فى تفسيره (١٥/٢٠٢) عن معمر عن قتادة به مرسلاً.

(٤) فى ت: «تتبيت».

(٥) فى ت، أ: «صلوات الله وسلامه عليه موجود».

يقول تعالى: فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل، بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه، أو أكثرهم كما قال تعالى: ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ** ﴾ [يس: ٣٠]، ﴿ **كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ** ﴾ [الذاريات: ٥٢]، ﴿ **وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ**[١] **إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**[٢] ﴾ [الزخرف: ٢٣]. وفى الحديث الصحيح: «عرض علىّ الأنبياء، فجعل النبى يمر ومعه الفئام من الناس، والنبى معه الرجل والنبى معه الرجلان، والنبى ليس معه أحد»[٣] ثم ذكر كثرة أتباع موسى، عليه السلام، ثم ذكر كثرة أمته، صلوات الله وسلامه عليه، كثرة سدت الخافقين الشرقى[٤] والغربى.

والغرض أنه لم توجد[٥] قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى، إلا قوم يونس، وهم أهل نِينَوى، وما كان إيمانهم إلا خوفا من وصول العذاب الذى أنذرهم به رسولهم، بعد ما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندها جأروا إلى الله واستغاثوا به، وتضرعوا[٦] لديه. واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذى أنذرهم به نبيهم. فعندها رحمهم الله، وكشف عنهم العذاب وأخّروا، كما قال تعالى: ﴿ **إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ .

واختلف المفسرون: هل كُشف عنهم العذاب الأخروى مع الدنيوى؟ أو إنما كشف عنهم فى الدنيا فقط؟ على قولين، أحدهما: إنما كان ذلك فى الحياة الدنيا، كما هو مقيد فى هذه الآية، والقول الثانى فيهما لقوله تعالى: ﴿ **وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ. فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ** ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، فأطلق عليهم الإيمان، والإيمان منقذ من العذاب الأخروى، وهذا هو الظاهر، والله أعلم.

قال قتادة فى تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله فى قلوبهم التوبة، ولبسوا المسُوح، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم ـ قال قتادة: وذكر أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل.

وكذا روى عن ابن مسعود، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف، وكان ابن مسعود يقرؤها: «فَهَلاَّ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ».

---

(١) فى ت: «وما أرسلنا فى قرية من نبى». (٢) فى ت: «مهتدون» وهو خطأ.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٧٥٢) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢٠) من حديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه.

(٤) فى ت، أ: «والشرقى». (٥) فى ت: «يوجد». (٦) فى ت، أ: «وضرعوا».

وقال أبو عمران، عن أبي الجَلْد قال: لما نزل بهم[(١)] العذاب، جعل يدور على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، فمشوا إلى رجل من علمائهم فقالوا: علمنا دعاء ندعو به، لعل الله يكشف[(٢)] عنا العذاب، فقال: قولوا: يا حيّ حين لا حيّ، يا محيى الموتى[(٣)]، لا إله إلا أنت. قال: فكُشِف عنهم العذاب.

وتمام القصة سيأتى مفصلا فى سورة الصافات إن شاء الله.

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ ﴾ ـ يا محمد ـ لأذن لأهل الأرض كلّهم فى الإيمان بما جئتهم به، فآمنوا كلهم، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كما قال: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ ﴾ أى: تلزمهم وتلجئهم ﴿ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى: ليس ذلك عليك ولا إليك، بل [إلى][(٤)] الله ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨]، ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى هو الفعال لما يريد، الهادى من يشاء، المضل لمن يشاء، لعلمه وحكمته وعدله؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ[(٥)] إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ وهو الخبال[(٦)] والضلال، ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ أى: حججَ الله وأدلته، وهو العادل فى كل ذلك، فى هداية من هدى، وإضلال من ضل.

﴿ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (١٠١) فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾.

---

(١) فى ت: «لما نزل بقوم يونس». (٢) فى ت: «أن يكشف». (٣) فى ت: «يا محيى الموتى يا حى».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «يؤمن» (٦) فى ت: «الجبال».

يرشدُ تعالى عباده إلى التفكر فى آلائه[١] وما خلق فى السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوى الألباب، مما فى السموات[٢] من كواكب نيرات، ثوابت وسيارات، والشمس والقمر، والليل والنهار، واختلافهما، وإيلاج أحدهما فى الآخر، حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير، وصنوف النبات، وما ذرأ فيها من دوابّ مختلفة الأشكال والألوان والمنافع، وما فيها من جبال وسهول[٣] وقفار وعمران وخراب. وما فى البحر من العجائب والأمواج، وهو مع هذا [مسخر][٤] مذلل للسالكين، يحمل سفنهم، ويجرى بها برفق بتسخير القدير له، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وأى شىء تُجدى الآيات السماوية والأرضية، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها، عن قوم لايؤمنون، كما قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾[يونس: ٩٦، ٩٧].

وقوله: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾أى: فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يامحمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله فى الذين خلوا من قبلهم من الأمم المكذبة لرسلهم، ﴿قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي[٥] مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ . ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾أى: ونهلك المكذبين بالرسل، ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[أى] [٦]حقا: أوجبه تعالى على نفسه الكريمة: كقوله﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢]، كما جاء فى الصحيحين، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله كتب كتابا فهو عنده فوق العرش: إن رحمتى سبقت [٧] غضبى»[٨].

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٤) وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٥) وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ (١٠٦) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٠٧)﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: قل: يا أيها الناس، إن كنتم فى شك من

---

(١) فى أ: «إلى التفكر فى الآية لآياته». (٢) فى ت، أ: «السماء». (٣) فى أ: «وهول».
(٤) زيادة من ت، أ. (٥) فى ت: «فإنى». (٦) زيادة من ت، أ.
(٧) فى ت، أ: «تغلب».
(٨) صحيح البخارى برقم (٧٥٥٤) وصحيح مسلم برقم (٢٧٥١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

صحة ماجئتكم من الدين الحنيف، الذى أوحاه الله إلى، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذى يتوفاكم كما أحياكم، ثم إليه مرجعكم؛ فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله [١] حقا، فأنا لا أعبدها[٢]، فادعوها فلتضرنى، فإنها لا تضر ولاتنفع، وإنما الذى بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين.

وقوله: ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أى: أخلص العبادة لله وحده حنيفا، أى: منحرفا عن الشرك؛ ولهذا قال: ﴿ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾، وهو معطوف على قوله: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ إلى آخرها، بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه [٣]فى ذلك أحد، فهو الذى يستحق العبادة وحده، لاشريك له.

روى الحافظ ابن عساكر، فى ترجمة صفوان بن سليم، من طريق عبد الله بن وهب: أخبرنى يحيى بن أيوب عن عيسى بن موسى، عن صفوان بن سليم، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اطلبوا الخير دهركم كله، وتعرضوا لنفحات رحمة الله، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده واسألوه أن يستر عوراتكم، ويؤمن روعاتكم»[٤].

ثم رواه من طريق الليث، عن عيسى بن موسى، عن صفوان، عن رجل من أشجع، عن أبى هريرة مرفوعا؛ بمثله سواء[٥].

وقوله: ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أى: لمن تاب إليه وتوكل عليه، ولو من أىّ ذنب كان، حتى من الشرك به، فإنه يتوب عليه.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (١٠٨) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾.

يقول تعالى آمرا لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يخبر الناس أن الذى جاءهم به من عند

---

(١) فى أ: «من دون الله من شىء حقا». (٢) فى ت: «أعبد».

(٣) فى ت، «لايشركه».

(٤) تاريخ دمشق (٨/ ٣٢٨ «المخطوط») ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١١٢١) من طريق عبد الله بن وهب به، ورواه ابن عبد البر فى التمهيد (٥/ ٣٣٩) والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (١١٢٢) من طريق عمرو بن الربيع بن طاق عن يحيى بن أيوب به نحوه ورمز له السيوطى بالضعف فى الجامع.

(٥) تاريخ دمشق (٨/ ٣٢٨ «المخطوط») ورواه ابن أبى الدنيا فى الفرج بعد الشدة برقم (٢٧) من طريق رويم بن يزيد عن الليث به مرفوعاً، ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (١١٢٣) من طريق يحيى بن بكير عن الليث به مرفوعاً. وقال البيهقى: «هذا هو المحفوظ دون الأول» والأول حديث أنس.

الله هو الحق الذى لامرية فيه ولاشك، فمن اهتدى به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه، [ومن ضل عنه [١] فإنما يرجع وبال ذلك عليه[٢]][٣].

﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أى: وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين به، وإنما أنا نذير لكم، والهداية على الله تعالى.

وقوله: ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ﴾ أى: تمسك بما أنزل الله عليك وأوحاه[٤]، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس، ﴿ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ﴾ أى: يفتح بينك وبينهم، ﴿ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أى: خير الفاتحين بعدله [٥] وحكمته.

(١) فى ت: «عن ذلك».
(٢) فى ت: «على نفسه»
(٣) زيادة من ت، أ.
(٤) فى ت، أ: «وأوحاه إليك».
(٥) فى ت، أ: «العدله».

[تفسير] سورة يونس عليه السلام

[وهي مكية]

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة . وقال أبو الضحى(١) عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **الر** ﴾ أي : أنا الله أرى . وكذا قال الضحاك وغيره .

﴿ **تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ أي : هذه آيات القرآن المحكم المبين . وقال مجاهد : ﴿ **الر تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ [قال الحسن : التوراة والزبور][١]. وقال قتادة ﴿ **تلك آيات الكتاب** ﴾ قال : الكتب التي كانت قبل القرآن . وهذا القول لا أعرف وجهه ولا معناه .

وقوله : ﴿ **أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا** ﴾ . يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر ، كما أخبر تعالىٰ عن القرون الماضية[٢] من[٣] قولهم ﴿ **أبشر يهدوننا** ﴾ ، وقول[٤] هود وصالح لقومهما : ﴿ **أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم علىٰ رجل منكم** ﴾ وقال تعالىٰ مخبرًا عن كفار قريش أنهم قالوا : ﴿ **أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب** ﴾ .

وقال الضحاك(٢) ، عن ابن عباس : لما بعث الله تعالىٰ محمّدًا صلىٰ الله عليه وسلم

(١) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه ابن جرير (٧٩/١١) ، وابن أبي حاتم (١٠١٨٤/٦) ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (١/رقم١٦٧) من طريق شريك بن عبد الله ، عن عطاء بن السائب ، عن أبي الضحى به ، وشريك ضعيف ، وعطاء مختلط ، والأثر زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٥٣٤/٣) إلى ابن المنذر وأبي الشيخ وابن النجار في تاريخه .

(٢) - **كسابقه** ، أخرجه ابن جرير (٨١/١١) ، وابن أبي حاتم (١٠١٩٣/٦) والضحاك لم يسمع من ابن عباس ، وفي إسناده « بشر بن عمارة » ضعيف ، وزاد نسبته السيوطي في الدر (٥٣٥/٣) إلى أبي الشيخ وابن مردويه .

[١] - بياض في ز ، وسقط من : خ .
[٢] - في خ : « الماضين » .
[٣] - في ز : « في » .
[٤] - في خ : « وقال » .

رسولًا أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم فقالوا : اللَّه أعظم من أن يكون رسوله بشرًا مثل محمد ، قال : فأنزل اللَّه عز وجل ﴿ **أكان للناس عجبًا أن أوحينا إلى رجل منهم** ﴾ .

و[١]قوله: ﴿ **أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ اختلفوا فيه ؛ فقال علي بن أبي طلحة(٣) ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **وبشّرِ الذين آمنوا أن لهم قدم صدق** ﴾ يقول : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول .

وقال العوفي(٤) ، عن ابن عباس : ﴿ **أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ يقول أجرًا حسنًا بما قدموا . وكذا قال الضحاك ، والربيع بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وهذا كقوله تعالى ﴿ **لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنا ماكثين فيه أبدًا** ﴾ .

وقال مجاهد ﴿ **أن لهم قدم صدق عند ربهم** ﴾ قال : الأعمال الصالحة ؛ صلاتهم وصومهم ، وصدقتهم ، وتسبيحهم . قال : ومحمد صلىٰ اللَّه عليه وسلم شفيع[٢] لهم . وكذا قال زيد بن أسلم ومقاتل بن حيان .

وقال قتادة : سلف صدق عند ربهم .

واختار ابن جرير قول مجاهد : إنها[٣] الأعمال الصالحة التي قدموها ، [قال][٤] كما يقال : له قدم في الإسلام ، [كقول حسان][٥]:

لنا القدم العليا(*) إليك وخَلْفُنا لأوّلِنا في طَاعـةِ اللّـه تـابِـعُ

وقول ذي الرمَّة :

لَكُمْ قدم لا يُنْكِرُ الناسُ أنَّها مَعَ الحَسَب العادِي طَمَّتْ علىٰ البَحْرِ

وقوله تعالىٰ : ﴿ **قال الكافرون إن هذا لسحر مبين** ﴾ أي : مع أنا بعثنا إليهم رسولًا منهم رجلًا من جنسهم بشيرًا ونذيرًا ﴿ **قال الكافرون إن هذا لسحر مبين** ﴾ أي : ظاهر

(٣) - أخرجه ابن جرير (٨٢/١١) وابن أبي حاتم (١٠١٩٦/٦) ، وابن المنذر وأبو الشيخ ، كما في « الدر المنثور » (٥٣٥/٤) .

(٤) - **إسناده ضعيف من أجل العوفي** ، وأخرجه ابن جرير (٨١/١١) .

(*) في ابن جرير : « الأولى » .

[١] - سقط من ز .

[٢] - في ت : « يشفع » .

[٣] - في ت : « إن » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من خ .

[٥] - في ز ، خ : « ومنه قول الحسن رحمه الله » .

وهم الكاذبون في ذلك .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

يخبر تعالىٰ أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قيل : كهذه الأيام ، وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدّون ، كما سيأتي بيانه . **﴿ ثم استوىٰ علىٰ العرش ﴾** والعرش أعظم المخلوقات وسقفها .

قال ابن أبي حاتم(٥) : حدثنا حجاج بن حمزة ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، قال : سمعت سعدًا الطائي يقول : العرش : ياقوتة حمراء .

وقال وهب بن منبه : خلقه اللَّه من نوره ، وهذا غريب .

وقوله[١]: **﴿ يدبر الأمر ﴾** أي : يدبر أمر الخلائق **﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض ﴾** ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلّطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال ، والبحار ، والعمران ، والقفار **﴿ وما من دابة في الأرض إلا علىٰ اللَّه رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾** ، **﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾** .

وقال الدراوردي ، عن سعد بن إسحاق بن كعب ؛ أنه قال لما[٢] نزلت هذه الآية **﴿ إن ربكم اللَّه الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾** . لقيهم[٣] ركب عظيم لا [يرون

---

(٥) – تفسير ابن أبي حاتم (١٠٢١٤/٦) ، وأخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٢١٥/٢) من طريق أبي أسامة به ، ومحمد بن عثمان بن أبي شيبة في « كتاب العرش » (٤٧) من طريق أبي أسامة أيضًا عن إسماعيل بن أبي خالد قال : أخبرت أن العرش ياقوتة حمراء ، وأورده الذهبي في « العلو » (ص ٥٨) وقال : « هذا ثابت عن هذا التابعي الإمام وروى ذلك عن قتادة أيضًا » أخرجه عبد الرزاق في تفسيره – كما في « الفتح » (٤٠٥/١٣) – عن معمر عن قتادة في قوله تعالى : **﴿ وكان عرشه على الماء ﴾** قال : هذا بدء خلقه قبل أن يخلق السماء ، وعرشه من ياقوتة حمراء .

---

[١] – سقط من : ز .	[٢] – في ت : «حين » .

[٣] – في ز ، خ : « لقي » .

إلا][١] أنهم من العرب ، فقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا : من الجن ، خرجنا من المدينة ، أخرجتنا هذه الآية . رواه ابن أبي حاتم(٦) .

وقوله[٢]: ﴿ **ما من شفيع إلا من بعد إذنه** ﴾ كقوله تعالىٰ : ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾ ، وكقوله تعالىٰ : ﴿ **وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن اللَّه لمن يشاء ويرضىٰ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ذلكم اللَّه ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون** ﴾ أي : أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ أي : أيها المشركون في أمركم ، تعبدون مع اللَّه إلهًا[٣] غيره وأنتم تعلمون أنه المتفرّد[٤] بالخلق ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **ولئن سألتهم [من خلقهم]**[٥] **ليقولن اللَّه** ﴾ ، وقوله[٦]: ﴿ **قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون اللَّه قل أفلا تتقون** ﴾ وكذا الآية التي قبلها والتي بعدها .

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

يخبر تعالىٰ أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة ، لا يترك منهم أحدًا حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالىٰ أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ .

﴿ **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط** ﴾ أي : بالعدل والجزاء الأوفىٰ ﴿ **والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون** ﴾ أي : بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العقاب[٧]؛ من سموم وحميم ، وظل من يحموم ﴿ **هذا فليذوقوه حميم وغساق * وآخر من شكله أزواج** ﴾ ، ﴿ **هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ .

---

(٦) - « التفسير » لابن أبي حاتم (١٠٢٠٧/٦) .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - في خ : « المنفرد » .
[٥] - في خ : « من خلق السموات والأرض » .
[٦] - بياض في : ز .
[٧] - في ت : « العذاب » .

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

يخبر تعالىٰ عما خلق من الآيات الدالة علىٰ كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياءً ، وجعل[١] شعاع القمر نورًا ، هذا فن وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيرًا ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتىٰ يستوسق ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتىٰ يرجع إلىٰ حاله الأول في تمام شهر ، كقوله تعالىٰ : **﴿ والقمر قدَّرْناه منازل حتىٰ عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾** ، [وقوله تعالىٰ][٢]: **﴿ والشمس والقمر حسبانًا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾** .

وقال[٣] في هذه الآية الكريمة : **﴿ وقدره ﴾** أي : القمر **﴿ منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾** فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام .

﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي : لم يخلقه عبثًا بل له حكمة عظيمة في ذلك ، وحجة بالغة ، كقوله تعالىٰ : **﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلًا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾** ، وقال تعالىٰ : **﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالىٰ الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾** .

وقوله[٤]: **﴿ نفصل الآيات ﴾** أي : نبين[٥] الحجج والأدلة **﴿ لقوم يعلمون ﴾** .

وقوله : **﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾** أي : تعاقبهما إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب هذا جاء هذا لا يتأخر عنه شيئًا ، كقوله تعالى : **﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا ﴾** ، وقال : **﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ﴾** . وقال تعالىٰ : **﴿ فالق الإصباح وجاعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا ذلك تقدير**

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « قال » .
[٣] - في ت : « وقوله » .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - سقط من : ز .

العزيز العليم ﴾ .

وقوله : ﴿ **وما خلق الله في السموات والأرض** ﴾ أي : من الآيات الدالة على عظمته تعالىٰ ، كما قال : ﴿ **وكأين من آية في السموات والأرض** ... ﴾ . [الآية .

وقوله : ﴿ **قل انظروا ماذا في السموات والأرض**][١] **وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ ، وقال : ﴿ **أفلم يروا إلىٰ ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض** ﴾ ، وقال : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾ أي : العقول ، وقال هٰهنا : ﴿ **لآيات لقوم يتقون** ﴾ أي : عقاب الله وسخطه وعذابه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن حال الأشقياء ؛ الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ، ولا يرجون[٢] في [لقاء الله][٣] شيئا ، ورضوا بهذه الحياة الدنيا ، واطمأنت إليها أنفسهم[٤].

قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتىٰ رضوا بها ، وهم غافلون عن آيات الله الكونية[٥] فلا يتفكرون فيها ، والشرعية[٦] فلا يأتمرون بها ، فإن[٧] مأواهم يوم معادهم النار جزاء علىٰ ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والإجرام ، مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسله واليوم الآخر .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين ، وامتثلوا ما أمروا به فعملوا الصالحات ، بأنه سيهديهم بإيمانهم .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ت : « لقائه » .
[٤] - في ت : « نفوسهم » .
[٥] - في ز ، خ : « الكريمة » .
[٦] - في ز : « الشارعية » .
[٧] - في ز : « بأن » .

يحتمل أن تكون الباء هاهنا سببيةً ، فتقديره : بسبب إيمانهم في الدنيا يهديهم اللّٰه يوم القيامة علىٰ الصراط المستقيم[١]، حتىٰ يجوزوه ويخلصوا إلىٰ الجنة ، ويحتمل أن تكون للاستعانة ، كما قال مجاهد في قوله : ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ قال : [يكون لهم نورًا يمشون به][٢] .

[وقال ابن جريج في الآية][٣]: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة ، إذا قام من قبره يعارض[٤] صاحبه ويبشره[٥] بكل خير ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك . فيجعل له نورًا من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة ، فيلازم[٦] صاحبه ويُلَاِزُّه[٧] حتى يقذفه في النار . وروي نحوه عن قتادة مرسلًا ، فاللّٰه أعلم .

وقوله : ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد للّٰه رب العالمين** ﴾ أي : هذا حال أهل الجنة .

وقال ابن جريج : أُخبرتُ أن قوله : ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم** ﴾ [ ][٨] قال : إذا مر بهم الطير يشتهونه [قالوا : سبحانك اللهم ، وذلك دعواهم ، فيأتيهم الملك بما يشتهونه][٩]، فيسلم عليهم فيردون عليه ، فذلك قوله[١٠]: ﴿ **وتحيتهم فيها سلام** ﴾ . قال[١١]: فإذا أكلوا حمدوا اللّٰه ربَّهم ، فذلك قوله : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد للّٰه ربِّ العالمين** ﴾ .

وقال مقاتل بن حيان : إذا أراد[١٢] أهل الجنة أن يدعو[١٣] بالطعام ؛ قال أحدهم ﴿ **سبحانك اللهم** ﴾ قال : فيقوم علىٰ أحدهم عشرة آلاف خادم ، مع كل خادم صحفة من ذهب فيها طعام ليس في الأخرىٰ ، قال : فيأكل منهن كلهن[١٤].

وقال سفيان الثوري : إذا أراد أحدهم أن يدعو بشيء قال : ﴿ **سبحانك اللهم** ﴾ .

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٤] - في ز : « تعارض » .
[٥] - في ز : « فيبشره » .
[٦] - في ت : « فيلزم » .
[٧] - في ز ، خ : « ويُلَاده » . و«ولازة» : أي : لاصقة .
[٨] - ما بين المعكوفتين في ز : « وذلك دعواهم فيها سبحانك اللهم » .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[١٠] - سقط من : ز .
[١١] - سقط من : ز ، خ .
[١٢] - في خ : « أرادوا » .
[١٣] - في ت : يدعو أحدهم .
[١٤] - في ز : « كلهم » .

وهذه الآية فيها شبه من قوله : ﴿ **تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرًا كريمًا** ﴾ . وقوله : ﴿ **لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا * إلا قيلًا سلامًا سلامًا** ﴾ ، وقوله : ﴿ **سلام قولًا من رب رحيم** ﴾ ، وقوله : ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

وقوله[١]: ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد للَّه رب العالمين** ﴾ هذا فيه دلالة على أن الله تعالىٰ هو المحمود أبدًا ، المعبود على طول المدىٰ ؛ ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه ، وعند ابتداء تنزيله ، حيث يقول تعالىٰ : ﴿ **الحمد للَّه الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب** ﴾ ، [﴿ **الحمد للَّه الذي خلق السموات والأرض** ﴾][٢] إلىٰ غير ذلك من الأحوال التي يطول بسطها ، وأنه المحمود في الأول والآخر ، في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، في جميع الأحوال ؛ ولهذا جاء في الحديث : « **إن أهل الجنة يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس** »(٧) . وإنما يكون ذلك كذلك لما يرون[٣] [من تضاعف][٤] نعم اللَّه[٥] عليهم [فتكرر وتعاد][٦] وتُزاد فليس لها انقضاء ولا أمد ، فلا إله إلا هو ولا ربَّ سواه .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾

يخبر تعالىٰ عن حلمه[٧] ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم[٨] إذا دعوا علىٰ أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلىٰ إرادة ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم والحالة هذه لطفًا ورحمة ، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء ؛ ولهذا قال : ﴿ **ولو يعجل اللَّه للناس الشرَّ استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم** ﴾ . أي : لو استجاب لهم[٩] كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم ، ولكن لا ينبغي الإكثار من ذلك ، كما جاء في الحديث الذي

---

(٧) – أخرجه مسلم ، كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب : في صفات الجنة وأهلها ، وتسبيحهم فيها بكرة وعشيًا (١٨ ، ١٩) (٢٨٣٥) ، وأحمد (١٤٨١٢) (٣/٣٤٩) من حديث جابر بن عبد الله .

---

[١] – سقط من : ز .
[٢] – سقط من : خ .
[٣] – في ز ، خ : « يريدون » .
[٤] – في خ : « من تزايد » .
[٥] – سقط من : ز .
[٦] – في ز : « وتكرر فتعاد » .
[٧] – في ز : « حكمه » .
[٨] – في ز : « منهم » .
[٩] – في ز ، خ : « منهم » .

رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده(٨) :

حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا يعقوب بن محمد ، حدثنا حاتم بن إسماعيل ، حدثنا يعقوب بن مجاهد أبو حَزْرَةَ ، عن عبادة بن الوليد ، حدثنا جابر قال : قال رسول اللّٰه ، صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **لا تدعوا علىٰ أنفسكم ، لا تدعوا علىٰ أولادكم ، لا تدعوا علىٰ أموالكم ، لا توافقوا من اللّٰه ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم** » .

ورواه أبو داود من حديث حاتم بن إسماعيل به .

قال البزار : وتفرد به عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت الأنصاري ، لم يشاركه أحد فيه . وهذا كقوله تعالىٰ : ﴿ **ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولًا** ﴾ الآية .

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية : ﴿ **ولو يعجل اللّٰه للناس الشر استعجالهم بالخير** ﴾ الآية : هو[١] قول الإنسان لولده أو[٢] ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه . فلو يعجل[٣] لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم .

وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾

يخبر تعالىٰ عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الشر[٤] ﴿ **وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض** ﴾ أي : كثير وهما في معنىٰ واحد ، وذلك لأنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها ، وأكثر الدعاء عند ذلك فدعا الله في كشفها وزوالها[٥] عنه ، في حال[٦] اضطجاعه وقعوده ، وقيامه وفي جميع أحواله ، فإذا فرج اللّٰه شدته ، وكشف كربته ، أعرض ونأىٰ بجانبه ، وذهب كأنه ما كان به من ذلك[٧] شيء ﴿ **مر كأن لم يدعنا إلىٰ ضر مسه** ﴾ .

(٨) - **صحيح** وأخرجه أبو داود ، كتاب : الصلاة ، باب : النهى عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله (١٥٣٢) وقال : هذا الحديث متصل الإسناد فإن عبادة بن الوليد بن عبادة لقى جابرًا . وأخرجه مسلم أيضًا ، كتاب : الزهد والرقائق ، باب : حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر (٧٤) (٣٠٠٦) .

[١] - في ز : « وهو » .
[٢] - في ز : « و » .
[٣] - في ز : « تعجل » .
[٤] - في خ : « الضر » .
[٥] - في ت : « ودفعها » .
[٦] - سقط من : ز ، خ .
[٧] - في ز : « ذاك » .

ثم ذم تعالىٰ من هذه صفته وطريقته[١] فقال : ﴿ **كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد ، والتوفيق والرشاد ، فإنه مستثنىٰ من ذلك ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات** ﴾ ، وكقول رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **عجبًا لأمر المؤمن ! لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له ؛ إن أصابته ضراء صبر[٢] فكان خيرًا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن[٣]**»(٩).

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

أخبر تعالىٰ عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاءوهم به من البينات ، والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم ، وأرسل إليهم رسولًا لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله ، وفي صحيح مسلم(١٠) من حديث أبي نضرة عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها [فناظر](*) ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في[٤] النساء** » .

وقال ابن جرير(١١) : حدثني المثنىٰ ، حدثنا زيد بن عوف ، أبو ربيعة فهد[٥]، أنبأنا حماد ، عن ثابت البناني ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ : **أن عوف بن مالك قال لأبي بكر** : رأيت فيما[٦] يرىٰ النائم : كأن سببًا دلي من السماء ، فانتشط رسول الله صلىٰ الله

(٩) - **صحيح** ، يأتي من حديث صهيب (سورة إبراهيم / آية (٥)) وفي الباب عن أنس عند أحمد (١٢١٨٠) (١١٧/٣) ، وأبي يعلى (٤٢١٧/٧) وصححه ابن حبان (٧٢٨/٢) واختاره الضياء في « المختارة » (٥١٨/١ مخطوط) وعن سعد بن أبي وقاص بإسناد صحيح عند أحمد (١٧٣/١ ، ١٧٧ ، ١٨٢) ، والنسائي في « عمل اليوم والليلة » (١٠٦٧) ، الطيالسي (٢١١) وغيرهم .

(١٠) - تقدم تخريجه [سورة الأنعام / آية ١٦٥] .

(*) في صحيح مسلم (٢٧٤٢) (٩٨) « فَيَنْظُرُ كيف تعملون وفي رواية لِيَنْظُرَ » .

(١١) - **إسناده ضعيف جدًا** ، « التفسير » لابن جرير (٩٤/١١) وزيد بن عوف هذا تركه عمرو بن =

[١] - في ز : « طريقه » .
[٢] - في ز ، خ : « فصبر » .
[٣] - في خ : « للمؤمنين » .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في ز : « سهد » ، سقط من : خ .
[٦] - في ز ، خ : « فيم » .

عليه وسلم ، ثم أعيد(*) فانتشط أبو بكر ، ثم ذرع الناس حول المنبر ، ففضل عمر بثلاث أذرع إلى[١] المنبر . فقال عمر : دعنا من رؤياك ، لا أرب لنا فيها . فلما استخلف عمر قال : يا عوف رؤياك ؟ فقال: وهل لك في رؤياي من حاجة أو لم تنتهرني ؟ فقال: ويحك إني كرهت أن تنعىٰ لخليفة رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم نفسه . فقص عليه الرؤيا ، حتىٰ إذا بلغ ذرع الناس إلىٰ المنبر بهذه الثلاث الأذرع ، قال : أما إحداهن فإنه كان[٢] خليفة ، وأما الثانية فإنه لا يخاف في اللّٰه لومة لائم ، وأما الثالثة فإنه شهيد . قال : فقال : يقول اللّٰه تعالىٰ : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** ﴾ فقد استخلفت يا ابن أم عمر ، فانظر كيف تعمل ؟ وأما قوله : فإني لا أخاف في اللّٰه لومة لائم فما شاء اللّٰه ، وأما قوله : شهيد فأنّىٰ لعمر الشهادة والمسلمون مطيفون[٣] به ؟ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

يخبر تعالىٰ عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين الحق المعرضين عنه : أنهم إذا قرأ عليهم الرسول صلىٰ اللّٰه عليه وسلم كتاب اللّٰه وحججه[٤] الواضحة قالوا له : ﴿ **ائت بقرآن غير هذا** ﴾ أي : رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر ﴿ **أو بدله** ﴾ إلىٰ وضع آخر ، قال اللّٰه تعالىٰ لنبيه صلىٰ اللّٰه عليه وآله وسلم : ﴿ **قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي** ﴾ أي : ليس هذا إلي ، إنما أنا عبد مأمور ورسول مبلغ عن اللّٰه ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحىٰ إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم** ﴾ .

= علي الفلاس ، وسئل عنه أبو حاتم ؟ فقال : « تعرف وتنكر » وحرك يده ، وكان علي بن المديني يتكلم فيه ، « الجرح والتعديل » (٣/٥٧٠) ، وقال البخاري « سكتوا عنه » « التاريخ الكبير » (٢/١/٤٠٤) وقد رواه ابن سعد في « الطبقات » (٣/٢٥٢ - ٢٥٣) بغير هذا اللفظ وإسناده حسن .

(*) في ابن جرير : « دُلّي » .

---

[١] - في ت : « حول » .
[٢] - في ز : « كائن » .
[٣] - في خ : « سيطيعون » .
[٤] - في ز : « حجته » .

ثم قال محتجًا عليهم في صحة ما جاءهم به : ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به** ﴾ أي : هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك ومشيئته وإرادته ، والدليل على أني لست أتقوّله من عندي ولا افتريته : أنكم عاجزون عن معارضته ، وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل ، لا تنتقدون علي شيئًا تغمصوني(*) به ، ولهذا قال : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلا تعقلون** ﴾ أي : أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل ؟ ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا[١] سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي صلى الله عليه وسلم ، قال [هرقل لأبي سفيان][٢]: هل كنتم تتهمونه[٣] بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا . وقد[٤] كان أبو سفيان إذ ذاك رأسَ الكفرة وزعيمَ المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق ، والفضل ما شهدت به الأعداءُ ، فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله(١٢) .

وقال جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة(١٣) : بعث الله فينا رسولًا نعرف صدقه ونسبه وأمانته . وقد كانت مدة مقامه - عليه السلام - بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة(١٤) ، وعن سعيد بن المسيب : ثلاثًا[٥] وأربعين سنة(١٥) ، والصحيح المشهور الأول .

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ

(*) - غمصه : احتقره وعابه .

(١٢) - تقدم تخريجه [سورة الأنعام / آية ٥٤] .

(١٣) - **إسناده حسن** ، أخرجه ابن هشام في « السيرة » (١/٢٢٢ - ٢٢٥) ، وأحمد في المسند (١/ ٢٠٢)، (٥/٢٩٠) من طريق محمد بن إسحاق ، حدثني محمد بن مسلم الزهري ، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة ضمن حديث طويل ، وهذا إسناد حسن ، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث ، وأورده الهيثمي في « المجمع » (٦/٢٧ - ٣٠) وعزاه لأحمد وقال : « ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرح بالسماع » .

(١٤) - أخرجه البخاري ، كتاب : المناقب ، باب : صفة النبي - صلى الله عليه وسلم - (٣٥٤٧) ، ومسلم ، كتاب : الفضائل ، باب : في صفة النبي ﷺ ومبعثه وسنه (١١٣) (٢٣٤٧) ، والترمذي ، كتاب : المناقب ، باب : ما جاء في مبعث النبي ﷺ وابن كم كان حين بعث (٣٦٢٧) ، والنسائي في «الكبرى» (٤/٩٣١٠) ، وأحمد (١٣٥٤٤) (٣/٢٤٠) من حديث أنس بن مالك .

(١٥) - **شاذ** ، أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٨/٤٣٧) ، والحاكم (٢/٦١٠) شاهدًا من طريقين =

[١] - في ز ، خ : « لأبي » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] - في خ : « تفهمونه » .
[٤] - سقط من ت .
[٥] - في خ : « ثلاث » .

ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالىٰ : لا أحد أظلم ولا أعتىٰ ولا أشد إجرامًا ﴿ ممن افترىٰ علىٰ الله كذبًا ﴾ وتقوّل[١] علىٰ الله ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك ، فليس أحد أكبر جرمًا ولا أعظم ظلمًا من هذا ، ومثل هذا لا يخفىٰ أمره علىٰ الأغبياء ، فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء ؟ فإن من قال هذه المقالة صادقًا أو كاذبًا ، فلابد أن الله ينصب عليه من الأدلة علىٰ بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد صلىٰ الله عليه وسلم وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحىٰ وبين وقت نصف الليل في حندس الظلماء ، فمن سيما كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة علىٰ صدق محمد صلىٰ الله عليه وسلم وكذب مسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي .

قال عبد الله بن سلام(١٦) : لما قدم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم المدينة : انجفل(*) الناس فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب . قال[٢] : فكان أول ما سمعته يقول : « يا[٣] أيها الناس : أفشوا السلام ؛ وأطعموا الطعام ، [وصلوا الأرحام][٤] ، وصلّوا بالليل والناس نيامٌ ، تدخلوا الجنة بسلام » .

ولما قدم[٥] ضمام بن ثعلبة علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في[٦] قومه بني سعد بن بكر ، قال لرسول الله فيما قال له : من رفع هذه السماء ؟ قال : « الله » . قال : ومن نصب هذه الجبال ؟ قال : « الله » . قال : ومن سطح هذه الأرض ؟ قال : « الله » قال : فبالذي رفع هذه السماء ، ونصب هذه الجبال ، وسطح هذه الأرض ، آلله أرسلك إلىٰ الناس

= عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب به ، وحكم عليه بالشذوذ الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٥٧٠/٦) ، وقال النووي في «شرح صحيح مسلم » (١٤٦/١٥) : «..... وهذا الذي ذكرناه أنه بعث على رأس أربعين سنة هو الصواب المشهور الذي أطبق عليه العلماء ، وحكى القاضي عياض عن ابن عباس وسعيد ابن المسيب رواية شاذة أنه – صلى الله عليه وسلم – بعث على رأس ثلاث وأربعين سنة ، والصواب أربعون ....» .

(١٦) – صحيح ، أخرجه الترمذي ، كتاب : صفة القيامة ، باب : « أفشوا السلام ....» (٢٤٨٧) ، وابن ماجة، كتاب : إقامة الصلاة ، باب : ما جاء في قيام الليل (١٣٣٤)، وك : الأطعمة ، باب : إطعام الطعام (٣٢٥١) ، وأحمد (٢٣٨٩٧) (٤٥١/٥) وقال الترمذي : «حديث صحيح » ، وصححه الحاكم (١٣/٣) (١٦٠/٤) ووافقه الذهبي وهو كما قالوا .

(*) – انجفل القوم : انقلعوا فمضوا .

---

[١] – في ز ، خ : « ويقول » .
[٢] – سقط من : ز .
[٣] – سقط من : ز .
[٤] – سقط من : ز ، خ .
[٥] – في ز ، خ : « قدم وفد » .
[٦] – سقط من : ز .

كلهم ؟ قال : « **اللهم نعم** » . ثم سأله عن الصلاة والزكاة والحج والصيام ، ويحلف عند كل واحدة هذه اليمين ، ويحلف له[١] رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فقال له : صدقت ، والذي بعثك بالحق لا أزيد علىٰ ذلك ولا أنقص(١٧) .

فاكتفىٰ هذا الرجل بمجرد هذا ، وقد أيقن بصدقه - صلوات الله وسلامه عليه - بما رأىٰ وشاهد من الدلائل الدالة عليه ، كما قال حسان بن ثابت :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وأما مسيلمة فَمَنْ شاهده من ذوي البصائر علم أمره لا محالة ، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحة[٢]، وأفعاله غير الحسنة بل القبيحة ، وقرآنه الذي يخلد به في النار يوم الحسرة والفضيحة ، وكم[٣] من فرق بين قوله تعالىٰ : ﴿ **اللَّه لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم** ﴾ [إلىٰ آخرها] ، وبين عُلاك[٤] مسيلمة - قبحه اللَّه ولعنه- : يا ضفدع بنت ضفدعين[٥]، نقي كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الشارب تمنعين . وقوله [قبحه الله][٦]: لقد أنعم اللَّه علىٰ الحبلىٰ ، إذ أخرج منها نسمة تسعىٰ ، من بين صفاق وحشا . وقوله خَذَّرَهُ اللَّه في نار جهنم - وقد فعل - : الفيل وما [أدراك ما][٧] الفيل ، له زُلْقُوم[٨] طويل . وقوله أبعده اللَّه من رحمته : والعاجنات عجنًا ، والخابزات خبزًا ، واللاقمات لقمًا ، إهالة وسمنًا ، إن قريشًا قوم يعتدون . إلىٰ غير ذلك من [الخرافات و][٩] الهذيانات[١٠] والخرافات التي يأنف الصبيان أن يتلفظوا بها إلا علىٰ وجه السخرية والاستهزاء ، ولهذا أرغم اللَّه أنفه ، وشرب يوم حديقة الموت حتفه ، ومزق شمله ، ولعنه صحبه وأهله ، وقَدِموا علىٰ الصديق تائبين ، وجاءوا في دين اللَّه راغبين ، فسألهم الصديق خليفة الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه ورضي عنه أن يقرءوا عليه شيئًا من قرآن مسيلمة

(١٧) - أخرجه البخاري ، كتاب : العلم ، باب : ما جاء في العلم (٦٣) ، وأبو داود ، كتاب : الصلاة ، باب : ما جاء في المشرك يدخل المسجد (٤٨٦) ، والنسائي ، كتاب : الصيام ، باب : وجوب الصيام (٤/ ١٢٣) ، وابن ماجة كتاب : الصلاة ، باب : ما جاء في فرض الصلوات الخمس والمحافظة عليها (١٤٠٢)، وأحمد (١٢٧٤٢) (٣/١٦٨) من طريق شريك بن عبد الله وهو ابن أبي نمر عن أنس بن مالك به ، وأخرجه مسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : السؤال عن أركان الإسلام (١٠) (١٢) ، والبخاري معلقا - عقب =

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في خ : « بصحيحة » .
[٣] - في ز : « وهم » .
[٤] - في ز : « قول » .
[٥] - في ز : « الضفدعين » .
[٦] - في ز ، خ : « قبح وأمن »
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٨] - في ز ، خ : « زلوم » .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[١٠] - في : « الهذايانات » .

لعنه الله ، فسألوه أن يعفيهم من ذلك ، فأبىٰ عليهم إلا[١] أن يقرءوا شيئًا منه ؛ ليسمعه من لم يسمعه من الناس ، فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدىٰ والعلم ، فقرءوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه ، فلما فرغوا قال لهم الصديق رضي الله عنه : ويحكم ! أين كان يذهب بعقولكم ؟ والله إن هذا لم يخرج من إلّ .

وذكروا أن وفد عمرو بن العاص علىٰ مسيلمة ، وكان صديقًا له في الجاهلية ، وكان عمرو لم يسلم بعد ، فقال له مسيلمة : ويحك يا عمرو ! وماذا أنزل علىٰ صاحبكم - يعني رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم - في هذه المدة ؟ فقال : لقد سمعت أصحابه يقرءون سورة عظيمة قصيرة . فقال : وما هي ؟ فقال : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر** ﴾ إلىٰ آخر السورة ، ففكر مسيلمة ساعة ، ثم قال : وأنا[٢] قد أنزل عليَّ مثله . فقال : وما هو ؟ فقال : ياوبر ياوبر ، إنما أنت أذنان وصدر[٣]، وسائرك حَقْرٌ نقر . كيف ترىٰ يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني أعلم أنك لتكذب[٤](١٨).

فإذا كان هذا من مشرك في حال شركه لم يشتبه عليه[٥] حال محمد ، صلىٰ الله عليه وسلم ، وصدقه ، وحال مسيلمة لعنه الله وكذبه ، فكيف بأولى البصائر والنُّهَىٰ ، وأصحاب العقول السليمة المستقيمة والحجا ، ولهذا قال الله تعالىٰ : ﴿ **ومن[٦] أظلم ممن افترىٰ علىٰ الله كذبًا أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله** ﴾ ، وقال في هذه الآية الكريمة : ﴿ **ومن أظلم ممن افترىٰ علىٰ الله كذبًا أو كذب بآياته إنه لايفلح المجرمون** ﴾ ، وكذلك من كذب بالحق الذي جاءت به الرسل ، وقامت عليه الحجج ، لا أحد أظلم منه كما جاء في الحديث : « **أعتىٰ الناس علىٰ الله رجل قتل نبيًا أو قتله نبي** »(١٩) .

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا

= السابق ، والترمذي ، كتاب : الزكاة ، باب : ما جاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك (٦١٩)، والنسائي (١٢١/٤)، وأحمد (١٢٤٧٩) (١٤٣/٣) من طريق ثابت عن أنس بنحوه .

(١٨) - الأثران أوردهما المصنف في كتاب « البداية والنهاية » (٣٥٩/٦) .

(١٩) - أخرجه أحمد (٤٠٧/١) - ومن طريقه أورده المصنف (البقرة/ آية ٦١) ، والبزار في مسنده (٥/ ١٧٢٨) من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا بلفظ « **أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبيًا** ....» وجوّد إسناده الألباني في «الصحيحة» (٢٨١/١) .

[١] - سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز ، خ : « و » .
[٣] - في ز : « حلدر » .
[٤] - في ت : « تكذب » .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - في ز : « فمن » .

﴿عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

ينكر تعالىٰ علىٰ المشركين الذين عبدوا مع اللَّه غيره ، ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند اللَّه ، فأخبر تعالىٰ أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئًا ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبدًا ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **قل أتنبئون اللَّه بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض** ﴾ .

وقال ابن جرير : معناه[١] أتخبرون اللَّه بما لا يكون في السموات ولا في الأرض ؟

ثم نزه نفسه [ ][٢] عن شركهم وكفرهم فقال : ﴿ **سبحانه وتعالىٰ عما يشركون** ﴾ .

ثم أخبر تعالىٰ أن هذا الشرك حادث في الناس ، كائن بعد أن لم يكن ، وأن الناس كلهم كانوا علىٰ دين واحد وهو الإسلام ، قال ابن عباس(٢٠) : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم علىٰ الإسلام ، ثم وقع الاختلاف بين الناس ، وعبدت الأصنام والأنداد والأوثان ، فبعث اللَّه الرسل بآياته وبيناته ، وحججه البالغة وبراهينه الدامغة ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيىٰ من حي عن بينة** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون** ﴾ ، أي : لولا ما تقدم من اللَّه تعالىٰ أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلىٰ

(*) في تفسيره (٩٨/١١) .

(٢٠) - ذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٢١/٦ - ٣٢٢) بلفظ « كان بين آدم ونوح .... كلهم على شريعة من الحق ...» ، وقال : « رواه البزار وفيه عبد الصمد بن النعمان وثقه ابن معين وقال غيره : ليس بالقوى » ، وأخرجه الحاكم (٤٤٢/٢) من طريق آخر ، وقال : « حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، وهو كما قالا ، ويذكره المصنف أيضًا برقم (٨٤) ، وباللفظ الذي أورده المصنف ، أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٤٤/١) بإسناد حسن عن عكرمة من قوله ، وقد صح مرفوعًا من حديث أبي أمامة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - سُئل : كم كان بين آدم ونوح ؟ فقال : « **عشرة قرون** » أخرجه الطبراني في « الكبير » (٧٥٤٥/٨) ، وفي « الأوسط » (٤٠٣/١) ، وصححه ابن حبان (٦١٩٠/١٤) ، والحاكم (٢٦٢/٢) على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي وذكره المصنف في « البداية والنهاية » (٩٤/١) وقال : هذا على شرط مسلم ولم يخرجه .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ت : « الكريمة » .

أجل معدود ، لقضى[١] بينهم فيما اختلفوا فيه فأسعد المؤمنين وأعنت[٢] الكافرين .

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

أي : ويقول هؤلاء الكفرة الملحدون[٣] المكذبون المعاندون : لولا أنزل[٤] على محمد آية من ربه ، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة ، أو أن يحول لهم الصفا ذهبًا ، أو[٥] يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارًا ، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله ، كما قال تعالى : ﴿ **تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرًا من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورًا * بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرًا** ﴾ ، وكقوله[٦]: ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا** ﴾ .

يقول تعالى إن سنتي في خلقى أني إذا آتيتهم ما سألوا ؛ فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة ، ولهذا لما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أن يعطى ما سألوا فإن أجابوا[٧] وإلا عوجلوا[٨]، وبين [أن يتركهم وينظرهم][٩] - اختار إنظارهم ، كما حلم عنهم غير مرة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، ولهذا قال تعالى إرشادًا لنبيه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إلى الجواب لهم[١٠] عما سألوا : ﴿ **فقل إنما الغيب لله** ﴾ أي : الأمر كله لله ، وهو يعلم العواقب في الأمور ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ أي : إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم ، فانتظروا حكم الله في وفيكم .

هذا مع أنهم قد شاهدوا من معجزاته[١١] صلى الله عليه وسلم أعظم مما سألوا ، حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبدراه فانشق باثنتين[١٢] فرقة من وراء الجبل وفرقة من

---

(٢١) - أخرج البخاري ، كتاب : المناقب ، باب : سؤال المشركين أن يُريهم النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - آية ... (٣٦٣٦) ، ومسلم ، كتاب : صفات المنافقين وأحكامهم، باب : انشقاق القمر (٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥) (٢٨٠٠) ، وغيرهما من حديث ابن مسعود قال : « انشق القمر على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم =

---

[١] - في ز ، خ : « ليقضي » .
[٢] - في ز : « أعتب » .
[٣] - سقط من ت .
[٤] - في ت : « أنزل الله » .
[٥] - في ز : « و » .
[٦] - في ز : « قال تعالى » .
[٧] - في ت : « آمنوا » .
[٨] - في ت : « عذبوا » .
[٩] - ما بين المعكوفتين في ت : «نظارهم » ؟
[١٠] - في ز ، خ : « لهم عما » .
[١١] - في ت : « آياته » .
[١٢] - في ت : « اثنتين » .

دونه(٢١) ، وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا ومالم يسألوا ، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشادًا وتثبتًا لأجابهم ، ولكن علم أنهم إنما يسألون عنادًا وتعنتًا فتركهم فيما رابهم ، [وعلم أنهم لا][١] يؤمن منهم أحد[٢]، كقوله تعالىٰ : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ . وقوله تعالىٰ : ﴿ **ولو أننا نزلنا[٣] إليهم الملائكة وكلمهم الموتىٰ وحشرنا عليهم كل شيء قبلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾ . ولما[٤] فيهم من المكابرة كقوله تعالىٰ : ﴿ **ولو فتحنا عليهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون وقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾ . وقوله تعالىٰ : ﴿ **وإن يروا كِسفًا من السماء ساقطًا يقولوا سحاب مركوم** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إنْ هذا إلا سحر مبين** ﴾ . فمثل هؤلاء أقل من أن يجابوا إلىٰ ما سألوا ؛ لأنه لا فائدة في [جواب هؤلاء][٥]؛ لأنه دائر علىٰ تعنتهم وعنادهم لكثرة فجورهم وفسادهم ؛ ولهذا قال : ﴿ **فانتظروا إني معكم من المنتظرين** ﴾ .

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

= شقتين ، فقال النبيُّ - صلى الله عليه وسلم - : « **اشهدوا** » .

---

[١] - في ز ، خ : « ولكن من لم » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز : « أنزلنا » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - ما بين المعكوفتين في م : « جوابهم » .

يخبر تعالىٰ أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ونحو ذلك ﴿ **إذا لهم مكر في آياتنا** ﴾ .

قال مجاهد : استهزاء وتكذيب . كقوله : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر[١] دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه** ﴾ . وفي الصحيح(٢٢) أن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم صلَّىٰ بهم الصبح علىٰ إثر سماء [كانت من الليل أي : مطر][٢]، ثم قال : « **هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟** » قالوا[٣]: اللَّه ورسوله أعلم . قال : « **قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل اللَّه ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب** » .

وقوله : ﴿ **قل اللَّه أسرع مكرًا** ﴾ أي : أشد استدراجًا وإمهالًا ، حتىٰ يظن الظان من المجرمين أنه [ليس بمعذب][٤] وإنما هو في مهلة ، ثم يؤخذ علىٰ غرة منه ، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه[٥] عليه، ثم يعرضونه علىٰ عالم الغيب والشهادة ، فيجازيه علىٰ الجليل والحقير والنقير والقطمير .

ثم أخبر تعالىٰ أنه ﴿ **هو[٦] الذي يسيركم في البر والبحر** ﴾ أي : يحيطكم[٧] ويكلؤكم بحراسته ﴿ **حتىٰ إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها** ﴾ أي : بسرعة سيرهم رافقين[٨]، فبينما هم كذلك إذ ﴿ **جاءتها** ﴾ أي : تلك السفن ﴿ **ريح عاصف** ﴾ أي : شديدة ﴿ **وجاءهم الموج من كل مكان** ﴾ أي : اغتلم البحر عليهم ﴿ **وظنوا أنهم أحيط بهم** ﴾ أي : هلكوا ﴿ **دعوا اللَّه مخلصين له الدين** ﴾ أي[٩] : لا يدعون معه صنمًا ولا وثنًا ، بل[١٠] يفردونه بالدعاء والابتهال ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **وإذا**

---

(٢٢) - أخرجه البخاري ، كتاب : الأذان ، باب : يستقبلُ الإمام الناسَ إذا سلم (٨٤٦) ، ومسلم ، كتاب : الإيمان باب : بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء (١٢٥) (٧١) ، وأبو داود ، كتاب : الطب ، باب : في النجوم (٣٩٠٦) ، والنسائي ، كتاب : الاستسقاء ، باب : كراهية الاستمطار بالكوكب (٣/١٦٤ - ١٦٥) ، وأحمد (٤/١١٥) من حديث زيد بن خالد الجهني .

---

[١] - في ز : « ضر » .
[٢] - في ز : « مطر أصابهم من الليل » .
[٣] - في ز ، خ : « قلنا » .
[٤] - في ز ، خ : « يعذب » .
[٥] - بعده في ت : عليه .
[٦] - سقط من : ز ، خ .
[٧] - في ت : « يحفظكم » .
[٨] - في ز ، خ : « واقفين » .
[٩] - سقط من : ز ، خ .
[١٠] - سقط من : خ .

مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلىٰ البر أعرضتم وكان الإنسان كفورًا ﴾ ، وقال هاهنا : ﴿ **دعوا اللَّه مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه** ﴾ أي : هذه الحال ﴿ **لنكونن من الشاكرين** ﴾ أي : لا نشرك بك أحدًا ، ولنفردنك بالعبادة هناك ، كما أفردناك بالدعاء هاهنا ، قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **فلما أنجاهم** ﴾ أي : من تلك الورطة ﴿ **إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق** ﴾ أي : كأن لم يكن من ذاك شيء ﴿ **كأن لم يدعنا إلىٰ ضر مسه** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الناس إنما بغيكم علىٰ أنفسكم** ﴾ أي : إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ، ولا تضرون به أحدًا غيركم ، كما جاء في الحديث(٢٣) : « **ما من ذنب أجدر أن يعجل اللَّه عقوبته في الدنيا - مع ما يدخر اللَّه لصاحبه في الآخرة - من البغي وقطيعة الرحم** » .

وقوله : ﴿ **متاع الحياة الدنيا** ﴾ [أي : إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة][١] الحقيرة ﴿ **ثم إلينا مرجعكم** ﴾ أي : مصيركم ومآلكم[٢] ﴿ **فننبئكم** ﴾ أي : فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد اللَّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه .

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

ضرب تعالىٰ مثلا لزهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وسرعة انقضائها وزوالها ، بالنبات الذي[٣] أخرجه اللَّه من الأرض بما[٤] أنزل من السماء من الماء ، مما يأكل الناس من زروع[٥] وثمار

(٢٣) - **صحيح** ، أخرجه أبو داود ، كتاب : الأدب ، باب : في النهي عن البغي (٤٩٠٢) ، والترمذي ، كتاب : صفة القيامة ، باب : « انظروا إلى من هو أسفل منكم » (٢٥١٣) ، وابن ماجة ، كتاب : الزهد =

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز : « ما بكم » .
[٣] - في ز : « التي » .
[٤] - في ت : « بماء » .
[٥] - في ز : « زرع » .

علىٰ اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك ﴿ **حتىٰ إذا أخذت الأرض زخرفها** ﴾ أي : زينتها الفانية ﴿ **وازينت** ﴾ أي : حسنت بما خرج من[١] رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ **وظن أهلها** ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ **أنهم قادرون عليها** ﴾ أي : علىٰ جذاذها وحصادها ، [فبينما هم][٢] كذلك إذ جاءتها صاعقة[٣] أو ريح شديدة[٤] باردة ، فأيبست أوراقها[٥] وأتلفت ثمارها ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **أتاها أمرنا ليلًا أو نهارًا فجعلناها حصيدًا** ﴾ أي : يبسًا بعد الخضرة والنضارة ﴿ **كأن لم تغن بالأمس** ﴾ أي : كأنها ما كانت حسناء قبل ذلك .

وقال قتادة : ﴿ **كأن لم تغن** ﴾ كأن لم تنعم .

وهكذا الأمور بعد زوالها كأنها لم تكن ؛ ولهذا جاء في الحديث(٢٤)[٦] « **يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة ، فيقال[٧] له : هل رأيت خيرًا قط ؟ [هل مر بك نعيم قط ؟][٨] فيقول : لا . [ويؤتي بأشد الناس عذابًا في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤسًا قط ؟ فيقول : لا][٩]**.

وقال تعالىٰ إخبارًا عن المهلكين : ﴿ **فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها** ﴾ .

ثم قال تعالىٰ : ﴿ **كذلك نفصل الآيات** ﴾ أي : نبين الحجج والأدلة ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن[١٠] أهلها سريعًا ، مع اغترارهم[١١] بها وتمكنهم وثقتهم[١٢] بمواعيدها [وتفلتها عنهم][١٣]، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ،

= باب : البغي ، وأحمد (٢٠٤٢٦) (٣٦/٥) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٣٩) وغيرهم من حديث أبي بكرة ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (٤٥٥/٢ ، ٤٥٦) ، والحاكم (٣٥٦/٢) ، (١٦٣/٤) ووافقه الذهبي وهو كما قالوا .

(٢٤) - أخرجه مسلم ، كتاب : صفات المنافقين وأحكامهم ، (٥٥) (٢٨٠٧) ، وأحمد (١٣١٣٥ ، ١٣٦٨٦) (٢٠٣/٣ ، ٢٥٣) من حديث ثابت البناني عن أنس فذكر الحديث ، وقد أورده المصنف هنا بمعناه ، وأخرجه أيضًا ابن ماجة ، كتاب : الزهد ، باب : صفة النار (٤٣٢١) من طريق حميد عن =

---

[١] - في ت : « في » .
[٢] - في خ : « فبينما هم » .
[٣] - في خ : « عاصفة » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - في ز ، خ : « أرزاقها » .
[٦] - في ت : « الحديث » .
[٧] - في ز : « ثم يقال » .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[١٠] - في ت : « من » .
[١١] - في ز : « إعزازهم » .
[١٢] - سقط من : ز .
[١٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « نقلتها منهم » .

والطلب لمن هرب منها ، وقد ضرب الله مثل الحياة[١] الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية من كتابه العزيز ؛ فقال في سورة الكهف : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيمًا تذروه الرياح وكان الله علىٰ كل شيء مقتدرًا** ﴾ . وكذا في سورة الزمر والحديد ، يضرب الله[٢] بذلك مثل الحياة الدنيا كماء .

و[٣] قال ابن جرير(٢٥) : حدثني الحارث ، حدثنا[٤] عبد العزيز ، حدثنا ابن عيينة ، عن عمرو[٥] بن دينار ، عن عبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ؛ قال : سمعت مروان - يعني ابن الحكم - يقرأ[٦] علىٰ المنبر (وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكها[٧] إلا بذنوب أهلها) قال : قد قرأتها وليست في المصحف . فقال عباس [بن عبد الله][٨] بن عباس : هكذا يقرؤها ابن عباس . فأرسلوا إلىٰ ابن عباس ، فقال : هكذا أقرأني أبي بن كعب .

وهذه قراءة غريبة ، وكأنها زيادة[٩] للتفسير .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **والله يدعو إلىٰ دار السلام** ﴾ . [الآية . لما ذكر تعالىٰ الدنيا وسرعة زوالها ، رغب في الجنة ودعا إليها وسماها دار السلام][١٠]، أي : من الآفات والنقائص والنكبات ، فقال : ﴿ **والله يدعو إلىٰ دار السلام ويهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم** ﴾ .

قال أيوب(٢٦) ، عن أبي قلابة ، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **قيل لي : لتنم عينك ، وليعقل قلبك ، ولتسمع أذنك ، فنامت عيني ، وعقل[١١] قلبي ، وسمعت**

= أنس ، وفي إسناده محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد عنعنه .

(٢٥) - **إسناد ضعيف جدًا** ، وهو في « التفسير » لابن جرير (١١/١٠٢ - ١٠٣) ، وعبد العزيز هذا هو ابن أبان الأموي ، متروك وكذبه ابن معين وغيره ، وعبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن هذا لم أقف علىٰ ترجمة له فيما بين يدي من الكتب والله أعلم .

(٢٦) - **مرسل** ، أخرجه ابن جرير في تفسيره (١١/١٠٣) هكذا كما أورده « المصنف » عن أبي قلابة مرسلًا ، وقد وصله الدارمي في سننه (١١) ، والطبراني في « الكبير » (٥/٤٥٩٧) من طريق ريحان بن سعيد عن عباد بن منصور عن أيوب - أقحم هنا عند الدارمي أبو سلامة - عن أبي قلابة عن عطية أنه =

[١] - سقط من : ت .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - سقط من : ت .
[٤] - في ز ، خ : « بن » .
[٥] - في ز ، خ : « عبد » .
[٦] - في ز ، خ : « يقول » .
[٧] - في ز : « ليهلكهم » .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : خ .
[٩] - في ت : « زيدت » .
[١٠] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[١١] - في خ : « وسمع » .

أذني ، ثم قيل [لي : مثلي ومثل ما جئت كمثل][١] سيد بنىٰ دارًا ، ثم صنع مأدبة وأرسل داعيًا ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد وفالله السيد ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنة ، والداعي محمد صلىٰ اللّٰه عليه وسلم » .

وهذا حديث مرسل ، وقد جاء متصلًا من حديث الليث ، عن خالد بن يزيد[٢]، عن سعيد ابن أبي هلال ، عن جابر بن عبد اللّٰه - رضي اللّٰه عنه - قال : خرج علينا رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم يومًا ، فقال : « **إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجلي ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلًا . فقال : اسمع سمعت أذنك ، واعقل عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارًا ، ثم بنىٰ فيها بيتًا ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولًا يدعو الناس إلىٰ طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فاللّٰه الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها** » . رواه ابن جرير(٢٧) .

وقال قتادة : حدثني خليد العصري ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم : « **ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وبجنبتيها[٣] ملكان يناديان[٤]، يسمعهما خلق اللّٰه كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس ؛ هلموا إلىٰ ربكم ، إن ما قل وكفىٰ خير مما كثر**

= سمع ربيعة الجرشي فذكره ، وحسن إسناده الهيثمي في « المجمع » (٨/٢٦٣) وجوّده الحافظ ابن حجر في « الفتح » (١٣/٢٥٦) ، وربيعة الجرشي ، مختلف في صحبته ، وريحان وعباد فيهما كلام ، وانظر ما بعده .

(٢٧) - **إسناده فيه انقطاع** ، ابن جرير في تفسيره (١١/١٠٤) ، وأخرجه الترمذي ، كتاب : الأمثال ، باب : ما جاء في مثل الله لعباده (٢٨٦٤) ، والبخاري في « الصحيح » معلقًا - بالسند دون اللفظ - عقب حديث رقم (٧٢٨١) ، والإسماعيلي وأبو نعيم - كما في « الفتح » (١٣/٢٥٦) من طريق قتيبة ، حدثنا الليث به ، وقال الترمذي « هذا حديث مرسل ، سعيد بن أبي هلال لم يدرك جابر بن عبد الله » ، قلت : وقد وصله الحاكم في « المستدرك » (٢/٣٣٨ - ٣٣٩) وعنه البيهقي في « الدلائل » (١/٣٧٠) من طريق عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال ، قال : سمعت أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين وتلا هذه الآية : ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام** ... ﴾ فقال : حدثني جابر ابن عبد الله ... فذكر الحديث وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي ، وعبد الله بن صالح ، فيه ضعف من قبل حفظه ، لكن قال الترمذي: « وقد روي هذا الحديث من غير وجه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بإسناد أصح من هذا » قلت : وهو ما أخرجه البخاري ، كتاب : الاعتصام بالكتاب والسنة ، ب : الاقتداء بسنن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (٧٢٨١) ثنا محمد بن عبادة نا يزيد =

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - في ز ، خ : « سويد » .
[٣] - في ز : « وبجنبيها » . [٤] - سقط من : ز ، خ .

وألهىٰ » . قال : وأنزل [ ][١] ذلك في القرآن ، في قوله : « يا أيها الناس هلموا إلىٰ ربكم ﴿ **والله يدعو إلىٰ دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير(٢٨) .

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ (٢٦) ﴾

يخبر تعالىٰ أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح [أن له][٢] الحسنىٰ في الدار الآخرة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وزيادة** ﴾ يشمل[٣] تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف وزيادة علىٰ ذلك أيضًا[٤]، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم ، وما أخفاه لهم من قرّة أعين ، وأفضل من[٥] ذلك وأعلاه النظر إلىٰ وجهه[٦] الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه ، لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته[٧]، وقد رُوِيَ[٨] تفسير الزيادة بالنظر إلىٰ وجهه[٩] الكريم عن أبي بكر الصديق(٢٩) ، وحذيفة بن

= ثنا سليم بن حيان - وأثنى عليه - ثنا سعيد بن ميناء ثنا أو سمعت جابر بن عبد الله يقول ، فذكر الحديث بلفظ مقارب من هذا .

(٢٨) - **صحيح** ، أخرجه ابن جرير (١١/١٠٤) ومختصرًا (٣٠/٢٢١) وابن أبي حاتم (٦/١٠٣٢٦) ، وكذا عزاه الحافظ في «الفتح» (٣/٣٠٤) إلى ابن أبي حاتم ، وأخرجه البيهقي في « الشعب » (٣/٣٤١٢) من طريق عباد بن راشد عن قتادة به ، وأخرجه مختصرًا الطيالسي (٩٧٩) ، وأحمد (٢١٨١٢) (٥/ ١٩٧) ، والطبراني في « الأوسط » (٣/٢٨٩١) ، وفي « الكبير » - كما في « مجمع الزوائد » (١٠/ ٢٥٨) - وأبو نعيم في « الحلية » (١/٢٢٦) ، (٢/٢٣٢) ، (٩/٦٠) ، والقضاعي في « مسند الشهاب » (٢/٨١٠) ، والبغوي في « شرح السنة » (١٤/٤٠٤٥) وصححه ابن حبان (٢/٦٨٦) ، (٨/٣٣٢٩) ، والحاكم (٢/٤٤٤ - ٤٤٥) ووافقه الذهبي ، وهو كما قالوا . وكذا صححه على شرط مسلم الألباني في « الصحيحة » (١/٤٤٣) .

(٢٩) - **صحيح موقوف** ، أخرجه ابن جرير (١١/١٠٤) ، وهناد في « الزهد » (١٧٠) ، وعبد الله بن أحمد في « السنة » (٤٧١) ، والآجري في « الشريعة » (٦٣٠ ، ٦٣٢) ، وابن منده في « الرد على الجهمية » (٨٤) ، والدارقطني في « الرؤية » (١٩٢ : ٢٠١) وغيرهم ، وصححه الألباني في « ظلال الجنة » (٤٧٤) مستشهدًا له بحديث صهيب الآتي برقم (٣٢) .

---

[١] - في ز : « في ذلك القرآن » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ت .
[٣] - في ز : « يشمل » .
[٤] - سقط من : ز .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - في ز : « وجه الله » .
[٧] - في ز : « برحمته » .
[٨] - في ز ، خ : « رُوِيَ فى » .
[٩] - في ز : « وجه الله » .

اليمان(٣٠) ، وعبد الله بن عباس(٣١) ، وسعيد بن المسيب ، وعبد الرحمن بن أبي ليلىٰ ، وعبد الرحمن بن سابط ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعامر بن سعد ، وعطاء ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهم من السلف والخلف .

وقد وردت فيه[١] أحاديث كثيرة عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم .

فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد(٣٢) : حدثنا عفان ، أخبرنا حماد بن سلمة ، عن ثابت البناني ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ ، عن صهيب - رضي الله عنه - : أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿ **للذين أحسنوا الحسنىٰ وزيادة** ﴾ وقال : « **إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادىٰ مناد : يا أهل الجنة ؛ إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه . فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ؟ ألم[٢] يبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويزحزحنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئًا أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم** » .

وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة من حديث حماد بن سلمة به .

وقال ابن جرير(٣٣) : أخبرنا يونس ، قال[٣]: أخبرنا ابن وهب ، قال[٤]: أخبرني شبيب ، عن أبان عن أبي تميمة الهجيمي ، أنه سمع أبا موسىٰ الأشعري يحدّث ، عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **إن الله يبعث يوم القيامة مناديًا ينادي : يا أهل الجنة - بصوت**

(٣٠) - **صحيح موقوف** ، أخرجه ابن جرير (١٠٥/١١) ، وهناد في « الزهد » (١٧٠) ، وعبد الله بن أحمد في « السنة » (٤٧٣) ، والدارقطني في « الرؤية » (٢٠٢ ، ٢٠٦) وغيرهم .

(٣١) - أخرجه ابن جرير (١٠٨/١١) ، وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي - كما في « الدر المنثور » (٣/ ٥٤٨) .

(٣٢) - **صحيح** « المسند » (١٨٩٩٤) (٣٣٣/٤) ، وأخرجه أيضًا (١٨٩٨٨ ، ١٨٩٨٩) (٣٣٢/٤) (٢٤٠٣٠) (١٥/٦) ، ومسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (٢٩٧ ، ٢٩٨) (١٨١) ، والترمذي ، كتاب : صفة الجنة ، باب : ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى (٢٥٥٥) ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة يونس (٣١٠٤) ، والنسائي في « الكبرى » كتاب : النعوت (٧٧٦٦/٤) ، وفي « التفسير » (١١٢٣٤/٦) ، وابن ماجة في المقدمة ، باب : فيما أنكرت الجهمية (١٨٧) من طرق عن حماد بن سلمة به .

(٣٣) - **إسناده ضعيف جدًا، ابن جرير في تفسيره** (١٠٥/١١) وأبان هو ابن أبي عياش متروك الحديث ، ومن طريقه أخرجه الدارقطني في « الرؤية » (٤٣) ، واللالكائي في « شرح أصول الاعتقاد» (٧٨٢/٣) ، وله طريق آخر عن أبي تميمة الهجيمي عن أبي موسى الأشعري به موقوفًا - وهو الآتي .

[١] - في ز : « في ذلك » .
[٢] - في ز ، خ : « و » .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - سقط من : ز ، خ .

يُسْمِعُ أَوَّلَهُمْ وآخِرَهُم - إن اللَّه وعدكم الحسنىٰ وزيادة ، فالحسنىٰ[١] الجنة ، والزيادة[٢] النظر إلىٰ وجه الرحمن عز وجل » .

رواه أيضًا ابن أبي حاتم(٣٤) من حديث أبي بكر الهذلي ، عن أبي تميمة الهجيمي به .

وقال ابن جرير أيضًا(٣٥) : حدثنا ابن حميد ، حدثنا إبراهيم بن المختار ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن كعب بن عجرة ، عن النبي صلىٰ اللَّه عليه وسلم في قوله : **﴿ للذين أحسنوا الحسنىٰ وزيادة ﴾** قال : « **[الزيادة](*) النظر إلىٰ وجه الرحمن عز وجل** » .

وقال أيضًا(٣٦) : حدثنا ابن عبد الرحيم ، حدثنا عمرو بن أبي سلمة ، سمعت زهيرًا ، عمن سمع أبا العالية ، حدثنا أبي بن كعب ؛ أنه سأل رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم عن قول اللَّه عز وجل : **﴿ للذين أحسنوا الحسنىٰ وزيادة ﴾** قال : « **الحسنىٰ الجنة ، والزيادة النظر إلىٰ وجه اللَّه عز وجل** » .

ورواه ابن أبي حاتم أيضًا من حديث زهير به .

---

(٣٤) - **كسابقه** ، (١٠٣٤١/٦) والهذلي أخباري تالف تركوا حديثه ، ومن طريقه أخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٤١٩ - زوائد نعيم بن حماد) ، ومن طريق ابن المبارك أخرجه ابن جرير (١٠٥/١١) ، والدارقطني في « الرؤية » (٤٦) ، والبيهقي في « البعث والنشور » (٤٤٧) ، ومن طريق أخرى عن الهذلي أخرجه هناد في « الزهد » (١٦٩/١) ، وابن خزيمة في « التوحيد » (ص ١٨٤) ، وابن جرير والدارقطني (٤٤ ، ٤٥) ، واللالكائي في « شرح أصول الاعتقاد » (٧٨٥ ، ٧٨٦) .

(٣٥) - **إسناده ضعيف** ، تفسير ابن جرير (١٠٧/١١) ومن طريق ابن حميد أخرجه عبد الله بن أحمد في « السنة » (٤٨٤) ، واللالكائي في « شرح أصول الاعتقاد » (٧٨١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/ ٢٠٤) ، وابن حميد - وهو محمد بن حميد الرازي - حافظ ضعيف وكان ابن معين حسن الرأى فيه ، وشيخه إبراهيم بن المختار ، قال ابن معين : ليس بذلك ، وقال البخاري : فيه نظر ، وقال أبو داود لا بأس به وقال ابن حبان في « الثقات » (٦٠/٨) : « يتقى حديثه من رواية ابن حميد عنه » وعطاء وهو الخراساني روايته عن كعب بن عجرة مرسلة ، والحديث زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٥٤٧/٣) إلى ابن مردويه ، والبيهقي في « كتاب الرؤية » .

(*) ما بين المعكوفتين زيادة من ابن جرير .

(٣٦) - **إسناده فيه جهالة** ، تفسير ابن جرير (١٠٧/١١) ، وأخرجه اللالكائي في « شرح أصول الاعتقاد » (٧٨٠/٣) من طريق الوليد بن مسلم ثنا زهير بن محمد به ، وإسناده ضعيف لجهالة الراوي عن أبي العالية ، وأخرجه الدارقطني في « الرؤية » (١٨٣) ، واللالكائي (٨٤٩) من طريقين عن قحطبة بن غدانة - تصحف عند الدارقطني إلى عبدانة - ثنا أبو خلدة عن أبي العالية فذكره ، وأبو خَلْدة وهو خالد بن دينار التميمي صدوق ، لكن الإسناد إلى قحطبة - عند كليهما - فيه ضعف أو جهالة .

---

[١] - في ز : « الحسنىٰ » . [٢] - في ز ، خ : « وزيادة » .

وقوله تعالىٰ : ﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ﴾ أي : قتام[١] وسواد في عرصات المحشر ، كما يعتري وجوه الكفرة الفجرة من القترة والغبرة ﴿ ولا ذلة ﴾ أي[٢] : هوان وصغار ، أي : لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في[٣] الظاهر ، بل هم كما قال تعالىٰ في حقهم : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورًا ﴾ أي : نضرة في وجوههم وسرورًا في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين !

وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

لما أخبر تعالىٰ عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ، ويزدادون علىٰ ذلك ، عطف بذكر حال الأشقياء ، فذكر تعالىٰ عدله فيهم ، وأنه يجازيهم علىٰ السيئة بمثلها لا يزيدهم علىٰ ذلك ﴿ وترهقهم ﴾ أي : تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها ، كما قال : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ ولا تحسبن الله غافلًا عما يعمل الظالمون * إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾ . وقوله : و ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ أي : مانعٍ ولا واقٍ يقيهم العذاب ، كقوله تعالىٰ : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلىٰ ربك يومئذ المستقر ﴾ .

وقوله : ﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا ﴾ . إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ يوم تبيض وجوه ، وتسودّ وجوه فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ ، وقوله تعالىٰ : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك الكفرة الفجرة ﴾ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن

---

[١] - في ز : « قتار » . [٢] - سقط من : ز .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ (٣٠)

يقول تعالىٰ : ﴿ **ويوم نحشرهم** ﴾ أي : أهل الأرض كلهم ؛ من إنس وجن ، وبر وفاجر ، كقوله : ﴿ **وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدًا** ﴾ . ﴿ **ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم** ﴾ . أي : الزموا أنتم وهم مكانًا معينًا ، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ ، وفي الآية الأخرىٰ : ﴿ **يومئذ يصدعون** ﴾ أي : يصيرون صدعين ، وهذا يكون إذا جاء الرب تبارك وتعالىٰ لفصل القضاء ؛ ولهذا قيل ذلك [ ][١] يستشفع المؤمنون إلىٰ الله تعالىٰ أن يأتي لفصل القضاء ويريحنا من مقامنا هذا(٣٧) ، وفي الحديث الآخر(٣٨) : « **نحن يوم القيامة علىٰ كوم فوق الناس** » .

وقال الله تعالىٰ في هذه الآية الكريمة ، إخبارًا عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة ﴿ **مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون** ﴾ . أنهم أنكروا عبادتهم وتبرءوا منهم ، كقوله : ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** ﴾ .

وقوله : ﴿ **إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلىٰ يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر**

---

(٣٧) - أخرجه أحمد (١٢١٧٣) (١١٦/٣) ، والبخاري ، كتاب : التفسير ، باب : سورة البقرة (٤٤٧٦) ، ومسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٣٢٢) (١٩٣) ، والنسائي في الكبرى في « التفسير » (١٠٩٨٤/٦) ، وابن ماجة ، كتاب : الزهد ، باب : ذكر الشفاعة (٤٣١٢) من حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه .

(٣٨) - **صحيح** ، أخرجه أحمد (١٤٧٦٤) (٣٤٥/٣) من طريق ابن لهيعة عن أبي الزبير أنه سأل جابرًا عن الورود قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول ... فذكره ، وابن لهيعة سيئ الحفظ ، وقد خالفه ابن جريج فقال : أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يُسْأل عن الورود فقال - هكذا موقوفًا - « نجيء نحن يوم القيامة عن كذا وكذا انظر أي ذلك فوق الناس - وقد أفاد النووي في «شرح صحيح مسلم » (٥٩/٣) نقلا عن القاضي عياض .... أن هذا اللفظ فيه تغيير كثير وتصحيف وصوابه « نجيء يوم القيامة على كوم » وانظر بقية كلامه هناك - واللفظ الذى أورده المصنف له شاهد من حديث أبي هريرة عند ابن خزيمة في « التوحيد » (ص ٢٣٥ - ٢٣٦) ، وصححه الألباني في « الصحيحة » (٢/ ٧٥٦) .

---

[١] - ما بين المعكوفتين بياض في ز .

الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

وقوله[١] في هذه الآية إخبارًا عن قول الشركاء فيما راجعوا فيه عابديهم عند ادعائهم عبادتهم ﴿ **فكفىٰ بالله شهيدًا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين** ﴾ . أي : ما كنا نشعر بها[٢] ولا نعلم بها، وإنما أنتم[٣] كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم ، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلىٰ عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا منكم بذلك .

وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين[٤] الذين عبدوا مع الله غيره ، ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا ، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده ، بل تبرأ منهم في وقت أحوج ما يكونون إليه ، وقد تركوا[٥] عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء ، العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه ، آمرًا بعبادته وحده لا شريك له ، ناهيًا عن عبادة ما سواه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ ، وقال : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ؟** ﴾ .

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه ، وبين أحوالهم وأقوالهم ، ورد عليهم فيما هم فيه[٦] أتم رد .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت** ﴾ أي : في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس ، وتعلم ما أسلفت[٧] من خير وشر ؛ كقوله تعالىٰ : ﴿ **يوم تبلى السرائر** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتابًا يلقاه منشورًا * اقرأ كتابك كفىٰ بنفسك اليوم عليك حسيبًا** ﴾ .

وقد قرأ بعضهم : (هنالك تتلوا كل نفس ما أسلفت) وفسرها بعضهم بالقراءة ، وفسرها بعضهم بمعنىٰ تتبع ما قدمته[٨] من خير وشر ، وفسرها بعضهم بحديث(٣٩) :

(٣٩) - أخرجه البخاري ، كتاب : الأذان ، باب : فضل السجود (٨٠٦) ، ومسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : معرفة طريق الرؤية (٢٩٩) (١٨٢) ، وأحمد (٢/٢٧٥) مطولًا من حديث أبي هريرة ومختصرًا =

[١] - في ز : « قال » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - سقط من : ت .
[٤] - في ز : « بالمشركين » .
[٥] - في ز : « ترك » .
[٦] - بعده في خ : « من » .
[٧] - في ت : « سلف من عملها » .
[٨] - في ت : « قدمت » .

« تتبع[١] **كل أمة ما كانت تعبد ، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت** » . الحديث .

وقوله : ﴿ **وردوا إلىٰ الله مولاهم الحق** ﴾ أي : ورجعت الأمور كلها إلىٰ الله الحكم العدل ، ففصلها وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار .

﴿ **وضل عنهم** ﴾ أي : ذهب عن المشركين ﴿ **ما كانوا يفترون** ﴾ أي : ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣)

يحتج تعالىٰ على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإلٰه ، فقال تعالىٰ : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ أي : من ذا[٢] الذي ينزل من السماء ماء المطر[٣]، فيشق[٤] الأرض شقًّا بقدرته ومشيئته ، فيخرج منها ﴿ **حبًّا * وعنبًا وقضبًا * وزيتونًا * ونخلًا وحدائق غلبًا * وفاكهة وأبًّا** ﴾ ، ﴿ **أإله مع الله** ﴾ ، ﴿ **فسيقولون الله** ﴾ وكذلك قوله : ﴿ **أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه** ﴾ . وقوله[٥]: ﴿ **أمّن[٦] يملك السمع والأبصار** ﴾ أي : الذي وهبكم هذه القوة السامعة ، والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم[٧] إياها ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **قل : هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون** ﴾ . وقال : ﴿ **قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به** ﴾ .

= عند النسائي (٢/٢٢٩) ، وابن ماجة (٤٣٢٦) ، وأخرجه البخاري ، كتاب : التفسير ، باب : « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » (٤٥٨١) ، ومسلم (٣٠٢) (١٨٣) ، وأحمد (١١١٤١) (٣/١٦ - ١٧) من حديث أبي سعيد الخدري .

[١] - في ز : « لتتبع » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في ز ، خ : « و » .
[٤] - في ز : « يشق » .
[٥] - في ز : « وكذا قل » ، خ : « وكذلك قوله » .
[٦] - في ز : « من » .
[٧] - في ز : « سلبكم » .

وقوله : ﴿ **ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي** ﴾ أي : بقدرته العظيمة ومنته العميمة ؛ وقد تقدم ذكر الخلاف في ذلك ، وأن الآية عامة في ذلك كله .

وقوله[١]: ﴿ **ومن يدبر الأمر** ﴾ أي : من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿ **يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن** ﴾ فالملك كله ؛ العلوي والسفلي ، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان ، فقيرون إليه ، عبيد له ، خاضعون لديه . ﴿ **فسيقولون الله** ﴾ أي : هم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ **فقل أفلا تتقون** ﴾ أي : أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم .

وقوله : ﴿ **فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾ أي : فهذا الذي اعترفتم بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم وإلهكم الحق ، الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ أي : فكل معبود سواه باطل ، لا إله إلا هو واحد لا شريك له . ﴿ **فأنى تصرفون** ﴾ أي : فكيف تصرفون عن عبادته إلىٰ عبادة ما سواه ، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء ، والمتصرف في كل شيء .

وقوله : ﴿ **كذلك حقت كلمة ربك علىٰ الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون** ﴾ . أي : كما كفر هؤلاء المشركون واستمروا علىٰ شركهم ، وعبادتهم مع الله غيره ، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرازق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار ، كقوله[٢]: ﴿ **قالوا بلىٰ ولكن حقت كلمة العذاب علىٰ الكافرين** ﴾ .

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿ **قل هل من**

---

[١] - سقط من : خ . [٢] - سقط من : خ .

شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي : من بدأ خلق هذه السموات والأرض ، ثم ينشئ ما فيهما من الخلائق ، ويفرق أجرام السموات والأرض ويبدلهما[١] [بفناء ما فيهما][٢] ، ثم يعيد الخلق[٣] خلقًا جديدًا ﴿ **قل الله** ﴾ هو الذي يفعل هذا ، ويستقل به وحده لا شريك له ﴿ **فأنىٰ تؤفكون** ﴾ أي : فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلىٰ الباطل .

﴿ **قل هل من شركائكم من يهدي إلىٰ الحق قل الله يهدي للحق** ﴾ أي : أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر علىٰ هداية ضال ، وإنما يهدي الحيارىٰ والضلال ، ويقلب القلوب من الغي إلىٰ الرشد ، الله الذي لا إله إلا هو ﴿ **أفمن يهدي إلىٰ الحق أحق أن يتبع أمّن لا يهدّي إلا أن يهدى** ﴾ أي : أفيتبع [العبد الذي يهدي إلىٰ الحق ، ويُبَصِّر بعد العمىٰ ، أم الذي لا يهدي إلىٰ شيء إلا أن][٤] يهدىٰ لعماه وبكمه ، كما قال تعالىٰ إخبارًا عن إبراهيم أنه قال : ﴿ **يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا** ﴾ ، وقال لقومه : ﴿ **أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون** ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ **فما لكم كيف تحكمون** ﴾ أي : فما بالكم[٥] أن[٦] يذهب بعقولكم ؟! كيف سوّيتم بين الله وبين خلقه ، وعدلتم هذا بهذا ، وعبدتم هذا وهذا ؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة - بالعبادة وحده ، وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة ؟

ثم بين تعالىٰ أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلًا ولا برهانًا ، وإنما هو ظن منهم أي : توهم وتخيل ، وذلك لا يغني عنهم شيئًا ﴿ **إن الله عليم بما يفعلون** ﴾ تهديد لهم ووعيد شديد ؛ لأنه تعالى أخبر[٧] أنه سيجازيهم علىٰ ذلك أتم الجزاء .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا

---

[١] - في ز : « يبدلها » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز : « الخلائق » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : « لكم » .
[٦] - في ز : « أي » .
[٧] - في ز ، خ : « يخبر » .

يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

هذا بيان لإعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ولا بسورة[١] من مثله ؛ لأنه بفصاحته وبلاغته ووجازته وحلاوته ، واشتماله على المعاني العزيزة النافعة في الدنيا والآخرة ، لا تكون إلا من عند اللَّه الذي لا يشبهه شيء في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه[٢] لا يشبه كلام المخلوقين ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وما كان هذا القرآن أن يفترىٰ من دون اللَّه** ﴾ أي : مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند اللَّه ، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿ **ولكن تصديق الذي بين يديه** ﴾ أي : من الكتب المتقدمة ، ومهيمنًا عليها[٣] ، ومبينًا لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل .

وقوله : ﴿ **وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين** ﴾ أي : وبيان الأحكام والحلال والحرام بيانًا شافيًا كافيًا ، حقًّا لا مرية فيه من اللَّه رب العالمين ، كما تقدم في حديث الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب(٤٠) : « **فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم** » . أي : خبر عما[٤] سلف وعما سيأتي ، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه اللَّه ويرضاه .

وقوله : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون اللَّه إن كنتم صادقين** ﴾ أي : إن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند اللَّه ، وقلتم كذبًا ومَيْنًا إن هذا من عند محمد ، فمحمد بشر مثلكم ، وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن فأتوا أنتم[٥] بسورة مثله . أي : من جنس هذا القرآن ، واستعينوا علىٰ ذلك بكل من قدرتم عليه : من إنس وجان .

وهذا هو المقام الثالث في التحدي ، فإنه تعالىٰ تحداهم ودعاهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد ، فلتعارضوه بنظير ما جاء به وحده ، واستعينوا[٦] بمن شئتم[٧] ، وأخبر أنهم لا يقدرون علىٰ ذلك ، ولا سبيل لهم إليه ، فقال تعالىٰ : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا** ﴾ ثم تقاصر معهم إلىٰ عشر سور منه ، فقال في أول سورة هود : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا**

(٤٠) - تقدم في « الفضائل » .

[١] - في ز : « سورة » .
[٢] - في ز : « وكلامه » .
[٣] - في ت : « عليه » .
[٤] - في ز ، خ : « ما » .
[٥] - في ز ، خ : « فأتوا أنتم » .
[٦] - في ت : « وليستعينوا » .
[٧] - في ت : « شاءوا » .

بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون اللَّه إن كنتم صادقين ﴾ . ثم تنازل إلى سورة ، فقال في هذه السورة : **﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون اللَّه إن كنتم صادقين ﴾** . وكذا في سورة البقرة وهي مدنية تحداهم بسورة منه ، وأخبر أنهم لايستطيعون ذلك أبدًا ، فقال : **﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ﴾** . الآية .

هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهىٰ في هذا الباب ، ولكن جاءهم من اللَّه ما لا قبل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة[١] [هذا الكلام وحلاوته ، وجزالته وطلاوته ، وإفادته وبراعته][٢]، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له ، وأشدهم له انقيادًا ، كما عرف السحرة لعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسىٰ - عليه السلام - لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من اللَّه ، وأن هذا لايستطاع لبشر إلا بإذن اللَّه .

وكذلك عيسىٰ - عليه السلام - بعث في زمان علماء الطب ومعالجة المرضىٰ ، فكان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ بإذن اللَّه ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد اللَّه ورسوله ؛ ولهذا جاء في الصحيح(٤١) عن رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم أنه قال : « **ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن علىٰ مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه اللَّه إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا** » .

وقوله : **﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾** يقول : بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه **﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾** أي : ولم يحصِّلوا ما فيه من الهدىٰ ودين الحق إلىٰ حين تكذيبهم به جهلًا وسفهًا **﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾** أي : من الأمم السالفة **﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾** أي : فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلمًا وعلوًّا وكفرًا وعنادًا وجهلًا ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم .

وقوله : **﴿ ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين ﴾** . أي : ومن هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن و[٣]يتبعك ، وينتفع بما أرسلت

---

(٤١) - أخرجه البخاري ، كتاب : فضائل القرآن ، باب : كيف نزل الوحيُ ، وأول ما نزل (٤٩٨١) ، ومسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (٢٣٩) (١٥٢) ، والنسائي في التفسير من الكبرى (١١١٢٩/٦) ، وأحمد (٢/ ٣٤١ ، ٤٥١) من حديث أبي هريرة .

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٣] - سقط من : ز .

به ، ﴿ **ومنهم من لا يؤمن به** ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿ **وربك أعلم بالمفسدين** ﴾ أي : و[١]هو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة[٢] فيضله ، وهو العادل الذي لا يجور ، بل يعطي كلًّا ما يستحقه تبارك وتعالى وتقدس وتنزه لا إله إلا هو .

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : وإن كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿ **فقل لي عملي ولكم عملكم** ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ **قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون** ﴾ إلى آخرها ، وقال إبراهيم الخليل وأتباعه لقومهم المشركين : ﴿ **إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدًا حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾ .

وقوله ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك** ﴾ [أي : ينظرون][٣] أي : يسمعون كلامك الحسن والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان، وفي هذا كفاية عظيمة ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطرش ، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله .

﴿ [**ومنهم من ينظر**][٤] **إليك** ﴾ وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوّتك لأولي البصائر والنُّهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما[٥] يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، والكافرون[٦] ينظرون إليك[٧] بعين الاحتقار ﴿ **وإذا رأوك إن يتخذونك إلا**

---

[١] - سقط من : ز .

[٢] - في ز : « الضلال » .

[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٤] - خ : « أين ينظرو » .

[٥] - في خ : « كما » .

[٦] - في ت : « وهؤلاء الكفار » .

[٧] - سقط من : ز ، خ .

هزوًا أهذا الذي بعث الله رسولًا إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلًا ﴾ .

ثم أخبر تعالىٰ أنه لا يظلم أحدًا شيئًا وإن كان قد هدىٰ به من هدىٰ ، وبصر به من العمىٰ ، وفتح به أعينًا عميًا ، وآذانًا صمًا ، وقلوبًا غلفًا ، وأضلّ به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ وفي الحديث : عن أبي ذر ، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل : « **يا عبادي، إني حرمت الظلم علىٰ نفسي ، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا – إلىٰ أن قال في آخره – يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه** » . رواه مسلم بطوله(٤٢) .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

يقول تعالىٰ مذكرًا للناس قيام الساعة ، وحشرهم من أجداثهم إلىٰ عرصات القيامة كأنهم[١] يوم يوافونها لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من النهار ، [كقوله : ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ ،][٢] و[٣]كقوله : ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرًا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يومًا** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة** ﴾ الآيتين ، وهذا كله دليل علىٰ استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة ، كقوله : ﴿ **قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم فاسأل العادّين * قال إن لبثتم إلا قليلًا لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾ .

وقوله : ﴿ **يتعارفون بينهم** ﴾ أي : يعرف الأبناء الآباء ، والقرابات بعضهم بعضًا[٤] كما كانوا في الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ **فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **ولا يسأل حميم حميمًا** ﴾ . الآيات .

---

(٤٢) – كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٥٥) (٢٥٧٧) .

---

[١] – سقط من خ .
[٢] – ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] – سقط من : ز
[٤] – في ز ، خ : « لبعض » .

وقوله : ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين** ﴾ كقوله تعالىٰ : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ ؛ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين ، فهذه هي الخسارة العظيمة [ولا خسارة أعظم من خسارة][١] من فرق بينه وبين أحبته[٢] يوم الحسرة والندامة .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

يقول تعالىٰ مخاطبًا لرسوله صلىٰ الله عليه وسلم : ﴿ **وإما نرينك بعض الذي نعدهم** ﴾ أي: ننتقم منهم[٣] في حياتك ؛ لتقر عينك منهم ﴿ **أو نتوفينك فإلينا مرجعهم** ﴾ أي : مصيرهم ومنقلبهم ، والله شهيد علىٰ أفعالهم بعدك .

وقد قال الطبراني(٤٣) : حدثنا عبد الله بن أحمد ، حدثنا عقبة بن مكرم ، حدثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا داود بن الجارود(*) ، عن [أبي الطفيل](**) ، عن حذيفة بن أسيد ، عن النبي ، صلىٰ الله عليه وسلم ، قال : « **عرضت عليَّ أمتي البارحة لدىٰ هذه الحجرة أولها و**[٤] **آخرها** » . فقال رجل : يا رسول الله ، [هذا][٥] عرض عليك من خلق فكيف [عرض عليك] من لم يخلق ؟ فقال : « **صوّروا لي في الطين حتىٰ أني لأعْرَف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه** » .

ورواه(٤٤) عن محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، عن عقبة بن مكرم ، عن يونس بن بكير ،

(٤٣) - في « المعجم الكبير » (٣٠٥٥/٣) وانظر ما بعده .

(*) لم أجد ترجمة في كتب الرجال ، وظني والله أعلم - على الرغم من وقوعه في « المعجم الكبير » هكذا - أنه تصحيف أو تحريف قديم ولعله يكون هو نفسه زياد بن المنذر - كما في الإسناد الثاني - وكنيته أبو الجارود ، وقد ذكر الهيثمي هذا الحديث في « المجمع » (٧٢/١٠) وضعفه بزياد بن المنذر هذا دون أن يتعرض للإسناد الأول ، والله أعلم .

(**) في (ز ، خ) أبي السليل وهو تحريف وصوابه ما أثبتناه كما في « المعجم الكبير » (٣٠٥٥/٣) وكتب الرجال .

(٤٤) - الطبراني أيضًا في « الكبير » (٣٠٥٤/٣) ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٧٢/١٠) وقال : « رواه الطبراني وفيه زياد بن المنذر وهو كذاب » ، وقد أورده الألباني في « ضعيف الجامع الصغير » =

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

[٢] - في ز ، خ : « أخيه » .

[٣] - سقط من : خ .

[٤] - في ز : « إلى » .

[٥] - سقط من خ .

عن زياد بن المنذر ، عن أبي الطفيل ، عن حذيفة بن أسيد به نحوه .

وقوله : ﴿ **ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم** ﴾ قال مجاهد : يعني يوم القيامة .

﴿ **قُضِيَ بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** ﴾. كقوله تعالىٰ : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجئ بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون** ﴾ . فكل أمة تعرض علىٰ الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير وشر موضوع شاهد عليهم ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضًا ، أمة بعد أمة ، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق ، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة يفصل بينهم ويقضىٰ لهم ، كما جاء في الصحيحين(٤٥) عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال : « **نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضىٰ لهم قبل الخلائق** » . فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف[١] رسولها - صلوات الله وسلامه عليه - دائمًا[٢] إلىٰ يوم الدين .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

= (٣٧٠٣/٢٩/٤) وزاد نسبته إلى الضياء في « المختارة » .

(٤٥) - **صحيح** ، هكذا أورده المصنف ، وعزاه للصحيحين ، وإنما أخرجه مسلم ، كتاب : الجمعة ، ب: هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢٢) (٨٥٦) ، والنسائي ، كتاب : الجمعة ، باب : إيجاب الجمعة (٨٧/٣) ، وابن ماجة كتاب : إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب : في فرض الجمعة (١٠٨٣) من حديث حذيفة وأبي هريرة مرفوعًا بلفظ « ... **نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة - المقضى لهم قبل الخلائق** » وفي رواية : « **المقضى بينهم** » والجملة الأولى من الحديث أخرجها البخاري ، كتاب : الجمعة ، باب : فرض الجمعة (٨٧٦) - وانظر أطرافه عند رقم (٢٣٨) - ، ومسلم (٢١) (٨٥٥) وغيرهما من حديث أبي هريرة .

---

[١] - في ز : « لشرف » . [٢] - سقط من : ز ، خ .

يقول تعالىٰ مخبرًا عن كفر هؤلاء المشركين[١] في استعجالهم العذاب ، وسؤالهم عن وقته قبل التعيين ، مما لا فائدة [لهم فيه]، كقوله : ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق** ﴾ . أي : كائنة لا محالة ، وواقعة وإن لم يعلموا وقتها عينًا ، ولهذا أرشد تعالىٰ رسوله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم إلىٰ جوابهم فقال : ﴿ **قل لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء الله** ﴾ . أي : لا أقول إلا ما علمني ، ولا أقدر علىٰ شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني عليه ، فأنا عبده ورسوله إليكم ، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة وأنها كائنة ، ولم يطلعني علىٰ وقتها ولكن[٢] ﴿ **لكل أمة أجل** ﴾ أي : لكل قرن مدة من العمر مقدرة[٣]، فإذا انقضىٰ أجلهم ﴿ **فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ ، كقوله : ﴿ **ولن يؤخر اللّٰه نفسًا إذا جاء أجلها** ﴾ . الآية . ثم أخبرهم أن عذاب اللّٰه سيأتيهم بغتة ؛ فقال : ﴿ **قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتًا أو نهارًا** ﴾ [أي : ليلًا أو نهارًا][٤] ﴿ **ماذا يستعجل منه المجرمون * أثم إذا ما وقع آمنتم به** [**آلآن وقد كنتم به تستعجلون** ﴾] يعني : أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا : ﴿ **ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحًا إنا موقنون** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا باللّٰه وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة اللّٰه التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾ .

﴿ **ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد** ﴾ أي : يوم القيامة يقال لهم هذا تبكيتًا وتقريعًا ، كقوله : ﴿ **يوم يدعون إلىٰ نار جهنم دعًّا هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ .

۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٥٣) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٤)

يقول تعالىٰ : ويستخبرونك أحق هو ؟ أي : المعاد والقيامة من الأجداث بعد صيرورة الأجسام ترابًا ﴿ **قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين** ﴾ أي : ليس صيرورتكم ترابًا بمعجز اللّٰه عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ، فإنما ﴿ **أمره**[٥] **إذا أراد شيئًا أن يقول له كن**

---

[١] - في ز ، خ : « المشركون » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز : « مقدر » .
[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٥] - في خ : « قوله » .

فيكون ﴾ .

وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان يأمر اللّه تعالىٰ رسوله أن يقسم به علىٰ من أنكر المعاد في[١] سورة سبأ : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلىٰ وربي لتأتينكم** ﴾ . وفي التغابن : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلىٰ وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك علىٰ اللّه يسير** ﴾ .

ثم أخبر تعالىٰ أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدىٰ من عذاب اللّه بملء الأرض ذهبًا ﴿ **وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط** ﴾ أي : بالحق ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ .

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

يخبر تعالىٰ أنه مالك السموات والأرض ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، وأنه يحيي ويميت[٢] وإليه مرجعهم ، وأنه القادر[٣] علىٰ ذلك ، العليم بما تفرق من الأجسام ، وتمزّق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

يقول تعالىٰ ممتنًا علىٰ خلقه بما [أنزل إليهم][٤] من القرآن العظيم علىٰ رسوله الكريم ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم** ﴾ أي : زاجر عن الفواحش ﴿ **وشفاء لما في الصدور** ﴾ أي : من الشبه[٥] والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس . ﴿ **وهدىً ورحمة** ﴾ أي : فحصل لها الهداية والرحمة من اللّه تعالىٰ ، وإنما ذلك للمؤمنين به ، والمصدقين والموقنين بما فيه ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا** ﴾ ، وقوله : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء**

---

[١] - سقط من: ز ، خ .
[٢] - في ت : « الموتىٰ » .
[٣] - في ز : « قادر » .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ت : « أنزله » .
[٥] - في خ : « التشبه » .

والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمي أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ .

وقوله تعالىٰ : **﴿ قل بفضل اللّٰه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾** أي : بهذا الذي جاءهم من اللّٰه من[١] الهدىٰ ودين الحق فليفرحوا ، فإنه أولىٰ ما يفرحون به [**﴿ هو خير مما يجمعون ﴾**][٢] أي : من حطام الدنيا ، وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة ، كما قال ابن أبي حاتم(٤٦) في تفسير هذه الآية وذكر بسنده[٣] عن بقية - يعني[٤] ابن الوليد عن صفوان بن عمرو : سمعت أيفع[٥] بن عبد الكلاعي يقول : لما قدم خراج العراق إلىٰ عمر - رضي اللّٰه عنه - خرج عمر ومولىٰ له ، فجعل عمر يعد الإبل ، فإذا هي[٦] أكثر من ذلك ، فجعل عمر يقول : الحمد للّٰه تعالىٰ . **﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾** ويقول مولاه : هذا واللّٰه من فضل اللّٰه ورحمته . فقال عمر : كذبت ، ليس هذا ، هو الذي يقول اللّٰه تعالىٰ : **﴿ قل بفضل اللّٰه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾** وهذا مما يجمعون .

وقد أسنده الحافظ أبو القاسم الطبراني(٤٧) فرواه عن أبي زرعة الدمشقي ، عن حيوة بن شريح ، عن بقية فذكره .

قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : وغيرهم[٧] نزلت إنكارًا علىٰ المشركين فيما كانوا [يحلون ويحرمون] من البحائر والسوائب والوصايل ، كقوله تعالىٰ : **﴿ وجعلوا للّٰه مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا ﴾** . الآيات .

(٤٦) - تفسير ابن أبي حاتم (٦/١٠٤٣٥) معلقًا عن بقية به وبقية يدلس ويسوي ولم يصرح هنا بالتحديث .
(٤٧) - لم أهتد إليه .

[١] - سقط من : ت .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - سقط من : ت .
[٥] - في ز : « أنفع » .
[٦] - سقط من : ز .
[٧] - سقط من : ز ، خ .

وقال الإمام أحمد(٤٨) : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي إسحاق ، سمعت أبا الأحوص - وهو عوف [بن مالك][١] بن نضلة - يحدث عن أبيه قال : أتيت رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم ، وأنا قَشِفُ الهيئة(*) ، فقال : « **هل لك مال ؟** » [قال][٢] قلت : نعم . قال : « **من أي المال** » ؟ قال : قلت : من كل المال ؛ من الإبل والرقيق والخيل والغنم[٣]. فقال[٤]: « **إذا آتاك اللّه مالاً فليُرَ عليك** » .وقال : « **هل تنتج [إبلك][٥] صحاحًا آذانها ، فتعمد إلىٰ موسىٰ فتقطع آذانها ، فتقول : هذه بُحرٌ(**) وتشقها ، أو[٦]تشق جلودها وتقول هذه صُرُم(***) ، وتحرمها عليك وعلىٰ أهلك** » . قال : نعم . قال : « **فإن ما آتاك اللّه عز وجل لك حل ، و[٧]ساعد اللّه أشد من ساعدك ، وموسىٰ اللّه أحد من موساك** » . وذكر تمام الحديث .

ثم رواه(٤٩) عن سفيان بن عيينة ، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو ، عن عمه أبي الأحوص . وعن بهز بن أسد(٥٠) ، عن حماد بن سلمة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبي الأحوص به ، وهذا حديث جيّد قوي الإِسناد .

---

(٤٨) - **صحيح** « المسند » (١٥٩٣٣) (٤٧٣/٣) ، وأخرجه من طرق عن أبي إسحاق به ، أحمد (٣/ ٤٧٣)، (١٣٧/٤) ، وأبو داود ، كتاب : اللباس ، باب : في غسل الثوب وفي الخلقان ، (٤٠٦٣) ، والترمذي ، كتاب : البر والصلة ، باب : ما جاء في الإحسان والعفو (٢٠٠٧) ، والنسائي (١٨٠/٨ - ١٨١ ، ١٨١، ١٩٦) ، وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » ، وصححه ابن حبان (٥٤١٦/١٢) ، والحاكم (١٨١/٤) ووافقه الذهبي ، وهو كما قالوا .

(*) - أي تاركًا للتنظيف والغسل . والقشف : يبس العيش . النهاية (٦٦/٤) .

(**) - جمع بحيرة ؛ كانوا إذا ولدت إبلهم سقبا بحروا أذنه : أي شقوها وقالوا : اللهم إن عاش ففتي وإن مات فذكيٌ ، فإذا مات أكلوه وسموه البحيرة . وقيل في تعريفها غير ذلك . انظر النهاية (١٠٠/١) .

(***) - هي جمع صريم ، وهو الذي صرمت أذنه : أي قطعت . النهاية (٢٦/٣)

(٤٩) - **كسابقه** « **المسند** » (١٧٢٧٧) (١٣٦/٤) . ومن طريق أحمد أخرجه الطبراني في « الكبير » (٦٢٢/١٩) ، وأخرجه البخاري في « خلق أفعال العباد » (٣١٦) ، والنسائي (١١/٧) ، وابن ماجة ، كتاب : الكفارات ، باب : من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها (٢١٠٩) ، والحميدي (٨٨٣) من طرق عن ابن عيينة به مختصرًا .

(٥٠) - **كسابقه** « المسند » (١٥٩٣٧) (٤٧٣/٣ - ٤٧٤) ، وأخرجه الطبراني في « الكبير » =

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « قال » .
[٣] - في ز : « النعم » .
[٤] - في ز : « قال » .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ت : « إبلك » .
[٦] - في ز : « و » .
[٧] - سقط من : ز .

وقد[١] أنكر [اللَّه] تعالىٰ علىٰ من حرم ما أحل [اللَّه] ، أو أحل ما حرم ، بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها ولا دليل عليها ، ثم توعدهم علىٰ ذلك يوم القيامة فقال : ﴿ **وما ظن الذين يفترون علىٰ اللَّه الكذب يوم القيامة** ﴾ أي : ما ظنهم أن[٢] نصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة .

وقوله : ﴿ **إن اللَّه لذو فضل علىٰ الناس** ﴾ قال ابن جرير : في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا .

قلت : ويحتمل أن يكون المراد : لذو فضل علىٰ الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم .

﴿ **ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾ بل يحرمون ما أنعم اللَّه به[٣] عليهم ، ويضيقون علىٰ أنفسهم ، فيجعلون بعضًا حلالًا وبعضًا حرامًا ، وهذا قد[٤] وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهلُ الكتابِ فيما ابتدعوه في دينهم .

وقال ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية(٥١) : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد بن أبي الحواري ، حدثنا رباح ، حدثنا عبد اللَّه بن سليمان ، حدثنا موسىٰ بن[٥] الصباح في قول الله عز وجل : ﴿ **إن اللَّه لذو فضل علىٰ الناس** ﴾ قال : إذا كان يوم القيامة يؤتىٰ بأهل ولاية اللَّه عز وجل ، فيقومون بين يدي اللَّه عز وجل ثلاثة أصناف قال[٦]: فيؤتىٰ برجل من الصنف الأول فيقول : « **عبدي ، لماذا عملت ؟ فيقول : يارب ، خلقت الجنة وأشجارها ، وثمارها وأنهارها ، وحورها ونعيمها ، وما أعددت لأهل طاعتك فيها ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري ، شوقًا إليها . قال : فيقول اللَّه تعالىٰ : عبدي ، إنما عملت للجنة ، هذه الجنة فادخلها ، ومن فضلي عليك أن أعتقك[٧] [من النار ، ومن][٨] [فضلي عليك أن أدخلك جنتي][٩] قال : فيدخل[١٠] هو ومن معه الجنة . قال : ثم يؤتىٰ [برجل من**

= (٦٢٣/١٩) من طريق هدبة بن خالد ، ثنا حماد بن سلمة به .

(*) في تفسيره (١٢٨/١١) .

(٥١) - تفسير ابن أبي حاتم (١٠٤٤٥/٦) .

[١] - في ز : « فقد » .
[٢] - في خ : « ما » .
[٣] - سقط من : ز .
[٤] - سقط من : خ .
[٥] - في ز ، خ : « ابن أبي » .
[٦] - سقط من : ت .
[٧] - في خ : « أعتقتك » .
[٨] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٩] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[١٠] - سقط من خ .

الصنف][١] الثاني ، [قال][٢] فيقول : عبدي لماذا[٣] عملت ؟ فيقول : يارب ، خلقت نارًا ، وخلقت أغلالها وسعيرها ، وسمومها ويحمومها ، وما أعددت لأعدائك وأهل معصيتك فيها ، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري خوفًا منها . فيقول : عبدي ، إنما عملت ذلك خوفًا من ناري ، فإني قد أعتقتك من النار ، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي . فيدخل هو ومن معه الجنة . ثم يؤتىٰ برجل من الصنف الثالث . فيقول : عبدي لماذا عملت ؟ فيقول : رب حبًا لك ، وشوقًا إليك ، وعزتك ، لقد أسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقًا إليك وحبًا لك . فيقول تبارك وتعالى : عبدي إنما عملت حُبًا لي وشوقًا إليّ ، فيتجلىٰ له الرب جل جلاله ويقول : هأنذا [فانظر][٤] إلي . ثم يقول : من فضلي عليك أن أعتقك من النار ، وأبيحك جنتي ، وأزيرك ملائكتي ، وأسلم عليك بنفسي . فيدخل هو ومن معه الجنة .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٦١)

يخبر تعالىٰ نبيّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق ، في كل ساعة وآن[٥] ولحظة ، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقالُ ذرّة في حقارتها وصغرها في السملوات [ولا في الأرض][٦]، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين ، كقوله : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات ، وكذلك الدواب السارحة في قوله : ﴿ **وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا علىٰ اللّه رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين** ﴾ .

فإذا[٧] كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء ، فكيف بعلمه[٨] بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وتوكل علىٰ العزيز الرحيم * الذي يراك حين**

---

[١] - في ز : « بالصنف » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من خ .
[٣] - في ز : « لما » .
[٤] - في ز : « انظر » .
[٥] - في ت : « وأوان » .
[٦] - في ت : « والأرض » .
[٧] - في خ : « وإذا » .
[٨] - في خ : « علمه » .

تقوم * وتقلبك في الساجدين ﴾ ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه ﴾ أي : إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راءون سامعون ، ولهذا قال صلىٰ اللّٰه عليه وسلم لما سأله جبريل عن الإحسان(٥٢) : « أن تعبد اللّٰه كأنك تراه فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » .

أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

يخبر تعالىٰ أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم ربهم ، فكل من كان تقيًا كان للّٰه وليًا ف[١] ﴿ لا خوف عليهم ﴾ أي[٢] : فيما يستقبلونه[٣] من أهوال الآخرة[٤] ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ علىٰ ما وراءهم في الدنيا .

وقال عبد اللّٰه بن مسعود(٥٣) وابن عباس(٥٤) وغير واحد من السلف : أولياء اللّٰه الذين إذا رءوا ذكر اللّٰه .

وقد ورد هذا في حديث مرفوع ؛ كما قال البزار(٥٥) :

(٥٢) - **صحيح** ، تقدم تخريجه [سورة الأعراف / آية ١٨٧] .

(٥٣) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه ابن جرير (١٣١/١١) عن سفيان بن وكيع ، ثنا زيد بن الحباب عن حبيب ابن أبي ثابت عن أبي وائل عن عبد الله فذكره ، وسفيان بن وكيع ساقط الحديث، وقد رواه القاسم بن محمد ابن أبي شيبة عن زيد بن الحباب به مرفوعًا ، أخرجه الطبراني « المعجم الكبير » (١٠٤٧٦/١٠) والقاسم هذا واهٍ متروك الحديث .

(٥٤) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه ابن جرير (١٣١/١١) وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى وهو ضعيف .

(٥٥) - ذكره الهيثمي في « المجمع » (٨١/١٠) قال : « رواه البزار عن شيخه علي بن حرب الرازي ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا » ، وأخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٢١٨) من طريق محمد بن سعيد به ، والنسائي في « التفسير » (١١٢٣٥/٦) من طريق عثمان نا يعقوب به ، وأخرجه الطبراني في « الكبير » (١٢٣٢٥/١٢) ومن طريقه أبو نعيم في « أخبار أصبهان » (٢٣٠/١ ، ٢٣١) ، والمقدسي في « المختارة » (١٠/رقم ١٠٤) عن أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة به ، ومن هذا الطريق ذكره الهيثمي =

[١] - في ز : « أنه » .
[٢] - سقط من : ز .
[٣] - في ز : « يستقبلون » .
[٤] - في ز : « القيامة » .

حدثنا علي بن حرب الرازي ، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق ، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعري وهو القمي ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رجل : يا رسول الله ، من أولياء الله ؟ قال : « **الذين إذا رءوا ذكر الله** » . ثم قال البزار : وقد روي عن سعيد مرسلًا(٥٦) .

وقال ابن جرير(٥٧) : حدثنا أبو هشام الرفاعي ، حدثنا ابن[١] فضيل ، حدثنا أبي ، عن عمارة بن القعقاع ، عن أبي زرعة بن[٢] عمرو بن جرير البجلي ، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **إن من عباد الله عبادًا يغبطهم الأنبياء والشهداء** » . قيل : من هم يا رسول الله ؛ لعلّنا نحبهم ؟ قال : « **هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوهم نور على منابرَ من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس** » . ثم قرأ : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون** ﴾ .

= في « المجمع » وقال : « رواه الطبراني ورجاله ثقات » قلت : جعفر هذا ، صدوق يهم - كما في « التقريب » - وقد اختلف عليه فيه فروي عنه عن سعيد بن جبير موصولًا - كما تقدم - ومرسلًا - وهو الآتي - .

(٥٦) - أخرجه ابن جرير (١١/١٣١ ، ١٣٢) ، وتابع جعفر بن أبي المغيرة على إرساله سهل أبو أسد القراري الحنفي - وهو ثقة - أخرجه ابن جرير أيضًا وابن المبارك في « الزهد » (٢١٧) ، وأخرجه أبو نعيم في « الحلية » (١/٦) (٧/٢٣١) من طريق بكير بن الأخنس عن سعيد مرسلًا ، وبهذا الإرسال أعل الشيخ الألباني الحديث في «الصحيحة» (٤/١٧٣٣) - وقد كان حسنه عند رقم (٤/١٦٤٦) - لكنه ظن أن طريق البزار ليس فيها - جعفر بن أبي المغيرة ، فقال بعد كلام الهيثمي المذكور أولًا - فالظاهر أنه من طريق أخرى غير الأولى فالحديث به يتقوى ، وعلي بن حرب الرازي لعله الطائي الرازي فإنه من هذه الطبقة ، وهو صدوق فاضل ، والله أعلم » ، كذا قال الشيخ ، وقد تبين أن إسناد البزار الموصول فيه جعفر بن أبي المغيرة وهو سبب إعلال الحديث ، والصحيح في الحديث الإرسال والله أعلم .

(٥٧) - « التفسير » لابن جرير (١١/١٣٢) ، وأخرجه النسائي في « التفسير » من الكبرى (٦/١١٢٣٦) ، والبيهقي في «الشعب» (٦/٨٩٩٧) من طريقين عن محمد بن فضيل به ، وقد رواه ابن فضيل عن عمارة بن القعقاع مباشرة دون واسطة أبيه ، أخرجه أبو يعلى (١٠/٦١١٠) ، وعنه ابن حبان (٢/٥٧٣ - الإحسان) و(٨/٢٥٠٨ - موارد) وهذا إسناد حسن إلا أن البيهقي أعله فقال : « كذا قال عن أبي هريرة ، وهو وهم ، والمحفوظ عن أبي زرعة عن عمر بن الخطاب - يأتي بعد هذا الحديث - ، وأبو زرعة عن عمر مرسلًا » .

وله طريق آخر عن أبي هريرة أخرجه البزار (٢/٢٣١٠ - مختصر الزوائد) لكن في إسناده جهالة كما قال ابن حجر ، ومن قبله قال شيخه الهيثمي في « المجمع » (١٠/٢٨٠) : « فيه من لم أعرفهم » . والحديث زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٣/٥٥٧) إلى ابن أبي الدنيا وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه .

[١] - في ز : « أبو » . [٢] - في ت : « عن » .

ثم رواه أيضًا(٥٨) أبو[١] داود من حديث جرير ، عن عمارة بن القعقاع ، عن أبي زرعة ابن عمرو بن جرير ، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ، عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله .

وهذا أيضًا إسناد جيد إلا أنه منقطع بين أبي زرعة وعمر بن الخطاب ، والله أعلم .

وفي حديث الإمام أحمد(٥٩) : عن أبي النضر ، عن عبد الحميد بن بهرام ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « **يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله وتصافوا في الله ، يضع الله لهم يوم[٢] القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها ، يفزع الناس ولا يفزعون ، وهم أولياء الله الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون** » . والحديث متطول .

(٥٨) - « التفسير » لابن جرير (١٣٢/١١) ، وأبو داود ، كتاب : البيوع ، باب : في الرهن (٣٥٢٧) ، وابن أبي حاتم (١٠٤٥٣/٦) ، والبيهقي في « الشعب» (٨٩٩٨/٦) ، وأخرجه البيهقي أيضًا (٨٩٩٩) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٥/١) من طريق قيس بن الربيع ثنا عمارة بن القعقاع به ، وأخرجه هناد في « الزهد » (٤٧٤/٢) من طريق عمرو بن مرة عن طلق عن عمر بن الخطاب فذكره بنحوه ، لكن قال أبو زرعة - كما في « جامع التحصيل » للعلائي (ص٢٠٢) - : « طلق بن حبيب عن عمر - رضي الله عنه - مرسل » ، والحديث زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٥٥٧/٣) إلى ابن مردويه .

(٥٩) - « المسند » (٢٣٠١٣) (٣٤٣/٥) ، وأخرجه ابن المبارك في « الزهد » (٧١٤) ، وابن جرير (١١/ ١٣٢) وابن أبي حاتم (١٠٤٥٢/٦) من طريق عبد الحميد بن بهرام به ، وأخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (٢٠٣٢٤/١١) ومن طريقه الطبراني في « الكبير » (٣٤٣٣/٣) ، والبيهقي في «الشعب» (٦/ ٩٠٠١) عن معمر عن ابن أبي حسين عن شهر بن حوشب عن أبي مالك الأشعري فذكره بنحوه وأخرجه الطبراني (٣٤٣٤) من طريق آخر عن شهر بن حوشب عن أبي مالك وليس فيه عبد الرحمن بن غَنم ، وأخرجه أبو يعلى (٦٨٤٢/١٢) ، والطبراني (٣٤٣٥) من طريق أبي المنهال ثنا شهر بن حوشب قال : كان منا رجل معشر الأشعريين .... يقال له مالك أو ابن مالك تم ذكر الحديث ، وشهر بن حوشب فيه ضعف يسير ، قال عنه الحافظ في « التقريب » : صدوق كثير الإرسال والأوهام ، وذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » (٢١/٤ ، ٢٢) وقال : « رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن والحاكم وقال : صحيح الإسناد » وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٧٩/١٠ ، ٢٨٠) وقال : « رواه كله أحمد والطبراني بنحوه .... ورجاله وثقوا » وقال عن رواية أبي يعلى : « ... رجاله رجال الصحيح غير شهر بن حوشب وقد وثقه غير واحد » والحديث زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٥٥٨/٣) إلى ابن أبي الدنيا في « كتاب الإخوان » وابن مردويه .

[١] - في ز ، خ : « وأبو » .

[٢] - في ز : « في » .

وقال الإمام أحمد(٦٠) : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا سفيان ، عن الأعمش ، عن ذكوان أبي صالح ، عن رجل ، عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - ، عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم في قوله : ﴿ **لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ قال : « **الرؤيا الصالحة ، يراها المسلم أو تُرَىٰ له** » .

وقال ابن جرير(٦١) : حدثني أبو السائب ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبي صالح ، عن عطاء بن يسار ، عن رجل من أهل مصر ، عن أبي الدرداء في قوله : ﴿ **لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ قال : سأل رجل أبا[١] الدرداء عن هذه الآية فقال : لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدًا[٢] سأل عنه بعد رجل سأل[٣] عنه رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ، فقال[٤]: « **هي الرؤيا الصالحة ، يراها الرجل المسلم أو تُرىٰ له ، بشراه في الحياة الدنيا ، وبشراه في الآخرة الجنة**[٥]» . ثم رواه ابن جرير(٦٢) [من حديث][٦] سفيان عن ابن[٧] المنكدر عن عطاء بن يسار ، عن رجل من أهل مصر : أنه سأل أبا الدرداء عن هذه الآية فذكر نحو ما تقدم .

ثم[٨] قال ابن جرير(٦٣) : حدثني المثنىٰ ، حدثنا حجاج بن منهال ، حدثنا حماد بن

---

(٦٠) - **إسناده فيه جهالة** ، « **المسند** » (٢٧٦١٧) (٦/٤٤٥) ومن طريق عبد الرزاق أخرجه ابن جرير (١١/١٣٥) ، وانظر ما بعده .

(٦١) - **كسابقه** ، تفسير ابن جرير (١١/١٣٤) ، وأخرجه أحمد (٢٧٦٦٣) (٦/٤٥٢) ثنا أبو معاوية به ، وأخرجه أيضًا (٢٧٦٢٧) (٦/٤٤٧) ، وابن جرير (١١/١٣٥) وابن أبي شيبة في « المصنف» ، كتاب : الإيمان والرؤيا ، باب : ما قالوا في تعبير الرؤيا (٧/٢٣٠) ، والبيهقي في «الشعب» (٤/٤٧٥١) ، وعلقه ابن عبد البر في « التمهيد » (٥/٥٩) من طرق عن الأعمش به ، وتابعه عبد العزيز بن رفيع عن أبي صالح به أخرجه أحمد (٢٧٦٢٨) (٦/٤٤٧) ، والترمذي ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : ومن سورة يونس (٣١٠٥) ، وابن جرير (١١/١٣٦) ، والحاكم (٤/٣٩١) شاهدًا ، والحميدي في مسنده (٣٩١ ، ٣٩٢) ومن طريقه البيهقي في « الشعب » (٤٧٥٢) ، وابن عبد البر في « التمهيد » وقال : « هذا حديث حسن في التفسير المرفوع صحيح من نقل أهل المدينة » وفيه جهالة لكن له طريق موصول يأتي (٦٣) .

(٦٢) - **كسابقه ، تفسير ابن جرير** (١١/١٣٤)، وأحمد (٢٧٦٢٨) (٦/٤٤٧)، والترمذي ، كتاب : الرؤيا ، باب : قوله : ﴿ **لهم البشرى في الحياة الدنيا** ﴾ (٢٢٧٤) ، (٣١٠٥) وحسنه ، وانظر ما بعده ، وما قبله .

(٦٣) - **إسناده حسن من أجل عاصم بن بهدلة** ، تفسير ابن جرير (١١/١٣٦) ، وأخرجه أيضًا ، وابن =

---

[١] - في ز : « أبو » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز : « سألت » .
[٤] - في ز : « قال » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - في خ : « عن » .
[٧] - في خ : « أبي » .
[٨] - في ز : « و » .

زيد، عن عاصم بن بهدلة، عن أبي صالح قال: سمعت أبا الدرداء سئل عن [هذه الآية][١] ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرىٰ﴾ فذكر نحوه سواء.

وقال الإمام أحمد(٦٤): حدثنا عفان حدثنا أبان، حدثنا يحيىٰ، عن أبي سلمة، عن عبادة بن الصامت: أنه سأل رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم فقال: يا رسول اللَّه، أرأيت قول اللَّه تعالىٰ: ﴿لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فقال: «**لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد من أمّتي - أو قال**[٢]: «**أحد قبلك**» قال[٣]: «**تلك الرؤيا الصالحة، يراها الرجل الصالح أو تُرىٰ له**».

وكذا رواه أبو داود الطيالسي(٦٥) عن عمران القطان، عن يحيىٰ بن أبي كثير به.

ورواه الأوزاعي(٦٦): عن يحيىٰ بن أبي كثير فذكره، ورواه علي بن المبارك(٦٧)، عن يحيىٰ، عن أبي سلمة قال: نبئنا عن عبادة بن الصامت: سأل رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم عن هذه الآية فذكره.

وقال ابن جرير(٦٨): حدثني أبو حميد الحمصي، حدثنا يحيىٰ بن سعيد، حدثنا عمر بن

= أبي شيبة في «المصنف» (٢٣١/٧) ثنا أبو بكر بن عياش، عن عاصم به.

(٦٤) - **إسناده فيه انقطاع بين أبي سلمة وعبادة**، «**المسند**» (٢٢٧٩١) (٣١٥/٥)، وأخرجه الدارمي، كتاب: الرؤيا، باب: في قوله تعالى: ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا**﴾ (٢١٤٢)، وابن جرير (١١/ ١٣٤، ١٣٦) من طريق أبان به، وانظر ما بعده.

(٦٥) - **كسابقه**، لم أقف عليه في «المطبوع» من مسنده، وأخرجه من طريقه الترمذي، كتاب: الرؤيا، باب: قوله: ﴿**لهم البشرى في الحياة الدنيا**﴾ (٢٢٧٦) مقرونًا بـ«عمران القطان» حرب بن شداد، وطريق حرب أخرجه الطيالسي (٥٨٣)، وأحمد (٢٢٨٤٥)(٣٢١/٥)، والحاكم (٣٩١/٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤٧٥٣/٤)، وقال الترمذي: «حديث حسن». والحاكم وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، كذا قالوا، وقد أفاد المزي في ترجمة «أبي سلمة بن عبد الرحمن» أنه لم يسمع من عبادة بن الصامت والله تعالى أعلم.

(٦٦) - أخرجه ابن جرير (١٣٣/١١، ١٣٥).

(٦٧) - أخرجه أحمد (٢٢٧٩٠) (٣١٥/٥)، وابن ماجة، كتاب: تعبير الرؤيا، باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له (٣٨٩٨)، وابن جرير (١٣٤/١١، ١٣٦) - وفي المطبوع منه تحريفات مزرية نبه عليها العلامة محمود شاكر عند تحقيقه له (١٧٧٢١) - والحاكم (٣٤٠/٢) وقال: «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي، وقد تبين لك ما فيه، فانظر ما تقدم قبله.

(٦٨) - تفسير ابن جرير (١٣٤/١١)، وأخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨٧/١) من طريق صفوان=

---

[١] - سقط من: خ.
[٢] - سقط من: ز.
[٣] - سقط من: ت.

عمرو بن عبد الأحموسي عن حميد بن عبد الله المزني قال : أتى رجل عبادة بن الصامت فقال : آية في كتاب الله أسألك عنها : قول الله تعالى : ﴿ **لهم البشرى في الحياة الدنيا** ﴾ ؟ فقال عبادة : ما سألني عنها أحد قبلك ، سألت عنها نبي الله ؟ فقال مثل ذلك : « **ما سألني عنها أحد قبلك ، الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن في المنام أو ترىٰ له** » .

ثم رواه(٦٩) من حديث موسىٰ بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد بن صفوان ، عن عبادة بن الصامت ؛ أنه قال لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم : ﴿ **لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ فقد عرفنا بشرىٰ الآخرة الجنة ، فما بشرىٰ الدنيا ؟ قال : « **الرؤيا الصالحة يراها العبد المؤمن[١] أو ترىٰ له ، وهي جزء من أربعة وأربعين جزءًا أو سبعين جزءًا من النبوة** » .

وقال الإمام أحمد أيضًا(٧٠) : حدثنا بهز ، حدثنا حماد ، حدثنا أبو عمران ، عن عبد الله ابن الصامت ، عن أبي ذر أنه قال : يا رسول الله ؛ الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ، ويثنون عليه به ؟ فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **تلك عاجل بشرىٰ المؤمن** » . رواه مسلم .

وقال أحمد أيضًا(٧١) : حدثنا حسن - يعني الأشيب - حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال : « ﴿ **لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ - قال - الرؤيا الصالحة يُبَشَّرُها المؤمن هي جزء[٢] من تسعة وأربعين جزءًا من النبوة ، فمن رأىٰ ذلك[٣] فليخبر بها ، ومن

= ابن عمرو عن حميد بن عبد الرحمن فذكره بزيادة فيه ، كذا وقع « حميد بن عبد الرحمن » وهو ثقة ، إلا أن الشيخ الألباني أفاد أن راوى هذا الحديث إنما هو حميد بن عبد الله ، وأن حميد بن عبد الرحمن خطأ من ناسخ الكتاب ، وقد صححه الشيخ أيضًا في « الصحيحة » (١٧٨٦/٤) .

(٦٩) - **إسناده ضعيف** ، (١٣٥/١١) ، وموسى بن عبيدة ضعيف ، وأيوب بن خالد ، لم أقف على من صرح بأن له رواية عن عبادة بن الصامت ، والله أعلم .

(٧٠) - **صحيح** ، (٢١٤٥٩) (١٥٦/٥) ، وأخرجه أيضًا (٢١٥٥٨) (١٦٨/٥) ، ومسلم ، كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : إذا أثنى على الصالح فهى بشرى ولا تضره (١٦٦) (٢٦٤٢) ، وابن ماجة ، كتاب : الزهد ، باب : الثناء الحسن (٤٢٢٥) من طريق أبي عمران الجوني به .

(٧١) - **إسناده ضعيف لضعف ابن لهيعة** ، « **المسند** » (٢١٩/٢ - ٢٢٠) وذكره الهيثمي في « المجمع » (١٧٨/٧) وقال : « رواه أحمد من طريق ابن لهيعة عن دراج وحديثهما حسن ، وفيهما ضعف ، =

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - سقط من : ز ، خ . [٣] - سقط من : ز ، خ .

رأىٰ سوىٰ ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه ، فلينفث عن يساره ثلاثًا ، وليسكتْ(*) ولا يخبر بها أحدًا » . لم يخرجوه .

وقال ابن جرير(٧٢) : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، حدثني عمرو بن الحارث ، أن دراجًا أبا السمح حدثه ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن عبد اللّٰه بن عمرو ، عن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم أنه قال : « ﴿**لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا**﴾ الرؤيا الصالحة يشربها(**) المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » .

وقال أيضًا(٧٣) : حدثني محمد بن حاتم المؤدب ، حدثنا عمار بن محمد ، حدثنا الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلىٰ اللّٰه عليه وسلم ﴿ **لهم البشرىٰ في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ قال : « **هي في الدنيا الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترىٰ له ، وهي في الآخرة الجنة** » .

ثم رواه(٧٤) عن أبي كريب ، عن أبي بكر بن عياش ، عن أبي حصين ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة أنه قال : الرؤيا الحسنة بشرىٰ من اللّٰه ، وهي من المبشرات .

هكذا رواه من هذه الطريق موقوفًا .

وقال أيضًا(٧٥) : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر ، حدثنا هشام ، عن ابن سيرين ، عن

= وبقية رجاله ثقات » وانظر ما بعده .

(*) في (خ ، ز) : « وليكبر » ، والمثبت من المسند وهو أشبه بالصواب » .

(٧٢) - **إسناده حسن من أجل دراج أبي السمح** ، تفسير ابن جرير (١٣٧/١١) ، وأخرجه البيهقي في « الشعب » (٤٧٦٤/٤) من طريق ابن وهب به مطولاً ، وله طريق آخر عند ابن جرير (١٣٥/١١) وفي إسناده رشدين بن سعد وهو ضعيف . وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٥٥٩/٣) إلى أبي الشيخ وابن مردويه .

(**) في (خ ، ز) : « يبشرها » ، والمثبت من ابن جرير .

(٧٣) - تفسير ابن جرير (١٣٥/١١) ، وعمار بن محمد صدوق يخطئ ، كما في « التقريب » ، وأخرجه مسلم ، كتاب : الرؤيا (٨) (٢٢٦٣) ، وأحمد (٤٩٥/٢) من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعًا بلفظ « **رؤيا المسلم يراها أو ترى له ، جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة** » .

(٧٤) - تفسير ابن جرير (١٣٥/١١) ، وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » ، كتاب : الرؤيا ، باب : ما قالوا في تعبير الرؤيا (٢٣١/٧) ثنا أبو بكر بن عياش بهذا الإسناد ، وأخرج البخاري ، كتاب : التعبير ، باب : المبشرات (٦٩٩٠) عن أبي هريرة مرفوعًا « **لم يبق من النبوة إلا المبشرات** » . قالوا وما المبشرات ؟ قال : « **الرؤيا الصالحة** » .

(٧٥) - **صحيح** ، تفسير ابن جرير (١٣٤/١١ - ١٣٥) ، وأخرج البخاري (٧٠١٧) ، ومسلم (٦) (٢٢٦٣) وغيرهما من طريق محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعًا - ضمن حديث طويل -: «... **فالرؤيا الصالحة بشرى من الله** ....» .

أبي هريرة ؛ قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **الرؤيا الحسنة هي البشرىٰ يراها المسلم أو ترىٰ له** » .

وقال ابن جرير(٧٦) : حدثني أحمد بن حماد الدولابي ، حدثنا سفيان ، عن عبيد الله بن أبي يزيد ، عن أبيه ، عن سباع بن ثابت ، عن أم كرز الكعبية ، سمعت رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يقول : « **ذهبت النبوة وبقيت المبشرات** » .

وهكذا روي عن ابن مسعود(٧٧) وأبي هريرة(٧٨) ، وابن عباس(٧٩) ومجاهد ، وعروة بن الزبير ، ويحيىٰ بن أبي كثير ، وإبراهيم النخعي ، وعطاء بن أبي رباح وغيرهم[١]؛ أنهم فسروا ذلك بالرؤيا الصالحة .

وقيل : المراد بذلك[٢] بشرىٰ الملائكةِ للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم** ﴾ .

وفي حديث البراء(٨٠) - رضي الله عنه - أن المؤمن إذا حضره الموت ، جاءه ملائكة بيض الوجوه ، بيض الثياب ، فقالوا : اخرجي أيتها الروح الطيبة ؛ إلىٰ روح وريحان ورب غير غضبان ، فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء .

وأما بشراهم في الآخرة فكما قال تعالىٰ : ﴿ **لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **يوم ترىٰ المؤمنين والمؤمنات يسعىٰ**

---

(٧٦) - **صحيح** ، تفسير ابن جرير (١١/١٣٥) ، وأخرجه الحميدي (٣٤٨)- ومن طريقه ابن عبد البر في «التمهيد» (٥/٥٧) ، وأحمد (٢٧٢٥٣) (٦/٣٨١) ، وابن ماجة ، كتاب : تعبير الرؤيا ، باب : الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له (٣٨٩٦) ، والدارمي (٢١٤٤) من طريق سفيان بن عيينة به وقال البوصيري في « الزوائد » (٣/٢١٢) « هذا إسناد صحيح رجاله ثقات » وصححه ابن حبان (١٣/٦٠٤٧) ، وأبو زيد والد عبيد الله وهو المكي لم يرو عنه غير ابنه ، ووثقه ابن حبان (٧/٦٥٧) والعجلي (ت ٢٠٦٦) وكلاهما معروف بتساهله ، لكن يشهد له حديث أبي هريرة المتقدم تخريجه - تحت رقم (٧٤) .

(٧٧) - **صحيح موقوف** ، أخرجه ابن جرير (١١/١٣٧) .

(٧٨) - تقدم برقم (٧٤) .

(٧٩) - أخرجه ابن جرير (١١/١٣٧) ، وابن أبي شيبة في « المصنف » (٧/٢٣٢) من طريق جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عنه ، وأخرجه ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عنه به .

(٨٠) - **صحيح** ، يأتي (سورة إبراهيم / آية ٢٧) .

---

[١] - سقط من : ز ، خ . [٢] - في ز : « من ذلك » .

نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

وقوله : ﴿ **لا تبديل لكلمات اللَّه** ﴾ أي : هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير ، بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٦٦) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٧)

يقول تعالىٰ لرسوله صلىٰ اللَّه عليه وسلم : ﴿ **ولا يحزنك** ﴾ قول هؤلاء المشركين واستعن باللَّه عليهم وتوكل عليه ، فـ ﴿**إن العزة للَّه جميعًا** ﴾ أي : جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿ **هو السميع العليم** ﴾ أي : السميع لأقوال عباده ، [العليم بأحوالهم][١] .

ثم أخبر تعالىٰ أن له ملك السموات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام ، وهي لا تملك شيئًا ، لاضرًا ولا نفعًا ، ولا دليل لهم علىٰ عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم وكذبهم وإفكهم .

ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل ليسكنوا فيه ، أي : يستريحون فيه من نصبهم وكلالهم وحركاتهم ﴿ **والنهار مبصرًا** ﴾ أي : مضيئًا لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ أي : يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ، ويستدلون علىٰ عظمة خالقها ومقدرها ومسيرها .

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٨) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٦٩) مَتَاعٌ فِي

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ز : « عليم بهم » .

ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

يقول تعالىٰ منكرًا علىٰ من ادعىٰ أن له ولدًا ﴿ **سبحانه هو الغني** ﴾ أي : تقدس عن ذلك ، هو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ﴿ **له ما في السموات وما في الأرض** ﴾ أي : فكيف يكون[١] له ولد مما خلق ، وكل شيء مملوك له عبد له ﴿ **إن عندكم من سلطانٍ بهذا** ﴾ أي : ليس عندكم دليل علىٰ ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿ **أتقولون علىٰ الله ما لا تعلمون** ﴾ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمنُ ولدًا * لقد جئتم شيئًا إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولدًا * وما ينبغي للرحمٰن أن يتخذ ولدًا * إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدًا * لقد أحصاهم وعدهم عدًّا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا** ﴾ .

ثم توعد تعالىٰ الكاذبين عليه المفترين ، ممن زعم أن له ولدًا ، بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة ، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلًا ثم يضطرهم[٢] إلىٰ عذاب غليظ ، كما قال تعالىٰ هاهنا : ﴿ **متاع في الدنيا** ﴾ أي : مدة قريبة ﴿ **ثم إلينا مرجعهم** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **ثم نذيقهم العذاب الشديد** ﴾ أي : الموجع المؤلم ﴿ **بما كانوا يكفرون** ﴾ أي : بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم علىٰ الله فيما ادعوه من الإفك والزور .

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

---

[١] - سقط من : ز . [٢] - سقط من : ز ، خ .

يقول تعالىٰ لنبيه - صلوات اللّٰه وسلامه عليه - : ﴿ **واتل عليهم** ﴾ أي : أخبرهم واقصص ﴿عليهم﴾ ، أي : علىٰ كفار مكة الذين يكذبونك ويخالفونك ﴿ **نبأ نوح** ﴾ أي : خبره مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم اللّٰه ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ، ليحذر هؤلاء أن يصيبهم من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿ **إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم** ﴾ أي : عَظُمَ عليكم ﴿ **مقامي** ﴾ أي : فيكم بين أظهركم ﴿ **وتذكيري** ﴾ إياكم ﴿ **بآيات اللّٰه** ﴾ أي : بحججه وبراهينه ﴿ **فعلىٰ اللّٰه توكلت** ﴾ أي : فإني لا أبالي ولا أكف[١] عنكم ، سواء عظم عليكم أو لا ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم** ﴾ أي : فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون اللّٰه من صنم ووثن ﴿ **ثم لا يكن أمركم عليكم غمة** ﴾ أي : ولا تجعلوا أمركم عليكم[٢] ملتبسًا ، بل افصلوا حالكم معي ، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون ﴿ **فاقضوا إلي ولا تنظرون** ﴾ أي : ولا تؤخروني ساعة واحدة ، أي : مهما قدرتم فافعلوا فإني لا أباليكم[٣] ولا أخاف منكم ؛ لأنكم[٤] لستم علىٰ شيء ، كما قال هود لقومه : ﴿ **إني أشهد اللّٰه واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعًا ثم لا تنظرون * إني توكلت علىٰ اللّٰه ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم** ﴾ .

وقوله[٥]: ﴿ **فإن توليتم** ﴾ أي : كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ **فما سألتكم من أجر** ﴾ أي : لم أطلب منكم علىٰ نصحي إياكم شيئًا ﴿ **إن أجري إلا علىٰ اللّٰه وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ أي : [وأنا ممتثل][٦] ما أمرت به من الإسلام للّٰه - عز وجل - والإسلام هو دين جميع الأنبياء من أولهم إلىٰ آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم وتعددت مناهجهم ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجًا** ﴾ قال ابن عباس(٨١) : سبيلًا وسنة .

فهذا نوح يقول : ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾ ، وقال تعالىٰ عن إبراهيم الخليل : ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ يا بني إن اللّٰه اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ ، وقال يوسف : ﴿ **رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين** ﴾ ، وقال موسىٰ : ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم باللّٰه فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ ، وقالت السحرة : ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين** ﴾ ، وقالت بلقيس : ﴿ **رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان للّٰه رب**

---

(٨١) - تقدم (المائدة/ آية ٤٨) .

---

[١] - في ز ، خ : « أفكر » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز : « أبالكم » .
[٤] - في ز : « أنكم » .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : « اتل متثل » .

العالمين ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدىً ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **وإذ أوحيت إلىٰ الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾ ، وقال خاتم الرسل وسيد البشر صلىٰ اللَّه عليه وسلم : ﴿ **إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي للَّه رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ أي : من هذه الأمة ، ولهذا قال في الحديث الثابت عنه(٨٢) : « **نحن - معاشر الأنبياء - أولاد علات** ، و[١]**ديننا واحد** » . أي : هو عبادة اللَّه وحده لا شريك له وإن تنوعت شرائعنا ، و ذلك معنىٰ قوله : « **أولاد علّات** » ، وهم الإِخوة من أمّهات شتىٰ والأب واحد .

وقوله تعالىٰ : ﴿ **فكذبوه فنجيناه ومن معه** ﴾ أي : علىٰ دينه ﴿ **في الفلك** ﴾ وهي السفينة ﴿ **وجعلناهم خلائف** ﴾ أي : في الأرض ﴿ **وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾ أي : يا محمد ؛ كيف أنجينا المؤمنين وأهلكنا المكذبين .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالىٰ : ثم بعثنا من بعد [ ][٢] نوح ﴿ **رسلًا إلىٰ قومهم فجاءوهم بالبينات** ﴾ أي : بالحجج والأدلة والبراهين علىٰ صدق ما جاءوهم به ﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل** ﴾ أي : فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم ؛ بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة** ﴾ .

وقوله : ﴿ **كذلك نطبع علىٰ قلوب المعتدين** ﴾ أي : كما طبع اللَّه علىٰ قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم ، هكذا يطبع اللَّه علىٰ قلوب من أشبههم ممن[٣] بعدهم ، ويختم علىٰ قلوبهم فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم .

والمراد أن اللَّه تعالىٰ أهلك الأمم المكذبة للرسل ، وأنجىٰ من آمن بهم ، وذلك من بعد نوح

---

(٨٢) - أخرجه البخاري ، كتاب : الأنبياء ، باب : قول الله : ﴿ **واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها** ﴾ (٣٤٤٢) ، ومسلم ، كتاب : الفضائل ، باب : فضائل عيسى عليه السلام (١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥) (٢٣٦٥) ، وأحمد (٢/٣١٩ ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ، ٤٨٢ ، ٥٤١) من حديث أبي هريرة .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « قوم » . [٣] - في ز : « من » .

- عليه السلام - فإن الناس كانوا من قبله من[١] زمان آدم - عليه السلام - [على الإسلام][٢]، إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحًا - عليه السلام - ولهذا يقول له المؤمنون يوم القيامة : « **أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض** »(٨٣) .

قال[٣] ابن عباس(٨٤) : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام .

وقال الله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرًا بصيرًا** ﴾ . وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد[٤] الرسل وخاتم الأنبياء والمرسلين ، فإنه إذا كان قد[٥] أصاب من كذب بتلك[٦] الرسل ما ذكره الله تعالى من العقاب والنكال ، فماذا ظن هؤلاء وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟ .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾

يقول تعالى : ﴿ **ثم بعثنا** ﴾ من بعد تلك الرسل ﴿ **موسى وهارون إلى فرعون وملئه** ﴾ أي : قومه ﴿ **بآياتنا** ﴾ أي : حججنا وبراهيننا ﴿ **فاستكبروا وكانوا قومًا مجرمين** ﴾ أي : استكبروا عن اتباع الحق والانقياد له ، [وكانوا قومًا مجرمين][٧] ﴿ **فلما جاءهم الحق من**

(٨٣) - أخرجه البخاري ، كتاب : التفسير ، باب : ﴿ **ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدًا شكورًا** ﴾ (٤٧١٢) ، ومسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : أدنى أهل الجنة منزلة فيها (٣٢٧) (١٩٤) ، والترمذي ، كتاب : صفة القيامة ، باب : ما جاء في الشفاعة (٢٤٣٦) ، والنسائي في التفسير من الكبرى (٦/ ١١٢٨٦) وابن ماجة مختصرًا كتاب : الأطعمة ، باب : أطايب اللحم (٣٣٠٧) ، وأحمد (٢/ ٣٣١ ، ٤٣٥) من حديث أبي هريرة .

(٨٤) - تقدم (سورة البقرة/ آية ٢١٣) ، ومن هذه السورة برقم (٢٠) .

[١] - في ز ، خ : « إلى » .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٣] - في ز : « فقال » .
[٤] - في ز : « بسيد » .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - في ز : « تلك » .
[٧] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ كأنهم - قبحهم الله - أقسموا علىٰ ذلك ، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ .

﴿ **قال** ﴾ لهم ﴿ **موسىٰ** ﴾ منكرًا عليهم ﴿ **أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا** ﴾ أي : تثنينا ﴿ **عما وجدنا عليه آباءنا**﴾ أي : الدين الذي كانوا عليه ﴿ **وتكون لكما** ﴾ أي : لك ولهارون ﴿ **الكبرياء** ﴾ أي : العظمة والرياسة ﴿ **في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ .

وكثيرًا ما يذكر اللَّه تعالىٰ قصة موسىٰ - عليه السلام - مع فرعون في كتابه العزيز ؛ لأنها من أعجب القصص ، فإن فرعون حذر من موسىٰ كل الحذر ، فَسَخَّرَهُ القَدَرُ أَنْ رَبَّىٰ هذا الذي يحذر منه علىٰ فراشه ومائدته بمنزلة الولد ، ثم ترعرع وعقد اللَّه له سببًا أخرجه من بين أظهرهم ، ورزقه النبوة والرسالة والتكليم ، وبعثه إليه ليدعوه إلىٰ اللَّه تعالىٰ ليعبده ويرجع إليه ، هذا مع ما كان عليه فرعون من عظمة المملكة والسلطان ، فجاءه برسالة اللَّه تعالىٰ ، وليس له وزير سوىٰ أخيه هارون - عليهما السلام - فتمرد فرعون واستكبر ، وأخذته الحمية ، والنفس الخبيثة الأبية ؛ وقوىٰ رأسه وتولىٰ بركنه ، وادعىٰ ما ليس له ، وتجهرم علىٰ اللَّه وعتىٰ وبغىٰ ، وأهان حِزْبَ الإيمان من بني إسرائيل ، واللَّه تعالىٰ يحفظ رسوله موسىٰ - عليه السلام - وأخاه هارون ، ويحوطهما بعنايته ، ويحرسهما بعينه التي لا تنام ، ولم تزل المحاجة والمجادلة والآيات تقوم علىٰ يد موسىٰ شيئًا بعد شيء ، ومرة[١] بعد مرة ، مما يبهر العقول ، ويدهش الألباب ، مما لا يقوم له شيء ، ولا يأتي به إلا من هو مؤيد من اللَّه ﴿ **وما تأتيهم من آية إلا هي أكبر من أختها** ﴾ وصمّم فرعون وملؤه ، قبحهم اللَّه ، علىٰ التكذيب بذلك كله ، والجحد والعناد والمكابرة ، حتىٰ أحل اللَّه بهم بأسه الذي لا يرد ، وأغرقهم في صبيحة واحدة أجمعين ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد للَّه رب العالمين** ﴾ .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

---

[١] - في ز ، خ : « وكرة » .

ذكر الله سبحانه قصة السحرة مع موسىٰ - عليه السلام - في سورة الأعراف ، وقد تقدم الكلام عليها هناك ، وفي هذه السورة وفي سورة طه وفي الشعراء وذلك أن فرعون - لعنه الله - أراد أن يتهرج علىٰ الناس ، ويعارض ما جاء به موسىٰ - عليه السلام - من الحق المبين ، بزخارف السحرة والمشعبذين ، فانعكس عليه النظام ، ولم يحصل له ذلك المرام ، وظهرت البراهين الإلهية في ذلك المحفل العام ﴿ **وألقي السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * ربِّ موسىٰ وهارون** ﴾ فظن فرعون [أنه ينتصر][١] بالسحار ، علىٰ رسول عالم الأسرار ، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار .

﴿ **وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرةُ قال لهم موسىٰ ألقوا ما أنتم ملقون** ﴾ وإنما قال لهم ذلك ؛ لأنهم لما اصطفوا وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿ **قالوا يا موسىٰ إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقىٰ * قال بل ألقوا** ﴾ . فأراد موسىٰ أن تكون البداءة منهم ليرىٰ الناس ما صنعوا ، ثم يأتي بالحق بعده فيدمغ[٢] باطلهم ؛ ولهذا لما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴿ **فأوجس في نفسه خيفة موسىٰ * قلنا لاتخف إنك أنت الأعلىٰ * وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتىٰ** ﴾ فعند ذلك قال موسىٰ لما ألقوا : ﴿ **ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون** ﴾ .

وقال ابن أبي حاتم(٨٥): حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا عبد الرحمن - يعني الدشتكي - أخبرنا أبو جعفر الرازي عن ليث - وهو ابن أبي سليم - قال : بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالىٰ ، تقرأ في إناء فيه ماء ، ثم يصب علىٰ رأس المسحور ؛ الآية التي من سورة يونس ﴿ **فلما ألقوا قال موسىٰ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون** ﴾ . والآية الأخرىٰ : ﴿ **فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون** ﴾ إلىٰ آخر أربع آيات ، وقوله : ﴿ **إن ما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ .

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

---

(٨٥) - تفسير ابن أبي حاتم (١٠٥١٤/٦) وزاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٥٦٤/٣) إلى أبي الشيخ .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ح : « أن يستنصر » . [٢] - في ز : « فيدفع » .

يخبر تعالىٰ أنه لم يؤمن بموسىٰ - عليه السلام - مع ما جاء به من الآيات البينات والحجج القاطعات والبراهين الساطعات ، إلا قليل من قوم فرعون من الذرية وهم الشباب ، علىٰ وجل وخوف منه ومن[١] ملئه أن يردوهم إلىٰ ما كانوا عليه من الكفر ، لأن فرعون [لعنه الله] كان جبارًا عنيدًا ، مسرفًا في التمرد والعتو ، وكانت له سطوة ومهابة تخاف رعيته منه خوفًا شديدًا .

قال العوفي(٨٦) ، عن ابن عباس : ﴿ **فما آمن لموسىٰ إلا ذرية من قومه علىٰ خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم** ﴾ قال : فإن الذرية التي آمنت لموسىٰ من أناس غير بني إسرائيل من قوم فرعون - يسير ، منهم امرأة فرعون ، ومؤمن آل فرعون ، وخازن فرعون وامرأة خازنه .

وروىٰ علي بن أبي طلحة(٨٧) ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ **فما آمن لموسىٰ إلا ذرية من قومه** ﴾ يقول : بني إسرائيل . وعن ابن عباس والضحاك وقتادة : الذرية : القليل .

وقال مجاهد في قوله : ﴿ **إلا ذرية من قومه** ﴾ قال : هم أولاد الذين أرسل إليهم موسىٰ من طول الزمان ومات آباؤهم .

واختار ابن جرير قول مجاهد في الذرية : أنها[٢] من بني إسرائيل لا من قوم فرعون ، لعود الضمير علىٰ أقرب المذكورين ، وفي هذا نظر ؛ لأنه أراد بالذرية الأحداث والشباب وأنهم من بني إسرائيل ، فالمعروف أن بني إسرائيل كلهم آمنوا بموسىٰ - عليه السلام - واستبشروا به ، وقد كانوا يعرفون نعته وصفته والبشارة به من كتبهم المتقدمة ، وأن الله تعالىٰ سينقذهم به من أسر فرعون ويظهرهم عليه ، ولهذا لما بلغ هذا فرعون حذر كل الحذر فلم يُجْدِ عنه شيئًا ، ولما جاء موسىٰ آذاهم فرعون أشد الأذىٰ و ﴿ **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسىٰ ربكم أن يُهْلِكَ عدوّكم ويستخلفكم في الأرض فينظرَ كيف تعملون** ﴾ . وإذا تقرر هذا فكيف يكون المراد : إلا ذرية من قوم موسىٰ وهم بنو إسرائيل ؟!

﴿ **علىٰ خوف من فرعون وملئهم** ﴾ أي : وأشراف قومه أن يفتنهم ، ولم يكن في بني إسرائيل من يخاف منه أن يفتن عن الإيمان سوىٰ قارون ، فإنه كان من قوم موسىٰ فبغىٰ

(٨٦) - **إسناده ضعيف** ، أخرجه ابن جرير (١١/١٥٠) ، وعطية العوفي ، ضعيف ، وقد روي عن ابن عباس خلاف ذلك ، وهو الآتي .

(٨٧) - أخرجه ابن جرير (١١/١٥٠) ، وابن أبي حاتم (٦/١٠٥١٦) ، وابن المنذر وأبو الشيخ ، كما في « الدر المنثور » (٣/٥٦٥) .

[١] - سقط من : خ . [٢] - سقط من : ز .

عليهم ، لكنه كان طاويًا إلىٰ فرعون متصلًا به متعلقًا بحباله . ومن قال : إن الضمير في قوله : ﴿ وملئهم ﴾ عائد إلىٰ فرعون وعظم الملك من أجل اتباعه أو بحذف[١] آل فرعون وإقامة المضاف إليه مقامه - فقد أبعد ، وإن كان ابن جرير قد حكاهما عن بعض النحاة . ومما يدل علىٰ أنه لم يكن في بني إسرائيل إلا مؤمن قوله تعالى :

وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

يقول تعالىٰ مخبرًا عن موسىٰ أنه قال لبني إسرائيل ﴿ **يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾ أي : فإن الله كاف من توكل عليه ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ ، ﴿ **ومن يتوكل علىٰ الله فهو حسبه** ﴾ ، وكثيرًا ما يقرن الله تعالىٰ بين العبادة والتوكل ، كقوله[٢] تعالىٰ : ﴿ **فاعبده وتوكل عليه** ﴾ ، ﴿ **قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا** ﴾ ، ﴿ **رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلًا** ﴾ ، وأمر الله تعالىٰ المؤمنين أن يقولوا في كل صلواتهم مرات متعددة : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ .

وقد امتثل بنو إسرائيل ذلك فقالوا : ﴿ **علىٰ الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين** ﴾ أي : [لا تظفرهم][٣] بنا وتسلطهم علينا ، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم علىٰ الحق ونحن علىٰ الباطل فيفتنوا بذلك ، هكذا روي عن أبي مجلز وأبي الضحىٰ .

وقال ابن أبي نجيح وغير واحد ، عن مجاهد : لاتعذبنا بأيدي قوم فرعون ولا بعذاب من عندك ، فيقول قوم فرعون : لو كانوا علىٰ حق ما عذبوا ولا سلطنا عليهم فيفتنوا[٤] بنا .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا ابن عيينة ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : ﴿ **ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين** ﴾ لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وقوله[٥]: ﴿ **ونجنا [برحمتك** ﴾ أي : خلصنا][٦] برحمة منك وإحسان ﴿ **من القوم الكافرين** ﴾ أي : الذين كفروا الحق وستروه ، ونحن قد آمنا بك وتوكلنا عليك .

---

[١] - في ز : « بخوف » ، خ : « تخوف » .
[٢] - في ز : « كما في قوله » .
[٣] - ما بين المعكوفتين في ز : « بظفرهم » .
[٤] - في ز : « ليفتتنوا » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

يذكر الله تعالىٰ سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أن الله تعالىٰ أمر موسىٰ وأخاه هارون - عليهما السلام - أن يتبوَّءا ، [أي : يتخذا][١] لقومهما بمصر بيوتًا .

واختلف المفسرون في معنىٰ قوله تعالى : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ فقال الثوري وغيره(٨٨) ، عن خصيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ قال : أُمِرُوا أن يتخذوها مساجد .

وقال الثوري أيضًا ، عن ابن منصور ، عن إبراهيم ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ قال : كانوا خائفين ، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم .

وكذا قال مجاهد وأبو مالك ، والربيع بن أنس والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبوه زيد بن أسلم ، وكأن هذا - والله أعلم - لما اشتد بهم البلاء من قِبَلِ فرعون وقومه وضيقوا عليهم ، أمروا بكثرة الصلاة ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ وفي الحديث(٨٩) : كان رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلَّىٰ أخرجه أبو داود ؛ ولهذا قال تعالىٰ في هذه الآية : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين** ﴾ أي : بالثواب والنصر القريب .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال : قالت بنو إسرائيل لموسىٰ - عليه السلام - : لا نستطيع أن نُظهرَ صلاتَنا مع الفراعنة ، فأذن الله تعالىٰ لهم أن يصلوا في بيوتهم ، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قِبَلَ القبلة .

وقال مجاهد : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ قال[٢]: لما خاف بنو إسرائيل من فرعون أن يقتلوا في الكنائس الجامعة ، أمروا أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرًّا . وكذا قال قتادة والضحاك ، وقال سعيد بن جبير : ﴿ **واجعلوا بيوتكم قبلة** ﴾ أي :

---

(٨٨) - أخرجه ابن جرير (١٥٣/١١) ، وابن أبي حاتم (١٠٥٢٩/٦) ، والفريابي وابن المنذر ، وأبو الشيخ وابن مردويه ، كما في « الدر المنثور » (٥٦٦/٣) .

(٨٩) - **حسن** ، يأتي (سورة الحجر / آية ٩٩) .

---

[١] - سقط من : خ . [٢] - سقط من : ت .

يقابل[١] بعضها بعضًا .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٨٨) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) ﴾

هذا إخبار من اللَّه تعالىٰ عما دعا به موسىٰ - عليه السلام - علىٰ فرعون وملئه ، لما أبوا قبول الحق واستمروا علىٰ ضلالهم وكفرهم ، معاندين جاحدين ظلمًا وعلوًّا وتكبرًا وعتوًّا قال : ﴿ **ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة** ﴾ أي : من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿ **وأموالاً** ﴾ أي : جزيلة كثيرة ﴿ **في** ﴾ هذه ﴿ **الحياة الدنيا ربنا ليَضلوا عن سبيلك** ﴾ بفتح الياء أي : أعطيتهم ذلك ، وأنت تعلم أنهم لا يؤمنون بما أرسلتني به إليهم ، استدراجًا منك لهم ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **لنفتنهم فيه** ﴾ ، وقرأ آخرون ﴿ **ليُضلوا** ﴾ بضم الياء أي : ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ، ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم[٢] [ ][٣] هذا لحبّك إياهم[٤]، واعتنائك بهم .

﴿ **ربنا اطمس علىٰ أموالهم** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : أي أهلكها . وقال الضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس : جعلها اللَّه حجارة منقوشة كهيئة ما كانت .

وقال قتادة : بلغنا أن زروعهم تحوّلت حجارة .

وقال محمد بن كعب القرظي : جعل سكّرهم حجارة[٥].

وقال ابن أبي حاتم(٩٠) : حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث ، حدثنا يحيىٰ بن أبي بكير ، عن أبي معشر ، حدثني محمد بن قيس ؛ أن محمد بن كعب قرأ سورة يونس علىٰ عمر ابن عبد العزيز [حتىٰ بلغ][٦] ﴿ **وقال موسىٰ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالًا في**

---

(٩٠) - **إسناده ضعيف لضعف أبي معشر وهو نجيح بن عبد الرحمن**
التفسير (١٠٥٤٣/٦) وأخرجه ابن المنذر وأبو الشيخ ، كما في « الدر المنثور » (٥٦٦/٣) .

---

[١] - في ز : « تقابل » .
[٢] - في خ : « أعطيت » .
[٣] - في ز ، خ : هؤلاء .
[٤] - في ز : « لهم » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

الحياة الدنيا ﴾ إلىٰ قوله : **﴿ ربنا اطمس علىٰ أموالهم ﴾** . الآية . [فقال له عمر : يا أبا حمزة ؛ أي : شيءٍ الطمسُ ؟ قال : عادت أموالهم كلها حجارة][١]. فقال [ ][٢] عمر بن عبد العزيز لغلام له : ائتني بكيس ، [فجاءه بكيس][٣] فإذا فيه حمص وبيض قد قُطِّع قد حُوِّل حجارة .

وقوله : **﴿ واشدد علىٰ قلوبهم ﴾** قال ابن عباس : أي : اطبع عليها . **﴿ فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم ﴾** .

وهذه الدعوة كانت من موسىٰ - عليه السلام - غضبًا للّٰه ولدينه علىٰ فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء ، كما دعا نوح - عليه السلام - فقال : **﴿ رب لا تذر علىٰ الأرض من الكافرين ديارًا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا ﴾** ، ولهذا استجاب اللّٰه تعالىٰ لموسىٰ - عليه السلام - فيهم هذه الدعوة ، التي أمَّن عليها أخوه هارون ، فقال تعالىٰ : **﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾** .

قال أبو العالية وأبو صالح ، وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي ، والربيع بن أنس : دعا موسىٰ وأمَّن هارون . أي : قد أجبناكما فيما سألتما من تدمير[٤] آل فرعون .

وقد يحتج بهذه الآية من يقول : إن تأمين المأموم علىٰ قراءة الفاتحة يتنزل منزلة قراءتها ؛ لأن موسىٰ دعا وهارون أمن .

وقال تعالىٰ : **﴿ قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ﴾** . [الآية . أي : كما أجيبت دعوتكما فاستقيما][٥] علىٰ أمري .

قال ابن جريج ، عن ابن عباس : **﴿ فاستقيما ﴾** فامضيا لأمري وهي الاستقامة . قال ابن جريج يقولون : إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة .

وقال محمد بن علي بن الحسين : أربعين يومًا .

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ . [٢] - ما بين المعكوفتين في ز : « له » .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز . [٤] - في ز : « تدمر » .
[٥] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾

يذكر تعالىٰ كيفية إغراقه فرعون وجنودَه ؛ فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسىٰ - عليه السلام - وهم - فيما قيل - ستمائة ألف مقاتل سوىٰ الذرية ، وقد كانوا استعاروا من القبط حُليًا كثيرًا فخرجوا به معهم ، فاشتد حنق فرعون عليهم ، فأرسل في المدائن حاشرين ، يجمعون له جنوده من أقاليمه ، فركب وراءهم في أبهة عظيمة وجيوش هائلة لما يريده اللَّه تعالىٰ بهم ، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته ، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿ **فلما تراءىٰ الجمعان قال أصحاب موسىٰ إنا لمدركون** ﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلىٰ ساحل البحر ، [وفرعون وراءهم][١]، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان ، وألح أصحاب موسىٰ - عليه السلام - في السؤال : كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول : إني أمرت أن أسلك هاهنا ﴿ **كلّا إن معي ربي سيهدين** ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع ، فأمره اللَّه تعالىٰ أن يضرب البحر بعصاه ، فضربه فانفلق البحر ﴿ **فكان كل فرق كالطود العظيم** ﴾ أي : كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقًا لكل سبط واحد ، وأمر اللَّه الريحَ فنشفت أرضَه ﴿ **فاضرب لهم طريقًا في البحر يبسًا * لا تخاف دركا ولا تخشى** ﴾ . وتخرق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ؛ ليرىٰ كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا ، وجاوزت بنو إسرائيل البحر ، فلما خرج آخرهم منه ، انتهىٰ فرعون وجنوده إلىٰ حافته من الناحية الأخرىٰ ، وهو في مائة ألف أدهم سوىٰ بقية الألوان ، فلما رأىٰ ذلك هاله وأحجم وهاب ، وهَمَّ بالرجوع وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر ، [واستجيبت الدعوة][٢]، وجاء جبريل - عليه السلام - علىٰ فرس وديق(*) حائل ، فمر إلىٰ جانب حصان فرعون فحمحم إليها ، [وتقدم جبريل فاقتحم البحر ودخله ، فاقتحم الحصان][٣] وراءه ، ولم يبق فرعون يملك من نفسه شيئًا ، فتجلد لأمرائه وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منّا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم ، وميكائيل في ساقتهم لا يترك [منهم أحدًا] إلا ألحقه[٤] بهم ، فلما استوسقوا فيه وتكاملوا ، وهَمَّ أولهم بالخروج منه ، أمر اللَّه القديرُ البحرَ أن يرتطم عليهم ، فارتطم عليهم فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت ، فقال وهو كذلك :

(*) - الوديق : هي التي تشتهي الفحل ، والحائل : غير الحامل .

[١] - في ز ، خ : « وأدركهم فرعون » . [٢] - في ز : استجيب للدعوة » .

[٣] - ما بين المعكوفتين في ت : « واقتحم جبريل » .

[٤] - في ز : « لحقه » .

﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان **﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾** .

ولهذا[١] قال الله تعالىٰ في جواب فرعون حين قال ما قال : **﴿ آلآن وقد عصيت قبل ﴾** أي : أهذا الوقت تقول ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه **﴿ وكنت من المفسدين ﴾** أي : في الأرض ، الذين أضلوا الناس **﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلىٰ النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴾** .

وهذا الذي حكىٰ الله تعالىٰ عن فرعون من قوله هذا في حاله ذلك - من أسرار الغيب التي أَعْلَمَ الله بها رسوله صلىٰ الله عليه وسلم ؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله(٩١) - :

حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن علي بن زيد ، عن يوسف بن مهران ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : « **لما قال فرعون : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل -قال - قال لي جبريل : [يا محمد](*) لو رأيتني وقد أخذت حالًا[٢] من حال(**) البحر فدسسته في فيه مخافة أن تنالَهُ الرحمةُ** » .

ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم في تفاسيرهم من حديث حماد بن سلمة به ، وقال الترمذي : حديث حسن .

---

(٩١) - **إسناده ضعيف لضعف علي بن زيد** ، « المسند » (٣٠٩/١) ، وأخرجه أيضًا (٢٤٥/١) وعبد بن حميد في « المنتخب » (٦٦٤)- وعنه الترمذي ، كتاب : تفسير القرآن ، باب : « ومن سورة يونس » (٣١٠٦) - ، وابن أبي حاتم (١٠٥٦١/٦) ، وتمام في فوائده (١٦٩٣/٥ - الروض البسام) ، والطيالسي (٢٦٩٣) ، والحاكم (٢٥٠/٤) شاهدًا ، وابن جرير (١٦٣/١١) ، والطبراني في « الكبير » (١٢٩٣/٢)- ومن طريقه المزي في « تهذيب الكمال » (٤٦٤/٣٢) وله طريق آخر عنده - والخطيب البغدادي في تاريخه (١٠١/٨ - ١٠٢) ، وفي « موضح أوهام الجمع والتفريق » (٣٤٣/١) من طرق عن حماد بن سلمة به ، ويوسف بن مهران ، قال أحمد : لا يعرف ، ولا أعرف أحدًا روى عنه إلا علي بن زيد لكن قال أبو حاتم : يكتب حديثه ويُذاكر به ، ووثقه ابن سعد وأبو زرعة . إلا أن علي بن زيد وهو ابن جُدْعان ، ضعيف ، وقد ورد بإسناده آخر فانظر ما بعده .

(*) ما بين المعكوفتين زيادة من : المسند .

(**) الحال : الطين الأسود .

---

[١] - في ز : « وهكذا » . [٢] - سقط من : ز ، خ .

وقال أبو داود الطيالسي(٩٢) : حدثنا شعبة ، عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم : « **قال لي جبريل - عليه السلام - : لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فم فرعون مخافة أن تدركَه الرحمةُ** » . وقد رواه أبو عيسىٰ الترمذي أيضًا وابن جرير أيضًا من غير وجه عن شعبة به [فذكر مثله][1]، وقال الترمذي : حسن غريب صحيح .

ووقع في روايةٍ عند ابن جرير : عن محمد بن المثنىٰ ، عن غندر ، عن شعبة ، عن عطاء وعدي ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، رفعه أحدهما وكأنَّ الآخر لم يرفعه، فاللّه أعلم .

وقال ابن أبي حاتم(٩٣) : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن عمر بن عبد اللّه بن يعلىٰ الثقفي ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : لما أغرق[2] اللّه فرعون أشار بأصبعه ورفع صوته : ﴿ **آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ قال : فخاف جبريل أن تسبق رحمةُ اللّهِ فيه غضبَه ، فجعل يأخذ الحال بجناحيه[3] فيضرب به وجهه فيرمسه .

وكذا رواه ابن جرير(٩٤) : عن سفيان بن وكيع [ثنا أبي](*) ، عن [أبي][4] خالد به موقوفًا .

---

(٩٢) - **صحيح** ، مسند الطيالسي (٢٦١٨) ومن طريقه ابن أبي حاتم (١٠٥٦٢/٦) ، وأخرجه أحمد (١/ ٢٤٠ ، ٣٤٠) ، والترمذي (٣١٠٧) ، والنسائي في التفسير من الكبرى (١١٢٣٨/٦) ، وابن جرير (١١/ ١٦٣) ، ابن حبان (٦٢١٥/١٤ - الإحسان) ، (١٧٤٥/٥ - موارد) ، والحاكم (٥٧/١) ، و(٣٤٠/٢) و(٢٥٠/٤) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٣٩١/٧ ، ٩٣٩٢ ، ٩٣٩٣) ، والخطيب البغدادي في « المتفق والمفترق » (٣/رقم ١٥٨٩) من طرق عن شعبة به ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن غريب صحيح » وقال الحاكم في أحد المواضع . « هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه إلا أن أكثر أصحاب شعبة أوقفوه على ابن عباس » وأقره الذهبي وقال : « وعامة أصحاب شعبة أوقفوه » قلت ، وهذا غاية ما فيه ومع ذلك فإن مثله لا يقال من قبل الرأى ، وعليه فإن له حكم الرفع ، والله تعالى أعلم . ثم إن له شاهدًا من حديث أبي هريرة يأتي (٩٥) .

(٩٣) - **إسناده ضعيف لضعف عمر بن عبد الله بن يعلى** ، (١٠٥٦٣/٦) وعمر بن عبد الله هذا ضعيف ، كما في « التقريب » ، والحديث زاد نسبته السيوطي في « الدر المنثور » (٥٦٨/٣) إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وابن مردويه ، وانظر ما قبله وما بعده .

(٩٤) - **كسابقه** ، تفسير ابن جرير (١٦٤/١١) .

(*) ما بين المعكوفتين سقط من : (ز ، خ) والمثبت من تفسير ابن جرير .

---

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٢] - في ز : « غرق » .
[٣] - في ز : « بجناحه » .
[٤] - ما بين المعكوفتين في ز : « ابن أبي » .

وقد روي من حديث أبي هريرة أيضًا فقال ابن جرير(٩٥) :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكام ، عن عنبسة - هو ابن[١] سعيد - عن كثير بن زاذان ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة - رضي اللَّه عنه - قال : قال رسول اللَّه صلىٰ اللَّه عليه وسلم : « **قال لي جبريل : يا محمد ، لو رأيتني وأنا أغطه وأدس من الحال في فيه مخافة أن تدركَه رحمةُ اللَّه فيغفر له** » . يعني : فرعون .

كثير بن زاذان هذا قال ابن معين : لا أعرفه . وقال أبو زرعة وأبو حاتم : مجهول . وباقي رجاله ثقات .

وقد أرسل[٢] هذا الحديث جماعة من السلف ؛ قتادة وإبراهيم التيمي وميمون بن مهران ، ونقل عن الضحاك بن قيس أنه[٣] خطب بهذا للناس ، فاللَّه أعلم .

وقوله : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية** ﴾ قال ابن عباس وغيره من السلف : إن بعض بني إسرائيل شكّوا في موت فرعون ، فأمر اللَّه تعالىٰ البحر أن يلقيه بجسده سويًّا[٤] بلا روح ، وعليه درعه المعروفة [علىٰ نجوة][٥] من الأرض وهو المكان المرتفع ، ليتحققوا موته وهلاكه ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **فاليوم ننجيك** ﴾ أي : نرفعك علىٰ نشز من الأرض ﴿ **ببدنك** ﴾ قال مجاهد : بجسدك . وقال الحسن : بجسم لا روح فيه ، وقال عبد اللَّه بن شداد : سويًّا صحيحًا ؛ أي : لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه ، وقال أبو صخر : بدرعك .

وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها[٦] كما تقدم ، واللَّه أعلم .

---

(٩٥) - **إسناده فيه جهالة لجهالة كثير بن زاذان** ، والحديث في تفسير ابن جرير (١٦٣/١١) ، وأخرجه ابن عدي في « الكامل » (٧٨٨/٢ - ٧٨٩) ، والسهمي في « تارج جرجان » (ص ٢٠٦) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٣٩٠/٧) من طريق حكام بن سَلْم به ، وأخرجه الطبراني في « الأوسط » (٥٨٢٣/٦) من طريق قيس بن الربيع عن سعيد بن مسروق عن أبي حازم به نحوه ، لكن قيس بن الربيع هذا « صدوق تغير لما كبر وأدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به » فأخشى أن يكون هذا الحديث مما أدخله عليه ابنه والله أعلم ، ومن طريق الطبراني ذكره الهيثمي في « المجمع » (٣٩١٧) وقال : « ... فيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وضعفه جماعة » .

---

[١] - في ز ، خ : « ابن أبي » .
[٢] - في ز ، خ : « أرسل على » .
[٣] - سقط من : ز ، خ .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - ما بين المعكوفتين في ز : « فيه على نجوة » ، خ : « فيه على نحوه » .
[٦] - في ز ، خ : « فيها » .

وقوله : ﴿ **لتكون لمن خلفك آية** ﴾ أي : لتكون لبني إسرائيل دليلًا على موتك وهلاكك ، وأن الله هو القادر الذي ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ، ولهذا قرأ [بعض السلف][١] (**لتكون لمن خلقك**(*) **آية وإنَّ كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون**) أي : لايتعظون بها[٢] ولا يعتبرون بها ، وقد كان [إهلاك فرعون][٣] يوم عاشوراء ، كما قال البخاري(٩٦) :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا غندر ، حدثنا شعبة عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، [فقال : « **ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟** »][٤] فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « **أنتم أحق بموسى منهم فصوموه**[٥] » .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية ، [وقوله : مبوأ][٦] صدق قيل : هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه ، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ، كما قال تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾ . وقال في الآية الأخرى : ﴿ **فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز**[٧]

(*) ذكر هذه القراءة أبو حيان في البحر المحيط (١٨٩/٥ - ١٩٠)

(٩٦) - صحيح البخاري كتاب : التفسير ، باب : ﴿ وجاوزنا ببني إسرائيل البحر ﴾ (٤٦٨٠) ، ومسلم ، كتاب : الصيام ، باب : صوم يوم عاشوراء (١٢٧) (١١٣٠) ، وأبو داود ، كتاب : الصوم ، باب : في صوم يوم عاشوراء (٢٤٤٤) ، والنسائي في الكبرى ، كتاب : الصيام ، باب : صيام يوم عاشوراء (٢/ ٢٨٣٤) ، وك : التفسير باب : قوله تعالى : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ﴾ (١١٢٣٧/٦) ، وأحمد (١/ ٣٤٠) ، من طريق أبي بشر به .

---

[١] - ما بين المعكوفتين في ت : « بعضهم » .
[٢] - سقط من : خ .
[٣] - في خ : « إهلاكهم » .
[٤] - ما بين المعكوفيتن سقط من : ز ، خ .
[٥] - في ز ، خ : « فصوموا » .
[٦] - ما بين المعكوفتين في ز : « فالمبوأ » .
[٧] - في ز : « زروع » .

ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ ، [وقال : **﴿ كم تركوا من جنات وعيون ﴾** الآيات][١]. ولكن استمروا مع موسىٰ - عليه السلام - طالبين إلىٰ بلاد بيت المقدس ، [وهي بلاد الخليل - عليه السلام - فاستمر موسىٰ بمن معه طالبًا بيت المقدس][٢]، وكان فيه قوم من العمالقة ، [فنكل بنو إسرائيل عن قتالهم][٣]، فشردهم اللَّه تعالىٰ في التيه أربعين سنة ، ومات فيه[٤] هارون . ثم موسىٰ - عليهما السلام - وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون ، ففتح اللَّه عليهم بيت المقدس ، واستقرت أيديهم عليها ، إلىٰ أن أخذها منهم بختنصر حينًا من الدهر ، ثم عادت إليهم ، ثم أخذها ملوك اليونان فكانت تحت أحكامهم مدة طويلة ، وبعث اللَّه عيسىٰ بن مريم - عليه السلام - في تلك المدة ، فاستعانت اليهود - قبحهم اللَّه ! علىٰ معاداة عيسىٰ - عليه السلام - بملوك اليونان وكانت تحت أحكامهم ، ووشوا عندهم وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا ، فبعثوا من يقبض عليه ، فرفعه اللَّه إليه وشبه لهم بعض الحواريين بمشيئة اللَّه وقدره ، فأخذوه فصلبوه واعتقدوا أنه هو **﴿ وما قتلوه يقينًا * بل رفعه اللَّه إليه وكان اللَّه عزيزًا حكيمًا ﴾** .

ثم بعد المسيح - عليه السلام - بنحو ثلثمائة سنة ، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان في دين النصرانية ، وكان فيلسوفًا قبل ذلك ، فدخل في دين النصارىٰ ، قيل : تقية ، وقيل : حيلة ليفسده ، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعًا أحدثوها ، فبنىٰ لهم الكنائس والبيع الكبار والصغار والصوامع والهياكل والمعابد والقلايات(*) ، وانتشر دين النصرانية في ذلك الزمان ، واشتهر علىٰ ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف ، ووضع وكذب ومخالفة لدين المسيح ، ولم يبق علىٰ دين المسيح علىٰ الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان ، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامة(**) والقفار ، واستحوذت يد النصارىٰ علىٰ مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم ، وبنىٰ هذا الملك[٥] المذكور مدينة قسطنطينية والقمامة وبيت لحم ، وكنائس بلاد[٦] بيت المقدس ومدن حوران كبُصرىٰ وغيرها من البلدان - بناءات هائلة محكمة ، وعبدوا الصليب من حينئذ ، وصلوا إلىٰ الشرق ، وصوروا الكنائس ، وأحلوا لحم الخنزير ، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول ، ووضعوا له الأمانة [ ][٧] الحقيرة التي يسمونها الكبيرة ، وصنفوا له القوانين ، وبسط هذا يطول[٨] .

(*) جمع قلية ، وهي كالصومعة ، واسمها عند النصارى قلَّاية وهو تعريب : كلادة وهي من بيوت عادتهم .
(**) جمع مهمة وهو المفازة ، والبرية : القفر .

[١] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز خ .
[٢] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٤] - في خ : « في أثنائها » .
[٥] - سقط من : ز ، خ .
[٦] - سقط من : خ .
[٧] - ما بين المعكوفتين في ز : « الكبيرة » .
[٨] - سقط من : خ .

والغرض أن يدهم لم تزل علىٰ هذه البلاد إلىٰ أن انتزعها منهم الصحابة - رضي اللَّه عنهم - وكان فتح بيت المقدس علىٰ يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي اللَّه عنه - وللَّه الحمد والمنة .

وقوله : ﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أي : الحلال من الرزق ، الطيب النافع المستطاب طبعًا وشرعًا .

وقوله : ﴿ **فما اختلفوا حتىٰ جاءهم العلم** ﴾ أي : ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم ، أي : ولم يكن لهم أن يختلفوا ، وقد بين اللَّه لهم وأزال عنهم اللبس ، وقد ورد في الحديث : « **إن اليهود اختلفوا علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة ، وإن النصارىٰ اختلفوا علىٰ ثنتين**[١] **وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة علىٰ ثلاث وسبعين فرقة ، منها واحدة في الجنة ، وثنتان وسبعون في النار** » . قيل : من هم يا رسول اللَّه ؟ قال : « **ما أنا عليه وأصحابي** » .

رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ(٩٧) ، وهو في السنن والمسانيد ، ولهذا قال اللَّه تعالىٰ : ﴿ **إن ربك يقضي بينهم** ﴾ أي : يفصل بينهم ﴿ **يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ .

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ

(٩٧) - **حسن** ، قلت : لفظ الحاكم في النسخة التى بين أيدينا (١٢٨/١) : « .... **إن بنى إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة** » فقيل له ما الوحدة ؟ قال : « **ما أنا عليه اليوم وأصحابي** » ، وأخرجه الترمذي (٢٦٤٣) والآجري في « الشريعة » (١/رقم ٢٣) ، والمروزي في « السنة » (ص ١٨) ، وابن بطة في « الإبانة » (٢٦٤/١ ، ٢٦٥) ، واللالكائي في « شرح أصول الاعتقاد » (١٤٧/١) كلهم من حديث عبد الله بن عمرو ، وفي إسناده عبدالرحمن بن زياد الإفريقي وهو ضعيف وقد حسنه الترمذي والألباني في « صحيح الجامع الصغير » (٥/ ٥٢١٩/٨٠) فلعله بشواهده فإن لأوله شاهدًا من حديث أبي هريرة عند أحمد (٣٣٢/٢) ، أبي داود (٤٥٩٦) ، والترمذي (٢٦٤٢) ، وابن ماجة (٣٩٩١) وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » ، وصححه ابن حبان (٦٢٤٧/١٤) و(٦٧٣١/١٥) ، والحاكم (١٢٨/١) ووافقه الذهبي ، وإسناده حسن ، وحديث معاوية بن أبي سفيان عند أبي داود (٤٥٩٧) وغيره وإسناده صحيح ، وانظر « الصحيحة » للألباني (٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ١٤٩٢) كما يشهد لقوله : « **ما أنا عليه وأصحابي** » حديث أنس عند الطبراني في « الأوسط » (٤٨٨٦/٥)، (٧٨٤٠/٨) ، والعقيلي في « الضعفاء » (٢٦٢/٢) لكن في إسناده عبد الله ابن سفيان الخزاعي ، قال العقيلي : « لا يتابع على حديثه » .

[١] - في ت : « اثنتين » .

لَقَدْ جَاءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

قال قتادة بن دعامة(٩٨) : بلغنا أن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : « **لا أشك ولا أسأل** » . وكذا قال ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري .

وهذا فيه تثبيت[١] للأمة ، وإعلام لهم أن صفة نبيهم صلىٰ الله عليه وسلم موجودةٌ في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل** ﴾ . الآية . ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم ، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتىٰ يروا العذاب الأليم** ﴾ أي : لا يؤمنون[٢] إيمانًا ينفعهم ، بل حين لا ينفع نفسًا إيمانُها ، ولهذا لما دعا موسىٰ - عليه السلام - علىٰ فرعون وملئه قال : ﴿ **ربنا اطمس علىٰ أموالهم واشدد علىٰ قلوبهم فلا يؤمنوا حتىٰ يروا العذاب الأليم** ﴾ . كما قال تعالىٰ : ﴿ **ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتىٰ وحشرنا عليهم كل شيء قبلًا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾ . ثم قال تعالىٰ :

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

يقول تعالىٰ : فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل ،

(٩٨) - **مرسل** ، أخرجه عبد الرزاق في « المصنف » (١٠٢١١/٦) وابن جرير (١٦٨/١١) عن معمر عنه به ، وأخرجه ابن جرير أيضًا من طريق سعيد عنه به ، وأخرجه ابن المنذر وابن أبي حاتم (١٠٥٨٣/٦) وابن مردويه - كما في « الدر المنثور » (٥٧١/٣) - واختاره الضياء في « المختارة » (٩١/١٠) عن ابن عباس ﴿ **فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك** ﴾ قال: لم يشكَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يسأل ، وفي الباب عن سعيد بن جبير والحسن - عند ابن جرير - مرسلًا .

[١] - في ز : « تثبت » . [٢] - في خ : « يؤمنوا » .

بل ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه أو أكثرهم ، كقوله تعالىٰ : ﴿ **يا حسرة علىٰ العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾ ، ﴿ **كذلك ما أتىٰ الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ ، ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا علىٰ أمة وإنا علىٰ آثارهم مقتدون** ﴾ . وفي الحديث الصحيح(٩٩) : « **عرض علي الأنبياء ، فجعل النبي يمر ومعه الفئام من الناس ، والنبي يمرّ[١] معه الرجل ، والنبي معه الرجلان ، والنبي ليس معه أحد** » . ثم ذكر كثرة أتباع موسىٰ - عليه السلام - ثم ذكر كثرة أمّته - صلوات اللّٰه وسلامه عليه - كثرة سدت الخافقين الشرقي والغربي .

والغرض أنه لم توجد[٢] قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرىٰ إلا قوم يونس وهم أهل نينوىٰ ، وما كان إيمانهم إلا خوفًا من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعد ما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم ، فعندها جأروا إلىٰ اللّٰه واستغاثوا به وتضرعوا له[٣] واستكانوا ، وأحضروا أطفالهم ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا اللّٰه تعالىٰ أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم ، فعندها رحمهم اللّٰه وكشف عنهم العذاب وأُخِّرُوا ، كما قال تعالىٰ : ﴿ **إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلىٰ حين** ﴾ .

واختلف المفسرون هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي ، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ علىٰ قولين ؛ أحدهما : إنما كان ذلك في الحياة الدنيا كما هو مقيد في هذه الآية ، والقول الثاني : فيهما ؛ لقوله تعالىٰ : ﴿ **وأرسلناه إلىٰ مائة ألف أو يزيدون * فآمنوا فمتعناهم إلىٰ حين** ﴾ فأطلق عليهم الإيمان ، والإيمانُ منقذ من العذاب الأخروي ، وهذا هو الظاهر ، واللّٰه أعلم .

(٩٩) - لم أقف على اللفظ الذي أورده المصنف ، وبنحوه أخرجه البخاري، كتاب : الطب ، باب : الحلق من الأذى (٥٧٠) - وانظر أطرافه عند رقم (٣٤١٠) - ومسلم ، كتاب : الإيمان ، باب : الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب (٣٧٤) (٢٢٠) ، والترمذي ، كتاب : صفة القيامة ، باب : أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - سواد عظيم يوم القيامة .. (٢٤٤٨) ، والنسائي في الكبرى ، كتاب : الطب (٧٦٠٤/٤) ، وأحمد (٢٧١/١ ، ٣٢١) من حديث ابن عباس ، وفي الباب عن عمران بن حصين عند الطبراني في « الكبير » (٦٠٥/١٨) ، وصححه ابن حبان (٦٠٨٩/١٣) ، وعبد الله ابن مسعود عند أحمد (٤٠١/١ ، ٤٢٠) ، وأبي يعلى (٥٣٣٩/٩) ، وصححه ابن حبان (٧٣٤٦/١٦) .

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « يوجد » .
[٣] - في خ : « لديه » .

وقال قتادة في تفسير هذه الآية : لم ينفع قرية كفرت ، ثم آمنت حين حضرها العذاب فتركت ، إلا قوم يونس لما فقدوا نبيهم ، وظنوا أن[١] العذاب قد دنا منهم ، قذف اللَّه في قلوبهم التوبة ، ولبسوا المسوح ، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ، ثم عجوا إلىٰ اللَّه أربعين ليلة ، فلما عرف اللَّه منهم الصدق من قلوبهم ، والتوبة والندامة علىٰ ما مضىٰ منهم ، كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلىٰ عليهم ، قال قتادة : وذكر أن قوم يونس كانوا[٢] بنينوىٰ أرض الموصل .

وكذا روي عن ابن مسعود ومجاهد ، وسعيد بن جبير وغير واحد من السلف ، وكان ابن مسعود يقرؤها : (فهلا كانت قرية آمنت) .

وقال أبو عمران ، عن أبي الجلد قال : [لما نزل بهم][٣](*) العذاب جعل يدور علىٰ رءوسهم كقطع الليل المظلم ، فمشوا إلىٰ رجل من علمائهم ، فقالوا : علمنا دعاء ندعو به ، لعل اللَّه يكشف عنا العذاب . فقال : قولوا : يا حي حين لا حي ، يا محيي الموتىٰ ، لا إله إلا أنت ! قال : فكشف عنهم العذاب .

وتمام القصة سيأتي مفصلًا في سورة والصافات إن شاء اللَّه .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٩٩) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٠) ﴾

يقول تعالىٰ : ﴿ **ولو شاء ربك** ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالىٰ ، كقوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء اللَّه لهدىٰ الناس جميعًا** ﴾ ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **أفأنت تكره الناس** ﴾ [أي : تلزمهم وتلجئهم][٤] ﴿ **حتىٰ يكونوا مؤمنين** ﴾ أي : ليس ذلك عليك ولا إليك ،

(*) في ابن جرير (١١/١٧٢) ، « لما غشى قوم يونس » .

---

[١] - سقط من : ز ، خ .

[٢] - في ت : « كان » .

[٣] - في ز ، خ : « نزل بقوم يونس » .

[٤] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .

بل اللَّه يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾ ، ﴿ **ليس عليك هداهم ولكن اللَّه يهدي من يشاء** ﴾ ، ﴿ **لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين** ﴾ ، ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت** ﴾ ، ﴿ **فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب** ﴾ ، ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمصيطر** ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ أن اللَّه تعالىٰ هو الفعال لما يريد ، الهادي من يشاء ، المضل لمن يشاء ، لعلمه وحكمته وعدله ؛ ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن اللَّه ويجعل الرجس** ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ **علىٰ الذين لا يعقلون** ﴾ أي : حجج اللَّه وأدلته ، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدىٰ وإضلال من ضل .

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يرشد تعالىٰ عباده إلىٰ التفكر في آلائه ، وما خلق اللَّه[١] في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب ، مما[٢] في السموات[٣] من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ؛ والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما ، وإيلاج أحدهما في الآخر حتىٰ يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يقصر هذا ويطول هذا ، وارتفاع السماء واتساعها وحسنها وزينتها ، وما أنزل اللَّه منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ؛ وما في البحر من العجائب والأمواج ، وهو مع هذا مسخر[٤] مذلل للسالكين ، يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير[٥] القدير [له]، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

وقوله : ﴿ **وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ أي : وأي شيء تجدي[٦] الآيات السماوية والأرضية والرسل ، بآياتها وحججها وبراهينها [الدالة] علىٰ صدقها - عن

---

[١] - سقط من : ز .
[٢] - في ز : « بما » .
[٣] - في ز : « السماء » .
[٤] - سقط من : ز ، خ .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - في خ : « تغني » .

قوم لا يؤمنون ، كقوله : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم** ﴾ أي : فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد ؛ من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية[١] المكذبة لرسلهم ﴿ **قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين * ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا** ﴾ أي : ونهلك المكذبين بالرسل ﴿ **كذلك حقًا علينا ننجي المؤمنين** ﴾ أي : حقًا أوجبه الله تعالى على نفسه الكريمة ، كقوله ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ ، وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال(١٠٠) : « **إن الله كتب[٢] كتابًا فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي** » .

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : قل : يا أيها الناس ؛ إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف ، الذي أوحاه الله إلي ، فها أنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم

---

(١٠٠) - أخرجه البخاري ، كتاب : بدء الخلق ، باب : ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ...** ﴾ (٣١٩٤) ، ومسلم ، كتاب : التوبة ، باب : في سعة رحمة الله تعالى ، وأنها سبقت غضبه (١٤،١٥،١٦) (٢٧٥١) ، والترمذي ، ك: الدعوات ، باب : رحمة الله غلبت غضبه (٣٥٣٧) ، والنسائي في « النعوت » من الكبرى (٧٧٥٠/٤ ، ٧٧٥١) ، وابن ماجة في المقدمة ، باب : فيما أنكرت الجهمية (١٨٩) ، كتاب : الزهد ، باب : ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة (٤٢٩٥) ، وأحمد (٢٤٢/٢، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، وفي مواضع أخر) من حديث أبي هريرة ، وانظر [سورة الأنعام/ آية ١٢] و[سورة الأعراف / آية ١٥٦] .

---

[١] - سقط من : ز ، خ . [٢] - سقط من : خ .

ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون اللّٰه حقًّا فأنا لا أعبدها[١]، فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو اللّٰه وحده لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين .

وقوله : ﴿ **وأن أقم وجهك للدين حنيفًا ولا تكونن من المشركين** ﴾ . أي : أخلص العبادة للّٰه وحده ﴿ **حنيفًا** ﴾ أي : منحرفًا عن الشرك ، ولهذا قال : ﴿ **ولا تكونن من المشركين** ﴾ وهو معطوف علىٰ قوله : ﴿ **وأمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وإن يمسسك اللّٰه بضر** ﴾ . الآية[٢]. فيه[٣] بيان لأن الخير والشر والنفع والضر إنما هو راجع إلىٰ اللّٰه تعالىٰ وحده ، لا يشاركه[٤] في ذلك أحد ، فهو الذي يستحق العبادة وحده لاشريك له .

روىٰ الحافظ ابن عساكر في ترجمة صفوان بن سليم(١٠١) ، من طريق عبد اللّٰه بن وهب ، أخبرني يحيىٰ بن أيوب ، عن عيسىٰ بن موسىٰ ، عن صفوان بن سليم ، عن أنس ابن مالك ؛ أن رسول اللّٰه صلىٰ اللّٰه عليه وسلم قال : « **اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات رحمة ربكم ، فإن للّٰه نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم** » .

---

(١٠١) - **إسناده ضعيف وفيه انقطاع** ، « تاريخ دمشق » لابن عساكر (٣٢٨/٨ - مخطوط) ، وأخرجه البغوي في « شرح السنة » (١٣٧٨/٥) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٢١/٢) من طريق عبد الله بن وهب به ، وأخرجه الطبراني في « الكبير » (٧٢٠/١) وفي كتاب الدعاء (٢٦) - وعنه أبو نعيم في « الحلية » (١٦٢/٣) - والقضاعي في « مسند الشهاب » (٧٠١/١) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٢٢) ، وابن عبد البر في « التمهيد » (٣٣٩/٥) وعلقه ابن عساكر ، كلهم من طريق عمرو بن الربيع بن طارق عن يحيى بن أيوب به ، وأخرجه البيهقي في « الأسماء والصفات » (ص ١٥٠) من طريق سعيد بن أبي مريم أخبرني يحيى بن أيوب به ، وذكره الهيثمي في « المجمع » (٢٣٤/١٠) وقال : رواه الطبراني وإسناده رجاله رجال الصحيح غير عيسى بن موسى ... وهو ثقة » ، قلت : اعتمد الهيثمي على توثيق ابن حبان له في « الثقات » (٢١٦/٥) (٢٣٤/٧) وابن حبان معروف بتساهله ، وقد ضعفه أبو حاتم - كما في « الجرح والتعديل » (٢٨٥/٦) - ثم إن صفوان بن سليم لم ير أنسًا، ولم تصح روايته عنه ، كما قال أبو حاتم - انظر «تهذيب التهذيب» (٣٧٤/٤) والحديث زاد نسبته السيوطي في « الجامع الصغير »، وفي « الدر المنثور » (٤٦/٤) إلى ابن أبي الدنيا في « كتاب الفرج بعد الشدة » ، والحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » ، وانظر ما بعده .

---

[١] - في خ : « أعبد » .

[٢] - في ز : « آخرها » .

[٣] - سقط من : ز ، خ .

[٤] - في ز : « يشركه » .

ثم رواه(١٠٢) من طريق الليث ، عن عيسىٰ بن موسىٰ ، عن صفوان ، عن رجل من أشجع ، عن أبي هريرة مرفوعًا بمثله سواء[١].

وقوله : ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ أي : لمن تاب إليه وتوكل عليه ، ولو من أي ذنب كان ، حتىٰ من الشرك به فإنه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

يقول تعالىٰ آمرًا لرسوله صلىٰ اللّٰه عليه وسلم أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند اللّٰه هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، فمن اهتدىٰ به واتبعه فإنما يعود نفع ذلك الإتباع[٢] علىٰ نفسه ، [ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه][٣] ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ أي : وما أنا موكل بكم حتىٰ تكونوا مؤمنين به[٤]، و[٥]إنما أنا نذير لكم ، والهداية علىٰ اللّٰه تعالىٰ .

وقوله : ﴿ **واتبع ما يوحىٰ إليك واصبر** ﴾ أي : تمسك بما أنزل اللّٰه عليك وأوحاه إليك[٦]، واصبر علىٰ مخالفة من خالفك من الناس ﴿ **حتىٰ يحكم اللّٰه** ﴾ أي : يفتح بينك وبينهم ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ أي : خير الفاتحين بعدله وحكمته .

☆ ☆ ☆

---

(١٠٢) - **إسناده ضعيف وفيه جهالة** ، « تاريخ دمشق » لابن عساكر (٣٢٨/٨ - مخطوط) ، وأخرجه الطبراني في « الدعاء » (٢٧) ، والبيهقي في « الشعب » (١١٢٣/٢) من طريق الليث به ، وأعل البيهقي الطريق السابق به فقال : « وهذا هو المحفوظ دون الأول » .

---

[١] - في ز : « سواء » .
[٢] - سقط من : ز ، خ .
[٣] - ما بين المعكوفتين سقط من : ز ، خ .
[٤] - سقط من : ت .
[٥] - سقط من : ز .
[٦] - سقط من : ز ، خ .

سورة يونس

مكيّة وهي مائة وتسع آياتٍ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ①﴾

﴿الٓر﴾ بتفخيم الراء المفتوحة. وقُرئ بالإمالة[1] إجراءً للأصليّة مُجرى المنقلِبة مِن الياء.[2] وقُرئ بينَ بينَ.[3] وهو: إمّا مَسرود على نمط التعديد بطريق التحدّي، على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة، فلا محلَّ له مِن الإعراب؛ وإمّا اسم للسورة، كما عليه إطباقُ الأكثر،[4] فمحلّه الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذه السورة مُسمّاةٌ بـ﴿الٓر﴾، وهو أظهَر مِن الرفع على الابتداء لعدم سَبْق العِلم بالتسمية بعدُ، فحقُّها الإخبارُ بها لا جعلُها عنوانَ الموضوع لتوقّفه على عِلم المخاطب بالانتساب كما مرّ. والإشارة إليها قبل جَرَيان ذِكرها لِما أنّها باعتبار كونها على جَناح الذِّكر وبصدده صارت في حُكم الحاضر، كما يقال: "هذا ما اشترى فلان".

أو النصبُ[5] بتقدير فعل لائقٍ بالمقام نحو "اذكُرْ" أو "اقرأ". وكلمةُ ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إليها: أمّا على تقدير كونِ ﴿الٓر﴾ مَسرودًا على نمط التعديدِ فقد نُزِّل حضور مادّتها التي هي الحروف المذكورة منزلةَ ذِكرها فأشيرَ إليها، كأنّه قيل: هذه الكلمات المؤلَّفة مِن جنس هذه الحروف المَبسوطة... إلخ؛ وأمّا على تقدير كونه اسمًا للسورة فقد نُوِّهتْ[6] بالإشارة إليها بعد تنويهها بتعيين اسمها،

---

[1] قرأ بها أبو عمرو وابن عامر والكسائي وحمزة وأبو بكر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٦٦.

[2] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٨٨.

[3] قرأ بها ورش. النشر لابن الجزري، ٢/٦٧.

[4] انظر تفصيله في الكشّاف للزمخشري، ١/٣٤ (البقرة، ٢/١).

[5] السياق: فمحلُّه الرفع... أو النصب...

[6] وفي هامش م: نوّهه ونوّه به: دعاه ورفعه. قاموس. | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «نوه».

أو الأمرِ بذِكرها أو بقراءتها. وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعد للتنبيه على بُعد منزلتِها في الفخامة. ومحلّه الرفع على أنّه مبتدأ خبرُه قوله عزّ وجلّ: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

وعلى تقدير كون ﴿الٓر﴾ مبتدأً فهو مبتدأ ثانٍ، أو بدل مِن الأوّل، والمعنى: هي آيات مخصوصة منه مترجَمة باسم مستقِلّ، والمقصود ببيان بعضيّتها منه وصفُها بما اشتهر اتّصافُه به مِن النعوت الفاضلة والصفات الكاملة.

والمراد بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: إمّا جميع القرآن العظيم وإن لم يَنزِل الكُلّ حينئذ، إمّا باعتبار تعيُّنه وتحقُّقه في علم الله عزّ وعلا أو في اللوح، أو باعتبار أنّه أُنزل جُملةً إلى السماء الدنيا، كما هو المشهور، فإنّ "فاتحة الكتاب" كانت مسمّاةً بهذا الاسم وبـ"أمّ القرآن" في عهد النبوّة ولمّا يَحصُل المجموع[1] الشخصي إذ ذاك، فلا بدّ مِن ملاحظة كلّ مِن الكتاب والقرآن بأحد الاعتبارات المذكورة.

[٦٤و] وإمّا[2] جميع القرآن النازل وقتئذ المتفاهَم بين الناسِ إذ ذاك، / فإنّه كما يُطلَق على المجموع الشخصي يُطلَق على مجموعِ ما نزَل في كلّ عصرٍ، ألا يُرى إلى ما رُوي عن جابر رضي الله عنه أنّه قال: «كان النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يجمع بين الرجلين مِن قتلى أُحُد في ثوب واحد، ثمّ يقول: أيُّهم أكثرُ أخذًا للقرآن؟ فإذا أُشيرَ له إلى أحدهما قدَّمه في اللَّحد».[3] فإنّ ما يَفهَمه الناسُ مِن القرآن في ذلك الوقت ويُحافظون على التفاوت في أَخْذه إنّما هو المجموع النازل حينئذ، مِن غير ملاحظةٍ لتحقّق المجموع الشخصي في عِلم الله سبحانه أو في اللوح، ولا لنزوله جملةً إلى السماء الدنيا.

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ ذي الحِكمة وُصِف به لاشتماله على فنون الحِكَم الباهرة ونُطقِه بها، أو هو مِن باب وَصْف الكلام بصفة صاحبه، أو مِن باب الاستعارة المَكنيّة المبنيّة على تشبيه الكتاب بالحكيم الناطق بالحكمة.

---

١ وفي هامش م: أي مجموع الكتاب والقرآن. «منه».

٢ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: إمّا جميع القرآن العظيم. «منه».

٣ صحيح البخاري، ٩١/٢ (١٣٤٣)؛ سنن ابن ماجه، ٤٧٧/٢ (١٥١٤)؛ سنن النسائي، ٦٢/٤ (١٩٥٥).

هذا وقد جُعل ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عبارةً عن نفس السورة، وكلمةُ ﴿تِلْكَ﴾ إشارةً إلى ما في ضِمنها مِن الآي، فإنّها في حُكم الحاضر، لاسيّما بعد ذِكر ما يتضمَّنها مِن السورة عند بيان اسمِها، أو الأمرِ بذِكرها أو بقراءتها، وينبغي أن يكون المشار إليه حينئذ كلَّ واحدةٍ منها لا جميعَها مِن حيث هو جميع؛ لأنّه عينُ السورة، فلا يكون للإضافة وَجْه ولا لتخصيص الوصف بالمضاف إليه حِكمة، فلا يتأتّى ما قُصد مِن مدح المضافِ بما للمضاف إليه مِن صفات الكمال، ولأنّ في بيان اتِّصاف كلّ منها[1] بالكمال مِن المبالغة ما ليس في بيان اتّصافِ الكلّ بذلك.

والمتبادَر مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عند الإطلاق وإن كان كلُّه بأحد الوجهين[2] المذكورين، لكنّ صحّة إطلاقه على بعضه أيضًا ممّا لا ريب فيها. والمعهود المشهور وإن كان اتّصافُ الكلّ بأحد الاعتبارين بما ذُكر مِن نعوت الكمالِ إلّا أنّ شُهرة اتصافِ كلّ سورة منه بما اتَّصف به / الكلُّ ممّا لا يُنكَر، وعليه يدور تحقُّق مَدْح السورة بكونها بعضًا مِن القرآن الكريم، إذ لولا أنّ بعضه منعوت بنعت كلّه داخل تحت حُكمه لَما تسنّى ذلك. وفيه ما لا يخفى مِن التكلّف والتعسّف. [٦٤ظ]

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الهمزة لإنكار تعجُّبهم ولتعجُّب السامعين منه لكونه في غير محلّه. والمرادُ بـ"الناس": كفّار مكّةَ. وإنّما عُبّر عنهم باسم الجنس مِن غير تعرُّض لكُفرهم مع أنّه المدارُ لتعجُّبهم، كما تُعُرِّض له في قوله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾... إلخ، لتحقيق ما[3] فيه الشركةُ بينهم وبين رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتعيينِ مدار التعجّب في زعمهم، ثمّ تبيينِ خطائهم وإظهارِ بطلان زعمهم بإيراد الإنكار والتعجيب. واللام متعلّقة بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿عَجَبًا﴾.

---

١ س: منهما.

٢ وفي هامش م: المجموع الشخصي ومجموع ما نزل في كلّ عصر. «منه».

٣ وفي هامش م: ولو تعرّض لوصف الكفر لاختلّ المرام. «منه».

وقيل: بـ﴿عَجَبًا﴾ على التوسّع المشهورِ في الظروف. وقيل: المصدر إذا كان بمعنى اسمِ الفاعل أو اسمِ المفعول جاز تقديم معموله عليه. وقيل: متعلِّقة بـ﴿كَانَ﴾.[١] وهو مبنيٌّ على دلالة "كان" الناقصةِ على الحدث.

﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ اسم ﴿كَانَ﴾ قُدِّم عليه خبرُها اهتمامًا بشأنه لكونه مدارًا للإنكار والتعجيب وتشويقًا إلى المؤخَّر، ولأنّ في الاسم ضربَ تفصيل، ففي مراعاة الأصل نوعُ إخلال بتجاوب أطرافِ الكلام. وقُرئ برفع "عَجَبٌ"،[٢] على أنّه الاسم وهو نكرة، والخبرُ ﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ وهو مَعرِفة، لأنّ "أن" مع الفعل في تأويل المصدر المضافِ إلى المَعرفة البتّةَ. والمختار حينئذ أن تُجعَل ﴿كَانَ﴾ تامّةً،[٣] و﴿أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ﴾ متعلِّقًا بـ"عَجَبٌ" على حَذْف حرف التعليل، أي: أَحَدَث للناس عجبٌ لِأن أوحينا أو مِن أن أوحينا؟[٤] أو بدلًا مِن "عَجَبٌ"،[٥] لكن لا على توجيه الإنكار والتعجيب إلى حدوثه؛ بل إلى كونه عَجَبًا، فإنّ كون الإبدال في حُكم تنحية المبدَل منه ليس معناه إهدارَه بالمرّة. وإنّما قيل: "للناس" لا "عند الناس" للدلالة / على أنّهم [٦٥و] اتَّخذوه أُعجوبةً لهم. وفيه مِن زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى.

﴿إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي: إلى بشر مِن جنسهم، كقولهم: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء، ٩٤/١٧]، أو مِن أفنائهم مِن حيث المالُ لا مِن عُظمائهم كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ[٦] هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف، ٣١/٤٣]. وكِلا الوجهين مِن ظهور البطلانِ بحيث لا مَزيد عليه:

أمّا الأوّل فلأنّ بَعْث المَلَك إنّما يكون عند كون المبعوث إليهم ملائكةً، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء، ٩٥/١٧]، وأمّا عامّة البشر فهم بمَعزِل مِن استحقاق المفاوضة المَلَكيّة، كيف لا، وهي منوطة بالتناسب والتجانُس، فبَعْث المَلَك إليهم

---

[١] الأقوال الثلاثة في التبيان للعُكبري، ٦٦٤/٢؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٥٣/١٠-٢٥٤.

[٢] قراءة شاذّة، مَروِيّة عن ابن مسعود. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٣.

[٣] رجّح ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٢٤٤/٢.

[٤] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٥٤/١٠.

[٥] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٤/٢.

[٦] م: أُنزل.

مزاحِم للحِكمة التي عليها يدور فَلَك التكوين والتشريع، وإنّما الذي تقتضيه الحكمة أن يُبعَث المَلَك مِن بينهم إلى الخواصّ المختصِّين بالنفوس الزكيّة المؤيَّدين بالقوّة القدسيّة المتعلِّقين بكِلا العالَمين الروحاني والجِسماني ليتلقَّوا مِن جانب ويُلقوا إلى جانب.

وأمّا الثاني فلِما أنّ مَناط الاصطفاء للنبوّة والرسالة هو التقدّم في الاتِّصاف بما ذُكر مِن النعوت الجميلة والصفات الجليلة، والسبقُ في إحراز الفضائل العليّة وحيازةِ المَلَكات السنيّة جِبِلّةً واكتسابًا، ولا ريب لأحد منهم في أنّه صلّى الله عليه وسلّم في ذلك الشأن في غاية الغايات القاصية ونهايةِ النهايات النائية. وأمّا التقدّم في الرِّياسة الدنيويّة والسبقُ في نيل الحظوظِ الدنيّة فلا دخلَ له في ذلك قطعًا؛ بل له إخلال به غالبًا، قال عليه السلام: «لو كانت الدنيا تزِن عند الله جناحَ بعوضة ما سقى الكافرَ منها شربة ماءٍ».[1]

﴿أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ ﴿أَنۡ﴾: مصدريّة لجواز كون صلتِها أمرًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ﴾ [يونس، ١٠/١٠٥]، وذلك لأنّ الخبر والإنشاء في الدلالة على المصدر سِيّانِ، فساغ وقوع الأمر والنهي صلة حسبَ / وقوعِ الفعل، فيُجرَّد [٦٥ظ] عند ذلك عن معنى الأمر والنهي نحوَ تجرُّد الصلة الفعليّة عن معنى المُضيّ والاستقبال. ووجوبُ كون الصلة في الموصول الاسمي خبريةً إنّما هو للتوصّل بها إلى وَصْف المعارف بالجمل، لا لقصور في دلالة الإنشاء على المصدر.

أو مفسِّرة؛[2] إذ الإيحاء فيه معنى القول.[3] وقد جُوِّز كونها مخفَّفة مِن المثقَّلة، على حذف ضمير الشأن والقول مِن الخبر، والمعنى: أنّ الشأن قولنا: أنذِر الناسَ.[4] والمراد به جميعُ الناسِ كافةً، لا ما أُريد بالأوّل،[5] وهو النكتة في إيثار الإظهار على الإضمار. وكونُ الثاني عينَ الأوّل عند إعادة المعرفة ليس على الإطلاق.

---

١ بلفظ قريب في المُصنَّف لابن أبي شيبة، ٧/٧٨ (٣٤٣٢٤)؛ وسنن ابن ماجه، ٥/٢٣٠ (٤١١٠)؛ والمعجم الكبير للطبراني، ٦/١٥٧ (٥٨٤٠).

٢ السياق: ﴿أَنۡ﴾: مصدريّة... أو مُفسِّرة...

٣ انظر الوجهين في التبيان للعكبري، ٢/٦٦٤؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٤٥؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٢٥٥.

٤ جوّز ذلك الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٤٤-٢٤٥.

٥ مضى أنّ المراد بلفظ "الناس" الأوّل: كفّار مكّة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما أوحيناه وصدّقوه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: سابقةً ومنزلةً رفيعة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾. وإنّما عُبّر عنها بها إذ بها يحصُل السبق والوصول إلى المَنازل الرفيعة، كما يُعبَّر عن النعمة باليد لأنّها تُعطى بها. وقيل: مقامَ صدقٍ.[١] والوجه أنّ الوصول إلى المقام إنّما يحصُل بالقَدَم، وإضافتُها إلى الصدق للدلالة على تحقّقها وثباتِها، وللتنبيه على أنّ مدار نَيْل ما نالوه مِن المَراتب العليّةِ هو صدقُهم، فإنّ التصديق لا ينفكّ عن الصدق.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم المتعجّبون. وإيرادهم ههنا بعنوان الكفر ممّا لا حاجة إلى ذِكر سببه. وتركُ العاطفِ لجرَيانه مَجرى البيان للجملة التي دخل عليها همزة الإنكار، أو لكونه استئنافًا مبنيًا على السؤال، كأنّه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجّب هل بقُوا على التردّد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشيء؟ فقيل: قال: الكافرون على طريقة التوكيد: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ يعنُون به ما أُوحيَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مِن القرآن الحكيم المنطوي على الإنذار والتبشير.

﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهر. وقُرئ: "لَسَاحِرٌ"،[٢] على أنّ الإشارةَ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُرئ: "مَا هَذا إلّا سِحْرٌ مبِينٌ".[٣] وهذا اعتراف مِن حيث لا يَشعرون بأنّ ما عاينوه / خارجٌ عن طَوْق البشر، نازلٌ مِن جَناب خلّاق [٦٦و]
القُوى والقُدَر، ولكنّهم يُسمّونه بما قالوا تماديًا في العِناد، كما هو دَيدَن المُكابِر اللَّجوج ودأبُ المُفحَم المَحجوج.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ كلام مستأنَف سِيق لإظهارِ بُطلانِ تعجُّبهم المذكور، وما بنَوا عليه

---

[١] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٥.

[٢] كذا وقع في الأصل. والظاهر أنّه سهو؛ لأنّ ما ذكره هو قراءة عاصم التي يجعلها المُصنِّف أصلًا فيما يسوقه مِن التفسير ثمّ يشير إلى خلافه. وبها قرأ أيضًا ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف. وقرأ الباقون "لَسِحْرٌ"، وهذه القراءة هي المرادة ههنا، بحسب المعتاد مِن المُصنِّف. انظر تخريج القراءة في النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٦.

[٣] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود. المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٤٨.

مِن المقالة الباطلة غِبَّ الإشارةِ إليه بالإنكار والتعجيب، وحُقِّق فيه حقّيّة ما تعجّبوا منه وصحّة ما أنكروه بالتنبيه الإجمالي على بعض ما يدلّ عليها مِن شئون الخلق والتقدير وأحوالِ التكوين والتدبيرِ، ويُرشدهم إلى معرفتها بأدنى تذكير لاعترافهم به مِن غير نكير، لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ[1] قُلْ أَفَلَا[2] تَتَّقُونَ[3]﴾ [المؤمنون، ٢٣/٨٦-٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس، ١٠/٣١] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس، ١٠/٣١].

أي: إنّ ربّكم ومالكَ أمرِكم الذي تتعجّبون مِن أن يُرسِل إليكم رجلًا منكم بالإنذار والتبشير وتَعدُّون ما أوحيَ إليه مِن الكتاب الحكيم سِحرًا هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما فيها مِن أصول الكائنات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في ستّة أوقات، أو في مِقدار ستّة أيّام معهودة. فإنّ نفس اليوم الذي هو عبارة عن زمان كون الشمس فوق الأرض ممّا لا يُتصوَّر تحقُّقه حين لا أرضَ ولا سماءَ.

وفي خلقها مدرَّجًا مع القدرة التامّة على إبداعها دفعةً دليلٌ على الاختيار، واعتبارٌ للنُّظّار، وحثٌّ لهم على التأنّي في الأحوال والأطوار. وأمّا تخصيص ذلك بالعدد المعيَّن فأمر قد استأثر بعِلم ما يَستدعيه علّامُ الغيوب، جلّت قُدرته ودقّت حِكمته. وإيثارُ صيغة الجمع في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لِما هو المشهور مِن الإيذان بأنّها أجرام مختلِفةُ الطباع متباينةُ الآثار والأحكام.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العرش: هو الجسم المحيط بسائر الأجسام، سُمِّي به لارتفاعه، أو للتشبيه بسَرير المَلِك، فإنّ الأوامر والتدابير منه تَنزِل. وقيل: هو المُلك.[4] ومعنى استوائِه سبحانه عليه: استيلاؤه عليه، أو استواء أمره. وعن أصحابنا أنّ الاستواء على العرش صفة له سبحانه بلا كيف. والمعنى: أنّه سبحانه استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزَّهًا عن التمكّن والاستقرار. وهذا بيان لجلالة مُلكه وسلطانِه بعد بيان عظمة شأنه وسَعة قُدرتِه بما مرّ مِن خَلْق هاتيك الأجرام العظامِ.

---

[1] م: الله.

[2] م: فأنّى.

[3] م: تؤفكون.

[4] القول في اللباب لابن عادل، ١٠/٢٦٠.

﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ التدبير: النظر في أدبار الأمور وعواقبها لتقعَ على الوجه المحمود، والمراد ههنا: التقدير على الوجه الأتمّ الأكمل. والمراد بـ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾: أمرُ مَلكوت السماوات والأرض والعرش، وغيرُ ذلك / مِن الجزئيّات الحادثةِ شيئًا فشيئًا على أطوار شتّى وأنحاءٍ لا تكاد تحصى مِن المناسبات والمبايَنات في الذوات والصفات والأزمنة والأوقات، أي: يُقدِّر ما ذُكر مِن أمر الكائناتِ الذي ما تعجَّبوا منه مِن أمر البعث والوحي فردٌ مِن جُملته وشُعبة مِن دَوحته، ويُهيّئ أسباب كلّ منها حدوثًا وبقاءً في أوقاتها المعيَّنة ويُرتِّب مصالحَها على الوجه الفائق والنمط اللائق حسبما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المَصلحة. [٦٦ظ]

والجملة: في محلّ النصب على أنّها حال مِن ضمير ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، وقد جُوِّز كونه خبرًا ثانيًا لـ﴿إِنَّ﴾، أو مستأنَفةٌ[1] لا محلّ لها مِن الإعراب،[2] مَبنيّة على سؤال نشأ مِن ذكر الاستواءِ على العرش المنبئ عن إجراء أحكامِ الملك. وعلى كلّ حال فإيثار صيغةِ المضارعِ للدلالة على تجدّد التدبير واستمراره.

وقوله عزّ وعلا: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ بيان لاستبداده سبحانه في التقدير والتدبير ونفيٌ للشفاعة على أبلغ الوجوه، فإنّ نفيَ جميع أفراد الشفيع بـ﴿مِن﴾ الاستغراقيّة يستلزم نفيَ الشفاعة على أتمّ الوجوه، كما في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾[3] [هود، ٤٣/١١]. وهذا بعد قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ﴾ جارٍ مَجرى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ﴾ [المؤمنون، ٨٨/٢٣]، عقيب قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [المؤمنون، ٨٨/٢٣].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأوقات، أي: ما مِن شفيع يشفَع لأحد في وقت مِن الأوقات إلّا بعد إذنه المَبني على الحِكمة الباهرة، وذلك عند كون الشفيع مِن المصطفَين الأخيار والمَشفوعِ له ممّن يليق بالشفاعة، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ

---

١ السياق: والجملة في محلّ... أو مستأنفة...

٢ الوجوه الثلاثة في التبيان للعكبري، ٦٦٤/٢؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٤٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٦٠/١٠.

٣ وفي هامش م: فإنّ نفي العاصم مُستلزِم لنفي العِصمة، كما في قولهم: "ليس فيه داعٍ ولا مُجيبٌ"، فإنّه يدلّ على نفي الدعاء والإجابة على أبلغ وجه. «منه».

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ [النبأ، ٣٨/٧٨]. وفيه مِن الدلالة على عظمة جلاله سبحانه ما لا يخفى.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة، أي: ذلكم العظيم الشأن المنعوت بما ذُكر مِن نعوت الكمال التي عليها يدور استحقاق الألوهيّة ﴿ٱللَّهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمۡ﴾ بيان له، أو بدل منه، أو خبر ثانٍ لاسم الإشارةِ. / وهذا [٦٧و] بعد بيان أنّ ربّهم الله الذي خلَق السماواتِ والأرضَ... إلخ، لزيادة التقرير والمبالغة في التذكير، ولتفريع الأمر بالعبادة عليه بقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي: وحدَه مِن غير أن تُشركوا به شيئًا مِن مَلَك أو نبيّ، فضلًا عن جماد لا يُبصر ولا يَسمع ولا يَضرّ ولا ينفَع، وآمِنوا بما أنزله إليكم. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تعلمون أنّ الأمر كما فُصِل، فلا تتذكّرون ذلك حتّى تقِفوا على فساد ما أنتم عليه فترتدِعوا عنه.[١]

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾

﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى أحد سواه استقلالًا أو اشتراكًا. ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾ أي: بالبعث كما يُنبئ عنه قوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾، فإنّه حال مِن الضمير المجرورِ لكونه فاعلًا في المعنى، أي: إليه رُجوعكم مجتمِعين. والجملة كالتعليل لوجوب العبادة. ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكِّد لنفسه، لأنّ قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وَعْد منه سبحانه بالبعث، أو لفعل مقدَّر،[٢] أي: وعَدَ اللهُ. وأيًّا ما كان فهو دليل على أنّ المراد بالمَرجِع هو الرجوع بالبعث، لأنّ ما بالموت بمَعزِل مِن الوعد كما أنّه بمَعزِل مِن الاجتماع. وقُرئ بصيغة الفعل.[٣] ﴿حَقًّا﴾ مصدر آخرُ مؤكِّد لِما دلّ عليه الأوّل.

---

١ وفي هامش م: بتوجيه الإنكار إلى المعطوف فقط، فإنّ عدم التذكّر بعد العِلم مُستنكَر جدًّا، ويجوز أن يُقدَّر المعطوف عليه منفيًّا، ويُوجَّه الإنكار إليهما معًا، أي: ألا تتأمّلون فلا تتذكّرون. «منه».

٢ السياق: مصدر مؤكِّد لنفسه... أو لفعل مُقدَّر...

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن السُّلَمي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ وقُرئ: "يُبدِئ".[١] ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهو استئناف عُلِّل به وجوب المَرجِع إليه سبحانه وتعالى، فإنّ غاية البدء والإعادة هو جزاء المكلّفين بأعمالهم حسنة أو سيّئة. وقُرئ بالفتح،[٢] أي: لأنّه. ويجوز كونه منصوبًا بما نُصب ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾، أي: وعَد الله وَعدًا بَدْءَ الخلقِ ثمّ إعادتَه؛ ومرفوعًا بما نَصب ﴿حَقًّا﴾، أي: حقّ حقًّا بدءُ الخلقِ... إلخ.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالعدل، وهو حال مِن فاعل "يَجزي"، أي: ملتبِسًا بالعدل، أو متعلِّق بـ"يَجزي"، أي: ليجزيَهم بقسطه ويُوفّيَهم أجورَهم، وإنّما أُجمِل ذلك إيذانًا بأنّه لا يفي به الحصر، أو بقسطهم وعدلِهم عند إيمانِهم ومباشرتِهم للأعمال الصالحة. وهو الأنسبُ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾، فإنّ معناه: ويجزي الذين كفروا بسبب كُفرهم.

وتكرير الإسناد بجَعْل الجملة الظرفيّة خبرًا للموصول لتقوية الحُكم. والجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل للدلالة على مواظبتهم على الكفر. وتغيير النظم الكريم للإيذان بكمال استحقاقهم للعقاب، وأنّ التعذيب بمَعزِل عن الانتظام في سِلك العِلّة الغائيّة للخَلْق بدءًا وإعادةً، وإنّما يَحيق ذلك بالكَفَرة على موجَب سوء اختيارهم، وأمّا المقصود / الأصليُّ مِن ذلك[٣] فهو الإثابة. [٦٧ظ]

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٥﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ﴾ تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعِلمه وقُدرته وحِكمته بآثار صُنعه في النيّرين، بعد التنبيه على الاستدلال

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن طلحة بن مُصرِّف والزُّهري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٤٩.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يزيد بن القعقاع وسهل بن شعيب وطلحة وأبي جعفر والأعمش وشيبة والزعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٤؛ المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٤٨.

٣ وفي هامش م: أي: البدء والإعادة. «منه».

بما مرّ مِن إبداع السماوات والأرض والاستواءِ على العرش وغير ذلك، وبيانٌ لبعض أفراد التدبير الذي أشيرَ إليه إشارة إجمالية، وإرشادٌ إلى أنّه حيث دُبِّرت أمورهم المتعلِّقة بمَعاشهم هذا التدبيرَ البديعَ فلَأن يُدبِّر مصالحَهم المتعلِّقة بالمَعاد بإرسال الرسول وإنزال الكتاب وتبيينِ طرائق الهدى وتعيينِ مَهاوي الردى أَولى وأحرى.

و"الجَعْل": إن جُعل بمعنى الإنشاء والإبداعِ فـ﴿ضِيَآءً﴾ حالٌ مِن مفعوله، أي: خلقها حالَ كونها ذات ضياء على حذف المضاف، أو ضياءً مَحضًا للمبالغة؛ وإن جُعل بمعنى التصيير فهو مفعوله الثاني، أي: جعلها ضياءً على أحد الوجهين المذكورين، لكن لا بعد أن كانت خاليةً عن تلك الحالة؛ بل أبدعها كذلك، كما في قولهم: "ضيِّقْ فمَ الرَّكيّة ووسِّعْ أسفلها".[1] و"الضياء" مصدر كـ"قِيام"، أو جمعُ "ضوء"، كـ"سِياط" و"سَوْط"، وياؤه منقلِبة مِن الواو لانكسار ما قبلها. وقُرئ: "ضِئَاءً"،[2] بهمزتين بينهما ألف بتقديم اللام على العين.

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ الكلام فيه كالكلام في الشمس. والضياء أقوى مِن النور. وقيل: ما بالذات ضوءٌ وما بالعرَض نور.[3] ففيه إشعار بأنّ نُورَه مستفاد مِن الشمس. ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قدَّر له وهيّأ ﴿مَنَازِلَ﴾، أو قدَّر مَسيرَه في منازلَ، أو قدَّره ذا منازلَ، على تضمين التقدير معنى التصيير. وتخصيص القمر بهذا[4] التقدير: لسرعة سَيره، ومعاينة مَنازِله، وتعلُّقِ أحكام الشريعة به، وكونه عمدةً في تواريخ العرب. وقد جُعل الضمير / لكلّ منهما. [٦٨و]

وهي ثمانية وعشرون مَنزلًا، ينزِل القمر كلّ ليلةٍ في واحد منها لا يتخطّاه ولا يتقاصَر عنه على تقدير مستوٍ لا يتفاوت، يسير فيها مِن ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين، فإذا كان في آخر مَنازِله دقّ واستقوس، ثمّ يَستسرّ ليلتين أو ليلةً إذا نقص الشهر.

---

[1] مثّل به الزمخشري في الكشّاف، ١١٧/٤ (غافر، ١٢/٤٠)، وقال بعده: «وليس ثمّة نقل... مِن ضِيق إلى سَعة ولا مِن سَعة إلى ضِيق، وإنّما أردتَ الإنشاء على تلك الصفات».

[2] قرأ بها ابن كثير في رواية قنبل عنه. النشر لابن الجزري، ٤٠٦/١.

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٠/٢.

[4] وفي هامش م: الباء داخلة على المقصور. «منه».

ويكون مقام الشمس في كلّ مَنزلةٍ منها ثلاثةَ عشرَ يومًا. وهذه المنازل هي مواقع النجوم التي نسَبت إليها العربُ الأنواءَ المستمطَرة وهي: الشرطان، والبُطَين، والثُّريا، الدَّبَرانُ، الهَقعَة، الهَنعَة، الذِّراع، النثرة، الطوف،[1] الجَبهة، الزُّبرَة، الصَّرفة، العَوّاء، السِّمَاك، الغَفْر، الزُّباني، الإكليل، القَلْب، الشَّولة، النعائم، البلدة، سعدُ الذابح، سعدُ بُلَع، سعدُ السُّعودِ، سعدُ الأخبية، فرغُ الدَّلو المقدَّم، فرغُ الدَّلو المؤخَّر، الرِّشاء، وهو بطن الحوت.[2]

﴿لِتَعۡلَمُواْ﴾ إمّا بتعاقب الليل والنهار المَنوطَين بطلوع الشمس وغروبها أو باعتبار نزول كلّ منهما في تلك المنازل.[3] ﴿عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ التي يتعلّق بها غرض علميٌّ لإقامة مصالحِكم الدينيّة والدنيويّة. ﴿وَٱلۡحِسَابَ﴾ أي: حسابَ الأوقات[4] مِن الأشهر والأيّام والليالي وغير ذلك ممّا نِيط به شيء مِن المصالح المذكورة. وتخصيص العدد بالسنين والحساب بالأوقات لِما أنّه لم يُعتبر في السنين المَعدودة معنى مغاير لمَراتب الأعداد، كما اعتُبر في الأوقات المَحسوبة.

وتحقيقه أنّ "الحساب" إحصاءُ ما له كمّيّة انفصاليّة بتكرير أمثاله مِن حيث يتحصّل بطائفة معيّنة منها حدٌّ معيّنٌ له اسم خاصّ وحُكم مستقِلّ. كالسَّنة المتحصِّلة مِن اثني عشرَ شهرًا، قد تحصّل كلّ مِن ذلك مِن ثلاثين يومًا[5] قد تحصّل كلّ مِن ذلك مِن أربع وعشرين ساعةً مثلًا. و"العدّ" مجرّد إحصائه بتكرير أمثاله مِن غير اعتبار أن يتحصّل بذلك شيء كذلك.

ولمّا لم يُعتَبر في السنين المَعدودةِ تحصُّل حدّ معيَّن له اسم خاصّ غيرُ أسامي مراتبِ الأعدادِ وحُكم مستقِلٌّ أُضيف[6] إليها العدد. وتحصُّلُ مراتب الأعداد مِن العشَرات / والمئات والألوف اعتباري لا يُجدي في تحصُّل المَعدود نفعًا. [٦٨ظ]

---

[1] كذا وقع في الأصل. وصوابه: الطرف. انظر: الأنواء لابن قتيبة، ص ٥٥.

[2] انظر تفصيل الكلام على منازل القمر في الأنواء لابن قتيبة، ص ٢٠-٨٩.

[3] وفي هامش م: ثمّ الظاهر أنّ المراد: البروج، إذ بها وبقطعها يُعلَم عدد السنين والحساب، بقرانه مع الشمس وظهور بعده، وذلك لأنّ المُعتبَر مِن الشَّرع السنَة القمريّة والشهر الهلالي. تفتازاني. | والكلام في حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٣٩٧ظ.

[4] وفي هامش م: على أنّ الألف واللام عِوض عن المضاف إليه. | عُلِّق تحتها «يحـ».

[5] وفي هامش م: فإنّ الليلة محسوبة مِن يومها. «منه».

[6] وفي هامش م: جواب لمّا. «منه».

وحيث اعتُبر في الأوقات المَحسوبة تحصُلُ ما ذُكر مِن المراتب التي لها أسامٍ خاصّةٌ وأحكام مستقلّة عُلِّق بها الحساب المنبئُ عن ذلك.

والسَّنةُ مِن حيث تحقّقُها في نفسها ممّا يتعلّق به الحساب، وإنّما الذي يتعلّق به العدّ طائفة منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك بكلّ واحدةٍ مِن تلك الطائفة ليس مِن الحيثيّة المذكورة، أعني: حيثيّةَ تحصُّلها مِن عدّة أشهُر قد تحصَّل كلُّ واحدٍ منها مِن عدّة أيّام قد حصل كلّ منها بطائفة مِن الساعات، فإنّ ذلك وظيفة الحساب؛ بل مِن حيث إنّها فردٌ مِن تلك الطائفة المعدودة مِن غير أن يُعتبَر معها شيء غير ذلك. وتقديم العدد على الحساب مع أنّ الترتيب بين متعلَّقيهما وُجودًا وعِلمًا على العكس، لأنّ العِلم المتعلِّق بعدد السنين عِلمٌ إجمالي بما تعلَّق به الحسابُ تفصيلًا وإن لم يتَّحِد الجهةُ، أو لأنّ العدد مِن حيث إنّه لم يُعتبَر فيه تحصّلُ أمرٍ آخرَ -حسبما حُقِّق آنفًا- نازلٌ مِن الحساب الذي اعتُبر فيه ذلك منزلةَ البسيط مِن المركَّب.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر مِن الشمس والقمر على ما حُكي مِن الأحوال. وفيه إيذان بأنّ معنى جعلهما على تلك الأحوال والهيئات ليس إلّا خلقَهما كذلك كما أشيرَ إليه، ولا يَقدَح في ذلك أنّ استفادة القمر النورَ مِن الشمس أمرٌ حادث، فإنّ المراد بجَعْله نورًا إنّما هو جَعْله بحيث يتَّصف بالنور عند وجودِ شرائطِه، لا اتِّصافُه به بالفعل.

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ أحوالِ الفاعل أو المفعول، أي: ما خلق ذلك ملتبِسًا بشيء مِن الأشياء إلّا ملتبِسًا بالحقّ مراعيًا[1] لمقتضى الحِكمة البالغةِ أو مراعًى[2] فيه ذلك، وهو ما أشيرَ إليه إجمالًا مِن العِلم بأحوال السنين والأوقات المَنوط به أمورُ معاملاتهم وعباداتهم.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التكوينيّةَ المذكورة، أو جميعَ الآيات، فيَدخل فيها الآيات المذكورة / دُخولًا أوّليًا، أو يُفصِّل الآياتِ التنزيليّةَ المنبِّهة على ذلك. [٦٩و]

---

[1] وفي هامش م: على تقدير كونه حالًا مِن الفاعل. «منه».

[2] وفي هامش م: على تقدير كونه حالًا مِن المفعول. «منه».

وقُرئ: بنون العظمة.[١] ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحكمةَ في إبداع الكائنات فيستدلّون بذلك على شئون مُبدعِها جلّ وعلا، أو يعلمون ما في تضاعيف الآيات المنزلة فيُؤمنون بها. وتخصيص التفصيلِ بهم لأنّهم المنتفِعون به.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تنبيه آخرُ إجمالي على ما ذُكر، أي: في تعاقبهما وكون كلّ منهما خِلْفةً للآخر بحسَب طلوع الشمس وغروبها التابعين لحركات السماوات وسكونِ الأرض، أو في تفاوُتهما في أنفسِهما بازدياد كلّ منهما بانتقاص الآخر وانتقاصِه بازدياده باختلاف حال الشمس بالنسبة إلينا قُربًا وبُعدًا بحسَب الأزمنة، أو في اختلافهما وتفاوتِهما بحسب الأمكنة؛ إمّا في الطول والقِصَر، فإنّ البلاد القريبة مِن القُطب الشمالي أيّامُها الصيفيّة أطول ولياليها الصيفيّةُ أقصرُ مِن أيّام البلاد البعيدةِ منه ولياليها؛ وإمّا في أنفسهما[٢] فإنّ كُريّة الأرضِ تقتضي أن يكون بعض الأوقات في بعض الأماكن ليلًا وفي مقابله نهارًا.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن أصناف المَصنوعات ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظيمةً أو كثيرةً دالّةً على وجود الصانع تعالى ووَحدته وكمالِ علمِه وقُدرتِه وبالِغ حكمته التي مِن جملة مقتضياتِها ما أنكروه مِن إرسال الرسول وإنزال الكتاب والبعثِ والجزاء.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصّهم بذلك لأنّ الداعيَ إلى النظر والتدبّر إنّما هو تقوى الله تعالى والحذرُ مِن العاقبة، فهُمْ الواقفون على أنّ جميع المخلوقات آياتٌ دون غيرهم. ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف، ١٢/١٠٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بيان لمآل أمر مَن كفَر بالبعث وأعرَض عن البيّنات

---

١ قرأ بها نافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

٢ ط س: أنفسها.

الدالّة عليه بعد تحقيق أنّ مَرجِع الكلّ إليه تعالى وأنّه يُعيدهم بعد بدئِهم للجزاء ثوابًا وعقابًا وتفصيلِ بعض الآياتِ الشاهدة بذلك. والمراد بلقائه تعالى إمّا الرجوع إليه تعالى بالبعث، أو لقاءُ الحساب كما في قوله عزّ وعلا: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة، ٢٠/٦٩]. وأيًّا ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة مِن تهويل الأمر ما لا يخفى.

والمراد بعدم الرجاء عدمُ التوقّع مطلقًا المنتظِم لعدم الأملِ وعدمِ الخوف، فإنّ عدمهما لا يستدعي عدم اعتقاد وقوع المأمول والمَخوف، أي: لا يتوقّعون الرجوع إلينا أو لقاء حسابنا المؤدّي إمّا إلى حُسن الثواب أو إلى سُوء العذاب. فلا يأمُلون الأوّل، وإليه أشيرَ بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، فإنّه منبئ عن إيثار الأدنى الخسيس على الأعلى النفيس، كقوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [التوبة، ٣٨/٩] ولا يخافون الثانيَ وإليه أشيرَ بقوله تعالى: ﴿وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا﴾ أي: سكَنوا فيها سكونَ مَن لا بَراحَ له منها آمنين مِن اعتراء المزعِجات غيرَ مخطرين ببالهم ما يَسوءهم مِن عذابنا.

وقيل: المراد بالرجاء معناه الحقيقيُّ، وباللقاء حسنُ اللقاء.[1] أي: لا يأمُلون حُسن لقائنا بالبعث والإحياء بالحياة الأبديّة، ورضُوا بدلًا منها وممّا فيها مِن فنون الكرامات السنيّة بالحياة الدنيا الدنيّة الفانية، واطمأنُّوا بها، أي: سكَنوا إليها مُكبّين عليها قاصرين مَجامعَ هِمّم على لذائذها وزخارفِها مِن غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يَثنيهم.

وإيثار الباءِ على كلمة "إلى" المنبئة / عن مجرّد الوصول والانتهاء للإيذان بتمام الملابسة ودوام المصاحبة والمؤانسة. وحملُ الرجاء على الخوف فقط يأباه كلمةُ الرضا بالحياة الدنيا، فإنّها منبئة عما ذُكر مِن ترك الأعلى وأخذِ الأدنى. واختيار صيغةِ الماضي في الصلتين الأخيرتين للدلالة على التحقّق والتقرر، كما أنّ اختيار صيغة المستقبل في الأُولى للإيذان باستمرار عدم الرجاء. [٦٩ظ]

---

[1] القول في حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٣٩٧ظ.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ المفصَّلة في صحائف الأكوان حسبما أشيرَ إلى بعضها، أو آياتنا المنزلِة المنبّهة على الاستشهاد بها، المتّفقةِ معها في الدلالة على حقّيّة ما لا يَرجونه مِن اللقاء المترتّب على البعث وعلى بطلان ما رضُوا به واطمأنّوا إليه مِن الحياة الدنيا. ﴿غَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكّرون فيها أصلًا وإن نُبِّهوا على ذلك وذُكِّروا بأنواع القوارع لانهماكهم فيما يَصُدّهم عنها مِن الأحوال المعدودة. وتكرير الموصول للتوسّل به إلى جعل صلته جملةً اسميّةً منبئةً عمّا هم عليه مِن استمرار الغفلة ودوامها. وتنزيل التغاير الوصفي مَنزلةَ التغاير الذاتي إيذانًا بمغايرة الوصف الأخير للأوصاف الأُوَل واستقلاله باستتباع العذاب.

هذا، وأمّا ما قيل مِن أنّ العطف إمّا لتغاير الوصفين والتنبيهِ على أنّ الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأسًا، والانهماكِ في الشهوات، بحيث لا يخطُر ببالهم الآخرةُ أصلًا؛ وإمّا لتغاير الفريقين، والمرادُ بالأوّلين مَن أنكَر البعث ولم يرَ إلّا الحياةَ الدنيا، وبالآخِرين مَن ألهاه حبُّ العاجل عن التأمّل في الآجل،[١] فكلام ناءٍ عن السَّداد،[٢] فتأمّل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن صفات السوء ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: مَسكَنهم ومَقرّهم الذي لا بَراحَ لهم منه ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا ما اطمأنّوا بها مِن الحياة الدنيا ونعيمها ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ مِن الأعمال القلبيّةِ المعدودة وما تستتبعه مِن أصناف المعاصي والسيّئاتِ أو بكَسْبهم إيّاها. والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجدّدي. والباء متعلّقة بمضمون الجملة الأخيرة الواقعة خبرًا عن اسم الإشارة، وهو مع خبرِه خبرٌ لـ﴿إِنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾... إلخ.[٣]

---

[١] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٠-٩١.

[٢] السياق: وأمّا ما قيل... فكلام ناءٍ...

[٣] في الآية السابقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾

[٧٠و] / ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: فعلوا الإيمان، أو آمنوا بما تشهد به الآيات التي غفَل عنها الغافلون، أو بكلّ ما يجب أن يُؤمَن به فيَندرجُ فيه ذلك اندراجًا أوّليًا. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال الصالحة في أنفسها اللائقة بالإيمان،[١] وإنّما تُرك ذِكر الموصوف لجريانها مَجرى الأسماء.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم﴾ أُوثر الالتفات تشريفًا لهم بإضافة الربّ إليهم، وإشعارًا بعِلّة الهداية. ﴿بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يَهديهم بسبب إيمانِهم إلى مأواهم[٢] ومَقصِدهم وهي الجنّة، وإنّما لم تُذكَر تعويلًا على ظهورها وانسياقِ النفس إليها، لا سيّما بمُلاحظة ما سبق مِن بيان مأوى الكفَرة وما آواهم إليه مِن أعمالهم السيّئةِ ومشاهَدة ما لحِق مِن التلويح[٣] والتصريح.[٤]

وفي النظم الكريم إشعار بأنّ مجرَّد الإيمان والعمل الصالح لا يكفي في الوصول إلى الجنّة؛ بل لا بدّ بعد ذلك مِن الهداية الربّانيّة، وأنّ الكفر والمعاصيَ كافية في دخول النار. ثمّ إنّه لا نزاعَ في أنّ المراد بالإيمان الذي جُعل سببًا لتلك الهداية هو إيمانُهم الخاصُّ المشفوع بالأعمال الصالحة، لا الإيمانُ المجرَّد عنها، ولا ما هو أعمُّ منهما، إلّا أنّ ذلك بمَعزِل عن الدلالة، على خلاف ما عليه أهل السُّنّة والجماعة مِن أنّ الإيمان الخاليَ عن العمل الصالح يُفضي إلى الجنّة في الجملة ولا يخلّد صاحبُه في النار.

فإنّ منطوق الآية الكريمة أنّ الإيمان المقرون بالعمل الصالح سبب للهداية إلى الجنّة. وأمّا أن كلّ ما هو سببٌ لها يجب أن يكون كذلك، فلا دلالةَ لها ولا لغيرها عليه قطعًا، كيف لا، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام، ٦/٨٢] مُنادٍ بخلافه، فإنّ المراد بالظلم هو الشركُ،

---

[١] وفي هامش م: فيندرج فيها رجاء لقائه سبحانه والاجتناب عن الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها. «منه».

[٢] في هامش م: يُصرِّح بها. «يحا».

[٣] وفي هامش م: هو قوله: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. «منه».

[٤] وفي هامش م: هو قوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. «منه».

كما أطبق عليه المفسّرون. والمعنى: لم يخلِطوا إيمانَهم بشِرك، ولئن حُمل على ظاهره أيضًا يدخُل في الاهتداء مَن آمن ولم يعمل صالحًا، ثمّ مات قبل أن يَظلِم بفعل حرام أو بتركِ واجب.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: بين أيديهم كقوله سبحانه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ [الزخرف، ٥١/٤٣]، أو تجري وهم على / سُرر مرفوعة وأرائِكَ مصفوفة. [٧٠ظ] والجملة مستأنَفة، أو خبر ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾، أو حالٌ مِن مفعول ﴿يَهۡدِيهِمۡ﴾ على تقدير كون المَهدي إليه ما يريدونه في الجنّة كما قيل.[١] وقيل: يهديهم ويُسدِّدهم للاستقامة على سلوك السبيلِ المؤدّي إلى الثواب والجنّة.[٢]

وقوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جارٍ مَجرى التفسير والبيان، فإنّ التمسّك بحبل السعادة في حُكم الوصول إليها. وقيل: يَهديهم إلى إدراك الحقائق البديعة بحسب القوّة العمليّة،[٣] كما قال عليه السلام: «مَن عمِل بما علِم ورّثه الله عِلمَ ما لم يعلَم».[٤] ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ خبر آخرُ، أو حال أخرى منه، أو مِن ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، أو متعلِّق بـ﴿تَجۡرِي﴾، أو بـ"يهدي". فالمراد بالمَهدي إليه إمّا منازلهم في الجنّة، أو ما يريدونه فيها.

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾

﴿دَعۡوَىٰهُمۡ﴾ أي: دعاؤهم وهو مبتدأ، وقوله عزّ وجلّ: ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق به، وقوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ خبرُه، أي: دعاؤهم هذا الكلام. وهو معمول لمقدَّر لا يجوز إظهاره، والمعنى: اللّهمّ إنّا نُسبِّحك تسبيحًا. ولعلّهم يقولونه عندما عاينوا فيها مِن تعاجيب آثار قدرته تعالى ونتائج رحمته ورأفته ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطَر على قلب بشَر، تقديسًا لمقامه تعالى عن شوائب العجز والنقصان، وتنزيهًا لوعده الكريم عن سِمات الخُلف.

---

١ انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢.

٢ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٦/٢-٢٤٧.

٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢.

٤ حلية الأولياء لأبي نُعيم، ١٦٣/٦؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢؛ تفسير ابن كثير، ٤٣٧/٨ (العلق، ٥/٩٦).

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ التحيّة: التكرِمة بالحالة الجليلة، أصلُها: "أحياكَ الله حياةً طيّبة"، أي: ما يُحيِّي به بعضهم بعضًا، أو تحيّةُ الملائكة إيّاهم،[1] كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد، ٢٣/١٣]، أو تحيّةُ الله عزّ وجلّ لهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس، ٥٨/٣٦]. ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: سلامة عن كلّ مكروه.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي: خاتمة دعائهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أن يقولوا ذلك نعتًا له عزّ وجلّ بصفات الإكرام إثرَ نعتِه تعالى بصفات الجلال، أي: دعاؤهم منحصِر فيما ذُكِر، إذ ليس لهم مَطلَب مترقَّب حتّى ينتظموه في سِلك الدعاء. و﴿أَنْ﴾ هي المخفَّفة مِن "أنّ" المثقَّلة، أصلُه: "أنّه الحمدُ لله"، فحُذف ضمير الشأن، كما في قوله:

أنْ هـالـكٌ كـلُّ مَـن يَـحفى ويَـنتـعِلُ[2]

وقُرِئ: "أنّ الحَمْدَ لله"[3] بالتشديد ونَصْب "الحمد". ولعلّ توسيطَ ذِكر تحيّتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمتِه / للتوسّل إلى خَتْم الحكاية بالتحميد [٧١و]
تبرّكًا مع أنّ التحيّة ليست بأجنبيّة على الإطلاق.

ودعوى كون ترتيبِ الوقوع أيضًا كذلك، بأن كانوا حين دخلوا الجنّة وعاينوا عظمة الله تعالى وكبرياءَه مجّدوه تعالى[4] ونعَتوه بصفات[5] الجلال، ثمّ حيّاهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات، أو حيّاهم بذلك ربُّ العزّة فحمِدوه تعالى وأثنَوا عليه،[6] يأباها إضافة "الآخِر" إلى دعواهم.[7]

---

١ وفي هامش م: على الإضافة إلى المفعول.

٢ عجز بيت للأعشى مِن معلّقته، وصدره:
في فِتيةٍ كسيوف الهِندِ قد عَلِموا
وهو له بهذه الرواية شاهدًا على ما نحن فيه في كتاب سيبويه، ١٣٧/٢؛ وبلا نسبة في المُفصَّل للزمخشري، ص ٣٠٢؛ وعجزه في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٧/٢. وهو في شرح القصائد العشر للتبريزي، ص ٢٩٧. وروايته في ديوان الأعشى، ص ٥٩:
إمّـا تَـرَيـنـا حُـفـاةً لا نِـعـالَ لنا
إنّـا كـذلـك مـا نحفى وننتعلُ

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن بلال بن أبي بُردة وابن مُحيصن وأبو حَيْوة وابن مِقسَم والزعفراني وأبو حنيفة والمنهال والوليد والفزاري عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٥٠.

٤ ط س - تعالى.

٥ ط س: بنعوت. | وفي هامش ط: بصفات [نحـ].

٦ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩١/٢-٩٢.

٧ السياق: ودعوى كون ترتيب... يأباها إضافة الآخر...

وقد جُوِّز أن يكون المراد بالدعاء العبادةَ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَاتَدْعُونَ﴾... إلخ، [مريم، ٤٨/١٩]، إيذانًا بألّا تكليفَ في الجنّة، أي: ما عبادتهم إلّا أن يُسبِّحوه ويَحمَدوه، وليس ذلك بعبادة، إنّما يُلهَمونه فينطقون به تلذّذًا.[١] ولا يساعده تعيينُ الخاتمة.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين لا يَرجون لقاءَ الله تعالى لإنكارهم البعث وما يترتّب عليه مِن الحساب والجزاء. أشيرَ إلى بعض مِن عظائمِ معاصيهم المتفرِّعة على ذلك وهو استعجالهم بما أُوعدوا به مِن العذاب تكذيبًا واستهزاءً وإيرادُهم باسم الجنس لِما أنّ تعجيل الخير لهم ليس دائرًا على وصفهم المذكور، إذ ليس كلُّ ذلك بطريق الاستدراج، أي: لو يُعجِّل الله لهم ﴿ٱلشَّرَّ﴾ الذي كانوا يستعجلون به، فإنّهم كانوا يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال، ٣٢/٨]، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ نُصب على أنّه مصدر تشبيهي وُضع مَوضِعَ مصدرِ ناصبه دلالةً على اعتبار الاستعجالِ في جانب المشبَّه كاعتبار التعجيل في جانب المشبَّه به، وإشعارًا بسرعة إجابته تعالى لهم حتّى كأنّ استعجالهم بالخير نفس تعجيله لهم، والتقدير: ولو يُعجِّل الله لهم الشرَّ عند استعجالهم به تعجيلًا مِثلَ تعجيله لهم الخيرَ عند استعجالِهم به. فحُذف ما حُذف تعويلًا على دلالة الباقي عليه.

﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ أي:[٢] لأُدِّيَ إليهم الأجل الذي عُيِّن لعذابهم وأُميتوا وأُهلِكوا بالمرّة، وما أُمهلوا طرفةَ عين. وفي إيثار صيغة المَبني / للمفعول جريٌ [٧١ظ] على سَنَن الكبرياء، مع الإيذان بتعيُّن الفاعل.[٣] وقُرئ على البناء للفاعل،[٤] كما قُرئ:

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٧/٢.
[٢] ط س - أي.
[٣] ط س - مع الإيذان بتعيين الفاعل.
[٤] قرأ بها ابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٨٢/٢.

"لَقَضَيْنَا".[١] واختيار صيغة الاستقبال في الشرط، وإن كان المعنى على المُضيّ، لإفادة أنّ عدم قضاءِ الأجل لاستمرار عدم التعجيل، فإنّ المضارع المَنفي الواقع مَوقِع الماضي ليس بنصّ في إفادة انتفاء استمرار الفعل؛ بل قد يفيد استمرار انتفائه أيضًا بحسب المقام، كما حُقّق في موضعه.

واعلم أنّ مدار الإفادة في الشرطيّة أن يكون التالي أمرًا مغايرًا للمقدَّم في نفسه مترتّبًا عليه في الوجود، كما في قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات، ٧/٤٩]، فإنّ العنَت، أي: الوقوع في المَشقّة والهلاك أمرٌ مغايرٌ لطاعته عليه السلام لهم مترتِّبٌ عليها في الوجود، أو يكون فردًا كاملًا مِن أفراده ممتازًا عن البقيّة بأمر يَخصّه، كما في الأجوبة المحذوفة في مِثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام، ٣٠/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام، ٢٧/٦]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [السجدة، ١٢/٣٢]، ونظائرِها، أي: لرأيتَ أمرًا هائلًا فظيعًا، أو نحوَ ذلك. وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر، ٤٥/٣٥] إذا فُسّر الجواب بالاستئصال، فإنّه فرد كامل مِن أفراد مطلَق المؤاخَذة قد عُبّر عنه بما لا مَزيدَ عليه في الدلالة على الشدّة والفظاعة، فحسنُ مَوقعه في مَعرِض التالي للمؤاخَذة المطلَقة.

وأمّا ما نحن فيه مِن القضاء فليس بأمر مغاير لتعجيل الشرّ في نفسه، وهو ظاهر؛ بل هو إمّا نفسُه أو جزئي منه كسائر جزئيّاته مِن غير مزيّة له على البقيّة؛ إذ لم يُعتبَر في مفهومه ما ليس في مفهوم تعجيل الشرّ مِن الشدّة والهَول، فلا يكون في ترتيبه عليه وجودًا أو عدمًا مَزيدُ فائدة مصحِّحة لجعلِه تاليًا له. فالحقّ أنّ المقدَّم ليس نفس التعجيل المذكور؛ بل هو إرادته المستتبَعة للقضاء المذكور وجودًا وعدمًا، كما في قوله تعالى:[٢] ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف، ٥٨/١٨]، أي: لو يريد مؤاخَذتهم، فإنّ تعجيل العذاب لهم

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مُحيصن والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

[٢] س – تعالى.

نفسُ المؤاخَذة، أو جزئي مِن جزئيّاتها غيرُ ممتاز عن البقيّة، فليس في بيان ترتّبه عليها وجودًا أو عدمًا مَزيدُ فائدة، وإنّما الفائدة في بيان ترتّبه على إرادتها حسبما ذُكر، وأيضًا في ترتيب التالي على إرادة المقدَّم ما ليس في ترتيبه على نفسه مِن الدلالة على[1] المبالغة وتهويل الأمر والدلالة على أنّ الأمور مَنوطةٌ بإرادته تعالى المَبنيّة على الحِكم البالغة.

[٧٢و] / ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بنون العظمة الدالّة على التشديد في الوعيد، وهو عطفٌ على مقدَّر تُنبئ عنه الشرطيّة، كأنّه قيل: لكن لا نفعل ذلك لِما تقتضيه الحكمة، فنتركهم إمهالًا واستدراجًا. ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ الذي هو عدم رجاء اللقاء، وإنكارُ البعث والجزاء وما يتفرّع على ذلك مِن أعمالهم السيّئة ومَقالاتهم الشنيعة. ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي:[2] يتردّدون ويتحيّرون، ففي وضع الموصول مَوضعَ الضمير نوعُ بيان للطغيان بما في حيّز الصلة، وإشعار بعلّيّته للترك والاستدارج.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: أصابه جنس الضُّرّ مِن مرض وفقر وغيرهما مِن الشدائد إصابةً يسيرة. ﴿دَعَانَا﴾ لكشفه وإزالته. ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ حال مِن فاعل "دعا" بشهادة ما عُطف عليه مِن الحالين، واللام بمعنى "على"، كما في قوله تعالى: ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء، ١٧/١٠٧]، أي: دعانا كائنًا على جنبه، أي: مضطجِعًا. ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: في جميع الأحوال ممّا ذُكر وما لم يُذكَر. وتخصيص المعدودات بالذِّكر لعدم خلوّ الإنسان عنها عادةً، أو دعانا في جميع أحوال مرضه على أنّه المراد بالضُّرّ خاصّة، مضطجِعًا عاجزًا عن القعود، وقاعدًا غيرَ قادر على النهوض، وقائمًا لا يستطيع الحَراك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ الذي مَسّه غِبَّ ما دعانا، حسبما ينبئ عنه الفاء. ﴿مَرَّ﴾ أي: مضى واستمرّ على طريقته التي كان يَنتحيها قبل مِساس الضُّرّ ونسيَ

---

[1] ط س – الدلالة على.

[2] ط س – أي.

حالة الجَهد والبلاء، أو مرّ عن موقف الضراعة والابتهال ونأى بجانبه. ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا﴾ أي: كأنّه لم يَدعُنا، فخُفِّف وحُذف ضمير الشأن، كما في قوله:

كأنْ لم يكن بين الحَجون إلى الصَّفا[1]

والجملة التشبيهيّة في محلّ النصب على الحاليّة مِن فاعل ﴿مَرَّ﴾، أي: مرّ مشبَّهًا بمَن لم يَدعُنا. ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ أي: إلى كشف ضُرّ ﴿مَّسَّهُۥ﴾. وهذا وصفٌ للجنس باعتبار حال بعض أفرادِه ممّن هو متّصف بهذه الصفات.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصب على المصدريّة، وذلك إشارة إلى مصدر الفعل الآتي، وما فيه مِن معنى البعدِ للتفخيم، والكاف مُقحَمة للدلالة على زيادة فخامة المشار إليه إقحامًا لا يكاد يُترَك في لغة العَرب ولا في غيرها، ومِن ذلك قولهم: "مِثلُك لا يَبخَل" مكان "أنت لا تبخل".[2] أي: / مِثل ذلك التزيين العجيب. [٧٢ظ]

﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للموصوفين بما ذُكر مِن الصفات الذميمة. وإسرافهم لِما أنّ البارئ[3] تعالى إنّما أعطاهم القُوى والمَشاعر ليَصرفوها إلى مَصارفها ويستعملوها فيما خُلقن له مِن العلوم والأعمال الصالحة، فلمّا صرفوها إلى ما لا ينبغي وهي رأسُ مالِهم فقد أتلفوها وأسرفوا إسرافًا ظاهرًا. والتزيين إمّا مِن جهة الله تعالى بطريق[4] التخلية والخِذلان، أو مِن الشيطان بالوسوسة والتسويل.

﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مِن الإعراض عن الذِّكر والدعاء والانهماك في الشهوات. وتعلُّق الآية الكريمة بما قبلها مِن حيث إنّ في كلّ منهما إملاءً للكفَرة على طريقة الاستدراج بعد الإنقاذ مِن الشرّ المقدَّر في الأُولى ومِن الضُّرّ المقرَّر في الأخرى.

---

[1] في هامش م: تمامه:
أنيسٌ ولم يسمُر بمكّةَ سامرُ
والبيت لمُضاض بن عمرو بن الحارث بن مُضاض الجُرهُميّ، وقد يُنسب لأبيه عمرو أو لجدّه الحارث. انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، ١٥/١٨؛ ومعجم الشعراء للمَرزُباني، ص ٢٧؛ والصحاح للجوهري، «حجن»؛ ومعجم البلدان للحموي، ٢/٢٢٥. وفي الأخير: «الحَجون: جبلٌ بأعلى مكّة عنده مدافن أهلها».

[2] انظر الكلام على هذا الأسلوب في دلائل الإعجاز للجرجاني، ص ١٣٨-١٤٠؛ ومفتاح العلوم للسكّاكي، ص ٣٢٨.

[3] ط س: الله.

[4] ط س: على طريقة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ﴾ أي: القرون الخالية مِثلَ قوم نوح وعاد وأضرابِهم. و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ متعلِّقة بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: أهلكناهم مِن قبل زمانِكم. والخطاب لأهل مكّةَ على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتأكيد[١] القَسمي. ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ ظرف للإهلاك، أي: أهلكناهم حين فعلوا الظلم بالتكذيب والتمادي في الغَيّ والضلال مِن غير تأخير.

وقوله تعالى:[٢] ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ حال[٣] مِن ضمير ﴿ظَلَمُوا۟﴾، بإضمار "قد".[٤] وقوله تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ متعلِّق بـ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، على أنّ الباء للتعدية، أو بمحذوف هو[٥] حال[٦] مِن ﴿رُسُلُهُم﴾، دالّة على إفراطهم في الظلم وتناهيهم في المُكابَرة، أي: ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البيّنة الدالّة على صدقهم، أو ملتبِسين بها حين لا مجالَ للتكذيب.

وقد جُوِّز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾[٧] عطفًا[٨] على ﴿ظَلَمُوا۟﴾،[٩] فلا محلَّ له[١٠] مِن الإعراب[١١] عند سيبويه، وعند غيره مَحلُّه[١٢] الجرُّ؛ لأنّه[١٣] معطوف[١٤] على ما هو مجرور بإضافة الظرف إليه.[١٥] وليس الظلم منحصِرًا في التكذيب حتّى يُحتاج إلى الاعتذار بأنّ الترتيب الذِّكري لا يجِب كونه على وَفق الترتيب الوقوعي،

---

١ ط س: بالتوكيد.

٢ ط س – وقوله تعالى.

٣ ط س: الواو للحال.

٤ ط س – بإضمار "قد".

٥ ط س: وقع.

٦ ط س: حالًا.

٧ ط س – قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْهُمْ﴾.

٨ ط س: للعطف.

٩ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٨؛ التبيان للعُكبري، ٢/٦٦٤؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٢.

١٠ ط س: للجملة.

١١ ط س – مِن الإعراب.

١٢ ط س: محلّها.

١٣ ط س: لأنّها.

١٤ ط س: معطوفة.

١٥ الكلام في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٦٢؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٢٨٠. وانظر الكلام على "لمّا" في كتاب سيبويه، ٤/٢٣٤. هذا على التسليم بأنّ مذهب سيبويه في "لمّا" أنّها حرف، وهو ما فهمه ابن خروف مِن كلامه، وعند المُحقِّقين أنّها عنده ظرف. انظر: شرح الرضيّ على الكافية، ٣/٢٣٠-٢٣١؛ والمُطوَّل للتفتازاني، ص ٩.

كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾... إلخ، [يوسف، ١٠٠/١٢]؛ بل هو محمول على سائر أنواع الظلم.

والتكذيب مستفاد مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ﴾ على أبلغ وجه وآكده، فإنّ اللام لتأكيد النفي، أي: وما صحّ وما استقام لهم أن يُؤمنوا لفساد استعدادهم وخذلان الله تعالى إيّاهم لعلمه بأنّ الألطاف لا تنجَع فيهم. والجملة على الأوّل عطفٌ على ﴿ظَلَمُواْ﴾؛ لأنّه إخبار بإحداث التكذيب، وهذا بالإصرار عليه، وعلى الثاني عطفٌ على ما عُطف عليه.

وقيل: اعتراض بين الفعل وما يجري مَجرى مصدره التشبيهي،[١] أعني: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، فإنّ الجزاء المشار إليه عبارة عن مصدره، أي: مِثلَ ذلك الجزاء / الفظيع، أي: الإهلاكِ الشديد الذي هو الاستئصال بالمرّة. ﴿نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: كلَّ طائفة مجرِمة. وفيه وعيد شديد وتهديد أكيد لأهل مكّةَ لاشتراكهم لأولئك المهلَكين في الجرائم والجرائر التي هي تكذيب الرسول والإصرارُ عليه، وتقريرٌ لمضمون ما سبق مِن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾.[٢] وقُرئ بالياء[٣] على الالتفات إلى الغيبة. [٧٣و]

وقد جُوِّز أن يكون المراد بـ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أهلَ مكّةَ،[٤] على طريقة وضعِ الظاهر مَوضعَ ضميرِ الخطاب، إيذانًا بأنّهم أعلامٌ في الإجرام، ويأباه كلَّ الإباء قولُه عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾؛ فإنّه صريح في أنّه ابتداء تعرّضٍ لأمورهم، وأنّ ما بُيّن فيه إنّما هو مبادي أحوالهم لاختبار كيفيّات أعمالهم على وجه يُشعِر باستمالتهم نحوَ الإيمان والطاعة، فمُحال أن يكون ذلك إثرَ بيان منتهى أمرهم وخطابِهم ببتّ القول بإهلاكهم لكمال إجرامهم. والمعنى: ثمّ استخلفناكم في الأرض مِن بعد إهلاكِ أولئك القرون التي تسمعون أخبارَها وتشاهدون آثارَها استخلافَ مَن يَختبر.

---

[١] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٨/٢.
[٢] في الآية الحادية عشرة مِن سورة يونس.
[٣] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عبّاس والحسن بن عمران. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥١.
[٤] في الكشّاف للزمخشري، ٢٤٩/٢.

﴿لِنَنظُرَ﴾ أي: لنعامل معاملةَ مَن ينظُر ﴿كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، فهي استعارة تمثيليّة. و﴿كَيْفَ﴾: منصوب على المصدريّة بـ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لا بـ"ننظر"،[1] فإنّ ما فيه مِن معنى الاستفهام مانع مِن تقدّم عامله عليه، أي: أيَّ عمل؛[2] أو على الحاليّة، أي: على أيّ حال تعملون الأعمال اللائقة بالاستخلاف مِن أوصاف الحُسن، كقوله عزّ وعلا: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ١١/٧]. ففيه إشعار بأنّ المراد بالذات والمقصود الأصليّ مِن الاستخلاف إنّما هو ظهور الكيفيّات الحسنة للأعمال الصالحة، وأمّا الأعمال السيّئة فبمَعزِل مِن أن تصدُر عنهم لاسيّما بعد ما سمِعوا أخبارَ القرون المُهلَكة وشاهدوا آثارَ بعضِها فضلًا عن أن يُنظم ظهورها في سِلك العلّة الغائيّة للاستخلاف.

[٧٣ظ] وقيل: منصوب على أنّه مفعول به[3] / أي: أيَّ عمل[4] تعملون أَخيرًا أم شرًّا فنُعاملَكم بحسبه، فلا يكون في كلمة ﴿كَيْفَ﴾ حينئذ دلالةٌ على أنّ المعتبَر في الجزاء جهاتُ الأعمال وكيفيّاتُها لا ذواتُها كما هو رأي القائل؛[5] بل تكون حينئذ مستعارةً لمعنى "أيّ شيء".

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ التفات مِن خطابهم إلى الغيبة إعراضًا عنهم وتوجيهًا للخطاب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بتعديد جناياتِهم المُضادّة لِما أُريدَ منهم بالاستخلاف، مِن تكذيب الرسول والكفر بالآيات البيّنات وغير ذلك كدأب مَن قبلهم مِن القرون المُهلَكة. وصيغة المضارع للدلالة على تجدّد جوابهم الآتي حسبَ تجدّد التلاوة.

---

١ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٩.
٢ وفي هامش م: مصدر لا اسم. «منه».
٣ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٣.
٤ وفي هامش م: اسم لا مصدر.
٥ يقصد أنّ البيضاوي جعل "كيف" منصوبة على المفعوليّة، ثمّ أورد المعنى على ما يناسب وجه الحاليّة.

﴿ءَايَاتُنَا﴾ الدالّة على حقّيّة التوحيد وبطلان الشرك. والإضافة لتشريف المضاف والترغيب في الإيمان به والترهيب عن تكذيبه. ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ حالَ كونها واضحاتِ الدلالة على ذلك. وإيراد فعلِ التلاوة مبنيًّا للمفعول مُسنَدًا إلى الآيات دون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببنائه للفاعل للإشعار بعدم الحاجة لتعيّن التالي، وللإيذان بأنّ كلامهم في نفس المتلوّ دون التالي.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وُضع الموصول مَوضع الضمير إشعارًا بعلّيّة ما في حيّز الصلة العظيمة المَحكيّة عنهم، وأنّهم إنّما اجترءوا عليها لعدم خوفِهم مِن عقابه تعالى يوم اللقاء لإنكارهم له ولِما هو مِن مَباديه مِن البعث، وذمًّا لهم بذلك، أي: قالوا لمَن يتلوها عليهم وهو رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما لم يُذكَر إيذانًا بتعيّنه: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن المشتمِل على تلك الآيات لا إلى نفسها فقط، قصدًا إلى إخراج الكلّ مِن البين، أي: ائت بكتاب آخرَ نقرؤه ليس فيه ما نستبعِده مِن البعث والحساب والجزاء أو ما نكرهه مِن ذمّ آلهتنا ومَعايبها والوعيدِ / على عبادتها. [٧٤و]

﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بتغيير ترتيبه بأن تَجعل مكانَ الآية المشتملة على ذلك آيةً أخرى خاليةً عنها. وإنّما قالوه كيدًا وطمعًا في المساعدة ليتوسّلوا به إلى الإلزام والاستهزاء به.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ أي: ما يصحّ وما يستقيم لي ولا يمكنني أصلًا ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ أي: مِن قِبَل نفسي، وهو مصدر استُعمل ظرفًا. وقُرئ بفتح التاء.[١] وقَصْر الجواب ببيان امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثاني للإيذان بأنّ استحالة ما اقترحوه أوّلًا مِن الظهور بحيث لا حاجةَ إلى بيانها، وأنّ التصدّيَ لذلك مع كونه ضائعًا ربّما يُعدّ مِن قبيل المُجاراةِ مع السفهاء إذ لا يصدُر مِثل ذلك الاقتراح عن العقلاء، ولأنّ ما يدل على استحالة الثاني يدلّ على استحالة الأوّل بالطريق الأولى.

---

[١] قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٤٩.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أتّبع في شيء ممّا آتي وأذَر ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ مِن غير تغيير له في شيء أصلًا على معنى قَصْر حاله عليه السلام على اتّباع ما يُوحى إليه، لا قَصْرِ اتّباعه على ما يُوحى إليه كما هو المتبادَر مِن ظاهر العبارة، كأنّه قيل: ما أفعَل إلّا اتّباعَ ما يُوحى إليّ. وقد مرّ تحقيق المقام في سورة الأنعام، وهو تعليل لصدر الكلام، فإنّ مَن شأنه اتّباع الوحي على ما هو عليه لا يَستبدّ بشيء دونه قطعًا.

وفيه جواب للنقض بنَسْخ بعض الآيات ببعض، وردٌّ لِما عرَّضوا به عليه السلام بهذا السؤال مِن أنّ القرآن كلامُه عليه السلام. ولذلك قُيِّد التبديل في الجواب بقوله: ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾، وسمّاه عصيانًا عظيمًا مستتبِعًا لعذاب عظيم بقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، فإنّه تعليل لمضمون ما قبله مِن امتناع التبديل، / واقتصارِ أمره عليه السلام على اتّباع الوحي، [٧٤ظ]
أي: أخاف إن عصيتُه تعالى بتعاطي ما ليس لي مِن التبديل مِن تلقاء نفسي والإعراضِ عن اتّباع الوحي عذابَ يوم عظيم هو يومُ القيامة ويومُ اللقاء الذي لا يرجونه. وفيه إشعار بأنّهم استوجبوه بهذا الاقتراح.

والتعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام لتهويل أمر العصيان، وإظهارِ كمال نزاهته عليه السلام عنه. وإيراد "اليوم" بالتنوين التفخيمي ووصفُه بالعِظَم لتهويل ما فيه مِن العذاب وتفظيعه، ولا مَساغَ لحمل مقترَحهم على التبديل والإتيان بقرآن آخرَ مِن جهة الوحي بتفسير قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ بأنّه لا يتسهّل لي أن أُبدلَه بالاستدعاء مِن جهة الوحي، ما أتّبع إلّا ما يُوحى إليّ مِن غير صُنعٍ ما مِن الاستدعاء وغيره مِن قِبلي، لأنّه يَردّه التعليل المذكور، لكن لا لأنّ المقترَح حينئذ ليس فيه معصيةٌ أصلًا كما تُوهِّم، فإنّ استدعاء تبديل الآيات النازلة حسبما تقتضيه الحكمة التشريعيّة بعضِها ببعض، لاسيّما بموجَب اقتراح الكفرة ممّا لا ريبَ في كونه معصيةً؛ بل لأنّه ليس فيه معصيةُ الافتراء مع أنّها المقصودةُ بما ذُكر في التعليل، ألا يُرى إلى ما بعده مِن الآيتين الكريمتين، فإنّه صريح في أنّ مقترَحهم الإتيان بغير القرآن وتبديلُه بطريق الافتراء، وأنّ زعمهم في الأصل أيضًا كذلك.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ تحقيق لحقّيّة القرآن وكونه مِن عند الله تعالى إثرَ بيان بُطلان ما اقترحوا الإتيان به واستحالته عبارةً ودلالةً. وإنّما صُدِّر بالأمر المستقلّ مع كونه داخلًا تحت الأمر السابق إظهارًا لكمال الاعتناء بشأنه وإيذانًا باستقلاله مفهومًا وأسلوبًا، / فإنّه برهان دالّ على [٧٥و] كونه بأمر الله تعالى ومَشيئته كما سيأتي، وما سبق مجرَّد إخبار باستحالة ما اقترحوه. ومفعول ﴿شَآءَ﴾ محذوف يُنبئ عنه الجزاء، لا "غيرَ ذلك"[١] كما قيل؛[٢] فإنّ مفعول المشيئةِ إنّما يُحذَف إذا وقعتِ شرطًا وكان مفعولُها مضمونَ الجزاء، ولم يكن في تعلّقها به غرابة، كما في قوله:

ولو شئتُ أن أبكي دمًا لبكَيتُهُ[٣]

حيث لم يُحذف لفقدان الشرط الأخير.[٤]

ولأنّ المستلزِم للجزاء،[٥] أعني عدمَ تلاوتِه عليه السلام للقرآن عليهم إنّما هو مشيئتُه تعالى له لا مشيئتُه لغير القرآن، والمعنى: أنّ الأمر كلَّه مَنوطٌ بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيء قطّ، ولو شاء عدم تلاوتي له عليكم، لا بأن شاء عدم تلاوتي له مِن تِلقاء نفسي؛ بل بأن لم يُنزله عليّ ولم يأمُرني بتلاوته، كما يُنبئ عنه إيثار التلاوة على القراءة،[٦] ما تلوتُه عليكم.[٧]

﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أَعلَمكم به بواسطتي. والتالي وهو عدمُ التلاوة والإدراء منتفٍ فينتفي المقدَّم، أعني: مشيئة عدمِ التلاوة، ولا يخفى أنّها مستلزِمة

١ وفي هامش م: فيه ما لا يخفى مِن النكتة. «منه».

٢ قدّر البيضاوي المفعول بـ"غيرَ ذلك". أنوار التنزيل، ٢/٩٣.

٣ صدر بيت للخُريمي، عجزه:
عليهِ ولكن ساحةُ الصبرِ أوسعُ
والبيت له في الكامل للمُبرِّد، ٣/١٣٦٢؛ والمصون لأبي أحمد العسكري، ص ١٦. وهو بلا نسبة شاهد على ما نحن فيه في دلائل الإعجاز للجرجاني، ص ١٦٤؛ والكشّاف للزمخشري، ١/٧٤ (البقرة، ٢/٢٠).

٤ يقصد أنّ مفعول المشيئة لم يُحذف في البيت لِما فيه مِن الغرابة، وهو بكاءُ الدم.

٥ السياق: فإنّ مفعول المشيئة... ولأنّ المستلزم للجزاء...

٦ وفي هامش م: فإنّها مُنبئة عن معنى البقيّة. «منه».

٧ السياق: ولو شاء عدم تلاوتي... ما تلوته عليكم...

لعدم مشيئة التلاوة قطعًا، فانتفاؤها مستلزِم لانتفائه حتمًا، وانتفاءُ عدم مشيئة التلاوة إنّما يكون بتحقّق مشيئة التلاوة فثبَت أنّ تلاوته عليه السلام للقرآن بمشيئته تعالى وأمره. وإنّما قيّدنا الإدراء بكونه بواسطته عليه السلام؛ لأنّ عدم الإعلام مطلقًا ليس مِن لوازم الشرطِ الذي هو مشيئة عدم تلاوته عليه السلام،[1] فلا يجوز نظمه في سِلك الجزاء.

وفي إسناد عدم الإدراء إليه تعالى المنبئ عن استناد الإدراء إليه تعالى إيذانٌ بألّا دخلَ له عليه السلام في ذلك حسبما يقتضيه المقام. وقُرئ: "وَلَا أَدْرَأْتُكُمْ"،[2] و"لا أَدْرَأَكُمْ"[3] بالهمزة فيهما على لغة مَن يقول: "أعطأتُ" و"أرضأتُ" في "أعطيتُ" و"أرضيتُ"،[4] / أو على أنّه مِن الدَّرء، بمعنى: الدَّفع، أي: ولا جعلتُكم بتلاوته عليكم خُصَماءَ تدرَءونني بالجِدال. [٧٥ظ]

وقُرئ: "وَلَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ".[5] وقُرئ: "لَأَدْرَاكُمْ"[6] بلام الجواب، أي: لو شاء الله ما تلوتُه عليكم أنا ولأعلَمكم به على لسان غيري، على معنى: أنّه الحقّ الذي لا مَحيصَ عنه، لو لم أُرسلَ به أنا لأُرسلَ به غيري البتّةَ، أو على معنى: أنّه تعالى يمُنّ على مَن يشاء فخَصّني بهذه الكرامة.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ تعليل للملازمة المستلزِمة لكون تلاوته بمشيئة الله عزّ وجلّ وأمره حسبما بُيّن آنفًا، لكن لا بطريق الاستدلال عليها بعدم تلاوته عليه السلام فيما سبق بسبب مشيئته تعالى إيّاه؛ بل بطريق الاستشهاد عليها بما شاهدوا منه عليه السلام في تلك المدّة الطويلة مِن الأمور الدالّة على استحالة كون التلاوة مِن جهته عليه السلام بلا وحي.

---

[1] وفي هامش م: لجواز أعلامه بواسطة غيره عليه السلام. «منه».

[2] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس والحسن وابن سيرين. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٤.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس والحسن وابن سيرين وأبي رجاء. اللباب لابن عادل، ٢٨٣/١٠.

[4] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٥٠/٢.

[5] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن عبّاس وابن مسعود وأُبيّ وشهر بن حَوشب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٤؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٩٥٢.

[6] قرأ بها ابن كثير عن البزّي بخلاف. النشر لابن الجزري، ٢٨٢/٢.

و﴿عُمُرًا﴾ نصب على التشبيه بظرف الزمان، والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم دهرًا مديدًا مِقدارَ أربعين سنةً تحفظون تفاصيلَ أحوالي طُرًّا وتُحيطون بما لديَّ خُبرًا. ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل نُزولِ القرآن لا أتعاطى شيئًا ممّا يتعلّق به لا مِن حيث نظمُه المعجِز ولا مِن حيث معناه الكاشفُ عن أسرار الحقائق وأحكام الشرائع.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تُلاحِظون ذلك فلا تعقلون امتناعَ صدوره عن مِثلي ووجوبَ كونه منزَّلًا مِن عند الله العزيز الحكيم، فإنّه غير خافٍ على مَن له عقل سليم. والحقّ الذي لا مَحيدَ عنه أنّ مَن له أدنى مُسْكة مِن العقل إذا تأمّل في أمره صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه نشأ فيما بينهم هذا الدهر الطويل مِن غير مصاحبةِ العلماء في شأن مِن الشئون، ولا مراجعةٍ إليهم في فنّ مِن الفنون، ولا مخالطةِ البلغاءِ في المفاوضة والحِوار ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخُطب / والأشعار، [٧٦و] ثمّ أتى بكتاب بهَرتْ فصاحتُه كلَّ فصيح فائق، وبزّت بلاغتُه كلَّ بليغ رائق، علا نظمُه كلَّ منثور ومنظوم، وحوى فحواه بدائعَ أصناف العلوم، كاشفٍ عن أسرار الغيب مِن وراء أستار الكُمون،[١] ناطقٍ بأخبار ما قد كان وما سيكون، مصدِّقٍ لِما بين يديه مِن الكتب المنزَّلة، مهيمِنٍ عليها في أحكامها المُجْملة والمفصَّلة، لا يبقى عنده شائبة اشتباه في أنّه وحيٌ منزَّل مِن عند الله تعالى.

هذا هو الذي اتّفقت عليه كلمة الجمهور، ولكنّ الأنسب ببناء الجواب فيما سلف على مجرَّد امتناع صدور التغيير والتبديل عنه عليه السلام لكونه معصية موجِبة للعذاب العظيم، واقتصارِ حاله عليه السلام على اتّباع الوحي، وامتناعِ الاستبداد بالرأي مِن غير تعرّض هناك ولا ههنا لكون القرآن في نفسه أمرًا خارجًا عن طَوق البشر، ولا لكونه عليه السلام غيرَ قادر على الإتيان بمِثله أن يُستشهد ههنا على المَطلَب بما يُلائم ذلك مِن أحواله المستمرّة في تلك المدّة المتطاولة، مِن كمال نزاهته عليه السلام عمّا يُوهِم شائبةَ صدور الكذب والافتراء عنه في حقّ أحد كائنًا مَن كان، كما يُنبئ عنه تعقيبه بتظليم المفتري على الله تعالى.

---

١ الكمون: الاختفاء والاستتار. لسان العرب لابن منظور، «كمن».

والمعنى: قد لبثتُ فيما بين ظَهْرانَيكم قبل الوحي لا أتعرّض لأحد قطُّ بتحكّم ولا جِدال، ولا أحومُ حول مقال فيه شائبةُ شبهةٍ فضلًا عمّا فيه كذب أو افتراء، ألا تُلاحظونه فلا تعقِلون أنّ مَن هذا شأنُه المطَّرد في هذا العهد البعيد مستحيل أن يفتريَ على الله عزّ وجلّ ويتحكّم على كافّة الخلق بالأوامر والنواهي الموجِبة لسَلْب الأموال وسَفك الدماء ونحو ذلك، وأنّ ما أتى به وحيٌ مبين / تنزيل مِن ربّ العالمين. [٧٦ظ]

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾

وقوله عزّ وعلا: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ استفهام إنكاري معناه الجحد، أي: لا أحدَ أظلمُ منه على معنى: أنّه أظلم مِن كلّ ظالم، وإن كان سَبْك التركيب مفيدًا لإنكار أن يكون أحد أظلمَ منه مِن غير تعرّض لإنكار المساواة ونفيها، فإنّه إذا قيل: "مَن أفضلُ مِن فلان؟" أو "لا أعلمَ منه" يُفهم منه حتمًا أنّه أفضل مِن كلّ فاضل وأعلمُ مِن كلّ عالم.

وزيادةُ قوله تعالى: ﴿كَذِبًا﴾ مع أنّ الافتراءَ لا يكون إلّا كذلك للإيذان بأنّ ما أضافوه إليه ضِمنًا وحملوه عليه السلام عليه صريحًا مع كونه افتراء على الله تعالى كَذِب في نفسه، فرُبّ افتراء يكون كَذِبه في الإسناد فقط، كما إذا أُسند ذنب زيد إلى عمرو، وهذا للمبالغة منه عليه السلام في التفادي ممّا ذُكر مِن الافتراء على الله سبحانه. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ فكفر بها، وهذا تظليم للمشركين بتكذيبهم للقرآن وحَمْلِهم على أنّه مِن جهته عليه السلام.

والفاء لترتيب الكلام على ما سبق مِن بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره، فلا مجالَ لحَمْل الافتراء على الافتراء باتّخاذ الولد والشريك، أي: وإذا كان الأمر كذلك فمَن افترى عليه تعالى بأن يَختلِق كلامًا فيقول: "هذا مِن عند الله"، أو يُبدِّل بعض آياته تعالى ببعض كما تُجوّزون ذلك في شأني، وكذلك مَن كذّب بآياته تعالى كما تفعلونه، أظلمُ مِن كلّ ظالم.[١]

---

[١] السياق: فمَن افترى... أظلمُ...

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير للشأن وقع اسمًا لـ"إنّ"، والخبر ما يعقُبه مِن الجملة. ومَدار وَضْعه موضعَه ادِّعاءُ شهرته المغنيةِ عن ذِكره. وفائدة تصديرها به الإيذان بفخامة مضمونها مع ما فيه مِن زيادة تقريره في الذهن، فإنّ الضمير لا يُفهَم منه مِن أوّل الأمر إلّا شأن مبهَم له خطَر فيبقى الذهن مترقّبًا لِما يعقُبه، فيَتمكّن عند وروده عليه فضلَ تمكّن، فكأنّه قيل: إنّ الشأن هذا، أي: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يَنجُون مِن محذور، ولا يَظفَرون بمطلوب. والمراد جنس المجرمين، فيَندرج فيه المفتري والمكذِّب اندراجًا أوّليًّا.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٨﴾

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حكاية لجِناية أخرى لهم نشأت عنها جِنايتُهم الأولى معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية،[1] عَطْف قصّةٍ على قصّة. و﴿مِن دُونِ﴾ متعلِّق بـ﴿يَعْبُدُونَ﴾، ومحلّه النصب على الحاليّة مِن فاعله، أي: متجاوزين الله سبحانه، لا بمعنى تركِ عبادته بالكلّيّة؛ بل بمعنى عدم الاكتفاء بها وجعلِها قرينًا لعبادة الأصنام كما يُفصِح عنه سياق النظم الكريم.

﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي: ما ليس مِن شأنه الضرّ والنفع مِن الأصنام التي هي جمادات. و﴿مَا﴾ موصولة أو موصوفة. وتقديم نفي الضرر، لأنّ أدنى أحكام العبادة دَفْع الضرر الذي هو أوّل المنافع، والعبادة أمر حادث مسبوق بالعدم الذي هو مَظِنّة الضرر، فحيث لم تقدِر الأصنامُ على الضرر لم يُوجد لإحداث العبادة سبب. وقيل: لا يضرّهم إن تركوا عبادتها ولا ينفعهم إن عبدوها.[2] كان / أهل الطائف يعبُدون اللاتَ، وأهلُ مكّةَ عزّى ومَناةَ وهُبَل وإسافًا ونائلة.[3] [٧٧و]

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عن النَّضر بن الحارث: إذا كان يوم القيامة يَشفَع لي اللات.[4] قيل: إنّهم كانوا يَعتقدون أنّ المتولّي لكلّ إقليم رُوح معيَّن

---

١ يونس، ١٠/١٥.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٠.
٣ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٠.
٤ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥١.

مِن أرواح الأفلاك، فعيَّنوا لذلك الرُّوح صنمًا معيَّنًا مِن الأصنام واشتغلوا بعبادته ومقصودُهم ذلك الرُّوحُ، ثمّ اعتقدوا أنّ ذلك الرُّوح يكون عند الإله الأعظم مشتغِلًا بعبوديّته. وقيل: إنّهم كانوا يعبدون الكواكب فوضعوا لها أصنامًا معيَّنة واشتغلوا بعبادتها قصدًا إلى عبادة الكواكب. وقيل: إنّهم وضعوا طِلَسماتٍ معيَّنةً على تلك الأصنام ثمّ تقرّبوا إليها. وقيل: إنّهم وضعوا هذه الأصنام على صور أنبيائِهم وأكابرِهم وزعموا أنّهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيلِ فإنّ أولئك الأكابرَ يَشفعُون لهم عند الله تعالى.[1]

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي: أتُخبرونه بما لا وجودَ له أصلًا؟ وهو كون الأصنام شفعاءَهم عند الله تعالى، إذ لولاه لعلِمه علّامُ الغيوب. وفيه تقريع لهم وتهكّم بهم وبما يَدعونه مِن المُحال الذي لا يكاد يدخُل تحت الصحّة والإمكان. وقُرئ: "أَتُنْبِئُونَ"[2] بالتخفيف. وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حال مِن العائد المحذوفِ في "يَعْلَمُه" مؤكِّدةٌ للنفي، لأنّ ما لا يُوجَد فيهما فهو منتفٍ عادة.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم المستلزِم لتلك المقالة الباطلة أو عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاءَهم عند الله تعالى. وقُرئ: "تُشْرِكُونَ"[3] بتاء الخطاب على أنّه مِن جملة القول المأمور به، وعلى الأوّل هو اعتراض تذييلي مِن جهته سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

[٧٧ظ] / ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ بيان لأنّ التوحيد والإسلام مِلّة قديمة أجمعت عليها الأُمَم قاطبة فطرةً وتشريعًا، وأنّ الشِّرك وفروعه جهالات ابتدعها

---

[1] هذه الأقوال الأربعة في اللباب لابن عادل، ١٠/٢٨٥.

[2] م س: أتُنبِئونه. | وأثبتُّ ما في مصادر المُصنِّف. انظر: الكشّاف للزمخشري، ١/٢٥١؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٢٨٦. وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السَّمّال وابن وثّاب. المغني في القراءات للنُّوزاوازي، ص ٩٥٢.

[3] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

الغُواة خلافًا للجمهور وشقًّا لعصا الجماعة. وأمّا حَمْل اتّحادهم على الاتّفاق على الضلال عند الفترة واختلافِهم على ما كان منهم مِن الاتّباع والإصرار،[١] فممّا لا احتمال له.

أي: وما كان الناس كافّة مِن أوّل الأمر إلّا متّفقين على الحقّ والتوحيد مِن غير اختلافٍ، وذلك مِن عهد آدمَ عليه السلام إلى أن قتل قابيلُ هابيلَ. وقيل: إلى زمن إدريسَ.[٢] وقيل: إلى زمن نوح عليهما السلام.[٣] وقيل: مِن حين الطوفان حينَ لم يَذر الله مِن الكافرين ديّارًا إلى أن ظهر فيما بينهم الكفرُ.[٤] وقيل: مِن لدُن إبراهيمَ عليه السلام إلى أن أظهر عمرو بن لُحيّ عبادةَ الأصنام. فالمراد بـ﴿ٱلنَّاسُ﴾ العربُ خاصّة.[٥] وهو الأنسب بإيراد الآية الكريمة إثْرَ حكايةِ ما حُكي عنهم مِن الهَنات وتنزيهِ ساحة الكبرياء عن ذلك.

﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ بأن كفر بعضهم وثبَت آخرون على ما هم عليه فخالف كلٌّ مِن الفريقين الآخَرَ، لا أنّ كلًّا منهما أحدَث مِلّة على حِدَة مِن مِلَل الكفر مخالِفةً لمِلّة الآخر، فإنّ الكلام ليس في ذلك الاختلاف، إذ كلٌّ منهما مبطِلٌ حينئذ، فلا يُتصوَّر أن يُقضى بينهما بإبقاء المحقّ وإهلاك المبطِل. والفاء التعقيبيّة لا تُنافي امتداد زمان الاتّفاق، إذ المراد بيان وقوع الاختلاف عقيبَ انصرام مدّة الاتّفاق لا عقيبَ حدوث الاتّفاق.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير القضاء بينهم، أو بتأخير العذاب الفاصل بينهم إلى يوم القيامة، فإنّه يوم الفصل. ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ عاجلًا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ / بتمييز الحقّ عن الباطل بإبقاء المحِقّ وإهلاك المبطِل. وصيغة [٧٨و]
الاستقبال لحكاية الحال الماضية والدلالة على الاستمرار.

﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾

---

١ حمَلهما على ذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩٥/٢.
٢ ما وجدته فيما بين يديّ مِن المظانّ.
٣ القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٧/١٠.
٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٥١/٢.
٥ القول في اللباب لابن عادل، ٢٨٧/١٠.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكاية لجناية أخرى لهم معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾.[١] وصيغة المضارع لاستحضار صورة مقالتهم الشنعاءَ والدلالةِ على الاستمرار. والقائلون أهل مكّة. ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أرادوا آيةً مِن الآيات التي اقترحوها، كأنّهم لفرط العُتوّ والفساد ونهايةِ التمادي في المكابَرة والعِناد لم يَعدُّوا البيّناتِ النازلةَ عليه عليه السلام مِن جنس الآيات واقترحوا غيرها، مع أنّه قد أُنزل عليه مِن الآيات الباهرة والمعجِزات المتكاثِرة ما يضطّرهم إلى الانقياد والقبول لو كانوا مِن أرباب العقول.

﴿فَقُلْ﴾ لهم في الجواب: ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ اللام للاختصاص العِلمي دون التكويني، فإنّ الغيب والشهادة في ذلك الاختصاصِ سِيّانِ، والمعنى: أنّ ما اقترحتموه زعمتُم أنّه مِن لوازم النبوّة وعلّقتم إيمانكم بنزوله مِن الغيوب المختصّة بالله سبحانه، لا وقوفَ لي عليه. ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزولَه ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: لِما يفعل الله بكم لاجترائكم على مِثل هذه العظيمة مِن جحود الآيات واقتراحِ غيرها. وجعلُ ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ عبارةً عن الصارف عن إنزال الآياتِ المقترَحةِ،[٢] يأباه ترتيب الأمرِ بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى.

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١﴾

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ صِحّةً وسَعةً. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ أي: خالطتْهم حتّى أحسُّوا بسوء أثرها فيهم. وإسناد "المِساس" إلى "الضرّاء" بعد إسنادِ "الإذاقة" إلى ضمير الجلالة مِن الآداب القرآنيّة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء، ٨٠/٢٦] ونظائرِه. قيل: سلّط الله تعالى على أهل مكّةَ القحط سبع سنين حتّى كادوا يَهلِكون ثمّ رحِمهم بالحَيا،[٣] فطفِقوا يطعنون في آياته تعالى ويُعادون رسولَه صلّى الله عليه وسلّم ويَكيدونه،[٤]

---

[١] يونس، ١٨/١٠.

[٢] ذهب إلى ذلك البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩٥/٢.

[٣] الحيا: المطر والخِصب. لسان العرب لابن منظور، «حيا».

[٤] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٥١/٢.

وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا﴾ أي: بالطعن فيها وعدم الاعتداد بها والاحتيال في دفعها.

و﴿إِذَا﴾ الأُولى شرطيّة والثانية جوابها، كأنّه قيل: فاجئوا وقوع المَكر منهم. وتنكير ﴿مَّكْرٌ﴾ للتفخيم. و﴿فِيٓ﴾ متعلّقة بالاستقرار الذي يتعلّق به اللام.

/ ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أعجَلُ عقوبةً، أي: عذابه أسرع وصولًا إليكم ممّا يأتي منكم في دَفْع الحقّ.[١] وتسمية العقوبة بـ"المَكر" لوقوعها في مقابَلة مَكرهم وجودًا[٢] أو ذِكرًا.[٣] [٧٨ظ]

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الذين يحفظون أعمالكم. والإضافةُ للتشريف. ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي: مَكرَكم، أو ما تَمكُرونه. وهو تحقيق للانتقام منهم، وتنبيه على أنّ ما دبّروا في إخفائه غيرُ خافٍ على الحفَظة فضلًا عن العليم الخبير.

وصيغة الاستقبال في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجدّدي. والجملة تعليل مِن جهته تعالى لأسرعيّة مَكرِه سبحانه غيرُ داخل في الكلام الملقَّن، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف، ١٠٩/١٨]. فإنّ كتابة الرسُل لِما يَمكرون مِن مبادي بُطلان مَكرِهم وتخلّفِ أثره عنه بالكلّيّة، وفيه مِن المبالغة ما لا يُوصَف. وتلوين الخطاب بصرفه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إليهم للتشديد في التوبيخ.

وقُرئ على لفظ الغَيبة،[٤] فيكون حينئذ تعليلًا لما ذُكر أو للأمر.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ﴾[٥] كلام مستأنَف مَسوق لبيان جِناية أخرى لهم مَبنيّةٍ على ما مرّ آنفًا مِن اختلاف حالِهم حسب اختلافِ ما يعتريهم مِن السرّاء والضرّاء،

---

١ وفي هامش م: أو أُريد بالمكر الاستدراج. «منه».

٢ وفي هامش م: فيكون مِن باب تسمية الشيء باسم سببه. «منه».

٣ وفي هامش م: فيكون مِن باب المُشاكلة. «منه».

٤ قرأ بها يعقوب في رواية روح عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٢/٢.

٥ وفي هامش م: التفات.

أي: يُمكِّنكم مِن السير تمكينًا مستمِرًّا عند الملابَسة به وقبلها. ﴿فِي ٱلْبَرِّ﴾ مُشاةً وركبانًا. وقُرئ: "يَنشُرُكُمْ"[١] مِن النَّشر، ومنه قوله عزّ وعلا: ﴿بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم، ٣٠/٢٠].

﴿وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السُّفن، فإنّه جَمع "فُلْك"[٢] على زِنة "أُسْد" جَمْعِ "أَسَد"،[٣] لا على وزن "قُفْل". وغاية التسيير ليست ابتداءَ ركوبهم فيها؛ بل مضمون الشرطيّة بتمامه، كما يُنبئ عنه إيثارُ الكون المؤذِن بالدوام على الركوب المشعِر بالحدوث.

﴿وَجَرَيْنَ﴾ أي: السُّفن ﴿بِهِم﴾ بالذين فيها. والالتفات إلى الغَيبة للإيذان بما لهم مِن سوء الحال الموجِب للإعراض عنهم، كأنّه يُذكر لغيرهم مَساوئ أحوالِهم ليُعجِّبهم منها ويَستدعيَ منهم الإنكار أو التقبيح.[٤] وقيل:[٥] ليس فيه التفات؛ بل معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: إذا كان بعضُكم فيها، إذ الخطاب للكلّ ومنهم المسيَّرون في البرّ، فالضمير الغائب عائد إلى ذلك المضاف المقدَّر، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ﴾ [النور، ٢٤/٤٠]، أي: أو كذي ظُلماتٍ يغشاه موج.[٦] ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ليِّنةِ الهُبوب موافقةٍ لمَقصِدهم. / ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ بتلك الريحِ لطِيبها وموافقتها. [٧٩و]

﴿جَآءَتْهَا﴾ جواب ﴿إِذَا﴾، والضمير المنصوب لـ"الريح الطيّبة"، أي: تلقَّتها واستولت عليها مِن طرف مخالِف لها، فإنّ الهبوب على وَفقها لا يُسمّى مَجيئًا لريح أخرى عادةً؛ بل هو اشتداد للريح الأولى. وقيل: للفُلك.[٧] والأوّل أظهرُ لاستلزامه للثاني مِن غير عكس؛ لأنّ الهبوب على طريقة الريح الليّنة يُعدّ مَجيئًا بالنسبة إلى الفُلك دون الريح الليِّنة، مع أنّه لا يَستتبع تلاطمَ الأمواجِ الموجِب

---

[١] قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٢.

[٢] كذا ضُبطت في م. | والأحسن للسياق أن تُضبط "فُلَك".

[٣] وفي هامش م: و"فُعْل" أخو "فَعَل" في الجمع. «منه».

[٤] ط س: والتقبيح.

[٥] وفي هامش م: ابن عطيّة. | انظر القول في المحرّر الوجيز لابن عطيّة ٣/١١٣.

[٦] القول في اللباب لابن عادل، ١٠/٢٩٢-٢٩٣.

[٧] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٣.

لمجيئها مِن كلّ مكان، ولأنّ التهويل في بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلّقوا به حبالَ رجائِهم أكثرُ. ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: ذاتُ عَصْف. وقيل: العُصوف مختصٌّ بالريح فلا حاجة إلى الفارق. وقيل: الريح قد يُذكَّر.[1]

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ في الفُلْك ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: مِن أمكنة مَجيءِ الموج عادةً، ولا بُعدَ في مجيئه مِن جميع الجوانب أيضًا إذ لا يجب أن يكون مجيئُه مِن جهة هُبوبِ الريح فقط؛ بل قد يكون مِن غيرها بحسب أسبابٍ تتّفق له. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: هلَكوا، فإنّ ذلك مَثل في الهَلاك، وأصله إحاطة العدوّ بالحيّ، أو سُدَّت عليهم مَسالكُ الخلاص.

﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ بدل مِن ﴿ظَنُّوٓاْ﴾ بدلَ اشتمال لِما بينهما مِن الملابسة والتلازم، أو استئناف مبنيّ على سؤال تنساق إليه الأذهان، كأنّه قيل: فماذا صنعوا؟ فقيل: دعَوا الله ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ مِن غير أن يُشرِكوا به شيئًا مِن آلهتهم لا مخصِّصين للدعاء به تعالى فقط؛ بل للعبادة أيضًا فإنّهم بمجرَّد تخصيصِ الدعاء به تعالى لا يكونون مخلِصين له الدِّين.

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ اللام موطِّئة للقسَم على إرادة القول، أي: قائلين: واللهِ لئن أنجيتنا ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الورطة ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ البتّةَ بعد ذلك أبدًا ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لِنعمك التي مِن جُملتها هذه النعمةُ المَسئولة. وقيل: الجملة مفعول ﴿دَعَوُاْ﴾ / لأنّ الدعاء مِن قبيل القول.[2] والأوّل هو الأَولى لاستدعاء الثاني لاقتصار [٧٩ظ] دعائهم على ذلك فقط. وفي قوله: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ مِن المبالغة في الدلالة على كونهم ثابتين في الشكر مثابرين عليه منتظِمين في سِلكِ المنعوتين بالشكر الراسخين فيه ما ليس في أن يقال: لَنَشكُرَنّ.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ ممّا غشِيَهم مِن الكُربة، والفاءُ للدلالة على سرعة الإجابة.

---

[1] القولان في معالم التنزيل للبغوي، ١٢٨/٤.
[2] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٢.

﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فاجئوا الفسادَ فيها وسارعوا إليه متراقين في ذلك متجاوزين عمّا كانوا عليه مِن حدود العَيث، مِن قولهم: "بغى الجُرح": إذا ترامى في الفساد.[1] وزيادةُ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ للدلالة على شمول بغيهم لأقطارها. وصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والاستمرار.

وقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيد لِما يُفيده البغي، أو معناه: أنّه بغير الحقّ عندهم أيضًا بأن يكون ذلك ظُلمًا ظاهرًا لا يخفى قُبحه على أحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة، ٦١/٢]. وأمّا ما قيل مِن أنّه للاحتراز عن البغي بحقّ كتخريب الغُزاة ديارَ الكفرة وقطعِ أشجارهم وإحراقِ زروعهم،[2] فلا يُساعده النظم الكريم؛ لابتنائه على كون البغي بمعنى إفساد صورة الشيء وإبطالِ منفعته دون ما ذُكر مِن المعنى اللائق بحال المفسِدين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ توجيه للخطاب إلى أولئك الباغين للتشديد في التهديد والمبالغة في الوعيد. ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ الذي تتعاطَونه. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ خبرُه، أي: عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم وإن ظُنّ كذلك.

وقوله تعالى: ﴿مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لكون ما فيه مِن المَنفعة العاجلةِ شيئًا غيرَ معتدٍّ به سريعَ الزوال دائمَ الوبال. وهو نصب على أنّه مصدر مؤكِّد لفعل مقدَّر بطريق الاستئناف، أي: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا.

وقيل: على أنّه مصدر وقع موقِعَ الحال، أي: متمتِّعين بالحياة الدنيا، والعاملُ هو الاستقرار الذي في الخبر لا نفسُ البغي لأنه يُؤدّي إلى الفصل بين المصدر ومعموله بالخبر، ولا يُخبَر عن الموصول / إلّا بعد تمام صلته.[3] وأنت [٨٠و]
خبير بأنّه ليس في تقييد كونِ بغيهم على أنفسهم بحال تمتّعهم بالحياة الدنيا معنًى يعتدّ به.

---

[1] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٤/١٠.

[2] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٦/٢.

[3] الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

وقيل: على أنّه ظرفُ زمان نحو "مَقدمَ الحاجّ"، أي: زمنَ متاع الحياةِ الدنيا. وفيه ما مرّ بعينه.

وقيل: على أنّه مفعول لفعل دلّ عليه المصدر، أي: تبغون متاعَ الحياة الدنيا.[١] ولا يخفى أنّه لا يدلّ على البغي بمعنى الطلَب، وجعلُ المصدر أيضًا بمعناه ممّا يُخلُّ بجزالة النظمِ الكريم؛ لأنّ الاستئناف لبيان سوءِ عاقبة ما حُكيَ عنهم مِن البغي المفسَّر بالإفساد المفرِط اللائق بحالهم، فأيُّ مناسبةٍ بينه وبين البغي بمعنى الطلب؟ وجعلُ الأوّل أيضًا بمعناه ممّا يجب تنزيهُ ساحةِ التنزيل عنه.

وقيل: على أنّه مفعول له، أي: لأجل متاعِ الحياة الدنيا، والعاملُ ما ذُكر مِن الاستقرار. وفيه أنّ المعلَّل بما ذُكر نفسُ البغي لا كونُه على أنفسهم. وقيل: العامل فيه فعل مدلول عليه بالمصدر، أي: تبغون لأجل مَتاع الحياة الدنيا، على أنّ الجملة مستأنَفة.[٢]

وقيل: على أنّه مفعول صريحٌ للمصدر، و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ ظرف لَغْوٍ متعلِّقٌ به، والمراد بالأنفس الجنس، والخبر محذوف لطول الكلام، والتقدير: إنّما بغيكم على أبناء جنسكم متاعَ الحياة الدنيا محذور، أو ظاهرُ الفساد، أو نحوُ ذلك.[٣] وفيه ما مرّ مِن ابتنائه على ما يليق بالمقام مِن كون البغي بمعنى الطلَب. نعم لو جُعل نصبه على العِلّة، أي: إنّما بغيُكم على أبناء جنسِكم لأجل متاع الحياةِ الدنيا محذورٌ -كما اختاره بعضُهم- لكان له وجهٌ في الجملة، لكنّ الحقّ الذي تقتضيه جزالة التنزيل إنّما هو الأوّل.

وقُرئ: "مَتَاعُ"[٤] بالرفع على أنّه الخبر والظرف صلةٌ للمصدر، أو خبرٌ ثانٍ، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، أي: هو متاعُ... إلخ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ﴾ [الأحقاف، ٣٥/٤٦]، أي: هذا بلاغ.

---

[١] الوجهان في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٢] الوجهان في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٣] الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٤/٦-١٧٥؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

[٤] قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا في رواية حفص عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

فالمراد بأنفسهم على الوجه الأوّل: أبناءُ جنسِهم، وإنّما عُبّر عنهم بذلك هزًّا لشفقتهم عليهم وحثًّا لهم على تركِ إيثار التمتّع المذكورِ على حقوقهم. ولا مَجال للحَمْل على الحقيقة؛ لأنّ كون بغيهم وَبالًا عليهم ليس بثابت عندهم حسبما يقتضيه ما حُكي عنهم، ولم يُخبَر به بعدُ حتّى يُجعلَ مِن تتمّة الكلام ويُجعَل كونه متاعًا مقصودَ الإفادةِ، على أنّ عنوان كونه وبالًا عليهم قادح في كونه مَتاعًا فضلًا عن كونه مِن مبادي ثبوته للمبتدأ كما هو المتبادَر مِن السَّوْق، وأمّا كون البغي على أبناء الجنس فمعلومُ الثبوتِ عندهم ومتضمِّن لمَبادي التمتّع مِن أخذ المال والاستيلاء على الناس وغير ذلك.

[٨٠ظ] / وأمّا على الوجهين الأخيرين فلا موجِبَ للعدول عن الحقيقة، فإنّ المبتدأ إمّا نفس البغي أو الضميرُ العائد إليه، مِن حيث هو هو، لا مِن حيث كونُه وبالًا عليهم، كما في صورة كون الظرف صلةً للمصدر، فتدبّر.

وقُرئ: "مَتَاعًا الحَيَاةَ الدُّنيَا".[١] أمّا نصبُ "متاعًا" فعلى ما مرّ، وأمّا نصب "الحَيَاةَ" فعلى أنّه بدلٌ مِن "متاعًا" بدلَ اشتمال. وقيل: على أنّه مفعول به لـ"متاعًا" إذا لم يكن انتصابه على المصدريّة؛ لأنّ المصدر المؤكّد لا يعمل.[٢]

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تَمكُر ولا تُعِن ماكرًا، ولا تبغِ ولا تُعن باغيًا، ولا تنكُث ولا تُعِن ناكثًا».[٣] وكان يتلوها. وقال محمّد بن كعب: «ثلاثٌ مَن كُنّ فيه كُنّ عليه: البغي والنّكث والمَكر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾، ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنعام، ١٢٣/٦]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح، ١٠/٤٨]».[٤] وعنه صلّى الله عليه وسلّم: «أسرعُ الخيرِ ثوابًا صلةُ الرَّحِم، وأعجلُ الشرّ عقابًا البغيُ واليمينُ الفاجرة».[٥]

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي إسحاق. الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٨/١٠.

٢ القول في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٧٥/٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٩٨/١٠.

٣ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ١٢١/٢.

٤ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٩٧/١٠.

٥ مسند إسحاق ابن راهويه، ١٠٢٧/٣ (١٧٧٧)؛ سنن ابن ماجه، ٢٩٧/٥ (٤٢١٢)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٥٣/٢.

ورُوي «ثِنتان يُعجِّلهما الله تعالى في الدنيا: البغيُ، وعقوقُ الوالدين».[١] وعن ابن عبّاس رضيَ الله عنهما «لو بغى جبلٌ على جبل لدُكّ الباغي».[٢]

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ عطفٌ على ما مرّ مِن الجملة المستأنَفة المقدَّرة، كأنّه قيل: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا ثمّ ترجِعون إلينا. وإنّما غُيّر السَّبك إلى الجملة الاسميّة مع تقديم الجارّ والمجرور للدلالة على الثبات والقصر.

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا على الاستمرار مِن البغي، وهو وعيد بالجزاء والعذاب، كقول الرجل لمن يتوعَّده: "سأخبركَ بما فعلتَ". وفيه نكتة خفيّة مَبنيّة على حِكمة أبيّة، وهي أن كلّ ما يظهَر في هذه النشأة مِن الأعيان والأعراض فإنّما يظهَر بصورة مغايرةٍ لصورته الحقيقيّة التي بها يظهَر في النشأة الآخرة، فإنّ المعاصيَ مثلًا سُموم قاتلةٌ قد برزت في الدنيا بصُوَر تستحسنها نفوس العُصاةِ، وكذا الطاعاتُ مع كونها أحسنَ الأحاسن قد ظهرت عندهم بصُوَر مكروهة، ولذلك قال عليه السلام: «حُفَّت الجنّة بالمَكاره وحُفَّت النار بالشهوات».[٣]

فالبغي في هذه النشأة وإن برز بصورة تشتهيها البغاةُ وتستحسنها الغواةُ لتمتّعهم به مِن حيث أخذُ المال والتشفّي مِن الأعداء ونحو ذلك، لكنّ ذلك ليس بتمتّع في الحقيقة؛ بل هو تضرُّر مِن حيث لا يحتسبون، وإنّما يظهر لهم ذلك عند إبراز ما كانوا يعملونه مِن البغي بصورته الحقيقيّة المُضادّة لِما كانوا يُشاهِدونه على ذلك مِن الصورة، وهو المراد بالتَنبِئة المذكورة. والله سبحانه أعلم.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

---

١ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٣٤/١٥-١٦ (٢٠٣٨٠)؛ والأدب المُفرد للبخاري، ص ٢٠٧ (٥٠٩). وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٣.

٢ بلفظ قريب في شعب الإيمان للبيهقي، ٩/٦٤ (٦٢٦٦). وبلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٣-٢٥٤. وانظر لتفصيل تخريجه: تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢/١٢٣.

٣ مسند أحمد، ١٤/٥٠٧ (٨٩٤٤)؛ صحيح مسلم، ٤/٢١٧٤ (٢٨٢٢)؛ سنن الترمذي، ٤/٦٩٣ (٢٥٥٩).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان شأن الحياة الدنيا وقصرِ مدّة التمتّع بها وقُربِ زمان الرجوع الموعود، وقد شُبِّه حالها العجيبة الشأنِ البديعةُ المثالِ المنتظمةُ لغرابتها في سِلك الأمثال / في سرعة تقضِّيها وانصرامِ [٨١و] نعيمها غِبَّ إقبالِها واغترارِ الناسِ بها، بحال ما على الأرض مِن أنواع النبات في زوال رونقِها ونضارتِها فجأةً وذهابِها حُطامًا لم يبق لها أثرٌ أصلًا، بعد ما كانت غضَّةً طريَّة قد التفّ بعضُها ببعض وزُيّنت الأرض بألوانها، وتقوّت بعد ضعفها بحيث طَمِع الناسُ وظنُّوا أنّها سَلِمت مِن الجوائح.

وليس المشبَّه به ما دخله الكاف في قوله عزّ وجلّ: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾؛ بل ما يُفهَم مِن الكلام، فإنّه مِن التشبيه المركّب. ﴿ممّا يأكُلُ الناس والأنعام﴾ مِن البقول والزروع والحشيش.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ جُعلت الأرض في تزيّنها بما عليها مِن أصناف النباتات وأشكالها وألوانها المختلِفة المونِقة آخذةً زُخرفَها على طريقة التمثيل بالعَروس التي قد أخذت مِن ألوان الثياب والزَّيْن فتزيَّنت بها.

﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أصله "تَزيَّنتْ" فأُدغِم. وقُرئ على الأصل،[١] وقُرئ: "وأزْيَنَتْ"[٢] كـ"أغيَلَتْ" مِن غير إعلال، والمعنى: صارت ذاتَ زينة، و"ازْيَانَّتْ"[٣] كـ"ابْيَاضَّتْ". ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكّنون مِن حَضدها ورَفع غَلّتها.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ جواب ﴿إذا﴾، أي: ضرَب زرعَها ما يجتاحه مِن الآفات والعاهات. ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: زرعَها وسائرَ ما عليها ﴿حَصِيدًا﴾ أي: شبيهًا بما حُصد مِن أصله. ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأنّه لم يَغنَ زَرعها، والمضاف

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود ويحيى وإبراهيم والأعمش وزيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٧.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن مالك بن دينار والحسن وقتادة وأبي العالية والأعرج وعبد الوهّاب ونصر بن عاصم ويونس وحميد وعن أبي عمرو وكرداب عن رويس. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٥؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٦.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي عثمان النهدي وأبي العالية الرِّياحي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٧.

محذوف للمبالغة. وقُرئ بتذكير الفعل.[١] ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ﴾ أي: فيما قَبلُ بزمان قريبٍ، فإنّ الأمس مَثَل في ذلك، كأنّه قيل: لم تغنَ آنفًا.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك التفصيل البديع ﴿نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أي: الآيات القرآنيّة التي مِن جملتها هذه الآيات المنبّهةُ على أحوال الحياة الدنيا، أي: نُوضِّحها ونُبيّنها ﴿لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ / في تضاعيفها ويقفون على معانيها. وتخصيص تفصيلها بهم لأنّهم المنتفِعون بها. ويجوز أن يراد بـ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ما ذُكر في أثناء التمثيل مِن الكائنات والفاسدات، وبـ"تفصيلها" تصريفُها على الترتيب المَحكي إيجادًا وإعدامًا، فإنّها آيات وعلامات يَستدِلّ بها مِن يتفكّر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالًا ومآلًا. [٨١ظ]

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾

﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ترغيب للناس في الحياة الأخرويّة الباقية إثرَ ترغيبهم عن الحياة الدنيويّة الفانية، أي: يدعو الناس جميعًا إلى دار السلامة عن كلّ مكروه وآفة وهي الجنّة، وإنّما ذُكرت بهذا الاسم لذِكر الدنيا بما يُقابله مِن كونها مِعرَضًا[٢] للآفات، أو إلى دار الله تعالى، وتخصيص الإضافةِ التشريفيّة بهذا الاسم الكريمِ للتنبيه على ذلك؛ أو إلى دار يُسلِّم الله تعالى أو الملائكةُ فيها على مَن يدخُلها أو يُسلِّم بعضهم على بعض.

﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه منهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مُوصِل إليها، وهو الإسلام والتزوّد بالتقوى. وفي تعميم الدعوة وتخصيص الهداية بالمشيئة دليل على أنّ الأمر غيرُ الإرادة، وأنّ مَن أصرّ على الضلالة لم يُرِد الله رُشده.

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي: أعمالَهم، أي: عملوها على الوجه اللائق، وهو حسنها

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن وأبي رجاء وقتادة وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٩٥٢.

[٢] المِعرَض: الثوب الذي تُعرَض فيه الجارية وتُجلّى فيه. لسان العرب لابن منظور، «عرض».

الوصفي المستلزِم لحُسنها الذاتي، وقد فسّره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أن تعبُد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».[١] ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المَثوبة الحُسنى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ أي: وما يزيد على تلك المَثوبة تفضّلًا لقوله عزّ اسمه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء، ١٧٣/٤]. وقيل: الحسنى مِثلُ حسناتِهم، والزيادة عَشر أمثالِها إلى سبعمائة ضِعف وأكثر.[٢] وقيل: الزيادة مَغفرة مِن الله ورِضوان.[٣] وقيل: الحُسنى: الجنّة، والزيادة اللقاء.[٤]

[٨٢و] ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ / أي: لا يغشاها ﴿قَتَرٌ﴾ غُبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: أثرُ هوانٍ وكسوفُ بالٍ،[٥] والمعنى: لا يَرهقهم ما يَرهَق أهلَ النار، أو لا يَرهَقهم ما يُوجِب ذلك مِن الحُزن وسوء الحال. والتنكير للتحقير، أي: شيء منهما. والجملة مستأنَفة لبيان أَمنهم مِن المَكاره إثرَ بيان فوزهم بالمَطالب، والثاني وإن اقتضى الأوّلَ إلّا أنّه ذُكر إذكارًا بما يُنقذهم الله تعالى برحمته.

وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أنّ المَصون مِن الرَّهَق أشرفُ أعضائِهم، وللتشويق إلى المؤخَّر، فإنّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبقى النفس مترقِّبةً لوروده، فعند وروده عليها يتمكّن عندها فَضلَ تمكّن، ولأنّ في الفاعل ضربَ تفصيل، كما في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن، ٢٢/٥٥]، وقولِه عزّ وجلّ: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود، ١٢٠/١١].

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المَذكورين باعتبار اتّصافهم بالصفات المذكورة، وما في اسم الإشارة مِن معنى البُعدِ للإيذان بعُلوّ درجتهم وسُموّ طبقتهم، أي:

---

١ صحيح البخاري، ١٩/١ (٥٠)؛ صحيح مسلم، ٣٦/١ (٨).

٢ مَرويّ عن ابن عبّاس والحسن. انظر: جامع البيان للطبري، ١٦٣/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٠/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٥/٢.

٣ مَرويّ عن مجاهد. انظر: جامع البيان للطبري، ١٦٤/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٠/٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٥/٢.

٤ مَرويّ عن جماعة مِن الصحابة، منهم: أبو بكر الصدِّيق وحذيفة وأبو موسى وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم. وهو قول الحسن وعكرمة وعطاء ومقاتل والضحّاك والسدّي. انظر: جامع البيان للطبري، ١٥٦/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٣٠/٤.

٥ وفي هامش م: ولا بدّ أن يكون هذا أدنى مِن القتر.

أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن النعوت الجميلة الفائزون بالمَثوبات الناجون مِن المَكاره. ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بلا زوال دائمون بلا انتقال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشركَ والمعاصيَ، وهو مبتدأ بتقدير المضاف، خبرُه قوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ أي: جزاءُ الذين كسبوا السيّئاتِ أن يُجازى سيّئةً واحدةً بسيّئة مثلها، لا يُزاد عليها كما يُزاد في الحسنة. وتغيير السبك[١] لمراعاة ما بين الفريقين مِن كمال التنائي والتبايُن. وإيراد الكسب للإيذان بأنّ ذلك إنّما هو لسُوء صنيعِهم وبسبب جنايتهم على أنفسهم. أو الموصول معطوف على الموصول الأوّل، كأنّه قيل: وللذين كسبوا السيّئاتِ جزاءُ سيّئةٍ بمثلها، كقولك: "في الدار زيدٌ والحجرةِ عمروٌ"،[٢] / وفيه دلالة على أنّ المراد بالزيادة الفضلُ. [٨٢ظ]

﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾ وأيُّ ذِلّة؟ كما يُنبئ عنه التنوين التفخيميُّ. وفي إسناد الرَّهَق إلى أنفسهم دون وجوههم إيذان بأنّها محيطة بهم غاشية لهم جميعًا. وقُرئ: "يَرهَقُهُمْ"[٣] بالياء التحتانيّة.

﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ أي: لا يَعصِمُهم أحد مِن سخطه تعالى وعذابه، أو ما لهم مِن عنده تعالى مَن يعصمهم كما يكون للمؤمنين، وفي نفي العاصم مِن المبالغة في نفي العِصمة ما لا يخفى. والجملة مستأنَفة، أو حال مِن ضمير ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾.

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ لفَرط سوادِها وظُلمتِها. ﴿مُظۡلِمًا﴾ حال مِن الليل، والعاملُ فيه: ﴿أُغۡشِيَتۡ﴾، لأنّه العامل في ﴿قِطَعٗا﴾، وهو موصوف[٤]

---

١ وفي هامش م: حيث لم يقل: وللذين كسبوا السيّئاتِ السوآى.

٢ وفي هامش م: ويُسمّيه النحاة عطفًا على معمولَي عاملين، وفيه ثلاثة مذاهب: التجويز مُطلقًا وهو قول الفرّاء، والمنع مُطلقًا وهو قول سيبويه، والتفصيل بين أن يكون المُتقدّم مجرورًا فيجوز، كما فيما نحن فيه، أو لا، فيمتنع نحو إنّ زيدًا في الدار وعمرًا القصر، أي: وإنّ عمرًا في القصر. «منه». | والكلام كلّه بلفظ قريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٨١/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٠٩/١٠.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مِقسَم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٥٨.

٤ وفي هامش م: لفظ ﴿قِطَعًا﴾. «منه».

بالجارّ والمجرور، والعاملُ في الموصوف عاملٌ في الصفة؛ أو معنى الفعلِ في ﴿مِنَ ٱلَّيۡلِ﴾. وقُرئ: "قِطْعًا"[١] بسكون الطاء: وهو طائفة مِن الليل، قال:

افتحي الباب وانظري في النجومِ   كم علينا مِن قِطْعِ ليلٍ بهيمِ[٢]

فيَجوز كون ﴿مُظۡلِمًا﴾ صفةً له أو حالًا منه. وقُرئ: "كَأنّما يُغْشَى وُجُوهَهُمْ قِطْعٌ مِنَ اللَّيلِ مُظلِمٌ".[٣] والجملة كما قبلها مستأنفة، أو حال مِن ضمير ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات الذميمة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وحيث كانت الآية الكريمة في حقّ الكفّار بشهادة السِّياق والسِّباقِ لم يكن فيها تمسُّك للوعيديّة.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ۝٢٨﴾

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ كلام مستأنَف مَسوق لبيان بعضٍ آخرَ مِن أحوالهم الفظيعة. وتأخيره في الذِّكر مع تقدّمه في الوجود على بعض أحوالهم المَحكيّة سابقًا للإيذان باستقلال كلّ مِن السابق واللاحق بالاعتبار، ولو رُوعيَ الترتيب الخارجي لَعُدَّ الكلُّ شيئًا واحدًا، كما مرّ في قصّة البقرة، ولذلك فُصِل عمّا قبله. و﴿يَوۡمَ﴾ منصوب على المفعوليّة بمضمَر، أي: أنذِرْهم أو ذكِّرْهم.

وضمير ﴿نَحۡشُرُهُمۡ﴾ لكلا الفريقين الذين أحسنوا والذين كسبوا السيّئات؛ لأنّه المتبادر مِن قوله تعالى: ﴿جَمِيعٗا﴾، ومِن أفراد الفريق الثاني بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ أي: نقول للمشركين مِن بينهم، ولأنّ توبيخهم
[٨٣و] وتهديدهم على رءوس الأشهاد أفظَعُ، / والإخبار بحَشْر الكلّ في تهويل اليومِ أدخَلُ، وتخصيصُ وصف إشراكِهم بالذِّكر في حيّز الصلة مِن بين سائر

---

[١] قرأ بها ابن كثير والكسائي ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٣.

[٢] ما عرفتُ قائله. وهو بلا نسبة في الصحاح للجوهري، «قطع»؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٥٨٣ (الحجر، ١٥/٦٥)؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٨٧؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣١١.

[٣] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ بن كعب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

ما اكتسبوه مِن السيّئات لابتناء التوبيخ والتقريع عليه مع ما فيه مِن الإيذان بكونه معظمَ جناياتِهم وعمدةَ سيّئاتِهم، وقيل: للفريق الثاني خاصّةً، فيكون وضع الموصول مَوضِع الضمير لِما ذُكر آنفًا.

﴿مَكَانَكُمْ﴾ نُصب على أنّه في الأصل ظرف لفعل أُقيم مُقامه لا على أنّه اسم فعل، وحركتُه حركة بناءٍ كما هو رأي الفارسي،[1] أي: الزَموه حتّى تنظُروا ما يُفعَل بكم. ﴿أَنتُمْ﴾ تأكيد للضمير المنتقَل إليه مِن عامله لسدِّه مَسدَّه، ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ عليه. وقُرئ بالنصب[2] على أنّ الواو بمعنى "مع".

﴿فَزَيَّلْنَا﴾ مِن "زِلتُ الشيء عن مكانه أَزِيلُه"، أي: أزلتُه، والتضعيف للتكثير لا للتعدية. وقُرئ: "فَزَايَلْنَا"[3] بمعناه نحو "كلَّمتُه وكالَمتُه"، وهو معطوف على ﴿نَقُولُ﴾. وإيثار صيغةِ الماضي للدلالة على التحقّق المورِّث لزيادة التوبيخ والتحسير، والفاء للدلالة على وقوع التزييل ومَباديه عقيبَ الخطاب مِن غير مُهلة إيذانًا بكمال رخاوة ما بين الفريقين مِن العلاقة والوُصلة، أي: ففرَّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقطَّعنا أقرانَهم والوُصَل التي كانت بينهم في الدنيا، لكن لا مِن الجانبين؛ بل مِن جانب العَبَدة فقط، لعدم احتمال شمول الشركاء للشياطين كما سيجيء، فخابت آمالهم وانصرمت عُرى أطماعِهم، وحصل لهم اليأس الكلّيُّ مِن حصول ما كانوا يَرجونه مِن جهتهم. والحال وإن كانت معلومةً لهم مِن حين الموت والابتلاء بالعذاب لكنّ هذه المرتبة مِن اليقين إنّما حصلت عند المشاهدة والمشافهة.

وقيل: المراد بالتزييل التفريق الحسيُّ،[4] أي: فباعَدنا بينهم بعد الجَمْع في الموقف وتبرُّؤ شركائهم منهم ومِن عبادتهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ [غافر، ٤٠/٧٣-٧٤]، فالواو حينئذ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ حاليّةٌ بتقدير كلمة "قد" عند مَن يشترطها وبدونه عند غيره، لا عاطفةٌ كما في التفسير الأوّل، لاستدعاء المحاوَرة المحاضَرة الفائتة بالمباعَدة.

---

١ هو اسم فعل مبنيٌّ عند أبي عليّ. انظر: الحلبيّات لأبي عليّ الفارسي، ص ١٠٤.

٢ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٦؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣١٥.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٦.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٦.

وليس في ترتيب التزييل بهذا المعنى على الأمر بلزوم المكان ما في ترتيبه عليه بالمعنى الأوّل مِن النكتة المذكورة ليُصار لأجل رعايتها إلى تغيير الترتيب الخارجي، فإنّ المباعَدة بعد المحاوَرة حتمًا، وأمّا قَطْع الأقران والعلائق فليس كذلك؛ بل ابتداؤُه حاصل مِن حين الحشر؛ بل بعضُ مراتبه حاصل قبله أيضًا، وإنّما الحاصل عند المحاوَرة أقصاها كما أشيرَ إليه، فلا اعتدادَ بما في تقديمه مِن التغيير لاسيّما مع رعاية ما ذُكر مِن النكتة، ولو سُلِّم تأخُّر جميع مراتبه مِن المحاوَرة فمراعاة تلك النكتة كافية في استدعاء تقديمه عليها. ويجوز أن تكون حاليّةً على هذا التقدير أيضًا.

والمراد بالشركاء، قيل: الملائكة وعُزير والمَسيح وغيرهم ممّن عبدوه مِن أولي العِلم.[١] ففيه تأييد لرجوع الضميرِ إلى الكلّ. وقولهم: ﴿مَا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ عبارة عن تبرّئهم مِن عبادتهم وأنّهم إنّما عبدوا في الحقيقة أهواءَهم وشياطينَهم الذين أغوَوهم، لأنّها الآمرة لهم بالإشراك دونهم كقولهم: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ الآية، [سبأ، ٤١/٣٤]. وقيل: الأصنام يُنطِقها الله الذي أنطق كلَّ شيء فتُشافِههم بذلك مكانَ الشفاعةِ التي كانوا يتوقّعونها.[٢]

﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

[٨٣ظ] / ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، فإنّه العليم الخبير. ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ أي: عن عبادتكم لنا، وتركُه[٣] للظهور وللإيذان بكمال الغفلة عنها. والغفلة عبارةٌ عن عدم الارتضاء وإلّا فعدمُ شعور الملائكة بعبادتهم لهم غيرُ ظاهر، وهذا يقطع احتمال كون المراد بالشركاء الشّياطينَ كما قيل،[٤] فإنّ ارتضاءهم بإشراكهم ممّا لا ريب فيه، وإن لم يكونوا مُجبِرين لهم على ذلك. و﴿إِن﴾ مخفّفة مِن "إنّ"، واللام فارقة.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

---

١ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.
٢ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.
٣ يعني ترك لفظ "لنا".
٤ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المَقام الدَّهِش، أو في ذلك الوقت على استعارة ظرفِ المكان للزمان. ﴿تَبْلُواْ﴾ أي: تختبِر وتذوق ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنةً كانت أو كافرةً سعيدةً أو شقيّةً ﴿مَآ أَسْلَفَتْ﴾ مِن العمل وتُعاينه بكُنهه مستتبِعًا لآثاره مِن نفع أوضُرّ وخيرٍ أو شرّ، وأمّا ما علِمتْ مِن حالها مِن حين الموتِ والابتلاءِ بالعذاب في البرزخ فأمرٌ مجمَل.

وقُرئ: "نَبْلُو" بنون العظمةِ ونصبِ ﴿كُلَّ﴾ وإبدالِ ﴿مَا﴾ منه،[1] أي: نعاملها معاملةَ مَن يبلوها ويتعرَّف أحوالَها مِن السعادة والشقاوة باختبار ما أسلفت مِن العمل. ويجوز أن يُراد: نُصيبُ بالبلاء، أي: العذاب كلَّ نفس عاصية بسبب ما أسلفت مِن الشرّ، فيكون ﴿مَا﴾ منصوبة بنزع الخافض. وقُرئ: "تَتْلُو"،[2] أي: تتبَع، لأنّ عملها هو الذي يَهديها إلى طريق الجنّة أو إلى طريق النارِ، أو تقرأ في صحيفة أعمالِها ما قدّمت مِن خير أو شرّ.

﴿وَرُدُّوٓاْ﴾ الضمير للذين أشركوا على أنّه معطوف على "زيّلنا" وما عُطف عليه، وقوله عزّ وجلّ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ﴾... إلخ، اعتراض في أثناء الحكايةِ مقرِّر لمضمونها. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إلى جزائه وعقابه. ﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ ربِّهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ أي: المتحقِّق الصادق ربوبيّته لا ما اتّخذوه ربًّا باطلًا. وقُرئ: "الحقَّ"[3] بالنصب على المدح، كقولهم: "الحمدُ لله أهلَ الحمد"، أو على المصدر المؤكِّد.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وضاع، أي: ظهر ضَياعه وضلاله، لا أنّه كان قبل ذلك غيرَ ضالّ، أو ضلّ في اعتقادهم[4] أيضًا: ﴿مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ مِن أنّ آلهتهم تشفَع لهم، أو ما كانوا يدّعون أنّها آلهة. / هذا وجُعل الضمير في ﴿رُدُّوٓاْ﴾ للنفوس المدلول عليها [٨٤و]
بـ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على أنّه معطوف على ﴿تَبْلُواْ﴾، وأنّ العدول إلى الماضي للدلالة على التحقّق والتقرّر، وأنّ إيثار صيغة الجمع للإيذان بأنّ ردّهم إلى الله تعالى

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حاتم عن هارون عن عاصم. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٠.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٣.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن زيد بن عليّ والحسن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٦؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٠.

[4] وفي هامش م: أي: اعتقادهم الجازم، وقد مرّ تفصيل الأمر. «منه».

يكون على طريقة الاجتماع لا يُلائمه التعرّض لوصف الحقّيّة في قوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ فإنّه للتعريض بالمردودين حسبما أشيرَ إليه، ولئن اكتُفيَ فيه بالتعريض ببعضهم،[1] أو حُمل ﴿ٱلْحَقِّ﴾ على معنى العدل في الثواب والعقاب فقوله عزّ وجلّ: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ممّا لا مجال فيه للتدارك قطعًا، فإنّ ما فيه مِن الضمائر الثلاثة للمشركين، فيلزم التفكيك حتمًا. وتخصيص ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكلّ يأباه مقام تهويل المقام،[2] والله تعالى أعلَم.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ أي: لأولئك المشركين الذين حُكيت أحوالهم وبيّن ما يُؤدّي إليه أعمالهم احتجاجًا على حقّيّة التوحيد وبُطلانِ ما هم عليه مِن الإشراك. ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: منهما جميعًا، فإنّ الأرزاق تحصل بأسباب سماويّة وموادَّ أرضيّة، أو مِن كلّ واحدة منهما توسعةً عليكم. وقيل: ﴿مِن﴾ لبيان كلمة ﴿مَن﴾ على حذف المضافِ، أي: مِن أهل السماء والأرض.[3]

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ "أم" منقطِعة، وما فيها مِن كلمة "بل" للإضراب عن الاستفهام الأوّل، لكن لا على طريقة الإبطال؛ بل على وجه الانتقال وصرفِ الكلام عنه إلى استفهام آخرَ تنبيهًا على كفايته فيما هو المقصود، أي: مَن يستطيع خَلْقهما وتسويتهما على هذه الفطرة العجيبة، أو مَن يحفظهما مِن الآفات مع كثرتها وسرعة انفعالهما مِن أدنى شيء يُصيبهما؟

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: ومَن يُحيي ويُميت أو ومَن يُنشئ الحيوان مِن النُّطفة والنُّطفة مِن الحيوان. ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ومَن يلي تدبير أمر العالم جميعًا، وهو تعميم بعد تخصيصِ بعضٍ ما / اندرج [٨٤ظ] تحته مِن الأمور الظاهرة بالذِّكر. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تلعثُم ولا تأخير: ﴿ٱللَّهُ﴾.

---

[1] وفي هامش م: أي ببعض النفوس الشاملة للكلّ، وهو للمشركين خاصّة. «منه».

[2] وفي هامش م: أي: ﴿هُنَالِكَ﴾. «منه».

[3] القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٩/٢.

إذ لا مجال للمُكابرة لغاية وضوحه. والخبر محذوف، أي: الله يفعل ما ذُكر مِن الأفاعيل لا غيرُه.

﴿فَقُلْ﴾ عند ذلك تبكيتًا لهم. ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الهمزة لإنكار عدم الاتّقاء بمعنى إنكار الواقع، كما في: أَتضرِب أباكَ؟ لا بمعنى إنكار الوقوع كما في: أَأضرِبُ أبي؟ والفاء للعطف على مقدَّر ينسحِب عليه النظم الكريم، أي: أتعلَمون ذلك فلا تقُون أنفسَكم عذابَه الذي ذُكر لكم بما تتعاطَونه مِن إشراككم به ما لا يُشاركه في شيء ممّا ذُكر مِن خواصّ الإلهيّة.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ فذلكة لِما تقدَّم، أي: ذلكم الذي اعترفتُم باتّصافه بالنعوت المذكورة. وهو مبتدأ، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ خبره. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ﴾ أي: مالككم ومتولّي أموركم على الإطلاق بدلٌ منه أو بيان له. وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ صفة له، أي: ربُّكم الثابت ربوبيّته والمتحقِّق ألوهيّته تحقُّقًا لا ريبَ فيه.[١]

﴿فَمَاذَا﴾ يجوز أن يكون الكلُّ اسمًا واحدًا قد غُلّب فيه الاستفهامُ على اسم الإشارة، وأن يكون "ذا" موصولًا بمعنى: "الذي"، أي: ما الذي ﴿بَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾؟ أي: غيرُه بطريق الاستعارة. وإظهار ﴿ٱلْحَقِّ﴾ إمّا لأنّ المراد به غيرُ الأوّل[٢] وإمّا لزيادة التقرير ومراعاة كمال المقابلة بينه وبين الضلال.

والاستفهام إنكاري بمعنى إنكار الوقوع ونفيه، أي: ليس غيرُ الحقّ ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ الذي لا يَختاره أحد، فحيث ثبُت أنّ عبادة مَن هو منعوت بما ذُكر مِن النعوت الجميلة حقٌّ ظهَر أنّ ما عداها مِن عبادة الأصنام ضلال مَحض؛ إذ لا واسطة بينهما. وإنّما سُمّيت ضلالًا مع كونها مِن أعمال الجوارح باعتبار ابتنائِها على ما هو ضلال[٣] مِن الاعتقاد والرأيِ، هذا على تقدير كونِ الحقّ عبارةً عن التوحيد، وأمّا على تقدير كونه عبارةً عن الأوّل، فالمراد بالضلال

---

١ وفي هامش م: مُستفاد مِن صيغة ﴿ٱلْحَقُّ﴾. «منه».
٢ وفي هامش م: كما ستقف عليه. «منه».
٣ وفي هامش م: أي عبادة الأصنام.

[٨٥و] / هو الأصنام لا عبادتها. والمعنى: فماذا بعد الربّ الحقّ الثابت ربوبيّته إلّا الضلالُ، أي: الباطل الضائع المضمَحلُّ، وإنّما سُمّي بالمَصدر مبالغةً، كأنّه نَفْس الضلال والضياع. وهذا أنسَب بقوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام، ٢٤/٦] على التفسير الثاني.

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ استفهام إنكاري بمعنى إنكار الواقع واستبعاده والتعجيب منه، وفيه مِن المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الفعل، لأنّ كلّ موجود لا بدّ مِن أن يكون وجوده على حال مِن الأحوال قطعًا، فإذا انتفى جميع أحوال وجوده فقد انتفى وجوده على الطريق البرهاني كما مرّ مرارًا.

و"الفاء" لترتيب الإنكار على ما قبله، أي: كيف تُصرَفون مِن الحقّ الذي لا محيدَ عنه وهو التوحيد[١] إلى الضلال عن السبيل المستبين وهو الإشراكُ وعبادةُ الأصنام؟ أو مِن عبادة ربّكم الحقّ[٢] الثابت ربوبيّته إلى عبادة الباطل الذي سمعتُم ضلاله وضياعه في الآخرة؟ وفي إيثار صيغة المَبنيّ للمفعول إيذان بأنّ الانصراف مِن الحقّ إلى الضلال ممّا لا يَصدُر عن العاقل بإرادته، وإنّما يقع عند وقوعه بالقسر مِن جهة صارف خارجي.

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما حقّت الربوبيّة لله تعالى، أو كما أنّه ليس بعد الحقّ إلّا الضلال، أو أنّهم مصروفون عن الحقّ. ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وحُكمه وقضاؤه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي: تمرّدوا في الكفر وخرجوا مِن أقصى حدوده ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل مِن "الكلمة"، أو تعليل لحقّيّتها، والمرادُ بها العِدَة بالعذاب.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ احتجاج آخرُ على حقّيّة التوحيد وبطلانِ الإشراكِ

---

[١] وفي هامش م: على التفسير الأوّل للحقّ.
[٢] وفي هامش م: على التفسير الثاني.

بإظهار كونِ شركائهم بمَعزِل مِن استحقاق الإلهيّة ببيان اختصاصِ خواصِّها مِن بَدء الخلق وإعادتِه به سبحانه وتعالى. وإنّما لم يُعطَف على ما قبله إيذانًا باستقلاله في إثبات المطلوب. والسؤال للتبكيت والإلزام، وقد جُعلت هَليّةُ الإعادة وتحقُّقها لوضوح مكانها وسُنوح برهانها بمَنزلة بدءِ الخَلْق فنُظِمت في سِلكه حيث قيل: / ﴿مَن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إيذانًا بتلازمهما وجودًا وعِلمًا يَستلزم الاعترافُ به الاعترافَ بها، وإن صدّهم عن ذلك ما بهم مِن المُكابرة والعِناد. [٨٥ظ]

ثمّ أُمر صلّى الله عليه وسلّم بأن يُبيّن لهم مَن يفعل ذلك فقيل له: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: هو يفعلهما لا غيرُ كائنًا ما كان، لا بأن ينوب عليه السلام عنهم في ذلك كما قيل،[١] لأنّ القول المأمور به غيرُ ما أُريد منهم مِن الجواب وإن كان مستلزِمًا له، إذ ليس المسئول عنه مَن يبدأ الخلق ثمّ يعيده، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الرعد، ١٣/١٦]، حتّى يكونَ القول المأمور به عينَ الجواب الذي أُريد منهم، ويكونَ عليه السلام نائبًا عنهم في ذلك؛ بل إنّما هو وجود مَن يفعل البدء والإعادة مِن شركائهم، فالجواب المطلوبُ منهم: لا، لا غيرُ.

نعم أُمر صلّى الله عليه وسلّم بأن يُضمِّنه مقالتَه إيذانًا بتعيّنه[٢] وتحتُّمه، وإشعارًا بأنّهم لا يجترئون على التصريح به مَخافة التبكيت وإلقامِ الحجَر، لا مُكابرةً ولَجاجًا،[٣] فتدبّر. وإعادة الجملة في الجواب بتمامها غيرَ محذوفة الخبر كما في الجواب السابق لمَزيد التأكيد والتحقيق.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الإفك: الصَّرف والقلب عن الشيء، وقد يُخصّ بالقلب عن الرأي، وهو الأنسب بالمقام، أي: كيف تُقلبون مِن الحقّ إلى الباطل. والكلام فيه كما ذُكر في ﴿تُصْرَفُونَ﴾.[٤]

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٨.
٢ وفي هامش م: للجوابيّة. «منه».
٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/٩٩.
٤ يونس، ١٠/٣٢.

﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ احتجاج آخرُ على ما ذُكر، جيء به إلزامًا لهم غِبَّ إلزامٍ وإفحامًا إثرَ إفحام، وفصلُه عمّا قبله لِما ذُكر مِن الدلالة على استقلاله.

﴿مَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ أي: بوجه مِن الوجوه، فإنّ أدنى مَراتب المعبوديّة هداية المعبود لعبَدته إلى ما فيه صلاحُ أمرِهم. وأمّا تعيين طريق الهدايةِ وتخصيصُه بنصب الحُجج وإرسال الرُّسل والتوفيقِ للنظر والتدبّر كما قيل،[1] فمُخِلٌّ بما يقتضيه المقام مِن كمال التبكيت والإلزام، / فإنّ العجز عن الهداية على وجه خاصّ لا يَستلزم العجز عن مطلَق الهداية. و"هدى" كما يُستعمل بكلمة "إلى" لتضمّنه معنى الانتهاء يُستعمَل باللام للدلالة على أنّ المنتهى غاية للهداية، وإنّما لم يُتوجَّه نحوه على سبيل الاتّفاق، ولذلك استُعمل بها ما أُسند إلى الله تعالى حيث قيل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ أي: هو يهدي له دون غيره، وذلك بما ذُكر مِن نَصْب الأدلّة والحُجج وإرسال الرُّسل وإنزالِ الكُتب والتوفيق للنظر والتدبّر وغير ذلك مِن فنون الهدايات. والكلام في الأمر بالسؤال والجواب كما مرّ فيما مرّ. [٨٦و]

﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ وهو الله عزّ وجلّ ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ بكسر الهاء، أصلُه: "يهتدي" فأُدغم وكُسرت الهاء لالتقاء الساكنين. وقُرئ بكسر الياء[2] إتباعًا لها لحركة الهاء، وقُرئ بفتح الهاء[3] نقلًا لحركة التاء إليها، أي: لا يهتدي بنفسه فضلًا عن هداية غيره، وفيه مِن المبالغة ما لا يخفى. وإنّما نُفي عنه الاهتداء مع أنّ المفهوم ممّا سبق نفي الهداية لِما أنّ نفيها مستتبع لنفيه غالبًا، فإنّ مَن اهتدى إلى الحقّ لا يخلو عن هداية غيره في الجملة، وأدناها كونه قُدوةً له بأن يراه فيسلُكَ مَسلكَه مِن حيث لا يدري.

و"الفاء" لترتيب الاستفهام على ما سبق مِن تحقّق هدايتِه تعالى صريحًا وعدمِ هداية شركائهم المفهومِ مِن القَصْر ومِن عدم الجواب المنبئ عن الجواب بالعدم، فإنّ ذلك ممّا يَضطرّهم إلى الجواب الحقّ لا لتوجيه الاستفهام إلى الترتيب

---

١ في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٠/٢.

٢ قرأ بها عاصم في رواية أبي بكر عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

٣ قرأ بها ابن كثير وابن عامر ونافع في رواية ورش عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

كما يقع في بعض المواقع، فإنّ ذلك مختصّ بالإنكاري كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾... إلخ، [آل عمران، ١٦٢/٣] ونحوه.

والهمزة متأخِرة في الاعتبار، وإنّما تقديمها في الذِّكر لإظهار عراقتها في اقتضاء الصدارة كما هو رأي الجمهور، حتّى لو كان السؤال بكلمة "أيّ" لأُخِرت حتمًا، ألا يُرى إلى قوله تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ﴾ [الأنعام، ٨١/٦] إثرَ تقديرِ ما يُلجِئ المشركين إلى الجواب مِن حالهم وحال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُرِئ: "لَا يَهْدِي"[١] بمعنى: لا يهتدي،[٢] لمجيئه لازمًا، أو لا يهدي غيرَه.

وصيغة التفضيل: إمّا على حقيقتها والمفضَّل عليه محذوف كما اختاره مكّي،[٣] والتقدير: أفمَن يَهدي إلى الحقّ أحقُّ أن يُتّبع ممّن لا يهدي أم مَن لا يهدي أحقُّ... إلخ؛ / وإمّا بمعنى: "حقيق" كما اختاره أبو حيّان،[٤] وأيًّا ما كان فالاستفهام للإلزام، وأن يُتّبع في حيِّز النصب[٥] أو الجرّ[٦] بعد حذف الجارّ على الخلاف المعروف، أي: بأن يتّبعَ. [٨٦ظ]

﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ استثناء مفرَّغ مِن أعمّ الأحوال، أي: لا يَهتدي أو لا يَهدي غيرَه في حال مِن الأحوال إلّا حالَ هدايتِه تعالى له إلى الاهتداء أو إلى هداية الغير، وهذا حال أشرافِ شُركائهم مِن الملائكة والمَسيح وعُزير عليهم السلام.

---

١ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٨٣/٢.

٢ وهو رأي الكسائي والفرّاء وتبعهما الزمخشري، وفيه نظر. انظر قولهم: معاني القرآن للفراء، ٩٩/٢ (النحل، ٢٩/١٦)؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٥٨/٢. وانظر الردّ عليه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ١٩٧/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٢٤/١٠.

٣ انظر: مشكل إعراب القرآن لمكّي، ٣٤٥/١؛ واللباب لابن عادل، ٣٢٤/١٠-٣٢٥.

٤ انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٢٤/١٠. | هو محمّد بن يوسف بن عليّ بن يوسف بن حيّان الإمام أثير الدين الغرناطي الأندلسي الجياني، أبو حيّان (ت. ٧٤٥هـ/١٣٤٤م). مِن كبار العلماء بالعربيّة والتفسير والحديث والتراجم واللغات. وُلد في إحدى جهات غرناطة ورحل إلى مالَقة وتنقّل إلى أن أقام بالقاهرة ومات فيها بعد أن كُفّ بصره. اشتهرت تصانيفه في حياته وقُرِئت عليه، وأهمّها: البحر المحيط، والتذييل والتكميل، وارتشاف الضَّرَب، والمُبدِع في التصريف، والنُّكت الحِسان. وهي مطبوعة. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٢٨٠/١؛ والأعلام للزركلي، ١٥٢/٧.

٥ وفي هامش م: عند سيبويه والفرّاء. «منه».

٦ وفي هامش م: عند الخليل والكسائي. «منه».

وقيل: المعنى: أم مَن لا يهتدي مِن الأوثان إلى مكان فيُنتَقل إليه إلّا أن يُنقل إليه أو إلّا أن يَنقُله الله تعالى مِن حاله إلى أن يَجعَله حيوانًا مكلَّفًا فيَهديَه. وقُرئ: "إلّا أنْ يُهَدَّى"[١] مِن "التفعيل" للمبالغة.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: أيُّ شيءٍ لكم في اتّخاذكم هؤلاء شركاءَ لله سبحانه وتعالى. والاستفهام للإنكار التوبيخي، وفيه تعجّبٌ مِن حالهم. وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: بما يقضي صريحُ العقل ببُطلانه إنكارٌ لحكمهم الباطلِ وتعجّبٌ منه وتشنيعٌ لهم بذلك. و"الفاء" لترتيب كلا الإنكارين على ما ظهر مِن وجوب اتّباع الهادي إلى الحقّ.

إن قلتَ: التبكيت بالاستفهام السابق إنّما يظهر في حقّ مَن يعكس جوابه الصحيح فيحكم بأحقّيّة مَن لا يَهدي بالاتّباع دون مَن يهدي، وهم ليسوا حاكمين بأحقّيّة شركائهم لذلك دون الله سبحانه وتعالى؛ بل باستحقاقهما جميعًا مع رُجحان جانبه تعالى، حيث يقولون: هؤلاء شفعاؤُنا عند الله. قلتُ: حكمُهم باستحقاقه تعالى للاتّباع بطريق الاشتراكِ حكمٌ منهم بعدم استحقاقه تعالى لذلك بطريق الاستقلال، فصاروا حاكمين باستحقاق شركائِهم له دون الله تعالى مِن حيث لا يحتسِبون.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ كلام مبتدأ غيرُ داخل في حيّز الأمر، مَسوقٌ مِن قِبَله تعالى لبيان عدم فهمهم لمضمون ما أفحمهم وألقمهم الحجرَ مِن البرهان النيّر الموجِب لاتّباع الهادي إلى الحقّ الناعي عليهم بُطلانَ حُكمهم وعدمَ تأثّرهم مِن ذلك لعدم اهتدائِهم إلى طريق العِلم أصلًا، أي: ما يتّبع أكثرهم في معتقداتهم ومحاوراتِهم ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ واهيًا مِن غير التفات إلى فرد مِن أفراد العِلم، فضلًا عن أن يَسلُكوا مَسالكَ الأدلّة الصحيحة الهادية إلى الحقّ المَبنيّة على المقدّمات اليقينيّة الحقّة، فيفهموا مضمونها ويقفوا على صِحّتها وبُطلانِ ما يخالفها مِن أحكامهم الباطلة، فيَحصُل / التبكيت والإلزام. [٨٧و]

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي الحارث الذماري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١.

فالمراد بـ"الاتّباع" مطلَق الاعتقاد الشامل لِما يُقارن القبول والانقياد وما لا يُقارنه، وبالقصر ما أشيرَ إليه مِن أن لا يكون لهم في أثنائه اتّباعٌ لفرد مِن أفراد العِلم والتفات إليه. ووجهُ تخصيص هذا الاتّباع بأكثرهم: الإشعار بأنّ بعضهم قد يتّبعون العِلم فيَقفون على حقّيّة التوحيد وبُطلان الشرك، لكن لا يَقبلونه مُكابرةً وعِنادًا، فيَحصُل بالنسبة إليهم التأثّر مِن البرهان المَزبور وإن لم يُظهِروه، وكونهم أشدَّ كُفرًا وأكثرَ عذابًا مِن الفريق الأوّلِ لا يقدَح فيما يُفهَم مِن فحوى الكلام عُرفًا مِن كون أولئك أسوأَ حالًا مِن غيرهم، إذ المعتبَر سوء الحال مِن حيث الفهمُ والإدراك لا مِن حيث الكفرُ والعذاب.

أو ما يتّبع أكثرُهم مدّةَ عُمرهم إلّا ظنًّا ولا يتركونه أبدًا، فإنّ حرف النفي الداخل على المضارع يُفيد استمرار النفي بحسب المَقام،[١] فالمراد بـ"الاتّباع" حينئذ هو الإذعان والانقياد والقصر باعتبار الزمان. ووجهُ تخصيص هذا الاتّباع بأكثرهم مع مشاركة المعاندين لهم في ذلك التلويح بما سيكون مِن بعضهم مِن اتّباع الحقّ والتوبة، كما سيأتي.

هذا، وقد قيل: المعنى: وما يتّبع أكثرهم في إقرارهم بالله تعالى إلّا ظنًّا غيرَ مستندٍ إلى بُرهان عندهم. وقيل: وما يتّبع أكثرهم في قولهم للأصنام: إنّها آلهةٌ، إلّا ظنًّا، والمراد بالأكثر الجميع،[٢] فتأمّل. وقيل: الضمير في ﴿أَكۡثَرُهُمۡ﴾ للناس،[٣] فلا حاجةَ إلى التكلّف.

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ مِن العِلم اليقيني والاعتقادِ الصحيح المطابق للواقع ﴿شَيۡـًٔا﴾ مِن الإغناء. ويجوز أن يكون مفعولًا به، و﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ حالًا منه، والجملة استئناف ببيان شأن الظنّ وبُطلانه.[٤] وفيه دلالة على وجوب العِلم في الأصول، وعدمِ جوازِ الاكتفاءِ بالتقليد.[٥] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ وعيد لهم / على أفعالهم القبيحة، فيندرج تحتها ما حُكيَ عنهم مِن الإعراض [٨٧ظ]

---

١ وفي هامش م: كما حُقّق فيما قبلُ. «منه».
٢ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٨.
٣ ما وجدته فيما بين يديّ مِن المظانّ.
٤ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠١.
٥ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠١.

عن البراهين القاطعة والاتّباع للظنون الفاسدة اندراجًا أوّليًا. وقُرئ: "تَفْعَلُونَ"[١] بالالتفات إلى الخطاب لتشديد الوعيد.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ شروع في بيان ردّهم للقرآن الكريم إثرَ بيان ردّهم للأدلّة العقليّة المندرِجة في تضاعيفه، أي: وما صحّ وما استقام أن يكون هذا القرآن المَشحون بفنون الهدايات المستوجِبة للاتّباع التي مِن جملتها هاتِيك الحُجج البيّنة الناطقة بحقّيّة التوحيد وبُطلان الشرك. ﴿أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: افتراءً مِن الخلق، أي: مفترًى منهم سُمّي بالمصدر مبالغة.

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مِن الكتب الإلهيّة المَشهود على صدقها، أي: مصدِّقًا لها، كيف لا، وهو لكونه معجِزًا دونها عِيارٌ عليها شاهدٌ بصحّتها. ونَصْبه بأنّه خبر "كان" مقدَّرًا. وقد جُوّز كونه عِلّة لفعل محذوف، تقديره: لكن أنزَله الله تصديقَ... إلخ.[٢] وقُرئ بالرفع[٣] على تقدير المبتدأ، أي: ولكن هو تصديق... إلخ.

﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ عطفٌ عليه نصبًا ورفعًا، أي: وتفصيلَ ما كُتب وأُثبت مِن الحقائق والشرائع. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ خبر ثالث داخل في حُكم الاستدراك، أي: منتفيًا عنه الرَّيب، أو حال مِن ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وإن كان مضافًا إليه فإنّه مفعول في المعنى، أو استئناف لا محلّ له مِن الإعراب.

﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خبر آخرُ،[٤] أي: كائنًا مِن ربّ العالمين، أو متعلِّق بـ﴿تَصْدِيقَ﴾ أو بـ﴿تَفْصِيلَ﴾ أو بالفعل المعلَّل بهما. و﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراض كما في قولك:

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود والحسن وعيسى الكوفي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦١؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧.

[٢] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠١/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عيسى بن عمر وزيد بن عليّ وابن أبي عبلة والزّعفراني. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٢.

[٤] وفي هامش م: أي: لـ"كان" المُقدَّر. «منه».

"زيد لا شكّ فيه كريمٌ"، أو حال مِن ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ أو مِن الضمير في ﴿فِيهِ﴾. ومَساق الآية الكريمة بعد المنع عن اتّباع الظنّ لبيان ما يجِب اتّباعه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ / ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: بل أيقولون افتراه محمّد عليه السلام؟ والهمزة لإنكار الواقع واستبعاده. ﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم وإظهارًا لبُطلان مقالتهم الفاسدة، إن كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي: في البلاغة وحُسن الصياغة وقوّة المعنى على وجه الافتراء، فإنكم مِثلي في العربيّة والفصاحة وأشدُّ تمرّنًا منّي في النظم والعبارة. وقُرئ: "سُورَةِ مِثْلِهِ"[1] على الإضافة، أي: بسورة كتابٍ مثلِه. [٨٨و]

﴿وَٱدْعُوا۟﴾ للمظاهَرة والمعاوَنة ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ دعاءَه والاستعانةَ به مِن آلهتكم التي تزعُمون أنّها مُمِدّة لكم في المهِمّات والملِمّات، ومَدارِهكم[2] الذين تلجئون إلى آرائهم في كلّ ما تأتون وما تذرون.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّق بـ﴿ٱدْعُوا۟﴾. و﴿دُونِ﴾ جارٍ مَجرى أداة الاستثناء، وقد مرّ تفصيله في قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة، ٢/٢٣]، أي: ادعُوا سواه تعالى مَن استطعتم مِن خلقه فإنّه لا يَقدِر عليه أحد. وإخراجه سبحانه مِن حُكم الدعاءِ للتنصيص على براءتهم منه تعالى وكونِهم في عُدوة المُضادّة والمُشاقّة، لا لبيان استبداده تعالى بالقدرة على ما كُلِّفوه، فإنّ ذلك ممّا يُوهِم أنّهم لو دعَوه تعالى لأجابهم إليه.

﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّي افتريته، فإنّ ذلك مستلزِم لإمكان الاتيان بمثله، وهو أيضًا مستلزِم لقدرتكم عليه. والجواب محذوف لدلالة المذكور عليه.[3]

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عمرو بن فايد. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢.

[2] المَدَاره جمع "مِدْرَه": زعيم القوم وخطيبهم والمُتكلِّم عنهم والذي يرجعون إلى رأيه. انظر: لسان العرب لابن منظور، «دره».

[3] وفي هامش م: أي: إن كنتم صادقين فأتوا بسورة مِثله. «منه».

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٩ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤٠﴾

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ إضراب وانتقال عن إظهار بُطلان ما قالوا في حقّ القرآن العظيم بالتحدّي إلى إظهاره ببيانِ أنّه كلام ناشيء عن جهلهم بشأنه الجليلِ. فـ﴿مَا﴾ عبارةٌ عن كلّه، لا عمّا فيه مِن ذِكر البعث والجزاءِ وما يُخالف دينَهم كما قيل،[١] فإنّه ممّا يجب تنزيهُ ساحة التنزيل عن مِثله، أي: سارَعوا إلى تكذيبه آثرَ ذي أثيرٍ مِن غير أن يتدبَّروا فيه ويقِفوا على ما في تضاعيفه مِن الشواهد الدالّة على كونه كما وُصف آنفًا،[٢] ويعلموا أنّه ليس ممّا يُمكن أن يكون له نظير يَقدِر عليه المخلوق.

والتعبير عنه بـ﴿مَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ دون أن يقال: بل كذَّبوا به مِن غير أن يُحيطوا بعلمه، أو نحو ذلك، / للإيذان بكمال جهلهم به، وأنّهم لم يعلموه إلّا بعنوان عدم العِلم به، وبأنّ تكذيبهم به إنّما هو بسبب عدم عِلمهم به لِما أنّ إدارة الحُكم على الموصول مشعِرة بعِلّيّة ما في حيّز الصلة له. [٨٨ظ]

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ عطفٌ على الصلة، أو حال مِن الموصول، أي: ولم يقِفوا بعدُ على تأويله، ولم يبلُغ أذهانَهم معانيه الرائقةُ المنبِئة عن علوّ شأنه. والتعبير عن ذلك بإتيان التأويل للإشعار بأنّ تأويله متوجِّه إلى الأذهان مُنساق إليها بنفسه،[٣] أو لم يأتِهم بعدُ تأويل ما فيه مِن الإخبار بالغيوب حتّى يتبيَّن أنّه صدق أم كذب. والمعنى: أنّ القرآن معجِز مِن جهة النظم والمعنى ومِن جهة الإخبار بالغيب، وهم قد فاجئوا تكذيبَه قبل أن يتدبَّروا نظمه ويتفكَّروا في معناه أو ينتظروا وقوعَ ما أخبر به مِن الأمور المستقبَلة.

ونفيُ إتيان التأويل بكلمة ﴿لَمَّا﴾ الدالّة على التوقّع بعد نفي الإحاطة بعِلمه بكلمة ﴿لَمْ﴾ لتأكيد الذمّ وتشديد التشنيع، فإنّ الشناعة في تكذيب الشيء قبل عِلمه

---

١ وفي هامش م: قائله بيضاوي، ومَن مصدريّة. «منه». | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٢.

٢ وفي هامش م: مِن كونه تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ الكتاب لا ريبَ فيه مِن ربّ العالمين. «منه».

٣ وفي هامش م: أي: غير مُحتاج إلى تأمّل. «منه».

المتوقَّع إتيانُه أفحشُ مِنها في تكذيبه قبل عِلمه مطلقًا. والمعنى: أنّه كان يجب عليهم أن يتوقَّفوا إلى زمان وقوع المتوقَّع فلم يفعلوا. وأمّا أنّ المتوقَّع قد وقع بعدُ، وأنَّهم استمرُّوا عند ذلك أيضًا على ما هم عليه أو لا، فلا تعرُّضَ له ههنا.

والاستشهاد عليه بعدم انقطاع الذمّ، أو ادّعاءُ أنّ قولهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾[١] تكذيبٌ بعد التدبّر،[٢] ناشئٌ مِن عدم التدبّر، فتدبّر. كيف لا، وهم لم يقولوه بعد التحدّي؛ بل قبله. وادّعاء كونِه مَسبوقًا بالتحدّي الوارد في سورة البقرة،[٣] يردُّه أنّها مدنيّة وهذه مكيّة، وإنّما الذي يدلّ عليه ما سيُتلى عليك مِن قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم﴾...[٤] إلخ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾... إلخ، وصفٌ لحالهم المَحكي وبيان لِما يُؤدّي / إليه مِن العقوبة، أي: مِثلَ ذلك التكذيب المَبني على بادي الرأي والمُجازفةِ مِن غير تدبّر وتأمّل ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: فعلوا التكذيبَ، أو كذّبوا ما كذّبوا مِن المعجِزات التي ظهرت على أيدي أنبيائِهم، أو كذَّبوا أنبياءَهم. ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهم الذين مِن قبلهم مِن المكذِّبين. وإنّما وُضع المُظهَر مَوضِع المضمَر للإيذان بكون التكذيبِ ظُلمًا، وبعِلّيّته لإصابة ما أصابهم مِن سوء العاقبة، وبدخول هؤلاء الظالمين في زمرتهم جُرمًا ووعيدًا دخولًا أوّليًّا. [٨٩و]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمِنۡهُم﴾... إلخ، وصفٌ لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقَّع، إذ حينئذ يُمكِن تنويعُهم إلى المؤمِن به وغير المؤمِن ضرورةَ امتناع الإيمان بشيء مِن غير علم به، واشتراكَ الكلّ في التكذيب والكفر به قبل ذلك حسبما أفاده قولُه تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾.[٥] أي: ومِن هؤلاء المكذِّبين ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ عند الإحاطةِ بعلمه وإتيانِ تأويله وظهورِ حقّيّته بعد ما سعَوا في المعارضة ورازُوا قُواهم فيها فتضاءلت دونها، أو بعد ما شاهدوا وقوعَ ما أَخبر به كما أَخبر به مرارًا.

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] وفي هامش م: المولى قطب الرازي رحمه الله. | القول في شرح مشكلات الكشّاف لقطب الدين الرازي، ٣٤٨ظ. والقول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٥٩.

[٣] وفي هامش م: المولى التفتازاني رحمه الله. «منه». | انظر: حاشية التفتازاني على الكشّاف، ٤٠٠ظ.

[٤] في الآية الآتية.

[٥] في الآية السابقة.

ومعنى الإيمان به إمّا الاعتقاد بحقّيّته فقط، أي: يُصدِّق به في نفسه، ويعلم أنّه حقٌّ ولكنّه يُعانِد ويُكابِر، وهؤلاءِ هم الذين أشيرَ بقَصْر اتّباع الظنّ على أكثرهم إلى أنّهم يعلمون الحقّ[١] على التفسير الأوّل[٢] كما أشيرَ إليه فيما سلف، وإمّا الإيمان الحقيقي، أي: سيُؤمن به ويتوب عن الكفر، وهم الذي أشيرَ بالقَصْر المذكور على التفسير الثاني[٣] إلى أنّهم سيتّبعون الحقّ كما مرّ.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي لا يُصدِّق به في نفسه كما لا يُصدِّق به ظاهرًا لفَرْط غباوته المانعة عن الإحاطة بعِلمه كما ينبغي وإن كان فوق مَرتبةِ عدمِ الإحاطةِ به أصلًا، أو لسخافة عقله واختلال تمييزه وعجزه عن تخليص علومه عن معارضة الظنون والأوهام التي ألِفَها، فيبقى على ما كان عليه مِن الشكّ. وهذا القَدْر مِن الإحاطة وإتيان التأويل كافٍ في مقابلة ما سبق مِن / عدم الإحاطةِ بالمرّة، وهؤلاء [٨٩ظ] هم الذين أُريدوا فيما سلف بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّا﴾[٤] على التفسير الأوّل،[٥] أو لا يُؤمِن به[٦] فيما سيأتي بل يموت على كُفره معاندًا كان أو شاكًّا، وهم المستمِرُّون على اتّباع الظنّ[٧] على التفسير الثاني مِن غير إذعان للحقّ وانقياد له.

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: بكلا الفريقين[٨] على الوجه الأوّل، لا بالمعاندين فقط كما قيل،[٩] لاشتراكهما في أصل الإفساد المستدعي لاشتراكهما في الوعيد،[١٠] أو بالمصرِّين الباقين على الكفر على الوجه الثاني[١١] مِن المعانِدين والشاكّين.

---

١ وفي هامش م: لكن لا يقبلونه مُكابرة. «منه».

٢ وفي هامش م: وهو حمل الاتّباع على مُطلَق الاعتقاد لا على ما يُقارن القبول والانقياد فقط. «منه».

٣ وفي هامش م: وهو حَمْل الاتّباع على الانقياد واعتبار الزمان في القصر. «منه».

٤ يونس، ٣٦/١٠.

٥ وفي هامش م: ولا يَقدح في هذا القصر ما مرّ آنفًا مِن الإحاطة في الجملة لِما أنّه ليس باتّباع لغير الظنّ ولا بمستلزم له. «منه».

٦ وفي هامش م: عطفٌ على قوله: "لا يُصدِّق به". «منه».

٧ وفي هامش م: فإنّ المُعاندين أيضًا تابعون للظنّ بمعنى القبول والعمل بمُوجَبه. «منه».

٨ وفي هامش م: أحدهما الفريق المُصدِّق بحقّيّة المُعاند والآخر الفريق المُكذِّب ظاهرًا أو باطنًا. «منه».

٩ في هامش م: زمخشري وبيضاوي ومَن يقتدي بهما. «منه». | وفيهما أنّ المقصود: المُصرُّون والمُعاندون. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٢/٢.

١٠ وفي هامش م: هو حَمْل الاتّباع على مطلَق الاعتقاد مِن غير اعتبار القبول والانقياد. «منه».

١١ وفي هامش م: هو حَمْل الاتّباع على الانقياد واعتبار الزمان في القصر. «منه».

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٤١﴾

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: إن تمُّوا على تكذيبك وأصرُّوا عليه حسبما أُخبر عنهم[١] بعد إلزام الحجّةِ بالتحدّي ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡ﴾ أي: تبرّأْ منهم فقد أعذرتَ، كقوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ [الشعراء، ٢١٦/٢٦]. والمعنى: لي جزاء عملي ولكم جزاء عملِكم حقًّا كان أو باطلًا، وتوحيد العمل المضافِ إليهم باعتبار الاتّحادِ النوعي ولمراعاة كمال المقابلة.

﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ تأكيد لِما أفاده لامُ الاختصاص مِن عدم تعدّي جزاءِ العمل إلى غير عامله، أي: لا تُؤاخَذون بعملي ولا أُؤاخَذ بعملكم، ولِما فيه مِن إيهام المُتاركة وعدم التعرّضِ لهم. قيل: إنّه مَنسوخ بآية السيف.[٢]

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢﴾

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ بيان لكونهم مَطبوعًا على قلوبهم، بحيث لا سبيلَ إلى إيمانهم، وإنّما جُمِع الضمير الراجع إلى كلمة ﴿مَن﴾ رعايةً لجانب المعنى كما أُفرِد فيما سيأتي محافظةً على ظاهر اللفظ، ولعلّ ذلك للإيماء إلى كثرة المستمِعين بناءً على عدم توقّف الاستماع على ما يتوقّف عليه النظر مِن المقابلة وانتفاء الحِجاب والظُّلمة، أي: ومنهم ناس يستمعون إليك عند قراءتك القرآنَ وتعليمِك للشرائع.

﴿أَفَأَنتَ / تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ همزة الاستفهام إنكاريّة، والفاء عاطفة، وليس الجمع [٩٠و]
بينهما لترتيب إنكار الإسماع على الاستماع كما هو رأيُ سيبويهِ والجمهور،[٣] على أن يُجعَل تقديم الهمزة على الفاء لاقتضائها الصدارة كما تقرّر في موضعه؛

---

[١] وفي هامش م: كقوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم﴾... إلخ. «منه».

[٢] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٢/٢.

[٣] انظر: كتاب سيبويه، ١٨٨/٣-١٨٩.

بل لإنكار ترتّبه عليه حسبما هو المعتاد، لكن لا بطريق العطف على الفعل المذكور لأدائه إلى اختلال المعنى، لأنّه إمّا صلة أو صفة.

وأيًا ما كان فالعطف عليه يَستدعي دخولَ المعطوف في حيّزه وتوجُّهَ الإنكار إليه مِن تلك الحيثيّة، ولا ريبَ في فساده؛ بل بطريق العطف على مقدَّر مفهوم مِن فحوى النظم، كأنّه قيل: أيَستمِعون إليك فأنتَ تُسمِعهم[1] لا إنكارًا لاستماعهم فإنّه أمر محقَّق؛ بل إنكارًا لوقوع الإسماع عقيبَ ذلك وترتّبِه عليه حسب العادة الكلّيّة؛ بل نفيًا لإمكانه أيضًا كما يُنبِئ عنه وضع الصُّمِّ مَوضِعَ ضميرِهم ووصفُهم بعدم العقل بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: ولو انضمّ إلى صمَمهم عدم عقولهم، لأنّ الأصمّ العاقل ربّما تفرّس إذا وصل إلى صِماخه صوتٌ، وأمّا إذا اجتمع فقدان السمع والعقل جميعا فقد تمّ الأمر.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويُعاين دلائلَ نبوّتك الواضحة. ﴿أَفَأَنتَ﴾ أي: أعقيبَ ذلك أنت تهديهم؟ وإنّما قيل: ﴿تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ تربيةً لإنكار هدايتِهم وإبرازًا لوقوعها في مَعرِض الاستحالة، وقد أُكِّد ذلك حيث قيل: ﴿وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ولو انضمّ إلى عدم البصَر عدمُ البصيرة، فإنّ المقصود مِن الإبصار الاعتبار والاستبصار. والعمدة في ذلك هي البصيرة، ولذلك يحدِس الأعمى المستبصِرُ ويتفطّن لِما لا يُدركه البصير الأحمق، فحيثُ اجتمع فيهم الحُمْق والعَمَى فقد انسدّ عليهم باب الهدى.

[٩٠ظ] / وجواب ﴿لَوْ﴾ في الجملتين محذوف لدلالة قوله تعالى: ﴿تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾[2] ﴿تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ عليه، وكلٌّ مِنهما معطوفة على جملة مقدَّرة مقابِلة لها في الفحوى كلتاهما في موضع الحال مِن مفعول الفعل السابق، أي: أفأنت تُسمِع الصمّ لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون؟ أفأنت تهدي العُميَ لو كانوا يبصرون ولو كانوا لا يبصرون؟ أي: على كلّ حالٍ مفروضٍ.

---

[1] وفي هامش م: والمآل: أبعد ذلك أنت تُسمِعهم. [2] في الآية السابقة.

وقد حُذفت الأُولى في الباب حذفًا مطَّردًا لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة، فإنّ الشيء إذا تحقَّق عند تحقّق المانع أو المانعِ القويّ فلأَنْ يتحقَّق عند عدمه أو عند تحقّق المانع الضعيف أَوْلى. وعلى هذه النكتة يدور ما في "لو" و"إنْ" الوصليّتين مِن التأكيد، وقد مرّ الكلام في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة، ٣٢/٩] ونظائرِه مِرارًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ﴾ إشارة إلى أنّ ما حُكي عنهم مِن عدم اهتدائهم إلى طريق الحقّ وتعطّلِ مَشاعرهم مِن الإدراك، ليس لأمر مستندٍ إلى الله عزّ وجلّ مِن خَلْقهم مَئوفي[1] المَشاعرِ ونحو ذلك؛ بل إنّما هو مِن قِبلهم، أي: لا ينقُصهم ﴿شَيْـًٔا﴾ ممّا نِيط به مصالحُهم الدينيّة والدنيويّة وكمالاتُهم الأُولويّة والأُخرويّة مِن مبادي إدراكاتهم وأسبابِ علومهم مِن المشاعر الظاهرة والباطنة والإرشادِ إلى الحقّ بإرسال الرُّسل وإنزال الكُتب؛ بل يُوفِّيهم ذلك مِن غير إخلالٍ بشيء أصلًا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ وقُرئ بالتخفيف ورفع ﴿ٱلنَّاسَ﴾.[2] وُضع الظاهرُ مَوضِعَ الضمير لزيادة تعيين وتقرير، أي: لكنّهم بعدم استعمال مشاعِرهم فيما خُلقتْ له وإعراضِهم عن قَبول دعوةِ الحقّ وتكذيبِهم للرسل والكتب ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أي: ينقُصون ما ينقُصون ممّا يُخِلّون به مِن مبادي كمالِهم وذرائع اهتدائِهم، وإنّما لم يُذكَر لِما أنّ مرمى الغرض إنّما هو قَصْر الظلم على أنفسهم لا بيانُ ما يتعلّق به الظلم. والتعبير عن فعلهم بالنقص مع كونه تفويتًا بالكلّيّة وإبطالًا بالمرّة لمراعاة جانبِ قرينته.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: إمّا تأكيد لـ﴿ٱلنَّاسَ﴾[3] فيكون بمنزلة ضمير الفصل في قوله تعالى: / ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف، ٧٦/٤٣] [٩١و] في قَصْر الظالميّة عليهم؛ وإمّا مفعول لـ﴿يَظْلِمُونَ﴾ حسبما وقع في سائر المواقع.

---

[1] إيف القوم فهم مَئوفون إذا أصابتهم آفة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «أوف».

[2] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢١٩/٢.

[3] وفي هامش م: على قراءة "لكنّ" بالتشديد. «منه».

وتقديمُه عليه لمجرَّد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة مِن غير قصد إلى قَصْر المظلوميّة عليهم على رأي مَن لا يرى التقديم موجِبًا للقصر، فيكون كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود، ١٠١/١١] مِن غير قَصْر للظلم لا على الفاعل ولا على المفعول.

وأمّا على رأي مَن يراه موجِبًا له فلعلّ إيثارَ قصرها دون قصر الظالميّة عليهم للمبالغة في بيان بطلان أفعالهم وسخافة عقولهم، لِما أنّ أقبح الأمرين عند اتّحاد الفاعل والمفعول وأشدَّهما إنكارًا عند العقل ونُفرة لدى الطبع وأوجبَهما حذرًا منه عند كلّ أحد هو المظلوميّة لا الظالميّة، على أنّ قَصْر الأُولى عليهم مستلزِم لِما يقتضيه ظاهر الحال مِن قَصْر الثانية عليهم، ضرورةَ أنّه إذا لم يَظلِم أحد مِن الناس إلّا نفسَه يلزَم ألّا يَظلِمَه إلّا نفسُه، إذ لو ظلمه غيرُه يلزَم كون ذلك الغير ظالمًا لغير نفسه، والمفروض ألّا يظلِم أحد إلّا نفسَه، فاكتُفي بالقصر الأوّل عن الثاني مع رعاية ما ذُكر مِن الفائدة.

وصيغة المضارع للاستمرار نفيًا وإثباتًا، فإنّ حرف النفي إذا دخل على المضارع يُفيد بحسب المقام استمرار النفي لا نفيَ الاستمرار، ألا يُرى أنّ قولكَ: "ما زيدًا ضربتُ" يدلّ على اختصاص النفي لا على نفي الاختصاص. ومَساق الآية الكريمة لإلزام الحُجّة، ويجوز أن يكون للوعيد، فالمضارع المنفي للاستقبال والمثبَت للاستمرار، والمعنى: أنّ الله لا يَظلِمهم بتعذيبهم يوم القيامة شيئًا مِن الظُّلم ولكنّهم أنفسَهم يَظلِمون ظُلمًا مستمرًّا، فإنّ مباشرتهم المستمرّة للسيّئات الموجِبة للتعذيب عينُ ظُلمِهم لأنفسهم. وعلى الوجهين فالآية الكريمة تذييل لِما سبق.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ منصوب بمضمَر. وقُرئ بالنون[١] على الالتفات، أي: اذكر لهم أو أنذِرْهم يوم يحشرهم. ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: كأنّهم لم يلبثوا ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾

---

١ قرأ بها العشرة إلّا عاصمًا في رواية حفص عنه. النشر لابن الجزري، ٢٦٢/٢.

أي: شيئًا قليلًا منه، فإنّها مَثَل في غاية القِلّة. وتخصيصُها بالنهار لأنّ ساعاته أعرف حالًا مِن ساعات الليل. والجملة في موقع الحال مِن ضمير المفعول / أي: يحشرهم مُشبِهين في أحوالهم الظاهرة للناس بمَن لم يلبَث في الدنيا ولم يتقلَّب في نعيمها إلّا ذلك القدرَ اليسير، فإنّ مَن أقام بها دهرًا وتمتَّع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثارِ نعمةٍ وأحكامِ بهجةٍ منافية لِما بهم مِن رثاثة الهيئة وسوء الحال، أو بمَن لم يلبَث في البرزخ إلّا ذلك المِقدارَ. [٩١ظ]

ففائدة التقييد بيانُ كمال يُسر الحشر بالنسبة إلى قُدرته تعالى، ولو بعد دهر طويل، وإظهارُ بُطلان استبعادهم وانكارِهم بقولهم: ﴿أَءِذَامِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [المؤمنون، ٨٢/٢٣] ونحوِ ذلك؛ أو بيانُ تمام الموافقة بين النشأتين في الأشكال والصور، فإنّ قلّة اللُّبث في البَرزخ مِن موجِبات عدم التبدّل والتغيّر، فيكون قوله عزّ وعلا: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ بيانًا وتقريرًا له؛ لأنّ التعارُف مع طُول العهد ينقلب تناكُرًا، وعلى الأوّل يكون استئنافًا، أي: يَعرِف بعضهم بعضًا كأنّهم لم يتفارقوا إلّا قليلًا، وذلك أوّلَ ما خرجوا مِن القبور، إذ هم حينئذ على ما كانوا عليه مِن الهيئة المتعارَفة فيما بينهم، ثمّ ينقطِع التعارف لشدّة الأهوال المذهِلة، واعتراءِ الأحوال المعضِلة المغيّرة للصور والأشكال المبدِّلة لها مِن حال إلى حال.

﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ شهادة مِن الله سبحانه[١] على خُسرانهم وتعجّبٌ منه. وقيل: حال مِن ضمير ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ على إرادة القول. والتعبير عنهم بالموصول مع كون المقام مقامَ إضمار لذمِّهم بما في حيّز الصلة والإشعارِ بعلّيّته لِما أصابهم. والمراد بـ"لقاء الله" تعالى إن كان مطلقَ الحساب والجزاء أو حسنَ اللقاء فالمراد بالخسران الوضيعةُ، والمعنى: وُضِعوا في تجاراتهم ومعاملاتهم واشترائهم الكفرَ بالإيمان والضلالةَ بالهدى.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾: ما كانوا عارفين بأحوال التجارة مهتدين لطُرقها. وإن كان سوءَ اللقاء[٢] فالخَسارُ: الهلاك والضلال، أي: قد ضلُّوا

---

[١] ط س + وتعالى.

[٢] السياق: إن كان مطلق الحساب... وإن كان سوء اللقاء...

وهلكوا بتكذيبهم وما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

[٩٢و] / ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: إن نُرِكَ، و"ما" مَزيدة لتأكيد معنى الشرط ومِن ثمّة أُكِّد الفعل بالنون، أي: نُبصِّرنّك بأن نُظهِر له[١] ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي: وعدناهم مِن العذاب ونُعجِّله في حياتك فتراه. والعدول إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة أو للدلالة على التجدّد والاستمرار، أي: نَعِدهم وعدًا متجدِّدًا حسبما تقتضيه الحكمة مِن إنذارٍ غِبَّ إنذار. وفي تخصيص البعض بالذِّكر رمز إلى العِدَة بإراءة بعض الموعود، وقد أراه يوم بدر.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: كيفما دارت الحال أريناكَ بعض ما وعدناهم أو لا، فإلينا مرجعهم في الدنيا والآخرة فنُنجِز ما وعدناهم البتّة. وقيل: المذكور جواب للشرط الثاني، كأنّه قيل: فإلينا مرجعُهم فنريكَه في الآخرة، وجوابُ الأوّل محذوف لظهوره، أي: فذاك.[٢]

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ مِن الأفعال السيّئةِ التي حُكيت عنهم، والمراد بالشهادة إمّا مقتضاها ونتيجتُها وهي معاقبتُه تعالى إيّاهم، وإمّا إقامتها وأداؤها بإنطاق الجوارح. وإظهار اسم الجلالة لإدخال الرَّوعة وتربية المَهابة وتأكيد التهديد. وقُرئ: "ثَمَّ"،[٣] أي: هناك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ مِن الأمم الخالية ﴿رَّسُولٌ﴾ يُبعَث إليهم بشريعة خاصّة مناسِبة لأحوالهم ليدعُوَهم إلى الحقّ، ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ فبلغهم ما أُرسِل به

---

١ ط س – له.
٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٤.
٣ م س: ثَمّة. | وأثبتُ ما في المصادر الآتية. وهي قراءة شاذّة، مَروية عن ابن أبي عبلة وكِرداب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦١؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٩٦٣.

فكذَّبوه وخالفوه ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: بين كلّ أمّة ورسولِها ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل وحُكِم بنجاة الرسول والمؤمنين به وهلاكِ المكذِّبين، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٥/١٧].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك القضاء المستوجِب لتعذيبهم؛ لأنه مِن نتائج أعمالهم، أو ولكلّ أمّة مِن الأمم يوم القيامة رسولٌ تُنسَب إليه وتدعى به، / فإذا [٩٢ظ] جاء رسولُهم المَوقفَ ليشهدَ عليهم بالكفر والإيمان، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ[1] بَيْنَهُم﴾ [الزمر، ٦٩/٣٩].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩﴾

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ استعجالًا لِما وُعدوا مِن العذاب على طريقة الاستهزاء به والإنكار حسبما يُرشِد إليه الجواب لا طلبًا لتعيين وقت مجيئه على وجه الإلزام، كما في سورة الملك. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في أنّه يأتينا. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآياتِ المتضمِّنةَ للوعد المذكور.

وجواب الشرط محذوف اعتمادًا على ما تقدَّمه حسبما حُذف في مِثل قوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف، ٧٠/٧]، فإنّ الاستعجال في قوّة الأمر بالإتيان عجلةً، كأنّه قيل: فليأتِنا عجلةً إن كنتم صادقين، ولِما فيه مِن الإشعار بكون إتيانه بواسطة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قيل: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدِر على شيء منهما بوجه مِن الوجوه.

وتقديم "الضّرّ" لِما أنّ مَساق النظم لإظهار العجز عنه، وأمّا ذِكر النفع فلتوسيع الدائرة تكملةً للعَجز، وما وقَع في سورة الأعراف مِن تقديم النفع للإشعار بأهمّيته والمَقامُ مقامه، والمعنى: إنّي لا أملِك شيئًا مِن شئوني ردًّا وإيرادًا مع أنّ ذلك أقربُ حصولًا، فكيف أملِك شئونكم حتّى أتسبَّب في إتيان عذابكم الموعود؟

---

[1] م س: قُضِيَ.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء منقطِع، أي: ولكن ما شاء الله كائن. وحملُه على الاتّصال على معنى: إلّا ما شاء الله أن أملِكه،[١] يأباه مقام التبرؤ عن أن يكون له عليه السلام دَخْل في إتيان الوعد، فإنّ ذلك يستدعي بيانَ كون المتنازَع [٩٣و] فيه ممّا لا يشاء الله أن يَملِكه عليه السلام. وجعلُ ﴿مَا﴾ / عبارةً عن بعض الأحوال المعهودة المنوطة بالأفعال الاختياريّة المفوَّضة إلى العباد، على أن يكون المعنى: لا أَملِك لنفسي شيئًا مِن الضَّرّ والنفع إلّا ما شاء الله أن أَملِكه منهما مِن الضَّرّ والنفعِ المترتِّبين على أفعالي الاختياريّة كالضَّرّ والنفع المترتِّبين على الأكل والشربِ عدمًا ووجودًا،[٢] تعسّفٌ ظاهر.[٣]

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ بيان لِما أُبهِم في الاستثناء وتقييد لِما في القضاء السابق مِن الإطلاق المُشعِر بكون المَقضي به أمرًا مُنجَّزًا غيرَ مُتوقِّف على شيء غيرَ مجيء الرسول وتكذيبِ الأمّة، أي: لكلّ أمّةٍ أمّةٍ ممّن قُضي بينهم وبين رسولهم أجلٌ مُعيَّن خاصٌّ بهم لا يتعدّى إلى أمّة أخرى مَضروبٌ لعذابهم يحِلّ بهم عند حلوله.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ إن جُعل "الأجل" عبارةً عن حدّ مُعيَّن مِن الزمان فمعنى مجيئِه ظاهرٌ، وإن أُريدَ به ما امتدّ إليه مِن الزمان فمجيئُه عبارة عن انقضائه؛ إذ هناك يتحقَّق مجيئه بتمامه. والضمير إن جُعل للأمم المدلولِ عليها بـ"كلّ أمة" فإظهار الأجَل مضافًا إليه لإفادة المعنى المقصود الذي هو بلوغ كلّ أمّةٍ أجلَها الخاصّ بها، ومجيئُه إيّاها بعينها مِن بين الأمم بواسطة اكتساب الأجل بالإضافة عمومًا يُفيده معنى الجمعيّة، كأنّه قيل: إذا جاءهم آجالُهم بأن يجيء كلَّ واحدة مِن تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها؛ وإن جُعل لكلّ أمّة خاصّةٍ،[٤] كما هو الظاهر، فالإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير، والإضافةُ إلى الضمير لإفادة كمال التعيين، أي: إذا جاءها أجلها الخاصّ بها ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عن ذلك الأجل ﴿سَاعَةً﴾

---

[١] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٤.

[٢] ما وقفت على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

[٣] السياق: وجَعْل ﴿مَا﴾ عبارةً... تعسُّف ظاهر.

[٤] السياق: والضمير إن جُعل للأمم... وإن جُعل لكلّ أمّة...

أي: شيئًا قليلًا مِن الزمان، فإنّها مَثَل في غاية القِلّة منه، أي: لا يتأخّرون عنه أصلًا. وصيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم عن ذلك مع طلبهم له.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يتقدّمون عليه، وهو عطفٌ على ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ لكن لا لبيان انتفاء التقدّم مع إمكانه في نفسه كالتأخّر؛ بل للمبالغة في انتفاء التأخّر بنظمه في سِلك المستحيل عقلًا، كما في قوله سبحانه وتعالى:[١] ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء، ٤/١٨]، فإنّ مَن مات كافرًا مع ظهور ألّا توبةَ له رأسًا قد نُظم في عدم قَبول التوبة في سِلك مَن سوّفها إلى حضور الموت إيذانًا بتساوي / وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرّة، كما مرّ في سورة الأعراف. [٩٣ظ]

وقد جُوّز أن يُراد بمجيء الأجل دُنوُّه، بحيث يُمكن التقدّم في الجملة كمجيء اليوم الذي ضُرب لهلاكهم ساعة معيَّنة منه، لكن ليس في تقييد عدم الاستئخار بدنوّه مزيدُ فائدة. وتقديم بيان انتفاء الاستئخار على بيان انتفاء الاستقدام لأنّ المقصود الأهمّ بيان عدم خلاصهم مِن العذاب ولو ساعةً، وذلك بالتأخّر، وأمّا ما في قوله تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر، ١٥/٥] مِن سَبْق السَّبْق في الذِّكر فلِما أنّ المراد هناك بيان سرّ تأخير عذابِهم مع استحقاقهم له حسبما يُنبِيء عنه قوله عزّ وجلّ: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر، ١٥/٣]، فالأهمّ إذ ذاك بيان انتفاء السَّبْق كما ذُكر هناك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾

﴿قُلْ﴾ لهم غِبَّ ما بيَّنتَ كيفيّة جريان سنّة الله عزّ وجلّ فيما بين الأمم على الإطلاق ونبَّهتَهم على أنّ عذابهم أمر مقرَّر محتومٌ لا يتوقّف إلّا على مجيء أجله المعلوم إيذانًا بكمال دُنوّه وتنزيلًا له منزلةَ إتيانه حقيقة: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾

---

[١] م – وتعالى.

أي: أخبروني ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به[١] ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: وقتَ بيات واشتغالٍ بالنوم ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ أي: عند اشتغالكم بمَشاغلكم حسبما عُيِّن لكم مِن الأجل بمقتضى المشيئة التابعة للحكمة كما عُيِّن لسائر الأمم المُهلَكة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٢] جواب للشرط بحذف الفاء، كما في قولك: إن أتيتُك ماذا تُطعمني؟ و﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ موضوع موضِعَ المضمَر لتأكيد الإنكار ببيان مباينة حالهم للاستعجال، فإنّ حقّ المجرِم أن يَهلِك فزَعًا مِن إتيان العذاب فضلًا عن استعجاله.

والجملة الشرطيّة متعلِّقة بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، والمعنى: أخبروني إن أتاكم عذابه تعالى أيُّ[٣] شيءٍ تستعجلون منه سبحانه؟ والشيء لا يُمكن استعجاله بعد إتيانه. والمراد به المبالغة في إنكار استعجاله بإخراجه عن حيّز الإمكان. وتنزيله في الاستحالة منزلةَ استعجالِه بعد إتيانه بناءً على تنزيل تقرُّر إتيانه ودنوّه منزلةَ إتيانه حقيقةً كما أُشيرَ إليه، وهذا الإنكار بمنزلة النهي في قوله عزّ وعلا: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل، ١٦/١]، خلا أنّ التنزيل هناك صريح وهنا ضمني، كما في قول مَن قال لغريمه الذي يتقاضاه حقَّه: "أرأيتَ إن أعطيتُك حقّك فماذا تطلُب منّي؟" يريد المبالغة في إنكار التقاضي، بنظمه في سِلك التقاضي بعد الإعطاء بناءً على تنزيل تقرّره منزلةَ نفسه.

[٩٤و] / وقوله عزّ وجلّ: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ إنكار لإيمانهم بنزول العذاب بعد وقوعه حقيقةً، داخلٌ مع ما قبله مِن إنكار استعجالهم به بعد إتيانه حُكمًا تحت القول المأمور به، أي: أَبَعد ما وقع العذاب وحلّ بكم حقيقةً آمنتُم به حين لا يَنفعكم الإيمان؟ إنكارًا لتأخيره إلى هذا الحدّ وإيذانًا باستتباعه للندم والحسرة ليُقلعوا عمّا هم عليه مِن العناد، ويتوجّهوا نحو التدارك قبل فوت الوقت، فتقديم الظرفِ للقصر.

وقيل: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾ متعلِّق بـ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾، وجواب الشرط محذوف، أي: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا خطأه، والشرطيّة اعتراض مقرِّر لمضمون

---

١ وفي هامش م: بقولكم: متى هذا الوعد... إلخ.

٢ وفي هامش م: استعجله واستعجل به واحد.

٣ ضُبطت في نسخة المُصنِّف بالوجهين: النصب والرفع.

الاستخبار. وقيل: الجواب قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾... إلى آخره، والاستفهاميّةُ الأُولى اعتراض، والمعنى: أخبروني إن أتاكم عذابُه آمنتُم به بعد وقوعِه حين لا ينفعكم الإيمان.[1] ثمّ جيء بكلمة التراخي دلالةً على الاستبعاد، ثمّ زِيد أداةُ الشرط دلالةً على استقلاله بالاستبعاد وعلى أنّ الأوّل كالتمهيد له، وجيء بـ﴿إِذَا﴾ مؤكّدًا بـ﴿مَا﴾ ترشيحًا لمعنى الوقوع وزيادةً للتجهيل وأنّهم لم يُؤمنوا إلّا بعد أن لم ينفعهم الإيمان البتّةَ.

وقوله تعالى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ استئناف مِن جهته تعالى غيرُ داخل تحت القول الملقَّن مَسوقٌ لتقرير مضمون ما سبق على إرادة القول، أي: قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوع العذاب: آلآن آمنتُم به؟ إنكارًا للتأخير وتوبيخًا عليه ببيان أنّه لم يكن ذلك لعدم سبق الإنذار به ولا للتأمّل والتدبّر في شأنه ولا لشيء آخرَ ممّا عسى يُعدّ عُذرًا في التأخير؛ بل كان ذلك على طريق التكذيب والاستعجال به على وجه الاستهزاء. وقُرئ: "آلَانَ"[2] بحذف الهمزة وإلقاء حركتِها على اللام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: تكذيبًا واستهزاء، جملة وقعت حالًا مِن فاعل آمنتُم المقدَّر لتشديد التوبيخ والتقريع وزيادةِ التنديم والتحسير. وتقديم الجارّ والمجرور على الفعل لمراعاة الفواصل دون القصر.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾... إلى آخره، تأكيد للتوبيخ والعتاب بوعيد العذاب والعقاب، وهو عطفٌ على ما قُدّر قبل ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾. ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: وضعوا الكفر والتكذيب موضعَ الإيمان والتصديق، أو ظلموا أنفسَهم بتعريضها للعذاب والهلاك. ووضعُ الموصول موضع الضمير لذمّهم بما في حيّز الصلة والإشعار بعلّيّته لإصابة ما أصابهم.

﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المؤلمَ على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا مِن أصناف الكفر والمعاصي التي مِن جملتها ما مرّ مِن الاستعجال.

---

[1] القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٤-١٠٥.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٥٧/١.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي: يستخبرونك فيقولون على طريقة الاستهزاء والإنكار: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ ﴿أَحَقٌّ﴾: خبر قُدِّم على المبتدأ الذي هو الضمير للاهتمام به، ويُؤيِّده قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أو مبتدأ والضمير مرتفع به سادٌّ مَسدَّ الخبر، والجملةُ في موقع النصب بـ﴿يَسْتَنْبِئُونَكَ﴾، وقُرِئَ: "آلحَقُّ هُوَ"[١] تعريضًا بأنّه باطل، كأنّه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتموه الحقَّ؟

﴿قُلْ﴾ لهم غيرَ ملتفِت إلى استهزائهم مُغضيًا[٢] عمّا قصدوا وبانيًا للأمر على أساس الحكمة: ﴿إِي وَرَبِّي﴾ / ﴿إِي﴾ مِن حروف الإيجاب بمعنى "نعم" في القسَم خاصّةً، كما أنّ "هل" بمعنى "قد" في الاستفهام خاصّةً، ولذلك يُوصَل بواوه. [٩٤ظ]

﴿إِنَّهُ﴾ أي: العذاب الموعود ﴿لَحَقٌّ﴾ لثابتٌ البتّة، أُكِّد الجواب بأتمّ وجوه التأكيد حسب شدّة إنكارهم وقوّته، وقد زِيد تقريرًا وتحقيقًا بقوله عزّ اسمُه: ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: بفائتين العذابَ بالهرب، وهو لاحق بكم لا محالةَ. وهو إمّا معطوف على جواب القسَم، أو مستأنَف سِيق لبيان عجزهم عن الخلاص مع ما فيه مِن التقرير المذكور.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالشرك أو التعدّي على الغير أو غيرِ ذلك مِن أصناف الظلم ولو مرّةً حسبما يُفيده كون الصفة فعلًا. ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ما في الدنيا مِن خزائنها وأموالِها ومنافعها قاطبةً بما كثُرت ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ أي: لجعلتْه فديةً لها مِن العذاب مِن "افتداه" بمعنى: فَداه.

﴿وَأَسَرُّوا﴾ أي: النفوسُ المدلول عليها بـ"كلّ نفس". والعدول إلى صيغة الجمع مع تحقّق العموم في صورة الإفراد أيضًا لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعمش. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٤.

[٢] وفي هامش م: أي: مُعرضًا. «منه».

بطريق المَعيّة والاجتماع، وإنّما لم يُراعَ ذلك فيما سبق لتحقيق ما يُتوخّى مِن فَرْض كون جميع ما في الأرض لكلّ واحدة مِن النفوس. وإيثار صيغة جمعِ المذكّر لحمل لفظ "النفس" على الشخص، أو لتغليب ذكورِ مدلولِه على إناثه.

﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾ على ما فعلوا مِن الظلم، أي: أخفَوها ولم يُظهروها، لكن لا للاصطبار والتجلّد، هيهاتَ ولاتَ حينَ اصطبار؛ بل لأنّهم بُهتوا ﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: عند معاينتهم مِن فظاعة الحال وشِدّة الأهوال ما لم يكونوا يحتسبون، فلم يقدروا على أن ينطِقوا بشيء. فـ﴿لَمَّا﴾ بمعنى: "حينَ" منصوب بـ﴿أَسَرُّواْ﴾، أو حرفُ شرطٍ حُذف جوابه لدلالة ما تقدَّم عليه.

وقيل: أسرّها رؤساؤهم ممّن أضلُّوهم حياءً منهم وخوفًا مِن توبيخهم، ولكنّ الأمر أشدُّ مِن أن يعتريَهم هناك شيء غيرُ خوف العذاب. وقيل: أسرُّوا الندامة: أخلصوها، لأنّ إسرارها إخلاصُها، أو لأنّ سِرَّ الشيء خالصتُه، حيث تُخفى / وتُضَنّ[1] بها، ففيه تهكُّم بهم. وقيل: أظهروا الندامة، مِن قولهم: "أسرَّ الشيء وأشرَّه" إذا أظهره حين عِيل صبره وفنِيَ تجلُّده.[2] [٩٥و]

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم﴾ أي: أُوقِع القضاء بين الظالمين مِن المشركين وغيرهم مِن أصناف أهل الظلم بأن أُظهِر الحقُّ سواء كان مِن حقوق الله سبحانه، أو مِن حقوق العباد مِن الباطل، وعُومل أهل كلّ منهما بما يليق به. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل. وتخصيص الظلم بالتعدّي،[3] وحملُ القضاء على مجرَّد الحكومة بين الظالمين والمظلومين،[4] مِن غير أن يُتعرَّض لحال المشركين وهم أظلمُ الظالمين،[5] لا يساعده المَقام، فإنّ مقتضاه إمّا كون الظلم عبارةً عن الشرك، أو عمّا يدخُل فيه دخولًا أوّليًا. ﴿وَهُمْ﴾ أي: الظالمون ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيما فُعل بهم مِن العذاب؛ بل هو مِن مقتضيات ظُلمِهم ولوازمِه الضروريّة.

---

[1] كذا وردت في نسخة م س.

[2] الأقوال الثلاثة بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٣؛ والأخيران في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٥.

[3] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٥.

[4] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٣.

[5] أضاف البيضاوي التعرُّض لمُجازاة المشركين في أنوار التنزيل، ٢/١٠٥-١٠٦.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما وُجد فيهما داخلًا في حقيقتهما أو خارجًا عنهما متمكِّنًا فيهما. وكلمة ﴿مَا﴾ لتغليب غير العقلاءِ على العقلاء، فهو تقرير لكمال قدرته سبحانه على جميع الأشياء وبيانٌ لاندراج الكلّ تحت ملكوته يتصرَّف فيه كيفما يشاء إيجادًا وإعدامًا وإثابةً وعقابًا.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ إظهار الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعار بعِلّة الحُكم، وهو إمّا بمعنى الموعود، أي: جميعِ ما وَعَد به كائنًا ما كان فيندرج فيه العذاب الذي استعجلوه، وما ذُكر في أثناء بيان حالِه اندراجًا أوّليًا، أو بمعناه المصدري، أي: وعدَه بجميع ما ذُكر. فمعنى قوله تعالى: ﴿حَقٌّ﴾ على الأوّل ثابت واقع لا محالةَ، وعلى الثاني مطابق للواقع. وتصدير الجملتين بحرفَي التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقّق مضمونهما المقرِّر لمضمون ما سلف مِن الآيات الكريمة والتنبيهِ على وجوب استحضاره والمحافظة عليه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور عقولهم واستيلاء الغفلة عليهم وإلفِهم بالأحوال المَحسوسة المعتادة ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا مِن غير دخل لأحد في ذلك، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة بالبعث والحشر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ التفات ورجوع إلى استمالتهم نحوَ الحقّ واستنزالهم إلى
قبوله واتّباعه / غِبَّ تحذيرهم مِن غوائل الضلال بما تُليَ عليهم مِن القوارع [٩٥ظ]
الناعية عليهم سوءَ عاقبتِهم، وإيذانٌ بأنّ جميع ذلك مَسوقٌ لمصالحهم ومنافعهم.

﴿قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ﴾ هي والوعظ والعِظَة: التذكير بالعواقب، سواء كان بالزجر والترهيب أو بالاستمالة والترغيبِ. وكلمة ﴿مِن﴾ في قوله تعالى:

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ ابتدائيّة متعلِّقة بـ﴿جَآءَتْكُم﴾، أو تبعيضيّة متعلِّقة بمحذوف وقع صفةً لـ﴿مَوْعِظَةٌ﴾، أي: مَوعظة كائنة مِن مواعظ ربّكم. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مِن حُسن المَوقع ما لا يخفى.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: كتابٌ جامع لهذه الفوائد والمَنافِع، فإنّه كاشف عن أحوال الأعمال حسناتِها وسيّئاتِها، مرغِّب في الأُولى ورادِعٌ عن الأخرى، ومبيِّنٌ للمعارف الحقّة التي هي شفاء لِما في الصدور مِن الأدواء القلبيّة كالجهل والشكّ والشرك والنفاق وغيرها مِن العقائد الزائغة، وهادٍ إلى طريق الحقّ واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل المنصوبة في الآفاق والأنفس. وفي مجيئه رحمةٌ للمؤمنين حيث نجَوا به مِن ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان وتخلّصوا مِن دركات النيران وارتقَوا إلى درَجات الجِنان. والتنكير في الكلّ للتفخيم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليأمرَ الناس بأن يغتنموا ما في مجيء القرآن العظيم مِن الفضل والرحمة. ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ المراد بهما إمّا ما في مجيء القرآن مِن الفضل والرحمة، وإمّا الجنس وهما داخلان فيه دخولًا أوّليًا، والباء متعلِّقة بمحذوف. وأصلُ الكلام: ليَفرَحوا بفضل الله وبرحمته، وتكرير الباء في رحمته للإيذان باستقلالها في استيجاب الفرح، ثمّ قُدِّم الجارّ والمجرور على الفعل لإفادة القصر، ثمّ أُدخل عليه الفاءُ لإفادة معنى السببيّة، فصار: بفضل الله وبرحمته فليَفرَحوا.

ثمّ قيل: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ للتأكيد والتقرير، ثمّ حُذف الفعل الأوّل لدلالة الثاني عليه، والفاء الأولى جزائيّة والثانية للدلالة على السببيّة، والأصل: إن فرِحوا بشيء فبذلك ليَفرحوا لا بشيء آخرَ، ثمّ أُدخل الفاءُ / للدلالة على السببيّة [٩٦و]
ثمّ حُذف الشرط. ومعنى البُعد في اسم الإشارة للدلالة على بُعد درجة فضل الله تعالى ورحمته. ويجوز أن يُراد: بفضل الله وبرحمته فلْيَعتنوا فبذلك فليفرحوا.

ويجوز أن يتعلّق الباء بـ﴿جَآءَتۡكُم﴾،[١] أي: جاءتكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك، أي: فبمجيئها فليفرَحوا.[٢] وقُرئ: "فَلْتَفْرَحُوا"،[٣] وقرأ أُبيّ "فافْرَحُوا".[٤] وعن أُبيّ بن كعب أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم تلا: «﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾، فقال: بكتاب الله والإسلام».[٥] وقيل: فضلُه: الإسلامُ، ورحمتُه: ما وعَد عليه.[٦]

﴿هُوَ﴾ أي: ما ذُكر مِن فضل الله ورحمته ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ مِن حُطام الدنيا. وقُرئ: "تَجْمَعُونَ"،[٧] أي: فبذلك فليَفرَح المؤمنون هو خير ممّا تجمعون أيُّها المخاطَبون.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم﴾ أي: أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ ﴿مَّا﴾ منصوبةُ المَحلّ بما بعدها، أو بما قبلها واللام للدلالة على أنّ المراد بـ"الرزق": ما حلّ لهم، وجعلُه منزلًا لأنّه مقدَّر في السماء محصَّل هو أو ما يتوقَّف عليه وجودًا أو بقاءً بأسباب سماويّة مِن المطر والكواكب في الإنضاج والتلوين.

﴿فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ﴾ أي: جعلتم بعضه ﴿حَرَامٗا﴾ أي: حكمتم بأنّه حرام، ﴿وَحَلَٰلٗا﴾ أي: وجعلتُم بعضه حلالًا، أي: حكمتُم بحِلّه مع كون كلّه حلالًا، وذلك قولهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ﴾ الآية [الأنعام، ١٣٨/٦]، وقولُهم: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَا﴾ [الأنعام، ١٣٩/٦]، ونحوُ ذلك. وتقديم الحرام لظهور أثرِ الجَعْل فيه ودوران التوبيخ عليه. ﴿قُلۡ﴾ تكرير لتأكيد الأمر بالاستخبار، أي: أخبروني.

---

١ في الآية السابقة.

٢ جوّز هذين الوجهين الزمخشري في الكشّاف، ٢٦٣/٢.

٣ قرأ بها يعقوب في رواية رويس عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

٤ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٧.

٥ جامع البيان للطبري، ١٩٥/١٢-١٩٧، شعب الإيمان للبيهقي، ١٨٠/٤ (٢٣٥٧)، الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/٢.

٦ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٣/٢.

٧ قرأ بها ابن عامر وأبو جعفر ويعقوب في رواية رويس عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٥/٢.

﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في ذلك الجَعْل فأنتم فيه ممتثلون بأمره تعالى، ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ متّصلة والاستفهام للتقرير[١] والتبكيت لتحقّق العلم بالشقّ الأخير قطعًا، كأنّه قيل: أم لم يأذن لكم؛ بل تفترون عليه سبحانه، فأُظهِر الاسم الجليل وقُدِّم على الفعل دلالةً على كمال قبح افترائهم وتأكيدًا للتبكيت إثْرَ تأكيدٍ مع مراعاة الفواصل. ويجوز أن يكون الاستفهام للإنكار[٢] و﴿أَمْ﴾ منقطعةً،[٣] ومعنى "بل" فيها الإضراب والانتقال مِن التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تُفيده همزتُها مِن التوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريرِه. وتقديم الجارّ والمجرور على هذا يجوز أن يكون للقصر، كأنّه قيل: بل أعلى الله تعالى خاصّة تفترون؟

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ كلام مَسوق مِن قِبَله تعالى لبيان هول ما سيلقَونه غيرُ داخل تحت القول المأمور به، والتعبيرُ عنهم بالموصول في موقع الإضمار لقطع احتمال الشقّ الأوّل مِن الترديد والتسجيلِ عليهم بالافتراء وزيادة الكذب، مع أنّ الافتراء لا يكون إلّا كذبًا، لإظهار كمال قُبح ما افتعلوا وكونِه كذبًا في اعتقادهم أيضًا. وكلمة ﴿مَا﴾ استفهاميّة وقعت مبتدأ، و﴿ظَنُّ﴾ خبرُها، ومفعولاه محذوفان.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ظرف لنفس الظنّ، أي: أيُّ شيء ظنُّهم في ذلك اليوم، يومَ عرض الأفعال والأقوال والمُجازاة عليها مِثقالًا بمِثقال؟ والمراد تهويله وتفظيعه بهول ما يتعلّق به ممّا يُصنع بهم يومئذ. وقيل: هو ظرف لِما يتعلّق به ظنُّهم اليومَ مِن الأمور التي ستقع يوم القيامة تنزيلًا له ولِما فيه مِن الأحوال لكمال وضوح أمره في التقرّر والتحقّق منزلةَ المسلَّم عندهم،[٤]

---

[١] وفي هامش م: للحمل على الإقرار. «منه».
[٢] وفي هامش م: أي: إنكار وقوع الإذن. «منه».
[٣] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٤.
[٤] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٧٨.

[٩٦ظ] / أي: أيُّ شيء ظنُّهم لِما سيقع يوم القيامة؟ أيحسبون أنّهم لا يُسألون عن افترائهم أو لا يُجازون عليه أو يُجازون جزاءً يسيرًا، ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون؟ كلّا إنّهم لفي أشدّ العذاب، لأنّ معصيتهم أشدُّ المعاصي، ومَن أظلم ممّن افترى على الله كذبًا. وقُرئ على لفظ الماضي،[1] أي: أيُّ ظنّ ظنُّوا يوم القيامة؟ وإيراد صيغةِ الماضي لأنه كائنٌ فكأنّه قد كان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم لا يُكتنه كُنهه ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: جميعًا حيث أنعَم عليهم بالعقل المميِّز بين الحقّ والباطل والحسَن والقبيح، ورحِمهم بإنزال الكتب وإرسال الرسل، وبيَّن لهم الأسرار التي لا تستقلّ العقول في إدراكها وأرشدهم إلى ما يُهمّهم مِن أمر المعاش والمعاد.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة الجليلة فلا يَصرِفون قُواهم ومَشاعرهم إلى ما خُلقت له، ولا يتّبعون دليل العقل فيما يستبدّ به، ولا دليلَ الشرع فيما لا يُدرك إلّا به، وقد تفضّل عليهم ببيان ما سيلقَونه يوم القيامة، فلا يلتفتون إليه فيقعون فيما يقعون، فهو تذييل لِما سبق مقرِّر لمضمونه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ﴾ أي: في أمر، مِن شأنْتُ شأنه، أي: قصدتُ قصدَه، مصدر بمعنى المفعول. ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ الضمير للشأن، والظرفُ صفة لمصدر محذوف، أي: تلاوةً كائنةً مِن الشأن، إذ هي معظم شئونه عليه السلام أو للتنزيل. والإضمار قبل الذِّكر لتفخيم شأنِه، و"مِن" ابتدائيّة أو تبعيضيّة أو لله عزّ وجلّ. و"مِن" ابتدائيّة، والتي في قوله تعالى: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ مَزيدةٌ لتأكيد النفي أو ابتدائيّة على الوجه الأوّل، وبيانيّة أو تبعيضيةٌ على الثاني والثالث.

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن عيسى بن عمر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢.

﴿وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ﴾ تعميم للخطاب إثرَ تخصيصه بمقتدى الكلّ، وقد رُوعي في كلّ مِن المَقامين ما يليق به حيث ذُكر أوّلًا مِن الأعمال ما فيه فخامة وجلالة، وثانيًا ما يتناول الجليل والحقير.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾ استثناء مفرّغ مِن أعمّ أحوال المخاطَبين بالأفعال الثلاثة، أي: ما تُلابِسون بشيء منها في حال / مِن الأحوال إلّا حالَ كوننا رُقباء [٩٧و] مطّلعين عليه حافظين له.

﴿إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تخوضون وتندفعون فيه، وأصلُ الإفاضة: الاندفاعُ بكثرة أو بقوّة. وحيث أُريدَ بالأفعال السابقة الحالة المستمرّة الدائمة المقارنة للزمان الماضي أيضًا أوثرَ في الاستثناء صيغةُ الماضي وفي الظرف كلمة "إذ" التي تُفيد المضارعَ معنى الماضي.

﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: لا يبعُد ولا يغيب عن علمه الشامل. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مِن الإشعار باللطف ما لا يخفى. وقُرئ بكسر الزاء.[١]

﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ كلمةُ ﴿مِن﴾ مَزيدة لتأكيد النفي، أي: ما يعزُب عنه ما يساوي في الثقل نملةً صغيرةً أو هباءً ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: في دائرة الوجود والإمكان، فإنّ العامّة لا تعرِف سواهما ممكنًا ليس في أحدهما أو متعلِّقًا بهما. وتقديم ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأنّ الكلام في حال أهلها، والمقصودُ إقامة البرهان على إحاطة علمه تعالى بتفاصيلها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ كلام برأسه مقرِّر لِما قبله، و﴿لَآ﴾ نافية للجنس، و﴿أَصۡغَرَ﴾ اسمها، و﴿فِي كِتَٰبٖ﴾ خبرها. وقُرئ بالرفع[٢] على الابتداء والخبر. ومَن عطَف على ﴿مِثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ وجعَل الفتحَ بدلَ الكسر لامتناع الصرف أو على محلّه مع الجارّ جعلَ الاستثناءَ منقطعًا،[٣] كأنّه قيل: لا يعزُب عن ربّك شيء ما، لكنْ جميعُ الأشياء في كتاب مبين، فكيف يعزُب عنه شي منها؟ وقيل: يجوز أن يكون الاستثناء متّصلًا، و﴿يَعۡزُبُ﴾

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٥.
٢ قرأ بها حمزة ويعقوب وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٥.
٣ السياق: ومَن عطَف... جعَل الاستثناء...

بمعنى: يَبين ويصدُر، والمعنى: لا يصدُر عنه تعالى شيء إلّا وهو في كتاب مبين، والمراد بالكتاب المبين: اللوح المحفوظ.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ بيان على وجه التبشير والوعد لِما هو نتيجة لأعمال المؤمنين، وغايةٌ لِما ذُكر قبله مِن كونه تعالى مهيمنًا على نبيّه صلى الله عليه وسلَّم وأمّته في كلّ ما يأتون وما يذرون وإحاطةِ عِلمه سبحانه بجميع ما في السماء والأرض وكونِ الكلّ مثبَتًا في الكتاب المبين، بعد ما أشيرَ إلى فظاعة حال المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم مِن الهول إشارة إجماليّة على طريق التهديد والوعيد، وصُدِّرت الجملة بحرف التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها. و"الوليُّ" لغةً: القريب، والمراد بـ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: خُلَّص المؤمنين
[٩٧ظ] لقربهم الروحاني / منه سبحانه وتعالى، كما سيُفصح عنه تفسيرهم.

﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدارين مِن لحوق مكروه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مِن فوات مطلوب، أي: لا يعتريهم ما يُوجب ذلك، لا أنّه يعتريهم لكنّهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنّه لا يعتريهم خوف وحُزن أصلًا؛ بل يستمرُّون على النشاط والسرور، كيف لا، واستشعار الخوف والخشيةِ استعظامًا لجلال الله سبحانه وهيبته واستقصارًا للجِدّ والسعي في إقامة حقوق العبوديّة مِن خصائص الخواصّ والمقرَّبين.

والمراد بيان دوام انتفائهما لا بيانُ انتفاء دوامهما كما يُوهمه كون الخبر في الجملة الثانية مضارعًا لِما مرّ مرارًا مِن أنّ النفي وإن دخل على نفس المضارع يُفيد الاستمرار والدوام بحسب المقام، وإنّما لا يعتريهم ذلك لأنّ مَقصِدهم ليس إلّا طاعة الله تعالى ونيل رضوانه المستتبع للكرامة والزُّلفى، وذلك ممّا لا ريبَ في حصوله ولا احتمالَ لفواته بموجَب الوعد بالنسبة إليه تعالى، وأمّا ما عدا ذلك مِن الأمور الدنيويّة المتردِّدة بين الحصول والفوات فهي بمَعزِل مِن الانتظام في سِلك مَقصِدهم وجودًا وعدمًا حتّى يخافوا مِن حصول ضارّها أو يحزنوا بفوات نافعِها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: بكلّ ما جاء مِن عند الله تعالى ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يقُون أنفسَهم عمّا يحِقّ وقايتها عنه مِن الأفعال والتُّروك وقايةً دائمةً حسبما يُفيده الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبلِ، بيانٌ وتفسير لهم وإشارة إلى ما به نالوا ما نالوا، على طريقة الاستئناف المبنيّ على السؤال، ومحلُّ الموصول الرفعُ على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، كأنّه قيل: مَن أولئك وما سبب فوزهم بتلك الكرامة؟ فقيل: هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضِيَين إلى كلّ خيرٍ، المنجيَين عن كلّ شرّ. وقيل: محلّه النصب، أو الرفع على المدح، أو على أنّه وصف مادح للأولياء.[1] ولا يقدَح في ذلك توسّط الخبر.

والمراد بالتقوى المَرتبة الثالثة منها،[2] الجامعةُ لِما تحتها مِن مَرتبة التوقّي عن الشِّرك التي يفيدها الإيمان أيضًا ومَرتبة التجنّب عن كلّ ما يُؤثم مِن فِعل أو ترك، أعني تنزُّه الإنسان عن كلّ ما يشغَل سرَّه عن الحقّ والتبتّلِ إليه بالكلّيّة، وهي[3] التقوى[4] الحقيقيّة[5] المأمور بها[6] في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران، ١٠٢/٣]، وبه يحصُل الشهود والحضور والقُرب الذي عليه يدور إطلاق الاسم عليه، وهكذا كان حال كلّ مَن دخل معه عليه الصلاة والسلام تحت الخطاب بقوله عزّ وعلا: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾،[7] خلا أنّ لهم في شأن التبتّل والتنزّه درجاتٍ متفاوتةً حسب تفاوُت درجات استعداداتهم الفائضة عليهم بموجَب المشيئة المَبنيّة على الحِكَم الأبيّة، أقصاها ما انتهى إليه هِمم الأنبياء عليهم السلام حتّى جمعوا بذلك بين رياستَي النبوّة والوَلاية ولم يعُقهم التعلّق بعالم الأشباح عن الاستغراق في عالم الأرواح، ولم يصُدَّهم الملابسة بمصالح الخلق عن التبتّل إلى جناب الحقّ، لكمال استعداد نفوسهم الزكيّة المؤيَّدة بالقوّة القدسيّة، فمَلاك أمر الوَلاية هو التقوى المذكور.

---

١ هذه الوجوه في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.
٢ ط س: منه.
٣ ط س: هو.
٤ وفي هامش م: التقوى يُذكَّر ويُؤنَّث. «منه».
٥ ط س: الحقيقي.
٦ ط س: به.
٧ يونس، ٦١/١٠.

فأولياء الله تعالى هم المؤمنون المتّقون. ويقرُب منه ما قيل: مِن أنّهم الذين تولّى الله تعالى[1] هدايتَهم بالبرهان، وتولَّوا القيام بحقّ عبوديّة الله تعالى والدعوة إليه.[2] ولا يخالفه ما قيل مِن "أنّهم الذين يُذكَر الله تعالى[3] برؤيتهم"،[4] لِما رُوي عن سعيد بن جُبير أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم سُئل "مَن أولياءُ الله" فقال: «هم / الذين يُذكرُ الله برؤيتهم»،[5] أي: بسَمْتهم وإخباتهم وسكينتهم. ولا [٩٨و] ما قيل:[6] مِن أنّهم المتحابُّون في الله، لِما رُوي عن عمرَ رضيَ الله عنه أنّه قال: «سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: "إنّ مِن عباد الله عبادًا ليسوا بأنبياءَ ولا شهداءَ يغبِطُهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم مِن الله"، قالوا: "يا رسول الله خبِّرنا مَن هم وما أعمالُهم فلعلّنا نُحبّهم؟" قال: "هم قوم تحابُّوا في الله على غير أرحام منهم ولا أموال يتعاطَونها، فوالله إنّ وجوههم لَنور، وإنّهم لَعلى منابرَ مِن نور، لا يَخافون إذا خاف الناس ولا يَحزنون إذا حزِن الناس"».[7]

فإنّ ما ذُكر مِن حُسن السَّمت والسكينة المذكِّرة لله تعالى والتحابِّ في الله سبحانه مِن الأحكام الدنيويّة اللازمة للإيمان والتقوى والآثارِ الخاصّة بهما الحقيقةِ بالتخصيص بالذِّكر لظهورها وقُربها مِن أفهام الناس، قد أورد النبيّ[8] عليه السلام كلًّا مِن ذلك حسبما يقتضيه مقام الإرشاد والتذكير ترغيبًا للسائلين أو غيرهم مِن الحاضرين فيما خصَّه بالذِّكر هناك مِن أحكامهما، فلعلّ الحاضرين أوّلًا كانوا محتاجين إلى إصلاح الحال مِن جهة الأقوال والأفعال والمَلابس ونحوِ ذلك، والحاضرين ثانيًا مفتقِرين إلى تأليف قلوبهم وعطفِها نحوَ المؤمنين الذين لا علاقةَ بينهم وبينهم مِن جهة النسب والقرابة، وتأكيدِ ما بينهم مِن الأخوّة الدينيّة ببيان عِظَم شأنها ورفعةِ مكانها وحُسن عاقبتها، ليُراعوا حقوقها

---

١ ط س - تعالى.

٢ القول عن أبي بكر الأصمّ في اللباب لابن عادل، ٣٦٦/١٠.

٣ ط س - تعالى.

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.

٥ جامع البيان للطبري، ٢٠٩/١٢-٢١١؛ المعجم الكبير للطبراني، ١٣/١٢ (١٢٣٢٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.

٦ السياق: ولا يُخالفه ما قيل... ولا ما قيل...

٧ سنن أبي داود، ٣٨٧/٥ (٣٥٢٧)؛ جامع البيان للطبري، ٢١١/١٢-٢١٢؛ شعب الإيمان للبيهقي، ٣١٥/١١ (٨٥٨٥)؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.

٨ ط س: رسول الله.

ويهجُروا مَن لا يُوافقهم في الدِّين مِن ذوي أرحامهم. وأمّا ما ذُكر مِن أنّه يغبِطهم الأنبياء فتصوير لحُسن حالهم على طريقة التمثيل. قال الكواشيّ:[1] وهذا مبالغة، والمعنى لو فُرض قومٌ بهذه الصفة لكانوا هؤلاء.

وقيل: أولياءُ الله: الذين يتولّونه بالطاعة ويتولّاهم بالكرامة، وجُعل قوله عزّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ تفسيرًا لتولّيهم إيّاه تعالى، وقولُه تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ تفسيرًا لتولّيه تعالى إيّاهم.[2]

ولا ريبَ في أنّ اعتبار القيد الأخير في مفهوم الوَلاية غيرُ مناسب لمقام ترغيب المؤمنين في تحصيلها والثبات عليها وبشارتِهم بآثارها ونتائجها؛ بل مُخِلّ بذلك، إذ التحصيل إنّما يتعلّق بالمقدور، والاستبشارُ لا يحصُل إلّا بما عُلم وجود سببه، والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتّى يُحصِّلوا الوَلاية بتحصيله، ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتّى يعرفوا حصول الوَلاية لهم، ويستبشروا بمحاسن آثارِها؛ بل التولّي بالكرامة عين نتيجة الوَلاية، فاعتباره في عنوان الموضوع. ثمّ الإخبار بعدم الخوفِ والحزنِ ممّا لا يليق بشأن التنزيل الجليل.

فالذي يقتضيه نظمه الكريم أنّ الأوّل تفسير للأولياء حسبما شُرح، والثاني بيان لِما أولاهم بما لهم مِن الوَلاية تفضّلًا وتكرّمًا[3] مِن خيرات الدارين بعد بيان نجاتهم[4] مِن شرورهما ومكارههما. والجملة مستأنَفة كما سبق، كأنّه قيل: هل لهم وراء ذلك مِن نعمة وكرامة؟ فقيل: لهم ما يسرُّهم في الدارين. وتقديم الأوّل

[1] تفسير الكواشي، ٢٢٠و. | هو أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع بن الحسين بن سويدان الشيباني الموصلي المعروف بالكواشي (ت. ٦٨٠هـ/١٢٨١م). يُنسب إلى كواشة أو كواشى قلعة في الموصل. الإمام الديّن المفسّر الشافعي. برع في العربيّة والقراءات والتفسير، وكان عديم النظير زاهدًا صادقًا، وأضرّ قبل موته بعشر سنين. تولّى مشيخة الإقراء بدار الحديث في دمشق، وكان خطيبًا وإمامًا بالجامع الأموي. وله تفسيران كبير هو تبصرة المتذكّر وتذكرة المتبصّر، وصغير هو التلخيص في تفسير القرآن العظيم، وله جملة مِن الكتب في علوم القرآن الكريم. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٤٠١/٢؛ وغاية النهاية لابن الجزري، ١٨٣/١؛ والأعلام للزركلي، ٢٧٤/١.

[2] القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١٠٨/٢.

[3] م - بما لهم مِن الولاية تفضّلًا وكرامة.

[4] ط س: إنجائهم.

لِما أنّ التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه مِن مراعاة حقّ المقابلة بين حُسن حالِ المؤمنين وسوء حالِ المفترين.

وتعجيل إدخالِ المَسرّة بتبشير الخلاص عن الأهوال وتوسيطُ البيان السابق بين بِشارة الخلاص عن المحذور وبِشارةِ الفوز بالمطلوب، لإظهار كمال العناية بتفسير الأولياء، مع الإيذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتّقائهم عمّا يؤدّي إليهما مِن الأسباب.

و"البُشرى" مصدر أُريدَ به المبشَّر به مِن الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك، والآجلةِ الغنيّة عن البيان. وإيثار الإبهام والإجمال للإيذان بكونه وراء البيان / والتفصيل. والظرفان في موقع الحالِ منه، والعاملُ ما في الخبر مِن معنى الاستقرار، أي: لهم البشرى حالَ كونها في الحياة الدنيا وحالَ كونِها في الآخرة، أي: عاجلةً وآجلةً؛ أو مِن الضمير المجرور، أي: حالَ كونِهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة،[1] ومِن البشرى العاجلة الثناءُ الحسَن والذِّكرُ الجميل ومحبّةُ الناس. عن أبي ذرّ رضي الله عنه: «قلت: يا رسولَ الله الرجلُ يعمل العملَ لله ويُحبّه الناسُ، فقال عليه السلام: "تلك عاجل بُشرى المؤمن"».[2] [٩٨ظ]

هذا وقد قيل: البشرى مصدر والظرفان متعلِّقان به.[3]

أمّا البشرى في الدنيا فهي البِشارات الواقعة للمؤمنين المتّقين في غير موضع مِن الكتاب المبين. وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «هي الرؤيا الصالحةُ يراها المؤمنُ أو تُرى له»،[4] وعنه عليه السلام: «ذهبَت النبوّة وبقيَت المبشِّرات»،[5]

---

١ ط س - الدنيا وفي الآخرة.

٢ مسند أحمد، ٣٠٥/٣٥ (٢١٣٨٠)؛ صحيح مسلم، ٢٠٣٤/٤ (٢٦٤٢)؛ معالم التنزيل للبغوي، ١٤١/٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٦/٢.

٣ انظر: التبيان للعكبري، ٦٧٩/٢؛ واللباب لابن عادل، ٣٦٨/١٠.

٤ بلفظ قريب في مسند أحمد، ٤٢٧/٣٧ (٢٢٧٦٧)؛ وسنن الترمذي، ٥٣٤/٤ (٢٢٧٥). وبلفظه في جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٢-٢٢٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢.

٥ مسند أحمد، ١١٥/٤٥ (٢٧١٤١)؛ وسنن الترمذي، ٥٣٣/٤ (٢٢٧١)؛ جامع البيان للطبري، ٢١٩/١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٥/٢؛

وعن عطاء: «لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ﴾ [فصلت، ٤١/٣٠]».[١]

وأمّا البشرى في الآخرة فتلقّي الملائكة إيّاهم مسلِّمين مبشِّرين بالفوز والكرامة، وما يرَون مِن بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرءُون منها وغيرِ ذلك مِن البِشارات، فيكون هذه بِشارةً بما سيقع مِن البِشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها، ولا يخفى أنّ صَرْف البِشارة الناجزة عن المقاصد بالذات إلى وسائلها ممّا لا يُساعده جلالة شأن التنزيل الكريم.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا تغييرَ لأقواله التي مِن جملتها مواعيدُه الواردة بِشارةً للمؤمنين المتّقين فتدخل فيها البِشارات الواردة ههنا دخولًا أوّليًا ويثبُت امتناع الإخلاف فيها ثبوتًا قطعيًا، وعلى تقدير كون المراد بالبشرى الرؤيا الصالحة فالمراد بعدم تبديل كلماته تعالى ليس عدم الخُلف بينهما وبين نتائجها الدنيويّة والأخرويّة؛[٢] بل عدم الخُلف بينهما وبين ما دلّ على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتي بطريق الوعد مِن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ فتدبّر.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكر مِن أنّ لهم البشرى في الدارين. ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوزَ وراءه، وفيه تفسير لِما أُبهم فيما سبق، وهاتِيك الجملة والتي قبلها اعتراض بتحقيق المبشَّر به وتعظيم شأنه، وليس مِن شرطه أن يكون بعده كلام متّصل بما قبله، أو هذه تذييل والسابقة اعتراض.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم عمّا كان يلقاه مِن جهتهم مِن الأذيّة الناشئة مِن مقالاتهم الموحِشة، وتبشيرٌ له عليه السلام بأنّه عزّ وجلّ ينصُره ويُعزّه عليهم إثرَ بيان أنّ له ولأتباعه أمنًا مِن كلّ محذورٍ

---

[١] معالم التنزيل للبغوي، ٤/١٤١؛ الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٦. وبمعناه عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١٢/٢٢٤.

[٢] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٦؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١٠٨.

وفوزًا بكلّ مطلوب. وقُرئ: "وَلَا يُحْزِنْكَ"[١] مِن "أَحزَن"، وهو في الحقيقة نهي له عليه السلام عن الحزن، كأنّه قيل: لا تَحزَن بقولهم ولا تُبالِ بتكذيبهم وتَشاورِهم في تدبير هلاكك وإبطالِ أمرك وسائرِ ما يتفوّهون به في شأنك ممّا لا خيرَ فيه.

وإنّما وُجِّه النهي إلى قولهم للمبالغة في نهيه عليه السلام عن الحزن لِما أنّ النهي عن التأثير نهيٌ عن التأثّر بأصله ونفيٌ له بالمرّة، وقد يُوجَّه النهيُ إلى اللازم، والمراد هو النهيُ عن الملزوم، كما في قولك: لا أُرَيَنَّكَ ههنا. وتخصيص النهي عن الحزن بالإيراد مع شمول النفي السابق للخوف أيضًا لِما أنّه لم يكن فيه عليه السلام شائبة خوف حتّى يُنهى عنه، وربّما كان يعتريه عليه السلام في بعض الأوقات نوعُ حزنٍ فسُلِّيَ عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ تعليل للنهي على طريقة الاستئناف، أي: إنّ الغلبة والقهر ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أي: في ملكته وسلطانه لا يملِك أحد شيئًا منها أصلًا، لا هم ولا غيرُهم، فهو يقهرهم ويَعصِمك منهم وينصُرك عليهم، وقد كان كذلك.
[٩٩و] / فهي مِن جملة البُشريات العاجلة. وقُرئ بفتح ﴿إِنَّ﴾[٢] على صريح التعليل، أي: لأنّ العزّة لله.

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع ما يقولون في حقّك، ويعلم ما يعزِمون عليه، وهو مُكافِئهم بذلك.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: العقلاء مِن الملائكة والثقلين، وتخصيصُهم بالذِّكر للإيذان بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم، فإنّهم مع شرفهم

---

١ قرأ بها نافع. النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٤.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حَيْوة وأبو بَحْرِيّة والشيرازي والأنطاكي عن أبي جعفر. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ المغني في القراءات للنَّوْزاوازي، ص ٩٦٦.

وعلوّ طبقتهم إذا كانوا عبيدًا له سبحانه مقهورين تحت قدرته وملكته، فما عداهم مِن الموجودات أَولى بذلك، وهو مع ما فيه مِن التأكيد لِما سبق مِن اختصاص العزّة بالله تعالى الموجبِ لسلوته عليه السلام وعدمِ مبالاته بالمشركين وبمقالاتهم تمهيدٌ لِما لحِق مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾، وبرهانٌ على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنيّة عليها.

و﴿مَا﴾ إمّا نافية و﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾ ومفعولُ ﴿يَدْعُونَ﴾ محذوف لظهوره، أي: ما يتّبع الذين يدعون مِن دون الله شركاءَ شركاءَ في الحقيقة وإن سمَّوها شركاءَ، فاقتُصر على أحدهما لظهور دلالته على الآخر. ويجوز أن يكون المذكور مفعولَ ﴿يَدْعُونَ﴾ ويكونَ مفعولُ ﴿يَتَّبِعُ﴾ محذوفًا لانفهامه مِن قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يتّبعونه يقينًا إنّما يتّبعون ظنّهم الباطل.[1]

وإمّا موصولةٌ معطوفة على ﴿مَن﴾، كأنّه قيل: ولله ما يتّبعه الذين يدعون مِن دون الله شركاءَ، أي: وله شركاؤهم. وتخصيصهم بالذِّكر مع دخولهم فيما سبَق[2] عبارةً[3] أو دلالةً[4] للمبالغة في بيان بطلان اتّباعهم وفسادِ ما بنَوه عليه مِن ظنّهم شركاءَهم معبودين مع كونهم عبيدًا له سبحانه.

وإمّا استفهاميّةٌ،[5] أي: وأيُّ شيءٍ يتّبعون؟ أي: لا يتّبعون شيئًا ما يتّبعون إلّا الظنَّ والخيال الباطل، كقوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ[6] إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾... إلخ [يوسف، ١٢/٤٠]. وقُرئ: "تَدْعُونَ"[7] بالتاء، فالاستفهام للتبكيت والتوبيخ، كأنّه قيل: وأيّ شيءٍ يتّبع الذين تدعونهم شركاءَ مِن الملائكة والنبيّين؟ تقريرًا لكونهم متّبعين لله تعالى مطيعين له، وتوبيخًا لهم على عدم اقتدائهم بهم في ذلك، كقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء، ١٧/٥٧]،

---

١ جوّز ذلك العكبري في التبيان، ٢/٦٨٠؛ وهو في اللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٠-٣٧١.

٢ وفي هامش م: مِن قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾. «منه».

٣ وفي هامش م: كالملائكة وعيسى وعُزير عليهم السلام. «منه».

٤ وفي هامش م: كالأصنام والكواكب. «منه».

٥ وفي هامش م: على طريقة الإنكار. «منه».

٦ م - مِن دُونِهِ.

٧ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عليّ بن أبي طالب وأبي عبد الرحمن السُّلمي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ المغني في القراءات للنَّوزاوازي، ص ٩٦٦.

ثمّ صُرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقيل: إن يتّبع هؤلاء المشركون إلّا الظنّ ولا يتّبعون ما يتّبعه الملائكة / والنبيّون مِن الحقّ، ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [٩٩ظ] يَكذِبون فيما ينسُبونه إليه سبحانه ويَحزُرون ويُقدِّرون أنّهم شركاءُ تقديرًا باطلًا.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ تنبيه على تفرّده تعالى بالقدرة الكاملة والنعمة الشاملة ليَدلّهم على توحّده سبحانه باستحقاق العبادة، وتقريرٌ لِما سلف مِن كون جميع الموجودات الممكنة تحت قدرته وملكته المفصِح عن اختصاص العزّة به سبحانه.

و"الجَعْل" إن كان بمعنى الإبداع والخَلْق فـ﴿مُبْصِرًا﴾ حال، وإلّا فـ﴿لَكُمْ﴾ مفعوله الثاني، أو هو حال كما في الوجه الأوّل والمفعولُ الثاني ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، أو هو محذوف يدلّ عليه المفعول الثاني مِن الجملة الثانية، كما أنّ العلّة الغائيّة منها محذوفة اعتمادًا على ما في الأُولى، والتقدير: هو الذي جعَل لكم الليل مظلمًا لتسكُنوا فيه والنهارَ مبصِرًا لتتحرّكوا فيه لمصالحكم، كما سيجيء نظيره في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ الآية [يونس، ١٠/١٠٧]، فحُذف في كلّ واحد مِن الجانبين ما ذُكر في الآخر اكتفاءً بالمذكور عن المتروك. وإسناد الإبصار إلى النهار مجازيٌّ كالذي في "نهارُه صائمٌ".[١]

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في جعل كلّ منهما كما وُصف أو فيهما. وما في اسم الإشارةِ مِن معنى البُعد للإيذان ببُعد منزلة المشار إليه وعلوّ رُتبته. ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي: عجيبةً كثيرة، أو آياتٍ أُخَرَ غيرَ ما ذُكر. ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي: هذه الآيات المتلوّةَ ونظائرها المنبِّهةَ على تلك الآيات التكوينيّة الآمرةَ بالتأمّل فيها سماعَ تدبُّر واعتبار، فيعملون بمقتضاها. وتخصيص الآيات بهم مع أنّها منصوبة لمصلحة الكلّ لِما أنّهم المنتفعون بها.

---

[١] انظر: اللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٢.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٨﴾

﴿قَالُواْ﴾ شروع في ذِكر ضَرْب آخرَ مِن أباطيلهم وبيانُ بطلانه. ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا﴾ أي: تبنّاه. ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه وتقديس له عمّا نسَبوا إليه وتعجيبٌ مِن كلمتهم الحمقاءَ. ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ على الإطلاق عن كلّ شيء في كلّ شيء، وهو عِلّة لتنزّهه سبحانه وإيذانٌ بأنّ اتّخاذ الولد مِن أحكام الحاجة.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: مِن العقلاء وغيرهم، تقرير لغِناه وتحقيق لمالكيّته تعالى لكلّ ما سواه.

وقوله تعالى: ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾ أي: حجّة ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بما ذُكر مِن قولهم الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أُقيم مِن البرهان الساطع عن المعارِض، فـ﴿مِن﴾ في ﴿مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾ زائدةٌ لتأكيد النفي، وهو مبتدأ، والظرف المقدَّم خبره، أو مرتفِعٌ على أنّه فاعل للظرف لاعتماده على النفي، و﴿بِهَٰذَآ﴾ متعلِّق / إمّا بـ﴿سُلۡطَٰنِۭ﴾ لأنّه بمعنى الحجّة والبرهان، وإمّا بمحذوف وقعَ صفةً [١٠٠و] له، وإمّا بما في ﴿عِندَكُم﴾ مِن معنى الاستقرار، كأنّه قيل: إنّ عندكم في هذا القول مِن سلطان.

والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والإفحام وتأكيدِ ما في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ مِن التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم، وفيه تنبيه على أنّ كلّ مقالة لا دليلَ عليها فهي جهالة، وأنّ العقائد لا بدَّ لها مِن برهان قطعي، وأنّ التقليد بمَعزِل مِن الاعتداد به.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩﴾

﴿قُلۡ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ليُبيِّن لهم سوءَ مَغبّتهم ووخامةَ عاقبتِهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ أي: في كلّ أمر فيَدخل ما نحن بصدده مِن الافتراء بنسبة الولد والشريكِ إليه سبحانه دخولًا أوّليًا. ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ أي: لا ينجُون مِن مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلًا.

وتخصيص عدم النجاة والفوز بما يندرج في ذلك مِن عدم النجاة مِن النار وعدم الفوز بالجنّة لا يناسب مقام المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه.

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ۝٧٠﴾

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان أنّ ما يتراءى فيهم بحسب الظاهر مِن نَيل المطالب والفوز بالحظوظ الدنيويّة على الإطلاق أو في ضمن افترائِهم بمَعزِل مِن أن يكون مِن جنس الفلاح،[1] كأنّه قيل: كيف لا يُفلحون وهم في غِبطة ونعيم؟ فقيل: هو متاع يسير في الدنيا وليس بفوز بالمطلوب.

ثمّ أشيرَ إلى انتفاء النجاةِ عن المكروه أيضًا بقوله عزّ وعلا: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ أي: بالموت. ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ فيبقَون في الشقاء المؤبَّد بسبب كفرهم المستمرّ أو بكفرهم في الدنيا، فأين هم مِن الفلاح؟ وقيل: المبتدأ المحذوف: حياتُهم أو تقلُّبهم،[2] وقد قيل: إنّه: افتراؤُهم.[3]

ولا يخفى أنّ "المتاع" إنّما يُطلق على ما يكون مطبوعًا عند النفس مرغوبًا فيه في نفسه يُتمتَّع ويُنتفَع به، وإنّما عدمُ الاعتداد به لسرعة زواله، ونفسُ الافتراء عليه سبحانه أقبحُ القبائح عند النفس فضلًا عن أن يكون مطبوعًا عندها. وعدُّه كذلك باعتبار إجراء حُكم ما يؤدّي إليه مِن رياساتهم عليه ممّا لا وجهَ له،[4] فالوجهُ ما ذُكر أوّلًا. وليس ببعيد ما قيل: إنّ المحذوف هو الخبر، أي: لهم متاعٌ.[5]

[١٠٠ظ] / والآية إمّا مسوقةٌ مِن جهة الله سبحانه لتحقيق عدم إفلاحهم غيرُ داخلةٍ في الكلام المأمور به، كما يقتضيه ظاهر قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا﴾ وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ﴾، وإمّا داخلةٌ فيه، على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مأمور بنقله وحكايتِه عنه عزّ وجلّ.

---

١ وفي هامش م: لا فوزًا بالمرام ولا نجاة عن المحذور. «منه».

٢ القول في التبيان للعكبري، ٦٨٠/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٠/٢.

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/٢.

٤ س - له. | كما في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٧/٢؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٠/٢.

٥ الوجه في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٣٨/٦؛ واللباب لابن عادل، ٣٧٤/١٠.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: على المشركين مِن أهل مكّةَ وغيرهم لتحقيق ما سبق مِن أنّهم لا يُفلحون، وأنّ ما يتمتّعون به على جناح الفوات، وأنّهم مشرفون على العذاب الخالد.

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبرَه الذي له شأن وخَطَر مع قومه الذين هم أضراب قومك في الكفر والعناد، ليتدبّروا ما فيه مِن زوال ما تمتّعوا به مِن النعيم وحلول عذاب الغَرق الموصول بالعذاب المقيم، لينزجروا بذلك عمّا هم عليه مِن الكفر أو تنكسرَ شدّة شكيمتهم أو يعترفَ بعضهم بصحّة نبوّتك، بأن عرفوا أنّ ما تتلوه موافِقًا لِما ثبَت عندهم مِن غير مخالفة بينهما أصلًا، مع علمهم بأنّك لم تسمَع ذلك مِن أحد ليس إلّا بطريق الوحي. وفيه مِن تقرير ما سبق مِن كون الكلّ لله سبحانه واختصاص العزّة به تعالى وانتفاء الخوف والحزن مِن أوليائه عزّ وعلا قاطبةً وتشجيعِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وحملِه على عدم المبالاة بهم وبأقوالهم وأفعالهم ما لا يخفى.

﴿إِذۡ قَالَ﴾ معمول لـ﴿نَبَأَ﴾ أو بدل منه بدلَ اشتمال، وأيًّا ما كان فالمراد بعض نَبئِه عليه السلام، لا كلُّ ما جرى بينه وبين قومه. واللام في قوله تعالى: ﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾ للتبليغ. ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عظُم وشقّ ﴿عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ أي: نفسي، كما يقال: فعلتُه لمكان فلان، أي لفلان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [الرحمن، ٤٦/٥٥]، أي: خاف ربّه؛[1] أو قيامي ومُكثي بين ظَهرانيكم مدّة طويلة، أو قيامي ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فإنّهم كانوا إذا وعَظوا الجماعة يقومون على أرجلهم والجماعةُ قعودٌ ليَظهر حالُهم ويُسمَع مقالُهم. ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ جواب للشرط،[2] أي: دمتُ على تخصيص التوكّل به تعالى، ويجوز أن يُراد به إحداث مرتبةٍ مخصوصة مِن مراتب التوكّل.

---

١ الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٦٨/٢.

٢ وفي هامش م: وسببيّة مِن حيث استتباعه لتصدّيهم لقتله. «منه».

﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ عطفٌ على الجواب، والفاء لترتيب الأمر بالإجماع على التوكّل لا لترتيب نفس الإجماع عليه، أو هو الجواب وما سبق جملة اعتراضيّة. والإجماع: العزم. قيل: هو متعدّ بنفسه. وقيل: فيه حَذْف وإيصال.[١] قال السَّدوسي:[٢] "أجمعتُ الأمرَ" أفصحُ مِن "أجمعتُ عليه"، وقال أبو الهيثم:[٣] أجمعَ أمرَه: جعله مجموعًا بعد ما كان متفرِّقًا، وتفرُّقُه أنّه يقول مرّة: أفعلُ كذا، وأخرى: أفعل كذا، وإذا عزم على أمر واحد فقد جمَعه، أي: جعله جميعًا.[٤]

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ بالنصب على أنّ الواو بمعنى "مع" كما تدلّ عليه القراءة بالرفع عطفًا على الضمير المتّصل تنزيلًا للفصل منزلة التأكيد. وإسناد الإجماع إلى الشركاء على طريقة التهكّم. وقيل: إنّه عطفٌ على ﴿أَمْرَكُمْ﴾ بحذف المضاف، أي: أمرَ شركائكم. وقيل: منصوب بفعل محذوف، أي: وادْعُوا شركاءَكم،[٥] وقد قُرِئ كذلك.[٦] وقُرِئ: "فاجْمَعُوا"[٧] مِن الجمع، أي: فاعزِموا على أمركم الذي تُريدون بي مِن السعي / في إهلاكي واحتشِدوا فيه على أيّ وجه يُمكنكم. [١٠١و]

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ ذلك ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مستورًا مِن غمّه إذا ستَره؛ بل مكشوفًا مشهورًا تُجاهرونني به، فإنّ الستر إنّما يُصار إليه لسدّ باب تدارُك الخلاص بالهرب أو نحوه، فحيث استحال ذلك في حقّي لم يكن للستر وجهٌ. وإنّما خاطَبهم عليه السلام بذلك إظهارًا لعدم المبالاة بهم، وأنّهم لن يجدوا إليه سبيلًا، وثقةً بالله سبحانه وبما وعده مِن عصمته وكَلاءته، فكلمةُ ﴿ثُمَّ﴾

---

١ القولان في التبيان للعكبري، ٢/٦٨٠-٦٨١؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٦.

٢ هو مؤرِّج بن عمر السَّدوسي النحوي البصري، أبو فَيد (ت. ١٩٥هـ/٨١٠م). عالم بالعربيّة والحديث والأنساب والأخبار. مِن أعيان أصحاب الخليل بن أحمد، سمع مِن أبي عمرو بن العلاء. مِن كتبه: جماهير القبائل، غريب القرآن، الأمثال، الأنواء، والمعاني. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٢/٣٠٥؛ والأعلام للزركلي، ٧/٣١٨.

٣ أبو الهيثم الرازي (ت. ٢٧٦هـ/٨٨٩). إمام مِن أئمّة اللغة، أدرك العلماء وأخذ منهم وتصدّر بالريّ للإفادة. أخباره نادرة في كتب التراجم. انظر: بغية الوعاة للسيوطي، ٢/٣٢٩.

٤ قولاهما في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/٢٤٠؛ واللباب لابن عادل، ١٠/٣٧٦.

٥ القولان في التبيان للعكبري، ٢/٦٨١؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٠.

٦ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٨.

٧ قرأ بها رويس بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٥.

للتراخي في الرتبة. وإظهارُ "الأمر" في موقع الإضمار لزيادة تقرير يقتضيها مقامُ الأمر بالإظهار الذي يستلزمه النهيُ عن السَّتر والإسرار.

وقيل: المراد بأمرهم: ما يعتريهم مِن جهته عليه السلام مِن الحال الشديدة عليهم المكروهة لديهم، والغُمّة: الغَمّ، كالكُربة والكَرْب، و﴿ثُمَّ﴾ للتراخي الزماني، والمعنى: لا يكن حالكم عليكم غمّةً، وتخلّصوا بإهلاكي مِن ثِقَل مقامي وتذكيري.[1] ولا يخفى أنّه لا يساعده قوله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ اقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: أدُّوا إليّ، أي: أَحكِمُوا ذلك الأمرَ الذي تريدون بي ولا تُمهلوني، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ [الحجر، ١٥/٦٦]، أو أدُّوا إليّ ما هو حقّ عليكم عندكم مِن إهلاكي، كما يقضي الرجلُ غريمَه، فإنّ توسيط ما يحصُل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه[2] وبين الأمر بقضائه مِن قبيل الفصل بين الشجَر ولِحائه. وقُرئ: "أَفضُوا"[3] بالفاء، أي: انتهوا إليّ بشَرّكم، أو ابرُزوا إليّ، مِن أفضى إذا خرج إلى الفضاء.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍۚ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ "الفاء" لترتيب التولّي على ما سبق، فالمراد به: إمّا الاستمرار عليه، وإمّا إحداث التولّي المخصوص، أي: إن أعرضتُم عن نصيحتي وتذكيري إثرَ ما شاهدتُم منّي مَخايل صحّة ما أقول ودلائلَها التي مِن جملتها دعوتي إيّاكم جميعًا إلى تحقيق ما تريدون بي مِن السوء غيرَ مُبالٍ بكم وبما يأتي منكم، وإحجامُكم مِن الإجابة علمًا منكم بأنّي على الحقّ المبين مؤيَّد مِن عند الله العزيز.

﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ بمقابلة وعظي وتذكيري ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ تُؤدُّونه إليّ حتّى يؤدّيَ ذلك إلى تولّيكم، إمّا لاتّهامكم إيّاي بالطمع والسؤال وإمّا لثِقل دَفع المسئول عليكم

---

[1] الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٦٨.

[2] وفي هامش م: أسبابه.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حَيْوة عن السَّري بن ينعم ويحيى بن يعمر والجرّاح وأبي واقد والزعفراني وحَيْوة بن شُريح. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٨؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٦.

أو حتّى يضرّني تولّيكم المؤدّي إلى الحرمان. فالأوّلُ لإظهار بطلان التولّي ببيان عدم ما يُصحِّحه، والثاني لإظهار عدم مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه، وعلى التقديرين فالفاء الجزائيّة لسببيّة الشرط لإعلام مضمون الجزاء لا لنفسه، والمعنى: إن تولّيتُم فاعلموا / أن ليس فيَّ مصحِّحٌ له ولا تأثّرٌ منه. [١٠١ظ]

وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ ينتظِم المعنيين جميعًا، خلا أنّه على الأوّل تأكيد[١] وعلى الثاني تعليل لاستغنائه عليه السلام عنه، أي: ما ثوابي على العِظَة والتذكير إلّا عليه تعالى، يُثيبني به آمنتُم أو توليتُم. ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المنقادين لحُكمه لا أُخالِف أمره ولا أرجو غيره، أو المستسلمين لكلّ ما يُصيب مِن البلاء في طاعة الله تعالى.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصرُّوا على ما هم عليه مِن التكذيب بعدما ألزمهم الحجّةَ، وبيّن لهم المَحجّة، وحقّق أنّ تولّيَهم ليس له سبب غيرُ التمرّد والعناد، فلا جرمَ حقّت عليهم كلمة العذاب. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ مِن المسلمين وكانوا ثمانين،[٢] ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ مِن الهالكين.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بالطوفان. وتأخيرُ ذِكره عن ذِكر الإنجاء والاستخلاف حسبما وقع في قوله عزّ وعلا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود، ٩٤/١١] وغيرِ ذلك مِن الآيات الكريمة، لإظهار كمال العناية بشأن المقدَّم، ولتعجيل المَسرّة للسامعين، وللإيذان بسَبْق الرحمة التي هي مِن مقتضيات الربوبيّة على الغضب الذي هو مِن مستتبعات جرائم المجرمين. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تهويل لِما جرى عليهم، وتحذيرٌ لمَن كذّب بالرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتسليةٌ له عليه السلام.

---

[١] وفي هامش م: وهو ظاهر.

[٢] انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٠/٢.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي: أرسلنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا﴾ التنكير للتفخيم ذاتًا ووصفًا، أي: رسلًا كِرامًا ذوي عدد كثير ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي: إلى أقوامهم، لكن لا بأنْ أرسلنا كلَّ رسول منهم إلى أقوام الكُلّ أو إلى قوم ما أيِّ قومٍ كانوا؛ بل كلُّ رسول إلى قومه خاصّة، مثلُ هود إلى عاد وصالح إلى ثمودَ، وغيرِ ذلك ممّن قُصّ منهم ومَن لم يُقَصّ.

﴿فَجَآءُوهُم﴾ أي: جاء كلُّ رسول قومَه المخصوصين به ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: المعجزات الواضحة الدالّة على صِدق ما قالوا. و"الباء" إمّا متعلِّقة بالفعل المذكور على أنّها للتعدية، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ضمير "جاءوا"، أي: ملتبِسين بالبيّنات، لكن لا بأن يأتيَ كلُّ رسولٍ ببيّنة واحدة؛ بل ببيّنات كثيرة خاصّةٍ به معيّنة له حسب اقتضاء الحكمة، فإنّ مراعاة انقسام الآحاد إلى الآحاد إنّما هي فيما بين ضميرَي "جاءوهم"، كما أشيرَ إليه.

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ بيان لاستمرار عدم إيمانهم في الزمان الماضي لا لعدم استمرار إيمانِهم، كما مرّ مثله في هذه السورة الكريمة غيرَ مرّة، أي: فما صحّ وما استقام لقوم مِن أولئك الأقوام في وقت مِن الأوقات أن يؤمِنوا؛ بل كان ذلك ممتنعًا منهم لشدّة شكيمتهم في الكفر والعناد.

ثمّ إن كان المحكيُّ آخرَ حال كلّ قومٍ حسبما يدلّ عليه حكاية قوم نوح فالمراد بعدم إيمانِهم المذكورِ ههنا إصرارُهم على ذلك بعد اللُّتيا والتي،[١] وبما أشيرَ إليه / في قوله عزّ وجلّ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ تكذيبُهم مِن حين مجيء [٦٢و] الرسل إلى زمان الإصرار والعناد، وإنّما لم يُجعل ذلك مقصودًا بالذات كالأوّل حيث جُعل صلةً للموصول إيذانًا بأنّه بيّن بنفسه غنيٌّ عن البيان، وإنّما المحتاج إلى ذلك عدم إيمانهم بعد تواتر البيّنات الظاهرة وتظاهرِ المعجزات الباهرة

---

١ اللُّتيا والّتي: يكنى بهما عن الشدّة، واللُّتيا: تصغيرُ التي، وهي عبارة عن الداهية المتناهية. مجمع الأمثال للميداني، ١/١٦٤.

التي كانت تَضطرّهم إلى القبول لو كانوا مِن أصحاب العقول. والموصول الذي تعلّق به الإيمان والتكذيب سلبًا وإيجابًا عبارة عن جميع الشرائع التي جاء بها كلُّ رسول أصولِها وفروعِها.

وإن كان المحكيُّ جميعَ أحوال كلّ قومٍ منهم فالمراد بما ذُكر أوّلًا: كفرُهم المستمرّ مِن حين مجيء الرسل إلى آخره، وبما أشيرَ إليه آخرًا: تكذيبُهم قبل مجيئِهم، فلا بدّ مِن كون الموصول المذكور عبارةً عن أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبة ودعَوا أُممهم إليها آثرَ ذي أثير لاستحالة تبدُّلها وتغيُّرِها مثل ملّة التوحيد ولوازمِها. ومعنى تكذيبهم بها قبلَ مجيء رسلهم: أنّهم ما كانوا في زمن الجاهليّة بحيث لم يسمعوا بكلمة التوحيد قطّ؛ بل كان كلُّ قومٍ مِن أولئك الأقوام يتسامعون بها مِن بقايا مَن قبلهم كثمودَ مِن بقايا عاد، وعادٍ مِن بقايا قوم نوح عليه السلام فيُكذّبونها، ثمّ كانت حالتهم بعد مجيء الرسلِ كحالتهم قبل ذلك كأن لم يُبعث إليهم أحد.

وتخصيص التكذيب وعدمِ الإيمان بما ذُكر مِن الأصول لظهور حالِ الباقي بدلالة النصّ، فإنّهم حيث لم يُؤمِنوا بما أجمعت عليه كافّة الرسل فلَأن لا يُؤمِنوا بما تفرّد به بعضهم أَولى. وعدمُ جعلِ هذا التكذيب مقصودًا بالذات لِما أنّ ما عليه يدور أَمر العذاب والعقاب عند اجتماع التكذيبين هو التكذيب الواقع بعد الدعوة، حسبما يُعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء، ١٥/١٧]. وإنّما ذُكر ما وقَع قبلها بيانًا لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

وعلى التقديرين فالضمائر الثلاثة متوافقة في المَرجِع. وقيل: ضمير ﴿كَذَّبُواْ﴾ راجع إلى قوم نوح عليه السلام، والمعنى: فما كان قوم الرسل ليُؤمِنوا بما كذّب بمِثله قوم نوح.[1] ولا يخفى ما فيه مِن التعسّف. / وقيل: الباء للسببيّة، أي: بسبب [١٠٢ظ]
تعوُّدهم تكذيبَ الحقّ وتمرُّنِهم عليه قبلَ بعثة الرسل.[2] ولا يخفى أنّ ذلك يؤدّي إلى مخالفة الجمهور مِن جَعْل "ما" المصدريّة مِن قبيل الأسماء كما هو رأيُ

---

[1] القول في مشكل إعراب القرآن لمكّي، ١/٣٥٠؛ والتبيان للعكبري، ٦٨٢/٢. وأورده عنهما ابن عادل في اللباب، ٣٨٢/١٠.

[2] كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١١/٢.

الأخفش وابنِ السرّاج ليرجِع إليها الضمير،[١] وفي إرجاعه إلى الحقّ بادّعاء كونه مركوزًا في الأذهان[٢] ما لا يخفى مِن التعسّف.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطبع المحكَم ﴿نَطْبَعُ﴾ بنون العظَمة، وقُرئ بالياء[٣] على أنّ الضمير لله سبحانه. ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين عن الحدود المعهودة في الكفر والعناد المتجافِين عن قبول الحقّ وسلوكِ طريق الرشاد، وذلك بخذلانهم وتخليتِهم وشأنَهم لانهماكهم في الغيّ والضلال. وفي أمثال هذا دلالة على أنّ الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وكسبِ العبد.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾[٤] عطفَ قصّةٍ على قصّة. ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: مِن بعد أولئك الرسل عليهم السلام. ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خُصّت بعثُهما عليهما السلام بالذِّكر ولم يُكتفَ باندراج خبرِهما فيما أشيرَ إليه إشارة إجماليّة مِن أخبار الرسل عليهم السلام مع أقوامهم، وأُوثر في ذلك ضربُ تفصيلٍ إيذانًا بخطَر شأن القصّة وعِظَم وَقْعها، كما في نبأ نوح عليه السلام.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه. وتخصيصهم بالذِّكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمُهمّات ومراجعةِ الكلّ إليهم في النوازل والمُلمّات. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ملتبِسين بها وهي الآياتُ المفصَّلات في "الأعراف".[٥] ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ الاستكبار: ادّعاء الكِبْر مِن غير استحقاق، و"الفاءُ" فصيحة، أي: فأتَياهم فبلَّغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتّباعهما، وذلك قول اللعين لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾... إلخ، [الشعراء، ١٨/٢٦].

---

١ الكلام في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٤٥/٦-٢٤٦؛ واللباب لابن عادل، ٢٨٢/١٠.

٢ ما وقفتُ على هذا الوجه فيما بين يديّ مِن المظانّ.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن العبّاس بن الفضل وأبي واقد والجرّاح. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٨.

٤ يونس، ٧٤/١٠.

٥ الأعراف، ١٣٣/٧.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ اعتراض مقرِّر لمضمون ما قبله، أي: كانوا معتادين لارتكاب الذنوب العِظام، فإنّ الإجرام مؤذِن بعِظَم الذنب، ومنه الجِرم، أي: الجُثّة، فلذلك اجترءوا على ما اجترءوا عليه مِن الاستهانة برسالة الله عزّ وجلّ.

وحملُ الاستكبار على الامتناع عن قَبول الآيات لا يساعده قولُه عزّ وعلا: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؛ فإنّه صريح في أنّ المراد
[١٠٣و] باستكبارهم ما وقع منهم / قبل مجيء الحقّ الذي سمَّوه سحرًا، أعني: العصا واليد البيضاء، كما يُنبئ عنه سياق النظم الكريم، وذلك أوّل ما أظهره عليه السلام مِن الآيات العِظام. و"الفاء" فيه أيضًا فصيحة معرِبة عما صُرِّح به في مواضعَ أُخرَ، كأنّه قيل: قال موسى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف، ١٠٥/٧]، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۝ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ [الشعراء، ٣٢/٢٦-٣٣]. فلمّا جاءهم الحقّ مِن عندنا وعرَفوه قالوا مِن فَرْط عُتوّهم وعنادهم: إنّ هذا لَسحر مبين، أي: ظاهرٌ كونه سحرًا، أو فائقٌ في بابه واضح فيما بين أضرابه. وقُرئ: "لَسَاحِرٌ".[١]

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ۝٧٧ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال تنساق إليه الأذهان، كأنّه قيل: فماذا قال لهم موسى حينئذ؟ فقيل: قال على طريقة الاستفهام الإنكاري التوبيخي: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذي هو أبعدُ شيء مِن السحر الذي هو الباطل البحت. ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ أي: حين مجيئه إيّاكم ووقوفكم عليه، أو مِن أوّل الأمر مِن غير تأمّل وتدبّر، وكلا الحالين ممّا ينافي القولَ المذكور.

والمَقول محذوف ثقةً بدلالة ما قبله وما بعده عليه وإيذانًا بأنّه ممّا لا ينبغي أن يُتفوَّه به ولو على نهج الحكاية، أي: أتقولون له ما تقولون مِن أنّه سِحر؟

---

[١] قراءة شاذّة، مَرويّة عن سعيد بن جُبير وابن مجاهد والأعمش وعيسى بن عمر وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٨.

يعني به أنّه ممّا لا يمكن أن يقوله قائل ويتكلَّمَ به متكلِّم، أو القول بمعنى: العيب والطعن، مِن قولهم: "فلان يخاف القالَة"، و"بين الناسِ تقاوُل": إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه، ونظيرُه "الذِّكر" في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾... إلخ، [الأنبياء، ٦٠/٢١].[1] فيُستغنى عن المفعول، أي: أتَعيبونه وتطعنون فيه.

وعلى الوجهين فقوله عزّ وجلّ: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ إنكار مستأنَف مِن جهته عليه السلام لكونه سِحرًا، وتكذيبٌ لقولهم وتوبيخ لهم على ذلك إثرَ توبيخ وتجهيلٌ بعد تجهيل. أمّا على الأوّل فظاهر، وأمّا على الثاني فوجهُ إيثارِ إنكار كونه سِحرًا على إنكار كونه مَعيبًا بأن يقال مثلًا: "أَفِيه عَيبٌ" حسبما يقتضيه ظاهر الإنكارِ السابق،[2] التصريحُ[3] بالردّ عليهم في خصوصيّة ما عابوه به بعد التنبيه بالإنكار السابق، على أن ليس فيه شائبة عيبٍ ما.

وما في ﴿هَٰذَا﴾ مِن معنى القُرب لزيادة تعيين المشار إليه واستحضارِ ما فيه مِن الصفات الدالّة على كونه آية باهرة مِن آيات الله المناديةِ على امتناع كونه سحرًا، أي: أَسِحرٌ هذا الذي أمرُه واضح مكشوف وشأنه مشاهَد معروف بحيث لا يرتاب فيه أحد ممّن له عين مبصِرة؟ وتقديم الخبر للإيذان بأنّه مُصَبّ الإنكار.

/ ولمّا استلزَم كونُه سِحرًا كونَ مَن أتى به ساحرًا أُكِّد الإنكار السابق وما فيه مِن التوبيخ والتجهيل بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، وهو جملة حاليّة مِن ضمير المخاطَبين، والرابط هو الواو بلا ضمير، كما في قول مَن قال: [١٠٣ظ]

جاء الشتاءُ ولستُ أملِكُ عُدّةً[4]

وقولِك: "جاء زيدٌ ولم تطلُع الشمس"، أي: أتقولون للحقّ: إنّه سِحر؟ والحال أنّه لا يُفلِح فاعله، أي: لا يظفَر بمطلوب ولا ينجو مِن مكروه، فكيف يُمكن صدورُه مِن مثلي مِن المؤيَّدين مِن عند الله العزيز الحكيم الفائزين بكلّ مَطلَب الناجين مِن كلّ محذور؟

---

[1] الكلام عن هذا المعنى لـ"القول" في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٠/٢.

[2] وفي هامش م: أي: أتعيبونه؟

[3] السياق: فوجهُ إيثار... التصريحُ...

[4] ما وقفتُ عليه فيما بين يديّ مِن المَظانّ.

وقوله تعالى: ﴿أَسِحۡرٌ هَٰذَا﴾ جملة معترِضة بين الحال وصاحبها أُكِّد بها الإنكار السابق ببيان استحالة كونه سِحرًا بالنظر إلى ذاته قبل بيان استحالتِه بالنظر إلى صدوره عنه عليه السلام هذا. وأمّا تجويز أن يكون الكلّ مقولَ القول على أنّ المعنى: أجئتُما بالسحر تطلُبان به الفلاح ولا يفلح الساحرون؟[1] فممّا لا يساعده النظم الكريم أصلًا:

أمّا أوّلًا فلأنّ ما قالوا هو الحكم بأنّه سِحر مِن غير أن يكون فيه دلالة على ما تُعُسِّف فيه مِن المعنى بوجه مِن الوجوه، فصَرفُ جوابه عليه السلام عن صريح ما خاطبوه به إلى ما لا يُفهَم منه أصلًا ممّا يجب تنزيه النظم التنزيلي عن الحمل على أمثاله.

وأمّا ثانيًا فلأنّ التعرّض لعدم إفلاح السَّحَرة على الإطلاق مِن وظائف مَن يتمسّك بالحقّ المبِين دون الكفَرة المتشبِّثين بأذيال بعض منهم في معارضته عليه السلام، ولو كان ذلك مِن كلامهم لَناسَب تخصيصَ عدم الإفلاح بمَن زعموه ساحرًا بناءً على غلبة مَن يأتون به مِن السَّحَرة.

وأما ثالثًا فلأنّ قولَ عزّ وجلّ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾... إلخ، مسوقٌ لبيان أنّه عليه السلام ألقمهم الحجرَ فانقطعوا عن الإتيان بكلام له تعلُّق بكلامه عليه السلام فضلًا عن الجواب الصحيح، واضطرّوا إلى التشبّث بذيل التقليد الذي هو دأب كلّ عاجز محجوج ودَيدنُ كلّ معاند لَجوج.

على أنّه استئناف وقع جوابًا عما قبله مِن كلامه عليه السلام على طريقة قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾... إلخ، حسبما أشيرَ إليه، كأنّه قيل: فماذا قالوا لموسى عليه السلام عندما قال لهم ما قال؟ فقيل: قالوا عاجزين عن المُحاجّة: أَجِئتنا ﴿لِتَلۡفِتَنَا﴾؟ أي: لتَصرفنا، فإنّ الفَتْل واللَّفت أخوَان.[2] ﴿عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: مِن عبادة الأصنام، ولا ريبَ في أنّ ذلك إنّما يتسنّى بكون ما ذُكر مِن تتمّة كلامه عليه السلام على الوجه الذي شُرح، إذ على تقدير كونه مَحكيًا مِن قِبَلهم يكون جوابه عليه السلام خاليًا عن التبكيت المُلجِئ لهم إلى العدول عن سَنن المُحاجّة،

[1] كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٠.

[2] انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٠.

/ ولا ريبَ في أنّه لا علاقةَ بين قولهم: ﴿أَجِئْتَنَا﴾... إلخ، وبين إنكاره عليه السلام [١٠٤و]
لِما حُكيَ عنهم مصحِّحةً لكونه جوابًا عنه. ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: المُلك أو التكبّر على الناس باستتباعهم. وقُرئ: "وَيَكُونَ"[١] بالياء التحتانيّة.

وكلمة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض مصرَ متعلِّقة بـ﴿تَكُونَ﴾، أو بـ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، أو بالاستقرار في ﴿لَكُمَا﴾ لوقوعه خبرًا، أو بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾، أو مِن الضمير في ﴿لَكُمَا﴾ لتحمّله إيّاه.[٢]

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدِّقين فيما جئتُما به. وتثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدَّم مِن المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما عليهما السلام واستلزامِ التصديقِ لأحدهما التصديقَ للآخر، وأمّا اللفتُ والمجيءُ له فحيث كانا مِن خصائص صاحب الشريعة أُسنِد إلى موسى عليه السلام خاصّة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ توحيد الفعل لأنّ الأمر مِن وظائف فرعونَ، أي: قال لمَلَئه يأمرهم بترتيب مبادي إلزامِهما عليهما السلام بالفعل بعد اليأسِ عن إلزامهما بالقول. ﴿ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ بفنون السِّحر حاذقٍ ماهرٍ فيه. وقُرئ: "سَحّارٍ".[٣]

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ عطفٌ على مقدَّر يستدعيه المقام قد حُذف إيذانًا بسرعة امتثالهم بأمر فرعونَ كما هو شأن الفاء الفصيحة في كلّ مقام، أي: فأتَوا به فلمّا جاءوا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾، لكن لا في ابتداء مجيئهم؛ بل بعد ما قالوا له عليه السلام ما حُكي عنهم في السُّور الأُخَر مِن قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف، ١١٥/٧]، ونحوِ ذلك: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ أي: مُلقون له كائنًا ما كان مِن أصناف السِّحر.

---

١ قرأ بها أبو بكر بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢٨٦/٢.

٢ جميع هذه الوجوه في التبيان للعكبري، ٦٨٢/٢، واللباب لابن عادل، ٣٨٤/١٠.

٣ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢٧٠/٢.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨١﴾

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ ما ألقَوا مِن العِصيّ والحِبال، واسترهبوا الناسَ، وجاءوا بسحر عظيم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ غيرَ مكترِث بهم وبما صنعوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ ﴿مَا﴾ موصولة وقعتْ مبتدأ، و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبره، أي: هو السِّحر لا ما سمّاه فرعونُ وقومه مِن آيات الله سبحانه، أو هو مِن جنس السِّحر يُريهم أنّ حاله بيّن لا يُعبأ به، كأنّه قال: ما جئتُم به ممّا لا ينبغي أن يُجاء به. وقُرئ: "آلسِّحْرُ"[1] على الاستفهام، فـ﴿مَا﴾ استفهاميّة، أي: أيُّ شيء جئتُم به؟ أهو السحرُ الذي يَعرِف حالَه كلُّ أحد ولا يتصدّى له عاقل؟ وقُرئ: "مَا جِئْتُمْ بِهِ سِحْرٌ"،[2] وقُرئ: "مَا أَتَيتُمْ بِهِ سِحْرٌ"،[3] ودلالتُهما على المعنى الثاني في القراءة المشهورة أظهرُ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي: سيمحقه بالكلّيّة بما يُظهره على يديَّ مِن المعجزة فلا يبقى له أثر أصلًا، أو سيظهر بطلانُه للناس، / والسين للتأكيد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: عملَ جنس المفسدين على الإطلاق، فيدخل فيه السِّحر دخولًا أوّليًا؛ أو عملَكم، فيكون مِن باب وضعِ المُظهَر مَوضعَ المُضمَر للتسجيل عليهم بالإفساد والإشعارِ بعلّة الحكم. وليس المراد بعدم إصلاح عملِهم عدمَ جعلِ فسادهم صلاحًا؛ بل عدمُ إثباته وإتمامه، أي: لا يُثبته ولا يُكمِّله ولا يُديمه؛ بل يَمحقه ويُهلكه ويُسلِّط عليه الدمار. والجملة تعليل لِما سبق مِن قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾، والكلّ اعتراض تذييلي، وفيه دليل على أنّ السِّحر إفساد وتمويه لا حقيقةَ له. [١٠٤ظ]

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٨٢﴾

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾،[4] أي: يُثبته ويُقوّيه. وإظهار الاسم الجليل في المقامين الأخيرين لإلقاء الرّوعة وتربيةِ المهابة.

---

[1] قرأ بها أبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٣٧٨/١.

[2] قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٢؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٦٩.

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٩.

[4] في الآية السابقة.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره وقضاياه. وقُرئ: "بِكَلِمَتِهِ".[١] ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ ذلك، والمراد بهم كلُّ مَن اتّصف بالإجرام مِن السَّحَرة وغيرهم.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ معطوف على مقدَّر قد فُصِّل في مواقعَ أُخَرَ، أي: فألقى عصاه فإذا هي تلقَف ما يأفِكون... إلى آخره، وإنّما لم يُذكَر تعويلًا على ذلك وإيثارًا للإيجاز وإيذانًا بأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾[٢] ممّا لا يحتمل الخُلفَ أصلًا، وعطفُه على ذلك بالفاء مع كونه عدمًا مستمرًّا مِن قبيل ما في قوله عزّ وجلّ: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [هود، ٩٧/١١]، وما في قولك: "وعظتُه فلم يتّعظ وصِحتُ به فلم ينزجِر"، والسرُّ في ذلك أنّ الإتيان بالشيء بعد ورود ما يُوجِب الإقلاع عنه، وإن كان استمرارًا عليه لكنّه بحسب العنوان فعلٌ جديد وصنعٌ حادث، أي: فما آمن[٣] له عليه السلام بمشاهدة تلك الآيات القاهرة ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ أي: إلّا أولادٌ مِن أولاد قومِه بني إسرائيلَ حيث دعا الآباءَ فلم يُجيبوه خوفًا مِن فرعونَ، وأجابته طائفة مِن شُبّانهم. وقيل: الضمير لـ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، والذرّيّة: طائفةٌ مِن شُبّانهم آمنوا به عليه السلام، أو مؤمنُ آلِ فرعونَ وامرأتُه آسيةُ وخازنُه وامرأته وماشِطته.[٤] وهو بعيد.

﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ﴾ أي: كائنين على خوف عظيم. ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ الضمير لـ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾، والجمعُ لِما هو المعتاد في ضمائر العظماءِ، ولا يأباه مقام بيانِ علوّه في الفساد وغلوّه في الشرّ والتسلّط على العباد، أو لأنّ المراد به آله، كما يقال: ربيعةُ ومضرُ، أو للذرّيّة، أو للقوم، أي: على خوف مِن فرعونَ ومِن أشراف بني إسرائيلَ، حيث كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا مِن فرعونَ عليهم وعلى أنفسهم. ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ أي: يعذِّبَهم، وهو بدل اشتمالٍ، أو مفعولُ ﴿خَوۡفٖ﴾،

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٢٩.

٢ يونس، ٨١/١٠.

٣ وفي هامش م: ما صدّق.

٤ القول في الكشّاف للزمخشري، ٢٧١/٢.

فإنّ إعمال المصدر المنكَّر كثيرٌ، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا﴾ [البلد، ٩٠/١٤-١٥]، أو مفعول له بعد حذف اللام.[1] وإسناد الفعل إلى فرعونَ خاصّةً لأنّه الآمرُ بالتعذيب.

[١٠٥و] ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ / لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لغالب في أرض مصرَ. ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد بالقتل وسَفْك الدماء، أو في الكِبر والعُتوّ، حتّى ادّعى الربوبيّة واسترقَّ أسباط الأنبياء. والجملتان اعتراض تذييلي مؤكِّد لمضمون ما سبق.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمّا رأى تخوُّف المؤمنين منه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: صدّقتم به وبآياته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ وبه ثِقوا ولا تخافوا أحدًا غيرَه، فإنّه كافيكم كلَّ شرّ وضُرّ ﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ مستسلمين لقضاء الله مخلِصين له. وليس هذا مِن تعليق الحُكم بشرطين، فإنّ المعلَّق بالإيمان وجوبُ التوكّل عليه تعالى فإنّه المقتضي له، والمشروطَ بالإسلام وجودُه فإنّه لا يتحقّق مع التخليد، ونظيرُه: "إن أحسنَ إليك زيدٌ فأحسِنْ إليه إن قدَرتَ عليه".[2]

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٨٦﴾

﴿فَقَالُواْ﴾ مجيبين له عليه السلام مِن غير تلعثم في ذلك: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لأنّهم كانوا مؤمنين مخلِصين، ثمّ دعَوا ربَّهم قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ أي: موقعَ فتنة ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تُسلِّطهم علينا حتّى يُعذِّبونا أو يفتنونا عن ديننا، أو يُفتَنوا بنا ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحقّ لَما أُصيبوا.

وقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دعاء منهم بالإنجاء مِن سوء جوارهم وشؤمِ مصاحبتهم بعد الإنجاءِ مِن ظلمهم، ولذلك عُبِّر عنهم بالكفر بعدما وُصفوا بالظلم. وفي ترتيب الدعاء على التوكّل تلويحٌ بأنّ الداعيَ حقُّه أن يبنيَ دعاءه على التوكّل على الله تعالى.

---

[1] الوجوه الثلاثة في اللباب لابن عادل، ٣٩٢/١٠.
[2] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٣/٢.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ ﴿أَن﴾ مفسِّرة، لأنّ في الوحي معنى القول، أي: اتّخِذا مَباءةً ﴿لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تسكُنون فيها وتَرجِعون إليها للعبادة، ﴿وَٱجْعَلُواْ﴾ أنتما وقومُكما ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ تلك ﴿قِبْلَةً﴾ مصلًى. وقيل: مساجدَ متوجِّهة نحو القِبلة، يعني: الكعبةَ، فإنّ موسى عليه السلام كان يصلّي إليها.[1] ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فيها، أُمروا بذلك في أوّل أمرهم لئلا يظهَر عليهم الكفَرةُ / فيُؤذوهم ويفتِنوهم عن دينهم. [١٠٥ظ]

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنُصرة في الدنيا إجابةً لدعوتهم والجنّةِ في العُقبى. وإنّما ثُنِّيَ الضمير أوّلًا لأنّ التبوُّء للقوم واتّخاذَ المعابد ممّا يتولّاه رؤساء القوم بتشاور، ثمّ جُمع لأنّ جعل البيوت مساجدَ والصلاةَ فيها ممّا يفعله كلُّ أحد، ثمّ وُحِّد لأنّ بِشارةَ الأمّة وظيفةُ صاحب الشريعة.[2] ووضعُ المؤمنين مَوضعَ ضمير القوم لمدحهم بالإيمان، وللإشعار بأنّه المدار في التبشير.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٨٨﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: ما يُتزيَّن به مِن اللباس والمراكب ونحوِها ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ وأنواعًا كثيرة مِن المال ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ دعاءً عليهم بلفظ الأمر بما عُلم بممارسة أحوالهم أنّه لا يكون غيره، كقولك: لعن الله إبليسَ. وقيل: "اللام" للعاقبة، وهي متعلقةٌ بـ﴿ءَاتَيْتَ﴾؛ أو للعلّة، لأنّ إيتاء النِعم على الكفر استدراج وتثبيت على الضلال، ولأنّهم لمّا جعلوها ذريعةً إلى الضلال فكأنّهم أُوتوها ليُضلّوا،[3] فيكون ﴿رَبَّنَا﴾ تكريرًا للأوّل

---

[1] الكلام في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٢/٢.
[2] الكلام بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٢/٢.
[3] وجها اللام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٤/٢.

تأكيدًا أو تنبيهًا على أنّ المقصود عرضُ ضلالِهم وكفرانِهم تقدِمةً لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾. الطمس: المَحْقُ. وقُرئ بضمّ الميم،[1] أي: أَهلِكها.

﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: اجعلها قاسية واطبَع عليها حتّى لا تنشرح للإيمان كما هو قضيّة شأنهم. ﴿فَلَا يُؤۡمِنُواْ﴾ جواب للدعاء، أو دعاءٌ بلفظ النهي، أو عطفٌ على ﴿لِيُضِلُّواْ﴾،[2] وما بينهما دعاء معترِض. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ أي: يُعاينوه ويُوقنوا به بحيث لا ينفعُهم ذلك إذ ذاك.

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨٩﴾

﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ يعني: موسى وهارون عليهما السلام؛ لأنّه كان يُؤمّن،[3] / كما يُشعِر به إضافة الربّ إلى ضمير المتكلِّم مع الغير في المواقع الثلاثة. [١٠٦و]
﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ فاثبُتا على ما أنتما عليه مِن الدعوة وإلزام الحجّةِ، ولا تستعجلا فإنّ ما طلبتماه كائن في وقته لا محالةَ. رُويَ أنّه «مكَث فيهم بعد الدعاء أربعين سنةً».[4]

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: بعادات الله سبحانه في تعليق الأمور بالحِكَم والمصالح، أو سبيل الجهلة في الاستعجال، أو عدمِ الوثوق بوعد الله تعالى. وقُرئ بالنون الخفيفةِ وكسرِها لالتقاء الساكنين، "وَلَا تَتْبَعَانِّ" مِن تبِع، "وَلَا تَتْبَعَانِ"[5] أيضًا.

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ هو مِن جاوَز المكانَ إذا تخطّاه وخلّفه والباء للتعدية، أي: جعلناهم مجاوِزين البحرَ بأن جعلناه يبَسًا وحفِظناهم حتّى بلغوا الشطّ.

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الشعبي وعمرو بن عليّ عن الحسن وجابر عن عاصم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧١.

[2] وفي هامش م: على تقدير ألّا يكون دعاء. «منه».

[3] رُوي عن عكرمة ومحمّد بن كعب وأبي العالية والربيع بن أنس: أنّ موسى كان يدعو وهارون كان يؤمّن. انظر: جامع البيان للطبري، ١٢/٢٧٣.

[4] مَرويٌّ عن ابن جُريج في جامع البيان للطبري، ١٢/٢٧٠-٢٧٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٣.

[5] قرأ بالقراءات الثلاثة ابن ذكوان، وفيها تفصيل وخلاف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٦-٢٨٧.

وقُرِئ: "جوّزنا"[1] وهو مِن التجويز المرادف للمجاوزة لا ممّا هو بمعنى: التنفيذ، نحو ما وقع في قول الأعشى:

كما جوّز السَّكّيُّ في الباب فَيْتَقُ[2]

وإلّا لقيل: وجوّزنا بني إسرائيلَ في البحر، ولَخلا النظمُ الكريم عن الإيذان بانفصالهم عن البحر وبمقارنة العنايةِ الإلهيّة لهم عند الجواز، كما هو المشهور في الفرق بين أذهبه وذهَب به.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ يقال: تبِعتُه حتّى أتبعتُه إذا كان سبقكَ فلحقتَه، أي أدركهم ولحِقهم. ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ حتّى تراءت الفئتان وكاد يجتمع الجمعان ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ ظلمًا واعتداءً، أي: باغِين وعادِين، أو للبغي والعدوان. وقُرِئ: "وَعُدُوًّا"،[3] وذلك أن موسى عليه السلام خرج ببني إسرائيلَ على حين غفلة مِن فرعونَ، فلمّا سمِع به تبِعهم حتّى لحِقهم ووصل إلى الساحل، وهم قد خرجوا مِن البحر ومسلُكهم باقٍ على حاله يَبَسًا، فسلكه بجنوده أجمعين فلمّا دخل آخرُهم وهمّ أوّلهم بالخروج غَشِيهم مِن اليمّ ما غشيَهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي: / لحِقه وألجمه ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ أي: بأنه، [١٠٦ظ]
والضمير للشأن. وقُرِئ: "إنّه"[4] على الاستئناف بدلًا مِن ﴿ءَامَنتُ﴾ وتفسيرًا له.

---

[1] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن ويحيى وإبراهيم والمازني عن يعقوب. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠.

[2] وفي هامش م: أوّلُه:

ولا بدّ مِن جارٍ يُجيز سبيلَها
كـمـا... إلخ.

وقبله:

وإنّ امـرأً أسـرى إليـكِ ودونـه
مِن الأرض ظلماءُ ويهماءُ سَملَقُ
لَمحقوقةٌ أن تستجيبي لصوته
وأن تعلمي أنّ المُعانَ موفّقُ

وهي للأعشى في ديوانه، ص ٢٢٣. وفيه رواية الشطر الثاني مِن البيت الأوّل قبله: «فيافٍ تنوفاتٌ وبيداءُ خَيفقُ». والشطر المذكور في المتن للأعشى في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٣. والسُّكّي: المسمار. والفيتق: النجار. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فتق»، وأورد بيت الأعشى، وفيه «سَلَك» مكان «جوّز».

[3] قراءة شاذّة، مَرويّة عن الحسن وقتادة وأبو رجاء وعكرمة والزعفراني وابن مِقسَم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧١.

[4] قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٧.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لم يقل كما قاله السَّحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف، ٧/١٢١-١٢٢]؛ بل عبَّر عنه تعالى بالموصول وجعل صلتَه إيمانَ بني إسرائيلَ به تعالى للإشعار برجوعه عن الاستعصاء وباتّباعه لمَن كان يستتبعهم طمعًا في القبول والانتظام معهم في سِلك النجاة.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: الذين أسلموا نفوسَهم لله، أي: جعلوها سالمة خالصة له تعالى، وأراد بهم إمّا بني إسرائيلَ خاصّةً، وإمّا الجنسَ وهم داخلون فيه دخولًا أوّليًّا. والجملة على الأوّل عطفٌ على ﴿ءَامَنتُ﴾، وإيثارُ الاسميّة لادّعاء الدوام والاستمرار، وعلى الثاني يحتمل الحاليّة أيضًا مِن ضمير المتكلِّم، أي: آمنتُ مخلِصًا لله منتظِمًا في سِلك الراسخين فيه. ولقد كُرِّر المعنى الواحد بثلاث عباراتٍ[1] حِرصًا على القبول المفضي إلى النجاة، وهيهاتَ هيهاتَ بعد ما فات ما فات وأتى ما هو آتٍ.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١﴾

وقوله عزّ وجلّ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ مقول لقول مقدّر معطوف على ﴿قَالَ﴾، أي: فقيل: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾. وهو إلى قوله تعالى: ﴿ءَايَةً﴾[2] حكاية لِما جرى منه سبحانه مِن الغضب على المخذول ومقابلةِ ما أظهره بالردّ على وجه الإنكار التوبيخي على تأخيره وتقريعِه بالعصيان والإفساد وغير ذلك.

وفي حذف الفعل المذكور وإبرازِ الخبر المحكي في صورة الإنشاء مِن الدلالة على عِظَم السخط وشدّة الغضبِ ما لا يخفى، كما يُفصح عنه ما رُوي مِن أنّ جبريلَ عليه السلام دسَّ فاه عند ذلك بحال[3] البحر وسدّه به.[4] فإنّه تأكيد للردّ القولي بالردّ الفعلي، ولا يُنافيه تعليلُه بمخافة إدراك الرحمةِ،[5] فيما نُقل أنّه قال للنبيّ عليهما السلام: «فلو رأيتَني يا محمّدُ وأنا آخذُ مِن حال البحر

---

١ وفي هامش م: على قراءة كسر "أنّ". «منه».

٢ في الآية الآتية.

٣ الحال: الطين الأسود والحمأة. انظر: لسان العرب لابن منظور، «حول».

٤ انظر: الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٤. وسيأتي تخريجه.

٥ في هذا وفيما سيأتي مِن كلام المُصنِّف ردٌّ على الزمخشري في الكشّاف، ٢/٢٧٤، فيما ذهب إليه مِن إنكار هذا التعليل في الحديث المرويّ، مع صحّة مورده.

فأدُسّه في فيه مخافةَ أن تُدركه الرحمة»؛[1] إذ المراد بها الرحمة الدنيويّة، أي: النجاة التي هي طِلْبة المخذول وليس مِن ضرورة إدراكِها صحّةُ الإيمان، كما في إيمان قوم يونسَ عليه السلام، حتّى يلزمَ مِن كراهته ما لا يُتصوّر في شأن جبريلَ عليه السلام مِن الرضا بالكفر؛ إذ لا استحالةَ في ترتّب هذه الرحمة على مجرّد التفوّه بكلمة الإيمان، وإن كان ذلك في حالة البأس واليأس، فيُحمَل دسُّه عليه السلام على سدّ باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدّة الحَرْدِ، فتدبّر، والله الموفِّق.

وحقُّ العامل في الظرف أن يُقدَّر مؤخَّرًا[2] ليتوجّه الإنكار والتوبيخ إلى تأخير الإيمان إلى حدّ يمتنع قبوله فيه، أي: آلآن تُؤمِن حين يئستَ مِن الحياة وأيقنتَ بالممات؟

وقوله عزّ وعلا: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ حال مِن فاعل الفعل المقدَّر جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الإيمان إلى هذا الآن، ببيان أنّه لم يكن تأخيرُه لعدم بلوغ الدعوة إليه ولا للتأمّل والتدبّر في دلائله وآياتِه، ولا لشيء آخرَ ممّا عسى يُعدّ عُذرًا في التأخير؛ بل كان ذلك على طريقة الردّ والاستعصاء والإفساد، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ عطفٌ على ﴿عَصَيْتَ﴾ داخل في حيّز الحال، أي: وكنتَ مِن الغالين في الضلال والإضلالِ عن الإيمان، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل، ٨٨/١٦]، فهذا عبارةٌ عن فساده الراجع إلى نفسه والساري إلى غيره مِن الظلم والتعدّي وصدِّ بني إسرائيلَ عن الإيمان، والأوّلُ عن عصيانه الخاصِّ به.

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ أي: نُخرجك ممّا وقع فيه قومك مِن قعر البحر ونجعلك طافيًا. وفي التعبير عنه بالتنجية تلويحٌ بأنّ مراده بالإيمان هو النجاة كما مرّ

---

[1] جاء بهذه الرواية في سنن الترمذي، ٢٨٧/٥ (٣١٠٧)؛ وجامع البيان للطبري، ٢٧٧/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٤٨/٤.

[2] وفي هامش م: لا مُقدَّمًا كما فعله الجمهور. «منه».

وتهكّمٌ به، أو نُلقيك على نَجْوَة[١] مِن الأرض ليراك بنو إسرائيلَ. وقُرئ: "نُنْجِيكَ"[٢] مِن الإنجاء، و"نُنَحِّيكَ"[٣] بالحاء مِن التنحية، أو نُلقيك بناحية الساحل.

[١٠٧و] ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في / موضع الحال مِن ضمير المخاطَب، أي: نُنجّيك ملابسًا ببدنك فقط، لا مع روحك كما هو مطلوبُك، فهو تخييبٌ له وحسمٌ لأطماعه بالمرّة، أو عاريًا عن اللباس، أو كاملًا سويًّا، أو بدِرْعك، وكانت له درعٌ مِن الذهب يُعرَف بها. وقُرئ: "بِأَبْدَانِكَ"،[٤] أي: بأجزاء بدنكَ كلّها، كقولهم: هوى بأجرامه، أو بدُروعكَ، كأنّه كان مُظاهِرًا[٥] بينها.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمَن وراءك علامةً وهم بنو إسرائيلَ، إذ كان في نفوسهم مِن عظمته ما خُيّل إليهم أنّه لا يَهلِك، حتّى يُروى أنّهم لم يُصدّقوا موسى عليه السلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطرَّحًا على ممرّهم مِن الساحل، أو تكون لمَن يأتي بعدك مِن الأمم إذا سمعوا مآل أمرك ممّن شاهدك عِبرةً ونكالًا مِن الطغيان، أو حجّةً تدلّهم على أنّ الإنسان وإن بلغ الغايةَ القصوى مِن عِظَم الشأن وعُلوّ الكبرياء وقوّة السلطان فهو مملوك مقهور بعيد عن مظانّ الربوبيّة.

وقُرئ: "لِمَنْ خَلَفَكَ"[٦] فعلًا ماضيًا، أي: لمَن خَلَفك مِن الجبابرة. وقُرئ: "لِمَنْ خَلَقَكَ"[٧] بالقاف، أي: لتكون لخالقك آيةً كسائر الآيات، فإنّ إفراده سبحانه إيّاك بالإلقاء إلى الساحل دليلٌ على أنّه قَصْد منه لكَشْف تزويرك وإماطة الشبهةِ في أمرك، وبرهانٌ نيّر على كمال عِلمه وقدرته وحكمته وإرادته، وهذا الوجه محتمل على القراءة المشهورة أيضًا، وفي تعليل تنجيته[٨] بما ذُكِر[٩] إيذان

---

١ النجوة: ما ارتفع مِن الأرض فلم يَعلُه السيل فظننته نجاءك. انظر: لسان العرب لابن منظور، «نجو».

٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٢٥٨.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن ابن مسعود واليماني ويزيد بن البربري. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧٣.

٤ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أبي حنيفة. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧٣.

٥ يقال: ظاهَرَ الرجل بين ثوبين أو نعلين أو درعين إذا لبس أحدهما على الآخر. انظر: لسان العرب لابن منظور، «ظهر».

٦ قراءة شاذّة، مَرويّة عن إسماعيل المكّي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣.

٧ قراءة شاذّة، مَرويّة عن عليّ. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧٣.

٨ وفي هامش م: فرعون.

٩ وفي هامش م: مِن كونه آيةً. «منه».

بأنّها ليست لإعزازه أو لفائدة أخرى عائدةٍ إليه؛ بل لكمال الاستهانة به وتفضيحه على رءوس الأشهاد، وزيادةِ تفظيع حاله كمَن يُقتل ثمّ يُجرُّ جسده في الأسواق أو يُدار برأسه في البلاد. و"اللام" الأولى متعلِّقة بـ﴿نُنَجِّيكَ﴾، والثانيةُ بمحذوف وقع حالًا مِن ﴿ءَايَةً﴾، أي: كائنةً لمَن خلفك.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾[1] لا يتفكّرون فيها ولا يعتبرون بها، وهو اعتراض تذييلي جيء به عند الحكايةِ تقريرًا لفحوى الكلام المَحكي.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلام مستأنَف سِيق لبيان النِّعم الفائضة عليهم إثرَ نعمة الإنجاء على وجه الإجمال وإخلالهم بشُكرها وأداءِ حقوقها، أي: أسكنّاهم وأنزلناهم بعدما أنجيناهم وأهلكنا أعداءَهم. ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: منزِلًا صالحًا مَرضيًا وهو الشام ومِصرُ، ملكوها بعد الفراعنة والعمالقة، وتمكّنوا في نواحيها حسبما نطقَ به قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف، ١٣٧/٧]، ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في أمور دينهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: إلّا بعد ما جاءهم العلم بقراءتهم التوراةَ وعِلمِهم بأحكامها، أو في أمر محمّد عليه السلام إلّا مِن بعد ما علموا صدق نبوّته وتظاهُر معجزاته، فالمراد بالمختلفين: أعقابهم الذين كانوا في عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.

/ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميِّز بين المحِقّ والمبطل بالإثابة والتعذيب. [١٠٧ظ]

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ أي: في شكّ ما يسير على الفَرض والتقدير، فإنّ مضمون

---

[1] م: غافلون.

الشرطيّة إنّما هو تعليق شيء بشيء مِن غير تعرّض لإمكان شيء منهما، كيف لا، وقد يكون كلاهما ممتنعًا، كقوله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف، ٨١/٤٣]، وقولِه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر، ٦٥/٣٩]، ونظائرِهما. ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِن القصص التي مِن جملتها قصّةُ فرعونَ وقومه وأخبارُ بني إسرائيلَ.

﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنّ ذلك محقَّق عندهم ثابت في كتبهم حسبما ألقينا إليك. والمراد إظهار نبوّته عليه السلام بشهادة الأخبار حسبما هو المسطور في كتبهم، وإن لم يكن إليه حاجة أصلًا، أو وصفُ أهل الكتاب بالرسوخ في العِلم بصحّة نبوّته عليه السلام، أو تهييجُه عليه السلام وزيادةُ تثبيته على ما هو عليه مِن اليقين، لا تجويزُ صدور الشكّ منه عليه السلام، ولذلك قال عليه السلام: «لا أشُكُّ ولا أسألُ».[١]

وقيل: المراد بالموصول مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وتميمٍ الداري وكعبٍ وأضرابِهم.[٢] وقيل: الخطاب للنبيّ عليه السلام والمراد أمّته، أو لكلّ مَن يسمَع، أي: إن كنتَ أيُّها السامع في شكّ ممّا أنزلنا إليك على لسان نبيّنا.[٣] وفيه تنبيهٌ على أنّ مَن خالجته شبهة في الدِّين ينبغي أن يُسارِع إلى حلّها بالرجوع إلى أهل العلم.[٤] وقُرِئ: "فاسْأَلْ الذِينَ يَقْرَءون الكُتُبَ".[٥]

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا محيدَ عنه ولا ريبَ في حقيّته ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ وظهرَ ذلك بالآيات القاطعة التي لا يحوم حولها شائبةُ الارتياب. وفي التعرّض لعنوان الربوبيّة مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام مِن التشريف ما لا يخفى. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ بالتزلزل عمّا أنت عليه مِن الجزم واليقين، ودُمْ على ذلك كما كنتَ مِن قبلُ.

---

١ تفسير عبد الرزّاق، ٢٩٨/١؛ جامع البيان للطبري، ٢٨٨/١٢؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٧٦/٢.

٢ مرويٌّ عن ابن عبّاس ومجاهد والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٨٧/١٢؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ١٥٠/٤.

٣ القول في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٧٦/٢.

٤ الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١١٥/٢.

٥ قراءة شاذّة، مَرويّة عن يحيى وإبراهيم. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٩٥﴾

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مِن باب التهييج والإلهاب، والمراد به إعلامُ أنّ التكذيب مِن القبح والمحذوريّة بحيث ينبغي أن يُنهى عنه مَن لا يُتصوَّر إمكان صدوره عنه، فكيف بمَن يمكن اتّصافُه به؟ وفيه قَطْع لأطماع الكفَرة. ﴿فَتَكُونَ﴾ بذلك ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ أنفسًا وأعمالًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٩٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ شروع في بيان سِرّ إصرارِ الكفَرة على ما هم عليه مِن الكفر والضلال، أي: ثبتتْ ووجبتْ بمقتضى المشيئة المَبنيّة على الحكمة البالغة. ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ حكمُه وقضاؤه بأنّهم يموتون على الكفر ويُخلَّدون في النار، كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾... إلخ، [السجدة، ١٣/٣٢].

﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أبدًا إذ لا كذِبَ لكلامه ولا انتقاضَ لقضائه، أي: لا يؤمنون إيمانًا نافعًا واقعًا في أوانه، فيندرجُ فيهم المؤمنون عند معاينة العذاب مِثلَ فرعونَ باقيًا عند الموت، فيدخل فيهم المرتدّون.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ واضحةِ المدلول مقبولةٍ لدى العقول، لأنّ سبب إيمانهم -وهو تعلُّق إرادته تعالى به- مفقودٌ، لكنّ فقدانَه ليس لمنع منه سبحانه مع استحقاقهم له؛ بل لسوء اختيارهم المتفرّع على عدم استعدادهم لذلك. ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ كدأب آل فرعونَ وأضرابهم.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ۝٩٨﴾

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ كلام مستأنَف لتقرير ما سبق مِن استحالة إيمان مَن حقَّت عليهم كلمته تعالى لسوء اختيارهم مع تمكّنهم مِن التدارك، فيكون الاستثناء الآتي بيانًا لكون قوم يونسَ عليه السلام ممِن لم يحِقّ عليه الكلمة لاهتدائهم

إلى التدارك في وقته. و"لولا" بمعنى "هلّا"، وقُرئ كذلك،[١] أي: "فَهَلّا كَانَتْ" ﴿قَرْيَةٌ﴾ مِن القرى المُهلَكة ﴿ءَامَنَتْ﴾ قبل معاينة العذاب ولم تُؤخِر إيمانَها إلى حين معاينتِه كما فعَل فرعونُ وقومه ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَا﴾ بأن يقبله الله تعالى منها ويكشِفَ بسببه العذاب عنها.

[١٠٨و] ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ / استثناء منقطِع، أي: لكنّ قوم يونسَ ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ أوّل ما رأوا أمارة العذاب ولم يؤخِروا إلى حلوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد ما أظلّهم وكاد يحِلّ بهم. ويجوز أن تكون الجملة في معنى النفي، كما يُفصح عنه حرفُ التحضيض فيكون الاستثناء متّصلًا، إذ المراد بـ"القرى" أهاليها، كأنّه قيل: ما آمنت طائفة مِن الأمم العاصية فنفعهم إيمانهم إلّا قومَ يونسَ، فيكون قوله تعالى: ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ﴾ استئنافًا لبيان نفعِ إيمانهم، ويُؤيِّده قراءة الرفع على البدليّة.[٢]

﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بمتاع الدنيا بعد كَشْف العذاب عنهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ مقدَّر لهم في عِلم الله سبحانه.

رُوي أنّ يونسَ عليه السلام بُعث إلى نَينوى[٣] مِن أرض المَوصل، فكذّبوه فذهب عنهم مغاضِبًا، فلمّا فقَدوه خافوا نزولَ العذاب فلبِسوا المُسوح وعجّوا أربعين ليلةً.[٤] وقيل: قال لهم يونسُ عليه السلام: أجلُكم أربعون ليلةً فقالوا: إن رأينا أسبابَ الهلاك آمنّا بك، فلمّا مضَت خمسٌ وثلاثون أغامت السماء غيمًا أسودَ هائلًا يُدخِن دُخانًا شديدًا ثمّ يهبِط حتّى يغشى مدينتَهم ويُسوِّد سطوحَهم، فلبِسوا المُسوحَ وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصِبيانهم ودوابّهم، وفرّقوا بين النساء والصبيان وبين الدوابّ وأولادها فحنّ بعضُها إلى بعض

---

١ قراءة شاذّة، مَرويّة عن أُبيّ وابن مسعود. الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٧.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الجَرمي والكسائي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ٦٣.

٣ نِيْنَوَى: هي قرية يونس بن متّى عليه السلام بالموصل، وبسواد الكوفة ناحية يقال لها: نينوى منها كربلاء التي قُتل بها الحسن رضي الله عنه. انظر: معجم البلدان للحموي، ٥/٣٣٩.

٤ مرويٌّ بلفظ قريب عن قتادة في جامع البيان للطبري، ١٢/٢٩٣؛ والكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٧.

وعلَت الأصوات والعجيجُ، وأظهروا الإيمانَ والتوبةَ وتضرَّعوا إلى الله تعالى فرحِمهم وكشف عنهم، وكان ذلك يومَ عاشوراءَ يومَ الجمعة.[١]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: بلغ مِن توبتهم أن ترادّوا المظالمَ حتّى إنّ الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساسَ بنائه فيردّه إلى صاحبه.[٢] وقيل: خرجوا إلى شيخ مِن بقيّة علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذابُ فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حيُّ حين لا حيَّ، ويا حيُّ محييَ الموتى، ويا حيُّ لا إله إلّا أنت، فقالوها فكشُف عنهم. وعن الفضيل بن عياض[٣] قالوا: إنّ ذنوبنا قد عظُمت وجلّت وأنت أعظمُ منها وأجلُّ، افعل بنا ما أنت أهلُه، ولا تفعل بنا ما نحن أهلُه.[٤]

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تحقيق لدوران إيمانِ كافة المكلَّفين وجودًا وعدمًا على قُطب مشيئته تعالى مطلقًا إثرَ بيان تبعيّةِ كُفر الكفَرة لكلمته. ومفعول المشيئة محذوف لوجود ما يقتضيه مِن وقوعها شرطًا، وكونِ مفعولها مضمونَ الجزاء، وألّا يكونَ في تعلّقها به غرابة كما هو المشهور،[٥] أي: لو شاء سبحانه إيمانَ مَن في الأرض مِن الثقلين لآمَن ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يشِذّ عنهم أحد

---

١ مرويٌّ بلفظ قريب عن ابن مسعود وسعيد بن جُبير ووهب. انظر: معالم التنزيل للبغوي، ١٥١/٤-١٥٢؛ والكشّاف للزمخشري، ٢٧٧/٢.

٢ لم أجده في مظانّه وهو في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٧/٢.

٣ هو الفُضيل بن عِياض بن مسعود بن بشر التميمي، أبو عليّ (ت. ١٨٧هـ/٨٠٣م). الإمام القدوة الثبت شيخ الإسلام الزاهد المشهور. وُلد بخراسان بكورة أبيوَرد، وقدم الكوفة وهو كبير فسمع الحديث مِن منصور بن المعتمر وغيره، ثم تعبّد وانتقل إلى مكّة فنزلها ومات بها في خلافة هارون الرشيد. وكان ثقة فاضلًا عابدًا ورعًا كثيرَ الحديث. روى عن عبد العزيز بن أبي روّاد، وعبّاد بن منصور، وحدّث عنه سفيان بن عُيينة وأبوه وموسى بن أعين وأخذ عنه خلق منهم الشافعي. انظر: وفيات الأعيان لابن خلّكان، ٤٧/٤؛ وسير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٢١/٨-٤٤٢؛ والأعلام للزركلي، ١٥٣/٥.

٤ القولان في الكشّاف للزمخشري، ٢٧٧/٢.

٥ مضى تفصيل الكلام على هذا الحذف في تفسير يونس، ١٦/١٠.

﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعِين على الإيمان لا يختلفون فيه، لكنّه لا يشاؤه لكونه مخالِفًا للحِكمة التي عليها بُنِيَ أساسُ التكوين والتشريع. وفيه دلالةٌ على أنّ مَن شاء الله تعالى إيمانَه يؤمِن لا محالةَ.

﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ على ما لم يشأ الله منهم، حسبما يُنبئ عنه حرف الامتناع في الشرطيّة. و"الفاء" للعطف على مقدَّر ينسحِب عليه الكلام، كأنّه قيل: أربُك لا يشاء ذلك فأنت تُكرِههم؟ ﴿حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ فيكون الإنكار متوجِهًا إلى ترتيب الإكراه المذكور على عدم مشيئته تعالى.

ويجوز أن يكون "الفاء" لترتيب الإنكار على عدم مشيئته تعالى بناء على أنّ الهمزة متأخِرة في الاعتبار وإنّما قُدِّمت لاقتضائها الصدارةَ كما هو رأي الجمهور.[1] وأيًا ما كان فالمشيئةُ على إطلاقها؛ إذ لا فائدةَ، بل لا وجهَ لاعتبار عدمِ مشيئة الإلجاءِ خاصّة في إنكار الترتيب عليه أو ترتيبِ الإنكار عليه.

وفي إيلاء الاسم حرفَ الاستفهام إيذان بأنّ الإكراه أمر ممكن لكنّ الشأن في المُكرِه مَن هو؟ وما هو إلّا هو وحدَه لا يُشارَك فيه، لأنّه القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطّرهم إلى الإيمان، وذلك غير مستطاعٍ للبشر.[2] وفيه إيذان باعتبار الإلجاء في المشيئة كما أشيرَ إليه.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٠﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ﴾ بيان لتبعيّة إيمان النفوس المؤمنة لمشيئته تعالى وجودًا بعد بيان الدوران الكلّي عليها وجودًا وعدمًا، أي: ما صحّ وما استقام لنفس مِن النفوس التي علِم الله تعالى أنّها تؤمن ﴿أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بتسهيله ومنحه للألطاف. وإنّما خُصّت النفس بمَن ذُكر ولم يُجعل مِن قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران، ١٤٥/٣] لأنّ الاستثناء مفرَّغ / مِن أعمّ [١٠٨ظ]
الأحوال، أي: ما كان لنفس أن تؤمن في حال مِن أحوالها إلّا حالَ كونها ملابسةً

---

[1] مضى هذا الكلام على تقديم الهمزة في تفسير يونس، ٣٥/١٠.

[2] الكلام بلفظ قريب في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٧٠/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٦/١٠.

بإذنه تعالى، فلا بدّ مِن كون الإيمان ممّا يئول إليه حالها، كما أنّ الموت حال لكلّ نفس بحيث لا مَحيصَ لها عنه، فلا بدّ مِن تخصيص النفسِ بمَن ذُكر، فإنّ النفوس التي علم الله أنّها لا تؤمن ليس لها حال تؤمِن فيها حتّى يُستثنى تلك الحال عن غيرها.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الكفر، بقرينة ما قبله، عُبِّر عنه بالرجس الذي هو: عبارة عن القبيح المستقذَر المستكرَه لكونه عَلَمًا في القبح والاستكراه. وقيل: هو العذاب أو الخِذلان المؤدّي إليه.[1] وقُرئ بنون العظمة،[2] وقُرئ بالزاء،[3] أي: يَجعل الكفرَ ويُبقيه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا يستعملون عقولهم بالنظر في الحُجَج والآيات، أو لا يعقلون دلائله وأحكامه لِما على قلوبهم مِن الطبع، فلا يحصُل لهم الهداية التي عُبِّر عنها بالإذن، فيبقَون مغمورين بقبائح الكفر والضلال، أو مقهورين بالعذاب والنَّكال. والجملة معطوفة على مقدَّر ينسحِب عليه النظم الكريم، كأنّه قيل: فيأذن لهم بمَنْح الألطاف ويجعل... إلخ.

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْـَٔايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ١٠١﴾

﴿قُلِ﴾ مخاطِبًا لأهل مكّةَ بعثًا لهم على التدبّر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما مِن تعاجيب الآيات الأنفسيّة والآفاقيّة، ليتّضحَ لك أنّهم مِن الذين لا يعقِلون وحقّت عليهم الكلمة: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ أي: تفكّروا. وقُرئ بنقل حركةِ الهمزةِ إلى لام ﴿قُلِ﴾.[4]

﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أيُّ شيء بديعٍ فيهما مِن عجائب صُنعه الدالّة على وحدته وكمال قدرتِه؟ على أنّ ﴿مَاذَا﴾ جُعل بالتركيب اسمًا واحدًا مغلَّبًا فيه الاستفهام على اسم الإشارة، فهو مبتدأ خبرُه الظرف. ويجوز أن يكون "ما" مبتدأ، و"ذا" بمعنى "الذي"، والظرفُ صلته، والجملةُ خبر للمبتدأ.

---

١ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٨؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٧.

٢ قرأ بها أبو بكر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٨٧.

٣ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر والكسائي وأبو جعفر وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٥.

وعلى التقديرين فالمبتدأ والخبرُ في محلّ النصب بإسقاط الخافض، وفعلُ النظر معلّق بالاستفهام.[١]

﴿وَمَا تُغۡنِي﴾ أي: ما تنفع، وقُرئ بالتذكير.[٢] ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ وهي التي عُبِّر عنها بقوله تعالى: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ جمع "نذير" على أنّه فاعل بمعنى منذِر، أو على أنّه مصدر، أي: لا تنفع الآيات والرسل المنذِرون أو الإنذارات ﴿عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ في عِلم الله سبحانه وحُكمه. فـ﴿مَا﴾ نافية، والجملة إمّا حاليّة أو اعتراضيّة. ويجوز كون ﴿مَا﴾ استفهاميّةً إنكاريّةً في موضع النصب على المصدريّة، أي: أيّ إغناء تُغني... إلخ، فالجملة حينئذ اعتراضيّة.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ أي: مشركو مكّةَ وأضرابهم ﴿إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ أي: إلّا يومًا مثل أيّام الذين خلَوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن مشركي الأُممِ الماضية، أي: مثلَ وقائعهم ونزول بأس الله بهم، إذ لا يستحقُّون غيره، مِن قولهم: "أيّامُ العَرب" لوقائعها.

﴿قُلۡ﴾ تهديدًا لهم: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ما هو عاقبتُكم ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ لذلك.

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ بالتشديد، وقُرئ بالتخفيف،[٣] وهو عطفٌ على مقدَّر يدلّ عليه قوله: ﴿مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾، وما بينهما اعتراض جيء به مُسارَعة إلى التهديد ومبالغة في تشديد الوعيد، كأنّه قيل: أهلكنا الأمم ثمّ نجّينا رسلنا المُرسَلة إليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

وصيغة الاستقبال لحكاية الأحوال الماضية لتهويل أمرها باستحضار صُوَرها. وتأخيرُ حكاية التنجية عن حكاية الإهلاك على عكس ما في قوله تعالى:

---

١ الكلام على الوجهين في الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٢٧١/٦؛ واللباب لابن عادل، ٤١٨/١٠.

٢ قراءة شاذّة، مَرويّة عن الأعمش والأسود وابن مِقسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٣٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ٩٧٤.

٣ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٢٨٧/٢.

﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾... إلخ [يونس، ١٠/٧٣]، ونظائره الواردة في مواقعَ عديدة ليتّصل به قوله عزّ وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإنجاء ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ اعتراض بين العامل والمعمول، أي: حَقَّ ذلك حَقًّا. وقيل: بدل مِن المحذوف الذي ناب عنه كذلك، أي: إنجاءً مثلَ ذلك حقًّا.[١]

والكاف متعلِّقة بقوله تعالى: / ﴿نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: مِن كلّ شدّة وعذاب. [١٠٩و] والجملة تذييل لِما قبلها مقرِّر لمضمونه. والمراد بـ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إمّا الجنسُ المتناوِل للرسل عليهم السلام والأتباع، وإمّا الأتباعُ فقط. وإنّما لم يُذكَر إنجاء الرسل إيذانًا بعدم الحاجة إليه. وأيًّا ما كان ففيه تنبيهٌ على أنّ مدار النجاة هو الإيمان.

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٤﴾

﴿قُلۡ﴾ لجمهور المشركين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أُوثر الخطاب باسم الجنس مُصدَّرًا بحرف التنبيه تعميمًا للتبليغ وإظهارًا لكمال العناية بشأن ما بُلِّغ إليهم. ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي﴾ الذي أتعبّد الله عزّ وجلّ به وأدعوكم إليه، ولم تعلموا ما هو وما صفتُه. ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في وقت مِن الأوقات.

﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ ثمّ يَفعل بكم ما يفعل مِن فنون العذاب، أي: فاعلموا أنّه تخصيصُ العبادة به تعالى ورفضُ عبادة ما سواه مِن الأصنام وغيرها ممّا تعبدونه جهلًا. وتقديمُ ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدُّم التخلية على التحلية كما في كلمة التوحيد، وللإيذان بالمخالفة مِن أوّل الأمر، أو إن كنتم في شكّ مِن صحّة ديني وسَدادِه فاعلموا أنّ خلاصته إخلاصُ العبادة لمَن بيده الإيجاد والإعدام دون ما هو بمَعزِل منهما مِن الأصنام فاعرِضوها على عقولكم، وأجيلوا فيها أفكارَكم، وانظُروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا أنّه حقٌّ لا ريبَ فيه. وفي تخصيص التوفّي بالذِّكر متعلِّقًا بهم ما لا يخفى مِن التهديد.

---

[١] هذا الوجه في التبيان للعكبري، ٢/٦٨٧؛ وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٧.

والتعبير عمّا هم فيه بالشكّ مع كونهم قاطعين بعدم الصحّةِ للإيذان بأنّ أقصى ما يمكن عُروضه للعاقل في هذا الباب هو الشكّ في صحّته، وأمّا القطع بعدمها فممّا لا سبيلَ إليه، وإن كنتُم في شكّ مِن ثباتي على الدِّين فاعلموا أنّي لا أتركه أبدًا.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بما دلّ عليه العقل ونطق به الوحيُ، وهو تصريح بأنّ ما عليه مِن دين التوحيدِ ليس بطريق العقل الصِّرف؛ بل بالإمداد السماوي والتوفيق الإلهي. وحذفُ حرفِ الجرّ مِن ﴿أَنْ﴾ يجوز أن يكون مِن باب الحذف المطَّرد مع "أنْ" و"أنّ"، وأن يكون خاصًا بفعل الأمر، كما في قوله:

أَمـرتُـكَ الـخـيـرَ فـافـعـلْ مـا أُمِـرْت بـهِ[1]

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٥﴾

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطفٌ على ﴿أَنْ أَكُونَ﴾ خلا أنّ صلة ﴿أَنْ﴾ محكيّة بصيغة الأمر، ولا ضيرَ في ذلك، لأنّ مناط جواز وصلِها بصيغ الأفعال دلالتُها على المصدر، وذلك لا يختلف بالخبريّة والطلبيّة، ووجوبُ كون الصلة خبريةً في الموصول الاسمي إنّما هو للتوصُّل إلى وَصْف المعارف بالجمل، وهي لا تُوصَف إلّا بالجمل الخبريّة، وليس الموصول الحرفيُّ كذلك،[2] أي: وأُمرتُ بالاستقامة في الدِّين والاستبدادِ فيه بأداء المأمور به والانتهاءِ عن المنهي عنه، أو باستقبال القِبلة في الصلاة وعدمِ الالتفات إلى اليمين والشمال.

﴿حَنِيفًا﴾ حال مِن "الدِّين" أو "الوجه"، أي: مائلًا عن الأديان الباطلة. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عطفٌ على ﴿أَقِمْ﴾ داخلٌ تحت الأمر، أي: لا تكُونَنّ منهم اعتقادًا ولا عملًا.

---

[1] صدر بيت لعمرو بن مَعديكَرِب الزُّبيدي، عجزه:

فقد تركتُك ذا مالٍ وذا نشَبِ

في ديوانه، ص ٦٣. وهو له في كتاب سيبويه، ٣٧/١. ويُنسَب لغير عمرو. انظر لتفصيل ذلك: شرح أبيات سيبويه لابن السيرافي، ٢٤٩/١-٢٥١؛ وفرحة الأديب للغُندجاني، ص ٦١-٦٢؛ وخزانة الأدب للبغدادي، ٣٤٢/١-٣٤٤.

[2] نقل الزمخشري في الكشّاف، ٢٧٩/٢، جواز ما ذُكر عن سيبويه، وهو كذلك في كتاب سيبويه، ١٦٢/٣.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾

وقوله عزّ وعلا: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ عطفٌ على قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾[١] غيرُ داخل تحت الأمر. وقيل: على ما قبله مِن النهي.[٢] والوجهُ هو الأوّل؛ لأنّ ما بعده مِن الجُمل إلى آخر الآيتين متّسقةٌ لا يمكن فَصْل بعضِها عن بعض كما ترى، ولا وجهَ لإدراج الكلّ تحت الأمر، وهو تأكيد للنهي المذكور وتفصيل لِما أُجمِل فيه إظهارًا لكمال العناية بالأمر وكشفًا عن وجه بُطلان ما عليه المشركون، أي: لا تدعُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استقلالًا ولا اشتراكًا ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إذا دعوتَه بدَفْع مكروه أو جَلْب محبوب، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إذا تركتَه بسلب المحبوب دفعًا أو رفعًا أو بإيقاع المكروه. وتقديم النفعِ على الضرر غنيٌّ عن بيان السبب.

/ ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي: ما نُهيتَ عنه مِن دعاءِ ما لا ينفع ولا يضرّ، كنّى به عنه تنويهًا لشأنه عليه السلام وتنبيهًا على رفعة مكانه مِن أن يُنسَب إليه عبادة غيرِ الله سبحانه ولو في ضمن الجملة الشرطيّة. ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جزاء للشرط وجواب لسؤال مَن يسأل عن تَبِعة ما نُهي عنه. [١٠٩ظ]

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ تقرير لِما أُورد في حيّز الصلة مِن سَلْب النفع مِن الأصنام وتصوير لاختصاصه به سبحانه. ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ عنك كائنًا مَن كان وما كان. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وحدَه، فيثبُت عدم كَشْف الأصنام بالطريق البرهاني وهو بيان لعدم النفع برفع المكروه المستلزِم لعدم النفع بجَلْب المحبوبِ استلزامًا ظاهرًا، فإنّ رَفْع المكروه أدنى مراتب النفع، فإذا انتفى انتفى النفعُ بالكلّيّة.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ تحقيق لسلب الضرر الوارد في حيّز الصلة، أي: إن يُرِد أن يُصيبَك بخير ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ الذي مِن جملته ما أرادك به مِن الخير،

---

[١] يونس، ١٠/١٠٤.

[٢] انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٦/١٢٧٥، واللباب لابن عادل، ١٠/٤٢٣.

فهو دليل على جواب الشرط لا نفسُ الجواب. وفيه إيذان بأنّ فيضان الخير منه تعالى بطريق التفضّل مِن غير استحقاق عليه سبحانه، أي: لا أحدَ يقدِر على ردّه كائنًا ما كان، فيدخل فيه الأصنام دخولًا أوّليًا، وهو بيان لعدم ضُرّها بدَفْع المحبوب قبلَ وقوعه المستلزِم لعدم ضُرّها برفعه أو بإيقاع المكروهِ استلزامًا جليًّا.

ولعلّ ذِكرَ الإرادة مع الخير والمسّ مع الضُّرّ مع تلازُم الأمرين للإيذان بأنّ الخير مراد بالذات، وأنّ الضُّرَّ إنّما يَمسُّ مَن يَمَسّه لِما يوجبه مِن الدواعي الخارجيّة لا بالقصد الأوّلي، أو أريدَ معنى الفعلين في كلٍّ مِن الضرّ والخير، وأنّه لا دافعَ[1] لِما يُريد منهما، ولا رافعَ[2] لِما يُصيب به منهما، فأُوجِز الكلام بأن ذُكر في أحدهما المسَّ وفي الآخر الإرادة، ليدلّ بما ذُكر في كلّ جانبٍ على ما تُرك في الجانب الآخر.

على أنّه قد صُرّح بالإصابة حيث قيل: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ إظهارًا لكمال العناية بجانب الخير، كما يُنبئ عنه ترك الاستثناء فيه، أي: يُصيب بفضله الواسع المُنتظِم لِما أرادك به مِن الخير. وجعلُ الفضل عبارةً عن ذلك الخير بعينه، على أن يكون مِن باب وضع المُظهَرِ في موضع المُضمَر لِما ذُكر مِن الفائدة،[3] يأباه قوله عزّ وجلّ: ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، فإنّ ذلك ينادي بعموم الفضل.

وقوله عزّ قائلًا: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تذييل لقوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾... إلخ، مقرّرٌ / لمضمونه، والكلُّ تذييل للشرطيّة الأخيرةِ محقِّق لمضمونها. [١١٠و]

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾

﴿قُلۡ﴾ مخاطِبًا لأولئك الكفَرة بعد ما بلّغتهم ما أوحيَ إليك. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ وهو القرآن العظيم المشتمِل على محاسِن الأحكام

---

١ م س: رادّ [صُحّح في هامش م].

٢ م س: مُزيلَ [صُحّح في هامش م].

٣ كما في الكشّاف للزمخشري، ٢/٢٧٩، وأنوار التنزيل للبيضاوي، ٢/١١٨.

التي مِن جملتها ما مرّ آنفًا مِن أصول الدِّين، واطلعتُم على ما في تضاعيفه مِن البيِّنات والهدى ولم يبقَ لكم عُذرٌ.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان به والعمل بما في مطاويه ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: منفعة اهتدائه لها خاصّة. ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر به والإعراض عنه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فوَبالُ الضلال مقصور عليها، والمراد تنزيه ساحة الرسالةِ عن شائبة غرَض عائد إليه عليه السلام مِن جَلْب نفع أو دَفْع ضُرّ، كما يلوّح به إسناد المجيء إلى الحقّ مِن غير إشعار بكون ذلك بواسطته.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكولٍ إليّ أمرُكم، وإنّما أنا بشير ونذير.

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ اعتقادًا وعملًا وتبليغًا ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ على نهج التجدّد والاستمرار مِن الحقّ المذكور المتأكِّد يومًا فيومًا. وفي التعبير عن بلوغه إليهم بالمجيء وإليه عليه السلام بالوحي تنبيةٌ على ما بين المَرتبتَين مِن التنائي.[1] ﴿وَٱصْبِرْ﴾ على ما يعتريك مِن مشاقّ التبليغ ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بالنُصرة عليهم أو بالأمر بالقتال. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حكمه لاطّلاعه على السرائر اطّلاعَه على الظواهر.

عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورةَ يونسَ أُعطيَ له مِن الأجر عشرُ حسنات بعَدد مَن صَدَّق بيونسَ وكذّب به، وبعَدد مَن غرِق بفرعونَ».[2]

الحمدُ لله سبحانه على التمام، والصلاة على سيّدنا محمّد وآله وصحبه أجمعين.

---

١ س: التانّي.

٢ **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٥٦/١٤ (يونس، ١/١٠)؛ **التفسير الوسيط** للواحدي، ٥٣٧/٢ (يونس، ١/١٠)؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٢٨٠/٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: **الموضوعات** لابن الجوزي، ٢٤٠/١. وانظر لتفصيل تخريجه: **تخريج أحاديث الكشّاف** للزيلعي، ١٤٢/٢.

١٠

سورة يونس

مكيـة إلاّ «فـإن كنـت في شـك» الآيتيـن أو الثـلاث، أو «ومنهم مـن يؤمن بـه» الآيةَ، مِائَةٌ وتسـعُ أو عشـرُ آيات.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿الر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

﴿تِلكَ﴾ أي: هذه الآياتُ ﴿آياتُ الكِتابِ﴾ القُرآن ـ والإضافة بمعنى: مِن ـ ﴿الحَكِيمِ﴾: المُحكَمِ.

٢ ـ ﴿أكانَ لِلنّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة، استفهامُ إنكار، والجارّ والمجرور: حال من قوله ﴿عَجَبًا﴾ بالنصبِ: خبرُ «كان»، والرفعِ اسمُها، ....

سورة يونس

قولُه: (اللّهُ أعلَمُ) قيل: معناه: أنا اللهُ أَرى وقيل: بانضمَامِ ﴿حم﴾ و﴿ن﴾ يصيرُ «الرَّحمن».

قولُه: (أي: هذِهِ الآيَاتُ) أو آياتُ هذِه السُّورةِ.

قولُه: (المُحْكَم) أي: لم يُنسَخ منه شيءٌ، أو وصفَه بـ﴿الحَكِيمِ﴾ لاشتمالِهِ على الحِكَمِ أو الحُكْمِ، أو لأنّه كلامُ حكيمٍ.

قولُه: (أي: أَهلِ مكّةَ) تفسيرٌ ﴿للنَّاسِ﴾.

قولُه: (إنكَارٍ) للتَّعجُّبِ.

قولُه: (والرَّفع) أي: برفْعِ ﴿عجباً﴾ وهو قراءةٌ شاذَّةٌ[1].

---

(١) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٢٣) ونسبت لابن مسعود رضي الله عنه.

والخبرُ وهو اسمُها على الأُولى: ﴿أن أَوحَينا﴾ أي: إيحاؤنا ﴿إِلَى رَجُلٍ مِنهُم﴾ مُحمّدٍ ﷺ: ﴿أن﴾: مُفسّرةٌ ﴿أنذِرِ﴾: خوِّفِ ﴿النّاسَ﴾ الكافرين بالعذاب، ﴿وبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ﴾ أي: بأنّ ﴿لَهُم قَدَمَ﴾: سَلَفَ ﴿صِدقٍ عِندَ رَبِّهِم﴾ أي: أجرًا حسنًا بما قدّموا من الأعمال؟ ﴿قالَ الكافِرُونَ: إنَّ هذا﴾ القُرآنَ المُشتمِلَ على ذلك ﴿لَسِحرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنٌ. وفي قراءة: «لَساحِرٌ» والمشارُ إليه النبيُّ.

٣ ـ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أَيّامٍ﴾ من أيام الدنيا، ....

قولُه: (والخَبرُ) مبتدأٌ خبرُه ﴿أن أوحينا﴾.

قولُه: (وهُو اسمُها) جملةٌ حاليّةٌ مُعترِضةٌ.

قولُه: (الأوَّلِ) أي: على النَّصبِ.

قولُه: (أي: إيحَاؤُنَا) أو إيحاءَنا.

قولُه: (مُحمَّدٍ) أي: غيرِ مشهورٍ بالرِّياسةِ.

قولُه: (مفسِّرةٌ) لِمَا في الإيحاءِ مِن معنى القَولِ.

قولُه: (الكَافِرِينَ) قيل: عمَّمَ الإنذارَ؛ إذْ قلَّما مِن أحدٍ ليسَ فيه ما ينبَغِي أنْ يُنذَرَ منه، وخصَّصَ البشارةَ؛ إذ ليسَ للكفَّارِ ما يصحُّ أن يُبشَّروا به.

قولُه: (سَلَفَ) أي: سبقَ، أو سعيَ، أو مرتبةَ، وأضافَها إلى الصِّدقِ لتحقُّقِها والتَّنبيه على أنَّهم إنَّما ينالونها بالصِّدقِ، وقال مقاتلٌ: هو محمَّدٌ شفيعُ صدقٍ. أخرَجَه ابنُ أبي حاتمٍ[1]، كذا في «المبهَماتِ»[2] ويؤيِّدُه قولُه ﷺ: «أنا فرَطُكم»[3].

قولُه: (بمَا قَدَّمُوا) أو بما سبقَتْ لهم السَّعادةُ في الذِّكرِ الأوَّلِ.

قولُه: (وفِي قِراءَةٍ) للمكِّيِّ والكوفيِّ[4]، وفيه اعترافٌ بالعَجزِ عن المعارضَةِ.

قولُه: (أيَّامِ الدُّنيَا) أو كل يومٍ ألف سنةٍ[5].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠١٩٩).

(٢) انظر: «مفحمات الأقران» (ص: ٥٣).

(٣) رواه البخاري (٧٠٤٩)، ومسلم (٢٢٩٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٢)، و«حجة القراءات» (٣٢٧).

(٥) روى الطبري في «تفسيره» (٢٠/ ١٦٨)، والحاكم في «المستدرك» (٣٥٤٦) واللفظ للطبري: عن ابن عباس قال: خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكل يوم من هذه كألف سنة مما تعدون أنتم. =

أي: في قدْرها لأنه لم يكن ثَمّ شمس ولا قمر ـ ولو شاء لخلقهنّ في لمحة. والعدولُ عنه لتعليم خلقه التثبّتَ ـ ﴿ثُمَّ استَوَى علَى العَرشِ﴾ استواءً يليق به، ﴿يُدَبِّرُ الأمرَ﴾ بين الخلائق، ﴿ما مِن﴾: زائدةٌ ﴿شَفِيعٍ﴾ يشفع لأحد ﴿إلاّ مِن بَعدِ إذنِهِ﴾. ردٌّ لقولهم: إنّ الأصنام تشفع لهم. ﴿ذلِكُمُ﴾ الخالق المُدبّر ﴿اللهُ رَبُّكُم. فاعبُدُوهُ﴾: وحّدوه. ﴿أفلا تَذَّكَّرُونَ﴾؟ بإدغام التاء في الأصل في الذال.

٤ ـ ﴿إلَيهِ﴾ تعالى ﴿مَرجِعُكُم جَمِيعًا، وَعْدَ اللهِ حَقًّا﴾: مصدران منصوبان بفعلهما المُقدّر. ﴿إنَّهُ﴾ ـ بالكسرِ استئنافًا والفتحِ على تقدير اللام ـ ﴿يَبدَأُ الخَلقَ﴾ أي: بدأه بالإنشاء ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بالبعث، ﴿لِيَجزِيَ﴾: لِيُثِيبَ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ بِالقِسطِ، والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم شَرابٌ مِن حَمِيمٍ﴾: ماء بالغٍ نهايةَ الحرارة، ﴿وعَذابٌ أَلِيمٌ﴾: مُؤلمٌ ﴿بِما كانُوا يَكفُرُونَ﴾ أي: بسبب كُفرهم.

٥ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمسَ ضِياءً﴾: ذاتَ ضياء..................................

قولُه: (بينَ الخَلائقِ) أي: يقدِّرُ أمرَ الكائناتِ، فاللّامُ للعهدِ أو للاستغراقِ.

قولُه: (ردٌّ) أو إثباتُ الشَّفاعةِ لمن أَذِنَ له.

قولُه: (الخَالِقُ) أي: ربُّكم لا غيرُ.

قولُه: (وحِّدُوهُ) بالعبادَةِ.

قولُه: (بإدغَامِ التَّاءِ) وبالتَّخفيفِ حمزةُ والكِسائيُّ وحفصٌ[1].

قولُه: (تعَالى) لا إلَه غيرُه فاستعِدُّوا للقائِهِ.

قولُه: (والفَتحِ) لأبي جعفرٍ[2]، مِن العَشَرةِ.

قولُه: (أي: بدأَهُ) الظَّاهرُ إبقاءُ الفعلِ على المعنى المضَارعيِّ؛ لأنَّ المرادَ الاستِمرارُ، نحوُ: فلانٌ يُعطِي ويمنَعُ.

قالَ تعالى: (﴿بالقسطِ﴾) أي: بعَدلِهِ، لا يُنقِصُ مِن ثوابِهم بمقتَضَى وعدِهِ، ويزيدُ مِن فضْلِهِ، أو بعدالَتِهم وقيَامِهم على العدْلِ في أمُورِهم، أو بإيمَانِهم؛ لأنَّه العَدلُ القويمُ، كمَا أنَّ الشِّركَ ظلمٌ عظيمٌ، وهو الأَوجَهُ لمقابلَةِ ما بعدَهُ.

قولُه: (ذَاتَ ضِياءٍ) أو مبالغَةً.

= قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي.

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٢٧٢)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٠٨).

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٣٢).

أي: نورٍ ﴿والقَمَرَ نُورًا، وقَدَّرَهُ﴾ من حيثُ سيرُه ﴿مَنازِلَ﴾ ثمانيةً وعشرين منزلاً في ثمانٍ وعشرين ليلةً من كُلِّ شهرٍ، ويستتر ليلتينِ إن كان الشهر ثلاثين يومًا، وليلةً إن كان تسعة وعشرين يومًا، ﴿لِتَعلَمُوا﴾ بذلك ﴿عَدَدَ السِّنِينَ والحِسابَ. ما خَلَقَ اللهُ ذلِكَ﴾ المذكورَ ﴿إلاَّ بِالحَقِّ﴾ لا عبثًا، تعالى عن ذلك. ﴿يُفَصِّلُ﴾، بالياء والنون، يُبيِّنُ ﴿الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمُونَ﴾: يتدبّرون.

٦ ـ ﴿إنَّ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ﴾ بالذَّهاب والمجيء والزيادة والنُّقصان، ﴿وما خَلَقَ اللهُ في السَّماواتِ﴾ من ملائكة وشمس وقمر ونُجوم وغير ذلك ﴿وَ﴾ في ﴿الأرضِ﴾ من حيوان وجِبال وبِحار وأنهار وأشجار وغيرها، ﴿لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على قُدرته ـ تعالى ـ ﴿لِقَومٍ يَتَّقُونَـ﴾ ـه فيُؤمنون. خصّهم بالذكر لأنهم المُنتفعون بها.

٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ لا يَرجُونَ لِقاءَنا﴾ بالبعث ﴿ورَضُوا بِالحَياةِ الدُّنيا﴾.........................

قولُه: (أي: نُورٍ) فيه أنَّ الضِّياءَ أقوَى الأنوارِ، وقرَأ قُنبُلٌ[1]: (ضئاء) بهمزتَين على القَلْبِ، بتقديمِ اللَّامِ على العَينِ.

قولُه: (مِن حَيثُ سَيْرُهُ) الضَّميرُ لكلِّ واحدٍ؛ أي: قدَّر مسيرَ كلِّ واحدٍ منهمَا منازِلَ، أو قدَّرَ كلَّ واحدٍ ذا منازِلَ، أو للقمَرِ، وتخصيصُه بالذِّكرِ لسُرعةِ سَيْرِه ومُعايَنةِ منازِلِه وإناطةِ أحكامِ الشَّرعِ غالباً به، ولذلكَ علَّلَه بقولِه: ﴿لتعلَموا﴾ ثمَّ الظَّاهرُ أنَّ المرادَ البروجُ لا المنَازلُ؛ إذ بهَا وبقطعِهَا عددُ السِّنين والحسَابُ.

قولُه: (بذَلِكَ) في مُعامَلاتِكم وتصرُّفاتِكم.

وقولُه تعَالى: (﴿والحِسَابَ﴾) أي: حسَابَ الأوقَاتِ مِن الأشْهرِ والأيَّامِ.

قولُه: (بالياءِ) الغَيبة، مكِّيٌّ وبَصريٌّ وحفصٌ[2].

قولُه: (والنُّقصَانِ) والظُّلمةِ والضِّياءِ.

وقولُه تعالى: (﴿ومَا خَلَقَ اللهُ﴾) أي: وفيما خلَقَ.

قولُه: (وغَيرِ ذلِكَ) من الكائناتِ العُلْويَّةِ.

قولُه: (وغَيْرِها) من الكائناتِ السُّفليَّةِ.

قولُه: (علَى قُدرَتِهِ) ووحدتِهِ لعدَمِ فسَادِها.

قولُه: (بالبَعْثِ) أي: لا يتوقَّعونَه لا رجاءً ولا خوفاً لإنكَارِهم البعثَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٣)، و«التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢٠).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٢٨).

بدلَ الآخِرة لإنكارهم لها ﴿واطمَأَنُّوا بِها﴾: سكنوا إليها، ﴿والَّذِينَ هُم عَن آياتِنا﴾: دلائلِ وحدانيّتنا ﴿غافِلُونَ﴾: تاركون للنظر فيها، ٨ ـ ﴿أُولئِكَ مأواهُمُ النّارُ بِما كانُوا يَكسِبُونَ﴾ من الشِّرك والمعاصي. ٩ ـ ١٠ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ يَهدِيهِم﴾: يُرشدهم ﴿رَبُّهُم بِإيمانِهِم﴾: به بأن يجعل لهم نورًا يهتدون به يوم القيامة، ﴿تَجرِي مِن تَحتِهِم الأنهارُ في جَنّاتِ النَّعِيم، دَعْواهُم فِيها﴾: طلبهم لِما يشتهونه في الجنّة أن يقولوا: ﴿سُبحانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي: يا أللهُ! فإذا ما طلبوه وجدوه بين أيديهم، ﴿وتَحِيَّتُهُم﴾ فيما بينهم ﴿فِيها سَلامٌ، وآخِرُ دَعْواهُم أنِ﴾ ـ مُفسِّرة ـ ﴿الحَمدُ لله رَبِّ العالَمِينَ﴾.

قولُه: (سَكَنوا إِلَيهَا) مقصِّرينَ هِمَمَهم على لذائذِها أو سكَنُوا فيها سكُونَ مَن لا يُزعَجُ عنها.

قولُه: (دَلَائلِ) الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ.

قولُه: (بِهِ) أي: بسببِ إيمانِهم بالبعثِ.

قولُه: (بأَنْ يجعَلَ) بيانُ الإرشادِ، أو يهديَهم إلى الجنَّةِ أو إلى سُلوكِ السَّبيلِ المؤدِّي إلى الثَّوابِ.

قولُه: (طَلَبُهمْ) عن كثيرٍ مِن السَّلفِ: أنَّ أهلَ الجنَّة كلَّما اشتهَوا شيئاً قالوا: سبحانَكَ اللَّهمَّ، فيأتِيهم الملَكُ بما يشتَهونَ، فيسلِّمُ عليهم فيردُّونَ عليهِ، وذلكَ تحيَّتُهم، فإذا أكَلوا حمِدُوا اللهَ، وذلكَ قولُه: ﴿وآخرُ دعْواهم...﴾ إلخ[1].

قولُه: (فإِذَا) للمُفاجَأةِ.

قولُه: (فيمَا بَينَهُم) أي: ما يُحيِّي به بعضُهم بعضاً، أو تحيَّةُ الملائكةِ أو اللهِ تعالى إيَّاهُم.

قولُه: (مُفَسِّرةٌ) الصَّحيحُ قولُ القاضِي[2]: إنَّ ﴿أن﴾ هي المخفَّفةُ مِن الثَّقيلةِ، وقد قُرِئَ بها وبنصبِ: ﴿الحمد﴾[3]. وزادَ في «المداركِ»[4]: أصلُه: أنه الحمدُ للهِ، والضَّميرُ للشَّأنِ.

قال الرَّضيُّ[5]: ينبَغِي أن يُعلَمَ أنَّ ما بعدَ «أن» المفسِّرةِ ليسَ مِن صلَةِ ما قبلَهَا، بل يتمُّ الكلامُ بدونِهِ، ولا يُحتاجُ إليه إلَّا مِن جهةِ التَّفسيرِ للمُبهَم المقدَّرِ، فقولُه تعالى: ﴿وآخرُ دعواهم أنِ الحمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ﴾ ليسَتْ ﴿أن﴾ فيهِ المفسِّرةَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿الحمْدُ للهِ ربِّ العالمينَ﴾ خبرُ المبتدإِ المقدَّمِ. انتهى.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٧٥٦٣) عن ابن جريج.

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٠٦).

(٣) أي: (أنَّ الحمدَ) وهي قراءة شاذة، انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٦١) ونسبت لبلال بن أبي بردة وابن محيصن.

(٤) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٩).

(٥) انظر: «شرح الرضي لكافية ابن الحاجب» (٢/ ١٣٨٠).

ونزل لمّا استعجل المشركون العذاب: ١١ ـ ﴿ولَو يُعَجِّلُ اللهُ لِلنّاسِ الشَّرَّ استِعجالَهُم﴾ أي: كاستعجالهم ﴿بِالخَيرِ لَقُضِيَ﴾ ـ بالبناء للمفعول وللفاعل ـ ﴿إلَيهِم أجَلُهُم﴾، بالرفع والنصب، بأن يُهلِكهم، ولكن يُمهلهم ـ ﴿فنَذَرُ﴾: نترك ﴿الَّذِينَ لا يَرجُونَ لِقاءَنا في طُغيانِهِم يَعمَهُونَ﴾: يتردّدون مُتحيّرين ـ ١٢ ـ ﴿وإذا مَسَّ الإنسانَ﴾: الكافرَ ﴿الضُّرُّ﴾: المرض والفقر ﴿دَعانا لِجَنبِهِ﴾ أي: مُضطجعًا ﴿أو قاعِدًا أو قائمًا﴾ أي: في كُلّ حال، ﴿فلَمّا كَشَفْنا عَنهُ ضُرَّهُ مَرَّ﴾ على كُفره ﴿كأنْ﴾، مُخفّفةٌ واسمها محذوف، أي: كأنّه ﴿لَم يَدعُنا إلَى ضُرٍّ مَسَّهُ. كَذلِكَ﴾: كما زُيّنَ له الدعاءُ عِند الضرر والإعراضُ عِند الرخاء ﴿زُيِّنَ لِلمُسرِفِينَ﴾: المُشركينَ ﴿ما كانُوا يَعمَلُونَ﴾.

قولُه: (أي: كاستِعْجَالِهِم) تقديرُ الكلامِ: ولو يعجِّلُ اللهُ للنَّاسِ تعجيلَهُ للخَيرِ حينَ استعْجَلوا الشَّرَّ استعجَالاً كاستعْجَالِهم بالخيرِ، فحُذِفَ منه ما حُذِفَ لِدِلالةِ الباقِي عليهِ.

قولُه: (وللفَاعِلِ) الشَّاميّ[1].

قولُه: (والنَّصْبِ) شاميٌّ[2].

قولُه: (ولكنْ يُمهِلُهُم) يعني: بفضلِهِ يستَجِيبُ في الخيرِ سريعاً لا في الشَّرِّ. وقولُه: «يمهلُهم» ينبَغِي أن يكونَ بالنُّونِ؛ إشارةً إلى أنَّ ﴿فنذرُ﴾ عطفٌ على فعلٍ محذوفٍ دلَّتْ عليه الشرطيَّةُ؛ كأنَّه قيل: ولكنْ لا نعجَلُ ولا نقْضِي فنذرُهُم إمهَالاً لهم واستدراجاً، وتوضيحُه أنَّ ظاهرَه العطفُ على الشَّرطِ والجزاءِ، ولا يستقيمُ؛ لأنَّ حُكمَه الثُّبوتُ لا الانتفاءُ، فأُجيبَ بأنَّه عطفٌ على النَّفي الدَّالِّ عليه كلمةُ ﴿لو﴾ إلَّا أنَّ ذاكَ في النَّاسِ على الإطلاقِ، وهذا في ﴿الذينَ لا يرجونَ﴾ فتأمَّلْ. فإنَّه دقيقٌ وبالتأمُّلِ حقيقٌ.

قولُه: (أَي: مُضطَجِعاً) وأصلُه: مُلْقِياً لجنبِهِ إشارةٌ إلى أنَّ ﴿لجنبِهِ﴾ حالٌ.

قولُه: (أَي: فِي كُلِّ حَالٍ) يعني: فائدةُ التَّردِيدِ تعميمُ الدُّعاءِ لجميعِ الأحوالِ أو لأصنافِ المضارِّ.

قولُه: (عَلَى كُفرِهِ) أي: مضَى على طريقتِهِ قبلَ الضُّرِّ، ونسِيَ ما كان يدعو إليه، واستمرَّ على كفرِهِ، أو ﴿مرَّ﴾ عن موقفِ الدُّعاءِ لا يرجعُ إليه.

وقولُه تعالى: (﴿إلى ضرٍّ﴾) أي: إلى كشفِهِ.

وقولُه تعالى: (﴿ما كانوا يعملونَ﴾) مِن الانهماكِ في الشَّهواتِ والإعراضِ عن العباداتِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٣)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٢٨).

(٢) انظر المصادر السابقة.

١٣ ـ ﴿ولَقَد أهلَكْنا القُرُونَ﴾: الأُمم ﴿مِن قَبلِكُم﴾ ـ يا أهل مكّة ـ ﴿لَمّا ظَلَمُوا﴾ بالشرك، ﴿و﴾ قد ﴿جاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّناتِ﴾: الدلالات على صِدقهم، ﴿وما كانُوا لِيُؤمِنُوا﴾: عطفٌ على «ظلموا» ـ ﴿كَذلِكَ﴾: كما أهلكنا أُولئك ﴿نَجزِي القَومَ المُجرِمِينَ﴾: الكافرين ـ ١٤ ـ ﴿ثُمَّ جَعَلْناكُم﴾ يا أهل مكّة ﴿خَلائفَ﴾: جمع خليفة ﴿في الأرضِ مِن بَعدِهِم، لِنَنظُرَ: كَيفَ تَعمَلُونَ﴾ فيها؟ وهل تعتبرون بهم فتُصدّقوا رُسلَنا؟

١٥ ـ ﴿وإذا تُتلَى علَيهِم آياتُنا﴾: القُرآنُ ﴿بَيِّناتٍ﴾: ظاهراتٍ حالٌ ﴿قالَ الَّذِينَ لا يَرجُونَ لِقاءَنا﴾: لا يخافون البعث: ﴿ائتِ بِقُرآنٍ غَيرِ هذا﴾ ليس فيه عيب آلهتنا، ﴿أو بَدِّلْهُ﴾ من تِلقاء نفسك. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿ما يَكُونُ﴾: ينبغي ﴿لِيَ أن أُبَدِّلَهُ مِن تِلقاءِ﴾: قِبَلِ ﴿نَفسِي. إن﴾: ما ﴿أتَّبِعُ إلاّ ما يُوحَى إلَيَّ. إنِّي أخافُ، إن عَصَيتُ رَبِّي﴾ بتبديله، ﴿عَذابَ يَومٍ عَظِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

١٦ ـ ﴿قُلْ: لَو شاءَ اللهُ ما تَلَوتُهُ علَيكُم، ولا أدراكُم﴾: أعلَمَكم ﴿بِهِ﴾. ولا: نافية، عطفٌ على ما قبله..

قولُه: (قَد) أي: حالٌ من الواو بإضمارِ قد، وقيل: عطفٌ على ﴿ظلَموا﴾.

قولُه: (الدَّلَالاتِ) أي: بالحُجَجِ الدَّالَّةِ.

قولُه: (عَطفٌ) أو اعتراضٌ.

قولُه: (الكَافِرِينَ) أي: نجزي كلَّ مجرمٍ، أو نجزيكُم، فوضعَ المظهَرُ موضعَ المضمَرِ.

قولُه: (فيهَا) يعني: استخلافَ مَن يُختبَرُ.

قولُه: (لَا يَخَافُون) أو لا يأمُلونَ.

قولُه: (عَيْبُ) ولا بعثٌ.

قولُه: (مِن تلقَاءِ) بأن تجعَلَ مكانَ الآيةِ المشتمِلةِ على ما ذُكِرَ آيةً أخرى.

قولُه: (قِبَلِ) يعني: فضلاً عن آخرَ، أو المرادُ بالتَّبديلِ ما يشمَلُها.

قالَ تعَالى: (﴿قل لو شاء الله﴾) أي: غيرَ ذلكَ.

قولُه: (أعلَمَكُم) أي: على لساني.

قولُه: (﴿لا﴾ نَافِيةٌ) الظَّاهرُ أنها: مؤكِّدةٌ للنَّفي.

قولُه: (عَلَى مَا قَبْلَه) فيه لطافةٌ.

وفي قراءة بلامِ جوابَ «لو»، أي: لأعلمكم به على لسان غيري. ﴿فقد لَبِثتُ﴾: مَكَثتُ ﴿فِيكُم عُمُرًا﴾ سِنِينَ أربعين ﴿مِن قَبلِهِ﴾، لا أُحدِّثكم بشيء. ﴿أفلا تَعقِلُونَ﴾ أنه ليس من قِبَلي؟ ١٧ ـ ﴿فمَن﴾ أي: لا أحدَ ﴿أظلَمُ مِمَّنِ افترَى علَى اللهِ كَذِبًا﴾ بنِسبة الشريك إليه ﴿أو كَذَّبَ بِآياتِهِ﴾: القُرآنِ؟ ﴿إنَّهُ﴾ أي: الشأنَ ﴿لا يُفلِحُ﴾: يَسعد ﴿المُجرِمُونَ﴾: المُشركون.

١٨ ـ ﴿ويَعبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه ﴿ما لا يَضُرُّهُم﴾ ـ إن لم يعبدوه ـ ﴿ولا يَنفَعُهُم﴾ إن عبدوه، هو الأصنام، ﴿ويَقُولُونَ﴾ عنها: ﴿هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِندَ اللهِ. قُلْ﴾ لهم: ﴿أتُنَبِّئُونَ اللهَ﴾: تُخبرونه ﴿بِما لا يَعلَمُ في السَّماواتِ ولا في الأرضِ﴾؟ استفهام إنكار، أي: لو كان له شريك لعلمه، إذ لا يخفى عليه شيء. ﴿سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له ﴿وتَعالَى عَمّا يُشرِكُونَـ﴾ ـه معه!

١٩ ـ ﴿وما كانَ النّاسُ إلاّ أُمَّةً واحِدَةً﴾: على دِين واحد ـ وهو الإسلام ـ من لدُن آدمَ إلى نُوح، وقيل: من عهد إبراهيمَ إلى عمرِو ابنِ لُحَيّ، ﴿فاختَلَفُوا﴾ بأن ثبَتَ بعض وكفر بعض، ﴿ولَولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ﴾ بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَينَهُم﴾ أي: الناسِ في الدنيا، ﴿فِيما فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من الدِّين بتعذيب الكافرين.

٢٠ ـ ٢١ ـ ﴿ويَقُولُونَ﴾ أي: أهل مكّة: ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ علَيهِ﴾: على مُحمّد ﴿آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ كما كان للأنبياء من الناقة والعصا واليد ـ ﴿فقُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّما الغَيبُ﴾:.........................

قولُه: (وفي قِراءَةٍ) للمكيِّ بخُلفٍ عن البَزِّيِّ[1].

قولُه: (جوابَ ﴿لو﴾) الصَّحيحُ أنَّ اللّامَ لامُ التَّوكيدِ، و﴿ما تلَوتُه﴾ و﴿لا أدراكم﴾ كلاهما جوابٌ بالتَّعاطُفِ، والأوَّلُ نفيٌ والثَّاني إثباتٌ.

قولُه: (سِنيْناً) كذا بالنَّصبِ مع الألفِ، والصَّوابُ: «سنينَ» بلا ألفٍ؛ لأنَّه مُلحَقٌ بجمعِ السَّالم.

قولُه: (لَا أُحَدِّثُكم) إشارةٌ إلى أنَّ القرآنَ مُعجِزٌ.

قولُه: (وهوَ الأصْنامُ) سبحانَ اللهِ! يرضَونَ أن يكونَ الإلهُ حجراً، ولا يرضَون أن يكونَ الرَّسولُ بشراً، ويدَّعونَ لها الشَّفاعةَ، ولو كانَ لها قَدْرٌ لدفعَتِ النحتَ عن رأسِها.

قولُه: (معَهُ) وقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ بالخطابِ[2].

---

(١) أي: (ولأدراكم) وهي أيضًا من رواية قنبل، انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢١)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ٣٢٩).

(٢) انظر المصادر السابقة.

ما غاب عن العِباد أي: أمرُه ﴿لِلهِ﴾ ومنه الآياتُ، فلا يأتي بها إلاّ هو، وإنّما عليَّ التبليغُ. ﴿فانتَظِرُوا﴾ العذابَ، إن لم تُؤمنوا. ﴿إنِّي مَعَكُم مِنَ المُنتَظِرِينَ ـ وإذا أذَقنا النّاسَ﴾ أي: كُفّار مكّة ﴿رَحْمةً﴾: مطرًا وخِصبًا ﴿مِن بَعدِ ضَرّاءَ﴾: بُؤس وجدب ﴿مَسَّتهُم إذا لَهُم مَكرٌ في آياتِنا﴾ بالاستهزاء والتكذيب. ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿اللهُ أسرَعُ مَكرًا﴾: مُجازاةً. ﴿إنَّ رُسُلَنا﴾: الحَفَظَةَ ﴿يَكتُبُونَ ما تَمكُرُونَ﴾. بالتاء والياء.

٢٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُم﴾ ـ وفي قراءة: «يَنشُرُكُم» ـ ﴿في البَرِّ والبَحرِ. حَتَّى إذا كُنتُم في الفُلْكِ﴾: السُّفن، ﴿وجَرَينَ بِهِم﴾ ـ فيه التفات عن الخِطاب ـ ﴿بِريحٍ طَيِّبةٍ﴾: ليّنة ﴿وفَرِحُوا بِها، جاءَتها رِيحٌ عاصِفٌ﴾: شديدةُ الهُبوب تكسِر كُلّ شيء،..........

قولُه: (أي: أَمْرُه) أي: أمرُ الغيبِ مختَصٌّ باللهِ.

قولُه: (ومنهُ) أي: من جملَةِ الغيبِ.

قولُه: (وخِصْباً) وصِحَّةً وسَعةً.

قولُه: (وجَدْبٌ) ومرضٌ وفقرٌ.

قولُه: (مُجَازَاةً) المكرُ: إخفاءُ الكيدِ، وهو مِن اللهِ إمَّا الاستِدراجُ، أو الجزاءُ على المكرِ.

قولُه: (والياء) الغَيبةُ قراءةُ يعقوبَ مِن العَشَرةِ[1]، قالَ البيضَاويُّ[2]: ليوافقَ ما قبلَه. يعني: ﴿إذا لهم مكرٌ﴾ لا يكتُبونَ كما يُتوهَّمُ، فتفهَّمْ.

قولُه: (وفي قِرَاءةٍ) لحمزةَ[3]، من النَّشرِ، على زِنةِ ينصُرُ.

قولُه: (السُّفُنِ) جمعُ: سفينةٍ، فالفُلْكُ هنا جمعٌ بدليلِ و﴿جرين بهم﴾ أي: بمَنْ فيها.

قولُه: (عنِ الخِطَاب) إلى الغيبةِ للمُبالغةِ في سُرعةِ جَريها؛ كأنَّ الحاضرينَ غابُوا بمجرَّدِ الجري.

قولُه: (لَيِّنة) الهبُوبِ.

قالَ تعَالى: (﴿جاءتها﴾) جوابُ ﴿إذا﴾ والضَّميرُ للفُلكِ أو للرِّيحِ الطَّيبةِ؛ بمعنى: تلقَّتْها[4].

قولُه: (شَدِيدَة) أي: ذاتُ عَصفٍ شديدٍ.

(١) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٣٢).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٠٩).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٢٩).

(٤) في الأصول: «تلقتهما» ولعل الصواب ما أثبته.

﴿وجاءَهُمُ المَوجُ مِن كُلِّ مَكانٍ، وظَنُّوا أَنَّهم أُحِيطَ بِهِم﴾ أي: أُهلِكوا، ﴿دَعَوُا اللهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾: الدُّعاءَ ﴿لَئِنْ﴾ ـ لامُ قسم ـ ﴿أنجَيْتَنا مِن هذِهِ﴾ الأهوالِ ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾: المُوحِّدين، ٢٣ ـ ﴿فلَمّا أَنجاهُم إذا هُم يَبغُونَ في الأرضِ بِغَيرِ الحَقِّ﴾: بالشِّرك. ﴿يا أيُّها النّاسُ، إنَّما بَغيُكُم﴾: ظُلمكم ﴿على أنفُسِكُم﴾ لأنّ إثمه عليها. هو ﴿مَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا﴾ تُمتّعون فيها قليلاً، ﴿ثُمَّ إلَينا مَرجِعُكُم﴾ بعد الموت، ﴿فنُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلُونَ﴾ فنُجازيكم عليه. وفي قراءة بنصب: «متاعَ»، أي: تَتمتّعون.

٢٤ ـ ﴿إنَّما مَثَلُ﴾: صِفةُ ﴿الحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ﴾: مطر، ﴿أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ، فاختَلَطَ بِهِ﴾: بسببه ﴿نَباتُ الأرضِ﴾،..

قالَ تعالَى: (﴿مِن كلِّ مكانٍ﴾) يجيءُ الموجُ منه.

قولُه: (الدُّعَاءَ) مِن غيرِ إشراكٍ، وهو بدلٌ مِن ﴿ظَنُّوا﴾ بدلُ اشتمالٍ؛ لأنَّ دعاءَهُم من لوازمِ ظنِّهم.

قولُه: (لامُ قسَمٍ) أي: موطِّئةٌ للقسمِ على إرادةِ القولِ، أو مفعولُ ﴿دعَوا﴾ لأنَّ الدُّعاء مِن جملةِ القولِ.

وقولُه تعالَى: (﴿بغَيرِ الحَقِّ﴾) أي: مُبطِلِينَ فيه، وهو احتِرازٌ عن تخريبِ المسلمينَ ديارَ الكفَرةِ وإحراقِ زروعِهِم وقلعِ أشجارِهم؛ فإنَّها إفسادٌ بحقٍّ.

قولُه: (بالشِّرْكِ) تفسيرٌ للبغي بمعنى الإفسادِ، أو التَّقديرُ: يطلُبونَ الفسادَ.

قولُه: (لأَنَّ إِثْمَه عَلَيهَا) عن ابنِ عبَّاسٍ[1]: لو بغَى جبلٌ على جبلٍ لَدُكَّ الباغِي.

قولُه: (هُو) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿متاعُ﴾ خبرُ محذوفٍ تقديرُه: هو، أو ذلك، و﴿على أنفُسِكُم﴾ خبرُ ﴿بغيكم﴾.

قولُه: (تُمَتَّعُون) معلومٌ أو مجهولٌ.

قولُه: (وفي قِرَاءَةٍ) لحفصٍ[2].

قولُه: (بنَصْبِ ﴿مَتاع﴾) على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ.

قولُه: (صِفَةُ) أي: حالُها العجيبةُ في سرعةِ تقضِّيهَا وذهابِ نعيمِها بعدَ إقبالِها واغترارِ النَّاسِ بها.

قولُه: (بِسَبَبِه) أي: اشتبكَ حتَّى خالطَ بعضُه بعضاً، وقد وقعَ في «الكشَّافِ»[3] هنا خطأٌ فاحشٌ حيثُ قال:

---

(١) رواه وكيع في «الزهد» (٤٢٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢٢) وقد ورد مرفوعاً أيضاً، انظر: «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٢٣).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٠).

(٣) لم أقف على كلامه هذا في تفسير هذه الآية في هذا الموضع (٢/ ٣٤٠).

وإنما جاء في موضعين: الأول «الكشاف» (٢/ ٧٢٥) عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه =

واشتبك بعضه ببعض، ﴿مِمَّا يأكُلُ النَّاسُ﴾ من البرّ والشعير وغيرهما ﴿والأنعامُ﴾ من الكلأ. ﴿حَتَّى إذا أَخَذَتِ الأرضُ زُخرُفَها﴾: بهجتها من النبات، ﴿وازَّيَّنَتْ﴾ بالزهر ـ وأصله «تَزَيَّنَتْ»، أُبدلت التاء زايًا وأُدغمت في الزاي ـ ﴿وظَنَّ أهلُها أنَّهم قادِرُونَ علَيها﴾: مُتمكّنون من تحصيل ثمارها، ﴿أتاها أمرُنا﴾: قضاؤنا، أي: عذابُنا ﴿لَيلاً أو نَهارًا، فجَعَلْناها﴾ أي: زرعَها ﴿حَصِيدًا﴾ كالمحصود بالمَناجِل، ﴿كأنْ﴾ ـ مُخفّفةٌ ـ أي: كأنّها ﴿لَم تَغْنَ﴾:........................

وكانَ حقُّ اللَّفظِ: فاختلطَ بنباتِ الأرضِ، ووجهُ صحَّتِهِ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما موصُوفٌ بصفةِ صاحبِهِ، على أنَّ هذا التَّركيبَ أبلغُ؛ لأنَّه حينئذٍ مِن بابِ: عرضْتُ النَّاقةَ على الحوضِ. انتهى. وهو فاسدٌ من وجوهٍ:

أمَّا الأوَّل: فلأنَّ الباءَ هنا ليسَتْ صِلةً كما توهَّمَه؛ إذ المعنى: ليسَ على أنَّ الماءَ اختلطَ به النَّباتُ أو عكسُه؛ فإنَّ المطرَ سابقٌ وجودُه على تحقُّقِ النَّباتِ على ما أشارَ إليه فاءُ التَّعقيبيَّةِ أو التَّفريعيَّةِ في قولِه سبحانَه: ﴿إنَّما مثَلُ الحياةِ الدُّنيا كماءٍ أنزلْناهُ مِنَ السَّماءِ فاختَلَطَ به نباتُ الأرْضِ﴾ فإذا كانَ الأمرُ كذلك فكيفَ يُتصوَّرُ اختلاطُهما؟ فالصَّوابُ أنَّ الباءَ للسَّببيَّةِ، وأنَّ المختلِطَ هو بعضُ نباتِ الأرضِ بالبعضِ، كما يُقال: اختلطَ القومُ.

وأمَّا ثانياً: فقولُه: «حقُّ اللَّفظِ»، باطلٌ، فإنَّ الاختلاطَ لغةً يقعُ على كلٍّ منهما على تقديرِ صحَّتِه.

وأمَّا ثالثاً: فقولُه: «إنَّه مِن بابِ القلْبِ» قلب التَّحقيق فإنَّ العرضَ عُرفاً وعادةً لا يكونُ إلَّا على ذي تمييزٍ في الجملةِ، فبهذِه القرينةِ يُعرَفُ أنَّ ذلك الكلامَ مقلوبٌ بخلافِ ما نحن فيه؛ فإنَّ لكلٍّ منَ الطَّرفَين قابليَّةَ الخلطِ كما بيَّنَّاه فاعلم، واللهُ أعلمُ.

قولُه: (بالزَّهْرِ) أي: بأصنافِ النَّباتِ وأشكالِها وألوانِها المختلفةِ، كعرُوسٍ أخذَتْ من ألوانِ الثِّيابِ والتَّزيُّنِ، فتزيَّنَتْ بها.

قولُه: (وأُدْغِمَتْ) واجتُلِبَتْ همزةُ الوصلِ.

قولُه: (ثِمَارِها) ومِن حصدِها ورفعِ غلَّتِها.

قولُه: (قَضَاؤُنا) ضربُ زرعِها بما يحتاجُه.

قولُه: (أَي: كَأَنَّها) أي: زرعَها، والمضافُ محذوفٌ في الموضِعَين للمُبالغةِ، وقُرِئ[1]: (يَغْنَ) بالياءِ على الأصلِ.

= من السماء فاختلط به نبات الأرض...﴾ الآية [الكهف: ٤٥]، وتتمته في الموضع الثاني (٤/ ٣٠٥) عند قوله تعالى: ﴿ويوم يعرض الذين كفروا...﴾ الآية [الأحقاف: ٢٠].

(١) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٢٦) ونسبت لقتادة.

تكنْ ﴿بِالأمسِ. كَذلِكَ نُفَصِّلُ﴾: نُبيِّنُ ﴿الآياتِ لِقَومٍ يَتَفكَّرُونَ﴾.

٢٥ ـ ﴿واللهُ يَدعُو إلَى دارِ السَّلامِ﴾ أي: السلامة ـ وهي الجنّة ـ بالدعاء إلى الإيمان، ﴿ويَهدِي مَن يَشاءُ﴾ هِدايتَه ﴿إلَى صِراطٍ مُستَقِيمٍ﴾: دِين الإسلام. ٢٦ ـ ٢٧ ـ ﴿لِلَّذِينَ أحسَنُوا﴾ بالإيمان ﴿الحُسنَى﴾: الجنّةُ، ﴿وزِيادةٌ﴾ ـ هي النظر إليه تعالى كما في حديث مسلم ـ ﴿ولا يَرهَقُ﴾: يغشَى ﴿وُجُوهَهُم قَتَرٌ﴾: سواد ﴿ولا ذِلَّةٌ﴾: كآبة ـ ﴿أُولئِكَ أصحابُ الجَنّةِ، هُم فِيها خالِدُونَ ـ والَّذِينَ﴾: عطفٌ على «للّذينَ أحسَنُوا» أي: وللذين ﴿كَسَبُوا السَّيِّئاتِ﴾:..........

وقولُه تعالى: (﴿بالأمسِ﴾) أي: فيما قُبَيلَ الأمسِ، وهو مثَلٌ في الوقتِ القريبِ.

قولُه: (أي: السَّلامَةِ) من النَّقصِ والآفةِ، أو دارِ اللهِ، وتخصيصُ هذا الاسمِ أيضاً للتَّنبيهِ على ذلك، أو دارٍ يسلِّمُ اللهُ والملائكةُ فيها على مَن يدخُلُها.

قولُه: (هِدَايَتَه) بالتَّوفيقِ.

قولُه: (دِينِ الإِسلَامِ) الذي هو طريقُ ﴿دار السَّلام﴾.

قال تعالى: (﴿الحسنى﴾) أي: الجنَّةُ، أو المثوبةُ الحسنَى.

قولُه: (هيَ النَّظَرُ) وهو قولُ أبي بكرٍ الصِّديقِ وكثيرٍ مِن السَّلفِ، وعليه أحاديثُ كثيرةٌ أحدُها في «صحيحِ مسلمٍ وابنِ ماجه والتِّرمذيِّ، و«مسندِ» الإمامِ أحمدَ[1]، وعاندَ الزَّمخشريُّ وقال[2]: إنَّه مرقوعٌ ـ بالقافِ ـ؛ أي: مخترعٌ، والحالُ أنَّه مرفُوعٌ في كمالِ الصِّحةِ، والعجَبُ من البيضاويِّ[3] أنَّه ذكرَه بـ«قيل» في آخرِ الأقوالِ.

قولُه: (سَوادٌ) أو غبرَةٌ فيها سَوادٌ.

قولُه: (كآبَةٌ) أو هَوانٌ.

قولُه: (عَطفٌ عَلَى ﴿لِلَّذِينَ﴾) هذا على مذهبِ مَن يُجوِّزُ: في الدَّارِ زيدٌ والحُجرةِ عمرٌو، فلا يصحُّ أن يكونَ مختاراً مِن الأعاريبِ. قال أبو البقاءِ[4]: هو مبتدأٌ، والخبرُ ﴿ما لَهم مِنَ اللهِ﴾ أو ﴿أولئكَ﴾ ويكونُ ﴿جزاء سيئة بمثلها﴾ مُعترِضاً بينَ المبتدإِ وخبرِه، انتهى.

---

(١) رواه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٧٠)، وابن ماجه (١٨٧)، وأحمد في «مسنده» (١٨٩٣٥) من حديث صهيب بن سنان رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ٣٤٢).

(٣) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١١٠).

(٤) انظر: «التبيان في إعراب القرآن» (٢/ ٦٧٢).

عملوا الشِّرك ﴿جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثلِها، وتَرهَقُهُم ذِلَّةٌ، مالَهُم مِنَ اللهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿عاصِمٍ﴾: مانع، ﴿كأنَّما أُغشِيَتْ﴾: أُلبِستْ ﴿وُجُوهُهُم قِطَعًا﴾، بفتحِ الطاء: جمع قطْعة، وإسكانِها، أي: جُزءًا ﴿مِنَ اللَّيلِ مُظلِمًا. أُولئِكَ أصحابُ النّارِ، هُم فِيها خالِدُونَ﴾.

٢٨ ـ ﴿و﴾ اذكرْ ﴿يَومَ نَحشُرُهُم﴾ أي: الخلقَ ﴿جَمِيعًا، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أشرَكُوا: مَكانَكُم﴾ ـ نصبٌ بـ«الزموا» مُقدّرًا ـ ﴿أنتُم﴾: تأكيدٌ للضمير المُستتر في الفعل المُقدّر، ليُعطف عليه ﴿وشُرَكاؤُكُم﴾ أي: الأصنامُ، ﴿فزَيَّلْنا﴾: ميّزنا ﴿بَينَهُم﴾ وبين المُؤمنين كما في آيةِ «وامتازُوا اليومَ، أيُّها المُجرِمُونَ»، ﴿وقالَ﴾ لهم ﴿شُرَكاؤُهُم: ما كُنتُم إيّانا تَعبُدُونَ﴾. ما: نافية، وقُدّم المفعول للفاصلة.

٢٩ ـ ٣٠ ـ ﴿فكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَينَنا وبَينَكُم! إنْ﴾: مُخفّفةٌ أي: إنّا ﴿كُنّا عَن عِبادَتِكُم لَغافِلِينَ. هُنالِكَ﴾ أي: ذلك اليومَ ﴿تَبلُو﴾ ـ مِن البلوَى. وفي قراءة بتاءينِ من التلاوة ـ ﴿كُلُّ نَفسٍ ما أسلَفَتْ﴾: قدّمتْ من العمل، ﴿ورُدُّوا إلَى اللهِ مَولاهُمُ الحَقِّ﴾:........................

والاعتِراضُ لا بدَّ أن يكونَ كلاماً تامًّا فـ﴿جزاء سيئة﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ؛ أي: فجزاءُ السَّيئةِ بمثلِها واقعٌ، أو تقديرُه: مقدَّرٌ بمثلِهَا، أو الباءُ زائدةٌ.

قولُه: (وإسْكَانِها) مكِّيٌّ وكِسائيٌّ(١).

قولُه: (أي: الخَلْقَ) يعني: الفريقَينِ.

قولُه: (المُسْتَتِر...) إلخ. وقال القاضِي(٢): للضَّميرِ المنتَقلِ إلى ﴿مكانكم﴾ من عاملِهِ.

قولُه: (﴿مَا﴾ نَافِيةٌ) فإنَّهم إنَّما عبدُوا في الحقيقةِ أهواءَهُم.

قولُه: (ذلكَ اليَومَ) أو في ذلكَ المقامِ.

قولُه: (منَ البَلْوَى) أي: تختبِرُ ما قدَّمَتْ مِن عملٍ، فتُعاينُ نفعَه وضُرَّه.

قولُه: (وفِي قِرَاءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ(٣).

قولُه: (منَ التِّلَاوَةِ) أي: تقرَأُ ذكرَ ما قدَّمَتْ، أو من التّلو؛ أي: تتبعُ عملَه فيقودُها إلى الجنَّةِ أو النَّارِ.

قالَ تعَالى: (﴿إلى الله﴾) أي: إلى حُكمِه أو جزائِهِ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٠).

(٢) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١١١).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٥)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣١).

الثابت الدائم، ﴿وضَلَّ﴾: غاب ﴿عَنهُم ما كانُوا يَفترُونَ﴾ عليه من الشُّركاء.

٣١ـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَن يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ﴾ بالمطر ﴿والأرضِ﴾ بالنبات؟ ﴿أَم مَن يَملِكُ السَّمعَ﴾ بمعنى الأسماع أي: خَلْقَها ﴿والأبصارَ؟ ومَن يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيْتِ، ويُخرِجُ المَيْتَ مِنَ الحَيِّ؟ ومَن يُدَبِّرُ الأمرَ﴾ بين الخلائق؟ ﴿فسَيَقُولُونَ﴾: هو ﴿اللهُ. فقُلْ﴾ لهم: ﴿أفلا تَتَّقُونَـ﴾ ـه فتُؤمنون؟ ٣٢ ـ ﴿فذلِكُمُ﴾ الفاعل لهذه الأشياء ﴿اللهُ رَبُّكُمُ الحَقُّ﴾: الثابت. ﴿فماذا بَعدَ الحَقِّ إلاّ الضَّلالُ﴾؟ استفهام تقرير، أي: ليس بعده غيره. فمن أخطأ الحقّ ـ وهو عبادةُ الله ـ وقع في الضلال. ﴿فأنّى﴾: كيف ﴿تُصرَفُونَ﴾ عن الإيمان مع قِيام البرهان؟ ٣٣ ـ ﴿كَذلِكَ﴾: كما صُرف هؤلاء عن الإيمان ﴿حَقَّتْ كَلِمةُ رَبِّكَ علَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾: كفروا، وهي «لَأملأَنَّ جَهَنَّمَ» الآيَةَ أو هي ﴿أَنَّهُم لا يُؤمِنُونَ﴾.

٣٤ ـ ﴿قُلْ: هَل مِن شُرَكائكُم مَن يَبدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟ قُلِ: اللهُ يَبدَأُ الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ. فأنَّى تُؤفَكُونَ﴾: تُصرفون عن عِبادته مع قيام الدليل؟........

قولُه: (الثَّابتِ الدَّائمِ) لا ما اتَّخذوهُ مولًى.

قولُه: (علَيْه) أي: على اللهِ، و(مِن) بيانيَّةٌ لـ﴿ما﴾.

قولُه: (بالنَّبَاتِ) أو مِن أهلِها.

قولُه: (بمَعنَى الأسْمَاعِ) وُحِّدَ لأنَّه في الأصلِ مصدرٌ، وهو لا يُجمَعُ، ولأنَّ المسمُوعَ لا يتعدَّدُ في آنٍ واحدٍ.

قولُه: (خَلْقَها) أو حفْظَها، وقدَّمَ السَّمعَ لشرفِ الدَّليلِ السَّمعيِّ.

قولُه: (بينَ الخَلائقِ) وهو تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ.

قولُه: (هوَ ﴿اللَّه﴾) أي: لا يقدرونَ على المكابرةِ والعنادِ في ذلك لفرْطِ وضوحِهِ.

قولُه: (استِفهَامُ تَقرِيرٍ) الصَّحيحُ أنَّه استفهامُ إنكارٍ؛ لقولِه: (أي: ليسَ بعدَهُ غيرُه) أي: ليسَ بعدَ الحقِّ غيرُ الضَّلالِ.

قولُه: (وهيَ ﴿لأملأنَّ﴾) فـ(أنَّهم) تعليلٌ لحقِّيَّتِها.

قولُه: (أَو هيَ) أي: الكلمةُ (﴿أنَّهم﴾) فـ﴿أنَّهم﴾ بدلٌ من الكلمةِ.

قالَ تعالى: (﴿مَن يَبدَأُ الخلْقَ﴾) أي: يفعلُه ابتداءً، جعلَ الإعادة كالإبداءِ في الإلزامِ بها لظُهورِ برهانِها وإنْ لم يساعدوا عليهَا.

٣٥ ـ ﴿قُلْ: هَل مِن شُرَكائكُم مَن يَهدِي إلَى الحَقِّ﴾ بنصب الحُجج وخلقِ الاهتداء؟ ﴿قُلِ: اللهُ يَهدِي لِلحَقِّ. أفمَن يَهدِي إلَى الحَقِّ﴾ ـ وهو الله ـ ﴿أحَقُّ أنْ يُتبَعَ أم مَنْ لا يَهِدِّي﴾: يهتدي ﴿إلاّ أن يُهدَى﴾ أحقُّ أن يُتّبع؟ استفهام تقرير وتوبيخ. أي: الأولّ أحقّ. ﴿فما لَكُم؟ كَيفَ تَحكُمُونَ﴾ هذا الحُكمَ الفاسد من اتباع ما لا يحقّ اتباعه؟

٣٦ ـ ﴿وما يَتّبِعُ أكثَرُهُم﴾ في عِبادة الأصنام ﴿إلاّ ظَنًّا﴾ حيثُ قلّدوا فيه آباءهم. ﴿إنَّ الظَّنَّ لا يُغنِي مِنَ الحَقِّ شَيئًا﴾ فيما المطلوبُ منه العِلمُ! ﴿إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَفعَلُونَ﴾ فيُجازيهم عليه.

٣٧ ـ ﴿وما كانَ هذا القُرآنُ أن يُفتَرَى﴾ أي: افتراءً ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرِه، ﴿ولكِنْ﴾ أُنزل ﴿تَصدِيقَ الَّذِي بَينَ يَدَيهِ﴾ من الكُتب، ﴿وتَفصِيلَ الكِتابِ﴾: تبيينَ ما كتبَ الله من الأحكام وغيرها، ﴿لا رَيبَ﴾: شكَّ ﴿فِيهِ، مِن رَبِّ العالَمِينَ﴾: متعلق بـ «تصديق» أو بـ «أُنزِل» المحذوف. وقُرئ برفع «تَصديقُ، وتَفصيلُ» بتقدير: هو.

قولُه: (وهُوَ اللهُ) في «الكشَّافِ»[1]: يقال: هداهُ للحَقِّ وإلى الحقِّ، فجمعَ بينَ اللُّغتَين. انتهى.

يعني: تفنُّناً في العبارةِ، وفي البيضاويِّ[2]: فرقٌ دقيقٌ بينهما.

قولُه: (﴿يَهدِي﴾) قرأَ شعبةُ بكسرِ الياءِ الأولى، والباقِي بالفتحِ، وكسرَ عاصمٌ الهاء، وفتحها الباقونَ، واختلسَ حرَكتَها قالونُ وأبو عمرٍو، والكلُّ بتشديدِ الدَّالِ إلَّا حمزةَ والكِسائيَّ؛ فعندَهما على وزْنِ «يرمي» فهذه خمسُ قراءاتٍ[3]، وتوجيهُ كلٍّ يُطلَبُ من محلِّه.

قولُه: (آبَاءَهُم) والمرادُ بالأكثرِ الجميعُ.

قولُه: (افتِرَاءً) الأولى مفترًى.

قولُه: (أُنزِلَ) أي: أنزلَهُ اللهُ، فنصبَ ﴿تصديقَ﴾ على أنَّه علَّةٌ لفعلٍ محذُوفٍ، والأظهرُ نصبُه بأنَّه خبرُ (كانَ) مقدَّرٌ.

قولُه: (بـ﴿تَصْدِيق﴾) أو ﴿تفصيل﴾ ولا ريبَ فيه اعتِراضٌ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/ ٣٤٦).

(٢) حيث قال: وهدى كما يعدى بإلى لتضمنه معنى الانتهاء يعدى باللام للدلالة على أن المنتهي غاية الهداية وأنها لم تتوجه نحوه على سبيل الاتفاق ولذلك عدى بها ما أسند إلى الله تعالى. انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١١٢).

(٣) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ١٢٢)، و«الإقناع في القراءات السبع» (ص: ١٠٥).

٣٨ ـ ﴿أم﴾: بل أ ﴿يَقُولُونَ: افتَراهُ﴾: اختلقه مُحمّد؟ ﴿قُلْ: فاتُوا بِسُورةٍ مِثلِهِ﴾ في الفصاحة والبلاغة على وجه الافتراء ـ فإنكم عربيّون فُصحاء مثلي ـ ﴿وادعُوا﴾ للإعانة عليه ﴿مَنِ استَطَعتُم مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ في أنه افتراء. فلم يقدروا على ذلك. ٣٩ ـ قال تعالى: ﴿بَل كَذَّبُوا بما لَم يُحِيطُوا بِعِلمِهِ﴾ أي: القُرآنِ ولم يتدبّروه، ﴿ولَمّا﴾: لم ﴿يأتِهِم تأوِيلُهُ﴾: عاقبةُ ما فيه من الوعيد. ﴿كَذلِكَ﴾ التكذيبِ ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ رُسلَهم. ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبةُ الظّالِمِينَ﴾ بتكذيب الرسل أي: آخرُ أمرهم من الهلاك؟ فكذلك يَهلِك هؤلاء.

٤٠ ـ ﴿ومِنهُم﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿مَن يُؤمِنُ بِهِ﴾ لعِلم الله ذلك منه، ﴿ومِنهُم مَن لا يُؤمِنُ بِهِ﴾ أبدًا ـ ﴿ورَبُّكَ أعلَمُ بِالمُفسِدِينَ﴾. تهديدٌ لهم. ٤١ ـ ﴿وإن كَذَّبُوكَ فقُلْ﴾ لهم: ﴿لِي عَمَلِي ولَكُم عَمَلُكُم﴾ أي: لُكلٍّ جزاءُ عمله. ﴿أنتُم بَرِيئُونَ مِمّا أعمَلُ، وأنا بَرِيءٌ مِمّا تَعمَلُونَ﴾، وهذا منسوخ بآية السيف ـ ٤٢ ـ ﴿ومِنهُم مَن يَستَمِعُونَ إلَيكَ﴾ إذا قرأتَ القرآن. ﴿أفأنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ﴾ ـ شَبَّههم بهم في عدم الانتفاع بما يُتلى عليهم ـ ﴿ولَو كانُوا﴾ مع الصَّمم ﴿لا يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون؟ ٤٣ ـ ﴿ومِنهُم مَن يَنظُرُ إلَيكَ........

قولُه: (﴿يَقُولُون﴾) الظّاهرُ: «أ﴿يقولونَ﴾» كما في نسخةٍ، ومعنى الهمزةِ فيه الإنكارُ.

قولُه: (عَليهِ) أي: الإتيانِ.

قولُه: (أَي: غَيرَه) فإنَّه وحدَه قادرٌ على ذلك.

قولُه: (ولَم يتدَبَّرُوهُ) عطفٌ على ﴿كذَّبوا﴾ أو ﴿لم يحيطوا﴾ أي: سارَعُوا إلى التَّكذيبِ بالقرآنِ أوَّلَ ما سمِعُوه.

قولُه: (أَهلِ مكّةَ) أو مِن المكذِّبينَ.

قالَ تعَالى: (﴿وإن كذبوك﴾) أي: أصَرُّوا على تكذيبِكَ بعدَ إلزامِ الحُجَّةِ.

قولُه: (جَزَاءُ عَمَلِهِ) حقًّا كانَ أو باطلاً.

وقولُه: (﴿أنتم بريئونَ﴾) غيرُ مؤاخَذينَ.

قولُه: (وهَذَا منسُوخٌ) وفيه أنَّ هذا المعنَى لا نسخَ فيه، معَ أنَّ الأخبارَ لا تُنسَخُ. قال القاضِي[1]: ولِمَا فيه من إيهامِ الإعراضِ عنهُم وتخليةِ سبيلِهم، قيل: إنَّه منسُوخٌ.

قالَ تعَالى: (﴿من ينظر إليك﴾) يُعاينونَ دلائلَ نبوَّتِك.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١١٤).

أفأنتَ تَهدِي العُمْيَ، ولَو كانُوا لا يُبصِرُونَ﴾؟ شبّههم بهم في عدم الاهتداء. بل أعظَمُ «فإنّها لا تَعمَى الأبصارُ، ولكِنْ تَعمَى القُلُوبُ الّتِي في الصُّدُورِ».

٤٤ ـ ٤٥ ـ ﴿إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ النّاسَ شَيئًا! ولكِنَّ النّاسَ أنفُسَهُم يَظلِمُونَ. ويَومَ يَحشُرُهُم كأنْ﴾ أي: كأنّهم ﴿لَم يَلبَثُوا﴾ في الدنيا أو القُبور ﴿إلاّ ساعةً مِنَ النَّهارِ﴾ لهول ما رأوا ـ وجملة التشبيه حال من الضمير ـ ﴿يَتَعارَفُونَ بَينَهُم﴾: يعرف بعضهم بعضًا إذا بُعثوا، ثم ينقطع التعارف لِشِدّة الأهوال. والجملة: حالٌ مقدّرة، أو مُتعلِّقُ الظرف. ﴿قَد خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللهِ﴾: بالبعث، ﴿وما كانُوا مُهتَدِينَ﴾!

٤٦ ـ ﴿وإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّة في «ما» المزيدةِ ـ ﴿نُرِيَنَّكَ بَعضَ الَّذِي نَعِدُهُم﴾ به من العذاب في حياتك ـ وجواب الشرط محذوف، أي: فذاك ـ ﴿أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم ﴿فإلَينا مَرجِعُهُم، ثُمَّ اللهُ شَهِيدٌ﴾: مُطّلع ﴿علَى ما يَفعَلُونَ﴾ من تكذيبهم وكُفرهم، فيُعذّبهم أشدّ العذاب، ٤٧ ـ ﴿ولِكُلِّ أُمّةٍ﴾ من الأمم ﴿رَسُولٌ. فإذا جاءَ رَسُولُهُم﴾ إليهم فكذّبوه ﴿قُضِيَ بَينَهُم بِالقِسطِ﴾: بالعدل، فيُعذّبون ويُنجّى الرسول ومَن صدّقه، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾ بتعذيبهم بغير جُرم. فكذلك نفعل بهؤلاء.

٤٨ ـ ﴿ويَقُولُونَ: مَتَى هذا الوَعدُ﴾ بالعذاب، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه؟ ٤٩ ـ ﴿قُلْ: لا أملِكُ لِنَفسِي ضَرًّا﴾ أدفعُه ﴿ولا نَفعًا﴾ أجلِبُه ﴿إلاّ ما شاءَ اللهُ﴾..........................

قولُه: (بَل أعظَمُ) يعني: بأنِ انضمَّ إلى عَدمِ البصَرِ عدمُ البصِيرَةِ.

قالَ تعالى: (﴿ويومَ يحشُرُهم﴾) حفصٌ بالياءِ التَّحتيَّةِ، والباقونَ بالنُّونِ[1].

قولُه: (حَالٌ) أي: في مَوقعِ الحالِ؛ أي: يحشُرُهم مُشبَّهين بمَن لم يلبَثُوا.

قولُه: (أَو مُتعلَّقُ الظَّرفِ) والتَّقديرُ: يتعارَفونَ يومَ يحشُرُهم.

قولُه: (فِي حَياتِكَ) متعلِّقٌ بـ﴿نرينَّكَ﴾ أي: بنُصرَتِكَ في حياتِكَ كما أراه يومَ بدرٍ.

قولُه: (قَبلَ تعذِيبِهِم) الأظهرُ: قبلَ أن نُريَك.

قالَ تعالَى: (﴿فإلَينا مرجِعُهُم﴾) فنُريكَه في الآخرةِ، وهو جوابُ ﴿نتوفينَّكَ﴾.

قولُه: (بالعَذابِ) استِبعاداً له واستهزاءً.

قولُه: (فيهِ) أي: الوعدِ، خطابٌ منهم للنَّبيِّ والمؤمنينَ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٢).

أن يُقدّرني عليه. فكيف أملك لكم حلول العذاب؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾: مُدّة معلومة لهلاكهم، ﴿إذا جاءَ أَجَلُهُم فلا يَستأخِرُونَ﴾: يتأخّرون عنه ﴿ساعةً ولا يَستَقدِمُونَ﴾ يتقدّمون عليه.

٥٠ ـ ﴿قُلْ: أرَأيتُم﴾: أخبِروني، ﴿إن أتاكُم عَذابُهُ﴾ أي: اللهِ ﴿بَياتًا﴾: ليلاً ﴿أو نَهارًا، ماذا﴾: أيُّ شيء ﴿يَستَعجِلُ مِنهُ﴾ أي: العذابِ ﴿المُجرِمُونَ﴾: المُشركون؟ فيه وضع الظاهر موضع المُضمر، وجملة الاستفهام جواب الشرط، كقولك: إنْ أتيتُكَ ماذا تُعطيني؟ والمُراد به التهويل، أي: ما أعظَمَ ما استعجلوه!

٥١ ـ ﴿أثُمَّ إذا ما وَقَعَ﴾: حلّ بكم ﴿آمَنتُم بِهِ﴾ أي: اللهِ أو العذابِ عند نزوله؟ والهمزة لإنكار التأخير. فلا يُقبل منكم، ويقال لكم: ﴿آلآنَ﴾ تؤمنون، ﴿وقَد كُنتُم بِهِ تَستَعجِلُونَ﴾ استهزاءً؟ ٥٢ ـ ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا: ذُوقُوا عَذابَ الخُلدِ﴾ أي: الذي تخلدون فيه. ﴿هَل﴾: ما ﴿تُجزَونَ إلاّ﴾ جزاءَ ﴿بِما كُنتُم تَكسِبُونَ﴾؟

٥٣ ـ ﴿ويَستَنبِئُونَكَ﴾: يستخبرونك: ﴿أحَقٌّ هُوَ﴾ أي: ما وعدتنا به من العذاب والبعث؟ ﴿قُلْ: إيْ﴾: نَعَمْ ﴿ورَبِّي إنَّهُ لَحَقٌّ، وما أنتُم بِمُعجِزِينَ﴾: بفائتِينَ العذابَ، ٥٤ ـ ﴿ولَو أنَّ لِكُلِّ نَفسٍ ظَلَمَتْ﴾: كفرتْ ﴿ما في الأرضِ﴾ من الأموال ﴿لافتَدَتْ بِهِ﴾ من العذاب يوم القيامة، ﴿وأسَرُّوا النَّدامةَ﴾ على ترك الإيمان ﴿لَمّا رأَوُا العَذابَ﴾ أي: أخفاها رؤساؤهم عن الضعفاء الذين أضلّوهم مخافةَ التعيير، ﴿وقُضِيَ بَينَهُم﴾: بين الخلائق ﴿بِالقِسطِ﴾: بالعدل، ﴿وهُم لا يُظلَمُونَ﴾ شيئًا!

قولُه: (أَن يُقدِّرَنِي) الأظهرُ: أنْ أملِكَه، أو لكن ما شاءَ اللهُ مِن ذاك كائنٌ.

قولُه: (لَيلًا) أي: وقتَ بياتٍ واشتغالٍ بالنَّومِ.

قولُه: (أَي: العَذابِ) أي: أيُّ شيءٍ من العذابِ يستعجِلُونَه وكلُّه مكروهٌ لا يلائمُ الاستِعجالَ.

قولُه: (المُضمَرِ) المخاطب للدّلالةِ على أنّهم لجُرمِهم ينبَغِي أن يفزَعوا مِن مجيءِ الوَعيدِ لا أن يستَعجِلوهُ.

قولُه: (والهَمزَةُ) أي: دخولُها على ﴿ثمَّ﴾.

قولُه: (ويُقالُ) الأولى: وقيل؛ لعطفِ ﴿ثمَّ قيلَ﴾ عليهِ.

قولُه: (كفَرَتْ) أو تعدَّتْ على الغيرِ.

قولُه: (مِنَ العَذابِ) أي: جعلَتْه فِديةً لها منه، مِن قَولِهِم: افتدَاهُ بمعنى: فَداهُ[1].

---

(١) انظر: «لسان العرب» (١٥/ ١٤٩).

٥٥ ـ ﴿ألا إنَّ لِلهِ ما في السَّماواتِ والأرضِ. ألا إنَّ وَعدَ اللهِ﴾ بالبعث والجزاء ﴿حَقٌّ﴾: ثابت، ﴿ولكِنَّ أكثَرَهُم﴾ أي: الناسِ ﴿لا يَعلَمُونَ﴾ ذلك. ٥٦ ـ ﴿هُوَ يُحيِي ويُمِيتُ، وإلَيهِ تُرجَعُونَ﴾ في الآخِرة فيُجازيكم بأعمالكم. ٥٧ ـ ﴿يا أيُّها النّاسُ﴾ أي: أهلَ مكّة، ﴿قَد جاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم﴾: كتابٌ فيه ما لَكم وعليكم ـ وهو القُرآن ـ ﴿وشِفاءٌ﴾: دواء ﴿لِما في الصُّدُورِ﴾ من العقائد الفاسدة والشكوك ﴿وهُدًى﴾ من الضلال ﴿ورَحمةٌ لِلمُؤمِنِينَ﴾ به.

٥٨ ـ ﴿قُلْ: بِفَضلِ اللهِ﴾: الإسلامِ ﴿وبِرَحْمتِهِ﴾: القرآنِ، ﴿فبِذلِكَ﴾ الفضل والرحمة ﴿فلْيَفرَحُوا. هُوَ خَيرٌ مِمّا يَجمَعُونَ﴾ من الدنيا، بالياء والتاء.

٥٩ ـ ﴿قُلْ: أرَأَيتُم﴾: أخبروني ﴿ما أنزَلَ اللهُ﴾: خَلقَ ﴿لَكُم مِن رِزقٍ، فجَعَلتُم مِنهُ حَرامًا وحَلالاً﴾ كالبَحيرة والسائبة والميتة؟ ﴿قُلْ: آللهُ أذِنَ لَكُم﴾ في ذلك التحريم والتحليل؟ لا. ﴿أم﴾: بل ﴿علَى اللهِ تَفتَرُونَ﴾: تكذبون بنِسبة ذلك إليه؟ ٦٠ ـ ﴿وما ظَنُّ الَّذِينَ يَفتَرُونَ علَى اللهِ الكَذِبَ﴾ أي: أيُّ شيء ظنُّهم به

قولُه: (ذلكَ) أي: ما ذُكِرَ مِن أنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ.

قولُه: (أي: أهْلَ مكَّةَ) يحتملُ النِّدائيَّةَ والتَّفسيريَّةَ، والأولى العمومُ.

قولُه: (القُرآنِ) أو هما؛ القرآنُ والإسلامُ، وهو مختارُ صاحبِ «المدارِكِ»[1]، والباءُ متعلِّقةٌ بفعلٍ يفسِّرُه قولُه: ﴿فبذلِكَ فليفرَحوا﴾ وفائدةُ التَّكريرِ التَّأكيدُ والبيانُ بعدَ الإجمالِ، وعن يعقوبَ[2]: (فلتفرحوا) بالتَّاءِ على الأصلِ المرفوضِ، وقد رُوِيَ مرفوعاً[3]، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ[4]: (فافرَحُوا).

قولُه: (والتَّاءِ) الخطابُ، ابنُ عامرٍ[5].

قولُه: (خَلقَ) جعلَ الرِّزقَ مُنزَّلاً؛ لأنَّه مقدَّرٌ في السَّماءِ، محصَّلٌ بأسبابٍ منها.

قولُه: (بَل) يعني: الاستفهامُ للإنكارِ و﴿أم﴾ منقطعةٌ، ومعنى الهمزةِ فيها تقريرٌ لافترائِهم على اللهِ.

قولُه: (بِهِ) أي: باللهِ.

---

(١) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٢٨).

(٢) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٣٤).

(٣) أي قوله: (فلتفرحوا) رواه أبو داود (٣٩٨١)، وأحمد في «مسنده» (٢١١٣٦)، والطيالسي في «مسنده» (٥٤٧) من حديث أُبي رضي الله عنه.

(٤) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٢٨) ونسبت لأُبي رضي الله عنه.

(٥) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٤).

﴿يومَ القِيامةِ﴾؟ أيحسبون أنه لا يُعاقبهم؟ لا. ﴿إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ علَى النَّاسِ﴾ بإمهالهم والإنعام عليهم، ﴿ولكِنَّ أكثرَهُم لا يَشكُرُونَ﴾.

٦١ ـ ﴿وما تَكُونُ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿في شأنٍ﴾: أمر، ﴿وما تَتلُو مِنهُ﴾ أي: من الشأنِ أو اللهِ ﴿مِن قُرآنٍ﴾ أنزله عليك، ﴿ولا تعمَلُونَ﴾ ـ خاطبَهُ وأُمّتَه ـ ﴿مِن عَمَلٍ، إلاّ كُنّا عَلَيكُم شُهُودًا﴾: رُقباءَ ﴿إذ تُفِيضُونَ﴾: تأخذون ﴿فِيهِ﴾ أي: العمل، ﴿وما يَعزُبُ﴾: يغيب ﴿عَن رَبِّكَ مِن مِثقالِ﴾: وزنِ ﴿ذَرّةٍ﴾: أصغرِ نملةٍ ﴿في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ولا أصغَرَ مِن ذلِكَ ولا أكبرَ إلاّ في كِتابٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ، هو اللوح المحفوظ.

٦٢ ـ ﴿ألا إنَّ أولِياءَ اللهِ لا خَوفٌ علَيهِم، ولا هُم يَحزَنُونَ﴾ في الآخِرة. ٦٣ ـ هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُونَ﴾ اللهَ بامتثال أمره ونهيه، ٦٤ ـ ﴿لَهُمُ البُشرَى في الحَياةِ الدُّنيا﴾ ـ فُسّرتْ في حديث صحّحه الحاكم بالرؤيا الصالحة،..

وقولُه تعَالى: (﴿يومَ القيامَةِ﴾) منصوبٌ بالظَّنِّ.

قولُه: (أي: منَ الشَّأنِ)[1] لأنَّ تلاوةَ القرآنِ مُعظَمُ شأنِ الرَّسولِ.

قولُه: (أنزلَهُ علَيكَ) فـ﴿من﴾ تبعيضيَّةٌ مفعولُ ﴿تتلوا﴾.

قولُه: (خَاطبَهُ وأمَّتَه) أي: تعميمٌ للخطابِ بعدَ تخصِيصِه بمَن هو رأسُهُم.

قولُه: (رُقَباءَ) مطَّلِعينَ.

قولُه: (يَغِيبُ) والكِسائيُّ بكسر الزَّاي[2].

قولُه: (أصْغَرِ نملَةٍ) أو هباءٍ.

قولُه: (بيِّنٍ) كلامٌ برأسِهِ مقرِّرٌ لِما قبلَه، و﴿لا﴾ نافيةٌ و﴿أصغر﴾ اسمُها، و﴿في كتاب﴾ خبرُها. وقرأ حمزةُ بالرَّفعِ فيهما[3] على الابتداءِ والخبرِ، ومَن عطَفَ على لفظِ: ﴿مثقال ذرَّةٍ﴾ وجعلَ الفتحَ بدلَ الكسرِ لامتناعِ الصَّرفِ، أو على محلِّه مع الجارِّ على قراءةِ الرَّفعِ جعلَ الاستثناء منقطعاً.

قولُه: (هُم) أي: محلُّه الرَّفعُ على المدحِ.

---

(١) «وقوله تعالى: ﴿يوم القيامة﴾ منصوب بالظن. قولُه: أي من الشّأن»: ليست في (ص).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٢٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٤).

(٣) انظر المصادر السابقة.

يراها الرجل أو تُرى له ـ ﴿وفي الآخِرةِ﴾ بالجنّة والثواب. ﴿لا تَبدِيلَ لِكَلِماتِ اللهِ﴾: لا خُلفَ لمواعيده. ﴿ذلِكَ﴾ المذكور ﴿هُوَ الفوزُ العَظِيمُ﴾.

٦٥ ـ ﴿ولا يَحزُنْكَ قَولُهُم﴾ لك: لستَ مُرسَلاً وغيرَه. ﴿إنَّ﴾ ـ استئناف ـ ﴿العِزّةَ﴾: القُوّة ﴿لِلهِ جَمِيعًا. هُوَ السَّمِيعُ﴾ للقول ﴿العَلِيمُ﴾ بالفعل، فيُجازيهم وينصرك. ٦٦ ـ ﴿ألا إنَّ لِلهِ مَن في السَّماواتِ ومَن في الأرضِ﴾ عبيدًا ومُلكًا وخلقًا، ﴿وما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدعُونَ﴾: يعبدون ﴿مِن دُونِ اللهِ﴾ أي: غيرَه أصنامًا ﴿شُرَكاءَ﴾ له، على الحقيقة. تعالى عن ذلك. ﴿إنْ﴾: ما ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ في ذلك ﴿إلاّ الظَّنَّ﴾، أي: ظنَّهم أنها آلهة تشفع لهم، ﴿وإنْ﴾: ما ﴿هُم إلاّ يَخرُصُونَ﴾: يكذبون في ذلك. ٦٧ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَسكُنُوا فِيهِ والنَّهارَ مُبصِرًا﴾. إسناد الإبصار إليه مجاز، لأنه مُبصَرٌ فيه. ﴿إنَّ في ذلِكَ لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على وحدانيّته ـ تعالى ـ ﴿لِقَومٍ يَسمَعُونَ﴾ سماعَ تدبّر واتّعاظ.

٦٨ ـ ﴿قالُوا﴾ أي: اليهودُ والنصارى ومن زعم أنّ الملائكة بنات الله: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾. قال تعالى لهم: ﴿سُبحانَهُ﴾: تنزيهًا له عن الولد! ﴿هُوَ الغَنِيُّ﴾ عن كُلّ أحد، وإنّما يَطلب الولدَ مَن يحتاج إليه، ﴿لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ﴾ مُلكًا وخلقًا وعبيدًا. ﴿إنْ﴾: ما ﴿عِندَكُم مِن سُلطانٍ﴾: حُجّةٍ ﴿بِهذا﴾ الذي تقولونه. ﴿أتَقُولُونَ عَلَى اللهِ ما لا تَعلَمُونَ﴾؟ استفهام توبيخ........

قولُه: (أَو تُرى لَهُ) أو ما بشَّرَ به الملائكةُ عندَ النَّزعِ ﴿وفي الآخِرَةِ﴾ بتلقِّي الملائكةِ إيَّاهم مسلِّمين مبشِّرين بالفوزِ والكرامةِ.

قولُه: (المَذكُورُ) مِن كونِهم مبشَّرينَ في الدَّارَين.

قولُه: (وغَيرَه) والأحسنُ: فينا، أو فيكَ، أو في القرآنِ.

قولُه: (استِئنَافٌ) بمعنى التَّعليل وقُرئ بالفتحِ.

قال تعالى: (﴿اتخَذَ اللهُ ولداً﴾) أي: تبنَّاه.

قولُه: (تَنزِيهاً لَهُ عَن الوَلَدِ) أو تنزياً له عن التَّبنِّي، فإنَّه لا يصلُحُ إلَّا ممَّن يتصوَّرُ له الولدُ، أو تعجُّباً مِن كلِمَتِهم الحمقاءِ.

قولُه: (عَن كُلِّ أَحَدٍ) علَّةٌ لتنزُّهِه.

قولُه: (وإنَّمَا يطلُبُ) الأظهرُ: يتَّخذُ.

قولُه: (مُلكاً...) إلخ تقريرٌ لغِناهُ.

٦٩ ـ ﴿قُلْ: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ بنسبة الولد إليه ﴿لا يُفلِحُونَ﴾: لا يَسعدون. ٧٠ ـ لهم ﴿مَتَاعٌ﴾ قليل ﴿في الدُّنيا﴾، يتمتّعون به مُدّة حياتهم، ﴿ثُمَّ إِلَينا مَرجِعُهُم﴾ بالموت، ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ العَذابَ الشَّدِيدَ﴾ بعدَ الموت ﴿بِما كانُوا يَكفُرُونَ﴾.

٧١ ـ ﴿واتلُ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿عليهِم﴾ أي: كُفّارِ مكّةَ ﴿نَبَأَ﴾: خبرَ ﴿نُوحٍ﴾، ويُبدل منه: ﴿إِذْ قالَ لِقَومِهِ: يا قَومِ، إن كانَ كَبُرَ﴾: شقَّ ﴿عَلَيكُمْ مَقامِي﴾: لُبثي فيكم، ﴿وتَذكِيرِي﴾: وعظي إيّاكم ﴿بِآياتِ اللهِ، فعلَى اللهِ تَوَكَّلتُ، فأجمِعُوا أمرَكُم﴾: اعزِموا على أمرٍ تفعلونه بي ﴿وشُركاءَكُم﴾، الواو بمعنى: مع، ﴿ثُمَّ لا يَكُنْ أمرُكُم عليكُم غُمَّةً﴾: مستورًا، بل أظهروه وجاهروني به، ﴿ثُمَّ اقضُوا إلَيَّ﴾: أمضُوا فيَّ ما أردتموه، ﴿ولا تُنظِرُونِ﴾: تُمهلونِ..

قولُه: (بنسبةِ الولَدِ) والشَّريكِ.

قولُه: (لهُم) أشارَ إلى أنَّ ﴿متاع﴾ مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ.

قولُه: (خَبَرَ ﴿نوح﴾) معَ قومِهِ.

قولُه: (شقَّ) وعظُمَ.

قولُه: (لُبثِي) أي: كَوْني وإقامَتي بينكم مدَّةً مديدةً، أو نفسِي، أو قيامِي على الدَّعوةِ.

قولُه: (اعزِمُوا عَلى أمْرٍ) قالَ الكِسائيُّ: يقالُ: أجمعْتُ الأمرَ وعلى الأمرِ: إذا عزمْتَ عليه، والأمرُ مُجمَعٌ. كذا في «الصِّحاحِ»[1].

قولُه: (بِي) وفي نسخةٍ: «فيَّ» بتشديدِ الياءِ.

قولُه: (الواوُ بمَعنَى: مَع) وقيل: إنَّه منصُوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه: وادعُوا شُركاءَكم، وهي روايةٌ عن يعقوبَ[2]. قال في «الصِّحاحِ»[3] أي: وادعُوا شُركاءَكم؛ لأنَّه لا يقالُ: أجمعْتُ شركائي، إنَّما يقالُ: جمعْتُ، قال الشَّاعرُ[4]:

يَا لَيتَ زَوجَكِ في الوَغَى   مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمحاً

---

(١) انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٩٩).

(٢) لم أجدها عن يعقوب هكذا، وجاء عنه أنه قرأ وحده (وشركاؤُكم) بضم الهمزة، انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ٢٣٥).

وجاء في قراءة شاذة عن أُبي (فادعوا شركاءكم ثم أجمعوا أمركم) انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٢٨).

(٣) انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٩٩).

(٤) قائله عبد الله بن الزبعري، انظر: «ديوانه» (ص: ٣٢).

فإني لست مُباليًا بكم، ٧٢ ـ ﴿فإن تَوَلَّيتُم﴾ عن تذكيري ﴿فما سألتُكم مِن أجرٍ﴾: ثواب عليه، فتولَّوا. ﴿إنْ﴾: ما ﴿أجرِيَ﴾ ثوابي ﴿إلاّ على اللهِ، وأُمِرتُ أن أكُونَ مِنَ المُسلِمِينَ﴾.

٧٣ ـ ﴿فكَذَّبُوهُ، فنَجَّيناهُ ومَن مَعَهُ في الفُلكِ﴾ السفينة، ﴿وجَعَلْناهُم﴾ أي: مَن معه ﴿خَلائفَ﴾ في الأرض، ﴿وأغرَقْنا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا﴾ بالطوفان. ﴿فانظُرْ: كَيفَ كانَ عاقِبَةُ المُنذَرِينَ﴾ من إهلاكهم؟ فكذلك نفعل بمن كذَّبك.

٧٤ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِن بَعدِهِ﴾ أي: نُوحٍ ﴿رُسُلاً إلَى قَومِهِم﴾ كإبراهيمَ وهُودٍ وصالح، ﴿فجاؤُوهُم بِالبَيِّناتِ﴾: بالمُعجزات، ﴿فما كانُوا لِيُؤمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبلُ﴾ أي: قبلِ بعثِ الرُّسلِ إليهم. ﴿كَذلِكَ نَطبَعُ﴾: نَختِمُ ﴿علَى قُلُوبِ المُعتَدِينَ﴾، فلا تَقبل الإيمانَ كما طبعنا على قلوب أُولئك.

٧٥ ـ ٧٦ ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنا مِن بَعدِهِم مُوسَى وهارُونَ إلَى فِرعَونَ ومَلَئِهِ﴾: قومِه ﴿بِآياتِنا﴾ التسع، ﴿فاستَكبَرُوا﴾ عن الإيمان بها، ﴿وكانُوا قَومًا مُجرِمِينَ، فلَمّا جاءَهُمُ الحَقُّ مِن عِندِنا قالُوا: إنَّ هذا لَسِحرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنٌ ظاهر. ٧٧ ـ ﴿قالَ مُوسَى: أتَقُولُونَ لِلحَقِّ لَمّا جاءَكُم﴾: إنه لَسحر؟ ﴿أسِحرٌ هذا﴾، وقد أفلح من أتى به وأبطل سِحرَ السحَرة، ﴿ولا يُفلِحُ السّاحِرُونَ﴾؟ والاستفهام في الموضعين للإنكار.

٧٨ ـ ﴿قالُوا: أجِئتَنا لِتَلفِتَنا﴾: لتردّنا ﴿عَمّا وَجَدْنا علَيهِ آباءَنا، وتَكُونَ لَكُما الكِبرِياءُ﴾: المُلك ﴿في الأرضِ﴾ أرض مصر؟ ﴿وما نَحنُ لَكُما بِمُؤمِنِينَ﴾: مُصدّقين........

أي: وحاملاً رمحاً؛ لأنَّ الرُّمح لا يُتقلَّدُ.

قولُه: (مُبَالياً) ثقةً بالله تعالى.

قولُه: (فتَوَلَّوا) بحذفِ التَّاءِ.

قولُه: (أي: قَبلِ بَعثِ الرُّسُلِ) والمعنى: فما استقامَ لهم أنْ يؤمنُوا لشدَّةِ شَكيمَتِهم في الكفرِ وخِذلانِ اللهِ إيَّاهم بسببِ تعوُّدِهم تكذيبَ الحقِّ، وتمرُّنِهم عليه قبلَ بعثةِ الرُّسلِ.

قولُه: (نَختِمُ) وفي أمثالِ ذلكَ دليلٌ على أنَّ الأفعالَ واقعةٌ بقُدرَةِ اللهِ وكسبِ العبدِ.

قولُه: (بِهَا) أي: بالآياتِ، وفي نسخةٍ: «بهِمَا» أي: بموسَى وهارونَ.

قولُه: (ظاهِرٌ) أنَّه سحرٌ.

قولُه: (إنَّه لَسِحرٌ) فحُذِفَ المحكيُّ للقولِ لدِلالةِ ما قبلَهُ عليه.

قولُه: (المُلْكُ) سُمِّيَ بها لاتِّصافِ الملوكِ بالكِبْرِ، أو التَّكبُّرِ على النَّاسِ باستتباعِهِم.

٧٩ـ ﴿وقالَ فِرعَونُ: ائتُوني بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ﴾: فائق في عِلم السِّحر.

٨٠ـ ٨١ـ ٨٢ـ ﴿فلَمّا جاءَ السَّحَرةُ قالَ لَهُم مُوسَى﴾، بعد ما قالوا له: «إمّا أن تُلقِيَ، وإمّا أن نَكُونَ نَحنُ المُلقِينَ»: ﴿ألقُوا ما أنتُم مُلقُونَ. فلَمّا ألقَوا﴾ حِبالهم وعِصيَّهم ﴿قالَ مُوسَى: ما﴾: استفهاميّة مبتدأ خبرُه: ﴿جِئتُم بِهِ؟ آلسِّحرُ﴾؟ بدل. وفي قراءة بهمزة واحدة إخبارٌ. فما: موصول مبتدأ. ﴿إنَّ اللهَ سَيُبطِلُهُ﴾: سيمحقه ـ ﴿إنَّ اللهَ لا يُصلِحُ عَمَلَ المُفسِدِينَ ـ ويُحِقُّ﴾: يُثبتُ ويُظهر ﴿اللهُ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ﴾: بمواعيده، ﴿ولَو كَرِهَ المُجرِمُونَ﴾.

٨٣ـ ﴿فما آمَنَ لِمُوسَى إلاّ ذُرِّيَّةٌ﴾: طائفة ﴿مِن﴾ أولاد ﴿قَومِهِ﴾ أي: فرعونَ، ﴿علَى خَوفٍ مِن فِرعَونَ ومَلَئِهِم أن يَفتِنَهُم﴾: يصرفهم عن دِينه بتعذيبه. ﴿وإنَّ فِرعَونَ لَعالٍ﴾: مُتكبّرٌ ﴿في الأرضِ﴾: أرض مصر، ﴿وإنَّهُ لَمِنَ المُسرِفِينَ﴾: المُتجاوزين الحدَّ بادّعاء الربوبيّة.

قولُه: (فائق) وحمزةُ والكِسائيُّ: (سحَّار)[1].

قولُه: (بدَلٌ) أي: مِن ﴿ما﴾.

قولُه: (وفي قراءةٍ) لغيرِ البصريِّ[2].

قولُه: (فـ﴿ما﴾ مَوصُولٌ) أي: الذي جئتُم به هو السِّحرُ، لا ما سمَّاه فرعونُ وقومُه سحراً.

قولُه: (سَيَمْحَقُه) أو سيُظهِرُ بطلانَه.

قولُه: (بمَوَاعِيدِهِ) أو بأوامرِه وقضاياهُ.

قولُه: (أي: فِرعَونَ) والذُّرِّيةُ مؤمنُ آل فرعونَ، وامرأتُه آسيةُ، وخازنُه وزوجتُه وماشطتُه.

قولُه: (يَصرِفَهُم) وقولُه تعالى: (﴿على خَوفٍ﴾) أي: مع خوفٍ منهم، والضَّميرُ في ﴿ملئهم﴾ لفرعونَ وجمعِهِ على ما هو المعتادُ في أساليبِ العربِ في ضميرِ العُظَماءِ، أو للذُّرِّيةِ، أو للقومِ، وإفرادُ فرعَونَ بضميرِ ﴿أن يفتِنَهم﴾ للدِّلالةِ على أنَّ الخوفَ مِن الملأِ كان بسببِه.

قولُه: (مُتكبِّرٌ) أو غالبٌ.

قولُه: (الحَدَّ) في الكِبرِ والعتُوِّ.

قولُه: (بادِّعَاءِ الرُّبُوبيَّةِ) واسترقاقِ أسباطِ الأنبياءِ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٣٣٥).

(٢) انظر المصدر السابق.

٨٤ ـ ٨٥ ـ ﴿وقالَ مُوسَى: يا قَومِ، إن كُنتُم آمَنتُم بِاللهِ فعَلَيهِ تَوَكَّلُوا، إن كُنتُم مُسلِمِينَ. فقالُوا: علَى اللهِ تَوَكَّلْنا. رَبَّنا، لا تَجعَلْنا فِتْنَةً لِلقَومِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا تُظهِرْهم علينا، فيظنّوا أنهم على الحقّ فيُفتَتَنوا بنا، ٨٦ ـ ﴿ونَجِّنا بِرَحْمتِكَ مِنَ القَومِ الكافِرِينَ﴾.

٨٧ ـ ﴿وأَوحَينا إلَى مُوسَى وأخِيهِ أن تَبَوَّآ﴾: اتّخِذا ﴿لِقَومِكُما بِمِصرَ بُيُوتًا، واجعَلُوا بُيُوتَكُم قِبْلَةً﴾: مُصلًّى تُصلّون فيه لتأمنوا من الخوف ـ وكان فِرعَون منعهم من الصلاة ـ ﴿وأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾: أتمّوها، ﴿وبَشِّرِ المُؤمِنِينَ﴾ بالنصر والجنّة.

٨٨ ـ ﴿وقالَ مُوسَى: رَبَّنا، إنَّكَ آتَيتَ فِرعَونَ ومَلَأَهُ زِينةً وأمْوالاً في الحَياةِ الدُّنيا، رَبَّنا،﴾ آتيتَهم ذلك ﴿لِيَضِلُّوا﴾ في عاقبته ﴿عَن سَبِيلِكَ﴾: دِينك. ﴿رَبَّنا، اطمِسْ علَى أمْوالِهِم﴾: امسَخْها، ﴿واشدُدْ علَى قُلُوبِهِم﴾: اطبعْ عليها واستَوثِقْ، ﴿فلا يُؤمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذابَ الألِيمَ﴾: المُؤلم. دعا عليهم وأمَّنَ هارونُ على دعائه.

٨٩ ـ ﴿قالَ﴾ تعالى: ﴿قَد أُجِيبَتْ دَعوَتُكُما﴾ فمُسخَت أموالُهم حِجارةً، ولم يُؤمن فرعون حتّى أدركه الغرق. ﴿فاستَقِيما﴾ على الرسالة والدعوة إلى أن يأتيهم العذاب، ﴿ولا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعلَمُونَ﴾ في استعجال قضائي. رُوي أنه مكث بعدها أربعين سنة.

وقولُه تعَالَى: (﴿فتنة﴾) أي: موضِعَ فتنةٍ.

قولُه: (فيُفتَتَنوا بنَا) أو لا تسلِّطْهم علينَا فيفتِنُونا.

قولُه: (مُصلًّى) أي: اجعَلوا أنتما وقومُكما تلكَ البيوتَ ذواتَ قِبلةٍ؛ أي: مُصلًّى، وقيل: مساجدَ متوجهةً نحوَ القبلةِ؛ يعني: الكعبةَ، وكان موسى يصلِّي إليها.

قولُه: (أتِمُّوهَا) أو أقيمُوها فيها.

قولُه: (بالنَّصرِ) في الدُّنيا (والجنَّةِ) في العُقبى.

قالَ تعالى: (﴿زينة﴾) أي: ما يُتزيَّنُ به مِن اللِّباسِ والمراكبِ ونحوِهما.

وقولُه: (﴿أموالاً﴾) يعني: أنواعاً مِن المالِ.

قولُه: (في عاقِبتِه) إشارةٌ إلى أنَّ اللّامَ للعاقبَةِ، وهي متعلِّقةٌ بـ﴿آتيت﴾ وقرأَ الكوفيُّونَ بضمِّ الياءِ[1].

قولُه: (امسَخْهَا) أو أهلِكْها، والطَّمسُ المحوُ.

---

(١) انظر: «حجة القراءات» (ص: ٣٣٥).

٩٠ - ﴿وجاوَزْنا بِبَنِي إسرائيلَ البَحرَ، فأتبَعَهُم﴾: لَحِقَهم ﴿فِرعَونُ وجُنودُهُ بَغْيًا وعَدْوًا﴾: مفعول له. ﴿حَتَّى إذا أدرَكَهُ الغَرَقُ قالَ: آمَنتُ أنَّهُ﴾ أي: بأنه - وفي قراءة بالكسر استئنافًا - ﴿لا إلـٰـهَ إلاّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيلَ، وأنا مِنَ المُسلِمِينَ﴾. كرّر ليُقبل منه، فلم يُقبل.

ودسّ جبريل في فِيه من حَمْأة البحر مخافةَ أن تناله الرحمة، وقال له: ٩١ - ﴿آلآنَ﴾ تُؤمن، ﴿وقَد عَصَيتَ قَبلُ، وكُنتَ مِنَ المُفسِدِينَ﴾ بضلالك وإضلالك عن الإيمان؟ ٩٢ - ﴿فاليَومَ نُنَجِّيكَ﴾: نُخرجك من البحر، ﴿بِبَدَنِكَ﴾: جسدِك الذي لا روح فيه، ﴿لِتَكُونَ لِمَن خَلْفَكَ﴾: بعدَك ﴿آيَةً﴾: عِبرة، فيعرفوا عُبوديّتك ولا يُقدموا على مِثل فِعلك..........................

قولُه: (لَحِقَهُم) وأدركَهُم، يقال: تبعتُه حتَّى أَتبعتُه. عن ابنِ مسعودٍ مرفوعاً: «ألَا أعلِّمُكم الكلماتِ التي تكلَّمَ بها موسَى حينَ جاوزَ البحرَ ببَنِي إسرائيلَ؟» فقلنا: بلى يا رسُولَ اللهِ، قال: «قولوا: اللَّهمَّ لكَ الحمدُ وإليك المشْتكَى، وأنتَ المستعَانُ، ولا حَولَ ولا قوَّةَ إلَّا باللهِ العليِّ العظيمِ». رواه الطَّبرانيُّ في «معجمه الصَّغيرِ»[1] بإسنادٍ جيِّدٍ.

قولُه: (مَفعُولٌ لهُ) أو حالٌ؛ أي: باغينَ وعادِينَ.

قولُه: (وفِي قِراءَةٍ) لحمزةَ والكِسائيِّ[2].

قولُه: (استِئنَافاً) بدلاً وتفسيراً، أو على إضمَارِ القَولِ.

قولُه: (كرَّر) أي: نكبَ عن الإيمانِ أوانَ القَبولِ، وبالغَ فيه حينَ لا يُقبَلُ.

قولُه: (تُؤمِن) أو أتؤمِنُ الآنَ وقد أيسْتَ من نفسِكَ ولم يبقَ لكَ اختيارٌ.

قولُه: (نُخرِجُك) أي: نُلقيكَ في نَجوةٍ مِن الأرضِ؛ أي: فضاءٍ أو مكانٍ مرتفعٍ[3]؛ ليرَوا حالَكَ ومآلَكَ، أو نبعدُكَ ممَّا وقعَ فيه قومُكَ من قعرِ البحرِ ونجعلُكَ طافياً.

قولُه: (جسَدِكَ) في موضعِ الحالِ؛ أي: عارياً عن الرُّوحِ، أو عُرياناً، أو كاملاً سويًّا، أو بدرعِكَ؛ وكانت له درعٌ مِن ذهبٍ يُعرَفُ بها.

قولُه: (بعدَكَ) من القرونِ إذا سمِعُوا مآلَ أمرِكَ ممَّنْ شاهدَكَ.

قولُه: (عِبرَةً) ونكالاً عن الطُّغيانِ.

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الصغير» (٣٣٩).

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٦).

(٣) «أو مكان مرتفع»: ليست في (ص).

وعن ابن عبّاس أنّ بعض بني إسرائيل شكّوا في موته، فأُخرج لهم ليرَوه. ﴿وإنَّ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿عَن آياتِنا لَغافِلُونَ﴾: لا يعتبرون بها.

٩٣ ـ ﴿ولَقَد بَوَّأْنا﴾: أنزلنا ﴿بَنِي إسرائيلَ مُبَوَّأَ صِدقٍ﴾: منزلَ كرامةٍ ـ وهو الشام ومصر ـ ﴿ورَزَقْناهُم مِنَ الطَّيِّباتِ، فما اختَلَفُوا﴾ بأن آمن بعض وكفر بعض ﴿حَتّى جاءَهُمُ العِلمُ. إنَّ رَبَّكَ يَقضِي بَينَهُم يَومَ القِيامةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَختَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين بإنجاء المُؤمنين وتعذيب الكافرين.

٩٤ ـ ﴿فإن كُنتَ﴾ ـ يا مُحمّد ـ ﴿في شَكٍّ مِمّا أنزَلْنا إلَيكَ﴾ من القَصَص، فَرْضًا، ﴿فاسألِ الَّذِينَ يَقرَؤُونَ الكِتابَ﴾: التوراة ﴿مِن قَبلِكَ﴾ ـ فإنه ثابت عندهم ـ يخبروك بصدقه. قال ﷺ: «لا أشُكُّ ولا أسألُ». ﴿لَقَد جاءَكَ الحَقُّ مِن رَبِّكَ. فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمتَرِينَ﴾: الشاكّين فيه، ٩٥ ـ ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللهِ، فتَكُونَ مِنَ الخاسِرِينَ﴾.

٩٦ ـ ٩٧ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ﴾: وجبتْ ﴿عَلَيهِم كَلِمةُ رَبِّكَ﴾ بالعذاب ﴿لا يُؤمِنُونَ، ولَو جاءَتْهُم كُلُّ آيةٍ، حَتّى يَرَوُا العَذابَ الألِيمَ﴾ فلا ينفعهم حينئذ. ٩٨ ـ ﴿فلَولا﴾: فهلاّ ﴿كانَت قَريةٌ﴾، أُريد أهلُها، ....

قولُه: (ليَروهُ) فعلى هذا معنى ﴿خلفَكَ﴾ وراءكَ علامةً.

قولُه: (وكَفَرَ بَعضٌ) أي: في أمرِ دينِهم إلّا مِن بعدِ ما قَرَؤوا التَّوراةَ وعلِمُوا أحكامَها، أو في أمرِ محمَّدٍ ﷺ، إلّا مِن بعدِ ما علمُوا صدْقَه بنُعوتِه وتظاهُرِ معجزاتِه.

قولُه: (يُخبِرُوك) والمرادُ تحقيقُ ذلك وتهييجُ الرَّسولِ وزيادةُ تثبيتِهِ لا إمكانُ وقوعِ الشَّكِّ له، ولذلك قال ﷺ: «لا أشُكُّ ولا أسأَلُ»[1] وقيل: الخطابُ للنَّبيِّ والمرادُ أمَّتُه، أو لكلِّ مَن يسمَعُ.

قولُه: (فيهِ) أي: فيما أنزلنا إليكَ.

قولُه: (بالعَذَابِ) أو بالموتِ على الكفرِ.

قولُه: (حِينَئذٍ) كما لم ينفَعْ فرعونَ.

قولُه: (فهلّا) للتَّنديمِ؛ لأنَّها دخلَتْ على المضِيِّ، كذا قالَه الفاضِلُ.

قولُه: (أُرِيدَ أهلُها) أي: قريةٌ مِن القُرى التي أهلكْنَاها.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١١٧٣)، والطبري في «تفسيره» (١٧٨٩٤) عن قتادة بلاغاً، وقال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ١٤٠): هو معضل.

﴿آمَنَت﴾ قبل نُزول العذاب بها، ﴿فنَفَعَها إيمانُها، إلاّ﴾ لكنّ ﴿قَومَ يُونُس، لَمّا آمَنُوا﴾ عِند رؤية أمارة العذاب ولم يُؤخِّروا إلى حُلوله ﴿كَشَفْنا عَنهُم عَذابَ الخِزيِ في الحَياةِ الدُّنيا، ومَتَّعْناهُم إلَى حِينٍ﴾: انقضاءِ آجالهم.

٩٩ ـ ﴿ولَو شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن في الأرضِ كُلُّهُم جَمِيعًا ـ أفأنتَ تُكرِهُ النّاسَ﴾ بما لم يشأه الله منهم، ﴿حَتَّى يَكُونُوا مُؤمِنِينَ﴾؟ لا ـ ١٠٠ ـ ﴿وما كانَ لِنَفسٍ أن تُؤمِنَ إلاّ بِإذنِ اللهِ﴾: بإرادته، ﴿ويَجعَلُ الرِّجسَ﴾: العذاب ﴿علَى الَّذِينَ لا يَعقِلُونَ﴾: يتدبّرون آياتِ الله.

١٠١ ـ ﴿قُلِ﴾ لكُفّار مكّة: ﴿انظُرُوا ماذا﴾ أيِ: الذي ﴿في السَّماواتِ والأرضِ﴾ من الآيات الدالّة على وحدانيّة الله تعالى. ﴿وما تُغنِي الآياتُ والنُّذُرُ﴾: جمع نذير، أي: الرُّسلُ، ﴿عَن قَومٍ لا يُؤمِنُونَ﴾ في عِلم الله، أي: ما تَنفعهم. ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ﴿فهَل﴾: فما ﴿يَنتَظِرُونَ﴾ بتكذيبك ﴿إلاّ مِثلَ أيّامِ الَّذِينَ خَلَوا مِن قَبلِهِم﴾ من الأُمم، أي: مِثلَ وقائعهم من العذاب؟ ـ ﴿قُلْ: فانتَظِرُوا﴾ ذلك. ﴿إنِّي مَعَكُم مِنَ المُنتَظِرِينَ ـ ثُمَّ نُنَجِّي﴾ ـ المضارع لحكاية الحال الماضية ـ ﴿رُسُلَنا والَّذِينَ آمَنُوا﴾ من العذاب.

قولُه: (قبلَ نُزُولِ العَذَابِ) ولم تؤخِّرِ الإيمانَ إليه كما أَخَّرَ فرعونُ.

وقولُه تعالى: (﴿فنَفَعَها إيمانُها﴾) بأنْ يقبلَه اللهُ منها، ويكشفَ العذابَ عنها.

قولُه: (لكِنْ ﴿قَوْمَ يُونُسَ﴾) هم أهلُ قريةِ نينَوَى بشاطئِ دجلةَ مِن بلادِ الموصلِ.

قولُه: (العَذابِ) أو الخِذْلانِ؛ فإنَّه سببُه، وقُرئَ بالزَّاي[1]، وقرأَ أبو بكرٍ: (ونجعلُ) بالنُّونِ[2].

قولُه: (أي: الَّذِي) يعني: أنَّ ﴿ماذا﴾ كلَّه موصُولٌ بمعنى الَّذِي، وهو أحدُ معانِيهِ على مَا في «المغني»[3].

قولُه: (أي: مَا تنفَعُهُم) فـ﴿ما﴾ نافيةٌ، وقيل: استفهاميَّةٌ في موضعِ النَّصبِ.

قولُه: (مِثلَ وَقائعِهم) مِن قولِهم: أيَّامُ العربِ لوقائعِها.

قولُه: (ذلكَ) أي: مثلَ وقائعِهِم، أو هلاكِي.

قولُه: (المَاضِيَةِ) عطفٌ على محذوفٍ دلَّ عليهِ ﴿إلَّا مثلَ أيَّامِ الذينَ خلَوا﴾[يونس: ١٠٢] كأنَّه قيل: نُهلِكُ الأمَمَ.

---

(١) أي: (الرجز) وهي قراءة شاذة، انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٣٠) ونسبت للأعمش.

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٠).

(٣) انظر: «مغني اللبيب» (ص: ٣٩٥).

﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإنجاءِ ﴿حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: النبيَّ وأصحابه حين تعذيب المُشركين.

١٠٤ـ١٠٥ـ١٠٦ ـ ﴿قُلۡ: يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي أهلَ مكّةَ، ﴿إِن كُنتُمۡ فِي شَكࣲّ مِّن دِينِي﴾ أنّه حقّ ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيرَه ـ وهو الأصنام ـ لشكّكُم فيه، ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ يَقبِضُ أرواحكم، ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ﴾ أي: بأن ﴿أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، و﴿ قيل لي: ﴿أَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفࣰا﴾: مائلاً إليه، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ، وَلَا تَدۡعُ﴾: تعبدْ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن عبدتَه، ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن لم تعبده. ﴿فَإِن فَعَلۡتَ﴾ ذلك، فرَضًا، ﴿فَإِنَّكَ إِذࣰا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

١٠٧ ـ ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ﴾: يُصِبْك ﴿ٱللَّهُ بِضُرࣲّ﴾ كفقر ومرض ﴿فَلَا كَاشِفَ﴾: رافعَ ﴿لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرࣲ فَلَا رَآدَّ﴾: دافعَ ﴿لِفَضۡلِهِۦ﴾ الذي أرادك به. ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بالخير ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قولُه: (الإِنجَاءِ) أو إنجاءٌ كذلك. و﴿حقاً علينا﴾ اعتراضٌ، ونصبُه بفعلٍ مقدَّرٍ، و﴿نُنجِ﴾ بالتَّخفيفِ قراءةُ حفصٍ والكِسائيِّ[1]، والرَّسمُ بحذفِ الياءِ.

قولُه: (لشكِّكُم فيهِ) أي: في دِينِي؛ يعني: فهذا خُلاصَةُ دِينِي اعتقاداً وعملاً.

قولُه: (يَقبِضُ) خُصَّ بالذِّكرِ للتَّهديدِ.

قولُه: (بأَنْ) حذفُ الجارِّ مِن ﴿أن﴾ يجوزُ أن يكونَ من المطَّرِدِ مع «أنْ» و«أنَّ» وأن يكونَ من غيرِ المطَّرِدِ؛ كقولك:

أمرتُكَ الخيرَ فافعلْ ما أُمِرْتَ بهِ[2]

قولُه: (﴿و﴾ قِيلَ لِي) في «المدارِكِ»[3]: وأُوحيَ إليَّ. وهو الظَّاهرُ، فتكونُ ﴿أن﴾ مفسِّرةً.

قولُه: (إِلَيهِ) أي: إلى الدِّينِ الحقِّ عن سائرِ الأديانِ، حالٌ مِن الدِّينِ، أو الوجهِ، أو مِن ضميرِ ﴿أقم﴾.

قالَ تعَالى: (﴿إلَّا هو﴾) أي: إلَّا اللهُ.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٣٠)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٣٧).

(٢) شطر بيت تتمته:

فقد تركتك ذا مالٍ وذا نسبِ

لعمرو بن معديكرب الزبيري «الكتاب» لسيبويه (١/ ٣٧).

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٢/ ٤٤).

١٠٨ ـ ﴿قُلْ: يا أيُّها النّاسُ﴾ أي أهلَ مكّة، ﴿قَد جاءَكُمُ الحَقُّ مِن رَبِّكُم. فمَنِ اهتَدَى فإنَّما يَهتَدِي لِنَفسِهِ﴾ لأنّ ثواب اهتدائه له، ﴿ومَن ضَلَّ فإنَّما يَضِلُّ عَلَيها﴾ لأنّ وبال ضلاله عليها، ﴿وما أنا عَلَيكُم بِوَكِيلٍ﴾ فأُجبرَكم على الهُدى. ١٠٩ ـ ﴿واتَّبِعْ ما يُوحَى إلَيكَ، واصبِرْ﴾ على الدعوة وأذاهم ﴿حَتَّى يَحكُمَ اللهُ﴾ فيهم بأمر. ﴿وهُوَ خَيرُ الحاكِمِينَ﴾: أعدَلُهم. وقد صبر حتّى حُكم على المشركينَ بالقِتال، وأهلِ الكِتاب بالجِزية.

قالَ تعالى: (﴿الحقُّ﴾) رسولُه، أو القرآنُ، ولم يبقَ لكُم عُذرٌ.

قولُه: (فأُجبِرَكُم) أي: ما أنا بموكولٍ إليَّ أمرُكم، وإنَّما أنا بشيرٌ ونذِيرٌ.

قولُه: (بأَمرِهِ) بالنَّصرِ أو بالقتَالِ، والله تعالى أعلمُ.

* * *

سورة يونس

مكّيةٌ على المشهور، واستثنى منها بعضُهم ثلاثَ آيات: (فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ) (أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ) (وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ) قال: إنَّها نَزَلَت في المدينة[1].

وحَكَى ابنُ الفرس والسَّخاويُّ أن مِن أوّلها إلى رأس أربعين آيةً مكيٌّ، والباقي مدني[2].

وعن ابن عباس ﷺ روايتان؛ فأخرج ابنُ مردويه من طريق العوفيِّ عنه، ومِن طريق ابنِ جريج عن عطاء عنه أنَّها مكيةٌ، وأخرجَ من طريق عثمانَ بن عطاء عن أبيه عنه أنَّها مدنية[3]. والمعوَّلُ عليه عند الجمهور الرواية الأولى.

وآياتها مئةٌ وتسعٌ عند الجميع غيرَ الشاميِّ فإنَّها عنده مئة وعشرُ آيات.

ووجهُ مناسَبتها لسورة براءة أنَّ الأولى خُتِمَت بذكر الرسول ﷺ وهذه ابتُدئت به. وأيضاً أنَّ في الأولى بياناً لِمَا يقولُه المنافقون عند نزول سورةٍ من القرآن، وفي هذه بيانٌ لِمَا يقوله الكفارُ في القرآن، حيث قال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] الآية، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

---

(١) كذا ذكر المصنف هذه الآيات الثلاث من سورة هود في هذا الموضع، وهو وهم منه رحمه الله، وينظر الإتقان للسيوطي ١/ ٤٥. وقد استثني من هذه السورة ثلاث آيات أيضاً، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ إلى آخرهن، ينظر النكت والعيون ٢/ ٤٢٠، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٤٥، والبحر ٥/ ٢٢١. وقال السيوطي في الإتقان ١/ ٤٤: استثني منها: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ الآيتين [٩٤-٩٥] وقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ الآية [٤٠].

(٢) جمال القراء للسخاوي ١/ ١٢٢، ونقله المصنف عنه وعن ابن الفرس بواسطة السيوطي في الإتقان ١/ ٤٥.

(٣) الإتقان ١/ ٣٥-٣٦.

وأيضاً في الأولى ذمُّ المنافقين بعدم التوبة والتذكُّرِ إذا أصابهم البلاءُ في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦] على أحد الأقوال، وفي هذه ذمٌّ لمن يُصيبه البلاء فيَرْعَوي ثمَّ يعودُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ وفي قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢] إلى أنْ قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣].

وأيضاً في الأولى براءةُ الرسولِ ﷺ من المشركين مع الأمرِ بقتالهم على أتمِّ وجهٍ، وفي هذه براءتُه ﷺ من عملهم، لكنْ من دون أمرٍ بقتال، بل أُمِرَ فيها عليه الصلاة والسلام أنْ يُظهر البراءة فيها على وجهٍ يُشعر بالإعراض وتَخْليةِ السبيل كما قيل، على ضدِّ ما في الأولى، وهذا نوعٌ من المناسبة أيضاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]. إلى غير ذلك.

والعجبُ من الجلال السيوطي عليه الرحمة كيف لَم يَلُحْ له في «تناسق الدرر» وجْهُ المناسبة بين السورتَين وذكر وجْهَ المناسبة بين هذه السورة وسورةِ «الأعراف»[1]، وقد يُوجد في الأسقاط ما لا يوجد في الأسفاط.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الر﴾ بتفخيم الراء المفتوحةِ وهو الأصلُ، وأمال أبو عمرو وبعضُ القرَّاء[2] إجراءً لألف الراء مجرَى الألف المنقلبة عن الياء، فإنَّهم يُميلونها تنبيهاً على أصلها، وفي الإمالةِ هنا دفعُ توهُّمِ أنَّ «ر»[3] حرف كـ: ما ولا، فقد صرَّحوا أنَّ

(١) تناسق الدرر ص٥٩.
(٢) وهم ابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وخلف. التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٦٦.
(٣) في الأصل: را.

الحروف يمتنعُ فيها الإمالة. وقرأ ورش بَيْنَ بَيْن[1].

والمراد من «الر» على ما رَوى جماعةٌ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما: أنا الله أرى[2]. وفي روايةٍ أُخرى: أنَّها بعضُ «الرحمن»، وتمامُه: (حمٓ) (نٓ)[3].

وعن قتادة أنَّها بعضُ الراحم، وهو من أسماء القرآن.

وقيل: هي أسماءٌ للأحرف المعلومة من حروف التهجِّي، أُتي بها مسرودةً على نمط التَّعْدِيد بطريق التحدِّي، وعليه فلا محلَّ لها من الإعراب، والكلامُ فيها وفي نظائرها شهيرٌ.

والأكثرون على أنَّها اسمٌ للسورة، فمحلُّها الرفعُ على أنَّها خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، أي: هذه السورةُ مسماةٌ بكذا، وهو أظهرُ من الرفع على الابتداء؛ لعدمِ سَبْقِ العلم بالتسمية بعد، فحقُّها الإخبارُ بها لا جعلُها عنوانَ الموضوع لتوقُّفِهِ على عِلْمِ المخاطَبِ بالانتساب، والإشارةُ إليها قبل جريان ذِكْرِها لصَيْرورَتِها في حُكْمِ الحاضر لاعتبارِ كونها على جناح الذكر، كما يقال في الصكوك: هذا ما اشترى فلانٌ، وجوّز النصبُ بتقدير فعلٍ لائقٍ بالمقام كـ: اذكر، واقرأ.

وكلمةُ ﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إليها:

أمَّا على تقديرِ كون «الر» مسروداً على نَمَط التعديد، فقد نُزِّل حضورُ مادتها منزلةَ ذكرها، فأُشير إليها، كأنَّه قيل: هذه الكلماتُ المؤلفةُ من جنس هذه الحروفِ المبسوطة. . إلخ.

وأمَّا على تقدير كونها اسماً للسورة، فقد نَوَّهَتْ بالإشارة إليها بعد تَنْويهها بتعيين اسمها، أو الأمرِ بذِكْرِها أو بقراءتها. وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعْدِ للتنبيه على بُعْدِ منزلتها في الفخامة، ومحلُّه الرفع على أنَّه مبتدأ خبره قولُه عزَّ وجل: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وعلى تقدير كون «الر» مبتدأً فهو إمَّا مبتدأٌ ثانٍ، أو بدلٌ من الأول.

---

(١) التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٦٧.
(٢) أخرجه الطبري ١٢/ ١٠٣.
(٣) أخرج هذه الرواية عن ابن عباس الطبري ١٢/ ١٠٣-١٠٤، والنحاس في إعراب القرآن ٢/ ٢٤٣.

والمعنى: هي آياتٌ مخصوصةٌ منه مُترجَمةٌ باسمٍ مُستقلٍّ، والمقصودُ ببيان بعضيَّتها منه وصفيتُها بما أُشير إلى اتِّصافه[1] به من النعوتِ الفاضلة والصفاتِ الكاملة.

والمرادُ بالكتاب إمَّا جميعُ القرآن العظيم وإنْ لم يُنزَّل بعدُ: إمَّا باعتبارِ تَعيُّنِهِ وتحقُّقِهِ في العِلْم أو في اللوح، أو باعتبارِ نُزوله جملةً إلى بيت العزَّة من السماء الدنيا. وإمَّا جميعُ القرآن النازل وقتئذٍ، المتفاهَم بين الناس إذ ذاك، فإنَّه كما يُطلق على المجموع الشخصيِّ يُطلق على مجموع ما نزل في كلٍّ، كذا قال شيخُ الإسلام[2].

وأنت تعلم أنَّ المشهورَ عن السلف تفويضُ معنى «الر» وأمثالِهِ إلى الله تعالى، وحيث لم يظهر المرادُ منها لا معنى للتعرُّض لإعرابها. وقد ذكروا أنَّه يجوز في الإشارة أنْ تكون لآياتِ هذه السورة، وأن تكونَ لآيات القرآن، ويجوز في «الكتاب» أنْ يُراد به السورة وأنْ يُراد به[3] القرآن، فتكون الصُّورُ أربعاً:

إحداها: الإشارةُ إلى آيات القرآن، و«الكتاب» بمعنى السورة، ولا يصحُّ إلا بتخصيص «آيات» أو تأويلٍ بعيد.

وثانيها: عكسُه، ولا محذورَ فيه.

وثالثها: الإشارةُ إلى آيات السورة، و«الكتاب» بمعنى السورة.

ورابعها: الإشارةُ إلى آيات القرآن، و«الكتاب» بمعنى القرآن. ومَرْجِعُ إفادة الكلام عليهما[4] باعتبارِ صفة الكتاب الآتية.

وجوَّز الإشارةُ إلى الآيات لكونها في حكم الحاضر وإنْ لم تُذكر، كما في المثال المذكور آنفاً[5]. وفي «أمالي» ابنِ الحاجب: أنَّ المشارَ إليه لا يُشترط أنْ

(١) في الأصل: وصفيتها بما أشير اتصافه، وفي تفسير أبي السعود ٤/ ١١٥ (والكلام منه): وصفها بما اشتهر اتصافه.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١١٥.

(٣) قوله: به، ليس في (م).

(٤) يعني الثالث والرابع. ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٢.

(٥) وهو قولهم في الصكوك: هذا ما اشترى فلان. حاشية الشهاب ٥/ ٢.

يكونَ موجوداً حاضراً، بل يكفي أنْ يكون موجوداً ذهناً. وفي «الكشاف» في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨] ما يُؤيِّده[١]. وأُوثِرَ لفظُ «تلك» لِمَا أشار إليه الشيخ[٢]، ولكونه في حكم الغائب من وجْهٍ، ولا يخلو ما ذكروه عن دغدغة.

وأمَّا حَمْلُ «الكتاب» على الكتب التي خلَت قبل القرآن من التوراة والإنجيل وغيرهما ـ كما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن قتادة[٣] ـ فهو في غاية البُعْدِ، فتأمَّل.

وقولُه تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ صفةٌ لـ «الكتاب»، ووُصِفَ بذلك لاشتماله على الحِكَم، فيُراد بـ «الحكيم»: ذو الحكمة، على أنَّه للنسبة كـ: لابنٍ وتامرٍ. وقد يُعتَبر تشبيه «الكتاب» بإنسان ناطقٍ بالحكمة على طريق الاستعارةِ بالكناية، وإثباتُ الحكمة قرينةٌ لها.

وجُوِّز أنْ يكون وَصْفُه بذلك لأنَّه كلامُ حكيمٍ، فالمعنى: حكيمٌ قائلُه، فالتجوُّز في الإسناد كـ: ليلُه قائمٌ ونهارُه صائمٌ.

وقيل: لأنَّ آياته محكمةٌ لم يُنسخ منها شيءٌ، أي: بكتابٍ آخر، فَفَعِيل بمعنى مُفْعَل، وقد تقدَّم ما لَه وما عليه.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الهمزةُ لإنكار تعجُّبهم، ولتعجيبِ السامعين منه لوقوعه في غير محلِّه، والمرادُ بالناس كفَّارُ العرب، والتعبيرُ عنهم باسم الجنس من غير تعرُّضٍ لكفرهم الذي هو المدارُ لتعجُّبهم ـ كما تعرَّض له فيما بعد[٤] ـ لتحقيق ما فيه من الشركةِ بين رسول الله ﷺ وبينهم، وتعيينِ مدارِ التعجيب[٥] في زَعْمهم، ثم تَبيينِ خطئهم، وإظهارِ بُطلانِ زَعْمِهم بإيراد الإنكار.

---

(١) الكشاف ٢/ ٤٩٥.
(٢) يعني للتنبيه على بُعد منزلتها في الفخامة، والشيخ هو أبو السعود.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٢.
(٤) وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ تفسير أبي السعود ٤/ ١١٦، والكلام منه.
(٥) في تفسير أبي السعود: التعجب.

واللامُ متعلِّقَةٌ بمحذوفٍ وَقَع حالاً من «عجباً» كما هو القاعدةُ في نعتِ النكرة إذا تقدَّم عليها. وقيل: متعلِّقةٌ بـ «عجباً» بناءً على التوسُّع المشهور في الظروف. وبعضُهم جعَلَها متعلِّقةً به، لا على طريق المفعولية كما في قوله:

عَجِبْتُ لسَعْي الدَّهرِ بيني وبينها[1]

بل على طريق التبيين كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] وسقياً لك، ومثلُ ذلك يجوزُ تقديمه على المصدر. وأنت تعلم أنَّ هذا قولٌ بالتعلُّق بمقدَّرٍ في التحقيق.

وقيل: إنَّها متعلِّقةٌ به؛ لأنَّه بمعنى المعجب، والمصدرُ إذا كان بمعنى مفعولٍ أو فاعلٍ يجوزُ تقديمُ معموله عليه.

وجوِّز أيضاً تعلُّقه بـ «كان» وإنْ كانت ناقصةً بناءً على جوازه.

و«عجباً» خبرُ «كان» قُدِّم على اسمها وهو قوله سبحانه: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ لكونه مَصَبَّ الإنكارِ والتعجيب، وتشويقاً إلى المؤخَّر؛ ولأنَّ في الاسم ضربَ تفصيلٍ ففي تقديمه رعايةً للأصل نوعُ إخلال بتجاوُبِ أطرافِ النَّظْم الكريم.

وقرأ ابنُ مسعود: «عَجَبٌ» بالرفع[2] على أنَّه اسم كان، وهو نكرةٌ، والخبر «أنْ أوحينا» وهو معرفةٌ؛ لأنَّ «أنْ» مع الفعل في تأويلِ المصدرِ المضافِ إلى المعرفة، فهو كقول حسان:

كأنَّ سَبيئةً من بيت رأسٍ يكونُ مزاجَها عَسَلٌ وماءُ[3]

وحَمَله بعضُهم على القَلْب، وفي قبوله مطلقاً أو إذا تضمَّن لطيفةً خلافٌ، والمعوَّلُ عليه اشتراطُ التضمُّن وهو غيرُ ظاهرٍ هنا.

---

(١) وعجزه: فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر، والبيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص١٣٠.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٢، والبحر ٥/ ١٢٢.

(٣) ديوان حسان ص٥٩، والكتاب ١/ ٤٩، والمحتسب ١/ ٢٧٩، والمغني ص٩١١. والسبيئة: الخمر، ورواية الأعلم في شرح الشواهد ص٧٨: كأن سلافة، والسلافة الخمر أيضاً، وقال الأعلم: بيت رأسٍ اسمُ موضعٍ بعينه، وقيل: رأسٌ رئيسُ الخمَّارين، ويقال: هو اسم خمَّارٍ معروف، قال ابن هشام: والأولى رفع المزاج ونصب العسل، وقد روي كذلك أيضاً، فارتفاع ماء بتقدير: وخالطها ماء، ويروى برفعهن على إضمار الشأن.

وحكي عن ابنِ جنِّي أنَّه قال[١]: إنَّما جاز ذلك في البيت من حيث كان «عسل وماء» جنسَين، فكأنَّه قال: يكونُ مزاجَها العسلُ والماء، ونكرةُ الجنس تُفيد مفادَ معرفته، ألا ترى أنَّك تقول: خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب، أي: فإذا الأسدُ بالباب، لا فرقَ بينهما؛ لأنَّك في الموضعين لا تُريد أسداً معيَّناً، ولهذا لم يَجُز هذا في قولك: كان قائمٌ أخاك، وكان جالسٌ أباك؛ لأنَّه ليس في جالس وقائم معنَى الجنسيةِ التي تتلاقَى معنى نكرتها ومعرفتها[٢].

ومعنى الآيةِ على هذا: كان الوحي للناس هذا الجنس من الفعل وهو التعجُّب، ولا يخفَى أنَّ المصدر المتحصِّلَ هو المصدرُ المضافُ إلى المعرفة كما سمعتَ، فاعتبارُه محلًّى بأل الجنسية خلافُ الظاهر.

وأجاز بعضُهم الإخبارَ عن النكرة بالمعرفة[٣] في باب النواسخ خاصَّة، سواءٌ كان هناك نفيٌ أو ما في حُكْمِه، أم لا. وابنُ جنِّي يُجوِّز ذلك إذا كان نفيٌ أو ما في حُكمِه ولا يُجوِّز إذا لم يكن[٤]، وفي الآية قد تقدَّم الاستفهامُ الإنكاريُّ على الناسخ، وهو في حكم النفي.

واختار غيرُ واحدٍ كونَ «كان» تامَّةً، و«عجبٌ» فاعلٌ لها و«أنْ أوحينا» بتقدير حرفِ جرٍّ متعلِّقٍ بـ «عجبٌ» أي: لأنْ أوحينا، أو: مِن أنْ أوحينا، أو هو بدلٌ منه بدلَ كلٍّ من كلٍّ، أو بدلَ اشتمالٍ، والإنكارُ متوجِّه إلى كونه عجباً لا إلى حدوثه، وكونُ الإبدال في حكم تنحيةِ المبدَلِ منه ليس معناه إهدارُه بالمرَّة كما تقرَّر في موضعه.

واقتصر في «اللوامح»[٥] على أنَّ «للناس» خبرُ «كان»، وتعقِّب بأنَّه ركيكٌ معنًى، لأنَّه يُفيدُ إنكار صدوره من الناس لا مطلقاً، وفيه ركاكةٌ ظاهرةٌ فافهم.

وإنَّما قيل: للناس، لا: عند الناس؛ للدلالة على أنَّهم اتخذوه أعجوبةً لهم، وفيه من زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى.

---

(١) في المحتسب ١/ ٢٧٩.
(٢) في الأصل: ومعنى معرفتها، وفي المحتسب: التي تلاقى مَعْنَيَا نكرتها ومعرفتها.
(٣) في (م): عن المعرفة بالنكرة.
(٤) المحتسب ١/ ٢٧٩.
(٥) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٣، وعنه نقل المصنف.

﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إلى بشرٍ من جِنْسِهِم، كقوله تعالى حكايةً: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وقوله سبحانه: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، أو إلى رجلٍ من أَفْناء رجالهم من حيث المالُ لا من حيث النسب، لأنه ﷺ كان من مشاهيرهم فيه، وكان منه بمكان لا يُدْفَعُ، فهو كقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وفي بعض الآثار أنَّهم كانوا يقولون: العَجَبُ أنَّ الله تعالى لم يجد رسولاً يُرسلُه إلَّا يتيمَ أبي طالب(١).

والعجبُ مِن فَرْط جَهْلِهم:

أمَّا في قولهم الأولِ: فحيث لم يعلموا أنَّ بعْثَ الملَكِ إنما يكون عند كون المبعوثِ إليهم ملائكةً، كما قال تعالى: ﴿لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء ٩٥]. وأمَّا عامَّةُ البشر فبمعزلٍ عن استحقاقِ مُفاوَضةِ الملائكة؛ لأنَّها مَنُوطةٌ بالتناسُب، فبعْثُ الملَك إليهم مُزاحِمٌ للحكمة التي عليها يدورُ فلكُ التكوين والتشريع، وإنَّما الذي تقتضيه الحكمة بعْثُ الملَك من بينهم إلى الخواصِّ المختصِّين بالنفوس الزكية، المؤيَّدين بالقوة القدسية، المتعلِّقين بكِلَا العالَمين الروحانيِّ والجسمانيِّ، ليتأتَّى لهم الاستفاضةُ والإفاضةُ، وهذا تابعٌ للاستعداد الأزلي كما لا يخفى.

وأمَّا في قولهم الثاني: فلِأنّ مناطَ الاصطفاء للإيحاء إلى شخصٍ هو التقدُّمُ في الاتِّصافِ بما عَلِمْتَ، والسبقُ في إحرازِ الفضائل وحِيازةِ المَلَكاتِ السَّنية جِبِلَّةً واكتساباً، ولا ريبَ لأحدٍ في أنَّ للنبيِّ ﷺ القدحَ المعلَّى من ذلك، بل له عليه الصلاة والسلام فيه غايةُ الغايات القاصيةِ، ونهايةُ النهاياتِ النائية، يقول رائيه:

وأحسنُ منكَ لم تَرَ قطُّ عيني ... ومثلك قطُّ لم تَلِدِ النساءُ
خُلِقْتَ مُبرَّأً مِن كلِّ عيبٍ ... كأنَّكَ قد خُلِقْتَ كما تَشاءُ(٢)

وكذا يقول:

---

(١) ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٥، والزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٢٤.
(٢) البيتان لحسان، وهما في ديوانه ص٦٦، وفيه: وأجمل منك، بدل: وأحسن منك.

ولـو صـوَّرْتَ نـفـسَـك لـم تَـزِدْهـا عـلـى مـا فـيـك مِـن كَـرمِ الـطِّـبـاعِ[(١)]

وأمّا التقدُّمُ في الرياسة الدنيوية، والسبقُ في نيل الحظوظِ الدَّنيَّةِ فلا دَخْل له في ذلك قطعاً، بل له إخلالٌ به غالباً، وما أحسنَ قولَ الشافعيِّ ﷺ من أبيات:

لـكـنَّ مَـنْ رُزِق الـحِـجَـا حُـرِم الـغِـنَـى ضِـدَّان مـفـتـرقـان أيَّ تـفـرُّقِ

وما ذكروه مِن اليُتْم إنْ رَجع إلى ما في الآية على التوجيه الثاني فبُطْلانُه بطلانُه، وإن أرادوا أنَّ أَصل اليُتْم مانعٌ من الإيحاء إليه ﷺ فهو أظهرُ بطلاناً وأوضح هَذَياناً، وما ألطفَ ما قيل: إنَّ أنفَسَ الدُّرِّ يَتيمُه.

وقيل للحَسَن: لِمَ جَعَل الله تعالى النبيَّ ﷺ يتيماً؟ فقال: لئلَّا يكون لمخلوقٍ عليه مِنَّةٌ، فإنَّ الله سبحانه هو الذي آواه وأدَّبَه وربَّاه ﷺ.

هذا والوجه الثاني من الوجهَين السابقَين في قوله سبحانه: ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ على الوجه الذي ذكرناه، هو الذي أراده صاحب «الكشاف»[(٢)]، ولم يَرتَضِهِ الجلال السيوطي، وزَعَم أنَّ التَّحاميَ عنه أَوْلَى، ثم قال: والذي عندي في تفسير ذلك أنَّ المراد: إلى مشهورٍ بينَهم يَعرفُون نَسَبَه وجلالَته وأمانتَه وعِفَّته، كما قال سبحانه في آخر السورة التي قبلُ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]. فإنَّ هذا هو محلُّ إنكارِ العَجَب، ويكونُ هذا وجهُ مناسبةِ وَضع هذه السورةِ بعْدَ تلك، واعتلاقِ أوَّلِ هذه بآخِر تلك، ونظيرُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل: ١١٣] ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]. إلى آخر ما قال.

وتُعقِّب بأنَّه غيرُ ظاهرٍ؛ لأنَّه وإنْ كان أعظمَ مما ذُكر لكنَّ السياق يَقتضي بيانَ كفرهم وتَذْليلِهم وتحقيرِهم[(٣)] من أعزَّه الله تعالى وعظَّمه.

والذي يقتضيه سببُ النزول تعيُّنُ الوجْهِ الأول هنا، فقد أخرج ابنُ جرير وغيرُه عن ابن عباس ﷺ قال: لمَّا بعَثَ الله تعالى محمداً ﷺ رسولاً أنكرَت العربُ ذلك، أو مَن أنكر منهم، فقالوا: اللهُ تعالى أعظَمُ مِن أنْ يكون رسولُه بشراً مثلَ

---

(١) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٢/ ٣٤٠.

(٢) ٢/ ٢٢٤.

(٣) في (م): وتحقير، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٣، والكلام منه.

محمدٍ (عليه الصلاة والسلام) فأنزل سبحانه: (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ) الآية، وقولَه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ الآية [يوسف: ١٠٩]. فلما كرَّر سبحانه عليهم الحُجَجَ قالوا: وإذا كان بشراً فغيرُ محمد ﷺ كان أحقَّ بالرسالة، فلولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتَين عظيم، فأنزل الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾الآية [الزخرف: ٣٢][(١)]. ومنه يُعلم أنَّ ما حُكي في الوجه الثاني سببٌ لنزول آيةٍ أخرى.

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: أَخبِرْهم بما فيه تخويفٌ لهم مما يترتَّبُ على فعلِ ما لا ينبغي، والمرادُ به جميعُ الناس الذين يُمكنه عليه الصلاة والسلام تبليغُهم ذلك، لا ما أُريد بالناس أولاً، وهو النكتةُ في إيثار الإظهار على الإضمار، وكونُ الثاني عينَ الأول عند إعادةِ المعرفة ليس على الإطلاق.

و«أنْ» هي المفسِّرةُ لمفعولِ الإيحاء المقدَّر، وقد تقدَّم عليها ما فيه معنى القولِ دون حُروفِهِ، وهو الإيحاء، أو هي المخفَّفة من الثقيلة[(٢)]، على أنَّ اسمها ضميرُ الشأن والجملةُ الأمريَّةُ خبرُها، وفي وقوعها خبرَ ضميرِ الشأنِ دونَ تأويلٍ وتقديرِ قولٍ اختلافٌ، فذهب صاحب «الكشف» إلى أنّه لا يُحتَاجُ إلى ذلك؛ لأنَّ المقصود منها التفسير، وخالفه غير واحدٍ في ذلك، وذهبوا إلى أنَّه لا فرقَ بين خبرِه وخبرِ غيره.

وقال بعضُهم: هي المصدريَّةُ الخفيفةُ في الوضع بناءً على أنَّها تُوصَلُ بالأمر والنهي. والكثيرُ على المنع، وذكر أبو حيان[(٣)] هذا الاحتمال هنا، مع أنَّه نَقَل عنه في «المغني»[(٤)] أنَّ مذهبه المنعُ لِمَا أنَّه يفوتُ معنى الأمرِ إذا سُبكَ بالمصدر.

واعتُرض بأنَّه يفوتُ معنَى المضيِّ والحاليةِ والاستقبالِ المقصودِ أيضاً، مع الاتِّفاق على جواز وَصْلها بما يدلُّ على ذلك.

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ١٠٧ و٢٠/ ٥٨٣-٥٨٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٢، ونقله المصنف عن الدر المنثور ٣/ ٢٩٩-٣٠٠.

(٢) في (م): المثقلة.

(٣) في البحر ٥/ ١٢٢.

(٤) ص٤٤، ونقله المصنف مع ما قبله وما سيأتي من حاشية الشهاب ٥/ ٤.

وأجيبَ بأنَّه قد يقال: بأنَّ بينهما فرقاً، فإنَّ المصدر يدلُّ على الزمان التزاماً، فقد تُنصَبُ عليه قرينةٌ فلا يفوتُ معناه بالكلِّية، بخلافِ الأمر والنهي، فإنَّه لا دلالةَ للمصدر عليهما أصلاً.

وقال بعضُ المدقِّقين: إنَّ المصدر كما يجوز أخذُه من جوهر الكلمة، يجوزُ أخذه من الهيئة وما يتبعُها، فيقدَّر في هذا ونحوه: أوحينا إليه الأمرَ بالإنذار، كما قُدِّر في: أنْ لا تزنيَ خيرٌ: عدمُ الزنا خيرٌ.

ولا يخفَى أنَّ هذا البحث يجري في «أن» المخفَّفةِ من الثقيلة، ؛ لأنَّها مصدريةٌ أيضاً، وأنَّ أقلَّ الاحتمالات مؤنةً احتمالُ التفسير.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بما أوحيناه إليك وصدَّقوه ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنَّ لهم ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: سابقةً ومنزلةً رفيعةً ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وأصلُ القَدَم: العضوُ المخصوصُ، وأُطلقَت على السَّبْق مجازاً مرسَلاً لكونها سَبَبَه وآلتَه، وأُريدَ من السَّبْق: الفضلُ والشرفُ، والتقدُّم المعنويُّ إلى المنازل الرفيعةِ مجازاً أيضاً، فالمجازُ هنا بمرتبَتَين.

وقيل: المراد تقدُّمُهم على غيرهم في دخول الجنة؛ لقوله ﷺ: «نحنُ الآخِرُون السَّابقون يومَ القيامةِ»[(١)] وقولِه ﷺ: «إنَّ الجنَّة محرَّمةٌ على الأنبياء حتى أَدخُلَها أنا، وعلى الأُمَمِ حتى تَدخُلَها أمتي»[(٢)].

وقيل: تقدُّمهم في البعث.

وأصلُ الصدق ما يكونُ في الأقوال، ويُستعمل كما قال الراغبُ[(٣)] في الأفعال، فيقال: صَدَقَ في القتال، إذا وفَّاه حقَّه، وكذا في ضدِّه يقال: كَذَب فيه، فَيُعبَّر به عن كلِّ فعلٍ فاضلٍ ظاهراً وباطناً، ويُضافُ إليه ک: مَقْعد صِدْقٍ، ومُدْخلِ صِدقٍ، ومُخْرَج صِدْق، إلى غير ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣١٠)، والبخاري (٢٣٨)، ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٤٢) من حديث عمر ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١١/ ٦٩: فيه صدقة بن عبد الله السمين وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه جماعة، فإسناده حسن. اهـ. وأخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٥١٠-٥١١ من طريق مكحول عن عمر عن النبي ﷺ مطولاً. قال أبو زرعة كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص١٦٦: مكحول عن عمر مرسل.

(٣) في مفرداته (صدق).

وصرَّحوا هنا بأنَّ الإضافة من إضافة الموصوف إلى صفته، والأصلُ: قَدَمٌ صِدْقٌ، أي: محقَّقةٌ مقرَّرةٌ، وفيه مبالغةٌ لجعلها عينَ الصدق، ثم جُعل الصدقُ كأنَّه صاحبُها.

ويحتملُ أنْ تكون الإضافة من إضافة المسبَّب إلى السبب، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ ما نالوه من المنازل الرفيعة كان بسبب صِدْق القول والنية.

وقال بعضُهم: إنَّ هذا التنبيه[1] قد يَحصُلُ على الاعتبار الأول؛ لأنَّ الصدق قد تُجوِّزَ به عن تَوْفِيَة الأمورِ الفاضلة حقَّها؛ للزوم الصِّدق لها، حتى كأنَّها لا توجَدُ بدونه، ويكفي مثلُه في ذلك التنبيه، وهذا كما قالوا: إنْ أبا لهب يُشير إلى أنَّه جهنميٌّ، وفيه خفاءٌ كما لا يخفَى.

وجُوِّز أنْ[2] يُراد بالقَدمِ المقامُ بإطلاق الحال وإرادةِ المحلِّ.

وعن الأزهريِّ أنَّ القَدَم: الشيءُ الذي تُقدِّمه قدَّامَكَ ليكون عُدَّةً لك حين تُقدِمُ عليه[3]. ويُشعرُ بأنَّه اسمُ مفعول، وبه صرَّح بعضُهم وقال: إنَّه كالنقض.

وقيل: إنَّه اسمٌ للحُسنَى من العبد كما أنَّ اليد اسمٌ للحُسنى من السيِّد، وفعلوا ذلك للفرق بين العبد والسيد، وهو من الغرابة بمكان، ولا يكاد يصحُّ في قول ذي الرُّمة:

لكم قَدَمٌ لا يُنكرُ الناسُ أنَّها ... مع الحَسَب العاديِّ طمَّت على البحر[4]

وقوله:

وأنتَ امرؤٌ من أهل بيتٍ ذُؤابةٍ ... لهم قَدَمٌ معروفةٌ في المفاخر[5]

والسبقُ هو الأسبق إلى الذهن في ذلك، وكذا قول حسان:

لنا القدمُ العُليا إليكَ وخَلْفنا ... لأوَّلنا في طاعة الله تابعُ[6]

(١) في الأصل: التفسير.

(٢) في (م): ويجوز إلى.

(٣) ينظر تهذيب اللغة ٩/ ٤٦، وتفسير غريب ما في الصحيحين للحميدي ص٣٤٤.

(٤) الديوان ٢/ ٩٧٢ برواية: . . . طمست على الفخر.

(٥) الديوان ٢/ ١٠٤٤ برواية: . . . معروفة ومفاخر.

(٦) ديوان حسان ص٣١٠ برواية: لنا القدم الأولى . . .

وقولُ الآخَر:

صلِّ لذي العرش واتَّخِذ قَدَماً ... تُنجيك يومَ العِثَارِ والزَلَلِ[(١)]

محتملٌ لسائر المعاني.

وهل يُطلق على سابقة السوء أوْ لا؟ الظاهرُ الأوَّل، وقد نصَّ على ذلك أبو عبيدةَ والكِسائيُّ[(٢)]. وقال صاحب «الانتصاف»: لم يُسمُّوا سابقةَ السوء قَدَماً، إمَّا لكون المجاز لا يطَّردُ، وإمَّا لأنَّه غَلَبَ في العرف على سابقة الخير[(٣)]، وفيه نظر.

وتفسيرُ ابن عباس رضي الله عنهما له بالأجر، وابنِ مسعود بالعمل، لا يخرجُ عمَّا ذكرنا من معانيه. وكذا تفسيرُ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه وأبي سعيد الخدري والحسن وزيد بنِ أسلم له برأس الموجودات محمدٍ ﷺ يَرْجِعُ إلى تفسيره بالخير والسعادة كما قاله جمعٌ. وكونهُ ﷺ خيراً وسعادةً للمؤمنين مما لا يَمتري فيه مؤمنٌ، أو يقال: إنَّ المراد شفاعتُه ﷺ، والأمرُ في ذلك حينئذٍ في غاية الظهور.

وخُصَّ التبشير بالمؤمنين، لأنَّه لا يتعلَّق بالكفار، وتبشيرُهم إنْ آمنوا راجعٌ إلى تبشير المؤمنين، وهذا بخلاف الإنذار فإنَّه يتعلَّق بالمؤمن والكافر، ولذلك ذكره سبحانه ولم يذكر جلَّ وعلا المنذَرَ به للتعميم والتهويل، وذكر المبشَّر به على الوجه الذي ذكره لتقوَى رغبةُ المؤمنين فيما يُؤدِّيهم إليه.

وقَدَّم الإنذار على التبشير؛ لأنَّ التخلية مقدَّمةٌ على التحلية، وإزالةُ ما لا ينبغي مقدَّمةٌ في الرتبة على فِعْلِ ما ينبغي.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هم المتعجِّبون، وإيرادُهم بهذا العنوان على بابه، وتُرِكَ العاطفُ لجريانه مَجرَى البيان للجملة التي دخل عليها همزةُ الإنكار، أو لكونه استئنافاً مبنيّاً على السؤال، كأنَّه قيل: ماذا صنعوا بعد التعجُّب؟ هل بقُوا على التردُّد والاستبعاد، أو قَطَعوا فيه بشيءٍ؟ فقيل: قال الكافرون على طريقة التأكيد ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: ما أُوحيَ إليه ﷺ من الكتاب المُنْطَوي على الإنذار والتبشير.

---

(١) البيت لوضاح اليمن، وهو في ديوانه ص٧١.

(٢) ذكره عنهما القرطبي ١٠/ ٤٥٠، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٢٧٣.

(٣) الانتصاف مع الكشاف ٢/ ٢٢٤.

وزعم الخازنُ[١] أنَّ في الكلام حذفاً، أي: أكان للناس عجباً أنْ أوحينا إلى رجلٍ منهم أنْ أنذر وبشِّر، فلمَّا جاءهم بالوحي وأنذَرَهم قال الكافرون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝﴾[٢] أي: ظاهرٌ.

وقرأ ابنُ كثير والكوفيون: «الساحرٌ»[٣] على أنَّ الإشارة إلى رجل، وعَنَوا به رسول الله ﷺ، وفي قراءة أُبي: «ما هذا إلا سحرٌ مبين»[٤] وأرادوا بالسحر الحاصل بالمصدر، وفي هذا اعترافٌ بأنَّ ما عاينوه خارجٌ عن طوق البشر، نازلٌ من حضرة خلَّاقِ القُوَى والقُدَر، ولكنَّهم يُسمُّونه بما قالوا تمادياً في العناد كما هو شِنْشِنةُ المكابر اللَّجوج ونِشْنِشَةُ المفحَم المحجُوج.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ استئنافٌ سيقَ لإظهار بُطلان تعجُّبِهم المذكورِ وما تَبِعَه من تلك المقالةِ الباطلةِ غِبَّ الإشارة إليه بالإنكار والتعجيب، وحقَّق فيه حَقِّيَّةَ ما تعجَّبوا منه وصِحَّةَ ما أنكروه بالتنبيه الإجماليِّ على بعضِ ما يدلُّ عليها من شؤون الخَلْقِ والتقديرِ، وأحوالِ التكوينِ والتدبير، ويُرشدُهم إلى معرفتها بأدنى تذكيرٍ؛ لاعترافهم به من غير نكيرٍ، كما يُعرِبُ عنه غيرُ ما آيةٍ في الكتاب الكريم[٥].

والتأكيدُ لمزيد الاعتناء بمضمون الجملةِ على ما هو الظاهر، أي: إنَّ ربَّكم ومالِكَ أمرِكم الذي تَعْجَبون من أنْ يُرسِلَ إليكم رجلاً منكم بالإنذار والتبشير، وتَعدُّون ما أُوحَى إليه من الكتاب سحراً، هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: أوقاتٍ، فالمرادُ من اليوم معناه اللغويُّ، وهو مطلقُ الوقت.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ تلك الأيام من أيام الآخرة، التي يومٌ منها كألف سنةٍ مما تَعُدُّون.

وقيل: هي مقدارُ ستةِ أيَّامٍ من أيام الدنيا، وهو الأنسبُ بالمقام لِمَا فيه من

---

(١) في تفسيره ٣/ ١٧٣-١٧٤.
(٢) وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر وأبي جعفر ويعقوب. التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٢٥٦.
(٣) التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٢٥٦.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٢٥، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٣.
(٥) منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٧]. تفسير أبي السعود ٤/ ١١٨، والكلام منه.

الدلالة على القدرة الباهرة بخَلْق هذه الأجرامِ العظيمة في مثل تلك المدَّة اليسيرة، ولأنَّه تعريفٌ لنا بما نعرفُه.

ولا يُمكن أنْ يُراد باليوم اليومُ المعروف[1]؛ لأنَّه ـ كما قيل ـ عبارةٌ عن كون الشمس فوق الأرض، وهو ممَّا لا يتصوَّر تحقُّقُه حين لا أرضَ ولا سماء، واليومُ بهذا المعنَى يُسمَّى بالنهار المفرد، ويُطلَق اليوم أيضاً على مجموع ذلك النهارِ وليلته، ومقدارُ ذلك حينئذٍ ممكنُ الإرادة هنا أيضاً.

وقد صرَّح بعضُ الأكابر بأنَّ المراد بالسماوات ماعدا المحدَّد، وأنَّ اليوم هنا عبارةٌ عن مدَّةِ دورةٍ تامَّةٍ له. ولا يخفى أنَّ اليوم اللغويَّ يتناولُ هذا أيضاً، إلا أنَّ إرادتَه كإرادة مقدارِ مجموع النهار وليلته يحتاجُ إلى نقلٍ، وليس ذلك أمراً معروفاً عند المخاطَبين ليُستغنَى عن النقل، على أنَّ القول به يدور على كون المحدَّد متحرِّكاً بالحركة الوضعية، ويحتاجُ ذلك إلى النقل أيضاً، وكذا يدورُ على كون المحدَّد خارجاً عن السماوات المخلوقة في الأيام الستِّ، لكنَّ ذلك لا يضرُّ إذ الآياتُ والأخبارُ شاهدةٌ بالخروج[2] كما لا يخفى.

وفي خَلْقها مُدَرَّجاً مع القدرة التامَّة على إبداعها في طَرْفة عينٍ اعتبارٌ للنُّظَّار، وحثٌّ لهم على التأنِّي في الأحوال والأطوار، وفيه أيضاً ـ على ما صرَّح به بعضُ المحقِّقين ـ دليلٌ على الاختيار.

وأمَّا تخصيصُ ذلك بالعدد المعيَّن، فقد قيل: إنَّه أمرٌ قد استأثَرَ بعِلْم ما يستدعيه علَّام الغيوب جلَّت قدرتُه ودَقَّت حكمتُه.

وقيل: إنَّه سبحانه جَعَلَ لكلٍّ مِن خَلْق موادِّ السماوات وصُورِها ورَبْطِ بَعْضِها ببعضٍ، وخَلْقِ مادَّةِ الأرض وصُورتها ورَبْطِ إحداهما بالأخرى وقتاً، فلذا صارت الأوقاتُ ستّاً، وفيه تأمُّل، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى في «الدخان»[3] تحقيقُ هذا المطلب على وجهٍ ينكشف به الغبارُ عن بصائر الناظرين.

---

(١) في الأصل: المعروف اليوم.

(٢) في الأصل: على الخروج.

(٣) لم نقف عليه في الدخان، وسلف في الأعراف ٩/ ١٣٤.

وإيثارُ جمع السماواتِ لِمَا هو المشهورُ، من الإيذان بأنَّها أجرامٌ مختلفةُ الطباع مُتباينةُ الآثار والأحكام، وتقديمُها على الأرض: إمَّا لأنَّها أعظمُ منها خلقاً، أو لأنَّها جاريةٌ مَجرى الفاعل والأرض جاريةٌ مجرَى القابِل، على ما بُيِّن في موضعه[1]، وتقديمُ الأرض عليها في آية «طه» لكونها أقربَ إلى الحسِّ وأظهرَ عنده، وسيأتي أيضاً تحقيقُه هناك إنْ شاء الله تعالى.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ على المعنى الذي أراده سبحانه، وكفُّ الكيف مشلولةٌ.

وقيل: الاستواءُ على العرش مجازٌ عن الملك والسلطان، متفرِّعٌ عن الكناية فيمَن يجوزُ عليه القعود على السرير، يقال: استوى فلانٌ على سرير الملك، ويُراد منه: مَلَكَ، وإنْ لم يقعد على السرير أصلاً.

وقيل: إنَّ الاستواء بمعنى الاستيلاء، وأَرجعوه إلى صفة القُدرة.

وأنت تعلم أنَّ هذا وأمثالَه من المتشابِه، وللناس فيه مذاهبُ، وما أَشرنا إليه هو الذي عليه أكثرُ سَلَفِ الأمة رضي الله عنهم.

وقد صرَّح بعضٌ أنَّ الاستواء صفةٌ غيرُ الثمانية، لا يَعلمُ ما هي إلَّا مَن هي له، والعجزُ عن دركِ الإدراك إدراكٌ.

واختارَ كثيرٌ من الخلف أنَّ المراد بذلك الملكُ والسلطان، وذكره لبيان جلالةِ مُلكه وسلطانِهِ سبحانه بعد بيانِ عظمةِ شأنه وسعةِ قُدرته بما مرَّ مِن خَلْق هاتيك الأجرام العظيمة.

وقولُه تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ استئنافٌ لبيانِ حكمةِ استوائه جلَّ وعلا على العرش، وتقديرِ عظمته. والتدبيرُ في اللغة: النظرُ في أدبارِ الأمورِ وعَوَاقِبها لتقعَ على الوجه المحمود، والمرادُ به هنا: التقديرُ الجاري على وفقِ الحكمة والوجهِ الأتمِّ الأكمل، وأخرج أبو الشيخ وغيرُه عن مجاهد أنَّ المعنى: يقضي الأمر[2].

---

(١) ينظر ما سلف ٨/ ١٥-١٦.

(٢) عزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر المنثور ١/ ٣٠٠، وأخرجه أيضاً الطبري ١٢/ ١١٤، وابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٦.

والمرادُ بالأمر: أمرُ الكائناتِ عُلويِّها وسفليِّها حتى العرش، فـ «أل» فيه للعهد، أي: يُقدِّر أمرَ ذلك كلِّه على الوجه الفائق والنَّمطِ اللائق، حسبما تَقتضيه المصلحةُ وتستدعيه الحكمةُ، ويدخلُ فيما ذُكر ما تعجَّبوا منه دخولاً ظاهراً.

وزعم بعضُهم أنَّ المعنى: يدبِّرُ ذلك على ما اقتضَتْه حكمتُه ويُهيِّئُ أسبابه بسبب تحريك العرش، وهو فلكُ الأفلاك عندهم، وبحركته يُحرَّك غيرُه من الأفلاك الممثَّلةِ وغيرِها لقوة نفسه. وقيل: لأنَّ الكلَّ في جوفه، فيلزم مِن حركتِه حركتُه لزومَ حركةِ المظْرُوف لحركةِ الظَّرْف. وهو مبنيٌّ على أنَّ الظَّرف مكانٌ طبيعيٌّ للمظروف، وإلا ففيه نظر.

وأنت تعلم أنَّ مثلَ هذا الزَّعْمِ ـ على ما فيه ـ مما لا يقبلُه المحدِّثون وسلفُ الأمة، إذ لا يشهدُ له الكتاب ولا السُّنة، وحينئذٍ فلا يُفتَى به وإنْ حكم القاضي[1].

وجُوِّز في الجملة أنْ تكون في محلِّ النصب على أنَّها حالٌ من ضمير «استوى»، وأنْ تكونَ في محلِّ الرفع على أنَّها خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ»، وعلى كلِّ حالٍ فإيثارُ صيغةِ المضارع للدلالة على تجدُّدِ التدبير واستمرارِه منه تعالى.

وقوله سبحانه: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ بيانٌ لاستبداده تعالى في التدبير والتقدير، ونفيٌ للشفاعة على أبلغ وجهٍ، فإنَّ نَفيَ جميع أفراد الشفيع بـ «مِن» الاستغراقيةِ يستلزمُ نفيَ الشفاعة على أتمِّ الوجوه، فلا حاجةَ إلى أنْ يقال: التقدير: ما مِن شفاعةٍ لشفيع. وفي ذلك أيضاً تقريرٌ لعظمته سبحانه إِثْرَ تقرير. والاستثناء مُفرَّغ من أعمِّ الأوقات، أي: ما مِن شفيع يشفعُ لأحدٍ في وقتٍ مِن الأوقات إلَّا بعدَ إذنه تعالى المبنيِّ على الحكمة الباهرة، وذلك عند كون الشفيعِ مِن المصطَفين الأخيار، والمشفوع له ممن يليقُ بالشفاعة.

وذهب القاضي إلى أنَّ فيه ردّاً على مَن زعَمَ أنَّ آلهتهم تشفعُ لهم عند الله تعالى[2].

وتُعقِّبَ بأنَّه غيرُ تامٍّ؛ لأنَّهم لمَّا ادَّعَوا شفاعتَها فقد يَدَّعون الإذنَ لها، فكيف

---

(١) ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٥.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٥.

يتمُّ هذا الردُّ ولا دلالة في الآية على أنَّهم لا يؤذَن لهم؟ وما قيل: إنَّها دعوَى غيرُ مسلَّمة واحتمالُها غيرُ مُجْدٍ، لا فائدةَ فيه إلَّا أنْ يقال: مرادُه أنَّ الأصنام لا تُدرِكُ ولا تنطِق، فكونُها ليس مِن شأنها أنْ يُؤذَنَ لها بديهيٌّ.

وقولُه عزَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ استئنافٌ لزيادة التقرير والمبالغةِ في التذكير، ولتفريعِ الأمر بالعبادة بقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ والإشارةُ إلى الذات الموصوفة[1] بتلك الصفات المقتَضيَةِ لاستحقاق ما أخبرَ به عنه، وهو «الله» و«ربكم» فإنَّهما خبران لـ «ذلكم»، وحيث كان وجْهُ ثبوتِ ذلك له ما ذُكر مما لا يوجد في غيره، اقتضَى انحصارَه فيه، وأفاد أنْ لا ربَّ غيرُه ولا معبود سواه.

ويجوزُ أنْ يكون الاسمُ الجليل نعتاً لاسم الإشارة و«ربكم» خبره، وأنْ يكون هو الخبر و«ربُّكم» بيانٌ له أو بدلٌ منه، ولا يخلو الكلامُ من إفادة الانحصار، وإذا فُرِّع الأمر المذكور على ذلك أفادَ الأمرَ بعبادته سبحانه وحده، أي: فاعبدوه سبحانه من غير أنْ تُشركوا به شيئاً من مَلَكٍ أو نبيٍّ، فضلاً عن جمادٍ لا يُبصر ولا يسمع، ولا يَضُرُّ ولا يَنْفَع. وليس الداعي لهذا الحملِ أنَّ أصل العبادة ثابتٌ لهم فيُحملُ الأمرُ بها على ذلك ليُفيد[2]؛ لما قيل: مِن أنَّ الخطاب للمشركين، ولا عبادةَ مع الشركِ.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ③﴾ أي: أتَعْلَمون أنَّ الأمر كما فُصِّل فلا تتذكرون[3] ذلك حتى تَقِفُوا على فساد ما أنتم عليه، فترتَدِعُوا عنه وتعبدوا الله تعالى وحده، وإيثارُ «تَذَكَّرون» على تَفكَّرون؛ للإيذان بظهور الأمر، وأنَّه كالمعلوم الذي لا يفتقرُ إلى فكرٍ تامٍّ ونظرٍ كامل، بل إلى مجرَّدِ التفاتٍ وإخطارٍ بالبال.

وقولُه سبحانه: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ كالتعليل لوجوب العبادة، والجارُّ والمجرورُ خبرٌ مقدَّم و«مرجعكم» مبتدأ مؤخَّرٌ، وهو مصدرٌ ميميٌّ لا اسمُ مكانٍ، خلافاً لمن وَهِم فيه. و«جميعاً» حالٌ من الضمير المجرور لكونه فاعلاً في المعنى، أي: إليه تعالى رجوعُكم مُجْتَمِعينَ - لا إلى غيره سبحانه - بالبعث.

---

(١) في الأصل و(م): الموصوف، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/٦.
(٢) في الأصل: فيفيد، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/٦.
(٣) في الأصل: تذكرون.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لمضمون الجملة السابقة؛ لأنَّها وعْدٌ منه تعالى بالبعث، وحيث كانت لا تَحتَمِلُ غيرَ الوعدِ كان ذلك من أفراد المصدر المؤكِّد لنفسه عندهم، كما في قولك: له عَلَيَّ ألفٌ عرفاً[(١)]، ويجوزُ أنْ يكون نصباً على المصدرية لفعلٍ محذوفٍ، أي: وَعَدَ الله وعْداً.

وأيّاً ما كان فهو دليلٌ على أنَّ المراد بالمَرْجِع الرجوعُ بالبعث؛ لأنَّ ما بالموت بمعزلٍ عن الوعد، كما أنَّه بمعزلٍ عن الاجتماع، فما وقع في بعض نسخ القاضي بالموت أو النشور[(٢)]، ليس على ما ينبغي.

وقرئ: «وَعَدَ اللهُ» بصيغة الفعل ورَفْعِ الاسم الجليل على الفاعلية[(٣)].

﴿حَقًّا﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَا دلَّ عليه الأول، وهو من قِسْم المؤكِّد لغيره؛ لأنَّ الأول ليس نصّاً فيه، فإنَّ الوعد يحتمل الحَقِّيَةَ والتخلُّفَ.

وقيل: إنَّه منصوبٌ بـ «وَعْدَ» على تقديرِ «في» وتشبيهه بالظرف، كقوله:

أَفي الحقِّ أنّي هائمٌ بكِ مُغْرَمُ[(٤)]

والأولُ أظهر.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ كالتعليل لما أفاده «إليه مرجعُكم» فإنَّ غايةَ البدء والإعادة هو الجزاء بما يليق.

وقرأ أبو جعفر والأعمش: «أنَّه» بفتح الهمزة[(٥)] على تقدير: لأنه. وجوِّز أنْ يكون منصوباً بمثل ما نصبَ «وعد»، أي: وَعَدَ اللهُ سبحانه بَدْءَ الخَلْقِ ثمَّ إعادتَه، أي: إعادتَه بعدَ بَدْئِه، ويكون الوعدُ واقعاً على المجموع لكنْ باعتبار الجزء

---

(١) أي: اعترافاً، ينظر حاشية الشهاب ٥/٦، وشرح الألفية لابن عقيل ١/ ٥٧٠، وينظر ما سلف ٦/٢٩٦.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/٦.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٦.

(٤) وعجزه: وأنكِ لا خَلٌّ هواكِ ولا خمر. والبيت لمجنون ليلى، وهو في ديوانه ص١٢٧، وحاشية الشهاب ٥/٦، والكلام منه.

(٥) النشر ٢/ ٢٨٢ عن أبي جعفر، وذكرها عن الأعمش ابن جني في المحتسب ١/ ٣٠٧.

الأخير؛ لأنَّ البدءَ ليس موعوداً. وأنْ يكون مرفوعاً بمثل ما نصب «حقّاً»، أي: حَقَّ بدءُ الخَلْقِ ثم إعادتُه، ويكونُ نظيرَ قولِ الحماسيِّ:

أحـقّـاً عـبـادَ الله أنْ لـسـتُ رائـيـاً رِفـاعـةَ طـولَ الـدهـر إلّا تـوهُّـمـا

وعن المرزوقيِّ أنَّه خرَّجه على النصب على الظرفية ـ وهو إمَّا خبرٌ مقدَّمٌ أو ظرفٌ معتمِدٌ ـ وزعَمَ أنَّ ذلك مذهب سيبويه[1].

وجُوِّز أنْ يكون النصبُ بـ «وعد الله» على أنَّه مفعولٌ له، والرفعُ بـ «حقّاً» على أنَّه فاعلٌ له.

وظاهرُ كلام «الكشاف»[2] يدلُّ على أنَّ الفعلَين العاملَين في المصدرَين المذكورَين هما اللذان يَعملان فيما ذُكر، لا فعلان آخران مثلهما، وحينئذٍ يفوتُ أمرُ التأكيد الذي ذكرناه؛ لأنَّ فاعلَ العامل في المصدر[3] المؤكِّد لا بدَّ أنْ يكون عائداً على ما تقدَّمه مما أكَّده.

وقرئ: «حقٌّ أنَّه يبدأ الخلق»[4]، وهو كقولك: حقٌّ أنَّ زيداً منطلقٌ. وقرئ: «يُبدِئُ» من أبدأ[5].

ولعلَّ المراد من الخَلْقِ نحوُ المكلَّفين، لا ما يَعُمُّ ذلك والجمادات، ويؤيِّد ذلك ما أخرجه غيرُ واحدٍ عن مجاهد أنَّ معنى الآية: يُحيي الخلق ثم يُميتُه ثم يحييه[6].

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، وهو حالٌ من فاعلِ «يجزي»، أي: ملتبساً بالعدل، أو متعلِّقٌ بـ «يجزي» أي: ليجزيَهم بقِسْطِه ويُوفِّيَهم أجورَهم، وإنَّما أَجملَ ذلك إيذاناً بأنَّه لا يَفي به الحصرُ، ويُرشِّح ذلك جَعْلُ ذاتِه

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٨٢، والبيت فيه منسوب لرُقيبة الجَرْمي من طيئ، قال المرزوقي: قوله: حقّاً، انتصب عند سيبويه على الظرف، كأنه: أفي الحق ذلك، وينظر الكتاب ٣/ ١٣٥.

(٢) ٢/ ٢٢٥.

(٣) في الأصل و(م): بالمصدر، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٧، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٠٥، والكشاف ٢/ ٢٢٥، والبحر ٥/ ١٢٤ عن ابن أبي عبلة.

(٥) القراءات الشاذة ص٥٦، والبحر ٥/ ١٢٤ عن طلحة بن مصرف.

(٦) تفسير الطبري ١٢/ ١١٦، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٢٦.

الكريمة هي المُجَازِيَة، أو: بقِسْطِهم وعَدْلِهم في أمورهم. أو: بإيمانهم؛ ورُجِّح هذا بأنَّه أَوْفَقُ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ۝﴾ فإن معناه: ويَجزي الذين كفروا بشرابٍ من ماءٍ حارٍّ قد انتهى حرُّه وعذابٍ أليم بسبب كفرهم، فيظهرُ التقابُلُ بين سببي جزاءِ المؤمنين وجزاءِ الكافرين، مع أنَّه لا وجْهَ لتخصيصِ العدل بجزاء المؤمنين، بل جزاءُ الآخَرين أَوْلَى به كما لا يخفى[1].

وتكريرُ الإسنادِ بجَعْلِ الجملةِ الظرفيةِ خبراً للموصولِ لتقويةِ الحُكْم، والجمعُ بين صيغتَي الماضي والمضارع للدلالة على مُواظبتهم على الكفر.

وتغييرُ النظم الكريم للمبالغة في استحقاقهم العقابَ بجَعْلِه حقّاً مقرَّراً لهم، والإيذانِ بأنَّ التعذيبَ بمعزلٍ عن الانتظام في سلك العلَّة الغائية للإعادة بناءً على تعلُّق «ليجزي» بها، أو لها وللبدء بناءً على تعلُّقه بهما على التنازُع، وإنَّما المنتظِمُ في ذلك السلكِ هو الإثابةُ، فهي المقصودةُ بالذات، والعقابُ واقعٌ بالعَرَض.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ تنبيهٌ على الاستدلال على وجوده تعالى ووحدته وعِلْمِه وقدرتِهِ وحكمته بآثارِ صنيعِهِ في النَّيِّرَيْن بعد التنبيه على الاستدلال بما مرَّ، وبيانٌ لبعض أفراد التدبير الذي أُشير إليه إشارةً إجماليةً، وإرشادٌ إلى أنَّه سبحانه حين دبَّر أمورَهم المتعلِّقةَ بمعاشهم هذا التدبير[2] البديع، فَلأَنْ يُدبِّرَ مصالحهم المتعلِّقةَ بمَعَادهم بإرسال الرسل وإنزالِ الكتب أَوْلَى وأَحْرَى.

و«جَعَلَ»[3] إمَّا بمعنى: أنشأ وأبدع، فـ «ضياءً» حالٌ من مفعوله، وإمَّا بمعنى: صيَّر فهو مفعولُه الثاني. والكلامُ على حدِّ: ضيِّق فمَ القربة؛ إذ لم تكن الشمسُ خاليةً عن تلك الحالةِ، وهي ـ على ما قيل ـ مأخوذةٌ من: شمسة القلادة، للخرزة الكبيرة وَسطَها، وسمِّيت بذلك لأنَّها أعظمُ الكواكب كما تدلُّ عليه الآثارُ ويَشْهَدُ له الحِسُّ، وإليه ذهب جمهورُ أهل الهيئة.

---

(١) أي: تخصيص العدل بجزاء الكافرين أولى من تخصيصه بجزاء المؤمنين؛ لِمَا اشتهر أن الثواب بفضله والعقاب بعدله. حاشية الشهاب ٥/ ٦.

(٢) في (م): التدبر، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٢٠، والكلام منه.

(٣) في (م): أو جعل، وهو خطأ.

ومنهم مَن قال: سمِّيت بذلك لأنَّها في الفلك الأوسط بين أفلاك العلوية وبين أفلاك الثلاثة الأُخَر، وهو أمرٌ ظنِّيٌّ لم تَشْهَدْ له الأخبارُ النبويةُ كما ستعلمه قريباً إنْ شاء الله تعالى.

والضياءُ مصدرٌ كـ: قيام، وقال أبو عليٍّ في «الحجة»: كونه جمعاً كحوضٍ وحياض، وسَوْطٍ وسياط، أَقْيسُ من كونه مصدراً[1]. وتعقِّب بأنَّ إفراد النور فيما بعدُ يرجِّح الأول، وياؤه منقلبةٌ عن واو لانكسار ما قبلها. وأصلُ الكلام: جَعَل الشمسَ ذاتَ ضياءٍ.

ويجوزُ أنْ يجعلَ المصدرُ بمعنى اسم الفاعل، أي: مضيئة، وأَنْ يبقَى على ظاهره من غير مضافٍ فيفيدُ المبالغةَ بجَعْلِها نفسَ الضياء.

وقرأ ابنُ كثير: «ضئاءً» بهمزتَين بينهما ألف[2]. والوجهُ فيه كما قال أبو البقاء: أنْ يكون أَخَّر الياء وقدَّم الهمزة، فلمَّا وقعَت الياءُ طرفاً بعد ألفٍ زائدةٍ قُلبتْ همزةً عند قوم، وعند آخرين قُلبت ألفاً، ثم قلبت الألفُ همزةً لئلا يجتمع ألفان[3].

﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذا نورٍ، أو منيراً، أو نفسَ النور على حدِّ ما تقدَّم آنفاً. والنورُ قيل: أعمُّ من الضوء، بناءً على أنَّه ما قَوِيَ من النور، والنورُ شاملٌ للقويِّ والضعيف، والمقصودُ من قوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [النور: ٣٥] تشبيهُ هداهُ الذي نَصَبَه للناس بالنور الموجودِ في الليل أثناءَ الظلامِ، والمعنى: أنَّه تعالى جَعَل هُداه كالنور في الظلام، فيُهدَى قومٌ ويَضلُّ آخرون، ولو جعله كالضياء الذي لا يبقَى معه ظلام لم يضلَّ أحدٌ، وهو مُنافٍ للحكمة. وفيه نظر.

وقيل: هما متباينان؛ فما كان بالذات فهو ضياءٌ، وما كان بالعَرَض فهو نورٌ، ولكون الشمس نيِّرَةً بنفسها نسب إليها الضياء، ولكون نورِ القمر مستفاداً منها نسب إليه النور.

---

(١) الحجة ٤/ ٢٥٨-٢٥٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٧.

(٢) وهي رواية قنبل عن ابن كثير. التيسير ص١٢٠، والنشر ٢/ ٢٨٢.

(٣) الإملاء ٣/ ٢١٢.

وتعقَّبه العلَّامةُ الثاني بأنَّ ذلك قولُ الحكماء وليس من اللغة في شيءٍ، فإنَّه شاع: نورُ الشمس ونورُ النار.

ونحن قد بَسطنا الكلامَ على ذلك فيما تقدَّم[١]، وفي كتابنا «الطراز المذهب» وأتينا بما فيه هدًى للناظرين.

بقي أنَّ حديثَ الاستفادة المذكورة سواءٌ كانت على سبيل الانعكاس من غير أنْ يصيرَ جوهرُ القمر مُستنيراً كما في المرآة، أو بأنْ يستنيرَ جوهرُه على ما هو الأشبهُ عند الإمام[٢]، قد ذكرها كثيرٌ من الناس حتى القاضي في تفسيره[٣]، وهو مما لم يَجِئ من حديثِ مَن عَرَج إلى السماء ﷺ، وإنَّما جاء عن الفلاسفة.

وقد زعموا أنَّ الأفلاك الكلِّيَة تسعةٌ، أعلاها فَلَكُ الأفلاك، ثمَّ فَلَكُ الثوابت، ثمَّ فَلَكُ كَيْوانَ، ثم فلك بِرْجِيس[٤]، ثم فلك بَهْرام[٥]، ثم فلك الشمس، ثم فلك الزهرة، ثم فلك الكاتب[٦]، ثم فلك القمر.

وزَعَم صاحب «التحفة»[٧] أنَّ فَلَكَ الشمس تحت فَلَكِ الزهرة، وما عليه الجمهورُ هو الأولُ، واستَدلَّ كثيرٌ منهم على هذا الترتيب بما يبقَى معه الاشتباهُ بين الشمس وبين الزهرة والكاتب، كالكسفِ والانكساف، واختلاف المنظر الذي يُتوصَّلُ إلى معرفته بذات الشعبتَين؛ لأنَّ الأول لا يُتصوَّر هناك؛ لأنَّ الزهرة والكاتب يحترقان عند الاقتران في معظم المعمورة، والثاني أيضاً مما لا يُستطاع عِلْمُه بتلك الآلة؛ لأنَّها تنصب في سطح نصف النهار، وهذان الكوكبان لا يَظْهَران

---

(١) ١/ ٤٦٦-٤٦٨.

(٢) في تفسيره ١٧/ ٣٣-٣٤.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٧.

(٤) برجيس: هو كوكب المشتري، وكيوان: زحل. القاموس (برجس) و(كون).

(٥) وهو كوكب المريخ. اللسان (بهرم).

(٦) في تهذيب اللغة ٣/ ٣٤٦، والعين ٢/ ٣٢٧، واللسان والتاج (عطرة): الكُتَّاب، وهو كوكب عطارد.

(٧) وهو: التحفة الشاهية في الهيئة، لقطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي المتوفى سنة (٧١٠ هـ). كشف الظنون ١/ ٣٦٧.

هناك لكونهما حَوالي الشمسِ بأقلَّ مِن بُرْجَين، فإذا بلغا نصفَ النهار كانت الشمسُ فوق الأرض شرقيةً أو غربيّة، فلا يُرَيان أصلاً.

وجَعْلُ الشمس في الفلك الأوسط لما في ذلك في حُسنِ الترتيب كأنَّها شمسةُ القلادة، أو لأنَّها بمنزلة الملِكِ في العالَم، فكما يَنبغي للملك أنْ يكون في وسط العسكر ينبغي لها أنْ تكون في وسط كرات[1] العالَم = أمرٌ إقناعيٌّ، بل هو مِن قَبيل التمسُّك بحبال القمر.

ومثلُ ذلك تمسُّكُهم في عدم الزيادة على هذه الأفلاك بأنَّه لا فضل في الفلكيات، مع أنَّه يلزم عليه أنْ يكون ثخنُ الفلك الأعظم أقلَّ ما يمكن أنْ يكون للأجسام من الثخانة؛ إذ لا كوكب فيه حتى يكونَ ثخنُه مساوياً لقطره، فالزائد على أقلِّ ما يمكن فَضْلٌ.

وقد بَيَّن في رسالة «الأبعاد والأجرام»[2] أنَّه بلغ الغاية في الثخن، وقد قدَّمنا لك ذلك، وحينئذٍ يُمكن أنْ يكونَ لكلٍّ مِن الثوابت فلكٌ على حدة، وأنْ تكون تلك الأفلاكُ متوافقةً في حركاتها جهةً وقطباً ومنطقةً وسرعةً، بل لو قيل بتخالُفِ بعضها لم يكن هناك دليلٌ ينفيه؛ لأنَّ المرصود منها أقلُّ قليلٍ، فيمكنُ أنْ يكونَ بعضُ ما لم يُرصَد متخالفاً. على أنَّ مِن الناس مَن أثبت كرةً فوقَ كرةِ الثوابت وتحت الفلك الأعظم، واستَدلَّ على ذلك بما استَدلَّ.

ومَن عَلِمَ أنَّ أرباب الأرصاد منذُ زمانٍ يسيرٍ وَجَدوا كوكباً سيَّاراً أبطأ سيراً من زُحل وسمَّوه هرشلاً[3]، وقد رَصَده لالنت[4] فوجَدَه يقطعُ في ستِّ سنين شمسيةٍ وأحدَ عَشَرَ شهراً وسبعةٍ وعشرين يوماً، وهو يومُ تحريرنا هذا المبحث، وهو اليومُ الرابعُ والعشرون مِن جُمادَى الآخرة سنةَ الألف والمئتين والستِّ والخمسين، حيث

---

(١) في الأصل: كرة.

(٢) لحبش بن عبد الله المروزي الحاسب أحد أصحاب الأرصاد، المتوفى سنة (٢٢٠ هـ). الفهرست ص ٣٣٤، وهدية العارفين ١/ ٢٦٢.

(٣) وهو المشهور باسم أورانوس، وسمي هرشلاً على اسم مكتشفه العالم الإنكليزي وليم هرشل (١٧٣٨-١٨٢٢). المنجد ص ٧٢٧.

(٤) جوزيف لالاند (١٧٣٢-١٨٠٨) فلكي فرنسي اشتغل في بحث النجوم السيارة، وأخصُّها عطارد والنجوم المذنَّبة. المنجد ص ٦٠٨.

الشمسُ في السنبلة قد قَطَعَ من الحوت درجةً واحدةً وثلاثَ عشرةَ دقيقةً راجعاً = لا يبقَى له اعتمادٌ على ما قاله المتقدِّمون، ويجوِّزُ أمثالَ ما ظَفرَ به هؤلاء المتأخِّرون.

وأيضاً من الجائز أنْ تكون الأفلاك ثمانيةً؛ لإمكانِ كونِ جميع الثوابت مركوزةً في محدَّبِ ممثِّلِ زحل، أي: في مُتمِّمه الحاوي على أنَّه يتحرَّك بالحركة البطيئة، والفلكُ الثامن يتحرَّك بالحركة السريعة، وحينئذٍ تكونُ دائرةُ البروج المارَّة بأوائل البروج منتقلةً بحركة الثامن غيرُ مُنتقلة بحركة الممثل، ليحصل انتقالُ الثوابت بحركة الممثل من برجٍ إلى برجٍ كما هو الواقع.

وقد صرَّح البِرْجَنْدي[1] أنَّ القدماء لم يُثبتوا الفلك الأعظم، وإنَّما أثبتَه المتأخِّرون.

وأيضاً يجوزُ أنْ تكونَ سبعةً بأنْ يفرض الثوابت ودوائر[2] البروج على محدَّب ممثل زحل، ويكونُ هناك نفسان تتَّصل إحداهما بمجموعِ السبعة وتُحرِّكُها إحدى الحركَتَين الأولَيَيْن، والأخرى بالكرة السابعة وتُحرِّكُها الأخرى، ولكنْ يُشترط[3] أنْ تُفرَضَ دوائرُ البروج مُتحرِّكةً بالسريعة دون البطيئة، كتَحرُّكِها متوهَّمةً على سطوح الممثلات بالسريعة دون البطيئة، لينقل الثوابت بالبطيئة مِن بُرجٍ إلى برجٍ كما هو في الواقع، ونحن وراء المنع فيما يَرِدُ على هذا الاحتمال.

وأيضاً ذَكَر الإمام أنَّه لِمَ لا يجوز أنْ تكونَ الثوابتُ تحت فلكِ القمر، فتكون تحت كرات السيارة لا فوقها؟ وما يقال مِن أنَّا نَرَى أنَّ هذه السيارة تكسِفُ الثوابت، والكاسِفُ تحت المكسوف لا محالةَ، مدفوعٌ بأنَّ هذه السيارات إنَّما تكسِفُ الثوابتَ القريبة من المنطقة دونَ القريبة من القُطْبَين، فلِمَ لا يجوزُ أنْ يقال: هذه الثوابتُ القريبةُ من المنطقة مركوزةٌ في الفلك الثامن، والقريبةُ من

---

(١) عبد العلي بن محمد بن الحسين البرجندي الحنفي، له حاشية على شرح الملخص في الهيئة، وشرح التذكرة النصيرية في علم الهيئة وغيرهما، توفي سنة (٩٣٢هـ). كشف الظنون ٢/ ١٨٢٠، وهدية العارفين ١/ ٥٨٦.

(٢) في (م): ودائرة.

(٣) في (م): بشرط.

القطبَين مركوزةٌ في كرة أُخرى تحت كرة القمر؟ على أنَّه لِمَ لا يجوزُ أنْ يقال: الكواكبُ تتحرَّك بأنفسها من غير أنْ تكونَ مركوزةً في جسم آخر؟ ودون إثباتِ الامتناع خرطُ القتاد[1].

وذكروا في استفادة نور القمر مِن ضوء الشمس أنَّه من الحَدْسيات؛ لاختلاف أشكاله بحسب قُربه وبُعده منها، وذلك كما قال ابنُ الهيثم[2]: لا يفيدُ الجزمَ بالاستفادة؛ لاحتمال أنْ يكونَ القمرُ كُرةً نصفُها مضيء ونصفُها مظلمٌ، ويَتحرَّكُ على نفسه، فيُرَى هلالاً ثم بدراً ثم يَنمَحِقُ وهكذا دائماً. ومقصوده أنَّه لا بدَّ من ضمِّ شيءٍ آخرَ إلى اختلافِ الأشكال حَسَبَ القُرْبِ والبُعْدِ ليدلَّ على المدَّعَى، وهو حصولُ الخسوف عند توسُّطِ الأرض بينه وبين الشمس.

وبعضُ المحقِّقين كصاحب «حكمة العين» وصاحبِ «المواقف»[3] نَقَلوا ما نَقَلوا عن ابنِ الهيثم ولم يقفوا على مقصوده منه، فقالوا: إنَّه ضعيفٌ، وإلَّا لَمَا انخسفَ القمر في شيء من الاستقبالات أصلاً، وذلك كما قال العاملي: عجيبٌ منهم.

وأنت تعلم أنْ لا جزْمَ أيضاً، وأنَّ ضَمَّ ما ضُمَّ لجوازِ أنْ يكون سببٌ آخرُ لاختلاف تلك الأشكال النورية لكنَّا لا نعلمه، كأنْ يكون كوكبٌ كَمِدٌ تحت فلك القمر ينخسف به في بعض استقبالاته.

وإنْ طُعن في ذلك بأنَّه لو كان لرؤي. قلنا: لِمَ لا يجوز أنْ يكونَ الاختلافُ والخسوفُ من آثار إرادة الفاعل المختار مِن دون توسُّطِ القُرْبِ والبُعْدِ من الشمس، وحيلولةِ الأرض بينها وبينه، بل ليس هناك إلا توسُّطُ الكافِ والنون، وهو كافٍ عند مَن سَلِمَتْ عينُه من الغين.

---

(١) تفسير الرازي ٢/ ١٥٦-١٥٧.

(٢) الحسن بن الحسن بن الهيثم، وقيل: محمد بن الحسن بن الهيثم، أبو علي، كان خبيراً في الطب، ولم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي، ولخص كثيراً من كتب أرسطو وجالينوس وشرحها، وله مصنفات منها: مقالة في هيئة العالم، توفي سنة (٤٣٠هـ). الوافي بالوفيات ١١/ ٤٢٠-٤٢١.

(٣) ص٢١٤، وشرح المواقف ٧/ ١٣٤-١٣٥، وصاحب حكمة العين هو نجم الدين أبو الحسن علي بن محمد القزويني المتوفى سنة (٦٧٥ هـ). كشف الظنون ١/ ٦٨٥.

وللمتشرِّعين من المحدثين، وكذا لساداتنا الصوفية قدَّس الله تعالى أسرارَهم كلماتٌ شهيرةٌ في هذا الشأن، ولعلَّك قد وقفْتَ عليها، وإلَّا فستقفُ بعدُ إن شاء الله تعالى.

وقد استندوا فيما يقولون إلى أخبارٍ نبويةٍ، وأرصادٍ قلبية، وغالبُ الأخبار في ذلك لم تبلغ درجةَ الصحيح، وما بلغ منها آحادٌ، ومع هذا قابلٌ للتأويل بما لا يُنافي مذهبَ الفلاسفة، والحقُّ أنَّه لا جَزْمَ بما يقولونه في ترتيب الأجرام العلويَّة وما يلتحق بذلك، وأنَّ القول به ممَّا لا يضرُّ بالدِّين إلَّا إذا صادَمَ ما عُلِمَ مجيئُه عن النبيِّ ﷺ.

هذا وسمِّي القمرُ قمراً لبياضِه كما قال الجوهريُّ، واعتَبَرَ هو وغيرُه كونه قمراً بعد ثلاث[١].

﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: قدَّر له وهيَّأ ﴿مَنَازِلَ﴾، أو: قدَّر مسيرَه في منازلَ، فـ «منازل» على الأول مفعولٌ به، وعلى الثاني نصبٌ على الظرفية.

وجُوِّز أنْ يكون «قدَّر» بمعنى جَعَل المتعدِّي لواحد، و«منازل» حالٌ من مفعوله، أي: جَعَلَه وخَلَقَه متنقِّلاً، وأنْ يكون بمعنى «جَعَل» المتعدِّي لاثنين، أي: صيَّره ذا منازل، وأيّاً ما كان فالضميرُ للقمر، وتخصيصُه بهذا التقدير لسرعة سيره بالنسبة إلى الشمس؛ ولأنَّ منازلَه معلومةٌ محسوسةٌ، ولكونه عُمدةً في تواريخ العرب؛ ولأنَّ أحكام الشرع منوطةٌ به في الأكثر، وجُوِّزَ أنْ يكونَ الضميرُ له وللشمس بتأويل كلٍّ منهما.

والمنازلُ ثمانية وعشرون، وهي: الشَّرَطانِ، والبُطَيْنُ، والثُّرَيَّا، والدَّبَرانِ، والهَقْعةُ، والهَنْعَةُ، والذِّراعُ، والنَّثْرةُ، والطَّرْفُ، والجبْهَةُ، والزُّبْرةُ، والصَّرْفةُ، والعوَّاءُ، والسِّمَاك الأعزلُ، والغَفْر[٢]، والزُّبانَى، والإكليل، والقَلْبُ، والشَّوْلَةُ، والنَّعائمُ، والبَلْدَةُ، وسَعْدٌ الذابحُ، وسَعْدُ بُلَعَ، وسَعْدُ السُّعود، وسَعْدُ الأخبيةِ، وفَرْغُ الدَّلْوِ المُقدَّمِ، والفَرْغُ المؤخَّرُ، وبَطْنُ الحوت[٣].

---

(١) الصحاح (قمر).
(٢) في (م): والعفرة، وهو خطأ.
(٣) ينظر هذه المنازل مع شرحها في الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ١/ ١٧٦-١٨٦، والعمدة لابن رشيق ٢/ ٢٥٣-٢٥٧، وتفسير القرطبي ١٧/ ٤٤٦ و٤٤٩، والقاموس كلٌّ في بابه.

وهي مقسَّمةٌ على البروج الاثني عشر المشهورة، فيكونُ لكلِّ برجٍ منزلان وثلثٌ، والبرجُ عندهم ثلاثون درجةً حاصلةً من قسمة ثلاث مئة وستين أجزاءِ دائرةِ البروج على اثني عشر، والدرجةُ عندهم مُنقسمةٌ بستين دقيقةً، وهي منقسمةٌ بستين ثانية، وهي منقسمةٌ بستين ثالثةً، وهكذا إلى الروابع والخوامس والسوادسِ وغيرِها.

ويَقطعُ القمرُ بحركته الخاصةِ في كلِّ يوم بليلته ثلاثَ عَشْرةَ درجةً، وثلاثَ دقائقَ، وثلاثاً وخمسين ثانيةً، وستًّا وخمسينَ ثالثةً.

وتسميةُ ما ذكرنا منازلَ مجازٌ؛ لأنَّه عبارةٌ عن كواكبَ مخصوصةٍ من الثوابت قريبة من المنطقة، والمنزلةُ الحقيقيةُ للقمر الفراغُ الذي يشغلُه جُرْمُ القمرِ - على أحدِ الأقوال - في المكان، فمعنى نزولِ القمر في هاتيك المنازل: مُسَامَتَتُه إياها، وكذا تعتبرُ المُسَامَتَةُ في نزوله في البروج؛ لأنَّها مفروضةٌ أوَّلاً في الفَلَكِ الأعظم، وأمَّا تسميةُ نحوِ الحمل والثور والجوزة بذلك، فباعتبار المسامتةِ أيضاً.

وكان أولُ المنازل الشَّرَطَيْنِ - ويقال له: النَّطْحُ - وهو لأوَّل الحَمَل، ثم تحرَّكت حتى صار أوَّلُها - على ما حرَّره المحقِّقون من المتأخرين - الفَرْغَ المؤخَّرَ، ولا يثبت على ذلك؛ لأنَّ للثوابت حركةً على التَّوالي - على الصحيح - وإنْ كانت بطيئةً، وهي حركةُ فَلَكِها.

ومُثبِتو ذلك اختلفوا في مقدار المدَّة التي يقطعُ بها جزءاً واحداً من درجات منطقتِهِ، فقيل: هي ستٌّ وستُّون سنةً شمسية، أو ثمان وستُّون سنةً قمريةً، وذهب ابنُ الأعلم[1] إلى أنَّها سبعون سنةً شمسيةً، وطابَقَه الرَّصْدُ الجديدُ الذي تولَّاه نصيرٌ الطوسيُّ بِمَرَاغَة[2]. وزَعَم محيي الدين أحدُ أصحابه أنَّه تولَّى رصْدَ عِدَّةٍ من الثوابت

(١) علي بن الحسن العلوي من أولاد جعفر الطيار ﷺ، بغدادي المنشأ والمولد، وكان عالماً بالهندسة وأجزائها، عارفاً بالقانون الفيثاغوري، توفي سنة (٣٣٥هـ). تاريخ حكماء الإسلام ص٩٠، والأعلام ٤/ ٢٧٢.

(٢) نصير الطوسي هو محمد بن محمد بن الحسن، الفيلسوف صاحب علوم الرياضة والرصد، أشهر أساتذته سالم بن بدران المصري المعتزلي الرافضي، من تصانيفه: المتوسطات من الهندسة والهيئة. وبنى رصداً بمراغة، وهي بلدة مشهورة من أعظم وأشهر بلاد أذربيجان، توفي سنة (٦٧٢هـ). الوافي بالوفيات ١/ ١٧٩، وينظر معجم البلدان ٥/ ٩٣.

كعين الثورِ وقلبِ العقرب بذلك الرصد، فوجَدَها تتحرَّك في كلِّ ستٍّ وستِّين سنةً شمسية درجةً واحدةً. وادَّعى بطليموس أنَّه وجد الثوابتَ القريبةَ إلى المنطقة متحرِّكةً في كلِّ مئةِ سنةٍ شمسيةٍ درجةً. واللهُ تعالى أعلمُ بحقائق الأحوال، وهو المتصرِّفُ في ملكِه وملكوته حَسْبَما يشاء.

﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ التي يتعلَّق بها غرضٌ علميٌّ لإقامة مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿وَالْحِسَابَ﴾ أي: ولتعلموا الحسابَ بالأوقاتِ من الأشهر والأيام وغيرِ ذلك مما نيط به شيءٌ من المصالح المذكورة.

واللامُ ـ على ما يُفهم من «أمالي» عزِّ الدين بنِ عبد السلام ـ متعلِّقةٌ بـ «قدَّر». واستَشْكَلَ هو ذلك بأنَّ عِلْمَ العددِ والحساب لا يفتقرُ لكون القمر مقدَّراً بالمنازل، بل طلوعُه وغروبُه كافٍ.

وذكر بعضُهم أنَّ حكمةَ ذلك صلاحُ الثمار بوقوع شعاع القمر عليها وقوعاً تدريجياً، وكونُه أدلَّ على وجوده سبحانه وتعالى؛ إذ كثرةُ اختلافِ أحوال الممكن وزيادةُ تفاوتِ أوصافه أدْعَى إلى احتياجه إلى صانعٍ حكيم واجبٍ بالذات، وغير ذلك مما يعرفه الواقفون على الأسرار.

وأجابَ مولانا سريُّ الدِّين[1] بأنَّ المرادَ من الحساب حسابُ الأوقات بمعرفةِ الماضي من الشهر والباقي منه، وكذا من الليل، ثم قال: وهذا إذا علَّقتَ اللام بـ «قدَّره منازل» فإنْ علَّقتَه بـ «جعَلَ الشمس والقمر» لم يَرِدِ السؤال.

ولعلَّ الأولَى على هذا أنْ يحمل «السنين» على ما يعمُّ السنينَ الشمسيةَ والقمريَّةَ، وإنْ كان المعتبرُ في التاريخ العربيِّ الإسلاميِّ السنةَ القمريةَ، والتفاوتُ بين السنتَين عشرةُ أيَّامٍ وإحدَى عَشْرَةَ ساعةً ودقيقةٌ واحدةٌ، فإنَّ السنة الأولى عبارةٌ عن ثلاث مئة وخمسةٍ وستينَ يوماً وخمسِ ساعاتٍ وتسع وأربعينَ دقيقةً على مقتضى الرصد الإيلخاني، والسنة الثانيةُ عبارةٌ عن ثلاث مئة وأربعةٍ وخمسين يوماً وثماني ساعاتٍ وثمانٍ وأربعينَ دقيقةً، وينقسم كلٌّ منهما إلى بسيطةٍ وكبيسةٍ، وبيانُ ذلك في محلِّه.

---

(١) ابن إبراهيم المصري الحنفي المعروف بابن الصائغ، وسلفت ترجمته ١٠/ ٢٣٢.

وتخصيصُ العدد بالسنين، والحساب بالأوقات؛ لِمَا أنَّه لم يُعتبر في السنينَ المعدودةِ معنًى مغايرٌ لمراتبِ الأعداد كما اعتُبر في الأوقات المحسوبة. وتحقيقُه: أنَّ الحساب إحصاءُ ما له كمِّيَّةٌ انفصاليةٌ بتكريرِ أمثاله، من حيث يتحصَّل بطائفةٍ معيَّنةٍ منها عددٌ معيَّنٌ له اسمٌ خاصٌّ وحُكْمٌ مُستقلٌّ، كالسَّنة المتحصِّلةِ من اثني عشرَ شهراً، قد تحصَّل كلٌّ مِن ذلك مِن أيامٍ معلومة، قد تحصَّل كلٌّ منها مِن ساعاتٍ كذلك، والعدُّ[1] مجرَّدُ إحصائه بتكريرِ أمثاله من غير اعتبارِ أنْ يتحصَّل بذلك شيءٌ كذلك، ولمَّا لم يُعتَبر في السنينَ المعدودةِ تحصُّلُ حدٍّ معيَّنٍ له اسمٌ خاصٌّ غيرُ أسامي مراتبِ الأعداد وحُكْمٌ مستقلٌّ، أُضيف إليها العدد. وتحصُّلُ مراتب الأعداد من العشرات والمئات والألوف اعتباريٌّ لا يُجدي في تحصيل المعدود[2] نفعاً، وحيث اعتُبر في الأوقات المحسوبة تحصيلُ[3] ما ذكر من المراتب التي لها أسامٍ خاصَّةٌ وأحكامٌ مستقلَّةٌ عُلِّق بها الحساب المنبئُ عن ذلك، والسنةُ من حيث تحقُّقُها في نفسها مما يتعلَّق به الحساب، وإنَّما الذي يتعلَّق به العدُّ[4] طائفةٌ منها، وتعلُّقه في ضمن ذلك بكلٍّ واحدةٍ من تلك الطائفة ليس من تلك الحيثية المذكورة، أعني حيثيَّةَ تحصُّلها من عدة أشهر، قد تحصَّل كلٌّ واحدٍ منها من عدَّةِ أيامٍ، قد حَصَل كلٌّ منها من عدَّة ساعات، فإنَّ ذلك وظيفةُ الحساب، بل من حيث إنَّها فردٌ من تلك الطائفة المعدودة من غير أنْ يعتبر معها شيءٌ غيرُ ذلك.

وتقديمُ العدد على الحساب مع أنَّ الترتيب بين متعلَّقَيهما وجوداً وعِلْماً على العكس؛ لأنَّ العلم المتعلِّق بعدد السنين[5] علمٌ إجماليٌّ بما تعلَّق به الحساب تفصيلاً وإنْ لم تَتَّحد الجهةُ، أو لأنَّ العدد من حيث إنه لم يُعتبر فيه تحصيلُ[6] أمرٍ آخرَ - حَسْبَما حُقِّق آنفاً - نازلٌ من الحساب الذي اعتُبر فيه ذلك منزلةَ البسيط من المركب. قاله شيخ الإسلام.

---

(١) في الأصل: والعدد، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٢١، والكلام منه.
(٢) في تفسير أبي السعود: في تحصُّل المعدودة.
(٣) في تفسير أبي السعود: تحصل.
(٤) في الأصل: العدد، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.
(٥) بعدها في (م): له، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.
(٦) في تفسير أبي السعود: تحصل.

﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من الشمس والقمر على ما حكَى سبحانه من الأحوال ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ استثناءٌ من أعمِّ أحوال الفاعل أو المفعول[1]، والباء للملابسة، أي: ما خَلَق ذلك مُلتبساً بشيءٍ من الأشياء إلَّا ملتبساً بالحقِّ، مراعياً فيه الحكمة والمصلحة، أو مُراعًى فيه ذلك، فالمراد بالحقِّ هنا خلافُ الباطل والعَبَث.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: الآياتِ التكوينيةَ المذكورةَ، أو الأعمَّ منها ويدخلُ المذكورُ دخولاً أوَّليّاً، أو: يفصِّل[2] الآيات التنزيلية المنبِّهة على ذلك.

وقرئ: «نفصل» بنون العظمة[3]، وفيه التفاتٌ.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ الحكمةَ في إبداع الكائنات، فيستدلُّون بذلك على شؤون مُبدِعِها جلَّ وعلا، أو: يعملون ما في تضاعيف الآيات المنزَلةِ فيؤمنون بها. وتخصيصُ التفصيل بهم على الاحتمالَين، لأنَّهم المنتفعون به.

وقيل: المرادُ: لقومٍ عقلاءَ من ذوي العلم، فيعمُّ مَن ذكَرْنا وغيرَهم.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ تنبيهٌ آخرُ إجماليٌّ على ما ذُكر، أي: في تعاقُبِهما وكونِ كلٍّ منهما خلفةً للآخر بحسب طلوعِ الشمس وغروبها، التابعَين عند أكثر الفلاسفة لحركة الفلك الأعظم حول مركزه على خلاف التَّوالي، فإنَّه يلزمُها حركةُ سائرِ الأفلاك وما فيها من الكواكب ـ على ما تقدَّم ـ مع سكون الأرض، وهذا في أكثر المواضع، وأمَّا في عَرْض تسعين فلا يطلعُ شيءٌ ولا يغربُ بتلك الحركة أصلاً، بل بحركاتٍ أخرى، وكذا فيما يقرُب منه قد يقعُ طلوعٌ وغروبٌ بغير ذلك، وتُسمَّى تلك الحركةُ الحركةَ اليومية، وجعَلَها بعضُهم بتمامها للأرض، وجعَلَ آخرون بعضَها للأرض وبعضَها للفلك الأعظم.

والمشهورُ عند كثيرٍ من المحدِّثين أنَّ الشمس نفسَها تجري مسخَّرةً بإذن الله

---

(١) في (م): والمفعول، وهو خطأ، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

(٢) في (م): نفصل.

(٣) هي قراءة نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وشعبة وخلف وأبي جعفر. التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢.

تعالى في بحرٍ مكفوفٍ، فتطلُع وتغرُب حيث شاء الله تعالى، ولا حركةَ للسماء، وإلى مثل ذلك ذهب الشيخ الأكبر قدِّس سرُّه[1].

ويجوزُ أنْ يُراد بـ «اختلاف الليل والنهار» تفاوتُهما في أنفسهما بازدياد كلٍّ منهما بانتقاصِ الآخر، وانتقاصِه بازدياده، وهو ناشئ[2] عندهم من اختلاف حالِ الشمس بالنسبة إلينا قُرباً وبُعداً بسبب حركتها الثانية، التي بها تختلفُ الأزمنة، وتنقسمُ السنة إلى فصول، وقد يتساوَى الليلُ والنهار في بعض الأزمان عند بعضٍ، وذلك إنَّما يكون إذا اتَّفق حلولُ الشمس نقطةَ الاعتدال عند الطلوع أو الغروب، وكان الأوجُ في أحد الاعتدالَين، فإنَّه إذا تحقَّق الأول كان قوسُ النهار كقوس الليل، وإذا تحقَّق الثاني كان الأمرُ بالعكس، وهذا نادرٌ جدّاً، ولا يُمكن على ما ذهب إليه بطليموس من عدم حركةِ الأوج، فلا يتساوَى الليلُ والنهار عنده أصلاً.

وقد يُراد اختلافُهما بحسب الأمكنة: إمَّا في الطول والقصر، فإنَّ البلاد القريبةَ من القطب الشمالي أيامُها الصيفيةُ أطولُ ولياليها الصيفيةُ أقصرُ من أيام البلاد البعيدة منه ولياليها، وإمَّا في أنفسهما فإنَّ كُريَّة الأرض ـ على ما قالوا ـ تقتضي أنْ يكون[3] بعضُ الأوقات في بعضِ الأماكن ليلاً وفي مقابله نهاراً.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن المصنوعات المُتقَنةِ والآثارِ المُحْكَمةِ ﴿لَآيَٰتٍ﴾ عظيمةٍ كثيرةٍ دالَّةٍ عى وجود الصانع تعالى ووحدتِهِ وكمالِ قدرته، وبالغِ حكمته، التي مِن جملة مقتضياتها[4] ما أنكروا مِن إرسال الرسولِ وإنزالِ الكتاب، وتَبيينِ طرائق الهدَى، وتَعيين مهاوي الردى.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ اللهَ تعالى ويَحْذَرون من العاقبة، وخصَّهم[5] سبحانه بالذكر؛ لأنَّ التقوى هي الداعيةُ للنظر والتدبُّر.

---

(١) في الباب الثامن والخمسين وخمس مئة من الفتوحات.

(٢) في الأصل: ناش.

(٣) في (م): تكون، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٢٢، والكلام منه.

(٤) في الأصل و(م): مقتضياته، والمثبت من تفسير أبي السعود.

(٥) في (م): وخصصهم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بيانٌ لمآل أمرِ مَن كفَرَ بالبعث المشار إليه فيما سبق، وأعرضَ عن البيِّنات الدالَّةِ عليه، والمرادُ بلقائه تعالى شأنه إمَّا الرجوعُ إليه بالبعث، أو لقاءُ الحساب، وأيّاً ما كان ففيه مع الالتفات إلى ضمير الجلالة من تهويل الأمر ما لا يخفَى.

والرجاءُ يُطْلَقُ على توقُّع الخير كالأمل، وعلى الخوفِ وتوقُّعِ الشرِّ، وعلى مُطْلقِ التوقُّع، وهو في الأول حقيقةٌ وفي الأخيرَين مجازٌ، واختار بعضُ المحقِّقين المعنى المجازيَّ الأخيرَ المنتظِمَ للأمل والخوف، فالمعنى: لا يتوقَّعون الرجوعَ إلينا، أو لقاءَ حسابنا المؤدِّي إلى حُسْنِ الثواب أو إلى سوءِ العقاب، فلا يأمَلون الأولَ ولا يخافون الثاني.

ويشيرُ إلى عَدَمِ أَمَلهم قولُه سبحانه: ﴿وَرَضُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فإنَّه مُنبِئٌ عن إيثارِ الأدْنَى الخسيس على الأعلى النفيس، وإلى عَدَمِ خوفهم قولُه عزَّ وجل: ﴿وَٱطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ فإنَّ المرادَ: أنَّهم سكنوا فيها سكونَ مَن لا بَراحَ له، آمنين مِن اعتراء المزعجات، غيرَ مُخْطِرِين ببالهم ما يَسوءُهم من العذاب.

وجُوِّز أنْ يُراد بالرجاء المعنى الأول، والكلامُ على حذفِ مضافٍ، أي: لا يؤمِّلون حُسْنَ لقائنا بالبعث والإحياءِ بالحياة الأبدية، ورَضُوا بدلاً منها ومما فيها من الكرامات السَّنيَّةِ بالحياة الدنيا الفانيةِ الدنيَّةِ، وسكنوا إليها مُكِبِّين عليها قاصرين مَجامِعَ هِمَمِهم على لذائذها وزخارِفها، من غير صارفٍ يَلويهم ولا عاطفٍ يُثْنيهم.

وجُوِّز أن يُراد به المعنى الثاني، والكلام على حذف المضاف أيضاً، أي: لا يخافون سوءَ لقائنا الذي يجبُ أن يُخاف. وتعقِّب بأنَّ كلمة الرضا بالحياة الدنيا تأبَى ذلك، فإنَّها مُنبئةٌ عما تقدَّم من تَرْكِ الأعلى وأَخْذِ الأدنى.

وقال الإمام: إنَّ حَمْلَ الرجاء على الخوف بعيدٌ؛ لأنَّ تفسير الضدِّ بالضدِّ غيرُ جائزٍ[1]. ولا يخفى أنَّه في حيِّز المنع، فقد وَرَدَ ذلك في استعمالهم، وذكره الراغب والإمامُ المرزوقيُّ، وأنشدوا شاهداً قولَ أبي ذؤيب:

---

(١) تفسير الرازي ١٧/٣٨.

إذا لَسَعْتهُ النحلُ لم يَرْجُ لَسْعَها وحالَفَها في بيتِ نُوبٍ عواملِ[1]

ووجَّه ذلك الراغبُ بأنَّ الرجاء والخوف يتلازمان[2].

وأمَّا الاعتراضُ على الإمام بأنَّ استعمال الضدِّ في الضدِّ جائزٌ في الاستعارة التهكُّمية، فليس بشيءٍ؛ لأنَّ مقصودَه رحمه الله تعالى أنَّ ذلك غيرُ جائزٍ في غير الاستعارة المذكورة، كما يُشعر به قولُه: تفسير، دون: استعارة، ثم إنَّه لا يجوز اعتبارُ هذه الاستعارة هنا؛ لأنَّ التهكُّم غيرُ مرادٍ كما لا يخفَى.

ويُعلم مما ذكرنا في تفسير الآية أنَّ الباء للظرفية، وجُوِّز أن تكونَ للسببِيَّة على معنى: سكنوا بسبب زينتها وزخارفها. واختيارُ صيغة الماضي في الخصلَتين الأخيرتَين للدلالة على التحقُّق والتقرُّر، كما أنَّ اختيار صيغة المستقبَل في الأُولَى للإيذان بالاستمرار.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ المفصَّلةِ في صحائف الأكوان حَسْبَما أُشيرَ إلى بعضها، أو آياتنا المنزَّلة المنبِّهة على الاستدلال بها، المتَّفقةِ معها في الدلالة على حَقِّيَّة ما لا يرجونه من اللقاء المترتِّب على البعث، وعلى بطلان ما رضُوا به واطمأنوا فيه من الحياة الدنيا.

﴿غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ لا يتفكَّرون فيها أصلاً وإنْ نُبِّهوا بما نبهوا؛ لانهماكهم بما يصدُّهم عنها من الأحوال المعدودة، وتكريرُ الموصول للتوصُّل به إلى هذه الصلة المُؤْذِنة بدوام غَفْلَتهم واستمرارها.

والعطفُ لمغايرَةِ الوصف المذكور لِمَا قبله من الأوصاف، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّهم جامعون لهذا وتلك، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهما متميِّزٌ مستقلٌّ صالحٌ لأنْ يكون منشأً للذمِّ والوعيد.

---

(١) ديوان الهذليين ١/ ١٤٣، ومجاز اللغة ٢/ ٧٣، ومعاني القرآن للفراء ١/ ٢٨٦، والخزانة ٥/ ٤٩١، ورواية الديوان: عواسل، بدل: عوامل. النوب: النحل، سميت بذلك لسوادها، أو لأنها تختلف وتجيء وتذهب. وعوامل: أي: تعمل العسل. وحالفها، أي: صار حليفها في بيتها، ويروى: وخالفها، أي: جاء إلى عسلها من ورائها لمَّا سرحت في المراعي.

(٢) مفردات الراغب (رجا).

والقولُ بأنَّ ذلك لتغايُرِ الوصفَين، والتنبيهِ على أنَّ الوعيد على الجمع بين الذهول عن الآيات رأساً والانهماكِ في الشهوات، بحيث لا تَخْطُر ببالهم الآخرةُ أصلاً = ليس بشيءٍ؛ إذ يُفهم من ظاهره أنَّ كلّاً منهما غيرُ موجبٍ للوعيد بالاستقلال، بل الموجبُ له المجموعُ، وهو كما ترى.

وكونُه لتغايُرِ الفريقَين، بأنْ يُراد من الأوَّلِينَ مَن أنكر البعثَ ولم يُرِدْ إلّا الحياةَ الدنيا، وبالآخِرِين مَن ألهاه حبُّ العاجل عن التأمُّل في الآجِلِ والإعدادِ له، كأهل الكتاب الذين ألهاهم حبُّ الدنيا والرياسةِ عن الإيمان والاستعدادِ للآخرة = بعيدٌ غايةَ البعد في هذا المقام.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذُكر ﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ أي: مسكنُهم ومقرُّهم الذي لا براحَ لهم منه ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا ما اطمأنُّوا به من الحياة الدنيا ونعيمِها.

﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ من الأعمال القلبية المعدودةِ وما يستَتْبعُه من المعاصي، أو بكَسْبِهم[1] ذلك. والجمعُ بين صيغتَي الماضي والمضارع للدلالة على الاستمرار. والباءُ متعلِّقةٌ بما دلَّ عليه الجملةُ الأخيرةُ الواقعةُ خبراً عن اسم الإشارة، وقدَّره أبو البقاء: جُوزُوا[2].

وجملة «أولئك» إلخ خبر «إنَّ» في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ﴾ إلخ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بما يجبُ الإيمان به، ويندرجُ فيه الإيمانُ بالآيات التي غفل عنها الغافلون اندراجاً أوَّليّاً، وقد يخصُّ المتعلق بذلك نظراً للمقام ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمالَ الصالحةَ في أنفسها اللائقةَ بالإيمان، وتركُ ذِكْرِ الموصوف لجريان الصفة مجرى الأسماء.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يهديهم بسبب إيمانهم إلى مأواهم ومقصدهم وهي الجنة، وإنَّما لم تُذكر تعويلاً على ظهورها وانسياقِ النفس إليها، لا سيما مع ملاحظة ما سَبَقَ من بيان مأوى الكفرة وما أدَّاهم إليه من الأعمال السيئة، ومشاهدةِ ما لَحِقَ من التلويح والتصريح.

---

(١) في (م) يكسبهم، وهو تصحيف.
(٢) الإملاء ٣/ ٢١٤.

والمراد بهذا الإيمان الذي جُعل سبباً لِمَا ذُكِر الإيمانُ الخاصُّ المشفوعُ بالأعمال الصالحة، لا المجرَّدُ عنها ولا ما هو الأعمُّ، ولا ينبغي أنْ يَنتطح في ذلك كبشان، والآيةُ عليه بمعزلٍ عن الدلالة على خلاف ما عليه الجماعةُ من أنَّ الإيمان الخاليَ عن العمل الصالح يُفضي إلى الجنة في الجملة، ولا يَخْلُدُ صاحبه في النار، فإنَّ منطوقها أنَّ الإيمان المقرون بالعمل الصالح سببٌ للهداية إلى الجنة. وأمَّا أنَّ كلّ ما هو سببٌ لها يجبُ أنْ يكون كذلك، فلا دلالةَ لها ولا لغيرها عليه، كيف لا وقولُه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] منادٍ بخلافه على ما أطبقُوا عليه مِن تفسير الظلم بالشرك؟ ولئن حُمل على ظاهره أيضاً يدخل في الاهتداء مَن آمن ولم يعمل صالحاً، ثمَّ مات قبل أنْ يَظلم بفِعْلِ حرامٍ أو بتركِ واجبٍ[١].

وإلى حَمْلِ الإيمان على ما قلنا ذهب الزمخشريُّ، وقال: إنَّ الآية تدلُّ على أنَّ الإيمان المعتبرَ في الهداية إلى الجنة هو الإيمانُ المقيَّد بالعمل الصالح، ووجَّه ذلك بأنَّه جَعَل فيها الصلةَ مجموعَ الأمرَين، فكأنَّه قيل: إنَّ الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، ثم قيل: بإيمانهم، أي: هذا المضموم إليه العملُ الصالح[٢].

وزَعَم بعضهم[٣] أنَّ ذلك منه مبنيٌّ على الاعتزال وخلودِ غيرِ الصالح في النار، ثم قال: إنَّه لا دلالة في الآية على ما ذكره؛ لأنَّه جُعِلَ سببُ الهداية إلى الجنة مُطلَقَ الإيمان، وأمَّا أنَّ إضافتَه إلى ضمير الصالحين يقتضي أخذَ الصلاح قيداً في السبب فممنوعٌ، فإنَّ الضمير يعودُ على الذَّوات بقِطْعِ النظر عن الصفات. وأيضاً فإنَّ كونَ الصِّلة عِلَّةً للخبر بطريق المفهوم، فلا يعارضُ السببَ الصريح المنطوق، على أنَّه ليس كلُّ خبرٍ عن الموصول يلزمُ فيه ذلك، ألا ترى أنَّ نحو: الذي كان معنا بالأمس فَعَل كذا، خالٍ عمَّا يذكرونه في نحو: الذي يؤمنُ يدخل الجنة.

وانتُصر للزمخشري بأنَّ الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ظاهرٌ في أنَّهما السببُ، والتصريحُ بسببية الإيمان المضاف إلى ضمير «الذين آمنوا وعملوا

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٣-١٢٤.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٦.
(٣) هو ابن المنير في الانتصاف ٢/ ٢٢٦، والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ٩.

الصالحات» كالتنصيص على أنَّه ذلك الإيمانُ المقرونُ بما معه لا المطلَقُ، لكنَّه ذُكر لأصالته وزيادةِ شرفه، ولا يلزم على هذا استدراكُ ذكرِهِ، ولا استقلالُه بالسببية.

وفيه ردٌّ على القاضي البيضاوي حيث ادَّعى أنَّ مفهوم الترتيب وإن دلَّ على أنَّ سبب الهدايةِ الإيمانُ والعمل الصالح، لكنَّ منطوقَ قوله سبحانه: ﴿بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ دلَّ على استقلال الإيمان[1].

ومنعَ في «الكشف» أيضاً كونَ المنطوق ذلك، وفرَّعه على كون الاستدلالِ[2] مِن جَعْلِ الإيمان والعمل الصالح واقعَين في الصِّلة ليجريا مجرَى العلَّةِ، ثم لمَّا أُعيدَ الإيمانُ مضافاً كان إشارةً إلى الإيمان المقرون؛ لِمَا ثبَتَ أنَّ استعمالَ ذلك إنَّما يكونُ حيث معهودٌ، والمعهودُ السابق هو هذا والأصلُ عدمُ غيره.

ثم قال: ولو سُلِّم أنَّ المنطوق ذلك لم يضرَّ الزمخشريَّ؛ لأنَّ العمل يُعدُّ شرطاً حينئذٍ، جَمْعاً بين المنطوق والمفهوم بقَدْرِ الإمكان، فلَم يُلغَ اقترانُ العمل ولا دلالةُ السببية، وهذا فائدةُ إفراده بالذكر ثانياً، مع ما فيه من الأصالة وزيادة الشرف، ولا مخالِفَ له من الجماعة؛ لأنَّ العصاةَ غيرُ مهديِّين، وأمَّا أنَّ كلَّ مَن ليس مهتدياً فهو خالدٌ في النار، فهو ممنوعٌ غايةَ المنع. انتهى.

وفي القلب مِن هذا المنع شيءٌ، والأولَى التعويلُ على ما قدَّمناه في تقريرِ كون الآية بمعزلٍ عن الدلالة على خلافِ ما عليه الجماعةُ، والهدايةُ على هذا الوجهِ يحتمل أنْ تُفسَّر بالدلالة الموصِلَةِ إلى البُغيةِ، وبمجرَّد الدلالة، والمختارُ الأوَّل.

واختار الثانيَ مَن قال: إنَّ المعنَى: يهديهم إلى[3] طريق الجنة بنور إيمانهم، وذلك إمَّا على تقدير المضافِ، أو على أنَّ إيمانهم يَظْهَرُ نوراً بين أيديهم.

وقيل: إنَّ المعنى: يُسدِّدهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك السبيلِ المؤدِّي إلى الثواب[4]، والهدايةُ عليه بالمعنى الأول.

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٨.
(٢) في الأصل: الاستدراك.
(٣) قوله: إلى، ليس في (م).
(٤) وهذا قول الزمخشري في الكشاف ٢/ ٢٢٦ كما سيرد قريباً.

وقيل: المرادُ: يهديهم إلى إدراك حقائقِ الأمور، فتنكشفُ[1] لهم بسبب ذلك.

وأيّاً ما كان فالالتفاتُ في قوله سبحانه: (رَبُّهُم) لتشريفهم بإضافة الربِّ إليهم، مع الإشعارِ بعلَّة الهداية.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ ـ أي: من تحت منازلهم، أو مِن بين أيديهم ـ استئنافٌ نحْويٌّ أو بيانيٌّ فلا محلَّ له من الإعراب، أو خبرٌ ثانٍ لـ «إنَّ» فمحلُّه الرفع.

وجُوِّز أنْ يكون في محلِّ النصب على الحال من مفعول «يهديهم» على تقدير كون المُهْدَى إليه ما يُريدونه في الجنة كما قال أبو البقاء[2]، وإنْ جُعل حالاً منتَظَرَةً لم يحتَجْ إلى القول بهذا التقدير، لكنَّه خلافُ الظاهر.

والزمخشريُّ لمَّا فسَّر «يهديهم ربُّهم» بيسدِّدُهم إلخ، جَعَل هذه الجملة بياناً له وتفسيراً؛ لأنَّ التمسُّك بسبب السعادة كالوصول إليها[3]، ولا يخفَى أنَّ سبيل هذا البيانِ سبيلُ البدل، وبذلك صرَّح الطيبيُّ، وحينئذٍ فمحلُّها الرفعُ؛ لأنَّه محلُّ الجملة المبدَل منها.

وقوله سبحانه: ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾ خبرٌ آخر، أو حالٌ أُخرى من مفعول «يهديهم»، فتكونُ حالاً مترادفةً، أو من «الأنهار» فتكون مُتداخلةً، أو متعلِّق بـ «تجري» أو بـ «يهدي» والمرادُ ـ على ما قيل ـ بالمُهدَى إليه إمَّا منازلُهم في الجنة، أو ما يريدونه فيها.

﴿دَعْوَاهُمْ﴾أي: دعاؤهم، وهو مبتدأ، وقولُه تعالى شأنه: ﴿فِيهَا﴾ متعلِّقٌ به، وقولُه سبحانه: ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ خبرُه، أي: دعاؤهم هذا الكلامُ. والدعوى وإن اشتهرَت بمعنى الادِّعاء، لكنَّها وردَت بما ذكرنا أيضاً، وكونُ الخبر من جنس الدعاء يشهدُ له قولُه ﷺ: «أكثرُ دُعائي ودعاءِ الأنبياءِ قَبْلي بعرفات: لا إله إلا الله

(١) في الأصل: فتكشف.
(٢) في الإملاء ٣/ ٢١٥.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٢٦.

وحدَه لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ»(١). والظاهرُ أنَّ إطلاق الدعاء على ذلك مجازٌ، وهو الذي يُفهِمُه كلامُ ابنِ الأثير حيث قال: إنَّما سمِّي التهليلُ والتحميدُ والتمجيد دعاء؛ لأنَّه بمنزلته في استيجاب ثواب الله تعالى وجزائه(٢)، وفي الحديث: «إذا شَغَلَ عبدي ثناؤه عَلَيَّ عن مسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السائلين»(٣).

وجاءت بمعنَى العبادة كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨] وجوِّز إرادتُه هنا، والمرادُ نَفْيُ التكليف، أي: لا عبادةَ لهم غير هذا القول، وليس ذلك بعبادةٍ، وإنَّما يُلهَمُونه ويَنطقون به تلذُّذاً لا تكليفاً، ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]. وفيه خفاءٌ كما لا يخفى.

وقد يقال: يأتي نظيرُ هذا في الآية على احتمال أنْ يُراد بالدعوى الدعاءُ حقيقةً، فيكون المعنى على طرز ما قُرِّر، أنَّه لا سؤالَ لهم من الله تعالى سوى ذلك، ومن المعلوم أنَّ ذلك ليس بسؤالٍ، فيفيدُ أنَّه لا سؤالَ لهم أصلاً. والغرضُ

---

(١) قطعة من حديث أخرجه ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٧٣-٣٧٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ١١٧، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٤٠ من طريق موسى بن عبيدة، عن أخيه، عن علي ﷺ، عن النبي ﷺ. قال البيهقي: تفرد به موسى بن عبيدة، وهو ضعيف، ولم يدرك أخوه علياً.
وأخرجه مالك ١/ ٤٢٢، وعبد الرزاق (٨١٢٥) من طريق طلحة بن عبيد الله بن كريز عن النبي ﷺ مرسلاً بلفظ: «أفضل الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وأفضلُ ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، وينظر التمهيد ٦/ ٣٩-٤١.

(٢) النهاية (دعا).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن المبارك في الزهد (٩٢٩)، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ٤٣-٤٤ عن مالك بن الحارث قال: يقول الله تعالى: إذا شغل عبدي، وقال ابن عبد البر: قد روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ، ثم ذكره من حديث عمر ﷺ. وحديث عمر أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد ص١٠٥ بلفظ: «مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته»، وفي إسناده صفوان بن أبي الصهباء، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٣١٦: ضعفه ابن حبان وقال: يروي ما لا أصل له، لا يجوز الاحتجاج بما انفرد به، ثم ذكره في الثقات أيضاً.
وأخرجه الترمذي (٢٩٢٦) من طريق عطية عن أبي سعيد مرفوعاً بلفظ: «من شغله القرآن وذكري...»، وقال: حسن غريب. اهـ. وقال ابن حجر في الفتح ٩/ ٦٦: رجاله ثقات، إلا عطية العوفي ففيه ضعف.

من ذلك الإشارةُ إلى حصول جميعِ مقاصدهم بالفعل، فليس بهم حاجةٌ إلى سؤال شيء، إلا أنَّ فيه ما فيه.

ونصب «سبحان» على المصدرية لفعلٍ محذوفٍ وجوباً، وهو بمعنى التسبيح. وقدِّرت الجملةُ اسميةً، أي: إنَّا نُسبِّحك تسبيحاً؛ لأنَّها أبلغُ، والجملُ التي بعدها كذلك.

و«اللهم» بتقدير: يا الله، حُذف حرفُ النداء وعُوِّض عنه الميم، وتمامُ الكلام فيه وفيما قبله قد تقدَّم لك(١) فتذكر.

وكان القياسُ تقديمَ الاسمِ الجليل؛ لأنَّ النداء يُقدَّم على الدعاء، لكنَّه استُعمل في التسبيح كذلك، قيل: لأنَّه تنزيهٌ عن جميع النقائص، وفي النداء ربَّما يتوهَّم تركُ الأدب.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ أي: ما يُحيَّون به ﴿فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ أي: سلامة(٢) من كلِّ مكروه، وهو خبرُ «تحيَّتُهم» و«فيها» متعلِّقٌ بها، والتحيةُ: التكرمةُ بالحال الجليلة، وأصلُها: أَحياك الله تعالى حياةً طيبةً، وإضافتُها هنا إلى المفعول، والفاعلُ إمَّا اللهُ سبحانه، أي: تحيةُ اللهِ تعالى إياهم ذلك، ويُرشد إليه قولُه عزَّ وجل: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] أو الملائكةُ عليهم السلام، ويُرشد إليه قوله سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۞ سَلَٰمٌ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وجُوِّز أنْ تكونَ الإضافةُ إلى الفاعل بتقدير مضافٍ، أي: تحيةُ بعضِهم بعضاً آخرَ ذلك. وقد يُعتبرُ البعضُ المقدَّرُ مفعولاً، فالإضافةُ إلى المفعول والفاعلُ محذوفٌ.

وقيل: يجوزُ أن يكونَ مما أُضيفَ فيه المصدرُ لفاعله ومفعولِه معاً، إذا كان المعنى: يُحَيِّي بعضُهم بعضاً، ونظيرُه في الإضافة إلى الفاعل والمفعول قولُه تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] حيث أُضيف «حُكم» إلى ضميرِ داودَ وسليمانَ عليهما السلام ـ وهما حاكمان ـ وغيرِهما وهم المحكومُ عليهم.

---

(١) ٤/ ٨٩ و٢/ ١٠٣.

(٢) في (م): سلامتهم.

وليس ذلك من باب الجمعِ بين الحقيقة والمجازِ المختلَف فيه ـ حيث إنَّ إضافة المصدر لفاعله حقيقةٌ ولمفعوله مجازٌ ـ لأنَّه لا خلافَ في جواز الجمع إذا كان المجازُ عقليّاً، إنما الخلافُ فيه إذا كان لُغويّاً.

﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾أي: خاتمةُ دعائهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑩﴾ أي: أنَّه الحمدُ لله، فـ «أنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، واسمُها ضميرُ شأنٍ محذوفٌ، والجملةُ الاسمية خبرُها، و«أنْ» ومعمولاها خبرُ «آخِرُ» وليست مفسِّرةً؛ لفَقْد شرطها، ولا زائدةً لأنَّ الزيادةَ خلافُ الأصل ولا داعي إليها، على أنَّه قد قرأ ابنُ محيصن ومجاهد وقتادةُ ويعقوبُ بتشديدِها ونَصْبِ «الحمد»[(١)]، وفي ذلك دليلٌ لِمَا قلنا.

والظاهرُ أنَّ تحقُّق[(٢)] مضمونِ هذه الجمل ـ لكونها اسميةً ـ على سبيل الدَّوام والاستمرار، وفي الأخبار ما يؤيِّده، فلعلَّ القومَ لمَّا دخلوا الجنة حصَلَ لهم من العلم بالله تعالى ما لم يَحْصُلْ لهم قبله، على اختلاف مراتبهم.

وقد صرَّح مولانا شهابُ الدين السهروَرديُّ في بعض رسائله في الكلام بتفاوُتِ أهل الجنة في المعرفة، فقال: إنَّ عوامَّ المؤمنين في الجنة يكونون في العلم كالعلماء في الدنيا، والعلماءُ فيها يكونون كالأنبياء عليهم السلام في الدنيا، والأنبياءُ عليهم السلام يكونون فيها[(٣)] كنبيِّنا ﷺ، ويكونُ لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام من العلم بربِّه سبحانه الغايةُ القصوى التي لا تكون لملَكٍ مقرَّبٍ ولا لنبيٍّ مرسَلٍ، ويُمكن أن يكون ذلك المقامَ المحمودَ.

ولا يَبْعُدُ عندي أنَّهم مع تفاوُتِهم في المعرفة لا يزالون يترقَّون[(٤)] فيها على حَسَب مراتبهم، والسيرُ في الله سبحانه غيرُ مُتَناهٍ، والوقوفُ على الكُنْه غيرُ ممكنٍ، وحينئذٍ التفاوتُ في معرفة الصفات، وهي كما قيل: إمَّا سلبيةٌ وتُسمَّى بصفات الجلال؛ لأنَّه[(٥)] يقال فيها: جلَّ عن كذا جلَّ عن كذا، وإمَّا غيرُها وتُسمَّى بصفات

---

(١) القراءات الشاذة ص٩٦، والمحتسب ١/٣٠٨، والبحر ٥/١٢٧.
(٢) في الأصل: تحقيق.
(٣) في (م): في ذلك.
(٤) في (م): يترقبون، وهو تصحيف.
(٥) في (م): لأنها.

الإكرام، وبذلك فُسِّر قولُه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] فلا يزالون يَدْعُون الله تعالى بالتسبيح الذي هو إشارةٌ إلى نعتِه بنعوت الجلال، وبالتحميد الذي هو إشارةٌ إلى وَصْفِه بصفات الإكرام.

والدوامُ عرفيٌّ، وهو أكثرُ من أنْ يُحصَى، وقولُه عليه الصلاة والسلام في وصف أهل الجنة كما في صحيح مسلم: «يُسبِّحُونَ الله تعالى بُكرةً وعشياً»[1] يؤيِّد بظاهره ذلك، والمراد بالبكرة والعشيَّة ـ كما قال النوويُّ ـ قَدْرَهما[2].

وظاهرُ الآية أنَّهم يُقدِّمون نعتَه تعالى بنعوتِ الجلال ويختمون دعاءهم بوَصْفِه بصفات الإكرام؛ لأنَّ الأُولى متقدِّمةٌ على الثانية لتقدُّم التخلية على التحلية، ويُرشد إلى ذلك قولُه سبحانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والمختارُ عندي كونُ فاعل التحية هو اللهُ تعالى أو الملائكةُ عليهم السلام، وحينئذٍ لا يَبعُدُ أن يكونَ الترتيبُ الذِّكري حَسْبَ الترتيب الوقوعي، وذلك بأنْ يقال: إنَّهم حين يَشرعون بالدعاء يُسبِّحون الله تعالى وينزِّهونَه، فيقابَلون بالسلام، وهو دعاءٌ بالسلامة عن كلِّ مكروه، فإنْ كان مِن الله سبحانه فهو مجازٌ لا محالةَ، لاستحالة حقيقةِ الدعاء عليه تعالى، وإنْ كان من الملائكة عليهم السلام فلا مانعَ من بقائه على حقيقتِه، لكنْ يُوجَّه الطلبُ فيه إلى الدوام؛ لأنَّ أصل السلامة حاصلٌ لهم، وإنْ قلنا: إنَّها تقبل الزيادة، فلا بُعْدَ في أنْ يوجَّه إلى طلبها. وما ألطفَ مقابلةَ التسبيح والتنزيه بالسلامة عن المكروه لقُرْبها من ذلك معنًى، كما لا يخفَى على المُنْصف. ثم يختمون دعاءهم بـ «الحمد لله رب العالمين». وهكذا لا يزال دأبُهم بكرةً وعشياً كما يُشير إليه خبرُ الصحيح، ولعلَّ عدمَ ذكر التحميد فيه اكتفاء بما في الآية. وهذا ما عندي فيها.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر وأبو الشيخ عن ابنِ جُريج قال: أُخبرتُ أنَّ أهل الجنة إذا مرَّ بهم الطائرُ يشتهونه قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعاؤهم به، فيأتيهم المَلَكُ بما اشتَهَوا، فإذا جاء المَلَك به يُسلِّم عليهم فيردُّون عليه، وذلك قولُه

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٣٤)، وأخرجه أيضاً أحمد (٨١٩٨)، والبخاري (٣٢٤٥)، وهو من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٣.

تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ فإذا أكلوا قدْرَ حاجتهم قالوا: الحمدُ لله رب العالمين، وذلك قولُه سبحانه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١).

وهو ظاهرٌ في أنَّ الترتيب الذِّكريَّ حَسْبَ الترتيب الوقوعيّ أيضاً، لكنْ يدلُّ على أنَّ الدعوى بمعنى الدعاء، ومعنى كون «سبحانك اللهم» دعاءً وطلباً لِمَا يشتهون حينئذٍ: أنَّه علامةٌ للطلب. ونظيرُ ذلك تسبيحُ المصلِّي إذا نابه شيءٌ في صلاته.

وفي بعض الآثار: أنَّ هذه الكلمة علامةٌ بين أهل الجنة والخدم في الطعام، فإذا قالوها أتوهم بما يشتهون(٢).

وأخرج ابنُ مردويه عن أُبيّ بنِ كعب مرفوعاً: أنَّهم إذا قالوا ذلك أتاهم ما اشتَهوا من الجنة من ربِّهم(٣).

ولا بأس في ذلك، نعم في كون الحمد بعدَ أكْلِ قَدْرِ حاجتهم مدلولَ قوله سبحانه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خفاءٌ.

وقال القاضي بيَّضَ الله تعالى غرَّةَ أحواله: لعلَّ المعنى أنَّهم إذا دخلوا الجنةَ وعايَنوا عظمةَ الله سبحانه وكبرياءَه مجَّدوه ونعتُوه بنعوتِ الجلال، ثم حيَّاهم الملائكةُ بالسلامة عن الآفات والفوزِ بأصناف الكرامات، أو اللهُ تعالى، فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام(٤).

وهو أيضاً ظاهرٌ في كون الترتيبِ الذِّكريِّ كما قلنا، إلا أنَّه تُعقِّب بأنَّ إضافة «آخِر» إلى «دعواهم» يأباه، وكأنَّ وجْهَ الإباء ـ على ما قيل ـ أنَّ ذلك على هذا آخر الحال، وبأنَّ اعتبارَ الفوزِ بالكرامات غيرُ ظاهر، ولعلَّ الأمر في ذلك سهلٌ.

وقال شيخ الإسلام: لعلَّهم يقولون: «سبحانك اللهم» عندما يُعاينون من تعاجيب آثارِ قدرته تعالى ونتائج رحمته ورأفته ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت

---

(١) تفسير الطبري ١٢/١٢٦، وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/٣٠١.

(٢) ذكره البغوي ٢/٣٤٥ عن أهل التفسير، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية عن مقاتل بن حيان.

(٣) الدر المنثور ٣/٣٠١.

(٤) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/١٠.

ولا خَطَر على قلب بشر، تقديساً لمقامه تعالى عن[1] شوائب العجز والنقصان، وتنزيهاً لوعْدِه الكريم عن سمات الخُلْف، ويكون خاتمةُ دعائهم أنْ يقولوا: «الحمد لله رب العالمين» نعتاً له تعالى شأنه بصفات الإكرام إثْرَ نعتِه بصفات الجلال، والمعنى: دعاؤهم منحصرٌ فيما ذكر، إذ ليس لهم مَطلَبٌ مترقَّبٌ حتى يَنْظمُوه في سِلك الدعاء، ولعلَّ توسيط ذكْرِ تحيتهم عند الحكاية بين دعائهم وخاتمته للتوسُّل إلى خَتْم الحكاية بالتحميد تبرُّكاً، مع أنَّ التحية ليست بأجنبيةٍ على الإطلاق[2]. انتهى.

وكأنه أراد بعدم كون التحية أجنبيةً على الإطلاق كونَها دعاءً معنًى، وكلامُه نصٌّ في أنَّ الترتيب الوقوعيَّ مخالفٌ للترتيب الذِّكريِّ، ولا يخفَى أنَّ توجيه توسيطِ ذكرِ التحية بما ذَكَره مما لا يكاد يرتضيه مُنْصِفٌ، على أنَّه غَفَل هو وسائرُ مَن وَقَفْنا على كلامه من المفسِّرين عن توجيه اسميةِ الجمل فافْهم، والله تعالى أعلم.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ هم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى، المذكورون في قوله سبحانه: (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ) إلخ، والآية مُتَّصلةٌ بذلك دالَّةٌ على استحقاقهم للعذاب، وأنَّه سبحانه إنما يُمهلُهم استدراجاً، وذِكْرُ المؤمنين وَقَع في البين تَتْميماً[3] ومقابلةً، وجيءَ بـ «الناس» بدلَ ضميرهم تفظيعاً للأمر.

وفي «إرشاد العقل السليم»[4]: إنما أُوردوا باسم الجنس لِمَا أنَّ تعجيلَ الخير لهم ليس دائراً على وَصْفِهم المذكور، إذ ليس كلُّ ذلك بطريق الاستدراج، والمرادُ: لو يعجِّل الله تعالى لهم ﴿ٱلشَّرَّ﴾ الذي كانوا يستعجلون به تكذيباً واستهزاءً، فإنَّهم كانوا يقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨] ونحو ذلك.

---

(١) في الأصل: من.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٤.
(٣) في الأصل: تعميماً.
(٤) ٤/ ١٢٥.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ أبي حاتم عن قتادة أنَّه قال: هو دعاءُ الرجل على نفسه ومالِهِ بما يكره أنْ يُستجاب له. وأخرجا عن مجاهد أنَّه قال: هو قولُ الإنسان لولده وماله إذا غضب: اللهمَّ لا تبارك فيه، اللهمَّ الْعَنْه[١]. وفيه حَمْلُ «الناس» على العموم، والمختار الأولُ، ويُؤيِّده ما قيل: إنَّ[٢] الآية نزلَت في النضْر بنِ الحارث حين قال: (ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ) إلخ[٣].

وقوله سبحانه: ﴿ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ نصبٌ على المصدرية، والأصل على ما قاله أبو البقاء: تعجيلاً مثلَ استعجالهم، فحُذِفَ تعجيلاً وصفتُه المضافةُ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامهما[٤].

وفي «الكشاف»: وُضعَ «استعجالهم بالخير» موضعَ: تعجيله لهم، إشعاراً بسرعة إجابته سبحانه لهم وإسعافه بطِلْبَتِهم، حتى كأنَّ استعجالهم بالخير تعجيلٌ لهم[٥].

وهو كلامٌ رصينٌ يدلُّ على دقَّة نظرِ صاحبه كما قال ابنُ المنير[٦]، إذ لا يكاد يُوضع مصدرٌ مؤكِّدٌ مقارِناً لغير فِعْلِه في الكتاب العزيز بدون مثل هذه الفائدة الجليلة، والنحاةُ يقولون في ذلك: أُجرِيَ المصدرُ على فعلٍ مقدَّرٍ دلَّ عليه المذكورُ، ولا يَزيدون عليه، وإذا راجع الفَطِنُ قريحتَه، وناجَى فكرتَه، علمَ أنَّه إنما قُرِنَ بغير فِعْلِه لفائدةٍ، وهي في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح:١٧] التنبيهُ على نفوذِ القدرة في المقدور وسُرعةِ إمضاء حُكْمِها، حتى كأنَّ إنبات اللهِ تعالى لهم نفسُ نباتهم، أي: إذا وُجد الإنبات وُجد النبات حتماً، حتى كأنَّ أحدَهما عينُ الآخر فقُرن به.

---

(١) الخبران في تفسير الطبري ١٢/ ١٣١-١٣٢، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٣٢.

(٢) في (م): من أن.

(٣) تفسير أبي الليث ٢/ ٩٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١٠٨، وزاد المسير ٤/ ١١.

(٤) الإملاء ٣/ ٢١٧، ووقع في الأصل و(م): مقامها، والمثبت من الإملاء. ومعنى الكلام: أنه حذف تعجيلاً وأقيمت صفته مقامه، ثم حذفت الصفة وأقيم ما أضيفت إليه مقامها كـ «اسأل القرية». حاشية الشهاب ٥/ ١٠.

(٥) الكشاف ٢/ ٢٢٧، ووقع في (م): له.

(٦) في الانتصاف ٢/ ٢٢٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٠.

وقال الطيبيّ: كان أصلُ الكلام: ولو يُعجِّلُ[(١)] اللهُ للناسِ الشرَّ تعجيلَه، ثم وُضِعَ موضعَه الاستعجالُ، ثم نُسب إليهم فقيل: استعجالَهم بالخير؛ لأنَّ المرادَ أنَّ رحمتَه سبقَت غضبَه، فأُريد مزيدُ المبالغة، وذلك أنَّ استعجالَهم الخيرَ أسرعُ من تعجيل الله تعالى لهم ذلك، فإنَّ الإنسان خُلق عجولاً، والله تعالى صبورٌ حليمٌ يؤخِّر للمصالح الجمَّة التي لا يهتدي إليها عقلُ الإنسان، ومع ذلك يُسعفُهم بطِلْبَتِهِم ويُسرع إجابتَهم.

وأَوْجَبَ أبو حيان كونَ التقدير: تعجيلاً مثلَ استعجالهم، أو أنَّ ثَمَّ محذوفاً يدلُّ عليه المصدر، أي: لو يعجِّلُ الله للناسِ الشرَّ إذا استعجلوه استعجالَهم بالخير، قال: لأنَّ مدلول «عجَّل» غيرُ مدلول «استعجل»؛ لأنَّ «عجَّل» يدلُّ على الوقوع و«استعجل» يدلُّ على طلب التعجيل، وذلك واقعٌ من الله تعالى وهذا مضافٌ إليهم، فلا يجوز ما قرَّره الزمخشري وأتباعه[(٢)].

وأجاب السفاقسيُّ بأنَّ «استفعل» هنا للدلالة على وقوع الفعل لا على طلبه، كـ: استقر بمعنى أقرَّ، وقوله: وهذا مضافٌ إليهم، مبنيٌّ على أنَّ المصدر مضافٌ للفاعل، ويحتملُ أنْ يكون مضافاً للمفعول، ولا يخفَى أنَّ كلَّ ذلك ناشٍ من قلةِ التدبُّر.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾: لأُميتوا وأُهلكوا بالمرة، يقال: قضى إليه أَجلَه، أي: أنهى إليه مُدَّته التي قُدِّر فيها موتُه فهلَكَ. وفي إيثار صيغة المبني للمفعول جَرْيٌ على سَنَن الكبرياء، مع الإيذان بتعيُّن الفاعل. وقرأ ابنُ عامر ويعقوب: «لقَضَى» على البناء للفاعل[(٣)]. وقرأ عبد الله «لقضينا»[(٤)] وفيه التفاتٌ.

واختيارُ صيغة الاستقبال في الشرط وإنْ كان المعنى على المضيِّ، لإفادة أنَّ عدم قضاءِ الأجل لاستمرار عدم التعجيل، فإنَّ المضارع المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس بنصٍّ في إفادة انتفاءِ استمرارِ الفعل، بل قد يُفيد استمرارَ انتفائه أيضاً بحسب المقام كما حُقِّق في موضعه.

---

(١) في (م): يجعل، وهو تصحيف.
(٢) البحر ٥/١٢٨-١٢٩.
(٣) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢.
(٤) المحرر الوجيز ٢/١٠٨، والكشاف ٢/ ٢٢٧، والبحر ٥/ ١٢٩.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ المقدَّم هاهنا ليس نفسَ التعجيل المذكور، بل هو إرادته المستتبعة للقضاء المذكور وجوداً وعدماً؛ لأنَّ القضاء ليس أمراً مغايراً لتعجيل الشرِّ في نفسه، بل هو إمَّا نفسُه، أو جزئيٌّ منه كسائر جزئياته من غير مَزِيَّة له على البقية، إذ لم يُعتَبر في مفهومه ما ليس في مفهوم تعجيل الشرِّ من الشدَّة والهول، فلا يكون في ترتُّبه عليه وجوداً أو عدماً مزيدُ فائدةٍ مُصحِّحَةٍ لجَعْلِه تالياً له[1]، فليس كقوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧] ولا كقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام:٣٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر:٤٥] إذا فسِّر الجواب بالاستئصال. وأيضاً في ترتيب التالي على إرادة المقدَّم ما ليس في ترتيبه على المقدَّم نفسِه، من الدلالة على المبالغة وتهويل الأمر، والدلالة على أنَّ الأمور منوطةٌ بإرادته تعالى المَبْنِيَّة على الحِكَم البالغة.

وقوله سبحانه: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ أي: نتركُهم إمهالاً واستدراجاً ﴿فِى طُغْيَـٰنِهِمْ﴾ الذي هو عدمُ رجاءِ اللِّقاء، وإنكارُ البعثِ والجزاء، وما يتفرَّع على ذلك من الأعمال السيئة والمقالات الشنيعة ﴿يَعْمَهُونَ ⑪﴾ أي: يتردَّدون ويتحيَّرون = لا يصحُّ عطفُه على شرط «لو» ولا على جوابها لانتفائه، وهو مقصودٌ إثباتُه، وليست «لو» بمعنى «إنْ» كما قيل، فهو إمَّا معطوفٌ على مجموع الشرطية؛ لأنَّها في معنى: لا يُعجِّل لهم، وفي قوَّته، فكأنه قيل: لا يُعجِّل بل يَذرهم، أو معطوفٌ على مقدَّرٍ تدُلُّ عليه الشرطية، أي: ولكنْ يمهلهم، أو: ولكنْ لا يعجِّل ولا يَقضي فيذرُهم، وبكلٍّ قال بعضٌ.

وقيل: الجملةُ مستأنفةٌ، والتقدير: فنحن نذرُهم.

وقيل: إنَّ الفاء واقعةٌ في جواب شرطٍ مقدَّر، والمعنى: لو يعجِّل الله تعالى ما استعجلوه لأبادَهم، ولكن يُمهلُهم ليزيدوا في طغيانهم ثم يستأصلهم، وإذا كان

---

(١) وهذا كقوله تعالى: ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨] أي: لو يريد مؤاخذتهم، فإن تعجيل العذاب لهم نفس المؤاخذة، أو جزئيٌّ من جزيئاتها غيرُ ممتاز عن البقية، فليس في بيان ترتُّبه عليها مزيد فائدة، وإنما الفائدة في بيان ترتُّبه على إرادتها. تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٥.

كذلك فنحن نذرُ هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يتردَّدون ثم نقطعُ دابرهم.

وصاحب «الكشف» بعد ما قرَّر أنَّ اتِّصال «ولو يعجِّل» إلخ بقوله تعالى: (إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا) إلخ، وأنَّ ذكْرَ المؤمنين إنما وقع في البَيْن تَتْميماً ومقابلةً وليس بأجنبيٍّ، قال: إنَّه لا حاجةَ إلى جَعْلِ هذا جوابَ شرطٍ مقدَّرٍ، وفي وضع الموصول موضعَ الضمير نوعُ بيانٍ للطغيان بما في حيِّز الصلة، وإشعارٌ بعلِّيَّته للتَّرْكِ والاستدراج.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: إذا أصابه جنسُ الضرِّ[1] من مرضٍ وفقرٍ وغيرِهما من الشدائد إصابةً يسيرةً، وقيل: مطلقاً ﴿دَعَانَا﴾ لكَشْفِه وإزالته ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في موضع الحال، ولذا عطَفَ عليه الحالَ الصريحة، أعني قولَه سبحانه: ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: دعانا مضطجعاً ـ أو مُلْقًى ـ لجنبه، واللام على ظاهرها، وقيل: إنَّها بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء:١٠٩] ولا حاجةَ إليه، وقد يعبَّر بـ «على» [بدله][2] وهي تُفيدُ استعلاءه عليه، واللامُ تفيد اختصاصَ كينونته واستقراره بالجنب، إذ لا يمكنه الاستقرارُ على غير تلك الهيئة، ففيه مبالغةٌ زائدة.

واختلف في ذي الحال؛ فقيل: إنَّه فاعلُ «دعانا».

وقيل: هو مفعولُ «مسَّ». واستُضْعِف بأمرَين:

أحدُهما: تأخُّرُ الحال عن محلِّها من غير داعٍ.

الثاني: أنَّ المعنى على أنَّه يدعو كثيراً في كلِّ أحواله، إلا أنَّه خَصَّ المعدودات بالذكر لعدمِ خُلُوِّ الإنسان عنها عادةً، لا أنَّ الضرَّ يُصيبه في كلِّ أحواله.

وأجيب عن هذا بأنَّه لا بأس به، فإنَّه يلزمُ مَن مسَّه الضرُّ في هذه الأحوال دعاؤه فيها أيضاً؛ لأنَّ القيد في الشرط قيدٌ في الجواب، فإذا قلت: إذا جاء زيدٌ فقيراً أَحسنَّا

---

(١) في الأصل: الضرر.

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ١١.

إليه، فالمعنى: أحسنَّا إليه في حال فقْرِه. وأنت تعلم أنَّ الأظهر هو الأول.

واعتبر بعضُهم توزُّعَ هذه الأحوال على أفراد الإنسان، على معنى: أنَّ مِن الإنسان مَن يدعو على هذه الحالة، ومنه مَن يدعو على تلك الحالة[١].

وذكر غيرُ واحدٍ أنَّه يجوز أن يكونَ المرادُ بهذه الأحوال تعميمَ أصنافِ المَضارِّ؛ لأنَّها إمَّا خفيفة لا تمنع الشخصَ القيامَ، أو متوسِّطة تمنعه القيامَ دون القعود، أو شديدة تمنعه منهما[٢]، وانفهامُ ذلك منها بمعونة السياق.

و«إذا» قيل: إنَّها على أصلها، وقيل: إنَّها للمضي.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ الذي مسَّه غِبَّ ما دعانا، كما يُنبئُ عنه الفاءُ.

﴿مَرَّ﴾ أي: مضَى على ما كان عليه قبلُ، ونسي حالةَ الجهد والبلاء، أو: مرَّ عن موقف الدعاء والابتهال وَنَأَى بجانبه، والمرورُ على الأول مجازٌ، وعلى الثاني باقٍ على حقيقته، ويكون كنايةً عن عدم الدعاء.

﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ﴾ أي: كأنَّه لم يدْعُنا، فخفَّف وحذف ضمير الشأن، ومثلُ ذلك قولُه:

وَوَجْهٍ مشرق النحرِ كأنْ ثدياه حُقَّانِ[٣]

فإنَّ الأصل فيه: كأنَّه، فخفَّف «كأنَّ» وحذف ضميرَ الشأن، لكنْ صرَّح ابنُ هشام في شواهده أن ذلك غيرُ متعيِّنٍ، إذ يجوز كونُ الضمير للوجه، أو للصدر على روايةِ: وصدرٍ[٤].

وروي: كأنْ ثدييه[٥]، على إعمال «كأنْ» في اسمٍ مذكور، ولا يَبْعدُ أنْ يجوز ذلك في الرواية الأولى على بعض اللغات.

---

(١) قوله: الحالة، ليس في (م).

(٢) في (م): منها.

(٣) الكتاب ٢/ ١٣٥، والكشاف ٢/ ٢٢٨، قال البغدادي في الخزانة ١٠/ ٤٠١: هذا البيت من أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف لها قائل.

(٤) تنظر هذه الرواية في أمالي ابن الشجري ١/ ٣٦٢، والخزانة ١٠/ ٣٩٨.

(٥) أمالي ابن الشجري ٢/ ١٧٨، والخزانة ١٠/ ٣٩٨، وشرح الألفية لابن عقيل ١/ ٣٩١.

والجملةُ التشبيهية في موضع الحال من فاعل «مرَّ»، أي: مرَّ مشبَّهاً بمَن لم يَدْعُنا ﴿إِلَىٰ ضُرٍّ﴾ أي: إلى كَشْفِه؛ لأنَّه المدعوُّ إليه، وقيل: لا حاجةَ إلى التقدير، و«إلى» بمعنى «اللام»، أي: لضرٍّ ﴿مَّسَّهُۥ﴾.

والظاهرُ أنَّ هذا وصفٌ لجنس الإنسان مطلقاً، أو الكافرِ منه باعتبار حال بعضِ الأفراد ممن هو متَّصفٌ بهذه الصفات.

وذكر الشهابُ أنَّ للمفسِّرين في المراد بالإنسان هنا ثلاثةَ أقوال: فقيل: الجنس. وقيل: الكافر. وقيل: شخصٌ معيَّنٌ[1]، وعليه لا حاجةَ إلى الاعتبار. لكنْ لا اعتبارَ له.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك التزيينِ العجيبِ ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: للموصوفين بما ذُكر من الصفات الذميمة ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من الإعراض عن الذكر والدعاءِ، والانهماك في الشهوات.

والإسرافُ: مجاوزةُ الحدِّ، وسُمُّوا أولئك «مسرفين» لِمَا أنَّ الله تعالى إنما أعطاهم القوَى والمشاعرَ ليَصْرِفوها إلى مَصَارِفها، ويستعملوها فيما خُلقَت له من العلوم والأعمال الصالحة، وهم قد صَرَفوها إلى ما لا ينبغي مع أنَّها رأسُ مالهم.

وفاعلُ التزيين: إمَّا مالِكُ الملك جلَّ شأنه، وإمَّا الشيطان عليه اللعنة، وقد مرَّ تحقيقُ ذلك و«كذلك» فتذكَّر[2].

وتعلُّقُ الآية الكريمة بما قبلها قيل: من حيث إنَّ في كلٍّ منهما إملاءً للكفرة على طريقة الاستدراج بعد الإنقاذ من الشرِّ المقدَّر[3] في الأولى، ومن الضرِّ المقرَّر في الأخرى.

وذكر الإمام في وجه الانتظام مع الآية الأولى وجهَين:

الأول: أنَّه تعالى بيَّن في الأُولى أنَّه لو أنزل العذاب على العبد في الدنيا لهلَك، وأكَّد ذلك في هذه الآية حيث دلَّت على غاية ضعفه ونهاية عجزِه.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ١١.
(٢) ينظر ما سلف ٣/ ٨ و٢١٩.
(٣) في (م): المقرر، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٢٦، والكلام منه.

والثاني: أنَّه سبحانه أشار في الأُولى إلى أنَّ الكفرة يستعجلون نزولَ العذاب، وبيَّن جلَّ شأنه في هذه أنَّهم كاذبون في ذلك الطلب، حيث أفادت أنَّه لو نزل بالإنسان أدنَى شيء يكرهه فإنَّه يتضرَّع إلى الله تعالى في إزالته عنه[١]. انتهى. ولكلٍّ وِجْهة.

وفي الآية ذمٌّ لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهرعُ إليه في الشدَّة، واللائقُ بحال الكامل أن يتضرَّع[٢] إلى مولاه في السراء والضراء، فإنَّ ذلك أرجَى للإجابة، ففي الحديث: «تعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ يَعْرِفْك في الشِّدَّة»[٣].

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الدرداء قال: ادعُ الله تعالى يومَ سرَّائك يَستجِبْ لك يومَ ضرَّائك[٤].

وفي حديثٍ للترمذيِّ[٥] عن أبي هريرة ـ ورواه الحاكم عن سلمان وقال: صحيح الإسناد ـ: «مَن سرَّه أنْ يَستجِيب الله تعالى له عندَ الشدائدِ والكروب، فليُكْثِرِ الدعاءَ في الرخاء»[٦].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ﴾ مثل قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وهو جمعُ قَرنٍ بفتح القاف: أهل كلِّ زمانٍ، مأخوذٌ من الاقتران، كأنَّ أهل ذلك الزمان اقترنوا في أعمالهم وأحوالهم.

وقيل: القرن أربعون سنةً، وقيل: ثمانون، وقيل: مئة، وقيل: هو مُطلقُ الزمان.

والمراد هنا المعنى الأول، وكذا في قوله ﷺ: «خيرُ القرونِ قَرْني ثمَّ الذين يَلُونَهم»[٧]، وقولِه:

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ٤٩-٥٠.

(٢) في (م): التضرع، بدل: أن يتضرع.

(٣) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والترمذي (٢٥١٦) عن ابن عباس ﷺ. قال الترمذي: حسن صحيح.

(٤) الدر المنثور ٣/ ٣٠٢.

(٥) في الأصل: الترمذي.

(٦) سنن الترمذي (٣٣٨٢)، والمستدرك ١/ ٥٤٤.

(٧) أخرجه أحمد (١٩٨٣٥)، والبخاري (٦٤٢٨)، ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بنِ

إذا ذهبَ القرنُ الذي أنت فيهمُ وخُلِّفتَ في قَرنٍ فأنت غريبُ[1]

﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أي: مِن قبل زمانكم، والخطابُ لأهل مكة على طريقة الالتفات للمبالغة في تشديد التهديد بعد تأييده بالتوكيد القَسَميِّ، والجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقٌ بـ «أهلكنا»، ومَنَعَ أبو البقاء كونَه حالاً من القرون[2].

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي: حين فَعلوا الظلمَ بالتكذيب والتمادي في الغيِّ والضلال، والظرفُ متعلِّق بـ «أهلكنا».

وجَعْلُ «لَمَّا» شرطيةً بتقديرِ جوابٍ هو: أهلكناهم، بقرينةِ ما قبله، تكلُّفٌ لا حاجةَ إليه.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ حالٌ مِن ضمير «ظلموا» بإضمار «قد».

وقولُه تعالى: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ متعلِّقٌ بـ «جاءتهم» على أنَّ الباء للتعدية، أو بمحذوفٍ وقع حالاً مِن «رسلهم» دالَّةً على إفراطهم في الظلم وتناهيهم في المكابرة، أي: ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسُلُهم بالآيات البيِّنةِ الدالَّة على صدقهم، أو مُلْتَبِسينَ[3] بها حين لا مجالَ للتكذيب.

وجوَّز أبو البقاء وغيرُه عطفَه على «ظلموا»[4]، فلا محلَّ له من الإعراب، أو محلُّه الجرُّ، وذلك عند مَن يَرَى إضافة الظرف إلى المعطوف عليه. والترتيبُ الذِّكريُّ لا يجبُ أنْ يكون حَسْبَ الترتيب الوقوعي كما في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ [يوسف: ١٠٠]، ولا حاجةَ إلى هذا الاعتذار، بناءً

= حصين بلفظ: «إن خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: فما أدري أقال النبي ﷺ بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً.

(١) البيت لأبي محمد التيمي عبد الله بن أيوب من شعراء الدولة العباسية، كما في الأغاني ٢٠/ ٥٤، ونسبه البصري في الحماسة ٢/ ٤٧ له أو للحسن بن عمرو الإباضي، ونسبه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٩/ ٣٢٢ للحجاج بن يوسف التيمي.

(٢) الإملاء ٣/ ٢٢٠. وقال السمين في الدر المصون ٦/ ١٦٢: لأنه ظرف زمان فلا يقع حالاً عن الجنة كما لا يقع خبراً عنها.

(٣) في (م): متلبسين، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٢٧، والكلام منه.

(٤) الإملاء ٣/ ٢٢٠.

على أنَّ الظلم ليس مُنحصراً في التكذيب، بل هو محمولٌ على سائر أنواع الظلم.

والتكذيبُ مستفادٌ مِن قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه؛ لأنَّ اللام لتأكيد النفي. وهذه الجملةُ على الأوَّل عطفٌ على «ظلموا»، وليس من العطف التفسيريِّ في شيءٍ على ما قاله صاحب «الكشف» خلافاً للطيبي؛ لأنَّ الأُولى إخبارٌ بإحداث التكذيب، وهذه إخبارٌ بالإصرار عليه، وعلى الثاني عَطْفٌ على ما عُطِفَ عليه.

وقيل: اعتراضٌ للتأكيد بين الفعل وما يجري مَجرَى مصدرِه التشبيهيِّ، أعني قولَه سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فإنَّ الجزاء المشارَ إليه عبارةٌ عن مصدرِه، أي: مثلَ ذلك الجزاءِ الفظيع، أي: الإهلاكِ الشديدِ الذي هو الاستئصالُ بالمرة ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: كلَّ طائفةٍ مجرمةٍ، فيشملُ القرون، وجَعْلُ ذلك عبارةً عنهم غيرُ مناسبٍ للسياق. وقرئ: «يَجزِي» بياء الغيبة[1] التفاتاً من التكلُّم في «أهلكنا» إليها.

وحاصلُ المعنى على تقدير العطف: أنَّ السبب في إهلاكهم تكذيبُهم الرسلَ، وأنَّهم ما صحَّ وما استقام لهم أنْ يؤمنوا؛ لفساد استعدادهم، وخذلان الله تعالى إيَّاهم، ويُقتصر على الأمر الأول في بيان الحاصل على تقدير الاعتراض، وذكر الزمخشريُّ بدلَ الأمر الثاني علمَ الله تعالى أنَّه لا فائدةَ في إمهالهم بعد أنْ أُلزموا الحجَّةَ ببعثةِ الرسل عليهم السلام[2]، وجُعِلَ بياناً على التقديرَين، وفيه ما يحتاج إلى الكشف فتدبَّره.

وتعليلُ عدم الإيمان بالخذلان ونحوِه ظاهرٌ، وكلام القاضي صريحٌ في تعليله ـ أيضاً ـ بعِلْم الله تعالى أنَّهم يموتون على الكفر[3].

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٨، والبحر ٥/ ١٣١.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٨، وفيه: المعنى أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل وعلم الله أنه لا فائدة...

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٢.

واعتُرِضَ بأنَّه منافٍ لقولهم: إنَّ العلم تابعٌ للمعلوم[١]، وتكلَّفَ بعضُ الفضلاء في تصحيحه ما تكلَّفَ[٢]، ولم يأتِ بشيءٍ.

وقال بعض المحققين: معنى كونِ العلم تابعاً للمعلوم أنَّ عِلْمَه تعالى في الأزل بالمعلوم المعيَّنِ الحادثِ تابعٌ لماهِيتِهِ، بمعنى أنَّ خصوصيَّةَ العلم وامتيازَه عن سائر العلوم إنَّما هو باعتبارِ أنَّه عِلْمٌ بهذه الماهية، وأمَّا وجودُ الماهية وفعليتها فيما لا يزال فتابعٌ لعِلْمِه الأزليِّ التابع لماهيته، بمعنى: أنَّه تعالى لمَّا عَلمِها في الأزل على هذه الخصوصية، لَزِمَ أنْ تتحقَّق فيما لا يزالُ على هذه الخصوصية، فنفسُ موتهم على الكفر وعدمُ إيمانهم متبوعٌ لعلْمِه تعالى الأزليِّ، ووقوعُه تابعٌ له، وهذا مما لا شُبهة فيه، وهو مذهبُ أهل السنَّة رحمهم الله تعالى، وبه ينحلُّ إشكالاتٌ كثيرةٌ فليُحفَظ.

وذكر مولانا الشيخ إبراهيم الكورانيُّ أنَّ معنى كون العلم تابعاً للمعلوم أنَّه متعلِّقٌ به كاشفٌ له على ما هو عليه. وبُني على ذلك كونُ الماهيات ثابتةً غيرَ مجعولةٍ في ثبوتها. والقولُ بالتبعية المذكورة مما ذَهَبَ إليه الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه[٣]، ونازَعَ في ذلك عبدُ الكريم الجيليُّ.

وقال الشيخ محمد عمر البغدادي[٤] عليه الرحمة: إنَّ كونَ العلم تابعاً للمعلوم بالنظر إلى حضرةِ الأعيان القديمة التي أعطَت الحقَّ العلمَ التفصيليَّ بها، وأمَّا بالنظر إلى العلم الإجماليِّ الكلِّيِّ فالمعلومُ تابعٌ للعلم؛ لأنَّ الحقَّ تعالى لمَّا تَجلَّى من ذاته لذاته بالفيض الأقدس حصلَت الأعيان واستعداداتها، فلم تحصل عن جهل، تعالَى اللهُ عن ذلك علوّاً كبيراً، وحينئذٍ فلا مخالفةَ بين الشيخ الأكبر قُدِّس

---

(١) أي أن علمه تعالى ليس علة لعدم إيمانهم؛ لأن العلم تابع للمعلوم لا بالعكس. حاشية الشهاب ٥/ ١٢.

(٢) ينظر كلامه في حاشية الشهاب ٥/ ١٢، وكذا كلام بعض المحققين الذي سيرد بعده.

(٣) ينظر الفتوحات، الباب أحد عشر وأربع مئة.

(٤) عمر بن عبد الجليل بن محمد بن جميل بن درويش البغدادي الحنفي الصوفي القادري نزيل دمشق، فقيه مفسِّر نحوي، له: شرح القدوري بالفقه، وحاشية على المغني في النحو، وحاشية على رسالة وحدة الوجود وشرح الصلوات المحمدية لابن عربي، والحواشي الفتوحية على شرح القصيدة النونية في العقائد، وغيرها، توفي سنة (١١٩٤هـ). سلك الدرر ٣/ ١٧٩، وهدية العارفين ١/ ٧٩٩، وإيضاح المكنون ١/ ٤٢٣ و٢/ ٣٨٢.

سرُّه والجيليِّ، على أنَّه إنْ بقيت[1] هناك مخالفةٌ فالحقُّ مع الشيخ؛ لأنَّ الجيليَّ بالنسبة إليه نَحلةٌ تُدندِنُ حول الحمى، والدليلُ أيضاً مع الشيخ كنارٍ على عَلَم، لكنَّه قد أَبْعَدَ ﷺ الشوط بقوله: العلمُ تابعٌ للمعلوم، والمعلوم أنت، وأنت هو، والبحث وَعِرُ المسلك صعبُ المرتقى، وتمام الكلام فيه يُطلب من محلِّه.

واستفادةُ معنى العلم هنا ـ على ما قيل ـ من التأكيد الذي أفادته اللام. وفي الآية وعيدٌ شديدٌ وتهديدٌ أكيدٌ لأهل مكة؛ لأنَّهم وأولئك المهلَكين مشتركون فيما يقتضي الإهلاك.

ويُعلم ممَّا تقرَّر أنَّ ضمير «كانوا» للقرون، وهو ظاهرٌ. وجوَّز مقاتلٌ أنْ يكون الضميرُ لأهل مكة، وهو خلافُ الظاهر.

وكذا جوَّز كونُ المراد بـ «القوم المجرمين» أهلَ مكة، على طريقة وضْعِ الظاهر موضعَ ضمير الخطاب إيذاناً بأنَّهم أعلامٌ في الإجرام، وذِكْرُ «القوم» إشارةٌ إلى أنَّ العذاب عذابُ استئصال، والتشبيهُ على هذا ظاهرٌ، إذ المعنى: يجزيكم مثلَ جزاءِ مَن قبلكم، وأمَّا على الأول، فهو على مِنوالِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] وأضرابِه. وفيه بُعدٌ أيضاً، بل قال بعضُ المحققين: يأباه كلَّ الإباء. قولُه سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فإنَّه صريحٌ في أنَّه ابتداءُ تعرُّضٍ لأمورهم، وأنَّ ما بُيِّنَ فيه مبادئُ أحوالِهم لاختبار كيفيةِ أعمالهم على وجهٍ يُشعر باستمالتهم نحو الإيمان والطاعة، فمحالٌ أنْ يكونَ ذلك إِثْرَ بيانِ منتهى أمرهم، وخطابهم بِبَتِّ القول بإهلاكهم لكمال إجرامهم.

والعطفُ على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا﴾ لا على ما قبله، والمعنى: ثم استخلفناكم في الأرض بعد إهلاك أولئك القرونِ التي تسمعون أخبارها وتشاهدون آثارها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لنعلم أيَّ عملٍ تعملون، فـ «كيف» مفعولٌ مطلقٌ لـ «تعملون»، وقد صرَّح في «المغني» بأنَّ «كيف» تأتي كذلك، وأنَّ منه: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ [الفيل:١][2] وليست معمولة «لننظر» لأنَّ الاستفهام له الصدارةُ، فيُمْنَعُ ما قبلَه من العمل فيه، ولذا لَزِمَ تقديمُه على عامله هنا.

---

(١) في الأصل: ثبت.

(٢) مغني اللبيب ص٢٧١.

وقيل: محلُّها النصبُ على الحال من ضمير «تعملون» كما هو المشهورُ فيها إذا كان بعدها فعلٌ، نحو: كيف ضرب زيد، أي: على أيِّ حالٍ تعملون الأفعالَ اللائقةَ بالاستخلاف من أوصاف الحُسْن، وفيه مِن المبالغة في الزَّجْر عن الأعمال السيئة ما فيه.

وقيل: محلُّها النصب على أنَّها مفعولٌ به لـ «تعملون»، أي: أيَّ عملٍ تعملون خيراً أو شرّاً، وقد صرَّحوا بمجيئها كذلك أيضاً، وجعلوا من ذلك[1]: كيف ظننتَ زيداً؟ وبما ذُكر فسَّر الزمخشريُّ الآية[2].

وتعقَّبه القطب بما تعقَّبه، ثم قال: ولعلَّه جعَلَ «كيف» هاهنا مجازاً بمعنى: أيّ شيءٍ؛ لدلالة المقام عليه.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّ التحقيق أنَّ معنى «كيف» السؤالُ عن الأحوال والصفاتِ لا عن الذوات وغيرها، فالسؤالُ هنا عن أحوالهم وأعمالهم، ولا معنى للسؤال عن العمل إلَّا عن كونه حَسَناً أو قبيحاً وخيراً أو شرّاً، فـ «كيف» ليسَت مجازاً بل هي على حقيقتها.

ثم إنَّ استعمال النظر بمعنى العلم مجازٌ، حيث شُبِّه بنَظَرِ الناظرِ وعيان المُعايِنِ في تحقُّقه، والكلامُ استعارةٌ تمثيليةٌ مرتَّبة على استعارةٍ تصريحيةٍ تَبعيَّةٍ، والمرادُ: يعاملُكم معاملةَ مَن يطلب العلم بأعمالكم ليُجازيَكم بحَسَبها، كقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقيل: يمكن أنْ يقال: المرادُ بالعلم المعلومُ، فحينئذٍ يكون هذا مجازاً مرتَّباً على استعارة.

وأيّاً ما كان فلا يلزمُ أنْ لا يكون اللهُ سبحانه وتعالى عالماً بأعمالهم قبل استخلافهم.

وليس مبني تفسير النظر بالعلم على نفي الرؤية كما هو مذهبُ بعض القدرية القائلين بأنَّه جلَّ شأنه لا يَرَى ولا يُرَى، فأنا ـ وللهِ تعالى الحمد ـ ممن يقول: إنَّه

---

(١) بعدها في (م): نحو.

(٢) الكشاف ٢/٢٢٨.

تبارك وتعالى يَرى ويُرى، والشروطُ في الشاهد ليست شروطاً عقلية، كما حُقِّق في موضعه[١]. وإنَّ الرؤية صفةٌ مغايرةٌ للعلم، وكذا السمع أيضاً.

وممَّن يقول أيضاً: إنَّ صُورَ الماهياتِ الحادثةَ مشهودةٌ لله تعالى أزلاً في حالِ عَدَمِها في أنفُسِها في مرايا الماهيات الثابتة عنده جلَّ شأنه، بل هو مبنيٌّ على اقتضاء المعنى له، فإنك إذا قلتَ: أكرمتُك لأرى ما تصنعُ، فمعناه: أكرمتُك لأختبرَك وأعلمَ صُنعَك فأجازيَك عليه.

ومن هنا يُعلم أنَّ حَمْلَ النظر على الانتظارِ والتربُّص كما هو أحدُ معانيه ليس بشيءٍ، وبعضُ الناس حَمَل كلامَ بعضِ الأفاضل عليه، وارتكب شططاً وتكلَّم غلطاً.

هذا وقرئ: «لِنَظُّر» بنون واحدة وتشديد الظاء[٢]، ووُجِّه ذلك أنَّ النون الثانية قُلبت ظاءً وأُدغمَت.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ التفاتٌ من خطابهم إلى الغيبة، إعراضاً عنهم، وتوجيهاً للخطاب إلى سيِّد المخاطَبين ﷺ بتعديد جناياتهم المضادَّة لِمَا أُريدَ منهم بالاستخلاف، من التكذيب والكفرِ بالآيات البيِّنات وغيرِ ذلك، كدأب مَن قبلَهم مِن القرون المهلَكة. وصيغةُ المضارع للدلالة على تجدُّد جوابهم الآتي حَسْبَ تجدُّدِ التلاوة.

والمرادُ بـ «الآيات»: الآياتُ الدالة على التوحيد وبطلان الشرك. وقيل: ما هو أعمُّ من ذلك. والإضافة لتشريف المضافِ، والترغيبِ في الإيمان به، والترهيبِ عن تكذيبه.

ونصب «بيناتٍ» على الحال، أي: حالَ كونها واضحاتِ الدلالة على ما تضمَّنته.

وإيرادُ فِعْلِ التلاوة مبنياً للمفعول، مُسنداً إلى الآيات دون رسول الله ﷺ ببنائه للفاعل؛ للإشعار بعدم الحاجةِ لتعيين التالي، وللإيذان بأنَّ كلامهم في نفس المتلوِّ ولو تلاه رجلٌ مِن إحدَى القريتَين عظيمٌ.

---

(١) ينظر بحث رؤية الله تعالى ٨/ ٣٤٦ وما بعدها.

(٢) المحتسب ١/ ٣٠٩، والبحر ٥/ ١٣١.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وُضع الموصول موضعَ الضمير إشعاراً بعلِّية ما في حيِّز الصلة المعظَّمة المحكيَّة عنهم، وذمّاً لهم بذلك، أي: قالوا لمن يتلوها عليهم وهو رسولُ الله ﷺ ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ أشاروا بهذا إلى القرآن المشتملِ على تلك الآياتِ لا إلى أنفسها فقط، قصداً إلى إخراج الكلِّ مِن البين، أي: ائت بكتابٍ آخرَ نقرؤه، ليس فيه ما نستبعدُهُ من البعث وتوابعِهِ، أو ما نكرهُه مِن ذمِّ آلهتنا والوعيدِ على عبادتها ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأنْ تجعلَ مكان الآيةِ المشتمِلَة على ذلك آيةً أُخرى.

ولعلَّهم إنَّما سألوا ذلك كيداً وطمعاً في إجابته عليه الصلاة والسلام؛ ليتوسَّلوا إلى الإلزام والاستهزاء، وليس مرادُهم أنَّه عليه الصلاة والسلام لو أجابهم آمنوا.

﴿قُلْ﴾ أيُّها الرسول لهم ﴿مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ المصدرُ فاعلُ «يكون»، وهي من «كان» التامَّة، وتُفسَّر بـ «وُجِدَ»، ونَفْيُ الوجود قد يُراد به نَفْيُ الصحة، فإنَّ وجودَ ما ليس بصحيح كَلَا وجودٍ، فالمعنى هنا: ما يصحُّ لي أصلاً تبديله ﴿مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ﴾ أي: من جهتي ومن عندي.

وأصلُ «تلقاء» مصدرٌ على تِفْعال بكسر[1] التاء، ولم يَجِئْ مصدرٌ بكسرها غيرُه وغير تبيان في المشهور. وقرئ شاذاً بالفتح[2]، وهو القياس في المصادر الدالة على التكرار كالتَّطواف والتَّجوال، وقد خَرَجَ هنا من ذلك إلى الظرفية المجازية، والجرُّ بـ «مِن» لا يُخرِجُ الظرفَ عن ظرفيته، ولذا اختصَّت الظروف الغيرُ المتصرِّفةِ كـ: عند، بدخولها عليها.

ومن الناس مَن وَهِمَ في ذلك وقَصَر الجوابَ ببيانِ امتناع ما اقترحوه على اقتراحهم الثاني، للإيذان بأنَّ استحالة ما اقترحوه أولاً من الظهور بحيث لا حاجةَ إلى بيانها؛ لأنَّ ما يدلُّ على استحالة الثاني يدلُّ على استحالة الأول بالطريق الأَولَى، فهو بحَسَبِ المآل والحقيقة جوابٌ عن الأَمْرين.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي: ما أَتَّبعُ فيما آتي وأَذَرُ ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ من غير تغييرٍ له في

(١) قوله: بكسر، ساقط من (م)، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٤، والكلام منه.
(٢) الكشاف ٢/ ٢٢٩، والبحر ٥/ ١٣٢، وحاشية الشهاب ٥/ ١٤.

شيءٍ أصلاً، على معنى قَصْرِ حاله عليه الصلاة والسلام على اتِّباع ما يُوحَى، لا قَصْرِ اتِّباعه على ما يُوحَى إليه، كما هو المتبادرُ من ظاهر العبارة، فكأنَّه قيل: ما أفعلُ إلَّا اتِّباعَ ما يُوحَى إليَّ، والجملةُ مستأنفةٌ لما يكونُ، فإنَّ مَن شأنه اتِّباعُ الوحي على ما هو عليه لا يستقلُّ بشيءٍ دونه أصلاً.

وفي ذلك ـ على ما قيل ـ جوابٌ لنقضٍ مقدَّرٍ، وهو أنَّه: كيف هذا وقد نَسخَ بعضَ الآيات ببعض؟ وردٌّ لِمَا عَرَّضُوا له بهذا السؤال مِن أنَّ القرآن كلامُه ﷺ.

وكذا تقييدُ التبديل في الجواب بقوله: «مِن تلْقاءِ نفسي» لردِّ تعريضهم بأنَّه مِن عنده عليه الصلاة والسلام، ولذلك أيضاً سمَّاه عصياناً عظيماً مُستَتْبِعاً لعذابٍ عظيم بقوله عز وجل: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ وهو تعليلٌ لمضمون ما قبلَه مِن امتناع التبديل، واقتصارِ أمره ﷺ على اتِّباع الوحي، أي: إنِّي أخافُ إنْ عصيتُه تعالى بتعاطي التبديل والإعراض عن الوحي عذابَ يوم عظيمٍ، هو يومُ القيامة ويومُ اللقاء الذي لا يرجونه، وفيه إيماءٌ بأنَّهم استوجبوا العذابَ بهذا الاقتراح؛ لأنَّ اقتراح ما يوجبه يستوجبه أيضاً، وإنْ لم يكن كفعله.

والتعرُّضُ لعنوان الربوبية مع الإضافة لضميره عليه الصلاة والسلام لتهويل أمر العصيان، وإظهارِ كمالِ نَزاهته ﷺ، وفي إيرادِ اليوم بالتنوين التفخيميِّ، ووصْفِهِ بـ «عظيم» ما لا يخفَى ما فيه من العذاب وتفظيعه.

وجوَّز العلَّامة الطيبيُّ كونَ الجواب المذكور جواباً عن الاقتراحَين من غير حاجةٍ إلى شيءٍ، وذلك بحَمْلِ التبديل فيه على ما يعمُّ تبديلَ ذاتٍ بذاتٍ أُخرَى كـ: بدَّلتُ الدنانير دراهمَ، وهو الذي أشاروا إليه بقولهم: «ائت بقرآنٍ غير هذا»، وتبديلَ صفةٍ بصفةٍ أُخرَى كـ: بدَّلتُ الخاتمَ حلقةً، وهو الذي أشاروا إليهم بقولهم: «أو بدِّله».

وأُورد عليه بأنَّ تقييد التبديل بقوله سبحانه: ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِىٓ﴾ يمنعُ حمله على الأعمِّ؛ لأنَّه يُشعر بأنَّ ذلك مقدورٌ له ﷺ، ولكنْ لا يفعله بغير إذنه تعالى، والتبديلُ الذي أشاروا إليه أوَّلاً غيرُ مقدورٍ له عليه الصلاة والسلام، حتى إنَّ المقترحِين يعلمون استحالةَ ذلك، لكن اقترحوه لِمَا مرَّ، وقالوا: لو شئنا لقلنا مثل هذا، مكابرةً وعناداً.

ثمَّ إنَّ الظاهر أنَّهم اقترحوا التبديلَ والإتيانَ بطريق الافتراء، قيل: لا مساغَ للقول بأنَّهم اقترحوا ذلك من جهة الوحي، فكأنَّهم قالوا: ائتِ بقرآن غيرِ هذا أو بدِّله من جهة الوحي، كما أتيت بالقرآن من جهتِهِ، ويكون معنى قوله: «ما يكون لي» إلخ: ما يَتَسهَّل لي ولا يُمكنني أنْ أبدِّله = لِمَا في «الكشاف» مِن أنَّ قوله: «إنِّي أخافُ إنْ عصيتُ ربي» يردُّ ذلك[1].

ووُجِّه بأنهم لم يطلبوا ما هو عصيانٌ على هذا التقدير حتى يقولَ في جوابهم ما ذكر.

ونُظِرَ فيه بأنَّ الطلب مِن غير إذنٍ عصيانٌ، فإنْ لم يُحْمَلْ: ما يتسهَّل لي، على أنَّ ذلك لكونه غيرَ مأذونٍ، كان الجوابُ غيرَ مطابقٍ لسؤالهم؛ لأنَّ السؤال عن تبديلٍ من الله تعالى، وهو عليه الصلاة والسلام قال: لا يُمكنني التبديلُ من تلقاء نفسي، في الجواب. وإنْ حُمِلَ عليه فالعصيانُ أيضاً منزل عليه.

وأُجيب بأنَّ صاحب «الكشاف» حمل «ما يكون» على أنَّه: لا يُمكن ولا يتسهَّل. والعصيانُ يقع على الممكن المقدور، لا أنَّهم طلبوا ما هو عصيان أو ليس، والمطابقةُ حاصلةٌ بل أشدُّها؛ لأنَّ الحاصل إمَّا التبديلُ من تلقاء نفسي، فغيرُ ممكن، وإمَّا من قبل الوحي، فأنا تابعٌ غيرُ متبوع. نعم لا يُنكَر أنَّه يُمكن أنْ يأتي وجْهٌ آخرُ بأنْ يحمل على أنَّه: لا يحلُّ لي ذلك دونَ إذنٍ، وصاحب «الكشاف» لم يَنْفِه.

وذكر بعضُ المحقِّقين أنَّه لا مساغَ لحمل مُقترحِهم على ما هو من جهة الوحي، لمكان التعليل بـ «إنِّي أخاف» إلخ، إذ المقصودُ بما ذُكر فيه معصيةُ الافتراء، كما يُرشد إلى ذلك صريحُ ما بعده من الآيتَين الكريمَتين، وحينئذٍ لا يتحقَّق فيه تلك المعصية، ومعصيةُ استدعاء تبديلِ ما اقتضته الحكمةُ التشريعيةُ لا سيَّما بموجب اقتراحِ الكفرة ليسَت مقصودةً، فلا ينفعُ تحقُّقها، وهو كلامٌ وجيهٌ يُعلم منه ما في الكلام السابق من النظر.

بقيَ أنَّه يُفْهَم من بعض الآثار أنَّهم طلبوا الإتيان من جهة الوحي، فعن

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٢٩.

مقاتل(١): أنَّ الآية نزلتَ في خمسة نفرٍ: عبد الله بن أبي أميَّةَ(٢) المخزوميِّ، والوليدِ بن المغيرةَ، ومكرز بنِ حفصٍ، وعمرو بن عبد الله بن أبي قيسٍ العامريِّ، والعاصِ بن عامر بن هشام، قالوا للنبيِّ ﷺ: إنْ كنتَ تريدُ أنْ نؤمنَ لك، فائتِ بقرآنٍ ليس فيه تركُ عبادة اللَّات والعُزَّى ومناة، وليس فيه عيبُها، وإنْ لم يُنزل الله تعالى عليك فقل أنت مِن نفسك، أو بدِّله فاجْعَل مكانَ آيةِ عذاب آيةَ رحمة، ومكانَ حرامٍ حلالاً ومكانَ حلالٍ حراماً.

وربَّما يقال: إنَّ هذا ـ على تقديرِ صحته ـ لا يأبَى أنْ يكونَ ما في الآيةِ ما أشار إليه تالي الشرطيةِ الثانيةِ مِن كلامهم، فتدبَّر.

وقوله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ تحقيقٌ لحَقِّيَّة القرآن، وأنَّه من عنده سبحانه، إثْرَ بيانِ بطلانِ ما اقترحوه على أتمِّ وجهٍ، وصُدِّر بالأمر المستقلِّ إظهاراً لكمال الاعتناء بشأنه، وإيذاناً باستقلاله مفهوماً وأسلوباً، فإنَّه برهانٌ دالٌّ على كونه بأمر الله تعالى ومشيئته كما ستعلمه إنْ شاء الله تعالى. وما سَبَق مجرَّدُ إخبارٍ باستحالة ما اقترحوه.

ومفعولُ المشيئة محذوفٌ يُنْبِئُ عنه الجزاء كما هو المطَّردُ في أمثاله ـ ويُفهَم من ظاهر كلام بعضهم أنَّه غيرُ ذلك، وليس بذلك ـ وهو ظاهرٌ، والمعنى: أنَّ الأمر كلَّه منوطٌ بمشيئته تعالى، وليس لي منه شيءٌ أصلاً، ولو شاء سبحانه عدمَ تلاوتي له عليكم، وعدَم إدرائكم به بواسطتي، بأنْ لم يُنزِّله جلَّ شأنُه عليَّ ولم يأمرني بتلاوته ما تَلَوْتُه عليكم ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي: ولا أَعْلَمَكم به بواسطتي. والتالي ـ وهو عدمُ التلاوة والإدراء ـ مُنْتَفٍ، فينتفي المقدَّمُ وهو مشيئتُه العدَمَ، وهي مسلتزمةٌ لعدم مشيئته الوجودَ، فانتفاؤه مستلزمٌ لانتفائه، وهو إنَّما يكون بتحقُّق مشيئة الوجود، فثبت أنَّ تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن وإدراءَه تعالى بواسطته بمشيئتِه تعالى.

---

(١) كما في أسباب النزول للواحدي ص٢٦٧، وتفسير البغوي ٢/ ٣٤٧.

(٢) في الأصل و(م) وتفسير البغوي: عبد الله بن أمية، والمثبت من الإصابة ٦/ ١١، وأسباب النزول.

وتقييدُ الإدراء بذلك[١] هو الذي يقتضيه المقامُ، وحيثُ اقتصرَ بعضُهم في تقدير المفعول في الشرط على عدم التلاوة علَّل التقييدَ بأنَّ عدمَ الإعلام مطلقاً ليس مِن لوازم الشرط، الذي هو عدمُ مشيئة تلاوتِه عليه الصلاة والسلام، فلا يجوز نَظْمُه في سلك الجزاء[٢]. ولم يظهر وجهُ الاقتصار على ذلك، وعدمُ ضمِّ عدمِ الإدراء إليه، مع أنَّ العطفَ ظاهرٌ فيه. وفي إسناد عدم الإدراء إليه تعالى، المنبئ عن استناد الإدراء إليه سبحانه، إعلامٌ بأنَّه لا دخلَ له عليه الصلاة والسلام في ذلك حسبما يقتضيه المقامُ إليه.

ورواية أبي ربيعة عن ابن كثير: «ولأدراكم» بلام التوكيد[٣]، وهي الواقعةُ في جواب «لو» أي: لو شاء الله ما تلوتُه عليكم ولأَعْلَمَكم به على لسان غيري، على معنى: أنَّه الحقُّ الذي لا محيصَ عنه، لو لم أُرسَل به لأُرسل به غيري، وجيءَ باللام هنا للإيذان بأنَّ إعلامهم به على لسان غيرِه ﷺ أشدُّ انتفاءً وأقوى.

ولعلَّ «لا» في القراءة الأُولى لأنَّه يُغتفر في التابع ما لا يُغتفر في المتبوع، وإلَّا فهي لا تقعُ في جواب «لو»، فلا يقال: لو قام زيد لا قامَ عمرو، بل: ما قام، ومِن هنا نصَّ السمين على أنَّها زائدةٌ مؤكِّدة للنفي[٤].

وروي عن ابن عباس والحسن وابن سيرين أنهم قرؤوا: «ولا أَدْرَاتُكم»[٥] بإسنادِ الفعل إلى ضميره ﷺ كالفعل السابق، والأصل: ولا أَدريتُكم، فقُلبت الياءُ ألفاً على لغة مَن يقلب الياءَ الساكنةَ المفتوحَ ما قبلها ألفاً، وهي لغة بَلْحَارث بن

(١) أي: بكونه بواسطته ﷺ. تفسير أبي السعود ٤/ ١٢٩-١٣٠.
(٢) تفسير أبي السعود ٤/ ١٣٠.
(٣) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢. وأبو ربيعة هو محمد بن إسحاق بن وهب بن أعين الرَّبَعي المكي المقرئ، قرأ على البزي، وهو أنبل أصحابه في وقته، توفي سنة (٢٩٤هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٤٥٤. وروى غيره عن البزي بإثبات الألف. وبذلك قرأ الباقون.
(٤) الدر المصون ٦/ ١٦٤.
(٥) أي: بالألف، وكذا ذكرها الشهاب في الحاشية ٥/ ١٥ لكن دون نسبة، وينظر القراءات الشاذة ص٥٦. والمروي عن ابن عباس والحسن وابن سيرين أنهم قرؤوا: «ولا أدرأتكم» بالهمزة بعد الراء، كما في القراءات الشاذة ص٥٦، والمحتسب ١/ ٣٠٩، والبحر ٥/ ١٣٣، وسترد قريباً عن الحسن.

كعب وقبائلَ مِن اليمن، حتى قلبوا ياء التثنية ألفاً وجعلوا المثنَّى في جميع الأحوال على لفظٍ واحد، وحكى ذلك قطرب عن عُقَيل[١].

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر وغيرُهما عن الحسن أنَّه قرأ: «ولا أَدرأْتُكم» بهمزةٍ ساكنة[٢]، فقيل: إنَّها مبدَلةٌ من الألف المنقلبةِ عن الياء كما سمعتَ، وقيل: إنَّها مبدلةٌ من الياء ابتداءً كما يقال في لَبَّيْتُ: لبَّأت. وعلى القولَين هي غيرُ أصليةٍ، وجاء ذلك في بعضِ اللغات كما نصَّ عليه غيرُ واحدٍ.

وجوِّز أنْ تكونَ أصليةً على أنَّ الفعل من الدَّرْءِ، وهو الدفعُ والمنع، ويقال: أدرأتُه، أي: جعلتُه دارئاً ودافعاً[٣]، والمعنى: ولا جعلتُكم بتلاوته خُصماء تَدرَؤونني بالجدال.

وقرئ: «ولا أدراكم» بالهمز وتركه[٤] أيضاً، مع إسناد الفعل إلى ضمير الله تعالى.

وأخرج سعيد بنُ منصور وابنُ جرير أنَّ ابنَ عباسٍ ﷺ كان يقرأ: «ولا أنذرتُكم به»[٥].

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ نوعُ تعليلٍ للملازمة المستلزِمَةِ لكون ذلك بمشيئة الله عزَّ وجلَّ حسبما مرَّ آنفاً، واللبثُ: الإقامة.

ونُصِبَ «عُمُراً» على التشبيه بظرفِ الزمان، والمرادُ منه: مدَّةً. وقيل: هو على تقدير مضافٍ، أي: مقدارَ عُمُرٍ. وهو بضمِّ الميم، وقرأ الأعمش بسكونها للتخفيف[٦].

---

(١) يعني عن بني عقيل. المحتسب ١/ ٣١٠، والبحر ٥/ ١٣٣، والدر المصون ٦/ ١٦٤.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ١٣٩، وعزاها لابن المنذر السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٢.

(٣) في (م): أي دافعاً، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٥، والكلام منه.

(٤) القراءة بترك الهمزة هي قراءة العشرة، والقراءة بالهمز ذكرها العكبري في الإملاء ٣/ ٢٢٠، والبيضاوي في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ١٥.

(٥) سنن سعيد بن منصور (١٠٥٦- تفسير)، وتفسير الطبري ١٢/ ١٤١، وهي في القراءات الشاذة ص٥٦.

(٦) البحر ٥/ ١٣٣، وهي دون نسبة في الكشاف ٢/ ٢٢٩.

والمعنى: قد أقمتُ فيما بينكم مدةً مديدةً، وهي مقدارُ أربعين سنةً، تحفظونَ تفاصيلَ أحوالي، وتُحيطون خبراً بأقوالي وأفعالي.

﴿مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي: مِن قَبْلِ نزول القرآن، أو من قَبْلِ وقتِ نزوله ـ ورجوعُ الضمير للتلاوة ليس بشيءٍ ـ لا أتعاطَى شيئاً مما يتعلَّق بذاك، لا مِن حيثُ نظمُه المعجِزُ، ولا من حيث معناه الكاشفُ عن أسرار الحقائق وأحكامِ الشرائع.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي: ألَا تلاحظون ذلك فلا تَعْقِلون امتناعَ صدورِه عن مثلي، ووجوبَ كونه منزلاً من عند الله العزيز الحكيم، فإنَّ ذلك غيرُ خافٍ على مَن له عقلٌ سليم وذهنٌ مستقيم، بل لَعمري إنَّ مَن كان له أدنَى مُسكةٍ مِن عقل إذا تأمَّل في أمره ﷺ، وأنَّه نشأ فيما بينهم هذا الدهرَ الطويلَ من غير مصاحبةِ العلماء في شأنٍ من الشؤون، ولا مراجعةٍ إليهم في فنٍّ من الفنون، ولا مخالطةٍ للبلغاءِ في المحاوَرةِ والمفاوضة، ولا خوضٍ معهم في إنشاء الخطب والمقارضة[1]، ثم أتَى بكتابٍ بَهَرَت فصاحتُه كلَّ ذي أَدبٍ، وحيَّرَت بلاغتُه مصاقِعَ العرب، واحتوَى على بدائعِ أصنافِ العلوم، ودقائقِ حقائق المنطوق والمفهوم، وغدا كاشفاً عن أسرار الغيب التي لا تنالُها الظنون، ومُعرباً عن أقاصيص الأوَّلِينَ وأحاديثِ الآخرينَ من القرون، ومصدِّقاً لما بين يديه مِن الكتب المنزَّلة، ومهيمناً عليها في أحكامه المجملة والمفصَّلة، لا يبقَى عنده اشتباهٌ في أنَّه منزَلٌ من عند الله جلَّ جلاله وعمَّ إفضاله، هذا هو الذي اتَّفقت عليه كلمةُ الجمهور، وهو أوفقُ بالردِّ عليهم كما لا يخفَى على المتأمِّل.

وقيل[2]: إنَّ الأنسب ببناء الجوابِ فيما سلف على امتناعِ صدورِ التغيير والتبديل عنه عليه الصلاة والسلام، لكونه معصيةً موجبةً للعذاب العظيم، واقتصاره ﷺ على اتِّباع الوحي، وامتناعِ الاستبداد بالرأي، مِن غير تعرُّضٍ هناك ولا هنا لكون القرآن في نفسه أمراً خارجاً عن طَوْق البشر، ولا بكونه عليه الصلاة والسلام غيرَ قادرٍ على الإتيان بمثله = أنْ يُستَشْهدَ هاهنا بما يلائم ذلك من

---

(١) في (م): المعارضة. وجاء في تفسير أبي السعود ٤/ ١٣٠ (والكلام فيه بنحوه): في إنشاء الخطب والأشعار.

(٢) القائل هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٣٠.

أحواله ﷺ المستمِرَّة في تلك المدَّة المتطاولة، مِن كمال نزاهتِهِ عليه الصلاة والسلام عما يُوهم شائبةَ صدورِ الكذب والافتراء عنه في حقِّ أحدٍ كائناً مَن كان، كما يُنبئ عنه تَعقيبه بتَظْليم المفتري على الله تعالى، والمعنى: قد لبثتُ فيما بين ظهرانَيكم قبل الوحي لا أَتعرَّضُ لأحدٍ قطُّ بتحكُّم ولا جدالٍ، ولا أَحومُ حول مقالٍ فيه شائبةُ شبهةٍ فضلاً عما فيه كذبٌ وافتراءٌ، ألاَ تلاحظونَه فلا تعقلون أنَّ مَن هذا شأنُه المطَّرِدُ في هذا العهد البعيد، يستحيلُ أنْ يفتري على الله عزَّ وجلَّ، ويتحكَّمَ على كافَّة الخلقِ بالأوامر والنواهي، الموجبةِ لسَلْبِ الأموال، وسَفْكِ الدماء، وغير ذلك، وأنَّ ما أَتَى به وحيٌ مبينٌ تنزيلٌ مِن ربِّ العالمين. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ هذا غيرُ منساقٍ إلى الذهن، وأنَّ الكلام الأول مشيرٌ في الجملة إلى كون القرآن أمراً خارجاً عن طوق البشر، وأنَّه ﷺ غيرُ قادرٍ على الإتيان بمثله، على أنَّه بَعْدُ لا يخلو عن مقالٍ فتأمَّل.

وقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ معناه النفيُ، أي: لا أحدَ أظلَمُ من ذلك، ونَفْيُ الأظلمية كما هو المشهورُ كنايةٌ عن نفي المساواة، فالمرادُ أنَّه أظلَمُ مِن كلِّ ظالمٍ وقد مرَّ تحقيق ذلك[1].

والآيةُ مرتبطةٌ بما قبلها على أنَّ المقصودَ منها تفاديه ﷺ مما لَوَّحوا به مِن نسبةِ الافتراء على الله سبحانه إليه عليه الصلاة والسلام وحاشاه، وتظليمٌ للمشركين بتكذيبهم للقرآن وكفرهم به.

وزيادةُ «كذباً» مع أنَّ الافتراء لا يكونُ إلا كذلك للإيذان بأنَّ ما لوَّحوا به ضِمْناً، وحَمَلوه - عليه الصلاة والسلام - عليه صريحاً، مع كونه افتراءً على الله سبحانه، كذبٌ في نفسه، فرُبَّ افتراءٍ يكونُ كذبُه في الإسناد فقط، كما إذا أَسندْتَ ذنْبَ زيدٍ إلى عمرٍو، وهذا للمبالغة منه ﷺ في التفادي مما ذُكر.

والفاءُ لترتيب الكلام على ما سَبَقَ من بيان كون القرآن بمشيئته تعالى وأمره، أي: وإذا كان الأمرُ كذلك، فمَن افترَى عليه سبحانه بأنْ يخلق[2] كلاماً فيقول:

---

(١) ٢/ ٣٩٩-٤٠٠.

(٢) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٤ / ١٣١ (والكلام منه): يختلق.

هذا مِن عند الله تعالى، أو يُبدِّلُ بعضَ آياته ببعضٍ، كما تجوِّزون ذلك في شأني، وكذلك مَن كذَّب بآياته جلَّ شأنه كما تفعلونه أنتم = أظلَمُ من كلِّ ظالم.

وقيل: المقصودُ مِن الآية تظليم المشركين بافترائهم على الله تعالى في قولهم: إنَّه ـ تعالى عمَّا يقولون ـ ذو شريكٍ وذو ولد، وتكذيبِهم بآياته سبحانه، وهي مرتبطةٌ إمَّا بما قبلها أيضاً على معنى: إنِّي لم أفترِ على الله تعالى ولم أكذب عليه، وقد قام الدليل على ذلك، وأنتم قد فعلتُم ذلك حيث زعمتُم أنَّ لله تعالى شريكاً، وأنَّ له ولداً، وكذَّبتُم نبيَّه ﷺ وما جاء به من عنده سبحانه.

وإمَّا بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ إلخ على أنْ يكون قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ وقولُه سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ إلى هنا إعلاماً بأنَّ المشركين الذين بُعِثَ إليهم رسولُ الله ﷺ استنُّوا(١) بسَنَن مَن قبلَهم في تكذيب آيات الله تعالى والرسل عليهم الصلاة والسلام، ويكونُ هذا عوداً إلى الأوَّل بعد الفراغ من قصة المشركين.

وقيل: وجهُ تعلُّقِها بما تقدَّم أنَّهم سألوه ﷺ تبديلَ القرآن لما فيه من ذمِّ آلهتهم الذين افتروا في جعلها آلهةً.

وقيل: إنَّ الآية تَوطئةٌ لما بعدها.

ولا يَخْفَى أنَّ الأول هو الأنسبُ بالمقام، وأوفقُ بالفاء، وأَبعدُ عن التكلُّف، وأقربُ انْسِياقاً إلى الذهن السليم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٧﴾ أي: لا ينجُون من محذورٍ، ولا يفوزون بمطلوبٍ، والمرادُ جنسُ المجرمين، فيندرجُ فيه المفتري والمكذِّبُ اندراجاً أوليّاً، ولا يخفَى ما في اختيار ضمير الشأن من الاعتناء بشأن ما يُذكر بعدَه من أوَّل الأمر.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ حكايةٌ لجنايةٍ أُخرَى لهم، وهي عطفٌ على قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الآية عطفَ قصةٍ على قصة. و«من دون» في موضع الحال من فاعل «يعبدون» أي: مُتجاوِزِين الله تعالى، إمَّا بمعنى

(١) في (م): واستنوا.

تركِ عبادتِهِ سبحانه بالكلِّيَّة؛ لأنَّها لا تصحُّ ولا تقعُ عبادةٌ مع الشِّركة، أو بمعنى عدمِ الاكتفاء بها وجَعْلِها قريناً لعبادةِ غيره سبحانه كما اختاره البعض.

و«ما» إمَّا موصولةٌ أو موصوفةٌ، والمرادُ بها الأصنام، ومعنى كونِها لا تضرُّ ولا تنفعُ: أنَّها لا تقدِرُ على ذلك لأنَّها جماداتٌ، والمقصودُ مِن هذا الوصفِ نفيُ صحةِ معبوديَّتها؛ لأنَّ مِن شأن المعبود القدرةَ على ما ذكر.

وقيل: المعنى: لا تضرُّهم إنْ تركوا عبادتها ولا تنفعهم إنْ عبدوها، والمقصود أيضاً نفيُ صحة معبوديتها؛ لأنَّ مِن شأن المعبود أنْ يُثيبَ عابدَه، ويُعاقبَ مَن لم يعبده.

والفرقُ بين التفسيرَين على ما قاله القطبُ: إطلاقُ النفع والضرِّ في الأول، والتقييدُ بالعبادة وتركِها في الثاني.

وقيل: المقصودُ على الأول من الموصول الأصنامُ بعينها، وعلى الثاني فاقدُ أوصافِ المعبودية[1]، ويجوز أنْ يدخل فيه غيرُ الأصنام من الملائكة والمسيحِ عليهم السلام.

والظاهرُ أنَّ المراد هنا الأصنامُ؛ لأنَّ العرب إنَّما كانوا يعبدونها، وكان أهلُ الطائف يعبدون اللاتَ، وأهلُ مكةَ العزَّى ومناةَ وهُبَلَ وإسافاً ونائلة.

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أخرج ابنُ أبي حاتم عن عكرمة قال: كان النضر بن الحارث يقول: إذا كان يومُ القيامة شفَعَت لي اللاتُ والعزَّى، وفيه نزلت الآية[2].

والظاهرُ أنَّ سائرَ المشركين كانوا يقولون هذا القولَ، ولعلَّ ذلك منهم على سبيل الفرَضِ والتقدير، أي: إن[3] كان بعثٌ كما زعمتُم فهؤلاء يشفعون لنا، فلا يقال: إنَّ المتبادر من الشفاعة عند الله تعالى أنَّه في الآخرة، وهو مستلزِمٌ للبعث، وهم ينكرونه كما يدل عليه قولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا

(١) في الأصل: العبودية.
(٢) الدر المنثور ٣/ ٣٠٢.
(٣) في الأصل: إذا.

﴿يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النحل:٣٨]. وكذا ما تقدَّم آنفاً من قوله سبحانه: (قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا) فيلزمُ المنافاةُ بين مفاهيم الآيات.

وكأنَّه لذلك قال الحسن عليه الرحمة: إنَّهم أرادوا مِن هذه الشفاعةِ الشفاعةَ في الدنيا لإصلاح المعاش. وحينئذٍ لا[1] منافاةَ، والجمهورُ على الأول، ومَن سبَرَ حالَ القومِ رآهم متردِّدين، ولذلك اختلفَت كلماتُهم.

ونسبةُ الشفاعةِ للأصنام؛ قيل: باعتبارِ السببية، وذلك لأنَّهم كما هو المشهورُ وضعوها على صور رجالٍ صالحين وذوي[2] خطرٍ عندهم، وزعموا أنَّهم متى اشتغلوا بعبادتها فإنَّ أولئك الرجال يشفعون لهم.

وقيل: إنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ المتولِّيَ لكلِّ إقليمٍ روحٌ معيَّنٌ من أرواح الأفلاك، فعيَّنوا لذلك الروحِ صنماً من الأصنام واشتغلوا بعبادتها قصداً إلى عبادة الكواكب. وقيل غير ذلك. والحقُّ أنَّ من الأصنام ما وُضع على الوجه الأول، ومنها ما وُضع لكونها كالهياكل للروحانيات.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أي: أتخبرونه سبحانه بما لا وجودَ له ولا تحقُّق أصلاً، وهو كونُ الأصنام شفعاءَهم عند الله سبحانه[3]، فإنَّ ما لا يعلمه علَّامُ الغيوبِ، المحيطُ علمُه بالكلِّيات والجزئيات، لا يكون له تحقُّقٌ بالكلِّية.

وذكروا أنَّ مثلَ ذلك لا يسمَّى شيئاً، بناءً على أنَّه كما قال سيبويه: ما يصحُّ أنْ يُعلم ويُخبر عنه[4]، وهو يَشمل الموجودَ والمعدومَ كما حقَّقه بعضُ أصحابنا، كالمعتزلة، وسمَّوا ما لا يُعلم بالمنفي كالشريك وكاجتماع الضدَّين، وحقَّقَ ذلك الشيخ إبراهيم الكوراني في رسالة مستقلَّة أتَى فيها بالعَجَبِ العُجاب.

ويجوزُ أن يُراد بالموصول: أنَّ له ـ سبحانه ـ شريكاً. والمقصود على الوجهَين مِن ذِكْرِ إنباءِ الله تعالى بما لا تحقُّقَ له ولم يتعلَّق به علمُه التهكُّم والهزءُ بهم، وإلا فلا إنباء.

---

(١) في الأصل: فلا.
(٢) في (م): ذوي.
(٣) في (م): عنده جلَّ شأنه.
(٤) سلف كلام سيبويه ١/ ٤٩٤، و٢/ ٣٩٤، و٨/ ٩٠، وينظر الكشاف ١/ ٢٢٢.

وقوله سبحانه: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في موضع الحال من العائد المحذوفِ، أي: بما لا يعلمه كائناً في ذلك، والمقصودُ منه تأكيدُ النفي المدلولِ عليه بما قبله؛ فإنَّه قد جرى في العرف أنْ يقال عند تأكيد النفي للشيء: ليس هذا في السماء ولا في الأرض؛ لاعتقاد العامَّة أنَّ كلَّ ما يوجد إمَّا في السماء وإمَّا في الأرض، كما هو رأيُ المتكلِّمين في كلِّ ما سوى الله تعالى إذ هو سبحانه المعبودُ المنزَّه عن الحلول في المكان، والآيات التي ظاهرها ذلك من المتشابه، والمذاهبُ فيه شهيرةٌ، وهذا إذا أُريد بالسماء والأرض جهتا العلوِّ والسفل.

وقيل: الكلام إلزاميٌّ لِزَعْمِ المخاطَبين الكافرين أنَّ الأمر كذلك.

وقيل: إنَّ معنى الآية: أتخبرونَه تعالى بشريكٍ أو شفيعٍ لا يعلم شيئاً في السماوات ولا في الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٣]. وليس بشيءٍ.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي: عن إشراكهم المستلزِمِ لتلك المقالة الباطلة، أو عن شركائهم الذين يعتقدونَهم شركاء.

وقرئ: «أتُنْبِئون» بالتخفيف[1]. وقرأ حمزة والكسائي «تشركون» بتاء الخطاب[2] على أنَّه من جملة القول المأمور به، وعلى الأول هو اعتراضٌ تذييليٌّ من جهته سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: وما كان الناس كافَّةً من أول الأمر إلا متَّفقين على الحقِّ والتوحيدِ من غير اختلاف، وروي هذا عن ابن عباس والسديِّ ومجاهدٍ والجبائيِّ وأبي مسلم، ويؤيِّده قراءةُ ابنِ مسعود ﷺ: «وما كان الناس إلا أمةً واحدة على هدى»[3]، وذلك من عَهْدِ آدمَ عليه الصلاة والسلام إلى أنْ قتَل قابيلُ هابيلَ.

وقيل: إلى زمن إدريس عليه الصلاة والسلام.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٦، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٧٠، والبحر ٥/ ١٣٤، ونسبها القرطبي لأبي السمال.

(٢) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٨٢، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) مجمع البيان ١١/ ٢٧.

وقيل: إلى زمن نوحٍ عليه الصلاة والسلام، وكانوا عشرةَ قرونٍ. وقيل: كانوا كذلك في زمنه عليه الصلاة والسلام بعد أنْ لم يَبْقَ على الأرض من الكافرين ديَّارٌ، إلى أنْ ظهر بينهم الكفر.

وقيل: من لَدُنْ إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى أنْ أظهرَ عمرو بنُ لحيٍّ عبادةَ الأصنام، وهو المروي عن عطاء، وعليه فالمراد من «الناس»: العربُ خاصّةً، وهو الأنسبُ بإيراد الآية الكريمة إثْرَ حكايةِ ما حُكي عنهم[1] من الهنات، وتنزيه ساحةِ الكبرياء عن ذلك.

﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ بأنْ كَفَر بعضُهم وثبتَ الآخرون على ما هم عليه، فخالَفَ كلٌّ مِن الفريقَين الآخَرَ، والفاء للتعقيب، وهي لا تُنافي امتدادَ زمانِ الاتفاق؛ إذ المرادُ بيانُ وقوعِ الاختلاف عقيبَ انصرام مدَّة الاتِّفاق لا عقيبَ حدوثه.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بتأخير القضاءِ بينهم - أوالعذابِ الفاصل بينهم - إلى يوم القيامة، فإنَّه يومُ الفصل والجزاء.

﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً ﴿فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ بأنْ يُنزل عليهم آياتٍ ملجئةً إلى اتِّباعِ الحقِّ ورفع الاختلاف، أو بأنْ يُهلكَ المُبْطِلَ ويُبْقيَ المُحِقَّ، وصيغة الاستقبال لحكاية الحال الماضيةِ والدلالةِ على الاستمرار.

ووجْهُ ارتباطِ الآيةِ بما قبلها أنَّها كالتأكيد لِمَا أشار إليه من أنَّ التوحيد هو الدِّينُ الحقُّ، حيث أفادَت أنَّه ملَّةٌ قديمةٌ اجتمعَت عليها الأمم قاطبةً، وأنَّ الشرك وفروعَه جهالاتٌ ابتدعها الغواةُ خلافاً للجمهور وشقّاً لعصا الجماعة.

وقيل: وجْهُ ذلك أنَّه سبحانه بيَّن فيما قبلُ فسادَ القوم بعبادة الأصنام، وبيَّن في هذه أنَّ هذا المذهبَ ليس مذهباً للعرب من أول الأمر، بل كانوا على الدِّين الحقِّ الخالي عن عبادة الأصنام، وإنَّما حدثَت فيهم عبادتُها بتسويل الشياطين.

قيل: والغرضُ من ذلك أنَّ العرب إذا علموا أنَّ ما هم عليه اليوم لم يكن من قبلُ فيهم، وإنَّما حدَثَ بعد أنْ لم يكن، لم يتعصَّبوا لنصرته، ولم يتأذَّوا من تزييفه وإبطاله.

---

(١) في (م): منهم.

وعن الكلبيِّ أنَّ معنى كونِهم أمةً واحدةً: اتِّفاقُهم على الكفر، وذلك في زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وروي مثلُه عن الحسن، إلا أنَّه قال: كانوا كذلك من لَدُن وفاةِ آدم إلى زمن نوحٍ عليهما السلام، ثم آمَنَ مَن آمَنَ وبَقِيَ مَن بقي على الكفر. وفائدةُ إيرادِ هذا الكلامِ في هذا المقام تسليتُه ﷺ، كأنَّه قيل: لا تطمع في أنْ يصيرَ كلُّ مَن تدعوه إلى الإيمان والتوحيد مجيباً لك قابلاً لدينك، فإنَّ الناس كلَّهم كانوا على الكفر، وإنَّما حَدَثَ الإيمان في بعضهم بعد ذلك، فكيف تطمعُ في اتِّفاقِ الكلِّ عليه.

واعتُرِض بأنَّه يلزم على هذا خلوُّ الأرض في عصرٍ من مؤمنٍ بالله تعالى عارفٍ به، وقد قالوا: إنَّ الأرض في كلِّ وقتٍ لا تخلو عن ذلك.

وأُجيبَ بأنَّ عدمَ الخلوِّ في حيِّز المنع، فقد ورَدَ في بعض الآثار أنَّ الناس قبل يوم القيامة ليس فيهم مَن يقول: الله الله، وعلى تقدير التسليم المرادُ بالاتِّفاق على الكفر اتفاقُ الأكثر. والحقُّ أنَّ هذا القولَ في حدِّ ذاته ضعيفٌ، فلا يَنبغي التزامُ دَفْعِ ما يَرِدُ عليه.

وأضعفُ منه ـ بل لا يكاد يصحُّ ـ كونُ المراد أنَّهم كانوا أمةً واحدةً، فاختلفوا بأنْ أحدَثَ كلٌّ منهم ملَّةً على حدَة من مِلَلِ الكفر مخالفةً لملَّة الآخر؛ لأنَّ الكلام ليس في ذلك الاختلاف، إذ كلٌّ مِن الفريقَين مُبْطِلٌ حينئذٍ، فلا يُتصوَّر أنْ يُقضى بينهما بإبقاء المحقِّ وإهلاك المبطل، أو بإلجاء أحدهما إلى اتِّباع الحقِّ ليرتفع الاختلاف، كما لا يخفى.

❊ ❊ ❊

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿الٓر﴾ «ا» إشارةٌ إلى الذات الذي هو أوَّلُ الوجود، و«ل» إشارةٌ إلى العقل المسمَّى جبريل عليه السلام، وهو أوسطُ الوجود، الذي يستفيضُ من المبدأ ويُفيض إلى المنتهى، و«ر» إشارةٌ إلى الرحمة التي هي الذاتُ المحمدية، وهي في الحقيقة أوَّل ووسطٌ وآخِر، لكنَّ الاعتباراتِ مختلفةٌ، وكأنَّ ذلك قَسَمٌ منه تعالى بالحقيقة المحمَّديَّة على أنَّ ما تضمَّنَتْه السورةُ أو القرآن من الآي آياتُ الكتاب المتقَن.

وقيل: المعنى: ما أُشير إليه بهذه الأحرف أركانُ كتاب الكلِّ ذي الحكمة أو المحكم ومعظم تفاصيله.

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ إنكارٌ لتعجُّبهم مِن سنَّة الله الجارية، وهي الإيحاءُ إلى رجلٍ، وكان ذلك لبُعدهم عن مقامه[1]، وعدمِ مناسبةِ حالِهم لحاله، ومنافاةِ ما جاء به لِمَا اعتقدوه.

﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أي: خوِّفْهم مِن أنْ يشركوا بي شيئاً ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سابقةً عظيمةً وقربةً ليس لأحد مثلُها. وقيل: سابقةَ رحمةٍ أودَعَها في محمد ﷺ.

﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: المحجوبون عن الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الكتاب الذي جاء به محمدٌ ﷺ ﴿لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾، لمَّا رأوه خارجاً عن قُدَرِهم، واحتَجبوا بالشَّيْطَنةِ عن الوقوف على حقيقة الحال قالوا ذلك.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: أوقاتٍ مقدارُ كلِّ يوم[2] منها دورةُ الفَلَكِ الأعظم مرَّةً واحدةً، كما نصَّ عليه الشيخ الأكبر[3]. والستةُ عددٌ تامٌّ، واختاره الله تعالى لِمَا فيه من الأسرار[4].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: المُلْكِ ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ على وفق حكمته بيد قُدرته. وقد يُفسَّر العرشُ بقَلْبِ الكامل، فالكلامُ إشارةٌ إلى خَلْقِ الإنسان الذي انطوَى فيه العالمُ بأسره.

﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ يَشفَعُ لأحدٍ بدَفْعِ ما يضرُّه أو جَلْبِ ما ينفعُه ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ بموهبة الاستعداد، ثم بتوفيق الأسباب.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الموصوفُ بهذه الصفات الجليلة ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي يَربُّكم ويُدبِّرُ أمرَكم ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فخصُّوه بالعبادة، واعْرِفوه بهذه الصفات، ولا تعبدوا

---

(١) في (م): مقامهم.

(٢) في الأصل: وقت.

(٣) في الباب التسعين وثلاث مئة من الفتوحات.

(٤) جاء في حاشية الأصل: وسينكشف البعض إن شاء الله تعالى في «الدخان».

الشيطان، ولا تحتَجِبُوا عنه تعالى فتنسبوا قولَه وفعله إلى الشيطان ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ آياتِه التي خطَّها بيد قُدرته في صحائف الآفاق والأنفُس، فتتفكَّروا فيها وتَنْزَجِروا عن الشرك به سبحانه.

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ بالعود إلى عين الجمع المطلَقِ في القيامة الصغرَى، أو إلى عينِ جمع الذات بالفناء فيه تعالى عند القيامة الكبرى، كذا قيل[١].

وقال بعضُ العارفين: إنَّ مرجع العاشقين جمالُه، ومَرْجِعَ العارِفين جلالُه، ومَرْجِعَ الموحِّدين كبرياؤه، ومَرْجِعَ الخائفين عَظَمتُه، ومَرْجِعَ المشتاقين وِصالُه، ومَرْجِعَ المحبِّينَ دُنوُّهُ، ومَرْجِع أهل العناية ذاتُه.

وقال الجنيد قدِّس سرُّه في الآية: إنَّه تعالى منه الابتداء وإليه الانتهاء، وما بين ذلك مرابعُ فضْلِه وتواتُرُ نعمه.

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ أي: يبدؤه في النشأة الأُولى ثم يُعيدُه في النشأة الثانية، أو: يبدأ الخلقَ باختفائه وإظهارهم ثم يُعيدُه بإفنائهم وظهوره.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: يفعل ذلك ليجزيَ المؤمنَ والكافرَ على حَسَبِ ما يقتضيه عملُ كلٍّ.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ أي: جعَلَ شمسَ الروح ضياءَ الوجود. ﴿وَالْقَمَرَ﴾ أي: قمرَ القلب ﴿نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: مقاماتٍ ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ أي: سِني مراتِبِكم وأطوارِكم في المسير إليه وفيه تعالى ﴿وَالْحِسَابَ﴾ أي: حسابَ درجاتكم ومواقعَ أقدامكم في كلِّ مقامٍ ومرتبةٍ.

ويقال: جعَلَ شمسَ الذات ضياءً للأرواح العارفةِ، وجعَلَ قمر الصفات نوراً للقلوب العاشقة، ففنيَت الأرواحُ بصَوْلةِ الذات في عين الذات، وبقيَت القلوبُ بمشاهدة الصفات في عين الصفات. وهذه الشمسُ المشارُ إليها لا تغيبُ أصلاً عن بصائر الأرواح، ومن هنا قال قائلهم:

---

(١) في تفسير ابن عربي ١/ ٣٠١.

هي الشمسُ إلَّا أنَّ للشمسِ غيبةً وهذا الذي نَعنيه ليس يغيبُ[1]

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ﴾ أي: غَلَبةِ ظُلمة النفس على القلب. ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: نهارِ إشراق ضوءِ الروح عليه ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: سماوات الأرواح ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرض الأجساد ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ حُجُبَ صفاتِ النفس الأمَّارة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: يُوْصِلُهم إلى الجنات الثلاث بحَسَبِ نور إيمانهم، فقولُه سبحانه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ كالبيان لذلك ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ الاستعداديُّ ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ إشارةٌ إلى تنزيهه تعالى، والتنزيهُ في الأُولى عن الشرك في الأفعال بالبراءة عن حَوْلِهم وقوتهم، وفي الثانية عن الشرك في الصفات بالانسلاخ عن صفاتهم، وفي الثالثة عن الشرك في الوجود بفنائهم.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ﴾ أي تحيةُ بعضِهم لبعض، أو تحيةُ اللهِ تعالى ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي: إفاضةُ أنوارِ التزكية وإمدادُ التصفية، أو إشراقُ أنوارِ التجلِّيات وإمدادُ التجريدِ وإزالة الآفات ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: آخِرُ ما يقتضيه استعدادُهم قيامُهم بالله تعالى في ظهور كمالاته وصفاتِ جلاله وجماله عليهم، وهو الحمدُ الحقيقيُّ منه وله سبحانه.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ أي: استَغْرقَ أوقاتَه في الدعاء ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾هذا وَصْفُ الذين لم يدركوا حقائقَ العبوديةِ في مَشَاهِدِ الربوبية، فإنَّهم إذا أَظلمَ عليهم ليلُ البلاء قاموا إلى إيقاد مصباح التضرُّع، فإذا انْجلَتْ عنهم الغَياهِبُ بسطوع أنوار فَجْرِ الفَرَجِ، نسُوا ما كانوا فيه، ومرُّوا كأنْ لم يَدْعوا مولاهم إلى كشفِ ما عنَّاهم:

كأنَّ الفتى لم يَعْرَ يوماً إذا اكْتَسَى ولم يَكُ صُعلوكاً إذا ما تموَّلا[2]

---

(١) البيت بهذه الرواية في لطائف الإشارات ٢/ ٨٠، وهو في البيان والتبيين ٢/ ١٨٧ برواية: هو الشمس... وهذا الفتى الجرمي ليس يغيب.

(٢) البيت لجابر بن ثعلب الطائي، كما في الكامل للمبرد ٢/ ٦٤٤، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٣٠٥.

ولو كانوا عارفين لم يَبرَحوا دارةَ التضرُّع وإظهارِ العبودية بين يديه تعالى في كلِّ حينٍ.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على الفطرة التي فطَرَ اللهُ الناسَ عليها، متوجِّهين إلى التوحيد، متنوِّرين بنور الهداية الأصلية ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟﴾ بمقتضيات النشأة، واختلافِ الأَمْزِجةِ والأهويةِ والعاداتِ والمخالَطاتِ.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو قضاؤه سبحانه الأزليُّ بتقدير الآجال والأرزاق ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بإهلاك المبطِل وإبقاء المحقِّ، والمرادُ أنَّ حكمة الله تعالى اقتضَت أنْ يبلغ كلٌّ منهم وجهتَه التي ولَّى وَجْهَهُ إليها بأعماله التي يُزاولها هو وإظهار ما خفي في نفسه، وسبحان الحكيم العليم.

❁ ❁ ❁

﴿وَيَقُولُونَ﴾ حكايةٌ لجنايةٍ أُخرَى لهم، وفي «الكشاف» تفسيرُ المضارع بالماضي، أي: وقالوا[1]، وجُعِلَ ذلك إشارةً إلى أنَّ العَطْفَ ليس على «ويقولون هَؤلاءِ شُفَعَاؤُنا» كما يقتضيه ظاهرُ اللفظ، وإنَّما هو على قوله سبحانه: (قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ) وما بينهما اعتراضٌ، وأُوثِرَ المضارع على الماضي ليؤذنَ باستمرار هذه المقالةِ، وأنَّها من دَأْبهم وعادتهم، مع ما في ذلك من استحضار صورته الشنيعة.

وجوِّز العطف على «يعبدون»، وهو الذي اقتصرَ عليه بعضُ المحقِّقين، وأبقَى بعضُهم الفعلَ على ظاهره، وله وجْهٌ. والقائلُ كفارُ مكة.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أرادوا: آية من الآيات التي اقترحوها، كآيةِ موسى وعيسى عليهما السلام، ومعنى إنزالها عليه: إظهارُ اللهِ تعالى لها على يده ﷺ، وطلبوا ذلك تعنُّتاً وعناداً، وإلا فقد أتَى ﷺ بآياتٍ ظاهرةٍ ومعجزاتٍ باهرةٍ تعلو على جميع الآياتِ، وتفوقُ سائرَ المعجزات لاسيما القرآن العظيم الباقي إعجازه على وجْهِ الدهر إلى يوم القيامة، ولَعمري لو أنصفوا لاستغنَوا عن كلِّ آيةٍ

---

(1) الكشاف ٢/ ٢٣٠.

غيرِه عليه الصلاة والسلام، فإنَّه الآيةُ الكبرَى، ومَن رآه وسبَرَ أحواله لم يَكَدْ يشكُّ في أنَّه رسول الله ﷺ.

﴿فَقُلْ﴾ لهم في الجواب ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ وهو جوابٌ ـ على ما قرَّره الطيبيُّ ـ على الأسلوب الحكيم، فإنَّهم حين طلبوا ما طلبوا مع وجود الآيات المتكاثِرَةِ، دلَّ على أنَّ سؤالهم للتعنُّت كما علمتَ آنفاً، فأُجِيبُوا بما أُجيبوا ليؤذنَ بأنَّ سؤالهم سؤالُ المقترِحِين يستحقُّون به نقمةَ الله تعالى وحلولَ عقابه، يعني: أنَّه لابدَّ أنْ يستأصل شأفتكم لكنْ لا أعلمُ متى يكونُ، وأنتم كذلك؛ لأنَّ ذلك من الغيب وهو مختصٌّ به تعالى لا يعلمه أحدٌ غيرُه جلَّ شأنه، وإذا كان كذلك فانتظروا ما يُوجبه اقتراحُكم إنِّي معكم من المنتظرين إياه.

وقيل: إنَّ المراد أنَّه تعالى هو المختصُّ بعلم الغيب، والصارفُ عن إنزال الآيات المقترَحَة أمرٌ مُغيَّبٌ، فلا يعلمه إلا هو.

واعتُرِضَ عليه بأنَّه معيَّنٌ وهو عنادُهم، قال تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٠٩].

وأُجيب: بأنَّا لا نُسلِّم أنَّ عنادَهم هو الصارف فقد[١] يُجاب المعانِدُ، والآية وإنْ دلَّت على بقائهم على العناد وإنْ جاءت لم تَدلَّ على أنَّ العناد هو الصارف.

واختارَ بعضُ المحقِّقين[٢]: أنَّ ما اقترحتُموه وزعمتُم أنَّه من لوازم النبوَّة، وعلَّقتُم إيمانكم بنزوله، من الغيوب المختصَّة به سبحانه، لا وقوفَ لي عليه «فانتظروا» نزولَه «إنِّي معكم من المنتظرين» لِمَا يفعلُ الله تعالى بكم؛ لاجترائكم على مثل هذه العظيمةِ من جحود الآيات واقتراحِ غيرها. واعتَرض على ما قيل بأنَّه يأباه ترتيبُ الأمر بالانتظار على اختصاص الغيب به تعالى.

والذي يخطر بالبال أنَّ سؤال القوم ـ قاتلهم الله تعالى ـ متضمِّنٌ لدعوَى أنَّ الصلاح في إنزال آيةٍ مما اقترحوه، حيثُ لم يعتبروا ما نَزَل ولم يلتفتوا إليه، فكأنَّهم

(١) في (م): وقد، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/١٦، والكلام منه.
(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٤/١٣٣.

قالوا: لا صلاحَ في نزول ما نَزَل، وإنَّما الصلاحُ في إنزال آيةٍ مما نقترح، فلولا نزلت. وفي ذلك دعوَى الغيب بلا ريبٍ، فأُجيبوا بأنَّ الغيب مختصٌّ بالله، فهو الذي يعلم ما به الصلاحُ لا أنتم ولا غيرُكم. ثم قال سبحانه: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ إلخ على معنى: إذا كان علمُ الغيب مختصاً بالله تعالى وقد ادَّعيتُم من ذلك ما ادعيتُم وطعنتُم فيما طعنتم، فانتظروا نزولَ العذابِ بكم إني معكم من المنتظرين إياه، ولا يَرِدُ على هذا ما أُورد على غيرِه، ولا ما عسى أنْ يُورد أيضاً، فتأمَّل.

﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةً﴾ كالصحة والسعة ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ أي: خالَطتْهم حتى أحسُّوا بسوء أثرها فيهم، وإسنادُ المِسَاس إلى الضرَّاء بعد إسناد الإذاقة إلى ضمير الجلالة من الآداب القرآنية كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ونظائرِه، ويَنبغي التأدُّب في ذلك، ففي الخبر: «اللهمَّ، إنَّ[١] الخيرَ بيَديك والشَّرُّ ليس إليك»[٢].

والمراد بـ «الناس» كفارُ مكة على ما قيل؛ لِمَا رُوِيَ أنَّ الله تعالى سلَّط عليهم القَحْطَ سبع سنين حتى كادوا يهلكون فطلبوا منه ﷺ أنْ يدعوَ لهم بالخصب ووعدوه بالإيمان، فلمَّا دعا لهم ورحمهم الله تعالى بالحيا[٣]، طفقوا يطعنونَ في آياته تعالى، ويُعاندونه عليه الصلاة والسلام ويَكيدونه[٤]، وذلك قولُه سبحانه: ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ أي: بالطعن فيها، وعدم الاعتداد بها، والاحتيالِ في دفعها.

والظاهرُ أنَّ المراد بالآيات الآياتُ القرآنية. وقيل: المراد بها الآيات التكوينية كإنزالِ الحياة، ومكرُهم فيها إضافتُها إلى الأصنام والكواكب.

وقيل: إنَّ «الناس» عامٌّ لجميع الكفار، ولا يجوزُ حَمْلُه على ما يشمل العصاةَ كما لا يخفى.

---

(١) قوله: إن، ليس في الأصل.
(٢) أخرجه أحمد (٨٠٣)، ومسلم (٧٢٩) من حديث علي رضي الله عنه بلفظ: «الخير كلُّه في يديك، والشرُّ ليس إليك».
(٣) أي: بالخصب. القاموس (حيي).
(٤) أخرج نحوه البخاري (٤٨٢١)، ومسلم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

وكانت العربُ تُضيف الأمطار، وكذا الرياح والحرّ والبرد إلى الأنواء، وهو جمعُ[1] نَوْءٍ مصدر ناء يَنوءُ: إذا نهضَ بجُهدٍ ومشقَّةٍ، ويقال ذلك أيضاً إذا سقطَ، فهو من الأضداد، ويُطلَق على النجم الذي هو أحدُ المنازل الثمانية والعشرين التي ذكرناها فيما سبق[2]، وهو المراد في كلامهم، إلا أنَّ الإضافةَ إليه باعتبار سقوطِهِ مع الفجر وغُروبه كما هو المشهور، أو باعتبارِ طلوعه ذلك الوقتَ كما قال الأصمعيُّ.

وقد عُدَّ القائل بتأثير الأنواء كافراً، فقد رَوَى الشيخان وأبو داود والنَّسائي عن زيد بن خالد قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال الله تعالى: أصبحَ مِن عبادي مُؤمنٌ بي وكافرٌ بالكوكبِ، وكافرٌ بي ومُؤمنٌ بالكوكب، فأمَّا مَن قال مُطِرْنا بفَضْلِ الله ورَحْمتِهِ فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب، وأمَّا مَن قال مُطرنا بنَوء كذا وكذا فذلك كافرٌ بي ومؤمن بالكوكب»[3].

ولعلَّ كونَ ذلك من الكفر بالله تعالى مبنيٌّ على زَعْمِ أنَّ للكواكب تأثيراً اختيارياً ذاتيّاً في ذلك، وإلا فاعتقادُ أنَّ التأثير عندها لا بها كما هو المشهور من مذهب الأشاعرة في سائر الأسباب ليس بكفرٍ، كما نصَّ عليه العلَّامةُ ابنُ حَجَر[4].

وكذا اعتقادُ أنَّ التأثير بها على معنى أنَّ الله تعالى أَودَعَ فيها قوَّةً مؤثِّرةً بإذنه، فمتى شاء سبحانه أَثَّرَت ومتى لم يَشأ لم تُؤثِّر، كما هو مذهب السلف في الأسباب على ما قرَّره الشيخ إبراهيم الكورانيُّ في «مسلك السداد»[5].

ولو كان نسبةُ التأثير مطلقاً إلى الأنواء ونحوها من العُلويَّات كُفراً لاتَّسع

---

(١) في (م): جميع.
(٢) ص٣١ من هذا الجزء. وينظر أدب الكاتب ص٨٦-٨٧.
(٣) صحيح البخاري (٨٤٦)، وصحيح مسلم (٧١)، وسنن أبي داود (٣٩٠٦)، وسنن النسائي ٣/ ١٦٥، وهو عند أحمد (١٧٠٦١).
(٤) الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص٢٨٢-٢٨٣.
(٥) مسلك السداد إلى مسألة خلق أفعال العباد، لإبراهيم بن حسن الكوراني الشهرزوري برهان الدين. وله أيضاً: إمداد ذوي الاستعداد لسلوك مسلك السداد. إيضاح المكنون ٢/ ٤٨٠، وهدية العارفين ١/ ٣٥-٣٦.

الخرقُ، ولَزِمَ إكفارُ كثيرٍ من الناس حتى أفاضِلِهِم، لقولهم بنسبة الكثير من عالَم الكون والفساد إلى العلويات، ويُسمُّونها بالآباء العلويَّةِ.

وقد صرَّح الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه بأنَّ للكواكب السيارات وغيرِها تأثيراً في هذا العالم، إلا أنَّ الوقوفَ على تعيين جزئيَّاته مما لا يطَّلع عليه إلا أربابُ الكشوف(١) والأرصاد القلبية.

وليس مرادُه قُدِّس سرُّه ـ وكذا مرادُ مَن أطلق التأثيرَ ـ إلا ما ذَهَب إليه أحدُ الفريقَين في الأسباب، وحاشا ثم حاشا أنْ يكون أولئك الأفاضلُ ممن يعتقدُ أنَّ في الوجود مؤثِّراً غيرَ الله تعالى.

بل مَن وقف على حقيقة كلامِ الحكماءِ الذين هم بمعزلٍ عن الشريعة الغرَّاء وجَدَهم متَّفقين على أنَّ الوجودَ معلولٌ له تعالى على الإطلاق؛ قال بهمنيار(٢) في «التحصيل»: فإنْ سئلت الحق فلا يصحُّ أنْ يكونَ علةَ الوجودِ إلا ما هو بريءٌ مِن كلِّ وجْهٍ من معنى ما بالقوة، وهذا هو المبدأ الأول لا غير.

وما نُقل عن أفلاطون مِن قوله: إنَّ العالَم كرةٌ، والأرضَ مركزٌ، والإنسانَ هدفٌ، والأفلاكَ قِسِيٌّ والحوادث سهامٌ، واللهُ تعالى هو الرامي فأين المفر؟ يُشعر بذلك أيضاً.

نعم إنَّهم قالوا بالشرائط العقلية، وهي المرادُ بالوسائط في كلام بعضهم، وهو خلافُ المذهب الحقِّ.

وبالجملة لا يكفر مَن قال: إنَّ الكواكب مؤثِّرةٌ على معنى أنَّ التأثير عندها أو بها بإذن الله تعالى، بل حكمُه حكمُ مَن قال: إنَّ النار محرقةٌ والماء مُرْوٍ مثلاً، ولا فرقَ بين القولَين إلَّا بما عسى أنْ يقال: إنَّ التأثير في نحو النار والماء أمرٌ محسوسٌ مشاهَدٌ، والتأثيرُ في الكواكب ليس كذلك فالقول(٣) به رجمٌ بالغيب، لكنَّ

---

(١) في (م): الكشف.

(٢) بهمنيار بن مرزبان العجمي الأذربيجاني، كان مجوسيّاً ثم أسلم، وهو من أعيان تلامذة ابن سينا، من مصنفاته: التحصيل، والسعادة، توفي سنة (٤٥٨هـ). هدية العارفين ١/ ٢٤٤.

(٣) في (م): والقول.

ذلك بعدَ تسليمه لا يُوجب كونَ أحدِ القولَين كفراً دون الآخر، كما لا يخفَى على المنصف.

ومع هذا، الأحوطُ عدمُ إطلاق نسبة التأثير إلى الكواكب، والتجنُّبُ عن التلفُّظ بنحو ما أَكْفَرَ اللهُ سبحانه المتلفِّظَ به.

هذا «وإذا» الأولَى شرطيةٌ، والثانية فجائيةٌ رابطةٌ للجواب، وتنكيرُ «مكرٌ» للتفخيم، و«في» متعلِّقةٌ بالاستقرار الذي تتعلَّق به اللام.

﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: منكم، فـ «أسرع» أفعلُ تفضيل، وهو مأخوذٌ إمَّا مِن سَرُع الثلاثي كما حكاه الفارسي[1]، أو مِن أَسْرَعَ المزيد، إلَّا أنَّ في أَخْذ أَفْعلَ من المزيد خلافاً، فمنهم مَن مَنَعه مطلقاً، ومنهم مَن جوَّزه مطلقاً، ومنهم مَن قال: إنْ كانت الهمزةُ للتعدية امتنَعَ، وإلا جاز، ومثلُه في ذلك بناءُ التعجُّبِ.

ووَصْفُ المفضَّلِ عليه بالسرعة دلَّ عليه المفاجأةُ، على أنَّ صحة استعمالِ «أسرع» في ذلك لا يتوقَّفُ على دلالة الكلام على ما ذُكِرَ، خِلافاً لما يقتضيه ظاهرُ كلام الزمخشري[2].

وأصلُ المكر: إخفاءُ الكيد والمضرَّة، والمرادُ به: الجزاءُ والعقوبةُ على المكر، مجازاً مرسلاً أو مشاكلةً، وهي لا تُنافيه كما في «شرح المفتاح»، وقد شاع أنَّه لا يستعمل فيه تعالى إلا على سبيل المشاكلة، وليس بذاك كما حُقِّق في موضعه.

﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الحفظةَ مِن قِبَلِنَا على أعمالكم ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: مَكْرَكم، أو: ما تمكرونه، وكيفيةُ كتابة ذلك مما لا يلزمُ العِلْمُ به، ولا حاجةَ إلى جَعْلِ ذلك مجازاً عن العلم. وهذا تحقيقٌ للانتقام منهم، وتنبيهٌ على أنَّ ما دبَّروا في إخفائه غيرُ خافٍ على الكتبة، فضلاً عن مُنْزِل الكتاب الذي لا تخفَى عليه خافيةٌ، وفي ذلك تجهيلٌ لهم كما لا يخفَى.

---

(١) المسائل العضديات لأبي عليٍّ الفارسي ص١٦٢-١٦٣.

(٢) في الكشاف ٢/ ٢٣١، وفيه: ما وصفهم بسرعة المكر فكيف صح قوله: «أسرع مكراً». وأجاب عن ذلك بأنه دل عليه كلمة المفاجأة؛ لأن المعنى: فاجؤوا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه.

والظاهرُ أنَّ الجملةَ ليست داخلةً في الكلام الملقَّن كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] وهي تعليلٌ لأسرعية مَكْرِه سبحانه وتعالى. وجوِّز أنْ تكون داخلةً في ذلك، وفي «إنَّ رسلنا» التفاتاً؛ إذ لو أجري[١] على قوله سبحانه: (قُلِ ٱللَّهُ) لقيل: إنَّ رُسله، فلا إشكالَ فيه من حيث إنَّه لا وجْهَ لأمر الرسول ﷺ بأنْ يقولَ لهم: إنَّ رُسلَنا، إذ الضمير لله تعالى لا له عليه الصلاة والسلام بتقدير مضاف، أي: رُسل ربِّنا، أو بالإضافة لأدنَى ملابسةٍ كما قيل.

وقال بعضُهم في الجواب: إنَّه حكايةُ ما قال الله تعالى، على كون المراد أداءَ هذا المعنى لا بهذه العبارة.

وقرأ الحسن ومجاهد: (يَمْكُرُونَ) على لفظ الغيبة، ورُوي ذلك أيضاً عن نافع ويعقوب[٢]، وفيه الجريُ على ما سبق من قوله سبحانه: (مَسَّتْهُمْ) و(لَهُم) والمناسِبُ الخطابُ كما قرأ الباقون إذا كانت الجملةُ داخلةً في حيِّز القول؛ إذ المعنَى: قل لهم، ومناسبةُ الخطاب حينئذٍ ظاهرةٌ، وفيه أيضاً مبالغةٌ في الإعلام بمكرهم. وجعَلَها بعضُ المحقِّقين على تلك القراءةِ وعدم دخولها في حيِّز القول تعليلاً للأسرعية أو للأمر المذكور.

وصيغةُ الاستقبال في الفعلَين للدلالة على الاستمرار والتجدُّدِ، وكذا في قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ وهو ـ على ما قيل ـ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لبيان جنايةٍ أُخرى لهم، مَبنيةٍ على ما مرَّ آنفاً من اختلاف حالهم بحسب اختلافِ ما يعتريهم من الضرَّاء.

وعن أبي مسلم أنَّه تفسيرٌ لبعض ما أجمل في قوله سبحانه: (وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ) إلخ، وهو قريبٌ مِن قول الإمام أنَّه تعالى لمَّا قال: (وَإِذَآ أَذَقْنَا) الآية وهو كلامٌ كلِّيٌّ، ضَربَ لهم مثلاً بهذا ليتَّضح ويظهر ما هم عليه[٣].

---

(١) في الأصل: جرى.

(٢) في رواية روح عنه، كما في النشر ٢/ ٢٨٢. والمشهور عن نافع: «تمكرون» بالتاء، وقراءة الحسن ومجاهد في القراءات الشاذة ص٥٦، والبحر ٥/ ١٣٦.

(٣) تفسير الرازي ١٧/ ٦٧، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ١٧.

وزَعَمَ بعضُهم أنَّه متَّصلٌ بما تقدَّم من دلائل التوحيد، فكأنَّه قيل: إلٰهُكم الذي جعَل الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً و«هو الذي يُسيِّركم» إلخ.

وأُوِّلَ التسيير بالحمل على السير والتمكينِ منه، والداعي لذلك قيل: عدمُ صحةِ جَعْلِ قولِه سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ غايةً للتسيير في البحر مع أنَّه مقدَّمٌ عليه، وغايةُ الشيءِ لابدَّ أنْ تكون متأخِّرةً عنه. وبَعْدَ التأويل لا إشكالَ في جَعْلِ ما ذُكِر غايةً لِمَا قَبْلَه.

وقيل: هو دفعُ لزوم الجمع بين الحقيقة والمجاز، وذلك لأنَّ المسيِّر في البحر هو الله تعالى، إذ هو سبحانه المحدِثُ لتلك الحركات في الفُلْك بالريح ولا دخلَ للعبد فيه، بل في مقدماته، وأمَّا سيرُ البرِّ فمِنَ الأفعال الاختيارية الصادرة من المخاطَبين أنفسِهم إنْ كانوا مشاةً، أو من دوابِّهم إنْ كانوا رُكباناً، وتَسييرُ الله تعالى فيه إعطاءُ الآلات والأدوات، ولزومُ الجمع عليه ظاهر. ووجْهُ الدفع أنَّ المراد من التسيير ما ذكر، وهو معنًى مجازيٌّ شاملٌ للحقيقة والمجاز.

وادَّعى بعضُهم اتِّحادَ التسيير في البرِّ والبحرِ، واستَدل بالآية على أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ لله تعالى. وتُعقِّب بأنَّه تكلُّفٌ.

والزمخشريُّ[1] لم يؤوِّل التسيير بما ذكرنا، وجعَلَ الغايةَ مضمونَ الجملة الشرطية الواقعةِ بعد «حتى» بما في حيِّزها، كأنَّه قيل: يُسيِّركم حتى إذا وقعَت هذه الحادثةُ وكان كَيْتَ وكيت، من مجيءِ الريح العاصفِ وتراكمُ الأمواج والظنِّ للهلاك والدعاءِ بالإنجاء، دُون الكَوْنِ في البحر.

وتعقَّب ذلك القطبُ: بأنَّه لو جعَلَ الكونَ في الفلك مع ما عطف عليه من قوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ كفى، ولم يَحتَجْ إلى اعتبارِ مجموعِ الشرطِ والجزاء.

ثم قال: والتحقيقُ أنَّ الغاية إنْ فُسِّرت بما ينتهي إليه الشيءُ بالذات ـ فهي ليس إلا ما وقع شرطاً في مثل ذلك وإن فسِّرت بما ينتهي إليه الشيء مطلقاً ـ سواءٌ كان بالذات أو بالواسطة ـ فهي مجموعُ الشرط والجزاء، واستوضح ذلك من

(١) في الكشاف ٢/ ٢٣١.

قولك: مشيتُ حتى إذا بلغتُ البلد اتّجرْتُ. فإنَّ ما انتهى إليه المشيُ بالذات الوصولُ إلى البلد، وأمَّا الاتِّجار فأمرٌ مترتِّبٌ على ذلك، فيكونُ مما انتهَى إليه المشيُ بالواسطة.

والتضعيفُ في «يسيِّر» للتعدية؛ تقول: سارَ الرجلُ وسيَّرتُه. وقال الفارسي: إنَّ سار متعدٍّ كـ: سيَّر؛ لأنَّ العرب تقولُ: سِرْتُ الرجلَ وسيَّرته، بمعنًى، ومنه قولُ الهذَلي:

فلا تَجْزَعَنْ مِن سنَّةٍ أنتَ سِرْتَها فأوَّلُ راضٍ سنَّةً مَن يَسيرُها[1]

وقال في «الصحاح»: سارتِ الدابَّةُ وسارَها صاحبُها، يتعدَّى ولا يتعدَّى، وأنشدَ له هذا البيت[2]. وأوَّلَه النحويُّون حيث لم يَرْتَضوا ذلك.

و«الفُلك»: السفنُ، ومفردُه وجمعُه واحدٌ، وتغايُرُ الحركات بينهما اعتباريٌّ. وفي «الصحاح»[3]: أنَّه واحدٌ وجمعٌ يذكَّرُ ويؤنَّثُ. وكأنَّ ذلك باعتبارِ المركب والسفينة.

وكان سيبويه يقول: الفُلْكُ التي هي جمعٌ تكسيرٌ للفُلْك الذي هو[4] واحدٌ، وليسَتْ مثل الجُنُب الذي هو واحدٌ وجمعٌ، والطفلِ وما أشبههما من الأسماء؛ لأنَّ فَعَلاً وفُعْلاً يشتركان في الشيءِ الواحد مثل: العَرَب والعُرْب، والعَجَم والعُجْم، والرَّهَب والرُّهْب، فحيث جاز أَنْ يُجمع فَعَل على فُعْل مثل: أَسَد وأُسْد، لم يَمتنع أنْ يُجمعَ فُعْل على فُعْل[5].

وضمير «جَرين» لـ «الفلك» وضمير «بهم» لمن فيها، وهو التفاتٌ للمبالغة في تقبيح حالهم، كأنَّه أعرض عن خطابهم وحكَى لغيرهم سوء صنيعهم، وقيل:

---

(١) الحجة للفارسي ٤/ ٢٦٥، والبيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٧، والبحر ٥/ ١٣٨، ورواية الديوان: وأول راضي سنةٍ...، ووقع في الأصل و(م): فلا تجزعي، والمثبت من المصادر.

(٢) الصحاح (سير).

(٣) مادة (فلك).

(٤) في الصحاح: التي هي.

(٥) بنحوه في الكتاب ٣/ ٥٧٧، ونقله المصنف بواسطة الجوهري في الصحاح.

لا التفاتَ، بل معنى قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾: حتى إذا كان بعضُكم فيها؛ إذ الخطابُ للكلِّ، ومنهم المسيَّرون في البر، فالضميرُ الغائبُ عائدٌ إلى ذلك المضاف المقدَّر، كما في قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ﴾ [النور: ٤٠] فإنَّه في تقدير: أو كذي ظلماتٍ يغشاه موجٌ.

والباء الأولى للتعدية، والثانيةُ وكذا الثالثةُ للسببية، فلذا تعلَّق الحرفان بمتعلَّقٍ واحد، وإلا فقد منعوا تعلُّقَ حرفَين بمعنًى بمتعلَّق واحدٍ، واعتبارُ تعلُّق الثاني بعد تعلُّق الأول به وملاحظته معه يُزيل اتِّحاد المتعلَّق.

وجوَّز أنْ تكون الثانيةُ للحال، أي: جرَين بهم مُلْتبِسةً بريحٍ، فتتعلَّق بمحذوفٍ كما في «البحر»[1]، وقد تجعل الأولى للملابَسة أيضاً.

«وفرحوا» عطفٌ على «جَرَيْنَ» وهو عطفٌ على «كنتم»، وقد تُجعل حالاً بتقدير «قد». وضميرُ «بها» للريح، ونقل الطبرسيُّ القولَ برجوعه للفُلْكِ[2]، ولا يكاد يَجري به القلم.

والمراد بـ «طيِّبة» حَسْبَما يقتضيه المقامُ: لينةُ الهبوب مُوَافِقةُ المقصِدِ.

وظاهرُ الآية ـ على ما نُقل عن الإمام ـ يقتضي أنَّ راكب السفينة متحرِّكٌ بحركتها، خلافاً لمن قال: إنَّه ساكنٌ، ولا وجْهَ ـ كما قال بعض المحققين[3] ـ لهذا الخلاف؛ فإنَّه ساكنٌ بالذات سائرٌ بالواسطة.

وقرأ ابنُ عامر: «يَنْشُرُكم» بالنون والشين المعجمة والراء المهملة[4]، من النشر ضدَّ الطي، أي: يُفرِّقُكم ويَبُثُّكم. وقرأ الحسن: «يُنشِرُكم» مِن أَنشَرَ[5] بمعنى أَحيا. وقرأ بعضُ الشاميين: «يُنشِّرُكم» بالتشديد للتكثير[6] من النشر أيضاً.

---

(١) ٥/ ١٣٦.
(٢) مجمع البيان ١١/ ٣٣.
(٣) هو الشهاب في الحاشية ٦/ ١٨، وعنه نقل المصنف قول الإمام.
(٤) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٢، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة.
(٥) القراءات الشاذة ص٥٦، والبحر ٥/ ١٣٧.
(٦) البحر ٥/ ١٣٧.

وعن أمِّ الدرداء أنَّها قرأت: «في الفُلْكِيِّ» بزيادة ياءي النسب[١]، ووُجِّهُ ذلك بأنَّهما زائدتان، كما في الخارجيِّ والأحمريِّ، ولا اختصاصَ لذلك في الصفات؛ لمجيء: دودويّ، و: أنا الصَّلَتَانيُّ، في قول الصَّلَتَان[٢]، ويجوز أنْ يُراد به اللُّجُّ والماءُ الغمرُ الذي لا تجري الفُلْكُ إلَّا فيه.

وقوله سبحانه: ﴿جَآءَتۡهَا﴾ جوابُ «إذا»، والضميرُ المنصوب للفُلْكِ أو للريح الطيبة، على معنى: تلقَّتها واستولَتْ عليها من طرفٍ مخالفٍ لها، فإنَّ الهبوب على وَفْقِها لا يُسمَّى ـ على ما قيل ـ مجيئاً لريح أُخرَى عادةً، بل هو اشتدادٌ للريح الأولى.

ورُجِّحَ الثاني بأنه الأظهرُ لاستلزامه للأول من غير عكسٍ؛ لأنَّ الهبوب على طريقة الريح اللينة يُعدُّ مجيئاً بالنسبة إلى الفلك دون الريح اللينة، مع أنَّه لا يستتبعُ تلاطُمَ الأمواجِ الموجبَ لمجيئها مِن كلِّ مكانٍ، ولأنَّ التهويل في بيان استيلائها على ما فرحوا به وعلَّقوا به حبالَ رجائهم أكثر، وفيه تأمُّل.

﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي: ذاتُ عصفٍ، فهو من باب النسب كـ: لابِنٍ وتامِرٍ، ويَستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث كما صرَّحوا به، فلذا لم يَقُل: عاصفةٌ، مع أنَّ الريح مؤنثةٌ لا تُذكَّر بدون تأويل.

وقيل: لم يقل: عاصفةٌ؛ لأنَّ العصوف مختصٌّ بالريح، فهو كـ: حائض، فلا حاجةَ إلى الفارق، أو أنَّه اعتُبر التذكير في الريح كما اعتُبر فيها التأنيث، والأولَى ما قدَّمناه.

وأصلُ العصف: الكَسْرُ، أو النباتُ[٣] المتكسِّر، والمراد: شديدةُ الهبوب.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ وهو ما علا وارتفع من اضطراب الماء. وقيل: هو اضطرابُ البحرِ. والأول هو المشهور.

---

(١) المحتسب ١/ ٣١٠، والبحر ٥/ ١٣٨.

(٢) واسمه قُثَم بن خَبِيَّة، أحد بني محارب بن عمرو بن وديعة، قال الآمدي: هو شاعر مشهور خبيث. الخزانة ٢/ ١٨١. وهذه قطعة من بيت له في أمالي القالي ٢/ ١٤١، والمحتسب ١/ ٣١١، والبحر ٥/ ١٣٨، والخزانة ٢/ ١٧٦، وتمامه:

أنا الصَّلَتانيُّ الذي قد علمتُمُ ... متى ما يحكَّم فهو بالحقِّ صادح

(٣) في (م): والنبات، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ١٨.

﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي: من أَمكنةِ مجيءِ الموج عادةً، وقد يتَّفق مجيئُه من جهاتٍ حَسْبَ أسبابٍ تَتَّفقُ لذلك.

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أُهلكوا، كما رواه ابنُ المنذر[1] عن ابنِ جُرَيج. ففي الكلام استعارةٌ تبعيةٌ.

وقيل: إنَّ الإحاطة استعارةٌ لسدِّ مسالك الخلاص تشبيهاً له بإحاطة العدوِّ بإنسانٍ، ثم كنى بتلك الاستعارة عن الهلاك لكونها مِن روافدها ولوازمها.

وقيل: إنَّ ذلك مَثَلٌ في الهلاك.

والظنُّ على ما يتبادَرُ منه، وجُوِّز أنْ يكون بمعنى اليقين؛ بناءً على تحقُّق وقوعِه في اعتقادهم، أو كونِ الكناية عن القرب من الهلاك.

﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ جعَلَه غيرُ واحدٍ بدلَ اشتمالٍ من «ظنُّوا»؛ لأنَّ دعاءهم من لوازم ظنِّهم الهلاك، فبينهما ملابَسةٌ تُصحِّحُ البدلية.

وقيل: هو جوابُ ما اشتمل عليه المعنى من معنى الشرط، أي: لمَّا ظنُّوا أنَّهم أُحيط بهم دَعَوُا الله.. إلخ.

وجعله أبو حيان استئنافاً بيانيّاً، كأنَّه قيل: فماذا كان حالهم إذ ذاك؟ فقيل: دَعَوا.. إلخ[2].

ورجِّح القولُ بالبدلِ عليه بأنَّه أَدْخَلُ في اتِّصال الكلام، والدلالةِ على كونه المقصودَ، مع إفادته ما يُستفاد من الاستئناف، مع الاستغناءِ عن تقدير السؤال.

وأنت تعلم أنَّ تقدير السؤال ليس تقديراً حقيقيّاً، بل أمرٌ اعتباريٌّ، وفيه من الإيجاز ما فيه، وليس بأبعدَ مما تُكلِّف للبدلية.

ويُشعر كلامُ بعضهم بجواز كونِهِ جواب الشرط، «وجاءتها» في موضع الحال، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية.

وتُعقِّب بأنَّ الاحتياج إلى الجواب يقتضي صرفَ ما يَصْلُحُ له إليه، لا إلى

---

(١) كما في الدر المنثور ٣/ ٣٠٣.

(٢) البحر ٥/ ١٣٩.

الحال الفضلةِ المفتقرةِ إلى تقدير «قد»، مع أنَّ عطف «وظنُّوا» على «جاءتها» يأبَى الحالية، والفرحُ بالريح الطيبة لا يكونُ حالَ مجيءِ العاصفةِ، والمعنى على تحقُّق المجيءِ لا على تقديره، ليُجعلَ حالاً مقدَّرةً. ولا يخلو عن حُسْنٍ.

والظاهرُ أنَّ ما عدَّه مانعاً من الحالية غيرُ مشتركٍ بينه وبين كونه جوابَ «إذا»؛ لأنَّه يقتضي أنَّهما في زمانٍ واحدٍ، كما لا يخفى على مَن له أدنَى معرفةٍ بأساليب الكلام.

وقوله سبحانه: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ حالٌ من ضمير «دَعَوا»، و«له» متعلِّقٌ بـ «مخلصين»، و«الدِّين» مفعوله، أي: دَعَوه تعالى من غير إشراكٍ لرجوعهم من شدَّة الخوف إلى الفطرة التي جُبل عليها كلُّ أحدٍ من التوحيد، وأنَّه لا متصرِّف إلا الله سبحانه، المركوز في طبائع العالم، وروي ذلك عن ابن عباس، ومن حديثٍ أخرجه أبو داود والنسائي وغيرُهما عن سعد بنِ أبي وقاص قال: لما كان يوم الفتح فرَّ عكرمةُ بن أبي جهل، فركبَ البحر فأصابتهم عاصفٌ، فقال أصحاب السفينة لأهل السفينة: أَخلصُوا، فإنَّ آلهتكم لا تُغني عنكم شيئاً. فقال عكرمةُ: لئن لم يُنجِّني في البحر إلا الإخلاصُ، ما يُنجيني في البرِّ غيرُه، اللهمَّ إنَّ لك [عليَّ] عهداً إنْ أنت عافيتني مما أنا فيه أنْ آتيَ محمداً حتى أضعَ يدي في يده، فلأَجِدَنَّه عَفُوّاً كريماً، قال: فجاء فأسلم(١).

وفي رواية ابن سعد عن [ابن] أبي مُليكة: أنَّ عكرمةَ لمَّا ركبَ السفينةَ وأَخَذَتهمُ الريح فجعلوا يدعون الله تعالى ويُوحِّدونه، قال: ما هذا؟ فقالوا: هذا مكانٌ لا ينفعُ فيه إلا اللهُ تعالى. قال: فهذا إلهُ محمدٍ ﷺ الذي يدعونا إليه، فارجعوا بنا. فرَجَعَ وأسلم(٢).

---

(١) سنن النسائي ٧/ ١٠٦، وهو قطعة من حديث طويل أخرج أبو داود في سننه (٢٦٨٣) بعضه دون هذه القصة، وأخرجه أيضاً الطحاوي في شرح معاني الآثار ٣/ ٣٣٠، وابن عبد البر في التمهيد ٦/ ١٧٥، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) عزاه لابن سعد السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٣، وأخرجه أيضاً الطبراني في الكبير ١٧/ (١٠١٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٥/ ٥: وهو مرسل ورجاله رجال الصحيح. وما سلف بين حاصرتين من المصادر.

وظاهرُ الآيةِ أنَّه ليس المراد تخصيصَ الدعاء فقط به سبحانه، بل تخصيصَ العبادةِ به تعالى أيضاً؛ لأنَّهم بمجرَّد ذلك لا يكونون مُخْلِصينَ له الدِّين، وأيّاً ما كان فالآيةُ دالَّةٌ على أنَّ المشركين لا يَدْعون غيرَه تعالى في تلك الحال.

وأنت خبيرٌ بأنَّ الناس اليومَ إذا اعتراهم أمرٌ خطيرٌ وخطبٌ جسيمٌ في برٍّ أو بحرٍ، دَعَوا مَن لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يَرى ولا يسمع، فمنهم مَن يدعو الخضرَ وإلياس، ومنهم مَن يُنادي أبا الخميس والعباس، ومنهم مَن يستغيثُ بأحدِ الأئمة، ومنهم مَن يَضْرَعُ إلى شيخٍ من مشايخ الأمَّة، ولا تَرَى فيهم أحداً يخصُّ مولاه بتضرُّعه ودُعاه، ولا يكاد يمرُّ له ببالٍ أنَّه لو دعا الله تعالى وحده ينجو مِن هاتيك الأهوال، فباللهِ تعالى عليك قل لي: أيُّ الفريقَين مِن هذه الحيثية أهدَى سبيلاً؟ وأيُّ الداعيَين أقومُ قِيلاً؟ وإلى الله تعالى المشتكَى من زمانٍ عَصَفَتْ فيه ريحُ الجَهَالة، وتَلاطَمَتْ أمواجُ الضلالة، وخُرقَت سفينة الشريعة، واتُّخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة، وتعذَّر على العارفين الأمرُ بالمعروفِ، وحالَتْ دون النهي عن المنكر صنوفُ الحتوف.

هذا وقولُه تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ في محلِّ نصبٍ بقولٍ مقدَّرٍ عند البصريين، وهو حالٌ من الضمير السابق. ومذهبُ الكوفيين إجراءُ الدعاء مجرَى القول لأنَّه من أنواعه وجَعْلُ الجملةِ محكيةً به، والأوَّلُ هو الأَوْلَى هنا.

واللامُ موطِّئةٌ لقسمٍ مقدَّرٍ، و«لنكوننَّ» جوابُه. والمشارُ إليه بـ «هذه» الحالُ التي هم فيها، أي: واللهِ لئن أنجيتَنا مما نحن فيه مِن الشدَّة لنكوننَّ البتةَ بعد ذلك أبداً شاكرينَ لنعمك التي مِن جملتها هذه النعمةُ المسؤولة. والعدولُ عن لنشكرنَّ إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في الدلالة على الثبوت في الشكر والمثابرةِ عليه.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ ممَّا نَزَل بهم من الشدَّة والكربة، والفاءُ للدلالة على سرعة الإجابة ﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: فاجَؤوا الفسادَ فيها وسارَعوا إليه، مُترامين في ذلك مُمعنين فيه، من قولهم: بغَى الجرحُ: إذا تَرامَى في الفساد. وزيادةُ «في الأرض» للدلالة على شمول بَغْيِهم لأقطارها. وصيغةُ المضارع للدلالة على التجدُّد والاستمرار.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تأكيدٌ لِمَا يُفيده البغيُ؛ إذ معناه بغير الحقِّ[1] عندهم أيضاً، بأنْ يكونَ ظلماً ظاهراً لا يخفَى قُبحه على كلِّ أحدٍ، كما قيل نحوُ ذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١].

وقد فسِّر البغيُ بإفساد صورةِ الشيءِ وإتلافِ منفعته، وجُعل «بغير الحق» للاحتراز عما[2] يكونُ من ذلك بحقٍّ، كتخريب الغزاة ديارَ الكفرةِ وقطعِ أشجارِهم وحَرْقِ زروعهم. كما فعلَ ﷺ ببني قريظة[3].

وتُعقِّب بأنَّه مما لا يُساعده النظمُ الكريم؛ لأنَّ البغيَ بالمعنَى الأوَّلِ هو اللائقُ بحالِ المفسدين، فينبغي بناءُ الكلام عليه.

والزمخشريُّ اختار كونَ ذلك للاحتراز عما ذُكر[4]. وذَكر في «الكشف» أنَّه أشار بذلك إلى أنَّ الفساد اللغويَّ: خروجُ الشيءِ من الانتفاع، فلا كلُّ بَغْيٍ - أي: فسادٍ في الأرض واستطالةٍ فيها - كذلك كما علمتَ، وإنْ كان موضوعُه العرفيُّ للاستطالة بغير حقٍّ، لكن النظر إلى موضوعه الأصلي.

وقيل: إنَّ البغيَ الذي يتعدَّى بـ «في» بمعنى الإتلاف والإفساد، وهو يكونُ حقّاً وغيرَه، والذي يتعدَّى بـ «على» بمعنى الظلم، وتقييد الأول بـ «غير الحق» للاحتراز، وتقييد الثاني به للتأكيد، ولعلَّ مَن يجعلُ البغيَ هنا بمعنى الظلم يقول: إنَّ المعنى: يبغون على المسلمين، مثلاً. فافهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ توجيهُ الخطاب إلى أولئك الباغينَ للتشديد في التهديد، والمبالغةِ في الوعيد ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ الذي تتعاطونه، وهو مبتدأٌ خبرُه قولُه سبحانه: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، وإنْ ظُنَّ كذلك.

---

(١) في الأصل: حق، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٣٥، والكلام منه.
(٢) في (م): مما.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٣٢. وأخرج أبو عوانة ٤/ ٩٧ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ حرَّق على بني قريظة والنضير نخلاً لهم. والحديث في الصحيحين لكن دون ذكر قريظة، فقد أخرجه البخاري (٢٣٢٦)، ومسلم (١٧٤٦) عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرَّق نخل بني النضير وقَطَعَ، وهي البويرة.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٢.

وقولُه تعالى: ﴿مَّتَـٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ نصب على أنَّه مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلٍ مقدَّرٍ بطريق الاستئناف، أي: تتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا، والمرادُ من ذلك بيانُ كونِ ما في البغي من المنفعة العاجلة شيئاً غيرَ مُعتدٍّ به، سريعَ الزوال دائمَ الوبال.

وقيل: إنَّه منصوبٌ على أنَّه مصدرٌ واقعٌ موقعَ الحال، أي: متمتِّعين، والعاملُ هو الاستقرارُ الذي في الخبر، ولا يجوز أنْ يكون نفسَ البغي؛ لأنَّه لا يجوز الفصلُ بين المصدر ومعموله بالخبر، وأيضاً لا يُخبر عن المصدر إلا بعد تمام صِلاته ومعمولاته.

وتعقِّب بأنَّه ليس في تقييد كونِ بغيهم على أنفسهم بحالِ تمتُّعهم بالحياة الدنيا معنًى يُعتَدُّ به.

وقيل: على أنَّه ظرفُ زمانٍ كـ: مَقْدمَ الحاجِّ، أي: زمانَ متاعِ الحياة الدنيا، والعاملُ فيه الاستقرارُ أيضاً، وفيه ما في سابقه.

وقيل: على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ دلَّ عليه المصدرُ، أي: تبغون متاعَ الحياة الدنيا.

واعتُرض بأنَّ هذا يستدعي أنْ يكون البغيُ بمعنَى الطلب؛ لأنَّه الذي يتعدَّى بنفسه، والمصدرُ لا يدلُّ عليه. وجَعْلُ المصدرِ أيضاً بمعناه مما يُخلُّ بجزالة النظم الكريم؛ لأنَّ الاستئناف لبيانِ سوء عاقبةِ ما حُكي عنهم من البغي المفسَّر ـ على المختار ـ بالفساد المفرِطِ اللائق بحالهم، وحينئذٍ تنتفي المناسبةُ ويفوتُ الانتظام، وجَعْلُ الأول أيضاً بمعناه مما يجب تنزيهُ ساحة التنزيل عنه.

وقيل: على أنَّه مفعولٌ له، أي: لأَجْلِ متاعِ الحياة الدنيا، والعاملُ فيه الاستقرار. وتُعقِّب بأنَّ المعلَّل بما ذُكر نفسُ البغي لا كونُه على أنفسهم. وقيل: العاملُ فيه فعلٌ مدلولٌ عليه بالمصدر، أي: تبغون لأَجْلِ متاعِ الحياة الدنيا، على أنَّ الجملةَ مستأنَفةٌ.

وقيل: على أنَّه مفعولٌ صريحٌ للمصدر، و«على أنفسكم»[1] متعلِّقٌ به لا خبرٌ لِمَا مرَّ، والمراد بالأنفس الجنس، والخبرُ محذوفٌ لطول الكلام، والتقدير: إنَّما بغيُكم

---

(١) في الأصل و(م): وعليكم، وينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ١٩، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٣٥.

على أبناءِ جِنسكم متاعَ الحياة الدنيا مذمومٌ أو منهيٌّ عنه، أو ضلالٌ، أو ظاهرُ الفساد، أو نحوُ ذلك، وفيه الابتناءُ على أنَّ البغي بمعنَى الطلب، وقد علمتَ ما فيه.

نعم لو جَعَل نصبه على العلَّة، أي: إنَّما بغيُكم على أبناء جنسكم لأَجْلِ متاعِ الحياة الدنيا مذمومٌ ـ كما اختاره بعضُهم ـ لكان له وجهٌ في الجملة، لكنَّ الحقَّ الذي يقتضيه جزالةُ النَّظْم هو الأول.

وقرأ الجمهور: «متاعُ» بالرفع[1]. قال صاحب «المرشد»: وفيه وجهان:

أحدُهما: كونُه الخبر، والظرفُ صلةُ المصدر.

والثاني: كونُه خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ـ أو ذلك ـ متاع.

وزِيْدَ وجْهٌ آخرُ، وهو كونُه خبراً بعدَ خبرٍ لـ «بغيكم».

والمختارُ بل المتعيِّنُ على الوجه الأول كونُ المراد بـ «أنفسكم»: أبناءَ جنسكم أو أمثالَكم على سبيل الاستعارة، والتعبيرُ عنهم بذلك للتشفيق والحثِّ على ترك إيثار التمتُّع المذكور على ما يَنبغي من الحقوق، ولا مانعَ على الوجهين الأخيرَين من الحمل على الحقيقة، كما بيَّن ذلك مولانا شيخُ الإسلام[2].

وقرئ بنصب المتاع والحياة[3]، وخُرِّج نصبُ الأَوَّل على ما مرَّ، ونصب الثاني على أنَّه بدل اشتمالٍ من الأول. وقيل: على أنَّه مفعولٌ به له إذا لم يكن انتصابُه على المصدرية؛ لأنَّ المصدر المؤكِّد لا يعمل.

وذَكَر أبو البقاء[4] أنَّه قرئ بجرِّهما على أنَّ الثاني مضافٌ إليه، والأول نعتٌ للأنفس، أي: ذات متاع، وجوَّز أن يكون المصدرُ بمعنى اسم الفاعل، أي: متمتِّعات[5]، وضَعَّف كونَه بدلاً، إذ قد أَمْكَنَ كونُه صفة.

---

(١) وهي قراءة العشرة إلا عاصماً في رواية حفص. التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٣.
(٢) أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٣٦.
(٣) أي: «متاعاً الحياةَ الدنيا»، وهي في تفسير الطبري ١٢/ ١٤٩، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٣، والبحر ٥/ ١٤٠.
(٤) في الإملاء ٣/ ٢٢٤.
(٥) في الإملاء: ممتعات.

هذا، وفي الآيةِ مِن الزَّجْرِ عن البَغْيِ ما لا يَخْفَى، وقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والخطيبُ والديلميُّ وغيرُهم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ هنَّ رَواجِعُ على أهلها: المكرُ والنكثُ والبغيُ» ثم تلا عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣] ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:١٠][1].

وأخرج البيهقيُّ في «الشعب» عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن ذنبٍ أَجدَرُ أنْ يُعجَّل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم»[2].

وأخرج أيضاً من طريق بلال بنِ أبي بُردة عن أبيه عن جدِّه عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يَبغي على الناس إلا ولدُ بَغِيٍّ أو فيه عرقٌ منه»[3].

وأخرج ابنُ مردويه عن ابن عباس وابن عمر ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: «لو بغَى جبلٌ على جبلٍ لدُكَّ الباغي منهما»[4].

---

(١) أخبار أصبهان ٢/ ٧٠، وتاريخ بغداد ٨/ ٤٤٩-٤٥٠، وعزاه لأبي الشيخ والديلمي السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٣، وهو في الفردوس (٢٤٩٧) بنحوه ولكن من حديث عبد الله بن نفيل. وحديث أنس في إسناده مروان بن صَبيح، قال الذهبي في الميزان ٤/ ٩١: لا أعرفه، وله خبر منكر، ثم ذكر عنه هذا الحديث.
وحديث عبد الله بن نفيل أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (١٣٧٤) من طريق سليمان بن سليم عنه. قال الحافظ في الإصابة ٦/ ٢٣٢: رجاله ثقات، إلا أنه منقطع بين سليمان والصحابي.

(٢) شعب الإيمان (٦٦٧٠) بلفظ: «ما من ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدَّخر له في الآخرة من البغي...» وأخرجه أيضاً أحمد (٢٠٣٩٨)، وأبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وابن ماجه (٤٢١١). قال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) شعب الإيمان (٦٦٧٥) من طريق سهل الأعرابي عن أبي الوليد مولى لقريش عن بلال به، وكذا أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ١٠٢. وسهل قال عنه الذهبي في الميزان: مقلٌّ لا يقبل ما انفرد به. وقال عن أبي الوليد: لا يعرف. الميزان ٢/ ٢٤٢ و٤/ ٨٥.

(٤) الدر المنثور ٣/ ٣٠٤، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٨٨) عن ابن عباس ﷺ موقوفاً. وأخرجه ابن الجوزي في العلل (١٢٩٧) من طريق إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي ذئب عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً. قال ابن الجوزي: هذا حديث باطل عن ابن أبي ذئب، لم يروه غير إسماعيل، وكان يحدث عن الثقات بالبواطيل.

وكان المأمونُ يتمثَّل بهذين البيتَين لأخيه:

يا صاحبَ البغْي إنَّ البغيَ مَصْرَعةٌ فاربع فخيرُ فِعالِ المرء أعدلُه
فلو بغَى جبلٌ يوماً على جبلٍ لاندكَّ منه أعاليه وأسفلُه[1]

وعَقَد ذلك الشهاب فقال:

إنْ يَعْدُ ذو بَغْيٍ عليك فخلِّه وارقُب زماناً لانتقامٍ باغي
واحذَر من البغي الوخيمِ فلو بغَى جبلٌ على جبلٍ لَدُكَّ الباغي[2]

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ عطفٌ على ما مرَّ من الجملة المستأنفة المقدَّرة، كأنَّه قيل: تَتمتَّعون متاعَ الحياة الدنيا ثم ترجعون إلينا، وإنَّما غيَّرَ السبكَ إلى ما في النظم الكريم للدلالة على الثبات والقَصْرِ.

﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝﴾ في الدنيا على الاستمرار من البغي، وهو[3] وعيدٌ وتهديدٌ بالجزاء والعذاب، وقد تقدَّم الكلام في نظيره[4].

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ كلامٌ مستأنَفٌ لبيان شأن الحياة الدنيا، وقِصَر مدَّة التمتُّعِ فيها، وأصلُ المَثَلِ: ما شُبِّه مَضْربُه بمورِدِه، ويُستعار للأمر العجيب المستَغْرَبِ، أي: إنَّما حالُها في سرعةِ تَقَضِّيها وانصرامِ نعيمها بعدَ إقبالها واغترار الناس بها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ أي: فكَثُر بسببه ﴿نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ حتى التفَّ بعضُه ببعضٍ، فالباءُ للسببية، ومنهم مَن أبقاها على المصاحَبةِ وجَعَل الاختلاطَ بالماء نفسِه، فإنَّه كالغذاء للنبات، فيجري فيه ويُخالطه، والأوَّل هو الذي يقتضيه كلامُ ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ﴾ كالبقول والزروع، والحشيش والمراعي، والجارُّ والمجرور في موضع الحال من النبات.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٢، وتفسير الرازي ١٦/ ٧١، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٠، والثاني في بهجة المجالس لابن عبد البر ١/ ٤٠٦.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٢٠.
(٣) في (م): فهو، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٣٦، والكلام منه.
(٤) ١٠/ ٤٧١.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: استوفت واستكملت ﴿زُخۡرُفَهَا﴾ أي: حُسْنَها وبهجَتَها ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ بأصناف النبات[1] وأشكالِها وألوانها المختلفة:

كأذيالِ خَوْدٍ أَقبلَت في غلائلٍ مُصبَّغةٍ والبعضُ أقصرُ مِن بعضِ[2]

وقد ذَكَرَ غيرُ واحدٍ أنَّ في الكلام استعارةً بالكناية، حيث شُبِّهت الأرضُ بالعروس، وحُذف المشبَّه به وأُقيمَ المشبَّه مقامَه، وإثباتُ أَخْذِ الزُّخرفِ لها تخييلٌ، وما بعدَه ترشيحٌ.

وقيل: الزخرفُ الذهب، استُعير للنضارة والمنظر السارِّ.

وأصل «ازَّيَّنت»: تَزَيَّنت، فأُدغِمَتِ التاءُ في الزَّاي وسُكِّنت، فاجتلبَتْ همزة وصلٍ للتوصُّل للابتداء بالساكن، وبالأصل قرأ عبد الله[3].

وقرأ الأعرج والشعبيُّ وأبو العالية ونصرُ بن عاصم والحسن بخلاف: «وأَزْيَنَت» بوزن أَفعلَت كأكْرَمَت[4]، وكان قياسُه أنْ يُعلَّ فيقلَب ياؤه ألفاً فيقال: أَزَانَتْ، لأنَّه المطَّردُ في باب الإفعال المعتلِّ العين، لكنَّه ورَدَ على خلافه كـ: أَغْيَلَت المرأة، إذا سقَت ولَدَها الغيل، وهو لَبَنُ حَمْلها عليه، وقد جاء: أَغالَت على القياس. ومعنى الإفعال[5] هنا الصيرورةُ، أي: صارَت ذاتَ زينة، أو صيَّرَت نفسَها كذلك.

وقرأ أبو عثمان النهديُّ: «ازْيَأَنَّت» بهمزة وَصْلٍ بعدها زايٌ ساكنةٌ وياءٌ مفتوحةٌ وهمزةٌ كذلك ونونٌ مشدَّدةٌ وتاءُ تأنيث[6]، وأصله: ازْيَانَّتْ، بوزن: احْمَارَّت، بألف صريحة، فكرهوا اجتماع ساكنَين، فقلبوا الألف همزةً مفتوحةً كما قرئ:

---

(١) في الأصل: النباتات.

(٢) البيت لسيف الدولة الحمداني، كما في يتيمة الدهر ١/ ٥٣، والنجوم الزاهرة ٤/ ١٧، وشذرات الذهب ٤/ ٢٩٥. والخَوْد: الحسنة الخَلْق الشابة، أو الناعمة. وجمعها: خَوْدات وخُود.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١١٤، والبحر ٥/ ١٤٣.

(٤) المحتسب ٣/ ٣١١، والبحر ٥/ ١٤٣.

(٥) بعدها في (م): هناك.

(٦) القراءات الشاذة ص٩٦، والمحتسب ٣/ ٣١١، والبحر ٥/ ١٤٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٠.

«الضألِّين»، وجاء أيضاً: احمأرَّت، بالهمزة كقوله:

إذا ما الهوادِي بالعبيط احْمَأرَّت[1]

وقرأ عوف بن أبي جميلة: «ازْيانَّت» بألف من غير إبدال[2].

وقرئ: «ازَّايَنَتْ»[3] لقَصْدِ المبالغة.

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي: على الأرض، والمراد: ظنُّوا أنَّهم مُتمكِّنون من منفعتها، محصِّلون لثمرتها، رافعون لغلَّتها.

وقيل: الكناية للزروع[4]. وقيل: للثمرة. وقيل: للزينة؛ لانفهام ذلك من الكلام.

﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ جوابُ «إذا»، أي: نَزَل بها ما قدَّرناه من العذاب، وهو ضَرْبُ زَرْعِها ما يَجْتاحُه من الآفات والعاهات، كالبرد، والجراد، والفأر، والصرصر، والسموم، وغير ذلك.

﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي: في ليلٍ أو نهارٍ، ولعلَّ المراد الإشارةُ إلى أنَّه لا فرقَ في إتيان العذاب بين زَمَن غفلتهم وزَمَن يقظتهم، إذ لا يَمنعُ منه مانعٌ ولا يدفعُ عنه دافعٌ.

﴿فَجَعَلْنَٰهَا﴾ أي: فجعلنا نباتَها ﴿حَصِيدًا﴾ أي: شبيهاً بما حُصِد من أصله،

---

(١) ذكره ابن جني في المحتسب ١/ ٤٧، والخصائص ٣/ ١٢٦ وعزاه لكثير، وفيهما: إذا ما العوالي...، وهو دون نسبة في البحر ٥/ ١٤٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٠. وورد في ديوان كثير ص٢٣٧ ضمن قصيدة في مدح عبد العزيز بن مروان برواية:

وأنت ابنَ ليلى خيرُ قومك مشهداً إذا ما احمأرَّتْ بالعبيط العواملُ

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٤، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٧٨، والبحر ٥/ ١٤٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٠، وعنه نقل المصنف. ووقع في الأصل و(م) وحاشية الشهاب: عوف بن جميل، وهو تصحيف. وعوف بن أبي جميلة هو أبو سهل البصري الحافظ، وثَّقه غير واحد، وفيه تشيع، حدث عن أبي العالية وابن سيرين وغيرهما، وروى عنه شعبة وابن المبارك وغندر، توفي سنة (١٤٦هـ). السير ٦/ ٣٨٣.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥١، والمحرر الوجيز ٣/ ١١٤، والبحر ٥/ ١٤٤.

(٤) في الأصل: للزرع.

والظاهرُ أنَّ هذا من التشبيه لذكر الطرفَين فيه، فإنَّ المحذوف في قوَّة المذكور[(١)].

وجوِّز أنْ يكون هناك استعارةٌ مصرِّحة، والأصل: جعلنا نباتَها هالكاً، فشُبِّه الهالك بالحصيد وأُقيمَ اسمُ المشبَّه به مقامَه، ولا ينافيه تقديرُ المضاف كما تُوهِّم؛ لأنَّه لم يشبّه الزرعَ بالحصيد بل الهالك به.

وذهب السكاكيُّ إلى أنَّ في الكلام استعارةً بالكناية، حيثُ شُبِّهَت الأرضُ المزَخْرَفةُ والمزيَّنةُ بالنبات الناضِرِ المونق الذي وَرَدَ عليه ما يُزيله ويُفنيه، وجُعِلَ الحصيدُ تَخْييلاً[(٢)]. ولا يخفَى بعدُه.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ أي: كأنْ لم يَغْنَ نباتُها، أي: لم يمكُث ولم يَقُم، ف «تَغْنَ» مِن غَني بالمكان: إذا أقامَ ومكَثَ فيه، ومنه قيل للمنزل: مغْنًى. وقد حُذفَ المضافُ في هذا وفيما قبله، فانقلَب الضميرُ المجرورُ منصوباً في أوَّلهما، ومرفوعاً مستتراً في الثاني، واختِيرَ الحَذْفُ للمبالغة، حيث أفادَ ظاهرُ الكلام جَعْلَ الأرضِ نفسِها حصيداً، وكأنَّها نفسَها لم تكن؛ لتغيُّرها بتغيُّر[(٣)] ما فيها، وقد عطَفَ بعضُهم عليهما «عليها» لما أنَّ التقدير فيه: على نباتها، فحذفَ المضاف وجرَّ الضمير بعلَى، وليس بالبعيد خلا أنَّ في كون الحذفِ للمبالغة أيضاً تردُّداً.

وقيل: ضمير «تَغْنَ» وما قبله يعودان على الزرع كما قيل في ضمير «عليها».

وقيل: يعودان على الأرض ولا حَذْفَ، بل يُجعل التجوُّز في الإسناد.

وأنت تعلم أنَّ إرجاع الضمائر كلِّها للأرض ولو مع ارتكاب التجوُّز في الإسناد أولَى من إرجاعها لغيرها كائناً ما كان.

نعم إنَّه لا يُمكن إرجاع الضمير إليها في قراءة الحسن: «يَغْنَ» بالياء التحتية[(٤)]،

---

(١) أي: شبَّه الزرع الهالك بما قطع وحصد من أصله، والجامع بينهما الذهاب من محلِّه. حاشية الشهاب ٥/ ٢٠.

(٢) مفتاح العلوم ص٣٨٨-٣٨٩، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٢١. ووقع في (م): تخيلاً.

(٣) في الأصل: بتغيير.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣١، وهي في المحرر الوجيز ٢/ ١١٥ عن قتادة، وفي البحر ٥/ ١٤٤ عن الحسن وقتادة. ووقع في (م): يغنى.

وجَعْلُ ذلك من قبيل: ولا أرضَ أبْقَلَ إبقالَها[1]، كما ترَى، فينبغي أنْ يَرجع للنبات أو للزرع مثلاً. ومآلُ المعنى: كأنْ لم يكن نابتاً ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ أي: فيما قبلَ إتيانِ أمرنا بزمانٍ قريبٍ، فإنَّ الأمس مَثَلٌ في ذلك.

والجملةُ التشبيهية جُوِّز أن تكون في محلِّ النصب على أنَّها حالٌ، وأنْ تكونَ مستأنفةً لا محلَّ لها من الإعراب جواباً لسؤالٍ مقدَّر.

والممثَّلُ به في الآية ما يُفهم من الكلام ـ وهو زوالُ خُضرةِ النبات فجأةً وذهابُه حطاماً لم يَبْقَ له أثرٌ بعد ما كان غضًّا طريّاً قد التفَّ بعضُه ببعضٍ وازَّينت الأرضُ بألوانه حتى طمع الناس وظنُّوا أنَّه قد سَلِمَ من الجَوَائح ـ لا الماءُ وإنْ دخلته كافُ التشبيه؛ فإنَّه من التشبيه المركَّب، مع اشتمال الكلامِ نفسِه على أمورٍ حقيقيةٍ وأمور مجازيةٍ فيها من اللَّطافة ما لا يخفى.

وعن أبيٍّ أنَّه قرأ: «كأنْ لم تَغْنَ بالأمسِ وما أَهلَكناها إلا بذنوبِ أهلها»[2].

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثْلَ ذلك التفضيلِ البديع ﴿نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي: القرآنية، التي من جملتها هذه الآيةُ الجليلةُ الشأنِ المنبِّهةُ على أحوال الحياةِ الدنيا، أي: نوضِّحها ونبينُها ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ في معانيها، ويقفون على حقائقها، وتخصيصُهم بالذِّكر لأنَّهم المنتفعون.

وجُوِّز أنْ يُراد بالآيات ما ذكر في أثناء التمثيل من الكائنات والفاسدات، وبتفصيلها تصريفُها على الترتيب المحكيِّ إيجاداً وإعداماً، فإنَّها آياتٌ وعلاماتٌ يَستدلُّ بها المتفكِّر فيها على أحوال الحياة الدنيا حالاً ومآلاً. والأولُ هو الظاهر.

وعن أبي مجلز أنَّه قال: كان مكتوباً إلى جَنْبِ هذه الآيةِ فمُحي: «ولو أنَّ لابنِ آدمَ واديَيْن مِن مالٍ لتمنَّى وادياً ثالثاً، ولا يُشبع نفسَ ابنِ آدمَ إلا التراب، ويتوبُ الله على مَن تاب»[3].

---

(١) وصدره: فلا مزنة وَدَقَتْ وَدْقَها، وهو في الكتاب ١/ ٤٦، والخزانة ١/ ٤٥، وسلف ٢/ ٢٣٩.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ١٥٢، والمحرر الوجيز ٢/ ١١٥، والبحر ٥/ ١٤٤.

(٣) جاء في هامش الأصل: أخرجه أبو الشيخ. اهـ. وقد عزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٠٤ لابن المنذر وأبي الشيخ. وقوله: «لو أن لابن آدم واديين...» أخرجه البخاري =

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ ترغيبٌ للناس في الحياة الأخروية الباقية إثْرَ ترغيبهم عن الحياة الدنيوية الفانية، أي: يدعو الناسَ جميعاً إلى الجنة حيث يأمرُهم بما يُفضي إليها، وسُمِّيت الجنة بذلك لسلامةِ أهلها عن كلِّ ألم وآفةٍ، أو لأنَّ الله تعالى يُسلِّم عليهم، أو لأنَّ خَزنَتَها يقولون لهم: سلامٌ عليكم طبتُم، أو لأنَّ بعضَهم يُسلِّم فيها على بعض ـ ف «السلام» إمَّا بمعنى السلامة أو بمعنى التسليم ـ أو لأنَّ السلام من أسمائه تعالى، ومعناه: هو الذي منه وبه السلامةُ، أو ذو السلامة عن جميع النقائص، فأُضيفَت إليه سبحانه للتشريف، كما في بيت الله تعالى للكعبة؛ ولأنَّه لا مُلكَ لغيره جلَّ شأنه فيها ظاهراً وباطناً، وللتنبيه على أنَّ مَن فيها سالمٌ عمَّا مرَّ للنظر إلى معنَى السلامة في أصله، ويدلُّ على قَصْدِه تخصيصُه بالإضافة إليه دونَ غيره من أسمائه تعالى.

﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ هدايتَه ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ مُوْصِلٍ إلى تلك الدار، وهو الدِّينُ الحقُّ.

وفي الآية دلالةٌ على أنَّ الهداية غيرُ الدعوة إلى ذلك، وعلى أنَّ الأمر(١) مغايرٌ للإرادة، حيث عمَّم سبحانه الدعوةَ إذ حَذَف مفعولها، وخصَّ الهداية بالمشيئة المساويةِ للإرادة على المشهور إذ قيَّدها بها، وهو الذي ذَهَب إليه الجماعة.

وقال المعتزلة: إنَّ المراد بالهداية التوفيقُ والألطاف، ومغايرةُ الدعوة والأمرِ لذلك ظاهرةٌ، فإنَّ الكافر مأمورٌ وليس بموفَّق، وإنَّ «من يشاء» هو مَن عَلمَ سبحانه أنَّ اللطفَ يَنفعُ فيه؛ لأنَّ مشيئتَه تعالى شأنُه تابعةٌ للحكمة، فمَن عَلمَ أنَّه لا ينفع فيه اللطفُ لم يُوفِّقه ولم يَلطُف به؛ إذ التوفيق لمن عَلم الله تعالى أنَّه لا ينفعُه عَبثٌ، والحكمةُ منافيةٌ للعبث، فهو جلَّ وعلا يهدي مَن ينفعُه اللطف، وإن أراد اهتداءَ الكلِّ.

= (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩) من حديث ابن عباس ﵄. وأخرج نحوه البخاري أيضاً (٦٤٣٨) من حديث ابن الزبير ﵄، و(٦٤٣٩) من حديث أنس ﵁. ثم أخرج البخاري (٦٤٤٠) من طريق أنس عن أبيٍّ قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ﴾.

(١) قوله: الأمر، مأخوذ من قوله: «يدعو»؛ لأن الدعاء يكون بالأمر. حاشية الشهاب ٥/ ٢١.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي: العملَ، بأنْ فَعَلوا المأمورَ به واجتنبوا المنهيَّ عنه، وفسَّر رسولُ الله ﷺ الإحسانَ بقوله عليه الصلاة والسلام: «أنْ تعبدَ الله تعالى كأنَّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك»[1].

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي: المنزلةُ الحسنَى وهي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي النظرُ إلى وجه ربِّهم الكريمِ جلَّ جلاله، وهو التفسيرُ المأثور عن أبي بكر وعليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابنِ عباسٍ وحذيفةَ وابن مسعود وأبي موسى الأشعريِّ وخَلْقٍ آخرين، ورُوي مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ من طُرقٍ شتَّى، وقد أخرج الطيالسيُّ وأحمدُ ومسلم والترمذيُّ وابن ماجه وابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ، والدارقطنيُّ في «الرؤية»، وابنُ مردويه، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات»، عن صهيب: أنَّ رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا) إلخ فقال: «إذا دخَل أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ نادَى منادٍ: يا أهلَ الجنة إنَّ لكم عند الله تعالى موعداً يُريد أنْ يُنجِزَكموه. فيقولون: وما هو؟ ألَم يُثقِّلْ موازينَنا ويُبيِّضْ وجوهَنا ويُدخلنا الجنة ويُزَحْزحنا عن النار؟ قال: فيكشفُ لهم الحجابَ فَيَنظُرُونَ إليه سبحانه، فوالله ما أَعطاهم الله تعالى شيئاً أحبَّ إليهم من النَّظر إليه، ولا أقرَّ لأعيُنهم»[2].

فحكايةُ هذا التفسير بِقيلَ - كما فَعَل البيضاويُّ عفَا الله تعالى عنه[3] - مما لا ينبغي.

وقولُ الزمخشريِّ عامَلَه الله تعالى بعَدْلِه: إنَّ الحديث مرقوع[4] - بالقاف - أي: مفترًى؛ لا يَصْدُر إلا عن رَقيع، فإنَّه متَّفقٌ على صحته، وقد أخرجه حُفَّاظٌ ليس فيهم ما يقال.

---

(١) قطعة من حديث جبريل الطويل، أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨). وسلف ٢/ ٢٩٥.

(٢) مسند الطيالسي (١٣١٥)، ومسند أحمد (١٨٩٣٥)، وصحيح مسلم (١٨١): (٢٩٨)، وسنن الترمذي (٢٥٥٢)، وسنن ابن ماجه (١٨٧) واللفظ له، وتفسير الطبري ١٢/ ١٦٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٤٥، والتوحيد لابن خزيمة ص١٨٠، وصحيح ابن حبان (٧٤٤١)، والرؤية (١٥٥)، والأسماء والصفات (٦٦٥)، وعزاه لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٥، وعنه نقل المصنف.

(٣) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٢.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٢، وعنه نقل المصنف، وجاء في مطبوع الكشاف: مرفوع.

نعم جاء في تفسير ذلك غيرُ ما ذُكر، لكنْ ليس في هذه الدرجة من الصحة، ولا رُفِعَ فيه صريحاً، فقد أخرج ابن جرير[1] عن مجاهد قال: الزيادةُ المغفرةُ والرضوان.

وأخرَجَ عن الحسن: أنَّها تضعيفُ الحسنةِ بعشر أمثالها إلى سبعِ مئةِ ضِعْفٍ.

وأخرج عن ابن زيد: أنَّها أنْ لا يُحاسبَهم على ما أعطاهم في الدنيا.

وأخرج عن الحكم بنِ عتيبة عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّها غرفةٌ مِن لؤلؤةٍ واحدةٍ لها أربعةُ أبوابٍ. وتعقَّبه ابن الجوزي بأنَّه لا يصحُّ[2].

وقيل: الزيادةُ أنْ تمرَّ السحابةُ بهم فتقول: ما تريدون أن[3] أمطركم؟ فلا يريدون شيئاً إلَّا أمطرتهم.

وجمع بعضُهم بينَ الروايات بأنَّه لا مانعَ من أنْ يَمُنَّ الله تعالى عليهم بكلِّ ما ذُكر، ويَصدُق عليه أنَّه زيادةٌ على ما منَّ به عليهم من الجنة، وأُيِّد ذلك بما أخرجه سعيد بن منصور وابنُ المنذر والبيهقيُّ عن سفيان أنَّه قال: ليس في تفسير القرآن اختلافٌ إنما هو كلامٌ جامعٌ يُراد به هذا وهذا[4].

والذي حَمَل الزمخشريَّ على عدم الاعتماد على الروايات الناطقةِ بِحَمْلِ الزيادة على رؤية الله تعالى زَعْمُه الفاسدُ كأصحابه أنَّ الله تعالى لا يُرى، وقد علمتَ منشأ ذلك الزعمِ، وقد ردَّه أهلُ السنَّة بوجوه.

﴿وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ أي: لا يغشاها غَبَرَةٌ مّا فيها سوادٌ، ولا أثرُ هوانٍ مّا وكسوف بال، والمعنى: لا يَعْرِضُ لهم ما يَعْرِضُ لأهل النار، أو: لا يَعْرِضُ لهم ما يوجب ذلك من الحُزن وسوءِ الحال، والكلامُ على الأول حقيقةٌ

(١) في تفسيره ١٢/ ١٦٢-١٦٤.

(٢) زاد المسير ٤/ ٢٤.

(٣) في الأصل و(م): أنا، والمثبت من تفسير الثعلبي ٥/ ١٣٠، والكشاف ٢/ ٢٣٤، وتفسير الرازي ١٧/ ٧٨، وتفسير القرطبي ١٠/ ٤٨٤.

(٤) سنن سعيد بن منصور (١٠٦١-تفسير)، وعزاه لابن المنذر والبيهقي في الرؤية السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٦.

وعلى الثاني كنايةٌ؛ لأنَّ عدم غشيان ذلك لازمٌ لعدم غشيان ما يوجبهما، فذَكَر اللازمَ لينتقل منه إلى الملزوم، ورُجِّح هذا بأنَّه أَمدحُ، والمقصودُ بيانُ خُلوصِ نعيمهم من شوائب المكاره إثْرَ بيان ما منَّ سبحانه به عليهم من النعيم.

وقيل: إنَّ ذِكْر ذلك لتذكيرهم بما يُنقذهم منه، فإنَّهم إذا ذكروا ذلك زادَ ابتهاجُهم ومسرَّتُهم، كما أنَّ أهل النار إذا ذكروا ما فاتهم من النعيم ازداد غمُّهم وحسرتُهم.

وقيل: الغرضُ إدخالُ السرور عليهم بتذكير حالِ أعدائهم أهلِ النار، فإنَّ الإنسان متى علم أنَّ عدوَّه في الهوان وسوءِ الحال ازداد سروراً، وقد شاهدنا مَن يَكتفي بمضرَّةِ عدوِّه عن حصول المنفعة له، بل مَن يَسرُّه ضررُ عدوِّه وإنْ تضرَّر هو.

وتقديمُ المفعول على الفاعل للاهتمام ببيان أنَّ المَصُونَ من الرَّهَقِ أشرفُ أعضائهم، وللتشويق إلى المؤخَّر؛ ولأنَّ في الفاعل ضربُ تفصيل.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المذكورون باعتبارِ اتِّصافهم بما تقدَّم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ دائمون بلا زوالٍ، ويلزمُ ذلك عدمُ زوالِ نعيمها.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: الشركَ والمعاصيَ، وهو مبتدأٌ بتقدير المضاف خبرُه قولُه سبحانه: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ والباءُ متعلِّقةٌ بـ «جزاء»، وهو مصدرُ المبنيِّ للمفعول، لا اسمٌ للعِوَضِ كما في بعض الأوجُهِ الآتية على ما قيل، أي: جزاء الذين كسبوا السيئات أنْ تُجازَى سيئةٌ واحدةٌ بسيئةٍ مثلِها، على معنى عدمِ الزيادة بمقتضَى العدل، وإلا فلا مانعَ عن العفو بمقتضَى الكرم، لكنَّ ذلك في غير الشركِ.

ويجوزُ أنْ يكون «جزاءُ سيئةٍ بمثلها» جملةً من مبتدأ وخبر، هي خبرُ المبتدأ، وحينئذٍ لا حاجةَ إلى تقدير المضاف، لكنَّ العائد محذوفٌ، أي: جزاءُ سيئة منهم بمِثْلِها، على حدِّ: السَّمنُ مَنَوانِ[1] بدرهمٍ.

وأجاز أبو الفتح أنْ يكون «جزاء» مبتدأً محذوفَ الخبر[2]، أي: لهم جزاءُ سيئةٍ

---

(١) مثنى مَنَا، وهو الكيل، أو الميزان الذي يوزن به. اللسان (منا).

(٢) سر صناعة الإعراب ١/ ١٤٠.

بِمِثْلِها، وحُذف «لهم» لقرينة «للذين أحسنوا»، والجملةُ خبرُ «الذين كسبوا»، وحينئذٍ لا حاجةَ إلى تقدير عائدٍ، كما لا حاجةَ إلى تقدير مضافٍ.

وجَوَّز غيرُ واحدٍ أنْ يكون «للذين» عطفاً على «الذين» المجرورِ الذي هو مع جاره خبرٌ، و«جزاء سيئة» معطوفٌ على «الحسنى» الذي هو المبتدأ، وفي ذلك العطفُ على معمولي عاملَين مختلفَين، وفيه مذاهب: المنعُ مطلقاً وهو مذهبُ سيبويه، والجوازُ مطلقاً وهو مذهبُ الفرَّاء، والتفصيلُ بين أنْ يتقدَّم المجرورُ نحو: في الدار زيدٌ والحجرةِ عمرٌو، فيجوزُ، أوْ لا فيمتنعُ، والمانعون يحملون نحوَ هذا المثالِ على إضمار الجارِّ، ويجعلونه مطَّرداً كقوله:

أكُلَّ امرئٍ تَحسبينَ امْرَأً ونارٍ تَوقَّدُ بالليل ناراً[1]

وقيل: هو مبتدأٌ والخبرُ جملةُ «ما لهم من الله من عاصم» أو «كأنما أُغشيت» أو «أولئك أصحابُ النار» وما في البَيْنِ اعتراضٌ. وفي تعدُّدِ الاعتراض خلافٌ بين النحْويين، و«جزاءُ سيئة» حينئذٍ مبتدأٌ، و«بمثلها» متعلِّقٌ به، والخبر محذوفٌ، أي: واقعٌ، أو «بمثلها»هو الخبر على أنَّ الباء زائدةٌ، أو الجارُّ والمجرورُ في موضع الخبر على أنَّ الباء غيرُ زائدةٍ، والأَوْلَى تقديرُ المتعلَّق خاصّاً ك: مقدَّرٌ، ويصحُّ تقديره عامّاً، والقولُ بأنَّه لا معنى له حاصل وهم ظاهر.

وأيّاً ما كان لا دلالة في الآية على أنَّ الزيادة هي الفَضْلُ دون الرؤية، وقد علمتَ أنَّ تفسيرها بذلك هو المأثورُ عن النبي ﷺ وجملةٍ من السَّلَف الصالح، فلا ينبغي العدولُ عنه لِمَا يتراءى منه خلافُه، لاسيما وقد أتى الإمام[2] وغيرُه بدلائلَ جَمَّةٍ على أنَّ المراد بها ذلك.

ولم يؤتَ بالآيتَين على أسلوبٍ واحدٍ لمراعاة ما بين الفريقَين من كمال التنائي والتبايُن، وإيرادُ الكَسْبِ للإيذان بأنَّ ذلك إنَّما هو بسوء صنيعهم وجنايتهم على أنفسهم.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: هوانٌ عظيم، فالتنوين هنا للتفخيم، على عكس التنوين

---

(١) البيت لأبي دؤاد الإيادي، كما في الكتاب ١/ ٦٦، والأصمعيات ص١٩١.

(٢) في تفسيره ١٧/ ٧٧.

فيما قبلُ كما أشرنا إليه، وفي إسنادِ الرَّهقِ إلى أنفسهم دون وجوههم إيذانٌ بأنَّها محيطةٌ بهم غاشيةٌ لهم.

وقرئ: «يرهقهم» بالياء التحتانية[1] لكون الفاعل ظاهراً وتأنيثه غير حقيقيٍّ. وقيل: التذكير باعتبار أنَّ المراد من الذلة سَبَبُها مجازاً. ولا يُحتاجُ إليه كما لا يخفَى؛ لأنَّ التذكير في مَجازيِّ التأنيث ـ لاسيما المفصول ـ كثيرٌ جدّاً.

والواو على ما قال غيرُ واحدٍ للعطف، وما بعدَه معطوفٌ على «كسبوا». وضعَّفه أبو البقاء بأنَّ المستَقْبَلَ لا يُعطف على الماضي[2]. وأُجيبَ بالمنع. وفي العطفِ هاهنا ما لا يخفَى من المبالغة، حيث أخرجَ نسبة الرَّهق إليهم يومَ القيامة مخرجَ المعلوم، حيث جعلَ ذلك بواسطة العطف صلةَ الموصول.

وقيل: إنَّه عطفٌ على ما قبله بحسب المعنى، كأنَّه قيل: والذين كسبوا السيئات تُجازَى سيئتُهم بمثلها وتَرهقُهم ذلَّةٌ، ولعله أولَى من الأول.

وأمَّا جَعْلُ الواو حاليةً، والجملةُ في موضع الحال من ضمير «كسبوا»، فلا يخفَى حالُه.

﴿مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي: ما لهم أحدٌ يعصمُهم ويمنَعُهم من سخط الله تعالى وعذابه، فـ «مِن» الأولى متعلِّقةٌ بـ «عاصم»، والكلام على حذف مضافٍ، و«مِن» الثانيةُ زائدةٌ لتعميم النفي.

أو: ما لهم مِن جهته وعنده تعالى مَن يعصمُهم كما يكون للمؤمنين، فـ «مِن» الأولى متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من «عاصم».

وقيل: متعلِّقةٌ بالاستقرار المفهوم من الظرف، وليس في الكلام مضافٌ محذوف. و«مِن» الثانية على حالها.

والجملةُ مستأنفةٌ أو حالٌ من ضمير «تَرهَقُهم». وفي نفي العاصم من المبالغة في نفي العصمة ما لا يخفَى.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ١٤٨/٥.
(٢) الإملاء ٢٢٧/٣.

﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: كأنما أُلبِستْ ذلك؛ لِفَرْطِ سوادِها وظُلمتها، والجارُّ والمجرورُ صفةُ «قِطَعاً»، وقولُه سبحانه: ﴿مُظۡلِمًاۚ﴾ حالٌ من «الليل»، والعاملُ فيه متعلَّق الجارِّ والمجرورِ فعلاً كان أو اسماً.

وجوَّز أبو البقاء[1] كونَه حالاً من «قطعاً» أو صفةً له، وكان الواجبُ الجمعُ لأنَّ «قطعاً» جَمْعُ قطعةٍ، إلَّا أنَّه أُفرِدَتْ حالُه أو صفتُه لتأويل ذلك بكثير. ولا يخفى أنَّه تكلُّفٌ مستغنًى عنه.

والظاهرُ أنَّ «مِن» للتبعيض، وقال بعضُ المحققين: للَّيل[2] معنَيان: زمانٌ تخفَى فيه الشمسُ قليلاً أو كثيراً، كما يُقال: دخَلَ الليل، والآن ليلٌ، وما بين غروب الشمس إلى طلوعها أو قربها من الطلوع، فـ «مِن» إمَّا تبعيضيةٌ على الأول، أو بيانية[3] على الثاني.

وجوَّز الزمخشريُّ أنْ يكون العاملُ في الحال «أغشيت» مِن قِبَلِ أنَّ «من الليل» صفةٌ لـ «قطعاً» فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة[4].

قال صاحب «التقريب»: وفيه نظر؛ لأنَّ «من الليل» ليس صلةَ «أُغْشِيَتْ» حتى يكون عاملاً في المجرور، بل التقديرُ أنَّه صفة، فيكون العاملُ فيه الاستقرار، وأيضاً الصفة «من الليل» وذو الحال هو «الليل»، فلا يكونُ «أُغشيَتْ» عاملاً في ذي الحال، مع أنَّه المقصود. وقد يقال: إنَّ «مِن» للتبيين، والتقدير: كائنةً من الليل، فـ «أُغشيت» عاملٌ في الصفة، وهي كائنة، فكأنَّه عاملٌ في «الليل»، وهو مبنيٌّ على أنَّ العاملَ في العامل في الشيء عاملٌ فيه، وهو فاسد. فالوجه أنْ يقال: إنَّ «مِن» للتبعيض، أي: بعضَ الليل، ويكون بدلاً مِن «قطعاً»، ويجعل «مظلماً» حالاً مِن البعض لا من «الليل»، فيكون العاملُ في ذي الحال «أُغشيتْ».

ولا يخفَى أنَّه وجهٌ أَغشَى قطعاً من ليلِ التكلُّف والتعسُّف مظلماً.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٢٢٨.

(٢) في (م): لليل.

(٣) في الأصل و(م): وبيانية، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٢٤.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٤-٢٣٥.

وأجاب الإمام أمينُ الدين(١) بأنَّ نسبةَ «أُغشيت» إلى «قطعاً» إنما هي باعتبارِ ذاتها المبهَمةِ المفسَّرة بالليل، لا باعتبار مفهوم القطع في نفسها، وإنَّما ذُكرَتْ لبيان مقدار ما أُغشيَتْ به وجوهُهم، وهو الليلُ مظلماً، فإفضاء الفعل إلى «قِطَعاً» باعتبارِ ما لا يتم معناها المرادُ إلَّا به كإفضاء الفعل إليه، كما إذا قيل: اشتريتُ أرطالاً من الزيت صافياً، فإنَّ المشتَرَى فيه الزيتُ، والأرطالُ مُبيِّنةٌ لمقدار ما اشتُرِيَ صافياً، فالعاملُ في الحال إنَّما هو العامل اللَّفظيُّ، ولا يُلاحَظ معنى الفعل في الجارِّ والمجرور مِن جهة العمل لغلبة العامل اللفظيِّ عليه بالظهور. ولا يخفَى ما فيه.

وقال في «الكشف»: إنَّ الزمخشريَّ ذهب إلى أنَّ «أُغشيَت» له اتِّصالٌ بقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ مِن قِبَلِ أنَّ الصفة والموصوفَ متَّحدان، لاسيما والقِطَعُ بعضُ الليل، فجاز أنْ يكون عاملاً في الصفة بذلك الاعتبار، وكأنَّه قيل: أُغشيت الليلَ مظلماً، وهذا كما جوِّز في نحو: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا﴾ [الحجر: ٤٧] أنْ يكون حالاً من الضمير باعتبارِ اتِّحاده بالمضاف، وكأنه قيل: ونزعنا ما فيهم(٢) من غلٍّ إخواناً، وكما جوِّز في ﴿مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا﴾ [البقرة: ١٣٥] لأنَّ الملة كالجزء كأنه قيل: اتَّبعوا إبراهيم حنيفاً، وهذا الذي ذهب إليه الزمخشريُّ، وهو سرُّ هذا الموضع، لا ما طوَّله كثيرون، لاسيما حمل «مِن» على التجريد، فإنَّه مع أنَّ المعنى على التبعيض لا البيان ـ وليس كلُّ بيانٍ تجريداً ـ لا يتمُّ مقصودُه. انتهى.

وقد عرَّض في ذلك بشيخه العلامة الطيبي، فإنَّه عليه الرحمة قد تكلَّف ما تكلَّف، والإنصافُ أنَّ ما جوَّزه الزمخشريُّ هنا مما لا ينبغي، والسعيُ في إصلاحه مع وجود الوجه الواضح الذي لا تَرْهَقُه قَتَرةٌ يقربُ مِن أنْ يكون عبثاً.

وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب وسهل: «قِطْعاً» بسكون الطاء(٣)، وهو اسمٌ

---

(١) محمد بن الحسين البخاري الشهير بأمير شاه، نزيل مكة، صنف التعليقة على تفسير البيضاوي وهي إلى سورة الملك، وتوفي قبل تكميلها سنة (٨٧٢هـ). طبقات المفسرين للأدرنه وي ص٣٣٨-٣٣٩، مع الإشارة إلى أنه وقع في غلاف طبقات المفسرين: الأدنه وي، دون الراء، مع أنه ذُكر في صور مخطوط الكتاب أنه من بلدة: أدرنة. فليحقَّق!

(٢) في الأصل و(م): ما في صدورهم، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٢٣.

(٣) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٣، عن ابن كثير والكسائي ويعقوب، ومجمع البيان ١١/ ٣٧ عن سهل.

مفردٌ معناه: طائفة من الليل، أو ظلمة آخره، أو اسمُ جنسٍ لقطعة، وأنشدوا:

افتحي البابَ وانظري في النجوم كم علينا من قِطْعِ ليلٍ بهيم[1]

وعلى هذا يجوز أنْ يكون «مظلماً» صفةً له، أو حالاً منه بلا تكلُّفِ تأويل.

وقرئ: «كأنَّما يَغشَى وجوهَهم قِطْعٌ من الليل مظلمٌ»[2] والكلامُ فيه ظاهرٌ، والجملةُ كالتي قبلها مستأنفةٌ أو حالٌ من ضمير «تَرهَقُهم».

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذكر من الصفات الذميمة ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧﴾ لا يخرجون منها أبداً.

واحتجَّت الوعيدية[3] بهذه الآية على قولهم الفاسد بخلود أهلِ الكبائر.

وأُجيبَ بأنَّ السيئات شاملةٌ للكفر وسائرِ المعاصي، وقد قامت الأدلَّة على أنَّه لا خلودَ لأصحاب المعاصي، فخُصِّصَت[4] الآيةُ بمَن عَدَاهم.

وأيضاً قد يُقال: إنَّهم داخلون في «الذين أحسنوا»، بناءً على ما أخرج ابن جرير وابنُ المنذر وغيرُهما عن ابن عباس، وأبو الشيخ عن قتادةَ، أنَّهم الذين شهدوا أنْ لا إله إلا الله[5]، أي: المؤمنون مطلقاً، فلا يدخلون في القسم الآخر لتنافي الحُكْمَين.

وقيل: إنَّ «أل» في «السيئات» للاستغراق، فالمراد: مَن عَمِلَ جميع ذلك، والقولُ بخلوده في النار مجمَعٌ عليه. وليس بذاك.

﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لبيان بعضٍ آخرَ مِن أحوالهم الفظيعة.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٩٤، والدر المصون ٦/ ١٨٧، واللسان (قطع).

(٢) القراءات الشاذة ص٥٧، وتفسير الطبري ١٢/ ١٦٩، والبحر ٥/ ١٥٠ عن أبيٍّ ﷺ. قال أبو حيان: وقرأ ابن أبي عبلة كذلك إلا أنه فتح الطاء.

(٣) نسبة إلى الوعيد؛ لتمسكهم بظاهر آيات الوعيد والأحاديث الواردة فيه على خلود الفسَّاق في النار، وهي تشمل المعتزلة والخوارج. ينظر حاشية الشهاب ١/ ٢٥٨.

(٤) في الأصل: فخصت، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٢٤، والكلام منه.

(٥) تفسير الطبري ١٢/ ١٦٤، وعزاه لابن المنذر، وكذا خبر قتادة لأبي الشيخ، السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٦.

وتأخيرُه في الذكر مع تقدُّمه في الوجود على بعضِ أحوالهم المحكية سابقاً ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ للإيذان باستقلال كلٍّ مِن السابق واللاحق بالاعتبار، ولو رُوعي الترتيب الخارجيُّ لعُدَّ الكلُّ شيئاً واحداً، ولذلك فُصِلَ عما قبله.

وزعم الطبرسيُّ أنَّه تعالى لمَّا قدَّم ذِكْرَ الجزاء بيَّن بهذا وقتَ ذلك(١)، وعليه فالآيةُ متَّصلةٌ بما ذُكر آنفاً، لكنْ لا يخفَى أنَّ ذلك لم يخرج مخرجَ البيان، وأولَى منه أنْ يقال: وجهُ اتِّصاله بما قبله أنَّ فيه تأكيداً لقوله سبحانه: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ﴾ مِن حيث دلالتُه على عدم نفْع الشركاء لهم.

و«يوم» منصوبٌ بفعلٍ مقدَّرٍ، كـ: ذَكِّرهم وخَوِّفهم، وضمير «نحشرهم» لكِلَا الفريقَين من الذين أحسنوا(٢) والذين كسبوا السيئات؛ لأنَّه المتبادر من قوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾، ومن إفراد الفريقِ الثاني بالذكر في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ أي: للمشركين من بينهم، ولأنَّ توبيخَهم وتهديدَهم على رؤوس الأشهاد أفظعُ، والإخبارُ بحشر الكلِّ في تهويل اليوم أَدْخَلُ، وإلى هذا ذهب القاضي البيضاوي(٣) وغيرُه، وكون المراد(٤) بالفريقَين فريقَي الكفار والمشركين خلافُ الظاهر جداً.

وقيل: الضمير للفريق الثاني خاصَّةً، فيكونُ «الذين أشركوا» مِن وضع الموصول موضع الضمير، والنكتةُ في تخصيص وصْفِ إشراكهم في حيِّز الصلة من بين سائرِ ما اكتسبوه من السيئاتِ ابتناءُ التوبيخ والتقريع عليه، مع ما فيه من الإيذان بكونه معظمَ جناياتهم وعُمدةَ سيئاتهم، وهو السرُّ في الإظهار في مقام الإضمار على القول الأخير.

﴿مَكَانَكُمْ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بفعلٍ حُذف فسَدَّ هو مَسَدَّه، وهو مضافٌ إلى الكاف، والميمُ علامة الجمع، أي: الزموا مكانكم. والمرادُ انتظروا حتى تَنظروا ما يُفعلُ بكم. وعن أبي علي الفارسيِّ أن «مكان» اسمُ فعلٍ، وحركتُه حركةُ بناءٍ. وهل هو

---

(١) مجمع البيان ١١/ ٤١.

(٢) وقع بعدها في الأصل و(م): الحسنى، وهو سهو، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٣٩، والكلام منه.

(٣) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٤.

(٤) في (م): مراده.

اسمُ فعلٍ لِالْـزَمْ أو لاثْبُتْ؟ ظاهرُ كلام بعضِهم الأول، والمنقولُ عن «شرح التسهيل» الثاني؛ لأنَّه على الأول يلزم أَنْ يكون متعدِّياً كـ : الزم، مع أنَّه لازمٌ. وأُجيب بمنعِ اللزوم، وقال السفاقسيُّ: في كلام الجوهريِّ[١] ما يدلُّ على أنَّ «الزم» يكون لازماً ومتعدِّياً[٢]، فلعلَّ ما هو اسمٌ له اللازمُ.

وذكر الكوفيون أنَّه يكون متعدِّياً، وسمعوا من العرب: مكانك زيداً، أي: انتظره.

واختار الدماميني في «شرح التسهيل» عَدَم كونه اسمَ فعلٍ، فقال: لا أدري ما الداعي إلى جَعْلِ هذا الظَّرفِ اسمَ فعلٍ، إمَّا لازماً وإمَّا متعدياً، وهلّا جعلوه ظرفاً على بابه ولم يُخرجوه عن أصله، أي: اثبت مكانك، أو: انتظر مكانك. وإنَّما يَحسُن دعوَى اسمِ الفعل حيث لا يُمكن الجمعُ بين ذلك الاسمِ وذلك الفعل، نحو: صه وعليك وإليك، وأمَّا إذا أمكن فلا، كـ : وراءك وأمامك[٣]. وفيه منعٌ ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿أَنتُمْ﴾ توكيدٌ للضمير المنتقل إلى الظرف من عامله على القول الأوَّل، وللضمير المستتر في اسم الفعل على القول الثاني، وقوله سبحانه: ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطفٌ على ذلك.

وقيل: إنَّ «أنتم» مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، أي: مُهانون أو مَجزيُّون، وهو خلافُ الظاهر مع ما فيه من تفكيك النظم؛ قيل: ولأنَّه يأباه قراءةُ: «وشركاءَكم» بالنصب[٤]، إذ يصيرُ حينئذٍ مثل: كلُّ رجلٍ وضيعته[٥]، ومثلُه لا يصحُّ فيه ذلك لعُدْمِ ما يكون عاملاً فيه، والعاملُ على التوجيه الأول ظاهرٌ لمكان «مكانكم».

---

(١) في الصحاح (لزم).

(٢) في (م): معتدياً، وهو تصحيف.

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٤.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٥، والبحر ٥/ ١٥٢.

(٥) قال أبو حيان في البحر ٥/ ١٥٢: وضيعته بالرفع، ولا يجوز فيه النصب. اهـ. وهو- كما في شرح الألفية لابن عقيل ١/ ٢٥٣ - معطوف على «كل»، والخبر محذوف تقديره: مقترنان، وقيل: هذا كلام تام لا يحتاج إلى خبر؛ لأن المعنى: كلُّ رجل مع ضيعتِه.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ففرَّقنا، وهو مِن زِلْتُ الشيءَ عن مكانه أَزيلُه، أي: أَزَلْتُه، والتضعيفُ للتكثير لا للتعدية، وهو يائيٌّ ووزنُه فعَّل بدليل زايَلَ، وقد قرئ به[(١)]، وهو بمعناه نحو: كلَّمتُه وكالمتُه، و: صَعَّر خدَّه وصاعَرَ خدَّه.

وقال أبو البقاء: إنَّه واويٌّ؛ لأنَّه مِن زال يَزول، وإنَّما قُلبت الواو ياءً لأنَّه فَيْعَلَ[(٢)].

والأول أصحُّ لِمَا علمتَ، ولأنَّ مصدره التَّزييل لا الزيولة، مع أنَّ فعَّل أكثرُ من فَيْعَلَ.

ونصب «بين» على الظرفية لا على أنَّه مفعولٌ به كما تُوُهِّم، والمراد بالتفريق: قطْعُ الأقران والوُصَلِ التي كانت بينهم وبين شركائهم[(٣)] في الدنيا.

وقيل: التفريقُ الجسمانيُّ، وظاهرُ النظم الجليل لا يُساعده.

والعطفُ على «نقول»، وإيثارُ صيغة الماضي للدلالة على التحقُّق؛ لزيادة التوبيخ والتحسير، والفاء للدلالة[(٤)] على وقوع التزييل ومَباديهِ عقيبَ الخطاب من غير مُهْلَةٍ[(٥)]، إيذاناً بكمالِ رَخاوةِ ما بين الفريقَين من العلاقة والوُصْلةِ.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم﴾ عطفٌ على ما قبله، وجوِّز أنْ يكون في موضع الحال بتقدير «قد» أو بدونها على الخلاف، والإضافةُ باعتبارِ أنَّ الكفار هم الذين اتَّخذوهم شركاء لله سبحانه وتعالى.

وقيل: لأنَّهم جعلوا لهم نصيباً من أموالهم، فصيَّروهم شركاء لأنفسهم في ذلك.

والمراد بهؤلاء الشركاء؛ قيل: الأصنام؛ فإنَّ أهل مكة إنَّما كانوا يعبدونها، وهم المعنيُّون بأكثر هذه الآيات، ونسبةُ القول لها غيرُ بعيد من قُدرته سبحانه، فيُنطقُها الله الذي أنطق كلَّ شيءٍ في ذلك الموقف، فتقول لهم: ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا

(١) أي: «فزايلنا»، وهي في معاني القرآن للفراء ١/ ٤٦٢، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٢٥٢.
(٢) الإملاء ٣/ ٢٢٨.
(٣) في (م): الشركاء.
(٤) في (م): الدلالة، وهو تصحيف. والكلام من تفسير أبي السعود ٤/ ١٣٩.
(٥) في (م): مهملة، وهو تصحيف.

﴿تَعْبُدُونَ ٢٨﴾ والمراد من ذلك تَبرِّيهم من عبادتهم وأنَّهم إنَّما عَبدوا في الحقيقة أهواءَهم الداعيةَ لهم، وما أعظمَ هذا مكانَ الشفاعةِ التي كانوا يتوقَّعونها منهم!

وقيل: المراد بهم الملائكةُ والمسيحُ عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠]. وقوله سبحانه: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: ١١٦] الآيةَ، والمرادُ من ذلك القولِ ما أُريدَ منه أولاً أيضاً؛ لأنَّ نَفْيَ العبادة لا يصحُّ لثبوتها في الواقع، والكذبُ لا يقعُ يومَ القيامة[1] ممن كان.

وقيل: إنَّ قول الشركاءِ مُجرًى على حقيقته، بناءً على أنَّ ذلك الموقف موقفُ الدهشة والحيرة، فذلك الكذب يكونُ جارياً مجرَى كذب الصبيان والمجانين المدهوشين.

ويمكن أنْ يقال أيضاً: إنَّهم ما أقاموا لأعمال الكفار وَزْناً، وجعلوها لبطلانها كالعدم، فلذا نفَوا عبادتَهم إياهم.

أو يقال: إنْ المشركين لمَّا تخيَّلوا فيما عبدوه أوصافاً كثيرةً غيرَ موجودةٍ فيه في نفس الأمر، كانوا في الحقيقة إنَّما عبدوا ذواتٍ موصوفةً بتلك الصفاتِ، ولمَّا كانت ذواتُ الشركاء خاليةً عن تلك الصفاتِ صَدَق أنْ يقال: إنَّ المشركين ما عبدوا الشركاء، وهذا أَولَى من الأوَّلَين، بل لا يكاد يُلتفَتُ إليهما.

وكأنَّ حاصل المعنى عليه: إنَّكم عبدتُم مَن زَعمتُم أنه يَقدرُ على الشفاعة لكم وتخليصِكم من العذاب، وأنه موصوفٌ بكَيتَ وكيتَ، فاطلبوه فإنَّا لسنا كذلك.

والمراد من ذلك قَطْعُ عُرَى أطماعهم، وإيقاعُهم في اليأس الكُلِّي من حصول ما كانوا يرجونه ويعتقدونه فيهم، ولعل اليأسَ كان حاصلاً لهم من حين الموتِ والابتلاء بالعذاب، ولكنْ يحصل بما ذُكرَ مرتبةٌ فوق تلك المرتبة.

وقيل: المراد بهم الشياطينُ، وقَطْعُ الوُصَل عليه من الجانبَين لا من جانب العَبَدةِ فقط كما يقتضيه ما قبلُ، والمرادُ من قولهم ذلك على طرز ما تقدَّم.

---

(١) في (م): في القيامة.

وأُورِدَ على القول بأنَّ المراد الملائكةُ والمسيحُ عليهم السلام بأنَّه لا يناسب قوله سبحانه: (مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ) حيث إنَّ المرادَ منه الوعيدُ والتهديدُ، وظاهرُ العطف انصرافُ ذلك إلى الشركاء أيضاً، وتهديدُ أولئك الكرام عليهم الصلاة والسلام مما لا يكادُ يُقدَم على القول به.

واعتُرِضَ بأنَّ هذا مشتركُ الإلزام، فإنَّه يَرِدُ على القول الأول أيضاً، إذ لا معنًى للوعيد والتهديد في حقِّ الأصنام مع عدم صدور شيءٍ منها يوجب ذلك، ولا مخلِّص إلا بالتزامِ أنَّ التهديد والوعيدَ للمخاطبين فقط، أو للمجموع باعتبارهم.

وأُجيبَ بجواز كونِ تهديدِ الأصنامِ نظيرَ إدخالها النارَ مع عَبَدتِها كما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]. وكذا قولُه سبحانه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] على ما عليه جمعٌ من المفسرين، ودعوى الفرق بينَ التهديد والإدخال في النار تحتاجُ إلى دليل.

نعم قالوا: يجبُ على القول بأنَّ المراد الملائكةُ عليهم السلام أنْ تُحملَ الغفلةُ في قوله سبحانه: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ على عدم الارتضاءِ لا على عدم الشعور؛ لأنَّ عدم شعورِ الملائكة بعبادتهم غيرُ ظاهرٍ، بل لو قيل بوجوب هذا الحمل على القول بأنَّ المراد المسيحُ عليه السلام أيضاً لم يَبعُد؛ لأنَّ عدم شعوره بعبادتهم مع أنَّه سينزل ويكسرُ الصليب كذلك، ولا يكاد يصحُّ الحمل على الظاهر إلا إذا كان المراد الأصنام، فإنَّ عدم شعورهم بذلك ظاهر.

وتُعقِّب بأنَّه لا دليلَ على شعور الملائكة عليهم السلام بعبادتهم ليُصْرَفَ له اللفظ عن حقيقته، وليس هؤلاء المعبودون هم الحفظةُ أو الكتبةُ بل ملائكةٌ آخرون، ولعلهم مُشغَلون بأداء ما أُمروا به عن الالتفات إلى ما في هذا العالَم، ونحن لا ندَّعي في الملائكة عليهم السلام ما يدَّعيه الفلاسفة، فإنَّهم الذين قالوا يومَ استُنبئوا عن الأسماء: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢] وهذا جبريل

عليه السلام من أجلِّهم قَدْراً كان كثيراً ما يسألُه رسول الله ﷺ عن أشياءَ فيقول: لا أعلم وسوف أسألُ ربي[1].

وكذا لا دليلَ على شعور المسيح عليه السلام بعبادة هؤلاء المخاطَبين عند إيقاعها، وكونُه سينزلُ ويَكسرُ الصليبَ لا يستدعي الشعورَ بها كذلك كما لا يخفَى، وقد يُستأنَس لعدم شعورِه بما حكَى الله تعالى عنه في الجواب عن سؤاله له عليه السلام من قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

واعتُرِض على القول الأخير بأنَّه لا يصحُّ مع هذا القولِ مطلقاً؛ لأنَّ الشياطين هم الذين زَيَّنوا لهم هذه الشنيعة الشنعاء وأغروهم عليها، فكيف يتأتَّى القولُ بأنَّهم غافلون حقيقةً عنها، أو أنَّهم غيرُ مُرتَضين لها؟!

ولعل مَن ذهب إلى ذلك يلتزم الكذب ويقول بجواز وقوعه يوم القيامة.

وقيل: إنَّ القول الأول لا يصحُّ مع هذا القول أيضاً مطلقاً؛ لأنَّ الأوثان لا تَتَّصفُ بالغفلة حقيقةً؛ لأنَّها كما يفهم من «القاموس» اسمٌ لتَرْكِ الشيءِ وذهابِ القَلْبِ عنه إلى غيره[2]، وهذا شأنُ ذوي القلوب، والأوثانُ ليسَت من ذلك. وكذا لا تتَّصف بها مجازاً عن عدم الارتضاء؛ إذ الظاهرُ أنَّ مرادهم من عَدَمِ الارْتِضاءِ السخطُ والكراهةُ، وظاهرٌ أنَّ الأوثان لا تتَّصف بسخطٍ ولا ارتضاء، إذ هما تابعان للإدراك ولا إدراكَ لها، ومَن أثبتَه للجمادات حسب عالمها فالأمرُ عنده سهلٌ، ومَن لا يثبته يقول: إنَّها مجازٌ عن عدم الشعور.

وقد يقال: إنَّ المراد بغفلتهم عن عبادة المشركين عدمُ طلبهم الاستعداديِّ لها، ويرجع ذلك بالآخرة إلى نفي استحقاقِ العبادة عن أنفسهم، وإثباتِ الظلم لعابديهم. وحينئذٍ فالأظهرُ أنْ يُراد بالشركاء جميعُ ما عُبد مِن دون الله تعالى مِن ذَوي العقول وغيرهم، والكلُّ صادقٌ في قوله ذلك.

---

(١) ينظر حديث جبير بن مطعم عند أحمد (١٦٧٤٤).

(٢) ينظر القاموس (غفل) و(سهو).

وقد يُراد من عدم الطلب ما يشملُ عَدَمَ الطلب الحاليِّ والقالي، إذا اعتُبر كونُ القائل ممن يصحُّ نسبةُ ذلك له، كالملائكة عليهم السلام، وهذا الوجهُ لا يتوقَّف على شعور الشركاء بعبادتهم ولا على عدمه، فيجوز أنْ يكون لهم شعورٌ بذلك، ويجوزُ أنْ لا يكون لهم شعورٌ.

والظاهرُ أنَّ تفسير الغَفْلةِ بعدم الارْتِضاءِ المرادِ منهم[١] - على ما قيل - السخط والكراهة يستدعي الشعور، إذ كراهةُ شيءٍ[٢] مع عدم الشعور به مما لا يكادُ يعقل، وإثباتُه لجميع الشركاء ولو إجمالاً في وقتٍ من الأوقات الدنيوية غيرُ مسلَّم. ولعل التعبير بالغفلة أكثرُ تهجيناً للمخاطَبين ولعبادتهم من التعبير بعدم الطلب مثلاً، فتأمل.

والباء في «بالله» صلةٌ و«شهيداً» تمييزٌ، و«إنْ» مخفَّفةٌ من «إنَّ» واللامُ هي الفارقةُ بين المخفَّفة والنافية، والظرفُ متعلِّقٌ بـ «غافلين»، والتقديمُ لرعاية الفاصلة، أي: كَفَى اللهُ شهيداً فإنَّه العليمُ الخبير المطَّلع على كنهِ الحال، إنَّا كنَّا غافلينَ عن عبادتكم. والظاهرُ من كلام بعض المحققين أنَّ «فكفَى» إلخ استشهادٌ على النفي السابق، لا على الإثبات اللاحق.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك المقام الدَّحضِ[٣] والمكانِ الدَّهشِ، وهو مقامُ الحشر، فـ «هنالك» باقٍ على أصله وهو الظرفيةُ المكانية. وقيل: إنَّه استُعمل ظرفَ زمانٍ مجازاً، أي: في ذلك الوقت.

﴿تَبْلُوا۟﴾أي: تختبر ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ مؤمنةً كانت أو كافرةً ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ من العمل، فتُعاين نَفْعَه وضُرَّه أتمَّ معاينةٍ.

وقرأ حمزة والكسائي: «تتلو»[٤] من التلاوة بمعنى القراءة، والمراد قراءةُ صحفِ ما أسلفَت. وقيل: إنَّ ذلك كنايةٌ عن ظهور الأعمال.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: منه.

(٢) في (م): الشيء.

(٣) أي: الزَّلِق. القاموس (دحض).

(٤) التيسير ص١٢١، والنشر ٢/ ٢٨٧، وهي قراءة خلف من العشرة.

وجُوِّز أنْ يكون من التلوِّ على معنى أنَّ العمل يتجسَّم ويظهر، فيتبعه صاحبُه حتى يَرِدَ به الجنة أو النار، أو هو تمثيلٌ.

وقرأ عاصم في روايةٍ عنه: «نبلو» بالباء الموحَّدة والنون ونَصْبِ «كلَّ»[1] على أنَّ فاعل «نبلو» ضميرُه تعالى، و«كلَّ» مفعوله و«ما» بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ، والكلامُ استعارةٌ تمثيلية، أي: هنالك نُعامل كلَّ نفسٍ معاملةَ مَن يبلوها ويتعرَّفُ أحوالها من السعادة والشقاوة، باختبارِ ما أسلفَت من العمل.

ويجوز أنْ يُراد: نُصيب بالبلاء ـ أي: العذاب ـ كلَّ نفسٍ عاصيةٍ بسبب ما أسلَفَت من الشرِّ، فتكون «ما» منصوبةً بنَزْعِ الخافض وهو الباءُ السببية.

﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عطفٌ على «زيَّلنا»، والضميرُ لـ «الذين أشركوا»، وما في البين اعتراضٌ في أثناء الحكاية مقرِّرٌ لمضمونها، والمعنى: رُدُّوا إلى جزائه وعقابه، أو إلى موضع ذلك، فالردُّ إمَّا معنويٌّ أو حسيٌّ.

وقال الإمام: المعنى: جُعِلُوا مُلْجَئِينَ إلى الإقرار بألوهيته سبحانه وتعالى[2].

﴿مَوْلَىٰهُمُ﴾ أي: ربِّهم ﴿ٱلْحَقِّ﴾ أي: المتحقِّقِ الصادقِ في[3] ربوبيته لا ما اتَّخذوه ربّاً باطلاً.

وقرئ: «الحقَّ» بالنصب[4] على المدح، والمرادُ به اللهُ تعالى وهو من أسمائه سبحانه، أو على المصدر المؤكِّد، والمرادُ به ما يُقابِل الباطل.

ولا منافاةَ بين هذه الآية وقولِه سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ١١] لاختلافِ معنَى المولى فيهما.

وأخرج أبو الشيخ[5] عن السدِّي أنَّ الأُولَى منسوخةٌ بالثانية، ولا يخفَى ما فيه.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٣٥، والبحر ٥/ ١٥٣. وهو خلاف المشهور عن عاصم.
(٢) تفسير الرازي ١٧/ ٨٥.
(٣) قوله: في، ليس في الأصل.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٥، والبحر ٥/ ١٥٣.
(٥) كما في الدر المنثور ٣/ ٣٠٧.

﴿وَضَلَّ﴾ أي: ضاع وذهب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ۝٣٠﴾ من أنَّ آلهتهم تشفعُ لهم، أو ما كانوا يدَّعون أنَّها شركاءُ لله عزَّ وجلَّ. و«ما» يحتملُ أنْ تكون موصولةً وأنْ تكون مصدريةً. والجملةُ معطوفةٌ على قوله سبحانه: (وَرُدُّوٓا۟).

ومن الناس مَن جَعَلَها عَطْفاً على «زيَّلنا»، وجملةُ «ردُّوا» معطوفةٌ على جملة «تبلو» إلخ داخلةٌ في الاعتراض، وضميرُ الجمعِ للنفوس المدلول عليها بـ «كل نفس»، والعدولُ إلى الماضي للدلالة على التحقُّق والتقرُّر، وإيثارُ صيغةِ الجمع للإيذان بأنَّ ردَّهم إليه سبحانه يكونُ على طريق الاجتماع.

وما ذكرناه أَولَى لفظاً ومعنًى.

وتعقَّبَ شيخُ الإسلام جعْلَ الضمير للنفوس وعَطْفَ «رُدُّوا» على «تبلو» إلخ، بأنَّه لا يلائمه التعرُّض لوصفِ الحقِّيَّة في قوله سبحانه: (مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ)؛ فإنَّه للتعريض بالمردودين.

ثم قال: ولئن اكتُفي فيه بالتعريض ببعضهم، أو حَمْلِ «الحق» على معنَى العَدْلِ في الثواب والعقاب، أي: مع تفسير المولى بمتولِّي الأمور، فقولُه سبحانه: (وَضَلَّ) إلخ مما لا مجالَ فيه للتدارُكِ قطعاً، فإنَّ ما فيه من الضمائر الثلاثة للمشركين، فيلزمُ التفكيكُ حتماً، وتخصيصُ «كلَّ نفسٍ» بالنفوس المشركة مع عموم البلوى للكلِّ يأباه مقامُ تهويل المقامِ[1]. انتهى.

والظاهرُ أنَّه اعتَبر عطْفَ «وضلَّ عنهم» إلخ على «ردُّوا» مع رجوعِ ضميرِه للنفوس، وهو غيرُ ما ذكرناه فلا تغفل.

﴿قُلْ﴾ أي: لأولئك المشركين الذين حُكيَتْ أحوالهم، وبُيِّن ما يؤدِّي إليه أفعالُهم التي هي أفعى لهم، احتجاجاً على حقِّيَّة التوحيد وبطلانِ ما هم عليه من الإشراك:

﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: منهما جميعاً؛ فإنَّ الأرزاق تحصُلُ بأسبابٍ سماوية ـ كالمطر وحرارةِ الشمس المُنْضِجَةِ وغيرِ ذلك ـ وموادَّ أرضيةٍ، والأُولَى بمنزلة

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ١٤١.

الفاعل، والثانيةُ بمنزلةِ القابل. أو مِن كلٍّ واحدٍ منهما بالاستقلال ـ كالأمطار والمنِّ والأغذيةِ الأرضية ـ تَوْسعةً عليكم[١]. فـ «مِن» على هذا لابتداء الغاية.

وقيل: هي لبيان «مَن» على تقدير المضاف، وقيل: تبعيضية على ذلك التقدير، أي: مِن أهل السماء والأرض.

﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ «أم» منقطعة بمعنى: بل، والإضرابُ انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ وفيه تنبيهٌ على كفاية هذا الاستفهام فيما هو المقصود، أي: مَن يستطيع خلْقَهما وتسويَتَهما على هذه الفطرة العجيبة، ومَن وقَفَ على تشريحهما وَقَف على ما يبهر العقول، أو مَن يحفظُهما من الآفات مع كثرتها وسرعةِ انفعالهما عن أدنَى شيءٍ يُصيبهما، أو مَن يتصرَّف بهما إذهاباً وإبقاءً. والملك على كلٍّ مجاز.

قيل: والمعنى الأولُ أوفقُ لنظم الخالقيَّةِ مع الرازقية، كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر:٣].

﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي: ومَن يُنشئُ الحيوان من النطفة مثلاً، والنطفةَ من الحيوان. أو: مَن يُحيي أو يُميتُ، بأنْ يكونَ المرادُ بالإخراج التحصيلَ، من قولهم: الخارجُ كذا، أي: الحاصلُ، أي: مَن يُحصِّل الحيَّ مِن الميت بأنْ يُفيض عليه الحياةَ، ويُحصِّلُ الميتَ من الحي بأنْ يُفيضَ عليه الموت ويسلبَ[٢] عنه الحياة، والمآلُ ما علمتَ.

ومِن الناس مَن فسَّر الحيَّ والميتَ هنا بالمؤمن والكافر. والأول أولَى.

﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: ومَن يَلي تدبيرَ أمرِ العالَم جميعاً، وهو تعميمٌ بعد تخصيصِ ما اندرج تحته مِن الأمور الظاهرة بالذكر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الكلَّ منه سبحانه وإليه، وأنَّه لا يُمكنكم عِلْمُ تفاصيله.

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ بلا تَلَعْثُمٍ ولا تأخيرٍ ﴿ٱللَّهُ﴾ إذ لا مجالَ للمكابرة والعناد في شيءٍ من ذلك؛ لغايةِ وضوحِهِ، والاسمُ الجليلُ مبتدأٌ والخبرُ محذوفٌ، أي: الله يفعلُ ما ذُكر من الأفاعيل لا غيرُه.

---

(١) قوله: توسعة عليكم، تعليل للمعنى الثاني، ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٢٥.

(٢) في الأصل: أو يسلب.

هذا وربما يُستَدل بالآية على تقديرِ أنْ لا تكون «مِن» لابتداء الغاية على جواز أنْ يُقال لله[1] سبحانه: إنه مِن أهل السماء والأرض، وكونُ المراد هناك غيرَ الله تعالى لا يُناسب الجواب، ومَن لم يرَ الجوازَ تعنَّى.

ومَن رآه بناءً على ظواهر الآيات المفيدةِ لكونه تعالى في السماء، وقوله ﷺ في الجارية التي أشارت إلى السماء حين قيل لها: «أين الله؟»: «أعتِقْها فإنَّها مؤمنةٌ»[2]، وإقرارِه حُصيناً حين قال له عليه الصلاة والسلام: «كم تعبدُ يا حُصين؟» فقال: سبعةً، ستةً في الأرض وواحداً[3] في السماء. فقال ﷺ: «فَمَن الذي أعدَدْتَه لرَغْبَتِكَ ورَهْبَتِكَ؟» فقال حُصينٌ: الإلهُ الذي في السماء[4] = أَبقَى الآية على ما يقتضيه ظاهرُها.

وأنت تعلم أنَّه لم يَرِدْ صريحاً كونُه تعالى من أهل السماء والأرض وإنْ ورَدَ كونُه جلَّ وعلا في السماء على المعنَى اللائق بجلاله جلَّ جلاله، فلا أَرَى جوازَ ذلك، ولا داعي لإخراج «مِن» عن ابتداء الغاية ليحتاج إلى العناية في ردِّ الاستدلالِ كما لا يخفَى.

وفي «الانتصاف»: إنَّ هذه الآية كافحةٌ لوجوه القدرية الزاعمين أنَّ الأرزاق مُنقسمةٌ، فمنها ما رزَقَه الله تعالى للعبد وهو الحلالُ، ومنها ما رزَقَه العبدُ لنفسه،

---

(١) في (م): الله.

(٢) أخرجه بهذه السياقة - يعني أنها أشارت إلى السماء - أحمد (٧٩٠٦) من طريق المسعودي، عن عون، عن أخيه عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبي هريرة ﷺ. وفي إسناده المسعودي، وقد اختلط. وأخرجه أحمد (٢٣٧٦٢)، ومسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم مطولاً، وفيه: قال لها رسول الله ﷺ: «أين الله؟» قالت: في السماء. قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال: «أعتقها...».

(٣) في (م): وواحد.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٨٣) من حديث عمران بن حصين ﷺ، وحصين المذكور في الحديث هو والده، وزاد الترمذي قال: «يا حصين، أمَا إنك لو أسلمت علَّمتُك كلمتين تنفعانك» فلما أسلم حصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني. فقال: «قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعذني من شرِّ نفسي». قال الترمذي كما في تحفة الأشراف ٨/ ١٧٥، وتحفة الأحوذي ٩/ ٤٥٥: هذا حديث حسن غريب.

وهو الحرامُ، فهي ناعيةٌ عليهم هذا الشرك الخفيَّ لو سمعوا، ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ٤٢][1].

وكذا ـ فيما قيل ـ تكفح[2] في وجوه أناس يزعُمون أنَّ الذي يُدبِّر الأمرَ في كلِّ عصرٍ قُطْبُه، وهو عمادُ السماء عندهم، ولولاه لوقعَت على الأرض، فكأنِّي بك إذا سألتهم: مَن يُدبِّرُ الأمرَ؟ يقولون: القطبُ.

وقد يُعتذَر عنهم بأنَّ مُرادهم أنَّه المدبِّرُ بإذن الله تعالى. وجاء إطلاقُ المدبِّر بهذا المعنَى على غيره تعالى في قوله سبحانه: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

وربما يقالُ: إنَّه لا فرقَ عندهم بين الله تعالى وبينَ القطب إلا بالاعتبار؛ لأنَّه الذي فاز بقربَى النوافل والفرائض على أتمِّ وجهٍ، فارتفعت الغَيريَّةُ، فالقولُ بأنَّ القطب هو المدبِّر كالقول بأنَّ الله سبحانه هو المدبِّر بلا فَرْقٍ.

واعتُرض هذا بأنَّه ذهابٌ إلى القول بوحدة الوجود، وأكثر المتكلمين وبعضُ الصوفية كالإمام الربانيِّ قدِّس سرُّه[3] ينكرون ذلك.

والأولُ[4] بأنَّه هلَّا قال المشركون في جواب ذلك: الملائكةُ أو عيسى عليهم السلام مثلاً على معنى أنَّهم المدبِّرون للأمر بإذن الله تعالى، فيكون المذكورون عندهم بمنزلة الأقطاب عند أولئك.

وأُجيبَ بأنَّ السؤالَ إنما هو عمَّن ينتهي إليه الأمر، فلا يتسنَّى لهم إلا الجوابُ المذكور، ولعلَّ غيرَ أهل الوحدة لو سئلوا كذلك ما عدلوا في الجواب عنه سبحانه، وأمَّا أهلُ الوحدة قدَّس الله تعالى أسرارَهم فلهم كلماتٌ لا يقولها المشركون، وهي لَعمري فوق طور العقل، ولذا أنكرها أهلُ الظاهر عليهم.

---

(١) الإنصاف ٢/ ٢٣٦.

(٢) في الأصل: تلفح.

(٣) هو أحمد بن عبد الأحد السَّرْهِنْدي الفاروقي النقشبندي الصوفي الحنفي، من مصنفاته: رسالة المبدأ والمعاد، ورسالة ردِّ الشيعة، ورسالة آداب المريدين، ومن إفاداته أنه أوضح الفرق بين وحدة الوجود وبين وحدة الشهود، وكان فقيهاً ماتريدياً حريصاً على اتباع السنَّة، توفي سنة (١٠٣٤هـ). هدية العارفين ١/ ١٥٦، وأبجد العلوم ٣/ ٢٢٥.

(٤) يعني: واعتُرض الأول.

﴿فَقُلْ﴾ لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١﴾ الهمزةُ لإنكار عَدَمِ الاتِّقاء بمعنى إنكار الواقع، كما في قولك: أتَضْرِبُ أباك، لا بمعنى إنكار الوقوع كما في قولك: أأضْرِبُ أبي، والفاء للعطف على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه النظمُ الكريم، أي: أتعلمون ذلك فلا تتَّقون، والخلافُ في مثل هذا التركيب شهيرٌ، وما ذكرناه هو ما عليه البعض.

ومفعولُ «تتَّقون» محذوفٌ، وهو مُتعدٍّ لواحد، أي: أفلا تتقون عذابه الذي [ذكر][1] لكم بما تتعاطونه من إشراككم به سبحانه ما لا يُشاركه في شيءٍ مما ذُكِرَ من خواصِّ الألوهية. وكلامُ القاضي يُوهم أنَّه متعدٍّ إلى مفعولين[2]، وليس بذاك.

﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ فذلكةٌ لما تقرَّر، والإشارةُ إلى المتَّصِفِ بالصفات السابقة حَسْبَما اعترفوا به، وهي مبتدأ والاسمُ الجليل صفةٌ له، و«ربكم» خبرٌ، و«الحقُّ» خبرٌ بعد خبرٍ أو صفةٌ أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، ويجوزُ أنْ يكون الاسمُ الجليلُ هو الخبر، و«ربُّكم» بدلٌ منه أو بيانٌ له، و«الحقُّ» صفةُ الربِّ، أي: مالكُكم ومتولِّي أُمورِكم الثابتُ ربوبيَّتُه والمتحقِّقُ ألوهيتُه تحقُّقاً لا ريبَ فيه.

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ أي: لا يوجَدُ غير الحقِّ شيءٌ يُتَّبع إلا الضلال، فَمَن تخطَّى الحقَّ وهو عبادةُ الله تعالى وحدَه لابدَّ وأنْ يقعَ في الضلال، وهو عبادةُ غيره سبحانه على الانفراد أو الاشتراك؛ لأنَّ عبادة الله جلَّ شأنه مع الإشراك[3] لا يُعتَدُّ بها.

فـ «ما» اسم استفهام و«ذا» موصولٌ، ويجوز أنْ يكونَ الكلُّ اسماً واحداً قد غلب فيه الاستفهام على اسم الإشارة، وهو مبتدأ خبرُه «بعد الحق» على ما في «النهر»[4]، والاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى إنكارِ الوقوع ونفيه، و«بعد» بمعنى «غير»

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٢، والكلام منه.

(٢) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٥، وفيه: أفلا تتقون أنفسَكم عقابَه بإشراككم...، قال الشهاب: لا يخفى أن التقوى لا تتعدى إلا إلى مفعول واحد، فالأولى إسقاط أنفسكم... إلى آخر كلامه.

(٣) في (م): لأن عبادته جل شأنه مع الاشتراك.

(٤) النهر الماد من البحر لأبي حيان على هامش البحر ٥/ ١٥٤.

مجازاً[1]، و«الحق» ما علمتَ، وهو غيرُ الأول ولذا أُظهر، وإطلاقُ «الحق» على عبادته سبحانه، وكذا إطلاقُ «الضلال» على عبادة غيرِه تعالى لِمَا أنَّ المَدَارَ في العبادة الاعتقاد.

وجوِّز أنْ يكون «الحق» عبارةً عن الأول، والإظهارُ لزيادة التقرير، ومراعاةِ كمال المقابلة بينه وبين الضلال، والمرادُ به هو الأصنام، والمعنى: فماذا بعدَ الربِّ الحقِّ[2] الثابتِ ربوبيَّتُه إلا الضلالُ، أي: الباطلُ الضائعُ المضمَحِلُّ، وإنَّما سُمِّي بالمصدر مبالغةً، كأنَّه نفسُ الضلالِ والضياع.

وقيل: المرادُ بالحقِّ والضلالِ ما يعمُّ التوحيدَ وعبادةَ غيرِه سبحانه وغيرَ ذلك، ويدخل ما يقتضيه المقام هنا دخولاً أوليّاً، ويُؤيِّده ما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن أشهب قال: سئل مالكٌ عن شهادة اللعَّابِ بالشطرنج والنَّرد، فقال: أمَّا مَن أدْمَنَ فما أَرَى شهادتَهم طائلةً، يقول الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ فهذا كلُّه مِن الضلال[3].

﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٣٢﴾ أي: فكيف تُصرفون عن الحقِّ إلى الضلال، والاستفهامُ إنكاريٌّ بمعنى إنكارِ الواقع واستبعادِه والتعجيبِ[4] منه، وفيه من المبالغة ما ليس في توجيه الإنكار إلى نفس الفعل، فإنَّه لابدَّ لكلِّ موجودٍ مِن أنْ يكون وجودُه على حالٍ مِن الأحوال، فإذا انتفَى جميعُ أحوالِ وجودِه فقد انتفَى وجودُه على الطريق البرهاني.

والفاءُ لترتيب الإنكار والتعجيبِ[5] على ما قبله، ولعل ذلك الإنكار والتعجيب متوجِّهان في الحقيقة إلى منشأ الصَّرفِ، وإلا فنفسُ الصَّرف منه تعالى على ما هو الحقُّ، فلا معنى لإنكاره والتعجيبِ منه مع كونه فِعْلَه جلَّ شأنُه، وإنما لم يُسْنَدِ الفعلُ إلى الفاعل لعَدَم تعلُّق غرضٍ به.

---

(١) في (م): مجاز.
(٢) في الأصل: الحق الرب.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٥١.
(٤) في (م): التعجب، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٢، والكلام منه.
(٥) في (م): والتعجب، وكذا وقع في سائر المواضع.

وذهب المعتزلة إلى[1] أنَّ فاعلَ الصَّرْفِ نفسِه المشركون، فهم الذين صَرَفُوا أنفسَهم وعَدَلوا بها عن الحقِّ إلى الضلال، بناءً على أنَّ العباد هم الخالقون لأفعالهم، وأمرُ الإنكار والتعجيب عليه ظاهرٌ. وإنما لم يُسند الفعل إلى ضميرهم على جهة الفاعلية إشارةً إلى أنَّه بَلَغ من الشناعة إلى حيث إنَّه لا ينبغي أنْ يُصرَّح بوقوعه منهم فتدبَّر.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كما حقَّت كلمةُ الربوبية للهِ سبحانه وتعالى، أو: كما أنَّه ليس بعد الحقِّ إلا الضلال، أو: كما أنَّهم مصروفون[2] عن الحقِّ ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: حُكْمُه ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ أي: تمرَّدوا في الكفر، وخرجوا إلى أقصى حدوده، والمرادُ بهم أولئك المخاطبون، ووُضِعَ الموصولُ مَوضع ضميرهم للتوصُّل إلى ذمِّهم بعنوان الصِّلة وللإشعار بالعلِّية.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣﴾ بدلٌ من الكلمة بدلَ كلٍّ مِن كلٍّ أو بدلَ اشتمالٍ، بناءً على أنَّ الحُكْم بالمعنى المصدري، أو بمعنى المحكوم به.

وقد تُفسَّر الكلمةُ بالعِدَةِ بالعذاب، فيكونُ هذا في موضع التعليل لحِقِّيتها، أي: لأنَّهم.. إلخ.

واعتُرض بأنَّ محصَّلَ الآية حينئذٍ على ما تقرَّر في «الذين فسقوا» أنَّ كلمة العذاب حقَّت على أولئك المتمرِّدين لتمرُّدهم في كفرهم ولأنَّهم لا يؤمنون، وهو تكرارٌ لا طائلَ تحته.

وأُجيبَ بأنَّه لو سلِّم أنَّ في الآية تكراراً مطلقاً فهو تصريحٌ بما عُلم ضمناً، وفيه دلالةٌ على شرف الإيمان بأنَّ عذابَ المتمرِّدين في الكفر بسبب انتفاء الإيمان.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ احتجاجٌ آخَرُ على حَقِّيَّة التوحيد وبطلانِ الإشراك، ولم يَعْطِفْ إيذاناً باستقلاله في إثبات المطلوب، والسؤالُ للتبكيت والإلزام. وجعلَ سبحانه الإعادة لسطوع البراهين القائمةِ عليها بمنزلة البدْء في إلزامهم، ولم يُبالِ بإنكارهم لها؛ لأنَّهم مُكابِرون فيه والمكابِرُ لا يُلتفتُ إليه،

---

(١) قوله: إلى، ليس في (م).

(٢) في الأصل و(م): مصرفون، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/١٤٣، والكلام منه.

فلا يقال: إنَّ مثلَ هذا الاحتجاج إنما يَتأتَّى على مَن اعترف بأنَّ مِن خواصِّ الإلهية بدءَ الخَلْقِ ثم إعادتَه؛ ليلزم مِن نَفْيه عن الشركاء نفيُ الإلهية، وهم غيرُ مقرِّين بذلك، ففي الآية الإشارةُ إلى أنَّ الإعادة أمرٌ مكشوفٌ ظاهرٌ، بلغ في الظهور والجلاء بحيث يصحُّ أنْ يَثْبُتَ فيه دعوَى أخرى.

وجعَلَ ذلك الطيبيُّ من صنعة الإدماج[1]، كقول ابن نباتة:

فلابدَّ لي من جَهْلةٍ في وصاله فمَن لي بخلٍّ أُوْدِعُ الحِلْمَ عنده[2]

فقد ضمَّن الغَزَل الفخْرَ بكونه حليماً، والفخرَ شكايةَ الإخوان[3].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ قيل: هو أمرٌ له ﷺ بأنْ يُبيِّن لهم مَن يفعلُ ذلك، أي: قل لهم: سبحانه هو يفعلُهما لا غيرُه كائناً ما كان، لا بأنْ ينوب عليه الصلاة والسلام عنهم في الجوابِ كما قاله[4] غيرُ واحد؛ لأنَّ القول[5] المأمورَ به غيرُ ما أُريدَ منهم من الجواب وإنْ كان مستلزماً له، إذ ليس المسؤولُ عنه: مَن يبدأ الخلقَ ثم يُعيده، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾ [الرعد: ١٦] حتى يكونَ القولُ المأمورُ به عينَ الجواب الذي أُريد منهم، ويكونَ ﷺ نائباً عنهم في ذلك، بل إنَّما هو وجودُ مَن يفعلُ البدءَ والإعادةَ مِن شركائهم، فالجوابُ المطلوب منهم: لا، لا غير. نعم أُمِرَ ﷺ بأنَّ يُضمِّنه مقالتَه إيذاناً بتعيُّنه وتحتُّمِه، وإشعاراً بأنَّهم لا يجترئون على التصريح به مخافةَ التبكيت وإلقامِ الحجر لا مكابرةً ولجاجاً. انتهى.

وقد يُقال: المرادُ مِن قوله سبحانه: (هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم) إلخ: هل المُبْدِئُ المُعِيدُ اللهُ أم الشركاء؟ والمراد من قوله سبحانه جلَّ شأنه: (ٱللَّهُ) إلخ: الله يبدأ ويعيدُ لا غيرُه

---

(١) الإدماج: أن يتضمن كلام سيق لمعنى ـ مدحاً كان أو غيرَه ـ معنًى آخر، وهو أعم من الاستتباع؛ لشموله المدح وغيره واختصاصِ الاستتباع بالمدح. التعريفات للجرجاني ص٣٠.

(٢) يتيمة الدهر ٢/ ٤٤٩.

(٣) أي: وضمن الفخرَ شكايةَ الإخوان.

(٤) في الأصل: قال.

(٥) في (م): المقول، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٣، والكلام منه.

من الشركاء، وحينئذٍ ينتظم السؤالُ والجوابُ، وانْفِهامُ الحصر بدلالة الفحوَى، فإنَّك إذا قلت: مَن يَهبُ الألوفَ زيدٌ أم عمرٌو؟ فقيل: زيدٌ يهبُ الألوفِ، أفادَ الحَصْرَ بلا شبهةٍ.

وبما ذُكر يُعلم ما في الكلام السابق في الردِّ على ما قاله الجمع، وكذا ردّ ما قاله القطبُ مِن أنَّ هذا لا يصلح جواباً عن ذلك السؤال؛ لأنَّ السؤال عن الشركاء، وهذا الكلامُ في الله تعالى، بل هو استدلالٌ على إلهيته تعالى وأنه الذي يستحقُّ العبادة بأنَّه المبدئُ المعيدُ، بعد الاستدلال على نفي إلهية الشركاء فتأمَّل.

وإعادةُ[1] الجملة في الجواب بتمامها غير محذوفةِ الخبر كما في الجواب السابق لمزيد التأكيد والتحقيق.

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤﴾ الأَفْكُ: الصَّرفُ والقلبُ عن الشيء؛ يقالُ: أَفَكَه عن الشيء يَأفِكه أَفْكاً: إذا قَلَبه عنه وصَرَفه، ومنه قولُ عروة بنِ أذينة:

إنْ تَكُ عن أحسنِ الصنيعةِ مأ فوكاً ففي آخَرينَ قد أُفِكوا[2]

وقد يخصُّ كما في «القاموس» بالقَلْبِ عن الرأي[3]، ولعله الأنسبُ بالمقام، أي: كيف تُقْلَبون مِن[4] الحق إلى الباطل، والكلامُ فيه كما تقدَّم في «فأنى تُصرَفون».

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ احتجاجٌ آخَرُ على ما ذُكر جيءَ به إلزاماً غِبَّ إلزامٍ، وإفحاماً إثْرَ إفحام. وفصَلَه إيذاناً بفَضْلِه واستقلالِه في إثبات المطلوب كما في سابقه. والمراد: هل مَن يهدي إلى الحقِّ بإعطاء العقل، وبعثةِ الرسل، وإنزالِ الكتب، والتوفيقِ إلى النظر والتدبُّر بما نُصبَ في الآفاق والأنفس، إلى غير ذلك: الله[5] سبحانه أم الشركاء؟!.

(١) في الأصل و(م): وفي إعادة، والمثبت من تفسير أبي السعود.
(٢) إصلاح المنطق ص٢٧، والصحاح (أفك).
(٣) القاموس (أفك).
(٤) في الأصل: عن، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٣.
(٥) في (م): أَالله.

ومنهم مَن يُبقي الكلامَ على ما يتبادرُ منه كما سمعتَ فيما قبل، ومن الناس مَن خصَّص طريقَ الهداية، والتعميمُ أوفقُ بما يقتضيه المقام من كمال التبكيت والإلزامِ، كما لا يخفَى.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ﴾ أي: هو سبحانه يهدي له دون غيره جلَّ شأنه، والكلامُ في الأمر على طرز ما سبق، وفعلُ الهداية يتعدَّى إلى اثنين ثانيهما بواسطة، وهي «إلى» أو اللام، وقد يتعدَّى لهما بنفسه، وهو لغةٌ على ما قيل، كاستعماله قاصراً بمعنى اهتدَى، والمبرِّد أنكر هذا حيث قال: إنَّ هدَى بمعنى اهْتَدى لا يُعرف، لكنْ لم يُتابعه على ذلك الحفَّاظ كالفرَّاء[1] وغيرِه.

وقد جمع هنا بين صلتَيه «إلى» واللام تفنُّناً، وإشارةً بـ «إلى» إلى معنى الانتهاء، وباللام للدلالة على أنَّ المنتهَى غايةٌ للهداية، وأنَّها لم تتوجَّه إليه على سبيل الاتِّفاق، بل على قَصْدِه[2] من الفعل وجَعْلِه ثمرةً له، ولذلك عُدِّي بها ما أُسند إليه سبحانه كما ترَى. وأمَّا قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ فالمقصودُ به التعميمُ وإنْ كان الفاعلُ في الواقع هو الله جلَّ شأنه.

وقيل: اللامُ هنا للاختصاص. والجمهورُ على الأول.

والمفعولُ محذوفٌ في المواضع الثلاثة، وجواز اللزوم في الأول مما لا يُلتفتُ إليه، ويقدَّر فيها على طرزٍ واحدٍ كالشخص ونحوه.

وقيل: التقديرُ: قل هل مِن شركائكم مَن يهدي غيرَه إلى الحق، قل الله يهدي مَن يشاء إلى الحقِّ، أَفَمَنْ يهدي غيرَه إلى الحقِّ ﴿أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ بفتح الياء وكَسْرِ الهاء وتشديد الدال، وهي قراءةُ يعقوبَ وحَفْصٍ[3]، وأصلُه: يَهتدي، وكَسْرُ الهاء لالتقاء الساكنين.

---

(١) يعني أن الفراء لم يقل به، فإن وفاة الفراء قبل وفاة المبرد بنحو ثمانين عاماً. وكلام الفراء في معاني القرآن ٢/ ٩٩. وذكر قوله وقول المبرد أبو حيان في البحر ٥/ ١٥٦، ولفظه: وأنكر المبرد ما قاله الكسائي والفراء وتبعهما الزمخشري من أن يكون هدى بمعنى اهتدى، وقال: لا نعرف هذا.

(٢) في (م): قصد، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٢٧.

(٣) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣.

وقرأ حمَّادٌ ويَحيَى عن أبي بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء والتشديد[١]، وكُسِرَت الياء إتباعاً للهاء، وكان سيبويه[٢] يرَى جوازَ كَسْرِ حَرْفِ المضارعة لغةً إلا الياء لثقل الكسرة عليها، وهذه القراءةُ حجَّةٌ عليه.

وقرأ ابنُ كثيرٍ، وورشٌ عن نافعٍ، وابنُ عامرٍ بفتح الياء والهاء والتشديد[٣]، والأصل: يَهْتَدِي، فنُقلت فتحةُ التاء إلى الهاء قبلها ثم قُلبت دالاً لقُرْبِ مخرجهما وأُدغمت فيها.

وقرأ أبو عمرو وقالون عن نافع كذلك لكنَّه اختلس فتحة الهاء تنبيهاً على أنَّ الحركة فيها عارضةٌ. وفي بعض الطرق عن أبي عمرو أنَّه قرأ بالإدغام المجرَّد عن نقل الحركة إلى ما قبلها، أو التحريكِ بالكسر لالتقاء الساكنين[٤]. واستشكل ذلك بأنَّ فيه الجمعَ بين الساكنين، ولذا قال المبرِّد: مَن رام هذا لابدَّ أنْ يحرِّك حركةً خفيفة، قال ابن النحاس[٥]: إذ بدونه لا يُمكن النطق. وذكر القاضي: أنَّه لم يبالِ بالتقاء الساكنين؛ لأنَّ المدغَم في حُكْم المتحرِّك[٦]، وأَنْكَر بعضُهم هذه القراءة وادَّعَى أنَّه إنما قرأ بالاختلاس، والحقُّ أنَّه قرأ بهما، وروي ذلك عن نافع[٧] أيضاً، وتفصيله في «لطائف الإشارات» و«الطيبة»[٨].

---

(١) القراءة عن عاصم من رواية أبي بكر في التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣.

(٢) في الكتاب ٤/ ١١٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٢٧.

(٣) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣.

(٤) أي: بإسكان الهاء مع تشديد الدال، وهي روايةٌ عن قالون كما في التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٤. وبها قرأ أبو جعفر، والرواية بذلك عن أبي عمرو ذكرها الداني في جامع البيان ٢/ ١٩٣ عنه من رواية شجاع، وقال صاحب النشر ٢/ ٢٨٤: وانفرد صاحب العنوان بإسكان الهاء في روايتيه وجهاً واحداً، وهو الذي ذكره الداني عن شجاع وحده. وينظر كتاب العنوان في القراءات السبع لأبي طاهر إسماعيل بن خلف الأنصاري ص ١٠٥.

(٥) في إعراب القرآن ٢/ ٢٥٤، ونقله المصنف عنه مع قول المبرد بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٢٨.

(٦) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٢٧، وقوله: لم يبال، يعني به أبا عمرو.

(٧) هي روايةٌ عن قالون عن نافع، كما ذكرنا قريباً.

(٨) النشر ٢/ ٢٨٤. وكتاب لطائف الإشارات في علم القراءات للإمام أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني المتوفى سنة (٩٢٣هـ)، وهو كتاب عظيم النفع. كشف الظنون ٢/ ١٥٥١.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «يَهْدِي» كـ : يرْمي[1]، وهو إمَّا لازم بمعنى: يَهتدي، كما هو أحدُ استعمالات فِعْلِ الهداية على المعوَّل عليه كما علمتَ آنفاً، أو متعدٍّ، أي: لا يهدي غيرَه، ورُجِّح هذا بأنَّه الأوفقُ بما قبلُ، فإنَّ المفهوم منه نفْيُ الهداية لا الاهتداء، وقد يُرجِّح الأول بأن فيه توافق القراءات معنًى، وتَوَافقُها خيرٌ من تخالُفِها، وإنَما نفَى الاهتداء مع أنَّ المفهوم مما سبق نفْيُ الهداية كما ذكر، لِمَا أنَّ نفْيَها مُستَتبِعٌ لنفيه غالباً، فإنَّ مَن اهتدَى إلى الحقِّ لا يخلو عن هداية غيرِه في الجملة، وأدناها كونُه قدوةً له بأنْ يراه فيَسلُكَ مَسلَكَه.

والفاءُ لترتيب الاستفهام على ما سبق كأنَّه قيل: إذا كان الأمر كذلك فأنا أسألكم: أمَن يَهدي إلى الحقِّ. .إلخ. والمقصودُ من ذلك الإلزامُ، والهمزةُ على هذا متأخِّرةٌ في الاعتبار، وإنَّما قُدِّمَتْ في الذكر لإظهار عراقتها في اقتضاء الصدارةِ كما هو المشهور عند الجمهور.

وصيغةُ التفضيل إمَّا على حقيقتها والمفضَّل عليه محذوفٌ كما اختاره مكِّي[2]، والتقدير: أفمن يَهدي إلى الحقِ أحقُّ أنْ يُتَّبع ممن لا يهدي أمْ مَن لا يهدي أحقُّ. وإمَّا بمعنَى حقيقٌ كما اختاره أبو حيان[3]. وهو خبرٌ عن الموصول، والفصل بالخبر بين «أم» وما عُطفَت عليه هو الأفصح كما قال السَّمينُ[4]، وقد لا يُفصل كما في قوله سبحانه: ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]. والإظهارُ في موضع الإضمار لزيادة التقرير.

و«أَنْ يُتَّبع» في حيِّز النصب، أو الجرِّ بعد حَذْفِ الجارِّ، على الخلاف المعروف في مثله، أي[5]: بأنْ يُتَّبع.

﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، أي: لا يَهتدي أو لا يَهدي غيرَه في حال من الأحوال إلا حالَ هدايته تعالى له إلى الاهتداء، أو إلى هدايةِ

---

(١) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٣، وهي قراءة خلف من العشرة.
(٢) في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٤٥، ونقله المصنف عنه بواسطة أبي السعود ٤/ ١٤٤.
(٣) في البحر ٥/ ١٥٦.
(٤) في الدر المصون ٦/ ١٩٨.
(٥) في (م): أو، وهو تصحيف، والكلام من تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٤.

الغير، وهذا ـ على ما قاله جمعٌ ـ حالُ أشرافِ شركائهم كالمسيح وعُزيرٍ والملائكة عليهم السلام، دون الأوثان؛ لأنَّ الاهتداء الذي هو قبولُ الهداية وهدايةُ الغير مختصَّان بذوي العلم، فلا يُتصوَّر فيها.

وأخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ وغيرُهما أنَّ المراد الأوثان[١]. ووجِّه ذلك بأنَّه جارٍ على تنزيلهم لها منزلةَ ذوي العلم.

وقيل: المعنَى: أم مَن لا يهتدي من الأوثان إلى مكانٍ فينتقل[٢] إليه إلَّا أنْ يُنقَلَ إليه، أو إلَّا أنْ يَنقله الله تعالى مِن حاله إلى أنْ يجعلَه حيواناً مكلفاً فيهديَه، وهو مِن قولك: هديتُ المرأةَ إلى زوجها وقد هُدِيَت إليه.

وقيل: الآيةُ الأولى ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في الأصنام، أو فيما يعمُّهم ونحوَ الملائكة عليهم السلام، وهذه في رؤساء الضلالة كالأحبار والرهبان الذين اتُّخذوا أرباباً من دون الله. وليس بالبعيد فيما أَرَى، ويؤيِّده التعبير[٣] بالاتِّباع، فإنَّه يَقتضي العملَ بأوامرهم والاجتنابَ عن نواهيهم، وهذا لا يُعقَل في الأوثان إلا بتكلُّفٍ، وهو وإنْ عُقِلَ في أشراف شركائهم لكنَّهم لا يَدْعون إلَّا إلى خير، واتِّباعُهم في ذلك لا ينعي على أحدهم، اللهمَّ إلا أنْ يقال: إنَّ المشركين تَقوَّلوا عليهم أوامرَ ونواهيَ، فنُعِيَ عليهم اتِّباعُهم لهم في ذلك.

وعبَّر بالاتِّباع ولم يعبِّر بالعبادة بأنْ يقال: أفمَن يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يعبد أمْ مَن لا يهدي إلا أن يُهدَى، مع أنَّ الآية متضمِّنةٌ إبطالَ صحةِ عبادتهم من حيث إنَّهم لا يهدون، وأدنَى مراتبِ المعبودية[٤] هدايةُ المعبود لعبدتِهِ إلى ما فيه صلاحُ أمرهم = مبالغةً في تفظيع حال عبادتهم؛ لأنَّه إذا لم يحسُن الاتِّباعُ لم تحسُن العبادة بالطريق الأولى، وإذا قبُح حالُ ذاك، فحال هذه أقبحُ، واللهُ تعالى أعلم.

وقرئ: «إلا أنْ يُهَدَّى» مجهولاً مشدَّداً[٥] دلالةً على المبالغة في الهداية.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٥٢، والدر المنثور ٣/ ٣٠٧، وأخرجه الطبري ١٢/ ١٨٥.
(٢) في (م): فينقل، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٤، والكلام منه.
(٣) في الأصل: التفسير.
(٤) في (م): العبودية.
(٥) القراءات الشاذة ص٥٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٨.

﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أي: أيُّ شيءٍ لكم في اتِّخاذ هؤلاء العاجزين شركاءَ لله سبحانه وتعالى، والكلامُ مبتدأٌ وخبرٌ، والاستفهامُ للإنكار والتعجيب[١].

وعن بعض النحاة أنَّ مثل هذا التركيب لا يتمُّ بدون حالٍ بعدَه، نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدثر:٤٩]، فلعلَّ الحالَ هنا محذوفٌ لظهوره، كأنَّه قيل: فما لكم متَّخذينَ هؤلاء شركاءَ. ولا يصحُّ أن يكون قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾ في موضع الحال؛ لأنَّ الجملة الاستفهاميةَ لا تقعُ حالاً، بل هو استفهامٌ آخَرُ للإنكار والتعجيب[٢] أيضاً، أي: كيف تحكمون بالباطل الذي يأباه صريحُ العقل ويحكمُ ببطلانه، من اتِّخاذ الشركاء لله جلَّ وعلا؟! والفاء لترتيب الإنكار على ما ظهر مِن وجوب اتِّباع الهادي.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ كلامٌ مبتدأ غيرُ داخلٍ في حيِّز الأمر، مسوقٌ من جهته تعالى لبيان سوءِ إدراكهم، وعدم فَهْمِهم لمضمون ما أفحمَهم من البراهين النيِّرة الموجبة للتوحيد، أي: ما يتَّبعُ أكثرُهم في معتقداتهم ومَحاوَراتهم إلا ظنّاً واهياً مُستنِداً إلى خيالاتٍ فارغةٍ وأَقْيسةٍ باطلةٍ، كقياس الغائبِ على الشاهد وقياسِ الخالق على المخلوق بأدنَى مشاركةٍ موهومةٍ، ولا يلتفتون إلى فردٍ من أفراد العِلْم، فضلاً عن أنْ يَسلُكوا مسالكَ الأدلَّة الصحيحةِ الهاديةِ إلى الحقِّ، فيفهموا مضمونَها، ويقفوا على صحَّتها وبطلانِ ما يخالفُها.

فالمرادُ بالاتِّباع: مطلَقُ الاعتقاد[٣] الشامل لِمَا يُقارِن القبولَ والانقيادَ وما لا يُقارنه، وبالقَصْرِ ما أُشيرَ إليه مِن أنْ لا يكونَ لهم في أثنائه اتِّباعٌ لفردٍ من أفراد العلم والتفاتٌ إليه.

وتنكيرُ «ظنّاً» للنوعية. وفي تخصيص هذا الاتِّباع بالأكثر الإشارةُ إلى أنَّ منهم مَن قد يتَّبعُ فيقفُ على حَقِّيَّة التوحيد، لكنْ لا يقبله مكابرةً وعناداً.

ومُقتضَى ما ذكروه في وجْهِ أمرِه ﷺ بأنْ ينوبَ عنهم في الجواب مِن أنَّه

---

(١) في (م): والتعجب، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٤٤.
(٢) في (م): والتعجب.
(٣) في الأصل و(م): الانقياد، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٤، والكلام منه.

الإشارةُ إلى أنَّ لَجاجَهم وعِنادهم يمنعُهم من الاعتراف بذلك، أنَّ فيهم مَن عَلِمَ وكان مُعانداً، ولعل النيابةَ حينئذٍ عن الجميع باعتبار هذا البعض.

وجُوِّز أنْ يكونَ المعنى: ما يتَّبع أكثرُهم مدَّةَ عمرِه إلا ظنّاً ولا يتركونه أبداً، فإنَّ حرفَ النفي الداخلَ على المضارع يفيدُ استمرارَ النفي بحسب المقام، فالمرادُ بالاتِّباع هو الإذعانُ والانقيادُ، والقَصْرُ باعتبارِ الزمان، وفي التخصيص[١] تلويحٌ بما سيكون من بعضهم من اتِّباع الحقِّ والتوبة.

وقيل: المعنى: وما يتَّبع أكثرهم في إقرارهم إلَّا ظنّاً؛ لأنَّه قولٌ غيرُ مستندٍ إلى برهانٍ عندهم.

وقيل: المعنى: وما يتَّبع أكثرُهم في قولهم للأصنام: وإنَّها شفعاءُ عند الله، إلا الظنَّ، والأكثرُ بمعنى الجميع، وهذا كما ورد القليلُ بمعنى العَدَم في قوله تعالى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]، وفي قوله:

قليلُ التشكِّي في المصيبات حافظٌ ... مِن اليوم أعقابَ الأحاديثِ في غدِ[٢]

وحَمْلُ النقيض على النقيض حسَنٌ وطريقةٌ مسلوكةٌ، ولا يخفَى أنَّه يتعيَّن على هذَين القولَين حملُ الأكثر على الجميع، بل يُمكن حملُه على ما يتبادَر منه أيضاً، ومِن الناس مَن جَعَل ضميرَ «أكثرهم» للناس، وحينئذٍ يجب الحملُ على المتبادر بلا كُلفة.

﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ﴾ مطلقاً ﴿لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فكيف الظنُّ الفاسدُ، والمراد من «الحقِّ» العلمُ والاعتقادُ الصحيح المطابقُ للواقع، والجارُّ متعلِّقٌ بما قبله، و«شيئاً» منصوب[٣] على أنَّه مفعولٌ مطلق، أي: إغناءً ما. ويجوزُ أنْ يكونَ مفعولاً به والجارُّ والمجرورُ في موضع الحال منه، والجملة استئنافٌ لبيانِ شأنِ الظنِّ وبطلانِهِ.

---

(١) أي: تخصيص الاتباع بأكثرهم. تفسير أبي السعود ٤/ ١٤٥، والكلام منه.

(٢) البيت لدريد بن الصمة كما في التمهيد لابن عبد البر ٢٠/ ٢٢٦، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٨١٩، ودون نسبة في البيان والتبيين ٢/ ١٩٣. وجاء في هذه المصادر: قليل التشكي للمصيبات. . .

(٣) في (م): نصب.

وفيه دليلٌ لمن قال: إنَّ تحصيلَ العلم في الاعتقاديات واجبٌ، وإنَّ إيمان المقلِّد غيرُ صحيح، وإنَّما لم يُؤخذ عامّاً للعمليات لقيام الدليل على صحةِ التقليد والاكتفاء بالظنِّ فيها، كما قُرِّر في موضعه.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وعيدٌ لهم على أفعالهم القبيحة، ويندرجُ فيها ما حُكي عنهم من الإعراض عن البراهين القاطعة، واتِّباعِ الظنون الفاسدةِ اندراجاً أوليّاً.

وقرئ: «تفعلون» بالالتفات إلى الخطاب[1] لتشديد الوعيد.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ شروعٌ في بيان حالهم مع[2] القرآن إثْرَ بيانِ حالهم مع الأدلَّة المندرجة في تضاعيفه، أو استئنافٌ لبيانِ ما يجبُ اتِّباعُه والبرهان عليه غِبَّ المنع عن[3] اتِّباع الظنِّ.

وقيل: إنَّه متعلِّقٌ بما قصَّه الله تعالى من قولهم: (ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا)، وقيل: بقوله سبحانه: (وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) إلخ، ولا يخفى ما في ذلك من البعد.

و«كان» هنا ناقصةٌ عند كثيرٍ من الكاملين، و«هذا» اسمُها، و«القرآن» نعتٌ له أو عطفُ بيان، و«أنْ يُفْتَرى» بتأويل المصدر، أي: افتراءً؛ خبرُ «كان»، وهو في تأويل المفعول، أي: مُفترَى كما ذكره ابنُ هشام في قاعدةِ أنَّ اللَّفْظَ قد يكون على تقدير، وذلك المقدَّرُ على تقديرٍ آخر. ومنه قوله:

لَعمرُك ما الفِتيانُ أَنْ تَنْبُتَ اللِّحَى[4]

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٥٧ عن ابن مسعود.
(٢) في (م): من.
(٣) في (م): مع.
(٤) مغني اللبيب ص٩٠٧، وعجزه: ولكنَّما الفتيانُ كلُّ فتًى نَدِي، وهو في معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٥، وأمالي المرتضى ١/ ٢٠١ دون نسبة. وقال البغدادي في شرح أبيات المغني ٨/ ٩٧: والبيت ملفَّقٌ من مصراعين لابن بيض وهي:

لعمرك ما الفتيان أن تنبت اللِّحى ... وتعظُمَ أبدانُ الرجال من الهَبْرِ
ولكنما الفتيان كل فتًى نَدِي ... صبور على الآفات في العسر واليسر

وذهب بعضُ المُعْربين إلى[١] أنَّ «ما كان» بمعنى: ما صح، وأنَّ في الكلام لاماً مقدَّرةً لتأكيد النفي، والأصل: ما كان هذا القرآنُ لِأَنْ يُفتَرَى، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ١٢٢] و«أَنْ يُفتَرَى» خبرُ كان، و«مِن دون الله» خبرٌ ثانٍ وهو بيانٌ للأول، أي: ما صحَّ ولا استقامَ أنْ يكونَ هذا القرآنُ المشحونُ بفنون الهدايات المستوجِبَةِ للاتِّباع التي من جملتها هاتيك الحجَجُ البيِّنةُ الناطقةُ بحقِّيَّة التوحيد وبطلانِ الشرك صادراً مِن غير الله تعالى كيف كان. وقيل عليه ما قيل، لكن[٢] لا ينبغي العدولُ عما قاله في محل «مِن دون الله»، وما ذكر في حاصل المعنَى أمرٌ مقبولٌ كما لا يخفَى.

وجوَّز البدرُ الدماميني أنْ تكون «كان» تامَّةً و«أَنْ يُفتَرَى» بدل اشتمالٍ من «هذا القرآن»[٣].

وتُعقِّب بأنَّه لا يحسُنُ قطعاً؛ لأنَّ: ما وُجد القرآنُ، يُوهمُ مِن أوَّلِ الأمر نفيَ وجوده، وأيضاً لابدَّ مِن الملابَسةِ بين البدل والمبدَلِ منه في بدل الاشتمال، فيلزم أنْ يُبتنَى الكلامُ على الملابَسةِ بين القرآن العظيم والافتراء، وفي التزام كلٌّ ما ترَى، وأُجيبَ عن ذلك بما لا أَراه مثبتاً للحُسْن أصلاً.

واقتَصَر بعضُهم على اعتبارِ المصدر من غير تأويله باسم المفعولِ اعتباراً للمبالغة، على حدِّ ما قيل في: زيدٌ عدلٌ. والظاهرُ عندي أنَّ المبالغة حينئذٍ راجعةٌ إلى النفي، نظير ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦] لا أنَّ النفيَ راجعٌ إلى المبالغة كما لا يخفَى.

ومِن هنا يُعلَم ما في قول بعض المحقِّقين: إنَّ قولَ الزمخشري في بيان معنَى الآية: وما صحَّ وما استقامَ وكان محالاً أنْ يكون مثلُه في علوِّ أمره وإعجازه مفترًى[٤]. ربَّما يُشعرُ بأنَّه على حذفِ اللام، إذ مجرَّدُ توسيط «كان» لا يُفيد ذلك، والتعبير بالمصدر لا تعلُّقَ له بتأكيد معنَى النفي = من النظر.

---

(١) قوله: إلى، ليس في (م).

(٢) في (م): لكنه.

(٣) تحفة الغريب شرح مغني اللبيب ١/ ٥٨.

(٤) الكشاف ٢/ ٢٣٧.

ثم إنَّهم ـ فيما رأينا ـ لم يعتبروا المصدرَ هنا إلا نكرةً، والمشهورُ اتِّفاقُ النحاةِ على أنَّ «أَنْ» والفعلَ المؤوَّلَ بالمصدر معرفةٌ ولذلك لا يُخبَر به عن النكرة، وكأنَّه مبنيٌّ على ما قاله ابن جنِّي في «الخاطريات» من أنَّه يكون نكرةً، وذكَرَ أنَّه عرضَه على أبي عليٍّ فارتضاه[١].

واستَشكل بعضُهم هذه الآيَةَ بأنَّ «أَنْ» تُخلِّصُ المضارعَ للاستقبال كما نصَّ على ذلك النحْويُّون، والمشركون إنَّما زعموا كونَ القرآن مفترًى في الزمان الماضي، كما يدلُّ عليه ما يأتي إنْ شاء الله تعالى، فكيف ينبغي كونُه مفترًى في الزمان المستقبل.

وأُجيبَ عنه بأنَّ الفعل فيها مستعمَلٌ في مطلَق الزمان، وقد نصَّ على جواز ذلك في الفعل ابنُ الحاجب وغيرُه، ونقله البدرُ الدماميني في شرحه لـ «مغني اللبيب»[٢]. ولعلَّ ذلك من باب المجاز، وحينئذٍ يمكن أنْ يكون نكتَةُ العدول عن المصدر الصريح ـ مع أنَّه المستعمَلُ في كلامهم عند عدمِ ملاحظةِ أحدِ الأزمنة نحو: أَعجبني قيامُك ـ أنَّ المجازَ أبلغُ من الحقيقة.

وقيل: لعلَّ النكتة في ذلك استقامةُ الحمل بدون تأويلٍ، للفرق بين المصدر الصريح والمؤوَّلِ على ما أشار إليه شارح «اللباب» وغيرُه، ولا يخفى أنَّ فيه مخالفةً لِمَا مرَّت الإشارةُ إليه من أنَّ «أنْ» والفعلَ في تأويل المصدر، وهو في تأويل المفعول.

قيل: وقد يجابُ أيضاً عن أصل الإشكال بأنَّه إنَّما نفَى في الماضي إمكانَ تعلُّقِ الافتراء به في المستقبل، وكونَه محلّاً لذلك، فينتفي تعلُّق الافتراء به بالفعل من باب أولَى، وفي ذلك سلوكُ طريقِ البرهان، فيكونُ في الكلام مجازٌ أصليٌّ أو تَبعيٌّ.

وقد نصَّ أبو البقاء على جواز كونِ الخبر محذوفاً، وأنَّ التقدير: وما كان هذا القرآنُ ممكناً أنْ يُفتَرَى[٣].

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٨، ولم نقف عليه في المطبوع من الخاطريات.
(٢) تحفة الغريب ١/ ٥٨.
(٣) الإملاء ٣/ ٢٣٠.

وقال العلَّامة ابنُ حجر: إنَّ الآية جوابٌ عن قولهم: «ائتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدِّله» وهو طلبٌ للافتراء في المستقبل، وأمَّا الجوابُ عن زَعْمِهم أنَّه عليه الصلاة والسلام افتراه ـ وحاشاه ـ فسيأتي عند حكاية زَعْمِهم ذلك، فلا إشكال. على أنَّ عمومَ تخليص «أنْ» المضارعَ للاستقبال في حيِّز المنع، لم لا يجوز أنْ يكون فيما عدا خبرِ «كان» المنفيةِ كما يُرشد إليه قولُه سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة:١١٣] فإنَّه نزل [نهياً] عن استغفارٍ سبَقَ منهم للمشركين كما قاله أئمةُ التفسير[١]. وقد أطال الكلام على ذلك في ذيل فتاويه فتبصَّر.

﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ أي: من الكُتُب الإلهية كالتوراة والإنجيل، فالمرادُ من الموصول الجنسُ، وعنَى بالتصديق بيانَ الصدق، وهو مطابقةُ الواقع وإظهارُه، وإضافته إمَّا لفاعله أو مفعوله، وتصديقُ الكُتُب له بأنَّ ما فيه من العقائد الحقَّةِ مطابقٌ لِمَا فيها، وهي مسلَّمةٌ عند أهل الكتاب وما عَدَاهم إن اعتُرِفَ بها، وإلَّا فلا عبرَة به.

وفي جَعْلِ الإضافة للمفعول مبالغةٌ في نفي الافتراء عنه؛ لأنَّ ما يثبُتُ ويظهرُ به صِدْقُ غيرِه فهو أولَى بالصدق، ووجْهُ كونِهِ مصدِّقاً لها أنَّه دالٌّ على نزولها من عند الله تعالى، ومُشتمِلٌ على قصص الأوَّلين حسبما ذُكِرَ فيها، وهو معجِزٌ دونها، فهو الصالحُ لِأَنْ يكونَ حجَّةً وبرهاناً لغيره لا بالعكس.

وزعَمَ بعضُهم أنَّ المراد من «الذي بين يديه» أخبارُ الغيوب، والإضافةُ للفاعل، وتصديقُها له مجيئُها على وفق ما أَخبر به، وليس بشيءٍ.

ونُصِبَ «التصديق» على العطفِ على خبر «كان» أو على أنَّه خبرٌ لكان مقدَّرة.

وقيل: على أنَّه مفعولٌ لأَجْلِه لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: أُنزل لتصديق ذلك، وجَعْلُ العلَّة هنا ما ذُكِرَ مع أنَّه أُنزل لأمورٍ [أُخَر][٢]؛ لأنَّه المناسبُ لمقام ردِّ دعوى افترائه.

وقيل: نُصب على المصدرية لفعلٍ مقدَّرٍ، أي: يُصدِّقُ تصديقَ.. إلخ.

(١) ينظر الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٢٥٨، وما بين حاصرتين منه.
(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ٢٩، والكلام منه.

وقرأ عيسى بن عمر[١] الثقفي برَفْعِه على أنَّه خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: ولكن هو تصديقُ... إلخ. وكذا قرأ بالرفع في قوله تعالى: ﴿وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٢] أي: ما كُتِبَ وأُثبتَ من الحقائق والشرائع، والعطفُ نصباً أو رفعاً على «تصديق».

وقولُه سبحانه: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾ خبرٌ آخرُ لـ «كان»[٣] أو للمبتدأ المقدَّر، وفُصِل لأنَّه جملةٌ مؤكِّدةٌ لِمَا قبلها، وجوِّز أنْ يكون حالاً من «الكتاب» وإنْ كان مضافاً إليه، فإنه مفعولٌ في المعنى، وأنْ يكون استئنافاً نحويّاً لا محلَّ له من الإعراب، أو بيانيًّا جواباً للسؤال عن حال الكتاب، والأول أظهرُ، والمعنى: لا ينبغي لعاقلٍ أن يرتابَ فيه لوضوح برهانه وعلوِّ شأنه.

﴿مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٧﴾ خبرٌ آخَرُ لـ «كان» أو المبتدأ المقدَّر كما مرَّ في سابقه، أو متعلِّقٌ بـ «تصديق» أو بـ «تفصيل»، أو بالفعل المعلَّل بهما، أو متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من «الكتاب»، و«لا ريب فيه» اعتراضٌ لئلَّا يلزمَ الفَصْلُ بالأجنبيِّ بين المتعلِّق والمتعلَّق، أو الحالِ وذِيْها. وجوِّز أنْ يكون حالاً من الضمير المجرور في «فيه».

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ «أم» منقطعةٌ وهي مقدَّرة ببل والهمزة عند سيبويه[٤] والجمهور، أي: بل أيقولون، وبل انتقاليةٌ، والهمزةُ لإنكار الواقع واستبعاده، أي: ما كان ينبغي ذلك، وجوِّز أنْ تكون للتقرير لإلزام الحجة، والمعنيان ـ على ما قيل ـ متقاربان.

وقيل: إنَّ «أم» متَّصلةٌ ومُعادِلُها مقدَّر، أي: أتقرُّون به أم تقولون افتراه.

وقيل: هي استفهامية بمعنى الهمزة. وقيل: عاطفةٌ بمعنى الواو. والصحيح الأول.

---

(١) في الأصل و(م): عمرو، والصواب ما أثبتناه، وقراءته في القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٥٧.

(٢) البحر ٥/ ١٥٧.

(٣) في (م): للكن، وهو خطأ. وقوله: لـ «كان»، أي: لكان المقدرة بعد «لكن» كما ذكره الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٠.

(٤) كما في البحر ٥/ ١٥٨، وحاشية الشهاب ٥/ ٣٠ وعنه نقل المصنف، وينظر الكتاب ٣/ ١٧٣ و١٨٩.

وأيًا ما كان فالضميرُ المستترُ للنبيِّ ﷺ وإنْ لم يذكر؛ لأنَّه معلومٌ من السياق.

﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلانِ مقالتهم الفاسدةِ: إنْ كان الأمر كما تقولون ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ طويلةً كانت أو قصيرةً ﴿مِثْلِهِ﴾ في البلاغة وحُسْن الارتباط وجزالة المعنى على وجه الافتراء، وحاصلُه على ما قيل: إن كان ذاك افتراءً منِّي فافتَرُوا سورةً[1] مثله، فإنَّكم مثلي في العربية والفصاحة، وأشدُّ تمرُّناً واعتياداً في النظم والنثر.

وعلى هذا فالمرادُ بإتيان المخاطَبين بذلك إنشاؤهم له والتكلُّمُ به من عند أنفسهم، لا ما يعمُّ ذلك وإيرادَه من كلام الغير ممن تقدَّم.

وجوِّز أنْ يكونَ المراد ما ذكر[2]، ولعله السرُّ في العدول عن: قولوا سورةً مِثْلَه مَثَلاً، إلى ما في النظم الكريم، أي: إنْ كان الأمر كما زعمتُم فأتوا من عند أنفسكم، أو ممن تقدَّمكم من فصحاء العرب وبُلَغائها كامرئ القيس وزهيرٍ وأضرابهما، بسورةٍ مماثلةٍ له في صفاته الجليلة، فحيثُ عجزتُم عن ذلك مع شدَّةِ تمرُّنكم، ولم يوجد في كلام أولئك، وهم الذين نُصبَت لهم المنابرُ في عكاظِ الفصاحةِ والبلاغة، وبهم دارت رَحا النَّظْمِ والنثر، وتصرَّمَت أيامُهم في الإنشاء والإنشاد، دلَّ على أنَّه ليس من كلام البشر، بل هو من[3] كلامِ خالقِ القوى والقُدَر.

وقرئ: «بسورةِ مثله» على الإضافة[4]، أي: بسورةِ كتابٍ مِثلِه.

﴿وَادْعُوا﴾ للمعاوَنةِ والمظاهَرةِ ﴿مَنِ اسْتَطَعْتُم﴾ دعاءَه والاستعانةَ به من آلهتكم التي تزعمون أنَّها مُمِدَّةٌ لكم في المهمَّات والملمَّاتِ، والمدارِهِ[5] الذين تلجؤون إليهم في كلِّ ما تأتون وتَذَرُون.

---

(١) في الأصل: فأتوا بسورة.

(٢) أي: ما يعم إنشاءَهم له من عند أنفسهم وإيرادَه من كلام الغير ممن تقدم.

(٣) قوله: من، ليس في الأصل.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحتسب ١/٣١٣، والبحر ٥/١٥٨ عن عمرو بن فائد.

(٥) في (م): والمداراة، وفي الأصل: والمدارة. والمداره جمع مِدْرَه كمِنبر، وهو رأس القوم المدافع عنهم، والسيد الشريف، والمقدم في اليد واللسان عند الخصومة والقتال.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بـ «ادعوا» كما قيل، و«مِن» ابتدائيةٌ على معنى أنَّ الدعاء مبتدأٌ من غيرِه تعالى لا مُلابسةَ له معه ـ جلَّ شأنُه ـ بوجْهٍ.

وجوِّز أنْ يكونَ متعلِّقاً بما عنده و«مِن» بيانية، أي: ادْعُوا مَن استطعتُم مِن خَلْقِه، ولا يخلو عن حُسْن.

وفائدةُ هذا القيد، قيل: التنصيصُ على براءتهم منه تعالى، وكونِهم في عُدْوَةِ المضادَّةِ والمشاقَّةِ، وليس المراد به إفادةَ استبدادِه تعالى بالقُدرة على ما كلِّفوه، فإنَّ ذلك مما يُوهم أنَّهم لو دَعَوه لأجابهم إليه.

وقد يُقال: لا بأس بإفادة ذلك؛ لأنَّ الاستبداد المذكورَ مما يؤيِّد المقصودَ، وهو كونُ ما أتَى به ﷺ لم يكن من عند نفسِه بل هو منه تعالى، والإيهامُ ممَّا لا يُلتفَتُ إليه، فإنَّ دعاءهم إيَّاه تعالى بمعنى طلبهم منه سبحانه وتعالى أنْ يأتي بما كلِّفوه مستبِدّاً به مما لا يكاد يتصوَّرُ؛ لأنَّه يُنافي زعمَهم السابقَ كما لا يخفَى، فتأمَّل.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣٨﴾ في أنِّي افتريتُه، فإنَّ ذلك مستلزمٌ لإمكان الإتيان بمثله، وهو أيضاً مستلزِمٌ لقدرتكم عليه. وجواب «إنْ» محذوفٌ لدلالة المذكور عليه.

وفي هذه الآية دلالةٌ على إعجاز القرآن؛ لأنَّه عليه الصلاة والسلام تحدَّى مصاقع العرب بسورةٍ ما منه فلم يأتوا بذلك، وإلَّا لنُقِلَ إلينا لتوفُّر الدَّواعي إلى نَقْلِه.

وزَعَمَ بعضُ الملاحدة أنَّه لا يلزم من عجزهم عن الإتيان بذلك كونُه من عند الله تعالى قَطْعاً، فإنَّه قد يتَّفقُ في الشخص خصوصيةٌ لا توجدُ في غيره، فيحتمل أنَّه ﷺ كان مخصوصاً بهذه المرتبةِ من الفصاحةِ والبلاغةِ، ممتازاً بها عن سائر العرب، فأتَى بما أتَى دونهم، وقد جاء من بعض الطرق أنَّه ﷺ قال: «أنا أفصحُ العرب بيدَ أنِّي مِن قريش»(١).

---

(١) قال السيوطي كما في المصنوع في معرفة الحديث الموضوع لعلي القاري ص٦٠: لا يُعْلَم مَن أخرجه ولا إسناده. وروي أيضاً: أنا أفصح مَن نطق بالضاد، قال السخاوي في المقاصد الحسنة ص٩٥: معناه صحيح، ولكن لا أصل له كما قاله ابن كثير.

وأُجيبَ بأنَّه ﷺ وإنْ كان في أقصَى الغايات من الفصاحة، حتى كأنَّ الله تعالى شأنُه وعزَّت قُدرتُه مَخَضَ اللسانَ العربي وألقَى زُبدتَه على لسانه ﷺ فما مِن خطيبٍ يقاومُه إلا نكَصَ متفكِّكَ الرِّجل[١]، وما مِن مِصْقع يُناهزُه إلَّا رجع فارغ السَّجْل، إلا أنَّ كلامه ﷺ لا يُشبه ما جاء به القرآن[٢]، وكلامُ شخصٍ واحدٍ متشابهٌ كما لا يخفَى على ذَوي الأذواق الواقفين على كلام البلغاء قديماً وحديثاً.

وتعقِّب بأنَّه لا يدفع ذلك الزَّعْمَ، لِمَا فيه ظاهراً مِن تسليم كونِ كلامه عليه الصلاة والسلام مُعْجِزاً لا تُستَطاع مُعارضتُه، وحينئذٍ العجزُ عن معارضةِ القرآن يجعَلُه[٣] دائراً بين كونه كلامَه تعالى وكونه كلامَه ﷺ، ولا يثبُتُ كونُه كلامَ الله عزَّ وجلَّ إلا بضمِّ امتيازه على كلامه ﷺ، والزاعمُ لم يَدَّعِ إلا عدمَ لزومِ كونه مِن عند الله تعالى قطعاً من عجزهم عن الإتيان بذلك.

وأيضاً يُنافي هذا التسليمُ ما تقدَّم في بيان حاصل «فأتوا بسورةٍ مثله»، حيثُ علَّل بـ: إنكم مثلي في العربية والفصاحة.. إلخ.

ومن هنا قيل: الأوجَهُ في الجواب أنْ يُلتزمَ عدمُ إعجازِ كلامه ﷺ، مع كونه عليه الصلاة والسلام أفصحَ العرب، ولا منافاة بينهما كما لا يخفَى على المتأمِّل.

وأطالَ بعضُهم الكلام في هذا المقام، وبعضٌ أدرَجَ مسألةَ خَلْقِ الأفعال في البين، وجعَلَ مدار الجواب مذهَب الأشعريِّ فيها، ولعل الأمر غنيٌّ عن الإطالة عند مَن انْجابَ عن عينِ بصيرته الغَين.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ﴾ قيل: هو إضرابٌ وانتقالٌ عن إظهار بطلانِ ما قالوا في حقِّ القرآن العظيم بالتحدِّي إلى إظهاره ببيانِ أنَّه كلامٌ ناشئٌ عن عدم علمهم بكنهِ أمره، والاطِّلاعِ على شأنه الجليل، فـ «ما» عبارةٌ عن القرآن، وهو المرويُّ عن الحسن، وعليه محقِّقو المفسِّرين.

---

(١) في الأصل: الرحل. وقوله: متفكك الرجل، لعله كناية عن العيِّ والعجز. ينظر الفائق ١/ ١١.

(٢) في (م): من القرآن.

(٣) في الأصل: بجعله.

وقيل: هي عبارةٌ عمَّا ذُكر فيه مما يخالفُ دينَهم كالتوحيدِ والبعثِ والجزاء. وليس بذاك سواءٌ كانت الباء للتعدية ـ كما هو المتبادِر ـ أم للسببية.

والمرادُ أنَّهم سارَعوا إلى تكذيبه مِن غير أنْ يتدبَّروا ما فيه، ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الدالَّة على كونه كما وُصِف آنفاً، ويعلموا أنَّه ليس مما يُمكن أنْ يُؤتَى بسورةٍ مثله.

والتعبيرُ عنه بهذا العنوان، دون أنْ يقال: بل كذَّبوا به من غير أنْ يُحيطوا بعلْمِه، أو نحوِه، للإيذان بكمالِ جَهْلِهم به، وأنَّهم لم يَعْلَموه إلَّا بعنوانِ عدمِ العلم به، وبأنَّ تكذيبَهم به إنما هو بسبب عدمِ إحاطتهم بعلمه، لِمَا أنَّ تعليق الحكم بالموصول مشعرٌ بعلِّيَّة ما في حيِّز الصلة له، وأصلُ الكلام: بما لم يحيطوا به علماً، إلا أنَّه عدَلَ عنه إلى ما في النظم الكريم لأنَّه أبلغ.

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ عطفٌ على الصِّلة أو حالٌ من الموصول، أي: ولم يقفوا بعدُ على معانيه الوضعية والعقلية المنبئةِ عن علوِّ شأنه وسطوعِ برهانه، فالتأويلُ نوعٌ من التفسير، والإتيانُ مجازٌ عن المعرفة والوقوف، ولعلَّ اختياره للإشعار بأنَّ تلك المعاني متوجِّهةٌ إلى الأذهان، مُنْساقةٌ إليها بنفسها.

وجوِّز أن يُراد بالتأويل وقوعُ مدلوله، وهو عاقبتُه وما يَؤولُ إليه، وهو المعنَى الحقيقيُّ عند بعضٍ، فإتيانُه حينئذٍ مجازٌ عن تَبيُّنه وانكشافه، أي: ولم يَتَبيَّن لهم إلى الآن تأويلُ ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يَظهرَ أنَّه صدقٌ أم كذبٌ، والمعنى: أنَّ القرآن معجِزٌ من جهة النَّظْم والمعنَى، ومن جهة الإخبار بالغيب، وهم فاجَؤوا تكذيبَه قبل أن يتدبَّروا نظمَه ويتفكَّروا في معناه، أو ينتظروا وقوعَ ما أَخبر به من الأمور المستقبلة.

ونفيُ إتيان التأويل بكلمةِ «لمَّا» الدالَّةِ على توقُّع منفيِّها بعد نفْي الإحاطة بعِلْمِه بكلمةِ «لم»؛ لتأكيد الذمِّ وتشديدِ التشنيع، فإنَّ الشناعة في تكذيب الشيء قبل عِلْمِه المتوقَّع إتيانُه أفحشُ منها في تكذيبه قبل عِلْمِه مطلقاً.

وادَّعى بعضُهم أنَّ الإضراب عن التكذيب عناداً المدلولِ عليه بقوله سبحانه: ﴿قُلْ فَأْتُوا﴾ إلخ، فإنَّ الإلزام إنَّما يأتي بعد ظهور العجز، ومعنَى هذا الإضرابِ ذمُّهم

على التقليد وتَرْكِ النظر مع التمكُّنِ منه، وهو أدخَلُ في الذمِّ من العناد من وجْهٍ، وذلك لأنَّ التقليد اعترافٌ من صاحبه بالقصور في الفطنة، ثُم لا يعذَرُ فيه، فلا يرتَضي ذو عقلٍ أنْ يُقلِّد رجلاً مثلَه من غيرِ تقدُّمٍ عليه بفطنةٍ وتجربةٍ، وأمَّا العنادُ فقد يحمَدُه بعضُ النفوس الأبيَّةِ، بل في أشعارهم ما يدلُّ على أنَّهم مفتخرون بذلك كقولهم:

فعانِدْ مَن تُطيقُ له عناداً[1]

ولا يَرِدُ أنَّ العناد لمَّا كان بعد العلم كان أَدْخَلَ في الذمِّ، فلا نُسلِّم أنَّه أدخَلُ فيه من التقليد، بل من الجهل قبل التدبُّر دون اقتران التقليد به، وإنْ سُلِّم فهذا أيضاً أدخَلُ من وجهٍ، وإن جُعِلَ مصبُّ الإنكار على جَمْعهم بينَ الأمرَين - والجمعُ على كلِّ حالٍ أدخَلُ من التفرُّد بواحدٍ - صح الإضراب، فكأنه قيل: دَعْ تحدِّيهم وإلزامَهم، فإنَّهم لا يستأهلون الخطابَ؛ لأنَّهم مقلِّدون متهافتون في الأمر لا عن خبرٍ وحِجًى.

وقد ذكَرَ الزمخشريُّ في هذا المقامِ ثلاثةَ أوجه[2]:

الوجهُ الأول: أنَّ التقدير: أم كذَّبوا وقالوا: هو مفترًى، بعد العلم بإعجازه عناداً، بل كذَّبوا به قبلَ أنْ يأتيَهم العلمُ بوجهِ إعجازه أيضاً، فهم مستمرُّون على التكذيب في الحالَين، مذمُومون به مَوسُومُون برذيلتَي التقليد والعناد، جامعون بينهما بالنسبة إلى وقتَين.

ووجَّهَ ذلك بأنَّ «بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعِلْمِه» صريحٌ في تكذيبهم قبل العلم بوجهِ الإعجاز، و«لمَّا يأتهم تأويله» يدلُّ على امتداد هذا التكذيب إلى مجيء التأويل المنتظر بالنسبة إلى تكذيبهم قبلُ، لا بالنسبة إلى زمان الإخبار، فإنَّ التأويل أيضاً واقعٌ، وحينئذٍ إمَّا أنْ يكونَ التكذيبُ قد زال فلا يتوجَّه عليهم الذمُّ بالتكذيب الأول، وإمَّا أن يكون مستمرّاً، وهو الواجب ليصحَّ كونُه وارداً ذمّاً لهم بالتسرُّع إلى التكذيب الذي هو منطوقُ النصِّ، فيجبُ أنْ يكونَ العطفُ على قوله سبحانه: ﴿أَمْ

---

(١) وصدره: أرى العنقاءَ تكبرُ أن تُصادا، والبيت لأبي العلاء المعري، وهو في شروح سقط الزند ٢/ ٥٥٣.

(٢) ينظر الكشاف ٢/ ٢٣٨.

﴿يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ﴾ ويكون ذلك لبيان أنَّهم كذَّبوا عن علم، وهذا لبيان تكذيبهم قبلَه أيضاً، ويكون الجهتان منظورتَين، وأنَّهم مذمومون فيهما.

والحاصل أنَّ «أم يقولون افتراه» لا مِريَةَ فيه أنَّه تكذيبٌ بعد العلم؛ لمكان الأمر بعده، لكن لمَّا جُعلَ التوقُّع المفاد بـ «لمَّا» لِعلْم الإعجاز لَزِمَ أنْ يكونَ بالنسبةِ إلى حالهم الأولى، وهو التكذيبُ قبلَ العلم، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يتوقَّعُ زوالَه بالعلم، ويكون معنَى المبالغة في «لمَّا» الإشعارَ باستغراق الوقت للتكذيب إلى زمان التأويلِ المنتَظَرِ الواقع الذي كذَّبوا فيه عناداً وبَغْياً.

الوجه الثاني: حَمْلُ التأويل على المعنى الثاني الذي ذكرناه، والمعنَى: بل سارَعُوا إلى التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ليعرفوا إعجازَ نَظْمِه، وقبل[1] إتيانِ التأويلِ المنتَظر، وهو ما يَؤُولُ إليه من الصِّدق في الإخبار بالمغيَّبات. والمقصودُ من هذا ذمُّهم بالتسارُع إلى التكذيب من الوجهَين، لكنْ لمَّا كان مع الوجهَين علمُ ما يتضمَّنه لو يدَّبروا، لم يكن فيه شيءٌ منتظرٌ، والثاني لمَّا لم يكن كذلك كان فيه أمرٌ منتَظرٌ، وأتَى بحرف التوقُّع دليلاً عن أنَّ هذا المنتَظرَ كائنٌ، وسيظهر أنَّهم مُبطلون فيه أيضاً كالأول، ولا نظرَ إلى أنَّهم مذمومون حالتَي العناد والتقليد، بل المقصودُ كمالُ إظهارِ الإلزام بأنَّه مفروغٌ عنه مع أمثالهم للتهافُت المذكور.

الوجه الثالث: أنْ «أمْ يقولون افتراه» ذمٌّ لطائفة كذَّبوا عن علم، وهذا ذمٌّ لأُخرَى كذَّبَت عن شكٍّ، ولمَّا وُجد فيما بينهم القسمان أسنَدَ الكلَّ إلى الكلِّ، وليس بِدعاً في القرآن، والغرضُ من الإضراب تعميمُ التكذيب، وأنه كان الواجب على الشاكِّ التوقفَ لا التسرُّعَ إلى التكذيب، ومعنَى التوقُّع أنَّه سيزول شكُّهم فيُسْلِم[2] بعضُهم ويبقى بعضٌ على ما هو عليه، والآيةُ ساكتةٌ عن التفصيل ناطقةٌ بزوال الشكِّ، ولا خفاءَ أنَّ الشاكَّ ينتظر، وكذلك كان ﷺ يتوقَّعُ زوالَ شكِّهم. انتهى.

ولا يخفَى أنَّ ما نقلناه[3] أوَّلاً أولَى بالقبول[4] عند ذَوي العقول.

---

(١) في (م): وقيل، وهو تصحيف.
(٢) في (م): فسيعلم.
(٣) في (م): نقلنا.
(٤) قوله: بالقبول، ليس في الأصل.

وأُورد على دعوَى أنَّ «أم يقولون افتراه» تكذيبٌ بعد العلم، أنَّها ناشئةٌ من عدم العلم، وما سيقَ لإثباتها في حيِّز المنع، فإنَّ الإلزام بعد التحدِّي وذلك القولُ قبلَه، وكونُه مسبوقاً بالتحدِّي الوارد في سورة البقرة[1] يردُّه أنَّها مدنيةٌ وهذه مكيةٌ.

نعم ربما يقال في الاستدلال على كون ذلك القولِ بعدَ العلم بوقوعِ حكايته في النظم الكريم بعدَ حكاية الإشارة إلى مضمونه بقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]، وردُّه بما سمعتَه هناك حَسْبَما قرَّره الجمهور.

وبيانُ ذلك: أنَّهم نُقل عنهم أولاً الإشارةُ إلى نسبة الافتراء إلى سيد الصادقين ﷺ، ثم نُقل عنهم التصريحُ بذلك، والظاهر أنَّ الأمرَ حسبما نُقل لكثرة وقوع التصريح بعد الإشارة، وقد تخلَّل ردُّ ما أشاروا إليه في البين، فيحتمل أنَّهم عقلوه وعلموا الحقَّ، لكنهم لم يقرُّوا به عناداً وبغياً فصرَّحوا بما صرَّحوا، فيكونُ ذلك منهم بعد العلم، ولِتَرَقِّيهم من الإشارة إلى التصريح ترقَّى في إلزامهم، فإنَّ هذا التحدِّي أظهرُ في الإلزام مما تقدَّم كما هو ظاهر، لكنْ للمناقشة في هذا مجال.

ويخطر بالبال أنَّه يحتمل أنْ يكونَ الإضراب عن ذمِّهم بالتكذيب بالقرآن إلى ذمِّهم بالمسارعة إلى تكذيب ما لم يحيطوا به علماً، وأنَّ الوقوف على العلم به متوقِّعٌ سواءٌ كان قرآناً أو غيره، فـ «ما»[2] عامَّةٌ للأمرَين، ويدخل القرآنُ في العموم دخولاً أوليّاً، ولعله أولَى مما قيل: إنَّه إضرابٌ عن مقدَّر، وينبغي أنْ تسمَّى «بل» هذه فصيحةً، فإنَّ المعنى: فما أجابوا، أو ما قدروا أنْ يأتوا، بل كذبوا. . إلخ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ تكذيبهم من غير تدبُّرٍ وتأمُّلٍ ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فعلوا التكذيبَ، أو كذَّبوا أنبياءهم فيما أتَوا به.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ خطابٌ لسيد المخاطبين ﷺ، ويحتمل أنْ يكونَ عاماً لكلِّ مَن يَصلُح له. والمراد بـ «الظالمين»: الذين مِن قَبْلِهم، ووُضِعَ المُظْهَر موضع المضمَرِ للإيذان بكون التكذيبِ ظلماً، وبعلِّيته لإصابةِ

(١) الآية (٢٣) منها.
(٢) بعدها في الأصل: به.

ما أصابهم من سوء العاقبةِ، وبدخول هؤلاء الذين حُكي عنهم ما حُكي في زمرتهم جرماً ووعيداً دخولاً أوليّاً.

والفاءُ لترتيبِ ما بعدها على محذوفٍ ينساقُ إليه الكلام، أي: فأهلكناهم فانظر.. إلخ.

و«كيف» في موضع نصبِ خبرِ «كان»، وقد يُتصرَّف فيها فتوضعُ موضعَ المصدر، وهو: كيفية، ويخلع عنها معنى الاستفهام بالكلية، وهي هنا تَحْتمِلُ ذلك، وكذا قولُ البخاريِّ رضي الله عنه: كيف كان بدءُ الوحي[1]، كما قال السمين[2]. ونُقِلَ عنه أنَّ فعل النظر معلَّقٌ عن العمل لمكان «كيف»؛ لأنَّهم عاملوها في كلِّ موضعٍ معاملةَ الاستفهام المحض[3].

﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ وصفٌ لحالهم بعد إتيانِ التأويل المتوقَّع ـ كما قيل ـ إذ حينئذٍ يُمكن تنويعُهم إلى المؤمن به وغيرِ المؤمن به، ضرورةَ امتناعِ الإيمانِ بشيءٍ من غير علمٍ به، واشتراكِ الكلِّ في التكذيب قبل ذلك، فالضمير للمكذِّبين.

ومعنى الإيمانِ به إمَّا الاعتقاد بحقِّيَّته فقط، أي: منهم مَن يُصدِّق به في نفسه أنَّه حقٌّ عند الإحاطةِ بعلمه وإتيانِ تأويله، لكنه يُعاند ويكابِر. وإما الإيمان الحقيقي، أي: منهم مَن سيؤمنُ به ويتوبُ عن الكفر.

﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ أي: لا يصدِّقُ به في نفسه، كما لا يُصدِّق به ظاهراً، لفَرْطِ غَباوَتِه المانعةِ عن الإحاطة بعلمه كما ينبغي، أو لسخافةِ عَقْلِه واختلالِ تمييزه، وعجزِه عن تخليص علومه عن معارضة الظنونِ والأوهام التي أَلِفَها، فيبقَى على ما كان عليه من الشكِّ، أو لا يؤمنُ به فيما سيأتي، بل يموت على كفره مُعانداً كان أو شاكّاً.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: بكِلَا الفريقَين على الوجه الأول من التفسير، لا بالمعاندين فقط؛ لاشتراكهما في أصل الإفساد المستدعي لاشتراكهما في الوعيد

(١) الباب الأول في صحيح البخاري.
(٢) في الدر المصون ٦/ ٢٠٦ نقلاً عن المحرر الوجيز ٣/ ١٢١.
(٣) الدر المصون ٦/ ٢٠٥-٢٠٦.

المراد من الكلام، أو بالمصرِّين الباقين على الكفر على الوجه الثاني منه.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: أصرُّوا على تكذيبك بعد إلزام الحجَّة، وأُوِّل بذلك لأنَّ أصل التكذيب حاصلٌ، فلا يصحُّ فيه الاستقبال المفاد بالشرط، وأيضاً جوابه وهو قوله سبحانه: ﴿فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ المرادُ منه التبرُّؤ والتَّخْلِيةُ، إنَّما يُناسبُ الإصرارَ على التكذيب واليأسَ من الإجابة، والمعنى: لي جزاءُ عملي ولكم جزاء عملكم كيفما كانا.

وتوحيدُ العمل المضاف إليهم باعتبار الاتِّحاد النوعيِّ، ولمراعاة كمال المقابلة كما قيل.

وقولُه سبحانه: ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ تأكيدٌ لِمَا أفاده لامُ الاختصاص من عدم تعدِّي جزاء العمل إلى غير عامله، أي: لا تُؤاخَذون بعملي ولا أُؤاخَذُ بعملكم، وعلى هذا فالآيةُ محكَمةٌ غيرُ منسوخةٍ بآية السيف، لِمَا أنَّ مدلولها اختصاصُ كلٍّ بأفعاله وثمراتِها من الثواب والعقاب، وآيةُ السيف لم تَرفع ذلك.

وعن مقاتل والكلبيِّ وابن زيد: أنَّها منسوخةٌ بها، وكأنَّ ذلك لمَّا فهموا منها الإعراضَ وتركَ التعرُّض بشيءٍ.

ولعلَّ وجهَ تقديمِ حُكم المتكلم أولاً وتأخيرِه ثانياً، والعكسِ في حكم المخاطبين، ظاهرٌ مما ذكرناه في معنى الآية. فافهم.

❀ ❀ ❀

هذا ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ وهو احتجابُهم عن قبول صفاتِ الحقِّ؛ وذلك لأنَّه بتوفُّر النعم الظاهرةِ والمراداتِ الجسمانية يقوَى ميلُ النفس إلى الجهة السفلية، فتحتَجبُ عن قبول ذلك، كما أنَّه بأنواع البلاء تنكسرُ سَوْرَةُ النفس، ويتلطَّفُ القلب، ويحصلُ الميلُ إلى الجهة العلويَّة، والتهيُّؤ لقبول ذلك.

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ بإخفاءِ القهرِ الحقيقيِّ في هذا اللطف الصُّوريِّ ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ في ألواح الملكوت.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يُسيِّر نفوسَكم في بَرِّ المجاهدَات، وقلوبَكم في بحر المشاهدَات.

وقيل: يسيِّر عقولَكم في بَرِّ الأفعال، وأرواحَكم في بحر الصفات والذات.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: فلكِ العناية الأزلية ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ وهي ريحُ صَبَا وِصَالِه سبحانه ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ لإيذانها بذلك، وتعطُّرها بشذا ديارِ الأُنس ومرابع القُدْسِ:

أَلَا يا نسيمَ الريح مالَكَ كلَّما … تَقَرَّبْتَ منَّا زادَ نَشْرُكَ طِيْبا
أظنُّ سُلَيمَى خُبِّرَتْ بسقامنا … فأعطتكَ ريَّاها فجئتَ طَبيبا(١)

﴿جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ وذلك عاصفُ القَهْرِ وأمواجُ صفاتِ الجلال، وهذه سنَّةٌ جاريةٌ في العاشقين، لا يستمرُّ لهم حالٌ ولا يدومُ لهم وصالٌ، ولله دَرُّ من قال:

فَبِتْنا على رَغْم الحسود وبيننا … شرابٌ كريح المسكِ شِيْبَ بهِ الخمرُ
فوسَّدتُها كفِّي وبتُّ ضَجيْعَها … وقلتُ لِلَيْلي طُلْ فَقَد رَقَدَ البدرُ
فلمَّا أضاءَ الصبحُ فرَّق بَيْننا … وأيُّ نعيمٍ لا يُكَدِّرُهُ الدهرُ(٢)

﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي: أنَّهم مِن الهالكين في تلك الأمواج ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بالتبرِّي من غير الله تعالى، قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك بك.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو تجاوزُهم عن حدِّ العبودية بسُكْرِهم في جمال الربوبية، وذلك مثلُ ما عرا الحلَّاجَ وأضرابَه، ثم إنَّه سبحانه نَبَّههم بعدَ رجوعهم من السُّكْرِ إلى الصَّحْوِ على أنَّ الأمر وراءَ ذلك، بقوله جلَّ وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي: إنَّه يرجعُ إليكم ما ادَّعيتُم لا إليه تعالى، فإنَّه سبحانه الوجود(٣) المطلق حتى عن قيدِ الإطلاق، كذا قالوا.

---

(١) البيتان في المدهش لابن الجوزي ص٤٦٨.
(٢) الأبيات لصريع الغواني، وهي في ديوانه ص٣١٧.
(٣) في (م): الموجود.

وقال ابنُ عطاء في الآية: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟﴾مراكبَ المعرفة، وجرَت بهم رياحُ العناية، وطابَت نفوسُهم وقلوبُهم بذلك، وفرحوا بتوجُّههم إلى مقصودهم ﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾أَفْنتْهم عن أحوالهم وإرادتهم ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أي: تيقَّنوا أنَّهم مأخوذون عنهم، ولم يبق لهم ولا عليهم صفةٌ يرجعون إليها، وأنَّ الحقَّ خصَّهم من بين عبادِه بأنْ سَلَبهم عنهم ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ حيث صفَّى سبحانه أسرارَهم، وطهَّرها مما سواه ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ﴾ أي: ردَّهم إلى أوصافهم وأشباحهم، رجعوا إلى ما عليه عوامُّ الخلق من طلَب المعاش للنفوس. انتهى.

وكأنَّه حمل البغيَ على الطلب، وضمَّنه معنَى الاشتغال، أي: يطلبون في الأرض مشتغلينَ بغير الحقِّ سبحانه، وهو المعاشُ الذي به قوامُ أبدانهم.

ويُشْكِلُ أمرُ الوعيدِ المنبئ به ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ إلخ على هذا التأويل وما قبله؛ لأنَّ ما يقع في السكر لا وعيدَ عليه، وكذا طلبُ المعاش. وانظر هل يصحُّ أنْ يقال: إنَّ الأمر من باب: حسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المقرَّبين؟.

ثم إنَّه سبحانه مثَّل الحياةَ في سرعة زوالها وانصرام نعيمها غِبَّ إقبالها واغترار صاحبها بها بما أشار إليه سبحانه بقوله جلَّ وعلا: ﴿كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ إلخ، وفيه إشارةٌ إلى ما يَعْرِض ـ والعياذُ بالله تعالى ـ لمن سبقَت شقاوتُه في الأزل من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ، فبينما تراه وأحوالُه حاليَةٌ، وأعوامُه عن شوائب الكَدَر خاليةٌ، وغصونُ أُنْسِه متدلِّيةٌ، ورياضُ قُرْبِه مُوْنِقةٌ، قلَبَ الدهرُ له ظهْرَ المِجَنِّ، وغزاه بجيوشِ المحَنِ، وهبَّت على هاتيك الرياض عاصفاتُ القضاء، وضاقت عليه فسيحاتُ الفضاء، وذهَبَ السرورُ والأنس، وجُعل حصيداً كأنْ لم يَغْنَ بالأمس، وأنشد لسانُ حاله:

قِفْ بالديار فهذه آثارُهم ... تبكي[1] الأحبةَ حسرةً وتَشَوُّقا
كم قد وَقفتُ بها أُسائلُ مُخبِراً ... عن أهلها أو صادقاً أو مُشْفِقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها ... فارقْتَ مَن تَهوى فعزَّ الملتقَى[2]

(١) في (م): نبكي.
(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٣٤٨، وتاريخ بغداد ٤/ ٤٣٣، وطبقات الصوفية ص٢٦٤.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ وهو العالَمُ الروحانيُّ السليمُ من الآفات ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا شُعوبَ فيه، وهو طريقُ الوحدة.

وقد يقال: يدعو الجميعَ إلى داره، ويَهدي خواصَّ العارفين إلى وِصاله، أو: يدعو السالكينَ إلى الجنة، ويَهدي المجذوبينَ إلى المشاهدةِ.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ وهم خواصُّ الخواصِّ ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي رؤيةُ الله تعالى ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي دوامُ الرؤية. أو: للذين جاؤوا بما يَحسُنُ به حالُهم من خيرٍ قلبيٍّ أو قالبيٍّ، المثوبةُ الحسنَى من الكمال الذي يُفاضُ عليهم، وزيادةٌ في استعداد قبول الخير إلى ما كانوا عليه قبلُ.

وقد يقال: «الحسنى» ما يقتضيه قربُ النوافل، والزيادة ما يقتضيه قربُ الفرائض.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا يُصيبُهم غبارُ الخجالة ولا ذلُّ الفرقة.

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ التي تقتضيها أفعالُهم ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم ذكر سبحانه حالَ الذين أساؤوا بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ إلخ وأشار إلى أنه على عكس حالِ أولئك الكرام.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ في المجمع الأكبر ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ منهم، وهم المحجوبون الواقفون مع الغير بالمحبةِ والطاعة ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ قِفُوا جميعاً وانتظروا الحكمَ.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: قَطعْنا الأسباب التي كانت بينهم ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ بل كنتم تعبدون أشياءَ اخترعتُمُوها في أوهامكم الفاسدة. ﴿فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ لم نطلبها منكم لا بلسان حالٍ ولا بلسان قالٍ.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الموقف ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: تذوقُ وتختبرُ ﴿مَّا أَسْلَفَتْ﴾ في الدنيا ﴿وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ المتولِّي لجزائهم بالعدل والقِسْط ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من اختراعاتهم وتوهُّماتهم الكاذبة وأمانيهم الباطلة.

ثم ذكر سبحانه مما يَدُلُّ على التوحيد ما ذكر، والرزقُ من السماء عند العارفين هو رزقُ الأرواح، ومن الأرض رزقُ الأشباح، والحيُّ عندهم العارفُ، والميتُ الجاهل.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ذمٌّ لهم بعَدَم العلم بما يجبُ لمولاهم، وما يمتنع وما يجوز، ولا يكادُ ينجو من هذا الذمِّ إلا قليلٌ، ومنهم الذين عرفوه جلَّ شأنه به لا بالفكر، بل قد يكاد يقصر العلم عليهم، فإنَّ أدلَّةَ أهل الرسوم من المتكلِّمين وغيرِهم متعارضةٌ، وكلماتهم متجاذبةٌ، فلا تكاد تَرَى دليلاً سالماً من قيلٍ وقال، ونزاعٍ وجدال، والوقوفُ على علمٍ من ذلك مع ذلك أمرٌ أبعدُ من العيُّوق، وأعزُّ مِن بَيض الأنوق:

لقد طُفْتُ في تلكَ المعاهدِ كلِّها وسرَّحتُ طَرْفي بين تلك المعالمِ
فلمْ أرَ إلا واضعاً كفَّ حائرٍ على ذقنٍ أو قارعاً سنَّ نادمِ[1]

فَمَن أرادَ النجاةَ فليفعلْ ما فعل القومُ ليَحْصُلَ له ما حَصَلَ لهم، أو لا فليتَّبع السَّلفَ الصالح فيما كانوا عليه في أمر دينهم، غيرَ مُكترثٍ بمقالات الفلاسفة ومَن حذا حَذْوَهم من المتكلِّمين، التي لا تزيدُ طالبَ الحقِّ إلا شكّاً.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من اللوحِ المحفوظِ ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي هو الأمُّ، أي: كيف يكون مختلقاً وقد أثبتَ قبلَه في كتابين مُفصَّلاً ومجملاً.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ ذمٌّ لهم بالمسارَعةِ إلى تكذيب الحقِّ قبل التأمُّلِ والتدبرِ والاطِّلاعِ على الحقيقة، وهذه عادةُ المنكرين أهلِ الحجاب مع كلمات القوم، حيث إنَّهم يُسارعون إلى إنكارها قبل التأمُّل فيها، وتدبُّرِ مضامينها، والوقوفِ على الاصطلاحات التي بُنيَتْ عليها، وكان الحرِيُّ بهم التثبتُ والتدبُّرُ. والله تعالى ولي التوفيق.

❁ ❁ ❁

(١) البيتان لابن سينا كما في وفيات الأعيان ٢/ ١٦١، وقد سلفا ٤/ ٣٠٧.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ بيانٌ لكونهم مطبوعاً على قلوبهم بحيث لا سبيلَ إلى إيمانهم، «ومَن» مبتدأ خبرُه مقدَّمٌ عليه، وهو إمَّا موصولٌ أو نكرةٌ موصوفةٌ، والجملةُ بعده إمَّا صلةٌ أو صفةٌ، وجُمِعَ الضمير الراجع إليه رعايةً لجانبِ المعنَى، كما أُفرد فيما بعدُ رعايةً لجانب اللفظ، ولعل ذلك للإيماءِ إلى كثرة المستمعين بناءً على عدم توقُّف الاستماع على ما يتوقَّفُ عليه النظر من الشروط العادية أو العقلية، والمعنَى: ومِن المكذِّبين الذين ـ أو أُناسٌ ـ يُصغون إلى القرآن، أو إلى كلامك إذا علَّمتَ الشرائع، وتَصِلُ الألفاظُ لآذانهم، ولكنْ لا ينتفعون بها ولا يقبلونها، كالصُّمِّ الذين لا يسمعون.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي: تقدرُ على إسماعهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ولو انضمَّ إلى صَمَمِهم عدمُ عقلهم؛ لأنَّ الأصمَّ العاقل ربَّما تفرَّس إذا وصل إلى صِماخه دويٌّ، وأمَّا إذا اجتمع فقدانُ السمع والعقلِ فقد تمَّ الأمرُ.

وإنَّما جُعلوا كالصُّمِّ الذين لا عقْلَ لهم مع كونهم عقلاء؛ لأنَّ عقولَهم قد أُصيبَت بآفةِ معارضةِ الوهم لها، وداءِ متابعة الإلْفِ والتقليد، ومِن هنا تَعذَّر عليهم فهمُ معاني القرآن والأحكام الدقيقة، وإدراكُ الحِكَم الرشيقة الأنيقة، فلم ينتفعوا بسَرْدِ الألفاظ عليهم غيرَ ما تنتفعُ به البهائم من كلام الناعق.

وتقديمُ المسند إليه في «أفأنت» للتقوية عند السكاكي[1]، وجَعَله العلَّامةُ للتخصيص، ففي تقديم الفاعل المعنويِّ وإيلائه همزةَ الإنكارِ الدلالةُ على أنَّ نبيَّ الله ﷺ تَصوَّر في نفسه ـ مِن حِرْصِه على إيمان القوم ـ أنَّه قادرٌ على الإسماع. أو نُزِّل مَنزلةَ مَن تَصوَّر أنَّه قادرٌ عليه، وأنَّه تعالى شأنُه نفَى ذلك عنه ﷺ وأثبتَه لنفسه سبحانه على الاختصاص، كأنَّه قيل: أنتَ لا تقدرُ على إسماع أولئك، بل نحن القادرون عليه. كذا قيل، وفي القلب منه شيءٌ، ولذا اختير هنا مذهبُ السكاكي. وجُعل إنكار الإسماع متفرِّعاً على المقدِّمة الاستدراكية المطويَّة المفهومة من المقام حسبما أُشيرَ إليه، وفيه اعتبارُ كونِ الهمزة مُقدَّمةً من تأخيرٍ لاقتضائها الصدارةَ، وهو مذهبٌ لبعضهم.

---

(١) مفتاح العلوم ص١٩٥ و٢٢١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٢.

وقيل: إنَّها في موضعها، وأُدخلت الفاءُ لإنكار ترتُّبِ الإسماع على الاستماع، لكن لا بطريق العطف على فعله المذكور الواقع صلةً أو صفةً، للزوم اختلال المعنَى على ذلك[1]، بل بطريق العطف على فعلٍ مثله، مفهومٍ من فحوَى النظم غيرِ واقعٍ موقعه، كأنَّه قيل: أيستمعون إليك فأنت تُسمعهم، وقد يُراد إنكارُ إمكان وقوع الإسماع عقيبَ ذلك وترتُّبه عليه، كما يُنبئ عنه وضْعُ الصمِّ موضعَ ضميرهم ووصْفُهم بعدم العقل.

وجواب «لو» محذوفٌ لدلالة ما قبله[2] عليه، والجملةُ معطوفةٌ على جملةٍ مقدَّرةٍ مقابِلة لها، والكلُّ في موضع الحال من مفعول الفعل السابق، أي: أفأنت تُسمع الصمَّ لو كانوا يعقلون ولو كانوا لا يعقلون، على معنَى: أفأنت تُسمعهم على كلِّ حالٍ مفروضٍ، ويقال لـ «لو» هذه: وصلية، وذلك أمرٌ مشهور.

واستشكل الإتيان بها هنا بأنَّ الأصل فيها أنْ يكون الحُكم على تقدير تحقق مدخولها ثابتاً، كما أنَّه ثابتٌ على تقديرِ عَدَمِه، إلا أنَّه على تقدير عدمه أَولَى، والأمرُ هنا بالعكس.

وأُجيبَ بأنَّ اتِّصال الوصلِ بالإثبات جارٍ على المعروف، فإنَّ تقديره: تُسمعهم ولو كانوا لا يعقلون، وظاهرٌ أنَّ إسماعهم مع العقل بطريق الأَولَى، والاستفهامُ إثباتٌ بحسب الظاهر، فإنْ نُظِرَ إليه فذاك، وإنْ نَظِرَ إلى الإنكار وأنَّه نَفْيٌ بحسب المعنى اعتُبر أنَّه داخلٌ على المجموع بعد ارتباطه، وكذا يقال فيما بعدُ، فتأمَّل فيه ولا تغفل.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويُعاينُ دلائلَ نُبوَّتك الواضحة، ولكن لا يهتدي بها كالأعمى ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي ٱلْعُمْىَ﴾ تقدرُ على هدايتهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي: ولو انضمَّ إلى عدم البصر عدمُ البصيرة، فإنَّ المقصود من الإبصار هو الاعتبارُ والاستبصار، والعمدةُ في ذلك هي البصيرة، ولذلك يَحدِسُ الأعمى المستَبْصِرُ وَيَتفطَّن لِمَا لا يُدركُ البصير الأحمقُ، فلا يقال: كيف أُثبِتَ لهم النظر والإبصارُ أولاً ونُفي عنهم ثانياً.

---

(١) لأنه سواء كان هذا الفعل صلة أو صفة فالعطف عليه يستدعي دخول المعطوف في حيِّزه، وتوجُّهَ الإنكار عليه من تلك الحيثية، ولا ريب في فساده. تفسير أبي السعود ٤/١٤٨.

(٢) في الأصل: قبل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا ينقُصُهم ﴿شَيْـًٔا﴾ مما نيطَت به مصالحهم وكمالاتُهم، من مبادي الإدراكات وأسبابِ العلوم، والإرشادِ إلى الحقِّ بإرسال الرسل عليهم السلام ونَصْبِ الأدلة، بل يُوفِّيهم ذلك فضلاً منه جلَّ شأنه وكرماً.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي: ينقصون ما ينقصون من ذلك لعدم استعمال مشاعرهم فيما خُلقَت له، وإعراضِهم عن قبول الحقِّ، وتكذيبهم للرسل، وتَرْكِ النظر في الأدلة، فـ «شيئاً» مفعولٌ ثانٍ لـ «يظلم» بناءً على أنه مُضمَّنٌ معنى ينقُصُ كما قيل، أو أنَّه بمعناه من غير حاجةٍ إلى القول بالتضمين كما نقول، وأنَّ النقص يتعدَّى لاثنين، كما يكون لازماً ومتعدِّياً لواحد.

ولم يُذكر ثاني مفعولي الثاني لعدم تعلُّقِ الغرض به. وتقديمُ المفعول الأول يحتملُ أنْ يكون لمجرَّد الاهتمام مع مراعاة الفاصلة، من غير قصدٍ إلى قصْرِ المظلومية عليهم على رأي مَن لا يرَى التقديمَ موجباً للقصر، كابنِ الأثير[1] ومَن تبعه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١]. ويحتمل أنْ يكونَ لقَصْرِ المظلومية على رأي من يَرى التقديمَ موجباً لذلك، كالجمهور ومَن تبعهم. ولعل إيثارَ قَصْرِها على قَصْرِ الظالمية عليهم للمبالغة في بطلان أفعالهم وسخافةِ عقولهم، على أنَّ قَصْرَ الأولى عليهم مستلزمٌ ـ كما قيل ـ لِمَا يقتضيه ظاهرُ الحال من قَصْرِ الثانية عليهم، فاكتفَى بالقصر الأول عن الثاني مع رعاية ما ذكر من الفائدة.

وجوَّز بعضُهم كونَ «أنفسهم» تأكيداً للناس، والمفعولُ حينئذٍ محذوفٌ، فيكونُ بمنزلة ضمير الفصل في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦] في قَصْر الظالمية عليهم.

والتعبيرُ عن فِعْلِهم ذلك بالنقص مع كونه تفويتاً بالكلِّية لمراعاة جانبِ قرينه. وصيغةُ المضارع للاستمرار نفياً وإثباتاً، أمَّا الثاني فظاهرٌ، وأمَّا الأول، فلأنَّ حرفَ النفي إذا دخل على المضارع يفيد بحسب المقام استمرارَ النفي لا نفي الاستمرار كما مرَّ غيرَ مرةٍ.

---

(١) في المثل السائر ٢/ ٣٩.

وقيل: المعنَى: إنَّ الله لا يظلمُ الناسَ بتعذيبهم يوم القيامة شيئاً من الظلم، ولكنَّ الناس أنفسَهم يظلمون ظلماً مستمرّاً، فإنَّ مباشرتَهم المستمرَّة للسيئات الموجبةِ للتعذيب عينُ ظلمهم لأنفسهم، فالظلمُ على معناه المشهور، و«شيئاً» مفعولٌ مطلقٌ، والمضارعُ المنفيُّ للاستقبال، والمثبَتُ للاستمرار.

ومساقُ الآية الكريمة على الأول لإلزام الحجَّةِ، وعلى الثاني للوعيد، وعلى الوجهَين هي تذييلٌ لِمَا سبق. وجَعْلُها على الأول تذييلاً لجميع التكاليفِ والأقاصيصِ المذكورة من أول السورة ـ وإنْ كان مُتَّجهاً ـ خلافُ الظاهر، لاسيَّما وما بعدُ ليس ابتداءَ شروعٍ في قصةِ آخرين.

وقيل: معنَى الآيةِ: إنَّ الله لا يظلمُ الناسَ شيئاً بسَلْبِ حواسِّهم وعقولهم إنْ سَلَبها، لأنَّه تصرُّفٌ في خالص مُلكه، ولكنَّ الناسَ أنفسَهم يظلمون بإفساد ذلك وصَرْفِهِ لِمَا لا يليقُ، وهي جوابٌ لسؤالٍ نشأ من الآية السابقة، والظلمُ فيها على ظاهره أيضاً.

واستُدلَّ بها على أنَّ للعبد كَسْباً، وليس مسلوبَ الاختيارِ بالكلية كما ذهبَ إليه الجبرية، والمختارُ عند كثير من المحقِّقين أنَّ نفيَ ظلم الناس عنه تعالى شأنُه لأنَّه سبحانه جوادٌ حكيم يُفيضُ على القوابل حَسْبَ استعدادها الأزليِّ الثابت في العلم، فما مِن كمالٍ أو نقصٍ في العبد إلا هو كمالُه أو نقصُه الذي اقتضاه استعدادُه، كما يُرشد إلى ذلك قولُه جلَّ وعلا: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: ٥٠] وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٨]. وأنَّ إثبات ظلم الناس لأنفسهم باعتبار اقتضاءِ استعدادِهم الثابت في العلم الأزليِّ ما أُفيض عليهم مما استحقُّوا به التعذيب.

وقد ذكروا أنَّ هذا الاستعدادَ غيرُ مجعولٍ، ضرورةَ أنَّ الجَعْلَ مسبوقٌ بتعلُّق القدرة المسبوق بتعلُّق الإرادة المسبوقِ بتعلُّق العلم، والاستعدادُ ليس كذلك؛ لأنَّه لم يثبت العلم إلا وهو متعلِّق به، بل بسائر الأشياء أيضاً؛ لأنَّ التعلُّق بالمعلوم من ضروريات العلم، والتعلُّقُ بما لا ثُبوتَ له أصلاً مما لا يُعقَلُ، ضرورةَ أنَّه نسبةٌ، وهي لا تَتحقَّق بدون ثبوت الطرفَين.

ولا يَرِدُ على هذا أنَّه يلزَمُ منه استغناءُ الموجوداتِ عن المؤثِّر؛ لأنَّا[1] نقول: إنْ كان المراد استغناءَها عن ذلك نظراً إلى الموجود العِلْميِّ القديم فالأمرُ كذلك، ولا محذورَ فيه، وإنْ كان المراد استغناءها عن ذلك نظراً إلى وجودها الخارجيِّ الحادث، فلا نُسلِّم اللزوم. وتحقيقُ ذلك بما له وما عليه[2] في محلِّه.

وفي الآية على هذا تنبيهٌ على أنَّ كون أولئك المكذِّبين كما وُصفوا إنما نَشَأ عن اقتضاءِ استعدادِهم له، ولذلك ذُمُّوا به، لا عن مَحْضِ تقديره عليهم من غير أنْ يكونَ منهم طلبٌ له باستعدادهم، ولعل تسميةَ التصرُّف على خلافِ ما يقتضيه الاستعداد لو كان ظلماً من باب المجاز وتنزيلِ المقتضي منزلةَ الملك، وإلا فحقيقةُ الظلم مما لا يصحُّ إطلاقه على تصرُّفٍ من تصرُّفاته تعالى كيف كان، إذ لا ملك حقيقةً لأحدٍ سواه في شيءٍ من الأشياء.

ووُضع الظاهرُ في الجملة الاستدراكية موضعَ الضمير لزيادة التعيين والتقرير. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بتخفيف «لكنْ» ورَفْع «الناس»[3].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء وهي قراءةُ حفصٍ عن عاصم[4]، وقرأ الباقون بالنون على الالتفات. و«يوم» عند الأكثرين منصوبٌ بمضمرٍ، أي: اذكُر لهم ـ أو أَنذرهم ـ يومَ نجمعُهم لموقف الحساب.

﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: كأنَّهم أُناسٌ لم يلبثوا[5] ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ أي: شيئاً قليلاً منه، فإنَّها مَثَلٌ في غاية القِلَّة، وتخصيصُها بالنهار لأنَّ ساعاته أعرفُ حالاً من ساعات الليل.

---

(١) جاء في هامش الأصل: ذهب بعض المحققين إلى أن المعلومات في العلم صادرة منه تعالى (وبعدها كلمة غير مجودة) فلا تغفل. اهـ منه.
(٢) في الأصل: بما له وعليه.
(٣) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢١٩، وهي قراءة خلف من العشرة.
(٤) في الأصل: حمزة عن عاصم، وفي (م): حمزة على عاصم، والصواب ما أثبتناه، وهي عن حفص في التيسير ص١٠٧، والنشر ٢/ ٢٦٢.
(٥) في (م): يلبسوا، وهو تصحيف.

والجملةُ في موقع الحال من مفعول «نحشرُهم»، أي: نحشرُهم مشبَّهين بمَن لم يَلْبَثْ في الدنيا أو في البرزخ إلَّا ذلك القدرَ اليسير.

وليس المرادُ من التشبيه ظاهرَه على ما قيل، وقد صرَّح في «شرح المفتاح»[١] أنَّ التشبيه كثيراً ما يُذكر ويُراد به معانٍ أُخَرُ تَترتَّب عليه. فالمرادُ إمَّا التأسُّفُ على عدم انتفاعهم بأعمارهم، أو تمنِّي أنْ يطولَ مُكثُهم قبل ذلك حتى لا يشاهدوا ما شاهدوه من الأهوال، فمآلُ الجملة في الآخرة: نحشرُهم متأسِّفين أو متمنِّين طول مكثهم قبل ذلك.

ويجوزُ أنْ يراد: نحشرُهم مُشبَّهين في أحوالهم الظاهرة للناس بمن لم يلبث في الدنيا ولم يتقلَّب في نعيمها إلا يسيراً، فإنَّ مَن أقام بها دهراً وتمتَّع بمتاعها لا يخلو عن بعض آثارِ نعمةٍ وأحكام بهجةٍ منافيةٍ لما بهم من رثاثة الهيئة وسوء الحال، وإليه ذهب بعضُهم، والظاهرُ أنَّه تكلُّفٌ لإبقاء التشبيه على ظاهره، والأول أَولَى كما لا يخفَى.

وأيّاً ما كان ففائدةُ التشبيه كنارٍ على علم، والعجبُ ممن لم يَرَها فقال: الظاهرُ أنَّ «كأنْ» للظنِّ.

وادَّعى البعض[٢] أنَّ فائدةَ التقييد على تقدير أنْ يرادَ اللبثُ في البرزخ بيانُ كمال يُسْرِ الحشر بالنسبة إلى قدرته تعالى ولو بعد دهرٍ طويلٍ، وإظهارُ بطلان استبعادهم وإنكارهم بقولهم: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]، ونحو ذلك، أو بيانُ تمامِ الموافقةِ بين النشأتَين في الأشكال والصُّورِ، فإنَّ قلَّةَ اللُّبث في البرزخ من موجبات عدم التبدُّلِ والتغيُّر. ولعلَّ مآل الحال على هذا: ويوم نحشرُهم على صورهم وأشكالهم غيرَ متغيِّرين.

وجوَّزَ أبو عليٍّ[٣] كونَ الجملة في موضع الصفة لـ «يوم»، والعائدُ محذوفٌ تقديره: كأنْ لم يلبثوا قبله، أو لمصدرٍ محذوفٍ والعائدُ كذلك، أي: حشراً كأن لم يلبثوا قبله.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٦/ ٣٣، وعنه نقل المصنف.

(٢) هو أبو السعود في تفسيره ٦/ ١٥٠.

(٣) هو الفارسي، وكلامه في مجمع البيان ١١/ ٥٤-٥٥.

ورُدّا[1] بأنَّ مثل هذا الرابط لا يجوزُ حذفُه، والأولُ بأنَّ المراد بالظرف المضاف ـ وهو الموصوف ـ يومُ القيامة، وهو يومٌ معيَّنٌ، وتقدير الكلام: يومَ حَشْرِه، أو: يومَ حَشْرِنا، فيكون الموصوفُ معرفةً، والجملُ نكرات ولا تُنعت المعرفة بالنكرة.

وأُجيبَ بأنَّ المنع من جواز حذف مثل ذلك الرابط في حيِّز المنع، وبأنَّ الجمل التي تضاف إليها أسماء الزمان قد يقدَّر حلُّها إلى معرفةٍ، فيكونُ ما أُضيف إليها معرفةً، وقد يقدَّر حلُّها إلى نكرة، فيكون ذلك نكرة، ولعل أبا عليٍّ يتكلَّف لاعتبارِ حلِّها إلى نكرة، ويكونُ الموصوف هنا نكرةً عنده، فيرتفعُ محذورُ نعتِ المعرفة بالنكرة.

وأنت تعلمُ أنَّ الجواب إنما يدفعُ البطلانَ لا غير، فالحقُّ ترجيحُ الحالية.

وقولُه سبحانه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ ـ أي: يعرفُ بعضُهم بعضاً كأنَّهم لم يتفارَقوا إلَّا قليلاً ـ يحتمل أنْ يكونَ استئنافاً، وأن يكونَ بياناً للجملة التشبيهية واستدلالاً عليها كما قيل، وذلك أنَّه لو طال العهدُ لم يبقَ التعارُفُ؛ لأنَّ طول العهد مُنْسٍ مُفْضٍ إلى التناكُر، لكنَّ التعارف باقٍ فطولُ العهدِ مُنتفٍ، وهو معنى «لم يَلْبَثوا إلا ساعةً»، وفيه دغدغة.

وزعَمَ أبو البقاء كونَه حالاً مقدَّرة[2]، ولا داعيَ لاعتبارِ كونها مقدَّرة؛ لأن الظاهر عدمُ تأخُّرِ التعارُفِ عن الحشر بزمانٍ طويل ليُحتاجَ إليه، وقد صرَّحوا بأنَّ التعارُف بينَهم يكون أولَ خروجهم من القبور، ثم ينقطع لشدَّة الأهوال المذهلة، واعتراءِ الأحوال المعضلة المغيِّرة للصُّور والأشكال، المبدِّلة لها من حالٍ إلى حال.

وعندي أنْ لا قَطْعَ بالانقطاع، فالمواقفُ مختلفةٌ والأحوالُ متفاوتةٌ، فقد يتعارَفون بعدَ التناكُر في موقفٍ دون موقفٍ وحالٍ دون حال، وفي بعض الآثار ما يؤيِّد ذلك.

---

(١) في (م): ورد، والمثبت من الأصل، وهو الصواب. ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٣٣.

(٢) الإملاء ٣/ ٢٣٣.

وزَعَم بعضُهم المنافاةَ بين ما تدلُّ عليه هذه الآية وما يدلُّ عليه قولُه سبحانه: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠] من عَدَم التعارف، لولا اعتبار الزمانين.

وقيل: لا منافاةَ؛ بناءً على أنَّ المثبت تعارُفُ تقريعٍ وتوبيخٍ، والمنفيّ تعارفُ تواصُلٍ وشفقة.

ولمانعٍ أنْ يمنعَ دلالةَ ما ذُكر من الآيات على نفْي التعارف، وقُصارَى ما تدلُّ(١) عليه نفيُ نَفْعِ الأنساب وسؤالِ بعضِهم بعضاً، والتعارُف الذي تدلُّ عليه هذه الآيةُ لا ينافي ذلك؛ فقد أخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنَّه قال فيها: يعرِفُ الرجل صاحبَه إلى جنبه فلا يستطيعُ أنْ يكلِّمه(٢).

ثم إنَّ حمْلَ التعارُفِ على معرفة بعضهم بعضاً هو المعروفُ عند المفسرين. وقيل: المراد به التعريفُ، أي: يعرِّفُ بعضُهم بعضاً ما كانوا عليه من الخطأ والكفر، وفيه ما فيه.

وجوَّز بعضُهم أنْ يكونَ الظرفُ السابقُ متعلِّقاً بـ «يتعارفون»، قيل: فيعطَفُ على ما سبق. ولا يظهرُ له وجهٌ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ سيقَت للشهادة منه تعالى على خُسرانهم والتعجيبِ منه، وهي خبريَّةٌ لفظاً، إنشائيةٌ معنًى.

وقيل: مقولٌ لقولٍ مقدَّرٍ وقع حالاً من ضمير «يتعارفون»، أو من ضمير «يحشرُهم» إن كانت جملة «يتعارفون» حالاً أيضاً لئلَّا يفصل بينَ الحال وذِيها أجنبيٌّ، والاستئنافُ أظهرُ.

والتعبيرُ عنهم بالموصول مع أنَّ المقام مقامُ إضمارٍ، لذمِّهم بما في حيِّز الصلة، وللإشعار بعلِّيته لِمَا أصابهم. والظاهرُ أنَّ المراد بـ «لقاء الله» تعالى مطلقُ الحساب والجزاء، وبالخسران الوضيعةُ، أي: قد وُضعوا في تجارتهم ومعاملتهم واشترائهم الكفر بالإيمان.

---

(١) في (م): يدل.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٥٥، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر المنثور ٣/ ٣٠٨.

وجوّز أنْ يُراد بالأول سوءُ اللقاء، وبالثاني الهلاكُ والضلال، أي: قد ضلُّوا وهلكوا بتكذيبهم بذلك.

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ۝٤٥﴾ أي: لطُرقِ التجارة عارِفينَ بأحوالها، أو ما كانوا مهتدين إلى طريق النجاة، والجملةُ عطفٌ على جملة «قد خسر» إلخ. وجوّز أن تكون معطوفةً على صلةِ الموصول على أنَّها كالتأكيد لها.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصلُه: إنْ نُرينَّك، و«ما» مزيدة[١] لتأكيد معنى الشرط، ومن ثَمَّةَ أُكِّد الفعلُ بالنون، والرؤيةُ بَصَريةٌ، أي: إمَّا نُرينَّك بعينك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب، بأنْ نعذِّبهم في حياتك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك.

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جوابٌ للشرط وما عُطِفَ عليه، والمعنى: إنَّ عذابهم في الآخرة مُقرَّرٌ، عُذِّبوا في الدنيا أوْ لا.

وقيل: هو جوابُ «نَتَوَفَّيَنَّكَ»، كأنَّه قيل: إمَّا نتوفَّينَّك فإلينا مرجعُهم فنُريكَه في الآخرة، وجوابُ الأول محذوفٌ، أي: إمَّا نرينَّك فذاك المراد، أو المتمنَّى، أو نحو ذلك. وقال الطيبيُّ: أي: فذاك حقٌّ وصوابٌ، أو واقعٌ أو ثابتٌ.

واختار الأولَ أبو حيان[٢]. والاعتراضُ عليه بأنَّ الرجوع لا يتَرتَّب على تلك الإراءة، فيحتاجُ إلى التزام كون الشرطية اتِّفاقيةً، ناشئٌ من الغفلة عن المعنى المرادِ.

والمراد من «نَعِدُهم»: وَعَدْناهم، إلا أنَّه عدل إلى صيغة الاستقبال لاستحضار الصورة، أو للدلالة على التجدُّد والاستمرار، أي: نعدُهم وعداً متجدِّداً حَسْبَما تقتضيه الحكمة من إنذارٍ غِبَّ إنذار.

وفي تخصيص البعض بالذِّكر، قيل: رمزٌ إلى أنَّ العِدَةَ بإراءة بعضِ الموعود، وقد أَراه ﷺ ذلك يومَ بدر.

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ۝٤٦﴾ من الأفعال السيئة التي حُكيت عنهم، والمرادُ من الشهادة لازِمُها مجازاً، وهو المعاقبةُ والجزاءُ، فكأنَّه قيل: ثم الله تعالى معاقِبٌ

(١) في (م): مزيد.
(٢) في البحر ٥/ ١٦٤.

على ما يفعلون. وجوِّز أنْ يُراد منها إقامتُها وأداؤها بإنطاق الجوارح، وإلا فشهادةُ الله سبحانه بمعنى كونه رقيباً وحافظاً أمرٌ دائم في الدارَين، و«ثم» لا تناسبُ ذلك[1].

والظاهرُ أنَّها على هذَين الوجَهين على ظاهرها، وفي «الكشف» وغيرِه: هي على الأول للتراخي الرُّتْبي، وعلى الثاني على الظاهر. وظاهرُ كلام البعض استحسانُ حَمْلِها على التراخي الرُّتْبي مطلقاً. ولا أرى لارتكاب خلافِ الظاهرِ بعد ذلك الارتكاب داعياً.

وأنَّ العطف بها على الجزاء لا على مجموع الشرطيةِ. وأنت تعلمُ أنَّ العطف على ذاك يَمنعُ من إرادة التعذيب منه أو إراءتِه، أو نحوِ ذلك مما لا يصحُّ أنْ يكون المعنى المعطوفُ بـ «ثم» بعده ومترتِّباً عليه، ولعل ما اعتبروه هناك ليس تفسيراً للرجوع، بل هو بيانٌ للمقصود من الكلام.

وإظهارُ اسم الجلالة لإدخال الرَّوعةِ، وتربيةِ المهابة، وتأكيدِ التهديد.

وقرأ ابنُ أبي عبلة: «ثَمَّ» بالفتح[2]، أي: هنالك.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ يومَ القيامة ﴿رَّسُولٌ﴾ تُنسَب إليه وتُدعَى به ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ الموقفَ ليشهدَ عليهم بالكفر والإيمان ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ أي: بعد أنْ يشهد ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل، وحُكم بنجاة المؤمن وعقابِ الكافر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أصلاً. والجملةُ قيل: تذييلٌ لِمَا قبلها مؤكِّدةٌ له. وقيل: في موضع الحال، أي: مستمرّاً عدمُ ظلمهم. ونظيرُ هذه الآيةِ على هذا قولُه سبحانه: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم﴾ [الزمر: ٦٩].

أو: لكلِّ أمةٍ من الأمم الخالية رسولٌ يُبعث إليهم بشريعةٍ اقتضَتها الحكمةُ ليدعوهم إلى الحقِّ، فإذا جاء رسولهم فبلَّغهم ودعاهم فكذَّبوه وخالفوه، قُضي بينهم ـ أي: بين كلِّ أمة ورسولها ـ بالعدل، وحُكمَ بنجاة الرسول والمؤمنين به، وهلاكِ المكذِّبين.

---

(١) لأنها تقتضي حدوثه. حاشية الشهاب ٥/ ٣٤.

(٢) البحر ٥/ ١٦٤.

والأوَّلُ مما رواه ابنُ جرير وغيرُه عن مجاهد[1]، والاستقبالُ عليه على ظاهرِه، ولا يحتاج إلى تقديرٍ مثل ما احتيجَ في التفسير الثاني، وقد رجِّح بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ بناءً على أنَّ الظاهر أنَّ المراد بالوعد الذي أشاروا إليه العذابُ الدنيويُّ الموعودُ كما يُرشد إليه ما بعده.

واستشكل ما يقتضيه ظاهرُ الآية مِن أن الله تعالى لم يُهمل أمةً من الأمم قطُّ، بل بعث إلى كلِّ واحدةٍ منهم رسولاً، بأنَّ أهل الفترة ليس فيهم رسولٌ، كما يشهد له[2] قوله سبحانه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس:٦].

وأُجيبَ بأنَّ عمومَ الآية لا يقتضي أنْ يكون الرسولُ حاضراً مع كلِّ أمةٍ منهم؛ لأنَّ تقدُّمَه على بعضٍ منهم لا يمنعُ من كونه رسولاً إلى ذلك البعض، كما لا يمنع تقدُّمُ رسولنا ﷺ مِن كونه مبعوثاً إلينا إلى آخر الأبد، غايةُ ما في الباب أنَّ ما وقع مِن تخليط القوم في زمن الفترة يكونُ مؤدِّياً إلى ضَعْفِ أَثَرِ دعوة الأنبياء عليهم السلام. انتهى. وهو كما ترى.

وقد يقال: إنَّ المراد من كلِّ أمةٍ: كلُّ جماعةٍ أراد الله تعالى تكليفَها حَسْبَما سبَقَ به عِلْمُه أو أراد سبحانه تنفيذَ كلمته فيها، أو نحو ذلك من المخصِّصات التي لا يلغو معها الحكم، لا كلُّ جماعةٍ من الناس مطلقاً، فلا إشكالَ أصلاً، فتدبر.

ثم إنَّ هذا القولَ من المكذِّبين استعجالٌ لِمَا وُعِدُوا به، وغرضُهم منه ـ على ما قيل ـ استبعادُ الموعودِ، وأنَّه ممَّا لا يكون.

وقد يُراد بالاستفهام الاستبعادُ ابتداءً؛ إذ المقامُ يقتضيه ولا مانعَ عنه، والقولُ بأنَّ ذلك إنَّما يكون ابتداءً بأين وأنَّى ونحوهما دون «متى» غيرُ مسلَّمٍ، كيف وهو معنًى مجازيٌّ، والمجازُ لا حَجْرَ فيه.

والخطاب لسيد المخاطَبين عليه الصلاة والسلام، والمؤمنين الذين يتلون عليهم الآياتِ المتضمِّنة لذلك، وجوابُ «إنْ» محذوفٌ اعتماداً على ما تقدَّمه، أي: إنْ كنتم صادقين في أنَّه يأتينا فليأتنا عَجَلةً.

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ١٨٨.

(٢) بعدها في الأصل: في قول.

ولكونه ﷺ هو الواسطةَ في إتيان ذلك ومنه نشأ الوعدُ دونَ المؤمنين، أُمِر ﷺ بالجواب بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا﴾ أي: لا أَقدِرُ على شيءٍ منهما بوجهٍ من الوجوه، وتقديمُ الضرِّ لِمَا أنَّ مَساقَ النَّظْم الكريم لإظهار العجز عنه، وأمَّا ذكرُ النفع فللتعميم إظهاراً لكمال العجز. وقيل: إنَّه استطراديٌّ لئلا يُتوهَّم اختصاصُ ذلك بالضرِّ. والأولُ أَولَى، وما وقع في سورة الأعراف[1] من تقديم النفع فللإشعار بأهمِّيته والمقامُ مقامه، والمعنى: لا أملك شيئاً من شؤوني ردّاً وإيراداً مع أنَّ ذلك أقربُ حصولاً، فكيف أملكُ شؤونكم حتى أتسبَّب في إتيان عذابِكم الموعودِ حَسْبَما تُريدون؟!

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ استثناءٌ منقطعٌ عند جمعٍ، أي: ولكنْ ما شاء الله تعالى كائنٌ.

وقيل: متَّصلٌ على معنى: إلا ما شاء الله تعالى أنْ أَملِكَه.

وتُعقِّب بأنَّه يأباه مقامُ التبرُّؤ عن أنْ يكون له ﷺ دَخْلٌ في إتيان الوعدِ، فإنَّ ذلك يستدعي بيانَ كونِ المتنازَع فيه مما لا يشاء أنْ يملكه عليه الصلاة والسلام.

والمعتزلةُ قالوا باتِّصال الاستثناء، واستدلُّوا بذلك على أنَّ العبد مستقلٌّ بأفعاله من الطاعات والمعاصي. وأنت تعلمُ أنَّ ذلك بمراحلَ عن إثبات مدَّعاهم.

نعم استدلَّ بها بعضُ مَن يرى رأي السلف مِن أنَّ للعبد قُدرةً مؤثِّرة بإذن الله تعالى، لا أنَّه ليس له قدرةٌ أصلاً كما يقوله الجبرية، ولا أنَّ له قدرةً لكنَّها غيرُ مؤثِّرةٍ كما هو المشهورُ عن الأشاعرة، ولا أنَّ له قدرةً مؤثِّرة إن شاء الله تعالى وإنْ لم يشأ، كما هو رأي المعتزلة. وقال: المعنى: لا أقدر على شيءٍ من الضرِّ والنفع إلَّا ما شاء الله تعالى أنْ أَقدِرَ عليه منهما فإنِّي أقدرُ عليه بمشيئته سبحانه.

وقال بعضهم: إذا كان الملك بمعنى الاستطاعةِ يكونُ الاستثناءُ متَّصلاً، وإذا أُبقي على ظاهره تعيَّن الانقطاعُ.

ولا يخفَى أنَّ الأصل الاتِّصالُ، ولا ينبغي العدولُ عنه حيث أَمْكَنَ من دون تعسُّفٍ.

---

(١) في الآية (١٨٨).

وأيّاً ما كان فظاهرُ كلامهم أنَّ الاستثناء من المفعول، إلا أنَّه على تقدير الانقطاع ليس المعنَى على إخراج المستثنى من حكم المستثنى منه، ولذا جُعل الحكم على ذلك التقدير أنَّه كائنٌ دون أملكه مثلاً، فلا تَدافُعَ في كلام مَن حكم بالانقطاع، وقال في بيان المعنى: أي: ولكنْ ما شاء الله تعالى من ذلك كائنٌ، مشيراً بذلك إلى النفع والضرِّ، فإنَّه صريحٌ في كون المستثنى من جنس المستثنى منه المقتضي للاتِّصال؛ لأنَّ المدار عند المحقِّقين في الأمرَين على الإخراج من الحُكْمِ وعَدَمِه.

ومما يقضي منه العجب زَعْمُ أنَّ الاستثناء من فاعلِ «لا أملك»، وجَعْلُ المعنى: لا أملك أنا ولكن الله سبحانه هو المالك لكلِّ ما يشاء يفعله بمشيئته.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الذين أَصرُّوا على تكذيب رُسُلهم ﴿أَجَلٌ﴾ لعذابهم يحلُّ بهم عند حلوله، لا يتعدَّى إلى أمةٍ أخرى.

﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ أي: أجلُ كلِّ أمةٍ، على ما هو الظاهر. ووُضِعَ الظاهرُ موضعَ الضميرِ لزيادةِ التقرير، والإضافةُ لإفادةِ كمالِ التعيين.

وجوِّز أن يكونَ الضمير للأمم المدلول عليها[1] بـ «كل أمة»، ووجِّهَ إظهارُ الأَجَل مضافاً لذلك بأنَّه لإفادة المعنى المقصود، الذي هو بلوغُ كلِّ أمةٍ أجلَها الخاصَّ بها. ومجيئُه إيَّاها بعينها من بين الأمم بواسطةِ اكتسابِ الأجل بإضافته عموماً يفيدُه معنى الجمعية، كأنَّه قيل: إذا جاءتهم آجالهم، بالجمع كما قرأ به ابنُ سيرين[2]، بأنْ يجيءَ كلَّ واحدٍ من تلك الأمم أجلُها الخاصُّ بها.

ويُفسَّر الأجلُ بحدٍّ معيَّنٍ من الزمان، والمجيءُ عليه ظاهرٌ، وبما امتدَّ إليه من ذلك[3]، فمجيئُه حينئذٍ عبارةٌ عن انقضائه، إذ هناك يتحقَّق مجيئه بتمامه، أي: إذا تمَّ وانقضَى أجلُهم الخاصُّ بهم.

﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ عنه ﴿سَاعَةً﴾ أي: شيئاً قليلاً من الزمان ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ عليه، والاستفعالُ عند جمعٍ على أصله، ونفيُ طلب التأخُّر والتقدُّم أبلغُ، وقال

(١) في الأصل و(م): عليه، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٢، والكلام منه.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٤٠، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٣، والبحر ٥/ ١٦٥.

(٣) أي: من الزمان. تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٢.

آخرون: إنَّه بمعنى التفعُّل، أي: لا يَتأخَّرون ولا يَتقدَّمون، والجملة الثانية إمَّا مستأنفةٌ أو معطوفة على القيد والمقيَّد، ومنعوا عطفَها على «لا يستأخرون» لئلَّا يَرِدَ أنَّه لا يُتصوَّر التقدُّم بعد مجيء الأجل، فلا فائدةَ في نفيه.

وأجازه غيرُ واحدٍ، والفائدةُ عنده في ذلك المبالغةُ في انتفاء التأخُّر؛ لأنَّه لمَّا نُظم في سلكه أشعَرَ بأنَّه بلغ في الاستحالة إلى مرتبته، فهو مستحيلٌ مثله للتقدير الإلهيِّ، وإنْ أمكنَ في نفسه؛ قيل: وهذا هو السرُّ في إيراد صيغة الاستفعال، أي: أنَّه بلغ في الاستحالة إلى أنَّه لا يُطلَب، إذ المحال لا يُطلَب.

ودَفَعَ بعضُهم ذلك بأنَّ «جاء» بمعنى: قارَبَ المجيءَ، نحو قولك: إذا جاء الشتاءُ فتأهَّب له. وتُعقِّب بأنَّه ليس في تقييد عدم الاستئخار بالقرب والدنوِّ مزيدُ فائدةٍ.

وأشار الزمخشريُّ[1] إلى جوابٍ آخر، وهو أنَّ لا يتأخَّر ولا يتقدَّم كنايةٌ عن كونه له حدٌّ معين وأجل مضروب لا يتعدَّاه، بقَطْعِ النظر عن التقدُّم والتأخُّر، كقول الحماسيِّ:

وَقَف الهوى بي حيث أنتِ فليس لي ... مُتأخَّرٌ عنه ولا مُتقَدَّمُ[2]

فإنَّه أراد كما قال المرزوقي: حبَسَني الهوى في موضع تستقرِّينَ فيه، فألزَمُه ولا أُفارقُه، وأنا معكِ مقيمةً وظاعنةً، لا أَعدلُ عنكِ ولا أَميلُ إلى سواك[3]. ووجهُ تقدير بيانِ انتفاء الاستئخارِ على بيان انتفاءِ الاستقدام قد تقدَّم في آية «الأعراف»[4] مع بسط كلامٍ فيها.

ثم لا يخفَى أنَّ هذه الآية داخلةٌ في حيِّز الجواب، ولم تُعطَف على ما قبلها

---

(١) في الكشاف ٢/ ٢٤٠، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٥.

(٢) في الأصل و(م): متقدم عنه ولا متأخر، والمثبت من حاشية الشهاب، وهو الموافق لما في المصادر، والبيت في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٧٣، والشعر والشعراء ٢/ ٨٤٣، وأمالي القالي ١/ ٢١٨، وقائله أبو الشيص محمد بن عبد الله بن رزين، وهو ابن عم الشاعر دعبل، وكان في زمن الرشيد.

(٣) شرح ديوان الحماسة ٣/ ١٣٧٣، وحاشية الشهاب ٥/ ٣٥، وعنه نقل المصنف.

(٤) وهي الآية (٣٤) منها، وينظر تفسيرها ٧/ ١١٣.

إيذاناً باستقلالها فيه. قال العلَّامة الطيبي طيَّب الله تعالى ثراه: إنَّ الجواب بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ﴾ إلخ واردٌ على الأسلوب الحكيم؛ لأنَّهم ما أرادوا بالسؤال إلا استبعادَ أنَّ الموعود من الله تعالى، وأنَّه صلوات الله تعالى وسلامه عليه هو الذي يدَّعي أنَّ ذلك منه، فطلبوا منه تعيين الوقت تَهكُّماً وسُخريةً، فقيل في الجواب: هذا التهكُّم إنما يتمُّ إذا ادَّعيتُ بأنِّي أنا الجالبُ لذلك الموعود، وإذا كنتُ مقرّاً بأنِّي مثلكم في أنِّي لا أملك لنفسي ضرّاً ولا نفعاً، كيف أدَّعي ما ليس لي بحقٍّ؟! ثمَّ شرع في الجواب الصحيح ولم يلتفت ﷺ إلى تهكُّمهم واستبعادهم فقال: «لكلِّ أمةٍ أجل» إلخ. وحاصلُه على ما في «الكشاف»: إنَّ عذابكم له أجلٌ مضروبٌ عند الله تعالى، وحدٌّ محدود من الزمان، إذا جاء ذلك الوقتُ أنجز وعدكم لا محالة، فلا تستعجلوا[1].

ومن هنا يُعلم سرُّ إسقاط الفاء من «إذا جاء أجلُهم» وزيادتها في «فلا يستأخرون» على عكس آيةِ «الأعراف»، حيث أُتي بها أولاً ولم يُؤتَ بها ثانياً، وذلك أنَّه لما سيقَت الآيةُ جواباً عن استعجالهم العذابَ الموعودَ ـ حَسْبَما علمتَ آنفاً ـ اعتُني بأمر الشرطية ولزومِها كمالَ الاعتناء، فأُتي بها غيرَ متفرِّعة على شيءٍ، كأنَّها من الأمور الثابتة في نفسها الغير المتفرِّعة على غيرها، وقَوِي لزومُ التالي فيها للمقدَّم بزيادةِ الفاء التي يُؤتَى بها[2] للربط في أمثال ذلك، ولا كذلك آية «الأعرافِ» كما لا يخفَى إلا على الأنعام، فاحفظه فإنَّه من الأنفال. ولا يأباه ما مرَّ في تقرير الاستفهام في صدر الكلام، كما هو ظاهرٌ لَدَى ذوي الأفهام. وكذا لا يأباه ما قيل في ربط هذه الآيةِ بما قبلها مِن أنَّها بيانٌ لما أُبهم في الاستفهام[3]، وتقييدٌ لِمَا في القضاء السابق من الإطلاق المشعر بكون المقضيِّ به أمراً منجَزاً غيرَ متوقِّفٍ على شيءٍ غيرِ مجيءِ الرسول وتكذيب الأمة؛ لأنَّه على ما فيه ما فيه إنكار المدخلية في الجواب، ولعل[4] الغرض يتمُّ بمجرَّد ذلك؛ لحصول التغاير بين مَساقَي الآيتَين به أيضاً.

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٤٠، وقد ذكره المصنف قريباً عن الزمخشري بنحوه نقلاً عن الشهاب.

(٢) في (م): بها يؤتى.

(٣) في (م): الاستثناء.

(٤) في الأصل: فلعل.

وقد يقال: إنَّ إسقاط الفاء أولاً لتكون الجملة في موضع الصفة لـ «أجل» تهويلاً لأمره وتنويهاً بشأنه، حَسْبَما يقتضيه المقامُ، أي: لكلِّ أمةٍ أجلٌ موصوفٌ بأنَّه إذا جاءَ لا يستأخرون عنه ولا يستقدمون عليه البتة، والإظهارُ في موضعِ الإضمارِ لزيادة التقرير مثل ما مرَّ آنفاً. وليس بذاك.

ومما تضحكُ منه الموتَى ما قاله بعضُ العظاميين بعد أنْ كاد يُقضى عليه فكراً، من أنَّ السرَّ في اختلاف الآيتَين الإشارةُ منه تعالى إلى جواز الأمرَين عربيةً، ولم يعلم عافاه الله تعالى أنَّ القرآن الكريم[1] لم ينزل مُعلِّماً للعربية، مُبيِّناً لقواعدها، شارحاً[2] لِمَا يجوز فيها وما لا يجوز، بل نزل مُعْجِزاً بفصاحته وبلاغته وما تضمَّنه من الأسرار أقواماً، كلٌّ منهم في ذلك الشأن الجذيلُ المحكَّكُ[3] والعذيقُ المرجَّب[4].

وذكر بعضُ مَن أحيا مَيِّتَ الفضلِ علمُه، وصفا عن تخليط أبناءِ العصر فهمُه، صفاءُ الدين عيسى البندنيجيّ[5] أنَّ مَساقَ هذه الآيةِ لتثبيت النبيِّ ﷺ، وشَرْح صدرِه عليه الصلاة والسلام عمَّا عسى يَضيقُ به بحسب البشريةِ من قولهم: «متَى هذا الوعْدُ إنْ كنتُم صادقين»، ولتلقينه ﷺ ردَّ قولهم ذلك كما يُشعر به السباق، فناسب قطعَ كلٍّ من الجملتَين عن الأُخرى، ليستقلَّ كلٌّ منهما في إفادة التثبيت والردِّ للتأكيد والمبالغة فيها، ولذا لم يُؤتَ بالفاء في صدر الشَّرطية، وجيء بها في الجواب زيادةً في ذلك لإفادة تحقُّق ما بعدَها عقيبَ ما يقتضيه بلا مهلة. وآيةُ «الأعراف» سيقت وعيداً لأهل مكة، ومن البيِّن أنَّ محطَّ الفائدة في[6] إشعارِ أنَّه وعيدٌ، وأنَّ ما هو

---

(١) في الأصل: العظيم.

(٢) في (م): وشارحاً.

(٣) الجُذَيْل تصغير جذْل، وهو العود الذي ينصب للإبل الجَرْبَى لتحتك به، أي: يستشفى برأيه كما تستشفي الإبل الجربى بالاحتكاك بهذا العود. النهاية (جذل).

(٤) العذيق تصغير عذق، وهو النخلة. والمرجَّب: الذي يدعم النخلة إذا كثر حملها.

(٥) هو عيسى بن موسى، فاضل من أهل بغداد، نسبته إلى بندنيجين من ملحقات بغداد في حدود إيران، وتسمى اليوم: مندلي، من مصنفاته: الأجوبة البندنيجية على الأسئلة الهندية، توفي سنة (١٢٨٣هـ). الأعلام ٥/ ١١٠.

(٦) قوله: في، مكرر في (م).

أدخلُ في التخويف الجملةُ الشرطية؛ لأنَّها النصُّ في نزول العذاب عند حلول الأجل، وأنَّه لا محيصَ لهم عن ذلك عنده، دون «لكلِّ أمةٍ أجل» فقط، فكان المقام مقامَ ربطٍ ووصلٍ، فجيء بالفاء لتدلَّ على ذلك، وتُؤذِنَ باتِّحاد الجملتَين في كونهما وعيداً، ولمسامحته سبحانه في الوعيد لم يؤتَ بالفاء في الجواب. انتهى.

ولعل ما قدَّمناه ليس بالبعيد عنه من وجهٍ وإنْ خالفه من وجهٍ آخر، ولكلٍّ وِجْهةٌ، والله تعالى أعلم بأسرار كتابه.

﴿قُلْ﴾ لهم بعدَما بيَّنْتَ لهم[1] كيفيةَ حالك وجريانَ سنَّة الله تعالى فيما بين الأمم على الإطلاق، ونبَّهتَهم على أنَّ عذابهم أمرٌ مقرَّرٌ محتومٌ لا يتوقف إلا على مجيء أجلِهِ المعلوم، إيذاناً بكمال دُنوِّه، وتنزيلاً له منزلة إتيانه حقيقةً: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلون به، ولعلَّ استعمال «إنْ» من باب المجاراة ﴿بَيَٰتًا﴾ أي: وقت بياتٍ ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ أي: عند اشتغالكم بمشاغلكم، وإنَّما لم يَقُل: ليلاً أو نهاراً[2] ليَظْهرَ التقابلُ؛ لأنَّ المراد الإشعارُ بالنوم والغفلة، والبياتُ متكفِّلٌ بذلك؛ لأنَّه الوقتُ الذي يَبيتُ فيه العدوُّ ويُوقَع فيه، ويُغتَنم فُرصةُ غفلته، وليس في مفهوم الليل هذا المعنى، ولم يَشْتهِرْ شهرةَ النهار بالاشتغالِ بالمصالح والمعاش، حتى يَحسُن الاكتفاءُ بدلالة الالتزام كما في النهار.

وقد يقال: النهار كلُّه محلُّ الغفلة؛ لأنَّه إمَّا زمان اشتغالٍ بمعاشٍ، أو زمانُ قيلولةٍ، بخلاف الليل فإنَّ محلَّ الغفلة فيه ما قارَبَ وسطَه، وهو وقتُ البيات، فلذا خُصَّ بالذكر، والبياتُ جاء بمعنى البيتُوتة، وبمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم، والمعنى المراد هنا مبنيٌّ على هذا.

﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: أيَّ شيءٍ يستعجلون من العذاب، وليس شيءٌ منه يُوجب الاستعجال، لِمَا أنَّ كلَّه مكروهٌ مرُّ المذاق موجبٌ للنفار، فـ «مِن» للتبعيض والضميرُ للعذاب والتنكيرُ في شيء للفردية.

وجوِّز أنْ يكون المعنى على التعجُّب، وهو مستفادٌ من المقام، كأنَّه قيل: أيَّ هولٍ

---

(١) قوله: لهم، ليس في الأصل.

(٢) في (م): ونهاراً.

شديدٍ يستعجلون منه! فـ «من» بيانيةٌ وتجريديةٌ بناءً على عدِّ الزمخشريِّ لها منها[١].

وقيل: الضميرُ لله تعالى، وعليه فالمعنى على الثاني، ولكنْ تزول فائدةُ الإبهام والتفسير وما فيه من التفخيم.

وما قيل: إنَّه أبلغُ على معنى: هل تعرفون ما العذابُ المعذِّبُ به[٢] الله سبحانه، فهو مشتركٌ على التقديرَين، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابُهُۥ﴾؟.

و«ماذا» بمعنى: أيّ شيءٍ منصوبُ المحلِّ مفعولاً مقدَّماً، وهو أَولَى مِن جَعْلِه مبتدأ، ومَن فَعَلَ قدَّر العائد. ومَن قال: إنَّ ضمير «منه» هو الرابطُ مع تفسيره بالعذاب، جَنَح إلى أنَّ المستعجَل من العذاب، فهو شاملٌ للمبتدأ، فيقوم مقامَ رابطه؛ لأنَّ عموم الخبر في الاسم الظاهر يكون رابطاً على المشهور، ففي الضمير أَولَى.

وزعم أبو البقاء أنَّ الضمير عائدٌ إلى المبتدأ، وهو الرابطُ، وجعَلَ ذلك نظيرَ قولك: زيدٌ أخذتُ منه درهماً[٣]. وليس بشيءٍ كما لا يخفَى.

والمرادُ من «المجرمون» المخاطَبون، وعَدَل عن الضمير إليه للدلالة على أنَّهم لجرمهم ينبغي أنْ يفزَعوا من إتيان العذاب، فضلاً عن أنْ يستعجلوه.

وقيل: النكتةُ في ذلك إظهارُ[٤] تحقيرهم وذمِّهم بهذه الصفة الفظيعة.

والجملةُ متعلِّقةٌ بـ «أَرأيتُم» على أنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، أو في محلِّ نصبٍ على المفعولية، وعلِّق عنها الفعل للاستفهام، وهو في الأصل استفهامٌ عن الرؤية البصرية أو العِلْمِية، ثم استعمل بمعنى: أخبروني، لِمَا بين الرؤية والإخبار من السببية والمسَبَّبية في الجملة، فهو مجازٌ فيما ذكر، وإليه ذهب الكثير.

وذهب أبو حيان إلى أنَّ ذلك بطريقِ التضمين[٥]، ولم يُستعمل إلَّا في الأمر العجيب.

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤٠، وفيه: ويجب أن تكون «من» للبيان في هذا الوجه.

(٢) بعدها في (م): هو.

(٣) الإملاء ٣/ ٢٣٤-٢٣٦.

(٤) في (م): إظهاره.

(٥) البحر ٥/ ١٦٦.

وجواب الشرط محذوفٌ، أي: إن أتاكم عذابُه في أحدِ ذَينك الوقتَين تندموا، أو: تعرفوا منه[1] الخطأ، أو: فأخبروني ماذا يستعجلُ منه المجرمون.

وزعم أبو حيان تعيُّنَ الأخير؛ لأنَّ الجواب إنما يُقدَّرُ مما تقدَّمه لفظاً أو تقديراً[2]، ولم يَدْرِ أنَّ تقديرَه من غير جنس المذكور إذا قامت قرينةٌ عليه ليس بعزيز. ولئن سلِّم صحةُ الحصر الذي ادَّعاه، فما ذُكر غيرُ خارجٍ عنه بناءً على أن المقصود من: أرأيتُم ماذا يستعجل منه. .إلخ، تنديمُهم أو تجهيلُهم كما نصَّ عليه بعض المحققين.

وفي «الكشف» تقريراً لأحدِ الأوجهِ المذكورة في «الكشاف»[3]: أنَّ «ماذا» إلخ مُتعلِّق الاستخبار، والشرطُ مع جوابه المحذوف مقرِّرٌ لمضمون الاستخبار، ولهذا وسِّط بينهما، ولمَّا كان في هذا[4] الاستفهام تجهيلٌ وتنديمٌ قُدِّر الجواب: تندموا أو تعرفوا الخطأ، ولا مانعَ من تقديرهما معاً، أو ما يفيد المعنَيين، ولهذا حذف الجواب ووسِّط تأكيداً على تأكيد. انتهى.

وجوِّز كونُ «ماذا يستعجل» جواباً للشرط، كقولك: إن أتيتُك ماذا تُطعمني، والمجموع بتمامه متعلِّق بـ «أَرَأَيتُم»[5]. ورُدَّ بأنَّ جواب الشرط إذا كان استفهاماً فلابدَّ فيه من الفاء، تقول: إنْ زارَنا فلانٌ فأيُّ رجلٍ هو، ولا تُحذَف إلا ضرورةً، وقد صرَّح في «المفصَّل» بأنَّ الجملة إذا كانت إنشائيةً لابدَّ من الفاء معها، والاستفهامُ وإنْ لم يُرَدْ به حقيقتُه لم يخرج عن الإنشائية، والمثالُ مصنوعٌ فلا يعوَّل عليه.

وأُجيبَ بأنَّ الرضيّ صرَّح بأنَّ وقوع الجملة الاستفهامية جواباً بدون الفاء ثابتٌ في كثيرٍ من الكلام الفصيح، ولو سلِّم ما ذكر فيقدَّر القول، وحذفُه كثيرٌ مطَّردٌ بلا خلاف.

---

(١) قوله: منه، ليس في (م). وجاء في الكشاف ٣/ ٢٤٠: أو تعرفوا الخطأ فيه. وفي تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٣٧، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٣: أو تعرفوا خطأه.

(٢) البحر ٥/ ١٦٦-١٦٧.

(٣) وهو ما سلف من تقدير: تندموا على الاستعجال، أو: تعرفوا الخطأ فيه. الكشاف ٣/ ٢٤٠.

(٤) قوله: هذا، ليس في (م).

(٥) وهذا الوجه أجازه الزمخشري أيضاً في الكشاف ٣/ ٢٤٠، وما سيأتي ذكره من ردِّه هو لأبي حيان في البحر ٥/ ١٦٧، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٧.

وأُورد أيضاً على هذا الوجه أنَّ استعجال العذاب قبل إتيانه، فكيف يكونُ مرتَّباً عليه وجزاءً له؟

وأُجيبَ بأنَّه حكايةٌ عن حالٍ ماضية، أي: ماذا كنتُم تستعجلون؟ ويشهد لهذا التصريحُ بـ «كنتُم» فيما بعد، والقرآنُ يفسِّر بعضُه بعضاً.

وأنت تعلم أنَّ مجرَّد ذلك لا يُجوِّز كونَه جواباً؛ لأنَّ الاستعجال الماضيَ لا يترتَّب على إتيان العذاب، فلابدَّ من تقديرِ نحوِ: تَعْلَموا، أي: تعلموا ماذا إلخ. وقيل: «إنْ أتاكم» بمعنى: إنْ قارَبَ إتيانُه إياكم، أو المراد: إنْ أتاكم أماراتُ عذابِه. وقيل: حيث إنَّ المرادُ إنكارُ الاستعجال بمعنَى نفيه رأساً صحَّ كونُه جواباً.

واعتُرض على جَعْلِ مجموع الشرطية متعلِّقاً بـ «أرَأَيتم» بأنَّه لا يصحُّ أنْ يكون مفعولاً به له، بناءً على أنَّه بمعنى: أخبروني، وهو مُتعدٍّ بـ «عن» ولا تدخلُ [على][1] الجملة، إلا أنَّها إذا اقترنَت بالاستفهام وقلنا بجوازِ تعليقها[2] ـ وفيه كلامٌ في العربية ـ جاز.

ودُفع بأنَّ مراد القائل بالتعلُّق التعلُّقُ المعنويُّ[3]؛ لأنَّ المعنى: أخبروني عن صنيعكم إنْ أتاكم... إلخ.

والمراد بقوله سبحانه: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ زيادةُ التنديم والتجهيل، والمعنى: أإذا وقَعَ العذابُ وحلَّ بكم حقيقةً آمنتُم به وعاد استهزاؤكم وتكذيبُكم تصديقاً وإذعاناً، وجيء بـ «ثم» دلالةً على زيادة الاستبعاد. وفيه أنَّ هذا الثاني أَبْعدُ من الأول وأَدْخَلُ في الإنكار.

وَجوِّز أنْ يكون هذا جوابَ الشرط، والاستفهامية الأولى اعتراضٌ، والمعنى: أخبروني إنْ أتاكم عذابه آمنتُم به بعد وقوعه حين لا ينفعُكم الإيمان. وأصلُ الكلام على ما قيل: إنْ أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ووقع وتحقَّق آمنتم، ثم جيء بحرف التراخي بدل الواو دلالةً على الاستبعاد، ثم زِيْدَ أداةُ الشرط دلالةً على استقلاله

(١) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ٣٧، والكلام منه.
(٢) في الأصل: تعلقها، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.
(٣) في الأصل و(م): اللغوي، والمثبت من حاشية الشهاب.

بالاستبعاد وعلى أنَّ الأول كالتمهيد له، وجيء بـ «إذا» مؤكَّداً بـ «ما» ترشيحاً لمعنى الوقوع والتحقيق، وزيادةً للتجهيل، وأنَّهم لم يؤمنوا إلا بعد أنْ لم ينفعهم البتة، وهذا الوجه مما جوَّزه الزمخشري(١).

وتُعقِّب بأنَّه في غاية البعد؛ لأنَّ «ثم» حرفُ عطفٍ لم يُسمع تصديرُ الجواب به، والجملةُ المصدَّرةُ بالاستفهام لا تقع جواباً بدون الفاء، وأُجيب عن هذا بما مرَّ.

وأمَّا الجوابُ عنه بأنَّه أَجرى «ثم» مجرَى الفاء، فكما أنَّ الفاء في الأصل للعطف والترتيب وقد ربطَت الجزاء فكذلك هذه، فمخالفٌ لإجماع النحاة. وقياسُه على الفاء غيرُ جليٍّ. ولهذه الدغدغة قيل: مرادُ الزمخشريِّ أنَّه يدلُّ على الجواب، والتقدير: إنْ أتاكم عذابُه آمنتم به بعد وقوعه، وما في النظم الكريم(٢) معطوفٌ عليه للتأكيد نحو: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣-٤].

وتعقِّب بأنَّه لا يخفَى تكلُّفُه، فإنَّ عطف التأكيد بـ «ثم» مع حَذْفِ المؤكَّد ممَّا لا ينبغي ارتكابُه. ولو قيل: المراد أنَّ «آمنتم» هو الجواب و«أَثُمَّ إذا ما وَقع» معترضٌ، فالاعتراضُ بالواو والفاء، وأمَّا بـ «ثم» فلم يذهب إليه أحدٌ.

وبالجملة قد كثُر الجَرْحُ والتعديل لهذا الوجه، ولا يُصْلِحُ العطَّارُ ما أَفْسَدَ الدهر.

وقرئ: «ثَمَّ» بفتح الثاء(٣)، بمعنى: هنالك.

وقوله سبحانه: ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ على تقدير القول، وهو الأظهرُ والأقوى معنًى، أي: قيل لهم عند إيمانهم بعد وقوعِ العذاب: آلآن آمنتم به، فـ «الآن» في محلِّ نصبٍ على أنَّه ظرفٌ لـ «آمنتم» مقدَّراً، ومُنع أنْ يكون ظرفاً للمذكور؛ لأنَّ الاستفهام له صدرُ الكلام.

وقرئ بدون همزة الاستفهام(٤)، والظاهرُ عندي على هذا تعلُّقُه بمقدَّرٍ أيضاً؛ لأنَّ الكلام على الاستفهام. وبعضٌ جوَّز تعلُّقه بالمذكور، وليس بذاك.

---

(١) في الكشاف ٣/ ٢٤٠.

(٢) يعني قوله: «أثم إذا» حاشية الشهاب ٥/ ٣٧، والكلام منه.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ١٢٤، والبحر ٥/ ١٦٧ عن طلحة بن مصرف.

(٤) البحر ٥/ ١٦٧ عن طلحة بن مصرف وعيسى البصري.

وعن نافع أنَّه قرأ: «آلَان» بحذفِ الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام(١).

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١﴾ في موضع الحال من فاعل «آمنتم» المقدَّر. والكلامُ على ما قيل مسوقٌ من جهته تعالى، غيرُ داخلٍ تحت القول الملقَّن؛ لتقريرِ مضمون ما سبَقَ من إنكارِ التأخير والتوبيخ عليه، وفائدةُ الحال تشديدُ التوبيخِ والتقريع، وزيادةُ التنديم والتحسير.

قال العلَّامة الطيبي: إنَّ «آلآن آمنتم به» يقتضي أنْ يقال بعدَه: وقد كنتم به تُكذِّبون، لا «تستعجلون» إلا أنَّه وُضِعَ مَوْضِعَه لأنَّ المراد به الاستعجالُ السابق، وهو ما حكاه سبحانه عنهم بقوله تعالى: (مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ) وكان ذلك تهكُّماً منهم وتكذيباً واستبعاداً، وفي العدول استحضارٌ لتلك المقالةِ الشنيعة، فيكون أبلغَ من «تُكذِّبون».

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفعل لمراعاة الفواصل.

وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ﴾ إلخ عطفٌ على «قيل» المقدَّرِ قبل «آلآن» لتوكيد(٢) التوبيخ، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: وَضَعوا ما نُهوا عنه من الكفر والتكذيب موضعَ ما أُمِروا به من الإيمان والتصديق، أو ظلموا أنفسَهم بتعريضها للهلاك والعذاب.

ووُضِعَ الموصولُ موضعَ الضمير لذمِّهم بما في حيِّز الصلة، والإشعارِ بعلِّيته لإصابة ما أصابهم.

﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: المؤلم على الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ﴾ أي: ما تجزون اليوم ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢﴾ أي: إلا ما استمررتُم على كَسْبِه في الدنيا من أصناف الكفرِ التي من جُملتها ما مرَّ من الاستعجال.

وزاد غيرُ واحدٍ في البيان سائرَ أنواع المعاصي، بناءً على أنَّ الكفار مكلَّفون بالفروع فيُعذَّبون على ذلك، لكنْ هل العذاب عليه مستَمِرٌّ تبعاً للكفر، أو منتهٍ كعذابِ غيرهم من العصاة؟ قيل: الظاهرُ الثاني، وبه جُمِعَ بين النصوصِ الدالَّةِ على

---

(١) التيسير ص١٢٢، والنشر ١/ ٣٥٧.
(٢) في الأصل و(م): توكيد، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٣٨، والكلام منه.

تخفيف عذاب الكفار وما يعارِضُها، فقالوا: إنَّ المخفَّف عذابُ المعاصي، والذي لا يُخفَّف عذابُ الكفر.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ أي: يَسْتَخْبِرونك ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: العذابُ الموعود، كما هو الأنسبُ بالسياق دون ادِّعاء النبوَّةِ الذي جوَّزه بعضُهم، ورجِّح عليه أيضاً بأنَّه لا يتأتَّى إثباتُ النبوَّة لمنكريها بالقَسَم.

وأُجيبَ بأنَّه ليس المرادُ منه إثباتَها، بل كونَ تلك الدعوى جدّاً لا هَزْلاً، أو أنَّه بالنسبة لمن يَقْنعُ بالإثبات بمثله.

وقد يقال: ما ذكر مُشتَرِكُ الإلزام؛ لأنَّ العذاب الموعود لا يثبتُ عند الزاعمين أنَّه افتراءٌ قبل وقوعه بمجرَّد القَسَم أيضاً، فلا يصلُح ما ذكر مرجِّحاً. والحقُّ أنَّ القسم لم يُذكر للإلزام، بل توكيداً لِمَا أنكروه.

والاستفهامُ للإنكار، والاستنباءُ على سبيل التهكُّم والاستهزاء كما هو المعلومُ من حالهم، فلا يقتضي بقاءه على أصله.

وربما يقال: إن الاستنباء بمعنى طلبِ النبأ حقيقةً، لكنْ لا عن الحَقِّية ومقابلها بالمعنى المتبادِر، لأنَّهم جازمون بالثاني، بل المراد من ذلك الجِدُّ والهزْلُ، كأنَّهم قالوا: إنَّا جازمون بأنَّ ما تقوله كذبٌ لكنَّا شاكُّون في أنَّه جِدٌّ منك أم هزلٌ فأخبرنا عن حقيقة ذلك. ونظيرُ هذا قولُهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: ٨]. على ما قرَّره الجماعة، إلَّا أنَّ ذلك خلافُ الظاهر.

و«حقٌّ» خبرٌ قُدِّم على المبتدأ الذي هو «هو» ليَلِيَ الهمزةَ المسؤولُ عنه. وجوِّز أنْ يكون مبتدأً، و«هو» مرتفعٌ به سادٌّ مسدَّ الخبر؛ لأنَّه بمعنى ثابت، فهو حينئذٍ صفة وقعَت بعد الاستفهام فتعمل، ويُكتفَى بمرفوعها عن الخبر إذا كان اسماً ظاهراً، أو في حُكْمِه كالضمير المنفصل هنا.

والمشهورُ أنَّ استنبأ تتعدَّى إلى اثنين، أحدُهما بدون واسطة، والآخَرُ بواسطة «عن»، فالمفعولُ الأولُ على هذا لـ «يستنبؤون» الكافُ، والثاني قامت مقامَه هذه الجملةُ، على معنى: يسألونك عن جواب هذا السؤال، إذ الاستفهام لا يُسأل عنه، وإنما يُسأل عن جوابه.

والزمخشريُّ لمَّا رأى أنَّ الجملة هنا لا تصلُح أنْ تكون مفعولاً ثانياً معنًى لِمَا عَرَفْتَ، ولفظاً لأنَّه لا يصحُّ دخولُ «عن» عليها، جعَل الفعل مضمَّناً معنى القول، أي: يقولون لك هذا، والجملةُ في محلٍّ نصبِ مفعول القول[1].

وقرأ الأعمشُ: «آلحقُّ هو» بالتعريف مع الاستفهام[2]، وهي تؤيِّد كونَ الاستفهام للإنكار، لِمَا فيها من التعريض لبطلانه المقتضي لإنكاره، لإفادة الكلامِ عليها القصرَ، وهو من قَصْرِ المُسْنَدِ على المسنَدِ إليه على المشهور، والمعنى: أنَّ الحقَّ ما تقول أم خلافه.

وجَعَله الزمخشريُّ من قَصْرِ المسنَدِ إليه على المسند، حيث قال: كأنَّه قيل: أهو الحقُّ لا الباطل، أو: أهو الذي سمَّيتمُوه الحقَّ[3]. وأشارَ بالترديد إلى أنَّ الغرض مِن هذا الوجه لا يختلف جعل الحَصْر حقيقيّاً تهكُّماً أو ادِّعائياً.

واعتُرِضَ ذلك بأنَّه مخالفٌ لِمَا عليه علماء المعاني في مثل هذا التركيب.

وفي «الكشف»: إنَّه يتخايَلُ أنَّ الحصر على معنى: أهو الحقُّ لا غيرُه، لا معنى: أهو الحقُّ لا الباطل. على ما قرَّروه في قولهم: زيدٌ المنطلق، والمنطلقُ زيدٌ. فعلى هذا لا يسد ما ذكره الزمخشريُّ، ولكنَّه يضمَحلُّ بما حققناه في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]. وأنَّ انحصار أحدهما في الآخر يلاحَظُ بحسب المقام، وحينئذٍ لا يبالَى قدَّمَ أو أخَّر، وهاهنا المعنى على حَصْرِ العذاب في الحقِّية، لا على حَصْرِ الحقِّية في العذاب.

وقد قال هناك[4]: إنَّ التحقيق أنَّ نحو: زيدٌ المنطلق، وعَكْسَه، إنَّما يُحكم فيه بقَصْرِ الثاني - أعني الانطلاقَ - على الأول؛ لأنَّ المناسب قَصْرُ العامِّ على الخاصِّ، وكذلك نحو: الناسُ هم العلماء، والعلماءُ هم الناس، وإنْ كان بينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجهٍ؛ لأنَّ المقصودَ بيِّنٌ. وأمَّا في نحو قولنا:

(١) ينظر الكشاف ٢/ ٢٤١، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٩.
(٢) المحتسب ١/ ٣١٢، والمحرر الوجيز ٣/ ١٢٥، والكشاف ٢/ ٢٤١، والبحر ٥/ ١٦٨.
(٣) الكشاف ٣/ ٢٤١.
(٤) يعني صاحب الكشف عن آية البقرة.

الخاشعون هم العلماءُ والعلماء هم الخاشعون، فالحكم مختلِفٌ تقديماً وتأخيراً، وأحدُ القصرَين غيرُ الآخر، فينبغي أنْ يُنظَر إلى مقتضَى المقام، إنْ تعيَّن أحدُهما لذلك حُكم به قدِّم أو أخِّر، وإلا رُوعي التقديم والتأخير، وقد يكون القصرُ مُتعاكساً نحو: زيدٌ المنطلق، إذا أُريدَ المعهود وهذا ذاك، وكذلك الجنسان إذا اتَّحدا مَورداً، كقولك: الضاحكُ الكاتب، إلى آخر ما قال.

وكون المعنى هنا على حصر العذاب في الحقِّية دون العكس هو المناسب. ومخالفةُ علماء المعاني ليست بِدعاً من صاحب «الكشاف» وأمثاله، والحقُّ ليس محصوراً بما هم عليه كما لا يخفى، فتدبَّر.

﴿قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: قل لهم غيرَ مكترثٍ باستهزائهم، مُغضياً عمَّا قصدوا، بانياً للأمر على أساس الحكمة: نعم إنَّ ذلك العذابَ الموعودَ ثابتٌ البتة، فضمير «إنَّه» للعذاب أيضاً.

و«إي» حرفُ جوابٍ وتصديقٍ بمعنى: نعم، قيل: ولا تُستعمل كذلك إلا مع القسم خاصَّةً، كما أنَّ «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصَّةً، ولذلك سُمع من كلامهم وصلُها بواو القسم إذا لم يُذكر المقسَم به، فيقولون: «إيو»(1)، ويُوصلون به هاء السكت أيضاً فيقولون: «إيوه». وهذه اللفظةُ شائعةٌ اليوم في لسان المصريين وأهلِ ذلك الصقع.

وادَّعى أبو حيان أنَّه يجوز استعمالُها مع القسم وبدونه، إلا أنَّ الأول هو الأكثر(2).

قال: وما ذُكِرَ من السماع ليس بحجَّة؛ لأنَّ اللغة فسدَت بمخالطة غيرِ العرب،

---

(1) الكشاف ٢/ ٢٤١، وفيه قول الزمخشري: سمعتهم يقولون: إيو، ولا يخفى أن عصره بعد عصر السماع، ولذلك تعقبه أبو حيان كما سيرد.

(2) نقل المصنف كلام أبي حيان بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٣٩، وكلام أبي حيان في البحر، وكذلك في النهر على هامش البحر ٥/ ١٦٨ صريح في أنها لا تستعمل إلا مع القسم، وما ذكره المصنف والشهاب عنه قد نقل نحوه في البحر ٥/ ١٦٩ عن ابن عطية، فقال: قال ابن عطية: هي لفظة تتقدم القسم وهي بمعنى نعم، ويجيء بعدها حرف القسم وقد لا يجيء؛ تقول: إي ربِّي، إي وربِّي. انتهى.

فلم يَبْقَ وثوقٌ بالسماع، وحَذْفُ المجرور بواو القسم والاكتفاءُ بها لم يُسمَع مِن موثوقٍ به، وهو مخالفٌ للقياس[1].

وأكّد الجواب بأتمِّ وجوه التأكيد حَسْبَ شدَّة إنكارهم وقوَّته، وقد زِيْدَ تقريراً وتحقيقاً بقوله جلَّ شأنُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾ أي: بفائتين العذابَ، على أنَّه من فاته الأمرُ: إذا ذهب عنه. ويصحُّ جَعْلُه من «أعجَزَه» بمعنى: وَجَده عاجزاً، أي: ما أنتم بواجدي العذابِ أو مَن يُوْقِعُه بكم عاجزاً عن إدراككم وإيقاعِه بكم، وأيّاً ما كان فالجملةُ إمَّا معطوفةٌ على جواب القسم، أو مستأنفةٌ سيقت لبيان عجزِهم عن الخلاص، مع ما فيه من التقرير المذكور.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ أي: بالكفر، أو بالتعدِّي على الغير، أو غيرِ ذلك من أصناف الظلم، كذا قيل. وربما يُقتصر على الأول لأنَّه الفردُ الكاملُ مع أنَّ الكلام في حقِّ الكفار.

و«لو» قيل: بمعنى «إنْ»، وقيل: على ظاهرها، واستُبعد، ولا أراه بعيداً.

﴿مَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما في الدنيا من خزائنها وأموالها ومنافِعها قاطبةً ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ أي: لجعلَته فديةً لها من العذاب، من افتداه بمعنى فَدَاه، فالمفعولُ محذوفٌ، أي: لافتدَت نفسَها به.

وجوِّز أنْ يكون افتدى لازماً على أنَّه مُطاوِعُ «فدَى» المتعدِّي، يقال: فداه فافتدَى.

وتعقِّب بأنه غيرُ مناسبٍ للسياق؛ إذ المتبادرُ منه أنَّ غيرَه فَدَاه؛ لأنَّ معناه: قَبِلَتِ الفدية، والقابلُ غيرُ الفاعل.

ونُظر فيه بأنَّه قد يتَّحد القابلُ والفاعلُ إذا فدى نفسه، نعم المتبادِرُ الأول.

﴿وَأَسَرُّوا۟﴾ أي: النفوسُ المدلولُ عليها بـ «كلّ نفسٍ»، والعدولُ إلى صيغة الجمع لإفادة تهويل الخطب بكون الإسرار بطريق المعيَّة والاجتماع. وإنَّما لم يُراعَ ذلك

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٣٩، والكلام في البحر ٥/ ١٦٨-١٦٩ دون قوله: وحذف المجرور بواو القسم...

فيما سبق لتحقيق ما يُتوخّى من فرض كون جميع[١] ما في الأرض لكلٍّ واحدةٍ من النفوس. وإيثارُ صيغةِ جمعِ المذكَّر لحمل لفظِ النفس على الشخص، أو لتغليبِ ذكورِ مدلوله على إناثه.

والإسرارُ: الإخفاء، أي: أَخْفَوا ﴿ٱلنَّدَامَةَ﴾أي: الغمَّ والأسفَ على ما فعلوا من الظلم، والمرادُ إخفاءُ آثارِها كالبكاء وعضِّ اليد، وإلَّا فهي من الأمور الباطنة التي لا تكون إلَّا سرّاً، وذلك لشدَّة حَيرتهم وبَهتهم.

﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۖ﴾ أي: عند معاينتهم من فظاعة الحال وشدَّة الأهوال ما لم يمرَّ لهم ببال، فأَشْبَه حالُهم حالَ المقدَّم للصَّلْبِ يُثخنه ما دَهَمَه من الخَطْب، ويُغلَب حتى لا يستطيع التفوُّه بِبنْتِ شَفَة، ويبقَى جامداً مَبْهوتاً.

وقيل: المرادُ بالإسرار: الإخلاصُ، أي: أَخْلَصوا الندامةَ، وذلك إمَّا لأنَّ إخفاءها إخلاصُها، وإما من قولهم: سرُّ الشيءِ، لخالصِهِ الذي من شأنه أنْ يخفَى ويُصانَ ويُضَنَّ به. وفيه تهكُّمٌ بهم.

وقال أبو عبيدة والجبائي: إنَّ الإسرار هنا بمعنى الإظهار[٢]. وفي «الصحاح»: أسررتُ الشيءَ: كتمتُه، وأعلنتُه أيضاً، وهو من الأضداد، والوجهان جميعاً يُفسَّران في قوله تعالى: (وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ) وكذلك في قول امرئ القيس: لو يُسِرُّونَ مقتلي[٣]. انتهى. وفي «القاموس» أيضاً: أَسرَّه: كَتَمَه وأظهرَه، ضدٌّ[٤].

وفيه اختلافُ اللغويين، فإنَّ الأزهريَّ منهم ادَّعى أنَّ استعمال «أَسرَّ» بمعنى

---

(١) في الأصل و(م): جمع، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٤، والكلام منه.

(٢) مجمع البيان ١١/ ٦١، وقول أبي عبيدة ذكره أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ٢/ ٢٨٥.

(٣) الصحاح (سرر)، والبيت في ديوان امرئ القيس ص١٣ برواية: يُشِرُّون. قال النحاس في شرح المعلقات ١/ ١٧: مَن روى يسرُّون فيجوز أن يكون معناه عنده: يكتمون، ويجوز معناه: يُظهرون. أما يشرون فمعناه يظهرون لا غير. ورواية البيت في الديوان:

تجاوَزْتُ أحراساً وأهوالَ معشرٍ عليَّ حِراصٍ لو يُشرُّون مقتلي

وروايته في شرح المعلقات للنحاس ١/ ١٧، وللتبريزي ص٣٧:

تجاوزتُ أحراساً إليها ومعشراً عليَّ حراصاً لو يُشِرُّون مقتلي

(٤) القاموس (سرر).

«أظهرَ» غلطٌ، وأنَّ المستعمل بذلك المعنى هو «أَشرَّ» بالشين المعجمة لا غير[١]. ولعلَّه قد غَلِطَ في التغليط، وعليه فالإظهارُ أيضاً باعتبار الآثار على ما لا يخفَى.

وجوَّز بعضُهم أنْ يكونَ المراد بالإسرار الإخفاءَ إلَّا أنَّ المراد من ضمير الجمع الرؤساء، أي: أخفَى رؤساؤهم الندامةَ من سَفِلَتهم الذين أضلُّوهم حياءً منهم وخوفاً من توبيخهم.

وفيه أنَّ ضميرَ «أسرُّوا» عامٌّ لا قرينةَ على تخصيصه، على أنَّ هول الموقف أشدُّ من أن يتفكَّر معه في أمثال ذلك.

وجملة «أسرُّوا» مستأنفةٌ على الظاهر، وقيل: حالٌ بتقدير «قد»، و«لمَّا» على سائر الأوجه بمعنى «حين» منصوبٌ بـ «أسرُّوا»، وجوِّز أن تكون للشرط، والجوابُ محذوفٌ على الصحيح لدلالةِ ما تقدَّم عليه، أي: لمَّا رأوا العذابَ أسرُّوا الندامة.

﴿وَقُضِيَ﴾ أي: حُكم وفُصِلَ ﴿بَيْنَهُم﴾ أي: بين النفوس الظالمة ﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أي: بالعدل ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤﴾ أصلاً لأنَّه لا يُفعل بهم إلا ما يقتضيه استعدادُهم.

وقيل: ضميرُ «بينهم» للظالمين السابقين في قوله سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ) والمظلومينَ الذين ظلموهم وإنْ لم يَجْرِ لهم ذكرٌ، لكنَّ الظلم يدلُّ بمفهومه عليهم، وتخصيص الظلم بالتعدِّي، والمعنى: وقعَت الحكومة بين الظالمين والمظلومين، وعُومل كلٌّ منهما بما يليق به.

وأنت تعلم أنَّ المقام لا يساعد على ذلك؛ لأنَّه[٢] إنْ لم يَقْتَضِ حَمْلَ الظلم على أعظم أفراده وهو الشرك، فلا أقلَّ من أنَّه يَقْتَضي حمله على ما يُدخل ذلك فيه دخولاً أوَّليّاً.

والظاهرُ أنَّ جملة «قُضي» مستأنفةٌ. وجوِّز أنْ تكون معطوفةً على جملة «رأوا»، فتكون داخلةً في حيِّز «لمَّا».

---

(١) ذكره عن الأزهري الطبرسي في مجمع البيان ١١/ ٦٦، ولم نقف عليه في تهذيب اللغة، وفيه تعقيباً على قول أبي عبيدة بأن معنى «أسروا الندامة» أظهروها: ولم أسمع ذلك لغيره. تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٥.

(٢) يعني المقام. تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٤-١٥٥، والكلام فيه بنحوه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: إنَّ له سبحانه لا لغيره تعالى ما وُجد في هذه الأجرامِ العظيمة، داخلاً في حقيقتها، أو خارجاً عنها متمكِّناً فيها، وكلمةُ «ما» لتغليب غيرِ العقلاء على العقلاء، وهو تذييلٌ لِمَا سبق، وتأكيدٌ واستدلالٌ عليه بأنَّ مَن يملك جميع الكائنات وله التصرُّف فيها، قادرٌ على ما ذكر.

وقيل: إنَّه متَّصلٌ بقوله سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ) كأنَّه بيانٌ لفقدهم(١) ما يفتدون به، وعَدَم ملكهم شيئاً، حيث أفادَ أنَّ جميع ما في السماوات والأرض ملكُه، لا ملكَ لأحدٍ فيه سواه جلَّ وعلا. وليس بشيءٍ وإنْ ذكره بعضُ الأجلَّة واقتصر عليه.

﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: جميعَ ما وَعَدَ به كائناً ما كان، فيندرجُ فيه العذابُ الذي استعجلوه وما ذُكر في أثناء بيانِ حاله اندراجاً أوليّاً. فالمصدرُ بمعنى اسم المفعول، ويجوز أن يكونَ باقياً على معناه المصدريِّ، أي: وَعْده سبحانه بجميع ما ذكر ﴿حَقٌّ﴾ أي: ثابتٌ واقعٌ لا محالة، أو مطابقٌ للواقع.

والظاهرُ أنَّ حَمْل الوعدِ على العموم بحيث يندرج فيه العذابُ المذكورُ والعقابُ للعصاة، أو الوعدُ بهما، يستدعي اعتبارَ التغليب في الكلام. وبعضُهم حَمَلَ الوعدَ على ما وُعِدَ به ﷺ من نَصرِه وعقابِ مَن لم يتَّبعه، وقال: إنَّ اعتبار التغليب توهُّمٌ وليس بالمتعيِّن.

وإظهارُ الاسم الجليل لتفخيم شأن الوعد والإشعارِ بعلَّة الحكم. وتصديرُ الجملتَين بحرفي التنبيه والتحقيق للتسجيل على تحقُّق مضمونها المقرِّرِ لمضمون ما سلف من الآيات الكريمة، والتنبيهِ على وجوب استحضارِه والمحافظةِ عليه.

وذَكَر الإمامُ في توجيه ذكر أداةِ التنبيه في الجملة الأولى أنَّ أهل هذا العالَمِ مشغولون بالنظر إلى الأسباب الظاهرة، فيضيفون الأشياء إلى ملَّاكها الظاهرة المجازية، ويقولون مثلاً: الدارُ لزيد، والغلامُ لعمرٍو، والسَّلْطَنةُ للخليفة، والتصرُّف للوزير. فكانوا مستغرقين في نوم الجهل والغفلة، حيث يظنُّون صحةَ تلك

(١) في (م): لعقدهم، وهو تصحيف.

الإضافات، فلذلك ناداهم[١] سبحانه بقوله عزَّ اسمُه: (أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ) إلخ، واستنادُ جميع ذلك إليه جلَّ شأنه بالمملوكية لِمَا ثبت مِن وجوب وجودِه لذاته سبحانه، وأنَّ جميع ما سواه ممكنٌ لذاته، وأنَّ الممكن لذاته مستندٌ إلى الواجب لذاته إمَّا ابتداءً أو بواسطة، وذلك يقتضي أنَّ الكلَّ مملوكٌ له تعالى[٢].

والكلامُ في ذِكْر الأداة في الجملة الثانية على هذا النمط لا يخلو عن تكلُّفٍ، والحقُّ ما أشرنا إليه في وجه التصدير.

ووَجْهُ اتِّصال هذه الجملةِ بما تقدَّم ظاهرٌ مما قرَّرنا، وللطبرسيِّ[٣] في توجيه ذلك كلامٌ ليس بشيءٍ.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لسوء استعداداتهم وقصورِ عقولهم واستيلاءِ الغَفْلةِ عليهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥﴾ فيقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ في الدنيا من غير دَخْلٍ لأحد في ذلك. وهذا على ما يُفهَم من كلام البعض استدلالٌ على البعث والنشور، على معنى أنَّه تعالى يفعل الإحياء والإماتة في الدنيا، فهو قادرٌ عليهما في العُقبى؛ لأنَّ القادر لذاته لا تزولُ قدرتُه، والمادةُ القابلة بالذات للحياة والموت قابلةٌ لهما أبداً.

ولا يخفى أنَّ ذكر القدرة على الإماتة استطراديٌّ لا دَخْلَ له في الاستدلال على ذلك، والظاهرُ عندي أنَّه كالذي قبله تذييلٌ لما سبق.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦﴾ في الآخرة بالبعث والحشر.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ التفاتٌ ورجوعٌ إلى[٤] استمالتهم نحوَ الحقِّ، واستنزالهم إلى قبوله واتِّباعه، غِبَّ تحذيرهم من غوائلِ الضلال بما تلا عليهم من القوارع، وإيذانٌ بأنَّ جميع ذلك مسوقٌ لمصالحهم، وهذا وجهُ الربط بما تقدَّم.

---

(١) في (م): زادهم، والمثبت من الأصل وتفسير الرازي.
(٢) تفسير الرازي ١٣/ ١١٣-١١٤.
(٣) في مجمع البيان ١١/ ٦٢.
(٤) في الأصل: في، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٥، والكلام منه.

وقال أبو حيان في ذلك: إنَّه تعالى لمَّا ذكَرَ الأدلَّة على الألوهية والوحدانيةِ والقدرة، ذكَرَ الدلائلَ الدالَّة على صحَّة النبوَّة، والطريقَ المؤدِّيَ إليها [وهو القرآن] وهو المتَّصفُ بهذه الأوصاف[1].

والأوَّل أَولَى، ولا يأباه عمومُ الخطاب كما هو الظاهرُ، واختاره الطبري[2] خلافاً لمن جعله خاصّاً بقريش.

و«الموعظة» كالوَعْظِ والعِظةِ: تذكيرُ ما يُليِّن القلبَ من الثواب والعقاب، وقيل: زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ. و«الشفاءُ» الدواء، ويُجمَع على أَشْفِية، وجمعُ الجمع أَشَافي.

و«الهدَى» معلومٌ مما مرَّ غيرَ مرَّةٍ. و«الرحمة» الإحسانُ، أو إرادتُه، أو صفةٌ غيرُهما لائقةٌ بمن قامت به.

و«من ربكم» متعلِّقٌ بـ «جاء» و«مِن» ابتدائية، أو بمحذوفٍ وقع صفةً لـ «موعظة» و«من» تبعيضية والكلامُ على حذف مضافٍ، أي: موعظةٌ من مواعظ ربكم.

و«لِمَا» إما متعلِّقٌ بما عنده واللام مقوِّيةٌ، وإما متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع نعتاً له، وكذا يُقال ـ على ما قيل ـ فيما بَعْدُ.

والمرادُ: قد جاءكم كتابٌ جامعٌ لهذه الفوائدِ والمنافع، كاشفٌ عن أحوال الأعمال حسناتِها وسيِّئاتِها، مرغِّبٌ في الأُولى ورادعٌ[3] عن الأخرى، ومبيِّنٌ للمعارف الحَقَّة المُزيلةِ لأدْواءِ الشكوك وسوءِ مزاج الاعتقاد، وهادٍ إلى طريق الحقِّ واليقين بالإرشاد إلى الاستدلال بالدلائل الآفاقية والأنفُسيَّةِ، ورحمةٌ للمؤمنين حيث نجَوا به من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان، وتخلَّصوا من دَرَكات النيران، وارتَقوا إلى درجات الجنان.

قال بعضُ المحقِّقين: إنَّ في ذلك إشارةً إلى أنَّ للنفس الإنسانية مراتبَ كمالٍ مَن تمسَّك بالقرآن فاز بها:

---

(١) البحر ٥/ ١٧٠، وما سلف بين حاصرتين منه.
(٢) في تفسيره ١٢/ ١٩٣.
(٣) في الأصل: رادع، دون الواو، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٥.

أحدها: تهذيبُ الظاهر عن فعلِ ما لا يَنبغي، وإليه الإشارةُ بـ «الموعظة»؛ بناءً على أنَّ فيها الزجرَ عن المعاصي.

وثانيها: تهذيبُ الباطن عن العقائد الفاسدةِ، والملكاتِ الرديَّةِ، وإليه الإشارةُ بـ «شفاءٌ لِمَا في الصدور».

وثالثها: تحلِّي النفس بالعقائد الحقَّة والأخلاقِ الفاضلة، ولا يحصل ذلك إلا بـ «الهدى».

ورابعها: تجلِّي أنوار الرحمة الإلهية، وتختصُّ بالنفوس الكاملة، المستعدَّةِ بما حصَلَ لها من الكمال الظاهر والباطن لذلك.

وقال الإمام: الموعظةُ إشارةٌ إلى تَطهُّر ظواهر الخلقِ عمَّا لا ينبغي، وهو الشريعة. والشفاءُ إلى تطهُّر الأرواح عن العقائد الفاسدةِ والأخلاق الذميمة، وهو الطريقة. والهدى إلى ظهور الحقِّ في قلوب الصدِّيقين، وهو الحقيقة. والرحمةُ إلى بلوغ الكمال والإشراق حتى يُكمِّلَ غيرَه ويُفيضَ عليه، وهو النبوَّة والخلافة، فهذه درجاتٌ لا يمكن فيها تقديمٌ ولا تأخير(١).

ولا يخفَى أنَّ هذا خلافُ الظاهر جدّاً، والذي يقتضيه الظاهرُ كونُ المذكورات أوصافاً للقرآنِ باعتبار كونه سبباً وآلةً لها، وجُعلَت عينَه مبالغةً، وبينها تلازمٌ في الجملة، والتنكيرُ فيها للتفخيم.

والهدايةُ إنْ أخذت بمعنى الدلالة مطلقاً فعامَّةٌ، أو بمعنى الدلالة الموصولة فخاصَّةٌ، وحينئذٍ يكون «للمؤمنين» قيدُ الأمرَين، ويؤيِّد تقييدَ الهدى بذلك قولُه سبحانه: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فالقرآنُ واعظٌ بما فيه من الترهيب والترغيب، أو بما فيه من الزَّجْرِ عن المعاصي كيفما كانت، المقترنِ بالتخويف فقط بناءً على التفسير الثاني للموعظة، وشافٍ لِمَا في الصدور من الأدواء المفضيةِ إلى الهلاك كالجهل والشكِّ والشِّرك والنفاقِ وغيرِها، ومرشدٌ ببيان ما يليقُ وما لا يليق إلى ما فيه النجاةُ والفوزُ بالنعيم الدائم، أو موصلٌ إلى ذلك، وسبب الرحمة للمؤمنين

---

(١) تفسير الرازي ١٧/ ١١٧.

الذين آمنوا به وامتثلوا ما فيه من الأحكام، وأمَّا إذا ارتُكبَ خلاف الظاهر فيقال غيرُ ما قيل أيضاً، مما ستراه إن شاء الله تعالى في باب الإشارة.

واستُدل ـ كما قال الجلال السيوطي[١] ـ بالآية على أنَّ القرآن يشفي[٢] من الأمراض البدنية كما يشفي من الأمراض القلبية. فقد أخرج ابنُ مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إنِّي أشتكي صدري. فقال عليه الصلاة والسلام: «اقرأ القرآن، يقول الله تعالى: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾». وأَخرج البيهقيُّ في «الشعب» عن واثلة بنِ الأسقع أنَّ رجلاً شكا إلى النبي ﷺ وجَعَ حلقِهِ فقال: «عليك بقراءة القرآن»[٣].

وأنت تعلم أنَّ الاستدلال بها على ذلك مما لا يكاد يُسَلَّم. والخبرُ الثاني لا يدلُّ عليه، إذ ليس فيه أكثرُ من أمره ﷺ الشاكيَ بقراءة القرآن، إرشاداً له إلى ما ينفعه ويزول به وجعُه، ونحن لا نُنكر أنَّ لقراءة القرآن بركةً قد يُذْهِبُ الله تعالى بسببها الأمراض والأوجاع، وإنما ننكر الاستدلال بالآية على ذلك.

والخبرُ الأول وإنْ كان ظاهراً في المقصود، لكن ينبغي تأويلُه كأنْ يقال: لعلَّه ﷺ اطَّلع على أنَّ في صدر الرجل مرضاً معنويّاً قلبيّاً قد صار سبباً للمرض الحسِّي البدني، فأَمَره عليه الصلاة والسلام بقراءة القرآن ليزولَ عنه الأوَّلُ فيزول الثاني، ولا يُستبعد كونُ بعضِ الأمراض القلبية قد يكون سبباً لبعض الأمراض القالبية، فإنَّا نرى أنَّ نحو الحسد والحقد قد يكون سبباً لذلك، ومن كلامهم: لله تعالى درُّ الحسد ما أعدَلَه بدأ بصاحبه فقَتَلَه[٤]، وهذا أولَى من إخراج الكلام مخرجَ الأسلوب الحكيم.

والحسنُ البصريُّ ينكر كونَ القرآن شفاءً للأمراض، فقد أخرج أبو الشيخ عنه[٥] أنَّه قال: إنَّ الله تعالى جعَلَ القرآن شفاءً لِمَا في الصدور، ولم يجعله شفاءً لأمراضكم. والحقُّ ما ذكرنا.

---

(١) في الإكليل في استنباط التنزيل ص١٤٨.
(٢) في الإكليل: أن قراءة القرآن تشفي...
(٣) الإكليل ص١٤٨، وحديث واثلة في الشعب (٢٥٨٠).
(٤) نُسب لعلي رضي الله عنه، كما في غرر الخصائص الواضحة ص٤٧٨.
(٥) كما في الدر المنثور ٣/٣٠٨.

﴿قُلْ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى رسول الله ﷺ ليأمرَ الناسَ بأنْ يغتنموا ما في القرآن العظيم من الفضل والرحمة، أي: قل لهم.

﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ، وأصلُ الكلام: ليفرحوا بفضل الله تعالى وبرحمته، ثم قُدّم الجارُّ والمجرورُ على الفعل لإفادة اختصاصه بالمجرور، ثم أُدخل عليه الفاء لإفادة معنى السببية، فصار: بفضل الله وبرحمته فليفرحوا، ثم جيء بقوله سبحانه: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ للتأكيد والتقرير، ، ثم حُذف الفعل الأول لدلالة الثاني عليه.

والفاء الأولى قيل: جزائيةٌ، والثانيةُ زائدةٌ للتأكيد، والأصل: إنْ فرحوا بشيءٍ فبذلك ليفرحوا لا بشيءٍ آخر، ثم زِيدَت الفاء لِمَا ذكر، ثم حُذفَ الشرط.

وقيل: إنَّ الأُولى هي الزائدة؛ لأنَّ جواب الشرط في الحقيقة «فليفرحوا» و«بذلك» مقدَّمٌ من تأخيرٍ؛ لمَا أُشير إليه، وزِيدَت فيه الفاءُ للتحسين، ولذلك جوِّز أنْ يكون بدلاً من قوله سبحانه: (بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ) وحينئذٍ لا يُحتاج إلى القول بحذف متعلَّقه، ونظيرُ ذلك في الاختلاف في تعيين الزائد فيه قولُ النَّمِر بن تَوْلَب:

لا تـجـزعـي إنْ مـنـفـساً أَهـلـكْـتُـهُ فـإذا هـلـكْـتُ فـعـنـد ذلك فـاجْـزَعـي[1]

ومن غريب العربية ما أشار إليه بعضُهم: أنَّ الآية من باب الاشتغال، وقد أُقيمَ اسمُ الإشارة مقامَ ضمير المعمول، وتوحيدُه باعتبار ما ذُكر ونحوه كما هو شائعٌ فيه، ووجهُ الغرابة[2] أنَّ المعروف في شرط البابِ اشتغالُ العامل بضمير المعمول، ولم يذكر أحدٌ من النحاة اشتغالَه باسم الإشارة إليه.

وجوِّز أنْ يُقدَّر متعلَّق الجارِّ والمجرور: فليعتنوا، أي: بفضل الله ورحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، والقرينةُ على تقدير ذلك أنَّ ما يُفْرَحُ به يكون مما يُعتَنَى ويُهتَمُّ بشأنه، أو تقديمُ الجارِّ والمجرور على ما قيل، وقال الحلبي: الدلالة عليه

---

(١) الكتاب ١/ ١٣٤، والخزانة ١/ ٣١٤، ومعناه كما ذكر البغدادي: أن الشاعر يقول مخاطباً زوجته: لا تجزعي من إنفاقي النفائس ما دمت حيّاً، فإني أحصل على أمثالها وأخلفها عليك، ولكن اجزعي إذا مت فإنك لا تجدين خَلَفاً مني.

(٢) في (م): غرابته.

من السياق واضحة، وليس شرط الدلالة أنْ تكون لفظية[١]. فقولُ أبي حيان: إنَّ ذلك إضمارٌ لا دليل عليه[٢]. مما لا وجْهَ له.

وأن يُقدَّر: جاءتكم، بعد «قل» مدلولاً عليه بما قبلُ، أي: قل جاءتكم موعظةٌ وشفاءٌ وهدًى ورحمةٌ بفضل اللهِ وبرحمته، ولا يجوزُ تعلُّقه بـ «جاءتكم» المذكور؛ لأنَّ «قل» تمنعُ من ذلك، و«ذلك» على هذا إشارةٌ إلى المصدر المفهوم من الفعل، وهو المجيء، أي: فبمجيء المذكورات فليفرحوا.

وتكريرُ الباء في «برحمته» على سائر الأوجه للإيذان باستقلالها في استيجاب[٣] الفرح.

والمرادُ بالفضل والرحمة إما الجنسُ، فيدخل[٤] فيه ما في مجيء القرآن من الفضل والرحمة دخولاً أوليّاً، وإمَّا ما في مجيئه من ذلك، ويؤيِّده ما روي عن مجاهد أنَّ المراد بالفضل والرحمة القرآنُ.

وأخرج أبو الشيخ وابنُ مردويه عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «فضْلُ الله القرآنُ، ورحمتُه أنْ جَعَلكُم من أهله»[٥] وروي ذلك عن البراء وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما موقوفاً[٦].

وجاء عن جمعٍ جمٍّ أنَّ الفضل القرآنُ، والرحمة الإسلام، وهو في معنى الحديث المذكور.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الفضل العلمُ، والرحمة محمدٌ ﷺ[٧].

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٢٣.

(٢) البحر ٥/ ١٧١.

(٣) في الأصل: إيجاب.

(٤) في (م): ويدخل.

(٥) الدر المنثور ٣/ ٣٠٨، وعزاه لابن مردويه أيضاً الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار ٢/ ١٢٨، وفي إسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان، قال عنه الدارقطني وغيره: كان يضع الحديث. وقال ابن عدي: له عن ثقات الناس بواطيل.

(٦) أخرجه عن البراء الطبراني في الأوسط (٥٥١٢)، وعن أبي سعيد الخدري سعيد بن منصور في سننه (١٠٦٤- تفسير)، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٠١، والطبراني ١٢/ ١٩٤-١٩٥.

(٧) الدر المنثور ٢/ ٣٠٨.

وأخرج الخطيب وابنُ عساكر عنه تفسيرَ الفضل بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام، والرحمة بعليٍّ كرم الله تعالى وجهه(١). والمشهورُ وصفُ النبيِّ ﷺ بالرحمة كما يُرشد إليه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] دون الأمير كرَّم الله تعالى وجهه، وإنْ كان رحمةً جليلةً رضي الله عنه وأرضاه.

وقيل: المرادُ بهما: الجنَّةُ، والنجاة من النار. وقيل غيرُ ذلك.

ولا يجوز أنْ يُراد بالرحمة على الوجه الأخير من أوجُهِ الإعراب ما أُريد بها أوّلاً، بل هي فيه غيرُ الأولى كما لا يخفى.

ورَوى رويس عن يعقوب أنَّه قرأ: «فلتفرحوا» بتاء الخطاب ولام الأمر(٢) على أصل المخاطَب المتروك، بناءً على القول بأنَّ أصل صيغةِ الأمر الأمرُ باللام، فحذفت مع تاء المضارعة واجْتُلبت همزةُ الوصل للتوصُّل إلى الابتداء بالساكن، لا على القول بأنَّها صيغةٌ أصلية.

وقد ورَدت هذه القراءة في حديث صحيح عن النبيِّ ﷺ، وقد أخرجه جماعةٌ منهم أبو داود وأحمدُ والبيهقيُّ من طرقٍ عن أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه مرفوعاً(٣). وقرأ بها أيضاً ابنُ عباس وقتادة وغيرُهما(٤).

وفي تعليقات الزمخشريِّ على كشافه: كأنَّه ﷺ إنَّما آثر القراءة بالأصل؛ لأنَّه أدلُّ على الأمر بالفرح، وأشدُّ تصريحاً به، إيذاناً بأنَّ الفرح بفضل الله تعالى وبرحمته بليغ التوصية به ليطابق التقرير والتكرير وتضمين معنى الشرط لذلك، ونظيرُه مما انقلب فيه ما ليس بفصيحٍ فصيحاً قوله سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤](٥) من تقديمِ الظرف اللغو ليكون الغرضُ اختصاصَ

---

(١) تاريخ بغداد ٥/ ١٥، وتاريخ دمشق ٤٢/ ٣٦٢ وهو من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح، وهي سلسلة الكذب المشهورة.

(٢) النشر ٢/ ٢٨٥.

(٣) سنن أبي داود (٣٩٨٠)، ومسند أحمد (٢١١٣٦)، والشعب (٢٥٩٤).

(٤) المحتسب ١/ ٣١٣، والبحر ٥/ ١٧٢ عن جمع منهم قتادة، ولم نقف عليها عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) ذكره بنحوه الشهاب في الحاشية ٥/ ٤١، وفيه: ... إيذاناً بأن الفرح بفضل الله ورحمته =

التوحيد. انتهى. وهو مأخوذٌ من كلام ابن جني في توجيه ذلك[١].

ونُقِل عن «شرح اللب» في توجيهه: أنَّه لمَّا كان النبيُّ ﷺ مبعوثاً إلى الحاضر والغائب جَمَعَ بين اللام والتاء. قيل[٢]: وكأنَّه عنى: أنَّ الأمر لمَّا كان لجملة المؤمنينَ حاضرِهم وغائبهم، غلَّب الحاضرون في الخطاب على الغائبين، وأُتي باللام رعايةً لأمر الغائبين، وهي نكتةٌ بديعةٌ إلا أنَّه أمر محتملٌ. وما نُقل عن صاحب «الكشاف» أَوْلَى بالقبول.

وقرئ: «فافرحوا»[٣] وهي تؤيِّد القراءةَ السابقة؛ لأنَّها أمرُ المخاطب على الأصل. وقرئ: «فَلِيَفْرحوا» بكسر اللام[٤].

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ من الأموال والحَرْثِ والأنعام وسائر حطام الدنيا، فإنَّها صائرةٌ إلى الزوال مشرفةٌ عليه، وهو راجعٌ إلى لفظِ «ذلك» باعتبارِ مدلوله وهو مفرد، فَرُوعيَ لفظُه، وإنْ كان عبارةً عن الفضل والرحمة.

ويجوزُ إرجاعُ الضمير إليهما ابتداءً بتأويل[٥] المذكور كما فعل في «ذلك»، أو جَعْلُهما في حكم شيءٍ واحدٍ.

ولك أنْ تجعلَه راجعاً إلى المصدر، أعني: المجيء الذي أشير إليه. و«ما» تحتمل الموصولية والمصدرية.

وقرأ ابنُ عامر: «تجمعون» بالخطاب[٦] لمن خُوطب بـ «يا أيها الناس» سواءٌ كان عامّاً أو خاصّاً بكفار قريش، وضمير «فليفرحوا» للمؤمنين، أي: فبذلك فليفرح المؤمنون فهو خيرٌ مما تجمعون أيُّها المخاطَبون، وعلى قراءة «فلتفرحوا»

= مما ينبغي التوصية مشافهة به، وبهذا الاعتبار انقلب ما ليس فصيحاً فصيحاً كما في قوله: «لم يكن له كفواً أحد».

(١) كلام ابن جني في المحتسب ١/ ٣١٣-٣١٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٤١.

(٢) القائل هو الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٢، وما قبله منه.

(٣) المحتسب ١/ ٣١٣، والبحر ٥/ ١٧٢ عن أبيٍّ رضي الله عنه.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٧٢.

(٥) في الأصل: باعتبار، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٥/ ٤٢، والكلام منه.

(٦) التيسير ص١٢٢، والنشر ٢/ ٢٨٥. وهي قراءة أبي جعفر، ورويس عن يعقوب.

و«افرحوا» يكون الخطابُ على ما قيل للمؤمنين. وجوِّز أنْ يكونَ لهم على قراءة الغيبة أيضاً التفاتاً، وتعقِّب بأنَّ الجمع أنسبُ بغيرهم، وإنْ صحَّ وصفُهم به في الجملة، فلا ينبغي أنْ يلتزم القول بما يستلزمُه ما دام مندوحة عنه.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ أي: ما قدَّر لانتفاعكم من ذلك، وإلَّا فالرزقُ ليس كلُّه مُنزلاً، واستعمال «أَنْزَل» فيما ذكر مجازٌ من إطلاق المسبَّب على السبب. وجوِّز أنْ يكون الإسناد مجازياً بأنْ أسند الإنزال إلى الرزق؛ لأنَّ سببه كالمطر مُنزَلٌ.

وقيل: إنَّ هناك استعارةً مكنيةً تخييليةً، وهو بعيد. وجَعْلُ الرزق مجازاً عن سببه، أو تقديرُ لفظ سبب مما لا ينبغي(١).

و«ما» إمَّا موصولةٌ في موضع النصب على أنَّها مفعولٌ أولُ لـ «أرأيتم» والعائد محذوفٌ، أي: أنزله، والمفعولُ الثاني ما ستراه إن شاء الله تعالى قريباً. وإمَّا(٢) استفهاميةٌ في موضع النصب على أنَّه مفعولُ «أنزل» وقدِّم عليه لصدارته، وهو معلِّقٌ لِمَا قبله إنْ قلنا بالتعليق فيه، أي: أيّ شيءٍ أنزل الله تعالى من رزق.

﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي: فبعَّضتُموه وقَسمتُموه إلى حرامٍ وحلالٍ، وقلتم: ﴿هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [الأنعام:١٣٨] و﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩] إلى غير ذلك.

﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في جَعْلِ البعضِ منه حراماً والبَعْضِ الآخَرِ حلالاً ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ «أم» والهمزةُ متعادلتان، والجملةُ في موضع المفعول الثاني لـ «أرأيتم»(٣)، و«قل» مكرَّرٌ للتأكيد فلا يَمنعُ من ذلك، والعائدُ على المفعول الأول مقدَّرٌ، والمعنى: أرأيتم الذي أنزله الله تعالى لكم من رزقٍ ففعلتُم فيه ما فعلتم، أيُّ الأمرَين كائنٌ فيه: الإذنُ فيه من الله تعالى بجَعْلِه قِسْمَين، أم الافتراءُ منكم.

---

(١) لأن المستَخْبَر عنه ليس سبب الرزق بل هو نفسه. حاشية الشهاب ٥/ ٤٢، والكلام منه.

(٢) في (م): وما، وهو تحريف.

(٣) يعني على القول بأن «ما» موصولة في موضع النصب على أنها مفعول أول لـ «أرأيتم». الدر المصون ٦/ ٢٢٦، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٢.

وكان أصلُ «آلله أذنَ لكم» إلخ: آللهُ أَذِنَ أم غيرُه، فعدل إلى ما في النظم الجليل دلالةً على أنَّ الثابت هو الشقُّ الثاني، وهم نسبوا ذلك إليه سبحانه، فهم مفتَرون عليه جلَّ شأنه لا على غيره، وفيه زجرٌ عظيم كما لا يخفى. ولعل هذا مرادُ مَن قال: إنَّ الاستفهام للاستخبار، ولم يُقصَد به حقيقتُه ليُنافي تحقُّقَ العلم بانتفاءِ الإذن وثبوتِ الافتراء، بل قُصِدَ به التقريرُ والوعيدُ وإلزام الحجة.

وجوِّز أن يكون الاستفهام لإنكار الإذن، وتكون «أم» منقطعةً بمعنى «بل» الإضرابية، والمقصودُ الإضراب عن ذلك لتقرير افترائهم، والجملةُ على هذا معمولةٌ للقول وليست متعلِّقةً بـ «أرأيتم»، وهو قد اكتفَى بالجملة الأولى كما أشرنا إليه.

ومن الناس مَن جوَّز كونَ «أم» متَّصلةً وكونَها منفصلة، على تقدير تعلُّق الجملة بفعل القول، وأوجبَ الاتِّصال على تقدير تعلُّقها بـ «أرأيتم».

وجَعْلُ الاسم الجليل مبتدأً مخبراً عنه بالجملة للتخصيص عند بعضٍ، ولتقويةِ الحكم عند آخر، والإظهارُ بعدُ في مقام الإضمار للإيذان بكمال قُبح افترائهم، وتقديمُ الجارِّ والمجرور للقَصْرِ مطلقاً في رأيٍ، ولمراعاةِ الفواصل على الوجه الأول وللقَصْرِ على الوجه الثاني في آخر.

واستَدلَّ المعتزلةُ بالآية على أنَّ الحرام ليس برزقٍ، ولا دليلَ لهم فيها ـ على ما ذكرناه ـ لأنَّ المقدَّر للانتفاع هو الحلال، فيكون المذكور هنا قسماً من الرزق، وهو شاملٌ للحلال والحرام، والكفرةُ إنَّما أخطؤوا في جَعْلِ بعض الحلال حراماً، ومَن جعَلَ أهلَ السنة نظيراً لهم في جَعْلِهم الرزقَ مطلقاً منقسماً إلى قسمين فقد أَعْظَمَ الفرية.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ كلامٌ مسوقٌ من جهته تعالى لبيان هولِ ما سيلْقَوْنه، غيرُ داخلٍ تحت القول المأمور به، والتعبيرُ عنهم بالموصول [في موقع الإضمار][1] لقَطْعِ احتمالِ الشقِّ الأول من الترديد، والتسجيلِ عليهم بالافتراءِ،

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٤/ ١٥٧، والكلام منه.

وزيادةُ الكذب ـ مع أنَّ الافتراء لا يكون إلا كذلك ـ لإظهارِ[١] كمالِ قُبحِ ما افتعلوا، وكونه كذباً في اعتقادهم أيضاً.

و«ما» استفهاميةٌ مبتدأ و«ظنُّ» خبرُها، وهو[٢] مصدرٌ مضافٌ إلى فاعله، ومفعولاه محذوفان.

وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظرفٌ لنفس الظنِّ لا لـ «يفترون»[٣] لعدم صحته معنًى، ولا بمقدَّر لأنَّ التقدير خلافُ الظاهر، أي: أيُّ شيءٍ ظنُّهم في ذلك اليوم أنِّي فاعلٌ بهم، والمقصودُ التهديدُ والوعيد.

ويدلُّ على تعلُّقه بالظنِّ قراءة عيسى بن عمر: «وما ظَنَّ» بصيغة الماضي[٤]، و«ما» في هذه القراءة بمعنى الظنِّ في محلِّ نصبٍ على المصدرية، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّق الوقوع، وأكثرُ أحوال القيامة يعبَّر عنها بذلك في القرآن لِمَا ذُكر، والعملُ في الظرف المستقبلِ لا يمنعُ لتصييره الفعلَ نصّاً في الاستقبال التجوُّزَ المذكور؛ لأنَّه[٥] يقدَّر ـ لتحقُّقِه أيضاً ـ ماضياً.

وقيل: الظرفُ متعلِّقٌ بما يتعلَّق به ظنُّهم اليومَ من الأمور التي ستقع يوم القيامة؛ تنزيلاً له ولِمَا فيه[٦] من الأهوال ـ لمكان وضوح أمره في التحقُّق والتقرُّر ـ منزلةَ المسلَّم عندهم، أي: أيُّ شيءٍ ظنُّهم لِمَا سيقع يوم القيامة، أيحسبون أنَّهم لا يُسألون عن افترائهم، أو لا يُجازَوْنَ عليه، أو يُجازَون جزاءً يسيراً، ولذلك يفعلون ما يفعلون[٧]، كلَّا إنَّهم لفي أشدِّ العذاب؛ لأنَّ معصيتهم أشدُّ المعاصي.

والآيةُ السابقة، قيل: متَّصلةٌ بقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إلخ [الآية: ٣١]، كأنَّه قيل حيث أقرُّوا أنَّه سبحانه الرازقُ: قل لهم: أرأيتم

---

(١) قوله: لإظهار، مكرر في (م).
(٢) في (م): هو.
(٣) في (م): لا بيفترون.
(٤) القراءات الشاذة ص٥٧، والكشاف ٢/ ٢٤٢، والبحر ٥/ ١٧٣، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٣.
(٥) أي: يوم القيامة. حاشية الشهاب ٥/ ٤٣.
(٦) في (م): ولما يقع فيه. والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٧، والكلام منه.
(٧) في (م): ما يفعلون يفعلون، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

ما أنزل الله.. إلخ. ونُقل ذلك عن أبي مسلم.

وقيل: بقوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ) إلخ، وذلك أنَّه جلَّ شأنه لمَّا وصَفَ القرآن بما وَصَفَه، وأمر نبيَّه ﷺ أنْ يُرغِّب باغتنام ما فيه، عَقَّب ذلك بذكرِ مخالفتهم لِمَا جاء به، وتَحْريمِهم ما أحلَّ.

وقيل: إنها متَّصلةٌ بالآيات الناعيةِ عليهم سوء اعتقادهم، كأنَّه سبحانه بعد أن نَعَى عليهم أصولَهم بيَّن بطلان فروعهم، ولعل خيرَ الثلاثة وَسَطُها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيمٍ لا يُقْدَرُ قَدْرُه ولا يُكْتَنَهُ كُنْهُه ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ جميعاً حيث أنعم عليهم بالعقل، ورَحِمَهم بإرسال وإنزالِ الكتب، وبيَّن لهم ما لا تستقلُّ عقولُهم بإدراكه، وأرشدَهم إلى ما يهمُّهم من أمر المعاش والمعاد، ورغَّبهم ورهَّبهم، وشَرَحَ لهم الأحوال، وما يلقاه الحائدُ عن الرشاد من الأهوال ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٦٠﴾ ذلك الفضلَ، فلا ينتفعون به. ولعل الجملةَ تذييلٌ لَمَا سَبَقَ مقرِّرٌ لمضمونه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: في أمرٍ معتنًى به، مِن شَأَنَه بالهمز كسَأَلَه: إذا قَصدَه، وقد تُبدل همزتُه ألفاً، وهو في الأصل مصدرٌ، وقد أُريدَ به[1] المفعول.

﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ الضميرُ المجرور للشأن، والتلاوةُ أعظمُ شؤونه ﷺ، ولذا خُصَّت بالذِّكر. أو للتنزيل، والإضمارُ قبل الذكر لتفخيم شأنه. أو لله عزَّ وجلَّ.

و«مِن» قيل: تبعيضية على الاحتمالَين الأوَّلَين، وابتدائيةٌ على الثالث. والتي في قوله سبحانه: ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ زائدةٌ لتأكيد النفي على جميع التقادير، وإلى ذلك ذهب القطب.

وقال الطيبي: إنَّ «مِن» الأولى على الاحتمال الأخير ابتدائية والثانية مزيدةٌ، وعلى الاحتمال الأوَّل الأُولى للتبعيض والثانية للبيان، وعلى الثاني الأُولى ابتدائيةٌ والثانية للبيان.

وفي «إرشاد العقل السليم»[2]: إنَّ الضمير الأول للشأن، والظرف صفةٌ لمصدرٍ

---

(١) قوله: به، ليس في (م).

(٢) ٤/١٥٧.

محذوفٍ، أي: تلاوةً كائنةً من الشأن. أو للتنزيل و«من» ابتدائية أو تبعيضية. أو لله تعالى شأنُه. و«مِن» الثانية مزيدة أو ابتدائية[١] على الوجه الأول، وبيانيةٌ أو تبعيضيةٌ على الوجه الثاني والثالث.

وأنت تعلم أنَّه قد يكون الظرف متعلِّقاً بما عنده، والتزامُ تعلُّقه بمحذوفٍ وقع صفةً لمصدرٍ كذلك في جميع الاحتمالات مما لا حاجةَ إليه. نعم اللازمُ ـ بناءً على المشهور ـ أنْ لا يتعلَّق حرفان بمعنًى بمتعلَّقٍ واحد.

وذهب أبو البقاء إلى أنَّ الضمير الأول للشأن، و«من» الأُولى للأَجْلِ كما في قوله سبحانه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ [نوح: ٢٥]. و«من» الثانية مزيدةٌ وما بعدها مفعول به لـ «تتلو»[٢]. وله وجهٌ.

وممَّا يقضي منه العجب ما قاله بعضُهم: إنَّه يحتمل أن يكون ضميرُ «منه» للشأن؛ إما على تقدير: ما تتلو حالَ كون القراءة[٣] بعضَ شؤونك، وإما أنْ يُحمل الكلامُ على حذف المضاف، أي: وما تتلو من أَجْلِ الشأنِ بأنْ يَحدث لك شأنٌ فتتلو القرآن من أجله. فإنَّ الحالية مما لا تكاد تخطرُ ببالِ مَن له أدنى ذوقٍ في العربية، ولم نَرَ القولَ بتقدير مضافٍ في الكلام إذا كان فيه «مِن» الأَجْلية أو نحوها، وما في كلام غير واحدٍ من الأفاضل في أمثال ذلك تقديرُ معنًى لا تقديرُ إعراب، ويَبعُد حمل هذا البعض على ذلك، كما لا يخفى.

هذا، ثم إنَّ القرآن عامٌّ للمقروءِ كلّاً وبعضاً، وهو حقيقةٌ في كلٍّ كما حُقِّق في موضعه. والقولُ بأنَّه مجازٌ في البعض بإطلاق الكلِّ وإرادةِ الجزء، مما لا يُلتفَتُ إليه.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: أيِّ عملٍ كان، والخطابُ الأوَّل خاصٌّ برأس النوع الإنساني وسيدِ المخاطبين ﷺ وهذا عامٌّ يشملُ[٤] سائرَ العباد برَّهم

---

(١) في (م): وابتدائية. وهو خطأ.

(٢) الإملاء ٣/ ٢٣٨.

(٣) في الأصل: القرآن.

(٤) في (م): ويشمل.

وفاجرهم، لا الأخيرين فقط، وقد رُوعي في كلٍّ من المقامَين ما يليق به، فعبِّر في مقام الخصوص في الأول بالشأن؛ لأنَّ عَمَلَ العظيم عظيمٌ، وفي الثاني بالعمل العامِّ للجليل والحقير.

وقيل: الخطابُ الأوَّل عامٌّ للأمة أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق:١].

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ استثناءٌ مفرَّغ من أعمِّ أحوال المخاطبين بالأفعال الثلاثة، أي: وما تلابسون بشيءٍ منها في حالٍ من الأحوال إلا حالَ كوننا رقباء مطَّلعين عليه حافظين له، كذا قالوا. ويُفهَم منه أنَّ الجارَّ والمجرور متعلِّق بما بعده، ولعل تقديمه للاهتمام بتخويفِ مَن أُريدَ تخويفُه من المخاطَبين، وكأنَّه للمبالغة فيه جيء بضمير العظمة، وأنَّ المقصود من الاطِّلاع عليهم الاطِّلاع على عملهم.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ أي: تَشْرَعون فيه وتَتلبَّسون به، وأصلُ الإفاضة: الاندفاعُ بكثرةٍ، أو بقوة، وحيث أُريد بالأفعال السابقة الحالةُ المستمرَّةُ الدائمةُ المقارِنةُ للزمان الماضي أيضاً أُوثر في الاستثناء صيغةُ الماضي، وفي الظرف كلمة «إذ» التي تفيد المضارعَ معنى الماضي، كذا قيل.

ولم أرَ مَن تعرَّض لبيان وجه اختيار النفي بـ «ما» ـ التي تُخلِّصُ المضارعَ للحال عند الجمهور عند انتفاء قرينة خلافه ـ في الجملتَين الأوليين، والنفيِ بـ «لا» ـ التي تخلص المضارع للاستقبال عند الأكثرين، خلافاً لابن مالك[1] ـ في الجملة الثالثة، ولعل ذلك من آثار اختلاف الخطاب خصوصاً وعموماً، فتأمَّله فإنَّه دقيقٌ جدّاً.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ أي: ما يَبْعُدُ وما يغيبُ، ومنه يقال: الروضُ العازب، وروضٌ عزيبٌ: إذا كان بعيداً عن[2] الناس. والكلامُ على حذف مضاف، أي: وما يَعْزُبُ عن عِلْمِ ربِّك عزَّ وجلَّ، أو هو كنايةٌ عن ذلك.

وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من الإشعار باللُّطفِ ما لا يخفى.

---

(١) كما في المغني ص٣٢٢.

(٢) في (م): من.

وقرأ الكسائي والأعمش ويحيى بن وثاب بكَسْرِ الزاي[1].

﴿مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ﴾ «مِن» مزيدةٌ لتأكيد النفي، والمثقالُ اسمٌ لِمَا يُوازِن الشيءَ ويكونُ في ثقله، وهو في الشرع أربعةٌ وعشرون قيراطاً. وأخرج ذلك ابنُ أبي حاتم في تفسيره عن أبي جعفر[2]. والصحيح أنَّه لم يختلف جاهليةً وإسلاماً، فقد نقل الجلال السيوطيُّ عن الرافعيِّ أنَّه قال: أَجْمعَ أهل العصر الأول على التقدير بهذا الوزن، وهو أنَّ الدرهم ستةُ دوانيق، وكلُّ عشرة دراهم سبعةُ مثاقيل، ولم يتغيَّر المثقالُ في الجاهلية ولا في الإسلام.

والذرة واحدةُ الذرِّ، وهو النمل الأحمر الصغير، وسئل ثعلب عنها فقال: إنَّ مئةَ نملةٍ وزن حبة، والذرَّة واحدة منها[3].

وقيل: الذرَّةُ ليس لها وزنٌ، ويُراد بها ما يُرى في شعاع الشمس الداخل في النافذة.

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي في جهتَي السفل والعلوِّ، أو في دائرة الوجود والإمكان؛ لأنَّ العامةَ لا تعرفُ سواهما ممكناً ليس فيهما ولا متعلِّقاً بهما، والكلامُ شاملٌ لهما أنفسِهما أيضاً كما لا يخفى.

وتقديمُ الأرض على السماء مع أنَّها قدِّمت عليها في كثيرٍ من المواضع، ووقعت أيضاً في «سبأ» في نظير هذه الآية مقدَّمةً[4]؛ لأنَّ الكلام في حال أهلها، والمقصودُ إقامة البرهان على إحاطة عِلْمِه سبحانه بتفاصيلها، وذِكْر «السماء» لئلا يُتوهَّم اختصاصُ إحاطة عِلْمِه جلَّ وعلا بشيءٍ دون شيءٍ، وحاصلُ الاستدلال أنَّه سبحانه لا يغيبُ عنه شيءٌ؛ ومَن يكون هذا شأنُه كيف لا يعلم حالَ أهلِ الأرض وما هم عليه مع نبيِّه ﷺ؟

وقوله سبحانه: ﴿وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٦١﴾ جملةٌ مستقلةٌ

---

(١) التيسير ص١٢٢-١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٥ عن الكسائي، وعزاها للأعمش وابن وثاب أبو حيان في البحر ٥/ ١٧٤.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٢/٦٠٩، وسلف ٦/ ٢٩.

(٣) مجالس ثعلب ص٤٧٥.

(٤) وهي قوله تعالى: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٣].

ليست معطوفةً على ما قبلها، و«لا» نافية للجنس، و«أصغر» اسمها منصوبٌ لِشَبَهِه بالمضاف، وكذا «أكبر» لتقديرِ عمله، وقولُ السمين: إنَّهما مبنيَّان على الفتح[1]، ضعيفٌ، وهو مذهبُ البغداديين، وزَعْمُ[2] أنَّه سَبْقُ قلمٍ متأخِّرٌ عن حيز القبول. و«في كتاب» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع خبراً.

وقرأ حمزةُ ويعقوبُ وخلفٌ وسهلٌ بالرفع[3] على الابتداء والخبر. و«لا» يجوزُ إلغاؤها إذا تكرَّرت، وأما قولهم: إنَّ الشبيه بالمضاف يجبُ نَصْبُه، فالمراد منه المنعُ من البناء لا المنعُ من الرفع والإلغاءِ كما توهَّمه بعضُهم. وجوَّز أنْ يكون ذلك على جَعْلِ «لا» عاملةً عملَ ليس.

وقيل: إنَّ «أصغرَ» على القراءة الأولى عطفٌ على «مثقالٍ» أو «ذرةٍ» باعتبارِ اللفظ، وجيء بالفتح بدلاً عن الكسر لأنَّه لا ينصرفُ؛ للوَصْف ووَزْنِ الفعل، وعلى القراءة الأخرى معطوفٌ على «مثقال» باعتبار محلِّه؛ لأنَّه فاعلٌ و«مِن» كما عرفْتَ مزيدٌ. واستشكل بأنَّه يصير التقدير: ولا يعزُبُ عنه أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ منه إلَّا في كتاب فيعزب عنه، ومعناه غيرُ صحيح.

وأُجيبَ بأنَّ هذا على تقدير اتِّصال الاستثناء، وأما على تقدير انقطاعه فيصير التقدير: لكنْ لا أصغرُ ولا أكبرُ إلا هو في كتابٍ مبين. وهو مؤكِّدٌ لقوله سبحانه: (وَمَا يَعۡزُبُ عَن) إلخ[4].

وأجاب بعضُهم ـ على تقدير الاتصال ـ بأنَّه على حدِّ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الدخان:٥٦] ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٣] في رأيٍ، فالمعنى: لا يبعُدُ عن علمه شيءٌ إلا ما في اللوح الذي هو محلُّ صُوَر معلوماته تعالى شأنُه، بناءً على تفسير «الكتاب المبين» به، أو: إلَّا ما في علمه، بناءً على ما قيل: إنَّ الكتاب العلمُ، فإن عُدَّ ذلك من

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٣٠.

(٢) الزاعم هو الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٤.

(٣) التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٥٨٥ عن حمزة ويعقوب وخلف. وقراءة سهل في مجمع البيان ١١/ ٦٥، والبحر ٥/ ١٧٤.

(٤) كذا ذكر في هذا الموضع آية سبأ، والأولى ذكر آية يونس: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ إلخ.

العزوب، فهو عازبٌ عن علمه، وظاهرٌ أنَّه ليس من العزوب قطعاً، فلا يعزب عن علمه شيءٌ قطعاً.

ونُقل عن بعض المحقِّقين[١] في دَفْع الإشكال أنَّ العزوب عبارةٌ عن مطلق البعد، والمخلوقاتُ قسمان: قسمٌ أَوْجَدَه الله تعالى من غير واسطةٍ، كالأرض والسماء والملائكةِ عليهم السلام، وقسمٌ أوجده بواسطةِ القسم الأول، مثل الحوادث في العالم، وقد تتباعَدُ سلسلة العلِّية والمعلولية عن مرتبة وجودِ واجبِ الوجود سبحانه، فالمعنى: لا يَبْعُدُ عن مرتبة وجوده تعالى ذرَّةٌ في الأرض ولا في السماء إلَّا وهو في كتابٍ مبينٍ أَثْبَتَ فيه سبحانه تلك المعلومات، فهو استثناءٌ مفرَّغٌ من أعمِّ الأحوال، وإثباتُ العزوب بمعنى البعد عنه تعالى في سلسلة الإيجاد لا محذورَ فيه، وهو وجهٌ دقيقٌ إلا أنَّه أشبهُ بتدقيقات الحكماء، وإن خالف ما هم عليه في الجملة.

وقال الكواشي[٢]: معنى «يعزبُ»: يَبِينُ وينفصلُ، أي: لا يَصْدُرُ عن ربِّك شيءٌ من خَلْقِه إلَّا وهو في اللوح، وتلخيصُه: أنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ فيه.

واعتُرِض بأنَّ تفسير يعزب بـ: يَبِين[٣] وينفصل، غيرُ معروفٍ.

وقيل: المرادُ بالبعد عن الربِّ سبحانه البعدُ والخروجُ عن غيبه، أي: لا يَخرجُ عن غيبه إلا ما كان في اللوح، فيعزُبُ عن الغيب ويَبعُدُ، إذ لا يبقَى ذلك غيباً حينئذٍ لاطِّلاع الملائكة عليهم السلام وغيرِهم عليه، فيفيد إحاطة علْمِهِ سبحانه بالغيب والشهادة. ومن هنا يظهرُ وجهٌ آخَرُ لتقديم الأرضِ على السماء.

وقيل: إنَّ «إلا» عاطفةٌ بمنزلة الواو كما قال بذلك الفرَّاء في قوله تعالى: ﴿لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۞ إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ [النمل: ١٠-١١][٤]، والأخفش في قوله سبحانه:

---

(١) كما في تفسير الرازي ١٧/ ١٢٤، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٤، وعنه نقل المصنف.

(٢) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٤٤.

(٣) في (م): تفسيره بيبين.

(٤) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٨٧، وقد ذكره الفراء عن بعض النحويين، ثم قال: ولم أجد العربية تحتمل ما قالوا؛ لأني لا أجيز: قام الناس إلا عبدَ الله، وهو قائم، إنما الاستثناء أن يخرج الاسم الذي بعد «إلا» من معنى الأسماء قبل «إلا» ولكن مثله مما يكون في معنى «إلا» كمعنى الواو وليست بها قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ
=

﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠][(١)] وقومٌ في قوله جلَّ شأنه: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢] و«هو» مقدَّر بعدها، والكلام قد تمَّ عند قوله سبحانه: (وَلَآ أَكْبَرَ) ثم ابتدأ بقوله تعالى: (إِلَّا فِي كِتَٰبٍ) أي: وهو في كتاب، ونقل ذلك مكّي عن أبي علي الحسن بن يحيى الجرجاني[(٢)] ثم قال: وهو قولٌ حسنٌ لولا أنَّ جميع البصريين لا يعرفون «إلا» بمعنى الواو.

والإنصافُ أنَّه لا ينبغي تخريجُ كلام الله تعالى العزيز على ذلك، ولو اجتمع الخلق إنسُهم وجنُّهم على مجيء «إلا» بمعنى الواو.

وقيل: إنَّ الاستثناء من محذوفٍ دلَّ عليه الكلام السابق، أي: ولا شيء إلَّا في كتاب؛ ونظيرُه ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. ويكونُ من مجموع ذلك إثباتُ العلم لله تعالى في كلِّ معلومٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ مكتوبٌ في الكتاب، ويشهد لهذا ـ على ما قيل ـ كثيرٌ من أساليب كلام العرب.

ونُقل عن صاحب كتاب «تبصرة المتذكر»[(٣)]: أنَّه يجوز أنْ يكونَ الاستثناءُ متصلاً بما قبلَ قوله تعالى: (وَمَا يَعْزُبُ) ويكون في الآية تقديمٌ وتأخير، وترتيبها: وما تكون في شأنٍ، وما تتلو منه من قرآنٍ، ولا تعملون من عملٍ إلا في كتابٍ مبينٍ إلا كنَّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه، إلى[(٤)] «ولا أكبر». وتلخيصُه: وما مِن شيءٍ إلا وهو في اللوح المحفوظ، ونحن نشاهدُه في كلِّ آنٍ.

= رَبُّكَ﴾ هو في المعنى: إلا الذي شاء ربك من الزيادة، فلا تجعل «إلا» في منزلة الواو ولكن بمنزلة «سوى»، فإذا كانت «سوى» في موضع «إلا» صلحت بمعنى الواو؛ لأنك تقول: عندي مال كثير سوى هذا، أي: وهذا عندي.

(١) معاني القرآن للأخفش ١/ ٣٤٣.

(٢) الجماجمي، كان مسكنه بجرجان بباب الخندق في سكة تعرف بجماجمو، له من التصانيف عدة منها في نظم القرآن، وكان من أهل السنَّة، روى عنه أبو النضر محمد بن محمد بن يوسف الطوسي. تاريخ جرجان ص١٨٧، والأنساب ٣/ ٢٨٩. ونقل كلامه أيضاً الرازي ١٧/ ١٢٤، والقرطبي ١١/ ١٥، وأبو حيان ٥/ ١٧٤-١٧٥.

(٣) تبصرة المتذكر وتذكرة المتبصر، لموفق الدين أحمد بن يوسف بن الحسين الكواشي المتوفي سنة (٦٨٠هـ). هدية العارفين ١/ ٩٨.

(٤) قوله: إلى، ليس في (م).

ونظر فيه البلقيني في رسالته المسماة بـ «الاستغناء بالفتح المبين في الاستثناء في: ولا أكبر إلا في كتاب مبين»: بأنه على ما فيه من التكلُّف يلزمُ عليه القول بتركيبٍ في الكلام المجيد لم يوجد في كلام العرب مثله، أعني: إلا في كتابٍ مبين إِلَّا كنَّا عليكم شهوداً، وليس ذلك نظير: امْرُر بهم إلا الفتى إلا العَلَا[1]. كما لا يخفى.

وأنت تعلم أنَّ أقلَّ الأقوال تكلُّفاً القولُ بالانقطاع، وأجلَّها قَدْراً وأدقَّها سرّاً القولُ بالاتِّصال، وإخراجُ الكلام مخرجَ ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ ونظائرِه الكثيرةِ نثراً ونظماً، ولا عيبَ فيه إلا أنَّ الآية عليه أبلغ. فليفهم.

ثم إن الله تعالى[2] لما عمَّم وعدَه ووعيده في حقِّ كافَّة مَن أطاع وعصى، أَتْبَعَه سبحانه بشرح أحوال أوليائه تعالى المخلصين، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

وفي «إرشاد العقل السليم»[3]: أنَّه بيانٌ على وجه التبشير والوعدِ لِمَا هو نتيجةٌ لأعمال المؤمنين، وغايةٌ لِمَا ذكر قبله من كونه سبحانه مهيمناً على نبيِّه ﷺ وأمَّتِه في كلِّ ما يأتون ويَذَرون، وإحاطة علمه جلَّ وعلا، بعد ما أُشير إلى فظاعة حالِ المفترين على الله تعالى يوم القيامة وما سيعتريهم[4] من الهول إشارةً إجماليةً على طريق التهديدِ والوعيد. وصُدِّرت الجملة بحرفي[5] التنبيه والتحقيقِ لزيادة تقرير مضمونها.

والأولياء جمعُ «وليٍّ»، من «الوَلْيِ» بمعنى: القُربِ والدنوِّ، يقال: تَبَاعَدَ بعد وَلْيٍ، أي: قُرْبٍ. والمرادُ بهم خُلَّصُ المؤمنين؛ لقُرْبهم الروحانيِّ منه سبحانه كما يُفْصِحُ عنه تفسيرُهم الآتي.

---

(١) قطعة من ألفية ابن مالك، وتمامه: وألغ إلا ذات توكيد كلا تمرر بهم...، قال ابن عقيل في شرح ألفية ابن مالك ١/ ٦٠٤: إذا دخلت إلا لقصد التوكيد لم تؤثر فيما دخلت عليه شيئاً وذلك في البدل والعطف نحو: ما مررت بأحدٍ إلا زيدٍ إلا أخيك، فـ «أخيك» بدل من زيد ولم تؤثر فيه «إلا» شيئاً، ومثله: لا تمرر بهم إلا الفتى إلا العَلَا، والأصل: لا تمرر بهم إلا الفتى العَلَا، فالعَلَا، بدل من الفتى.

(٢) في (م): ثم إنه تعالى.

(٣) ٤/ ١٥٨.

(٤) في الأصل: سيريهم، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود.

(٥) في (م): بحرف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود.

ويفسَّر الوليُّ بالمحبِّ، وبين المعنَيَين تلازمٌ، وسيأتي تمامُ الكلام على ذلك قريباً إن شاء الله تعالى، وجاء بمعنى النصير، ويُشير كلامُ البعض إلى صحة اعتبار هذا المعنى هنا.

والمرادُ من الجملَتَين المنفيتَين المتعاطفتَين دوامُ انتفاءِ مدلولهما كما مرَّ تحقيقُه غيرَ مرة، قيل: والمعنى: لا خوفٌ عليهم من لُحوق مكروهٍ ولا هم يحزنون من فوات مطلوبٍ في جميع الأوقات، أي: لا يعتريهم ما يوجب ذلك أصلاً، لا أنَّه يعتريهم لكنَّهم لا يخافون ولا يحزنون، ولا أنَّه لا يعتريهم خوفٌ وحزنٌ أصلاً بل يستمرُّون على النشاط والسرور، كيف لا واستشعارُ الخوف استعظاماً لجلال الله تعالى واستقصاراً للجدِّ والسعي في إقامة حقوقِ العبوديَّةِ من خصائص الخواصِّ والمقرَّبين؟

بل كلما ازداد العبدُ قرباً من ربِّه سبحانه ازداد خوفاً وخشيةً منه سبحانه، ويُرشد إلى ذلك غيرُ ما خبرٍ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]. وإنما لا يعتريهم ذلك؛ لأنَّ مقصدَهم ليس إلَّا الله تعالى، ونَيلَ رضوانه المستَتْبِع للكرامة والزلفى، وذلك مما لا ريبَ في حصوله ولا احتمالَ لفواته بموجب الوعدِ الإلهي. وأمَّا ما عدا ذلك من الأمور الدنيويةِ المتردِّدة بين الحصولِ والفواتِ فهي عندهم أَحقَرُ من تَبَالة[1] عند الحجَّاج، بل الدنيا بأسرها في أعينهم أقذرُ من ذراع خنزيرٍ ميِّتٍ بال عليه كلبٌ في يد مجذوم، فهيهات أنْ تَنتظمَ في سِلْكِ مَقْصِدِهم وجوداً وعَدَماً، حتى يخافوا من حصولِ ضارِّها، أو يحزنوا من فوات نافعها.

وقيل: المرادُ بانتفاء الخوفِ والحزن أمنُهم من ذلك يومَ القيامة، بعد تحقُّق ما لهم من القرب والسعادة، وإلا فالخوف والحزنُ يعرضان لهم قبل ذلك، سواء كان سببُهما دنيويّاً أو أخرويّاً، ولا يجوز أنْ يُرادَ أمنُهم مما ذكر في الدنيا أو

(١) في الأصل و(م): ذبالة، والمثبت من المصادر، وتبالة بلدة صغيرة من بلدان اليمن، استعمل عليها الحجاج بن يوسف، وهي أول عمل وليه الحجاج، فأتاها، فاستحقرها، فلم يدخلها، فقيل أهون... ، جمهرة الأمثال ٢/ ٣١٣، والمستقصى ١/ ٤٤٥، ومجمع الأمثال ٢/ ٤٠٨، والقاموس (تبل).

فيما يعمُّها والآخرة؛ لأنَّ في ذلك أمناً من مكر الله تعالى، ولا يأمنُ مكر الله إلا القومُ الخاسرون.

وهذا مبنيٌّ على أنَّ الخوفَ المنفيَّ مُسندٌ إليهم، وليس بالمتعيِّن. فقد ذهب بعضُ الجلَّة إلى أنَّه مسنَدٌ إلى غيرهم، أي: غيرُهم لا يَخاف عليهم، ولا يلزمُ من ذلك أنَّهم لا يخافون ليجيءَ حديثُ لزومِ الأمن. وجَعَل ذلك نُكتَةَ اختلافِ أسلوبِ الجملتَين، والعدولِ عن: لا هم يخافون، الأنسبِ بـ «لا هم يحزنون» إلى ما في النظم الجليل.

وقد يقال: إذا كان المرادُ: لا يعتريهم ما يوجب الخوف والحزن، لا يبقَى لحديث لزوم الأمن مِن مكر الله تعالى مجالٌ على ما لا يخفى على المتدبِّر، لكن لا يظهرُ عليه نُكتةُ اختلاف أسلوب الجملتَين.

وكونُها اختلافَ شأنِ الخوف والحزن بشيوع وَصْف الأخير بعدم الثبات كما قيل:

فــلا حــزنٌ يــدومُ ولا ســرورُ[1]

دون الأول، ولذا ناسَبَ أن يُعبَّرَ بالاسم في الأول، وبالفعل المفيد للحدوث والتجدُّدِ في الثاني = كما ترى.

وقيل: إنَّ المراد نَفْيُ استيلاء الخوف عليهم، ونَفْيُ الحزن أصلاً، ومفادُ ذلك اتِّصافُهم بالخوف في الجملة، ففيه إشارةٌ إلى أنَّهم بين الرجاء والخوف غير آيسين ولا آمنين، ولهذا لم يُؤتَ بالجملتَين على طرزٍ واحدٍ، وكذا لم يقل: لا خوفٌ لهم، مثلاً.

والأوجهُ عندي ما نُقِلَ عن بعض الجلَّة، من أنَّ معنى «لا خوفٌ عليهم»: لا يَخافُ عليهم غيرُهم، وتجعل[2] الجملةَ الأولى عليه كنايةً عن حُسْنِ حالهم، وأنت في الجملة الثانية بالخيار.

والخوفُ على ما قال الراغب: توقُّع المكروه، وضدُّه الأمنُ. والحزنُ من

---

(١) عجز بيت ورد في الديوان المنسوب لعلي رضي الله عنه ص٦٧، وصدره: رأيت الدهر مختلفاً يدور. وذكره صاحب الوافي بالوفيات ١٨/ ١٥٥-١٥٦ عن أبي النصر الهروي عبد الرحمن بن عبد الجبار على أنه صدر بيت وعجزه: ولا هجر يدوم ولا وصال.

(٢) في (م): ويجعل.

الحَزَن بالفتح، وهو خشونةٌ في النفس لِمَا يحصلُ من الغمِّ، ويضادُّه الفرح[١].
وعلى هذا قالوا في بيان المعنى: لا خوفٌ عليهم من لُحوق مكروهٍ، ولا هم يحزنون من فواتِ مأمول.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بكلِّ ما جاء من عند الله تعالى ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ عما يحقُّ الاتِّقاءُ منه من الأفعال والتروك اتِّقاءً دائماً، حَسْبَما يُفيده الجمع بين صيغتَي الماضي والمستقبل.

والموصولُ في محلِّ الرفع على أنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، والجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: مَن أولئك، وما سببُ فوزهم بما أشار إليه الكلامُ السابق؟ فقيل: هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى المفضيَيْنِ إلى كلِّ خيرِ المنجيين[٢] عن كلِّ شرٍّ؟

ولك أن تقتصر[٣] في السؤال على: مَن أولئك؟ فيكونُ ذلك بياناً وتفسيراً للمراد من الأولياء فقط، وعلى الأول هذا مع الإشارة إلى ما به نالوا ما نالوا[٤].

وقيل: محلُّه النصبُ أو الرفعُ على المدح، أو على أنَّه وصفٌ للأولياء. ورُدَّ بأنَّ في ذلك الفصلَ بين الصفة والموصوف بالخبر، وقد أباه النحاة. نعم جوَّزه الحفيد[٥]، وجوَّز فيه البدلية أيضاً.

والمراد من التقوى عند جمعٍ المرتبةُ الثالثة منها، وهي التقوى المأمورُ بها في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]. وفُسِّرت بتنزُّه الإنسان عن

---

(١) مفردات الراغب (خوف) و(حزن)، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٥.
(٢) في (م): المجنبين، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٥٩.
(٣) في (م): تقصر.
(٤) في (م): مالوا، وهو تصحيف.
(٥) حفيد التفتازاني أحمد بن يحيى بن محمد بن سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، سيف الدين الحنفي رئيس العلماء بهراة، له: الفرائد والفوائد، وشرح تهذيب المنطق والكلام لجده سعد الدين التفتازاني، وغيرها، قتله الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي مع جماعة من علماء هراة، ونُعت بالشهيد، سنة (٩١٦هـ). هدية العارفين ١/ ١٣٨، والأعلام ١/ ٢٧٠. ونقل المصنف كلامه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٦.

كلِّ ما يَشغل سرَّه عن الحقِّ والتبتُّل إليه بالكلِّية، وبذلك يحصُل الشهودُ والحضور والقرب الذي يدور إطلاقُ الاسم عليه، وهكذا كان حالُ مَن دخل معه ﷺ تحت الخطاب في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ إلخ خلا أنَّ لهم في شأن التبتُّل والتنزُّه درجاتٍ متفاوتةً حَسْبَ تفاوتِ درجاتِ[1] استعداداتهم، وأقصى الدرجاتِ ما انتهى إليه هِمَمُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى جمعوا بذلك بين رياستَي[2] النبوَّة والولاية، ولم يَعُقْهُم التعلُّق بعالَم الأشباح عن الاستغراق في عالَم الأرواح، ولم تصدَّهم الملابَسةُ بمصالح الخَلْقِ عن التبتُّل إلى جَنابِ الحقِّ سبحانه عزَّ وجلَّ، لكمال استعداد نفوسهم الزكيةِ المؤيَّدةِ بالقوة القدسية، كذا قيل.

وفي كون حالِ كلِّ مَن دخل معه ﷺ تحت الخطاب مراداً به جميعُ الصحابة ﷺ، ما أشار إليه من التقوى الحقيقية المأمورِ بها في الآية التي بها يحصُل الشهود والحضور والقرب = بحثٌ، وقُصارى ما تحقَّق بعد نزاعٍ طويل ذكرناه في جوابنا لسؤال أهل لاهور: أنَّ الصحابة ﷺ كلُّهم عدولٌ، مَن لابَسَ منهم الفتنةَ ومَن لم يُلابِسْها، ودَعْوَى أنَّ العدالة تستلزمُ الولاية بالمعنى السابق إنْ تمَّت تمَّ المقصود وإلَّا فلا.

والآية ظاهرةٌ في أنَّ الأولياء هم المؤمنون المتقون، وأقلُّ ما يكفي في إطلاق الوليِّ التقرُّبُ إليه سبحانه بالفرائض، من امتثالِ الأوامر واجتنابِ الزواجر، والأكملُ التقرُّبُ إليه جلَّ شأنه بكلِّ ما يمكنُ من القُرَب.

وفي «المبين المعين»: الوليُّ هو من يتولَّى اللهُ تعالى بذاته أمرَه، فلا تصرُّفَ له أصلاً، إذ لا وجودَ له ولا ذاتَ ولا فِعْلَ ولا وَصْفَ، والتركيبُ يدلُّ على القرب، فكأنه قريبٌ منه عزَّ وجل، لاستدامة عباداته واستقامةِ طاعاته، أو لاستغراقِه في بحر معرفته ومشاهدةِ طَلْعةِ عَظَمَتِه[3]. انتهى، وفيه القولُ بأنَّ الوليَّ فعيلٌ بمعنى: مفعول.

---

(١) في (م): حسبما درجات تفاوت.

(٢) في (م): رياسة.

(٣) المبين المعين لفهم الأربعين النووية للعلامة علي القاري ص٢١٤.

وجوِّز أن يكون بمعنى فاعل، وفسِّر بأنَّه مَن يتولَّى عبادةَ الله تعالى وطاعَته على التوالي من غيرِ تخلُّلِ معصيةٍ.

وعن القشيري[١]: أنَّ كلا الوصفَين: تولِّي اللهِ تعالى أمرَه، وتولِّيه عبادةَ الله تعالى وطاعَته، شرطٌ في الولاية، غير أنَّ الوصف الأول غالبٌ على المجذوب المراد، والثاني على السالك المريد.

ولا يخفى أنَّ هذا الكلام وكذا ما قبله يدلُّ على أنَّ تخلُّل المعصية منافٍ للولاية، وهو الذي يُشير إليه كلامُ غيرِ واحدٍ من الفضلاء، وليس في ذلك قولٌ بالعصمة التي لم يُثبتها الجماعة إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل قُصارى ما فيه القولُ بالحفظ.

وقد قيل: الأولياء محفوظون، وفُسِّر بعدم صدور الذنب مع إمكانه، والقيدُ لإخراج العصمة. نعم جاءت العصمةُ بمعنى الحفظِ المفسَّر بما ذُكر، وعلى ذلك خُرِّج قولُ صاحب «حزب البحر»[٢]: اللهمَّ اعْصِمْني في الحركات والسكنات؛ لأنَّ الدعاء بما هو من خواصِّ الأنبياء عليهم السلام لا يجوز، كالدعاء بسائر المستحيلات كما حُقِّق في محلِّه.

وأطلق بعضُهم القول بأنَّ تخلُّل ذلك غيرُ منافٍ، احتجاجاً بما حُكي عن الجنيد قدِّس سرُّه، أنَّه سئل: هل يزني العارفُ؟ فقال: نعم ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وتُعقِّب بأنَّه محمولٌ على الإمكان سؤالاً وجواباً، ولا كلامَ فيه، وإنَّما الكلام في أنَّ الوقوع منافٍ أو غيرُ منافٍ.

وقال بعضُهم: لا شبهةَ في عدم بقاءِ وصفِ الولايةِ حالَ التلبُّسِ بالمعصية، إذ لا تقوى حينئذٍ بالإجماع[٣]، ومدارُ هذا الوصف عليها، وكذا على الإيمان، وهو

---

(١) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك أبو القاسم الخراساني الصوفي صاحب الرسالة القشيرية، وتنظر ٣/ ٢١٠-٢١١.

(٢) هو الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله.

(٣) قوله: بالإجماع، ليس في الأصل.

غيرُ كاملٍ إذ ذاك عند أهل الحقِّ، وغيرُ متحقِّقٍ أصلاً، بل المتحقِّقُ الفسقُ المعنيُّ بالواسطة، أو الكفرُ عند آخرين.

وكذا لا شبهةَ في عدم منافاة وقوع المعصيةِ الاتِّصافَ بالولاية بعده، بأنْ يعود مَن ابتُلي بذلك إلى تقوى الله تعالى، ويتَّصفَ بما تتوقَّفُ الولاية عليه، وهو نظيرُ من يتَّصف بالإيمان أو بالعدالة مثلاً، بعد أنْ لم يكن متَّصفاً بذلك.

بقي الكلامُ في منافاة الوقوع الاتِّصافَ قبلُ، فإنْ قيل: إنَّه منافٍ له بمعنى أنَّه لذلك لم يكن متَّصفاً قبلُ بما هو إيمانٌ وتقوى عند الناس، فلا شبهة أيضاً في عدم المنافاة بهذا المعنى، وهو ظاهرٌ.

وإنْ قيل: إنَّه منافٍ له بمعنى أنَّه لم يكن لذلك متَّصفاً بما ذكر عند الله تعالى، بناءً على أنَّ المراد بالتقوى - التي هي شرطُ الوليِّ - التقوى الكاملةُ التي يترتَّب عليها حبُّ الله تعالى، المترتِّبُ عليه الحفظُ، كما أُشير إليه فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى قال: مَن عادَى لي وليّاً فقَدْ آذنْتُهُ بالحربِ، وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أَحَبَّ إليَّ مما افْتَرضْتُ عليه، ولازال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّه، فإذا أَحببتُهُ كنتُ سَمْعَهُ الذي يَسمعُ به، وبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به، ويَدَه التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَه التي يمشي بها» الحديث[1].

وقد قال غيرُ واحدٍ في معنى الشرطية: فإذا أحببتُه كنتُ حافظاً حواسَّه وجوارحَه، فلا يسمعُ ولا يُبصر ولا يأخذُ ولا يمشي إلا فيما أَرْضَى وأُحِبُّ، وينقلعُ عن الشهوات ويستغرقُ في الطاعات.

وقريبٌ منه قول الخطَّابي[2]: المرادُ من ذلك توفيقُه في الأعمال[3] التي يُباشرها بهذه الأعضاء، يعني: ييسِّر عليه فيها سبيل ما يحبُّه، ويَعصِمه عن موافقةِ ما يكرهُه، من إصغاءٍ إلى لهوٍ يسمَعُه، ونظرٍ إلى ما نُهي عنه ببصرِه، وبَطْشٍ بما لا يَحِلُّ بيده، وسَعْيٍ في باطلٍ برجله.

---

(١) صحيح البخاري (٦٥٠٢).

(٢) في أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ٣/ ٢٢٥٩.

(٣) في أعلام الحديث: توفيقه للأعمال.

وكذا قولُ بعضهم: المعنى: أَجْعَلُ سلطان حبِّي غالباً عليه، حتى أَسلُبَ عنه الاهتمامَ بشيءٍ غيرِ ما يقرِّبه إليَّ، فيصيرُ متخلِّياً عن اللَّذات، متجنِّباً عن الشهوات، متى ما يتقلَّب وأينما يتوجَّه لقيَ الله تعالى بمرأى منه[1] ومسمعٍ منه، ويأخذ حبُّ الله تعالى مجامعَ قلبه، فلا يسمعُ ولا يَرَى ولا يفعلُ إلا ما يحبُّه، ويكونُ له في ذلك عوناً ومؤيِّداً ووكيلاً، يحمي جوارحَه وحواسَّه = فله وجهٌ[2]؛ لأنَّه إذا وقعَت المعصيةُ يُعلَم أنَّه لم يكن محفوظاً، وبه يُعلم أنَّه لم يكن محبوباً، وبذلك يُعلم أنَّه لم يكن متقرِّباً إليه تعالى شأنُه، متَّقياً إيَّاه حقَّ تُقاته، وإنْ ظنَّه الناس كذلك، فهو ليس من أوليائه سبحانه في نفس الأمر.

نعم مَن اتَّصف بصفاتِ الأولياء ظاهراً يجبُ تعظيمُه واحترامُه والتأدُّبُ معه، والكفُّ عن إيذائه بشيءٍ من أنواع الإيذاء التي لا مسوِّغَ لها شرعاً، كالإنكارِ عليه عناداً أو حسداً، دون المنازعةِ في محاكمةٍ أو خصومةٍ راجعةٍ لاستخراجِ حقٍّ، أو كشفِ غامضٍ ونحوِ ذلكَ، لِمَا دلَّ عليه الحديثُ السابقُ المشتمِلُ مِن تهديد المؤذي على الغاية القصوى. والحُكم على مَن ذُكر بالولاية[3] إذا لم يكن هناك نصٌّ من معصومٍ على ما يدُلُّ على تحقُّقها في نفس الأمر، إنَّما هو بالنظر إلى الظاهر لا إلى ما عند الله تعالى، لِمَا أنَّ من الذنوب ما لا يمكن أنْ يطَّلع عليه إلا علَّام الغيوب، ومنها الذنوبُ القلبية التي هي أدواءٌ قاتلةٌ وسمومٌ ناقعةٌ، مع أنَّ الأعمال بخواتيمها، وهي مجهولةٌ إلَّا للمُبْدِئ المُعيدِ جلَّ جلاله. هذا وهو تحقيقٌ يلوح عليه مخايلُ القبول.

ومن الناس مَن قسم الولايةَ إلى صغرى قد يقعُ فيها الذنبُ على الندرة، لكن يبادر للتنصُّل منه فوراً، وعدَّ العلَّامةُ ابن حجرٍ عليه الرحمة مَن وقع منه الذنبُ كذلك فبادَرَ للتنصُّل محفوظاً، فالوقوعُ عنده على الندرة مع المبادَرَة للتنصُّل لا ينافي الحفظَ، وإنما يُنافيه تكرُّرُ الوقوع وكثرتُه، وكذا ندرتُه مع عدم المبادرة للتنصُّل.

---

(١) في (م): فيه.

(٢) قوله: فله وجه، هو جواب الشرط في قوله: وإن قيل إنه منافٍ له بمعنى أنه لم يكن لذلك متصفاً بما ذكر عند الله.

(٣) في (م): ذكره لولاية.

وكُبرَى لا يقع فيها الذنبُ أصلاً، مع إمكان الوقوع، ولو قيل: أو مع استحالته كما في ولاية الأنبياء عليهم السلام، وادُّعي أنَّ ذلك من خصوصيات ولايتهم، فيكون الحفظُ أعمَّ من العصمة = لم يبعد.

وأنت تعلم أنَّ قولهم: الأنبياءُ معصومون، ظاهرٌ في كون العصمة من توابع النبوَّة، ومعلَّلةً بها، وهو مخالفٌ لتلك الدعوى كما لا يخفى، وما ذُكر من التقسيم حسنٌ، ويُعلم منه أنَّ الكثير ممن يدَّعي الولاية في زماننا أو تُدَّعَى له ليس له فيها سوى الدعوى، لإصراره ـ والعياذُ بالله تعالى ـ على كبائرَ تقع منه في اليوم مراراً، عافانا الله تعالى والمسلمين من ذلك.

وقد جاء عن النبيِّ ﷺ في تفسير الأولياء ما يُظَنُّ أنَّه مخالفٌ لِمَا دلَّت عليه الآيةُ في ذلك، فقد أخرج ابن المبارك والترمذيُّ في «نوادر الأصول» وأبو الشيخ وابنُ مردويه وآخرون عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل: يا رسولَ الله، مَن أولياءُ الله؟ قال: «الذين إذا رُؤُوا ذُكِرَ الله تعالى»[1] أي لحُسْنِ سَمْتهم وإخباتهم.

وأخرج أحمد وابنُ أبي حاتم والبيهقيُّ وجماعةٌ عن أبي مالكٍ الأشعريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لله تعالى عباداً ليسُوا بأنبياءَ ولا شُهداءَ، يغبطُهم النبيُّون والشهداءُ على مَجالِسِهم وقُربهم مِن الله تعالى». قال أعرابيٌّ: يا رسول الله انْعَتْهُم لنا. قال: «هم أُناسٌ مِن أفْناءِ الناسِ ونَوازِعِ القبائلِ، لم تَصِلْ بينَهم أَرحامٌ متقاربةٌ، تَحابُّوا في الله وتَصافَوا في الله، يَضَعُ الله تعالى لهم يومَ القيامةِ مَنابرَ مِن نورٍ، فيجلسون عليها، يَفزَعُ الناسُ وهم لا يفزعون، وهم أولياءُ الله لا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون»[2].

ولا مخالفةَ في الحقيقة، فإنَّ ما أُشيرَ إليه مِن حُسنِ السَّمْتِ والإخباتِ والتَّحابِّ في الله تعالى من الأحكام اللازمة للإيمان والتقوى، والآثارِ الخاصَّة بهما، الحقيقةِ بالتخصيص بالذكر لظهورها وقُرْبِها من أفهام الناس، وقد أوردَ رسولُ الله ﷺ كلاً

---

(١) الزهد لابن المبارك (٢١٨)، ونوادر الأصول ص١٤٠، وعزاه لأبي الشيخ وابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٩-٣١٠، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٦٤.

(٢) مسند أحمد (٢٢٩٠٦)، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٦٣، وشعب الإيمان (٩٠٠١).

من ذلك حَسْبَما يقتضيه مقامُ الإرشاد والتذكير، ترغيباً لسائلٍ أو حاضرٍ فيما خصَّه بالذكر من أحكامها.

وأُريدَ بوصفهم بأنَّهم يغبِطُهم النبيون على مجالسهم وقُرْبهم الإشارةُ إلى راحتهم ممَّا يعتري الأنبياءَ عليهم السلام من الاشتغال بأُممهم، والمرادُ أنَّهم يغبطونَهم على مجموع الأمرَين.

وعن الكواشي: أنَّ ذلك خارجٌ مخرَج المبالغة، والمعنى: أنَّه لو فُرِضَ قومٌ بهذه الصفة لكانوا هؤلاء. وقال بعضُ المحقِّقين: إنَّ ذلك تصويرٌ لحُسْن حالهم على طريقة التمثيل.

وأيّاً ما كان فلا دليلَ فيه على أنَّ الولاية أفضلُ من النبوَّة، وقد كفَّر مُعتقِدُ ذلك، وقد يؤوَّل له بحمل ذلك على أنَّ ولاية النبيِّ أفضلُ من نبوَّته، كما حُمِلَ ما قاله العزُّ بنُ عبد السلام - المخالفُ للأصَحِّ - من أنَّ النبوة أفضلُ من الرسالة(١)، على نحو ذلك.

وكذا - لنظير ما ذكرنا - لا يخالف ما دلَّت الآيةُ عليه تفسيرَ عيسى عليه السلام لذلك؛ فقد أخرج أحمد في «الزهد» وابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن وَهْب قال: قال الحواريُّون: يا عيسى مَن أولياءُ الله تعالى الذين لا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حينَ نظَرَ الناسُ إلى ظاهرها، والذين نظروا إلى آجِلِ الدنيا حين نظر الناسُ إلى عاجلها، وأماتوا منها ما يخشَون أنْ يميتَهم، وتركوا ما علموا أنْ سيترُكهم، فصار استكثارُهم منها استقلالاً، وذكرُهم إيَّاها فَواتاً، وفرحُهم بما أصابوا منها حُزناً، وما عارَضَهم من نائلها رفضوه، وما عارضهم من رِفعتها بغير الحقِّ وَضَعوه، خَلِقَت الدنيا عندهم فليسوا يُجدِّدونها، وخَرِبَت بينهم فليسوا يَعْمُرونها، وماتَت في صدورهم فليسوا يُحْيُونها، يَهدِمونها فيبنون بها آخرتهم، ويَبيعونَها فيشترون بها ما يَبقَى لهم، رفضوها فكانوا برفْضِها هم الفَرِحين، باعوها فكانوا ببيعها هم الرابحين، ونظروا إلى أهلها صرعَى قد خلَت فيهم المَثُلات، فأَحْيَوا ذِكْرَ الموت وأماتوا ذِكْرَ الحياة،

---

(١) قواعد الأحكام ٢/ ٩٩.

يُحبُّون الله سبحانه وتعالى، ويستضيئون بنوره ويضيئون به، لهم خبرٌ عجيبٌ وعندهم الخبرُ العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نَطَق الكتاب وبه نطقوا، وبهم عُلِمَ الكتاب وبه عُلِموا، ليس يَرَون نائلاً مع ما نالوا، ولا أمانيَّ دون ما يرجون، ولا فَرَقاً دون ما يَحْذَرون[١].

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ استئنافٌ جيء به في موضع التعليل لنفي حُزنهم والخوفِ عليهم في قولٍ، وفي آخرَ جيء به بياناً لِمَا أولاهم سبحانه من خيرات الدارَين، بعد أنْ أخبرَ جلَّ وعلا بإنجائهم من شرورهما ومَكارِهِهما، وكأنَّه على هذا قيل: هل لهم وراءَ ذلك من نعمةٍ وكرامةٍ؟ فقيل: لهم البشرى.. إلخ. وتقديمُ الأوَّل لِمَا أنَّ التَّخْلِيَةَ سابقةٌ على التَّحْلية، مع ما فيه من رعاية حقِّ المقابلة بين حُسْنِ حالِ المؤمنين وسوءِ حال المفترين، وتعجيل إدخال المسرَّة بتبشير الخلاص عن الأهوال، وتوسيطُ البيان السابق بينَ التخليةِ والتحلية لإظهار كمال العناية به[٢]، مع الإيذان بأنَّ انتفاء ما تقدَّم لإيمانهم واتِّقائهم عما يؤدِّي إليه من الأسباب.

ومن الناس مَن فسَّر الأولياء بالذين يتولَّونه تعالى بالطاعة ويتولَّاهم بالكرامة، وجَعَل «الذين آمنوا» إلخ تفسيراً لتولِّيهم إياه تعالى، وهذه الجملةَ تفسيراً لتَوَلِّيه[٣] تعالى إياهم.

وتعقِّب بأنَّه لا ريبَ في أنَّ اعتبار القيدِ الأخير في مفهوم الولاية غيرُ مناسبٍ لمقام ترغيب المؤمنين في تحصيلها والثباتِ عليها، وبشارتِهم بآثارها ونتائجها، بل مُخلٌّ بذلك؛ إذ التحصيلُ إنما يتعلَّق بالمقدور، والاستبشارُ لا يحصلُ إلا بما عُلم وجودُ سببه، والقيدُ المذكور ليس بمقدورٍ لهم حتى يُحصِّلوا الولايةَ بتحصيله، ولا بمعلومٍ لهم عند حصوله حتى يعرِفوا حصولَ الولاية لهم ويستبشروا بمحاسنِ آثارها، بلِ التولِّي بالكرامة عينُ نتيجةِ الولاية، فاعتبارُه في عنوان الموضوع، ثم

---

(١) الزهد لأحمد ص٧٨، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٦٤، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٩.

(٢) أي: توسيط قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بين بشارة الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لإظهار كمال العناية بتفسير الأولياء. تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٠، والكلام منه.

(٣) في الأصل و(م): لتوليته، والمثبت من تفسير أبي السعود.

الإخبارُ بعدم الخوف والحزن، مما لا يليقُ بشأن التنزيل الجليل. انتهى.

وأنت تعلم أنَّ ما ارتكبه ذلك البعضُ تكلُّفٌ وعدولٌ عن الظاهر، فلا ينبغي العدول إليه، وإنْ كان ما ذكره المتعقِّب لا يخلو عن نظر.

وجوِّز كونُ الموصول مبتدأً وهذه الجملة خبرهُ، وفي بعض الأخبار ما يؤيِّده. و[البُشْرَى] في الأصل: الخبرُ بما يُظِهرُ السرورَ في بَشَرة الوجه، ومثلُها البِشارةُ، وتُطلق على المبشَّر به من ذلك، وإلى إرادة كلٍّ ذهب بعضٌ. والظرفان بعده على الأول متعلِّقان به، وعلى الثاني في موضع الحال منه، والعاملُ ما في الخبر من معنى الاستقرار، أي: لهم البشرى حالَ كونها في الدنيا وحالَ كونها في الآخرة، أي: عاجلةً وآجلةً، أو من الضمير المجرور، أي: حالَ كونهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

والثابتُ في أكثر الروايات أنَّ البشرَى في الحياة الدنيا هي الرؤيا الصالحةُ التي هي «جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوَّة»[1] كما هو المشهور. أو«جزءٌ من سبعين جزءاً منها» كما أخرجه ابنُ أبي شيبة عن ابن عمر وأبي هريرة، وهو وابنُ ماجه عن الأول[2].

فقد أخرج الطيالسي وأحمد والدارميُّ والترمذيُّ وابنُ ماجه والطبرانيُّ والحاكم وصححه والبيهقيُّ وغيرُهم عن عبادةَ بنِ الصامت قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله سبحانه: ﴿ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قال: «هيَ الرُّؤْيا الصالحةُ يَرَاها المؤمنُ أو تُرَى لَهُ»[3].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١٢٠٣٧)، والبخاري (٦٩٨٣)، ومسلم (٢٢٦٤) عن أنس ﷺ. وأخرجه أحمد (٢٢٦٩٧)، والبخاري (٦٩٨٧)، ومسلم (٢٢٦٤) عن عبادة بن الصامت ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٦٤٢)، والبخاري (٦٩٨٨)، ومسلم (٢٢٦٣) عن أبي هريرة ﷺ. وأخرجه البخاري (٦٩٨٩) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ٥٢ و٥٤، وسنن ابن ماجه (٣٨٩٧). وحديث ابن عمر أخرجه أيضاً أحمد (٤٦٧٨)، ومسلم (٢٢٦٥).

(٣) مسند الطيالسي (٥٨٣)، ومسند أحمد (٢٢٦٨٧)، وسنن الدارمي (٢١٣٦)، وسنن الترمذي (٢٢٧٥)، وسنن ابن ماجه (٣٨٩٨)، والمستدرك ٤/ ٣٩١، وشعب الإيمان (٤٧٥٣). وفي الباب عن أبي الدرداء عند الترمذي (٣١٠٦).

وأخرج ابنُ مردويه عن ابن مسعود أنَّه سأل رسول الله ﷺ عن ذلك فأُجيبَ بما ذكر أيضاً. وأخرج مِن طريق أبي سفيان عن جابر مثل ذلك[١].

وأخرج ابنُ أبي الدنيا وأبو الشيخ وأبو القاسم ابنُ منده من طريق أبي جعفر عن جابرٍ المذكورِ قال: أتى رجلٌ من أهل البادية رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أخبرني عن قول الله تعالى: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ) إلخ؟ فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «أمَّا قولُه تعالى: (لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا) فهي الرؤيا الحسنةُ تُرَى للمؤمنِ فيُبَشَّر بها في دنياه، وأمَّا قوله سبحانه: (وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ) فإنَّها بِشارةُ المؤمن عند الموتِ: أنَّ الله قد غفَرَ لك ولمن حَمَلك إلى قبرِك»[٢] وجاء مرفوعاً وموقوفاً عن غيرِ واحدٍ تفسيرُها بما ذُكر.

وأخرج ابنُ جرير وابنُ المنذر من طريق عليّ بنِ أبي طلحةَ عن ابنِ عباس أنَّ البشرى في الحياة الدنيا هي قولُه تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧][٣]. وعن الزجَّاج والفرَّاء: أنَّها هذا وما شاكله[٤] من قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢] وقوله سبحانه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾ الآية [التوبة: ٢١]، وقوله جل وعلا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] إلى غير ذلك[٥].

وأخرج ابنُ أبي شيبة وغيرُه عن الضحاك أنَّه قال في ذلك: أنَّهم يعلمون أين هم قبل أنْ يموتوا[٦].

وجاء في تفسير «البشرى» في الآخرة ما سمعتَ في الخبر الأخير عن جابر[٧].

وأخرجَ ابنُ جرير وغيرُه عن أبي هريرة مرفوعاً: «أنَّها الجنة»[٨].

---

(١) ذكرهما عن ابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣١٢.
(٢) الدر المنثور ٣/ ٣١٢.
(٣) تفسير الطبري ١٢/ ٢٢٣، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٣/ ٣١٣.
(٤) في (م): يشاكله.
(٥) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧١، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٦-٢٧.
(٦) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٨١.
(٧) في (م): عن جابر الأخير.
(٨) تفسير الطبري ٢/ ٢١٨ وأخرجه الطبري أيضاً ص٢١٦ من حديث أبي الدرداء ﷺ =

وعن عطاء: أنَّ البشرى في الدنيا أنْ تأتيَهم الملائكةُ عند الموت بالرحمة، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠] وأمَّا البشرى في الآخرة فتلَقِّي الملائكةِ إياهم مُسلِّمين مبشِّرين[١] بالفوز والكرامة، وما يَرَون من بياض وجوههم وإعطاءِ الصحائف بأيمانهم، وما يقرؤون منها، وغير ذلك من البشارات.

وقيل: المرادُ بالبشرى: العاجلةُ، نحو: النصرُ والفتحُ والغنيمة، والثناءُ الحسنُ، والذِّكْرُ الجميل، ومحبةُ الناس، وغيرُ ذلك، وأما البشرى الآجلةُ فغنيَّةٌ عن البيان.

وأنت تعلم أنَّه لا ينبغي العدول عمَّا ورَدَ عن رسول الله ﷺ في تفسير ذلك إذا صحَّ، وحيث عَدَل ـ لعدم وُقوفه على ذلك فيما أظنُّ ـ فالأَولَى أن يُحمل «البشرى» في الدارَين على البشارة بما يُحقِّق نفْيَ الخوفِ والحزن كائناً ما كان، ويُرشد إلى ذلك السياق[٢]، ومِن أَجلِّ ذلك بُشرى الملائكة لهم بذلك وقتاً فوقتاً حتى يدخلوا الجنة، وقد نَطَق الكتاب العزيز في غير موضعٍ بهذه البشرى مَنَّ الله تعالى علينا بها برحمته وكرمه.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا تغييرَ لأقواله التي من جملتها مواعيدُه الواردةُ بشارةً للمؤمنين المتقين، فيدخل فيها البشاراتُ الواردةُ ها هنا دخولاً أوَّليّاً، ويثبتُ امتناعُ الإخلاف فيها لطفاً وكرماً ثبوتاً قطعيّاً.

وأُريدَ من عدم تبديل كلماته سبحانه ـ على تقدير أنْ يُراد من «البشرى» الرؤيا الصالحة ـ عدمُ الخلف بينها وبين ما دلَّ على ثبوتها ووقوعها فيما سيأتي بطريق الوعدِ من قوله تبارك اسمه: (لَهُمُ الْبُشْرَىٰ)، لا عدمُ الخلف بينها وبين نتائجها الدنيوية والأخروية[٣]. ولم يظهر لي وجهه بعد التدبُّر، والمشهورُ أنَّ

= وص٢١٨-٢١٩ من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. وينظر تخريج أحاديث الكشاف لابن حجر ص٨٤-٨٥.

(١) في الأصل: ومبشرين، والمثبت من (م)، والكشاف ٢/ ٢٤٣، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٠.

(٢) في (م): السباق.

(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ١٦١.

الرؤيا الصالحةَ لا يتخلَّف ما تدُلُّ عليه. وقد جاء من حديث الحكيم الترمذي وغيره عن عبادةَ رضي الله عنه أنَّه ﷺ قال له في الرؤيا الصالحة: «كلامٌ يُكلِّمُ به ربُّك عبدَه في المنام»[1].

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما ذُكر من أنَّ لهم البشرى في الدارَين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٦٤﴾ الذي لا فوزَ وراءه. وجوِّز أنْ تكون الإشارة إلى «البشرى» بمعنى التبشير.

وقيل: إنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى النعيم الذي وقعَت به البشرى.

وجَعَل غيرُ واحدٍ الجملة الأولى وهذه الجملة اعتراضاً جيء به لتحقيق المبشَّر به وتعظيم[2] شأنه، وهو مبنيٌّ على جواز تعدُّد الاعتراض، وعلى أنَّه يجوز أنْ يكونَ في آخر الكلام، ولذا قال العلَّامة الطيبي: لو جُعلت الأولى معترضةً، والثانيةُ تذليلاً للمعترِض والمعترَض فيه ومؤكِّدةً لهما كان أحسنَ. بناءً على أنَّ ما في آخر الكلام يُسمَّى تذييلاً لا اعتراضاً، وهو مجرَّد اصطلاح.

ومَن جعل قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ معطوفاً على الجملة قبلُ، أي: إنَّ أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون فلا يَحْزُنك قولُ أعداء الله تعالى، فالاعتراضُ عنده بين متَّصلَين، لا في آخر الكلام، لكنَّه ليس بشيء.

والذي عليه الجمهور أنَّه استئنافٌ سِيقَ تسليةً للرسول ﷺ عمَّا كان يلقاه من جهة الأعداء من الأذيَّةِ الناشئةِ من مقالاتهم الرديئةِ الوحشيةِ، وتبشيراً له عليه الصلاة والسلام بالنصر والعزِّ إِثْرَ بيانِ أنَّ له ولأتباعه أمناً من كلِّ محذورٍ، وفوزاً بكلِّ مطلوبٍ، فهو متَّصلٌ بقوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ إلخ معنىً.

وقيل: إنه متَّصلٌ بقوله سبحانه: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ الآية واختاره على ما فيه من البعد الطبرسيُّ[3].

---

(١) نوادر الأصول ص١١٨، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة ١/ ٢١٤، والطبراني في مسند الشاميين ٢/ ١١٨.

(٢) في الأصل و(م): لتعظيم، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/ ٤٦، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦١.

(٣) في مجمع البيان ١١/ ٧١.

وقرأ نافع: «ولا يُحْزِنْكَ»[1] من أَحزَنَ، وهو في الحقيقة نَهْيٌ له ﷺ عن الحزن، كأنَّه قيل: لا تحزن بقولهم، ولا تبالِ بكلٍّ ما يتفوَّهون به في شأنك مما لا خيرَ فيه، وإنَّما عدَلَ عنه إلى ما في النظم الجليل للمبالغة في النهي عن الحزن؛ لمَا أنَّ النهيَ عن التأثير نهيٌ عن التأثُّر بأصله ونفيٌ له بالمرة، ونظيرُ ذلك كما مرَّ غيرَ مرةٍ قولُهم: لا أَرَيَنَّكَ ها هنا، و: لا يأكُلْكَ السّبع، ونحوه، وقد وجِّه فيه النهيُ إلى اللازم والمرادُ هو النهيُ عن الملزوم.

قيل: وتخصيصُ النهيِ عن الحزن بالإيراد مع شمول النفْي السابق للخوف أيضاً، لِمَا أنَّه لم يكن فيه ﷺ شائبةُ خوفٍ حتى يُنهَى عنه، وربما كان يَعتريه ﷺ في بعض الأوقاتِ حزنٌ فسلِّي عنه.

ولا يخفى أنَّه إذا قلنا: إنَّ الخوفَ والحزنَ متقاربان، فإذا اجتَمعا افْترقا وإذا افتَرقا اجتَمعا، كما علمتَ آنفاً، كان النهيُ عن الحزن نهياً عن الخوف أيضاً، إلَّا أنَّ الأَولَى عدمُ اعتبار ما فيه توهُّمُ نسبةِ الخوف إلى ساحته عليه الصلاة والسلام، وإنْ لم يكن في ذلك نقصٌ، فقد جاء نهْيُ الأنبياء عليهم السلام عن الخوف كنهيهم عن الحزن، بل قد ثبت صريحاً نسبةُ ذلك إليهم، وهو ممَّا لا يُخلُّ بمرتبة النبوَّة؛ إذ ليس كلُّ خوفٍ نقصاً ليُنزَّهوا عنه كيف كان.

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ كلامٌ مستأنفٌ سيقَ لتعليل النهي. وقيل: جوابُ سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنه قيل: لمَ لا يحزنه؟ فقيل: لأنَّ الغلبةَ والقهرَ لله سبحانه، لا يملك أحدٌ شيئاً منها أصلاً، لا هُمْ ولا غيرُهم، فلا يُقْهَر ولا يُغْلَبُ أولياؤه، بل يَقْهَرُهم ويَغْلِبُهم ويَعْصِمُكَ منهم.

وقرأ أبو حيوة: «أنَّ» بالفتح[2] على صريح التعليل، أي: لأنَّ. وحَمَلَ ابن قُتيبة[3]

(١) التيسير ص٩١-٩٢، والنشر ٢/ ٢٤٤.

(٢) القراءات الشاذة ص٢٧، والبحر ٥/ ١٧٦.

(٣) في الأصل و(م): قتيبة بن مسلم، والصواب ما أثبتناه، وكلام ابن قتيبة في هذه المسألة ذكره عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ١٢٩، وأبو حيان في البحر ٥/ ١٧٦، والسمين في الدر ٦/ ٢٣٤، والشهاب في الحاشية ٥/ ٤٦.

ذلك على البدل، ثم أنكر القراءةَ لذلك؛ لأنَّه يؤدِّي إلى أنْ يقال: فلا يَحزُنْك أنَّ العزَّة لله جميعاً، وهو فاسدٌ.

وذكر الزمخشريُّ: أنَّه لو حُمِلَ على البدل لكان له وجهٌ أيضاً على أسلوب ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦] ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: ٨٨] فيكون للتهييج والإلهاب والتعريض بالغير(١). وفيه بعدٌ.

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ يسمعُ أقوالَهم في حقِّك، ويعلم ما يُضمرونه عليك، فيكافؤهم على ذلك.

وما ذكرناه في الآية هو الظاهرُ المتبادِر. وأخرج أبو الشيخ(٢) عن ابنِ عباسٍ ﷺ أنَّه قال: لمَّا لم يَنتفعوا بما جاءهم من الله تعالى، وأقاموا على كفرهم، كَبُرَ ذلك على رسول الله ﷺ، فجاءه مِن الله سبحانه فيما يُعاتبه: (وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ) يسمع ما يقولون ويعلمُه، فلو شاء بعزَّته لانتصر منهم. ولا يخفَى أنه خلافُ الظاهر جدّاً، مع ما فيه من تعليق العلم بما علق بالسمع، ولعلَّ روايته عن الحبر غيرُ معوَّلٍ عليها.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: من الملائكة والثقلَين، كما يدُلُّ عليه التعبير بـ «مَن» الشائع في العقلاء، والتغليبُ غيرُ مناسبٍ هنا، ووجْهُ تخصيصِهم بالذِّكر الإيذانُ بعدم الحاجة إلى التصريح بغيرهم، فإنَّهم مع شرفهم وعُلوِّ طبقتهم إذا كانوا عبيداً لله مملوكين له سبحانه فما عَدَاهم من الموجودات أَولَى بذلك.

والجملةُ مع ما فيها من التأكيد لِمَا سبق من اختصاص العزَّةِ به جلَّ شأنه، الموجِبِ لسلوته عليه الصلاة والسلام وعدم مبالاته بمقالات المشركين = تمهيدٌ لِمَا لَحِقَ من قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ ودليلٌ

(١) كذا ذكر المصنف هذا الكلام عن الزمخشري، وقول الزمخشري في الكشاف ٣/ ٢٤٤ هو: مَن جعله بدلاً من «قولُهم» ثم أنكره، فالمنكَرُ هو تخريجه لا ما أنكره من القراءة به. اهـ. وما ذكره المصنف قاله الشهاب في الحاشية ٥/ ٤٦ بعد ما أشار لقول الزمخشري المذكور.

(٢) كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٣.

على بطلان ظنونهم وأعمالهم المبنيَّةِ عليها، والاقتصارُ على أحد الأمرَين قصورٌ، فلا تكُن من القاصرين.

و«ما» نافية «وشركاءَ» مفعولُ «يتَّبع»، ومفعولُ «يَدْعُون» محذوفٌ لظهوره، أي: ما يتَّبع الذين يَدْعُون من دون الله شركاءَ شركاءَ في الحقيقة، وإنْ سمَّوها شركاء لجَهْلِهم، فالمرادُ سَلْبُ الصفة في الحقيقة ونفسِ الأمر، فما ذكره أبو البقاء[1] من عدم جوازِ هذا الوجه من الإعراب؛ لأنَّه يدُلُّ على نفْي اتِّباعهم الشركاءَ مع أنَّهم اتَّبعوهم، ناشئٌ من[2] الغفلة عمَّا ذكرنا.

وجوَّز أنْ يكون «شركاء» المذكورُ مفعولَ «يَدْعون»، ويكون مفعولُ «يتَّبع» محذوفاً لِانْفهامِهِ من قوله سبحانه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يتَّبعون يقيناً وإنما يتبعون ظنَّهم الباطلَ أو ظنَّهم أنَّها شركاء، بتقديرِ معمول الظنِّ أو تنزيله منزلةَ اللازم.

وقدَّر بعضُهم مفعولَ «يتَّبعون»: «شركاء»، ميلاً إلى إعمال الثاني في التنازع، وتعقِّب بأنَّه لا يصحُّ أنْ يكونَ من ذلك البابِ؛ لأنْ مفعول الفعل الأول مقيدٌ دون الثاني، فلا يتَّحد المعمول، والاتِّحادُ شرطٌ في ذلك.

وكونُ التقييدِ عارضاً بعد الإعمال بقرينة عاملِهِ فلا ينافي ما شُرط في الباب، بالباب كما لا يخفى[3].

وجوَّز أيضاً أنْ تكون «ما» استفهاميةً منصوبةً بـ «يتَّبع»، و«شركاءَ» مفعول «يَدْعون»، أي: أيَّ شيءٍ يتَّبع المشركون، أي: ما يتَّبعونه ليس بشيء.

وأنْ تكونَ موصولةً معطوفةً على «مَن»، أي: وله تعالى ما يتَّبعه المشركون خَلْقاً ومُلكاً، فكيف يكون شريكاً له سبحانه؟ وتخصيصُ ذلك بالذكر مع دخوله فيما سبَقَ عبارةً أو دلالةً للمبالغة في بيان بطلانِ الاتِّباع، وفسادِ ما بنوه عليه مِن الظنِّ الذي هو من الفساد بمكان.

---

(١) في الإملاء ٣/ ٢٤٠.
(٢) في الأصل: عن.
(٣) قوله: بالباب...، يعني: فيه نظر، كما في حاشية الشهاب ٥/ ٤٧.

وجوّز على احتمال الموصولية أنْ تكونَ مبتدأً خبرُه محذوفٌ، أي: باطلٌ ونحوه، أو الخبرُ قوله سبحانه: «إنْ يتَّبعون» والعائدُ محذوفٌ، أي: في عبادته أو اتِّباعه.

وقرأ السلمي: «تدعون» بالتاء الخطابية، وروي ذلك عن عليٍّ كرم الله وجهه[1]، وهي قراءةٌ متَّجهةٌ خلافاً لزاعمِ خلافِه، فإنَّ «ما» فيها استفهامية للتبكيت والتوبيخ، والعائدُ على «الذين» محذوفٌ و«شركاء» حالٌ منه، والمرادُ من «الذين» الملائكة والمسيحُ وعزيرٌ عليهم الصلاة والسلام، فكأنَّه قيل: أيَّ شيءٍ يتَّبعُ الذين تَدْعونهم حالَ كونهم شركاءَ في زَعْمِكم من الملائكة والنبيين، تقريراً لكونهم متَّبِعينَ اللهَ تعالى، مطيعين له، وتوبيخاً لهم على عدمِ اقتدائهم بهم في ذلك، كقوله سبحانه: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وحاصلُه: إنَّ الذين تعبدونهم يعبدون الله تعالى ولا يعبدون غيرَه، فما لكم لا تقتدون بهم ولا تتبعونهم في ذلك. ثم صُرِفَ الكلام عن الخطاب إلى الغيبة، فقيل: إنْ يتَّبعُ هؤلاء إلا الظنَّ، ولا يتَّبعون ما يتَّبعُه الملائكةُ والنبيُّون عليهم السلام من الحقِّ.

﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ۝٦٦﴾ أي: يَحزِرون ويُقدِّرون أنَّهم شركاء تقديراً باطلاً، أو يَكذبون فيما ينسبونه إليه سبحانه وتعالى، على أنَّ الخَرْصَ إما بمعنى الحَزْرِ والتخمين، كما هو الأصل الشائع فيه، وإمَّا بمعنى الكذب، فإنَّه جاء استعمالُه في ذلك لغَلَبته في مثله.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ﴾ تنبيهٌ على تفرُّده تعالى بالقدرة الكاملةِ والنعمة الشاملة؛ ليدُلَّهم على تَوَحُّده سبحانه باستحقاق العبادة، فتعريفُ الطرفَين للقَصْر، وهو قَصْرُ تعيينٍ، وفي ذلك أيضاً تقريرٌ لِمَا سلَفَ من كون جميع الموجوداتِ الممكنةِ تحت قدرتِهِ وملكتِهِ، المفصِحِ عن اختصاص العزَّة به سبحانه.

والجعلُ إنْ كان بمعنى الإبداع والخَلْقِ فـ «مُبصِراً» حالٌ، وإنْ كان بمعنى التصيير فـ «لكم» المفعولُ الثاني، أو حالٌ كما في الوجه الأول، فالمفعول[2] الثاني

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والمحرر الوجيز ٣/ ١٣٠، والبحر ٥/ ١٧٧.
(٢) في تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٢ (والكلام منه): والمفعول.

«لتسكنوا فيه»، أو محذوفٌ يدُلُّ عليه المفعول الثاني من الجملة الثانية، كما أنَّ العلة الغائية منها محذوفةٌ اعتماداً على ما في الأولى، والتقدير: هو الذي جعل لكم الليل مظلماً لتَسْكنُوا فيه، والنهارَ مبصِراً لتتحرَّكوا فيه لمصالحكم، فحذَفَ مِن كلٍّ ما ذُكر في الآخر، اكتفاءً بالمذكور عن المتروك، وفيه على هذا صنعةُ الاحتباك، والآيةُ شائعةٌ في التمثيل بها لذلك، وهو الظاهرُ فيها، وإنْ كان أمراً غيرَ ضروريٍّ، ومن هنا ذهب جمعٌ إلى أنَّه لا احتباك فيها.

والعدولُ عن: لتُبْصروا فيه ـ الذي يقتضيه ما قبلُ ـ إلى ما في النظم الجليل؛ للتفرقة بينَ الظرف المجرَّد، والظرفِ الذي هو سببٌ يتوقَّف عليه في الجملة. وإسنادُ الإبصار إلى النهار مجازيٌّ كالذي في قول جرير:

لقد لُمتِنا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ... ونمتِ وما ليلُ المَطِيِّ بنائم[1]

وقولِهم: نهارُه صائم، وغيرِ ذلك ممَّا لا يُحصى كثرةً. وإلى هذا ذهب ابنُ عطية[2] وجماعة.

وقيل: إنَّ «مبصراً» للنسب، كـ: لابِنٍ وتامر، أي: ذا إبصار.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: في الجعل المذكور، أو في الليل والنهار، وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعدِ للإيذان ببُعْدِ منزلةِ المشارِ إليه وعلوِّ رُتبته.

﴿لَأَيَـٰتٍ﴾ أي: حُججاً ودلالاتٍ على توحيد الله تعالى كثيرةً، أو آيات أُخَرَ غيرَ ما ذُكر.

﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: الحُجَجَ مطلقاً سماعَ تدبُّرٍ واعتبارٍ، أو: يسمعون هذه الآيات المتلوَّةَ ونظائرَها المنبِّهةَ على تلك الآياتِ التكوينيةِ الآمرةَ بالتأمل فيها ذلك السماع[3]، فيعملون بمقتضاها، وتخصيصُ هؤلاء بالذكر مع أنَّ الآيات منصوبةٌ لمصلحةِ الكلِّ لِمَا أنَّهم المنتفعون بها.

---

(١) ديوان جرير ٢/ ٩٩٣، والكتاب ١/ ١٦٠، والخزانة ١/ ٤٦٥.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ١٣٠.

(٣) أي: يسمعون هذه الآيات.. سماعَ تدبر واعتبار. تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٢، والكلام منه.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ شروعٌ في ذكر ضربٍ آخرَ من أباطيلِ المشركين وبيانِ بطلانه، والمرادُ بهؤلاء المشركين على ما قيل: كفارُ قريشٍ والعربِ، فإنَّهم قالوا: الملائكةُ بناتُ الله تعالى، واليهودُ والنصارَى القائلون: عزيرٌ وعيسى عليهما السلام ابناه عزَّ وجل، والاتخاذُ صريحٌ في التبنِّي.

وظاهرُ الآية يدُلُّ على أنَّ ذلك قولُ كلِّ المشركين، وإذا ثبتَ أنَّ منهم مَن يقول بالولادة والتوليد حقيقةً، كان ما هنا قولَ البعض، ولْيُنْظَر هل يجري فيه احتمالُ إسناد ما للبعض للكلِّ لتحقُّق شرطه، أم لا يجري لفَقْدِ ذلك؟

والولد يُستعمَل مفرداً وجَمْعاً، وفي «القاموس»: الوَلَدُ محرَّكةً وبالضمِّ والكسر والفتح: واحدٌ وجَمْعٌ، وقد يُجمَع على أَوْلادٍ ووِلْدَةٍ وإِلْدَةٍ بالكسر فيهما، ووُلْدٍ بالضم(١). وهو يشمل الذَّكر والأنثى.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ وتقديسٌ له تعالى عمَّا نَسبوا إليه، على ما هو الأصل في معنى «سبحان»، وقد يُستعمل للتعجُّب مجازاً، ويصحُّ إرادتُه هنا، والمرادُ التعجُّب من كلمتهم الحمقى.

وجَمَع بعضُهم بين التنزيه والتعجُّب، ولعلَّه مبنيٌّ على أنَّ التعجُّب معنىً كنائيٌّ، وأنَّه يصحُّ إرادةُ المعنَى الحقيقي في الكناية، وهو أحدُ قولَين في المسألة. وقيل: إنَّه لا يلزم استفادةُ معنَى التعجُّب منه باستعمال اللفظ فيه، بل هو من المعاني الثواني.

وقولُه سبحانه: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي: عن كلِّ شيءٍ في كلِّ شيءٍ، علةٌ لتنزُّهِهِ تعالى وتَقدُّسِهِ(٢) عن ذلك، وإيذانٌ بأنَّ اتِّخاذ الولد مسبَّبٌ عن الحاجة، وهي التقوِّي أو بقاءُ النوع مثلاً.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مِن العقلاء وغيرِهم، تقريرٌ لمعنَى الغنَى؛ لأنَّ المالك لجميع الكائناتِ هو الغنيُّ، وما عداه فقيرٌ.

وقيل: هو علةٌ أُخرى للتنزُّه عن التبنِّي؛ لأنَّه يُنافي المالكية.

---

(١) القاموس (ولد).

(٢) في (م): وتقدس.

وقولُه جلَّ شأنه: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: حُجَّةٍ ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بما ذُكر من القول الباطل، توضيحٌ لبطلانه بتحقيق سلامةِ ما أُقيمَ من البرهان الساطع عن المعارِض والمنافي، فـ «إنْ» نافية، و«مِن» زائدةٌ لتأكيد النفي، ومجرورُها مبتدأٌ، والظرفُ المقدَّم خبرُه، أو مرتفعٌ على أنَّه فاعلٌ له لاعتماده على النفي، و«بهذا» متعلِّقٌ إما بـ «سلطان» لأنَّه بمعنى الحُجَّة كما سمعتَ، وإما بمحذوفٍ وقَعَ صفةً له، وقيل: وقع حالاً من الضمير المستتر في الظرف الراجع إليه. وإما بما في «عندكم» من معنَى الاستقرار، ويتعيَّن على هذا كون «سلطان» فاعلاً للظرف؛ لئلا يلزم الفصلُ بين العامل المعنوي ومتعلِّقه بأجنبي.

والالتفاتُ إلى الخطاب لمزيد المبالغةِ في الإلزام والإفحام، وتأكيدِ ما في قوله تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٨﴾ من التوبيخ والتقريعِ على جهلهم واختلاقهم.

وفي الآية دليلٌ على أنَّ كلَّ قولٍ لا دليلَ عليه فهو جهالةٌ، وأنَّ العقائدَ لا بدَّ لها من قاطع، وأنَّ التقليدَ بمعزلٍ من الاهتداء، ولا تصلُح متَمسَّكاً لنفْي القياسِ والعملِ بخبرِ الآحاد لأنَّ ذلك في الفروع، وهي مخصوصةٌ بالأصول؛ لِمَا قام من الأدلة على تخصيصها وإنْ عمَّ ظاهرُها.

﴿قُلْ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى سيد المخاطَبين ﷺ؛ ليبيِّن سوءَ مَغَبَّتهم ووخامةَ عاقبتهم، وفي ذلك إنذارٌ لهم عن الاستمرار على ما هم فيه، ولغيرهم عن[1] الوقوع في مثله. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ في كلِّ أمرٍ، ويدخلُ الافتراءُ بنسبة الولد والشريك إليه تعالى دخولاً أوليّاً، وهو أَوْلَى من الاقتصار على ما الكلامُ فيه، وحينئذٍ فالمرادُ بالموصول ما يَعُمُّ أولئك المخاطَبين وغيرَهم، أي: إنَّ مَن تكونُ هذه صفتَهم كائناً ما كانوا ﴿لَا يُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾ لا يَنْجُون من مكروه، ولا يفوزون بمطلوبٍ أصلاً، ويندرجُ في ذلك عدمُ النجاةِ من النار، وعدمُ الفوز بالجنة، والاقتصارُ عليه في مقام المبالغة في الزَّجْرِ عن

(١) في الأصل: من.

الافتراء عليه سبحانه دون التعميم في المناسبة[1].

﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أي: هو ـ أو ذلك ـ متاعٌ، والتنوينُ للتحقير والتقليل، والظرفُ متعلِّقٌ بما عنده، أو بمحذوفٍ وقَعَ نعتاً له. والجملةُ كلامٌ مستأنفٌ سيق جواباً لسؤالٍ مقدَّرٍ عمَّا يتراءى فيهم ـ بحسب الظاهر ـ من نيل المطالبِ والفوزِ بالحظوظ الدنيوية على الإطلاق، أو في ضمن افترائهم، وبياناً لأنَّ ذلك بمعزلٍ من أنْ يكون من جنس الفلاح، كأنَّه قيل: كيف لا يُفلحون وهم في غبطةٍ ونعيم؟ فقيل: هو ـ أو ذلك ـ متاعٌ حقيرٌ قليل في الدنيا، وليس بفوزٍ بالمطلوب.

ثم أُشيرَ إلى انتفاء النجاة عن المكروه أيضاً بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ أي: إلى حُكْمنا رجوعُهم بالموت، فيَلقَوْنَ الشقاءَ المؤبَّد ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ أي: بسبب كفرِهم المستمرِّ، أو بكفرهم في الدنيا، فأين هم من الفلاح؟

وما ذكرنا مِن كون «متاعٌ» خبرَ مبتدأ محذوفٍ، هو الذي ذهب إليه غيرُ واحدٍ من المعربين، غيرَ أنَّ أبا البقاء وآخرِين منهم قدَّروا المبتدأ: حياتُهم، أو تقلُّبهم، أو افتراؤُهم[2].

واعتُرض على تقدير الأخير بأنَّ المتاع إنما يُطلق على ما يكون مطبوعاً عند النفس، مرغوباً فيه في نفسه، يُتَمتَّع به ويُنتَفع، وإنَّما عدمُ الاعتداد به لسرعة زواله، ونفسُ الافتراء عليه سبحانه أقبحُ القبائح عند النفس فضلاً عن أنْ يكون مطبوعاً عندها.

وأُجيبَ بأنَّ إطلاق المتاعِ على ذلك باعتبار أنَّه مطبوعٌ عند نفوسهم الخبيثةِ، وفيه انتفاعٌ لهم به حسبما يَرَونه انتفاعاً، وإنْ كان مِن أقبح القبائح، وغيرَ مُنتَفع به في نفس الأمر. ولا يخفَى أنَّ الوجه الأول مع هذا أَوْجَهُ.

---

(١) قوله: والاقتصار عليه. . . . إلخ، أي: تخصيص عدم النجاة وعدم الفوز بما يندرج فيه من عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة لا يناسب مقام المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه، والتعميم أنسب بالمقام. ينظر تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٣.

(٢) الإملاء ٣/ ٢٤٠.

وقيل: إنَّ المذكور مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ، أي: لهم متاع.. إلخ، وليس ببعيد.

والآيةُ إمَّا مسوقةٌ من جهته سبحانه لتحقيق عدمِ إفلاحهم، غيرُ داخلةٍ في الكلام المأمور به، وهو الذي يقتضيه ظاهرُ قوله سبحانه: (ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ) وقولِه تعالى: (ثُمَّ نُذِيقُهُمُ) وإمَّا داخلةٌ فيه على أنَّ النبيَّ ﷺ مأمورٌ بنقله وحكايتِهِ عنه تعالى شأنه، وله نظائرُ في الكتاب العزيز.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المشركين من أهل مكة وغيرهم؛ لتحقيق ما سبق من عدم إفلاح المفتَرين، وكونِ ما يتَّمتعون به على جناح الفوات، وأنَّهم مُشْرِفون على الشقاء المؤبَّد والعذاب الشديد.

﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي: خبرَه الذي له شأنٌ وخطرٌ مع قومه الذين هم أضرابُ قومك في الكفر والعناد؛ ليتدبَّروا ما فيه مما فيه مُزْدَجرٌ، فلعلَّهم يَنْزَجِرون عمَّا هم عليه، أو تنكسرُ(١) شدَّةُ شكيمتهم، ولعل بعضَ مَن يسمعُ ذلك منك ممن أنكَرَ صحةَ نبوَّتك أنْ يعترف بصحَّتها فيؤمنَ بك بأنْ يكون قد ثبتَ عنده ما يوافقُ ما تضمَّنه المتلوُّ من غير مخالفةٍ له أصلاً فيستحضر أنَّك لم تسمع ذلك من أحدٍ ولم تَستفده من كتابٍ، فلا طريقَ لعِلْمِك به إلا من جهة الوحي، وهو مدارُ النبوة.

وفي ذلك من تقرير ما سبَقَ من كون الكلِّ لله سبحانه، واختصاصِ العزَّة به تعالى، وانتفاءِ الخوفِ على أوليائه وحُزنِهم، وتشجيعِ النبيِّ ﷺ، وحَمْلِه على عدم المبالاةِ بهم وبأقوالهم وأفعالهم = ما لا يخفى، والاقتصارُ على بعض ذلك قصورٌ. وقد تقدَّم الكلامُ في نوح عليه السلام(٢).

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ اللام للتبليغ أو التعليل، و«إذ» بدلٌ من «نبأ» بدلَ اشتمال، أو معمولةٌ له لا لـ «اتل» لفساد المعنَى. وجوَّز أبو البقاء تعلُّقه بمحذوفٍ وقع حالاً من «نبأ»(٣).

---

(١) في الأصل: تنكسف، والمثبت من (م)، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٤.
(٢) ٩/ ١٦٧ وما بعد.
(٣) الإملاء ٣/ ٢٤٠.

وأيّاً ما كان فالمرادُ بعضُ نبئِهِ عليه الصلاة والسلام، لا كلُّ ما جرَى بينه وبين قومه، وكانوا على ما قال الأجهوري من بني قابيل.

﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عظُم وشَقَّ ﴿عَلَيۡكُم مَّقَامِي﴾ أي: نَفْسي، على أنَّه في الأصل اسمُ مكانٍ وأريد منه النفسُ بطريق الكناية الإيمائية، كما يقال: المجلسُ السامي.

ويجوز أنْ يكونَ مصدراً ميمياً بمعنى الإقامة، يقال: قُمتُ بالمكان وأَقمتُ بمعنًى، أي: إقامتي بين ظهرانَيكم مدَّةً مديدةً. وكونُها ما ذَكر الله تعالى ألفَ سنةٍ إلا خمسين عاماً يقتضي أنْ يكون القولُ في آخر عُمُره ومنتَهى أَمْرِه، ويحتاجُ ذلك إلى نَقْلٍ.

أو المرادُ قيامُه بدعوتهم، وقريبٌ منه قيامُه لتذكيرهم وَوَعْظهم؛ لأنَّ الواعظ كان يقومُ بين مَن يَعِظُهم؛ لأنه أظهرُ وأعونُ على الاستماع، كما يُحكَى عن عيسى عليه السلام أنَّه كان يعظُ الحواريين قائماً وهم قعودٌ، وكثيراً ما كان نبيُّنا ﷺ يقومُ على المنبر فيعظُ الجماعةَ وهم قعودٌ، فيُجعَلُ[1] القيامُ كنايةً أو مجازاً عن ذلك. أو هو عبارةٌ عن ثباتِ ذلك وتقرُّره.

﴿وَتَذۡكِيرِي﴾ إياكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالَّةِ على وحدانيته، المبطِلَةِ لِمَا أنتم عليه من الشرك.

﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ لا على غيره، والجملةُ جوابُ الشرط، وهو عبارةٌ عن عدم مبالاتِهِ والتفاتِهِ إلى استثقالهم، ويجوزُ أنْ تكون قائمةً مقامه.

وقيل: الجوابُ محذوفٌ وهذا عطفٌ عليه، أي: فافعلوا ما شئتم.

وقيل: المرادُ الاستمرارُ على تخصيص التوكُّل به تعالى.

ويجوز أنْ يكونَ المرادُ إحداثَ مَرْتبةٍ مخصوصةٍ من مراتب التوكُّل، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام متوكِّلٌ عليه سبحانه لا على غيره دائماً.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ﴾ عطفٌ على الجواب المذكورِ عند الجمهور، والفاءُ لترتيب الأمر بالإجماع على التوكُّل، لا لترتيب نفسِ الإجماع عليه.

---

(١) في الأصل: ويجعل، وفي حاشية الشهاب ٥/٤٨ (والكلام منه): فجعل.

وقيل: إنَّه الجوابُ، وما سبَقَ اعتراضٌ وهو يكونُ بالفاء:

فاعْلَم فعلمُ المرءِ ينفَعُه[١]

ولعله أقلُّ غائلةً مما تقدَّم لِمَا سمعتَه، مع ما فيه من ارتكابِ عَطْفِ الإنشاء على الخبر، وفيه كلام.

و«أجمعوا» بقَطْع الهمزة، وهو كما قال أبو البقاء: من أَجمعتُ على الأمر: إذا عزمتَ عليه، إلا أنَّه حُذف حرفُ الجرِّ فوَصَل الفعلُ، وقيل: إنَّ أَجْمَعَ متعدٍّ بنفسه، واستشهد له بقول الحارث بن حلِّزة:

أَجْمَعُوا أَمرَهم بليلٍ فلمَّا أصبحوا أصبحَت لهم ضَوضَاءُ[٢]

ونصَّ السدوسيُّ[٣] على أنَّ عدم الإتيان بـ «على» كـ : أجمعتُ الأمر، أفصحُ من الإتيان بها كـ : أجمعتُ على الأمر.

وقال أبو الهيثم[٤]: معنى أَجمَعَ أمرَه: جَعَلَه مجموعاً بعد ما كان متفرِّقاً، وتَفرقَتُهُ أنْ يقولَ مرَّةً أَفعلُ كذا، ومرَّةً أفعلُ كذا، فإذا عَزَمَ فقد جَمَع ما تفرَّق من عزمه. ثم صار بمعنى العزم حتى وُصِل بـ «على»، وأصلُه التعديةُ بنفسه.

ولا فَرْقَ بين «أجمعَ» و«جمع» عند بعضٍ. وفرَّق آخرون بينهما بأنَّ الأول يُستعمَل في المعاني، والثاني في الأعيان، فيقال: أَجمعتُ أمري وجمعتُ الجيشَ، ولعله أكثريٌّ لا دائميٌّ.

والمرادُ بالأمر هنا[٥]: المكرُ والكيد.

---

(١) وعجزه: أن سوف يأتي كلُّ ما قدرا، وسلف ١/ ٤٢٨ و٤/ ٨٣ و٩/ ٤٣٦. والكلام من حاشية الشهاب ٥/ ٤٨.

(٢) الإملاء ٣/ ٢٤٠-٢٤١، والبيت في شرح المعلقات للنحاس ٢/ ٦٢، ولابن الأنباري ص٤٥٢، وللتبريزي ص٢٩٨، والبحر ٥/ ١٧٨، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٨.

(٣) هو مؤرج بن عمرو أبو فيد السدوسي، وكلامه في البحر ٧/ ١٧٩.

(٤) كما في تهذيب اللغة ١/ ٣٩٧، والبحر ٧/ ١٧٩، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٨، وعنه نقل المصنف.

(٥) بعدها في (م): نحو، والمثبت من الأصل، وحاشية الشهاب ٥/ ٤٨.

﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي: التي زعمتُم أنَّها شركاءُ لله سبحانه وتعالى، وهو نصب على أنَّه مفعولٌ معه من الفاعل؛ لأنَّ الشركاء عازمون لا معزومٌ عليهم.

ويؤيِّد ذلك قراءةُ الحسن وابنِ أبي إسحاق وأبي عبد الرحمن السلميِّ وعيسى الثقفيِّ بالرفع[١]، فإنَّ الظاهر أنَّه حينئذٍ معطوفٌ على الضمير المرفوعِ المتَّصل، ووجودُ الفاصلِ قائمٌ مقام التأكيد بالضمير المنفصل. وقيل: إنَّه مبتدأٌ محذوفُ الخبر، أي: وشركاؤكم يُجمِعُون، ونحوه.

وقيل: إنَّ النصب بالعطف على «أمركم» بحذفِ المضاف، أي: وأمرَ شركائكم، بناءً على أنَّ «أَجمعَ» تتعلَّق بالمعاني. والكلامُ خارجٌ مخرجَ التهكُّم بناءً على أنَّ المرادَ بالشركاء الأصنامُ. وقيل: إنَّه على ظاهره والمرادُ بهم مَن على دينهم.

وجوِّز أنْ لا يكون هناك حذفٌ، والكلامُ مِن الإسناد إلى المفعول المجازيِّ، على حدِّ ما قيل في ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢].

وقيل: إنَّ ذاك على المفعولية به لمقدَّرٍ كما قيل في قوله:

علفتُها تبناً وماءً بارداً[٢]

أي: وادعوا شركاءَكم، كما قرأ به أُبيٌّ رضي الله عنه[٣].

وقرأ نافع: «فاجْمَعوا» بوصل الهمزة وفتح الميم[٤] من جمع، وعطْفُ الشركاء على الأمر في هذه القراءة ظاهرٌ بناءً على أنَّه يقال: جمعْتُ شركائي، كما يقال: جمعْتُ أمري، وزَعَم بعضُهم أنَّ المعنى: ذوي أمركم، وهو كما ترى.

---

(١) المحتسب ١/ ٣١٤، والبحر ٥/ ١٧٩، وهي قراءة أبي جعفر من العشرة، كما في النشر ٢/ ٢٨٦.

(٢) وعجزه: حتى شتت همَّالة عيناها، وسلف ٦/ ٣٢٥.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٤٥، والبحر ٧/ ١٧٩، وهي في المحتسب ١/ ٣١٤ بلفظ: «وادعوا شركاءكم ثم اجْمَعوا أمركم».

(٤) البحر ٥/ ١٧٩، وهي قراءة رويس كما في النشر ٢/ ٢٨٥، والمشهور عن نافع القراءة بقطع الهمزة وكسر الميم كقراءة الجماعة.

والمعنى[١]: أَمَرَهم[٢] بالعزم والإجماعِ على قَصْدِه والسعي في إهلاكه على أيِّ وجهٍ يُمكنهم من المكر ونحوه، ثقةً بالله تعالى وقلّةَ مبالاةٍ بهم، وليس المراد حقيقةَ الأمر.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ ذلك ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مستوراً، من غَمَّه: إذا ستره، ومنه حديثُ وائل بن حُجر: «لا غُمَّةَ في فرائض الله تعالى»[٣] أي: لا تُستَر ولا تُخفَى وإنَّما تُظهر وتُعلَن، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بـ «غمَّة»، والمرادُ نَهيُهُم عن تعاطي ما يجعل ذلك غُمَّةً عليهم، فإنَّ الأمرَ لا يُنهَى، ويستلزم ذلك الأمرَ بالإظهار. فالمعنَى: أظهرُوا ذلك وجاهروني به، فإنَّ الستر إنَّما يُصارُ إليه لسدِّ باب تَدارُكِ الخلاصِ بالهرب أو نحوِه، فحيثُ استحال ذلك في حقِّي لم يكن للستر وجهٌ.

وكلمةُ «ثم» للتراخي في الرتبة، وإظهارُ الأمر في مقام الإضمار لزيادةِ التقريرِ.

وقيل: أُظهر لأنَّ المراد به ما يعتريهم من جهته عليه السلام من الحال الشديدةِ عليهم المكروهةِ لديهم، لا الأمرُ الأول، والمرادُ بالغُمَّة: الغَمُّ، كالكُربة والكَرْب، والجارُّ والمجرور متعلِّق بمقدَّرٍ وقع حالاً منها، و«ثم» للتراخي في الزمان، والمعنى: ثم لا يكن حالُكم غَمّاً كائناً عليكم، وتخلَّصوا بإهلاكي[٤] من ثقل مقامي وتَذْكيري بآيات الله تعالى.

واعتُرض[٥] عليه بأنَّه لا يُساعدُه قولُه تعالى شأنه: ﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ أي: أدُّوا إليَّ ذلك الأمرَ الذي تريدون [بي] ولا تُمهِلوني، على أنَّ القضاء مِن

---

(١) أي: على الوجوه السابقة. حاشية الشهاب ٥/ ٤٩.
(٢) بلفظ الماضي، أي أن نوحاً عليه السلام أمرهم، ويصح أن يكون اسماً أيضاً. حاشية الشهاب ٥/ ٤٩.
(٣) طرف من كتاب النبي ﷺ لوائل بن حجر، أخرجه الخطابي في غريب الحديث ١/ ٢٨٠-٢٨١ وذكره القاضي عياض كما في شرح الشفا للخفاجي ١/ ٤٠٤، وقال: وروي: لا عَمَه، أي: لا حيرة ولا تردُّد فيها، وروي: لا غِمْدَ، ومعناها: لا ستر ولا خفاء، كتغمَّدنا الله برحمته، أي: سترنا بها.
(٤) في (م): بهلاكي، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٥، والكلام منه.
(٥) المعترض هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٦٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

قَضَى دَينَه: إذا أَدَّاه، ومفعولُه محذوفٌ كما أشرنا إليه، وفيه استعارةٌ مكنيةٌ والقضاء تخييل. وقد يُفسَّر القضاء بالحكم، أي: احكُموا بما تؤدونه[١] إليَّ، ففيه تضمينٌ واستعارةٌ مكنية أيضاً = لأنَّ[٢] توسيط ما يحصُل بعد الإهلاك بين الأمر بالعزم على مباديه وبين الأمر بقضائه من قبيل الفصلِ بين الشجر ولحائه. والوجه الأول سالمٌ عن ذلك، وهو ظاهرٌ.

وقيل: المرادُ بالغمَّة المعنَى الأوَّلُ، وبالأمر ما تقدَّم، وبالنهي الأمرُ بالمشاورة، أي: أجمعوا أمرَكم ثم تشاورُوا فيه. وفيه بُعدٌ لعدم ظهورِ كِلَا الترتيبَين الدالَّةِ عليهما «ثم» سواءٌ اعتُبِرتْ قراءةُ الجماعة أو قراءةُ نافع في «أَجْمِعوا».

وقرئ: «أَفضُوا إليَّ» بالفاء[٣]، أي: انتهوا إليَّ بشرِّكم، أو أَبْرِزوا إليَّ، من أَفْضَى: إذا خرج إلى الفضاء، كأَبْرَزَ: إذا خَرَجَ إلى البَراز، وهو المكانُ الواسع.

﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أي: بقيتُم على إعراضكم عن تذكيري أو أحدثتُم إعراضاً مخصوصاً عن ذلك بعدَ وقوفكم على أمري، ومشاهدتكم منِّي ما يدُلُّ على صحة قولي ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم﴾ بمقابلةِ تذكيري ووَعْظي ﴿مِّنۡ أَجۡرٍ﴾ تُؤدُّونه إليَّ حتى يُؤدِّي ذلك[٤] إلى تولِّيكُم، إمَّا لاتهامكم إيَّايَ بالطمع، أو لثقَلِ دفع المسؤول عليكم، أو حتى يَضرَّني تولِّيكم المؤدِّي إلى الحرمان، فالأوَّل لإظهار بطلان التولِّي ببيانِ عدم ما يُصحِّحه[٥]، والثاني لإظهار عدمِ مبالاته عليه السلام بوجوده وعدمه.

وعلى التقديرَين فالفاءُ الأُولَى لترتُّب هذا الشرط على الجزاء قبله، والفاءُ الثانيةُ لسببية الشرط للإعلام بمضمون الجزاء بعده كما ذكره بعض المحققين، أي: إنْ تولَّيتُم فاعلموا أنْ ليس فيَّ مصحِّحٌ له، أو لا تأثُّر منه، على حدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأنعام:١٧].

---

(١) في (م): تؤدوه.
(٢) قوله: لأن، متعلق بقوله: لا يساعده.
(٣) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٨٠.
(٤) بعدها في (م): إليكم، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٥، والكلام منه.
(٥) بعدها في الأصل: كما ذكره بعض المحققين.

وذهب بعضُهم إلى أنَّ جواب الشرط محذوفٌ، أُقيمَ ما ذُكر ـ وهو علّتُه ـ مقامَه، أي: فلا باعثَ لكم على التولّي ولا موجبَ له، أو فلا ضيرَ عليَّ بذلك. وكلامُ البعض مشعرٌ بأنَّه مع اعتبار الحذف والإقامة المذكورَين يجيءُ حديثُ اعتبارِ سببية الشرط للإعلام، وهو الذي يميل إليه الذوق. و«من» زائدةٌ للتأكيد، أي: فما سألتكم أجراً.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ تأكيدٌ لِمَا قبله على المعنى الأوَّل، وتعليلٌ لاستغنائه عليه السلام على المعنى الثاني، أي: ما ثوابي على العِظَة والتذكير إلَّا عليه تعالى يُثيبني بذلك آمنتُم أو تولَّيتُم.

وقوله سبحانه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ تذييلٌ ـ على ما قيل ـ لمضمون ما قبلَه مقرِّرٌ له، والمعنى: وأُمرتُ بأنْ أكونَ مُنتظِماً في عداد المسلمين الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً، ولا يطلبون به دنيا، وفيه حملُ الإسلام على ما يساوقُ الإيمان واعتبارُ التقييد.

وعدَلَ عنه بعضُهم لِمَا فيه من نوعِ تكلُّفٍ، فحَمَل الإسلامَ على الاستسلام والانقياد، ولم يُقيِّد، أي: وأُمرتُ بأنْ أكونَ من جملة المنقادين لحكمه تعالى، لا أخالفُ أمرَه ولا أرجو غيرَه، وفيه على هذا المعنى أيضاً مِن تأكيد ما تقدَّم وتقرير مضمونه ما لا يخفَى.

ولا يظهرُ أمرُ التأكيد على تقديرِ أنْ يكون المعنَى: من المستسلمين لكلِّ ما يُصيبُ من البلاء في طاعة الله تعالى، ظهورَه على التقديرَين السابقَين.

وبالجملة: إنَّه عليه الصلاة والسلام لم يُقصِّر في إرشادهم بهذا الكلام وبلَغَ الغايةَ القصوى فيه.

وذكر بعضُهم وجهَ نَظْمِه على هذا الأسلوبِ على بعض الأوجُهِ المحتملة، فقال: إنَّه عليه الصلاة والسلام قال في أول الأمر: «فعلى الله توكَّلتُ» فبيَّن وُثوقَه بربِّه سبحانه، أي: إنِّي وَثِقتُ به فلا تظنُّوا بي أنَّ تهديدَكم إيَّايَ بالقتل والإيذاء يَمنعُني من الدعاء إلى الله تعالى، ثم أوردَ عليهم ما يدُلُّ على صحة دعواه فقال: «فأجْمِعُوا أمرَكم»، كأنه يقول: أَجْمِعُوا كلَّ ما تقدِرُون عليه من الأشياء التي تُوجب

حصولَ مطلوبكم. ثم لم يقتصر على ذلك بل أمرَهم أنْ يُضيفوا إلى أنفسهم شركاءَهم الذين كانوا يزعمون أنَّ حالهم يَقوَى بمكانهم وبالتقرُّب إليهم، ثم لم يقتصر على هذَين بل ضمَّ إليهما ثالثاً، وهو قوله: «ثم لا يكُن أمركم عليكم غمة» فأراد أن يَسعَوا في أمره غايةَ السَّعْي، ويُبالغوا فيه غايةَ المبالغة حتى يَطيبَ عيشُهم. ثم لم يقتصر على ذلك حتى ضمَّ إليه رابعاً فقال: «ثم اقْضُوا إليَّ» آمراً لهم بأداء ذلك كلِّه إليه.

ثم ضم إلى ذلك خامساً فقال[١]: «ولا تُنظِرُون» فنهاهم عن الإمهال، وفي ذلك من الدلالة على أنَّه عليه الصلاة والسلام قد بلغَ الغايةَ في التوكُّل على الله سبحانه، وأنَّه كان قاطعاً بأنَّ كيدَهم لا يضرُّه ولا يصل إليه، وأنَّ مكرهم لا ينفُذُ فيه ما هو أظهرُ من الشمس وأَبْيَنُ من الأمس[٢].

ثم إنَّه عليه السلام أرادَ أنْ يجعل الحُجَّةَ لازمةً عليهم ويُبرِّئ ساحته، فنفَى سؤالَه إياهم شيئاً من الأجر، وأكَّد ذلك بأنَّ أَجْرَه على الله سبحانه لا على غيره، مُشيراً إلى مزيد كرمه جلَّ جلالهُ، وأنَّه يُثيبه على فعله سألَه أو لم يَسألْهُ، ولذا لم يقُل: إنْ سؤاليَ الأجرَ إلَّا من الله تعالى.

ثم لم يكتف بذلك، حتى ضمَّ إليه أنَّه مأمورٌ بما يندرجُ فيه عدمُ سؤالهم والالتفاتِ إلى ما عندَهم، وأنْ يتَّصفَ به على أتمِّ وجهٍ، لأنَّ «من المسلمين» أبلغُ من مسلماً، كما تحقَّق في محلِّه، وفي ذلك قطعُ ما عسى أنْ يَحولَ بينهم وبين إجابةِ دعوتهِ والاتِّعاظ بعظَتِه.

إلَّا أنَّ القوم قد بَلَغوا الغايةَ في العناد والتمرُّد ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: فأصرُّوا ـ بعد أنْ لم يُبقِ[٣] عليه السلام في قوس الإلزام منزعاً، وفي كأس بيانِ أنْ لا سببَ لتولِّيهم غير التمرُّد مكرعاً ـ على ما هم عليه من التكذيب الدالِّ عليه السباقُ واللحاقُ، وهو عطفٌ على جملة[٤] قوله تعالى: ﴿قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾.

---

(١) قوله: فقال، ليس في (م).
(٢) في (م): أمس.
(٣) بعدها في (م): عليهم.
(٤) قوله: جملة، ليس في الأصل.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَهُ﴾ فصيحةٌ في رأيٍ، أي: فحقَّت عليهم كلمةُ العذاب فنجَّيناه. وأنكر ذلك الشهاب، وادَّعى أنَّ ذِكْرَ ما يُشير إليه في عبارة بعض المفسِّرين توطئةٌ للتفريع لا إشارةٌ إلى أنَّ الفاء فصيحة[1].

وأنا لا أرَى فيه بأساً، إلا أنَّ تقدير: فعامَلْنا كلّاً بما تَقتضيه الحكمةُ، ونحوِه، عندي أولَى.

ومتعلِّقُ الإنجاء محذوفٌ، أي: مِن الغرق، كما يدُلُّ عليه المقام. وقيل: مِن أيدي الكفار، أي: فخلَّصناه من ذلك ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ من المؤمنين به، وكانوا ـ في المشهور ـ أربعين رجلاً وأربعينَ امرأةً، وقيل: دون ذلك.

﴿فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: السفينة، وهو مفرَدٌ ها هنا، والجارُّ ـ كما قال الأجهوري وغيرُه ـ متعلِّقٌ بـ: «نجَّيناه»، أي: وقع الإنجاء في الفلك. ويجوز أنْ يتعلَّق بالاستقرار الذي تعلَّق به الظرفُ قبلَه الواقع صلةً، أي: والذين استقروا معه في الفلك.

﴿وَجَعَلْنَهُمْ خَلَٓئِفَ﴾ عمَّن هلَكَ بالإغراق بالطُّوفان، وهو جمع خليفة.

﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهم الباقون من قومه، والتعبيرُ عنهم بالموصول للإيذان بعلِّية مضمون الصِّلة للإغراق، وتأخيرُ ذِكْرِه عن ذِكْرِ الإنجاء والاستخلافِ لإظهار كمالِ العناية بشأن المقدَّم، ولتعجيل المَسرَّة للسامعين، وللإيذان بسَبْق الرحمةِ التي هي من مقتضَيات الربوبية على الغضب الذي هو من مُستَتْبَعات جرائمِ المجرمين.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ المخوَّفين بالله تعالى وعذابه، والمرادُ بهم المكذِّبون[2]، والتعبيرُ عنهم بذلك للإشارة إلى إصرارهم على التكذيب، حيث لم يَنجَع الإنذارُ فيهم ولم يُفدهم شيئاً، وقد جرَت عادةُ الله تعالى أنْ لا يُهلكَ قوماً بالاستئصال إلا بعدَ الإنذار؛ لأنَّ مَن أنذرَ فقد أعذَر.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٤٩.

(٢) في (م): المكذبين.

والنظرُ ـ كما قال الراغبُ[١] ـ يكونُ بالبصر والبصيرةِ، والثاني أكثرُ عند الخاصَّة، وسيقَ الكلامُ لتهويل ما جرَى عليهم، وتحذيرِ مَن كذَّب بالرسول عليه الصلاة والسلام، والتسليةِ له ﷺ. والمراد: اعتبِرْ ما أخبر الله تعالى به؛ لأنَّه لا يمكن أنْ ينظرَ إليه هو ﷺ ولا مَن أنذَرَه.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ أي: أرسلنا ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: مِن بعد نوحٍ عليه الصلاة والسلام ﴿رُسُلًا﴾ أي: كِراماً ذوي عددٍ[٢] كثيرٍ، فالتنكيرُ للتفخيم والتكثير. ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ قيل: أي: إلى أقوامهم، على معنى: أرسلنا كلَّ رسولٍ إلى قومه[٣] خاصَّة، مثل هودٍ إلى عادٍ، وصالحٍ إلى ثمودَ، وغيرِ ذلك ممن قصَّ منهم ومَن لم يقصَّ، لا على معنى: أرسلنا كلَّ رسولٍ منهم إلى أقوامِ الكلِّ، أو: إلى قومٍ أيِّ قومٍ كانوا.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ عمومَ الرسالة إلى البشر لم يَثْبُتْ لأحدٍ من أولئك الرسل عليهم الصلاة والسلام. وظاهرُ كلامهم الإجماعُ على أنَّ ذلك مخصوصٌ بنبيِّنا ﷺ، ولم يثبت لأحدٍ ممن أُرسل بعدَ نوح، واختُلف فيه عليه السلام: هل بُعث إلى أهل الأرضِ كافةً، أو إلى أهل صقعٍ منها؟ وعليه يُبنَى النظرُ في الغرق: هل عمَّ جميعَ أهل الأرضِ، أو كان لبعضهم، وهم أهلُ دعوته المكذِّبين به، كما هو ظاهرُ كثيرٍ من الآيات والأحاديث؟ قال ابنُ عطية: الراجحُ عند المحقِّقين هو الثاني[٤]. وكثيرٌ من أهل الأرض كأهل الصين وغيرهم ينكرون عمومَ الغرقِ، والأولُ لا يُنافي القولَ باختصاص عمومِ الرسالةِ على العموم المشهورِ بينَ الخصوصِ والعمومِ بنبيِّنا ﷺ؛ لأنَّها لمن بعده إلى يوم القيامة.

وزعم بعضُهم أنَّ الغرقَ كان عامّاً مع خصوص البعثةِ، ولا مانعَ مِن أنْ

---

(١) في مفرداته (نظر).

(٢) في (م): عذر، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/١٦٦، والكلام منه.

(٣) في الأصل و(م): قوم، والمثبت من تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٥/٤٩، وتفسير أبي السعود ٤/١٦٦، والكلام منه.

(٤) المحرر الوجيز ٣/١٣٣.

يُهلِكَ الله تعالى مَن لا جنايةَ له مع مَن له جنايةٌ، ولا اعتراضَ عليه سبحانه فيما ذَكر، إذ هو تصرُّفٌ في خالص ملكه، ولا يُسْأَلُ عمَّا يفعل، وفي قوله سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] نوعُ إشارةٍ إلى ذلك. نعم قد ثبَتَ لنوحٍ عليه السلام عمومُ الرسالة انتهاءً، حيث لم يبقَ على وجه الأرض بعدَ الطوفان سوى مَن كان معه، وهم جميعُ أهلِ الأرضِ إذ ذاك، فالفرقُ بين رسالته عليه السلام ورسالةِ نبيِّنا ﷺ ظاهرٌ، فإنَّ رسالة نبيِّنا عليه الصلاة والسلام عامَّةٌ ابتداءً وانتهاءً، ورسالتُه عليه السلام عامَّةٌ انتهاءً لا ابتداءً. ولا يخلو عن نظر.

والأولَى أنْ يُعتبر في اختصاص عمومِ رسالة نبيِّنا عليه الصلاة والسلام كونُها لمن بعده إلى يوم القيامة، فإنَّ عدم ثبوتِ ذلك لأحدٍ من الرسل عليهم السلام قبل نوحٍ وبعدَه مما لا يُتنازع فيه.

وهذا كلُّه إذا لم يُلاحَظْ في العموم الجنُّ وكذا الملائكةُ، وإذا[1] لُوحِظَ كما يُفيدُه قوله سبحانه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] فأمْرُ الاختصاصِ أظهرُ وأظهرُ.

﴿فَجَاءُوهُم﴾ أي: فأتَى كلُّ رسولٍ قومَه المخصوصين به ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالمعجزات الواضحةِ الدالَّةِ على صِدْقِ ما يقولون، والباء إما متعلِّقةٌ بما عندها على أنَّها للتعدية، أو بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من الضمير المرفوعِ، أي: مُلتبسين[2] بالبينات، لكنْ لا بأنْ يأتيَ كلُّ رسولٍ ببيِّنةٍ فقط، بل بأنْ يأتيَ ببيِّنةٍ أو ببيِّناتٍ كثيرةٍ خاصَّةٍ به معيَّنةٍ له حَسْبَ اقتضاء الحكمة، وإلى نفي إرادةِ الإتيان ببيِّنةٍ وإرادة الإتيان ببيناتٍ كثيرةٍ ذهب شيخ الإسلام، ثم قال: فإنَّ مراعاةَ انقسامِ الآحاد على الآحاد إنَّما هي في ضميري «جاؤوهم» كما أُشيرَ إليه[3]. ولعلَّ صنيعَنا أحسنُ من صنيعه.

ويُفهم من كلام بعضِ المحققين أنَّ انفهام إرسالِ كلِّ رسولٍ إلى قومه مِن إضافة القومِ إلى ضمير «رسلاً» وليس ذلك من مُقابلة الجمع بالجمع المقتَضي لانقسام الآحاد على الآحاد، ولا شكَّ أنَّ انفهام مجيءِ كلِّ رسولٍ قومَه المخصوصين به تابعٌ لذلك.

---

(١) في (م): إذا، دون واو.
(٢) في (م) متلبسين، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٦، والكلام منه.
(٣) تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٦.

وبعد هذا كلِّه إذا اعتبر مقابلةُ الجمع بالجمع في «جاؤوهم بالبينات»، وقيل بانقسام الآحادِ على الآحاد، لا يلزم أنْ يكونَ لكلِّ رسولٍ بينةٌ جاء بها، كما أنَّ: باع القومُ دوابَّهم، لا يقتَضي أنْ يكونَ لكلِّ واحدٍ من القوم دابَّةٌ واحدة باعها، فإنَّ معناه باعَ كلٌّ مِن القومِ ما لَه من الدوابِّ، وهو يعمُّ الدابة الواحدة وغيرَها، وهذا بخلاف: رَكب القومُ دوابَّهم، فإنَّه يتعيَّن فيه إرادةُ كلٍّ واحدةٍ من الدوابِّ؛ لاستحالة ركوبِ الشخص دابَّتَين مثلاً. وقد نصَّ العلَّامة أبو القاسم السمرقنديُّ في حواشيه على «المطول»: أنَّه لا يشترط في مقابلة الجمعِ بالجمع انقسامُ الآحاد على الآحاد بمعنى أنْ يكونَ لكلِّ واحدٍ من أحدِ الجمعَين واحدٌ مِن الجمع الآخر. وهو ظاهرٌ فيما قلنا، والمعوَّل عليه في كون الآية من قَبيل المثال الأول أمرٌ خارج، فإنَّ من المعلوم أنَّ الرسول الواحدَ مِن الرسل عليهم السلام قد جاء قومَه ببيناتٍ فوق الواحدة.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ بيانٌ لاستمرار عدمِ إيمانهم في الزمان الماضي، أي: فما صحَّ ولا استقام لهم في وقتٍ من الأوقات أنْ يؤمنوا؛ لشدَّة شكيمتهم ومَزيدِ عِنادِهم.

وضميرُ الجمع هنا للقوم المبعوثِ إليهم، وكذا في قوله تعالى: ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ والباءُ فيه صلةُ «يؤمنوا»، و«ما» موصولة، والمرادُ بها جميعُ الشرائع التي جاء بها كلُّ رسولٍ، أصولها وفروعها. والمراد بعدم إيمانهم بها إصرارُهم على ذلك بعد اللُّتَيَّا والتي، وبتكذيبهم مِن قبلُ تكذيبُهُم من حين مجيءِ الرسل عليهم السلام إلى زمان الإصرار والعناد. وهذا بناء على أنَّ المحكيَّ آخرُ أحوالهم، حسبما يُشير إليه حكايةُ قومِ نوحٍ عليه السلام، ولم يُجعل التكذيبُ مقصوداً بالذات كما جُعِلَ عدم إيمانهم كذلك، إيذاناً بأنَّه بيِّنٌ في نفسه غنيٌّ عن البيان، وإنما المحتاجُ إليه عدمُ إيمانهم بعد تواترِ البيِّنات وتظاهرِ المعجزات التي كانت تَضطرُّهم إلى القبول لو كانوا من أهل العقول.

وإذا كان المحكيُّ جميعَ أحوال أولئك الأقوام فالمرادُ بعدم إيمانهم المفادِ بالنفي السابق كفرُهم المستمرُّ من حين مجيءِ الرسلِ عليهم السلام إلى زمان إصرارهم، وبعدم إيمانهم المفهومِ من جملة الصلةِ كفرُهم قبل مجيءِ الرسل عليهم

السلام، ويُراد حينئذٍ من الموصول أصولُ الشرائعِ التي أجمعَت عليها الرسلُ قاطبةً، ودعَوا أُمَمَهُم إليها، كالتوحيد ولوازمه مما يستحيلُ تبدُّلُه وتغيُّرُه، ومعنى تكذيبهم بذلك قبلَ مجيءِ رسلهم أنَّهم ما كانوا أهلَ جاهليةٍ بحيث لم يَسمعوا بذلك قطُّ، بل كان كلُّ قومٍ يتسامعون به من بقايا مَن قبلهم، فيكذِّبونه، ثم كانت حالُهم بعد مجيء الرسل كحالهم قبل ذلك، كأنْ لم يُبعث إليهم أحدٌ.

وقيل: المراد أنهم لم ينتفعوا بالبعثة وكانت حالهم بعد البعثة كحالهم قبلها في كونهم أهلَ جاهليةٍ.

والأولُ أَوْلَى، وتخصيصُ التكذيب وعدمِ الإيمان بما ذكر من الأُصول لظهور حالِ الباقي بدلالةِ النصِّ، فإنَّهم حين لم يؤمنوا بما اجْتَمعَت عليه الكافَّةُ، فلأنْ لا يؤمنوا بما تفرَّد به البعضُ أَولَى، وعدمُ جَعْلِ هذا التكذيب مقصوداً بالذات؛ لأنَّ ما عليه يدور أمرُ العذابِ عند اجتماع التكذيبَين هو التكذيبُ الواقعُ بعد البعثةِ والدعوةِ حسبما يُعرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وإنما ذكر ما وقَعَ قبلُ بياناً لعراقتهم في الكفر والتكذيب.

وفكَّكَ بعضُهم بين الضمائر فقيل: ضميرُ «كانوا» و«يؤمنوا» لقوم الرسل، وضميرُ «كذبوا» لقوم نوحٍ عليه السلام، أي: ما كان قومُ الرسل ليؤمنوا بما كذَّب به قومُ نوحٍ، أي بمثله، والمرادُ به ما بُعِثَ الرسلُ عليهم السلام لإبلاغه. وجوَّز على هذا القول أنْ يُراد بالموصول نوحٌ نفسه، أي: ما كان قومُ الرسل ليؤمنوا بنوحٍ عليه السلام، إذ لو آمنوا به آمنوا بأنبيائهم عليهم السلام. ولا يخفى ما في ذلك.

ومن الناس مَن جَعَلَ الباء سببيةً و«ما» مصدريةً، والمعنى: كذَّبوا رسلَهم فكان عقابُهم من الله تعالى أنَّهم لم يكونوا ليؤمنوا بسبب تكذيبهم من قبلُ وأيَّده بالآية الآتية، وفيه مخالفةُ الجمهور مِن جَعْلِ «ما» المصدرية اسماً ـ كما هو رأي الأخفش وابن السرَّاج(١) ـ ليرجع الضمير إليها. وفي إرجاعه إلى الحقِّ بادِّعاء كونه مركوزاً في الأذهان ما لا يخفَى من التعسُّف.

---

(١) في الأصول في النحو ١/ ١٦١، وذكره عنه وعن الأخفش السمين في الدر ٦/ ٢٤٦، وأبو السعود ٤/ ١٦٧، والكلام منه.

وقيل: «ما» موصوفةٌ، والباء للسببية أيضاً أو للملابسة، أي: بشيءٍ كذَّبوا به، وهو العناد والتمرُّد. وهو كما ترَى.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الطبع المُحْكَم ﴿نَطْبَعُ﴾ فالإشارةُ على حدِّ ما قُرِّر في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] ونظائرِه مما مرّ[١]، وجعْلُ الإشارةِ إلى الإغراق كما فعل الخازن[٢] ليس بشيءٍ.

والطَّبْعُ يُطلَق على تأثير الشيء بنقش الطابع، وعلى الأثر الحاصل من[٣] النقشِ، والختم مثلُه في ذلك على ما ذَكَره الراغب، وذكر أيضاً[٤] أنَّه تصوير[٥] الشيءِ بصورةٍ ما، كطبعِ السِّكَّةِ وطَبْع الدراهم، وأنَّه أعمُّ من الخَتْم وأخصُّ من النقش[٦].

والأكثرون على تفسيره بالختم مُراداً به المنعُ، أي: نختمُ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٧٤﴾ أي: المتجاوزين عن الحدود المعهودةِ في الكفر والعناد، ونمنعُها لذلك عن قبول الحقِّ وسُلوك سبيلِ الرشاد.

وقد جاء الطَّبْعُ[٧] بمعنى الدَّنَس، ومنه: طِبْعُ السيف، لصَدَئه ودَنَسِهِ، وبعضُهم حَمَل ما في الآية على ذلك.

وفسَّره المعتزلةُ حيث وقَعَ منسوباً إليه تعالى بالخذلان تطبيقاً له على مذهبهم، ومن هنا قال الزمخشريُّ[٨]: إنَّه جارٍ مجرى الكنايةِ عن عنادهم ولجاجهم؛ لأنَّ مَن عاند وثبَتَ على اللَّجاج خَذَلَه الله تعالى، ومنَعَه التوفيق واللطف، فلا يزالُ كذلك حتى يتراكم الرَّين والطبعُ على قلبه.

---

(١) ينظر ما سلف ٣/ ٨.
(٢) في تفسيره ٣/ ٢٠١.
(٣) في (م): عن.
(٤) في (م): أيضاً وذكر.
(٥) في (م): نصور.
(٦) مفردات الراغب (طبع).
(٧) بالكسر، ويحرَّك. القاموس والتاج (طبع).
(٨) في الكشاف ٢/ ٢٤٦، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٥٠.

ومرادُه ـ كما قيل ـ أنَّ «نَطْبَع» بمعنى «نخذل» على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، لكنْ لمَّا كان الطبعُ الذي هو الخِذلان تابعاً لعنادهم ولجاجهم لازماً لهما أُجْرِيَ مجرَى الكناية عنهما.

وقرئ: «يطبع» بالياء[1]، على أنَّ الضمير لله سبحانه وتعالى.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ عطفٌ على (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ) عطْفَ قصةٍ على قصة ﴿مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي: من بعد أولئك الرسل عليهم السلام.

﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أُوثِرَ التنصيصُ على بعثتهما عليهما السلام مع ضربِ تفصيلٍ إيذاناً بخَطَر شأنِ القصة وعِظَم وَقْعها.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أي: أشرافِ قومه الذين يجتمعون على رأي فيملَؤون العينَ رواءً والنفوسَ جلالةً وبهاءً، وتخصيصُهم بالذكر لأصالتهم في إقامة المصالح والمُهمَّات، ومراجعةِ الكلِّ إليهم في النوازل والمُلِمَّات.

وقيل: المرادُ بهم هنا مطلَقُ القوم، من استعمال الخاصِّ في العامِّ.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: أدِلَّتنا ومُعجزاتنا، وهي الآيات المفصَّلات في «الأعراف»، والباء للملابسةِ، أي: ملتبسين[2] بها.

﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ أي: تكبَّروا وأُعجبوا بأنفسهم وتعظَّموا عن الاتِّباع، والفاء فصيحةٌ، أي: فأتَيَاهم فبلَّغَاهم الرسالةَ فاستكبروا، وأُشيرَ بهذا الاستكبار إلى ما وقَعَ منهم أوَّل الأمر من قول اللَّعين لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨] وغيرِ ذلك.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ جملةٌ معترِضةٌ تذييليةٌ، وجوِّز فيها الحالية بتقدير «قد»، وعلى الوجهَين تُفيدُ اعتيادَهم الإجرام، وهو فعلُ الذنب العظيم، أي: وكانوا قوماً شأنُهم ودأبُهم ذلك. وقد يُؤخَذ مما ذكر تعليلُ استكبارهم. والحملُ على العطف الساذج لا يناسب البلاغةَ القرآنية ولا يُلائمها، فمعلوم هذا القَدْر من سوابق أوصافهم.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٧، والبحر ٥/ ١٨١.

(٢) في (م): متلبسين، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٧، والكلام منه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ الفاءُ فصيحةٌ أيضاً مُعرِبةٌ عما صُرِّح به في مواضع أُخَرَ، كأنَّه قيل: قال موسى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٥-١٠٨] فلمَّا جاءهم الحقُّ ﴿قَالُوا﴾ مِن فَرْطِ عنادهم وعُتوِّهم مع تَنَاهي عَجْزِهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ أي: ظاهرٌ كونُه سحراً، أو واضحٌ في بابه فائقٌ فيما بين أضرابه، فـ «مبين» من أَبانَ بمعنى ظَهَر واتَّضحَ، لا بمعنى أَظهَرَ وأَوْضَحَ كما هو أحدُ معنييه.

والإشارةُ إلى الحقِّ الذي جاءهم، والمرادُ به ـ كما قال غيرُ واحدٍ ـ الآياتُ، وقد أُقيمَ مقام الضمير للإشارة إلى ظهور حقِّيَّته عند كلِّ أحدٍ، ونسبةُ المجيء إليه على سبيل الاستعارة تشير أيضاً إلى غاية ظهوره وشدَّةِ سطوعه، بحيث لا يخفَى على مَن له أدنَى مُسْكَةٍ، ومن هنا قيل في المعنى: فلمَّا جاءهم الحقُّ من عندنا وعَرَفوه قالوا.. إلخ، فالاعتراضُ عليه بأنَّه لا دلالةَ في الكلام على هذه المعرفة، وإنما تُعلَم من موضعٍ آخر، كقوله سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤] من قلَّة المعرفة؛ لظهور دلالة ما علمتَ، وكذا ما قالوا بناء على ما قيل من دلالته على الاعتراف وتَناهي العجْزِ عليها.

وقرئ: «الساحر»(١)، وعنوا به موسى عليه السلام؛ لأنَّه الذي ظهر على يده ما أعجزهم.

﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: فماذا قال لهم موسى عليه السلام؟ فقيل: قال لهم على سبيل الاستفهام الإنكاريِّ التوبيخيِّ: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ﴾ الذي هو أَبعدُ شيءٍ من السحر الذي هو الباطل البحتُ ﴿لَمَّا جَاءَكُمْ﴾ أي: حين مجيئه إياكم ووقوفِكم عليه، وهو الذي يقتضيه ما أُشيرَ إليه آنفاً، أو من أَول الأمر من غير تأمُّلٍ وتدبُّرٍ كما قيل، وأيّاً ما كان فهو مما ينافي القول الذي في حيِّز الاستفهام، والمقولُ محذوفٌ ثقةً بدلالة ما قبلُ وما بعدُ عليه، وإيذاناً بأنَّه مما لا ينبغي أنْ يتفوَّه به ولو على نَهج الحكاية، أي: أتقولون له ما تقولون مِن أنَّه سحرٌ مبين؟ يعني به أنَّه مما لا يُمكن أنْ يقوله قائلٌ ويتكلَّمَ به متكلِّمٌ.

---

(١) المحتسب ١/٣١٦، والبحر ٥/١٨١ عن مجاهد وسعيد بن جبير والأعمش.

وجوّز أنْ يكون مقولُ القول قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ على أنَّ مقصودَهم بالاستفهام تقريرُه عليه السلام[1]، لا الاستفهامُ الحقيقيُّ؛ لأنَّهم قد بتُّوا القولَ بأنَّه سحرٌ فكيف يستفهمون عنه؟ والمحكيُّ في أحد الموضعَين مفهومُ قولهم ومعناه؟ وإلا فالقصةُ واحدةٌ، والصادرُ فيها بحسب الظاهر إحدَى المقالتَين. ولا يخفى ضعفُه.

وأنْ[2] يكونَ القول بمعنى العيبِ والطعن، من قولهم: فلانٌ يخاف القالَةَ، و: بينَ الناس تقاوُلٌ، إذا قال بعضُهم لبعضٍ ما يسوءه، ونظيرُه الذكر في قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] وحينئذٍ يُستغنَى عن المفعول، واللامُ لبيان المطعون فيه كما في قوله تعالى: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: أَتعيبونَه وتطعنُون فيه؟

وعلى هذا الوجه وكذا الوجه الأول يكونُ قوله سبحانه: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ إنكاراً مستأنفاً من جهة موسى عليه السلام لكونه سحراً، وتكذيبٌ لقولهم وتوبيخٌ لهم عليه إثْرَ توبيخٍ، وتجهيلٌ[3] إثْرَ تجهيلٍ. أمَّا على الوجه المتقدِّم فظاهرٌ، وأمَّا على الوجه الأخير فوجهُ إيثارِ إنكارِ كونه سحراً على إنكارِ كونه معيباً ـ بأنْ يقال: أَفِيْهِ عيبٌ؟ حسبما يقتضيه ظاهرُ الإنكار السابق ـ التصريحُ بالردِّ عليهم في خصوصية ما عابوه به، بعد التنبيه بالإنكار الأول على أنَّه ليس فيه شائبةُ عيبٍ ما.

وتقديمُ الخبر للإيذان بأنَّه مصبُّ الإنكار، وما في اسم الإشارة من معنى القُربِ لزيادةِ تعيين المشار إليه، واستحضارِ ما فيه من الصفات الدالَّة على كونه آيةً باهرةً من آيات الله تعالى المناديةِ على امتناع كونه سحراً، أي: أسحرٌ هذا الذي أمرُه واضحٌ مكشوفٌ، وشأنُه مشاهَدٌ معروفٌ، بحيث لا يرتابُ فيه أحدٌ ممن له عينٌ مُبْصِرةٌ.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ تأكيدٌ للإنكار السابق وما فيه من التوبيخ

---

(١) أي: حمله على الإقرار بأنه سحر. حاشية الشهاب ٥/ ٥١.
(٢) عطف على قوله: أن يكون مقول القول...
(٣) كذا وقع قوله: وتكذيبٌ... وتوبيخٌ... وتجهيلٌ، بالرفع، والصواب أن يكون بالنصب عطفاً على قوله: إنكاراً. وينظر تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٨.

والتجهيل، وقد استلزمَ القولُ بكونه سحراً القولَ بكون مَن أتى به ساحراً، والجملةُ في موضع الحال من ضمير المخاطَبين، والرابطُ الواوُ بلا ضمير، كما في قوله:

جاء الشتاءُ ولستُ أملكُ عدَّةً[1]

وقولِك: جاء زيدٌ ولم تَطْلُع الشمس، أي: أتقولون للحقِّ: إنَّه سحرٌ، والحالُ أنَّه لا يفلح فاعلُه، أي: لا يظفرُ بمطلوبٍ ولا ينجو من مكروهٍ، وأنا قد أفلحتُ وفُزتُ بالحُجَّة، ونجوتُ من الهلكة. وجملةُ «أسحرٌ هذا» معترضةٌ بين الحال وذِيها لتأكيد الإنكار السابقِ، ببيانِ استحالةِ كونه سحراً بالنظر إلى ذاته، قبلَ بيانِ استحالتِهِ بالنظر إلى صدورِه منه عليه السلام، ومَن جعلها مقولَ القول أَبقى الحاليةَ على حالها، ولا اعتراضَ عندهم[2]، وكان المعنى على ذلك: أَتحْمِلُوني على الإقرار بأنَّه سحرٌ، وما أنا عليه من الفلاح دليلٌ على أنَّ بينَه وبين السحر أبعد مما بين المشرقِ والمغربِ.

وقيل: يجوز أنْ تكونَ هذه الجملة كالتي قبلها في حيِّز قولهم، وهي حاليةٌ أيضاً لكنْ على نمطٍ آخر، والاستفهامُ مصروفٌ إليها، والمعنى: أجئتَنا بسحرٍ تطلبُ به الفلاح والحالُ أنَّه لا يفلحُ الساحرُ، أو هم يتعجَّبون مِن فلاحه وهو ساحرٌ.

ولا يخفَى أنَّ السياقَ والسباق يأبيانِ هذا التجويز، فلا ينبغي حَمْلُ النظم الجليل على ذلك.

وفي «إرشاد العقل السليم»[3]: أنَّ تجويز أنْ يكونَ الكلُّ مقولَ القول مما لا يُساعدُه النظم الكريم أصلاً: أمَّا أولاً: فلأنَّ ما قالوا هو الحكمُ بأنَّه سحرٌ، من غير أنْ يكونَ فيه دلالةٌ على ما تعسّفَ فيه من المعنى بوجهٍ من الوجوه، فصَرْفُ جوابِهِ عليه السلام عن صريحِ ما خاطبوه به إلى ما لا يُفهم منه مما يجبُ تنزيهُ التنزيل عن أمثاله. وكونُ ذلك إعراضاً عن ردِّ الإنكار السابق إلى ردِّ ما هو أبلغُ منه

---

(١) وعجزه: والاعتماد عليك فانظر ما ترى، والبيت لأبي النصر طاهر بن الحسين، كما في يتيمة الدهر ٤/٥٠٩ والكلام من تفسير أبي السعود ٤/١٦٨.

(٢) في (م): عنده.

(٣) ٤/١٦٨-١٦٩.

في الإنكار لا أراه يحسنُ الالتفات هنا إلى قبول ذلك التجويزِ في كلام الله تعالى العزيز.

وأما ثانياً: فلأنَّ التعرُّض لعدم إفلاحِ السحرةِ على الإطلاق من وظائف مَن يتمسَّكُ بالحقِّ المبين، دون الكفرة المتشبِّثين بأذيال بعضٍ منهم في معارضته عليه السلام، ولو كان ذلك من كلامهم لناسَبَ تخصيصَ عدم الإفلاحِ بمَن زعموه ساحراً، بناءً على غلبةِ مَن يأتون به من السحرة. والاعتذارُ بأنَّ التشبُّث بأذيال بعضِ السحرة لا يُنافي التعرُّضَ لعدم إفلاحهم على الإطلاق؛ لجواز أنْ يكونَ اعتقادُهم عدمَ الإفلاح مطلقاً، وتشبُّثُهم بعدُ بما تشبَّثوا به من باب تلقِّي الباطل بالباطل، لا أراه إلا من باب تشبُّث الغريق بالحشيش.

وأمَّا ثالثاً: فلأنَّ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا﴾ إلخ مسوقٌ لبيان أنَّه عليه السلام ألقمَهم الحجَرَ، فانقطعوا عن الإتيان بكلامٍ له تعلُّقٌ بكلامه عليه السلام، فضلاً عن الجواب الصحيح، واضطُرُّوا إلى التشبُّث بذيل التقليدِ، الذي هو دأبُ كلِّ عاجزٍ محجوجٍ، ودَيدَنُ كلِّ معالجٍ لجوجٍ، على أنَّه استئنافٌ وقَعَ جواباً عما قبله من كلامه ﷺ على طريقة «قال موسى»، كما أشيرَ إليه، كأنَّه قيل: فماذا قالوا لموسى عليه السلام حينَ قال لهم ما قال؟ فقيل: قالوا عاجزين عن المحاجَّة: أجِئْتَنا ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتصرفَنا ـ وبين اللَّفت والفَتْل مناسبةٌ معنويةٌ واشتقاقيةٌ، وقد نصَّ غيرُ واحدٍ على أنَّهما أخَوَان، وليس أحدُهما مقلوباً من الآخر، كما قال الأزهريُّ[1] ـ ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: من عبادة غيرِ الله تعالى، ولا ريبَ في أنَّ ذلك إنَّما يتسَنَّى بكون ما ذكر من تتمة كلامِهِ عليه السلام على الوجهِ الذي شُرِحَ، إذ على تقديرِ كونه محكياً مِن قِبَلِهم، يكونُ جوابه عليه السلام خالياً عن التبكيت الملجئ لهم إلى العدول عن سَنَن المحاجَّة، ولا ريبَ في أنَّه لا علاقةَ بين قولهم: «أجئتنا» إلخ وبين إنكاره عليه السلام لِمَا حُكي عنهم مُصحِّحةً[2] لكونه جواباً عنه. وهذا ظاهرٌ إلَّا على مَنْ حُجِبَ عن إدراك البديهيات.

---

(١) في تهذيب اللغة ٤/ ٢٦٨، ولم يذكره أبو السعود، ونقله المصنف بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٥١.

(٢) قوله: مصححة، صفة لقوله: علاقة.

وبالجملة: الحقُّ أنّه[1] لا وجْهَ لذلك التجويز بوجهٍ، والانتصارُ له من الفضول كما لا يخفَى.

﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي: الملكُ كما رُوي عن مجاهد، فهو مِن إطلاق الملزومِ وإرادةِ اللازم. وعن الزجَّاج: أنّه إنّما سُمِّي الملكُ كبرياءً لأنّه أكبرُ ما يُطلَبُ من أمر الدنيا[2].

وقيل: أي: العظمةُ والتكبُّر على الناس باستتباعهم.

وقرأ حمادٌ ويحيى[3] عن أبي بكر وزيد عن يعقوب: «يكون» بالياء التحتانية[4]؛ لأنَّ التأنيثَ غيرُ حقيقيٍّ مع وجود الفاصل.

﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أرضِ مصرَ، وقيل: أُريدَ الجنسُ، والجارُّ متعلِّقٌ بـ «تكون»، أو بالكبرياء، أو بالاستقرار في «لكما» لوقوعه خبراً، أو بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من «الكبرياء» أو من الضمير في «لكما» لتحمُّله إياه.

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ۝٧٨﴾ أي: بمصدِّقين فيما جئتما به أصلاً، وفيه تأكيدٌ لِمَا يُفهم من الإنكار السابق، والمرادُ بضمير المخاطَبين موسى وهارونُ عليهما السلام، وإنَّما لم يُفرِدُوا موسى عليه السلام بالخطاب هنا كما أفردوه به

---

(١) في (م): أن.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٢٩.

(٣) في الأصل و(م): حماد بن يحيى، وهو خطأ، وحماد هو ابن أبي زياد شعيب، أبو شعيب التميمي الحماني الكوفي، أخذ القراءة عرضاً عن عاصم، ولما مات عاصم قرأ على أبي بكر بن عياش، روى عنه القراءة عرضاً يحيى بن محمد العليمي وغيره، توفي سنة (١٩٠هـ)، أما يحيى فهو يحيى بن محمد، أبو محمد العليمي الأنصاري الكوفي، شيخ القراءة بالكوفة، أخذ القراءة عرضاً عن أبي بكر بن عياش وحماد بن أبي زياد عن عاصم، توفي سنة (٢٤٣هـ) قال الحافظ أبو عمرو في جامعه: رواية العليمي عن حماد عن عاصم، وعن أبي بكر عن عاصم سواء، واللفظ لهما واحد. طبقات القراء ١/ ٢٥٨ و٢/ ٣٧٨. والكلام من مجمع البيان ١١/ ٧٨، وقد جاء فيه: حماد ويحيى، على الصواب.

(٤) مجمع البيان ١١/ ٧٨، وذكرها أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ١٩٧ عن عاصم في رواية حماد وفي رواية العليمي عن أبي بكر.

فيما تقدَّم لأنَّه المُشافِهُ بالتوبيخ والإنكار، تعظيماً لأمر ما هو أحدُ سببي الإعراض معنىً، ومبالغةً في إغاظةِ موسى عليه السلام وإقناطه عن الإيمان بما جاء به.

وفي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ تثنيةَ الضمير في هذَين الموضعَين بعد إفراده فيما تقدَّم من المقامَين باعتبار شُمُول الكبرياء لهما عليهما السلام، واستلزامِ التصديق لأحدهما التصديقَ للآخر، وأمَّا اللَّفتُ والمجيءُ له، فحيث كانا من خصائص صاحبِ الشريعة أُسند إلى موسى عليه السلام خاصَّةً[1]. انتهى، فتدبَّر.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ أسنِدَ الفعلُ إليه وحدَه؛ لأنَّ الأمر من وظائفه دون الملأ، وهذا بخلافِ الأفعال السابقة من الاستكبار ونحوه، فإنَّها مما تُسنَد إليه وإلى ملَئِهِ، لكنَّ الظاهر أنَّه غيرُ داخلٍ في القائلين: «أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا» لأنَّه عليه اللعنة لم يكن يُظهر عبادةَ أحدٍ كما كان يفعلُه مَلَؤه وسائرُ قومه، أي: قال لملَئِهِ يأمرهم بترتيب مبادي الإلزام بالفعل بعد اليأسِ عن الإلزام بالقول: ﴿ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩﴾ بفنونِ السحر حاذقٍ ماهرٍ فيه.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «سحَّار»[2].

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ يستدعيه المقامُ، قد حُذِف إيذاناً بسرعة امتثالهم للأمر، كما هو شأن الفاء الفصيحة، وقد نُصَّ على نظير ذلك في قوله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠] أي: فأتَوا به فلمَّا جاؤوا ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٨٠﴾ أي: ما ثبتُّم واستقرَّ رأيُكم على إلقائه كائناً ما كان من أصناف[3] السحر.

وأصل الإلقاء: طرحُ الشيء حيث تلقاه، أي: تراه، ثم صار في العُرْف اسماً لكل طَرْحٍ، وكان هذا القولُ منه عليه السلام بعدَ ما قالوا له ما حُكيَ عنهم في السور الأُخَر من قولهم: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥] ونحوِ ذلك، ولم يكن في ابتداء مجيئهم.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ١٦٩.

(٢) التيسير ص١١٢، والنشر ٢/ ٢٧٠، وهي قراءة خلف من العشرة.

(٣) في (م): أصنف، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٦٩، والكلام منه.

و«ما» موصولةٌ والجملةُ بعدها صلةٌ والعائدُ محذوفٌ، أي: ملقون إيَّاه، ولا يخفَى ما في الإبهام من التحقير والإشعارِ بعدم المبالاة، والمرادُ أمرُهم بتقديم ما صمَّمُوا على فعله ليَظْهَرَ إبطالُه، وليس المرادُ الأمرَ بالسحر والرضا به.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ ما أَلْقَوا من العصيِّ والحبال، واستَرْهَبوا الناس وجاؤوا بسحرٍ عظيم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰ﴾ غيرَ مكترثٍ بهم وبما صنعوا ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ «ما» موصولةٌ وقعَت مبتدأ، و«السحرُ» خبره[1]، و«أل» فيه للجنس، والتعريفُ لإفادة القصر إفراداً، أي: الذي جئتم به هو السحر لا الذي سمَّاه فرعون وملؤه من آيات الله تعالى سحراً، وهو للجنس، ونُقل عن الفراء أنَّ «أل» للعهد لتقدُّم «السحر» في قوله تعالى: (إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ)[2].

ورُدَّ بأنَّ شَرْطَ كونها للعهد اتِّحادُ المتقدِّم والمتأخِّر ذاتاً، كما في ﴿أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا * فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: ١٥-١٦] ولا اتِّحادَ فيما نحن فيه، فإنَّ السحرَ المتقدِّم ما جاء به موسى عليه السلام، وهذا ما جاء به السحرةُ.

ومِن الناس مَن مَنَع اشتراطَ الاتِّحاد الذاتيِّ مدَّعياً أنَّ الاتِّحاد في الجنس كافٍ، فقد قالوا في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ﴾ [مريم: ٣٣]: إنَّ «أل» للعهد، مع أنَّ السلام الواقعَ على عيسى عليه السلام غيرُ السلام الواقع على يحيى عليه السلام ذاتاً.

والظاهرُ اشتراطُ ذلك وعدمُ كفاية الاتِّحاد في الجنس، وإلا لصحَّ في: رأيتُ رجلاً وأكرمتُ الرجلَ - إذا كان الأوَّلُ زيداً والثاني عمراً مثلاً - أنْ يقال: إنَّ «أل» للعهد؛ لأنَّ الاتِّحاد في الجنس ظاهرٌ، ولم نجد مَن يقوله، بل لا أظنُّ أحداً تُحدِّثُه نفسُه بذلك، وما في الآية من هذا القبيل، بل المغايرةُ بين المتقدِّم والمتأخِّر أظهرُ، إذ الأولُ سحرٌ ادِّعائيٌّ والثاني حقيقيٌّ، و«السلام» فيما نقلوا متَّحدٌ، وتعدُّدُ مَن وقَعَ عليه لا يجعلُه مُتعدِّداً في العرف، والتدقيقُ الفلسفيُّ لا يُلتفتُ إليه في مثل ذلك.

---

(١) في (م): خبر.
(٢) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٥، وذكره عنه أبو حيان في البحر ٥/ ١٨٣، والسمين في الدر ٦/ ٢٥٢، والشهاب في الحاشية ٥/ ٥٢، والكلام منه.

وقد ذكر بعضُ المحقِّقين[١] أنَّ القول بكون التعريفِ للعهد مع دعوى استفادةِ القصر منه مما يتنافيان؛ لأنَّ القصْرَ إنَّما يكون إذا كان التعريفُ للجنس، نعم إذا لم يُرَد بالنكرة المذكورة أولاً معيَّنٌ ثم عُرِّفَتْ لا ينافي التعريفُ الجنسيةَ؛ لأنَّ النكرة تُساوي تعريفَ الجنس، فحينئذٍ لا ينافي تعريفُ العهد القصرَ وإنْ كان كلامهم يُخالفُه ظاهراً، فليحرَّر. انتهى.

وأقول: دعوى الفرَّاء العهدَ هنا مما لا ينبغي أنْ يُلتفَت إليه، ولعله أراد الجنس وإنْ عبَّر بالعهد، بناءً على ما ذكره الجلالُ السيوطي في «همع الهوامع» نقلاً عن ابن عصفور أنَّه قال: لا يَبعُدُ عندي أنْ يُسمَّى الألفُ واللامُ اللتان لتعريف الجنس عهديَّتَين؛ لأنَّ الأجناس عند العقلاء معلومةٌ مُذ فهموها، والعهد تقدُّمُ المعرفة. وادَّعى أبو الحجاج يوسف بن معزوز أنَّ «أل» لا تكون إلَّا عهديةً، وتأوَّله بنحو ما ذُكر[٢]، إلا أنَّ ظاهرَ التعليل لا يساعدُ ذلك.

وقرأ عبد الله: «سحرٌ» بالتنكير[٣]، وأُبيّ: «ما أَتيتُم به سحرٌ»[٤]، والكلامُ على ذلك مفيدٌ للقصر أيضاً لكن بواسطة التعريض؛ لوقوعه في مقابلةِ قولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وجوِّز في «ما» في جميع هذه[٥] القراءات أنْ تكونَ استفهاميةً، و«السحرُ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ.

وقرأ أبو عمرو وأبو جعفر: «آلسحرُ» بقطع الألف ومدِّها على الاستفهام[٦]، فـ «ما» استفهاميةٌ مرفوعةٌ على الابتداء، و«جئتُم به» خبرُها، و«السحرُ» خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ، أي: شيءٌ جسيمٌ جئتم به أهو السحرُ، أو:

---

(١) هو الشهاب في الحاشية ٥/ ٥٢.

(٢) همع الهوامع ١/ ٣١٠، ويوسف بن معزور هو القيسي النحوي، أخذ العربية عن أبي إسحاق بن ملكون وأبي زيد السهيلي وغيرهما، وله: شرح الإيضاح للفارسي، والرد على الزمخشري في مفصَّله، وغير ذلك، توفي بمُرْسِية في حدود سنة (٦٢٥ هـ). بغية الوعاة ٢/ ٣٦٢.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر ٥/ ١٨٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٥، وللنحاس ٢/ ٢٦٤، والبحر ٥/ ١٨٣.

(٥) في (م): هذا.

(٦) التيسير ص١٢٣، والنشر ١/ ٣٧٨.

آلسحر هو. وقد يُجعل «السحر» بدلاً من «ما» كما تقول: ما عندك أدينارٌ أم درهمٌ؟

وقد تُجعل «ما» نصباً بفعلٍ محذوفٍ يقدَّر بعدَها، أي: أيَّ شيءٍ أتيتُم[1]، و«جئتُم به» مفسِّرٌ له، وفي «السحر» الوجهان الأوَّلان.

وجوِّز أنْ تكونَ موصولةً مبتدأ، والجملةُ الاسميةُ ـ أي: أهو السحرُ، أو آلسِّحْرُ هو ـ خبرُه. وفيه الإخبارُ بالجملة الإنشائية، ولا يجوزُ أنْ تكون على هذا التقديرِ منصوبةً بفعلٍ محذوفٍ يفسِّرُه المذكور؛ لأنَّ ما لا يعمل لا يُفسِّر عاملاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي: سيَمْحَقُه بالكلِّية بما يُظهرُه على يديَّ من المعجزة، فلا يبقَى له أثرٌ أصلاً، أو سيُظْهِرُ بطلانَه وفساده للناس، والسين للتأكيد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: جنسِهم على الإطلاق، فيدخلُ فيه السحرةُ دخولاً أوليّاً، ويجوز أنْ يُرادَ بالمفسدين المخاطَبون، فيكون مِن وَضْعِ الظاهر مَوضِعَ الضمير؛ للتسجيل عليهم بالإفساد، والإشعارِ بعلَّة الحكم.

والجملةُ تذييلٌ لتعليل ما قبلها وتأكيدِه. والمرادُ بعدم إصلاحِ ذلك عدمُ إثباته أو عدمُ تقويته بالتأييد الإلهي، لا عدمُ جَعْلِ الفاسد صالحاً؛ لظهور أنَّ ذلك مما لا يكون، أي أنَّه سبحانه لا يُثبتُ عملَ المفسدين ولا يُديمه بل يُزيلُه ويَمحَقُه، أو: لا يُقوِّيه ولا يؤيِّدُه بل يُظهر بطلانَه ويجعلُه معلوماً.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ السِّحرَ إفسادٌ وتمويهٌ لا حقيقةَ له، وأنت تعلمُ أنَّ في إطلاق القول بأنَّ السحرَ لا حقيقةَ له بحثاً، والحقُّ أنَّ منه ما له حقيقةٌ، ومنه ما هو تخيُّلٌ باطلٌ ويسمَّى شَعْبَذَةً وشَعوذَة.

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ أي: يُثبتُه ويُقوِّيه، وهو عطفٌ على قوله سبحانه: (سَيُبْطِلُهُۥٓ) وإظهارُ الاسم الجليل في المقامَين لإلقاء الرَّوعَة وتربيةِ المهابة.

﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي: بأوامره وقضاياه، وعن الحسن: أي: بوَعْدِه النصرَ لمن جاء به، وهو سبحانه لا يُخلف ذلك. وعن الجبائي: أي: بما يُنزلُه مبيِّناً لمعاني الآيات التي أتى بها نبيُّه عليه السلام.

---

(١) بعدها في (م): به.

وقرئ: «بكَلِمَته»[1]، وفسِّرَت بالأمر واحدِ الأوامر حسبما فُسِّرت الكلماتُ بالأوامر، وأُريد منها الجنس، فيتطابق[2] القراءتان.

وقيل: يحتمل أنْ يُرادَ بها قولُ: «كن»، وأنْ يُراد بها الأمر واحدُ الأمور، ويُرادَ بالكلمات الأمور والشؤون.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ ذلك، والمرادُ بهم كلُّ مَن اتَّصف بالإجرام من السحرة وغيرهم.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ عطفٌ على مقدَّرٍ فُصِّل في موضعٍ آخر، أي: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الشعراء:٤٥] إلخ، وإنَّما لم يُذْكَر تعويلاً على ذلك، وإيثاراً للإيجاز، وإيذاناً بأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ مما لا يَحتمل الخلفَ أصلاً. ولعل عطْفَه على ذلك بالفاء باعتبارِ الإيجاب الحادث الذي هو أحدُ مفهومي الحصر، فإنَّهم قالوا: معنى ما قام إلا زيدٌ: قام زيدٌ ولم يقم غيرُه.

وبعضُهم[3] لم يعتبر ذلك وقال: إنَّ عطْفَه بالفاء على ذلك مع كونه عدماً مستمرًّا من قَبيل ما في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ [هود:٩٧] وما في قولك: وعظتُه فلم يتَّعظ، و: صحْتُ به فلم يَنْزَجر، والسرُّ في ذلك أنَّ الإتيان بالشيءِ بعد وُرُودِ ما يُوجبُ الإقلاعَ عنه وإنْ كان استمراراً عليه، لكنَّه بحسَب العنوان فِعلٌ جديدٌ وصنعٌ حادثٌ، أي: فما آمن له عليه السلام في مبدأ أمرِه ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أي: إلَّا أولادُ بعضِ بني إسرائيل، حيث دعا عليه السلام الآباءَ فلم يُجيبوه خوفاً من فرعون، وأجابته طائفةٌ من شبَّانهم، فالمرادُ من الذرية الشبانُ لا الأطفالُ.

و«من» للتبعيض، وجوَّز أنْ تكونَ للابتداء، والتبعيضُ مستفادٌ من التنوين، والضميرُ لموسى عليه السلام كما هو إحدى الروايتَين عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وأخرج ابنُ جرير عنه أنَّ الضميرَ لفرعون[4]، وبه قال جمعٌ، فالمؤمنون من

---

(١) القراءات الشاذة ص ٥٨، والبحر ٥/ ١٨٣.

(٢) في الأصل: ليتطابق.

(٣) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٧٠.

(٤) تفسير الطبري ١٢/ ٢٤٦.

غير بني إسرائيل، ومنهم: زوجتُه آسية، وماشطتُه، ومؤمنُ آلِ فرعونَ، والخازنُ وامرأتُه، وفي إطلاق الذريَّة على هؤلاء نوعُ خفاءٍ.

ورجَّح بعضُهم إرجاعَ الضمير لموسى عليه السلام بأنَّه المحدَّثُ عنه، وبأنَّ المناسب على القول الآخرِ الإضمارُ فيما بعد.

ورجَّح ابنُ عطية إرجاعَ الضمير لفرعون بأنَّ المعروف في القصص أنَّ بني إسرائيل كانوا في قهر فرعونَ، وكانوا قد بُشِّروا بأنَّ خَلاصَهم على يدِ مولودٍ يكونُ نبيّاً صفتُه كذا وكذا، فلمَّا ظهرَ موسى عليه السلام اتَّبعوه، ولم يُعرَف أنَّ أحداً منهم خالفَه، فالظاهرُ القولُ الثاني(١).

وما ذكر من أنَّ المحدَّث عنه موسى عليه السلام لا يخلو عن شيءٍ، فإنَّ لقائلٍ أنْ يقابِلَ ذلك بأنَّ الكلام في قوم فرعون؛ لأنَّهم القائلون: إنَّه ساحرٌ، ولأنَّ وَعْظَ أهلِ مكةَ وتخويفَهم المسوقَ له الآياتُ قاضٍ بأنَّ المقصودَ هنا شرحُ أحوالهم. وأنت تعلم أنَّ للبحث في هذا مجالاً، والمعروفُ بعد تسليم كونه معروفاً لا يضرُّ القولَ الأول؛ لأنَّ المراد حينئذٍ: فما أَظْهَرَ إيمانَه وأَعلَنَ به إلا ذُرِّيَّةٌ مِن بني إسرائيل دون غيرهم، فإنَّهم أَخفَوه ولم يظهروه.

﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ حالٌ من «ذرية»، و«على» بمعنى «مع»، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة:١٧٧] والتنوينُ للتعظيم، أي: كائنين مع خوفٍ عظيم.

﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ الضمير لـ «فرعون»، والجمعُ عند غيرِ واحدٍ على ما هو المعتادُ في ضمائر العظماء. ورُدَّ بأنَّ الوارد في كلام العرب الجمعُ في ضمير المتكلِّم كـ «نحن»، وضميرِ المخاطَب كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩] وقوله:

ألا فـارْحَـمـونـي يـا إلَـهَ مـحـمـدٍ(٢)

ولم يُنقَل في ضمير الغائب، كما نُقل عن الرضي.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٢، والبحر ٦/ ٤٢١، وعزاه الشنقيطي في أصول البيان ٥/ ٨٢١ لحسان، وعجزه: فإن لم أكن أهلاً فأنتم له أهل.

وأُجيبَ بأنَّ الثعالبيَّ والفارسيَّ نَقَلاه في الغائب أيضاً، والمثبِتُ مقدَّمٌ على النافي.

وبأنَّه لا يناسب تعظيمَ فرعون، فإنْ كان على زَعْمِه وزعمِ قومه فإنما يَحسُنُ في كلامٍ ذُكر أنَّه محكيٌّ عنهم، وليس فليس.

ويُجابُ بأنَّ المراد من التعظيم تنزيلُهُ منزلةَ المتعدِّد. وكونُه لا يُناسب في حيِّز المنع، لِمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ مناسباً لِمَا فيه من الإشارة إلى مزيدِ عِظَمِ الخوفِ المتضمِّن زيادةَ مدحِ المؤمنين؟

وقيل: إنَّ ذلك واردٌ على عادتهم في محاوراتهم في مجرَّد جمعِ ضمير العظماء وإنْ لم يُقصَد التعظيم أصلاً. فتأمَّله.

وجوِّز أنْ يكونَ الجمعُ لأنَّ المراد من «فرعون» آلُه، كما يقال: ربيعةُ ومضرُ. واعتُرض عليه بأنَّ هذا إنما عُرِفَ في القبيلة وأبيها، إذ يُطلَق اسمُ الأب عليهم، وفرعونُ ليس من هذا القبيل، على أنَّه قد قيل: إنَّ إطلاق أبي نحو القبيلة عليها لا يجوزُ ما لم يُسمَع ويتحقَّق جَعْلُه عَلَماً لها، ألا تراهم لا يقولون: فلانٌ من هاشمٍ، ولا من عبد المطَّلب، بل: من بني هاشمٍ وبني عبدِ المطَّلب، فكيف يُراد من فرعون آلُه ولم يتحقَّق فيه جَعْلُه عَلَماً لهم، ودعوى التحقُّقِ هنا أولُ المسألة، فالقولُ بأنَّ الجمعَ لأنَّ المراد به آلُه كربيعة ليس بشيءٍ، إلا أنْ يُراد أنَّ فرعونَ ونحوَه من الملوك إذا ذُكر خطَرَ بالبال[1] أتباعُه معه، فعاد الضميرُ على ما في الذهن، وتمثيلُه بما ذُكر لأنَّه نظيرُه في الجملة.

ثمَّ إنَّه لا يخفَى أنَّه إذا أُريدَ من فرعون آلُه ينبغي أنْ يُراد من «آل فرعون» فرعونُ وآلُه على التغليب.

وقيل: إنَّ الكلامَ على حذف مضافٍ، أي: آلِ فرعون، فالضميرُ راجعٌ إلى ذلك المحذوفِ، وفيه أنَّ الحذفَ يَعتَمِدُ القرينةَ، ولا قرينةَ هنا، وضميرُ الجمعِ يحتمل رجوعه لغير ذلك المحذوفِ كما ستعلمه قريباً إنْ شاء الله تعالى، فلا يصلحُ

(١) بعدها في (م): خطر، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٥/ ٥٣، والكلام منه.

لأنْ يكونَ قرينةً، وأمَّا أنَّ المحذوفَ لا يعودُ إليه ضميرٌ - كما قال أبو البقاء[(١)] - فليس بذاك؛ لأنَّه إنْ أُريدَ أنَّه لا يعودُ إليه مطلقاً فغيرُ صحيحٍ، وإنْ أُريدَ: إذا حذف لقرينةٍ، فممنوعٌ؛ لأنَّه حينئذٍ في قوةِ المذكور، وقد كَثُر عودُ الضمير إليه كذلك في كلام العرب.

وقريبٌ من هذا القيل زَعْمُ أنَّ هناك معطوفاً محذوفاً إليه يعودُ الضميرُ، أي: على خوفٍ من فرعونَ وقومه وملئهم. ويَرِدُ عليه أيضاً ما قيل: إنَّ هذا الحذفَ ضعيفٌ غيرُ مطَّردٍ.

وقيل: الضميرُ للذرِّيَّة أو للقوم، أي: على خوفٍ من فرعون ومن أشرافِ بني إسرائيلَ، حيث كانوا يمنعونهم خوفاً من فرعون عليهم أو على أنفسهم، أو من أشراف القِبْطِ ورؤسائهم، حيث كانوا يَمنعونَهم انتصاراً لفرعون.

ولعل المُنْسَاقَ إلى الذهن رجوعُه إلى الذرِّية، والجمعُ باعتبار المعنى[(٢)]، ويؤُول المعنى إلى أنهم آمنوا على خوفٍ من فرعون ومن أشرافِ قومهم.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يبتليَهم ويُعذِّبَهم، وأصلُ الفَتْن كما قال الراغب[(٣)]: إدخالُ الذهب النارَ لِتَظْهَرَ جودَتُه من رداءتِه، واستُعمل في إدخال الإنسان النارَ كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣]. ويُسمَّى ما يحصُل منه العذابُ فتنةً، ويُستَعمل في الاختبار، وبمعنى البلاءِ والشدَّةِ وهو المراد هنا.

و«أَنْ» وما بعدها في تأويل مصدرٍ وَقَع بدلاً من فرعون بدلَ اشتمالٍ، أي: على خوفٍ من فرعون فِتْنَتِهِ، ويجوز أنْ يكونَ مفعولَ «خوفٍ» لأنَّه مصدرٌ منكَّرٌ كَثُر إعمالُه.

وقيل: إنَّه مفعولٌ له، والأصلُ: لأَنْ يَفتِنَهم، فحُذِفَ الجارُّ، وهو مما يطَّرد فيه الحذفُ، ولا يضرُّ في مثل هذا عدمُ اتِّحاد فاعل المصدر والمعلَّل به، على أنَّ مذهب بعضِ الأئمة عدمُ اشتراط ذلك في جواز النصب، وإليه مال الرضي، وأَيَّده

(١) في الإملاء ٣/ ٢٤٧.
(٢) أي: لأن الذرية قوم، فهو مذكر في المعنى. الإملاء ٣/ ٢٤٧.
(٣) في مفرداته (فتن).

بما ذكرناه في حواشينا على «شرح القطر» للمصنف[١]. وإسنادُ الفعل إلى فرعون خاصَّةً لأنَّه مدارُ أمر التعذيب، وفي الكلام استخدامٌ[٢] في رأيٍ، حيثُ أُريدَ من فرعون أولاً آله، وثانياً هو وحده، وأنت تعلم ما فيه.

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لغالبٌ قاهرٌ في أرض مصرَ. واستعمالُ العلوِّ بالغلبة والقهر مجازٌ معروفٌ ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٨٣﴾ أي: المتجاوزي الحدِّ في الظلم والفساد بالقتل وسفك الدماء، أو في الكِبْرِ والعُتوِّ حتى ادَّعى الربوبية، واستَرَقَّ أسباطَ الأنبياء عليهم السلام. والجملتان اعتراضٌ تذييليٌّ مؤكِّدٌ لمضمون ما سبَقَ، وفيهما من التأكيد ما لا يخفى.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ لمَّا رأى تخوُّفَ المؤمنين ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: صدَّقتُم به وبآياته ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ أي: اعتمِدُوا لا على أحدٍ سواه، فإنَّه سبحانه كافيكم كلَّ شرٍّ وضرٍّ.

﴿إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۝٨٤﴾ أي: مستسلمين لقضاء الله تعالى مُخْلِصينَ له، وليس هذا مِن تعليق الحُكم بشرطَين، بل من تعليق شيئَين بشرطَين؛ لأنَّه علَّق وجوبَ التوكُّلِ المفهومِ من الأمر وتقديمِ المتعلِّق بالإيمان، فإنَّه المقتَضي له، وعلَّق نفْسَ التوكُّلِ ووجودِه بالإسلام والإخلاص؛ لأنَّه لا يتحقَّقُ مع التخليط، ونظيرُ ذلك: إنْ دعاك زيدٌ فأجبه إنْ قَدَرْتَ عليه، فإنَّ وجوب الإجابة معلَّقٌ بالدعوة، ونفسُ الإجابة[٣] معلَّقةٌ بالقُدرة، وحاصلُه: إنْ كنتُم آمنتم بالله فيجبُ عليكم التوكُّل عليه سبحانه، فافعلوه واتَّصِفوا به إنْ كنتُم مستسلمين له تعالى.

وهذا النوع على ما في: «الكشف» يُفيدُ مبالغةً في تَرَتُّب الجزاءِ على الشرط، على نحو: إنْ دخلتِ الدارَ فأنت طالقٌ إنْ كنْتِ زوجتي.

وجعَلَه بعضُهم من باب التعليق بشرطَين، المقتضي لتقدُّم الشرط الثاني على الأول في الوجود حتى لو قال: إنْ كلَّمْتِ زيداً فأنتِ طالقٌ إنْ داخلت الدار، لم

---

(١) يعني ابن هشام، وله قطر الندى وشرحه. ينظر كشف الظنون ٢/ ١٣٥٣.

(٢) هو أن يؤتى بلفظ له معنيان فأكثر مراداً أحدُ معانيه، ثم يؤتى بضميره مراداً به المعنى الآخر. وقيل في تعريفه غير ذلك. ينظر الإتقان ٢/ ٩٠١.

(٣) في الأصل و(م): الدعوة، وهو خطأ، والمثبت من حاشية الشهاب ٥/ ٥٤، والكلام منه.

تَطلُق ما لم تَدخُل قبل الكلام؛ لأنَّ الشرطَ الثاني شرطٌ للأوَّل، فيلزَمُ تقدُّمُه عليه. وقَرَّره بأنَّ ها هنا ثلاثةَ أشياء: الإيمانُ والتوكُّلُ والإسلامُ، والمرادُ بالإيمان التصديقُ، وبالتوكُّل إسنادُ الأمورِ إليه عزَّ وجل، وبالإسلام تسليمُ النفس إليه سبحانه وقطعُ الأسباب، فعلَّقَ التوكُّل بالتصديق بعدَ تعليقِهِ بالإسلام؛ لأنَّ الجزاء معلَّقٌ بالشرط الأوَّل وتفسيرٌ للجزاء الثاني، كأنه قيل: إنْ كنتُم مصدِّقين بالله تعالى وآياته فخُصُّوه سبحانه بإسناد جميعِ الأمورِ إليه، وذلك لا يتحصَّل إلا بعد أنْ تكونوا مخلصين لله تبارك وتعالى، مستسلمين بأنفسكم له سبحانه، ليس للشيطان فيكم نصيبٌ، وإلا فاتركوا أمرَ التوكل.

ويُعلم منه أنْ ليس لكلِّ أحدٍ من المؤمنين الخوضُ في التوكُّل، بل للآحاد منهم، وأنَّ مقام التوكُّل دون مقامِ التسليم، والأكثرُ على الأول ولعله أدقُّ نظراً.

﴿فَقَالُوا۟﴾ مجيبين له عليه السلام من غير تلعثُمٍ وبلعِ ريقٍ في ذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره سبحانه، ويُؤخذ من هذا القصرِ والتعبيرِ بالماضي دون: نتوكَّلُ، أنَّهم كانوا مخلصين، قيل: ولذا أُجيبَ دعاؤهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: موضعَ فتنةٍ وعذابٍ لهم، بأنْ تسلِّطَهم علينا فيُعذِّبونا أو يفتنونا عن ديننا، أو يُفْتَنوا بنا ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحقِّ لَمَا أُصيبوا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ دعاءٌ بالإنجاء من سوء جوارهم[1] وسوء صنيعهم بعد الإنجاء من ظلمهم، ولذا عبَّر عنهم بالكفر بعد ما وُصِفُوا بالظلم، ففيه وضعُ المظهَرِ موضعَ المضمر، وجوِّز أنْ يُراد من «القوم الظالمين»: الملأ الذين تخوَّفوا منهم، ومن «القوم الكافرين» ما يعمُّهم وغيرَهم.

وفي تقديم التوكُّل على الدعاء ـ وإنْ كان بياناً لامتثال أمر موسى عليه السلام لهم به ـ تلويحٌ بأنَّ الداعي حقُّه أن يبنيَ دعاءَه على التوكُّل على الله تعالى، فإنَّه أَرجَى للإجابة.

ولا يُتوهَّمَنَّ أنَّ التوكُّل منافٍ للدعاء؛ لأنَّه أحدُ الأسباب للمقصود والتوكلُ قطعُ الأسباب؛ لأنَّ المرادَ بذلك قطعُ النظر عن الأسباب العادية، وقصرُه على

(١) في الأصل: جورهم، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٧١، والكلام منه.

مسبِّبها عزَّ وجل، واعتقادُ أنَّ الأمر مربوطٌ بمشيئته سبحانه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكُن. وقد صرَّحوا أنَّ الشخصَ إذا تعاطَى الأسباب معتقداً ذلك يُعَدُّ متوكِّلاً أيضاً.

ومثلُ التوكُّل في عدم المنافاة للدعاء ـ على ما تُشعر به الآية ـ الاستسلامُ. نعم في قول بعضهم: إنَّ الاستسلام من صفات إبراهيم عليه السلام، وكان من آثاره تَركُ الدعاءِ حين أُلقيَ في النار، واكتفاؤه عليه السلام بالعلم المشار إليه بقوله: «حسبي من سؤالي علمُه بحالي»[1]، ما يُشعرُ بالمنافاة، ومَن عَرَف المقامات وأمعَنَ النظر هان عليه أمرُ الجمع.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا﴾ «أنْ» مُفسِّرة؛ لأنَّ في الوحي معنى القول، ويحتمل أنْ تكونَ مصدريَّةً. والتبوُّؤ اتِّخاذُ المباءة، أي: المنزل، كالتَّوَطُّن: اتِّخاذُ الوطن. والجمهورُ على تحقيق الهمزة، ومنهم مَن قرأ: «تَبَوَّيَا لقومكما بمصر بيوتاً» فجعلها ياءً[2]، وهي مبدلةٌ من الهمزةِ تخفيفاً.

والفعلُ ـ على ما قيل ـ مما يتعدَّى لواحدٍ، فيقال: تبوَّأَ زيدٌ كذا، لكنْ إذا دخلت اللام على الفاعل فقيل: تبوَّأ لزيدٍ كذا، تعدَّى لِمَا كان فاعلاً باللام فيتعدَّى لاثنَين، وخُرِّجت الآية على ذلك، فـ «لقومكما» أحدُ المفعولَين. وقيل: هو متعدٍّ لواحدٍ، و«لقومكما» متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقَعَ حالاً من البيوت. واللام على الوجهَين غيرُ زائدةٍ.

وقال أبو عليٍّ[3]: هو متعدٌّ بنفسه لاثنين واللام زائدةٌ، كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢] وفعَّل وتَفَعَّل قد يكونان بمعنًى، مثل: علَّقتُها وتَعلَّقتها. والتقدير: بوَّئا قومَكما بيوتاً يَسكنُون فيها، أو يرجعون إليها للعبادة.

---

(١) ذكره ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٥٠ بلفظ: علمه بحالي يغني عن سؤالي، وقال: قال ابن تيمية: موضوع.

(٢) ذكرها أبو حيان في البحر ٥/ ١٨٦ عن حفص، ولم تثبت عنه من طريق صحيح، كما في البدور الزاهرة ص١٥٠.

(٣) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٥٥.

و«مصر» غيرُ منصرفٍ؛ لأنَّه مؤنث[1] معرفة، ولو صَرَفْتَه لخِفَّتِه كما صرفْتَ «هنداً» لكان جائزاً. والجارُّ متعلِّقٌ بـ «تبوءا». وجوِّز أنْ يكون حالاً من «بيوتاً»، أو من «قومكما»، أو من ضمير الفاعل في «تبوَّءا» وفيه ضعفٌ.

﴿وَٱجۡعَلُواْ﴾ أنتما وقومَكما، ففيه تغليبُ المخاطَب[2] على غيره ﴿بُيُوتَكُمۡ﴾ تلك، فالإضافة للعهد ﴿قِبۡلَةً﴾ أي: مصلًّى، وقيل: مساجدَ متوجِّهةً نحو القبلة يعني الكعبةَ، فإنَّ موسى عليه السلام كان يصلِّي إليها. وعلى التفسيرَين تكونُ القبلة مجازاً فيما فُسِّرَت به بعلاقة اللزوم، أو الكلِّيَّة والجزئيَّة، والاختلافُ في المراد هنا ناظرٌ للاختلاف في أنَّ تلك البيوت المتَّخَذة هل للسكنَى أو للصلاة؟ فإنْ كان الأول فالقبلة مجازٌ عن المصلَّى، وإنْ كان الثاني فهي مجازٌ عن المساجد.

واعترض القولُ بحمل القبلة على المساجد المتوجِّهةِ إلى الكعبة بأنَّ المنصوص عليه في الحديث الصحيح أنَّ اليهود تستقبلُ الصخرةَ، والنصارى مطلع الشمس[3]، ولم يَشتهر أنَّ موسى عليه السلام كان يستقبل الكعبةَ في صلاتِهِ، فالقولُ به غريب. وأغربُ منه ما قاله العلائيُّ: من أنَّ الأنبياء عليهم السلام كانت قبلتُهم كلّهم الكعبةَ.

قيل: وجَعْلُ البيوتِ مصلًّى يُنافيه ما في الحديث: «جُعِلَت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً»[4] من أنَّ الأمم السالفة كانوا لا يُصلُّون إلا في كنائسهم.

وأُجيبَ عن هذا بأنَّ محلَّه إذا لم يُضْطرُّوا جازَت لهم الصلاة في بيوتهم، كما رُخِّصَ لنا صلاةُ الخوف، فإنَّ فرعونَ لعنه الله تعالى خرَّب مساجدَهم ومنعهم من الصلاة، فأوحي إليهم أنْ صلُّوا في بيوتكم، كما روي عن ابن عباس وابن جبير.

وقد يقال: إنَّه لا منافاةَ أصلاً، بناءً على أنَّ المراد تعيينُ البيوت للصلاة، وعدم صحَّة الصلاة في غيرها، فيكون حُكمها إذ ذاك حُكمَ الكنائس اليومَ، وما هو

---

(١) في الأصل: لأنه علم مؤنث.
(٢) في الأصل: المخاطبين.
(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٥٥.
(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) عن جابر رضي الله عنه.

من الخصائص صحة الصلاة في أيِّ مكانٍ من الأرض وعدمُ تعيُّنِ موضعٍ منها لذلك، فلا حاجةَ إلى ما يقال من أنَّ اعتبارَ جَعْلِ الأرضِ كلِّها مسجداً خصوصيةٌ بالنظر إلى ما استقرَّت عليه شريعةُ موسى عليه السلام من تعيُّنِ الصلاة في الكنائس وعدمِ جوازها في أيِّ مكانٍ أراده المصلِّي من الأرض.

وما تقدَّم من استقبال اليهود الصخرةَ فالمشهورُ أنَّه كان في بيت المقدس، وأما قبلُ بعد[1] نزول التوراة فكانوا يستقبلون التابوت، وكان يُوضعُ في قبة موسى عليه السلام، على أنَّه قد قيل: إنَّ الاستقبال في بيت المقدس كان للتابوت أيضاً، وكانوا يضعونه على الصخرة، فيكون استقباله استقبالَها. وأما استقبالُهم في مصر فيحتمل أنَّه كان للكعبة كما روي عن الحسن، وما في الحديث محمولٌ على آخِرِ أحوالهم، ويحتملُ أنَّه كان للصخرة حَسْبَما هو اليوم، ويحتمل غيرَ ذلك، والله تعالى أعلمُ بحقيقة الحال.

وقيل: معنى «قبلة»: متقابلة، ورواه ابنُ أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما[2]، أي: اجعلوا بيوتَكم يقابل بعضُها بعضاً ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيها، قيل: أُمروا بذلك في أول أَمرِهم لئلَّا يظهرَ عليهم الكفرةُ فيؤذونهم ويفتنونهم في دينهم. وهو مبنيٌّ على أنَّ المراد بالبيوت المساكنُ، أمَّا لو أُريدَ بها المساجدُ، فلا يصحُّ كما لا يخفى، ولعلَّ التوجيهَ على ذلك هو أنَّهم أُمروا بالصلاة ليَستعينُوا ببرَكَتها على مقصودهم، فقد قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥] وهي في المساجد أفضلُ، فتكون أرجَى للنفع.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ بحصول مقصودهم، وقيل: بالنُّصرَة في الدنيا إجابةً لدعوتهم والجنةِ في العُقبَى.

وإنما ثنِّي الضميرُ أولاً لأنَّ التبوُّءَ للقومِ واتِّخاذَ المعابد مما يتولَّاه رؤساء القوم بَتشاوُرٍ، ثم جُمِعَ ثانياً لأنَّ جَعْلَ البيوت مساجدَ والصلاةَ فيها مما يفعلُه كلُّ أحدٍ، مع أنَّ في إدخال موسى وهارون عليهما السلام مع القوم في الأمرَين المذكورَين

---

(١) قوله: بعد، ليس في الأصل.
(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٧.

ترغيباً لهم في الامتثال، ثم وُحِّد ثالثاً لأنَّ بشارةَ الأمة وظيفةُ صاحب الشريعة، وهي من الأعظم أَسَرُّ وأوقعُ في النفس.

ووُضع «المؤمنين» موضعَ ضميرِ القومِ لمدحهم بالإيمان، وللإشعار بأنَّه المدارُ في التبشير.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أي: ما يُتزيَّن به من اللباس والمراكب ونحوِها، وتُستعمل مصدراً، ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أنواعاً كثيرةً من المال، كما يُشعر به الجمعُ والتنوينُ، وذِكْرُ ذلك بعد الزينة من ذِكرِ العامِّ بعد الخاصِّ للشمول، وقد يُحمَل على ما عداه بقرينة المقابلة، وفسَّر بعضُهم الزينة بالجمال وصحَّةِ البدن وطولِ القامة ونحوه.

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي: لكي يُضلُّوا عنها، وهو تعليلٌ للإيتاء السابق، والكلامُ إخبارٌ من موسى عليه السلام بأنَّ الله تعالى إنما أمدَّهم بالزينة والأموال استدراجاً ليزدادوا إثماً وضلالةً، كما أخبرَ سبحانه عن أمثالهم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران:١٧٨]. وإلى كون اللام للتعليل ذهب الفرَّاء[١]، والظاهرُ أنَّه حقيقةٌ، فيكونُ ذلك الضلال مرادَ الله تعالى، ولا يلزم ما قاله المعتزلة من أنَّه إذا كان مراداً يلزم أن يكونوا مُطيعين به بناءً على أنَّ الإرادة أمرٌ أو مستلزِمٌ له، لِمَا أنَّه قد تَبيَّن بُطلانُ هذا المبنى في الكلام. وقدَّر بعضُهم حَذَراً من ذلك: لئلّا يضلُّوا، كما قدَّر في ﴿شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟﴾ [الأعراف:١٧٢]: ألَّا[٢] تقولوا، ولا حاجةَ إليه.

وقيل: إنَّ التعليل مجازيٌّ؛ لأنَّهم لمَّا ضلُّوا بسبب ذلك جُعِلَ إيتاؤه كأنَّه للضلال، فيكون في اللام استعارةٌ تبعيَّةٌ.

وقال الأخفشُ[٣]: اللام للعاقبة. فيكون ذلك إخباراً منه عليه السلام ـ لممارسته لهم وتَفرُّسِه بهم، أو لعلمهم بالوحي[٤] على ما قيل ـ بأنَّ عاقبةَ ذلك الإيتاء

(١) في معاني القرآن ١/ ٤٧٧.
(٢) في (م): شهدنا ألا.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ٥٧٣.
(٤) كذا في الأصل و(م)، والصواب: لعلمه بالوحي.

الضلالُ. والفرقُ بين التعليل المجازيِّ وهذا ـ إنْ قلنا بأنَّه معنىً مجازيٌّ أيضاً ـ أنَّ في التعليل ذكرُ ما هو سببٌ، لكن لم يكن إيتاؤه لكونه سبباً، وفي لام العاقبة لم يُذكَر سببٌ أصلاً، وهي كاستعارة أحد الضِّدَّين للآخر.

وقال ابنُ الأنباريِّ: إنَّها للدعاء، ولا مَغمزَ على موسى عليه السلام في الدعاء عليهم بالضلال، إمَّا لأنَّه عليه السلام عَلِمَ بالممارسة ونحوها[1] أنَّه كائنٌ لا محالةَ فدعا به، وحاصله أنَّه دعاءٌ بما لا يكون إلا ذلك، فهو تصريحٌ بما جَرَى قضاء الله تعالى به، ونحوُه: لَعَن الله تعالى الشيطان. وإمَّا لأنَّه ليس بدعاءٍ حقيقةً، وليس النظر إلى تَنْجيز المسؤولِ وعدمه، بل النظرُ إلى وَصْفهم بالعتوِّ وإبداء[2] عذرِه عليه السلام في الدعوة، فهو كنايةٌ إيمائيةٌ على هذا.

وما قيل: هذا شهادةٌ بسوء حالهم بطريق الكناية في الكناية؛ لأنَّ الضلال رَدِيفُ الإضلال، وهو مَنعُ اللُّطفِ، فكنى بالضلال عن الإضلال، والإضلالُ رَدِيفُ كونهم كالمطبوع عليهم، فكان هذا كشفاً وبياناً لحالهم بطريق الكناية، فهو ـ على ما فيه ـ شيءٌ عنه غنىً؛ لأنَّ الطبع مصرَّحٌ به بعدُ، بل النظرُ ها هنا إلى الزبدة والخلاصةِ من هذه المطالب كلِّها.

ويُشعر كلام الزمخشريِّ باختيار كونها للدعاء[3]. وفي «الانتصاف»: أنَّه اعتزالٌ أدقُّ من دبيب النمل، يكادُ الاطلاعُ عليه يكون كشفاً، والظاهر أنها للتعليل[4].

وقال صاحبُ «الفرائد»[5]: لولا التعليلُ لم يتَّجه قوله: ﴿إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ ولم ينتظم.

وأُورِدَ عليه أيضاً أنَّه يُنافي غرضَ البعثة، وهو الدعوةُ إلى الإيمان والهُدَى. ولا يخفَى أنَّ دفع هذا يُعلم مما قدمنا آنفاً.

---

(١) في (م): أو نحوها.
(٢) في (م): وإبلاء.
(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٠.
(٤) الانتصاف ٢/ ٢٥٠.
(٥) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٥٥، والكلام منه.

وأمَّا وجهُ انتظام الكلام فهو كما قال غيرُ واحدٍ: إنَّ موسى عليه السلام ذَكَر قوله: «إنك آتيت» إلخ تمهيداً للتخلُّص إلى الدعاء عليهم، أي: إنَّك أَوْلَيتَهم هذه النعمةَ ليعبدوك ويشكروك فما زادهم ذلك إلا طغياناً وكفراً، وإذا كانت الحال هذه فَلْيُضِلُّوا عن سبيلك، ولو دعا ابتداءً لم يحسُن، إذ ربما يُعذَر، فقدَّم الشِّكايةَ منهم والنعْيَ بسوء صنيعهم ليتسلَّقَ منه إلى الدعاء، مع مراعاةِ تلازُمِ الكلام من إيراد الأدعية منسوقةً نسقاً واحداً، وعدم الاحتياج إلى الاعتذار عن تكرير النداء كما احتاج القول بالتعليل إلى الاعتذار عنه بأنَّه للتأكيد وللإشارة إلى أنَّ المقصود عرضُ ضلالهم وكُفرانهم تقدمةً للدعاء عليهم بعدُ.

وادَّعى الطيبي: أنَّه لا مجالَ للقول بالاعتراض؛ لأنَّه إنَّما يحسُن موقعُه إذا التَذَّت النفسُ بسماعه، ولذا عِيْبَ قولُ النابغة:

لعلَّ زياداً لا أبا لكَ غافلُ[1]

وفي كلامه مَيلٌ إلى القول بأنَّ اللام للدعاء، وهو لَدَى المنصفِ خلافُ الظاهر، وما ذكروه له لا يُفيده ظهوراً.

وقرئ: «ليضلوا» بضم الياء وفتحها[2].

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي: أَهْلِكْها كما قال مجاهد، فالطَّمْسُ بمعنى الإهلاك، وفِعْلُه من باب ضَرَبَ ودَخَل، ويَشهدُ له قراءةُ: «اطمُس» بضم الميم[3]، ويتعدَّى ولا يتعدَّى. وجاء بمعنى مَحْوِ الأثر والتغيير، وبهذا فسَّره أكثرُ المفسِّرين؛ قالوا: المعنى: ربَّنا غيِّرها عن جهةِ نَفْعها إلى جهةٍ لا يُنتَفَعُ بها.

وأنت تعلم أنَّ تغييرَها عن جهة نَفْعها إهلاكٌ لها أيضاً، فلا يُنافي ما أخرجه ابنُ

---

(١) وصدره: يقول رجال ينكرون خليقتي، وهو في ديوان النابغة الذبياني ص٨٩، وزياد هو اسم النابغة.

(٢) قرأ بضم الياء عاصم وحمزة والكسائي وخلف، والباقون بفتحها. التيسير ص١٠٦، والنشر ٢/ ٢٦٢.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٨، والكشاف ٢/ ٢٥٠، والبحر ٥/ ١٨٧.

أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضَّحاك أنَّه بعد هذا الدعاء صارَت دراهمُهم ودنانيرهم ونحاسُهم وحديدُهم حجارةً منقوشةً[١].

وعن محمد القُرظيِّ قال: سألني عمر بنُ عبد العزيز عن هذه الآية فأخبرتُه أنَّ الله تعالى طمَسَ على أموال فرعونَ وآلِ فرعونَ حتى صارت حجارةً، فقال عمرُ: مكانَكَ حتى آتيَكَ، فدعا بكيسٍ مختوم ففكَّه، فإذا فيه البيضةُ مشقوقةٌ وهي حجارةٌ، وكذا الدراهمُ والدنانيرُ وأشباه ذلك[٢].

وفي روايةٍ عنه أنَّه صار سكَّرُهم حجارةً، وأنَّ الرجل بينما هو مع أهله إذ صارا حجرَيَن، وبينما المرأةُ قائمة تَخبِزُ إذ صارت كذلك.

وهذا مما لا يكادُ يصحُّ أصلاً، وليس في الآية ما يُشيرُ إليه بوجهٍ. وعندي أنَّ أخبارَ تغيير أموالهم إلى الحجارة لا تخلو عن وهنٍ، فلا يعوَّل عليها، ولعلَّ الأَوْلَى أنْ يُراد من طَمْسها إتلافُها منهم على أتمِّ وجهٍ، والمرادُ بالأموال ما يشملُ الزينةَ من الملابس والمراكب وغيرها.

﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: اجعلها قاسيةً واطبَعْ عليها حتى لا تنشرحَ للإيمان، كما هو قضيَّةُ شأنهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ جوابٌ للدعاء، أعني «اشدُد» دون «اطمِسْ»، فهو منصوبٌ، ويحتمل أنْ يكونَ دعاءً بلفظ النهي نحو: إلهي لا تعذبني، فهو مجزومٌ، وجوِّز أنْ يكون عطفاً على «ليضلوا»، وما بينهما دعاءٌ معترضٌ، فهو حينئذٍ منصوبٌ أو مجزومٌ حسبما علمتَ من الخلاف في اللام.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ أي: يُعاينوه ويُوقنوا به بحيث لا يَنفعُهم ذلك إذ ذاك، والمرادُ به جنسُ العذاب الأليم. وأخرج غيرُ واحدٍ عن ابن عباس تفسيرَه بالغرق.

واستدلَّ بعضُهم بالآية على أنَّ الدعاء على شخصٍ بالكفر لا يُعدُّ كفراً، إذا لم يكن على وجه الاستيجاز والاستحسان للكفر بل كان على وجه التمنِّي لينتقمَ الله

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣١٥، وأخرجه أيضاً الطبري ١٢/ ٢٦٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٧٩، وعزاه السيوطي في الدر ٣/ ٣١٥ لابن المنذر وأبي الشيخ.

تعالى من ذلك الشخص أشدَّ انتقام، وإلى هذا ذهب شيخُ الإسلام خواهر زاده[(١)]، فقولهم: الرضا بكفرِ الغير كفرٌ، ليس على إطلاقه عنده، بل هو مقيَّدٌ بما إذا كان على وجه الاستحسان، لكنْ قال صاحب «الذخيرة»: قد عثرنا على روايةٍ عن أبي حنيفة رضي الله عنه أنَّ الرضا بكفر الغير كفرٌ، من غير[(٢)] تفصيلٍ، والمنقولُ عن عَلَمِ الهدى أبي منصور الماتريديِّ التفصيلُ، ففي المسألة اختلافٌ.

قيل: والمعوَّلُ عليه أنَّ الرضا بالكفر من حيث إنَّه كفرٌ كفرٌ، وأنَّ الرضا به لا مِن هذه الحيثيةِ بل من حيثية كونِهِ سبباً للعذاب الأليم، أو كونِهِ أثراً من آثار قضاء الله تعالى وقَدَره مثلاً ليس بكفرٍ، وبهذا يَندفعُ التنافي بين قولهم: الرِّضا بالكفر كفرٌ، وقولهم: الرضا بالقضاءِ واجبٌ، بناءً على حَمْل القضاء فيه على المقضيِّ، وعلى هذا لا يتأتَّى ما قيل: إنَّ رضا العبدِ بكفر نفْسِه كفرٌ بلا شبهةٍ على إطلاقه، بل يجري فيه التفصيلُ السابق في الرضا بكفر الغير أيضاً.

ومن هذا التحقيقِ يُعلَم ما في قولهم: إنَّ مَن جاءه كافرٌ ليسلم فقال له: اصبر حتى أتوضَّأ، أو أخِّره، يَكفرُ لرضاه بكفره في زمانٍ من النظر، ويؤيِّدُه ما في الحديث الصحيح في فتح مكة، أنَّ ابنَ أبي سرح أتَى به عثمانُ رضي الله عنه إلى النبيِّ ﷺ وقال: يا رسول الله بايعْهُ. فكفَّ ﷺ يدَه عن بيعته، ونَظَر إليه ثلاثَ مراتٍ، كلُّ ذلك يأبَى أنْ يُبايعَه، فبايعه بعد الثلاث، ثم أقبَلَ ﷺ على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجُلٌ رشيدٌ يقومُ إلى هذا حيثُ رَآني كفَفْتُ يَدي عن بَيعتِهِ فيَقْتُلَهُ؟» قالوا: وما يُدرينا يا رسولَ الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعَينِك. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّه لا يَنْبغي لنبيٍّ أنْ يكونَ لهُ خَائنةُ أَعْيُنٍ». وقد أخرجه ابنُ أبي شيبة وأبو داود والنسائيُّ وابنُ مردويه عن سعد بن أبي وقاص[(٣)]، وهو معروفٌ في السير، فإنَّه ظاهرٌ في أنَّ التوقُّفَ مطلقاً ليس كما قالوه كفراً. فليُتأمَّل.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٥٦ نقلاً عن الفصول العمادية.

(٢) في الأصل: بغير، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٤/ ٤٩١، وسنن أبي داود (٢٦٨٣)، وسنن النسائي ٧/ ١٠٥-١٠٦، وعزاه لابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣٠٣.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ هو خطابٌ لموسى وهارون عليهما السلام، وظاهرُه أنَّ هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا موسى عليه السلام حقيقةً، لكن اكتُفِيَ بنَقْل دعاءِ موسى عليه السلام لكونِهِ الرسولَ بالاستقلال عن نقل دعائه، وأُشرِكَ بالبشارة إظهاراً لشرفه عليه السلام، ويحتمل أنَّه لم يَدْعُ حقيقةً، لكن أُضيفَت الدعوةُ إليه أيضاً بناءً على أنَّ دعوةَ موسى في حُكْم دعوته، لمكان كونِهِ تابعاً ووزيراً له.

والذي تَضافَرت[1] به الآثارُ أنَّه عليه السلام كان يُؤَمِّنُ لدعاء أخيه[2]، والتأمينُ دعاءٌ، فإنَّ معنى «آمين»: استَجِب، وليس اسماً من أسمائه تعالى كما يَروُونه عن أبي هريرة رضي الله عنه[3].

قيل: ولكونه دعاءً استَحبَّ الحنفيةُ الإسرارَ به، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ الظاهرَ أنَّ مدارَ استحباب الإسرار والجهر ليس كونَه دعاءً، فإنَّ الشافعيةَ استحبُّوا الجهرَ به مع أنَّ المشهورَ عنهم أنَّهم قائلون أيضاً بكونه دعاءً.

وظاهرُ كلام بعض المحقِّقين أنَّ إضافة الربِّ إلى ضمير المتكلِّم مع الغير في المواقع الثلاثة تُشعر بأنَّه عليه السلام كان يُؤَمِّن لدعاء موسى عليه السلام، ولا يخفَى ما في ذلك الإشعار من الخفاء.

وقرئ: «دَعَواتُكُما» بالجمع[4] ووجْهُه ظاهرٌ.

﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فامضِيَا لأمري واثْبُتَا على ما أنتم عليه من الدعوة وإلزامِ الحجَّة، ولا تستعجلا، فإنَّ ما طلبتُماه كائنٌ في وقته لا محالة، أخرج ابنُ المنذر عن ابن عباس[5] رضي الله عنهما قال: يزعمُون أنَّ فرعون مكَثَ بعد هذه الدعوة أربعينَ سنةً. وأخرج

(١) في الأصل: تظافرت.
(٢) أخرج ذلك الطبري ١٢/ ٢٧١-٢٧٢ عن عكرمة وأبي صالح ومحمد بن كعب وأبي العالية.
(٣) أخرجه عبد الرزاق (٢٦٥١) عن أبي هريرة موقوفاً، وإسناده ضعيف كما ذكر الحافظ في الفتح ٢/ ٢٦٢، وقال: وعن هلال بن يساف التابعي مثله، وأنكره جماعة.
(٤) القراءات الشاذة ص٥٨، والمحتسب ١/ ٣١٦، والبحر ٥/ ١٨٧.
(٥) كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٥.

ابنُ جرير عن ابن جُرَيج مثلَه[١]. وأخرج الترمذيُّ[٢] عن مجاهد أنَّ الدعوةَ أُجيبَت بعد أربعينَ سنةً، ولم يذكر الزعم.

﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨٩﴾ بعادات الله تعالى في تعليق الأمور بالحكم والمصالح، أو سبيل الجهلةِ في عدم الوُثُوق بوعد الله سبحانه، والنهيُ لا يقتضي صحَّةَ وقوع المنهيِّ عنه، فقد كثُر نهيُ الشخص عما يستحيلُ وقوعُه منه، ولعل الغرضَ منه هنا مجرَّدُ تأكيدِ أمرِ الوعد، وإفادة أنَّ في تأخير إنجازه حِكَماً إلهيةً.

وعن ابن عامر أنَّه قرأ: «ولا تَتَّبعانِ» بالنُّون الخفيفةِ المكسورة[٣] لالتقاء الساكنَين. ووَجَّه ذلك ابنُ الحاجب بأنَّ «لا» نافيةٌ والنونُ علامةُ الرفع، والجملةُ إمَّا في موضع الحال من الضمير المرفوع في «استقيما»، كأنَّه قيل: استقيما غيرَ متَّبِعَينِ، والجملةُ المضارعيَّة المنفيةُ بـ «لا» الواقعةُ حالاً يجوزُ اقترانُها بالواو وعدمُه، خلافاً لن زَعَم وجوبَ عدمِ الاقتران بالواو إلا أنْ يُقدَّر مبتدأ. وإمَّا معطوفةٌ على الجملة الطلبيَّة التي قبلها، وهي وإنْ كانت خبريةً لفظاً إلا أنَّها طلبيةٌ معنىً؛ لأنَّ المراد منها النهيُ كما في قوله تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الصف: ١١] و﴿لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣] والنهيُ المُخرَجُ بصورة الخبرِ أبلغُ من النهي المُخرَجِ بصورته. ويجوزُ أنْ تعتبرَ الجملة مستأنفةً للإخبار بأنَّهما لا يتَّبعانِ سبيلَ الجاهلين.

ومن الناس مَن جَعَل «لا» في قراءة العامة نافيةً أيضاً وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ النفْيَ لا يُؤكَّد على الصحيح.

وقيل: «لا» ناهيةٌ، والنُّون نونُ التوكيد الخفيفةِ كُسِرَت لالتقاء الساكنَين، وهو تخريجٌ ليِّن، فإنَّ[٤] الكِسائيَّ وسيبويه لا يُجيزانه[٥]، لأنَّهما يمنعان وقوعَ الخفيفةِ بعد الألف سواءٌ كانت ألفَ التثنية أو الألفَ الفاصلة بين نون الإناث ونون التوكيد،

---

(١) تفسير الطبري ٢/ ٢٧٣.
(٢) الحكيم، كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٥، وعنه نقل المصنف.
(٣) وهي رواية ابن ذكوان عن نافع. التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٦.
(٤) في الأصل: لأن، والمثبت من (م) وهامش الأصل.
(٥) الكتاب ٣/ ٥١٩، وذكره عنهما أبو حيان في البحر ٥/ ١٨٨، والشهاب في الحاشية ٥/ ٥٦، والكلام منه.

نحو: هل تَضْرِبْنَانِ يا نسوة، وأيضاً النونُ الخفيفة إذا لقيها ساكنٌ لَزِمَ حذفُها عند الجمهور ولا يجوز تحريكُها، لكن يُونس والفرَّاء أجازا ذلك، وفيه عنهما روايتان: إبقاؤها ساكنةً لأنَّ الألفَ لخفَّتها بمنزلة الفتحة، وكَسرُها على أصل التقاء الساكنين، وعلى هذا يتمُّ ذاك التخريج.

وقيل: إنَّ هذه النونَ هي نونُ التوكيد الثقيلة إلا أنَّها خُفِّفَت. وهو كما ترى.

وعنه أيضاً: «ولا تَتْبعانِّ» بتخفيف التاء الثانية وسكونها وبالنون المشدَّدة[1]، من تَبِعَ الثلاثي.

وأيضاً: «ولا تتبعانْ» وهي كالأُولَى إلا أنَّ النونَ ساكنةٌ[2] على إحدى الروايَتين عمَّن تقدَّم في تسكين النون الخفيفة بعد الألف على الأصل، واغتفارِ التقاء الساكنين إذا كان الأولُ ألفاً كما في «محياي».

ثم اعلم أنَّه اشتهر في تعليل كَسرِ النون في قراءة العامة بأنَّه لالتقاء الساكنَين، وظاهرُه أنَّه بذلك زال التقاء الساكنَين، وليس كذلك؛ إذ الساكنان هما الألف والنونُ الأُولَى ولا شيءَ منهما بمتحرِّك، وإنَّما المتحرِّك النونُ الثانية، ومِن هنا قال بعضُ محقِّقي النحاة: إنَّ أَصْلَ التحريك لِيتأتَّى الإدغامُ، وكونُه بالكسر تشبيهاً بنون التثنية، والتقاءُ الساكنَين ـ أعني: الألف والنون الأولى ـ غيرُ مضرٍّ لِمَا قالوا من جوازه إذا كان الأولُ حرفَ مدٍّ والثاني مُدغَماً في مثله، كما في: دابة، لارتفاع اللسان بهما معاً حينئذٍ، وقد حُقِّق ذلك في موضعه فليُراجَع هذا، والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أشار سبحانه إلى أنَّهم يستمعون لكنَّ حُكمهم حُكم الصمِّ[3] في عدم

(١) وهي رواية عن ابن ذكوان كما في السبعة ص ٣٢٩، والنشر ٢/ ٢٨٦. وفي البدور الزاهرة ص١٥٠: ولكن هذا الوجه قال فيه الداني: إنه غلطٌ ممن رواه عن ابن ذكوان، فلا يقرأ به. اهـ. وقال الداني أيضاً في التيسير ص١٢٣: ولا خلاف في تشديد التاء.

(٢) البحر ٧/ ١٨٧.

(٣) في (م): الأصم.

الانتفاع، وذلك لعدم استعدادهم حقيقةً، أو حُكماً بأنْ كان ولكن حَجبَ نورَه رسوخُ الهيئات المظلمة؛ وكذا يُقال فيما بعدُ.

ثم إنه تعالى دفع[١] ما يُتوهَّم من أنَّ كونَهم في تلك الحالة ظلمٌ منه سبحانه لهم بقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ بسَلْبِ حواسِّهم وعقولهم مثلاً ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيثُ طلب استعدادُهم الغير المجعول ذلك.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ لذهولهم بتكاثُف ظُلماتِ المعاصي على قلوبهم ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ بحكم سابقَةِ الصحبة وداعيةِ الهوى اللازمةِ للجنسية الأصلية، وهذا التعارفُ قد يبقَى إذا اتّحدوا في الوجهة واتَّفقوا في المقصد، وقد لا يَبقى وذلك إذا اختلفَت الأهواءُ وتبايَنَت الآراءُ، فحينئذٍ تَتفاوتُ الهيئاتُ المستفادَةُ من لواحقِ النشأة، فيقَعُ التناكرُ وعوارضُ العادة.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ لِمَا يَنتفعون به.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ من جنسهم ليتَمكَّنُوا من الاستفاضة منه ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم﴾ بإنجاء مَن اهتدَى به وإثابته، وإهلاكِ مَن أعرضَ عنه وتعذيبه لظهور أسبابِ ذلك بوجوده ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيُعامَلوا بخلافِ ما يَستحقُّون.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنكارٌ للقيامة لاحتجابهم بما هم فيه من الكثافة ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سلبٌ لاستقلاله بالتأثير[٢]، وبيانٌ لأنَّه لا يملكُ إلا ما أَذِنَ الله تعالى فيه، وهذا نوعٌ من توحيد الأفعال، وفيه إرشادٌ لهم بأنَّه لا يَملِكُ استعجالَ ما وعَدَهم به.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: تزكيةٌ لنفوسكم بالوعد والوعيد، والزَّجْرِ عن الذنوب المتسبِّبةِ للعقاب، والتحريضِ على الطاعة الموجبةِ بفَضْلِ الله تعالى للثواب.

﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: دواءٌ للقلوب من أمراضها التي هي أشدُّ من

---

(١) في (م): رفع.
(٢) في (م): في التأثير.

أمراضِ الأبدان، كالشكِّ والنِّفاق والحسد والحقد وأمثال ذلك، بتعليم الحقائقِ والحِكَمِ الموجبةِ لليقين والتصفية والتهيىء لتجلِّيات الصفات الحقَّة.

﴿وَهُدًى﴾ لأرواحكم إلى الشهود الذاتي ﴿وَرَحْمَةٌ﴾بإفاضةِ الكمالات اللائقة بكلِّ مقامٍ من المقامات الثلاثة بعدَ حصول الاستعداد في مقام النفس بالموعظة، ومقامِ القلبِ بالتَّصفية، ومقامِ الروح بالهداية للمؤمنين، بالتصديق أولاً ثم باليقينِ ثانياً ثم بالعيان ثالثاً.

وذكر بعضُهم: الموعظةُ للمريدين، والشفاءُ للمحبِّين، والهدى للعارفين، والرحمةُ للمستأنسين، والكلُّ مؤمنون إلا أنَّ مراتبَ الإيمان متفاوتةٌ، والخطابُ في الآية لهم، وفيها إقامةُ الظاهر مقامَ المضمر.

ويقال: إنَّه سبحانه بدأ بالموعظة لمريضِ حُبِّه؛ لأنَّها معجونٌ لإسهال شهواتِهِ، فإذا تطهَّرَ عن ذلك يَسقيه شرابَ ألطافه، فيكون ذلك شفاءً له مما به، فإذا شُفيَ يُغذِّيه بهدايته إلى نفسه، فإذا كَمُل بصُحبته يُطهِّرُه بمياه رحمته من وَسَخ المرض ودَرَنِ الامتحان.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾ بتوفيقه للقبول في المقامات ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ بالمواهب الخُلُقيَّة والعملية والكَشْفية فيها ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ لا بالأمور الفانيةِ القليلةِ المقدارِ الدنيَّةِ القدرِ ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الخسائس والمحقَّرات.

وفسَّر بعضُهم الفضلَ بانكشاف صباحِ الأزل لعيون أرواحِ المريدين، وزيادةِ وُضوحه في لحظة حتى تَطلُعَ شموسُ الصِّفات وأقمارُ الذات، فيطيرون في أنوار ذلك بأجنحة الجذبات إلى حيث شاء الله تعالى، والرحمةَ بتَتَابُع مواجيدِ الغيوب للقلوب بنعت التفريد بلا انقطاع، ومن هنا قال ضِرغامُ أَجَمةِ التصوُّف أبو بكر الشبلي قُدِّس سرُّه: وقتي سرمدٌ وبحري بلا شاطئ.

وقيل: فضلُه الوصال، ورحمتُه الوقاية عن الانفصال.

وقيل: فضلُه إلقاءُ نيرانِ المحبةِ في قلوب المريدين، ورحمتُه جَذْبُه أرواحَ المشتاقين.

وقيل: فضلُه سبحانه على العارفين كشفُ الذات، وعلى المحبِّين كشفُ

الصفات، وعلى المريدين كشفُ أنوار الآيات، ورحمتُه جلَّ شأنه على العارفين العنايةُ، وعلى المحبِّين الكفايةُ، وعلى المريدين الرعايةُ.

وقال الجنيد: فَضْلُ الله تعالى في الابتداء ورحمتُه في الانتهاء. وهو مناسبٌ لما قلنا.

وقال الكتَّاني[1]: فضلُ الله تعالى النعمُ الظاهرةُ، ورحمتُه النعمُ الباطنةُ. وقيل غيرُ ذلك.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ أي: أخبروني ما أنزل الله سبحانه من رزقٍ معنويٍّ كالمعارف الحقَّانيَّة وكالآداب الشرعية ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا﴾ كالقِسْم الأوَّل، حيث أنكرتُموه على أهله ورميتموهم بالزندقة ﴿وَحَلَٰلًا﴾ كالقِسْم الثاني، حيث قبلتُموه ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ في الحُكْم بالتحليل والتحريم ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ في ذلك.

ثم إنَّه سبحانه أوعَدَ المفترين بقوله عزَّ من قائلٍ: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ إلخ، ففي الآية إشارةٌ إلى سوء حالِ المنكرين على مَن تَحلَّى بالمعارف الإلهية، ولعلَّ منشأ ذلك زعمُهم انحصارَ العلم فيما عندهم، ولم يعلموا أنَّ وراء علومهم علوماً لا تُحصَى يمنُّ الله تعالى بها على مَن يشاء، وفي قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] إشارة إلى ذلك، فما أَوْلاهم بأن يقال لهم: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ومِن العجيب أنَّهم إذا سمعوا شيئاً من أهل الله تعالى مخالفاً لما عليه مجتهدوهم ردُّوه وقالوا: زيغٌ وضلالٌ، واعتمدوا في ذلك على مجرَّد تلك المخالفة ظنّاً منهم أنَّ الحقَّ منحصرٌ فيما جاء به أحدُ أولئك المجتهدين، مع أنَّ الاختلاف بينهم لم يزل قائماً[2] على ساق.

على أنَّه قد يقال لهم: ما يُدريكم أنَّ هذا القائلَ الذي سمعتُم منه ما سمعتم وأنكرتُموه أنَّه مجتهدٌ أيضاً كسائر مجتهديكم؟

فإنْ قالوا: إنَّ للمجتهد شروطاً معلومةً، وهي غيرُ موجودةٍ فيه.

---

(١) أبو بكر محمد بن علي بن جعفر البغدادي الكتاني، صحب الجنيد وغيره، وأقام بمكة مجاوراً بها، توفي سنة (٣٢٠هـ). سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٣٣، وشذرات الذهب ٤/ ١١٧.

(٢) في (م): مع أن الاختلاف لم يزل قائماً بينهم.

قلنا: هذه الشروطُ التي وُضعَت للمجتهد في دين الله تعالى، هل هي منقولةٌ عن رسول الله ﷺ صريحاً، أو وَضَعْتُموها[١] أنتم من تلقاء أنفسكم، أو وَضَعها[٢] المجتهدُ؟ فإنْ كانت منقولةً عن الرسول عليه الصلاة والسلام فأتوا بها واتلوها وصحِّحوا نقلها إنْ كنتُم صادقين، وهيهات ذلك، وإنْ كان الواضع لها أنتُم، وأنتُم أجهلُ مِن ابن يوم، فهي ردٌّ عليكم ولا حبّاً ولا كرامةً، على أنَّ في اعتبارها أخذاً بكلام مَن ليس مجتهداً، وأنتُم لا تجوِّزونه، وإنْ كان الواضع لها المجتهد فإثباتُ كونه مجتهداً متوقِّفٌ على اعتبار تلك الشروط، واعتبار تلك الشروط متوقِّفٌ على إثبات كونه مجتهداً، وهل هذا إلا دورٌ؟ وهو محالٌ لو تعقلونه.

وأيضاً لِمَ لا يجوز أنْ تكون تلك الشروط شروطاً للمجتهد النقلي، وهناك مجتهدٌ آخَرُ شرطُه تصفيةُ النفس وتزكيتُها، وتخلُّقها بالخُلُق الربَّانيِّ، وتَهيُّؤها واستعدادُها لقبول العلم من الله تعالى؟ وأيُّ مانعٍ من أنْ يخلُقَ الله تعالى العلمَ فيمَن صَفَتْ نفسُه وتهيَّأت بالفقر واللَّجَأ إلى الله تعالى، وصَدَقَ عزمُه في الأخذ، ولم يتَّكل على حوله وقوته، كما يخلقه فيمَن استوفى شروط الاجتهاد عندكم فاجتهد وصَرَف فكره ونظره؟ والقولُ بأنَّه سبحانه إنَّما يخلُق العلم في هذا دونَ ذاك حَجْرٌ على الله تعالى وخروجٌ عن الإنصاف كما لا يخفى.

فلا ينبغي للمنصف العارف بأنَّ الفضلَ بيد الله يُؤتيه مَن يشاء من عباده إلا أنْ يُسلِّم لمن ظهَرَت فيه آثارُ التصفية والتهييء وسطَعَت عليه أنوارُ التخلُّق بالخُلُق الربَّاني ما أتى به، ولو لم يأتِ به مجتهدٌ، ما لم يُخالف ما عُلِمَ مجيئُه من الدين بالضرورة، ويأبَى الله تعالى أنْ يأتي ذلك بمثل ما ذكر.

لكنْ ذكر مولانا الإمامُ الربَّانيُّ مجدِّد الألف الثاني قُدِّسَ سرُّه[٣] في بعض مكتوباته الفارسية: أنَّه لا يجوز تقليد أهلِ الكشف في كشفهم؛ لأنَّ الكشف لا يكونُ حجَّةً على الغير وملزماً له.

---

(١) في (م): صنعتموها.

(٢) في (م): صنعها.

(٣) هو الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي، الفاروقي نسباً، وكلامه في كتابه المكتوبات ١/٤٣.

وقد يقال: ليس في هذا أكثرُ من منع تقليد أهل الكشف، ومحلُّ النزاع الإنكارُ عليهم ورَمْيُهُم والعياذُ بالله تعالى بالزندقة، وليس في الكلام أدنَى رائحةٍ منه كما لا يخفى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بصنفي العِلْمَين وإفاضتهما بعدَ تَهيئَةِ الاستعداد لقبولهما ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ ذلك ولا يعرفون قَدْرَه فيُمنَعون عن الزيادة.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٍ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٍ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ إخبارٌ منه تعالى بعظيم اطِّلاعه سبحانه على الخواطر، وما يجري في الضمائر، فلا يخفَى عليه جلَّ شأنه خاطرٌ ولا ضميرٌ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ثم أَخبَرَ جلَّ وعلا عن سلطان إحاطتِهِ على كلِّ ذرَّةٍ مِن العرش إلى ما تحت الثرى بقوله تبارك اسمه: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: إنَّ علمه سبحانه محيطٌ بما في العالم السُّفليِّ والعُلْويِّ، فكلُّ ذرَّةٍ من ذراته داخلةٌ في حيطة عِلمه، كيف لا وكلُّها قائمةٌ به جلَّ شأنه، يَنظُرُ إلى كلِّ في كلِّ آنٍ نظَرَ الحفظِ والرعاية، ولولا ذلك لهلَكت الذرَّات واضمحلَّت سائرُ الموجودات.

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ إذ لم يبقَ منهم بقيَّةٌ يخاف بسببها من حرمانٍ ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ لامتناع فواتِ شيءٍ من الكمالات واللَّذات منهم، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الإيمان الحقيقيَّ ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ بقاياهم وظهورَ تلُوناتهم.

﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بوجود الاستقامة والأخلاق المبشِّرة بجنة النفوس﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ بظهور أنوارِ الصفاتِ والحقائق عليهم المبشِّرة بجنة القلوب.

والظاهرُ أنَّ الموصول بيانٌ للأولياء، فالوليُّ هو المؤمنُ المتَّقي على الكمال، ولهم في تعريفه عباراتٌ شتَّى تقدَّم بعضُها.

وفي «الفتوحات»: هو الذي تولَّاه الله تعالى بنصرته في مقام مجاهدته الأعداءَ الأربعةَ: الهوى والنفسَ والشيطانَ والدنيا. وفيها تقسيمُ الأولياء إلى عدَّة أقسام منها: الأقطابُ، والأوتادُ، والأبدال، والنقباء، والنجباء، وقد ورَدَ ذلك مرفوعاً وموقوفاً من حديث عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأنس وحذيفة بن اليمان

وعبادة بن الصامت وابن عباس وعبد الله بن عمر وابن مسعود وعوف بن مالك ومعاذ بن جبل وواثلة بن الأسقع وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة وأبي الدرداء وأم سلمة ﷺ، ومن مرسل الحسن وعطاء وبكر بن خنيس، ومن الآثار عن التابعين ومَن بعدهم ما لا يُحصَى.

وقد ذكر ذلك الجلالُ السيوطيُّ في رسالةٍ مستقلةٍ له وشيَّد أركانه[1]، وأنكره ـ كما قدَّمنا ـ بعضُهم، والحقُّ مع المثبتين، وأنا ـ والحمد لله ـ منهم وإنْ كنتُ لم أُشيِّد قبلُ أركانَ ذلك. والأئمةُ[2] والحواريُّون والرجبيُّون والختم والملامية والفقراء وسقيط الرفرف ابن ساقط العرش والأمناء والمحدَّثون[3] إلى غير ذلك.

---

(١) واسمها: الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال، وهي في كتاب الحاوي ٢/ ٤١٧، وقد خرَّج فيها السيوطي جميع ما ذكر. ولكن قال ابن القيم في المنار المنيف ص١٣٦: أحاديث الأبدال والأقطاب والأغواث والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة على رسول الله ﷺ، وأقرب ما فيها: «لا تسبُّوا أهل الشام فإن فيهم البدلاء، كلما مات رجل منهم أبدل الله مكانه رجلاً آخر»، ذكره أحمد، ولا يصح أيضاً فإنه منقطع.
قلنا: وهو عند أحمد (٨٩٦) من حديث علي ﷺ دون قوله: لا تسبوا أهل الشام. فإنه فيه من قول علي بنحوه. وأخرجه بنحوه أيضاً الطبراني في الكبير ١٨/ ٦٥ عن عوف بن مالك، وإسناده منقطع، وفيه أيضاً ضعيف ومتروك.
وقال السيوطي في الرسالة نفسها في الحاوي ٢/ ٤٣٥: أخرج الشيخ نصر المقدسي في كتاب الحجة على تارك المحجة بسنده عن أحمد بن حنبل أنه قيل له: هل لله في الأرض أبدال؟ قال: نعم. قيل: من هم؟ قال: إن لم يكن أصحاب الحديث هم الأبدال، فما أعرف لله أبدالاً.

(٢) قوله: والأئمة. . . إلخ، معطوف على قوله: الأقطاب. . . إلخ.

(٣) الحواريون: هم واحد في كل زمان، وكان في زمن رسول الله ﷺ الزبير بن العوام ﷺ. معجم مصطلحات الصوفية لعبد المنعم الحفني ص٨٣.
والرجبيُّون: هم أربعون، ولا يكون لهم هذا المقام إلا في شهر رجب، ويقع لهم فيه من الكشوف والتجليات والاطلاع على المغيبات. معجم مصطلحات الصوفية ص١١١.
والختم: هو الذي يجمع كل الصفات المتفرقة في النوع الذي يختمه، فهو الحد الذي لا يتخطَّى كماله أمرٌ من الأمور التي يختمها. المعجم الصوفي لسعاد الحكيم ص٣٧٣.
والملامية وهي الملامتية: هم قوم طابت نفوسهم مع الله فلم يودُّوا أن يطلع على أعمالهم غيره، فإن رأى أحد منهم أن أحداً اعتقد فيه، خرَّب، أي: فعل ما يذمُّ به ظاهره. الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص٣١٧.
=

وعَدَّ الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه منهم الرسلَ والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والبيانُ الذي في الآية صادقٌ عليهم عليهم السلام على أتمِّ وجهٍ.

ونُسِب إليه ﷺ القولُ بتفضيل الوليِّ على النبيِّ والرسول، وخاض فيه كثيرٌ من المنكِرين حتى كفَّروه ـ وحاشاه ـ بسبب ذلك، وقد صرَّح في غير موضعٍ من «فتوحاته» ـ وكذا من سائر تأليفاته ـ بما يُنافي هذا القولَ حسبما فهمَه المنكِرون.

وقد ذَكر في كتاب «القربة» أنَّه ينبغي لمن سمع لفظةً من عارفٍ متحقِّقٍ مبهمةً، كأنْ يقول: الولايةُ هي النبوَّةُ الكبرى، أو الوليُّ العارف مرتبتُه فوق مرتبة الرسول، أنَّ يتحقَّق المرادَ منها، ولا يُبادرَ بالطعن.

ثم ذَكَرَ في بيان ما ذكر ما نصُّه: اعلم أنَّه لا اعتبار للشخص من حيث ما هو إنسانٌ، فلا فضْلَ ولا شرَف في الجنس بالحكم الذاتي، وإنَّما يقعُ التفاضُلُ بالمراتب، فالأنبياء صلواتُ الله تعالى عليهم ما فَضُلوا الخلقَ إلا بها، فالنبيُّ ﷺ له مرتبةُ الولاية والمعرفة والرسالة، ومرتبة الولاية والمعرفةِ دائمةُ الوجود، ومرتبةُ الرسالة منقطعةٌ، فإنَّها تنقطعُ بالتبليغ، والفضلُ للدائمِ الباقي، والوليُّ العارفُ مقيمٌ عنده سبحانه والرسولُ خارجٌ، وحالة الإقامة أعلى من حالة الخروج، فهو ﷺ من حيثية كونه وليّاً وعارفاً أعلى وأشرفُ من حيثية كونه رسولاً، وهو ﷺ الشخصُ بعينه واختلفَت مراتبه، لا أنَّ الوليَّ منَّا أرفعُ من الرسول نعوذ بالله تعالى من الخِذلان، فعلى هذا الحدِّ يقول تلك الكلمة أصحابُ الكشف والوجود، إذ لا اعتبارَ عندنا إلا للمقامات، ولا نتكلَّم إلا فيها لا في الأشخاص، فإنَّ الكلام في

= والفقراء: الفقير نعتُه السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود، وسمي الصوفية فقراء لتخليهم عن الأملاك، وحقيقته أن لا يستغني العبد إلا بالله. معجم مصطلحات الصوفية ص٢٠٧.

وسقيط الرفرف ابن ساقط العرش: حاله لا يتعدَّاه، شُغلُه بنفسه وبربِّه، كبير الشأن عظيم الحال، رؤيته مؤثِّرةٌ في حالِ مَن يراه، فيه انكسار. الفتوحات المكية ٢/ ١٤.

والأمناء: هم الملامتية. معجم مصطلحات الصوفية ص٢٥.

والمحدثون: وهم صنفان: صنف يحدثه الحقُّ من خلف حجاب، وصنف تحدثهم الأرواح الملكية في قلوبهم، وأحياناً في آذانهم، ومنهم عمر بن الخطاب ﷺ. الفتوحات المكية ٢/ ٢١.

الأشخاص قد يكونُ بعضَ الأوقات غيبةً، والكلامُ على المقامات والأحوال من صفات الرجال، ولنا في كلِّ حظٍّ شِرْبٌ معلومٌ ورزقٌ مقسومٌ. انتهى.

وهو صريحٌ في أنَّه قُدِّس سرُّه لا يقول هو ولا غيرُه من الطائفة بأنَّ الوليَّ أفضلُ من النبيِّ حسبما يُنسَب إليه، وقد نَقَل الشعرانيُّ عنه أنَّه قال: فُتح لي قَدْرُ خرم إبرةٍ من مقام النبوَّةِ تجلِّياً لا دخولاً فكِدْتُ أحترقُ.

فينبغي تأويلُ جميعِ ما يُوهمُ القولَ بذلك، كإخباره في كتابه «التجلِّيات» وغيرِه باجْتماعه ببعض الأنبياءِ عليهم السلام، وإفادتِه لهم مِن العلم ما ليس عندهم. وكقول الشيخ عبد القادر الجيلي قُدِّس سرُّه ـ وقد تقدم ـ: يا معاشرَ الأنبياء أُوتيتم الألقاب وأُوتينا ما لم تُؤْتَوْه[1]. إلى غير ذلك، فإنَّ اعتقاد أفضليةِ وليٍّ من الأولياء على نبيٍّ من الأنبياء كفرٌ عظيمٌ وضلالٌ بعيدٌ.

ولو ساغَ تفضيل وليٍّ على نبيٍّ لفُضِّل الصديقُ الأكبرُ ﷺ على أحدٍ من الأنبياء؛ لأنَّه أرفعُ الأولياء قَدْراً كما ذهب إليه أهلُ السنَّة، ونصَّ عليه الشيخ قُدِّس سرُّه في كتاب «القُربة» أيضاً، مع أنَّه لم يُفضَّل كذلك بل فُضِّل على مَن عداهم كما نَطَق به: «ما طلَعَت الشمسُ ولا غَرَبَت على أحدٍ بعد النبيين أفضلَ مِن أبي بكرٍ الصديق»[2] فمتى لم يفضَّل الصدِّيقُ، وهو الذي وَقَر في صدره ما وَقَر، ونال من الكمال ما لا يُحصَر، فكيف يُفضَّل غيرُه؟.

وفضَّل كثيرٌ من الشيعة عليّاً كرم الله تعالى وجهه، وكذا أولادَه الأئمةَ

---

(١) سلف ٣/ ٤٣٣.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٣٥) و(١٣٧)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٢٥، والخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ٤٣٨ من طرق عن ابن جريج، عن عطاء، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ. وأخرجه الطبراني في الأوسط (٧٣٠٦)، وابن الجوزي في العلل (٢٩٨) من طريق إسماعيل بن يحيى التيمي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن جابر، عن النبي ﷺ. قال ابن الجوزي: قال الدارقطني: إسماعيل ضعيف، وغيره يرويه عن عطاء عن أبي الدرداء، والحديث غير ثابت. وينظر العلل لابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٤. وأخرج البخاري (٣٦٧١) عن محمد بن الحنفية قال: قلت لأبي: أيُّ الناس خير بعد رسول الله ﷺ؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم مَن؟ قال: عمر.

الطاهرين ﷺ أجمعين على كثيرٍ من الأنبياء والمرسلين من أولي العزم وغيرهم، ولا مستندَ لهم في ذلك إلا أخبارٌ كاذبةٌ وأفكارٌ غيرُ صائبة.

وبالجملة متى رأينا الشخصَ مؤمناً متَّقياً حكمنا عليه بالولاية نظراً لظاهر الحال، ووجَبَ علينا معاملتُه بما هو أهلُه من التوقير والاحترام غيرَ غالين فيه بتفضيله على رسولٍ أو نبيٍّ أو نحو ذلك مما عليه العوامُّ اليوم في معاملة مَن يعتقدونه وليّاً، التي هي أشبه شيء بمعاملة المشركين مَن يعتقدونه إلهاً، نسألُ الله تعالى العفْوَ والعافية.

ولا يُشتَرَط فيه صدورُ كرامةٍ على يده كما يُشتَرَطُ في الرسول صدورُ معجزةٍ، ويَكفيه الاستقامةُ كرامةً، كما يدُلُّ عليه ما اشتهر عن أبي يزيد قُدِّس سرُّه، بل الوليُّ الكامل لا التفاتَ له إليها، ولا يَوَدُّ صدورَها على يده إلا إذا تضمَّنَت مصلحةً للمسلمين خاصَّةً أو عامةً.

وفي «الجواهر والدُّرر» للشعراني: سمعتُ شيخنا يقولُ: إذا زَلَّ الوليُّ ولم يرجع لوقته عُوقب بالحجاب، وهو أنْ يُحَبَّبَ إليه إظهارُ خَرْقِ العوائد المسمَّاة على[1] لسان العامة كرامات، فيظهر بها ويقول: لو كنتُ مُؤاخَذاً بهذه الزلَّة لَقُبِضَ عنِّي التصريفُ. وغابَ عنه أنَّ ذلك استدراجٌ، بل ولو سَلِمَ من الزلة فالواجبُ خوفُه من المكر والاستدراج.

وقال بعضُهم: الكرامةُ حيضُ الرجال، ومَن اغترَّ بالكرامات بالكرى مات.

وأضرُّ الكرامات للولي ما أَوجَبَ الشهرةَ، فإنَّ الشهرةَ آفةٌ، وقد نُقِل عن الخوَّاص: أنَّها تُنقِصُ مرتبة الكمال، وأيَّد ذلك بالأثر المشهور: خُصَّ بالبلاء مَن عرفه الناس.

نعم ذكر في «أسرار القرآن»[2] أنَّ الولايةَ لا تتمُّ إلا بأربع مقامات: الأول: مقامُ المحبَّة، والثاني: مقامُ الشَّوق، والثالثُ: مقامُ العشق، والرابعُ: مقامُ

---

(١) في (م): في.

(٢) لعله كتاب: عجيب البيان في أسرار القرآن للشيخ عبد الباسط بن رستم القنوجي المتوفى سنة (١٢٢٣هـ). أبجد العلوم ٣/ ١٦١.

المعرفة، ولا تكون المحبَّةُ إلا بكَشْف الجمال، ولا يكونُ الشوقُ إلا باستنشاق نَسيم الوصال، ولا يكونُ العشقُ إلا بدنوِّ الأنوار، ولا تكونُ المعرفةُ إلا بالصحبة، وتَتَحقَّق الصحبةُ بكشف الألوهية مع ظهور أنوارِ الصفات. ولِحصُول ذلك آثارٌ وعلاماتٌ مذكورةٌ فيه فليُراجعْه مَن أرادها.

والكلامُ في هذا المقام كثيرٌ، وكُتُب القوم ملأى منه، وفي[1] ما ذكرناه كفايةٌ لغرضنا. وأحسنُ ما يُعتَمَد عليه في معرفة الوليِّ اتِّباعُ الشريعة الغرَّاء، وسلوكُ المحجَّة البيضاء، فمن خَرَج عنها قيدَ شبرٍ بَعُدَ عن الولاية بمراحلَ، فلا ينبغي أنْ يُطلَق عليه اسمُ الوليِّ ولو أتى بألفِ ألفِ خارقٍ، فالوليُّ الشرعيُّ اليومَ أعزُّ من الكبريت الأحمر، ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله:

أمَّا الخيامُ فإنَّها كخيامهم ... وأَرَى نساءَ الحيِّ غيرَ نسائها[2]

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: لِمَا سبق لهم في الأزل من حُسن العنايةِ، أو لا تبديلَ لحقائقه سبحانه الواردةِ عليهم، وأسمائه تعالى المنكَشِفَةِ لهم، وأحكامِ تجلِّياته جلَّ وعلا النازلةِ بهم، أو لا تبديلَ لِفِطَرِهم التي فَطَرَهم عليها، ويقال لكلِّ محدَّثٍ: كلمة؛ لأنَّه أثَرُ الكلمة.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ﴾ أي: لا تتأثَّر به ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ لا يملك أحدٌ سواه منها شيئاً، فسَيَكفِيكَهم الله تعالى ويَقهرُهم و﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أنْ يفعلَ بهم.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ أي: إنَّ كلَّ مَن في ذلك تحت مُلكه سبحانه وتصرُّفه وقَهْرِه، لا يقدرون على شيءٍ مِن غير إذنه، فهو كالتأكيد لِمَا أفادته الآيةُ السابقةُ، أو أنَّ مَن فيها من الملائكة والثقلَين الذين هم أشرفُ الممكِنات عبيدٌ له سبحانه، لا يصلُح أحدٌ منهم للربوبية، فما لا يَعْقِلُ أحقُّ بأنْ لا يصلُح لذلك، فهو كالدليل على قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ﴾ إلا ما يتوهَّمونه ويتخيَّلونه شريكاً ولا شركةَ له في الحقيقة.

---

(١) قوله: في، ليس في (م).
(٢) البيت لعلي بن أحمد الفالي، كما في معجم الأدباء ١٢/ ٢٢٧، وسلف ١/ ٢٣٢.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ إشارةٌ إلى سكون العشَّاق والمشتاقين في الليل إذا مدَّ أطنابه ونَشَر جلبابه، ومَيلِهم إلى مناجاة محبوبهم، وانجذابهم إلى مشاهدةِ مطلوبهم، وتلذُّذِهم بما يَرِدُ عليهم من الواردات الإلهية، واستغراقهم بأنواع التجلِّيات الربَّانية، ومن هنا قال بعضُهم: لولا الليل لما أحببتُ البقاء في الدنيا، وهذه حالةُ عُشَّاقِ الحضرة، وهم العشَّاقُ الحقيقيُّون نفعنا الله تعالى بهم، وأنشدَ بعضُ المجازيين:

أقضِّي نهاري بالحديث وبالمُنَى ... ويَجمعني بالليل والهمَّ جامعُ
نهاري نهارُ الناس حتى إذا بَدَا ... ليَ الليلُ هزَّتْني إليك المضاجعُ[(١)]

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ أي: ألبَسَهُ سِرْبالَ أنوار القُدرةِ لتقضوا فيه[(٢)] حاجاتِكم الضرورية.

وقيل: الإشارةُ بذلك إلى ليلِ الجسم ونهارِ الروح، أي: جعَلَ لكم ليلَ الجسم لتسكنوا فيه، ونهار الروح لتبصروا به حقائقَ الأشياء وما تهتدون به.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ كلامَ الله تعالى، فيُقيمون بَواطِنَه وحُدُودَه، ويَطَّلعون به على صفاته وأسمائه سبحانه.

﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ أي: معلولاً يُجانسه ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ أي: أُنزِّهُه جلَّ وعلا من ذلك ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ﴾ الذي وجودُه بذاته، وبه وجودُ كلِّ شيءٍ، وذلك يُنافي الغنَى، وأكَّد غناه جلَّ شأنه بقوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ.

وقولُه سبحانه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ إلخ أمرٌ له ﷺ بأنْ يَتْلو عليهم نبأ نوحٍ عليه السلام في صحَّة توكُّله على الله تعالى، ونظرِه إلى قومه وشركائهم بعين الغِنَى، وعدمِ المبالاة بهم وبمكايدهم، ليعتبروا به حاله عليه الصلاة والسلام، فإنَّ الأنبياء عليهم السلام في ملَّة التوحيد والقيام بِالله تعالى وعدمِ الالتفات إلى الخلق سواءٌ. أو أمرٌ له ﷺ بأنْ يتلوَ نبأ نوحٍ مع قومه ليتَّعظَ قومُه وينزجرُوا عمَّا هم عليه مما يُفضي إلى إهلاكهم.

---

(١) البيتان لمجنون ليلى، وهما في ديوانه ص١٨٥.

(٢) في (م): فيها.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي: إيماناً حقيقياً ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ أي: مُنقادِين، أي: إنْ صحَّ إيمانُكم يقيناً فعليه توكَّلُوا بشرطِ أنْ لا يكون لكم فعلٌ، ولا تَروا لأنفسكم ولا لغيركم قوةً ولا تأثيراً، بل تكونون[1] منقادين كالميت بين يدي مُغَسِّله، فإنَّ شَرْط صحَّة التوكُّل فناءُ بقايا الأفعال والقوى.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي: على ما أنتما عليه من الدعوة شكراً لتلك الإجابة، وقيل: أي: استقيما على معرفَتِكُمَا مقامَ السؤال، وهو مقامُ الرضوان والبسط، ليُستجابَ لكما بعدُ إذا دعوتُما، فإنَّ مَن لم يعرف مقامَ السؤال قد يُوقِعُه في غير مقامه، فيُسيءُ الأدبَ فلا يُستجاب له.

وقيل: إنَّ هذا عتابٌ لهما عليهما السلام أي: قد أُجيبَت دعوتُكما لضعفِكُما عن تحمُّل واردِ امتحاني، فاستقيما بعد ذلك على تحمُّل بلائي والصبر فيه، فإنَّه اللائقُ بشأنكما. وقد قيل: المعرفةُ تقتضي الرضا بالقضاء والسكونَ في البلاء.

وقيل: أي: استقيما في دعائكما، والاستقامةُ في الدعاء على ما قال ذو النون المصريُّ: أنْ لا يَغْضَبَ الداعي لتأخير الإجابة، ولا يَسألَ سؤالَ خصوصٍ. نسألُ الله تعالى أنْ يُوفِّقَنا لما يُحبُّ ويَرضى.

❁ ❁ ❁

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ مِن جَاوَزَ المكان: إذا قَطَعه وتَخَطَّاه، وهو متعدٍّ إلى المفعول الأول الذي كان فاعلاً في الأصل بالباء، وإلى الثاني بنفسه، والمعنَى: جعلناهم مُجاوزين البحرَ، بأنْ جعلناه يَبَساً، وحفِظناهم حتى بلغوا الشَّطَّ.

وقرأ الحسنُ: «وجَوَّزْنا» بالتضعيف[2]، وفعَّل بمعنى فَاعَل، فهو من التجويز المرادف للمجاوزة بالمعنى السابق، وليس بمعنى نفذ[3]؛ لأنَّه لا يحتاج إلى التعدية بالباء، ويتعدَّى إلى المفعول الثاني بفي، كما في قوله:

---

(١) في (م): تكونوا.

(٢) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر ٥/ ١٨٨.

(٣) كذا في الأصل و(م): ولعل الصواب: أنفذ، كما في حاشية الشهاب ٥/ ٥٧، ومعجم متن اللغة (جوز).

ولا بدَّ مِن جارٍ يُجيزُ سَبيلَها   كما جَوَّزَ السَّكِّيَّ في الباب فَيْتَقُ[١]

فكان الواجب هنا من حيث اللغةُ أنْ يقال: وجوَّزنا بني إسرائيل [في][٢] البحر، أي: نفذناهم وأدخلناهم فيه.

وفي الآية إشارةٌ إلى انفصالهم عن البحر، وإلى مقارنة العناية الإلهية لهم عند الجَوَاز، كما هو المشهور في الفَرْق بين أذهَبَه وذَهَبَ به.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ قال الراغبُ: يقال: تَبِعَه وأَتْبَعَه، إذا قَفَا أَثَرَه إمَّا بالجسم أو بالارْتِسام والائتمار، وظاهره أنَّ الفعلَين بمعنًى[٣].

وقال بعضُ المحققين: يقال: تَبِعْتُه حتى أَتْبَعْتُه، إذا كان سَبَقَك فَلَحِقْتَه، فالمعنى هنا: أَدْرَكَهُم ولَحِقهم ﴿فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾ حتى تراءت الفئتان وكاد يجتمعُ الجمعان ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ أي: ظلماً واعتداءً، وهما مصدران منصوبان على الحال بتأويلِ اسمِ الفاعل، أي: باغينَ وعادينَ، أو على المفعولية لأَجْلِه، أي: للبغي والعدوان.

وقرأ الحسنُ: «وعُدُوّاً» بضم العين والدال وتشديد الواو[٤].

وذلك أنَّ الله سبحانه وتعالى لَمَّا أَخبَرَ موسى وهارونَ عليهما السلام بإجابة دعوتهما أَمَرَ موسى عليه السلام بإخراج بني إسرائيل من مصر ليلاً، وكانوا كما ذكره غيرُ واحدٍ ستَّ مئة ألفٍ، فخرج بهم على حين غفلةٍ من فرعون وملئه، فلما أحسَّ بذلك خرج هو وجنودُه على أثرهم مُسرعين، فالتفت القومُ فإذا الطامَّةُ الكبرى وراءهم، فقالوا: يا موسى، هذا فرعونُ وجنودُه وراءنا وهذا البحر أمامنا، فكيف الخلاصُ؟! فأوحَى الله تعالى إلى موسى أنِ اضْرب بعصاك البحر، فضَرَبَه فانفلَقَ اثني عشر فِرْقاً، كلُّ فِرْقٍ كالطَّود العظيم، وصار لكلِّ سبطٍ طريقٌ، فسلكوا، ووَصَل

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص١٢٠. السكي: المسمار. والفيتق: النجار. اللسان (سكك) و(فتق).

(٢) ما بين حاصرتين من الكشاف ٢/ ٢٥١، وتفسير أبي السعود ٤/ ١٧٢، والكلام فيهما بنحوه.

(٣) ينظر مفردات الراغب (تبع)، وقد زاد النحاس إليهما اتَّبع، فقال في إعراب القرآن ٢/ ٤٧٠: والحقُّ أن تبع وأتبع واتَّبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السير.

(٤) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر ٥/ ١٨٨.

فرعونُ ومَن معه إلى الساحل وهم قد خرجوا من البحر، ومسلَكُهم باقٍ على حاله، فسلَكَه بمَن معه أجمعين، فلمَّا دخل آخرُهم وَهَمَّ أوَّلُهم بالخروج غَشِيَهم من اليمِّ ما غَشِيَهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي: لحِقَه، والمرادُ بلحوقه إياه وقوعُه فيه وتلبُّسُه بأوائله.

وقيل: معنى أدرَكَه: قارَبَ إدراكَه، كـ: جاء الشتاء فتأهَّب؛ لأنَّ حقيقةَ اللُّحوق تَمنَعُه من القول الذي قصَّه سبحانه بقوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ إلخ.

ومن الناس مَن أبقَى الإدراك على ظاهره، وحَمَل القولَ على النفسي، وزَعَم أنَّ الآيَةَ دليلٌ على ثبوت الكلامِ النفسيِّ. ونُظِرَ فيه بأنَّ قيامَ الاحتمال يُبطل صحَّة الاستدلال.

وأيّاً ما كان فليس المرادُ الإخبارَ بإيمانٍ سابقٍ كما قيل، بل إنشاء إيمان.

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي بأنَّه، وقُدِّر الجارُّ لأنَّ الإيمان وكذا الكُفر متعدٍّ بالباء، ومحلُّ مدخوله بعد حذفه الجرُّ أو النصبُ، فيه خلافٌ شهير، وجَعْلُه متعدِّياً بنفسه فلا تقدير لأنَّه في أصل وَضْعِه كذلك مخالَفَةٌ للاستعمال المشهور فيه.

وقرأ حمزة والكِسائي: «إنَّه» بالكسر[1] على إضمار القول، أي: وقال إنَّه، أو على الاستئناف لبيان إيمانه، أو الإبدال من جملة «آمنتُ»، والجملةُ الاسميةُ يجوزُ إبدالُها من الفعلية، والاستئنافُ على البدلية باعتبار المحكيِّ لا الحكاية؛ لأنَّ الكلامَ في الأول، والجملةُ الأولى في كلامه مستأنَفةٌ والمبدَل من المستأنَف مستأنَفٌ.

والضمير للشأن، وعبَّر عنه تعالى بالموصول وجَعَل صلَتَه إيمانَ بني إسرائيل به تعالى، ولم يقل كما قال السحرة: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٢] للإشعار برجوعه عن الاستعصاء، واتِّباعِه لمن كان يَستَتْبعهم، طمعاً في القبول والانتظامِ معهم في سلك النجاة.

(١) التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٧، وهي قراءة خلف أيضاً.

﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ أي: الذين أسلموا نفوسَهم لله تعالى، أي: جعلوها خالصةً سالمةً له سبحانه، وأرادَ بهم إمَّا بني إسرائيلَ خاصَّةً، وإما الجنس، وهم إذ ذاك داخلون فيه[1] دخولاً أولياً، والظاهرُ أنَّ الجملة على التقديرَين معطوفةٌ على جملة «آمنتُ»، وإيثارُ الاسمية لادِّعاء الدوام والاستمرار.

وقيل: إنَّها على الأول معطوفةٌ، وعلى الثاني تحتملُ الحاليةَ أيضاً من ضمير المتكلِّم، أي: آمنتُ مُخْلِصاً لله تعالى مُنتظِماً في سلك الراسخين في ذلك.

ولقد كرَّر المعنى الواحدَ بثلاث عباراتٍ، وبالغَ ما بالغ حِرصاً على القبول المقتضي للنجاة، وليتَ بعضَ ذلك قد كان حين يَنفَعُه الإيمان، وذلك قبل اليأس، فإنَّ إيمانَ اليأس غيرُ مقبولٍ كما عليه الأئمة الفحول.

﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ الاستفهامُ للإنكار والتوبيخ، والظرفُ متعلِّقٌ بمحذوفٍ يقدَّر مؤخَّراً، أي: آلآنَ تؤمنُ حين يَئِسْتَ من الحياة وأيقنتَ بالممات، وقُدِّرَ مؤخَّراً ليتوجَّه الإنكارُ والتوبيخُ إلى تأخير الإيمان إلى حدٍّ يمتنعُ قبوله فيه، والكلامُ على تقدير القول، أي: فقيل له ذلك، وهو معطوفٌ على «قال».

وهذا إلى (ءَايَةً)[2] حكايةٌ لِمَا جَرَى منه سبحانه من الغضب على المخذول، ومُقابلةِ ما أظهرَه بالردِّ الشنيع، وتقريعِهِ بالعصيان والإفسادِ، إلى غير ذلك.

وفي حذف الفعل المذكور وإبرازِ الخبر المحكيِّ في صورة الإنشاء من الدلالة على عِظَمِ السخطِ وشدَّةِ الغضب ما لا يخفَى.

والقائلُ له ذلك قيل: هو الله تعالى، وقيل: هو جبريلُ عليه السلام، وقيل: إنَّه ميكائيل عليه السلام، فقد أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال لي جبريلُ عليه السلام: ما أبغضْتُ شيئاً مِن خَلْق الله تعالى ما أبغضْتُ إبليسَ يومَ أُمِرَ بالسجود فأبَى أنْ يَسْجُدَ، وما أبغضْتُ شيئاً أشدَّ بغضاً من فرعون، فلمَّا كان يومَ الغَرَقِ خِفْتُ أنْ يَعتصِمَ بكلمةِ الإخلاصِ فينجُوَ، فأخذْتُ قَبضَةً من حمأةٍ

---

(١) قوله: فيه، ليس في (م).
(٢) يعني قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾.

فضربتُ بها في فيه، فوجدْتُ الله تعالى عليه أشدَّ غضباً منِّي، فأمر ميكائيلَ فأتاه فقال: آلآن»[(١)] إلخ.

وما تَضمَّنه هذا الخبرُ من فِعْلِ جبريل عليه السلام جاءَ في غيرِ ما خبرٍ؛ ومن ذلك ما أَخرَجَه الطيالسيُّ وابنُ حِبَّان وابنُ جرير وابنُ المنذر وابنُ مردويه والبيهقيُّ في «الشعب» والترمذيُّ والحاكمُ وصحَّحاه عن ابن عباس ﵄ قال: قال رسولُ الله ﷺ «قال لي جبريل: لو رأيْتَني وأنا آخُذُ من حالِ البحر فأَدسُّهُ في في فرعونَ مخافةَ أنْ تُدرِكَه الرحمةُ»[(٢)].

واستشكل هذا التعليل، وفي «الكشاف»: أنَّ ذلك من زيادات الباهتين لله تعالى وملائكتِه عليهم السلام، وفيه جهالتان: إحداهُما: أنَّ الإيمان يصحُّ بالقلب كإيمان الأخرس، فحالُ البحر لا يَمنَعُه. والأخرى: أنَّ مَن كره إيمانَ الكافرِ وأحبَّ بقاءَه على الكفر فهو كافرٌ؛ لأنَّ الرضا بالكفر كفرٌ[(٣)].

وارتضاه ابنُ المنير قائلاً: لقد أنكرَ منكراً وغَضِبَ لله تعالى وملائكتِه عليهم السلام كما يجبُ لهم[(٤)].

والجمهورُ على خلافه لصحَّة الحديثِ عند الأئمة الثقات كالترمذيِّ ـ المقدَّم على المحدِّثين بعد مسلم ـ وغيره، وقد خاضوا في بيان المرادِ منه بحيث لا يبقَى فيه إشكال.

ففي «إرشاد العقل السليم»: أنَّ المرادَ بالرحمة الرحمةُ الدنيوية، أي: النجاة التي هي طلبةُ المخذول، وليس من ضرورة إدراكها صحةُ الإيمان،

---

(١) الدر المنثور ٣/ ٣١٦.

(٢) مسند الطيالسي (٢٦١٨)، وصحيح ابن حبان (٦٢١٥)، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٧٧، وشعب الإيمان للبيهقي (٩٣٩٣)، وسنن الترمذي (٣١٠٧) و(٣١٠٨)، والمستدرك ٢/ ٣٤٠، وعزاه لابن المنذر وابن مردويه السيوطي في الدر ٣/ ٣١٦، وأخرجه أيضاً أحمد (٢١٤٤) و(٢٨٢٠). وينظر تخريج أحاديث الكشاف ص٨٥. وحال البحر: الطين الأسود الذي يكون في أرضه. تهذيب اللغة ٥/ ٢٤٥، والصحاح (حول).

(٣) الكشاف ٢/ ٢٥١.

(٤) الانتصاف ٢/ ٢٥١.

كما في إيمان قومِ يُونس عليه السلام، حتى يلزمَ من كراهته ما لا يُتصوَّر في شأن جبريل عليه السلام من الرضا بالكفر؛ إذ لا استحالةَ في ترتُّب هذه الرحمةِ على مجرَّد التفوُّه بكلمة الإيمان، وإنْ كان ذلك في حالة البأس واليأس، فيُحمَل دسُّه عليه السلام على سدِّ باب الاحتمال البعيد لكمال الغيظ وشدَّةِ الحَرَد[1]. انتهى.

ولا يخفَى أنَّ حمْلَ الرحمةِ على الرحمة الدنيوية بعيدٌ. ويكادُ يأبَى عنه ما أخرجه ابنُ جرير والبيهقيُّ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قالَ لي جبريلُ عليه السلام: لو رأيتَني يا محمد وأنا أَغطُّ فرعونَ بإحدَى يَديَّ وأدسُّ من الحال في فيه، مخافةَ أنْ تُدرِكَهُ رحمةُ الله تعالى فيغفرَ له»[2] فإنَّه رتَّب فيه المغفرة على إدراك الرحمة، وهو ظاهرٌ في أنَّه ليس المرادُ بها الرحمةَ الدنيويةَ؛ لأنَّ المغفرةَ لا تَترتَّب عليها وإنما يترتَّبُ عليها النجاة.

وقال بعضُ المحقِّقين: إنما فعَلَ جبريلُ عليه السلام مافعَلَ غَضَباً عليه لِمَا صدَرَ منه، وخوفاً أنَّه إذا كَرَّر ذلك ربَّما قُبِل منه على سبيلِ خَرْق العادة لسعةِ بحر الرحمة الذي يستغرقُ كلَّ شيءٍ، وأمَّا الرضا بالكفر فالحقُّ أنه ليس بكفرٍ مطلقاً، بل إذا اسْتُحسِنَ، وإنما الكفرُ رضاه بكفرِ نفسه، كما في «التأويلات» لعَلَم الهدى[3]. انتهى.

وقد تقدَّم آنفاً ما يتعلَّق بهذه المسألة[4]، فتذكَّرْه فما في العهد مِن قِدَمٍ، نعم قيل: إنَّ الرضا بكفرِ نفسِه إنما يكونُ وهو كافرٌ، فلا معنى لعَدِّه كفراً والكفرُ حاصلٌ قبله، وهو على ما له وما عليه بحثٌ آخرُ لا يضرُّ فيما نحن فيه.

والطيبي بعد أنْ أجابَ بما أجابَ أردفَ ذلك بقوله: على أنَّه ليس للعقل مجالٌ في مثل هذا النقلِ الصحيح إلا التسليمُ، ونسبةُ القصور إلى النفس.

---

(١) تفسير أبي السعود ٤/ ١٧٣.

(٢) تفسير الطبري ١٢/ ٢٧٦، وشعب الإيمان (٩٣٩٠)، وأخرجه أيضاً ابن عدي في الكامل ٢/ ٧٨٩. وفيه كثير بن زاذان، وهو مجهول كما قال الحافظ في التقريب.

(٣) هو أبو منصور الماتريدي، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٥٨.

(٤) ص٢٥٨-٢٥٩ من هذا الجزء.

وقد يقال: إنَّ الخبر متى خالفَ صريحَ العقل، أو تضمَّن نسبةَ ما لا يُتصوَّر شرعاً في حقِّ شخصٍ إليه، ولم يُمكن تأويلُه على وجهٍ يُوافق حكمَ العقل ويندفعُ به نسبةُ النقص، لا يكون صحيحاً، واتِّهامُ الراوي بما يُوهِنُ أمرَ روايته أهونُ من اتِّهام العقل الصريحِ، ونسبةُ النقص إليه دون نسبةِ النقص إلى مَن شَهِدَ الله تعالى ورسولُه صلى الله تعالى عليه بعصمتِه وكماله، فتأمَّل والله تعالى الموفِّق.

وقوله سبحانه: ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ في موضع الحال من فاعل الفعلِ العامل في الظرف، جيء به لتشديد التوبيخ والتقريع على تأخير الإيمان إلى هذا الآن، ببيانِ أنَّه لم يكن تأخيرُه لِمَا عسى يُعَدُّ عُذراً، بل كان ذلك على طريقة الردِّ والاستعصاء والإفساد، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ عطفٌ على «عَصَيْتَ» داخلٌ في حيِّز الحالِ، والتحقيق أي: وقد كنتَ من المفسدين الغالين في الضلال والإضلال عن الإيمان، فهذا عبارةٌ عن فساده الراجعِ إلى نفسه والساري إلى غيره من الظلم والتعدِّي وصدٍّ بني إسرائيلَ عن السبيل، والأول عن عصيانه الخاصِّ به.

وقوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ تهكُّمٌ به وتخييب له وحسمٌ لأطماعه بالمرَّة، والمرادُ: فاليوم نُخرجُك مما وقع فيه قومُك من قَعْر البحرِ، ونجعلُك طافياً مُلابساً ببدنك عارياً عن الروح، إلا أنَّه عبَّر عن ذلك بالتَّنجِيَة مجازاً، وجَعَل الجارَّ والمجرورَ في موضع الحالِ من ضمير المخاطَب لذلك، مع ما فيه من التلويح بأنَّ مُراده بالإيمان هو النجاةُ.

وقيل: معنى الحال: عارياً عن اللباس، أو تامَّ الأعضاء كاملَها.

وجعَلَ بعضُ الأفاضل الكلامَ على التجريد، وجَوَّز أنْ تكونَ الباءُ زائدةً و«بَدَنك» بدلَ بعضٍ من ضمير المخاطب، كأنَّه قيل: نُنَجِّي بَدَنك.

وجَعْلُ الباء للآلة ليكونَ على وزان قولك: أَخذتَه بيدِكَ، ونظرتَه بعينِكَ، إيذاناً بحصول هذا المطلوبِ البعيدِ التناولِ، وَجْهٌ لكنَّه غيرُ وجيهٍ كما لا يخفَى.

وقيل: التنجيةُ الإلقاءُ على النجوة، وهي المكان المرتفع، قيل: وسُمِّي به لنجاته عن السيل، وإلى هذا ذهب يونس بن حبيب النحوي، فقد أخرج ابنُ

الأنباري وأبو الشيخ عنه أنَّه قال: المعنى: نجعلُك على نجوةٍ من الأرض كي يَراك بنو إسرائيلَ فيعرفوا أنَّك قد متَّ[١].

وجاء تفسير البَدَن بالدِّرع، ورُوي ذلك عن محمد بنِ كعب وأبيٍّ، وكانت له دِرعٌ من ذهبٍ يُعرَف بها، وفي روايةٍ أنَّها كانت من لؤلؤ.

وأخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جهضمَ موسى بنِ سالم أنَّه كان لفرعونَ شيءٌ يلبسُه ـ يقال له: البدن ـ يتلألأ[٢].

وقرأ يعقوب: «نُنْجِيكَ» من باب الإفعال[٣]، وهو بمعنى التفعيل بمعنييه السابقَين.

وأخرج ابنُ الأنباري[٤] عن محمد بن السَّمَيفع اليماني ويزيد البربريِّ أنَّهما قرأا: «نُنَحِّيك» بالحاء المهملة، ونُسبَت إلى أبي بن كعب وأبي السمال[٥]، أي: نجعلُك في ناحيةٍ ونُلقيك على[٦] الساحل.

وقرأ أبو حنيفة ﷺ: «بأَبْدَانِكَ» على صيغة الجمع[٧]، بجعل كلِّ عضوٍ بمنزلة البدن، فأطلق الكلّ على الجزء مجازاً، وعلى هذا جمع الأجرام في قوله:

وكم موطنٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى ... بأجرامه من قُلَّة النِّيق مُنْهوي[٨]

أو بإرادة: دروعك، بناءً على أنَّ المخذول كان لابساً درعاً على درعٍ.

وأخرج ابنُ الأنباري عن ابن مسعود ﷺ أنَّه قرأ: «بِنِدَائكَ»[٩]، أي: بدعائك.

---

(١) الدر المنثور ٣/٣١٦.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٤ دون قوله: يتلألأ، والكلام من الدر المنثور ٣/ ٥١٦.

(٣) النشر ٢/ ٢٥٩.

(٤) كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٦.

(٥) المحتسب ١/ ٣١٦، والبحر ٥/ ١٨٩، عن أبيٍّ وابن السميفع ويزيد البربري. وذكرها عن أبي السمال الشهاب في الحاشية ٧/ ٥٨.

(٦) في الأصل: إلى.

(٧) البحر ٥/ ١٨٩.

(٨) البيت ليزيد بن الحكم الثقفي كما في الكتاب ٢/ ٣٧٤، والخصائص ٢/ ٢٥٩، وسلف ١٠/ ٢٧٢.

(٩) الدر المنثور ٣/ ٣١٦، والقراءة في القراءات الشاذة ص٢٥٨، والبحر ٥/ ١٨٩.

﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: لتكونَ لمن يأتي بعدك مِن الأمم إذا سمعوا مآلَ[1] أمركَ ممن شاهد حالك وما عراك عبرةً ونكالاً من الطغيان، أو حجَّةً تدلُّهم على أنَّ الإنسان وإنْ بلَغَ الغايةَ القصوى من عِظَم الشأن وعلوِّ الكبرياء وقوَّةِ السلطان، فهو مملوكٌ مقهورٌ بعيدٌ عن مظانِّ الألوهية والربوبية.

وقيل: المرادُ بمَن خلفه مَن بقي بعده من بني إسرائيلَ، أي: لتكونَ لهم علامةً على صدق موسى عليه السلام، إذ كان في نفوسهم من عظمته ما خَيَّل إليهم أنَّه لا يهلك، فكذَّبوا لذلك خبرَ موسى عليه السلام بهلاكه، حتى عاينوه على ممرِّهم من الساحل أحمرَ قصيراً كأنَّه ثورٌ، ورُوي هذا عن مجاهد.

وقرئ: «لمن خَلَفَك» فعلاً ماضياً[2]، أي: حلَّ مكانك.

ونُسِبَ إلى ابن السميفع وأبي السمال أنَّهما أيضاً قرأا: «لمن خَلَقَك» بفتح اللام والقاف، أي: لتكونَ لخالقك آيةً كسائر الآيات، فإنَّ إفرادَه سبحانه إيَّاك بالإلقاء إلى الساحل دليلٌ على أنَّه قصْدٌ منه جلَّ شأنه لكَشْف تزويرك وإماطةِ الشُّبهات في أمرك، وبرهانٌ نَيِّرٌ على كمال علمه وقدرته وحكمته وإرادته، وهو معنًى لا بأس به يصحُّ أنْ تُوجَّه به الآية على القراءة المشهورة أيضاً.

ذكر في «النشر»: أنَّ مما لا يُوثَق بنقله قراءةُ ابن السَّميفع وأبي السمَّال: «ننحِّيك» بالحاء، و: «لمن خَلَقَك» بالقاف[3].

وفي تعليل تنجيته بما ذُكر كما قاله بعض المحققين إيذانٌ بأنَّها ليسَت لإعزازه أو لفائدةٍ أُخرى عائدةٍ إليه، بل لكمال الاستهانة به وتَفْضِيحه على رؤوس الأشهاد، وزيادةِ تَفْظيعِ حاله، كمن يُقتَل ثم يُجَرُّ جسدُه في الأسواق، ويُطرح جيفةً في الميدان، أو يُدارُ برأسِه في النواحي والبلدان.

واللام الأُولى متعلِّقةٌ بالفعل قبلها، والثانيةُ بمحذوفٍ وَقَع حالاً من «آية»، أي: كائنةً لمن خَلْفَك، وجاء الردُّ على هذا المخذول على طِرْز ما أتى به في قوله: «آمنتُ

---

(١) في (م): حال، والمثبت من الأصل وتفسير أبي السعود ٤/ ١٧٤، والكلام منه.
(٢) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر٥/ ١٨٩.
(٣) النشر ١/ ١٦، والقراءة بالقاف ذكرها أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٦٢ عن ابن السميفع وأبي المتوكل وأبي الجوزاء، والقرطبي ١١/ ٥١ عن عليٍّ رضي الله عنه.

أنَّه» إلخ في اشتماله على المبالغة، كما لا يخفى على مَن تفكَّر في الآية، وقد قُرِّر فَحْوَى المحكيِّ بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي: لا يتفكَّرون فيها ولا يعتبرون بها، وهو اعتراضٌ تذييليٌّ جيء به عند الحكاية لذلك.

ولهذه الآيةِ وأشباهِها وَقَع الإجماع على كفر المخذولِ وعدم قبول إيمانه، ويشهدُ لذلك أيضاً ما رواه ابنُ عدي والطبرانيُّ من أنَّه ﷺ قال: «خلَق الله تعالى يَحيَى بنَ زكريَّا في بطن أُمِّه مؤمناً، وخَلَق فرعونَ في بَطْن أُمِّه كافراً»(١) فهو من أهل النار المخلَّدين فيها بلا ريب، وبذلك قال الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه في أول كتابه «الفتوحات» في الباب الثاني والستين منه، حيث ذَكَر أنَّ الذين خَذَلهم الله تعالى من العباد جعَلَهم طائفتَين: طائفةٌ لا تضرُّهم الذنوب التي وقعت منهم، وإليهم الإشارةُ بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة:٢٦٨] وهؤلاء لا تمسُّهم النار بما تاب الله تعالى عليهم، واستغفارِ الملأ الأعلى ودعائِهم لهم.

وقسم الطائفةَ الأخرى إلى قسمَين: قسمٌ أَخرجَهم من النار بالشفاعة، وهم طائفةٌ من المؤمنين وأهلِ التوحيد ماتوا ولم تُكفَّر عنهم خطاياهم. وقسمٌ آخرُ أبقاهم في النار، وهم المجرمون خاصةً الذين يُقال لهم يوم القيامة: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يس:٥٩] ولهم يقال: أهل النار؛ لأنَّهم الذين يَعمُرُونها، وهم على أربع طوائفَ كلُّهم في النار لا يخرجون منها:

الطائفةُ الأُولَى: المتكبِّرون على الله تعالى، كفرعونَ وأشباهِهِ ممن ادَّعى الربوبيَّة لنفسه ونفاها عن الله تعالى، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص:٣٨] وقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤] يريد به: ما في السماء غيري، وكذلك نمروذ وغيرُه.

والثانية: المشركون، وهم الذين أَثبتُوا الله تعالى إلا أنَّهم جعلوا معه آلهةً أُخرى، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣].

---

(١) الكامل ٦/ ٢٢٢١، والمعجم الكبير (١٠٥٤٣) من حديث ابن مسعود ﷺ. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٩٣: إسناده جيد.اهـ. وفي الباب ما أخرجه مسلم (٢٦٦٢) من حديث عائشة ﵂ بلفظ: «إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم وهم في أصلاب آبائهم».

والثالثة: المعطِّلة، وهم الذين نَفَوا الإله جملةً واحدةً، فلم يُثبتوا للعالَم إلهاً أصلاً.

والرابعة: المنافقون، وهم الذين أظهروا الإيمانَ للقهر الذي حُكم عليهم، وهم في نفوسهم على ما هم عليه من اعتقاد إحدى هذه الطوائفِ الثلاثِ.

فهؤلاء الأصنافُ الأربعة هم أهلُ النار الذين لا يخرجون منها من الجِنِّ والإنس. انتهى[(١)].

وهو صريحٌ فيما قلنا، إلا أنَّه ذهب في موضع آخرَ من الكتاب المذكور إلى خلافه، فقال في الباب السابع والستين ومئة[(٢)] ما حاصلُه: إنَّ الله تعالى لمَّا عَلم أنَّه قد طَبَع على كلِّ قلبِ مظهِرٍ للجبروت والكبرياء، وأنَّ فرعونَ في نفسه أذلُّ الأذلَّاءِ، أمر موسى وهارون عليهما السلام أنْ يُعاملاه بالرحمة واللين، لمناسبة باطنِه واستنزالِ ظاهرِه من جبروته وكبريائه، فقال سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤] و«لعل» و«عسى» من الله تعالى واجبتان، فيتذكر[(٣)] بما يُقابله من اللين والمسكنة ما هو عليه في باطنه، ليكونَ الظاهرُ والباطنُ على السواء، فما زالَت تلك الخميرةُ معه تعملُ في باطنه مع التَّرجِّي الإلهي الواجب فيه وقوعُ المترجَّى، ويتقوَّى حُكْمُها، إلى حين انقطاعِ يأسِهِ من أتباعه، وحَالَ الغرقُ بينه وبين أطماعه، لَجَأ إلى ما كان مُستتراً في باطنه من الذِّلة والافتقار، ليتحقَّق عند المؤمنين وقوعُ الرجاء الإلهي، فقال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فرفع الإشكال من الإشكال[(٤)]، كما قالت السحرة لمَّا آمنتْ: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٨] أي: الذي يَدعُوَان إليه، فجاءَتْ بذلك لدفع[(٥)] الارتياب ورفع الإشكال.

وقوله: «وأنا من المسلمين» خطابٌ منه للحقِّ تعالى لعِلْمِهِ أنَّه سبحانه

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ٣٠١-٣٠٢.

(٢) الفتوحات المكية ٢/ ٢٧٦.

(٣) في الأصل و(م): فتذكر، والمثبت من الفتوحات.

(٤) في الفتوحات: لرفع الإشكال عند الإشكال.

(٥) في الأصل: لرفع.

يَسمَعُه ويراه، فخاطبه الحقُّ بلسان الغيب وسمعِه[١]: آلآن أظهرتَ ما قد كنتَ تَعلَمُه، وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين لأتباعك. وما قال له: وأنت من المفسدين، فهي كلمةُ بُشرى له عرَّفَنا بها لنرجوَ رحمتَه مع إسرافنا وإجرامنا، ثم قال سبحانه: (فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً) يعني: لتكون النجاةُ لمن يأتي بعدك آيةً، أي: علامةً، إذا قال ما قُلتَه تكونُ له النجاةُ مثلَ ما كانت لك، وما في الآية أنَّ بأسَ الآخرة لا يرتفعُ وأنَّ إيمانه لم يُقبل، وإنما فيها أنَّ بأس الدنيا لا يرتَفعُ عمَّن نزل به إذا آمن في حالِ نزوله إلَّا قومَ يُونُس عليه السلام، فقوله سبحانه: (فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ) بمعنى أنَّ العذاب لا يتعلَّق إلا بظاهرك، وقد أَرَيْتُ الخلقَ نجاتَه من العذاب فكان ابتداءُ الغرق عذاباً، فصار الموتُ فيه شهادةً خالصةً بريئةً لم يتخلَّلها معصيةٌ، فقُبضَ[٢] على أفضل عملٍ، وهو التلفُّظ بالإيمان، كلُّ ذلك حتى لا يَقنطَ أحدٌ من رحمة الله تعالى، والأعمالُ بخواتيمها، فلم يزل الإيمان بالله تعالى يجول في باطنه، وقد حالَ الطابعُ الإلهيُّ الذاتيُّ في الخلق بين الكبرياء واللطائف الإنسانية، فلم يَدخُلها قطُّ كبرياء.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر:٨٥] فكلامٌ محقَّقٌ في غاية الوضوح، فإنَّ النافع هو الله تعالى، فما نَفعهم إلَّا الله[٣] سبحانه، وقوله عزَّ وجل: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ [غافر:٨٥] فيعني بذلك الإيمان عند رؤية البأس الغير المعتادِ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد:١٥] فغاية هذا الإيمانِ أنْ يكونَ كرهاً، وقد أَضافه الحقُّ سبحانه إليه، والكراهةُ محلُّها القلبُ، والإيمانُ كذلك، والله تعالى لا يأخُذ العبدَ بالأعمال الشاقَّة عليه من حيث ما يجدُه من المشقَّة فيها، بل يُضاعف له فيها الأجرَ، وأمَّا في هذا الموطن فالمشقَّةُ منه بعيدةٌ، بل جاء طوعاً في إيمانه وما عاش بعد ذلك بل قُبض ولم يؤخَّر، لئلا يرجع إلى ما كان عليه

(١) في الفتوحات: بلسان العتب وأسمعه.
(٢) في الفتوحات: فقبضت.
(٣) في (م): هو، والمثبت من الأصل والفتوحات.

من الدعوى، ولو قبض رُكَّاب البحر الذين قال سبحانه فيهم: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] عند نجاتهم لماتوا موحِّدين، وقد حصَلَت لهم النجاة.

ثم قوله تعالى في تَتْميم قصته هذه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ على معنى: قد ظهَرَت نجاتُك آيةً، أي: علامةً على حصول النجاة، فغَفَل أكثرُ الناس عن هذه الآيةِ، فقضَوا على المؤمن بالشقاء، وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨] فليس فيه أنَّه يَدخُلُها معهم، بل قال جلَّ وعلا: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] ولم يقُل: أَدخِلُوا فرعونَ وآلَه، ورحمةُ الله تعالى أوسعُ مِن أَنْ لا يقبلَ إيمانَ المضطرِّ، وأيُّ اضطرارٍ أعظمُ من اضطرار فرعونَ في حال الغرق؟ والله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] فقرَن للمضطرِّ إذ دعاه بالإجابة[1] وكشفِ السوءِ عنه، وهذا آمَنَ لله تعالى خالصاً، وما دعاه في البقاء في الحياة الدنيا خوفاً من العوارض وأنْ يُحالَ بينه وبين هذا الإخلاص الذي جاءه في هذه الحال، فرجَحَ جانبُ لقاءِ الله تعالى على البقاء بالتلفُّظ بالإيمان، وجَعَل ذلك الغرقَ نكالَ الآخرةِ والأُولَى، فلم يكُنْ عذابُه أكثرَ مِن غَمِّ الماء الأُجاج، وقَبَضَه على أحسن صفة، وهذا هو الذي يُعطيه ظاهرُ اللَّفظ، وهو معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦] يعني: في أَخْذِه نكالَ الآخرة والأولَى، وقدَّم سبحانه ذِكْرَ الآخرةِ على الأولى ليُعلم أنَّ ذلك العذابَ ـ أعني: عذابَ الغرق ـ هو نكالُ الآخرة، وهذا هو الفضلُ العظيم. انتهى.

وهو نصٌّ في إيمانه، بل في كونه من الشهداء، بناءً على أنَّ الموتَ غَرَقاً شهادةٌ للمؤمنين كما أجمع عليه أئمةُ الدين على خلافٍ في موت مَن قصَّر في تعلُّم السباحة غريقاً، هل يُعَدُّ شهادةً أم لا؟ فإنَّ بعض الشافعيةِ ذهب إلى أنَّ المقصِّر المذكورَ إذا مات غريقاً مات عاصياً لا شهيداً، وإنَّما الشهيدُ مَن مات كذلك وكان عارفاً بالسباحة، أو غيرَ مُقصِّرٍ في تعلُّمها لكنْ لم يتعلَّم، وكأنَّ الشيخ قُدِّس سرُّه لا يقول بهذا التفصيل، أو كان يَعلمُ أنَّ فرعونَ كان ممن يعلمُ السباحةَ، أو ممن لم يُقصِّر في تعلُّمها، أو أنَّه يقول: إنَّ الإيمان كَفَّر عنه كلَّ معصيةٍ قبله، ومِن جملة ذلك

(١) في الفتوحات: الإجابة.

معصيةُ التقصير مثلاً التي هي دون قوله: (أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ) و(مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى) بألفِ ألفِ مرتبةٍ.

لكن لا أدري هل الغريقُ شهيدٌ في شريعة موسى عليه السلام كما هو كذلك في شريعتنا، أم هذا الأمرُ من خواصِّ هذه الشريعة التي أَنعمَ الله تعالى على أهلها بما أَنعمَ كرامةً لنبيِّها ﷺ.

وقد ذَهبَ قُدِّس سرُّه في كتابه «فصوص الحكم» إلى نحو ما ذهب إليه أخيراً في كتابه «الفتوحات». وقد اعتَرضَ عليه بذلك غيرُ واحدٍ، وهو عندي ليس بأعظمَ مِن قوله قُدِّس سرُّه بإيمان قومِ نوحٍ عليه السلام وكثيرٍ من أضرابهم، ونجاتِهم يوم القيامة، وقد نصَّ على ذلك في «الفصوص».

والعجبُ أنَّه لم يَكثُر مُعترِضُوه في ذلك كثرتَهم في القول بإيمان فرعون؛ وقد انتصَرَ له بعضُ الناس، ومنهم في المشهور الجلالُ الدوانيُّ، وله رسالةٌ في ذلك أتى فيها بما لا يُعَدُّ شيئاً عند أصاغر الطلبة، لكنْ في «تاريخ حلب» للفاضل الحلبي - كما قال مولانا الشهاب - أنَّها ليسَت للجلال، وإنَّما هي لرجلٍ يُسمَّى محمد بن هلال النحْوي، وقد ردَّها القزويني وشنَّع عليه وقال: إنما مَثَلُه مثلُ رجلٍ خاملِ الذكرِ لمَّا قَدِم مكة بال في زمزم ليشتهرَ بين الناس، وفي المثل: خالِفْ تُعرَفْ. ويُؤيِّد كونَها ليسَت للجلال أنَّه شافعيُّ المذهب، كما يشهد لذلك حاشيتُه على «الأنوار»؛ وفي «فتاوى» ابنِ حجر: أنَّ بعضَ فقهائنا كفَّر مَن ذهب إلى إيمان فرعون[1]. مع ما عليه تلك الرسالةُ من اختلال العبارةِ وظهورِ الركاكةِ وعدم مُشابَهَتها لسائر تأليفاته، ولولا خوفُ الإطالة لسردتُها عليك.

وبالجملةِ ظواهرُ الآي صريحةٌ في كُفْر فرعونَ وعدمِ قبول إيمانه، ومن ذلك قولُه سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٥٧، وينظر الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي ص ٢٨٩ و٢٩١، والزواجر عن اقتراف الكبائر له ١/ ٣١.

فِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٣٨-٤٠] فإنَّه ظاهرٌ في استمرار فرعونَ على الكفر والمعاصي الموجبةِ لِمَا حلَّ به كما يدلُّ عليه التعبيرُ بكان والفعلِ المضارع، ومع الإيمان لا استمرار، على أنَّ نظمه في سلكِ مَن ذُكر معه ظاهرٌ أيضاً في المدَّعى.

وألحقَ بعضُهم بذلك قوله تعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه:٣٩] بناءً على أنَّ «عدوّ» صفةٌ مشبهةٌ، وهي للثبوت، فيدلُّ على ثبوت عداوته لله تعالى وعداوتِه لرسوله عليه السلام، وثبوتُ إحدى العداوتَين كافٍ في سوءِ حاله خلافاً لمن وَهِمَ.

وقد صرَّحوا أيضاً بأنَّ إيمان البأس واليأس غيرُ مقبولٍ، ولا شكَّ أنَّ إيمان المخذول كان من ذلك القبيل، وإنكارُه مكابرةٌ، وقد حُكي إجماعُ الأئمة المجتهدين على عدم القبول، ومُستَندُهم فيه الكتابُ والسُّنَّة، وما يُنقل عن الإمام مالكٍ من القبول لم يثبت عند المطَّلعين على أقوال المجتهدين واختلافاتهم.

نعم صرَّح الإمام القاضي عبد الصمد من ساداتنا الحنفية في تفسيره(١) بأنَّ مذهب الصوفيةِ أنَّ الإيمان يُنْتَفعُ به ولو عند معاينة العذاب، وهذا الإمام متقدِّمٌ على الشيخ الأكبر قدس سره بنحو مئةِ سنة(٢)، وحينئذٍ تُشكل حكايةُ الإجماع، إلا أنْ يقال بعدم تَسليمِ صحَّة ذلك عن الصوفية الذين هم من أهل الاجتهادِ المعوَّل عليهم؛ لما فيه مِن المخالفة للأدلَّة الظاهرةِ في عدم النفعِ، فلا يُخلُّ ذلك بالإجماع بالإجماع.

وفي «الزواجر»: أنَّه على تقدير التسليم لا يَضرُّنا ذلك في دعوى عدم إجماعِ الأُمة على كفر فرعون؛ لأنَّا لم نحكم بكفره لأجل إيمانه عند البأس فحسب، بل لِمَا انضمَّ إليه من أنَّه لم يؤمن بالله تعالى إيماناً صحيحاً، بل كان تقليداً محضاً بدليل قوله: «إلا الذي آمنَتْ به بنو إسرائيل»، فكأنَّه اعترف بأنَّه لا يَعْرِفُ الله تعالى، وإنَّما سمع من بني إسرائيل أنَّ للعالم إلهاً فآمن بذلك الإله الذي سمع بني

(١) كما في الزواجر لابن حجر ١/ ٣١.
(٢) كان موجوداً أوائل المئة الخامسة في سنة (٤٣٠هـ). الزواجر ١/ ٣١.

إسرائيل يُقِرُّون بوجوده، وهذا هو محضُ التقليد الذي لا يقبل، لا سيما من مثل فرعونَ الذي كان دهريّاً منكراً لوجود الصانع، فإنه لا بدَّ له من برهانٍ قطعيٍّ يُزيلُ ما هو عليه من الاعتقاد الخبيثِ البالغِ نهايةَ القُبحِ والفحشِ.

وأيضاً لا بدَّ في إسلام الدهريِّ ونحوِه ممن كان قد دان بشيءٍ أنْ يُقِرَّ ببطلان ذلك الشيء الذي كُفِّر به، فلو قال: آمنتُ بالذي لا إله غيرُه، لم يكن مسلماً، وفرعون لم يعترف ببطلان ما كان كفَّر به من نفي الصانع وادِّعاءِ الإلهية لنفسه الخبيثة، وقوله: «إلا الذي آمَنَتْ به بنو إسرائيل» لا يُدرَى ما الذي أراد به، فإذا[1] صرَّح الأئمة بأنَّ: آمنتُ بالذي لا إله غيرُه، لا يحصل الإيمان للاحتمال، فكذا ما قاله، وعلى التنزُّل فالإجماعُ منعقدٌ على أنَّ الإيمان بالله تعالى مع عدم الإيمان بالرسول لا يصحُّ، فلو سلَّمنا أنَّ فرعون آمنَ بالله تعالى إيماناً صحيحاً، فهو لم يُؤمن بموسى عليه السلام ولا تعرَّض له أصلاً، فلم يكُن إيمانُه نافعاً، ألا ترى أنَّ الكافر لو قال ألوفاً من المرات: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ، أو: إلا الذي آمن به المسلمون، لا يكونُ مؤمناً حتى يقولَ: وأنَّ محمداً رسولُ الله. والسحرةُ تعرَّضوا في إيمانهم للإيمان بموسى عليه السلام بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء:٤٨] فلا يقال: إنَّ إيمان فرعونَ على طرز إيمانهم لذلك، على أنَّ إيمانَهم حين آمنوا كان بمعجزةِ موسى عليه السلام، والإيمان بالله تعالى مع الإيمان بمعجزة الرسول إيمانٌ بالرسول، فهم آمنوا بموسى عليه السلام، بخلاف فرعون فإنَّه لم يَتعرَّض للإيمان به عليه السلام أصلاً، بل في ذِكْرِه بني إسرائيل دونه - مع أنَّه الرسولُ العارفُ بالإله وما يليق به، والهادي إلى طريقه - إشارةٌ ما إلى بقائه على كفره به.

وما ذكَره الشيخ الأكبر قُدِّس سرُّه في توجيه آية: (حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ) إلخ خارجٌ عن ذَوق الكلامِ العربيِّ، وتجشُّمُ تكلُّفٍ لا معنى له، ويُرشدك إلى بعض ذلك أنَّه قُدِّس سره حَمَل قوله تعالى: (ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ) إلخ على العتب والبشرَى، مع أنَّه لا يخفَى أنَّه لو صحَّ إيمانُه وإسلامه، لكان الأنسب بمقام الفضلِ الذي إليه طَمَحَ نظرُ الشيخ أنْ يقال له: الآن نَقْبلُك ونُكرمُك، لاستلزام صحَّةِ إيمانه رِضا الحقِّ

---

(١) في الأصل و(م): فلذا، والمثبت من الزواجر.

عنه، ومَن وَقَع له الرضا لا يُخاطَبُ بمثل ذلك الخطاب، كما لا يخفَى على مَن له وقوفٌ على أساليبِ كلامِ العرب ومحاوراتهم.

وأيضاً كيف يُخاطَبُ مَن محا الإيمانُ عصيانَه وإفسادَه بما هو ظاهرٌ في التأنيب المحضِ والتقريع الصرفِ والتوبيخ البحْتِ، فما ذلك إلا لإقامة أعظم نَوَاميسِ الغضب عليه، وتَذكيرِه بقبائحه التي قدَّمها، وإعلامِه بأنَّها هي التي منعَتْهُ عند[1] النُّطق بالإيمان إلى حيث لا ينفعُهُ.

وكذا تأويلُه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [غافر: ٨٥] بأنَّ النافعَ هو الله تعالى، مع أنَّ اصطلاح الكتابِ والسُّنة نِسبةُ الأشياءِ إلى أسبابها إيجاباً وسَلْباً، فإذا قيل: لا ينفعُ الإيمان، فليس معناه الشرعيُّ إلا الحكمَ عليه بأنَّه باطلٌ لا يُعتدُّ به؛ وأيُّ معنًى سوَّغ تخصيصَ نفعِ الله تعالى بهذه الحالةِ التي هي حالةُ وقوعِ العذابِ مع النظر إلى ما هو الواقعُ مِن أنَّ الله تعالى هو النافعُ حقيقةً في كلِّ وقتٍ، ولو نَفَعهم لَمَا استأصَلَهم بالعذاب، وقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] دليلٌ واضحٌ على أنَّ المرادَ بـ «لم يكُ ينفعُهم إيمانُهم» أنَّهم باقون مع ذلك الإيمان على الكفر.

إلى غير ذلك ممَّا لا يخفَى على الناظر في كلامه قدِّس سره، فالذي ينبغي أنْ يُعوَّلَ عليه ما ذَهَبَ أولاً إليه، وقد قالوا: إذا اختَلَفَ كلامُ إمامٍ يُؤخَذُ منه بما يُوافقُ الأدلَّة الظاهرةَ، ويُعرَض عمَّا خالفها، ولا شكَّ أنَّ ما ذهب إليه أولاً هو الموافقُ لذلك.

على أنَّه لو لم يكن له قدس سرُّه إلا القولُ بقبول إيمانه لا يَلزمُنا اتِّباعُه في ذلك والأخذُ به، لمخالفته ما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنةُ، وشهدَت به أئمةُ الصحابة والتابعين فَمَن بعدَهم من المجتهدين، وجلالةُ قائله لا تُوجب القبولَ، فقد قال مالكٌ وغيرُه: ما مِن أحدٍ إلا مأخوذٌ من قوله ومردودٌ عليه إلا صاحب هذا القبر. يعني النبيَّ ﷺ[2].

وعن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه: لا تَنظر إلى مَن قال، وانظر إلى ما قال.

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والذي في الزواجر ١/ ٣٢: عن.
(٢) الزواجر ١/ ٣٠-٣٢.

وكأنَّ الشيخ قدس سرُّه قال ذلك من طريق النظر، والنظرُ يُخطئ ويُصيب، وَمن عَلِمَ أنَّ للنبيِّ عليه الصلاة والسلام اجتهاداً جاء الوحيُ بخلافِهِ لم يَستعظم ما قيل في الشيخ وإنْ كان هو هو.

على أنَّه لو كان قال ذلك مِن طريق الكشف إلا أنَّه أَبدَى الاستدلالَ تفهيماً وإرشاداً إلى أنَّ فَهْمَه لم يُخالف ما يدلُّ عليه الكتاب لم يلزمنا أيضاً تقليدُه، بل قد مرَّ عن الإمام الرباني قُدِّس سره[1] أنَّه لا يجوز تقليدُ الكشفِ، وصرَّح غيرُ واحدٍ بأنَّه ليس بحجَّةٍ على الغير، كالإلهام، ولا يَثبُتُ به حُكْمٌ شرعيٌّ.

وأنت تعلم أنَّه لو كان كلٌّ مِن القولَين مِن طريق الكشفِ يَلزمُ انقسامُ الكشفِ إلى صوابٍ وخطأ كالنظر، ضرورةَ عدمِ اجتماع الإيجاب والسلب على الكذب ولا على الصدق، وهو ظاهرٌ، وقد قال بعضُهم بالانقسام، ويخفى وجْهُهُ.

ومن الناس مَن أوَّل كلامَ الشيخ المثبِتِ لقبول الإيمان بأنَّ المرادَ بفرعونَ فيه النفسُ الأمَّارة، وبموسى وهارون المأمورَين بالقول اللَّيِّن موسى الروحِ وهارونُ القلب، وأَخَذَ يقرِّر الكلام على هذا السَّنَن، ولا يخفَى أنَّ ارتكابَ ذلك ـ على ما فيه من التكلُّف الظاهر الكلف ـ في كلام الشيخ ما يأباه، ولعلَّه خلافُ مَطمَح نظرِه، ولذلك لم يَرتكبه أَجلَّةُ أصحابه، بل أَبقوا كلامَه على ظاهره، وهو الظاهر، وإكفارُ بعضِ المنكرين له فيه ضلالٌ وأيُّ ضلالٍ، وظلمٌ عظيم موجبٌ للنكال، فإنَّ له قدس سره في ذلك مستنداً كغيره المقابِل له، وإن اختلفَا في القوة والضعف، على أنَّ الوقوفَ على حقيقة هذه المسألة ليس مما كُلِّفنا به، فلا يضرُّ الجهلُ بها في الدين، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ سيق لبيان النعم الفائضةِ عليهم إثْرَ نعمةِ الإنجاء على وجه الإجمال، وإخلالهم بشكرها. وبَوَّأ بمعنى أَنْزلَ كأَبَاءَ، والاسم منه البِيئَةُ بالكسر كما في «القاموس»[2]، وجاء: بَوَّأه مَنزلاً وبَوَّأه في منزلٍ، وكذا بَوَّأتَ له مكاناً: إذا سوَّيته، وهو مما يتعدَّى لواحدٍ ولاثنين، أي: أنزلناهم بعد أنْ أنجَيْناهم وأهلكنا أعداءَهم.

---

(١) ص٢٦٦ من هذا الجزء.
(٢) مادة (بوأ).

﴿مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ أي منزلاً صالحاً مَرْضياً، وهو اسمُ مكانٍ منصوبٌ على الظرفية، ويَحْتَمِلُ المصدريَّةَ بتقديرِ مضافٍ ـ أي: مكانَ مُبَوَّأ ـ وبدونه، وقد يُجعل مفعولاً ثانياً.

وأصلُ الصدق ضدُّ الكذب، لكنْ جَرَت عادةُ العرب على أنَّهم إذا مدحوا شيئاً أضافوه إلى الصدق، فقالوا: رجلُ صدقٍ، مثلاً، إذا كان كاملاً في صفته صالحاً للغرض المطلوب منه، كأنَّهم لاحظوا أنَّ كلَّ ما يُظَنُّ به فهو صادق.

والمرادُ بهذا المبوَّأ كما رواه ابنُ المنذر وغيرُه عن الضحاك الشامُ ومصرُ[1]، فإنَّ بني إسرائيل الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام، وهم المرادون هنا، ملكوا ذلك حسبما ذَهَب إليه جمعٌ من الفضلاء.

وأخرج أبو الشيخ وغيرُه عن قتادة أنَّ المرادَ به الشامُ وبيتُ المقدس[2]. واختاره بعضُهم بناءً على أنَّ أولئك لم يعودُوا إلى مصر بعد ذلك.

وأنت تعلم أنَّه ينبغي أنْ يُراد ببني إسرائيل على[3] القولَين ما يشملُ ذرِّيَّتهم، بناءً على أنَّهم ما دخلوا الشام في حياة موسى عليه السلام وإنَّما دخلها أبناؤهم، وقد تقدَّم[4] لك ما يتعلَّق بهذا المقام فتذكَّره.

وقيل: المرادُ به أطرافُ المدينة إلى جهة الشام، وببني إسرائيل بنو إسرائيل الذين كانوا على عهد نبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام.

﴿وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: اللذائذ؛ قيل: وقد يُفسَّر بالحلال ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ﴾ في أُمور دينهم، بل كانوا متَّبعين أَمرَ رسولهم عليه السلام ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أي: إلَّا بعد ما علموا بقراءة التوراةِ والوقوفِ على أحكامها.

---

(١) تفسير الطبري ١٢/ ٢٨٤، وتفسير ابن أبي حاتم ٦/ ١٩٨٥، وعزاه لابن المنذر السيوطي في الدر ٣/ ٣١٦.

(٢) تفسير عبد الرزاق ١/ ٢٩٧، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٨٤، وعزاه لأبي الشيخ السيوطي في الدر ٣/ ٣١٦.

(٣) في (م): عن.

(٤) ٢/ ١٨٥-١٨٦.

وقيل: المعنى: ما اختلفوا في أمر محمدٍ ﷺ إلا بعد ما علموا صِدْقَ نبوَّته بنعوته المذكورة في كتابهم وتَظاهُرِ معجزاته، وهو ظاهرٌ على القول الأخير في المراد من بني إسرائيل المبوَّئين، وأمَّا على القول الأوَّل ففيه خفاءٌ؛ لأنَّ أولئك المبوَّئين الذين كانوا في عصر موسى عليه السلام لم يختلفوا في أمر نبينا ﷺ ضرورةً، ليُنسَب إليهم ذلك الاختلاف حقيقةً، وليس هذا نظيرَ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف:١٤١] الآية، ولا قولِه سبحانه: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٩١] ليُعتبر المجاز.

وزعَم الطبرسيُّ: أنَّ المعنى: أنَّهم كانوا جميعاً على الكفر لم يختلفوا فيه، حتى أُرسِلَ إليهم موسى عليه السلام، ونزلَت التوراةُ فيها حكمُ الله تعالى، فمنهم مَن آمن ومنهم من أصرَّ على كفره(١). وليس بشيءٍ أصلاً كما لا يخفى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ فيميِّز بين المحقِّ والمبطل بالإثابة والعقوبة.

﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: في شكٍّ ما يَسيرٍ، والخطابُ قيل: له ﷺ، والمراد: إنْ كنتَ في ذلك على سبيل الفرض والتقدير؛ لأنَّ الشكَّ لا يُتصوَّر منه عليه الصلاة والسلام، لانكشاف الغطاء له، ولذا عبَّر بـ «إنْ» التي تستعمل غالباً(٢) فيما لا تحقُّق له، حتى تُستعملُ في المستحيل عقلاً وعادةً، كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف:٨١] وقولِه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣٥] وصِدْقُ الشرطية لا يتوقَّفُ على وقوعها كما هو ظاهر.

والمراد بالموصول القصص، أي: إنْ كنتَ في شكٍّ من القصص المنزلَةِ إليك، التي من جملتها قصةُ فرعونَ وقومِه وأخبارُ بني إسرائيل ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ فإنَّ ذلك محقَّقٌ عندهم ثابتٌ في كتبهم حسبما أنزلناه إليك. وخُصَّت القصص بالذكر؛ لأنَّ الأحكام المنزلةَ إليه عليه الصلاة والسلام ناسخةٌ لأحكامهم مخالفةٌ لها، فلا يُتصوَّر سؤالُهم عنها.

---

(١) مجمع البيان ١١/ ٩٣.
(٢) في الأصل: في الغالب، والمثبت من (م) وحاشية الشهاب ٧/ ٥٩، والكلام منه.

والمرادُ بـ «الكتاب» جنسُه، فيشمل التوراةَ والإنجيلَ، وهو المرويُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويُؤيِّده أنَّه قرئ: «الكُتُب» بالجمع[١].

وفسِّر الموصول بمَن لم يؤمن من أهل الكتاب؛ لأنَّ إخبارَهم بما يُوافقُ ما أُنزِلَ المترتِّبَ على السؤال أجدَى في المقصود.

وفسَّره بعضُهم بالمؤمنين منهم كعبد الله بن سلام وتميم الداري، ونُسب ذلك إلى ابن عباس والضحاك ومجاهد.

وتعقِّب بأنَّ ابنَ سلام وغيرَه إنَّما أسلموا بالمدينة، وهذه السورةُ مكيةٌ.

وينبغي أنْ يكونَ المرادُ الاستدلالَ على حَقِّيَّة المنزَل، والاستشهادَ بما في الكُتُب المتقدِّمة على ما ذكر، وأنَّ القرآن مصدِّقٌ لها، ومُحصِّلُ ذلك أنَّ الفائدةَ دفعُ الشكِّ إنْ طرأ لأحدٍ غيرِه ﷺ بالبرهان، أو وصفَ[٢] أهلِ الكتاب بالرسوخ في العلم بصحةِ نبوته ﷺ، وتوبيخَهم على تَرْك الإيمانِ، أو تَهييجَ الرسول عليه الصلاة والسلام وزيادةَ تَثبيتِهِ، وليس الغرضُ إمكان وقوعِ الشكِّ له ﷺ أصلاً، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حين جاءته الآيةُ على ما أخرج عبد الرزاق وابنُ جرير عن قتادة: «لا أشكُّ ولا أسألُ»[٣].

وزَعَم الزجَّاج: أنَّ «إنْ» نافيةٌ، وقوله سبحانه: ﴿فَسْـَٔلِ﴾ جوابُ شرطٍ مقدَّر، أي: ما كنتَ في شكٍّ مما أنزلنا إليك، فإنْ أردْتَ أنْ تزدادَ يقيناً فاسأل[٤]. وهو خلافُ الظاهر، وفيما ذُكرَ غِنًى عنه.

ومثلُه ما قيل: إنَّ الشكَّ بمعنى الضيق والشدَّة بما يعانيه[٥] ﷺ من تعنُّتِ قومه وأذاهم، أي: إنْ ضِقْتَ ذَرعاً بما تلقَى من أذَى قومك وتعنُّتهم فاسأل أهلَ الكتابِ كيف صبَرَ الأنبياءُ عليهم السلام على أَذَى قومهم وتعنُّتهم، فاصبِرْ كذلك. بل هو أبعدُ جداً من ذلك.

---

(١) القراءات الشاذة ص٥٨، والبحر ٥/ ١٩١.

(٢) قوله: أو وصفَ، معطوف على قوله: الاستدلال. ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٩٥.

(٣) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٩٨، والمصنف ٦/ ١٢٦، وتفسير الطبري ١٢/ ٢٨٨.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٣/ ٣٣.

(٥) في (م): يعاينه.

وقيل: الخطابُ له ﷺ والمرادُ به أمتُه، أو لكلِّ مَن يسمع، أي: إنْ كنتَ أيُّها السامعُ في شكٍّ ممَّا أنزلنا على لسانِ نبيِّنا إليك فاسأل، فـ «أنزلْنا إليك» على هذا نظيرُ قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وفي جَعْلِ القراءةِ صلةَ الموصولِ إشارةٌ إلى أنَّ الجوابَ لا يتوقَّفُ على أكثر منها.

وفي الآية تنبيهٌ على أنَّ مَن خالجتْهُ شُبهةٌ في الدِّين ينبغي له مراجعةُ مَن يُزيلُها من أهل العلم، بل المسارعةُ إلى ذلك حسبما تدلُّ عليه الفاءُ الجزائيةُ بناءً على أنَّها تُفيدُ التعقيبَ.

﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الواضحُ الذي لا محيدَ عنه ولاريبَ في حَقِّيَّته ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ القائم بما يُصلح شأنك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: بالتزلْزُلِ عما أنت عليه من الحزم واليقين، ودُمْ على ذلك كما كنتَ من قبلُ.

والامتراءُ: الشكُّ والتردُّدُ، وهو أخفُّ من التكذيب فلذا ذُكِرَ أَوَّلاً، وعقِّب بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بشيءٍ منها ﴿فَتَكُونَ﴾ بذلك ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أنفساً وأعمالاً، والتعبيرُ بـ «الخاسرين» أظهرُ في التحذير من التعبير بالكافرين.

وفائدةُ النهي في الموضعَين التهييجُ والإلهابُ نظير ما مرَّ، والمرادُ بذلك إعلامُ أنَّ الامتراءَ والتكذيبَ قد بلغا في القبح والمحذوريَّة إلى حيث ينبغي أنْ يُنهَى عنهما مَن لا يُمكن أنْ يتَّصف بهما، فكيفَ بمن يُمكن اتِّصافُه؟ وفيه قَطْعٌ لأطماعِ الكفرة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ﴾ إلخ بيانٌ لمنشأ إصرار الكفرةِ على ما هم عليه من الكفر والضلالِ إلى حيث لا ينتفعون بالإيمان، أي: إنَّ الذين ثبتَتْ عليهم ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: حُكْمُه وقضاؤه ـ المفسَّرُ عند الأشاعرة بإرادته تعالى الأزليةِ المتعلِّقةِ بالأشياء على ما هي عليه فيما لا يزال ـ بأنَّهم يموتون على الكفر أو يخلدون في النار ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ إذ لا يُمكن أنْ يَنتقضَ قضاؤه سبحانه وتتخلَّفَ[1] إرادتُه جلَّ جلاله.

---

(١) في الأصل: وتختلف.

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ واضحةِ المدلول مقبولةٍ لدى العقول ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ۝٩٧﴾ كالإغراق[(١)] ونحوه، وحينئذٍ يقال لهم: الصيفَ ضيَّعْتِ اللبنَ[(٢)].

وفسَّر الزمخشريُّ الكلمةَ بقول الله تعالى الذي كَتَبه في اللوح وأَخبَرَ سبحانه به الملائكة، أنَّهم يموتون كفاراً، وجَعَلَ تلك كتابةَ معلومٍ لا كتابةَ مقدَّرٍ ومراد[(٣)].

ولا ضيرَ في تفسير الكلمة بذلك، إلا أنَّ جعْلَ الكتابةِ كتابةَ معلومٍ لا كتابةَ مقدَّرٍ ومرادٍ مبنيٌّ على مذهب الاعتزال، والذي عليه أهلُ السُّنة أنَّ أفعالَ العبادِ بأسرها معلومةٌ له تعالى ومرادةٌ، ولا يكونُ إلا ما أراده سبحانه، وعِلْمُه عزَّ شأنه وإرادتُه متوافقان ولا تجوزُ المخالفةُ بينهما، ولا يتعلَّق علمُه سبحانه إلا بما عليه الشيءُ في نفسه، ولا يُريد إلَّا ما عَلِمَ، ولا يُقدِّر إلا ما يُريد، ولا جَبْرَ هناك ولا تَفْويضَ، ولكنْ أمرٌ بينَ أمرَين.

وفسَّره المولَى الكوراني في شرحه للمقدِّمات الأربع المذكورة في توضيح الأصول بأنَّ العبدَ مجبورٌ باختياره، وفصَّله بما لا مَزيدَ عليه، وبإثبات الاستعداد وأنَّه غيرُ مجعولٍ تَتَّضِحُ الحجَّةُ البالغة، وبَسْطُ الكلامِ في علم الكلام، وقد تقدَّم بعضُ ما ينفع في هذا المقام، وإنْ أردْتَ ما يطمئنُّ به الخاطرُ وتنشرحُ له الضمائر، فعليك برسائلِ ذلكَ المولَى في هذا الشأن، فإنَّها واضحةُ المسالك في تحصيل الإيقان.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ لتقرير هلاكهم، و«لولا» هنا تَحضيضيَّة فيها معنى التوبيخ كهلَّا، ومثلُها ما في قول الفرزدق[(٤)]:

تَعدُّون عَقْرَ النِّيبِ أفضَلَ مجدكم ... بني ضَوْطَرَى لولا الكَمِيَّ المُقَنَّعا[(٥)]

---

(١) في (م): الإغراق.

(٢) يضرب لمن فرَّط في طلب الحاجة وقت إمكانها، ثم طلبها بعد فواتها، وينظر ما روى في قصته في جمهرة الأمثال ١/ ٥٧٥، والمستقصى ١/ ٣٢٩، ومجمع الأمثال ٢/ ٦٨، وفصل المقال في شرح كتاب الأمثال للبكري ص ٣٥٧.

(٣) الكشاف ٢/ ٢٥٣.

(٤) كذا ذكر المصنف، ومثله في الدر المصون ٦/ ٢٦٨، والصواب أنه لجرير على ما يأتي.

(٥) ديوان جرير ٢/ ٩٠٧، والنقائض ٢/ ٨٣٣، ونسب للأشهب بن رميلة في مجاز القرآن ١/ ٥٢،
=

ويشهدُ لذلك قراءةُ أُبيٍّ وابنِ مسعود ﷺ: «فهلَّا»[1]، والتوبيخ على ما نُقِل عن السفاقسيِّ على تَرْك الإيمان المذكور بعدُ.

و«كان» كما اختاره بعضُ المحققين ناقصةٌ، وقولُه تعالى: ﴿قَرْيَةٌ﴾ اسمها، وجملةُ قوله سبحانه: ﴿ءَامَنَتْ﴾ خبرُها، وقولُه جلَّ شأنه: ﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ معطوفٌ على الخبر، أي: فهلَّا كانت قريةٌ من القرى التي أُهلِكَتْ هلاكَ الاستئصال آمنَتْ قبل مُعاينة العذاب، ولم تُؤخِّر إيمانَها إلى حين مُعايَنته كما أَخَّر فرعونُ إيمانَه، فنفعها ذلك بأنْ يقبلَه الله تعالى منها، ويكشفَ بسببه العذابَ عنها.

وذهب السمينُ وغيرُه إلى أنَّها تامَّةٌ و«قريةٌ» فاعلُها، وجملةُ «آمنَت» صفةٌ و«نَفَعها» معطوفةٌ عليها[2].

وتعقِّب بأنَّه يلزم حينئذٍ أنْ يكونَ التحضيضُ والتوبيخُ على الوجود، مع أنَّه ليس بمراد.

وأُجيبَ بأنَّه لا مانعَ من أنْ يكونَ التحضيضُ على الصفة، وحينئذٍ لا غبارَ على ما قيل.

وأيّاً ما كان فالمرادُ بالقرية أهلُها مجازاً شائعاً، والقرينةُ هنا أظهرُ من أنْ تَخفَى.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ كما قال الزجَّاجُ وسيبويه والكِسائيُّ وأكثرُ النحاة[3]، أي: لكنْ قومَ يُونسَ ﴿لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾

= وتفسير الطبري ٢/ ٤٧٦، والنكت والعيون ١/ ١٨٠، وأمالي ابن الشجري ١/ ٢٤٦ و٢/ ٨٤. قال البغدادي في خزانة الأدب ٣/ ٥٩: الصحيح أنه من قصيدة لجرير، لا خلاف بين الرواة أنها له. ورواية الديوان والنقائض: هلا، بدل: لولا. قوله: النيب، جمع ناب: وهي الناقة المسنَّة. وضوطرى: الرجل الضخم المليء الذي لا غَنَاء عنده. والكميّ: الشجاع المتكمي في سلاحه، والمعنى: تعدُّون عقر الإبل المسنَّة التي لا ينتفع بها ولا يرجى نسلها أفضل مجدكم، هلا تعدُّون قتل الشجعان أفضل مجدكم.

(١) معاني القرآن للفراء ١/ ٤٧٩، والكشاف ٢/ ٢٥٤، والمحرر الوجيز ٣/ ١٤٣، والبحر ٥/ ١٩٢.

(٢) الدر المصون ٦/ ٢٦٨.

(٣) ومنهم الأخفش والفراء كما في البحر ٥/ ١٩٢، وقول سيبويه في الكتاب ٢/ ٣٢٥، وقول الزجاج في معاني القرآن ٣/ ٣٤.

عندما رأوا أماراتِ العذاب ولم يؤخِّروا إلى حلوله ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ أي: الذلّ والهوان ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد ما أظلَّهم وكاد ينزلُ بهم ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بمتاع الدنيا بعدَ كشْفِ العذاب عنهم ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ أي: زمانٍ من الدهر مقدَّرٍ لهم في علم الله تعالى.

ونُقِلَ عن ابن عباس أنَّ المرادَ: إلى يوم القيامة، فهم اليومَ أحياءٌ إلا أنَّ الله تعالى ستَرَهم عن الناس على حدِّ ما يقال في الخضر عليه السلام، ورأيتُ في بعض الكتب ما يوافقُه، إلا أنَّه ذُكر فيه أنَّهم يظهرون أيامَ المهدي، ويكونون من جملة أنصاره ثم يموتون، والكلُّ مما لا صحةَ له.

وقال آخرون: الاستثناءُ متَّصلٌ، ويُراد من القرية أهلُها المشرفون على الهلاك، وقيل: العاصون، ويُعتبر النفيُ الذي يُشْعِرُ به التحضيض، وهو مشعرٌ بالأمرِ أيضاً ولذا جعلوه في حُكْمِه، إلا أنَّه لا يصحُّ اعتبارُه على تقدير الاتِّصال، لِمَا يلزمه من كون الإيمان من المستَثْنَيْنَ غيرَ مطلوبٍ. وهو غيرُ مطلوبٍ بل فاسدٌ.

وقيل: لا مانعَ من ذلك على ذلك التقدير؛ لأنَّ أهلَ القرى محضُوضُون على الإيمان النافعِ وليس قومُ يُونسَ محضوضين عليه لأنَّهم آمنوا. والذَّوقُ يأبى إلا اعتبارَ النفي فقط حالَ اعتبارِ الاتصال، ويكونُ قوله سبحانه: (لَمَّآ ءَامَنُوا) استئنافاً لبيانِ نَفْعِ إيمانهم.

وقرئ: «إلا قومُ» بالرفع[1] على البدل من «قرية» المرادِ بها أهلُها، وأُيِّد بذلك القولُ بالاتِّصال واعتبار النفي؛ لأنَّ البدل لا يكونُ إلا في غير الموجَب، وخرَّجَ بعضُهم هذه القراءةَ على أنَّ «إلا» بمعنى «غير»، وهي صفةٌ ظهَرَ إعرابُها فيما بعدَها كما في قوله على رأيٍ:

وكلُّ أخٍ مفارِقُه أخوه لَعَمْرُ أبيكَ إلا الفرقدان[2]

وظاهرُ كلامهم أنَّ الاستثناء مطلقاً من «قرية»، وعن الزمخشري: أنَّه على

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٤، والبحر ٥/ ١٩٢، والدر المصون ٦/ ٢٧٠.

(٢) نسب في الكتاب ٢/ ٣٣٤، والكامل ٣/ ٤٤٤ لعمرو بن معدي كرب، ونسبه الآمدي في المؤتلف والمختلف لحضرمي بن عامر، وسلف ٣/ ٣٧٠.

الأوَّل من القرية[١]، لا من الضمير في «آمنَتْ». وعلّل بأنَّ المنقطع بمعنى «لكن»، فيتوسَّط بين الكلامَين المتغايرَين، فلا يعتمد ما لا يستقلُّ، ولأنَّه لا مدخَل للوصف ـ أعني الإيمان ـ في المستثنَى منه، فالاستثناءُ عن أصل الكلام. وأما على الثاني فهو استثناءٌ من الضمير من حيث المعنى جعل في اللفظ منه أو من القرية؛ إذ لا فرْقَ في قولك: كان القومُ منطلقين إلا زيداً، بين جعلِهِ من الاسم أو من الضمير في الخبر؛ لأنَّ الحكم إنما يتمُّ بالخبر، وإنَّما الفرقُ في نحو: ضربتُ القومَ القائمين[٢] إلا زيداً، ثم قال: ونظيرُ هذا في الوجهين قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ [الحجر:٥٨، ٥٩] ووجْهُ ذلك ظاهرٌ.

وفي «الكشف»: أنَّ وجْهَ الشَّبه اختلافُ معنى الهلاكِ على الوجَهين كاختلاف معنَى الإرسال هنالك على الوجهَين، وكأنَّه عنى بالهلاك المأخوذ قيداً في قوله: فهلَّا كانت قريةٌ من القرى التي أهلكناها، فتدبَّر.

وفي «يُونس» لغات: تثليثُ النون مهموزاً وغيرَ مهموزٍ، والمتواترُ منها الضمُّ بلا همزٍ.

وكان مِن قصة هؤلاء القومِ على ما رُوي عن غير واحدٍ أنَّ يُونُسَ عليه السلام بُعثَ إلى أهل نِينَوَى من أرض الموصل، وكانوا أهلَ كفرٍ وشركٍ، فدعاهم إلى الإيمان بالله تعالى وحدَه وتركِ ما يعبدون من الأصنام، فأَبَوا عليه وكذَّبوه، فأخبرهم أنَّ العذابَ مُصبِّحُهم إلى ثلاثٍ، فلمَّا كانت الليلةُ الثالثة ذهبَ عنهم من جوف الليل، فلمَّا أصبحوا تغشَّاهم العذابُ، فكان فوقَ رؤوسهم ليس بينهم وبينه إلا قَدْرُ ثُلثَي ميلٍ، وجاء أنَّه غامَت السماءُ غَيْماً أسودَ هائلاً يُدخِّنُ دخاناً شديداً، فهبط حتى غَشِيَ مدينتهم واسودَّتْ أَسطِحَتُهم، فلمَّا أَيقَنوا بالهلاك طلبوا نبيَّهم فلم يجدوه، فخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابِّهم، ولبسُوا المسوحَ[٣] وأظهروا الإيمان والتوبة، وفرَّقوا بين الوالدةِ وولدها من الناس والدوابِّ، فحنَّ البعضُ إلى البعض وعلَت الأصواتُ، وعَجُّوا جميعاً وتضرَّعوا إليه

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٤.

(٢) في (م): العالمين.

(٣) جمع مسح بوزن ملح، وهو اللباس، أي: لبسوا الألبسة الخلقة تذللاً. حاشية الشهاب ٥/ ٦١.

تعالى وأَخلَصُوا النيةَ، فَرحِمَهم ربُّهم واستجابَ دعاءهم وكشَفَ عنهم ما نَزَل بهم من العذاب، وكان ذلك يومَ عاشوراءَ، وكان يومَ الجمعة.

قال ابنُ مسعود: إنَّه بلَغَ من توبتهم أنْ تَرادُّوا المظالمَ فيما بينهم، حتى إنْ كان الرجلُ ليَأتي إلى الحجَرِ قد وُضِع أساسُ بنيانِهِ عليه، فيقْلَعُه ويردُّه إلى صاحبه.

وجاء في روايةٍ عن قتادة: أنَّهم عجُّوا إلى الله تعالى أربعينَ صباحاً حتى كُشف ما نَزَل بهم.

وأخرج أحمدُ في «الزهد» وابنُ جرير وغيرهما عن جيلان[١] قال: لمَّا غَشِيَ قومَ يُونسَ العذابُ مَشَوا إلى شيخٍ من بَقيَّة علمائهم فقالوا: ما ترى؟ فقال: قولوا: يا حيُّ حينَ لا حيَّ، ويا حيُّ محيي الموتى، ويا حيُّ لا إله إلا أنت، فقالوها فكُشِفَ عنهم العذاب[٢].

وقال الفضيل بن عياض: قالوا: اللهمَّ إنَّ ذنوبَنا قد عَظُمَت وجلَّت وأنت أعظمُ وأجلُّ، فافعل بنا ما أنت أهلُه ولا تفعلْ بنا ما نحن أهله.

وكان يونس عليه السلام إذا ذَهَب عنهم قعد في الطرق يَسألُ الخبرَ ـ كما جاء مرفوعاً ـ فمرَّ به رجلٌ، فقال له: ما فَعَلَ قومُ يونس؟ فحدَّثه بما صنعوا، فقال: لا أرجعُ إلى قومٍ قد كذبتُهم. وانطلقَ مُغاضِباً[٣]، حسبما قصَّه الله تعالى في غيرِ هذا الموضعِ مما سيأتي[٤] إن شاء الله تعالى.

وظاهرُ الآية يستدعي أنَّ القومَ شاهدوا العذابَ؛ لمكانِ «كَشَفْنا»، وهو الذي يقتضيه أكثرُ الأخبار، وإليه ذهب كثيرٌ من المفسرين، ونفْعُ الإيمانِ لهم بعد المشاهدة من خصوصيَّاتهم، فإنَّ إيمان الكفَّار بعد مشاهدةِ ما وُعِدُوا به إيمانُ

---

(١) في الأصل: خيلان، وفي (م): ابن غيلان، والصواب ما أثبتناه. وهو جيلان بن فروة، أبو الجلد الجوني الأسدي البصري، روى عنه قتادة وأبو عمران الجوني، قال أحمد: أبو الجلد جيلان بن فروة ثقة. الثقات ٤/ ١١٩، والجرح والتعديل ٢/ ٥٤٧.

(٢) الزهد ص٤٤، وتفسير الطبري ٢/ ٢٩٦.

(٣) أخرجه ابن مردويه من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ، كما في الدر المنثور ٣/ ٣١٧.

(٤) عند تفسير الآية (٨٧) من سورة الأنبياء.

يأس[1] غيرُ نافعٍ؛ لارتفاع التكليف حينئذٍ، وعادةُ الله إهلاكُهم من غير إمهالٍ كما أهلَكَ فرعونَ، والقولُ بأنَّه بقي حيّاً إلى ما شاء الله تعالى وسكَنَ أرضَ المَوصِل من مُفتريات اليهود.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تحقيقٌ لدوران إيمانِ جميع المكلَّفين وجوداً وعدماً على قُطْبِ مشيئتِهِ سبحانه مطلقاً بعد بيانِ تبعيَّةِ كُفْرِ الكفرةِ لكلمتهِ، ومفعولُ المشيئة هنا محذوفٌ حَسْبَ المعهودِ في نظائره، أي: لو شاء سبحانه إيمانَ مَن في الأرض من الثقلَين لآمن ﴿كُلُّهُمْ﴾ بحيث لا يشذُّ منهم أحدٌ ﴿جَمِيعًا﴾ أي: مُجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه، لكنَّه لم يَشأ ذلك؛ لأنَّه سبحانه لا يشاء إلا ما يَعلمُ، ولا يَعلمُ إلا ما له ثبوتٌ في نفسه، فما لا ثبوتَ له أصلاً لا يُعلم، وما لا يُعلمُ لا يُشاءُ، وإلى هذا التعليل ذهبَ الكورانيُّ عليه الرحمة، وأطالَ الكلامَ في تحريره والذبِّ عنه في غير ما رسالة.

والجمهورُ على أنَّه سبحانه لا يَشاؤه لكونِهِ مُخالفاً للحكمة التي عليها بناءُ[2] أساس التكوين والتشريع.

والآيةُ حجَّةٌ على المعتزلة الزاعمين أنَّ الله تعالى شاءَ الإيمانَ من جميع الخلقِ فلم يُؤمن إلا بعضُهم، والمشيئةُ عندهم قسمان: تفويضيَّةٌ يجوز تخلُّف الشيء عنها، وقسريَّةٌ لا يجوزُ التخلُّفُ عنها، وحملوا ما في الآية على هذا الأخير. فالمعنى عندهم: لو شاء ربُّك مشيئةَ إلجاءٍ وقَسْرٍ إيمانَ الثقلَين لآمنوا، لكنَّه سبحانه لم يشأ كذلك، بل أمرهم بالإيمان وخَلَق لهم اختياراً له ولضدِّه، وفوَّض الأمرَ إليهم، فمَن شاء فليؤمن ومَن شاء فليكفر، وهذا دَيدَنُهم في كلِّ ما ورَدَ عليهم من الآيات الظاهرةِ في إبطال ما هم عليه.

وفيه أنَّه لا قرينةَ على التقييد، مع أنَّ قوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ يأباه فيما قيل، فإنَّ الهمزةَ للإنكار، وهي لصدارتها مقدَّمةٌ من تأخيرٍ على ما عليه الجمهورُ، والفاء للتفريع، والمقصودُ تفرُّعُ الإنكارِ على ما قبلُ، ولا فائدةَ بل لا وجْهَ لاعتبار مشيئةِ القَسْرِ والإلجاء خاصَّةً في تفرُّع الإنكار.

---

(١) في (م): بأس.

(٢) في الأصل: التي بناء عليها.

وقيل: إنَّ الهمزةَ في موضعها، والعطفُ على مقدَّرٍ ينسحبُ عليه الكلامُ، كأنَّه قيل: أَربُّك لا يشاءُ ذلك فأنت تُكرِهُهم ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ والإنكارُ متوجِّهٌ إلى ترتيب الإكراه المذكورِ على عدم مشيئته تعالى، والإباء هو الإباء، فلا بدَّ مِن حَمْل المشيئةِ على إطلاقها. والمرادُ بالناس مَن طُبِعَ عليهم أو الجميعُ مبالغةً.

وجوِّز في «أنت» أنْ يكونَ فاعلاً بمقدَّرٍ يُفسِّره ما بعده. وأنْ يكونَ مبتدأً خبرُه الجملةُ بعدَه، ويَعدُّونه فاعلاً معنوياً، وتقديمه لتقوية حُكم الإنكار، كما ذهب إليه الشريف قدِّسَ سرُّه في «شرح المفتاح»، وذَكَر فيه أنَّ المقصود إنكارُ صُدورِ الفعل مِن المخاطَب، لا إنكارُ كونِهِ هو الفاعلُ مع تقرُّر أصل الفعل.

وقيل: إنَّ التقديمَ للتخصيص، ففيه إيذانٌ بأنَّ الإكراه أمرٌ ممكن، لكنَّ الشأن في المُكرِه مَن هو؟ وما هو إلا سبحانه وحده لا يشارَك فيه؛ لأنَّه جلَّ شأنه القادرُ على أن يفعل في قلوبهم ما يَضْطرُّهم إلى الإيمان، وذلك غيرُ مستطاعٍ للبشر.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ بيانٌ لتبعيَّة إيمانِ النفوس التي عَلمَ الله تعالى إيمانَها لمشيئته تعالى وجوداً وعدماً، بعد بيانِ الدوران الكلِّي عليها كذلك، وقيل: هو تقريرٌ لما يدلُّ عليه الكلامُ السابق من أنَّ خلاف المشيئةِ مستحيلٌ، أي: ما صحَّ وما استقامَ لنفسٍ من النفوس التي علم الله تعالى أنَّها تؤمنُ ﴿أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وإرادته سبحانه.

والأصلُ في الإذن بالشيء الإعلامُ بإجازته والرُّخصةِ فيه ورَفْعِ الحجْرِ عنه، وجعلوا ما ذُكر من لوازمه، كالتسهيل الذي ذكره بعضُهم في تفسيره.

وخُصِّصَت النفسُ بالصفة المذكورة ولم تجعل من قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] قيل: لأنَّ الاستثناء مفرَّغ من أعمِّ الأحوال، أي: ما كان لنفسٍ أنْ تؤمنَ في حالٍ من أحوالها[١] إلا حالَ كونها ملابِسةً بإذنه سبحانه، فلا بدَّ من كون الإيمان مما يؤول إليه حالُها، كما أنَّ الموتَ مآل[٢]

(١) في الأصل: في حال من الأحوال، والمثبت من (م) وتفسير أبي السعود ٤/ ١٧٧، والكلام منه.

(٢) في الأصل و(م): حال، والمثبت من تفسير أبي السعود.

لكلِّ نفسٍ لا محيصَ لها عنه، فلا بدَّ من التخصيص بما ذُكر، فإنَّ النفوس التي عَلِمَ الله تعالى أنَّها لا تؤمنُ ليس لها حالٌ تؤمنُ فيها حتى تُسْتَثْنَى تلك الحالُ من غيرها. انتهى.

وقد يقال: إنَّ هذا الاستثناءَ بالنظر إلى النفس التي علم الله تعالى أنَّها لا تؤمنُ مفيدٌ لعدم إيمانها على أتمِّ وجْهٍ، على حدِّ ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء:٢٣] فكأنَّه قيل: ما كان لنفسٍ عَلِمَ الله تعالى أنَّها لا تؤمنُ أنْ تؤمنَ في حالٍ من الأحوال، كسلامة العقل وصحَّة البدن وغيرهما، إلا في حال ملابستها إذنَ الله تعالى وإرادتَه أنْ تؤمنَ، وهي تابعةٌ لعلمه بذلك، وعلمُه به محالٌ لأنَّه قد علم نقيضَه، فيلزم انقلابُ العلمِ جهلاً، فتكون إرادتُه ذلك محالاً، فيكون إيمانها محالاً؛ إذ الموقوف على المحال محالٌ.

وفي «الحواشي الشهابية»[1]: أنَّ «ما كان» إنْ كان بمعنى: ما وُجِدَ، احتاجَ إلى تقييد النفس بمن عَلِمَ [الله] أنَّها تؤمنُ، وإنْ كان بمعنى: ما صحَّ، لا يحتاجُ إليه، ولذا ذَكَره مَن ذَكَره وتَرَكه مَن تَرَكه. وفيه خفاءٌ فتأمل.

﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الكفرَ كما في قوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة:١٢٥] بقرينة ما قبله، وأصلُه: الشيءُ الفاسدُ المستقذَرُ، وعبَّر عنه بذلك لكونه عَلَماً في الفساد والاستقذار.

وقيل: المرادُ به العذاب، وعبَّر عنه بذلك لاشتراكهما في الاستكراه والتنفُّر، وأنَّ إرادةَ الكفر منه باعتبارِ أنَّه نُقل أولاً عن المستقذر إلى العذاب للاشتراك فيما ذكر. ثم أُطلِقَ على الكفر؛ لأنَّه سببُهُ، فيكون مجازاً في المرتبة الثانية.

واختارَ الإمامُ[2] التفسيرَ الأول تحاشياً مما في إطلاق المستقذَر على عذاب الله تعالى من الاستقذار. وبعضٌ[3] الثانيَ لِمَا أنَّ كلمةَ «على» في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠﴾ ـ أي: لا يستعملون عقولَهم بالنظر في الحُجَجِ والآيات، أو لا يعقلونَ دلائلَهَ وأحكامَه لِمَا على قلوبهم من الطبْعِ ـ تأبى الأول.

---

(١) ٥/ ٦٢ وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٢) هو الرازي في تفسيره ١٧/ ١٦٩.

(٣) أي: واختار بعضٌ.

وتُعقِّب بأنَّ المعنى: يُقدِّره عليهم، فلا إباء، ويفسَّر «الذين لا يعقلون» بما يكونُ به تأسيساً كما سمعتَ في تفسيره، ومنه تعلم أنَّ الفعلَ منزَّلٌ منزلةَ اللازم، أو له مفعولٌ مقدَّر.

وقد يُفرَّق بين التفسيرَين بأنَّهم على الأوَّل لم يُسلَبُوا قوَّةَ النظر، لكنَّهم لم يُوفَّقوا لذلك، وعلى الثاني بخلافه، والأمرُ الآتي ظاهرٌ في الأوَّل.

والجملةُ معطوفةٌ على مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: فيأذن لهم بالإيمان ويجعل. .إلخ، أو: فيأذن لبعضهم بذلك ويجعل. . إلخ.

وقرئ: «الرجزَ» بالزاي[1]. وقرأ حماد ويحيى عن أبي بكر: «ونَجْعَلُ» بالنون[2].

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ﴾ خطابٌ لسيِّد المخاطَبين ﷺ أنْ يأمر الكفرةَ الذين هو عليه الصلاة والسلام بين ظهرانَيهم بالتفكُّر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من عجائب الآياتِ الآفاقية والأنفسيَّة؛ ليتَّضِحَ له ﷺ أنَّهم من الذين لا يعقلون، وكأنَّه متعلِّقٌ بما عنده.

وتعليقُه بقوله سبحانه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ إلخ على معنى: لا تُكْرِهِ الناسَ على الإيمان، ولكن اؤمُرهم بما يُتوَصَّل به إليه عادةً من النظر، لا يخلو عن النظر.

وقيل: إنَّه تعالى لمَّا أفاد فيما تقدَّم أنَّ الإيمان بخَلْقه سبحانه، وأنَّه لا يؤمِنُ مَن يُؤمن إلا من[3] بعد إذنه، وأنَّ الذين حقَّت عليهم الكلمة لا يؤمنون، أَمَرَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أنْ يأمرَ بالنظر لئلا يُزهَد فيه بعد تلك الإفادة. وأرى الأوَّلَ أَوْلَى.

وجاء ضمُّ لامِ «قُل» وكَسْرُها[4]، وهما قراءتان سبعيَّتان.

وقوله سبحانه: ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ في محلِّ نصبٍ بإسقاط الخافضِ؛

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ١٤٥، والبحر ٥/ ١٩٣ عن الأعمش.

(٢) التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٨٧ عن أبي بكر.

(٣) قوله: من، ليس في الأصل.

(٤) قرأ بالكسر عاصم وحمزة من السبعة ويعقوب من العشرة، والباقون بالضم. التيسير ص٧٨، والنشر ٢/ ٢٢٥.

لأنَّ الفعل قبله معلَّقٌ بالاستفهام؛ لأنَّ «ما» استفهاميةٌ وهي مبتدأ، و«ذا» بمعنى «الذي» والظرفُ صلتُه، وهو خبرُ المبتدأ، ويجوزُ أنْ يكونَ «ماذا» كلُّه اسمَ استفهامٍ مبتدأ، والظرفُ خبرُه، أي: أيُّ شيءٍ بديعٍ في السماوات والأرض من عجائب صنعتِهِ تعالى الدالَّةِ على وحدته وكمالِ قدرته جلَّ شأنه.

وجوِّز أنْ يكونَ «ماذا» كلُّه موصولاً بمعنى «الذي»، وهو في محلٍّ نصبٍ بالفعل قبله، وضعَّفه السمينُ بأنَّه لا يخلو حينئذٍ من أنْ يكون النظرُ قلبيّاً ـ كما هو الظاهر ـ فيُعدَّى بـ «في»، وأنْ يكون بصريّاً فيُعدَّى بـ «إلى»[1].

﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي: ما تكفيهم وما تنفعُهم. وقرئ بالتذكير[2]. والمراد بالآيات ما أُشيرَ إليه بقوله سبحانه: ﴿مَاذَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ففيه إقامةُ الظاهر مقامَ المضمر، «والنُّذُر» جمعُ نذيرٍ بمعنى مُنذِرٍ، أي: الرسلُ المنذرون، أو بمعنى إنذارٍ، أي: الإنذارات، وجُمِعَ لإرادة الأنواعِ، وجوِّز أنْ يكون «النذر» نفسُه مصدراً بمعنى الإنذار. والمرادُ بهؤلاء القومِ المطبوعُ على قلوبهم، أي: لا يؤمنون في علم الله تعالى وحكمه.

و«ما» نافيةٌ، والجملة اعتراضية، وجوِّز أن تكون في موضع الحال من ضمير «قل». وفي القلب مِن جَعْلِها حالاً من ضمير «انظروا» شيءٌ، فانظروا. ويتعيَّن كونُها اعتراضيةً إذا جعلت «ما» استفهاميَّةً إنكاريَّةً، وهي حينئذٍ في موضع النصب على المصدريَّة للفعل بعدها، أو على أنَّه مفعولٌ به له، والمفعول على هذا وكذا على احتمال النفي محذوفٌ إنْ لم يُنزَّل الفعلُ منزلةَ اللازم، أي: ما تُغني شيئاً.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ﴾ أي: هؤلاء المأمورون بالنظر من مشركي مكةَ وأشرافهم ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي: مثلَ وقائعهم ونزولِ بأس الله تعالى بهم، إذ لا يستحقُّون غيرَ ذلك، وجاء استعمالُ الأيام في الوقائع كقولهم: أيام العرب، وهو مجازٌ مشهورٌ من التعبير بالزمان عمَّا وقَعَ فيه، كما يقال: المغربُ، للصلاة الواقعة فيه.

والمرادُ بالموصول المشركون من الأُمم الماضية.

---

(١) الدر المصون ٦/ ٢٧١.

(٢) الكشاف ٢/ ٢٥٥، والبحر ٧/ ١٩٤.

﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ متعلِّقٌ بـ «خَلَوا»، جيء به للتأكيد والإيماءِ بأنَّهم سيَخْلُون كما خَلَوا.

﴿قُلْ﴾ تهديداً لهم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ ذلك ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ إياه، فمتعلَّقُ الانتظار واحدٌ بالذات، وهو الظاهرُ، وجوِّز أنْ يكونَ مُختلفاً بالذات متَّحداً بالجنس، أي: فانتظروا إهلاكي إنِّي معكم من المنتظرين هلاكَكُم.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ بالتشديد، وعن الكِسائيِّ ويعقوب بالتخفيف[1]، وهو عطفٌ على مقدَّرٍ يدُلُّ عليه قولُه سبحانه: (مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا) وما بينهما اعتراضٌ جيء به مسارعةً إلى التهديد ومبالغةً في تشديد الوعيدِ، كأنَّه قيل: نُهلِك الأُمم ثم ننجِّي المرسَل إليهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بهم. وعبَّر بالمضارع لحكاية الحالِ الماضية؛ لتهويل أمرها باستحضار صُوَرها.

وتأخيرُ حكايةِ التنْجِيَةِ عن حكاية الإهلاكِ ـ على عكس ما جاء في غير موضعٍ ـ ليتَّصل به قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: نُنْجيهم إنجاءً كذلك الإنجاءِ الذي كان لمن قبلَهم، على أنَّ الإشارة إلى الإنجاء، والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمقدَّرٍ وقَعَ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ.

وجوِّز أنْ يكونَ الكافُ في محلِّ نصبٍ بمعنى «مثل» سادَّةً مسدَّ المفعول المطلق. ويحتمل عند بعضٍ أنْ يكونَ في موقع الحال من الإنجاء الذي تضمَّنه «نُنجي» بتأويل: نَفعلُ الإنجاء حالَ كونه مثلَ ذلك الإنجاء، وأن يكون في موضع رفعِ خبرِ مبتدأ محذوفٍ، أي: الأمر كذلك.

و«حقاً» نصب بفعله المقدَّر، أي: حَقَّ ذلك حقاً.

والجملةُ اعتراضٌ بين العامل والمعمول على تقدير أنْ يكون «كذلك» معمولاً للفعل المذكور بعدُ، وفائدتُها الاهتمامُ بالإنجاء، وبيانُ أنَّه كائنٌ لا محالةَ، وهو المرادُ بالحقِّ، ويجوز أنْ يُرادَ به الواجبُ، ومعنى كونِ الإنجاء واجباً أنَّه كالأمر الواجب عليه تعالى، وإلا فلا وجوبَ حقيقةً عليه سبحانه. وقد صرَّح بأنَّ الجملة

---

(١) التيسير ص١٢٣، والنشر ٢/ ٢٥٩.

اعتراضيةٌ غيرُ واحدٍ من المعربين، ويُستفاد منه أنَّه لا بأس بالجملة[1] الاعتراضية غيرُ إذا بقي شيءٌ من متعلقاتها.

وجوَّز أنْ يكونَ بدلاً من الكاف التي هي بمعنى مثل، أو من المحذوف الذي نابَت عنه[2].

وقيل: إنَّ «كذلك» منصوبٌ بـ «نُنَجِّي» الأول، و«حقّاً» منصوبٌ بالثاني، وهو خلافُ الظاهر.

والمراد بـ «المؤمنين» إمَّا الجنسُ المتناول للرُّسُل عليهم السلام وأتباعِهم، وإمَّا الأتباعُ فقط، وإنَّما لم يذكر إنجاءُ الرسل إيذاناً بعدم الحاجةِ إليه. وأيّاً ما كان ففيه تنبيهٌ على أنَّ مدارَ الإنجاء هو الإيمان، وجيء بهذه الجملةِ تذييلاً لِمَا قبلها مقرِّراً لمضمونه.

﴿قُلْ﴾ لجميع مَن شَكَّ في دينك وكَفَر بك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أُوثِرَ الخطابُ باسم الجنس مصدَّراً بحرف التنبيه تعميماً للتبليغ، وإظهاراً لكمال العناية بشأن ما بلَّغ إليهم ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ الذي أعبدُ الله تعالى به وأدعوكم إليه، ولم تعلموا ما هو ولا صفَتُه حتى قلتم: إنَّه صَبأ.

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ في وقتٍ من الأوقات ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ ثم يَفعل بكم ما يفعلُ من فنون العذاب. وجَعْلُ هذه الجملة باعتبار مضمونها جواباً بتأويل الإخبار، وإلَّا فلا ترتُّب لها على الشرط بحَسَب الظاهر، فالمعنى: إنْ كنتُم في شكٍّ من ذلك فأُخبركم أنَّه تخصيصُ العبادة به تعالى ورَفْضُ عبادةِ ما سواه من الأصنام وغيرِها ممَّا تعبدونه جهلاً، وقد كثُرَ جعلُ الإخبار بمفهوم الجملة جزاءً نحو: إن أكرمتَني اليومَ فقد أكرمتُكَ أمس، وعلى هذا الطرز قوله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣] فإنَّ استقرارَ النعمة ليس سبباً لحصولها من الله تعالى، بل الأمرُ بالعكس، وإنَّما سببٌ للإخبار بحصولها منه تعالى كما قرَّره ابنُ الحاجب.

---

(١) في (م): الجملة.
(٢) والتقدير: إنجاءً مثلَ ذلك حقاً. الدر المصون ٦/ ٢٧٢.

وقد يكونُ المعنى: إنْ كنتُم في شكٍّ من صحة ديني وسدادِه فأخبرُكم أنَّ خُلاصته العبادةُ لإلهٍ هذا شأنُه، دون ما تعبدونه مما هو بمعزلٍ عن ذلك الشأن، فاعْرِضُوا ذلك على عقولكم وأجيلوا فيه أفكارَكم وانظروا بعين الإنصافِ لتعلموا صحتَه وحقِّيتَه. وذكر بعضُهم أنَّه لا يُحتاجُ على هذا إلى جَعل المسبَّب الإخبارَ والإعلام، بل يُعتَبرُ الجزاءُ الأمرَ بعَرْضِ ما ذُكر على عقولهم والتفكُّرِ فيه. والأظهرُ اعتبارُ كون الإخبار جزاءً كما في المعنى الأول.

والتعبيرُ عمَّا هم عليه بالشكِّ ـ مع كونهم قاطعين بعدمِ الصحةِ ـ للإيذان بأنَّ أَقصى ما يُمكن عروضه للعاقل في هذا الباب هو الشكُّ في الصحة، وأما القطعُ بعدمها فممَّا[1] لا سبيلَ إليه.

وقيل: لا نسلِّم أنَّهم كانوا قاطعين، بل كانوا في شكٍّ واضطرابٍ عند رؤية المعجزات، وجيء بـ «إنْ» للإشارة إلى[2] أنَّه مما لا ينبغي أنْ يكون لوجود ما يزيله.

وجوِّز أنْ يكونَ المعنى: إنْ كنتُم في شكٍّ من ديني ومما أنا عليه أَأَثبُتُ عليه أم أَترُكُه وأُوافقُكم، فلا تحدِّثوا أنفسَكم بالمحال، ولا تشكُّوا في أمري، واقطعوا عنِّي أطماعَكم، واعلموا أنِّي لا أعبدُ الذين تعبدون من دون الله، ولا أختارُ الضلالةَ على الهدى، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١-٢] ولا يخفَى أنَّ ما قبلُ أوفقُ بالمقام.

وتقديمُ تركِ عبادةِ غير الله تعالى على عبادتِه سبحانه لتقدُّم التخلية على التحلية، كما في كلمة التوحيد، والإيذانِ بالمخالفة من أوَّل الأمرِ، وتخصيصُ التوفِّي من بين سائر صفاتِ الأفعالِ بالذِّكر متعلِّقاً بهم للتخويف، فإنَّه لا شيءَ أشدُّ عليهم من الموت.

وقيل: المرادُ: أعبدُ الله الذي خلقَكُم ثمَّ يتوفَّاكم ثم يُعيدُكم، وفيه إيماءٌ إلى

---

(١) في الأصل و(م): فما، والمثبت من تفسير أبي السعود ٤/ ١٧٩، والكلام منه.
(٢) في (م): إلا، وهو تصحيف.

الحشر الذي يُنكرونه، وهو مِن أُمَّهات أصولِ الدين، ثم حذفَ الطرفان وأبقى الوسط ليدلَّ عليهما فإنهما[١] قد كثُر اقترانُهما به في القرآن.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٠٤﴾ أي: أَوجَبَ الله تعالى عليَّ ذلك، فوجوبُ الإيمان بالله تعالى شرعيٌّ كسائر الواجبات، وذكر المولى صدرُ الشريعة: أنَّ[٢] للشرعيِّ معنَيين: ما يتوقف على الشرع كوجوب الصلاة والصوم، وما ورَدَ به الشرعُ ولا يتوقَّف على الشرع كوجوب الإيمان بالله سبحانه ووجوبِ تصديقِهِ ﷺ، فإنَّه لا يُتَوَقَّف على الشرع، فهو ليس بشرعيٍّ بالمعنى الأول، وذلك لأنَّ ثبوتَ الشرع موقوفٌ على الإيمان بوجود الباري تعالى وعلمه وقدرته وكلامه، وعلى التصديق بنبوةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام بدلالة معجزاته، فلو تَوقَّف شيءٌ من هذه الأحكامِ على الشرع لزم الدور.

ولقائل أنْ يمنعَ توقُّفَ الشرع على وجوب الإيمان ونحوِه، سواءٌ أُريد بالشرع خطابُ الله تعالى، أو شريعةُ النبيِّ ﷺ، وتوقُّفُ التصديق بثبوتِ شرع النبيِّ ﷺ على الإيمان بالله تعالى وصفاته وعلى التصديق بنبوَّةِ النبيِّ ﷺ ودلالةِ معجزاته لا يقتضي توقُّفَه على وجوب الإيمان والتصديق، ولا على العلم بوجوبهما، غايتُه أنَّه يتوقَّفُ على نفس الإيمان والتصديق، وهو غيرُ مفيدٍ لتوقُّفِهِ على وجوب الإيمان والتصديقِ، ولا منافٍ لتوقُّف وجوبِ الإيمان ونحوِه على الشرع، كما هو المذهبُ عندهم من أنَّه[٣] لا وجوبَ إلا بالسمع.

وقول الزمخشريّ هنا: إنَّه عليه الصلاة والسلام أُمِرَ بالعقل والوحي[٤]. لا يخلو عن نَزْغةٍ اعتزاليةٍ كما هو دَأْبُه في كثيرٍ من المواضع، ومن قال من المفسرين منَّا: إنَّه وجب عليَّ ذلك بالعقل والسمع، أراد بالعقل التابع لِما سمع من[٥] الشرع، فلا تبعيَّة.

---

(١) في الأصل: فإنه.
(٢) بعدها في الأصل: للوجوب.
(٣) في (م): أن.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٥٥، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٦٤.
(٥) في (م): لما سمع بالشرع، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب.

والكلامُ على حذف الجارِّ، أي: أُمرت بأنْ أكون، وحذفُه من «أنَّ» و«أنْ» مطَّردٌ، وإنْ قُطع النظرُ عن ذلك فالحذفُ بعد «أَمَرَ» مسموعٌ عن العرب، كقوله:

أمرتُكَ الخيرَ فافعل ما أمرتُ به   فقد تركتُكَ ذا مالٍ وذا نشب[1]

وأَدخلَ بعضُهم هذه الجملةَ في الجزاء وليس بمتعيِّنٍ.

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ عطفٌ كما قال غيرُ واحدٍ على «أنْ أكون»، واعتُرض بأنَّ «أنْ» في المعطوف عليه مصدريةٌ بلا كلام؛ لعملها النصبَ، والتي في جانب المعطوف لا يصحُّ أنْ تكون كذلك لوقوع الأمر بعدها، وكذا لا يصحُّ أنْ تكونَ مفسِّرة لعطفها على المصدرية؛ ولأنَّه يلزَم دخولُ الباء المقدَّرة عليها، والمفسِّرة لا يدخل عليها ذلك.

ودُفع ذلك باختيار كونها مصدريَّةً، ووقوعُ الأمر بعدها لا يضرُّ في ذلك، فقد نُقلَ عن سيبويه أنَّه يجوز وصلها به[2]، ولا فَرْق في صلة الموصول الحرفي بين الطلب والخبر؛ لأنَّه إنما مُنِعَ في الموصول الاسميِّ لأنَّه وُضع للتوصُّل به إلى وَصْف المعارف بالجمل، والجمل الطلبية لا تكونُ صفةً، والمقصودُ من هذه أنْ[3] يُذكر بعدها ما يدلُّ على المصدر الذي تؤوَّل[4] به، وهو يحصلُ بكلِّ فعلٍ، وكونُ تأويله يُزيلُ معنى الأمر المقصودِ منه مدفوعٌ بأنَّه يؤوَّل ـ كما أشرنا إليه فيما مرَّ ـ بالأمر بالإقامة، إذ كما يُؤخَذ المصدر من المادة قد يُؤخَذ من الصيغة، مع أنَّه لا حاجةَ إليه هنا لدلالة قوله تعالى: (وَأُمِرْتُ) عليه.

وفي «الفرائد»: أنَّه يجوز أنْ يقدَّر: وأوحي إليَّ أنْ أَقِمْ.

وتعقَّبه الطيبي بأنَّ هذا سائغٌ إعراباً، إلَّا أنَّ في ذلك العطفِ فائدةٌ معنويةٌ، وهي أنَّ «وأنْ أقم» إلخ كالتفسير لـ «أنْ أكونَ» إلخ على أسلوب: أعجبني زيدٌ وكرمُه،

---

(١) الكتاب ١/ ٣٧، والخزانة ١/ ٣٣٩. وقال البغدادي: نسب لعمرو بن معدي كرب، وللعباس بن مرداس، ولزرعة بن السائب، ولخفاف بن ندبة، وذكر أنه نسب أيضاً لأعشى طرود. وقد سلف شطره الأول ٧/ ٤٩٩.

(٢) الكتاب ٣/ ١٦٢، ونقله المصنف عنه بواسطة الشهاب في الحاشية ٥/ ٦٥.

(٣) في (م): والمقصود من أن هذه، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب.

(٤) في الأصل و(م): تأول، والمثبت من حاشية الشهاب.

داخلٌ معه في حكم المأمور به، فلو قدِّر ذلك فاتَ غرضُ التفسير، وتكونُ الجملةُ مستقلَّةً معطوفةً على مثلها. وفيه تأمُّلٌ؛ لجواز أنْ تكون هذه الجملةُ مفسِّرةً للجملة المعطوفة هي عليها.

وقدَّرَ أبو حيان ذلك، وزعَم أنَّ «أنْ» حينئذٍ يجوزُ أنْ تكونَ مصدريةً، وأنْ تكونَ مفسِّرةً؛ لأنَّ في الفعل المقدَّر معنى القولِ دون حروفه، وأنَّه على ذلك يزولُ قلقُ العطف، ويكونُ الخطابُ في «وجهك» في محلِّه[1].

ورُدَّ بأنَّ الجملة المفسِّرة لا يجوز حذفها، وأمَّا صحةُ وقوعِ المصدرية فاعلاً أو مفعولاً فليس بلازمٍ، ولا قَلَقَ في العطف الذي عناه، وأَمْرُ الخطاب سهلٌ لأنَّه لملاحظة المحكيِّ والأمرِ المذكور معه.

وإقامةُ الوجه للدِّين كنايةٌ عن توجيه النفسِ بالكلِّية إلى عبادة الله تعالى والإعراضِ عمَّن سواه، فإنَّ مَن أراد أنْ ينظرَ إلى شيءٍ نظرَ استقصاءٍ يُقيمُ وجهَهُ في مقابلته بحيث لا يلتفتُ يميناً ولا شمالاً، إذ لو التفَتَ بطَلَت المقابلة، والظاهرُ أنَّ الوجه على هذا على ظاهره. ويجوز أنْ يُراد به الذاتُ، والمرادُ: اصْرِف ذاتَك وكُلِّيتَكَ للدين واجتهد بأداء الفرائضِ والانتهاء عن القبائح، فاللامُ صلةُ «أقم».

وقيل: الوجهُ على ظاهره، وإقامتُه توجيهُهُ للقبلة، أي: استقْبِل القبلةَ ولا تلتفَتْ إلى اليمين أو الشمال، فاللامُ للتعليل، وليس بذاك، ومثلُه القولُ بأنَّ ذلك كنايةٌ عن صرف العقلِ بالكلِّية إلى طلب الدِّين.

﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الأديان الباطلةِ، وهو حالٌ إمَّا من الوجه، أو من الدِّين، وعلى الأول تكون حالاً مؤكِّدةً؛ لأنَّ إقامةَ الوجه تضمَّنَت التوجُّه إلى الحقِّ والإعراضَ عن الباطل، وعلى الثاني قيل: تكونُ حالاً مُنتقِلَةً، وفيه نظرٌ. ويجوز أنْ تكونَ حالاً من الضمير في «أقم».

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ عطفٌ على «أقم» داخلٌ تحتَ الأمر، وفيه تأكيدٌ له، أي: لا تكونَنَّ منهم اعتقاداً ولا عملاً.

---

(١) البحر ٥/١٩٦.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ استقلالاً ولا اشتراكاً ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ بنفسه إذا دعوتَه بدفعِ مكروهٍ، أو جَلبِ محبوبٍ ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إذا تركتَه بسلبِ المحبوبِ دفعاً أو رفعاً، أو بإيقاع المكروه.

والجملةُ قيل: معطوفةٌ على جملة النهي قبلها. واختارَ بعضُ المحقِّقين عطفَها على قوله سبحانه: (قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ) فهي غيرُ داخلةٍ تحت الأمر؛ لأنَّ ما بعدها من الجمل إلى آخر الآيتَين مُتَّسِقَةٌ لا يُمكن فصلُ بعضها عن بعضٍ، ولا وجْهَ لإدراج الكلِّ تحت الأمر.

وأنت تعلمُ أنَّه لو قُدِّر فعلُ الإيحاء في «وأنْ أقم» كما فعَلَ أبو حيان وصاحبُ «الفرائد» لا مانعَ من العطف ـ كما هو الظاهرُ ـ على جملة النهي المعطوفةِ على الجملة الأُولى، وإدراجِ جميع المتَّسِقات تحت الإيحاء، وقد يُرجَّحُ ذلك التقديرُ بأنَّه لا يُحتاجُ معه إلى ارتكاب خلافِ الظاهر من العطف على البعيد.

وقيل: لا حاجةَ إلى تقدير الإيحاءِ والعطفِ كما قيل، والأمرُ السابقُ بمعنى الوحي، كأنَّه قيل: وأُوحِيَ إليَّ أنْ أكونَ.. إلخ، والاندراجُ حينئذٍ مما لا بأس به. وهو كما ترى، ولا أظنُّك تقبله.

﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: معدوداً في عدادهم، والفعلُ كنايةٌ عن الدعاء، كأنَّه قيل: فإنْ دعوتَ ما لا ينفعُ ولا يضرُّ، وكنى عن ذلك ـ على ما قيل ـ تنويهاً لشأنه عليه الصلاة والسلام، وتنبيهاً على رِفْعةِ مكانه ﷺ مِن أنْ يُنسَب إليه عبادةُ غيرِ الله تعالى ولو في ضمن الجملة الشرطية. والكلامُ في فائدة نحو النهي المذكور قد مرَّ آنفاً.

وجوابُ الشرط على ما في «النهر»[1] جملةُ «فإنك» وخبرُها، أعني «من الظالمين»، وتوسَّطَت «إذا» بين الاسم والخبر مع أنَّ رُتْبَتَها بعد الخبر رعايةً للفاصلة.

وفي «الكشاف»: أنَّ «إذا» جزاءٌ للشرط وجوابٌ لسؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّ سائلاً سأل

---

(١) في (م): النهي، وهو تصحيف، والكلام من النهر المادِّ من البحر لأبي حيان على هامش البحر ٥/١٩٥.

عن تبعةِ عبادةِ الأوثان، فجعل من الظالمين لأنَّه لا ظلمَ أعظمُ من الشرك ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣][١]. وهذه عبارةُ النحويين، وفُسِّرت كما قال الشهاب: بأنَّ المراد أنَّها تدلُّ على أنَّ ما بعدها مسبَّبٌ عن شرطٍ محقَّقٍ أو مقدَّرٍ، وجوابٌ عن كلام محقق أو مقدر[٢].

وقد ذكر الجلال السيوطيُّ عليه الرحمة في «جمع الجوامع» - بعد أنْ بيَّن أنَّ «إذا» الظرفيةَ قد يُحذَف جزء[٣] الجملة التي أضيفَت هي إليها أو كلُّها، فيعوَّض عنه[٤] التنوين، وتُكسَر للساكنَين لا للإعراب خلافاً للأخفش، وقد تُفتَح - أنَّ شيخَه الكافيجي أَلحق بها «إذن». ثم قال في شرحه «همع الهوامع»[٥]: وقد أشرتُ بقولي: وأَلحَقَ شيخُنا بها في ذلك «إذن» إلى مسألةٍ غريبةٍ قَلَّ مَن تعرَّض لها، وذلك أنِّي سمعتُ شيخنا عليه الرحمة يقول في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون:٣٤]: ليسَت «إذن» هذه الكلمةَ المعهودة، وإنَّما هي «إذا» الشرطية حُذفَت جملتها التي يضاف إليها وعوِّضَ عنها التنوين، كما في يومئذٍ، وكنت أستَحْسِنُ هذا جدّاً، وأظنُّ أنَّ الشيخ لا سَلَفَ له في ذلك، حتَّى رأيت بعضَ المتأخِّرين جنَحَ إلى ما جنح إليه الشيخ، وقد أوسعتُ الكلام في ذلك في حاشية «المغني». انتهى.

وأنت تعلمُ أنَّ الآية التي ذكرها كالآية التي نحنُ فيها وما ذكره مما يميلُ إليه القلبُ ولا أرى فيه بأساً، ولعلَّه أَولَى مما قاله صاحب «الكشاف» ومُتَّبعوه، فليُحْمَلْ ما في الآية عليه، وكان كثيراً ما يخطُرُ لي ذلك إلا أنِّي لم أَكَد أُقدِمُ على إثباته حتى رأيتُه لغيري ممن لا يُنكَر فضلُه، فأثبتُّه حامداً لله تعالى.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ تقريرٌ لِمَا أُورد في حيِّز الصلة من سَلْب النفع من المعبودات الباطلةِ، وتصويرٌ لاختصاصه به سبحانه، أي: وإنْ يُصبك بسوءٍ ما ﴿فَلَا

---

(١) الكشاف ٢/ ٢٥٦، وفيه: وجعل من الظالمين...

(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٦٦.

(٣) في الأصل: جزاء.

(٤) في الأصل: عنها.

(٥) ٢/ ١٧٥-١٧٦.

﴿كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ عنك كائناً مَن كان وما كان ﴿إِلَّا هُوَّۖ﴾ وحده، فثَبَتَ عدمُ كَشْفِ الأصنام بالطريق البرهاني، وهو بيانٌ لعدم النفعِ برفْع المكروه المستلزِمِ لعدم النفع بجلبِ المحبوب استلزاماً ظاهراً، فإنَّ رفْعَ المكروه أدنى مراتبِ النفع، فإذا انتفى انتفى النفعُ بالكلِّية.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ تحقيقٌ لسلب الضررِ الواردِ في حيِّز الصلة، أي: إنْ يُرِدْ أنْ يُصيبَكَ بخير ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ﴾ الذي من جملته ما أرادك به من الخير، فهو دليلٌ على جواب الشرطِ لا نفسُ الجوابِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ فَيَضَان الخير منه تعالى بطريق التفضُّل والكرم من غير استحقاقٍ عليه سبحانه، أي: لا أحدَ يَقدِرُ على ردِّه كائناً مَن كان، فيدخل فيه الأصنامُ دخولاً أوَّليّاً، وهو بيانٌ لعدم ضرِّها بدفع المحبوب قبل وقوعه المستلزمِ لعدم ضرِّها برفعه أو بإيقاع المكروه استلزاماً جليّاً.

ولعلَّ ذِكرَ[1] الإرادةِ مع الخير والمسِّ مع الضرِّ مع تلازُمِ الأمرَين ـ لأنَّ ما يريده سبحانه يُصيب، وما يُصيب لا يكونُ إلا بإرادته تعالى ـ للإيذان بأنَّ الخير مقصودٌ لله تعالى بالذات، والضرّ إنَّما يقعُ جزاءً على الأعمال وليس مقصوداً بالذات.

ويحتمل أنَّه أُريدَ معنى الفعلَين في كلٍّ من الخير والضرِّ لاقتضاء المقامِ تأكيدَ كلٍّ من الترغيب والترهيب، إلا أنَّه قصَدَ الإيجاز في الكلام فذكر في أحدهما المسَّ وفي الآخر الإرادةَ، ليدلَّ بما ذكر في كلِّ جانبٍ على ما ترك في الجانب الآخر، ففي الآية نوعٌ من البديع يسمَّى احتباكاً، وقد تقدَّم في غيرِ آيةٍ.

ولم يَستثنِ سبحانه في جانب الخير[2] إظهاراً لكمال العناية به، ويُنبئُ عن ذلك قولُه تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ﴾ حيث صرَّح جلَّ شأنه بالإصابة بالفضل المنتظِمِ لِمَا أرادَ من الخير.

وقيل: إنَّما لم يَستثنِ جلَّ وعلا في ذلك؛ لأنَّه قد فَرَض فيه أنَّ تعلُّقَ الخير به واقعٌ بإرادته تعالى، وصحةُ الاستثناء تكونُ بإرادةِ ضدِّه في ذلك الوقت، وهو

---

(١) في (م): ذكره.

(٢) أي: لم يقل: فلا راد لفضله إلا هو، كما قال: فلا كاشف له إلا هو. حاشية الشهاب ٥/٦٦.

محالٌ، وهذا بخلافِ مسِّ الضرِّ، فإنَّ إرادة كشفه لا تستلزمُ المحالَ، وهو تعلُّقُ الإرادتَين بالضدَّين في وقتٍ واحد.

وفي العدول عن: يُرِدْ بك الخير، إلى ما في النظم الجليلِ إيماءٌ كما قيل إلى أنَّ المقصودَ هو الإنسانُ، وسائرُ الخيرات مخلوقةٌ لأجله.

وما أشرنا إليه من رجوع ضمير «به» إلى الفضل هو الظاهرُ المناسب، وجوِّز رجوعُه لِمَا ذكر، وليس بذاك. وحملُ الفضل على العموم أوَّلاً وآخِراً حسبما علمتَ هو الذي ذهب إليه بعضُ المحقِّقين[1] راداً على مَن جعلَه عبارةً عن ذلك الخير بعينه على أنْ يكونَ الإتيانُ به أوَّلاً ظاهراً من باب وَضْعِ المظهَرِ موضعَ المضمَر إظهاراً لِمَا ذكر من الفائدة، بأنَّ قوله سبحانه: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يأبى ذلك؛ لأنَّه يُنادي بالعموم. ويجوزُ عندي أنْ يكونَ الكلامُ من باب: عندي درهمٌ ونصفُه.

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ تذييلٌ لقوله تعالى: (يُصِيبُ بِهِۦ) إلخ مقرِّرٌ لمضمونه، والكلُّ تذييلٌ للشرطية الأخيرة مقرِّرٌ لمضمونها.

وذكر الإمام[2] في هذه الآيات: أنَّ قوله تعالى: (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ) لا يمكن أنْ يكونَ نهياً عن عبادة الأوثانِ؛ لأنَّ ذلك مذكورٌ في قوله سبحانه أولَ الآية: (فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ) فلا بدَّ من حَمْل هذا الكلامِ على ما فيه فائدةٌ زائدةٌ، وهي أنَّ مَن عَرَفَ مولاه لو التفَتَ بعد ذلك إلى غيره كانَ ذلك شركاً، وهو الذي يُسمِّيه أصحابُ القلوب بالشرك الخفيِّ، ويجعل قوله سبحانه: (وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ) إشارةً إلى مقامٍ هو آخِرُ درجاتِ العارفين؛ لأنَّ ما سوى الحقِّ ممكنٌ لذاته موجودٌ بإيجاده، والممكنُ لذاته معدومٌ بالنظر إلى ذاته وموجودٌ بإيجاد الحقِّ، وحينئذٍ فلا نافعَ إلا الحقُّ، ولا ضارَّ إلا هو، وكلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وجهَه، وإذا كان كذلك فلا رجوعَ إلا إليه عزَّ شأنه في الدارَين.

ومعنى «فإنْ فعلت» إلخ: فإن اشتغَلْتَ بطَلَب المنفعة والمضرَّة من غير الله تعالى فأنت من الظالمين، أي: الواضعين للشيءِ في غير موضعِه،إذ ما سوى الله

---

(١) هو أبو السعود في تفسيره ٤/ ١٨٠.

(٢) هو الرازي في تفسيره ١٧/ ١٧٣-١٧٤.

تعالى معزولٌ عن التصرُّف، فإضافة التصرُّف إليه وضعٌ للشيء في غير موضعه، وهو الظلم، وطلبُ الانتفاع بالأشياء التي خَلَقَها الله تعالى للانتفاع بها من الطعام والشرابِ ونحوهما لا ينافي الرجوعَ بالكلِّية إلى الله تعالى، بشرط أنْ يكونَ بصرُ العقلِ عندَ التوجُّه إلى شيءٍ من ذلك مشاهداً لقدرة الله تعالى وَجُودِه وإحسانِهِ في[1] إيجاد تلك الموجوداتِ وإيداعِ تلك المنافعِ فيها، مع الجزم بأنَّها في أَنفُسِها وذواتِها معدومةٌ وهالكةٌ، ولا وجودَ لها ولا بقاءَ ولا تأثيرَ إلا بإيجادِ الله تعالى وإبقائه، وإفاضة ما فيها من الخَوَاصِّ عليها بجودِهِ وإحسانِهِ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ إلخ تقريرٌ لأنَّ جميعَ الممكِنات مستندةٌ إليه سبحانه وتعالى، وأنَّه لا معوَّل إلا عليه عزَّ شأنُه.

وهو كلامٌ حسنٌ، بيدَ أنَّ زَعْمه أنَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا يمكنُ أنْ يكونَ نهياً عن عبادة الأوثانِ.. إلخ، لايخفى ما فيه.

وقد ذَكَر نحوَ هذا الكلامِ في الآيات ساداتُنا الصوفية، ففي «أسرار القرآن»: أنَّه سبحانه خوَّفَ نبيَّه ﷺ من الالتفات إلى غيره في إقباله عليه سبحانه بقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾أي: من الطالبين غيري والمُؤْثِرِينَ على جمال مشاهدتي ما لا يَلِيقُ من الحدثان.

وقد ذكروا أنَّ إقامةَ الملَّة الحنيفية بتصحيح المعرفةِ، وهو لا يكونُ إلا بترك النظرِ إلى ما سوى الحقِّ جلَّ جلاله.

ثم إنَّه تعالى زادَ تأكيداً للإقبال عليه والإعراضِ عمَّا سواه بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ إلخ حيث أشار فيه إلى أنَّ مَن طلَبَ النفع أو الضرَّ من غيره تعالى، فهو ظالمٌ، أي: واضعٌ للربوبيَّة في غير موضعها. ومن هنا قال شقيقٌ البَلْخيُّ: الظالمُ مَن طلَبَ نَفْعَه ممن لا يملكُ نفْعَ نفسِهِ، واستدفَعَ الضرَّ ممن لا يملك الدفاعَ عن نفسِه، ومَن عَجَز عن إقامة نفسِه كيف يُقيمُ غيرَه؟ وقُرِّر ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾ إلخ.

---

(١) في الأصل: من.

ومن ذلك قال ابنُ عطاء: إنَّه تعالى قطَعَ على عباده الرَّهبةَ والرغبةَ إلا منه وإليه بإعلامه أنَّه الضارُّ النافعُ.

وقد يكونُ الضرُّ إشارةً إلى الحجاب، والخيرُ إشارةً إلى كشف الجمالِ، أي: إنْ يَمْسَسْك الله بضُرِّ الحجاب فلا كاشف لضرِّك إلا هو بظهور أنوارِ وصاله، وإنْ يُردك بكشف جمالِهِ فلا رادَّ لفضْلِ وصالِهِ من سببٍ وعِلَّةٍ، فإنَّ المختصَّ في الأزل بالوصال لا يحتجب بشيءٍ من الأشياء؛ لأنَّه في الفضل السابق مصونٌ من جَرَيان القهر.

هذا، ولعله مُغنٍ عن الكلام من باب الإشارة في الآيات حسبما هو العادة في الكتاب.

﴿قُلْ﴾ يا أيُّها الرسول مخاطِباً لأولئك الكفرةِ بعد ما بلَّغْتَهم ما أُوحي إليك، أو للمكلَّفين مطلقاً كما قال الطبرسي(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآنُ العظيمُ الظاهر الدلالة، المشتملُ على محاسن الأحكام التي من جملتها ما مرَّ آنفاً من أصول الدين، واطَّلعتُم على ما في تضاعيفه من البينات والهدَى، ولم يَبقَ لكم عُذرٌ.

وقيل: المرادُ من الحقِّ النبيُّ ﷺ، وفيه من المبالغةِ ما لا يخفَى.

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد(٢): أنَّ «الحق» هو ما دلَّ عليه قوله تعالى: (وَإِن يَمْسَسْكَ) إلخ، وهو كما ترى.

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإيمان والمتابعةِ ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ أي: منفعةُ اهتدائه لها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بالكفر والإعراض ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: فوبال ضلالِهِ عليها، قيل: والمرادُ تنزيهُ ساحةِ الرسالة عن شائبةِ غرضٍ عائدٍ إليه عليه الصلاة والسلام من جَلْبِ نفعٍ ودَفْعِ ضُرٍّ، ويلوِّحُ إليه إسنادُ المجيءِ إلى «الحقِّ» من غير إشعارٍ بكون ذلك بواسطته ﷺ.

---

(١) في مجمع البيان ١١/١٠٨.

(٢) كما في الدر المنثور ٣/٣١٩.

﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي: بحفيظٍ موكولٍ إليَّ أمرُكم، وإنما أنا بشيرٌ ونذيرٌ، وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّه عليه الصلاة والسلام لا يُجبرهم على الإيمان ولا يُكرهُهُم عليه، وإنما عليه البلاغُ.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّها منسوخةٌ بآية السيف.

﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ في جميع شؤونكَ من الاعتقاد والعمل والتّبليغ ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ على نهج التجدُّدِ والاستمرار، والتعبيرُ عن بلوغ الحقِّ المفسَّر بالقرآن إليهم بالمجيء وإليه ﷺ بالوحي تنبيهٌ على ما بين المرتبتين من التنافي، وإذا أريد من الحق ما قيل فالأمرُ ظاهرٌ جدّاً.

﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ على ما يعتريك من مشاقِّ التبليغ، وأذى مَن ضلَّ ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ بالنصرة عليه، أو بالأمر بالقتال ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ إذ لا يمكن الخطأ في حُكْمِه تعالى لاطِّلاعه على السرائر كاطِّلاعه على الظواهر، وغيرُه جلَّ شأنهُ من الحاكمين إنما يطلع على الظواهر فيقعُ الخطأ في حكمه.

ولا يخفى ما في هذه الآيات من الموعظة الحسنة، وتسليةِ النبيِّ ﷺ، ووَعْدِ للمؤمنين، والوعيدِ للكافرين.

والحمدُ لله تعالى ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، الذي يؤنسُ ذكرُه قلوبَ الموحِّدين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

(سورة يونس) عليه السلام

(مائة وتسع آيات مكية وكذا ما بعدها إلى سورة النور)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

(﴿الٓر﴾ **ونحوه أمال: حمزة وعلي وأبو عمرو**)، وهو تعديد للحروف على

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله: (**سورة يونس**) مكِّية (**وكذا ما بعدها إلى سورة النور**)، وهي (**مائة وتسع آيات**) وألف وثمانمائة واثنان وثلاثون كلمة، وتسعة آلاف وتسعة وتسعون حرفًا. اهـ خازن. وفي تفسير الخطيب: وحروفها سبعة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفًا، وهي أوّل المثين إنْ جعلنا براءة مع الأنفال من الطّوال، وإلّا فبراءة أُولاهنّ. اهـ.

قوله: (﴿الٓر﴾ **ونحوه أمال حمزة وعلي وأبو عمرو**) أي قرأ بكسر الراء على الإمالة المحضة حمزة وعلي الكسائي وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر. وقرأ بفتح الراء والألف بعدها ابن كثير وقالون وحفص. وقرأ ورش بين الفتح والكسر، واختلف القرّاء في الحروف المقطّعة التي في أوائل السور إذا كان آخرها ألفًا مقصورة، وهي را وطا وها ويا وحا، هل تُقرأ بالإمالة أو بالتفخيم؟ فأمال را من جميع سورها إمالة محضة الكوفيون، إلّا حفصًا وأبو عمرو وابن عامر. وأمال الإخوان وأبو بكر طا من جميع سورها نحو ﴿طسٓ﴾ [النمل: الآية ١]، و﴿طسٓمٓ ۝١﴾ [الشعراء: الآية ١]، و﴿طه ۝١﴾ [طه: الآية ١]. وأمال أبو بكر وحمزة والكسائي يا من ﴿يسٓ ۝١﴾ [يس: الآية ١] و﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: الآية ١]،

(**طريق التحدي**) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة (﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ **ذي الحكمة**) لاشتماله عليها، (**أو المحكم**) عن الكذب (**والاقتراف**).

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾

والهمزة في ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ (**لإنكار التعجب والتعجيب منه**) ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ اسم «كان» و﴿عَجَبًا﴾ خبره، واللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفة لـ ﴿عَجَبًا﴾ فلما تقدم صار حالًا ﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ (أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ)﴾ بأن أنذر أو هي مفسّرة إذ الإيحاء فيه معنى القول ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ﴾

ووافقهم ابن عامر في إمالة ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: الآية ١] دون ﴿يسٓ ۝١﴾ [يس: الآية ١]، وأمال حمزة والكسائي وأبو عمرو وورش وأبو بكر «ها» من ﴿طه ۝١﴾ [طه: الآية ١]، وكذلك أمالها من ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: الآية ١] أبو عمرو والكسائي، وأبو بكر وابن ذكوان، وأمال أبو عمرو وورش وحمزة والكسائي وأبو بكر وابن ذكوان «حا» من جميع آل «حم» السبع، إلّا أن أبا عمرو وورشًا يُميلان بين بين، والباقين يميلون إمالة محضة، وقرأ ابن كثير وقالون وحفص وهشام ﴿حمٓ﴾ بفتح الحاء في جميع سورها، وكلها ألفات صحيحة على أن الأصل في هذه الكلمات ترك الإمالة؛ لأن ألفاتها ليست منقلبة عن الياء، ومَنْ أمالها فقد قصد بإمالتها على أنها أسماء لا حروف؛ لأنها أسماء للحروف المخصوصة وليست بحروف. **قوله**: على (**طريق التحدّي**) أي طلب المعارضة. **قوله**: (﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ **ذي الحكمة**) على أنه للنسبة كلابن وتامر. **قوله**: (**أو المحكم**) على أن يكون الحكيم فعيل بمعنى مفعول. **قوله**: (**والاقتراف**) وفي نسخة صحيحة: والاختلاف.

قوله: (**لإنكار التعجّب**) أي لإنكار تعجب الكفار، أي من الإيحاء، كما سيذكره. قوله: (**والتعجيب منه**) أي لتعجيب السّامعين من تعجيبهم لوقوعه في غير محلّه. **قوله**: (﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾) فـ أن مصدرية أو مفسّرة، وقد جوّز كونها مخفّفة من المثقلة على حذف ضمير الشأن، والقول من الخبر والمعنى أنّ الشأن قولنا:

بأن لهم. **(ومعنى اللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ أنهم جعلوه لهم أعجوبة)** يتعجبون منه، والذي تعجبوا منه أن يوحي إلى بشر وأن يكون رجلًا **(من أفناء رجالهم)** دون عظيم من عظمائهم، فقد كانوا يقولون: العجب أن الله لم يجد رسولًا يرسله إلى الناس إلا **(يتيم أبي طالب)**، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنيران ويبشر بالجنان، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرًا مثلهم، وإرسال اليتيم أو الفقير ليس بعجب أيضًا، لأن الله تعالى إنما يختار للنبوّة من جمع أسبابها، والغنى والتقدم في الدنيا ليس من أسبابها. والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى فكيف يكون عجبًا، إنما العجب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ **(أي سابقة)** وفضلًا ومنزلة رفيعة. ولما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدمًا كما سميت النعمة يدًا لأنها تعطى باليد، **(وباعًا)** لأن صاحبها يبوع بها، فقيل: «لفلان قدم في الخير» **(وإضافتها إلى ﴿صِدْقٍ﴾ دلالة على زيادة فضل)** وأنه من السوابق العظيمة، **(أو مقام صدق)** أو سبق السعادة ﴿قَالَ

أنذر الناس. **قوله: (ومعنى اللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ أنهم جعلوه لهم أعجوبة)** بضم الهمزة وسكون العين مثل أُحدوثة: ما يتعجّب منه، يعني أن اللام في ﴿لِلنَّاسِ﴾ للبيان كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: الآية ٢٣]، أي هذا الخطاب لك وليس متعلّقًا بقوله: عجبًا على طريق المفعولية، كما في قولك: عجبت لسعي زيد في حاجتي؛ لأن معمول المصدر لا يتقدّم عليه. **قوله: (من أفناء رجالهم)** أي ممّن لا يُعرف بجاه ومال ورياسة ونحو ذلك ممّا يعدّونه من أسباب العزّ والجلال، وليس المراد أنه ﷺ ليس من مشاهيرهم نسبًا؛ لأن شرف نسبه عندهم أظهر من الشمس، وأفناء ـ بفتح الهمزة وسكون الفاء والنون والمدّ ـ جمع فنى بوزن فتى، أو جمع فناء بوزن قباء، وهو ناحية من الناس. الجوهري: فناء الدار ما امتدّ من جوانبها، ويقال: هو من أفناء الناس إذا لم يعلم ممّن هو. **قوله: (يتيم أبي طالب)** لأنه كان معه في صغره. **قوله: (أي سابقة)**. . . الخ. والسابقة هنا مصدر بوزن فاعلة بمعنى السّبق والسبق كالتقدم بمعنى فضلهم على غيرهم لما خصّوا به من سائر الأُمم. **قوله: (وباعًا)** في المصباح: الباع، قال أبو حاتم: هو مذكّر، يقال: هذا باع وهو مسافة ما بين الكفّين إذا بسطتهما يمينًا وشمالًا، وباع الرجل الحبل يبوعه بوعًا إذا قاسه بالباع، والجمع أبواع.اهـ. **قوله: (وإضافتها إلى ﴿صِدْقٍ﴾ دلالة على

ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ (مُّبِينٌ)﴾ ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الكتاب (﴿لَسِحْرٌ﴾ مدني وبصري وشامي. ومَن قرأ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾) فهذه إشارة إلى رسول الله ﷺ وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرًا.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ) عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ (**أي استولى، فقد يقدس الديان عن المكان**) والمعبود عن المحدود ﴿يُدَبِّرُ﴾ يقضي ويقدر على مقتضى الحكمة ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ أي أمر الخلق كله وأمر ملكوت السمٰوات

زيادة فضل)، فوجهه أن الإضافة لدلالتها على الاختصاص الكامل أفادت أن الصدق كأنه مالك تلك السابقة التي القدم عبارة عنها؛ فدلّت الإضافة على زيادة تعلّق السابقة بالصدق وزيادة التعلق بالصدق زيادة فضل السابقة. **قوله**: (**أو مقام صدق**) كمقعد صدق بإطلاق الحال وإرادة المحل. **قوله**: (**﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مدني وبصري وشامي، ومَنْ قرأ ﴿لَسَٰحِرٌ﴾**)... الخ. في الإتحاف: قرأ (﴿لَسَٰحِرٌ﴾) بالألف وكسر الحاء ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف، والباقون بغير ألف مع سكون الحاء. اهـ. وفي تفسير الخطيب قرأ نافع[1] وأبو عمرو[2]، وابن عامر بكسر السين (**شامي**) وسكون الحاء على أنّ الإشارة للقرآن المشتمل على ذلك. والباقون بفتح السين وألف بعدها وكسر الحاء على أن الإشارة للنبيّ ﷺ. اهـ. وقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: الآية ٧٦] المراد به الحاصل بالمصدر، وهم كاذبون في ذلك عند أنفسهم أيضًا، وبهذا الاعتبار يكون دليل عجزهم؛ لأن التعجّب أولًا ثم التكلّم بما هو معلوم الانتفاء قطعًا حتى عند نفس المُعارِضِ من دأب العاجز المفحم.

قوله: (**أي استولى فقد تقدّس الديّان عن المكان**). في لسان العرب: الديّان الله عزّ وجلّ والقهار، وقيل: الحاكم والقاضي وهو فعّال من دانَ الناس، أي قهرهم على الطاعة دنتُهم فدانُوا، أي قهرتهم فأطاعوا. اهـ.

---

(١) صوفي. (٢) بصري.

والأرض والعرش. ولما ذكر ما يدل على عظمته وملكه من خلق السمٰوات والأرض والاستواء على العرش، أتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور عن قضائه وتقديره، وكذلك قوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ دليل على عزّته وكبريائه ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ العظيم الموصوف بما وصف به ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ وهو الذي يستحق العبادة ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ وحّدوه ولا تُشركوا به بعض خلقه من إنسان أو ملك فضلًا عن جماد لا يضرّ ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تتدبرون فتستدلون بوجوب المصالح والمنافع على وجود المصلح النافع.

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾

﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ﴾ حال أي لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقائه. والمرجع الرجوع أو مكان الرجوع ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ ﴿حَقًّاۚ﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه (﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾) أي

في حاشية العلامة شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي رحمه الله (قالوا: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ) عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ لا يمكن أن يكون معناه أنه تعالى خلق العرش بعد خلق السمٰوات والأرضين، بدليل أنه تعالى قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ﴾ [هُود: الآية ٧] يدلّ على أنّ وجود العرش سابق على تخليق السمٰوات والأرض، ولا يتوهم أيضًا من استوائه على العرش كونه معتمدًا عليه مستقرًّا فوقه، بحيث لولا العرش لسقط ولنزل؛ لأن ذلك مستحيل في حقّه تعالى لاتّفاق المسلمين على أنه تعالى هو المُمسك للعرش والحافظ، وأنه لا يحتاج إلى شيءٍ ممّا سواه، بل المراد من الاستواء على العرش ـ والله أعلم ـ الاستيلاء عليه ونفاذ التصرّف، وخصّ العرش بالاستيلاء عليه لأنه أعظم المخلوقات، قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودمٍ مهراق

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ﴾ من استوى أو مستأنف لا محلّ له. اهـ بحروفه.

الحكمة بإبداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم (﴿بِٱلْقِسْطِ﴾) بالعدل وهو متعلّق بـ «يجزي» أي ليجزيهم (بقسطه ويوفيهم أجورهم، أو بقسطهم) أي بما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا إذ الشرك ظلم ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: الآية ١٣]، وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ (مِّنْ حَمِيمٍ) وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾

(ولوجه كلامي) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ الياء فيه منقلبة عن واو «ضواء» لكسرة ما قبلها، وقلبها (قُنبُلٌ) همزة لأنها للحركة أجمل ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ والضياء أقوى من النور فلذا جعله للشمس ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ وقدر القمر (أي وقدر مسيره) ﴿مَنَازِلَ﴾ (أو وقدره ذا منازل) كقوله: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: الآية ٣٩] ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ﴾ أي عدد السنين والشهور فاكتفى بالسنين لاشتمالها على الشهور

قوله: (بقسطه ويوفيهم أجورهم أو بقسطهم)... الخ. يعني أن الألف واللام عوض عن الضمير المضاف إليه، وهو إما ضمير الله أو ضمير المؤمنين. **قوله**: (﴿مِّنْ حَمِيمٍ﴾) وهو ماء حار قد انتهى حرّه.

قوله: (ولوجه كلامي) في تأويلات الإمام أبي منصور رحمة الله عليه قوله تعالى: (﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾) قيل: بالعدل، ولكن في هذا التأويل نظر؛ لأن جزاء العبادة يكون إفضالًا وإحسانًا لا استحقاقًا واستيجابًا، وما كان بطريق العدل فهو مستحقّ لا محالة. وأمّا جزاء الكفر بطريق العدل، وكذا جزاء العصيان، لكن جزاء المعصية يحتمل العفو والمغفرة بلا توبة، بخلاف جزاء الكفر على ما يُعرف، والله الموفق. انتهى. **قوله**: (قُنبُلٌ) هو يروي عن ابن كثير المكّي، وهو محمد بن عبد الرحمٰن بن محمد بن خالد بن سعيد بن جرجة المكّي المخزومي، ويكنى أبا عمرو، يلقّب قنبلًا، ويقال: هم أهل بيت بمكّة يُعرفون بالقنابلة، وتوفي بمكّة بعد سنة ثمانين ومائتين رحمه الله. **قوله**: (أي وقدر مسيره) يشير إلى أن هنا مضافًا مضمرًا، وهو اسم مكان ومنازل مفعول ثان على تضمين التقدير معنى التصيير. **قوله**: (أو وقدره ذا منازل) فيكون منازل أيضًا

﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ وحساب الآجال والمواقيت المقدرة بالسنين والشهور ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ المذكور (﴿إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾) الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثًا (﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ مكيّ وبصريّ وحفص، وبالنون غيرهم) ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فينتفعون بالتأمل فيها.

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في مجيء كل واحد منهما خلف الآخر، أو في اختلاف لونيهما ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الخلائق ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ خصّهم بالذكر لأنهم يحذرون الآخرة فيدعوهم الحذر إلى النظر ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ (لا يتوقعونه) أصلًا ولا يخطرونه ببالهم لغفلتهم عن التفطن للحقائق، أو لا يؤملون حسن لقائنا كما يؤمله السعداء، أو لا يخافون سوء لقائنا الذي يجب أن يُخاف ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ من الآخرة وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾ وسكنوا فيها سكون مَن (لا يزعج) عنها فبنوا شديدًا وأملوا بعيدًا ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ لا يتفكرون فيها، ولا وقف عليه لأن خبر «إن» ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ فـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ و﴿مَأْوَىٰهُمُ﴾ مبتدأ

مفعولًا ثانيًا، لكن بتقدير مضاف في المنازل، فلا يقدر مضاف حينئذ في المفعول الأول، أعني مسيرًا، وقيل: أصله قدر له منازل، فهو مفعول به. **قوله**: (﴿إِلَّا﴾ ملتبسًا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾) يعني أن الباء للملابسة وهو حال. **قوله**: (﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ مكّي) أي ابن كثير المكي (وبصري) أي أبو عمرو البصري، ويعقوب بن إسحٰق الحضرمي البصري، وليس من السبعة. (وحفص) بن سليمان بن المغيرة الأسدي البزاز الكوفي بياء الغيب جريًا على اسم الله تعالى، (وبالنون غيرهم) التفاتًا من الغيبة إلى التكلّم للتعظيم.

قوله: (لا يتوقعونه).. الخ. قالوا: الرجاء يُطلق بمعنى توقّع الخير، وهو الأصل كالأمل. ويُطلق على الخوف وتوقّع الشر، ويُطلق على مطلق التوقّع، وهو في الأول حقيقة وفي الآخرين مجاز. **قوله**: (لا يزعج) أي يحرك.

ثانٍ و﴿ٱلنَّارُ﴾ خبره والجملة خبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ والباء في ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ يتعلق بمحذوف دلّ عليه الكلام وهو جوزوا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدّي إلى الثواب ولذا جعل ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيانًا له وتفسيرًا، إذ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، أو يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة، (**ومنه الحديث** «**إن المؤمنَ إذا خرج من قبره**) صوّر له عمله في صورة حسنة فيقول له: أنا عملك فيكون له نورًا وقائدًا إلى الجنة، والكافر إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة سيئة فيقول له: أنا عملك فينطلق به حتى يدخله النار» وهذا دليل على أن الإيمان المجرد منج حيث قال: ﴿بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ ولم يضم إليه العمل الصالح ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلق بـ ﴿تَجۡرِي﴾ أو حال من ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

قوله: (**ومنه الحديث إن المؤمن إذا خرج من قبره**)... الخ. كذا في تفسير الخطيب. وفي الدرّ المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾ قال: حدّثنا الحسن، قال: بلغنا أن النبيّ ﷺ قال: «المؤمن إذا خرج من قبره صوّر له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك خير امرء صدق، فيقول له: أنا عملك، فيكون له نورًا وقائدًا إلى الجنّة. وأمّا الكافر، فإذا خرج من قبره صُوِّر له عمله في صورةٍ سيّئة وريح مُنتنة، فيقول له: ما أنت؟ فوالله إني لأراك عين امرىء سوء، فيقول: أنا عملك، فينطلق به حتى يُدخله النار». أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج في قوله: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ﴾، قال: يمثل لهم في صورة حسنة وريح طيّبة يعارِضُ صاحبه ويبشّره بكل خير، فيقول: مَنْ أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فيجعل له نورًا من بين يديه حتى يُدخله الجنّة، والكافر يمثل له عمله في صورة سيّئة وريح مُنتنة، فيلازم صاحبه حتى يقذفه في النار، انتهى بحروفه.

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾

﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ **(أي دعاؤهم)** لأن ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ نداء الله ومعناه **(اللهم إنا نسبحك)** أي يدعون الله بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ تلذذًا بذكره لا عبادة ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي يحييّ بعضهم بعضًا بالسلام، أو هي تحية الملائكة إياهم، وأضيف المصدر إلى المفعول، أو تحية الله لهم ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن يقولوا الحمد لله رب العالمين ﴿أَنِ﴾ مخففة من الثقيلة، وأصله أنه الحمد لله رب العالمين، **(والضمير للشأن)**. قيل: أول كلامهم التسبيح وآخره التحميد فيبتدئون بتعظيم الله وتنزيهه ويختمون بالشكر والثناء عليه ويتكلمون بينهما بما أرادوا.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١﴾

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ﴾ أصله ولو يعجل الله للناس الشر تعجيله لهم الخير، فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير إشعارًا بسرعة إجابته لهم، والمراد أهل مكة وقولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: الآية ٣٢] أي ولو عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ لأميتوا وأهلكوا

قوله: (أي دعاؤهم) يعني أنّ الدعوى بمعنى الدعاء، ويدلّ عليه: اللّهمّ، فإنه نداء في معنى: يا الله، دعا يدعو دعاء ودعوى، كما يقال: شكا يشكو شكاية وشكوى، و﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ هو المنادى له، وهو مصدر بمعنى التسبيح معمول لفعل لا يجوز إظهاره، وأشار إليه المصنّف بقوله: **(اللّهمّ إنّا نسبّحك)**، فلما حذف الفعل أضيف المصدر إلى مفعوله.

قوله: (والضمير للشأن) والجملة بعدها في محل الرفع على أنها خبر لها، وأن مع اسمها وخبرها في محل الرفع خبر للمبتدأ الأوّل، وهو قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ﴾.

(﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ شامي على البناء للفاعل وهو الله عز وجل) ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ شركهم وضلالهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون، ووجه اتصاله بما قبله أن قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾ متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم في طغيانهم أي فنمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزامًا للحجة عليهم.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أصابه والمراد به الكافر ﴿ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ أي دعا الله لإزالته ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ في موضع الحال بدليل عطف الحالين أي ﴿أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ عليه أي دعانا مضطجعًا. وفائدة ذكر هذه الأحوال أن معناه أن المضرور لا يزال داعيًا لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضرّ، فهو يدعونا في حالاته كلها سواء كان مضطجعًا عاجزًا عن (**النهوض**)، أو قاعدًا لا يقدر على القيام، أو قائمًا لا يطيق المشي ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ أزلنا ما به ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ أي مضى على طريقته الأولى قبل مسّ الضرّ ونسي حال الجهد، أو مرّ عن موقف الابتهال والتضرّع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به، والأصل «كأنه لم يدعنا» فخفّف وحذف ضمير الشأن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ للمجاوزين الحد في الكفر زيّن الشيطان بوسوسته ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من الإعراض عن الذكر واتباع الكفر.

قوله: (﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ **شامي**) أي ابن عامر الشامي (**على البناء للفاعل، وهو الله عزّ وجلّ**) في تفسير النيسابوريّ ﴿لقضي إليهم﴾ مبنيًا للفاعل ﴿أجلهم﴾ بالنصب ابن عامر ويعقوب. الآخرون مبنيًّا للمفعول ورفع ﴿أجلهم﴾. اهـ.

قوله: (**النهوض**) القيام.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يا أهل مكة ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أشركوا وهو ظرف لـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ والواو في ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ للحال أي ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ إن بقوا ولم يهلكوا لأن الله علم منهم أنهم يصرّون على كفرهم، وهو عطف على ﴿ظَلَمُوا۟﴾ أو اعتراض، واللام لتأكيد النفي يعني أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل، وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء يعني الإهلاك ﴿نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد أي استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكناها ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي لننظر أتعملون خيرًا أو شرًّا فنعاملكم على حسب عملكم. و﴿كَيْفَ﴾ في محل النصب بـ ﴿تَعْمَلُونَ﴾ لا بـ «ننظر»، لأن معنى الاستفهام فيه يمنع أن يتقدم عليه عامله، والمعنى أنتم بمنظر منا فانظروا كيف تعملون، أبالاعتبار بماضيكم أم الاغترار بما فيكم؟ قال عليه السلام: («**الدنيا حلوة خضرة**) وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون».

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ حال ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد لأهل الطغيان ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ ليس فيه ما يغيظنا من ذلك نتبعك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة وتسقط ذكر الآلهة وذمّ عبادتها، فأمر بأن يجيب عن التبديل لأنه داخل تحت قدرة الإنسان وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة وأن يسقط ذكر الآلهة بقوله:

قوله: (الدنيا حلوة خُضْرَة) أي روضة خضراء مستحلاة الطعم.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ﴾ ما يحل لي ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ من قبل نفسي ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ لا أتبع إلا وحْيَ الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تبديل، لأن الذي أتيت به من عند الله لا من عندي فأبدله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ بالتبديل من عند نفسي ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي يوم القيامة. وأما الإتيان بقرآن آخر فلا يقدر عليه الإنسان، وقد ظهر لهم العجز عنه إلا أنهم كانوا لا يعترفون بالعجز ويقولون لو نشاء لقلنا مثل هذا. ولا يحتمل أن يريدوا بقوله: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ من جهة الوحي لقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وغرضهم **(في هذا الاقتراح)** الكيد، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنك قادر على مثله فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل **(فلاختبار الحال)**، وأنه إن وجد منه تبديل فإما أن يهلكه الله فينجوا منه، أو لا يهلكه فيسخروا منه فيجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحًا لافترائه على الله.

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإظهاره أمرًا عجيبًا خارجًا عن العادات، وهو أن يخرج رجل أُمي لم يتعلم ولم يشاهد العلماء فيقرأ عليكم كتابًا فصيحًا يغلب كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم، **(مشحونًا)** بعلوم الأصول والفروع والإخبار عن الغيوب التي لا يعلمها إلا الله ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ ولا أعلمكم الله بالقرآن على لساني ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ من قبل نزول القرآن أي فقد أقمت فيما بينكم أربعين سنة ولم تعرفوني متعاطيًا شيئًا من نحوه ولا قدرت عليه، ولا كنت موصوفًا بعلم وبيان فتتهموني باختراعه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعلموا أنه ليس إلا من عند الله لا من مثلي، وهذا جواب عما دسّوه تحت قولهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ من إضافة الافتراء إليه.

قوله: (في هذا الاقتراح) في مختار الصحاح: اقترح عليه شيئًا سأله إيَّاه من غير رَوِيَّةٍ. اهـ. **قوله: (فلاختبار الحال)** يقال: خبره واختبره إذا بلاه، أي امتحنه. اهـ اختري.

قوله: (مشحونًا) أي مملوءًا.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في أنه ذو شريك وذو ولد، وأن يكون (تفاديًا) مما (أضافوه) إليه من الافتراء ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ بالقرآن، فيه بيان أن الكاذب على الله والمكذب بآياته في الكفر سواء ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ إن تركوا عبادتها ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ إن عبدوها ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي الأصنام ﴿شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في أمر الدنيا ومعيشتها لأنهم كانوا لا يقرّون بالبعث ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل: الآية ٣٨] أو يوم القيامة إن يكن بعث ونشور ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ أتخبرونه بكونهم شفعاء عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلومًا له وهو عالم بجميع المعلومات لم يكن شيئًا. وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ تأكيد لنفيه لأن ما لم يوجد فيهما فهو معدوم ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزه ذاته عن أن يكون له شريك. (وبالتاء: حمزة وعليّ)، وما موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ حنفاء متفقين على ملّة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم، وذلك في عهد آدم عليه السلام إلى أن قتل قابيل هابيل، أو بعد الطوفان

قوله: (تفاديًا) تفاعل من الفداء وأُريد به تخلّصًا مجازًا؛ إذ التفادي إعطاء الفداء مستلزم للتخلّص. **قوله**: (أضافوه) أي نسبوه. **قوله**: (وبالتاء) على الخطاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ﴾ (حمزة وعليّ) الكسائي، والباقون بالياء على الغيبة، فكأنه قيل للنبيّ ﷺ: قل أنت: سبحانه وتعالى عمّا يشركون، ويجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى هو الذي نزّه نفسه عمّا قالوه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. اهـ خطيب.

حين (لم يذر) الله من الكافرين (ديارًا) ﴿فَٱخۡتَلَفُواْۚ﴾ فصاروا (مللًا) ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ عاجلًا ﴿فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ فيما اختلفوا فيه وليَميزَ المحق من المبطل وسَبْقُ كلمته لحكمة، وهي أن هذه الدار دار تكليف وتلك الدار دار ثواب وعقاب.

﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ أي آية من الآيات التي اقترحوها ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ﴾ أي هو المختصّ بعلم الغيب فهو العالم بالصارف عن إنزال الآيات المقترحة لا غير ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم وجحودكم الآيات ﴿وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ﴾ أهل مكة ﴿رَحۡمَةٗ﴾ (خصبًا) وسعة ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُمۡ﴾ يعني القحط والجوع ﴿إِذَا لَهُم مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾ أي مكروا بآياتنا بدفعها وإنكارها. رُوِيَ أنه تعالى سلّط القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ثم رحمهم (بالحيا)، فلما رحمهم

قوله: (لم يذر) أي لم يدع. **قوله**: (ديارًا) أي نازل دار، والمعنى أحدًا. **قوله**: (مللًا) في المصباح: المِلّة ـ بالكسر ـ الدِّين، والجمع ملل مثل سدرة وسدر. اهـ.

قوله: (خِصْبًا) في المصباح: الخصب وزان حِمْل النّماء والبركة، وهو خلاف الجَدْب. اهـ. وفي مختار الصحاح: الخصب ـ بالكسر ـ ضد الجَدْب، ويقال: بلد خِصْب وأخْصابٌ أيضًا، وصفوه بالجمع كأنهم جعلوا الواحد أجزاءً وله نظاير. اهـ.

قوله: (بالحَيا) في مختار الصحاح: الحَيَى ـ مقصور ـ المطر والخِصْب. اهـ. وفي لسان العرب: وقد جاء الحيا الذي هو المطر والخصب ممدودًا. انتهى. وفي حاشية تفسير البيضاوي للعلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب: الحيا بالمدّ والقصر المطر، والمراد به هنا الخصب. انتهت. **قوله**:

(طفقوا) يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله ﷺ ويكيدونه فـ ﴿إِذَا﴾ الأولى للشرط، والثانية جوابها وهي للمفاجأة وهو كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: الآية ٣٦] أي وإن تصبهم سيئة قنطوا، وإذا أذقنا الناس رحمة مكروا. والمكر إخفاء الكيد وطيّه (من الجارية الممكورة المطوية الخَلْق)، ومعنى مستهم خالطتهم حتى (أحسّوا) بسوء أثرها فيهم. وإنما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ﴾ ولم يصفهم بسرعة المكر لأن كلمة المفاجأة دلّت على ذلك كأنه قال: وإذا رحمناهم من بعد ضراء فاجؤوا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مسّ الضراء ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ (يعني الحَفَظة) ﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ إعلام بأن ما تظنونه خافيًا لا يخفى على الله وهو منتقم منكم. (وبالياء: سهل).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۖ﴾ يجعلكم قادرين على قطع المسافات بالأرجل والدواب والفلك الجارية في البحار، أو يخلق فيكم السير (﴿ينشركم﴾ شاميّ)

(طفقوا) في مختار الصحاح: طَفِقَ يفعل كذا، أي جعل يفعل كذا، وبابه طرب. اهـ. قوله: (من الجارية الممكورة المطوية الخَلْق) الممكورة المفتولة الخلق غير مسترخية الأعضاء. قوله: (أحَسُّوا) أي أدركوا. قوله: (يعني الحَفَظة) الكرام الكاتبين، والحَفَظة جمع حافظ. قوله: (وبالياء: سهل) هو أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني البصري، وليس من السبعة. وعبارة تفسير النيسابوري: يمكرون بياء الغيبة سهل ورَوْح. والباقون بالتاء الفوقية، انتهت. وروح يروي عن يعقوب إسحٰق الحضرمي البصري، كما يروي عنه زيد ورُوَيْس ويعقوب ليس من السبعة.

قوله: (﴿ينشركم﴾) بفتح الياء وسكون النون وضمّ الشين المعجمة من النشر، وهو التفريق والبسط الذي هو ضدّ الطيّ، (شامي) أي ابن عامر الشامي. وقرأ الباقون: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ [يونس: الآية ٢٢] بضم الياء وسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشدّدة من التسيير، والتضعيف للتعدية، يقال: سار الرجل وسيّرته أنا.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ (أي السفن) ﴿وَجَرَيۡنَ﴾ أي السفن ﴿بِهِم﴾ بمن فيها رجوع من الخطاب إلى الغيبة للمبالغة ﴿بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ لينة الهبوب لا عاصفة ولا ضعيفة ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ بتلك الريح للينها واستقامتها ﴿جَآءَتۡهَا﴾ أي الفلك أو الريح الطيبة أي تلقتها ﴿رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ (ذات عصف أي شديدة الهبوب) ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ﴾ هو ما علا على الماء (﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ من البحر أو من جميع أمكنة الموج) ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ﴾ أهلكوا جعل إحاطة العدو بالحي مثلًا في الإهلاك ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من غير إشراك به لأنهم لا يدعون حينئذٍ معه غيره يقولون ﴿لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾ الأهوال أو من هذه الريح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لنعمتك مؤمنين بك متمسكين بطاعتك، (**ولم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر**) ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بما في حيّزها كأنه

قوله: (**أي السفن**) نبّه به على أن الفلك جَمْع[1] هناك، كما يدلّ عليه: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾ [يونس: الآية ٢٢]، وأمّا في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ [الشُّعَراء: الآية ١١٩]، فمفرد والفرق بين مفرده وجمعه اعتباري، فحركته إذا كان جمعًا كحركة بدن جمع بدنة، وإذا كان مفرد كحركة قفل. **قوله**: (**ذات عصف**) أي العاصف صيغة نسبة ليس بجارٍ على الفعل، بل هو اسم صيغ لذي الشيء. ألا يرى أنه لا يقال: عصف، كما لا يقال: تمر ولبن في تامر ولابن، ولذلك قيل: الفرق بينه وبين اسم الفاعل أنه لا يؤنّث إذا كان بمعنى ذي كذا، ومِنْ هذا لا يجيء عاصفة بالتأنيث، مع أن الريح مؤنّثة لا تذكّر بدون تأويل. **قوله**: (**أي شديدة الهبوب**) لازم معناه: إذ العصف، وهو الكسر أو النبات المتكسّر؛ لأن الرِّيح الشديدة تفعل به. **قوله**: (﴿مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ **من البحر أو من جميع أمكنة الموج**) تخصيص له؛ لأنه ليس على ظاهره. **قوله**: (**ولم يجعل الكون في الفلك غاية للتسيير في البحر**)... الخ. فإن قيل: كيف جعل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ غاية لقوله: ﴿يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، وغاية الشيء تكون بعده، والحال أن السير في البحر بعد الكون في الفلك؟ قلنا: أجاب المصنّف رحمه الله بأنّ الغاية ليس مجرّد الكون في الفلك، بل الغاية هي الكون في

---

(١) أي جمع مكسر. ١٢ منه عمّ فيضهم.

قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان (**كَيْت وكَيْت**) من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن بالهلاك والدعاء بالإنجاء، (**وجواب: ﴿إِذَا﴾ ﴿جَآءَتۡهَا﴾ و﴿دَعَوُاْ﴾ بدل من ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾**) لأن دعاءهم من لوازم ظنّهم للهلاك فهو ملتبس به.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يفسدون فيها ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ باطلًا (**أي مبطلين**) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ أي ظلمكم يرجع إليكم كقوله: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: الآية ٤٦] (**﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ حفص**) أي تتمتعون متاع الحياة الدنيا «وعلى أنفسكم» خبر لـ «بغيكم». غيره بالرفع على أنه خبر ﴿بَغۡيُكُمۡ﴾ و﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ صلته كقوله: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [القصص: الآية ٧٦] ومعناه إنما بغيكم على أمثالكم، أو هو خبر و﴿مَّتَٰعَ﴾ خبر بعد خبر، أو ﴿مَّتَٰعَ﴾ خبر مبتدأ مضمر أي هو متاع الحياة الدنيا، وفي الحديث (**«أسرع الخير ثوابًا صلة الرحم، وأعجل الشر عقابًا البغي واليمين الفاجرة»**) ورُوِيَ «ثنتان يعجلهما الله في الدنيا البغي (**وعقوق الوالدين**»).

الفلك مع ما عطف عليه من قوله: ﴿وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾، فإنّ هذا المجموع بعد السير في البحر. **قوله**: (**كَيْت وكَيْت**) وإن شئت كسرتَ التاء، وهي كناية عن الأمر، نحو كذا وكذا. اهـ لسان العرب باختصار. **قوله**: (**وجواب ﴿إِذَا﴾** ﴿جَآءَتۡهَا﴾) عبارة تفسير الكشاف: فإن قلت: ما جواب إذا؟ قلت: ﴿جَآءَتۡهَا﴾، انتهت. **قوله**: (**و﴿دَعَوُاْ﴾ بدل من ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾**) بدل اشتمال.

قوله: (**أي مبطلين**) إشارة إلى أن بغير الحقّ حال من ضمير يبغون. **قوله**: (**﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ حفص**) بنصب العين على أنه مصدر مؤكّد. **قوله**: (**«أسرع الخير ثوابًا**) أي أعجل أنواع الطاعة جزاءً من الله سبحانه وتعالى، (**صلة الرحم**) أي الأقارب، (**وأعجل الشرّ**) أي الفساد والظلم (**عقابًا البغي واليمين الفاجرة**) أي الكاذبة. **قوله**: (**وعقوق الوالدين»**) يقال: عقّ الولد أباه عقوقًا من باب قعد إذا عصاه وترك الإحسان إليه، فهو عاقّ، والجمع عققة. اهـ مصباح.

(وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: «لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغي منهما». وعن محمد بن كعب: ثلاث مَن كنّ فيه كنّ عليه: البغي والنكث والمكر). قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: الآية ٢٣]، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: الآية ٤٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح: الآية ١٠]، ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فنخبركم به ونجازيكم عليه.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله: (وعن ابن عباس) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطّلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عمّ النبيّ ﷺ، وُلِد قبل الهجرة بثلاث سنين، ودعا له رسول الله ﷺ بالفهم في القرآن، فكان يسمّى البحر والحبر لسِعَة عِلْمه، مات سنة ثمانٍ وستّين بالطائف، وهو أحد المُكثرين من الصحابة وأحد العبادلة من فقهاء الصحابة (رضي الله تعالى عنهما: «لو بغى جبل على جبل») أي تعدّى عليه («لدكّ الباغي منهما») أي انهدم واضمحلّ، رواه البخاري في الأدب المفرد عن ابن عباس، ورواه ابن لال عن أبي هريرة. وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لو بغى جبل على جبل لدكّ الباغي منهما». أخرج ابن مردويه من حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما مثله، انتهى بحروفه.

قوله: (وعن محمد بن كعب) القرظي المدني ثم الكوفي، قال ابن عون: ما رأيت أحدًا أعلم بتأويل القرآن من القرظي. وقال ابن سعد: كان ثقة ورعًا كثير الحديث، وكذا وثّقه أبو زرعة والعجلي، مات سنة تسع عشرة ومائة، وقيل: سنة عشرين. **قوله**: (ثلاث مَنْ كُنّ فيه كنّ عليه: البغي) أي مجاوزة الحدّ في الاعتداء، (والنّكْث) بمثلثةٍ: نقض العهد (والمكر) أي الخداع. **قوله**: (﴿وَلَا يَحِيقُ﴾) يحيط، (﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾) وهو الماكر. **قوله**: (﴿فَمَن نَّكَثَ﴾) نقض البيعة، (﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ﴾) يرجع وبال نقضه (﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾).

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من السحاب ﴿فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾ بالماء ﴿نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ﴾ (**أي فاشتبك بسببه**) حتى خالط بعضه بعضًا ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ﴾ يعني الحبوب والثمار والبقول ﴿وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ يعني الحشيش ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾ زينتها بالنبات واختلاف ألوانه ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ وتزينت به وهو أصله (**وأُدغمت التاء في الزاي**) وهو كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزين ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ﴾ أهل الأرض ﴿أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ متمكنون من منفعتها محصلون لثمرتها رافعون لغلتها ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا﴾ عذابُنا وهو ضرب زرعها ببعض (**العاهات**) بعد أمنهم واستيفائهم أنه قد سلم ﴿لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا﴾ فجعلناها زرعًا ﴿حَصِيدًا﴾ (**شبيهًا**) بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ كأن لم يغن زرعها أي (**لم يلبث**)، حذف المضاف في هذه المواضع لا بد منه ليستقيم المعنى ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ هو مقل في الوقت القريب كأنه قيل: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ﴾ (**آنفًا**) ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فينتفعون بضرب الأمثال، (**وهذا من التشبيه المركب**) شبهت حال الدنيا في سرعة (**تقضيها**) وانقراض نعيمها

قوله: (**أي فاشتبك بسببه**). . . الخ. أي بسبب الماء كثر النبات حتى التفّ بعضه بعضًا. **قوله**: (**وأُدغمت التاء في الزاي**) أي بعد تسكينها وبعد الإدغام اجتلبت همزة الوصل توصّلًا للنطق بالساكن ثم حُذِفت همزة الوصل لمّا دخل العاطف. **قوله**: (**العاهات**) في المصباح: العاهة الآفة، وهي في تقدير فعلة بفتح العين، والجمع عاهات.اهـ. **قوله**: (**شبيهًا**) أي الكلام على التشبيه البليغ. **قوله**: (**لم يلبث**) باللام والباء الموحدة والثاء المثلّثة، أي لم يمكث ويقم وهو تفسير له؛ لأن غنى بالمكان معناه أقام وسكن وعاش، ومنه المغني للمنزل. في مختار الصحاح: لَبِث أي مَكَث وبابه فهم ولَباثًا أيضًا ـ بالفتح ـ فهو لابث، ولَبِث أيضا ـ بكسر الباء ـ.اهـ. **قوله**: (**آنفًا**) يقال: مرّ آنفًا أي قريبًا أو هذه الساعة. **قوله**: (**وهذا من التشبيه المركّب**) حيث شبّهت الهيئة المُنتزعة من إجماع الحياة ونهايتها وسرعة انقضائها بالهيئة المُنتزعة من اجتماع خضرة الأرض ونضارتها وانعدامها عقيبها دفعة بآفة سماوية ومشيئة إلـهيّة. **قوله**: (**تقضيها**) في مختار الصحاح: انقضى الشيء وتقضّى بمعنى انتهى.

بعد الإقبال، بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه (**حطامًا**) بعدما التفّ وتكاثف وزيّن الأرض بخضرته (**ورفيفه**) وحكمة التشبيه، التنبيه على أن الحياة (**صفوها شبيبتها وكدرها شيبتها**) كما أن صفو الماء في أعلى الإناء قال:

ألم تر أن العمر كأس (**سلافة**) فأولـه صـفـو وآخـرهُ كـدْر

وحقيقته تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التلوين، فالطينة الطيبة تنبت بساتين الأنس، ورياحين الروح، وزهرة الزهد، و(**كروم**) الكرم، وحبوب الحب، و(**حدائق الحقيقة، وشقائق الطريقة**)، والخبيثة

قوله: (**حطامًا**) فتاتًا[1]، **قوله**: (**ورفيفه**) في لسان العرب: الرفيف والوريف لغتان، يقال للنبات الذي يهتزّ خُضْرةً وتلألؤًا قد رفّ يَرِفّ رفيفًا.اهـ. **قوله**: (**صفوها**) في المصباح: صفو الشيء بالفتح خالصه، والصفوة بالهاء والكسر مثله، وحُكِي التثليث.اهـ. **قوله**: (**شبيبتها**) في لسان العرب: الشباب الفَتاء والحِداثة شبّ يَشِبُّ شَبابًا وشَبِيبَة.اهـ.

قوله: (**وكدرها**) في مختار الصحاح: الكَدَر ضدّ الصفو.اهـ. **قوله**: (**شَيْبَتُها**) في لسان العرب: الشَّيْب معروف قليله وكثيره بياض الشعر والمشيب مثله، وربما سُمّي الشعر نفسه شَيْبًا شاب يشيب شيبًا ومَشيبًا وشَيْبة.اهـ. **قوله**: (**سُلافة**) في لسان العرب: السُّلافة من الخمر أطيبها وأفضلها.اهـ. وأيضًا فيه سلاف الخمر وسلافتها أوّل ما يُعْصَر منها، وقيل: هو ما سال من غير عَصْر، وقيل: هو أوّل ما ينزل منها، وقيل: السلافة أوّل كل شيء عصر.اهـ. **قوله**: (**كُرُوم**) الكَرْم وزان فلس العنب.اهـ مصباح. وفي لسان العرب: الكَرْم شجرة العنب واحدتها كَرْمة، وقيل: الكَرْمة الطاقة الواحدة من الكَرْم وجمعها كُرُوم.اهـ باختصار.

قوله: (**حدائق الحقيقة**) الحدائق البساتين والشجر الملتفّ، والحقيقة مشاهدة الربوبيّة، أي رؤيته إيَّاها بقلبه، أي دوام النظر إلى الله سبحانه وتعالى. **قوله**: (**وشقائق الطريقة**) الشقائق الزهر الأحمر المعروف، والطريقة سلوك طريق الشريعة،

---

(١) الفتات التفتت أي التكسّر. ١٢ منه عمّ فيضهم.

تخرج (**خلاف الخلف، وثمام الإثم**)، وشوك الشرك، (**وشيح الشح، وحطب العطب، ولعاع اللعب**)، ثم يدعوه معاده كما يحين للحرث حصاده فتزايله الحياة مغترًّا كما (**يهيج**) النبات مصفرًّا فتغيب جثة في (**الرَّمس**) كأن لم تغن بالأمس إلى أن يعود ربيع البعث وموعد العرض والبحث، وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره، ولا بد من ترك ما زاد كما لا بد من أخذ الزاد، وآخذ المال لا يخلو من زلّة، كما أن خائض الماء لا ينجو من (**بلّة**)، وجمعه وإمساكه تلف صاحبه، وإهلاكه فما دون النصاب (**كضحضاح**) ماء يجاوز بلا احتماء، والنصاب كنهر حائل بين المجتاز. والجواز إلى المفاز لا يمكن إلا بقنطرة وهي الزكاة، وعمارتها بذل (**الصلات**)، فمتى اختلّت القنطرة غرّقته أمواج (**القناطير المقنطرة**)، وعن هذا قال عليه السلام: («**الزكاة قنطرة الإسلام**») وكذا المال يساعد (**الأوغاد**) دون

أي العمل بمقتضاها. **قوله**: (**خِلاف الخُلْف**) الخلاف وزان كتاب شجر الصفصاف الواحدة خلافة، ونصوا على تخفيف اللام، وزاد الصغاني وتشديدها من لحن العوام.اهـ مصباح. وأيضًا فيه: الصفصاف بالفتح الخلاف بلغة الشام، قاله الأزهري.اهـ. **قوله**: (**وثمام الإثم**) الثُّمام وزان غراب نبت يسدّ به خصاص البيوت، الواحدة ثمامة.اهـ مصباح. **قوله**: (**وشيح الشُّح**) في مختار الصِّحاح: الشّحّ نَبْتٌ.اهـ. وأيضًا فيه: الشُّحُ البخل مع حرص.اهـ.

قوله: (**وحطب العطب**) العَطَب الهلاك.اهـ مختار الصحاح. **قوله**: (**لُعاع اللعب**) في لسان العرب: اللُّعاع أوّل النَّبْت، وقيل: هو بقل ناعم في أوّل ما يبدو ورقيق ثم يغلظ، واحدته لعاعة.اهـ باختصار. **قوله**: (**يهيج**) ييبس. **قوله**: (الرَّمس) التراب. **قوله**: (**بلّة**) في مختار الصحاح: البِلّة - بالكسر - النّداوة.اهـ. **قوله**: (**كضَحْضَاح**) ماء في لسان العرب: ماءٌ ضحضاحٌ أي قريب القَعْر.اهـ.

قوله: (**الصِّلات**) الصدقات. **قوله**: (**القناطير**) الأموال الكثيرة (**المقنطَرة**) المجتمعة. **قوله**: (**الزكاة قنطرة الإسلام**) أي جسره الذي يُعبر منه إليه، فإيتاؤها طريق إلى التمكّن في الدِّين لِمَا فيها من إظهار عزّ الإسلام بكسر أنفة من أبى واستكبر عن المواساة، رواه الطبراني والبيهقي في الشعب، وابن عدي عن أبي الدرداء. قال ابن حجر بإسناد ضعيف لضعف الضحاك بن حمزة. **قوله**: (**الأوغاد**)

(الأمجاد) كما أن الماء يجتمع في (الوهاد) دون (النجاد)، وكذلك المال لا يجتمع إلا بكد البخيل كما أن الماء لا يجتمع إلا بسد المسيل، ثم يفنى ويتلف ولا يبقى كالماء في الكفّ.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ هي الجنة أضافها إلى اسمه تعظيمًا لها، أو السلام السلامة لأن أهلها سالمون من كل مكروه. وقيل: لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم (﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾) [الواقعة: الآية ٢٦] ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (ويوفق من يشاء) ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى الإسلام أو طريق السنّة، فالدعوة عامة على لسان رسول الله بالدلالة، والهداية خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية، والمعنى يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون.

في لسان العرب: الوَغْد الخفيف الخفيف الأحمق الضعيف العقل الرِّذل الدَّنِيّ، وقيل: الضعيف في بدنه، وقد وَغد وغادة، ويقال: فلان من أوغاد القوم ومن وُغدان القوم ووِغْدان القوم، أي من أذلّائهم وضعفائهم. اهـ. **قوله**: (الأمجاد) أي الأشراف الكِرام. **قوله**: (الوهاد) في لسان العرب: الوَهْد والوَهْدة المطمئنّ من الأرض والمكان المنخفض كأنه حُفْرة، والوَهْد يكون اسمًا للحُفْرة، والجمع أوْهُد ووَهْد ووِهادٌ. **قوله**: (النِّجاد) جمع نَجْد والنَّجْد من الأرض قفافها وصلابتها وما غَلُظ منها وأشرف وارتفع واستوى.

قوله: (﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾) في تفسير الجلالين: (﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾) في الجنّة (﴿لَغْوًا﴾) فاحشًا من الكلام (﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾) ما يُؤثم (﴿إِلَّا﴾) لكن (﴿قِيلًا﴾) قولًا (﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾) بدل من قيلًا، فإنهم يسمعونه. اهـ. **قوله**: (ويوفّق من يشاء) أشار إلى أن المراد بالهداية خلق الاهتداء، فيقتضي الوصول إلى المطلوب. وأمّا الهداية بمعنى الدلالة على ما يُوصل إلى البغية، أو بمعنى تركيب العقل وإفاضة القوى، وبمعنى نصب الدّلائل، وبمعنى إرسال الرُّسل وإنزال الكتب، فلا يناسب هنا لعدم مقابلته بالدعوة.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ آمنوا بالله ورسوله ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ (المثوبة الحسنى) وهي الجنة ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ رؤية الرب عز وجل كذا (عن أبي بكر وحذيفة وابن عباس وأبي موسى الأشعري وعبادة بن الصامت) رضي الله عنهم، وفي بعض التفاسير أجمع المفسرون على أن الزيادة النظر إلى الله تعالى. (وعن صهيب) أن النبيّ ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: أتريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ ـ قال: ـ فيرفع الحجاب فينظرون إلى الله تعالى فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم» ثم تلا ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ والعجب من صاحب الكشاف أنه ذكر هذا الحديث لا بهذه العبارة وقال: إنه (حديث) مدفوع مع أنه (مرفوع) قد أورده صاحب المصابيح في الصحاح.

قوله: (المثوبة الحسنى) توجيه لتأنيث الحسنى. **قوله**: (عن أبي بكر) بن أبي قحافة الصدّيق أوّل الرجال إسلامًا ورفيق سيّد المرسلين في هجرته، شهد المشاهد وكان من أفضل الصحابة، توفي سنة ثلاث عشرة من ثلاث وستين سنة. **قوله**: (وحُذَيفة) بن اليمان، صحابي جليل من السابقين، أعلمه رسول الله ﷺ بما كان وما يكون إلى يوم القيامة من الفتن والحوادث، مات سنة ستّ وثلاثين.

قوله: (وابن عباس) هو عبد الله بن عباس الصحابي ابن الصحابي رضي الله تعالى عنهما. **قوله**: (وأبي موسى الأشعري) صحابي مشهور. **قوله**: (عبادة بن الصامت) الأنصاري الخزرجي أحد النُّقباء بدري مشهور، وكان ممّن جمع القرآن على عهد النبيّ ﷺ. **قوله**: (وعن صهيب) بن سنان الرومي صحابي مشهور، شهد بدرًا. **قوله**: (حديث مرفوع) كذا في بعض النسخ، وفي بعض النسخ: حديث مدفوع، والصحيح (حديث مرقوع) بالقاف، أي مفترى. قال العلامة التفتازاني رحمه الله: مرقوع بالقاف مِنْ رَقع الثوب أي مخترع من هٰهنا وهٰهنا، وهذا لقصوره في باب الحديث، وإلّا فهو حديث مرفوع إلى حضرة الرسالة بإسناد مسلم وأحمد بن حنبل والترمذي وغيرهم من أئمّة الحديث. وفي حاشية البيضاوي

وقيل: الزيادة المحبة في قلوب العباد. وقيل: الزيادة مغفرة من الله ورضوان ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ﴾ ولا يغشى وجوههم ﴿قَتَرٌ﴾ غبرة فيها سواد ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ ولا أثر (هوان)، والمعنى ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾

عطف على ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ أي وللذين كسبوا ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ فنون الشرك ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ الباء زائدة كقول: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: الآية ٤٠] أو التقدير جزاء سيئة مقدر بمثلها ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ذلّ وهوان ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ من عقابه ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي لا يعصمهم أحد من سخطه وعقابه ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ أي جعل عليها غطاء من سواد الليل أي هم سود الوجوه. و﴿قِطَعًا﴾ جمع قطعة وهو مفعول ثانٍ لـ ﴿أُغْشِيَتْ﴾ (﴿قِطْعًا﴾ **مكي وعلي**) من قوله: ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: الآية ٨١] وعلى هذه القراء ﴿مُظْلِمًا﴾ صفة لقطع، وعلى الأول حال من ﴿اللَّيْلِ﴾ والعامل فيه ﴿أُغْشِيَتْ﴾ لأن ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ صفة لـ ﴿قِطَعًا﴾ فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، (**أو معنى الفعل في** ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾) ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

للعلامة الشهاب عليه رحمة الله الوهاب وقوله: إنه حديث مرقوع بالقاف، أي مفترى، ولا ينبغي أن يصدر من مثله، فإنه حديث متفق **على** صحته، فحرّف وأساء الأدب. اهـ بحروفها. **قوله**: (**هوان**) في لسان العرب: الهَوَان نقيض العِزّ. اهـ.

قوله: (﴿قِطْعًا﴾) بإسكان الطاء (**مكّي**) أي ابن كثير المكّي، (**وعليّ**) الكسائي، والباقون بفتحها جمع قطعة. **قوله**: (**أو معنى الفعل في** ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾) أي متعلّقه المقدّر، مثل كائنة، أي قطعًا كائنة من اللّيل في حال كونه مظلمًا.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ أي الكفار وغيرهم ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ﴾ (أي الزموا مكانكم) لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿أَنتُمْ﴾ أكد به الضمير في ﴿مَكَانَكُمْ﴾ لسده مسد قوله الزموا ﴿وَشُرَكَآؤُكُمْ﴾ عطف عليه ﴿فَزَيَّلْنَا﴾ ففرّقنا ﴿بَيْنَهُمْ﴾ وقطعنا أقرانهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ من عبدوه من دون الله من أولي العقل أو الأصنام ينطقها الله ﷻ ﴿مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله (أندادًا) فأطعتموهم وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ (كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ)﴾ [سبأ: الآيتان ٤٠، ٤١].

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى الله شهيدًا وهو تمييز ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ (﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة) واللام فارقة بينها وبين النافية

قوله: (أي الزموا مكانكم) أي مكانكم منصوب بإضمار الزموا. **قوله**: (أندادًا) شركاء في العبادة. **قوله**: (﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾)... الخ. في تفسير الجلالين: واذكر (﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾) المشركين (﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ﴾) بتحقيق الهمزتين وإبدال الأُولى ياء وإسقاطها ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ [سَبأ: الآية ٤١]، ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ [سَبأ: الآية ٤١] تنزيهًا لك عن الشريك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سَبأ: الآية ٤١] أي لا موالاة بيننا وبينهم من جهتنا، ﴿بَلْ﴾ [سَبأ: الآية ٨] للانتقال (﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ [سَبأ: الآية ٤١]) الشياطين، أي يُطيعونهم في عبادتهم إيّانا، وقوله: وإبدال الأُولى ياء هذا سبق قلم من الشارح؛ إذ لم يقرأ بهذه القراءة أحد، فالذي في كلامه قراءتان تحقيقهما، وإسقاط الأُولى وبقي ثالثة، وهي تسهيل الأُولى مع تحقيق الثانية وعكسه، وإبدال الثانية ياء ساكنة ممدودة مع تحقيق الأُولى؛ فالقراءات خمسة وكلّها سبعية. اهـ شيخنا. اهـ جمل.

قوله: (﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة) أي أنا.

﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان أو في ذلك الوقت (على استعارة اسم المكان للزمان) ﴿تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ﴾ تختبر وتذوق ﴿مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ من العمل فتعرف كيف هو أقبيح أم حسن، أنافع أم ضارّ، أمقبول أم مردود، وقال (الزجاج): تعلم كل نفس ما قدمت. («تتلوا» حمزة وعلي)، أي تتبع ما أسلفت لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة أو النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر، كذا عن (الأخفش) ﴿وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ ربهم الصادق في ربوبيته لأنهم كانوا يتولّون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذي لا يظلم أحدًا ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (وضاع عنهم) ما كانوا يدّعون أنهم شركاء الله، أو بطل عنهم ما كانوا (يختلقون) من الكذب وشفاعة الآلهة.

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بالمطر ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ بالنبات ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ مَن يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سُوِّيا عليه من الفطرة

قوله: (على استعارة اسم المكان للزمان)، كما في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب: الآية ١١]، أي في ذلك الوقت. **قوله**: (الزجاج) هو أبو إسحٰق إبراهيم بن محمد، توفي سنة عشر، وقيل: سنة إحدى عشرة، وقيل: سنة ستّ عشرة وثلاثمائة ببغداد رحمه الله تعالى. **قوله**: (﴿تتلوا﴾) بتاءين منقوطتين من فوق، (حمزة وعليّ) الكسائي. وقرأ الباقون: ﴿تبلوا﴾ من البلاء، وهو الاختبار.

قوله: (الأخفش) الأخافش ثلاثة: أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد أحد شيوخ سيبويه، وهو الأخفش الأكبر. والثاني أبو الحسن سعيد بن مَسْعدة تلميذ سيبويه، وهو الأخفش الأوسط. والثالث أبو الحسن عليّ بن سليمان تلميذ المُبرّد، وهو الأخفش الأصغر؛ وحيث يُطلق الأخفش وهو الأوسط المشهور، فإن أُريد الأكبر أو الأصغر قيّدوه. مات - أي المشهور - في السنة العاشرة بعد المائتين، وقيل بعدها. **قوله**: (وضاع عنهم) وضاع ضمن معنى غاب، ولذا عدّى بعن. **قوله**: (يختلقون) يفترون.

العجيبة، أو مَن يحميهما من الآفات مع كثرتها في **(المدد الطوال)** وهما لطيفان يؤذيهما أدنى شيء ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي الحيوان **(والفرخ)** والزرع، والمؤمن والعالم من النطفة، والبيضة والحب والكافر والجاهل وعكسها ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ومَن يلي تدبير أمر العالم كله جاء بالعموم بعد الخصوص ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ فسيجيبونك عند سؤالك إن القادر على هذه هو الله ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الشرك في العبودية إذا اعترفتم بالربوبية.

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي من هذه قدرته هو الله ﴿رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الثابت ربوبيته ثابتًا لا ريب فيه لمن حقق النظر ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي لا واسطة بين الحق والضلال، فمن تخطّى الحق وقع في الضلال ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ عن الحق إلى الضلال وعن التوحيد إلى الشرك ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الحق ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ **(﴿كلمات﴾ شاميّ ومدنيّ)**، أي كما حقّ وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حقّت كلمة ربك ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟﴾ تمرّدوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بدل من «الكلمة» أي حقّ عليهم انتفاء الإيمان، أو حقّ عليهم كلمة الله أن إيمانهم غير كائن، أو أراد بالكلمة العدَة بالعذاب أنهم لا يؤمنون تعليل أي لأنهم لا يؤمنون.

قوله: **(المدد)** في المصباح: المدة البرهة من الزمان تقع على القليل والكثير، والجمع مُدد مثل غرفة وغُرف.اهـ. **قوله**: **(الطِّوال)** بكسر الطاء جمع طويل ككريم وكرام. وأمّا بالضمّ، فالرجل الطويل. **قوله**: **(والفرخ)** في المصباح: الفرخ من كل بائض كالولد من الإنسان.اهـ.

قوله: **(﴿كلمات﴾)** بالألف بعد الميم على الجمع، **(شامي)** أي ابن عامر الشامي. **(ومدني)** أي نافع وأبو جعفر، وليس من السبعة. وقرأ الباقون بغير الألف بعد الميم على الإفراد.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إنما ذكر ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم غير مقرّين بالإعادة لأنه لظهور برهانها جعل أمرًا مسلمًا على أن فيهم مَن يقرّ بالإعادة، أو يحتمل إعادة غير البشر كإعادة الليل والنهار وإعادة الإنزال والنبات ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أمر نبيّه بأن ينوب عنهم في الجواب يعني أنهم لا تدعهم مكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فتكلّم عنهم ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن قصد السبيل.

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ يرشد إليه ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين ويقال: هدى بنفسه بمعنى اهتدى كما يقال: شرى بمعنى اشترى، **(ومنه قراءة حمزة وعلي** ﴿أَمَّن لَّا يَهْدِىٓ﴾) بمعنى يهتدي (**﴿لا يَهَدّي﴾**) بفتح الياء والهاء **(وتشديد الدال: مكيّ وشاميّ وورش، وبإشمام الهاء فتحة)**: أبو

قوله: **(ومنه قراءة حمزة وعلي**: ﴿أَمَّن لَّا يَهْدِىٓ﴾) بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال. **قوله**: **(لا يَهَدّي)** بفتح الياء والهاء، أي بفتحتين **(وتشديد الدال: مكّي)** أي ابن كثير المكّي، **(وشامي)** أي ابن عامر الشامي، **(وورش)** عن نافع المدني، وهو عثمان بن سعيد المصري، ويُكنى أبا سعيد، وورش لقب لُقِّب به فيما يقال لشدّة بياضه، وتوفي بمصر سبع وتسعين ومائة.

قوله: **(وبإشمام الهاء فتحة)** أبو عمرو، وروى المغاربة قاطبةً وكثير من العراقيين عنه اختلاس فتحة الهاء، وعبّر عنه بالإخفاء وبالإشمام وبالإشارة وبتضعيف الصوت، وهو عسير في النُّطق جدًّا، وهو الذي لم يقرأ الداني على شيوخه بسواه، ولم يأخذ إلّا به. وروى أكثر العراقيين إتمام فتحة الهاء، كابن كثير ومَنْ معه.

عمرو، (**وبكسر الهاء وفتح الياء: عاصم غير يحيىٰ**)، والأصل ﴿يَهْتَدِي﴾ وهي قراءة عبد الله فأدغمت التاء في الدال وفتحت الهاء بحركة التاء وكسرت لالتقاء الساكنين، وبكسر الياء والهاء وتشديد الدال: يحيىٰ لاتباع ما بعدها، (**وبسكون الهاء وتشديد الدال مدنيّ غير ورش**)، والمعنى أن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم، وبما وفقهم وألهمهم ووقفهم على الشرائع بإرسال الرسل، فهل من شركائكم ـ الذين جعلتم أندادًا لله ـ أحد يهدي إلى الحق مثل هداية الله؟ ثم قال: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ﴾ بالاتباع أم الذي لا يهدي أي لا يهتدي بنفسه أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله. وقيل: معناه أم مَن لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه إلا أن يهدى إلا أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيًا ناطقًا فيهديه ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد الله.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ في قولهم للأصنام إنها آلهة وإنها شفعاء عند الله (**والمراد بالأكثر الجميع**) ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ بغير دليل وهو اقتداؤهم بإسلافهم ظنًّا منهم إنهم

فــائدة:

الثابت من الحركة أكثر من الذاهب في الاختلاس، وذلك أن يأتي بثلثي الحركة وهذا لا يضبط إلّا بالمشافهة بالسماع من أفواه أرباب أداء القراءة.

قوله: (**وبكسر الهاء وفتح الياء**) وتشديد الدال (**عاصم غير يحيىٰ**) بن آدم القرشي عن أبي بكر شعبة بن عياش عن عاصم. **قوله**: (**وبسكون الهاء وتشديد الدال مدنيّ**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر المدني وليس من السبعة. (**غير ورش**) واستشكلت قراءة سكون الهاء مع تشديد الدال من حيث الجمع بين الساكنين. قال النحاس: لا يقدر أحد أن ينطق به، وقال المُبرَّد: مَنْ رام هذا لا بدّ أن يُحرِّك حركة خفيفة. وأجاب عنه القاضي بأن المدغم في حكم المتحرِّك. وقال السمين: لا بعد فيه، فقد قرىء به في نعمّا وتعدوا.

قوله: (**والمراد بالأكثر الجميع**) لأن إبقاءه على أصل معناه يدلّ على أن اعتقاد بعضهم فيما ذهب إليه من قاعدة الشرك، وأنّ شركاؤهم شفعاؤهم عند

مصيبون ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو العلم ﴿شَيْـًٔا﴾ في موضع المصدر أي إغناء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ من اتباع الظن وترك الحق.

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي افتراء من دون الله، والمعنى وما صح وما استقام أن يكون مثله في علوّ أمره وإعجازُه مفترى ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو ما تقدمه من الكتب المنزلة ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ (وتبيين ما كتب وفرض) من الأحكام والشرائع من قوله: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: الآية ٢٤] ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ داخل في حيّز الاستدراك كأنه قال: ولكن كان تصديقًا وتفصيلًا منتفيًا عنه الريب كائنًا من رب العالمين، ويجوز أن يُراد: ولكن كان تصديقًا من رب العالمين وتفصيلًا منه لا ريب في ذلك، فيكون ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلقًا بـ ﴿تَصْدِيقَ﴾ ﴿وَتَفْصِيلَ﴾ ويكون ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراضًا كما تقول: «زيد لا شك فيه كريم».

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ (بل أيقولون) اختلقه ﴿قُلْ﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فَأْتُوا۟﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم فأنتم مثلي في العربية ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي وادعوا من دون

الله يستند على برهان، وليس كذلك؛ بل كلّهم متّفقون على اتّباع الظنّ والتقليد.

قوله: (وتبيين ما كتب وفرض). . . الخ. على أن الكتاب من كتب، بمعنى فَرَضَ وقدّر وحكم.

قوله: (بل أيقولون) إشارة إلى أن أم هذه منقطعة مقدّرة ببل والهمزة، أضرب عن الكلام الأوّل وأخذ في إنكار قولهم أنه ﷺ اختلق هذا القرآن من عند نفسه ثم افتراه على الله تعالى، ثم احتجّ عليهم بأنه يقول إن كان الأمر كما تزعمون

الله مَن استطعتم من خلقه للاستعانة به على الاتيان بمثله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنه افتراء.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن في (بديهة السماع) قبل أن يفقهوه ويعلموا (كنه أمره)، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم و(شرادهم) عن مفارقة دين آبائهم. (ومعنى التوقع في ﴿وَلَمَّا﴾ ﴿يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليدًا للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمردًا وعنادًا، فذمّهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علوّ شأنه وإعجازه لما كرّر عليهم التحدي وجربوا قواهم في المعارضة وعرفوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغيًا وحسدًا. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التكذيب ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني كفار الأُمم الماضية كذبوا رسلهم قبل النظر في معجزاتهم

﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: الآية ٣٨]، فإن لم يَفِ عقل الواحد والاثنين منكم في استخراج ما يُعارِضُ القرآن فاجتمعوا وَلْيَفِ بعضكم بعضًا في هذه المعارضة، مع أنه لم يَفِ، ولو اجتمع الإنس والجنّ بعضهم ظهيرًا لبعض؛ لأن قدرة البشر عاجزة عنها، فعُلِم أن نظمه وتنزيله ليس إلّا من قِبَل الله تعالى.

قوله: (بديهة السّماع) في مختار الصحاح: بدهه أمر فجأه وبابه قطع وبدهه بأمر إذا استقبله به، وبادهه فاجأه، والاسم البَدَاهة والبديهة.اهـ. **قوله**: (كنه أمره) في مختار الصّحاح: كُنه الشيء نهايته. **قوله**: (شِرادهم) بالكسر أي نفورهم. **قوله**: (ومعنى التوقع في ﴿وَلَمَّا﴾)، فإنّه يدلّ على أن الفعل المنفي به أمر متوقع لما قيل: إنه لنفي ما قد يفعل، وكلمة لم لنفي ما فعل، يعني أنه أتى بكلمة التوقّع في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ للدلالة على إتيان المرجع والمآل وحصول العلم بحقيقة الحال كان أمرًا متوقّعًا منتظرًا، ومع ذلك سارعوا إلى التكذيب لقلّة ثباتهم وغلبة اتّباع الآباء على طباعهم.

وقبل تدبرها عنادًا وتقليدًا للآباء، ويجوز أن يكون معنى ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب أي عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق، يعني أنه كتاب معجز من جهتين من جهة إعجاز نظمه ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب فتسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يجربوا إخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٩ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ بالنبيّ أو بالقرآن أي يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند بالتكذيب ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾ لا يصدق به ويشك فيه، أو يكون للاستقبال أي ومنهم مَن سيؤمن به ومنهم مَن سيصرّ ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالمعاندين أو المصرّين.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٤١ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤٢﴾

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وإن تمّوا على تكذيبك ويئست من إجابتهم ﴿فَقُل لِّى عَمَلِى﴾ جزاء عملي ﴿وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ جزاء أعمالكم ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فكل مؤاخذ بعمله ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلّمت الشرائع ولكنهم (لا يعون) ولا يقبلون فهم كالصمّ ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أتطمع أنك تقدر على إسماع الصمّ ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم، لأن الأصمّ العاقل ربما (تفرّس) واستدلّ إذا وقع في (صماخه دَوِيّ الصوت)، فإذا اجتمع سلب العقل والسمع فقد تمّ الأمر.

قوله: (لا يعون) في المصباح: وعَيْت الحديث وَعْيًا من باب وعد: حفظته وتدبّرته. اهـ. **قوله**: (تفرّس) في المصباح: تفرّست فيه الخير تعرّفته بالظنّ الصائب. اهـ.

قوله: (صماخه) في مختار الصحاح: الصِّماخ ـ بالكسر ـ خَرْق الأذن، وقيل: هو الأذن نفسها، والسين لغة فيه. اهـ. **قوله**: (دَوِي الصوت) الدَّوِيّ صوت ليس بالعالي.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ومنهم ناس ينظرون إليك ويعاينون أدلّة الصدق وأعلام النبوّة ولكنهم لا يصدقون ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ﴾ أتحسب أنك تقدر على هداية العمي ولو انضم إلى فقد البصر فقد البصيرة، لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد (**يحدس**)، وأما العمى مع (**الحمق**) فجهد البلاء يعني أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصمّ والعمى الذين لا عقول لهم ولا بصائر ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (﴿وَلَٰكِنِ النَّاسُ﴾ **حمزة وعليّ**). أي لم يظلمهم بسلب آلة الاستدلال ولكنهم ظلموا أنفسهم بترك الاستدلال حيث عبدوا جمادًا وهم أحياء.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ (**وبالياء: حفص**) ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ استقصروا مدة لبثهم في الدنيا أو في قبورهم لهول ما يرون ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يعرف بعضهم بعضًا كأنهم لم يتفارقوا إلا قليلًا وذلك عند خروجهم من القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدّة الأمر عليهم ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا﴾ حال من «هم» أي نحشرهم مشبهين بمن لم يلبثوا إلا ساعة. و«كأن» مخففة من الثقيلة واسمها محذوف أي كأنهم. و﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ حال بعد حال، أو مستأنف على تقديرهم يتعارفون بينهم ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ على إرادة القول أي يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله على خسرانهم، والمعنى أنهم (**وضعوا**) في تجارتهم وبيعهم

قوله: (**يحدس**) في المصباح: حدس حدسًا من باب ضرب، إذا ظنّ ظنًّا مؤكّدًا. اهـ. **قوله**: (**الحُمق**) فساد في العقل، قاله الأزهري. اهـ مصباح. **قوله**: (﴿وَلَٰكِنَّ النَّاسَ﴾) بكسر النون مخفّفة ورفع السين (**حمزة وعليّ**) الكسائي، وقرأ الباقون بنصب النون مشدّدة ونصب السين.

قوله: (**وبالياء حفص**) والباقون بالنون. **قوله**: (**وُضعوا**) أي خسروا.

الإيمان بالكفر ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ للتجارة عارفين بها وهو استئناف **(فيه معنى التعجب)** كأنه قيل ما أخسرهم.

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل عذابهم ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جواب «نتوفيك» وجواب ﴿نُرِيَنَّكَ﴾ محذوف أي وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا **(فذاك)**، أو نتوفينَّك قبل أن نريكه فنحن نريكه في الآخرة ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها وهو العقاب كأنه قيل: ثم الله معاقب على ما يفعلون. وقيل: «ثم» هنا بمعنى «الواو».

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ يبعث إليهم لينبههم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم﴾ بين النبيّ ومكذبيه ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ بالعدل فأنجى الرسول وعذّب المكذبين، أو ولكل أُمة من الأُمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان قُضي بينهم بالقسط ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لا يعذب أحد بغير ذنبه. ولما قال: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أي من العذاب استعجلوا لما وُعِدوا من العذاب نزل ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي وعد العذاب ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أن العذاب نازل وهو خطاب منهم للنبيّ والمؤمنين ﴿قُل﴾ يا محمد ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا﴾ من مرض أو فقر ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ من صحة أو غنى ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استثناء

قوله: (فيه معنى التعجب) والمراد التعجّب بالنسبة إلى العباد.

قوله: (فذاك) أي فذاك حقٌّ وصواب، أو فذاك ثابت وواقع في الدنيا، أو فذاك يسرّك ويكون باعثًا لتشفّيك، أو فذاك منحة لك؛ إذ به يزداد شوكة الإسلام ويظهر بطلان الشرك والكفر بين الأنام، فيكون الجواب جملة حذف المسند ليذهب السامع إلى كل ما يمكن اعتباره.

منقطع أي (ولكن ما شاء الله من ذلك كائن) فكيف أملك لكم الضرّ وجلب العذاب ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ لكل أُمة وقت معلوم للعذاب مكتوب في اللوح فإذا جاء وقت عذابهم لا يتقدمون ساعة ولا يتأخرون فلا تستعجلوا.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ﴾ الذي تستعجلونه ﴿بَيَـٰتًا﴾ نصب على الظرف أي وقت بيات وهو الليل وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ وأنتم مشتغلون بطلب المعاش والكسب ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي من العذاب، والمعنى أن العذاب كله مكروه موجب للنفور فأي شيء تستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال؟ والاستفهام في ﴿مَّاذَا﴾ يتعلق بـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ لأن المعنى أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون. وجواب الشرط محذوف وهو تندموا على الاستعجال، أو تعرفوا الخطأ فيه. ولم يقل: «ماذا يستعجلون منه» لأنه أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجرام، أو ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ جواب الشرط نحو «إن أتيتك ماذا تطعمني» ثم تتعلق الجملة بـ ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أو ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ العذاب ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ جواب الشرط و﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ اعتراض. والمعنى إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان. ودخول حرف الاستفهام على «ثم» كدخوله على «الواو» و«الفاء» في ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ على إرادة القول أي قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب الآن آمنتم به ﴿وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ

قوله: (ولكن ما شاء الله من ذلك) النفع والضرّ (كائن) بمشيئة الله تعالى. لا بأن أملكه وأقدر عليه مستقلاً بدون حصوله بمشيئة الله حتى يكون الاستثناء متصلًا، فيكون الاستثناء من فاعل ﴿لَّآ أَمْلِكُ﴾ [يونس: الآية ٤٩] على تقدير أن يكون منقطعًا. وتقديره: لا أملك أنا ولكن الله تعالى هو المالك لكل ما يشاء يفعله بمشيئته.

﴿تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي بالعذاب تكذيبًا واستهزاء (﴿الآن﴾ **بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام: نافع**) ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عطف على «قيل» المضمر قبل ﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي الدوام ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الشرك والتكذيب.

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ ويستخبرونك فيقولون ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء والضمير للعذاب الموعود ﴿قُلْ﴾ يا محمد (﴿إِي وَرَبِّي﴾) نعم والله ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ إن العذاب كائن (**لا محالة**) ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ كفرت وأشركت وهو صفة لـ ﴿نَفْسٍ﴾ أي ولو أن لكل نفس ظالمة ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها. (**يقال: فداه فافتدى**)، ويقال: افتداه أيضًا بمعنى فداه ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وأظهروها من قولهم: «أسرَّ الشيء» إذا أظهره، أو أخفوها عجزًا عن النطق لشدّة الأمر فأسرَّ من الأضداد ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ بين الظالمين والمظلومين دلّ على ذلك ذكر الظلم ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله: (﴿الآن﴾ بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام، نافع) في تفسير النيسابوري: ﴿الآن﴾ بوزن عالان بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام حيث كان، أبو جعفر ونافع. اهـ بحروفه.

قوله: (﴿إِي وَرَبِّي﴾) إي حرف جواب مثل نعم، إلا أنه لا يجاب به إلّا مقرونًا بالقسم. **قوله: (لا محالة)** في لسان العرب: يقولون في موضع: لا بُدَّ لا مَحَالَة. اهـ. **قوله: (يقال: فداه فافتدى)**. . . الخ. الافتداء يجيء بمعنيين مطاوع فداه، فيكون لازمًا، يقال: فديته فافتدى، ويكون بمعنى فداه، فيتعدّى إلى واحد، يقال: فداه وافتداه إذا أعطاه فداءه، وهو في الآية بالمعنى الثاني؛ لأن النفس الظالمة هي المُعطية لفدائها.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحْمَةٞ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ﴾ فكيف يقبل الفداء، وأنه المثيب المعاقب وما وعده من الثواب أو العقاب فهو حق لقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب أو بالعذاب ﴿حَقّٞ﴾ كائن ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ هو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وإلى حسابه وجزائه المرجع فيُخاف ويُرجى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبيه على التوحيد، والموعظة التي تدعو إلى كل مرغوب وتزجر عن كل موهوب فما في القرآن من الأوامر والنواهي داعٍ إلى كل مرغوب وزاجر كل موهوب، إذ الأمر يقتضي حسن المأمور به فيكون مرغوبًا وهو يقتضي النهي عن ضده وهو قبيح وعلى هذا في النهي ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي صدوركم من العقائد الفاسدة ﴿وَهُدٗى﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةٞ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمَن آمن به منكم.

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٞ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ﴾ أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا بذلك فليفرحوا، والتكرير للتأكيد، والتقدير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا، فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه، والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصُّوهما بالفرح، أو بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا وهما كتاب الله والإسلام. (في الحديث «من هداه) الله (للإسلام) وعلمه القرآن ثم شكا الفاقة كتب الله الفقر

قوله: (في الحديث: «مَنْ هداه للإسلام»)... الخ. في الدرّ المنثور: أخرج أبو القاسم بن بشران في أماليه عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ هداه للإسلام وعلّمه القرآن ثم شكى الفاقة كتب الله الفقر بين عينيه إلى يوم يلقاه»، ثم تلى النبيّ ﷺ: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٞ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾، أي من عَرَضِ الدنيا من الأموال. اهـ بحروفه. **قوله**:

بين عينيه إلى يوم يلقاه» وقرأ الآية (﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وبالتاء شامي، فلتفرحوا يعقوب).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾ أخبروني ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾ (﴿مَّآ﴾ منصوب بـ ﴿أَنزَلَ﴾ أو بـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾) أي أخبرونيه ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ فبغضتموه وقلتم هذا حلال وهذا حرام كقوله: ﴿مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: الآية ١٣٩] نِعَمَ الأرزاق تخرج من الأرض ولكن لما (نيطت) أسبابها بالسماء نحو المطر الذي به تُنبت الأرض النبات، والشمس التي بها (النضج

(﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ وبالتاء) على الخطاب (شامي) أي ابن عامر الشامي، والباقون بالياء على الغيبة. **قوله**: (﴿فلتفرحوا﴾) بتاء الخطاب (يعقوب) بن إسحٰق الحضرمي، وليس من السبعة. والباقون بالغيب.

قوله: (﴿مَّآ﴾ منصوب بـ ﴿أَنزَلَ﴾ أو بـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾) يريد أن كلمة ﴿مَّآ﴾ يجوز أن تكون موصولة بمعنى الذي منصوبة على أنها مفعول أوّل لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾، والعائد محذوف، والتقدير: أخبروني ما أنزل الله، ومفعوله الثاني هو قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾، والعائد من هذه الجملة إلى المفعول الأول محذوف، تقديره: آلله أذن لكم فيه، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ [يونس: الآية ١٥] يمنع من كون الجملة بعده مفعولًا ثانيًا، والجواب أن كلمة قل في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ هي قل المذكورة أوّلًا كرّرت للتأكيد؛ لأنه لو حذف من الكلام. وقيل: قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالًا آلله أذن لكم فيه يتم الكلام بدونه؛ فعُلِم بذلك أنها إنما ذُكِرت للتأكيد، فلا تمنع كون ما بعدها معمولًا لما قبلها، ويجوز أن تكون ﴿مَّآ﴾ [يونس: الآية ٥] استفهامية منصوبة المحل بـ ﴿أَنزَلَ﴾، وهي حينئذ تكون متعلّقة لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ [يونس: الآية ٥٠]، وتكون سادّة مسدّ المفعولين، والمعنى: أخبروني أي شيء أنزل الله من رزق فبعّضتموه، والمقصود الإنكار لتجزئتهم الرزق. **قوله**: (**نيطت**) في المصباح: ناطه نوطًا من باب قال علقه واسم موضع التعليق مناط بفتح الميم.اهـ. **قوله**: (**النضج**) في المصباح:

وينع الثمار)، أُضيف إنزالها إلى السماء ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ و﴿قُلْ﴾ تكرير للتوكيد، والمعنى أخبروني آلله أذِن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ أم أنتم تكذبون على الله في نسبة ذلك إليه، أو الهمزة للإنكار و«أم» منقطعة بمعنى بل أتفترون على الله تقريرًا للافتراء. والآية زاجرة عن التجوّز فيما يُسأل من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان وإلا فهو مُفْتَرٍ على الديان.

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ينسبون ذلك إليه ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ منصوب بالظن وهو ظن واقع فيه أي أيّ شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ حيث أنعم عليهم بالعمل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ «ما» نافية والخطاب للنبي ﷺ والشأن الأمر ﴿وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ﴾ من التنزيل كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل ﴿مِن قُرْءَانٍ﴾ لأن كل جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذِّكر تفخيم له أو من الله عزَّ وجلّ ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم جميعًا ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ أي عمل ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿إِذْ

نضج اللحم والفاكهة نضجًا من باب تعب: طاب أكله، والاسم النضج بضمّ النون وفتحها لغة. اهـ. **قوله:** (وينع الثمار) في المصباح: ينعت الثمار يَنْعًا من باب نفع وضرب: أدركت، والاسم الينع بضم الياء وفتحها وبالفتح، قرأ السبعة. اهـ.

﴿تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ تخوضون من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾ وما يبعد وما يغيب، و(بكسر الزاي: علي حيث كان) ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ وزن نملة صغيرة ﴿فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ رفعهما حمزة على الابتداء والخبر ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ يعني اللوح المحفوظ، ونصبهما غيره على نفي الجنس، وقدّمت الأرض على السماء هنا وفي «سبأ» قدّمت السمٰوات، لأن العطف بالواو وحكمه حكم التثنية.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ (**هم الذين يتولّونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة**)، أو هم الذين تولى الله هداهم بالبرهان الذي أتاهم فتولّوا القيام بحقه والرحمة لخلقه، أو هم المُتحابون في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، أو هم المؤمنون المتّقون بدليل الآية الثانية ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف الناس ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزن الناس. ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ منصوب بإضمار أعني، أو لأنه صفة لأولياء، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين آمنوا ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشّرك والمعاصي.

قوله: (**بكسر الزاي علي**) الكسائي (**حيث كان**)، والباقون بضمّها لغتان في مضارع عَزَب. في مختار الصحاح: عَزَب بَعُد وغاب وبابه دخل وجلس.اهـ.

قوله: (**هم الذين يتولّونه بالطاعة ويتولّاهم بالكرامة**)، أي يتقرّبون إليه ويتقرّب هو تعالى إليهم، فإنّ الولى القرب ووَلي كل شيء هو الذي يكون قريبًا منه، والقرب من الله تعالى بحسب المكان والجهة محال، بل القرب منه إنما يكون بطاعته والاستغراق في معرفته؛ بحيث إذا رأى رأى دلائل قدرته، وإذا سمع سمع آياته، وإذا نطق نطق بالثناء عليه، وإذا تحرّك تحرّك في خدمته، وإذا اجتهد اجتهد في طاعته؛ فبهذه الحيثيّة يكون في غاية القرب منه تعالى، ويكون وليًا له عزّ وجلّ، فيكون الله تعالى وليًا له أيضًا؛ كما قال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٥٧]، لأن القرب لا يكون إلّا من الجانبين، وإليه أشار المصنّف رحمة الله تعالى عليه بقوله: يتولونه ويتولاهم.

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما بشَّر الله به المؤمنين المتقين في غير موضع من كتابه، وعن النبي ﷺ («هي **الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له**»). وعنه عليه السلام («**ذهبت النبوّة وبقيت المُبَشِّرات**) والرؤيا الصالحة (**جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة**»). وهذا لأن مدة الوحي ثلاث وعشرون سنة، وكان في ستة أشهر منها يؤمر في النوم بالإنذار، وستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءًا، أو هي محبة الناس له والذِّكر الحَسَن، أو لهم البشرى عند النزع بأن يرى مكانه في الجنة ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هي الجنة ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مُبشّرين في الدارين ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وكِلتا الجملتين اعتراض، (**ولا يجب أن يقع بعد الاعتراض كلام**) كما تقول: «فلان ينطق بالحق والحق (**أبلج**») وتسكت.

قوله: («**هي الرؤيا الصالحة**) أي الحسنة أو الصادقة، وهي ما فيه بشارة أو تنبيه عن غفلة وأمثال ذلك. **قوله**: (**يراها المسلم**) لنفسه (**أو تُرى**) بصيغة المجهول، أي يراها مسلم آخر (**له**»)، أي لأجله أو لأجل مسلم آخر. **قوله**: («**ذهبت النبوّة**) اللام للعهد والمعهود نبوّته (**وبقيت المبشّرات**) بكسر الشين المعجمة جمع مبشّرة، وهي البشرى وفسّرها بأنها الرؤيا الصالحة، والمراد أنها أشرفت على الذهاب لقرب موته، أي قرب ذهابها. **قوله**: (**جزء من ستّة وأربعين جزء من النبوّة**») هو ما في أكثر الأحاديث.

قوله: (**ولا يجب أن يقع بعد الاعتراض كلام**) جواب عمّا يقال: كل واحدة من الجملتين كيف تكون اعتراضًا والاعتراض إنما يكون في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين لا في آخرهما، وقد انقطع الكلام عندهما، وتقرير الجواب أنّ ما ذكر كلام أكثري لا كلّي، فإنه لا يجب أن يقع بعد الاعتراض كلام، كما تقول: فلان ينطق بالحقّ والحقّ أبلج وتسكت وحَدَثَ لي حادث والحوادث جمّة وتسكت، ومن شرط ذلك فهو تذنيب لا اعتراض. **قوله**: (**أبلج**) أظهر.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ تكذيبهم **(وتهديدهم)** وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ **(استئناف)** بمعنى التعليل كأنه قيل: ما لي لا أحزن؟ فقيل: إن العزة ﴿لِلَّهِ﴾ إن الغلبة والقهر في ملكه لا يملك أحد شيئًا منهما، لا هم ولا غيرهم، فهو يغلبهم وينصرك عليهم (﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾) [المجادلة: الآية ٢١]، (﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾) [غافر: الآية ٥١]، أو به يتعزّز كل عزيز فهو يعزّك ودينك وأهلك، والوقف لازم على ﴿قَوْلُهُمْ﴾ لئلا يصير ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ﴾ مقول الكُفَّار ﴿جَمِيعًا﴾ حال ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لما يقولون ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يدبرون ويعزمون عليه وهو مُكافئهم بذلك.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني العقلاء وهم الملائكة **(والثقلان)**، وخصَّهم ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي مَملَكته ولا يصلح أحد منهم للربوبية ولا أن يكون شريكًا له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له **(ندًا)** وشريكًا ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ «ما» نافية أي

قوله: **(وتهديدهم)**، فإنه تعالى لمّا أبطل جميع شهادتهم المتعلّقة بالبطلان في النبوّة وعدلوا إلى طريقٍ آخر في القَدْح في أمره ﷺ، وهو أنّهم هدّدوه وخوّفوه بأنهم أصحاب أموال وأتباع، فنسعى في قهرك وفي إبطال أمرك، أجاب تعالى عن طريقتهم بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾. **قوله**: **(استئناف)** أي جواب سؤال مقدّر. **قوله**: (﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾) في اللوح المحفوظ أو قضى (﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾) بالحجّة أو السيف. **قوله**: (﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾) أي بالحجّة والانتقام لهم من الكَفَرة ولو بعد تمامهم، كما نصر يحيىٰ بن زكريا لما قُتِل قَتَل به سبعون ألفًا، وقيل: الحكم أكثري أو خاص بالرّسل المأذون لهم في القتال.

قوله: **(والثّقلان)** الإنس والجنّ. اهـ مختار الصّحاح. **قوله**: **(ندًا)** في مختار الصحاح: النّدّ ـ بالكسر ـ المِثل والنظير. اهـ.

وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمّونها شركاء لأن شركة الله في الربوبية مُحال ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا ظنهم أنهم شركاء الله ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يحزرون (ويقدرون) أن تكون شركاء تقديرًا باطلًا، أو استفهامية أي وأيّ شيء يتبعون و﴿شُرَكَآءَ﴾ على هذا نصب بـ ﴿يَدْعُونَ﴾ وعلى الأول بـ ﴿يَتَّبِعُ﴾ وكان حقه وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاءَ شركاءَ، فاقتصر على أحدهما للدلالة والمحذوف مفعول ﴿يَدْعُونَ﴾ أو موصولة معطوفة على ﴿مَن﴾ كأنه قيل: ولله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء أي وله شركاؤهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾

ثم نبّه على عظيم قدرته وشمول نعمته على عباده بقوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ أي جعل لكم الليل مظلمًا لتستريحوا فيه من تعب التردد في النهار ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مضيئًا لتبصروا فيه مطالب أرزاقكم ومكاسبكم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع مذكر معتبر ﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجيب (**من كلمتهم الحمقاء**) ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ علّة لنفي الولد لأنه إنما يطلب الولد ضعيفٌ ليتقوّى به، أو فقير ليستعين به، أو ذليل ليتشرّف به، والكل أمارة الحاجة فمن كان غنيًا غير محتاج كان الولد عنه منفيًا، ولأن الولد بعض الوالد فيستدعي أن يكون مركبًا، وكل مركّب ممكن، وكل ممكن يحتاج إلى الغير فكان حادثًا فاستحال القديم أن يكون له ولد ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

قوله: (ويقدرون) تفسير ليحزرون، فإن الحزر التقدير.

قوله: (**من كلمتهم**[١] **الحمقاء**) المراد من الكلمة الجملة كما في كلمة التوحيد، ووُصِفت بالحمقاء مجازًا بوصف قائلها مبالغةً في وصف القائل بالحمق. في المصباح: الحمق فساد العقل، قاله الأزهري. وحمق يحمق فهو حمق من باب تعب، وحمق ـ بالضم ـ فهو أحمق، والأنثى حمقاء، والحماقة اسم منه، والجمع

---

(١) قوله: من كلمتهم الحمقاء مجاز كذكر حكيم، أي الأحمق قائلها. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ملكًا ولا تجتمع النبوة معه ﴿إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ﴾ ماعندكم من حجة بهذا القول، (والباء حقها أن تتعلق بقوله: ﴿إِنۡ عِندَكُم﴾) على أن يجعل القول مكانًا لـ ﴿سُلۡطَٰنِۭ﴾ كقولك: «ما عندكم بأرضكم (موز)» كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان، ولما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾ بإضافة الولد إليه ﴿لَا يُفۡلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا حيث يقيمون به رياستهم في الكفر (ومناصبة النبي ﷺ بالتظاهر) به ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ المخلد (﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾) بكفرهم.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ واقرأ عليهم ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ خبره مع قومه والوقف عليه لازم إذ لو وصل لصار «إذ» ظرفًا لقوله: ﴿وَٱتۡلُ﴾ بل التقدير واذكر ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم﴾ عظم وثقل كقوله ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: الآية ٤٥] ﴿مَّقَامِي﴾ مكاني يعني نفسه كقوله ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ٤٦﴾ [الرحمٰن: الآية

حمقى وحُمُق مثل أحمر وحمراء وحمر. اهـ. **قوله**: (**والباء حقها أن تتعلق بقوله**: ﴿إِنۡ عِندَكُم﴾)؛ لأنه يظهر منه الاستقرار والتمكن. **قوله**: (**مَوْزٌ**) **في المصباح**: الموز فاكهة معروفة الواحدة موزة مثل تَمْر وتَمْرة، وهو الطَّلح. اهـ.

قوله: (**ومناصبة النبيّ ﷺ**) أي معاداته ﷺ معاذ الله. **قوله**: (**بالتظاهر**) في مختار الصِّحاح: التظاهر التعاون. **قوله**: (﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾) الباء سببية وما مصدرية، أي بسبب كونهم كافرين. اهـ سمين.

٤٦] أي خاف ربه، أو قيامي ومكثي بين أظهركم ألف سنة إلا خمسين عامًا، أو مقامي ﴿وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بيِّنًا وكلامهم مسموعًا ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي فوَّضت أمري إليه ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ من أجمع الأمر إذا نواه وعزم عليه ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ الواو بمعنى «مع» أي فأجمعوا أمركم مع شركائكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي غمًّا عليكم وهمًّا والغمّ والغمّة كالكرب والكربة، أو ملتبسًا في (**خفية**). والغمّة السترة من غمّه إذا ستره ومنه الحديث «لا غُمَّة في فرائض الله» أي لا تستر ولكن يجاهر بها، والمعنى ولا يكن قصدكم إلى إهلاكي مستورًا عليكم ولكن مكشوفًا مشهورًا تُجاهرونني به ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي أي أدّوا إليّ ما هو حق عندكم من هلاكي كما يقضي الرجل (**غريمه**)، أو اصنعوا ما أمكنكم ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ولا تمهلوني.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ فإن أعرضتم عن تذكيري ونصحي ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ فأوجب التولّي، أو فما سألتكم من أجْر ففاتني ذلك بتوليكم ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ وهو الثواب الذي يُثيبني به في الآخرة أي ما نصحتكم إلا لله لا لغرض من أغراض الدنيا، (**وفيه دلالة منع أخذ الأجْر على تعليم القرآن والعلم الديني**).

قوله: (خفية) بضم الخاء وكسرها. **قوله**: (غريمه) في مختار الصحاح: الغريم الذي عليه الدَّيْن، يقال: خذ من غريم السوء ما سنح، وقد يكون الغريم أيضًا الذي له الدَّيْن. اهـ.

قوله: **(وفيه دلالة منع أخذ الأجر على تعليم القرآن والعلم الدّيني)** في تأويلات الإمام أبي منصور رحمة الله عليه في هذه الآية وأمثالها دلالة منع أخذ الأجر على تعليم القرآن والعلم؛ لأنه لو جاز أخذ الأجر على ذلك لكان لهم عذرًا أن لا يبذلوا ذلك ولا يتعلّموا شيئًا من ذلك، وفي هذا هدم شرائع الله وإسقاطها. اهـ بحروفها.

....

فائـــدة:

في الدرّ المختار: لا تصح الإجارة لأجل الطاعات، مثل الأذان والحجّ والإمامة وتعليم القرآن والفقه ويفتى اليوم بصحتها لتعليم القرآن والفقه والإمامة والأذان، ويُجير المستأجر على دفع ما قبل، فيجب المسمّى بعقد وأجر المثل؛ إذ لم تذكر مدة شرح وهبانية من الشركة، (ويُحبس به) به يُفتى (ويُجبر على دفع الحلوة المرسومة) هي ما يهدى للمعلّم على رؤوس بعض سور القرآن سُمّيت بها لأن العادة إهداء الحلاوى، انتهى بحروفه. وفي ردّ المحتار: قوله: لا لأجل الطاعات، الأصل أنّ كل طاعة يختصّ بها المسلم لا يجوز الاستئجار عليها عندنا؛ لقوله عليه السلام: «اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به»، وفي آخر ما عهد رسول الله ﷺ إلى عمرو بن العاص: «وإن اتّخذت مؤذنًا فلا تأخذ على الأذان أجرًا»، ولأن القربة متى حصلت وقعت عن العامل، ولهذا تتعيّن أهليّته، فلا يجوز له أخذ الأجرة من غيره، كما في الصوم والصلاة هداية. قوله: ويفتى اليوم بصحّتها لتعليم القرآن... الخ. قال في الهداية: وبعض مشائخنا رحمهم الله استحسنوا الاستئجار على تعليم القرآن اليوم لظهور التواني في الأُمور الدينيّة؛ ففي الامتناع تضييع حفظ القرآن، وعليه الفتوى.اهـ. وقد اقتصر على استثناء تعليم القرآن أيضًا في متن الكنز، ومتن مواهب الرحمـٰن وكثير من الكتب، وزاد في مختصر الوقاية ومتن الإصلاح: تعليم الفقه، وزاد في متن المجمع: الإمامة، ومثله في متن الملتقى ودُرر البحار، وزاد بعضهم: الأذان والإقامة والوعظ، وذكر المصنّف معظمها، ولكن الذي في أكثر الكتب الاقتصار على ما في الهداية؛ فهذا مجموع ما أفتى به المتأخّرون من مشائخنا وهم البلخيّون على خلاف في بعضه مخالفين ما ذهب إليه الإمام وصاحباه، وقد اتّفقت كلمتهم جميعًا في الشروح والفتاوى على التعليل بالضرورة، وهي خشية ضياع القرآن كما في الهداية، وقد نقلت لك ما في مشاهير متون المذهب الموضوعة للفتوى، فلا حاجة إلى نقل ما في الشروح والفتاوى، وقد اتّفقت كلمتهم جميعًا على التصريح بأصل المذهب من عدم الجواز، ثم استثنوا بعده ما علمته؛ فهذا دليلٌ قاطع وبرهانٌ ساطع على أن المفتى به ليس هو جواز الاستئجار على كل طاعة، بل

....

على ما ذكروه فقط مما فيه ضرورة ظاهرة تبيح الخروج عن أصل المذهب من طروّ المنع، فإنّ مفاهيم الكتب حجّة، ولو مفهوم لقب على ما صرّح به الأُصوليّون، بل هو منطوق، فإنّ الاستثناء من أدوات العموم كما صرّحوا به أيضًا وأجمعوا على أنّ الحجّ عن الغير بطريق النيابة لا الاستئجار، ولهذا لو فضل مع النائب شيء من النَّفقة يجب عليه ردّه للأصيل أو ورثته، ولو كان أجرة لما وجب ردّه، فظهر لك بهذا عدم صحة ما في الجوهرة من قوله: واختلفوا في الاستئجار على قراءة القرآن مدة معلومة، قال بعضهم: لا يجوز، وقال بعضهم: يجوز، وهو المختار. اهـ. والصواب أن يقال على تعليم القرآن، فإنّ الخلاف فيه كما علمت لا في القراءة المجرّدة، فإنّه لا ضرورة فيها، فإنْ كان ما في الجوهرة سَبْق قلم، فلا كلام. وإنْ كان عن عمد، فهو مخالف لكلامهم قاطبةً، فلا يُقبل وقد أطنب في ردّه صاحب تبيين المحارم مستندًا إلى النقول الصريحة؛ فمن جملة كلامه: قال تاج الشريعة في شرح الهداية: إنّ القرآن بالأجرة لا يستحقّ الثواب لا للميّت ولا للقارىء. وقال العيني في شرح الهداية: ويمنع القارىء للدنيا والآخذ والمعطي آثمان؛ فالحاصل أنّ ما شاع في زماننا من قراءة الأجزاء بالأُجرة لا يجوز؛ لأن فيه الأمر بالقراءة وإعطاء الثواب للآمر والقراءة لأجل المال، فإذا لم يكن للقارىء ثواب لعدم النيّة الصحيحة، فأين يصل الثواب إلى المستأجر؟ ولولا الأجرة ما قرأ أحد لأحد في هذا الزمان؛ بل جعلوا القرآن العظيم مكْسبًا ووسيلة إلى جمع الدنيا إنّا لله وإنّا إليه راجعون. اهـ.

وقد اغترّ بما في الجوهرة صاحب البحر في كتاب الوقف، وتبعه الشارح في كتاب الوصايا حيث يشعر كلامهما بجواز الاستئجار على كل الطاعات ومنها القراءة، وقد ردّه الشيخ خير الدين الرَّملي في حاشية البحر في كتاب الوقف، حيث قال: أقول المفتى به جواز الأخذ استحسانًا على تعليم القرآن لا على القراءة المجرّدة، كما صرَّح به في التاترخانية، حيث قال: لا معنى لهذه الوصية ولصلة القارىء بقراءته؛ لأن هذا بمنزلة الأجرة والإجارة في ذلك باطلة وهي بدعة ولم يفعلها أحد من الخلفاء، وقد ذكرنا مسألة تعليم القرآن على استحسان. اهـ. يعني للضرورة ولا ضرورة في الاستئجار على القراءة على القبر. وفي الزّيلعي وكثير من

....

الكتب: لو لم يفتح لهم باب التعليم بالأجر لذهب القرآن فأفتوا بجوازه ورأوه حسنًا، فتنبّه. اهـ كلام الرملي. وما في التاترخانية فيه ردّ على مَنْ قال: لو أوصى لقارىء يقرأ على قبره بكذا ينبغي أن يجوز على وجه الصّلة دون الأجر، وممّن صرَّح ببطلان هذه الوصيّة صاحب الولوالجية والمحيط والبزازيّة، وفيه ردّ أيضًا على صاحب البحر حيث علّل البطلان بأنه مبنيّ على القول بكرامة القرآن على القبر، وليس كذلك؛ بل لما فيه من شبه الاستئجار على القراءة كما علمت، وصرّح به في الاختيار وغيره، ولذا قال في الولوالجية ما نصّه: ولو زار قبر صديق أو قريب له وقرأ عنده شيئًا من القرآن فهو حسن. أمّا الوصية بذلك، فلا معنى لها ولا معنى أيضًا لصلة القارىء؛ لأن ذلك يشبه استئجاره على قراءة القرآن وذلك باطل، ولم يفعل ذلك أحد من الخلفاء. اهـ. إذ لو كانت العلّة ما قاله لم يصح قوله هنا، فهو حسن. وممّن أفتى ببطلان هذه الوصية الخير الرملي كما هو مبسوط في وصايا فتاواه، فراجعها.

ونقل العلامة الخلوتي في حاشية المنتهى الحنبلي عن شيخ الإسلام تقي الدِّين ما نصّه: ولا يصح الاستئجار على القراءة وإهدائها إلى الميت؛ لأنه لم يُنقل عن أحدٍ من الأئمّة الإذن في ذلك، وقد قال العلماء: إنّ القارىء إذا قرأ لأجل المال فلا ثواب له، فأيّ شيء يهديه إلى الميت، وإنما يصل إلى الميت العمل الصالح والاستئجار على مجرّد التلاوة لم يقل به أحد من الأئمة، وإنما تنازعوا في الاستئجار على التعليم. اهـ بحروفه. وممّن صرّح بذلك أيضًا الإمام المبركوي قدّس سرّه في آخر الطريقة المحمّدية، فقال: الفصل الثالث في أُمور مبتدعة باطلة أكبّ الناس عليها على ظنّ أنها قُرَبٌ مقصودة، إلى أن قال: ومنها الوصية من الميت باتّخاذ الطعام والضيافة يوم موته أو بعده وبإعطاء دراهم لمن يتلو القرآن لروحه أو يسبّح أو يهلّل له، وكلّها بِدَع منكرات باطلة، والمأخوذ منها حرامٌ للآخذ وهو عاصٍ بالتلاوة والذكر لأجل الدنيا. اهـ ملخصًا. وذكر أنّ له فيها أربع رسائل، فإذا عَلِمْتَ ذلك ظهر لك حقّية ما قلناه، وأنّ خلافه خارج عن المذهب وعمّا أفتى به البلخيّون وما أطبق عليه أئمّتنا متونًا وشروحًا وفتاوى، ولا ينكر ذلك إلا غمر مكابر أو جاهل لا يفهم كلام الأكابر، وما استدلّ به بعض المحشين على الجواز

....

بحديث البخاري في اللديغ، فهو خطأ؛ لأن المتقدمين المانعين الاستئجار مطلقًا جوّزوا الرقية بالأُجرة ولو بالقرآن، كما ذكره الطحاوي لأنها ليست عبادة محضة، بل من التداوي، وما نُقِل عن بعض الهوامش وعزي الحاوي الزاهديّ من أنه لا يجوز الاستئجار على الختم بأقل من خمسة وأربعين درهمًا، فخارجٌ عمّا اتّفق عليه أهل المذاهب قاطبةً، وحينئذ فقد ظهر لك بطلان ما أكبّ عليه أهل العصر من الوصية بالختمات والتهاليل مع قطع النظر عمّا يحصل فيها من المنكرات التي لا ينكرها إلّا مَنْ طُمِست بصيرته، وقد جمعتُ فيها رسالة سمّيتها شفاء العليل وبلّ الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل، وأتيت بها بالعجب العجاب لذوي الألباب وما ذكرته هنا بالنسبة إليها كقطرة من بحر وشذرة من عقد نحر وأطلعت عليها محشي هذا الكتاب فقيه عصره ووحيد دهره السيد أحمد الطحطاوي مفتي مصر سابقًا، فكتب عليها وأثنى الثناء الجميل، فالله يجزيه الخير الجزيل وكتب عليها غيره من فقهاء العصر، انتهى كلام صاحب ردّ المحتار عليه رحمة الله العزيز الغفّار.

وفي رسالة رفع الغشاوة عن جواز أخذ الأجرة على التلاوة، لحضرة مولانا السعيد السند محمود أفندي الخمراوي مفتي دمشق الشام، فقد سُئِلت عمّا حرَّره العالم الفاضل السيد محمد عابدين في ردّ المحتار والتنقيح ورسالة شفاء العليل من عدم جواز الاستئجار على تلاوة القرآن العظيم، هل هو المفتى به في المذهب أو لا؟ فأجبت بأنّ ما ذكره المنقح في هذه المحلات الثلاث مبنيّ على مذهب المتقدّمين من عدم جواز الإجارة على الطاعات، إلّا أن المشائخ نصّوا على أنّ المفتى به جواز الاستئجار على التلاوة، وهو مذهب عامّة المتأخرين والنقول في ذلك كادت تبلغ التواتر كلّها موشحة بعلامة الفتوى أو أفتى به مشاهير العلماء الأعلام في سائر بلاد الإسلام، وها أنا أسرد نقولهم، فسَرَدها من أربعين كتابًا مَنْ شاء فلينظر ثمة:

منها أنه نُقِل عن تكملة البحر ونصّه: وفي الحاوي للكواشي: إذا استأجره ليختم عنده القرآن ولم يسمّ له أجرًا ليس له أن يأخذ أقلّ من خمسة وأربعين درهمًا

....

شرعيًا. أمّا إذا سمّى له أجر ألزم ما سمّى ويأثم المستأجر إذا عقد على أقلّ منها، إلا أن يَهِب المستأجر ما بَقِيَ من تمام العقد أو يشترط أن يكون ثواب ما فوقه لنفسه، وهذا يجب حفظه كما في المبسوط.

ومنها أنه نقل عن فتاوى المحقّق ابن كمال باشا أجرة القرآن على عهد رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم على ما رَوَى عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما أربعة دنانير ونصف دينار، واتّفق المتقدِّمون والمتأخّرون على ذلك؛ كذا في الكواشي.

ومنها أنه نقل عن نهج النجاة لكمال الدِّين بن حمزة من الوقف، ونصّه في الأشباه: لو شرط أن يقرأ على قبره، فالتعيين باطل، انتهى هذه المسألة في القنية. والظاهر أنه مبنيّ على قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى في كراهة القراءة على القبور، والصحيح المختار للفتوى قول محمد رحمه الله تعالى من عدم كراهة القراءة على القبور، كما في كثير من كتب المذهب المُعتمدة.

ومنها أنه نقل عن تنوير البصائر، ونصّه قوله: ولو شرط أن يقرأ على قبره إلى آخره، أقول: هكذا وقع في القنية وفهم بعضهم من هذه المسألة أنه لا يتعيّن المكان الذي عيّنه الواقف لقراءة القرآن أو التدريس، وليس الأمر كذلك؛ بل يتعيّن المكان الذي عيّنه الواقف، فلو لم يباشر فيه لا يستحقّ المشروط لما في شرح المنظومة. أمّا لو شرط الواقف يجب اتّباعه وبالمباشرة في غير المكان الذي عيّنه الواقف يفوت غرضه من إحياء تلك البقعة، والظاهر أن الذي ذكره في القنية مبنيّ على قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى من كراهة القرآن على القبور، والله سبحانه أعلم بطل التعيين والصحيح المختار للفتوى قول محمد رحمه الله تعالى من عدم كراهة قراءة القرآن على القبور كما في كثير من كتب المذاهب المعتمدة، وعليه فلا يبطل التعيين، كما هو الظاهر.

ومنها أنه نقل عن شرح الملتقى للملائي، ونصه: (ولا تجوز) وتبطل (الإجارة) عند المتقدمين (على الطاعات) أي كل عبادة غير واجبة، فلو على مُباح؛

....

كتعليم كتابة جازت اتفاقًا، ولو على واجب كما إذ كان المعلم أو الإمام أو المفتي واحد لم تصح اتفاقًا ذكره الكرماني وغيره؛ كالأذان والحجّ والإمامة وتعليم القرآن والفقه وقراءتهما، إلى أن قال: (ويفتى اليوم) أي يفتي المتأخرون (بالجواز) للإجارة على هذه العبادة لفتور الرغبات ومنع العطيات، انتهى. فعطف القراءة على التعليم.

ومنها أنه نقل عن رسالة السيد محمد الخلوتي التي ألّفها رادًّا على التنقيح: ومن جملة ما نقوله حاشية مسكين للشيخ الإسقاطي عند قول صاحب الكنز: والفتوى اليوم على جواز الاستئجار لتعليم القرآن، ونصّه قوله: لتعليم القرآن وكذا لقراءته والمستأجر للختم ليس له أن يأخذ أقلّ من خمسة وأربعين درهمًا إذا لم يسمّ له شيءٌ من الأجر، ذكره في المبسوط. انتهى. كذلك ألّف رسالة الشيخ صالح الدسوقي سماها كشف الغمّة رادًّا فيها على البركوي، ورسالة المنقح وأتى بنقول من المذاهب الأربعة في صحة الاستئجار على التلاوة.

ومنها أنه نقل عن مهمات المفتي لابن الكمال، ونصّه: أجرة القرآن على عهد رسول الله ﷺ كما روى عبد الله بن مسعود وأنس بن مالك رضي الله تعالى عنهما أربعة دنانير، وكل دينار عشرة دراهم. وأمّا من قرأ بأقل مِنْ هذا لا يكون ثوابه ولا للمقري له؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البَقَرَة: الآية ٤١]. واتّفق المتقدّمون والمتأخّرون على ذلك من تفسير الكواشي. ثم قال في آخرها: ويحتمل أن ما لم أره أكثر أتقول إنّ علماء هذه الأُمّة من بخاريّين وهنديّين وروميين ومصريّين وشاميين شروحًا وحواشي وفتاوى لم يعلموا المفتى به في المذهب، حاشا؛ بل كل نقل على خلاف هذا فهو مبنيّ على غير المُفتى به من مذهب المتقدّمين والحمد لله ربّ العالمين. فرغ من تحريرها في رمضان سنة اثنتين وثلاثمائة وألف على يد جامعها الفقير محمود الخمراوي مفتي دمشق الشام غفر الله تعالى له ولوالديه ومشائخه الذنوب والآثام، آمين. وهكذا أفتى بالجواز مفتي مكّة المكرمة مولانا عبد الرحمٰن سراج، ومفتى المدينة المنورة مولانا محمد تاج الدين إلياس رحمة الله عليهما.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ من المستسلمين لأوامره ونواهيه (﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ بالفتح: مدني وشامي وأبو عمرو وحفص).

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فداوموا على تكذيبه ﴿فَنَجَّيْنَاهُ﴾ من الغرق ﴿وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ في السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ يخلفون الهالكين بالغرق ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ هو تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله وتسلية له.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي هودًا وصالحًا وإبراهيم ولوطًا وشعيبًا ﴿فَجَاءُوهُم (بِالْبَيِّنَاتِ)﴾ بالحجج (الواضحة المثبتة لدعواهم) ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فأصرّوا على الكفر بعد المجيء ﴿بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِن قَبْلُ﴾ من قبل مجيئهم، يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرُّسُل أهل جاهلية مكذبين بالحق فما وقع فصل بين حالتيهم بعد بعثة الرُّسُل وقبلها كأن لم يبعث إليهم أحد ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ من ذلك الطبع نختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ المُجاوِزين الحدّ في التكذيب

قوله: (﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ **بالفتح**) أي بفتح ياء الإضافة (**مدني**) أي نافع المدني، وكذا أبو جعفر، وليس من السبعة. (**وشامي**) أي ابن عامر الشامي، (**وأبو عمرو وحفص**) وقرأ الباقون بالسكون.

قوله: (﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾) الباء للتعدية، ويحتمل أن يكون للملابسة[1]، أي جاء كل رسول بالبيِّنة التي اخْتُصَّت به. **قوله**: (**الواضحة**) أي في نفسها حيث لا تخفى على أحد. **قوله**: (**المثبتة**) أي المُوضحة (**لدعواهم**) النبوّة والرسالة. **قوله**:

---

(١) أي ملتبسين بالبينات. ١٢ منه عمّ فيضهم.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم﴾ من بعد الرُّسل ﴿مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ (بالآيات التسع) ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن قبولها، وأعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبيّنها ويتعظموا عن قبولها ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ كُفَّارًا ذوي آثام عِظام فلذلك استكبروا عنها واجترؤوا على ردّها.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله ﴿قَالُوٓا۟﴾ لحبهم الشهوات ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ هو إنكار ومقولهم محذوف أي هذا سحر، ثم استأنف إنكارًا آخر فقال: ﴿أَسِحْرٌ هَـٰذَا﴾ خبر ومبتدأ ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ﴾ (أي لا يظفر).

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ لتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ من عبادة الأصنام أو عبادة فرعون ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ أي الملك لأن الملوك موصوفون بالكبرياء والعظمة والعلو ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدِّقين فيما جئتما به (﴿وَيَكُونَ﴾ حماد ويحيىٰ) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ («سحّار»: حمزة وعلي).

(بالآيات التسع) وهي العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس وفلق البحر.

قوله: (أي لا يظفر) من باب طَرِب.

قوله: (﴿وَيَكُونَ﴾) بياء الغيبة (حماد) بن أحمد عن حمزة بن حبيب الزيّات، (ويحيىٰ) بن آدم القرشي عن أبي بكر بن عياش عن عاصم؛ لأنه تأنيث مجازي. والباقون بتاء التأنيث نظرًا للفظ. **قوله**: (سحّار) بتشديد الحاء مفتوحة وألف بعدها على وزن فَعَّال دال على زيادة قلق فرعون (حمزة وعليّ) الكسائي،

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ «ما» موصولة واقعة مبتدأ، أو ﴿جِئْتُم بِهِ﴾ صلتها و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ خبر أي الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحرًا من آيات الله. (﴿آلسحر﴾ بعد وقف: أبو عمرو على الاستفهام)، فعلى هذه القراءة «ما» استفهامية أيْ أيّ شيء جئتم به؟ أهو السحر؟ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ يُظهِر بُطلانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لا يثبته بل (يدمره) ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ ويثبته ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ بأوامره وقضاياه أو يُظهِر الإسلام بعِداته بالنصرة ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ذلك.

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ في أول أوامره ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه، وذلك أنه دعا الآباء فلم يُجيبوه خوفًا من فرعون، وأجابته طائفة من أبنائهم مع

والباقون بألف بعد السين وتخفيف الحاء مكسورة، ولا ألف بعدها بوزن فاعل. **قوله**: (آلسحر)(١) بهمزتين الأُولى همزة الاستفهام، فهي مفتوحة والثانية همزة وصل (**بعد وقف**: أبو عمرو على الاستفهام) أي على أن الهمزة للاستفهام؛ فعلى هذه القراءة إمّا أن تُبدل الثانية ألفًا وتمدّ مدًّا لازمًا أو تسهل من غير قلب؛ ففي هذه القراءة وجهان، وعلى كليهما تجب الإمالة في موسى بخلاف قراءة الهمزة الواحدة، فيجوز فيها الإمالة وتركها. وقرأ الباقون بهمزة وصل، فتسقط في الوصل. **قوله**: (**يدمره**) في المصباح: دمّر الشيء يدمّر من باب قتل، والاسم الدّمار مثل الهلاك وزنًا ومعنى، ويعدّى بالتضعيف فيقال: دمّره الله ودمّر عليه. اهـ.

---

(١) على هذه القراءة يوقف علي به. ١٢ منه عمّ فيضهم.

الخوف، أو الضمير في ﴿قَوۡمِهِۦ﴾ لفرعون والذرِّيَّة مؤمن آل فرعون وآسية امرأته (وخازنه) وامرأة خازنه (وماشطته). والضمير في ﴿وَمَلَإِيْهِمۡ﴾ يرجع إلى فرعون بمعنى آل فرعون كما يقال ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له، أو إلى الذرية أي على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم دليله قوله: ﴿أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ يريد أن يعذبهم فرعون ﴿وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لغالب فيها ظاهر ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد وفي الكبر والعتو بادّعائه الربوبية.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ صدقتم به وبآياته ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ فإليه أسنِدوا أمركم في العصمة من فرعون ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ (شرط في التوكّل الإسلام) وهو أن يسلموا نفوسهم لله أي يجعلوها له سالمة لا حظّ للشيطان فيها، لأن التوكّل لا يكون مع التخليط ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا﴾ إنما قالوا ذلك لأن القوم كانوا مخلصين، لا جرم أن الله قبِل توكلهم وأجاب دعاءهم

قوله: (وخازنه) أي خازن فرعون. **قوله**: (وماشطته) أي ماشطة فرعون؛ لأنه كان لفرعون ضفائر وشعائر عيّن امرأة لتسريحها. في مختار الصحاح: امْتَشطت المرأة ومَشَطَتْها الماشطة من باب نصر.اهـ. وفي المصباح: مشطت الشعر مشطًا من بابي قتل وضرب سرحته، والتثقيل مبالغة، وامتشطت المرأة مشطت شعرها.اهـ.

قوله: (شرط في التوكّل الإسلام)... الخ. وليس هذا من تعليق الحكم بشرطين، فإنّ الآية وإن اعتبر فيها شرطان مختلفان، وهما الإيمان بالله والإسلام، فإنّ الإيمان بالله عبارة عن التصديق بأنه واجب الوجود لذاته واحد، وأن جميع ما سواه محدث مخلوق مقهور تحت مشيئته وتصرّفه، والإسلام عبارة عن الاستسلام والانقياد للتكاليف الصادرة من الله تعالى وإظهار الخضوع وترك التمرّد، ولا شكّ أنهما أمران مختلفان، إلا أن المعلّق على هذين الشرطين حكمٌ واحد من وجهٍ واحد، وهو وجوب التوكّل، وإلّا لزم أن لا يجب التوكّل بمجرّد الإيمان بالله

ونجاهم، وأهلك مَن كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في أرضه، فمَن أراد أن يصلح للتوكل على ربّه فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ موضع فتنة لهم أي عذاب يعذبوننا أو يفتنوننا عن ديننا أي يضلوننا والفاتِن المُضِلّ عن الحق ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ أي من تعذيبهم وتسخيرهم.

تعالى؛ لأن المشروط لا يَحْصل إلا عند تحقّق شرطه، والشرط إذا كان أُمورًا متعدّدة لا يحكم بتحقّقه إلّا إذا تحقّق جميع أجزائه، فإنْ قال الشارع: إنْ كان المكلّف زانيًا محصنًا فارجموه لا يجب الرجم إلّا عند تحقّق مجموع الأمرين، فكذا في هذه الآية لو علّق وجوب التوكّل على مجموع الإيمان بالله تعالى والإسلام للزم أن لا يجب التوكّل إلّا عند تكامل الشرط بجميع أجزائه، وليس كذلك؛ بل هناك حُكمان علّق كل واحد منهما بشرط على حِدَة: علّق وجوب التوكّل على الإيمان بالله وحصول التوكّل على الإسلام، وهو أن يُسَلّموا نفوسهم لله تعالى، أي يجعلوها سالمة خالصة لا حظّ للشيطان فيها، فإنْ مَنْ لم يسلّم وجهه لله تعالى بأن جعل للشيطان مدخلًا فيها لا يحصل له التوكّل، وهو تفويض الأمر بالكلّية إلى الله تعالى والاعتماد في كل الأحوال على الله تعالى، وإنما قال: ﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾، ولم يقل: توكلوا عليه؛ لأن الأول يفيد الحصر حيث يدلّ عليه أنّ موسى على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام أمر قومه بالتوكّل عليه ونهاهم عن التوكّل على غيره تعالى، والمراد في هذا المقام هو التوكّل على هذا الوجه؛ لأنه الذي يقتضيه الإيمان بالله، فإنّ مَنِ اعتقد أنّ كل ما سوى الله تعالى ملكه ومقهور تحت تصرفه وتسخيره امتنع أن يتوكّل على غيره، وقد مرّ أن نوحًا عليه الصلاة والسلام وصف نفسه بالتوكّل على هذه الوجه حيث قال: ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: الآية ٧١]، وكذلك موسى عليه الصّلاة والسلام. ثم إنه تعالى بيّن أنّ موسى عليه الصلاة والسلام لمّا أمَر بذلك قومه قبلوه، ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾، لتحقق الشرطين فيهم حيث كانوا مؤمنين بالله تعالى مخلصين أنفسهم له تعالى. اهـ شيخ زاده رحمه الله تعالى.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ (أَن تَبَوَّءَا) لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ تبوأ المكان (**اتخذه مباءة**) كقوله: «توطنه» إذا اتخذه وطنًا، والمعنى اجعلا بمصر بيوتًا من بيوته مباءة لقومكما ومرجعًا يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة، وكان موسى ومَن معه يصلون إلى الكعبة وكانوا في أول الأمر مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المسلمون على ذلك في أول الإسلام بمكة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في بيوتكم حتى تأمنوا ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يا موسى، ثنى الخطاب أولًا ثم جمع ثم وحَّد آخرًا لأن اختيار مواضع العبادة مما يفوَّض إلى الأنبياء، ثم جمع لأن اتخاذ المساجد والصلاة فيها واجب على (**الجمهور**)، وخصَّ موسى عليه السلام بالبشارة تعظيمًا لها وللمبشّر بها.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ هو ما يتزين به من لباس أو (**حلي**) أو فرش أو (**أثاث**) أو غير ذلك ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أي نقدًا

قوله: (﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ **اتخذه مباءة**) أي منزلًا. في الصحاح: المباءة منزل القوم في كل موضع، يقال: تبوّأت منزلًا، أي نزلته وبوّأت للرجل منزلًا وبوّأته منزلًا، يعني هيّأته ومكّنت له فيه، وكلمة ﴿أَنْ﴾ فيه يجوز أن تكون مفسّرة؛ لأنه قد تقدَّمها ما هو بمعنى القول والإيحاء، ويجوز أن تكون مصدرية، فيكون ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ [يونس: الآية ٨٧] في موضع النصب بـ ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ مفعولًا به، أي أوحينا إليهما التبوّؤ وهو النزول والرجوع، يقال: تبوّأ المكان إذا اتّخذه مباءة ومنزلًا. **قوله**: (**الجمهور**) في لسان العرب: جُمْهور كل شيء مُعْظَمه. اهـ.

قوله: (**حلي**) في مختار الصحاح: الحَلي حَلي المرأة والجمع حُليّ مثل ثَدْي وثُدِيّ، وقد تُكسر الحاء وقرىء ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٤٨] بضمّ الحاء وكسرها. اهـ. **قوله**: (**أثاث**) في المصباح: الأثاث متاع البيت الواحد أثاثة، وقيل:

و(**نعمًا**) و(**ضيعة**) ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ﴾ (﴿لِيُضِلُّوا﴾ **الناس عن طاعتك، كوفي**) ولا وقف على ﴿الدُّنْيَا﴾ لأن قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ متعلق بـ ﴿ءَاتَيْتَ﴾ و﴿رَبَّنَا﴾ تكرار. الأول للإلحاح في التضرّع. قال الشيخ أبو منصور رحمه الله: إذا علم منهم أنهم يضلّون الناس عن سبيله آتاهم ما آتاهم ليضلّوا عن سبيله وهو كقوله: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: الآية ١٧٨]. فتكون الآية حجة على المعتزلة ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ﴾ أي أهلِكها وأذهِب آثارها لأنهم يستعينون بنعمتك على معصيتك، والطمس المحو والهلاك. قيل: صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة كهيئاتها منقوشة. وقيل: وسائر أموالهم كذلك ﴿وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ اطبع على قلوبهم واجعلها قاسية ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا﴾ جواب الدعاء الذي هو اشدد ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ إلى أن يروا العذاب الأليم وكان كذلك، فإنهم لم يؤمنوا إلى الغرق وكان ذلك إيمان يأس فلم يقبل. وإنما دعا عليهم بهذا لما أيِس

لا واحد له من لفظه.اهـ. **قوله**: (**نعمًا**) في مختار الصحاح: النَّعَم واحد الأنعام وهي المال الراعية، وأكثر ما يقع هذا الاسم على الإبل. قال الفراء هو ذكر لا يؤنث، يقولون: هذا نَعَم وارد، وجمعه نُعْمان محَمَل وحُمْلان، والأنعام يذكر ويؤنث، قال الله تعالى: ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ [النحل: الآية ٦٦]، وقال: ﴿فِي بُطُونِهَا﴾ [المؤمنون: الآية ٢١]، وجمع الجمع أناعيم.اهـ. وفي المصباح: النعم المال الراعي، وهو جمع لا واحد له من لفظه، وأكثر ما يقع على الإبل. قال أبو عبيد: النعم الجمال[(١)] فقط، ويؤنّث ويذكر وجمعه **نعمان** مثل حمل وحملان وأنعام أيضًا. وقيل: النعم الإبل خاصّة، والأنعام ذوات الخفّ والظلف، وهي الإبل والبقر والغنم. وقيل: تُطلق الأنعام على هذه الثلاثة فإذا انفردت الإبل فهي نعم، وإن انفردت البقر والغنم لم تُسمّ نعمًا.اهـ. **قوله**: (**ضيعة**) في المصباح: الضيعة العقار والجمع ضياع، مثل كلبة وكلاب.اهـ. وأيضًا فيه: العقار مثل سلام كل مُلك ثابت له أصل، كالدار والنخل. قال بعضهم: وربما أطلق على المتاع والجمع عقارات. **قوله**: (﴿لِيُضِلُّوا﴾) بضمّ حرف المضارع (**الناس عن طاعتك، كوفي**) أي عاصم وحمزة والكسائي. وقرأ الباقون بالفتح أي يضلون في أنفسهم.

---

(١) جمع الجَمَل. ١٢ منه عمّ فيضهم.

من إيمانهم وعلم بالوحي أنهم لا يؤمنون، فأما قبل أن يعلم بأنهم لا يؤمنون فلا يسع له أن يدعو بهذا الدعاء لأنه أرسل إليهم ليدعوهم إلى الإيمان، وهو يدل على أن الدعاء على الغير بالموت على الكفر لا يكون كفرًا.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ قيل: كان موسى عليه السلام يدعو وهارون (يؤمِّن) فثبت أن التأمين دعاء فكان إخفاؤه أولى، والمعنى أن دعاءكما مُستَجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والتبليغ ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا تتبعان طريق الجهلة الذين لا يعلمون صدق الإجابة وحكمة الإمهال فقد كان بين الدعاء والإجابة أربعون سنة. (﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِ﴾) بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهًا بنون التثنية: شامي،

قوله: (**يؤمن**) بالتشديد أي يقول: آمين وآمين، بمعنى استجب.

قوله: (﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِ﴾) بتخفيف النون وكسرها لالتقاء الساكنين تشبيهًا بنون التثنية شامي أي ابن عامر الشامي برواية ابن ذكوان. وقرأ الباقون بتشديدها؛ لأن نون التوكيد تثقل وتخفّف. وفي فتح القدير للشوكاني رحمه الله: قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بتشديد النون للتأكيد وحرّكت بالكسر لكونه الأصل ولكونها شبهت نون التثنية، وقرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفي لا على النهي. اهـ. وفي كتاب الروضة في القراءات الإحدى عشرة، وهي قراءة العشرة المشهورة وقراءة الأعمش.

مسألة:

وروى ابن ذكوان في غير رواية هبة الله: ﴿ولا تتبعان﴾ بتخفيف النون وجهًا واحدًا، وروى هبة الله عن ابن ذكوان وهشام عن ابن عامر الوجهين التخفيف والتشديد. الباقون بتشديد النون وجهًا واحدًا. اهـ بحروفه. وفي كتاب إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: واختلف عن ابن عامر في (﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِ﴾)؛ فروى ابن ذكوان والداجوني عن أصحابه عن هشام بفتح التاء وتشديدها وكسر الباء وتخفيف النون على أنّ لا نافية ومعناه النهي، نحو: ﴿لَا تُضَآرَّ﴾

وخطأه بعضهم لأن النون الخفيفة واجبة السكون. وقيل: هو إخبار عمّا يكونان عليه وليس بنهي، أو هو حال وتقديره فاستقيما غير مُتَّبِعين.

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ هو دليل لنا على خلق الأفعال ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فلحقهم. (يقال: تبعته حتى أتبعته) ﴿بَغْيًا﴾ (تطاولاً) ﴿وَعَدْوًا﴾ ظلماً وانتصبا على الحال أو على المفعول له ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ ولا وقف عليه لأن ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ جواب ﴿إِذَآ﴾ ﴿أَنَّهُۥ﴾ - (﴿إِنَّهُۥ﴾) - (حمزة وعلي) على الاستئناف بدل من ﴿ءَامَنتُ﴾ وبالفتح غيرهما على حذف الباء التي هي صلة الإيمان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وفيه دليل على أن الإيمان والإسلام واحد حيث قال: ﴿ءَامَنتُ﴾ ثم قال: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾، كرر

[البَقَرَة: الآية ٢٣٣] أو يجعل حالاً من فاستقيما، أي ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ غير متبعين، وقيل: نون التوكيد الثقيلة خفّفت، وقيل: أكّد بالخفيفة على مذهب يونس والفراء، وانفرد ابن مجاهد عن ابن ذكوان بتخفيف التاء الثانية وإسكانها وفتح الباء مع تشديد النون، ورواه سلامة بن هارون أداءً عن الأخفش عن ابن ذكوان، والوجهان في الشاطبية. لكن في النشر نقلاً عن الداني أنه غلط من أصحاب ابن مجاهد ومن سلامة؛ لأن جميع الشاميين رووا عن ابن ذكوان بتخفيف النون وتشديد التاء، ثم ذكر أنها صحت من طرق أخرى وبيّنها، ثم قال: وذلك كلّه ليس من طرقنا، ولذا لم يعرج عليها في الطيبة على عادته في الانفرادات. وروى الحلواني عن هشام بتشديد التاء الثانية وفتحها وكسر الباء وتشديد النون، وبه قرأ الباقون؛ فتكون لا للنهي، ولذا أكد بالنون لأن تأكيد النفي ضعيف. اهـ بحروفه.

قوله: (يقال: تبعته حتى اتّبعته) أي مشيت من بعده حتى لحقته. **قوله**: (تطاولاً) في لسان العرب في معنى هو الاستطالة على الناس إذا هو رفع رأسه، ورأى أنّ له عليهم فضلاً في القَدْر. اهـ. **قوله**: (﴿إِنَّهُۥ﴾) كسر همزة إنه (حمزة وعلي) الكسائي.

فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصًا على القبول ثم لم يُقبل منه حيث أخطأ وقته وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار.

﴿ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾

﴿ءَآلْـَٔنَ﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الغرق وأيِسْت من نفسك. قيل: قال ذلك حين ألجمه الغرق والعامل فيه أتؤمن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ من الضالين المُضِلّين عن الإيمان. رُوِيَ أن جبريل عليه السلام أتاه بفُتيا: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وادّعى السيادة دونه؟ فكتب فيه يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيد الكافر (نعماءه) أن يغرق في البحر، فلما ألجمه الغرق ناوله جبريل عليه السلام خطه (فعرفه).

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ نلقيك (بنجوة) من الأرض فرماه الماء إلى الساحل كأنه ثور ﴿بِبَدَنِكَ﴾ في موضع الحال أي الحال التي لا روح فيك، وإنما أنت بدن أو ببدنك كاملًا سويًا لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عريانًا لست إلا بدنًا من غير لباس، أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يُعرَف بها. (وقرأ أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ﴿بأبدانك﴾) وهو (مثل قولهم: هو «بأجرامه») أي ببدنك كله وافيًا بأجزائه، أو

قوله: (نعماءه) النعماء وزان الحمراء، مثل النعمة وجمع النعمة نِعَم مثل سدرة وسدر وأنعم أيضًا مثل أفلس، وجمع النعماء أنعم مثل البأساء يجمع على أبؤس. اهـ مصباح. **قوله**: (فعرفه) فقال جبريل على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام: هذا ما حكمت به على نفسك.

قوله: (بنجوة) النجوة المكان المرتفع الذي تظن أنه نجاؤك من السيل. **قوله**: (وقرأ أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه ﴿بأبدانك﴾) بالجمع بجعل كل عضو بمنزلة البدن، فأطلق الكلّ على الجزء مجازًا، (مثل قولهم: هو[1] بأجرامه) فإنه

(١) أي سقط.

بدروعك (لأنه ظاهر بينها) ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ لمن وراءك من الناس علامة وهم بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق. وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه. وقيل: ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية أن يُظهر للناس عبوديته وأن ما كان يدّعيه من الربوبية مُحال، وأنه مع ما كان عليه من عظم الملك (آل) أمره إلى ما ترون لعصيانه ربّه فما الظن بغيره ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ (**منزلًا صالحًا مرضيًا**) وهو مصر والشام ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟﴾ في دينهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي التوراة وهم اختلفوا في تأويلها كما اختلفت أمة محمد ﷺ في تأويل الآيات من القرآن، أو المراد العلم بمحمد ﷺ واختلاف بني إسرائيل - وهم أهل الكتاب - اختلافهم في صفته أنه هو أم ليس هو بعد ما جاءهم العلم أنه هو ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يميز المحق من المبطل ويجزي كلًّا جزاءه.

بمعنى جرمه وجسمه، فأطلق الجمع لما ذكر وليس بمعنى ذنوبه كما توهّم. **قوله**: (**لأنه ظاهر بينها**) أي بين الدروع، أي لبس بعضها فوق بعض، يقال: ظاهر وطابق وطارق؛ إذا لبس ثوبًا على ثوب أو درعًا على درع. **قوله**: (آل) في مختار الصحاح: آلَ رجع وبابه قال، يقال: طبخ الشراب فآل إلى قدر كذا وكذا، أي رجع. اهـ.

قوله: (**منزلًا صالحًا مرضيًا**) إشارة إلى أن ﴿مُبَوَّأَ﴾ اسم مكان ووصف بالصدق مدحًا لهم، أي أسكنّاهم مكانًا محمودًا، فإنّ عادة العرب إذا مدحت شيئًا أضافته إلى الصدق، تقول: رجل صدق، قال تعالى: ﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: الآية ٨٠].

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ لمَّا قدَّم ذِكر بني إسرائيل ـ (وهم قرَّاء الكتاب) ـ ووصفهم بأن العلم قد جاءهم لأن أمر رسول الله ﷺ مكتوب في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، أراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وبصحة نبوّته ﷺ ويُبالغ في ذلك فقال: فإن وقع لك شك ـ فرضًا وتقديرًا، وسبيل مَن خالجَته شُبهة أن يُسارع إلى حلّها بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته أو بمُباحثة العلماء ـ فَسَل علماء أهل الكتاب فإنهم من الإحاطة بصحة ما أُنزِل إليك بحيث يصلحون لمراجعة مثلك فضلًا عن غيرك. فالمراد وصف الأحْبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أُنزل إلى رسول الله ﷺ لا وصف رسول الله ﷺ بالشك فيه. ثم قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي ثبت عندك بالآيات الواضحة والبراهين اللائحة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مجال فيه للشك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشَّاكِّين ولا وقف عليه للعطف.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ أي فاثبت ودُم على ما أنت عليه من انتفاء المِريَة عنك والتكذيب بآيات الله، أو هو على طريقة (التهييج) والإلهاب كقوله: (﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾) [القصص: الآية ٨٦]. (﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ﴾) [القصص: الآية ٨٧]. ولزيادة التثبيت والعِصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لا شك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق»، أو خُوطِب رسول الله ﷺ والمراد أُمته، أي وإن كنتم في شكٍّ

قوله: (وهم قرّاء الكتاب) وفي نسخة: قَرَأَة الكتاب جمع قارىء. في المصباح: الفاعل قارىء وقرأة وقرّاء وقارئون، مثل كافر وكفرة وكفار وكافرون.

قوله: (التهييج) التحريض. **قوله**: (﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾) معينًا (﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾) على دينهم الذي دعوك إليه، (﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾) أصله يصدوننك حُذِفت نون الرفع للجازم والواو والفاعل لالتقائها مع النون الساكنة (﴿عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ﴾)، أي لا ترجع إليهم في ذلك. اهـ جلالين.

مما أنزلنا إليكم كقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: الآية ١٧٤]، أو الخطاب لكل سامع يجوز عليه الشك كقول العرب: («إذا عزَّ أخوك فهن») أو «إن» للنفي أي فما كنت في شكٍّ فاسأل، أي لا نأمرك بالسؤال لأنك شاكٌّ ولكن لتزداد يقينًا كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمُعاينة إحياء الموتى. فإن قلت: إنما يجيء «إن» للنفي إذا كان بعده «إلا» كقوله: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: الآية ٢٠]. قلت: ذاك غير لازم ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ [فاطر: الآية ٤١]، فـ «إن» للنفي وليس بعده «إلا».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفّارًا، أو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية ولا وقف على ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأن ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ تتعلق بما قبلها ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي عند اليأس فيؤمنون ولا ينفعهم، أو عند القيامة ولا يقبل منهم ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ فهلّا كانت قرية واحدة من القرى التي أهلكناها ثابتٌ عن الكفر وأخلَصَت الإيمان قبل المُعاينة ولم تُؤخر كما أَخَّر فرعون إلى أن (أُخِذ بمِخنقه)

قوله: (إذا عزَّ أخوك فهُنْ) قال أبو عبيد: معناه مياسرتك صديقك ليست بضيم يركبك منه، فتدخلك الحمية به، إنما هو حُسن خلق وتفضّل، فإذا عاسرك فياسره. وكان المفضل يقول: إن المثل لهذيل بن هبيرة التغلبيّ وكان أغار على بني ضبّة فغنم، فأقبل بالغنائم فقال له أصحابه: اقسمها بيننا، فقال: إني أخاف إن تشاغلتم بالاقتسام أن يُدرككم الطلب، فأبَوْا فعندها قال: إذا عزّ أخوك فَهُنْ، ثم نزل فقسم بينهم الغنائم. وينشد لابن أحمر:

دببت له الضراء وقلت أبقى إذا عزّ ابن عمّك أن تهونا

اهـ مجمع الأمثال.

قوله: (أُخِذَ بمُخْنَقِه) في لسان العرب: أَخَذْتُ بمُخْنَقِهِ أي موضع الخِناق. اهـ.

﴿فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ بأن تقبَّل الله إيمانها منها بوقوعه في وقت الاختيار ﴿إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ﴾ استثناء منقطع أي ولكن قوم يونس، أو متصل والجملة في معنى النفي كأنه قيل: ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء ﴿لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ إلى آجالهم. رُوِيَ أن يونس عليه السلام بعث إلى (نينوى) من أرض (الموصل) فكذبوه فذهب عنهم مُغاضِبًا، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا (المسوح) كلهم و(عجّوا) أربعين ليلة وبرزوا إلى (الصعيد) بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابّهم، وفرَّقوا بين النساء والصبيان والدواب وأولادها، (فحنّ بعضهم إلى بعض) وأظهروا الإيمان والتوبة، فرحمهم وكشف عنهم ـ وكان (يوم عاشوراء) يوم الجمعة ـ وبلغ من توبتهم أن ترادوا المظالم حتى إن الرجل كان يقلع الحجر وقد وضع عليه (أساس) بُنيانه فيردّه. وقيل: خرجوا لمّا نزل بهم العذاب إلى شيخ من بقية علمائهم فقال لهم: قولوا يا حيّ حين لا حيّ، ويا حَيُّ مُحيي الموتى، ويا حيُّ لا إلٰه إلا أنت. فقالوها فكشف الله عنهم. وعن (الفُضَيل) قدّس الله روحه قالوا: اللَّهمَّ إن ذنوبنا قد عَظُمَت وجَلَّت وأنت أعظم منها وأجلّ، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

قوله: (نِينَوى) بكسر النون الأُولى بعدها ياء ساكنة ثم نون مفتوحة ثم واو. **قوله**: (الموصل) بفتح الميم وكسر الصاد بلدة مشهورة. **قوله**: (المسوح) بضمّ الميم. جمع مسح بكسر الميم صفة مشبَّهة بوزن ملح، أي لبسوا الألبسة البذلة والخلِقَة لغاية الابتهال والتضرّع لعلّ الله يرحمهم، فرحمهم. اهـ قنوي. وفي المصباح: المسح البلاس والجمع مسوح، مثل حمل وحمول. اهـ. **قوله**: (عجوا) أي رفعوا أصواتهم من باب ضرب. **قوله**: (الصعيد) وجه الأرض. **قوله**: (فحنّ) أي مال (بعضهم إلى بعض) ورقّ قلوبهن واحترق كبودهنّ من خوف هلاك أولادهنّ. **قوله**: (يوم عاشوراء) عاشر المحرّم. **قوله**: (أساس) بالفتح أصل.

قوله: (وعن الفضيل) بن عياض، توفي بمكّة أوّل سنة سبع وثمانين ومائة أجمعوا على توثيقه والاحتجاج به وصلاحِه وزهده وورعه ونحوها من طريق الآخرة، ومناقبه كثيرة مشهورة.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٩٩﴾

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ على وجه الإحاطة والشمول ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه، أخبر عن كمال قدرته ونفوذ مشيئته أنه لو شاء لآمن مَن في الأرض كلهم ولكنه شاء أن يؤمن به مَن علم منه اختيار الإيمان به، وشاء الكفر ممَّن علم أنه يختار الكفر ولا يؤمن به. وقول المعتزلة: المراد بالمشيئة مشيئة **(القسر)** و**(الإلجاء)** أي لو خلق فيهم الإيمان جبرًا لآمنوا لكن قد شاء أن يؤمنوا اختيارًا فلم يؤمنوا دليله ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ ـ أي ليس إليك مشيئة الإكراه والجبر في الإيمان إنما ذلك إليَّ ـ فاسد لأن الإيمان فِعْل العبد وفِعْله ما يحصل بقدرته ولا يتحقق ذلك بدون الاختيار. وتأويله عندنا أن الله تعالى لطفًا لو أعطاهم آمنوا كلهم عن اختيار ولكن علم منهم أنهم لا يؤمنون فلم يعطهم ذلك وهو التوفيق. والاستفهام في ﴿أَفَأَنتَ﴾ بمعنى النفي أي لا تملك أنت يا محمد أن تُكرههم على الإيمان لأنه يكون بالتصديق والإقرار ولا يمكن الإكراه على التصديق.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٠٠ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ۝١٠١﴾

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بمشيئته أو بقضائه أو بتوفيقه وتسهيله أو بعلمه ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي العذاب أو **(السخط)** أو الشيطان أي ويسلط الشيطان ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا ينتفعون بعقولهم، (﴿وَنَجْعَلُ﴾) حماد **(ويحيىٰ)** ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟﴾ نظر استدلال واعتبار ﴿مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الآيات

قوله: **(القسر)** في المصباح: قَسَره على الأمر قَسْرًا من باب ضرب قهره واقتسره كذلك. اهـ. **قوله**: **(الإلجاء)** في المصباح: ألجأته إليه ولجأته بالهمزة والتضعيف اضطرته وأكرهته. اهـ.

قوله: **(السخط)** في المصباح: سخط سخطًا من باب تعب، والسخط بالضم اسم منه وهو الغضب. **قوله**: (﴿وَنَجْعَلُ﴾) حماد بن زيد عن عاصم **(ويحيىٰ)** بن

(**والعِبَر**) باختلاف الليل والنهار وخروج الزروع والثمار ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ﴾ «مَا» نافية (﴿وَٱلنُّذُرُ﴾) والرُّسُل المنذورون أو الإنذارات ﴿عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يتوقع إيمانهم وهم الذين لا يعقلون.

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ (**يعني وقائع الله فيهم**) كما يقال أيام العرب لوقائعها ﴿قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ معطوف على كلام محذوف يدل عليه ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ﴾ كأنه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رُسُلنا على حكاية الأحوال الماضية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ومَن آمن معهم ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين و﴿حَقًّا عَلَيْنَا﴾ (**اعتراض**) أي حقّ ذلك علينا حقًّا. (﴿نُنَجِّي﴾ **بالتخفيف: علي وحفص**).

آدم القرشي عن أبي بكر عاصم، والآخرون بالياء التحتانية. **قوله**: (**والعبر**) جمع العبرة مثل سدرة وسدر. **قوله**: (﴿وَٱلنُّذُرُ﴾) جمع نذير بمعنى إنذار أو منذر، وعلى المصدرية جمع لإرادة الأنواع، ويجوز في النذر أن يكون مصدرًا بمعنى الإنذار.

قوله: (**يعني وقائع الله فيهم**) أي الأيام مجاز عن الوقائع والحوادث لكونها واقعة فيها، فذكر المحل وأُريد الحال. **قوله**: (**اعتراض**) أي بين العامل ومعموله اهتمامًا بالإنجاء وبيانًا لأنه كائن لا محالة؛ إذ جعله كالحق الواجب عليه. **قوله**: (﴿نُنجِ﴾ **بالتخفيف**) أي بسكون النون الثانية (**علي**) الكسائي (**وحفص**). والباقون بفتحها. وأمّا الوقف عليها، فجميع القرّاء يقفون على الجيم لأنها مرسومة في المصحف بالجيم بلا ياء، فهي في القرآن وقفًا ووصلًا بلا ياء لجميع القرّاء.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا أهل مكة ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ وصحته (وسداده) فهذا ديني فاستمعوا وصفه، ثم وصف دينه فقال: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي الأصنام ﴿وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ يُميتكم، ووصفه بالتوفّي ليُريهم أنه (الحقيق) بأن يخاف ويتّقي ويعبد دون ما لا يقدر على شيء ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بأن أكون يعني أن الله أمرني بذلك بما رُكِّب فيَّ من العقل وبما أوحى إليَّ في كتابه ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي وأوحى إليَّ أن أقم ليُشاكِل قوله أُمِرْتَ أي استقم مُقبِلًا بوجهك على ما أمرك الله، أو استقم إليه ولا تلتفت يمينًا ولا شمالًا ﴿حَنِيفًا﴾ حال من الدين أو الوجه ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ إن دعوته ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ إن (خذلته) ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فكنّى عنه بالفعل إيجازًا ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ «إذًا» جزاء للشرط وجواب لسؤال مقدّر كأن سائلًا سأل (عن تبعة عبادة الأوثان)، وجعل ﴿مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ لأنه لا ظُلم أعظم من الشِّرك.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ يُصبْك ﴿بِضُرٍّ﴾ مرض ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ لذلك الضُّرّ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إلا الله ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ عافية ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فلا رادَّ لمُراده (﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالخير) ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ قطع بهذه الآية على عباده طريق

قوله: (وسداده) السّداد ـ بالفتح ـ الصواب. **قوله**: (الحقيق) الجدير.
قوله: (خذلته) تركته. **قوله**: (عن تبعة عبادة الأوثان) تبع بوزن صرد بضمّ الفاء وفتح العين، وتبعة كقربة بفتح الفاء وكسر العين ما يتبعه بعده من الإثم.

قوله: (﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ بالخير) أي أرجع الضمير للخير لقربه، ولو جعل لما ذكر صح، ولكن هذا أظهر وأنسب بما بعده.

الرغبة والرهبة إلا إليه والاعتماد إلا عليه ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ المُكفّر بالبلاء ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المُعافي بالعطاء، اتبعَ النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضرّ. إن الله هو الضّارّ النافع الذي إن أصابك بضُرٍّ لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد، فكيف بالجماد الذي لا شعور به؟ وكذا إن أرادك بخير لم يردّ أحد ما يريده بك من الفضل والإحسان فكيف بالأوثان؟ وهو الحقيق إذًا بأن تُوَجَّه إليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: الآية ٣٨] وإنما ذكر المسّ في أحدهما والإرادة في الآخر كأنه أراد أن يذكر الأمرين: الإرادة والإصابة في كل واحد من الضرّ والخير، وأنه لا رادّ لِما يريد منهما ولا مُزيل لِما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذكر المسّ وهو الإصابة في أحدهما والإرادة في الآخر ليدلّ بما ذكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يا أهل مكة ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ القرآن أو الرسول ﴿مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ اختار الهدى واتّبع الحق ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ فما نفع باختياره إلا لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ومَن آثر الضلال فما ضرَّ إلا نفسه ودلَّ اللام و«على» على معنى النفع والضرر ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ بحفيظ موكول إلى أمركم إنما أنا بشير ونذير ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ لك بالنصرة عليهم والغلبة ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأنه المُطَّلِع على السرائر فلا يحتاج إلى بيّنة وشهود.

تمّ تعليقنا على سورة يونس والحمد لله على إحسانه وأفضل صلاة وسلام على أفضل مخلوقاته وآله وصحبه.